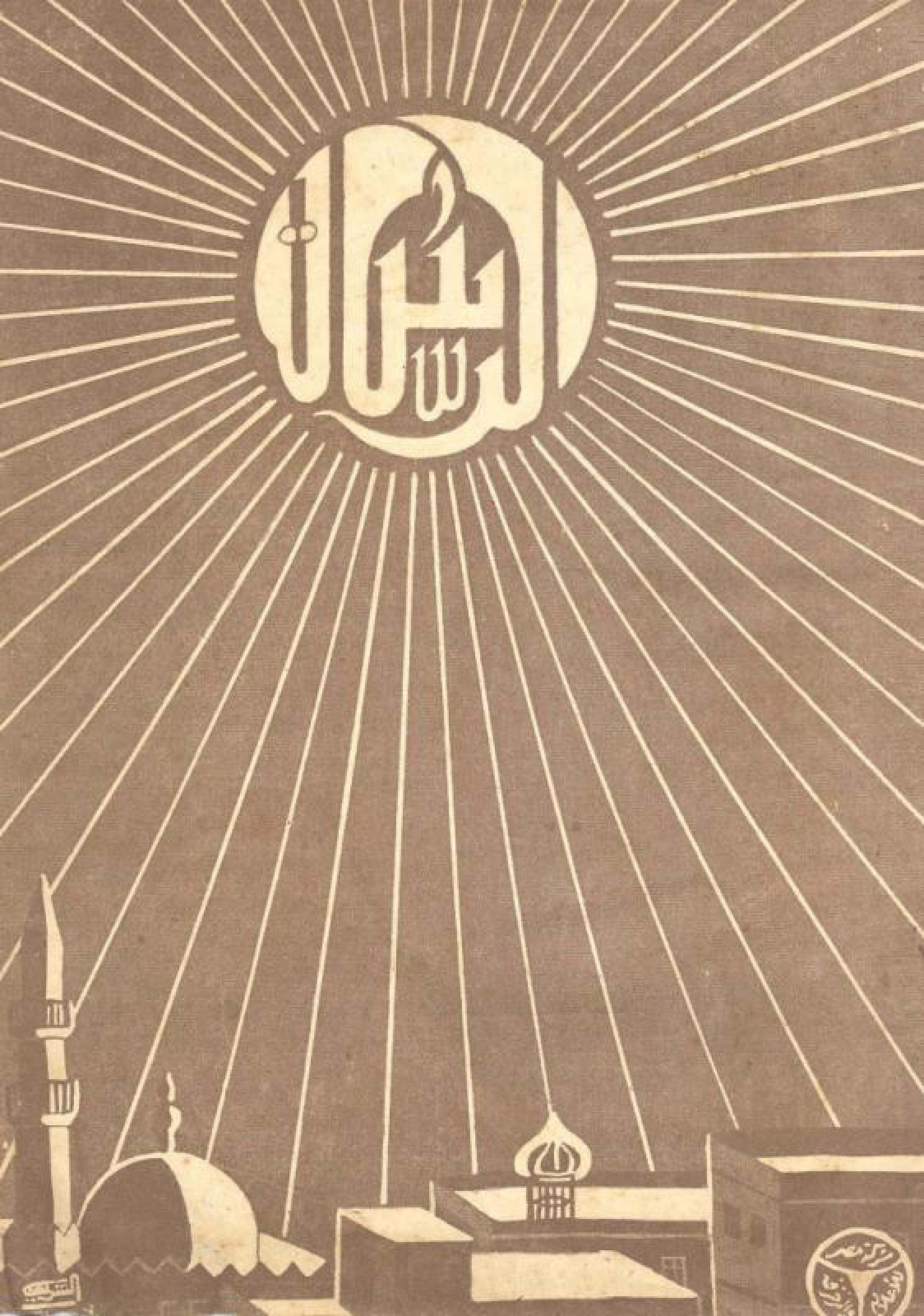

الرسالة

3 me Année, No. 79.

Lundi-7-1-1935

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

العـــدد ٧٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢ شوال سنة ١٣٥٣ — ٧ يناير سنة ١٩٣٥ » السـنة الثالثة

فهرس العـــدد

الرسالة

فى عامها الثـالث

بين عيد الفطر الاسلامى ، وعيد النيروز المسيحى ، يقع عيد ميلاد الرسالة ! فكأن الرسالة لا تنفك تجرى على قدَر من الله فى السفارة بين عهد وعهد ، والوساطة بين فكرة وفكرة ! وفى هذه الفترة التى يعاود الناسَ فيهـا سلامُ الروح ، وسكينة القلب ، فيتعاطفون على القرابة ، ويتخالصون على المودة ، وينفضون أيديهم من أوزار العيش حيناً لتتآنس النفوس بالتحية ، وتتلامس القلوب بالمصافحة ، لا تجد الرسالة غضاضة الأثرة اذا تبسطت فى الحديث عن نفسها ، الى أصدقائها وقرائهـا ، فان العيد يقوى شعور الأنس ، والسرور يهلهل رداء الحشمة

تحبو الرسالة للسنة الثالثة من عمرها ، أو تخطو الخطوة الثالثة من غايتها ، وهى بحمد الله أشـد ما تكون استمسا كا بالمبدأ ، واستشرافا للغرض ، واستعداداً للأمر . واستبصاراً بالمـاضى ، واطمئناناً للمستقبل

ولقد كان من دلائل رضى الله عن جهادها أن ألان هـا



أعطاف الشدائد ، وسهل عليها مصاعب النجاح ، ومكن لها من قلوب الناس ، فآثروها بالعطف ، وآزروها بالعون ، ووجدوا فيها متنفساً لخواطرهم المكظومة ، ومَفيضاً لعواطفهم الجائشة . فتعارفت فيها الأسماء الغريبة ، وتآلفت بها الأنساب القريبة ، وأشرقت بين سطورها فى هذه العهود السود ومضات المجد التليد . كما تومض المنارة الهادية فى حواشى الأفق المكفهر ونواحى المحيط المضطرب

لا نريد أن نعوج لما كان ، ولا أن نعد بما يكون ، فان العمل الحى ينمو بطبعه ، ويقصد الى مداه بفطرته ؛ وحياة الرسالة إنما تنبثق من إيمانها ، ومن إخلاص إخوانها ، فلا يكدى لها شباب ولا يبطئ بها وهن

ولقد جربنا فى استمالة الفوز كل حيلة فما أفاد غير الايمان : جربنا التسامح فبطر الصديق ، والهوادة فضَرِى العدو ، والثقة فنغل الناصح ، والمحبة فثارت المنفعة ، والكد فهاج المرض . فلولا الايمان بصحة الفكرة ، وشرف الوسيلة ، ونبل الغاية ، وضرورة العمل ، لانقطعت الأسباب وأبدعتْ ركائب الأمل

إن فيما يحمله البريد إلينا كل يوم من رضى القراء فى مختلف الأنحاء لَإجماعاً على الخطة التى نهجناها للرسالة . حتى أولئك الذين كانوا يحبون أن تخف أو تُسفَّ عادوا فصالحوا بين أذواقهم وذوقها ، ولاءموا بين أخلاقهم وخلقها ، ففضلوا أن تظل كما هى للخاصة فلا تتعلق بغير الجميل من الأدب والفن والخلق

على أن فى الأدب السَّنى مناحىَ للذة لا تجد بعضها فى الأدب الدنئ على ثرثرته وإغرائه . فان فيه غذاء لذوقك وذهنك ووجدانك وشعورك ؛ أما غذاء الآخر على غثاثته فيغنيك عنه إن شئت نظرة أثيمة أو حكاية مخزية . وسنكشف رويداً عن هذه المناحى الممرعة الممتعة ، فتساعد المربين على تنمية الذوق ، وتعين المعلمين على إحياء المطالعة

وانصراف الشباب عن المطالعة الجدية داء أعيا على العلاج وأشفى على الخطر . وهو وحده علة ما نشكوه من بطء الثقافة وضعف الصحافة وقلة الانتاج وشيوع الجهالة . وما قتل الصبرَ على قراءة الكتاب المفيد والصحيفة الرشيدة إلا هذا الهُراء الذى نفقت سوقه فى المجتمع لِبَرَم الرجال من الأزمة ، وسأم الشباب من العطلة . وسوء ظن الناس بالجد فى علاج هذى الحال

إن من مبادئ الرسالة أن تكون صورة لمنازع الأدباء وسجلا لألوان الأدب فى هذا العصر . فهى لذلك تعرض على قرائها الحين بعد الحين آراء مختلفة وأقلاماً جديدة ؛ واختلاف الآراء لا يدل على غير مجرد العرض ، وتعاقب الأقلام لا يعنى أن بعضها خير من بعض . وقد ظهرت فى العام المنصرم بعض هذه الأقلام البارعة ، فكانت براءة من الله للرسالة أنها تقوم بما تعد وتُوفى بما تُذِم . وستظهر فى هذا العام أمثال هذه الأقلام ممن ألف بينها الفن السَّرِىُّ ، وجمع بين أهلها الدرب القاصد . كذلك فتحنا بابين جديدين ابتداء من هذا العدد ، وهما : (من روائع الشرق والغرب) وسننشر فيه أروع ما نقرأه من الآداب الأجنبية منقولا الى العربية العالية ، وأبدع ما نختاره من الآداب العربية مأخوذاً من العصور المختلفة . وفى هذا الباب لقاح مثمر لأدبنا ، وإحياء لمآثر أدبائنا ، وصقل لملكات النشء بالنماذج الجميلة . ثم (من هنا ومن هناك) وسنلخص فيه ما نقع عليه من طريف المسائل وجديد الآراء فى الصحف أو فى الكتب . ذلك إلى ما اعتزمناه من توسيع باب القصص ، وتوجيه النظر فى بحث المؤلفات الحديثة القيمة إلى التحليل المفصل والنقد العادل

بقى أن نؤدى فريضة الشكر لأولئك القراء المخلصين الذين عطفوا على هذا الجهد وساهموا فيه بالتشجيع والتنويه والنصيحة ، وللأصدقاء من الأدباء الذين ما برحوا يلبون دعوة الوطن الأكبر فشاركوا فى تبليغ الرسالة ، وأعانوا على تأدية الأمانة ، وأضافوا خيرهم الغمر إلى تراث آبائنا الخالد

وإنا لنتقدم إلى هؤلاء وهؤلاء بالتهنئة الخالصة بالعام الجديد ، والعيد السعيد ، والأمل الناشئ فى كل نفس ، والنشاط البادئ فى كل أمر ، وندعو الله مخلصين أن يقرن العام باليمن ، ويجدد العيد بالخير ، ويعقد الأمل بالنجح ، ويصل النشاط بالرأى والعزيمة

ثم نجدد لأمة الرسالة العهد والعزم معتمدين على فضل الله ، مطمئنين الى عطف الأمة ، متكئين على عون الشباب ، معتدِّين باخلاص النية ، معولين على إجادة العمل ؛ وفى بعض ذلك الضمانُ الأوفى ، والسندُ الأقوى ، والمرفأ الأمين

احمد حسن الزيات

الله أكبر !

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

جلستُ وقد مضى هَزيعٌ من الليل ، أُهَيِّئ في نفسي بِناءَ قصةٍ أُديرها على فتًى كما أُحبّ ... خبيثٍ داعِر ، وفتاةٍ كما أحببتُ . . . عذراءَ مُتماجِنة ؛ كِلاهما قد دَرَس وتخرّج في ثلاثة معاهد : المدرسةِ ، والروايات الغرامية ، والسِّيما . وهو مصريٌّ مسلم ، وهي مصرية مسيحيّة . وللفتى هَنَاتٌ وسيئاتٌ لا يتنزّه ولا يتورّع ؛ وهو مِن شبابه كالماءِ يغلي ، ومِن أَناقتِه بحيث لم يَبْقَ إلا أن تَلحقَه تاءُ التأنيث . . . وقد تشعّبتْ به فنون هـذه المدنيّة ، فرفع اللهُ يَدَه عن قلبه لا يُبالي في أيّ أوْدِيَتِها هَلَك . وهو طِلْبُ نساءٍ ، دأبُه التَّجْوال في طُرقهنّ ، يَتَتبّعُهنّ ويتعرض لهنّ ، وقد أَلِفَتْه الطُرق حتى لو تكلّمتْ لقالت : هـذا ضَرْبٌ عجيبٌ من عربات الكَنْس . . . !

وللفتاة تبرُّجٌ وتهتُّك ، يَعْبَثُ بها العبثُ نفسُه ، وقد أخرجتْها فنونُ هذا التأنُّثِ الأوربيّ القائم على فلسفة الغريزة ، وما يُسمّونه «الأدب المكشوف» كما يصوِّره أولئك الكُتّابُ الذين نَقلوا إلى الانسانية فلسفةَ الشهوات الحرّة ، عن البهائم الحرة . . ! فهي تَبْرُزُ حين تخرج من بيتها ، لا إلى الطريق ، ولـكن إلى نظرات الرجال ؛ وتظهر حين تظهر ، مُصوَّرةً لا يتلون نفسها مما يجوز وما لا يجوز ، ولكن يتلون مِرآتَها مما يُعجب وما لا يُعجب

وكِلا اثنيهما لا يُقيم وزناً للدين ، والمسلمُ والمسيحيُّ منهما هو الاسمُ وحده ؛ إذ كان مِن وَضْعِ الوالدين رحمهما الله ! والدِّين حرّيةُ القيد لا حرّيةُ الحرية ؛ فأنتَ بعد أن تُقيِّد رذائلَك وضَراوتَك وشرَّك وحيوانيّتك — أنت مِن بعد هذا حرٌّ ما وَسِعَتْك الأرضُ والسماء والفكر ؛ لأنك من بعد هـذا مُكمِّلٌ للانسانيّة مستقيمٌ على طريقها . ولـكن هَبْ حِماراً تَفَلْسَفَ وأراد أن يكون حراً بعقله الحِماريّ ؛ أي تقرير المذهب الفلسفيّ الحِماريّ في الأدب . . . فهذا إنما يبتغي إطلاقَ حريته ، أيْ تَسلُّطَ حِمارِيّتِه الكاملة على ما يتصل به من الوجود

وتَمْضي قصّتي في أساليبَ مختلفةٍ تَمتحن بها فنونُ هذه الفتاةِ شهواتِ هذا الفتى . فلا يَزال يمشي مِن حيث لا يَصِل ، ولا تزال تمنعه من حيث لا تَردّه ؛ وما ذلك من فضيلةٍ ولا امتناع ، ولـكنها غريزةُ الأنوثة في الاستمتاع بسلطانها ، واثباتُها للرجل أن المرأة هي قوّةُ الانتظار وقوّةُ الصبر ، وأن هـذه التي تحمل جنينها تسعة أشهر في جوفها ، تُمسك رغبتَها في نفسها مدّةَ حملٍ فكريٍ إذا هي أرادت الحيـاةَ لرغبتها ، ليكون لوقوعها وتحقّقها مثلُ الميلاد

ولـكنّ الميلادَ في قصتي لا يكون لرذيلة هـذه الفتاة ، بل لفضيلتها . فان المرأة في رأيي — ولو كانت حياتُها محدودةً من جهاتها الأربع بكبائر الاثم والفاحشة — لا يزال فيها من وراء هـذه الحدود كلها قلبٌ طبيعته الأمومة ، أي الاتصالُ بمصدر الخلق ، أيْ كلُّ فضائل العقيدة والدين ؛ وما هو إلا أن يتنبه هـذا القلبُ بحادثٍ يتّصل به فيبلغُ منه ، حتى تتحوّلَ المرأة تحوُّلَ الأرضِ من فصلها القشعرِّ المجدِب ، إلى فصلها النضرِ الأخضر

ففي قصتي تُذْعِنُ الفتاةُ لصاحبها في يومٍ قد اعترتها فيه مخافةٌ ونزل بها همٌّ وكادتها الحياةُ مِن كيدها ؛ فكانت ضعيفةَ النفس بما طرأ عليها من هـــذه الحالة . وتخلو بالفتى وفكرُها منصرِفٌ إلى مَصدر الغيب ، مؤمّلٌ في رحمة القدَر . ويخلبها الشابُّ خَلاَبةَ رُعُونتِه وجهه ولسانه ، فيعطيها الألفاظَ كلها فارغةً من المعاني ، ويُقرُّ بالزواج وهو مُنطوٍ على الطلاق بعد ساعة . فاذا أوشكتِ الفتاةُ أن تُصرَعَ تلك الصرعةَ دوّى في الجوّ صوتُ المؤذِّن : « الله أكبر ! »

وتَلْسَعُ الفتاةُ في قلبها ، وتتصل بهذا القلب روحانيّةُ الكلمة ، فتقعُ الحياةُ السماويّة في الحياة الأرضية ، وتتنبه العذراءُ إلى أن الله يَشهد عارَها ، ويَفْجَؤُها أنها مُقْدِمةٌ على أن تُفْسِد من نفسها ما لا يُصلِحه المستحيلُ فضلاً عن الممكن ، وترنو بعينِ الفتاةِ الطاهرة من نفسها إلى جسمٍ بَغِيٍّ ليستْ هي تلك التي هي ؛ وتنظر بعين الزوجة من صاحبها إلى فاسقٍ ليس هو ذاك الذي هو ؛ ويَحْكي لها المكانُ في قلبها

المفطور على الأمومة — حكايةً تثور منها وتشمئز : ويصرخ الطفلُ المسكينُ صرختَه في أذنها قبل أن يُولَد ويُلقَى في الشارع . . . !

الله أكبر ! صوتٌ رهيبٌ ليس من لغة صاحبها ولا من صوته ولا من رجّته ، كأنما تفرغ السماءُ فيه مِلءَ سحابةٍ على رِجْسٍ قلبها فتُنقِّيه حتى ليس به ذرةٌ من دَنَسِه الذي رَكِبَهُ ساعة . كان لصاحبها في حسِّ أعصابها ذلك الصوتُ الأسودُ المطفِئ البهم ، المتلجلج مما فيه من قوة شهواته ؛ وكان للمؤذن صوتٌ آخر في روحها ؛ صوتٌ أحمر مشتملٌ كغمغمة الحريق ، مُجَلْجِلٌ كالرعد ، واضحٌ كالحقيقة ، فيه قوةُ الله !

سمعتْ صوتَ السلسلة وقعقعتَها تُلوَى وتُشَدّ عليها ، ثم سمعتْ صوتَ السلسلة بعينها يُكسَر حديدُها ويتحطم

كانت طهارتُها تختنق فنفذتْ إليها النسمات ؛ وطارت الحمامةُ حين دعاها صوتُ الجوّ ، بعد أن كانت أسفّتْ حين دعاها صوتُ الأرض . طارت الحمامة ، لأن الطبيعة التفتتْ فيها لفتةً أخرى .

ويكرر المؤذن في ختام أذانه : « الله أكبرُ الله أكبر ! » فإذا . . .

***

وتبلّدَ خاطري فوقفتُ في بناء القصة عند هذا الحد ، ولم أدرِ كيف يكون جوابُ « إذا . . . » فتركتُ فكرى يعمل عمله كما تُلهمه الواعيةُ الباطنة ، ونمتُ . . .

ورأيتُ في نومي أني أدخل المسجد لصلاة العيد وهو يعجّ بتكبير المصلين : « الله أكبرُ الله أكبر ! » ولهم هديرٌ كهدير البحر في تلاطُمه . وأرى المسجدَ قد غصّ بالناس فاتصلوا وتلاحموا ؛ تجدُ الصفّ منهم على استوائه كما تجد السطرَ في الكتاب ، ممدوداً محتبِكاً ينتظمه وضعٌ واحد ، وأراهم تتابعوا صفاً وراء صفّ ، ونسقاً على نسق ، فالمسجد بهم كالسنبلة مُلئتْ حباً ما بين أولها وآخرها ؛ كلُّ حبة هي في لِفٍّ من أهلها وشملها . فليس فيهن على الكثرة حبةٌ واحدة تميزُها السنبلة فضلَ تمييز . لا في الأعلى ولا في الأسفل

وأقف متحيراً متلدداً ألتفتُ ههنا وههنا ، لا أدري كيف أخلُصُ إلى موضع أجلس فيه ؛ ثم أمضى أتخطّى الرقابَ أطمعُ في فُرجةٍ أقتحمها وما تنفرج ، حتى أنتهيَ إلى الصفّ الأول ؛ وأنظرُ إلى جانب المحراب شيخاً بادِناً يملأ موضع رجلين وقد نفح منه ريحُ المسك . وهو في ثيابٍ من سندسٍ خُضر . فلما حاذيتُه جمع نفسه وانكمش . فكأنما هو يُطوَى طياً ، ورأيتُ مكاناً وسعني خططتُ فيه إلى جانبه وأنا أعجبُ للرجل كيف ضاق ولم أُضيِّق عليه . وأين ذهب نصفه الضخم وقد كان بعضه على بعضه زِيَماً على زِيَمٍ وامتلاءً على امتلاء

وجعلتُ أحدُسُ عليه ظني ، فوقع في نفسي أنه مَلكٌ من ملائكة الله قد تمثل في الصورة الآدمية فاكتتم فيها لأمرٍ من الأمر

وضجّ الناس : « الله أكبرُ الله أكبر ! » في صوت تقشعر منه جلودُ الذين يخشوْن ربهم ، غير أن الناس مما ألِفوا الكلمة ومما جهلوا من معناها — لا يسمعونها إلا كما يسمعون الكلام . أما الذي إلى جانبي فكان ينتفض لها انتفاضةً رجّتني معه رجّاً ، إذ كنت ملتصقاً به مُناكِباً له ؛ وكأن المسجد في نفضه إيانا كان قطاراً يجرى بنا في سرعة السحاب ، فكلٌّ ما فيه يرتجّ ويهتز . ورأيتُ صاحبي يَذْهل عن نفسه ، ويتلألأ على وجهه نورٌ لكل تكبيرة ، كأن هناك مصباحاً لا يزال ينطفئ ويشتعل ؛ فقطعتُ الرأي أنه من الملائكة

ثم أقيمت الصلاةُ وكبّر الأمام وكبر أهلُ المسجد ، وكنتُ قرأتُ أن بعضَهم صلّى خلف رجلٍ من عظماء النفوس الذين يعرفون الله حقّ معرفته ؛ قال : فلما كبّرَ قال : « الله » ثم بُهِتَ وبقى كأنه جَسَدٌ ليس به رُوح من إجلاله لله تعالى ؛ ثم قال : « أكْبَرْ » يعْزِم بها عزماً ، فظننتُ أن قلبي قد انقطعَ من هيبة تكبيرِه . قلتُ أنا : أمّا الذي الى جانبي فلما كبرّ مدّ صوته مدّاً ينبثق من روحه ويستطير ؛ فلو كان الصوتُ نوراً لَمَلأَ ما بين الفجر والضُّحى

***

وعرفتُ والله من معنى المسجد مالم أعرف ، حتى كأني لم أدخله من قبل ، فكان هذا الجالسُ الى جانبي كضوء المصباح في المصباح ، فانكشفَ لي المسجدُ في نوره الرُّوحيّ عن معانٍ أدخلتني من الدنيا في دُنيا على حِدَة . فما المسجدُ بناءٌ ولا مكاناً

كغيره من البناء والمكان ، بل هو تصحيح للعالم الذى يموج من حوله ويضطرب ؛ فان فى الحياة أسباب التزييغ والباطل والمنافسة والعداوة والكيد ونحوها ، وهذه كلها يمحوها المسجد إذ يجمع الناس مراراً فى كل يوم على سلامة الصدر ، وبراءة القلب ، وروحانية النفس ؛ ولا تدخله إنسانية الانسان إلا طاهرة منزَّهة مُسْبِغَةً على حدود جسمها من أعلاه وأسفله شعار الطهر الذى يسمى الوضوء ، كأنما يغسل الانسان آثار الدنيا عن أعضائه قبل دخوله المسجد

ثم يستوى الجميع فى هذا المسجد استواءً واحداً ، ويقفون موقفاً واحداً ، ويخشعون خشوعاً واحداً ، ويكونون جميعاً فى نفسية واحدة ؛ وليس هذا وحده ، بل يخرُّون الى الأرض جميعاً ساجدين لله ، فليس لرأس على رأس ارتفاع ، ولا لوجه على وجه تمييز ؛ ومن ثم فليس لذات على ذات سلطان . وهل تحقق الانسانية وحدتها فى الناس بأبدع من هذا ؟ ولعمرى أين يجد العالم صوابه إلا ههنا ؟

فالمسجد هو فى حقيقته موضع الفكرة الواحدة الطاهرة المصححة لكل ما يزيغ به الاجتماع . هو فكر واحد لكل الرءوس ؛ ومن ثم فهو حل واحد لكل المشاكل ، وكما يشق النهر فتقف الأرض عند شاطئيه لا تتقدم ، يقام المسجد فتقف الأرض بمعانيها الترابية خلف جدرانه لا تدخله

* * *

وما حركة فى الصلاة إلا أولها « الله أكبر » وآخرها « الله أكبر » ؛ فنى ركعتين من كل صلاة — إحدى عشرة تكبيرة يجهر المصلون بها بلسان واحد ؛ وكأنى لم أفطن لهذا من قبل ، فأى زمام سياسى للجماهير وروحانيتها أشد وأوثق من زمام هذه الكلمة ؟

* * *

ولما قضيت الصلاة سلمت على الملك وسلم على ، ورأيته مقبلاً محتفياً ، ورأيتنى أثيراً فى نفسه ، وجالت فى رأسى الخواطر فتذكرت القصة التى أريد أن أكتبها ؛ وأن المؤذن يكرر فى خاتمة أذانه : « الله أكبر الله أكبر » فاذا . . . . .

وقلت لأسألنه ، وما أعظم أن يكون فى مقالتى أسطر يلهمهما ملك من الملائكة ! لم أكد أرفع وجهى اليه حتى قال :

« فاذا لطمتان على وجه الشيطان ؛ فولى مدبراً ولم يعقب ؛ ووضعت الكلمة الآلهية معناها فى موضعه من قلب الفتاة ، فلأياً بلأى ما نجت

إن الدين فى نفس المرأة شعور رقيق ، ولكنه هو الفولاذ السميك الصلب الذى تصفح به أخلاقها الدافعة

الله أكبر ! أتدرى ماذا تقول الملائكة إذا سمعت التكبير ؟ إنها تنشد هذا النشيد :

* * *

بين الوقت والوقت من اليوم تدق ساعة الاسلام بهذا الرنين : الله أكبر الله أكبر ، كما تدق الساعة فى موضع ليتكلم الوقت برنينها

* * *

الله أكبر . بين ساعات وساعات من اليوم ترسل الحياة فى هذه الكلمة نداءها تهتف : أيها المؤمن ، إن كنت أصبت فى الساعات التى مضت ، فاجتهد للساعات التى تتلو ؛ وإن كنت أخطأت ، فكفر وامح ساعة بساعة ؛ الزمن يمحو الزمن ، والعمل يغير العمل ، ودقيقة باقية فى العمر هى أمل كبير فى رحمة الله

* * *

بين ساعات وساعات ، يتناول المؤمن ميزان نفسه حين يسمع : الله أكبر . . ليعرف الصحة والمرض من نيته ؛ كما يضع الطبيب لمريضه بين ساعات وساعات ميزان الحرارة

* * *

اليوم الواحد فى طبيعة هذه الأرض عمر طويل للشر ، تكاد كل دقيقة بشرها تكون يوماً مختوماً بليل أسود ؛ فيجب أن تقسم الأنسانية يومها بعدد قارات الدنيا الخمس ، لأن يوم الأرض صورة من الأرض . وعند كل قسم : من الفجر ، والظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، — تصيح الأنسانية المؤمنة منبهة نفسها : الله أكبر ، الله أكبر

* * *

بين ساعات وساعات من اليوم يعرض كل مؤمن حسابه ، فيقوم بين يدى الله ويرفعه إليه . وكيف يكون من لا يزال ينتظر طول عمره بين ساعات وساعات — الله أكبر .

مصر وماء النيـــل

وحوادث الحبشة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تجرى الآن على حدود الحبشة حوادث خطيرة ، ويكشف الاستعمار الايطالى عن نياته ومطامعه نحو الحبشة شيئاً فشيئاً ؛ وقد احتلت الجنود الايطاليـة بالفعل بعض مواقع ومراكز حبشية على مقربة من حدود السومال الايطالى ، ومازالت إيطاليا تحشد قواتها فى تلك الأنحاء ، وترهق الحبشة بمطالبها ودعاويها ؛ والحبشة من جانبها تلتمس تدخل عصبة الأمم ، وتشهدها على هذا الاعتداء ، ولـكن ماذا عسى أن تفعل عصبة جنيف إزاء خطة مبيتة مدبرة تترقب إيطاليا الفاشستية الفرصة لتنفيذها منذ أعوام ؟ ولقد بينا فى مقال سابق أدوار هذا النضال الذى يضطرم منذ أواخر القرن الماضى بين الحبشة والاستعمار الغربى ، وكيف أن إيطاليا استطاعت فى وقت من الأوقات أن تفرض حمايتها على الحبشة بعد أن احتلت مصوع والأريترية ، وكيف استطاعت الحبشة لأعوام قلائل أن تحطم هذا النير الذى حاولت إيطاليا أن تضعه فى عنقها . وأن تسحق الجيوش الايطالية فى موقعة « عدوه » الشهيرة (سنة ١٨٩٦) ، وأن ترغم إيطاليا وأوربا على احترام استقلالها . وسوف تنظر عصبة الأمم فى هذا النزاع بعد أيام قلائل . ولـكنا نستطيع أن نتنبأ منذ الآن أن العصبة لن تستطيع شيئاً ، وأنها كما فشلت فى المسألة المنشورية ورد عدوان اليابان لمن الصين ، ستلقى مثل هذا الفشل فى حل النزاع الايطالى الحبشى ، وسيكون القول الفصل للقوة المادية ، فاذا استطاعت إيطاليا أن تتوغل فى الحبشة فسوف تمضى فى تنفيذ خطتها المرسومة لغزو الحبشة واحتلالها كلها أو بعضها ، ولن ينقذ الحبشة من هذا الخطر على حريتها واستقلالها سوى الاعتماد على نفسها وما تستطيع أن تتذرع به من وسائل المقاومة والدفاع

وقد كان حرياً أن تلقى هذه الحوادث صداها فى مصر وأن تثير فيها أعظم اهتمام : فبين مصر والحبشة علائق تاريخية قديمة ، والشعب الحبشى تابع من الوجهة الدينيـة للـكنيسة القبطية المصرية ، وبطريرك الحبشـة أو زعيمها الدينى مصرى يعينه البطريرك المصرى ؛ ومن جهة أخرى فان لمصر مصالح خطيرة فى الحبشة تتعلق بمياه النيل ومنابعه ؛ فالنيل الأزرق الذى يمد النيل بكميات عظيمة من الماء والطمى المخصب ينبع من بحيرة تسانا الحبشية التى تقع فى شمال الحبشـة فى ولاية تجرى ؛ وعلى مقربة من هذه البحيرة تقع مستعمرة اريترية الايطالية ؛ ولايطاليا فى هذه المنطقة مطامع اقتصادية كبيرة . والحبشة لا تجهل أهمية تسانا ولا خطورة المصالح الخارجية المتعلقة بمائها ؛ وقد بذلت انـكلترا فى العهد الأخير جهوداً عظيمة لتحصل من الحبشة على امتياز بماء هذه البحيرة حفظاً لمصالحها الاقتصادية فى السودان ، وخشية أن تنافسها فى ذلك دولة أوربية أخرى فتهدد هذه المصالح ؛ وكانت الحـكومة الحبشية تميل إلى منح هـذا الامتياز لشركة أمريكية كبيرة ، وقد ذهبت بالفعل شوطاً بعيداً فى هذا السبيل ، وقامت هـذه الشركة ببعض الأعمال والاجراءات التمهيدية فى منطقة البحيرة ، ولـكن الحبشـة آثرت فى النهاية أن تستبقى إشرافها وسيطرتها على البحيرة ، ولم تـكن جهود السياسة البريطانية بعيدة عن هذا القرار . وتعمل السياسة البريطانية اليوم على أن تضطلع مصر بأعباء النفقات التى تقتضيها المشاريع الخاصة بمنطقة تسانا ، وقد بذلت مصر فعلا مبالغ طائلة فى هذا السبيل

***

بين الوقت والوقت من النهار والليل تدوى كلمةُ الروح : اللهُ أكبر . ويُجيبها الناسُ : اللهُ أكبر . ليعتادَ الجماهير كيف يُقادون الى الخير بسهولة ، وكيف يحـقّقون فى الأنسانية معنى اجتماع أهل البيت الواحد ؛ فتـكون الأستجابةُ إلى كل نداء اجتماعىّ مغروسةً فى طبيعتهم بغير اُستِكـراه

***

النفس أسمىَ من المادّةِ الدنيئة ، وأقوى من الزمن المخرِّب ، ولا دِينَ لمن لا تشمئزُّ نفسُه من الدناءة بأَنَفَة طبيعية ، وتحمل همومَ الحياة بقوةٍ ثابتة

لا تضطربوا ؛ هـذا هو النظام ، لا تنحرفوا ؛ هـذا هو النَّهج . لا تراجعوا ؛ هذا هو النداء . لن يَكبُرَ عليكم شىءٌ ما دامت كلمتُـكم : اللهُ أكبر ...

طنطا مصطفى صادق الرافعى

كان يجدر بمصر إذن أن تتتبع حوادث الحبشـة بمنتهى الاهتمام ، وأن تقدر جميع الاحتمالات التى تترتب على نجاح إيطاليا فى غزو هـذه المنطقة ، إذا قدر لخططها النجاح ؛ ولـكن مصر ترغم بكل أسف على أن تقف من هذه الحوادث موقف المتفرج الذى لايعنيه من الأمر شىء ؛ والسياسة الانـكليزية تأخذ بيدها كل الأمر سواء باسمها أو باسم مصر ؛ والسياسة الانكليزية تحرص على مصالحها فى السودان قبل كل شىء . وقد كان التوازن الانـكليزى الايطالى فى تلك المنطقة يحول دون وقوع تطورات جديدة ؛ ولـكن الظاهر أن إيطاليا الفاشستية استطاعت أن تتفاهم مع السياســـة البريطانية ، وأن تقنعها بوجوب التسليم بمطامع إيطاليا وتفوق مصالحهـــا فى المنطقة الحبشية ، وهى مطامع نوهت باحترامها المعاهدة الثلاثية التى عقدت فى سـنة ١٩٠٦ بين إيطاليا وانـكلترا وفرنسا ؛ وإيطاليا تقوم الآن بتنفيذ خطة مقررة لاترى فيها انكلترا أو فرنسا مايدعو الى الاعتراض ، بل لقد تقدمت السياسـة البريطانية لمعاونة الاستعمار الايطالى على التوسع ، فحملت مصر على عقد معاهدة جغبوب ، والنزول لايطاليا عن بعض أراضيها ، وعادت هذا العام فنزلت لايطاليا باسم مصر عن جزء من واحة العوينات الواقعة فى السودان الغربى مما يلى برقة ، وهاهى الآن تترك ايطاليا حرة فى تدبير اعتدائها على الأراضى الحبشـية ، وقد أشرنا فى مقال سابق الى أن أهم عامل فى وقوف السياسـة البريطانية هذا الموقف هو ظهور النفوذ الاقتصـادى اليابانى فى تلك المنطقة ، وهو نفوذ تحاربه بكل ما وسعت وأينما كان

***

كان ماء النيل وما زال أعظم قنية تحرص عليها مصر ؛ ومنذ فجر التـاريخ تشعر مصر بحق أن حياتها تتوقف على مياه هذا النهر الخالد ، وبأن كل ما حبتها به الطبيعة من النماء والخصب إنما هو من جريانه وفيضه ؛ وكم نـكبت مصر ، وعانت أهوال القحط والوباء ، وفقدت من أبنائها الملايين ، لأن النيل لم يـسعفها بوافر فيضه . ومصر تعمل منذ أقدم العصور للفوز بأكبر قسط من هذا الغيث المبارك ، وتسعى بكل ماوسعت لضبطه واستثماره ، وكثيراً ما سير الفراعنة الحملات الى أعالى النيل للوقوف على أسرار هـذا النهر العظيم واستقصاء منابعـه والسهر على سلامة مجراه . وكان طبيعياً أن ترث دول مصر الاسلامية هذا الاهتمام بأمر النيل ؛ وأى دولة لم تقدر أن النيل هو حياة مصر ؟ وكانت حكومات السلاطين تعنى باستقصاء كل مايتعلق بمجرى النيـل وأحوال جنوبى مصر والنوبة ؛ وكانت تعرف أن الحبشة تسيطر على قسم هام من منابع النيل ، وكانت الحبشة تقدر من جانبها أهمية هـذا الاشراف الذى يتعلق بمصالح لمصر تعرف أنها حيوية جوهرية ، وتتخذ هذا الأشرف فى أحيان كثيرة وسيلة لنوع من الضغط السياسى تتذرع به لتحقيق بعض مصالحها ومطالبها المعلقة على إرادة مصر ؛ ذلك أن مصر كانت تسيطر على بيت المقدس وبها الأماكن النصرانية المقدسة ، وتسيطر على أرواح ملايين من النصارى ، وبها مركز البطريركية المرقسية التى تتبعها الحبشة من الوجهة الدينية . ففى عصور الاضطراب أو الاضطهاد حيثما يصيب المصالح النصرانية أو الرعايا النصارى شىء من الظلم أو الغبن ، كان ملوك الحبشة يسعون لدى سلاطين مصر لرفع هذا الاضطهاد ، أو لتحقيق بعض المنح كأن تعاد بعض الـكنائس التى هدمت ، أو يطلق سراح المعتقلين ، أو غير ذلك من المطالب ؛ وكان ملوك الحبشة يجدون دائماً فى التلميح إلى ماء النيل وإلى منابعه الواقعة تحت إشرافهم أداة قوية لتحقيق مطالبهم ، وكذلك كانت سيطرتهم على أرواح كثير من الرعايا المسلمين فى بعض الولايات الحبشية عاملا آخر من عوامل الضغط ، مثلما كانت سيطرة السلاطين على أرواح ارعايا النصارى

وقد انتهت إلينا بعض وثائق قديمة هامة تلقى ضوءاً على أهمية هذا التجاذب السياسى بين مصر والحبشة ، ومداره ماء النيل والتنويه بخطورته واحتمال حجزه عن مصر ؛ ومن ذلك وثيقة طريفة وجهت من ملك الحبشة إلى سلطان مصر سـنة ٨٤٧ هـ (١٤٤٣ م) ، وكان نجاشى الحبشة يومئذ « زرع يعقوب » الملقب بقسطنطين ، وسلطان مصر هو الظاهر جقمق الذى تولى الملك سنة ٨٤٢ هـ ؛ ووصلت هذه السفارة الحبشية إلى بلاط مصر فى ١٨ رجب سنة ٨٤٧ هـ ، على يد وفد حبشى يحمل هدية فخمة إلى السلطان منهـا عدة كبيرة من الجوارى والحلى والأسلحة الذهبية ؛ ورسالة طويلة من النجاشى إلى السلطان ، ينوه فيها بما بلغه من حزمه وعدله وحسن سيرته . وبما كان من تسامح أسلافه السلاطين نحو النصارى ، ويعتب عليه فيما بلغه من اضطهاد

النصارى فى ظل حكمه ، فى حين أن المسلمين فى الحبشة ، وهم كتلة كبيرة ، يلقون كثيراً من ضروب التسامح والرعاية ؛ ويشير إلى سيطرة الحبشة على ماء النيل فى هذه العبارة : « وليس يخفى عليكم ولا على سلطانكم أن بحر النيل ينجر إليكم من بلادنا ، ولنا الاستطاعة على أن نمنع الزيادة التى تروى بلادكم من المشى إليكم لأن لنا بلاداً نفتح لها أماكن فوقانية ينصرف فيها إلى أماكن أخر قبل أن يجىء إليكم ، ولا يمنعنا عن ذلك إلا تقوى الله تعالى والشفقة على عباد الله »[1] وقد لبثت علائق مصر الاسلامية والحبشة عصوراً تدور حول هاتين النقطتين الخطيرتين : المسألة الدينية أعنى معاملة مصر لرعاياها النصارى ، ومعاملة الحبشة لرعاياها المسلمين ، ومسألة مياه النيل ؛ وكانت مصر تستعمل المسألة الأولى وسيلة للضمان والتوازن فى المسألة الثانية ؛ وكذلك مسألة إشرافها على الكنيسة القبطية ومن ثم على تعيين المطران الحبشى ؛ ومنذ القرن السابع الهجرى نجد سلسلة من السفارات والمراسلات المنظمة تتبادلها مصر والحبشة ، فى عصر الظاهر بيبرس وردت مكاتبات ودية من الحبشة إلى سلطان مصر تنويهاً بحسن العلائق بينهما[2] ؛ ووردت على مصر سفارة حبشية فى عصر الظاهر برقوق من الملك داود نجاشى الحبشة وهو والد قسطنطين السابق ذكره ؛ وأرسل الملك الظاهر جقمق سفارة إلى الحبشة رداً على السفارة المتقدمة[3] ولكن النجاشى استقبل رسل السلطان أسوأ استقبال ، لأن السلطان رد عليه رداً لم يرقه ، ولم يعد بتحقيق مطالبه

***

ولم تغفل مصر فى العصر الحديث هذه الحقيقة الخالدة ، وهى أن حياتها من النيل وإليه ، ومستقبلها الأقتصادى متوقف على حسن استثمارها لمائه ؛ وكانت تلك الخرافات القديمة التى تحيط بمنابع النيل العليا قد أخذت تغيض شيئاً فشيئاً ، وتبدو أهمية الأحاطة بهذه المناطق وإشراف مصر عليها ؛ وكانت عندئذ فتوحات مصر فى السودان منذ أوائل القرن الماضى ، ثم فتوحاتها فى بعض المناطق الحبشية ، واستيلاؤها على كثير من هذه الأنحاء ، ووصول الحملات المصرية إلى أعالى النيل الأبيض ومناطق المطيرة وبحر الغزال ، ووقوفها على كثير من أسرار النهر العظيم وطريقة جريانه ووصولها إلى منطقة تسانا فى الحبشة ، وسيطرتها على مجرى النيل الأزرق كله . ثم كانت البعوث الأكتشافية التى أخذت مصر بقسط وافر فى إعدادها وتنظيمها لأكتشاف منابع النيل ، والأحاطة التامة بظروفها الجغرافية ؛ فكانت بعوث أمين باشا (ادوارد شنتزر) ، والسير صمويل بيكر ، والكبتن سبيك وغيرهم فى أواخر القرن الماضى ؛ واكتشفت منابع النيل الأصلية فى قلب أفريقية ، ورفع القناع الأخير عن الأساطير التى أحاطت بها ، وعرفت مصر من أين يأتيها وكيف يسير اليها الغيث المبارك

ومنذ أوائل هذا القرن تعنى الحكومة المصرية أكبر العناية بأنشاء المشاريع الهندسية الكبرى سواء فى مصر أو السودان ، لضمان انتفاع مصر بأكبر قسط من مياه النيل ، وقد أنفقت مصر إلى اليوم فى هذا السبيل عشرات الملايين ؛ وكان آخر هذه المشاريع مشروعا تعلية خزان أسوان ، وإنشاء خزان جبل الأولياء على النيل الأبيض . وما زالت ثمت مشاريع أخرى فى أعالى النيل الأبيض ، وفى منطقة بحيرة تسانا يراد أن تحمل مصر على القيام بها

***

ولا ريب أن السياسة البريطانية تعمل من جانبها على أن ينتفع السودان بأكبر قسط من مياه النيل ، وأن تجنى بريطانيا من وراء ذلك أعظم الثمار الأقتصادية ، والسياسة البريطانية ما زالت تحمل مصر على إنفاق الملايين فى مشاريع النيل السودانية باسم المصالح المصرية ؛ وقد استطاعت بريطانيا العظمى أن تستأثر فى العهد الأخير بالسيطرة على السودان ، وأن تقضى فيه على كل نفوذ فعلى لمصر ، والسياسة البريطانية تعترف بحقوق مصر فى مياه النيل ، ولكنها لا تتأخر عن الضغط على مصر من هذه الناحية إذا اقتضت مصالحها ذلك ، وقد لجأت فعلاً إلى هذا الضغط فى أواخر سنة ١٩٢٤ لمناسبة مقتل السردار ؛ فأنذرت مصر فى بلاغها النهائى بأن حكومة السودان سترفع كل قيد وتحديد عن رى أراضى الجزيرة ، أو بعبارة أخرى ستطلق فيها من المياه ما شاءت دون النظر إلى حقوق مصر وحاجتها

---

(١) راجع هذه الوثيقة الشهيرة بأكملها فى « التبر المسبوك » للسخاوى ص ٦٧ وما بعدها

(٢) راجع صبح الأعشى ج ٨ ص ١١٩ — ١٢٠

(٣) « التبر المسبوك » ص ٧٠ و ٧١

آفة اللغة هذا النحو...

للأســـــتاذ على الطنطاوى

أستأذن أستاذَنا الجليل « الزيات » فأستعيرمنه هذا العنوان . فأكتب كلة فى هذا الموضوع الكبير ، الذى نبه اليه الأستاذ بمقالته القيمة المنشورة فى « الرسالة » الثالثة عشرة :

قال الأستاذ : « ليسَ من شكّ فى أن دراسة النحو على هذا الشكل تفيد فى بحث اللهجات فى اللغة ، ودرس القراءات فى القرآن ، ولكن نحن اليوم ، وقبل اليوم ، إنما نستعمل لغة واحدة ، ونلهج فى الفصيح لهجة واحدة ، فلماذا لا نجرّد من النحو القواعد الثابتة التى تحفظ هذه اللغة ، وتقوّم تلك اللهجة ، وندع ذلك الطمّ والرمّ لمؤرخى الأدب وفقهاء اللغة وطلاّب القديم ، على ألاّ يطبقوه على الحاضر ، ولا يستعملوه فى النقد ، وإنما يلحقونه بتلك اللغات البائدة التى خلق لها ، وتأثّر بها ، فيكون هو وهى فى ذمّة التاريخ ، وفى خدمة التاريخ ؟ »

ولقد صدق أستاذنا وبرّ ، وأصبح النحو علماً عقيماً ، يدرسه الرجل ويشتغل به سنين طويلة ثم لا يخرج منه إلى شىء من إقامة اللسان والفهم عن العرب . وإننى لأعرف جماعة من الشيوخ ، قرأوا النحو بضعة عشر عاماً ، ووقفوا على مذاهبه وأقواله ، وعرفوا غوامضه وخفاياه ، وأوّلوا فيه وعللوا ، وأثبتوا فيه ودللوا ، وناقشوا فيه وجادلوا ، وذهبوا فى التأويل والتعليل كلّ مذهب ، ثم لا يفهم أحدهم كلة من كلام العرب ، ولا يقيم لسانه فى صفحة يقرؤها ، أو خطبة يلقيها ، أو قصة يرويها . . .

ولم يقتصر هـذا العجز على طائفة من الشيوخ المعاصرين ومن قبلهم من العلماء المتأخرين ، بل لقد وقع فيه جلة النحويين وأئمتهم منذ العهد الأول :

وقد روى السيوطى فى (بغية الوعاة) أن الكسائى [1] قد مات وهو لا يعرف حد نعم وبئس ، وأن المفتوحة ، والحكاية ! . . . وأن الخليل [2] لم يكن يحسن النداء . . . وأن سيبويه [3] لم يكن يدرى حد التعجب !

وأن رجلاً قال لابن خالويه [4] : أريد أن تعلمنى من النحو والعربية ما أقيم به لسانى . فقال له ابن خالويه : أنا منذ خمسين سنة أتعلم النحو ، ما تعلمت ما أقيم به لسانى !

فأى فائدة من النحو ، إذا كانت قراءته خمسين سنة لا تعلم صاحبها كيف يقيم لسانه ؟ وما الذى يبقى للنحو إذا لم يؤد إلى هذه الغاية ، وإذا أصبح أصعب فنون العربية وهو لم يوضع إلا لتسهيلها وتقريبها ؟

ومن — ليت شعرى — يسلك الجادة ليخلص من الوعر ويدنو من الغاية ، إذا رأى من هو أقوى منه وأجلد قد سلكها فانتهت حياته ولم ينتهِ منها ، وأتته منيته وهو فى بعضها . . . يقلب حصباءها ، وينبش تربها ، وينظر فى جوانبها ؟ . . .

---

(١) على بن حمزة ، إمام الكوفيين فى النحو واللغة ، وأحد القراء السبعة ، استنفد علم معاذ الهراء ، وقرأ على الخليل ، وخرج إلى البادية ، فأفرغ فى الكتابة عن العرب حبر خمس عشرة قنينة . قال ابن الأعرابى : كان الكسائى أعلم الناس ، ضابطاً عالماً بالعربية ، قارئاً صدوقاً توفى سنة ١٨٢

(٢) الخليل بن أحمد الفراهيدى صاحب العربية والعروض ، قال السيرافى : كان الغاية فى استخراج مسائل النحو ، وتصحيح القياس فيه ، وهو أول من استخرج العروض ، ورتب المعاجم ، وهو أستاذ سيبويه . وعامة الحكاية فى كتابه عنه ، وهو على الجملة آية من آيات الله فى الذكاء والفهم والعلم ، على زهادة وشرف نفس ، وانقطاع إلى الله ، توفى سنة ١٧٥

(٣) عمرو بن عثمان ، إمام البصريين ، أصله من أرض فارس ونشأ فى البصرة ، أخذ عن الخليل ويونس والأخفش وألف الكتاب فى النحو ، الذى يسمى شيخ الكتب ، ارتحل إلى أرض فارس بعد مناظرته المشهورة مع الكسائى ومات بها غماً سنة ١٨٠ وعمره ٣٢ سنة

(٤) هو الحسين بن أحمد بن خالويه النحوى الأمام ، قرأ القرآن على ابن مجاهد والنحو والأدب على ابن دريد ونفطويه ، وابن الأنبارى . سكن حلب واختص بسيف الدولة ، وهناك انتشر علمه وروايته ، وله مع المتنبى مناظرات ، كان أحد أفراد الدهر فى كل قسم من أقسام الأدب وله تصانيف جليلة توفى بحلب سنة ٣٧٠

على أنه يحسن فيما يتعلق بمسألة تسانا والحبشة أن تتفاهم الحكومتان المصرية والبريطانية على الوسائل التى تؤدى الى صون مصالحهما المشتركة فى مياه هذه المنطقة ، إذا أسفر الصراع الحالى بين إيطاليا والحبشة عن تسرب النفوذ الأيطالى إلى تلك المنطقة . ومن واجب الحكومة المصرية أن تتتبع أدوار هذا الصراع بمنتهى الاهتمام ؛ وأما الشعب المصرى فلا ريب أنه سوف يتتبعه بمنتهى العطف على أمة صديقة تربطها بمصر علائق قديمة ، وأمة باسلة تعمل للذود عن حرياتها إزاء عدوان الأستعمار الغربى

محمد عبد الله عنان
المحامى

وإذا كان ملك النحاة[1] بعد أن أنفق عمره كله فى تعلم النحو وتعليمه . يستشكل عشر مسائل ، وتستعصى عليه فيسميها « المسائل العشر . المتعبات إلى يوم الحشر »[2] ويأمر أن توضع معه فى قبره . ليحلها . . عند ربه ! فما بالك بأمثالنا من السوقة ؟ . . وكيف نفهم هـذا النحو وندركه ادراكاً بله الاستفادة منه ؟ وأن نجتنب به الخطأ فى النطق وفى الفهم ؟ . . .

ومن يقبل على النحو ، وهو يرى هذه الشروح وهـذه الحواشى التى تحوى كل مختلف من القول . وكل بعيد من التعليل . وفيها كل تعقيد ، حتى ما ينجو العالم من مشاكلها مهما درس وبحث ونقب ، ولا يستقر فى المسألة على قول حتى يبدو له غيره أو يجد ما يردّه ويعارضه ، كالقائم على ظهر الحوت ، لايميل إلى جانب إلاّ ميل به إلى جانب ، ولا يدرى متى يغوص الحوت ، فيدعه غريقاً فى اليمّ . . .

وسبب هذا التعقيد — فيما أحسب — أن النحاة اتخذوا النحو وسيلة إلى الغنى ، وطريقاً إلى المال ، وابتغوه تجارة وعرضاً من أعراض الدنيا ، فعقّدوه هذا التعقيد وهوّلوا أمره ، حتى يعجز الناس عن فهمه إلاّ بهم ، فيأتوهم ، فيسألوهم ، فيعطوهم ، فيفتتنوا . . .

روى الجاحظ فى كتاب الحيوان ، أنه قال للأخفش : مالك تكتب الكتاب فتبدؤه عذباً سائغاً ، ثم تجعله صعباً غامضاً ، ثم تعود به كما بدأت ؟

قال : ذلك لأن النـاس إذا فهموا الواضح فسرّهم ، أتونى ففسرت لهم الغامض فأخذت منهم !

وروى السيوطى : أن سيف الدولة سأل جماعة من العلماء بحضرة ابن خالويه ذات ليلة : هل تعرفون اسما ممدوداً وجمعه مقصور ؟

فقالوا : لا . فقال لابن خالويه : ما تقول أنت ؟

فقال : أنا أعرف اسمين . قال : ما هما ؟

قال : لا أقول لك إلاّ بألف درهم ! . . .

(١) هو الحسن بن صافى ، كان أنحى أهل طبقته ، وكان فهماً ذكياً فصيحاً إلا أنه كان عنده عجب بنفسه وتيه ، لقب نفسه بملك النحاة ، وكان يسخط على من يخاطبه بغير ذلك ، استوطن دمشق آخر حياته ومات فيها سنة ٥٦٨ قال عنه ابن خلكان : كان مجموع فضائل

(٢) بغية الوعاة

وكان نفطويه[1] لا يُقرىء كتاب سيبويه إلاّ إذا أخذ الرهن ، من أجل ذلك اتخذ النحاة هـذا التعقيد سنة جروا عليها ، وغاية تواطأوا على بلوغها . لتتم الحاجة إليهم وتثبت لهم مكانتهم ، وتستمر الحاجة إليهم ، حتى ان أبا على الفارسى[2] ، لما سأله عضد الدولة بن بويه أن يصنف له كتاباً فى النحو ـ وصنف الايضاح ، وأوضح فيه النحو وقربه حتى أتى عليه عضد الدولة فى ليلة ، واستقصره وقال له : مازدت على ما أعرف شيئاً ، أحسّ أبو على بالخطأ ، وشعر بأنه خرج على هذه الخطة التى اختطوها لانفسهم : خطة التعقيد . . . فعمد إلى تدارك الخطأ ، فمضى فصنف التكملة وحملها إليه ، فلما وقف عليها عضد الدولة قال : غضب الشيخ فجاء بما لا نفهمه نحن ولا هو[3] . . .

وزاد النحو تعقيدا وإبهاماً وبعـداً عن الغاية التى وضع من أجلها ، ماصنعه الرمانى[4] من مزج النحو بالمنطق وحشوه به ، حتى ما يقدر من بعده على تجريده منه ، وحتى قال أبو على الفارسى وهو معاصر له :

« إن كان النحو ما يقوله الرمانى فليس معنا منه شىء ، وإن كان ما نقوله نحن ، فليس معه منه شىء . . . » .

فخرج النحو بذلك عن الجادّة ، ولم يعـد واسطة لفهم كلام العرب واتباع سبيلهم فى القول ، بل غدا علماً مستقلا معقداً مضطرباً لاتكاد تثبت فيه مسألة . ورضى النحاة عن هذا التعقيد ووجدوا فيـه تجارة وكسباً ، حتى أن السيرافى[5] لما ألف كتابه الاقناع

(١) هو ابراهيم بن محمد ينتهى نسبه الى المهلب بن أبى صفرة . لقب بنفطويه لشبهه بالنفط لدمامته وأدمته ، وجعل على مثال سيبويه لانتسابه فى النحو اليه وجريه على طريقته وتدريسه كتابه . جلس للاقراء أكثر من خمسين سنة ، وكان عالما بالعربية واللغة والحديث ؛ مات سنة ٣٢٣

(٢) هو الحسن بن أحمد الامام المشهور واحد زمانه فى علم العربية ، أستاذ ابن جنى الامام العلم البليغ ، وله مصنفات كثيرة وجليلة توفى ببغداد سنة ٣٧٧

(٣) بغية الوعاة ووفيات الأعيان

(٤) هو على بن عيسى بن على المعروف بالوراق وبالأخشيدى النحوى المتكلم أحد المشاهير ، جمع بين الكلام وعلم العربية ، وله تفسير القرآن الكريم ، قال أبو حيان : لم ير مثله قط علماً بالنحو وغزارة بالكلام ، واستخراجاً للعويص وإيضاحاً للمشكل ، مع تأله وتنزه ودين وفصاحة وعفاف ونظافة ، مات سنة ٣٨٤

(٥) الحسن بن عبد الله بن المرزبان أبو سعيد السيرافى كان أبوه مجوسياً اسمه بهزاد فسماه أبو سعيد عبد الله . كان يدرس ببغداد علوم القرآن والنحو واللغة والفرائض ، قال التوحيدى : وكان إمام الأئمة فيها جميعاً مع الصلاح والأمانة . قضى ببغداد ولم يأخذ على الحكم أجراً . مات سنة ٣٦٨ وكان معاصراً للرمانى وأبى على الفارسى

(الذى أتمه ولده يوسف) وعرض فيه النحو على أوضح شكل وأجمل ترتيب ، فأصبح مفهوما سهلاً ، لايحتاج الى مفسر ولا يقصر عن إدراكه أحد ، حتى قالوا فيه : وضع أبو سعيد النحو على المزابل بكتابه الأقناع ... لما ألفه قومه النحاة ، وما زالوا به حتى قضوا عليه ، فلم يعرف له ذكر ، ولم نعرف أنه بقى منه بقية !

وزاد النحو فساداً على هذا الفساد هذا الخلاف بين المذهبين (أو المدرستين على التعبير الجديد) : المذهب الكوفى ، والمذهب البصرى ، وماجرّه هذا الخلاف من الهجوم على الحق ، والتدليل على الباطل ، والبناء على الشاذ ، قصد الغلبة وابتغاء الظفر ، كما وقع فى المناظرة المشهورة بين الكسائى وسيبويه ، حين ورد هذا بغداد على يحيى البرمكى ، فجمع بينه وبين الكسائى للمناظرة فقال له الكسائى :

— كيف تقول : قد كنت أظن أن الزنبور أشد لسعة من العقرب ، فاذا هو هى ، أو هو إياها

— فقال سيبويه : فاذا هو هى ، ولا يجوز النصب

— فقال الكسائى : أخطأت ، العرب ترفع ذلك وتنصبه ، وجعل يورد عليه أمثلة ، منها : خرجت فاذا زيد قائم أو قائماً وسيبويه يمنع النصب

فقال يحيى : قد اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما ، فمن يحكم بينكما

قال الكسائى : هــــذه العرب ببابك قد وفدوا عليك ، وهم فصحاء الناس فاسألهم

— فقال يحيى : أنصفت

وأحضروا فسئلوا ، فاتبعوا الكسائى فاستكان سيبويه وقال :

— أيها الوزير . سألتك إلا ما أمرتهم أن ينطقوا بذلك ، فان ألسنتهم لاتجرى عليه ، وكانوا إنما قالوا : الصواب ما قاله هذا الشيخ !

— فقال الكسائى ليحيى : أصلح الله الوزير ، إنه قد وفد اليك من بلده مؤملاً ، فان رأيت ألا ترده خائباً

فأمر له بعشرة آلاف درهم ، فخرج الى فارس فمات بها بعد قليل غماً وأسى !

فى حين أن الحق كان فى الذى يقوله سيبويه ، وأن الكسائى كان — كما يقول السيوطى — ممن أفسدوا النحو ، لأنه كان يسمع الشاذ الذى لا يجوز إلا فى الضروزة فيجعله أصلاً ...

وزاد النحو فساداً على هذا الفساد ، ابتغاؤهم العلة والسبب ، لكل ما نطقت به العرب ، وسعيهم لتعليل كل منصوب ومخفوض ، وسلوكهم فى ذلك أبعد السبل من الواقع ، وأدناها إلى التنطع والوهم . من ذلك ما رواه ابن خلكان من أن أبا على الفارسى كان يوماً فى ميدان شيراز يساير عضد الدولة ، فقال له :

— بم انتصب المستثنى فى قولنا : قام القوم إلا زيدا ؟ قال الشيخ : بفعل مقدر . قال : كيف تقديره ؟ قال : أستثنى زيداً . فقال له : هلا رفعته وقدرت الفعل امتنع زيد !

فانقطع الشيخ وقال :

— هذا جواب ميدانى فاذا رجعت قلت الجواب الصحيح . ثم انه لما رجع إلى منزله وضع فى ذلك كلاماً حسناً وحمله إليه فاستحسنه

قال السيوطى ، والذى اختاره أبو على فى الأيضاح أنه ينتصب بالفعل المتقدم بتقوية إلا

قال : والمسألة فيها سبعة أقوال . . . حكيتها فى كتابى جمع الجوامع من غير ترجيح ، وأنا أميل إلى القول الذى ذكره أبو على أولاً ..

* * *

هذه بعض الأسباب التى جعلت النحو معقداً هذا التعقيد ، مضطربا هذا الأضطراب ، بعيداً عن الغاية هذا البعد . « فلماذا لا نجرد من النحو القواعد الثابتة التى تحفظ هذه اللغة التى نستعملها ، وتقوم تلك اللهجة — التى نلهجها — وندع ذلك الطمّ والرمّ لمؤرخى الأدب وفقهاء اللغة ؟ »

ولماذا لايدلى علماء العربية وأدباؤها برأيهم فى سبيل الأصلاح ، ولماذا لا ينشر شاعرنا الفحل الأستاذ المحقق محمد البزم ، وهو أول رجل أعرفه انتبه إلى فساد هذا النحو ، ولبث خمسة عشر عاماً يعالج أدواءه ، ويصف دواءه ، ويقرأ من أجل ذلك كل مافى أيدى الناس من كتب النحو وأسفار العربية ؛ لماذا لا ينشر ثمرة بحثه ، وخلاصة دراسته فى (الرسالة) مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية ، ليطلع عليها علماء العربيـة وأدباؤها ، ويبدوا آراءهم فيها ، فيكون من ذلك الخير للعربية إن شاء الله ؛ ويكون الفضل للأسـتاذ الزيات على أن فتح هذا الباب ، وللأستاذ البزم على أن كان أوّل من ولجه ؟

علي الطنطاوى

مسابقة أدبية

إلى شعراء العربيـــة

من الآنســـة (مي)

قصيدة من النسق العالى فى الشعر الوجدانى الفرنسى صاغتها قريحة الآنسة النابغة (مى) ثم ترجمتها هى إلى العربية وقدمتها إلى شعرائنا مقترحة أن ينقلوها نظماً إلى لغتنا فى موعد لا يتجاوز آخر شهر فبراير سنة ١٩٣٥. وقد تفضلت فتبرعت للمجيد الأول بجائزة مالية قدرها جنيهان مصريان. وسيكون الفصل بين الشعراء للجنة من الأدباء سنعلن تأليفها عما قريب «المحرر»

النص الفرنسي

DOUTE

Amie aux grands yeux doux, mon âme vous appelle !
Le vent souffle ce soir, caprieieux et lourd,
Il mugit; et sa voix gémissante et rebelle
Fait résonner en moi l' écho rebelle et sourd.
Amie aux grands yeux doux, mon âme vous appelle !

***

Et tristement je rêve, assise entre les fleurs;
L' aile de l' ouragan fouette ma fenêtre,
Le ciel pleure : ah ! ces pleurs, ces lamentables pleurs
Que vont-ils remuer aux profondeurs de l' être ?
Et tristement je rêve, assise entre les fleurs.

***

Vous souvient-il d' un jour, le premier de l' année,
Où le charmant secret illumina vos yeux,
Où mon âme en votre âme adora son ainée,
Où de vous vint à moi le mot silencieux ?
Vous souvient-il d' un jour, le premier de l'année ?

***

Un mois s'en est allé, nous touchons à sa fin.
Deux fois durant deux soirs je vous revis encore.
Maintenant que ma joie en est au lendemain
Je languis pour revoir l' ensorcelante aurore...
Un mois s'en est allé, nous touchons à sa fin.

***

Et ce soir est un soir d' adieu, pluvieux et sombre;
Brumeux sont mes pensers et l' angoisse m'étreint;
Mon coeur tout attenàri d' un vilain doute s'ombre :
Si votre coeur n' était q'astucieux et vain ?
Et ce soir est un soir d'adieu, pluvieux et sombre...

May Ziadé

الترجمة

ارتيـــاب

صديقتى ياذات العينين الكبيرتين الوديعتين، روحى تناديك !
الريحُ فى هذا المساء تهبُّ هوجاء شديدة الوطأة،
الريحُ تجأر، وصوتُها العصىُّ الناحب
يُرجِّعُ فىَّ دوىَّ الصدى عصيّاً مكبوتاً.
صديقتى ياذات العينين الكبيرتين الوديعتين، روحى تناديك !

***

فى اكتئابٍ أحلمُ، جالسةً بين الأزهار؛
جناحُ الأعصار يلطمُ نافذتى،
السماء تبكى : وآهاً لهذه الدموع ! هذه الدموع المنتحبة
ماذا تحركُ بسيرها فى أعماق الكيان ؟
فى اكتئابٍ أحلمُ، جالسةً بين الأزهار.

***

أتذكرين يوماً هو الأول من العام ؟
إذ السرُّ المغرى أنار عينيك،
وإذْ روحى عبدتْ فيكِ روحها الأكبر سنـًا،
وإذْ منكِ إلىَّ جاءت الكلمةُ الصامتة ؟
أتذكرين يوماً هو الأول من العام ؟

***

شهرٌ تولىَّ، وها قد أتينا على نهايتهِ،
رأيتك خلالهُ مرتين فى مسائين اثنين.
والآن وقد أصبح ابتهاجى فى غدهِ،
أحنُّ إلى لقاء ذيّاك الفجر الفتّان...
شهرٌ تولىَّ، وها قد أتينا على نهايتهِ.

***

وهذا المساءُ الحالك الممطر مساءُ وداع؛
قاتمةٌ هى أفكارى والغمُّ يُطبقُ علىَّ؛
ارتيابٌ خبيثٌ يخالطُ قلبى المستسلم للحنان :
ماذا لو كان قلبكِ مغروراً محتالاً ؟...
وهذا المساءُ الحالك الممطر مساءُ وداع...

«مىّ»

عابر سبيل

للأستاذ محمد سعيد العريان

قالت له نفسه الكريمة :

« سِرْ يارفيق على هداك حتى تبلغ ؛ لستَ من هذا الناس ، ما أنت فى الحياة إلا عابر سبيل . . . ! »

* * *

قَبْلَ أن يسفر الصبحُ من ليلة العيد ، استهلّ الصبىُّ صارخاً لأوّلِ ما يرى الدنيا ؛ وقالت القابلة : « يا بُشرى هذا غلام ! » فانبسطت وجوه ، وابتسمت شفاه ، ودبّ المرح فى جنبات الدار

وضمته أمه إلى صدرها النابض فقبلته وقالت : « ستكون سعيداً يابنىّ ؛ إن الحياة لَتبسم فى وجهك ؛ هذا يوم العيد أشرق صبحه ! »

وعاد « الشيخ » من المسجد يدبّ على عصاه ، فى لسانه تكبيرٌ وتسبيح ، وفى قلبه صلاةٌ قائمةٌ ودعاءٌ خاشع . واستقبلته ابنته بالبشرى : « إنه صبىّ يا أبتِ ! هل ترى أخى ؟ »

وأدنى الشيخ من جبين الصبىّ فماً يختلج بالشكر ! فقبّله والدمع يترقرق بين أهدابه ، والكلمات تحتبس فى لسانه ؛ وأطال النظر فى وجه الوليد فقال : « لقد أبطأت طويلاً يابنىّ حتى أدركنى الهَرَم ، ولكنى بك اليوم سعيد ! لئن كنت موشكاً أن أمضى إلى الدار الأخرى — إننى لحىٌّ بك فى دنياى جيلاً جديداً ؛ فَعِشْ واسعدْ ياولدى وابتسم للحياة ! » ورفع الشيخ رأسه إلى السماء وقال : « اللهم هذا دعائى لهذا ، وأنت أرحم الراحمين ! »

* * *

مضى الطفل يعدو وراء الأيام تجاذبه أثوابَ الطفولة ؛ فاذا هو غلام يلهو فى فناء الدار مع لِداتٍ من الصبيان

وقال له صبىٌّ : « ما هـذا معك يارفيق ؟ » فانبسط وجه الغلام ، وقاسم الصبيان حلواه ومِلّيماته ! وعرف الأطفال أن صاحبهم جواد ، فأقبلوا عليه واجتمعوا على وده . وهمس أحدهم فيمن يليه : « إن معه لَكثيراً من ذلك ! » فتعوّد الأطفال أن يسرقوه !

ومضى الصبىّ إلى أبيه يبكى

— « ولدى ، ما يبكيك ؟ »

— « أبكى المليماتِ يا أبى ! »

— « غداً أُعطيك غيرها يا بنىّ ؛ إن عنـد الله كثيراً من المليمات للأولاد الصالحين ! »

ونظر الغـلام إلى فطير فى أيدى صحابته فاشتهته نفسه ؛ أفيطلب أن يقاسمهم وما تعوّد ؟ ولـكن أباه أخذه بألا ينظر إلى مافى أيدى الناس ؛ وكم علمه بالحكاية ، وكم ضرب له من الأمثال : أن الحيوان الضعيف هو الذى يعيش على مافى الأيدى ؟

ورأى الأطفال شهوته فى عينيه ، فاستخفوا منه يلتهمون مافى أيديهم !

* * *

وشبّ الغلام ، فدفعه أبوه إلى المدرسة ، وعلمه فى أول لياليه وقد رجع من مدرسته ؛ أنْ هؤلاء بإزاء أهلكَ هناك ؛ فأحسنْ فيهم رعاية الودّ ، وكن بينهم أخاً فى إخوانه . »

وقال له زميله فى المدرسة ذات يوم : « هل تعيننى على كتابة دَرْسى ؟ » فلما أعانه مضى الزميل وخلفه يعالج درسه وحده !

وسمع المعلم ذات مرّةٍ همساً بين تلميذين ؛ وكان جاره يطلب منه قلماً ؛ وغضب المعلم وصاح : « مَن يتحدّث ؟ » ولصقت التهمةُ بالمظلوم ، فتلقى الصفعةَ صامتاً وجاره يبتسم ؛ لم تكن ابتسامته من شماتة ، بل فرحاً بالنجاة من كفّ غليظة :

وفى الطريق شاغَب التلاميذُ فى أحد الأيام أعمى يدبّ على عكازه ، فلما توعدهم وهزّ لهم العصا ، فرّوا وبقى الغلام لأنه برىء ، فلم تنل عصا الرجل أحداً غيره ! لقد آلمته الضربةُ ولكنه تقدّم ليَهدى الرجلَ الطريق !

* * *

وأيفع الغلام ، واستدناه أبوه إليه وهو مطوىٌّ فى الفراش على نفسه من وهن الشيخوخة ؛ ولبث الشيخ طويلاً يصوّب النظر فى الغلام ويصعده . ثم تكلم : « ليتك يابنىّ ملءُ عينى كما أراك ملء قلبى ! ولـكنى أرى فى وجهك اليوم ما كانت

تُرينى المرآةُ منذ عشراتٍ وعشرات ، فلا جرم أن تبصر يابنىّ فى مرآتك بعد عشراتٍ وعشراتٍ صورةَ أبيك ! ستكون أميراً ياولدى ؛ سيستجيب الله دعائى لك ، وما انقطع دعائى لك منذ ولدت ؛ فأحبب الناس ، وَهبْ نفسك للجماعة ! كن رجلاً قوياً يا بنىّ ؛ كن للناس فيضَ الحب والرحمة ، ولا تستجد الحيـاةَ مالا تعطيك ؛ السعيد يا بنىّ من يعطى لا من يطلب العطاء . »

وتكرّرهذا من أبيه أياماً ، كان يريد ألا يموت إلا وقد وضع نفسه فى ابنه !

ثم مضى أبوه فى رحلةٍ طويلة لا رجعة منها إلى هذه الدار . ياحسرتا ! هذا هو فى الفراش مسجًّى والنائحات تنوح ! وأخفى الفتى عينيه يستر دمعه ، لقد علمه أبوه أن يكون جَلداً فليحفظ وَصاةَ أبيه

ونظر فى وجوه المشيعين فى الجنازة فما رأى بينهم رجلاً كالذى فقده ، فعلم أنه فَقدَه الى الأبد . وتصوَّر الدار الخلاءَ إلا من أمه وإخواته . ياللفاجعة ! يجب أن يكون رَجُل الدار ؛ لقد لقنه أبوه لمثل هذا اليوم دروس الرجولة منذ كان فى المهـد صبياً . وهتف بالـكلمة الغالية لآخر مرة : « ياأبى ! » وغلبه الدمع ، فاستعصم وعاد يقول : « ستنام هادئاً ياأبى ، فاننى أنت هنا ! »

وعاد الى الدار مطرق الرأس ، ليضع يد الرجل الصـغير فى أكفّ الرجال الـكبار يشكرهم على ماجاءوا لتعزيته !

أجاءوا يُعزّون (الرجل الصـغير) أم جاءوا يُحصون ما خلف الميتُ وأنفسهم تسيل طمعاً ؟

وقالت له أمه : « مابى خوف الوحدة وأنتَ لى ، فقم على الدار والدرس ؛ إن الرجولة تقتضيك أن تكون من أهل العـلم والـكرامة ، فقد كان أبوك عالماً كريماً . كن للناس ما كان أبوك : وجهاً طلقاً ، ونفساً سمحة ، ويداً معطيـة ، وقلباً يفيض بالحب !

* * *

وُخيل الى الغلام أنه الرجل ، وَطمْأَنَهُ الى الناس أن أباه أوصاه بالناس ؛ فلم يردّ لأحدٍ طَلِبة ، وإنه ليحمل من هموم الناس أكثر مما يحمل من هموم نفسه ؛ مؤمن بأنه يفعل واجبه للجماعة ، ويؤدّى دَينه للأنسانية ؛ مستيقنٌ أن الناس ستحمل عنه إذا نابه همّ !

وقال له جاره يوماً : « إن دائنى يركب كتفى ، فهل عندك فضلٌ من المال الى حين ؟ »

وأعانه ما قَدَر على إعانته ، ، فاذا جاره لايلقاه من بعدها إلا حادَ عن الطريق ؛ وإن فى (الرجل الصغير) لقليلاً من سوء الظنّ ، وإن فيه لـكثيراً من الحياء !

وهل يحيد الرجل عن طريقه إلا من عسرٍ يستحيى أن يستعلن ، وهل فى الناس — فيما يرى — مَن يجحد الفضل وينكر العارفة . . . ؟

وسأله صديق مرّة : « هل تعيننى على تأديب ولدى ؟ فمابى طاقةٌ على أن أدفعه الى معلم بالمـال ؛ ومابى طاقةٌ أن أهمله من التعليم ! »

واهتزت نفس الفتى ، لأنه — فيما بدا له من صـاحبه — قادرٌ على أن ينفع الناس مثل أبيه . وشدا الولد من العلم ما شَدا ، فأنكر معلّمه وتنكر له أبوه !

وقال رجلنا لنفسه : « ياللأب المـكدود ! لقـد حَزَبته مشغلة العيال عن ذكرى ؛ ليته يستعيننى على بعض أمره ! »

ومن أين للفتى أن يعلم بأن كل مبذول مَهين . . . . ؟

* * *

وقال له واحدٌ من قرابته ينصحه : « هلاّ ادّخرت فضلَ اليوم للغد ؟ إن المـال عَصب الحياة ، وحِدة الرجولة ، ومطيةُ الأمل البعيد »

وابتسم (الفيلسوف الصغير) وهو يقول : « المـال ؟ ما أُحب أن أجعل المـال خاتمة المسعى وغاية الجهاد ؛ إن البطن لشبرٌ فى شبر ، وإن الثوب لذراع فى ذراع ؛ أفيتسع البطن حتى يبتلع غلاّتِ ضَيعة ، أو تطول القامة حتى ما يكسوها إلا ثوبٌ بألف ، أو يتضاعف الجسم حتى ما يؤويه إلا بيت فى مساحة مدينـة ؟ أنا هو أنا ياصديق ، غنياً أو فقيراً ؛ بطنى هو بطنى ، وثوبى هو ثوبى ، وبيتى هو ما امتدّ من قدمى الى رأسى حين أنام ! أىّ سخرية ! إن الفقير الذى يعوزه القرش ليستطيع أن

يقول قالة الغني الذي يملك المليون . وهذا يملك الغنيّ مما يملك إلا أن يسرح الطرف فيقول : هذه ضيعتي وهذا قصري . أفلا يستطيع الفقير أن يسرح عينيه معاً فيقول مثله : هذه ضياعي وتلك قصوري ؟ بلى يا صاحبي . إن الغنى لوهم من أوهام الناس ، وإن الفقير المعدم ليرى أنه يملك ما شاء أن يملك من الدنيا ما دام راضي النفس ! »

وافترقا وكلاهما يرثى لصاحبه !

* * *

وقالوا له : « هلاَّ التمستَ لك زوجةً تأوى إليها فتجمع ما تفرّق من أمرك ؛ لعلك أن تجد عندها راحةَ النفس وهدوء القلب ؟ »

قال : « حتى ألقاها فأعرفَها فيدلّني عليها قلبي . ما أريدها غنية ، فمالي وغناها وأنا عائلها وكاسبها ؟ وما أريدها جميلة ، فمالي وللجميلة تتوزّعها قلوبُ الناس وعيونهم ، ويتوزّعني منها الشكّ والقلق ؟ وما أغلو في طلب الفيلسوفة العالمة ، فأجمع على نفسي همّاً بالليل وهمّاً بالنهار ! وما أريد أن تقول : (كان أبي ورَحم الله جدّي) ، فتملأ بيتي بأشباح الموتى وأطياف الهالكين ! بحسبي أن أجد الفتاة التي يخفق لها قلبي ويهدأ عندها حنيني . »

وخُيل إليه أنه وجدها بعد إذ أعياه المطاف ؛ فوهب لها قلبه ، وأخلص لها ودّه ، وكشف لها عن نفسه ؛ ونظرت الفتاة في مرآتها ، ثم لوَتْ عنه معجَبةً مزهوة !

أراه وقد نالت منه بقسوة الصدّ ، وصَعرِ الخدّ ، وجفوةِ الدلال — قد أيقن أن المرأة لا تستوثق من حب صاحبها إلا غلبتْ ، ولا تستمكن من زِمامه إلا رَكبتْ . . . ؟

* * *

يا للمسكين ! لقد كان بريئاً طاهراً كالطفل ، وادعاً مستكيناً كالحمل ؛ يحسب الناسَ كلَّ الناس في مثل براءته وطهره ، فما ينشد فيهم إلا المثلَ الأعلى الذي يراه في نفسه ! وأين المثلُ الأعلى من هذا الناس ؟ أين هؤلاء الذين يرى ، من أناسيّ خياله ؟ وأين هذا الوجود من عالمِ قلبه ؟

لقد منحهم حبه فهل لقي عندهم إلا الغدر ؟ وأصفاهم ودّه فهل رأى إلا الأثرة ؟ ومحضهم إخلاصه فهل عرف إلا الخديعة والمكر ؟ والآنَ لهم جانبه فهل وجد إلا الكبرياء وصعر الخدّ . . ؟

وأيقن (الرجلُ الصغير) أنه لم يكن في هذا العالم غير طفلٍ كبير !

وعرف أخيراً أين أحلامه من اليقظة ، وأين أمانيه من الحقيقة ، وأين المثلُ العليا التي جدّ ينشدها منذ كان صبياً فلم يجدها إلا في نفسه . . . !

وراودته نفسه أن يكون بعض هـذا الناس لعله يلقى بعض أسباب السعادة ، فرنّ الصدَى في مسمعيه يرجّع قول أبيه : « ستكون أميراً يا بنيّ ، فأحبّ الناس ، وهَبْ نفسك للجماعة ؛ إن السعيد من يعطى لا مَن يطلب العطاء ! »

وثابتْ إليه نفسه ، ونفذت الطمأنينةُ إلى قلبه فقال : « نعم إنني لأمير ، لأنني فوق الناس ، لأنني أُعطي ولا أستجدي ؛ وإنني لسعيد ، لأنني أملك الرضى ، ولأنني أملك أن أجعل الحياةَ جميلة ! »

وتلفت يمنةً ويَسرة ، ونظر إلى الناس تتجاذبهم ضروراتُ الحياة ؛ ثم مضى على وجهه ، يمد عينيه إلى الهدف البعيد ، مستنيراً بالأمل ، مستعيناً بالرّضى ، مستيقناً أنه سيجد المثل الأعلى هناك ؛ عند الغاية من هذا الطريق !

وقالت له نفسه : « سِرْ يا رفيقي على هداك حتى تبلغ ؛ لستَ من هذا الناس ؛ ما أنتَ في الحياة إلا عابر سبيل ... ! »

طنطا — *محمد سعيد العريان*

٧ – محاورات أفلاطون

الحوار الثانى

كريتون أو واجب المواطن

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

آشخاص الحوار : سقراط . كريتون
مكان الحـــوار : سجن سـقراط

سقراط – وانه لو عصى رأى الواحـد ورضاه وغض عنهما النظر ، واضعاً فى اعتباره رأى الكثرة التى لا تفقه من الأمر شيئاً ، أفلا يعانى شروراً ؟

كريتون – انه بغير شك يعانيها

سقراط – وماذا عساها تـكون تلك الشرور ؟ الام تنحو ؟ وأى شىء تصيب من الشخص المتمرد ؟

كريتون – لا ريب فى أنها ستصيب منه الجسد ، فذلك ما تقوى على هدمه الشرور

سقراط – ذلك جد جميل ، أليس ذلك حقاً يا كريتون بالنسبة إلى الأشياء الأخر ، ولا حاجة بنا إلى ذكرها تفصيلاً ؟ أينبغى أن نتبع رأى الجمهرة ونخشاها فى موضوعات العدل والظلم ، والجميل والقبيح ، والخير والشر ، وهى ما نحن الآن بصدد بحثه ، أم نتبع فى ذلك رأى الرجل الواحد الذى يفهمها ، والذى يجب أن يكون له منا هيبة وإجلال أكثر ممـا يكون لسائر الناس أجمعين ، والذى إن نبذنا قوله فانما نهدم فى أنفسنا جانباً كان يرجى له أن يقوم بالعدل وأن يسوء بالظلم ، أليس فينا ذلك الجانب ؟

كريتون – إنه موجود ياسقراط ، ولا شك فى وجوده

سقراط – خذ مثلا شبيهاً بهذا : هب أننـا انتصحنا بما ينصح به هؤلاء الذين لا يفقهون فأفسدنا من أنفسنا جانباً ، تصلحه الصحة ويتلفه المرض – أفتكون الحياة جديرة بالبقاء اذا ما فسد ذاك ؟ وإنما أعنى به – الجسد

كريتون – نعم

سقراط – أفى وسعنا أن نعيش وأجسامنا مصابة بالشر والفساد ؟

كريتون – كلا ولا ريب

سقراط – وهل تساوى الحياة شيئاً إذا ما فسد من الانسان جزؤه الأسمى ، ذلك الذى تقومه العدالة ويفسده الجور ؟ أفيمكن أن يكون ذلك العنصر الذى يرتبط أمره بالعدل والجور – مهما يكن شأنه فى الأنسان – أدنى منزلة من الجسد ؟

كريتون – كلا ولا شك

سقراط – هو إذن أرفع مقاماً

كريتون – هو أرفع مقاماً إلى حد بعيد

سقراط – إذن فلا ينبغى ياصاح أن نأبه لما تقوله الجمهرة عنا ، إنما يجب أن نصغى لحـــكم الحقيقة ، كما نستمع إلى رأى ذلك الواحد الذى يفهم كنه العدل والظلم ، فأنت إذن قد وقعت فى الخطأ حين ارتأيت وجوب العناية بما يقوله الدهماء فى الظلم والعدل ، والخير والشر ، والزائن والشـائن ، سيقول أحد : « ولـكن الدهماء فى مقدورها إعدامنا »

كريتون – نعم ياسقراط ، سيكون ذلك بغـير شك رد ما تقول

سقراط – هذا حق ، ولـكن مع ذلك يدهشنى أن أرى الحُجَّة القديمة لا تزال فيما أحسب قائمـة قوية كما كانت ، وأحب أن أعرف إن كنت أستطيع أن أقول هـذا القول فى قضية أخرى – وهى أن ليست الحياة حقيقة بالتقدير ما لم تكن قبل كل شىء حياة خيرة ؟

كريتون – نعم بقى لنا أن نبحث هذه أيضاً

سقراط – والحياة الخـيرة تعادل الحياة العادلة الشريفة – أليس هذا كذلك صحيحاً ؟

كريتون – نعم إنه صحيح

سقراط – سأنتقل من هذه المقدمات إلى البحث عما إذا كان واجباً علىّ أن أحاول الفرار بغير موافقة الأثينيين ،

أم إن ذلك لا يجوز ؟ فان كنت على حق صريح فى الفرار ، حاولته ، وإن لم أكن ، امتنعت . أما سائر الاعتبارات التى ذكرتها عن المال وضيعة الأخلاق وواجب تربية الأطفال ، فهى كما بلغنى ، ليست إلا تعاليم الدهماء الذين لو استطاعوا لما أبوا أن يضيفوا الى الحياة أناساً ، كما أنهم لا يتعففون عن أن يوردوا الحتف أناساً ، وتكفيهم فى كلتا الحالتين أوهن الأسباب . أما وقد وصلنا بالجدل إلى هذا الحد ، فقد بقيت لدينا مشكلة واحدة جديرة بالبحث ، وهى : هل نكون على حق فى الهروب بأنفسنا ، أو فى تحميل سوانا عناء عوننا فى الفرار ، لقاء نقدهم جزاء وشكوراً أم لا نكون ، فان كانت الأخيرة فلا ينبغى أن يحسب حساباً للموت ، أو لما شئت من الكوارث التى قد تنجم عن بقائى هنا

كريتون ـ أحسبك مصيباً ياسقراط ، فكيف سبيلنا إذن إلى البحث ؟

سقراط ـ لننظر معاً فى الأمر ، فان استطعت لما أقول تفنيداً فافعل ، وسأقتنع بك ، وإلا فأمسك يا صديقى العزيز ، ولا تقل ثانية بأنه يجب علىّ أن ألوذ بالفرار برغم إرادة الأثينيين ، وليتنى أجد منك إقناعاً ، ولشد ما أرغب فى هذا على ألا يكون ذلك مخالفاً لما أراه حكماً سديداً . وتفضل الآن فانظر فى موقفى الأول ، وحاول ما استطعت أن تجيب عما أقول

كريتون ـ سأبذل فى ذلك وسعى

سقراط ـ أفيجوز لنا القول بأنه لا ينبغى لنا قطعاً أن نتعمد الخطأ ، أم أن فعل الخطأ مقبول حيناً مرذول حيناً آخر ، أم أن فعله أبداً شر ووصمة عار كما سبق لى القول الآن وسلمنا بصحته معاً ؟ أفننبذ الآن كل ما سمحنا لأنفسنا به منذ أيام قلائل ؟ أم أننا قضينا هذا العمر الطويل . يحاور بعضنا بعضاً فى حماسة وإخلاص ، لكى نوقن ونحن فى هذه السن بأنا لا نفضل الأطفال فى شىء ؟ أم نثق ثقة قاطعة بصحة ما قيل من قبل ، من أن الجور دائماً شر وعار على الجائر ، برغم مايرى الدهماء ، وبرغم ماينجم عن ذلك من نتائج ، حسنة كانت أم سيئة ؟ هل نؤيد هذا ؟

كريتون ـ نعم

سقراط ـ إذن يجب ألا نفعل الخطأ

كريتون ـ يقينا يجب ألا نفعله

سقراط ـ واذا أصابنا الضرر فلا نرده بضرر مثله ، كما تتخيل كثرة الناس . لأنه يجب ألا نصيب أحداً بضر

كريتون ـ واضح أن ذلك لا يجوز

سقراط ـ ثم هل يجوز لنا أن نفعل الشر يا كريتون ؟

كريتون ـ لا يجوز قطعاً ياسقراط

سقراط ـ وما رأيك فى رد الشر بالشر ، وهى أخلاق الدهماء — أذلك عدل أم ليس بالعدل

كريتون ـ ليس بالعدل

سقراط ـ فلأن تصيب أحداً بشر كأن تصيبه بضر

كريتون ـ صحيح جداً

سقراط ـ إذن لا ينبغى لنا أن نأخذ بالثأر ، ولا أن نرد الشر بالشر لأحد ما ، كائنا ما كان الشر الذى ابتلانا به ، وأحب أن تنظر فى الأمر يا كريتون ، لترى هل كنت حقاً تعنى ماتقول ، ذلك لأنه لم يأخذ بهذا الرأى يوماً ، ولن يأخذ به إلى آخر الدهر فريق من الناس كبير . ولا سبيل الى اتفاق بين من يقرون هذا الرأى ومن لا يقرونه ، فما بد من أن يزدرى بعضهم بعضاً ، عندما يرون كم بينهم من شقة الخلاف . حدثنى إذن : أأنت متفق معى ومؤيدى فى مبدئى ذاك ، وهو أن ليس من الحق إيقاع الضر ، ولا الأخذ بالثأر ، ولا رد الشر بالشر ؟ أمسلم أنت بهذا مقدمة لحديثنا ، أم أنت منكر له راغب عنه ؟ لقد كان ذلك مذهبى منذ عهد بعيد ، وما يزال كذلك ؛ فان كنت ترى غير ذلك رأياً ، فهات ماعندك ؛ أما إن كنت بعد هذا كله لا تزال عند رأيك الأول ، انتقلت معك فى الحديث خطوة أخرى

كريتون ـ إننى ثابت عند رأيى ، فتستطيع أن تسير فى الحديث

سقراط ـ سأنتقل إذن إلى الخطوة الثانية التى يمكن أن توضع فى صيغة هذا السؤال : أينبغى للأنسان أن يفعل ما يراه حقاً ، أم ينبغى له أن ينقض الحق

كريتون ـ إنه يجب على الأنسان أن يفعل ما يظنه حقاً

سقراط ـ ولكن ما تطبيق هذا إن صح ؟ ألست أسىء إلى

أحد إن تركت السجن برغم إرادة الأثينيين ؟ أو على الأصح . ألست أخطىء فى حق أولئك الذين ينبغى أن يكونوا من أبعد الناس عن الأساءة ؟ ألا يكون ذلك تطليقاً لمبادئى التى سلمنا معاً بعدلها ؟ ماذا تقول فى هذا ؟

كريتون — لست أدرى ياسقراط ، فلا أستطيع أن أقول شيئاً

سقراط — إذن فانظر الى الأمر على هذا الوجه : هب أننى هممت بالأبوق (أو إن شئت فسم هذا العمل بما أردت من أسماء) فجاءت الى القوانين والحكومة تسائلنى : « حدثنا ياسقراط . ماذا أنت فاعل ؟ أتريد بفعلة منك أن تهز كياننا — أعنى القوانين والدولة بأسرها بمقدار ماهى فى شخصك ماثلة ؟ هل تتصور دولة ليس لأحكام قانونها قوة ، ولا تجد من الأفراد إلا نبذاً واطراحاً ، أن تقوم قائمتها ، فلا تندك من أساسها ؟ » فماذا تجيب يا كريتون عن هذه العبارة وأشباهها ؟ وسيكون مجال القول واسعاً لكل انسان ، وللخطيب البليغ بنوع خاص ، يهاجمون هذا الشر الذى ينجم عن اطراح القانون الذى لابد لحكمه من النفاذ . وربما أجبنا نحن : « نعم ، ولكن الدولة قد آذتنا ، وجارت علينا فى قضائها » هب إننى قلت هذا

كريتون — جميل جداً ياسقراط

سقراط — سيجيب القانون : « أفكان ذلك ما قطعته معنا من عهد ، أم كان لزاماً عليك أن تصدع لما حكمت به الدولة ؟ » فان بدت علىّ من قولهم هذا علائم الدهشة ، فربما أضاف القانون قوله : « أجب يا سقراط بدل أن تفتح لنا عينيك : وقد عهدناك سائلاً ومجيباً . حدثنا ، ما شكاتك منا ، تلك التى تسوغ لك محاولة هدمنا وهدم الدولة معاً ؟ فوق كل شىء ، ألم نأت بك الى الوجود ؟ ألم يتزوج أبوك من أمك بعوننا فأعقباك ؟ قل إن كان لديك ما تعترض به على أولئك الذين ينظمون الزواج منا ؟ » وهنا لا بد من إجابتى أن لا « أو على أولئك الذين منا ينظمون طرائق التغذية والتربية للأطفال ، وفى ظلها نشأت أنت ؟ ألم تكن القوانين التى نهضت بهذا على حق فى أن طلبت الى أبيك أن يدربك فى الموسيقى ورياضة البدن ؟ » وهنا يلزم أن أجيب أن قد كانت على حق : « حسناً ، فان كنا قد أتينا بك الى العالم . ثم أطعمناك فأنشأناك . أفأنت جاحد أنك قبل كل شىء ابننا وعبدنا كما كان آباؤك من قبل ؟ فإن صح هذا فلسنا وإياك سواسية ، فلا تظن أن من حقك أن تفعل بنا ما نحن بك فاعلون ، وهل يكون لك أدنى حق فى أن تنال أباك أو سيدك ، إن كان لك أب أو سيد ، بالضرب أو بالشتم أو بغير ذلك من السوء ، إذا وقع عايك منه ضرب أو شتم ، أو أصابك منه غير ذلك من الشر ؟ — لا نخالك قائلاً بهذا . وإذا كنا قد رأينا أن من الصواب إعدامك ، أفتظن أن من حقك أن تجازينا إعداماً باعدام ؟ وأن تجازى وطنك بمقدار ما هو ماثل فيك ؟ وهل تظن يا أستاذ الفضيلة الحق أن يكون لك فى ذلك ما يبررك ؟ أيعجز فيلسوف مثلك أن يرى بأن وطننا أخلق بالتقدير ، وأنه أسمى جداً وأقدس من أم أو أب أو من شئت من سلف ، وهو أجدر بالاعتبار فى نظر الآلهة وأهل الفطنة من الناس ؟ وإنه إن غضب وجب أن نهدىء من سورته ، وأن نلاقيه لقاء وديعاً خاشعاً أكثر مما نفعل حتى مع الوالد ، فان تعذر إقناعه وجبت طاعته ؟ فاذا نالنا منه العقاب بالسجن أو بالجلد ، وجب أن نحتمل جزاءه فى صمت ، وإن ساقنا الى حومة الوغى حيث الجراح والموت ، كان لزاماً أن ننصاع له باعتباره مصيباً ، دون أن يسلم أحد منا أو يتقهقر أو يترك منصبه ، وواجب حتم على الانسان أن يصدع بما يأمره به الوطن ، سواء أكان فى ساحة الحرب أم فى ساحة القانون ، إلا إذا غيّر من وجهة نظره فى ماهية العدل ، وإن كان لا يجوز له أن يقسو على أبيه أو أمه ، فما أوجب أن يكون رحيماً على وطنه » بماذا تجيب على هـــذا يا كريتون ؟ القوانين فيما تقول صادقة أم ليست بصادقة ؟

كريتون — أحسبها صادقة فيما تقول

(يتبع) **زكى نجيب محمود**

غياث الدين الكاشى

للأستاذ قدرى حافظ طوقان

يهمنا دائماً أن نكشف عن نواحٍ من التراث العربى والأسلامى أحاطها إهمالنا واهمال غيرنا بسحب من الغموض والأبهام حتى كادت تصبح فى عالم النسيان . وقد يظن بعضهم أن الكشف عن هذه النواحى سهل لا يحتاج إلى تنقيب ، ولكن الواقع غير ذلك ، فاننا نجد صعوبة كبرى ومشقة عظمى فى وضع ترجمة عالم مغمور ، إذ يحتاج ذلك الى مراجعة الكتب قديمها وحديثها من عربية وإفرنجية ، ويحتاج أيضاً لمطالعة متنوع المخطوطات علّنا نتمكن من الكتابة عن ذلك العالم كتابة تعطى فكرة صادقة عن حياته ومآثره فى العلوم . ولقد ثبت لنا أن هناك عدداً كبيراً من علماء العرب والمسلمين اشتغلوا بالرياضيات والفلك والطبيعية وغيرها من العلوم والفنون ، لم يأخذوا حقهم من البحث والاستقصاء ، وأن مآثرهم لا تزال مجهولة لدينا إذ هى مبعثرة فى شتى الكتب ، وأنه لم يقم أحد منا يُعنى بها أو يهتم بكشفها ، ولست أدرى على من يقع اللوم ؟ أنا لا أشك أن القراء الكرام يشاركوننى فى أن اللوم يقع علينا جميعاً كلا من ناحيته ، فعلى الذين يعنون بالتاريخ والجغرافيا يقع اللوم على عدم عنايتهم باظهار فضل العرب والمسلمين فى هذين الفرعين وفى عدم تبيانهم للملأ أثر علمائهم فيهما ، كذلك يقع اللوم على الذين يعنون بالكيمياء ، إذ من الواجب العلمى والوطنى أن يهتموا بمآثر العرب فيها وبما قدمه العقل العربى من خدمات جليلة لها . وما يقال عن التاريخ والجغرافيا والكيمياء يقال عن غيرها من فروع المعرفة . ولا يخفى أنه يجب أن يكون وراء الكشف عن مآثر وتراث أسلافنا فكَر وطنية تعود على الأمة بالخير والنفع ، فتُحفز هممها وتُثار عزمتها ، ولسنا فى هذا مبتدعين أو آتين بجديد . ونظرة إلى تاريخ العلوم والفنون عند الفرنجة تجدهم عند بحثهم عن مآثر علمائهم ونوابغهم فيها يدخلون وراءها فكرات وطنية مستورة تتجلى لنا فى كل مناسبة ، وتتجلى لنا أيضاً فى كتبهم وفى تدريسهم فى الجامعات والكليات . وبذلك يكونون قد جعلوا النشء يؤمنون بقابليتهم ويعتقدون بعبقريتهم ويشعرون بقوميتهم . وفى هذا كله قوى تدفع الأمة إلى حيث المجد والسؤدد

بعد هذا نعود إلى موضوع مقالنا فنقول : إن غياث الدين جمشيد الكاشى من الذين لم يكتب عنهم إلا الشيء القليل ، وهذا الشيء القليل موزع فى عدة كتب منها الصفراء (وفيها الخير الكثير) ومنها الفرنجية ، ومنها التركية ، وقد حاولت أن أستعين بما عثرت عليه فى مختلف المؤلفات التاريخية ، فوفقت والحمد لله إلى تأليف ترجمة متواضعة ، أرجو أن أكون قد قمت بها ببعض الواجب نحو عالم من علماء المسلمين اشتغل فى العلوم الرياضية ، ومهر فى الرصد وبرع فى الفلك

* * *

وُلد غياث الدين فى القرن الخامس عشر للميلاد فى مدينة كاشان مما وراء النهر ، وكان يقيم فيها مدة ثم ينتقل إلى محل آخر ، ولقد توجه إلى سمرقند بدعوة من أولوغ بك ، الذى كان يحكم باسم (معين الدين سلطان شاه) وفيها ألف أكثر مؤلفاته التى كانت سبباً فى تعريف الناس به . ويقال إن الفضل فى إنشاء مرصد سمرقند يرجع إلى غياث الدين وإلى قاضى زاده رومى ، ولكن الأول توفى قبل البدء باجراء الرصد فيه ، كما أن الأخير توفى قبل تمامه ، وعلى هذا سُلمت أمور المرصد إلى على قوشجى ، ولهذا المرصد أهمية كبيرة ، إذ بواسطته أمكن عمل زيج (كوركانى) الذى بقى معمولاً به قروناً عديدة فى الشرق والغرب ، واشتهر هذا الزيج بدقته وبكثرة الشروح التى عملت لأجله . والكاشى من الذين لهم فضل كبير فى مساعدة أولوغ بك فى إثارة همته إلى العناية بالرياضيات والفلك

واختلف المؤلفون فى تاريخ وفاة الكاشى ، فبعضهم يقول إنه توفى حوالى سنة ١٤٢٤ م ، ويقول آخرون إنه توفى حوالى سنة ١٤٣٦ م ، ولم نستطع البت فى هذه المسألة ، ولكننا نستطيع القول بأن الوفاة وقعت فى القرن الخامس عشر للميلاد فى سمرقند بعد سنة ١٤٢١ م ، وهى السنة التى أنشىء فيها المرصد

اشتهر الكاشى فى علم الهيئة ، وقد رصد الخسوفات التى حصلت سنة ٨٠٩ هـ و٨١٠ هـ و٨١١ هـ ، وله فى ذلك مؤلفات بعضها باللغة الفارسية ، منها كتاب زيج الخاقانى فى تكميل الأيلخانى ، وكان القصد من وضعه تصحيح زيج الأيلخانى للطوسى ، وفى هذا

الزيج خاقانى دقق فى جداول النجوم التى وضعها الراصدون فى مراغة تحت إشراف الطوسى ، ولم يقف غياث الدين عنـد حد التدقيق بل زاد على ذلك من البراهين الرياضية والأدلة الفلكية مما لانجده فى الأزياج التى عملت قبله ، وقد أهداه الى أولوغ بك .

وله فى الفارسية أيضاً بعض رسائل فى الحساب والهندسة . ومن تآليفه القيمة التى وضعها باللغة العربيـة ما يبحث فى علم الهيئة والحساب والهندسة ، نذكر منهـا كتاب نزهة الحدائق . وهذا الكتاب يبحث فى استعمال الآلة المساة طبق المنـاطق ، وقد أوجدها لمرصد سمرقنـد ، ويقال إنه بواسطة هـذه الآلة يمكن الحصول على تقاويم الكواكب عرضها وبعدها مع الخسوف والكسوف وما يتعلق بهما . وله رسالة سلم السماء ، وهذه تبحث فى بعض المسائل المختلف عليها فيما يتعلق بأبعاد الأجرام . وله أيضاً رسالته المحيطية ، وهى تبحث فى كيفية تعيين نسبة محيط الدائرة إلى قطرها ، وقد أوجد تلك النسبة إلى درجة من التقريب لم يسبقه إليها أحد كما قال البروفسور (سمث) . وقيمة هذه النسبة كما حسبها الكاشى كما يلى :

٣و١٤١٥٩٢٦٥٣٥٨٩٨٧٣٢ ، ولم نستطع أن نتأكد من استعماله علامة الفاصلة ، ولكن لدى البحث ثبت أنه وضع هذه القيمة للنسبة فى الشكل الآتى :

صحيح
٣ ١٤١٥٩٢٦٥٣٥٨٩٨٧٣٢ وهـذا الوضع يشير الى أن المسلمين فى زمن الكاشى كانوا يعرفون شيئاً عن الكسر العشرى ، وأنهم سبقوا الأوروبيين فى استعمال النظام العشرى ، يعترف بذلك البروفسور سمث فى كتابه تاريخ الرياضيات فى ص ٢٩٠ من الجزء الأول . وللكاشى رسالة الجيب والوتر ، وقد قال عنها المؤلف فى كتابه المفتاح ما يلى : « وذلك مما صعب على المتقدمين كما قال صاحب المجسطى فيه أن ليس إلى تحصيله من سبيل » . وقد يكون كتاب مفتاح الحساب من أهم مؤلفات صاحب الترجمة ، إذ وضع فيه بعض اكتشافات فى النظريات الحسابية . ويقول عن هذا الكتاب الأستاذ صالح زكى : « ويعتبر هـــذا الكتاب الخاتمة لكتب الحساب المبسوطة التى ألفها الرياضيون الشرقيون . . . » وكذلك يقول عنه كتاب كشف الظنون فى أسامى الكتب والفنون : « . . . بلغ فيه إلى غاية حقائق الأعمال الهندسية من القوانين الحسابية . وهو على مقدمة وخمس مقالات : المقالة الأولى فى حساب الصحيح ، الثانية فى حساب الكسور ، الثالثة فى حساب المنجمين ، الرابعة فى المساحة ، الخامسة فى استخراج المجهولات ، وهو كتاب مفيد أوله . . . الحمد لله الذى توحد بابداع الآحاد الخ . . ألفه لأولوغ بك ثم اختصره وسماه تلخيص المفتاح ، وقد شرح بعضهم هـــذا التلخيص . .) وفى هذا الكتاب نجد قانوناً لايجاد مجموع الأعداد الطبيعية المرفوعة إلى القوة الرابعة . أما القانون فهو :

$$\text{مجـ ب}^{٤} = \left(\frac{\text{مجـ ب} - ١}{٥} + \text{مجـ ب}\right) \text{مجـ ب}^{٢}$$

وقد يظهر هذا الوضع غريباً ولذا نوضحه بما يلى :

$\text{مجـ ب}^{٤}$ ترمز إلى المجموع : $١^{٤} + ٢^{٤} + ٣^{٤} + \cdots + \text{ب}^{٤}$.
$\text{مجـ ب}^{٢}$ « « : $١^{٢} + ٢^{٢} + ٣^{٢} + \cdots + \text{ب}^{٢}$.
مجـ ب « « : $١ + ٢ + ٣ + \text{ب} \cdots +$.

ويعترف كتاب تراث الاسلام بأن الكاشى استطاع أن يجد قانوناً لايجاد مجموع الأعـداد الطبيعية المرفوعة إلى القوة الرابعة كما اعترف بذلك أيضاً البروفسور سمث فى كتابه تاريخ الرياضيات فى ص ٥٠٥ من الجزء الثانى

هـذه لمحة موجزة عن حياة الكاشى ومآثره فى الرياضيات والفلك ، والذى نرجوه أن نوفق فى المستقبل للكتابة عنه بصورة أوسع وأوفى للمرام ، وأن تكون هذه اللمحة حافزاً لغيرنا للاهتمام باحياء العلماء المغمورين أمثال الكاشى ، نسأله تعالى التوفيق والعون

نابلس قدرى حافظ طوقان

مطالع الأعوام

للأستاذ عبد العزيز البشرى

جرت عادة الناس من الزمان البعيد أن يفرحوا أو يتكلفوا الفرح كلما طالعتهم دورة الأيام بعام جديد. وكثير منهم من يتخذ من مطالع العام عيداً، يلبس فيه جديد الثياب، ويحتفل لتهنئة الصحاب واستقبال الهناء من الصحاب، ويتفرّغ من كل عمل ليتوفر ومن يحمل من الأهل والولد على إصابة ما يتهيأ لهم من اللذائذ والمتع، وتقليب العطف فيما يتيسر من ألوان النعيم. كذلك جرت عادة الناس، أو عادة أكثر الناس

ولو قد راجع المرء نفسه فى هذا، وراح يتحسس الأسباب والعلل فى ذلك الذى يكون منه فى مطالع الأعوام، فليت شعرى بِمَ هو فى غاية الأمر راجع؟. أتراه فرحاً بأنه طوى من عمره عاماً؟. أم تراه فرحاً بأنه سينشر من عمره عاماً؟

وإن عجباً دونه كل عجب أن هذا الانسان الأثِر، المتشبث بأسباب الحياة، مهما تدلل وتوجع، يفرح بطىّ صفحة من حياته، وقطع مرحلة من عمره، فيدنو من الغاية المحتومة التى ماذكرها إلا ملىء من ذكرها فرقاً ورعباً!

وإن عجباً لاينتهى منتهاه عجبٌ أن هـــذا الانسان الجبان المنخلع القلب، الذى لايرى إن يقيناً وإن وهماً، فى كل ثنيّة من ثنايا الغيب، وفى كل منعطف من منعطفات الدهر، إلا مايرتصد له، ويتربص به الدوائر، ويرميـه ما أصحرت به الأيام بألوان المكاره والمخاطر — اللهم إن عجباً لاينتهى منتهاه عجب أن يفرح هذا الانسان باستقبال كل هذا الذى يتوقع من أذى طارقات الليـال!

إذن ففيم فَرح الأنسان بدورة الأيام، واغتباطه ذاك بالتخلص من عام لاستقبال عام؟

ليت شعرى أتراه يضيق بالحياة ويبرَم بها، وينبر كلما طوى من كتابها صفحة، واقترب من غايتها خطوة؟. اللهم إن الأنسان لأ كلف بالحياة، وأودّ لو تطّرد به إلى غاية الزمان، وإلى ما بعد غاية الزمان!. أليس أ كبر عزائه فى هذه الحياة إذا عرض ذكر الموت، ولا مفرّ منه، أنه مبعوث من بعده لحياة لايدركها عدم ولا يلحقها فناء؟

إذن ففيم فرح الأنسان بدورة الأيام، واغتباطه بالتخلص من عام لاستقبال عام؟

ألاَ إن أعجب من هـذا كله أن يراجع الأنسان نفسه، ويسائلها فيم اغتباطها وفرحها من حيث يجب أن يتداخلها الأسى وتلحّ عليها الحسرة من كل مكان؟!

اللهم إنه ليكلف بطول العمر، ويكلف بقصر العمر، وإنه ليشغف ببسطة الأيام، ويشغف بنفاد ما بقى بين يديه من الأيام!.

اللهم إنه لا يستريح إلى هذا المحال، إلا من كان به مسّ من جنون أو مسّ من خبال!

***

ليس الانسان مجنوناً ولا مخبّلاً؛ بل إنه ليفكر فيحسن التفكير، ويقدّر فيصيب التقدير، ويدبّر فيُحكم التدبير. وإن عقله الجبار لَيأبى إلاّ أن يَستذلّ عنقَ الطبيعة كلّ يوم. وهاهوذا لايفتأ يسخر لحاجاته جوّها وماءها، وأرضها وسماءها، بما لايحتاج معه إلى قيام دليل على صحة العقل وسلامة التفكير!

ما لنا بعد هذا بدّ من التدسّس إلى قرارة النفس، والتسلل إلى ثنيّاتها، علّنا نُصيبُ الوجه ونستخرج العلة فى ذلك الذى نحسبه فى المحال!

ها نحن أولاء نتحرّى خطرات النفس، ونتقرى خلجات الحس، فنسير وراءها حيثما سارت، وندور معها كيفما دارت. حتى إذا بلغت سائلتها القرار، تهيأ لنا أن نروى عنها أصحّ الأنباء وأصدق الأخبار.

هذا الانسان العاقل المفكرّ المدبّر، يجزع حقاً أشد الجزع لما ينطوى من أيام عمره، ولقد يهش حقاً لما يستقبل من بقايا أيام الحيـاة. غير أنه لا يعقد أية صلة بين هاتين النزعتين القويتين فى نفسه، فهذه تكون منه فى حال، وهذه تكون فى حال، فليس ثمت فى الأمر طلب للمحال. فاذا طلبت بياناً فاليك البيان:

إن علة العلل فى كل هـذا الذى ترى من تناقض الانسان، وخلاف نزعات نفسه بعضها لبعض، إنما هى فيما طبع عليه من

الأثرة وشدة الكَلَف بالنفس . فهذه الأثرة هى التى تدخل عليه الفزع - فى من سنى العمر ، وهذه الأثرة هى التى تدخل عليه السرور بما يستقبل من بقية أيام الحياة ، وإن شئت قلت بما يقبل على استهلاكه من بقايا أيام الحياة !

أما أن الأثرة هى التى تدخل عليه الجزع لما يتصرّم من أيام العمر ، فيدنو به خطىً إلى مهواه من القبر ، فذلك ما لا يحتاج إلى توجيه ولا إلى تعليل ، وأما أن هـذه الأثرة نفسها هى التى تُدخل عليه السرور بما يُقبل على استهلاكه من بقايا أيام العمر . فذلك بأنه ما يُفنى من حياته يوماً إلا أطعمته أياماً ، ولا يَطوى من عمره عاماً إلا بسطت بين يديه أعواماً : فالأنسان ، على إيمانه بالموت ، وجزمه بألاّ مهرب منه ، لا يفتأ يدافع الأجل كلما تقدم خطوة الى الأجل ، وهكذا ، حتى لو قُدّر فى الزمان أن يُبسط فى عمر إنسان الى ألف عام ، لوسوس له تأميل الأثَرَة بعدُ بالمزيد !

وعلى هذا فمهما يَطْوِ الانسان من سنّه ، ومهما يُفنِ من عمره ، فان ما خلا يكاد يسقطه من مساحة العمر بما يُجدّ له التأميل كل يوم من بسطة الزمان بين يديه ! فيعيش كذلك ما يعيش ، وكأنما يمتح من بحر لجىّ ما لمائه من نفاد !

وكذلك القول فى تطامن الأنسان لمستقبل الأيام واستبشاره ، فى غالب الأحيان ، بمقدمها ، وقلة احتفاله لما عسى أن يكون قد جُنّ له من المكاره فى ضمائر الغيوب ، فان هذه الأثرة نفسها لتأبى إلا أن تطالعه بألوان التأميل ، فلا ينتظر له من واردات الليالى إلاّ كلَّ مشتهى وكل جميل ! بل إنها لتدخل عليه أحسن العزاء بما سيلقى من الخير والعافية عما كان قد أصابه من الخيبة فيما سلف من الزمان !

فقد بان لك أن الأثرة فى الأنسان هى علة العلل ، وهى مصدر ما يُحسب عليه من خطأ فى الحساب ومن خطل

* * *

وبعد ، فلو قدّر أن الله أمكن المرء من طبعه ، وهيأ له أن يسوّى منه ما شاء على ما يشاء . أفتراه يَعتمد هـذه الخلة فيه ، أعنى الأثرة ، فينتزعها من فطرته انتزاعاً ، فلا تعود تخدعه وتختله ، ولا تُزيغه عن الواقع ولا تضلله ؟

لا شك فى أنه إن فعل سلم تقديره ، واستقام له القياس ، وأدرك الحقائق على ما هى عليه لا على ما يشتهى أن تكون ؛ لأن هذه الأثرة كثيراً ما تُلبس المنى بالحقائق الواقعة . وقد تستدرج الانسانَ إلى المطامع البعيدة بما تهيئ له من إجراء القياس ، فى شأن نفسه ، على ما يقع من الأمور النادرة فى شئون بعض الناس . وبهذا وبهذا تُسىء تقديره ، وتفسد حكمه على الأشياء أيما إفساد . وأنت بعدُ خبيرٌ بأن السعادة فى هذه الدنيا لا تُرجى بخير من الأصابة ، والتهدّى إلى جوهر الحقائق ، وسلامة التقدير وصحة التدبير . وتلك الطرقُ الواضحة ، لا شك ، لأسعاد الحال ، وإدراك المبتغى من ميسور الآمال

ولكن . . . . ولكن إذا قدّر هـذا فى الطبيعة ، وتهيأ للانسان ففعل ، فعلى أية صورة تُرى يتمثل له العيش فى الدنيا ، وبأى شعور يتلقى آثار هذه الحياة ؟

إنك مهما تجتث من أصول هـذه الأثرة المغروسة فى طبيعة الانسان ، فانه ، ولا بدّ ، يألم إذا دخل عليه مايدعو إلى الألم . وهو ، لا بدّ ، يلتذّ بما يصيب من المتع ، وإنه ليستريح إلى العافية ، وإنه ليفرح بما يصيب من النعم ، وإنه ليحزن إذا طرقته داعيات الحزَن ؛ وتلك أدنى مطالب الحس فى الحيوان ، بَلْهَ الانسان

فلو قدّرنا أن الانسان قد استوى فى عيشه الى الحقائق الواقعة ، وأجرى حسابه فى جميع أسبابه عليها ، فهل تَراه يعدل مايصيب فى الدنيا من لذة ومتاع ، بما يعانى من شدائد وبُرَح وأهوال وأوجاع ؟ . اللهم لا ! . على أنهما لو تكافآ فأضحى خارج الحساب صفراً ، لأمسى التشبث بهذه الحياة من إحدى المعابث !

على أنه الأملُ ، أملُ العنىّ المبتلى فى العافية ، وأمل المعافى إن كان فى الدنيا معافىً ، فى صعود الجَد ، وفى إقبال الزمان بما تتطلّع النفوس اليه وتهفو له — هو الذى يرجّح كفة الربح ويشهى الينا الحياة ، ويغرينا بالحرص عليها أيّما إغراء !

وما كانت هذه المُنى فينا لتقوى وتستمكن ، وتستفحل وتستحصد ، لولا هذه الأثرةُ التى تُذلل لأوهامنا عصىّ الآمال ، وتسوى لنا فى صورة الممكن ما نظمته الطبيعةُ فى سلك المحال !

هذه الأثرةُ التى تغنينا عن كثير من الأشياء ، حتى إنها لتغنينا عن أدنى مايحيط بنا من الأسباب ، بل إنها لتغنينا عن أحقّ الحق الذى لانستطيع مدافعته ولو بالأوهام ، أعنى الموتَ

٥ - بين القاهرة وطوس

طهران الى نيسابور

للدكتور عبد الوهاب عزام

تلقينا يوم قدومنا طهران دعوات كثيرة إلى حفلات رتبتها الحكومة — دعوات باسم رئيس الوزراء ووزراء الداخلية والخارجية والمعارف، ولجنة الآثار القومية، ونادى « إيران جوان » . وكانت دعوة رئيس الوزراء إلى العشاء فى قصر گلستان ، والدعوات الأخرى إلى الغداء فى دار البلدية ونادى إيران . وقد دعت لجنة الآثار إلى شهود التمثيل مرتين فى مسرح « مسالن نيكوئى » وإلى شهود لعب الجوكان وألعاب أخرى فى ميدان سلطنت آباد

تعشينا الليلة الأولى فى القصر الملكى . قصر گلستان ، وهو بناء جميل يرى الداخل إليه حديقة فيها أحواض ماء كبيرة ، وقد رأينا على حافة الأحواض شموعاً كثيرة . توقدت فيرى للألائها على صفحة الماء رواء جميل

وصعدنا إلى بهو فسيح غشيت جدُره وسقفه بالمرايا وقطع البلور — وهذه زينة شائعة فى إيران رأيناها فى أمكنة كثيرة — وصفت فى جوانب المكان دواليب فيها ذخائر الملوك السالفين : قطع كبيرة من الأحجار النفيسة ، وسيوف وخناجر وتروس ، وأدوات للزينة ، وأباريق وطسوت ، كل ذلك محلى بالماس والياقوت ، والعقيق والفيروز ، وفى صدر المكان عرش محلى بالأحجار الثمينة له مسند على صورة ذنب الطاووس ويسمى عرش الطاووس ، وكذلك رأينا كتباً قديمة قيمة فيها من عجائب الخط والنقش والتجليد آيات من الصناعات الاسلامية

أمتعنا النفس برؤية هذه الأعلاق ، ثم تعشينا ، وشهدنا بعد العشاء ألعاباً نارية كثيرة

ومن الأبنية الفخمة التى رأيناها فى طهران مسجد سپاهسلار وهو مسجد كبير فيه مدرسة تسمى الآن مدرسة المعقول والمنقول ، ولها مكتبة بها مخطوطات قيمة ، ومساجد إيران كلها متشابهة فى قيامها على عقود كبيرة وقباب ، وفيما يجللها من الكاشانى ، والخط الجميل

وزرنا مجلس الشورى الملى (البرلمان) وهو بناء جديد رائع تناولنا الشاى فى الطبقة الثانية منه فى حجرة غشيت جدرها وسقفها بقطع البلور ، يتخللها ضوء النهار أوضوء الكهرباء ليلاً فاذا حجرة من النور يحار فيها الطرف

وكذلك رأينا مدرسة الصنائع المستظرفة (الفنون الجميلة) وهى مدرسة ناشئة يرجى لها فى الاحتفاظ بصنائع إيران مستقبل عظيم

وزرنا مصيف جلالة الشاه قصر سعد آباد . وهو بناء جميل فى سفح جبل شمران شمالى طهران ، يحلّق على منظر رائع من الأشجار الممتدة على السفح ، وتنحدر إليه المياه متدفقة من الجبل . والقصر بناء صغير به بضع حجرات ، وقد بنى كله بأحجار ذات ألوان طبيعية مختلفة جلبت اليه من أرجاء البلاد . ومن حجراته واحدة فيها مكتب جلالة الشاه . وقد لفت الأنظار اليه جمال صنعه ، وصورة مدفع صغير فوقه ، ومقلمة لها سياج من رصاص البنادق . تناولنا الشاى فى حديقة نسقت بها الأزهار تنسيقاً رائعاً . ثم انصرفنا حين أشفقنا من برد العشى

وشهدنا التمثيل مرتين ، مثلت فى الليلة الأولى ثلاث قطع من

الذى لامهرب منه لهارب ولو تعلّق من السحاب ، بعلائق وأسباب ! . نعم إنها لتغيبنا عنه لأننا ماذكرناه أبداً إلا رأيناه منا بعيداً ، وقد نكون منه على رمية حجر !

***

إذن لقد خرج لنا من كل هذا أن قيام الانسان فى الدنيا إنما هو مدين لهذه الأثرة فى طبعه ، فيها يحرص على الحياة ويتشبث ، وبها يرضى عن الحياة ويكلف ، وفى سبيلها يحتمل الأوجاع والأسقام ، ويسيغ كل ما تعتريه به الليالى من أحداث جسام . فمن فاتته فيها المتع فى الآمال متع ومناعم ، ومن ألحّ عليه الضيق ففى المنى سعة ومغانم . بل إنه ليفرح كلما مضى من عمره علم وأقبل عام ، بما توسوس له من المنى وتمدّ له من كواذب الأحلام .

ألا عاشت هذه الأثرة ليعيش فى ظلها هذا الانسان ! . . . .

عبد العزيز البشرى

الشاهنامه . وفى الليلة الثانية قصة سهراب

وشهدنا يوم السبت ١٤ مهرماه (٦ أكتوبر) فى ميدان سلطنت آباد على مقربة من المدينة لعب الجوكان (جوگان بازى) وألعاباً رياضية أخرى (نمايشات زورخانه)

والجوكان لعب الكرة والصولجان على متون الخيل . وكان لعباً شائعاً فى العالم الاسلامى ولا سيما ايران . ويذكر كثيراً فى الشعر الفارسى . وأخذت منه فى اللغة كنايات كقولهم « گوى برد » أى أخذ الكرة ، بمعنى حاز قصب السبق فى اللغة العربية يقول الشيخ سعدى :

« فسحت ميدان أرادت بيار تا بزند مرد سخنگوى گوى »

وترجمته : افسح ميدان الارادة ليضرب الرجل المنطيق الكرة أى أحسن الاستماع ليستطيع النصيح أن يتكلم . وكان بجانبى وقت اللعب ملك الشعراء بهار فقلت : كم قرأت عن « أخذ الكرة » فى الشعر الفارسى وما فهمته حقاً إلا الآن

والألعاب الأخرى ، وتسمى « نمايشات زورخانه » ضروب مختلفة من اظهار القوة : ضرب الطبل فجاء جماعة يلبسون سراويلات من الجلد وسائر أجسامهم عار ؛ ونزلوا الى حفرة مستديرة قريبة الغور . وجلس على مقربة منهم رجل على منصة يدق الطبل وينشد شعراً من الشاهنامة وغيرها ، بدأوا يرقصون على هذه الأنغام ، ثم لعبوا ألعاباً مختلفة : يدور واحدهم على نفسه مسرعاً باسطاً يديه أو يحمل حلقة من سلسلة ثقيلة يرفع بها يديه واحدة بعد الأخرى أو يستلقى على ظهره ثانياً رجليه ويأخذ بكل يد قطعة من الحديد مبسوطة لها مقبض فى وسطها فيرفع بها يداً بعد أخرى مائلاً على جنبيه ، أو يقوم ممسكاً بيديه حديدتين ثقيلتين يحركهما حركات مختلفة ، وهكذا . وهى ألعاب قديمة تدل على القوة والمران

أمضينا فى طهران خمسة أيام . وطهران مدينة حديثة ، كانت قرية صغيرة بجانب مدينة الرى الكبيرة . ثم بنى لها الشاه طهما سب الصفوى سوراً عظيما . ثم اتخذها آغا محمد خان القاجارى دار ملك ، فشرعت تعظم وتتسع

ويوم الثلاثاء ٣٠ جمادى الثانية (١٩ أكتوبر — ١٧ مهرماه) برحنا طهران مبكرين متوجهين تلقاء مشهد . وبين المدينتين ٨٩٧ كيلا قطعناها فى ثلاثة أيام ؛ وكان جلالة الشاه قد سار الى مشهد قبلنا بيومين

اجتزنا جبال فيروز (فيروز كوه) وهى جبال وعرة مديدة تجهد فيها السيارة صاعدة وهابطة ثلاث ساعات . وبلغنا مدينة سمنان بعد الظهر فنزلنا داراً بظاهر البلد فى فناء مصنع كبير حديث لغزل القطن ونسجه . وفى الفناء حوض واسع ، جلسنا على حافته فرفعنا عن الوجوه وعث السفر واسترحنا وتغدينا . ثم استأنفنا المسير فقطعنا الى دامغان ١١٣ كيلاً . واخترقنا البلد ولم نقف به

وسأتكلم عن سمنان ودامغان حين أصف عودتنا من مشهد الى طهران . وقطعنا من دامغان الى شاهرود ٦٧ كيلا ، وبلغنا المدينة بعد الغروب ، وقد زين شارعها بسجاجيد كثيرة ، فنزلنا بدار كبيرة خارجها ، نزل بعضنا فى حجراتها وآخرون فى خيام ضربت فى الحديقة وفرشت فرشاً حسناً ، وقد شعرنا بالبرد الشديد فى هذا البلد ، وأصابنى به برد لازمنى حتى عدت الى طهران ، فنغص على السفر قليلاً وأفاتنى بعض المشاهد . فلها فى سفرنا ذكرى لا تنسى

إذا أنت لم تنفع فضر فانما يرجَّى الفتى كيما يضر وينفعا

وشاهرود قرية غربى خراسان على مقربة من حدود ولاية استر آباد ، طولها ٥٢ درجة وعرضها ٣٦ وارتفاعها ١١١٠ أمتار . وهى مكان تجارى على الجادة من طهران الى مشهد ، ويذهب منها طريقان الى استر آباد . وفيها مجرى ماء عذب ، وبساتينها كثيرة

والى الشمال منها بسطام بلد الصوفى الكبير أبى يزيد البسطامى المتوفى سنة ٣٦١ ، وبها قبره ؛ وقد تحولت التجارة عنها الى شاهرود فى القرن الماضى فتضاءلت حتى صارت قرية صغيرة . وقد بنى ألجايتو خان من السلاطين الايلخانية مسجد أبى يزيد والمسجد الجامع

— حرصت على زيارة أبى يزيد — فقيل لى سنزوره فى عودتنا من مشهد ، ثم لم يتيسر لنا هذا حينما رجعنا الى شاهرود قافلين الى طهران لضيق الوقت وتعلل سائق السيارة بوعورة الطريق . وأنا أنقل هنا ما كتبه ياقوت وقد زارها قبل سبعة قرون

فاتنى أن أرى الديار بعينى فلعلى أرى الديار بسمعى

قال ياقوت « وقد رأيت بسطام هذه . وهى مدينــة كبيرة ذات أسواق ، إلا أن أبنيتها مقتصدة ليست من أبنية الأغنياء . وهى فى فضاء من الأرض ، وبالقرب منها جبال عظام مشرفة عليها ، ولها نهر كبير جار . ورأيت قبر أبى يزيد البسطامى رحمه الله فى وسط البلد فى طرف السوق . وهو أبو يزيد طيفور بن عيسى بن شروَسان الزاهد البسطامى »

وبسطام ودامغان كانتا من مدن قومس المعروفة فى التاريخ الأسلامى

تركنا شاهرود صباحاً ونحن ننشد ما قاله أبو تمام حين اجتاز بقومس وهو يؤم عبدالله بن طاهر فى نيسابور

يقول فى قومس صحبى وقد أخــذت

منا السرى وخطى المهرية القود

أمطلع الشمس تبغى أن تؤم بنا ؟

فقلت كلا ولــكن مطلع الجود

ونذكر ما قاله يحيى بن طالب الحنفى :

أقول لأصحابى ونحن بقومس

ونحن على أثباج ساهمــة جرد

بعدنا وبيت الله من أرض قرقرى

وعن قاع موحوش وزرنا على البعد

فصلنا من شاهرود والساعة ثمان إلا ربعاً من صباح الأربعاء ومررنا بعد نصف ساعة بقرية قفر اسمها خير آباد . قال سائق السيارة هذه قرية هاجت بساكنيها العقارب ، حتى تعذر عليهم الأقامة بها فهجروها ، ونزلنا بعد ساعة وعشر دقائق فى منزل على الطريق اسمه (باغ زيدر) ، فشربنا الشاى على جدول عليه أشجار جميلة . وسلــكنا طريقاً موحشة ذات تلال ومحان كثيرة . قال محدثنا كانت طريقاً مخوفة لا يفارقها خطر التركمان . ورأينا هنالك قلاعا قديمة مشرفة على الطريق . ونزلنا وقت الظهر فى قرية اسمها داو كرزن فى خان ضربت فيه خيام كبيرة فاسترحنا وتغدينا . ثم ركبنا بعد ساعة ونصف نؤم سبزوار . وهى كاسمها فى إقليم مخضر ، كثير البساتين فيــه مجرى ماء ، وكانت مدينة عامرة ، قامت فيها فى القرن الثامن الهجرى (٧٣٥ ـ ٧٧٢) أمارة عرف أمراؤها باسم السربداريين (سربداران) وأولهم خواجه عبدالرازق أحد رجال السلطان أبى سعيد آخر ملوك الدولة الأيلخانية . ودامت الأمارة خمسا وثلاثين سنة تداول فيها الأمر المضطرب اثناعشر أميراً حتى قضى عليهم تيمورلنك

وسبزوار الآن بلدة صغيرة لا يبدو عليها غنى ولا جمال . دخلناها وقد زين شارعها سموط من مصابيح الــكهرباء . نزلنا بها وأوينا إلى خان واسع ذى طبقتين ، فرشت حجراته فرشــاً حسناً من أجل وفود الفردوسى . وبتنا ليلتنا مسرورين على ما صحب بعضنا من برد شاهرود

نحن الآن على مائة كيل من نيسابور العظيمة . فتنتظر فى المقال الآتى حديث نيسابور

عبد الوهاب عزام

الذكرى الألفية

لأبى الطيب أحمد المتنبى

للشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى

ما أنت يا احمدٌ فى دولة الأدب   إلاّ الزعيم وإلاّ شاعر العرب
وما تنبأتَ فى دين كما زعموا   بل فى الفصاحة سبّاقاً وفى الأدب
فكان يوحَى اليك الشعر عن شَحَطٍ   وكان يوحَى اليك الشعر عن كثَب
ما كنتَ للشعر تستوحى قوافيه   حتى تجىءَ من الأعجاز بالعجب
وكنتَ فى قادة الآداب أولهم   وكنت أولهم فى الجحفل اللجب
وكنت فى الشعر مثل الماء منطلقاً   وكنت فى الحرب مثل النار فى الحطب
كم حكمة لك سارت فى الورى مثلاً   قد قلتَها بلسان الشاعر الذرب
كم دولة للقريض الناهض انقلبت   لكن عرشك فيها غير منقلب
وقالة الشعر إن نذكر منازلهم   فأنت فى الرأس والباقون فى الذنَب
صاحت بغاثٌ ببازى الشعر تنقده   فلم يبال بها البازى ولم يُجب

***

لأنت عند الأسى فى الناس أشعرهم   وأنت أشعرهم فى سَورة الغضب
تصوّر الشىء فى وصفٍ لحادثة   حتى كأنى أرى الموصوف من صقب
بك احتفت بعد ألفٍ قد مضى أممٌ   فى مصر، فى الشام، فى بغداد، فى حلب
إن الذى مات عن شعر هدى أمماً   خالدٌ فى قلوب الناس والكتب
بالبغى قد قتلوا للشعر منك أبا   فأصبح الشعر من يتم بغير أب
لهفى كثير لو ان اللهف ينفعنى   على حياتك إذ أفضت إلى العطب
هى الرزية لاتُنسى فجيعتُها   على توالٍ من الأعصار والحقب
بالشعر والأدب الأيام طيّبةٌ   فان خلت منهما الأيام لم تطب
الدهر جار على الآداب يزهقها   وما على الدهر إمّا جار من عتب
القتل رزء وهذا القتل أفجعه   كأنما بك منه الشرّ حلّ وبى
أنت القتيل الذى لا قبر يجمعه   من بعد ما مزّقته أظفرُ النوَب
وربما عرف الأسلاف مصرعَه   مما على الأرض فيه من دم سَرِب
القبر قبر فلا يجدى الدفينَ به   وإن بنتهُ أكفُّ القوم من ذهب
مضى يريد حياةً كلُّها دعةٌ   وما درى أن غول الموت فى الطلب
ولستُ أسأل عنه عند غيلته   أكان مضطرباً أم غير مضطرب
مافى الرزيّة للمرزوء مُنتعَشٌ   لايرقص الطير مذبوحاً من الطرب
ليست بدار أمانٍ يُطمأنّ لها   دنيا مصائبها ينسلن من حدَب
قصيدتى هذه ريحانةٌ عبقت   جنيتُها من لباناتى ومن اربى
نظمتُها من شعور لى لأهديَها   إلى أبى الطيّب النهّاض بالأدب
وما الذى قد نظمنا القولَ فيه سوى   صدى الذى قاله فى سالف الحقب

تحية الرسالة

فى مستهل عامها الثالث

للأستاذ محمود الخفيف

أردتُ بشعرىَ إجلالهَا   فما طرب القلب إلا لها
تبدت لنا فى عِطاف الجلال   عروساً تجرّرُ أذيالها
تناهت اليها معانى الجمال   فما أطلع الشرقُ أمثالها
تسير إلى الناس مَوموقةً   وقد أكبر الناسُ إقبالها
عليها من الشرق ديباجةٌ   توشح بالسحر سربالها
وقد عقدت تاجها من سناه   وصاغت من الحق أحجالها
وفى مقلتيها يشعُّ اليقين   ويشغل ذكر العلى بالها
وما حفلت بصغار الأمور   وما صحب المينُ أقوالها
ومن ذا رأى قبلها غادةً   تقابل بالصفح عذالها ؟

***

تجدد للناس عهد الوفاء   وقد رافق السعدُ آمالها

وتستقبل الفطرَ فى عيدها ... فيصبح نور الهدى فالها
أشيِّع أيامها الحافلات ... وأستعرض اليوم أعمالها
وماعرفت قبلُ غيرَ الرشاد ... وقد سجل الدهرُ أفعالها
ألم تر كيف مشت حُرَّةً ... تفك عن الضاد أغلالها ؟
وتجرى البلاغة رقراقةً ... فترتشف النفسُ سلسالها
فمن أدب تشتهيه النفوس ... ومن قصص هو أشهى لها
وتزجى القوافىَ معسولة ... وتسكب فى القلب جِريالها
تسوق العلوم لأهل النهى ... وتفتح للذهن أقفالها
وترفع ثَمَّ صروح الفنون ... وقد كره الناسُ أطلالها
وتحبو إلى مُسْتَكِنِّ الخدور ... تفتِّق فى الشرق أسدالها
وتخرج مبتدعات العصور ... وتعرض للناس أشكالها
وماالشرق إلاّ معين الفنون ... وإن أخرج الغرب مثّالها
وماهو فن ولكنه ... وميض من الروح أوحى لها
تجدد ماضيَه العبقرىّ ... وقد هاج ماضيه بلبالها
وتدعو إلى العز فى أمة ... أطال بنو الغرب إذلالها
تذكرُ بغدادَ عهدَ الرشيد ... وتحصى بجِلِّقَ أقيالها
وتتلو بمصر حديثَ الخلود ... فتوقظ للمجد أشبالها
تريك الملاحمَ فى هولها ... وقد توج النصرُ أبطالها
كأنك تلمح بين السطور ... دخان الحروب وقسطالها
وتسمع فيها صليل السيوف ... وكرَّ الجياد وتَصْهالها
وقدضاق بالجمع رحبُ الفضاء ... وزلزلت الأرض زلزالها
ترى خالداً فى غمار الحتوف ... يخوض إلى النصر أهوالها
وتلقى صلاحا يذل العداة ... وقد كان فى الحرب رئبالها
فيملأ نفسك ماضى البلاد ... ويذكر قلبك ما نالها
وكم جدَّدَ الذكرُ بأس الشعوب ... إذا أقعد الخوف أعزالها
حمدنا لصاحبها جهدَه ... فقد ألهم الشرق إجلالها
«رسالته» فيه رمز الأخاء ... إذا رسم الفكرُ تمثالها
لقد وحدت فيه شمل الشعوب ... وإن فرّق الدهر أنسالها
وتهدى إلى الرشد فى أمة ... أراد أولو العلم إضلالها
فلابرحت تصطفيها القلوب ... وتستقبل العينُ إجمالها

محمود الخفيف

الراديو

للأستاذ محمود غنيم

شادٍ ترنَّم لا طيرٌ ولا بشر ... ياصاحب اللحن أين العود والوتر ؟
إنى سمعت لساناً قُدَّ من خشب ... فهل تُرَى بعد هذا ينطق الحجر ؟
لو قلتُ بالجن قلتُ الجن أنطقه ... أو قلت بالسحر قلت القوم قد سحروا
صوت (بروما) صداه رنَّ فى أذنى ... كأنما هو من فكّىَّ منحدر
كأنما كل أذنٍ أذن (ساريةٍ) ... وكل ناء ينادى نائياً (عُمَر)
هنا الخطيب الذى خانته جرأته ... يقول ما شاء لا جبن ولا خور
فليس يخشى ضجيج القوم إن طربوا ... وليس يخشى عجيج القوم إن سخروا
لهفى على صولة الحاكى ودولته ... لقد غدا فى ربيع العمر يحتضر
وآلة جعلت من حجرتى أفقاً ... يرتد منحسراً عن حده البصر
كأنما الكرةُ الأرضية انحصرت ... فى جوفها ، والورى فى جوفها انحصروا
قد حكمتنى فى الأصوات لوحتُها ... فصرت أختار ما آتى وما أذر
وكل رقم عليها حشوُه طرب ... وفيه كنز من الألحان مستتر
قد كنت أغشى بيوتَ اللهو منتقلاً ... فصار يسعى إلىَّ اللهو والسمر
لها فم ليس يستعصى على لغة ... على الرطانة والإفصاح مقتدر
عوراء لاتخرج الأصوات من فمها ... إلا إذا ما بدا من عينها الشرر
صماء لكن تعى ما لا تعى أذن ... بكماء من فمها الأخبار تنتشر
ثرثارة إن أردت القول ثرثرة ... فإن أردت اختصاراً فهو مختصر
فى كل يوم نرى للغرب خارقةً ... يكفيه هذا ويكفى المشرقَ النظر
القوم يبتكرون المعجزاتِ لنا ... ونحن نفتَنّ فى إطراء ما ابتكروا
فهل تُرى الشرقَ قد أدى رسالته ... وهل تُرى أنبياء الغرب قد ظهروا

محمود غنيم

زهرة أقحوان

للأستاذ إيليا أبي ماضي

...

كان فى صدرىَ سر   كامن كالأفعوان
أتوقاه وأخشى   أن يراه من يرانى
وإذا لاح أمامى   عقل الذعر لسانى
لم أَخَفْه غير أنى   خِفت أبناء الزمان
ولكم فانٍ نظيرى   خاف قبلى بطش فانى
لم يَسَع سرى فؤادى   لم تسع نفسى المعانى
فقصدت الغاب وحدى   والدجى ملقى الجِران
ودفنت السر فيه   مثلما يدفن جان
ورأى الليل قتيلى   فبكاه وبكانى
إن لليل دموعاً   لا تراها مقلتان
كنت حتى مع ضميرى   أمس فى حرب عوان
فانقضى عهد التجافى   وأتى عهد التدانى
خدرت روحى فأمسى   شأن جل الخلق شأنى
لا أرى فى الخمر معنى   ولكمَ فيها معانى
فكأنى آلة العا   صر أو إحدى الأوانى
لم يعد قلبى كالبر   ق شديد الخفقان
لم تعد نفسى كالنج   مة ذات اللمعان
بت لا أبكى لمظلو   م ولا حُرٍّ مهان
لا ولا أحفل بالبا   كى ولو ذا صولجان
صرت كالصخر سواء   هادم عندى وبان
يا لآمالى الغوالى   يا لأحلامى الحسان !
طوت الغابة سرى   فانطوت معه الأمانى
ضاع لما ضاع شىء   من كيانى بل كيانى
فى صباح مستطير   كصباح المهرجان
لبست فيه الروابى   حلة من أرجوان
وتبدى الغاب من أو   راقه فى طيلسان
ساقنى روح خفى   نحو ذياك المكان
فاذا بالسر أضحى   زهرة من أقحوان

فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

٤ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

للأستاذ خليل هنداوى

الذات تخرج من نفسها وتعود الى نفسها ، ولكنها تعود أكثر قوة وغنى ، وكل معارضة تلقاها فى الخارج لا تزيدها إلا قوة ومضاء . وفى كل جزء من أجزائها تحس أن قوة حيوية جديدة تولدت فيها ، ونهاية أربها أن تعلن فوز سلطان العقل على المادة والطبيعة ، أو كما يقول « فيخت » (اتحاد الذات مع غير الذات) وهذا الاتحاد أو هذا الامتزاج المطلق يجعله فيخت مثله الأعلى ، ويراه الفيلسوف « هيجل » حقيقة من حقائق الوجود

الذات السامية متمثلة فى الله ، والذات الالهية هى الكمال الأعلى . والذات الانسانية تمثل – مجازياً – ما تمثله الله – حقيقياً – ولكنها يحدها الزمن وينتظرها الزوال . أما فاعليتها فباقية خالدة لتحقق مثالها الأعلى ولتدنو فى الشبه طوراً بعد طور — من الاله . والاله لا حق لنا فى تمثيله ولا إثبات وجوده بما هو خارج عن كنهه ، لأن تمثيله معناه تحديده وإبرازه على صورتنا الزائلة ، وجعله وثناً له شأن الأوثان . وإثبات وجوده معناه أن نستعين بيقين مستمد من غيره فى سبيل اثباته ، مع أنه هو مصدر كل يقين وهو الفاعل المطلق

موقفه من الدين

لم يؤثر شىء من النقد فى نفس فيخت كما أثرت فيه تلك الوشاية التى أراد خصومه من ورائها أن يتهموه بالالحاد ، وما زال الالحاد سيفاً يشهره العاجزون يهولون به على الأقوياء . قابل « فيخت » هذه التهمة بابتسامة كئيبة ، لأنه يعتقد أنه مضمر للدين عاطفة طيبة تشف عنها كتاباته ومقالاته ، وإزاء هذه الوشاية أرسل إلى قومه نداء يدفع به عن نفسه هذه التهمة الشنيعة ، وهو نداء يطفح حرارة والتهاباً وإيماناً . قال فيه : « إن الرجل المتدين هو الذى يشترك فى تمثيل سلطة الله على الأرض ؛ قائمة نفسه حق القيام بما يجب عليها من قواعد الأخلاق . يستحيل على أن أتخذ لى هدفاً وغاية هذه الحياة التى يتبرم الناس

بهمومها وأفراحها . . . وإنما يجب على أن يكون لى غرض مباين لهذه الأغراض . . . إن الأشياء تقاسمنا – بحسب أهوائنا – أمانينا وميولنا ، فهي تئن إذا أرغمها على الزهو مرغم ، وهي ترجو الانعتاق إذا أمسك الحرية عليها ممسك . وهذا الأمل المتوقد فى ما هو أسمى وأرفع وفى ما هو أبقى وأخلد ، وهذه السآمة من الأشياء الزائلة الفانية ، كل هذه هي عواطف لا صفة بقلب الانسان ! ووراء ذلك صوت لا يمكن لبشر أن يخنقه إذا علا وارتفع فى صدر الانسان ، يوحى عليه أن هنالك واجباً فرض عليه أن يقوم به لأنه هو الواجب ، والانسان الذى لا مفر له إلا إلى نفسه يسمع ذلك الصوت ويردد معه (ليمنعنى ما يمنع ! فانني لقائم بواجبي حتى لا يكون هنالك لائم) وهذا الحل الذى وجده هو الذى يجعله محتملاً لهبة الحياة إذا استلمها ، ولانتزاعها منه إذا فقدها ، يقول بنفسه . . . أريد أن أنجز أيامى لأن الواجب يدعونى إلى ذلك . . . أريد أن أتمم ما تطلب الحياة مني وما تفرضه علىّ ... إن الحياة مقدسة عندى ! وما قدسها إلا حب الواجب .)

ويرى فيخت وجوب توحيد الأخلاق والدين لأن غايتهما واحدة ووجهتهما واحدة . فالدين بغير أخلاق ماهو إلا مظهر خارجى يغذى العقل بالأوهام والأساطير دون أن يرق به الى ناحية من نواحى الكمال . والأخلاق بغير الدين تتركنا نجتنب الشقاء خشية عاقبته ، دون أن نغرس فى نفوسنا حب الخير لنفسه . ألا ليكن دستورك الشريفّ فى حياتك أن تريد مايجب ، وأن تطهر إرادتك من أدران هذا العالم ، وتنقذ وجودك منها ليتسنى لك العروج الى عالم هو أسمى من عالمنا الحاضر ، وأن تصرف نفسك عن هذه الحياة الى الحياة الهادئة السعيدة

ويقول أيضاً : « إن مزية الرجل المتدين الحقيقى فى مذهبى هى أن تكون له رغبة واحدة تحدوه ، وفكرة واحدة تسوقه ، صلاته هذه الآية : « ليأت ملكوتك » وفى غير ذلك لايتسع صدره لشيء ، ولاتسعى قدماه إلا فى سبيل واحد يدنيه من غايته ولا يطيع فى كل ما يأتيه من عمل إلا صوت ضميره

على أن روح فيخت الدينية بدأت تبدو كثيراً فى كتاباته الأخيرة التى أراد بها توضيح مذهبه . ففى كتابه « الموجز » نرى نزعته الفكرية التى تؤمن بأن الله قد أناب منابه (الذات المطلقة) على الأرض ، وأن نهاية هذه (الفاعلية) الانسانية تفنى فى وحدة تمزجها مع الألوهية . وفى كتابه (غاية الانسان) يعلن فيخت بأن حقيقة العالم الخارجى بعيدة عن الوضوح والبيان ، ولكن فى الامكان تعليلها بطريقة من طرق الايمان : أليس هو شعورنا الذى يحفزنا الى معرفة (حقائق الأشياء الخارجة عنا) وهى كائنات لها وظيفتها فى الوجود كما لنا وظيفتنا ، وأرانا مضطرين الى اسعافها فى اكمال وظيفتها

وفى كتابه « معرفة الحياة السعيدة » يبحث مسألة الاتحاد مع واجب الوجود ، وقد يكون فى استطاعتنا القول أن هذا الاتحاد قد يكون اتحاداً صوفياً (يمثل فناء المحب فى المحبوب) لو لم ينبهنا فيخت الى أن هذا الاتحاد ليس باتحاد فارغ – كما نتمثله – وإنما هو اتحاد ملائم لجبلة الله . وإنما الرجل المتدين عنده هو الذى يؤمن ويضع رجاءه – لا فى الله – لأنه يحمل الله فى قلبه ، ولكن فى الانسانية التى يجاهد فى سبيل إسعادها واكمالها

« قيمة الفلسفة »

أجمع النقاد على أن فلسفة فيخت ليس لها ذلك الألتئام والاتحاد اللذان تمتاز بهما فلسفة (كانت) ، وإنما هى قوة منبعثة يجهل بواعثها فيخت نفسه . قد لا تتفق وجوهها إلا بجملة امتيازات خاصة لو تأملها متأمل عن كثب لرأى ركاكتها ولمس ضعفها ، فالذات فى نظره هى الفاعل المطلق ، ولكن كيف يسند إليها هذا الأطلاق وهى ليست بالمطلقة ، وكيف تكون مطلقة وحولها ذوات كثيرة مثلها ، كل ذات منها مطلقة فى نفسها ؟

إن قيمة فلسفة فيخت لا تتمثل حقيقة فيما اكتشفت وابتدعت – فى عوالم النفس – فهى لم تكتشف شيئاً ، ولم تكشف عن شيء فى المسائل العلمية ، ولكن هذه الفلسفة ستبقى مطبوعة بصفة لا تبلى ، هى سر كل بقائها وعظمتها

قد يأتى يوم يفقد فيه (كانت) كل مناصر ، ولكنه لن يفقد بعض آراء مثمرة جديدة لها خطرها فيما أبدعت ، «وفيخت» لن يفقد بعض صفحاته النقية وبعض آرائه السامية . وهب أنه فقدها ، فهو لن يفقد ذلك المثل الأعلى الذى هام فى طلبه طيلة حياته ، وكان أبلغ وأسمى ما تجلى به مذهبه أن الأنسان الأخلاق – فى فيخت – يغلب على الأنسان الفيلسوف ! والأنسان الأخلاق – فى فيخت – يغلب عليه ويسمو عليه الأنسان وحده ...

(يتلى) خليل هنداوى

القصص

من الأدب الألمانى

التأمين (ضد) امرأة جميلة

للقصصى الألمانى هانز كفكا
Hans Kafka

قبيل الساعة السادسة جلس فى الغرفة الخلفية لحانة « الطاحونة الملكية » ستة رجال على مائدة مستطيلة . وكل منهم يخشى البدء بالكلام برغم تعارفهم — ذلك التعارف الذى لامفر منه لسكان بلدة صغيرة . وكانوا فى حياتهم ومعاشهم متشابهين ، فكلهم موظفون ، لهم مكاتبهم التى يجلسون إليها فى مصارف أو مصانع أو محال تجارية . جاءوا جميعاً لأن كلامنهم قد بلغته دعوة للحضور إلى « الطاحونة الملكية » فى نفس اليوم من الساعة السادسة لكى يتم تأسيس جمعية عظيمة الخطر والنفع له . وقد طلب إليهم صاحب الدعوة أن يسروا الخبر ، فأخفوه حتى عن نسائهم ، إذ ظنوا أنها مسألة قد تكون خاصة بالرجال . . . ومن يدرى ؟ وكان الداعى فطناً إذ خلق لكل منهم آمالاً معسولة . غير أن واحداً منهم لم يعرف شيئاً على وجه التحديد . فانتظروا « الهر فريد » صاحب الدعوة . وكان هذا شاباً رشيقاً ، جوّاباً للبلاد يطوبها من الشرق إلى الغرب ، وله مهن غير معروفة بالذات . وكثيراً ما كان شخصه موضع حديث الناس لغريب شأنه

وما ان دقت الساعة السادسة حتى دخل الهر فريد إلى الغرفة ، وقال كمن يرأس جماعة :

« سادتى ! إنه ليسرنى أن أراكم مجتمعين كاملى العدد ... » فابتسموا جميعاً ، ولكنهم ازدادوا إليه تطلعاً . وابتسم الهر فريد وتابع قوله :

« كاملى العدد ــ يا حضرات المختلسين . . . ! »

فذُعِر الرجال الستة وهرب الدم من وجه ثلاثة منهم ، وصعد الدم إلى رؤوس الثلاثة الآخرين . وحاول كل منهم أن يكظم غيظه ، أو يرسله كلمة صاخبة يحملها إلى الهر فريد فى شيء من الرفق والتودد . أما هو فأخرج من جيبه ورقة قرأ فيها أسماء الحاضرين ، وكان يردف كل اسم بأرقام تتراوح بين الألف والعشرة آلاف . وما كاد ينتهى من ذلك حتى شملهم سكون أشبه بسكون الموت . وبعد هنيهة تشجع من اقترن اسمه بأكبر رقم ــ وكان صيرفياً فى « بنك التجارة » وأراد محاسبة الهر فريد على كلامه فقال له :

« من أين عرفت ذلك ؟ »

فقال : « هــــذا مالا أريد ذكره الآن . »

فسأله : « أمن رجال الأمن أنت ؟ »

فأجاب : « لا . »

فتنفس الرجال الستة الصعداء . ولما سئل ثانية :

« ألاستغلال الموقف ؟ »

قال « كلا ! » قالها فرحاً وزاد عليها : « وهل لديكم أشياء يستغلها الغير ؟ لقد اختلستم أكثر من نصف مافى خزائنكم ، وأريد الآن أن أوجه إليكم سؤالاً بسيطاً : ماذا تفعلون لو جاء مفتش ؟ »

وانقلب الرجال الستة مرة أخرى الى كتلة من الذعر والمرج ، وتعالت الصيحات وكثرت الأسئلة ، ومضت دقائق يغمغمون دون أن تتميز كلماتهم

وقال الهر فريد : « إنى أعرف جيداً أن ساعتين كفيلتان بدرء الخطر ، إذ النجدات تطلب ، والتلغرافات إلى الأقارب ترسل ، والمحادثات التليفونية مع الأصدقاء تقع . فيتم جمع المبلغ المطلوب ، ويوضع فى الخزينة لكى يرد الى أصحابه بعد عملية المراجعة والتفتيش التى قد تستغرق بضع ساعات . ولكن ماذا أنتم فاعلون اذا فشل المسعى مرة ؟

وبدت على الجميع الحيرة . غير أن الهر فريد بسط ذراعيه وقال

« إنى لا أريد بكم سوءاً ، بل لقد جئت لأرشادكم . إنى أعرض عليكم خطة للنجاة ... ماذا ترون فى تنظيم مساعدة سريعة حينما يداهمكم تفتيش على غير انتظار ؟ »

« إنها أسئلة مفجعة . ولكنّ ما هى الخطة : ياسادتى ! يجلس هنا ميارفة ستة لمحال مختلفة . وإذا لم أخطىء التقدير فاثنان منكم فى مصرفين ، وأربعة لأربعة مصانع . فهل يمكن أن يجرى التفتيش عند الجميع فى وقت واحد ؟ كلا ياسادتى ، فهذا من الوجهة العملية لا يمكن ، ولن يمكن وقوعه فى الحياة . وإذاً فهذه المفاجأة غير المرغوب فيها لا تهدد إلا خزينة واحدة . ولا يجىء الدور على الخزينة الثانية حتى ينتهى التفتيش من الخزينة الأولى . ويصح أن أكرر القول بأنه حينما تكون إحدى الخزائن واقعة تحت خطر دائم ، فلن يصيب الخزائن الخمس الأخر شىء قط مهما كان العجز الذى فيها . ولهذا يمكن أخذ الأموال من تلك الخزائن لأنقاذ الخزينة المهددة . ثم بعد مرور الخطر ، أى بعد بضع ساعات ترد الأموال ثانية . هذا كل شىء . وهو بالنسبة اليكم ولموقفكم كبيضة كولومبوس » من أجل هذا وجب عليكم يا سادتى أن تتعاونوا للتأمين ضد الحالات السيئة الطارئة وتجعلونى رئيساً عليكم ، ولابد أن تجعلوا لى على ذلك أجراً شهرياً . وليس هذا بالأمر العسير ، إذ أن الخزائن التى أنقذتكم فى ميسورها ان تتحمل ذلك دون أى مشقة »

وفى الليلة نفسها تألفت فى حانة الطاحونة الملكية شركة للتأمين من نوع جديد ، ثم أملى الرئيس ، الهر فريد ، مواد قانون الشركة ومنها : الدفع فى اللحظة المطلوبة ، رد المبلغ فى ظرف أربع وعشرين ساعة ، عدم تغطية الخسائر السابقة ، يتقى خطر كل اختلاس جديد . ومن ثم تلاشى الرعب وسرى فى النفوس البشر . وكانت أقداح البيرة تملأ باستمرار من جديد . وكان الهر فريد ، المنقذ ، موضع التكريم من الجميع

وتناسوا جميعاً الورقة التى بها الأعداد الصحيحة عن النقص فى كل خزانة ، وكانت على المائدة . فلما أبصرها أحدهم على حين غرة وجه السؤال مرة أخرى الى الهر فريد الذى تصادق مع الجميع فقال : « من أين عرفت ذلك ؟ »

فأجاب : « الآن سأقص عليكم المسألة : طبعاً تعرفون السيدة مارى لو ؟ »

فدفعوا جميع فى صوت واحد ليقولوا كلمة « لا ! »

فاستأنف قوله : إذاً سأذكر لكم شيئاً عنها . ان السيدة « مارى لو » جذابة ، قصيرة القامة ، شقراء اللون . تسكن وحدها منزلاً خلوياً فى ظاهر بلدتنا . أما كيف صار لها هذا المنزل ، وكيف حصلت عليه ، ولا زالت تحصل على مطالبها — وحياتها هى الترف بمعناه الكامل — فهذا ما لا يعرفه أحد فى بلدتنا . أليس كذلك ؟ غير أنى أعرف السر ، إذ هو متعلق بعمل أمارسه فى بعض الأحايين . إن للسيدة « مارى لو » دفتر حساب يحصر فيه جميع دخلها ومصروفها ، وكانت قد دعتنى مرة لتنظيم هذه الدفاتر . ومن ذلك اليوم وأنا أعالج تنظيمها بطريقتى الخاصة . وإذاً فأنا لست رئيس هيئتكم فقط ، ولكنى أيضاً مراجع حسابات السيدة «مارى لو » وهاأنتم أولاء ترون إننى أمارس مهناً غريبة ، ولكنها فى الواقع متصل بعضها ببعض ، فنى أحد دفاتر الدخل وجدت أسماءكم جميعاً ياسادتى ، ووجدت بجانب كل اسم رقماً من الأرقام ... إننى أعرف أنكم متزوجون . ومعنى ذلك أن مرتباتكم الكاملة تقدم أولاً بأول إلى زوجاتكم . . . والأرقام التى وجدتها فى دفتر دخل السيدة «مارى لو» نقلتها هنا بكل أمانة . . . ولا بد أن تكون هذه الأرقام هى اختلاساتكم الجليلة الشأن ، المحسوبة حتى آخر فلس

ولم يغضب هؤلاء السادة لسماع ذلك ، إذ أن هذا الشاب الظريف كان قد دفعهم الى التمتع برؤية مستقبل باهر . ثم لم يغب عنه أن يختم الليلة بالتحدث عن مكارم الأخلاق إذ قال :

« إنه لا يليق بمقامكم أيها السادة أن تجر عليكم الخسارة امرأة مثل السيدة مارى لو . . . إننى أكتفى بهز رأسى . انظروا الى ، إننى لم أجد اسمى فى دفتر دخل السيدة مارى لو ، برغم أنى أعمل معها ليل نهار فى مراجعة حساباتها وشئون أخرى »

وراج التأمين ضد الحالات غير المرغوب فيها بسرعة فائقة ، وأصبح عدد الأعضاء ثلاثين عضواً ، إذ وجد الهر فريد أسماء الأربعة والعشرين الجدد مدرجة واحداً بعد واحد فى دفتر مارى لو . . . وسرعان ما كانت له سيارة جديدة يجوب بها البلاد والمدن المجاورة ، لينشىء فيها فرعاً لشركته التعاونية هذه ، أو ليقوم بما يشبه ذلك من الأعمال . وكان كل مطمحه ألا يظهر أى اختلاس فى الوطن الذى يحميه

ومن الأموال المقيدة بأرقام ميتة فى دفتر الخزينـة كان الصيارفة يرتمون فى بحبوحة من العيش . وكان المفتشون والمراقبون يجدون كل شىء على أكمله . وكانت الاحصاءات تدل على أن درجات الشرف ترتفع باستمرار فى البلاد

ولما أن اجتمعت الجمعيـة العمومية فى « حانة الطاحونة الملكية » ، وفقا لتقاليدها القديمة ، كان التقرير السنوى حسناً ، فوافق عليه الثمانمائة عضو بالاجماع . وأذاع الهر فريد فى خطابه السنوى قرب تحقيق ما يأمله من تبليغ أعمال الشركة الى عاصمة الدولة حتى يقضى على الاضطرابات المالية وفق طريقته المبتكرة ، ثم جلس بين عاصفة من التصفيق والابتسام ، وفى هذه اللحظة اندفع باب غرفة الاجتماع ، وتقدم اثنان من مديرى البنوك ، وثلاثة من مديرى المصانع ، يعلو وجوههم الحزن . وكان يحمل كل منهم خطابات ورسائل مطبوعة تشيد بمكانة شركة التأمين وقدرتها . وظن المجتمعون أن عهد الاختلاسات قد مضى فاختـل التوازن بينهم . ولـكن الهر فريد بقى جالسا لاتفارقه ابتسامته

وسأله المتكلم من بين المديرين الخمسة :

« هل هذه المطبوعات خاصة بكم ؟ »

فرد عليه الهر فريد بالايجاب

ثم استمر فى السؤال : «هل كل هذه البيانات المذكورة صحيحة ؟

فرد عليهم الهر فريد بالايجاب مرة ثانية

وأخيراً طلب خمستهم قبولهم أعضاء فى هذه الشركة العملية ،

ولما انتهى الاجتماع السنوى سأل أحدهم الهر فريد :

« لماذا لم تحرك ساكناً فى أول الأمر ، وقد داهمنا هؤلاء المديرون ؟ »

فأجاب : « رأيت من قبل أسماءهم الخمسة فى دفتر حسابات دخل السيدة مارى لو . » ثم أعقب ذلك بقوله : « إننى لا أتمالك غير هز الرأس ، أى ، لقد تدنس عظماء الرجال »

وما لبث أن طلب المديرون الجدد التوسع فى أعمال الشركة وإصلاح نظمها . فالتأمين ضد الحالات غير المرغوب فيها – بعد أن اتسعت أعمال الشركة وتشعبت – تطلب تنظيماً جديداً وفرض اشتراك (يرد ثانية إلى الأعضاء) ليكون بمثابة احتياطى مضمون . ودفع كل عضو مبلغاً عظيما من ماله الخاص . ولما أن تجمعت هذه المبالغ العظيمة أودعت عنـد الرئيس المبجل الهر فريد ، كرصيد سريع لدرء الخطر

* * *

وفى صباح يوم اتصل الهر فريد تليفونياً بالأعضاء السبعين (وهكذا أمسى عددهم) وكلفهم بسرعة جمع مسح جسيم . وبالطبع سأله الجميع عن اسم المختلس الذى وقعت له حالة غير مرغوب فيها

فكان يجيب : « هى شركة التأمين ضد الحالات غير المرغوب فيها . »

وكان كل واحد منهم يعتقد أنه سمع خطأ أو فهم خطأ . ولـكن الرئيس يؤكد له :

« إنك تسمع ما أقول صحيحاً . إن المديرين ضربوا اليوم موعداً للمراجعة والتفتيش ، وللأسف اختلست أنا الرصيد الذى كان عندى منذ أيام . »

فكان جواب كل منهم : « ماذا تقول ؟ إنه يجب عليك أن تتحمل الخسارة وحدك وتسد النقص حالاً »

وكانت إجابة الهر فريد الثابتة : « إننى لا أفكر مطلقاً فى ذلك . إننى عضو فى الشركة كسائر السادة المختلسين »

ثم يسأل كل منهم : « وكم يكون العجز ؟ »

فيجيب : « هو الاحتياطى بأجمعه . وإنى آسف إذ ليس فى وسعى إعطاء الأرقام الصحيحة . »

وكانت صرخة الغضب تدوى من كل منهم حين يقول : « لماذا ؟ أليس المبلغ مقيداً فى دفتر حسابات دخل السيده لو ؟ »

فيقول الهر فريد متحسراً : « لا . إن صديقتى الجديدة ترهب مسك الدفاتر وتمقته . نعم إن السُّمْر من النساء لا يرين للمال حرمة . »

عربها عن الألمانية ا . ا . ى .

من روائع الشرق والغرب

المشهد العام للكون

لشاتو بريان

من كتابه « عبقرية المسيحية »

إن فى الكون إلهاً تقدسه أعشاب الوادى ، وتمجده أدواح الجبل ، وتسبح بحمده الحشرة ، ويحييه فى الصباح الفيل ، ويغرد به على الغصون الطير ، وتبرق بقوته الصاعقة ، ويدل على سعته البحر ، والانسان وحده يزعم أن ليس فى الكون إله ! كأنه لم يرفع بصره إلى السماء فى بلائه ، أو لم يخفض نظره إلى الأرض فى رخائه ! وكأن الطبيعة بعيدة عن تناوله ، خارجة عن تأمله !

لعله يعتقد أنها أثر من فعل المصادفة ! ولكن أية مصادفة استطاعت أن ترغم مادة نافرة عصية على هذا النظام الكامل المحكم ! ؟

إن فى إمكانك أن تقول إن الانسان فكرة الله المُمَثَّلة ، وأن العالم مخيلته المُحَسَّة ، وأن الذين قبلوا أن يكون جمال الكون دليلاً على قوة الادراك وسمو البصيرة كان يجب عليهم أن يلاحظوا شيئاً تعظم له كرة العجائب وتزيد به بدائع الخلق : ذلك أن ما ينوّع زخرف الدنيا وجمال الوجود من الحركة والسكون ، والظلام والنور ، وتوالى الفصول ، وسبوح الكواكب ، ليس تعاقبه إلا فى الظاهر ؛ أما فى الواقع فكل شئ ثابت ؛ فالمشهد الذى يمّحى من عيوننا ، يشرق فى نظر قوم غير قومنا . إنما يتغير الناظر ؛ أما المنظر فهو باق على حاله . وهكذا يجمع الله فى صنعه بين الدوام المطلق والدوام المتجدد ، فوضع الأول فى الزمان والثانى فى المكان . وجمل بالدوام المكانى جمال الكون واحداً ثابتاً غير محدود . وجمله بالدوام الزمانى متكاثراً متجدداً غير متناه ، وبدون هذا لا يكون تنوع الطبيعة ، وبغير ذلك لا تتم عظمة الخليقة

هنا يتراءى لنا الزمن فى علاقة جديدة ، فأدنى جزء من أجزائه يصير كُلاً تاماً يشمل الكل . وإن من شئ إلا يتغير حاله فيه ويختلف نظامه به ، سواء فى ذلك موت الحشرة ، ومولد العالم : فكل دقيقة هى فى ذاتها خلود مصغر

دع فكرك يجمع فى لحظة واحدة أروع حوادث الطبيعة ، فقدر أنك ترى فى وقت واحد جميع الساعات ، وجميع الفصول ، وصبحاً من أصباح الربيع ، وبكرة من بُكر الخريف ، وليلاً مرصعاً بالنجوم ، وليلاً آخر ملبداً بالغيوم ، ومروجاً مطرزة بالزهر ، وغابات محملة بالصقيع ، وحقولاً مذهبة بالحصيد ، تجتمع فى ذهنك فكرة صادقة عن الكون

إن فى الساعة التى تحجب فيها الشمس وهى تغيب فى حنية المغرب ، إنساناً آخر يعجب بها وهى تلوح من حاشية المشرق فبأى سحر خفى تكون هذه الشمس العجوز التى ترقد مكدودة محترقة فى غبار المساء ، هى فى هذه اللحظة نفسها تلك الشمس الشابة التى تستيقظ من خدر الصباح مبللة بالأنداء ؟ !

فى كل لحظة من لحظات النهار تشرق الشمس ، وتسطع فى السمت ، وتغرب عن هذا العالم ، أو قل توهمنا مشاعرنا ذلك ؛ والواقع أن ليس هناك شرق ولا ظهر ولا غرب ! إنما يرتد كل ذلك إلى نقطة محدودة ترسل فيها شعلة النهار فى جوهر واحد ، ثلاثة أضواء فى وقت معاً

من بدائع طاغور

من كتابه (القربان الغنائى)

(جيتنجالى)

— ٤ —

يا حياة حياتى ! أنا أجتهد دائماً أن أحفظ جسمى من الدنس ، لأنى أعلم إن لمستك الحية وسْم على كل عضو من أعضائى

أنا أجتهد دائماً أن أحفظ فكرى من الخطأ ، لأنى أعلم أنك أنت الحقيقة التى تبعث نور العقل فى ذهنى

أنا أجتهد دائماً أن أذود عن قلبي الخبث . وأدفع عن حبي الذبول ، لأني أعلم أن مسكنك هو الهيكل السرى من قلبي

وسيكون قصاراى أن أجتليك في كل عمل ، لأنى أعلم أن قدرتك هي التي تمدني بالقوة لأعمل

— ٣٦ —

أقبل فجلس الى جانبي ولم أستيقظ ! فعلى نومى الشقى اللعنة !

جاء في سُجُوّ الليل وفي يده قيثارته ، ثم غنى فاهتزت أحلامي لأنغامه !

وا أسفاه ! لماذا تذهب ليالىّ ضياعاً ؟ ! والهفتاه ! لماذا يفر من مشهدى ، ذلك الذي تمس أنفاسه مرقدى ؟

— ٣٥ —

هناك حيث الفكر آمن والرأس مرفوع ؛

هناك حيث المعرفة حرة ؛

هناك حيث العالم لم يُجزَّأ أجزاء ضيقة مشتركة ؛

هناك حيث الكلمات تصدر من أعماق الاخلاص والصدق ،

هناك حيث الجهد اللاغب يبسط الأذرع نحو الكمال ؛

هناك حيث البرق الساري للعقل لا يضل ضلال الموت في بيداء التقاليد والعرف ،

هناك حيث الذهن يتقدم على نور قيادتك في تحرير الفكر والعمل :

هناك في هذا الفردوس ، فردوس الحرية ، تطوّل علىّ يا أبى أن يكون موطنى هناك !

طاغور

إني شكرت لظالمي ظلمي ... وغفرت ذاك له على علمي
ورأيته أسدى إلىّ يداً ... لما أبان بجهله حلمي
رجعت إساءته إلى وإحساني ... فعاد مضاعف الجرم
وكأنما الأحسان كان له ... وأنا المسيء إليه في الحكم
ما زال يظلمنى وأرحمه ... حتى بكيت له من الظلم

« أبو العتاهية »

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحته ... فقير مُعرّى أو أمير مُدوَّج
وقد يُرزق المجدود أقوات أمة ... ويحرم قوتاً واحداً وهو أحوج

أحسن جواراً للفتاة وعُدَّها ... أخت السماك على دنو الدار
كمتجاور العينين لن تتلاقيا ... وحجاز بينهما قصير جدار

ياقوت ! ما أنت ياقوتٌ ولا ذهب
فكيف تُعجز أقواماً مساكينا ؟
وأحسب الناس لو أعطوا زكاتهم
لما رأيت بني الأعدام شاكينا

« أبو العلاء »

كأن بلاد الله وهي عريضة ... على الخائف المطلوب كِفّة حابل
يؤدّى إليه أن كل ثنيّةٍ ... تيمّمها تُرمى اليه بقاتل

« القتال الكلابي »

لقد خفت حتى خلت أن ليس ناظر
الى أحد غيرى فكدت أطير
وليس فم إلا بسرى محدث
وليس يد إلا إلىّ تشير

« عبيد بن أيوب »

مثل الحقد في القلب إذا لم يجد محركاً مثل الجمر المكنون إذا لم يجد حطبا ، فليس ينفك الحقد متطلعاً إلى العلل كما تبتغى النار الحطب ، فاذا وجد علة استعر فلا يطفئه حسن كلام ولا لين ولا رفق ولا خضوع ولا تضرع ولا مصانعة ولا شيء دون تلف الأنفس وذهاب الأرواح

***

ليكن مما تصرف به الأذى والعذاب عن نفسك ألا تكون حسوداً ، فان الحسد خلق لئيم ، ومن لؤمه أن يوكل بالأدنى فالأدنى من الأقارب والأكفاء والخلطاء . فليكن ما تقابل به الحسد أن تعلم أن خير ما تكون حين تكون مع من هو خير منك ، وان غُنما لك أن يكون عشيرك وخليطك أفضل منك في العلم فتقتبس من علمه ، وأفضل منك في القوة فيدفع عنك بقوته ، وأفضل منك في المال فتفيد من ماله ، وأفضل منك في الجاه فتصيب حاجتك بجاهه ، وأفضل منك في الدين فتزداد صلاحاً بصلاحه

***

ابذل لصديقك دمك ومالك ، ولمعرفتك رفدك ومحضرك ، وللعامة بشرك وتحننك ، ولعدوك عدلك ، واضنن بعرضك ودينك على كل أحد

« ابن المقفع »

من هنا ومن هناك

هل لامرتين عربي ؟

جاء في كتاب (لامرتين) تأليف الأستاذين ج كلويه ، وش . فيدال[1] ما نصه :

« كان لامرتين يقول من ذات نفسه إنه تحدر من أصل عربي وإن استقرار آل مرتين Alamurtine في مقاطعة (ماكونيه) يرجع تاريخه إلى الغزوة . وهذا التأكيد لا نجد له أساساً مادمنا لا نستطيع الرجوع بأصل آبائه إلى ما قبل القرن السادس عشر فن سنة ١٥٧٢ ذُكر واحد من أسرة لامرتين في مذكرات كورديه (Cordé) بين النبلاء والوجهاء الذين أرغموا على أداء مبلغ جسيم من المال الى (كلود دجيز) أسقف (كليمى) . . .

ويقول م . بيير دلاكروتل M. Pierre de Lacretelle إن جد لامرتين ، وهو لويس فرنسيس دلامرتين زور في سجل الأحوال الشخصية فحوّل اسم آلمرتين الى دلامرتين »

ويقول بيير دلاكروتل في كتابه (أصل لامرتين وشبابه) (٢)

«..وأصل الاسم هو ألامرتين Alamartine أو اللامرتين Allamartine كما كان يكتبه ، ولا يزال يُسمع الى هذا اليوم في برغونيا Borgone وفي منطقة اللوار الأعلى . أما موطن الأسرة الأول فهو اقليم كاروليه Charollais حيث يجد الباحث في أخريات القرن الخامس عشر أسماء ألابرت Alaberth وآلابرناد Alabernade وآلابلانش Alablanche ، وقد تحولت فيما بعد ، الى دي ، لا ، برت De La berth ، وديلابرت Delaberth ، ودي لابلانش De La blanshe

أما الأصل العربي الذي كان يعترف به لامرتين في زهو وفخر فربما كان عذراً جميلاً عن استسلامه للكسل الرفيع ، وحبه الشديد لأنواع الحيوان ، وتأثير جاذبية الشرق فيه وسلطانها عليه . ولا تزال هذه النسبة من المسائل التي يغيم على حقيقتها الشك »

فأنت ترى أن لامرتين يعترف في صراحة وثقة بجنسيته العربية ، ولكن الكتاب الفرنسيين بالطبع لا يصدقون هذا الاعتراف ، ولا يؤيدون هذه النسبة ، وإنما ينتحلون لها شتى الأسباب ومختلف العلل . فهل فينا من يصمد لهذا البحث في مظانه فيضيف الى عبقريات العرب هذه العبقرية الخالدة ، ويُرجع إلى أرواح الشرق هذه الروح الشاردة ؟

احد تعاريف الشعر

ذكر بعض المؤرخين أن جيوزني كاردوسي Giosné Carducci سئل مرة عن خير تعريف للشعر ، فقال إن خير التعاريف تعريف الأب اكساڤييه بيتينللى خصم دانتي الألد وهو قوله : « الشعر حلم يتهيأ في يقظة العقل » ، وكتب أدريانو تلغر Adriano Tilgher في مؤلفه دراسة الشعر Sludi di Poetica شرحاً دقيقاً لهذا التعريف قال : « لو تأملت قليلاً ، وجدت أن التعريف الذي يتصل بعلم الجمال الحديث اتصالاً مباشراً إنما يتمثل فيما قاله ذلك اليسوعي عدو دانتي (يقصد به الأب اكساڤييه) ، وهو أن الفن حلم . فهو نشاط روحي يتميز بطبيعة العقل وبالتفكير والمنطق ، ولكنه حلم في يقظة العقل ؛ فالفنان يحلم ، ولكنه يدرك مايتراءى له ، أي يحلم وعيناه مفتوحتان ، وهو يحلم ولكن نتيجة ذلك الحلم تخالف ما نحلم به ونحن رقود . فحلم الفنان إغفاءة في يقظة الضمير ورقابة العقل ، فلا هو حلم كما نفهم من كلمة حلم ، ولا هو نتيجة خالصة للعقل ، ولكنه شيء لا هو بالحلم ولا هو بالادراك . وإذا كان الفن حلماً يتهيأ في حالة اليقظة فمعنى ذلك أن الفن نتيجة روحية سابقة لانتباه العقل ، منطقية سابقة للمنطق ؛ وهو إدراك خالص للتصور وللضمير في وقت واحد . أي إن هؤلاء الذين هم في حضرة عقولهم وصحو ضمائرهم وكمال يقظتهم الفنية لم يخرجوا عن الصواب

من بشر بن عوانة ؟

هل عثر أديب من الأدباء على اسم هذا الشاعر في غير المقامة

(1) « Lamartine » Par G. Cluyet et C. Fegdal. Collectiun de « La Vie anecdotique et pittoresque des Grands Ecrivains »

(2) « Les Origines et la jeunesse de Lamartine » Par Pierre de Lacretelle. Hochette 1911

البشرية لبديع الزمان الهمذانى ، وكتاب تاريخ أدب اللغة العربية للمرحوم جورجى زيدان ، وكتب المحفوظات لوزارة المعارف المصرية ؟ أما أنا فلم يقع لى هذا الأسم فى سفر من أسفار التاريخ ولا فى كتاب من كتب الأدب على كثرة ما قرأت ، فرجح عندى أن بشر بن عوانة الأسدى شخصية خرافية من شخصيات المقامات ، خلقها البديع ، وأجرى على لسانها تلك القصيدة المشهورة فى وصف قتال الأسد

وقد راعى البديع فى نظمها الصبغة المحلية للعصر الجاهلى الذى فرض وقوع حادثها فيه ، فجاءت فى لغتها وأسلوبها وصورها أشبه بما قيل من نوعها فى ذلك العصر ، فدخلت فى مختار الشعر ، وسارت على ألسنة الشعراء ، حتى خدعت رجال الأدب فى وزارة المعارف ، فحفّظوها للطلاب على أنها قصيدة جاهلية لشاعر جاهلى اسمه بشر بن عوانة كان من أمره وخبره ما أخبر عنه البديع فى مقامته . وجاء المرحوم جورجى زيدان ، فوجد القصيدة تدرس فى المدارس ، وصاحبها يذكر فى الشعراء ، فأثبته فى الجاهليين ، وترجم له ترجمة قصيرة لم يرجع فيها إلى غير تلك المقامة . وهذا مثل قريب تعرف منه كيف كانت الأساطير تدخل فى التاريخ ، والشخصيات الخرافية تدخل فى الأدب ، والقصائد المنحولة تدخل فى الشعر

طبقات الجو العليا : Stratosphére

نشرت جريدة « نوفيل ليترير » مقالاً علمياً قيماً لروجيه سيمونيت نقتطف منه الجزء الآتى :

« من المعروف أنه كلما صعدنا فى طبقات الجو العليا ازدادت الطبقة الهوائية انبساطا وازداد انتشار الهواء وقلت كثافته ، ونقص تركيبه ، وازداد صفاؤه حتى يصير رائقاً لا تشوبه ذرات الغبار التى تكون أعمدة طويلة من التراب قرب سطح الأرض ، والهواء فى تلك الطبقات غير صالح للحياة لانعدام الاكسيجين . وقد حاول علماء الطبيعة اليوم الوصول إلى تلك الطبقات واكتشافها لما لها من الفوائد العلمية العظيمة ، فقاموا بكثير من المحاولات والتجارب نجح بعضها وأخفق الآخر ، إذ أرسلوا مناطيدهم الكشافة ، وبهذه الطريقة توصلوا إلى معرفة بعض حقائق علمية ذات قيمة كبيرة . من ذلك أن الحرارة تنخفض درجة مئوية كلما ارتفعنا مائة وخمسين متراً فوق المستوى الأول لهذه الطبقات المجهولة التى أسموها Stratosphére وهـــذا الارتفاع يتغير إلى مائة متر فى الهواء الجاف وإلى مائتى متر فى الهواء الرطب . ولاحظوا أيضاً أن أقل درجة حرارة جوية تبلغ ٨٥ فوق المنطقة الاستوائيــة على ارتفاع عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألف متر ، وأن ضغط الهواء ينقص بسرعة هائلة فيصير نصف ضغط الهواء على سطح البحر على ارتفاع ستة آلاف متر ، وينقص إلى الربع على ارتفاع أحد عشر ألف متر ، وإلى عشر هذا القياس على ارتفاع ستة عشر ألف متر

واكتشاف هذه الطبقات ذو فائدة كبيرة ، إذ يصبح فى مقدورنا أن نعرف موضع الأزون ozone ، وهو الذى يمتص أشعة الشمس فوق البنفسجية التى تهيئ لنا الحياة على سطح الأرض . ومن بين المعضلات التى يحاولون حلها أيضاً اكتشاف الأشعة الكوكبية rayonnement Cosmique ، ومن ثم مسألة أخرى تهم جماعة اللاسلكيين وهى دراسة الأحوال الكهربائية والحرارية لتلك المناطق الصامتة Zones de Silance كما يسمونها ، إذ أن اكتشافها سيفتح أمام العالم عصراً جديداً بل عالماً جديداً بأكمله ، وقد نوه تسير تبيك دبورت Tisserenic de Port مؤسس مرصد « تراب » بذلك فقال : (إن مشكلات الأرض تجد حلها فى السماء)

ويلاحظ أن الطائرة التى تحاول أن تحلق فوق هذه الطبقات تلقى حتفها لساعتها ، إذ يقف محركها لعدم وجود الأكسيجين كما أن الطبقات لا يمكن تحاملها لتمدد الهواء تمدداً عظيماً ؛ وقلة كثافته نتيجة لذلك

ويحاول كثير من العلماء اليوم تذليل تلك الصعوبات باختراع الطائرات التى يمكنها أن تصعد فوق هذه الطبقات ، ولقد بدأ كثير منهم بالقيام بهذه المحاولات ، ونذكر منهم ألبرت كاكوت Albert Caquot ، ومساعده فرمان Ferman ، وأوجست راتو Ouguste Ratean ، وليسيون موميه Liucion Momy ، ولئن أفضت أكثر هذه المحاولات الى الفشل فان النتائج تدعو الى التفاؤل بالمستقبل . واذا جاء الوقت الذى يمكن فيه اختراع أمثال هذه الطائرات التى تحلق فوق هذه الأجواء أمكننا الطواف حول العالم فى أقل من أربعين ســاعة ، وأصبح فى المستطاع أن نصل من باريس الى نيويورك فى أقل من يومين ، لأن سرعة هذه الطائرات ستبلغ ألف كيلو متر فى الساعة لقلة العوائق فى الأجواء العليـا ، هذا الى المنافع الأخرى التى تختفى تحت ستار هذه الطبقات المجهولة

البريد الأدبي

هل تتدخل الدولة لحماية الآداب القومية ؟

هل تمتد سياسة الحماية القومية الى الآداب والفنون ؟ أو بعبارة أخرى هل أضحى من الضروري أن تعامل الثمرات العقلية والفنية كما تعامل الصناعات والمحاصيل القومية ، فتفرض لها قوانين خاصة لحمايتها من المنافسات الأجنبية ؟ هذا موضوع يتناوله الجدل اليوم فى فرنسا . والمعروف أن الأدب الفرنسي في مقدمة الآداب العالمية قوة وازدهاراً ؛ ولكن الدوائر الأدبية والفنية فى فرنسا أخذت تنظر بعين الجزع الى اشتداد المنافسة الأجنبية للأدب الفرنسي ، والى طغيان سيل الثقافة والآداب الأجنبية فى فرنسا ، وقد نشرت جريدة « الجورنال » البارزية مقالاً فى هذا الموضوع بقلم الكاتب الفرنسي جاستون راجو رئيس جمعية الكتاب الفرنسيين ، يتساءل فيه عما إذا كان من الواجب أن تتقدم الحكومة لحماية الثمرات العقلية كما دعيت الى حماية القمح والنبيذ ، ذلك أنك لاتكاد تفتح صحيفة يومية أو مجلة أسبوعية أو تشاهد واجهة مكتبة ، أو إعلان مسرح ، حتى ترى هنا قطعة ألمانية ، وهناك قطعة انكليزية ، أو اوبرا نمسوية ، وهكذا فى سائر نواحي الأدب والفن يتبوأ العنصر الأجنبي مكانته ، وإذا كان التعاون العقلي هو شعار جميع الأمم المتمدنة ، فان ظروف العصر ، ومصاعب الحياة الاقتصادية تجعل من المحتوم أن تأخذ الثمرات العقلية مكانتها أولاً وأن يعيش الكتاب المحليون

ويضرب مسيو راجو لذلك مثلاً عملياً فيقول : إن القصة الفرنسية القصيرة التي يؤلفها كاتب فرنسي متوسط يدفع فيها إذا نشرت فى مجلة أسبوعية كبيرة بين ألفين وثلاثة آلاف فرنك ؛ ولكن القصة الأجنبية القصيرة المماثلة لها فى النوع والقيمة يدفع فيها ألف فرنك فقط . ويبدو هذا الفرق بالأخص فى الروايات والقطع الكبيرة ؛ فان القطع المترجمة لاتساوى من حيث الأجر أكثر من ربع القطع الفرنسية ، وقد اشتدت هذه المنافسة حتى أن قيم القطع المؤلفة قد انحط انحطاطاً كبيراً

وقد أثارت جمعية الكتاب هذا الموضوع الخطير وانتدبت لجنة لبحثه

ثم يقول مسيو راجو : اذا كانت الأمور قد وصلت الى هذا الحد ، أفلا تدعو مصلحة الكتاب الحيوية الى التماس الحماية ؟ وهل يكون تحقيق هذه الحماية بأصعب من حماية المزارعين ؟ إن الأدب الفرنسي من أكثر آداب العالم انتشاراً ، وأشدها عرضة للترجمة والاقتباس ، وفرنسا فى ذلك تتفوق فى نسبة الصادر الى الوارد تفوقاً كبيراً . وفكرة الحماية تقتضى المساواة والتبادل ، فاذا طبقت هذه الحماية فان انتشار الكتب والصحف والقطع الفرنسية يحد تحديداً شديداً . هذا من الناحية المادية ومن الناحية المعنوية يخشى من فكرة الحماية على نفوذ فرنسا الثقافي والأدبي ؛ ذلك أن انكلترا وايطاليا تشجع كل منهما فكرة الترجمة والاقتباس من آدابهما الى أعظم حد توسلاً الى نشر النفوذ المعنوى حيثما تنتشر الثقافة الانكليزية أو الايطالية ؛ والحد من هذا الانتشار يصيب مصالح فرنسا المعنوية بضرر عظيم

وعلى هذا فان فوائد هذه الحماية ومضارها تتعادلان إذا صدرت من الحكومة . ولكن الحل الأمثل هو أن تكون هذه الحماية اختيارية ، وأن تصدر من الفرنسي إلى الفرنسي سواء فى الانتاج والاستهلاك ؛ فاذا كان شعار الفرنسيين « اقرأوا المؤلفات الفرنسية ! واطبعوا المؤلفات الفرنسية ! » تحققت هذه الحماية على الوجه الأكمل دون أن يتعرض التفكير الفرنسي للخصومة أو الانكماش

نقول : فما قول كتابنا المصريين فى ذلك ؟

مذكرات الامبراطورة ماري لويز

ذكرنا فى عدد سابق أن مجموعة ثمينة من خطابات نابليون إلى زوجه الامبراطورة ماري لويز عرضت للبيع فى لندن ، واشترتها الحكومة الفرنسية بمبلغ خمسة عشر ألف جنيه ؛ وقد بيعت فى نفس الوقت مذكرات الامبراطورة ماري لويز مكتوبة بخطها ،

فاشتراها أحد الهواة بمبلغ ٤٩٠ جنيهاً . وهذه المذكرات عبارة عن جريدة تبدأ مذ غادرت ڤينا فى رحلة العرس حتى استقرارها فى باريس . وفيها أخبار وحقائق غريبة عن علائق الامبراطور بزوجه الفتية ؛ وتقول مارى لويز فى أكثر من موضع إنها كانت تؤنب زوجها، وتدفعه أحياناً كما تدفع جندياً بسيطاً . وفى مكان آخر تصف رحلتها إلى البارجة الحربيــة « شارلمان » فى ثغر شربور ، وتقول إنها اضطرت أثناء طوافها بالسفينة غير مرة أن تشمر عن ساقيها وأنها سوف ترتدى فى المستقبل « سروالاً » إذا ما أرادت أن تزور السفن الحربية

وبيع فى نفس هـــذه الجلسة قرطان كانت تتحلى بهما الامبراطورة چوزفين زوجة نابوليون الأولى ، أثناء حفلة تتويجها بمبلغ ألف وخمسمائة جنيه ، وبيعت مجموعة من خطابات نابوليون إلى المارشال مكدونالد بمبلغ ١٩٠ جنيهاً

علم رياضى جديد

خطب الأستاذ أميل بوريل رئيس أكاديمية العلوم الفرنسية والأستاذ بكلية العــلوم فى الأكاديمية منوهاً بأهمية علم أو فرع رياضى جديد أدخل فى برنامج الجامعات من شأنه أن يسهل البحث والدراسة فى بعض العلوم ، وبالأخص فى الاحصاء والاقتصاد السياسى والمسائل النقدية ، والعلوم البيولوجية والطبيعية والفلكية ، وهـذا الفرع هو علم « تقدير الاحتمالات » وهو فرع له خطورته فى الفكرة العلمية كلها . وسوف يجدد مسائل العلم والفلسفة الخالدة التى وضعها الفلاسفة اليونان ، وبحثها علماء العصور والأجيال كلها . وقد كان له شأن فى تغيير فـكرة « الجبر » الطبيعى

فى تشيكوسلوفاكيا

توفيت أخيراً فى براج فنانة تشيكوسلافية عظيمة هى الآنسة زدنـكا براوبرفا ، وقد كانت من زعيمات التفـكير والفن ، ومن أرفع سيدات براج ثقافة وذكاء وسحراً ، وهى ابنة سياسى كبير كان نائباً فى البرلمان النمسوى أيام الأمبراطورية ، ونشأت فنانة بالطبيعة وظهرت فى التصوير بسرعة ؛ وهى أول من أنشأ فن تصوير الـكتب فى تشيكوسلوفاكيا ، ولم يكن بين فنانى براج أقدر منها فى إبراز الصور والمناظر القومية فى روعة قوتها ونواحيها الشعرية ؛ ولها فصول ورسائل قوية فى تاريخ براج ، وصور بديعة لمناظرها ، وكان لها أيضاً صلات وثيقة بدوائر باريس الفنية حيث تلقت ثقافتها وتربيتها، وكانت فضلاً عن فنها وأدبها من زعيمات النهضة الوطنية فى تشيكوسلوفاكيا ، ومن زعيمات الحركة النسائية فيها

أوسمة العلم النمسوى

قرر رئيس الجمهورية النمسوية أن يمنح وسام الشرف للفنون والعلوم الى الدكتور اوزوالد ريدلخ رئيس أكاديمية العلوم ، والدكتور ازلسبرج الجراح الأشهر ، والدكتور فلاساك ، والأستاذ فرانز سميث أستاذ الموسيقى والتمثيل بالأكاديمية الحكومية ، والى الـكاتبة الشهيرة اريكا هاندل مازيتى ، والى الدكتور هواسميتر المثال الـكبير ، والى الدكتور كارل شينهير الـكاتب الأشهر

هـــذا وقد عقد احتفال رسمى فخم ببهو أكاديمية العلوم ، وقدمت فيه جائزة الفن النمسوى التى سبق أن أشرنا اليها الى الفائزين بها وهما الأستاذان هربرت بكل وفالتر ريتر ، وألقى الدكتور شوشنج رئيس الوزارة النمسوية بهذه المناسبة خطابا نوه فيه بأهمية الفنون والفنانين فى حياة الأمم

الـكلمات العربية فى اللغة الانـكليزية

لما فرغت نسخ الطبعة الأخيرة من معجم وبستر الانكليزى المشهور دعت لجنة تنقيحه الدكتور فيليب حتى الأستاذ المساعد للغات السامية فى جامعة برنستن للاشتراك معها فى تنقيح الألفاظ الانكليزية المأخوذة من لغات سامية فى الطبعة الجديدة

وقد صدرت هذه الطبعة فى أمريكا الآن بعد ما قضت لجنة التنقيح أكثر من ثمانى سنوات فى اعدادها

وفى الطبعــة الجديدة من معجم وبستر سـتمائة ألف كلمـة مأخوذة من اللغة العربية ، منها ٥٠٠ كلمة من الألفاظ المستعملة فى الـكتابة والأحاديث العادية ، والنصف الآخر فى الشئون الفنية



جبران خليل جبران

تأليف الأستاذ ميخائيل نعيمة

يقع فى ٣٠٧ صفحات من القطع الكبير ، ثمنه عشرون فرنكا ذهبا بطلب من المؤلف فى بسكنتا لبنان ، ومن المكاتب الشهيرة فى الأقطار العربية وفى مصر من مكتبـــة الهلال

هذا كتاب من كتب التراجم ، أخرجه للناس كاتب له فى الشرق العربى مكانة ، يحلل فيه حياة صديق عزيز عليه ، وهذا كما نرى موقف من أدق المواقف التى يصادفها أديب ، إذا أراد أن يتوخى الأنصاف فلا يظلم صاحبه ولايظلم التاريخ . ولقد أحس المؤلف دقة موقفه كما يتضح فى مقدمة كتابه ، وعلى هذا الأساس سأبنى رأيى فى نقد ذلك الكتاب

ويحسن أولاً أن أعطى القارىء فكرة عامة عن تقسيم الكتاب وطريقة السير فى موضوعه ، ولست أسير فى التقسيم حسب أبوابه ، بل لقد أحسست بعد قراءته أنه ثلاثة أقسام عامة أولها : حياة جبران قبل أن يعرفه المؤلف ، ثم حياتهما معاً ، وأخيراً نجد ملحقاً فى ذيل الكتاب عن وصية جبران ورسائله الى المؤلف وتخليده ، وغير ذلك مما حدث بعد موته

فالكتاب كما نرى وصف حياة رجل من أولها حتى خاتمتها . وفى كتب التراجم إما أن يكون المؤلف غريباً عما يكتب عنه ، أو صديقاً له . بيد أن هذا النوع من التأليف أو هذه الناحية من نواحى الكتابة تسير أو ينبغى أن تسير فى أساسها وجوهرها وفق ما اصطلح عليه الأدباء فى هذا الباب الذى يعتبر فى ذاته فناً من فنون الكتابة كسواه من الفنون ، مثل القصص والروايات المسرحية ، وكتب النقد وغيرها

يبدأ المؤلف فى كتب التراجم عادة بوصف الأسرة التى ولد منها صاحب الترجمة ، كصورة لبيئته المنزلية وما قد يختلط بدمه من ورائه ، ثم يأخذ فى وصف بيئته الطبيعية والاجتماعية مصوراً طفولته وأخلاقه فى تلك الفترة وما بقى من تربية ، وما كان من أثرها فى حياته المستقبلة ، ثم يتدرج به فى مراحل الحياة فى تسلسل متصل ووحدة مترابطة الى ما صادفه من حوادث ، مبيناً علاقتها بفنه وأثرها فى توجيهه ، وفى ضوء ذلك كله يحلل آثاره موضحاً ما فيها من تأثر بما سلف ، على أن يكون أساس ذلك كله الحقيقة لا الخيال . فالأسناد الصحيح القوى فى كتب التراجم عنصرها الجوهرى ، ولا سيما إذا كان المؤلف صديقاً لمن يتحدث الى الناس عنه ، وإذا أراد المؤلف أن يقول رأيه فى آثار صاحبه وفيما تخلل حياته من قوة أوضعف ، فليبتعد عن التحيز إن أراد الكمال

وبعد ، فماذا رأيت فى كتاب الأستاذ ميخائيل عن صاحبه المرحوم جبران خليل جبران ؟ مضيت فى قراءته فاذا بالمؤلف يسير فيه على نهج غريب ، حتى لقد كنت أحسبنى فى القسم الأول حيال قصة لا حيال شخص معروف ، فلقد أحاطنى المؤلف بجو من الخيال تحت عنوان خيالات بشرى ، وراح يصف لحظة مولد جبران ، وما كان من أعمال أبيه وأقوال أمه وأقوال الجيران فى تفاصيل تغيب حتى على من يرى رأى العين ، ثم يطير بى إلى مدينة كولومبيا بأمريكا ، فيصف لى فتاة تحلم فى نومها ، ويصف حلمها كأنه هو الحالم ! ثم يعود الى بشرى فيعرض لى بعض صور من طفولة جبران ومن حياة أسرته ، ولكن عليها جميعاً طابع الخيال ، فتفاصيلها لا يمكن أن يلم بها إلا شخص يتحدث عن نفسه ، على أن يكون قوى الذاكرة الى أقصى حد ؛ ومن أمثلة ذلك وصف والدة جبران (ص ٢٠) وحكاية بائع الزيت (ص ٢٣) . وما لى أورد الأمثلة . وهذا القسم الأول من حياة جبران قبل أن يعرفه المؤلف عبارة عن قصة خيالية ؟ ولقد كان المؤلف وهو يصف حياة جبران وهو فى بوسطن ، ينقل اليك تناجيه

وخلجات حسه ، ونزعات قلبه ، وانفعالات نفسه ، كمن يكتب مذكرات لساعتها عن نفسه . خذ لك مثـــلاً حواره مع أبيه (ص ٣٢) ، وزيارته للفنان ، (ص ٣٣) ، وخلوته مع المرأة التي دعته إلى منزلها (ص ٤٠) ، ومناجاة نفسه (ص٤٧) ، وهو يكتب مقالاً ويصححه (ص ٦٢) ، وأثناء عرضه صوره وعلاقته بماري الفتاة الحالمة في أول الكتاب وهي الآن مديرة مدرسة ، وعلاقته بميشيلين ، وغير ذلك من عزلاته وهواجسه ... الخ

وما أظن أن عرض هـذا الجزء من حياة جبران على مثل تلك الصورة الخيالية ، وما فيها من براعة ومن رواء ، متفق مع ما يتبع في كتابة التراجم ، أو باعث في القلب ماتبعثه الحوادث التي يدعمها الأسناد والرواية ، وتطلبها الحقيقة من الاهتمام والعناية . هذا إلى أن المؤلف في تلك الفترة من حياة جبران لم يعلق على ما فيها من مواقف ، وما كان لحوادثها من أثر في مستقبله ، ولـكن ما حاجته الى التعليق ؟ بل كيف يتسنى له ذلك وقد صور لنا جبران كما لو كان جبران يحـدثنا عن نفسه ؟ وبذلك تخلص من عرض رأيه في صاحبه

ومما يلاحظ على هذا القسم من الكتاب أن الرابطة فيه ضعيفة ، وقد ذكرت فيـه بعض الحوادث دون أن يفهم القصد من ذكرها ، فلم تكن للتبسط أو للتحليل أو لبيان العلاقة بين المترجم له وبين الحياة

أما في القسم الثاني من الكتاب عند صاحب المؤلف جبران ، فانك تحس بجو من الحقيقة ويبتعد عنك الخيال القصصي ، ويحدثك المؤلف عن جبران كما رآه في عدة مناسبات ، وتبدأ تهتم بحياة جبران وآثاره ، وتتضح لك شخصيته فتزداد معرفة به ، وان جهلت الظروف التي كونته هذا التكوين ، اللهم إلا ما كان من تأثير (نيتشه) فيه ، وهو ما شرحه المؤلف في آخر القسم الأول . على أنك في هـذا القسم الثاني من حياة جبران لن ترى المؤلف يحدثك عن رأيه في صاحبه من الناحية الأدبية أو الخلقية ، ولا تجد منه مناقشة جدية لآثاره ومقدار قيمتها ، بل تراه يقتصر على ذكرها دون تعليق ، إذا استثنيت وصفه لكتاب « النبي » وإظهار أثر نيتشه فيه ، وقراءة قصيدته التي جاء ذكرها في (ص ١٦٠) معه ، وحتى في هذين ترى الأعجاب يغلب على النقد النزيه

لـكنني كما قدمت أحس بدقة موقف الأستاذ ميخائيل بالنسبة إلى حيـاة صديقه جبران ؛ على أني أتساءل هل أنصف صاحبه وعرضه على الناس كما هو على حقيقته ، أم أحاط شخصيته بشيء من الغموض ؟ ولست أعرف إلا أن طريقته التي سلكها من الصعب أن توفي بغرضه ، وهل يتفق ذلك مع ما جاء في مقدمته (ألفت هـذا الـكتاب على أمل أن يطالع القارئ من خلال فصوله صورة جبران كما عرفته لا « تاريخ » حياته الذي لا يعرفه أحد) ؟

ولئن اختلفت مع الأستاذ نعيمة في طريقته ، فاني معجب بمقدرته في الوصف ، وقوته في تحليل العواطف النفسية ، ورسم الخواطر الذهنية ، وقوة روحه التي خلصت الـكتاب على طوله من الفتور ، وجعلتني أقلب صفحاته في شغف ولذة ، ولن أنسى دقة أسلوبه ومتانة نسجه ، لولا هنات ما كنت لأشير إليها لولا أنها علقت بهذا الأثر النفيس ، ومنها بعض المجازات الغربية كتعبيره عن الموت بالغور في رحم الزمان (ص ١٧) وكوصفه الخالق بأنه « الحائك الأكبر قد التقط بمكوكه العظيم خيطي حياتهما من جديد » (ص٦٨) ، وكوصفه القارئ بأنه يمضغ الـكتاب بعينه وروحه (ص١٠١) ، وما استعمله عن الفلس من المجازات (ص ١٢٣) ، وكقوله في (ص ٢١٥) يخفرها تنين النسيان ويطوقها غربال الزمان . . . وسواها من الأخيلة غير المألوفة ، والقياسات الشاذة كجمعه سؤال على سؤالات وكاستعماله لفظ اندلق للقهوة بدل أن يقول انسكبت مثلاً

على أنني كما ذكرت ما كنت لأعرض لهـذه الهنات لولا صدورها من أديب له مكانة كالأستاذ ميخائيل نعيمة

الخفيف

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ٨٠ – ١٤ يناير سنة ١٩٣٥ – السنة الثالثة

3 me Année, No. 80.

Lundi-14-1-1935

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

م

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٨٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ٩ شوال سنة ١٣٥٣ — ١٤ يناير سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

أســــبوع حافل ...

أسبوع حافل ! ابتدأ بعيد الدين وانتهى بعيد الدنيا ! فأوله (عيد الفطر) ، وآخره (عيد الوطن) ، وفيما بينهما كان عيد الميلاد ومؤتمر البلاد ومهرجان القرش !

أسبوع حافل ! كان فيه للدين سبب ممدود وشمل جامع ، وللحرية يوم مشهود ومظهر رائع ، وللوطنية لواء معقود ومُجْتَلًى فخم ، وللسياسة شعب محشود وأمر ضخم ، وللقومية أمل منشود وعمل صالح !

جرى كل أولئك على أروع ما يقع فى الذهن ويتمثل فى الخاطر ، لشعور الناس بشمول الأمن ، ويقظة العــدل ، وقيام القانون ، وفوز الديمقراطية ، واتساق الأمر بين الفرد والجماعة ، واتفاق الرأى بين الحكومة والأمة ؛ وكانت النفوس فى عهد المحنة قد تغشَّاها من الدخائل السود قَتام وسُحُب ، فلا تكاد ترى على حواشى الأفق الضيق المحدود إلا جنود الرهبة ، وقيود الذلة ، وسجون القهر ، ثم تنفس بها الزمن البطىء على هذه الحال الأثيمة حتى قنعت بالدون ، ورضيت بالهُون ، وذهلت عما وراء الأفق ؛ فلما تهتكت الحجب عن وجه الحق ، وتفككت الأغلال عن

حرية الشعب . فسعى غير مقيّد ، وعمل غير مراقَب ، وقول غير متهَم . عاد الناس فوجدوا شعور الكرامة . وسورة الاستقلال . وأنفة الحي المريد . وهزة المتصرف المطلق . فزهاهم النصر . واستطارهم الفرح ، وتقلبوا سبعة أيام فى الدعة . يتبسطون على الأنس ، ويتعللون على الدهر ، ويتدللون على الحكومة . ويوازنون بين حالهم بالأمس وحالهم اليوم . فيعجبون كيف زاغت القلوب ، وفسدت الطباع ، وسفهت الأحلام ، وغرت هذه المباهج والمرافق والمظاهر كلها فى قرارة قلب فارغ !

***

إن القلوب لأضيق فى هذا الأسبوع من أن تسع هذا الفيض الذى يتدفق فيها من كل جانب : ففى (مدينة رمسيس) وجوه البلاد ونواب الشعب وزعماء الأمة يعرضون مناهج السياسة على المشورة ، ويُقلّبون أنظمة الاصلاح على الرأى ، ويعلنون الخادع والمخدوع أن مصر الخالدة لا تزال متماسكة على مضض المحن ، سليمة على عنت الجور ، مؤتلفة على عبث الاغراء ، تُعوَّق ولا تضل ، وتُعذَّب ولا تذل ، وتحارب ولا تستكين

كانت الآلاف الأربعون فى سرادق المؤتمر الوطنى أشبه بالأُسَراء فك أغلالهم النصر ، أو بالسجناء كسر أقفالهم الثورة ! فهم يتعانقون على السلامة بعد البلاء ، ويتصافقون على الجماعة بعد الفرقة ، ويتنادرون بجلادى العهد الباغى وسُجانه وقد أصبحوا اليوم روّاد المنى وحراس العدالة ! أليس هذا شرطى الأمس الذى كان ينظر بالنار ، ويتكلم بالحديد ، ويتجنى على الناس الذنوب ، ويتمنى على الأحداث الجرائم ؟ ما باله اليوم وديعاً كالعدل ، نزيهاً كالقانون ، رفيعاً كالدولة ، رفيقاً كالمواطن ؟ تباركت يا ألله ! أهكذا تتبدل الأوضاع وتتغير الطباع فى بحر يوم وليلة ؟ !

***

وفى معرض الجزيرة جماعة (عيد الوطن الاقتصادى) يُفيضون من نشاط الصبى وطموح الشباب على الناحية الضعيفة المخوفة من نواحى الوطن : تلك هى الناحية الاقتصادية التى اقتحمها المستعمرون تحت لواء السلم والمال فاحتلوا المدن ، واستغلوا القرى ، وامتهنوا القومية ، وامتحنوا الأخلاق ، وحولوا مجارى الثروة المصرية الى السفن الأجنبية والمصارف الأوربية ، وخلفوا أهلها يكابدون الدين ، ويعانون الفقر ، ويشكون العطلة ، ويقاسون المذلة . فطن هؤلاء الشباب الأطهار إلى هذا الخطر الوبيل والداء الدخيل فصمدوا له فى ميدانه المشتبه الواسع . واستنفروا القاعدين من أصحاب الأموال ، والجامدين من أرباب التجارة ، ونشروا الدعاية بمختلف الوسائل للانتاج الوطنى ، وضحوا بجهودهم الكثيرة ، ونقودهم القليلة ، وأوقاتهم الباقية من الدرس ، على رصد الأهبة ، وتنظيم العمل ، وتدبير المال ، وضمان الفوز ، حتى توجوا هذا الجهد الجاهد بهذا المهرجان الذى أقاموه ، وذلك المعرض الذى نظموه ، فكان المهرجان عيداً للعيد ، والمعرض حجة للآمل ، والعمل كله فخراً لأهليه

***

وفى حديقة الأزبكية عيد (جمعية القرش) تجاهد فى الانشاء جهاد عيد الوطن فى الدعاية . وقد نفضت — كتلك — على بلى النفوس جدة الربيع ، ونقاء الفطرة ، وجمال الحداثة ، فانتشر متطوعوها الأبرار فى المدينة يجمعون القروش بالتوسل والتذلل والالحاف ليفتدوا بها حرية الوطن الأسير

فجماعة الوطن وجمعية القرش ومؤتمر الشعب ائتلاف منسجم من عناصر البلاد ومناهج الجهاد ومناحى الغرض : فالشباب بجانب الكهول ، والاقتصاد بجانب السياسة ، واللذة بجانب المنفعة ، والحكومة بجانب الأمة ؛ وكل هذه الصور الرائعة إنما تتألق وتتراءى فى إطار روحى شعرى تألف من عيد الفطر للمسلمين ، وعيد الميلاد للأقباط !

أسبوع حافل ! كان فيه للدين سبب ممدود وشمل جامع ، وللحرية يوم مشهود ومظهر رائع ، وللوطنية لواء معقود ومُجتلى فخم ، وللسياسة شعب محشود وأمر ضخم ، وللقومية أمل منشود وعمل صالح ! !

وإن عاماً يكون عنوانه هذا الانقلاب ، وطالعه هذا اليمن ، واستهلاله هذا النشيد ، لآية من الله على انجلاء الغمة ، واهتداء الغرائز ، وارعواء الغى ، وانكشاف الطريق

احمد حسن الزيات

ذكريات وتجارب

أول درس ألقيته . . . *

أبداً لا أنسى تلك الساعة الرهيبة العصيبة التي ألقيت فيها أول درس في أول فصل ! كان ذلك منذ سبعة عشر عاماً والسن حديثة والنفس غريرة والنظر قصير ، وكانت المدرسة ثانوية أجنبية ، تجمع أخلاطاً من الأجناس والأديان ، وأنماطاً من الأخلاق والتربية ، وكنت قد أدركت قسطاً من العلم النظرى على الطريقة الأزهرية ، وشدوت طرفاً من التعليم الفنى على الطريقة اللاتينية ، إلا أن ما حصلت منهما كان لا يزال طافياً فى ذهنى ، متحيراً فى فكرى ، لا يطمئن إلى ثقة ، ولا يستقر على تجربة ! أضف ذلك إلى طبع حيىّ ، ولسان من الخجل عيى ، ووجه للقاء الناس هيوب !

قضيت موهناً من الليل فى إعداد الدرس : أراجع مادته وأرسم خطته وأسدد خطاه ، ثم احتفلت لكلام أقابل به التلاميذ قبل التمهيد للدرس ، وغدوت إلى المدرسة أقرع باب الأمل المرجو ، وأستطلع ضمير الغيب المحجب . دق الجرس فجاوبه قلبى بدقات عنيفة كادت تقطع نياطه وتشق لفائفه ، وقمت أجر رجلى وبجانبى مفتش الكلية جاء يقدمنى إلى الطلبة . دخلنا الفصل فحيانا التلاميذ بالوقوف ، وقل المفتش فأطال القول وأجزل الثناء ، ثم خرج وبقيت ! !

أقسم أنى أقول الحق وإن كنت أجد بشاعة طعمه ومرارة مذاقه على لسانى ! لقد نظرت إلى التلاميذ نظرة حائرة ، ثم رجعت إلى نفسى أحاول إخراج ما فيها من الكلام المهيأ المحفوظ ، فكأن ذاكرتى صحيفة بيضاء ، وكأن لسانى مضغة جامدة لا تحس !

السكون شامل رهيب ، والأبصار شاخصة ما تكاد تطرف ، ووجوه الشباب ترتسم عليها ألوان مختلفة متعاقبة من خطرات النفوس ونزوات الرءوس ، وأنا واقف منهم موقف المحكوم عليه ، أعالج فى نفسى الخور والحصر ، وأجهد فى لم ما تشعث من ذهنى وتبدد من قواى ، حتى هدانى الله إلى طريق الدرس ، فاعتسفته اعتسافاً دون مقدمة ولا تمهيد ولا عرض ! !

أتريد أن تعفينى يا صديقى من وصف هذا الدرس صوناً لسر المهنة ؟ ولكن لماذا نتدافن الأسرار ونتكاتم العيوب ؟ إن فى الدلالة على أوعار الطريق ومضايقها ومزالقها تحذيراً للسالك البادىء ، وتبصرة للناشىء الغرير

***

بدأت الدرس بصوت خافض وطرف خاشع ولسان مبلبل ، ومررت فيه وأنا واقف ، لا أدنو من السبورة مخافة أن أحرك سكون الفصل ، ولا ألمس الطباشير خشاة أن أسىء الكتابة ! !

كان من المعقول أن يعاودنى الهدوء ويراجعنى الثبات بعد زوال دهشة الدخول وربكة البدء لو كنت واثقاً من نفسى متمكناً من درسى ، ولكن نظام الموضوع كان قد انقطع فتبعثرت حباته وتعثرت خطواته ، ورحت أسرد ما تذكرته منه وأنا أشعر بكلماتى تحتضر على شفتى ، وبريقى يجمد فى فمى ، وبعرق يتصبب على جبينى ، حتى فرغت ، ثم جلست أبلع ما بقى من ريقى ، ونظرت فاذا الساعة لم يمض نصفها ، وإذا التلاميذ يتلاحظون ويتهامسون وعلى كل شفة بسمة خبيثة لولا تعوُّد النظام وقوة التهذيب لعادت قهقهة صاخبة ! !

ماذا أقول بعد أن نفد القول ؟ وبماذا أملأ الفراغ الباقى من الوقت ؟ وكيف أؤخر انفجار هذه الضحكات المكظومة ؟ أسئلة كانت تضطرب فى خاطرى القلق فلا أجد لها جواباً غير الحيرة ! ! حتى تطوع تلميذ جرىء (لانقاذ الموقف) فقال :

« احك لنا حكاية يا افندى بأى ! »

ولم تكد شفتاى تنفرجان عن مشروع الرد حتى ابتدرنى آخر :

« لأ يا افندى ، اتكلم لنا شويه إنشا شفهى »

وآخر : « حضرتك حتدّينا على طول ؟ »

وآخر : « اسم حضرتك إيه يا افندى ، والله انت راجل طيب ! ! »

وآخر : « فلان صوته جميل يا افندى ، خليه يغنى شويه »

فقطعت سيل هذه الأسئلة التجنية الساخرة بهذه الجملة الحيية المتواضعة :

— على كل حال كاد الوقت ينتهى فلا يتسع لشىء من هذا :

---

* من كتاب (فى أصول الأدب) وسيصدر قريباً

ولـكن صوتاً أشبه بصوت القدَر قد انبعث من أقصى الحجرة يقول :

«أوه ! دا لسه ساعة وربع ! حصة العربي ساعتين كل يوم !»

— ساعة وربع ؟ ؟ نعم ساعة وربع ! أقضيها على هذه الحال الأليمة كم شاء نظام (الفرير) ، أو كما قضى الجد العاثر والطالع المشئوم ! ! وإذن لامناص من انفجار البركان ووقوع الـكارثة !

* * *

كأنك تريدنى على أن أسوق إليك بقية القصة ! !

حنانيك ! لا تكلفنى هـذه الخطة ، واعتمد على نفسك وحدسك فى التخبر والاستنتاج ! !

لقـد انحل النظام فتشعث الأمر وانتشر ؛ وأذكر أنى حاولت الـكلام مراراً فلم أسمع صوتى من اللغط ! فجلت قيادى فى يد (أولادى) ثم سكت حتى نطق الجرس ! !

خرجت من الفصل أميد من الهم وأجر ذيل الفشل السابغ الضافى ، وفى نفسى أن أترك التعليم وهو حديث صباى ومنتجع هواى الى عمل آخر يصلح لى وأصلح له ! !

ولـكنى عدت الى الفصل ، ومضيت فى التعليم ، وكنت بعد شهرين اثنين مدرس الفصل الأخير وأستاذ الـكلية الأول !

فما الذى جعل من اليأس أملاً ، ومن الفشل فوزاً ، ومن الضعف قوة ؟

إسمح لى أن أكون صريحاً فيما كان لى ، كما كنت صريحاً فيما كان على

لقد التمست الوصلة الى النجاح فى أسباب خمسة كلها معلوم بالضرورة مؤيد بالطبع ، ولـكن العلم غير العمل ، والرأى خلاف العزيمة ، والتجربة وجود الفكرة وواقع الحقيقة

(١) **مواصلة الدرس وادمانه النظر** — فلم أترك كتاباً فى المواد التى أدرسها حتى تقصيته أو ألممت به واستفدت منه . وكان جدوى ذلك علىّ وثوق الطلبة بما أقول ، وظهور التجديد فيما أعمل ، وتصريف الدرس وتنويعه على ما أحب . ولن تجد أشفع للمدرس من سعة اطلاعه وغزارة مادته

(٢) **اعداد الدرس وأداؤه** — وكان يعنينى على الأخص ربطه بالدروس السابقة ، والسير فيه مع الطلاب خطوة خطوة على الطريقة الاستنتاجية (inductive) ، ثم تلخيصه بطريق الأسئلة . فكان من حسن اعداده أن ملأت الوقت كله به . فلم يعد فيه فراغ لعبث عابث ولا تجنى سفيه . وجررت اليه أذهان الطلاب بالتشويق والتطبيق والسؤال فلم يصبهم سأم ولا ضيق . وشغلتهم به عن أنفسهم وعنى فلم يفرغوا لاصطياد نـكتة ولا لالتماس غميزة . وليس أعون على حفظ نظام الفصل من ملء الوقت بالمفيد الممتع ، ولا أضمن لجودة شرح المعلم وحسن استماع التلميذ من فهم الموضوع

(٣) **مسايرة الترقى** — فلم أتشبث بالقديم ، ولم أتعصب للـكِتاب ، ولم أُعْنَ إلا بما له قيمة عملية . فالموضوعات منتزعة من حياة التلميذ وحال المجتمع ، والأمثلة مستنبطة من أساليب العصر ومواضعات أهله ، والبحث حر فى حدود المنطق ، يقوم على أساس التحليل والنقد والموازنة . وفى تشابه الفـكرة والنزعة والغاية توثيق الصلة بين المعلم والمتعلم

(٤) **حسن الخلق** — ولعمرى ما يؤتى المعلم إلا من إغفاله هذه الجهة . فالادعاء والتظاهر ، والـكبرياء والتفاخر ، والبذاء والتنادر ، والـكذب والتحيز ، والـكسل والتدليس ، آفات العلم وبلايا المعلم . وما استعبد النفس الشابة الحرة كالخلق الـكريم ، ولا يَسَّر تعليمها وتقويمها كالقدوة الحسنة . ناهيـك بما يتبع ذلك من جمال الأحدوثة واستفاضة الذكر ، وهما يزيدان فى قدر المعلم واعتباره ، ويغنيان التلاميذ الجدُد عن اختباره

(٥) **قوة الحزم** — فكنت ألين فى غير ضعف ، وأشتد فى غير عسف ، وأسير بالطالب إلى الواجب عن طريق ضميره وحسه ، لا عن طريق تأنيبه وخبسه ، وأجعل رضاى عنه غاية ثوابه ، وسخطى عليه غاية عقابه ، وأعده الوعد فلا أذهل عن تنجيزه ، وأحكم عليه الحـكم فلا أنكل عن تنفيذه ، وأستعين على فهم عقليته ودرس نفسيته بانشائه فأعامله بما يوائمه ، وأعالجه بالدواء الذى يلائمه

* * *

كل ذلك يســعده طبع غالب ، ورغبة حافزة ، ومران طويل ، وقدَر من الله جعلنى أجد سعادتى وراحتى فى الفصل وبين الطلاب ، أكثر مما أجدهما فى البيت وبين الأصحاب

ولـكن المعلمين واأسفاه كما بدأهم الله يعودون ! فليت شعرى هل يكون الدرس الأخير فى مبدإ مماتى ، كما كان الدرس الأول فى مبدإ حياتى ؟

الزيات

الثورة على الاسلام

حرب منظمة

يشهرها الكماليون على الاسلام

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تشهر تركيا الكمالية على الأسلام حرباً لا روية فيها ولا هوادة؛ وقد رفع الزعماء الكماليون اليوم القناع كاملاً بعد أن رفعوا من قبل طرفاً منه، وظهرت سياستهم نحو الاسلام فى ثوبها الحقيق؛ ودخلت هذه الحرب المنظمة التى يشهرونها على الاسلام فى طورها الايجابى بعد أن كانت تقف عند طورها السلبى؛ وقد اتخذت هذه الحرب منذ البداية وما زالت تتخذ ثوب «المدنية والتمدين» أعنى تحرير تركيا من كل طابع ولون دينى، وصبغها فى كل مظاهرها الرسمية والعامة بالصبغة المدنية. ولو وقفت سياسة أنقرة حقاً عند هذه الغاية لما كان ثمة مجال للريب فى صدق نياتها؛ فان الاسلام، كالنصرانية، لا يحول دون اصطباغ الدولة بالصبغة المدنية المحضة؛ وأمم أوربا النصرانية التى تقلدها وتتشبه بها تركيا الجمهورية — إذا استثنينا روسيا البلشفية — لا تجد أية غضاضة فى ولائها للنصرانية، وإن كانت أشد وأعرق «مدنية» من تركيا الجمهورية؛ ولم تذهب أية دولة أوربية — سوى روسيا البلشفية — فى مطاردة الدين الى الحد الذى تذهب اليه حكومة أنقرة؛ وحكومة أنقرة لا تطارد العقيدة الدينية لذاتها، ولكنها تطارد الاسلام، وكل مايمت اليه بنوع خاص؛ وإذا كانت تطارد اللغة العربية وكل مظاهرها فى الكلام والكتابة، فليس ذلك لتحرير اللغة التركية من العناصر الأجنبية فقط، ولكن لأن اللغة العربية هى قبل كل شىء لغة القرآن، ولغة الاسلام الأولى

وقد بدأت الثورة الكمالية على الاسلام منذ قيام الجمهورية التركية ذاتها، أعنى منذ نحو عشرة أعوام، وكانت فى مرحلتها الأولى تتخذ صورة الاصلاح الدينى أو المدنى، وكانت سلبية لا تسفر عن نزعتها الهدامة؛ ولم يكن فى خطواتها الأولى مثل إلغاء الخلافة، وحل الجماعات الدينية والصوفية، وفرض الثياب المدنية والقبعة، مايثير الأذهان المسلمة المستنيرة؛ فقد كانت جميعاً تتتبع جهود تركيا الجديدة فى سبيل التجديد القومى والاجتماعى بمنتهى الاعجاب والعطف؛ ولم يك ثمة مايحمل على الاعتقاد بأن هذه النزعة الاصلاحية فى ظاهرها ستتحول غير بعيد الى نزعة إلحادية بعيدة المدى، والى فورة تعصب على الاسلام تقصد الى الهدم المطلق. ولكن حكومة أنقرة لم تقف فى مخاصمة الاسلام عند حد؛ وكانت خطوات جديدة ظاهرة المغزى فى سبيل محو معالمه: إلغاء النص الذى أدرج فى دستور الجمهورية الأول بأن تركيا دولة مسلمة، وإباحة القانون المدنى التركى الجديد زواج النصرانى من المسلمة، ثم تحريم الأذان وتلاوة القرآن فى المساجد بالعربية؛ ولم يك ثمة حتى فى هذه المرحلة مايثير كبير شك فى نيات حكومة أنقرة وخصومتها المضطرمة للأسلام وعقائده وذكرياته ومظاهره؛ وكانت كلمات الاندفاع والتطرف والأغراق تتردد من جانب أولئك الذين مازالوا يحسنون الظن بأنقرة ويعطفون على جهودها وأمانيها. ولكن الكماليين لم يلبثوا أن رفعوا القناع بعد ذلك؛ وانتدبت حكومة أنقرة لجنة لاصلاح العبادات ومظاهرها (سنة ١٩٢٨) وأذيع يومئذ أن اللجنة ترى أن تكون الصلاة فى المساجد، كالصلاة فى الكنائس، وأنه لا بأس أن يؤدى المؤمنون صلاتهم وقوفاً أو جلوساً على المقاعد، وأن تطربهم الموسيقى، وأن تعزف لهم الأدعية والنصوص كما تعزف «آفى ماريا» أو «باترنوستر»، وأن تكون صلاة المسلمين على العموم فى مظاهرها كقداس النصارى، وكان لأذاعة هذه الاقتراحات وقع عميق فى الرأى العام التركى ذاته؛ ولما رأت أنقرة أنها تذهب بعيداً بهذه الاقتراحات أنكرتها وكذبتها، وحملت تبعاتها للجنة التى وضعتها؛ أما الرأى العام الاسلامى فما كان ليدهشه شىء بعد من تصرفات الكماليين، ومع ذلك فقد وقف مدى لحظة ذاهلاً أمام هذا الاجتراء الآثم، يلمس النزعة الهدامة التى تملى على عصبة أنقرة سياستها نحو الاسلام وكل تراثه

ثم كانت حركة أنقرة ضد اللغة العربية والكتابة العربية؛ واتخذت هذه الحركة كسابقاتها ثوب الاصلاح والتجديد القومى؛ وقيل إن كتابة التركية باللاتينية بدلاً من العربية وسيلة إلى ذيوعها وتحريرها من ثوبها العتيق، وإن اللغة التركية غنية

بأصولها وموادها القومية فهى ليست بحاجة إلى العربية تشتق منها وتستعين بها ؛ وإذا فيجب أن تحرر من جميع الألفاظ العربية الدخيلة ؛ ووضعت الفكرة موضع التنفيذ بسرعة ، فألغيت الكتابة العربية ، واستعملت الكتابة اللاتينية بقوة التشريع ؛ وسارت الحركة لنفى الألفاظ والأصول العربية بسرعة ، واتخذت أحياناً بعض المظاهر المغرقة ؛ فقد حدث مثلاً أن أستاذاً بالجامعة التركية خطب فى المؤتمر الذى عقد منذ أشهر لهذا الغرض فنوه بأهمية استمرار التعاون والعلائق بين التركية والعربية ، فغضب الغازى مصطفى كمال — وكان من شهود المؤتمر — وغادر المؤتمر فى الحال ، وفى اليوم التالى عوقب الأستاذ بالعزل والحرمان ؛ وفى الجلسة التالية صفق الغازى لأستاذ آخر ذكر فى خطابه أن اللغة العربية لغة دخيلة ، وأن التركية أعرق أصولا من العربية ولها عليها فضل الاعارة والاشتقاق ؛ ومع ذلك فان اللغة التركية ، رغم هذه الجهود والمناظر الحماسية ، التى تعرب عن الحقد والتعصب والجهل ، بأكثر مما تعرب عن رغبة الاصلاح الحقيقى ، لم تستطع أن تستغنى بنفسها ، وما زالت تستعير — طبقاً للقرارات الرسمية — من بعض اللغات الأوربيـة لتسد ما بها من نقص وثغرات . ولم تكن الحركة حركة إصلاح خالص ، بل إن لها كما قدمنا مظهراً آخر غير مظاهرها الاصلاحى ؛ فاللغة العربية هى لغة القرآن ، ولغة الاسلام الأولى ؛ ولما كانت حكومة أنقرة تعمل على مطاردة الاسلام وكل مظاهره بكل ما وسعت ، فيجب أيضاً أن يختفى هذا المظهر ؛ ثم يجب أن تختفى الأسماء العربية — وهو مظهر آخر لهذه الحركة — حتى يكون الانقلاب تاماً ، وحتى لا يبدو فى أفق تركيا الكمالية ، بمضى الزمن ما يثير ذكرى العربية والاسلام

وقد حملت الينا البرقيات الأخيرة نبأ جديداً ، هو أن حكومة أنقرة قررت أن تعمل لأزالة منارات المساجد ، وأنها ستبدأ بازالة المنارات العتيقة وتقيم فى مساجدها مصانع ، فاذا صح هذا النبأ فانه يكون دليلاً جديداً على أن هذه الجهود المتوالية التى تبذلها حكومة أنقرة لمحو معالم الاسـلام فى سائر مظاهره الشخصية والعامة إنما هى سياسة مقررة متصلة الحلقات

***

والآن لنحاول أن نتعرف أسباب هذه الحرب المضطرمة التى يشهرها الكماليون على الاسلام ؛ ولنلاحظ أولاً أن تركيا الجمهورية تحذو فى تلك الحرب اللادينية المنظمة حذو روسيا البلشفية ، وهى الدولة الغربية الوحيدة التى تشهر الحرب على النصرانية وتطارد كل مظاهرها . ولم يقع هذا الشبه عرضاً بين الدولتين اللادينيتين ؛ ولكنه يقوم على نفس المبادئ ونفس الروح الثورية واللادينية المشتركة ؛ وقد كانت روسيا البلشفية أكبر عضد للكماليين فى حرب التحرير التركية وفى العمل على بعث تركيا المحتضرة ، ولا نبالغ إذا قلنا إن تركيا الجمهورية مدينة بحياتها للبلاشفة . ولم يبذل البلاشفة هذا العون للكماليين حباً بتركيا ، ولكنه كان قطعة من برنامجهم فى محاربة الاستعمار البريطانى ، وقد كان غزو اليونان لتركيا مشروعاً بريطانياً تعاونه بريطانيا وتحميه ، وكان عون البلاشفة للكماليين بكل الوسائل المادية والمعنوية منذ قيام الحرب التركية اليونانية حتى عقد معاهدة لوزان فصلاً من فصول الصراع بين البلاشفة والاستعمار البريطانى ؛ وكان طبيعياً أن يكون لوحى موسكو ونفوذها أكبر الأثر فى توجيه حكومة أنقرة ، وأن توثق المصالح المشتركة بين روسيا البلشفية وتركيا الكمالية ؛ وأشد ما يبدو وحى موسكو فى ناحيتين : سياسة تركيا الخارجية ، فهى قطعة لا تتجزأ من برنامج السياسة البلشفية ، تردد فيها تركيا خطوات موسكو فى كل شئ : فى السياسة الشرقية والسياسة الأوربية ، وفى مخاصمة عصبة الأمم ثم الالتحاق بها (على أثر التحاق روسيا) ؛ وروسيا تشد بأزر تركيا فى كل مظاهرة دولية ؛ وتركيا تؤيد روسيا فى مواقفها نحو الدول الغربية ، وتركيا تعرف أنها مدينة بحياتها لروسيا ، وأن هذه الحياة تتوقف على ارادة روسيا ، فهى لا تستطيع أن تحيد عن برنامج السياسة الروسـية ؛ وثانياً — فى الناحية الثورية ، فحكومة أنقرة مازالت حكومة ثورية على مثل حكومة موسكو ، وهى تحذو حذوها فى تطبيق مبادئ الهدم والاباحة الى أبعد الحدود ؛ واذا استثنينا الناحية الاقتصادية ، أعنى تطبيق الفكرة الشيوعية التى يرى الكماليون بحق أن تركيا ليست ميداناً صالحاً لتجربتها ، كانت الثورة الكمالية الاجتماعية والدينية صورة من الثورة البلشفية فى هـذه الميادين ؛ وكما أن النزعة

الالحادية تسود الثورة البلشفية ، فكذلك الثورة الكمالية تسودها هذه النزعة ؛ واذاً فان هـذا الألحاد الذى يطبع كل تصرفات الكماليين ، وهـذه الاباحة التى يغرقون فيها ، وهذه الحرب اللادينية المستعرة التى يشهرونها ترجع فى كثير من وجوهها الى غرس أساتذتهم ومدربيهم سادة موسكو ؛ على أن الفكرة الثورية والالحادية ليست كل شيء فى سياسة الكماليين ، فهنالك بواعث أخرى تحفزهم الى هذه البغضاء المتأججة نحو الاسلام . ذلك أن الكماليين يرون أن الاسلام كان سبباً فى كل ما أصاب تركيا القديمة من المحن التى أودت بسلطانها وقوتها ، وأن صفتها الاسلامية هى التى أثارت الدول الغربية ضدها خلال العصور المختلفة وجمعت كلمتها على محاربتها ومقاومتها ، وأنها لولا هـذه الخصومة التى أثارها الاسلام فى نفوس الأمم الغربية لبقيت دولة قوية ولم تبدد قواها فى حروب ومعارك خالدة ؛ ولهذا يعمن الكماليون فى ثورتهم ضد الاسلام ويزعمون أن تركيا تستطيع بذلك أن تنزع تاريخها وماضيها وصفتها الأسيوية ، وأن تدخل بذلك فى عداد الدول الغربية

وقد كان الاسلام حقاً من العوامل التى أثارت أوربا النصرانية وجمعت كلمتها ضد الدولة العثمانية فى أحيان كثيرة ، ولـكنه لم يكن بهذا الاعتبار مسئولاً عما أصاب الدولة العثمانية من المحن وضروب الانحلال والتفكك بقدرما تسئل عنه السياسة الغاشمة والأساليب الهمجية المخربة التى سارت عليها هذه الدولة طوال عصور تاريخها ، وعجز الترك المطبق عن أن يكونوا عاملاً من عوامل الأنشاء فى صرح الحضارة الحديثة . هذا ، ومن جهة أخرى ، فقـد لقى الاسلام على يد الدولة العثمانية الذاهبة أعظم نـكبة نزلت به فى العصر الحديث ، ولقيت الحضارة الاسلامية الزاهرة فى مصر والأمم العربية مصرعها على يد هذا الغزو الوندلى الذى لبثت ترزح فى أغلاله وظلماته مدى قرون أربعـة ؛ ولم تـكن الفتوحات التركية سواء فى الشرق أو الغرب سوى فورات مخربة تحمل وراءها الوبل والدمار أينما حلت ؛ وعلى ضوء هذه الحقائق وحدها يجب أن يرجع الكماليون عوامل انحلال تركيا الذاهبة

***

ومهما يكن من أمر البواعث التى تحفز الكماليين الى هذه الخصومة المضطرمة نحو الاسلام ، فان الاسلام أقوى وأرسخ من أن يتأثر بمثل هذه الفورات العصبية الطارئة ؛ وقد صمد الاسلام وما زال يصمد لخصومة الغرب كله مع ما يحشده الغرب لغزوه من العوامل والوسائل الخطرة . ذلك أن الاسلام قوى بعقائده ومبادئه وخلاله المستنيرة ، قوىّ بتسامحه الخالد ، قوى بتراثه المجيد . ولن يضير الاسلام أن تسقط من عداده تركيا الكمالية ؛ واذا كان الاسلام لم يعتز قط بتركيا يوم كانت دولة قوية شامخة ، فـكيف يحاول اليوم أن يعتز بهذه البقية الضئيلة من تركيا القديمة ؟ على أن هناك حقيقة يجب أن يذكرها الكماليون ، وهو أن تركيا عاشت فى العصر الأخير على تراث الاسلام ؛ وقد كان نفوذ الاسلام المعنوى عاملاً قوياً فى بعثها الجديد ، وفى تطور السياسة الأوربية نحوها ، وإقالتها من الفناء الذى كان مقضياً به عليها . أما اليوم فان العالم الاسلامى الذى كان بالأمس يحبو تركيا بعطفه وتأييده المعنوى — والمادى فى أحيان كثيرة — لا يهمه اليوم شيء من أمر تركيا الكمالية ومصايرها ، ومن المحقق أنه سيقف وقفة المتفرج يوم تدلهم الخطوب ، وتعود المعارك القديمة الى الاضطرام

محمد عبد الله عنان
المحامى

المطـــلوب

مديرة بيت ... !

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

« أفلسنا والله يا صاحبي ! »

« وأى افلاس يا أخى ؟ لـكأن الدنيا أقفرت ... »

« والعمل ؟ »

« العمل ؟ تسألني ما العمل ؟ »

« لقـد كنتُ أقول دائماً وأؤكد للمرتابين من إخواننا ، إنك آيةٌ من آيات الله فى الذكاء وصحة الادراك ! نعم أسألك ما العمل ؟ »

« وهل أنا أعرف ؟ »

« لا رأى تشير به ؟ ... لا حيلة تتحيلها ؟ »

« حيلة ؟ هل تعني ... »

« لا بأس ! لا بأس ! أرح نفسك . كم ساعتك الآن ؟ »

« ساعتى ؟ »

« هذا أقل ما يمكن أن أنتفع بك فيه »

« ساعتى ياسيدى ... انتظر أقل لك ، ساعتى ... س ... سُرقت ! »

فنهض الأول عن كرسيه بلا كلام ، ومضى الى المـكتب ، فجلس اليه وتناول ورقة وأكب عليها وراح يكتب

***

جرى هذا الحديث فى حجرة واسعة اتخذها للنوم هذان الصاحبان ، ووضعا فيها سريريهما وحقائبهما وكتبهما وأدواتهما وأشياءهما الأخرى ، فلو رأيتها — أى الغرفة — لحسبتهما آيبين من سفر . وكان ثَم حجرتان أخريان فى مسكنهما ، ولـكنهما كانا لا يستعملانهما أو ينتفعان بهما إلا فى الندرة القليلة ، إذا زارهما من لم ترتفع بينه و[illegible] ذه الحجرة الفسيحة للنوم والمطالعة والطعام والشراب والسمر ، واللهو أيضاً . ولو شاءا لاتخذا بيتاً أكبر وأوسع ، ولأثثاه [illegible] هو أوثروألين ، ولـكنهما كانا يؤثران الخشونة . وينفران من التطرى والرخاوة ، ويستقبحان أن يكونا مترفين وإن كثر المال فى أيديهما . وكانا ظريفين لا يعدلهما أحد فى ظرفهما ، وقد تآخيا على أصدق ود وأتم مداخلة . فهما خليط وأمرهما فى كل شئ واحد ، لا يختلف ولا يتعدد .

ونهض الأول عن المـكتب وفى يده ورقة يتأملها ، ومشى متمهلا إلى صاحبه حتى إذا بلغ مكانه دفع بالورقة إليه فقرأ فيها

« مطلوب : »

« مديرة لبيت ، ويشترط أن تكون متعلمة وخبيرة ، والأجر يُتفق عليه . والرد يكون باسم السيدة نينا شفراوى بجريدة الـكوثر بالقاهرة »

ثم سأل : « ما هذا ؟ »

قال : « هذا ؟ هذا إعلان ! ماذا يمكن أن يكون غير ذلك ؟ »

فسأله : « ولـكن ماحاجتنا إلى من تدير لنا بيتنا ؟ ألسنا ندبر أموره القليلة على أحسن وجه ؟ »

قال : « ياصاحبى ، ليس هذا من شأنك . ولا تخش أن أثقل كاهلك بهـذه المديرة المطلوبة . إنما أريد أن أداوى نفسى وأعالج إفلاسها ، وأملأ هذا الفراغ الذى أحسه فى قلبى »

قال الآخر : « ولـكن . . . . »

فقاطعه ذاك « لا تعترض يا صاحبى ، فليس عليك بأس من ذلك . »

وخرج ، فمضى إلى صاحب « الـكوثر » وكان صـديقه ، فناوله الاعلان

فسأله هذا : « أهى السيدة التى . . . ؟ »

قال : « لا ، بل غيرها ، وقد كلفتنى أن أقوم عنها بالأمر ، فـكم تطلب أجراً للنشر ؟ »

فأبى الرجل أن يتقاضى أجراً

***

وجاءت ردود ، بعضها تليفونى ، والبعض رسائل ، فأما التليفونية فأهملها وأبى أن يُعنى بها أو يتقبلها ، وأما الرسائل فكانت ثلاثاً حملها معه إلى البيت ، وهناك فضها وجلس يتدبرها هو وصاحبه ، ويحاول أن يستنبىء الخط والأسلوب عسى أن يعرف منهما — على التقريب — سن الـكاتبة وحظها من الجمال .

فتعلقا بواحدة تقول كاتبتها إنها تعلمت فى انجلترا ، وأنها حذقت هذا الفن — فن ادارة البيوت — على مهرة الأساتذة والمعلمات

وقال الذى سمى نفسه فى الاعلان « نينا شقراوى »

« فلنتبع » أسلوب « شرلوك هولمز » . إنها تقول إنها تعلمت فى انجلترا ، فلا شك أنها صغيرة السن ، لأن ارسال البنات إلى انجلترا ليتعلمن لا يزال إلى اليوم غير مألوف ، ولم يبلغ أن يكون سنّة ، كأرسال الفتيان ؛ ثم ان التى تذهب إلى انجلترا لتتعلم لابد أن يكون أهلها ذوى مال ، وقد تحتاج يا صاحبي أن تسأل — لأنك ذكىٌّ جداً — لماذا إذن تريد أن تكسب رزقها بعرق جبينها ؟ والجواب أنهما فرضان لا أرى لهما ثالثاً : الأول أن يكون المال قد ذهب ، وافتقرت الأسرة بعد اليسر ، والثانى أن تكون الفتاة قد تمردت على أهلها لسبب من الأسباب وتركت البيت ، فهى تنشد العمل لتعيش ، كراهة منها للارتداد إلى أهلها صاغرة ذليلة . واضح ؟ حسن ! فلنكتب إذن الرد »

وقام إلى المكتب فكتب ما يأتى :

« الآنسة المحترمة . . . . . .

جاءنى ردك ، وأكون شاكرة لك إذا تفضلت بانتظارى فى تمام الساعة الخامسة مساء من يوم . . . . أمام باب « جروبى » بشارع المناخ

وتحياتى إليك وإلى الملتقى

نينا شقراوى »

وتوخى فى كتابة الرسالة أن يطيل حروفا ويقصر أخرى ، ويجعل زوايا الجيمات والدالات الخ ، حادة ، ويموج السطور ليجىء الخط أشبه ما يكون بخط النساء

* * *

ودنا الموعد ، فقال لصاحبه : « قم بنا »

فنظر إليه صاحبه متعجباً وسأل : « ولكن مادخلى أنا ؟ »

قال : « من يدرى ؟ إنه لا يعلم الغيبَ إلا الله ! قم فقد أحتاج إليك . »

ووقفا على الافريز المواجه لباب « جروبى » وصارت الساعة الخامسة ، وإذا بفتاة ممشوقة تقف على الافريز الآخر وترفع عينها إلى باب جروبى ثم تصوّبها إلى الساعة على يدها ، ثم تتلفت

فقال الذى لا دخل له : « هى والله ! قرأت اسم جروبى ، ونظرت فى الساعة . هيا بنا إليها »

فقال صاحبه « بنا ؟ ما شاء الله ! أظن انى سمعتك تسألنى ما دخلك فى هذه الحكاية ؟ أم ترى كان غيرك السائل المنكر ؟ »

قال : « إنما أعنى أنه يجب أن تكلمها حتى لا يطول انتظارها فتقلق فتذهب »

قال : « وما يعنيك من قلقها وذهابها ؟ فلتقلق ولتذهب ! »

قال : « ولكن لماذا إذن واعدتها أن . . . . »

قال : « يا أحمق ! إنى أريد — أتفهم ؟ — أريد أن تقلق وتمضى وأزيدك علماً ، فأقول إنى لا أجرؤ أن أكلها أمام باب جروبى الذى يدخل منه ويخرج كثيرون ممن يعرفوننى . »

وعادت الفتاة فألقت على ساعتها نظرة ثم دارت فمشت . فذهب صاحبنا يعدو خلفها ، حتى إذا دنا منها ناداها باسمها فوقفت وقال :

« معذرة . إن السيدة شقراوى متوعكة ، وقد كلفتنى أن أقابلك »

فقالت الفتاة بابتسامة : « أشكرك ، وأشكرها . لقد خالجنى شك ، فتوهمت لحظة أنى أخطأت . وهل أنت أخوها ؟ »

قال : « أخوها ؟ أوه ! لا ! ابنها فقط . . . »

قالت : « معذرة »

قال : « ألا توافقين على أنى مازلت شاباً تتدفق الدماء الحارة فى عروق ؟ »

فضحكت وقالت : « بالطبع . . : وأين البيت ؟ »

فساءه أنها غيرت الموضوع وقال : « البيت ؟ البيت ياسيدتى .. فى . . . فى القاهرة »

فسألته : « أى شارع ؟ »

فقال : « أى شارع ؟ هل ينتظر أن تعرفيه إذا قلت لك إنه شارع البسطويسى ؟ » فقطبت وسألت كالمحتجة المستهجنة « البسطويسى ؟ »

قال : « لم يخطىء ظنى . فتاة مثلك غضة السن جداً — وجميلة أيضاً بالطبع — متعلمة فى انجلترا لا يعقل أن تعرف هذه الشوارع التاريخية »

فسألت باهتمام : « أهو شارع تاريخى ؟ »

قال : « لا شك ! أقدم من التاريخ »

فأحست أنه يتهكم وسألته : « والبيت ؟ ما مساحته ؟ »

فقال : « إيه ؟ مساحته ؟ الحق أقول ، لا أعرف »

قالت : « كم غرفة فيه ؟ »

ولم يكن مما قدر ، أن يجرى الحديث هذا المجرى فقال بعد تردد « كم غرفة ؟ آه . . . أقول لك ياستى . . . ثلاث »

فدهشت وصاحت : « ثلاث فقط ؟ »

فقال : « أراك دهشت ! ولك الحق . فانها غرف فسيحة جداً . . تصلح للرقص ، أو لسباق الخيل »

قالت : « لا تمزح . لقد كنت أظنه بيتاً كبيراً »

فسألها : « أليس كبيراً ؟ إنى أراه كبيراً جداً »

قالت : « ثلاث غرف ! ؟ والخدم ؟ ما عددهم ؟ »

قال : « الخدم ؟ أى خدم ؟ »

قالت : « خدم البيت ! »

قال : « ليس فى البيت خدم ! »

قالت : « ماذا تقول ؟ لا خدم ؟ »

قال : « نعم . . . أعنى لا . . . وأى حاجة بنا إلى الخدم ؟ »

قالت : « أى حاجة ؟ كيف يكون بيت بلا خدم محتاجاً إلى مديرة ؟ »

قال : « ياسيدتى ، لهذا احتجنا إلى مديرة . فالأمر موكول اليك . . . »

قالت : « لقد كان ظنى غير ذلك . . . كنت أحسبه بيتاً عظيماً غاصاً بالخدم ، أتولى أموره وأدبر شئونه . . . أما هذا . . . لا . لا أظن أنى أستطيع أن أقبل هذا العمل »

قال : « ألا يحسن أن نميل إلى هذا المحل لنتحدث ونتفاهم . »

قالت بلهجة جازمة : « فى أى شئ نتحدث ؟ لقد قلنا كل شئ »

قال : « لا لا لا . . . بالعكس ، لم نقل شيئاً . . . »

فسألت مستغربة : « أى شئ بقى هناك ؟ »

قال : « بقى أن تراجعى نفسك . . فكرى طويلاً قبل أن ترفضى . الانسانية تدعوك أن تقبلى . . . المروءة تناديك وتناشدك . . . إنى شاب ، والبيت كالصحراء ، بل قلبى أيضاً صحراء . . . ومن الشهامة أن تتولى أمرى . . . أعنى أمورنا . . . وأن تحيلى هذه القفار فراديس وارفة الظلال »

فسألته ضاحكة : « أتريد مديرة أم ساحرة ؟ »

قال : « إيه ؟ آه ! بالطبع . . . ساحرة ؟ أى نعم ساحرة . هذا أحسن . . . ولكنك ساحرة — مافى هذا شك ! ألست موافقة ؟ »

قالت : « على أى شئ ؟ »

قال : « على أنك ساحرة »

قالت : « أوه ! كلا . والآن ، أستأذن . . . »

قال : « تستأذنين ؟ كيف ؟ وبعد أن غصت عليك فى لجة الحياة ؟ »

وعض لسانه من الغيظ ، فقد زل ، وأدركت هى أن فى الأمر غير البيت وإدارته ، فحدقت فى وجهه ثم سألته

« أجبنى — بصراحة . . . ماذا تعنى ؟ »

قال : « أعنى أنك درة وأنه يشق علىّ أن أنفض يدى منك بعد أن فزت بك — هذا ما أعنى ، وبصراحة »

قالت : « هل كنت تعرفنى ؟ »

قال مغالطا : « لقد كنت أحلم بك »

فقالت : « والاعلان ؟ »

قال : « الاعلان ؟ لقد انتهينا منه . وقلت إن الأمر لا يوافقك . . . وأنا مصدقك . . . لايسعنى إلا أن أصدقك . . . إنه بيت لايليق بك . . . إنه . . . إنه قبر . . . خراب . . . دعينا منه فما كنت أتصور أن ترضى عنه . . . »

قالت : « وبعد ؟ »

قال : « نتكلم فى شىء آخر . . . إنه لا أكثر من المواضيع الصالحة للكلام . . . مثلاً شعرك ، إنه ذهبى جميل ، وأنا أحب الشعر الذهبى ، يفتننى ، يدير رأسى ، ولو استطعت لجمعته كما تجمع طوابع البريد ، وقطع الخزف الثمين ، والسجاجيد الفاخرة . . . وهناك أيضاً موضوع آخر . . . عيناك . . . إنهما نجمان متألقان . . . . »

فصاحت به : « حسبك . وادخر بلاغتك لمن هو أحق بها ،

أعنى لمن له أذنان تصغيان فانى ماضية »

فقال : « وتتركيننى ؟ »

قلت : « آسفة »

قال : « ألا تفكرين ؟ فى أنا على الأقل ! »

قلت : « سأفكر فيك طويلاً »

فقال بلهجة الظافر : « كنت أعلم ذلك »

قلت : « إيه ؟ »

قال : « كنت واثقاً أنك رقيقة القلب »

قالت : لا لا . . . إنما أعنى أنى سأفكر فى جرأتك . . . واسمح لى أن أقول : وفى وقاحتك »

فلم ينهزم وقال : « هذا ذنبك »

قالت مستغربة : « ذنبى ؟ »

قال : « على التحقيق : إنك جميـــلة ، فلماذا أنت جميلة ؟ هذا عذرى ! »

قالت :« آه ! » وهمت أن تمضى عنه

فقال : « وشىء آخر ... يجب أن تعلمى أنه لاقيمة لجمالك»

قالت : « ألم أقل إنك وقح ؟ »

قال : « لاقيمة لجمالك إذا لم يعجب به أمثالى . . . بغيرى تكونين وردة فى صحراء . . . من يشمها ؟ من يتأملها ؟ من يقول ما أحسنها ؟ »

قالت : « ألا تخبرنى من أنت ؟ »

قال : « أو يعنيك أن تعرفى ؟ »

قالت : « بالطبع . . . لأنك أوقح من رأيت فى حياتى »

قال : « كلا ، هناك من هو أوقح . . . أوه بمراحل ! صاحبى هذا الواقف هناك . . . أترينه ؟

سأعود اليه الآن وأبلغه أن له — إذا شاء — أن يشمت بى ، لأنى فشلت »

قالت : « أ كانت مؤامرة ؟ »

قال : « لقد نهانى فلم أطع ، وجررته معى بكرهه ، وفى مأمولى أن أفوز ، فأباهيه وأفاخره ، أما الآن . . . . . »

قالت : « هذه هى الحقيقة ؟ »

قال : « بلا تحريف . وتعالى اليه لتسمعيها منه إذا شئت »

فوقفت تفكر برهة كالمترددة ثم التفتت اليه بجأة وقالت :

« هل كنت تعرفنى ؟ »

قال : « سؤال معاد ، وجوابه واحد لا يتجدد ولا يتغير »

قلت : « لا تعد الى المزاح »

قال : « أؤكد لك أنى جاد جداً »

قلت : « ولكن كيف وثقت أنى سأرد على اعلانك ! »

قال : « هى مقامرة لا أقل . . . »

قلت : « على كل حال ، لابد أن أمضى الآن »

قال : « ونلتقى مرة أخرى ؟ »

قلت : « ربما . . . لا أدرى . . . »

قال : « اذكرى أنى أعرف عنوانك ، فاذا طال الأمر فلا يبعد أن أغزو دارك فانى كما تعلمين مجنون »

قالت : « لا تفعل . . . احذر »

قال : « لا تخافى . . . مع السلامة . . . »

ورجع إلى صاحبه فقال : « ألا تزال واقفاً ؟ لماذا لم تعد إلى البيت ؟ ما فائدتك هنا ؟ »

فسأله : « ماذا صنع الله بك ؟ »

قال : « وكيف يعنيك هذا ؟ أى دخل لك فيه ؟ »

قال : « قل لى بالله ! »

قال : « ولا تشمت ؟ لا فى السر ولا فى الجهر ؟ »

قال : « أو أخفقت ؟ ؟ مبارك ! مبارك ! الحمد لله ! »

ابراهيم عبد القادر المازنى

كيف استجبت للرسالة ؟

للأستاذ محمد محمود بادل

كان لمجلة « البيان » فى نفسى مكانة ، وكان لها فى أفق الثقافة المصرية مكان . وكنت ما اشتركت فيها أحس من نفسى اغتباط من يؤدى واجباً ، ولا أنكر ما شملنى من سرور يوم نشر الشيخ البرقوق مقالى الأول بها

ولما احتجبت أحسست لها وحشة ، وأحسست فى جوى بشىء ينقصنى ، ثم طلبته فى مجلداتها الأولى ، وإذ أتيت عليها وأخذت نفسى بترتيبها ووضعها فى مكان خاص من المكتبة خالجنى سرور الوفاء بالعهد . ولم يزل لها مكانها وما زلت أذكر بالخير عهدها

لم أكتب فى مجلة منذ احتجابها ، وفى فترات متباعدة كتبت فى المحروسة ، واللواء ، والمقطم . وكنت طوال الوقت أتمنى على الله للبلاد مجلة تسد الفراغ وتأخذ بيد الثقافة

وما كنت لأغمط المجلات الأخرى فضلها على العلم والأدب والتاريخ ، ولكنى كنت دائم الأحساس بحاجة البلاد لمجلة تقوم على أساس من الروح المصرية ، وإحياء الصالح من التقاليد الأسلامية ، فتصل العهدين وتنبه الجيل إلى تراث الأولين

ملكت الأمنية على شعورى حتى فكرت عام ١٩٢٦ مع صديق اسماعيل مظهر وصديق ثالث فى تنفيذ الفكرة برغم مشاغلى وما قد يكون بين عملى وبين ما أعتزم من فوارق ظاهرة . ووصل بنا الحرص على التوفيق بين الأمرين إلى أن نعتزم إصدارها كل ثلاثة أشهر ، ولكن حتى هذه لم تتم ! ! فقد تعجل صديقنا الأمر وأظهر مجلة « العصور » فجاءت أبعد ما تكون عن الأسس التى قدرنا

لكن الله سبحانه وتعالى قدر للأمنية أن تتحقق — وتحققت بالفعل قبل أن أتصل بالرسالة بعام ونيف ، ولكنى حرمت هذا الخبز السار حتى كان رأس العام الهجرى الحالى فأراد الله أن يجعل سرورى مضاعفاً ، فأتلقى الخبر فى خير عيد للمسلمين ، بل للأنسانية جميعاً

فبينما أجتاز ميدان الأزهار إذ سمعت بائع الصحف ينادى بالرسالة ، وإذا بى مقبل على شرائها ، فيطالعنى العنوان ، وإذا بين يدى عدد ممتاز خص به العام الهجرى ، وشرف العدد بأكثر ذكريات التاريخ

طربت حقاً — لأنى أعلم أن هذا التقليد الصالح أهمل منذ الحرب الأخيرة بعد أن كان سنة تحييها أكثر الهيئات — وطربت لأنى أخذت أولادى وبيئتى بالاحتفال بالعام الهجرى ، فأدخر لهم ليومه خير المكافآت و « اللعب » إيقاظاً لهم ، وتقريباً للمعنى الى عقول الصغار

وإنى أقرر اليوم أنى إلى ذلك التاريخ لم أكن أعرف عن صاحب الرسالة شيئاً ، ولم أكن رأيته ، ولم يصلنى به وبأكثر النخبة الصالحة من معاونيه غير الآثار القلمية الرائعة أمتع بها ذهنى بين فرصة وأخرى

فلما قرأت العدد التاريخى شعرت بما خفق له قلبى طرباً ، وأحسست بالفراغ يملأ وبالثغرة تسد

إنما ننشد للبلاد مجلة تنشر مفاخر السلف الكرام فلا ينقطع ما بيننا وبينهم فنضل المنطق . إنما تمنينا مجلة تنشر الصالح قديماً كان أو حديثاً ، تخرج لنا فى لغة سهلة راقية ما يأخذ بيد الأخلاق من عثرتها ، ويكبح جماح الشهوة والغرور ، ويزيل الغشاوة عن الأبصار ، فيبدو لشبابنا الأسلام كما هو ، والأدب العربى كما هو ، وهما أساس الثقافة لمصر الحاضرة ولا أساس غيرهما

وما كدت أظفر بهذا الكنز حتى سارعت به الى أولادى أقرئهم ما يتفق وما يحيون من ذكرى ، وأشرح لهم بعض ما يصعب على أذهانهم — ثم سارعت أكتب الى صاحب الرسالة مشجعاً دون سابق تعارف ، معتقداً أن السكوت بعد ذلك هرب من صفوف الجهاد ، ووعدت فى كتابى أن أنتهز فرصة فراغ لأعود للترسل اذا أتيح لى أن تشرف رسائلى بمثل هذا المكان الكريم

جاءنى الرد بعد قليل فاذا به آية على اختصاره ، وإذا بى ألمس فى كاتبه صدق الأيمان فى كل مسعى ومقصد

أتيح لى فى شهر سبتمبر ان أزور دار الرسالة فأسعد بلقاء صاحبها ، وإذا بى ألمس فى كل قول وفى كل حركة إيماناً صادقاً وأدباً رائعاً جذاباً

- استجبت (للرسالة) الغراء وكلها هدى ونور ، وفى يقينى أنها

فى البلاد ثالثة أعلام النهضة ، فبجانب (مصنع المحلة) فى ميدان الاقتصاد ، و (مستشفى المؤاساة) فى عالم البر والتعاون ، تقوم (الرسالة) حمى الأدب العربى وتراث الاسلام

واذا كان الله تعالى أكرم البلاد بهذه المجلة ، فقد أكرم المجلة بثوب الأخلاق الكريمة الذى أضفاه على صاحب الرسالة ، ولن تنجح رسالة بغير خلق

فالى الأمام أيها الصديق ، وإلى الأمام يا خير الصحف . إنما عيد الرسالة عيد للثقافة العالية ، والدين القويم ، والخلق الكريم

محمد محمود جلال
المحامى

بين عامين :

نشـــيد الوداع...

للأستاذ على الطنطاوى

(١) مالت الشمس الى المغيب ، ولم يبق من أشعتها الذهبية إلا خيوط قليلة ، تنفذ من بين قطع الغمام المتناثر حيال الأفق . . . تلقى على العالم نظرة الوداع ، وتقبل جبينه الخاشع قبلتها الأخيرة . . ثم تجود بدمائها الباقى ، وتلفظ نفسها الأخير — كما يلفظ نفسه هذا العام الراحل !

(٢) وكنت أطلّ من شرفة منزلى ـ ومنزلى فى شارع بغداد : على شاطىء الغوطة ، مغنى الغساسنة ، وجنة الدنيا ، وملهمة الشعر شعراء العرب الأقدمين ـ أطلّ على بساتينها الفيحاء ، وجناتها الواسعة ، التى تحف به من جهاته الأربع ، فأرى الكون فى حزن وكآبة ، وأرى على وجهه صفرة تبدو على أوراق الخريف الذاوية الهشيمة ، وفى عينيه دمعة تترقرق ، تلوح فى طيّات هذا المزن الرقراق ، وأسمع لقلبه وجيباً ، يسمع من هذه الأغصان التى يتلاعب بها النسيم . . . ثم أنظر إلى نفسى ، فأرى فيها عالماً آخر . . . ولكنه مفعم بالكآبة والغمّ ، كذلك العالم !

(٣) أطلت التحديق فى هذه المشاهد ـ فلم تنفرج لى شفتاها عن الابتسامة التى أحن إليها وأرقبها . . . وكنت قد عزمت على المضىّ فى هذا التحديق ، حتى أرى هذه الابتسامة ، فأحتفظ بها بين أحناء ضلوعى ، وفى مثوى الذكريات من نفسى ذكرى سارّة ، تخفف من لوعة الذكر الكثيرة المؤلمة لهذا العام الراحل . . . ولكنّ عزيمتى قد ونت ، وأيقنت أن قلبى المحطم اليائس لا تشرق عليه أشعّة الابتسامات

(٤) دنت قافلة الحياة السائرة فى بيداء الزمن من محطها ، فتباطأت فى سيرها ، وقاربت خطوَها ، فأمسيتُ أشعر بطول هذه الساعات الباقية فى عمر العام ، ورحت أرقب عقرب الساعة المائلة أمامى ، فلا أراه يتحرك . . فضجرت وتألمت ، وأحسست كأن هذا الفلك يدور وهو عاتق . . .

(٥) . . . بعد ساعة واحدة يُتم الفلك دورة جديدة من دوراته التى لا تحصى . فلا يترك بعدها إلاّ أنقاضاً مهدّمة ، وأجساداً محطمة ، وقلوباً مهشّمة ، كأنما هو رحى تطحن الأمم والشعوب . . ثم يخرج منها النداء أن : لِدُوا وابنوا وأمّلوا . . ولكن للموت والخراب واليأس !

بعد ساعة واحدة ، ينقضى هذا العام ، فتبتلعه هوة العدم ، ويفتح الماضى ذراعيه ، ليضمّه إلى الأعوام الكثيرة التى مرّت من قبله ، ويؤلفها (رزمة) واحدة ، ثم يلقيها فى بحر الأبدية . . ثم تفنى عند جلال الله الباق

بعد ساعة واحدة ، يدع هذا العام مكانه من الوجود للعام الجديد ، ثم يذهب فيتبوأ مكانه من عالم العدم !

(٦) بعد ساعة واحدة تختم من هذا العام صفحة كتبت أكثر سطورها بدموع المظلومين ، لتفتح صفحة أخرى ، لا ندرى عنها شيئاً ، ولكنّ فيها ألم وفيها سرور ، وفيها أمل وفيها خيبة ، وفيها ضحك وفيها بكاء . . . . والقدر يضحك أبداً من هذا الانسان ، لأنه يراه الظالم ويراه هو المظلوم !

وما الانسان إلاّ عدوّ الانسان . .

يكتب القوى سيرة حياته ، ويملأها بآيات التبجيل والثناء ، ولكن مدادها دموع الأشقياء ، ودماء الأبرياء . . ؟ ويبنى القوى صرح مجده ، ويرفع ذرى عظمته ، ولكن أساسه جماجم المظلومين ، وعظام الشهداء ؛ ويملأ القوىّ بالذهب خزائنه ، ولكن دراهمها قد جمعت من أيدى اليتامى ، وأفواه الفقراء

(٧) بعد ساعة واحدة ، تحط القافلة رحالها ، فنلتفت إلى الوراء فلا نرى إلا ظلاماً ، يلمع فى وسطه نجم من الذكرى ،

تتبين فيه (العلم المربع الألوان) وهو يخفق على دمشق ... فتخفق قلوبنا لجلال الذكرى ، ومرارة الفقد ! فنحول أبصارنا إلى الأمام فلا نرى إلا الظلام . ولكن . . ما هذا النور الذى ينبعث من الأرض فيذهب صعداً فى السماء ، فيهدينا الطريق ، ويترع نفوسنا قوّة وأملاً ؟ لقد علمت : هـذا بريق الدماء التي سقينا بها صحراء ميسلون ، وجنان الغوطة ، لقد علمت : لا يزيح ظلمة المستقبل ، إلا هذا النور . . الأحمر !

(٨) تزين الناس ولبسوا أحسن ثيابهم ، وراحو يهنئ بعضهم بعضاً ، لقد امتلأت بهم الأسواق والشوارع ، والبيوت والجامع ، لقد ناءت برسائلهم قطر البريد ، حتى ما ترى حيثما كنت إلا ثغوراً تبسم ، وما تسمع إلا مقالة تقال : كل عام وأنتم بخير . كل عام وأنتم بخير . . .

غير أنى لا أفقه من هذا كله شيئاً !

(٩) فيم الهناء ؟ وعـلام السرور ؟ . . . أيهنأون بتلك الأرواح التى دفعناها ثمن الحرية ، فكان للبائع الثمن والبيع ؟ أم بالنفوس الكبيرة التى أزهقها الأقوياء ، أم بالمنازل التى خرّبوا ؛ أم بالدور التى أحرقوا ، أم بالحق الذى غصبوا ؛ أم بالحرمات التى انتهكوا ؟ . . . أم بالأزمة العـامة ، والتجارة الكاسـدة . ، والصناعة العاطلة ، والزراعة البائرة ، والأخـلاق الضائعة ، والرجولة المفقودة ، والحدود المستباحة ، والجهالة المنتشرة ؟ . .

أما إن أشد البلاء ، ألاّ نشعر بالبلاء ! وأكبر المصيبة أن نجهل أنها المصيبة ! فما لهؤلاء الناس وماذا اعتراهم ؟ أيفرحون بهذا كله ؟ . . .

إنى لا أفقه من هذا كله شيئاً !

(١٠) عزفت عما فيه الناس ، ورحت إلى شرفتى كئيباً ، وكان الظلام قد ملأ الكون ، كما ملأ جوانب نفسى ، فغشيني ذهول عميق ، وانطلق لسانى يقول :

* * *

أيها الراحل المودع !

لقـد كانت لنا آمال ، صببناها على قدميك يوم خرجنا لاستقبالك ، وكنا كلما انقضى من عمرك يوم ولم تتحقق ارتقبنا بها يوماً آخر ، وهذا يوم لا آخر له ، فأخبرنا عن آمالنا ، ماذا صنعت بها ، أدست عليها فحطمتها وقطعت طريقك على رفاتها ؟

أيها الراحل المودع !

لقد أودع أسـلافنا عند أسلافك أمانة . هى المجد العربى ، والعزة الاسلامية ، فضاعت فى بيداء الزمن ، وانطلقت الأعوام وانطلقنا وراءها نفتش عنها وننشدها ، ولن ننى ما بقى فى الزمان عام ، وبقى منا إنسان ، فأخبرنا هل مررت عليها ، وهل عرفت أى عام يحملها الينا ؟ . . .

أيها الراحل المودع !

إنك ستجتمع فى عالم الأبدية بالأعوام التى سبقتك ، ومرت بنا قبلك ، فهل لك إذا اجتمعت بعام الدماء والدموع ، عام الثورة . . . أن تبلغه سلامنا وتحياتنا ، هل تحمل الى تلك الأرواح الطاهرة شوق أبنائها وإخوانها ؟ . . ألا قل لها تهدأ وتطمئن ، فانا لن ننسى ، لن ننسى . . . إن ذكرى الدم المسفوح لاتنسى أبداً !

وبعد يا أيها الراحل المودع !

أنبئنا ماذا يحمل هـذا القادم المسلم ، هل يحمل الينا تحقيق الآمال وبلوغ الأمانى ؟ أم يحمل الشـقاء والخراب والفقر والآلام والدموع والدماء ، كأخوانه ال . . خمسة عشر عاماً ، التى مرت على سورية ؟

أنظر ماذا خلفت فينا ، أنظر الى مدينتنا ، لقد جعلتها — فى ظل المتمدنين — أطلالاً وخرائب ، لقد جعلت أهلها فقراء بائسين . . . انظر هذه هى خرائب الدرويشية والميـــدان ؛ وهذه قلاع المزّة وقاسيون . . .

ولكن لابأس أيها العام لابأس ؛ إن أرضاً تسقى (الماء الأحمر !) لابد أن تنبت (الحرية الحمراء) ... وإننا لن نيأس أبدا

***

وأفقت من ذهولى ، وكان وهن من الليل ، وكانت اللحظة الأخيرة من العلم الراحل ، فأرسلت فى فضاء الله الواسع زفرة طويلة ، ثم رفعت رأسى شطر السماء وقلت :

— سبحانك لا اله إلا أنت . . هذا قضاؤك يا الله !

وتبددت اللحظة الأخيرة من العالم ، تبدد الحروف الأخيرة من مقالتى ، ولم يبق فى الوجود ، إلا ... اسم الله

باسم الله نستأنف العمل ، والله المستعان ؟

على الطنطاوى

ظواهر متماثلة

فى تاريخى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

لا يكاد يكون بين الأدبين العربى والانجليزى من وجوه التشابه إلا الأمور العامة التى يتفق فيها كل أدبين يعبران عن نوازع النفس الانسانية ، وهما فيما عدا ذلك مختلفان جد الاختلاف ، وهذا راجع الى أمرين: أولهما اختلاف الأمتين فى الجبلة والبيئة : فهـذه أمة شرقية ساميَّة خرجت من جزيرة صحراوية وورثت الدول الشرقية القديمـة ، وتلك أمة غربية آريّة خرجت من جزيرة شماليـة وشاركت فى تراث الدولة الرومانية ، وثانى الأمرين اختلاف قسطى الأدبين من التأثر بالثقافة اليونانية : فبينما كان تأثر الأدب العربى بها قليلاً غير مباشر كان تأثيرها فى الأدب الانجليزى شاملاً غامراً للأصول والفروع ، فا كتسب ذلك الأدب صبغة إغريقية ظل الأدب العربى بعيداً عنها

ولـكن هناك ظواهر فى تاريخ الأمتين والأدبين متماثلة أدى إليها تماثل وقتى فى الظروف وأدت الى نتائج متماثلة : فعصر الجاهلية فى تاريخ الأدب العربى شبيه بعصر ما قبل اليزابث فى التاريخ والأدب الانجليزيين : ففى ذينك العصرين كان كل من الشعبين يعيش داخل جزيرته فى عزلة كبيرة عن العالم على حال شبيهة بعصر الأبطال فى بلاد اليونان الذى أنتج ملاحم هوميروس ، وكان الأدبان تبعاً لذلك جافيين ، وعرى الأسلوب واللفظ ، ساذجى المعنى ، بعيدين عن الصناعة الفنية ، وكانا أقل رقيا من الأدب الذى جاء فى العصر التالى . والواقع أن الشبه هنا بين الجاهلية العربية وعصر الأبطال اليونانى كبير : ففى الجاهلية كان العرب منقسمين قبائل وعشائر متناحرة كما كانت البلدان والعشائر اليونانية ، وإن كانت تحس بقوميتها العربية العامة متمثلة فى لغتها وفى مجامعها السـنوية فى الأسواق وفى الحج الى مكة ، كما كان اليونان يجتمعون فى المواسم الأولمبية ويحجون الى دلفى ، وفى تميزها على الأمم الأخرى التى كان العرب يسمونهم عجماً كما كان اليونان يعتبرون من عداهم برابرة . وإن يكن العصر الجاهلى لم ينتج ملاحم كباراً كالالياذة والأوديسا فى اليونان أو كملحمة « بيولف » فى انجلترا ، فان قصائده على قصرها هى من هذا الضرب . ولعل العصر الجاهلى لو طال قليلاً لائتلفت تلك القصائد الصغيرة التى تمجد كل منها قبيلة واحدة ، فـكونت ملحمة كبرى تتغنى بفروسية الأمة العربية قاطبة

ونهضة العرب بظهور الاسلام تماثل نهضة الانجليز فى عصر اليزابث بوصول النهضة الأوربية الى انجلترا واتجاه نظر الانجليز الى ماوراء البحر ؛ ففى كلا العصرين بدأت كل من الأمتين تخرج من محيط جزيرتها وتشب عن طوق عزلتها وتتصل بالعالم وتصطنع حضارته وتبنى لنفسها امبراطورية مترامية الأطراف ، وارتقى أدبها من جراء ذلك ارتقاء عظيما ورقت ديباجته ؛ وإن يكن الرقى الأدبى فى صدر الاسلام قد تمثل فى النثر بينما تمثل فى العصر الاليزابثى فى الشعر ولا سيما الشعر التمثيلى

وبانبعاث هذه النهضة وقيام هـذه الدولة انتشرت كلتا اللغتين فى بقاع الأرض وافتتحت آدابهـا كثيراً من الأمم ؛ فاللسان العربى الذى لم يكن يتجاوز حدود الجزيرة فى الجاهليـة صار يُتكلم من حدود الصين الى المحيط الأطلسى ، وأثر فى لغات وأزال غيرها وحل محلها ، وأصبح اليوم لسان شعوب كثيرة فى آسيا وأفريقية . واللغة الانجليزية التى لم يكن يتكلمها إلا ملايين تعد على الأصـابع فى عهد شكسبير أصبحت تُتكلم وتدرس فى مشارق الأرض ومغاربها ، وأصبح أدبها عالمياً كما كان أدب العرب عالمياً على عهد عظمتهم

ولم تكد كل من الأمتين توطد أركان امبراطوريتها حتى انسلخ عنها جانب من أملاكها ونما مستقلاً حتى طاولها فى النفوذ والسـلطان ، وداناها فى ازدهار الآداب والعـلوم ؛ فكما انفصلت الأندلس عن الخلافة العربية استقلت الولايات المتحدة الأمريكية عن الامبراطورية البريطانية ؛ بيد أن البلاد الأصلية احتفظت بالزعامة الأدبيـة على طول المدى فلم تنجب الأندلس من الأدباء من بذوا فحول العباسيين ، ولا ظهر فى أمريكا ولا غيرها من أنحاء الامبراطورية البريطانية من دانى شكسبير وملتون

وباتصال كل من الأمتين بالأمم المتحضرة سرت إليها موجة

عدوى من دواعى الترف وبدا أثر ذلك فى أدبها : واختلاط العرب بالفرس أدخل الترف والعبث فى البلاط العباسى وأثر فى جيل أبى نواس من الشعراء ، واتصال الانجليز بفرنسا فى ظل ملكها المترف لويس الرابع عشر أفسد بلاطهم على عهد شارل الثانى وبان أثر ذلك فى الأدب ولاسيما فى الرواية التمثيلية

وكلا الأدبين تأثر إلى حد بعيد بالكتاب السماوى الذى تدين به أمته ؛ فأثر القرآن فى المجتمع العربى وتاريخ اللغة العربية وأصولها وآدابها وثقافة أدبائها وأساليبهم جسيم بين الجسامة ، فقد كان منذ جاء مثلاً أعلى وثقافة قائمة بذاتها ؛ والانجيل منذ ترجم إلى الانجليزية فى عهد الاصلاح الدينى كانت له اليد الطولى فى تثبيت الأسلوب النثرى الانجليزى ، وتثبيت مفردات اللغة ، وإدخال مفردات جديدة واشتقاق غيرها ، واختراع طرق للاشتقاق أدت إلى توسيع جوانب اللغة ، وكان دائماً قدوة للأدباء يحتذونها فى إسلاس الأسلوب ، وله أثر مباشر جلىٌّ فى كتابين من ذخائر الأدب الانجليزى : أحدهما « رحلة الحاج » لبنيان والثانى « الفردوس المفقود » لملتون : ففى كليهما كان أساس القصة ما ورد فى الانجيل من أنباء الخلق والبعث والحساب ، بل إن دراسة الانجيل كانت هى الثقافة الوحيدة التى نالها (بنيان) الذى كان قساً ضئيل الحظ من التثقف ، ومع ذلك فأسلوبه المبنى على أسلوب الانجيل يعد فى الذروة فى أدب اللغة

وهنالك التأثر بالتراث اليونانى الذى كان حتماً على كل شعب أتى بعد اليونان أن يتأثر به : فاغترف أدباء الانجليزية من مناهل الأدب اليونانى اغترافاً واستوعبوه دراسة فجاء أثره شاملاً عاماً لا يقتصر على فرع دون فرع ولا يمتاز به جيل أو أدباء أو أديب دون أديب ، على حين كان التأثير اليونانى فى الأدب العربى كما تقدم ضئيلاً غير مباشر آتياً عن طريق دراسة فلسفة اليونان لا أدبهم مما بدا أثره فى حكم المتنبى والمعرى واضرابهما

لم يأخذ العرب عن اليونان ولا عن غيرهم أخذاً بالجملة كما صنع الانجليز ، بل ظلوا فى زمانهم شامخين بأدبهم ينظرون من عليائه إلى من حولهم من أمم وما لها من آداب ؛ أما عهد الأخذ بالجملة فى تاريخ الأدب العربى فهو عصرنا الحاضر الذى يوسع فيه أدباؤنا اللغات الغربية دراسة ونقلاً ومحاكاة ، فيغنون أدبنا أى إغناء ، ويخصبونه بالعنصر الأجنبى الذى كان يعوزه

هذه ظواهر يتقارب فيها تاريخا الأدبين لتقاربٍ فى ظروف الأمتين فى شتى العهود ، أما ظواهر التباين فلا تكاد تعد ؛ ويجب حين نقابل بين التاريخين أن نذكر أن دولة العرب أقدم عهداً وأدبهم أعرق محتداً ، وأن دولتهم وأدبهم قد عبر الفصل الأول من قصتهما ، وهما اليوم فى طور بعث جديد ، أما الدولة والأدب الانجليزيان فما يزالان فى الفصل الأول

فخرى أبو السعود

٨ـ محاورات أفلاطون

الحوار الثانى

كريتون أو واجب المواطن

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

أشخاص الحوار : سقراط . كريتون
مكان الحوار : سجن سقراط

سقراط — وستقول القوانين بعدئذ : « اعلم ياسقراط ، إن صح هذا ، أنك بهذه المحاولة إنما تسىء الينا ، لأننا بعد إذ أتينا بك الى الدنيا ، وأطعمناك وأنشأناك وأعطيناك كما أعطينا سائر أبنا الوطن قسطا من الخير ، ما استطعنا للخير عطاء ، فقد أعلنا فوق ذلك على رءوس الأشهاد أن من حق كل اثينى أن يرحل الى حيث شاء حاملا متاعه معه ، إذا هو نفر منا بعد أن تقدمت به السن فعرفنا حق المعرفة وعرف على أى الأسس تسير المدينة ، وليس فينا نحن القوانين مايحول دونه أو يتدخل معه فى أمره ، فلكل منكم إذا ما كرهنا وكره المدينة ، وأراد الرحيل الى إحدى المستعمرات أو الى أية مدينة أخرى ، أن يذهب حيث شاء ، وأن ينقل متاعه معه ؛ أما ذلك الذى عركنا فعرف كيف نقيم العدل وكيف ندبر الدولة ، ثم رضى بعد ذلك المقام بيننا ، فهو بذلك قد تعاقد ضمناً على أنه لابد فاعل ما نحن به آمرون . فمن عصانا ، ونحن مانحن ، فقد أخطأ مرات ثلاثاً : الأولى أنه عصى والديه بعصيانه إيانا ، والثانية أننا نحن الذين رسمناله طريق نشأته ، والثالثة أنه قطع معنا على نفسه عهداً أنه سيطيع أوامرنا ، فلا هو أطاعها ، ولا هو أقنعنا بأنها خاطئة ، ونحن لا نفرضها عليه فرضاً غشوماً ، ولكنا نخيره ، فإما طاعتنا وإما إقناعنا . هـذا ما قدمناه إليه ، وهذا ما رفضه جميعاً . تلك هى صنوف المآخذ التى ستقيم من نفسك هدفاً لها ياسقراط إذا أنت أنجزت عزيمتك ، كما سبق لنا بذلك القول . ولا سيما أنت دون الآثينيين جميعاً » وهب أنى سألت ولم هذا ؟ فستجيب حقاً بأننى قد سلمت بهذا الاتفاق دون سائر الناس . ستقول القوانين « إن ثمت لبرهاناً ساطعاً يا سقراط ، بأننا والمدينة معنا لم نكن لنعكر عليك صفو العيش . فقد كنت أدوم الآثينيين جميعاً مقاماً فى المدينة : لم تغادرها قط ، حتى ليجوز لنا الفرض بأنك كنت تحبها ؛ إنك لم تغادرها مطلقاً لتشهد الألعاب ، اللهم إلا مرة واحدة حين ذهبت لترى البرزخ[1] ، ولم تفصل عنها لتقصد إلى أى مكان آخر ، إلا إذا كنت فى خدمة الجيش ، ولم تسافر كما يسافر الناس ، ولم يدفعك حب الاستطلاع إلى رؤية الدول الأخرى لتلم بقوانينها ، فقد اختصصتنا بحبك لم تجاوز به حدود دولتنا ، فكنا نحن أصفياءك المخلصين ، وقد رضيت بحكمنا إياك . إن هـذه هى الدولة التى أعقبت فيها أبناءك ، وإن ذلك لينهض دليلاً على رضاك . هذا وقد كنت تستطيع لو أردت أن تقرر عقوبة النفى أثناء المحاكمة — وإن كان الآن ثمت دولة تغلق دونك أبوابها فقد كانت حينئذ تسمح بذهابك إليها ، ولكنك ادعيت أنك تؤثر الموت على النفى ، وأنك لم تبتئس من الموت . ولكن هأنت ذا الآن قد أنسيت تلك العواطف الجميلة ، وترفض أن تحترمنا — نحن القوانين ، التى أنت هادمها ، وإنك الآن لتفعل مالايفعله إلا العبد الخسيس ، فتولى أدبارك هارباً من العقود والعهود التى قطعتها على نفسك باعتبارك واحداً من أبناء الوطن ؛ فأجب لنا أولاً عن هذا السؤال : أنحن صادقون فى القول بأنك اتفقت على أن تُحكم وفقاً لنا ، بالفعل لا بالقول فقط ؟ أهـذا حق أم كذب ؟ بماذا نجيب عن ذلك يا كريتون ، ألسنا مضطرين إلى التسليم ؟

كريتون ـ ليس عن ذلك منصرف يا سقراط

سقراط ـ أفلن تقول القوانين إذن : « إنك ياسقراط ناقض المواثيق والعهود التى أخذتها معنا على نفسك اختياراً ، فما كنت فى أخذها عجلان ولا مجبراً ولا مخدوعاً ، ولكنك لبثت سبعين عاماً تفكر فيها ، وكنت خلالها تستطيع أن تغادر المدينة إن كنا لم نصادف من نفسك قبولاً ، أو كنت قد رأيت فيما اتفقنا عليه اجحافاً بك . كنت فى ذلك مخيراً ، وكان فى مقدورك أن ترحل إما إلى لا قيدعون أو إلى كريت اللتين كثيراً ما امتدحتهما لحسن حكومتيهما ، أو ترحل إلى أية دولة أجنبية

---

(١) يرجح أن المقصود هنا برزخ كورنت الذى يصل شبه جزيرة الموره بشبه جزيرة البلقان ، وبقربه تقع أثينا

يونانية أخرى . ولـكنك كنت تبدو ، أكثر من سائر الأثينيين جميعاً ، شغوفاً بالدولة ، أو بعبارة أخرى ، بنا — أي بقوانينها (إذ من ذا الذي يحب دولة لاقوانين لها) فلم تتزحزح عنها قط ، ولم يكن العُمي ، والعُرج ، والمقعدون ، بأكثر منك قبوعاً بها ؛ وهأنت ذا الآن تفر ناقضاً ما قطعته من عهود . ما هكذا ياسقراط إن أردت بنا انتصاحا ، لا تضع نفسك بهروبك من المدينة موضع السخرية

« وحسبك أن ترى أي خير تقدمه لنفسك أو لأصدقائك ، ان أنت اعتديت أو أخطأت على هـذا الوجه ؟ أما أصدقاؤك فالأرجح أن يُشـرّدوا نفياً . وأن يسلبوا حق انتسابهم للوطن أو أن يفقدوا أملاكهم . أما عن نفسك أنت ، فلو تسللت إلى إحدى المدن المجاورة ، إلى طيبة أو ميغارا مثلاً ، وهما مدينتان تسيطر عليهما حكومة حازمة ، فستدخلهما عدواً ياسقراط وستناصبك حكومتاهما العـداء ، وسينظر اليك أبناؤهما الوطنيون بعين ملؤها الشر لأنك هادم للقوانين ، وسيقر في عقول القضاة أنهم كانوا في إدانتهم إياك عدولاً . فأغلب الظن أن يكون مفسد القوانين مفسداً للشبان ، وأن يكون بلاء ينزل بالغفلة على بني الانسان . فلم يبق لديك إلا أن تفر من هذه المدن المنظمة ومن ذوي الفضل من الرجال ، ولـكن أ يكون الوجود حقيقاً بالبقاء على هذه الحال ؟ أم أنك ستغشى هؤلاء الناس في صفاقة يا سقراط لتتحدث اليهم ؟ وماذا أنت قائل لهم ؟ أفتقول ماتقوله هنا من أن الفضيلة والعدالة والتقاليد والقوانين أنفس ما أنعم به على الناس ؟ أ يكون ذلك منك جميلاً ؟ كلا ولا ريب . أما إن فررت من الدول ذوات الحكم الحازم ، الى تساليا حيث أصـدقاء كريتون ، وحيث الاباحية والفوضى ، فسيجدون متاعاً في قصـة هروبك من السجن ، مضافاً اليها ما يبعث على السخرية من التفصيل عن كيفية تنكرك في جلد عنزة أو ما عداه من أسـباب التنكر ، وعما بدلته من ملامحك كما جرت بذلك عادة الآبقين — ليس ذلك كله ببعيد ، ولـكن ألن تجـد هناك من يذكرك بأنك وأنت هذا الشيخ الـكهل ، قد نقضت أشد القوانين تقديساً ، من أجل رغبة حقيرة في استزادة الحياة زيادة ضئيلة ؟ قد لا تجـد إذا استرضيتهم ، ولـكن لا تلبث أن تثور منهم سورة الغضب ، حتى يصكوا مسمعيك بما يجللك عاراً . إنك ستعيش ، ولـكن كيف ؟ — متملقاً للناس جميعاً وخادماً للناس جميعاً . وماذا أنت صانع ؟ — ستأكل في تساليا وتشرب ، لأنك قد غادرت البلاد لـكي تصيب في الغربة طعاماً لغدائك ، وأين ترى ستكون تلك العواطف الجميـلة التي تبديها حول العدل والفضيلة ؟ قل إنك راغب في الحياة من أجل أبنائك لتتعهدهم تربية وإنشاء — ولـكن أأنت مصطحبهم الى تساليا ، فتقضي عليهم بذلك ألا يكونوا أبناء الوطن الأثيني ؟ أذلك ما ستمنحهم إياه من نفع ؟ أم أنت تاركهم واثقاً بأنهم سيكونون أحسن رعاية وتربية مادمت أنت حياً ، حتى ولو كنت غائباً عنهم ، إذ يعنى بهم أصدقاؤك ؟ هل تخيل لنفسك أنهم سيعنون بهم ما أقمت في تساليا ، أما إن صرت من أهل العالم الآخر ، فلن يعنوا بهم ؟ كلا ، فان كان من يسمون أنفسهم أصدقاء ، أصدقاءك حقاً ، فانهم لا شك معنيون بأبنائك

« اصغ إلينا إذن ياسقراط ، نحن الذين أنشأناك . لا تفكر في الحياة والأبناء أولاً ، وفي العـدل آخراً ، بل فكر في العدل أولاً ، وارج أن تصيب البراءة عند ولاة العـالم الأسفل . فان فعلت ما يأمرك به كريتون ، فلن تـكون أنت ولا من يتعلق بك كائناً من كان ، أسعد أو أقدس أو أعدل في هذه الحياة ولا في أية حياة أخرى . فارحل الآن بريئاً ، مجاهداً لا فاعلاً للرذيلة ، ضحية الناس لا ضحية القوانين . أما إن صممت أن ترد الشر بالشر والضر بالضر ، ناقضاً ما قطعته أمامنا على نفسك من عهود ومواثيق ، مسيئاً إلى أولئـك الذين ينبغي ألا يمسهم من إساءاتك إلا أقلها ، أعني نفسك ، وأصدقاءك ، ووطنك ، ونحن ، فسننقم عليك مادمت حياً ، وستستقبلك قوانين العالم الأسفل ، وهي إخوتنا ، عدواً ، لأنها ستعلم أنك لم تدخر وسعاً في هدمنا . اصغ إذن إلينا ، لا إلى كريتون »

هذا هو الصوت الذي كأني به يهمس في مسمعيّ ، كما تفعل نغمات القيثـارة في آذان المتصوف . أقول إن هذا هو الصوت الذي يدوّي في أذنيّ ، فيمنعني من أن أستمع الى أي صوت سواه وإني لأعلم أن كل ما قد تقوله بعد هذا سيذهب أدراج الرياح ، ومع هذا ، تكلم إن كان لديك ما تقوله

كريتون — ليس لدي ما أقوله ياسقراط

سقراط — ذرني إذن أتبع ما توحي به إليّ إرادة الله

زكي نجيب محمود

انتهى الحوار الثاني ، وسننشر الحوار الثالث ابتداء من العدد الآتي

التصوف الاسلامى

بقلم سليمان فارس النابلسى

توطئة

يبدأ الدين فى أول أمره عقائد راسخة ومناسك ثابتة لا تسامح فى أوامره ولا هوادة فى نواهيه . ثم لا تلبث – بعد أن يتطاول الزمن وتمر السنون – أن تلين العريكة وتأخذ المياسرة مكان المعاسرة فيـدب الشك الى العقائد الموروثة والسنن المرعيّة ؛ إذ ذاك يبحث الانسان عن عقيدة تسوّى ما بين نفسه وبين الكون تسوية مقبولة يرتضيها العقل ويقرّها المنطق ، وعندئذ تنشأ الصوفية

والصوفية منحىً فى الفكر ، لا بل فى الشعور يصعب تحديده ، يظهر فى محاولة العقل الانسانى تفهّم الطبيعة الروحية لحقيقة الأشياء ، ويبرز فى بِشر المرء وسروره بنعمة الارتباط الروحى مع الخالق العظيم

معنى لفظة صوفى

لقـد تباينت الآراء وتضاربت الأهواء فى المصـدر الذى اشتُـقت منه لفظة صوفى ، فمن قائل إنها من الأصل اليونانى « سوف Sophos » بمعنى حكمة كما ذكر أبو الريحان البيرونى فى كتاب الهند ، ومن قائل ـ وهم الصوفيون أنفسهم ـ من صفا صفاءً . قال أبو الفتح البُـستى

تنازع الناس فى الصوفى واختلفوا
قِدماً وظنوه مشتقاً من الصوفِ
ولست أنحل هـذا الاسم غير فتىً
صافى فصوفى حتى لُقّب الصوفى

وذهب آخرون الى أنها متحدرة من معنى دينىّ ، فينسبونها الى أصحاب (الصفة) وهم قوم من الصحابة كانوا يجلسون على باب المسجد يوزعون الصدقات على الفقراء . على أن الرأى الأكثر شيوعاً والأقرب للعقل والمنطق هو نسبتها الى « صوف » أى الى ظاهر اللباس . فأبو نصر السراج مؤلف كتاب اللمع – وهو أول كتاب ظهر عن الصوفيـة – يقول : « إن لبسة الصوف دأب الأنبياء وشعار الأولياء ، فلما أضفتهم الى ظاهر اللبسة كان ذلك اسماً مجملاً عاماً . . . »

وقد أيد العلامة (نولدكه) هذه النظرية وشاركه فى الرأى العالم الانجليزى الشهير (برون Browne) وكان مما استدل به على ذلك الكلمة الفارسية (باشمينابوش) التى يسمون بها عادة ، ومعناها اللفظى (لابسو الصوف) وجبب الصوف كانت منذ القدم علامة الحياة البسيطة الساذجة

منشأ التصوف الاسلامى

يرجع بنا البحث عن منشأ التصوف الاسلامى الى الحركة الزهدية التى قامت فى القرن الأول للهجرة تحت التأثير النفسى العميق المتكشف عن خوف من الله تعالى يوجب التسليم لأرادته سبحانه والانقياد لمشيئته . وعلى هذا يجمل بنا أن نبحث التصوف فى طورين مختلفين

١ – طور الزهد : لم يكن التصوف فى هذا الطور نظاماً فلسفياً ولا مسلكاً دينياً وإنما هو طريقة فى الحياة والمعيشة خاصة ، تمتاز بالزهد فى الملذات والابتعاد عن الدنيا حباً فى الآخرة ، فهو إذن إسلامى خالص لا أثر للعوامل الخارجية والعناصر الأجنبية فيه من نصرانية ويهودية وهندية وفارسية . وكل ما هنالك أنه ظهر فى صدر العصر الأموى جماعة من المسلمين رغبوا عن هذه الحياة الاجتماعية الملأى بألوان اللهو والتهتك والخلاعة ، وتطلعوا إلى حياة هادئة وقورة مرضية لضمائرهم التى تتشوق إلى الابتعاد عن صغائر الحياة وسخافاتها مطابقة لعقائدهم التى مازالت شديدة التمسك بالحياة الاسلامية الخالصة من بساطة وسذاجة . زد على ذلك أن الحياة السياسية كانت قلقة مضطربة ، فالفتنة قائمة بين الفرق والشيع ، والمعارك مستعرة بين مختلف القادة والأمراء ، كل ينشد جاه الحكم ومجد السلطان غير ملتفت إلى ما يجره ذلك من هدر دماء المسلمين وتشتيت كلمتهم ورجوعهم إلى جاهليتهم الأولى . كل هذه العوامل غذت الحركة الزهدية وبعثت فى قلوب بعض المؤمنين الميل عن المادة والانصراف إلى العمل الصالح فى نفسه وتذكير الناس بأمور دينهم وعقائدهم . ويأتى (نكلسون) العالم الانجليزى الضليع فى هذه الأبحاث فيضيف إلى هذه العوامل عاملاً آخر لا يقل عنها قوة وأثراً ، ذلك أن الصورة التى يبرزها القرآن الكريم (للاخق) عز وجل هى فى نفسها تدعو إلى الخوف والرهبة ؛ فهى صورة إله جبار شديد البطش سريع العذاب . فالشعور بالخوف من جهنم الذى يكتنف قارئ القرآن يدعو حتماً إلى التصوف والزهد واحتقار المادة والابتعاد عن سبل الضلال

ومن أهم الشخصيات الممتازة فى هذا الدور الحسن البصرى الذى عُرف بالزهد والورع والرجوع إلى السنة فى بساطة العيش وسمو الغاية . ومنهم أبو هاشم الكوفى الذى يقال إنه أول من أطلق عليه لقب « الصوفى » وأسس ديراً للمتصوفين فى رملة فلسطين . ثم ظهر ثلاثة نفر فيما وراء النهر فى فارس فى أواخر القرن الثانى الهجرى وهم : ابراهيم بن أدهم وشقيق البلخى وفضيل بن عياض ، فنرى عندهم بدء نظام فلسفى ، فهم يمثلون دور الانتقال من حياة الزهد إلى نظام التصوف الفلسفى ، ولعلهم كانوا عاملين على الامتزاج بالتعاليم الهندية الفارسية لقرب موطنهم من هذه البلاد التى كانت تتفاعل فيها هذه المبادئ المختلفة . ويظهر ذلك بجلاء عند الزعيمة المتصوفة رابعة العدوية التى كانت كما يقول نكلسون أول من أدخل نظام الحب الفلسفى والوجد والاتحاد بالله بدل الخوف والرهبة

٢ الطور الثانى : التصوف الفلسفى

لقد أخذ التصوف فى هــــذا الطور شكلاً فلسفياً ونظاماً مستقراً فى الدين يميل العلماء إلى نسبته إلى عوامل خارجية من نظريات فلسفية وأديان أخرى . فمن ذلك :

أ — **المصدر الهندى** : يعتقد بعضهم أن لهذا التشابه بين كثير من العقائد الصوفية فى صورها الراقية الناضجة وبين بعض النظم الهندية وعلى الأخص ال Vandata أساساً واحداً ومنبعاً مشتركاً يجب أن يبحث عنه فى الهند ، فان معظم المتصوفة الأول نشأوا فى خراسان وظهرت فلسفتهم الصوفية فيها ؛ ولعل مبدأ الفناء الذى يندمج فيه المتصوف بالله ويفقد شخصيته الفردية ، مستمد بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من عقيدة « النارفانا Narvana » الموجودة فى الديانة الهندية

ب — **المصدر النصرانى** : يعتقد المتصوفة أن غاية كل الأديان واحدة ، وأنها كلها تصل بالانسان الى الهدف المقصود والغاية المرجوة ، فليس غريباً إذن أن يحتك المتصوفون بالرهبان المسيحيين ، ويمتزجوا بهم فيظهر أثر ذلك فى تعاليمهم وأنظمتهم ، خصوصاً وقد ظهرت هذه النزعة التنسكية الزهدية فى الكنيسة المسيحية فى القرنين الأول والثانى للهجرة

حـ — **الافلاطونية الجديدة** : ظهر هذا النظام الفلسفى فى أوائل القرن الثالث المسيحى على يد (أمونياس ساكاس) وبلغ أوجه فى زمن تلميذيه بلاتينيوس وفرفوريوس النحوى شارح تعاليمه . وإذا ما دققنا فى تعاليم هذا المذهب الأدبية رأيناها تؤدى حتما الى التصوف . إذ يعلّم أن طريق الخلاص هو بالتجرد التام عن المادة . وانفصال النفس عنها ؛ بذلك يتصل الانسان « بالعقل الأول » اللفظ الفلسفى للحق سبحانه ، وينال الغبطة التى يعبّر عنها المتصوفون بالفناء . لقـد انتشرت هذه التعاليم الفلسفية فى العالم الاسلامى ، وكان أثرها فى الفلاسفة المسلمين واضحاً جلياً

د — **فلسفة المعرفة** Gnosticism : جماعة هذا النظام الفلسفى الذى نشأ بين القرنين الأول والسادس للمسيح يعتقدون أن الايمان وحده لا يكفى للخلاص ، بل إن المعرفة هى متممته . ويعنون بهذا أن يعرف المرء أنه من عنصر إلٓهى ، وأنه لابدّ أن يرجع فى نهايته إلى هذا العنصر الذى نشأ منه ، حينذاك وعند ما ينغمس فى هذا الاعتقاد تخلص نفسه من شوائب المادة ويقرب من الله . وقد انتشر هذا المذهب فى العراق وفارس وتأثر بالمانوية وأثر فيها فأخذت منه عقيـدة الظلمة والنور . أما إنه أثر فى العقائد الصوفية فانا نلمس هـذا فى القول بأن الانسان يُخلق إلٓهياً ، وكلما تقدم فى العمر خلع حجاباً إلٓهياً واستبدل به آخر إنسانياً إلى أن يمر بسبعين ألف حجاب فى أرذل العمر . ولا نجاة له إلاّ باتباع التعاليم الصوفية والانصراف عن المادة إلى الروح ، بذلك يسلك طريق النجاة

هذه أهم المؤثرات الخارجية التى عملت على تغذية العقيـدة التصوفية الاسـلامية وخلقت منها طريقاً فلسفياً خاصاً . وليس من المستطاع رد كل من العقائد التصوفية الفردية الى أصلها الذى استُمدت منه ، فعقيدة فى مثل هذا الانتشار العظيم ذات مبادئ كثيرة ونظم واسعة لايمكن أن تقع تحت تأثير عامل واحد مهما جلّ شأنه واتفقت الظروف على تقدمته والميل اليه .

كانت الصوفية دائماً بخيرة تنتقى من كل العقائد ما تشتهى وتشاء . نظام شامل يمتص ويهضم — بعد بعض تغيير وتحوير — من كافة الآراء والمعتقدات المختلفة حوله ، يكتسب أناساً من كافة الملل والنحل من موحدين ومشركين ، معتزلة وسنيين ، فلاسفة ورجال دين . هذه الاعتبارات كلها تضعنا فى موقف دقيق يضطرنا الى القول بأن منشأ الصوفية الاسـلامية الفلسفية لايمكن أن يجاب عنه بجواب شاف صريح

(يتبـع) سليمان فارس النابلسى

في تاريخ الأدب المصري

ابن النبيه

للأستاذ أحمد أحمد بدوي

أفديه إن حفظ الهوى ، أو ضيعا ... ملك الفؤاد ؛ فما عسى أن أصنعا
من لم يذق ظلم الحبيب كظلمه ... حلواً فقد جهل المحبة وادعى
يأيها الوجه الجميل تدارك الصبر الجميل ، فقد عفا ، وتضعضعا
هل في فؤادك رحمة لمتيم ... ضمت جوانحه فؤاداً موجعاً
هل من سبيل أن أبث صبابتي ... أو أشتكي بلواي ، أو أتوجعا
إني لأستحيي كما عودتني ... بسوى رضاك إليك أن أتشفعا

أغنية شائعة ، نستمع إليها ، ونطرب لها ، ونحفظها ، وقليل منا هو الذي يعرف أن قائلها ابن النبيه الشاعر المصري الذي أحببنا أن نحدثك عنه اليوم

— ١ —

يذكر التاريخ ولا ينسى لصلاح الدين وخلفاء صلاح الدين أنهم هم الذين حموا ذمار الشرق من غارة الأوربيين الذين كانوا يمنون النفس بالآمال الكاذبة في الشرق وامتلاك أرضه ، فكان العصر عصر حرب وقتال ونضال ونزال بين الشرق والغرب ، خرج منه الشرق ظافراً منتصراً على أيدي ملوك مصر وخلفائهم . ولقد ولد شاعرنا على ما يظهر قبل أن يلي صلاح الدين حكم مصر بقليل ، ولكنه نشأ وشب في أحضان تلك الدولة وفي عهد حكمها الرشيد ، ولكنه لم يعش بمصر طوال حياته ، بل تركها إلى أقطار أخرى كانت كذلك تحت حكم الأيوبيين ؛ غير أنه على ما يظهر لي — لم يغادر الديار المصرية مرة واحدة ، بل كان يزورها في الحين بعد الحين ، واستطاع أن يتصل فيها بطائفة من وزراء الدولة وكبار رجالها كالقاضي الفاضل ، وأسعد بن مماتي ، وصفي بن شكر . والراجح عندي أنه لم يغادر مصر إلا بعد أن مات صلاح الدين ، فانه حينما خرج من مصر مدح العادل ، والعادل لم يل حكم الجزيرة إلا بعد أن مات صلاح الدين ، ولذلك فابن النبيه مدين لمصر بتنشئته وثقافته ، ومدين لها بالرقة والعذوبة التي تتجلى في شعره ، وتأسرك إلى قراءته قسراً ، غير أن نفسه الطموح الراغبة في العظمة والمجد بدأت تتطلع إلى نيل مركز سام ومنصب رفيع . ورأى أن في مصر من العظماء من لا يستطيع قهرهم ولا منافستهم ، فخف الخطا إلى الجزيرة حيث يستطيع أن يجد له ميداناً للعمل والتقدم ، فاتصل بالملك العادل ، ومن بعده اتصل بابنه الملك الأشرف الذي كان يلقب بشاه أرمن لاستيلائه على بلاد الأرمن ، وقد اختص بهذا الأخير ، حتى إنك إذا قلبت ديوانه وجدت معظمه في مدحه والثناء عليه ، وحتى لتوهمك مقدمته أنه إنما جمع قصداً لكي يجمع ما قاله في الملك الأشرف من مدائح ، ولقد أصبح أثيراً لديه يستصحبه في رحلاته وتنقلاته ، وأصبح ابن النبيه اللسان المسجل لما يلقاه المليك من خير أو نصر أو حادث هام ؛ وصار كاتب الانشاء له ، يدبج عنه الرسائل ، وأحياناً كان يكتبها بالشعر كما سنتحدث بعد . ويقول من أرخ لابن النبيه : إن له شعراً أعذب من الماء الزلال ، وأغرب من السحر الحلال ، ونثراً ألطف من كاسات الشمول ، وأرق من نسمات الشمال ، فالنظم والنثر عنده جنتان عن يمين وشمال . . . غير أننا سنقصر كلامنا اليوم على شعره ، وإن كنت أرجح أن المقدمة التي في صدر ديوانه ، وهي مقدمة نثرية من صنع ابن النبيه فان منها قوله : وأحق الناس بعد الله تعالى بالشكر ملك أشار اليه بنان البيان ، وأينع بذكره جنان الجنان ، وقلد بذكره القريض فزان الأوزان ، عف وعفا ، وكف وكفى ، وأحيا رفات الوفا ، فزمان دولته غض الغضارة ، نض النضارة ، حلو البشارة ، بديع الاشارة ، المولى السلطان الملك الأشرف شاه أرمن ، سلطان العراق والشام ، مظفر الدين ناصر أمير المؤمنين ، أبو الفتح موسى ابن السلطان الملك العادل سيف الدنيا والدين ، أبي بكر بن أيوب خليل أمير المؤمنين ، خلد الله ملكه كما خلد في ديوان المحامد ذكره ، وخذل بسلطانه أعداء الدين ، وأعز نصره ، ولما لم يجد مملوك دولته ، وغرس فواضله ، وربيب نعمته ، الفقير إلى الله تعالى أبو الحسن كمال الدين علي بن محمد بن النبيه ما يكافىء به أياديه ، ويجاري به إحسانه الذي يخجل الغيث روائحه وغواديه ، توفر على استخراج جواهر صفاته من بحر كرمه ، ونظم فرائد فوائده فكافأ نعمه بنعمه ، وجمعها في هذا الكتاب معترفاً أن الشرف

للجوهر لا للناظم ، وأن الفضل للبحر الذى أرسل الغيث على أجنحة الغمائم ، وجعله عرضة لنقد الخواطر ، وميداناً لجولان قريحة كل متأمل وناظر ، وسبيل كل منصف ينظر فيه الايمان بآيات سحره المبين ، وإقالة العثار فيما لعله يعرض من الخطل الوارد على المؤلفين والمصنفين ، وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم . فاذا أنت قرأت تلك المقدمة وأنعمت إلى قوله : لم يجد مملوك دولته إلى آخر ما قال استطعت أن ترجح أن تلك المقدمة من قلم ابن النبيه ، واستنبطت منها أموراً أربعة : أولها أن القصد من جمع الديوان تسجيل ما قاله فى الملك الأشرف ، ولذلك رتب الشعر ، فبدأ أولاً بما قاله فى الخليفة العباسى ، لسيادته الروحية على العالم الاسلامى كله ، ثم ثنى بما قاله فى الملك العادل والد الأشرف ، ثم ثلث بما قاله فى الملك الأشرف ، وهو معظم ما قاله من الشعر ، ثم ذكر ما قاله فى غيره من أمراء الأيوبيين والوزراء . ثانيها أن الشعر الذى فى ديوان ابن النبيه شعر يقره ويرضاه ويعده سحراً ويفخر بنسبته إليه ، ومن أجل ذلك ترى من أرخ له يقول : إن هذا الشعر الذى بين أيدينا ليس بكل شعره وإنما هو اختيار منه ، مستدلين على ذلك بأنه شعر بارع جيد يدل على أن صاحبه قد مرن على قول الشعر طويلاً حتى انقاد له ، وأصبح ذلولاً ، فحذف منه ما لا يرضى وأبقى منه هذا الديوان الصغير ، الذى اشتمل على جيد شعره ، (وإلا فما هذا شعر من لا نظم إلا هذا الديوان الصغير) كما قال صاحب فوات الوفيات ، على أنه على ما يظهر لم يجمع ديوانه كله ، إذ أنك ترى فى آخر ديوانه بعض شعر وقصائد ألحقها به جامع الديوان بعد ابن النبيه . ثالثها أن شعر المدح يجب أن ينبعث عن عاطفة حية هى عاطفة الشكران وحفظ الجميل ، وهو يرى أن المدح لذلك واجب لأنه شكر للمنعم على ما أنعم ، وشكر المنعم أول الواجبات قال ... إن شكر كل منعم واجب ، وقام على ذلك دليل انعقد عليه إجماع أئمة المذاهب ، وذلك يدلنا على أنه لقى حقاً من ممدوحه حسن الصنيع وأيادى جمة استحق من أجلها أن يشكر وأن يثنى عليه . رابعها أن تلك المقدمة تعتبر نموذجاً لنثره ، وهى لذلك تستطيع أن تعطينا صورة عن هذا النثر الذى دبجته براعة ابن النبيه ، فهو نثر صناعى يلتزم فيه السجع ، ويكون للصناعة المحل الأول فى إنشائه ، شأنه فى ذلك شأن كتاب النثر فى ذلك العصر الذى حمل لواء الزعامة فيه القاضى الفاضل ومن نهج منهجه . فلا جرم كان نثره صناعياً خاضعاً لأحكام البديع وقوانينه ، هـذا وإن شعره ونثره وتوليه أعمال الانشاء للملك الأشرف تدلنا على نوع الثقافة التى تلقاها حتى هيأته لتولى ديوان الانشاء فهو علوم الدين واللغة العربية تلك العلوم التى كان لزاماً أن يأخذ منها بحظ وافر يساعده على تولى هذا المنصب ، ولقد تلقى هذه الثقافة بمصر ، إذ أننا قد رجحنا أنه لم يغادر وادى النيل إلا بعد موت صلاح الدين ، فيكون قد شب وترعرع فى أرض مصر ، والثقافة المصرية كانت زعيمة الثقافات ، كما كان ملوكها زعماء الملوك

— ٢ —

لابن النبيه مذهب فى الحياة يشبه مذهب غيره من شعراء مصر أو على الأقل شعراء مصر الذين درسنا أقوالهم ، ذلك المذهب الذى ينظر إلى الحياة نظرة من يريد التمتع بما فيها من خير وجمال ، لا يصدف عنه ، ولا ينأى بجانبه عن حسنه وما كمن فيه من أسباب السرور والنعمة ، فهو يوقن أن الدنيا متقلبة ، فهى حيناً ضاحكة ، وأحياناً عابسة ، فماله يعكر على نفسه صفوها حينما تكون صافية ، وما له لا ينتهز الفرص وينال اللذة ؟

خذ من زمانك ما أعطاك مغتنما ... وأنت ناه لهـذا الدهر آمره
فالعمر كالكأس تستحلى أوائله ... لكنه ربما مجت أواخره
واجسر على فرص اللذات محتقرا ... عظيم ذنبك ، إن الله غافره

وكان لهـذا المذهب آثاره الكبرى فى حياته العملية ، فهو يحب الخمر ويطرب لشربها ، ويترع الكأس ويروى بها ظمأ نفسه ، وهو يهفو الى السقاة يتغزل فيهم ، ويصف محاسنهم ، وقد كان السقاة يختارون من أجمل الفتيان وأصبحهم ؛ بل إنه يهفو الى كل وجه جميل ، ولو كان وجه جندى من الكماة ، وهو يحن الى مجالس الأنس يسعى إليها ويدعو صحبه ليشاركوه لذته ، وهو يأنس الى الطبيعة يحب جمالها ، ويغرم بمفاتنها فيصفها ، وهو يجد لذة فى الخروج الى الصيد يخرج الى الفلاة مع رفقة حسان الوجوه ، ثم يعود بما وقع فى يده من صيد ، وذلك كله نتيجة لهذا المذهب الذى اختطه لنفسه ، وكان شعره صورة حية له ، فأنت تسمعه يصف الخمر ويقول :

تأمل كئوس عتيق الرحيـ ... ـق ترى الماء يجمد والجمر ذائب

لها فى الزجاجة رقص الشبـ ... ـاب ومفرقها أشمط اللون شائب
وترعد غيظاً إذا أبرزت ... من الدن كالمحصنات الكواعب
كأن الحباب على رأسهــا ... جواهر قد كللت فى عصائب
لحمرتها صح عنـــد المجو ... س أن السجود الى النار واجب

ويصف موطن لذة نال فيه السرور من الخمر والساقى ويقول :

رق الزجاج وراق كأس مدامنا ... ورضاب ساقينا الأغن الأهيف
فمزجت ذاك بهذه وشربتها ... ولثمتــه ، وضممته بتلطف
وجنيت من وجناته لما استحى ... وردا بغـير رضا بنا لم يقطف
ورنا الى بطرفه فكأنما ... أهدى السقام لدنف من مدنف
بتنا وقد لف العناق جسومنا ... فى بردتين : تكرم وتعفف

ويقول مرة أخرى متغزلاً بالساقى وكان من الأتراك :

ساق كأن جبينه فى شعره ... قمر تبلج فى الليالى السود
غصن ترنح خصره فى ردفه ... فعجبت للمعدوم فى الموجود
إياك والأتراك إن لبعضهم ... أشخاص غزلان وفعل أسود
أجسامهم كالماء إلا أنهــا ... حملت قلوباً من صفا الجلمود

وتسمع منه غير ذلك كثيراً فى وصف الخمر وسقاتها والتغزل فيهم ؛ ولعل بعضهم لامه على شرب الخمر أو على الاكثار من شربها فقال له :

الراح روحى ، فكيف أهجرها ... منظرها طيب ومخبرها
راح إذا ما الفقـير صافحها ... أغناه ياقوتهـا وجوهرها

فاذا ذهبت تستمع الى حبه للطبيعة وغرامه بها سمعته يقول :

قس بالسماء الأرض تعلم أنها ... بكواكب الأزهار أحسن زخرف
أحداق نرجسها لخد شقيقها ... مبهــوتة بجماله لم تطرف
والطل فى زهر الأقاح كأنه ... ظَلْم ترقرق فى ثنايا مرشف

وهو إحساس طيب وشعور حميد يوجه نظرك إلى أن فى الأرض جمالاً قد تزيد قيمته عما فى السماء من نجوم وكواكب ، فليقبل على الزهور يتمتع بمرآها ، ويستلذ بشميم رياها وينعم بجمالها . كما كان له – كما حدثتك – لذة خاصة فى الصيد حينما يخرج مع جماعة (حسان الوجوه) فيصطادون ويتمتعون وهو يصف لك ذلك فى قوله :

برزنا الى اللهو فى حلبــة ... حسان الوجوه خفاف المراكب
بنادقهم فى عيون القسى ... كأحداقهم فى قسى الحواجب
فتلك لهــا طائر فى السما ... ء وهذى لها طائر القلب واجب
وحالت سوابق شهب خوا ... طف حجبن المنا بمرخو المخالب
بزاة لها حـــدق الأفعوا ... ن وأظفارها كحماة العقارب
فللأفق نسران : ذا واقع ... وذا طائر حذر الموت هارب
وأطلق كلاً بنا ضــارياً ... يبارى هبوب الصبا والجنائب
تطـــير به أربع كالريا ... ح ويفتر عن مرهفات قواضب
ويضرب فى ليــل جلبابه ... شعاع شهاب من العين ثاقب
وعـــدنا نجر ذيول السرو ... ر والطير والوحش ملء الحقائب

ألا تراه يصف لك رحلة شيقة ؟ إذ أنه قد خرج مع جماعة حسان الوجوه يقصدون اللهو والتمتع فاختاروا الصيد ملهى لهم فخرجوا يبغونه ، ولكنه قبل أن يصف لك مافعلوه فى رحلتهم مضى يحدثك عن جمال رفقته وأن عيونهم كالسهام تصيب القلوب وتدميها ، فأحداقهم كالبنادق هذه هدفها طائر فى السماء ، وتلك يجب لها طائر القلب ويخفق

ذهبوا الى مكان الصيد فأطلقوا بزاتهم وكلابهم فانطلقت لاتلوى على شىء تصطاد ماعن لها ، وبعد أن وصف لك بزاتهم وكلابهم التى كانت عدتهم طمأنك على نتيجة الرحلة وأنها أنتجت نتيجتها فعادوا يجرون ذيول السرور والطير والوحش ملء الحقائب

هذا وكان أكبر شىء يسره مجلس أنس يجمع بين روضة فيها مختلف الأزهار والورد حف بها نهر ، وهناك بين أصحابه يجلس مغن يطرب السامع ويملك عليه نفسه ، ثم تدور المدام فى يد ساق جميل فيسكر سكرين من الخمر وجمال الساقى . وقد وصف ذلك المجلس حينما أرسل الى أحد أصحابه يستدعيه إذ قال :

نحن فى روضة وزهر ونهر ... ومدام كالشمس من كف بدر
ومغن قد راسلته الشحار ... ر ، فأغنت عن جس عود وزمر
أنت روح ، ونحن جسم فان غبـ ... ـت فان القلوب تكوى بجمر
إن كفا إليـك قد كتبتها ... تتهادى ما بين سكر وشكر

فأنت ترى من كل ماذكرناه أنه كان يذهب فى الحياة مذهب الذين يريدون أن ينالوا منها كل متعة ولذة ، يلتمسونها فى كل مكان ، وترى أن مثله الأعلى فى الحياة كان أن يتمتع بها ، ولا يضن على نفسه بشىء من مباهجها ، وكله ثقة فى أن الله سوف يغفر الذنوب جميعاً

(البقية فى العدد القادم)

أحمد أحمد بدوى

٦ ـ بين القاهرة وطوس

نيسابور

للدكتور عبد الوهاب عزام

برحنا سبزوار والساعة ثمان من صباح الخميس ثانى رجب سنة ١٣٥٣ (١١ أكتوبر سنة ١٩٣٤) فضربنا فى السهل صوب الشرق نصف ساعة . ثم ارتقينا جبلاً هبطنا منه الى سهل فسيح ، وهكذا رأينا إيران مابين قصر شيرين وطوس ، سهولاً تحيط بها جبال ، فما يزال المسافر على جبل أو فى سهل يفضى البصر فيه الى جبل حيثما توجه . هبطنا سهلاً كثير الشجر والزرع ، قد انتثرت القرى فى أرجائه ، تحيط بها الأشجار الباسقة ، ورأينا زروعاً شتى منها البطيخ والقطن . ورأينا لوز القطن قد تفتح ، ولما تعدُ الأعواد ذراعاً

وبعد مسيرة ساعة وربع من سبزوار ، نزلنا بقرية على الطريق اسمها شوراب ، فأكلنا من عنبها واسترحنا قليلاً . ثم استأنفنا السير تلقاء نيسابور والقلوب يملؤها الشوق ، والفكر يستجمع ما وعى من أحاديث التاريخ عن المدينة العظيمة ذات المياه والقرى والأشجار — المدينة ذائعة الصيت فى العلم والأدب التى نشّأت علماء يفتخر بهم المسلمون على الأدهار ، بلد مسلم بن الحجاج صاحب الصحيح ، والحاكم المحدث الكبير ، وأبى القاسم القشيرى صاحب الرسالة ، ومحيي الدين النيسابورى الفقيه ، وفريد الدين العطار وعمر الخيام — المدينة التى يقول فيها الخيام

شراب نشابور وآب دبير چوانى كند گرخورَد مردبير

وترجمته (شراب نيسابور وماء ذبير يردّان الشيخ الى شبابه)

ويقول الأنورى :

حبذا شهر نشابوركه در ُبشت زمين
گربهست است همين است وگرنه خودنيست

وترجمته « حبذا مدينة نيسابور ! إن يكن على ظهر الأرض جنة فهذه ، وإلا فلا جنة »

نيسابور مدينة أزلية ، يروى الفرس أن بانيها طهمورث ثالث الملوك البيشداديين ، وأن اسكندر الكبير خربها ثم عمرها شابور الملك الساسانى فسميت باسمه . وقد عرفها اليونان القدماء وسموها نيسوس . ويقال إنهم سموا باكوس إله الخمر ديونيسوس أى إلـه نيسابور

وقد تعاقب عليها البُناة من الساسانيين والعرب والغزنويين والسلاجقة كما توالت عليها النوائب من الزلازل والغارات فى عصور شتى . أصابها زلزال عظيم سنة نيف وخمسمائة من الهجرة وسنة ٦٦٦ وسنة ٨٠١ . ودمّرها الغُزّ سنة ٥٤٨ حين غلبوا السلطان سنجر السلجوقى وأسروه . وهى المصيبة التى نظم فيها الأنورى الشاعر الفارسى قصيدته المعروفة « دموع خراسان » ولكن المدينة على رغم هذه المصائب كانت فى معظم العهد الاسلامى قبل التتار عامرة مزدهرة حتى سميت أم البلاد وقبة الاسلام

وقد رووا فى عمرانها ونضرتها ما يستبعده العقل . فمن عجائبها الاثنى عشرية أنه كان بها اثنا عشر معدناً للفيروز والنحاس والرمر وغير ذلك . واثنا عشر نهراً تنحدر من الجبال ، واثنا عشر مائة مدرسة (أى ألف ومائتان) واثنا عشر مائة قرية ، واثنا عشر ألف قناة تجرى من اثنى عشر ألف ينبوع

قال ياقوت ، وهو ممن أدركوا غارات التتار :

«وأصابها الغز فى سنة ٥٤٨ بمصيبة عظيمة حيث أسروا الملك سنجر وملكوا أكثر خراسان ، وقدموا نيسابور ، وقتلوا كل من وجدوا ، واستصفوا أموالهم حتى لم يبق فيها من يعرف ، وخربوها وأحرقوها ، ثم اختلفوا فهلكوا . . واستولى عليها المؤيد أحد مماليك سنجر فنقل الناس الى محلة منها يقال لها شاذ باخ وعمّرها وسوّرها ، وتقلبت بها أحوال حتى عادت أعمر بلاد الله وأحسنها وأكثرها خيراً وأهلا وأموالاً لأنها دهليز المشرق ، ولا بد للقوافل من ورودها . » وقال يصفها قبيل غارة التتار : « وعهدى بها كثيرة الفواكه والخيرات » وقال : « لم أر فيما طوفت من البلاد مدينة كانت مثلها »

ثم كانت القارعة التى دمرت حضارة الاسلام ــ كارثة التتار ــ فأحرقوا وهدموا ، وقتلوا وسبوا وسلبوا ، وتركوها خاوية على عروشها ، ولم تنسها المصائب من بعدُ ، فقد أغار عليها الأزبك وغيرهم فى عصور مختلفة

ذكرنا هذه الخطوب ونحن قادمون على نيسابور ، ولكن خيال المدينة الكبيرة المزدهرة المزدحمة بمساجدها ومدارسها كان يغلب علينا فنمنى النفس برؤية نيسابور فى زينتها وجلالها

وردناها والساعة عشر وثلث فأبصرنا الى يسار الجادة قرية

هى بقية الأحداث من نيسابور ، كما يبقى من الجنة الناضرة عود يابس ، أو من الرجل العظيم قبر دارس

ماتت المدينة فلم يبق إلا أن نزور قبرها فيما بقى من قبور أبنائها ، فها نحن أولاء نسرع المسير إلى قبر عمر الخيام . وقفت بنا السيارات بعد قليل على حديقة بعيدة من البلد فدخلنا بستاناً كبيراً تتوسطه طريق واسعة ، فهبطنا درجات إلى مستوى سرنا به خطوات ، وهبطنا إلى مستوى آخر ، وبجانبنا قناة تنحدر إلى المستوى الأسفل فتفضى إلى حوض فى وسط الطريق . وتنتهى الطريق إلى مسجد صغير جميل نقشت على بابه آيات من القرآن ، واسم الشاه طهماسب الصفوى الذى بناه . وفى المسجد ضريح لأحد أبناء الأئمة من آل البيت النبوى رضى الله عنهم ، واسمه محمد المحروق وينتهى نسبه إلى زين العابدين على بن الحسين

وإلى يمين المسجد مصطبة لها درجات قليلة ولها سياج من الرخام وفى وسطها عمود كتب على أوجهه أبيات من الشعر . فهذا قبر عمر الخيام . وقد سمعت ممن زاروا القبر قبلاً أنه كان فى طاق فى جدار المسجد (وفى جدار المسجد على جانبى الباب طاقان) ثم نقل إلى هذا الموضع

لم يعجبنا قبر الخيام ، فقلت لوزير المعارف ، كان ينبغى أن تكون بجانب القبر أشجار تهدل أغصانها عليه ، وتنثر الأزهار فوقه كما وصف الخيام قبره قبل موته ، وكما رآه نظامى العروض بعد موت الخيام فوجده مصدّقاً لما قال . قال نعم . لابد أن يكون كما وصفت

كتب على صفحة من العمود : « الحكيم عمر الخيام ـ وفاة الحكيم سنة ٥١٧ هجرية ـ » وفوق ذلك رباعية من نظم ملك الشعراء بهار ترجمتها : اجلس إلى قبر الخيام واقض الوطر ، وابتغ فراغ ساعة من غمّ الأيام . إن تسأل عن تاريخ بناء مرقده فهو « أطلب سر القلب والدين من قبر الخيام » (راز دل ودين زقبر خيام طلب)

وعلى الصفحة الثانية رباعيتان ترجمتهما :

عاد السحاب يبكى على العشب الأخضر ، فلا ينبغى العيش بغير الخمر الحمراء . هذا المرج مسرح أبصارنا اليوم ، فليت شعرى من يسرح بصره غداً فى أعشاب قبورنا ؟

نحن لُعَب ، والفلك بنا لاعب ، حقيقة هذه لا مجاز فيها ، كنا لاعبين على نطع هذا الوجود ، فعدنا إلى صندوق العدم واحداً بعد آخر [1]

وعلى الصفحة الثالثة رباعيتان :

ظهر بحر الوجود من الخفاء . وما استطاع أحد أن يثقب جوهرة الحقيقة هذه ، كلّ تكلم بما يهوى ، وما قدر أحد أن يبين عن الحقيقة

ليس عندنا يقين ولا حقيقة ، ولا يستطاع تزجية العمر كله فى رجاء هذا الشك ، هلم نأخذ أقداح الصهباء بأيدينا لا نضعها ، ما فرق الصاحى والسكران فى هذه الجهالة ؟

وعلى الصفحة الرابعة رباعيتان :

أولئك الذين كانوا بحار الفضل والآداب ، وصاروا فى كمالهم مصابيح الأصحاب ، لم يجدوا للخروج من هذا الليل المظلم طريقاً ، فحدّثوا بالأساطير ثم أخذهم النوم

إن هذا الدوران الذى يتجلى فيه مجيئنا وذهابنا ، لا تستبين له بداية ولا نهاية ، ولا يستطيع أحد أن يخبر صادقاً من أين جئنا وإلى أين نذهب »

ووراء قبر الخيام مزهرة جميلة كتب على أرضها بألوان النبات : « حكيم عمر خيام » ، ورأينا بجانب القبر خابية ، كأن واضعيها رأوا مناسبة بينها وبين قبر الشاعر الذى كان مستهتراً بالخمر . وقرأت على هذه الخابية أنها موقوفة على مسجد إمام زاده محمد المحروق . فقلت قد وضعت فى غير موضعها ، وقُرنت بما هى منه براء

وقد مُدّ وراء قبر الخيام رواق كبير وضعت فيه كراسى للجلوس ومدت فيه موائد الطعام

استراح الوافدون قليلاً واحتسوا ما شاءوا من أصناف الشراب ثم وقفوا يشربون على ذكر الخيام ، قلت بئس ما ذكرتم صاحبكم ! وانتبذت أنا وزميلى الأستاذ العبادى جانباً وتركنا القوم وخيّامهم . وقلت لبعض رفقائنا الإيرانيين أين قبر العطار ؟ فلا بد لقادم نيسابور أن يزوره ، فيسّر لنا المسير اليه فذهبت أنا وبعض الحاضرين إلى قبر العطار . سارت بنا السيارات فى طريق غير معبدة فانتهينا إلى حديقة ذابلة الشجر والزهر ، وفى وسطها بنيّة ثمانيّة عليها قبة . ولجنا الباب خاشعين إلى قبر عال عليه كسوة خضراء ، وإلى رأسه عمود أسود أطول من القامة قليلاً

(١) إشارة إلى لعبة الشطرنج

عليه آية الكرسى وأبيات فى مدح الشيخ فريد الدين العطار . لبثنا برهة فى حضرة شيخ الصوفية الجليل ، والشاعر المفلق المكثر الذى نظم زهاء ثلاثين منظومة فيها أكثر من ألف ألف بيت — ناظم منطق الطير ، وإلهى نامه ، وأسرار نامه ، وجوهر الذات الخ ومؤلف تذكرة الأولياء ؛ ثم بؤنا بغير ما باء به أصحاب الخيام ، والقلب خاشع ، والذكرى الجليلة آخذة على النفس آفاقها

وهنا لطيفة لا يسعنى إهمالها :

بينما أخرج من باب حديقة العطار أحسست بوخزة فى كفى فظننت زنباراً لسعنى ، فأخبرت رفيق الشاعر الشاب النابغة رشيد الياسمى فضحك وقال : قبلت الزيارة . قلت : لا غرو أن تكون وخزة من العطار ينبهنى بها من الغفلة . ألم يقل معاصرو العطار : « إن شعره سوط السالكين » ؟ قال بلى . ثم ارتجل بيتاً فارسياً

نيس عطار است اين ، زنبور نيست
گر تحمـــل ميكنى زو دور نيست

(هذه حمة العطار لا حمة الزنبار ، فان تحملت فهو أهل لذلك)

فأجبته على الفور :

لسع الزنبـــــار كفى عادياً ودواءً كان شعر الياسمى

ولما قدمنا مشهداً جاء الىّ شاعرنا النابغة وقد نظم أبياتاً كثيرة فى هذه الواقعة أترجمها نثراً فيما يلى معتذراً اليه من هذه الترجمة المرتجلة التى لا تفى بشعره السلس ، ومعتذراً الى القراء عما فيها من مدح :

جاء عزام من أرض مصر المختارة الى نيسابور من أرض إيران ، فأراد أن يقبل تربة العطار إذ ملأت محبته روحه ، وذهب بدءاً الى مرقد الخيام فرأى مكاناً ناضراً زاهراً ، وسمع صيحات الطرب ، ورنات الكؤوس من كل جانب ، ورأى القلوب تفور بنار الصهباء . قال عزام : أيها القلب دع بساط الشراب والسرور ، وامجل الى العطار ذلك الشيخ الوقور ، فسلك الصحراء رجل الطريق[1] هذا حتى رأى قبراً عليه حجر أسود ، فلثم سدة العطار وطاف فى هذه البقعة المباركة . ثم صاح بغتة وقال مضطرباً : قد أصاب كفى زنبار . قال له الياسمى : يا عالم مصر ! بل يا أيها الدر المتلألئ فى بحر مصر !

(هذه حمة العطار لا لسعة الزنبار ، فان تتحمل فهو لذلك أهل)

حمة العطار توقظك حتى لا تخلو لذة من ألم[1] إن تبغ الحبيب فلا بد من السعى الجاهد ، وإن ترد اللذة (نوش) فلا بد من الحمة (نيش) . إن تكن ذقت حلاوة الخيام ، فوخزة العطار خير يا عزام

من يخزك يوقظك من الغفلة ، ومن ينعّمك يدعك فى غمرة . وخزة اليقظة تبعدك من الضلال ، واللهو ينأى بك عن السداد ،

وانبعثت حينئذ من هذا الجدث صيحة بينة مفصحة وعتها أرواحنا :

« يا من اختلط وجوده بالعدم ، وامتزجت لذته بالألم !

إذا لم يتداولك الهبوط والصعود ، فكيف تعرف نفسك فى هذا الوجود[2] »

رجعنا من العطار الى الخيام فذكرت فى الطريق قول حافظ الشيرازى . . .

(يتبع) عبد الوهاب عزام

(١) فى الأصل « نيش ونوش » أى الوخزة واللذة وهما كلمتان مقترنتان فى الأدب الفارسى تقارب اللفظين .

(٢) هذان البيتان للعطار نفسه

(١) الطريق هنا طريق الصوفية

البعث

بقلم فريد عين شوكه

إلى مهد الرسالة فى عامها الثالث
تحية عيد الوطن وعيد الميلاد

سَلاماً فِتيةَ الوطنِ المفدَّى   وأشبالَ الفراعنةِ القُدامَى
دَعَتْ مصرُ العزيزةُ فالتففتمْ   جُنودًا حَوْلَ رايتها قِياماَ
وأشعلتُم بها رُوحاً فتيًّا   يُكشِّفُ عن جَوانبها الظلاما
وكان بقلبها جرح تَنَزَّى   وأرهق جسمَها المُضْنَى سقَاما
فَمَسَّتْه أناملُكم فأغفَى   وكاد اليومَ يلتئمُ التئاما
ألستُمْ خَيْرَ مَنْ يحنو عليها   إذا ما الرَّوْعُ لجَّ بها احتداما؟
شَبَابَ النيلِ مصرُ إليك تشكو   بَنِينَ تفنَّنُوا فيها اجتِراما
فكانوا الجُنْدَ للباغِي عليها   وفى أيدى الدَّخيلِ بها حُساما
يُمَزِّق شَمْلَها بدَداً ويُوهِي   حَنَايَا جسمها الواهِي كُلاَما
وكم فى مِصْرَ من أبناءِ سُوءٍ   أضَاعُوها وما خَفَروا الذِّماما
فكالُوها عَذَاباً واضطهادا   وسامُوها سِباباً واتِّهاما
وعاثُوا فى نواحيها فساداً   أحَبَّتْ دونه الموتَ الزُّؤاما
وعَبُّوا كل موردها اختِلاساً   وما عَرَفَتْ نفوسُهُمُ احتشاما
أُولئكَ شَرُّ من وَلَدَتْه مصرٌ   فجازاها عُقُوقاً وانتقاما
أولئك داؤها يفرِى حَشَاها   ويُرْهِق صدْرَها نُوَباً جِسَاما
مُصَابُ النيلِ أبناءٌ رَعاهم   ليغدُوا فى كِنَانَتِه سِهاما
فكانوا مِعوَلَ العادِى عليه   وباتُوا فيه حربا لا سلاما
سَلِيلَ النيلِ وَيْحَكَ كيف تغفُو   وَقَدْ نخرَ الفسادُ بك العظاما
أترضى أن تَذِلَّ بأرضِ مصرٍ   ويصبحَ عُودُك النادِى حطاما
ونيلُك ما أحَنَّ ثَرَاه مهداً   وأشهَى عذبَ مورده مُداما
وأرضُك جنةٌ شفَّتْ سماءً   رطابَتْ مَنْبتاً وزكَتْ مُقاما
تدِرُّ على الأجانبِ ما أرادوا   وتلْقَى أنتَ صيِّبَها جهاما
وكم من أجنبيٍّ جاء يسعى   إليها ليس يمتلك الرَّغاما
فينهل وِرْدَها العذب المُصَفَّى   ويلتهِم الغِنَى فيها التهاما
ويعتقد الضِّياعَ بها ويُثرِى   ثراءً تحت أعيُنِه ترامَى
وَيحسُدُه البنون وقد تناسَوْا   متى أثرَى وكيف بها تسامَى
لقد أفنَى الحياةَ بها جهاداً   وَهم عبَروا حياتَهُم نياما
وَكم ضاقت مواردها ولمّا   يَضِيقُوا بالكفافِ لهم طعاما
وَلو حرِمَتْ نفوسُهُمُ جَنَاها   لعاشوا رغم وَفْرَتِهِ صياما
فيالَضَرَاعةِ الأبناءِ حتى   رَضُوا بالعيش ذُلاًّ واهتضاما
وَيالَهَوَانِهِمْ حتى استراحوا   إلى أن يصبحوا فيها طَغَاما
صَحَوْنا أيها الوطنُ المُفدَّى   وقُمْنا نستَرِدُّ لكَ السَّناما
وجَمَّعَنا هَوَاكَ على صَفَاء   فقد ضِقْنا بواديكَ انقِساما
سَنَدْفعُ عن حماكَ فلا يُغَشَّى   ونَرْعَى عذبَ وِرْدِكَ أنْ يُساما
فلا يلقى الغريب له كِفَافاً   ولاَ يَرْوِى بوادينا أُوَاماَ

فى مصر شباب!

على أثر ما قام به الشباب طيلة أيام العيد من جهاد فى سبيل الاقتصاد

بقلم محمود غنيم

آمنت أنَّ فى الحمى شباباَ   أغرَّ جبارَ القُوَى وثّابا
ينتزع الثناءَ والإعجابا   ويُسمعُ الصمَّ إذا أهابا
شاهدتُه وقد مشى أسرابا   يفتل للصناعة الأسبابا
مرتدياً من طُهرِه جلبابا   منتضياً من عزمه قرضابا
تخالُه إذا مشى شِهابا   كأنَّ تلك الأيدىَ الرطابا
تقدِّم الصهباء والأكوابا   إذ بُسِطت تسألُ الاكتتابا
مَنْ ناطحت أهرامُه السحابا   لم يعْيه أن يصنعَ الثِّقابا
أو ينسجَ الصوفَ له ثيابا   لا تبتنوا القصورَ والقبابا
بل ابتنوا المصنعَ والدولابا   ينفثُ من دخانه ضبابا
يُمطر مصرَ ذهباً لبابا   ترى الأكفُّ فحْمَهُ خضابا
إنْ تفتحوه تفتحوا أبوابا   ينصبُّ منها الرغدُ انصبابا
مَنْ يَبْنِ مصنعاً بنى محرابا   ومَنْ يسدْ بغير مال خابا
لم أرَ شعباً بلغ الآرابا   وماله لم يبلغ النصابا
أوطاننا عشنا بها أغرابا   ضيوفها باتُوا لها أربابا

جاسوا خلال أرضها ذئابا واحتكروا الطعام والشرابا
فامتلكوا بذلك الرقابا هم فى الهواء زاحموا العقابا
وفى العُباب ملؤا العبابا لغير مصرَ نيلُ مصرَ طابا
إنا شربناه فكان صابا وشربوه سكّراً مذابا
ومَنْ سِوى الشباب يحمى الغابا يذود عن حياضه احتسابا
لا يبتغى أجراً ولا ثوابا وغيرُه يقتسم الأسلابا
ويُحرز الأموال والألقابا
شبابَ مصرَ حسبُك انتسابا إنْسَ الجدودَ واذكر الأعقابا
لا تَسْمُ ميراثاً بل اكتسابا واغتصب المعالىَ اغتصابا
والحرُّ يدرك المنى غِلابا لا يُمنح الحر ولا يُحابى
كن كالذئاب شرة ونابا فانما الحياة أن تُهابا
لا أن تجيد الخط والحسابا وتحذقَ العلومَ والآدابا
أضِفْ إلى تاريخ مصرَ بابا يُحْدِث فى صفحته انقلابا
أكلّما سألته أجابا: كانوا رءوساً فغدَوْا أذنابا

ثورةُ العقل

للشاعر التونسى محمد الحليوى

قلتُ للقلب خلِّ عنك الأمانى وأرحْنى فقد هدمتَ كيانى
ماضلالُ الخلود.. ماباطلُ المجد وما الصّيتُ مالئُ الآذان ؟
أترى هذه الأكاذيبَ حقًّا أتراها جـديرةً بالتوانى
أيُّها القلبُ ثُبْ إلى الرُّشد وانظر نظرةَ العقلِ فى لُباب المعانى
إنَّمـا الخُلدُ والخلودُ خَيالٌ وخَبَـالٌ فى فطرة الانسان
ذاك يا قلبىَ المريض عزاءٌ يَهَبُ النفس راحةَ السلوان
قدْ تَرَاءتْ لك الحياة سَرَاباً أو كطيف يمرُّ بالوَسْنان
فتطلَّبْتَ من غرورك مجداً وأردتَ الخلود فى الأزمان
ورأيتَ الشّبرَ الذى أنت فيه غير كُفْءٍ لكبرك الإنسانى
فملأتَ الدُّنيا دوياً بغيضاً مُخْلِياً، كىْ يحسك الثقلان
ضلّةً ضلّةً، أيا قلْبُ أقصر وأرحنى فقد بريْتَ كيانى
أنتَ نحسى وشقوتى وعذابى واغترابى فى منتدى الأخدان
أنتَ بؤسى فى غَدْوتى ورواحى لا تبِي الدهرَ باعثاً أشجانى
أَرْهقتْنى كآبتى وانفرادى وحنينى لغامضات المعانى
وحيـاتى قَضَّيْتها زَفَراتٍ مُحْرقاتٍ. أنتَ كالبركان؟
يَا فؤادى تجاهل المجد وانْعَمْ وأَرِحْنى.. فقد مَحقْتَ كيانى
سُمتنَى العَسَف فى طِلاب الأمانى وتكاءدْتَ فى العُلا جثمانى
بعتَ للمجد لذّتى وكئوسى ومُدامى ومجلس الرّيحان
وشبابى أذبَلْتَه وهو غَضٌّ فى كتاب ودفتَر وسِنَانِ
اللّذاتُ الأترابُ فى فَضل عيشٍ ناعم الظلّ. مُعجبٍ، ريّان
يَنْهلونَ الشّباب والحبَّ كأساً من رُضاب الكواعبِ الحُسّان
فى ضيـاء وفى صفاء ولهوٍ وعبـيرٍ منشّر وأغانى
وبقينـا أنا وأنتَ فُرَادى فى جحيم الآلام والأحْزان
قُلْتَ: إنّى مغرّدٌ لا أُبالى فى سمائى بعلّة الدّوران
أنظم الشعر فى الحياة وأبكى فى نظيمى شقاوة الانسان
ذاكَ حظّى.. وما أبهتُ لمَجْدٍ أو رجوتُ الخلودَ فى الأزمان
قُلْتَ: يا بؤسَ طائرٍ يتغنّى فى ضجيج الأحياءِ والأكوانِ
أتُرانى أقولُ ما قال قَبْلى شكسبيرُ أو شاعرُ اليونان
كان هوميرُ ـ أيُّها القلبُ ـ شيخاً دائب السّير، طلبة البلدان
يذرع الأرض، ضاربا فى مَداها سَاغِبَ البطن، ذاحَشاً ظمآن
يطلب النَّزْرَ من طعامٍ وريّ بأغانى الآباد والأزمان
يا لَأَعمى يجوبُ برًّا وبحراً دامىَ القلب دامى الجثمان
يا لِكُرْنيل يَرْقع النّعل فقراً وعلىٍّ يضيقُ بالطيْلَسان(١)
هانَ أمرُ النّبوغ فى الأرض حتى صار محضُ النبوغ محضَ الهوان
قسّم الله ملكه فى البرايا ثم خصّ الأديب بالحرمان
خصّهُ بالإسار والقَتْلِ والتغْريب والنفى عن حِمَى الأوطان
خصّه بالعذاب، بالألم الدّائب بالإضطهاد بالنُّكران

(١) كرنيل هو الشاعر الفرنسى الشهير وقصة نعله نظمها الشاعر (تيوفيل جوتى) فى قصيدة مؤثرة يعاتب فيها لويس الرابع عشر على إهماله ذلك الشاعر العظيم، وعلى هو ابن الرومى وشعره فى الطيلسان الذى أهداه اليه ابن حرب معروف من القصيدة التى يقول فى أولها:
يا ابن حرب كسوتنى طيلساناً يتجنى على الرياح الذنوبا

فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

٥ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

شيلنج Shelling

١٧٧٥ – ١٨٥٤

للأستـاذ خليل هنداوى

وهـذا هو « شيلنج » الذى ورث « فيخت » وتبوأ مقعد الفلسفة بعده ؛ درس اللاهوت وألم بالعلوم الطبيعية ووقف على شىء من الطب ، ولـكن المزاج الفلسفى غلب فيه على كل مزاج آخر ، فهجر هذه العـلوم وآب الى الفلسفة ، فجاءت خطراته الأولى يغلب عليها روح أستاذيه « فيخت » و « كانت » ، ولم يكن لعقله ذلك النضوج وذلك التفكير المستقل اللذان يستطيع بهما أن يطهر فكرته من الصور التقليدية ، ويجعلها ابنة تفكيره الذاتى . ترى آراء « فيخت » شـائعة فى هذه المقدمات حتى تقول : « إن فيخت » يمثل دوره كرة ثانيـة . لولا أن شيلنج يفر بفلسفته من « فيخت » الى مذهب القائلين « إن الالـه الواحد إنما هو كل الـكائنات ... » وقد يستبد شيلنج بهذه الآراء التى يرددها . ويحسب أنها آراؤه الذاتية ، فلا يذكر « فيخت » ولا يرجع اليه برأى ولا حديث ، ولـكنه شديد الاحترام للفيلسوف « سبينوزا » الذى أمده بروحه ، وقد عقله فى كثير من مراحله ؛ وهو الذى أراد أن يستخلص مذهباً يجمع بين فـكرة سبينوزا ونقد كانت وكمال فيخت ، وبعد أن رأس المدرسة الفلسفية كتب آراءه ونظراته فى فلسفة الطبيعة حيث شاء أن يعيد العـالم الخارجى الى نظامه بعد أن قتلته المدرسة (الكمالية) وشوهت حقيقة مظاهره ؛ ثم أخرج كتابه «مذهب الـكمال العالى » وفيـه زبدة مذهبه الفلسفى والصورة الـكاملة الحاوية لمذهبه

لم تكن فلسفة شيلنج كفلسفة (كانت) ابنة تأملات عميقة ونظرات متعاقبة ، ولا كفلسفة (فيخت) نتيجة نظرات بعيدة فى الأخلاق والـكمال ، وإنما كانت حصاد المخيلة ونتاج الخيال . فكان « كانت » يفكر ويستقصى ويتعمق ويكثر من التأمل ، وفيخت كان يتثبت من صدق الفكرة ثم يأمر ، ولـكن شيلنج راح يثبت ما توحى اليه مخيلته وينزل عليه خياله ، وهكذا تطورت الفلسفة وأخذت تلين بعد شدتها وترق بعد صرامتها ، ويزول عنها هذا اللون العميق القاتم ، وتدنو برفق من الشعر والفن ؛ والشعر والفن دائبان عاملان على تلطيفها وترقيقها حتى لا تكون عالة على المخيلة ، ولا تكون المخيلة عالة عليها ، فأمسى الفيلسوف – كما تمثله الأقدمون – شاهداً ينظر الى تآلف الأشياء وانطباق أجزائها ، وعلاقة النهاية باللانهاية ، والحقيقة بالـكمال . وشيلنج يرى أن الفيلسوف لا غنى له عن المخيلة ، وعن الوحى الذى يستمده من نفسه ، وعن الخطرة التى تفيض بها قريحته ، وهو فى هـذه الملاحظات يجمع بين الفيلسوف والفنان برغم اختلاف رسالتيهما ، ولـكنه لا يهمل أداة الملاحظة والتأمل اللذين خلقا العالم الفلسـفى ، ولـكنه لا يميل اليهما إلا قليلاً . ولهذا الاعتقاد الذى وسم مذهبه الفلسفى بميسم الفن رأينا أن فلسفة شيلنج جاءت فلسفة هادئة مسالمة لا حركة فيها ولا ثورة

إن « فيخت » برغم ما بذل من جهد استنفد وسعه للعمل على ربط فعـّالية عقل الانسان وأخلاقه بوثاق واحد . ومذهب

ورماهُ فى ذى الحياةِ ضعيفاً ... أعزلاً بين كلّ ذى سُلطان
حاملاً كالإلـه قلباً كبيراً ... فيه ما فى الوُجود من أكْوان
فقضاها من الحياة حيـاةً ... فى عذابٍ ووحشة وامتهان
وتردّى ... فقيل كان عظيماً ... أوحقيراً ... واستَقْتَلَ الخصمان
ثم خطُّوا ضريحه فى خراب ... أو أقاموا تمثاله للعيان
وتغنَّوْا بقوله فى هيـام ... أو رَمَوْهُ فى مُوقَد النـيران
ما تراه جَناهُ فالقَـبْرُ راس ... وصدى المجْدِ ضائع فى الزّمان
أيها القلْبُ ليس فى الأرض حقٌّ ... غيرَ موْتٍ تموتُ فيه الأمانى
كلُّ شىء فى مذهب العقلِ شكٌّ ... كلّ شىء يفنَى مع الأزمان
وإذا كانَ منتهى العمر موت ... فلماذا نضيعه فى الأغانى . . ؟
باطلٌ باطلٌ أيا قلب أقْصِرْ ... ما يفيدُ الخلود والدّهر فانى
قال لى القلْبُ لا هَنِئْتَ بعيْشٍ ... أنْتَ والغمْرُ(١) فيه تستَوِيان

محمد الحليوى

(تونس)

(١) الغمر : الجاهل الذى لا تجربة له ولا رأى

واحد ؛ نراه غادر فى مذهبه هذه (الثنائية) التى لم يجدها شيلنج صحيحة ، فعالم الروح الداخلى لا يمكننا أن نشاهده ونطلع على غيبه إلا بوساطة العالم الخارجى عنا ؛ كما أن العالم الخارجى لا يُلمس إلا بمعونة عالم روحنا . وهكذا يجد الفيلسوف نفسه أمام مادتين جوهريتين مفترقتين متماسكتين ، فأراد شيلنج أن يمحو هذا التنازع بينهما ، وهو تنازع لم ينكره فيخت ، فتحرى شيلنج فى كلا العالمين عن قانون أعلى يضم بينهما ، فوجد هذا القانون فى الواحد المطلق « L' absolu. » مبدأ ومنتهى كل وجود ، وملتقى عالم الحقيقة بعالم الكمال ، والموفق بين الأضداد . وقد أحل مذهبه هذا محل المذهب العلمى ، واعتقد أنه قد وُفِّق فى إيجاد الاتحاد المنشود ، وجمع الأجزاء المتفرقة ، وتوحيد المعرفة الانسانية

وفى الحقيقة إذا تعمقنا فى حقيقة هذا المذهب الذى جاء به شيلنج رأينا أنه هو ذات المذهب الذى يجعل الله هو كل الكائنات ، والواحد المطلق الذى أنشأه وافترضه شيلنج هو هذه المادة الأزلية التى لاحظها وبشَّر بها « سبينوزا » ، هذه المادة التى تحل متفقة فى عنصرين متضادين وعالمين مختلفين : عالم الروح وعالم المادة . والصفة البارزة التى يتَّسم بها مذهب « شيلنج » هى أنه أنشأ رباطاً محكماً وأوجد وحدة شاملة بين مظاهر الكون المختلفة ؛ فالوجود الحقيقى والوجود الروحانى السنى كلها عوالم مشتقة من نبعة الفكرة الالّهية ، وهناك شئ من الميل الغريب بين أفكارنا والمرئيات ، فنحن نحمل فى أنفسنا صورة لكل شئ تقع عليه أعيننا ، وهذه الصورة قد لا تلوح فى الذاكرة سريعاً ، ولا تكون وليدة ملاحظاتنا الحينية ، ولكنها ابنة تصور راسخ فينا منذ القدم ، مندس فى شعورنا . فما هو إلا أن نهيب بهذه التصورات حتى نحس أن هذه الصور أخذت تمر بنفوسنا ، فاذا أردنا أن نعرف الكون فما علينا إلا أن نتاقى فى صحف أنفسنا وأن نتبع بنظرنا الباطنى مجرى الأشياء ، وأن نقف على الحكمة المنطقية الالّهية التى أبدعت الكون ؛ وهكذا يغدو علمنا مطلقاً وليس له الا صبغة الوحدة المسيطرة على العالم ، وتصبح الفلسفة لا تتوقف على التأمل الذى يلاحظ الأشياء ، ولا يدخل فيها ولا يحبونا إلا بمعرفة جزئية محدودة ؛ وإنما التأمل الحقيقى والادراك العقلى يجب أن يكونا قسماً من الخيال النظرى الذى يوحد بين الأفكار ويرتبها ، وإنما غرض الفلسفة أن تعمر الكون وأن تشيده وأن تعمل فى الخليقة على إبداء وجهتها الشعرية والفنية

لم يقف « شيلنج » جهوده على الفلسفة وحدها ، وإنما كان يخوض طوراً فى الفلسفة الكونية والنفسية ، وتارة فى التاريخ والفن ، وهو يفوز فى ساحة ، ويخفق فى أخرى ؛ أما فلسفته النظرية فقد جابهتها الحقيقة مجابهة قاسية ، وعلة ذلك أنه كان يجنح كثيراً إلى الافتراض ، وقد يكون الافتراض أحد العوامل الأساسية فى تقدم العلم ، ولكنه لا يغنى شيئاً فى تحليل المبهمات التى لا يتناولها التحليل . وأما نظراته فى التاريخ فسرعان ما وهنت أركانها واضطربت أصولها ، وهو يمشى على أثر « فيخت » الذى قسم العصور الانسانية إلى خمسة أدوار ؛ يبدأ أولها بعصر الانسان الأول الذى لم يدنس عقله ونفسه شئ . وينتهى آخرها بالعصر الذى سيتسامى فيه الانسان وتحمله تأملاته النقية إلى فردوسه المفقود ؛ ولكن « شيلنج » حدد تاريخ الانسانية بثلاثة أدوار

إن عبقرية « شيلنج » لم تبرز واضحة إلا فيما استمده من قلبه وانتزعه من نفسه ؛ وفى مذهبه الذى لم يُوثق فيه خياله بوثاق العقل المحدود ، ولم يجد فى ادنائه من الحقيقة نُكراً . هـذا المذهب الذى احتوى نظراته السامية فى الفن الذى وجد فيه شيئاً أسمى من الفلسفة . فالفيلسوف قد يُدرك المثل الأعلى ويفهمه ويقف عند ما وصل إليه عقله . أما الفنان فهو يأخذه ليسكبه فى قوالب مادية ، وهو فى خلقه وابداعه لا يقلد الطبيعة ، ولكنه يقلد ذلك الفكر الجبار الذى أبدع الطبيعة

عنت « لشيلنج » يوم كانت تربطه الصداقة بالشاعر « شيلجل » فكرة شعرية سامية فى مناجاة الطبيعة ، وبدأ يكتب مطلعها ثم بداله شىء صرفه عن فكرته ، وكأن هذه الفكرة الشعرية ظلت راسخة فى تلافيف فكره تتصرف بشعوره وتفكيره حتى إذا نضج عقله وتكشفت فلسفته جاءت وهى أدنى إلى الشعر والفن منها إلى الفلسفة المجردة

يتبع خليل هنداوى

من روائع الشرق والغرب

ذكرى

لشاعر الحب والجمال لامرتين

كان لامرتين « قد حبس نفسه شهوراً طويلة فى شبه ناووس مع صورة من عبدها ثم فقدها » ثم « ألف الحزن والألم » وخرج من الفناء الذى ألفاه فيه موت جوليا حبيبته ، وراح « يتحدث بالمناجيات والصلوات والأدعية والشعر إلى شبحها الذى لا يبرح ماثلا فى خاطره » . وهذه القصيدة قد نظمها فى ربيع ١٨١٩ « على مقعد من الصخر حول ينبوع متجمد فى الغابات التى تكتنف قصر عمه فى (أورسى) »(١)

عبثاً بتعاقب الجديدان ،
فلن يتركا أثراً فى حسى ،
ولن يمحوا صورتك من نفسى ،
يا آخر حلم رآه الوجدان

إنى أرى أعوامى السريعة
تتراكم من ورائى هاوية ،
كما ترى السنديانة الرفيعة
أوراقها من حولها ذاوية .

جمّتى شيبتها السنون الجاهدة ،
ودمى أبردته فلا يكاد يجرى ،
كأن هذه الموجة الهامدة
لفحتها ريح الجنوب فلا تسرى

ولكن صورتك الوضيئة الحبيبة ،
تلك التى يزيدها أسى جمالاً
لا تدركها فى قلبى الشيخوخة الكئيبة ،
لأنها كالنفس لا تعرف عمراً ولا زوالاً

كلا ، انك لم تزايلى بصرى ،

فاذا حيل بين عينى وبين رؤيتك
انقطع من هذه الأرض خبرى
واتصل نظرى فى السماء بصورتك

وهناك تبدين لى فى السماء
كما كنت فى يومك الأخير ،
حين طرت إلى مقامك الوضّاء
مع الصباح المشرق النضير

جمالك النقى المؤثر يا حبيبتاه ،
يتبعك حتى فى ذلك الوجود ؛
وعيناك اللتان تنطفئ فيهما الحياة ،
يشعان ثانية بنور الخلود

وأنفاس النسيم الهائمة ،
تحرك أيضاً شعرك الطويل ؛
وخصله المتموجة الفاحمة ،
تعود فتسقط على صدرك الجميل (١)

وظل هذا النقاب الحائر ،
يجلى وجهك الوضاح ،
كأنما سدول الظلام الآخر ،
تنحسر عن محيا الصباح

إن اللهب السماوى لهذه الشمس ،
يجىء ويذهب مع الأيام ؛
وأنت تشرقين دائماً فى النفس ،
فحبى لا يعرف البرد ولا الظلام

أنت التى أسمعها فى الصحراء ؛
وأنت التى أبصرها فى السحاب والماء ؛

(١) الكلمات التى بين الأقواس من كلام لامرتين

(١) أنظر قصة (رفائيل) الفصل العاشر والفصل الثالث عشر

فالموج يعكس صورتك فى عينىّ ،
والنسيم يحمل أصواتك إلىّ ،

وإذا خشعت الأصوات ونام الليل ،
وسمعت حينئذ همس الهواء ،
حسبتنى أسمعك تغمغمين فى أذنى
بكلماتك المقدســـة العِذَاب

وإذا ما أُعجبت بهذه المصابيح المنتثرة
التى ترصع رداء الليل الساكن ،
حسبتني أراكِ فى كل نجمة مزدهرة ،
تســـترعى بصرى بلألائها الفاتن

وإذا ما هب النســـيم على الزهور ،
فأسكر النفس بنفحات العطور ،
كانت نفحتك هى الطيب الذى أنشقُه
فيما يَنُشه هذا النسيم ويطْلقه

إن يدك هى التى تجفف دموعى
حين أذهب فى حزن وبكاء
لأؤدى فى السر صلاتى وخشوعى
فى محـــاريب الدعاء والعزاء

وإذا نمت سهرت علىّ سهر الخائف ،
وبسطت جناحيـــك على آلامى ،
وأوحيت إلى بجميع أحلامى
وديعةً كنظرات الخيال الطائف

وإذا قطعتْ يداك أثنـــاء منامى
مجرى حياتى وأســـباب أيامى
فـأصحو -- يانصف روحى العلوى --
بين حضنك الحنون القدسى

ثم تصبح نَفْسانا نَفساً واحدة ،
كشعاعين متحدين من أشعة الفجر ،
أو نفَسين ممتزجين من الأنفاس الصاعدة ؛
ولكنى لا أزال أردد أنفاس العمر ! !

الزيات

مقطوعات شعرية

لشاعر الهند العظيم الدكتور محمد اقبال

« من ديوان رسالة المشرق »

الملك لله

أضرم طارق النار فى سفائنه على ساحل الأندلس ، فقيل له هذا أَفَن ينكره العقل ! كيف نرجع الى الديار ، وقد شط المزار ؟ إن الشريعة لا تجيز ترك الوسائل ! فضحك وأصلت حسامه وقال : كل مُلك ملكنا ، لأنه مُلك ربنا

الحياة

سألت حكيماً : ما الحياة ؟ قال : خمر أمرُّها أطيبها . قلت : إنها دودة تنشأ من الطين . قال : بل وليدة النار كالسمندل . قلت : إن الشر مضمر فى فطرتها . قال : هى شر كلها إذا لم تعرف خيرها . قلت : إن غرامها بالسير لم يبلغها منزلاً . قال : إن منزلها فى هذا الغرام نفسه . قلت : إنها ترابية ومرجعها التراب . قال : إن الحبة إذا شقت التراب فهى وردة ناضرة

الشقيقة

أنا الشعلة التى اضطرمت فى أحضان العشب من فجر الأزل ، قبل أن يُخلَق البلبل والفراش ، أنا أعظم من الشمس ، ولكنى منبثة فى كل ذرة ، وقد خلقت السماء شرارها من حرقتى : سقطت على صدر المرج لحظة فنبع من ترابى غصن ناضر فاستلب نارى وقال : تلبثى فى أحضانى قليلاً ، ولكن قلبى السليب لم يقر قراره ، فاضطربت فى ضيق الغصن حتى تجلى جوهرى باللون والرائحة ، فنثر الندى فى طريق جواهر متلألئة . وضحك لى الصبح ، وأطافت بى ريح الصَّبا ، وسمع البلبل من الورد أن نارى قد سُلبت ، فتأوه وقال : لقد اشترت ثوب الحياة غالياً

هأنذا أفتح صدرى لضوء الشمس وأحتمل مِنَّتها ، فمن لى بأن تعود نارى مشتعلة فى صدرى ؟

الحياة الخالدة

لا تحسبن الحانة قد بلغت نهايتها . فلا يزال فى عروق الكَرْم ألف خمر لم تُشرب ذلك المرج جميل . ولكن لا يجمُل أن نعيش كالبرعم ! قضاء حياته ممزق بأنفاس الصَّبا . إن تكن بالحياة خبيراً فلا تطلب ولا ترض قلباً خلياً من وخزات الأمل . عش كالجبل محكما مجتمع النفس ، ولا تعش كالنسيم . فإن الريح عاصفة والنار لا تهاب

عبد الوهاب عزام

البريد الأدبي

حماية الدولة للآداب

وهل نحن بحاجة إليها ؟

نقلنا إلى القراء فى العدد الماضى خلاصة تلك الفكرة الطريفة التى تتحدث بها بعض دوائر الأدب الفرنسى ، وهى وجوب تدخل الدولة لحماية الآداب القومية من منافسة الآداب الأجنبية كما تتدخل لحماية المحاصيل والصناعات القومية ، أو بعبارة أخرى وجوب معاملة الثمرات الأدبية معاملة النبيذ والقمح مثلاً من حيث الحماية القومية ، وذلك لأن سيل الأدب الأجنبى يتدفق الآن على فرنسا ويهدد مصالح كتابها ومفكريها تهديداً قوياً يظهر أثره فى هبوط الدخل الأدبى وقيم حقوق التأليف . وتساءلنا ماذا يكون من أمر هـذه الفكرة فى بلد كمصر ؟ وهل نحن فى مصر بحاجة إلى بحثها ؟ والجواب الذى يتبادر إلى الذهن لأول وهلة هو أن مصر لم تتقدم فى ميدان التفكير إلى الحد الذى تستطيع معه أن تكون بلداً مصدِّراً يبعث بثمار تفكيره إلى البلدان الأخرى ، فهى مازالت بلداً مستورداً ، يستورد أكبر قسط من غذائه الأدبى وينقله عن التفكير الغربى ، وان الثمرات الأدبية المحلية ليست فى حاجة إلى الحماية لأنها ليست من الكثرة أو القيمة بحيث تتأثر بهذه المنافسة الأجنبية القوية . وهذا صحيح من الوجهة العامة ، ولكنا نستطيع أن نستدرك عليه ببعض الملاحظات . وفى رأينا أن الأدب المصرى بحاجة إلى نوع من الرعاية والحماية المحلية من بعض النواحى ، ولسنا نقصد أن تفرض الضرائب الجمركية أو تتخذ اجراءات لأية حماية ضـــد الآداب الأجنبية الرفيعة ، فنحن فى أشد الحاجة لاستيراد هذه الآداب ؛ ولكنا نعتقد أننا فى حاجة إلى الحماية من سيل الأدب الغربى الوضيع الذى ينساب إلى مصر من كل ناحية ، تحمله إلينا كتب ومجلات وصحف كتبت لطبقات وبيئات منحطة ، وتجد بيننا رواجاً عظيماً ؛ وقراء المجلات والصحف الأجنبية هنا يعرفون هـذه الحقيقة ، ويكفى أن يعرف الناشئون قليلاً من الانكليزية أو الفرنسية ليتهافتوا على اقتناء هـــذه النشرات الوضيعة الخطرة فى معظم الأحيان من الوجهة النفسية والأخلاقية : وهنالك أنواع من الأدب الأجنبى المتوسط أو الخفيف تروج بيننا رواجاً عظيما ، وهذه أيضاً يجب أن يوضع حد لذيوعها على حساب الأدب المحلى والصحافة المحلية لأنها ليست أقوم منها ولا أرفع ؛ ثم هنالك سبل الترجمة ؛ ومع أننا فى عصر ترجمة ونقل فى كثير من النواحى الفكرية ، فان هذا السيل يجرفنا بلا تحفظ ، ويطغى على الانتاج القومى بشدة . ومن الصعب أن نتحدث فى أمر الحماية الرسمية الفعلية فى هذه النواحى ، ولكننا نشعر فى أحيان كثيرة بالحاجة إليها . ولو أمكننا ببعض الوسائل المعقولة أن نحد من تدفق سيل الآداب الأجنبية المتوسطة أو الوضيعة ، وأن نحصر الترجمة فى حدود القيم المنتج ، لكان فى ذلك ما يشجع الآداب المحلية ، ويعضد الانتاج المحلى ؛ ولا شك أن انصراف القراء عن التهافت على هذه الأنواع من الآداب الأجنبية يقابله من الناحية الأخرى شىء من الاقبال على الأدب المحلى ؛ وإذا نما هذا الاقبال ، ترتب عليه حتما انتعاش الأدب المحلى وتقدمه ؛ والتعضيد أكبر عناصر التشجيع وشحذ العقول والهمم . وكلما زاد هذا الاقبال والتعضيد تقدمت الحركة الأدبية وارتفع معيار الانتاج الأدبى

على أن المسألة معقدة من الوجهة العملية . ومن الصعب أن نتصور الوسائل أو الاجراءات المعقولة التى يمكن أن نحقق بها مثل هذه الحماية دون مساس بسير الحركة العقلية ، وحركة الاقتباس الفكرى التى نحن فى أشد الحاجة إليها . وأصحاب هذه الفكرة فى فرنسا يجدون مثل هـذه الصعوبة فى التماس الوسائل العملية لتحقيقها . وكل ما يمكن قوله ، تمشياً مع أصحاب الفكرة هو أن الحماية الاختيارية هى خير وسيلة لحل المشكل ، أو بعبارة أخرى إن هذه الحماية يمكن تحقيقها بالتطوع والرغبة فى تشجيع الآداب القومية من جانب القراء والمثقفين ، وإغفال الآداب الأجنبية التى لا تحمل قيمتها أو نوعها على وجوب الانتفاع بها

وقد يعترض عشاق الثقافة الأجنبية بأن الانتاج الأدبى المحلى لم يرتفع إلى الحد الذى يحقق بغية المثقفين وطلاب المتاع الفكرى

الرفيع ، ولكن المحقق هو أن هذا التقدم المنشود لا يمكن تحقيقه دون تشجيع قوى فعال ؛ والطبيعى هو أن يتقدم التشجيع أولا ، فاذا ظفر الانتاج المحلى بهذا التشجيع ، استطاع أن يظفر بفرص التقدم والصقل والنضوج

ميشيل آنجلو وعصره

منذ حين أصدر الكاتب المؤرخ الألمانى هيرمان جريم كتاباً عن الفنان الايطالى الأكبر ميشيل آنجلو وعصره ، فكان لصدوره وقع عظيم فى الدوائر الأدبيـة والنقدية . ومنذ أسابيع قلائل صدرت ترجمة فرنسية لهذا الأثر القوى ، فعاد الحديث عن قيمته الأدبية والفنية ، ولاريب أن الكتابة عن ميشيل آنجلو وعن عصره ليست يسيرة ؛ فقد كان آنجلو من أعظم العبقريات البشرية ، وكان عصره — القرن السادس عشر — من أعظم عصور التاريخ : كان عصر « الأحياء » الفكرى ، وكان عصر البـابوية الذهبى ؛ وكان ميشيل آنجلو يمثل كل ما فى عصره من عظمة وآمال ، وكان عمله رمزاً قوياً لخواص هذا العصر وأمانيه ، كان مثالاً ، ومصوراً ، وشاعراً ، ومهندساً عظيماً

هذا هو ملخص الصورة التى يقدم بها جريم بطل ترجمته ؛ وقد عاش ميشيل آنجلو وتوفى بين أعظم رجالات عصره . كان فى فتوته صـديق لورنزو الأفخم أمير فلورنس ، وكان فى كهولته مصور البابوية ومهندسها . كان صديق جوليوس الثانى ، وليون العاشر ، وهو الذى وضع التصميم الجديد لكنيسة القديس بطرس أعظم كنائس النصرانية ، وهو الذى رسم أبدع نقوشها ؛ وهو الذى أودع من ريشته أعظم بدائع الفن على جدران « كنيسة سكستوس » إحدى حلى الفاتيكان ، وصور عليها بالأخص أشهر وأبدع صوره « يوم الحساب » ؛ ومازال السائح المتفرج يقف ذاهلاً مأخوذاً أمام روعة هذه القاعة التى يشعر فيها بروح ميشيل آنجلو ترفرف عليه من سقفها وحول جدرانها

ويمثل لنا جريم ميشيل آنجلو فى شبابه ونضجه رمزاً لمثل إيطاليا وأمانيها ، وفى كهولته وشيخوخته رمزاً لآلام إيطاليا ، ويمثل لناحياته كلها بمثابة صورة صادقة لعصر الأحياء كله . وأما عصر الأحياء الأيطالى فيصوره جريم أبدع تصوير ، ويبين لنا كيف كان هذا العصر فجر المعارك والتطورات الفكرية والاجتماعية والسياسية ، وكيف أن هذه المعارك كانت تتمخض عن مثل ما يتمخض به عصرنا من المشكلات الاجتماعية والسياسية ، سواء فى حقوق الفرد والجماعة ، وتنظيم الحكم والدولة أو غيرها من المسائل الكبرى

وثائق جديدة عن نابليون

ظهرت أخيراً حركة ترمى الى كشف كل ما يتعلق بنابليون بونابارت وعصره من الآثار والوثائق ؛ وبيعت فى باريس مجموعات ثمينة من كتب الامبراطور وتحفه التى كانت فى مكتبة ماليزون ؛ ثم ظهرت على أثر ذلك مجموعة كبيرة من رسائل الامبراطور الى زوجه الثانية مارى لويز النمسوية وعددها نحو ثلثمائة ، وعرضت للبيع فى لندن واشترتها الحكومة الفرنسية ، وقد أشرنا الى هذه الرسائل وإلى محتوياتها فى عدد سـابق . والآن تظهر فى انكلترا وثائق جديدة خاصـة بأيام الامبراطور الأخيرة فى منفاه بجزيرة سنت هيلانه . فقد نشرت جريدة « الصنداى تيمس » عدة رسائل لم تنشر من قبل ، كتبها ضابط انكليزى يدعى دنكان داروس كان من شهود أيام الامبراطور وساعاته الأخيرة الى أمه ، منها رسالة كتبت غداة وفاة الامبراطور ، بتـاريخ ٦ مايو سنة ١٨٢١ ، وأخرى فى ١٧ مايو عقب الاحتفال بدفنه

وكانت هذه الرسائل فى حوزة حفيد هذه السيدة . ولم تنشر من قبل قط ، وهى وثائق ثمينة مؤثرة ، عن المناظر والأقوال التى تتعلق بمرض الامبراطور الأخير وساعات نزعه ، ولحظة وفاته ، وكان الضابط دنكان داروس قد أرسـل الى حامية سنت هيلانه فى المرحلة الأخيرة من اعتقال الامبراطور ؛ والرسالة الأولى عن وفاة الامبراطور مكتوبة من « ديدوود » ، والرسـالة الثانية من « لونجوود »

ولما ظهرت الحركة الأخيرة بجمع الوثائق النابوليونية سعت جريدة « الصنداى تيمس » الى الحصول على هذه الرســائل ، ونجحت فى احتكار حق نشرها ، وبدأت بذلك منذ ٢٣ ديسمبر ؛ وكان لنشرها وقع عظيم عنـد كل الذين يهتمون بهذا العصر ومأساة الامبراطور المنفى

تصويب

وقع فى القصيدة الفرنسية التى نشرناها فى العدد الماضى للآنسة النابغة (مى) أخطاء مطبعية نصححها فيما يأتى :

جاء فى السطر الثانى caprieieux والصواب capricieux
وجاء فى السطر الرابع عشر aû والصواب où
وجاء فى السطر الثالث والعشرين attenàri والصواب attendri
وجاء فى السطر الرابع والعشرين q'astucieux والصواب qu'astucieux
وجاء فى صفحة ٣٦ فى السطر الثالث من العمود الثانى : تبلغ ٨٥ والصواب تبلغ — ٨٥ (بزيادة علامة ناقص)

من هنا ومن هناك

الموجات القصيرة Les Micro - Ondes

بقلم ماركوني

إن استعمال الموجات القصيرة في الاتصال بوساطة الراديو ليست جديدة عليّ ، فقد خصصت لها جزءاً كبيراً من تجاربي ، وصرفت فيها تفكيراً طويلاً منذ ثمانية وثلاثين عاماً . ففي سنة ١٨٩٦ أفهمت مهندسي محطات الأذاعة أن الأمواج التي طولها ثلاثون سنتيمتراً يمكن إرسالها بغير انقطاع في حيز مليون من الكيلوسكلات

وفي هذا العهد ، بعد البحث والتجارب الطويلة التي قمت بها وقام بها غيري ممن عاصروني ، بحثنا في استعمال تلك الموجات القصيرة حتى وصلنا إلى إرسالها إلى مسافة تقرب من عشرة آلاف متر

وأما من جهة النتائج التي وصلت إليها بين سنتي ١٩١٩ — ١٩٢٤ في استعمال موجات ذات أطوال تتراوح بين مائة وستة أمتار فقد حملتني على التخلي عن الطريقة الامبراطورية الموضوعة على أساس الموجات الطويلة والأستعاضة عنها بمحطات ماركوني الأصدارية التي تستعمل الموجات القصيرة المتتابعة ، وذلك في الحقيقة هو الذي أدى إلى الانقلاب الحالي في الأعمال التليفونية والتلغرافية باستعمال تلك الموجات القصيرة التي تندفع الى مدى بعيد ، ولقد كان لهذه النتائج أثر كبير في نفسي دفعني الى الاهتمام بهذه الموجات

وأما الموجات الكهربائية المغطسة التي يقارب طولها المتر ، فلنا أن نعبر عنها بالموجات المرئية ، لأن الأتصال بوساطتها ضرب من المحال ، إلا إذ تلاقت نهايات دائرة الاتصال كلها في نقطة واحدة ، وعندئذ تكون الفائدة المنتظرة قد تمت بتمام هذا الشرط الأخير

وقد نهجتني تجاربي الكثيرة ألا أحدد شيئاً أساسه الفرض أو الحساب النظري ، لأن ذلك كما نعلم مبني على جهل بمعرفة العوامل المسببة ؛ وعلى العكس من ذلك وعلى رغم تكهني بما ينافي ذلك الشرط ، فانني دائب البحث في نواح أخرى ولو ظهرت لي صعوبات كثيرة في أول الأمر

ولقد كان ذلك منذ ثمانيـة عشر شهراً على وجه التقريب عند ماصح عزمي على أن أستفيد من أبحاثي القياسية في صـفات هذه الموجات القصيرة ، وقد حصلت في النهاية على نتائج ملموسة يوفر إدراكها معرفة ما يأتي :

(١) الأبعاد القصـيرة للمرسل L'emetteur والمستقبل le recepteur والعاكس le réflecteur الضرورية لنشر كمية كبيرة من القوى الكهربائية والحصول عليها

(٢) معاكسـة الأضواء الضعيفة المسببة عن اهتزازات الكهربائية الطبيعية عند الاضطرابات الجوية

ولي أن أجزم بأن الأشياء الممكنة في هذا الموضوع قد وسعت نطاق البحث في الموجات الكهربائية التي لم توضع بعـد على بساط التجربة ، والتي أفسحت المجال لتطبيق هذه الموجات في الاتصال عن طريق الراديو

والاستعمال الدائم العملي للموجات القصـيرة التي تكوّن حلقة متصلة بين الفاتيكان وقشتالة وجوندلفو لأكبر شاهد ، كما أعتقد ، يجعلنا نتفاءل بما ستحرزه هذه الطريقة الجديدة من النفع ، وما ستوفره لنا في المستقبل ، إذا ما أبعدنا الاضطرابات الكهربائية الأخرى

وخير مكان يقع فيه تطبيق هذه النظرية هو ربط الجزر بعضها ببعض ، أو بعضها بالقارات ، أو ربط الجهات المختلفة بعضها بالأخرى ، على شريطة ألا تكون هذه الجهات بعيـدة عن بعضها كل البعد

وتمتاز هذه الطريقة الأخيرة بعدم تأثرها بالضباب ، إذ هي أكثر ضماناً وأوفر أماناً ، وخاصـة من ناحية الاحكام الكامل الذي يمكن الاعتماد عليه كلية في تحديد الجهات تحديداً دقيقاً ، ومع ذلك فمن العبث الآن أن نقول الكلمة الأخيرة عن تحديد مدى الأذاعة بوساطة هذه الموجات القصيرة

وظهر لنا أخيراً أن من الممكن الأذاعة بين جهات مختلفة متباينة تبايناً لا يكاد يصدقه العقل ، فى مساحة تقارب نصف المعمورة . وأذكر الآن تماماً ذلك العهد الذى وصلت فيه إلى إرسال واستقبال موجات كهربائية بين شواطىء المحيط الأطلانطيقى المختلفة ، وكان ذلك عام ١٩٠١ ذلك العهد الذى كان يعتقد فيه الرياضيون أن الاتصال بهذه الطريقة لايمكن أن يصل مداه الى أكثر من مائة وسبعين ميلاً ، وفى كل الحالات السابقة الذكر قامت الطريقة الجديدة مقام الاشارات المرئية المضيئة فى كل تطبيقاتها على الوجه الأكمل ، إذ حققت هذه الطريقة منافع عظيمة بين المحطات البعيدة وبين الحصون المتاخمة للحدود ، وخاصة فى الحالات التى يصعب فيها وضع أسلاك التليفونات وصيانتها إذا استثنينا الأكلاف الباهظة التى تتكلفها هذه الأسلاك

وتدخل هذه الطريقة فى أعمال كثيرة جديرة بعنايتنا ، منها إصدار الأخبار والتلفزيون . ودرس ميدان هذه الأمواج التى لم تخرج بعد إلى حيز الوجود يتطلب ، كما يبدو لى ، إنشاء وسائل جديدة ، وإدخال اصلاحات كبيرة على الأجهزة الحالية

عن (لوا)

نهضة الموسيقى القديمة

عن هندمث

ظلت ألحان الموسيقى القديمة مستوحى الأجيال السابقة منذ عهد بعيد ، ومن واجب الفرد الذى يريد التوفر على دراسة هذه الموسيقى أن يرجع الى العهد الذى ظهرت فيه فيدرسه دراسة عميقة ، كما أن تلك الدراسة لاتنهض وحدها بعازف قدير على توقيع نغماتها على أحسن وجه ، إذ يلزمه الى جانب ذلك أن يحيط باصطلاحات تلك الموسيقى ومظاهرها وأسرارها فى إبان ظهورها ، فان للزمن أكبر الأثر فى تطور الموسيقى بقدر ماله من أثر فى تغيير التقاليد والعادات

ولقد كان هندمث Hindmith أول من وفق الى ترديد الملاحم الألمانية القديمة التى سبقت ظهور الموسيقى باخ Bach ترديداً بلغ من الدقة والأتقان حداً كبيراً

إن الموسيقى مرآة العصر . فاذا كانت الموسيقى القديمة مرآة للعصور التى تمثلها فى تصورها للحياة وجمالها ، وكان ذلك مما تجب دراسته لكمال ثقافة الموسيقى الفنية ، فهو وحده لايكفى ؛ بل يجب لهذا الكمال التوفر على دراسة المؤلف وكثرة المشاهدة والاطلاع حتى يستخلص ما فى حياتها من رحيق ثم يعيدها فى نغمة صادقة تمثل عصره

والموسيقى البارع هو الذى يتلقى أحاسيسه عن عالم بعيد لم يصل بعدُ غيره إليه ، وأكبر الأمثلة على ذلك « بيبر » Biber ، موسيقى قصر أسقف سالزبرج ؛ فقد عاش ذلك الموسيقى الفذ فى عصر كانت الموسيقى الايطالية المنارة التى يهتدى بها كل موسيقى فى العالم . أما « بيبر » فأبى إلا أن يكون فريداً فى احساسه ، غريباً فى مشاهداته ، شاذاً فى تصوراته ، اهتدى بنور وحيه ولم يستلهم إلا نفسه ، فطبع اسمه عصراً فى تاريخ الموسيقى وبقى قطعة خالدة ، وظلت موسيقى بيبر ورداً لمن جاء بعده من الموسيقيين أمثال موتسار mozar ، ثم أسفر القرن الجديد عن بتهوفن الذى يعتبر وحده عصراً من العصور الموسيقية

ومما يميز موسيقى العصر الذى جاء قبل باخ عدم توافق نغمات المقطوعات واحتياج كل مقطوعة إلى آلة خاصة تعزف عليها ولو تقاربت اصطلاحاتها ، ولم تتفق تلك النغمات إلا بعد عصر باخ بمدة طويلة

وليس جمال الموسيقى القديمة هو المقصود وحده ، وإنما يقصد بدراستها إلى دقة إدراك نغماتها القديمة التى تعبر عن شعور كان له فى يوم من الأيام رنين تستعذبه النفس ويستسيغه الوجدان ، وهو بعدُ مهبط الوحى للأجيال التى جاءت من بعده . وكثير من الألحان القديمة التى قدر لها البعث من جديد فى القرن الماضى قد فقدت عذوبتها وسحرها القديم وتلاشت كل معانيها ، فليس من العجيب إذاً ألا يجد لها السامع تأثيراً فى نفسه — أما فى عصرنا هذا فقد صحح كثير من أخطاء القرن الماضى ودنا الموسيقيون من الكمال ، كما أنهم لا يعانون كثيراً فى معالجة الموضوعات الموسيقية القديمة كما كان ذلك من قبل ؛ ويرجع الفضل فى ذلك إلى سهولة إدراك الطريقة التى تعالج بها تلك المقطوعات القديمة

ومما يدعو إلى السرور أن الجمهور قد أخذ يدرك ما للموسيقى القديمة من كمال ، وما لها من قيمة ، كما أن إحياءها كان إحياء جديراً بالاحترام والتقدير



مدام بوفارى

لجوستاف فلوبير

تعليق وتلخيص محمد سليمان على

قسم الكاتب الخالد قصته الخالدة إلى ثلاثة أقسام :

فالقسم الأول يصف نشأة مسيو بوفارى إلى أن احترف مهنة الطب ، ويبين كيف اهتمت به أمه ، وكيف زوجته من أرملة سنها خمس وأربعون سنة ودخلها مئتان وألف فرنك . وقد ظن المسكين أنه سيبدأ بزواجه عهداً مستقلاً سعيداً ، ولكن امرأته أثبتت أنها « الفرس الأقوى » ، ففى المجتمعات يجب عليه أن يقول هذا ويمسك عن ذاك ؛ وكان لزاماً عليه أن يصوم كل يوم جمعة ، وأن يلبس ما تشير به ، وأن ينفذ أوامرها فيما يتعلق بالعملاء الذين توانوا عن الدفع ، وكانت تفتح رسائله وتنصت من وراء الحاجز حين يختلى فى غرفته الخاصة بالعملاء إذا كن نساء

ذهب يوماً يعود مريضاً فأعجبته ابنتـه (إما) ذات العيون العسلية التى تبدو لطول أهدابها سوداء ؛ وعاد بوفارى مريضه وكرر العيادة ، ثم ماتت زوجه فتزوج (إما) وكان سعيـداً ، « كان العالم ينحصر فى نظره فى محيط أثوابها . وكان يؤنب نفسه لعدم حبه إياها حباً أكثر ؛ وأحياناً كان يعود بعـد خروجه ليراها ثانيـة وهى ما تزال فى غرفتها تلبس ، وبينما كان يقبلها فى أسفل عنقها ، كانت تصيح هى فى وجهه »

وكانت قبل زواجها تظن أنها تحب . ولـكن السعادة التى كانت تتوقعها من الحب لم تظفر بها فظنت أنها خدعت ، ووطنت العزم على أن تكتشف تماماً معنى هذه المدلولات : السعادة ، الأهواء ، النشوات : التى كانت إلى ذلك الوقت تبدو لها جميلة على صفحات الـكتب

وانهارت أحلامها فى الحب وشهر العسل والزواج ، وأخذت تنسج لنفسها أحلاماً أُخر . وبقدر ما كانت عـلاقتها الزوجية تتوثق كان فى نفسها تنافر داخلى ينمو ويزداد

« كان حديث شارل عمومياً كأفريز شارع تمشى عليه أفكار كل انسان وأى إنسان فى أثوابها العادية دون أن تثير عاطفة أو ضحكاً أو تفكيراً . كان يقول إنه أثناء إقامته فى (روان) لم يجد لديه ما يدفعـه إلى الذهاب إلى المسرح ليرى الممثلين من باريس . ولم يكن يعرف السباحة ولا لعب السيف ولا إطلاق الغدارة ؛ وفى ذات يوم لم يستطع أن يشرح عبارة خاصة بركوب الخيل قرأتها فى قصة : أما يجب على الرجل أن يعرف كل شىء وأن يعـلم المرأة انبساط الأهواء ولذائذ الحياة وأسرار العيش ؟ ولـكن شارل ما علم شيئاً وما عرف شيئاً ، وما رغب فى شىء . كان يعتقد أن زوجه سعيدة وهى تتعذب تحت هدوئه الذى لا يضطرب وسكينته التى لا تخف »

ورغم ذلك كانت تمنحه حبها . ففى الحديقة ، فى الليالى المقمرة ، كانت تعيد على سمعه كل الأغانى الوجدانية التى حفظتها عن ظهر قلب . ولـكنها فى النهاية لا تجد زوجها ازداد غراماً ولا حماسة . « ولما ضربت زماناً على الصخرة الجاثمة على قلبها دون أن تبعث منها شرارة ما ، كانت تجد صعوبة يسيرة فى إقناع نفسها بأن غرام شارل لا يعد مفرطا بعد »

وعكفت على قراءة مجلات السيدات والأزياء والأثاث ابتغاء التسلية ، وعلى قراءة بلزاك وجورج ساند لتنقب فيهما عن الأرضاء الخيـالى لأهوائها الشخصية . وكانت ذات أطماع : لِمَ لم تكن زوجة لعالم يدوّى اسمه فى كل مكان ؟ وبدأت تكره زوجها لقلة طموحه وأصبحت تجد حياتها مملة جوفاء

والحق أنها كانت تنتظر حادثاً فى حياتها . كانت تصحو إذا تنفس الصبح فتظن اليوم قد حل . وتنصت إلى كل حركة ، حتى إذا جاء الغروب أمست أحزن من قبل ، وحنت إلى الغد .

ولما كانت تضجر من مدينة (توست) ظن زوجها أن سبب الداء حادث محلى . وقرر أن ينتقل إلى بلدة (بوشى - لاباى)

وفى القسم الثانى يصف الانتقال الى البلدة الجديدة ، وتعرفهما للصيدلى هوميه وليون كاتب المحامى . ويبدأ الحديث بين هذا وبين مدام بوفارى فيكتشفان بينهما تمازجاً فى الأفكار وتشاركا فى العواطف ، فكلاهما يحب الطبيعة والموسيقى ، فمدام بوفارى تقول :

ـ آمل أن أجد طرقا جميلة فى هذه الأنحاء

ـ يؤسفنى أن أقول إنها قليلة . هناك مكان يدعونه (المرعى) فوق مرتقى التلال ، عند حافة الغاب ، ولقد طالما قصدته فى الآحاد ومعى كتاب كى أرى الغروب

ـ لست أظن أن هناك ما هو أجمل من الغروب ، ولاسيما عند شاطئ البحر

ـ أوه ، إننى أقدس البحر !

ـ ألا تظن أن العقل يبدو أكثر حرية حين نواجه ذلك الخضم غير المحدود ، وأن أرواحنا لتتسامى حين نسبح فى تأملاته ، وأنه يوحى إلينا بالأفكار عن المثل العليا وعن اللانهاية ؟

ـ كذلك الحال فى مناطق الجبال

واندفعا يتحدثان عن الموسيقى الألمانية ، والأوبرا الايطالية ، إلى أن قال زوجها رداً على كلمة لهوميه عن تنسيق الحدائق :

ـ زوجتى لا تعنى بذلك ، إننا ننصحها بالرياضة ، ولكنها تفضل أن تظل فى غرفتها تقرأ

وقال ليون ـ هذا ما أفعل . وإنى لعلى يقين بأنه ما من شئ يفوق الجلوس فى المساء بجوار الموقد مع كتاب نفيس ، بينما الريح تسفع زجاج النوافذ ، والمصباح يضئ ويلمع فى الغرفة

وقالت وهى تحدجه بعينيها السوداوين النجلاوين ـ هذا ما يختلج بنفسى

ـ وينسى المرء كل شئ بينما الساعات تتعاقب . ويجول فى البلاد التى يظن أنه يراها ، وأما أفكاره التى تحملها الحوادث المختلفة فانها تجد اللذة كل اللذة فى كل تفصيل ، أو تتبع سير المخاطرات والحوادث ، وتصبح جزءاً من الشخصيات المختلفة ، ويتخيل المرء أن نفسه هى التى تتنفس فى ملابسهم »

وضعت مدام بوفارى طفلة سمتها برتا وتركتها عند امرأة ترضعها

وكان ليون يفكر فيها وهى تفكر فيه ، وتراقبه وهو يمر تحت نافذتها إلى محل عمله مرتين كل يوم . وكانوا أحياناً يجتمعون فى المساء ، بوفارى وهوميه يلعبان الورق ، أما ليون فينصرف إلى الحديث مع مدام بوفارى

وأخيراً قرر أن يصرح لها بحبه . إلا أنه كلما عزم لا يجد الشجاعة . وكان يكتب الرسائل ثم يمزقها . وكانت شجاعته تفارقه فى حضرتها . أما هى فلم تسأل نفسها إن كانت تحبه ، ففى اعتبارها أن الحب يأتى فجأة مع دوى قصف وبرق خاطف ، عاصفة من السماء تهب على الحياة فتقلبها رأساً على عقب ، وتعبث بالارادة كما يحمل الهواء ورقة جافة وتلقى بالقلب فى هوة مالها من قرار

ولكنها كانت تراه يتقرب اليها ، وتحصى حركاته وكلماته عند ما تستلقى على فراشها ، وتستعيد نظراته ثم تقول لنفسها وهى تضم شفتيها كأنما تتأهب لقبلة « ما أبهج ذلك ! أهو كاف ؟ وعن إن لم يكن بى ؟ » ولكنها لم تشجعه . وتظاهرت بأنها تحب زوجها . وكانت كلما أحست بأنها تهواه ، قاومت لتقلل من شعورها . وكانت تأمل من ليون أن يفهم ذلك . وكلما همت بتأنيب نفسها عادت تفتخر وتقول لنفسها « إننى شريفة »

وأخيراً ظن الشاب أنها لا تريده فترك البلدة إلى باريس

يلى ذلك لقاؤها بمسيو رودولف بولانجيه الشاب الغنى الجميل الخبير بالنساء والغرام . يقرأ فى عينيها مللها من حياتها وزوجها فيرغب فيها ويضع لذلك خطة محكمة وتساعده الظروف فيظفر بها . وتبدأ حلقة من الحب القوى المشبوب الجارف . وتندفع المرأة حتى تصل إلى درجة التهور . وكلما ازدادت لعاشقها حباً ازدادت لزوجها مقتاً . ولأجل عشيقها الذى يملك ثروة من التجربة أخذت تعتنى بنفسها وتبالغ فى الزينة والتأنق . وأعطته مفتاح الحديقة الخلفى ، فكانا يتقابلان طرفاً من النهار وزلفاً من الليل ، وفى يوم حضوره كانت تملأ الغرفة بالأزاهر ، وتتزين بكل ما تملك من حلى . ولم يعاتبها شارل على تبذيرها قط

وكان ليريه البائع المتجول يجلب اليها كل ما تطلب ويغريها بطلب المزيد ، وما عليها إلا أن توقع على صكوك يقدمها لها فيصبح العزيز ملكاً لها . ولما ألح فى طلب نقوده بعد زمن ، دفعت له مالاً أتى لزوجها من عميل ، ولم تخبره بذلك

وأخذت تغدق على عشيقها الهدايا ، وتقول له متدللة :

ـ « حينما تدق الساعة اثنتى عشرة مرة فى الليل يجب أن تفكر فىّ » . فاذا اعترف لها بأنه لم يفعل كانت تؤنبه ، ثم تختم بكلمتها الأبدية

ـ « أمغرم بى أنت ؟ »

ـ « أجل . طبعاً »

ـ « كثيراً ؟ »

ـ « مافى ذلك شك »

ـ « ولم تحب غيرى ، هل فعلت ؟ »

ـ « أظن أنى كنت عذراء حين تلاقينا . »

ثم تبكى فيترضاها فتقول :

ـ « ذلك لأنى أحبك كثيراً . أحبك حتى لا أطيق الحياة بدونك . وأحياناً أقول لنفسى . أين هو ؟ ربما ينعم بالحديث مع نساء أخريات . . هن يبسمن له وهو يدنو منهن . ولكنك لا تهتم بهن ، أليس كذلك ؟ كثيرات من يفققنى حسناً ، ولكنى أتقن الحب أكثر منهن . إننى خادمتك وخليلتك ، وأنت مليكى ومعبودى . كم أنت رحيم وجميل وماهر وقوى ! »

وبدأ المعبود كعادته يسأم العاطفة العارية والكلمات المعادة .

ولما عيل صبرها من زوجها وأمه ، قررت الفرار مع عشيقها وأخبرته بعزمها . فأخذ يسوف ويؤجل ، وهى تؤمل وتستعد . وأخيراً حل الموعد المضروب ، وبدلاً من أن يحضر أرسل اليها كتاباً يخبرها فيه بأنه لأجلها لن يطاوعها على فكرتها ، ويريها أن فرارهامعه عاقبته فى النهاية وخيمة عليها ، ويختمه بقوله : « . . إننى أعاقب نفسى بالنفى للضرر الذى سببته لك . سأذهب بعيداً . لا أدرى أين . لا تنسى الرجل البائس الذى تسبب فى شقائك ، وعلمى ابنتك اسمى حتى تذكره فى صلواتها . وحين تقرئين هذه الأسطر البائسة أكون بعيداً ، إذ يجب أن أتجنب الأغراء حتى لا أراك ثانية . كونى شجاعة . سأعود ، وربما نستطيع بعد أن نتحدث بهدوء عن حبنا الأول ، وداعاً . . »

ولما قرأت الخطاب أغمى عليها ، ومرضت ثلاثة وأربعين يوماً . وفى أثناء ذلك استدان زوجها ثمن الأدوية ، وتدخل (ليريه) وتمكن أن يجعل بوفارى يوقع على كمبيالة لمدة ستة أشهر بالأشياء التى أخذتها مدام بوفارى . وبعدها طلب بوفارى من الرجل ألف فرنك يدفعها له بعد سنة سبعين وألفاً

وأخيراً تحسنت صحتها قليلاً ولكنها أحست الزهد ، وألح زوجها أن تحضر حفلة تمثيل فى روان وهناك قابلا ليون

وفى القسم الثالث تبدأ مع ليون على أنقاض الغرام الأول حلقة غرام آخر مستهتر عنيف . والحق أنها قاومت فى مبدإ الأمر . فهى ما زالت متشائمة خائرة تحت تأثير الصدمة الأولى . إلا أن ليون الذى غيرته الحياة الباريسية حملها فى تيار جارف . وفى فندق فى المدينة أخذا يلتقيان يوماً كل أسبوع . وكانت تتذرع أمام زوجها بأنها تتلقى دروساً فى البيانو على معلمة فى روان

واندفعت مرة أخرى فى شراء هداياها فزادت ديونها وتعددت الصكوك وذاق ليون معها للمرة الأولى رقة الاناقة النسوية التى لا يعبر عنها وصف ، وأصبحت لا غنى لها عن لقياه ، وكانت تذهب لتدعوه من محل عمله ، وترتعش إذا فكرت أن حبه قد يتلاشى يوماً ما

وبدأ ليريه يحاصرها مطالباً بنقوده ، عارضاً كمبيالات أخرى . وخضعت لسحر النقود فأخذت توقع عليها وتندفع فى متعتها

وأخيراً حول ليريه بضعاً من هذه الكمبيالات إلى مالى آخر . ولما ذهبت تسأله جلية الخبر جعلها توقع على أربع كمبيالات أخر ، وأخذت ترسل إلى عملاء بوفارى المدينين وتطلب النقود منهم وترجوهم ألا يخبروه « لأن ذلك يؤثر فى كبريائه . »

وفى ذات يوم استلمت ورقة حجز رسمية . وأرسلت لليريه وهى دهشة . وصارحها الرجل بأن ذلك هو السبيل الوحيد لاسترداد نقوده . ولم يقبل منها أى توسل أو رجاء

وذهبت على عجل إلى ليون وطلبت منه أن يبحث لها بأى وسيلة عن ثمانية آلاف فرنك فلم يفلح ، فعادت أدراجها ذاهلة مدحورة . وفى الصباح التالى نشر الاعلان الرسمى للحجز فى الميدان

ونصحتها خادمتها أن تذهب إلى مسيو (جيللومين) المحامى الغنى . فذهبت تشكو اليه ليريه وقصت عليه المسألة فقال :

ـ ولكن لِمَ لَمْ تخبرينى السبب ؟ لماذا . . . . أخائفة أنت منى ؟ أرجح ان لدى عذراً للشكوى . فما نكاد نتعارف ، لكنى أعترف لك بأنى أشد العبيد تفانياً ، وأملى ألا يخامرك فى ذلك شك

وأمسك بيدها وانكب يقبلها بشراهة ، وأبقاها على ركبته ، بينما كان يعبث بأناملها ، وأحست بأنفاسه على خدها ، وقالت :

ـ « سيدى انى أنتظر » وشحب وجه الرجل فجأة وقال « ماذا ؟ » قالت : ـ « النقود . »

فقال : « لكن . . . » ثم أجاب الرغبة الحادة قائلاً : « حسن . أجل ! » وركع وهو يقول « بحق الرحمة ، امكثى ! » وطوق خصرها بذراعه . فاندفع الدم إلى وجهها وتراجعت قائلة : لا ! سيدى أنت تنتهز خطورة مركزى بحماقة . إننى أستحق الرحمة ، ولكنى لست للبيع . » وخرجت فى ثورة من الهياج والغضب

وخطر لها فجأة أن تذهب الى رودولف . فدهش لرؤيتها . ولم تخبره بمطلبها بادئ الأمر . ورحب بها وأظهر أسفه لانفصالها واندفع يقول إنها المرأة الوحيدة التى أحبها ورجاها أن تخبره عما يزعجها . ولما طلبت منه أن يقرضها ثلاثة آلاف فرنك تراجع وأخبرها بأن هذا المبلغ غير موجود لديه

فقالت « ليس لديك ! كان الأحرى أن أوفر على نفسى هذا

الذل . لم تحبنى بتاتاً ، ولست خيراً من الآخرين . »

وخرجت وهى تكاد لا تعى . ومرامامها الماضى سريعاً . وشعرت بأنها ستجن ، وبأن روحها تتسرب منها كما ينزف الدم من الجريح . وأخيراً دخلت من الباب الخلفى لصيدلية (هوميه) وهو يتعشى . واستطاعت أن تحصل على مقدار من السم ، وعادت إلى منزلها . ووجدها زوجها المسكين تكتب خطاباً ، ولما سألها عما حدث أجابته مشيرة إلى الخطاب « يجب أن تقرأ هذا غداً . » ورجته أن يتركها وحدها ، استلقت على الفراش ، وبدأت تظهر عليها أعراض السم ، وأحست بالظمأ وبطعم الحبر . وسألها زوجها عما تشكو فلم تجب . وبعد قليل بدأ القئ . وأصبح وجهها أزرق اللون ، وأخذت أسنانها تصطك ، وبصرها يضطرب ، ولما عاد يسألها فى قلق أشارت إلى الخطاب . ولما قرأه صرخ طالباً المعونة . وحضر الصيدلى هوميه ، وأرسلا إلى طبيبين ، واضطربا فى غمرات من الدهشة الذاهلة : ثم ارتمى شارل على الفراش ينتحب . فقالت له :

ـ لا تبك ، فلن أحتمل زيادة على ذلك

ـ لماذا ؟ ما الذى دفعك إلى ذلك ؟

ـ كنت مرغمة يا صديق

ـ أما كنت سعيدة ؟ أهى غلطتى ؟ لقد فعلت كل ما أستطيع

ـ بلى ؛ ذلك حق . . . أنت طيب جداً

وعز على الرجل فراقها وقد أقرت أنها أحبته أكثر من أى لحظة خلت . لم تعد تكره أحداً الآن . والصوت الدنيوى الوحيد الذى كانت تسمعه هو عويل قلبها المسكين ، الذى كان هادئاً خافتاً ، كالصدى الأخير لموسيقى بعيدة . وقالت وهى ترفع نفسها على مرفقها « أحضروا طفلتى . »

وحضرت وخاطبتها ثم أبعدتها . وأتى الطبيب ، ولكنها بدأت تبصق دماً ، وبدأت أعضاؤها تتشنج . وتغطى جسمها بقع سمراء ـ وحضر الطبيب الآخر فرآها ثم قال لزوجها :

ـ كن شجاعاً يا صديقى المسكين فما نستطيع شيئاً

ماتت المسكينة فأخذ كل شخص يستغل الموقف . معلمة الموسيقى تطلب أجر ستة شهور مع أن مدام بوفارى لم تأخذ درساً واحداً ، وصاحب المكتبة يريد اشتراك ستة شهور الخ

وأرسلت مدام ديبوى تنبئه بزواج مسيو ليون ديبوى بالآنسة ليوكادى ليبوف . وكتب شارل يهنئها ويقول : « لشد ما كان يسعد زوجتى أن تعلم ذلك ! »

وفى ذات يوم وهو يهيم بالمنزل عثر فى الغرفة العليا على كرة من الورق الرفيع . فتحها فاذا بها خطاب رودولف الأخير ؛ وكانت صدمة عنيفة . ورأى حرف (ر) وعرف من هو ؛ ولكنه عاد يقول : ربما كان ذلك تجاذباً روحياً فحسب . لقد كانت محبوبة من كل إنسان

ولكى يسعدها وهى ميتة كان يعيش كما كانت تهوى وتفكر . كان يلبس أحذية لامعة ، وربطات رقبة بيضاء ، ويضع على شاربه الأصباغ ، ويستدين المال بالكمبيالات — وبالجملة كانت تؤثر فيه من وراء اللحد

واضطر أن يبيع الأثاث . إلا أنه لم يمس غرفتها بل ظلت كما كانت . وكان يذهب اليها دائماً بعد العشاء ، ويضع المنضدة المستديرة بجوار المدفأة وكرسيها بجانبها وكرسيه بالجانب الآخر ؛ واحتراماً لها لم يفتح درجها السرى الخاص . ولكنه جلس أمامه يوماً وفتحه . وكانت كل خطابات ليون فيه . فقرأها وأخذ يبكى ويصرخ ، ثم وجد رسائل رودولف وصورته أيضاً

ودهش الجميع للانحطاط الذى عراه ، وانقطع عن الخروج ورفض أن يعود مرضاه . ولكن بعض المتطفلين كان يتسلق سور الحديقة المرتفع ويدهش إذ يرى الرجل فى ثياب رثة ، وحال سيئة . وفى الأماسى الصيفية كان يصطحب ابنته إلى المقبرة ، فلا يعودان إلا بعد أن يسدف الليل

وذهب يبيع جواده فقابل رودولف ، فدعاه هذا فى جرأة ليشرب زجاجة من الجعة بالحانة . وأمام الرجل تاه شارل فى أفكاره . وأمام الوجه الذى أحبته كاد يظن أنه يرى شيئاً منها . كان ذلك عجباً . وأوشك أن يتمنى أن يكون ذلك الرجل . ولم يصغ لحديثه ، ولكنه قال أخيراً :

— « إننى لا أحمل لك حقداً » ووضع رأسه بين يديه ، وقال فى صوت ضعيف : « لا أحمل لك حقداً » . ثم أضاف هذه الكلمات الرفيعة وهى المرة الوحيدة التى قال فيها شيئاً غير عادى :

— « وكانت غلطة القدر »

وفى الساعة السابعة من اليوم التالى وكان جالساً على مقعد فى ممشى الحديقة جاءت برتا الصغيرة التى لم تره منذ الأصيل لتدعوه الى العشاء . وكان رأسه مسنداً الى الحائط ، وعيناه مغمضتين ، وفمه مفتوحاً ، وخصلة من الشعر الفاحم فى قبضة يده ، وقالت « تعال يا أبت . » وظنته يريد أن يداعبها . فدفعته بلطف فسقط على الأرض ميتاً !

محمد سليمان على



3 me Année, No. 81.

Lundi-21-1-1935

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع المبدولي رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مص
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

العـــدد ٨١ « القاهرة في يوم الاثنين ١٦ شوال سنة ١٣٥٣ — ٢١ يناير سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

الحـــج ....

لبيك اللهم لبيك !!

الحج والزكاة هما الركنان الاجتماعيان من أركان الدين ، يقوم عليهما الأمر بين الفرد والفرد ، وبين الفرد والجماعة ، كما يقوم على الثلاثة الأُخَر الأمر بين المرء وربه ، وبين المرء ونفسه ؛ فالزكاة تقيم نظام المجتمع على التعاطف والرحمة ، والحج يقيمها على التعارف والألفة ، فيحقق الأول بنفي العقوق معنى الأخاء ، ويحقق الثاني بمحو الفروق معنى المساواة ؛ والإخاء والمساواة شعار الاسلام ، وقاعدة السلام ، وملاك الحرية ، ومعنى المدنية الحق ، وروح الديمقراطية الصحيحة

كان الحج ومازال مَطْهَرَ الدنيا : ترحض فيه النفوس عن جوهرها أوزار الشهوات وأوْضار المادة ؛ وكان الحج ومازال ينبوع السلامة : تَبْرد عليه الأكباد الصادية ، وترفُه لديه الأعصاب الوانية ؛ وكان الحج ومازال مثابة الأمن : تأنس فيه الروح إلى موضع الإلهام ، ويسكن الوجدان إلى منشأ العقيدة ، وينبسط الشعور بذلك الأشراق الإلهي في هذه الأرض السماوية :

وكان الحج ومازال موعد المسلمين فى أقطار الأرض على (عرفات): يتصافقون على الوداد ، ويتآلفون على البعاد ، ويقفون سواسية أمام الله حاسرى الرءوس ، خاشعى النفوس ، يرفعون اليه دعوات واحدة ، فى كلمات واحدة ، تَتَصَعَّدُ بها الأنفاس المضطرمة المؤمنة تَصَعُّدَ البخور من مجامر الطيب ، أو العطور من نوافح الروض ! هنالك يقف المسلمون فى هذا الحشر الدنيوى حيث وقف صاحب الرسالة ، وحواريو النبوة ، وخلفاء الدعوة ، وأمراء العرب ، وملوك الاسلام ، وملايين الحجيج من مختلف الألوان والألسن ، فيمزجون الذكرى بالذكر ، ويصلون النظر بالفكر ، ويذكرون فى هذه البقعة المحدودة ، وفى هذه الساعة الموعودة ، كيف اتصلت هنا السماء بالأرض ، ونزل الدين على الدنيا ، وتجلَّى الله للانسان ، ونبت من هذه الصحراء الجديبة جنات الشرق والغرب ، وثمرات العقل والقلب ، وبينات الهدى والسكينة

* * *

الحج مؤتمر الاسلام العام ، يجدد فيه حبله ، ويتعهد به أهله ، ويؤلف بين القلوب فى ذات الله ، ويؤاخى بين الشعوب فى أصل الحق ، ويستعرض علائق الناس كل عام فيوشجها بالأحسان ، ويوثقها بالتضامن ، وينضح من منابعه الأولى على الآمال الذاوية فتنضُر ، وعلى العزائم الخابية فتذكو ، ثم يجمع الشكاوى المختلفة من شفاه المنكوبين بالسياسة المادية ، والمدنية الآلية ، والمطامع الغربية ، فيؤلف منها دعاء واحداً تجأر به النفوس المظلومة جؤاراً تردده الصحراء والسماء !

وما أحوج المسلمين اليوم إلى شهود هذا المؤتمر ! لقد حصرهم المستعمرون فى أوطانهم المغصوبة ، ثم قطَّعوا بينهم الأسباب ، وحرَّموا عليهم التواصل ، وفصلوهم عن الماضى الملهم والمستقبل الواعد ، بطمس التاريخ ، وقتل اللغة ، وإطفاء الدين ، فلم يبق لهم جُمعة إلا فى هذا الموسم

* * *

إن فى كل بقعة من بقاع الحجاز أثراً للتضحية ورمزاً للبطولة ، فالحج إليها إيحاء بالعزة ، وحفز إلى السموّ ، وحث على التحرر : هنا غار (حراء) مهبط الوحى ، وهنا (دار الأرقم) رمز التضحية ، وهنا (جبل ثور) منشأ المجد ، وهذا هو البيت الذى احتبى بفنائه أبو بكر وعمر وعلى وعمرو وسعد وخالد . وهذا الشِّعب وذاك مَجَرُّ أذيال الغطاريف من بنى هاشم وبنى أمية ، وتلك هى البطحاء التى درج على رمالها قواد العالم وهداة الخليقة ! !

* * *

« ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » . أما شرط الاستطاعة فقد بطل اليوم ، وأصبح الحج فريضة عين لا تحول عن أدائها عقبة ، ولا يَسوغُ فى تركها معذرة ؛ فأنت تستطيع بالمال اليسير وفى الزمن القصير أن تحج على الباخرة والسيارة والطيارة ، دون أن تعرض حياتك للموت ، وثروتك للنهب ، وصحتك للمرض !

وهذه (شركة مصر للملاحة البحرية) تتعهد لك (بزمزم) و (الكوثر) أن تكفلك وتحملك وتعلمك وتغذيك وتؤويك وتحميك فى البحر والبر تحت علَم دولتك ، ورعاية مواطنيك ، فلا تكابد وعث الصحراء وعبث الأشقياء ، ولا تقاسى بُعدَ الشقة وطول الغربة

لقد كان الحج لرهَقه الشديد وجهده الجاهد يكاد يكون مقصوراً على الطبقات الخشنة من الزراع والصناع والعملة ؛ أما الناعمون المترفون من أولى الأمر ، وذوى الرأى ، وأصحاب الزعامة ، فما كانوا يقدمون عليه ولا يفكرون فيه ، فظل جَداه على المسلمين ضئيلا لا يتعدى الحدود الخاصة من قضاء المناسك وأداء الزيارة . فماذا يمنع الكبراء والزعماء اليوم أن يتوافوا على ميعاد الله ، ما دامت هذه الشركة المصرية الخالصة قد تحملت عنهم أكلاف السفر ، وضمنت لهم وسائل العيش ، ووفرت عليهم أسباب الرفاهية ، حتى ليكتفى المسافر بحقيبة ثيابه ؟

* * *

إن فى حج سراة العرب والمسلمين إعلاء لشأن الملة ، وإغراء بأداء الفريضة ، وسعياً لجمع الكلمة ، وسبيلا الى الوحدة المرجوة . وإن مقام ابراهيم الذى انبثق منه النور ، ونزل فيه الفرقان ، وانتظم عليه الشمل ، لا زال مناراً للأمة ، ومثاراً للهمة ، ومشرق الأمل الباسم بالعصر الجديد

احمد حسن الزيات

وحى القبور

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

ذهبتُ فى صُبح يوم عيد الفطر أحملُ نفسى بنفسى إلى المَقْبرة ، وقد مات لى من الخواطر مَوْتَى لا مَيِّتٌ واحد ؛ فكنتُ أمشى وفىَّ جِنازةٌ بمُشيِّعيها من فكرٍ يحملُ فكراً ، وخاطرٍ يتبعُ خاطراً ، ومعنىً يَبكى ومعنىً يُبكى عليه ؛ وكذلك دأبى كلما انحدرتَ فى هذه الطريق إلى ذلك المكان الذى تأتيه العيونُ بدموعها ، وتمشى إليه النفوسُ بأحزانها ، وتجىءُ فيه القلوبُ إلى بقاياها . تلك المقابرُ التى لا يَتنادَى أهلُها مِن أهليهم بالأسماء ولا بالألقاب ولكن بهذا النداء : يا أحبابَنا ؛ يا أحزانَنا

ذهبتُ أزور أمواتى الأعزاء وأتصلُ منهم بأطراف نفسى لأحيا معهم فى الموت ساعةً أعرِضُ فيها أمرَ الدنيا على أمر الآخرة ، فأنسى وأذكر ، ثم أنظرُ وأعتبر ، ثم أتعرَّف وأتوسَّم ، ثم أستبطِنُ مما فى بطن الأرض ، وأستظهِرُ مما على ظهرها ؛ وجلستُ هناك أُشرِفُ من دهرٍ على دهرٍ ومن دنيا على دنيا ، وأخرجتِ الذاكرةُ أفراحَها القديمةَ لتجعلَها مادةً جديدةً لأحزانها ؛ وانفتح لى الزمنُ الماضى فرأيتُ رَجْعَةَ الأمس ، وكأن دهراً كاملاً خُلق بحوادثه وأيامه ورُفع لعينىَّ كما تُرفع الصورةُ المعلقةُ فى إطارها

أعرف أنهم ماتوا ، ولكنى لم أشعر قط إلا أنهم غابوا ؛ والحبيبُ الغائبُ لا يتغيّرُ عليه الزمانُ ولا المكانُ فى القلب الذى يحبه مهما تراخَتْ به الأيام ؛ وهذه هى بقية الروح إذا امتزجت بالحب فى روح أخرى ، تترك فيها مالا يُمحَى لأنها هى خالدة لا تُمحَى

ذهب الأمواتُ ذَهابَهم ولم يقيموا فى الدنيا ؛ ومعنى ذلك أنهم مرُّوا بالدنيا ليس غير ، فهذه هى الحياة حين تعبِّر عنها النفسُ بلسانها لا بلسان حاجتها وحرصها

الحياة مدةُ عمل ، وكأن هذه الدنيا بكل ما فيها من المتناقضات إن هى إلا مَصنَعٌ يُسوَّغُ كلُّ إنسانٍ جانباً منه ، ثم يقال له : هـذه هى الأداة فاصنع ما شئتَ . فضيلتك أو رذيلتك

* * *

جلستُ فى المقبرة ، وأطرقتُ أفكر فى هذا الموت . يا عجباً للناس كيف لا يستشعرونه وهو يهدمُ من كل حىّ أجزاءً تحيط به قبل أن يهدمَه هو بجملته ، وما زال كلُّ بُنيانٍ من الناس به كالحائط المُسلَّطِ عليه خرابُه يتأكّل من هنا ويتناثرُ من هناك

يا عجباً للناس عجباً لا ينتهى ، كيف يجعلون الحياةَ مدةَ نزاع وهى مدةُ عمل ؛ وكيف لا تبرحُ تنزُو النوازى بهم فى الخلاف والباطل ، وهم كلما تدافعوا بينهم قضيةً من النزاع فضربوا خصماً بخصم وردُّوا كيداً بكيد ، جاء حكمُ الموت تكذيباً قاطعاً لكل من يقول لشىءٍ هذا لى

أمَا واللهِ إنه ليس أعجبُ فى السخرية بهذه الدنيا من أن يُعطَى الناسُ ما يملكونه فيها لأثبات أن أحداً منهم لا يملك منها شيئاً ، إذ يأتى الآتى إليها لحماً وعظماً ولا يرجع عنها الراجعُ إلا لحماً وعظماً ، وبينهما سفاهةُ العظم واللحم حتى على السكين القاطعة . . .

تأتى الأيامُ وهى فى الحقيقة تَفِرُّ فِرارَها ؛ فمن جاء من عمره عشرون سنةً فانما مضت هذه العشرون من عمره . ولقد كان ينبغى أن تُصحِّحَ أعمالُ الحياة فى الناس على هذا الأصل البَيِّن ، لولا الطباعُ المدخولةُ والنفوسُ الغـالةُ والعقولُ الضعيفةُ والشهواتُ العارمة ؛ فانه ما دام العمرُ مُقبِلاً مُدبِراً فى اعتبار واحد ، فليس للانسان أن يتناولَ من الدنيا إلا ما يُرضيه محسوباً له ومحسوباً عليه فى وقتٍ معاً . وتكونُ الحياةُ فى حقيقتها ليست شيئاً إلا أن يكون الضميرُ الانسانىُّ هو الحىَّ فى الحى

* * *

وما هى هـذه القبور ؟ لقد رجعتْ عند أكثر الناس مع الموتَى أبنيةً ميتة ؛ فما قطُّ رأوها موجودةً إلا لينسَوْا أنها موجودة . ولولا ذلك من أمرهم لكان للقبر معناه الحىُّ المُتغلغِلُ

فى الحياة إلى بعيد ؛ فما القبرُ إلا بناءٌ قائمٌ لفكرة النهاية والانقطاع ؛ وهو فى الطَّرف الآخر رَدٌّ على البيت الذى هو بناءٌ قائمٌ لفكرة البدء والاستمرار ؛ وبين الطَّرفين المَمْتدَين وهو بناءُ لفكرة الضمير الذى يحيا فى البيت وفى القبر ، فهو على الحياة والموت كالقاضى بين خصمين يُصْلح بينهما صُلحاً أو يقضى

القبرُ كلمةُ الصـــدق مبنيةً متجسِّمةً ، فكل ما حولها يَتَـكَذَّبُ ويتأوَّل ، وليس فيها هى إلا معناها لا يَدْخُـله كذبٌ ولا يعتريه تأويل . وإذا ماتت فى الأحياء كلمةُ الموت من غرورٍ أو باطلٍ أو غفلةٍ أو أثرة ، بقى القبرُ مُذَكِّراً بالكلمة شارحاً لها بأظهر معانيها داعياً إلى الاعتبار بمدلولها ، مبيِّناً ما ينطوى عليه أن الأمر كلَّه للنهاية

القبر كلمةُ الأرض لمن ينخدعُ فيرى العمر الماضى كأنه غيرُ ماضٍ ، فيعملُ فى إفراغ حياته من الحياة [1] بما يملؤها من رذائله وخسائسه ، فلا يزال دائباً فى معانى الأرض واستجماعها والاستمتاع بها ، يتلو فى ذلك تِـلْوَ الحيوانِ ويقتاسُ به فشريعتُه جَوْفُه وأعضاؤه . وترجعُ بذلك حيوانيتُـه مع نفسه الروحانية ، كالحمار الذى يملكُـه ويعلفُـه ؛ لو سئل الحمارُ عن صاحبه من هو ؟ لقال : هو حمارى . . . . . .

القبرُ على الأرض كلمةٌ مكتوبةٌ فى الأرض إلى آخر الدنيا معناها أن الانسان فى قانون نهايته فلينظر كيف ينتهى

* * *

إذا كان الأمر كله للنهاية ، وكان الاعتبارُ بها والجزاءُ عليها ، فالحياةُ هى الحياةُ على طريقة السلامة لا غيرها . طريقة إكراه الحيوان الانسانىّ على ممارسة الأخلاقية الاجتماعية ، وجعلها أصلاً فى طباعه ، ووزن أعماله بنتائجها التى تنتهى بها ، إذ كانت روحانيتُه فى النهايات لا فى بداياتها

فى الحياة الدنيا يكون الانسانُ ذاتاً تعملُ أعمالَها ؛ فاذا انتهت الحياةُ انقلبت أعمالُ الانسان ذاتاً يخلدُ هو فيها ؛ فهو من الخير خالدٌ فى الخير ومن الشر هو خالد فى الشر ؛ فكأن الموتَ إنْ هو إلا ميلادٌ للروح من أعمالها ؛ تولد مرتين آتيةً وراجعة

وإذا كان الأمر للنهاية فقد وجب أن تبطلَ من الحياة نهاياتٌ كثيرة فلا يُترك الشرُّ يمضى إلى نهايته بل يُحْسم فى بدئه ويُقتل فى أول أنفاسه ؛ وكذلك الشأنُ فى كل ما لا يحسن أن يبدأ ، فانه لا يجوز أن يمتدَّ كالعداوة والبغضاء ، والبخل والأثرة ، والكبرياء والغرور ، والخداع والكذب ؛ وما شابَكَ هــذه أو شابَهَها ، فانها كلها انبعاثٌ من الوجود الحيوانىّ وانفجارٌ من طبيعته ؛ ويجب أن يكون لكل منها فى الارادة قبرٌ كى تسلَمَ للنفس الطيبة إنسانيتُها إلى النهاية

* * *

يامن لهم فى القبور أموات !

إن رؤية القبر زيادة فى الشعور بقيمة الحيـاة ، فيجب أن يكون معنى القبر من معانى السلام العقلى فى هذه الدنيا

القبر فمٌ ينادى : أسرعوا أسرعوا فهى مدة لو صُرفت كلها فى الخير ما وَفَتْ به ؛ فكيف يضيع منهـا ضَياعٌ فى الشر أو الأثم ؟ لو وُلد الانسان ومشى وأيفعَ وشبَّ وا كتهلَ وهرِمَ فى يوم واحد ، فما عساه كان يُضيع من هذا اليوم الواحد ؟ إن أطول الأعمار لا يراه صاحبه فى ساعة موته إلا أقصرَ من يوم

ينادى القبر : أصلحوا عيوبكم ، وعليكم وقتٌ لاصلاحها . فانها إن جاءت إلى هنا كما هى بقيت كما هى إلى الأبد ، وتركها الوقت وهرب

هنا قبر ، وهناك قبر ، وهنالك القبر أيضاً . فليس ينظر فى هذا عاقلٌ إلا كان نظره كأنه حكمُ محكمةٍ على هـذه الحياة كيف تنبنى وكيف تكون

فى القبر معنى إلغاء الزمان ، فمن يفهم هذا استطاع أن ينتصر على أيامه وأن يُسقِطَ منها أوقات الشر والاثم ، وأن يُميتَ فى نفسه خواطر السوء ؛ فمن معانى القبر ينشأ للارادة عقلُها القوىُّ الثابت ؛ وكل الأيام المكروهة لا تجد لها مكاناً فى زمن هذا العقل كما لا يجد الليل محلاً فى ساعات الشمس

ثلاثةُ أرواح لا تصلح روحُ الانسان فى الأرض إلا بها : روحُ الطبيعة فى جمالها ، وروحُ المعبد فى طهارته ، وروحُ القبر فى موعظته ؟

طنطا مصطفى صادق الرافعى

---

(١) أى من انسانية الحياة

فى الجحيم البلقانى

البانيـــا الفتاة

لمناسبة حوادثها الأخيرة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

فى أوربا دولة إسلامية صغيرة يحدق الخطر اليوم بمصايرها؛ ويتطلع الاستعمار الأوربى إلى افتراسها: تلك هى مملكة ألبانيا التى أثارت حوادثها الأخيرة كثيراً من التساؤل والاهتمام، وهى الدولة المسلمة الوحيدة فى أوربا، لأن تركيا لم تبق بعد من الوجهة الجغرافية دولة أوربية؛ ومن الأسف أن هذه المملكة الصغيرة تجد نفسها، مذ حصلت على استقلالها قبيل الحرب الكبرى، بسبب ظروفها الجغرافية، هدفاً لأطماع ومنافسات دولية قوية لاتستطيع خلاصاً منها، وترى نفسها مرغمة بحكم ضعفها وعزلتها إلى التماس العون والحماية من أولئك الذين يتطلعون إلى افتراسها

كانت ألبانيا قبل الحرب ولاية تركية. ولكن هذه الأمة الصغيرة الباسلة تناضل فى سبيل استقلالها منذ بداية القرن التاسع عشر؛ وقد استطاعت فعلاً أن تحصل على نوع من الاستقلال فى عهد زعيمها على باشا اليانينى فى أوائل هذا القرن، فلما انهار سلطان هذا الزعيم الذى تملأ حياته وسيره الروعة كثيراً من صحف القصص الغربى، انهارت جهود ألبانيا فى الاستقلال، وعادت تركيا فمكنت منها نيرها وسيادتها. ولما نشبت الحرب بين تركيا والدول البلقانية فى سنة ١٩١٢، كان من نتائجها استقلال ألبانيا، قضت به معاهدة لندن التى عقدت بين الدول فى مايو سنة ١٩١٣، واتفقت الدول على اختيار حاكم للدولة الجديدة المستقلة، ووقع اختيارها على البرنس دى فيد الألمانى. وفى أوائل سنة ١٩١٤ قدم البرنس دى فيد إلى ألبانيا بعد أن زار حكومات الدول الأوربية المختلفة، فاستقبله وفد من الزعماء الألبانيين وعلى رأسهم عميدهم أسعد باشا بطل اشقودرة الذى أعلن استقلال ألبانيا قبل أن تقرره معاهدة لندن، وطلب اليه باسم الشعب الألبانى أن يقبل عرش ألبانيا، فلبى البرنس الدعوة ولقب « بأمبرت » ألبانيا وهو تصغير للقب الامبراطور، وتولى أسعد باشا فى الحكومة الجديدة وزارتى الداخلية والحربية، ولكن الخلاف لم يلبث أن دب بينه وبين البرنس، واضطربت شئون ألبانيا، وتفاقمت الصعاب حول الملك الجديد، وأضرم أسعد باشا نار الثورة فأرغم البرنس على مغادرة ألبانيا، لأشهر قلائل من مقدمه، وقبض أسعد باشا على رياسة الحكومة الجديدة (اكتوبر سنة ١٩١٤)، واختارت ألبانيا ملكاً جديداً هو البرنس برهان الدين ابن السلطان عبد الحميد. ولكن البلاد لبثت تتخبط فى غمار الاضطراب والفوضى؛ وكانت الحرب الكبرى قد اضطرمت قبل ذلك بقليل، وأخذت دول الحلفاء تتطلع الى ألبانيا كمركز حربى هام، وتخشى أن تغدو قاعدة لحركات ألمانيا والنمسا فى المشرق؛ وفى ديسمبر سنة ١٩٦٤ بعثت إيطاليا — بايعاز الحلفاء — حملة عسكرية الى ثغر ڤالونا الألبانى فاحتلته؛ وعلى أثر ذلك وقعت بين الدول مفاوضات سرية بشأن ألبانيا، ووعد الحلفاء بأن يتركوا ألبانيا غنماً لايطاليا مقابل دخولها فى الحرب معهم؛ ووعدت النمسا من جانبها إيطاليا بأن تؤيد احتلالها لثغر ڤالونا وتطلق يدها فى ألبانيا إذا هى لزمت الحياد. ولكنها لما رأت تردد إيطاليا دفعت جيوشها الى الجنوب؛ وفى أواخر سنة ١٩١٥ غزت الجنود النمسوية الألمانية ألبانيا واستولت على اشقودرة، ووصلت الى ظاهر تيرانا عاصمة ألبانيا، وغزت الجيوش البلغارية شرق ألبانيا؛ فاضطربت حكومة أسعد باشا الموالية للحلفاء وسقطت؛ واضطرت إيطاليا إلى إخلاء ثغر دورازو ولكنها احتفظت بثغر ڤالونا. ولبث الألمان والنمسويون يحتلون شمال ألبانيا وشرقها لتأمين مواصلاتهم مع تركيا والميادين الشرقية حتى نهاية الحرب الكبرى. ولما انتصر الحلفاء كان من المقرر أولاً أن يعطى القسم الجنوبى من ألبانيا لليونان، ووافقت إيطاليا على ذلك بشرط أن تعترف اليونان بحمايتها على باقى ألبانيا مع التنازل عن سلخة شمالية لصربيا. ولكن هذا التقسيم لم يتم؛ وعادت إيطاليا إلى المطالبة بتنفيذ الوعد الذى

قطع لها بالاستيلاء على ألبانيا . وفى مؤتمر سان ريمو (١٩٢٠) الذى عقد للنظر فى مسألة الانتدابات ، منح الانتداب على ألبانيا لايطاليا ، وأخذت إيطاليا تعمل لاحتلال ألبانيا وبسط سيادتها ؛ ومع أن ألبانيا غدت عضواً فى عصبة الأمم ، فان إيطاليا استطاعت فى أواخر سنة ١٩٢١ أن تحمل بريطانيا العظمى وفرنسا واليابان على إصدار تصريح تعترف فيه « بأن انتهاك الحدود الألبانية أو استقلال ألبانيا يمكن أن يعتبر خطراً على سلامة إيطاليا من الوجهة العسكرية »

على أن البانيا لم تستكن لهذه المحاولات الاستعمارية . والشعب الألبانى شعب باسل رغم كونه يقل عن المليونين عداً (نحو مليون وستمائة ألف ثلثاهم من المسلمين) ، يقدس حريته واستقلاله ، ولهذا عادت البانيا فاضطرمت بحركة وطنية أخرى ؛ وتدخلت السياسة اليوجوسلافية خصيمة السياسة الايطالية لتأييد هذه الحركة التى قادها زعيم فتى هو أحمد زوغو ؛ ولم يمض عامان أو ثلاثة حتى استطاع أحمد زوغو بمعاونة يوجوسلافيا أن ينشىء فى البانيا جمهورية مستقلة ، وان ينتخب رئيساً لهذه الجمهورية (فبراير سنة ١٩٢٥) . ورأى زوغو أنه لا يستطيع المحافظة على سلامة الدولة الجديدة فى بلد وعر قوى المراس قليل الموارد دون معاونة أجنبية ؛ ولما رأت السياسة الايطالية أن يوجوسلافيا تنافسها فى البانيا ، تقربت من أحمد زوغو ؛ وآثر زوغو بعد أن حقق الخطوة الأولى من برنامجه أن يتفاهم مع حكومة رومه ، وانتهى هذا التفاهم بعقد ميثاق تيرانا (نوفمبر سنة ١٩٢٦) ، وهو ميثاق تأييد متبادل وتعاون ودى ، تستطيع الحكومة الايطالية أن تتدخل بمقتضاه فى شئون البانيا ، وتتعهد أن تحافظ على الحالة القائمة فيها فى حدود المعاهدات المعقودة وميثاق عصبة الأمم . وفى العام التالى عقدت البانيا مع إيطاليا معاهدة دفاعية لمدة عشرين سنة ، تتعهد فيها كل منهما بأن تضع تحت تصرف حليفتها كل مواردها العسكرية والمالية وغيرها متى طلبت إليها هذا العون لدرء الخطر عنها

واستطاع أحمد زوغو أن يهدىء الحالة فى البانيا وأن يقبض على ناصية الأمور رغم هـذه الاتفاقات التى تقضى على استقلال البانيا وتجعلها شبه مستعمرة ايطالية . واستغلت إيطاليا هـذه الفرص لتوطيد نفوذها ؛ وعقدت لألبانيا بواسطة عصبة الأمم قرضاً قدره خمسون مليون فرنك ذهباً ، وقامت بانشاء البنك الألبـانى الوطنى ، ووظفت أموال إيطالية كثيرة فى المرافق الألبانية ، ومكنت السياسة الفاشستية نفوذها من ألبانيا . واعتمد أحمد زوغو على هذا النفوذ فى تأييد مركزه وسلطانه ؛ وفى سبتمبر سنة ١٩٢٨ أعلن نفسه ملكا على ألبانيا باسم الملك زوغو الأول ، واستطاع أن يوطد مركزه وأن يقضى على كل معارضة ؛ ولـكنه شعر فى نفس الوقت أن توغل النفوذ الايطالى فى ألبانيا ، يثير الشعور الوطنى ، وقد ينقلب هذا الشعور ضده ، ورأى من جهة أخرى أنه ليس فى كبير حاجة إلى معاونة إيطاليا بعد ؛ فلم يقبل أن يجدد ميثاق تيرانا الذى انتهى أجله سنة ١٩٣١ ، وبقيت معاهدة سنة ١٩٢٧ هى أساس العلائق بين إيطاليا وألبانيا ؛ ولـكنه اضطر أن يعقد اتفاقاً مالياً فى صيف سنة ١٩٣١ ، تتعهد إيطاليا بمقتضاه أن تقدم لألبانيا بشروط معينة قرضاً قدره مائة مليون فرنك ذهباً بلا فائدة ، وتؤدى منها إليها كل عام عشرة ملايين

واهتمام السياسة الايطالية بالبانيا وتمكين نفوذها منها يرجع إلى عوامل جغرافية وعسكرية خطيرة ، فالبانيا تقع فى مواجهة إيطاليا الجنوبية على الضفة اليمنى من بحر الادرياتيك ، وليس بين ثغر بارى الايطالى وبين ثغر دورازو الألبانى أكثر من بضع ساعات ، ولا يفصل برندزى وڤالونا أكثر من مائة كيلو متر ؛ ثم إن شواطىء ألبانيا تصلح بطبيعتها قواعد ومرافىء حصينة للأسطول الايطالى ، على حين أن الشواطىء الايطالية المواجهة ليست لها هـذه الخاصة . ولألبانيا وقت السلم جيش نظامى يبلغ تسعة آلاف ، ويمكن وقت الحرب أن يغدو مائة ألف ، وهو مدرب على الأساليب الايطالية بحيث يغدو وقت الحرب بالنسبة لايطاليا عوناً لايستهان به . ومن جهة أخرى فان وقوع ألبانيا فى جنوب يوجوسلافيا خصيمة إيطاليا ومنافستها القوية يجعلها إذا نشبت حرب بين الدولتين قنطرة سهلة الوصول إلى إيطاليا وتهديد شواطئها وثغورها الجنوبية بسرعة ؛ وإيطاليا تحسب

لهـذا الخطر حسابه ، خصوصاً بعد تحسن العلائق بين ألبانيا ويوجوسلافيا فى الآونة الأخيرة

***

ولنحاول الآن أن نستعرض موقف ألبانيا الحاضر بعد الذى أذاعته الأنباء الأخيرة عن وقوع اضطرابات خطيرة فيها يوشك أن تتمخض عن انقلاب سياسى جديد . والظاهر أن هنالك مبالغة فى هـذه الأنباء قصدت إليها بعض المصادر التى تعمل على تشويه سمعة ألبانيا ولا سيما المصادر اليونانية نظراً لعـدم رضى اليونان عن معاملة الأقلية اليونانية فى ألبانيا ؛ وهـذه الأقلية يسكن معظمها فى القسم الذى ضم إلى ألبانيا من مقاطعة ابيروس وهى مثار الخلاف بين البلدين . وتنفى المصادر الألبانية الرسمية هـذه الأنباء ، وتقول إن ما حدث كله يتلخص فى أن زعيما ناقما يدعى محرم بجرا كطارى قاوم السلطات فى أوليشت حينما أرادت أن تقبض لديه على بعض المجرمين الفارين الذين آواهم ، وإن السلطات استطاعت أخيراً أن تقمع حركاته وأنه اضطر إلى الفرار مع بعض أنصاره إلى ما وراء الحدود اليوجوسلافية ؛ بيد أنه إذا لم تك ثمة ثورة عامة فى ألبانيا ، أو كانت ثمة محاولة إلى الثورة سحقت قبـل استفحالها ، فانه لا ريب أن شئون ألبانيا ليست على ما يرام ، وأنها تجوز فترة من الاضطراب والقلق . فمنذ نحو عامين تضطرم الـكتلة المعارضة لأحمد زوغو بنزعة قوية إلى الثورة وإلى إلغاء الملوكية ، وإعادة النظام الجمهورى بعيداً عن الوصاية الأجنبية ، وقد أسفرت هذه الحركة منذ نحو عام عن محاولة اتهم فيهـا عدة كبيرة من الشباب المتعلم بالتآمر على سلامة الدولة . ومن جهة أخرى فقـد رأت إيطاليا أنها لم تحقق كل ما أرادت من تدخلها فى الشئون الألبانية وقررت أن تقطع الاعانة الماليـة السنوية عن الملك زوغو حتى تجاب إلى مطالبها فى السيطرة على التجارة الألبانيـة ، وافتتاح المدارس الايطالية المغلقة ، وتعيين مستشارين إيطاليين فى الادارات الألبانيـة ، وتعيين ضباط إيطاليين لتدريب الجيش الألبانى وغيرها ؛ وهذه مطالب لم يقبلها أحمد زوغو وحكومته . وقد أحدث قطع الاعانة المالية ارتباكاً خطيراً فى الحـكومة الألبانية ، واضطربت المرافق والمشاريع العامة ، ونضبت موارد القصر والادارات الحـكومية ، وساد روح من القلق والتذمر حول الملك زوغو وحكومته ، وتحركت المعارضـة لتحاول فرصتها ؛ والظاهر أن الحركة الأخيرة كانت أثراً من آثار هذا الارتباك العام ، وأنها ليست إلا بداية قد تعقبها محاولات أخرى إذا لم تتح للملك زوغو وعصبته فرصة لتوطيد مركزهم بالتفاهم مع إيطاليا وتلقى معونتها أو آية معونة خارجية أخرى

والحقيقة أن تلك الدولة الصغيرة المسلمة تجد نفسها فى مركز محزن ؛ فهى لا تستطيع أن تعيش مستقلة بنفسها ، ولا تستطيع رغم بسالتها أن تذود عن هذا الاستقلال الذى تجاهد فى سبيله ، وهى مطمح أنظار دولتين قويتين خصيمتين ، وليس فى مقدورها أن تفلت من نتائج هذا التجاذب السياسى الذى تتعرض له بموقعها الجغرافى وظروفها العسكرية ، وإذا فلا بد لها أن تختار الخضوع لأحد النفوذين : النفوذ الايطالى ، أو النفوذ اليوجوسلافى ، وقد استظل أحمد زوغو بنفوذ يوجوسلافيا حتى تمكن من إنشاء ألبانيا الجديدة ومن التربع على عرشها ؛ ثم استظل بعد ذلك بالنفوذ الايطالى ليوطد دولته الجديدة ، وها هو اليوم يتبرم بذلك النفوذ ويحاول خلاصاً منـه . فهل يكون ذلك نذير العود إلى سياسة التفاهم مع يوجوسلافيا ؟ إن إيطاليا ترى فى ألبانيا غنماً تحرص عليه كل الحرص وتعمل بكل الوسائل لـكى تستأثر به ، وترى فيها مجازاً للتوسع فى المشرق ، والسياسة الفاشستية تنشط اليوم إلى التوسع والاستعمار حيثما استطاعت ؛ ومن المحقق أنها ستنازع يوجوسلافيا أية محاولة تقوم بها فى ألبانيا ، لأنها ترى فى مثل تلك المحاولة اعتداء على سلامتها

وعلى أى حال فان مصير ألبانيا غامض كل الغموض . وخير ما يمـكن أن تفوز به هذه الأمة الصغيرة الباسلة هو أن تعيش كدولة « فاصلة » فى ظل نوع من الاسـتقلال ، وأن تعمل للانتفاع بهذا التجاذب السياسى الذى تتراوح بين شقيه بذكاء واعتدال . وشر ما يمكن أن يصيب ألبانيا هو أن تتفق الدولتان المتنافستان على اقتسامها بين سمع أوربا المتمدنة وبصرها ، وتحقق كل بذلك أطماعها ، وتذهب الأمة الباسلة ، كما ذهبت كثيرات غيرها ، ضحية الاستعمار الغربى

محمد عبد الله عنان
المحامى

الســـــيارة الملعونة !

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

كان لى — فى وقت من الأوقات — سيارة من طراز لا أعينه « تَسَعُ السَّبعةَ الأقاليم طرّا » ولم تكن بى حاجة الى كل هذه السعة ، فانى ، كما يقول ابن الرومى :

أنا من خف واستدق ، فما يُثقل أرضاً ، ولا يســـدّ فضاءَ

وكنتُ إذا اتخذتُ مجلسى فيها لا أملأ إلا إصبعين منها ، وكانت زنتها نحو طنين ، أو بضعة قناطير ، وأدع للقارىء حساب ذلك ، فمالى قِبَلٌ بالحساب أو صبرٌ عليه ؟ وما حاجة مثلى الى الحساب والبراعة فيه وكل أشيائى تعد بالآحاد ، فان كثرت جداً فبالعشرات ؟؟ فأنا أكسب المال قرشاً قرشاً ، وأنفق ما أكسب حتى قبل أن يصير فى كفى ، فما يستقر منه فى جيبى شىء ، فكأنى ساعى بريد ، لغـــيره لا له مايتعب فى حمله ويحفى قدميه وهو يدور به على البيوت ! وما رأيت فى حياتى ورقة بمائة جنيه ! وللبنك الأهلى غرف منحدرة فى الأرض ، ولها نوافذ عليها شُبـاك من السلك المنسوج ، وحديد متعارض ، فهى تؤدّى الضوء ولا تنفذ منها اليدُ مع الأسف ! وفى هذه الغرف تجلس فتيات الى مكاتب صغيرة عليها حزم مكدســة من أوراق النقد المختلفة يختمنها بختم المدير أو لا أدرى ماذا يطبعن عليها ، وكثيراً ما أقف بهذه النوافذ وأنظر الى الفتيات ، أو على الأصح الى الأوراق — أعنى الى الثروات — التى فى أيديهن ، فأتنهد وأتحسر ! وماذا تخسر الدنيا — أو البنك فانه هو الدنيا فى تلك الساعات — إذا انتقلت الى يدى بقدرة ربك — أو بعطف إحدى الفتيات — حزمة واحدة من هذه الأوراق الـكبيرة ؟ ؟ أيفلس البنك ؟ كلا ! أيقل الورق المتداول ؟ كلا أيضاً ! فانى بارع فى إتلاف المال ، فاذا صار فى يدى كثر التداول ولم ينقص ، ولقد فتننى منظر الورق مرة فطال وقوفى ونفد صبرى ، وخرج الرشد من أصابع كفى ، فصحت بالفتاة الجميلة : « هش . . . . هش . . . ! »

فرفعت رأسها الى النافذة ونظرت ثم ابتسمت وعادت الى ما بين يديها

فعدت أصيح بها : « هش . . . . هش . . . . ! »

فصعّدت عينيها مرة أخرى فأسرعت أقول : « يابنت الحلال ! إن مُنى النفس جميعاً فى حزمة من هذه الحزم الـكثيرة — وفيك أيضاً لو تجودين ! — فهلا أعطيتنى مما أعطاك الله ؟ »

ولا أدرى ماذا كان جوابها ، فقد شعرت بيد غليظة على كتفى ، فالتفت ، فاذا شرطى ضخم ، فقلت لأطمئنه : « منظر جميل جداً ، إن البنات يعملن بسرعة عجيبة . وأقول لك الحق ، إنهن جميلات ! من أين ياترى يجمعنهم ؟ ألا تعرف ؟ لشد ما أتمنى أن يكون عندى ولو عشرين حزمة — أعنى بنتاً — من أمثالهن ! »

فضحك ، وسرنى ضحكه جداً ، فحييته بأدب جم ولطف كثير ، وتواضع جميل ، وقلت وأنا أودعه :

« اجعل بالك الى . . . . الهن ، لاتدعهن يغبن عن عينك ! فان لى فيهن والله لمآرب ! إيه ما أحلى أيديهن الرخصة البضة ! ليتنى أستطيع أن أضع كفى على كف واحدة منهن ! ألا تتمنى ذلك ياصاحبى ؟ متع عينك بالنظر ياأخى ! متعها ، متعها ! وهل أقل من النظر ؟ »

***

ولـكن سيارتى ، تلك على جمالها وضخامتها وسعتها ، أرتنى النجوم فى الظهر الأحمر ، ذلك أنها كانت تستنفد من البنزين والزيت كل ماهو معروض فى دكاكينهما على طريقها ، ثم لا تشبع ، حتى لقد فـكرت فى أن أصل خزانها بآبار الموصل ! وكثيراً ما هممت بأن أغالطها وأدور من وراء خديعتها ، وأملأ لهـا خزانها ماء بدلاً من البنزين ، وأنا أقول لنفسى : « ومن أدراها أن هذا ماء لابنزين ؟ » ثم إن خزان الماء كان يغلى كالمرجل بعد دقائق قليلة من السير ، فتبدو لى علامة الخطر الحمراء ، فأقف وأغير لها الماء ، ثم أستأنف السير ، وهكذا ، وهذا فى الشتاء فكيف بها فى الصيف ؟ ولهذا صرت أشترى الثلج ، وأفتته ، وأحشو به خزانها بدلاً من الماء ، ولا أركبها إلا ومعى ذخيرة كافية من ألواح الثلج على المقاعد الخلفية

ولو اقتصر الأمر على هذا لهان الخطب ، ولأمكن احتمال المصاب ، ولـكن محاور العجلتين الخلفيتين كانت مبرية السالبط

والأسنان التي تنشب في العجلة وتعلق بها فلا تدعها تفلت . ولم أكن أعلم هـذا ؟ وأنى لى أن أعرفه وهو شيء محجوب لا يبدو لعين الناظر ؟ وكان فساد هذه الأسنان لا يحدث أثره إلا وأنا في أرض خلاء ، لا أنيس فيها ولا ديار بها ، فأكون سائراً مغتبطاً راضي النفس ، منشرح الصـدر ، وفي يميني سيجارة أنعم بتدخينها ، وفي عيني ابتسامة عذبة ، وعلى لساني — أو شفتي ، لا أدري — ألحان أغنية جميلة ، وأكون قد خرجتُ من العمران ، وأطلقت لها العنان لتنهب فضاء الصحراء — حيث كنت أسكن — وإذا بصوت يقول « كركركركركركر ... » وإذا باحدى العجلتين الخلفيتين قد خرجت من محورها وذهبت تجري وحدها في الطريق وإذا أنا مائلٌ على جنبي ! فلولا حضور ذهني ، وسرعة خاطري ، وثبات جناني ، لانقلبت بي السيارة ، ولانتقل المازني — بعـد أن يحدوه — إلى رحمة الله ، أو على الأقل إلى المستشفى !

وأفتح الباب ، وأترجل ، وأدور بها لأنظر ماذا حدث ، ثم أقول :

« شيء جميـل ! ولـكن هل كان من الضروري جـداً أن تصنعي هذا هنا على الخصوص ؟ ألم يكن من الممكن أن يحدث هذا في شارع محمد علي ، أو القلعة ، أو غيرهما ، حيث الناس يروحون ويجيئون بلا انقطاع ؟ أو أمام البيت على الأقل ؟ سبحان الله العظيم ! ما هذه الطباع الصبيانية ؟ ! »

وأذهب أبحث عن العجلة الطائرة ، ثم أدحرجها عائداً بها ، وأخلع المعطف والسترة ، وأرفع الأكمام ، وألبس ثوب « العمل » الأزرق ، فقد احتجت إليه فرصت عليه ، وأخرج الآلة الرافعة ، وعلبة الرزّات[1] ، وأحمـد الله على أن المحور سليم لم ينكسر ، وأرد العجلة الى مكانها ، ثم أتوكل على الله وأستأنف السير .

ولـكن ما كل مرة تسلم الجرة ، فكنت كلما ازددتُ احتياطاً لهذه المفاجآت ، زادتني هي افتناناً في الحيل والمـكر السيء ، وقد اضطررت أن أتخذ لي خادماً يصحبني في السيارة ليعينني على بلائها ، فحدث مرة وأنا عائد الى البيت ، وكان الوقت منتصف الليل ، أن كركرت العجلة — على عادتها — وطارت في ميدان الأوبرا . فوقفت في وسط الميدان ، وأمرت الخادم أن يصلح ما فسد ، ورحت أنا أتمشى على الافريز وأدخن سيجارة حتى يفرغ من هذا الأمر ، فجاءني يقول ان المحور قد انكسر !

قلت : « هممم ! شيء جميل ! خبر سار جداً . الثلج حملناه ، والبنزين هذه ذخيرته وراءنا كأنا على سفر الى القطب الشمالي . فلم يبق إلا أن نحمل معنا دكاناً كاملاً من أدوات السيارات والقطع اللازمة لها ! لا بأس ! غداً إن شاء الله نفعل ذلك . أما الليلة فعليك ياصاحبي أن تدخل في السيارة وتغلقها عليك — أبوابها ونوافذها فان البرد شديد — وتحضن العجلة المتمردة وتنام الى الصباح ، وإنه ليؤسفني أن لا أنيس لك في هذا الميدان الموحش سوى تمثال إبراهيم باشا ، ولـكنه كان بطلاً ، فاحلم بوقائعه الى الصباح . . . عم مساء والى الملتقى ! »

* * *

وأقسمت لأبيعنها ، فما بقي لي على ألاعيبها صبر ، ومضيتُ بها — بعـد إصلاح محورها — إلى الدكان الذي اشتريتها من صاحبه ، وقلت له « بعها بأي ثمن ! فمايعنيني إلا أن أتخلص منها »

وكان بيني وبينه ود ، فسألني « هل تبيعها بنصف ثمنها ؟ »

قلت : « وبثلثه — بل بربعه ! »

قال : لا لا . حرام . انها سيارة فخمة ! ولو عرضتها بهذا الثمن الزهيد لظن الناس الظنون ، ولتوهموا أن فيها عيباً لا يداوى ، وأخلق بهم حينئذ أن ينصرفوا عنهـا ويزهدوا فيها » فسألته « بكم تنوي إذن أن تعرضها ؟ »

قال : « مـائة جنيه _ »

فصحت « ياخبر اسود ! مـائة ؟ إن هذه سرقة ! »

قال : « لا تكن أبله . . . . مالك أنت ؟ »

وبقيتْ عنـده أسابيع ، لا يشتريها أحد ، فمررتُ به يوما فألفيته خارجاً ، فرجاني أن أنتظره حتى يعود . . . دقائق لا أكثر . . . وأخبرني أن سيدة ستحضر ، فاذا جاءت قبله ، فعليّ أن أستقبلها وأحييها حتى يرجع

وذهب . وجاءت السيدة ، فلم يسعني إلا أن أنهض لاستقبالها ، لا لأن صاحب الدكان كلفني ذلك ، بل لأنها كانت أجمل من أن يستطيع امرؤ أن يجرؤ على إهمالها . فقالت :

« هل أنت المسيو . . . . ؟ »

(١) الرزة حديدة تدخل في القفل أو نحوه ، وقـد استعملتها هنا لما يسمونه « التيلة »

قلت : « ليتني كنته ! إذن لربحت فى العام ثلاثة آلاف من الجنيهات ! كلا ! لقد خرج وسيعود بعد قليل جداً ... تفضلى ! »

فأجالت عينها حتى وقعت على سيارتى فقالت

« هل هذه معروضة للبيع ؟ »

قلت « أظن ذلك ! أعنى نعم ! »

قالت « إنها جميلة .. ضخمة .. فخمة ... (وفتحت بابها) وثيرة المقاعد .. بديعة .. كم ثمنها ؟ »

فتنحنحت وقلت « إ ... أ ... ثمنها ! إ ... مائة جنيه ! »

قالت « ثمن معقول .. ليست بغالية »

قلت « ولكنها لا تصلح لك .. أعنى أن عيوبها فظيعة ! »

قالت « عيوبها ؟ إنه لا عيب فيها ! »

قلت « الماء يغلى بعد دقائق »

قالت « طبيعى ... »

قلت « تحرق وقوداً كثيراً .. تحتاج إلى جالون من البنزين كل أربعة أمتار »

قالت « لا تبالغ ... إنها كبيرة ضخمة ، فمن المعقول أن تحتاج إلى وقود كثير »

قلت « والعجل يطير أثناء السير »

قالت « أوه ! ما هذا الأسراف فى الطعن ؟ هل أستطيع أن أجربها ؟ »

فخرجت بها ، ودرنا بها دورات ، ولم أرحمها — أعنى السيارة — لأبرز لها — أعنى للسيدة — عيوبها — أعنى السيارة هذه المرة — فما كان فى السيدة هنة ، ولكنها كانت كأنها مسحورة ، فلا البنزين القليل الذى وضعته فيها نفد ، ولا الماء غلا ، ولا العجلة طارت

وقالت السيدة « أرى كيف كنت تبالغ ؟ إن ماءها بارد كالثلج ! ولا يزال أكثر البنزين باقياً ، والعجلة فى مكانها ثابتة . لو كان كل تاجر يصد الزبائن كما تفعل ، لخرب ! »

فلم تبق لى حيلة ، وجاء صاحب المحل فتمت الصفقة ، وحسب لى نصيبى من الثمن ، مقدمة لثمن سيارة أخرى ...

ولا أدرى ماذا كان من أمر السيارة مع هذه السيدة المسكينة ولكنه لا ذنب لى ، فقد حذرتها وأنذرتها ، وأبرأت ذمتى

ابراهيم عبد القادر المازنى

حجر بهستون

مفتاح الكتابة المسمارية

بقلم الأستاذ كوركيس حنا عواد

١ — تمهيد

لئن كان حجر رشيد وثيقة تاريخية خطيرة الشأن أدّت إلى فكّ رموز الكتابة الهيرغليفية [١] ، وفتحت ما استغلق من المدنية المصرية القديمة وأوضحت ما أشكل فيها ، فان حجر بهستون يعتبر ولا مراء وثيقة هامة جداً موازية لرفيقتها فى المكانة ، لكونها أدّت إلى فك رموز الكتابة المسمارية ، وأنارت السبيل أمام العلماء والباحثين للتطلع إلى الماضى البعيد والتعرّف بالمدنيات الأشورية والبابلية . . .

على الطريق الرئيسية الموصلة بين بغداد وطهران ، يقع هذا الأثر المدهش الذى هو من أعظم الآثار التاريخية فى آسيا . ويبعد عن همدان [٢] بمسافة ٦٥ ميلاً ، وعن كرمنشاه باثنين وعشرين ميلاً

وعُرف هذا الصخر قديماً باسم جبل باغستان البالغ ارتفاعه ٣٨٠٠ قدم . وقد أُطلقت هذه التسمية على هذا الأثر نظراً لوجود تلك القرية الصغيرة المسماة بهشتون عند أسفل الصخر ، وأصبحت هذه التسمية هى المتعارفة بين علماء الآثار والتاريخ من الأجانب .

وكان السر هنرى رولنصن Sir H. Rawlinson قد استعار هذه التسمية من ياقوت الحموى الذى أتى فى معجمه الجغرافى على ذكر هذه القرية وينبوعها فقال : « . . . قرية بين همذان وحُلوان . . . وجبل بهستون عال مرتفع ممتنع لا يرتقى إلى ذُروته . . . ووجهه من أعلاه إلى أسفله أملس كأنه منحوت ، ومقدار قامات كثيرة من الأرض قد نحت وجهه ومُلّس ، فزعم بعض الناس أن بعض الأكاسرة أراد أن يتخذ حول هذا الجبل

(١) أنظر بحث الأستاذ عبد الفتاح الزيادى : حجر رشيد والقلم الهيرغليفى ، (الرسالة ٢ : ٤١١ — ٤١٤)

(٢) همدان مبنية فوق بقايا المدينة التى كان يسميها الفرس « حاكاتانا » ومعناها « ملتقى الطرق الكثيرة » . أما اليونانيون فقد دعوها « اكبتانا » وسيرد ذكرها فى هذا البحث

موضع سوق ليدلَّ به على عزته وسلطانه . وعلى ظهر الجبل بقرب الطريق مكان يشبه الغار وفيه عين ماء جار . . . » [1]

ولم يكن ياقوت أول من استعمل هذه التسمية فى معجمه ، بل سبقه إلى ذلك ديودورس الصقلى المؤرخ [2] كما سيجىء ذكره

٢ — وصف الصخر والينبوع المقدس :

إن لواجهة هذا الصخر وضعاً عجيباً من حيث البروز والانتصاب ، فكان ليد الانسان نصيب وافر فى تهذيبها وصقلها وجعلها واقفة الانحدار كالجدار القائم ، فبات النحت والكتابة عليها أمراً ميسوراً . وفى أسفل هذه الواجهة ينبوع ذو ماء نقى جداً . فهنا كانت القوافل منذ الأزمان الغابرة تلقى عصا الترحال لتستريح من وعثاء السفر ، وتروى غلتها من هذا المنهل العذب ؛ كما أن معظم الجيوش التى سارت من أرض الفرس إلى شمالى بابل قد شربت من هذا الينبوع الشهير . ولقد اكتسب هذا الموقع مسحة تقديسية ، كما يقول ديودوروس [3] ، لوجوده عند هذا النبع المتفجر

إن لهذا الصخر مزايا ، منها اعتباره موقعاً مقدساً ، فضلاً عن شموخه وانتصابه ، ووقوعه على طريق رئيسية من طرق العالم القديم ، ووجود المياه عند سفحه . . فكل هذه أسباب وجيهة ودواع مهمة أهابت بداريوش الكبير (٥٢١ – ٤٨٥ ق . م .) إلى أن يختار هذه الواجهة الجبلية القائمة ليجعل منها سجلاً خالداً على كر العصور ، فنحت عليها الصور والكتابات الكثيرة التى كان يرمى من وراء صنعها إذاعة فتوحاته وانتصاراته على جميع الشعوب المعروفة وقتئذ

٣ — المنحوتات :

تمثل هذه المنحوتات الملكَ داريوش ، ويمينه اثنان من قواده يحمل أحدها قوساً والآخر رمحاً . والملك هنا واقف يتقبل شعائر الخضوع والأذعان من قادة العصاة ورؤسائهم المتمردين الذين ثاروا فى وجهه خلال السنين الأولى من حكمه ، وعصوا أوامره فى أنحاء شتى من امبراطوريته المترامية الأطراف . وقد داس الملك برجله اليسرى جسمَ رجل مطروح على ظهره ، رافع كلتا يديه مستعطفاً ومستغفراً . . وأمسك داريوش بيده اليسرى قوساً ، أما يده اليمنى فقد رفعها متجهاً بها نحو الاله (أورامزدا) Auramazda الذى يظهر فى وسط أشعة من الأنوار والبروق ؛ وانتصب أمام الملك تسعة من هؤلاء القواد والرؤساء الذين شقوا عليه عصا الطاعة ، وقد شُدوا من أعناقهم بعضهم إلى بعض بحبل واحد ، وشُدَّ وثاق أيديهم وراء ظهورهم

ويبلغ طول واجهة المنحوتات نحو ١٠ أقدام وعرضها ١٨ قدماً ؛ أما ارتفاع شكل داريوش فخمس أقدام وثمانى عقد ، وارتفاع كل من تابعيه أربع أقدام وعشر عقد ، وارتفاع كل سجين ثلاث أقدام وعشر عقد ؛ أما ارتفاع اورامزدا من أعلى رأسه إلى منتهى أشعته فثلاث أقدام وتسع عقد ، ومنتهى عرضه أربع أقدام وعقدتان

٤ — النصوص :

وتحت لوحة المنحوتات كتابة عظيمة تتشكل من خمسة أعمدة (حقول) متجاورة ، يبلغ ارتفاع كل منها نحو ١٢ قدماً بعرض ٦ أقدام ؛ أما عدد أسطرها فتشتمل على الترتيب ٩٦ + ٩٨ + ٩٢ + ٩٢ + ٣٦ والمجموع ٤١٤ سطراً . وهى باللغة الفارسية القديمة ، لكنها مكتوبة بالأحرف المسمارية الجديدة المتألفة من ٣٩ حرفاً ، والتى ابتكرها الفرس . وقد دُوِّنَ على هذه الأعمدة نسب داريوش وغزواته وانتصاراته على جميع أعدائه وإخماده الثورات المتعددة التى أعقبت تتويجه ، واقتحامه شعوباً متعددة ، وغيرها من الأعمال التى قام بها خلال حكمه

وعن يسار الكتابة الفارسية ثلاثة أعمدة أخرى وضعت باللغة السوسيانية [1] وكُتبت بالأحرف المسمارية السوسيانية (العيلامية) ، وهى تشتمل على ترجمة الأعمدة الأربعة الأولى من النص الفارسى . وعدد أسطرها هو على الترتيب ٨١ +

(١) معجم البلدان ، طبعة وستنفيلد (١ : ٧٦٩) ، وطبعة مصر (٢ : ٣١٥)

(٢) Diodorus Siculus, ed. Müller, Lib. II., Cap. XIII.

(٣) Lib. II. , Cap. III

(١) أشهر مدينة فى سوسيانا كانت شوشن أو شوشان ، المعروفة عند اليونانيين باسم سوسا وفى التوراة باسم شوشن القصر

٨٥ + ٩٤ + ٣ (ملحق) والمجموع ٢٦٣ سطراً . وتتراوح أبعادها ما بين ١٠ ــ ١١ قدماً طولاً و ٧ أقدام عرضاً

وهناك عن يسار المنحوتات واجهتان أخريان من الصخر عليهما كتابة باللغة البابلية ، وكُتبت بالأحرف المسمارية البابلية المتألفة من بضع مئات . . . وتبلغ أسطرهما معاً نحو ١١٢ ، ويتراوح ارتفاعهما بين ١٠ ــ ١٤ قدماً ؛ أما عرضهما معاً فبين ١١ ــ ١٥ قدماً

ويوجد عن يمين المنحوتات أربعة أعمدة تكميلية بالخط المسماري ، وربما تتعلق هذه الأعمدة التكميلية بالحوادث المسرودة على العمود الخامس من النص الفارسي . إلا أن العوامل الجوية قد أثرت فى هذه التكملة تأثيراً سيئاً ، فأصابها ألوان من الخدش والمحو ، حتى أن أمر قراءتها أصبح متعذراً فى الوقت الحاضر ، إلا بعض كلمات من العمود الأول المكتوب باللغة السوسيانية . أما عدد أسطر هذا القسم فقد ضاعت معالمه ولم يعد فى وسعنا معرفتها بالضبط . فمجموع الكتابات المقروءة إذاً تبلغ ٨٠٠ سطر تقريباً

وقد كُتب على لوحة المنحوتات فقرات صغيرة تبين أسماء أولئك المتمردين التسعة ، ويبلغ مجموع هذه الفقرات ٣٢ فقرة ، منها ١١ بالفارسية و ١٢ بالسوسيانية و ٩ بالبابلية

٥ — بهشتون فى نظر الأقدمين :

إن أقدم مصدر تاريخى نقع فيه على ذكر حجر بهشتون هو تاريخ ديودورس الصقلى ، الذى نشأ فى القرن الأول الميلادى فذهب إلى أن هذه المنحوتات قد أحدثتها « الملكة سميراميس » لتكون على طريقها ما بين بابل وأكبتانا . وحسبما يرتأى هذا المؤرخ ، أن هذه الملكة العظيمة قد ضربت معسكرها عند الينبوع الواقع فى أسفل الصخر ، وقد غرست بستاناً هناك . . . أما وصفه للمنحوتات فليس بمضبوط ، إذ زعم أن الشكل الذى لداريوش إنما هو لسميراميس ، وذهب إلى أن الأثنى عشر رجلاً المحيطين بالملك إنما هم مائة من حَمَلة الرماح ، شخصوا حول ملكهم ! ! . . .

أما الكتابة فيقول إنها « بالأحرف السريانية » . ثم قال بأن سميراميس قد تمكنت أن تصعد إلى أعلى الصخر بتكديس أحمال وسروج حيواناتها شيئاً فوق شيء[١] . إلا أن هذه الآراء بعيدة كل البعد عن الحقيقة وعارية عن الصحة ككل ما ينسب إلى هذه الملكة الوهمية . وذكر ديودورس فى موضع آخر من كتابه أن الاسكندر الكبير زار هذا الصخر لدى سيره من سوسا إلى أكبتانا[٢]

ولقد عرف كثير من جغرافيي العرب كابن حوقل[٣] والأصطخرى[٤] (فى القرن العاشر الميلادى) وياقوت (فى القرن الثالث عشر) هذه المنحوتات والكتابات فى بهشتون ، ولكن أحداً منهم لم يهتم بأمر الكتابات اهتمامه بالمنحوتات ، كما يظهر لنا مما أوردوه عنها . هذا فضلاً عن أنهم لم يذكروا نوع الحروف التى كتبت بها

٦ — بهشتون فى نظر السياح الأوربيين القدماء :

من أقدم السياح الأوربيين الذين زاروا بهشتون فى العصور المتأخرة أمبرجيو بمبو Ambrogio Bembo (١٦٥٢ — ١٧٠٥) وهو تاجر إيطالى من أهالى البندقية رحل الى بلاد الفرس خلال الربع الأخير من القرن السابع عشر ، وأعطانا ــ بالنسبة إلى حالة زمنه ــ وصفاً دقيقاً لهذه المنحوتات[٥]

وبعد ستين سنة تابعه فى هذا المضمار المستشرق السويدى أوتر Jean Otter (١٧٠٧ ــ ١٧٤٨) الذى ساح فى بلاد الفرس وفحص المنحوتات ، ولكن ملاحظاته عنها قليلة الخطر ، وقد اعتبر شكل الآله أورامزدا « نذيراً للخير »[٦] ,

وبعد انقضاء ستين سنة أخرى زار أولفيير G. A. Olivier (١٧٥٦ ــ ١٨١٤) العالم الطبيعى الفرنسى بلاد الفرس ، وفحص المنحوتات فى بهشتون ، ورسم لها صورة طبعها بعد ذلك فى كتاب رحلته[٧] . أما هذه الصورة فخاطئة جداً ، لأنها تمثل داريوش جالساً على عرش ، ورجلاه مستندتان على كرسى صغير ؛ كما أن استنساخه لبقية أشكال المنحوتات ليس بمضبوط ألبتة

(١) Diodorus, Lib. II., Cap. XIII, Bd. I., P. 90

(٢) Diodorus, Lib. II., Cap. CX., Bd. II., P. 207

(٣) المسالك والممالك (طبعة دى غوية ، ص ١٩٣)

(٤) مسالك الممالك (طبعة دى غوية ، ص ٢٦٥ ، ٢٦٦)

(٥) Morelli : Dissertazione (P. 46 ff., Venice, 1803.)

(٦) Voyage en Turquie et en Perse (Vol. I. P. 187. Paris. 1748.)

(٧) Voyage dans l'Empire Othomane, etc., (III., P. 24.)

ومن الغريب أننا نجـــد هوك Hoeck [1] فى كتابه : Veteris Mediae et Persiae Monumenta (Gottingen 1818) يطرح جانباً أحاديث (تمبو) وآراءه التى يركن إليها ويوثق بصحتها إلى درجة غير قابلة ، ويعوّل بالدرجة الرئيسية على ما أتى به أولئفيير من المعلومات التى لا تتفق مع الحقيقة دائماً

٧ — ايضاحات وتعليلات وهمية للمنحوتات :

وكان الصخر قد وصفه ثانيـة جاردان A. L. de Gardanne (١٧٦٥ — ١٨٢٢) الذى افترض أن اورامزدا وأشعته النورية إنمـا هو صليب ، وزعم أن الأشكال التى تحته تمثل الاثنى عشر رسولاً ! . . . [2]

وبعد مضى سـنين قلائل ، قام كينير Sir J. M. Kinneir (١٧٨٢ — ١٨٣٠) بعدة رحلات فى بلاد الفرس ، وكان أول من ذهب الى أن المنحوتات فى بهشتون تعود الى نفس العصر الذى نشأت فيه آثار برسبوليس [3]

وقد شاركه فى هذا الرأى كبل G. T. Keppel (١٧٩٩ـ١٨٩١) الذى أسهب فى وصف هذه المنحوتات فى كتاب رحلته [4]

وفى عام ١٨٢٢ طبع بورتر Sir Robert Ker Porter أبحاثاً قيمة عن رحلاته التى قام بها فى جورجيا وفارس وأرمينيا وبابل خلال ١٨١٧ — ١٨٢٠ ، واليه نحن مدينون بوصف مسهب لمنحوتات بهشتون . وفى هذا الـكتاب رسم للمنحوتات يصح أن يُعتبر أحسن ما رُسم لهذا الأثر حتى صدور الـكتاب . وقد لاحظ عموماً قدم هـذه المنحوتات الغابرة ، ولـكنه لم يفهم مآلها [5] ، فقد ذهب الى أن هذه المنحوتات البارزة الشهيرة إنما عملها شلمناصر « ملك أشور وميديا » ليخلد بها اكتساحه لبنى اسرائيل . وزعم أن الأسرى الواقفين أمام داريوش إنما هم من الأسباط العشرة ، واعتبر أن شكل داريوش لشلمناصر ، الى غير ذلك من التعليلات التى نستغربها الآن . . . ومع هـذا فانها تطامنا على وضع علم الآثار فى ذلك العصر ، وتدلنا صريحاً على فهم الناس لبقايا السلف

٨ — صعوبة الوصول الى الكتابة لدراستها

ومع أن منحوتات بهشتون كانت قد لوحظت ودرست من قِبَل عدد غير قليل من السياح خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، فان أمر نقل الـكتابات التى هنالك ظل نسياً منسياً . . ولهذا لم تقع تلك النصوص فى حوزة من يريد فحصها أو تدقيقها ودرسها من طبقة المتعلمين . ولاشك أن لهذا التقصير سبباً : فالقيام باستنساخ النصوص أمر فى منتهى الصعوبة ، لأن الـكتابة — كما قلنا سابقاً — نحتت على واجهة صخرية قائمة الانحدار ، يبلغ ارتفاعها ٥٠٠ قدم فوق مستوى السهل . على أن من الممكن الوصول إلى ما علوه مائتا قدم فقط بتسلق كتل الصخر وجلاميده المتفككة والقلاع التى فى سفح الجبل ؛ أما بعد هذه الصخور المبعثرة ، فالأمر يصبح عسيراً جداً ، إذ ينتصب الصخر فجأة ، فيكون التسلق عليه محفوفاً بالمخاطر الجسيمة من كل جانب

٩ — السر هنرى رولنصن يعمل فى بهشتون

وكان أول من تغلب على هذه الصعاب هو السر هنرى رولنصن (١٨١٠ — ١٨٩٥) الذى أصبح حل الـكتابة المسمارية مديناً لمجهوداته ومساعيه ومغامراته [1]

ففى عام ١٨٣٣ ، عندما كان ضابطاً فى الجيش الهندى اختير مع بضعة ضباط ليتوجهوا الى إيران ليساعدوا الشاه على تدريب جيشه . وفى عام ١٨٣٥ كان قد أرسل الى كرمنشاه باعتباره مستشاراً للحربية ومساعداً لحاكم تلك المقاطعة . وفى طريقه الى هناك من همدان (اكبتانا) وانتهز الفرصة فاستنسخ الـكتابات المسمارية المنحوتة على واجهة الصخر فى وادٍ بجبل الوند قريباً من تلك المدينـة [2] . وقد نجح فى دراسته لهذه

---

(١) للاطلاع على آراء السياح الأقدمين الآخرين بجانب الذين ذكروا مع هوك يراجع : De Sacy : Mémoires sur diverses Antiquités de la Perse (Paris, 1793, P. 217 ff.)

(٢) Journal d'un Voyage. (Paris, 1809, P. 83.)

(٣) Geographical Memoir of the Persian Empire. (London, 1813, P. 131.)

(٤) Personal Narrative of a Journey from India to England (2 nd ed., Vol II, P. 80, London, 1827.)

(٥) Travels. (1822, Vol. II, P. 159 ff.)

---

(١) طالع ترجمته فى « أعلام المقتطف » (ص ١٦٠ — ١٦٢) ، وكذلك فى كتاب : Sir Wallis Budge : The Rise and Progress of Assyriology (London, 1925, P. 31 ff.)

(٢) لقد عثر على نصوص ثلاثية اللغة — فضلا عن بهشتون — فى برسبوليس والوند وهمدان ومرغب ومسجد ومادرى سليمان والنقش رستم

الـكتابات ووفق فى الحصول على (مفتاح) لمعرفة العلامات المستعملة فى الـكتابات المسمارية الفارسية القديمة . ولابد أن نذكر هنا أنه لولا دراسـته اللغة الزندية القديمة والفهلوية لما تمكن من قراءة الـكتابة البابلية ، لأن هاتين اللغتين كانتا مشابهتين لـكتابة اللغة المسمارية الفارسية ، وتمكن أخيراً أن يكوّن « هيكلا » للقواعد الصرفية والنحوية وأن يتحقق من معانى كلمات متعددة

وكان خلال الفترة التى أقامها بكرمنشاه (أى من سنة ١٨٣٥ الى ١٨٣٧) قد خصص أوقات فراغه لفحص الـكتابات التى على حجر بهشتون . وفى ختام سـنة ١٨٣٧ كان قد حصل على نسخ لما يقارب نصف الأعمدة للنص الفارسى . وفى نقله لهـذه النصوص أثبت أنه قطع شوطاً بعيداً فى التقدم على كل باحث فى هذا الموضوع . ولا شك أن نجاحه فى هذا العمل المضنى شهادة صادقة على سعة ذكائه وعلو همته

إلا أن مهمته العسكرية اعترضت سبيل عمـله وأقعدته عن إتمامه ، فرأى المصلحة تقضى بأن يدع أعماله فى بهشتون جانباً ، ريثما يُعيد الـكرة عليها عام ١٨٤٤

وفى صيف تلك السنة عاد الى هناك مع المستر هستر Mr. Hester والـكابتن جونس Cap. Jones R. N. فأمكنه بمساعدتهما أن ينتهى من استنساخه للنص الفارسى ، وأن يعمل نسخة كاملة للترجمة السوسيانية . وعند ما عمل فى مبدإ الأمر نسخةً للنص الفارسى ، قارَنَ الفقرتين الأوليين مع الـكتابات التى استنسخها سابقاً فى « الوند » فزوّدته هذه المقارنة بمعرفة الأسماء المحلية لـكثير من الأعلام ، فضلاً عن التوصل الى معرفة عدد لايستهان به من الـكلمات الأخرى

وفى عام ١٨٤٧ طبع رولنصن ترجمة كاملة للنص الفارسى من كتابات بهشتون ، مع ذيل صرفى نحوى واسع وأبجدية

أما الترجمة البابلية فقـد نجح رولنصن هذا الوقت فى عمل نسخ للـكتابات التسع الصغيرة التى على لوحة المنحوتات ، غير أن القسم الأساسى من النص [illegible] قد ظل الوصول اليـه أمنع من عقاب الجو ؛ وما برحت الوضعية [illegible] الصورة حتى كان خريف ١٨٤٧ ، حينما عاد رولنصن مرة أخرى إلى بهشتون ، فباشر عمل التدابير السديدة للحصول على نسخة من الترجمة البابلية . واستعداداً لانجاز هذه المهمة الشاقة زوّدَ نفسه بحبال وألواح خشبية وسلالم إلى غير ذلك من وسائل الصعود والتسلق ، واصطحب معه بعض الأكراد الجبليين ليكونوا عوناً له فى مهمته هذه

وكانت خاتمة هذه الرواية أن توصـل رولنصن إلى الغاية المبتغاة ، بعد أن كان إدراك تلك الغـاية ممتنعاً والتماسها وعراً . فاستنسخ الـكتابة البابلية بأجمعها ، وبهذا أزاح ستاراً آخر طالما كان مسدولاً أمام العلماء والباحثين ..

ولا تزال بعض أوراق رولنصن ومنسوخاته معروضة إلى اليوم فى القاعة البابليـة فى المتحف البريطانى ، برغم ما أصابها من التلف أثناء عرضها قبلاً فى قاعة المحاضرات لمختلف الجمعيات العلمية بلندن

ولابد من الأشارة هنا ، إلى أن حل رموز الـكتابة المسمارية كان قد اشتغل به نفر من العلماء البـارزين ، نخص بالذكر منهم : جروتفند G. F. Grotefend وأوبرت J. Oppert ونوريس E. Norris وهنكس Ren E. Hincks وغيرهم ، إلا أن رولنصن فاقهم جميعاً ، وحاز قصب السبق عليهم ، فلا غرو إذا دُعِىَ بحق « أبا علم الآشوريات »

١٠ — مساعى العلماء بعد رولنصن

وكان بين السياح الذين رحـلوا إلى بلاد الفرس منذ زمن رولنصن ، وقاموا بمساع لأعادة فحص هذه الـكتابة هو جاكسن W. Gackson الذى وفق عام ١٩٠٣ الى الوصول الى الحـافة التى تحت النص الفارسى ، والى عمـل مقارنة ومقابلة بين العبارات المشكوك فى صحة استنساخها سابقاً (١)

ثم لمـا كان عام ١٩٠٤ أوفد المتحف البريطانى المستر كنج L. W. King (الذى كان وقتئذٍ قائماً بأعمال الحفر والتنقيب فى بقايا نينوى) إلى بهشـتون ، ليقابل بين النصوص وليقيس الأبعاد وليأخذ الصور الفوتوغرافية . وقد رافقه المستر طومبسن R. C. Thompson ليساعده على أداء هذا العمل . وقد قام كنج وطومبسن بهذه المهمة خير قيام ، وتمكنا من معرفة مقاسات

(١) تجد خلاصـــة مقارناته لتلك الفقرات فى : jour. American Oriental Society (Vol. XXIV, P. 77 ff.) وكذلك فى حديث رحلته المعنون Persia, Past and Present (P. 186 ff.. New york, 1906)

الأشكال والكتابات التى أتينا على ذكرها فى محلها من هـــذا البحث . وقد وجدا بوجه الاجمال أن عرض الساحة المغطاة بالمنحوتات والكتابات معاً يبلغ ٦٠ قدماً ، وارتفاعها ٢٣ قدماً

وفى سنة ١٩٠٧ تمكن هذان الباحثان أن ينشرا النصوص الكاملة للكتابات الفارسية والسوسيانية والبابلية فى بهشتون ، المبنية على مقارنات حديثة مع الأصول التى على الصخر . مع ترجمتها بأجمعها إلى الانكليزية ، ومقدمة وتصدير وصور فوتوغرافية الخ بعنوان : The Sculptures and Inscriptions of Darins the Great on the Rock of Behiston in Persia (Lxxix + 223 pp, XVI plates)

ولا يزال هذا المؤلف أحسن كتاب للآن يمكن الرجوع إليه فى التوسع فى هذا البحث

١١ — صيانة مدونات داريوش

ويمكننا أن نعزو بقاء كتابات داريوش هنا ، إلى أنها حفرت على واجهة صخرية قائمة الانحدار ، بحيث أن التسلق إليها يُعد من الأمور المتعذرة . ولكيا يجعل مدوناته بعيدة بقدر الامكان عن أن تسطو عليها أيدى الأعداء وتنال منها مأرباً ، فقد انتزع الزوائد الصخرية الكائنة تحت الكتابة ، فتكوّنَ من جراء ذلك جدار صخرى أملس ، تعلوه الكتابات والصور . وهناك دلائل على أن الملك قد كوّن بعضاً من الطرق للصعود إلى هـذا الصخر بحيث يُتاح للمارة أن يصعدوا ويتفرجوا على كتاباته ونقوشه . ولكن جميع تلك الطرق التى كانت مؤدية إلى الصخر قد انطمست معالمها الآن

وقد كان لتحفظ الملك وبُعد نظره التأثير الحسن فى الابقاء على المنحوتات والمدوّنات ، فنجت من التشويه والتلف الناجمين عن عبث يد الانسان . ويمكننا القول بأن معظم التلف الذى أصابها إنما كان من تأثير العوامل الجوية ، ومن رشح الماء خلال طبقات الصخور المكوّنة للجبل

ولم يقف عمل داريوش فى إذاعة جبروته وعظمته فى العـالم عند هذه المنحوتات والمدونات ، بل أراد أن يعمل غيرها من النسخ ، لتُصدَّر وتُذاع بين الشعوب البعيدة عن هذا الموقع ، والداخلة فى أمبراطوريته

فقد كشف الدكتور كولدواى R. Koldway فى بابل عن قطعة من الترجمة البابلية . وإنا لنأمل فى أن ما تمّ وما سيتم من الحفريات الأثرية فى العراق وفارس يؤديان إلى اكتشاف نسخ أخرى تميط اللثام عن بعض المعميات التى تعتور النصوص الحالية

والخلاصة ، أن هذا الملك العظيم ، قد دون انتصاراته فى اللغات الثلاث ، التى كان لها أعظم الأهمية فى العالم الشرقى وقتئذٍ ، ولم يكتفِ بهذا بل جعله مطلاً على طريق رئيسية ، وعلى قطعة ترتفع خمسمائة قدم فوق مستوى سطح تلك الطريق وبالقرب من الماء أيضاً ، فلا بد للمسافر من أن يستريح قليلاً هنا ، فيتاح له عندئذٍ مشاهدة هذا الأثر ملياً والتساؤل عن ماهيته

(الموصل) كوركيس حنا عواد

الصـــــورة

قصة تمثيلية في فصل واحد بمنظرين

بقلم حسين شوقي

الأشخاص

الزوج . الزوجة . الحماة (أم الزوجة)

المكان : حجرة نوم الزوجة

المنظر الأول

الزوجة منهمكة في وضع حوائجها في الحقيبـة ، بينما أمها تجلس أمامها على كرسي « فوتوى » تروح على نفسها بمروحة

الأم – أصغى إلى يا ابنتي ، بالله لا تهجري زوجـك . إنك لن تجدى أفضل منه . صحيح أن فيـــه عيوباً مثل مغالاته في الشرب ، أو تأخره في السهر ، ولـكن أين الزوج الـكامل ؟

الزوجة – هذه ليست عيوباً في نظرى يا أماه ، بالعكس إني أبغض الزوج الذي يقضى كل وقته في المنزل متعلقاً بأهداب زوجه . لا يعرف ما يحدث في الحياة خارج محيط البيت

الأم – إني لا أفهمك يا ابنتي . إذا هجرك زوجك غضبت ، وإن بقى بجـانبك غضبت أيضاً ، فماذا تريدين في النهاية ؟ لماذا تهجرينه إذن ؟

الزوجة – لأنه يكذب ، والـكذب أبغض الأمور لدىّ ، فهو مرآة النفس الجبانة

الأم – إبنتي ، تريثي . فكرى ملياً في الأمر

الزوجة – آسف يا أماه . لا أستطيع البقاء . . آه من النذل ! يخدعني أنا ؟ ومع مَنْ ؟ مع أعز صديقة لى !

الأم – ليس الذنب ذنبي يا ابنتي . . المسئولة هي صديقتك العزيزة . أليست هي التي غازلته ؟

الزوجة – آه منها الماكرة ! كم تظاهرت لى بالوفاء ! إنها كانت تشاركني دموعي في أوقات أحزاني ! (بعد لحظة) ولـكن ما الذي حببها إليه يا ترى ، وهي خلو من كل جمـال ؟ أعلق بأنفها المقوس مثل أنف الحاخام ؟ أم اشتهى شفتيها الغليظتين كشفتى الزنجية ؟

الأم – الآن فقط تجدينها دميمة ! . . وكنتُ إذا ذكرت لك هذه العيوب نفسها عارضتني قائلة : إن هذه العيوب تكسب صديقتك ما تسمونه أنتم يا شباب اليوم : الجاذبية الجنسية . . . حقاً ! ما أبعدكم عن إدراك مُثل الجمال الحقيقية ! . .

الزوجة (في ضحك) – يا أماه . . أمثالـكن نساء قبل الحرب ، ترون الجمال عبارة عن غرائر من الشحم رُسمت لهـا حواجب وعيون وأفواه . . . .

الأم (في غضب) – وما أوقحـكن أيضاً يا بنات اليوم ! (بعد لحظة) والآن لنعد إلى موضوعنا . . . باللهِ سامحى زوجك يا ابنتي . . أنت تعرفين أنني لا أميل إليه كثيراً . . . ولن أنسى له هديته التافهة حينما عاد في الخريف الماضي من روما . . ولـكن هـذا لا يمنعني بصفتي أمك التي تحب لك الخير أن أشير عليك بالبقاء معه . . سامحيه ، إن التسامح أفضل معاني الـكرم . .

الزوجة (في تهكم) – آسف يا أماه . . لستُ قدّيسة لأتسامح . ولستُ أعيش في زمن المسيح ، حتى إذا لطمني شخص على خدّى الأيمن أدرت له الخدّ الأيسر . .

الأم – سامحيه يا ابنتي . . إنهـا هفوة واحدة منه . . . (في حسرة) ربّ ! كم سامحتُ أنا والدك عن هفوات لا هفوة !

الزوجة – لأنك كنت بلهاء يا أماه . .

الأم (في غضب) – حقاً ! إنك وقحة ! (بعد لحظة) كلا ! يا ابنتي لم أكن بلهاء حينما سامحت والدك ، غفر الله له ! بل كنت على ثقة أنه سوف يمل حيـاة المغامرات التي كان يحياها ، وأنه سوف يدرك في النهاية أن السعادة الحقيقية للزوج هي داخل منزله . . طبعاً تألمت كثيراً من أجل هـذا ، ولـكني ظفرت في النهاية . . . (بعد لحظة) ولو كنتُ هجرتُ والدك إذ ذاك ، أكانت ترى الوجود هـذه الفتاة الرشيقة الحسناء الماثلة أمامي اليوم ؟ . .

الزوجة – (تترك جمع حوائجها فجأة وترتمى في أحضان أمها باكية) آه يا أماه ! إنني أتألم . .

الأم – إنك مازلتِ تحبينه يا ابنتي . . هذا هو الحب ، هذا هو قلبك يحتج بدوره على هذا الخصام . .

الزوجة – أجل إني أحبه . . ولـكن كرامتي يا أماه ، ماذا أصنع لها ؟

الأم – ماذا تقولين ؟ الـكرامة ؟ الحب يا ابنتي قبـل كل

شىء . . الحب هو الحياة . . صدّق أمك العجوز المجرّبة . .

الزوجة (وكأنها عدت إلى نفسها) ـ كلا ! لن أصفح عنه ! لقد صمّمتُ على هجره . . إن الضعف الذى أظهرته الآن ليس خليقاً بفتاة مثلى شاهدت الحرب الكبرى

الأم (فى غضب) ـ ها قد عدت إلى جنونك ! (تنهض) افعلى ما شئت .. ولكن اعلمى جيداً أنك ستندمين على عملك هذا .. أما أنا فقد سئمتُ من إسداء النصح إليك . .

(تخرج ، فيدخل الزوج من باب آخر وبيده بعض الأوراق)

المنظر الثانى

الزوج ـ آسف لو كنتُ أزعجتك ، ولكنى أتيتُ لأردّ لك بعض مستندات لك كانت محفوظة فى الخزانة الحديدية . .

الزوجة ـ (دون أن تلتفت اليه) حسن . . أشكرك . . ضعها هناك . . (تشير إلى مائدة بجوار السرير)

الزوج (فى تردد) ـ هل صمّمتِ على الرحيل ؟

الزوجة ـ أجلْ . .

الزوج ـ هل نسيت كل شىء ! : عهد خطوبتنا السعيد . . نزهاتنا الطويلة فى الخلاء . . الورد الأحمر العجيب الذى كنتُ أقطفه لك خلسةً من حديقة الجار البخيل . . ثم شهر العسل فى ربوع إيطاليا الجميلة . . ثم مقامنا فى نابولى تحت أقدام بركان « الفيزوف » المخيف . . ثم نبيذ إكيا الذهبى . ثم موسيقاها الشجية . . ثم ليالى البندقية الشعرية فوق مياهها الساكنة . . هل نسيت كل ذلك الماضى البعيد القريب ؟ . .

الزوجة (متململة) ـ ثم خيانتك . . ثم كذبك . . ثم . . أرجوك دعنى الآن أجمع حوائجى . .

الزوج ـ أنت تعلمين أنى أسفتُ كثيراً على فعلتى الشنيعة .. عزيزتى . . هلاّ صفحتِ عنى ؟

الزوجة ـ آسف لا أستطيع . . (فى هذه الأثناء تضع خلسة صورة زوجها فى الحقيبة فيراها)

الزوج ـ عزيزتى . . هل تأذنين لى بأن أدخن سيجارة فى هذه الحجرة الظريفة ونحن مجتمعان لآخر مرة ؟ (ويجلس على مقعد)

الزوجة (فى تردد) ـ فليكن . .

الزوج ـ عزيزتى . . هل تأذنين لى فى سؤال واحد ؟

الزوجة ـ لست مستعدّة الآن للأجابة على أسئلة ، فانى أجمع حوائجى على عجل حتى لا يفوتنى قطار المساء . .

الزوج (ملحاً) ـ سؤال واحد فقط

الزوجة (متململة) ـ إذن قل ولكن اقتصد !

الزوج ـ هل أنت واثقة أنك لم تعودى تحبيننى ؟

الزوجة ـ أجل أنا واثقة من ذلك كل الثقة . . .

الزوج ـ ألم يبق فى قلبك شىء من العطف ؟

الزوجة (مقاطعة) ـ لا لزوم لهذا الكلام . .

الزوج ـ هو سؤال واحد أريد الأجابة عليه ... ألم يبق لك شىء من العطف ... لا على ... بل على ذكرى الماضى ؟ ...

الزوجة ـ لا

الزوج ـ لنستبدل إذن كلمة العطف ونعود الى الحب : .

الزوجة ـ أبداً . .

الزوج ـ بل أنا أقرر أنك تشعرين نحوى بالحب !

الزوجة ـ لا ، بل أمقتك !

الزوج ـ إن المقت والحب قريبان جداً ، بل هما متصلان ، فهما طرفان ، والطرفان لا بد أن يتماسّا . .

الزوجة ـ دع هذا الكلام . . . ألم تنته من سيجارتك ؟

الزوج (مستمراً) ـ إن لدى شاهداً على صحة هذا القول .. على صحة الحب . . وعبثاً تحاولين انكاره . .

الزوجة ـ دعك من هذا الهراء ! . .

الزوج ـ (ضاحكا) إن شاهدى هو فى تلك الحقيبة . . هى الصورة التى خبئتها الآن خلسة . . لماذا تحملين صورتى معك إذا كنت لاتحبين صاحب الصورة ؟

الزوجة (تخرج الصورة من الحقيبة فتلقى بها على المائدة) ـ اليكها خذها . . احتفظ بها . .

الزوج (يخف الى زوجه فيطوقها بذراعيه) ـ عزيزتى ، هذا إقرار منك بأنك مازلت تحبيننى . . . .

الزوجة (فى ضعف) ـ ابتعد عنى ! . .

الزوج — هل صفحت الآن !

الزوجة (مستسلمة) ـ لا ، أبداً ، ربما أصفح أنا ، ولكن هذا (تشير الى ناحية القلب) هل يصفح ؟

الزوج (ضاحكا) ـ هذا ؟ لقد سامحنى منذ هنيهة حينما حرضك على اغتصاب الصورة !

« ستار »

كرمة ابن هانى — حسين شوقى

التصوف الاسلامى

بقلم سليمان فارس النابلسى

تتمة

ماهية الصوفية وبعض عقائدها

إذا مارجعنا الى المصادر الصوفية لنتفهم حقيقة هذه الطريقة استخلصنا من بين ثنايا السطور بعد إجهاد وكدّ أنها إنما تتم بعلم وعمل ، وذلك بقطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها ورغباتها ومطامعها المادية حتى يُتوصّل بذلك الى تخلية القلب من غير الله وتحليته بذكره سبحانه

وأخص خواص هـــذه الطريقة لايتوصل اليه بالتعليم والاستقراء والدرس بل يلتمس بالذوق العالى وتبدل الصفات ، إذ أنهم يرون أن الفرق شاسع بين معرفة حدّ الشىء وبين معرفة الشىء نفسه ، كأن يعرف المرء حدّ السكر مثلاً بأنه حالة يحلس فيها فيأخذ من الشراب الى أن يصبح ثملاً فنشوان فسكران ، وبين أن يكون سكراناً . وكذلك القياس فى معرفة حقيقة التصوف من أنه عزوف النفس الكامل عن المادة ، وبين أن يكون متصوفاً زاهداً

يعتقد الصوفيون أن معرفة الله لاتأتى بالمجادلات العقلية ولا بالمناظرات الفلسفية ، ذلك لأن العقل الانسانى عاجز عن إدراك كُنْه الحق المطلق وتفهّم صفاته وخواصه بمثل هذه الأشياء ، وإنما تتكون المعرفة فى الشعور بطريقة خاصة وعمل مستمر يمكّن من رؤية الله تعالى بالقلب لا بالعقل

يسلك الناسك (طريقاً) خاصاً للوصول الى هذه الغاية يكون فيها تهذيبه وتنقية روحه من عوارض الدنيا وزخارفها المادية ، ثم يتدرّج فى هذه السبيل ويقطع (مقامات) معيّنة يصل فى نهايتها الى الفناء فى الحق ، وهذه المقامات سبعة وهى : التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والتوكل والرضا ، يكسبها لنفسه بنفسه بعد طول الجهد والتهذيب المنظم

وقد اختلف العارفون فى فهم كنه هذه المقامات وتباينت آراؤهم فى تفسيرها على معانيها الظاهرة أو الباطنة ، فالفقر مثلاً حسب ظاهر المعنى هو ألا يملك المتصوف الزاهد شيئاً مادياً ، على حين أن البعض الآخر ذهب الى أبعد من ذلك فعتقد بأن على المتصوف الذى بلغ (مقام) الفقر أن يجرد نفسه من الشعور بالحاجة الى المادة ويقتلع من جوانحه التفكير فى ضرورتها ، وعندئذ فقط يصبح فى مقام الفقير المتصوف

وهناك اختلاف آخر ، فالفقير الذى يتمسك بالفقر ويعتقد اعتقاداً جازماً بتفوق الفقر وماله من فضل على ضروب الغنى طمعاً فى مكافأة ربانية ليس متصوفاً حقاً ، ذلك لأنه يحمل مشقة الفاقة ويصدف عن المشاعر بالمسرات الدنيوية خشية خسران المبرّة الربانية وأجر الصبر ، وهذا لايغنى فتيلاً ، بينا أن المتصوف الحقيقى لايترك مافى هذه الحياة الدنيا من ملاذّ ومُتَع لقاء ثواب فى الحياة الأخرى ، بل هو يبتعد عنها لما يجده فى سلوكه هذا وفى حالته من الجزاء الأوفى . وهكذا نرى أن الاختلاف بيّن واضح ، الواحد يتخذ الفقر وسيلة للثواب والأجر ، بينا أن الثانى يبتغى الفقر غاية وأملاً

١ — *عقيدتهم فى التوحيد* : إن شيوخ هذه الطريقة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة فى التوحيد . فمن تصفّح كلامهم وتأمل فى ألفاظهم ألفى فى مجموعه ما يؤكد له أن هؤلاء القوم عرفوا صفة الخالق فوحدوه ، وشهدوا بقدمه نزهوه عن الحدث

والتوحيد هو الحكم بأن الله واحد ، وفى ذلك نفى التقسيم لذاته ونفى التشبيه عن حقه وصفاته ونفى الشريك معه فى أفعاله ومخلوقاته . وينقسم الى ثلاثة أقسام : توحيد الحق للحق ، وهو علمه بأنه واحد وخبره عنه بأنه واحد ، والثانى توحيد الله سبحانه للخلق ،وهو حكمه بأن العبد موحّد ، وخلقه هو توحيد العبد فى قرارة نفسه ، والثالث توحيد الخلق لله وهو علم العبد أن الله تعالى واحد وإخباره عنه بأنه واحد

٢ — *فى المحبة* : المحبة عُرفاً هى ميلك الى الشىء بكاينك ، ثم إيثارك إياه على نفسك ومالك وموافقتك له سراً وجهراً . وجاء فى كتبهم على لسان المولى عز وجل أنه قال : ما تقرّب الىّ عبدى بشىء أحب الى من أداء ما افترضت عليه ، ولايزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبّه ، ومن أحببتُه كنت له سمعاً وبصراً ومؤيداً ويداً

والمحبة على لسان العلماء هى (الارادة) ولكن ليس مراد القوم بالمحبة الارادة ، فان هذه لاتتعلق بالقديم . فالمحبة الالهية للعبد

هى تخصيصه بانعام خاص كما أن رحمته له هى إرادة الانعام

٣ — **التوكل** : نجد الصوفيين أ كثر ما كانوا تضاربا فى الآراء واختلافاً فى الفكر فى هذه العقيدة وأشباهها مما يتعلق بالمادة ، فبينا نقرأ للروذبادى قوله لرجل صوفى مدّ يده إلى قشرة بطيخ ليأ كل : « إلزم السوق فهو أولى لك وأخير » ، وقول آخر منهم « إذا قال الفقير بعد خمسة أيام أنا جائع ، فألزموه السوق ومروه بالكسب والعمل » نقرأ لغيره قوله « أقمت فى الحرم مرة عشرة أيام ، فأحسست بضعف ، فخرجت إلى الوادى لعلّى أجد شيئاً يسكّن ضعفى ، فلم أجد شيئاً ، فرجعت وقعدت . وبينما أنا جالس وإذا برجل أعجمىّ جلس بين يدىّ ووضع مائدة وقال هى لك . »

هذا التغالى فى التوكل انتظاراً للرزق يأتى عن طريق الرفد والاحسان هو ما يضع من شأن هذه العقيدة فى نفوس الناس ، إذ أن مثل هـذا يورد موارد الفاقات ، فلا تسمو النفس ، ولا يعظم الشأن

٤ — *ومن معتقداتهم الفناء والبقاء* . فالفنـــاء سقوط الأوصاف المذمومة ، والبقاء قيام الصفات المحمودة . يقال فنى عن شهواته إذا بقى بنيّته وأخلص فى عبوديته ، ومن فنى عن رغبته بقى بزهادته

وهم يعتقدون كذلك فى الغيبة والحضور ، فالغيبة هى للقلب عن علم ما يجرى من أحوال الخلق لاشتغال الحس بما ورد عليه من النفحات القدسية . وأما الحضور فقد يكون حاضراً بالحق ، لأنه إذا غاب عن الخلق حضر بالحق ، بمعنى أنه يكون كأنه حاضر ، وذلك لاستيلاء ذكر الحق على قلبه

ولو أردت أن أعدد هذه المعتقدات لطال بى المطال وكلّت منى الأيدى .

تطور الصوفية وطرقها الحديثة

كانت الصوفية فى أول عهدها ومبتدإ حياتها صبغة من الدين بسيطة ، خاصــة بجماعة من الرجال المتدينين نشروها فى حلقات صغيرة من الأصدقاء . ثم أخذت تتدرّج وتتعاظم ، فكوّنت طبقة خاصة ذات مدرسة خاصة ، بقواعد وأنظمة مقررة يتلقاها المبتدئون ممّن سبقوهم فى الأيمان بها . ثم ما لبثت أن قويت شوكة الرؤساء وكبار الشيوخ ، فأخذوا يسيّرون تلامذتهم وأتباعهم حسب مشيئتهم وأهوائهم دون أن يكون لهؤلاء رأى ، وما عليهم إلاّ الطاعة والأنقياد . حتى إذا تطاول الزمن ومرت السنون ، لم يعد الصوفى الكبير فى معزل عن العالم الأجتماعى حوله يعيش عيشة التقشف والزهد . يطلب الوحدة نفوراً من مرأى الناس وظلمهم وتكالبهم على الملذات والصغائر ، بل أضحى شيخاً وجيهاً ذا عمّة منتظمة وجبّة فضفاضة ، يظهر فى المجتمعات العامة محاطاً بطائفـة من مختلف الطبقات من بطانته وأتباعه والمعجبين به

ففى أوائل القرن الثـالث عشر ظهرت فرق الدراويش كالعدوية والقـادرية الجليلية ، اللتين أسسهما عدى الحـكرى وعبد القـادر الجليلى ، ثم تبع هاتين ظهور الشاذلية والرفاعية والمولوية ، فالرفاعية تنسب إلى مؤسسها أبى العباس أحمد الرفاعى المولود فى أم عبيدة إحدى قرى الفرات ، وهى تحيا اليوم بفرقتين كبيرتين هما العلوانية والجيباوية ، المشهورتين بحفلة (الدوسة) . هاتان أشد فرق الدراويش تعصباً وأ كثرهم جهلاً وخبالاً

والقادرية الجيلانية يدعون أن عبدالقادر الجيلانى هو مؤسس طريقتهم ، وهم فى أورادهم وأذكارهم لا يفعلون كما يفعل الجيباويون من تقطع الأجساد وغرزها بالأبر والأمواس ، بل يذكرون الله بتؤدة وهدوء ووضوح

وأما المولوية أو (الدراويش الراقصون) فقد أسسها فى العجم الشاعر الفارسى المتصوف الشهير جـلال الدين الرومى مؤلف (المثنوى)

على أن المركز اللائق الذى اكتسبته الصوفية فى الدين والعطف الذى تفيأت ظلاله ، إنما ظهر بتأثير الغزالى الذى مال ميلاً كلياً إلى هــذه العقيدة بعد أن درس الآراء والمعتقدات الأخرى . فقـد أدخل الغزالى على الشريعة عنصراً جديداً بعث فيها النشاط بعد أن ظلّت زمناً طويلاً فى ركود من جراء الحروب الكلامية المستمرة بين الفلاسفة والدهريين والمتكلمين . ولم يقف أبو حامد عند هـذا بل أدخل فى الصوفية الفكرة الأساسية لـا (وراء الطبيعة) ، وأخذ المسميات والمصطلحات التى عمد إليها ابن سينا والفارابى من تعاليم الأفلاطونية الجديدة وأحلّها مكاناً مقيداً فى الدين الاسلامى . على أنه وان لم يسلك هـذه الطريق إلى النهاية ولم يتقيد بسبل هذا المذهب إلاّ أنه اتبع التصوف العملى . فهو وإن يكن بحث فى الموضوعات والآراء الخيالية النظرية إلاّ أن علمه وإدراكه قد

اضطراه إلى أن ينحو منحى آخر . ذلك أنه جعل العبادة قسماً من الحياة اليومية يمارسها العامة والخاصة على السواء.

الصوفية وتقاة المسلمين

إن محور التصوف هو التجرد عن النفس وما ترتبط به من مادة ، والانصراف الكلى للحب الالهى . وغاية ذلك أن تمتزج العنصر الالهى الروحى فى الانسان مع (العقل الأول) الذى منه نشأ وإليه يرتقى . هذه الفكرة وإن كانت بعيدة عن تقاة المسلمين الأولين الذين انطبع فى نفوسهم خوف الله والرهبة منه لكنها ليست غريبةً بتمامها عن العقل الاسلامى

ولقد لاقت الصوفيــة كما لاقى غيرها من المذاهب والآراء الجديدة مقاومة كبيرة فيهــا عنف وفيها شدّة من بعض تقاة المسلمين . وغالى بعضهم فى نقمته فنعت الصوفيين بأنهم قوم جهلة يتخبطون فى مهاوى الغىّ والفساد ، لا يركنون إلى الكتاب والسنة فى كل ما يفعلون ، ثم أوغلوا فى تهجمهم عليهم فقالوا ما التصوف إلاّ إسقاط الجاه وسواد الوجه فى الدنيا والآخرة ، وما المتصوفون إلاّ قوم مراؤون يئسوا من العمل ومالوا إلى الخمول والكسل فكان شأنهم شأن من ينتظر أن تمطره السماء ذهباً وفضة

كانت هذه الحركة العدائية ترتكز على ثلاثة أسس :

أولاً : أن الصوفيين بشروا بصلاة ساكنة ، وبهذا مالوا إلى إنقاص شأن الصلوات الخمس الجبرية المفروضة التى هى من أركان الاسلام الخمسة زاعمين أنها من خصائص العامة الذين لم يتعمقوا فى المعرفة الروحية . أما هؤلاء الذين ارتقوا إلى أعلى درجات العلم والفلسفة فهم فى غنى عنها

ثانياً : أنهم أدخلوا (الذكر) فى الدين ، وهو إعادة دائمة لاسم الله تعالى بأوضاع وأشكال منوعة على نمط لم يعرفه المسلمون المتقدمون ، فهو إذن بدعة (وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار)

ثالثاً : أن كثيراً منهم اعتنقوا مبدأ التوكل مهملين جميع أنواع العمل وألوان التجارة وفى هــذا ما فيه من إضعاف شأن الأمة اقتصادياً واجتماعياً . ثم أنهم كانوا يرفضون المساعدات الطبية عند الحاجة ويعيشون على الصدقات يتطلبونها من المؤمنين . أنهم ليحدثون فى عقول الناس معنىً خاصاً لله وللدين

لم يقف الصوفيون أمام تهجمات خصومهم مكتوفى الأيدى ولم يفقدوا رشــدهم أمام هذه الحملات الشعواء المبعوثة من كافة النواحى والجماعات ، بل دافعوا عن كيانهم بحجج قوية وأدلة مبعثها الكتاب والسنة وأثبتوا فضلهم وعلمهم ، وقالوا إنهم قوم آثروا الله على كل شئ فاصطفاهم من دون الناس كافة لأيقاظ الناس وإطفاء شعلة التشككات والألحاد . قال الشبلى : « الصوفى منقطع عن الخلق ، متصل بالحق ، بدليل قوله تعالى واصطفيتك لنفسى . قطعه عن كل (غير) ثم قال لن ترانى . » ومما استشهدوا به على أنهم وُصفوا فى الذكر الحكيم بالصدق والخشوع والصبر والتوكل والقنوت والزهد : وهم على اعتقاد أنهم المعنيّون بهذه الأوصاف . ومن كلام النبى (ص) فيهم قوله . « رب أشعث أغبر ذى طمرين لو أقسم على الله لأبرّه »

كلمة ختامية

إن تعاليم الصوفية قد لاءمت العقلية الفارسية أكثر مما لاءمت العقلية العربية . ولم يكن تأثيرها فى الحياة العربية والأدب العربى خاصة مضارعاً ما كان لها من أثر بيّن فى الأدب الفارسى منذ أوائل القرن الحادى عشر حتى يومنا هذا

والواقع أن الكثرة المطلقة من شعراء الفرس المجيدين قد انصهروا فى بودقة هذه التعاليم فامتزجت بتفكيرهم وخيالهم ، وظهر هذا جلياً واضحاً فى الاستعارات والمسميات الصوفية التى كانوا يطرزون بها أشعارهم . على حين لم يكن بين شعراء العرب المجلين من وقف وقفة ولو بسيطة عند هذه التعاليم إذا استثنينا الشاعر المبدع شرف الدين عمر بن الفارض العربى المولد والشعر مادة وروحاً . وللعرب فى تاريخ الصوفية الأدبى فارس آخر هو محى الدين بن العربى الأندلسى المولد فى القرن الثانى عشر الذى ألقى عصا الترحال فى دمشق الفيحاء ، بعد أن زار فى رحلته مصر والحجاز وبغداد والموصل وآسيا الصغرى ، وله مؤلفات تربو على المئتين والخمسين عدا ، وأشهرها الفتوحات المكية وفصوص الحكم وبهما يعتبره البعض أعظم صوفىّ الاسلام

هذه صفحة موجزة فى تاريخ الصوفية ونشأتها أود أن أختمها بالثناء العاطر على الأستاذ العلامة نكلسون لما بذل من مجهود فى تنقيبه عن أسس هــذه الطريقة ومعالمها ، فأضاء لنا صفحة مشرقة فى تاريخ هذا البحث الخطير الشأن . وعسى أن يقوم من بين علماء العربية من يتطوّع للكتابة فى هــذا الأمر الجليل ، فالمجال مازال واسعاً والفائدة جزيلة عامة إن شاء الله

السلط — شرق الأردن **سليمان فارس النابلسى**

٩ - محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون أو خلود الروح (١)

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

أشخاص الحوار

فيدون (وهو راوى الحوار الى اشكراتس من أهالى فليوس)
سقراط . أبولودورس . سمياس . سيبيس . كريتون . حارس السجن
مكان الحوار : سجن سقراط
مكان الرواية : مدينة فليوس

اشكراتس - أى فيدون ! هل كنت بنفسك فى السجن مع سقراط يوم تجرع السم ؟

فيـــدون - نعم كنت يا اشكراتس

اشكراتس - أود لو حدثتنى عن موته ، ماذا قال فى ساعاته الأخيرة ؟ لقد أنبئنا أنه مات باجتراعه السم ، ثم لم يعلم أحد منا فوق ذلك شيئاً ، فليس ثمت اليوم بين بنى فليوس من يذهب إلى أثينا ، كما أن أحداً من الأثينيين لم يجد سبيله الى فليوس منـــذ عهد بعيد ، ولذا لم يأتنا عنه نبأ صريح

فيـــدون - هل أتاك حديث المحاكمة وكيف سارت ؟

اشكراتس - بلى ، لقد حدثنا بعض الناس عن المحـــاكمة ، فلم ندر لماذا نفذ فيه الأعدام بعد الأدانة بزمن طويل ، كما رأينا ، ولم ينفذ فى حينه ؟ فما علة ذلك ؟

فيـــدون - علته حادث وقع فى اليوم السابق لمحاكمته يا أشكراتس ، وهو تكليل مؤخرة السفينة التى يبعثها الأثينيون الى دلفى

اشكراتس - وما تلك السفينة ؟

فيـــدون - يروى الأثينيون أنها السفينة التى كان قد أبحر عليها تسيوس Teseus وصحبه الشبان الأربعة عشر الى اقريطش ، حيث نجا وإياهم ، وكان قد قيل وقتئذ إنهم نذروا لأپولو أن لو سلموا ليحجُّن الى دلفى مرة فى كل عام ، وما تزال تلك العادة متصلة الى اليوم . فهذه الفترة كلها ، التى تنفقها السفينة فى رحلتها الى دلفى ، ذهاباً وإيابا ، منذ الساعة التى يكلل فيها كاهن أپولو مؤخرة السفينة ، فترة حرام ، لا يجوز للمدينة خلالها أن تدنس أرضها بقتل أحد من الناس ؛ وكثيراً ما اعترضت السفينة ريحٌ أخرتها ، فأرجىء الأعدام أياماً طوالاً . فهذه السفينة كما سبق لى القول قد كللت فى اليوم السابق لمحاكمة سقراط . فدعاه ذلك الى أن يلبث فى السجن ولم يعدم إلا بعد الأدانة بزمن طويل

اشكراتس - كيف كان موته يافيدون ؟ ماذا عُمل وماذا قيل ؟ ومن ذا جاوره من أصدقائه ؟ أم لم يأذن لهم ذوو السلطان بالحضور فمات وحيداً ؟

فيـــدون - لا ، بل رافقته من أصدقائه طائفة كبيرة

اشكراتس - إن لم يكن لديك ما يشغلك ، فأرجو أن تقص على ما حدث ، دقيقاً ما استطعت إلى الدقة سبيلاً

فيدون - لا شاغل عنـــدى ، وسأحاول أن أجيبك إلى ما رجوت ، فليس كذلك أحب إلى من أن أكون ذاكراً لسقراط ، سواء أكنت أنا محدثاً ، أم كنت مستمعاً إلى من يتحدث عنه

اشكراتس - لن تجد من سامعيك إلا نفوساً ترغب فيما رغبتَ فيه ، وإنى لآمل أن تكون دقيقاً ما وسعتك الدقة

فيـــدون - إنى لأذكر ما اعترانى من إحساس عجيب ، إذ كنت إلى جانبه ، لقد كنت بازائه غليظ القلب ، ياأشكراتس ، لأنى لم أكد أصدق أنى إنما أشهد صديقاً يلفظ الروح . إن كلماته وقسماته ساعة الموت ، كانت من النبل والجلد ، بحيث بدا فى ناظرىّ كأنه رافل فى نعيم ، فأيقنت أنه لا بد أن يكون بارحاله إلى العالم الآخر ملبياً لدعوة من ربه ، وأنه سيصيب السعادة إذا ما بلغ ذلك العالم ، إن كان لأحد أن يعيش ثمت سعيداً ؛ فكان طبيعياً ، وتلك حاله ، ألاَّ تأخذنى عليه الرحمة ، ولكنى مع ذلك

---

(١) وقع هذا الحوار بين سقراط وطائفة من أصـــدقائه قبيل وفاته بساعات قليلة . وقد ذكره أفلاطون كما رواه فيدون الى اشكراتس ، أحد أهالى مدينة فليوس ، بعد موت سقراط ببضعة شهور ، وقيل بعده ببضعة أعوام ، وكان يستمع مع اشكراتس الى رواية فيدون جمع من أهالى تلك المدينة

ولما كان فيدون فى حديثه راوية يقص ماقد شهد أو سمع تراه لا يقتصر على ذكر الحوار الذى كان قد دار بين سقراط وأصدقائه ، بل يضيف اليه وصفاً لحركات سقراط وأعماله أثناء الحوار لم يترك منها كبيرة ولا صغيرة

ويدور معظم هذا الحوار على إثبات خلود الروح بعد الموت

لم أجد فى الحوار الفلسفى (إذ كانت الفلسفة موضوع حديثنا) ما تعودت أن أجده فيه من متاع ؛ لقد كنت مغتبطاً ، ولكنى أحسست إلى جانب الغبطة ألماً ، أنْ علمت أنه لن يلبث طويلاً حتى يموت . لقد ساهمنا جميعاً فى هذا المزيج العجيب من المشاعر ، فكان يتناوبنا الضحك والبكاء ، ولا سيما أبولودورس لأنه سريع التأثر — هل تعرف هذا الضرب من الرجال ؟

اشكراتس ـ نعم

فيدون ـ لقد غُلب على أمره وتخاذلت قواه . وأنا نفسى ، بل وكلنا جميعاً ، قد بلغ منا التأثر مبلغاً عظيماً

أشكراتس ـ من كان الحضور ؟

فيدون ـ حضر سوى أبولودورس من بنى أثينا ، كريتوبولس ، وأبوه كريتون ، وهرموجينس وأبيجينس ، وايشينس ، وانتستين . كذلك اكتيسبَّس من أهل بيانيا ، ومينكسينوس وغيرهم كثيرون . أما أفلاطون فقد كان مريضاً فيما أظن

اشكراتس ـ أكان ثمت أحد من الغرباء ؟

فيدون ـ نعم ، كان هناك سمياس الطيبى ، وسيبيس ، وفيدونديس ، وأقليدس ، وتربزون الذين جاءوا من ميغارا

اشكراتس ـ وهل كان أرسطبَّس وكليومبروتس حاضرَيْن ؟

فيدون ـ لا . فقد قيل إنهما كانا فى إيجينا

اشكراتس ـ ومَن غير هؤلاء ؟

فيدون ـ هم فيما أحسب كل الحاضرين على وجه التقريب

اشكراتس ـ وأى حديث تناولتم بالحوار ؟

فيدون ـ سأسوق الحديث من أوله ، محاولاً أن تكون الرواية شاملة

ولعلك تعلم أنا قد كنا من قبل نجتمع مع الصباح الباكر فى المحكمة التى جرت فيها المحاكمة ، وهى على مقربة من السجن ، فنظل نتجاذب أطراف الحديث حتى تفتح أبواب السجن (وقد كانوا لا يبادرون بفتحها) فندخله لننفق معظم النهار مع سقراط ، فلما كان الصبح الأخير ، بكرنا باللقاء عن الموعد المعهود[١] إذ علمنا فى الليلة السالفة أن السفينة المقدسة قد عادت من دلفى فتواعدنا على اللقاء فى المكان المضروب جد مبكرين ، فما كدنا نبلغ السجن حتى طلع السجان المسئول عن حراسة السجن ، ولم يأذن لنا بالدخول ، بل أمرنا أن ننتظر حتى يدعونا ، « لأن الأحد عشر مع سقراط الآن ، يرفعون عنه الأغلال ، ويأمرون بأن يكون اليوم قضاؤه المحتوم » كما قال . ولم يلبث أن عاد يجيز لنا الدخول ، وإذ فعلنا ألفينا سقراط قد خلص لتوه من الأصفاد ، واكزانثيب[١] ، التى تعرفها جالسة الى جانبه تحمل وليده بين ذراعيها ، فلم تكد تبصرنا حتى صاحت قائلة ماينتظر أن تقوله النساء : « أواه ياسقراط ! لتلك آخر مرة يتاح لك فيها أن تتحدث الى أصدقائك أو يتحدثون اليك » فنظر سقراط الى كريتون ، وقال : « مُرْ أحداً يا كريتون أن يذهب بها الى الدار » فساقها بعض حاشيته صارخة لادمة ، وما كادت تغيب عن النظر حتى اثتني سقراط ، وكان جالساً على سريره ، وأخذ يربت على ساقه قائلاً : « ما أعجب هذا الشىء الذى يسمونه اللذة ، وما أغرب صلته بالألم ، الذى قد يظن أنه واللذة نقيضان ، لأنهما لا يجتمعان معاً فى إنسان ، مع أنه لابد لمن يلتمس أحدهما أن يحمل معه الآخر ؛ إنهما اثنان ، ولكنهما ينبتان معاً من أصل واحد ، أو يتفرعان عن أرومة واحدة ، ولست أجد سبيلاً الى الشك فى أنه لو رآها أيزوب Aesop ، لأنشأ عنهما قصة ، يصوّر فيها الله وهو يحاول أن يوفق بينهما فى الخصومة القائمة ، فان لم يوفق ، شد رأسيهما الى بعض فى وثاق واحد[٢] ، وذلك علة أن يجىء الواحد فى أعقاب أخيه ، كما شاهدتُ فى نفسى ، إذ أحسست لذة فى ساق جاءت فى أثر الألم الذى أحدثه القيد فيها[٣]

وهنا قال سيبيس : كم يسرنى حقاً ياسقراط أن تذكر أيزوب ، فقد ذكرنى ذلك بمسألة طرحها بعض الناس واستجابنى عنها افينوس الشاعر أمس الأول ، ولا ريب فى أنه سيعود

(١) اضطر الأثينيون إلى تأجيل تنفيذ الاعدام حتى تعود السفينة المقدسة من دلفى ، وقد استغرقت تلك السفينة فى رحلتها ثلاثين يوماً ، قضاها سقراط فى محاورة صفوة تلاميذه ، ويشير هنا فيدون إلى أن هؤلاء التلاميذ قد قصدوا إلى سقراط فى سجنه مبكرين فى آخر يوم من أيامه ، أى حينما علموا أن السفينة باتت على مقربة من أثينا لتطول مدة الحوار الأخير

(١) إكزانثيب هى زوج سقراط

(٢) أى خلقهما فى حيوان واحد ذى رأسين ، إشارة الى شدة الاتصال بينهما

(٣) تعمد أفلاطون أن يسوق على لسان سقراط هذه الملاحظة ، أى أن اللذة تعقب الألم ، تمهيداً لنظريته فى التبادل بين الأضداد ، التى سيجىء ذكرها بعد فى هذا الحوار

ثانية الى السؤال ، فحدثنى بماذا أجيبه . إن كنت تحب أن يظفر بالجواب . إنه أراد أن يعرف لماذا ، وأنت رهين السجن ، ولم تكتب من قبل بيتاً واحداً من الشعر ، تنظم قصص ايزوب وتنشىء تلك الانشودة إجلالاً لأبولو

فأجاب أنْ حدِّثه ياسيبيس بأننى لم أفكر فى منافسته ومنافسة أشعاره ، وحق ما أقول ، لأننى كنت أعلم أن لا قِبَلَ لى بذلك ، إنما أردت أن أرى هل أستطيع أن أمحو وهماً أحسسته عن بعض الرؤى ، فلكم أشارت الى هواتف الأحلام فى أيام الحياة « بأنى سأنشىء الموسيقى » وقد كان يطوف بى هذا الحلم فى صور متباينة ، ولكنه لازم عبارة بعينها ينطق بها أو بما يقرب منها دائماً : أنشِئْ الموسيقى وتعهَّدْها بالنماء ، هكذا كانت تهتف الرؤيا ، وقدخيل إلى منذ ذلك الحين أنها لم ترد بذلك إلا أن تحفزنى وتبعثنى على دراسة الفلسفة التى كانت دوْماً قصد الرمىّ من حياتى ، والتى هى أسمى جوانب الموسيقى وأرفعها شأناً ، فكما ترى النظارةَ فى حلبة السباق يهيبون بالمتسابق المتحمس أن يجرى ، مع أنه يجرى فعلاً ، كذلك كانت رؤياى تأمرنى أن أؤدى ما كنت بالفعل قائماً بأدائه ، ولكنى لم أكن على يقين من هذا ، فربما قصَدت الرؤيا بالموسيقى معنى الكلمة المعروف ، فرأيت أنى أكون آمنَ ، لو أرضيت هذا الشك ، وأطعت الرؤيا فيما تأمر به ، فأنشأت قبل رحيلى قليلاً من الشعر ، فهذا قضاء الموت يرقبنى ، وقد أمهلنى العيد قليلاً . فكتبت بادىْ ذى بدء نشيداً فى تمجيد إلّـه هذا العيد ، ثم لما رأيت أن الشاعر الذى يراد له أن يكون شاعراً مبدعاً حقاً ، لا ينبغى أن يحشد ألفاظاً وكفى ، بل لابد له أن ينشىْ قصصاً ، ولما لم تكن لدىّ قوة الانشاء ؛ أخذت طائفةً من قصص أيزوب ، ونظمتها شعراً ، فقد كانت ميَسّرة سهلة التناول ، وإلى بها لعليم . أنبىْ أفينوس بهذا ولا تجعله يبتئس ، وقل له إنى أود أن يتبعَنى ، وألا يتلكأ إن كان رجلاً حكيماً ، فأغلب الظن أنى مرتحل عنكم اليوم ، إذقال الأثينيون أن ليس لى من ذلك بد

قال سمياس ـ ياله من نبأ يُحمل لذلك الرجل ! انى أقرر لكم وقد كنت رفيقاً له ملازماً ، أنه — كما عهدته — لن يأخذ بنصحك إلا مجبراً

قال سقراط ـ ولماذا ؟ أليس أفينوس فيلسوفاً ؟

قال سمياس ـ أحسبه كذلك

إذن فسيكون راغباً فى الموت ، شأن كل رجل عنده روح الفلسفة ، ولو أنه لن ينتزع روحه بيده ، فقد أجمع الرأى على أن ليس ذلك صواباً

وهنا بدَّلَ فى وضعه ، فأنزل ساقيه من السرير إلى الأرض ، ولبث جالساً حتى ختم الحوار

يتبع **زكى نجيب محمود**

في تاريخ الأدب المصري

٢ – ابن النبيه

للأستاذ أحمد أحمد بدوي

— ٣ —

اتصل شاعرنا كما ذكرت بطائفة كبيرة من عظماء عصره ، فمدح الخليفة الناصر ، أحمد أمير المؤمنين ، واتصل بالملك العادل أخي صلاح الدين ، واتصل كذلك بالقاضي الفاضل والوزير صفي الدين بن شكر وغيرهم ، ولكنه لم يتصل بصلاح الدين ، ولعل ذلك كان ناشئاً عن حداثته في ذلك الحين ، واستصغار نفسه أن يتصل به ، مع أن صلاح الدين كان ممدوحاً للقاضي الفاضل وغيره من كبار رجال العصر . غير أن أوثق الاتصال كان بينه وبين الملك الأشرف الذي أصبح به مختصاً معروفاً ، كما عرف المتنبي بسيف الدولة ، يسجل له مفاخره ، ويحصي ما يناله من الخير والنصر ، ويهنئه بالعيد إذا حل العيد ، ويصف له القصور إذا بنى قصراً جديداً ، وإذا أعان الحجاج سجل له يده ، ويظهر أنه قد نال الخير والسعادة على يد الملك الأشرف ، وإن كنا نراه في بعض الأحيان يشكو إليه ، ويذكر ما قد يصيب علاقتهما أحياناً من الفتور ، وذلك ما لا بد منه ، ولا سبيل إلى التخلي عنه ، فهو يقول له :

كم اصطنعت وكم أوليتني حسنا فليس يبلغ أقصى الشكر أدناه
دامت علينا به النعمى وأمننا مما نخاف أدام الله نعماه
أرجو لقاك لآمال ومنزلة فأنت لي سبب ، والرازق الله
فأغنني يا ابن ذي المجد العلي وكن لي مسعداً في الذي أرجو وأخشاه

وأحياناً كان ابن النبيه يرسل إليه يطلب حاجة يجعل شفيعها غلاماً جميلاً يستقضي تلك الحاجة ، ويحفظ له التاريخ من ذلك أنه أرسل هذا الغلام وكتب معه هذا الدوبيت :

أيقنت بأن حاجتي ليس تضيع مذ قدمها مهفهف القد بديع
في خضرة خده لعينيك ربيع ما أقبح رده وذا الحسن شفيع

وكثيراً ما كان وهو لدى ولي نعمته الملك الأشرف يشتاق مصر ويرسل إلى أهلها السلام ، ثم ينتقل إلى المدح ، وكأنه يذكر الممدوح بغربته وفراقه وأنه إنما يحمل ذلك من أجله هو ، وفي ذلك ما فيه من تكثير لمورد رزقه وإغداق النعمى والهدايا عليه ،

واستمع إليه يخاطب أهل مصر :

إن عينا منكمو قد ظميت قد سقاها الدمع حتى رويت
آه من وجد جديد لم يزل وعظام باحلات بليت ؛
ساكني الفسطاط لو أبصرتكم جليت مرآة عين صديت
إن أعاد الله شملي بكمو سعدت آمال نفس شقيت
إن أرضا أنتمو سكانها غنيت عن أن تقولوا : سقيت
فوجوه كرياض أزهرت ورياض كوجوه جليت
بأبي منكم غزال ، مهجتي بظبا ألحاظه قد غزيت
بلغيه يا نسيم الريح عن مهجة المشتاق ماذا لقيت

ثم يقول :

إنما مدحة عيسى جنة عندها أوطاننا قد نسيت

فكأنه يقول له اذكر أني مفارق لوطني فكيف أنساه إلا إذا لقيت منك ما يغنيني عن ذكره ، ونحن لا نشك في أنه لاقى من الأشرف كل إعزاز وإكبار . وكان الأشرف يعتقد في شاعريته ويثق بها ، فكثيراً ما كلفه نظم الشعر على البديهة في أي موضوع يراه ، وكثيراً ما قام مقامه في تدبيج الرسائل بالشعر على لسانه ، ولقد كانت تلك المنزلة الرفيعة التي نالها مدعاة إلى أن يقول :

أنت قربتني فأغليت قدري أنت خولتني فأغنيت فقري
فليجد من يشا ويبخل من شا ء حرام عليه ذمي وشكري

بل كان جمع ديوانه قياماً منه بواجب الشكران وتسجيلاً لليد التي أسداها إليه – كما حدثك هو في صدر الديوان

— ٤ —

نستطيع أن نقول إن شعر ابن النبيه يعطينا صورة صحيحة لعصره ، يحدثك عن طابعه وعن أهم ما ضمه من الأحداث ، وإذا أنت ذهبت تنقب عن ذلك رأيت أن أهم ما ميز العصر الروح الحربية التي سرت فيه ، وروح القتال الذي كان على قدم وساق

كان العصر عصر حرب مشبوبة بين الصليبيين من الأوربيين وبين المسلمين وملوك المسلمين ، كما كان عصر نزاع بين بني أيوب على الانفراد بالسيادة والسلطان بعد أن مات كبيرهم صلاح الدين ، ومن أجل هذا كان أظهر صفة بارزة يمدح بها شاعرنا ممدوحيه شجاعتهم في الحرب واستبسالهم في المواقع ، فهو يقول لمن يمدحه :

مليك إذا سار بين السيو ف ترى البدر بين اشتباك الكواكب
وتزأر من تحت ذاك الركا ب أسود لها من ظباها مخالب

فتلك الهاذم زهر النجو م ومعتكر النقع جنح الغياهب

ويصف جيش ممدوحه بقوله :

وأسد على جرد لها مثل فعلهم إذا ما تجلى الموت فى الحلل الحمر
دماء أعاديهم شراب رماحهم
وأجسامهم هدى إلى الذئب والنسر

فإذا شئت أن ترى صورة من صور النزاع بين الأفرنج الذين كانوا يبغون الاستيلاء على مصر قلب الدولة الاسلامية وبدأوا غارتهم بالاستيلاء على دمياط فاستمع إليه يقول :

وتحت غيل القنا آساد معركة لها ثبات وفى الهيجاء وثبات
مستشرفات بآذان موكلة لها إلى الثغر من دمياط حاجات
الويل للروم والأفرنج من ملك له من النصر والتأييد عادات
أين المفر لسرب الروم من أسد ضار له من رماح الخط غابات
دمياط طور ونار الحرب موقدة وأنت موسى وهذا اليوم ميقات
ألق العصا تتلقف كل ما صنعوا ولا تخف من حبال القوم حيات
طاًّهم بجيشك لا تحفل بكثرتهم فانهم لبغاث الطير أقوات
أصبتهم بسهام الرأى من حلب وللمكائد من بعد إصابات
فطهر الله ذاك الثغر من قلح أصابه ، وانجلت تلك الثنيات
لله من ثغر دمياط وبرزخها فتح له تفتح السبع السموات
شرحت صدر رسول الله وانحسرت بنصرة الدين والدنيا غمامات
فللرماح كلاهم أو صدورهم وللصوارم أعناق وهامات
تخلق البحر ذاك اليوم من دمهم والموج ترقصه تلك المسرات
عكا وصور إلى رؤياك عاطشة فانهض فقد أمكنت منهن خلوات
الله أكبر أن تمسى مزامرهم تتلى ، وتنسى من القرآن آيات

وكثيراً ما كان يؤكد لسيده أنه سوف يهزم عدوه وينتصر عليه ويملك بلاده ، بل وسوف يؤاتيه النصر حتى يملك القسطنطينية عاصمة بلادهم ، ولقد كرر ذلك مراراً ، حتى إنك لتستطيع أن تفهم من هذا التكرار والتأكيدات الكثيرة بأنه سوف يفتح تلك البلاد أن هـذا كان فى صدر ممدوحه أملاً قوياً يتمنى أن يناله وأن يتم على يديه ، حتى قال له ابن النبيه :

ستفتح قسطينـة عنوة وما كان للروم منها بغارب
كأنى بأبراجها قد هوت وصخر المجانيق فيها ضوارب
وقد زحف البرج زحف العرو س إليها يجر ذيول الكتائب
وليس الكهانة من شيمتى ولكن حزبك بالله غالب

وكثيراً ما مناه بهذا الأمل وأكد له أنه سيناله ، كذلك فى شعره صورة حية للنزاع الذى كان بين بنى أيوب ، ولقد كان ابن النبيه يؤمن ويوقن بأن الخير كل الخير إنما هو فى اجتماعهم ووحدتهم ، لأن الأوربيين فى ذلك الحين كانوا يهاجمون الشرق ، فمن الخير أن يتحد ملوكه لدفع هذا الخطر عنه . ولقد كان المغيرون ينتهزون كل فرصة خلاف بينهم ليشبوا نار الحرب عليهم ، ولذلك كان ابن النبيه صادقاً يوم قال متحدثاً عن بنى أيوب أولاد شاوى :

آل شاوى شهر الصيام جلالا وأبو الفتح منه ليلة قدر
معشر فى وفاقهم كل خير مثلما فى خلافهم كل شر

وكان يوقن بأن صلحهم واجتماعهم يبعث القوة فى نفوس الشرقيين ، ويبعث الضعف والخوف فى نفوس الأوربيين كما قال بعد صلحهم :

اليوم تصلى صفحات العدا نيران حرب حرها لافح
اليوم دار الشرك مبذولة يأوى لها الصائح والنائح
موسى جزاك الله عن دينه خيراً فما أنصفك المادح
سعيت فى جمع شتات العلا لله هـذا العمل الصالح

وشعره بعد ذلك يحدثك عما أصابه الملك الأشرف من فتوح ونصر فى بلاد الشرق ، هذا وإذا ذهبت تلتمس العلاقة التى كانت بين الأشرف والخليفة رأيت أن الخليفة العباسى كان يتمتع بسلطة روحية كبيرة ، وإن لم يكن له من الأمر شىء فى السلطة السياسية ، فكان الأشرف يحرص على أن تظل العلاقات بينهما قوية متينة ، ويعد مراسلة الخليفة له منة وفضلا كبيرين

ولقد ورد له خطاب مرة من الخليفة ، فطلب من ابن النبيه أن يجيبه فكتب إليه ارد شعراً لأن الخليفة كان أديباً شاعراً :

سيدى سيدى كتابك أحلى من زلال على فؤادى الصادى
خلت فيه قميص يوسف لما ألصقته أناملى بفؤادى
كرر اللثم بالفمى ، وترشف منه آثار فضل تلك الأيادى
نعمة سميت كتاباً مجازاً أنشئت وهى السحاب الغوادى
كثرت حاسدى حتى تخيلـ ـت جفونى من جملة الحساد
قالت العين وهى تخرج دراً فخراً من بحار ذاك المداد
أنا أفدى بياضه ببياضى أنا أفدى سواده بسوادى
أنا عبد الأمام أحمـد خير لى من نسبتى إلى أجدادى
فعليه السلام ما غرد الطير ر وغنى شاد ، ورجع حاد

وفى الحق أن الأمراء من الأتراك مهما استبدوا كانوا يقرون للخليفة بالسلطة الروحية ولا ينازعونه فيها ؟

(يتبع)

أحمد أحمد بدوى

جيرة محمودة

للأستاذ فخرى أبو السعود

حتّام أنت مجرجرٌ متلاطم … يطوى عبابُك أعصراً وقرونا ؟
ماذا يعى يابحرُ صدرُك لوحَكَى ؟ … لـكن أراه بما وعاه ضنينا
متدافع التيار ليلَ نهارَ لا … بالصمت لُذْتَ ولا أراك مُبينا
أبداً تجىءُ الشطَّ منك كتائبٌ … دَأْبَةُ التَرْدَادِ لَسنَ يَنِينا
تغزو غواربُها الرمالَ وتنثنى … تغزو من الصخر الأصمِّ مُتُونا
مُبْيَضَّةَ الأثباج فى تهدارها … يَبْرُزْنَ حيناً فى البياض لحينا
لاعَنْ مَشيبٍ أو سنينَ تصرمت … فَلَكَمْ أذابتْ فى الأُجاج سنينا
ولقد يكاد أُجاجُها من حُسنه … يبـدو فراتاً للظِّماء مَعينا
البحر فتّان وإن هو لم يُنِلْ … رِياً ولم يُطْلِعْ جَوَارىَ عِينا
إن لم يكن رِىَّ الظِّماءِ فإنه … بالحسن يروى أنفساً وعيونا
بروائع الالوان فيه تألَّفتْ … ونوافح النسمات إذ يسرينا
وَيُرَى مَسَارِحَ للعيون ومَبْعَثاً … للذكريات كموجه يأتينا
كم طالَعَتْهُ الشمسُ ثُمَّ أَجَنّها … سِرّاً وراء عبابه مكنونا
إنى شهدتُ الشمسَ عند شروقها … من خلف لُجَّتِهِ تشعّ جبينا
ورأيتُ مَغرِبَها به وضياؤُها … ملءُ الجوانح لهفة وحنينا
يهوى خضيبُ شعاعِها من أفقها … ويذوب فى لُجَجٍ به يَزْهُونا
والشمسُ أكرَمُ راحل ودّعْتُهُ … أطوى عليه حسرةً وشجونا
وَأَحَبُّ مُرْتَقَبٍ لِعَوْدٍ لم يَذُدْ … عن وجهه الوضّاء مُرْتَقِبينا
تَأْتى وتَذْهَبُ فى لطاف غلائل … متجدداتٍ بهجةً ورُقُونا
هاتيك آياتُ الجَمَال تخِذْتُها … صَحْبى ونعم مدى الزمان خدينا
وتخذتُ هذا البحر جاراً لى إذا … ما عفتُ جاراً أو مللتُ قرينا
وحمـدتُ جيرتَه وثرثرةً له … دَوْماً تَدَاوَلُ مَسْمَعَىَّ رَنينا
يَجْنُو شواطئَه صفاءُ طباعه … ويفيض بشراً دونها وَيَمينا
أَضْفَى على الثغر الجميـل رُواءه … وكساحياةَ القاطنيهِ فُتُونا
وجَرَتْ به خلجانُه رقراقةً … وصَـفَا جداولَ حوله وعيونا
فتشابهتْ أوقاته فشتاؤُه … كربيعهِ لطفاً يَرُوق ولِينا
متجـددٌ لم يَطْوِ يوماً بادياً … من حُسنه إلا أبان كمينا
حُسْنُ الطبيعة فيه زاهٍ كيفما … أجْرَى الزمان لساكنيه شؤونا
إنْ سَرّهم بصروفه أو ساءهم … فالحُسْنُ ثَمَّ مَناهلاً وفُنُونا
والحُسْنُ ثَمَّ لِمَنْ بَغَى مُتَعَزَّلاً … عَن طالبى الدنيا وما يَبْغُونا

الاسكندرية … فخرى أبو السعود

وهم الحيـاة

للأستاذ خليل هنداوى

إننى أعبدُها — فيك — أيها الوهم !
« الناظم »

موّه علينا بالرُّؤَى … إن الحقيقـةَ تُؤلِمُ
ماذقتُ طيبَ العيشِ إلّا عنـد ما أتوهمُ
ضُرى حياةُ أو انفعى … أنا منك لا أتبرمُ !
فَهِمَ الحياة فتى يجو … زُ كأنهُ لا يفهم
عبثاً تحاولُ فهمَ لغزٍ فيـه لغزٌ مبهَمُ
ما أنتَ أولُ صخرةٍ … يَطغَى عليها العَيْلَمُ …
أنتَ الغنىُّ إذا قنعـ … ـتَ وأنتَ أنتَ المعدمُ
ما أظلمت دنياك ، لـكنَّ اعتقادَكَ مُظلِمُ

خليل هنداوى

زهرتى[1]

بقلم محمود حسن اسماعيل

...

ولى زهرةٌ طيَّبْتُ من عطرها دَمِى
وضمَّخْتُ روحى من شذاها وأنفاسِى
على شاطئ من فَيْضِ روحى تفتَّحتْ
وراحتْ تَعبُّ الرِّىَّ من نبْعِ إحْساسى
مكلَّلةً بالنُّورِ تَحْسبُ وَشْيَهـا
وَميضاً من الصَّهْباء يُشرقُ فى كاسِ
تميسُ على قلبى إذا هزَّها الهوى
فتَفْضَحُ بالإدلال ريَّانَةَ الآسِ
غذَاها السَّنا من زاخرِ اللَّمْحِ فاغتدَتْ
تبَلَّجُ فى هالاتِها .. فتنَةَ النَّاسِ
كأنى بها نَفْحٌ من الخُلد رَوَّحَتْ
أفاويحُهُ عنى ضَنَى عُمرِىَ الآسِى[2]
بروحىَ من أنفاسِها عطرُ جَنَّـةٍ
تراءتْ بحُلْمٍ رائعِ الطَّيفِ ميَّاسِ
وأنداءُ فجرٍ أسكرَ الروحَ نَسْمُهُ
وطهَّرَ بالأعطارِ إثمى وأرجاسى !
بروحى حَنانٌ شعَّ من جنَباتِها
كما فاضَ فى جُنْحِ الدُّجَى ضوءُ نبراسِ
رشفتُ نعيمى نَشقةً من عبـيرِه
وشرَّدْتُ آلامى على نَفْحِه الآسى !!

(١) من ديوانه « أغانى الكوخ » الذى صدر حديثاً (٢) الحزين

٧ – بين القاهرة وطوس

نيسابور الى طوس

للدكتور عبد الوهاب عزام

رجعت من مزار العطار الى قبر الخيام وأنا أنشد قول حافظ الشيرازى :

« جاء مرشدنا البارحة من المسجد الى الحانة . . »[1]

ولما رجعنا الى قبر الخيام قال بعض الحاضرين من الشرقيين كيف تركتم الخيام الى العطار ؟ قلت لكل رجل وجهته ، وإن لم يكن من القياس بد فصاحبنا أعظم من صاحبكم ، وأكرم حياة ، وأجل أثراً . فانصرف ثم عاد الىّ وهو يقول : ليس أحد من المتأدبين فى الشرق والغرب يجهل الخيام ، وهذا أحد الوافدين من الأوربيين يسأل مَن العطار ؟ فهذه حجة لى ، قلت دعنى فانى لا أقيس عظماءنا بمعرفة الأوربيين وجهلهم ، ومدحهم وذمهم الخ

دُعينا الى الموائد فطعمنا ، وتكلم الشـاعر الانجليزى درنكووتر عن الشعراء ومذاهبهم فى الحياة وقال : إنه لا ينبغى أن يفضل شـاعر على غيره بصواب رأيه ، وسداد طريقته ، بل بمقدار إبانته عما أحسه فى هذه الحياة ، وأدركه فى هذا المعترك ؛ نحن لا نستطيع أن نقتدى بالخيام فنمضى أوقاتنا بين امرأة جميلة وكأس ، وعود ، فان علينا فى هذه الحياة واجبات تأبى ذلك ، ولكنا لا ننقص من قدر الخيام لأنه أبان عن رأيه بهذا الأسلوب الشعرى الجميل الخ

ثم أنشـد قطعاً من رباعيات الخيام كما ترجمها فيتز جرالد ؛ وأنشد أحمد الصراف مندوب العراق بالفارسية بعض الرباعيات ، وتكلمت فقلت بالفارسية : إننا مغتبطون بقدومنا مدينة نيسابور العظيمة ، ذات الأثر العظيم فى الحضارة الاسلامية ، وها نحن أولاء بجانب الخيام الفلكى الشاعر الكبير ، فالى روحه الطاهرة منا تحية ودعاء . ولا ننسى أن نرسل تحيتنا الى الشاعر العظيم ، والصوفى الجليل فريد الدين العطار ، ذى المآثر الخالدة فى الشعر والتصوف

(١) شب أز مسجد سوى ميخانه آمد پيرما

وإنا لنرجو أن تعود هذه البلاد سيرتها الأولى فى العلم والأدب، وأن ييسّر الله لها السير فى سبيل الرشاد فى ظل صاحب الجلالة الشاه المعظم . .

فقام الأديب سيف آزاد صاحب مجلة إيران القديمة « إيران باستان » فتكلم وحيّا صاحب الجلالة ملك مصر ، وقال إنه قد ساءه أن علم اليوم أن جلالته مريض ، وطلب من الحاضرين أن يدعو له بالشفاء والعافية . وألقى الأديب رشيد الياسمى قصيدة من الضرب الذى يسمى فى عرف أدباء الفرس غزلاً . وهى مردوفة القافيـة . والرديف فى الشعر الفارسى أن تكرر كلة بعينها آخر كل بيت ، ويبنى الروى على الكلمة التى قبلها . والرديف فى قصيدة الياسمى كلة « رو » بمعنى الوجه . وهذه ترجمة القصيدة عفو الساعة :

قد استترّ وجهك فى كمال الظهور ، وصار من التجلى فى حجابٍ من ذلك النور

لا يرى أحد فى العالم وجهك ، وإن كان العالم مرآتك

إنى أدعوك حبيب الروح ، إذ لا يتجلى وجهك إلا فى عالم الأرواح

ولّ وجهك شطرنا ، نحوّل عن الكون والمكان وجوهنا .

أيها الربيع لا تستر من العندليب خدّك ، فقد جعل وجهه كورق الخريف هجرك

فلا حرارة فى هذا القلب المتوقد ، ولا بسمة فى ذلك الوجه المورّد

لقد أمضيت العمر فى انتظار وحسرة ، وآمل أن يلوح وجهك لى مرّة

أيتها الشمس إنى من الشوق إلى شعاعك الوضاء ، أقلب كالهلال وجهى فى السماء

أبتغى أثراً من هـذا الوجه ، ولا أثر ، كما ابتغى اسكندر ماء الحياة فلم يظفر

إن تبشرنى بوجهك يوماً واحـداً ، وضعت وجهى على عتبتك أبداً

ان تطلب يارشيد الكنز فانصب ، فان السعادة لا تبدى وجهها لمن لم ينصب

قدّمنا الساعة خمساً وعشرين دقيقة ، وهى فرق مابين وقت طهران ونيسابور ، وركبنا والساعة ثلاث وربع بعد الظهر متوجهين تلقاء مشهد وبينها وبين نيسابور ١١٦ كيلا، فسرنا صوب الشرق والجنوب فى سهل كثير القرى والشجر ، فبلغنا قرية اسمها قد مگاه أى موضع القدم ، وسأذكرها فى الأوبة من مشهد . ثم اجتزنا بشريف آباد وعندها انعطفت الجادّة صوب الشمال فارتقينا جبالاً ضربنا فيهـا أربعين دقيقة ثم هبطنا إلى المشهد المقدس . فدخلناه بعد مغرب الشمس

افترق الركب فنزل جماعة بفندق هناك . ونزل آخرون فى دار أحد الكبراء ، جليل بك نصير زاده ، وكنت وزميلى الأستاذ العبادى ممن شرفوا بالنزول فى هـذه الدار المعمورة ، فلقينا من الحفاوة والرعاية مالا يُنسى

المشهد المقدس

فى عام اثنين وتسعين ومائة سار هارون الرشيد إلى خراسان لحرب رافع بن الليث بن نصر بن سيار ، وكان قد ثار بخراسان وأعيا الولاة

وفى صفر من سنة ثلاث وتسعين اشتد به المرض وهو بجرجان فسار عنها إلى طوس ، ونزل بضيعة اسمها سناباذ فى دار الجنيد بن عبد الرحمن . فلمـا أحسّ أجله أمر فحفروا له قبراً فى بستان الدار ، وأمر جماعة فنزلوا فيه وقرأوا القرآن . وتوفى نصف الليل ، ليـلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة ، ودفن فى القبر الذى أعده

وفى سنة ثلاث ومائتين كان الخليفة المأمون بن هارون قافلا من خراسان يريد العراق ، وقد ثار عليه عمه ابراهيم بن المهدى ، فلما بلغ سناباذ نزل عنـد قبر أبيه أياما ، وكان معه علىّ الرضا بن موسى الكاظم ولىّ عهده ، فمات الرضا فى ذلك المكان فى شهر صفر ، فدفن إلى جانب الرشيد . وفى هـذا يقول دعبل بن على الخزاعى فيما يزعم الرواة :

قبران فى طوس : خير الناس كلهم وقبر شرهم ، هذا من العجب

اشتهرت قرية سناباذ وسميت سناباذ المشهد ، ثم أطلق « المشهد » على القرية ، وبهذا الاسم ذكرها المقدّسى وسماها

ابن بطوطة مدينة مشهد الرضا ، ونسيت على مر الزمن مدينة « نوقان » وصار اسمها اسم محلة فى المدينة الجديدة ، ونافست مدينة المشهد مدينة طوس فى إقليم خراسان حتى أخملتها . ثم اختفت طوس حين حاصرها ميرانشاه بن تيمور وفتحها فأخربها عام ٧٩١

وقد لقيت المدينة من تغير الزمان سعادة وشقاوة ، وتقلبت بها أحوال مختلفة ، ولكن شأنها كان يزداد نباهة على مر العصور

عنى عظماء المسلمين منذ القرن الرابع الهجرى بمشهد الرضا والمدينة التى نشأت حوله . قال ابن الأثير فى أخبار السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوى : « وجدّد عمارة المشهد بطوس ، وكان أبوه سبكتكين أخربه . وكان أهل طوس يؤذون من يزوره ، فمنعهم من ذلك . وكان سبب فعله أنه رأى أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام فى المنام وهو يقول له : الى متى هذا ؟ فعلم أنه يريد أمر المشهد فأمر بعمارته » ثم بنى ابنه السلطان مسعود سوراً حول المشهد ليقيه غارات القبائل المجاورة . وفى القرن السادس الهجرى استولى الغزّ على المدينة ونهبوها ولكنهم أبقوا على مشهد الرضا . وكذلك نهبت فى القرن الثامن فى عهد السلطان محمود غازان من الملوك الايلخانيين

وأعظم الملوك عناية بالمشهد قبل عهد الصفويين السلطان شاهرخ بن تيمورلنك (٨٠٩ — ٨٥٠) وزوجه جوهر شاد ؛ وسنذكرها حين الكلام على مسجدها العظيم

وكان عهد الصفويين عهد نماء وازدهار للمدينة ، فقد تنافس الملوك الصفويون فى تعمير المشهد وتجميله ، وتعمير المدينة كلها ، ولاسيما الشاه طهماسب الأول (٩٣٠ — ٩٤٨) والشاه عباس الكبير (٩٩٥ — ١٣٠٧) ، ولكن عناية الصفويين لم تكفها الغارات والنهب ، فقد غصبها أمراء الأزبك والشيبانية ثلاث مرات على رغم الصفويين وسيطروا عليها أزمنة مختلفة

وكذلك استولى عليها الأفغان حينما استولوا على إيران . ثم جاء البطل الكبير نادر شاه ، فأكثر الأقامة فيها واختط قبره بها ، وبنى فى المشهد الرضوى أبنية رائعة . ثم عادت إلى الأفغان حينما زلزلت دولة نادر شاه بتنازع خلفائه على العرش . وتداولتها حوادث أخرى حتى استولى عليها آق محمد خان القاجارى ، وقتل سلطانها شاهرخ الأفشارى سنة ١٢١٠ . وفى العصر الأخير ثار بها على القاجاريين بعض الثائرين فتذرع الروس بهذا إلى الاستيلاء عليها ، فأطلقوا مدافعهم على المدينة فى ٢٩ مارس سنة ١٩١٢ ، وهى الآن تنال نصيبها من العمران والطمأنينة السائدين فى إيران اليوم

والمدينة على ارتفاع ٩٣٠ متراً وطولها ٥٩ وعرضها ٣٦ ، فى وادى كَشَفْ رود (نهر كشف) الذى ينبع على عشرين كيلاً إلى الشمال الغربى من طوس ويسمى أحياناً آب مشهد (نهر مشهد) ويصب فى نهر هراة (هرى رود) على ١٥٠ كيلاً إلى الجنوب الشرقى من مشهد ، وتبعد المدينة عن شاطئه سبعة كيلات إلى الجنوب . ويبلغ ارتفاع الجبال عندها ثلاثة آلاف متر . فهى باردة الشتاء ، جيدة الهواء .

ونهر كشف لايسقى المدينة ، بل يأتيها الماء من عين اسمها چشمه گلاس عند منبع نهر كشف فى قنوات طولها ٧٤ كيلاً جرّها إليها الوزير الكبير والأديب العظيم والشاعر المفلق شير على نوائى وزير السلطان حسين بن منصور بن بايقرا من أحفاد تيمورلنك — (المتوفى سنة ٩١٢ هـ)

وهى أكبر مدن خراسان اليوم ، وتسمى أحياناً خراسان وسكانها زهاء سبعين ألفاً وتجارتها رائجة ، ولكنها ليست كعهدها الأول ، فقد كانت ملتقى طرق القوافل قبل أن يستولى الروس على التركستان وينشئوا سكة الحديد القزوينية . وبالمدينة شارعان عظيمان مشجران يخترقانها . وكان بها فى عهد نادر شاه ٦٠ ألف دار . وسكانها الآن زهاء ٨٠ ألفاً

وهى كثيرة المساجد ، والمدارس بها زهاء عشرين مدرسة للعلوم الدينية ، أقدمها المدرسة التى أسسها شاهرخ فى سنة ٨٢٣ ، ويقصدها الطلاب من أرجاء إيران ومن أفغانستان والهند ، فيحصلون العلوم الدينية بها تسع سنين ، ومن شاء أن يزداد علماً توجه إلى النجف الأشرف

ويحج إلى المشهد كل عام آلاف كثيرة يختلف التقدير فيها من ٣٠ ألفاً إلى مائة ألف . وبها مقابر كثيرة يحرص الشيعة على أن يدفنوا بها ، فتنقل جثثهم إليها من الأقطار البعيدة ، وتختلف قيمة القبور بها على قدر قربها من الحرم وبعدها



من الأدب السويدى

الدوار المســـحور

Der verzauberte Hof

للقصصية السويدية سلما لاجرليف

Selma Lagrloef

ولدت السيدة سلما لاجرليف فى ٢٠ نوفبر سنة ١٨٥٨ بمدينة ماريباك من أعمال فرملاند ، واشتهرت بأقاصيصها القيمة ، ونالت جائزة نوبل فى الآداب لسنة ١٩٠٩ ولا تزال حية

كلما تحدثت عن « بلاد الفير » والناس الذين يعيشون فيها ، مر بخاطرى حكاية قديمة لقروية خرجت صباح يوم إلى المرعى لتحلب أبقارها . ولما لم تجد الأنعام فى المكان الذى اعتادت الوقوف فيه منتظرة إياها ، اضطرت الى أن تتوغل فى الغابة باحثة عنها . غير أنها ضلت الطريق

وكانت القروية قبيل أن تخرج من دارها قد ضاق صدرها فلما لم تجد الأبقار ساءت حالها . وبينا هى تشق طريقها بين الأعشاب والحشائش والنمام باحثة عن بقرها ، كانت تفكر فى حياة السأم التى تحياها ، وأنه لا أمل مطلقاً فى تبديلها . نعم ، إنها تميل كل الميل الى زوجها ، ولكنها أبصرت أن زوجها لم يبق له صبر على العمل إذ تقدم سنه ، كما تقدمت هى أيضاً فى السن . وهى بطبيعة الحال تميل الى مزرعتها ، فقد ولدت فى كنفها وشبت ، ولكن ليس لها أن تغمض عينيها على صغرها وقيمتها التى لا تشرف . ولا يمكن مقارنتها بالمزارع الواســعة الفخمة الواقعة هنالك حول الكنيسة . ويزيد على ذلك أن مزرعتها تقع فى قلب الغابة حتى أن الأنسان لا يرى طوال الأسبوع آدمياً غير من بالدار . أما هؤلاء الخدم فهى لا تريد أن تنسب إليهم ما لا يشرفهم ، ولكن الله يعلم أنهم كانوا كسالى مهملين الى حد فيه الكفاية

وعند ما استيقظت فى ذلك النهار قالت لزوجها إنه لابد لهما من بيع هذه المزرعة التى تقع وسط الأحراج ، وأن يستبدلا بها أخرى توفر لهما معاشهما دون كبير مشقة ولكنه لم يرغب فى الأستماع إلى شىء من هذا . وذلك ما أغضبها إذ الحق كان دون شك فى جانبها

وفجأة تبينت أن ذلك ما كانت تخشاه دائماً منذ أيام صباها . وكذلك كانت تخشى وقوع هذا الأمر . ولما كانت هذه الأفكار المحزنة هى رفيقتها الوحيدة فى تسيارها ، فقد نسيت بتاتاً اتباع علائم الطريق أو تتبع الأثر ، حتى أصبحت لا تعرف المكان الذى وجدت به ، ورأت أمامها شجرة من البلوط خيل اليها أن لها بها سابق معرفة ، ولكن شجرة البلوط تلك كانت فى أعماق الغابة ، ولا يمكن أن تكون قد قطعت فى تجوالها كل هذه المسافة . وانصتت إلى أصوات البقر أو صوت نداء راعيها . ولكنها لم تسمع إلا سقسقة العصافير

وجلست على صخرة ووضعت يدها فوق عينيها . ولكن ذلك لم يفدها شيئاً ، إذ أن قلبها كان ينبض بشدة ، وانتابتها أفكار شاردة أفزعتها . فقد سمعت من قبـــل عن أناس ذاقوا الأمرين فى هذه الغابة ، وضلوا الطريق فيها أياماً وأسابيع ، وقد وجد أحدهم ميتاً

وهى عند علماء الشيعة فى المنزلة السابعة بين الأماكن المقدسة : مكة فالمدينة فالنجف فكربلاء فسامرا فالكاظمية فالمشهد . وفى رواية أخرى أن الترتيب بعد كربلاء هكذا : الكاظمية فالمشهد فسامرا فهى السادسة ، ولكنها من حيث كثرة الزائرين واتساع المسجد وضخامته تكون بعد مكة والمدينة ، وقبل المزارات الأخرى فيما أظن

والكلام عن الحرم الرضوى فى المقال الآتى إن شاء الله

عبد الوهاب عزام

ولم تطق القروية صبراً على الجلوس هادئة حتى تتبين معالم الطريق ، فقامت لساعتها تضرب فى الغابة من جديد دون أن تفكر بعد هذا فى البحث عن الأبقار ، بل اتجه تفكيرها إلى البحث عن الطريق المؤدية الى دارها

وبعد أن سارت طويلا دون أن تدرك أين هى ، انبثق النور فجأة وتفتقت أمامها الأشياء وتجلت ، إذ أخذت الغابة نهايتها ، وتبينت قبالتها (دوّاراً) فخماً لأحد الريفيين

وما كادت تلمحه حتى وقفت مبهوتة . إذ هى تعرف عن يقين أنه لا يوجد فى هذه المنطقة دوار آخر غير الذى تملكه . وما رأته الآن لن يكون إلا سراباً وصورة كاذبة .

هذا أسوأ شىء رأته ، فقد سحر عفريت الجبل أعينها . ولم تبحث عن دوار الجن ولم تجسر على النظر إليه ، ولكن أعينها امتدت دون ارادتها إلى ذلك البناء الذى لم تر قط أبدع منه . لقد كانت الدار حقاً قديمة ولكنها مدعمة متينة . وكانت المخازن والأهراء عديدة فسيحة إلى حد أنها تكفى قرية بأكملها

قالت لنفسها : « أنه مع ذلك لا شىء هنالك يخالف ماعندى ، اللهم إلا أن هذا أجمل وأعظم أضعافاً مضاعفة . نعم ، إن عفريت الجبل لايهمه الثمن . وقد يخيل إلى أن هذه الدار مَشيدة من أشجار البلوط . وإذا لم أكن قد سحرت وكانت عيناى تتبينان الأشياء على حقيقتها ، فلن يبق من كل هذه العظمة غير كومة من النمل »

ثم رجعت ثانية الى الغابة ، وكانت تتسلق هضاباً صعبة المرتقى وتنزل غيرها وعرة المنحدر ، ومع ذلك لم تجد طريقاً ، أو علامة الأميال ، أو كوخاً ينشر فيه الخشب ، حتى ولامنحدر ماء يصح أن يكون نجماً تهتدى به فى طريقها . وكانت تسير وكأنها فى قاع بحر خضم اخضر لونه . قالت فى نفسها : « هنا وجب علىّ السير حتى تعمنى موجة خضراء وتطوينى ضمنها »

وفيما هى سائرة إذا بها قد وصلت فجأة الى طرف الغابة مرة أخرى . ورأت ثانية نفس الدار الفخمة

وهنالك تلك الدار . وعلى نوافذها ستائر بيضاء ، ويتقدمها بضع أشجار من التفاح منبثقة . وكانت مدهونة بدهان أحمر جعلها تتألق فى الزينة ، حتى لكأنها مشتعلة وسط البقعة الخضراء كشرة السعادة فى ليلة صيف على طريق أخضر يفصل حقلين

وكانت فى هذه المرة قريبة منها لدرجة مكنتها من رؤية كل شىء فيها . وكانت آلات الحرث والزرع والعربات موضوعة فى مخازنها ، كما كانت الأخشاب مصفوفة صفاً . وكانت العربات تسير دون التواء بين الحقول . وكانت الخيول القصيرة الجميلة القوية البناء المتلئة كالتى تتمناها ، ترعى فى المراعى التى تأثرت بالصقيع

وكلما أنعمت النظر فى كل شىء فيها أثار ذلك إعجابها ، وقالت فى نفسها : « أى ، لو أن هذا الدوار الريفى لى ، للذ لى المقام فيه ؛ نعم إنى أراه منعزلاً بعض العزلة غير أنه جميل للغابة ، ومن أمامه البحيرة ومن خلفه الجبل »

وقالت فى نفسها : « ذلك الرجل الذى يسير الآن بين مبانى ذلك الدوار الريفى ليخرج الخيل ، لاشك أنه صاحب المزرعة ، ولم أر فى يوم ما من أيام حياتى رجلاً سمهرياً قوياً مثله »

ولكن فرحها الأعظم كان بقطيع البقر الذى خرج تواً من الغابة ووقف عند طرفها

وقالت فى نفسها : « هذه الأبقار مسحورة ، لايشك فى ذلك كل من يراها . ضرع طويل وحوالب متوازية . وجميعها ذات لون أحمر كالجمر ، إن حلب مثل هذه الأبقار لهو الفرح بعينه . . . كم لتراً من الألبان تدر هذه الأبقار يا ترى ؟ »

وشعرت بأن ذلك الأغراء يتزايد عندها ويدفعها الى التقدم نحو البقر المسحور لتحلبه ، ولترى ذلك الدوار الريفى الفخم ، الذى نسق كل شىء فيه أحسن تنسيق . وتشككت فى ضعف طبيعتها . وأخيراً تقدمت نحو الدوار المسحور

ولما وصلت إلى حيث وجدت البقر مستلقيا على الأرض استقبلها بخوار من الفرح . ووقفت لتراه ، فتقدمت قائدة البقر ووضعت خيشومها فى يدها كأنها اعتادت أن تجد شيئاً من لذيذ الطعام فى هذه اليد

فأدركت أن هـذه الأبقار لا يمكن أن تكون إلا أبقارها . لقد ميزتها من جديد وهى تعرف اسم كل منها

ولكن كيف يتفق هـذا وذاك ؟ كيف يصح لأبقارها أن تنام عند طرف هذا الدوار الريفى المسحور ؟

وفى نفس اللحظة انفتح باب الدار . وخرجت منه بنت صغيرة ذات شعر ذهبى مسترسل ، وكانت مرتدية جلباباً أزرق مفوّفاً

[البقية على صفحة ١١٤]

من روائع الشرق والغرب

الوحـــدة

L'isolement

لشاعر الحب والجمال لامرتين

استسلم لامرتين بعد فجيعته فى حبيبته (جوليا) الى الهم ، واستأنس بالوحدة ، واستكان للعبرة ، وخلا إلى الحزن فى خلوات (ميلى) ومن هناك بعث إلى صديقه (ڤريو) بهذه القصيدة فى ٢٤ أغسطس سنة ١٨١٨ وهى :

جلست محزون القلب ، مستطار اللب ، على قُلَّة الجبـل ، وتحت ظُلَّة السنديانة العتيقة ، أشيّع شمس النهار وهى تغرب ، وأسرّح بصرى فى وجوه السهل وهى تتغير

***

فهنا النهر صخاب الموج ، جياش الزّبد ، ينساب فى جوف الوادى ، ثم يضل فى ظلام البعد ! وهنـاك البحيرة راكدة السطح ، راقدة الماء ، تتراءى فى جوانبها نجوم الليل !

***

والطَّفَل لا يزال يلقى على رءوس الجبال الشجراء ومْضاً من شعاعه ، وملك الليل قد أخـذ يصعد إلى عرش السماء فى محفته الندية ، فأشرقت جوانب الأرض ، وازدهرت حواشى الأفق

***

وناقوس الكنيسة القوطى قد أخذ يقرع الهواء برنينه الدينى ، فكف الفلاح عن العمل ، ووقف السائر عن المسير ، واختلطت هذه الأرانين المقدسة بما بقى من ضوضاء النهار وصخبه !

***

ولكن نفسى كانت من كل هـذا خليَّة ، فما تبعث فيها هذه المناظر الجليلة ، ولا تلك الصور الجميلة ، نشوةً ولا بهجة ! لقد كنت أتأمـــل الأرض وكأنها ظل منتقل أو خيال طائف ! إن شمس الأحياء لا تدفئ الموتى!

***

فكنت أتنقـــل عينى من الربى إلى الجبال ، ومن الجنوب الى الشمال ، ومن ظلمة الغسق الى حمرة الشفق ، وأنفِض(١) السهل والوعر ، والمأهول والقفر ، عسى أن أجد لنفسى سعادة فى مكان ، أو أتوسم لقلبى راحة فى انسان ، فلا أعود بطائل!

***

وما تصنع لى هـذه الوديان والأكواخ والقصور ، مادمت لا أجد لجمالها فى عينى روعة ، ولا لسحرها فى قلبى فتنة ؟ ؟ أيها الأنهار والأحجار والغـــابات والخلوات العزيزة علىّ ! ! إن غيبة مخلوق واحد من ربوعكن جعل عامركن خرابا ، وردَّ أنسكن وحشة ! !

***

سواء علىّ أطلع الشمس أم تغرب ،

(١) نفض المكان : نظر الى كل ما فيه ليعرفه

وتصحو السماء أم تغيم ، ويظلم الليل أم ينير الصبح . فليس لى بغية فى اليوم ولا رجيّة فى الغد

* * *

وحينما أرسل عينىَّ تتبعان الشمس فى مدارها الرحب القصى ، لا أبصر فى كل مكان غير الفراغ والخلو ! لاحاجة لى إلى من تظله السماء ، ولارغبة لى فيما تنيره الشمس !

* * *

ولكنَّ من وراء هذا الفلك الدائر وهذه الشمس الساطعة أمكنة أخرى تسطع فيها الشمس الحقيقية ! فلو أتيح لنفسى أن تخلص من قفصها لرأت فى تلك السموات حبيبها الذى طالما بكت عليه ، وحنت إليه !

* * *

هنالك أنتشى من رحيق الغبطة ، وأظفر بالأمل والمحبة ، وأنعم بما تاقت اليه نفسى من مُتَع لا تمر على سمع ولا تدور بخَلد

* * *

ما أعجزنى أن أطير اليك وأنا مثقل بقيود المادة ، خاضع لجاذبية الأرض ! ! وليت شعرى لماذا قضى الله أن أبق إلى الآن فى أرض المنفى وما تربطنى بها رابطة ، ولا تصلنى بأهلها صلة ! !

* * *

إذا ما ذوت الأوراق فى المرج ، وأسقطها قَرُّ الخريف فى الوادى ، هبت عليها الشمال فذهبت بها أباديد ! وأنا بهذه الأوراق الذابلة أشبه ! فاحمليني أيتها الريح كما حملتِها ، وانثرينى فى وجوه الفضاء كما نثرتِها ، فما بعد الصباح إلا المساء ، وما بعد اليأس والوحدة إلا الفناء !

الزيات

من الأدب الهندى

للشاعر الهندى خسرو الدهلوى

ارتفع العُقاب من الصخر الى اللُّوح ، ينفض للصيد جناحه ويصيح ، وأعجب ببسطة جناحه وقال : وجه الأرض اليوم تحت جناحى الصوال ، أين فى العالم نِدّى فى هذا الفضاء ؟ ما النسر وما السيمُرْغ والعنقاء ؟ هأنذا أطير فى الأوج وينفذ بصرى الحديد ، الى الشعرة فى قاع البحر البعيد ، ولا تتحرك ذبابة على اليبس إلا بصرت باضطراب جناحها . وتمادى به العُجب ولم يخش القضاء ، فانظر ماذا فعل به فلك السماء : صوب اليه قوساً من الكمين ، فأنفذت فيه سهم القضاء المتين ، أصاب السهم القاتل جناح العُقاب ، فهوى من الأوج الى التراب ، وقع على الأرض يضطرب ، اضطراب السمكة وينتحب ، ثم أدار عينه ذات اليمين وذات الشمال ، فبلغ منه التعجب وقال : أنىَّ لقطعة من الخشب والحديد ، هذه الحِدةُ والسرعة والطيران البعيد ؟ فلما أنعم النظر فى سهم العذاب ، رأى عليه ريش عقاب ، فقال : ممن نبكى ولمن نشكو آلامنا ، ومن أنفسنا هذا الذى أصابنا ؟

وله أيضاً

طلبت أذنى اسمك فى كل مكان ، وتحرت عينى وجهك فى كل ناحية ، وضربت برأسى كريح الصبا فى كل باب وجدار ، إذ ذهب وردى الضاحك وبقيت رائحته

الشاعر الهندى بيدِل

إنما يأسرنا إحسان المنزهين عن الأغراض ، فان شئت أن تصطادنا فانثر حبك بعيداً من الشباك

من الأدب الفارسى

للشيخ سعدى الشيرازى

الملك حارس الرعية وإن تكن له الدولة والصولة ، فليس القطيع من أجل الراعى ، ولكن الراعى لخدمة القطيع

وله أيضاً

ياطائر السَّحر تعلم العشق من الفراشة . قد احترقت وماتت ولم يُحَس لها صوت . هؤلاء المدعون لاخبر عندهم فى طلبه ، أما الذين عرفوا الخبر ، فلم يعرف لهم أثر

لمولانا جلال الدين الرومى

كان رجل يُسر الى داره كل حين أن لا تسقطى قبل أن تنذرينى . فانقضت الدار ليلة عليه بغتة . فقال : كَثُر ما أوصيتك ، وشدَّ ماحذرتك ! ألم أقل لك أنذرينى قبل أن تنقضى لأفر عنك بعيالى ! ما أخبرتنى أيتها الدار الغـــادرة ! فأين حق الصحبة الطويلة ؟ لقد سقطت وأصبتنا بشر المصائب !

أجابت الدار مفصحة : كم كم أنذرتك ليلاً ونهاراً ! كنت كلما فسخت من الصدوع فما ، أن قد نفدت طاقتى وجاء الوقت فخذ حِذرك ، دعاك الحرص إلى أن تسد فمى بالطين ، فلم تدع لى صدْعاً يبين ، كلما فتحت فما فى جدار : أخرسته على بدار ، فلم تدعنى أنبس ، فماذا أقول أيها المهندس ؟

للفخر الرازى

ما حُرم قلبى العـلم ساعة ، ولم يبق سر إلا كشفت قناعه ، فكرت اثنتين وسبعين سنة نهاراً وليلاً ، ثم علمت أنى ما علمت شيئاً

لابن سينا

تداولت مشكلات العالم بالحل ، من تحت التراب إلى أوج زُحل ، ولم تأسرنى القيود والحيل ، فحللت كل عقدة إلا الأجل ![1]

عبد الوهاب عزام

(١) القطع المتقدمة كلها مترجمة عن الفارسية

الدوار المسحور

[بقية المنشور على صفحة ١١١]

حافية القدمين . هذه كانت ابنتها . ففتحت باب الحاجز ، وأخذت الطفلة بين ذراعيها وضمتها إلى صدرها ، وقالت لها : « إنك طبعاً ابنتى ، ولـكن لمَ أنت هنا ؟ »

وقالت الطفلة : « إننى طبعاً هنا حيث يجب أن أكون . »

ووقفت القروية حيرى لا تعى شيئاً . وفى تلك الأثناء بدأت الطفلة التى لا زالت بين ذراعيهـا تمسح بيدها شعر أمها وتصففه . وبدأت ترفع قناع الرأس الذى انحدر إلى العنق . ورأت أن أمها ليست كما كانت عليه من تألق وانشراح . ولـكن العقدة انحلت وأصبح قناع الرأس فى يدها

وقالت الأم : « انتظرى قليلاً ، أديرى هذا الرباط على وجهه الآخر قبل أن تعقديه ثانية . »

وظنت أنها بهذه الوسيلة قضت على كل الخيالات التى انتابتها ، كما كانت هـذه وسيلتها من قبل . وفجأة رأت الضالة أين هى فهى فى دوارها الذى تملكه . هنا حيث ولدت وشبت ، ولـكن الشيطان قد مسها قبلاً إلى حد لم تعرف معه دوارها

ووقفت والطفلة على ذراعيها ترمى بنظرها إلى ما حولها ، لا ، إن هـذا الدوار الريفى جميل وعظيم جداً إذا ما نظر إليـه المرء باعتباره أجنبياً عنه . الآن عرفت أن لا مثيل له فى تلك المنطقة ، وكانت تريد تركه . إن كل ما عداه أصبح بغيضاً لها !

وارتأت أن لا بد من الذهاب إلى زوجها ، وأن تحدثه بكل ماجرى ، ولم تقبل ابنتها مفارقتها ، وكانت كأن الزوج والطفلة قد التقيا بها بعد فراق طويل

وقال الزوج : « على الأقل ليس هـذا السحر الذى مسك بالسحر البغيض . وقد يستفيد الغير فائدة محققة لو أنه وقع لهم مثل هـذه الحوادث . أنظرى الآن ، إنك لم تدركى من قبل مافى دارك هـذه . عليك أولاً أن تجوبى العالم وتضلى الطريق مرات عدة حتى تنظرى بمثل هذه العين وتدركى قيم الأشياء على حقيقتها

فقالت القروية : « نعم ، الحق معك ، ومن الحسن أيضاً ألا يضل المرء كثيراً لدرجة يتعسر عليه معها الاهتداء الى داره . »

عربها عن الألمانية ا . ا . ى .

من هنا ومن هناك

الشعر الغنائى عند العرب وعند الايسلنديين

نشر الدكتور ج . أيستروب J. Oestrup المستشرق الكبير بحثاً ممتعاً فى الموازنة بين الأدب العربى قبل الاسلام وبين الأدب الأيسلندى فى جاهليته ، أى قبل الغزوات الشمالية . ولخص الدكتور نتيجة هذا البحث فى مقال نشره فى مجلة (جاتس دانسك مجزين الدانمركية) Gads Dansk Magazin وهاك خلاصة رأيه :

يرى الدكتور أن هناك مشابهة قوية بين الأدبين : فى الالهام والمواطف وطرق الأداء . ومن الواضح أنه لم يقع اختلاط بين الشعبين فى تلك العهود ، إلا أن الدكتور يعزو ذلك التشابه إلى الأحوال الجغرافية التى فرضتها الطبيعة على الشعبين ، وإلى الحياة الاجتماعية المماثلة التي نشأت عن تلك الأحوال : فايسلندا Islande كانت فى عزلة عن العالم بالمحيط الأطلسى ، وبلاد العرب كانت كذلك معزولة بالبحار والصحارى ، ومن ثم كان الشعبان يحييان حياة محصورة ، ويعيشان عيشة قبلية مستقلة ، كل فرد فيها مستقل فى حياته الاقتصادية عن الآخر

والطبيعة فى كلا البلدين وعرة قاحلة تجعل جهاد العيش شاقاً مرهقاً ؛ وأشد المشابهات وأعجبها بين الأدبين يرجعها الدكتور إلى الفخر والزهو اللذين يتميز بهما أفراد الشعبين ، ويرى أن هذا الاعتداد بالنفس أثر من آثار الانعزال والاستقلال ؛ وانعدام الحوادث الاجتماعية الكبيرة من بيئتهم جعل الأعمال الفردية الضئيلة فى نظر أصحابها أساسية جليلة

والهجاء عند قدماء الأيسلنديين والعرب فاحش مقذع ، ولكنه شكل ثانوى لأدب شخصى بطبعه لأدب أخص صفاته أنه شخصى لأنه صدر عن قوم شخصيين انطووا على أنفسهم واستمدوا من عواطفهم . والشعر الغنائى على عكس الشعر القصصى يعبر عن آلام النفس وسرورها ، وهذا الألم وذلك السرور لهما أثر كبير فى تلك الحياة الأولية الساذجة . وبين هذا النوع من الأشعار التى نجد أكثرها مؤثراً وأقلها عظيماً فروق جوهرية

وإذا كان العرب والأيسلنديون قد انصرفوا جميعاً عن الحياة اليومية الواقعية ، وكانت لغتاهما تميلان على الصناعة اللفظية والاناقة الأرستقراطية ، فان من خصائص العرب أنهم وجهوا هممهم إلى الصور البيانية ، ومن خصائص الأيسلنديين أنهم لا يعنون إلا بالنغمة الموسيقية

بين المسرح والسينما

كتب الأستاذ لويس جوفيه فى مجلة (لموا) عن الصراع القائم بين المسرح والسينما قال :

تنبأ بعضهم منذ طويل بموت المسرح ، ولكن لينور ماند Lenormand فى روايته الأخيرة (شفق المسرح) قد أرسل فى الناس نداء مؤثراً دعا فيه إلى إحياء الفن التمثيلى . ونحن كذلك جماعة صحت عزيمتهم على ألاّ يدعوا أنفسهم فريسة لذلك الجبار كنج كنج King-Kong وهو السينما

وهذا الموسم التمثيلى قد جاء حجة لنا على ذلك . فانا لم نشهد موسماً مثله قد فتح بمثل هذه القطع الرائعة ، ولا قطعاً كهذه القطع استمر تمثيلها مدة طويلة . لا أريد أن أقدم أرقاماً مخافة أن أخطىء ، ولكن أحداً من الناس لا يستطيع أن يمارى فى نجاح (كما تحب) و (بس با) و (المعهد الجديد) و (أمل) وروايات أخرى لا تقل عنها

إن هناك غير هذا الجمهور الضخم الذى يذهب إلى السينما ، ولا يذهب إلى غيرها ، جمهوراً يحب المسرح . وهو جمهور محصور من غير شك ، ولكنه أرهف ذوقاً ، وأصفى قلباً إلى المظاهرات الفنية مهما تكن . ولماذا نعارض المسرح بالسينما وكل منهما فن قائم بذاته ؟ فللسينما طرق للتعبير والبيان غير محدودة ، وهو فى اعتبارى طريقة ناجعة لتبسيط الأمور إلى أذهان الجمهور . أما طرق التعبير فى المسرح فضيقة قليلة ، ولكنك ترى رجالاً

أحياء ، وذلك مالا تستطيع السينما أن تعوضك عنه . فالاخراج وحده هو الشيء المماثل في السينما والمسرح ، وفن إدارة ممثلين فيهما واحد ، ولكن النظام الآلي أضيف إلى ذلك في الاستديو ، وأصبح شديد الخطورة والأهمية حتى صار الميكانيكي هو المخرج .

* * *

قدم إلى المسرح روايات جيدة يأتك الفوز من تلقاء نفسه . لقد سئم الجمهور هذه الحكايات الصغيرة الداعرة التي ظلت أثناء زمن طويل موضوعاً لروايات المسرح . إن هذه القصص المبتذلة السكالحة أصبحت لا تهم أحداً ، ولا تزيد في الميزانية فرنكا واحداً

إن شباب اليوم الجديد العملي يريد شيئاً آخر ، فما هو ذلك الشيء ؟ هو شيء يسيغ لهم الحياة اليومية ، ويهون عليهم متاعبها ، ويخفف عنهم مصاعبها . والمسرح لمن يحبونه هو النسيان والسلوان والترفيه من عناء الأعمال العادية . نحن ظماء الى العجائب والروائع . نتمنى أن يوحي المسرح الينا الأحلام ، ويفجر لنا ينابيع جديدة للشعر . نريد من المسرح أن يكون مثابة للعجائب والسحر لا صورة سمجة للحياة اليومية

احملوا إلى مديري المسارح الروايات الجميلة ، فقد مضى الزمن الذي كانوا يعتذرون فيه بضيق الوقت عن قراءة المخطوطات.. لم يعد منها شيء . والشبان قد انصرفوا إلى القصة وأحجموا عن الرواية . كأن هؤلاء الشباب الذين نتكيء عليهم ونركن اليهم ونعتقد أن مساعدتهم ضرورية للمسرح ، يخشون أن يتقدموا اليه

فليتقدم المخلصون للمسرح في هذه الساعة التي نشبت المعركة بينه وبين السينما فيضمنون فوزه ويؤمنون نجاحه بالأقبال عليه والكتابة له

الشعر والعصور الأولى

نشرت « المصور » التي تصدر في فينا دراسة ممتعة في مؤرخ الأدب وناقده الألماني والترمشج walter muschg جاء فيها عن الشعر باعتباره إرثاً للتقاليد ما يأتي :

« الفن هو تقاليد ورثناها منذ عهد لا يدخل في حدود الذاكرة ، إذ لا شيء في الوجود يعرض أمامنا إلا وهو يعود بأصله الى تلك الصور والنقوش التي رسمها ونقشها إنسان أفريقيا الوحشي صوراً لأجداده وصيده ، ومن ثم اتخذها آلهة يؤدي اليها فريضة العبادة

وبرغم ما بين الماضي والحاضر من التباين البعيد ، فان من المستحسن البحث في حقيقة ارتقاء الفنان بقدر ما نعنى بتتبع الخطوات الأولى التي مرت على الانسان في حداثته . والأمر كذلك في الشاعر ، إذ هو صورة للعالم تعبر عنه في عصر ما ، وتلك صفة هامة تسبق أهميتها الاصطلاحات التي يستعملها ليخرج في إطارها تلك الصورة

وعلى قاعدة هذه الحقيقة الهامة ، سهلت اليوم دراسة تاريخ الأدب والفن . فالخالق الذي يرتبط بعملية الخلق ويفيد العالم على أساس هذه العملية يختلف عن حضري مثقف بأعماله العقلية التي يقدمها الينا . إذ لا نستطيع أن نتفهمها حتى نعود به الى ماضيه الذي لا يزال مستقراً في قرارته

هذا وقد رسم لنا فرويد Freud ذلك الجسر الذي يصلنا بذلك العالم المشبع بتلك التقاليد والفكر ، وهذا الجسر هو الاحلام والخيال موحي الشاعر

وما من شعر رصين إلا كان له صلة بذلك العالم الأول ، صلة بذلك الخيال البعيد المغمور بالأحلام

والشعر لا يثير إعجابنا ودهشتنا إلا لأنه مبعث لفكر عميقة ، لم يأت بعد ادراك حقيقة طبيعتها . وعودة الشعر إلى ذلك العالم المغمور هي السبب في أن الشاعر يرى بين أهل وطنه غريباً ، كما أن موقفه يختلف عن موقف رجل يمتهن حرفة التجارة ، كذلك ليس في وسعه أن يختلط بأهل عصره ويسايرهم في أفكارهم ، لأن ذلك يعد حياداً عن طريقه الذي يجب أن يسلكه بين أناس يحيطون به ولا يعرفون قدره حتى يبلغ رسالته

البريد الأدبي

كتاب عن لوتر

صدر أخيراً فى فرنسا كتاب عن مارتن لوتر زعيم ألمانيا الروحى ، وقد صدرت عن لوتر كتب عديدة بمختلف اللغات ، ولكن هذا الكتاب الأخير يمتاز بطرافة تصويره للرجل الذى صدع من وحدة الكنيسة الرومانية واستطاع بثورته عليها أن ينشئ إلى جانبها مذهباً نصرانياً جديداً هو « البروتستانتية » الذى تتبعه عدة من الأمم العظيمة مثل ألمانيا وانكلترا ومعظم الشعب الأمريكى . وهو من وضع العلامة المؤرخ فرتز فونك برنتانو عضو المجمع العلمى الفرنسى . وفونك برنتانو مؤرخ وافر البراعة والقوة ، وافر الطرافة قبل كل شئ ، وهو اليوم فى نحو الثمانين من عمره ولكنه مازال دائب البحث والأنتاج ، وكتبه وبحوثه تثير دائماً فى الدوائر العلمية كثيراً من الاهتمام والتقدير . وله فى بعض الشخصيات والمسائل التاريخية نظريات جديدة ؛ مثال ذلك أنه فى كتابه عن « لوكريزيا بورجيا » ابنة البابا اسكندر السادس يذهب فى شأنها إلى رأى جديد ، ويصور هذه المرأة التى صورتها التواريخ والقصص ، عاهراً من أشنع وأخطر نوع ، سيدة عفيفة وزوجا أمينة مخلصة ، وقديسة محسنة ، ويدعم رأيه بالوثائق والوقائع التاريخية ؛ ومن رأيه أيضاً أن لويس الخامس عشر ملك فرنسا الفاجر المتهتك ، قد ظلمه التاريخ ، وأنه لم يكن كما صور من إغراق فى التبذل والغواية ، وأن سجن الباستيل لم يكن دائماً كما تصوره التواريخ معتقلاً مروعاً تخمد فيه الرغبات والأنفاس ، ولكنه فى أحيان كثيرة كان يغدو من الداخل قصراً أنيقاً تقام فيه المآدب والحفلات الشائقة ، بل وتهب فيه ريح الغرام والحب ؛ وهكذا

أما لوتر فمن هو وما هو ؟ هو نوع من البركان أو اللهب تنفست عنه ألمانيا فى القرن السادس عشر ، وهو ليس بقس فقط يحاول ثورة على الكنيسة ، ولكنه رجل عظيم يضطرم بالمثل الانسانية العامة ؛ ومتصوف لا تضيره العزلة ، ولكنه لا يرى الكمال فى إخضاع النفس والشهوات ؛ وهو من الوجهة الاجتماعية « محافظ » ، وقد بذه من الوجهة الأخلاقية أحبار مثل البابا اسكندر بورجيا ، فلم يخرج على الأخلاق والحشمة خروجهم ، وما هو الزواج وشرب النبيذ ؟ وقد أثارت نزعة « الأحياء » كل مسألة فى كل مكان ، ولكن لوتر لم يثر سوى مسألة واحدة هى « تنظيم الجمهورية النصرانية » ثم هو يمثل فى ثورته روح الوطنية الألمانية الصميمة ، فهو يبث الرعب والروع من حوله ، ولكن من ورائه ، بعيداً عن الفكرة الدينية ، شعوب ألمانيا كلها ؛ أحباراً وأمراء وشعباً

ومن هو لوتر من الوجهة الشخصية ؟ هو رجل قوى البنية جاف الملامح ، شاعر متواضع ، وخطيب مفوه ، ومجادل قوى الحجة ، ومتصوف مكتئب ، وموسيقى ، وشجاع حين تجب الشجاعة ، وديع ذلول إذا خلا بنفسه ، مضطرم الذهن ، يفيض رأسه دائماً بالتصورات الروعة ؛ عدو الطبقات الرفيعة ، دون أن يعرف كيف أو أنى يسير

أما الثورة على رومة فليس من المحقق أنه كان يرمى إلى الانشقاق عليها ، ولعله كان يؤمل منها الأذعان والتسليم ؛ ولعله كان يعتبر نفسه مصلحاً فقط للكنيسة ، وهو ما يخلق بقس ذكى ؛ وهناك ريب فى أنه كان يعمل لانهيار هذا الصرح الشامخ الذى شادته الكنيسة خلال القرون ، وأقامته فوق التوازن بين قوتين : زعامة الكنيسة الروحية ، وسلطة أوربا الدنيوية . وأن أوربا فى القرن العشرين ، أوربا المضطربة ، لا تستطيع إدراكاً لتلك الوسائل التى لجأ إليها هذا القس البارع - زعيم ألمانيا وزعيم الفردية — فى تحقيق هذا الانقلاب العظيم

هذا هو ملخص الصور المختلفة التى يقدمها العلامة فونك برنتانو عن بطل ألمانيا القومى وبطل البروتستانتية فى كتابه الجديد

البحث عن أصل الإنسان

ما زال البحث عن أصل الأجناس البشرية من أهم المسائل التى يعنى بها العلم الحديث ؛ وفى كل عام توفد البعوث العلمية المختلفة الى مختلف الأقطار المجهولة لتجرى فيها ما تستطيع من التحقيقات والمباحث التى تلقى الضياء على أصل الانسان والأجناس البشرية ، وقد أعدت أخيراً فى فرنسا بعثة جديدة لمعالجة هذه المباحث فى مجاهل أفريقية ؛ وذلك تحت رعاية وزارة المعارف الفرنسية ، ومعهد علم الأجناس ، ومؤسسة روكفلر العلمية ، وانتخب لرآسة البعثة علامة ومكتشف شاب هو المسيو مارسل جريول الذى برهن على مقدرة خاصة فى القيام بمثل هذه المباحث . وقد قاد المسيو جريول قبل ذلك بعثة فى قلب أفريقية قطعت ما بين دكار عاصمة السنغال فى الغرب وجيبوتى على البحر الأحمر فى أقصى الشرق ، ما بين سنتى ١٩٣١ ، ١٩٣٣ ؛ وقام قبلها أيضاً برحلة علمية فى الحبشة ، ونشر عنها كتاباً كان له وقع عظيم عنوانه « حملة المشاعل للإنسان » . والبعثة الجديدة مكونة من تسعة أعضاء ، منهم مصور سينمائى وثلاث سيدات ، وتنوى البعثة أن تبدأ بالسيارات من غرب أفريقية متجهة نحو الشرق بطريق بلاد الدوجون والهابيس ومرتفعات بانديجرا ومنحنى نهر النيجر ؛ وهى أنحاء اخترقها جريول من قبل ووضع عن خواصها وأحوال سكانها بحوثاً قيمة . وكان أهم مالفت الأنظار ما كتب عن هؤلاء السكان السود من الحقائق الغريبة ، وهى أنهم يعيشون فى كهوف من الصخر رتبت مخادع صغيرة ؛ وكل مجموعة من الربى تكون قرية خاصة ؛ وهم يعيشون فى جو من التقديس يفيض بذكر الآلهة والخرافات الغريبة ، ويعنون بصنع الأقنعة المقدسة والوشم المقدس ؛ ولهم رسوم دينية مدهشة ؛ والسحر ذائع بينهم ، وتكثر بينهم الرموز الخفية ؛ وعلى الجملة فهم أكثر الشعوب تمثيلاً للإنسان الأول وعصر ماقبل التاريخ . وستعنى البعثة باستيفاء هذه البحوث والحقائق ، ويعنى السيدات المرافقات للبعثة بدرس أحوال النساء ونظام الأسرة فى هذه الأنحاء

أزمة الفنون

كان للأزمة الاقتصادية أثرها فى المسرح الفرنسى ؛ فأغلق كثير من المسارح ودور اللهو المعروفة ، وخفضت مرتبات مشاهير الممثلين والفنانين ، وظهر هذا الأثر قوياً فى مسرح الحكومة الرسمى (الكوميدى فرانسيز) أشهر مسارح فرنسا ، وعجز دخله عن أن يفى بنفقاته ، وأحدثت هذه الحالة فى نظام المسرح العظيم اضطراباً لم يسبق أن عاناه ؛ واهتمت وزارة المعارف الفرنسية بالأمر وأخذته بين يديها ؛ وتباحث وفد من أقطاب الكوميدى فرانسيز مع وزير المعارف فى الحلول الممكنة ، وطلب أن ينظر بالأخص فى معاشات أعضاء المسرح المحالين على المعاش لأن كثيرا منهم غدا فى حالة يرثى لها . وكان من الحلول المقترحة لمعالجة الأزمة أن تقوم فرقة الكوميدى فرانسيز برحلات فى الخارج ، فى إيطاليا وأمريكا الجنوبية وغيرها ، وفى القاهرة الآن فريق من ممثلى هذا المسرح الشهير يعملون فى دار الأوبرا الملكية

شتيفان جروسمان

من أنباء فينا أن الكاتب النقادة شتيفان جروسمان قد توفى فى سن الحادية والستين ، وكان جروسمان كاتباً وصحفياً كبيراً ، ولد بمدينة فينا ، ونشأ بها ؛ وظهر فى الصحافة بكتاباته النقدية القوية ، وعنى جروسمان بالمسرح وشئونه عناية خاصة ، وكان له رأى فى المسرح ينادى به ويعمل له ، وهو أن يكون المسرح شعبياً محضاً ، ينشأ للشعب ولثقافة الشعب ؛ وقد ذاعت فكرته مدى حين فى مدينة الفنون والمسارح (فينا) وغدت حركة حقيقية ، ولكنها لم تفض الى نتائج عملية . وكان جروسمان يرسل صيحاته النقدية والاصلاحية على صفحات فى الصحف النمسوية الكبرى مثل « النويه فرايه بريسيه » و « التاجبلاط » وغيرهما ، ومنذ أعوام غادر جروسمان فينا الى برلين ، واشتغل هنالك بالصحافة والشئون المسرحية أيضاً . ثم عاد الى فينا بعد ردح من الزمن ، وفيها توفى منذ أسبوعين

فى جامعة السوربون

توفى العلامة المؤرخ راعون جيو أستاذ التاريخ بجامعة السوربون فى السابعة والخمسين من عمره . وكان مولده بباريس سنة ١٨٧٧ ، وتخرج من مدرسة المعلمين العليا (النورمال) ونال الأستاذية فى التاريخ . وتولى التدريس زمناً قبل أن يجلس على « الكرسى » . ولما توفى المسيو أميل بورجوا الذى كان يشغل كرسى التاريخ فى كلية الآداب ومدرسة العلوم السياسية ، عين مكانه فيه الأستاذ جيو . وللعلامة المتوفى كتب ورسائل كثيرة فى موضوعات تاريخية مختلفة ولا سيما مسائل أوربا الحديثة



كتاب تتمة اليتيمة

للثعـــالبى

نشره وقدم له الأديب عباس اقبال

مررت بباريس قبل سبع سنين ، فزرت الأديب العلامة محمد بن عبد الوهاب القزوينى لأفيد من علمه الغزير ، ولقيت عنده الشاب الأديب عباس اقبال ، وكنت قرأت فى كتاب للعلامة القزوينى أن الثعالبى أكمل اليتيمة فى كتاب سماه تتمة اليتيمة ، وأن نسخة منه فى مكتبة باريس ؛ فتكلمنا يومئذ عن الكتاب ، وعزمت أن أشير على لجنة التأليف والترجمة بطبعه .
ثم ضرب الزمان ضرباته حتى ذهبت الى طهران هذا العام فاذا صديقنا الأديب عباس اقبال قد طبع التتمة فى جزءين صغيرين طبعاً متقناً وجاء يهديها الىّ ، فسررت كل السرور بطبع هذا الكتاب القيّم ، وأثنيت على جهد الأديب اقبال وهمته

وإنى لراج أن يذيع الكتاب بين الأدباء ليكمل به نقص اليتيمة

وفيما يلى ترجمة المقدمة الفارسية التى كتبها الأديب النابغة عباس اقبال لهذا الكتاب :

الأمام أبو منصور عبد الملك الثعالبى النيسابورى (٣٥٠ – ٤٢٩ هـ) أديب من أدباء إيران النابغين ، أمضى معظم عمره ، أواخر القرن الرابع الهجرى وأوائل الخامس ، فى تأليف كتب كثيرة فى فنون شتى من الأدب واللغة والتاريخ . وكتب مؤلفاته كلها باللغة العربية اتباعاً لسنة ذلك العصر ، إذ راجت سوق هـذه اللغة واستأثرت بالعلوم واتسعت وعمت . ونحمد الله على أن أكثر مؤلفات الثعالبى ، وبعضها رسائل صغيرة ذات أوراق قليلة ، لم تذهب بها الحادثات

من كتب الثعالبى كتاب يعد من أجل كتبه ، واليه يرجع أكثر صيته ، وهو كتاب يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر . كتب الثعالبى نسخته الأولى سنة ٣٨٤ ، ونسخته الآخرة بين سنتى ٤٠٢ و٤٠٧ . وأودعه من آثار الشعراء المعاصرين والذين تقدموا زمانه بوقت قصير ، وضمنه بعض أخبارهم

قسم الثعالبى كتاب اليتيمة أربعة أقسام : القسم الأول فى محاسن أهل الشام والجزيرة ، القسم الثانى فى محاسن أشعار أهل العراق ، القسم الثالث فى محاسن أهل الرى وهمذان واصفهان والجبل وما يتصل بها ، القسم الرابع فى محاسن أهل خراسان

والكتاب لا يعنى كثيراً بأخبار الشعراء الذين ترجم لهم الثعالبى فى الأقسام الأربعة كما يعنى بذكر أشعارهم ، ونبذ من منثورهم أحياناً ، ولكنه مع هذا يشتمل على كثير من الفوائد التاريخية المهمة ، ولا سيما فى القسمين الثالث والرابع اللذين يتضمنان تراجم الشعراء الذين عاشوا فى إيران وما يتصل بها . وهو من هـذه الجهة يحوى فوائد قيمة ، وبعض الشعراء الذين ترجم لهم الثعالبى فى هذين القسمين ممن عرفوا فى عُرف ذلك العصر بالشعراء ذوى اللسانين : أى الذين نظموا بالعربية والفارسية. وقد أثبت فى مواضع ترجمة بعض شعرهم الفارسى ، وفى موضع أو اثنين نماذج من شعرهم الفارسى أيضاً . وهذه النبذ على قلتها ذات خطر يجعل اليتيمة من المنابع المهمة ، لتحقيق تاريخ إيران وتاريخ الأدب الفارسى فى القرنين الرابع والخامس

وقد ذيّل اليتيمة كتّاب آخرون ، ساق كل منهم الكلام من حيث انتهى الثعالبى إلى زمانه هو . وأكثر هـذه الذيول انتشاراً كتاب دمية القصر لعلى بن الحسن الباخرزى تلميذ الثعالبى . ويُعتبَر ثانى اليتيمة فى القيمة والفوائد التى ذكرنا . ويؤسفنا أن الدمية على مكانتها الأدبيـة لم تطبع حتى اليوم : والطبعة الناقصة المشوهة التى طبعت فى حلب قبل بضع سنين لاتعدل فلساً . وأول من ذيل اليتيمة فأكمل نقصها بذكر الشعراء الذين نسيهم المؤلف أو لم يظفر بشىء من أشعارهم وأخبارهم حين التأليف ، أو نَبهوا بعد انتشار الكتاب ، هو الثعالبى مؤلف اليتيمة نفسه . ويؤخذ من مقدمة النسخة النهائية للمجلد الأول من اليتيمة أنه جدّ منذ نشر النسخة الأولى سنة ٣٨٤ فى تكميل اليتيمة والزيادة عليها . حتى تسنى له أن ينشر النسخة الأخيرة بين سنتى ٤٠٢ و٤٠٧ ، وأهداها إلى الأمير أبى العباس مأمون

ابن مأمون خوارزمشاه المتوفى سنة ٤٠٧ فى سن ٣٢ (١)

وبعد ما يقرب من عشرين سنة من انتشار النسخة الأخيرة من اليتيمة ألف الثعالبي كما يقول هو فى مقدمة النسخة التى بأيدينا كتاباً لطيفاً على نسق اليتيمة وترتيبها سماه تتمة اليتيمة ، أراد به أن يرفع نقص اليتيمة ويجبر كسرها وأن يكون ضميمة للكتاب الأصلى تبلغ به اليتيمة الحدّ الذى بلغه جهد الثعالبي . ومعنى هذا أن كتاب اليتيمة ناقص بدون هـذه التتمة ؛ وقد عرف ذلك الثعالبي نفسـه . ذلكم بأن الذيل الحاضر ، يحتوى على أسماء كثير من الشعراء الذين أغفلتهم اليتيمة أو نبه شأنهم بعد انتشارها ، فضلاً عن أنه يعين على إكمال تراجم عدة من الشعراء الفضـلاء الذين ذكروا فى اليتيمة . فالتتمة ذات خطر كبير ولا سيما قسمها الرابع الذى يتضمن أخبار أركان الدولة وأعيان الحضرة أى المنشئين والمستوفين والأدباء والشعراء الذين التفوا حول الملوك الغزنويين . هذا القسم بعـد أعظم أقسام هذا الكتاب من حيث إنارته مواضع مظلمة من تاريخ إيران وآدابها ، واشتماله على أنباء كثير من الوزراء والمنشئين والشعراء والأدباء النابهين

ألف الثعالبي كتاب التتمة فى أيام السلطان مسعود الغزنوى ما بين سنتى ٤٢٤ و ٤٢٩ وثبت هذا أن سنة ٤٢٤ وردت مرتين فى هذا الكتاب (ص ١١٤ و ١٤٥)، وأن شمس الكفاة خواجه أبا القاسم أحمد بن حسن الميمندى وزير السلطان مسعود كان قد توفى حين تأليف الكتاب ، ووفاته كانت سنة ٤٢٤ . (ارجع إلى صفحة ١٤٦ و ١٥٥) فلا يمكن أن يكون تاريخ التتمة مقدماً على هذه السنة ، والمؤلف مات سنة ٤٢٩ ؛ فتأليف الكتاب محصور بين سنتى ٤٢٤ و ٤٢٩ . وتتمة اليتيمة ، كاليتيمة ، اشتهرت منذ عهد المؤلف وصارت مرجع الأدباء . وقد اطلع عليها ياقوت الحموى ونقل عنهـا فقرات فى كتابه معجم الأدباء . وحاجى خليفة يقول تحت عنوان اليتيمة إن للكتاب ذيلاً ألفه الثعالبي، ويذكر اسمه صريحاً، ولكن هذا الاسم « تتمة اليتيمة » حرّف إلى «يتيمة اليتيمة» فى كشف الظنون المطبوع . وابن خلكان كذلك اطلع على هذا الكتاب وذكره فى ترجمة أبى محمد عبد المحسن بن محمد الصورى (جـ ١ ص ٤٢٨ — ٤٢٩ من طبعة باريس) ، وقد نقل قطعة من الشعر نسبها الثعالبي فى التتمة إلى أبى الفرج بن أبى حصين القاضي الحلبى (راجع ص ٦٨ من هذا المتن) ثم اعترض على مؤلف التتمة وقال هذه الأبيات لعبد المحسن الصورى ، رأيتها فى ديوانه ، وأخطأ الثعالبي فى نسبة أشياء الى غير أهلها فيحتمل أن تكون هذه الفقرة منها

قلنا إن كتاب التتمة كان فى يد ياقوت الحموى . وقد نقل منه ياقوت فقرات بعينها ، ومن ذلك نبذة فى ترجمة أبى العلاء المعرى (جـ ١ ص ١٧٢) ، وأبى على بن مسكويه (جـ ٢ ص ٩) والسيد المرتضى (جـ ٥ ص ١٧٥) ، وأبى جعفر محمد بن اسحاق البحاثى (جـ ٦ ص ٤١٢) وغير ذلك . وليس خروجاً عن الموضوع أن أنبه هنا الى مسألة : ينقل ياقوت فى معجم الأدباء (جـ ١ ص ١٧٢) أبياتاً رواها الثعالبي لأبى العلاء المعرى ، ثم يقول : قال وأنشدنى لنفسه : « لست أدرى ولا المنجم يدرى » الى آخر القطعة

وهذه القطعة ، كما يتبين من هذا الكتاب (صفحة ١٠) لأبى القاسم المحسّن بن عمرو بن المعلى الذى يذكره الثعالبي فى التتمة بعد أبى العلاء المعرى بلا فاصل لا لأبى العلاء المعرى . وراوى القطعة المذكورة أبو يعلى البصرى لا أبو الحسن الدلفى المصّيصى الذى يروى عنه الثعالبي ويتبعه ياقوت ، أخبار المعرى وأشعاره . فيفهم من هذا أن نسخة التتمة التى كانت فى يد ياقوت فيها نقص ، أسقط كاتبها بعد أخبار أبى العلاء المعرى اسم أبى القاسم المحسن بن عمرو بن المعلى . وقد رأيت هذه الأشارة جديرة بالذكر هنا لتصحيح هذا الموضع من معجم الأدباء المطبوع

النسخة التى بأيدينا صورة من نسخة مخطوطة وحيدة فى مكتبة باريس مكتوبة بخط نسخ جميل . وهى ملحقة بأجزاء التتمة كلها فى جلد واحد يحوى ٥٩١ ورقة أى ١١٨٢ صفحة ورقمه (Arabe 3308) . وتشغل أقسام التتمة الأربعة من صفحة ٤٩٨ إلى ٥٩١ . وقد طبعناها فى جزءين لأسباب نذكرها بعد

نسخة باريس مؤرخة ١٧ صفر سنة ٩٨٩ ؛ وإذا استثنينا أغلاطاً كتابية وسقطاً قليلا ، فالنسخة فى نهاية الجودة والصحة

ثم ختم كلامه بقوله : والمرجو أن تقع هذه الخدمة الصغيرة موقع القبول عند الأدباء وينظروا اليها بعين الرضا والأنصاف

عبد الوهاب عزام

---

(١) فى نسخة عنـد الناشر من الجلد الرابع لليتيمة مقدمة ليست فى طبعة دمشق . فى هذه المقدمة يقول الثعالبي إنه أنهى ثلاثة أرباع الكتاب ثم تأخر ختمه أى كتابة الربع الأخير مدة بما طرأ من الحوائل والنوائب ، ولزم من الأسفار حتى ناله فيض الأمير أبى العباس مأمون خوارزمشاه . فلما رأى شوقه العظيم إلى إتمام الكتاب أتمه برسم خزانة كتبه

ووفاة أبى العباس سـنة ٤٠٧ ، فتاريخ ختم النسخة الآخرة من يتيمة الدهر مقدم على هذا التاريخ . وقد ذكر أيضاً فى هـذا الكتاب المحرم سنة ٤٠٢ ، فاتضح أن تحرير النسخة الآخرة لم يكن قبل هذه السنة (٤٠٢)

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ٨٢ – ٢٨ يناير سنة ١٩٣٥ – السنة الثالثة

3 me Année, No. 82. Lundi-28-1-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولي رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

العـــدد ٨٢ « القاهرة في يوم الاثنين ٢٣ شوال سنة ١٣٥٣ — ٢٨ يناير سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

الثقـــافة المذبذبة

كتب إليَّ صديقي الأستاذ م . ف . ا . يقول :

« أنا معلّم كما تعلم ؛ ولكنني معلم لا أعتقد فيما يعتقد فيه الكثرة من المعلمين سواى ؛ وذلك أنني لا أومن كثيراً بأوربا ، ولا بما جاء من أوربا ، إلا أن يكون ذلك شيئاً نجنيه من نفع مادي أو كشف علمي . أما فيما يتعلق بالآراء والنفس ، وفيما يتصل بالعقل والقلب ، فأنا شرقي ولا أحب إلا الشرق ، ومصري ولا أحب إلا مصر . . ولقد كان مما يؤلمني دائماً أن أرى الابن الناشئ قد عاد من انجلترة أو من فرنسا ، فلا يكاد يظهر للأعين إلا في هيئة نابية يزعم أنها دليل المدنية التي اكتسبها من الغرب ، فيمتدح فرنسا أو انجلترة وما فيها من مناهج ومناظر ومعاهد ، وهو في الحق إنما يريد أن يقول إنه أثر من آثار تلك المدنية السامية التي يمتدحها ، فهو يصل إلى الزهو من طريق غير مباشر ، ولا يقصد إلا الى الفخر والاعجاب بالنفس . دع ذلك ، فلو كان هذا وحده هو الأثر لهان الأمر ، أما أن يتعدى الأمر ما وراء ذلك فهو البلية والنكبة ، ذلك بأن هؤلاء الأبناء قد وصلوا بتلك النعرة الجوفاء الى أن يخدعوا بعض الشيوخ ، أو بعض الجوف من الشيوخ ، بأنهم دعاة العلم والمدنية ، فألقيت اليهم مقاليد الأمور

فى بعض النواحى ، وكان من سوء حظ مصر أن بلغ هذا الخداع حده فى مسائل التعليم . وإليك مثلا من ذلك : إن برامج التعليم الأدبية — وهى أداة الثقافة والقومية — لا نرى فيها أثراً للشخصية المصرية : فواضع برامج التاريخ هو بعض الجُوف ممن تعلموا تاريخ أوربا ، فنقلوا من هذا ما ظنوه خيراً وجعلوه منهاجاً لتلاميذ المدارس الثانوية المصرية ، فكانت النتيجة أنك اذا نظرت فى برامج القسم الأدبى فى التاريخ خيل اليك أنك تنظر فى بعض برامج فرنسا أو انجلترة ، أو خليطاً من هذا وذاك ، وأما مصر فلا شأن لها فى ذلك واحسرتاه ! وكذلك الحال فى سائر المواد الأدبية ، حتى لقد حسبت وأنا معلم أننا إنما نسعى لاعداد أبنائنا ليكونوا أجانب فى عواطفهم وعقليتهم وثقافتهم

أليس هذا من العبث يا سيدى الأستاذ ؟ أرجو أن تتناول هذا المعنى بقلمك القوى ، ولك من أبناء البلاد الثناء الجميل »

***

وصديق الأستاذ بخبرته الطويلة وعقيدته النبيلة أولى بمعالجة هذا الموضوع ، ولكنه اختار له هذا الأسلوب الصحافى لتتناوله الأقلام المختلفة بالبحث والجدل ، فيكون الرأى أجمع ، والحكم أقطع ، والبلاغ أعم

شكاة الأستاذ شكاة الشرق الاسلامى كله ، فانه منذ غفا غفوته الثقيلة الطويلة فانقطع عن صدر الزمن لم يرد أن يبصر بعينيه ، ويسير على قدميه ، ويعلم أن له تاريخاً ممتازاً ، ووجوداً مستقلا ، وطابعاً خاصاً ، ووحدة كاملة ، ومدنية أصيلة ؛ وإنما ذهب يتحسس من طريقه على نداء الصائد ، ويتوكأ فى سيره على عمود الشَّرَك ، ويطمس على شخصه بالفناء فى الغرب ، كأن أهله لم يكفهم أن يكونوا عبيداً لأوربا بالجسم عن قوة وقهر ، فرضوا أن يكونوا [illegible] بالروح عن رضا وطواعية ، فهم يتكلمون بلغتها ، ويتأدبون بأدبها ، ويَتَّسمون بِسِمَتِها ، ويتخلقون بخلقها ، ويطبعون أذواقهم بالكره على غرار ذوقها ، ويغالطون طباعهم فى أصل الفطرة فيزعمون لعقولهم أن النفس المتمدنة لا يلائمها إلا ما يلائم الأوربى من أدبه ورقصه وغنائه وموسيقاه ، كأن المسافة بين الشرق والغرب لا تحدث فرقاً ، ولا تغير خَلْقاً ، ولا تبدل طبيعة !

إن الاستعباد المادى دهمنا أمس على يد الآباء ، والاستعباد الأدبى يدهمنا اليوم على يد الأبناء ، وشتان بين استعباد كان عن إجبار وجهل ، واستعباد يكون عن اختيار وعلم ؛ والعبودية العقلية أشد خطراً وأسوأ أثراً من العبودية الجسمية ، لأن هذه لا تتعدى الأجسام والحطام والعَرَض ، ومثلها مثل الجسم يرجى شفاؤه متى عرف داؤه ؛ أما تلك فحكمها حكم العقل اذا ذهب ، والروح اذا زهق ، وهل يرجى لمخبول شفاء ، أو ينتظر لمقتول رجعة ؟

إن أكثر نَشْئِنَا الذين وردوا مناهل الثقافة العالية فى أوربا إنما ذهبوا إليها وشخصياتهم هلاهل من تمزق الأسرة وتفكك البيئة وفساد التعليم وضعف التربية ، فكوّنوا عقولهم على منطق الاعجاب ، وميولهم على هوى التبعية ، ثم عادوا وفى حوافظهم تاريخ غير تاريخ مصر ، وعلى ألسنتهم أدب غير أدب العرب ، وفوق غرائزهم خلق غير خلق الشرق ، فتصرفوا تصرف المقلد ، وتعسفوا تعسف الحائر ، فلم يستطيعوا أن يكونوا غربيين لعصيان الطبيعة ، وإباء الفطرة ، ولم يريدوا أن يعودوا شرقيين لقوة الفتنة وضعف الارادة

إن العلم لا وطن له ، لأنه يتعلق باستخدام القوى واستثمار المادة فى العالم كله لخير الناس كله ؛ أما الآداب والفنون والأذواق والأخلاق والتقاليد فهى قِوَام الأمم ، ولا تنزل أمة عنها الا اذا نزلت عن ذاتها وزَلَّت عن مستواها ؛ فخضوع الثقافة القومية للانجليزية فى مصر وفلسطين ، وللفرنسية فى سورية والمغرب ، وللأمريكية فى العراق والمهجر ، بلاء على هذه الأمم لا تسلم عليه وحدة ، ولا يستقل معه وطن

أما عبث هذه الثقافة المذبذبة بالبرامج فَعِلَّته ان التعليم عندنا ليست له سياسة مرسومة ولا غاية معينة . قل لواضع البرنامج مهما يكن : أريد أن أصل بالتعليم الى هذه الغاية ، تجد الغاية نفسها هى التى تعيّن السبيل وتحدد الوجهة ؛ أما اذا كانت سياستنا فى التعليم أن ننشئ المدارس ونهيئ المدرسين ونقيم الامتحانات ، فان جماع الأمر فى المعارف إذن أن تكون حقولاً للتجارب فيها لكل سياسة أثر ، ولكل ثقافة ثمر ، ولكل أمة غير أمتها نصيب

احمد حسن الزيات

بنته الصغيرة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

فرغ أبو يحيى مالكُ بنُ دينار ، زاهدُ البصرة وعالمها ، من كتابة المُصْحَف ؛ وكان يكتبُ المصاحف للناس ويعيشُ مما يأخذ من أجرة كتابته ، تعفُّفاً أن يَطْعَم إلا من كسْب يده ، ثم خرج من داره وَجْهُهُ المسجدُ ، فأتاه فصلَّى بالناس صلاةَ العصر ، وجلسوا ينتظرونه ، واستوى هو قائماً ، فركع وسجد ما شاء الله حتى قضى نافِلَتَه ، ثم انفتَلَ من صلاته فقام إلى أُسْطُوانته[1] التي يستند إليها ، وتَحَلَّقَ الناسُ حوله جموعاً خلف جموعٍ خلفَ جموع ، يذهب فيهم البصرُ مرةً هنا ومرة هنا من كثرتهم وامتدادهم ، حتى تنطَّى بهم المسجدُ على رُحْبِه . ومدَّ الامامُ عينه فيهم ثم أطرق إطراقةً طويلة ، والناسُ كأن عليهم الطير مما سكنوا لهيبته ، ومما هَجِبوا لخشوعه ؛ ثم رفع الشيخ رأسه وقد تندَّتْ عيناه ، فما نَظَر إليهم حتى كأنما اطَّلَع على أرواحهم نجمٌ رطْبٌ من سِحْر ذلك الندى

وبَدَرَ شابٌّ حَدَثٌ فسأله : ما بكاءُ الشيخ ؟ وكان قريباً يجلس من الامام في سَمْتِ بصره ، فتأمله الشيخ طويلاً يقلّب فيه الطرْفَ كالمتعجب ، ولَبِثَ لا يجيبه كأنما عَقِدَ لسانُه أو أخذته عن نفسه حالٌ ، فما يُثْبِتُ شيئاً مما يرى

وازداد الناس عجباً ؛ فما جرَّبوا على الشيخ من قبلها حَصَراً ولا عِيًّا ، ولا قطعَه سؤالٌ قطُّ ، ولا تخلَّف قطُّ عن جواب ؛ وقالوا إن له لشأناً وما بُدٌّ أن تكون من وراء حُبْسَتِه شِعابٌ في نفسه تَهْدِر بسَيْلها وتعتلج ، فما أسرعَ ما يلتقى السيلُ ، فيجتمعُ ، فيَصُوبُ إلى مجراه ، فيَتَقاذَف

وتبسَّم الامام وقال : أما إني قد ذكرتُ ذكرى فبكيتُ لها ، ورأيتُ رؤيا فتبسَّمتُ لها ؛ أما الذكرى ، فهل تعلمون أن هذا المسجد الذي يَفْهَق بهذا الحشْد العظيم ، وتقع فيه المدينة لكل أذانٍ وتطير — هل تعلمون أنه خلا قطُّ من الناس وقد وَجَبَت الفريضة ؟ قالوا : ما نعلمه . قال : فقد كان ذلك لعشرين سنةً خلَتْ ، في موت الحسن[1] ، فقدمات عشيَّةَ الخميس ، وأصبحنا يوم الجمعة ففرغنا من أمره ، وحملناه بعد صلاة الجمعة ، فتبع أهلُ البصرة كلُّهم جنازته واشتغلوا به ، فلم تُقم صلاةُ العصر بهذا المسجد ، وما تُرِكتْ منذ كان الاسلامُ إلا يومئذ ؛ ومثل الحسَن لا يموت ساعةَ موته من عُمرْ مَن شَهِدَها ، فذلك يومٌ عجيب قد لفَّ نهارُه البصرة كلَّها في كفنٍ أبيض ، فما بقيتْ في نفس رجلٍ ولا امرأةٍ شهوةٌ إلى الدنيا ، وفرغ كلُّ إنسان من باطله كما يَفرغ مَن أيقن أنْ ليس بينه وبين قبره إلا ساعة ؛ وظهر لهم الموتُ في حقيقة جديدة بالغةِ الرَّوْع لا يراها الأبناءُ في موت آبائهم وأمهاتهم ، ولا الآباءُ والأمهاتُ في موت مَن وَلَدوا ، ولا المحبُّ في موت حبيبه ، ولا الحميمُ في موت حميمه ؛ فان الجميع فقدوا الواحد الذي ليس غيرُه في الجميع ؛ وكما يموت العزيزُ على أهل بيت فيكون الموتُ واحداً وتتعدَّد فيهم معانيه ، كذلك كان موتُ الحسن موتاً بعَدَدِ أهل البصرة !

ذاك يومٌ امتدَّ فيه الموتُ وكَبِر ، وانكمشتْ فيه الحياةُ وصغرتْ ، وتحاقرت الدنيا عند أهلها ، حتى رجعت بمقدار هذه الحفرة التي يُلقى فيها الملوكُ والصعاليكُ ، والأخلاطُ بين هؤلاء وأولئك ، لا يَصغر عنها الصغير ، ولا يكبرُ عنها الكبير ؛ لا بل دون ذلك حتى رجعت الدنيا على قدر جيفةِ حيوانٍ بالعراء ، تنكشف للأبصار عن شوهاء نجسةٍ قد أرمَّت[2] لا تُطاق على النظر ولا على الشمّ ولا على اللمس ؛ وما تتفجر إلا عن آفة ، وما تتفجرّ إلا لهوامّ الأرض

تلك هي الذكرى ، وأما الرؤيا فقد طالعتني نفسي من وجه هذا الفتى فأبصرتُني حين كنتُ مثلَه يافعاً مُترَعْرِعاً داخلاً في عصر شبابي ، فكأنما انتبهتْ عيني من هذه النفس على فاتكٍ

(١) كان العلماء والرواة يجلسون الى أساطين المسجد ، وهي أعمدته ، كما كان بالأزهر الى عهد قريب .

(١) هو الحسن البصري الامام العظيم وسيأتي وصفه ، ولد سنة ١٥ للهجرة ، وتوفي سنة ١١٠ ، وقد توفي مالك بن دينار شيخ هذه القصة في سنة ١٣١ ، فيكون تاريخ القصة في سنة ١٣٠

(٢) أرمت : بدأت تتعفن وتبلى

خبيث كان فى جناياته فى أغلاله فى سجنه ، ومات طويلاً ثم بُعث :

إنى مخبركم عنى بما لم تحيطوا به . فأرعوه أسماعكم ، وأحضروه أفهامكم ، واستجمعوا له ، فإنه كان غيب شيخكم ، وأنا محدثكم به كيلا ييأس ضعيف ولا يقنط يائس . فإن رحمة الله قريب من المحسنين

***

لقد كنت فى صدر أيامى شُرطياً ، وكنت فى آنفة الحداثة من قبلها أتفتى وأتشطر ، وكنت قوياً معصوباً فى مثل جبلة الجبل من غلظ وشدة ، وكنت قاسياً كأن فى أضلاعى جندلة لا قلباً ، فلا أتذمم ولا أتأثم ؛ وكنت مدمناً على الخمر ، لأنها روحانية من عجز أن تكون فيه روحانية ، وكأنها إلهية يزورها الشيطان — لعنه الله — فيخلق بها للنفس ما تحب مما تكره ، ويثيبها ثواب ساعة ليست فى الزمن بل فى خيال شاربها . وكأن جهل العقل نفسه فى بعض ساعات الحياة هو — فى علم الشيطان وتعليمه — معرفة العقل نفسه فى الحياة !

فبينا أنا ذات يوم أجول فى السوق ، والناس يفورون فى بيعهم وشرائهم ، وأنا أرقب السارق ، وأُعِد للجانى ، وأتهيأ للنزاع — إذ رأيت اثنين يتلاحيان وقد لبب أحدهما الآخر ؛ فأخذت إليهما ، فسمعت المظلوم يقول للظالم : لقد سلبتنى فرح بنياتى ، فسيدعون الله عليك فلا تصيب من بعدها خيراً ، فانى ما خرجت إلا اتباعاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من خرج إلى سوق من أسواق المسلمين ، فاشترى شيئاً ، فحمله إلى بيته ، فخص به الاناث دون الذكور — نظر الله إليه . »

قال الشيخ : وكنت عزباً لازوجة لى ، ولكن الآدمية انتبهت فى ، وطمعت فى دعوة صالحة من البنيات المسكينات ، إذا أنا فرحتهن ، ودخلتنى لهن رقة شديدة ، فأخذت للرجل من غريمه حتى رضى [illegible] له من ذات يدى لأزيد فى فرح بناته ، وقلت له وهو ينصرف : عهد [illegible] الله عليه ويستوفيه لى منك . أن تجعل بناتك [illegible]ون لى إذا رأيت فرحهن بما تحمل إليهن ، وقل لهن : مالك بن دينار

وبت ليلتى أتقلب مفكراً فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعانيه الكثيرة ، وحثه على إكرام البنات ، وأن من أكرم بناته كرم على الله . وحرصه أن ينشأن كريمات فرحات ؛ وحدثنى هذا الحديث ليلتى تلك إلى الصبح ؛ وفكرت حينئذ فى الزواج ، وعلمت أن الناس لا يزوجوننى من طيباتهم مادمت من الخبيثين ؛ فلما أصبحت غدوت إلى سوق الجوارى ، فاشتريت جارية نفيسة ، ووقعت منى أحسن موقع ، وولدت لى بنتاً فشغفت بها ، وظهرت لى فيها الانسانية الكبيرة التى ليست فى ، فرأيت بعد ما بينى وبين صورتى الأولى ؛ ورأيتها سماوية لاتملك شيئاً وتملك أباها وأمها ، وليس لها من الدنيا إلا شبع بطنها وما أيسره ، ثم لها بعد ذلك سرور نفسها كاملاً تشب عليه أكثر مما تشب على الرضاع ؛ فعلمت من ذلك أن الذى تكتنفه رحمة الله ، يملك بها دنيا نفسه ، فما عليه بعد ذلك أن تفوته دنيا غيره ؛ وأن الذى يجد طهارة قلبه يجد سرور قلبه ، وتكون نفسه دائماً جديدة على الدنيا ؛ وأن الذى يحيا بالثقة تحييه الثقة ؛ والذى لايبالى الهم لايبالى الهم به ؛ وأن زينة الدنيا ومتاعها وغرورها وما تجلب من الهم — كل ذلك من صغر العقل فى الأعان حين يكبر العقل فى العلم !

كانت البنية بدء حياتى فى بيتى وبدء حياة فى نفسى ، فلما دبت على الأرض ازددت لها حباً ، وألفتنى وألفتها ، فرزقت روحى منها أطهر صداقة فى صديق ، تتجدد للقلب كل يوم ، بل كل ساعة ، ولا تكون إلا لمحض سرور القلب دون مطامعه ، فتمده بالحياة نفسها لا بأشياء الحياة ، فلا تزيد الأشياء فى المحبة ولا تنقص منها ، على خلاف ما يكون فى الأصدقاء بعضهم من بعض واختلافهم على المضرة والمنفعة

***

قال الشيخ : وجهدت أن أترك الخمر ، فلم يأت لى ولم أستطعه ؛ إذ كنت منهمكاً على شربها ، ولكن حب ابنتى وضع فى الخمر إثمها الذى وضعته فيها الشريعة ، فكرهتها كرهاً شديداً ، وأصبحت كالمكره عليها . ولم تعد فيها

نشوتها ولا ريها ؛ وكانت الصغيرة في تمزيق أخيلتها أبرع من الشيطان في حوك هذه الأخيلة ، وكأنما جرتني يدها جراً حتى أبعدتني عن المنزلة الخمرية التي كان الشيطان وضعني فيها ، فانتقلت من الاستهتار والمكابرة وعدم المبالاة ، إلى الندم والتحوب والتأثم ؛ وكنت من بعدها كلما وضعت المسكر وهممت به ، دبت ابنتي إلى مجلسي ؛ فأنظر إليها وتنتشر عليها نفسي من رقة ورحمة ، فأرقب ماتصنع ، فتجيء فتجاذبني الكأس حتى تهرقها على ثوبي ، وأراني لا أغضب ، إذ كان هذا يسرها ويضحكها ، فأسر لها وأضحك

ودام هذا مني ومنها ، فأصبحت في المنزلة بين المنزلتين ؛ أشرب مرة وأترك مراراً ، وجعلت أستقيم على ذلك ، إذ كانت النشوة بابنتي أكبر من النشوة بالزجاجة ، وإذ كنت كلما رجعت الى نفسي وتدبرت أمري ، أستعيذ بالله أن تعقل ابنتي معنى الخمر يوماً فأكون قد نجست أيامها ، ثم أتقدم الى الله وعلي ذنوبها فوق ذنوبي ؛ ويترحم الناس على آبائهم وتلعنني إذ لم أكن لها كالآباء ، فأكون قد وجدت في الدنيا مرة واحدة وهلكت مرتين

ومضيت على ذلك وأنا أصلح بها شيئاً فشيئاً وكلما كبرت كبرت فضيلتي ، فلما تم لها سنتان ماتت !

***

قال الراوي : وسكت الشيخ فعلقت به الأبصار ، ووقفت أنفاس الناس على شفاههم ، وكأنما ماتت لحظات من الزمن لذكر موت الطفلة ، وخامر المجلس مثل السكر بهذه الكأس المذهلة ، ولكن الطفلة دبت من عالم الغيب كما كانت تصنع ، وجذبت الكأس وأهرقتها ، فانتبه الناس وصاحوا : ماتت فكان ماذا ؟ قال الشيخ : فأكمدني الحزن عليها ، ووهن جأشي ، ولم يكن لي من قوة الروح والايمان ما أتأسى به ، فضاعف الجهل أحزاني ، وجعل مصيبتي مصائب . والايمان وحده هو أكبر علوم الحياة ، يبصرك إن عميت في الحادثة ، ويهديك إن ضللت عن السكينة ، ويجعلك صديق نفسك تكون وإياها على المصيبة ، لاعدوها تكون المصيبة وإياها عليك ؛ وإذا أخرجت الليالي من الأحزان والهموم عسكر ظلامها لقتال نفس أو محاصرتها فما يدفع المال ولا ترد القوة ولا يمنع السلطان ، ولا يكون شيء حينئذ أضعف من قوة القوي ، ولا أضيع من حيلة المحتال ، ولا أفقر من غنى الغني ، ولا أجهل من علم العالم ، ويبقى الجهد والحيلة والقوة والعلم والغنى والسلطان — للايمان وحده ، فهو يكسر الحادث ويقلل من شأنه ، ويؤيد النفس ويضاعف من قوتها ، ويرد قدر الله الى حكمة الله ؛ فلا يلبث ما جاء أن يرجع ، وتعود النفس من الرضى بالقدر والايمان به ؛ كأنما تشهد ما يقع أمامها لاما يقع فيها

قال الشيخ : ورجعت بجهلي الى شر مما كنت فيه ، وكانت أحزاني أفراح الشيطان ؛ وأراد — أخزاه الله — أن يفتن في أساليب فرحه ، فلما كانت ليلة النصف من شعبان ، وكانت ليلة جمعة ، وكانت كأول نور الفجر من أنوار رمضان — سول لي الشيطان أن أسكر سكرة ما مثلها ؛ فبت كالليت مماثملت ، وقذفتني أحلام الى أحلام ، ثم رأيت القيامة والحشر ، وقد ولدت القبور من فيها ، وسيق الناس وأنا معهم وليس وراء ما بي من الكرب غاية ؛ وسمعت خلفي زفيراً كفحيح الأفعى ، فالتفت فاذا بتنين عظيم ما يكون أعظم منه ؛ طويل كالنخلة السحوق ، أسود أزرق ، يرسل الموت من عينيه الحمراوين كالدم ، وفي فمه مثل الرماح من أنيابه ، ولجوفه حر شديد لو زفر به على الأرض ما نبتت في الأرض خضراء ، وقد فتح فاه ونفخ جوفه وجاء مسرعاً يريد أن يلتقمني ، فمررت بين يديه هارباً فزعاً ، فاذا أنا بشيخ هرم يكاد يموت ضعفاً ، فعذت به وقلت أجرني وأغثني . فقال : أنا ضعيف كما ترى ، وما أقدر على هذا الجبار ، ولكن مر وأسرع ، فلعل الله أن يسبب لك أسباباً للنجاة . فوليت هارباً وأشرفت على النار وهي الهول الأكبر ، فرجعت أشتد هرباً والتنين على أثري ؛ ولقيت ذلك الشيخ مرة أخرى ، فاستجرت به فبكى من الرحمة لي وقال : أنا ضعيف كما ترى ، وما أقدر على هذا الجبار ، ولكن اهرب الى هذا الجبل ، فلعل الله يحدث أمراً . فنظرت فاذا جبل كالدار العظيمة ، له كوى عليها ستور ، وهو يبرق كشعاع الجوهر ؛ فأسرعت اليه والتنين من ورائي ، فلما شارفت

الجبل فتحت الكوى ورفعت الستور ، وأشرفتْ عليّ وجوهُ أطفال كالأقمار ، وقرب التنينُ مني ، وصرتُ في هواء جوْفه وهو يتضرّم عليّ ، ولم يبق إلا أن يأخذني ؛ فتصايح الأطفال جميعاً : يا فاطمة ! يا فاطمة !

قال الشيخ : فاذا ابنتي التي ماتت قد أشرفتْ عليّ ، فلما رأت ما أنا فيه صاحت وبكتْ ، ثم وثبتْ كرَمْية السهم ، فجاءت بين يديّ ، ومدّت إليّ شمالَها فتعلّقت بها ، ومدّت يمينها إلى التنّين فولّى هارباً . وأجلستْني وأنا كالميت من الخوف والفزع ، وقعدتْ في حجري كما كانت تصنع في الحياة ، وضربتْ بيدها إلى لحيتي وقالت : يا أبت « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنوا أنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ؟ »

فبكيتُ وقلتُ : يا بُنيّة ، أخبريني عن هذا التنّين الذي أراد هلاكي . قالت ذاك عملُكَ السوْءُ الخبيث ، أنت قوّيْته حتى بلغ هذا الهول الهائل ، والأعمال تَرجعُ هنا أجساماً كما رأيت . قلت : فذاك الشيخُ الضعيف الذي استجرْتُ به ولم يجرْني ؟ قالت : يا أبتِ ، ذاك عملك الصالح ، أنت أضعفْتَه فضعُفَ حتى لم يكن له طاقة أن يُغيثَك من عملك السيىء ، ولو لم أكن لك هنا ، ولو لم تكن اتبعت قولَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن فَرِحَ بناته المسكينات الضعيفات — لما كانت لك هنا شِمال تتعلّق بها ، ويمينٌ تَطْرد عنك

***

قال الشيخ : وانتبهتُ من نومي فزعاً ألعن ما أنا فيه ، ولا أراني أستقرّ ، كأني طريدةُ عملي السيّء كلما هرَبتُ منه هرَبت به ؛ وأين المَهْرَبُ من الندم الذي كان نائماً في القلب واستيقظ للقلب ؟

وأمّلتُ في رحمة الله أن أربح من رأس مالٍ خاسر ، وقلت في نفسي : إن يوماً باقياً من العمر هو للمؤمن عُمْرٌ ما ينبغي أن يستهان به ؛ وصحّحت النيّة على التوبة ، لأرجع الشبابَ إلى ذلك الشيخ الضعيف ، وأسمّنَ عظامه ، حتى إذا استجرْتُ به أجارني ولم يقل « أنا ضعيف كما ترى ! »

وسألتُ فدُلِلْتُ على أبي سعيد الحسَن بن أبي الحسن البصريّ ، سيّدِ البقية من التابعين ؛ وقيل لي : إنه جمع كلّ عِلم وفنّ إلى الزهد والورع والعبادة ، وإن لسانه السّحر ، وإن شخصه المغناطيس ، وإنه ينطق بالحكمة كأن في صدره إنجيلاً لم يُنزَل ، وإن أمّه كانت مولاة لأم سلمة زوجِ النبي صلى الله عليه وسلم ، فكانت ربما غابت أمه في حاجة فيبكي ، فترضعه أمّ سلمة تُعلّله بثديها فيدِرّ عليه ، فكانت بينه وبين بركة النبوّة صلة

وغدوتُ إلى المسجد والحسَن في حلْقته يقصّ ويتكلّم ، فجلست حيث انتهى بي المجلس ، وما كان غيرَ بعيد حتى عرَتني نفْضةٌ كنفضة الحمّى ، إذ قرأ الشيخ هذه الآية : « ألم يأْنِ للّذين آمنوا أن تَخْشعَ قُلُوبُهم لِذِكْر اللهِ وما نزَلَ مِنَ الحقّ » فلو لفظتني الأرضُ من بطنها ، وانشق عني القبرُ بعد الموْت — ما رأيتُ الدنيا أعجبَ مما طالعتْني في تلك الساعة ؛ وأخذ الشيخ يفسرُ الآية ، فصنع بي كلامُه ما لو بُعِث نبيٌّ من أجلي خاصة لما صَنع أكثر منه

وكلامُ الحسن غيرُ كلام الناس وغيرُ كلام العلماء ؛ فانه يتكلّم من قلبه ومن روحه ، ومن وجهه ولسانه ؛ وناهيكم من رجل خاشع متصدّعٍ من خشية الله لم يكن يُرَى مقبلاً إلا وكأنه أقبلَ من دفن حميمٍ قد أنزله في قبره بيده ، ولا يُرى جالساً إلا وكأنه أسيرٌ أمروا بضرب عنقه ، وإذا ذُكرَتْ النار فكأنها لم تخلق إلا له وحده ؛ رجلٌ كان في الحياة لتتكلّم الحياةُ بلسانه أصدق كلماتها

فصاح صائح : يا أبا يحيى ، التفسيرَ التفسير ! وصاح المؤذّنُ : الله أكبر . فقطع الشيخ وقال : التفسير إن شاء الله في المجلس الآتي ؟

طنطا **مصطفى صادق الرافعي**

١ - الغزو اليابانى الاقتصادى

لأسواق العـالم

للأستاذ محمد عبد الله عنان

يشعر العالم المتمدن اليوم بأن قوة جديدة خطيرة قد نزلت إلى الميدان الصناعى والتجارى ، وهـذه القوة تندفع إلى الأمام بسرعة مدهشة ، وتجرف أمامها كل حاجز وكل مقاومة ، وتضطرب لها جميع أسواق العالم شرقية وغربية : تلك هى قوة الغزو التجارى اليابانى الذى تهتز أمامه اليوم معظم الأمم الصناعية والتجارية ، وترقب تفاقمه فى خوف وهلع . ولقد كان هذا الغزو منذ عامين أو ثلاثة شديد الوطأة على بعض الأسواق الكبرى ، ولا سيما أسواق الامبراطورية البريطانية ، ولـكنه اليوم يغدو مشكلة عالمية . فمن آسـيا إلى افريقية وأوربا وأمريكا الجنوبيـة يجتاح هذا الغزو المدهش جميع الأسواق القديمة ، ويلقى الذعر فى دوائر الصناعة والتجارة العليا ، ويثير أينما حل كثيراً من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية . ولقد حاولت الدول الصناعية والتجارية الكبرى أن تحد من أخطار هذا الغزو بجميع الوسائل الممكنة ، وفى مقدمتها الحماية الجمركية ، ولـكنها لم توفق حتى اليوم إلى صده بطريقة ناجحة ، لأنه يعتمد فى قوته واندفاعه على أسس اقتصادية محكمة ، ويتفوق بمزاياه المدهشة على كل منافسة ومقاومة ، ويتحدى كل إجراء لرده لا يستمد من نفس الأسس الاقتصادية التى يقوم عليها

وقد ظهرت طوالع هذا الغزو اليابانى فى المشرق بقوة : فى الصين والهند وأفغانستان وفارس والبلاد العربية ومصر ؛ واجتاح الأسواق القديمة فى الحبشة ، وفى شمال افريقية وفى جنوبها ؛ ثم اجتاح أسواق أمريكا الجنوبية ؛ كل ذلك بسرعة مدهشة لم تترك مجالاً للقيام بأية مقاومة منظمة ؛ ولم يكتف بمنافسة الصناعة الأوربية المؤثلة فى أسواقها القديمة فيما وراء البحار ، ولـكنه نفذ إليها فى نفس مواطنها وغمر معظم الأمم الأوربية ذاتها ، وأصبحت البضائع والمنتوجات اليابانية من كل ضرب تتدفق عليها كالسيل ، وتنافس البضائع والمنتوجات المحلية منافسة الحياة والموت . ولما كانت قوة الأمم الغربية ورفاهها وسلطانها السياسى والاقتصادى فى افريقية وآسيا تقوم على صناعتها وتجارتها قبل كل شىء فانا نستطيع أن نتصور ما يثيره هـذا الغزو اليابانى الخطر فى معظم الأمم والحكومات الأوربية من عوامل الخوف والجزع

ونحن فى مصر نشعر منذ حين بآثار هذا الغزو تنمو وتتسع بسرعة ، وتبدو واضحة فيما ينهمر على سوقنا المصرية من صنوف البضائع والسلع اليابانية الرخيصة المغرية مع ذلك . وتشمل هذه المنتوجات اليابانية معظم الحاجات الشخصية والمنزلية ؛ من ثياب وأقمشة وحرائر وأحذية وخردوات وساعات وأدوات وآلات كهربائية وآلات حديدية وقاطعة ، وأنواع الآنية ، والأدوات الكتابية واللعب وغيرها مما لا يقع تحت حصر ؛ وقد ظهر أثر هذه المنافسة فى بعض صناعاتنا الفتية مثـل صناعة الغزل إذ أخذت الأقمشة اليابانية القطنية والحريرية الرخيصة فى منافسة منتوجاتنا منافسة قوية ، وكذلك صناعة الأحـذية فقـد أخذت الأحذية اليابانية تتدفق على السوق المصرية بأثمان غير معقولة . على أن أثر الغزو اليابانى لا يقف فى مصر عند هذا الحد ؛ وإذا كانت مصر لا تتمتع بصناعة واسعة يخشى عليها مباشرة من هذا الغزو ، فانها يجب أن تخشى منه بحق على مستقبل محصولها الرئيسى وهو القطن الذى تستهلكه الصناعة الأجنبية وتحتاج إليه أشد الحاجة ؛ ومن الواضح أن مستقبل القطن المصرى يتوقف على رخاء الصناعات التى تقوم عليـه وتستمد حاجتها منه ؛ ولما كان الغزو الصناعى اليابانى قد أخـذ يهدد صناعة القطن فى لانكشير ، وهى أعظم عميل للقطن المصرى ، ويهدد الأسواق التى تعتمد عليها لانكشير فى تصريف منتوجاتها ، فانه يحق لنا فى مصر أن نرقب سير هذا الغزو اليابانى بمنتهى الاهتمام ، وأن نفكر فيما عسى أن يترتب على هـذا الصراع الاقتصادى الخطير بين الصناعات الأوربية القديمة وبين اليابان فى حياتنا الاقتصادية من الآثار

وسنحاول فى هذا المقال عرض الموضوع من الناحية العامة ، ودرس العوامل والأسباب التى مكنت اليابان من تنظيم غزوتها الاقتصادية المدهشة ، ومن النجاح فى مغالبة الصناعات الأوربية الراسخة ، على حداثة عهدها بالنهضة الصناعية الحديثة

***

إن وثبة اليابان الحديثة ترجع إلى فاتحة هذا القرن فقط ، أعنى الى انتصارها الباهر فى الحرب التى خاضت غمارها مع الروسيا سنة ١٩٠٥ ؛ فقد كان أول نصر حاسم أحرزته فى العصر الحديث دولة أسيوية على دولة أوربيــة عظمى ؛ وكانت أوربا القديمة تعتقد قبل ذلك فى منـــاعتها ، وتوقن أن العصر الذى تستطيع فيه دولة شرقية أن تهزم دولة غربية قد انتهى إلى الأبد ، فجاء انتصار اليابان على روسيا مبدداً لهذا الحلم ؛ وشعرت اليابان بقوتها ومنعتها ، وازدادت ثقة بمستقبلها وحقها فى تبوإ مكانتها الحقة بين الدول العظمى ؛ ومن ذلك الحين تسير اليابان فى ميدان التقدم الحديث بخطى مدهشــة ، وقد كان هذا التقدم فى المبدإ محصوراً فى آسيا ، أو بعبارة أخرى فى الشرق الأقصى ؛ ولـكن اليابان أخذت منذ نهاية الحرب الكبرى تتجه نحو الغرب بخطى سريعة ؛ وكان الصراع بين اليابان والغرب يدور أولاً حول الغزو السياسى والأقتصادى للصــين ؛ فلما شعرت الأمم الغربيــة بأن نفوذها الأستعمارى القديم فى الصين أخذ يهتز ويضطرب أمام التقدم اليابانى أرسلت صيحتها ونذيرها بالخطر الأصفر ، وحاولت أن تصبغ المعركة الأستعمارية الأقتصادية بصبغة جنسية ؛ ولـكن هذه المعركة التى تضطرم حول اقتسام الصين واستعمارها انتهت أخيراً بانتصار اليابان على الدول الغربية ؛ واستطاعت اليابان إلى جانب كوريا التى تملـكها منذ بعيد ، أن تغزو منشوريا وأن تستولى عليها ، وبذا أصبحت تملك فى الصين امبراطورية استعمارية شاسعة غنية بمواردها . ولم تقف اليابان عند هذا الحد ، بل أعلنت رداً على صيحة الخطر الأصفر ، مايشبه مبدأ مونرو الأمريكى ، وهو أنها تعتبر نفسها صاحبة الحق الأول فى استعمار الصين ، وأنها ستقاوم منذ الآن فصاعدا أية محاولة من جانب الدول الغربية لتوسيع نفوذها السياسى والأستعمارى فى الصين

ولما حققت اليابان برنامجها الأول فى الشرق الأقصى ، ضاعفت جهودها فى الاتجاه نحو الغرب ومنافسته فى ميادينه الصناعية والتجارية ، واستطاعت أن تنظم هذا الغزو الأقتصادى الجارف . ونستطيع أن نجمل أهم الوسائل التى تعتمد عليها اليابان فى تنظيمه فى أمرين : الأول وفرة اليد العاملة ، والثانى رخص العمل والأجور بنسب مدهشة . وقد نما الشعب اليابانى فى العصر الأخير نمواً سريعاً ، وأضحى يبلغ اليوم خمسة وستين مليوناً فى جزائر اليابان وحدها ، هذا عدا كوريا وسكانها عشرة ملايين . ويزيد الشعب اليابانى فى العام مليونا ، وهى نســبة مدهشة ؛ ويرجع احتشاد الشعب اليابانى فى جزائره على هذا النحو إلى كثرة النسل التى لم تتأثر بنظريات المدنية الحديثة ووسائلها فى ضبط النسل ، وعدم إقبال اليابانيين على الهجرة ، ووضع الأمم الغربية الحواجز فى سبيل هجرتهم . وتدل الأحصاءات الأخيرة على أن عدد اليابانيين المهاجرين لا يزيد عددهم على أكثر من سبعمائة ألف فى جميع أنحاء العالم . واليابانى ميال بالطبيعة إلى البقاء فى وطنه ؛ ومما يذكى هذه الرغبة فى نفسه نظام الملكية الصغيرة التى تسمره فى أرضه . وقد كان هذا الأحتشاد الهائل فى تلك الجزر الصغيرة وتعــذر سبل الهجرة من أكبر العوامل فى دفع اليابان إلى اعتناق الفكرة الصناعية ، والعمل على تحويل اليابان إلى بسيط شاسع من الصناعات الكبيرة التى تستطيع أن تستغرق هذه الملايين العديدة وأن تمدها بالقوت . وقد نجحت هذه السياسة نجاحاً عظيما ، حتى كان عدد المصانع يزداد فى العصر الاخير بمعدل مائة الى ثلثمائة فى العام الواحد . وكان عــدد هذه المصانع سنة ١٩١٧ يزيد قليلاً على ألفين ، فوصل فى سنة ١٩٢٩ الى ٥٩٨٨٧ مصنعاً ؛ ثم زاد فى الأعوام الأخيرة زيادة كبيرة

ومن الغريب أن اليابان استطاعت أن تقوم بهذه المعجزة الصناعية رغم كونها ليست غنية فى الموارد والمواد الأولية ؛ فهى فى الواقع تستورد كثيراً من المواد الأولية من الخارج . ولـكن اليابان غنية فى بعض المواد الحيوية كالفحم ، فهى تملك منه مقادير وافرة ، وتصــدر منه أحياناً ؛ وتملك أيضاً مقادير وافرة من البترول والحديد ، ولـكنها لاتفى بحاجتها . أما فى المواد الأولية الزراعية فاليابان فقيرة جداً ، وهى تستورد معظم ما تحتاج اليه من القطن والصوف والجلد وغيرها ، على أن هذا النقص لايمنع صناعتها من التقدم بخطى جبارة ؛ فقد استطاعت كما سنفصل بعد أن تأخذ المحل الثالث فى الصناعات القطنية بعد انكلترا والولايات المتحدة رغم كونها تستورد القطن من الخارج

ومن الطبيعى أن يؤدى احتشاد السكان ووفرة الأيدى العاملة الى رخص الأجور . ومسألة الأجور هذه إحدى معجزات

الصناعة اليابانية ونعمها السابغة . وهى معقدة متنوعة النواحى ؛ وتنخفض الأجور فى اليابان الى حدود غير معقولة ؛ وللعامل اليابانى « معيار للمعيشة » فى منتهى التواضع ، وليست له طلبات خاصة ، فهو قنوع جد القناعة لايطمح الى أكثر مما يحقق ضرورات العيش ، ولايفكر فى شىء من ألوان المتعة والترف التى يطمح اليها العامل الأوربى . وهو صبور لايحسب فى العمل حساباً للوقت ، وليس له تشريع عملى يحميه ، ولم يعرف بعد شيئاً من تلك النزعة العدائية التى تجعل العمل ورأس المال فى الغرب خصمين دائمين ، والتى تحفز الكتلة العاملة الى الجهاد المستمر فى سبيل حقوقها المادية والمعنوية . ومن الصعب أن نقدم بياناً رقمياً عن الأجور فى اليابان يمثل حقيقة ما يكسبه العامل ، لأن الأجور النقدية تدعم أحياناً بأنواع من المعاونات الخاصة ، كالتعويض عن العمل الزائد ، والمكافآت ، ثم الأجور النوعية كتقديم الطعام أو المسكن أو الثياب . ولكن يستدل من المباحث التى أجراها مكتب العمل الدولى أن متوسط أجرة العامل اليابانى تبلغ فى اليوم : (١) فى الصناعات الفنية ٢,٢٠ ين (١١ فرنكا – أو نحو ١٥ قرشاً) (٢) وفى المناجم ١,٨٠ ين (٩ فرنكات أو نحو ١١ قرشاً) ويبلغ متوسط ما تأخذه المرأة ١,٠٣ ين (نحو خمسة فرنكات أو سبعة قروش) . وهذه النسبة تعتبر مرتفعة بالنسبة لبعض الصناعات الخفيفة مثل صناعة الغزل حيث يبلغ معدل الأجور أقل من ين أو نحو أربعة أو خمسة قروش . وفى كثير من الصناعات لايزيد مستوى الأجور على مستوى الأجور الزراعية العادية

وفى الصناعات الصغيرة يوجد نظام مشترك فى العمل والحياة يشبه نظام الأسرة ، ومما يجدر ملاحظته أن كثيراً من أصحاب المصانع فى اليابان لم يتأثروا بعد بنظريات الرأسمالية الغربية فى استغلال الفرد ، ومازالت تسود لديهم الفكرة العائلية القديمة فى اعتبار صاحب العمل والعمال الذين معه ، أسرة واحدة ترتبط برباط الأخوة والمصلحة المشتركة ، وفى كثير من المعامل الصغيرة يتناول العمال طعامهم فى المصنع ويقيمون فى مساكن يعدها لهم صاحب العمل ؛ ويقوم صاحب العمل بقسطه من العمل كباقى العمال ، ويتناول طعامه معهم ، ويعيش مثلهم فى نفس المسكن ، ولا يشعر العمال فى هذا الجو إلا أنهم مع سيدهم زملاء وإخوة ؛ وهذا النظام العائلى يعاون على الانتاج فى ظروف وتكاليف يسيرة لاتمكن منافستها على الاطلاق

ويرتبط بالعمل والأجور مسألة ساعات العمل ، وهى من العناصر الهامة فى تكاليف الانتاج . ومن المعروف أن الكتلة العاملة فى الأمم الغربية استطاعت أن تصل فى تخفيض ساعات العمل وفى تقرير أيام العطلة والأجازات الدورية الى نتائج مرضية جداً ؛ فالأسبوع الصناعى فى معظم الدول الغربية لايتجاوز اليوم ٤٢ ساعة ، ولا يتجاوز اليوم الصناعى ست ساعات أو سبعاً ، وللعامل يوم عطلة أسبوعى مقرر هو يوم الأحد ، وله فوق ذلك حق فى اجازة سنوية أو دورية معينة تختلف باختلاف الظروف ؛ وهذه الحقوق كلها مقررة بالتشريع ؛ أما فى اليابان فلا توجد فكرة التحديد فى الزمن ، وتدل المباحث الأخيرة على أن معدل اليوم الصناعى فى معظم الصناعات اليابانية لا يقل عن عشر ساعات ، على أنه لا توجد لذلك حدود أو قيود قانونية إلا فيما يتعلق بالنساء والأحداث ، فاليوم العملى لهؤلاء يجب ألا يزيد على إحدى عشرة ساعة ، والقانون يقضى بأن يمنحوا راحة مقدارها ساعة إذا زاد يوم العمل على عشر ساعات ، ولا توجد فى اليابان راحة أسبوعية للعمال كما فى أوربا ، لأن يوم الأحد هو عطلة نصرانية لا تقرها التقاليد اليابانية ؛ ولا تعرف هذه التقاليد من جهة أخرى يوماً معيناً تخصصه للعطلة الأسبوعية ، وقد كان فى مشروع اتفاق واشنطون ، فى المادة الخاصة باليابان أن يمنح جميع العمال على اختلاف طوائفهم عطلة أسبوعية قدرها أربع وعشرون ساعة ، ولكن اليابان لم تقر هذا الاتفاق . على أن المعامل الكبيرة اعتادت أن تمنح عمالها عطلة مقدارها يومان فى الشهر ، يوم فى منتصف الشهر ويوم فى نهايته ؛ على أنه لا توجد لذلك كما قدمنا قواعد ثابتة ، والعمال اليابانيون أنفسهم ينفرون من فكرة الراحة الدورية خوفاً من أن تنقص أجورهم تبعاً لتقريرها

ومما تقدم نرى أن الصناعة اليابانية تعمل فى ظروف مدهشة تستطيع معها غزو كل سوق وسحق كل منافسة ، وقد لخص

(١) الين وحدة العملة اليابانية وتساوى بسعر القطع الحالى ٥ فرنكات (ستة قروش ونصف)

كاتب اقتصادى وثبة اليابان الصناعية فى هذه الكلمات : « إن الأجور الصناعية فى اليابان سويت بالأجور الزراعية ، وغدت ثلث ما كانت عليه سنة ١٩٢٩ ؛ وأسبوع العمل ستون ساعة ؛ وقد يبلغ طبقاً لبعض الاحصاءات فى صناعة القطن مائة وعشرين ساعة ، وفى اليابان شعب يزيد فى العام مليوناً ، والعنصر البشرى يعنى به أكثر مما يعنى بالآلات . . . وتلك فى الواقع مدنية صناعية جديدة تجمع بين النظم الفنية الأمريكية ورخص العمل الشرقى ، فمدير المصنع اليابانى يتناول مرتباً قدره (١٧٠٠ ليرة) (نحو ٣٠ جنيهاً) وهو خمس ما يتناوله زميله الأمريكى . وأثمان المنتوجات اليابانية أقل بنحو خمسة وثلاثين فى المائة من أثمان منتوجات أى سوق أوربية أو أمريكية » . وأشار السنيور موسولينى فى إحدى خطبه أمام مجلس النقابات الصناعى إلى نهضة اليابان الصناعية بقوله : « هنالك فيما وراء الاطلانطيق تفتحت مشاريع صناعية ورأسمالية هائلة ؛ ولكن ثمة فى الشرق الأقصى توجد اليابان ، وهى منذ أن اتصلت بأوربا فى حرب سنة ١٩٠٥ ، تتقدم نحو الغرب بخطى شاسعة »

ويجب أن نذكر ما لنشاط اليابان البحرى من أثر فى تنظيم هذا الغزو ، فلليابان أسطول تجارى ضخم يربطها بأوربا وأمريكا وجميع أنحاء العالم ؛ ويعمل هذا الأسطول لحمل التجارة اليابانية إلى ماوراء البحار فى ظروف مشجعة جداً ، ويصطبغ عمله بلون التعاون القومى لأنه يعتبر أداة قوية لنشر التجارة اليابانية تسخر كل قواها ونشاطها لتحقيق هذه الغاية

وسنحاول أن نبحث فى فصل آخر ما لهذا الغزو الاقتصادى اليابانى من أثر فى السوق المصرية وفى الاقتصاد المصرى .

محمد عبد الله عنان
المحامى

التاريخ الاسلامى *

للأستاذ على الطنطاوى

هذه حياة نخمة . . . . ليست حياة واحد ، ولكنها حياة أمة ، أمة حملت مصباح النور ، حين عمّ الكونَ الظلام ، وأرشدت العالم التائه فى عُباب الجهل ، الى شاطئ العلم ، وكانت حضارتها المدرسة الثانوية التى خرّجت العقل البشرى وثقّفته ، كما خرّجته المدرسة الابتدائية اليونانية من قبلُ وثقفته . . . فكان لها الفضل على كل إنسان !

حياة أبى بكر هى الصفحة الأولى من التاريخ الاسلامى ، الذى بهر كل تاريخ وبذّه ، والذى لم تمحو تواريخ الأمم مجتمعة بعض ماحوى من الشرف ، والمجد ، والاخلاص :

ذلك لأنه تاريخ الكمال الانسانى على وجه الأرض . . . . تاريخ المعجزة التى ظهرت فى بطن مكة على يد رجل واحد ؛ فلم تلبث حتى عمت مكة ، ثم امتدت حتى شملت الجزيرة ، ثم امتدت حتى بلغت أقصى الأرض . . . فكانت أكبر من الأرض ، فامتدت فى الزمان . . . . وستبلى الأرض ، ويفنى الزمان ، والمعجزة باقية :

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) — (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

ذلك لأنه تاريخ الاسلام ، الذى بدا سرّه فى هذه الأمة البادية الجاهلة المتفرقة ، فجعل منها أمة لم يكن ولن يكون لها نظير ... امتزجت روح الاسلام بأرواح المسلمين وغلبت عليها ، ثم استأصلت منها حبّ الدنيا ، وانتزعت منها الطمع والحسد ، والغشّ والكذب ، وأنشأت من أصحابها قوماً هم خلاصة البشر ، وغاية مايبلغه السمو الانسانى . . . .

أنشأت من أصحابها قوماً يغضبون لله ، ويرضون لله ، ويصمتون لله ، وينطقون لله ، قد ماتت فى نفوسهم الأهواء ، وبادت منها الشهوات ، ولم يبق إلا دين يهدى ، وعقل يستهدى

* مقدمة كتاب فى سيرة أبى بكر الصديق سينشره الأستاذ فى ١٥ فبراير سنة ١٩٣٥ فى أكثر من ٣٠٠ صفحة

قوم كان دليلهم الدين ، وقانونهم هدى سيد المرسلين ، وشعارهم شعار المساكين ، وعيشهم عيش الزاهدين ، ثم كانت فتوحهم فتوح الملوك الجبارين ، وكانوا سادة العالمين ؛ لم يمنعهم زهدهم من أن يكونوا أبطال الحروب وسادة الدنيا ، ولم يفتنهم ما نالوا من مجد ، وما بلغوا من جاه ، عن دينهم وتقواهم

قوم ينصب لهم أميرهم قاضياً ، فيلبث سـنة لايختصم اليه اثنان ![1] ولم يكونوا ليختصموا وبين أيديهم القرآن ، وكل واحد منهم يعرف مايحق له ، فلا يطلب أكثر منه ، ويعرف ما يجب عليـه فلا يقصر فى القيام به ، ويحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه ، ويسعى ليسلم الناس من لسانه ويده : إذا مرض المسلم عاده المسلمون ، وإذا افتقر أعانوه ، وإذا أحسن شكروه ، وإذا ظُلم نصروه ، وإذا ظلم ردعوه ، دينهم نصيحة وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، ففيم يختصمون ؟

أما إنهم لايختصمون إلا على مكرمة وإحسان ، ولقد كان عمر يتعاهد عجوزاً عمياء ، في بعض حواشى المدينة ، فـكان يجيئها سحراً ، فيجد امرأ قد سبقه اليها فبرّها وأحسن اليها ، واستسقى لها وأصلح من أمرها ، فيعجب منه ويزيد فى البكور ، فلا يسبقه ، فرصده مرة من أول الليل ، حتى جاء فاذاهو . . . . أبو بكر الصديق ، وهو يومئذ خليفة[2]

أبو بكر وعمر يستبقان إلى برّ عجوز عمياء ، فى بعض حواشى المدينة . . . الله أكبر ! عقمت أم التاريخ أن تلد مثل هذا التاريخ الذى يأتى بسيد الأمة ، فى ثوب خادم الأمة ، حتى يفتش فى الليل عن عجوز عمياء ، أو رجل مقعد ، أو أسرة محتاجة ، أو مظلوم ضعيف ، أو ظالم عاتٍ — ليخدم العجوز ، ويحمل المقعد ، ويساعد المحتاج ، وينصر المظلوم ، ويأخذ على يد الظالم ، لا يبتغى على ذلك جزاء ولا شكوراً ، لأنه يعمل لله ، ولا يرجو الثواب من غير الله . . .

الله أكبر ! ضل قوم زعموا أن الاسلام إنما انتشر بالسيف ، لا والله ! إنما انتشر بمثل هـــذه الأخلاق السماوية ، إنمـا فتح المسلمون ثلاثة أرباع العالم المتمدن ، بهذا الايمان الذى ملأ قلوبهم ، وهذا النور الذى أشرق على نفوسهم ، وهذه القوة التى عادت بها عليهم عقيدة التوحيد :

علموا أن الله هو الفعال لما يريد ، وأنه المتصرف فى جميع الأكوان ، وأن كل شىء بقضاء منه وقدر ، وأنهم إن غُيب عنهم القدر ، وخفى عليهم علمه ، فقد أُنزل عليهم القرآن ، ووضح لهم سبيله فاتبعوا القرآن ، ووقفوا عند أمره ونهيه ، فكتبوا فى سجل القدر من السعداء

والمؤمن الذى يعلم أن الله هو الفرد الصمد ، الواحد الأحد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، وأنه لا يجير عليه من نبي ولا رسول ، ولا يشفع عنده إلا باذنه ، وليس بينه وبين العبد واسطة ولا نسب ، ويعلم أن الله ينصر من ينصره ، وأنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، لا يسأل إلا الله ، ولا يستعين إلا بالله ، ولا يبالى بشىء إذا كان مع الله ، ولا يطمع فى جوار أحـد إذا كان جاراً لله ، ولا يحفل بالدنيا وما فيها إذا باع نفسه من الله راضياً مختاراً ، بأن له الجنة . .

* * *

كانت هـذه العقيدة أصل كل خير ناله المسلمون الأولون ، وكان وهنها فى النفوس أصل كل شرّ نال المسلمين المتأخرين الذين أفسدوا عقيدة التوحيد بما شرعوا لأنفسهم من البدع والعقائد ، فتفرقوا أيدى سبا ، وذلّوا فى أرضهم ، وهوجموا فى عقر دارهم ، وحفظ المسلمون الأولون على هذه العقيدة صفاءها وجمالها . ففتحوا ما فتحوا ، وكان فتحهم أعجوبة التاريخ ، يقف أمامها العقل خاشعاً للعظمة والجلال ، حائراً للغموض والخفاء :

أُمة بدوية على غاية ما تكون عليـه الأمم البادية من الخلاف والجهل ، لا دين يوحد قبائلها ويهذب من نفوسها ، ولا جامعة تجمعها ، ولا حكومة تدبر أُمورها ، اللهم إلا حكومة فى العراق تخضع لملوك العجم ، وحكومة فى الشام تطيع ملوك الروم وتلبث على ذلك عصوراً . . . ثم تنهض نهضة الأسد ، تحمل فى يمناها نور القرآن ، تضىء به للشعوب طريق المجد فى الدنيا ، والسعادة فى الأخرى . وفى يسراها السيف تردُّ به الضالين المعاندين ، المصرّين على الضلال ، إلى سبيل الحق والهدى

ويبدو فيها سر الاسلام بيناً جلياً ، فاذا هـذا التفرق وهذه

(١) الأمير أبوبكر والقاضى عمر رضى الله عنهما

(٢) منتخب كنز العمال قال : رواه الخطيب عن أبى صالح الغفارى

الجاهلية ، أخوة فى الاسلام ، وتمسك بالفضائل ، وإذا هـــذا الضعف قوّة لا تعدلها قوّة ، وإذا هذه حمية الجاهلية تواضع لله ، ورضا بأحكامه ، ونزول عند أوامره ونواهيه ، وإذا بدوى من بنى وُهيب (١) يكون بسر الاسلام — قائداً من أعظم قواد الدنيا — يهدّ أقوى صرح للظلم ، ويدكّ أكبر بنيان للجور على وجه الأرض ، ويغرس فى (القادسـية) مكان الجبروت الفارسى بذور الحضارة الاسلامية التى نمت وأزهرت حتى أظلت الدنيا

وإذا بدوىّ قاسٍ غليظ من بنى عدىّ (٢) يكون بسرّ الاسلام عظيماً من عظماء التاريخ ، يبرّز فى العلم والسياسة والبلاغة ، ويكون له القدح المعلّى ، فى فنون الفكر ، وفنون الحرب ، وفنون القول ، ويسوس وحده الجزيرة وسورية والعراق ومصر وإفريقية فلا يعرف التاريخ أعـدلَ ولا أقومَ ولا أفضلَ منه — حاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه فى الغار

. وإذا تاجر من تجار مكة (٣) يكون بسرّ الاسلام ، أعظم العظماء ، بعد الأنبياء .

***

هذه أعجوبة التاريخ ، وهذا هو الفتح الأعظم !

أجل ! إن الفتح الاسلامى لهو الفتح الأعظم ، الذى لم يعرف التاريخ فتحاً مثله . وكثيرٌ هم الفاتحون ، الذين فتحوا بلاداً واسعة بسيوفهم ، وأخضعوها بجنـــدهم ، وحكموها بقوتهم وسطوتهم ، ولـكن ليس فيهم مثل المسلمين ، الذين فتحوا البلاد بإيمانهم ، وفتحوا القـلوب بعدلهم ، وفتحوا العقول بعلمهم ، فـكانوا أصحاب السلطان ، وكانوا دعاة الإيمان ، وكانوا بُناة المجد والحضارة والعمران

طبّقوا فى القرن السابع قواعد الحرب الانسانية — التى علمت بها أوربة فى القرن التاسع عشر وسعت إلى تطبيقها فى القرن العشرين ، فلما لم تفلح وغلبت طباعها الذئبيـة على إنسانيتها المصطنعة ، اكتفت منها بتسطيرها فى كتب الحقوق الدولية وأخذ المجدّدون من الشرقيين . . . ببريقها ولمعانها !

لقد فتحنا ثلاثة أرباع العالم المتمدن ، ولـكنا كنا نحمل العلم والهدى ، والعدل والغنى ، إلى البلاد التى نفتحها ، وكنا لا نعمد إلى الحرب إلا إذا اختار أعداؤنا الحرب ، وأبوا أن يلبوا داعى الله — ثم لا نخون ولا نغدر ، ولا نغل ولا نمثل ، ولا نقتل رسولاً ولا نهدم منزلاً ، ولا ننازل عُزّلاً ، ولا نهيج معتزلاً ، ولا نمس عابداً متبتّلاً (١)

ثم إذا صالحنا أعداؤنا ، ودخلوا فى ذمتنا ، حميناهم مما نحمى منه أولادنا وأهلينا ، وإذا أسلموا كانوا إخواننا لهم مالنا وعليهم ما علينا ، لا يفرّق بين المسلمين عرق ولا لغـة ، ولا جاه ولا نسب ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى (٢)

فأين هذه الفتوح من فتوح الاستعمار التى أثارتها أوربا ؟ فتحنا البلاد فتركنا أهلها أحراراً فى دينهم ومعابدهم ، أحراراً فى قضائهم ونظمهم ، أحراراً فى أموالهم وأولادهم ، فملـكنا بالعدل قلوب الناس ، وأسعدناهم بالعلم ، وبسطنا عليهم ظلال الأمن ، ونشرنا فوقهم لواء الحضارة ، حتى لقد صار أهل البلاد يستصرخون المسلمين على حكوماتهم ، ويبذلون لهم عونهم على ملوكهم (٣) لا بغضاً لملوكهم ولا عداء لأوطانهم ، ولـكن حباً فى العدل ، ورغبة فى السلام ، وشوقاً إلى العلم والحضارة والعمران

فتحنا الحيرة فأهدى أهلها طائعين مختارين هدية إلى أبى بكر فقبلها وعدها من الجزية عدلاً منه وتعففاً ، وخشية أن يظلم أهل ذمته ، أو أن يكلفهم شططاً ، وتفتحون البـلاد فتبتزّون

(١) سـعد بن أبى وقاص رضى الله عنـه (٢) عمر بن خطاب رضى الله عنه (٣) أبو بكر رضى الله عنه

(١) هذا مضمون وصية أبى بكر لأسامة وجيشه حين بُعث به إلى الشام

(٢) أى إن الوطنية فى الاسلام هى الدين ، والأخوة أخوة الاسلام . أما هذه البدعة الجديدة ، بدعة القوميات التى فرقوا بها بين المسلمين ، وقالوا : تركى وعربى ، ومصرى وعراقى ، فلا تتفق والاسلام فى شئ — والغرب نفسه بدأ يعدل عن الجامعة القومية الضيقة إلى جامعة إيمانية واسعة ، أى إنه بدأ يرجع لقواعد الاسلام . وهاكم الفاشية والنازية والبلشفية ، بل هاكم الماسونية ذاتها

(٣) كما وقع فى حمص أثناء الفتح ، وفى الأندلس من بعد : روى البلاذرى فى فتوح البلدان أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة اليرموك ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج ، وقالوا : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم . . فقال أهل حمص : لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينـة مع عاملـكم ، ونهض اليهود وقالوا : والتوراة ، لا يدخل عاهل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب عليها ونجهد . فأغلقوا الأبواب وحرسوها ، وكذلك فعل أهل المدن التى صولحت من النصارى واليهود ، وقالوا : إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه ، وإلا فإنا على أمرنا ما بقى للمسلمين عدد

أموالها ابتزازاً ، وتمتصون دماءها امتصاصاً ، وتمدون أيديكم إلى كل خير فيها

هكذا كانت فتوحنا وهذه فتوحكم :

مَلَكْنَا فكانَ الْعَدْلُ مِنَّا سَجِيَّةً
فلمَّا مَلَكْتُمْ سَالَ بالدَّمِ أَبْطَحُ

وَحَلَّلْتُمُ قَتْلَ الْأُسَارَى وَطالَمَا
غَدَوْنَا عَلَى الْأَسْرَى نَمُنُّ وَنَصْفَحُ

فَحَسْبُكُمُ هَذَا التَّفَاوُتُ بَيْنَنَا
فَكُلُّ إِنَاءٍ بِالَّذِي فِيهِ يَنْضَحُ

***

ولم يظهر سر الأسلام فى الفتوح ، وفى الخلفاء والأمراء فقط ، بل لقد ظهر فى المسلمين جميعاً ، فجعل من نفوس النساء والعجائز والأطفال مناراً يهتدى به الناس ، ومثلاً أعلى للنفوس الكبيرة ، حتى أن أبا بكر ليقسم مالاً بين النساء ، ويبعث إلى عجوز من بنى النجار بقسمها من هذا المال ، مع زيد بن ثابت فتقول :

ـ ما هذا ؟ ـ فيقول : مال قسمه أبو بكر بين النساء

ـ فتقول : أترشوننى عن دينى فيقول : لا

ـ فتقول : أتخافون أن أدع ما أنا عليه ؟ ـ فيقول : لا

ـ فتقول : والله لا آخذ منه شيئاً (١)

لا تأخذ منه شيئاً ، لأنها لم تسلم رغبة ولا رهبة ، ولكنها أسلمت لله ، فهى تبتغى ما عند الله

لا تأخذ منه شيئاً ، لأنها لا تحب أن يدخل بينها وبين ربها فيشغلها عن الأخلاص لدينها ، ويطمعها المال فى المال ، فتزيد فى العبادة ، وتبالغ فى التدين ، فتكون كأنما تعبدت للمال ، وعقيدة التوحيد ، التى استقرت فى نفس هذه العجوز ، كما استقرت فى كبار الصحابة وعلمائهم ، تدفعها إلى أن تعمل لله وحده ، وتسأل الله وحده ، وتؤمن بالله وحده

وتجتمع فئة من المسلمين معارضة تريد أن تستأثر بالحكم ، لأنها ترى لها فيه حقاً ، ولا تقبل فى ذلك هوادة ، ثم يأتيها ثلاثة رجال من الفئة التى تعارضها ، وتجتمع لتناوئها ، فترجع عما اعتزمته بكلمة واحدة تبصر فيها ضياء الحق

(١) ابن سعد فى الطبقات

قال عمر للأنصار يوم السقيفة :

ـ ألستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم أبا بكر للصلاة ؟

ـ قالوا بلى

ـ قال : فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم من قدّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

ـ قالوا : لا أحد !

ـ ثم قاموا يبتدرون البيعة (١)

فأين هذا من منازعات الأحزاب على الحكم فى الدول الراقية فى القرن العشرين ؟ وأين ديمقراطية أوربة ودعواها الخلاص من الحكم الفردى من ديمقراطية المسلمين الأولين ؟

أما إن استبداد لويس الرابع عشر ، هو استبداد روبسبير ، وهو هو استبداد هتلر ، لم تنجُ أوربة من الأستبداد فى الحكم يوماً واحداً ، ولم يحقق النظام البرلمانى شيئاً من أمانيها الديمقراطية ومبادئها البراقة التى تخدع بها الأطفال الكبار من الشرقيين (٢)

أما نظام الحكم فى الأسلام ، فهو النظام الديمقراطى الصحيح ، الذى لا يجعل من أمير المؤمنين أكثر من منفذ للقانون الالهى الثابت الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وهو أبعد شىء عن النظام الملكى الوراثى . وكان المسلمون الأولون يفهمون هذا النظام أصح فهم وأجوده ، وكان العامل من عمالهم يعلم أنه إنما يسأل عن عمله بين يدى الله ، وإنما يقوم به لمصلحة المسلمين لا لرضاء أمير المؤمنين ، وقد يغالون فى ذلك حتى أن مُعاذ بن أيمن يقدم المدينة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول له أبو بكر : ارفع حسابك . فيقول : أحسابان : حساب من الله وحساب منكم ؟ والله لا ألى لكم عملاً أبداً (٣)

ويطلب أمير المؤمنين عثمان من خازنه مالاً ، فيأباه عليه . فيقول : « إنما أنت خازن لنا ، إذا أعطيناك فخذ ، وإذا سكتنا عنك فاسكت »

(١) رواه النسائى والحاكم وصححه

(٢) يقول ذلك الأستاذ جيز أحد جهابذة الحقوق العامة الفرنسية ويثبته بالحجج والأرقام ؛ فى مقال له ممتع ، فى الصفحة ١٦٦ من العدد الثانى من مجلة الحقوق العامة والعلم السياسى فى سنة ١٩٢٧ . وهذا المقال صفعة قوية لأنصار هذا النظام

(٣) عيون الأخبار

كيف صرف الله

عني السوء ؟

بقلم الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

اشتهيتُ أن أقول الشعرَ فى الأسبوع الماضى ، بعد أن فطمتُ قلبى عنه سنوات وسنوات ، فدخلت مكتبتى – أعنى غرفتها لا رفوف الكتب فيها – وأغلقت الباب ، وقلت لنفسى « الآن ، أمنت أن يزعجنى هؤلاء الأطفال اللاعين ويُطيروا عقلى – أو ما بقى لى منه ، وهو قليل – بضجاتهم وكراتهم وزماراتهم وأسئلتهم التى لا تنتهى ، ومشاكلهم العويصة التى لا تحل ، واستبدادهم الذى لا يطاق . إنهم أطفال جديدون وأنا رجل قد شيّخت ، وهم حركة دائمة ، وانا فتور يزداد على الأيام ، وسينتهى – عاجلاً أو آجلاً ، بل آجلاً إن شاء الله – إلى الركود . وهم استعداد مطلق ، وأنا نطاق محدود . وكيف بالله أطيق ان أظل ألاعبهم الكرة ، أو أجاريهم فى الزمر والوثب والصياح ؟ ؟ وما صبرى على هذه الأسئلة التى ليس لها عندى جواب ؟ ؟ سألنى أحدهم – أصغرهم –

« بابا . . . »

قلت : « نعم »

قال : « هل أنت بابا ؟ »

قلت : « نعم ، وأمرى إلى الله يابنى »

قال : « صحيح ؟ »

قلت : « أو يخامرك شك ياملعون ؟؟ أم لا يعجبك أبوك ؟؟ »

فجعل يردد كلمة « بابا » مستغرباً ثم سأل « يعنى ايه ؟ »

فلم أجد عندى جواباً حاضراً لسؤاله ، وعالجته ، وحاورته وداورته حتى انصرف عن هـذا الموضوع ، ولكنه لم ينسه ، فهو يكر علىّ به كل بضعة أيام . فمن كان يعرف لسؤاله هذا جواباً مقبولاً فليسعفنى به ، وله الثواب من الله

وسألنى مرة ، ونحن على السفينة الذاهبة بنا إلى بيروت :

« هذا هو البحر ؟ »

قلت : هو بعينه – أعنى بموجه »

قال : « هل للبحر حنفية ؟ »

قلت : « لا »

قال : « لماذا ؟ »

فهربت من الجواب لأنه طويل ، وكان بى كسل فى تلك الساعة ، فعاد يسأل :

« ماذا يحدث إذا وقعتُ فيه ؟ »

قلت : « تغرق فتموت »

قال : « يعنى أكون كالسمك الذى فيه ؟ »

قلت : « كلا . إن السمك الذى فيه حى ، أما أنت وأنا فانا نموت إذا وقعنا فيه ، لأنا لا نعرف السباحة ، ولم نخلق لنعيش فى الماء كالسمك »

قال : « نموت كيف ؟ »

قلت : « نموت يا أخى ! سبحان الله العظيم ! »

قال : « ولكنى أريد أن أعرف »

قلت : « أنا لم أمت ، فكيف أعرف ؟ »

قال : « بابا »

قلت : « ياساتر استر . نعم يا سيدى ! »

قال : « أريد منك شيئاً »

قلت : « على العين والرأس يا حبيبى ، قل يا سيدى . تفضل ياروحى ! »

فيقول الخازن لأمير المؤمنين : « ما أنا لك بخازن ، ولا لأهل بيتك ، إنما أنا خازن المسلمين : ثم يجيء يوم الجمعة وأمير المؤمنين يخطب فيقول « أيها الناس : زعم عثمان أنى خازن له ولأهل بيته ، وإنما كنت خازناً للمسلمين ، وهذه مفاتيح بيت مالكم » ورمى بها ...

***

هذا هو تاريخ المعجزة التى جاء بها سيد العالمين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو تاريخ الأنسانية الكاملة ، تاريخ المسلمين الأولين ، خلاصة البشرية . فطالعوه ياشبان المسلمين ، وتدارسوه ، واسعوا لتكتبوا هذا التاريخ مرة ثانية على صفحة الحياة .. وتقولوا للعالم بأفعالكم لا بأقوالكم : نحن أبناء أولئك الآباء ..

علي الطنطاوى

قال : « لماذا تتكلم هكذا ؟ »

قلت : « لأنى أعرف أنك مأمون خبيث »

قال : « لا . . . » وضحك « إنما أريد أن أراك »

قلت : « وهل عميتَ ؟ ألستَ تراني أمامك ؟ »

قال بسرعة : « لا لا لا . . . إنما أريد أن أراك ، فى . . . فى الماء ! »

قلت : « تعال إلى الحمام ، فان فيه حوضاً عظيماً »

قال : « لا » ممطوطة ، بازدراء ، « فى البحر . . . »

قلت : « يعنى تريد أن أغرق ، وأموت ؟ »

قال : « آه ! لأجل خاطرى . ألست تحبنى ؟ »

فلولا أن أدركتنى أمه ، لوجب علىّ أن أغرق تحت عينه . وهكذا إلى آخر ذلك إن كان لما يتقاضانى آخر يعرف

فقالت لى نفسى : « اسمع يا مازنى . انك قليل العقل ، ما فى هذا شك »

قلت : « أشكرك . فهل تسمحين أن تبيني السبب ؟ »

قالت : « نعم . هذا أنت تخلو بى ، لتنظم شعراً ، فبدلاً من أن تتناول القلم وتكتب ، تذهب تتمثل مايدور بينك وبين أولادك ، فتضيع الوقت فى غير طائل ولا تصنع شيئاً . فاذا لم تكن هذه قلة عقل فانه يسرنى أن أعرف ماذا هى ؟ »

قلت وأنا مغيظ : « استدراك ! إنى لا أخلو بك لأقول الشعر ، أعنى أنك - ولا مؤاخذة - لست الباعث على قول الشعر »

قالت : « لا تكن قليل الذوق أيضاً ! »

قلت : « إنها الصراحة والحق ، لا قلة الذوق . ثم إنك مخطئة . فانى لم أدخل هذه الغرفة لأنظم شعراً ، بل إنى اشتهيت هذا ، فأنا أريد أن أهتدى إلى الوسيلة التى تعيننى عليه »

قالت : « الوسيلة ؟ أية وسيلة ؟ تناول القلم واكتب ! »

قلت : « ياسلام ؟ ما أذكاك ! لو كان هذا كل ما يتطلبه قول الشعر لما عجز أحد عنه »

قالت : « إذن ماذا تبنى ؟ »

قلت : « اسمعى أقل لك . . . إنى أصفيتُ ، أو على الأصح انقطعتُ عن النظم لأنك خلية ، فأنا أريد الآن أن أشجوك ، أعنى أن أملأك »

قالت : « كيف ؟ فانى غير فاهمة ؟ »

قلت : « لك العذر ، فقد صرت كالصحراء ، التى نسيت الماء من طول ما انحبس عنها »

قالت : « ألا تقول وتوجز ؟ »

قلت : « إذن أقول إنى أريد أن يعمر قلبى الخرب ، وبعبارة أخرى أقرب إلى فهمك الكليل ، أريد أن أحب »

قالت : « تريد ؟ هه ؟ »

قلت : « آه أريد ! وأى غرابة فى ذلك ؟ »

قالت : « لا فائدة من الخلاف فانك مكابر ، وماذا تنوى أن تصنع ؟ »

قلت : « أنوى ؟ ليس أسهل من ذلك ! أدور بعينى حتى تقع على واحدة تستحق أن أحبها - هذا ما أنوى أن أصنع »

فمطت شفتيها - مجازاً - وأشاحت عنى بوجهها ، فقلت فى سرّى ، والله لأغيظنّها ! وخرجت ألتمس الحبّ ، وأدور بقلبى على النساء ، وأفتحه لمن شاءت أن تقع منهن فيه ، وكنتُ مستعداً - لأكيد لنفسى - أن أحب عشرين امرأة دفعةواحدة ، ولم لا ؟ إن كل ما يعنينى ، وما أبغيه ، هو الحب ، لا المرأة ، وأثره لا وسيلته وأداته ، فكلما كانت النار أقوى ، واللهب أعلى كان ذلك خيراً لى ، ثم إنى أريد أن أجرب كل حب ، أعنى الحب من كل صنف ، ولون ، حتى الذى يعقب الخبل ويورث الجنون ، والذى يحرق الثياب ، ويترك القلب عارياً

وصرت كلما رأيت سرباً من الفتيات ، أقول لهن

« ادخلن يافتيات ! »

فيقلن : « أين ؟ »

فأقول : هنا فى قلبى .. إنه عظيم ! شىء مهول جداً . يسعكن جميعاً ويسع مائة من أمثالكن . البدار البدار ، فانها فرصة لاتعوض

فيتضاحكن ويعضين عنى - لا أدرى لماذا ؟ كأنما لهن طلبة فى الحياة غير الحب ، أو سبيل إلى طلبتهن غيره ؟

وألاقى غيرهن . فأدق الناقوس ، وأستوقفهن وأسألهن :

« ما قولكن ؟ »

فيقلن : « فى أى شىء ؟ »

فأقول : « فى أن أحبكن جملة ؟ »

فيقلن : « مجنون ؟ »

فأقول : « أطمئنني . فاني أعرف ما لا تعرفن ! هذا قلبي قد فتحته لـكن ، على آخره ، فادخلن فيه . أنتن ومن تحترز غيركن من صواحباتـكن ، فلن يضيق بكن ، فانه أعمق وأرحب من البحر الأعظم . . . أزخرنه لي ، وغصن في أعماقه ، وامددن لي أيديكن بالدر المكنون الذي لا تبلغه يداي »

فيمضين عني ولا يعبأن بي ، فيهبط قلبي ، وتفتر دقاته ، وتهي نبضاته ، وألمح النفس تبتسم ابتسامة الشماتة ، فيستفزني ذلك ، فأكر إلى البحث

ولا أطيل ...لقيتُ آخر الأمر فتاة قالت لي :

« هل تريد أن أحبك ؟ »

قلت : « لا ... إنما أريد أن أحبك أنا »

قالت : « وماذا يمنعك ؟ »

قلت : « صحيح ! أما والله إني لمغفل ! وماذا منعني أن أحب نساء الدنيا كلهن ؟ ؟ أم تراني كنت أحسب أن الأمر يحتاج إلى استئذانهن ؟ »

فقالت وهي تضحك : « أنت تحبني ـ هذا حسن .. »

فقاطعتها قائلاً : « لا تغلطي يافتاتي ، إني «أريد» أن أحبك »

قالت : « لا بأس . أنت تريد أن تحبني ، هذا حسن ، وأنا ماذا أصنع بنفسي ؟ »

قلت : « لاشيء . أو إذا شئت ، فان في وسعك أنت أيضاً أن تحبيني »

فضحكت وقالت : « أهو شيء بالأرادة ؟ »

قلت : « إنك سخيفة كنفسي ، ولا مؤاخذة ! »

فقالت : « ولماذا تريد أن تحب ؟ »

قلت : « لأني أريد أن أقول شعراً ، وعلى أن هذا شيء لا يعنيك ، فدعيني وما أريد ، والباقي عليّ ، فلن يكلفك شيئاً »

***

فتركتني لرأيي ، وجعلت وكدي بعد ذلك أن أحبها ، وذهبت أقنع قلبي بأنه قد أصبح عامراً ـ ولـكن نفسي ـ قبحها الله ، أو زادها قبحاً ـ كانت تخرج لي لسانها هازئة ، فيهيجني هذا منها ، ويسخطني عليها ، فأغافلها أحياناً وأتحسس قلبي بيدي لأستوثق ، وأضع راحتي على بطني لعلي أشعر بالنار التي يجب أن تـكون مضطرمة فيها ، فلا أحس أن النبض أسرع أو أقوى ، ولا ترتد راحتي إلا باردة كما كانت . فأقول لفتاتي :

« إسمعي . هاتي أذنك ، فاني أخشى أن تســـمعني نفسي فتشمت بي »

وأسر إليها اني لا أحس شيئاً من مظاهر الحب ، وعلاماته ، فأنا آكل كالنهوم ، وأنام كأني حقنت بالمورفين ، ولا أراني أفكر في شيء غير مايتفق أن أكون فيه ، . . . لا خفقان في القلب ، ولا اضطراب في الصدر ، ولا شوق ، ولا شيء مما يصفه المحبون غيري ، بل أنا أنسى اسمك ، وأسميك كل يوم ، كما تعرفين ، اسماً جديداً ، فأي حب هذا ؟ خبريني !

فقالت : « لا أدري — هو حبك ، على طريقتك ، إذا كان صحيحاً أنك تحب »

فسألتها : « ولـكن هل تظنين أني أحب ؟ »

فتقول : « وكيف أعرف أنا ؟ »

فأسألها مستغرباً : « ألم يقولوا إن بين القلب والقلب رسولاً ؟ فكيف ضل الرسول يا ترى ؟ »

فتقول : « لم يأن أن تحب ياصاحبي . ولست بفتاتك على ما أرى ؟ »

فأقول : « ولـكنك الفتـاة الوحيـدة التي وافقتني على مااقترحت ؟ »

فقالت : ـ وأدهشتني ـ « نعم . وافقت ورضيت ، بأن تحبني إذا شئتَ ، فبقيت أنت لا تحب ، ووقعتُ أنا »

فصحت بها : « ايه ؟ ماذا تقولين ؟ »

قالت ـ بهدوء ـ : « لقد سمعت . . . . »

قلت : « أعيديه على مسمعي . . . »

قالت : « كلا . . . هكذا أحلى ! »

فكاد الفرح يذهب بلبي ، فما عرفت أن أحداً أحبني في هذه الدنيا مذ جئت إليها ، ولا ذقت في حياتي هذه اللذة ، ولم يكن ذنبي أني حرمتها ، ولا ذنب النساء أيضاً ، وأحسب أن عيونهن تتخطاني ـ لقصري ـ فلا يرينني ، ولو رأينني لأحببنني بلا شك ـ كما فعلت هذه الفتاة الـكريمة ، بعد أن جلست !

وعدت إلى بيتي ، وخلوت بنفسي في المـكتبة ، وقلت لها وأنا أكاد أرقص « والآن يانفسي ، يمكنك أن تطقي من الغيظ وتنفلقي من الـكمد » وأحسست بالشعر يجيش في صدري ،

وشعرت كأنه ليس عليّ إلا أن أدهور لسانى فى شدقى ، أو أن أرفع سن القـلم على الورقة ، فاذا به يجرى وحده بالكلام الونق المعجب

وجئت بورقة ، وبريت القلم ، ووضعت تلك على رجلى ، وهذا بين أصابعى ، وتوكلت على الله ، وأقمت القلم على الورقة ، وإذا بنقر على الباب ، فكدت أجن ، ونهضت ففتحته بكرهى فدخل صاحب لى فلما رأى تجهم وجهى قال :

« هل أنت مشغول ؟ »

قلت : « تسأل البحر هل فيه ماء ؟ »

قال : « معذرة . على كل حال لن آخذ من وقتك إلا دقائق ، إنك تعرف . . . »

وذكر اسم الفتاة — فتاتى التى تحجبنى بارك الله فيها — فصحت به « ايه ؟ »

فقال : « إنى أتكلم بلغة عربية فيما أظن ؟ »

قلت : « ألا توجز ؟ مالها ؟ »

قال : « حسن . سأوجز . إنى سعيد »

قلت : « وأنا مالى ! »

قال : « هنئنى ! »

قلت : « بماذا ؟ »

قال : « لقد قابلتها — للمرة الثالثة — ولم أخبرك لأنه لم يكن هناك مايستحق أن يقال . ولكنها اليوم قابلتنى — أعنى استقبلتنى بعد أن خرجت أنت من عندها ، فكان مما قالته لى « إنك شاب ، وأنا شابة ، وأنا أصبو اليك كما تصبو الىّ ، صحيح أنى أقول لبعض معارفى من الكهول إنى أحبهم ، ولكنى مضطرة الى هذا لأحتفظ بودهم ، أما أنت فشىء آخر — أنت شاب مثلى ! »

فما قولك فى هذا ؟ »

قلت : « قولى ؟ أنا ؟ »

قال : « نعم . ما رأيك ؟ »

قلت : « صدقها ! »

فسألنى : « هل كذبت عليك يا ترى كما كذبت على غيرك ؟ »

قلت : « علىّ أنا ؟ لا ! وهل يستطيع أن يخدعنى أحد ؟ والآن اذهب . . . . »

قال : « بسرعة ؟ هكذا ! »

قلت : « نعم فانى أريد أن أمزق دواوين الشعراء التى عندى »

قال : « ألا يكفيك أن تكف أنت عن الشعر ؟ »

قلت : « كلا . . . وسأحرقها أيضاً بعد تمزيقها ؟ الشعر ! يا للسخافة ! . . . »

قال : « أعطنيها ولا تمزقها »

قلت : « كلا ... إنك شاب . وحرام علىّ أن أسىء إليك وأن أضلك . . . اخرج . . . اخرج . . . مع السلامة . . . »

ابراهيم عبد القادر المازنى

بيت الأبرة

للأستاذ قدرى حافظ طوقان

هى آلة عجيبة ذات مبدإ ثابت لا تحيد عنه ، ولا تعرف غير الاتجاه نحوه ، فهى دائماً وأبداً تتجه نحو الشمال والجنوب . هذه الآلة العجيبة المغناطيسية تستعمل فى السفن البحرية لادارة سيرها ولها تاريخ عجيب أوقع العلماء فى حيرة وارتباك ، إذ لم يستطع أحد منهم البت فى نسبة اختراعها ، بل لم يستطع الوصول الى جواب شافٍ مرضٍ عن السؤالين الآتيين : مَنْ اخترع هذه الآلة ؟ لمن الفضل فى إيجادها واستعمالها والاستفادة منها ؟ يدعى الصينيون أنهم أول من اخترعها ، ويدعى ذلك أيضاً العرب واليونان والاترسكيين والفنلنديين والطليان . تدعى كل هذه الشعوب السبق فى اختراعها وفى استعمالها ، وكل منها يقول إنه هو السابق فى الانتفاع من هذا الاختراع ، وكل منها يقول إن الآخرين كانوا عالة عليه فى استعمال بيت الأبرة وفى الاستفادة منها ، وكل منها يقول أيضاً إن الفضل فى تقدم صناعة البوصلات البحرية يرجع الى علمائه ومشاهير بحارته

بحث الباحثون فى أصل الأبرة واختراعها ، وأخذ البحث معهم وقتاً طويلاً وسبب لهم عناء عظيماً ، وبرغم كل ذلك لم يقفوا على الحقيقة ، ولم يتمكن عالم من معرفة تاريخ تطور صناعة البوصلات البحرية معرفة تؤدى الى نتائج جلية واضحة ، معرفة تزيل سحب الشك والغموض المحاط بها أصل اختراع الآلة المذكورة ، فهى حقاً آلة عجيبة ولها تاريخ أعجب ، واختلاف الأمم على ذلك مما يثير الدهشة والاستغراب

لقد اطلعنا على أكثر ما قيل فى هذا الصدد وعلى بعض ما كتبه العلماء فى المجلات ودوائر المعارف فى هذا الموضوع ، واستطعنا من كل ذلك تكوين فكرة عن أصل الأبرة وتاريخ اختراعها واستعمالها وكيفية الانتفاع منها فى الأسفار البحرية ، وسنعطى رأياً فى ذلك على ضوء معلومات وبحوث الذين سبقونا فى ولوج هذا الباب

وقبل الخوض فى البحث يجدر بنا أن نذكر شيئاً عن المغناطيس وعن رأى الأقدمين فيه فهذا مما يسهل علينا الدخول فى موضوع المقال

عرف اليونان شيئاً عن المغناطيس ، وكلمة مغناطيس مأخوذة من لغتهم ، وقالوا بأن فيه خاصية الجذب قبل غيرهم . قال ارسطو : « حجر المغناطيس . . . إنه حجر يجتذب الحديد ، وأجود أصنافه ما كان أسود مشوباً بالحمرة ومعدنه ساحل بحر الهند ، وهو قريب من بلادها . . . (١) » هذه الخاصية أثارت استغراب كثير من الأمم ، فكانت مثار دهشتهم . وقد كثرت الأقوال الغريبة فيه (فى المغناطيس) ، ومن هذه الأقوال أنه إذا أصاب المغناطيس رائحة الثوم أو البصل بطل تأثيره وذهبت خاصية الجذب ، وإذا غسل بالخل عاد التأثير ورجعت اليه الخاصية المذكورة . وقال بعض الأقدمين بأن له خواص علاجية وصحية منها: أنه إذا علق إنسان المغناطيس على إنسان آخر نفع الأخير من وجع المفاصل ، وإن لمسته المرأة التى تعسرت ولادتها وضعت فى الحال ، وأن الذى يعلقه فى عنقه فقد استفاد كثيرا ، إذ يكبر عقله وتقوى فيه ملكة الحافظة ، وأن له سلطاناً على أمراض الطحال ، واستعمله ابقراط علاجاً للعقم ، وقال بليناس بأنه نافع ومفيد فى أمراض العين ، وقال ابن سينا إن درهماً منه يضاد التسمم بالحديد الذى كان يظن أنه سام . وجاء فى بعض الكتب بأن المغناطيس كثيراً ما استعمله الأقدمون للجروح ، وقال علماء العرب إنه ينفع فى النقرس والحصا . ولقد علق الفرنجة على هذه الأقوال وفندوها ، ولا يتسع المجال لذكر شىء من ذلك لانسما والبحث فيها يخرجنا عن موضوع مقالنا

وللمغناطيس عدا خاصية الجذب ، خاصية أخرى هى من الأهمية بمكان عظيم ، وهذه هى خاصية الاتجاه ، وقد عرفها الصينيون وكانوا أول من قال بذلك . قال ستونتن Staunton إن الكلمة التى يستعملها الصينيون لتدل على بيت الأبرة هى Ting-nan--Ching ومعناها الأبرة التى تتجه نحو الجنوب ، ويقول أيضاً : ويظهر أنهم استعملوا هذه الخاصية فى الأسفار البحرية ، وقد عملوا آلات لذلك ليس فيها شىء من الصنعة أو الاتقان . وقال ديفس Davies إن الطرق التى كان يستعملها البحارة الصينيون فى عمل الأبرة تدل على أنهم لم يستعينوا بغيرهم من بحارة الأمم ، إذ لو استعانوا

(١) القزوينى — كتاب عجائب المخلوقات — ص ٢٠٥

واطلعوا على آلات غيرهم لاستطاعوا أن يحسنوا صنعها ولما عملوها بالشكل الذى وجدت فيه عنـدهم ، ويقول أيضاً : إن العرب بطريقة غير معروفة اقتبسوا آلة بيت الأبرة عن البحارة الصينيين وإنه عن طريق المسلمين دخل هذا الاختراع أوربا[1] . وجاء فى بعض الكتب أن البحارة الصينيين عرفوا خاصية الاتجاه فى المغناطيس قبل الميلاد بمئات من السنين ، وأنهم ذكروا ذلك فى قاموسهم الذى وضع بعد الميلاد بمائة سنة ، وقد استعملوه للارشاد الى الجهات الأربع فى سفر البحر حوالى سنة ٣٠٠ م

وأما عن تسمية هذه الآلة فيقول روبرتسُن إنه لم يكن فى لغات العرب والعجم والترك كلمة تعنى Compass وأنهم كانوا يستعملون لذلك كلمة بوصلة ، وهى كلمة مأخوذة عن اللغة الأيطالية ، ولـكن بادجر لا يوافقه على هذا تماماً حيث يقول : « برغم كون البحارة العرب الموجودين حول البحر الأبيض المتوسط استعملوا كلمة بوصلة لتدل على كلمة Compass ، إلا أننا نجد أن كلمة (بيت الأبرة) هى الأكثر شيوعاً واستعمالاً فى الأقطار الموجودة حول البحار الشرقية[2] ، والاصطلاح (بيت الأبرة) مستعمل فى أكثر الكتب ، وهذا ما جعلنا نفضل استعماله على غيره فى هذا المقال . قلنا إن اليونان أول من عرف فى المغناطيس خاصية الجذب ، وأن الصينيين أول من عرف فيه خاصية الاتجاه ، ولقـد أخذ العرب والمسلمون هاتين الخاصيتين واستعملوهما فى أسفارهم البحرية » . جاء فى كنز التجار : — « ومن خواص المغناطيس أن رؤساء البحر الشامى إذا أظلم عليهم الجو ليلاً ولم يروا من النجوم ما يهتدون به إلى تحديد الجهات الأربع يأخذون إناءً مملوءاً ويحترزون عليه من الريح بأن ينزلوه إلى بطن السفينة . ثم يأخذون ابرة وينفذونها فى سمرة أو قشة حتى لتبقى معارضة فيها كالصليب ويلقونها فى الماء الذى فى الأناء فتطفو على وجهه ثم يأخذون حجراً من المغناطيس كبيراً ملء الكف ويدنونه من وجه الماء ويحركون أيديهم دورة اليمين فعندها تدور الابرة على صفحة الماء ثم يرفعون أيديهم على غفلة وسرعة فان الابرة تستقبل بجهتيها جهة الجنوب والشمال . رأيت هذا الفعل منهم عياناً فى ركوبنا البحر من طرابلس الشام إلى اسكندرية فى سـنة أربعين وستمائة . وقيل إن رؤساء مسافرى بحر الهنـد يتعوّضون عن الابرة والسمرة شكل سمكة من حديد رقيق مجوّف مستعد عندهم يمكن أنه إذا ألقى فى ماء الأناء عام وسامت برأسه وذنبه الجهتين من الجنوب والشمال . . . » [1]

وإذا اطلعت على كتاب سارطون القيم فى (مقدمته لتاريخ العلوم) تجد أنه يرجح كون اختراع بيت الأبرة هو من نتاج قرائح المسلمين إذ يقول : « إن البحارة المسلمين على الأرجح هم أول من استعمل خاصية الاتجاه فى المغناطيس فى عمل الابر فى الأسـفار البحرية ، وكان ذلك فى أواخر القرن الحادى عشر للميلاد . . . » [2] وينفى سارطون القول بأن البحارة الصينيين استعملوا خواص المغناطيس وطبقوها فى آلات للأسفار البحرية وغيرها . [3] ولدى قراءة كتاب تاريخ العرب للعلامة سيديو تجد أنه ينفى كون البحارة الصينيين استعملوا الابرة المغناطيسية فى الأسفار البحرية ويدعم قوله هذا بما يلى : « . . . وكيف يظن أنهم (أى أهل الصين) اسـتعملوا بيت الابرة مع أنهم لم يزالوا إلى سنة ١٨٥٠ م يعتقدون أن القطب الجنوبى من الـكرة الأرضية سـمير تتلظى . . » [4] وهو القائل أيضاً بأن العرب استعملوا بيت الابرة فى القرن الحادى عشر للميلاد فى الأسفار البحرية والبرية وفى ضبط المحاريب

يظهر مما مر أنه مامن أحد بحث فى هـــذه الآلة وتاريخ استعمالها واستطاع أن يصل إلى نتائج حازمة شافية تزيل شكاً اكتنف هذا الموضوع ، وغموضاً استولى عليه . وعلى كل حال يمكننا القول بأن العرب عرفوا شيئاً عن المغناطيس ، وأنهم عرفوا فيه خاصتى الجذب والاتجاه ، وأنهم على الأرجح أول من استعملها فى عمل الأبرة فى الأسفار البحرية وأن آلة (بيت الأبرة) واستعمالها فى الملاحة دخلا أوروبا عن طريق البحارة المسلمين

وبينما أنا أهيء هـذا المقال قرأت مصادفة فى أحد أعداد مجلة الهلال (مجلد ٣٠ ج ٧) مقالاً عنوانه (العرب والبحار) بقـلم الأستاذ المحقق عبد الله مخلص ، وقد وجدت فيه شيئاً عن اختراع بيت الأبرة المغناطيسية فلم أشأ أن أمرّ على ذلك دون تعليق . جاء فى مقال (العرب والبحار) بأن ابن ماجد هو الذى

(١) راجع دائرة المعارف البريطانية مادة Compass
(٢) راجع دائرة المعارف البريطانية : مادة Compass

(١) مجلة المقتطف — مج ٢٣ ج ٧ ص ٤٢٥ — ٤٢٦
(٢) سارطون — مقدمة تاريخ العلوم . . . ج ١ ص ٧٤١
(٣) « « « ج ٢ ص ٢٤
(٤) سيديو — تاريخ العرب — ص ٢٦٨

اخترع (الأبرة المغناطيسية) أو أنه هو (مخترع الابرة المغناطيسية) وهذا النص هو الذى حفزنى إلى التعليق . ومما لا ريب فيه أن نسبة اختراع بيت الابرة إلى ابن ماجد (أحد نوابغ المسلمين فى الملاحة) خطأ وليس فيها شىء من الصحة . فقد ثبت لدى العلماء والباحثين أن استعمال الأبرة المغناطيسية كان معروفاً فى أواخر القرن الحادى عشر للميلاد بينما ابن ماجد وُجد فى القرن التاسع للهجرة أو القرن الخامس عشر للميلاد ، فالقول بأنه هو مخترع الأبرة المغناطيسية غلط ، ولا يرتكز على منطق عدا كونه خلاف الواقع . وقد تكون هذه النسبة آتية عن مهارته فى تسيير السفن وعن براعته فى فن الملاحة ، وعن وقوفه على أصول الأبرة المغناطيسية ، وكيفيـة استعمالها وفهمه المبادىء المنطوى عليها عملها . وعلى ذكر ابن ماجد أقول : قليلون جداً الذين يعرفون أن ابن ماجد من نوابغ المسلمين فى الملاحة وأنه كان يلقب بأسد البحر الهائج ، وأنه « هو الربان العربى الذى سير الأسطول البرتغالى بقيادة فاسكودى غاما فى طوافه حول الأرض من مالندى وهى جزر فى المحيط الهندى على ساحل أفريقيا الشمالية إلى كلكتا فى الهند . . . » (١) ويقال إن أباه ومن قبله جده كانا من رجال الملاحة المشهود لهم بالمهارة والبراعة وقد وضعا نظريات جديدة ومفيدة فى علم البحر ، ثم جاء من بعدهما ولدهما ابن ماجد فألف كتباً قيمة فى علم الملاحة وقد بناها على المشاهدة والتجربة منها : كتاب الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد ، وكتاب علم الملاحة ويشتمل على تاريخ الملاحة وعلاقتها بالنجوم فى خليج العجم والبحر الهنـــدى وشواطىء جزيرة العرب وسومطرة وسيلان وزنجبار وغيرها ، وكتاب حاوية الاختصار فى أصول البحار ، وله أيضاً أرجوزة فى علم الملاحة ، وله قصائد أخرى فى وصف شواطىء جزيرة العرب (٢) . وكان ابن ماجد يلقب نفسه بشاعر القبلتين ويعرف بسليل الأسود . ولقد بقيت القواعد التى وضعها ابن ماجد معتمد البحارة المسلمين فى مالندى إلى أواسط القرن التاسع عشر للميلاد . وقال برتن الانكليزى أن بحارة عدن فى سنة ١٢٧١ هـ (١٨٥٤ م) كانوا قبل السفر يقرأون الفاتحة لروح الشيخ ماجد . ولا ريب أن المقصود بالشيخ ماجد هو ابن ماجد (٣)

نابلس قدرى حافظ طوقان

(١) مجلة الهلال : مج ٣٠ ج ٧ ص ٦٣٨

(٢) زيدان — تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ٢٢٤

(٣) راجع مجلة الهلال مج ٣٠ ج ٧ ص ٦٣٨ — ٦٣٩

١٠ ـ محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون أو خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

تساءل سيبيس : فيم قولك إن الانسان لا ينبغى أن يستل حياته ، وأنه يجب على الفيلسوف أن يُعدّ نفسه ليلحق بالموتى ؟ (١)

فأجاب سقراط : إنكما ياسيبيس وسمياس ، تعرفان فيلولاوس (٢) فهلا سمعتماه قط يتحدث عن هذا ؟

إنى ياسقراط لم أفهم قوله أبداً

ليست كلماتى كذلك إلا صدى ، ولكنى شديد الرغبة فى أن أروى ما سمعته ، فالحق أنى مادمت مرتحلاً إلى غير هذا المكان فيجب ألا يُشْغَلَ الفكرُ ويدور الحديث إلا حول هذا الرحيل الذى أوشك أن أقوم به ، وماذا عسانى أن أفعل خيراً من هذا منذ الآن إلى أن تغرب الشمس ؟

إذن فحدثنى يا سقراط ، لماذا استقرّ الرأى على ألا يكون الانتحار حقاً مشروعاً ؟ لقـد سمعت فيلولاوس يقيناً يؤكد ذلك عند ما كان يمكث بيننا فى طيبة ؛ وثمّ أناس آخرون يقولون مثل هذا القول ، ولو أن أحداً منهم لم يستطع قط أن يفهمنى مايقول

فأجاب سـقراط . ولـكنك يجب أن تحاول الفهم ما استطعت ، ولا بد أن يأتى اليوم الذى تفهم فيه ، أحسبك تعجب لماذا تشذ هذه الحالة وحدها ، ومعظم الشرور قد تجىء بالخير عرضاً (لأنه أليس من الجائز أن يكون الموت كذلك أفضل من الحياة فى بعض الظروف ؟) وإذا كان خيراً للانسان أن يموت ، فما الذى يمنع أن يقدم لنفسه الخير بنفسه ؛ أألزامٌ عليه أن ينتظر من غيره يد الاحسان ؟

فقال سيبيس ضاحكاً فى لغته الدُّورية القومية : أى وحق جوبتر !

(١) يلاحظ سيبيس تناقضاً بين تحريم الانتحار ، واعتبار الموت خيراً ؛ ولكن سقراط أجابه بأن الانسان : (١) سجين ولا يجوز له أن يفتح باب سجنه ويفر هارباً ؛ (٢) لأن الانسان ليس ملك نفسه ولكنه ملك للآلهة ؛ فليس له الحق فى أن يتصرف فيما ليس له عليه سلطان المالك

(٢) فيلسوف كان مقيما فى مدينة طيبة ؛ وكان سمياس وسيبيس هذان تلميـــذيه

فأجاب سـقراط ـ إنى أُسلّم بأن فى هذا تناقضاً ظاهراً ، ولـكن مع ذلك قد لايكون هذا التناقض حقيقياً ، هناك مذهب جرت به الألسنة فى الخفاء بأن الانسان سجين ، وليس له الحق فى أن يفتح باب سجنه ليفر هارباً ، إن ذلك إشكال عظيم لست أفهمه فهما دقيقاً ، ولـكنى أعتقد مع ذلك أن الآلهة هم أولياؤنا وأننا مِلْكٌ لهم ، أفلست ترى ذلك ؟

قال سيبيس ـ نعم ، إنى أوافق على ذلك

فلو أن ثوراً مثلاً مما تملك أنت أو حماراً ، شاءت له إرادته أن يحيد بنفسه عن الطريق ، على حين أنك لم تُشِرْ له برغبتك فى وجوب موته ، أفلا تسخط عليه ، ثم ألا تعاقبه إن استطعت ؟

فأجاب سيبيس ـ يقينا

وإذن فقـد يكون فى القول بأن الانسان يجب أن ينتظر ، وألا يُهلك حياته بنفسه ، حتى يقضى الله فيه أمراً ، كما فعل بى الآن ، سندٌ من العقل

قال سيبيس ـ نعم ياسقراط ، إن فى ذلك ولا ريب سنداً من العقل ، ولـكن كيف بعد هذا تستطيع أن توائم بين هذه العقيدة الصحيحة فى ظاهرها وهى أن الله مولانا ونحن له عبيد ، وبين ما كنا نضيفه إلى الفيلسوف من رغبة فى الموت ؟ أما أن يرغب من هم أبلغ الناس حكمةً ، فى ترك هذا العمل الذى يحكمهم فيه الآلهة ، وهم خير الحاكمين ، فلا يسلم به العقـل ، لأنه يستحيل على صاحب الحـكمة أن يظن بنفسه القدرة ، لو أطلقت له حرية العمل على أن يعنى بنفسه أكثر مما تُعنى به الآلهة ، ربما توهم ذلك المأفون ، وقد يحتج بأن خيراً له أن يفر من سيده دون أن يضع فى اعتباره بأن واجبه هو أن يثبت حتى النهاية ، لا أن يفر من الخير فراراً لا حكمة فيـه . أما الرجل الحـكيم فلا اخاله إلا راغباً فى أن يكون أبداً مع من هو خير منه . أنظر ياسـقراط . فهذا يناقض ما قد قيل الساعة تواً ، إذ يترتب على هذا الأساس أن يأسف ذو الحـكمة لفراق الحياة ، وأن يغتبط له الجهول

فصادفت حماسة سيبيس فيما يظهر غبطة من سقراط ، فالتفت الينا وقال : ها كم رجلاً لايبرح متسائلاً ، ولاتكفى لأقناعه الفترة القصيرة ، وليست كل حجة ترضيه

فأضاف سمياس ـ ولـكن اعتراضه الآن يبدو لى على شىء من القوة ، فأى غناء عسى أن يكون فى ذى الحـكمة الحق ، إذا هو ابتغى أن يلوذ بالفرار ، وأن يستخف بترك سيده الذى هو أفضل منه ؟ ولست إخال سيبيس إلا مشيراً اليك ، فهو يظن أنك لاتتردد فى تركنا ، بل لا تتردد فى ترك الآلهة الذين هم كما اعترفت أولى أمرنا الصالحون

فاجاب سقراط ـ نعم ذاك قول يستقيم مع العقل ، ولـكن أهو فى ظنك دعوى ينبغى أن أجيب عنها كما لو كنت أمام القضاء ؟

قال سمياس ـ ذلك ما كنا نبتغى

إذن فلأحاول أن ألقى فى نفوسكم أثراً خيراً مما تركت حين كنت أدافع عن نفسى أمام القضاة ، فلست أتردد يا سيبيس وسمياس فى الاعتراف بوجوب الأسى من الموت ، إذا لم أكن راسخ العقيدة بأنى ذاهب الى طائفـة أخرى من الآلهة ذوى الخير والحـكمة (وإنى لأوقن بهذا يقينى بأى شىء آخر من هذا القبيل) والى الراحلين من الرجال (وإن كنت لا أقطع بهذا قطعى بالأولى) وهم يَفْضُلون هؤلاء الذين أخلّفهم ورائى ، فلست لهذا أبتئس ، كما كان يُنتظر أن أفعل ، لأنى آمل خيراً ، بأن ثمت شيئاً لايزال مدخراً للموت ، وهو كما قد قيل منذ القدم أدنى جدا الى الخير منه الى الشر

قال سمياس ـ ولـكن هل تريد أن تستصحب أراءك معك ياسقراط فلا تنقلها الينا ! إنا قد نرجو أيضاً أن نساهم فى ذلك النفع ، وأنت إذا وفقت بعد ذلك لاقناعنا ، كان ذلك منك رداً على ما اتُّهمتَ به

فأجاب سقراط ـ سأبذل وسعى ، ولـكن دعونى أستمع أولاً لما يريده كريتون . إنه كان قد هم أن يقول لى شيئاً

فأجاب كريتون ـ أردت أن أقول ياسقراط إن الخادم الذى أمر باعطائك السم قد أنبأنى ، لأبلغك ، بأنه يحسن بك ألا تكثر الـكلام لأنه يزيد من الحرارة ، وهذه تؤثر فى فعل السم ؛ لقد اضطر أحياناً أولئك الذين أثاروا نفوسهم أن يجرعوا السم مرتين أو ثلاثاً

قال سقراط ـ إذن فليؤد واجبه ، وليتأهب لاعطاء السم مرتين أو ثلاثاً ، إذا لزم الأمر ، وحسبنا هذا

فأجاب كريتون ـ لقد كدت أوقن بأنك سـتقول ذلك ، ولـكنى لم أجد محيصاً عن ارضائه

قال سقراط ـ لا تأبه له

وهأنذا الآن أجيبكم — أنتم يا قضاتى — فأبين لكم أن من عاش فيلسوفاً حقاً، معه الحجة فى أن ينعم بالاً إذا ما اقترب من الموت، وأنه قد يرجو أن يصيب فى العالم الآخر بعد الموت أعظم الخير. سأشرح لكما أى سيبيس وسمياس، كيف يمكن أن يكون هذا، فيغلب فيما أرى أن يسىء الناس الظن بطالب الفلسفة الصحيح، لأنهم لايدركون أنه أبداً دائب السعى وراء الموت والموتى. وإن صح أنه ما برح راغباً فى الموت طوال حياته، ففيم الجزع إذا ما تهيأت له غايته التى كان لايفتأ ساعياً اليها راغباً فيها

فضحك سمياس وقال — إنى وإن كنت لا أسوق القول متندراً هازلاً، لأقسم بأنه لايسعنى إلا أن أضحك إذا ما فكرت فيما سيقوله هذا العالم اللعين، حين يخبَّر بهذا — سيقولون بأن هذا بالغ الحق — ومَنْ فى دورنا من أهل، سيؤيدونهم، فى قولهم بأن الحياة التى يتمناها الفلاسفة هى لاشىء غير الموت، وإنهم قد تبينوهم فاذا هم حقيقون بالموت الذى يتمنون

وهم على حق يا سمياس فى قولهم هذا، إذا استثنيت منه هذه العبارة: « إنهم تبينوهم » لأنهم لم يتبينوا طبيعة هذا الموت الذى يتمناه الفيلسوف الحق، ولا كيف هو حقيق بالموت أو راغب فيه، فلندعهم وليتحدث بعضنا الى بعض قليلاً: أنحن معتقدون فى وجود مايسمى بالموت؟

فأجاب سمياس — كن من ذلك على يقين

وهل يكون الموت إلا انفصال الروح عن الجسد؟ والانسان إنما يبلغ هذا الانفصال إذا ماقامت الروح بذاتها مفصولة عن الجسد، وقام الجسد مفصولاً عن الروح — أليس ذلك هو الموت؟

فأجاب — هو كذلك. وليس شيئاً غير هذا

وما قولك يا صديقى فى مسألة أخرى، أحب أن تدلى الىّ برأيك فيها، وقد تلقى اجابتك عنها ضوءاً على موضوع بحثنا، هل ترى جديراً بالفيلسوف أن يعنى بلذائذ الأكل والشرب — إن صح أن تدعى هذه لذائذ؟

فأجاب سمياس — لا، ولا شك

وماذا تقول فى لذة الحب، أينبغى له أن يُعنى بها؟

لا ينبغى بحال من الأحوال

وهل يجوز له أن يطيل الفكر فى غير ذلك من ألوان لذة الجسد — كحيازة اللباس الفاخر، والنعال، مثلاً، أو غيرهما من زينات البدن؟ ألا يجدر به بدلاً من أن يعني بهذا أن يزدرى كل شىء مما يزيد على حاجة الطبيعة؟ فماذا تقول؟

يجب أن أقرر بأن الفيلسوف الحق ينبغى أن يزدريها

ألست ترى أن ينصرف بكليته الى الروح لا الى البدن؟

إنه يود أن يتخلص من البدن وأن يعود الى الروح ما استطاع الى ذلك سبيلاً

ذلك حق

وترى الفلاسفة يلتمسون فى مثل هذا الأمر كل سبيل لفصل الروح عن الجسد أكثر مما يفعل سائر الناس جميعاً

ذلك صحيح

بينا يعتقد سائر الناس يا سمياس أن حياة تخلو من لذائذ البدن ولا تأخذ منها بقسط، ليست حقيقة بالبقاء، بل يرون أن إنساناً لا يفكر فى مسرات الجسد، يكاد يكون كالأموات

ذلك جد صحيح

وبعد فماذا عسانا أن نقول عن السبل الحقيقية التى تقتضيها المعرفة؟ إن كان ثمت ما يدعو الجسم للمساهمة فى تحصيلها، فهل يكون عائقاً لها أم معيناً عليها؟ أعنى هل يأتينا البصر والسمع بحقيقة ما؟ أليس هما دليلين خاطئين كما لا يفتأ ينبئنا الشعراء؟ فان كانا خاطئين ومبهمين، فماذا عسى أن يقال عن سائر الحواس؟ ولا أحسبكم معارضين فى أنهما أضبط الحواس

فأجاب سمياس — يقيناً

وإذن فمتى تدرك الروح الحقيقة؟ — لأنها إن أشركت معها الجسم فيما تحاول أن تبحثه، فهى مخدوعة لا محالة

— نعم، هذا صحيح

— أفلا يجب إذن أن ينكشف لها الوجود بوساطة الفكر، إن كان له أن ينكشف

— نعم

— وأحسن ما يكون الفكر حينما ينحصر فى حدود نفسه، حتى لايشغله شىء من هذه — فلا أصوات ولا مناظر ولا ألم ولا لذة مطلقاً — وذلك إنما يكون عندما يصبح الفكر أقل اتصالاً بالجسد، فلا يصله منه حس ولا شعور، بل ينصرف بتطلعه الى الكون

— هذا صحيح

« يتبع » زكى نجيب محمود

٨ ـ بين القاهرة وطوس

المشهد وطوس

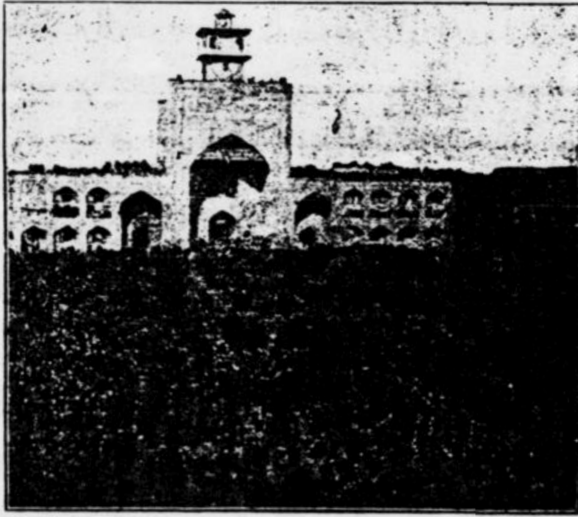
للدكتور عبد الوهاب عزام

يرى الوافد على مدينة المشهد قبة عالية مغشاة بالذهب ومنارتين مذهبتين رفيعتين . فهذا أول ما يسر البصر من مسجد الامام على الرضا . فاذا ذهب إلى المسجد الذى يسمى الحرم الرضوى أو العتبة المقدسة (آستانة مقدس) رأى أبنية جميلة شامخة واسعة رائعة لا يستطيع المشاهد أن يعرف خططها ويدرك أقسامها إلا بعد تأمل طويل وزيارات كثيرة

إذا دخل القادم المدينة من غربيها فسار فى الشارع الكبير تلقاء الشرق انتهى إلى أبواب ضخام رائعات وراءها طريق مبلط ينتهى إلى مدخل الحرم الرضوى فيلجه إلى الصحن القديم (صحن كهنه) وهو فناء واسع يجرى فى وسطه قناة ماء ويحيط به مساكن لطلاب العلم وغيرهم . وإنى أشفق على القارئ من تفصيل الكلام فى وصف هذا الحرم المظيم الذى توالت عليه الأيدى بالتشييد والتزيين قروناً كثيرة . فحسبى أن أقول إن فى وسط الحرم قبة الامام الرضا وأروقة متصلة بها ويمتد الصحن القديم شمالى هذه الأبنية ، والصحن الجديد شرقيها ، ومسجد جوهر شاد جنوبيها . ويحار الطرف فى جمال القبة الشريفة وزينتها وفيما فى المسجد كله من الكاشانى والبلور والذهب الخالص ، والقبة تقوم على قبر الامام الرضا . وهو فى جانب منها ، ويُظن أن قبر هرون الرشيد فى وسط القبة ولكن لا يرى الزائر منه أثراً

أقدم ما فى هذه الأبنية يرجع إلى سنة ٥١٢ وهو بناء السلطان سنجر السلجوقى . وقد توالى الملوك والكبراء من بعده على البناء والتنافس فيه ، ومن هؤلاء السلطان ألجايتو ، من الملوك الأيلخانية ، وشاه رخ بن تيمورلنك وزوجه جوهر شاد ، ومشير على نوائى وزير السلطان حسين بايقرا ، ثم الملوك الصفويون ولا سيما طهماسب وعباس الكبير ؛ ومن القاجاريين فتح على شاه وناصر الدين شاه . كل هؤلاء بذلوا جهدهم فى أن يؤثروا فى المشهد الرضوى أثراً خالداً يكسف آثار من سبقهم فتركوا هذا البناء الجليل الذى يعجز القلم عن تصوره للقارئ

وقد وعدت فى المقال السابق أن أصف مسجد جوهر شاد هذه الأميرة التقية الخيّرة ، فهو مسجد يمتد جنوبى المشهد الرضوى من الشمال إلى الجنوب (٩٥ × ٨٤ متراً) وأعظم أواوينه الايوان الجنوبى ، وهو عقد هائل ارتفاعه ٢٥ متراً غشى كله بالكاشانى الجميل ، وعلى دائرته آيات من القرآن بأحرف كبيرة جميلة كتبها خطه الأمير بايسنقر بن شاه رخ بن تيمورلنك . وذلك إلى آثار أخرى دليل على عناية أمراء المسلمين بالفنون الجميلة ولاسيما الخط . وفى هذا الايوان كرسى من الخشب يقال إن المهدى سيجلس عليه أول ما يظهر للناس ؛ وفى وسط المسجد مصلى يسمى مسجد بيرزن (مسجد المرأة العجوز) وفيما يلى المشهد الرضوى بنية اسمها دار الحفاظ . وتصل المسجد بالمشهد الرضوى أبواب صغيرة



مسجد الامام على الرضا بمدينة المشهد

زرنا المسجد الرضوى صبيحة الجمعة ثالث رجب سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة وألف فرأينا أفواجاً من الزائرين والزائرات متزاحمين بين مصلٍ ومسبّح وداعٍ وباكٍ ومقبّل للأعتاب ومطيف بالضريح المقدس ، ولهذا الحشر دوىّ يملأ القلب خشوعاً ورهبة ، وسار بنا الدليل إلى بناء فى ناحية من الحرم اسمه حجرة التشريفات ، فصعدنا إلى حجرة كبيرة بها جماعة من القوّام على الحرم فأحسنوا لقاءنا وقدموا الينا الشاى ، وتحدثوا معنا بالعربية والفارسية معلنين سرورهم واغتباطهم ، ومتحدثين بالاخوة الاسلامية التى تجمعنا وإياهم ؛ ثم انصرفنا شاكرين آملين أن نعود الى شرف الزيارة مرات حتى تقضى النفس لبانتها من مشاهدة هذا الجمال والجلال

ويوم الأحد التالى زرت المكتبة الرضوية وهى فى الصحن الجديد فى الطبقة الثانية ، وقد اطلعت فيها على مصاحف يحار الانسان فى مرآها ويعجز عن وصفها ، وحدثنى قيّم المكتبة

أن بها آلافاً عدة من المصاحف المخطوطة : رأيت قطعة من مصحف بخط كوفى فى آخرها : « كتبه على بن أبى طالب » ، ومصحفاً كاملاً بخط كوفى فى آخرها : « كتبه الحسن بن على بن أبى طالب » ، ورأيت مصحفاً وقفه ابراهيم قطب شاه سنة ٩٧٠ فيه ٣٣٩ ورقة ، وفى كل صفحة ١٢ سطراً محلاة بالذهب والمينا ، وطول الصفحة ٥٦ قيراطاً وعرضها ٣٧ ، وفيه من بدائع الصناعة ما يجل عن الوصف ، فما يزال الناظر فيه حائر القلب والطرف ؛ ومصحف آخر وقفه السيد محمد جعفرخان سنة ١١٤٨ فيه ٦٠٦ ورقات كل ورقة لها نقش خاص يخالف نقش الورقات الأخرى . وفى هذه المصاحف من عجائب النقش والوراقة والتجليد ما لا يدركه إلا الرائى . وقد قيل لى إن بعض الأوربيين بذل فى جلد مصحف منها مئات الجنيهات فلم يظفر به . ورأيت ورقة واحدة من مصحف فى طول قامة الرجل الطوال . وبها سبعة أسطر بخط الأمير بايسُنقر

وقد شهدنا فى مدينة المشهد افتتاح مستشفى الشاه رضا وهو مستشفى كبير مجهز بأجهزة حديثة ، ومعرض صناعات خراسان ، ورأينا ألعاباً رياضية كالتى رأيناها فى ميدان سلطنت آباد بطهران وقد وصفتها آنفاً . وكانت حفلات للغداء والعشاء دعا اليها رئيس الوزراء ومتولى الحرم الرضوى ، ألقيت فيها خطب كثيرة . وزرنا مدفن نادر شاه ، وهو البطل الكبير الذى رفعته همته من رعى الغنم الى رعاية الأمم ، والذى أخرج الأفغانيين من إيران ، ودبر الأمور باسم الصفويين حيناً ، ثم استبد بالأمر وتسمى نادر شاه ، ثم فتح أفغانستان والبنجاب وغنم كنوزاً لا تحصى من دهلى ، واضطر الدولة العثمانية الى مصالحته على ما أراد لدولته ، وتوفى سنة ١١٦٠ بعد أن سيطر على إيران عشرين سنة — دخلنا حديقة واسعة فى وسطها بناء مرتفع قليلاً يشتمل على حجرات عدة ، دخلنا واحدة منها فقيل هنا دفن نادر شاه وسيشاد له قبر هنا

طوس :

على خمسة وعشرين كيلاً الى الشمال من مشهد ، آثار المدينة الكبيرة التى كانت من أعظم مدن خراسان ، والتى نشأت جماعة من كبار العلماء والأدباء : مدينة طوس . وطوس اسم أقليم فى خراسان كان فيه مدينتان كبيرتان : طابران ونوقان . فأما طابران فقد اتسعت ونبهت حتى سميت طوساً باسم الأقليم كله ، وبقى اسم طابران على إحدى محلاتها . وأما نوقان فكان على مقربة منها قرية سناباذ التى دفن فيها الرشيد العباسى والرضا العلوى فنمت حتى صارت مدينة المشهد الحاضرة واتصلت أبنيتها بنوقان ونسخت اسمها

وقد اشتبه أمر طوس ونوقان على بعض الجغرافيين فقالوا إن مدينة طوس مدينتان : طابران ونوقان . قال ياقوت عن طوس : « وهى مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور عشرة فراسخ تشتمل على بلدتين يقال لاحداها (طابران) ، وللأخرى (نوقان) » والحق أن لاقليم طوس مدينتين كبيرتين هما طابران التى سميت طوس ونوقان التى اندمجت فى مشهد كما قدمت . وكان لطوس شأن فى التاريخ الاسلامى ، وتقلبت بها الغِيَر حتى خربها ميرانشاه ابن تيمورلنك سنة ٧٩١ هـ

وينسب إلى مدينة طوس الامام الغزالى ، ونصير الدين الطوسى وغيرهما من العلماء . وقد مات الغزالى بها ودفن بالطابران إحدى محلاتها ، رابع عشر جمادى الآخرة سنة ٥٠٥ ، ورثاه الأبيوردى فقال :

بكى على حجة الاسلام حين ثوى … من كل حىّ عظيم القدر أشرفُه
وما لمن يمترى فى الله عَبرته … على أبى حامد لاح يعنفه
تلك الرزية تستهوى قُوى جلَدِى
والطرف تسهره والدمع تنزفه
فماله خلة فى الزهد منكرة … ولا له شبه فى الخلق نعرفه
مضى ، وأعظم مفقود فجعت به … من لا نظير له فى الخلق يخلفه

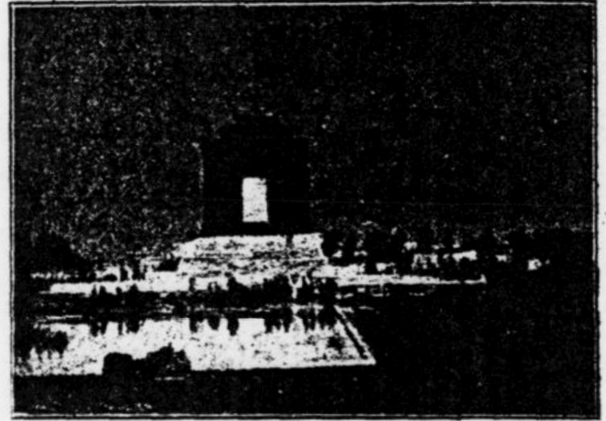
وينسب إلى طوس كذلك الشاعر الفارسى أبو القاسم الفردوسى صاحب الشاهنامة المتوفى سنة ٤١١ . وبها مات ودفن على مقربة من باب رزان أحد أبواب المدينة . فى سورها الشمالى الشرقى

وقد زار نظامى العروض قبر الفردوسى سنة ٥١٠ وقال : « وكان داخل الباب بستان للفردوسى فدُفن فيه وهو اليوم هناك » وقال دولتشاه السمرقندى سنة ٨٩٣ « وقبره فى طوس بجانب مزار العباسية ، ومرقده الشريف معروف اليوم ، يزوره الناس » ويقول القاضى نور الله فى أواخر القرن العاشر الهجرى إنه زار قبر الفردوسى

وقد رآه بعض سياحى أوربا ، أوائل القرن التاسع عشر الميلادى . وقال خانيكوف سنة ١٨٥٨ إن البناء الصغير الذى كان يميز قبر الفردوسى قد اندثر

وقد اجتهد أدباء إيران حتى عرفوا بالقرائن مكان القبر

فشادت الدولة عليــه بناء تحاكى القلاىء صورته تحت هذا :



قبر الشاعر العظيم أبو القاسم الفردوسى

سرنا إلى طوس عشية يوم الجمعة ثالث شهر رجب (١٢ أكتوبر سنة ١٩٣٥ ـ ٢٠ مهرماه سنة ١٣١٣) فبلغناها بعد نصف ساعة فملنا إلى الشرق ، واجتزنا نهر كشف فى جادة واسعة تفضى إلى حديقة الفردوسى ، فرأينا بستاناً كبيراً يتوسطه حوض واسع ، ووراءه بنيّة جميلة رائعة . وهى مصطبة واسعة مربعة يتوسطها بناء مربع القاعدة يرتفع زهاء أربعة أمتار ، كتب على أربعة أوجهه أبيات من الشاهنامة . وزيد على الوجه الأول كتابة تبين عن عناية جلالة الشاه رضا بهلوى بالفردوسى ، وأمره بتشييد البنـاء فى التاريخ المبيّن به

وللبناء باب صـــغير على جانبيه نقوش تمثل حوادث فى الشاهنامة . ويفضى الباب إلى حجرة فى وسطها قبر عليه صفيحة مربعة من المرمر نحت فيها كلمات معناها أن أدلة كثيرة تثبت أن هنا قبر الفردوسى وتاريخ مولد الشاعر ووفاته ، وفى الجدار المقابل للباب كوّة . والبناء فى جملته جميل رائع

جلسنا فى سرادق ضرب هنـالك ، فلما اقترب مقدم جلالة الشاه ، سرنا إلى النصب فوقفنا على سجاجيد فرشت بين الحوض والبناء ، وقف الوفود وحدهم ، وأعيان الأيرانيين وحدهم . ثم أقبل جلالة الشاه ، فسلم على الوافدين واحداً واحداً ، يعرفه بهم رئيس الوزراء ووزير المعارف . ثم ارتقى جلالة الشاه النصب ، ووقف يقرأ كلمـة افتتاح تذكار الفردوسى . ثم قطع بمقراض الشريط المحيط بالنصب ودخل فرأى قبر الشاعر ، ثم دُعى الوفود فدخلوا . ثم وقف جلالة الشاه فى ناحية من الحديقة يتحدث مع وزرائه ، ثم ركب سـيارته . وبقينا زمناً نمتع العـين بما نرى ، ونأخذ بأطراف الحديث

ورأيت على يسار الجادة المفضية إلى حديقة الفردوسى بناء له قبة وقد تهدمت أعاليه ، فقال من كان معنا من أهل مشهد إنه قصر بناه الرشيد ، وقال بعض المستشرقين إنه قبر الغزالى . وإنه بنى على نسق مرقد السلطان سنجر فى مرو ، وعلى نسقه بنى مرقد السلطان الجايتو فى السلطانية . وإنما العلم عند الله



الأستاذ مينورسكى أستاذ اللغات الشرقية بجامعة لندن والدكتور عبد الوهاب عزام فى حضرة جلالة الشاه

رجعنا إلى مشهد فبقينا إلى صبيحة الأثنين . ثم أخذنا طريقنا عودا إلى طهران

عبد الوهاب عزام

١٠ ٥ ٤

أحمد المتنبى

للشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى

١

أحمدٌ كان مثل بحرٍ رحيب … موْجُه فوق لُجّه كالكثيبِ
شغل الناسَ منذ كان بشِعْرٍ … قاله معجزاً لكل أديب
إنْ يكن أحمدٌ تنبأ فى القو … مِ فما إن عليه من تثريب
فلقد كان الشعر يوحَى إليه … سُوَراً للاصلاح والتهذيب
إنما معجزاته فى معانيـ … ـه وفى لفظه وفى الأسلوب
كم له من معنى تراه قريباً … وهو فى نفس الأمر غير قريب
ومن اللفظ ما يكاد من الرقّـ … ـة يجرى إلى صميم القلوبِ

٢

أحمدٌ كان شاعراً وحكيما … وبأسرار النفس كان عليما
أحمدٌ لا يفنى وإن كان فى قبـ … ـرٍ عفته الأيامُ عظماً رميما
أحمدٌ كان فى الزعامة للشعـ … ـر وفى العلم بالحياة عظيما
قد أراد الحُسّاد للحُرّ هضما … فأبى الحرُّ أن يكون هضيما
جعل الشعر كالنهار مضيئاً … بعد أن كان الشعرُ ليلاً بهيما
وكأن الديوان فى جمعه ما … قاله كان للنجوم سديماً
قتلوا الشاعرَ العظيم اغتيالا … وفشا قتلُه فكان أليماً

٣

أيها الشاعر الخفىّ القدير … باسمك اليوم يهتف الجمهور
أكبر الفضل ماتقدّره الأجيا … لُ من بعد أهله والدهور
إنما قد أصاب شاكلةَ الأمـ … ـة لما أصابك المقدور
ذمَّ دنيا غرّارة ليس تخلو … من رزايا يسوء فيها المصير
أفجعُ الحادثات فى الغرب والشر … ق على النابه الأديب تدور
قائل الشعر قد يبور مصاباً … بمُلِمٍّ وشعرُه لا يبور
حبذا الشعر آتياً من شعور … إنما يلمس الشعورَ الشعور

٤

يا قتيل الآداب إنك باق … وستحيا فى أنفس العشّاق
كل بيتٍ قد قلتُه فيك أرثى … آهةٌ لى جاءت من الأعماق
حرَمَ القاتلوك أمتهم من … كلم مال الدهر والآفاق
ولقد صارعتَ الخطوبَ إلى أن … أطفأت منك كوكباً ذا ائتلاق
شاعر العقل، شاعر المجد والفخـ … ـر الأثيلين. شاعر الأخلاق
والذى آمنت ببعثته النا … سُ على خِلفةٍ من الأذواق
جاءت الخيل وهى تنحط إعيا[1] … ء وراء المحجَّل السبّاق

٥

إنما أنت للقريب الجديد … مثلما أنت للقديم البعيد
لستُ ممن يَقْلُون كل قديم … غير أنى أحبُّ كل جديد
أنت فى الدولتين كنتَ رسولا … ذا كتاب تدعو إلى التوحيد
ولقد صاغوا الشعرَ قبلك من لفـ … ـظ ووزنٍ وصُغته من حديد
واحدٌ أنت من عباقرةٍ ما … توا على الأرض غيلةً للخلود
أنت ممن جنى القريض عليهم … قُتِلَ الشعرُ كم له من شهيد!
كنتَ حيناً كالليث يزأر للبطـ … ـش وحيناً كالبلبل الغرِّيد

٦

أنت بالشعر إذ هززتَ الشعوبا … كنت تُرضىَ النُهى وتُرضى القلوبا
حِكَمٌ للذى أراد صوابا … ونسيبٌ لمن أراد النسيبا
تلك نارٌ إذا خَبَتْ فهى تُبقى … من جديد للمصطلين لهيبا
يتعب الدهر فى التخيير حتى … يهب الناسَ شاعراً أو أديبا
قد دعاك العُلا فسرتَ إليه … ودعوتَ العُلا فكان مجيبا
إنه وحده الحبيب الذى قد … كنتَ منه وكانَ منك قريبا
ولئن كنتَ للغبىّ بغيضا … فلقد كنتَ للذكىّ حبيبا

٧

أنت فردٌ يا أحمدُ المتنبى … فى قريض نظمتَه، إى وربّى!
ما دعوتَ القوافىَ الغُرَّ إلّا … وهْىَ عند الدعاء جاءت تلبّى
كثُر الناقدو قريضك بالبا … طل ستراً لصدقه بالكِذْب
رُبَّ بنتٍ للشعر قد وأدوها … فى ربيع الصبا على غير ذنب
غير أن الأيام قد ضربتهم … بعد حرب تأجّجت أىّ ضرب
شاعرٌ أنت للعروبة جمعا … ء برغم الحُسّاد فى كل حقب
ولقد قالوا ما لأحمدَ قبرٌ … كذبوا، إن قبر أحمد قلبى

---

(١) من أعيا إذا تعب

٨

لك في الشعر عزة قعساء ... عجزت عن بلوغها الشعراء
إنهم ضلوا في ظلام الليالي ... وهدتك المجرة البيضاء
إنما قالة القريض كثير ... وقليل من بينها النبغاء
بين من راضوا الشعر أو قرضوه ... ليس إلا لاسم الزعيم البقاء
القريض الشريف ممن أهانو ... ه بما أسندوا إليه براء
ليس من حظ العبقري إذا بر ... رز إلا العداء والبغضاء
ليس بالشعر ما خلا من شعور ... وإن احلولى لفظه والبناء

٩

فاق شعر به نطقت مبينا ... غرر الأولين والآخرينا
كان يحكي اليراع منك حساماً ... كلما احتل من يديك اليمينا
كنت تسطو به فيبدي زئيراً ... ثم تشكو به فيبدي أنينا
ضحكوا غرة فأسلت دمعا ... كنت تبكي به على الضاحكينا
ضم ديوانك الذي هو فردو ... س من الشعر البكر حوراً عينا
إنني كلما له جئت أتلو ... أقرأ الحسن والهدى واليقينا
ولقد أبصر الكماة أمامي ... وأرى قسطلاً فأغضي العيونا

١٠

كان ليل يدجو وكان صباح ... تتغذى بضوئه الأرواح
أنت في بحر كنت تسبح والبا ... قون في حوض ماؤه ضحضاح
بك ليل القريض بعد ظلام ... لاح للعين صبحه الوضاح
ثم زاد المقصرون صناعا ... ت إليها الأديب لا يرتاح
ثم كان الغواة فيه فريقيـ ... ن لكل عتاده والسلاح
ففريق مقلد لسواه ... وفريق أباح ما لا يباح
ثم شبت بين الفريقين حرب ... كثرت في الغبار منها الجراح

١١

واحد أنت من ملوك المعاني ... ماله في سلطانه من ثان
شاعر العقل والعواطف في النفـ ... س وما في قرارها من أماني
لا يدانيك ناقد قد تحدى ، ... إنه هادم وأنت الباني
مالهم في البلاغة اليوم أرض ... ولك المشرقان والمغربان
أنت ما كنت ترسل الشعر إلا ... بعد نضج في العقل أو في الجنان
بعد ألف من السنين تقضى ... أكبرتك الأقوام في مهرجان
تعتري السامعي قريضك منهم ... هزة في الأرواح والأبدان

١٢

إنما جاءت الوفود ترامى ... لتحييك ركعاً وقياما
إنهم يكبرون منك زعيما ... أقعد الناس شعره وأقاما
إنهم لبوا دعوة الشعب لما ... قدموا أفواجاً فكانوا كراما
لك يا أحمد الامامة في المو ... ت كما كنت في الحياة إماما
حبذا أبيات بها كنت تشدو ... فجرت أمثالاً تزين الكلاما
سكت البلبل الذي كان يشدو ... كل صبح فيوقظ النواما
محسن للتجديد أحمد في البد ... ء فمن ذا سيحسن الاتماما؟

(بغداد) جميل صدقي الزهاوي

فانك مصري . . .

للأستاذ فخري أبو السعود

لمناسبة ما أبداه بعض الافرنج من أمارات الاستهجان
أثناء عرض مناظر المؤتمر الوطني بدور السينما

أقم صاغراً وارغم حياتك واشقها ... فإنك مصري وإنك مسلم !
وإنك شرقي ونسل أعارب ... يدينك غربي ويعلوك أعجم
وإنك بين البيض أسمر كالح ... وحظك في الدنيا كجلدك أسحم
وإنك ذيل العصر والغير رأسه ... تقاعست عنه محجما حيث يقدم
ولست بفعال ولست بصانع ... وغيرك مشهود الصناعة محكم
يجيء بآيات الحضارة مبدعاً ... وتعجب مما بات يأتي وتسهم
وأنت إذا قال المفاخر عاجز ... وإن نطقت بيض الصوارم مفحم
ورأيك منبوذ وقولك ضائع ... وسيان منه صارخ ومكتم
وأرضك ملهى للدخيل وملعب ... وجدك ملهاة لمن يتهكم
وحقك مبذول وسعيك طائش ... وإرثك بين الطامعين مقسم
وأنت أجير في بلادك خادم ... وغيرك يستجدي رضاه ويخدم
تولى بأصفى درها ونتاجها ... ويرضيك ما يبقي ويكفيك درهم
ولا تعتبن يوماً عليه إذا انبرى ... يسبك مفتاتاً عليك ويشتم
فمثلك من دراى إذا احتد غاضب ... ومثلك من يغضي ويعفو ويحلم

من الأدب الفرنسى المعاصر

أندريه جيـــد
André Gide

بقـلم على كامل

كثيراً ما تقع أعيننا على صورة نقشها يراع رسام بارع ليعبر بها عن فكرة من الأفكار فاذا هذه الصورة توافق هوى فى نفوسنا لأول نظرة بحيث نرى فيها خير ما يمكن التعبير به عن هذه الفكرة. كذلك قد نقرأ جملة قصيرة خطها قصصى أو ناقد يصف بها شخصاً من الأشخاص فاذا هـذا الوصف بالنسبة لنا كأنه كان ضالة منشودة وصلنا اليها بعد طول عناء... كأن كلا منا كانت تتردد أمام عينيه هذه الشخصية يريد وصفها وتحديدها ولكن عبثاً، حتى جاءت الجملة التى قرأها فنزلت على قلبه وأعصابه المتلهفة القلقة برداً وسلاماً!


أندريه جيـد

كان يجب أن يمر بنفسى هذا الخاطر وأنا أقرأ الدراسة القيمة التى كتبها فى الشهر الماضى الناقد الفرنسى بنجامان كرميو عن أندريه جيـد. ذلك الكاتب الفذ الذى جاوز الخامسة والستين وهو مع ذلك لا يزال شاب القلب والنفس يتزعم مدرسة (التحرر الأخلاق Immoralisme) فى الأدب الفرنسى الحـديث، ويعالج مشاكل الشباب النفسية وخصوصاً الجنسية والنزعات الطائشة المتغلبة التى تلازم الكثير منهم بصراحة جريئة وحرية لا حد لها حتى نفر الشيوخ من ذلك الكاتب الشيخ. واحتفظ الشباب بالولاء له وتمجيده والتهام أدبه

لم أكد أقرأ قول بنجامان كرميو: (إن أول نظرة إلى أندريه جيد تبين لنا أنه مخلوق مضطرب قلق، معقد، يتركب من عدة شخصيات. ولكنه يمت إلى نوع نادر من البشر) ثم قوله. (وعندئذ لا نلبث أن نعرف أن فنه صورة منه). لم أكد أقرأ ذلك حتى مرت أمام عينى كشريط سينمائى كل الصور التى رأيتها لأندريه جيد. وتذكرت عدداً من مجلة (Vu) كانت قد نشرت -لمناسبة لا أذكرها الآن- بضع صور له فى فترات حياته المختلفة: فى الشباب والرجولة والكهولة. وتذكرت معه هاتين العينين الحائرتين، والوقفة المضطربة، والشارب المحلوق النادر بين الفرنسيين. الذى ينزل به من سن الستين الى الثلاثين. فعرفت عندئذ مقدار ما فى قول بنجامان كرميو من الصدق ودقة الملاحظة

***

نعم إن فن أندريه جيد وفلسفته هما قبل كل شىء صدى لمشكلة نفسه ومأساة حياته. فقد نشأ جيد فى أسرة دينية متقشفة من أب بروتستنتى وأم كاثوليكية. وكان أثر بروتستانتية والده أعمق من أثر كاثوليكية والدته. وربى جيد تربية دينية خالصة، فكانت هذه التربية وتناقضها مع طبيعة جيد أولا ومع الظروف التى صادفت شبابه ثانياً سبباً قاسياً فى أن تجعل من حياته مأساة

وغيرك من إن مسَّهُ الحيفُ عافَهُ ... وثارَ على مُستكبرٍ يتهضَّمُ
ولا تمددنْ كفَّا إليــه مصافحاً ... فترفضَ واصمتْ إنَّ صمتكَ مغنمُ
بذا قضت الأقدار: شعبٌ مكاثرٌ ... عزيزٌ، وشعبٌ يُستذَلُّ ويُظلَمُ
ولا تذكرنْ مجداً لمصرَ وأعصُراً ... تسامى بها المُلكُ الرفيعُ المعظَّمُ
ولا تذكرنْ عهداً به السُّمرُ وطَّدُوا ... بناءً لهم فى العالمين ودعَّموا
وعهداً إذا رجَّى به الناسُ مُنتمى ... إلى العزِّ قال العزُّ للعربِ تنتموا!
وعهداً به أمسى الزمانُ مسبِّحاً ... بحمد الالى لله صَلَّوا وسلَّموا
ولا ترثينْ تلك العهودَ ولا تنحْ ... عليها فما يثنى المشيّعَ مأتمُ
وتلك عهودٌ قد تولَّتْ وقد تلَتْ ... شعوبٌ، ومَنْ لم يحكموا الناسَ يُحكموا
فعشْ راغماً أو فاسْمُ للعز ضارباً ... بعزمٍ إذا ما أحجم الجنُّ يقحَمُ
وحزمٍ يُصِمُّ السَّمعَ عن هجو كاشحٍ ... وجِدٍّ يحبُّ الصمتَ لا يتكلَّمُ

فخرى أبو السعود

انسانية كبرى ، وأن تجعل شخصيته فريسة لحرب شعواء بين جيد المتدين بولادته وأسرته وتربيته ، وجيد المتحرر تحرراً كلياً من سيطرة الدين بعقله وإرادته

عنـد ما بلغ جيد سن الشباب استيقظت نفسه على أشعار الجيل الأول من المدرسة الرمزية فى الشعر الفرنسى تحت زعامة فرلين ورامبو وملارمى . وكان عهد ازدهار هذا الجيل قد آذن بالمغيب وخلفه الجيـل الثانى الذى من أعضائه فرنسيس چيمز وپول كلوريل ، وپول فور . فانضم إليهم أندريه جيد إذ وجد فى الشعر الرمزى الحالم السابح فى أجواء الخيال ، المتحرر حتى من القيود الشعرية نفسها ، سبيلاً إلى الانطلاق من عالمه الدينى الضيق المخنوق . ولم يكن تأثر جيد بالشعراء الرمزيين قاصراً على فهم فحسب ، بل وجد فى حياة الـكثير منهم مثل فرلين ورامبو مثلاً أعلى لحياة الفنان الحر الطليق الذى يريد أن يصل إلى فهم الحياة الحق مهما كلفه ذلك من الثورة على كل تقليد ، والخروج على كل عرف أخلاق ؛ على أن رمزية أندريه جيد لم تبلغ فى تحكم العاطفة بها ما بلغته رمزية الجيل الأول . فهو أقل حدة فى العاطفة وجوحا فى الخيال . وهو أمَرّ سخرية وأعمق تفكيراً وأشد رغبة فى ادراك حقيقة نفسه ، وأعظم انطلاقا وتعلقاً بالحياة المرحة . وفى أول كتبه Les Cahiers d' André Walter (دفاتر أندريه ولتر) (١٨٩١) نراه يعبر عن ذلك بقوله (يجب النظر إلى الحياة بعين شاملة وطبيعة طلقة مع الاحتفاظ بالنفس المتيقظة)

وفى ذلك الوقت أيضاً ـ وقت شباب جيد ـ غزت فرنسا أفكارُ الفيلسوف الألمانى (نيتشه) ، والـكاتب الأيرلندى (أوسكار وايلد) فتأثربهما اندريه جيد تأثراً عظيما . أخذ عن الأول فـكرته عن (السبرمان) ، وعن الثانى فـكرته عن سيادة الفن وحق الفنان فى أن يحيا على هامش العادات الأخلاقيـــة المرعية ، والاثنان ـ جيـد ووايلد ـ يتفقان فى إعجابهما بفـكرة الجمال عند الأثينيين القدماء

كذلك تأثر جيد بفـكرة الـكاتب الفرنسى موريس باريس Barrés عن (عبادة النفس) Le culte du moi وأخذ عنه سخريته العالية

وأخيراً يجىء دور الـكاتب الروسى دستوفسكى فـكما أن نيتشه واوسكار وايلد كانا أعظم من أثر فى جيد الشاب ، كان دستوفسكى أعظم من أثر فى جيد الرجل

من ذلك نرى أن جيد قد تأثر بكل الآراء المتطرفة المعاصرة له ، أليس هو القائل : (إن كل ما هو متطرف يؤثر فىّ !) لقد تأثر بالشعراء الرمزيين الفرنسيين ، وبأوسكار وايلد الإيرلندى ، ونيتشه الألمانى ، ودستوفسكى الروسى . لذا كان أدبه كلاسيكى النزعة . على أن جيد على رغم كلاسيكيته بعيد كل البعد عن العبودية لمن تأثر بهم . فشخصيته القوية المستقلة تنبض بها أعماله كلها بشكل قوى مؤثر ، وإن طبيعته الثائرة القلقة وجهده الصارخ فى التحرر يجعلانه يجرى وراء الثقافة الواســعة التى لاتعرف التمييز بين كاتب وآخر (فأنا ـ كما يقول ـ أنتظر دائماً شيئاً أجهله : أنتظر ضروباً جديدة من الفن وأفـكاراً جديدة) ولقد بلغت به رغبته الحادة فى المعرفة الشـــاملة الى دراسة اللغات الأجنبية كى يقرأ أعمال من يعجب بهم بلغاتهم الأصلية

* * *

كانت أعمال جيـــد [1] الأولى (دفاتر أندريه ولتر) (١٨٩١) و Traité du Narcisse (١٨٩٢) و Le Voyage d' Urien (١٨٩٣) عبارة عن اعترافات تتضمن نزعات جيد الفـكرية التى أراد بها التحرر مرة واحـدة من حياته الطاهرة المتقشفة . ففى أول أعماله يقول (الحياة الطلقة ، تلك هى أسمى حياة ، سوف لا أستبدل بها غيرها مطلقاً . لقد ذقت من هذه الحياة الطلقة ضروباً كثيرة . على أن الحياة الحقيقية كانت أقصرها)

وفى هذه الأعمال الثلاثة الأولى يلمح القارىء بين سطورها ميولاً جامحة خفية يحاول جيد أن يحجم عن التصريح بها

على أن هذه الحرية التى يبيحها جيد لنفسه دون قيد لاتلبث أن يطغى عليها أحياناً إحساسه الدينى فيقول فى نفس الـكتاب : (إننى أعنى وأنا الآن فى الحادية والعشرين من عمرى ، وهى

---

(١) ولد أندريه جيد فى باريس فى ٢١ نوفمبر سنة ١٨٦٩ وتعلم فى مدرسة الالزاس Ecole alsacienne ومدرسة هنرى الرابع Lycée Henri IV وأهم أعماله الأدبية : Les Cahiers d' André Walter (١٨٩١) — Traiié du Narcisse (١٨٩٢) — Le Voyage d' Urien (١٨٩٣) Paludes (١٨٩٥) Les Nourritures Terrestres (١٨٩٧) — L' Immoraliste — Saül (١٩٠٢) — Prétextes (١٩٠٣) — Le Retour de l' enfant (١٩١١) Nouveaux Prétextes prodigue (١٩٠٧) La Porte étroite (١٩٠٩) — isabelle (١٩١١) Les Caves du Vatican (١٩١٤) — La Symphonie pastorale (١٩١٩) — Si le grin ne meurt (١٩٢١) — Dostoievsky (١٩٢٣) — Souvenirs de la cour d' assises (١٩٢٤) — Les faux monnayeurs (١٩٢٥) Œdipe — Voyage au Congo — Retour du Tchad (١٩٢٧) — Robert — Essais sur Montaigne — L' Ecole des femmes (١٩٢٩)

السن التى تنطلق فيها من عقالها الشهوات ، أن أقمعها بالعمل المضنى اللذيذ . إننى أود فى الوقت الذى يجرى فيه الآخرون وراء ملذاتهم أن أذوق اللذات الخشنة التى تلازم حياة الصومعة)

وفى Les Nourritures terrestres (١٨٩٧) نرى جيد يبلغ انطلاقه الكلى من حيث الدعوة إلى أن المعرفة لا تأتى عن طريق الفكر بل عن طريق الحس . من ذلك قوله : (إنك لا تستطيع أن تقدر المجهود الذى كان لزاماً علينا بذله لكى نحس إحساساً صادقاً بالحياة ، والآن وقد تحقق ذلك فهو كالحال مع كل شئ آخر عن طريق الحس والشهوة) وكقوله أيضاً (لقد تسكعت هنا وهناك كى أستطيع أن ألمس كل من يتسكع - إن قلبى يفيض بالحنان والحنين إلى كل من لا يعرف أين يجد مكان دفئه . وأحب حباً مفرطاً كل من يهيم بالتجوال والتصعلك)

ثم انظر كيف لا يستطيع الفرار فى هذا الكتاب أيضاً من إحساسه الدينى حين يقول :

كنت أقرأ (عقيدة العلم) لفيخت[1] فشعرت بأننى سأعود متديناً من جديد

وفى قصة L' Immoraliste (١٩٠٢) نرى عبقرية جيد ، وتأثره العميق بالفيلسوف نيتشه ، قد تعاونا على إظهار فكرة (التحرر الأخلاق) حيث نرى بطل القصة (ميشيل) - وهو رجل مريض - يتقدم نحو الشفاء كلما حرر نفسه من الأوضاع الأخلاقية

وفى La Porte étroite (١٩٠٩) و Isabelle (١٩١١) و La Symphonie pastorale (١٩١٩) نرى جيد - وخصوصاً فى القصة الأولى - يعالج شخصيات تخالف تماماً فى تفكيرها ونزعتها ما رأيناه من الأفكار والنزعات فى الأعمال الأولى ، لأن الأولى استسلام مطلق لنداء الحياة ، والثانية استسلام مطلق لنداء العاطفة الدينية . فبينما نرى (ميشيل) فى قصة L' Immoraliste ذلك الثائر على نظام الأسرة ، الهاجر لماله وزوجته ، المتمرد على الراحة والاستقرار ، الراغب فى الرحيل إلى أبعد مكان ، الواجد فى الحرية الجسدية والانطلاق الحسى شفاءه العاجل . نرى أيضاً (أليسا) Alissa فى قصة La Porte étroite تلك الفتاة الوادعة المتقشفة التى تغمرها العاطفة الدينية حتى تدفعها إلى رفض الزواج من ابن عمها (جيروم) الذى تحبه لكى تقصر نفسها على الاستسلام لأحساساتها الدينية ، وتقترب من الله الذى تسميه (الأحسن) Le meilleur

ولا شك أن القصصى العبقرى هو الذى يرسم لنا بين حين وآخر صوراً إنسانية متباينة تختلف كل الاختلاف عن شخصية راسمها الذى تسمو عبقريته كلما استطاع التجرد من كل مؤثر ذاتى . وهذا هو ما نراه فى قصتى Eugenie Séraphitus Séraphita ، Grendet للقصصى العظيم بلزاك ، والقصتان تقتربان من حيث تناقض نفسية الشخصيات من قصتى جيد L' immoraliste و La Porte étroite ؛ على أن الفرق بين بلزاك وجيد - من هذه الناحية - أن بلزاك فى قصتيه يرسم لنا شخصيات خارجة عن نفسه . أما جيد فكل شخصية من شخصيات قصصه عبارة عن فكرة متحركة من أفكاره . ففى قصتيه السابقتين نراه يختفى وراء شخصيتى (ميشيل) و (أليسا) ، فشخصية (أليسا) هى صدى حياة جيد الطفل الذى نشأ بين أعطاف الدين فطبع حياته كلها بطابع لم يجد جيد وهو رجل سبيلاً الى التخلص منه ؛ وشخصية (ميشيل) هى شخصية جيد الشاب المفكر الذى نظر حوله فوجد أن حياة الزهد الماضية قد حرمته كل متع الحياة فلم يجد وسيلة الى التحرر من تراث ماضيه وتعويض ما فقده من العمر فى أحضان الزهد والحرمان إلا بانكار كل قاعدة أخلاقية واستغلال كل دقيقة للتمتع بكل لذة مستطاعة

وقد يلام أندريه جيد ويتهم فنه القصصى بالنقص لأنه اختفى وراء كل شخصياته ولم يرسم لنا صوراً إنسانية خارجة عن نفسه شأن القصصيين العباقرة . والواقع أن جيد ليس له من النبوغ القصصى نصيب عظيم ، وإنما عبقريته الحق هى فى تلك الدعوة الحارة إلى (سيادة الحياة) وفى ذلك البحث المتواصل فى سبيل فهم نفسه والنفس الانسانية . وفى ذلك الاحتمال الباسل لهذا الكفاح العنيف داخل نفسه بين تربيته وبين تفكيره بين العاطفة الدينية وبين الأباحية الأخلاقية . ثم أخيراً فى محاولته الجريئة للتوفيق بينهما كما سنرى . ذلك كله هو الذى يعطى فن أندريه جيد لوناً تجديدياً وضاء ، ويعطى كتبه ذيوعاً قل أن نصادفه فى كتب أعاظم الكتاب المعاصرين . أليس هذا الفن - كما يقول الناقد أندريه بير - هو خير تعبير عن اضطراب العصر الذى نعيش فيه ؟ إن فى كل صفحة من صفحاته تجد النفوس القلقة الجامحة مجالاً لا مثيل له لراحتها النفسية ، فهو يكتب كما يقول (حتى يجد كل مراهق يصبح فيما بعد مماثلا لى وأنا فى السادسة عشرة من عمرى - ولكنه يكون أكثر منى حرية وشجاعة وأعظم كمالا - جواباً لسؤاله المرتجف) فما هو هذا الجواب ؟ ذلك ما سوف نراه

البقية فى العدد القادم

على كامل

(١) فيخت فيلسوف ألمانى متأثر بفلسفة (كانت)

القصص

ضحية الوهم

بقلم القصصي الايطالي المعروف

ماسيمو بونتمبلي

Massimo Bontempelli

عهد إليّ « رينيه كلامار » أن أقتل الوقت مع « ميني » ، لأنه يريد أن يقضي أمراً يقصيه عنها نحو نصف الساعة . فأخذنا نسير في طريق اللوفر . وعلى حين غرة تركتني ميني مسرعة إلى الناحية الأخرى من الشارع لترى صندوقاً زجاجياً مستطيل الشكل وضع أمام حانوت لبيع أدوات صيد السمك . وكانت الأسماك الذهبية تسبح في الماء الصافي الذي امتلأ به الاناء . وكأنها من شدة فرحها لا تعرف بحراً خضما أعظم من هـذا الصندوق الزجاجي

وقالت ميني بعد أن صفقت بيديها :

« يا إلـهي ، ما أجملها ! »

ودنوت أنا منها . ووافقتها على ذلك ، وفي صوتي نبرات الجد ، قائلاً :

« نعم ، إنها جديرة بأن تحوز اعجاب الناس . »

فنظرت إليّ ميني نظرة ناقد وقالت :

« ماهذا التعبير : جديرة بأن تحوز اعجاب الناس ؟ انه لا يقال إلا لما يصنعه الانسان بيده سواء أكان هـذا صوراً أم شعراً كالذي يتكلم عنه أصدقاؤك . وكذلك يمكن أن يقال هـذا عن الثياب . . . . »

ولكني قاطعتها بقوة من يريد الفصل في الموضوع : « لابد لي أن ألفت نظرك إلى أن رينيه كلامار وأنا وغيرنا — وهنا أخذت تنظر إلى كمن يتفرس في معرفة الأشياء — ذكروا أكثر من مرة أنك جديرة بأن تحوزي اعجاب الناس ، ومع ذلك فأنت لست من صنع إنسان »

وابتسمت ميني شاكرة ، ولكنها أجابت في منطق معكوس :

« ولكني على أي حال لست سمكة »

فتشبثت برأيي وقلت :

« على أني قلت إن هـذه السمكات جديرة بأن تحوز إعجاب الناس ، لأنها سمكات غير حقيقية ، هي سمكات تقليدية . »

فحدقت ميني فيّ أولاً ، ثم في السمك ثانياً ، ثم عادت تحدق فيّ ، ثم صفقت بيديها وقالت :

« أصحيح هذا ؟ »

وكانت ميني من أولئك الذين يعيشون وينمون ولا يتعدون دور الطفولة . ومثل هؤلاء يسهل إغراؤهم وقيادتهم ، وليس عندهم من الأشياء ما لا يمكن تصديقه والايمان به إذا ماقيل لهم ذلك . قالت ميني :

ـ ولكن كيف تتحرك هذه الأسماك ؟

فقلت لها : « إن الكهرباء مسلطة عليها . »

فالتفتت مسرعة إلى الأسماك وانحنت على الصندوق تدقق النظر إليـه . وكانت يداها المرتجفتان مثبتتين على موضع قلبها . وقالت

ولكن كيف تيسر لها كل ذلك ؟ إنها تفتح فاها . والصغيرة هذه تتحاشى الكبيرة في سيرها نحو سطح الماء . وهناك في الركن الآخر اثنان يتقارضان القبل ، كأنهما شقيقان . . . أي . أي . . . وفي القاع السمكة الكبيرة وقد اهتزت المياه من فوقها كفرس البحر الذي رأيناه في حديقة الحيوان ، وكان رينيه معنا »

ـ « نعم إنه لشيء عجاب . . . ولكن أناشدك الله ألا تمسي هذه المياه فان الكهرباء سارية فيها . »

فاسترجعت ميني أصبعها من فوق سطح الماء وقالت :

« وهذه السمكة وجارتها ألم ينظرا إلى الآن بنظرات حادة ؟ ».

وأبصرت صديق وقلت :

« هاهو ذا رينيه . »

فقالت هي :

« أي رينيه ، يجب أن تنظر إلى هذه الأسماك ! »

وقلت مخاطباً رينيه :

إن ميني تعتقد أن هذه الأسماك حقيقية . »

وكان رينيه يعرف طبعي جيداً . ومعرفته بميني تكاد تكون نوعاً من اختصاصه . فاندفع يشاطرني هذري

* * *

ولم تجد ميني طيلة ذلك اليوم شيئاً آخر تفكر فيه . ثم قالت فجأة :

ـ « وكيف تكون هذه ؟ أصلبة هي أم لينة ؟ »

ـ « ماذا تعنين ؟ »

ـ « الأسماك الصناعية »

ـ « هي لينة كالحقيقية »

ـ « وماذا تصير لو أنها أخرجت من الماء ؟ »

ـ تصير كالأسماك الحقيقية بالضبط ، إذ تبقى استنشق الهواء وترتجف بضع مرات ثم تجمد ولا تتحرك كأنها ميتة . »

ـ « ثم بعد ذلك ؟ »

ـ « ثم بعد ذلك . . . تنتن وتفسد »

ـ « وإذا مادفعها إنسان إلى هر ؟ »

ـ « يلتهمها كأنها سمكة حقيقية »

* * *

وفي المساء التالي جلست وإياي في البهو تنتظر رينيه ، فقد ذهب لشراء بعض لفافات من التبغ

ـ « ميني ، مادامت هذه الأشياء تشغل بالك فسأفصح لك عن سر عظيم . بعد أن اخترعت الأسماك الصغيرة ، حاول العلماء خلق أحياء أخرى . فاخترعوا العصافير مثلاً . عصافير صغيرة تحفظ الغناء »

ـ حقاً ، إنني شاهدتها وهي من صنع (نورمبرج) من أعمال ألمانيا ، ويجب أن تملأ الزنبرك إذا ما أردنا سماع غنائها . وبرغم أنها تحرك المنقار والرأس فانها لا تطير ، وهي صلبة كالمعادن . »

ـ كل ذلك صحيح يا ميني . ولكن العصافير الأولى كانت كالعصافير الحقيقية تماماً . كانت كالأسماك التي شاهدناها في طريق الوفر . والآن أفضي اليك بذلك السر العظيم ، ولقد أردت أن أدلي به اليك من قبل ولكن الفرصة لم تسنح لي . قلت إن خلق العلماء أحياء أخرى ثم . . . ولكن يجب أن تقسمي ألا تذكري ذلك لأحد »

ـ « حسن ، أقسم على ذلك »

ـ « ثم . . . ثم خلقوا آدميين »

ـ « يا إلـه السماء . . . ! »

ـ « خلقوا اثني عشر شخصاً : ستة رجال وست نساء »

ـ « يا إلـهي . . . وكيف كان هؤلاء ؟ »

ـ « هم كتلك الأسماك . هم مثلي ومثلك »

ـ « ولكن أين هم الآن ؟ »

ـ « هذا مالا يعرفه أحد . وبذا حفظ السر . فبعد أن خلقوا خرجوا من المعامل . وأخذ الناس تبحثون عنهم دون جدوى . ولا يعرف غير الله موضعهم »

ـ « ولكنهم تدثروا بالملابس ؟ »

ـ « طبعاً ! »

ـ « ومتى كان ذلك ؟ »

ـ « منذ أكثر من سنة »

ـ « وأين ساروا ؟ »

ـ « هنا ، هنا في باريس . وكانوا كاملين في كل شيء ، ولا يمكن تمييزهم من الآدميين الحقيقيين . تصوري يا ميني أننا قد نكون تقابلنا مع أحدهم دون أن نعلم »

ـ « لا ، لا . إنني أشعر بالشيب يدب في رأسي ، لقد اعتزمت ألا أخرج من المنزل ، ويجب على الناس أن يبحثوا عنهم . ولماذا لايعثرون عليهم ؟ وواجب هؤلاء أن يقولوا بأنهم ليسوا آدميين حقيقيين

ـ « ولكنهم لا يعرفون شيئاً عن ذلك كله . إنهم يعتقدون أنهم من لحم ودم كبقية خلق الله »

* * *

واختل تفكير ميني ، ولم أفلح أنا ورينيه في تشتيت تلك الأفكار الخبيثة عنها . وقد أقسمنا لها بكل عظيم « أننا لم نبغ إلا الهذر من كل تلك الأمور »

ـ « هذا تذكرانه لي الآن حتى أهدأ بعض الهدوء ، ولكني أعرف وأعتقد اعتقاداً جازماً بأن كل ما ذكر لي قد

وقع ، ومن يدرى ؟ ربما كان ذلك الرجل القادم . . . . . لا ، لا . . ! لنرجع ثانية الى المنزل

وكانت كلما مرت برجل فى طريقنا ظنته صـناعياً . وفجأة تأوهت ، وأحجمت عن السير . ورأت فى بيتها ملجأها الوحيد ، ولتبق هى فى غرفة منه نائية ، أو فى ركن منه مظلم . ولم تتزحزح هذه الأفكار عن مخيلتها ، وقد تراكمت فكانت أثقل من جبل ، وفى الليل كانت تنزعج وتصرخ فى منامها . فكنت أنا وربنيه نوقظها . وكنا نقسم لها أغلظ الأيمان من جديد . غير أنها كانت تعتبر كلامنا غير أهل للأجابة عليه ، وبدأ الشك والسوداء يستوليان عليها . وأخيراً قال لها ربنيه :

ـ « ماذا يحزنك يا مينى ؟ »

ـ ماذا يحزننى . . ؟ لا يعرف أحد إذا كان الذى ينظر إلى أو الذى يكلمنى هذا من لحم ودم . لا ، لا ، أولى لى أن أموت !

ثم أدارت رأسها فى حركة ميكانيكية وقالت :

ـ « وأنتما لا تعرفان . . . »

ولم يكن فى مقدرة أحد أن يغريها بترك باريس . ولماذا ؟ قد يكونون متفرقين فى بقية العالم

وكانت لا تود رؤية أحـد حتى خادمتها الصـغيرة لم تطق رؤيتها فى المنزل . ثم لزمت الفراش لا تفارقه

وكنت أنا وربنيه نتناوب السهر عليها ، ونقدم لها الطعام فلا تأكل منه إلا يسيراً . وكانت حياة ملؤها وخز الضمير . وعند ما كانت تغفو كنا نستدعى الأطباء سراً ، ليشيروا بعلاج يرجع لها رشـدها . ولـكن تلك الفـكرة التى لازمتها كانت تتوغل فى الصميم ، فتركزت أفكارها حول نقطة واحدة . . .

« ربما كان أحدهم من رأيته أو حادثته . . . »

وكانت حياة كلها نـكد ، يزيد فى ظلماتها الذنب المشترك .

وكنت أنا وربنيه نمضى الساعات دون أن ننبس بكلمة أو ينظر أحدنا إلى صاحبه

وفى ذات يوم تولانا الرعب من فـكرة طارئة . ماذا يكون الحال يا ترى لو خيل إلى مينى أن أحـدنا أو كلينا من أولئك الرجال المصنوعين ، الذين يفزع منهم الشـياطين لمجرد ذكرهم أو تخيلهم . ألم نـكن نحن أول من قال لها عن هذا الأختراع السخيف ؟

ولـكن هذه الفكرة لم تستول عليها ، بل اكتسحت مخيلتها فكرة أشد خطراً وأبعد غوراً

كانت ليلة من ليالى الربيع . وقد غرقت مينى فى النوم الهادىء ففرحنـا . وفتحنا النـافذة . وأطللت أنا وربنيه على الطريق نتسلى برؤية النجوم مرة . وبانعام النظر فى الظلام المخيم على جوانب الشارع مره ، وتارة كانت تستلفت أنظارنا الأنوار الحمراء التى تضىء أسماء الحوانيت ، وتارة أخرى تسترعى أبصارنا الأعلانات الوضاءة . . .

وعلى حين فجـأة سمعنا صوتاً جهورياً مرتجفاً . ولما نظرنا خلفنا وجدنا مينى واقفـة فوق سريرها باسطة ذراعيها ، وتكاد تنخلع من الرعدة . فأسرعنا إليها ولـكنها فزعت منا . وقذفت بنفسها من السرير فارتطمت بالمرآة . وحدقت أولاً فى قميص نومها ثم فى قبضة يدها . ثم دفعت وجهها ليلتصق بالمرآة . ونظرت الى صورتها وحدقت فيها كأنما تريد اكتشاف كنه ماهيا

ـ « أى نعم ، إن الأمر لهو كذلك . إننى أراه جلياً واضحاً . نعم ، إننى أنا هو . إننى لست من لحم ودم . كلا ، كلا . إننى أنا ذلك الأنسان الصناعى وما كنت أدرى ذلك من قبل »

فصاح كل منا :

ـ « مينى ! »

ـ « لا . إننى أفهم الآن كل شىء . إننى متأكدة أنكما لن تعرفا ذلك . . . . ولـكن ماذا أنا فاعلة الآن ؟ وماذا فى وسعى أن أعمله ؟ سامحنى ياربنيه ! الذنب ليس ذنبى »

حاولنا أن نمسك بذراعيها ، وهى تحدق فى الفضاء . ولـكنها رفعت يدها وأشارت بها نحو الباب وقالت :

ـ « ماذا هنالك ؟ »

ـ لا شىء ، لا أحد يامينى ، هدئى روعك !

ـ ولـكن هنالك . . . ، هنالك ، من هنالك . . ؟ انظروا انظروا من هو ؟

وشع ضوء مخيف من عينيها كسا وجهها ضـياء جافاً ، وانطلت علينا الحيلة ، وذهبنا الى الباب لنهدىء من حدتها . وما كدنا نصـله حتى التفتنا الى الخلف دون سبب ، ولـكن بعد أن فات الأوان ، إذ وقفت مينى كعفريت من الجن على حافة النافذة . فلم نتمالك من الصراخ وهرعنا اليها . ولـكنها كانت قد قذفت بنفسها الى الشارع . ولم يبق منها إلا قطعة من قميص نومها معلقة فى يد ربنيه . وساد السكون ثوانى حسبناها ساعات وإذا بجسدها يرتطم بالأسفلت فيقضى على أنفاسها وعلى هواجسها

عربها عن الألمانية

ا . ا . ى

من أقاصيص الجاهلية

حرب البسوس

بقلم اليوزباشي أحمد الطاهر

ـ « ما عهدتك تمضى ليلتك فى سامر ياجساس ، أ كان حديث القوم عذباً فالقيت إليه السمع . أم كان لسانك ذرباً فدفعت عن بكر ؟ »

ـ « نعم ياخالتاه . لقد دفعت عن بكر بلسان صدق فى السامرين ، ودفعت هـذه الفرية التى يسددها كليب لنا فى كل مجمع وناد ، ولم أنس يا خالتى أن أدفع عنك مقالة السوء التى نالك بها كليب ، فقلت للقوم : إنكم تعلمون موضع البسوس من أهلها وتعلمون موضع أهلها من العرب . ومن كانت فى هذا الشرف من القوم فما أبعدها عن السعاية والوقيعة . وما نقموا من البسوس ياقوم إلا ما اشتهرت به من حماية الجار ، وحفظ الذمار ؛ وهى بعد ليست نَزَّة[1] ولا نمّة . واندفعت ياخالتاه أقرع حجج كليب حجة بعد حجة : وأرد فريانه فرية بعد فرية ، فاذا القوم على كليب ساخطون ، وعلى بكر وبنى شيبان عاطفون . »

هشت البسوس بنت المنقذ التميمى لمقالة جساس ابن أختها ، وضمته إلى صـدرها وقبلته فى مفرقه . واستوت تقص عليه ماسمعت من نساء الحى . ولم يكن للحى من حديث فى سامرهم ونادبهم ومجمعهم إلا مابين بكر وتغلب من إحن وحفائظ أخذت البسوس على نفسها عهـداً باذاعتها فى القوم وإفشائها فى غير قصـــد ولا أناة . قالت : « هذا كليب بن ربيعة التغلبى قد أخـذته العزة بالأثم وبغى على قومه لما دانوا به من الطاعة له والانقياد لسلطانه ، حتى بلغ من بغيه أن يحمى مواقع السحاب فلا يرعى حماه ، ويجير على الدهر فلا تخفر ذمتـه ، ويحمى الوحش فى مســـارحه [illegible] إبله ، ولا توقد نار مع ناره . ولقد [illegible] من قوته وسلطانه . وضربوا الأمثال بعزته وطغيانه ، وما مبعث هذا البغى وهـذا الطغيان إلا النصر الذى أحرزه يوم خزازى حين قاد معداً ففض جموع اليمن . وما النصر يحرزه القائد إلا الفضل الذى أفاضه عليـه الجنود ، بالتفافهم حول لوائه واندفاعهم على العدو . فما كان القائد ليحرز نصراً لو تخلى عنه الجنود . ولـكن قد يحرز الجند نصراً وقد ولى عنهم القـائد . على أنه يا ابن أخت ، لوكان فيه ذمامة من حياء ، أو بقية من وفاء . لما تعاظم على قوم رفعه ، ولا تكاثر على شعب رفده . ولو كان ممن يرعون العهد ويحفظون الذمار لرعى عهد النسب وحرمة القربى ، ولرعى الصلة الوشيجة ، والخاصة الوليجة . أليست زوجه جليلة وهى أختك ؟ إن أعجب ياجساس فما أعجب إلا لصبر هذه الـكاع عليه ، وسكوتها على بغيه ، وهى زوجه أولى الناس بتقويمه إذا اعوج ، وتليينه إذا صلب ، وسياسته إذا شط ؛ وهى أولى الناس بالمدافعة عن أخيها وعن خالتها ، وما ادخر كليب وسماً فى النيل من أخيها ومن خالتها . لا أبغى يا جساس من قولى أن أنغل[1] بينك وبين أختك ولا بينك وبين كليب . كلا . ولا أن أبذر شقاق بين جليلة وزوجها ، ولـكنى أرى من كليب بغياً واستهانة ، وأرى منك ضعفاً واستكانة ، وأرى من جليلة صمتاً للمذلة وصبراً على الهوان . وكأنى بك تقرها على صمتها وترضى عن صبرها . وأنت لا تقل عن كليب فى طول النجاد ، ورفعة العماد ، على يفاعك وحدث سنك . »

قام جساس وقد استحصد ، وغلى الدم فى رأسه وركبه الشيطان ، وأقسم ليقصمن ظهر كليب ، ولينصرن عشيرته ، ولينضحن عن بنى شيبان . ثم احتواه الليل فبات يرعى النجوم ، ويستعرض الهموم ، حتى انبلج الصبح فاذا هو يسعى إلى البسوس يقص عليها ما جاش به صدره ، وما استقر عليـه عزمه . قال : « يا خالتاه . لقد قدحت الذهن حتى استعر ، وعببت الرأى حتى اختمر ، وشاورت النفس فطاب لها الحمام ، وغمزت العزم فألفيته شديد المُرام ، وأنا اليوم على أن ألتمس كليباً فى غرة فأنتقم لبكر وبنى شيبان ، وأرفع عنهم المذلة والهوان . »

قالت : « وهل شاورت الحى فيما اعتزمت ؟ »

قال : « الرأى الخطير كالجمرة المستعرة كلما تداولتها الأيدى

(١) النزة كثيرة الـكلام والنمة النمامة

(١) أنغل بينهم أفسد ونم

فترت حرتها وانطفأت جذوتها . وما يركن ذوو الرأى إلى المشورة إلا حين تعجز هممهم عن النفاذ ، وتقعد عن النجاز ، فيلتمسون لدى الناس رأياً يتخذونه لقعودهم سبباً ، ولعجزهم تعلة ، وأنا إن أصحرت بالتدبير فما آمن أن ينتهى الى كليب فيعتصم ويتقى . »

وكانت البسوس قد استودعت سراً . . .

وكان ما أفضى به جساس إلى البسوس حديث القوم فى سامرهم وناديهم تتناقله يشكر وشيبان ، وذهل وقيس ، ووائل وبكر ، وغير أولئك من القبائل والبطون والأفخاذ

***

وفى ضحوة من النهار اجتمع عند البسوس : همّام بن مرة أخو جساس ، والفِنْد الزِّمّانى سيد بكر وفارسها وشاعرها ، وبسطام بن قيس فارس بنى شيبان ، وأبو فَيْد عمرو بن الحرث السدوسى ، والحرث بن عباد فارس النعـــامة وفارس ربيعة وشاعرها . وجلس جساس مطرقاً ينكت الأرض بعود فى يده والقوم ينظرون اليه وينظر اليهم فى حيرة ووجوم

قال بسطام : « ما بالك ياجساس تحبس النفس على الأذى ، وأنت فينا تنظر يمنة فلا تجد إلا فارساً مغواراً ، أو أسداً كراراً ، وتنظر يسرة فلا تجد إلا بصيراً فى الرأى ، أو نصيراً فى الشدة ؟ »

قال جساس : « أعلم ذلك . وأعلم أنه لايدفع الهون ولا يرد البلاء إلا سفك الدماء » قال همام بن مرة . « إنه لـكذلك . . »

قال أبو فيد : « أما الهون فقد لحق بكراً حتى أذلها ، وأما البلاء فقـد وقع ماله من دافع . وأما الصبر عليه فأمر يرجع اليكم ويعود عليكم ، ولست أدرى إن كنتم لـكليب وتغلب أكفاء فى القتال ، ولـكنى أعلم أنكم لاتقلون عنهم فى الشرف ، ولستم دونهم فى المنزلة ، فان كنتم على هذا تصبرون ، فقد رضيتم من العيش بالدون ، وإن أحمسكم الذل وقام رجالكم للحرب يؤرّجون [1] فانى برىء مما تفعلون »

فنهض الحرث بن عباد ، والفند الزمانى مغضبين وقدهم أحدهما بأبى فيد يمصر عنقه وقالا أو قال أحدهما : « ثكلتك أمك يارسول الوقيعة ، تحمس الرجل وتستثيره ، وتنغل بينه وبين القوم ثم تقول إنى برىء مما تفعلون ؟ لشد ما أمعنت فى الوقيعة والسعاية ، ولعمرى ما مؤرج الحرب إن قامت إلا أنت . قم لادر ضرعك »

وفر ابو فيد لايلوى على شىء

« وأنت يا جساس أصلح من شأنك ، وهون عليك بأسك ، واستشعر الحكمة ، واستلهم الصواب ، ولا تبرم الرأى إلا بعد التدبير ، ولاتعقد العزم إلا بعـد التفكير ؛ ولك من رعاية الله خير معين ونصير »

وانفض مجلس القوم ، ودخل جســاس الى فناء البسوس واجماً مطرقاً

قالت البسوس : « هون عليك فالخطب أيسر مما ترى ، ولعل الخير فى الأناة ، قم فلقد رثأت [1] لك لبناً لعله يفثأ غضبك »

قال : « مابى حاجة الى الشراب » قالت : « هو لبن احتلبته من سراب ناقة سعد وقد استودعنيها وأحل لى حلبتها . » قال : « لا » ، ومضت البسوس الى شأنها ، ولبث جساس مطرقاً

وما هى إلا فينة حتى عادت سراب تشخب دماً . واستبانت البسوس ما بها فاذا كليب قد اشتد عليها بسهم فخرم ضرعها ؛ فنفرت وهى ترغو وعادت الى حظيرتها . وما نقم كليب منها إلا أنها تبعت إبلاً له ودخلت ترعى فى حماه

صاحت البسوس : واذلاه ! واجاراه !

وقام جساس يتبين الخبر ، فلما وقف على ما كان قال : « اسكتى ياخالة فليقتلن غدا جمل هو أعظم عقرا من ناقة جارك »

واعتقل رمحه وخرج الى الفلاة يتوقع غرة كليب . وتبعه عمرو ابن الحرث بن ذهل على فرسه ومعه رمحه حتى لقيا كليباً فى حماه فقال له جساس « يا ابن الماجدة عمدت إلى ناقة جارتى فعقرتها » قال كليب « أتراك مانعى أن أذب عن حماى ؟ » ولم يجبه جساس إلا بطعنة قصم بها صلبه ، وثنى عمرو بطمنة من خلفه قطعت بطنه . ووقع كليب وهو يفحص برجله وقال لجساس « أغثنى بشربة ماء » قال « تجاوزت شُبَيْثاً والأحص » [2]

قال الراوى : وكانت الحرب بين بـكر وتغلب ، وسميت حرب البسوس ، وقيـل فى ناقتها « أشأم من سراب » ولبثت الحرب أربعين عاماً . وسأقص عليك من أنبائها عجبا ما

أخرجها : اليوزباشى أحمد الطاهر

---

(١) التأريج الأغراء وسمى أبو فيد المؤرج لتأريجه هذه الحرب

(١) رثأ اللبن حلبه على حامض فخثر . وفى المثل أن الرثيئة تفثأ الغضب أى تسكنه

(٢) موضعا ماء بتهامة

البريد الأدبي

عيد « التيمس » المائة والخمسون

احتفلت جريدة « التيمس » The Times أخيراً بمرور مائة وخمسين عاما على انشائها وأصدرت بهذه المناسبة عدداً خاصاً هو آية من آيات الصحافة الحديثة فى تحريره وفى طبعه ؛ وفيه تقص تاريخها منذ إنشائها ، وتستعرض المراحل والعصور المختلفة التى مرت بها ، والحوادث والأعمال العظيمة التى ساهمت فيها واستطاعت أن تؤثر فى مجراها ، وعلاقاتها ومواقفها المختلفة إزاء الأمبراطورية البريطانية . وقد تلقت « التيمس » بهذه المناسبة سيلاً من التهانى ، من معظم حكومات العالم وملوكه ، ومن سفراء الدول المختلفة فى لندن ومن أقطاب العلم والأدب فى سائر أنحاء العالم

والتيمس فخر الصحافة الانكليزية ، وتاريخها ليس تاريخ صحيفة عظيمة فقط ، ولكنه تاريخ لصفحات باهرة من الجهاد السياسى والعلمى والأدبى ، ومعرض بديع لتقدم الصحافة الكبرى خلال القرن الماضى . وقد انشئت « التيمس » فى سنة ١٧٨٥ ، أنشأها جون والتر (الأول) باسم « السجل اليومى العام » Daily Umiversal Register ثم غير الاسم فى يناير سنة ١٧٨٨ الى اسمها الحالى وهو « التيمس » . وكان جون والتر صحفياً بالفطرة ، وافر المقدرة والبراعة ؛ وكان شعاره أن يخرج صحيفة معتدلة الثمن سباقة الى الأخبار متنوعة المواد قوية عواردها واعلاناتها ، وفى سنة ١٨٠٣ خلفه ولده جون والتر (الثانى) فى تحرير الصحيفة وإدارتها ؛ وفى عهده دخلت التيمس فى عهد جديد من القوة والتقدم ، وقامت بدور هام فى إذاعة حوادث الحروب النابوليونية وفى الدعاية ضد نابليون ، وكثيراً ما كانت تسبق الى نشر الأخبار قبل أن تعلم بها الحكومة . وفى سنة ١٨١٧ تولى تحريرها السيا[illegible] كاتب قوى هو توماس بارنس ، فسار بها سريعاً فى طر[illegible] السياسية ؛ وكان يستخدم لمعاونة أقطاب الأحزاب والحكومة مثل دزرائيلى ولورد بروجهام وسترلنج فى الدعوة الى سياسة مستقلة تميل الى « المحافظة »

وبلغ من نفوذ بارنس أن وصف بأنه « أقوى رجل فى انكلترا » وفى ذلك العهد بلغت « التيمس » فى تنظيم الأخبار الداخلية والخارجية والأبواب الصحفية ذروة القوة والطرافة ، واشترك فى تحرير أقسامها الأدبية والفنية اعلام العصر وفى مقدمتهم ماكولى وفاكرى وتوماس مور ؛ وتقدم استعدادها الفنى والطباعى تقدماً مدهشاً

ولما توفى بارنس سنة ١٨٤١ خلفه فى تحرير القسم السياسى تاديوس دلاين . وفى أيام حرب القرم (سنة ١٨٥٣) بعثت التيمس إلى ميدان القتال بمراسل حربى شهير هو وليم رسل ، وذاعت شهرة التيمس يومئذ بما كانت تنشره من الملاحظات الفنية والأخبار الطريفة . واستمر دلاين فى إدارة التيمس السياسية أعواماً طويلة ، وجعل منها أداة سياسية مستقلة ، وكان من معاونيه فى تحرير القسم السياسى أعظم ساسة العصر وكتابه . ولما توفى جون والتر الثانى سنة ١٨٤٧ ، خلفه ولده جون والتر الثالث فى ملكية الجريدة ؛ وفى عهده تقدمت من الوجهة الفنية تقدماً عظيماً ، وزودت بأحدث آلات العصر ، وخلف دلاين توماس شنرى فاستمر فى توجيه سياسة التيمس حتى وفاته سنة ١٨٨٤ ، ثم خلفه (بكل) ؛ واشتهرت التيمس فى هذا العهد بحملاتها على جلادستون ومعارضته فى سياسة « الهوم رول » فى ارلنده ، وحملاتها على الزعماء الارلنديين وما وجهته إليهم من تهم اقتضت تأليف لجنة حكومية للتحقيق ، وغرمت التيمس فى هذا السبيل مبالغ طائلة ، ووقعت على رغم انتشارها وازدهارها فى مصاعب مالية ولما توفى صاحبها جون والتر الثالث فى سنة ١٨٩٤ ، وضع نظام للفصل بين ملكية الجريدة وآلات الطباعة ، وبذلت محاولات عديدة لأنقاذ الصحيفة من متاعبها المالية ولكنها برغم ذلك أشرفت على الأفلاس ووصل أمر الشركة الى القضاء ، فقرر بيعها . وفى سنة ١٩٠٧ عرضت التيمس بعد مائة واثنين وعشرين عاماً من تأسيسها للبيع ، فاشتراها اللورد نورثكليف وتولى ادارتها موبرلى بل ؛ وجددت آلاتها وعددها الفنية ؛

وفى عهده أنشأت التيمس ملحقها الأدبى ، وملحقاً للتربيــة ، وملاحق أخرى . ولما توفى سنة ١٩١١ خلفه جوفرى داوزون مديرها الحالى . واستمرت التيمس تخفض من ثمنها حتى بيعت بينس واحد (سنة ١٩١٤) وترتب على ذلك مضاعفة انتشارها حتى بلغ ماتبيعه ١٥٠ ألفا . ودخلت الحرب الكبرى بهذا الرقم ؛ وأدت أثناء الحرب خدمات جليـــلة للجيش والصليب الأحمر ، واستطاعت أن تجمع للصليب الأحمر وحده ستة عشر مليوناً . وأصدرت أثناء الحرب تاريخها الشهير عن الحرب ودائرة المعارف للحرب وغيرها

وفى سنة ١٩٢٢ توفى لورد نورثـكليف فاشترى ملـكية الصحيفة جون والتر (الرابع) وعادت التيمس بذلك الى ملـكية الأسرة التى أنشأتها ، واشترك معه الماجور آستور

هذا هو ملخص تاريخ « التيمس » ولا تزال الصحيفة الـكبرى الى اليوم محتفظة بنزعتها المستقلة مع ميل الى المحافظة . ومع أنها تقل فى الانتشار عن كثير من الصحف الانـكليزية الأخرى ، فأنها لا تزال فى طليعتها من حيث النفوذ السياسى والمقام الأدبى

مباحث علامة اجتماعى

يقوم العلامة الاجتماعى الرومانى الأستاذ جوستى بأبحاث وتجارب طريفة لأثبات نظرياته الاجتماعية وتطبيقها . والأستاذ جوستى من أقطاب علم الاجتماع المعاصرين ، وقد ذاع صيته ونظرياته فى جميع الأوساط العلمية الغربية ؛ وكان الأستاذ مدى حين وزيراً للمعارف الرومانية ، وهو الآن أســتاذ الاجتماع فى جامعة بوخارست ورئيس المعهد الاجتماعى . وقد دعته جامعة باريس أخيراً ليقوم بعرض بحوثه ونظرياته ؛ وتلقت جريدة « الجورنال » منه شرحاً لطريقته خلاصته ، أنه يقوم بأبحاث جغرافية وجنسية واقتصادية . وفولـكلورية (ما يتعلق بالأمثال والعادات الشعبية) فى القرية ويدرسها كوحدة اجتماعية ، وأنه هو وتلاميــذه قد اختاروا بعض قرى ترانسلفانيا ، وقسموا السكان أصنافاً بحسب السن والحالة والأسرة ؛ واختاروا بعض الأسر ووضعوا لها شجرة أنسابها ، ووضعوا تاريخاً للـكياتها وتقلب أحوالها ، وكذلك وضعوا قوائم خاصة بأحوالها المعيشية وتربيتها وميزانياتها إلى غير ذلك . ويعتمد الأستاذ جوستى على هذه المباحث الدقيقة فى وضع نظريات بخصوص الوحدة الاجتماعية الحديثة ، وهى القرية . وهو فى طريقته هذه يشبه ابن خلدون فى اعتبار القبيلة وحدة اجتماعية للبادية وبناء نظرياته على أساس أحوالها وتطوراتها

الثقافة النسوية النازية

تقوم اليوم فى ألمانيا ثقافة نسوية خاصة هى إحدى ذيول الحركة الفـكرية النازية ؛ وقد تناولت إحدى الزعيمات النازيات شرح هذه الثقافة فى جريدة « بيرزن تسيتونج » وتحدثت عن مسألة الأزياء وأثرها فى تطور نفسية المرأة ؛ فقالت إن الثقافة النسوية الجنوبية لاتناسب الشعوب الشمالية ؛ ذلك أن الجنوب يجد مثله الأعلى فى المرأة فى الشباب والجمال الغض ، ولـكن الشمال يراه فى الأمومة . وتتطور الأزياء تبعاً لهذه المثل . وقد كان لاقتباس الأزياء وأسباب التجميل الجنوبية أثر سىء فى المرأة الشمالية ، فى جسمها وفى أذواقها وفى روحها . ولهذا يدعو النازى الى الرجوع الى المثل الشمالية القديمة فى رد المرأة الى حظيرة الأسرة والأمومة

الذكرى الالفية للمتنبى

استفاض الحديث فى جميع الأقطار العربية عن عزم الحكومة العراقية على اقامة مهرجان فخم للشاعر العبقرى أبى الطيب أحمد المتنبى بمناسبة مرور ألف عام على وفاته . وقد تريثنا فى نشر هذا الخبر لأنه لم يَعْدُ أن يكون حديثاً من أحاديث المنى لم تعد به حكومة ولم تتعهد به جماعة . على أننا ما شككنا قط فى أن العراق سيهتبل هذه الفرصــة ليجعل من هذا العيد الأدبى مظاهرة عربية تحتشد لها قلوب العرب وأصدقاء العرب ليهتفوا على ضفاف الرافدين لهذا الشاعر الخالد . وكان اليقين أن العراق منبت هــذا النبوغ لا يدع السبق الى هذا العيد لقاهرة كافور أو لحلب سيف الدولة ، ولـكننا تلقينا من صديقنا الشاعر الجليل الأستاذ الزهاوى كتاباً يذكر فيه أنه كان قد أعد لمهرجان المتنبى قصيدتين صـغيرة وكبيرة ، فلما رأى قومه انصرفوا عن هذه الفـكرة فلم يعودوا يحفلون بها ولا يعملون لها ، بعث بهما الى الرسالة ، فنشرنا الصغرى فى عدد سابق ، ونشرنا الـكبرى فى هذا العدد . ويقينا نقلب الخبرين نقتنا فى المخبر ، وعلمنا بعصبية العراق ، فلا نجد له مساغاً فى وجه من الوجوه

وفاة فيلسوف وزعيم صينى

من أنباء الهند الصينية أن الزعيم الفيلسوف « بام بوى شان » قد توفى فى مقامه المنعزل على مقربة من « هوى » (الهند الصينية) فى نحو السبعين من عمره ؛ وكان « بام بوى شان » من تلاميذ المدرسة الصينية القديمة ، ومن أقطاب مفكريها ؛ بدأ حياته

[البقيــة على صفحة ١٦٠]

من روائع الشرق والغرب

المساء

Le soir

لشاعر الحب والجمال لامرتين

قال لامرتين : « كنت منذ شهور قد فقدت موضوع الحماسة والحب ، فذهبت أقبر نفسى فى ظلام العزلة عند أحد أعمامى فى قصر (دورسى) لدى تلك الجبال الموحشة الشجراء من أعالى بورجونيا ، وهناك نظمت هذه الأبيات فى تلك الغابات التى تحيط بذلك القصر »

أقبل المساء ، وهمدت الأصوات ، وأنا جالس على الصخور الجُرْد أتابع بنظرى مركبة الليل وهى تتقدم فى معامى الفضاء

ثم لاحت الزُّهرة فى حاشية الأفق ، وأرسل الكوكبُ العاشق على الأرض ضوءه الخفى ، فشمشع تحت قدمىَّ خضرةَ الروض

ومن دوحة الزان ذات الورق الفينان واللون الأحْوَى ، أسمع اختلاج الأغصان ، كما تسمع خفقان الأشباح بين أجداث الموتى

وعلى حين فجأة انفصل من كوكب الليل شعاع تسلل إلى جبهتى الساهمة ، ومس فى لِينٍ عينى الحالمة

أيهذا الانعكاس اللطيف للكرة الملتهبة ! أيها الشعاع الباهر ماذا تبتغى منى ؟ أجئت تحمل إلى أحشائى المضطربة قبس النور إلى نفسى وعينى ؟

أهبطتَ من السماء لتفضى إلىَّ بسر العالم ، وتلقى علىَّ دفائن هذا الكوكب الذى يعدك النهار إليه ؟

هل أرسلتك عناية [illegible] إلى البؤساء ، لتضىء قلوبهم بنور الرجاء ؟

هل هبطت لتبدد الظلام عن وجه الغد لتلك القلوب الكسيرة التى تضرع إليه ؟

أيها الشعاع الالهى أأنت فجر ذلك اليوم الذى لا انقضاء له ؟

إن قلبى يشتعل فى ضوئك ، وشعورى يتملكه مرح مجهول ، وفكرى منصرف إلى أولئك الذين مَحا ظلهم فى الحياة ؛ فهل أنت أيها الضوء اللألاء ، أرواح أولئك الأحِبَّاء ؟

أنا أشعر بأنى أقرب ما أكون إليهم ! فلعل أرواحهم السعيدة قد لبست صورهم البعيدة ، ثم عادت تطوف بهذه الربوع ، وتجوس خلال هذه الغيضة

فاذا كنت أيتها الأشعة أشباح الأحبة ، فعودى إلىَّ فى كل مساء ، بعيدة عن الغوغاء والضوضاء ، لتمتزجى بأفكارى وأحلامى ، وتنيرى ظلام ليالىَّ وأيامى

أعيدى السلام إلى صدرى المضطرب ، والحبَّ إلى قلبى الملتهب ، واسقطى على كبدى كما تسقط أنداء الليل على قيظ النهار ولفح الهاجرة

تعالى إلىَّ وأقبلى علىَّ ! ... ولكن أبخرة محزنة تصاعدت من جنبات الأفق فحجبت ذلك الشعاع اللطيف ، ثم غابت هى وهو فى ظلام كثيف !

الزيات

دجـــلة

للأديب التركى شهاب الدين

ترجمة الدكتور عبد الوهاب عزام

قطعة منثورة كتبها أديب كبير من أدباء الترك المعاصرين — جناب شهاب الدين الذى أحزن الأدباء نعيه العام الفائت

ولست أرى القطعة تمثل حياة البادية عامة ، ولكن حياة جماعة على شاطىء دجلة ، ومهما يكن فقد أحسن الكاتب تصوير مارأى حقيقة أو خيالا ، وهى نموذج من الأدب التركى الجديد جديرة باطلاع قراء الرسالة

تجرى دجلة واسعة كذكاء العرب ، قوية كروح العرب ، تلوح مرة لجة ترابية مائجة ، ومرة شريطاً من الحرير سماوىّ اللون ، وحيناً تتمعّج كأزقة بغداد ، وآخر تسير أقوم من شوارع باريس ، وهنا تتحوّى مضطربة ، وهناك تمتد مطمئنة ..

هذا النهر المبارك الذى يحمل فى أحضانه ربيعاً من البركات يتَفصَّى من الأبنية البشرية عند القُرنة ، فينفذ فى غابات النخيل فكأنه بلغ بيئته المحبوبة ، فموجه أكثر حرّية وأشد زخوراً وأعظم وقاراً وجرأة

يعيش النبات فى البلاد المعتدلة والشمالية بمساعى الانسان ، وهنا فى المناطق الحارة على العكس ، يعيش الانسان فى حمى الأشجار والأعشاب ، ولا سيما غابات النخيل

يزيدنى النظر والتأمل إيماناً بأن سكان هذا الاقليم هى هذه الأشجار المهيبة ، وما أبناء نوعنا إلا ضيوف ظلالها . ترى عيناى الآن نخلة فخوراً[1] متفرّدة ، فيالـه كيف سمقت مزهوّة ، وكيف نمت وانتشرت عُسُبها وخوصها فى أبهة وجلال . هذه النخلة تنادى فى كبرياء وعظمة أن هذه التربة لها ، وأن غيرها لا يستطيع أن يكون مالكا طبيعياً لهذه الأرض

إذا ما انتهت غابات النخل بعماراتها[2] الخضراء انطفأت الحياة على شاطىء النهر . فلا شىء يبدّل قسوة الصحراء هناك إلا كثبان الرمال الشاحبة التى تبدو فى الأفق صغيرة كأنها القبور ؛ والى الجانبين بحر من الرمل ليس له ساحل . وها نحن أولاء نشق سكوت الصحراء وسكونها . لا حجر ولا شجر ، ولا حيوان ولا ظل ؛ ولكن ضياء – ضياء مطرد يزيغ البصر من كل جانب . لا حركة ولا شية من حركة إلا ملاعب الضياء . وعلى الكائنات التى حولنا ركود وصمت ، وضياء محيط مسيطر ، دائم لا يحول . يحسب الانسان أن هذين الشاطئين لم يهتزا بالحياة قط ، ولا دوى عليهما صوت قط ، ولا وقع عليهما ظل قط . ولدا من الأزل بغير حياة ، وكذلك يذهبان الى الأبد

انبسطت هذه الصحراء الذهبية الخالية من الأنس ، والغُفل من الصناعة . ثم انبسطت حتى صارت جمالاً نائماً غير محدود

سأكتفى بتسجيل المشاهد صادقاً كالسيما محرراً من قيود البلاغة . هاهنا قرية فقيرة تؤلفها عدة من أكداس اللَّبن جاثمة على الرمل المقفر ، مغبرّة كالتراب ، ميتة كالصحراء ، أشد اقفاراً من الخرابة المهجورة ، كأنما الرمال اختمرت ثم رَبت فكانت القرية . ولو لم أر نفراً من البُداة جالسين القرفصاء لظننت أن كلاب البحر[1] أنشأت هذه القرية الحزينة . كذلك كانت فى فقرها وحقارتها . . . . ما أهل البادية إلا نبات بشرى غريب ، سىء الجد ، لا سعى دائب فى الدماغ ، ولا عمل عظيم فى العضلات ، كل قُوى حياتهم مصروفة الى القعود والنوم والهضم والتناسل ، ينمو واحدهم كجذع نخلة فيكبر فيثمر فيجفّ . كذلك ترجمة كل أطفال البادية

إنما يشكو البدو أربعة أشياء : الذباب والحر والجوع والجُباة . فأما الذباب فيذبه ، وأما الحرّ فيروّحه بسعف النخيل ، وأما الجوع فيدفعه بما يلتهم من الأرز الكثير ، وأما الجباة فكلما ذكرهم حرّق الأرّم من تحت شاربيه

تتجلى روح الطفولة فى بنى الصحراء جميعاً ، صغيرهم وكبيرهم ؛ فمن كل شىء سرور وضحك ، ومن أتفه الحادثات وسيلة الى القيل والقال ، والظل بل العدم ينطقهم ويضحكهم ساعات . وهم ماداموا أيقاظاً يتحدثون ويضحكون ، ويضحكون ويتحدثون ، والعالم عندهم لعبة كبيرة ، وحادثات العالم لعب ولهو . البدوى يعمل قليلاً . يعمل فى غير جدّ ، يعمل لتكرار ما أورثه آباؤه . لا يحب التغيير ، وهو غريب عن دخائل الأشياء ، قد نسى الماضى ، وتوهم الغد جنيناً لمّا تحمله أمه . وحساب ربحه وخسارته محدود بأربعة وعشرين ساعة . يسكره السرور ويُتيمه اللون والرُّواء ؛ مولع بالعطر والسكر ، الصباح الذى يأكل فيه العسل سعيد ، والمساء الذى يقاسى فيه البصل شقى ، فبالعسل والبصل يتحرك ميزان سعادته . وإذا نالت يده رائحة ذكية ، ولقمة حلوة ، وامرأة مؤنسة ، حسب نفسه أسعد ملوك العالم . فراشه الرمل ، ولحافه السماء ؛ وأجمل أحلامه غصن من الياسمين ، وقدح من الجُلاب ، وليلىّ لها عين غزال . قلتُ إنه طفل ، طفل طيب ...

(١) الفخور من النخل عظيمة الجذع والسعف

(٢) العمارة غطاء الرأس

(١) ضرب من الحيوان البحرى يبنى بيوته من الطين

كل قرية لها توابع حيوانيـة جديرة بالتأمل . فهذه إبل راغية ، هادرة ، رازمة ، تهزأ رقبها الطويلة بما حولها من الجدر والحظائر . وهذا قطيع من المعز ينتف جلد الأرض الهزيل ، هذه الأشواكَ المغبرّة . وهنا كلب ينبح السفينة من الساحل ، وهناك دجاجات تطير من قمامة إلى أخرى . وفى الهواء عدة من الحمائم . وهذه جاموسة مدت رأسها إلى النهر ترى قرنيها المزينين فى جبهتها العاطلة من الفكر ، وبين الحين والحين تطأطئ إلى الماء لتشرب جرعة كبيرة من صورة السماء

وفى الفينة بعـد الفينة يبرز رأس امرأة من كوّة كوخ . ينشقّ فمها الحائر الأبكم عن ابتسامة ميتة ، وجهها كله برقع من جلد متكنّع . وكل زينتها وحليّها ولباسها ثوب فى لون الطين . تحسب كل واحدة منهن جسـداً بغير روح قد التفّ فى كفن أسود . كذلك حُرمنَ الحياة . وينظرن إلينا نظرات مترددات — نظر الظبى إلى صياده . وكل رجل عندهن حاكم ظالم

أطفال البـداة يثيرون فى القلب أبلغ رحمة : أيديهم عصى ضامرة ، وعيونهم يملؤها ابتسام مضطرب ، وأبدانهم الراجفـة فى القُمُص الزرقاء نحيلةٌ شاحبة ضعيفة هامدة ؛ يطيرون وراء السفينة ساعات من أجل تمرة واحدة . أو لقمة من الخبز . صائحين ضاحكين . ينقّطون الساحل بأشباحهم السوداء

وارحمتاه لأطفال البادية البائسين !

مهما يكن العلَم الخافق فوق الصحراء ، فان لها حاكما طبيعياً هو الشمس

الشمس توقد هنا كل موجود ، وتُلهب كل شىء : كل الأشياء التى حولنا تسبح من الشروق إلى الغروب فى ملاعب نورية مختلفة الألوان . وستنقلب السماء والتلال والأرض والأفق حتى ماء النهر كل يوم من الفجر إلى الشفق ، فى دقائق من ألوان الورد والبنفسج ، والذهب والزمرد ، والياقوت والفيروزج . وهنا يولد الضياء كل يوم ويتلوّن ويتلألأ ، ويتحلل ويتجمع ، ويذوب ويَغيب . ثم يستأنف الليل حياته فى مطر من النجوم يتجلى فى قاع النهر

نشهد الآن أجملَ الساعات — ساعةَ أفول الشمس ، والنهر والآفاق مغشّاة بأشعة العقيق والكهرمان . وينبعث على ظهر السفينة صوت مؤذّن ينادى [illegible] — هـذا النداء المرتعد فى سكون العشىّ ، هـذا [illegible] الذى يملؤه الوجد ، وتتقسمه السكتات القصير [illegible] فيعلو ، فيصعد الى العيون ، كأنما يبلغ سدة الخالق العظيم . الله أكبر [illegible] أكبر . . .

البريد الأدبى — وفاة زعيم صينى

[بقية المنشور على صفحة ١٥٧]

بتعليم اللغة الصينية والفلسفة فى معاهد سيحون وهتوى ، ولكنه جنح إلى السياسة ، وانضم إلى زعماء الحركة التحريرية ، واستطاع بنفوذه الفكرى والثقافى أن يثير على الحماية الفرنسية دعاية قوية ، وانتهت هذه الدعاية بثورة عنيفة انتهت بمقتل الملك « تاى بين دى توان فو » . وفى سنة ١٩١٣ ألقيت القنابل على حاكم الهند الصينية مسيو البير سارو فى شرفة أحد الفنادق ، ولكنه نجا وقتل بعض حاشيته . واتهم « بام بوى شاز » فى هذه الجناية ، وقضى عليه غيابياً بالاعدام ؛ ولكنه فر إلى الصين . وغدا « بام بوى شان » عندئذ بطلاً وطنياً وزعيماً روحياً وفكرياً للحركة الوطنية على مثـل صن يات صن فى الصين وغاندى فى الهند . ولكن قبض عليه فى شنغهاى سنة ١٩٢٥ . وقدم المحاكمة مرة أخرى فحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة . وعلى أثر الحكم عليه اضطربت الهند الصينية بقلاقل عنيفة فاضطرت السلطات أن تصدر العفو عنه بعد شهرين . وعلى أثر ذلك أذاع الفيلسوف بياناً على مواطنيه قال فيه إنه يعتزل القيادة العنيفة ويدعو منذ الآن الى سياسة الوفاق . وكان هذا التحول أكبر عامل فى ضياع نفوذه السياسى ، فعاش منـذ ذلك الحين فى عزلة ، ينقطع الى تأملاته ونظرياته الفلسفية والروحية التى كانت قبساً جديداً من فلسفة الصين القديمة



3 me Année, No. 83.

Lundi-4-2-1935

بدل الاشتراك عن سنة

ﺼ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع المبدولى رقم ٣٢

عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٨٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ٣٠ شوال سنة ١٣٥٣ — ٤ فبراير سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

مجلس نادر . . . .

نعم مجلس نادر ! وندرته فى طبيعة الغرض منه ، وشخصية الداعى إليه ، وقيمة الجالسين فيه ؛ كان الغرض منه إصلاح ما بين أخى طه وبينى ، وإصلاح ما فسد من ذات البين بين صديقين شىء فى طبع هذا الأدب المعاصر نادر ؛ وكانت الشخصية الداعية إليه هى الآنسة الجليلة (مىّ) ، وشخصية (مى) فى عصور الشرق الأخيرة نادرة ؛ وكان الجالسون فيه الدكتور طه ، والأستاذ مصطفى عبد الرازق ، والدكتور أحمد زكى ، والأستاذ محمد عبدالله عنان ، وتهافتُ هذه العبقريات المختلفة على شعاع لطيف من ذكاء المرأة الشرقية المثقفة نادر ؛ وكان البهو المترف الذى سمَرنا فيه قد انسجم بأثاثه ونظامه وألوانه وضوئه مع ذوق الآنسة الشاعرة ، فكان نمطاً من الحديث الصامت أذكى المشاعر وألهم الأذهان فى الحديث الناطق !

قالت الكاتبة النابهة وقد انتظمنا حولها عقداً كانت هى واسطته : «أرجو أن تكونوا شخصاً واحداً ... » فقال لها الدكتور طه : « نعم وتكونين أنت روحه » وعلى ظَرف هذا الخطاب ، وبراعة هذا الجواب جرى سِقاط الحديث . وكانت الآنسة تُصرِّف الكلام وتساجل هؤلاء الأعلام ببديهة حاضرة ولقانة عجيبة ،

فمثَّلتْ لى صورة من صور أولئك الأديبات اللاتى أنشأن باستعدادهن للأدب مجالس فى عهوده الزاهرة ، كسكينة ابنة الحسين ، والولادة ابنة المستكفى بالله ، ومدامُ دِ رَمْبُوييه ، ومدام جوفرين ، وأضرابهن ممن وفقن بين اللغة والبلاغة ، و بين الأدب والذوق ، و بين الفن والسمو ، ثم وشَّين ثقافة عصورهن بألوان شتى من إناقة المعرض ، وجمال الأداء ، وحسن المبادهة ، فقدَّرت فى نفسى مبلغ ما تفيده المرأة المثقفة فى مناهج الأدب ومظاهر الفكر وقواعد السلوك وأوضاع العُرف ، وقلت : مساكين نحن ! إذا ظفر أدبنا بهذه المجالس ، فأنَّى تظفر مجالسنا بهذه المرأة ؟

لست بطبيعتى وتربيتى رجل صالون ولا حدِّيث مجلس ، لأن المجامع المختلطة التى تدفع الحياء عن الذهن ، وتُذهب الخوف عن اللسان ، وتجعل أطراف الحديث فى متناول كل جالس ، أبَتْها علينا التقاليد ، فأنا أدرك حتى فى هذه الجهة أثر هذه المجالس فى علاج هذا النقص الاجتماعى الموروث

* * *

تشقق الحديث عن صور شتى من لفتات الذهن النشيط ، ثم مسحت (مى) بيدها الساحرة على ما كان بين الصديقين فاذا الماضى يعود كله ، و إذا الحاضر يذهب كله . وعلاقة هذين الصديقين علاقة نشأت مع الصِّبى واستحارت مع الشباب وتوثقت على الزمن ، فلما نال منها العهد المجرم الذى نال من كل شىء جزعت الآنسة الكريمة فيمن جزع ، وظلت تتحين المناسبة لسفارة الوفاق والمودة حتى تم لها ذلك ليلة الأمس !!

وللانسان ماضٍ من الأمكنة والأزمنة والأشخاص لايستطيع مهما جدا أن يسقطه من حياته : فمسقط الرأس ، وملاعب الطفولة ، ومسارح الهوى ، ومغانى الأحبة ، وغنلات العيش ، ورفقة الحداثة ، لا ينسخها فى ذاكرتك ما يمر على عينيك من ضخامة العمران و بسطة السلطان ، وسورة المنصب ، وزحمة المنافسة ، وصور الوجوه ، وتنوع العلائق

ألْهُ عنها بالحاضر إذا شئت ، وأثبت نظرك فى وجه الغد إن استطعت ، فانك صائر ولابد إلى الذكرى بعد الأمل ، ولائذ بأمن الماضى من خوف المستقبل ؛ وحينئذ تجد هذه المراحل السعيدة واضحة فى خيالك ، مشرقة فى نفسك . تجدد عمرك المفقود ، وتحدد زمانك المبهم ، وتفيض على جفاف قلبك شعوراً هادئاً لذيذاً باستحضار ما غيَّبتَ من لذة ، واستذكار ما نسيت من سعادة

كان حسب صديقى وحسبى لحظة من الذكرى تعيد عازب الحلم وتكسر عادية الجدل ، ولكننا كنا وكانت مصر يومئذ تكابد محنة من الطغيان العاسف أوهنت الأعصاب ، وحللت الروابط ، ومدت بين الناس أسباب العلل

* * *

أخى طه !

لقد تعانقنا عند اللقاء كأن لم تكن جفوة ، وتناقلنا الحديث فى المجلس كأن لم تكن خصومة ، وتمنت ربة الدار أن يكون بيننا عتاب فلم نجد ماثلا فى النفس إلا أن كلينا صورة من شباب الآخر وقطعة من وجوده !

تلك كانت جناية العهد البغيض كما قلت : أفرط فيه الجور حتى نسينا العدالة ، وتنكرت المعرفة حتى اتهمنا الصداقة ، وران الشك على القلوب حتى حال بيننا و بين الحقيقة . فالحمد لله الذى أظهرك على الكيد ، وأظفرك بالكائد ، وأعادك موفور الكرامة إلى موضعك

عزيزتى الآنسة مى !

جزعتِ أول الناس لهذا الخلاف الواغل عن باعث من طبعك ، وكتبت فى كف هذا الجدل القاسى بوحى من شعورك ، وسعيت للصلح هذا السعى النبيل بدافع من نفسك ، وكل ذلك وليس بيننا غير العلاقة التى يبرمها الأدب بين أهله على بُعد ! فأنا أسجل لك فى الرسالة هذا الحب الغريزى للخير ، والاخلاص الطبيعى للعلم ، والايمان الصادق بالأدب ، والجهاد المتصل فى تأليف القلوب بالمودة ، وتثقيف العقول بالمعرفة ، وتغذية النهضة الفكرية بالانتاج الخصيب ، واسمحى لى أن أبشر أصدقاء الرسالة وقراءها بأنك قبلت أن تدخلى فى أسرتها ، وأن تحملى نصيبك من دعوتها ، وذلك فضل آخر منك يضاعف الشكر لك ، وفوز جديد للرسالة يجدد الشكر لله

احمد حسن الزيات

بنته الصـــــغيرة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

تتمـــــة

. . . وجاء من الغد أبو يحيى مالكُ بنُ دينار الى المسجد ، فصلى بالناس ، ثم تحوَّل الى مجلس درسه وتَمَكَّفُوا حوله ؛ وكانوا الى بقيّة خبَره فى لهفةٍ كأن لها عُمراً طويلاً فى قلوبهم ، لا ظَمأً ليلةٍ واحدة

وقال منهم قائل : أيها الشيخ ، جُعِلْتُ فِداك ، ما كان تأويلُ الحَسَنِ لتلك الآية من كلام الله تعالى ، وكيف رَجَعَ الكلام فى نفسك مَرْجِعَ الفكر تَتَبَّعُه ، وأصبح الفكر عندك عملاً تحذو عليه ، واتصل هذا العملُ فكان ما أنت فى وَرَعك و . . . ؟

فقطع الامام عليه وقال : هَوِّنْ عليك يا هذا ؛ إن شيخك لأهوَنُ من أن تذهب فى وصفه يميناً أو شِمالاً ، وقد روى لنا الحَسَن يوماً ذلك الخبرَ الواردَ فيمن يُعذَّب فى النار ألف عام من أعوام القيامة ، ثم يدركه عفوُ الله فيخرج منها ، فبكى الحسن وقال : « ياليتني كنت ذلك الرجل ! » وهو الحسنُ يا بنيّ ، هو الحسن

فضجَّ الناس وصاح منهم صائحون : يا أبا يحيى ، قتلتنا يأساً . وقال الأول . إذا كان هذا فأوشكْ أن يعمنا اليأسُ والقنوط ، فلا ينفعنا عملٌ ولا نأتى عملاً ينفع

قال الشيخ : هوِّنوا عليكم ، فان للمؤمن ظنَّين : ظنًّا بنفسه ، وظناً بربه ؛ فأما ظنُّه بالنفس فينبغى أن ينزلَ بها دون جَمَحَاتها ولا يفتأ ينزل ؛ فاذا رأى لنفسه أنها لم تعمل شيئاً وجب عليها أن تعمل ، فلا يزال دائماً يدفعها ، وكلما أكثرتْ من الخير قال لها : أكْثِرِى . وكلما أقلَّتْ من الشر قال لها : أقلى . ولا يزال هذا دأْبهُ ودأْبها ما بقى ؛ وأما الظنُّ بالله فينبغى أن يعلوَ به فوق الفَترات والعِلل والآثام ولا يزال يعلو ؛ فان الله عند ظنِّ عبدِه به ، إنْ خيراً فله وإنْ شرًّا فله . ولقد روينا هذا الخبر : « كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قَتَل تسعاً وتسعين نفساً ، فسأل عن أعلمِ أهل الأرض ، فدُلَّ على راهب فأتاه ، فقال : إنه قتل تسعاً وتسعين نفساً ، فهل له من توبة ؟ قال : لا . فقتَلَه فكمَّل به مائة ! ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدُلَّ على رجلٍ عالم ، فقال له : إنه قتل مائة نفس ، فهل له من توبة ؟ قال : نعم ؛ ومَن يحول بينك وبين التوبة ؟ إنطلِقْ الى أرض كذا وكذا فان بها أُناساً يعبدون الله عز وجل ، فاعبد الله معهم ولا ترجعْ الى أرضك ، فانها أرضُ سَوْء

فانطَلقَ ، حتى إذا نصَّفَ الطريق أتاه ملكُ الموت ، فاختصمت فيه ملائكةُ الرحمةِ وملائكةُ العذاب ؛ فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مُقْبلاً بقلبه الى الله . وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قطّ . فأتاهم مَلكٌ فى صورة آدميّ فجعلوه حَكَماً بينهم ، فقال : قِيسوا ما بين الأرْضَين ، فالى أيهما كان أدنى فهوَ له . فقاسوا فوجدوه أدنى الى الأرض التى أراد ، فقبضته ملائكةُ الرحمة !

قال الشيخ : فهذا رُجل لما مشى بقلبه الى الله حُسِبت له الخطوةُ الواحـــدة ، بل الشبر الواحد ؛ ولو أنه طوّف الدنيا بقدميه ولم يكن له ذلك القلب ، لكان كالعظام المحمولة فى نعش ؛ قبرُها فى الشرق هو قبرها فى المغرب ، وليس لها من الأرض ولا للأرض منها إلا معنى واحدٌ لا يتغير ؛ هو أنه بجملته ميّت ، وأنها بجملتها حُفْرة

والانسان عند الناس بهيئة وجهه وحِلْيتِه التى تبدو عليه ، ولكنه عند الله بهيئة قلبه وظنّه الذى يظنُّ به ؛ وما هذا الجسم من القلب إلا كقشرة البيضة[1] مما تحتها . فيالها سخريةً أن تزعم القشرة لنفسها أن بها هى الاعتبار عند الناس لا بما فيها ، إذ كان ما تحويه لا يكون إلا فيها هى ؛ ومن ثمّ تُبعِدُ فى حماقتها فتسأل : لماذا يرمينى الناس ولا يأكلوننى . . . ؟

إن هذه الأخلاقَ الفاضلةَ فى هـــذا الانسان لا تجد تمامَ معناها إلا فى حالة بعينها من أحوال القلب ، وهى حالة خشوعه على وصفها الذى شرحته الآية الكريمة : « أَلَمْ يَأْنِ للذين آمَنُوا أن تَخْشَعَ قُلُوبُهمْ لِذِكْرِ اللهِ وما نَزَلَ مِنَ الحقّ . »

(١) قشرة البيضة العليا اليابسة تسمى القيض بفتح القاف وسكون الياء ، والقشرة الداخلة الملتزقة بالبياض تسمى الغرقئ بكسر الغين والقاف

فالأخلاقُ الفاضلةُ محدودةٌ بالله والحقِّ معاً ، وهى كلها فى خشوع القلب لهذين ؛ فان من القلب مخارجَ الحياة النفسية كلها

قال الشيخ : وأنا منذ حفظتُ عن الحسن تأويلَ هذه الآية ، واستبنتُ بها ، مضيتُ أعيشُ من الدنيا فى تاريخ نفسى لا فى تاريخ الدنيا ، وأدركتُ من يومئذٍ أنْ ليس حفظ القرآن حِفظَه فى العقل ، بل حفظُه فى العمل به ؛ فان أنت أثبت الآية منه وكنت تعمل بغير معناها ، وتعيش فى غير فضيلتها فهذا — ويحك — نسيانُها لا حفظُها . وقد كان قومُنا الأوّلون بمعانيه كالشجرة الخضراء النامية ؛ فيها ورَقُها الأخضر وزهرُها وثمرُها ، وعلى ظاهرها حياةٌ باطنها ؛ فلما ثبتَ الناسُ على الشكل وحده ، ولم يبالوا القلبَ وأحوالَه أصبحوا كالشجرة اليابسة ؛ عليها ورقُها الجافُّ ليس فى بقائه ولا سقوطه طائل

ما أصبحتُ ولا أمسيت منذ حفظتُ تفسير الآية إلا فى حياةٍ منها ، وهذه الآية هى دلّتني بمعانيها أن ليست الحياةُ الأرضيّةُ شيئاً إلا ثورةَ الحيِّ على ظُلْم نفسه ، يستكيفُ عنها أكثرَ مما يستجرُّ لها ؛ والناسُ من شقائهم على العكس يستجرُّون أكثرَ مما يستكيفُون ، وإنما السعيدُ مَن وجد كلماتٍ روحانيةً إلٰهيةً يعيشُ قلبُه فيهن ، فذاك لا يعمل أعمالَه كما يأتى ويتفق ، بل يحذو على أصل ثابت فى نفسه ، ويختار فيما يعمل أحسنَ ما يعمل ؛ ومِن ثمّ لا يكون جهادُه مُراغمةً أو خضوعاً فى سبيل الوجود كالحيوان ، بل فى سبيل صحّةِ وجوده ؛ ولا يكون غرضه أن يلابِسَ الحياةَ كما تأخذه هى وتدَعُه ، بل أن يحيا فى شرف الحياة على ما يأخذها هو ويدَعُها

إن الشقاء فى هذه الدنيا إنما يجُرُّه على الانسان أن يعمل فى دفع الأحزان عن نفسه بعقارَقَتِه الشهوات وباحساسه غرورَ القلب ؛ وبهذا يُبعد الأحزان ليجلبها على نفسه فى صورٍ أخرى !

***

قال الشيخ : وكان مما حفظته من تفسير الحَسَن قوله :

إن كل كلمة فى الآية تكاد تكون آية ، وليست الكلمةُ فى القرآن كما تكون فى غيره ، بل السُّمُوُّ فيها على الكلام ، أنها تحمل معنًى وتومىء إلى معنًى وتستتبعُ معنى ؛ وهذا ما ليس فى الطاقة البشرية ، وهو الدليل على أنه « كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آياتُه ثمّ فُصِّلَتْ »(١)

يقول الله تعالى : « ألم يَأنِ للذين آمنوا أنْ تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق »

« ألم يأنِ » هذه الكلمة حثٌّ ، وإطماعٌ ، وجدالٌ ، وحجة ؛ وهى فى الآية تُصرّح أن خشوع القلب الذى تلك صفتُه هو كمال للايمان ، وأن وقت هذا الخشوع هو كلُّ العمر وكيف يعرف المؤمنُ أنه (سيأنِى) له أن يعيش ساعة أو ما دونها ؟ إذَنْ فالكلمةُ صارخةٌ تقول : الآنَ الآنَ قبل ألّا يكون آن . أىْ : البدَارَ البدَارَ ما دمتَ فى نَفَسٍ من العمر ؛ فان لحظة بعد (الآن) لا يضمنها الحىّ . وإذا فَنِى وقتُ الانسان انتهى زمنُ عمله فبقى الأبد كله على ما هو ؛ ومعنى هذا أن الأبد للمؤمن الذى يدرك الحقيقة ، إنْ هو إلا اللحظةُ الراهنة من عمره التى هى (الآن) . فانظر — ويحك — وقد جُعِلَ الأبد فى يدك ؛ انظر كيف تصنع به ؟

تلك هى حكمة اختيار اللفظة من معنى (الآن) دون غيره على كثرة المعانى

ثم قال : « للذين آمنوا » وهذا كالنَّصِّ على أن غير هؤلاء لا تخشع قلوبُهم لذكر الله ولا للحق ، فلا تقومُ بهم الفضيلة ، ولا تستقيم بهم الشريعة ، وعالِمُهم وجاهلُهم سواء ؛ لا يخشعان إلا للمادة ؛ وكأن إنسانهم إنسانٌ ترابىّ ، لا يزال يضطربُ على مَكَرِّ الليل والنهار بين طرفين من الحيوان : عيشِه وموتِه ؛ وما تقسو الحياةُ قسوتَها على الناس إلا بِهم ، وما ترقُّ رقّتَها إلا بالمؤمنين

وجَعل الخشوعَ للقلوب خاصةً ، إذ كان خشوعُ القلب غير خشوع الجسم ؛ فهذا الأخير لا يكون خشوعا ، بل ذلاً ، أو ضَعَةً ، أو رياءً ، أو نفاقاً ، أو ما كان . أما خشوع القلب فلن يكون إلا خالصاً مُخلَصاً مَحْضَ الإرادة

واشترطَ « القلبَ » كأنه يقول : إنما القلب أساسُ المؤمن ، وإن المؤمن ينبع من قلبه لا من غيره ، متى كان هذا القلب خاشعاً لله وللحق . فان لم يكن قلبه على تلك الحال ، نَبَعَ منه الفاسقُ

---

(١) طريقتنا فى اكتناه إعجاز القرآن أن الكلمة الواحدة من كلماته لها جهات عدة ؛ كما ترى فيما نشرحه من تفسير هذه الآية ؛ وفيما جئنا به من تفسير آيات سبقت فى المقالات الأخرى ؛ فالبحث فى فهم القرآن يجب أن يكون فى اللفظة ووجه اختيارها وسياق تركيبها وما تدل عليه فى كل ذلك ، وما يدل كل ذلك بها . وقد بسطنا هذا فى كتابنا إعجاز القرآن

والظالم والطاغية وكلُّ ذى شر . ما أشبهَ القلبَ تنفرعُ منه معانى الخُلُق، بالحبّة تتسرحُ منها الشجرة؛ فخُذْ نفسَك من قلبك كما شئت؛ حلواً من حلوٍ ومُرّاً من مُرّ

وخشوعُ القلب لله وللحق، معناه السموُّ فوق حب الذات وفوق الأثرة والمطامع الفاسدة؛ وهذا يضع للمؤمن قاعدةَ الحياة الصحيحة، ويجعلُها فى قانونين لا قانونٍ واحد؛ ومتى خشع القلب لله وللحق عَظُمتْ فيه الصغائر من قوّةِ إحساسه بها، فيراها كبيرةً كبيرةً وإن عَمِيَ الناسُ عنها، ويراها وهى بعيدةٌ منه بمثل عين العُقاب، يكون فى لُوحِ الجوّ ولا يغيب عن عينه ما فى الثّرَى

وقد تخشع القلوبُ لبعض الأهواء خشوعاً هو شرٌّ من الطغيان والقسوة؛ فتقييدُ خشوعِ القلب «بذكر الله» هو فى نفسه نَفْيٌ لعبادةِ الهوى وعبادةِ الذاتِ الأنسانية فى شهواتها. وما الشهوةُ عند المخلوق الضعيف إلا إلـهُ ساعتها. فيا ما أحكمَ وأعجبَ قولَ النبى صلى الله عليه وسلم: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يسرقُ السارقُ حين يسرق وهو مؤمن، ولا يَشربُ الخمرَ حين يشربها وهو مؤمن». جَعَلَ نزعَ الإيمان موقوتاً «بالحين» الذى تُقترَفُ فيه المعصية؛ إذ لم يكن الله عند هذا الشقىّ هو إلـهَ ذلك «الحين»

والخشوعُ لِمَا «نزَلَ من الحقّ» هو فى معناه نَفْىٌ آخرُ للكبرياء الأنسانية التى تُفسِد على المرء كل حقيقة، وتخرج به من كل قانون؛ إذ تجعل الحقائق العامة محدودةً بالإنسان وشهواته، لا بحدودها هى من الحقوق والفضائل

ويخرج من هذا وذلك تقريرُ الأرادة الأنسانية، وإلزامُها الخيرَ والحقَّ دون غيرهما، وقهرُها للذّات وشهواتها، وجعلُها الكبرياءَ الأنسانية كبرياءَ على الدنايا والخسائس، لا على الحقوق والفضائل. وإذا تقرر كل ذلك انتهى بطبيعته إلى إقرار السكينة فى النفس، ومحوِ الفوضى منها، وجَعْلِ نظامها فى إحساس القلب وحده؛ فيحيا القلبُ فى المؤمن حياةَ المعنى السامى، ويكون نبضُه علامةَ الحياة فى ذاتها، وخشوعُه لله وللحق علامةَ الحياة فى كمالها

وقال: «ما نَزَلَ من الحقّ» كأنه يقول: إن هذا الحق لا يكون بطبيعته ولا بطبيعة الأنسان أرضيًّا، فاذا هو ارتفع من الأرض، وقرّره الناسُ بعضُهم على بعض، لم يجاوز فى ارتفاعه رأسَ الأنسان، وأفسدتْه العقول؛ إذ كان الأنسان ظالماً متمرّداً بالطبيعة، لا تحكمه من أول تاريخه إلا السماء ومعانيها وما كان شبيهاً بذلك مما يجيئه من أعلى؛ أىْ بالسلطان والقوة؛ فيكون حقاً «نازلاً» مُتدفّعاً كما يتصوّبُ الثِّقْلُ من عالٍ، ليس بينه وبين أن ينفذ شىء

والخشوعُ لما نزل من الحق ينفى خشوعاً آخر هو الذى أفسد ذاتَ البينِ من الناس، وهو الخشوع لما قام من المنفعة وانصرافُ القلب اليها بإيمان الطمع لا الحق

وبجملة الآية على ذلك الوجه يتحقق العدلُ والنَّصفَةُ بين الناس؛ فيكون العدل فى كل مؤمنٍ شعوراً قلبياً، جارياً فى الطبيعة لا مُتكلّفاً من العقل؛ وبهذا وحده يكون للانسان إرادةٌ ثابتة على الحق فى كل طريق، لا إرادةٌ لكل طريق، وتستمرّ هذه الأرادة مُتّسقةً فى نظامها مع إرادة الله، لا نافرةً منها ولا متمرّدةً عليها؛ وهذا وذاك وذلك يُثبّت القلبَ مهما اختلفت عليه أحوال الدنيا، فلا يكون من إيمانه إلا سموُّه وقوّتُه وثباتُه، وينزل العمرُ عنده منزلةَ اللحظة الواحدة، وما أيسرَ الصبرَ على لحظة! ما أهونَ شرّ «الآن» إن كان الخيرُ فيما بعده

ألمْ يأنِ؛ ألمْ يأنِ؛ ألم يأنِ...

***

قال الشيخ: وكان الحَسَنُ فى معانيه الفاضلةِ هو هذه الآيةَ بعينها؛ فما كانت حياتُه إلا اسلاميةً كهذا الكلام الأبيض المُشرق الذى سمعتُه منه؛ شعاره أبداً: «الآنَ قبل ألاّ يكونَ آن.» وإمامُه: «خُذْ نفسَك من قلبك.» وطريقتُه «شرفُ الحياة لا الحياةُ نفسُها»

وكان يرى هذه الحياة كوَقعة الطائر؛ هى عملُ جناحين مُستوفِزَينِ أبداً لعملٍ آخر هو الأقوى والأشدّ، فلا ينزلان بطائرهما على شىء إلا مطوِيّين على قدرةِ الارتفاع به، ولا يكونان أبداً إلا هَفْهافَين خفيفين على الطيران؛ إذ كانا فى حكم الجوّ لا فى حكم الأرض، وآلةُ الوقوع والطّيَران بالانسانِ شهواتُه ورَغَباتُه؛ فان حطّته شهوةٌ لا ترفعه فقد أوْبقَته وأهلكتْه وقذفت به ليُؤخَذ.

لقد روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يبلغُ العبدُ أن يكونَ من المتقين حتى يَدَعَ مالا بأسَ به حذراً مما به بأس » وهذا ضربٌ من خشوع القلب المؤمن فيما يحلّ له ؛ يَدَعُ أشياءَ كثيرةً لا بأس عليه فيها لو أتاها ، ليَقوَى على أن يدع ما فيه بأس ، فان الذى يترك ماله يكون أقوى على ترك ماليس له .

والنفسُ لابدَّ راجعةٌ يوماً إلى الآخرة ، وتاركةٌ أداتَها ؛ فقِوامُ نظامها فى الحيـاة الصحيحة أن تكون كل يوم كأنها ذهبتْ إلى الآخرة وجاءت . وتلك هى الحكمة فيما فرضته الشريعةُ الاسلامية من عبادةٍ راتبةٍ تكون جزءاً من عمل الحياة فى يومها وليلتها . فاذا لم تكن النفس فى حياتها كأنها دائمـا تذهب إلى مصيرها وترجع منه ، طَمسَها الجسمُ وحبسها فى فى إحـدى الجهتين ، فلم يبقَ لها فيه إلا أثر ضئيل لا يتجاوزُ النصح ، كاعتراض المقتول على قاتله ، يحاول أن يَرُدَّ السيفَ بكلمة . . ! وبذلك يتضاعف الجسم فى قوّته ويشتدّ فى صولته ، ويتصرّف فى شهواته كأن له بطنين بجوعان معاً . . فتستهلكُ شهواتُ المرء دينَه ، وتقذف به يميناً وشمالاً ، على قصدٍ وعلى غير قصد ، وتمضى به كما شاءت فى مَدْرَجةٍ مَدْرجةٍ من الشرّ ؛ ومثلُ هـذا المسرفِ على نفسه لا يكون تميزُه فى الدين ولا إحساسُه بالخير إلا كذلك السِّكّير الذى زعموا أنه أرادالتوبة ، وكانت له جرّتان من الخمر ، فلما اتعظ وبلغ فى النظر إلى نفسه وحظّ إيمانه وأراد أن يطيع الله ويتوب — نظر إلى الجرّتين ثم قال : أتوبُ عن الشرب من هذه حتى تفرغَ هذه . . . !

* * *

قال الشيخ : ثم إنى تُبتُ على يد الحسن ، وأخلصتُ فى التوبة وصححتُها ، وعلمتُ من فعله وقوله أن حقيقة الدّين هى كبرياء النفس على شرّها وظلمها وشهواتها ، وأن هذه الكبرياء القاتلة للأثم هى فى النفس أختُ الشجاعة القاتلةِ للعدوّ الباغى ، يفخر البطلُ الشجاعُ بجملته من هذه ، ويفخر الرجل المؤمن بجملته من تلك ، وأن خشوع القلب هو فى معناه حقيقةُ هذه الكبرياء بعينها .

وحدّثتُ الحسنَ يوماً حديثَ رؤياى[1] وما شُبّه لى من عملى السيء وعملى الصالح ، فاستدمعتْ عيناه :

وقال : إن البنتَ الطاهرةَ هى جهادُ أبيها وأمها فى هذه الدنيا ، كالجهاد فى سبيل الله ؛ وإنها فوزٌ لهما فى معركةٍ من الحياة ، يكونان هما والصبر والايمان فى ناحية منها قَبيلاً ، ويكون الشيطانُ والهمُّ والحزن فى الجهة المُناوِحةِ قبيلاً آخر

إن البنتَ هى أمٌّ ودار ، وأبَواها فيما يكابدان من إحسان تربيتها وتأديبها وحياطتها والصبر عليها واليَقَظة لها — كأنما يحملان الأحجارَ على ظهرَيهما حجراً حجراً ، ليَبْتَنِيا تلك الدار فى يومٍ الى يومٍ الى عشرين سنة أو أكثر ، ماصَحِبَتْهُ وما بقيتْ فى بيته . فليس ينبغى أن ينظر الأبُ الى بنته إلا على أنها بنتُه ، ثم أمُّ أولادها ، ثم أمُّ أحفادِه ؛ فهى بذلك أكبرُ من نفسها ، وحقها عليه أكبر من الحقّ ، فيه حُرمَتها وحرمة الانسانية معاً ؛ والأبُ فى ذلك يُقرِض اللهَ إحساناً وحناناً ورحمة ، فحقٌّ على الله أن يُوَفّيه من مثلها ، وأن يُضعفَ له

والبنت ترى نفسها فى بيت أهلها — ضـعيفةً كالنقطعة وكالعالّة ، وليس لها إلا اللهُ ورحمةُ أبويها ؛ فان رحماها ، وأكرماها فوق الرحمة ، وسرّاها فوق الكرامة ، وقاما بحق تأديبها وتعليمها وتفقيهها فى الدين ، وحَفِظا نفسها طاهرة كريمةً مسرورةً مؤدَّبة — فقد وضعا بين يدَى الله عملاً كاملاً من أعمالها الصالحة ، كما وضعاه بين يدى الانسانية . فاذا صارا الى الله كان حقاً لهما أن يجدا فى الآخرة يميناً وشمالاً يذهبان بينهما إلى عفو الله وكرمه ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان له ابنةٌ فأدّبها فأحسنَ تأديبها ، وغذاها فأحسن غِذاءَها ، وأسبغَ عليها من النعمة التى أسبغ اللهُ عليه — كانت له مَيْمَنةً ومَيْسرةً من النار إلى الجنة . »

فهذه ثلاثٌ لابدُ منها معاً ، ولا تُجْزِىءُ واحدةٌ عن واحـدة فى ثواب البنت : تربيةُ عقلها تربيةَ إحسان ، وتربيةُ جسمها تربيةَ إحسانٍ وإلطاف ، وتربيةُ روحها تربيةَ إكرام وإلطاف وإحسان

* * *

قال الشيخ : واللهُ أرحمُ أن تضيعَ عنده الرحمة ؛ والله أكرم أن يضيع الأحسان عنده ، والله أكبر . . .

وهنا صاح المؤذّن : الله أكبر

فتبسّم الشيخ وقام إلى الصلاة .

طنطا

مصطفى صادق الرافعى

(١) ذكرت الرؤيا فى القسم الأول من هذه المقالة

صور من التاريخ الاسلامي

١ ـ الفردوسي (١)

للأستاذ عبد الحميد العبادي

احتفلت الأمة الايرانية في أكتوبر الماضي بذكرى مرور ألف سنة على ميلاد شاعرها الأكبر أبي القاسم الفردوسي ، وقد دام احتفالها نحو شهر من الزمان كانت إيران كلها فيه متصلة الأعياد بادية البشر والسرور . ولم تكن الحفاوة بتلك الذكرى مقصورة على الايرانيين وحدهم ، فقد شاركهم فيها العالم المتحضر شرقه وغربه ، فأوفدت ثماني عشرة دولة كبيرة إلى إيران من يمثلها في الاحتفال بذكرى الفردوسي ، وزاد بعضها من قبيل المجاملة للأيرانيين والمبالغة في تقدير شاعرهم فاحتفى بتلك الذكرى احتفاء خاصاً في عواسمه . فعل ذلك الألمان في برلين ، والانجليز في لندن ، والفرنسيون في باريس ، والأيطاليون في رومية . وعما قريب تحذو مصر حذوهم فتهب ذكرى الفردوسي أسبوعاً من الزمن يتحدث فيه بالقاهرة نفر من فضلائها عن حياة الفردوسي وشعره ، وعن أثر قومه في عالم الفن والأدب

وأريد بهذه المناسبة أن أعرض في هذا المقال وفي مقال آخر آت ببيان وجيز لسبب حفاوة الفرس وغير الفرس بذكرى الفردوسي . وسنرى أن البحث سيكشف لنا عن شخصية فذة عجيبة حقاً . شخصية استطاعت من جهة أن تستنقذ قومية ولغة كان يتنازعهما البقاء والعدم ، ومن جهة أخرى ساهمت بنصيب موفور في ميراث العالم الأدبي الباقي على وجه الزمان

***

هو أبو القاسم الحسن بن علي الفردوسي ، وكلمة (الفردوسي) لقبه الشعري ، فقد جرت عادة الفرس من قديم أن يخلعوا على شعرائهم ألقاباً خاصة كالدقيقي ، وملك الشعراء ، ومحكم الشعراء وهكذا . ولد على رأى بعض الثقات حوالي عام ٣٢٥ هـ بقرية من قرى مدينة طوس بخراسان يقال لها (باز) ، وورث عن أبيه ضياعاً كانت تغل عليه في صدر حياته كفايته من المال . وتعلم في حداثته ما كان يتعلمه أمثاله من أبناء الدهاقين في ذلك الزمان ، فحذق الفهلوية والعربية ، وشغف في صباه بقرض الشعر الفارسي والتوفر على مطالعة القصص الفارسي القديم . فأنشأ كل ذلك فيه اعتداداً بقومه واعتناقاً لمذهبهم الشيعي . وشدا شيئاً من آراء المتكلمين من المعتزلة ، فنشأ فارسي الهوى ، شيعي المذهب ، معتزلي الرأي

كان أمر خراسان في ذلك الوقت إلى الدولة السامانية ، وهي دولة فارسية من الدول التي تقسمت سلطان الدولة العباسية بضعف السلطة المركزية في بغداد ابتداء من القرن الثالث الهجري . وقد جهد السامانيون في بعث الروح القومي الفارسي مستعينين على ذلك بما للتاريخ والأدب من القوة في إذكاء الروح القومي عامة . فنقل وزيرهم البلعمي برسم الأمير منصور الساماني تاريخ الطبري إلى الفارسية ، وتقدم عاملهم على طوس أبو منصور ابن عبد الرزاق إلى رجل يقال له أبو منصور المعمري في جمع أخبار الفرس القدماء في شكل تاريخ شعبي لفارس من أقدم عصورها إلى الفتح الأسلامي ، فعهد المعمري بالأمر إلى أربعة من الفرس الزرادشتيين لجمعوا ذلك التاريخ من الكتب المحفوظة في قلاع فارس ، وفي خزائن الموابذة والدهاقين . ثم كتبوا ذلك التاريخ بالفارسية الحديثة وسموه « الشاهنامة » أي « كتاب الملوك » ، وكان ذلك حوالي عام ٣٤٧ هـ ؛ وأراد السامانيون أن يسهل على الفرس تناول هذا التاريخ وتداوله فعهد الأمير نوح ابن منصور الساماني بنظمه شعراً إلى فتى فارسي شاعر يعرف بالدقيقي . فأخذ الدقيقي في ذلك فنظم منه ألف بيت ثم هلك غيلة حوالي عام ٣٦٦ هـ

اطلع الفردوسي على الشاهنامة المنثورة وعلى ما نظم الدقيقي منها من نسخة أعاره إياها صديق له يقال له (محمد لشكري) . وأشار عليه ذلك الصديق أن يتم ما شرع فيه الدقيقي ، وصادف ذلك هوى في نفسه ، فامتثل الاشارة وعكف على نظم الشاهنامة من حيث انتهى صاحبه . فقضى في ذلك ثلاثاً وعشرين سنة أتم

(١) أذيع مضمون هذا المقال بالراديو من محطة الأذاعة المصرية في ١٧ ديسمبر سنة ١٩٣٤ هذا ولم نقصد في بحثنا إلى تاريخ الشاعر من الناحية الفنية فليس ذلك من شأننا ، إنما قصدنا إلى التحدث عنه من حيث أن حياته تلقي ضوءاً على الحال السياسية لآسيا الوسطى الأسلامية في القرن الرابع الهجري . ومن يرد سيرة الشاعر نفسه فليلتمسها في مظانها وخاصة الشاهنامة نفسها ، ومقدمة (مول) للترجمة الفرنسية للشاهنامة ، وكتاب نولدكه عن الشاهنامة ، ومقدمة الدكتور عزام لترجمة البنداري العربية للشاهنامة

فيها نسخة الشاهنامة الأولى (٣٨٩ هـ) ثم أهدى تلك النسخة إلى كبير من كبراء الفرس الظاهرين بأرض أصبهان يقال له أحمد الخالنجانى ، فأجازه عليها بجائزة يسيرة

* * *

فى تلك السنين الطوال كانت خراسان قد تبدلت بها الحال ، لاضطراب أمر الدولة السامانية القومية المستنيرة ، وعراها مايعرو البلاد عادة عند التأذن بذهاب دولة وقيام أخرى . فأهملت المرافق العامة وخاصة مرافق الرى ، والبلاد بعدُ بلاد زراعية ، فشح الماء ، وجف الزرع ، وأجدبت الحقول ، ونالت ملاك الأراضى شدة تعذر عليهم معها أداء الخراج الموضوع على أراضيهم . وكان الفردوسى بطبيعة الحال من ضحايا تلك الشدة الاقتصادية ، وزاده ضنكا وسوء حال انصرافه إلى حياة الأدب المحض ، واضطراره إلى أن يستكفى غيره النظر فى شئون أرضه . ويظهر أثر تلك الحال واضحاً فى ترديده فى شعره الشكوى من الفاقة وتنكر الزمان . وقد اضطر آخرة الأمر إلى مسألة أصدقائه ، فأعانه منهم نفر كرام النفوس أو فياء القلوب ، كافأهم عن صنيعهم بأن نوه بذكرهم فى الشاهنامة . والحق أن الفردوسى ، وقد فقد الانتفاع بأرضه أصبح يرى أن من حقه على الناس أن يكافئوه على جهوده الأدبية بمال يزوج منه ابنته الوحيدة ، وينفق منه على نفسه فى شيخوخته . وطفق لذلك يبحث عن أمير نبيل أو ملك جليل يهدى إليه الشاهنامة فيجزيه عنها بجائزة تحقق أمنيته ، وسرعان ما وجد ذلك الملكَ الجليل فى شخص السلطان محمود الغزنوى

والسلطان محمود الغزنوى أوحد ملوك الاسلام لذلك العهد ، وأحد أبطال التاريخ الاسلامى على الأطلاق . قد شاد بعزمه وهمته ملكاً عريضاً وسع سهل الهندستان ، وخراسان ، وتركستان ، وطبرستان ، وفارس . وأصبحت قاعدته (غزنة) بمساجدها ومدارسها وخزائن كتبها وعلمائها الأعلام من أمهات المدن الاسلامية . ويقال إنه لم يجتمع قط فى مدينة أسيوية فى وقت واحد من أعيان الأدب وأقطاب العلم والفلسفة مثل من اجتمع بغزنة على عهد السلطان محمود . ذلك بأن السلطان كان شغوفا بالعلم والأدب ، حريصاً على اجتذاب العلماء من مختلف البلدان الاسلامية ليقيمهم بحضرته ، فيزدان بهم بلاطه ، وتكون له من قربهم شهرة أدبية تضاف إلى شهرته الحربية التى طبقت الآفاق . ومن العلماء الذين حفلت بهم غزنة على عهده ، البيرونى والعتبى المؤرخان . والفارابى الفيلسوف . وأبو الفتح البستى الشاعر العربى ، والعسجدى والعنصرى والفرخى ، وكلهم من سباق شعراء الفرس فى الاسلام . وكان الرئيس أبو على بن سينا قد قصد حضرة السلطان ثم بداله فعدل عنها إلى جهة أخرى . وكان السلطان كلما فرغ من حرب وأقام بعاصمته متودعاً ، جلس إلى أولئك العلماء يحدثهم أو يستمع إلى حديثهم ، وهو فى تصيده العلماء ومباهاته بهم يذكرنا بسيف الدولة الحمدانى ، والحكم المستنصر الأندلسى ، وبفردريك الأكبر ملك بروسيا ، ولويس الرابع عشر ملك فرنسا

ذلك هو الملك الجليل الذى رآه الفردوسى مهوى فؤاده ومحط آماله . فأخذ يعد العدة لانتجاع حضرته والاغتراف من فيض جوده . فجعل يراجع الشاهنامة ، مطامنا بين أجزائها ، مكملاً ما نقص منها ، مستدركاً ما فاته فى نسختها الأولى ومحلياً فصولها بمدح سنية يطوق بها جيد ذلك الملك العظيم . وقد قضى فى ذلك إحدى عشرة سنة ، فقد فرغ من إعداد النسخة الثانية للشاهنامة عام ٤٠٠ هـ وبلغت عدة أبياتها ستين ألفاً

* * *

توجه الفردوسى الى غزنة ومعه راويه ونسخة الشاهنامة ، فلقى وزير السلطان الرئيس الكبير أبا العباس الفضل بن أحمد ، وكان معنياً بنشر الفارسية ، فأبلغه حضرة السلطان . واطلع السلطان على الشاهنامة ، ولا ريب أنه أدرك أنها ثمرة مجهود عقل جبار ، ولكنه مع ذلك لم يتقبلها بقبول حسن . والروايات القديمة مجمعة على أن الوشاية والكيد قد عملا عملهما فى إفساد قلب السلطان على الوزير والشاعر معاً . ولكن الأمر أجل من ذلك وأعظم . فليس من شك فى أن ذلك السلطان التركى المسلم ، الذى أنفق من الجهد فى إعلاء كلمة الأسلام فى الهند ما أنفق ، والذى كان نصيراً للسنة ، وخصما ألد للباطنية والمعتزلة ، هذا السلطان لم يعجبه أن يشيد الفردوسى بمجد حازه الفرس أيام مجوسيتهم ، كما لم يعجبه أن ينفخ فى بوق العصبية الفارسية ، وأن يدير كتابه على الحروب التى وقعت فى القديم بين إيران وطوران ، كما لم يعجبه تشيعه وجهره بآرائه الدالة على اعتزاله . كل ذلك قعد بالسلطان أن يجيز الشاعر بالجائزة التى كان يتوقعها ، والتى كان يعاق عليها

آمالا كباراً . فيقال إنه بعث اليه بعشرين ألف درهم فقط مكافأة على مجهود خمس وثلاثين سنة

لكن الفردوسي لم يكن الرجل الذي يحتمل هذا التقدير في حقه . فقد جزى السلطان شر جزاء . فيقال إنه دخل حماماً فلما خرج منه شرب فقاعاً ، ثم قسم عطية السلطان بين الحمامي والفقاعي . وبلغ ذلك السلطان فهاج غضبه ، وهم بأن يبطش بالشاعر ، فلاذ الفردوسي بالفرار من غزنة ، وظل مختبأ بمدينة هراة ستة أشهر نظم فيها مائة بيت من الشعر هجا فيها السلطان هجاء لاذعاً موجعاً . فلما سكن عنه الطلب خرج إلى طبرستان ونزل على صاحبها الأصبهبد شهريار فأكرم مثواه وطيب خاطره ، واعتذر اليه عن السلطان بأن الأمر لم يعرض عليه كما ينبغي ، واشترى منه هجو السلطان بمائة ألف درهم ، ثم محا ذلك الهجو من الشاهنامة محواً . بيد أن الفردوسي رأى أنه غير آمن على نفسه في طبرستان لأنها داخلة في حكم السلطان محمود ، فخرج عنها إلى العراق العربي ، ونزل على أميره سلطان الدولة البويهي . ونظم له قصة (يوسف وزليخا) وهي من قصص القرآن الكريم . والفردوسي يصرح في صدر هذه القصة بأنه نظمها تكفيراً عن إضاعته عمره في نظم الشاهنامة ، التي حشوها أساطير الفرس الأولين ، ولكن يظهر أن الفردوسي أراد بنظم تلك القصة أن يلائم بين نفسه وبين البيئة العربية التي أدى به تطوافه اليها

ومهما يكن من شيء ، فلا شك أن الفردوسي رأى نفسه غريباً بالعراق ، وأن سراج حياته يوشك أن ينطفىء ، وأحب أن يوافيه أجله في مسقط رأسه ، قريباً من ابنته ووسط أهله ومعشره ، وهون الخطب عليه أن السلطان كان قد ذهب عنه غضبه عليه ، وأن أمره كان قد نسي أو تنوسي ببلاط غزنة . فخرج من العراق شاخصاً نحو طوس ، فبلغها شيخاً فانياً مهدود القوى قد جاوز الثمانين

وتذكره السلطان محمود في ذلك الوقت ، وذلك أنه كان راجعاً من الهند الى عاصمة ملكه ، فعرض له ثائر في قلعة حصينة ، فأرسل السلطان الى الثائر رسولاً أن « إيت غداً ، وقدم الطاعة واخدم حضرتنا ، والبس التشريف ، وارجع » فلما كان الغد ركب السلطان والى جانبه وزيره أحمد بن الحسن الميمندي . فلما بصر السلطان بالرسول مقبلا قال للوزير « ترى ماذا يحمل من الجواب ؟ » فتمثل الوزير ببيت من الشاهنامة معناه « إذا لم يكن الجواب كما أريد . فأنا والجرز والميدان وافراسياب » فقال السلطان « لمن هذا البيت الذي تنبعث الشجاعة منه ؟ » قال « لمسكين أبي القاسم الفردوسي الذي احتمل العناء خمساً وعشرين سنة وما جنى أية ثمرة » قال السلطان « أحسنت بما ذكرتني ، إني ليحزنني أن يحرم عطائي هذا الرجل الحر ، ذكرني في غزنة لأرسل اليه شيئاً » فلما قدم الوزير غزنة ذكر السلطان ، فقال السلطان « مر لأبي القاسم بستين ألف دينار يعطاها نيلجا ، ويحمل على الأبل السلطانية ، ويعتذر اليه »

غير أن القدر الساخر شاء ألا تنفذ مشيئة السلطان ، فيقال إنه عند ماوصلت الابل التي تحمل الهدية إلى طوس ، كان الفردوسي قد أسلم الروح (٤١١ هـ) ، وإنه بينما الابل داخلة من بعض أبواب المدينة ، كانت جنازة الشاعر خارجة من باب آخر

وأراد رسل السلطان أن يدفعوا الهدية الى ابنة الفردوسي ، ولكنها اعتذرت عن عدم قبولها . عند ذلك أمر السلطان أن ينفق المال في بعض وجوه البر ، فعمروا به رباطاً للمجاهدين على حدود أقليم طوس . وكذلك نفى السلطان عن نفسه آخرة الأمر تهمة التقصير في حق الشاعر الكبير . فان ادعى مدع أنه ظلمه في الأولى فقد أنصفه في الثانية ، ودل بذلك على نفس كبيرة وحلم عظيم

* * *

تلك بالاختصار سيرة الحكيم أبي القاسم الفردوسي . وهي سيرة تفصح عما أوتيه ذلك الشاعر من قوة تتمثل في صدق عزيمته ، وبعد همته ، وعظم غايته ، وثبات مقصده ، كما أنها تفصح عن ضعفه الذي يبدو في حدة مزاجه ، وكثرة شكواه من الفاقة وتبرمه بالناس والزمان ، ثم في ندمه في مطلع قصته الثانية على ما أنفق من جهده وأضاع من عمره في نظم ملحمته الأولى . على أن ذلك كله ليس مناط تعظيم قومه لذكراه ، إنما مناط ذلك هو الصنيع الجليل الذي أسداه الى القومية الفارسية واللغة الفارسية الحديثة

ولبيان ذلك ينبغي أن نرجع مع الزمن الى أوائل القرن الأول الهجري ، فقد حمل العرب إذ ذاك على الدولة الفارسية ، وما هي إلا سنوات معدودات ، حتى كانوا قد قضوا على ملك آل ساسان ،

وصيروا فارس أقليماً من أقاليم الخلافة العربية ، وانتشر الاسلام بعقب ذلك فى فارس حتى كاد يقضى على الدين الزرادشتى . كما انتشرت العربية بين الفرس حتى أخملت الفهلوية وكادت تمحوها

قبل الفرس الاسلام عن طواعية نفس وطيب خاطر . أما القومية فقد جاهدوا من أجل الاحتفاظ بها جهاداً عظيما . وقد تطور هذا الجهاد من مجرد مطالبة بالحقوق العامة قام بها الموالى زمن الدولة الأموية ، الى مؤازرة للثائرين عليها من الخوارج والشيعة ، الى ثورة عامة انجلت عن سقوط الدولة الأموية العربيـة ، وقيام الدولة العباسية التى كانت فارسـية فى أكثر أوضاعها العامة ، الى استقلال سياسى يسره ضعف السلطة المركزية ببغداد ، الى سعى حثيث فى أن يكون للفرس وجود قومى صحيح

الى هذا المجهود الضخم الموجه الى الاحتفاظ بالقومية ، قام الفرس بمجهود آخر رائع من أجل إنهاض لغتهم وتعميم استعمالها فى بلادهم

لقد طغت العربية على الفهلوية فى العصر العربى الأول طغياناً كان من أثره أن انحصر استعمال هذه اللغة فى حدود إقليمية ضيقة : فى فارس وخراسان وطبرسـتان ، ولم تسلم الفهلوية فى معاقلها هذه من التأثر بالعربية ، فقـد أصبحت تكتب بالحرف العربى ودخلتها ألفاظ وتعابير عربية أحالتها الى طور جديد من تاريخها عرفت فيه بالفارسية الحديثة . وبتنبه الشعور القومى عم استعمال اللغة المذكورة فى تلك الأقاليم الثلاثة ، حتى كادت العربية تنمحى من بعضها ، كما يؤخذ من قول المتنبى : —

مغانى الشعب طيبا فى المغانى بمنزلة الربيع من الزمان
ولـكن الفتى العربى فيها غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جِنـــة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

وقد عول سـاسة الدول الثلاث : الطاهرية والصـفارية والسامانية ، على أن يجعلوا الفارسية الحديثة لغة أدب وتدوين ، فشجعوا الشعراء على النظم بالفارسية ، وأمر السامانيون بتدوين تاريخ قومى للفرس ، ونظمه بهذه اللغة كما تقدم القول

وعلى الرغم من التقدم الذى أحرزه الفرس فى أمر قوميتهم ولغتهم ، فانهم كانوا فى أواخر القرن الرابع بحاجة الى مدد أدبى ممتاز يبعث فى القومية الفارسـية روحاً قوياً ، ويثبت دعائم الفارسية الحديثة ويمهضها على أساس ثابت ، وقد أمد الفردوسى قومه بهـذا المدد . فالشاهنامة تبى بأبسط عبارة وأبلغ تصوير تاريخ الفرس القـدماء ، ومفاخرهم وآدابهم وأساطيرهم . بذلك اضحت فى حياة ناظمها — وهذا أمر منقطع النظير — ملحمة قومية ، ولم يمض طويل زمن حتى غدت « قرآن القوم » على حد تعبير صاحب المثل السائر

***

لقد أدى الفردوسى « رسالته الخاصة » أحسن الأداء ، وأصبح فضله على قومه ولغته باقياً ما بقى قومه ولغته وقد عرف له قومه هذا الفضل فذكروه فى هذه الأيام فأحسنوا ذكراه ، وشادوا فوق رفاته بناء عالياً ، وهذا جهد مثوبة الحى للميت . وان الانسان ليذكر فى هذا المقام دانتى الأيطالى ، وكورياس اليونانى ، فكلاهما أذكى الروح القومى فى بلده ، وجدد بمجهوده الخاص دارس لغته ، هذا بنثره ، وذاك بشعره ؟

(البقية فى العدد القادم) عبد الحميد العبادى

في الأدب المصري

مجالس الأدب
في القرن الثامن عشر

دار رضوان بك

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

مما اعتاد الناس سماعه أن يقول قائل : لا حيَّا الله أيام القرن الثامن عشر في مصر ! وقد لا يتورع القائل أن يرمى ذلك العهد بأقبح التهم وأشنع الآراء : فيصفه تارة بالظلم ، وتارة بالظلمة ؛ وما أكثر ما تسمع الآذان ذكراه مصحوبة بتسمية لاذعة ، فلا يقال إلا أنه كان عهد المماليك ، أو عهد ظلم العثمانيين . وليس في ذلك عجب ، فالناس كانوا قديماً لا يرون الماضي على حقيقته ، فهم إما أن يروه عصراً أعظم من عصرهم لا يستطيع حاضرهم أن يجاريه في شيء ، وإما أن يروه عهداً دون عهدهم لا يرضون أن تقاس حال أيامهم به . والأيام كالناس تختلف في الحظوظ وتتباين ، فكما أن بعض الناس يكتسب من الحمد فوق ما يستحق ، وينسب اليه من كريم الخلال ما ليس من طبعه ، فكذلك الأيام ، قد ينعت الناس بعض عصورها بما ليس من حقه ، وينسبون اليه من الفضائل أكثر مما يجدر به ، وكما أن بعض الناس قد يسلب جزاؤه ، وتجحد حسنته ، وينكر فضله ، فكذلك قد يظلم التاريخ عهداً من العهود ، فلا يقر له بفضل ، ولا يحجم في وصفه عن تهمة ، ولا يتعرض له إلا بالأذى : ولقد كان عصر أمراء المصريين من هذه العصور المظلومة التي جحد التاريخ فضلها ، وأذاع مثالبها ، وأخفى مناقبها ، وصوَّرها صورة مشوهة بغيضة . ولسنا بسبيل بيان الأسباب التي حملت التاريخ على ذلك الظلم ، ولكنا نكتفي بأن نقول إن الأحياء قد يكون لهم نفع من اتهام الأموات ، وقد يعود عليهم بعض الخير من الافتراء على الجدود . ولا حاجة بنا إلى التطويل في دفع هذا الاتهام ولا في دفع هذا الافتراء ، فما في هذه الأطالة تحقيق للقصد . وحسبنا أن نصف مجلساً أدبياً في بعض هذه الأيام الماضية ، وللقارئ أن يحكم من هذا الوصف إذا كانت تلك الأيام الغابرة جديرة بما يصفها به المتهمون المفترون :

* * *

كانت أمور مصر في منتصف القرن الثامن عشر قد خلصت إلى اثنين من الزعماء : أحدهما الأمير ابراهيم ، والآخر الأمير رضوان . وقد أصبحا صاحبي الأمر في البلاد لا ينازعهما إلا المنافسون في دخائل صدورهم ؛ وأما ظاهر الأمر فلم يكن لهما فيه شريك . حتى أن الباشا العثماني الذي كان يمثل السلطان لم يكن له إلى جانبهما أمر ولا نهي

ولقد كان لكل من هذين الأميرين متجه يتجه اليه في رياسته ، فكان ابراهيم صاحب السلطان ، وقائد الجيوش ، ومدبر السياسة ؛ على حين كان رضوان مؤلف القلوب ، وقبلة القصاد ؛ وكان الأميران على اختلاف اتجاهيهما متفقين متآلفين ، فقضيا في رياستهما سبع سنين ونيفاً

وكان بيت رضوان يتألق بالأنوار الساطعة ، ويخلع عليه الفن المصري رواءه وبهاءه ، وتجتمع في أبهائه هامات العصر من الأدباء والعلماء ، وقد كان عصر حينئذ في الحق أدباء وعلماء ، على رغم من يتهم هذا العصر بالظلمة والانحطاط

هناك على ضفة الخليج المصري اشترى رضوان داراً من أحد أكابر التجار ، كانت واقعة على بركة الأزبكية ، وموضعها اليوم ما يلي حديقة الأزبكية وميدان الأوبرا . وكانت تلك البركة إذ ذاك متنزهاً من متنزهات القاهرة المحبوبة ، تحيط بها بيوت أعيان التجار والأمراء . وكان للأمير رضوان فوق ذلك في الناحية الشمالية الغربية من هذه البركة منظرة بديعة تطل من الغرب على الخليج الناصري ، ومن الجنوب على بركة الأزبكية ، ومن الشمال على بركة أخرى استحدثها الأمير بتوسيع مجرى الماء في الخليج القاهري مما يلي قنطرة الدكة . وقد نسق الأمير قصره بأبدع تنسيق ، وجعل لها حدائق فسيحة نقل اليها بديع الزهر والشجر ، وأقام في أركانها الجواسق الجميلة . وجعل في جوانب الحدائق مما يلي البركة قناطر لتجري المياه من تحتها ، واتخذ فوق تلك القناطر مجالس للنزهة والاسترواح . وأما داخل القصور فكانت القباب العالية المحلاة بذوب العسجد ، واللازورد ، والزجاج الملون ، وقد نقشت أعاليها وأسافلها بأروع النقوش وأدقها . وكانت الأنوار تسطع في هذه القباب في أثناء الليل فتكاد تخطف الأبصار من بهائها ورونقها

وفي هذه الأبهاء التي تأخذ بمجامع القلوب كان يجتمع أدباء

العصر وأعيان العلماء يتسامرون فى حضرة الأمير المحبوب ، ويتجاذبون أطراف الملح والنوادر فى حشمة ووقار لا يخرج عنهما أحد . وكان من هؤلاء أديب العصر الأعظم قسيم بن عطاء الله المصرى ، وصديقه مصطفى أسعد الدمياطى ، وإلى جانبهما جمع باهر من شيوخ وشبان ، بعضهم للجد والوقار كالشيخين الشبراوى والحفنى ، وبعضهم للفكاهة كالشيخ عامر الأنبوطى الهجاء .

واجتمع مجلس الأدباء يوماً فى القصر ، وإذا بالأمير يسأل عن أحدهم فلا يجده . قال : « أين ابن الصلاحى ؟ » ولم يكد ينتهى من سؤاله حتى رد فى جانب البهو صوت جهورى ينشد :

شاق طرف السرور ظرف الربيع فتملى بحسن تلك الربوع
ما ترى الزهر ضاحكا لبكاء الـــطل من در قطره بالدموع
وغصون الرياض تخلع أثوا ب التدانى على الندىّ الخليع
فأنسنا بجمع إخوان صدق زان طبع الوفاء قدر الجميع
ياصلاحى أرح فؤادك والبس من بشير اللقا قميص الرجوع

فالتفت الجلوس كلهم نحو القادم فاذا هو الذى كان يسأل الأمير عنه ؛ وصاح الشيخ عامر قائلا : « لقد ذكرنا القط ... » فضحك الجمع ولم يمتنع عن الضحك الأمير ، وجلس الأدباء بعضهم إلى بعض فى أنحاء البهو الأعظم من قصر رضوان ، وجلس الأمير على سرير عال من آيات الفن المصرى ، جوانبه من الخشب المخروط ، تكتنفه وتتخلله رسوم من العاج والآبنوس والصدف ، وقد كُسيت جوانب السرير بالحرير الملون البديع ، تتغير ألوانه فى ضوء المصابيح المتألقة كما تتغير الألوان إذا وقع الضوء على رقاب الحمام القرمزى الداكن .

واتجه الأمير إلى الأديب الأكبر ابن عطاء وأقبل عليه باسما وقال له : « ماذا جئت به اليوم يا ابن عطاء ؟ لقد رأيتك بالأمس تسير بين أشجار البستان ، فقلت فى نفسى لابد أنك متحفنا اليوم بشىء جديد » .

فابتسم الأديب وقال : « الحق ما تقول أيها الأمير ، دامت نعمتك ، وأقر الله أعيننا ببقائك وعلو دولتك »

فقال له الأمير : « إذن فهات ، وقد أحضرت لك الشيخ عامر الأنبوطى عمداً »

فصاح الأديب ابن عطاء وهو باسم وقال : « أعوذ بجاهك منه أيها الأمير ! »

فصاح عند ذلك الشيخ متدخلا فى الحديث « وماذا تخشى يا ابن عطاء ؟ أليس لكل منا فنه ؟ »

فنظر إليه ابن عطاء وهو باسط يديه ببسطة الرجاء وقال : « لقد عذت بكنف الأمير من لسانك ، فدونك سواى إذا شئت »

فقال الأمير ضاحكا : « إذن أنا مجيره منك ياشيخ عامر »

وضحك الشيخ عامر وقال : « إذا شئت أيها الأمير ، فلقد والله قضيت الليلة الماضية أشحذ لسانى وذهنى لنزاله . وقد والله فوّت علىّ فريستى »

فضحك النّدىّ وأنصت بعد لأى لمدحة الأديب ابن عطاء :

فأنشأ يقول :

بكت بدمع الطل عين النرجس فأضحكت ثغر الأقاح الألعس

واستمر فى مزدوجته يصف البستان حيناً والماء حيناً . فيقول منها :

حديقة بها السرور محدق جدولها مسلسل منطلق
فى جوه نجم الزهور مشرق والبان ظله غدا يسترق
من وجنة الماء احمرار الورد

ثم تخلص إلى ذكر الحب على سنة الأقدمين من الشعراء ، وتخلص من ذلك إلى مدح رضوان فقال :

دع علة التعليل بالأمانى واقصد حمى الموصوف بالأمان
وانف لباس البؤس والأحزان واسأل عن النعيم من رضوان
سَلْ ما تريد ، لا تخف من رد

مليكنا جلت لنا أوصافه لم يبد فى غير العطا اسرافه
ضياؤه قرت به أضيافه تفعل فى جيش العدى أسيافه
ما يفعل الصرصر يوم الحصد

إلى أن أكمل مدحته بين اهتزاز الأمير وإعجاب السامعين ، لولا ابتسامة عابثة من الشيخ عامر وهو ينظر إلى الأمير .

فقال له الأمير : « وما تستطيع أن تقول فى هذا ياشيخ الهجائين ؟ »

فقال الشيخ : « لا أقول فى هذا شيئاً مادام فيه ذكرك ومديحك أيها الأمير : ولكنه لو لم يستعذ بك وجدنى قائلا »

فتحرك الأديب ابن عطاء حركة غضب وأنفة وقال :

« أيسمح لى الأمير أن أرد عليه جواره إلى حين ، لا حرمنى الله جوارك ، فان هذا الشيخ قد ظن أننى أتوارى منه ضعفاً » ؟

فتبسم الأمير وقال : « نازله بقصيدة أخرى جديدة إذا شئت »

فصاح الشيخ عامر وظنها فرصة فى ابن عطاء فقال : « أصبت القصد لا زلت موفقاً أيها الأمير »

فاهتز ابن عطاء وقال : « نعم إذا شئت أيها الأمير ، إن عفوى خير من اعدادى ، وإذا شئت قلت »

فأذن له الأمير وتطلع الحاضرون إلى الأديب يظنون أنه سيسف ويتعرض لطعنات منازله الهجَّاء . فقال ابن عطاء :

ترك الهجرَ ووافى كرما   بعد ما كان لمهدى قد نَسى
أهيف القد كغصن عَلِما   من نسيم الروض فنَّ الميَس

فاهتز الأمير وقال : « هيه يا ابن عطاء ! »

فسرت فى الشاعر هزة جديدة واستمر يقول :

مفرد فى الحسن ثني معجبا   ألف القد بشكل حَسَن
غصن بان هزه ريح الصبا   خده يزهو على الورد الجني
ساحر الجفن أرانا عجباً   أسره للأسد حال الوسن

وما زال بالسمط وراء السمط ، والعقد من بعد العقد ، حتى تخلص إلى مدح الأمير على عادته إلى أن ختم موشحه قائلا :

كفُّه الغيث على الناس همي   فأعاد الخصب بعد اليَبَس
أصبح الدهر به مبتسماً   وهو فى فيـــه محل اللعَس

فنزل اليـه الأمير من سريره وعانقه وقال له : « بمثلك تزدان مجالس الملوك يا ابن عطاء ، ووالله لو لم أجد من المال إلا قوت يومى لما وجدت له محلاً أحب الى من إهدائه اليك »

ثم التفت الى الشيخ عامر وقال :

« لقد أنطقه الولاء أيها الشيخ فماذا تستطيع أن تقول ؟

فقام اليه الشيخ الهجاء وقبل رأسه وقال :

« يا أمير الشعر قد دِنّا اليك »

فصـــاح الشيخ مصطفى اللقيمى الدمياطى من جانب المجلس وقال :

« أما الأمارة فلا نراها فى الشعر . إن هى إلا فى تلك السياسة ، وهذه الدولة والرياسة . فدع عنك التعرض لهذا ، فما أظنك مصيباً من الجائزة شيئاً »

فضحك الحاضرون شماتة فى الهجَّاء الذى لم يترك من أهل الشعر ولا من أهل العلم أحداً إلا وتره وحرك حقده

وكان الشيخ الهجاء قد انكسر عند ذلك ، غير أنه لم يرض أن يترك دأبه من الوخز فقال ناظراً الى الشاعر الآخر :

« وما لك أنت ؟ لكأنى بك قد تحركت غيرتك . غير أنك لست بمستطيع اليوم أن تقول شيئاً . فقد ملك اليوم ابن عطاء » . فقال الأمير مدافعاً عن الدمياطى :

« ومالك أنت به يا شيخ عامر ؟ أنسيت مدحته العظمى ؟ أنسيت مدامته الأرجوانية فى المقامة الرضوانية ؟ لقد ينقطع عمر الكثيرين دون مثلها »

فقال الشيخ عامر ولم يثنه دفاع الأمير :

« إن هى إلا بيضة الديك » وأشار الى الشاعر ، ثم صاح كما يصيح الديكة فضحك الجلوس من كلمته وصيحته . واحمر وجه الشاعر الدمياطى ، وقال غاضباً :

« لو شئت الهجاء لهجوتك ، ولكنك أقل من أن أهجوك ، فاسمع إذن مدحتى فى زين الملوك وأقر بعجزك وصغارك »

ثم اندفع يقول :

بشرى الربيع لقد وافت بشائره   وفاح دونك فى الآفاق عاطره
ومالت القضب بالأطيار مطربة   وقد تبسم من عجب أزاهره
فسر مقدمه الحالى أخا شجن   يهيجه من معانى الدوح ناضره

ثم أوغل فى وصف الربيع وزهره ونسيمه وعطره ، فأبدع وأطرب إلى أن تخلص من وصفه الممتع إلى مدح الأمير فقال :

والزهر من فرح أهدى نثارها   لما سما الورد واستعلت مظاهره
حكى بمنظره الحـــالى ومخبره   صفات رضواننا السامى زواهره
أمير مجـــد لنا تتلى مدائحه   مدى الزمان كما تروى مآثره
تخاله الليث والمريخ فى يده   إذا بدا جائلاً والسيف شاهره
روض نضير ولكن مثمر أبدا   غيث ولكن ندى عمت مواطره

وما زال ينتقل فى ذلك المدح من معنى إلى معنى إلى أن قال :

خذ من زمانك ما أغناك مغتنما   وأنت ناه لهـــذا الدهر آمره
ودم بروض العلا والعز منبسطاً   عطربات الهنا يشدوك طائره

فصفق الأمير طرباً عند ما بلغ الشاعر ذلك ، وصاح بالشيخ عامر يقول :

« عزمت عليك يا شيخ إلا ما قمت إليـه وقبلت رأسه كما فعلت بالأديب ابن عطاء ، فما هو بدونه مرتبة فى الشعر ولا فى الولاء . ولكم جميعاً منى أسنى جائزة »

فقام الشيخ إلى الشاعر وقبل رأسه وهو يقول :

« وما لكم لا تشكرون لى وخزاتى . أيها الأمير أ كنا نظفر منهما بهاتين الدرتين بغير وخزات لسانى ؟ »

فضحك الأمير والحاضرون منه وقال رضوان :

« أتذكر البيت القديم ياشيخ عامر ؟ لقد قلته لى منذ أيام فلولا أن النار تحرق ما حولها ما شم أحد رائحة ال . . . . »

فقال الشيخ منشداً البيت :

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرف طيب عَرف العود

فقال الأمير « هو هذا . هو هذا . لقد حفظت معناه ولكنى لا أقوى على حفظ لفظه . » ، ثم نظر إلى مملوك واقف إلى يمينه ، وقد وضع يديه على صدره تأدباً وقال له :

« يا محمود ، اذهب إلى خازندارى ، وبلغه أمرى باحضار ما اعتدت بذله فى مثل هذا اليوم »

ولم يخرج أحد من الحاضرين فى ذلك المجلس بغير ما يرضيه ، غير أن الشيخ الحفنى أبى أن يأخذ شيئاً من الأمير ، بل قبل الأمير يده وسأله الدعاء ، وخرج الشيخ الوقور وهو يدعو للأمير بالتوفيق والهداية »

وكان الشاعر ابن الصلاحى فى كل ذلك متواضعاً ساكناً لم يثر لغيرة ، ولم يتقدم لمنافسة ، بل كان يطرب كما يطرب الحضور ويعجب كما يعجبون ، ولما أوشك عقد الجمع أن ينفرط رفع عقيرته فأنشد مرتجلاً :

يامساء السرور كيف اختلسنا فيك أنسا كأنما هو شك
قد أنسنا فى فتحه بالتدانى ودهانا ختامه وهو مسك

ثم سار وهو يقول مرتجلاً :

إلى القبة الفيحاء سرنا فسرّنا ربيع المنى فى ثغر طلعتها الغرّا
أنسنا بهما من كل بدر ولا نرى عجيباً طلوع البدر فى القبة الخضرا

فنظر إليه الأمير رضوان مبتسماً وقال : « هيه يا ابن الصلاحى لقد فوت علينا الليلة بغير إنشاد منك » فقال الشاعر باسماً وهو ناظر إلى الأرض « دمت للملك يا مليك الزمان فالعود أحمد » ، ثم حيا الأمير وسار فى أثر صحبه خارجاً

محمد فريد أبو حديد

الغزو الاقتصادى اليابانى

لأسواق العالم

وأثره فى الاقتصاد المصرى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتمة

استطاع الغزو الاقتصادى اليابانى أن يحدث أثره فى معظم الأسواق القديمة بسرعة مدهشة . وقد قال مسيو هيروتا وزير الخارجية اليابانية فى إحدى تصريحاته الأخيرة إن هذه النهضة الصناعية والتجارية التى تضطلع بها اليابان إنما هى ثمرة العمل والمثابرة ، ولا تعتمد على وسائل غير شريفة ، وليس وراءها أية نزعة عدائية . وقد بينا فى مقالنا السابق ظرفاً من الظروف والأحوال الاقتصادية المشجعة التى تعمل فيها الصناعة اليابانية ، ولكن اليابان لا تستطيع بمثل هذه التأكيدات أن تهدىء ما يبثه غزوها الاقتصادى فى معظم الدول الصناعية والتجارية من عوامل الخوف على مستقبلها الاقتصادى . ويجب أن نذكر أن النفوذ الاقتصادى إحدى الوسائل القوية التى يعتمد عليها الاستعمار الغربى فى توطيد نفوذه وسلطانه فى أفريقيا وآسيا ، وأنه يكون غالباً طليعة الفتح السياسى وذريعته ، فاذا اضطربت دعائم هذا النفوذ الاقتصادى ، اضطربت دعائم السيادة الاستعمارية التى تقوم عليه ؛ والتحرير الاقتصادى دعامة قوية للعمل فى سبيل التحرير السياسى . فالدول الاستعمارية التى يزعجها الغزو اليابانى لا تقف فى مقاومته عند تقدير الاحتمالات الاقتصادية وحدها ، ولكنها تنظر الى آثاره من وجهة أشد خطراً وأبعد مدى وهى وجهة مستقبلها الاستعمارى

ولا ريب أن بريطانيا العظمى فى مقدمة هذه الدول ، بل هى أولها وأسبقها الى التأثر بهذه المنافسة الخطرة التى تهدد نفوذها الاقتصادى والاستعمارى فى معظم أرجاء امبراطوريتها الشاسعة ، وتخلق لها مشكلة امبراطورية فى منتهى الخطورة . ذلك أن بريطانيا العظمى تستمد كثيراً من أسباب غناها وقوتها وعظمتها من نفوذها الاقتصادى وتفوقها الصناعى والتجارى ؛ وهذا النفوذ

الاقتصادى أقوى دعامة فى صرح سلطانهـا الاستعمارى ؛ فاذا تقوضت دعائم هذا النفوذ اضطرب بناء الامبراطورية كله . وبريطانيا تشعر اليوم بأن تقدم الغزو الاقتصادى اليابانى بهذه القوة المدهشة يعرضها لمثل هذا المأزق الدقيق ؛ وتشعر باقى الدول الاستعمارية مثل فرنسا وهولنده وإيطاليا ، بأنها تواجه نفس الخطر ؛ وترى الولايات المتحدة أسواقها القديمة فى أمريكا الجنوبية تفلت من يدها لتذهب الى قبضة منافستها الأسيوية ؛ وتعمل الدول الغربية جميعاً لرد هذا الغزو كل بوسائلها الخاصة ، وقد نراها غير بعيد تحاول رده بوسائل مشتركة إذا عجزت عن مقاومته منفردة كما حاولت أيام غزو اليابان لمنشوريا وتقدم الاستعمار اليابانى فى الصين

وقد يكون الغزو الاقتصادى اليابانى من هذه الناحية أعنى من ناحية العمل على تقويض نفوذ الدول الغربية الاقتصادى فى أفريقية وآسيا وإضعاف سلطانها الاستعمارى بذلك ، خليقاً بعطف الأمم الشرقية وتأييدها ، خصوصاً وأنه لا يبيت وراءه مطامع استعمارية ، — واليابان تقف بأطماعها الاستعمارية عند الصين وسيادة الباسفيك — ، وهو خليق بعطف الأمم المغلوبة بقــدر ما يحدث للأمم الغربية الغالبة من صعاب ومتاعب تفت فى بنائها الاقتصادى وسيادتها الاستعمارية ؛ ولـكن العطف على جهود اليابان من هذه الناحية العامة ، يجب ألا يحول بيننا وبين تقدير العوامل والآثار الاقتصادية الضارة التى تترتب عليها من الوجهة المحلية ؛ وما يعنينا قبل كل شىء هو بحث هذه الآثار فى اقتصادنا المصرى ، فقــد أخذت طلائع الغزو اليابانى تحدث أثرها فى السوق المصرية بسرعة ، وتثير من العوامل والاحتمالات ما قد يعرض مستقبلنا الاقتصادى الى أخطر النتائج إذا لم تتخذ الوسائل اللازمة لتوطيده وحمايته

ذلك أن محصول مصر الرئيسى ونعنى القطن يرتبط أشد الارتباط فى انتاجه وفى تصريفه بصناعة القطن البريطانية ؛ هذا ومن جهة أخرى فان فى مصر الآن صناعات قطنية هامة يجب حمايتها وتشجيعها على التوسع والنمو ؛ والصناعة القطنية اليابانية تتقدم بسرعة ويحدث هذا التقــدم أثره السىء فى الصناعات القطنية البريطانية التى تستهلك أعظم كمية من القطن المصرى ؛ ومن الغريب أن اليابان مع كونها لا تنتج سوى قليل من القطن الردىء ، استطاعت أن تتقدم فى الصناعة القطنية حتى أصبحت فى انتاجها ثالثة دول العالم بعد الولايات المتحدة وانـكلترا ؛ ويبلغ ما تصــدره اليابان من البضائع القطنية نحو ٢٠٪ من مجموع صادراتها ، واليابان تستورد كميات عظيمة من القطن الردىء من الهند والولايات المتحدة ولا تستورد سوى كمية ضئيلة من القطن المصرى . وقد بلغت قيمة ما استوردته فى سنة ١٩٣٠ من القطن فقط ٣٦٢ مليون ين (نحو ٢٤ مليون جنيه)

ولـكى يستطيع القارىء أن يقدر مدى تقدم التجارة اليابانية فى مصر نضع أمامه الأرقام الآتيـــة عن قيمها فى الأعوام الأربعة الأخيرة :

سنة	١٩٣٠	١٩٣١	١٩٣٢	١٩٣٣
ج.م	١,٧٣٢,٠٧٧	١,٥٣٥,٢٨٢	٢,١٥٢,١٤٠	٢,٨٧٣,١٣١

فنى أقل من عامين زادت الصادرات اليابانية إلى مصر نحو ٤٠٪ ، وأصبحت التجارة اليابانية فى مصر سنة ١٩٣٣ تعدل نحو ١٢٪ من مجموع تجارة مصر الخارجية (وقد بلغ فى هذا العام ٣٦,٧٦٦,٩٩١)

وتمثل البضائع القطنية والحريرية أكبر نسبة فى الصادرات اليابانية إلى مصر ؛ وقد نمت نسبة الصادرات القطنية بسرعة مدهشة فى الأعوام الثلاثة الأخيرة كما يتضح من البيان الآتى :

مقدار ماورد إلى مصر من البضائع القطنية والحريرية اليابانية مقدراً بالجنيه

سنة	١٩٣١	١٩٣٢	١٩٣٣
بضائع قطنية مختلفة	٧٦١٬٢٣٤ ج.م (تقريبي)	١٬١٠٤٬٦٧٣	١٬٨٣٤٬٨٧٧
« حريرية »	. . . . . .	٦٢٦,٨٧٤	٥٠١,٩٢٠

ومن ذلك يتضح أن الصادرات القطنية اليابانية إلى مصر بلغت نحو ثلاثة أمثالها فى ظرف عامين ؛ ومن المحقق أن هذه النسبة قد ارتفعت فى العام الحالى (الذى لم ينته بعد) وسوف ترتفع باطراد إذا استمرت الأمور على حالها

وقد كانت منتوجات لانـكشير (انكلترا) القطنيــة حتى أعوام قلائل تحتــل المكان الأول فى مصر ، كما أن لانـكشير أكبر عميل لمصر فى شراء قطنها ؛ ولـكن المنافسة اليابانية كانت شديدة الوطأة على الصناعة القطنية البريطانية فى مصر والهند

وفى معظم الأسواق الأمبراطورية ؛ وقد أصابت هذه المنافسة تجارة لانكشير فى الهند بخسائر فادحة ؛ ورفعت حكومة الهند الرسوم الجركية على البضائع القطنية اليابانية مراراً حتى بلغت ٧٥ ٪ ، ومع ذلك فان ذلك لم يحقق للتجارة البريطانية ما كانت تتمتع به فى الهند من التفوق ؛ واضطرت بريطانيا العظمى أن تجرى فى ذلك السبيل مع اليابان مفاوضات خاصة وأن تعقد معها اتفاقاً تجارياً خاصاً تحصل به على بعض المزايا نظير تحديد المنسوجات القطنية اليابانية الصادرة إلى الهند بأربعمائة مليون ياردة تحصل عنها رسوم جركية قدرها ٥٠ ٪ من قيمتها . أما فى مصر فما زالت تجارة لانكشير فى انحطاط مستمر ، وقد هبطت تباعاً فى الأعوام الثلاثة الأخيرة بسرعة يوضحها البيان الآتى :

مقدار ما تستورده مصر من المنسوجات والبضائع القطنية من انكلترا

سنة	١٩٣١	١٩٣٢	١٩٣٣
ج . م	١,٧٤٢,٠٠٠	١,٥٦٥,٤٦٦	١,٢٣٢,٨١١

ويتضح من ذلك أن ما استوردته مصر سنة ١٩٣٣ من البضائع اليابانية القطنية يزيد عما استوردته منها من انكلترا بنحو ستمائة ألف جنيه ؛ وأن اليابان أصبحت تحتل المكان الأول فى الصادرات القطنية إلى مصر بعد أن كانت انكلترا تحتله باستمرار

ومن ذلك نفهم مدى جزع لانكشير من تدهور مركزها فى السوق المصرى ؛ وهو جزع يبدو فيما تعلق به الصحف الانكليزية على هذا الموقف ، وفيما ينذر به أقطاب الصناعة البريطانية من وقوع رد الفعل على مصر ذاتها حيث تضطر المصانع البريطانية أن تقلل من شراء القطن المصرى إذا استمرت الحال على ذلك . وهذه هى أخطر نقطة فى الموضوع بالنسبة لمصر . ذلك أن ما تستورده مصر من مصنوعات انكلترا القطنية لا يتناسب مع ما تشتريه انكلترا من القطن المصرى ؛ وإليك مقدار ما اشترته انكلترا من قطننا فى الأعوام الثلاثة الأخيرة :

	١٩٣١	١٩٣٢	١٩٣٣
ما قيمته	٦,٤٦٩,٢٠٤	٥,٥٢٧,[illegible]	٨,٧٦٧,٢٨٠ ج . م

ويقابل ذلك ما تشتريه اليابان وهو :

ما قيمته	١,٢١٣,١٦٢	١,٠٧٨,٦٨١	١,١٦٨,٥٢٨ ج . م

فانكلترا تشترى من قطننا فى العام نحو ٤٠ ٪ منه بينما لا تشترى اليابان أكثر من ٦ أو ٧ ٪ ، ومع ذلك فان اليابان تصدر إلى مصر من البضائع القطنية أكثر مما تصدره انكلترا

والنتيجة المحتومة لذلك ، إذا استمر هذا الوضع الشاذ ، هى أن لانكشير ستضطر إلى أن تقلل شيئاً فشيئاً من استهلاكها للقطن المصرى ما دامت لا تجد أسواقاً لتصريف منتوجاته ؛ وعندئذ يقع الضرر المحقق على المنتج المصرى

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان فى مصر صناعة قطنية ناشئة تضطلع بها شركة مصر ، وتوظف فيها ملايين عديدة من الأموال المصرية ؛ وقد قطعت شركة مصر لغزل القطن ونسجه خطوات كبيرة فى أعوامها القلائل وأصبحت أعظم منشأة صناعية فى مصر ؛ وهى تستهلك كل عام مقداراً كبيراً من القطن المصرى وتمد السوق المحلية بكميات عظيمة من المنتوجات القطنية المتقنة الصنع المعتدلة الثمن مع ذلك . وكان ما استهلكته سنة ١٩٣١ من القطن المصرى ٢٢,٣٠٨ قناطير فزاد فى العام الثانى إلى ٥٠,٧٧٥ قنطاراً وفى الذى يليه الى ٩٧,١٤٣ قنطاراً ، ثم زاد فى العام الماضى (١٩٣٤) الى ١٥٢ ألف قنطار . وزادت منتوجاتها من الغزل والنسيج تبعاً لذلك زيادة كبيرة حتى وصلت (سنة ١٩٣٤) إلى ١٣ مليون رطل من الغزل ؛ والى ٢٥ مليون ياردة من النسيج . وهى تسير بسرعة فى سبيل التقدم وتتخذ الأهبة لمضاعفة أعمالها ومشاريعها ، بحيث يتضاعف ما تستهلكه من القطن المصرى عاماً بعد عام ويتضاعف ما تنتجه من الغزل والنسج

ولكن هذا الصرح الأقتصادى العظيم يجد نفسه اليوم أمام غزو البضائع القطنية اليابانية الرخيصة للسوق المصرى ، وهو غزو يشتد أثره يوماً بعد يوم ، وتجد هذه البضائع الرخيصة فى السوق إقبالا سريعاً تشجعه وتذكيه الأزمة الاقتصادية ؛ وقد بينا كيف تعمل الصناعة اليابانية فى ظروف مدهشة تمكنها من هذا الغزو ، والصناعة القطنية اليابانية تستعمل القطن الردىء الرخيص ، الهندى أو الأمريكى ، فى حين أن شركة الغزل المصرية لا تستعمل سوى القطن المصرى . لكى تعاون بذلك على استهلاكه ، وتحقق الأغراض الأقتصادية القومية التى قامت من أجلها ، فاذا استمر هذا الغزو اليابانى دون اتخاذ ما يجب لرده ،

واستمر إقبال المصريين على البضائع القطنية الرخيصة ، عرضت الصناعة القطنية المصرية لمصاعب تحد من نموها وتقدمها ، وعرضت الملايين المصرية التي توظف فيها . والأيدي المصرية العاملة التي تقوم بها ، إلى عواقب لا تحمد ولا يرضاها أي مصري

وما نريد أن ننوه به بنوع خاص ، هو أن الأمر هنا لا يتعلق بالناحية القومية والواجب القوي في تشجيع الصناعات القومية ، ولكنه يتعلق باعتبارات اقتصادية خطيرة . ذلك أن هذه المنسوجات الرخيصة تستهلك لرداءتها بسرعة ، في حين أن المنسوجات الجيدة التي تنتجها الصناعة المصرية من القطن المصري تمتاز بالمتانة وبطول استعمالها ، فهي بذلك أجدى وأوفر على المستهلك الذي يقدر مصلحته الحقيقية . هذا ومن جهة أخرى فان الصناعة المحلية تستهلك قطناً مصرياً ، وتعاون المنتج المصري بذلك على تصريف أقطانه ، فاذا لم يعاونها المصريون من جهة أخرى باستهلاك منتوجاتها ، فانها تعجز عن المضي في تحقيق هذه المعاونة الاقتصادية الجليلة .

ولهذا كله يجب على مصر أن تفطن لما يهدد مستقبلها الاقتصادي من جراء هذا الغزو المفاجيء ، وأن تبحث في وسائل الحماية السريعة لصناعاتها الفنية . وعبء هذه الحماية يقع على عاتق الحكومة والأمة معاً . فاما الحكومة فمن واجبها وفي مقدورها أن تلجأ الى مضاعفة الحماية الجمركية لتحمي المنتوجات المحلية من هذا السيل الداهم ؛ على أن هذه الحماية وحدها لا تكفي كما أثبتت التجارب الأخيرة في مصر وغير مصر ؛ وإنما يجب أن تقرن في الوقت نفسه بمعاونة الأمة وتفضيلها للمنتوجات القومية على سواها ؛ وهي بهذه المعاونة لا تحقق واجباً وطنياً فقط ، وإنما تخدم في الوقت نفسه مصالحها الاقتصادية .

محمد عبد الله عنانه
المحامي

حول ١٩ ينـــاير

للأستاذ محمد محمود جلال

اليوم تبحر من السويس إحدى الجواري المنشآت في البحر علماً على تقدم العلم وتسخير القوى ، تقل الرهط الكريم من رجال الزراعة والاقتصاد إلى بور سودان . وكنت أعد لتلك الرحلة عدتي ، حتى حالت فجأة ظروف قاهرة دون ما تعلقت به الأمنية . فاليوم ندعو الله أن يقرن التوفيق بخطاهم ، ونسجل لهم هذه اليد سابقين إلى الاعتراف سبقهم إلى خير العمل

ولعل هذه الرحلة الموفقة باذن الله أولى الخطى ، ولعلها بداية حزم ترقبه البلاد من قديم ، فتليها خطوات في مختلف ميادين السعي المجدي ؛ ولعلها بادرة التنبه ، ولعل الله جل شأنه حين قدر لها شهر يناير موعداً قد أراد أن يسدل على التقصير من ستره ، وأن يكون في المستقبل ما ينفض عن الماضي الغبار

فلقد مر « ١٩ يناير » وكأن لم يلحظه أحد ، فلم نر لذكراه إلا سطوراً نشرت بالأهرام من هيئة واحدة ، هي هيئة الحزب الوطني ؛ حتى لكأنه يوم بمر كسواه ، وكأنه ليس ذلك اليوم الذي أمسى على غصب صارخ ، وتفريق مروع ، وعبث من القوة بالحق عبثاً لم يرو التاريخ له مثيلاً

وبين « بور سودان » على البحر الأحمر و « بور سعيد » على البحر الأبيض صحيفة من المجد كاد يطويها الزمان لولا كفالة التاريخ ، وكوامن من الذكريات والعبر من حق الجيل الجديد علينا أن نبسطها وننشرها ، ومن واجب الأدب المصري أن يبذل لها أثمن بضاعته وأغلى جهوده . فلم يزل الأدب منذ القدم قواماً على الواجب والفضيلة ، يتحسس مواضعهما ، ويخرجهما في خير الثياب وأصدقها غذاء للأمم في حياتها ، وإيقاظاً للهمم فيما تحاول من تصحيح وتهذيب

واذا كان الشطر الأول من الاسمين أعجمياً دخيلاً ، ففي الشق الثاني من كليهما شفاء ورحمة للمؤمنين

فالمرحوم (سعيد باشا) عزيز مصر أصبح في التاريخ — وبعد أن خلقت سياسة الانجليز (حادثة وادي حلفا وتفتيش الجنود) فاضطرت الخديو عباس الثاني إلى العودة الى القاهرة — آخر من

زار (الوجه السودانى) من ملوك مصر

وقد زخر التاريخ الحديث بفيض من خير الأنباء عن زيارته ، فأينما حل كان الاستقبال حافلاً ، صادراً من القلوب لا أثر فيه لرياء ولا مصانعة ، وحسبك من قرة عين للمليك أن يرى أبنية شاهقة وطرقاً ممهدة وادارة مستقرة حازمة ، تعاونت على تأسيسها وتمهيدها وإقرارها أيادٍ من أقاليم الوجه البحرى ، وأخرى من الوجه السودانى ، وثالثة من الوجه القبلى

ولعله رحمه الله أراد أن يختبر ذلك البناء المعنوى المدعم ، ويشهد العالمين — وفى مقدمتهم قناصل الدول — حين أشاع عزمه على إخلاء السودان من بنى الوجهين البحرى والقبلى ، فهب أبناء الوجه السودانى فى ألم وحيرة يرجون ويلحون فى أن يعدل عن فكرة تنافى طبيعة الوجود . فآمن بأساس ملكه وحصل على ما أراد من التجربة

وإنى لأذكر فى ألم ومرارة كيف أصبح مجلس النواب بالقاهرة خلواً من أبناء السودان وقد كانوا زينة المجالس الأولى ؛ فقد كان الوجه السودانى ممثلاً بعدد يوازى نواب الوجه القبلى

وفى عام ١٩١١ أبان المرحوم (أباتا باشـــا) رئيس الجمعية الجغرافية فى بحث له بالمؤتمر المصرى أن مقارنة العظام التى عثر عليها فى المقابر تثبت أن الذين يقطنون وادى النيل من عنصر واحد

ثم انظر بعــد ذلك تلق الوحدة فى اللغة وتلقها فى الدين وتجدها فى العرف كما تجدها فى العادات

ولــكنك حين تبحث فى القاهرة وهى قلب البلاد تأخذ قلبك حسرة لاذعة . فلست تجد فيها بين مظاهرها المختلفة مظهراً واحداً يدل على تلك الوحدة الطبيعية ويشير إلى هذه الروابط الوثيقة

بين ظهرانينا نخبة من الشعراء ، سجلوا كثيراً من الحوادث ذات البال ، حتى امتد فضلهم إلى شؤون تبعد عن مصر ، وقد خلت دواوينهم من ذكر السودان وشؤونه ، بل لم تنوه قصيدة بتلك التجربة التى قام بها المرحوم سعيد باشا ، وفى عرفى أنها وحيدة فى التاريخ الحديث

أعرف أن المنظر والمعاشرة أكثر العوامل إيحاءً . ولــكن التاريخ ما يزال للــكثير من الــكتاب والشعراء مصدر وحى من أغزر المصادر . يتناول الفريقان من كأسه دهاقاً من روعة وفيضاً من غذاء

بل إن الروعة المعنوية لحادث كبير أو تصرف حصيف ، أو خلق كريم ، لتــكون فى كثير من الأحيان أوفر مادة وأكرم إثارة من مظهر مادى

وإذا كانت الجزيرة ببساتينها وقصورها ، والروضة بحافل تاريخها ، والأزهر الشريف بماضيه ، تأخذ باللب وتلهم القائل ، ففى جزيرة السودان ، وفى غاباته ، وفى منابع النيل السعيد الــكريم ، وفى مجارى مياهه الأولى وروافده سعة للفــكر والقول ، وأى سعة ؟

لقيت فى إحدى سفراتى ضابطاً شهماً أقام بالسودان ، أخذ يحدثنى عن رحلات قام بها فى ربوعه ، والضابط أقرب الناس إلى اختصار القول وأبعدهم عن زخرفه ؛ ومع ما بينى وبين ما يصف من شقة بعيدة ، فقد ظللت طوال الرفقة أخيذ القلب بالصور الرائعة يعرضها واحدة تلو أخرى حتى دونت منها كثيراً ، وحتى تمنيت لو كنت شاعراً فأصوغها نظماً أقوم به ببعض الواجب نحو بلادى

وكم يكون من خالص التوفيق أن تدعو «الرسالة» إلى رحلة فريق من الأدباء فى العام القادم ، يصلون ما انقطع فى عالم الأدب

* * *

ثم انظر بعــد ذلك الى المسارح ! ! فلن تجد رواية حدثت وقائعها بالسودان . بل إنك واجدها حافلة بالمناظر الأوربية ، وبكثير من مناظر القاهرة وبعض القرى ، دون أن يحظى بصرك بمنظر واحد يمثل لك الخرطوم قائمة شاهقة على الأيدى الثلاث ، ولا منابع النيل تدنى إليك حقيقة الأواصر فى الوحدة المباركة ، ولا يمثال الشجاعة وكرم الخلق الذى تسير على نوره الركبان

إنا حين نقول فى أدبنا القومى عن أهل الوجه البحرى ، إنهم أولو ذوق سليم ، وعن الوجه القبلى إنه موطن الــكرامة والــكرم وجب أن نقول عن أهل السودان إنهم أهل الوفاء والشجاعة

كان الأمير (على بن دينار) ممتعاً بكثير من مظاهر الحــكم ، وليس أغنى من الانجليز ولا أسخى منهم يداً وقت الحرب ، وهم المسيطرون حواليه ، ولــكن ذلك لم يكن مغرياً له ، فهو لم يفتأ يذكر أنهم نكبة وادى النيل وهو منه ، فما ثار إلا عليهم وفاءً لحق النيل وواديه ، وظناً منه بسنوح الفرصة

وفى السودان علماء ، وذكاء أهله غير منكور ، ولا نعرف فى العاصمة عنهم إلا قليلاً ، حين تذكر الصحف قدوم بعضهم للاستشفاء أو لتبديل الهواء ، ومن واجبنا أن نبحث عن مؤلفاتهم وأن نتناولها بتعليق يجعل من الأمتين فى العالم الأدبى كتاباً واحداً ؛ ولاشك أن فى السودان شعراء ، فما زلنا نحس بأقوال «سر الختم»

النزعة العملية

فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

من الطريف والمفيد معاً ألا نزال نوازن بين الأدب العربى والأدب الانجليزى فى شتى النواحى ، فان هذين الأدبين لاختلاف ظروفهما يختلفان كثيراً وقلما يتفقان ؛ والموازنة بين وجوه اختلافهما العديدة – ووجوه اتفاقهما إن كانت – تلقى ضوءا على مختلف الظواهر فى كليهما ، وتبرز شتى الأسباب والمسبِّبات فى تاريخهما ، وقد قيل : وبضدها تتميز الأشياء

وأعنى بالنزعة العملية فى الأدبين اتصالهما بالحياة اليومية والاجتماعية والسياسية والوطنية ومساهمة أقطابهما فى تلك الشؤون ، والأدبان هنا أيضاً على طرفى نقيض : فالنزعة العملية تسود الأدب الانجليزى من أقدم أيامه ، وهى تزداد باطراد عصراً بعد عصر ، بينما هى تكاد تنعدم فى الأدب العربى ؛ وما كان منها فى صدر تاريخه قد تضاءل بكرّ العصور

فالانجليز بطبيعتهم العملية لم يترددوا فى زج الأدب فى غمار الحياة العملية والاستعانة به فى شؤونها ، وأدباؤهم لم يحجموا عن الأخذ بحظهم من أشغال الدنيا ومخاطراتها ، أما العرب فعلى عظيم منزلة الأدب لديهم وشدة احتفائهم به ، كان أدبهم دائماً بواد والحياة العملية بواد ؛ وكان فناً نظرياً محضاً من توفر عليه انقطع عن غيره وعاش فى عالم من الحفظ والرواية والتاريخ والتصنيف

و « على عبد اللطيف » فى محاكمتهم سنة ٢٤ ، روح الشاعرية ممزوجة بالوفاء والشهامة . ومن واجب صحفنا وجماعاتنا الأدبية أن تبحث بما أوتيت من وسائل الصحافة عن تلك الكنوز

ليقم الأدب وجماعاته وصحفه بهذا الواجب ، وليس العيب أن يكشف الزمان عن نقص ولا أن نعترف بالنقص ، ولكن العيب أن نقعد عن تلافيه

ولنقل من اليوم : الوجه البحرى ، والوجه القبلى ، والوجه السودانى . وليس عند الله جهد ضائع ، ولكن فى الدنيا كسل مضيع

محمد محمود جلال

فكان من أدباء الانجليز من ضربوا بسهم فى الفن والعلم والدين والحرب والكشف الجغرافى وكبار وظائف الدولة ، ولهم مع ذلك مؤلفاتهم الشعرية والنثرية المعبرة عن خوالجهم النفسية ونظراتهم فى شؤون الحياة مستقلة تمام الاستقلال عن وظائفهم فى الحياة العملية أو متأثرة بها ، ومن أولئك سبنسر وبيكون ورالى وبنيان وسدنى سميث ودزرائيلى

ومنهم من شاركوا فى التقلبات السياسية فكانوا دائماً فى صف الحرية وفى جانب الشعب ، ولم يستظل منهم إلا القليل بلواء الملكية ابتغاء السلامة والغنيمة . وممن ضربوا بسهم فى هذا الباب توماس مور مؤلف « اليوتوبيا » الذى قطعت البزابث يده لدفاعه عن حرية الشعب الدينية ؛ ويقال إنه بعد قطع يده رفعها هاتفاً بحياة الملكة لأنه كان يحب ملكته الباسلة ، ولكنه كان أكثر حباً للحرية والشعب . ومنهم ملتون الذى أيد الجمهورية فى ظل كرومويل وعمى بصره فى الدفاع عنها أمام أنصار الملكية

ومنهم من اضطلعوا بعبء الاصلاح الاجتماعى الأخلاقى عقب الفساد الذى تركته الملكية العائدة من فرنسا بعد موت كرومويل ، وإديسون ، وستيل بطلا هذا الأصلاح الناجع الفريد فى بابه .

ومنهم من كرس أعماله لأصلاح حال العمال عقب التطور الصناعى وزعيمهم دكنز ، أو لأصلاح القانون الجنائى ومعاملة المسجونين تمشياً مع عصر النور والحرية ، ومن أولئك جالزوردى . ومن الأدباء الفكتوريين من صرف همه الى ترقية الجمهور والذوق العام بالمحاضرة عن الفن والأدب ، وكبير هؤلاء رسكن . وزادت هذه النزعة الأجتماعية الأصلاحية بتشعب نواحى الحياة حتى طمت فى عصرنا الحاضر

بل كان من أولئك الفكتوريين جماعة خاضوا ميدان الصناعة والتجارة ، فأنشأوا شركة لصنع الأثاث ، وكانوا يرسمون تطريز الأثاث بأنفسهم ، إذ ساءتهم الطرازات الشائعة فى عهدهم ؛ وأنشأ أحدهم وهو الشاعر المصور وليم موريس مطبعة ومعملاً للحبر لكى يطبع كتبه على النمط الذى يختاره وبالحبر الذى يفضله

بل كان من أدباء الانجليز من عاف الاجتماع الانسانى قاطبة ونقم على أنظمة الملكية والكنيسة ، وحاول إنشاء مجتمع جديد تسود فيه البساطة والمساواة والأخاء ، ومن هؤلاء شعراء عهد الثورة الفرنسية ؛ فالكتاب الفرنسيون الذين مهدوا لتلك الثورة

أمثال روسو وفولتير اكتفوا بالعمل النظرى وتركوا التنفيذ لغيرهم ، أما معاصروهم ومن جاء بعدهم من الأدباء الأنجليز فحاول كثيرون منهم تنفيذ العمل بأنفسهم . وقد انتقل شيلي إلى إرلندة ثم إلى أوربا لانشاء مدينته الفاضلة ، وإن يكن قد منى بالفشل فى الحالتين ؛ وعاضد وردزورث الثورة الفرنسية بقوة لمناداتها بمبادئها المعروفة حتى نقم على دولته إعلانها الحرب على فرنسا الثائرة ، وكاد ينتظم فى أحد أحزاب الثورة ، ويركب تيارها الخطر

أولئك بعض رجال العمل من أعلام الأدب الانجليزى المساهمين فى الحياة الاجتماعية بفكرهم ومجهودهم ، وما نخالنا واجدين مماثليهم بين أعلام أدبنا : فقد كان من يتوفر على الأدب من أبناء العربية ينصرف كما تقدم عما عدا الأدب ، ويقصر أدبه على التعبير عن خوالجه الفردية وذكر مآربه وحبه وشرابه وغضبه ورضاه ونعيمه وشقائه ، ويكاد لتوفره على الأدب لا يجد قوت يومه إن لم يكن له مورد سهل ، ويضطر إلى التقرب إلى مَولًى يمتدحه ويفوز بأعطيته ؛ وقد كان هذا من دواعى استطالة هذه الظاهرة فى الأدب العربى : ظاهرة المدح التى سرعان ما تلاشت من الأدب الأنجليزى

والقليلون من أعلام الأدب العربى الذين شاركوا فى الحياة العملية إنما صنعوا ذلك جرياً وراء مطامعهم الشخصية لا دفاعا عن مصالح أقوامهم ؛ ولذا كان أقصى همهم أن يستوزروا للحكام ، ولم يدر بخلدهم مناقشة سياسة أولئك الحكام ، وإنما ظلوا أبواقاً لهم وكتبة مجيدين ؛ ومن ثم كان ما يتصل بالسياسة من ذخائر الأدب العربى هو الرسائل الديوانية التى دبجها أولئك المنشئون على لسان أمرائهم

والمجيدون من أعلام الأدب العربى الذين ساهموا فى حياة العمل بمناهضة السلطة القائمة كقطرى بن الفجاءة مثلاً قلائل ، وكان جلهم فى صدر الاسلام ، ومن لم يفعل ذلك منهم طلباً لغاية شخصية فعله لعقيدته الدينية حين كانت العقائد الدينية مضطرمة فى الصدور

لقد كان الشعر والخطابة فى الجاهلية أداتين من أدوات الحياة العملية والسياسية فى ذلك المجتمع البدوى . فلما جاء الاسلام كان فى أصوله شوريا يخول الرعية مشاورة راعيها ، ولكن دولته قامت على بقايا الملكيات المستبدة القديمة ، فقامت الخلافة العربية على غرار تلك الملكيات التى تجمع الأمر كله بيدها ، ولم يعد الخليفة يشاور إذا هو شاور رعياً لحق الرعية عليه بل التماساً للرأى إن أعوزه ، ولا هو كان ملزماً باتباع مشورة غيره ؛ وصار من المسلم به أن الحكم للأمير لا دخل للرعية فيه . وبدهى أن الأدب الذى ينمو فى مثل هذه الظروف يظل مكفوفاً عن شؤون السياسة كما كانت بقية الرعية مكفوفة ، فهذا سبب انعزال الأدب العربى عن السياسة

فالأدباء ممثلو أممهم : ففى انجلترا حيث كان الدستور والحياة النيابية هما العقيدة التى يدين بهـا الشعب شارك الأدباء كما شارك غيرهم من أفراد الشعب فى الحياة السياسية وتوطيد أركان الحرية ، وفى الأقطار العربية حيث كانت الملكية المطلقة هى القاعدة أحجم الأدباء عن غمار السياسة كما كان بقية الشعب محجماً

ولقـد خفف من وطأة الحكومة المطلقة على الأدب أن أكثر الخلفاء والأمراء كانوا أدباء أو عشاقاً للأدب ، وكانوا جميعاً يقربون رجال الأدب ويغدقون عليهم ؛ على أن هذه الحالة كانت لها مساوئها بجانب مزاياها : إذ زخر أدبنا دون غيره من الآداب العالية بأشعار المديح والتهنئة والاستجداء ، وشتان بين أدب ينمو فى ظلال الحرية والاســـتقلال ، وآخر بين قيود الرعاية والحماية والمنحة

كان الدستور محور السياسة فى انجلترا ، وكان الدين محورها فى الأقطار العربية ، فعليه انقسمت الأمة أحزاباً فى أول الأمر ، ومنه انبعثت الفتن والثورات وقامت الأسر الحاكمة وتقسمت الأمبراطورية العربية دولاً ودويلات ، وبحافز منه جاهد المسلمون الروم ثم الفرنجة . كان الدين فى كل هذه الأطوار مبعث النشاط السياسى وزناد الروح الوطنية والقومية ، ولا ترى الشعر العربى يحفل بالحماسة وروح القومية إلا فى عصور الجهاد تلك

فالحياة الديمقراطية فى انجلترا كانت العامل الأول فى اتسام الأدب الانجليزى بالنزعة العملية ومساهمته فى الحركات السياسية والاجتماعيـة ، واختراع الطباعة كان عاملاً آخر ساعد اتصال الأدباء بالحياة الاجتماعية واعتمادهم على جمهور القراء بدل الاعتماد على منح الأمراء ، ونتج من توثق هذا الاتصال نشوء الصحف الدورية فـكانت عاملاً جديداً فى هذا الميدان أعقبه تعميم التعليم

فعاملا امتلاء الأدب الانجليزى بالنزعة العمليـــة هما الحياة الديمقراطية أولاً وانتشار المطبوعات ثانياً ، وقد كان كلا العاملين يعوزان الأدب العربى ، ومن ثم يزخر الأدب الانجليزى بالشؤون الاجتماعية والسياسية والوطنية بينما يقتصر الأدب العربى على وصف المشاعر الانسانية العامة وتصوير حالات النفس وأطوار الفرد ؟

فخرى أبو السعود

١١ ـ محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون أو خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

ـ وفى هذا يزدرى الفيلسوف البدن ، فتفر منه روحه وتود أن تنعزل بنفسها

ـ هذا صحيح

ـ حسناً ، ولكن بقى شىء آخر ياسمياس ، أثمت عدل مطلق أم ليس له وجود ؟

ـ لا ريب فى أنه موجود

ـ وجمال مطلق وخير مطلق ؟

ـ بالطبع

ـ ولكن هل حدث لك أن رأيت واحداً منها بعينيك ؟

ـ يقيناً لم أره

ـ ألم تدركها قط بأية حاسة جثمانية أخرى ؟ (ولست أتحدث عن هذه وحدها ، بل كذلك عن العظمة المطلقة وعن الصحة وعن القوة وعن كُنْه كل شىء ، أى حقيقة طبيعته) ألم يأتك علمها قط خلال أعضاء الجسد ؟ أليس الذى يريد عقله على أن يتصور كنه الشىء الذى هو بصدد بحثه أضبط تَصوُّر ، إنما يسلك بذلك أخصرَ السبل التى تؤدى الى معرفة طبائعها الكثيرة ؟

ـ يقيناً

ـ أما من يظفر بمعرفتها أسمى ماتكون نقاء ، فهو ذلك الذى يسعى اليها واحدة واحدة ، فيتناولها بالعقل وحده ، دون أن يأذن للبصر أو لغيره من الحواس الأخرى بالتطفل أو التدخل فى مشاركة العقل وهو منصرف الى التفكير ، بل ينفذ بأشعة العقل ذاتها ، بكل صفائها ، الى ضوء ما فيها من حقائق ، بعد أن يكون قد تخلص من عينيه وأذنيه ، بل ومن كل جسده ، الذى لا يرى فيه إلا عنصر تهويش ، يعوق الروح عن إدراك المعرفة ما دام متصلاً بها ـ أليس أرجح الظن أن يظفر مثل هذا الرجل بمعرفة الوجود ، إن كانت معرفته فى مقدور البشر على الاطلاق ؟

فأجاب سمياس ـ إن فى ذلك ياسقراط لحقاً رائعاً

ـ أوليس لزاماً على الفلاسفة الحق إذا هم اعتبروا ذلك كله أن يغوصوا فى أفكارهم ، فاذا ما التقوا تحدث بعضهم الى بعض عن تفكيرهم بمثل هذه العبارة : إنا قد اهتدينا الى سبيل من التأمل قمينة أن تنتهى بنا وبالجدل الى هذه النتيجة : وهى أنه ما دمنا فى أجسادنا وما دامت الروح ممتزجة بهذه الكتلة من الشر ، فلن تبلغ شهوتنا حدَّ الرضى ، وإنها لشهوة الحقيقة ، ذلك لأن الجسد مصدرٌ لعناء متصل ، علته هذه الحاجة الى الطعام ، وهو كذلك عرضة للمرض الذى ينتابنا فيحول بيننا وبين البحث عن الحقيقة ، وهو كما يقول الناس ، أبداً لايدع لنا السبيل الى تحصيل فكرة واحدة ، لما يملأنا به من صنوف الحب والشهوات والمخاوف والأوهام والأهواء ، وكل ضرب من ضروب الجهالة ، وإلا فمن أين تأتى الحروب والمعارك والأحزاب إن لم تكن آتية من الجسد وشهوات الجسد ؟ فالحروب يثيرها حب المال ، والمال إنما يُجمع من أجل الجسد وخدمته ، ومن جراء هذا كله يضيع الوقت الذى كان ينبغى أن ينفق فى الفلسفة ، هذا ولو تهيأ للفلسفة الميل والفراغ لنفث الجسد فى مجرى التأمل الشغب والاضطراب والخوف ليحول بيننا وبين رؤية الحقيقة ، وقد دلت التجارب جميعاً على أنه لوكان لنا أن نظفر عن شىء مّا بمعرفة خالصة لوجب أن نتخلص من الجسد ، ولزم على الروح أن تشهد بجوهرها جواهر الأشياء جميعاً ؛ ولست أحسبنا إلا ظافرين عما نبتغى ، وهو ما نزعم أننا محبوه ، وأعنى به الحكمة ، لا أثناء حياتنا بل بعد الموت كما تبين من الحديث . فان كانت الروح عاجزة عن تحصيل المعرفة وهى فى رفقة الجسد ، فالنتيجة كما يظهر أحد أمرين : إما أن تكون المعرفة ليست على الاطلاق حقيقة بالتحصيل ، وإما أن تحصيلها يكون بعد الموت إن كانت جديرة به ؛ فعندئذ ، وعندئذ فقط ، تنعزل الروح فى نفسها مستقلة عن الجسد ، وأحسب أننا فى هذه الحياة الحاضرة نسلك أخصر السبل إلى المعرفة ، لو كنا نبذل نحو الجسد أقل ما يمكن

بذله من عناية وشغف ، فلا نصطبغ بصبغة الجسد ، بل نظل أصفياء إلى الساعة التى يشاء فيها الله نفسُه أن يَحلّ وثاقنا ، فاذا ماتطهرنا من أدران الجسد ، وكنا أنقياء ، وتجاذبنا مع سائر الأرواح النقية أطراف الحديث ، تعرفنا أنفسنا فى الأشعة الصافية التى تضئ فى كل مكان ، فلا ريب أن ذلك هو ضوء الحقيقة ، فلن يُؤْذَنَ لشئ دنس أن يدنو مما هو طاهر ، إنه لن يسع محبى الفلسفة الحقيقية ، ياسمياس ، إلا أن يفكروا فى هذه الألفاظ وأشباهها ، وأن يقولها بعض لبعض ، أفأنت موافق على ذلك ؟

ـ يقينا يا سقراط

ـ ولكن إن صح هذا ياصـديق ، فما أعظم الأمل إذن فى أننى إذا مابلغت غاية رحلتى ، فلن يقلقنى هذا الهم الشاغل الذى صادفنى وإيا كم فى حياتنا الأولى ؛ أما وقد تحددت ساعة رحيلى ، فذلك ما أرْحَلُ به من رجاء ، ولست فى ذلك فريداً ، بل هكذا كل رجل يعتقد أن عقله قد تطهر

فأجاب سمياس ـ يقينا

ـ وماذا يكون التطهير غير انفصال الروح عن الجسد كما سبق لى القول ، واعتيادِ الروح أن تجمع نفسها وتحصرها فى نفسها بعيداً عن مطارح الجسـد جميعاً ، وانعزالِها فى مكانها الخاص ، فى هذه الحياة كما فى الحياة الأخرى ، ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، وفكاكِها من أغلال البدن ؟

فقال ـ هذا جد صحيح

ـ وماذا يكون ذلك الذى يُدعى الموت سوى هذا الانفصال نفسه ، وتحلل الروح من الجسد ؟

فقال ـ لاشك فى ذلك

والفلاسفة الحق وحـدهم دون غيرهم يحثون فى انطلاق الروح ويتمنون أن يكون . اليس انفصال الروح وفكاكها من الجسد هو موضوع بحثهم الخاص ؟

ـ هذا صحيح

ـ إنه لتناقض مضحك كما قلت فى بادىء الأمر ، أن ترى أناساً يحاولون بالدراسة أن تكون حياتهم قريبة من حالة الموت ما استطاعوا ، فاذا ما أدركهم الموت أشفقوا منه .

ـ يقينا

ـ إذن ياسمياس . فمادام الفلاسفة الحق لا ينفكون يبحثون فى الموت ، فالموت عندهم ، دون الناس جميعاً ، أهون الخطوب . أنظر الى الأمر على هذا النحو : كم يبلغ منهم التناقض أن يناصبوا الجسد عداوة مُتصلة ، وأن يتمنوا لو خلصت لهم الروح وحدها ، فاذا ما أجيبوا الى ذلك ، كان منهم السخط والجزع ، فى مكان اغتباطهم بالرحيل الى ذلك المكان ، حيث يؤملون إذا ما بلغوه أن يظفروا بما قد أَحبُّوا فى الحياة (ألا وهى الحكمة) ، وأن يتخلصوا فى الوقت نفسه من مرافقة عدوهم . وكأيْن من رجل تمنى أن يذهب الى العالم الأسفل ، آملاً أن يصادف هناك معشوقة دنيوية ، أو زوجاً ، أو ولداً ، ليتحدث إليهم . أبعد ذلك يشفق من الموت مَنْ هو للحكمة محب صحيح ، ويعتقـد كذلك أن لن تتاح له بحق إلا فى العالم الأسفلْ ؟ أليس يقابل الرحيل بالبشر ؟ إنه ياصديقى لابد فاعل إن كان فيلسوفاً حقاً ، لأنه سيوقن يقيناً ثابتاً أنه لا يستطيع أن يلتمس الحكمة فى نقائها إلا هناك فقط ، دون أى مكان آخر . وإن صح هذا ، فأبلغ به من أحمق ـ كما سبق لى القول ـ إن كان يَفْـرَقُ من الموت

فأجاب سمياس ـ لاريب فى أنه فاعل

وأنت إذا رأيت رجلاً يجزع من اقتراب الموت ، كان جزعه دليلاً قاطعاً على أنه ليس محباً للحكمة ، ولـكنه محب للجسد ، وربما كان فى الوقت نفسـه محباً للمال ، أو القوة ، أو كليهما

فأجاب ـ هذا جد صحيح

ـ إن ثمت يا سمياس لفضيلة تدعى الشجاعة . أليست هـذه صفة خاصة بالفلسفة ؟

ـ يقينا

ـ وكذلك الاعتدال . أليس الهدوء ، وضبط النفس ، وازدراء العواطف ، التى يسميها الدهماء أنفسهم بالاعتدال ، صفة مقصورة على أولئك الذين يحتقرون الجسد ويعيشون فى الفلسفة ؟

ـ ليس فى ذلك خلاف

ـ وأنت إذا نظرت إلى الاعتدال والشـجاعة عند سائر الناس ، ألفيت بينهما ، فى حقيقة الأمر ، تناقضاً

ـ وكيف ذلك يا سقراط ؟

فقال ـ إنك عليم بأن الناس بصفة عامة ينظرون إلى الموت شراً وبيلاً

فقال ـ هذا صحيح

(يتبع) زكى نجيب محمود

٩ ـ بين القاهرة وطوس

من طوس الى طهران

للدكتور عبد الوهاب عزام

برحنا المشهد عائدين إلى طهران والساعة عشر إلا ربعا من صباح يوم الاثنين سادس رجب (١٥ أكتوبر) فمررنا بقرية اسمها قدمگاه (موضع القدم) وقد ذكرتها فى سيرنا من نيسابور إلى مشهد وأرجأت الكلام عنها إلى الاياب إذلم نعرج عليها فى الذهاب . وقفت السيارة فنزلنا وملنا ذات اليسار فدخلنا ساحة بين جدارين فيها طاقات لا أبواب لها بناها بعض السلاطين ليأوى إليها المسافرون . ثم صعدنا إلى مستوى ينحدر منه مجرى ماء . فانتهينا إلى شجرات عاديّة بجانبها حجرة كبيرة . ولقينَا قيم المكان فقال أنا كشيش قدمگاه . قلنا ياصاح إن الكشيش رجل الكنيسة وأنت رجل مسلم ، فقال أنا خادم القدم المبارك . ولجنا الباب فرأينا على يسارنا بَنِيّة فيها حجر بركانى أسود فيه أثر قدم . قال دليلنا هذا قدم الامام على الرضا ، ثم خرج بنا إلى حجرة أخرى فى وسطها بركة صغيرة مستديرة بها ماء صاف يشف عن سمكات صغيرات يجلن بين سطحه والقاع . قال هذه عين الامام الرضا فاشربوا . فغسلنا أيدينا داعين منشدين :

« وعين الرضا عن كل عيب كليلة »

نزلنا سائرين إلى الجادّة فشربنا الشاى وقوفاً واستأنفنا السير إلى نيسابور . ونزلنا فى الخيام التى ضربت لنا من قبل عند قبر الخيّام فاسترحنا وطعمنا .

خرجنا من نيسابور والساعة ثلاث بعد الظهر ، فوردنا سَبزوار ستّا إلا ثلثا ، فأوينا إلى النزل الذى وصفته من قبل ، وبعد العشاء اجتمع بعضنا فى حجرة الأستاذ العلاّمة كوپر على زاده محمد فؤاد مندوب الحكومة التركية ، وجاء مغنّون من أهل القرية فغنّوا من رباعيات الخيام وغيرها ضاربين على التار (آلة تشبه العود) فطربنا لهذا الغناء وهذا المجلس الذى جلس فيه علماء من أمم شتى دون ترتيب ولا تكلف ، بعضهم على السرُر والآخرون على الأرض ، فأخذنا نوقّع بأيدينا على نغمات التار . ولا أنسى الأستاذ كريستنسون الدانمركى وقد مدّ رجليه وأمسك عود الدخان (البيبة) بفمه ونشط للصفق على أنغام الموسيقى .

برحنا سبزوار والساعة تسع ونصف ، فبلغنا داوَرزَن بعد ساعة ونصف ونزلنا بها منزلنا الأول فاسترحنا وتغدينا . ثم فارقناها والساعة واحدة ونصف نؤم شاهرود ، وكان بردها لايزال عالقا بى ، فقلت لأصحابى : سأترك فى شاهرود العلة التى أخذتها منها . قال الأديب رشيد الياسمى : إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها . وبعد ساعة وقفنا على قرية اسمها عباس أباد فجاء شبان يعرضون علينا من صنعة القرية مسابح وأزراراً وأشياء أخرى مصنوعة من حجر أزرق ضارب إلى السواد فاشترينا منها للذكرى .

ثم سرنا فمررنا بزيدر فنزلنا بها ربع ساعة فشربنا الشاى عند شجيرات وقناة هناك ، وأسرعنا السير ليتسنى لنا أن نعرج إلى بسطام فنزور أبا يزيد قبل الغروب ، فعطبت سيارتنا على مقربة من شاهرود ، وذهبت فضلة الوقت فى إصلاحها فاضطررنا أن نعدل عن بسطام إلى شاهرود فوردناها بعد المغرب ونزلنا فى دارين داخل البلد استُبدلتا بالدار التى بظاهر البلد بعد الذى أصابنا من بردها فى الطريق إلى المشهد . وبكرت أنا والأستاذ عبد الحميد العبادى والأديب أحمد الصراف آملين أن نزور بسطام ونرجع قبل أن يتأهب أصحابنا للسفر ، فما زلنا ننتظر سيارتنا حتى فقدنا الرجاء فى زيارة أبى يزيد فسرنا مع الركب آسفين مرسلين للشيخ الصوفى تحيتنا على البعد

سرنا عن شاهرود والساعة سبع ونصف من صباح الأربعاء مزمعين أن نبلغ طهران عشية اليوم . وبين شاهرود وطهران أربعمائة كيل وثلاثة . ووردنا دامغان بعد ساعة ، فرأينا أن نتلبث بها لنرى بعض مشاهدها ولم نكن وقفنا بها فى ذهابنا إلى المشهد ،

كانت دامغان مدينة قومس ، وهى اليوم من ولاية طبرستان وتبعد ٦٤ كيلاً من استراباد ، جنوبىّ جبال ألبرز . على حدود العراق العجمى وخراسان . ويقال إنها فى موضع مدينة هكتمبيليس إحدى المدن العظيمة فى مملكة الأشكانيين القديمة ، وأن اسكندر المقدونى أدرك دارا الثالث قتيلاً على مقربة منها .

قال ياقوت راويا عن مسعر بن مهلهل : « الدامغان مدينة كثيرة الفواكه . وفاكهتها نهاية . والرياح لاتنقطع بها ليلاً ونهاراً . وبها مقسم للماء كسروى عجيب يخرج ماؤه من مغارة فى الجبل ثم ينقسم إذا انحدر عنه على مائة وعشرين قسماً لمائة وعشرين رستاقاً لايزيد قسم على صاحبه ، ولا يمكن تأليفه على غير هذه القسمة . وهو مستطرف جداً مارأيت فى سائر البلدان مثله ولاشاهدت أحسن منه »

قال ياقوت : « قلت أنا جئت إلى هذه المدينة فى سنة ٦١٣ مجتازاً بها إلى خراسان ، ولم أر فيها شيئاً مما ذكره لأنى لم أقم بها »

وأنا أقول قول ياقوت ، وأزيد أن مقسم هذه المياه تهدم إبان الغارة الأفغانية فيما يقال

وإلى الشمال الشرقى من المدينة ، ينبوع عظيم يسمى چشمه على (ينبوع على) يزوره الناس ، ويزعمون أنه يفيض على حجر به أثر من حافر فرس الرسول صلوات الله عليه . وقد بنى حوله فتح على شاه سنة ١٢١٧

وقال ياقوت : « وبينها وبين كردكوه قلعة الملاحدة يوم واحد ، والواقف بالدامغان يراها فى وسط الجبال »

سألنا عن الآثار الساسانية التى بدامغان فقيل لنا إنها بعيدة عن البلد ، وطريقها غير معبدة ، وهى ليست ذات خطر . ثم هُدينا إلى بناء اسلامى قديم ، فدخلنا إلى فناء فيه قبور لاطئة بالأرض ، ينتهى إلى حجرة كبيرة فى وسطها قبر كبير عليه سياج من الخشب ، وعليه كتابة قديمة كثيرة ، وإلى يسار الداخل قبر صغير لاسياج له ، فأما الضريح فقيل إنه لأحد أبناء الأئمة العلويين ، وأما الذى إلى يسار الداخل ، فقيل إنه لشاهرخ ، ورأينا حجرة أخرى مُغلقة كتب عليها : أمر بعمارة هــذا البناء شاهرخ . وقد ظننت أنه شاهرخ بن تيمورلنك ، وعجبت كيف دفن هنا وقد مات فى الرى . ثم تذكرت شاهرخ حفيد الملك نادرشاه ، الذى أسره آقا محمد القاجارى فى دامغان ، ومازال يعذبه ليسلم إليه خزائن جده نادرشاه حتى مات سنة ١٢١١ ، فقلت هــذا قبر الأمير الضرير المنكود الطالع

بلغنا سمنان والساعة إحدى عشرة وربع فنزلنا منزلنا الأول فى المصنع الذى بظاهر البلد . وقلت للأستاذ العبادى لايفوتنا اليوم أن نرى مسجد الجمعة فى سمنان . فقلنا للأديب سيف آزاد صاحب مجلة « إيران باستان » فرافقنا وصحبنا فى الطريق أحد ضباط الشرطة ، ودخلنا من باب كبير تزينه نقوش وتماثيل وكتابة فيها اسم ناصر الدين شاه الى طريق على جانبيها أبنية للجند وخرجنا من باب آخر فسرنا فى شارع مشجر وأزقة ضيقة ، ثم ترجلنا وتركنا السيارة وتخللنا الطرق حتى انتهينا الى مسجد صغير جميل ، قرأنا فيما عليه من كتابة اسم الشاه طهماسب الصفوى

ثم ذهبنا الى مسجد الجمعة وهو قديم عظيم ، وأقدم ما فيه منارته ، وهى فيما يظهر بقية مسجد كبير بناه السلاجقة ثم هدمه التتار فأقيم المسجد الحاضر على جانب من عرصته . ثم زاد فيه إيواناً كبيراً أحد وزراء السلطان شاهرخ بن تيمور سنة ٨٢٨

وخرجنا من مسجد الجمعة فمشينا فى سوق طويلة مسقوفة تنبيء بعظم المدينة فى الماضى ، وقد أنشدنى الأديب سيف آزاد فى مسجد سمنان بيتاً معناه

« وا أسفا على المسجد الذى فى سمنان ، إنه يوسف فى السجن » (١)

اجتمعنا على الغداء فى سمنان ، ونحن نعلم أن الركب سيتفرّق فى طهران فلا يجتمع ، فتكلم بعض الوافدين شاكراً حكومة إيران ، والموظفين الذين رافقونا فى مسيرنا إلى طوس وإيابنا ، وأجاب السيد ابتهاج والأديب رشيد الياسمى معربين عن سرورهم وافتخارهم بمصاحبة الضيوف الخ ، وأرسلنا برقية إلى وزير المعارف نبلغه والحكومة الايرانية شكرنا . وكان الوزير قد تخلف فى المشهد هو والوزراء الآخرون ، ليصحبوا جلالة الشاه فى سفره إلى جرجان . . .

ركبنا السيارات والساعة اثنان وربع بعد الظهر ، فجدّ بنا السير حتى نزلنا فى فيروز كوه فاسترحنا وشربنا الشاى فى مطعم هناك . ثم ركبنا فما زلنا فى فيروز كوه (جبل فيروز) قممه وشعابه ووديانه حتى عيل الصبر ، وأظلم الليل ورهقنا الاعياء . ثم دخلنا طهران والساعة ثمانية من المساء فأوينا إلى الفندق بشق الأنفس

(يتبع) عبد الوهاب عزام

(١) صيف برمسجد كه درسمنان بود يوسف حسنى كه درزندان بود

الراعى

للأستاذ محمود الخفيف



الراعى — رسم الأستاذ على الأهوانى

راعنى فى الحقل إنشادٌ بديع والندى يغسل أجفان الصباحْ
فتطلعت الى راعى القطيع قد شجاه حسنُ اقبال الربيع
وتبدت روعة الكون له
فتغنى فى هيام ومراح

باسم كالصبح فى طلعته حالم العينين لمَّاح الجبينْ
حُمرة الأصباح فى وجنته وصفاء الكون فى مقلته
مرهفٌ كالغصن نشوان الصبا
غَرِدٌ كالطير فياض الحنين

ثَمِلُ اللفتة فى إقباله تتراءى فوق عِطفيه عصاه
مَرِحٌ يختال فى سرباله مُعْجَلٌ يعثر فى أذياله
أو حليم قرَّب المرعى له
فتهادى وتأنى فى خطاه

ذاكرٌ ليلاه فى تحنانه رائعُ الإنشاد فى الأرض الفضاء
تحملُ الريحُ صدى ألحانه فتهزُّ الحقلَ من أركانه
تذهل النوامَ عن أحلامهم
قبل أن تغرق فى سيل الضياء

يصفُ الحبَّ كما يعرفه قلبه الخالص من سوء الطباع
هاتفٌ، يسألُ «من يُنصِفه من غزال صدَّ، لا يعطفه
دمعُه المسفوح أو يصرفُه
عن دلال لجَّ فيه وخداع»

أخذت نفْسِىَ منه روعةٌ واستخفتنى معانيه العِذابْ
ملكتنى إذ تغنى نشوةٌ وتنزَّتْ فى فؤادى صَبْوَةٌ
تركتنى غارقاً فى حُلُم
ضَاحكِ الأطياف رَفَّافِ الجناب

تضحك الأرضُ مع الشمس له ويشيعُ السحرُ فى أركانها
يتبدَّى كلُّ شىء حوله طافحَ البشر طروباً مثله
وترى الوُرْق شجاها لحنُه
فتغنت فى ذرى أفنانها

يصبحُ الراعى طروباً شاديا مطمئنا ليس يدرى ما الشجنْ
وتراه حين يمسى راضيا فى ظلام الكوخ يغفو ثاويا
ناعمَ البال قريراً آمنا
هادئ الضجعة ريَّان البدَن

لم يكدِّرْ صَفْوَهُ حِرصٌ ولا سَهَّدَتْ جفنيه أطماعُ الحياه
لن تراه نائحاً يوماً على أملٍ فات ولا يصبو إلى
ما طواه الغيب فى أحشائه
حسبه الله فلا يرجو سواه

ملهَمٌ رُكِّبَ فى فطرته حبُّ مافى الكون من آى الجمال
تسمع التسبيحَ فى لهجته وترى الاعجابَ فى نظرته
ساذجُ الأحلام إلا أنه
صادق الوجدان مشبوبُ الخيال

كم رأى الفجرَ وما فى أفْقه من جمال واجتلى نورَ السَّحَرْ
وتملَّى الصبحَ فى إشراقه يفتِنِ النُّظَّارَ من عشاقه
بصفاء تعلق الروحُ به
عبقرىَّ الحسن موموقِ الصُّوَرْ

ولكم آنَسَ من حالى الضحى ومن الآصال مزدان الحُلَلْ

يجدُ الكونَ جميعاً مسرحا يجتليه غادياً أو رائحا
هائم يضرب فى آفاقه
دائم الترحال موصول الجذل

ولكم شاهدَ إقبال الدجى حين ذابت فيه ألوان الشفق
ورأى الليلَ إذا الليلُ سجا وانجلى البدرُ وضيئاً أبلجا
تقبس الألحاظ من رونقه
قبل أن يدركه موجُ الغسق

كم رأى الراعى الحقول النَّضِرَهْ حفلت بالحسن فى عيد الربيع
ورأى الصيف يُعفِّى أثره بيد عاتيةٍ مقتدره
تركت جنته خاويةً
جفَّ فيها الزهرُ والروضُ المَرِيع

ولكم أبهجَه صفوُ الخريف ورأى سحر مجاليه الوضاء
واغتدى يرتع فى ظل وريف قدسرى فى جوه نفح لطيف
يملأ الصدر به مستروحا
قبل أن تعصفَ أنواء الشتاء

يا قنوعا مثّلتْ عيشتُه عيشةَ الانسان فى فجر الوجود
يا خليًّا أنسه وحدته إيه يا من برئت فطرته
من غرور العيش فى زخرفه
يا طليقاً ما درى معنى القيود

يا قرير العين فى خلوته لم يجرِّبْ مرةً غَدْرَ الصديق
يا نقىَّ القلب فى عزلته لم ير العالم فى زحمته
هات من لحنك ما يطربنى
يا غريراً أنت بالبشر خليق

يا رضىَّ النفس فى إيمانه نعِمَتْ نفسُك فى ظل رضاها
إيه يا من قرَّ فى وجدانه مِن هُدَى اللهِ ومن رضوانه
ما ترنّمتَ به فى غبطة
فطن القلب إليها فوعاها

هات من لحنك ياراعى القطيع قد نفى لحنك عن قلبى الحَزَن
هيه إنى ما تغنيتَ سميع وسأمضى شاكراً هذا الصنيع
ذاكراً لحنَك مفتوناً به
إن فى ذِكراه رَوْحاً وسكن

محمود الخفيف

من الأدب الفرنسى المعاصر

أندريه جيد

André Gide

بقلم على كامل

تتمة

يرى أندريه جيد – ويتفق معه فى ذلك مارسل بروست والكاتب الايطالى پيراندللو – أن الشخصية ماهى إلا وهم زائف، وأن الانسان صنيعة الظروف والاحتمالات

ومهما يكن مقدار ما فى هذه الآراء من الحق أو الباطل فقد كان لها الفضل الأول فى تجديد القصة الأوربية لما تضمنته من تحطيم فكرة (الأخلاق الثابتة) و (النماذج الانسانية) التى كانت أساس القصة التحليلية فى الأدب الغربى لتقيم على انقاضها أسس فكرة (اللاشعور) قبل العالم (فرويد) نفسه. كما أن هذه الآراء قد أبانت الأثر العظيم للغرائز الجنسية وعدم توازن العواطف فى حياة الأشخاص متأثرة فى ذلك بقصص الكاتب الروسى دستويفسكى

على أن ما يمتاز به أندريه جيد من كل من مارسل بروست وپيراندللو أنه لا يكتفى بالنظر الى الأمور نظرة العالم النفسى، بل إنه يخرج من دراسته (بقاعدة) يرى من الواجب السير عليها فى الحياة: تلك القاعدة هى وجوب أن يسمى الانسان الى فهم طبيعته وإدراك حقيقة نفسه بنفسه، وما ذلك إلا بالخضوع لكل الدوافع المتنوعة مهما كانت، والتذرع بالشجاعة لتحقيق كل ما يجيش فيه من الرغبات دون اختيار، أى دون أن يقول الانسان لنفسه: هذا متفق ومع الآداب العامة، وهذا مغاير لها؛ هذا يمس الدين وهذا لا يمسه . . . . الخ يجب أن يكون كل منا (كطفل ضال، وُجد دون أن تُعرف حالته المدنية، دون أوراق . . . . . قذفه المجهول، لا يعرف له ماضياً ولا قاعدة يسير عليها ولا سنداً يعينه، لا وطن له ولا أجداد)

إن هذه هى الوسيلة الوحيدة عند جيد لانكشاف حقيقة نفوسنا أمام أعيننا ، وعندئذ نسير على هدى طبيعتنا

وفى قصته مزيفو النقود Les faux-monnayeurs (١٩٢٥) نرى الفتى (برنار) يخاطب القصصى (ادوار) ويسأله النصح كيف يضع قاعدة لحياته ، فيجيبه ادوار قائلاً : (إن هذه القاعدة تجدها فى نفسك على أن يكون قصدك السير الى التقدم . ليس عندى ما أقوله لك . إنك لاتستطيع أن تستمد هذه النصيحة إلا من نفسك . فلا تحاول أن تتعلم كيف تعيش إلا بأن تعيش)

ولكى نعيش - فى نظر جيد - عيشة لايقيدها قيد يجب ألا نتردد عند الحاجة فى الثورة على نظام الأسرة والجرى وراء إحساساتنا تقودنا الى حيث الحقيقة العظمى . فالاستقرار هو ألد أعداء جيد ، لأن رائده هو أن نكون متأهبين دائماً لتغيير جديد فى حالتنا

وفى كتابه الأغذية الأرضية Les Nourritnres térrestres نسمع جيد يخاطب (ناتانابيل) Nathanaël ملقياً عليه تعاليمه قائلاً :

(ناتانابيل : إياك أن تستقر فى مكان ، فبمجرد أن تغيرت ظروف هذا المكان وأصبحت موافقة لطبيعتك ، أو جعلت أنت نفسك موافقاً لظروف المكان ، عندئذ لا تبقى لك فائدة تُرجى من وجودك ، فيجب أن تهجره ، ليس هناك أخطر عليك من أسرتك ، من غرفتك ، من ماضيك)

وفى قصة L' Immoraliste نسمع (مينالك) Ménalque يقول : (إننى لا أريد أن أتذكر . فاعتقادى أن هذا منع لوصول المستقبل . واعتداء على الماضى الذى لم يعد لى فيه حق ، إننى بنسيانى الكامل الأمس أجدد كل ساعة من حياتى . إن كونى كنت سعيدا لا يكفينى ، لأننى لا أومن بالأشياء الميتة . وما كنت عليه وزال عنى الآن هو عندى كأنه لم يكن)

على أن فكرة جيد عن التحرر المطلق كما رأينا لم تقض على عاطفته الدينية . بل لقد أحدث عنده هذا الايمان القوى بالتحرر وبالاستسلام لكل إحساس يغمرنا ، نتيجةً عكسية ، إذ جعل جيد يترك العنان لأحساسه الدينى يطغى عليه بين وقت وآخر دون أن يحاول كبته ، فنراه يتكلم عن الله والحياة الخالدة بأسلوب متصوف زاهد ، ففى كتابه الأغذية الأرضية Les Nourritures terrestres وهو الكتاب الذى ينفجر فيه بالدعوة إلى التمتع بالحياة الحسية يقول : (إنك حينما تذهب لا تستطيع أن تقابل إلا الله) وأيضاً (ناتانابيل : لا تأمل أن تجد الله إلا فى كل مكان) وفى كتابه الأغذية الأرضية الجديدة Les Nouvelles Nourritures terrestres يقول : (يجب أن نفكر فى الله بأقصى مايمكن من الانتباه واليقظة . . . . . . إننى عندما أهجر التفكير فى الخالق إلى التفكير فى المخلوق تنقطع صلة نفسى بالحياة الخالدة وتفقد حيازتها لمملكة الله)

والآن ، أليس من التناقض مع فكرة (التحرر الأخلاق) والدعوة إلى التمتع بالحياة أن يغمر جيدَ إحساس أشد المتدينين إيماناً فيفكر فى الله كل يوم - كما يقول - ولا يستطيع له فراقاً ؟

إن جيد يبرر موقفه بفلسفة هى أهم نواحى التجديد فى تفكيره . إنه يفصل بين اللذة plaisir والحب amour ، أو بعبارة أخرى بين الجسد corps والنفس âme ، لذا نراه يبيح من جهة تحقيق كل مقتضيات الجسد ، ومن جهة أخرى تحقيق كل مقتضيات النفس فى الالتجاء إلى قوة عُليا . ولا شك أن رأى جيد هذا لايتفق مع عقيدة دينية ، ولكنه فى صميمه وَحى طابعه الدينى الذى لم يستطع التخلص منه فأراد التوفيق بين إحساسه الدينى ومذهبه الفكرى فى التحرر الأخلاق

وفى العبارة الآتية يعترف لنا جيد أن هذه الناحية من تفكيره كانت خلاصاً وتبريراً لما أوقعته فيه مشكلته النفسية . يقول : (أما فيما يتعلق بى فقد قلت مراراً كيف أن الظروف وما تتجه إليه طبيعتى كانت تدعونى إلى التفرقة بين الحب واللذة لدرجة أنه كانت تؤلمنى فكرة المزج بينهما) ثم يقول لقد فصلت أنا أيضاً بين اللذة والحب ، بل إن هذا الفصل بين الأثنين قد ظهر لى أنه كان لازماً . فاللذة أكثر نقاء plus pur والحب أعظم كمالاً plus parfait)

يرى جيد أن انطلاقنا وخضوعنا لمطالب أجسادنا إنما هو نوع من السذاجة والبراءة innocence ، وأن اجابة الانسان لنداء طبيعته وغرائزه التى ولدت معه إنما هو خضوع لارادة الله . وما الفرق عنده بين من يجارى ميوله وشهواته كلها وبين من

يكبح بعضها إلا كالفرق بين (من يأكل كل شيء ومن لا يأكل غير الخضروات)

ويقول جيد أيضاً : (ليس في الانسان شيء غير طاهر) Rien n'est impur en soi ، لذا كان ما تفيض به طبيعة الانسان من ميول وشهوات لا يجب في نظره أن يحمل غير معنى الطهر والنقاء والاخلاص لأنفسنا فيجب أن نطيعها دون اختيار (لأن كل اختيار إنما هو تحديد لحريتنا)

على أن جيد يشترط لكل عاطفة تحركنا أن تكون مخلصة لكي نطيعها ونجيب نداءها . ففي Si le grain ne meurt نسمعه يقول : (إن لذاتي لا تحجب وراءها فكرة خفية . لذا لا ينبغي أن يتبع هذه اللذات أي شعور بالندم) فهو يقصد بذلك أن يقول إن فكرة الحرية والانطلاق إذا استترت وراءها نية أو غرض معين خرجت عن دائرة البراءة والأخلاص

وفي ضوء ما ذكرنا نرى أن فكرة أندريه جيد فكرة مزدوجة مضمونها :

أولاً : الناحية الجسدية الحيوانية في الانسان وهي الناحية البريئة الساذجة

ثانياً : الناحية المعنوية ، وهي إما الناحية الخاصة بالاحساس الديني ، وإما الناحية الشيطانية في الانسان

ففكرة جيد هي الفصل بين هاتين الناحيتين اللتين هما في الواقع حقيقتان من حقائق الطبيعة الانسانية — الناحية الجسدية والناحية المعنوية — ثم السمو بهما الى أقصى ما يمكن من الطهر والنقاء . وما السبيل الى ذلك إلا بنبذ كل ما لا أساس له من الحق والصدق ، وفي مقدمة ذلك بالطبع كل ما يرغمنا عليه المجتمع . ولقد استخدم جيد في البداية عبقريته كناقد فذ في تبرير حقه في الانطلاق والتمتع بالحياة وفي (الحب الذي لا يجرؤ أن يقول اسمه) على أنه فيما بعد صرف همه الى العناية الشاملة بكل تقاليد المجتمع وحقائقه الفارغة وأوهامه لكي يعمد بعد ذلك الى تنقيحها أو هدمها من أساسها ، فنراه مثلاً يهاجم فكرة الحماية الأدبية ويطعن في نظم التربية ويفضح مظاهر الرياء بين الطبقات الوسطى الى غير ذلك مما يراه من المفاسد الاجتماعية التي تقف حائلاً بين الانسان وبين حريته التامة .

ولقد كانت (فردية) اندريه جيد سبباً في أن يبقى حتى الثامنة والخمسين من عمره بعيداً كل البعد عن الاهتمام بالمصلحة العامة أو الايمان بعقيدة سياسية أو اجتماعية على اعتبار أن الأصغاء لأفكار الغير يحد أو يغير من أفكار الانسان الخاصة التي يجب أن تكون بعيدة عن كل تأثير خارجي . وأندريه جيد في عزلته السياسية والاجتماعية كان يخالف تماماً كثيراً من أعاظم الكتاب الفرنسيين المعاصرين مثل أناتول فرانس وشارل موراس وموريس باريس وشارل پيجوى ورومان رولان وغيرهم .

على أن جيد بعد رحلته الى الكونغو وأواسط أفريقيا خرج مرة واحدة من دائرته الخاصة الى دائرة المجتمع الانساني بأجمعه . يفكر في ظروف الحياة فيه بعين تفيض بالرحمة الواسعة والحنان المعظيم حتى أن المرء ليحس بأنه قد نسي نفسه ولم يعد يفكر الا في الآخرين !

وفي كتابيه Voyage au Congo و Retour du Tchad نرى جيد يدافع عن الأمم المستعمَرة لا بمهاجمة فكرة الاستعمار نفسها ولكن بالمطالبة بحق إيثار هذه الأمم في التقدم المطرد في جميع شئون حياتهم وبتسفيه كل استعمار ينتهك حرمة هذه الحقوق المقدسة

ولكن هل بقي جيد عند هذا الحد من الاعتدال في تفكيره السياسي وهو الذي من دأبه السير إلى أقصى حدود التطرف ؟ لا . إذ لم يكد ينقضي وقت يسير حتى رأينا جيد يرتمي في أحضان الشيوعية التي اعترف بأنه عند اعتناقها كان يجهل صميم نظرياتها ، ولا شك أن اعتناق جيد للشيوعية مخالفة تامة لأسس تفكيره السابق ، لأن جيد (الفردي) قد أصبح يؤمن بنظام يقيد مصلحة الفرد في سبيل مصلحة المجموع . وجيد الثائر على أي نظام من نظم التربية على اعتبار أن التربية تقييد وتحديد قد أصبح يؤمن بالمثل العليا الشيوعية . وجيد الذي كان ألد عدو للعقيدة الثابتة dogme قد أصبح إيمانه بالشيوعية تسليم منه بالنظريات الماركسية كنظرية (التفسير الاقتصادي للتاريخ) مثلاً . . . . وغيرها . على أن في

الشيوعية أيضاً تتحقق معظم أفكار جيد وآماله ، ففيها شرود نهائى من ماضيه الدينى الذى أثقله زماناً طويلاً ، وفيها التخلص من عبودية نظام الأسرة الذى طالما حاربه وناضل فى سبيل القضاء عليه ، وفيها أمل جديد فى الوصول الى ما يسميه جيد (مملكة الله) أى قتل الجوانب الخبيثة فى الانسان بالتخلص من كل أنانية والتحرر من كل تفكير ذاتى ، وهو يرى فيها أيضاً الشفقة الزائدة والتفكير الجدى فى محو الشقاء الانسانى

ولعل من العجيب أن اندريه جيد منذ أعلن إيمانه بالشيوعية لم يعمل أى عمل أدبى جديد ، مقتصراً على نشر المقالات المختلفة التى تدور كلها تقريباً حول تبرير انقلابه الجديد ، ولا نقول الأخير ، فهل منا من يضمن أن جيد يستقر على حال ؟ !

***

لعل مظاهر التقلب والقلق الدائم وعدم الاستقرار التى صاحبت جيد عشرات السنين هى أعظم ما يرفعه (كانسان) لأنها نتيجة تغلغل عاطفة الحرية فى دمه الى حد قل أن يكون له نظير ، فظل طول حياته (حديقة من التردد) - كما يسميه أكبر أتباعه الكاتب الفرنسى جاك ريفيير - لا يهدأ له بال . يدرس الحياة بنواحيها الفكرية والحسية ، يسافر الى أقصى البلاد . كل ذلك لكى يصل الى الحقيقة المنشودة التى يسعى وراءها . ورغم عبء ماضيه الدينى الثقيل فقد استطاع أن يحطم أغلاله لينطلق باحثاً منقباً

إننا حين نحكم على اندريه جيد يجب أن ننظر الى مجموع شخصيته ، متغاضين عن تلك السبل الشاردة التى اختطها فى حياته الخاصة ودعوته العامة ، وتعتبر فى نظر ناقديه - مبالغة قصوى فى تفسير معنى الحرية - لقد علمنا جيد كيف ننتصر على الخجل المقيت والرهبة البغيضة التى لا معنى لها ، علمنا كيف نكشف دخائل نفوسنا ولا نتركها فى الظلام الدامس لا نعرف كنهها كأن ليس لنا بها صلة ، علمنا كيف نسلط عليها ضوءاً وهاجا نستمده من صميم إرادتنا وشجاعتنا ، علمنا كيف نصرح بكل ما يجيش فى خفايا قلوبنا من النزعات الصارخة - علمنا كيف ومتى نعرف تماماً حقيقة نفوسنا . . . ليس بالاستسلام لغرائزنا الحيوانية كما يتهمه أعداؤه ظلماً ، بل بأن نساير طبيعتنا مهما كانت بسذاجة عظيمة ، سواء ما كان منها خاصاً بالناحية الحيوية أو بالناحية الروحية ، وأن نكون دائماً على أتم أهبة لمواجهة الحياة المتغيرة ومجاراتها على الدوام فى قالب جديد

علي كامل

المصادر

1) René Schwob : Le vrai drame d' André Gide (1932)
2) André Billy : La litterature francaise contemporaine (1929)
3) René Lalou : Histoire de la littératnre francaise contemporaine (1931)
4) René Groos et Gonzague Truc : Tableaux du XX ème siècle (1900 — 1933) Les Lettres (1934)
5) Benjamin Crémieux : André Gide (étude) Nov. 1934

بيان للنـــاس

بقلم صاحب السعادة محمد طلعت باشا حرب

لمناسبة حلول موسم الحج الشريف لبيت الله الحرام — يسرني أن أذيع على مواطنينا الأعزاء بعض ماقامت به « شركة مصر للملاحة البحرية » لراحة الراغبين فى تأدية هذه الفريضة المقدسة :

أولاً — قامت الشركة بتجهيز باخرة ثانية «الكوثر» لمشاطرة شقيقتها « زمزم » شرف نقل الحجاج ، وهى باخرة غاية فى الفخامة ولا تقل عن زمزم أناقة ونظاماً ونظافة

وسنوجه الدعوة لزيارتها قبل مبارحتها الاسكندرية كما فعلنا فى العام الماضى بالنسبة لزمزم وسيدعى أيضاً لفيف من رجال الصحافة والأصدقاء للسفر عليها من الاسكندرية لبور سعيد فى طريقها إلى السويس . وبفضل اشتراك الباخرتين فى النقل أصبحت محلات الدرجة الممتازة « اللوكس » والدرجتين الأولى والثانية متوفرة تماماً ، وأصبحت الشركة مستعدة باذن الله تعالى لنقل أى عدد من ركاب هذه الدرجات فى الذهاب والاياب

ثانياً — لزيادة راحة الحجاج فى نزولهم من الباخرتين وطلوعهم اليهما بجدة قد أعدت الشركة مراكب كبيرة « قليلة الغاطس » وجعلتها شبه صنادل تقف على جانبى الباخرة عند رسوها وجهزتها بالسلالم والكبارى اللازمة لنزول الحجاج منها وصعودهم إليها بكل راحة وبدون أدنى خطر مهما كانت الرياح شديدة ومهما كان البحر هائجاً

وهذه الصنادل التى يسع الواحد منها نحو الخمسمائة حاج مجهزة « بالدكك والكراسى والخيام » (تندات) للوقاية من الشمس والمطر ويجرها رفاص لداخل الميناء

وفضلاً عن ذلك فالسنابك الأصلية موجودة أيضاً للنقل منها للميناء إذا تعذر لسبب ما وصول الصنادل إليها . وهذه تضحية جديدة من الشركة تكلفها مبالغ لا يستهان بها ، ولكنها تبذلها عن طيب خاطر حسبة لله تعالى دون أن يحرم أصحاب السنابك والمشتغلون عليها من أهل الحجاز أجورهم المقررة بالتعريفة الرسمية التى تدفعها الشركة اليهم كاملة من مالها

والشركة تنتظر منهم أن يقابلوا ذلك بالشكر الجزيل وزيادة العناية فى خدمة الحجاج

ثالثاً — لتشويق من يرغب من أهل اليسار من الطبقتين العليا والمتوسطة فى أداء الحج فكرت الشركة — فيما فكرت فيه — فى إيجاد محلات لائقة لهم بجدة ومكة المكرمة — فاستأجرت منزلين بهما زودتهما بكل وسائل الراحة ، وبالأدوات الصحية العصرية ، والأثاث الوثير الفاخر ، والأطعمة النظيفة ، وجهزتهما بالثلاجات والمراوح الكهربائية وبالنور الكهربائى ، فأصبح لا عذر من هذه الوجهة — حتى لمن تعودوا الترف والرفاهية — فى عدم القيام بفريضة الحج . وكل ذلك بأجور غاية فى الاعتدال لا تتجاوز جنيهاً مصرياً عن كل يوم بما فى ذلك الأكل والنوم عن الشخص الواحد للسرير الواحد

نعم إن عدد الأسرة محدود فى الوقت الحالى ، ولكن مع زيادة الاقبال ستفكر الشركة فى زيادة الأماكن

ويمكن حجز الأسرة من مكتب الشركة أو بالباخرة أو بذات المنازل بجدة ومكة

وزيادة فى راحة الحجاج قبلت الشركة اقتراح « قومسيون نقل الحجاج » الخاص بالقيام بتقديم الغداء لهم بالبواخر فى جميع الدرجات — فقامت بذلك فى العام الماضى وستقوم فى هذا العام بتقديم الغداء النظيف الصحى لهم جميعاً مغتبطة بعملها الذى تقصد به وجه الله قبل أن تنظر إلى الربح

فهى تقدم الى ركاب الدرجة الثالثة الخبز الكافى والأطعمة الصحية من الخضار واللحم والأرز والحلوى والجبن والزيتون للفطور والغداء والعشاء بكميات وفيرة — وهى التى تشرف على شراء القمح وطحنه وعجنه وخبزه لتستوثق من أنها تقدم خبزاً جيداً نظيفاً غير مخلوط — كما تشرف على شراء الزبدة وتسييحها ، وعلى شراء العجول والخراف الجيدة السليمة ، وعلى ذبحها وطبخها لتقدم غداء شهياً صحياً كما قدمنا

وكل هذا بثمن زهيد قدره ٤٠ قرشاً عن كل حاج بالدرجة الثالثة طول مدة السفر بحراً ذهاباً وإياباً

رابعاً — الاتفاق تام بين الشركة والحكومة الحجازية على

بذل قصارى الجهد من جانبها لتمهيد الطرق وتوفير الوسائل الصحية والاجتماعية لراحة الحجاج

وقد تبرعت الشركة والبنك وبعض أهل الخير بمبالغ لاتمام المستشفيات فى مكة المكرمة ، وتجهيزها بأحدث الآلات الجراحية وأشعة رنجتن لتمكنها القيام بأجل الخدمات لحجاج بيت الله الحرام على اختلاف أوطانهم ولأهل البلاد أنفسهم

وهذا فوق أنه عمل إنسانى جليل يزيد فى إطمئنان الحجاج ، وتشجيع الاقبال على استكمال هذا الركن من الدين

وبما أن الحرب العالمية أثرت أكبر تأثير فى رخاء المدينة المنورة ويسر أهلها حتى هاجر معظمهم وأصبح الباقون — من حضر وبادية — فى ضنك عظيم يفتت الأكباد ، كانت العناية بشئونهم واجبة ، وفى مقدمة ما يعنى به دراسة حالة تلك الربوع ، وأهل باديتها لعل الله يوفق لمشروع يشغل بعض الأيدى العاطلة ويشحذها لعمل فيه خير ورزق لهم ، ويرد للمدينة بعض روائها القديم

خامساً — اتفقت الشركة مع الحكومة الحجازية على دراسة مشروع تعبيد محل السعى بين الصفا والمروة ليكون أكثر انطباقاً لما يقتضيه من الاجلال والاحترام . وعلى منع انهيال الأتربة عليه ، وتدفق السيول التى تغشاه فى أكثر الأوقات بل وتتعداه إلى المسجد الحرام

وقد أرسلنا بعض الخبراء لدرس المشروع ووضع التصميمات والتقارير اللازمة لعرضها على الحكومة الحجازية والتفاهم على تنفيذها

سادساً — البحث جار فيما إذا كان من التيسر إيجاد خط جوى بين جدة والمدينة لتيسير الزيارة لكثيرين ممن يستصعبونها الآن ، وإذا نجح المسعى نتمكن من تنظيم خط جوى بين جدة والمدينة مرتين أو ثلاث مرات فى اليوم

فيتمكن الحاج من تأدية الزيارة والعودة فى يوم واحد أو يومين لمن أراد المبيت . وفى هذا كسب الزيارة لمن لا يجد فى وقته متسعاً لها ، أو لمن تمنعه المتاعب من القيام بها ، وربح لأهل المدينة بسبب زيادة عدد الزائرين

سابعاً — أوجدت الشركة على « كوثر » كما أوجدت فى العام الماضى على « زمزم » مسجداً للصلاة ومكتبة بها كثير من كتب الدين والأدب وغيرها ، كما أن بهما علماء يحاضرون الحجاج فى أمور دينهم

ثامناً — أوجدت الشركة بالسويس لراحة الحجاج أو عائلاتهم الذين يحضرون قبل ميعاد السفر أو يرغبون فى الاستراحة قبل مغادرتهم السويس فى العودة « فندقاً » مستوفياً شروط النظافة والراحة ، نسأل الله عز وجل أن يجعله نواة شركة للفنادق المصرية تقوم بأيدى المصريين وأموالهم ، وقد سميناه من باب التيمن « لوكاندة مصر »

تاسعاً — سيجد حجاج بيت الله الحرام على الباخرتين مكتبين لبنك مصر لتبديل العملة المصرية بالذهب أو بالريالات السعودية ولتبديل هذه بالعملة المصرية — حين العودة — ولقد رأى من حج منهم فى العام الماضى أى تسهيل عملنا . ولعلهم يذكرون أننا صرفنا لهم العملات الذهب والسعودية بأسعار أرجح مما كانت تصرف به فى جدة أو مكة

وإذا صح ما أذاعته الجرائد من أن الحكومة المصرية السنية تريد أن تكلفنا بصرف جنيهات ذهبية لحسابها الى الحجاج فنحن مستعدون للقيام بهذه العملية بالسعر الذى تحدده الوزارة ، فيمتنع ما أذاعه فى العام الماضى بعض المغرضين الذين لم يقفوا على حقائق الأمور — إذ ظنوا أننا أخذنا الذهب من الحكومة بالسعر الذى تشتريه هى به من السوق المصرى وبعناه بالأسعار العالمية ؛ على أن الحكومة قد باعت لنا الذهب فى العام الماضى بسعره فى « لوندرة » يوم البيع حتى دون استبعاد نفقات نقل الذهب براً وبحراً والتأمين والمحافظة عليه والقيام بمهمة المصارفة

ومع كل ذلك فقد بعنا الذهب للحجاج بأقل من الأسعار التى وجدوها فى جدة ومكة ببضعة قروش فى الجنيه . وقد بعنا للحجاج الريالات السعودية بثمن يرجح السعر الذى وجدوه بجدة بنحو نصف ريال سعودى فى الجنيه ، ومن صرفنا لهم بمصر بسعر أقل قبل معرفة حقيقة السوق رددنا لهم الفرق إما بالباخرة أو بالقيد لحسابهم الجارى لدينا بمصر ، أو بصرفه لهم نقداً بعد عودتهم ، ولم نسمع فى تاريخ البنوك بمثل هذا

وقد عملنا الترتيب اللازم بحيث يرد لنا يوم قيام الباخرة من السويس تلغرافات بالسعر الحالى لكل العملات بجدة لنصرف للحجاج ما يلزمهم بأسعار أوفق لمصلحتهم

وفى حال تكليفنا من الحكومة بصرف الذهب لحسابها

يكون ذلك بالسعر المتفق عليه وبمان للحجاج

ولتسهيل قبض تحاويل بنك مصر على الحجاز ولراحة الحجاج قد جعلنا الصرف بجدة من محل وكلائنا بها « الحاج عبد الله رضا وشركاه » وقد عينا مندوباً لبنك بمكة بمنزل شركة مصر للملاحة البحرية لخدمة الحجاج وتأدية طلباتهم المالية وصرف التحاويل بها

واتفقنا فى المدينة المنورة مع « حضرات الشيخ عبد العزيز الخريجى وشركاه » على أن يكونوا وكلاء فى ذلك وهم من أشهر تجارها

وأمامنا مشروع بخصوص العملة سنعرضه على حكومتنا السنية عسى أن تقره للمواسم المقبلة ، ففيه تحقيق مصلحة الحجاج وعدم غبنهم على قدر الامكان . وإذا نجح هذا المشروع — ولا ندرى لماذا لا ينجح — أتيح للحاج أن يحج ويعود دون أن يكون مضطراً لحمل نقود معه

فبنك مصر يتولى حينئذ شئونه المالية من البيت للبيت — على حد تعبير مصلحة السكة الحديد — فيدفع عنه بالحجاز كل الرسوم والضرائب وأجور المطوفين والأتومبيلات والجمال مما هو مقرر فى التعريفة بحساب الذهب — ويقدم له هناك ما يحتاجه من عملة سعودية لنفقاته المحلية المقررة بهذه العملة

وقد وافقت حكومة الحجاز على هذا المشروع الذى يضع حداً لفوضى تبديل العملة والتلاعب فيه ، ولا يبقى إلا أن يعرض على حكومتنا السنية حتى إذا ما بدت لها مزايا ما فيه من عدم غبن الحجاج أقرته ، وعملت على تنفيذه محاطاً بكل ما يضمن مصلحتهم

عاشراً — أفردنا محلا فى كل من الباخرتين لبيع الاحرامات (من بفتة وبشاكير) لمن رغب فيها من الحجاج ، وهى من صناعة شركة مصر للغزل والنسج وأثمانها معتدلة

وحتى لا يطيل الحجاج فى عودتهم المكث فى جدة — رأت الشركة أن يكون نقلهم من جدة للطور على « زمزم » ومن الطور إلى السويس على « كوثر » وهذا تسهيل كبير لهم ووفر فى الوقت

مما تقدم ترون الجهد الجهيد الذى تبذله شركة مصر للملاحة البحرية ، ويبذله بنك مصر لتوفير أسباب الراحة والطمأنينة لحجاج بيت الله الحرام كتب الله لهم السلامة فى الذهاب والاياب

ووفقنا لخدمتهم وتوفير أسباب الراحة والأمن لهم أينما كانوا وحيثما حلوا

وكل ما نطلبه من حجاج بيت الله الحرام هو أن يعاونونا على حفظ النظام والمواعيد وألا يكونوا سبباً فى إثارة الخواطر بين تلك الربوع المقدسة ، وليعلموا أننا لا نريد إلا راحتهم ، فان وقع تقصير فعن غير قصد ، ولنا من حسن نيتنا خير شفيع . (وما هجرتنا إلا الى الله ورسوله)

ولما كانت العصمة لله ، وما نحن إلا بشر نخطىء ونصيب ، فانا على أتم استعداد لسماع أية ملاحظة بريئة ، أو أية شكوى نزيهة ، أو أية نصيحة خالصة ، أو إرشاد نافع ، الى ما يكون من ورائه تحقيق أمانينا جميعاً التى تنحصر فى وجوب العناية بحجاج بيت الله الحرام والسهر على راحتهم ابتغاء مرضاة الله تعالى الذى لا يضيع أجر من أحسن عملا

فبراير ١٩٣٥ محمد طلعت حرب

القصص

كانديلورا
CANDILORA

بقلم لويجى بيراندللو

صاحب جائزة نوبل لعام ١٩٣٤

« لم يعرف للقصصى الايطالى النابغ لويجى بيراندللو ، الذى فاز بجائزة نوبل الأدبية عام ١٩٣٤ ، قصة كلاسيكية تجلت فيها مقدرته الفنية الرائعة ، وتبينت فيها نظرته الفلسفية : (هذا أو ذاك . . .) مثل ما تجلت فى هذه القصة . »

أنزل المصور الفنان « نين بابا » حافة قبعته بيديه الغليظتين ساعة أن قال لزوجته « كانديلورا » : « لا فائدة ترجى . صدقيني يا عزيزتى أن لا فائدة ترجى . »

وصرخت كانديلورا مهتاجة : « وأى فائدة ترجى إذاً ؟ أفى معاشرتك ليُقضى على من الغضب والمعاندة ؟ »

ورد عليها نين بابا فى هدوء : « نعم يا حبيبتى . ولـكن دون أن يُقضى عليك . بقليل من الصبر . أنظرى ، سأذكر لك شيئاً . « شيكو » . . . . »

ـ « إننى أمنعك من تسميته بهذا الاسم . »

ـ « ألا تسمينه كذلك ؟»

ـ « نعم ، ولأنى أنا أسميه هكذا »

ـ « هه . . . حسن . لقد ظننت أنى أرضيك بهذا . أيجب أن أسميه البارون ؟ البارون . أريد أن أقول إن البارون يحبك يا حبيبتى كانديلورا ، ويبذل المال فى سبيلك . . . . »

ـ « فى سبيلى أنا يبذل المال ؟ يا سافل ! ألم يبذل من أجلك مالاً أكثر ؟ »

ـ « لو أنك تركت لى الكلام . . . هو يبـذل المال من أجلى ومن أجلك . ولـكن انظرى ، ما معنى أنه يبذل من أجلى مالاً أكثر ؟ كونى منطقية مع نفسك . إن معنى ذلك أنه لا يقدرك إلا لأنك فى ظلى الذى أخلعه عليه . هذا مالا يمكن إنكاره . »

وتميزت كانديلورا من الغضب وقالت : « ظل ؟ من شعاع لمثل هذا . . » ورفعت قدمها مشيرة إلى حذائها ، ثم استطردت قائلة : « لم يلحقنى منك إلا العار ، العار ولا شىء إلا العار ! »

وتبسم نين بابا وأجاب بهدوء أكثر من ذى قبل : « كلا ، أستميحك المعذرة : إن العار يلحقنى أنا ، فيما إذا ما تكلمنا عن العار . إننى الزوج . وهذا أهم شىء ، صدقينى يا لوريتا . ولو لم أكن زوجك ، ولم تعيشى فى ضيافتى تحت هذا السقف ، لفقدت كل جاذبية ، أتفهمين ؟ هنا يمكن للجميع أن يدللوك دون أن يخشوا عقاباً . والجميع يتمتعون متاعاً عظيما بقـدر ما تلحقين بى من عار وشنار . وبدونى يا لوريتا تصبحين شيئاً تافهاً شديد الخطورة ، وما كان شيكو . . . البارون ليبذل . . . ماذا أنت فاعلة ؟ أتبكين ؟ لا ، لا ، انظرى . . إننى لا أقول إلا هذراً . »

واقترب نين من كانديلورا . وأراد أن يمسك بذقنها ، ولـكن لوريتا قبضت على ذراعه ، وفتحت فاها كحيوان مفترس وعضته ، وطالت عضتها دون أن تتهاون . وكانت أسنانها تغور باستمرار فى الذراع ، بينما كان هياجها يزداد . وانحنى نين حتى يمكنها من ذراعه ، وأطبق على أسنانه وابتسم هادئاً للألم المروع الذى سببته له . وازدادت عيناه ضياء واتساعاً . ولما أن انفكت أسنان كانديلورا عن ذراعه ـ وكأن حملاً قد أزيح عنه ـ أحس بأن موضع ما أكلت جرح من النار ، ولم ينبس بكلمة . وأخرج فى هدوء ذراعه من ردائه ، ولـكن القميص لم يطاوعه ، إذ كان قد غرز فى اللحم الحى . وانطبعت على كم القميص بقعة من الدم ، دائرة دموية ، هى دائرة أسنان كانديلورا القوية . وكان أثر الواحدة بجانب الأخرى ظاهراً ، وأخيراً تمكن نين من إخراج كم قميصه ، والابتسامة لم تفارق وجهه الشاحب . وكانت رؤية الذراع وحدها تشيب . فموضـع أثر كل سن فى الدائرة جرح . وكان اللحم المحيط بالدائرة قد اسود لونه . قال نين مظهراً لها ذراعه :

« ألا ترين ؟ » وصرخت كانديلورا ، وهى ملقاة على المقعد تتمشدق : « هكذا أريد أن أعض قلبك ! » وأجاب نين : « هذا ما أعرفه . وهذه الرغبة تقنعك بأنه أولى لك ألا تتركيني . اذهبي بالقيمة ، وأتنى بصبغة اليود والشاش المعقم والرباط . جميعها فى الخانة العليا من مكتبى يالوريتا . هى الثانية من اليمين . إننى أعرف أنك حيوان صغير مفترس يحب العض ، ولهذا أحرص دائماً على الضمادات اللازمة »

وأمسكت كانديلورا بذراعه ونظرت فى عينيه وشفعتها بنظرة قصيرة إلى ذراعه ، وأعجب نين بها ساعة هذه النظرة

لكانديلورا سحر فى اللون والحركة ، وهى تشحذه للعمل . فعينا الفنان تكتشفان فى هذه المرأة أشياء أبداً جديدة ومتعددة . فى هذه الظهيرة تبدو وهى فى حديقة المنزل ، وتحت شمس شهر أغسطس المحرقة ، التى تنشر ظلالاً حادة فى كل مكان ، ولها أثر مخيف . وكانت فى نفس الصباح ، حينما آبت من حمام البحر حيث قضت بضعة أسابيع محترقة الجلد سمراء اللون من فعل الشمس وملح البحر ، لون شعرها بمنطفىء ، وضاءة العينين أشبه ما تكون بمعز تشتهى النوم . وكانت بذراعيها العاريتين المفتولتين وبكفلها النامى تظهر فى كل حركة بسيطة أن رداءها الأزرق الحريرى الذى يناقض لون جسدها ويلتصق به يكاد يتقطع . وكان هذا الرداء مدعاة للسخرية . لقد كانت كانديلورا تقضى نصف يومها عارية تمرح على شاطئ البحر المنعزل ، وترقد بجسمها الصامد على الرمال المتقدمة من حرارة الشمس الملتهبة ، بينما كانت تشعر بنسيم البحر البارد يهب على قدميها . فكيف لهذا الرداء الأزرق أن يخفى عراها ؟ لقد ارتدته مجاملة للعرف ، ولكنه فى الواقع أظهرها فى حالة غير محتشمة أكثر مما لو كانت عارية

ومع كل ما كانت عليه من غضب لحظت فى عينيه إعجابه بها . وسرت إلى شفتيها بفعل الغريزة ابتسامة الرضا . واستاءت لساعتها من فعلتها هذه . وانقلبت ابتسامتها ضحكة استهزاء . وصارت ضحكة الاستهزاء فجأة نحيباً وشهيقاً وهربت إلى المنزل

وأخرج نين بابا لسانه لها دون وعى وهو يرقب مسيرها . ثم نظر إلى ذراعه المجروحة التى تشع ألماً محرقاً من فعل حرارة الشمس . ثم شعر فجأة أن عينيه اغرورقتا بالدموع . ومن يعرف السبب ؟ وتحت تلك الشمس المحرقة فى وسط الحديقة حيث الظلال الحادة مترامية شعر نين بابا بأنه كاد ينزعج من وجود أشياء عدة لاحراك بها من حوله : الأشجار ، وجذوع أشجار البلوط ، والأحواض المركزة على جوانبها صخور صناعية ، وسطح الماء الأخضر ، والمقاعد . ماذا تنتظر كل هذه الأشياء ؟

إنه يمكنه أن يتحرك وأن يسير . ولكن يا للغرابة ! كأن كل هذه الأشياء التى من حوله ولا حراك بها تنظر إليه . ثم هى لا تنظر إليه مجرد النظر بل ترسل إليه سخريتها فى سحر يشع من جمودها العجيب ، وصورت له أن قدرته على المسير ليس من ورائها طائل ، إلا أن تظهره بمظهر الغباوة الداعية للسخرية

وهذه الحديقة تمثل ثراء البارون شيكو . وهنا سكن نين بابا منذ ستة شهور ، إلا أنه لم يشعر بالاشمئزاز من نفسه ومن كانديلورا إلا فى صبيحة أمس ؛ وحين آبت الساعة من البحر بجسم وزره ووزر عراها أمام عينيه . غير أنه اضطر إلى الضحك ساعة أن قالت له تهرب الآن من هذا العار . وقد أفصحت له أنها تبغى ذلك

حقاً إن صور نين بابا ستلقى رواجاً بعد الآن . وأن قيمة فنه الجديد الخاص به قد بلغت أخيراً أعلى مرتبة . وليس ذلك لأن الناس حقاً فهموه ، ولكن أمزجة الأغنياء من زوار معرضه وعقلياتهم تنقاد لحكم النقد الفنى فيقفون إزاء لوحاته معجبين

النقد ؟ وأيضاً كلمة النقد لا وجود لها فى غير سراويل النقدة . والناقد الذى قصدته كانديلورا وجلة يوماً ما ، لكى ترجه فى وجهه بأنه غير عادل حين يؤدى بفنان مثل نين بابا إلى التهلكة جوعاً — ذلك الناقد النافذ الكلمة دون غيره ، كتب مقالاً عظيماً يلفت به أنظار المترددين إلى فن نين بابا الجديد والطابع الشخصى فيه . ولكنه طلب أجراً مقابل اعترافه بالفنان . على ألا يدفع هذا الأجر نقداً ، بل شكراً حيوياً تقدمه كانديلورا له . ولم يكن من كانديلورا إلا أن قدمت دون تريث هذا الشكر جزيلاً . غير قاصرة على ذلك الناقد ، بل عممت هذا الشكر للذين أعجبوا بفن زوجها ، ذلك الفن الجديد . فقد ملكتها نشوة فرح لانتصار زوجها . وشكرت الجميع وبخاصة البارون شيكو ، الذى جرى فى ذلك إلى حد أن ترك للزوجين منزله ، حتى يكون له شرف إيواء فنان معذب . . .

مسكينة كانديلورا ! لقد خافت الفقر وقالت إن الفقر ليس هو الحاجة ولا الذل . وإنه ليس لما حق فيما يكسبه زوجها . ودفعتها عدم أهليتها هذه للانتقام . وعلى أى صورة ؟ منزل . سيارة . قارب

بخارى ، حلى . جواهر ثمينة ، تنزهات خلوية . أدوات زينة . مآدب . . . . ولم تشعر هى بغضب منه ، إذ بقى دون أن يتغير فى شىء . فلا هو حزين ولا هو فرح ، ولا زال مهملاً فى هندامه كما كان . وليست له بهجة فى غير ألوانه . لايعرف مطلباً سوى التفرغ لفنه ، حتى يصل إلى القرار ، القرار المسكين ، كى لا يرى شيئاً من صور الحياة الوضعية التى تحيط به

من المحتمل ، كلا ، بل بكل تأكيد أن تلك الحياة الوضعية – حلى لوريتا والترف والدعوات والمآدب – تدل على شهرته . شهرته وعاره – ولم لا ؟ وماذا يهمه من أمر ذلك ؟

إنه يقدم روحه وكل مافيه من حياة للمتعة بورقة يدخل عليها الحياة برسمه ، بينما يصير هو لحماً ودماً وشرايين لتلك الورقة . أو للمتعة بحجر صلب لاحس فيه ليجعله فوق لوحته حجراً حياً حساساً ، هذا كل مايعنيه

عاره ؟ حياته ؟ حياة الآخرين ؟ سباب الأجانب الذى لا فائدة من الانصات اليه ؟ إنه لايحيا إلا لفنه ، وهو العمل الذى يتمخض عنه النور والألم ويتمثل فى روحه

وقال هذا الصباح للوريتا وكأنه فى عالم آخر إنها تعجبه – دون أن يعير الأمر اهتماماً خاصاً – حقاً إنها أعجبته ، لأنها ارتضت أن تكون شريكة مطيعة فى الحياة ، غير عابئة بالفقر ، شريكة قنوعاً راضية ، له أن يطمئن الى صدرها ، وطبيعى أن تهاجمه لوريتا كنمرة . ولكن ماذا تفعل بعد ذلك ؟ ألا تعود بصبغة اليود والشاش المعقم والضماد ؟ لقد صمدت المسكينة باكية

الآن يجب أن يحب لوريتا . ولربما كان ذلك رد فعل لعدم مبالاته . أليس ذلك جنوناً ؟ ولو أنه كان يحبها حقاً لحق عليه قتلها . عدم المبالاة هذا ضرورى ، هو القدمة التى لامفر منها ، وليتحمل العار الذى تمثله الى جانبه . أيهرب من هذا العار ؟ كيف يمكن ذلك . وكل منهما قد رأى هذا العار ليس بعيداً عنه ولا محيطاً به بل رآه فى نفسه أيضاً . والسبيل الوحيد هو ألا يهتم كلاهما بذلك . فهو يتابع تصويره وهى توالى تمتعها بشيكو مؤقتاً ثم بغيره أو به مع غيره فى وقت واحد ، فرحة غير حاملة همّاً . إن الحياة . . . لاشىء . وهى تسير على هذه الوتيرة أو تلك ، دون أن تترك أثراً . ويجب على الانسان أن يضحك من الأشياء التى ولدت خبيثة والتى ليس لها من الكيان ما يغرى ، أو لها كيان ، ولكنه قبيح يجعلها تتألم الى أن تصبح رماداً مع الزمن . وكل شىء يحمل طيه آلام تكوينه ، آلام مصيره الذى لاقدرة له على تغييره . وهذا هو الجديد فى فنه ، إذ يجعل أشخاصه يشعرون بذلك الألم . وهو يعرف جيداً أن كل أحدب عليه أن يعرف كيف يحمل حدبته معه . وينطبق ذلك على الوقائع كما ينطبق على الأشخاص . فاذا ما كانت الواقعة واقعة فستبقى كذلك دائماً أبداً ، ولن تتغير . فكاندبلورا مثلاً لو أنها بذلت أقصى جهدها لتصير خلواً من العار كما كانت أصلاً عندما كانت فقيرة لما استطاعت . ولعل كانديلورا لم تك قط خلواً من العار حتى فى أيام طفولتها . وإلا لما أمكنها فعل مافعلت ، ثم هى تفرح لعملها هذا

وتحت حرارة الشمس انقبض الدم فى موضع العضلة من ذراعه ، وتجمد سطحه وازداد نبضه وانتفخت يده وتوترت شرايينه

واستفاق نين بابا من تأملاته وخطا نحو المنزل ونادى مرتين عند مدخل السلم وفى المشى :

« كاند يلورا ! كاند يلورا ! »

ورن صدى صوته فى الغرف الخالية ولم يجبه أحد . دخل فى الغرفة المجاورة لمحل عمله Atelier ومكتبه ، ولكنه تراجع من هول ما رأى . كانت كانديلورا منبطحة على أرض الغرفة البيضاء المفعمة بالنور . ورداؤها فى غير انتظام . وكأنها دارت حول نفسها فانكشف فخذها . أسرع اليها ورفع رأسها ، يا إلهى ماذا فعلت ؟ الفم والذقن والرقبة والصدر يضرب لونها بين السواد والصفرة : لقد شربت صبغة اليود

ثم ناداها قائلاً : « إنه لاشىء ! لاشىء ! ما هذه الفعلة الحمقاء ياحبيبتى كانديلورا . يا طفلتى . . . إنه حقاً لا شىء . إنه يؤذى المعدة طبعاً . قئ »

وحاول أن يوقفها على قدميها ؛ ولكنه فشل ، إذ أن المسكينة قد تصلب جسمها من شدة الألم . ومع ذلك لم يقل لها مسكينة ، بل قال : « طفلتى . . . ! طفلتى . . . ! » ذلك لأنه ظن أن تجرعها صبغة اليود أمر تافه مزر . « طفلتى ! » رددها ثانية ، وقال لها (ياصغيرتى الحمقاء) . وحاول أن يستر فخذها بالرداء الأزرق فقد أصاب منه نظراً ، وأدار عينيه الى الناحية الأخرى حتى لايرى فمها الأسود

[البقيـــة على صفحة ٢٠٠]

من روائع الشرق والغرب

الوادي

LE VALLON

لشاعر الطبيعة والجمال لامرتين

تعب قلبي من كل شيء حتى من الأمل ،
فلن يثقل بعد اليوم بأمانيه على القدر ،
فأعرني يا وادي صباي وأحلامي ،
ملجأ يوم انتظر فيه موافاة حمامي

* * *

ذلك هو الشعب يضرب في حشايا الوادي ،
والغابات الكثيفة تقوم على سفوح الربى ،
وأدواحها الحانية تلقي الظلال على جبيني
فتملأ شعاب نفسي بالسكون والغبطة

* * *

وهناك جدولان اختفيا تحت أعراش الخضرة ،
يرسمان في انسيابهما منعطفات الوادي ،
ثم يمتزج منهما الموج بالموج والخرير بالخرير ،
ويفنيان وهما من النبع على مدى قصير

* * *

كذلك جرى نبع أيامي جريان هذين الجدولين ،
ثم ذهب من غير هدير ولا سمة ولا رجعة !
ولكن ماءهما كان صافياً شديد الصفاء ؛
أما نفسي فلم يتراءَ في كدرها صفو ولا هناء !

* * *

إن طراءة الجدولين وبرودة الظلال ،
تعقلانني طيلة النهار على ضفافهما الخصيبة ،
أهدهد نفسي على خرير مائهما السلسال ،
كما يُهدهَد الطفل على المناغاة الرتيبة (١)

* * *

آه، حبذا المقام هنا بعيداً عن الناس وحيداً مع الطبيعة !
يحيط بي سور أخضر من رياض الأرض ،
ويقوم حواليّ أفق محدود فيه مجال للبصر ،
فلا أسمع غير همس الموج ولا أبصر غير وجه السماء

* * *

لقد رأيت كثيراً وأحسست كثيراً وأحببت كثيراً
ثم جئت هنا حيًّا لأبحث عن هدوء (ليتيه)! (٢)
فيا أيها الوادي الجميل ! كن لي ذلك
النهر الذي يُذهب بالنسيان هموم القلب ؛
ففي النسيان وحده منذ اليوم سعادتي ونعيمي

* * *

إن قلبي في رخاء ونفسي في سكون ،
وإن ضوضاء العالم لتفنى قبل أن تصل إليّ
كالنغم البعيد يخفت على طول المدى
ثم لا يقع منه في الآذان إلا صدى

* * *

من هذا المقام ومن خلال ذاك الغمام
أرى الحياة حولي تغوص في غيابة الماضي ،
فلم يبق ماثلاً غير الحب يقوى ويتجدد ،
كالصورة الكبيرة تبقى على اليقظة من حلم تبدد

* * *

استروحي يا نفس في هذا الملجأ الأخير ،
كالمسافر اللاغب يجلس على باب المدينة ،
وقلبه ذاخر بالأمل والطمأنينة ،

(١) الرتيبة التي تسير على نمط واحد : monotone

(٢) Léthé هو فيما تزعم الأساطير الوثنية نهر من أنهار الأنفير Les enfers وهو مقام الأرواح بعد الموت ، تشرب منه هذه الأرواح فتنسى ماضيها ، وليتيه معناه النسيان

فيستنشى قبل أن يدخل نسيم المساء العبق

***

فلننفض عن أقدامنا الغبار كما نفض هذا الرجل المجهود ،

فانا لن نسلك هذه الطريق مرة أخرى ؛

ولننشق مثله فى آخر المدى المحدود ،

نفحات الهدوء المبشر بالسلام الدائم

***

إن أيامك الكئيبة القصيرة كأيام الخريف ،

تنقبض انقباض الظلال عن حوادر الهضاب ؛

فالصداقة تغدربك ، والرحمة تتخلى عنك ،

وتقطع وحدك الدرب الى عالم القبور

***

ولكن الطبيعة هناك تُهيب بك وتحنو عليك !

فألق نفسك فى أحضانها التى لا تتجافى عنك ،

فان كل شىء يتنكر لك ويتزوى عنك إلا الطبيعة ،

فجوُّها هو الذى ينضح على آلامك ،

وشمسها هى التى تشرق على أيامك

***

بالأشعة والظلال لا تزال تحيطنا الطبيعة .

فطهر قلبك من الغرور الباطل والمتاع الزائل ،

واعبد هنا الصدى الذى كان يعبده فيثاغورس ،

وأرهف أذنك مثله لموسيقى السماء .

***

ثم اتبع الشمس فى السماء والظل فى الأرض ،

وطِرْ فى السهول مع ريح الشمال ،

وجُس مع شعاع هذا الكوكب الهادى

خلال الغابات فى ظلال هذا الوادى .

***

إن الله خلق العقول لتدركه ،

فاكتشف فى الطبيعة خالق الطبيعة ؛

فان صوتاً لاينى يُحدث المرء عن ربه ،

ومن ذا الذى لم يُصغِ إلى هذا الصوت فى قلبه ؟

الزيات

صائب التبريزى (١)

أبيات شتى

١ — نحن كالقِسيّ : نصيبنا من صيدنا انحناء ظهورنا ، وكل ما نحوز لغيرنا

٢ — ليدى جرأة غير ما عهد الناس ؛ لا تجنى غصناً غفل عنه الحرّاس

٣ — ليس الظالم بنجوة من سهام آهات المظلوم ، إن أنين القوس قبل أنين الهدف المكلوم

٤ — يا رب من دعا علينا أن نكون كقافلة الأمواج : ليس فى سفرنا للاستراحة منزل

٥ — ليس اطمئناناً سكون القلب فى مصابه ، ولكن ضاقت الدنيا عن اضطرابه . إن خفقان النجم يصيح فى لوعة : ليس هذا البناء المعوج مكاناً للدعة

٦ (٢) — خُتم المجلس ليلاً بحديث طرتك المسلسلة ، فنهض كل من نهض وفى رجليه سلسلة . إن الأعصار الذى هبّ فى هذه الصحراء ، روحه المجنونة الحائرة يلفّها الغبار فى الفضاء

٧ — إن الجذبة التى سلبت كفّ المجنون العنان ، بدأت فقطعت من محمل ليلى الزمام

٨ — ليست أوجه الاثنتين والسبعين ملة إلا إلى هذه السدة ؛ ترى عالماً حيران ، ولم يضل أحد طريقه

٩ — إن قطرة من الدموع تكفى لخراب العالم ، كما تبدد قطرات الماء نوم النائم

١٠ — ولّ وجهك شطر الحانة ثم انظر طمأنينة القلب — انظر عالماً فارغاً من فكر الغد ، إنك تطبق كالحباب عينك فترى نفسك ، ولو فتحت عينك للضياء ، لأبصرت فناءك فى هذه الدأماء

١١ — إن عينى لتطير كالشرار الى نوم الفناء ، كلما بعدت عن وجهك النارىّ الوضاء

١٢ — أضاء فى كل ظفر هلال للعيد ، ليلة تناولت كأساً من ذكرك السعيد

عبد الوهاب عزام

(١) محمد على صائب التبريزى من كبار شعراء الفرس ، توفى فى اصفهان سنة ١٠٨٧ هـ .

(٢) القطع الآتية مشربة بالمعانى الصوفية



ضحايانا الأطفال

تأليف أجنس دي ليما

ترجمة الأستاذ محمد عبد الواحد خلاف

طبعته لجنة التأليف والترجمة والنشر وثمنه ١٠ قروش

تعتبر تربية النشء وإعدادهم للحياة من أهم المسائل وأجدرها بعناية أولى الأمر وسواهم من المربين والكتاب؛ وتشعر مصر في نهضتها الحالية بشديد الحاجة إلى تقرير سياسة عامة تأخذ بها في تربية أبنائها، ذلك أنها قضت زمناً طويلاً تحت تأثير عوامل مختلفة امتد خطرها فشمل جميع نواحي الحياة، وفي مقدمتها أمور التربية والتعليم، فقد أحكمت الأغلال وأقيمت العراقيل في تلك الناحية الجوهرية من نواحي التقدم، وكانت نتيجة ذلك أن أصبحت سياسة التعليم عندنا مهلهلة، وصارت ثقافتنا مذبذبة، وظلت مصر في لبس من الأمر تسير إلى غير قصد، ولا تستند في سيرها إلى مبدأ

لذلك يحق لنا أن نغتبط بكل بحث في التربية يضطلع به من تأخذه الغيرة من أبناء مصر، ولقد اعتزمت لجنة التأليف والترجمة والنشر، أن تضم إلى مجهوداتها المتنوعة في نشر الثقافة إصدار سلسلة من كتب التربية بين معرب ومؤلف، تحت إشراف الأستاذ اسماعيل القباني تحاول فيها كما جاء في مقدمة الأستاذ في هذا الجزء الأول من السلسلة، «أن تبسط على التتابع النظريات والاتجاهات السائدة في عالم التربية في الوقت الحاضر، والأسس الاجتماعية والسيكولوجية التي تقوم عليها، وأساليب تطبيقها في مختلف الظروف والبيئات، ونتائج التجارب التي أجريت عليها» وغاية القائمين بهذا العمل الجليل أن يمهدوا السبيل لأن «تكون لنا فلسفة للتربية توفق بين أحدث الآراء في العالم من جهة، وأغراض النهضة القومية التي لاح فجرها في مصر من الجهة الأخرى»

وهذا الكتاب، الذي أحدثك عنه هو الحلقة الأولى من تلك السلسلة المباركة اضطلع بترجمته الأستاذ الجليل محمد عبد الواحد خلاف مدير إدارة الجمعية الخيرية الاسلامية، فأخرجه على الرغم من شواغله الجمة على خير ما يرجى من جمال سبك وحسن نظام

ولهذا الكتاب في موضوعه، وفيما انتهج من طريقة أهمية فريدة، ذلك أنه ليس من تلك الكتب التي تتناول موضوع التربية من ناحيته الجافة، ناحية النظريات العلمية المجردة التي تهتم بالقضايا دون الوقائع، أو بعبارة أخرى تهتم بمبادىء العلم دون من تنطبق عليهم تلك المبادىء من الأطفال، فان تلك الكتب النظرية في منحاها محصورة الفائدة ثقيلة في الغالب تتطلب من القارىء صبراً طويلاً، وجهداً كثيراً، لكي يستخلص منها ما يرجو من فائدة، وإن كان ما يصيبه منها في النهاية متعلقاً بقواعد العلم أكثر منه بغايته

وإنك لتستبين روح الكتاب من عنوانه، فمؤلفته تنكر النظم المدرسية التقليدية، وتعتقد أننا نضحي بأولادنا ونعاملهم كما لو كانوا أعداءنا بالقائهم في تلك الأبنية التي هي أشبه بثكنات الجند، حيث يكتنفهم جو خانق بغيض من قوانين ونظم، يؤخذون بها أخذاً في كل صغيرة أو كبيرة من حركاتهم، وحيث يجرعون من مواد الدراسة مالا غنية فيه من معلومات يسأمونها وفنون من القول والعمل يساقون اليها في طرق عسكرية، توبق أرواحهم، وتطمس على قلوبهم وتغل نشاطهم، وتحول بينهم وبين الاستقلال الشخصي والنبوغ الذاتي

ولن تقف المؤلفة في كتابها موقف الهادم، بل إنها تسلك طريقة إيجابية، فتعرض على القارىء كثيراً من التجارب العملية في بعض المدارس الحديثة بأمريكا ومبلغ نجاحها، وما أنتجته من أثر في تغيير وجهة التربية تغييراً يمهد السبيل لبناء هذا العلم من جديد على أسس عملية، تحل مشاكله وتضمن للطفل ما يرجى له من سعادة، وما يرجى منه للمجتمع

وتلك الروح العملية هي الميزة الفذة لهذا الكتاب التي سبق أن أشرت اليها، فهو خلاصة تجارب مربية متحمسة لمبدئها

عاملة على إسعاد الطفل وإعداده لحياته خير إعداد . وهذه الميزة فضلا عن عظيم فوائدها قد خلصت الكتاب من روح السأم وأنجته من الثقل ، فأنت تطالعه فى تشوق واستمتاع ، وتقف منه على أمور كثيرة شيقة ، كاستخدام مقاييس الذكاء، واستكشاف الفرد ، والسير وراء الطفل ، وحالة بعض المدارس التجريبية ، ومدارس العمل مع الدراسة واللعب ، وتجارب بعض أساطين التربية فى مختلف مراحل التعليم وسواها من المسائل العملية

والأستاذ المترجم بطويل خبرته ، ونافذ بصيرته ، وضلاعته فى الانجليزية ، كفيل بأن يحفظ للكتاب روحه فى لباسه العربى ، وأنا وإن لم أقرأ الأصل ، أحس من دقة الأداء ومن سهولة الفهم واستواء التراكيب العربية ، على بعد ما بين اللغتين من الاختلاف فى البناء والأسلوب ، أن التعريب قد تم على خير ما يرجى اتباعه فى تناول مثل هاتيك الكتب الدقيقة ، فاذا أضفت الى هذا أن الأستاذ خلافا متحمس لهذه النظرية ، كثير الترديد لها فى أحاديثه كلما تطرق الحديث الى نقد التربية فى مصر ، أيقنت معى أنه خير من يضطلع بنقل هذا الكتاب الى لغتنا

وإنى لعظيم الغبطة ، إذ أقدم هذه الحلقة الأولى ، أو هذه الباكورة الطيبة من سلسلة التربية ، الى جمهور المربين والمدرسين وعامة القراء ، شاكراً للأستاذ خلاف حسن اختياره وحميد مجهوده

« الخفيف »

الاسلام والحضارة العربية

تأليف الأستاذ محمد كرد على

نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر وثمنه ١٥ قرشا

أصدرت لجنة التأليف والترجمة والنشر الجزء الأول من كتاب الاسلام والحضارة العربية ، وقد طبع فى دار الكتب ويقع فى نحو ثلثمائة وستين صفحة كبيرة

أوحت فكرة هذا الكتاب إلى مؤلفه الجليل الأستاذ كرد على ، أريحية عربية نبيلة ، تتبينها فى مثل قوله «وسبيل هذا الموجز الآن تصحيح هفوات من أساءوا وما برحوا يسيئون للعرب ودينهم ورسولهم ومدنيتهم وذكر ما أثرته الحضارة العربية فى أمم الغرب والشرق ، وما منى به الاسلام ، لما غير أهله ما بأنفسهم ، من خصماء غير رحماء ، نالوا من روحه وجسمه فالتاثت أحواله وتنكرت معانيه والأماع إلى ما قام به المسلمون بعد طول الهجعة ، يلوبون على استعارة مجد أضاعوه ، وعلقوا اليوم يقطعون إليه أشواطاً ، حتى لم يبق أمامهم غير مراحل لبلوغ الغاية »

وما أحسب تسمية هذا الكتاب بالموجز إلا تواضعاً من صاحبه ، فهو من الكتب الحافلة بشتى المسائل والبحوث . ثلثه الأول يدور حول الرد على مخالفى الاسلام وتفنيد مزاعمهم وبيان منازعهم فى الخلاف ، فتقرأ فيه كثيراً من التهم التى ألصقها المتعصبون بالاسلام والرد عليها فى قوة حجة وسلامة منطق ، يصحبهما الهدوء والرزانة ، كما يدعمهما سعة الاطلاع ونفاذ البصيرة ، ومن أمثلة المسائل التى يتوق كل مسلم بل كل منصف إلى الوقوف على حقيقتها ، والتى شرحها الأستاذ أحسن شرح وفندها خير تفنيد ، ما نسب إلى الاسلام من مذابح دينية وما اتهم به المسلمون من إحراق مكتبة الاسكندرية ، ومن بغضهم حرية الفكر وتعصبهم ضد العلم ، وما يردده الشعوبيون من أباطيل وتهم كمسألة صدق الرسول فى دعوته ، والقضاء والقدر وتعدد الزوجات والطلاق والحجاب والاسترقاق والربا والتصوير والنقش . . . الخ .

ولم يقتصر الأستاذ المؤلف على ما ساق من براهين ، بل لقد مكنته سعة اطلاعه من عرض أقوال المبطلين ، مشيراً إلى ما ينهض منها

حجة على أصحابها وما ينسخ منها بعضه بعضاً . كما أنه كان موفقاً غاية التوفيق فى بيان العوامل التى أدت إلى جفاء الغربيين فى موقفهم من الاسلام ، وفى بيان ما يقعون فيه من أخطاء وأسباب تلك الأخطاء ، التاريخى منها والدينى والثقافى ، مما يعد بحق من أجل الخدمات التى يؤديها رجل نحو دينه ويضطلع بها عالم ابتغاء الحقيقة

وفى ثلثى الكتاب الباقيين ، يستعرض الأستاذ كرد على أحوال العرب منذ جاهليتهم ، فيتكلم عن العرب قبل الاسلام وديانتهم وأثر المدنيتين اليهودية والنصرانية فيهم ، ثم عن العرب فى الاسلام ، مبتدئاً بشرح عاداتهم وأخلاقهم وأثر الاسلام فيهم مورداً رأى لبون ودوزى فى الفتوح العربية ، ولقد عنى ببيان ماعرفه العرب من علوم ومبلغ عناية خلفائهم بالعلم وتشجيع العلماء ، وبين مواطن اللغة العربية وأثرها فى اللغات الشرقية والغربية

وكان طبيعياً بعد ذلك أن يتعرض لوصف حال الغرب فى شباب الاسلام ، فيقابل بين ما كان يتمتع به العرب من نور ونظام ، وما كان يتخبط فيه الأفرنج من فوضى وظلام ، وأشهد لقد كان معتدلاً منصفاً فى هذا الباب ، فلم يجر على سنن غيره من متعصبى الغرب ، ولن تحس له حقداً أو تتبين فى نقده سخيمة أو ضغناً بل كان رائده الدليل والحجج التاريخية

ولقد قدم هذا الباب توطئة لبيان أثر العرب ومدنيتهم فى الغرب ، فكان له من هذا الوضع الطبيعى وهذا الترتيب المنطقى خير مساعد ، وراح يعرض لنا ما كشفه العرب وما ابتكروه وما نقلته عنهم أوروبا عن طريق اسبانيا وصقلية وجنوبى إيطاليا ، ثم عقد فى خاتمة هذا الجزء أربعة فصول هامة ، قارن فى أحدها بين موقف المسلمين وأعدائهم فى الحروب الصليبية ، وبين فى فصلين منها غارات المغول والأتراك والمستعمرين من الغربيين على بلاد المسلمين وغيرهم ، وشرح فى الفصل الأخير أثر المدنية الغربية فى البلاد العربية وما تخللها من خير وشر

وإنى لأتقدم بجزيل الثناء إلى الأستاذ كرد على ، موقناً أن من يطالعون هذا الكتاب من أبناء العربية سيشكرون له شدة إخلاصه وحسن بلائه

الخفيف

كانديلورا

[بقية المنشور على صفحة ١٩٥]

هو وحده فى ذلك المنزل . لقد وصلت لوريتا اليوم من حمام البحر . وكانت قبل ذهابها قد طردت الخادمة ، فلا أحد يساعده على رفعها من الأرض ، ولا أحد يأتى بعربة تحملها الى أقرب مستشفى حتى يؤدوا لها الاسعافات السريعة . ولحسن الحظ سمع بوق سيارة البارون شيكو وهى قادمة فى الطريق ، وسرعان ما ظهر البارون بهندامه الأنيق ووجهه الأصفر الذى ينم عن شيخ ضعيف العقلية مديد القامة منتصب

وثبت البارون شيكو (المونوكل) على إحدى عينيه وقال : « ماذا جرى ؟ »

وصرخ نين فى وجهه قائلاً : يا إلـهى ، ساعدنى على إنهاضها »

ولم يكادا يحملانها حتى رأيا أن يدها التى كانت منطوية تحت فخذها قابضة على المسدس ، كما رأيا ثغرة من الدم

وتنهد نين : « آه . . . آه . . . » وهو ينقلها هو وشيكو إلى غرفة النوم

إن لوريتا لم يتصلب جثمانها من شدة الألم ، ولكن من الموت . ولما وضعت الجثة على السرير صرخ نين بابا فى وجه شيكو قائلاً :

« من كان معكما فى حمام البحر ؟ قل لى من كان هذا الصيف معكما فى الحمام ؟ »

وفقد شيكو صوابه وتمتم ببعض الأسماء

وزأر (نين) كالوحش وهجم عليه وأمسكه من قميصه وهزه هزات عنيفة وقال له : « يا إلـهى ! كيف يكون كل غنى متمول أبله قصير النظر ؟ »

وتساءل شيكو وقد خاف على نفسه ، وكان من شدة الخوف يتراجع باستمرار : « أنحن حقاً بلهاء ؟ »

واشتد تأنيب نين بابا إياه ، وقال له : « أنتم ، نعم أنتم بلهاء لدرجة أنكم تذكون الأمل فى المساكين بأنهم سيكونون محبوبين منى ! أتفهم ذلك ؟ منى ! منى ! منى - محبوبين ! »

ثم وقع على جثمان لوريتا وانفجر يبكى بكاءً مراً

عربها عن الألمانية : ا . ا . ى

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ٨٤ - ١١ فبراير سنة ١٩٣٥ - السنة الثالثة

3me Année, No. 84. | Lundi-11-2-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

العـــدد ٨٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ٧ ذو القعدة سنة ١٣٥٣ — ١١ فبراير سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

كلمات فى الصداقة

للآنسة النابهة « مىّ »

مهداة إلى الأستاذ أحمد حسن الزيات ،
وإلى الدكتور طه حسين ، وإلى أصحابهما جميعاً

قد تبدو هذه الكلمات غريرةً للذين لا يرون فى الصداقة إلا وسيلة نفعيَّة تعودُ على كلٍّ من المرتبطين بها بفائدةٍ محسوسة : كالظهور بمظهر العظمة ، أو التمكن من دحر منافس ، أو التعاون على الأساءة إلى شخص أو أشخاص ، أو جنى ثمرةٍ ملموسة وتحقيق غرضٍ مالىّ أو اجتماعىّ

ونخطئ إن نحن نسبنا إلى أهل هذا العصر وحدهم الصداقة المغرضة ، لأن تلك كانت شيمة الكثيرين فى جميع العصور وعند جميع الأقوام . قد تكون فى هذا العصر أكثر شيوعاً . وإنما نحن أشدّ شعوراً بها لأننا نعيش فى وسطها ، ويجبهنا وجهُها الخادع أنى توجّهنا

فاذا أنت طلبتَ من الصداقة شيئاً غير تلك الفوائد المتداولة ، إذا طلبتَ العاطفة الخالصة ، والفائدة الأدبية المجرّدة ، وتلك اللذة البريئة التى تجدها فى محادثةِ الصديق بالكلام أو بالسكوت ، وشعرتَ باحتياج ملحٍّ إلى ذلك كاحتياج الدم إلى النور وإلى الهواء — إذا أنت طلبتَ هذا من الصداقة وعند الصديق ، فما

أنت في نظر تلك الفصيلة من الناس إلا من أهل الشذوذ والغباوة . . . على الأقل !

وعلى رغم كل ذلك فموضوع الصداقة من الموضوعات التي نقبل عليها في اهتمام ولهفة . ولو جاز لي أن أشير إلى خلق خاص فيّ ، قلت إني أشعر بشيء غير قليل من الأسف كلما انتهى إليّ أن صديقين كريمين تجافيا بعد التصافي . وقد يكون أسفي ناجماً عن نوع خاص من الأثرة لا أدركه تمام الادراك . قد يكون ذلك أن انفصام عرى الصداقة بين الآخرين كأنما ينال من إيماني بالصداقة ويزعزع من رجائي فيها

***

أولى ذكرياتي في هذا الموضوع ترجع الى قصة فرنسية ، هي « أبرص بلدة آووستا » بقلم كزافييه دي ميستر ، وأظنني قرأتها لأول مرة وأنا في سن العاشرة تقريباً . فيها وصف ذلك الجندي الكاتب اجتماعه برجل ابتلى بداء البرص المروع ، فنبذه الناس من مجالسهم ، وحادوا الدنو من الدار التي عاش فيها وحده حبيساً طوال الأعوام

تطوح السبيل بالكاتب الغريب إلى تلك البلدة وتسوقه الى الدار المخيفة ، ويلج باب الحديقة فيبصر الرجل الموبوء وهو لا يدري بحالته . وعندما يحذره الأبرص ويفضي اليه بمحنته لا يلوذ الكاتب بالفرار ، وإنما يقترب منه ويجلس اليه مستفسراً عن معيشته وأحواله ، وعما يحسه في الابتعاد عن أولئك البشر الذين هو منهم ، فيعترف الأبرص بأن آلامه الأدبية تفوق أوجاعه الجسدية ، يعترف بعذابه في حزن هادىء يشبه الامتثال والرضى ، يعترف بحاجته الى الشعور بأن قلباً يعطف عليه ويحن اليه ، بأن يداً تصافح يده ، بأن صدراً يتلقاه ويحتضنه ، حتى أنه لشدة حاجته تلك يحتضن أحياناً جذوع الشجر ويضمها اليه ما استطاع ، كأنها كائنات إنسانية . يعترف بشوقه الى سماع صوت بشرى ، الى تبادل السلام والحديث مع من يفكر تفكيره ويحس إحساسه ، الى جميع تلك الأمور التي عرف قيمتها لأنه حرم منها ، والتي يتمتع بها الجميع جاهلين أنها منحة ومتعة لأنها عادية بينهم . ويقول فيما يقول وكأنه يلخص جميع صنوف عذابه في هذه الكلمة :

— لم يكن لي يوماً صديق

والكاتب الذي عرف كيف يصغي الى شكايته في هدوء ورباطة جأش ، تهتاج تلك الكلمة شجونه وتحز الشفقة في قلبه فلا يتمالك من الهتاف :

— يا لك من تعيس !

تلك الكلمة من الأبرص ، ورد الجندي الكاتب عليها ، استقرت في موضع عميق من روحي عند قراءة القصة ، بل القصة كلها تجمعت عندي في تلك الكلمة وفي التعقيب عليها ؛ وقد يكون لها الأثر الكبير في تكوين إيماني المنيد بأن لابد من وجود الصداقة — مع اعتقادي بأن نفاسة الصداقة نفسها تحتم فيها الندرة

***

لسنا في حاجة إلى دهور نعيشها لندرك كم في هذه الحياة البشرية من خبث ومراوغة ونفاق . اختبارات قليلة تكفي لتدلنا على أن بعض المثل العليا تخذلنا وتصرعنا بلا رحمة ، ثم تنقلب مسوخاً ساخرة مزرية ، لا تلبث أن تكشر عن أنيابها ، مهددة متوعدة — وهي التي تجلببت في نفوسنا من قبل جلباب القدسية والعبادة !

اختبارات قليلة في أحوال معينة ، وأحوال مفاجئة ، تكفي لتظهر لنا أن من الناس من يتاجر بكل عاطفة صالحة لتنفيذ أغراض غير صالحة ، ومن يستغل كل استعداد كريم لنتيجة غير كريمة ، ومن لا يكتفي بالظلم والاجحاف ، بل لا يتورع عن إيذاء الذين أخلصوا النية في معاملته ، ولم ينله منهم إلا الخير . وكم من مذيع أنباء الصداقة لا لسبب آخر سوى التوغل في الايذاء باسم الصداقة ، في أساليب سلبية أو إيجابية لا يعلم إلا هو كم هي خبيثة وكم هي فعالة

وكيف تعامل أولئك الناس عندما تكشف عما يضمرون ؟ أتحاسنهم ؟ إنهم يحسبون المحاسنة ضعفاً ومداراة ، فيمعنون في الأذى ؟ أتخاشنهم ؟ إنهم يزعمون المخاشنة جحوداً ومكابرة ، فيمعنون في الأذى . ولعل الشاعر العربي كان في حالة كتلك عند ما أرسل هذه الزفرة المنغومة التي هي من أبلغ ما أعرف في معناها :

عذيري من الانسان ، ما إن جفوته
صفالي ، ولا إن صرت طوع يديه
وإني لمشتاق إلى ظل صاحب يروق ويصفو إن كدرت عليه

يأس هذا الشاعر يدل على حاجته الضميمة إلى صداقة نقية غير مغرضة . فنحن مهما تنكر لنا معنى الصداقة الصافي ، ومهما غدر بنا الغادرون فعلمونا الحذر — فاننا لا نستطيع انكار

٣ـ كَلِمـــــة وكُلَيْمة[1]

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

إذا أَسْنَدَت الأمةُ مناصبَها الكبيرة إلى صِغار النفوس ، كَبُرَتْ بها رذائلُهم لا نفوسُهم . . .

شرُّ المُصْلِحين رجلٌ مُسَلَّطٌ على أُمَّةٍ يحكمُها بعقل كبيرٍ فيه موضعُ فكرةٍ مجنونة[2] . . .

إذا فَسَقَ الحاكمُ ، فقد حَكَمَ الفسق

تُبْتَلَى الأُمَمُ أحياناً ببعض المجدِّدين ، فلا يكون أولُ جديدهم إلا عيوبَ أنفسهم . . .

يقول لك الكَذَّابُ إنه يكره الكَذِب ، ولكنه في هذا أيضاً كذاب . . .

قيمةُ كل شيء هي قيمةُ الحاجة إليه ؛ فترابُ شبرٍ من الساحل هو في نظر الغريق أثمن من كل ذهب الأرض

حقيقة الذُّل ألا يعرفَ الذليل حقيقةَ نفسِه

المعلّمُ ثالثُ الأبوَيْن ؛ فلينظرْ كيفَ يَأْبُو حين ينظرُ كيف يُعَلِّم

إنما كَثُرَت الآراء في المرأة ، لأن المرأة هي ما يَفهمُهُ كلُّ رجلٍ منها بنفسه

لا تبلغُ الفلسفةُ ولا العلمُ ولا النهضة النسائية . . . في تعريف المرأة ، أكثرَ من أنها ليست رَجُلا . . .

لو عَقَلَ نساء هذا الزمن ؛ لطالَبْنَ بحقوقهنَّ في الرجال ، لا بحقوقهنَّ على الرجال

يبالغُ بعضُ الكتّاب في مُظاهَرة النساء على تَمَرُّدِهنَّ ، إذ كانت هذه هي اللغة الفصيحةَ التي يُنادي بها جمالُ المرأة . . .

أبلغ الردّ على هؤلاء الغالياتِ في المطالبة بحقوق المرأة ، أنهنَّ أو أكثرهن ، بين واحدةٍ فَقَدَت الرجل ، وأخرى سُلِبت الرجُل ، وثالثةٍ لم تَنَل الرجُل ؛ فهي أحلامُ إفلاسٍ كما ترى . . .

إسْتِرجَالُ المرأة ، وسوء خُلُقِ المرأة ، وقَذَارةُ المرأة ، أحدُ الثلاثة هو في قُبحِهِ — كالثلاثة جميعاً

العشقُ الدنيء دنيء مرتين ؛ حتى إن المرأةَ الساقطةَ لو أخلصت الحبَّ لرجل من عشّاقها ، لسقطت مرة ثانيةً في رأي الباقين

في الأُمَمِ المنحطَّة ، تجد نفاقَ الكبار للكبار ، هو الذي أضاع الكبارَ والصّغار

في مثل هذا العصر ، يكادُ يكون التعريفُ الصحيح للأفضلِ من الناس أنه الأقلُّ سفالة . . .

كثيراً ما جَنَتِ المروءةُ على أهلها ؛ ولكنَّ احتمالَ هذه

---

(١) كتب إلينا من أوربا أن هذه الكلمات ترجمت عن « الرسالة » إلى الفرنسية

(٢) كفكرة إسقاط الدين مثلا أو هدم اللغة أو تقليد أوربا بعين عوراء . . . أو دفع المرأة في سبيل الاباحة الخ

احتياجنا العميق إلى الصديق . لأنَّ لدينا مُرغمين كميةً من المودة والوفاء والتسامح والغفران والتضحية لا بدّ من تصريفها وإنفاقها لنزيد بالعطاء غنًى . وعند من نصرفها وعلى من ننفقها إلا على الأشخاص الذين نراهم قمينين بأنبل ما عندنا من فكر ، وأصدق ما لدينا من عاطفة ؟

***

أيها الذين ربطت الحيـــاةُ بينهم بروابط المودة والأخاء والتآلف الفكريّ والنبل الخلقيّ ، حافظوا على صداقتكم تلك واقدروها قدرها ! فالصداقة معينٌ على الآلام ومنارٌ للمسرات ، وهي نور الحياة وخمرتها ، وكم تكنُّ من خير ثقافيّ وعلويّ للنابهين !

لا تخافوا أن تكونوا من أهل الشذوذ والسذاجة في نظر الغرضيين ! ألا بئست نفساً فقدت كل سذاجة ، وسارت على وتيرةٍ واحدة ، لا تعيش إلاَّ للغرض وبالغرض ! ما أفقرها وإن كانت ثريّة ! وما ألصقها بالثرى وإن كانت عليّة ! وحسبكم أنتم أنكم بإيمانكم بالصداقة توجدون الصداقة ، وبممارستكم أساليب الصداقة إنما تكوّنون خميرة الصفاء والصلاح والوفاء !

« مي »

الجِنايةَ هو أيضاً من المروءة

إذا عاملتَ لئيماً فأنت بين اثنتين : اما أن تبيعَه ذِمَّتَك بلا شيء ، أو تشترىَ ذِمَّته بشيء . . .

أقْنِـع اللئيمَ بالـكَرَم الذى فى نفسك : فبهـذه الطريقةِ وحدها يفهمُ اللُّؤمَ الذى فى نفسه

الخطرُ الذى تكونُ فيه العنايةُ الآلهية ، هو نجاح اسمُهُ الخطر.

علمُ الجاهل فى شيئين : فى سكوتِهِ ، وفى السكوتِ عنه

أشدُّ ما فى الـكسَل أنه يجعلُ العملَ الواحدَ كأنه أعمالٌ كثيرة

الرجلُ العظيمُ فى فنه ، قَالَبٌ إنسانىٌ لا إنسان ؛ فلا يُقَاسُ إلا ليقَاسَ عليه غيرُه

من هَوَان الدنيا على الله أن رذيلةَ المُلحِد فى رأىِ المؤمنِ هى أختُ غَفْلةِ المؤمنِ فى رأى الملحد

ليس فى بَغْضَاءِ اللئيم أبغضُ من طريقة إظهارها ، إنه لا يُعْلِن بُغْضَه بل لؤمَهُ المبغِضُ

الرأسُ الفارغُ من الحكمة لا يُوازِنُهُ فى صاحبه إلا فمٌ ممتلىءٌ من الثرثرة

ما أضْيَعَ النُّصْح فى الحبّ وفى الخمر ؛ لأن العاشق والمُدْمِنَ كلاهما أشدُّ افتقاراً لسروره منه إلى عقله

أفلا ترى المرأةُ أن طبيعتَها تجعلُ نظرَها إلى الرجل فى بعض الأوقات مُهيَّأً لبعض العَمَى . . .

قال لى عاشقٌ حزين : ما أقدَسَ الحزنَ الذى فيه رُوحانيةُ الفَرَح : إنه حزنٌ وسرورٌ وشهوةُ نفس

إذا لم يكن فى الدنيا إلا قاضٍ واحدٌ ينفذُ قضاؤه ، ثم احتجتَ أن ترفع قضيةَ غَصْبٍ أو (نَصْبٍ)[1] على هذا القاضى . . . فهذه صورةُ كل عاشقٍ ومعشوقه فى الدنيا

رأيتُ فى نومى ذات مرَّة أنى دعوتُ طبيباً لمريض عندى : ثم قلتُ له وقد وصف الداء : هـل نُسَخِّنُ المـاء ؟ فقال : لا تسَخِّن المـاء ؛ ولـكن ضَعْه على النار حتى يَسْخُن . . . هذا بعينه أسلوبُ كبرياءِ المرأةِ العاشقة حين تقول : لا على وزن «لا تسخِّن المـاء ولـكن . . .»

إذا طال هجرُك لمن تحبُّهـا ، كان أثرُ مرور الزمن عليها كأثره فى الحرير المصبوغ ؛ إن لم يَبْدُ فى العين ذَليلَ النسْج ، بدا فيها ذليلَ اللون . . .

الرجلان العاشقان لامرأة واحدة لا يتحابَّان ، والملِـكان الطامعان فى مملكة واحدةٍ لا يَتَسالَمَان ، والطفلان الشَّريكان فى لُعْبَةٍ واحدةٍ لا يتصافيَان . فاللعبةُ امرأةُ الطفلين ، والمُلْكُ امرأةُ الملِـكين ؛ أما المرأة فهى امرأةٌ ومُلكٌ ولُعبة ، وأتمُّ النساء من تجمعُهنّ

يقولُ لك الزاهدُ العابد : أُخرجْ من الدنيا وادخل فى نفسك ، ويقول لك المـاجنُ الخليع : أُخرج من نفسك وادخل إلى الدنيا ، ويقول لك الحـكيم العاقل : كن فى الانسانية تـكنْ فى نفسك وفى الدنيا

تُرى ماذا يحتاجُ الحيوانُ فى أوربا من قِوام عَيشِهِ ولذَّاته ، غيرَ ما يحتاج اليه حيوانٌ مثلُه فى قريةٍ من قُرى الزَّنج ؟ فليس فقرُ المدنية فقرَ الطبيعة ، ولـكنه فنُّ العقل والخيال والوهم . وهذه الطبيعةُ تـكفى كلَّ أهل الأرض شمساً وهواء وطعاماً وشراباً وجمالاً . ولـكنها لا تُنْبِتُ خَيَالاَتٍ للعيش ولا قواعدَ للعيش . فأصبحت لا تـكفى ما دام غنىٌّ واحدٌ يُنفق فى لذة يومٍ قُوتَ مدينة . لا يأكل الحمارُ الأرضَ كلها ليجيعَ الحمير . ولـكنَّ الغنىَّ يفعل ذلك . . .

رأيتُ القوانين كملاجىء اللُّقطاء . هذه تربِّى صِغار الأطفال وتلك تربِّى صغارَ الجرائم . . . ؟

طنطا مصطفى صادق الرافعى

(١) قولهم نصب عليه بمعنى احتال واستعمالهم كلمة النصب منها ؛ ليس فصيحاً ولـكنه عامى مولد . وقد أصبحت الـكلمة من الألفاظ القضائية فلا نمنع أن تجرى مجرى المصطلحات . وفى اللفظة مع عاميتها دقة بليغة

في الأدب المصري

مجالس الأدب

في القرن الثامن عشر

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

لقد هممت اليوم أن أكتب إلى الرسالة الغراء مقالاً ثانياً أستأنف فيه وصف مجالس الأدب في مصر في القرن الثامن عشر في أيام رضوان بك أمير مصر وأحد مليكيها في ذلك العصر، ولكني رأيت الأمر قد استعصى علي إذ جعلت أنقل من قول أحد شعراء العصر بعض ماراقني، وذلك الشاعر هو ابن الصلاحي، فرأيت ذلك البعض الذي اخترته قد زاد على المقدار الذي يجمل بي أن أجعله لمقال واحد. فعدلت عن رأيي الأول وقلت حسبي أن أخص بهذا المقال ذلك الشاعر وحده. ولعل الاختصار على حديث شاعر واحد أبلغ في قصدي وأقوى لحجتي التي أرمي من ورائها إلى بيان حقيقة في تاريخ مصر. فان غزارة قول شاعر واحد من شعراء هذا العصر لدليل على أن ثقافة ذلك العصر لم تكن ثقافة ضحلة، بل كانت ثقافة أعمق وأقوى مما يتوهمه الكثيرون

كان ابن الصلاحي ناظماً وناثراً وعالماً من علماء العصر. نال من العلم الموروث أقصى ما يناله المتطلع إلى الحياة العقلية. وقد كان تلميذاً للشيخ محمد الحفني المشهور وأجازه ذلك الشيخ إجازة علمية قد يكون من الطريف أن ننقلها هنا. قال الشيخ:

« نحمدك ياعليم يافتاح، ياذا المن بالعلم والصلاح، ونصلي ونسلم على أقوى سند، وعلى آله وصحبه معادن الفضل والمدد. أما بعد فان المولى العلامة الفهامة الحاذق الأديب، واللوذعي الأريب، مولانا الشيخ محمد الصلاحي السيوطي قد حاز من التحلي بفرائد المسائل العلية أوفى نصيب، بفهم ثاقب وإدراك مصيب، فكان أهلاً للانتظام في سلك الأعلام، باجازته كما هو سنن أئمة الاسلام، فأجزته بما تضمنته هذه الوريقات، من العلوم العقلية والنقلية المتلقاة عن الاثبات، وبسائر ماتجوز لي روايته أوثبتت لدى درايته، موصياً له بتقوى الله التي هي أقوى سبيل للنجاة، وألا ينساني من صالح دعواته في أوقات توجهاته، نفعه الله ونفع به، ونظمه في عقد أهل قربه. وأفضل الصلاة والسلام على أكمل رسل السلام وعلى أئمة الهدى، وصحبه نجوم الاقتدا. كتبه محمد بن سالم الحفناوي الشافعي ثامن جمادى الثانية سنة ثمان وسبعين ومائة وألف »

وقد كان ابن الصلاحي فوق ذلك كاتباً حسن الخط كتب نسخة من القاموس بخط يده، وقد كان للخط الحسن نهضة في ذلك العصر مثل سائر أحوال البلاد، فقد نبغ من معلميه جماعة من أفاضل الكتاب مثل الضيائي والشاكري والجزائري والحمامي

ولكن أكبر ما امتاز به ابن الصلاحي ميله إلى فن الأدب، فقد أخذ منه بالحظ الأوفر، وقد اتصل بحلقة الأدب في بلاط الأمير رضوان ونال من خيره الشيء الكثير. على أنه كان غير منقطع اليه، بل كانت له مجالس خاصة مع جماعة من أدباء عصره ومشيخة العلم فيه. ولعل خير ما قاله من قصائده ماجاش في نفسه في تلك المجالس الخاصة

قال يصف خطرات نفسه:

بثّا عن النائي الغريب ... جملاً من الخبر العجيبِ
واستوقفا الركبان ما ... بين الاراكة والكثيب
واستنشدا القلب الذي ... قد ضاع من بين القلوب
سلبته يوم الدوحتيـ ... ـن طليعة الرشأ الربيب
وسرت به نحو الخيا ... م يد الصبا ويد الجنوب
ترنو الهوادج عن صفا ... شمس تميل إلى الغروب
والبدر يذهب من خلا ... ل السحب في مرأى عجيب
والرق يخفق والمزا ... هر مثل قلبي في وجيب
يا حادي العيس التي ... سارت على قلبي الجنيب
علل عليل هوى فمهـ ... ـدك ما تقادم بالطبيب

* * *

إني وإن شط النوى ... وقف على حب الحبيب
كابدت ما كابدت من ... شق المرائر والجيوب
وعلمت كيف تقوم أسـ ... ـواق المعارك والحروب
ولقيت دون البيض وقـ ... ـع السمر بالصدر الرحيب
من كل ريم جائل ... في برد جردته القشيب
يحكي الغزالة في الترفـ ... ـع والغزالة في الوثوب

ألحاظه ترويك ديوا ن الحماسة عن حبيب
وقعات أسهمه تركـ ن جميع جسمي في ندوب

***

كم ليـلة عانقت فيـ ها قامة الغصن الرطيب
في معهد ما فض عنـ ه الأنس إلا ختم طيب
والزهر يضحك من بكا ء الطل بالثغر الشنيب
والريح تكتب في الغديـ ر حديث أسرار الغيوب
والطـير تقرأ والغصو ن تهز أعطاف الطروب
والورق تصدح في الغصو ن بصوت محزون كئيب
في رنة الشـادي وهيـ نمة القطا والعندليب
عجماء تعرب في السؤا ل وتستجيب بلا مجيب
والليـل أرسل ذيله رصداً على أعلى القضيب
يحكي الشـعور كأنه يروي الفروع عن الخطيب

. . .

أرنو وأحشائي من الـ حدثان في شك مريب
لولا الرقيب ظفرت من لقيـاه بالفرج القريب
وكشفت من وصلي به ما قد ألم من الكروب

ولئن حل بنفس القارىء من هذه النفثة مثل ما حل بقلبي، لأيقن أن ابن الصلاحي إنما كان يترجم عن قلب نابض بحياة حقيقية لا تكلف فيها، وأنه كان يصدح بأنغام تبين عن حرارة ووجدان طبيعي. وها هي ذي نفثة أخرى أختارمنها البعض لا أنه أحسن ما بها، ولـكنه مثل مما تحويه من آيات. وهي في مدح شيخه الحفني:

مِل بي فقد وقد الهجيـ إني بظلك مسـتجير
وأرح مطيك يا سميـ ر فقد أضر بها المسير
هذا الحمى فارصـد إذا ما استأنس الظبي النفور
واطرق كناس الغيد حيـ ث ينام راعيه الغيور
وأمط سـتائره فذ لك حين تنفتح الخدور
واسأل من الظبيات عن عهد تضن به الصدور
واحفظ فؤادك أن تصيـ ب عيونهن فهن حور
من كل غانيـة يلو ح بوجهها القمر المنير
تختال في مرح الشبا ب فيخجل الغصن النضير
تسمى فتقعدها روا دفها وينهضها الحضور
سكرى رأت كسر القلو ب فصار ناظرها الكسير
فعلت بسحر جفونهـا ما ليس تفعـله الخمور
حنثت معاطف خدها لـكن لواحظها ذكور
لم أنس إذ وافى البشيـ ر يلوح في فمه السرور
إذ أقبلت ريح القبو ل بها وأدبرت الدبور
فضممتهـا ومهجتي من حر أشواقي سعير
فتعوذت بالروض من شر بأنفاسي يطـير
روض تعلق بالمجر (م) ة من جوانبه نهور
تبدو به زهر الزهو ر لأنه فلك يدور
ضحكت ثغور زهوره فبكى لهـا النوء المطير
وحنت نواعره وحنـ ت وهي من غيظ تفور
ذكرت قديم عهودها فانهـل مدمعها النمير
يا طيب أنفاس الربيـع ففي تنفسها عبير
والجو مجمرة عليـ ها من ضبابتها بخور

***

والورق ساجعة لهـا في كل ناحيـة سمير
عجماء تعرب عن ضما ئرنا وليس لهـا ضمير
والريح تعتنق الغصو ن بها فتعتبق الزهور
وبدت شموس الراح تحـ ملها الكواكب والبدور

***

وبكت عيون السحب حيـ ن تساقط الدمع الغزير
نحنـا معاً فتحلت الـ أغصان منا والنحور
رعيـا لذياك الحمى والطرف مبتهج قرير
قد لج بالقلب الغرو ر وذلك الطرف الغرير
ومرور أيام الصبا من دونها العيش المرير

ثم انتقل إلى مدح شيخه ومضى فيه مثل قوله:

ملأ النواظر منـه إجـ لالا وليس له نظير
وحمـاه ينفك الأسيـ ر به ويستغني الفقير
متن تذل لهـا الرقا ب ولا يقوم بها الشكور
وجرت لنحو حماك آ مالي وأنت بها جدير

. . .

خذها على شرط الصبا رف إن ناقدها بصير

أليس هذا قولاً يترجم عن قلب جياش وخيال وثاب؟

وقال في بعض مجالسه :

هات لي قهوة الشفامن شفاهك واسقنيها على فخامة جاهك
عاطنيها يا أوحد العصر لطفا وبديع المثـال في أشباهك
ياغزالا لو صور البدر شخصا ليضاهيك في البها لم يضاهك
عاطنيها جهراً شفاها ولا تخـ ـش ملاما فلذتي في شفاهك

وأرسل إلى صديق له :

ذكرتك لا أني نطقت وإنما ذكرتك في نفسي فكنت سميرها
ذكرتك في روض تبسم عن شذا وقدفتحت كف النسيم زهورها
ذكرتك والأطيار تنطق عن هوى
كأنك قد آويت منهـا ضميرها
فلاخير في أرض إذا لم تكن بها سميراً ولا في روضة لن تزورها

ذلك مثل من أدب حي حياة تنبض قوية ، يتفتح عن زهر نضير غض ، وهو في الوقت عينه أدب عميق قوي ، تسمع منـه نغمة حلوة بليغة تدل على روح شعب محس بنفسه آخذ في سبيل الحياة والشباب

فالحق أن شعب مصر في القرن الثامن عشر ، كان آخذاً في سبيل نهضة حقيقية في كل جوانبه ، نهضة وطنية صرف لا تشوبها رطانة أجنبية ولا لوثة أعجمية ولا سيطرة غريبة . نهضة لو سارت في سبيلها وبلغت قصاراها لـكانت مصر بها اليوم في مستوى اليابان أو إيطاليا أو فيما هو فوق ذلك . غير أن القرن الثامن عشر ، واحسرتاه ، انتهى بنكبة شاملة وداهية فادحة باغارة الفرنسيين على مصر ، واكتساحهم كل آثار تلك النهضة الشابة فقضى عليها ولما يتم نموها ، وحفرت بين ماضي مصر وحاضرها هوة عميقة تقطع تيار الرقي الوطني ، وتقف في سبيل وصل الطارف بالتالد

فمجد مصر السياسي في القرن الثامن عشر أصبح نسياً ، ومجد مصر الاجتماعي في ذلك القرن كذلك قد أصبح أثراً دارساً ، وجهاد مصر الدسـتوري قد صار دفيناً تحت أنقاض تلك الكارثة ، فلم تبق منه معالم ولا آثار . غير أنا إن فاتنا أن نبني على أثر هـذا التراث المنهوب ، أو ضاع علينا أن نصل حاضرنا بذلك الماضي المضيع ، فليس أقل من أن نعرف أن لنا في ذلك المـاضي أنفاساً يليق بنا أن نحرص عليها ، وأنغاماً يجمل بنا أن نسجلها

محمد فريد أبو حديد

كيف حفرت بئراً

.... لنفسي ؟

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

شقراء ، ذهبية الشعر ، لاأدري كيف أنبتها هذه الصحراء ؟ ومن بنات الفقراء ، ولـكنّ لها دلاً وأناقة تخطئهما عند اللواتي نشأن في كنف النعمة والترف والثراء ، وفي كلامها خفة وهَرَجٌ ، وفي مشيتها تبختر لايثقل ، ومَيْس ليس من الاختيال . وكانت ترسل شعرها الوحف ولا تفرقه أو تضفره أو تعقصه ، بل ترده عن جبينها الوضاء وتحسر جمته عن أذن ، وتستر به أذناً . ولاتثبته بالأمشاط أو الدبابيس ، ولا تعصب رأسها بالمناديل ، فاذا عبث به الهواء وأسال قصتها على وجهها رفعت الشعرات بأصبعها أو نحتها عن أذنها ، وكنتُ لا أراها تبتسم إلا خيّل إلى أنها ترى حلماً يسرّها فيثب قلبي إلى حاقي ، وأجدُ حرّ النار في كفي

وكان بيتي في ذلك الوقت على « تخوم العالمين » وكانت له حديقة صغيرة جعلتها شغلاني . وكان الماء كثيراً وثمنه زهيداً ، لا يتجاوز خمسة عشر قرشاً في الشهر بالغاً ما بلغ ما أجريت منه ، فكنتُ آخذ كفايتي منه وأسنّه على وجهه للجيران ، وكانت هـذه الشقراء تجيء كل مساء بجرة فتملؤها مرةً أو اثنتين أو عشراً ـ كما تشاء . فأقف لها وأحادثها وأساعدها على رفع الجرة إلى رأسها . ولم تكن هي الوحيدة التي تستـقي ، ولـكنها كانت أبرعهن شكلاً وأخفّهن على الفؤاد ، وكانت تأنس مني الميل إليها والأعجاب بها ، فتطيل الوقوف معي أحياناً ، أو تتولى عني عزقَ الأرض أو بذرَ الحب أو سقيَ الزرع ، واجتزازَ الـكلأ والعشب والحشيش أو نزعَ ذلك بأصوله ، وكانت أعرف مني بذلك كله وأخبر ، وكانت تضحك مني لجهلي فتقول لي مثلاً :

« ألا تحشُّ هذه الملوخية ؟ لقد كادت تكتهل »

فأقول : « ملوخية ؟ لقد طرحتُ هنا حب فجل فـكيف تخرج الأرض ملوخية ؟ »

فتقول : « كلا ، هـــذه ملوخية وقد بلغ نبتها المدى ، فاختصرها [1] وإلا فسدت »

(١) الاختصار جز الخضرة

فأقطع ورقة وأمضغها فأجد طعم الملوخية ولا أجد طعم الفجل ، وكنت أهمل أن أكتب أسماء البذور على الورق الذى أحفظه فيها ، وأعتمد على الذاكرة والذكاء فيختلط علىّ الأمر ، وأروح أظننى زرعت جزراً فاذا هو خيار ، وكنت لجهلى ألقى البزر ولا أعنى باعداد الأرض وإخلائها من الحجارة ، وكانت أرض هذه الحديقة جَلْدَةً فى مواضع كثيرة وفى بطنها حجارة غليظة مختلطة بطينها ، فلا يخرج شىء مما يقع على هذه الجلاميد . فكانت الشقراء تنبهنى إلى ذلك وتعرفنيه . وكنت ربما تركت فى الشتاء مالا يَبْقَ عليه أصله ، وقلعت ما يبيد الشتاء فرعه ويُبق أرومته ، فتصلح لى من خطئى ما يتيسر إصلاحه ، ولم أكن أعرف الفرق بين ما يسمو من النبات صُعداً ويستغنى بنفسه ، وما يحتاج ، وهو يسمو ، إلى ما يتعلق به ويرق فيه ، وما ينسطح على وجه الأرض ، فأغرس الأعواد لما ينبت مفترشاً ، وأدع ما يحتاج إلى التعلق بلا عصب ، فكانت هى تعلمنى وتقوّم المعوج وتعالج ما أفسدت

ثم حدث أن شركة الماء وضعت لنا فى البيت « عداداً » يحاسبنا على القطرات بعد أن كنا نأخذ بلا حساب ، ولا ننقدها فى الشهر إلا خمسة عشر قرشاً ، فأرهقنى هذا « العداد » وكلفنى فوق ما أطيق ، وصرت بين أمرين : إذا أبقيت على الحديقة جمت وتضورت ، فان أرضها كثيرة الرمل يذهب فيها الماء ولا يبقى منه للنبات ما يكفيه ، فحاجتها إلى السقى لا تنقضى . وإذا أنا ضننتُ بالماء ذهبت الحديقة . فشق علىّ ذلك واشتد همى ، وطال وجومى من جرائه . ورأت هى اغتمامى ومهومى فسألتنى فأفضيت بشجنى فقالت :

« احفر بئراً »

قلت : « ايه ؟ أحفر بئراً ؟ »

قالت : « نعم . ماذا يمنع أن تفعل ؟ »

قلت : « يمنع أن هذه أرض مضرّسة ، حشوها حجارة ولا يمكن أن يكون فى جوفها ماء »

قالت : « من أدراك ؟ إنى أعتقد أن فى أرضك ماء غزيراً »

قلت : « أما الحرث والزرع فشىء عرفنا أنك تعرفينه ، وإن كنت لا أدرى من أين جاءك هذا العلم ، وأما الآبار وحفرها .. »

فقاطعتنى وقالت : « أظننى أستطيع أن أدلك على موضع العين فى هذه الأرض — غدا فى النهار أختبر الأرض وأجسها »

* * *

وفى عصر اليوم التالى جاءت وفى يدها عود على هيئة اللام ألف ، ولكنّ فى ساقه ، قبل موضع التشعّب ، طولاً وقالت :

« أنظر . سأجس الأرض بهذا » ورفعته لعينى

فقلت : « وكيف تصنعين ؟ إنه غصن لا أكثر »

قالت : « هو حسبى . وما أعرفه خذلنى أو كذبنى قط ، ولكن عهدى بهذا الجس بعيد وأخشى أن أكون قد فقدت القدرة على استنبائه »

قلت : « استنباؤه ؟ أو يقول لك هذا الغصن أين منبع الماء فى جوف الأرض ؟ »

قالت : « نعم ، وسترى بعينيك إذا وفقنى الله »

وأقبلت على الأرض تجسها شبراً شبراً ، وكانت تضع العود على الأرض كأنها تغرسه فيها وتسنده بأصابعها وتنظر إلى شعبتيه برهة ، ثم ترفعه وتقدمه خطوة أو خطوتين ، وهكذا يميناً وشمالاً ، حتى رأيت إحدى الشعبتين تميل قليلاً فعجبت

فقالت : « هنا ماء ولكنه قليل »

ومضت تنقل العود من مكان إلى مكان حتى بلغت الجدار الآخر فقالت :

« يخيل إلى أنى سأخفق »

فلم أقل شيئاً ، وماذا عسى أن أقول ؟ لقد تركتها تختبر الأرض وأنا كافر بها — أعنى بالفتاة وقدرتها على الاهتداء إلى منابع الماء فى بطن الأرض ، ولكنى قلت إنه لا بأس علىّ من ذلك ، وحسبى أنى أقضى معها ساعة أنعم فيها بحديثها وبالنظر اليها ، ولكن اثناء العود إلى الأرض ، من تلقاء نفسه ، ومن غير أن يمسه شىء حيرنى ، وصرفنى عن الفتاة وجمالها ، إلى هذه الظاهرة الغريبة

وجعلت أقول لنفسى : « إذا كان كل ما يتطلبه الأمر أن يجىء الانسان بمثل هذا العود ذى الشعبتين ، وأن يركزه أو يغرسه فى الأرض ، فاذا كان هناك ماء انثنى وحده ، فما أسهل ذلك ! ! وكيف غاب هذا عن الناس وفاتهم هذا العلم اليسير ؟ »

ولم أكتم هذا الذى دار بنفسى ، فقالت بابتسام : « لا . إن المعوّل على اليد لا على العود »

ولم أفهم شيئاً ، ولـكنى سكت ، فقد تجهمتْ ، وطال سكوتها وتقطيبها ، وثبت حملاقها ، وبدت لى كأنها تعصر نفسها عصراً ، ثم قالت :

« افتح هذا الباب »

وكان باب حجرة مهجورة فى فناء البيت ، يحبس فيها الدجاج ، ففتحته فدخلت وقالت : « انزع هذا البلاط »

فأطعت ، وتجشمت عناء شديداً ، ولـكنى أمضيت لها مشيئتها ، فخنت على الأرض ، وأقامت العود فى ترابها ، وإذا بالشعبتين جميعاً ـ بعد هنيهة ـ تنثنيان على الأرض ـ عمودياً ـ حتى خيل إلىّ أنهما ستقصفان

ونهضت ، ومسحت العرق المتصبب ، وقالت :

« هنا يجب أن تحفر . الماء غزير ، ولـكنه بعيد . وماذا يهم ؟ ستجد فوق الـكفاية من الماء »

ولم يخالجنى شك فى صدقها ، فجئنا بعد أيام بالرجال ، فحفروا ووسّعوا ، واحتجنا أن نهدم الجدار الذى فيه الباب فأتينا عليه ، وانحدر الرجال الى أكثر من ستة أمتار ، وقضوا فى ذلك أياماً طويلة ، حتى بلغ أحدهم حجراً فزحزحه بالمعول فأنبط الماء من تحته واستغنيت عن شركة الماء

***

وقلت للفتاة : « لماذا جشمت نفسك هذا العناء ؟ »

قالت : هو جزاء المعروف »

قلت : « ليس إلا ؟ »

قالت : « وعز علىّ أن تضطر الى تضييع الحديقة »

قلت : « وماذا أيضاً ؟ »

قالت : « لا أدرى ماذا أيضاً ؟ غلبنى شعورى »

قلت : « ليس فى وسعى أن أجزيك . . . . »

قالت تقاطعنى : « لا تحاول ! . . . . حسبى أنى أعدت الى وجهك الابتسام »

قلت : « اسمعى . إن الحديقة مدينة لك بحياتها ، وأنا مدين لك بمعنى هذه الحياة ، ولست أظنها تقوى على فراقك ، ولا أنا يا فتاتى . . . . »

قالت : « لم أصنع شيئاً »

قلت : « أزخرت حياة كادت تجف وتذوى ، فماذا يستطيع انسان أكثر من هذا ؟ »

قالت : « كلا . كل ماصنعت أنى وجدت ماء ، وقد وجدته مئة مرة قبل اليوم ، فلم أسمع مثل كلامك . . . إنك تمزح ولاشك ! »

قلت : « بل أنا جاد . لاغنى بى ولا بالحديقة عنك . . . فما قولك ؟ »

قالت : « كلا . للحديقة صاحبها ، ولك الدنيا ، أما أنا فذاهبة »

قلت : « ذاهبة ؟ أين ؟ »

قالت : غدا — أو بعد غد — يرحل أبى ، وأنا معه ، فما بقى ما يستوجب مقامنا »

فدنوت منها ووضعت يدى على كتفها وسألتها :

« أنت أوعزت اليه ؟ »

قالت ، وهى مطرقة : « نعم . والآن أستودعك الله ! »

فتعلقت بها فلم يجدنى ذلك وقالت :

« أنا بنت الصحراء ، وأنت ابن المدنية . . . لست لى ، ولست لك . . . وقد تركت لك الحديقة . . . . لتذكرنى بها »

وكان هذا آخر عهدى بها . . .

ولـكنى لم أطق هذه الذكرى ، ولم أعد أحتمل أن أرى الحديقة أو البئر التى حفرتها ، فتركت ذلك كله وانتقلت الى بيت آخر . . . بعيد . . . بعيد جداً ، ولا حديقة له ؟!

ابراهيم عبد القادر المازنى

الغرض من التربية

فى المدرسة الانجليزية [1]

للأستاذ محمد عطية الأبراشى

المفتش بوزارة المعارف

الغرض من التربية الانجليزية تهذيب الخلق وتربية الروح والعقل والجسم ، مع المحافظة على الاستقلال الشخصى لكل فرد من الأفراد . ولا يُقاس النجاح فى التعليم بانجلترا بمقدار مايعرف التلميذ من المواد الدراسية فحسب ، ولكنه يقاس كذلك بما يستطيع أن يفعله وبمقدار استعداده للعمل . فعلى هذه الأسس الثلاثة وهى : العلم ، والقدرة على العمل ، والاستعداد للعمل – يقاس النجاح فى التعليم بانجلترا . ومع أن عدد المتعطلين هناك قد بلغ نحو ثلاثة آلاف ألف عامل ، وعدد المتخرجين فى المدارس كل سنة يبلغ نحو ٢٥٠ ألف شاب لاتجد فرداً واحداً يقول : أغلقوا المدارس ، ولكنك تجد من يقول : أطيلوا مدة الدراسة ، وافتحوا موارد العلم لطلابه ، فبغير نور العلم لاتزدهر نهضة ، وبغير المدارس لاتعتز أمة . والحياة العملية مفتوحة أمام الجميع . وإذا ترك الطالب المدرسة وكان عالماً قادراً على العمل ، مستعداً لأن يعمل ، فلا خوف عليه فى هذه الحياة . وما المدرسة إلا عالم مصغر ، فالحياة المدرسية الانجليزية صورة من الحياة العالمية الخارجية ، تُعِدّ التلميذ للحياة الاجتماعية التى تنتظره ، فيخرج من المدرسة عالماً بشئون الحياة ، يحاول أن يعرف نفسه ، ويعرف العالم الذى يعيش فيه ، عاملاً بما علم ، مستعداً لأن يعمل أى عمل تصل إليه يده ، مبتدئاً الحياة من السلم الأول ، ويسير بالتدرج حتى يصل إلى ذروة العلا . يعيش الشاب فى عالم الحقيقة لا عالم الخيال ، ولا يضيره أن يظهر صغيراً فى عمله فى بدء الأمر ، بل يعمل ويثابر ، ويخطئ ويصيب ، ويجتهد حتى يصل إلى الكمال أو ما يقرب منه .

وإذا تمثلت الروح العسكرية فى التربية الألمانية ، وظهرت الروح التعاونية فى التربية الأمريكية ، فتربية الشخصية المستقلة تتمثل فى التربية الانجليزية .

وإن روح التعليم فى انجلترا مؤسسة على دراسة الطفل والتفكير فيه ، وفى شخصيته ومستواه ، وتقديمه على سواه ؛ أى مؤسسة على التضحية بكل شئ فى سبيل النهوض به . فالطفل هو مركز التعليم ، وهو النقطة الرئيسية التى يعنى الجميع بها ، وهو الذى يضحى من أجله بكل شئ . ولئن عنى الأسبرطيون قديماً بالقوة الجسمية والتربية العسكرية ، واهتم الأثينيون من اليونان القدماء بالفلسفة وتربية الذوق وحب الجمال ، وأولع الرومان فى غابر الأزمان بالخطابة والقوة الكلامية فلقد عنى الأنجليز اليوم باعداد الطفل للحياة ، للقيام بواجبات الحياة .

وقد رأى أحد الانجليز ، ورأى فلاسفة اليونان من قبل ، أن العقل السليم فى الجسم السليم ، ولكن المربين من الانجليز يرون الآن أن يضيفوا إلى العقل السليم والجسم السليم : الخلق القويم ، والشعور بالواجب . فالمدرسة الانجليزية لا تفكر فى تعليم المواد فحسب ، بل تعمل على تربية العقل ، والجسم ، والخلق ، وتهذيب الادارة ، وتقوية الملاحظة لدى كل فرد ، وتعطيه الفرصة فى أن يستفيد من قوانين الطبيعة ، ويقدر ما فيها من فن أو جمال ، وتفهمه الحياة كما هى ، وتشعره بواجبه نحو غيره وواجبه نحو الله ونفسه وأمته ، وتعده للحياة الكاملة . فللمدرسة أثر كبير فى تكوين الطفل لا ينقص عن أثر المنزل والأصدقاء وتجارب الحياة .

وإن المدرسة الانجليزية تشعر بالواجب الملقى على عاتقها نحو التعليم ، ونحو تحسين الأحوال الاجتماعية والصحية والخلقية ، وتقوم به خير قيام . والمدرس الانجليزى فى انجلترا يستطيع بما له من نفوذ ، وباجتهاده فى أن يكون المثل الأعلى الذى يصح الاقتداء به – أن يبث فى نفوس التلاميذ أحسن العادات من الجد والمثابرة على العمل وأداء الواجب ، وكتمان الشعور ، وإجلال كل نبيل ، والاستعداد لتضحية النفس ، والعمل على الوصول إلى الحقيقة والشعور بالواجب والاستقامة . فالمدرس يعمل على تكوين أعضاء عاملين ينفعون المجتمع الذى يعيشون فيه بحيث تفخر بهم الأمة التى ينتسبون إليها ؟

محمد عطية الابراشى

(١) مقتبس من كتاب « نظام التعليم فى انجلترا » تحت الطبع

الى الأستاذ توفيق الحكيم

سياحة فى نهر «الجنون»

هل هناك اقتباس....؟!

بقلم جورج وغريس

ليعذرنى الأستاذ توفيق الحكيم إن أردت أن أقوم بسياحة قصيرة فى « نهر الجنون » ذلك النهر الرهيب الذى شاء الأستاذ أن يتدفق ماؤه من قطرات قلمه على صحائف إحدى عشرة من « مجلتى » الغراء فى العدد الرابع منها الصادر فى منتصف شهر يناير الماضى . والحق إننى لا أخشى أن أصاب بالجنون إن قمت بسياحة قصيرة فى ذلك النهر أوانتهلت جرعة من مائه ، فليس أحب الى نفسى من أن ترشف من فيض ذلك القلم العذب الذى يذكرنا بصاحب « أهل الكهف » و« شهر زاد » و« عودة الروح » ..

ونهر الجنون الذى خطر لى أن أكتب عنه هو عنوان لقصة تمثيلية طريفة من فصل واحد تناولها الأستاذ الحكيم فى حوار لطيف ، وتتلخص وقائع تلك القصة فى أنه فى قديم الزمان كان يجرى فى بلاد نائية نهر يشرب منه سكان تلك الجهة ، ففى إحدى الليالى نقمت الآلهة على ذلك النهر ، فأرسلت أفاعيها تهبط من السماء ثم تسكب سمومها فى مائه فاذا به فى لون الليل ، ويرى الملك كل ذلك فى رؤيا هائلة ، ويسمع من يهتف به : « حذار أن تشرب بعد الآن من نهر الجنون . . . » فيمتنع الملك هو ووزيره عن الشرب من ماء النهر ، ويكتفيان بنبيذ الكروم فاذا بهما فى تمام قواهما العقلية . أما الملكة وسائر أفراد الشعب فانهم يتهافتون على الماء ويستقون منه فيصيب عقولهم مس من الجنون

فاذا كان أول هذا الفصل يظهر الملك منفرداً مع وزيره فى القصر ، ويتحادث معه فى تلك الرؤيا الهائلة التى رآها ، ويبدى جزعه الشديد أن تشرب الملكة مع الشاربين من النهر برغم تحذيره إياها فيصيبها الجنون كما أصاب جميع الناس الذين شربوا معها ، ثم يُظهر حزنه العظيم على عقلها الراجح وذهنها اللامع فى سماء تلك المملكة ، ويتمنى لو أن وزيره أمكنه أن يجد لها الدواء الناجع ، أو لو أنه استطاع أن يحضر لها رأس الأطباء ، فيخبره وزيره أن رأس الأطباء أيضاً قد أصابه الجنون ، فيسأله أن يأتى لها بكبير الكهان ، فيعلمه أنه أيضاً مجنون لأنه شرب مع الشاربين ، ولا يوجد فى المملكة من لم يشرب من ماء النهر سواهما ، فيحزن الملك لذلك أشد الحزن ، ويذهب مع وزيره الى معبد القصر يسألان السماء الغوث والرحمة . . .

يخرج الملك والوزير من باب فتدخل من باب آخر الملكة ورأس الأطباء وكبير الكهان ، ويبدو الجزع على وجوههم ، ويتحدثون عن الملك ووزيره اللذين أصيبا بالجنون لامتناعهم عن الشرب من النهر دون جميع الناس ، وتسأل الملكة رأس الأطباء وكبير الكهان أن يستخدما الطب ويستنزلا المعجزات لانقاذ الملك من هذا الجنون المفرط . فلما يُظهر كل منهما عجزه عن رده الى صوابه تحزن الملكة لذلك أشد الحزن وتشير عليهما ألا يذيعا الخبر لأن المصيبة سوف تكون فادحة لو علم الناس أن الملك والوزير قد جُنّا . وتبكى الملكة زوجها الذى أصبح معتوها لا يذكر النهر إلا فى فزع ، ويزعم أن ماءه مسموم ولا يشرب إلا نبيذ الكروم ، وبينما هى تدير الرأى معهما تلمح الملك آتياً عن بعد ، فتطلب منهما أن يتركاها منفردة معه ، لعلها تستطيع أن تقنعه بأن يشرب من ماء النهر ، ثم يقبل عليها الملك ، فيتفرس كل منهما فى صاحبه وفى قلب كل منهما إشفاق على الآخر لما أصابه من الجنون ، فتسأله الملكة عن السر فى هذه النظرات العميقة ، فيجيبها أنه يسأل السماء أن تستجيب دعاءه ، فتفرح الملكة لهذه الرغبة فى الشفاء وتخبره أنها عثرت على الدواء المطلوب ، وأن هذا الدواء هو أن يشرب من ماء النهر ، فيغتم الملك ويعود الى حزنه ويأسه ، لأنه كان قد ظن أن الملكة قد اهتدت الى دواء لشفاء جنونها ، ويخرج صارخاً بوزيره أن ينجده . أما الوزير الذى كان فى خارج القصر فيدخل على الملك فى تلك اللحظة وهو يرتجف من الخوف ويخبره أن جميع الناس أصبحوا يعتقدون أن الملك ووزيره قد أصيبا بجنون ، أما هم فعقلاء ؛ فيدهش الملك لذلك أشد الدهش ويدور بينه وبين وزيره الحوار الآتى :

الملك : صه ! من قال هذا الهراء . . . . ؟

الوزير : تلك عقيدتهم الآن

الملك : (فى تهكم حزين) نحن المصابان وهم العقلاء . . . ! أيتها السماء رحماك ! إنهم لا يشعرون أنهم قد جنوا

الوزير : صدقت

الملك : يخيل إلى أن المجنون لا يشعر أنه مجنون

الوزير : هذا ما أرى

الملك : إن الملكة واحسرتاه كانت تحادثنى الآن وكأنها تعقل ماتقول ، بل لقد كانت تبدى لى الحزن وتسدى إلىّ النصح

الوزير : نعم نعم . . كذلك صنع بى كل من قابلت من رجال القصر وأهل المدينة

الملك : أيتها السماء رفقاً بهم !

الوزير : (فى تردد) وبنا . . ؟ !

الملك : (متسائلاً فى دهش) وبنا . . ؟ !

الوزير : مولاى . . إنى . . أريد أن أقول شيئاً

الملك : (فى خوف) تقول ماذا ؟

الوزير : إنى كدت أرى

الملك : (فى خوف) ترى ماذا ؟

الوزير : أنهم . . كل شئ

الملك : من هم ؟

الوزير : الناس المجانين . إنهم يرموننا بالجنون ويتهامسون علينا ويتآمرون بنا ، ومهما يكن من أمرهم وأمر عقلهم فان الغلبة لهم ، بل إنهم هم وحدهم الذين يملكون الفصل بين العقل والجنون . لأنهم هم البحر وما نحن الاثنان إلا حبتان من رمل . . أتسمع منى نصحاً يامولاى . . ؟

الملك : أعرف ما تريد أن تقول

الوزير : نعم هلم نصنع مثلهم ونشرب من ماء النهر !

الملك : (ينظر إلى وجه الوزير ملياً) أيها المسكين ! إنك قد شربت . أرى شعاعاً من الجنون يلمع فى عينيك

الوزير : كلا لم أفعل بعد

الملك : أصدقنى القول

الوزير : (فى قوة) أصدقك القول انى سأشرب . وقد أزمعت أن أصير مجنوناً مثل بقية الناس : إنى أضيق ذرعاً بهذا العقل بينهم

الملك : تطفىء من رأسك نور العقل بيديك !

الوزير : نور العقل ! ماقيمة نور العقل فى وسط مملكة من المجانين ؟ ثق أنا لو أصررنا على ما نحن فيه لانأمن أن يثب علينا هؤلاء القوم . إنى لأرى فى عيونهم فتنة تضطرم ، وأرى أنهم لن يلبثوا حتى يصيحوا فى الطرقات « الملك والوزير قد جنا . فلنخلع المجنونين »

الملك : ولكنا لسنا بمجنونين

الوزير : كيف نعلم ؟

الملك : ويحك . . . أتقول حقاً ؟

الوزير : إنك قد قلتها الساعة يامولاى : إن المجنون لايشعر أنه مجنون

الملك : (صائحاً) ولكنى عاقل وهؤلاء الناس مجانين !

الوزير : هم أيضاً يزعمون هذا الزعم

الملك : وأنت ألا تعتقد فى صحة عقلى ؟

الوزير : عقيدتى فيك وحدها ما نفعها ؟ إن شهادة مجنون لمجنون لا تغنى شيئاً

الملك : ولكنك تعرف أنى لم أشرب قط من ماء النهر

الوزير : أعرف

الملك : وأن الناس كلهم قد شربوا منه

الوزير : أعرف

الملك : وإنى قد سلمت من الجنون لأنى لم أشرب وأصيب الناس لأنهم شربوا

الوزير : هم يقولون إنهم إنما سلموا من الجنون لأنهم شربوا وأن الملك إنما جن لأنه لم يشرب

الملك : عجباً ! إنها لصفاقة وجه

الوزير : هذا قولهم وهم المصدقون . وأما أنت فلن تجد واحداً يصدقك

الملك : أهكذا يستطيعون أيضاً أن يجترئوا على الحق ؟

الوزير : الحق ؟ (يخفى ضحكه)

الملك : أتضحك ؟

الوزير : إن هذه الكلمة منا فى هذا الموقف غريبة

الملك : (فى رجفة) لماذا ؟

الوزير : الحق والعقل والفضيلة كلمات أصبحت ملكاً لهؤلاء الناس أيضاً . هم وحدهم أصحابها الآن

الملك : وأنا . . ؟

الوزير : أنت بمفردك لا تملك منها شيئاً

(الملك يطرق فى تفكير وصمت)

الملك : (يرفع رأسه أخيراً) صدقت إنى أرى حياتى لا يمكن أن تدوم على هذا النحو

الوزير : أجل يا مولاى . وإنه لمن الخير لك أن تعيش مع الملكة والناس فى تفاهم وصفاء ولو منحت عقلك من أجل هذا ثمناً

الملك : (فى تفكير) نعم إن فى هذا كل الخير لى . إن الجنون يعطيني رغد العيش مع الملكة والناس كما تقول . وأما العقل فماذا يعطيني . . ؟

الوزير : لا شيء . . . انه يجعلك منبوذاً من الجميع مجنوناً فى نظر الجميع

الملك : إذن فمن الجنون ألا أختار الجنون

الوزير : هذا عين ما أقول

الملك : بل إنه لمن العقل أن أوثر الجنون

الوزير : هذا لا ريب عندى فيه

الملك : ما الفرق إذن بين العقل والجنون

الوزير : (وقد بوغت) انتظر . . . . (يفكر لحظة) لست أتبين فرقاً

الملك : (فى عجلة) على بكأس من ماء النهر

***

هذا مجمل القصة والجزء المهم من الحوار الذى دار بين الملك ووزيره ، وانتهيا منه بأن العقل لا يغنيهما شيئاً فى مملكة من المجانين ، لذلك آثرا أن يكونا منهم . وموضوع القصة ـ كما ترى ـ لطيف طريف ، وليس فى هذا مجال لشك أو موضع لغرابة ، ولكن مما استرعى نظرى أننى كنت أقرأ بدايتها قراءة الشاعر بما سيحدث فى نهايتها ، فما أتيت على آخرها حتى ظللت أفكر فيمن سمعت أو قرأت عنه تلك القصة حتى هدانى التفكير إلى كتاب « المجنون » للمرحوم جبران خليل جبران فعثرت فيه على قصة قصيرة تحت عنوان « الملك الحكيم » وقبل أن أقول عنها شيئاً أورد نصها فيما يلى :

« كان فى إحدى المدن النائية ملك جبار حكيم ، وكان مخوفاً لجبروته محبوباً لحكمته ـ وكان فى وسط تلك المدينة بئر ماء نقى عذب يشرب منه جميع سكان المدينة من الملك وأعوانه فمادون ، لأنه لم يكن فى المدينة سواه . وفيما الناس نيام فى إحدى الليالى جاءت ساحرة إلى المدينة خلسة ، وألقت فى البئر سبع نقط من سائل غريب ، وقالت : « كل من يشرب من هذا الماء فيما بعد يصير مجنوناً »

وفى الصباح التالى شرب كل سكان المدينة من ماء البئر وجنّوا على نحو ما قالت الساحرة ، ولكن الملك والوزير لم يشربا من ذلك الماء

وعندما بلغ الخبر آذان المدينة طاف سكانها من حى إلى حى ، ومن زقاق إلى زقاق ، وهم يتسارّون قائلين « قد جُنّ ملكنا ووزيره . إن ملكنا ووزيره قد أضاعا رشدهما . إننا نأبى أن يملك علينا مليك مجنون . هيا بنا نخلعه عن عرشه ! »

وفى ذلك المساء سمع الملك بما جرى ، فأمر على الفور بأن يملأ حق ذهبي (كان قد ورثه عن أجداده) من مياه البئر . فملأوه فى الحال وأحضروه إليه . فأخذه الملك بيده وأداره إلى فمه . وبعد أن ارتوى من مائه دفعه إلى وزيره فأتى الوزير على ثمالته

فعرف سكان المدينة بذلك وفرحوا فرحاً عظيماً جداً ، لأن ملكهم ووزيره ثابا إلى رشدهما »

فما رأى القارىء اللبيب فى هذا . . . ؟ وما رأى الأستاذ الفاضل فيما كتب . . . ؟ أليس هناك تشابه تام بين القصتين فى الفكرة والمعنى والأشخاص بل وفى بعض الألفاظ . . . . ؟

انى مع احترامى الشديد وتقديرى العظيم للكاتب الفنان ، أرى فى ذلك أحد أمرين : إما أن تكون الفكرة مأخوذة مما كتبه المرحوم جبران خليل جبران ، وليس فى هذا حرج ، ولكن كان الأجدر بالكاتب فى هذه الحالة أن يذكر اسم المؤلف الذى أخذ عنه تلك الفكرة ، وله بعد ذلك الفضل فى تقريبها إلى الأذهان بصوغها فى قالبه الخاص الرائع ، وفى تحويرها من حكاية قصصية إلى قصة تمثيلية

وإما أن يكون ذلك من قبيل توارد الخواطر وتشابه الأفكار بين كاتبين مختلفين فى زمنين متقاربين ، وليس فى هذا أيضاً من حرج . . . ولكن دعنى ألا أعتقد به هنا قبل أن تأتينى بجرعة من ماء ذلك النهر فى حق من ذهب أو إناء من خزف ما؟

اسكندرية

جورج وغريس

(الرسالة) هناك فرض ثالث وهو أن يكون مصدر الكاتبين واحداً

الشيخ الخالدى

مجلس آخر من مجالسه

للدكتور عبد الوهاب عزام

كتبت فى عدد من الرسالة ما سمعته من الشيخ الخالدى فى أحد مجالسه بحلوان . واليوم أنشر حديثاً آخر حدث به فى مجلس بالروضة :

جمعنى والشيخ الجليل مجلس فى دار الأستاذ عبد الحميد العبادى ليلة الإثنين الثالث والعشرين من رمضان سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة وألف ، فلما اطمأن بنا المجلس قلت : قد سمعنا حديث شيخنا العلامة عن المدارس فى المشرق إبان مجد المسلمين ، فهل له أن يتم الحديث بذكر مدارس مصر والمغرب

قال : بقى من مدارس المشرق مدارس الأناطول ، ومنها مدرسة آلتون باى التى بناها السلاجقة فى قونية ، وبقيت معمورة الى زمن الحرب الكبرى . وقد طلب العلم بها السيد الشريف الجرجانى والفنارى (وهذا من ذرية سيدنا عمر . وسيف الدين الآمدى عربى من بنى ثعلبة إخوة بنى يربوع) . وفيها مدرسة قره طاى كبير فى قونية ، ولا تزال آثارها قائمة وهى من بناء السلاجقة أيضاً ، وقد درس فيها جلال الدين الرومى ، وفى بروسة مدرسة السلطان مراد الأول ومدرسة السلطان محمد جلبى . ومن علمائها الخيالى وخواجه زاده الذى كتب « تهافت الفلاسفة » يتوسط فيه بين الغزالى وابن رشد ؛ ومن علمائها كذلك ملاخسرو وحسن جلبى . وله حاشية على كتاب المطول فى البلاغة

ومن مدارس حلب المدرسة الحلوية وكان يقرأ فيها الكاشانى صاحب كتاب البدائع فى الفقه ، وكان يفتى هو وامرأته ، لايخرج الفتوى حتى تعرض عليها . ثم المدرسة المستنصرية فى بغداد فى غنى عن التعريف

ومن مدارس مصر المدرسة الكاملية التى بناها الملك الكامل الأيوبى . ومدرسة صلاح الدين ، بناها للأمام نجم الدين الخبوشانى قرب مسجد الامام الشافعى . والخبوشانى منسوب إلى خبوشان إحدى قرى نيسابور . وقد دفن بجانب الامام الشافعى واندثر قبره . والمدرسة الصالحية التى أسسها الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وكانت لمذاهب الفقه الأربعة ، والمدرسة الشيخونية . وكل هذه المدارس كانت صغيرة القدر بالقياس إلى جامع عمرو الذى كان مباءة العلوم الاسلامية منذ الفتح الاسلامى إلى القرن التاسع . وقد رأيت بالآستانة كتباً قديمة قرئت بجامع عمرو وعليها سماعات العلماء إلى سنة ٧٠٠ و سنة ٨٠٠ والشاطبى إمام القراء درس بهذا الجامع . ومن دور العلم فى القاهرة خانقاه سعيد السعداء بالجمالية ، وكان ينزل بها كبار العلماء ، وممن نزل بها القطب الشيرازى والشريف الجرجانى ، ومبارك شاه المنطقى ، وقطب الدين الرازى . ويؤسفنى أن وزارة الأوقاف لا تعنى بها عناية تكافئ مكانها فى التاريخ الاسلامى : ومن مدارس القاهرة مدرسة المؤيد

وأما الأزهر فقد صار من دور العلم الكبيرة بعد سنة تسعمائة ، وعلماؤه الذين ذكرهم الجبرتى متأخرون وأقدمهم الشيخ خالد الأزهرى . وأما ابن هشام وابن عقيل فلم يتعلما فيه

وكان فى الاسكندرية دار الحديث ، ومدرسة الحافظ السلفى ، وكان ينزل بها العلماء الوافدون من المغرب ، ومدرسة الامام الطرطوشى مؤلف سراج الملوك .

ودور العلم فى المغرب كانت جامع القيروان ؛ قرأ فيه أصحاب الامام مالك وأئمة مذهبه ومنهم سحنون ، وابن عمر ، وابن الحداد ، وسحنون الصغير ، وابن اللبّاد ، والامام اللخمى أحد محررى مذهب مالك ، وعبد الحميد الملقب بمالك الصغير ، وهو شيخ المازرى ، وغير هؤلاء ممن ذكروا فى كتاب معالم الايمان فى تاريخ القيروان لابن ناجية ، وهو شارح الرسالة التى ألفها عبد الله ابن أبى زيد صاحب كتاب النوادر ، وهذا الكتاب واحد وعشرون مجلداً فى مكتبة أياصوفيا ، وبعض مجلداته فى مكتبة القرويين بفاس

وجامع الزيتونة بتونس ، وهو قديم عمره بنيد الأغلب سنة ١٤٥ . ومن علمائه المازرى شارح صحيح مسلم ، وشارح التلقين للقاضى عبد الوهاب وهو عشر مجلدات كبار . ولا تزال اسطوانته معروفة فى الجامع ، وابن عبد السلام ، وابن عرفة ، وابن خلدون ، وابن راشد القفصى وهو أعلمهم ، والوانشريسى صاحب كتاب المعيار ، والأبى شارح صحيح مسلم (وشرح المازرى الذى ذكرته آنفاً اسمه المعلم فى شرح صحيح مسلم ، وكتاب الأبى

اسمه متممّ المعلم ، وللقاضي عياض شرح اسمه إكمال المعلم) ، ويحيى بن خلدون أخو عبد الرحمن بن خلدون المعروف ، وأبو الحسن الشاذلي ، وله أسطوانة في الجامع معروفة . ومن دور العلم بجاية وتلمسان ، وكان بها مدرسة السلطان أبي الحسن المريني ، ومدينة سبتة ، وقد ألف فيها القاضي عياض كتاب العيون الستة في أخبار سبتة . وهو كتاب يشهد بكثرة العلماء الذين نبغوا فيها . ومن دور العلم العظيمة جامع القرويين بفاس أسسه مولاى إدريس الأصغر . وهو يضاهي جامع القيروان في سعته ، وواجهته مركبة على ٢٠٠ أسطوانة بين كل اثنتين خمس خطوات

وقد ألف في تاريخ علماء فاس كتابان : الأول جذوة الاقتباس فيمن حل من العلماء بفاس ، وهو لابن القاضي الفشتالي (نسبة إلى فشتالة على نهر ورغة) ، والثاني جذوة الأنفاس فيمن أقبر من العلماء بفاس ، وهو للشريف الكتاني من المعاصرين ومن مدارس المغرب مدرسة يوسف بن تاشفين في مراكش

وكانت مدن العلم في الأندلس ، قرطبة ، واشبيلية ، وطليطلة ، ومرسية ، وبلنسية ، وشاطبة ، وسرقسطة ، وغرناطة ، في الزمن الأخير

وكان أهل الأندلس يحفظون دواوين شعراء الجاهلية بالرواية والأسناد كالحديث النبوى ، وقد جاء في تاريخ قرطبة « كانت قرطبة في الدولة الأسلامية قبة الأسلام ، ومجتمع علماء الأنام والأعلام . بها استقر سرير الخلافة المروانية ، وفيها تمحضت خلاصة القبائل المعدّية واليمانية . وإليها كانت الرحلة في رواية الشعر والشعراء . »

وقد بلغ من تشدّدهم في الرواية أن أبا علىّ القالى جاء الى الأندلس ومعه كتاب سماع في اللغة ، فاستعاره الخليفة (لا أدرى أكان الخليفة الناصر أم ابنه المستنصر ؟) وأبقاه عنده زماناً فلما أرجعه أبطل القالى العمل به في الرواية . لأن الكتاب خرج من يده زمناً طويلاً . قرأت هذه الحكاية في كتاب « الألماع في أصول السماع » للقاضي عياض . رأيت نسخة من هذا الكتاب في الأستانة (أيا صوفيا) وأخرى في الشام ، وللقاضي عياض (الشارحة) في الحديث . أعجب به ابن الصلاح فقال :

مشارق أنوار تجلّت بسبتة وذا عجب كون المشارق بالغرب
مشارق أنوار طلعن بمغرب أرن جميع الشرق بالطالع الغربي
فلله ما أبدى عياض فأشرقت مشارقه في كل قطر بلا غرب

ومن أجل عناية أهل الأندلس برواية الشعر نبغوا في اللغة . وحسبك ابن سيده صاحب المخصص والمحكم ، وقد رأيت الجلد الأول من المحكم بخط الجواليقى . اه

هذا ما اقتبسته من حديث شيخنا الخالدى في هذا المجلس ، أفاض فيه دون أن يرجع إلى كتاب أو ورقة . وكم من مجالس للشيخ العلامة لم تدوّن . ولو كتبت أحاديثه ونشرت معها كتبه وتنفه في تاريخ العلم والعلماء لاستفاد المسلمون علماً وأسماً ، وظفروا بما فقدوه من تاريخ أسلافهم . ولعلنا نسعد بكتابة بعض مجالسه . والله ولىّ التيسير

عبد الوهاب عزام

من تراثنا العلمي

تَعْبيرُ الرُّؤْيا لابْنِ قتيبة

وصف وتلخيص لنسخة ثمينة من كتاب مفقود

للأستاذ علي الطنطاوي

يزاول ابن قتيبة في هذا الكتاب بأسلوبه المتين، وطريقته السوية، بحثاً هو اليوم جديد في اللغات الأوربية، لم يكد يعرفه أصحابها قبل فرويد النمساوي وأصحابه: يونغ السويسري، وادلر الألماني، وبودوان الفرنسي، وورفرز الانجليزي، وهو يتفق وهؤلاء الباحثين في كثير من مسائل هذا البحث، وإنما يختلف عنهم في أنه استمد من معين النبوة، فأصاب كبد الحقيقة، وتمكن من سواء الثغرة. واتكلوا على ظنونهم، فحاموا حول الورد، وصدروا من غير ري!

والكتاب كما سترى في وصفه من الكتب الجليلة التي نرجو أن يتيح الله لها ناشراً، وهذه النسخة التي نصفها من مخطوطات (المكتبة العربيــة) العامرة (بدمشق)

أما تعبير الرؤيا فقد ثبت في الدين، ونطقت به السنة، وتواترت به الأخبار: أخرج البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب، ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»

وأخرج البخاري ومسلم والترمذي عن سَمُرَةَ بن جُندب، انه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نحن الآخرون السابقون، وبينا أنا نائم إذ أوتيت خزائن الأرض، فوضع في يديّ سواران من ذهب، فكبرا عليّ وأهماني، فأوحي إليّ أن انفخهما، فنفختهما فطارا. فأوّلتهما الكذابين اللذين أنا بينهما: صاحب صنعاء (أي الأسود) وصاحب اليمامة (أي مسيلمة)

والأخبار في ذلك مستفيضة.

وأما ابن قتيبة، فهو الامام العَـلَم. صاحب التصانيف الجليلة: أدب الكاتب، وعيون الأخبار، وطبقات الشعراء، والميسر والقداح، والمعارف [1] وغيرها...

قال فيه شيخ الاسلام ابن تيمية في تفسير سورة الاخلاص «هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة» وقال الحافظ السيوطي في البغية: «كان ابن قتيبة رأساً في العربية واللغة والأخبار وأيام الناس، ثقة ديّناً فاضلاً» وقال القاضي ابن خلكان: «وكان فاضلاً ثقة وتصانيفه كلها مفيدة» وقال الخطيب البغدادي: «كان ثقة ديناً فاضلاً» وقال الحافظ الذهبي: «ما علمت أحداً اتهمه في نقله» وقال ابن النديم: «كان صادقاً فيما يرويه، عالماً باللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه، والشعر والفقه، كثير التصنيف والتأليف، توفي ابن قتيبة سنة (٢٧٦) وله (٦٣) سنة

أما كتابه تعبير الرؤيا فقد ذكره ابن النديم في الفهرست في باب الكتب المؤلفة في تعبير الرؤيا، وسماه تعبير الرؤيا. وذكره أبو الطيب اللغوي في كتابه (مراتب النحويين) [2] كما نقل الأستاذ محب الدين الخطيب في مقدمة (الميسر والقداح)

وذكره في كتاب (فهرست مارواه عن شيوخه من الدواوين المصنّفة في ضروب العلم وأنواع المعارف الشيخ أبو بكر بن خير ابن عمر بن خليفة الأموي الأشبيلي (طبع سرقسطة سنة ١٨٩٣) باسم (عبارة الرؤيا) قال:

كتاب عبارة الرؤيا لابن قتيبة؛ حدثني به أبو بكر محمد بن أحمد بن طاهر رحمه الله، عن أبي علي الغساني، قال: حدثني به أبو العاصي حكم بن محمد الجذامي، عن أبي بكر أحمد بن محمد ابن اسماعيل المهندس. عن أحمد بن مروان المالكي عن ابن قتيبة

ثم ذكر لروايته طريقاً أخرى، والنسخة التي نصفها مروية من طريق أقصر وتلتقي برواية أبي بكر هذا عند أحمد بن مروان المالكي، وهذا مما يثبت صحة نسبة هــــذه النسخة لابن قتيبة رحمه الله

(١) ذكر الأستاذ المحقق محب الدين الخطيب في مقدمة (الميسر والقداح) أن في الخزانة الظاهرية كتاباً باسم تاريخ ابن قتيبة (تحت رقم ٨٠ تاريخ) وأن صاحب كشف الظنون أشار إليه، وتابعته في ذلك دار الكتب في مقدمة (عيون الأخبار) وقد أخبرني صديقي الشاعر الأديب السيد أحمد عبيد، أن الكتاب الذي في الخزانة الظاهرية هو كتاب (المعارف) ذاته

(٢) قال: وهو من نفائس مخطوطات الخزانة التيمورية وهو فيها (تحت رقم ١٤٢٥ تاريخ)

وقال الزمخشرى فى (الفائق) فى مادة (جنه) وهو يفسر بيت الفرزدق [1]

فى كفّه جُنَهِىٌّ ريحُهُ عَبِقٌ
من كفّ أرْوَعَ فى عرنينه شَمَمُ

قال القتبى (يعنى ابن قتيبة) الجنهى ، الخيزران . ومعرفتى بهذه الكلمة عجيبة ، وذلك أن رجلاً من أصحاب الغريب سألنى عنه (الجنهى) فلم أعرفه . فلما أخذت من الليل مضجعى أتانى آت فى المنام ، فقال لى : ألا أخبرته عن الجنهى ؟ قلت : لم أعرفه قال : هو الخيزُران ! فسألته شاهداً ، فقال : « هدية طرفته ، فى طبق مجنته » فهببت وأنا أكثر التعجب ، فلم ألبث إلا يسيراً ، حتى سمعت من ينشد : فى كفّه جنهى .... وكنت أعرفه : فى كفّه خيزران . .

قال فى (تاج العروس) فى تفسير الجنهى :

هو الخيزران رواه الجوهرى ، عن القتيبى قال (يعنى ابن قتيبة) وسمعت من ينشد : فى كفه جنهى . . .

والقصة التى رواها الزمخشرى مروية فى الورقة الخامسة عشرة من المخطوط الذى نصفه ، وهذا مما يثبت صحة نسبته إلى ابن قتيبة ، ومما يثبت هـذه النسبة أسلوب الكتاب ، فانه لا يكاد يختلف عن الأسلوب الذى نعرفه لابن قتيبة ، فى تحقيقه اللغوى وتفسيره الغريب ، واكثاره من الشواهد

أما هذه النسخة فتقع فى (١٣٤) صفحة من القطع الصغير فى كل صفحة (١٥) سطراً ، وهى مكتوبة بخط نسخى جميل ، على ورق صقيل ، ويزيد عمرها على (٥٠٠) سنة

فى الصفحة الأولى منها ، اسم الكتاب :

كتاب عبارة الرؤيا تصنيف أبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدّينوَرى رضى الله عنه

وفيها كتابات أخرى ، أكثرها ممحوٌّ :

من مواهب ذى الكرم على عبده رجب الأعلم اشتريته من سى يحيى الذهبى وقيل فى المعانى :

ونكس الرأس أهل الكيميا خجلاً
وقطروا أدمعاً من بعد ماسهروا
إن طالعوا كتبه بالدرس بينهم
صاروا ملوكاً وان عجزوا افتقروا
تعلقوا بحبال الشمس من طمع
فتى منهم قد غرّه القمر

ونو ـ الشمسى خادم ـ الفقير ـ لسنة ١٢٠٩ ـ من شهر ذى الحجة من تركة الشيخ عمر بن عبد الهادى رحمه الله

وفى الصفحة الأخيرة ، هـذه العبارة مكتوبة بخط الناسخ :

« آخر كتاب تعبير الرؤيا لابن قتيبة رضى الله عنه ، قابلناها على نسخة الأصل بقدر الامكان :

الحمد لله ربّ العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، أما بعد فقد وقع الفراغ من كتابة هذه النسخة الشريفة الموسومة بكتاب عبارة الرؤيا على يد العبـد الضعيف النحيف الراجى إلى رحمة الله البارى يحيى بن محمد البخارى فى عشرين من ذى القعدة سـنة خمس وأربعين وثمانمائة بدمشق المحروسة صانها الله تعالى عن الآفات والنكبات ، اللهم اغفر لكاتبه ولمن نظر فيه آمين يارب العالمين »

وفيها أسماء بعض المالكين :

دخل هذا الكتاب فى نوبة العبد الفقير رجب الأعلم المجاور بمدرسة العمرية عفى عنه آمين

الحمد لله مالكه من فضل ربه الهادى ، الشيخ عبد الرزاق الهادى غفر الله له آمين ، كتبه الفقير ابنه محمد

ساقها الرب الهادى ، إلى محمد الهادى

والنسخة مشكولة ولكنه شكل لا يعتد به . وليس فى هوامشها تعليقات تذكر .

***

رواية الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه نستعين

كتاب تعبير الرؤيا تصنيف أبى محمد عبد الله بن محمد بن مسلم ابن قتيبة

قرأت على الشيخ الصالح أبى الحسن عبد الباقى بن فارس بن أحمد المقرئ المعروف بابن أبى الفتح المصرى ، أخبركم أبو حفص عمر بن محمد بن عراك الحضرمى قراءة عليه ، قال : أخبرنا أبو بكر أحمد بن مروان قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن مسلم بن قتيبة الدينورى ، قال :

مقدمة الكتاب :

الحمد لله الذى رفع منار الحق ، وأوضح سبيل الهدى ، وقطع

(١) المشهور أنه للفرزدق ويقول كثير من المحققين أنه للحزين الليثى الشاعر . راجع الأغانى

عذر الجاحدين ، بما أشهدنا من صنعته الظاهرة ، وآياته الباهرة وأعلامه الدالة عليه ، وآثاره المؤدية إليه . في كل ماثل للعيون . من فلك دائر ، وكوكب سائر ، وجبال راسيات ، وبحار طاميات ورياح جاريات ، وفلك في البحر مسخرات بأمره الخ . . .

(قال) حدثني محمد بن عبيد ، عن . . عن . . عن أم كرز الكعبية قالت : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ذهبت النبوة وبقيت المبشرات[١] وحدثني محمد بن زياد عن . . عن . . عن عروة أنه قال في قوله الله عز وجل : « لَهُمُ البُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا وَفِي الآخِرَةِ » قال : هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له[٢]

(قال أبو محمد) وليس فيما يتعاطى الناس من فنون العلم ، ويمارسون من صنوف الحكم ، شيء هو أغمض وألطف ، وأجل وأشرف ، وأصعب مراداً وأشكالاً ، من الرؤيا ، لأنها جنس من الوحي ، وضرب من النبوة الخ . . . ولأن كل علم يطلب فأصوله لا تختلف ، ومقاييسه لا تتغير ، والطريق إليه قاصد ، والسبب الدال عليه واحد ، خلا التأويل : فإن الرؤيا تتغير عن أصولها باختلاف أحوال الناس في هيئاتهم ، وصناعاتهم وأقدارهم ، وأديانهم ، وهممهم ، وإراداتهم . وباختلاف الأوقات والأزمان فهي مرة مثل مضروب يُعبّر بالمثل والنظير ، ومرة مثل مضروب يعبّر بالضد والخلاف ، ومرة تنصرف عن الرائي لها إلى الشقيق أو النظير أو الرئيس ، ومرة تكون أضغاثاً

ولأن كل عالم بفن من العلوم ، يستغني بآلة ذلك العلم لعلمه ، خلا عابر الرؤيا : فإنه يحتاج إلى أن يكون عالماً بكتاب الله عز وجل وبحديث الرسول صلى الله عليه وسلم . ليتعبّرها في التأويل . وبأمثال العرب ، والأبيات النادرة ، واشتقاق اللغة ، والألفاظ المبتذلة عند العوام ، وأن يكون مع ذلك أديباً لطيفاً ذكياً ، عارفاً بهيئات الناس وشمائلهم وأقدارهم وأحوالهم ، عالماً بالقياس حافظاً ، ولن تغني عنه معرفة الأصول ، إلاّ أن يمدّه الله بتوفيق ، يسدّد حكمه للحق ، ولسانه للصواب ، وأن يحضره الله تعالى تسديده ، حتى يكون طيب الطعمة ، نقياً من الفواحش ، طاهراً من الذنوب ، فإذا كان كذلك ، أفرغ الله عليه من التوفيق ذنوباً ، فجعل له من مواريث الأنبياء نصيباً

وسأخبرك عن كيفية الرؤيا ، بالاستدلال على ذلك من كتاب الله والحديث ، إذ كنت لم أجد فيه مقالاً كافياً لإمام متبع ، وأقدم قبل ذلك ذكر النفس والروح ، إذ كنت لا تصل إلى علم كيفيتها إلا بمعرفتهما ، وفرق ما بينهما . وعلى الله أتوكل فيما أحاول وأستعين

(إلى أن قال) وقد اختلف الناس في النفس والروح ، فقال بعضهم ، هما شيء واحد يسمى باسمين ، كما يقال ، إنسان ورجل ، وهما الدم أو متصلان بالدم ، يبطلان بذهابه ، والدليل على ذلك ، أن الميت لا يُفقد من جسمه إلاّ دمه ، واحتجوا لذلك أيضاً من اللغة : بقول العرب : نُفِست المرأة (إذا حاضت) ونَفِست (من النفاس) وبقولهم للمرأة ، عند ولادتها : نُفَساء ، لسيلان النفس وهو الدم . وبقول ابراهيم النخعي : كل شيء ليست له نفس سائلة لا ينجس الماء _ الخ . . .

البقية في العدد القادم

علي الطنطاوي

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة بلفظ : لم يبق بعدي من النبوة الا المبشرات ، قالوا : وما المبشرات ؟ قال : الرؤيا الصالحة .

(٢) قال في تيسير الوصول في حديث المبشرات المتقدم : رواه مالك عن عطاء مرسلا وزاد ، الرؤيا الصالحة يراها الرجل المسلم أو ترى له

١٢ ـ محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون أو خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

ـ أو ليس البواسل من الرجال يحملون الموت ، لأنهم يخشون ما هو أعظم من الموت شراً ؟

ـ هذا صحيح

ـ إذن فكل الناس ما خلا الفلاسفة شجعان ، إلا أنها شجاعة من الخوف والوجل . وإنه لعجيب ولا شك أن يكون الرجل شجاعاً لأنه مذعور جبان !

ـ صحيح جداً

ـ أو ليس هذا بعينه شأن المعتدلين ؟ إنهم معتدلون لأنهم مفرطون ـ قد يبدو ذلك متناقضاً ، ولكنه مع ذلك هو ما يحدث فى هذا الاعتدال الأحمق ـ فهناك من اللذائذ ما يَحْرِصُون على تحصيلها ويخشون ضياعها ، فهم لذلك يتعففون عن نوع من الملذات لأن نوعاً آخر قد استولى عليهم ، وإذا عُرِّف التفريط بأنه : « الخضوع لسلطان اللذة » فانهم لا يقهرون لذة ، إلاّ لأن لذة تقهرهم ، وذلك ما أعنيه بقولى إنهم معتدلون لأنهم مفرطون

ـ يظهر أن ذلك حق

ـ ومع ذلك ، فليس من الفضيلة استبدال خوف أو لذة أو ألم بخوف آخر أو لذة أو ألم ، وهى متساوية كلها ، أكبرها بأصغرها ، تساوى النقد بالنقد . أى عزيزى سمياس ، أليس فى النقد قطعة واحدة صحيحة هى التى ينبغى أن تستبدل بالأشياء جميعاً ؟ ـ وتلك هى الحكمة ، ولن يشترى شىء بحق أو يباع ، شجاعة كان أم عفة أم عدلاً ، إلا إن كان للحكمة ملازماً ، وإلا إن كانت هذه الحكمة له بديلاً . ثم أليست الفضيلة الحق بأسرها رفيقة الحكمة ، بغض النظر عما قد يكتنفها أو لا يكتنفها من المخاوف واللذائذ أو ما يليهما من الخيرات أو الشرور ؟ إلا أن الفضيلة التى يكون قوامها هذه الخيرات التى تأخذ فى استبدال بعضها ببعض بعد أن تكون قد انفصلت عن الحكمة ، ليست من الفضيلة إلا ظلها ، ولا يكون فيها من الحرية أو العافية أو الحقيقة شىء ، أما التبادل الحق فيقتضى أن تمحى هذه الأشياء محواً ، وما ظهورها إلا العدل والشجاعة والحكمة نفسها . وإنى لأتصور أن أولئك الذين أنشأوا الأسرار ، لم يكونوا مجرد عابثين ، بل قصدوا إلى الجد حينما عمدوا إلى شكل فرمزوا به إلى أن من يمضى إلى العالم الأسفل دنساً جاهلاً سيعيش فى حمأة من الوحل ، أما ذلك الذى يصل إلى العالم الآخر بعد التعليم والتطهير فسيقيم مع الآلهة . وكما يقولون فى الأسرار : « كثيرون هم من يحملون عصا السحر ، أما العالمون بالسحر فقليل »[1] وهم يريدون بهذه العبارة فيما أرى ، الفلاسفة الحق ، الذين أنفقتُ حياتى كلها أبحث بينهم لعلى أجد مكاناً ، ولست أشك فى أننى عند ما أبلغ العالم الآخر ، بعد حين قصير ، سيأتينى إن شاء الله علم يقين ، عما إذا كنت قد التمست فى البحث سبيلاً قويمة أم لا ، وإن كنت قد أصبت التوفيق أم لم أصبه . أى سمياس وسيبيس ، لقد أجبت بهذا على أولئك الذين يؤاخذوننى بعدم الحزن أو الجزع لفراقكم وفراق سادتى فى هذا العالم ، فقد أصبت بعدم الخوف لأننى أعتقد أننى سأجد فى العالم الأسفل أصدقاء وسادة آخرين ، يعدلونكم خيراً ، ولكن الناس جميعاً لا يسيغون هذا ، وإنه ليسرنى أن تصادف كلماتى عندكم قبولاً أكثر مما صادفت عند قضاة الأثينيين

ـ أجاب سيبيس ـ انى موافقك ياسقراط على معظم ما تقول ، ولكن الناس أميل إلى عدم التصديق فيما يتصل بالروح . إنهم يخشون ألا يكون لها مستقرٌ إذا ما فصلت عن الجسد ، وإنها قد تذوى وتزول فى يوم الموت ذاته ـ فلا تكاد تتحلل من الجسد حتى تنطلق كالدخان أو الهواء ، ثم تتلاشى فى العدم . فلو قد تستطيع أن تتماسك أجزاؤها ، وأن تظل كما هى بعد أن تكون قد خلصت من شرور الجسد ، لرجونا ياسقراط ، محقين فيما نرجو ، أن ما تقوله حق ، ولكنا بحاجة الى كثير من الأقناع ووفير من

(١) يريد سقراط بهذا القول كله أن الفيلسوف يفهم الخير والشر خلافاً لما يفهمه منهما سائر الناس ، فعامة الناس لا يقفون مواقف الشجاعة إلا حينما يتهددهم خطر أعظم مما هم فيه ، فان أقدموا مثلا على الموت فلانهم يخشون العار أو الهزيمة أو ما اليهما مما يعتبر شراً من الموت ؛ كذلك من يزعمون فى أنفسهم العفة ، لا يمتنعون عن لذة إلا لأنهم يطمعون فى أكبر منها . أما الفيلسوف الحق فيحتقر هذه الموازنة بين اللذة والألم ، ولا يعترف بفضيلة إلا إن كانت ملازمة للحكمة ؛ وكل الفضائل بما فيها الحكمة نفسها إن هى فى نظر الفيلسوف إلا طهور للنفس من أدرانها ؛ وذلك ما عناه مؤلفو الأسرار حينما قالو : كثيرون هم من يحملون عصا السحر ولكن العالمين بالسحر قليل

الحجج ، لاثبات أنه إذا مات الانسان فروحه تظل مع ذلك موجودة ، وتكون على شيء من قوة الذكاء

– فقال سقراط – هـذا حق يا سيبيس ، فهل لى أن أقترح حديثاً قصيراً عما يحتمل لهذه الأشياء من وجوه ؟

– قال سيبيس – لست أشك فى أنى شديد الرغبة فى معرفة رأيك عنها

– فقال سقراط – لا أحسب أن لأحـد ممن سمعنى الآن ، حتى ولو كان أحد أعدائى القدماء من الشعراء الهازلين ، أن يتهمنى بالخبط فى الحديث عن موضوعات لا شأن لى فيها . فأذنوا إن شئتم بأن نمضى فى البحث

إن مشكلة أرواح الناس بعد الموت : أهى موجودة فى العالم الأسفل أم غير موجودة ، يمكن مناقشتها على هذا النحو : يُؤكّدُ المذهب القديم الذى كنت أتحدث عنه ، أنها تذهب من هذا العالم إلى العالم الآخر ، ثم تعود إلى هنا حيث تولد من الميت ، فان صح هذا وكان الحى يخرج من الميت ، للزم أن تكون أرواحنا فى العالم الآخر ، لأنها إن لم تكن ، فكيف يمكن لها أن تولد ثانياً ؟ إن هـذا القول حاسم ، لو كان ثمت شاهد حقيق على أن الحى لا يولد إلا من الميت ، أما اذا لم ينهض على هـــذا دليل ، فلا بد من سوق أدلة أخرى

فأجاب سيبيس – هذا جد صحيح

– إذن فدعنا نبحث هـذه المسألة ، لا بالنسبة إلى الانسان وحده ، بل بالنسبة إلى الحيوان عامة ، وإلى النبات ، وكل شئ يكون فيه التوالد ، وبذلك تسهل إقامة الدليل . أليست كل الأشياء التى لها أضداد تتولد من أضدادها ؟ أعنى الأشياء التى كالخيّر والشرير ، والعادل والجائر – وهناك من الأضداد الأخرى التى تتولد من أضدادها ، عدد ليس إلى حصره من سبيل ، وإنما أريد أن أبرهن على أن صحة هذا القول شاملة لما فى الكون من أضداد ، أعنى مثلاً أن أى شئ يكبر ، لا بد أنه قد كان أصغر قبل أن أصبح أكبر

– صحيح

– وأن أى شيء يصغر ، لا بد أنه قد كان يوماً أكبر ثم صار أصغر

– نعم

– وأن الأضعف يتولد من الأقوى والأسرع من الأبطأ

– جد صحيح

– والأسوأ من الأحسن ، والأعدل من الأظلم ؟

– بالطبع

– وهل هذا صحيح عن الأضداد كلها ؟ وهل نحن مقتنعون بأن جميع الأضداد ناشئة من أضداد ؟

– نعم

– ثم أليس ثمت كذلك فى هذا التضاد الشامل بين الأشياء جميعاً ، فعلان أوسطان ، لا ينفكان يسيران من ضد الى الضد الآخر جيئة وذهاباً ؛ فحيث يوجد أكبر وأصغر ، يوجد كذلك فعل متوسط بينهما ، يعمل للزيادة والنقصان ، ويقال للشيء الذى ينمو إنه يزيد ، وللشيء الذى يتناقص إنه يذوى

فقال – نعم

– وهناك غير ذلك عمليات كثيرة أخرى ، كالتجزئة والتكوين والتبريد والتسخين ، التى تتضمن تساوياً بين ما يخرج من شيء وما يضاف الى شيء آخر . أليس ذلك صحيحاً بالنسبة الى الاضداد كلها ، حتى ولو لم يعبر عنها باللفظ دائماً – فهى تتولد الواحد من الآخر ، وثمت انتقال ، أو فعل ، بين بعضها وبعض

– فأجاب – هذا جد صحيح

– جيل ، أفليس هناك ضد للحياة ، كما أن النوم ضد اليقظة ؟

– فقال – بل هذا حق

– وما هو ذاك ؟

– فأجاب – هو الموت

– فان كان هذان ضـدين ، فهما متولدان إذن أحدهما من الآخر ، وبينهما كذلك فعلان أوسطان ؟

– بالطبع

(يتبع)

زكى نجيب محمود

صور من التاريخ الإسلامي

الفردوسي

للأستاذ عبد الحميد العبادي

تتمة

بينت في مقالي السابق السبب الذي من أجله يكبر الفرس الفردوسي ويعدونه شاعرهم القومي فقلت إن الفردوسي بنظمه « كتاب الملوك » الذي يضم بين دفتيه تاريخ الفرس الأقدمين وأساطيرهم وآدابهم ، قد أمد القومية الفارسية واللغة الفارسية الحديثة ، بمدد قوي ، رسم للأولى حدوداً واضحة ، وشرع للثانية منهجاً ظلت تسيرفيه حتى يومنا هذا . والفردوسي بهذا الصنيع الجليل قد هيأ السبيل لظهور فارس الحديثة ذات الشخصية البارزة في تاريخ الشرق الحديث

ولكن ما السبب في أن شعوباً أخرى غير الفرس تحفل بالفردوسي وبجله ، ولم تتحاش أن تعلن ذلك بالاحتفال بذكراه الألفية ؟ وجواب هذا السؤال موضوع هذا المقال

***

يعد الفردوسي عند علماء الأدب ونقاده شاعراً قصصياً من شعراء الطبقة الأولى ، فهو في مرتبة هوميروس ودانتي وملتن . والشاعر القصصي العظيم هو الذي ينشىء ملحمة أي منظومة قصصية طويلة بليغة يعتبرها قومه غرة أدبهم . وحظ هـــذه المنظومة من الذيوع والانتشار يتوقف على نوع موضوعها . فاذا كان الشاعر قد اخترع الموضوع اختراعاً وتخيله تخيلاً ثم أفرغ عليه بعـد ذلك ثوب بلاغته وقوة تصويره فهي ملحمة محدودة الذيوع ، يقبل على قراءتها خاصة الأدباء والمثقفين وأساتذة الأدب في الجامعات . ومن هذا الصنف «المهزلة» لدانتي و« الجنة المفقودة » لملتن . أما إذا ألف الشاعر موضوعه من الحكايات الشائعة في قومه ، وأساطيرهم التي يعتقدونها ، وأغانيهم التي يتغنون فيها بذكر ما اختلف عليهم من الأحداث ، ثم عرض ذلك كله عرضاً شعرياً قوياً بليغاً ، وكان في ذلك فيلسوف النظرة يتناول العام من ثنايا الخاص فيصور العالم وهو يصور قطعة منه محدودة ، ويصف الطبيعة البشرية وهو يصف قبيله ومعشره ، ويتناول الزمن وهو يتناول برهة منه ، إذا فعل الشاعر ذلك فقد كتب لملحمته الذيوع والخلود . وسرعان ما يحل الحديث المونق المحكم محل القديم المبعثر المتفرق ، فتنسخ الملحمة الجديدة الحكايات القديمة ، وتأخذ مكانها من قلوب الأمة التي تصور فعالها ، وعلى مر الزمن تنفذ الملحمة من حدود المحلية والأقليمية وتشيع في أنحاء العالم المتمدين وتستحيل أثراً أدبياً عالياً . وأشهر ملاحم هذا النوع ، الألياذة والشاهنامة التي نحن بصدد الكلام عليها

والشاهنامة تسترعي اهتمام غير واحـد من خاصة المتأدبين ، فاللغوي يطالع فيها صفحة واضحة من تاريخ اللغة الفارسية الحديثة ، والاجتماعي يجد فيهـا عوناً على تصور المجتمع الفارسي القديم ، ومعرفة أخلاق القوم وعاداتهم ومواضعاتهم ، والمعني بالأساطير القديمة ينتفع بها انتفاعاً جماً في دراسة الميثولوجيا الايرانية والمقارنة ، ومؤرخ الأديان يستخلص منها صورة مجملة لعقائد الايرانيين القدماء ، والمؤرخ السياسي يرجع إليهـا في دراسة النظم الفارسية القديمة ويجد فيها صدى قوياً لعلاقة الفرس بمن جاورهم من الأمم وخاصة الهند والترك والعرب . والفنان الذي تستهويه بلاغة العبارة ودقة المعاني وقوة التصوير يرى في الشاهنامة مُثلاً عليا لكل ذلك . فالفردوسي يعرج في سماء البلاغة حتى يسامي النجم ، وهو في الوقت نفسه يخاطب الناس بمألوف حديثهم ومتعارف معانيهم ، ثم هو وصاف مبدع ، إذا تصدى لوصف واقعة حربية أراك ميدان القتال ، وجلا على عينك ما يجري فيـه من كرّ وفر ، وهجوم وتحيز ، وأراك السيوف تلمع ، والحراب تشرع ، وأسمعك تصايح الكماة ، وصهيل الخيل ، وأنين الجرحى ، وصور لك ظفر الغالب وهزيمة المغلوب . فاذا انتقل إلى وصف مجلس من مجالس الدعة والأنس مثـل لعينك أسباب السرور ودواعيه وأدواته ، ونقل إليك ما يشيع في المجلس من صفاء النفوس ، واختلاط القلوب ، فاذا أراد تصوير العاطفة البشرية أراك حنو الأم . وعطف الأب ، ووله العاشق ، ووفاء الزوجة وإخلاص الصديق . لقد أدرك الفردوسي قوام الفن وملاكه ، أدرك معنى الجميل ومعنى الجليل ، وعرف كيف يعبر عنهما

***

على أن الناحية الأخلاقية من الشاهنامة هى عندى أهم نواحيها وأبينها على التقدير العام بها . فالفردوسى لم يقصد إلى أن يكون مؤرخاً ، ولا إلى اظهار بلاغته بمقدار ما قصد إلى أن يكون كتابه كتاب أدب وحكمة وتهذيب ، نلحظ ذلك فى الجانب التعليمى من كتابه ، فالفردوسى لا يبرح واعظاً ومرشداً وهادياً ، سالكا حيناً طريق الحقيقة وحيناً طريق المجاز ، ونلحظ ذلك القصد أيضاً فى خلو الشاهنامة خلواً مطلقاً من الألفاظ والمعانى التى ينبو عنها الأدب والذوق السليم . . بهذه المزية يصح القول بأن « كتاب الملوك » كتاب يتأدب بمطالعته الناس فى كل زمان وكل مكان ، وإذا كانت « الألياذة » تنمى فينا عاطفة الحياء والغضب للحق ، وفضيلة الأيثار والانتصار للضعيف ، وإذا كانت « مهزلة » دانتى تعرفنا بطريقتها الرمزية أى أساليب الحياة يؤدى فى الآخرة إلى الثواب وأيها يؤدى إلى العقاب ، وإذا كانت « الجنة المفقودة » تقوى الروح الدينى فى نفس القارىء ، فان الشاهنامة ترمى إلى تهذيب النفس وتكميلها

وفلسفة الشاهنامة الأخلاقية تقوم على أربعة أمور عظام : الأيمان ، والواجب ، وطهارة القلب ، والزهد

والأيمان عند الفردوسى ليس ذلك الشعور الذى يخالط ضعفاء النفوس وخورة الطباع ، ولكنه إيمان الأبطال والملوك . فالفردوسى يتعمد أن يظهر أبطاله وملوكه عند استكمالهم أسباب العزة والجبروت فى مظهر النقص والافتقار إلى عون الله ومدده مبالغة منه فى توكيد ضرورة الايمان فى الحياة ، ورغبة منه فى كبح جماح النفوس الطاغية ، وكسر شرة القلوب العاتية . ولنمثل لذلك من الشاهنامة نفسها : فعند ما خرج الملك (كيخسرو) إلى قتال (أفراسياب) انتقاماً لمقتل ابنه (سياوخسر) جعل يدعو الله أن ينصره على عدوه . تقول الشاهنامة[1] « وبعد ذلك اغتسل الملك كيخسرو ودخل متعبداً لهم ، وجعل طول ليلته يتضرع إلى الله تعالى ويبتهل ويعفر خده بالتراب ويستنصره على أفراسياب ، ويستعين به عليه ، فقطع ليلته تلك بالسجود لله تعالى والدعاء ، فلما انتصر على خصمه وفر خصمه من وجهه وأعياه طلابه رجع إلى الله يستعينه ويستهديه » . تقول الشاهنامة « فاغتسل ذات ليلة وأخذ كتاب الزند وخلا بنفسه فى مكان خال ولم يزل طول ليلته ساجداً لله تعالى يبكى ويتضرع اليه سبحانه ويقول (إن هذا العبد الضعيف الموجع الجسم والروح طاف الدنيا ، فسلك رمالها وقفارها ، وقطع جبالها وبحارها ، طالباً لأفراسياب الذى أنت تعلم أنه سالك غير طريق السداد ، وسافك بغير الحق دماء العباد ، وأنت تعلم أنى لا أقدر عليه إلا بحولك وقوتك ، فمكنى منه . وإن كنت عنه راضياً ، وأنت تعلم ولا أعلم ، فاصرفنى عنه ، وأطفىء من قلبى ثائرة عداوته وقف بى على سواء الطريق والنهج القويم) وعند ما غمر الثلج أسفنديار وأصحابه فى طريق (هفنجوار) الوعر الشاق ووجد ذلك البطل المغوار نفسه أمام قوة لا قبل له بها لم يسعه إلا أن يسلم أمره إلى الله تعالى فتقول الشاهنامة « فبينا هم كذلك إذ أظلم الجو واشتدت الريح ، ونشأت سحابة أبرقت وأرعدت وأطبقت عليهم ثلاثة أيام بلياليها ، تهيل عليهم الثلج هيلاً ، حتى امتلأت الأودية ، فصاح اسفنديار . . . وقال : قد اشتد علينا الأمر وليس ينفعنا الآن رجولة ولا قوة . والرأى أن نلجأ إلى من لا ملجأ منه إلا اليه ، فانه الكاشف للضر والقادر عليه . فاجتمعوا ورفعوا أيديهم وتضرعوا إلى الله تعالى مبتهلين ، ودعوه دعوة الصادقين ، فسكت الهواء وانجلت السماء»

***

والأصل الثانى من أصول الفلسفة الأدبية « لكتاب الملوك » القيام بالواجب ؛ والشاهنامة تعنى بهذا الأصل الذى هو قوام الحياة اليومية أتم عناية . فأعظم ملوك الشاهنامة أقومهم بواجبه ، وواجب الملك فى رعيته العدل ، والحلم ، والسخاء ، وترك الاستبداد فاذا ما حاد الملك عن هذا السنن « جفت الألبان فى الضروع ، ولم يأرج المسك فى النوافج ، وشاع الزنا والربا فى الخلق ، وصارت القلوب قاسية كالحجر الصلد ، وعاثت الذئاب وضريت بالأنس ، وتخوف ذوو العقول من ذوى الغواية والجهل ، » وعهد كسرى أنو شروان لابنه هرمز حافل بتلك الآداب السلطانية التى تنص صراحة على ما يجب على الملك نحو نفسه ونحو رعيته

وبطولة أبطال الشاهنامة تستند إلى شعورهم القوى بالواجب . أنظر كيف لبى رستم طلب (جيو) إنقاذ ابنه (بيژن) وكان مقيداً مغلولاً فى مطمورة مظلمة بأرض طوران . وقوله له (لا تهتم

(١) انظر الترجمة العربية للشاهنامة

فانى لا أحط السرج عن الرخش حتى آخذ بيد بيثرن وأضعها فى يدك) وانظر خطاب جيو للملك كيخسرو (أيها الملك ! إن أمى ما ولدتنى إلا لطاعتك ، وتحمل المكاره فيما هو سبب راحتك . وهأنذا أشد وسطى فى امتثال أمرك ، ولا أسلك إلا سبيل خدمتك ولو أمطر الهواء على ناراً ، وتحولت الأشفار فى عينى شفاراً) وقول (اكشهم) لبيثرن وهو يجود بروحه (أيها الحبيب النافع لا تحمل على نفسك كل هذا ، فانه أشد على مما أنا فيه . واستر جراح رأسى بالترك ، واجتهد فى حملى الى حضرة الملك ، فان قصارى بغيتى ، وغاية أمنيتى ، أن أتزود منه بنظرة ، وأقر عينى بطلعته ولو لحظة ، واذا مت بعد ذلك مت وليس فى قلبى حسرة ، فانى لم أولد الا للموت ، ومن أدرك أمله فكأنه لم يمت ، وأيضاً تجتهد فلملك تستطيع أن تحمل هذين العدوين اللذين أهلكهما الله على يدى إلى المعسكر ، وان لم تقدر فاحمل رءوسهما وعدتهما حتى تعرضها على الملك ، ليعلم أنى ما هلكت فى غير شئ)

وروعة شخصية المرأة فى الشاهنامة تقوم على وفور حظها من الأنوثة والوفاء لزوجها ، يدل على ذلك نواح (تهمينة) على ابنها (سهراب) ووفاء (منيژة) لزوجها (بيثرن) فى محنته مع ان أباها كان المسلط على عذابه

وكما تفرض الشاهنامة القيام بالواجب من حيث هو فضيلة أساسية للحياة الفاضلة فانها تدل بالأمثلة المحسوسة والوقائع المادية كيف يؤدى الواجب . فينبغى أن نؤدى الواجب محلى بأحسن آداب السلوك من جد ورفق ، وسهولة خلق ، وضبط نفس ، ورقة شمائل ، ولا أدل على ذلك من الحوار الذى دار بين بطلى الشاهنامة (رستم) و (أسفنديار) عند ما لج بهما اللجاج وحمى الخصام ، فهو حوار ينم عن نبل خلق وسراوة نفس . وقد بلغ من دقة حس الفردوسى ورقة قلبه أن أوجب علينا الوفاء لمن أحسن الينا ولو كان حيواناً أعجم . أنظر بأى قلب وأية شمائل يخاطب رستم الغزالة التى كان طرده لها سبباً فى وقوعه على عين ماء روى منها بعد أن كاد يهلك عطشاً ، فهو يخاطبها بقوله : (لازلت يا غزالة الريف ، تفيئين الى الظل الوريف ، وتكرعين فى الزلال المعين ، وتتقلبين بين الورد والياسمين ، وأيما قوس راعك أنباضه ، فلا زالت متقطعة أوتاره ، فانك سددت رمقى وشفيت غلتى »

***

والأصل الثالث من أصول فلسفة الشاهنامة الأدبية طهارة القلب ؛ والفردوسى يحثنا فى غير موضع من كتابه على أن ننقى عن قلوبنا أدواء الحقد والحسد والضغينة . يقول رستم لاسفنديار :

« . . . . وطهر قلبك بفضيلة الرجولة من دنس الداء الدفين »

والفردوسى لا يكتفى بأن ينـدب قارئه الى تطهير قلبه ، بل لقد يتولى هو بنفسه ذلك مستخدماً فى ذلك طريقة العرض الدرامى التى نلحظها فى أكبر الملاحم والقصص . نلحظها فى آثار هوميروس ، وسفوكليس ، واسخيلوس ، وشكسبير ، وملتن ، ودستويفسكى . وذلك أن يعمد الشاعر الى حادث رائع بفظع ، فيعرضه عرضاً فنياً قوياً ، فيهز بذلك قلب القارىء ويمخضه ، فيكون ذلك منه بمنزلة الدواء المر يتجرعه المريض على مضض ، ولكنه تكون فيه سلامته من علته ؛ وقد بلغ الفردوسى بسلوك هذه الطريقة أسمى غايات الفن ، وأتى من رائع القصص مايشغف القلب حسنه ، ويسحر اللب بيانه . انظر كيف يعرض قصة قتل رستم ابنه سهراب على غير علم منه بأنه ابنه ! تقول الشاهنامة :

« ... ثم تناوشا الحرب ، وتطاعنا حتى انتثرت كعوب رماحهما ، فاستل كل واحد منهما سيفه ، وتضاربا ، وكأن النار تمطر من سيوفهما ، ولم يزالا حتى تكسرت سيوفهما ، فمدا أيديهما الى عموديهما ، ورفعاها ، وجعلا يتضاربان ويتقارعان حتى تمزقت الأدراع الموضونة على أكتافهما ، وتقطعت التجافيف على خيلهما ، فضعفا ، ووقفت دوابهما ، وبقيا من العرق غريقين ، ومن العطش محترقين ، فوقف الأب من جانب ، والابن من جانب آخر ، ينظر أحدهما الى الآخر . فيا عجبا ! كيف انسدت دونهما أبواب التعارف ، ولم تتحرك بينهما عروق التناسب ؟ والأبل من غلظ أكبادها ، تعطف على أولادها ، والطيور فى جو السماء ، والحيتان فى قعر الماء ، لاتنكر أولادها وأفراخها ! والانسان من فرط حرصه تخفى عليه فلذة كبده ويستنكر قرة عينه ولا ينزع الى ولده ! »

ثم يقول رستم : «لم أر قط قتالاً بهذه الصفة ، ولقد انقطع رجائى من رجولتى » فاذا ما استأنفا القتال ، قال سهراب لرستم وهو يجهل أنه أبوه : «إنى أرى أن نخلع الجوشن ، ونطرح

السيف ، ونكف عن القتال ، فان قلبي يميل كل الميل اليك ، وإن وجهي ليغمره الحياء منك » ولكن يخيب رجاؤه ، ويعود الأب وابنه الى المبارزة . فيتغلب الأب ويصرع ابنه ، ويجثم على صدره ، ثم يذبحه ذبحاً ، ثم يتبين له . وقد سبق السيف العزل ، أنه إنما ذبح ابنه ، فيشق جيبه ، ويضرب صدره ، وينتف شعره ، ويندب ولده ، ويحاول استنقاذه من براثن الموت فيعجزه ذلك ؛ ويموت سهراب ، فتتقد لوعة الحزن فى صدر رستم ، ويصيح من فرط العذاب : « من الذى أصيب بمثل ما به أصبت ؟ ومن الذى فجع بمثل ما به فجعت ؟ قتلت ولدى حين شاب رأسى وانقضى عمرى ! »

إن القارىء ليتابع مشاهد هذه القصة وقلبه يتوثب فى صدره فرقا وذعراً . فاذا بلغ الى الكارثة الأخيرة فقد لا يملك دمعه أسى وحزناً ، وهذا الذى قصد اليه الشـــاعر رغبة منه فى أن يمكن فيه لعاطفتى الحنو والرحمة

ولا يقف الفردوسى عند هـذا الحد من تطهير قلب قارئه ، بل يجتهد فى أن يروض من نفسه ويكبح من جماحها بأن يجلو لها تقلب هذه الدنيا ، وتصرف أحوالها بالناس تصرفاً قد يسوء ضعاف النفوس ، ولكنه لا ينال من ذوى النفوس القوية منالاً وهو على عادته يعمد الى أقوى شخصياته فيجعلها مناط فلسفته رامياً بذلك الى أن نأخذ الدنيا كما هى فنفرح بها إذا أقبلت فى غير اغترار بها ؛ ولا نأسى عليها إذا هى أدبرت . وإن فلسفته من هذه الناحية لترجح فلسفة الرواقيين الذين يريدوننا على أن نتجرد من العاطفة جملة ، فلا نفرح ولا نحزن ، ولا نغضب ولا نعتب . انظر كيف يصف الشاعر مصير الملك أفراسياب عندما قلب الزمان له ظهر المجن ، وتجهم له وجه القـدر ، فآل أمره الى أن وقع أسيراً فى يد رجل عابد فشد وثاقه واضطره الى أن يخاطبه بقوله « أيها العابد ! ما تريد من رجل اختفى فى مغارة ضيقة» فلما عنفه العـابد على ما احتقب من أوزار قال « بهذا جرت على أقلام قضاء الله فى الأزل ، ومن المعصوم فى هذه الدنيا الغـدارة من الزلل ؟ » وإن مصير الملك دارا واغتيال عبديه له تقرباً بدمه الى الاسكندر ليجرى مجرى حديث أفراسـياب من حيث الدلالة على تقلب الدنيا ، وهى تريناالفردوسى جبرياً يرى أن الانسان لا يملك لنفسه مع القدر نفعاً ولا ضراً

* * *

وإذا كان ذلك دأب الدنيا ، فخليق بالعاقل أن يرفضها ويزهد فيها . والزهد فى الدنيا هو الأصل الرابع من أصول فلسفة الشاهنامة الأخلاقية ، والفردوسى لا يألو جهداً فى صرف قلوبنا عن أن تفتن بالدنيا ولكن فى غير اخلال بالواجب الذى يفرضه علينا وجودنا فيها . انظر إلى تصويره الحال المعنوية للملك كيخسرو عندما انقبضت نفسه ، وأزمع التخلى عن الملك ، والذهاب فى الأرض ، فقد عهد إلى ابنه ، وودع أكابر الدولة « ثم سار . . . . وصحبه رءوس الأيرانيين . . . . إلى أن صعد إلى جبل ، فأقاموا عليه أسبوعاً ، وخرج فى أثره نساء الأيرانيين ورجالها زهاء مائة ألف نفس ، يبكون ويضجون حتى طن بصياحهم وعويلهم السهل والجبل . ثم بعد أسبوع أشار الملك على الأكابر والسادات بالانصراف من ذلك المكان وقال : إن أمامنا طريقاً صعباً لا ماء فيه ولا عشب ، فانصرف دستان ، ورستم وجوذرد ، ولم ينصرف عنه الباقون ، فسار الملك ، وساروا معه حتى وصلوا إلى ماء ، فنزلوا هناك ، وقال لهم الملك : اذا طلعت الشمس غداً حان وقت المفارقة ، فباتوا ليلتهم عند العين . ولما كان الثلث الأخير من الليل ، قام الملك ودخل العين ، واغتسل ثم ودعهم وقال : « إن الثلج غداً يسد عليكم الطريق فلا تهتدون إلى الرجوع إلى إيران ، ولما طلعت الشمس ركب الملك ، وغاب عن أعينهم »

وحديث الاسكندر الملك الشاب الفاتح الطموح مع أهـل مدينة البراهمة المنقطعين عن الدنيا ، والراضين منها بأيسر أمرها يرى إلى أى حد يذهب الفردوسى فى تقرير فلسفته القائمة على العزوف عن الدنيا وعدم الركون إليها .

* * *

وبعد ، فأرجو أن أكون قد بينت للقارىء السبب فى تقدير غير الفرس للفردوسى وللشاهنامة ، وأختم هذا البحث بأن أنبه على أن مظهر هـذا التقدير قديم ، فقد ترجم الفتح بن على البندارى الشاهنامة إلى العربية الفصحى فى أوائل القرن السابع الهجرى [١] ، وأن الشاهنامة قد نقلت إلى أشهر اللغات الأوربية الحديثة ، وأن بعض هذه التراجم فى غاية الدقة والعناية والأتقان ؟

عبد الحميد العبادى

(١) وقد نشر زميلى الدكتور عزام هذه الترجمة نشراً علمياً متقناً

١٠ – بين القاهرة وطوس

طهران الى قم واصبهان

للدكتور عبد الوهاب عزام

أوى الركب الى الفندق متعباً ، وجمعتُ التعب والمرض ، وكان وزير المعارف والعلامة بديع الزمان قد كلمانى والأستاذ العبادى فى إلقاء محاضرة فى مدرسة سبهسلار بعد الاياب من مشهد ، فعدنا الى طهران وإذا رقاع الدعوة قد أرسلت ، وإذا الجرائد تخبر بأنى سألقى محاضرة فى مدرسة سبهسلار والساعة ست من يوم الخميس . فأصبحت فى شغل من هذا الأمر أجهد للوفاء بالوعد ، فاذا جسم عليل وصوت مبحوح ، فكلمت الأستاذ بديع الزمان معتذراً ، فجاء الى الفندق هو ورئيس المدرسة وطلبا من الأستاذ العبادى أن يقول كلمة ، فوعدهما ، ووعدتهما أن أكون طوع أمرهما إن رزقت العافية ، وإلا أرسلت كلمة تقرأ على الحاضرين[1] فلما دنا الموعد أجاب الأستاذ العبادى الدعوة ، وأرسلت كلمتى مع السيد صالح الشهرستانى مكاتب البلاغ فى طهران ، فقرأها على الجمع ، وكان موضوعها موقف المسلمين من مدنية أوربا ، وما يلزمهم من الاستمساك بسنتهم ، وأخذ الحذر أن يفتتنوا فيقلدوا فيضلوا . وتكلم الأستاذ العبادى فى العلائق التاريخية بين مصر وإيران ، وقد قرأت فى الجرائد الايرانية بعد العودة الى مصر وصف الاحتفال وترجمة الكلمتين ، وخطبة الأستاذ بديع الزمان فى مكانة اللغة العربية بين الفرس . وقد نشرت جريدة البلاغ الخطب الثلاث ، كما نشرت بياناً وافياً عن حفلات الفردوسى كلها

وكان فى خطة وفود الفردوسى الذهاب الى أطلال مدينة الرى وهى على مقربة من طهران ، فتخلفت مكرها أسفاً ، ويوم الجمعة جُلنا فى المدينة ، فاشترينا من الكتب والاسطوانات (والايرانيون يسمونها الصفحات . وهى تسمية أقرب الى الحقيقة واللغة) وزرنا المفوضية المصرية مودعين ثم خرجنا الى دار على أصغر خان المعروف فى طهران باسم المصرى ، وهو أخو حسن بك اليزدى التاجر الكبير بالقاهرة ، وكان يحتفل بختان أنجاله ، فجلسنا فى جماعة من الفضلاء ، واستمعنا للمرة الثانية الى غناء المطربة ملوك خانم ، واقترحت أن تسمعنا الأغنية المطربة : «مرغ سحر ناله سر كن» لنودع طهران على هذه النغمات الحزينة ، ثم تحدثت المغنية ، فاذا هى تعرف أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وتدلى برأيها بينهما ، فقلنا هذا كلام ملوك . قالت نعم . وكلام الملوك ملوك الكلام . فانظر كيف يعنى الايرانيون نساء ورجالاً باللغة العربية عناية آبائهم من قبل . ثم استأذنا فى القيام لنأخذ أهبتنا للسفر الباكر صباح الغد

برحنا طهران والساعة عشر من صباح السبت حادى عشر رجب (٢٠ اكتوبر) أنا والأستاذ العبادى فى سيارة مفردة ، وهو أول سفر لنا فى إيران منفصلين عن وفود الفردوسى ؛ سافر جماعة من طريق الشمال ، وآخرون أخذوا طريق بغداد أدراجهم ، وجماعة آثروا المقام فى طهران يوماً أو يومين ، وكانت نيتنا اصبهان ، وبينها وبين طهران تسع ساعات بالسيارة ، وقد تقدمنا بمدة يسيرة الشاعر الانكليزى درينك ووتر

وقفنا بعد أربعين دقيقة على قرية ، فرُئيت جوازات السفر ، وكذلك طُلبت الجوازات فى كل مدينة مررنا بها ، حين ندخلها وحين نخرج منها حتى رجعنا إلى همذان على طريقنا الأولى من بغداد إلى طهران . وذلك أن هذه الطريق كانت طريق الوفود فى ذهابهم وإيابهم فيُسر لهم السير وأعفوا من مراسم السفر فى إيران

وبعد الظهر بقليل نزلنا فى محطة على الطريق اسمها منظرية فدخلنا بستاناً فيه أشجار رمان فأكلنا واسترحنا ساعة ، ثم سرنا حتى بلغنا مدينة قمّ والساعة اثنتان وثلث . فدخلنا ونحن نذكر قصة الصاحب بن عباد وقاضى قم . كتب إليه الصاحب

أيها القاضى بقم قد عزلناك فقم

فكان القاضى يقول إذا سئل عن سبب عزله : أنا معزول

(١) لما بلغت بالكتابة هذا الموضوع دق التليفون ، فقلت من ؟ قال : السندباد — والسندباد اسم سميت به السائح المسلم الهمام محمود بشير الغربى الذى صحبنا فى أسفارنا بإيران ، وتخلف عنا فى طهران — فقلت : أهلا وسهلا بالسندباد البرى ؟ فقال : والبحرى والهوائى . وأحسب السندباد سيطوف العالم قبل أن أنتهى من كتابة رحلتى بين القاهرة وطوس

السجع من غير جُرم ولا سبب

قم مدينة فى العراق العجمى على الجادة بين طهران واصبهان وعلى ١٢٠ كيلاً إلى الجنوب الغربى من طهران . يشقها نهر يأتى من جُرباذَقان قرب همذان . وفاكهتها كثيرة منها الرمان والتين والبطيخ والفستق

قال ياقوت : « وهى مدينة مستحدثة إسلامية لا أثر للأعاجم بها ، وأول من مصرها طلحة بن الأحوص الأشعرى » وذلك فى عهد الحجاج بن يوسف . والظاهر أنها قديمة كانت قبل الاسلام ، ثم عمرت فى الاسلام ومصرت

وقد قال دعبل بن على فيها .

تلاشى أهل قم واضمحلوا تحل المخزيات بحيث حلّوا
وكانوا شيدوا فى الفقر مجداً فلما جاءت الأموال ملّوا

ظلت بقمّ مطيتى يعتادها همان : غربتها وبعد المدلجَ
مابين علج قدتعرب فانتمى أو بين آخر معرب مستعلج

وأهلها عرفوا بالتشدد فى التشيع قبل أن يعم التشيع إيران ؛ وقد روى ياقوت فى ذلك حكاية ظريفة قال :

«ومن ظريف مايحكى أنه ولّى عليهم وال ، وكان سنيا متشدداً ، فبلغه عنهم أنهم لبغضهم الصحابة الكرام لايوجد فيهم من اسمه أبو بكر قط ولا عمر . فجمعهم يوماً وقال لرؤسائهم : بلغنى أنكم تبغضون صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنكم لبغضكم إياهم لاتسمون أولادكم بأسمائهم . وأنا أقسم بالله العظيم لئن لم تجيئونى برجل منكم اسمه أبو بكر أو عمر ، ويثبت عندى أنه اسمه لأفعلن بكم ولأصنعنّ . فاستمهلوه ثلاثة أيام ، وفتشوا مدينتهم واجتهدوا فلم يروا إلارجلاً صعلوكاً حافياًعارياً أحول ، أقبح خلق الله منظرا ، اسمه أبوبكر لأن أباه كان غريباً استوطنها فسماه بذلك ، فجاءوا به فشتمهم وقال : جئتمونى بأقبح خلق الله تتنادرون علىّ وأمر بصفعهم : فقال له بعض ظرفائهم : أيها الأمير اصنع ماشئت فان هواء قمّ لا يجئ منه مَن اسمه أبو بكر أحسن صورة من هذا . فغلبه الضحك وعفا عنهم . »

وقمّ تلى المشهد الرضوى بين مزارات الشيعة فى إيران ، بها حرم السيدة فاطمة بنت موسى الكاظم وأخت على الرضا ، ولذلك دفن فيها كثير من العلماء والصالحين والملوك . وقد روى الشيعة فيها عن جعفر الصادق : ألا إن لله حرماً وهو مكة . ألا إن لرسول الله حرماً وهو المدينة . ألا إن لأمير المؤمنين حرماً وهو الكوفة ، ألا إن حرمى وحرم ولدى من بعدى قم . ألا إن قم الكوفة الصغيرة . ألا إن للجنة ثمانية أبواب ثلاثة منها إلى قم « تقضى فيها امرأة هى من ولدى واسمها فاطمة بنت موسى . ويدخل بشفاعتها شيعتى الجنة بأجمعهم . » اهـ

لما اقتربنا من المدينة رأينا قبة المعصومة أخت الرضا تبصّ فى الهواء فى حلتها الذهبية . ولما دخلنا المدينة وقفنا على مخفر الشرطة فرأوا جوازات السفر . وقال سائق السيارة لشرطى ، هذان من المستشرقين يريدان زيارة الحرم فصحبهما . فسار الشرطى أمامنا فى رحبة تملؤها أنقاض دور مهدّمة ، وبصرنا بنهر صغير مريع الجرية . قال الشرطى : طغا الماء على المدينة منذ أشهر فخرب مئات من دورها . ثم عبرنا الماء على خشبات ممدودة عليه فرأينا ماء ضحضاحاً يخوض فيه الناس والدواب . وسرنا فى شارع به دكاكين وفنادق صغيرة ، فانتهينا إلى باب المسجد . رأينا صحناً رحباً ينتهى إلى بناء عال مقبّب . ولقينا شيخ فتقدمنا فدخلنا إلى مرقد السيدة فاطمة ، وهو ضريح كبير عليه سياج من الفضة كثير الحلى . فوقف الشيخ يدعو بالعربية دعاء طويلاً ذكر فيه الأئمة العلويين . ثم ملنا ذات اليسار إلى حجرة بها قبر كبير مربع لاسياج له ولا زينة ، قال هذا قبر الشاه عباس ، ثم ولجنا باباً إلى حجرة أخرى بها قبران أحدهما للشاه حسين آخر الصفويين ، والآخر للشاه طهماسب ، فيما أذكر ، فهؤلاء ثلاثة من الملوك الصفويين دفنوا فى جوار المعصومة . ثم خرجنا إلى الصحن فرأينا حجرات فيها قبور لملوك القاجاريين وبنيهم . رأينا فيها قبر محمد قاجار وفتحعلى شاه وعليهما صفيحتان من المرمر الشفاف عليهما صور ملائكة ذات أجنحة ، وعلى قبر فتحعلى صورته منحوتة فى المرمر . وقد رأينا من قبل فى النجف الأشرف فى مسجد الامام على قبرا آخر للقاجاريين على هذه الشاكلة . ولست أعرف فى القبور الاسلامية قبوراً عليها صور غير هذه القبور . وسرنا الى يسار الداخل إلى الصحن فاذا باب يفضى الى صحن آخر فسيح : وهذا المسجد معهد للدراسة الدينية يقيم به الطلاب

قال الشرطى وهو يحدثنا : فى قم أربعة وأربعون وأربعمائة وأربعة آلاف من بنى الأئمة الطاهرين قتلهم الظالمون

ركبنا السيارة والساعة ثلاث وعشر نسير صوب الجنوب نؤم أصبهان

وفى المقال الآتى حديث اصفهان الرائعة الجميلة

(يتبع) عبد الوهاب عزام

استدراك :

١ — نسيت أن أذكر فى حديثى عن مدينة المشهد أنى زرت فيها قبر الشيخ الكبير بهاء الدين العاملى الهمدانى أحد أعلام المسلمين فى القرن الحادى عشر وصاحب المؤلفات الكثيرة فى التفسير والحديث والعلوم العربية والفلك والحساب . دخل مصر وألف بها كتاب الكشكول وقال فيها :

يا مصر سقيالك من جنة ... قطوفها يانعــــة دانيه

ترابها كالتبر فى لطفه ... وماؤها كالفضة الصافيه الخ

توفى بأصفهان سنة إحدى وثلاثين وألف ، ونقل إلى المشهد فدفن بها فى داره . وقبره اليوم فى حجرة فى السوق قريبة من أحد أبواب مسجد الامام الرضا

٢ — كان طبيب قافلتنا فى الذهاب من طهران إلى المشهد والاياب ، الطبيب الحاذق نجم آبادى ، وقد عنى بى وبغيرى ممن توعكوا فى السفر . فكان حقاً علىّ أن أذكره بالثناء ، وقد جاء إلىّ ونحن بنيسابور عند قبر الخيام فقال اكتب لى فى دفترى تذكاراً . فكتبت :

قد عرانى على الطريق سقام ... ولنعم الطبيب نجم آبادى

قد نعمنا بخلقــــه ودواه ... وشكرنا له جميل الأيادى

عزام

صورة شتوية

الى بائعة شوك ...

للأستاذ أنور شاؤل

أَلْبَرْدُ يَلْذَعُ وَجْنَتَيْكِ وَسَاعِدَيْكِ الْعَارِيَيْنْ
وَالْحَقْلُ أَقْفَرُ لاَ رَفِيقَ يُزِيلُ عَنْكِ الْغُمَّتَيْنْ
إلاَّ الطُّيُورَ مُرَفْرِفَاتٍ حُوَّماً فى الْجَانِبَيْنْ
لَوْ تَسْتَطِيعُ بِمِنْقَرٍ دَفَعَتْ أَذَاكِ وَبِمِخْلَبَيْنْ
وَحَمَتْ حِمَاكِ بِمُقْلَتَيْنْ

الزَّمْهَرِيرُ هُوَ الْأَلِيفُ يَهُبُّ لاَ رِيحُ الصَّبَا
وَخَزَاتُهُ فَوْقَ السُّهُولِ وَفَوْقَ هَامَاتِ الرُّبَى
تَنْسَابُ فى بُرْدِ الضُّحَى أَفْعًى وَتَلْسَعُ عَقْرَبَا
رِفْقاً بِحُسْنِكِ يَا صَبِيَّةُ وَاحْذَرى أَنْ يَنْضَبَا
رِفْقاً مُخَضَّبَةَ الْيَدَيْنْ

إِنْ كَانَ ظَهْرُكِ خَاضِعاً لِعَنَاءِ مَا حَمَّلْتِهِ
أَوْ كَانَ عُنْقُكِ طَائِعاً رَهْناً بِمَا كَبَّلْتِهِ
فَالْقَلْبُ أَنَّى يَسْتَرِيحُ لِمَا بِهِ عَلَّلْتِهِ
وَالْفِكْرُ عَنْ آمَالِهِ وَرُؤَاهُ أَنَّى يَلْتَهِى
يَا مَنْ تُطِيلُ النَّظْرَتَيْنْ ؟

أَلشُّوكُ يُدْمِى رَاحَتَيْكِ فَلاَ يَرِقُّ وَلاَ يَلِينْ
وَغَداً يَزُفُّ النَّارَ تَحْمِى فى اللَّيَالِى الْآخَرِينْ
هُمْ يَدْفَؤُونَ وَأَنْتِ مِنْ قُرِّ الشِّتَا تَتَضَوَّرِينْ
تَشْقَيْنَ أَنْتِ لِكَىْ تَزِيدِى فى رَفَاهِ الْمُسْعَدِينْ
فَتَقَرُّ مِنْ بَلْوَاكِ عَيْنْ

قَطْرُ النَّدَى هَذَا عَلَى الْأَشْوَاكِ أَمْ دَمْعُ الْمُقَلْ
نَارُ الْأَسَى هَذِى الَّتى تُخْفِينَ أَمْ نُورُ الْأَمَلْ
إِنِّى أَرَاكِ إِلَى الْمَدِينَةِ تَقْصِدِينَ عَلَى عَجَلْ
فَحَذَارِ تَخْدَعُكِ الْبَهَارِجُ فى مَقَالٍ أَوْ عَمَلْ
أَوْ تُؤْمِنِينَ بِمَا تَرَيْنْ

بغداد

أنور شاؤل
المحامى

إلى الريف . . .

للأستاذ محمد يوسف المحجوب

إلى الريف سِرْ بى يا قطارُ فإن لى   فؤاداً للقيا الريف لهفانَ صاديا
إلى الريف طِرْ بى، فالليالى بغيضة   بمصر إلى مَنْ بات حيرانَ شاكيا

* * *

إلى موطنى الغالى، ومَهْد طفولتى   ومَبْعث آمالى، ومأوى رجائيا
إلى مَشْرعٍ، أرْوَى فؤادى نميرُه   وأُسقيت من رقراقه الماء صافيا
إلى مَرتعٍ، فيه صحابى ومَعْشرى   وأهلى وجيرانى، ومجلى شبابيا
إلى «قريتى» حيث المروج شذية   تفيض جمالاً باهرَ النور باهيًا
بربك عجِّل، كى أُعيدَ نضارتى   لديها، وأقضى العيدَ جذلانَ لاهِيا

* * *

هنالك نُعمى الله فَيضٌ، فلا ترى   فقيراً تشكّى البؤسَ أو بات طاويا
ولا الشمسَ فيها بالضياءِ ضَنينةً   ولا الماءَ مَقطوعاً، ولا النُّورَ خابيا
ولا الدفءَ ممنوعاً، ولا البردَ قاتلاً،   ولا الأفقَ مَحدوداً، ولا الطرفَ نابِياً
هنالك الثرى المحبوبُ يُذكو عبيرُه   كأن الثرى المحبوبَ مَسَّ الغواليا
حقول زهاها الحُسْنُ طُرًّا فأسفرتْ   تتيهُ به وَهْداً، وتزهَى روابيا
تَضم بِساطاً سندسيًا، وجَنَّةً،   ومطبوعَ حُسْنٍ فاتِنَ اللُّب سابِيًا

* * *

أيا «قريتى» هذا وفائى أصوغه   لديك ثناء خالد القول باقيا
إذا امتدح الناسُ المدائن وارتضَوْا   حضارتَها، واستعذبوها مغانيا
فها أنذا أُعْلى مكانك فى القُرى   وأدْرَأُ بالأشعار عنك العواديا
وأُفصح عن حُسْنِ بواديك كامِنٍ   ليُبْصر قومى منه ما كان خافياً
حياتكِ أقصى ما تمنَّاهُ مُترَفٌ   بمصر إذا ما راح عن مصر ضاحيا[1]
هدوء، وإشراق، وزرع، وجَدْول   وأُنْسٌ إذا أمسى بك الذئب عاويا!
أليسَتْ ذئابُ الوَحْش خيرًا مغبَّةً   من الذئبِ إنساناً لئيماً مُرائيًا؟

* * *

أيا «قريتى» كم أشتهى أن أعيش فى   ظلالِك دَهْرى هادئَ البال راضيا!
ويا رُفقتى فيها، إذا شطّتِ النوى   وأصبحتمُ تَستبْعِدُون التلاقيا
فها أنذا أدنو بقلبى وخاطرى   وها هى ذى روحى تؤدِّى الجوازيا
وإن أرتحلْ عنكم إلى دار غربتى   فما زالَ قلبى حافظ العهد راعيًا

محمد يوسف المحجوب
مدرس بالأوقاف الملكية

(١) المراد: ساكن ضواحى القاهرة

فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

٦ — تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

للأســـتاذ خليل هنداوى

لهنرى هاين صفحة قيمة يقارن فيها بين مذاهب هؤلاء الثلاثة[1]، ويذكر مالهم من تأثير فى الحركة الفكرية، وكأنه يجد أن الرسالات التى بشروا بها لم تكن تنطق إلا عن رسالة واحدة هى رسالة الكمال والمثل الأعلى. يقول:

(« لا نجد — عند كانت — إلا كتاباً مسطوراً. أما عند — فيخت — فنحن نتجرد من الكتاب ونرى أنفسنا ازاء رجل جبار قد اتحدت ارادته وفكرته حتى صارتا قطعة واحدة، كنت أقارن بين نابوليون وفيخت، وهما متفقان مزاجاً، وظهورهما فى قومهما متشابه من جميع الوجوه، كلاهما يمثل سلطته « الذاتية » حيث لا نرى الفكرة إلا مقرونة بالعمل. ولكن هذه المبالغة فى الارادة والاعتماد على الذات جعلت عملهما سريع الانهيار، فمذهب — فيخت — العلمى يشبه امبراطورية ذلك العظيم، تلك الامبراطورية التى لم تكد تظهر حتى تصدى لها الزوال فأصبحت كأن لم تَغنَ بالأمس. ولكن ثورة « نابوليون » لا تزال تسرى فى عروق أوروبا، وهكذا كان شأن فلسفة «فيخت» فان مذهبه قد انهار. ولكن النفوس والأفكار لا تزال — من بعده — مضطربة حائرة

جاء « مذهبه فى المثل الأعلى » خطيئة كبيرة فى مجموع فلسفته. ترى فى كل جزء من أجزائها استقلالاً سائداً وارادة واسعة وحرية بعيدة، وتحس بشىء يسيطر على عقول الفتيان. ومذهب « فيخت » فى « الذاتية » كان يلائم خلقه الحديدى، ومثل هذا المذهب القوى لا يلائم غير صاحب هذا الخلق الجبار.

ولا ننسى نصيب « شيلنج » فقد كان علماً من أعلام الفلسفة الألمانية. نظر إلى الطبيعة نظرة سلم وأحب أن يعلن الهدنة بينها وبين النفس، وأراد أن يجمع بينهما، فأحيا الفلسفة القديمة التى جاء بها اليونان الأقدمون قبل سقراط. ولكنه استسلم كثيراً لسلطان الخيال، ولم يخاطب العقل كثيراً فتضعضعت فلسفته

(١) كانت وفيخت وشيلنج: من كتابه « ألمانيا »

تحت مطرقة العقل ، فجاء « هيجل » وتبوأ مقعد الفلسفة ، فاعتزل « شيلنج » ونزل فى « مونيخ » وهناك رأيته يعيش هائماً كالشبح ، بعينين غشيتهما صفرة ، ووجه ذليل كأنه صورة شقية لمدينة خربة مهجورة »)

هيجل Hegel

١٧٧٠ — ١٨٣١

حياته

ولد « هيجل » فى « استتجار » وأكب فى بدء نشأته على اللاهوت كزميليه من قبـل ، فقضى خمسة أعوام فى جامعة «توبنج » حيث تعرف فيها الى «شيلنج» ونشأت بينهما صداقة متينة . . . وبينا هو يركب مراكب الحيرة من دنياه مات أخوه ؛ فأحيا ماورثه منه فى نفسه شيئاً من الأمل الذى كاد ينطفىء بعد امحاض . فعاد الى « اينا » حيث التقى للمرة الثانية « بشيلنج » وأخرج معـــه المجلة الفلسفية . ولم يكن هيجل حتى ذلك الحين ليطمع فى أكثر مما بلغ أو يمد عنقه الى أكثر مما نال ، ولـكن عبقرية هيجل أخذت تميط اللثام عن وجهها وتدرج بدون استحياء ، وظهرت براعته وحرية تفكيره فى المقالات التى حبرها للذود عن آراء زميليه ، وكأن الحظ أراد أن يواتيه مرة أخرى ، فترك « شيلنج » منبر الجامعة ، فاتسع المجال لهيجل لأبداء قوته وإظهار مقدرته ؛ فعجل ذلك فى تعيينه أسـتاذاً . وفى عام ١٨٠٦ حين كان المدفع يلعلع فى (اينا) أنجز الفيلسوف كتابه La phénoménologie de l'esprit الذى يحتوى على جميع نظراته الفلسفية . وازاء هـذه الضربات التى نزلت ببلاده ، وقف وقفة التأمل ونظر اليها والى عللها نظر الفيلسوف . وقد كتب الى أحد أصدقائه هذه الرسالة . . (قد سر نفسى ماعلمته عنك بأنك عازم على قضاء الشتاء مستسلماً الى العزلة والفلسفة ، وقد تحب الفلسفة العزلة الهادئة ؛ ولـكنها مع ذلك لاتحتاج الى أن تكره المجتمع أو أن تفر من أعمال الناس . . وأنت ، أنت معير انتباهك لتاريخ اليوم ، وفى الحق لن تجد أبلغ منه ولا أوعى ، هو يريك أن الحضارة لابد غالبة على البربرية ، وأن العقل الذى يفـكر سوف يقهر الفطنة المسكينة التى لاتفـكر ،

العلم هو حصننا المنيع . . يعلمنا ألا نبقى فنحنى أفواهنا كالمتثائبين أمام الحوادث ، لانجعلها وليدة مصادفة غريبة أو ابنة براعة رجل واحد ، ولا أن نقيد حظ نصر مملكة بربوة كان يجب عليها امتلاكها ، أو بأخرى أهملت نسياناً ، ولا أن نرسل الأنين حزناً وراء انتصارات قضى عليها جور الحظ . إن ثورة فرنسا الدامية قد أنقذت الشعب الفرنسى من أوضاع شوهت النفس الانسانية وخنقت أرواح الشعوب كما خنقت روح هـذا الشعب ، كل فرنسى ألف أن يتمثل مصرعه أمامه ، وهذه الأوضاع والتقاليد التى يحمل عليها الناس حملاً قد لقيت مصرعها فى فرنسا ، وهذا ما يكتب روح العظمة لهذا الشعب . . . .)

وليس التحليل النفسى موضوع هذا الـكتاب ، وإنمـا هو يصف مراحل النفس فى أصل نشأتها وحياتها حتى اليوم الذى يتيقظ فيها كل شعورها ووعيها ، إذ تشعر بذاتها أنها قادرة على تحقيق « العلم المطلق » Sience absolue وبهـذا يمكننا أن ندعوه درس أطوار النفس البشرية ، وهذا الدرس يعمل بواسطة نظرياته المنطقية على إنماء الحركة البشرية وعلى إعداد حركة العلم المطلق الذى تبدو بوادره

وأخيراً بعـد محاولات وتجارب أخفقت فى ميدان الحياة أهاب به الحظ فدعى إلى « برلين » الى المنبر الذى كان يشغله « فيخت » فلبث فيـه حتى نزل به الوباء الذى اجتاحه فيمن اجتاح عام ١٨٣١ . وهو خلال تدريسه قد قام بأسفار ورحلات صغيرة تدل عليها رسائله الخاصة إلى امرأته اللطيفة ذات الروح الرقيقة التى كانت تعبد زوجها وتعجب به وتحترق ، ولـكنها لا تفهمه . زار المناطق المنخفضة ، ونزل فى « ڤينا » وهبط « باريس » ضيفاً على الفيلسوف الفرنسى « ڤيكتور كوزان » وقد كان منزله فى برلين محط النازلين من فلاسفة ولاهوتيين وأدباء على اختلاف نحلهم ومللهم ، ورجال الدولة الذين يهرعون إلى سماع حكمه ودرره ، وكتب فى هذه الفترة كتابه « المنطق » و « معلمة فلسفية » وبعض المحاضرات التى كان يؤثر بها طلابه فى الجامعة

أسلوبه

على أن أسلوب هيجل قد جاء مثلاً قاسياً فى التعقيد والابهام

اللذين اتصف بهما ، فهو صعب صعب لا يقدر على إدراك أحاجيه ومراميه إلا النبيه المفكر ، وهو — برغم هذا كان أعظم مفكر ألماني يجهر بآرائه ، وينزل بها صريحة إلى قرائه ؛ تتلمسه فتجده مظلماً ، وتستوضحه فتراه مبهما ، أما هيجل الأديب فانك ملاقيه واضحاً فى تضاعيف رسالاته ، أما هيجل الفيلسوف فهو ذو أسلوب وحشى ، تسنح له فكرة فيزجيها إلى الناس كما يريد بأسلوبه . ولقد تلمح فى ثنايا سطوره كلمة أو عبارة لا معة فتعجب من هذا وتود لو يدوم ! وهو أشد استرسالاً — من كانت — إلى المبهمات ، لأن — كانت — تكاد تكون عباراته محدودة فى مواطن معدودة ، أما أسلوب هيجل فهو يخالفه — أنى أشرفت عليه — وأشرف عليك ، هذا الابهام وهذا التعقيد ...

فلسفة

إن المتعمق فى فلسفة « هيجل » يجد أن جوهرها لا يخلو من أجزاء مقتبسة من « شيلنج » و « سبينوزا » ، وهيجل هو القائل عن « سبينواز » (لا ينقص هذا الرجل إلا أن يعتبر الجوهر الالـهى روحاً طاهراً « esprit pur » وأن يوحد هذا الروح مع الروح الانسانى بدلاً من أن يرى أن الروح الانسانى هو عنصر جاء على شكل الجوهر الالـهى ولكنه مجرد من الحرية والشخصية) ونظر « هيجل » إلى الواحد المطلق الذى افترضه « شيلنج » فراعه هذا الواحد الذى امتزج فيه ضدان لا يجتمعان بوساطة قانون بارد ! . فمر « هيجل » بمادة سبينوزا والواحد المطلق ؛ وأناب مناب هاتين المادتين « الفكر » « L, idée » الماضى فى حركته التفكيرية ... وقد تبدو هذه الحركة فى ظاهرها حركة اسمية ، ولكنها — فى الحقيقة — حركة جديدة تعمل على بناء الكون بناء جديداً . ولم يكن السكون المطلق « repos » عاملاً من عوامل هذه الحياة ، ولكن هى الفعالية ، قانون الحياة الأسمى . وهكذا يحل التبدل المستمر محل الثبات المستقر

وحركة الفكر تتمشى على نمط واحد ، وكل خطوة يخطوها الفكر إلى الأمام تتألف من ثلاث حالات متتالية . كل ما هو موجود يكتنفه حد من ذاته ؛ والوجود يحتوى على العدم . وجواز الوجود إلى العدم والعدم إلى الوجود إنما هو التحول . فالوجود والعدم والتحول إنما هى قانون الأشياء بدون استثناء ، فلا يحدث شئ ولا يترقى إلا تبعاً لهذه الأطوار . وقد شبهوا مذهب « هيجل » بكنيسة مشيدة على الطراز القوطى ، يرى الناظر فى كل جزء منها رسم البناء مصغراً ؛ يريدون أن الفروع المشتقة من فلسفته صور مصغرة عن الأصول

ها هو ذا الفكر الماضى فى حركته التفكيرية يظهر خطره ويبدو أثره فى الكون من مهد الحياة الناقصة الى عهد الحياة الكاملة ، الى عصر الانسان ، وهو خلال ذلك يمر بأدوار الكمال ، وفى كل دور يتبدل شأنه ويقوى سلطانه وينفسح مداه . كل طور يصعد اليه هو أسمى من الطور الذى تخطاه ، ولكن السمو كل السمو لا يتجلى إلا فى الفكر المبدع . وكل خلق — جماداً كان أو ذا روح — مخلوق لذاته ، لا يتزحزح عما هو عليه ، ولا يجوز من طوره الى طور غيره . وفى بعض مواطن ترى « هيجل » يرذل مذهب القائلين بالاستحالة . وكل كائن — عنده — يمثل صورة متفاوتة الكمال ملائمة لفكرة الكائن . أو قل « هدفاً » يرقى اليه فى سيره نحو الهيئة الانسانية ، حيث يتم له لأول مرة أن يكمل ويتم . والطبيعة عنده ليست بصورة كاملة ، ان هى إلا [مسودة] فى كتاب الخليقة ، لأن هيجل لا يرى فيها إلا مجموعة متناقضات لا تتوافق ولا تلتئم ، تدل على عجز ظاهر وعلى اضطراب فى المنطق . وقد أعطانا صورة جديدة عن الكون كما يود أن يكون . فهو فى نظراته الفلكية مثلاً لا يبحث كثيراً فى هذا الفضاء اللامتناهى . وإنما هو يرى الأرض — نظرياً — قلب الوجود ، ويرى النجوم العالقة بالسماء كالبثور الطافحة على جلد الانسان

(يتبع) خليل هنداوى

القصص

إبليس يعشق

للأديب حسين شوقى

كان إبليس يقيم فى مصيف « دوفيل » ، ولم تمض أيام معدودة على قدومه إليها حتى كان من أثر وجوده بها عدة حوادث انتحار ، وقعت بين رواد قاعتى « الروليت » « والبكارا » . . ولكن هبطت عليه ذات يوم برقية من مجلس الشياطين الأعلى المنعقد فى « بروكن » (١) تدعوه الى الذهاب من فوره إلى قرية س . . فى جبال الألب ليقضى هناك على أسرة صغيرة تعيش فى سرور وهناء لا حدّ لهما ، لأن الشياطين كما تعلم لا يطيقون رؤية بنى البشر سعداء . . بلغ إبليس القرية ، ولم يكد يصل اليها حتى قصد الدار التى تسكنها هذه الأسرة الصغيرة السعيدة لينتهى من أمرها فى سرعة ، ثم يعود على عجل إلى مصيفه فى « دوفيل » حيث كان يتلذذ من إلحاق الأذى بلاعبى الورق . .

كانت هـذه الأسرة السعيدة مؤلفة من ثلاثة : الزوج ، وهو شاب جميـل فى الخامسة والعشرين ، والزوجة ، وهى فتاة جميلة أيضاً فى سن العشرين ، والولد ، وهو طفل لطيف فى الأشهر الأولى من عمره . .

وكانت هذه الأسرة تسكن منزلاً صغيراً جميلاً شيد على رابية تشرف عليها جبال الألب الشاهقة وكأنها أسوار رفعتها يد العناية لحماية القرى المجاورة وسكانها الهادئين، من حوادث الطبيعة العظيمة . .

ذهب إبليس يزور الأسرة السعيدة فى زى بائع أمتهم متجول ، كى يتعرف موضع عمله ، فلم يجد الزوج إذ كان فى عمله بالحقل ، ولكنه وجد الزوجة فى الحديقة تدلل طفلها ، وقد ضمته إلى صدرها . حقاً ! إن السعادة كانت بادية بأجلى مظاهرها على وجه الزوجة الذى يفيض شباباً وجمالاً . . عرض إبليس أسهمه على الزوجة ، ولكنها اعتذرت فى لطف عن عدم الشراء ، ثم قدمت اليه قدحاً من النبيذ ليرفه به عن نفسه من عناء المسير ، فشربه إبليس ثم شكر الزوجة وانصرف وهو حانق على مجلس الشياطين الأعلى الذى أزعجه فى مصيفه « بدوفيل » لأمر تافه مثل هذا ، لأن القضاء على سعادة هذه الأسرة بسيط جداً ، فقد يكفى إعطاء الطفل جرعة من جراثيم الدفتريا ، ليقضى عليه فوراً ، فتصبح الأسرة فى يأس ونكد

كم واجه ابليس حوادث أدقّ فى « دوفيل » ! إنه ما يزال يذكر مع الغبطة حادث البارونة س . . التى وسوس اليها أن تبيع حليّها لتعطى ثمنهـا إلى عشيقها كى يخسر هـذه النقود على المائدة الخضراء أولاً فأولاً ، ولما نفدت الحلىّ وهدّد العشيق البارونة بالهجر ، لجأت إلى تزوير إمضاء زوجها على شـيك ، ولكن اكتشف التزوير فاضطرت البارونة أن تنتحر اتقاء للفضيحة والعار

فى مساء يوم زيارته لمنزل تلك الأسرة ، اقتنص ابليس بضعة جراثيم دفتريا فوضعها فى قنينة ثم حفظها فى جيبه . . ثم ذهب ابليس فى اليوم التالى يزور الزوجة ، وقد تزيا فى هذه المرة بزىّ بائع حرائر ، ولكن لم يكد يقترب من المنزل حتى سمع صوتاً جميلاً ينبعث من الحديقة لم يسمع أعذب منه منذ خروجه من الفردوس ، فوقف يصغى اليه . . ثم تقدم خطوات . . فشاهد الزوجة الجميلة مكبة على طفلها وهو راقد فى مهده تناغيه . تأثر أبليس بجمال هـذا المنظر تأثراً شـديداً ، فألقى القنينة بعيداً وانسحب كى لا يعكر صفاء هذه الأم الجميلة . .

أحسّ ابليس فى طريق عودته الى الفندق بسعادة عميقة

---

(١) بروكن ، جبل من الجرانيت فى الهارتز (ألمانيا) تزعم الأساطير أن الأبالسة والسحرة يجتمعون فيه

تغمر نفسه ، فخبأ وجهه بين يديه حتى لا يراه شيطان آخر على هذه الحالة ، فيحاول أن يقضى على سعادته :

يا للعجب ! إن ابليس عاشق ! إنها حقاً نهاية النهايات !

أخذ ابليس طول الليل يفكر فى حاله ، لايدرى ما يفعل . .

فكر أولاً فى قتل الزوج ليتقدم بعد ذلك الى المحبوبة فى صورة شاب جميل مرىّ ، ولكن تراءى له عند ئذ وجه المحبوبة سابحاً فى الدموع على فقدها زوجها ، فأقصى عنه تلك الصورة القاسية المنطوية على الحقد والأنانية ، لأن ابليس لم يعد شريراً وقد طهر الحب قلبه . .

وللمرة الأولى ، أحس ابليس أنه بائس ، أشد بؤساً من متسولى الهند . .

وللمرة الأولى أيضاً ، بكى ابليس ، وكانت دموعه هذه المرة دموعاً بشرية بيضاء على غير العادة ، إذ كانت عيونه قبل ذلك تفرز سائلاً أسود مثل نفسه السوداء . .

ولما لم يجد ابليس وسيلة للاستيلاء على المحبوبة دون تكدير صفوها ، قرر أن ينتحر . . .

غادر ابليس الفندق وسط الظلام ؛ ثم ذهب فتسلق أعلى قمة فى الجبل وقفز منها الى السماء ، فاحترق جسمه من شدة السرعة التى انطلق بها فى الجو . . .

وهكذا قضى ابليس نحبه حاملاً معه أول وآخر حب له !

ولكن هذا لم يمنع المراصد الفلكية أن تذكر فى تقريرها ، فى اليوم التالى ، أن شهاباً هوى بجهة قرية س. . فى جبال الألب ، وهو شهاب يجهله عالم الفلك للآن فأحدث سقوطه نوراً ساطعاً

كرمة ابن هانئ **حسين شوقى**

من أقاصيص الجاهلية

٢ – حرب البسوس

بقلم اليوزباشى أحمد الطاهر

« عود على بدء »

قتل كليب فعمت الملأ فتنة عمياء ، وهبت عليهم عاصفة هوجاء ، ونزغ الشيطان بين العشيرتين

هنا قلوب تقطر حزناً ، وحزناً يدفع إلى اليأس وإلى الموت ، وهنا نفوس تتواثب إلى الانتقام ، وتستعذب فى سبيله الحمام . وهناك قلوب تجب من هول ماأقدمت عليه ، وتستشعر الندم لقتل كليب ، تهمس به فى غسق الليل ، وتخفيه نهاراً ، ضنا بالكرامة وأنفة واستكباراً ، وهناك فتية يتحرقون للقتال ، ولكن لا يثقون بنصرة الرجال ، ويخشون أن يتخاذل النصراء عند نزول الخطب ويستخذى الرجال عند اشتداد الكرب ، وبين هؤلاء وهؤلاء كهول وشيوخ يسيرون فى الليلة الظلماء على قبس الحكمة ونور الأناة ، ويتابعون السير فى مدلهم الحوادث ، يبتغون مخرجاً من الكوارث . فقعدوا عن الحرب فى صمت ووجوم ، ولم يعينوا ظالماً على مظلوم ، ومن هاماتهم الفند الزمانى ، والحرث بن عباد فارس النعامة

ولكن طغت على القوم ثورة الغضب . وانساقوا إلى الحرب ورداً يؤزهم الشيطان أزّا

ولم يطب لبنى شيبان المقام بأرض لقوا فيها مذلة ، ولهم فيها ذلة ، فارتحلوا ونزلوا « عماء النُّهى » ولحقت جليلة بأبيها مرة ابن ذهل . وعلى رأس بنى شيبان الحرث بن مرة أخو جساس وعلى رأس بنى تغلب المهلهل بن ربيعة أخو كليب واستحر القتال بينهم بماء النهى ودارت الدائرة على بنى شيبان ، وكانت الغلبة لتغلب ؛

ولما أصبح القوم على مدرجة من سيل الحوادث ، قال قائل منهم :

« هلموا إلى الكهنة نستلهمهم الصواب ، علهم يكشفون الكرب أو يحجبون البلاء » وقال آخر : « ما للكهنة وهذه الكروب ؟ إنما يلوون ألسنتهم بالقول كأنما نزل عليهم من السماء ،

فان تدبرت فى قولهم لم تفهم منه شيئاً محدوداً ، ولا رأياً مقصوداً ، وإن فهمت فقد تفهم من القول معنيين لا تدرى أيهما تأخـذ وأيهما تدع . »

واستقروا على أن يستشيروا الـكهنة . فان عجزوا عن هديهم اعتصموا بعجزهم عن لوم [illegible] . وبعثوا إلى الـكهنة رسولاً منهم

وعاد الرسول يتلو عليهم قول الـكهنة « يا للمحنة ويا للشقاء ! ريح نكباء ، وكرب وبلاء ، وحرب ضروس ، وسيوف تطيح بالرءوس ، والقوم أحرص على الموت من حرص الموت على النفوس . قتل كليب ولا بد ممـا كان ، والرأى عند الفوارس لا عند الـكهان »

– « أفهمتم من قولهم شيئاً يا قوم ؟ »

– « انهم يأمرون بالقتال ! »

– « انهم لا يأمرون بالقتال ! »

ومضى القوم فى صخب ولجب ، وقاموا إلى المهلهل بن ربيعة أخى كليب يعجمون عوده ، ويغمزون قناته . فاذا هو فى فريق من أهله منهم عتاب بن سعد بن زهير ، وكعب بن زهير . والقوم بين ثائر يدعو إلى القتال وينفخ فى ناره ، وعاقل يجنح إلى السلام ويدعو إلى داره ، وفيهم من دسه بنو بكر ، ليتنسم الأخبار ، ويكشف عن النوايا الستار

وقام المهلهل على شرف واتـكأ على رمحه وقال :

كليب لا خير فى الدنيا ومن فيها ... إن أنت خليتها فيمن يخليها
كليب أى فتى عز ومكرمة ... تحت السفاسف إذ يعلوك سافيها
نعى النعاة كليباً لى فقلت لهم ... مالت بنا الأرض أو زالت رواسيها
الحزم والعزم كانا من صنيعته ... ما كل آلائه يا قوم أحصيها
القائد الخيل تردى فى أعنتها ... زهواً إذا الخيل لجت فى تعاديها
من خيل تغلب ما تلقى أسنتها ... إلا وقد خضبوها من أعاديها
نروى الرماح بأيدينا فنوردها ... بيضاً ونصـدرها حمراً أعاليها
ليت السماء على من تحتها وقعت ... وانشقت الأرض فانجابت بمن فيها

وكأن المهلهل لم يغب عنه أن فى الجمع الذى انتظم عنده أفراداً من بكر يتجسسون ، فقذفهم بقوله :

لا أصلح الله منا من يصالحكم ... ما لاحت الشمس فى أعلى مجاريها

فالقموا حجراً وقاموا إلى أهلهم يتميزون . وبقى التغلبيون ، فقال لهم المهلهل : « ياقوم ! أما الحرب فانه لا يقف فى سبيلى إليها خوف أو جزع . ولا يتكاءدنى فى طريقى إليها خور أو فزع . والقوم قد لجوا فى عتو ونفور . وسأخسف بهم الأرض فاذا هى تمور . فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً . قال كبيرهم « إن المهلهل لا ينثنى . والرأى عندى أن نبعث نفراً منا إلى بكر يعرضون عليهم الفداء مشتطين فيه حتى لا يكون لبكر قبل بأدائه ، ولا يجدوا سبيلاً إلى وفائه ، فان عجزوا — وسيعجزون — كان لنا فى حربهم سبب ومعذرة . » وابتلوا من بينهم ثلاثة بالسفارة إلى مرة بن ذهل ابن شيبان وهو أبو الحرث وأبو همام وأبو جساس وأبو جليلة . قالوا له : « إنكم أتيتم عظيماً بقتلـكم كليباً بناب من الأبل ، فقطعتم الرحم ، وانتهكتم الحرمة ، وإنا كرهنا العجلة عليكم دون الاعذار اليكم ، ونحن نعرض خلالاً أربعاً لـكم فيها مخرج ولنا مقنع »

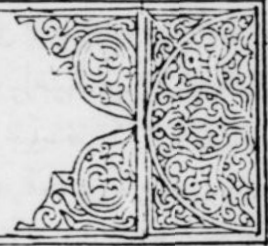
فقال مرة « وما هى ؟ » قالوا : « تحيى لنا كليباً ! أو تدفع الينا جساساً قاتله فنقتله . أو هماما أخاه فانه كفء له ، أو تمكنا من نفسك فان فيك وفاء من دمه » قال : « أما إحيائى كليباً فهذا مالا يكون ، وأما جساس فانه غلام طمن طعنة على عجل ثم ركب فرسه فلا أدرى أى البلاد احتوى عليه ، وأما همام فانه لن يسلمه إلى أبناؤه العشرة ، ولا أخوته العشرة ، ولا أبناء أخوته العشرة ، أولئك جميعاً لا يدفعون به الىّ ولا اليكم ، وهم فرسان قومهم لتقتلوه بجريرة غيره ، وأما أنا فهل هو إلا أن تجول الخيل جولة غداً فأكون أول قتيل بينها ، فما أتعجل من الموت ولـكن لـكم عندى خصلتان : أما إحداها فهؤلاء بنى الباقون فعلقوا فى عنق أيهم شئتم نِسْعَةً فانطلقوا به الى رحالـكم فاذبحوه ذبح الجزور ، وإلا فألف ناقة سوداء المقل أقيم لـكم بها كفيلا من بنى وائل »

قالوا : « لا ! » على أفواههم وأصروا واستكبروا استكباراً

* * *

وا رحمتاه لهذا الشيخ المنكود مرة بن ذهل ، هذه ابنته جليلة قد قتل زوجها فعادت اليه مكلومة الفؤاد مهيضة الجناح ، وهذا ابنه جساس قد قتل زوج أخته وفر لا يعلم له مستقر ، وهذا ابنه الحرث بن مرة فر من الموت فى وقعة النهى فأدركه الموت فى وقعة الذنائب إثر طعنة من كعب بن زهير ، وهذا ابنه همام طلب للموت يوم عرض الفدية فضن به أبوه ، وطلبه الموت يوم « واردات » فما استطاع أبوه للموت رداً

وعزيز على القوم أن يموت همام أبو العشرة وأخو العشرة



البريد الأدبي



وعم العشرة . ولقد أصاب موته الوتر الأرن من قلب المهلهل ، والمهلهل قد علمت غليظ القلب مصدور ، شديد البأس موتور ، وقف عند همام وهو طريح تسيل دماؤه على الأرض وتصعد روحه الى السماء تشكو الى بارئها ظلم الانسان للانسان وقال :

« والله ما قتل بعد كليب قتيل أعز على فقداً منك »

وتحدث القوم عن موت همام ، وعن نكبة أبي همام وقد ابيضت عيناه من الحزن ، وقال الملأ : « أما لهذه الويلات من آخر ؟ هذا المهلهل يقطر قلبه حزناً لقتل همام ولكنه يمضي في بغيه واستئساده كأنما رءوس بكر زرع قد وكل بحصاده »

***

ولم تكن الحرب سجالاً بين الفريقين حتى اليوم ، بل كانت الغلبة لتغلب ، أما غداً فسيكون لها شأن آخر ؟

أخرجها : **أحمد الطاهر**

ضوء جديد على حياة موپاسان

منذ بضعة أعوام احتفل في فرنسا بتخليد ذكرى الكاتب القصصي الأشهر جي دي موپاسان ، وأقيم له نصب تذكاري في بلده مسقط رأسه ميرومنزنل ؛ ونوه وزير المعارف في خطابه الذي ألقاه يومئذ بما لقيه موپاسان أثناء حياته وبعد وفاته من النكران ، وبما يجب لفنه وتراثه الرائع على الجيل الفتي من تقدير وعرفان ، واليوم تصدر طبعة جديدة مصورة لتراث موپاسان كله يشترك في تصويرها بول فولكي وشاس لابورد وبونفليس من أعظم مصوري فرنسا . وقد صدرت منها الأجزاء الثلاثة الأولى بعناية الكاتب رينه دومزنل مترجم موپاسان مصورة بدراسة جديدة ضافية للنواحي البارزة في حياة القصصي الأكبر وفنه ، وفيها يهدم دومزنل نظرية قديمة عن الأثر الذي تركه مرض موپاسان العقلي في أعوامه الأخيرة في بعض قصصه ، ولاسيما قصة «لاهورل» التي قيل عنها دائماً إنها تمثل مرحلة الاضطراب العقلي لموپاسان ؛ فيقول لنا دومزنل إن المرض شيء والقصة شيء آخر ، وإن موضوعها قد أعطى لموپاسان من صديقه ليون هنك ، وإن ماقيل بعد ذلك من أنها كتبت بقلم مجنون أو مخبول العقل إنما هو افتراء محض ، ويستدل دومزنل بذلك على مارواه الكاتب الانكليزي فرنك هاريس في كتابه « حياتي وحوادث غرامي » وقد كان صديقاً حميماً لموپاسان منذ سنة ١٨٨٠ ، ويتفق هاريس مع بعض أولئك الذين لقوا موپاسان في أن مظهره لم يكن يدل على عبقرية أو مواهب ممتازة ، وأنه كان في مجالسه الأدبية متحفظاً ، ولما كتب « لا هورل » أرسل إلى فرنك هاريس يقول : « سيقول معظم النقدة إنني قد جننت ، ولكن إياك أن تخدع بأقوالهم ، فانني متمتع بكامل صحتي وعقلي » فرد عليه هاريس في محادثة جرت بينهما بأن الروع الذي أثارته هذه القصة في نفسه (أي موپاسان) لا بد أن يكون قد أثر في أعصابه ، فأكد له موپاسان أنه مخطئ . ولكن هاريس يقص إلى جانب ذلك أن موپاسان كان مفرطاً في مطارداته الغرامية ، وأنه كان دائماً أبداً صريع الغانيات لا يكاد يفارقهن . والواقع أن موپاسان كان عملاقاً جباراً يفرط في كل شيء في العمل وفي اللهو ؛ وما يكتبه عنه هاريس في كتابه يكشف عن حقائق وسوآت كثيرة في حياته وخلاله الشخصية لم يتناولها مترجموه وأصدقاؤه الذين كتبوا عنه

وقد أثار ظهور هذه الطبعة الجديدة لتراث القصصي الأشهر اهتماماً عظيماً في دوائر الأدب والفن

ملك النور

سبق أن ذكرنا أن بعثة علمية سافرت الى الهند لتبحث عن أصل النور (الغجر) ، لما هو ذائع من أن أصل النور يرجع الى بعض القبائل والأجناس الهندية التي تعيش على ضفاف نهر الكنج ، ولما هو مقرر من أن معظم اللهجات التي يتكلمها النور

تحتوى على كثير من الألفاظ الهندية . ونضيف هنا أن ملك النور — لأن للنور ملكا غير متوج — قرر أخيراً أن يسير الى ضفاف الكنج فى موكبه الملوكى ليقف على المباحث التى ستجرى عن أصول النور وأحوالهم . وهذا الملك أو الزعيم هو نورى رومانى يدعى ميشيل كفيك ، ومقره على مقربة من مدينة شرنوفتز . وقد نظم ميشيل كفيك موكبه الملوكى فى ظاهر شرنوفتز ، ونصب خيمته المحلاة بالذهب ، وأخرج جميع عرباته وخيوله ، وحوله أقطاب النور يرفلون فى ثيابهم المزركشة ، ويعتبر ميشيل كفيك ملكا على جميع النور فى العالم ، وعددهم يبلغ زهاء أربعة عشر مليوناً ، وقد انتخب للعرش هذا العام فى مؤتمر عقد فى بعض غابات بولونيا ؛ وهو ينوى أن يسير بركبه الى ضفاف الكنج ، وينشىء هناك « دولة نورية » ، ومن الطريف أن نعرف أنه توجد بالفعل مجلة نورية فى روسيا لها صفة رسمية وتسمى « بيروبدجان » ، وأن لها علائق رسمية بحكومة السوفيت . وقد حادث مكاتب جريدة الجورنال فى بوخارست ملك النور ، وسأله فى شىء من التهكم عما إذا كان يزمع بعد تأسيس دولته الجديدة أن تلتحق المملكة النورية بعصبة الأمم ، فأجابه أنه سيعنى منذ البداية بتحقيق هذه الغاية

كتاب عن كليو باطرة

أصدرت الكاتبة الفرنسية المعروفة « مريام هارى » كتاباً عن « كليوباطرة » ملكة مصر التى عاصرت عصر هيرود الأكبر وعصر المسيح . ومن المعروف أن مريام هارى كتبت من قبل عدة فصول تقول فيها إن جثة ملكة مصر الحسناء توجد فى الواقع فى فرنسا ، وإنها دفنت فى باريس ، فى ناحية من متحف اللوفر ؛ ذلك أنها أخذت ضمن ما أخذ الفرنسيون من الموميات والآثار المصرية ، ووضعت هنالك فى ناووس ، واستمرت كذلك نحو ستين أو سبعين عاماً ؛ ثم تغيرت رائحة الموميا ودب إليها العطب ، فقررت إدارة المتحف أن تدفنها فى ناحية من المتحف ونفذ هذا القرار بالفعل ، ولكن مكان دفنها الحقيقى لم يعين ولم يعرف بعد . على أن رواية مريام هارى تفتقر إلى كثير من عناصر الاثبات ، ولو أنها أثارت وقت اذاعتها كثيراً من الاهتمام . وتحاول مريام هارى فى كتابها الجديد أن تعرض حياة كليو باترة الملكة المستبدة ، والمرأة الحسناء الرائعة ، التى ما زالت قصص غرامها ، ولياليها الغرامية الخيالية ونزهاتها الشهيرة فى النيل ، مستقى لكثير من الفنانين والكتاب المحدثين

احتجاج غريب للناشرين الفرنسيين

ذكرنا فى فرصة سابقة أن لجنة خاصة ألفت تحت إشراف وزارة المعارف الفرنسية للعمل على إصدار الطبعة الثانية من دائرة المعارف الفرنسية التى صدرت منذ نحو نصف قرن وأضحت قديمة ناقصة . والمعروف أن هذه الطبعة الجديدة التى سيبدأ صدورها منذ هذا العام (سنة ١٩٣٥) ستعرض للبيع بثمن معتدل يفى بتكاليف اخراجها فقط . وقد كان فى ذلك ما يدعو للمديح والرضى ولكنه كان بالعكس مثار الاحتجاج والنقد . ذلك أن مسيو ارستيد كيه رئيس نقابة الناشرين ومديرى الصحف والمجلات قد رفع إلى رئيس الوزارة الفرنسية مذكرة يحتج فيها باسم نقابته على ما قررته الحكومة من بيع دائرة المعارف للجمهور بثمن استثنائى باعتبار أنها مشروع علمى لم يثقل بنفقات أو ضرائب إضافية ؛ ويقول مسيو كيه فى مذكرته إن مثل هذا المشروع يعرض الناشرين الفرنسيين إلى منافسة غير عادية ؛ ويطلب إلى رئيس الوزارة أن تصدر دائرة المعارف طبقاً للعرف العام وأن

المحكمون

فى المسابقة الأدبية

نشرنا فى العدد ٧٩ من الرسالة قصيدة من النسق العالى فى الشعر الفرنسى للآنسة النابغة (مىّ) ومعها ترجمتها بقلمها ، وقد قدمتها إلى شعرائنا مقترحة أن ينقلوها نظماً إلى العربية فى موعد لا يتجاوز آخر شهر فبراير سنة ١٩٣٥ ، وقد تفضلت فتبرعت للمجيد الأول بجائزة مالية قدرها جنيهان مصريان . وسيكون الفصل بين الشعراء للجنة مؤلفة من الدكتور طه حسين ، والأستاذ مصطفى عبد الرازق ، والدكتور احمد زكى وكيل كلية العلوم ، وصاحب هذه المجلة

تباع طبقاً للظروف التجارية العامة ، حتى لا يسيء ظهورها بهذه الصفة إلى مصالح الناشرين الفرنسيين

وفاة فنان شهير

توفي أخيراً لوسيان فوجير الفنان والمغني الشهير في عمه الثامن والثمانين . وقد لبث فوجير مدى نصف قرن في طليعة أساتذة الغناء في فرنسا ، وبدأ حياته في مسرح « باتافلان » منذ سنة ١٨٧٠ ، ثم تنقل في عدة مسارح حتى انتهى الى « الأوبرا كوميك » وذاعت شهرته عندئذ ، وبرز بفنه وابتكاره ؛ ووضع أناشيد وأغاني كثيرة كانت تلقى نجاحاً عظيماً . ومن غريب أمره أنه ظل حافظاً لقواه الفنية ، ومواهبه الغنائية حتى آخر سني حياته ؛ وكان في العام الماضي فقط ما يزال يجذب الجماهير حينما يغني

ذكرى علامة طبيعي

يتأهب أصدقاء الكاتب الطبيعي لوي ديبري للاحتفال هذا العام (العام سنة ١٩٣٥) بمرور خمسين سنة على وفاته ، وستقام بهذه المناسبة لوحة تذكارية في قريته « روفر » . وقد توفي ديبري في عنفوان شبابه ، في الثانية والعشرين ، وفي ظروف مؤثرة ، إذ توفي في سجنه حيث كان يقضي شهرا حكم به عليه من أجل كتابه الذي ألفه مع هنري فيفر وعنوانه « حول برج الأجراس » . وقد كان لهذه القضية يومئذ ضجة كبيرة واحتج عليها أقطاب العصر مثل راول وچونكور ودوديه وكليمنصو وغيرهم

عنكبوت عجيب

بينما كان بعض العمال ينقبون في أحد البيوت القديمة في بلدة شومنيان هفان بالقرب من شنغهاي في الصين ، رأوا عنكبوتاً غريباً في شكله ، عجيباً في تركيب جسمه ، له وجه يشبه وجه الأنسان ، رأسه عريض كبير ، ووجهه يميل الى البياض ، وله فوق عينيه حاجبان أسودان وأنف أسود وشفة بيضاء

وقد أرسل هذا العنكبوت الغريب الى معهد تعليم الشعب في شنغهاي لعرضه على العلماء ليقولوا رأيهم فيه

من روائع الشرق والغرب

مغرب الشمس فى البحر

لأمير النثر الفرنسى « شاتو بريان »

من كتابه (عبقرية المسيحية)

بقلم أحمد حسن الزيات

كانت السفينة التى كنا نعبر بها المحيط إلى أمريكا فوق سوِيّة الأرض اليَبَس ؛ فلم يعد أمامنا مَدُّ الفضاء ، غير طبقين من زرقة البحر وزرقة السماء ! فكأنما كان نسيجاً أعده مصور فنان ليتلقى عليه آية إلهامه وإبداع فنه . وكان لون الماء قد ارتد إلى لون الزجاج المذوَّب ؛ وقد سرت فى الموج رِعدة قوية جاءته من ناحية المغرب ، مع أن الريح كانت تهب حينئذ من جهة الشرق ، ثم ثارت من الشمال إلى الجنوب أمواج عالية ، كانت تفتح فى ثنايا أوديتها فُرَجاً طويلة يقع النظر منها على صحارى المحيط .

كانت هذه المناظر المنتقلة تختلف وجوهها فى كل لحظة : فتارة تكون سلاسل من الرُّبى المخضرّة كأنها أخاديد الأجداث فى مقبرة واسعة ، وتارة تكون أرسالاً من الموج تتراغى أعاليه فتحكى قطعاناً من الغنم البيض قد انتشرت فى حقول الخَلَنْج ؛ وغالباً ما ينطبق الفضاء فلا ينطبق عليه تشبيه ، فاذا ارتفعت موجة على متن المحيط ، وانخفضت لجة فصارت كالساحل البعيد ، ومر رَعيل من كلاب البحر فى خط الأفق ، انفتح الفضاء أمامنا فجأة . إنما كنا نتصور اتساع المدى وانفساح الطرف إذا ما تسحّب على وجه البحر ضباب خفيف ، فكأنما كان يزيد فى سعة الأفق ، ويدفع فى امتداد الجو !

آه ! لشدّ ما كانت صور الأقيانوس فى تلك الساعة مظهر عظمة ومثار حزن ! ولله تلك الأحلام التى يلقيك فيها ويغمرك بها ! سواء بايغال الخيال فى بحار الشمال بين الصقيع والزوابع ، أو بارسائه فى بحار الجنوب على جزر الرخاء والغبطة ؟

كان غالباً ما يحدث أن نهب من النوم بعد وهن من الليل فنجلس على ظهر السفينة حيث لا نجد إلا ضابط النوبة وبعض البحارة يدخنون غلايينهم فى سكون وصمت ، وكان كل ما يقع فى الأذن إذ ذاك إنما هو صوت السفينة تشق بحيزومها عباب المحيط ، على حين كان شرار من النار يجرى مع الزبد الأبيض على جانبى المركب . سبحانك اللهم ! ! لقــد نقشت فى كل شىء آى قدرتك ، ولا سيما فى أطباق اللجج وأعماق السموات : ملايين من النجوم تشع فى القبة الزرقاء ، وبدر تِم يتألق فى كبد السماء ، وبحر لُجِّىّ من غير ساحل ولا حد ، ولا نهايةٌ فى السماء وعلى الماء ! أبداً ما هزت قلبى عظمتك بمثل ما هزته فى هــذه الليالى ، وأنا معلق بين الكواكب والأقيانوس ، فوق رأسى سعة لا تحد ، وتحت قدمى سعة لا تقاس

* * *

أنا لست شيئاً ، إنما أنا ناسك ساذج . ولطالما سمعت العلماء يجادلون فى (الكائن الأول) فلم أفهم عنهم . ولكننى لاحظت أن هذا الكائن المجهول يستعلن وجوده فى قلب الانسان كلما نظر فى المشاهد العظمى للطبيعة

ففى ذات ليلة ساجية الجو هفافة الريح ، وجدنا أنفسنا فى تلك البحار الجميــلة التى تنضح شواطئ (فرجينيا) ، وكانت الشُرُع كلها مطوية ؛ وكنت أنا مشغولاً داخل السفينة حين سمعت الناقوس يدعو البحارة إلى الصلاة ، فأسرعت مع رفقاء السفر أمزج دعواتى بدعواتهم ، وأضم صلاتى إلى صلواتهم . وكان الضباط والركاب قد أخذوا مواقفهم على كوثل السفينة ، والقسيس فى يَدِه كتابه قد وقف من دونهم قليلاً ، والملاحون قد انتشروا على ظهر المركب . وكنا جميعاً واقفين ووجوهنا شطر قيدوم السفينة وهى ناظرة إلى المغرب . وكان

قرص الشمس وهو على أهبة المغيب فى الماء ، يتراءى من خلال الجبال فى وسط الفضاء ، فكان يخيل إلىّ من نوسان كوثل السفينة أن الكوكب المضىء يغير أفقه فى كل لحظة ! وكانت قطع من السحاب قد انتثرت على غير نظام فى المشرق ، والبدر البازغ قد أخذ يرتفع بطيئاً فى الأفق ، وكانت بقية السماء صافية الأديم سافرة الوجه ؛ وفى جهة الشمال انبعث من البحر إعصار يتألق بألوان المنشور الزجاجى كأنه عمود من البلور قامت عليه قبة السماء ، فتألف منه ومن كوكب النهار وكوكب الليل مثلث باهر الجلالة !

إن الرجل الذى لا يدرك جمال الله فى هـذا المشهد ليستحق الرثاء والرحمة ! أسبلتْ أرواق عينى على الرغم منى حين حسر الرفاق قبعاتهم المقطرنة عن رءوسهم وأنشدوا بصوت أجش أبح نشيدهم البسيط : « سيدتنا صاحبة المعونة وحامية البحارة »

اشـد ما أثر فى نفسى صلاة هؤلاء الرجال وقد وقفوا وسط المحيط على لوح هشٍّ من الخشب يتأملون الشمس وهى تغرب فى اللجة : فالشعور بحقارتنا أمام عظمة اللانهاية ، وأناشيدنا المرسلة على الأمواج ، ودنو الليل بويلاته ومكائده ، وسفينتنا العجيبة فى بحر مسجور بالعجائب ، وفريق من البحارة استولى على قلوبهم الاعجاب والخوف ، وقسيس جليل عاكف على الصلاة ، والله الذى تجلى للبحر فأمسك باحدى يديه الشمس على حجاب المغرب ، ورفع بالأخرى القمر من مهاد المشرق ، وهو يسمع من خلال الفضاء المطلق أصوات خلقه ، كل أولئك لا يستطيع قلم أن يصوره ، ولا قلب مهما دق شعوره أن يتصوره !

الزيات

دعاء

Invocation

لشاعر الحب والجمال لامرتين

أشار لامرتين فى كتابه (رفائيل) إلى الأشعار الأولى التى «انبجست من قلبه » والتى قرأها « دون أن يجرؤ على رفع بصره إلى رافعها إليها » . ومن المحتمل أن تكون هذه الأبيات :

أنتِ يامن ظهرت لى فى صحراء هذه الدنيا ! ياساكنة السماء وعامرة هذه الأرض ! يامن أضاءت لى بشعاع من الحب هذا الليل الغاشى ! اظهرى بشخصك كله لعينى المشدوهة ، وقولى لى ما اسمك ، وما وطنك ، وما حظك ؟ أأنت من سلالة أرضية ، أم أنت من نفحة قدسية ؟

***

أتذهبين غداً إلى شهود الضياء الخالد ؟ أم لا يزال أمامك فى دار البعاد ودنيا الحداد وموطن البؤس خُطًى تقطعينها فى طريقك الشاق المتعب ؟ مهما يكن اسمك وحظك ووطنك يا ابنة الأرض أو يا ابنة السماء ، فدعينى ما دام ينبض بالحياة قلبى ، أقدم اليك عبادتى أو حبى

***

اذا وجب عليك مثلنا ، أن تستوفى أجلك وتبلغى مداك ، فكونى سندى ودليلى ، واسمحى لى أن أقبِّل فى كل مكان غبار خطواتك المحبوبة . أما إذا طرت يا أخت الملائكة عن دنيا الشقاء والجحود ، لتعيشى بجوارهم فى دار النعيم والخلود ، فاذكرينى فى ملكوت السماء ، بعد أن أحببتنى أياماً على هذه الغبراء !

الزيات

الكتب

على عتبة الامومة

تأليف الدكتور مصطفى الخالدى

ليس هذا الكتاب كما يتبادر الى الذهن كتاب طب وضع للأطباء ، بل هو كتاب من كتب الثقافة العامة ، وضع لكل شابة وشاب ، ألفه الدكتور الخالدى ، الأستاذ فى فن التوليد والأمراض النسائية فى جامعة بيروت الأمريكية ، ويقع فى مائتى صفحة كبيرة ، متقن الطبع ، جميل السبك ، متين الورق

وقبل أن أحدث القارىء عن مباحث هذا الكتاب النافع ، أشير الى ناحية فيه قد عظم إعجابى بها : ذلك أن الدكتور المؤلف قد بلغ حداً فائقاً من المهارة فى تقديم المسائل العلمية والفنية الى عامة القراء ، مما جعل كتابه فى متناول كل قارىء ، يفهمه فى غير عسر ، بل يقبل عليه فى شغف ولذة ، هذا الى ما احتوى عليه من صور دقيقة واضحة ، تبين أجزاء البحث ، ومنها عدد يتعلق بناحية الجمال والعاطفة دون أن يبعد عن المقصد الذى يسمى اليه المؤلف ، إذ كان محوره بيان الأمومة السعيدة والطفولة السعيدة

وينبغى أيضاً أن أشير الى الأسلوب الذى نهجه الدكتور ، فهو أسلوب مَن حدد موضوعه ورسم جزئياته فى نفسه ، وتبين غايته منه ، فاستطاع أن يكون سهل الأداء قريب المأخذ ، بعيد المرمى ، مما يتفق مع طبيعة هذا الكتاب وموضوعه الدقيق

والكتاب بعد ذلك مزيج من العلم والعاطفة ، فموضوعه الأرشاد فى ضوء القواعد والأصول ، وغايته إسعاد الأم والأبناء ، مع الشعور دائما « بأن المحيط الذى سيخدمه هذا الكتاب هو محيطنا الشرقى الذى يقدس الشرف والحياء الجنسى ، فلا تخجل من قراءته العذراء ، ولا يجد القارىء طى صفحاته إلا كل ما يحض على اتخاذ المثل العليا فى الحياة غاية لسعادة الأمومة والحياة »

افتتح المؤلف كتابه ، بتلك الأسطورة الهندية الشهيرة فى خلق المرأة ، ثم قدم لبحثه فى كلمة أشار فيها الى تسلط الأوهام والخرافات على كثير من العقول فيما يتعلق بأمر الحمل والولادة بسبب الجهل ، مؤيداً قوله ببعض الحوادث التى صادفته وبعض الأحصاءات التى اطلع عليها

بعد ذلك أورد كلمة فى الانقسام الخلوى وتكون الجنين ، ثم شرح فى دقة وسهولة الأعضاء التناسلية فى المرأة ، وما يطرأ عليها فى سن البلوغ ، وتكلم عن الاشتراكات إبان الحمل ، وعن الولادة والنفاس والطفل الوليد ، وما يجب اتخاذه من وسائل العناية أثناء الحمل والولادة وعقب ذلك ، واختتم موضوعه الخطير بفصل ممتع فى الغريزة الجنسية ، وبيان بعض الأمراض ، وبعض المسائل التى تشغل بال الانسان فى شبابه ، ثم بكلمة رقيقة حصيفة الى المتزوجين ومن هم على أهبة الزواج

وإنى لأشكر الدكتور المؤلف ، معترفاً له بجميله هذا ، فلقد استمتعت بقراءة هذا الكتاب وأحببته حباً عظيما ، يدعونى الى أن أتقدم الى القراء بخالص النصح على ألا تفوتهم قراءة هذا الأثر النافع الجميل

مرآة النساء

تأليف الأستاذ محمد كمال الدين الأدهمى

يطلب من مكتبة صبيح بميدان الأزهر ثمنه ثمانية قروش عدا أجرة البريد

يقع هذا الكتاب فى مائتين وأربعين صفحة من القطع المتوسط ، ألفه الأستاذ الشيخ محمد كمال الدين الأدهمى بقلم المحفوظات التاريخية بديوان جلالة الملك ، وقد جمع فيه كثيراً مما ذكر قديماً وحديثاً عن المرأة فى جميع نواحى حياتها ، فأورد بعض ماقيل فى مدح النساء والدعوة إلى الرفق بهن ، وبعض ما ذكر فيهن على لسان الشعراء والأدباء وأوصاف المرأة الصالحة ومسلكها كربة بيتها ، ومقاييس الجمال النسوى ومباريات الجمال وأدب المرأة ومبلغ علمها ، وعناية الأسلام بشؤونها ، وما جاء فى الشريعة عنها

من الأوصاف ، مع ذكر تراجم الكثيرات من شهيرات النساء كالسيدة عائشة رضى الله عنها وكأم هارون الرشيد وقطر الندى وشجرة الدر ، وعائشة التيمورية

كذلك تعرض الأستاذ لمسألة الحجاب والسفور وماقيل فى هذا الباب فى الشرع وما ثارفيه من جدال بين المفكرين والكتاب فأنت ترى أن الكتاب أشبه بالجمع منه بالتأليف على أن لكل عمل ثوابه إذا كانت وجهته لخير الصالح العام ، وإنك لن تعدم فى مطالعة هذا الكتاب الاستمتاع بما ورد فى شتيت الكتب عن النساء من طرف أدبية ومن بحوث مفيدة ، وقد انتظم الكثير منها بين دفتيه ، ولعل القارئ حين يطالعه ينفتح له كثير من الموضوعات الجديرة بالبحث فيما يتعلق بالمرأة الشرقية فى نهضتها الحالية ، ويبين له من أوجه البحث ما نحن فى أشد الحاجة إليه . وإنى لأشكر للأستاذ الأدهمى مابذل من مجهود وما توخى من خير

الخفيف

القصص المدرسية

قال الأساتذة : سعيد العريان ، وأمين دويدار ، ومحمود زهران مؤلفو هذه القصص المدرسية :

« ليس من شك فى أن الطفل بطبعه ولوع بالقصة ؛ وأن الأدب العربى على سعته وغناه يكاد يخلو من القصة السهلة التى يستطيع الطفل أن يقرأها فى رغبة وشوق . فبينا نرى الآداب الأجنبية حافلة بكل مايجذب الطفل ويحبب اليه القراءة والمطالعة ، نجد الأدب العربى يكاد يخلو جملة من « أدب الطفل » ؛ وبينما الطفل الأجنبى يتلقى أكثر معلوماته عن الحياة فى أسلوب « القصة » الجذاب — نرى الطفل العربى يتلقى أكثر مسائل العلم فى أسلوب جاف ، وطريقة لا تلائم طبيعته المرحة

ولاشك أن المدرسين أكثر إحساساً بهذه الحقيقة ، وأشد شعوراً بحاجة الطفل العربى إلى أدب سهل يشوقه ويجذبه ، ويوافق نزعته وميله . هذا الشعور هو الذى دفعنا إلى أن نحاول سد هذا الفراغ ، بوضع قصص سهلة تلائم طبع الطفل وتتمشى مع روحه ، فبدأنا بوضع سلسلة من القصص ، سميناها : (القصص المدرسية)

ورمينا فيها إلى الأغراض الآتية :

(١) — أن تكون وسيلة إلى تعليم الانشاء ؛ فجعلنا أسلوبها سائغاً مفهوماً ، لايبعد من الفصحى ، ولايتدنى إلى لغو العامية ؛ وحاولنا بسبيل ذلك أن نقرب بين اللغة التى يتكلمها التلميذ ، والعربية التى يتعلمها ؛ فأبقينا على كل كلمة عامية لها فى العربية أصل يؤيدها ، غير وانين فى التنقيب والبحث فى كتب اللغة عن كل كلمة فى مظانها ووضعنا تحت عين التلميذ نماذج من جيد الانشاء ، مبثوثة فى تضاعيف القصة ، مفرقة فى حواشى الكلام ليسهل على التلميذ تناولها من غير أن يشعر بسأم التعلم ؛ فلا يكاد يأتى على القصة حتى يكون قد اجتمع له من فصيح الكلام قدر يعينه على تجويد المحادثة والانشاء

(٢) — وأن تكون وسيلة الى تهذيب الطفل ؛ لذلك عنينا بأن يكون موضوع قصصنا غير بعيد من جو التلميذ ، بحيث يسهل عليه تصوره ومتابعته بخياله ، وبحيث يتهيأ له أن يعرف الطريق الى الرجولة الفاضلة من غير أن يلتوى عليه السبيل

(٣) — وأن تكون وسيلة الى تسليته ؛ ولهذا حاولنا مااستطعنا أن نجعلها جذابة فى كل شىء ؛ صغيرة الحجم ، يستطيع الطفل أن يضعها فى جيبه ليقرأ فيها متى وأنى شاء ، مشكولة ، ليمكن التلاميذ قراءتها بغير معاناة ؛ جميلة مصورة ، زاهية اللون ، لتدعو الطفل اليها بمنظرها الجميل ، كما جعلناها رخيصة الثمن ، ليكون فى طاقة كل تلميذ أن يحصل عليها ، طيبين نفساً بما نبذل من وقت ومال وراحة فى سبيل الغرض الذى ننشده ؛ فان أفلحنا فى الوصول اليه فذاك حسبنا ، وإلا فاننا ماضون فى طريقنا دائبون على تكميل كل نقص نراه أو يلفتنا اليه الناصحون »

وقد نشر الأساتذة الفضلاء قصتهم الطِّفْلِية الأولى وهى « مُدَمَّس أكسفورد » تقع فى ٥٤ صحيفة ، مشكولة كلها بالشكل الكامل . وموضوعها جذاب طلّ . يصل بنفسه الى أعماق نفس التلميذ ، ويجمع له بين القراءة والتفصُّح والتهذيب ويرمى بهمته الى بعيد ، ويسمو بعواطفه الى أعلى

وقد ختمت هذه القصة باستخراج سبعة موضوعات إنشائية منها ، مبينة فى آخرها ، ليكتب فيها التلميذ الصغير ؛ فكانت القصة بذلك جامعة بين القراءة والكتابة ، محققة لأغراض الأساتذة المعلمين

وثمن كل قصة خمسة مليمات ، وتطلب من إدارتها بطنطا

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ٨٥ – ١٨ فبراير سنة ١٩٣٥ – السنة الثالثة

3 me Année, No. 85.

Lundi-18-2-1935

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

السنة الثالثة — « القاهرة فى يوم الاثنين ١٤ ذو القعدة سنة ١٣٥٣ — ١٨ فبراير سنة ١٩٣٥ » — العـدد ٨٥

فهرس العـدد

الملك على ...



تلقيت نعى الملك النبيل على بن الحسين كما أتلقى نعى قريب ؛ فقد كان رضوان الله عليه مثال الفطرة العربية النقية : يقبل على زائره بأنسه ، ويمكن لجليسه من نفسه ، ويزيل الفوارق بين محدثه وبين شخصه ، حتى يصدر عنه الوارد عليه وفى ذهنه صورة من جلاله لا تحول ، وفى قلبه عاطفة من حبه لا تزول ، وفى نفسه أثر من ذاته لا يعفو . لا يلقى فى روعك حين تلقاه طموح الزعيم ، ولا جفاء القائد ، ولا دهاء السياسى ، ولا سورة المَلِك ، وإنما تجد فى خلائقه فوحة المجد ، وتقرأ فى ملامحه عنوان الطيبة . وتعرف فى حديثه لهجة السيادة ، وتذكر فى نبرات صوته ولحظات عينه ولفتات ذهنه ذلك الروح القوى الذى انبثّ فى مَوَات الوجود من بنى هاشم !

نعى الناعى فيصلاً فقال الناس بطلٌ من أبطال العلم قضى ، ونعى الناعى علياً فقال العرب سيد من سادات العروبة خلا ؛ لأن فيصلاً حكم فى شروق مُلك عائد ، فكان عزمة لا تسعها قدرة ، وفكرة لا يحصرها أفق ، وطموحاً لا يحده غاية ؛ ولأن علياً حكم فى غروب مُلك بائد ، فكان أمراً لا يمضيه سلاح ، وأملاً لا ينهضه جناح ، وصلاحاً لا تواتيه فرصة ؛ ثم كان مصير الرجلين مصير خلقين مختلفين : خلق اتسع لخُدَع السياسة ، وشُبَه الحكم ، وأهواء النفوس ، وخلق انحصر بين حدود الشرف الموروث ، وسنن الدين المتبع ، وتقاليد العرب المحتومة

***

كان الملك على وهو أمير المدينة أو ولى العهد أو خليفة الحسين ، مثل السيد الكريم والأمير السمح والملك المؤمَّل ، ولكن موجة (الاخوان) كانت قد دفعت بحطام الحسين إلى شواطئ جدة ، فلم يستطع الملك الجديد أن يستمسك به فى مهب الرياح الهوج ومضطرب الموج الثائر ، فانتزع من تاجه المقدس مفاتيح الحرمين ثم وضعهما فى يد الفاتح ونجا على (الرقمتين)[1] فى ضباب من اليأس لا يشعُّ فى جنباته أمل

نزل الملك الغريب سواد العراق نزول الكريم على الكريم فتلقاه بوده ، وصفَّق له من ورده ، وبوأه من زعامته المكان الأول بعد فيصل . فكان فى السياسة العراقية برهان الله فى يقظة الشهوة ، وصوت العدل فى طغيان الهوى ، وهُدى المشورة فى ضلال الرأى ، ورسول الخير فى أزمة الحاجة . وكان قصره القائم بالكرَّادة على الشاطئ الأيمن من دجلة بلاطاً للجلالة الحائرة بين الحجاز والعراق وسورية ، تُقضى بين أبهائه الأمور الجسام ، وترف على أفنائه الآمال الباسمة . ولكن حياة بغداد الدافقة بالنعيم الغارقة فى اللذة ، لم تستطع أن تُنسى الملك الحزين عرشه الصخرى فى الوادى الجديب ؛ فكان لا يفتأ يحن الى مُلكه المغصوب حنيناً شعرياً صامتاً يذيب الكُلَى ويستوقد الجوانح ، إلا أن أثره لا يبين تحت سمة الملك إلا لمن دخل فى أمره ووقف على سره

كنت كثيراً ما أقضى أصيل اليوم فى حضرته ، وكان (مفتى بغداد) لا ينقطع عن مجلسه فى هذه الساعة ؛ وكان للملك رحمه الله عطف علىَّ منشؤه فيما أظن حبه للأدب ، وميله الى مصر ، وأنسه بالغريب . فهو يحب أن يناقلنى الحديث ، ولكن (المفتى) سامحه الله رجل يرى من حق العالم أن يقول فى كل شىء ، وأن يجيب عن كل شىء ، وهو لا ينطق إلا ببيت من الشعر أو أثر من الحديث أو آية من القرآن ؛ أما ارتباط ما يقول بما يسمع فذلك ما كنا نعجز دائماً عن فهمه . كان الملك يبدأ الكلام فلا يكاد يمضى فيه حتى يقطعه عليه بحكاية عرضية أو مسألة فقهية ! فأرفع طرفى اليه لعل عزة الملك تشع فى عينه أو تثور فى وجهه ، فلا أجده إلا باسماً للمتكلم ، مصغياً كالمتعلم ، هادئاً كالشعاع الشاحب فى شفق الخريف ! على أنه كان يصحح للشيخ ما يَقمِش من الشعر وينتف من الأمثال ، ويتخذ ذلك مادة للحديث وموضوعاً للمشاركة ، فيسفر قوله عن ذوق صاف وبصيرة نافذة . ولا أنسى ما حييت استشهاده فى بعض الكلام على قلب الميم باء فى قول بعض العرب بكة فى مكة ، بالمثل المعروف : (تمخض الجبل فولد فأراً) مرجحاً أن الجبل هو الجمل فى لحن هذه القبيلة

لذلك كان إذا شاء الحديث صفواً من المقاطعة واللغو أمرنى فمثلت بين يديه فى ساعة بعينها ، فيفضى إلىَّ بطرَف من ماضى حياته ، أو يملى علىَّ بعضاً من مذكراته . وقد لا يكون من المناسب اليوم — وأنا فى موقف الرثاء والعزاء والأسى — أن أثبت فى هذا المقام شيئاً من ذلك

ولكنه كان يلهج دائماً بمصر ، ويرصد كوكب آماله فى مصر ... ويحاول أن يقنع المصريين الذين خاصموه فى سبيل الترك أن ثورتهم على الخلافة كانت بالحق وللحق ، وأن أباه لم يأل الترك نصحاً ألا يطأطئوا إشراف العرب ، وألا يغمزوا نخوة العرب ، وأن يعدلوا عن سياسة الجهل ، ويكفوا عن جرائم القتل ، فاستغشوا الناصح وذهبوا بأنفسهم مُمنين فى الضلالة

وللفقيد العظيم آراء حصيفة فى رجال الثورة وساسة العراق ووحدة العرب ، أرجو أن تتاح لتسجيلها المناسبة إنصافاً لهذا الرجل الذى أُخرج من دياره عَنوة ، وكابد أكلاف المُلك من غير ثروة ، حتى عاد كالطائر المهيض أو المَلَك الهابط ، يختنق فى مجثمه وبصره فى الفضاء ، ويلتصق بالأرض وروحه فى السماء !

احمد حسن الزيات

(١) اسم الباخرة التى أقلته من جدة

زوجة إمام

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

جلس جماعةُ أصحاب الحديث في مسجد الكوفة، يَنتظرون قُدومَ شيخهم الامام «أبي محمد سليمان الأعمش»[1] ليسمعوا منه الحديث، فأبطأ عليهم؛ فقال منهم قائل: هلمُّوا نتحدثْ عن الشيخ فنكونَ معه وليس معنا. فقال أبو معاوية الضرير: إلى أن يكونَ معنا ولسنا معه . ! فخطرت ابتسامةٌ ضعيفةٌ تهتزّ على أفواه الجماعة لم تبلغ الضحك، ومرّت لم تُسمَع وكأنها لم تُرَ، وانطلقتْ من المباح المعفُوّ عنه. ولكنْ أكبرَها أبو عتّاب منصورُ بنُ المعتمِر فقال: ويلك يا أبا معاوية! أتتندّرُ بالشيخ وهو منذُ الستين سنةً لم تفتْه التكبيرةُ الأولى في هذا المسجد، وعلى أنه مُحدّث الكوفة وعالِمُها، وأقرأ الناس لكتاب الله، وأعلمُهم بالفرائض، وما عرفت الكوفةُ أعبدَ منه ولا أفقهَ في العبادة؟

فقال محمدبن جُحادة[2]: أنت يا أبا عتّاب، رجلٌ وحدك، تُواصِلُ الصومَ منذ أربعين سنة، فقد يَبسْتَ على الدهر وأصبح الدهر جائعاً منك، وما برحتَ تبكي من خشية الله، كأنما اطّلعتَ على سَواء الجحيم، ورأيت الناسَ يتواقعُون فيها وهي لهبٌ أحمرُ يلتفُّ على لهب أحمر، تحت دخان أسودَ يتضربُ في دخان أسود، يتغامَسُ الانسانُ فيها وهي مِلءُ السموات، فما يكون إلا كالذُّبابة أوقدوا لها جبلاً ممتداً من النار، ينطادُ بين الأرض والسماء، وقد ملأ ما بينهما جمراً وشُعلاً وحمماً ودخاناً، حتى لتهاربُ السُّحُبُ في أعلى السماء من حرّه، وهو على هوْله وجسامته لحرْق ذبابةٍ لا غيرها، بَيْدَ أنها ذبابةٌ تُحْرَقُ أبداً ولا تموتُ أبداً، فلا تزالُ ولا يزال الجبل!

فصاح أبو معاوية الضرير: ويحك يا محمد! دَعِ الرجل وشأنه؛ إن لله عباداً متاعهم مما لا نعرف، كأنهم يأكلون ويشربون في النوم، فحياتُهم من وراء حياتنا، وأبو عتّاب في دنيانا هذه ليس هو الرجلَ الذي اسمهُ «منصور» ولكنه العملُ الذي يعمله «منصور». هل أتاكم خبر قارئ المدينة «أبي جعفر الزاهد»؟ قال الجماعة: ما خبره يا أبا معاوية؟ قال: لقد تُوُفيَ من قريب، فرُئِيَ بعد موته على ظهر الكعبة؛ وسترون أبا عتاب – إذا مات – على منارة هذا المسجد! فصاح أبو عتاب: تخلَّلْ يا أبا معاوية؛ أما حفظت خبر ابن مسعود: «كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقام رجل، فوقع فيه رجل من بعده؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «تخلَّلْ» قال: ممَّ أتخلَّلُ؟ ما أكلتُ لحماً؟ قال: «إنك أكلتَ لحم أخيك!»

فتقلقل الضرير في مجلسه، وتنحنحَ، وهمهم أصواتاً بينه وبين نفسه، وأحسّ الجماعةُ شأنه وقد عرفوا أن له شراً مُبصرا كالذي كان فيه من المزح والدُّعابة، وشراً أعمى هذه بوادرُه، فاستلب ابنُ جحادة الحديثَ مما بينهما وقال: يا أبا معاوية، أنت شيخُنا وبركتُنا وحافظُنا، وأقربُنا إلى الامام وأمسُّنا به؛ فحدثنا حديثَ الشيخ كيف صنع في ردّه على هشام بن عبد الملك[1]، وما كان بينك وبين الشيخ في ذلك؛ فان هذا مما انفردتَ أنت به دون الناس جميعاً، إذ لم يسمعه غير أذنيك، فلم يحفظه غيرك وغير الملائكة

فأسفرَ وجهُ أبي معاوية وسُرّيَ عنه واهتزّ عطفاه وأقبل عليهم بعفو القادر . . . . وأنشأ يحدّثهم قال:

إن هِشاماً – قاتله الله – بعث إلى الشيخ: أنِ اكتبْ لي مناقبَ عثمانَ ومساوِئَ عليّ. فلما قرأ كتابه كانت داجِنةٌ إلى جانبه، فأخذ القرطاس وألقمَه الشاة فلاكتْه حتى ذهب في جوفها، ثم قال لرسول الخليفة: قل له: هـذا جوابك! فخشي الرسول أن يرجع خائباً فيقتله هشام، فما زال يتحمّلُ بنا، فقلنا: يا أبا محمد، نجّه من القتل. فلما ألححنا عليه كتب: «بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعدُ يا أمير المؤمنين، فلو كانت لعثمان رضى الله عنه مناقبُ أهل الأرض ما نفعتْك، ولو كانت لعليّ رضى الله عنه مساوئُ أهل الأرض ما ضرّتْك؛ فعليك بخُوَيصّةِ نفسك، والسلام.»

فلما فصل الرسول قال لي الشيخ: إنه كان في خُراسانَ

(١) ولد هذا الامام العظيم سنة ٦١ للهجرة، وتوفي سنة ١٤٨

(٢) الجحادة هي الفرارة المملتئة، فكانت أمه تشبه بها

(١) بويع هشام سنة ١٠٥ للهجرة، وتوفي سنة ١٢٥

مُحدِّث اسمهُ « الضحَّاكُ بن مُزاحم الهلالى » وكان فقيهَ مكتب عظيم فيه ثلاثة آلاف صبيّ يتعلمون ؛ فكان هذا الرجلُ إذا تعب ركب حماراً ودار به فى المكتب عليهم ، فيكون إقبالُ الحمار على الصبىّ همّاً وإدبارُه عنه سروراً . وما أرى الشيطان إلا قد تعب فى مكتبه وأعيا ، فركب أميرَ المؤمنين . . . . ليدور علينا نحن يسألنا : ماذا حفظنا من مساوىء علىّ ؟

قلت : فلماذا ألقمتَ كتابه الشاة ؟ ولو غسلته أو أحرقتَه كان أفهمَ له وكان هذا أشبهَ بك . فقال : ويحك يا أبله ! لقد شابت البلاهةُ فى عارضيك . إن هشاماً سيتقطَّع منها غيظاً ، فما يُخفى عنه رسوله أنى أطعمتُ كتابه الشاة ، وما يُخفى عنه دَهاؤُه أن الشاة ستَبْعَرُه من بعدُ . . . !

قلت : أفلا تخشى أمير المؤمنين ؟

قال : ويحك ! هـذا الأحولُ عندك أمير المؤمنين ؟ أعما ولدته أمُّه من عبد الملك ؟ فهَبها ولدته من حائكٍ أوحجّام ! إن إمارةَ المؤمنين يا أبا معاوية ، هى ارتفاعُ نفس من النفوس العظيمة إلى أثر النبوّة ، كأنَّ القرآنَ عَرَضَ المؤمنين جميعاً ثم رضى منهم رجلاً للزمن الذى هو فيه ، ومتى أُصيبَ هذا الرجلُ القرآنىُّ فذاك وارثُ النبىّ فى أمته وخليفتُه عليها ، وهو يومئذ أمير المؤمنين ، لا من إمارة الملك والترف ، بل من إمارة الشرع والتدبير والعمل والسياسة

هذا الأحول الذى التفّ كدودة الحرير فى الحرير ، وأقبل على الخيل لا للجهاد والحرب ، ولكن للهو والحَلْبة ، حتى اجتمع له من جياد الخيل أربعة آلاف فرس لم يجتمع مثلُها لأحد فى جاهلية ولا إسلام ، وعَمِلَ الخزَّ وقُطُفَ الخزّ ، واستجاد الفرش والكُسوة ، وبالغَ فى ذلك وأنفقَ فيه النفقات الواسعة ، وأفسد الرجولة بالنعيم والترف حتى سلك الناسُ فى ذلك سُنَّتَه فأقبلوا بأنفسهم على لهو أنفسهم ، وصنعوا الخير صنعةً جديدة بصرفه إلى حظوظهم ، وتركوا الشر على ما هو فى الناس ، فزادوا الشر وأفسدوا الخير ، ولم يَعُد الفقراءُ والمساكينُ عندهم هم الفقراءَ والمساكين من الناس ، بل بطونَهم وشهواتهم . . . !

ولقد كان الرجلُ من أغنياء المسلمين يقتصدُ فى حظ نفسه ليَسعَ برّه مائةً أو مائتين أو أكثر من اخوانه وذوى حاجته ؛ فعاد هـذا الغنىُّ يتّسعُ لنفسه ثم يتسع ، حتى لا يكفيه أن يأكلَ رزقه مائة أو مائتين أو أكثر !

إن هذا الاسلامَ يجعل أحسنَ المسرّات أحسنَها فى بذلها للمحتاجين ، لا فى أخذِها والاستئثارِ بها ، فهى لا تضيع على صاحبها إلا لتكون له عند الله ، وكأنّ الفقر والحاجةَ والمسكنةَ والانفاقَ فى سبيل الله ـ كأن هذه أرضون يُغرس فيها الذهبُ والفضة غرساً لا يُؤْتى ثمرَه إلا فى اليوم الذى ينقلب فيه أغنى الأغنياء على الأرض وإنه لأفقر الناس إلى درهمٍ من رحمة الله وإلى ما دون الدرهم ؛ فيقال له حينئذ : خُذْ من ثمار عملك ، وخُذْ ملءَ يديك !

والسلطانُ فى الاسلام هو الشرع مَرْئياً يُتابعهُ الناس ، متكلما يفهمه الناس ، آمراً ناهياً يطيعه الناس . ولقد رأى المسلمون هذا الأحول ، وتابعوه وسمعوا له وأطاعوا ؛ فمنعوا ما فى أيديهم ، فانقطع الرِّفد ، وقلَّ الخير ، وشحَّت الأنفس ، وأصبح خيرُهم خيرَهم لبطنه وشهواته ، وصار الزمانُ أشبهَ بناسِه ، والناسُ أشبهَ بملكهم ، وملكُهم فى شهواته « فقيرُ المؤمنين » لا أميرُ المؤمنين !

إن هـذه الامارةَ يا أبا معاوية ، إنما تكون فى قرب الشبهِ بين النبىّ ومن يختاره المؤمنون للبَيْعة . وللنبىّ جهتان : إحداهما إلى ربه ، وهـذه لا يطمع أحدٌ أن يبلغ مَبلغَه فيها ؛ والأخرى إلى الناس ، وهذه هى التى يُقاس عليها . وهى كلها رِفقٌ ورحمةٌ وعملٌ وتدبير وحياطة وقوة ، الى غيرها مما يقوم به أمرُ الناس ؛ وهى حقوقٌ وتَبِعَاتٌ ثقيلة تنصرف بصاحبها عن حظ نفسه ، وبهذا الانصراف تجذب الناس الى صاحبها . فامارة المؤمنين هى بقاء مادّة النور النبوىّ فى المصباح الذى يضىء للاسلام بامداده بالقدْر بعد القدر من هـذه النفوس المضيئة . فان صَلُحَ الترابُ أو الماء مكان الزيت فى الاستضاءة صَلُح هشامٌ وأمثاله لامارة المؤمنين !

ويلٌ للمسلمين حين ينظرون فيجدون السلطانَ عليهم بينه وبين النبى مثلُ ما بين دِينين مختلفين . ويلٌ يومئذ للمسلمين ! ويلٌ يومئذ للمسلمين !

* * *

فلما أتم الضرير حديثه قال ابن جحادة : إن شيخنا على هذا الجد ليمزح ، وسأحدثكم غير حديث أبي معاوية فقد رأيت الدنيا كأنما عرفت الشيخ ووقفت على حقيقته السماوية فقالت له : اضحك مني ومن أهلي . ولكن وقاره ودينه ارتفعا به أن يضحك بفمه ضحك الجهلاء والفارغين ، فضحك بالكلمة بعد الكلمة من نوادره

لقد كنت عنده في مرضته ، فعاده « أبو حنيفة » صاحب الرأي ، وهو جبل علم شامخ ، فطول القعود مما يحبه ويأنس به ، إذ كانت الأرواح لا تعرف مع أحبابها زمناً يطول أو يقصر . فلما أراد القيام قال له : ما كأني إلا ثقلت عليك . فقال الشيخ : إنك لثقيل علي وأنت في بيتك . . . ! وضحك أبو حنيفة كأنه طفل يلاغيه أبوه بكلمة ليس فيها معناها ، أو أب داعبه طفله بكلمة فيها غير معناها

وجاءه في الغداة قوم يعودونه ، فلما أطالوا الجلوس عنده أخذ الشيخ وسادته وقام منصرفاً ، وقال لهم : قد شفى الله مريضكم . . . !

فقال الضرير : تلك روحة من هواء دنبا وند[1] فان أبا الشيخ كان من تلك الجبال ، وقدم إلى الكوفة وأمه حامل ؛ فولد هنا ؛ فكأن في دمه ذلك النسيم تهب منه النفحة بعد النفحة في مثل هذه الكلمات المتنسمة ؛ ثم هي روحه الظريفة الطيبة تلمس بعض كلامه أحياناً ، كما تلمس روح الشاعر بعض كلام الشاعر ؛ وما رأيت أدق النوادر الساخرة وأبلغها وأعجبها يجيء إلا من ذوي الأرواح الشاعرة الكبيرة البعيدة الغور ، كأنما تأتي النادرة من رؤية النفس حقيقتين في الشيء الواحد . والامام في ذلك لا يسخر من أحد ، إلا إذا كانت الأرض حين تخرج الثمرة الحلوة تسخر بها من الثمرة المرة

والعجيب أن النادرة البارعة التي لا تتفق إلا لأقوى الأرواح ، يتفق مثلها لأضعف الأرواح ؛ كأنها تسخر من الناس كما يسخرون بها . فهذا « أبو حسن » معلم الكتاب ، جاءه غلامان من صبيته قد تعلق أحدهما بالآخر ؛ فقال : يا معلم ، هذا عض أذني . فقال الآخر : ما عضضتها ، وإنما هو عض أذن نفسه . . . ! فقال المعلم : وتمكر في أيضاً يا ابن الخبيثة ، أهو جمل طويل العنق حتى ينال أذن نفسه فيعضها . . . !

***

وطلع الشيخ عليهم وكأنما قرأ نفس أبي معاوية في وجهه المتفتح . ومن عجائب الحكمة أن الذي يلمح في عيني المبصر من خوالج نفسه يلمح على وجه الضرير مكبراً مجسماً . وكان الشيخ لا يأنس بأحد أنسه بأبي معاوية ، لذكائه وحفظه وضبطه ، ولمشاكلة الظرف الروحي بينهما ؛ فقال له :

« فيم كان أبو معاوية ؟ »

ـ « كان أبو معاوية في الذي كان فيه ! »

ـ « وما الذي كان فيه ؟ »

ـ « هو ما تسأل عنه ! »

ـ « فأجبني عما أسأل عنه . »

ـ « قد أجبتك ! »

ـ « بماذا أجبت ؟ »

ـ « بما سمعت ! »

فتقبض وجه الشيخ وقال : « أههنا وهناك معاً ؟ لو أن هذا من امرأة غضبى على زوجها لكان له معنى ، بل لا معنى له ولا من امرأة غضبى على زوجها . أحسب لولا أن في منزلي من هو أبغض إلي منكم ماخرجت ؟ » فقال الضرير : « يا أبا محمد ، كأننا زوجات العلم ؛ فأيتنا التي حظيت وبظيت . . . »

فنطت الجماعة أفواههم يضحكون ، وتبسم الشيخ ، ثم شرع يحدث فأفضى من خبر إلى خبر ، وتسرح في الرواية حتى مر به هذا الحديث :

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن هلاك الرجال طاعتهم لنسائهم . »

قال الشيخ : كان الحديث بهذا اللفظ ، ولم يقل النبي صلى الله عليه وسلم : « هلاك الرجل طاعته لامرأته » ؛ فإن هذا لا يستقيم ؛ إذ يكون بعض النساء أحياناً أكمل من بعض الرجال ، وأوفر عقلاً وأسد رأياً ، وقد تكون المرأة هي الرجل في الحقيقة عزماً وتدبيراً وقوة نفس ، ويتلين الرجل معها كأنه

(١) ناحية من رستاق الري في الجبال الثلجية وهي من بلاد العجم

امرأة . وكثير من النساء يكنّ نساءً بالحلية والشكل دون ما وراءهما ، كأنما هيّئن رجالاً فى الأصل ثم خُلقن نساءً بعد ، لأحداث ما يريد الله أن يُحدث بهن ، مما يكون فى مثل هذه العجيبة عملاً ذا حقيقتين فى الخير أو الشر

وإنما عمّ الحديثُ ليدلّ على أن الأصل فى هذه الدنيا أن تستقيم أمور التدبير بالرجال ؛ فان البأس والعقل يكونان فيهم خلقةً وطبيعةً أكثر مما يكونان فى النساء ؛ كما أن الرقة والرحمة فى خلقة النساء وطبيعتهن أكثرُ مما هما فى الرجال ، فاذا غلبتْ طاعةُ النساء فى أمة من الأمم ، فتلك حياة معناها هلاك الرجال ، وليس المراد هلاكَ أنفسهم بل هلاكَ ماهم رجالٌ به . والحديدُ حديدٌ بقوته وصلابته ، والحجرُ حجر بشدّته واجتماعه ؛ فان ذاب الأولُ أو تفلّل ، وتناثر الآخر أو تفتّت ـ فذاك هلاكهما فى الحقيقة ، وهما بعدُ لا يزالان من الحجر والحديد

والمرأة ضعيفة بفطرتها وتركيبها ، وهى على ذلك تأبى أن تكون ضعيفةً أو تقرّ بالضعف ، إلا إذا وجدت رُجلها الكامل ، رُجلها الذى يكون معها بقوّته وعقله وفتنته لها وحبها إياه ، كما يكون مثالٌ مع مثال . ضعْ مائة دينار بجانب عشرة دنانير ، ثم اترك للعشرة أن تتكلم وتدّعى وتستطيل ؛ قد تقول : إنها أكثر إشراقاً ، أو أظرفُ شكلاً ، أو أحسنُ وضعاً وتصفيفاً ؛ ولكن الكلمة المحرّمةَ هنا أن تزعم أنها أكبر قيمةً فى السوق . . . !

قال الشيخ : ومَن مِنَ النساء تصيبُ رجلَها الكاملَ أو القريبَ من كماله عندها ، أى كالَ طبيعته بالقياس إلى طبيعتها ، كالَ جسم مفصّلٍ لجسم تفصيلَ الثوب الذى يلبسه ويختال فيه ؟ أما إن هذا من عمل الله وحده ؛ كما يبسطُ الرزقَ لمن يشاء من عباده ويَقْدِر ، يبسط مثل ذلك للنساء فى رجالهن ويَقْدِر

فاذا لم تصِب المرأة رجلَها القوىّ ـ وهو الأعمُّ الأغلب ـ لم تستطع أن تكون معه فى حقيقة ضعفها الجميل ، وعملَت على أن يكون الرجل هو الضعيف ، لتكون معه فى تزوير القوّة عليه وعلى حياته . وبهذا تخرج من حيّزها ، وما أول خروج النساء إلى الطرقات إلا هــذا المعنى ؛ فان كثُر خروجهن فى الطريق وتسكّعْن ههنا وههنا فانما تلك صورة من فساد الطبيعة فيهن ومن إملاقها أيضاً . . . . .

قال الشيخ : وكأن فى الحديث الشريف إيماء الى أن من بعض الحق على النساء ينزلْن عن بعض الحق الذى لهن إبقاءً على نظام الأمة ، وتيسيراً للحياة فى مجراها ؛ كما ينزل الرجل عن حقه فى حياته كلهـا إذا حارب فى سبيل أمته ، إبقاءً عليها وتيسيراً لحياتها فى مجراها . فصبرُ المرأة على مثل هذه الحالة هو نفسُه جهادُها وحربها فى سبيل الأمة ، ولها عليه من ثواب الله مثلُ ما للرجل يُقتَلُ أو يُجرحُ فى جهاده

ألا وإن حياة بعض النساء مع بعض الرجال تكون أحياناً مثلَ القتل ، أو مثل الجرْح ، وقد تكون مثل الموت صبراً على العذاب ! ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمزوّجةٍ يسألها عن حالها وطاعتها وصبرها مع رجلها : «فأين أنت منه ؟» قالت ما آلوه إلا ما عَجَزْتُ عنه ! قال : « فكيف أنتِ له ؟ فانه جنّتُكِ ونارُك »

آه ! آه ! حتى زواجُ المرأة بالرجل هو فى معناه مرورُ المرأة المسكينة فى دنيا أخرى الى موتٍ آخر ، ستُحاسب عنده بالجنة والنار ، فحسابها عنـد الله نوعان : ماذا صنعتِ بدنياكِ ونعيمها وبؤسها عليكِ ؛ ثم ماذا صـنعتِ بزوجك ونعيمه وبؤسه فيك ؟

وقد روينا أن امرأة جاءت النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يارسول الله ، إنى وافدةُ النساء اليك ؛ ثم ذكرتْ ماللرجال فى الجهاد من الأجر والغنيمة ؛ ثم قالت : فما لنا من ذلك ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : « أبلِغى من لقيتِ من النساء أن طاعةً للزوج ، واعترافاً بحقّه ـ يعدِلُ ذلك ؛ وقليلٌ منكنّ من يفعله ! »

قال الشيخ : تأمّلوا واعجبوا من حكمة النبوّة ودقّتها وبلاغتها ؛ أيقالُ فى المرأة المُحِبّة لزوجها المفتتنة به المعجَبةِ بكماله : إنها أطاعته أو اعترفت بحقه ، أو ليس ذلك طبيعةَ الحب إذا كان حباً ؟ فلم يبق إذن إلا المعنى الآخر ، حين لا تصيب المرأةُ رُجلها المفصَّل لها ، بل رجلاً يُسمىّ زوجاً ، وهنا يظهر كرمُ المرأة الكريمة ، وهاهنا جهادُ المرأة وصبرُها ، وهاهنا بَذْلُها لا أخْذُها ؛ ومن كل ذلك هاهنا عملها لجنّتها أو نارها

فاذا لم يكن الرجل كاملاً بما فيه للمرأة ، فلتُبْقِه هى رجلاً بنزولها عن بعض حقها له ، وتركها الحيـاةَ تجرى فى مجراها ، وإيثارها الآخرةَ على الدنيا ، وقيامِها بفريضةِ كمالها ورحمتها ،

فيبقى الرجل رجلاً فى عمله للدنيا ، ولا يُمسَخُ طبعه ولا ينتكس بها ولا يَذل ، فان هى بذأت وتسلطت وغلبت وصرَّفت الرجل فى يدها ، فأكثر مايظهر حينئذٍ فى أعمال الرجال من طاعتهم لنسائهم — إنما هو طيشُ ذلك العقل الصغير وجُرأته ، وأحياناً وقاحتُه ؛ وفى كل ذلك هلاك الرجولة ، وفى هـلاك معانى الرجولة هلاكُ الأمة !

قال الشيخ : والقلوبُ فى الرجال ليست حقيقيةً أبدا ، بطبيعة أعمالهم فى الحياة وأمكنتهم منها ، ولـكن القلب الحقيقى هو فى المرأة ، ولذا ينبغى أن يكون فيه السُموُّ فوق كل شىء إلا واجب الرحمـة ، ذلك الواجب الذى يتَّجه الى القوىّ فيكون حبّاً ، ويتجه الى الضعيف فيكون حناناً ورقّة ، ذلك الواجبُ هو اللطف ، ذلك اللطفُ هو الذى يُثبت أنها امرأة

***

قال أبو معاوية : وانفض المجلس ، ومنعنى الشيخ أن أقوم مع الناس ، وصرف قائدى ، فلما خلا وجهه قال : يا أبا معاوية ، قُم معى الى الدار ، قلتُ ما شـأنٌ فى الدار يا أبا محمد ؟ قال : إن (تلك) غاضبة على ، وقد ضاقت الحال بينى وبينها ، وأخشى أن تتباعد ، فأريدُ أن تصلح بيننا صلحا

قلت : فمَّ غضبها ؟ قال : لاتسأل المرأة مِمَّ تغضب ، فكثيراً ما يكون هذا الغضب حركةً فى طباعها ، كما تكون جالسة وتريد أن تقوم فتقوم ، وتريد أن تمشى فتمشى !

قلت : يا أبا محمد ، هذا آخر أربع مرات[1] تغضب عليك غضب الطلاق ، فما يحبِسُك عليها والنساء غيرها كثير

قال : ويحك يارجل ! أبائعُ نساءٍ أنا ، أما علمتَ أن الذى يطلق امرأة لغير ضرورةٍ ملْجئةٍ ، هو كالذى يبيعها لمن لا يدرى كيف يكون معها وكيف تكون معه ، إن عمْرَ الزوجة لو كان رقبةً وضربت بسيف قاطع لـكان هذا السيف هو الطلاق !

وهل تعيشُ المطلّقةُ إلا فى أيام ميتّة ، وهل قاتل أيامها إلا مطلقُها ؟

قال أبو معاوية : وقمنا الى الدار ، واسـتأذنت ودخلت على (تلك) . . . . ؟

(لها بقية) طنطا مصطفى صادق الرافعى

(١) هذا هو التعبير الصحيح لمثل قول الناس « هذه رابع مرة »

حكايتى مع بوبى

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

وقعت عيني عليها ، فلم أعد أرى سواها . وكنتُ أركب « الأمنيبوس » ففتحتُ الباب وإذا بها أمامى ! وفى حجرها كلب أبيض صغير غزير الشعر ، وإلى جانبها صاحب لى — جالس كالدمية ! فغضضتُ الطرف — أعنى أنى حوّلتُ عينى عنها إلى التمثال ، وكانت نظرتى واشـية بالاعجاب والسرور ، فانقلبت نظرةَ حسدٍ وغيظ — ومقتٍ أيضاً ! ولـكنى كتمتُ ذلك ، وأمسكت على ما بنفسى منه ، ولم أسمح له أن يطل من عينىّ ، لظنى أنها قد تـكون زوجه أو أخته أو قريبته . وحيّيته ، ولـكنه كان تمثالاً مبنياً أو منحوتاً من الحجر ، لا إنساناً حياً من لحم ودم ، فمضيت عنه إلى آخر مقعد ، وقد زاد حقدى عليه وحسدى له . وجعلت أقول لنفسى — وأنا قاعد ، وبينى وبينهما صفّان — إنها لا يمكن أن تـكون زوجاً أو قريبة ، فما خلق مثلها ليشقى بزواج مثله أو يُبتلى بقرابته ، وأنه لاحق له فى زحامها على مقعدها ، وأن من سوء الأدب ألاّ يفسح لها

ورثيتُ لها ، وأشفقتُ عليها من برد هذا التمثال الجامد الذى لا ينبض فيه عرقٌ ولا يطرف له جفن ، وهممتُ مرات أن أدعوه إلىّ ، ولـكنى رددت نفسى عن ذلك ، مخافة أن تكون معه ، فان النساء — كـكل شىء — حظوظ وأرزاق ، وقد سمعتُ وحفظتُ من أمثال عامتنا أن الله يشاء أحياناً أن يعطى الحلق لمن ليس له أذنٌ !

وبلغتُ « محطتى » فنزلت ، ومنحتُ السيارة ظهرى ، فقد شقّ علىّ أن أراها تمضى بهذه الفتاة . فلما آذننى صوتها — أعنى صوت السيارة — أنها بعدت عنى ، درت ، فاذا بالفتاة إلى جانبى وأطراف أصابعها على فمها ، وفى وجهها كل آيات الحيرة والاضطراب ، ولم أر الـكلب ، فتلفتُ فبصرت به يعـدو ويسابق ظله الصغير ، ولم أبصر صاحبى فى مكان قريب أو بعيد ، فلم يبق محل للتردد ، فخلعتُ معطفى ورميته بلا تفكير ، وذهبت أعدو وراء الـكلب ، فأدركته بلا عناء ، فقد كان صغيراً وخطوه

متقارباً ، ورفعته عن الأرض ووقفت أمسح له شعره الناعم - لأستريح !

وسمعت صوتاً رخيماً يقول لي : « أشكرك ! إن هذا منك غاية المروءة »

فدرت وقلت بسرعة : « العفو - أستغفر الله ! »

قالت الفتاة : « منتهى اللطف ولا شك ! »

فلم أدر ماذا أقول ، وكنت أنا أحمل الكلب ، وهي تحمل معطفي - كما تبينتُ فيما بعد - ولكني لم أكن أرى أو أدرك شيئاً ، سوى أن لساني قد انعقد ، وأني فقدت القدرة على الكلام

وعادت الفتاة تقول : « صحيح ، أنا متشكرة جداً »

فكان كل ما فتح الله به عليّ : « إني أحب الكلاب »

ولم أكن صادقاً في ذلك ، فما أحب الكلاب ولا أطيقها ، وما رأيت قط كلباً - ولو كان ميتاً - إلا ذهبت أفكر بسرعة في أقرب مستشفى للكَلَب !

وسمعتها تقول : « لا شك أنك تحبها ! وإلا لما جريتَ وراءه هكذا ! »

فقلت : « نعم . إني أحب . . . أحبها . . . هل تحبينها ؟ »

قالت : « نعم ، حباً جماً »

قلت : « أنا كذلك . أحبها حباً جماً »

قالت : « بعض الناس لا يحبونها »

قلت : « صحيح - أنا . . . مثلاً . . . أحبها . . . . أحبها كثيراً »

ثم كأنما انحلت عقدة لساني ، ونزلت عليه الفصاحة والبيان فقلت من غير أن أتلعثم أو أتأتىء أو أفأفىء :

« أحب الكلاب بأنواعها - القَلَطيّ والسلوق والمالطي والأرمنتي والبول دوج والثعلبي ، وأحب هريرها ونباحها وهوهوتها ، وأحب لعبها وعبثها وعضها »

وخانني بياني فأمسكت . فقالت :

« يظهر أنك تحب الكلاب ! »

فقلت : « نعم ، أحب الكلاب . . . جداً »

قالت : « إن لها مزاياها »

قلت : « صحيح - إن للكلاب مزاياها - » وفتح الله عليّ فأضفت « وكذلك للقطط مزاياها »

فقالت : « صحيح - القطط أيضاً لها مزاياها »

قلت : « لا شك - ولكن القطط تختلف عن الكلاب »

قالت : « نعم تختلف - لقد لاحظتُ ذلك »

وكان ينبغي أن أجيب بشيء ، فقد اتسع الموضوع ولم يعد مقصوراً على الكلاب ، ولكنه لم يخطر لي كلام أقوله ، فعضضت لساني من الغيظ ، وسكت ، وسكتت هي أيضاً ، ووقفتُ أمسح للكلب شعره ، وبودي لو أخنقه ، فقد كبر في ظني أنه هو الذي جرّ عليّ هذه الحبسة التي أصابت لساني ، ثم رفعت عيني إلى الفتاة فرأيتها تنقل معطفي من ذراع إلى ذراع ، فأسرعت أقول :

« معذرة - لقد كنت ذاهلاً »

وتناولت المعطف ، فحملت عني كلبها وهي تقول :

« هو الذي أذهلك - إنك تحبه ، أليس كذلك ؟ »

فقلت : وأنا أتشهد - في سري - « أحبه ؟ آه ! نعم ، أحبها - أعني الكلاب ! »

قالت : « إنك . . . ؟ ؟ »

قلت : « إني ؟ »

قالت : « نعم ! إنك ... أعني ... إني لست أعرف لمن أنا مدينة بهذا الجميل ؟ »

قلت : « آه ! صحيح ! أعني . . . كلا . . . لا فضل ولا جميل . . . لا لا لا . . . لا شيء ! . وسخطتُ على نفسي جداً ، فقد كان واضحاً أنها تسألني عن اسمي وما إلى ذلك . فجاء جوابي كأني لا أرتاح إلى تعريفها شيئاً منه ، وأحر بهذا أن يصدمها ويفتّر ما بيننا »

ثم قالت : « ألا تتفضل معي قليلاً ؟ »

وأشارت إلى بيت ، فقلت :

« هذا مسكنك ؟ »

قالت : « نعم . تفضل ، فان أمي يسرها أن تشكر لك صنيعك ، وأظنها تحب بوبي أكثر مما تحبني »

وضحكت ، فقلت : « في وقت آخر .. لاموجب للشكر .. ما فعلت إلا ما يفعله أي إنسان »

وصافحتها وانصرفت مسرعاً ، وبودي أن أجرد من نفسي شخصاً أظل ألعنه وألكمه حتى أشفي غيظي ، فما أذكر أني

كنت قط أسخف مني في ذلك اليوم ، وإني لثرثار في العادة ، ولست أهيب المرأة أو أجهل طبيعتها ، فمن أين جاءني هذا البكم ؟ وماذا عسى أن تقول عني هذه الفتاة ؟ وكيف لم يخطر لي كلام إلا « إني أحب الكلاب ؟ ؟ »

وآليت — من فرط سخطي على نفسي وخجلي من عيي وفهاهتي — أن أجنب السير في هذا الطريق ، وحرصت على ذلك أشد الحرص ، ومضت أيام لا أذكر عددها ، ونسيت الحكاية ، وصرفتني عن الحياة مطالب الدنيا ومشاغل الحياة ، ثم اتفق لي أن ركبت « الامنيبوس » مرة أخرى في هـذا الطريق عينه ، مع صديق لي ، وكان قد دعاني الى العشاء ، فلما بلغت المكان هجمت عليّ الذكرى ، فانتفضت قائماً ، وقلت لصديق :

« سألحق بك ، فامض أنت »

قال : « الى أين ؟ »

قلت : « زيارة وجيزه »

قال : « من ؟ »

قلت : « زيارة . . . ! ما سؤالك هذا ؟ »

قال : « أفي الأمر سر ؟ »

قلت : « لا يا سيدي . لاسر ولا شبهه ، سأزور كلباً »

قال : « كلب ؟ »

قلت : « نعم ، كلب ! وأي غرابة في ذلك ؟ »

قال : « ولكنك تكره الكلاب ! ؟ »

قلت : « أكرهها ؟ من قال إني أكرهها ؟ إنما أكره ما يستحق الكراهة من كل شيء »

فصاح بي وأنا أنزل : « ولكنك لاتعرف البيت »

فقلت : « بل أعرفه . . . لاتخف عليّ ! »

فصاح بي — من النافذة : « بل لاتعرفه . . . . . أنا واثق ، فاصعد »

فقلت بحماقة . « يا أخي أعرفه . . . هي دلتني عليه ! »

فقال : « هي ؟ »

فمضمضت لساني من الغيظ ، ومضيت عنه !

***

ودققت الجرس ، فخرجت لي خادمة وقالت : « نعم ! »

فحرت ماذا أقول ؟ وذكرت أني لا أعرف اسم الفتاة ، ولا اسم أمها ، ووقفت متردداً ثم قلت :

« اسمعي يا شاطرة ! إن عندكم كلباً صغيراً جميلاً ، أبيض الشعر ، أليس كذلك ؟ »

فقالت بدهشة : « كلب ؟ تسأل عن كلب ؟ »

قلت : « نعم . . . اسمه . . . اسمه . . . آه ! تذكرت . . . اسمه بوبي . . . نعم بوبي »

قالت : « آه . . . بوبي . . . ماله ؟ »

قلت : « أ... إ... كيف صحته ؟ إن شاء الله يكون بخير ؟ »

فدارت اللعينة ، وقالت تخاطب من لا أرى :

« إنه رجل غريب يسأل عن صحة بوبي ! »

فبرزت لي سيدة ضخمة — ضخمة جداً — أضخم شيء رأيته في حياتي ، حتى لقد احتجت أن أدور بعيني في أنحاء جسمها المتباعدة ، لأحيط بها علماً ، وأقبلت على تسد الفضاء في وجهي وقالت :

« من هذا ؟ »

قالت الخادمة : « لا أعلم . . . لم أره من قبل »

فسألت خادمها ، كأنها لا تراني — وهل أنا إلا ذرة أو هباءة ؟ — : « ماذا يريد »

قالت الخادمة : « يريد أن يعرف كيف صحة بوبي ؟ »

فقالت : « ما شأنه به ! هل يعرفه ؟ »

فتدخلت في الحوار وقلت : « نعم يا سيدتي ، لقد تشرفت بمعرفته يوم فر من سيدته وكاد يضيع أو يختنق »

فقالت : « آه ! » ! ولم تزد

قلت : « نعم ، وقد خطر لي أن أسأل عنه كيف حاله ؟ »

قالت : « بخير . . . أشكرك بالنيابة عنه »

قلت : « ألا يمكن أن أراه ؟ وأطمئن عليه ؟

قالت : « لا . . . لايمكن »

قلت : « أهو لا قدر الله . . . ؟ »

قالت : « خرج . . . »

قلت : « خرج ؟ يا سيدتي كيف تركينه يخرج وحده ؟ »

قالت : « لا . . . خرج مع إيلين . . . لاخوف عليه . . متشكرة . . . »

فلم أدر « إيلين » هذه من تكون ؟ الفتاة أم خادمة أخرى ، ولكني قلت أجازف وأمري الى الله ، وسألتها :

« وكيف حالها ؟ بخير إن شاء الله ! »

قلت : « حالها ؟ من ؟ »

قلت : « الدموازيل إيلين ؟ »

قالت : « الدموازيل . . . ؟ »

قلت : « آه . . . بنتك . . . أليست بنتك ؟ »

فقالت : « بنتي ؟ عن أي شيء تتكلم ؟ »

فتشجعت وسألت : « أليس هذا بيت الدموازيل إيلين ؟ معذرة إذا كنت مخطئاً ! »

قالت : « بيت الدموازيل ايلين ؟ ماذا جرى لعقلك ؟ من أنت ؟ إنها خادمة هنا ! »

فأحسست أنه لم تبق لي قدرة على المضي في هذا الحوار ، فاعتذرت لها مرة أخرى ، وفررت

***

وصرت في الطريق ، فأخرجت المنديل ، وأقبلت على وجهي أمسح العرق المتصبب عنه في الشتاء ، وإذا بالفتاة تقول بأرخم من صوتها الأول :

« سعيدة . . . هذا بوبي »

ومدت لي يديها به ، فلم أتناوله ، وتركته على كفيها وسألتها :

« هل أنت إيلين ؟ قولي بسرعة ! »

فقالت وهي متعجبة : « إيلين ؟ كلا . . . إني . . . »

فقاطعتها : « لا تقولي شيئاً . . . . هذا حسبي . . . . يكفي أنك لست إيلين . »

قالت : « ولكني لا أفهم . . . . »

قلت : « ستفهمين كل شيء . . . بعد أن أتنفس وأشكر الله »

ثم قصصت عليها الحكاية ، فضحكت ، ولما سكنت الضجة ، واستطاعت أن تتكلم أخبرتني أني غلطت ، وأن هذا مسكن جيران ، وأن كلبهم كان قد ضاع ، فرده عليهم بعضهم ، وأن هذه السيدة الضخمة لابد أن تكون قد استرابت بي ، وشكت في أمري ، لأنها تعرف الذي أعاد الكلب ، ففهمتُ السبب فيما بدا منها من الجفوة ، ولماذا تركتني واقفاً على عتبة الباب وأبت أن تدعوني الى الدخول

فقلت : « إذن ناوليني بوبي . . . . »

وحملته عنها وصعدت معها الى أمها . . .

وضحكنا كثيراً في ذلك المساء ، ولا أحتاج أن أقول إني نسيت صديقي وعشاءه . . .

ابراهيم عبد القادر المازني

النزاع بين ايران والعراق

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان مما عرض على عصبة الأمم في دورتها الأخيرة الخلاف بين إيران[1] والعراق على مسألة الحدود ؛ ولكن مجلس العصبة لم يشأ كعادته أن يبادر الى درس خلاف يخشى أن يحول تعقيده وخطورة العوامل والاتجاهات المتصلة به الى فشل العصبة في بحثه باستقلال ونزاهة ؛ ولهذا آثر بعد بحث المسائل الشكلية أن يرجئه الى دورة أخرى عسى أن يوفق الفريقان المتنازعان الى تسويته بمفاوضات مباشرة ، فينجو المجلس بذلك من الحرج والتعرض الى فشل يزيد في ضعف العصبة وانحلال هيبتها

ومما يبعث الى أشد الأسف أن ينشب مثل هذا الخلاف بين دولتين شرقيتين كايران والعراق تربطهما صلات تاريخية قديمة ترجع الى عصور وآماد بعيدة ، وتجمع بينهما مصالح مشتركة اقتصادية وسياسية وعسكرية ، ويضاعف هذا الأسف ألا تستطيع الدولتان الشقيقتان حسم هذا الخلاف بالتفاهم المباشر ، وأن تضطرا الى عرضه على هيئة دولية دلت سوابقها وأعمالها في بحث المسائل الشرقية على أنها لا تملك بحثها دائماً بحرية ونزاهة ، وأنها تتأثر غالباً بالنفوذ الأقوى . وفي هذا الخلاف ، على رغم قيامه بين دولتين شرقيتين ، مايهم بعض الدول الغربية ذات المصالح والنفوذ

والخلاف الايراني العراقي قديم يتناول علائق الدولتين منذ ظهور العراق في الوجود كوحدة سياسية خاصة ، أعني منذ خاتمة الحرب الكبرى ؛ وقد كان من نتائجه أن لبثت إيران مدى أعوام طويلة تصر على عدم الاعتراف بالعراق الجديدة ، ولم تعترف بها إلا في سنة ١٩٢٩ نزولاً على سعي السياسة البريطانية . وإذا قلنا باضطراب العلائق بين إيران والعراق في تلك الفترة ، فمعناه اضطراب العلائق بين إيران وبريطانيا العظمى التي كانت يومئذ تسيطر على أقدار العراق وتتولى توجيه علائقه الخارجية ،

---

(١) لم يبق لنا أن نستعمل بعد كلمة «فارس» بعد أن صدر قانون خاص باستبدالها بكلمة «إيران»

وقد كان يرجع أحياناً الى أسباب خارجة عن العراق ذاته ، كالخلاف بين إيران وانكلترا على مسألة البحرين . وأحياناً الى أسباب تتعلق بالعراق مباشرة كالخلاف على الحدود . واقتحامها بين حين وآخر من بعض رعايا هذا الفريق أو ذاك ، أو على بعض المسائل التجارية وغيرها . ولما حصل العراق على استقلاله بعقد المعاهدة العراقية الانكليزية فى صيف ســـنة ١٩٣٠ سعى الى التفاهم مع جارته ، وانتهت جهود الفريقين فى ذلك السبيل الى شيء من النجاح ، وقام المغفورله الملك فيصل بزيارة رسمية الى طهران ، وكان من نتائجها أن زاد التقرب بين الدولتين وسويت بينهما مسائل كثيرة ، ولـكن الخلاف على الحدود بقى على حاله ، والظاهر أن إيران كانت تنتظر لاثارته فرصة ملائمة

ويقع الخلاف الحاضر بين الدولتين على الحدود الايرانيـة العراقية مما يلى شط العرب فى الجهة الجنوبية الغربية بالنسبة لايران ، والجنوبية الشرقية بالنسبة للعراق . ومعروف أن شط العرب هو الاسم الذى يطلق على المجرى المشترك الذى يندمج فيه دجلة والفرات قبل مصبهما فى الخليج الفارسى بنحو مائة ميل ، وعليه تقع مدينة البصرة . وتبدأ الحدود الايرانية العراقية من الخليج الفارسى شرق شط العرب (بالنسبة لايران) متجهة نحو الشمال بحذاء شط العرب وعلى قيد بضعة أميال منه ، ولا تتسع هذه الشقة الضيقة بين شط العرب والحدود الايرانيـة إلا عندما تحاذى البصرة تقريباً ، وتستمر الحدود شمالا محاذية لنهر دجلة وتتسع تدريجياً حتى يصير بينها وبين بغداد نحو سبعين ميلاً . وموضع الخلاف الحالى من الحدود هو الجزء الذى يحاذى شط العرب شرقاً ويفصل بين إيران وشط العرب ، فان حكومة إيران تطالب به وتقول إن الحدود الطبيعية لايران يجب أن تكون هى شط العرب ، ويجب أن تضع إيران يدها على الضفة الأخرى من النهر لتستطيع أن تعمل على تأمين حقوقها فى حرية الملاحة فيه ، ولـكن العراق تعارض هذه الدعوى لأن الحدود الحـالية بينها وبين إيران والتى تضع بمقتضاها يدها على شط العرب والشقة الواقعة بينه وبين الحدود الايرانية ، إنما قررت باتفاق عقد بين فارس والدولة العثمانية سنة ١٩١٣ وقت أن كانت العراق جزءاً من تركيا ، وقد تلقت العراق حدودها الحالية بمقتضى هـذا الاتفاق ، فهى لاتستطيع أن تتخلى عن شيء من أرضها

والواقع أن هذه الشقة التى تطالب بها إيران ذات أهمية عسكرية واقتصادية خطيرة . واستيلاء إيران عليها يجعلها إلى جانب العراق سيدة الملاحة فى شط العرب ، ويهدد مركز البصرة ثغر العراق ومعقله الجنوبى ؛ وللبصرة أهميـة عسكرية خاصة بالنسبة للدفاع عن العراق

أما حجة إيران فى المطالبة بهذه البقعة فهى أن الاتفاق الذى عقدته فى شأن الحدود مع الدولة العثمانية سنة ١٩١٣ باطل لأنه لم يعقد فى جو من الحرية ، ولأنه لم يبرم لا فى تركيا ولا فى إيران ، وأن دلالة بطلانه هو أن القسم الشمالى من الحدود الايرانيـة التركية القديمة ، وهو الذى يفصل اليوم بين إيران والجمهورية التركية قد رسم وعـدل باتفاق جديد بين الدولتين باعتبار أن التخطيط القديم باطل لايعول عليه ؛ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان مقتضيات عملية ودولية توجب أن يكون شط العرب هو الحد الفاصل بين الدولتين ؛ وتلقى إيران تبعـة الخلاف على العراق ، وتقول إنها لم يسعها حين التجأ العراق إلى عصـبة الأمم إلا أن تقابلها أمام مجلس العصبة راجية أن تتمكن العصبة من بحث المسألة بما يحسم الخلاف ويضع الأمور فى نصابها ؛ وهو مايدل على أن إيران لم تـكن راغبـة فى طرح الموضوع على عصبة الأمم [1]

ويلوح لنا أن الأسباب التى تستند إليها وجهة النظر الايرانية مما يصعب قبوله ، لأن القول ببطلان معاهدة قائمة عقدت على أساس اتفاقات سابقة وقد نفذت نصوصها بالفعل ، لايسوغ من الوجهة القانونية ؛ ولو جاز أن تفسخ المعاهدات برأى فريق واحد من المتعاقدين على نحو ماتقدم إيران ، لما بقى للمعاهدات الدولية أية قيمة ؛ وأما كون الحدود الشمالية عدلت مع تركيا الجمهورية ، فذلك يرجع إلى اتفاق الفريقين ؛ وليس هنالك مايمنع أن يعقد مثل هـذا الاتفاق بين إيران والعراق إذا ارتضت كل منهما عقده . ومشاكل الحدود تقوم فى الأغلب على اعتبارات قومية ، كأن يكون سكان البقعة المطالب بضمها من نفس جنسية الأمة المطالبة ، وأن يعربوا عن رغبتهم فى الانضمام إليها بصورة

(١) لخصنا وجهة النظر الايرانية طبقاً للبيان الذى أذاعه سعادة وزير إيران المفوض بمصر فى جريدة الأهرام بعددها الصادر فى ٣١ يناير

عملية ، فهل تستطيع إيران مثلاً أن تقول إن سكان الشــقة التى تطالب بها أو أن أغلبهم ينتمون إلى الجنسية الايرانيــة ؟ وهل يطالب هؤلاء السكان بالانفصال عن العراق والانضمام إلى إيران ؟ هذا مالم تستطع أن تعرضه إيران ، ولو استطاعت لـكان لها سنداً قوياً معقولاً

وأما عن طرح النزاع على عصبة الأمم ، فان العراق هى التى لجأت إلى هذه الخطوة ، وهو مالم تكن ترغبه إيران ؛ والفريقان المتنازعان من أعضاء العصبة ، وإيران بنوع خاص من أقدم أعضائها ؛ وليس فى الواقع ما يؤخذ على العراق فى مسلـكها ، لأنهــا تصرفت طبقاً لما ينص عليه ميثاق العصبة صراحة فى مادتيه الثانية عشرة والثالثة عشرة ؛ إذ تنص الأولى على « أنه إذا ثار بين أعضاء العصبة خلاف قد يجر إلى قطع العلائق ، فانهم يطرحونه إلى إجراءات التحكيم أو أمام مجلس العصبة » وتنص الثانية على « أنه إذا ثار بين أعضاء العصبة خلاف يمكن تسويته بالتحكيم ؛ فانه إذا لم يمكن تسويته بطريق المفاوضات السياسية ، فانه يطرح برمته إلى التحكيم ؛ ومن أنواع هــذا الخلاف الذى يمكن حله بطريق التحكيم الاختلاف على تفسير معاهدة ، أو على أى نقطة تتعلق بالقانون الدولى ... الخ » ؛ ولـكن الذى نعرفه من موقف إيران أمام العصبة هو أنها تأبى قبول التحكيم أو بعبارة أخرى الاختصام إلى محكمة العدل الدولية ، بحجة أن دستورها الأساسى لا يسمح بذلك ، وأنهــا تصر على بطلان المعاهدة المعقودة ، فالمسألة بالنسبة إليهــا ليست خلافاً على تفسيرها ؛ ولـكنها لا تأبى المثول لدى مجلس العصبة ، لـكى يبحث المجلس هذا الخلاف ويحاول أن يضع حداً له ؛ ومتى أتمت العصبة بحث الخلاف ، فان إيران تقوم عندئذ بمفاوضات مباشرة مع العراق لتسوية النزاع وحسمه بصورة عملية [1]

ومع أنا نرجو أن توفق الدولتان إلى حسم هــذا الخلاف الخطير سواء على يد مجلس العصبة ، أو بطريق المفاوضات المباشرة ، فانا لسنا نعلق كبير أمل على مجهود العصبة فى هذا الشأن ؛ بل يلوح لنا أن تدخل العصبة لم يكن مرغوباً فيه ، لأن سوابق العصبة فى نظرها وبحثها للمسائل الشرقية لا تشجع على حسن الظن بها خصوصاً إذا كان الأمر مما يتصل بنفوذ إحدى الدول الـكبرى ، وقد أبدت عصبة الأمم أنها فى بحث المسائل الشرقية تتأثر دائماً بمــا يحيط بها من مطامع ومصالح غربية ، وأقرب شاهد على ذلك ، مسألة اعتداء إيطاليا على الحبشة وإغارتها على أراضيها بنية ظاهرة فى الغزو والاستعمار ؛ ومع ذلك فقد أبدت عصبة الأمم حين أرادت أن تلتجىء الحبشة إليها فتوراً ورغبة ظاهرة فى التنحى عن بحث هذا النزاع ، لأن إيطاليا لم ترغب فى بحثه على يد عصبة الأمم . ولن يتغير اعتقادنا فى العصبة بالنسبة لموقفها من النزاع الايرانى العراقى ، بغض النظر عن ظروفه الخاصة ، فاعتقادنا دائماً أنها لا تستطيع معالجة هذه المسائل بروح من النزاهة والاستقلال

نرجو إذن أن يحسم الخلاف بين الدولتين الشقيقتين بالحسنى والاتفاق المباشر ، خصوصاً وأن انكلترا من جهة أخرى تعلق أهمية خاصة على سلامة هذه البقعة من الأراضى العراقية . ذلك أن البصرة استثنيت من نصوص المعاهدة العراقية الانكليزية فيما يتعلق بالجلاء وبها قاعدة جوية عسكرية بريطانية هى إحدى قواعد الطريق الامبراطورى ، وإيران من جانبها تتوجس من السياسة البريطانية فى شبه جزيرة العرب ، وتخشى أن يكون لها بما تنشئه من المطارات الحربية فيما وراء الفرات (تنفيذاً للمعاهدة العراقية الانكليزية) غايات أخرى غير تأمين المواصلات الامبراطورية . والعلائق بين إيران وانكلترا ليست على ما يرام ، وهنالك عدة مسائل معلقة بين البلدين . ومنذ سنة ١٩٢٢ ترتبط إيران والسوفييت بمعاهدة دفاعية هجومية ، وهى موجهة إلى إنكلترا بلا ريب ، فاذا استطاعت إيران بالضغط على العراق أن تدفع حدودها إلى شط العرب ، فانهــا تـكسب بهذا التعديل مزايا عسكرية خطيرة . وعلى هذا فمن صالح إيران والعراق أن تعمل كل منهما لحسم الخلاف تواً حتى لا تدع سبيلاً إلى التدخل الأجنبى ، وعسى أن يكون فى استئناف المفاوضات أخيراً فى رومة بين مندوبى العراق وإيران مما يؤذن بقرب التفاهم والوئام بين الجارتين الشقيقتين

محمد عبد الله عنان
المحامى

(١) راجع بيان وزير إيران المشار إليه

قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

هذه مقالات متفرقات شاعت فى كثير من الأمم وقرأها الألوف الكثيرة من الناس، يربطها موضوع واحد، ويجرى بها تسلسل تاريخى واحد، كتبها الكاتب العالم (بول دى كرويف) وقصد بها أن يكشف للجمهور بطريقة سهلة وفى لغة مؤاتية عن ذلك الصراع الذى بدأ منذ ثلاثة قرون بين الانسان وبين المكروب، ويصف تلك الحرب الضروس التى قامت منذ حين قريب بيننا وبين هذه الأعداء الصغيرة التى عاشت من الأزل فى رحابنا عيشة الأحلاف، وأقامت بين أظهرنا منذ كانت الحياة إقامة الاضياف، وفتكت بنا فتكا دونه فتك النار والحديد، تلك الجنود المجندة المروعة التى وجدنا أعظم خطرها فى صغرها، وأشد مراسها فى دقتها، وأنكى دهائها فى خفائها، سننشر قصتها تباعاً فى الرسالة، وسيجدها القارئ المتتبع قصة على خطرها وعلى قرب مساسها بحياتنا، فيها ما فى أقاصيص الادب من فرح ومن ألم، ومن فكاهة ومن مأساة، ومن غذاء للعاطفة الطيبة لا يقصر عن غذاء يجده فى أقاصيص الحب وحكايات الغرام. فحكاية الشجاعة والاقدام، وحكاية البروز للموت لمقاتلة الموت فى الظلام، وحكاية الألم الأليم، يحتمله المرء فى سبيل المبدأ الكريم، وحكاية الصبر على المكاره ابتغاء نفع الانسانية ومرضاة لوجه الله، حكايات لن تخفق فى تحريك القلوب الكريمة فى الرجال الأكارم

المترجم

لوفن هوك Leeuwenhoek

أول غزاة المكروب



منذ قرنين ونصف نظر رجل خامل الذكر نكرة الاسم أول نظرة فى عالم جديد غريب يسكنه ألوف الأجناس من أحياء صغيرة بالغة الصغر، بعضها وحشى ذو عداء قتال، وبعضها رفيق صديق نفاع، فكان هذا إيذاناً بفتح مبين أكبر خطراً وأجدى على الانسان من قارة يكتشفها وجزر يستعمرها

وكان اسم هذا الرجل « لوفن هوك Leeuwenhoek »، اسم عفى عليه النسيان أو كاد، ورجل لم يشد بذكره أحد، يجهله الناس اليوم كما كانوا يجهلون حيواناته ونباتاته الضئيلة يوم أن رفع الغطاء عنها. هذه قصته، قصة أول كاشف للمكروب، تتلوها قصص من تبعوه من كشاف المكروب ومقاتلة الموت، وهى قصص ساذجة بسيطة لقوم جريئين لجاجين متشوفين مثابرين، أطلوا على هذه الدنيا الجديدة العجيبة، دنيا المكروبات، وأطالوا النظر فيها وتابعوه فى غير ملل أو كلال، وأرادوا فوق ذلك أن يشبروها ويمسحوها ويجعلوا لمجاهلها ومعاميها خرائط واضحة مبينة، فأخذوا يتحسسون فى الظلام، ويمدون أكفهم متلمسين غير لامسين، فيستقيمون حيناً ويخبطون أحياناً، ويصيبون مرة ويخطئون مراراً، لحلوكة المكان ووعورة المسير. ومنهم جماعة غلوا فى الجرأة فقتلتهم تلك الخلائق الصغيرة التى كانوا يدرسونها فلم يصيبوا جزاء ما عملوا إلا مجداً صغيراً مستوراً

فى أيامنا هذه لا يؤخذ على المرء أن يكون رجل علم، ورجال العلم اليوم عنصر خطير من العناصر التى تتألف منها سكان البلاد المتحضرة؛ معاملهم فى كل مدينة، وأعمالهم على الصفحات الأولى من الجرائد، تذاع فى الكثير الغالب ولما يتم نضاجها، وكل متخرج شاب فى جامعة يستطيع أن يبحث فى العلوم جهاراً، وفى مكنته رويداً رويداً أن يصير أستاذاً يدرس بمرتب فيه غناء، وأن يستمتع بالسكن الهادئ فى بيت صغير مريح. ولكن احمل نفسك إلى عصر « لوفن هوك »، إلى خمسين ومائتى سنة إلى الوراء، وتصور نفسك قد رجعت الى دارك من آخر درس فى آخر سنة من مدرستك الثانوية، وبدأت تفكر فيما تتعلم من بعد ذلك لتخلق لنفسك مستقبلاً، وتهيأت تطاب المزيد من العرفان العالى، من العلم الحر، من البحث الطليق . . . . هيهات

أو تصور أن النكاف[1] أصابك، وأنك برئت منه، وأن نفسك تاقت الى عرفان ما النكاف، ما كنهه، ما سببه. تسأل والدك فيقول لك: لعنة من روح خبيثة دخلتك. هذا جواب

(١) مرض معد يصيب الغدد النكفية وهى الواقعة فى الصدغ أمام الأذن فيورمها، ويصيب فى العادة الصغار

قد لا يقنعك ، ولكن مع هذا تصدقه . أو على الأقل تتظاهر بتصديقه ، ثم لا تعود تفكر في النكاف ولا في كنهه ولا في سببه ، ثم تنساه نسياً أبديّا ، لأنك لا تستطيع أن تجهر بمناقضة أبيك ولو قال نكراً ، ولأنك إن فعلت أذاقك مسّ العصا أو طرْدَ البيت . فأبوك ذو سيادة مطلقة لا تُنازَع ولو جائرة

هكذا كانت الدنيا منذ ثلاثة قرون ، يوم وُلد « لوفن هوك » . كانت دنيا مليئة بالخرافات ، مغلولة بالأباطيل . دنيا أحرقت سرفيتوس Servetus (١) لأنه تجرأ على تشريح جثة ميت ليختبرها ليعلم ما فيها . دنيا قضت على جاليليو Galileo (٢) بالسجن المؤبد لأنه تجاسر فحاول أن يثبت أن الأرض تدور حول الشمس . دنيا كانت على وشك أن تستيقظ لليقين ولكنها لم تكد ، وأن تفك عن عنقها غُلّ الجهل ولكنها لم تكن فعلت ، وأن تحمر خجلاً من عار ماهى فيه فلم يبد في وجهها إلا مسحة تُخال من حُمرة . دنيا كان العلم فيها يدرج دَرَجان الطفل على ساقين ضعيفتين مرتعدتين في بطء وخشية ، وما كان العلم إلا استطلاع الحق بالنظر الدقيق والتفكير الواضح البرىء

ولد « لوفن هوك » عام ١٦٣٢ بين طاحونات الهواء الزرقاء والطرقات الواطئة والقنوات العاليـــة بمدينة « دلفت Delft » بهولاندة . وكانت أسرته ذات حُرمة كبيرة . أقول كبيرة لأنهم كانوا سلاّلين (٣) وكانوا خمّارين ، والخمّارون قوم محترمون مشرّفون في هولاندة . ومات أبوه فأرسلته أمه الى المدرسة ليصير موظفاً في الحكومة ، ولكنه ترك المدرسة في سن السادسة عشرة ، وتتلمذ لقمّاش (١) بمدينة أمستردام Amsterdam . فكان حانوت هذا القماش جامعتَه . تصوّر رجلاً علمياً من عصرنا هذا يُجرى اختباراته وتجاريبه بين أثواب الشيت وقرع أجراس الصيارفة ، وبين الحديث الى ربات المنازل تتوالى عليـه في دورة لا تنقطع وكلهن حريصات يساومن للقرش والمليم ! تلك كانت جامعة « لوفن هوك » ستة أعوام

وفي سن الحادية والعشرين ترك الحانوت ورجع إلى «دلفت» وهناك تزوّج وفتح حانوتاً لبيع المنسوجات واختص به . ولا ندرى عنه في السنوات العشرين التى تلت ذلك إلا أنه تزوج مرة اخرى وكان له بضعة أطفال مات أكثرهم . ولكن مالا شك فيه أنه تعيّن حاجباً في دار بلدية المدينة في هذه الأثناء ، وأنه شُغِف بنحت العدسات وغلا في ذلك غلواً كبيراً . فقد كان سمع أن الذى ينحت من الزجاج الرائق عدسات صغيرة فيتقن النحت ثم ينظر إلى الأشياء من خلالها يجدها أكبر كثيراً مما تراها العين

إن المعروف عنه بين سن العشرين وسن الأربعين قليل ، ولكن لا ريب في أنه عاش بين الناس كبعض الجهال فلم يُعرف عنه علم ولم تظهر له بينهم قيمة ، واللغة الوحيدة التى عرفها هى اللغة الهولاندية ، وهى لغـة خافية خاملة كان ينعتها أهل العصر بأنها لغة السماكين وأصحاب الدكاكين والصعاليك من الفعلة . أما المثقفون في تلك الأيام فكانوا يتكلمون اللاتينية . ولم يكن « لوفن هوك » يقرأها بَلْهَ الكلام بها . وكان كل ما يَعرف من كتب الأدب الانجيل الهولاندى . ولكن مع هذا ، وبالرغم من كل هذا ، ستجد أن جهله أعانه كثيراً ؛ فجهالته قطعت ما بينه وبين العلم الفارغ الزائف الذى كان شائعاً يومئذ ، فاضطُرّ إلى الرجوع إلى عينه ، والاعتماد على فكره ، والاعتداد بحكم نفسه ، وكان في خلقه حرونة البغال فساعده ركوب رأسه على اقتحام الطريق الذى سلك

لا مراء في أن رؤية الشئ من خلال عدسة ، ووجدانه أكبر مما ترى العين ، أمر فيه متعة وفيه سرور وفيه غبطة . ولكن من

(١) ميخائيل سرفيتوس طبيب اسبانى ولد عام ١٥١١م . جمع إلى علمه بالطب علم اللاهوت ، وتنقل في بلدان أوربا فجادل وباحث ، واتصل بأكابر رجال عصره من أهل العلم وأهل الدين ، ولقى لوثر واتصل بكالفين ، وكانت هذه صلة شؤم ، إذ اتهمه كالفين بالزندقة فقبضوا عليه في ٤ أبريل عام ١٥٥٣ في ليون بفرنسا . واستجوبوه بتهم وجهت اليه باسم الدين المسيحى ثم فر من السجن في فجر يوم من أبريل هذا وذهب إلى زوريخ ، وهناك تعرف عليه بعض الأحباب فوقفوه وحكموا عليه بأن يحرق حياً فأحرق في صبيحة يوم ٢٧ أكتوبر من العام نفسه

(٢) جليليو هو الايطالى الفلكى الفيزيائى المعروف ، ولد ببلدة بيزا عام ١٥٦٤ وتعلق حب الرياضة والفلك ، وكانت له في النظام الشمسى آراء معروفة كرهها القساوسة فعزره البابا وأخذ عليه عهداً ألا يعود ، وطالت السنون فنشر كتاباً في تقرير النظام الشمسى كما ارتآه كوبرنيكس فهاجت الكنيسة عليه من جرائه ، وانعقدت محكمة التفتيش وطلبته إلى رومة فاعتذر بشيخوخته فلم تأبه لاعتذاره ، فجاءها فحكمت عليه أحكاماً خففت عنه بالتدرج وانتهت إلى حبسه في بيته حيث عمى عام ١٦٣٧ ومات عام ١٦٤٢

(٣) السلال صانع السلال وبائعها

(١) بائع القماش

أين للوثن هذه العدسات : يشتريها ؟ هيهات ولو قطعوا رأسه . وكان كثير الشك كثير الاتهام ، فلم يجد بداً من صنعها بنفسه . وفى العشرين سنة التى لم نسمع فيها عنه ذهب إلى صناع النظارات وتعلم مبادئ نحت الزجاج ، وخالط الكيميائيين والصيادلة وتدخل فى أعمالهم ونفذ إلى أسرارهم ، فعلم كيف يستخرجون المعادن من خاماتها ، وأخذ عنهم بجهد النفس صياغة الذهب والفضة . وكان لا يعجبه العَجَب ، فلم تُرضِهِ العدسات ينحتها كأحسن ما ينحت نحاتو هولانده ، فكان يعيد عليها الكرةَ بعد الكرة ساعات طويلة ، ثم ركبها بعد ذلك فى مستطيلات صغيرة من النحاس أو الفضة أو الذهب مما استخرجه هو بنفسه من الخام على جمرات الفحم المتقدة بين الروائح الغريبة والأبخرة الخانقة . إن الباحث اليوم يدفع الخمسة عشر جنيهاً أو نحوها فيقبض بديلاً منها مكرسكوباً جميلا بارقاً يدير لوالبه وينظر فيه فيكشف ما يكشف وهو لا يعرف كيف صُنع مكرسكوبه ولا كيف رُكب . أما « لوفن هوك » فلم يكن يأخذ بشئ أخذ تسليم

بالطبع كان جيرانه يظنون به بعض الخبل ، ولكن « لوفن » لم يأبه لهم ، ومضى فى عمله تتنفط[1] يده وتحترق أصابعه ويشتغل ساعات الليالى الطويلة الهادئة وحيداً منكباً على أعمال صعبة دقيقة ، ناسياً أهله ، ناسياً أصدقاءه . وكان جيرانه الأخيار الطيبون يتسارقون الضحك منه بينما كان يشق لنفسه طريقاً عسيراً إلى صناعة عدسات صغيرة جداً قطرها دون ثُمن البوصة ، غايةٍ فى التماثل ، غايةٍ فى الكمال ، بلغ منها أن أرته دقاق الأشياء كبيرةً ضخمة فى صفاء وروعة . نعم إنه لم يكن كبير الثقافة ، ولكنه كان من بين رجال هولانده الرجلَ الفذَّ الذى استطاع أن يخلق هذه العدسات . وكان إذا ذكر جيرانه يقول : لقد حق علينا أن نغفر لهم فهم قوم لا يعلمون

ثم بدأ هذا القمَّاش يصوّب عدسته الى كل شىء وجد ، فنظر بها ألياف عضلات الحيتان ، ونظر بها ما كشط من جلد نفسه . وذهب إلى القصاب يستجديه أو يشترى منه عين ثور ، وأخذها وامتحنها ونظر إلى عدستها البلورية الجميلة فراعه منها تركيبها البارع . وجاء بشعرات من صوف خروف فأخذ يحدق فيها ثم يحدق ، وبأخرى من فرو كلاب الماء ، وبثالثة من بعض الأوعال ، وأخذ يحدق فيها ثم يحدق ، فتراءت له هذه الخيوط الدقيقة الملساء تحت قطع زجاجه الصغيرة كفروع الشجر كبراً وخشونة . وشرح رأس ذبابة ، فحاذر وحاسب حتى أخرج منه مخها ، وحمله على أبرة رفيعة ، ونظر إليه بمكرسكوبه فأعجب بتفصيلات هذا المخ الكبير . واختبر قطاعات خشبية لبضع من أشجار مختلفة ، وامتحن بذور النباتات ، ونظر النظرة الأولى إلى فم البرغوث وإلى أرجل القملة فوجدها جميعاً كبيرة غاية فى الكبر ، مفصلة غاية فى التفصيل ، كاملة غاية فى الكمال ، فاتهم عينه أو كاد . كان « لوفن هوك » كالجرو يتشمم كلّ ما حوله فلا يميز الطيب من الخبيث ، ولا يعوقه عائق من عرف أو أدب

— ٢ —

وكان « لوفن هوك » رجلاً شكا كا ملحـًا فى شكـه ، ينظر الى زبانى النحلة أو الى رجل القملة ، ثم ينظر ، ثم يكرر النظر حيناً بعد حين . ثم يترك كل هذا عالقاً الى طرف منظاره ليصنع منظارات أخرى ليرى أشياء أخرى . ثم يعود الى أشيائه الأولى ليتحقق مما كان رأى أولاً . فتجمع بذلك لديه مئات المكرسكوبات . ولم يكن يكتب عما يرى حرفاً ، أو يرسم له رسما ، حتى يؤكد بعدمئات النظرات أنه فى الظروف الواحدة والملابسات الواحدة يبصر دائما أموراً واحدة . وبعد كل هذا كانت لا تفوت الريبةُ قلبه : قل فيما قال عن هذا : « ينظر الناظر فى المكرسكوب أول مرة فيقول أرى كذا ، ثم يعيد النظر فيقول بل أرى كذا — خداعٌ لا ينجو منه حتى النظار الحاذق . لقد انفقت على مشاهداتى زمناً طويلاً لا يتسع له تصديق الكثيرين ، ولكنى أنفقته فى سرور ولذة ، ووضعت إصبعى فى أذنى كلما سمعت الناس يقولون : ولمَ كل هذا التعب ؟ وما العائدة من هذا النصب ؟ فان هؤلاء قوم لا يفقهون ، وأنا إنما أكتب لطلاّب الفلسفة وروّاد الحكمة . . »

وظل هكذا يعمل من غير راءٍ ولا سامع ، من غير مادح مصفّق أو مهلّل مكبر ، مدة بلغت العشرين عاماً

ولكن فى هذا الوقت ، فى منتصف القرن السابع عشر ، أخذت الأعوام تتمخض فى العالم عن أحداث عظيمة ، فنى

(١) النفطة البثرة فى الجلد تمتلىء بالماء من العمل أو نحوه

انجلترا وفرنسا وإيطاليا ، وفى كل ركن وبين كل ملأ . أخذ رجال ينظرون من جديد فى كل شىء يقال له علم ، وفى كل أمر تنتحل له لفظة الحقيقة ، قالوا : لن يغنينا بعد الآن ماتحدث به أرسطو ولا ما ارتآه البابا . لن يغنينا بعد الآن إلا ما تراه أعيننا باطالة النظر وإدامة الملاحظة ، وإلا ما تجده موازيننا وتكشف عنه تجاربينا »

وكان فى انجلترا من بين هؤلاء الثائرين نفر قليلون ألفوا فيما بينهم جماعة أسموها « المدرسة المتسترة » . وكان لابد لهم من التستر خشية على رقابهم من حبال المشانق « فكروموبل » كان رب هذا العصر والحاكم بأمره فيه ، فلو أنه علم بهم ، وعلم بالأقضية الغريبة التى يبحثون ، لقضى على أهل البدعة المؤتمرين بالموت . . . وكان من بين هذا النفر المتستر « روبرت بويل » Robert Boyle واسحق نيوتن Isac Neuton وارتقى شارل الثانى عرش ملكه فخرجت تلك الجماعة من الظلام الى النور ، ومن غيهب الجب الستار الذى كانت تعمل فيه الى نهار وضاح مذياع ينشر اسمها الجديد الى الرياح الأربع . وتسمت بالجمعية الملكية الانجليزية Royal Society of England . وكانت هــذه الجمعية الوقورة الجليلة أول مستمع الى « لوفن هوك » ، وذلك أنه كان فى مدينــة « دلفت » رجل يسمى « رجنيير دى جراف » Regnier de Graaf كان قد كشف فى مبيض الأنثى من البشر عن أمور ذات قيمة وخطر ، فكتب بها الى الجمعية الملكية فكافأته فاختارته عضواً مراسلاً . وكان « دى جراف » الرجل الوحيد من بين رجال « دلفت » الذى لم يضحك من « لوفن هوك » ، وكان « لوفن » قد تجهم للناس وتنكر لهم مما هزئوا منه وأساءوا اليه ، ومع ذلك أذن لـ « دى جراف » أن ينظر بعيون بابل التى صنعها : أن ينظر بتلك العدسات الصغيرة التى لم يكن يوجد مثلها فى أوربا ولا فى انجلترا بل ولا فى العالم كله . نظر « دى جراف » فى تلك العدسات فأكبر ما رأى ، وتصاغر فى عينه مجد كسبه ، وأسرع فكتب الى رجال الجمعية الملكية يقول اكتبوا الى لوفن هوك واسألوه أن يكتب اليكم بالذى اكتشف

وأجاب « لوفن » رجاء الجمعيــة فكتب إليها بلغة الواثق الجاهل قدر الفلاسفة العظام الذين يكتب اليهم . وكان كتاباً طويلاً ثرثاراً مضحكاً لا أثر للصناعة فيه ، تناول من الموضوعات كل مادارت عليه الشمس . وكان مكتوباً بلغة التخاطب الهولاندية وهى اللغة الوحيدة التى عرفها . وعنون كتابه : عينة من ملاحظات مكرسكوبية ابتدعها المستر لوفن هوك تتعلق بالفطر على الجلد وفى اللحم وهلم جرا ، وكذلك تتعلق بحمة (1) النحلة ونحوها . وجاء الكتاب الجمعية فأدهشها مافيه ، وقرأه السفسطائيون فيهم والعلماء فتبسموا منه وتفاكهوا عليه ، ولكن على الجملة راعهم ما قال « لوفن » إنه رآه بعدساته الجديدة ، وكتب اليه كاتب الجمعية يشكره ويرجوه أن يتبع كتابه كتباً أخرى ، وقد كان ، فقد أتبعه « لوفن » بمئات من الكتب طيلة خمسين عاماً . وكانت كتباً ثرثارة مليئة بقوارص الكلم عن جيرانه الجهال ، فضح فيها أدعياء ، وكشف فيها عن خرافات وأضاليل كشف خبير قدير ، وتحدث فيها عن نفسه وعن صحته ، وأتى فيها بأشتات من كل ما هب ودب ، ولكنها أحاديث برغم تبسطها ، وبرغم شتاتها ، كانت تتحشى هنا وهناك ، وفى كل كتاب تقريباً ، بأوصاف دقيقة مجيدة خالدة لما كشفته عين هذا التاجر . وطالعها لوردات الجمعية وسادتها فكانت لهم متعة وفخراً

(يتبع) أحمد زكى

(1) الحمة الابرة التى يلدغ بها الزنبور ونحوه

أصول التحقيق الجنائي

في التشريعين الأوربي والاسلامي

للأستاذ بشير الشريقي

إن موضوع « أصول التحقيق الجنائي » أعني الأساليب المتبعة لأثبات الأفعال الجُرمية هو من أهم موضوعات « العلم الجنائي » ، هذا العلم الذي ينظم إيقاع العقاب على من يخالف أمر القانون أو نهيه

إن أهمية هـذا العلم وخطره يظهران واضحين في نتيجته الضرورية ، وهي الحكم بالعقوبة على من ثبتت جريمته ، عقوبة تحرم المتهم المقرر بجرمه أقدسَ حقوقه ، من ماله وحريته بل من حياته أيضاً

لقد تعاقب على أصول التحقيق الجنائي في أوربا أسلوبان أصليان يعرف أولهما بالأسلوب « الادعائي » وثانيهما بالأسلوب « التحقيقي » . ظل الأسلوب الادعائي سائداً في أوربا حتى القرن الخامس عشر ، ومن مقتضاه أن يرجع القاضي عند عدم اقتناعه بالشهادات المسرودة أمامه واصرار المتهم على إنكار الجرم إلى ما يسمونه « حكم الله » ليفصل بين المتداعيين . أما حكم الله فقد كان يتجلى للقاضي بالمصارعة ، والماء المغلي ، والكيّ بالنار !

ثم أحلوا الأسلوب « التحقيقي » محل الأسلوب الادعائي حوالى القرن الخامس عشر للميلاد ، فكان التحقيق يجرى فيه بين جدران خرساء وفي خلوات متتابعة ، بين حاكم مجرب يميل بحكم العادة المسلكية إلى أن يرى في الظنين مجرماً ، وظنين عاجز عن الدفاع مضطهد في السجن ومستعد للأدلاء بافادات ضارة فاضحة ، وكان قضاة هـذا الأسلوب ، حينما لا يظفرون — بعد صفحات التحقيق المختلفة — بأدلة كافية لأخذ المتهم ، وبكلمة أصح ، حينما لا يظفرون بشيء ضده ؛ يأمرون بسوق المسكين إلى حجرة التعذيب للحصول على اعترافه ، وعلى ما في هـــذا الأسلوب الاستنطاقي من قسوة ووحشية ، فقد كان يظهر للأوربيين طبيعياً جداً وضرورياً ، حتى أنهم كانوا يطلقون عليه اسم « المسألة القضائية » ! . ويذكر الأستاذ (جارّو) هذه الأصول في موجزه « الأصول الجنائيـة جزء ١ فقرة ٢٣ » فيقول : « . . ومع أن استعمال التعذيب كان عاماً ، فان طرق استعماله كانت مختلفة ، باختلاف البلاد والبرلمانات ، وبينما كان التعذيب بالماء والآلات المخصصة لتعذيب المتهم في أعضائه السفلى ، جارياً ومقبولاً في اجتهاد منطقة برلمان «باريز» فقد كانوا في منطقة «بريطانيا» يستعملون التعذيب بالنار ! . . »

ويصور الكاتب الفرنسي الكبير « ميشيل زيفاكو » كيف كان يجرى التحقيق الجنائي في عهد فرانسوا الأول (١٤٩٤ — ١٥٤٧) فيقول « . . . فاذا عرض إبهام وغموض في إحدى القضايا ، أمر القاضيان بأن يساق المتهم إلى حجرة التعذيب ، وإذ ذاك لا تنقضي عشر دقائق حتى يقول أحد القاضيين : لقد برح الخفاء وظهر المستور ، فيقول رفيقه : آمين !! وذلك أن المتهم المسكين إذا ألقي إلى معاناة التعذيب والتنكيل يقر بكل ما يريدون الاقرار به ، وقد يعترف بعضهم بذنوب لا يصورها إلاّ الخيـال أو هي فوق الامكان كاقرار المتهمين بأنهم يراسلون الشياطين أو يحمون مردة الجن ، أو يطيرون في الهواء ! »

ظل هذا التشريع في أصول التحقيق يظلم الأوربيين ويعذبهم أعواماً وقروناً طويلة لم يفكروا خلالها في تغييره أو مقاومته ، وكيف يفكرون في ذلك وهم يعتبرون أن قسوته وإجحافه من الشدة الضرورية ؟!. إلى أن جاءت الثورة الفرنسية ١٧٨٩ وأعلنت حقوق الانسان ، عندها فقط عمد رجال العقل والفكر في الجمعية التأسيسية إلى إصلاح مفاسد الحقوق المرعية بوجه عام ، والحقوق الجنائية بوجه خاص ، فنجحوا في ذلك نجاحاً عظيماً

تلك هي أصول التحقيق الجنائي في أوربا بقيت حتى الثورة الفرنسية وفيها ما فيها من بشاعة وظلم يوقع في أنواع من الفوضى والفساد ، وأساليب فظة غليظة لا تلائم سياسة الأمم بالعدل ولا توافق حال العمران ، وإنما تكشف عن مبلغ ما كان يسود أوربا حتى سنة ١٧٨٩ من جهل وغباوة وظلم وفساد

***

وبعـد فلنر كيف كان قضاة العرب المسلمين منذ ثلاثة عشر قرناً يحكمون بين الناس ، وأي الأساليب كانوا يتبعون لاثبات الأفعال الجرمية ! : جاء في كتاب « الخراج » للامام أبي يوسف

المتوفى سنة ١٨٢هـ ص ١٠٧ ما يأتى :

« ... ومن ظن أو توهم عليه سرقة أو غير ذلك فلا ينبغى أن يعزر بالضرب والتوعد والتخويف فان من أقر بسرقة أو بحد أو بقتل ، وقد فعل ذلك به ، فليس إقراره بشىء ولا يحل قطعه ولا أخذه بما أقر به »

انه لقضاء عادل ونظر قويم ورأى سديد ، يتفق وأحدث قواعد العلم الجنائى ، ويبرهن أعظم برهان على أن العرب المسلمين كانوا من أعرف الناس بحق المجتمع وحق العدل ، ومن أكثرهم فطنة وعراقة فى أصول القضاء العادل

يقول الأستاذ « جارّو » فى موجزه « الأصول الجنائية جزء ٢ فقرة ٤٠٨ » : « إن التجديد الأعظم فى أصول التحقيق كان فى قانون ١٨٩٧ الذى يوجب على المستنطق أن ينذر الظنين ويخبره بأنه يقدر ألا يدلى بشىء من البيانات والأفادات »

ونقول أيضاً إن هذا « التجديد الأعظم » هو عين ما كان يفعله قضاة العرب عند مثول المتهم أمامهم ، فقد جاء فى كتاب الخراج الذى نبحث عنه ص ١٠٧ ما يأتى : « وقد كان يبلغ من توقى أصحاب رسول الله (ص) الحدود فى غير مواضعها ، وما كانوا يرون من الفضل فى درئها بالشبهات أن يقولوا لمن أتى به سارقاً : « أسرقت ؟ قل لا »

إن هذا لعمر الحق منتهى الدقة والعلم ، منتهى الأحتياط فى حفظ الحقوق

وإليك ما جاء فى كتاب « الطرق الحكمية » ص ٤ لمحمد ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ هجرية فى موضوع « الأقرار » وهو مما يتصل ببحث التحقيق « . . . إن الأقرار إذا كان لعلة اطلع عليها الحاكم لم يلتفت اليه أبداً » « البينة والأقرار خبران يتطرق اليهما الصدق والكذب » « والحاكم إذا لم يكن فقيه النفس فى الأمارات ودلائل الحال ومعرفة شواهده ، وفى القرائن الحالية والقالية كجزئيات وكليات الأحكام أضاع حقوقاً كثيرة على أصحابها ، وحكم بما يعلم الناس بطلانه ، ولا يشكون فيه اعتماداً منه على نوع ظاهر لم يلتفت إلى باطنه وسائر أحواله »

هذا ما يقوله ابن القيم فى موضوع « الأقرار » ومنه يستدل على أن قضاة العرب لم يكونوا فى قضائهم يقفون عند مجرد ظواهر البينات ، وإنما يحكمون بقناعتهم ووجدانهم وفراستهم أيضاً ، وإن فى ذلك لفطنة وذكاء وصدقاً ، خصوصاً ومسألة « القناعة الوجدانية » مسألة كبيرة تعتبر من أمهات المسائل فى العلم الجنائى الحديث ، يلاحظ فى إهمالها إضاعة حق كبير وإقامة باطل كثير ؛ وقد ذكر الأستاذ « جارّو » ذلك فى موجزه « الأصول الجنائية » جزء ٢ فقرة ٣٧٧ فقال : « لا ينبغى الحكم بمجرد وجود الأقرار إذ أن موضوع المحاكمة ليس الفصل فى منافع خاصة ، وإنما هو إظهار الحقيقة وكشفها ، ولذلك يجب التدقيق عما إذا كانت ظروف القضية تجعل الأقرار صحيحاً »

واستمع أيضاً الى ابن القيم يشرح فى طرقه الحكمية ص ١٧٤ – ١٨٠ أوفى وأوضح شرح ؛ موضوع علم القاضى الشخصى : « ما علمه القاضى فى زمن ولايته ومكانها وما علمه فى غيرها » هذا الموضوع الدقيق جداً فى علم الحقوق . قال رحمه الله :

« وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (.. فأقضى له على نحو ما أسمع) وأما الآثار عن الصحابة رضى الله عنهم فصح عن أبى بكر الصديق أنه قال : (لو رأيت رجلاً على حد من حدود الله تعالى لم آخذه حتى يكون معى غيرى) . وعن عمر بن الخطاب أنه قال لعبد الرحمن بن عوف : (أرأيت لو رأيت رجلاً قتل أو شرب أو زنى ، قال شهادتك شهادة رجل واحد . فقال له عمر صدقت) وعن طريق الضحاك أن عمر اختصم اليه فيمن يعرفه فقال للطالب : (إن شئت شهدت ولم أقض وان شئت قضيت ولم أشهد) وعن على نحوه ، وأما الآثار عن التابعين فصح عن الشعبى أنه قال : (لا أكون قاضياً وشاهداً)

وهم يدللون على صواب هذه المسألة بقولهم : (إن القاضى فى غير مصره وغير ولايته شاهد لا حاكم . وشهادة الفرد لا تقبل ، قالوا وأما الحدود فلا يقضى بعلمه فيها لأنه خصم فيها ، لأنه حق الله تعالى وهو نائبه) . . وهل يسوغ للحاكم أن يأتى الى رجل من الناس غير مشهور بفاحشة وليس عليه شاهد واحد فيرجمه ويقول رأيته يزنى ، أو يقتله ويقول سمعته يسب ، أو يفرق بين الزوجين ويقول سمعته يطلق ، وهل هذا إلا محض التهمة ، ولو فتح هذا الباب ولا سيما لقضاة هذا الزمان لوجد كل قاض له عدو ، السبيل الى قتل عدوه ورجمه وتفسيقه والتفريق بينه وبين امرأته ،

لاسيما إذا كانت العداوة خفية لا يمكن لعدوه إثباتها . » اهـ

وقد يحسن بنا بعد هذه المقارنة بين أصول التحقيق الجنائى فى التشريعين الأسلامى والأوربى ، أن نختم موضوعنا بكلمة جامعة للعلامة جلال الدين السيوطى تدل على سمو الغاية ، وكمال المسعى الأسلامى فى التشريع القائم على تحقيق العدل وضمان المصالح الأنسانية ، وفى هذه الجملة تتجلى حيطة القاضى النزيه ، وخشيته أن يأخذ البرىء بعقوبة المذنب . قال رحمه الله : « اعلم أنك إن تخطىء فى العفو فى ألف قضية ، خير من أن تخطىء فى العقوبة فى قضية واحدة »

شرق الأردن

بشير الشريقى
المحامى

جمال النكتة فى الشعر

بقلم الأستاذ الحومانى
صاحب مجلة العروبة فى بيروت

النكتة فى أصل اللغة هى النقطة البيضاء فى الشىء الأسود ، أو السوداء فى الشىء الأبيض ، أخذها البيانيون لكل معنى يترك فى النفس لدى كشفه أثراً تظهر معه بمظهر الروعة والاعجاب . ولا يخفى الشبه بين الحقيقتين اللغوية والاصطلاحية ، فكما أن النفس ترتاع لمنظر السواد فى البياض كالحور فى العين ، ولمنظر البياض فى السواد كالقمر فى الليل ، فكذلك تأخذها الروعة لسماع قطعة من النثر أو النظم قد ضمنها الشاعر معنى أخرجه بين دقة نظر وإمعان فكر ، فهى فى عرض الحديث أو القصيدة بارزة الجمال بروزها فى سواد الليل قمرا ، وفى بياض العين حوَرا

والنكتة البيانية كما تكون فى العلم نتيجة إعمال الفكر ، تكون فى الفن وليدة إبداع الخيال ، وتكون وليدة الطبع أو التطبع ، وإذا جاءت هزلية دعيت فكاهة ، وما أثقل على السمع أن يهزل بها متكلف ، وإذا كانت جدية كانت وليدة الحذق وحدة القلب ، أما الهزلية فتكاد تكون قاصرة على الطبع

قد يرى البعض أن النكتة فى الشعر محض فن لاروح معه ، والذى يوهمهم ذلك هو ظنهم أن الشاعر إنما ينظم النكتة وهو غير متأثر ، فهم يحصرون التأثر النفسى فى جانب العواطف الثائرة لحزن أو سرور ، والنكتة عندهم مجرد التفات الفكر إلى غريب معنى يكتشفه وهو يتحقق أو يتخيل ، بينما تكون العاطفة هادئة مطمئنة ؛ ولو لفتهم العقل إلى ما تتأثر به نفوسهم لدى سماعهم هذه النكتة من روعة وجمال ثم التفتوا ثانياً إلى أن تأثر السامع إنما هو نتيجة تأثر القائل لاستراحوا من هذا التأويل ، ولعلموا أن النظم إذا صدق عليه أنه شعر ، كانت روح الشاعر متغلغلة فيه ، ولكن هذه الروح تبدو جلية فى حين وتخفى على الفهم البسيط فى حين آخر ، وليس تأثر النفس الشاعرة قاصراً على ما يبعث الحزن أو السرور فيها ، وإنما يتعدى ذلك إلى كثير من أفعال الوجدان ، كالدهشة ، والغضب ، والذعر ونحوها

يلتفتون إلى أن النكتة فى الشعر إنما تنشأ عن تنبه الفكر إلى غريب معنى يكتشفه وهو يتخيل أو يتبين الحقائق ، ويغفلون عن روعة النفس وتأثرها بما تشعر من وراء هذا الاكتشاف ، فاسمع نفح الطيب يروى لك جمال النكتة فى الشعر عن شعراء الأندلس :

أعوذ بالله من أناس ... تشيخوا قبل أن يشيخوا
إحدودبوا وانحنوا رياء ... فاحذرهم إنهم فخوخ

مناط تأثر الشاعر فى هذين البيتين ما يشعر به من تدليس المرائين ، ولعلهم المنافقون الذين يسرون الكفر ويظهرون الايمان ، وجمال النكتة منهما فى البيت الأخير ، وهى فيهما قاصرة على الفن ، وليست من الفن مجرد حمل الفخاخ على ظهورهم بجامع التقويس كما تشبه الناقة المهزيلة بالقوس ، والهلال بالعرجون القديم ، إذ ليس غرض الشاعر بيان أن ظهورهم محنية كالأقواس أو الفخاخ ، ولكن غرضه أن يلفت العامة إلى أن وراء تقويس ظهورهم المكذوب ما وراء تقويس الفخوخ من رياء وتضليل وغش وخداع ، فلم يتقوسوا لكبر أو عجز ، بل ليخدعوا الرأى فيطمئن إليهم فى إصلاح نفسه ، ويجعلهم محل الثقة من دينه ودنياه فيمدوا إذ ذاك أيديهم إلى ذات يده ويمعنون فيها نزاً واختلاساً

ولكن ما يجب أن يتنبه له هنا هو أن القنص علة للغش

والخدعة ، وهما علة للتقويس ، وأما فى الفخاخ فالقنص له معلولان لا يترتب أحدهما على الآخر : هما التقويس والخدعة . فتقويس يلحق الآلة التى تقبض على الطريدة ، والخداع يكون بواسطة طعم يناط بالآلة المواراة خلفه

فالخداع فى المشبه يترتب على التقويس ، والقنص يترتب على الخداع ، فالرجل المرائى يتقوس ليخدع ، ويخدع ليقنص ، وأما الفخ فيتقوس ليقبض ويناط به الطعم ليخدع ، هكذا يتبين الفرق جلياً بين المشبه والمشبه به

وجميل فى النكتة قول الآخر من شعراء نفح الطيب أيضاً :

يابدر ياشمس يانهــار　　أنت لها جنــة ونار
تجنبُ الاثم فيك اثمٌ　　وخشية العار فيك عار

النكتة تتحقق هنا فى ادعاء الشاعر لمحبوبه جمالاً يبلغ بالهائم فيه حداً يرى معــه الحسن فى المجتمع قبيحاً والقبيح حسناً ، وادعائه أن من رأى حبيبه حمله جماله على أن لم يعذره فى اقتراف الاثم معه فحسب ، بل جعل تجنبه للاثم فيه من الاثم ، وخشية العار فيه من العار ؛ ولا يخفى ما يعضد جمال المعنى من تلاعب فى اللفظ ، وكثيراً ما يكون التلاعب من الجمال

ومن جمال النكتة قول سبط بن التعاويذى :

قل لمن أصــلى هواها　　كبــدى ناراً تلظى
ياقضيب البــان قدا　　وغزال الرمل لحظا
أنت أحلى من لذيذ　　النوم فى عينى وأحظى
قدبذلت الوصل فى الطيــــف فلم أعرضتِ يقظى؟
لا أرى لى ، والمودات　　حظوظ ، منكِ حظاً
آه من رقة خــــدٍ　　صيرت قلبك فظاً

جمال الشعر من هذه الأبيات يتجلى فى الأربعة الأخيرة ، أما النكتة فنى الأخير ، ولعل الفتنة فيما قبــله ، ولعل مبعثها اعتراض الجملة الوسطى ، والاعتراض فى الشعر جمال يأخذ اللب بسحره ، ولعلنا نأتى على طرف منه فى آخر هذه الـكلمة

كنى برقة الخد عن جمال الوجه ، وإنما خص الرقة باطلاق الخاص على العام ، وهى أحد جزئيات الجمال ، ليقابل بها الفظاظة فى الروى ، فهو من جمال الفن

لما أثبت له الجمال كان من لوازمه الاعجاب والزهو فى الجميل وهما مبعث الدلال والتجنى ، وهذان يحملان على القسوة وعدم الرأفة بالهائم فى ذيهما لـكثرة العشاق حوله ، فكان إذن من لوازم الجمال قسوة القلب ، وليست النكتة فيما تسمع ، ولـكنها فى إيهام جعل الرقة علة للفظاظة وهما نقيضان ، بتصرف تظهر النفس معه بمظهر الروعة والدهشة

فالشاعر فى الحقيقة لم يجعل الرقة علة للقسوة ، وإنما جعل الفظاظة مسببة عن تجنى الحبيب مزهواً بجماله ، ثم كنى عن الجمال بالرقة التى هى إحدى جزئياته ، فصح له إذ ذاك تعليل الشئ بجزئى سببه

يقول شمس الدين العاملى يمدح كامل بك الأسعد نجل خليل بك الأسعد وهما من زعماء بلاد (عاملة) :

وإكسير علم ركبته قريحتى　　غنيت به عن قصد كل بخيل
إذا شئت أن أرى صنعت سبيكة　　وأهديتها للكامل بن خليل

ويقول أيضاً فى معرض اللوم على ابن عمه الشاعر على شمس الدين وقد تعرض لخلاف وقع بين زعيمين اقطاعيين :

إذا ما التقى الليثان فى حومة الوغى
وكل على كلٍ جرىءٌ مشيّع
فمن سفهٍ أن ينبح الكلب ضيغما　　وينطح ذا رَوق لدى الروع أقرع

فانك تستطيع أن تهتــدى إلى النكتة فى آخر الشعر حتى تعلم الخبر الذى تقدم البيتين ثم لا ترتاع نفسك للشعر تماماً حتى تعلم أن ابن عم الشاعر أقرع . وهكذا كثيراً ما تكون النكتة ، لتسمى نكتة ، متوقفة على بيان ماهى فى سياقه

وقد تبنى النكتة على مثل خاص أو حديث خاص واصطلاح قوم خاص ، فتكون نكتة خاصة لا يرتاع لها إلا من شرك قوماً نظمت لهم فى الجهة التى بنيت عليها ، فالشاعر حيث يقول :

عزلوك لما قلت : ما　　اعطى ، وولوا من بذلْ
أو ما علمت بأن (ما)　　حرف يكف عن العمل ؟؟

فانما بنى النكتة فى شعره على القاعدة اللغوية القائلة : إن (ما) فى قولك : « إنما زيد قائم ونحوه » كافة عن العمل ، فلم تكن لتهتدى إلى النكتة وأنت غير نحوى ، ثم لم تكن لتتفهم التمهيد لها فى البيت الأول حتى تعلم أن الشاعر قال ذلك فى زمن لا يولى امرؤ عملاً حتى يرشى أولى الأمر كالزمن الذى نحن فيه

ومثله قول الهلالى :

وغزالٍ قلت ما الا　　سمُ حبيبى ؟ ؟ قال مالك

من تراثنا العلمى

تعبير الرُّؤْيا لابنِ قتيبة

وصف وتلخيص لنسخة ثمينة من كتاب مفقود

للأستاذ على الطنطاوى

تتمـــــة

والعرب تضع النفس موضع الروح ، والروح موضع النفس ، فيقولون : خرجت نفسه وفاضت ، وخرجت روحه منه ، إما لأنهما شئ واحد ، أو لأنهما شيئان متصلان لا يقوم أحدهما إلاّ بالآخر ، وكذلك يسمون الجسد نفساً ، لأنه محل النفس ، قال ذو الرُّمـة حين أُحتُـضِر :

يا قابض الروح من نفسى إذا احتُـضِرت
وغافر الذنب زحزحنى عن النـــار

ويسمون الدم جسداً لأن الجسد محله . قال النابغة الذبيانى :

فلا لَعَمْرُ الذى قد زُرته حِججاً
وما أُريق على الأنْصاب من جسـدِ

والمهجة عندهم الدم . قال الأصمعى : سمعت أعرابية الخ . . .

وقد أعلمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر الخ . . . وأرواح أهل النار الخ . . .

قلت : صف لى وجهك الز　　اهى وصِف حسن اعتدالك
قال : كالبـدر وكالغصـ　　ـن وما أشبه ذلك

فالنكتة فى العجز الأخير ، وإنما بنيت على كثرة استعمال النحويين لهذه الجملة حتى أصبح ذكرها فى غير المسائل النحوية يعد اقتباساً

ومن جمال النكتة فى الشعر الهزلى قول أحـد المعاصرين يداعب صديقاً له :

يا صابغ اللحية ما تستحى　　تشارك الرحمن فى صنعته
أقبح شىء شاع بين الورى　　أن امرأ يكذب فى لحيته

وليس لجمال النكتة فى الشعر حد يوقف عنده ، فتلمسه فى شعر الظرفاء تجد منه الكثير

الحومانى

(قال أبو محمد) : ولما كانت الرؤيا على ما أعلمتك من اختلاف مذاهبها ، وانصرافها عن أصولها ، بالزيادة الداخلة ، والكلمة المعترضة ، وانتقالها عن سبيل الخير إلى سبيل الشر باختلاف الهيئات واختلاف الأزمان والأوقات ، وأن تأويلها قد يكون مرة من لفظ الاسم ومرة من معناه ، ومرة من ضده ، ومرة من كتاب الله ، ومرة من الحديث ، ومرة من البيت السائر والمثل المشهور ، احتجت إلى أن أذكر قبل ذكر الأصول أمثلة فى التأويل ، لأرشدك بها إلى السبيل

فأما التأويل بالأسماء فتحمله على ظاهر اللفظ الخ . قال : وأخبرنا محمد بن عبد العزيز عن . . . عن . . . عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : رأيت الليلة فيما يرى النائم كأنى فى دار عقبة بن رافع وأُتيت برطب من رطب ابن طاب (نوع من تمر المدينة) ، فأولته أن الرفعة لنا فى الدنيا ، والعاقبة فى الآخرة ، وأن ديننا قد طاب [1]

أخبرنا أبو حاتم الخ . . . (قال أبو محمد) : وربما اعتبر من الاسم إذا كثرت حروفه البعض الخ . قال الشاعر :

أهدت اليه سفرجلاً فتطيرا　　منـــه وظل نهاره متفكراً
خاف الفراق لأن أول ذكره　　سفر وحق له بأن يتطيرا

وكذلك السُّوسَن الخ . قال الشاعر :

سـوسـنة أعطيتنيها فما　　كنتِ باعطائها محسـنه
أولها سوء فان جئت بالآ　　خر منها فهو سوء سنه

وأما التأويل بالقرآن فكالبيض يعبر بالنساء لقول الله عز وجل « كأنهن بيض مكنون » الخ . . . وكالحبل يعبر بالعقـد لقوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعـاً » ولقوله تعالى : « ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبـل من الناس » أى بأمان وعهد . والعرب تسمى العهد حبلاً ، قال الشاعر :

وإذا تجوزها حبال قبيـلة　　أخذت من الأخرى إليك حبالها

وكاللباس يعبر بالنساء لقوله جل وعزّ : « هن لباس لـكم وأنتم لباس لهن » . قال النابغة الجعدى ، وذكر امرأة الخ . . .

وأما التأويل بالحديث فالغراب هو الفاسق لأن النبى صلى الله عليه وسلم سماه فاسقاً ، والفأرة الخ . . .

---

(١) رواه مسلم وأبو داود

وأما التأويل بالمثل السائر واللفظ المبذول كقولهم فى الصائغ : إنه رجل كذوب لما جرى على ألسنة الناس من قولهم : فلان يصوغ الأحاديث إذا كان يضعها الخ . . . وكقولهم فى الماسح : إنه ذو أسفار ، لقولهم لمن كثرت أسفاره هو يمسح الأرض . قال الشاعر فى هذا المعنى :

قبح الله آل برمك إنى صرت من أجلهم أخا أسفار
إن يكن ذوالقرين قد مسح الأر ض فانى موكل بالغبار

ويرى أهل النظر من أصحاب اللغة أن الدجال إنما سمى مسيحاً لأنه يمسح الأرض إذا خرج أى يسير فيها ، ولا يستقر بمكان ، وأن عيسى عليه السلام إنما سمى بذلك لأنه كان سائحاً فى البلاد لا يقيم بشئ منها ولا يوطنه ، ومن ذهب إلى هذا جعله فعيلاً فى معنى فاعل مثل قدير ورحيم ؛ ويرى قوم أن الدجال سمى مسيحاً لأنه ممسوح إحدى العينين . وهذا وإن كان وجهاً فالاشتقاق الأول أعجب ، لأن تسميتهم إياه الدجال تشهد له (١) ، والدجالة هى الرفقة فى السفر والقافلة ، قال خداش بن زهير :

فان يك ركب الحضرمى غرامة فان كلا ركبيكم أنا غارم
سأغرم من قدنالت الحجرمنهم ودجالة الشام التى نال حاتم

يعنى قافلة أصابها حاتم الخ . . . .

وكقولهم فيمن غسل يديه بأشنان ، إنه اليأس من الشئ يطلبه ، لقول الناس لمن يئسوا منه : قد غسلت يدى منك بأشنان ، قال الشاعر :

فاغسل يديك بأشنان وأنقهما غسل الجنابة من معروف عثمان

وكقولهم فى الكبش الخ . . . .

وأما التأويل بالضد والمقلوب فكقولهم فى البكاء إنه فرح مالم يكن معه رنة ولاصوت ، وفى الفرح والضحك إنه حزن الخ . .

وأما تعبير الرؤيا بالزيادة والنقص فكقولهم الخ . . .

وقد تتغير الرؤيا عن أصلها باختلاف هيئات الناس وصناعاتهم وأقدارهم وأديانهم ، فتكون لواحد رحمة ، وعلى الآخر عذاباً الخ . . . حدثنا محمد الخ . . قال : آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبى بكر ، فرأى سلمان لأبى بكر رؤيا فجانبه وأعرض عنه ، فقال له أبو بكر : أى أخى ! مالك قد أعرضت عنى وجانبتنى ؟ قال : رأيت كأن يديك جمعتا الى عنقك ، فقال أبو بكر : الله أكبر ! جمعت يداى عن الشر الى يوم القيامة

حدثنى محمد عن . . . عن . . . عن عطاء ، قال : كان محمد ابن سيرين يقول فى الرجل يرى له أنه يخطب على منبر : إن كان ممن ينبغى له السلطان أصاب سلطاناً . وإلا فانه يصلب . شبه الجذع بالمنبر . وقال الرشيد ليزيد بن مزيد : ما أكثر الخلفاء فى ربيعة ! قال : نعم ، ولكن منابرهم الجذوع الخ . . .

ومن عجب الرؤيا أن الرجل يكون مفحماً لايقدر على أن يقول بيت شعر ، أو بكيا يتعذر عليه القليل منه إلا فى المدة الطويلة ، مع إعمال الفكر ، وإنعام الروية ، فينشد فى المنام الشعر الجيد لم يسمع به قط فيحفظه أو يحفظ منه البيت أو البيتين ، ويكون عيياً أو أعجمياً ، فيتكلم بالكلمة من الحكمة البليغة ويوعظ بالموعظة الحسنة ، ويخاطب بالكلام البليغ الوجيز الذى لايستطيع أن يتكلف مثله فى اليقظة بعرق الجبين ، وهذا من أدل الدلائل على اللطيف الخبير

روى الرازى الخ . . . وروى واصل الخ . . . وأما الشعر فان أبا اليقظان قال : تزوج رجل امرأة ، فعاهد كل واحد منهما صاحبه ألا يتزوج الآخر بعده ، ومات الرجل ، فلما انقضت عدة المرأة أتاها النساء فلم يزلن بها حتى تزوجت ، فلما كانت ليلة هدائها أغفت بعد ما هيئت فاذا هى بالرجل آخذا بعضادتى الباب يقول : ما أسرع ما نسيت العهد يارباب ! ثم قال :

حييت ساكن هذا البيت كلهم إلا الرباب فانى لا أحييها
أمست عروساً وأمسى منزلى جدثا إن القبور توارى من ثوى فيها

فانتبهت فزعة ، فقالت : والله لايجمع رأسى ورأسه بيت أبدا ، ثم تخالعا . وروى ابن الكلبى عن جبلة بن مالك الغسانى قال : سمع رجل من الحى قائلاً يقول فى المنام على سور دمشق

ألا يالقومى للسفاهة والوهن وللعاجز الموهون والرأى ذى الأفن
ولابن سعيد بينما هو قائم على قدميه خر للوجه والبطن
رأى الحصن منجاة من الموت فالتجا اليه فزارته المنية فى الحصن

فأتى عبد الملك بن مروان فأخبره ، فقال : ويحك ، هل

(١) (قال فى اللسان) : الدجال المموه الكذاب وبه سمى الدجال لأنه يدجل الحق بالباطل ؛ وقيل بل لأنه يغطى الأرض بكثرة جموعه ؛ وقيل لأنه يغطى على الناس بكفره الخ . . . (وقال فى التاج) : وقيل هو من دجل الرجل إذا قطع نواحى الأرض سيراً (الطنطاوى)

سمعها منك أحد ؟ قال : لا . قال : فضعها تحت قدميك

ثم قال ، عبد الملك عمرو بن سعيد ، عن عقيل .. عن .. أن رجلاً الخ ...

(قال أبو محمد) وسأخبرك فى هذا الباب بأعجوبة عن نفسى : سألنى رجل من أصحاب الغريب كان يكثر الاختلاف الى عن جنعى ما هو ؟ ولم أعرفه الخ . . .

ورأيت أيضاً فى المنام وأنا حديث السن كتباً فيها حكم كثيرة بألفاظ غريبة ـ كنت أحفظ منها شيئاً ثم أنسيت ذلك إلا حرفا وهو : وبلغت اليه صلّة الهواء ، وما كنت أعرف فى ذلك الوقت ما الصلة ، ثم عرفتها بعد ، والصلة اليبس

ومن عجائب الرؤيا أن الرجل يرى الشيء لنفسه أو يُرى له فيكون ذلك لشقيقه أو ابنه أو شبيهه أو سميه الخ . . .

(قال أبو محمد) وحكى أبو اليقظان الخ . . . (قال أبو محمد) وما أشبه هذا الحديث بحديث رجل رأى فى المنام ـ أيام الطاعون أن جنائز تخرج من داره على عدد من فيها ، فطعن أهل الدار جميعاً غيره ، فبقى ينتظر الموت ولا يشك فى أنه لاحق بهم ، فدخل الدار لص ، فطعن فيها فمات فى الدار ، فأخرجت جنازته منها وسلم الرجل

(حدثنا أبو محمد) قال حدثنى بعض الكتاب الخ . . .

وإن رأيت الرؤيا كلها مختلطة لاتلتئم على الأصول علمت أنها من الأضغاث فارجيها ، وإن اشتبه عليك الأمر ، سألت الرجل عن ضميره فى سفره إن كان رأى السفر ، وفى صلاته إن كان رأى الصلاة ، وفى صيده إن كان رأى الصيد ، ثم قضيت بالضمير ، وإن لم يكن هناك ضمير أخذت بالأسماء على ما بينت لك . وقد تختلف طبائع الناس فى الرؤيا ، ويجرون على عادة فيها ، يعرفونها من أنفسهم ، فيكون ذلك أقوى من الأصل ، فتسأل عن طبع الرجل ، وما جرت عليه عادته الخ . . . وإن كان الأصل طائراً الخ ، وإن كان غراباً الخ . . . وقيل لمن أبطأ عليك أو ذهب فلم يعد اليك : غراب نوح ، وإن كان عقعقاً كان رجلاً لا عهد له ولا حفاظ ولا دين قال الشاعر :

الا إنما حملتم الأمر عقعقا

وإن كان عقاباً الخ . . . .

***

هذه فقر من المقدمة القيمة التى قدم بها الكتاب وهى تقع فى أكثر من أربعين صفحة ، وتأتى من بعدها أبواب الكتاب وهى ستة وأربعون باباً ، فيها من نوادر الشعر وطرائف اللغة ودرر الأدب مثل ما فى المقدمة ، ولولا أن هذا الفصل قد طال ، لاخترنا منها فقراً رويناها فى (الرسالة) ، والكتاب على الجملة من نفائس تراثنا العلمى ، ومكانه من الخزانة العربية لا يزال خالياً لم يشغله كتاب . وإنا لنأمل له من رجال الأدب ومن الناشرين الاهتمام اللائق به ؟

(دمشق) **على الطنطاوى**

١٣ ـ محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون أو خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

فقال سقراط ـ سأعمد الآن الى أحد زوجى الأضداد اللذين ذكرتهما لك فأحلله ، وأحلل كذلك فعليه الأوسطين ؛ وعليك أن تحلل لى الآخر . فحالة النوم تضاد حالة اليقظة ، ومن النوم تتولد اليقظة ، ومن اليقظة يتولد النوم ، وعملية التولد هى فى إحدى الحالين ادراك النعاس ، وهى الاستيقاظ فى الأخرى . أفأنت متفق معى على هذا ؟

ـ إنى جد متفق

إذن فهب أنك أخذت بهذه الطريقة نفسها تحلل لى الحياة والموت . أليس الموت يضاد الحياة ؟

ـ نعم

ـ وهما متولدان : أحدهما من الآخر ؟

ـ نعم

ـ ما الذى تولد من الحياة ؟

ـ إنه الموت

ـ وما الذى تولد من الموت ؟

ـ لا يسعنى أن أقول فى الجواب إلا أنها الحياة

ـ إذن ياسيبيس فالحى من الأشياء والأشخاص متولد من الميت ؟

فأجاب ـ هذا جلى

ـ ونتيجة ذلك إذن هى أن أرواحنا كائنة فى العالم الأسفل ؟

ـ هذا حق

ـ وأحد الفعلين أو التولدين ملحوظ بالعين — فلا شك أن عملية الموت ظاهرة ؟

فقال ـ لا ريب

ـ أفلا يجوز أن يستنتج التولد الآخر ، على أنه متمم للطبيعة التى لا يفترض بأنها تسير على ساق واحدة فحسب ؟ فان كان الأمر كذلك ، فلا بد أيضاً أن يضاف الى الطبيعة عملية تولد من الموت مقابل عملية التولد من الحياة

فأجاب ـ يقيناً

ـ وماذا تكون تلك العملية ؟

ـ هى عودة الحياة

ـ وعودة الحياة ، ان صح وجودها ، هى ولادة الميت فى عالم الأحياء ؟

ـ هذا جد صحيح

ـ إذن فهاك سبيلاً جديدة تؤدى بنا الى النتيجة بأن الحى يخرج من الميت كما يخرج الميت من الحى سواء بسواء ، فان صح هذا فلابد أن تكون أرواح الموتى مستقرة فى مكان مّا ، ستعود منه مرة أخرى ، وقد أقمنا على ذلك فيما أظن دليلاً مقنعاً

قال ـ نعم ياسقراط ، فيظهر أن هـذا كله يتبع بالضرورة ما سلمنا به من قبل

فقال ـ ولم يكن ذلك الذى سلمنا به ياسيبيس معوجاً ، وتستطيع أن تتبين ذلك ، فيما أظن على هذا النحو : لو كان التولد يسير فى خط مستقيم فقط ، فلم تكن فى الطبيعة دورة أو تعويض ، فلا تبادل بين الأشياء أخذاً ورداً ، لاتخذت الأشياء ـ كما تعلم ـ فى نهاية الأمر صورة بعينها ، ولتحولت الى حالة بعينها ،ولما تولد منها بعد ذلك شىء

فقال ـ ماذا تعنى بهذا ؟

فأجاب ـ أعنى شيئاً بسيطاً جداً سأوضحه بحالة النوم . فأنت تعلم أنه لو لم يكن ثمت توازن بين النوم واليقظة لأضحت قصة أنديميون [(١)] النائم بلا معنى ؛ فقد كان النعاس سيدرك كذلك كل شىء آخر ، فلا يعود أنديميون موضعاً لتفكير أحد ؛ أو لو كانت المادة بنتابها تكوين بغير انقسام ، إذن لعاد هيولى انكسجوراس مرة ثانية . وهكذا ، أى عزيزى سيبيس ، لو كان كل شىء تناولته الحياة صائراً إلى الموت ، ثم لا يعود إلى الحياة ثانياً لا نتهى الأمر بكل شىء إلى الموت ، فلا يبقى ثمت شىء حى ـ وإلا فكيف يمكن ذلك أن يكون ؟ إذ لوكانت الأحياء صادرة من شىء غير الأموات ، وكان الأحياء يدركهم الموت ، أليس حتما أن يبتلع الموت آخر الأمر كل شىء ؟

فقال سيبيس ـ ليس عن ذلك منصرف ياسقراط ، وإنى لأحسب أن ما تقوله أنت حق خالص

(١) أنديميون شاب جميل ، أغرقه القمر فى نعاس دائم ، لكى يستطيع أن يقبله على غرة منه

فقال – نعم ياسيبيس ، إنى كذلك أحسبه حقاً خالصاً ، ولسنا بذلك سابحين فى خيال فارغ ، ولكنى ثابت الايمان بحقيقة العودة إلى الحياة ، وبأن الأحياء يخرجون من الموتى ، وبأن أرواح الموتى ما برحت فى الوجود ، وبأن الأرواح الخيِّرة أوفى من الأرواح الشريرة جزاء

فأضاف سيبيس – كذلك لو صح مذهبك العزيز ياسقراط ، بأن المعرفة ليست إلا تذكراً ، لاقتضى ذلك بالضرورة زمناً سالفاً تعلّمنا فيه ما نحن الآن ذاكروه : وقد كان هذا التذكر يستحيل لو لم تكن أرواحنا قبل حلولها فى الصورة البشرية ، كائنة فى مكان مّا ، وإذن فهذه حجة أخرى تؤيد خلود الروح

فاعترضه سمياس قائلاً : ولكن حدثني ياسيبيس، ما البراهين التى تساق لمذهب التذكر هذا ؟ فلست جازم اليقين بأنها الآن تحضرنى

قال سيبيس – منها برهان ساطع تقيمه الأسئلة ، فاذا أنت ألقيت على شخص سؤالاً بطريقة صحيحة ، أجابك من تلقاء نفسه جواباً صحيحاً . فكيف استطاع أن يفعل ذلك ، مالم تكن لديه من قبل معرفة ومنطق مصيب ؟ وأكثر ما يكون ذلك وضوحاً ، حينما يعرض عليه شكل هندسى ، أو أى شئ من هذا القبيل

قال سقراط – إن كنت لا تزال شاكاً ياسمياس ساءلتك ، أفلا يجوز أن توافقنى إذا ما نظرت الى الموضوع على نحو آخر ؟ أعنى اذا كنت لا تزال متردداً فى التسليم بأن المعرفة عبارة عن تذكر ؟

فقال سمياس – لست شاكاً ، ولكنى أردت أن تعاد إلى ذاكرتى نظرية التذكر هذه ، ولقد بدأت أذكرها وأقتنع بها مما قاله سيبيس ، غير أننى مازلت أتمنى لو أدليتم عما لديكم فوق ما أعلم

فأجاب – هذا ماسوف أدلى به ، ولعلنا ، إن لم أكن مخطئاً ، متفقون على أن ما يتذكره الانسان لا بد أن يكون قد علمه فى زمن سالف

– جد صحيح

– فما طبيعة هـــذا التذكر ؟ إنما أريد بهذا السؤال أن أتساءل : ألا يحق لنا القول بأنه إذا لم يقتصر علم إنسان على ما قد رآه أو سمعه أو سلك إلى إدراكه أية سبيل أخرى ، بل عرف شيئاً آخر معرفة تباين تلك ، أفليس هو بذلك إنما يتذكر شيئاً يختلج فى عقله ؟ ألسنا على ذلك متفقين ؟

– ماذا تعنى ؟

– أعنى ماقد أوضحه بهذا المثال الآتى : ليست معرفتك القيثارة كمعرفتك الانسان سواء بسواء ؟

– هذا صحيح

– ولكن ماشعور المحبين إذا ما رأوا قيثارة أو لباساً أو أى شىء آخر مما كان المحبوب يستخدمه عادة ؟ أليسوا من رؤية القيثارة يكوّنون فى عين العقل صورة للفتى صاحب القيثارة ؟ وهذا تذكر ، وكل من يرى سمياس قد يتذكر بنفس الطريقة سيبيس ، وهناك من هذا الضرب أشياء لا يحدها الحصر

فاجاب سمياس – نعم إنها موجودة حقاً ولا حصر لعددها

فقال – وهذا الشىء وما اليه هو التذكر ، وهو فى الأعم الأغلب عملية لكشف ماقد طواه النسيان بفعل الزمن والاهمال

فقال – هذا صحيح

– ثم ألا يجوز كذلك أن تتذكر انساناً من رؤية قيثارة أو صورة لجواد ؟ أو قد تبعثك صورة سمياس على تذكر سيبيس ؟

– هذا حق

(يتبع) زكى نجيب محمود

لحظات على متن الباخرة كوثر

للأستاذ عبد الحميد العبادى

تفضلت « شركة مصر للملاحة البحرية » فدعتنى الى شهود احتفالها بسفر الباخرة « كوثر » من مرفأ الأسكندرية الى السواحل الحجازية مقلة حجاج بيت الله الحرام . فقبلت الدعوة مبتهجاً مسروراً ، وأجمعت أن ألبيها شاكراً ممتناً ، وقلت فى نفسى إن فاتنى أن أحج بيت الله على متن هذه الباخرة ففاتنى بذلك ثواب تلك الفريضة الكبرى ، فلا أقل من أن أحج السفينة نفسها فأفوز برؤية الحلقة الثالثة من سلسلة ستكتمل حلقاتها بأذن الله ، ويكون لهذا البلد منها أسطول مبارك الغدوات ميمون الروحات

وحانت الساعة الرابعة من عصر يوم الخميس الماضى ، فأخذت طريقى الى المرفأ فيمن أخذ ، وصعدت تلك الباخرة الجاثمة فوق متن الماء كالطود العظيم فيمن صعد ، وقد صعدها خلق كثير من علية القوم وأوساطهم يعدون بالمئين . وجعلت أطوف أنحاء السفينة مع المطوفين ، صاعداً وهابطاً ، متنقلا من طابق الى طابق ، ومن مقصورة الى مقصورة ، ومن مرفق الى مرفق ، وأشهد لقد تملكتنى الحيرة من روعة ما شهدت ، وفخامة ما رأيت . وأشكل على الأمر هنيهة من الزمن ، فكأننى فى حلم من تلك الأحلام اللذيذة التى يخشى معها الحالم أن تتفتح عيناه على الحقيقة المرة المؤلمة ! أهذه سفينة مصرية حقاً ؟ وهذا العلم الخفاق فوق حيزومها ، أهو العلم المصرى ؟ وهذا الاسم العربى المرقوم عند جؤجؤها ، أمكتوب هو بالحرف العربى ؟ وهؤلاء الشبان الرائحون الغادون فى طرابيشهم القانية وملابسهم البحرية الجميلة ، يطلعون الزوار على مادق من مرافق السفينة وما جل ، أهم مصريون حقاً ؟ وزاد بى اللبس فجعلت أتقرى الأشياء بيدى أتثبتها على نحو ماصنع البحترى عند ما قام فى إيوان كسرى ، وعراه ماعرانى من الدهش والالتباس !

يغتلى فيهم ارتيابى حتى تتقراهم يداى بلمس

ولكن لم يطل أمد تلك الحال ، فكل شىء حولى قد احتشد لنصرة اليقين على الشك فى المعركة التى قامت بينهما فى نفسى ، وسرعان ما محا نور اليقين ظلمة الشك ، واطمأنت النفس الى أنى قائم فى قطعة من مصر طافية على وجه الماء

الله أكبر ! لقد أخذ الزمان يستدير ، وشرعت مصر تسترد مكانة كانت لها فى القديم ثم نحيت عنها قوة واقتداراً ، أليست مصر صاحبة أول بعثة تجارية بحرية فى التاريخ هى بعثة الملك (اسنفرو) الى الشام ؟ أليست مصر صاحبة أول بعثة استكشافية يعرفها التاريخ هى بعثة الملك (نخاو) حول أفريقية ؟ ألم تكن مصر سيدة البحار على عهد البطالسة ، ومنارتها بالاسكندرية من عجائب العالم القديم ؟ أليس أسطول مصر الاسلامى هو الذى دحر الأسطول البيزنطى فى واقعة « ذات الصوارى » المشهورة وانتهت اليه زعامة شرقى بحر الروم زمناً طويلاً ؟ ثم مذا ؟ ثم كانت واقعة « نوارين » التى تحامل فيها الغرب على الشرق فدمر فيها الأسطول المصرى تدميراً ، وكان ذلك آخر عهد مصر بالملاحة الصحيحة

إن تعجب فعجب أن تكون لمصر سواحل مترامية مطلة على بحرين من أهم بحار الأرض ، وأن يكون لها هذا الماضى الجليل ، ثم تظل طوال القرن التاسع عشر وصدر القرن العشرين عالة على سفن غيرها فى نقل عروضها ومتاجرها ومسافريها ، ولكن هذا الذى قدر فكان . فليذكر ذلك الذاكرون فى هذه الأيام السعيدة التى تأذن الله فيها بانبعاث البحرية المصرية على أيدى رجال « شركة مصر للملاحة البحرية »

***

لقد كنت أمضى فى تأملاتى هذه ، لولا أن يسرت أقدار لأقدار ، فلمحت عن كثب زعيم مصر الاقتصادى ، وحامل لواء نهضتها المالية الحرة ، ومن عساه أن يكون سوى « محمد طلعت حرب باشا » ؟ فأسرعت إليه أبثه إعجابى بما أرى ، وأهنئه وأهنئ فى شخصه رجال هذه الشركة المباركة على ما أوتوا من عناية الله وتوفيقه . وجلست اليه سويعة تحدثت إليه فيها فيما خص من الأمر وما عم ، ثم قمت من حضرته وأنا أهدى مما كنت ، وأفهم مما كنت ، وخيراً مما كنت . وكذلك الشباب اذا ظفر بلقاء الرجل العظيم والتحدث اليه

وكانت الشمس قد أوت الى الأفق الغربى مؤذنة بالمغيب ، وجعلت ترسل أشعتها على أعالى البواخر والسفن فتصبغها بمثل الورس الأحمر ، وتسكبها على ماء البحر فتحيله تبراً مذاباً . وشمل المنظر خشوع وجمال وجلال ، زاد القلب طرباً ونشوة ووجداً . فانصرفت وأنا أدعو (لكوثر) وأخواتها بيحر ذلول ، وريح رخاء ، وأهتف من أعماق قلبى لأولئك الذين بعثوا العزة القومية بعد وأدها ، وأحيوا فى نفوس هذه الأمة دارس الأمل وميت الرجاء ؟

عبد الحميد العبادى

١١ - بين القاهرة وطوس

اصفهان

«نصف جهان»(١)

للدكتور عبد الوهاب عزام

خرجنا من قمّ والساعة ثلاث بعد الظهر، سائرين الى الجنوب تلقاء أصفهان، وبين قم وأصفهان ٢٨٢ كيلا، فما زلنا نضرب فى سهوب مترامية تعمرها قرى قليلة، حتى قطعنا ٩٢ كيلا فى ساعتين، فبلغنا قرية دليجان، وهى قرية كبيرة على الجادة يبدو عليها الفقر، وبيوتها كغيرها من قرى إيران، مسنّمة السقوف، مطينة الجُدُر، فاذا رأيتها على بعد حسبتها قبوراً عالية. وقفنا فى القرية على بناء كتب عليه بالانكليزية أنه مطعم ومشرب شاى، وهو طبقتان فى كل واحدة حجرتان، وللطبقة العالية سلم من اللبِن يهبط الى الطريق

دخلنا فقدم لنا الشاى والبطيخ، واسترحنا قليلاً، ثم ركبنا سيارتنا وقد كادت الشمس تغرب. قلنا: كم بيننا وبين أصفهان؟ قيل أربع ساعات، وبين دليجان وأصفهان ١٩٠ كيلاً. وقال سائق السيارة لصاحب المطعم سنمرّ بك بعد غد، فهيىء لنا دجاجة وحساء، قال نعم، ذلك وكل ما تشتهون

ضربنا فى أرض بلقع يتخللها عمران قليل، حتى بلغنا بلدا اسمه شاه عباس، بينه وبين أصفهان خمس وعشرون دقيقة، فتغير مرأى الأرض، وبدت لنا الأشجار والزروع والمياه، وما زلنا فى أرض مخصبة مخضرة حتى دخلنا المدينة والساعة تسع وخمس دقائق من مساء السبت حادى عشر رجب (٢٠ اكتوبر)

أصبهان: مدينة العراق العجمى، على ٤٣١ كيلاً الى الجنوب من طهران، وعرضها ٣٢ درجة وطولها ٤٩، وارتفاعها ١٣٤٤. وهى فى سهل واسع خصب، حسن الهواء كثير الماء والشجر؛ قال ياقوت: «وكانت مساحة أصبهان (أى الأقليم) ثمانين فرسخاً فى مثلها، وهى ستة عشر رستاقاً كل رستاق ستون وثلاثمائة قرية قديمة سوى المحدثة». ولا ريب أن فى رواية ياقوت غلواً تابع فيه الأقوال الشائعة. وقد قال هو عن اصبهان: «مدينة عظيمة مشهورة، من أعلام المدن وأعيانها. ويسرفون فى وصفها حتى يتجاوزوا حد الاقتصاد»

وقد أدى الى إغراق الناس فى وصف أصفهان وأقليمها استبحار العمران هناك، وكثرة القرى، والمياه والزروع. وقد حدثنى مهندس ألمانى فى مدينة أصفهان أن من بقاع اصفهان بقعة يسير فيها السائر خمسة عشر كيلاً بين الأشجار. ويُنبت الأقليم القطن والتبغ والبطيخ وكثيراً من الفاكهة

والمدينة على نهر زنده رود (النهر الحى)، ويسمى اليوم زايَنده رود (النهر الولود). حدثنى رجل أنه سمّى بهذا لانبجاس مياهه من الأرض فى مواضع كثيرة. قال ياقوت: «زند روذ نهر مشهور عند أصبهان، عليه قرى ومزارع؛ وهو نهر عظيم أطيب مياه الأرض وأعذبها». وقال فى موضع آخر: «وقد وصفه الشعراء فقال بعضهم:

لست آسى من اصبهان على شيء سوى مائها الرحيق الزلال
ونسيم الصبا ومنخرق الريح وجو صاف على كل حال
ولها الزعفران والعسل الماذىّ والصافنات تحت الجِلال»

وكذلك قال الحجاج لبعض من ولاّه اصبهان: قد ولّيتك بلدة حجرها الكحل، وذبابها النحل، وحشيشها الزعفران. وقال آخر:

لست آسى من اصبهان على شيء أنا أبكى عليه عند رحيلى
غير ماء يكون بالمسجد الجامع صاف مروّق مبذول. اهـ

ولعل قول كل من هذين الشاعرين «لست آسى» لما تحدث به القدماء من وصف أهل اصبهان بالبخل. وقد حكى عن الصاحب ابن عباد أنه كان إذا أراد الدخول الى اصبهان قال: من له حاجة فليسألنيها قبل دخولى الى اصبهان، فاننى إذا دخلتها وجدت بها فى نفسى شحّاً لا أجده فى غيرها. وقد روى ياقوت بيتين كتبا فى بعض الخانات التى فى طريق اصبهان:

قبّح السالكون فى طلب الرزق على أيذج الى اصبهان
ليت من زارها فعاد اليها قد رماه الآله بالخذلان

(١) يقول الفرس اصفهان نصف جهان. أى أصفهان نصف العالم

وعلى نهر اصبهان اليوم ثلاث قناطر من عجائب الآثار ، أكبرها قنطرة « اللهوردى‌خان » أحدقواد الشاه عباس ، وتسمى اليوم « بل سى وسه جشمه » ، أى القنطرة ذات الثلاث والثلاثين عيناً . وهى مبنية بالحجارة الضخمة ، تسير فوقها طريق واسعة لها جداران عاليان . والنصف الأسفل من عيونها يسد بالخشب إذا أريد حبس الماء ، وعلى جانبى العيون فى قاع النهر سنادان من الحجر يسير عليهما الناس حين انخفاض الماء

ومدينة اصبهان قديمة ذكرها بطليموس . وكانت ذات مكانة عظيمة قبل الأسلام ؛ ولم تزل فى الاسلام معدودة من أمهات المدن الفارسية

وقد تقلبت بها غِيَرٌ كثيرة واهتمت بالسيطرة عليها كل الدول الأسلامية الشرقية ، فتولى أمرها السامانيون والبويهيون والغزنويون والسلاجقة ، وكان السلطان ملكشاه السلجوقى يحب المُقام بها . ولما سالت على المسلمين كوارث التتار ، ساروا اليها سنة ٦٢٥ فدفعهم عنها البطل العظيم جلال الدين خوارزمشاه ، ولما كانت الدولة التيمورية ثار أهل أصفهان على الجبار تيمورلنك سنة ٧٩٠ فقتلهم حتى قيل إنه جمع سبعين ألف رأس فبنى بها أهراماً

وأمجد عهود أصبهان عهد الدولة الصفوية ، ولا تزال آثارها ناطقة بما كان لها من جلال وجمال فى ظل هذه الدولة

وقد بلغ سكانها فى ذلك العهد ستمائة ألف ، وكان بها ثمانية وثلاثون ألف دار ، واثنان وستون ومائة جامع ، وثمان وأربعون مدرسة ، وثلاث وسبعون ومائتا حمام ، وثمانمائة وألف خان ، (كاروانسراى) وكان محيطها فيما يقال أربعة وعشرين ميلا

ولما أغار الأفغانيون على إيران وقضوا على الدولة الصفوية ، ثم صارت طهران دار الملك تناقص عمران المدينة ، ودالت دولتها ، وسكانها اليوم ثمانون ألفاً ، ومحيطها ميلان ، ولكن لها شأناً عظيماً فى التجارة والصناعة

دخلنا المدينة ليلاً ، فأوينا [illegible] اسمه (فندق الفردوس) . وكان يسمى الفندق الأمريكى ، وهو فى شارع واسع مشجر قديم يقال إن أشجاره من عهد الشاه عباس الكبير ، وهو أعظم شوارع المدينة . وجاءنا بعد قليل رئيس البلدية محيياً وقال إنه يود أن ننزل داراً خاصة فى ضيافة الحكومة . فشكرنا له وللحكومة هذه الحفاوة ، وآثرنا أن نبقى فى الفندق ، فأبلغنا دعوة الحاكم إيانا الى العشاء فى داره غداً

لم يمكننا الأعياء من التجول فى المدينة تلك الليلة ، ولكن نعمنا بمرأى أشجار الحور الباسقة تنثر على الأرض ضوء القمر ، كما تتناثر فى خيالنا ذكرى الماضى المجيد من هذه البلدة الخالدة ، التى نشأت من علماء الأسلام الأعلام أمثال أبى الفرج الأصفهانى وداود بن على صاحب المذهب الظاهرى ، وأبى نعيم صاحب الحلية ، وحمزة المؤرخ

وكنا نسمع فى الحين بعد الحين جلجلة الأجراس فى أعناق الابل أو الثيران السائرة فى المدينة . وهذا صوت مطرب فى جوف الليل ، ولكنه يذهب بالنوم . وغدونا الى دار الحكومة فقابلنا حاكم أصفهان وهو أحد الوزراء السابقين ، ورجال الصحافة القدماء ، وكان له جريدة تسمى صور اسرافيل فغلب اسمها عليه فهو اليوم يسمى قاسم صور اسرافيل ، ويتسمى هو بهذا الاسم ويكتبه على بطاقته ، وكذلك جاء الى دار الحكومة نفر من الألمان ، منهم الدكتور شميت الصحافى الذى ينشر جريدة فى أنقرة الآن ، وكان مندوباً الى مؤتمر الفردوسى ولكنه تأخر

خرجنا لرؤية آثار اصفهان الرائعة . وإنى أشفق على القارئ أن أصف المساجد والقصور التى رأيناها وصفاً مفصلاً ، فمن شاء أن يرى صور هذه الآثار فليذهب الى الجمعية الجغرافية ليرى قاعة المحاضرات مزدانة بصور كثيرة من الآثار الفارسية ، أعظمها وأجملها آثار اصفهان

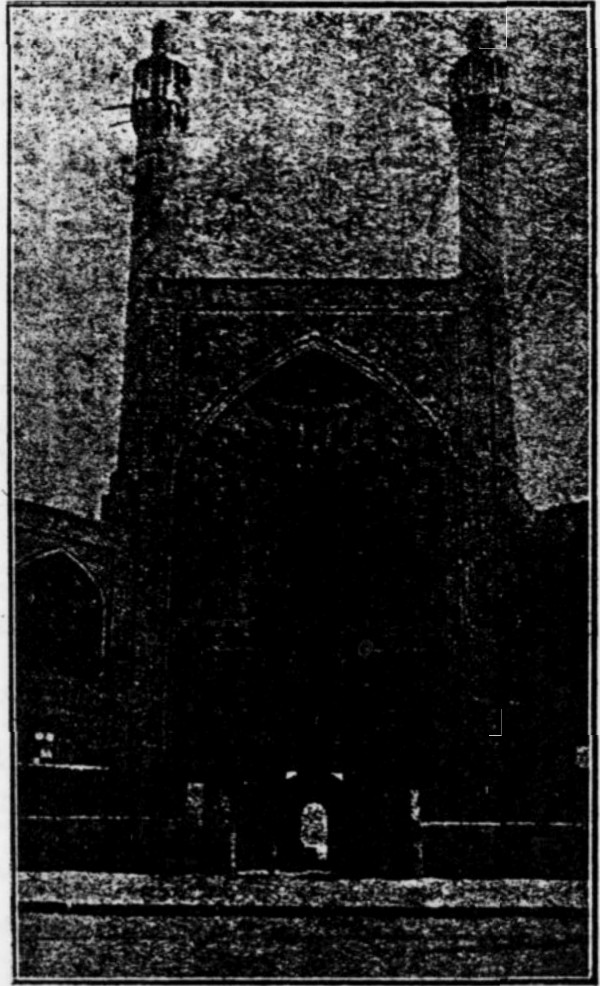
فى المدينة ميدان كبير قال لنا مهندس ألمانى إنه أكبر من ميدان الكنكورد فى باريس ومن كل ميدان فى مدينة

وكان هذا الميدان للعب الكرة والصولجان على ظهور الخيل (الجوكان) ، ولا تزال فيه العمد الخشبية التى تُعلَم غاية اللعب . وفى وسطه حوض كبير تنبجس منه نافورات قوية ؛ وهى من آثار الصفويين ، وقد أصلحت أخيراً

ويحيط بالميدان آثار الصفويين : مسجد الشاه ومسجد

الشاه لطف الله والباب العالى والسوق

مسجد الشاه من أجمل مساجد المسلمين ، بل من أعظم آثار العالم قاطبة ، بناء ضخم وهندسة محكمة ، وصنعة الكاشانى والكتابة والنقش لم تدع مزيداً لصانع أو ناظر . ولا يرى مقدار شبر فى جدر المسجد أو إيواناته أو قبابه خالياً من هذه الصنعة ، فقد أُفرغ الجمال على هذا المسجد كتابة ونقشاً وتلويناً



مدخل جامع الشاه باصبهان

وفوق إيوان القبلة قبة شاهقة تعلوها قبة أخرى ، وبينهما ستة عشر متراً ، فاذا وقف الانسان فى مركز القبة وصفق بيديه صفقة خفيفة ، أو تكلم بصوت خفت ، أو حكّ الأرض برجله انبعث الصدى عالياً مدوّياً مردّداً فى القبة أكثر من عشر مرات

ومسجد الشاه لطف الله أصغر من هذا ، ولكن فيه من الفنون دقائق عجيبة ، وفيه طبقة تحت الأرض للصلاة فى الشتاء.

(يتبع) عبد الوهاب عزام

اللهَ قد عبدوا

للأستاذ فخرى أبو السعود

وَيْلِى عَلَى أُمَمِ الإسْلامِ خاضعةً ... لِلْمُسْتَبِدِّينَ لا يَرْثِى لها أحَدُ

مَنْ قالَ لِى : مَنْ يُقِرُّ الضَّيْمَ ؟ قُلْتُ له : ... ألْمُسْلِمُونَ وعَيْرُ الحىِّ والوَتِدُ !

فِى مَشْرِقِ الأرْضِ قد دانوا ومَغْرِبِها ... ما كادَ يَنْجُو لَهُمْ مِنْ غاصِبٍ بَلَدُ

فى رِبْقَةِ الظُّلْمِ هُمْ جاءوا وهُمْ ذَهَبُوا ... وفى المَذَلَّةِ قَدْ ماتوا وقد وُلِدُوا

صَلَّوْا وصامُوا لِبارِيهِمْ تَظَلُّلُهُمْ ... أعْلامُ مَنْ ظَلَمُوا أو سَيْفُ مَنْ عَنَدُوا

يا لَيْتَ شِعْرِى أَلِلدَّيَّانِ ما قَنَتُوا ؟ ... أمْ لِلْمُغالِبِ ما قامُوا وما سَجَدُوا ؟

يا قَوْمُ مِنْ شِرْعَةِ الإسْلامِ دِينِكُمُ ... أنْ لَيْسَ يُعْبَدُ إلاَّ الواحِدُ الصَّمَدُ !

أتَرْتَضُونَ سِوَى الرحمنِ مُحْتَكِماً ؟ ... ما إنْ لِقَوْمٍ إذا ما اسْتُعْبِدُوا رَشَدُ

أللهُ لَيْسَ يُحِبُّ الدِّينَ مِنْ أُمَمٍ ... لِغَيْرِهِ طَأْطَأُوا أو غَيْرَهُ عَبَدُوا

لَعَلَّ أدْنَى إلَيْهِ فى مَرَاتِبِهِ ... عَدُوُّكُمْ وهْوَ ماضِى العَزْمِ مُجْتَهِدُ

أخْنَى عَلَيْكُمْ بِجُنْدٍ مِنْ عَزائمِهِ ... وَمِنْ جَهالَتِكُمْ جُنْدٌ لَهُ حُشُدُ

لَوْلا تَفاقُمُ هذا الجَهْلِ بَيْنَكُمُ ... لَمْ يُغْنِهِ عَدَدٌ فِيكُمْ ولا عُدَدُ

لا يَبْلُغُ العِزَّ قَوْمٌ عَنْ جَهالَتِهِمْ ... لا يَنْزِعُونَ وعَنْ مَسْعاتِهِمْ قَعَدُوا

إنّا نَؤُومُو الضُّحَى لَيْسَتْ تُزايلُنا ... أحْلامُنا وهْوَ فى جُنْحِ الدُّجَى سَهِدُ

ما دامَ ذا الجَهْلُ يَمْشِى بَيْنَ أظْهُرِكُمْ ... فَفِى قَضِيَّتِكُمْ - لا يَنْقَضِى - فَنَدُ

قَدْ ذَمَّكُمْ بالَّذِى فِيكُمْ فَلا كَذِبٌ ... فإنْ غَلا فَلَهُ مِنْ جَهْلِكُمْ سَنَدُ

كَمْ تَقْنَعُونَ بِدُونِ العَيْشِ مَرْتَبَةً ... فى العالَمِينَ ؟ وكَمْ ذا الذُّلُّ مُطَّرِدُ ؟

مَنْ لِى بِعَهْدٍ بِهِ آباؤُنا مَلَكُوا ... بِكَفِّهِمْ كُلَّ ما حَلُّوا وما عَقَدُوا ؟

لا يَقْبَلُونَ وَصاةَ الأوْصِياءِ ولا ... أحْكامَ مَنْ أسْرَفُوا فى الحُكْمِ أو قَصَدُوا

أللهَ قَدْ عَبَدُوا دُونَ الوَرَى وَلَهُ ... بِذاكَ فى الصَّلَواتِ الخَمْسِ قَدْ شَهِدُوا

فخرى أبو السعود

الى ممثلة نابغة

من أى وحى تنهلين رشاقة   لمحتْ ظلالَ الخلد منها الأنفس ؟
وبأى سحرٍ تمسحين مواقفاً   يزهو بروعتها الجمال الأقدس ؟

* * *

روح الطبيعة فى اختلاف فنونها   وروائها لم يحوِ مافى نغمتِكْ
وشتْ مواهبك الكياسة فانثنتْ   آياتُها مختالة فى بَسمتِكْ

* * *

أدركتِ سرّ الفنّ وهو ممنَّع   فعنَا لكِ الابداعُ ، إذ أدركتهِ
ما الواقع الملموس يعجب باحث   فيه ، سوى تمثيل ما مثّلتهِ

عاصمة الأرجنتين   **الياس قنصل**

ثورة الذكرى

بقلم فريد عين شوكه

ذكرياتٌ مشبوبة الثوَرانِ   وحبيب يلجّ فى الهجرانِ
وفؤادٌ طغى الحنين عليه   فوَهَى عزمه من الخفقان
حائر فى الضلوع تفضحه العيـ   ـنُ بمرآة دمعها الحيران
شَدّ ما روّع الفؤاد من الذكـ   ـرى وماذاق فى الهوى من هوانِ !

* * *

ذكرياتُ الغرام تغمر فكرى   فتثير الغَفِيّ من أشجانى
كلما صوّرتْ لىَ الماضِىَ الضا   حِى وريف الظلال عذب المجانى
أردفَته بحاضرى مقفر الدّوْ   حةِ مُرّ الجَنى حزين المغانى !
فتثور الهمومُ ، يارحمةَ اللهِ   إذا لجّ فى الهموم جَنانى
ثورة تلْهِبُ الفؤادَ فيغدو   فى ضلوعى كحُمّةِ البركانِ
يتنزّى حتى تضيق به النفـْ   ـسُ فتلقاه بالعتاب الحانى
فيمَ هذا الحنينُ يأيها القلْـ   ـبُ الى من غفَا على نسيانى
وإلامَ الوفاء والطاعةُ المُثْـ   ـلَى لمن لا يثوب عن عصيانى
فيمَ تلك الأشعارُ تُضفِى عليه   كلّ ما رقّ فى الهوى من معان
يسكب الغيرُ فوقها دمعة العطْـ   ـفِ ويرثى لما بها من تفانِ
وهو إنْ لاَحَها يمرّ عليها   دون ما رحمةٍ بها أو حنان
قد سئمتُ الهوى عذاباً أليماً   وحياةً كئيبة الألوان

وإذا القلبُ بينها واهن الخفـ   ـقِ غريق فى لُجّةِ الأحزان
يسأل النفسَ للحبيب المعاذيـ   ـرَ ويأبى الجنوح للسُّلوان
يالهذا الفؤادِ ألوى به الحبُّ   م وما زال دائب التحنان

* * *

أيها القلبُ قد سَباكَ حبيب   ليس يحنو على الأسير العانى
يتجنّى علىّ رغم فنائى   فيه ، يا للجحود والنكران !
كم تمنيتُ عطفَه فتأبّى   وتشهّيتُ وصله فجفاني
وكأنى إذا مرضتُ وكانت   صحوَتى فى مزاره ما أتانى
وكأنى لو متُّ فى ميعة العُمْـ   ـرِ وغيّبْتُ فى الثرى ما بكانى
فاتئدْ فى هواكَ يأيها القلْـ   ـبُ وخفّفْ من سوْرة الهيَمان
أو كما شئْتَ يا عَصِىُّ ولكن   سوف تصلَى لواعج الكتمان
لن ترانى أشكو إليه خفَايا   كَ ولو ذُبْتَ شكوةً فى لسانى

* * *

لهْف نفسى عليكَ يأيها الما   ضى ويا شوْقَ خاطرى الوَلهان
كم عهودٍ كانت لديكَ غوالٍ   وليالٍ غُرّ الجبين حِسان
جمَعتْنا كما اشتهينا وحيديْـ   ـنِ فكانتْ بليغة الإحسان
وحبَتْنا شراعَها فامتطينا   هُ إلى دوحةِ الهوى الفينانِ
فنعمنا بما به من بَواكيـ   ـرَ وما فيه من قُطوف دوَانِ
ورشفنا بورده الطاهر العذْ   بِ كئوساً من الرضى والحنان
وسمَرْنا فى ربْوَةٍ عطِر الجوْ   م بأنفاس زهرها الوسنان
نتناجَى والعينُ أمتع فى النجْـ   ـوَى وأوفَى من عبقرىّ البيان
ونغنّى فيستفيق لنا الرّوْ   ضُ كأنّا فى دوْحِه غردَان
مصغياً للغناء حتى نؤدّيـ   ـه فيهفو كالطائر النشوان
كم تغنيتُ للحبيبِ بما شا   ء ورتّلتُ ما اشتهى من أغان
فإذا هاجَه الحنين فغنّى   فى حياء ورِقّةٍ وافتنان
وسَرَى الصوتُ بين أحشائِىَ الظّمْـ   ـأى وأحناءِ صدرِىَ اللّهفَان
رفّ قلبى له رفيف الأقاحى   ناعماتٍ بالمنهل الرّيّان
ذاكَ ماضى الهوى فكيف تناسيـ   ـهِ وقد صار بضعة من كيانى

* * *

جَفّ روض الهوى من الثمر الحُلْـ   ـوِ وأضحى مُهلْهَلَ الأفنان
وضحا ظلّه الظليلُ وفرّت   عن أفانينه طيور الأمانى
فقضيتُ الحياة أرويه دمعى   وأعانى فى ريّه ما أعانى

فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

٧ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

للأســـتاذ خليل هنداوى

أما الأنسان فهو عند هيجل الكائن الفرد الذى يتوسط بين الكائنات كيف يشاء ، ويُدرك نفسه بنفسه . الأنسان هو روح : روح ذاتية لا تحس إلا بحريتها الخاصة ، ولا تعمل إلا على مايضمن لها النصر على ما حولها . وروح اجتماعيــة تحترم حريات الناس وتراعى حقوقهم . وروح مطلقة تسمو على التقاليد المادية ، يفنى إزاءها كل شىء من كل شىء تواضع عليــه الناس . روح تعود الى نفسها لتجد فى نفسها « المثال الالآهى » فلا تجده غرضاً تسمى اليه ولكن تجده حقيقة شاملة أدركتها فيما أدركت . . .

وقد وجد هيجل ثلاث شعب فى العلوم : العلوم النفسية ، والعلوم الأدبية ، والعلوم الدينية . . . وقد شطر العلوم الدينيــة ثلاثة فروع : الفن ، والدين ، والفلسفة ؛ أما الفن فهو أول تجربة قام بها الروح ليتشبه بالوجود ، فالفنان يذهل عن نفسه حين يتأمل فى عمله . والفن – فى الحقيقة – هو يقظة من يقظات الوحى ولمعة من لمعات العبقرية . والدين يفسر معانى الألوهيــة برموز وألغاز . وفى النهاية وجد الأنسان ربه فى نفسه ، وهاهنا تسامى الدين الى الفلسفة ، وولد الإلآـه فى روح الأنسان ، وتألف العلم المطلق ، وبسط به الأنسان سلطته على الكون ، وأدرك به غرضه . هذا هو الفيلسوف الذى يستطيع أن يغلق كتاب الوجود دام انتصار مدرسة « هيجل » خمسة عشر عاماً ، لا تسمع فيها إلا صوت هذه المدرسة التى ملكت على القوم ، وفرّت من وجهها كل مدرســة ؛ ثم أخذت تهوى عن عرشها لأن العقل المخدَّر آن أن يصحو ، فبدا له ما فى هذه الآراء – برغم اشتهار صاحبها بقوة عارضته وقوة منطقه – من تناقض واضطراب . ففى عالمه السياسى والألـهى قد ظهر الاختلاف على أشده ، وجد « هيجل » فى صاحب الديانة المسيحية شخصية سامية يمازجها روح الآلـه . ولكنه فى فصل آخر يقر بأنه لا يجد فى الدين إلا تعاليم آخذة طريقها الى الفلســفة ، حيث تفنى فى الفلسفة كل عناصر الإيمان . وأما آراء « هيجل » فى التاريخ فهى آراء عقلية ، يتحدث بها عن عقل الفرد وعقلية الأمم ، ويرى تاريخ الحرية هو تاريخ العالم . أما العصر الشرقى فهو عصر الحكم المطلق ، والعصر اليونانى الرومانى هو عصر الحرية الجزئية وعصر الأحزاب والامر والعبودية ، والعصر الجرمانى هو عصر النهضة والبعث والثورة ، ويقبل هيجل على العصر الحديث ويذكر أن الدولة هى هيئة من هيئات الفكر ، ولا بد لهذه الهيئة أن تتمثل فى صاحب السلطة والسلطان . وهو لا ينصر مذهب توزيع السلطة خشية أن يثير ذلك الضغائن ويخلق الفتن ويوقع العراك فى الأهواء . وهو يقدم لنا – بعد هذا الحوار الطويل – حكومته البروسية بعد معاهدة (١٨١٥) مثلاً سامياً للدولة . وهكذا لا يمكن للفيلسوف أن يتجرد من نعرته القومية حتى فى المباحث التى ينبغى لصاحبها أن يكون مجرداً بعيداً عن الهوى

مذهب المثال الكمالى

وأخيراً ماذا ظل راسياً من مدرسة « هيجل » فى الصرح الفلسفى ؟ أم ماذا بقى من ذلك الأتجاه العنيف نحو فلسفة « الواحد المطلق » الذى جرى وراءه فيخت وشيلنج وهيجل ؟

إن « كانت » فى كتابه نقد العقل المجرد أجاب بأن معارفنا لا تضع لنا جواباً شافياً عن حقائق الأشياء ، ولكنها تقرب لنا صورها بطريق الحواس ، وهــذا الوجود لا نراه على حقيقته التى هو عليها ، وإنما نراه على الحقيقة التى تبدو لنا منه . وجاء فيخت بعــده فجعل من (الذات) ملجأ للحقيقة كلها . والأشياء الخارجة عن كياننا لا يُكتب لها الظهور إلا فى اللحظة التى تعالجها الذات وتمعن فيها تفكيراً . والأنسان بما أوتى من

وإذا الروضُ هامدٌ ما أفادَتْـ ـهُ شآبيبُ دمعيَ الهتَّان

أيها الروضُ إن ما بكَ أوْهَى عزَمَاتى وهدّ من بُنيانى

داؤكَ الهجر والحبيبُ عَصِيٌّ والليالى تُغريه بالحرمان

فاذا ما جَهِدْتُ فى بعثِ ماضيـ ـكَ رمانى الزمان بالخذلان

والزمان العنيدُ إن سدَّد الرَّمْـ ـيَةَ ألْوَى بحيـــلة الإنسان

يا إلهَ السماء إنى تحطَّمْـ ـتُ وما زلتُ فى ربيع زمانى

وذَوَتْ مهجتى من النَّغَم البا كى فمن لى بأعذب الألحانِ ؟

فريد عين شوكة

عزم وقوة لم يكن يوماً بكائن بسيط بدفع القوى المحدقة به ، ولكنه يريد أن يُسيطر على العالم حتى يتمكن من شعوره بنفسه . ولكن ملذا آلت اليه الطبيعة – في مذهب فيخت – ومعانيها المتدفقة الحساسة ؟ إنها قد صُرعت وتجردت من كل المعانى ، فجاء شيلنج فعمل على مزج الفلسفة بالفن ، وجرَّب أن يُوحد بين العالم والكائن المفكر . الأنسان والطبيعة يجب أن يتحدا ويكون واسطة اتحادهما العقل المفكر والأحساس بالجمال . . . وهكذا عاد مذهب سبينوزا القائل بأن الله إنما هو كل الكائنات ، عاد هذا المذهب بصورة أوسع أفقاً من صورته الأولى ، يتوسع في الحرية الأنسانية ، وينطوى على فكرة فنية

بلى ، إن مذهب المثال الكمالى الذى دان به الفكر الألمانى مصدره المذهب القائل « بأن الاله الواحد إنما هو كل الكائنات » وهذا « هيجل » هو الذى ثبت هذا المذهب بدستوره الذى جاء وليد جهود رفيعة تريد أن تشيد العلم الأنسانى ، ثم تبلغ بهذا العلم نفسه منزل الحقيقة السامية . فتطور الحياة العضوية في الطبيعة ، وتعاقب الأصول البشرية ، وتتابع المدنيات في التاريخ إن هي إلا وجوه متقلبة لأصل واحد . وهذه هي الدائرة التي يجوزها الفكر المطلق عاملاً على تحقيق قوته المبدعة ، وراجياً في النهاية أن يتم تعارفه مع الروح الأنسانية ... الاله لم يكن ... ولكنه عاد ... وُلد في الأنسان . إن معنى الوجود هو أضعف معنى ؛ وهل معناه إلا أن تبدو لحظة من الزمن على مسرح هذا العالم المتبدل ثم تعود الى أصلك ؟ كل شيء يزول يدل على أن فكرة زواله تمت ، أما حركة الحياة فانها تهمد في معنى مجرد لا تدركها الأنظار

إن فلسفة هيجل حين جعلت من الروح الأنسانية ملجأ كل معرفة ووعاء كل حقيقة ، أصبح التـديّن بها يعرف الروح الأنسانية ، ولا يعرف مما حولها شيئاً ؛ هو يزعم أنه يحلل الكون ويعلل حوادثه ويشيد دعائمه بفكره ، ولكنه في الحقيقة لا يتخطى – في ذلك – حدود العالم الصغير الذى يضم الأنسان عليه جوانح صدره

* * *

لابد لمن أراد أن يلم بتطور الأدب الألمانى في منتصف القرن التاسع عشر أن يقع على أسباب تلك السآمة التي تمشت في عروق ذلك الأدب ، ففي غرة هذا القرن اقتحم « نابليون » ألمانيا ، وغلبها على أمرها ؛ فأذعنت أو همدت قليلاً والنار تسطع خلل الرماد ، وهي في الحقيقة لم تنفض عنها أملاً ولم تدفع مأملاً ، والحركة الفكرية التي ولّدها أولئك الفلاسفة تدل على أن مرماها لم تزغ عنه الأبصار ، وأن آثارها لم يطمس عليها طامس ؛ وبعد حبوط تلك الآمال النازعة الى حرية الشعب الألمانى ولم شعثه بعد التفرق ، خيم على الجبهة الألمانية شبه سكون لا يتمخض بحياة ! ولكن الأدب لا يموت ، ولكنه يثور ويتحرك في الأقطار المذللة حيث ترى أصحابها مدفوعين دفعاً الى الحياة ، والتاريخ وحده ظل دائباً ساعياً وراء الغاية دون أن يقف سيره شيء ، أما صوت الشعر فقد خفت ، والمخيلة نامت الى حين

في هذا العصر وجدت فلسفة « هيجل » مزاحماً جديداً عنيفاً ، هو تشاؤم « شوبنهاور » ومما ساعد على انتشاره قوة بيان صاحبه ، وهيجل كان أسلوبه غير بيانى ، فتهافت الناس بعقولهم وقلوبهم على المذهب الجديد

ما قامت فلسفة أُذيع وأسير من فلسفة « هيجل » ، فقد كانت تياراً قوياً تقذف بالنفوس الى مسكن « المثل الأعلى » ولكن تأثيرها سرعان ما وهى ، وكان لهيجل أنصار كثيرون أخذوا عنه وحملوا مبادئه الى أقطار أخرى ؛ حتى إذا وافاه أجله ذهب البعض الى مقارنته بالاسكندر الذى غزا أقاليم مجهولة ، وبعضهم ذهب الى تمثيله بصاحب الرسالة المسيحية ، وفكرة «هيجل» هي مذهب التحول المستمر ، والعالم – عنده – هو كالنبتة تنجم دائماً من أصلها ، وتحمل في بعض الأحيان براعيم وأزاهير وثمرات . . . . .

وبعد موت « هيجل » انشقت مدرسته وقام منها ثلاث فرق : فريق عكف على تحليل مذهبه وتطبيق فروعه على بعض فروع علمية وأدبية ، وقد هذب هذا الفريق من أسلوب معلمهم حتى أخرجوه من حلقة الخاصة الى متناول العامة ؛ وفريق أراد أن ينزع عن فلسفة «هيجل» كل أثر من مذهب سابق ، وأن يرد كل أصولها الى الدين ؛ والفريق الثالث نظر الى « هيجل » نظرة مستقلة ، ووجد أن الدين المسيحى قد انتهى به ، كما انتهى العصر الوثنى اليونانى بأرسطو ، والكلمة التي رددها أحد تلاميذه : « لتكمل إرادة الرجل » تعتبر أول قاعدة في بناء شريعة المستقبل

يتبع

خليل هنداوى

القصص

من الادب التركي

باقة زهر

بقلم الآنسة «فتاة الفرات»

إن لبعض المناظر تأثيراً عميقاً خاصاً في نفس الانسان لا يشاركه فيه غيره من المناظر، ولست أدري ما الذي يكون من تأثير الحادثة الآتية في نفسي لو أنني شهدتها في زمان غير هذا الزمان، أو في مكان غير هذا المكان

لقد سحقتني المدينة بجلبتها وضوضائها، ففررت بفكري المجهود وعقلي المكدود إلى قرية قائمة في وسط صحراء هادئة نائمة لأداوي بسكونها فكري الثائر. وكنت في كل يوم ألقي بنفسي في أطهر ضواحي القرية من أنفاس الناس، فأستنشق فيها رائحة الطبيعة الجميلة تحت أشعة شمس الربيع التي كانت تسيل بغزارة من بين قطع السحاب، فتحرك النفوس الجامدة وتثير القلوب الخامدة

كان يمر بتلك القرية نهير براق ينصب فيه الماء من بين أحضان تلك الجبال الشماء، فاذا انحدر منها إلى السهول بصوت جذاب يشبه الصوت الذي ينبعث من مجلس من مجالس السرور جرى متغلغلاً بين الأحراج والغابات، متوارياً عن أشعة الشمس التي ملأت الأرجاء وطغت على الأنحاء، فاتراً هادئاً حابساً أنفاسه في صدره، كأنه فتاة عاشقة تسير نحو غايتها في لطف حتى لا يسمع خشخشة ثوبها سامع، ثم يجتمع شيئاً فشيئاً ويزج بنفسه في مقبرة تظللها أشجار السرو العاتية، وتنبعث منها روائح الموت القاسية، فتبعث في النفس ذكرى الدار الآخرة، وتوقظ في القلب عظمة الموت ورهبته، فاذا تجاوز هذه المقبرة سار في جريان بطيء فاتر مدفوعاً بقوة لا يمكن مقاومتها ولا يستطاع دفعها، مبتعداً عن الجبال والأحراج والصحاري حتى يغرق بحرقة الخسران وألم الفقدان في بحر لجي لا يسبر غوره ولا يدرك قراره

وكثيراً ما كنت أتبع في سياحتي مجرى ذلك النهير، فأسير على ضفته مأخوذ اللب، موزع الفكر في أمواجه الضاحكة التي تنيرها أشعة الشمس اللامعة، وضفافه الحزينة التي تظللها الأشجار الملتفة، فتنشر عليها بساطاً من الكدر والحزن، وكم حبست سمعي على زمزمة مياهه اللطيفة تداعب الأحجار القائمة في طريقها بلطف، وتلامسها في غير عنف، وعلى نقيق ضفادعه تستقبل بواكير الربيع الضاحك، وكم غرقت في هذا وذاك غرقاً لا أخرج منه إلا بعد سفر طويل. هناك في ذلك المكان رأيتها، وكان ذلك في يوم ملول فاتر، والضباب المعطر النفحات الرطب الذرات يتطاير رويداً رويداً فوق ذرى الجبال. ثم ينتشر في السهول والقيعان والآكام والوديان فرحاً بالربيع الغض النضير، باعث الحياة في الأموات

أما المناظر البديعة التي كانت تمتد بامتداد البصر، وتسترسل على قدر ما يبلغه النظر، فقد كانت تؤلف بصورها المتنوعة سلسلة من البدائع، تتجلى في طيف الخيال كأنها عالم من العوالم الشعرية المبهمة، وتظهر في صورة خيالية لو مرت بها نسمة من النسمات الفاترة لذهبت بها أباديد

إن في سكون الصحراء العميق نفساً عميقاً لا يكون إلا في سكون الصحراء، إنه سكون حي قوي الحياة، لو نظرت اليه بدقة وإمعان لخيل اليك بقوته أن الطبيعة تتنفس كما يتنفس كل ذي روح

لقد طفت كثيراً في النواحي أمتع النفس بالنظر إلى الضباب القاتم يطير بين تلك الجبال كأنه الدخان، والى الزهرات الناضرة سقطت عليها حبات الندى فارتجفت تحتها ومالت أعناقها لثقلها،

وأصغى إلى الأطيار على الأشجار تتغنى فى هدوء بأصوات مملوءة بنشوة الطرب وسكرة النشاط ، وبلغت من ذلك كله ما أريد

لقد أحييت فى نفسى تلك الحال الجذابة ، وتلك المناظر الخلابة ، وتلك النزهة الواسعة الأطراف ، المترامية الأكناف ، روحاً جديداً ، وأثارت رغبة كامنة ، فكنت أقف أثناءها وقفات تسكن فيها الحواس ، ويذهب الفكر إلى أبعد مداه ، لقد كنت مأخوذاً أمام تلك الطبيعة التى تغرق الفكر ، وتشتت اللب ، حتى يكون التفكير ذهولاً ، لقد كنت مأخوذاً بسبب ذلك الشعور الأخاذ الذى يفوق كل شعور حتى يجعل من الانسان الحساس جماداً لا يتحرك ولا يحس

لست أدرى لماذا أبحث عن هـــذه الأشياء ولماذا أتكلم عنها ؟ وليس لها من صلة بالحادثة التى أثارت أحزانى وحركت كوامن أشجانى وحرمتنى حتى من نفسى أياماً طوالاً ، أجل لا أدرى ، ولكنى أريد أن أقول إنى رأيت فصول تلك الرواية المحزنة وأنا أشد ما أكون تأثراً بهذه المناظر وخضوعاً لها ، فزادت رؤيتها تأثرى حتى وصلت آثارها إلى أعمق نقطة فى نفسى

سمعت ذات يوم من تلك الأيام التى قضيتها فى تلك القرية وقع أقدام يكاد يخفى على الأذن لضعفه ، فالتفت فعلقت عيناى بفتى وفتاة قلما علقت عين بمثلهما جمال خَلْقٍ ولطف خُلُقٍ ، لا يتجاوز أكبرهما وهو الفتى ، الثانية عشرة من عمره ، ولا تقل الفتاة عنه إلا عاماً أو عامين ، كانت الفتاة وهى الصغرى حزينة حزناً يظهر فى وجهها الشاحب ، فهى تبكى بلا عبرات وتئن بلا حسرات ، أما الفتى فكان على عكس حالها يطفح نشاطاً ويفيض سروراً ، مع أن على وجهه سحابة . . . . لا أدرى ماذا أسميها ؟ ولا أدرى كيف أعبر عنها ؟ هى كالتى ترى على بعض الوجوه التى رشقها الموت بسهم من سهامه فى بعض من يعز عليها ، فطبعها بطابع أغبر قاتم يدل على ما فى الجنان من هموم وأحزان ، فلما رأيتهما على ما وصفت ، شعرت بألم فى أعماق نفسى ذهب بكل ما فيها من نشوة وطرب

كانا يمشيان رويداً رويداً ؛ فالفتاة مستغرقة فى أفكارها ، مسترسلة إلى أحزانها ، وأما الفتى فقد كان يبتسم ابتسامة عذبة كأنه ثمل من خمرة الربيع الجديدة

علقت عينى بهما حتى ما كنت أستطيع أن أحولها عنهما ، كأن دافعاً خفياً يدفعنى إلى ذلك ويفرضه على فرضاً . حاذيانى وتجاوزانى ، ولعلهما لم يشعرا بمكانى ، أحدهما مشغول عن بأفراحه ، والآخر مأخوذ بأتراحه

وبينا أنا فى ذهولى العميق إذا بقائل يقول :

ـ فيماذا تفكر ؟

كان المتكلم طبيباً من أصدقائى يتبع الطفلين ، لا أذكر ماذا أجبته على سؤاله ، ولكنى أدركت بعد أن مر الطفلان من أمامى أن ضحية ثمينة قد مرت بى

صادفت الطبيب فى اليوم الثانى منفرداً فقلت له :

ـ من هذان الطفلان اللذان كنت تتبعهما أمس ؟

فأجابنى وهو يلوى شفته :

ـ هما شقيقان

قلت :

ـ ومريضان ؟

فقال :

ـ « أحدهما فقط والثانى لا حق به عما قريب ولابد ، لأن مرض الثانى لا يظهر إلا بعد أن يتلاشى المريض الأول ، إن الفتى لن يحتمل هذا المرض أكثر من شهر آخر ، وإذ ذاك فلا بد من معاينة الفتاة »

ثم استمر قائلاً :

ـ « لعلك قد لاحظت أن الفتاة تعلو وجهها سحابة حزن

كثيفة وأن طورها طور مكتئب شديد الكآبة ، فهل عرفت منشأ ذلك ؟ منشؤه الخوف ، إن الفتاة لا تفقه من أمر هـذا المرض الذى نزل بأخيها شيئاً ، وأنى لها أن تفقه ذلك وهى لا تزال طفلة ؟ ولكنها مع هذا تعلم يقيناً أن أخاها معرض لخطر شديد محدق به ، إنها تسمع كل يوم من أفواه الناس هذه الكلمات فترسخ فى قلبها الصغير وتترك فيه أثراً من الخوف :

كيف حاله اليوم ؟ هل عاودته النوبة ؟ كم درجة حرارته اليوم ؟

وهى فى كل يوم أيضاً تسمع من أمها هـذه النصيحة مئات من المرات :

اجلسى يافتاتى بجانب أخيك ، لاطفيه ، لاعبيه ، لا توليه ، إن أخاك لا يحتمل ذلك

إن هذه الجمل والعبارات تطرق مسمعها كل يوم مرات عديدة فتترك فى قلبها الحساس أثراً عميقاً كله خوف ووجل ، ومع ذلك فكثيراً ما رأت والديها وهما يمسحان دموعهما خفية ، وكثيراً ما رأتهما بعـد أن يخرجا من غرفة أخيها المريض يحتضنانها ويقبلانها قبلات حارة ، ثم تضمها أمها اليها بحرارة كأنها تود المحافظة عليها من عدو يريد اختطافها بعد أن نفضت يدها من أخيها ، فهى لذلك تشعر من سويداء قلبها الصغير بخوف ووجل لا تفقه منشؤهما ولا تعرف مأتاهما ، وهى لذلك حزينة كئيبة . وأما المريض الحقيقى فانه طروب فرح مملوء نشاطاً ومرحاً ، لقد كان حتى الآن محبوساً فى البيت ، محروماً من التمتع بالطبيعة ، فلما أطلق سراحه عاد دمه إلى الغليان بأشعة شمس الربيع المزدهر ، وهذه دورة من دورات السل مخيفة ، لأن المريض فيها يظن نفسه قد شفى من المرض ، مع أن ذلك النشاط هو القوة الباهرة التى تعترى الذين يقفون على أبواب الموت ، وهو آخر مظهر تظهره الحياة وتنفق فيه أقصى ما عندها من جهد ، وإذ ذاك نقول لأهل المريض خـذوه إلى النزه . . . دعوه يلعب فى الشمس ويرتع فى الهواء الطلق . . . فهذه الكلمات تعلن للأهل بلطف أنه لم يبق من حاجة إلى الدواء بعد أن وقع اليأس من الشفاء ، فهاهم الآن يرسلونه ليلعب فى الهواء الطلق كل يوم ، وليأخذ قسطه من مرح الطبيعة ، ولينال حظه من حرارة الشمس الساطعة ليمتع نفسه بما قضى عليه أن يحرم منه قريباً »

* * *

جلست اليوم كعادتى عند النهر أفكر ، فكانت أفكارى كلها متجهة نحو هذين الطفلين ! لقد كانا محور تخيلاتى وتأملاتى فى هذا اليوم ، فلا أرى سواهما ، ولا يمر ببالى شئ غيرهما

* * *

أصبحت أرى الطفلين كل يوم ، وكنت إذا وقع نظرى عليهما علق بهما حتى لا يكاد يتحول عنهما ، وكأنى كنت أشعر أن صوتاً داخلياً يهتف بى قائلاً :

ـ تأمل هذين الوجهين المحاطين بالشعر الأشقر إحاطة الهالة بالقمر ، إنك سترى تلك الطفولة الغضـة قد جمدت ويبست فيهما كما تجف الزهرة قبل أن تتفتح عنها أكمامها ، وسترى على شفاههما الذابلة ذبول الزهرة لفحتها السمائم ، رعشة تشـبه رعشة المحتضر

أما تلك العيون الحزينة فقد كانت فى ذلك الربيع الضاحك مدفناً لجميع الآلام ، أسفاً على ربيع حياة عصفت به يد الخريف وتودع كل آمالها فى الحياة مع شـدة حرصها عليها ، تودعها بشعر حزين بالٍ تنظمه نظراتهما الحائرة ، وترجمه أنفاسهما الفاترة .

كان ذانك الطفلان : الصغير والكبير : الفتاة التى لم ينزل بها المرض بعد ، والفتى الذى برح به الداء ، يمشيان جنباً إلى جنب ، وقد أخذ كل منهما بيد الآخر ، مشية الحزين الذاهل

* * *

رأيت الفتاة فى أحد الأيام وهى مكبة باهتمام على أخيها

تزرر معطفه خوفاً عليه من البرد ، فقلت فى نفسى ما أشقاكما أيها الطفلان . . .

***

كان الفتى فى آخر مرة رأيته فيها مصبوغ الوجنتين بحمرة هى حمرة السقم لاحمرة العافية ، وفى تلك المرة سمعت أخته تقول له بصوت حزين :

ـ لقد أسرفت فى الركض يا أخى فأخذك العرق وهاهو السعال يعاودك ويأخذ بخناقك

ويجيبها الفتى وهو يبتسم لها ابتسـامة عذبة ويحاول أن يحبس سعاله :

ـ نعم لقد أسرفت فى الركض كثيراً ، ولن أعود

خرجت الى النزهة بعـد أيام وأخذت أجمع ما راق عينى وأحبته نفسى من الأزهار الجميلة التى أتحفتنا بها الطبيعة لتجلبنا اليها ، فجمعت باقة جميلة فيها من كل لون حسن ، ومن كل رائحة لطيفة ، ثم رأيت زهرة زرقاء اللون ، قد نبتت على حائط المقبرة بين الأحجار ، فمددت يدى لأقطفها ، فاذا بيد قد وضعت على كتفى ، فالتفت فاذا صديقى الطبيب ، فقلت له :

ـ أهذا أنت ؟

ـ نعم فالى أين تريد ؟

ـ لست أريد مكاناً معيناً ، إنما أنا فى نزهة أداوى بها نفسى ولا أدرى متى يكون الشفاء ؟

ثم ذكرت الطفل المريض ، فقلت له :

ـ ما شأن مريضك اليوم ؟

فأخذ الطبيب بيدى وسار أمامى حتى وقف على باب المقبرة وأشار بيده قائلاً :

ـ هاهو ذا . . . .

نظرت بحيرة ، فاذا الطبيب يرينى قبراً جديداً ثم أضاف قائلا :

ـ ما كنت مخطئاً فى ظنى . إن الفتى قد قضى نحبه منذ يومين ، وقد دعيت الآن لمعالجة الفتاة ، وها أنا ذاهب اليها

ابتعد الطبيب عنى ، ووقفت فى مكانى كالصنم لا أتحرك ، إن هذا القبر الجديد تحت سماء الربيع الصـافية المملوءة بالحياة والنشاط يدل على معنى مؤلم ، فنظرت طويلاً واستعبرت كثيراً ، فكأن صوتاً من داخل القبر يقول :

ـ انظروا متأملين الى هذه الأنوار التى تفيض من السماء فيضاً ! والى الحياة تسح من أجواف الربيع المزدهر سحاً ، ولكنى محروم من هذا وذاك . . . آه افتحوا قبرى ! افتحوه . . . لأشاهد أنوار السماء وأضواءها ، ولأبصر فوران الحياة وغليانها

***

بحركة لم أتعمدها ، ولم أقصد اليها ، ألقيت من يدى تلك الباقة من الزهر ، على ذلك القبر ، الذى كانت تشرق عليه شمس مايو الحارة ، وفررت من ذلك المكان لا ألوى على شىء ، وبقيت بعد ذلك الموقف سنين عدة مشتت الفكر ، مشرد اللب ، أنشد نفسى فلا أعثر عليها ، ولا يرشدنى مرشد اليها

حلب **فتاة الفرات**

من روائع الشرق والغرب

محمد إقبال

من كتاب « رموز بيخودى »

ترجمة الدكتور عبد الوهاب عزام

ختم شاعر الاسلام الأكبر محمد إقبال كتابه « رموز بيخودى » بتفسير سورة الاخلاص ، وجعل كل آية من السورة عنوان فصل من الشعر ، فنظم ثمانية عشر ومائة بيت تبين عما تمكن فى نفسه من المعانى الاسلامية الجليلة

وفيما يلى ترجمة منثورة للأبيات التى كتبها تحت عنوان :

ولم يكن له كفواً أحد

ما المسلم الذى تحقر الدنيا عيناه ؟ ما هذا القلب الذى وضع فى الحق مُناه ؟ زهرة من الشقائق ، فى ذروة جبل شاهق ، ضحكت للشمس والقمر ، ولم تر جانىَ الزهر . ونفخت فى حمرتها النار ، أنفاسُ الأسحار . تظل تحضنها السماء ، تحسبها كوكباً تخلّف فى الفضاء . وتقبلها أشعة الشمس الأولى ، ويغسل غبار النوم من عينيها الندى

اشدد « بلم يكن »(١) عقداً ، لتكون بين الأقوام فرداً . إن الواحد الذى تنزه عن الشريك ، يأبى عبده أن يكونذا شريك . وإن المؤمن وهو فى الذروة العُليا ، تأبى غيرتُه أن يسامى ، «لاتحزنوا» وشاح على صدره ، «وأنتم الأعلون» تاج على رأسه(٢) يحمل عبء العالمين لايضجر ، ويطوى صدرُه البحر والبرّ ، قد ألقى أذنه الى قصف الرعود ، فان يخر البرق تلقاه بمنكب مشدود ، سيف على الباطل ، وللحق مجنّ لايكسر ، وأمره ونهيه معيار الخير والشر ، مائة شُعلة مقمرة فى عقدة من شرره ، وتنال الحياة كالها من جوهره . ليس فى هذا العالم ذى الضوضاء نغمة إلا تكبيره فى الأرجاء . عظيم العدل والعفو والجود والاحسان ، كريم السجايا على نوب الزمان . هو فى المجامع برد وسلام ، وفى الهيجاء نار تذيب الحسام . وهو فى البستان مجيّ العنادل ، وفى الصحراء باز صائل . لم يرض قلبه تحت السماء قراراً ، فاتخذ على الأفلاك داراً . طائر ينقر نجوم السماء ، ويحلق وراء القبة الزرقاء

إنك لم تمد جناحا للطيران ، فلبثت دودة فى الرغام ، قد أذلك هجرك القرآن ، فأغرقت فى شكوى الزمان ، أيها الساقط كالندى على التراب ، وفى يده من الحياة كتاب ، حتام تتخذ فى الثرى محالك ، هلم فألق على الثريا رحالك

عبد الوهاب عزام

(١) اشارة الى الآية : ولم يكن له كفواً أحد

(٢) اشارة الى الآية : ولاتهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين

وداع

للورد بيرون

ترجمة الأستاذ محمود الخفيف

شد ما يبهجنى أنك سعيدة ، ولذا أحس أنه ينبغى أن أكون سعيداً مثلك ، فان قلبى ما يزال يرجو لك الهناءة فى حماسة كما تعود من قبل

وهذا زوجك ؛ متعه الله بما يحب . وحفظك قرة عين له ، لشد ما يمتريبى الحزن ويباغتنى الهم حينما أفكر فيما وفق اليه من حظ عظيم . . . ولكن لأفرغ من هذا ولأنسه . آه كم كنت أمقته لو لم يكن يهبك مثل هذا الحب !

عند ما لقيت أخيراً طفلك الحبيب . أحسست كأن قلبى وقد ملأته الغيرة يريد أن يتحطم ، ولكننى حينما ابتسم هذا الطفل الغرير ، طبعت قبلة على جبينه ، وفعلت ذلك من أجل أمه

قبلت طفلك وأنا أكتم تنهداتى وأحبس زفراتى ، إذ رأيت فى وجهه وجه أبيه ، ولكننى لم ألبث أن لحت فى مقلتيه عينى أمه . . . وكانتا من قبل مأوى للحب وملكاً لى

وداعاً ياحبيبتى العزيزة ! لابد لى من الرحيل ، وما دمت أنت سعيدة فليس هناك ما يكربنى ، أما أن أبقى إلى جوارك فذلك

ما لا أستطيعه ، إذ سرعان ما يعود قلبي طوع يديك

لقد طالما ظننت أن الزمن فى دورانه ، وأن ما فطرت عليه نفسى من فخار وكبرياء ، كفيل أن يخمد فى قلبى تلك الشعلة الثائرة ، شعلة الحب أو شعلة الطفولة ، ولكننى لم أتبين حتى جلست الى جانبك . . . إن قلبى لم يزل فى كل شىء هو هو . . . إلا من جهة واحدة . . . هى الأمل !

غير أننى على الرغم من ذلك جلست هادئاً بين يديك ، نعم إنى لم أنس تلك اللحظات التى كان يثب فيها قلبى بين ضلوعى عند لمحة من عينيك ! أما الآن فالرعدة جزعة ، ولذلك التقينا فلم ينبض فينا عرق

لقد رأيتك تحدقين فى وجهى ، ولكنك لم تجدى فيه أى اضطراب ، نعم لم تتبيني فى ملامحى سوى معنى واحد ، هو ذلك السكون العنيد ، سكون اليأس . . . إليك عنى . . . إليك عنى يا أحلام الطفولة . آه ! من لى بجرعة من ذلك النهر الذى جاءت به الأساطير ، من لى بجرعة من « الليثيه » ! وأنت أيها القلب الأحمق ، إما أن تقر وتهدأ ، وإلا فلتتصدع جزاء بما جنيت

الخفيف

القمر فى الخريف

للشاعر كولردج

أناجيك فى علياء سمائك أيها القمر الوضىء ، يامن يشع منك هذا الزهو الوديع فيملأ جوانب الليلة المدّ نرة بشتيت الرقيع . إيه يا من تلد الأطياف الساحرة التى تملأ القلب ، ولا تفتأ توحى اليه فى نشاط وقوة

إنى لأرقب فى غبطة سيرك الهادىء ، خــلال ذلك النور المترقرق كأنه الماء فى لونه وأراك حينا تختلج عينك الفاترة وراء ذلك القناع الذى يشبه الفراء المظلم ، وحينا يتوارى وجهك الشاحب خلف ما تجمع من سواد فى هذا الفضاء العلوى ، وحينا تطل من السحب مزقتها الرياح ، فينبعث ضوؤك الزاهر فى السماء الصاحية

آه . مثلك أيها القمر يكون الأمل ! نعم فهو صنوك فى جماله وفى اضطرابه . فتارة يلوح غامضاً مبهماً فى تيار الفكر ،

وطوراً يختفى وراء ذلك الطيف المزعج ذى الأجنحة الشبيهة بأجنحة التنين ، طيف اليأس البغيض ، ثم لايلبث أن يظهر فى وهجه وقوته ، فيبدد بنوره الساطع تلك السحب المركومة التى عقدها الهم ، ويسبح كما يسبح الشهاب الثاقب ، تزيده السرعة وهجاً واشتعالاً

محمود الخفيف

نزهات بين الصخور

Promenades dans les rochers

لفيكتور هوجو

النزهة الأولى

فوّارةٌ من الزَبَد وَسْطَ الخليج تميدُ
تَـكَـوَّنُها أقاعٌ خفيَّةٌ وعُمقُها بعيـدُ
تتأرجحُ بوادعةٍ بين الأمواجِ الباسمة
كمركزٍ ثُلجىٍ لدائرةٍ قاتمة . . .

إلهى ماذا تفعــلُ بقارورةِ الثلجِ هذهِ ؟
تُدْخِلُ فيها الفجرَ فيخرجُ الليلُ بظلامه ،
وعبثاً يُخمِدُها البحرُ بموجِهِ المحيطِ بهِ ،
والزوابعُ بزئيرِها ، والســحابُ بضبابهِ ،

يمرُّ الأعصارُ وهزيمة والأمواجُ وأكدارها
ولكن هل تضعفُ الفوارةُ ثقةَ الصيادِ بها ؟
كلا . فما تلبثُ أن تظهرَ وَسْط ذاك الجحيمْ
حيث يتغيرُ كلُّ شيءٍ مكانها وثلجها القديمْ

يقولُ الصيادُ : هنا توجدُ مَوْجَةٌ مُقدَّسة ،
يأتى لها كلُّ طفــلٍ يموتُ ليلةَ العيد
يُنظفُ بثلجها جناحهُ من أهواءِ الحياة المدنسة
قبلَ الذهابِ إلى السماءِ ملاكٌ فى مكانِهِ البعيدْ

وأقولُ : أدامَ اللهُ للسيف بياضه الناصعْ
برغمَ ما حوله من بحرٍ وصخرٍ قاتمْ
ليُصَوِّرَ بصدْرِ الطبيعة ثباتَ الحقِّ القائمْ
وســطَ الدنَسِ والخيانةِ بنقائِه الرائعْ

محمد وصفى

البريد الأدبي

الأكاديمية الفرنسية لمناسبة عيدها الثلثمائة

فى شهر يناير الماضى بلغت الأكاديمية الفرنسية ثلثمائة عام من عمرها، وهى تتأهب للاحتفاء بهذه الذكرى؛ وهى ذكرى نادرة فى تاريخ الجمعيات العلمية، إذ قلما تبلغ الجمعيات العلمية مثل هذا العمر المديد، قوية مزدهرة، تغالب دائماً أعاصير السياسة والأهواء المختلفة، وقد بدأت الأكاديمية الفرنسية حياتها متواضعة جداً؛ ويمكن أن نرجع فكرة قيامها إلى سنة ١٦٢٩ فى عهد لويس الثالث عشر، ففى ذلك العام اتفق السيد فالنتان كونراد سكرتير الملك مع بضعة من أصدقائه الشعراء والأدباء على الاجتماع معاً فى جلسات دورية منتظمة يتجاذبون فيها الأحاديث الأدبية، ويتحدثون عن الشئون والأخبار والكتب، وكانت هذه الاجتماعات سرية خاصة فى البدء، واستمرت كذلك زهاء خمسة أعوام؛ وفى أوائل سنة ١٦٣٤ وقف الكردينال ريشيليو وزير لويس الثالث عشر على خبر هذه الجماعة الأدبية من أحد أعضائها فجالت فى الحال فى ذهنه فكرة «الأكاديمية» الرسمية. ولم يكن أحد من الجماعة المتواضعة يفكر يومئذ فى مثل هذا المشروع؛ وكانت فكرة ريشيليو أن ينظم الجماعة وأن يخضعها لاشراف السلطات الرسمية؛ فدعاها إلى أن تؤلف هيئة منظمة وأن تجتمع بانتظام تحت رعاية سلطة رسمية، وذلك مقابل تعهدها بالحماية وإعطائها سلطة محترمة. فترددت الجماعة فى القبول بادئ بدء خشية على استقلالها، واستمر هذا التردد طوال سنة ١٦٣٤، ثم انتهت بالقبول؛ وفى ٢٩ يناير سنة ١٦٣٥ صدرت الأوامر الرسمية بتشكيل الأكاديمية الفرنسية، وبذلك تكون فى ٢٩ يناير الماضى قد قطعت ثلاثة قرون كاملة من حياتها الرسمية

وعلى أثر ذلك وضعت الأكاديمية لنفسها لائحة خاصة تتألف من خمسين مادة؛ وقبل الكردينال أن يضعها تحت رعايته، وصادق على هذه اللائحة فى ٢٢ فبراير؛ من نفس العام؛ ثم اتخذت بعد ذلك الاجراءات لمصادقة البرلمان على وجودها، وصدرت هذه المصادقة فى يوليه سنة ١٦٣٧، وتمت بذلك جميع الاجراءات الرسمية والدستورية التى تجعلها هيئة رسمية عامة؛ وعنى البرلمان عناية خاصة بأن يحدد مهمة هذه الهيئة الوليدة خشية أن تنافسه فى شئ من مهامه أو سلطانه فى المستقبل، فعرف مهمتها بأنها تعمل على: «تنميق اللغة وتحسينها وتوسيعها»، وأنها لا تشتغل بأمور أخرى

ومنذ ثلاثة قرون تضطلع الأكاديمية بأعظم دور فى الحياة الأدبية الفرنسية، وينمو نفوذها وأهميتها، حتى غدا الظفر بعضويتها أسمى ما يتشرف به كاتب أو شاعر؛ وقد استمرت الأكاديمية تقاوم كل ما يضطرم حولها من أعاصير الثورات السياسية والاجتماعية؛ ولم تنلها الثورة الفرنسية الكبرى التى اجتاحت كل النظم والهيئات القديمة بأذى؛ وأعضاء الأكاديمية الفرنسية أربعون لا يزيدون، ويطلق عليهم اسم «الخالدين»؛ وإذا توفى أحدهم، رشح لكرسيه من أعلام الكتاب والمفكرين من يجدر ترشيحه؛ ويقع اختيار العضوية بالانتخاب. ونستطيع أن نذكر من بين أعضاء الأكاديمية الحاليين پول بورجيه، وهو أقدمهم جميعاً إذ دخل الأكاديمية منذ سنة ١٨٩٦، والشاعر پول ڤاليرى، ولوى مادلان، وإبيل دِرمان، وهنرى رنييه، ومارسل بريڤو، وجورج جوايو، ولوى برتران، وبيير بنوا وهو أصغر الأعضاء سناً، وموريس دوناى، والمؤرخ دى نولهاك، والمؤرخ لى نوتر، والدوق دى بروجلى وهو أحدث الأعضاء إذ دخل الأكاديمية فى الشهر الماضى فقط

وتشتغل الأكاديمية منذ أعوام بوضع قاموس رسمى للغة الفرنسية، وذلك تحقيقاً لمهمتها التاريخية وهى العمل على تحسين اللغة الفرنسية وتجميلها، وسيكون هذا القاموس متى تم وضعه مرجعاً رسمياً لألفاظ اللغة ومعانيها؛ وسيكون له فى تطور اللغة الفرنسية أعظم الآثار

حول رواية نهر الجنون

صديق العزيز الأستاذ الزيات :

قرأت فى العدد الأخير من مجلة « الرسالة » الغراء كلمة لأديب فاضل عن فكرة « نهر الجنون » وتماثلها مع فكرة قطعة نثرية لجبران خليل جبران . وقد حار الأديب فى علة هذا التشابه ، وافترض بعض الفروض ، وعقبت « الرسالة » كذلك بفرض قريب من الحقيقة . ورداً على كل ذلك أقول إنى سمعت هذه القصة لأول مرة منذ نيف وعشرين سنة ، وقد وجدتها شائعة على الألسنة كغيرها من الأساطير . ولاريب عندى أن جبران خليل جبران لم يخترع هذه القصة اختراعاً ، وإنما دونها كما سمعها من الناس . ومثل هذه الأساطير ما ابتدعها كاتب ، وإنما نبتت من قديم الزمان بين الشعوب والأجناس كأكثر النوادر والحكم والأمثال . وإنى لم أكن أعلم قط قبل اطلاعى على عدد الرسالة الأخير أن أحداً من الكتاب أو الشعراء قد تناول من قبل هذه الأسطورة ، ولم يصل إلىّ خبرها عن طريق شئ مكتوب ، وإنما عن طريق أفواه الناس

وتقبل أطيب تحيات المخلص

توفيق الحكيم

الترشيح لجائزة نوبل للسلام

تحدثت بعض الصحف الألمانية أخيراً عن الترشيح لجائزة نوبل عن السلام ، ومعروف أن هذه الجائزة يمنحها معهد نوبل فى كل عام للرجل الذى قام بأعظم الخدمات فى سبيل السلام العالمى سواء كان من رجال السياسة أو القلم ؛ وقد أعطيت هذه الجائزة فى العام الماضى لاثنين من الانكليز هما السير نورمان أنجل الكاتب والصحفى الذى اشتهر بكتبه ومقالاته ضد الحرب وفى سبيل السلام ، ومستر ارثر هندرسون رئيس مؤتمر نزع السلاح . والآن تتساءل بعض الصحف الألمانية لماذا لا يرشح معهد نوبل الهير هتلر رئيس الدولة الألمانية لنيل جائزة السلام ؟ وتقول إن أحداً من رجال الحرب أو السياسة أو القلم لم يخدم قضية السلام فى العامين الأخيرين قدر ما خدمها هتلر ؛ فهو يتجه بجميع جهوده الداخلية والخارجية إلى توطيد دعائم السلم ، وحديث الصحف الألمانية فى ذلك طريف فى غرابته وتناقضه ؛ فلم ينس إنسان بعد كيف قام النظام الهتلرى فى ألمانيا ، ولا كيف يستند فى بقائه إلى أشنع وسائل الضغط والعنف ، ولم ينس إنسان بعد تلك الدماء التى سالت فى ألمانيا غزيرة فى ٣٠ يونية الماضى دون أى وازع أو محاكمة بحجة التآمر على هتلر ، ولا يستطيع أحد أن ينسى أن النظام الهتلرى يقوم من أساسه على صيحة الحرب وعلى المبادئ العسكرية والأحقاد الجنسية المغرقة ، ولكن الصحافة الألمانية التى أصبحت أداة مستعبدة فى يد وزارة الدعوة لا تتحرج عن التحدث عن السلام ودعاته على هذا النحو الغريب

كتاب طريف عن نابليون

صدر بالفرنسية كتاب جديد عن نابليون بونابارت ، ولكنه كتاب من نوع خاص وعنوانه : « بؤس نابليون » ومؤلفه لورنزى دى برادى ؛ وهو كاتب كورسيكى الأصل ، يهدى كتابه إلى جميع الكورسيكيين حتى لا ينسوا أن نابليون يمت اليهم بصلة الجنس ، وطرافة هذا المؤلف ترجع إلى أنه يصور لنا أى بؤس كان يعانيه ذلك الأمبراطور العظيم منذ نشأته حتى وفاته ؛ فهو قد بدأ الحياة ضابطاً بائساً يعانى أمر ضروب الفقر بعد أن طرد من وطنه الأصلى ؛ ولما وصل إلى قمة المجد وبسط سيادته على أوربا ، كان يبدو فى ثوب من السعادة والهناء ، ولكنه كان أبعد الناس عن التمتع بوفاء أصحابه ، وكان صحبه أشد الناس خيانة له وتوثباً إلى الغدر به . ويقول لنا دى برادى إنه أراد أن يصور كل ضروب الشقاء التى عاناها نابليون ، وأن يوضحها بأقوال ذلك الذى عاناها ؛ وأنه متى شرحت هذه الآلام استطاع القارئ أن يفهم الروح النابوليونية حق الفهم ، وأن يتتبعها خلال تلك الحياة الشقية التى ارتضاها الأمبراطور فى فلسفة واستكانة وتسليم

وفاة علامة نمسوى

من أنباء ڤينا أن العلامة الرياضى الشهير الأستاذ الدكتور جوستاف ايشريخ قد توفى فى السادسة والثمانين من عمره ، وقد بدأ الأستاذ ايشريخ حياته العامة مدرساً للرياضة فى جامعة جراتز منذ سنة ١٨٧٤ ؛ ولم يلبث أن ظهر ببراعته ومباحثه المبتكرة ؛ وفى سنة ١٨٨٤ عين أستاذاً للرياضيات بجامعة ڤينا ، وهو الكرسى الذى شغله مدى خمسين عاماً حتى وفاته ، وقد نشر عدة مؤلفات رياضية هامة أشهرها مباحثه عن « التبلور » وتوجت مباحثه غير مرة من أكاديمية العلوم ؛ وبوفاته يخسر العلم النمسوى أحد أقطابه وأركانه من العهد القديم

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ٨٦ – ٢٥ فبراير سنة ١٩٣٥ – السنة الثالثة

3 me Année, No. 86. Lundi-25-2-1935

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
مص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع شركة الفجر

العـــدد ٨٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢١ ذو القعدة سنة ١٣٥٣ — ٢٥ فبراير سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

الأزهر بين الماضى والحاضر

ويل للأزهر من أهله ! كان منيعاً بالدين فابتذلوه بالدنيا ، وعزيزاً بالعلم فأذلوه بالمال ، ومستقلاً فى حمى الله فأخضعوه لهوى الحكم ! وكان سُنَّة واضحة لِهَدْى الشريعة استقام الناس بها منذ ألف عام على عمود واحد ، فشبَّهوا وجوهها بالأنظمة الفجَّة ، ولبَّسوا صورها بالأعلام المستعارة ، ثم وقفوا لدى المفترَق المبهم الذى أحدثوه يديرون أعينهم فى الفضاء ، ويردونها من الأمام إلى الوراء ، فلا يرون أقدامهم على أثر ، ولا يجدون وجوههم على سبيل !

كان للأزهر ، على عهدنا القريب ، جلالة تغشى العيون ، وقداسة تملأ الصدور ، لأنه المعقل الوحيد الذى ثبت لحملات الغِيَر فانتهت اليه أمانة الرسول ، واستقرت به وديعة السلف ، واستعصمت فيه لغة القرآن ، واستأمنت اليه آداب العرب ، فأرضه حَرَم لا يُنتَهَك ، وأهله حمى لا يستباح ، وأمره قَدَرٌ لا يُرد ؛ وكان لعلمائه مكانة فى القلوب ، ومهابة فى النفوس ، لأنهم دعاة الله ، وورثة النبى ، وهداة المحجّة ؛ ينطق على

ألد بتهم الـكتاب ، وتمثل فى أفعالهم السُّنة ؛ فمحبتهم عقيدة ، وطاعتهم فريضـة ، و إشارتهم نافذة

وكان لطلابه كلف به لا يُتَّهم ، وثقة برجاله لا تحد ، وانقطاع إلى جواره لا يبغون من ورائه غير فقه الدين وتحصيل المعرفة وتجديد حبل الدعوة ، فهم عاكفون على معاناة الدرس ، قانعون بميسور العيش ، لا ينصرفون عن حلقات التعلم بالقاهرة ، إلا إلى حلقات التعليم فى الريف

***

كانت صلة العلماء بالحكومة صلة دينية ، تقوم على حسم المشاكل بالقضاء ، وحل المسائل بالفتوى ؛ وكانت صلتهم بالأمة صلة روحية ، يجلون صدأ القلوب بالذكر ، ويكفكفون سفه الجوارح بالموعظة ، ويشفون غل الجوانح بالمؤاخاة ، فكانوا لذلك موضع الاجلال أنى حلوا . كنا نرى العالم اذا نزل مدينة أو قرية كان يوم نزوله تاريخاً لا يُنسى : يأخذ الناس فيها حال من الشعور الصوفى يدفعهم الى رؤيته ، فيهرعون اليه كما يهرعون اليوم الى زعيم الأمة أو الى رئيس الحكومة ، فيتوسمون فى أساريره نور الرسالة ، ويتنسمون من أعطافه ريح النبوة ، ويتخففون على يديه من أوزار العيش وتبعات الجهالة . وطلاب الأزهر القديم لا يزالون يذكرون ما كان فى نفوسهم لشيوخهم من الحب والتجلة . كانوا يتحلقون حول كرسى الشيخ من غير نظام ولا ضابط ، فيكون لهم على السبق الى الأمام عراك دامٍ وصخب مُصِم ، حتى اذا ما أقبـل خشعت الأصوات وسكنت الحركات كأن شيئاً عاق الأنفاس فلا تنسم ، وعقد الشفاه فلا تنبس ! وربما نزا اللجاج على لسان أحدهم أثناء المناقشة فيغضب الشيخ فلا يكون أنكى فى عقابه من الاشارة اليـه بالخروج من الدرس ، أو الدعاء عليه بالقطيعة من الأزهر ! والقطيعة عن الأزهر كانت أقصى ما يتصوره الأزهرى من شقاء الحياة ! فاذا انقضى الدرس وقال الشيخ : (والله أعلم) تضامّت أطراف الحلقة عليـه ، وأنحى الطلاب بالقبل على يديه وردنيه ، فما يشق طريقه بينهم إلا بعد لأى

***

تدبر ذلك فى نفسك على إجماله وعمومه ، ثم اقرنه إلى ماتسمع اليوم أو تقرأ من خبر الأزهر وحال علمائه وأبنائه ، فهل تجد المعهد هو المعهد والناس هم الناس ؟ إن الأزهر البائد على فوضاه المنظمة كان أجدى على الدين وأعْوَد على الثقافة من هذا الخَلَق المسيخ الذى وقف بين المـاضى والحاضر . و بين الدين والسياسة ، موقفاً يُندى الجبين الصُّلب ، ويوجع الفؤاد المُصْمت !

تقلب بعض زعمائه على فرش الديباج ، وخبُّوا فى أفواف الشاهى ، وتأنقوا فى ألوان الطعام ، وتنبلوا بالمظاهر الفخمة ، وسردوا أعداد الدنانير على المسابح العطِرة . وكان أسلافهم طيب الله ثراهم كما طيب ذِكراهم يتسترون برقعات القطن ، ويتبلغون بقشور البطيخ ، ويستروحون النسيم على شرفات المآذن

ثم شايعوا أهواء الناس ، وصانعوا أهل النفوذ ، وجَرَوا فى تمكين أمورهم وترفيه نفوسهم على الضراعة والملق ؛ من أجل ذلك فقدوا خطرهم فى الخاصة ، وأثرهم فى العامة ، وجرُّوا معهم كرامة الدين الى هذا المنحدر

***

ان فى بقية السلف من أعلام الأزهر مَفْزعاً من هذه الحال الأليمة . فليعملوا مخلصين لرد هذا المعهد الكريم الى نظامه ، فان شديداً على النفس أن يضطرب فيـه الأمر ويشرى به الفساد حتى تطرد طلابه ، وتغلق أبوابه

لقد قرأت بالأمس فصلاً عن الاسلام فى مجلة شهرية فرنسية يقول كاتبه فيه : « لقد انحسر الاسلام عن بلاده أو كاد ، فلم يبق داوياً متوثباً إلا فى الأزهر » فماذا عسى أن يقول هذا المأفون إذا ما قيل له غداً إن هذا الدوى قد سكن ، وهذا التوثب قد قر ؟

لا جرم أن المخلصين من علماء الأزهر وأبنائه أقدر على درء هذه الكارثة متى أنضجوا الرأى وأجمعوا الكلمة ؛ والحكومة القائمة أربأ بعهدها عن هذا الحدث ، وأضنُّ بتاريخها على هذه الصفحة ؛ وليس فى مصر ولا فى غير مصر ضمير نزيه يرضيه أن تعبث الشهوات الرُّعن بهذا المعقل الدينى الذى عصم القرآن ولغته وعلومه من طغيان الأحداث والفتن عشرة قرون

احمد حسن الزيات

زوجـــة إمام

بقية الخبر

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال أبو معاوية الضرير : وكنتُ في الطريق الى دار الشيخ أرَوِّى في الأمر وأمتحِن مذاهبَ الرأى وأقلّبها على وجوهها ، وأنظرُ كيف أحتالُ في تأليف ما تنافَرَ من الشيخ وزوجته ؛ فان الذى يَسفرُ بين رجلٍ وامرأته إنما يمشى بفكره بين قلبين ، فهو مُطفِئُ نائرةٍ[١] أو مُسْعِرُها ، إذ لا يضع بين القلبين إلا حُمقَه أو كياستَه ، وهو لن يردّ المرأةَ الى الرأى إلا إذا طاف على وجهها بالضحِك ، وعلى قلبها بالخجَل ، وعلى نفسها بالرقّة ، وكان حكيماً في كل ذلك ؛ فان عقلَ المرأة مع الرجلِ عقلٌ بعيدٌ ، يجيء من وراء نفسها ، من وراء قلبها ، وجعلتُ أنظرُ ما الذى يُفسدُ محلَّ الشيخ من زوجته ، ومثلتُ بينه وبينها ، فما أخرج لى التفكيرُ إلا أن حسن خلُقِه معها دائما هو الذى يستدعى منها سوء الخلُقِ أحياناً ؛ فان الشيخ كما ورد في وصف المؤمن : « هَينٌ لينٌ كالجمل الأنف[٢] ، إن قِيدَ انقادَ ، وإن أُنيخَ على صخرة استناخ » والمرأةُ لا تكون امرأةً حتى تطلبَ في الرجل أشياءَ : منها أن تحبَّه بأسباب كثيرة من أسباب الحب ؛ ومنها أن تخافَه بأسبابٍ يسيرة من أسباب الخوف . فاذا هى أحبته الحب كلَّه ولم تخف منه شيئاً وطال سكونُه وسكونُها ، نفرت طبيعتها نفرةً كأنها تَتَنَحّيه وتذمّره ليكون معها رجلاً فيخيفَها الخوفَ الذى تستكملُ به لذةَ حبها ، إذ كان ضعفها يحب فيما يحبه من الرجل أن يَقسُوَ عليه الرجلُ في الوقت بعد الوقت ، لا ليؤذِيَه ولكن ليُخضِعَه ، والآمرُ الذى لا يُخافُ إذا عُصى أمرُه هو الذى لا يعبأ به إذا أُطيع أمره

وكأن المرأةَ تحتاج طبيعتُها أحياناً الى مصائبَ خفيفةٍ تؤذى برقّةٍ أو تمرُّ بالأذى من غير أن تلمَسها به لتتحركَ في طبيعتها معانى دموعها من غير دموعها ؛ فان طال ركودُ هذه الطبيعة أوجدت هى لنفسها مصائبَها الخفيفةَ فكان الزوج إحداها . . . . .

وهذا كله غير الجُرْأة والبَذاءِ فيمن يُبغضن أزواجهن ، فان المرأة إذا فركت زوجها لمنافرة الطبيعة بينها وبينه ، مات ضعفها الأنثوىُّ الذى يتم به جمالها واستمتاعها والاستمتاع بها ، وتعقّد بذلك لينُها أو تصلّب أو استحجر ، فتكون مع الرجل بخلاف طبيعتها فينقلب سكرها النسائى بأنوثتها الجميلة عربدة وخلافاً وشراً وصخباً ، ويخرج كلامها للرجل وهو من البغض كأنه في صوتين لا في صوت واحد . ولعل هذا هو الذى أحسه الشاعر العربىُّ بفطرته ـ من تلك المرأة الصخّابة الشديدةِ الصوت البادية الغيظ ، فضاعف لها في تركيب اللفظ حين وصفها بقوله :

صُلُبَّة الصيحة صَهصَلِيقِها[١]

قال أبو معاوية : واستأذنت على (تلك) ودخلت بعد أن استوثقت أن عندها بعض محارمها ؛ فقلت : أنعم الله مساءكِ يا أم محمد . قالت : وأنت فأنعم الله مساءك . فأصغيتُ للصوت فاذا هو كالنائم قد انتبه يتَمَطّى في استرخاءٍ وكأنها تقبلني به وتردُّني معاً ، لا هو خالصٌ للغضب ولا هو خالص للرضى.

فقلت : يا أم محمد إنى جائع لم أُلِمّ اليومَ بمنزلى . فقامت فقربت ما حضر ؛ وقالت معذرة يا أبا معاوية ، فانما هو جُهدُ المُقِلّ وليس يعدو إمساكَ الرَّمَق . فقلت إن الجوعان غيرُ الشهوان ؛ والمؤمن يأكل في معى واحد[٢] ولم يخلق الله قمحاً للملوك وقمحاً غيره للفقراء

ثم سميتُ ومددتُ يدى أتحسسُ ما على الطَّبقَ ، فاذا كِسَرٌ من الخبز معها شيء من الجزر المسلوق فيه قليلٌ من الخل والزيت ؛ فقلت في نفسى هذا بعض أسباب الشر . وما كان بى الجوعُ ولا سدُّه . غير أنى أردتُ أن أعرف حاضِرَ الرزق في دار الشيخ فان مثل هذه القِلّة في طعام الرجل هى عند المرأة قِلّةٌ من الرجل نفسه ؛ وكل ما تفقِدُه من حاجاتها وشهوات نفسِها فهو عندها فقرٌ بمعنيين : أحدُهما من الأشياء والآخر من الرجل . كلما أكثر

(١) النائرة الغضب

(٢) أى المأنوف ويسميه العامة (المخزوم) وهو الذى عقر أنفه بالخشاش فيقاد منه فيكون ذلولا سمحاً

(٣) هذا من عجائب اللغة العربية ، إذا زاد المعنى زادوا له في اللفظ . ورواية لسان العرب : « شديدة الصيحة » وليست بشيء فليصححها من يقتنى اللسان من القراء

(٢) في بعض الأثر . المؤمن يأكل في معى واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء . وهذا الحديث رمز عجيب لبهيمية من لا يرى الدنيا إلا الدنيا فقط

الرجل من إتحافها كَثُر عندها وإن أقلَّ قلّ . وإنما خلقت المرأة بطناً يلدُ ، فبطنُها هو أكبرُ حقيقتها . وهـذه غايتُها وغايةُ الحكمة فيها . لا جَرَمَ كان لها فى عقلها مَعِدةٌ معنوية ؛ وليس حبُّها للحلِى والثياب والزينة والمال ، وطرْحها اليها واستهلاكُها فى الحرص عليها والاستشراف لها — إلا مظهراً من حكم البطن وسلطانه ؛ فذلك كله إذا حقّقتَه فى الرجل لم تجده عنده إلا من أسباب القوة والسُّلطة ، وكان فقدُه من ذرائع الضعف والقِلّة . فاذا حقّقتَه فى المرأة ألفيتَه عندها من معانى الشِّبَع والبطَر ، وكان فقدُه عندها كأنه فنٌّ من الجوع ، وكانت شهوتُها له كالقَرَمِ إلى اللحم عند من حُرِم اللحم . وهذا بعضُ الفرق بين الرجال والنساء ؛ فلن يكون عقلُ المرأة كعقل الرجل لمكان الزيادة فى معانيها « البطنية » بُخِسبتْ لها الزيادةُ ههنا بالنقص هناك ؛ فهن ناقصاتُ عقلٍ ودين كما ورد فى الحديث . أما نقصُ العقل فهذه علته ؛ وأما الدينُ فلغلَبة تلك المعانى على طبيعتها كما تغلب على عقلها . فليس نقصُ الدين فى المرأة نقصاً فى اليقين أو الايمان فانها فى هذين أقوى من الرجل ؛ وإنما ذاك هو النقصُ فى المعانى الشديدة التى لا يكمل الدينُ إلا بها ؛ معانى الجوع من نعيم الدنيا وزينتها ، وامتدادِ العين اليها واستشرافِ النفس لها ؛ فان المرأة فى هذا أقل من الرجل . وهى لهذه العلة ما برحت تُؤْثِر دائماً جمالَ الظاهر وزينتَه فى الرجال والأشياء دون النظر إلى ما وراء ذلك من حقيقة النفعة

* * *

قال أبو معاوية : وأريتها أنى جائع فنهشتُ نهشَ الأعرابى كيلا تفطنَ إلى ما أردتُ من زَعْم الجوع ، ثم أحببتُ أن أستدْعىَ كلامَها وأستميلَها لأن تضحكَ وتُسَر ، فأُغيِّرَ بذلك مافى نفسها فيجدَ كلامى إلى نفسها مذهباً . فقلت يا أم محمد : قد تحرَّمتُ بطعامكِ ووجب حق عليك ، فأشيرى علىَّ برأيك فيما أستصْلِح به زوجتى فانها غاضبة علىَّ وهى تقول لى : والله ما يُقيم الفأرُ فى بيتـك إلا لحب الوطن . . . وإلا فهو يسترزقُ من بيوت الجيران

قالت : وقد أُعدَمتْ حتى من كِسَر الخبز والجزر المسلوق ؟ اللهَ منك ! لقد استأصلْتَها من جذورها ؛ إن فى أمراض النساء الحُمّىَ التى اسمُها الحمّىَ ، والحمىَّ التى اسمها الزوج . . .

فقالت : الله الله يا أم محمد ؛ لقد أيسَرتِ بعدنا حتى كأن الخبز والجزر المسلوق شىءٌ قليل عندكِ من فرْط ما يتيسَّر ؛ أو ما علمتِ أن رزق الصالحين كالصالحين أنفسهم ، يصوم عن أصحابه اليومَ واليومين . . . وكأنك ما سمعتِ شيئاً من أخبار أمهات المؤمنين أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ونساءِ أصحابه رضوانُ الله عليهم ، فما خيرُ امرأة مسلمةٍ لا تكون بأدبها وخُلُقها الاسلامىّ كأنها بنتُ إحدى أمهات المؤمنين ؟

أفرأيتِ لو كنتِ فاطمةَ بنتَ محمد صلى الله عليـه وسلم ؛ أفـكان ينقلك هذا إلى أحسنَ مما أنتِ فيه من العيش ؛ وهل كانت فاطمةُ بنتَ ملكٍ تعيشُ فى أحلام نفسها أو بنتَ نبى تعيش فى حقائق نفسها العظيمة ؟

تقولين إننى استأصلتُ أمَّ معاوية من جذورها ؛ فمـا أمُّ معاوية وما جذورُها ؟ أهى خيرٌ من أسماء بنت أبى بكر صاحب رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، وقد قالت عن زوجها البطل العظيم : تزَوَّجنى وماله فى الأرض من مال ولا مملوك ولا شىء غيرُ فَرَسِه وناضحه[1] فـكنت أعلفُ فرَسه وأكفيه مؤنتَه وأسُوسُه ، وأدُقُّ النَّوى لناضحه وأعلفُه ، وأستقى الماء وأخرزُ غَرْبَه[2] وأعجن ؛ وكنت أنقلُ النوى على رأسى من ثُلثَى فرسخ حتى أرسل إلىَّ أبو بكر بجارية فـكفتنى سياسة الفرس فكأنما أعتقنى

هكذا ينبغى لنساء المسلمين فى الصبر والأباء والقوة والـكبرياء بالنفس على الحيـاة كائنةً ما كانت ، والرضى والقناعة ومؤازرة الزوج وطاعته واعتبار ما لهن عند الله لا ما لهنَّ عنـد الرجل ، وبذلك يرتفعْنَ على نساء الملوك فى أنفسهن ، وتكون المرأة منهن ومافى دارها شىء ، وعندها أن فى دارها الجنـة . وهل الاسلامُ إلا هـــذه الروحُ السماويةُ التى لاتهزمها الأرض أبداً ولا تُذلها أبداً ما دام يأسها وطمعُها معلّقين بأعمال النفس فى الدنيا لا بشهوات الجحيم من الدنيا ؟

هل الرجلُ المسلم الصحيحُ الاسلام إلا مثلُ الحرب يثورُ حولها غبارها ويكون معها الشظَفُ والبأسُ والقوةُ والاحتمالُ والصبر ، إذ كان مفروضاً على المسلم أن يكون القوة الانسانية

(١) النواضح الابل يستقى عليها واحدها ناضح وسائقها النضاح

(٢) الغرب الدلو العظيمة تتخذ من جلد الثور

لا الضعف ، وأن يكون اليقينَ الانسانيَّ لا الشك ، وأن يكون الحقّ في هذه الحياة لا الباطل ؟

وهل امرأةُ المسلم إلا تلك المفروضَ عليها أن تُمِدَّ هـذه الحربَ بأبطالها وعَتَادِ أبطالها وأخلاقِ أبطالها ثم ألا تكون دائماً إلا من وراء أبطالها ؟ وكيف تلد البطل إذا كان في أخلاقها الضِّعةُ والمطامعُ الذليلةُ والضجرُ والكسلُ والبلادة ؟ ألا إن المرأة كالدار المبنيَّة لا يَسهُل تغييرُ حدودها إلا إذا كانت خرابا

فاعترضته امرأةُ الشيخ وقالت : وهل بأسٌ بالدار إذا وسّعت حدودُها من ضيق ، أتكون الدار في هذا الى نقصها أو تمامها ؟

قال أبو معاوية : فكدتُ أنقطعُ في يدها ، وأحببتُ أن أمضي في استمالتها فتركتُها هنيهةً ظافرةً بي وأريتها أنها شدّتني وثاقاً ، وأطرقت كالمفكّر . ثم قلت لها : إنما أحدثك عن أم معاوية لأبي معاوية ؛ وتلك دارٌ لا تملك غير أحجارها وأرضها فبأي شيء تتسع ؟

زعموا أنه كان رجل عامل يملك دُوَيرةً قد التصقت بها مساكنُ جيرانه وكانت له زوجةٌ حمقاء ما تزال ضيقةَ النفس بالدار وصغرها كأن في البناء بناء حول قلبها ؛ وكانا فقيرين كأم معاوية وأبي معاوية ؛ فقالت له يوماً : أيها الرجل ألا توسع دارك هـذه ليعلم الناس أنك أيسرت وذهب عنك الضرُّ والفقر ؟ قال : فبماذا أوسِّعها وما أملك شيئاً ، أأمسك بيميني حائطاً وبشمالي حائطاً فأمدُّها أباعِدُ بينهما . . . . وهبني ملكتُ التوسعةَ ونفقتها فكيف لي بدور الجيران وهي ملاصقةٌ لنا بَيْتَ بَيت ؟

قالت الحمقاء : فاننا لا نريد إلا أن يتسامع الناسُ أننا أيسرنا ؛ فاهدِم أنت الدار فانهم سيقولون لولا أنهم وجدوا واتسعوا وأصبح المال في يدهم لما هدموا . . .

قال أبو معاوية : وغاظتني زوجةُ الشيخ فلم أسمع لها همسةً من الضحك لمثل الحمقاء وما اخترعتُه إلا من أجلها ، كأنها تريد أن يذهب عملي باطلاً . فقلت : وهل تتسع أمُّ معاوية من فقرها إلا كما اتسع ذلك الأعرابي في صلاحه ؟

قالت : وما خبر الأعرابي ؟

قلت : دخل علينا المسجد يوماً أعرابي جاء من البادية وقام يصلي فأطال القيام والناس يرمقونه ، ثم جعلوا يتعجبون منه ، ثم رفعوا أصواتهم يمدحونه ويصفونه بالصلاح . فقطع الأعرابيُّ صلاته وقال لهم : مع هذا إني صائم . . .

قال أبو معاوية : فما تمالكتُ أن ضحكت وسمعتُ صوت نفسها وميزت فيه الرضى مقبلاً على الصلح الذي أتسبب له . ثم قلت :

وإذا ضاقت الدار فلِمَ لا تتسع النفسُ التي فيها ؟ المرأة وحدها الجوّ الأنساني لدار زوجها ، فواحدة تدخلُ الدار فتجعل فيها الروضة ناضرة مُتروّحةً باسمةً ، وإن كانت الدارُ قحِطةً مسحوتةً ليس فيها كبيرُ شيء ، وامرأة تدخلُ الدارَ فتجعل فيها مثلَ الصحراء برمالها وقيظِها وعواصفها ، وإن كانت الدار في رياشها ومتاعها كالجنة السُّندُسيّة ، وواحدة تجعل الدار هي القبر . والمرأةُ حقُّ المرأة هي التي تترك قلبها في جميع أحواله على طبيعته الأنسانية ، فلا تجعل هذا القلبَ لزوجها من جنس ما هي فيه من عيشة : مرة ذهباً ، ومرة فضة ، ومرة نحاساً أو خشباً أو تراباً ، فانما تكون المرأة مع رجلها من أجله ومن أجل الأمة معاً ؛ فعليها حقان لا حقٌّ واحدٌ أصغرُها كبير . ومن ثمّ فقد وجب عليها إذا تزوجت أن تستشعر الذات الكبيرة مع ذاتها ، فان أغضبها الرجلُ بهفوة منه تجافتْ له عنها وصفَحتْ من أجل نظام الجماعة الكبرى ، وعليها أن تحكم حينئذ بطبيعة الأمة لا بطبيعة نفسها ، وهي طبيعة تأبى التفرق والأنفراد ، وتقوم على الواجب ، وتضاعف هذا الواجب على المرأة بخاصّة

والأسلامُ يضعُ الأمةَ ممثّلةً في النّسل بين كل رجل وامرأته ، ويوجب هذا المعنى إيجاباً ليكون في الرجل وامرأته شيء غير الذكورة والأنوثة يجمعهما ويقيّد أحدهما بالآخر ، ويضعُ في بهيميّتهما التي من طبيعتها أن تتفق وتختلف ، إنسانيةً من طبيعتها أن تتفق ولا تختلف

ومتى كان الدينُ بين كل زوج وزوجته مهما اختلفا وتدابرا وتعقدت نفساهما ، فان كلَّ عقدة لا تجيء إلا ومعها طريقةُ حلّها ، ولن يُشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه ، وهو اليُسر والمُساهلة والرحمةُ والمغفرةُ ولينُ القلب وخشيةُ الله ؛ وهو العهدُ والوفاء والكرمُ والمؤاخاةُ والأنسانية ، وهو اتساعُ الذات وارتفاعها فوق كل ما تكون به منحطةً أو ضيّقة

قال أبو معاوية : فحقّ الرجل المسلم على امرأته المسلمة هو

حق من الله ثم من الأمة ثم من الرجل نفسه ثم من لطف المرأة وكرمها ثم مما بينهما معاً . وليس عجيباً بعد هذا ما روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرتُ النساء أن يَسجدْنَ لأزواجهن لما جعل الله لهم عليهن من الحق »

وهذه عائشة أم المؤمنين قالت : يا معشر النساء لو تعلمْن بحق أزواجكن عليكن ، لجعلت المرأةُ منكن تمسح الغبار عن قدمي زوجها بِحُرّ وجهها

* * *

قال أبو معاوية : وكأن الشيخ قد استبطأني وقد تركته في فِناء الدار ، وكنت زوّرتُ في نفسي كلاماً طويلاً عن فروته الحقيرة التي يلبسها ، فيكون فيها من بذاذة الهيأة كالأجير الذي لم يجد من يستأجره فظهر الجوع حتى على ثيابه ... وقد مرّ بالشيخ رجل من المُسَوِّدة [1] وكان الشيخ في فروته هـذه جالساً في موضع فيـه خليج من المطر ، فجاءه المسوّد فقـال قم فاعبُر بي هذا الخليج ، وجذبه بيده فأقامه وركبه والشيخ يضحك

وكنت أريد أن أقول لأم محمـد : إن الصحو في السماء لا يكون فقراً في السماء ، وإن فروة الشيخ تعرف الشيخ أكثر من زوجته ، وإن المؤمن في لذات الدنيا كالرجل الذي يضع قدميه في الطين ليمشي ، أكبر همّه ألا يجاوز الطينُ قدميه

ولـكن صوت الشيخ ارتفع : هل عليكم إذْن ؟

قال معاوية : فبَدرْتُ وقلت : بسم الله ادخل ؛ كأني أنا الزوجة .. وسمعت همساً من الضحك ؛ ودخل أبو محمد فجلس الى جانبي ، وغمزني في ظهري غمزة ؛ فقلت : يا أم محمد إن شيخك في ورعه وزهده ليشبعه ما يشبع الهدهد ، ويرويه ما يروى العصفور ، ولئن كان متهدماً فانه جبل علم ، « ولا تنظري إلى عمش عينيه ، وحموشة ساقيه ، فانه إمام وله قدْر » [2]

فصاح الشيخ : قم أخزاك الله ، ما أردت إلا أن تعرفها عيوبي !

قال أبو معاوية : ولـكني لم أقم ، بل قامت زوجة الشيخ فقبلت يده .

طنطا مصطفى صادق الرافعي

(١) الذين يلبسون السواد وهم شيعة العباسيين

(٢) ما بين القوسين هو الوارد في التاريخ وعليه بنينا هذه القصة

الدعوة الفاطمية السرية

ضوء على موضوعها وغايتها

للأستاذ محمد عبد الله عنان

لما قامت الدعوة الفاطمية بمصر ، وامتد سلطان الشيعة السياسي بين المغرب وأقاصي الشام ، عنى الفاطميون أشد العناية بالمسائل المذهبية ، وعملوا على بث العقائد والمبادئ الشيعية بكل الوسائل ، واتخذت هذه الدعاية صفة رسمية في مجالس الحكمة الشهيرة التي كانت تنظم بادئ بدء في القصر الفاطمي وفي الجامع الأزهر تحت رعاية الخليفة نفسه ، ويقوم بتنظيمها قاضي القضاة أو داعي الدعاة ؛ ثم أنشئت لها بعد ذلك جامعة رسمية خاصة هي دار الحكمة الشهيرة التي أنشأها الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٥م) ، ولبثت عصراً تقوم ببث الدعوة الفاطمية السرية في صور وأساليب ما زال يحيط بها الخفاء والغموض . ولقد تقلبت دعوة الشيعة قبل ظفرها السياسي الحاسم على يد الخلفاء الفاطميين في أدوار ومراحل مختلفة ، وتشعبت مذاهبها وإمامتها ، فظهرت الدعوة الاسماعيلية أولاً في ثوب دعوة دينية سرية ؛ ثم كانت فورة القرامطة التي قامت عليها وانتسبت اليها ؛ ثم كان ظفر الفاطميين ، وقيام الخلافة الفاطمية ، فاتخذت الدعوة الشيعية بذلك لونها السياسي الواضح الى جانب لونها الديني ، وأدرك الفاطميون ما للدعاية الدينية من أثر في توطيد الملك السياسي ، فعملوا على بث مبادئهم وتعاليمهم بقوة وذكاء ، ووضعوا لذلك نظماً ومراتب سرية ، كانت دار الحـكمة القاهرية مجمعها ومبعث وحيها

وقد اتخذت هذه الدعوة في عصر الحاكم بأمر الله لوناً من الخفاء والعنف ، لم تتخذه في أي عصر آخر ، يسبغه عليها خفاء الحاكم وعنفه ، وغريب تصرفاته وأهوائه . وكان الحاكم بأمر الله شخصية جريئة مدهشة برغم اضطرابها وتناقضها ، ترتفع أحياناً في سماء التفكير حتى لتزعم السمو فوق البشر وتهيم في دعوى الألوهية ؛ وتنحط في تصرفاتها الى درك الجنون . وكان ذلك

الذهن الهائم يشغف بنظريات الخفاء والعالم الآخر ، ويهيم فى غمر المباحث الروحية والفلسفية ، ويفيض من خفائه وشذوذه على جماعة من الدعاة الأذكياء الذين يحشدهم الحاكم حوله لينظموا معه وسائل الدعوة المذهبية السرية ، وليحملوا دونه تبعة ما تعرض من الأقوال والنظريات الجريئة الممعنة فى الالحاد والهدم . ومن الحقائق المعروفة أن معظم الكتب والوثائق المذهبية التى وضعت فى هذا العصر قد دثرت ومحت معالمها يد الدول الخصيمة ، ولم نتلق عن هذه الدعوات السرية سوى قليل من الرسائل والشذور التى نقلها الينا بعض المؤرخين المتأخرين . على أن هذه الوثائق القليلة التى انتهت الينا تلقى مع ذلك شيئاً من الضياء على طبيعة هذه المبادئ والأقوال الخفية التى عمل الدعاة الفاطميون كثيراً لبثها ، والتى بعثت فى عصرها الى أصول الاسلام الحقيقية كثيراً من سحب الزيغ والريب

ومن هذه الوثائق طائفة غريبة من الرسائل الفلسفية الكلامية تحتفظ بها دار الكتب المصرية ، وهى متنوعة فى موضوعها ، ولكنها متحدة فى أسلوبها وتدليلها وغايتها ؛ ويبدو من تلاوتها لأول وهلة أن موضوعها إنما هو جزء من الدعوة السرية الفاطمية ، وأنها كتبت فى أواخر عصر الحاكم بأمر الله ، وأنها حسبما يدعى كاتبها قد وضعت بوحيه وإرشاده ، وأحياناً بالتلقى عنه . أما كاتبها فمن هو ؟ فى معظم هذه الرسائل يقدم لنا هذا الداعية الغريب نفسه ، ويذكر لنا اسمه وهو « حمزة بن على ابن أحمد » وهو اسم قلما تذكره سير العصر ، ولا تقدم لنا أى تعريف شاف عن صاحبه ، وكل ما نعرفه أنه فارسى من مقاطعة زوزان ، وكان عاملاً يشتغل بصنع اللباد ، وفد على القاهرة حوالى سنة ٤٠٥ هـ وانتظم بين الدعاة ، وخاض غمار الجدل الدينى الذى كانت تضطرم به مصر يومئذ . ومما تجدر ملاحظته أن معظم الدعاة والملاحدة الذين خرجوا على الاسلام وحاربوه باسمه ينتمون الى أصل فارسى ؛ بيد أنا نستطيع أن نعرف من هذه الرسائل كثيراً عن شخصيته وعن مهمته ؛ فهو بلا ريب من أكابر الدعاة السريين الذين اتصلوا بالحاكم بأوثق الصلات ، وتلقوا وحيه ، وبثوا دعوته ، وكان لهم أكبر النفوذ فى التوجيه الخفى لكثير من مسائل العصر ؛ وسنرى حين نعرض الى مهمته الحقيقية والى رسائله الغريبة أنه يقدم لنا نفسه أيضاً فى صفة النبوة ، ويصف لنا بعض أعماله بالمعجزات

ولدينا من هذه الرسائل مجموعتان : إحداها فتوغرافية نقلت عن مخطوط محفوظ بالعراق ، والثانية خطية ، وقد اقتنتها دار الكتب أخيراً [1] ، والمجموعة الأولى أكبر وأعم من الثانية ، وبها كثير من الرسائل التى وردت فيها ؛ غير أن الثانية (الخطية) تحتوى أيضاً على بعض رسائل لم ترد فى الأولى . وتسمى المجموعة الأولى فى صفحة العنوان « بالرسالة الدامغة » وتنعت بأنها رد على النصيرى (الفاسق) وهو ما يقوله لنا كاتبها أيضاً فى الديباجة ؛ وفى معظم هذه الرسائل يذكر لنا الكاتب اسمه وهو حمزة بن على . ولكن هناك مجموعة ثالثة تختلف فى موضوعها عن المجموعتين السابقتين ، وليس لها عنوان ، ولم يذكر فيها اسم الكاتب ، ولكننا لا نشك فى أنها من تأليف حمزة بن على نفسه لما بينها وبين الرسائل الأخرى من التشابه الواضح فى الروح واللهجة والأسلوب [2] . وسنرجئ الكلام عليها الآن ؛ ونبدأ ببحث رسائل هذا الداعية الغريب ، حمزة بن على ، ونحاول أن نستخرج منها بعض الحقائق التاريخية التى ما زالت تقدم إلينا فى أثواب من الريب والغموض والتناقض ، والتى كانت أعظم ظاهرة فى عصر الحاكم بأمر الله ، وكانت مستقى لكثير من النزعات والأهواء المدهشة التى أحاطت تلك الشخصية الغريبة بسياج كثيف من الخفاء والروع

***

من الحقائق التاريخية المعروفة أن بعض الدعاة الملاحدة قد دعا إلى ألوهية الحاكم بأمر الله ، وأن الحاكم كان يغذى هذه الدعوة ويعدها بتأييده . وقد ذكر لنا ذلك أكثر من مؤرخ ، فى مقدمتهم ابن الصابى ، وهو كاتب معاصر ، وشمس الدين سبط ابن الجوزى ، والذهبى [3] ؛ وكان فى مقدمة هؤلاء الدعاة شخص يدعى بالأخرم ، زعم ألوهية الحاكم ودعا إليها جهراً فى جامع عمرو

(١) تحفظ المجموعة الأولى برقم ٥٤ عقائد النحل ، وتحفظ الثانية برقم ١٣٣ عقائد النحل

(٢) تحفظ هذه المجموعة برقم ٣٥ عقائد النحل

(٣) نقل الينا صاحب النجوم الزاهرة روايات هؤلاء المؤرخين الثلاثة (ج ٤ ص ١٨٣ و ١٨٤)

مع نفر من أصحابه ، فثار الناس بهم ومزقوهم وفر الأخرم ؛ ثم قام بهذه الدعوة داعية آخرَ هو محمد بن اسماعيل الدرزى ، وكان أوفر ذكاء وبراعة ، فصاغ دعوته فى مذهب منظم ذى قواعد وأصول خاصة ، وألف كتاباً فى ذلك ؛ فقربه الحاكم وتمكن نفوذه لديه حتى غدا أقوى رجل فى الدولة ؛ ولكنه لما حاول إذاعة مذهبه والدعوة اليه بجامع القاهرة (الأزهر) ثار الناس عليه ، فالتجأ إلى القصر ، فحاصرته الجموع ، وأنكره الحاكم خوفاً من الثورة ، وعاونه على الفرار ؛ فسار إلى الشام ، ونزل ببعض قرى بانياس ، ونشر دعوته ، فكانت أصل مذهب الدروز الشهير ؛ وقوامه القول بالتناسخ وحلول الروح ؛ وأن روح آدم انتقلت إلى على بن أبى طالب ، ثم انتقلت روح على إلى الحاكم بأمر الله

ثم ظهرت الدعوة كرة أخرى على يد حمزة بن على ، والظاهر أن حمزة عمل مدى حين مع الدرزى ثم اختلف معه وخاصمه ؛ كما يبدو ذلك فى إحدى رسائله [1] . وفى هذه الرسائل العجيبة يشرح لنا حمزة مذهبه فى «ألوهية» الحاكم بأمر الله ، ويقدم الينا شروحه وأسانيده ، ويحاول أن يعلل لنا كل ما ارتكبه الحاكم من الأعمال والاجراءات الشاذة ويتخذ منها سنداً لنظريته . وقد نسقت هذه الرسائل ، وهى ثمانية ، على حدة فى المجموعة المخطوطة الصغرى التى اقتنتها دار الكتب أخيراً ، وأشرنا اليها فيما تقدم ؛ ويلوح لنا أن هذه المجموعة تكون وحدة متصلة منتظمة ، وأن ما أدرج منها فى المجموعة الأخرى قد أدرج على سبيل الاختيار العام من مؤلفات الكاتب ؛ ولهذا نؤثر الاعتماد عليها فى عرض قواعد هذه الدعوة الغريبة التى كادت تحدث فى هذا العصر ثغرة خطيرة فى صرح الاسلام ومبادئه الحقيقية كتلك التى أحدثتها فورة القرامطة قبل ذلك بنحو قرن

يفتتح الداعى كتابه بما يسميه « ميثاق ولى الزمان » ، وفيه صورة الشهاده بالتبرؤ من جميع الأديان الأولى والدعوة إلى الدين الجديد ، أى عبادة الحاكم ؛ ثم يحدثنا عن أصل العالمين وبدء الخليقة فى عبارة غامضة ويقول إن أصل العالم هو البرودة والحرارة ؛

(١) راجع الرسالة الرابعة الموسومة بالغاية والنصيحة (ص ١٢٥ — ١٢٦ من المخطوط)

ويقدم الينا بعد ذلك خلاصة موجزة عن معركة على ومعاوية وبدء الحركة الشيعية ؛ ثم يصف الحاكم بأنه « مولانا القائم بذاته ، المنفرد عن مبتدعاته ، جل ذكره ، أورا العالم قدرة لاهوتيه مالم يقدر عليه ناطق فى عصره ولا أساس فى دهره ... »[1] ويطلق عليه لقب « قائم الزمان » ، فى جميع مراحل الدعوة رمزاً إلى القول بالحلول والتناسخ ، وأنه هو الرمز الحى القائم . ويعرض الداعى بعد ذلك فى جرأة إلى قواعد الاسلام ، وإلى ما يلقى فى شأنها فى مجالس الحكمة الباطنية ؛ وهنا نستطيع أن نظفر بلمحة من الضياء على موضوعات تلك المجالس السرية الشهيرة التى لبثت عصراً تعقد بالقصر ثم انتظمت بعد ذلك فى جامعة خاصة هى دار الحكمة ؛ وأول ما نعرف هو أن السرية كانت قاعدة أساسية لهذه المجالس ، وأن من يجرؤ على إفشاء مناقشاتها يعتبر منافقاً وخارجاً يستحق اللعنة والعقاب [2] . وقد نقل إلينا المقريزى بياناً ضافياً عن المبادئ الكلامية العامة التى كانت تدور عليها الدعوة الفاطمية السرية فى مراتبها التسع ؛ ولكن الداعى يتناول هنا بعض الشروح الخاصة ؛ فيحدثنا عن الزكاة مثلاً بأنها فى الحقيقة ليست كما تلقى إلى الناس ؛ بل هى الاعتراف بولاية على بن طالب والأئمة من ذريته والتبرى من أعدائه أبى بكر وعثمان ، وأن معناها الباطن هو فى الحقيقة « توحيد مولانا جل ذكره ، وتزكية قلوبكم وتطهيرها من الحالتين جميعاً ، وترك ما كنتم عليه قديماً » [3] . وعن الصوم بأنه من الناحية الباطنة صيانة القلوب بتوحيد مولانا جل ذكره . أما الحج ورسومه فيحمل عليها الداعى بشدة ، ويصفها بأنها « من ضروب الجنون » وليس أدل على ذلك من أن قائم الزمان (الحاكم) قد قطع الحج والكسوة النبوية ، أعواماً طويلة ؛ ومعنى الحج فى الحقيقة والباطن « هو توحيد مولانا » [4] . وأما ترك الحاكم للصلاة والنحر (فى عيد الأضحى) فهو تحليل ذلك للعباد ، وقد أبطل الحاكم صلاة العيد وصلاة الجمعة بالجامع الأزهر ، وأسقط الزكاة ، ومعنى ذلك أنه يحل للعباد (عباده) أن يقتدوا به فى ذلك « إذ كان إليه المنتهى ،

(١) ص ٢٥ من المخطوط
(٢) ص ٣٩ من المخطوط
(٣) ص ٣٥ من المخطوط
(٤) ص ٤٤

ومنه الابتداء فى جميع الأمور »[1]

ويؤرخ الداعى هذا القسم الأول ، وهو القسم التمهيدى من كتابه بشهر صفر سـنة ثمان وأربعمائة من الهجرة (٤٠٨ هـ) ؛ ويقول لنا إن هـــذه السنة « هى أول سنين ظهور عبد مولانا ومملوكه ، هادى المستجيبين ، المنتقم بسيف مولانا جل ذكره ... الخ » ، ومعنى ذلك أن حمزة بن على كان ينتحل فوق صفة الداعى ، صفة الرسالة أو النبوة ، وسنرى أنه ينتحلها بعد ذلك صراحة . وهو يرجع بدء رسالته إلى هـــذا التاريخ ؛ ثم يقول لنا فى خاتمة رسالته الأولى المسماة « بدء التوحيد لدعوة الحق » ، إن سنة ٤٠٨ هـ أيضاً « أول سنين قائم الزمان » أعنى بدء الزعم « بألوهية » الحاكم بأمر الله ، على يد هذا الداعى . وقد كان من قبل ثمة دعاة آخرون روجوا لهذا الزعم كما قدمنا ؛ والظاهر أن حمزة هو آخر من ظهر من حشد أولئك الملاحدة فى عصر الحاكم ، لأن الحاكم لم يطل أمد حكمه بعد ذلك سوى ثلاثة أعوام وبضعة أشهر ، وكان مصرعه فى شوال سنة ٤١١ هـ فى ظروف غامضة ، اتخذها الدعاة مستقى جديداً للزعم والأرجاف

ثم تأتى بعد ذلك الرسائل الثمان ؛ والأولى هى « بدء التوحيد لدعوة الحق » وفيها يدعو حمزة إلى « ألوهية » الحاكم ، ويحاول أن يبرر إبطاله لأحكام الشريعة بأن محمداً (ص) قد نسخ كل الشرائع السابقة ، فكذلك ينسخ الحاكم شريعة محمد[2] وينشئ له شريعة خاصة . وفى الرســـالة الثانية وهى « ميثاق النساء » يتحدث الداعى عن واجبات النساء فى الطاعة والتوحيد والبعد عن الفساد والدنس ، وألا يشغلن قلوبهن بغير توحيد « مولانا » وأن يكن صادقات وفيات فى طاعته ، وأن يتركن ما كن عليه من قبـــل[3] ، وفى الرسالة الثالثة وهى « رسالة البلاغ والنهاية فى التوحيد » يوصى الداعى بعبادة الحاكم ، والاقرار بوحدته ، ويقول إنه رفعها بنفسه إلى « الحضرة اللاهوتية » ، فى شهر المحرم الثانى من سنيه المباركة (المحرم سـنة ٤٠٩) ، وأنها نسخت عن خط قائم الزمان بغير تحريف ولا تبديل[4] ؛ وفى هذه العبارة ما يستوقف النظر ؛ ذلك أنها تعنى أن الحاكم بأمر الله قد اشترك فى تأليف بعض هـــذه الرسائل سواء بالكتابة أو الاشراف على كتابتها ، وأنه كان يرعى هذه الدعوة ويشجعها بنفسه ؛ وهنا أيضاً يعرض الداعى جوهر دعوته ولباب مذهبه ، أعنى فكرة الحلول ، فيزعم أنه من الخطأ أن يعتبر الحاكم ابناً للعزيز أو ينعت بأنه أبو على ؛ ذلك لأنه فى زعمه « المولى سبحانه هو هو فى كل عصر وزمان » يظهر فى صورة بشرية « كيف يشاء وحيث يشاء »[1] . وفى الرسالة الرابعة وعنوانها « الغاية النصيحة » يحاول الداعى أن يقيم المفاضلة بين الاسلام أو دين محمد والدين الجديد . وفى الخامسة وهى « كتاب فيـه حقائق ما يظهر » يحاول أن يبرر بعض تصرفات الحاكم . وفى السادسة وهى « السيرة المستقيمة » يحدثنا عن آدم وأصل الخليقة ويزعم أن القرامطة هم الموحدون ؛ ثم يحدثنا عن تعاقب الشرائع ويزعم أن الاسلام قام بالعنف والسيف ، وأن الشريعة الاسلامية اختتمت بمحمد بن اسماعيل ، وأن آخر خلفاء اسماعيل هو عبد الله المهدى (مؤسس الدولة الفاطمية) ، وأن القائم هو الحاكم[2] وفى السابعة الموسومة « بكشف الحقائق » يلجأ الداعى إلى العبارات الرمزية ويقول : « والآن فقد دارت الأدوار ، وظهر ما كان مخفياً من مذهب الأبرار ، وبان للعالمين ما جعلوه تحت الجدار ، وعادت الدائرة إلى نقطة البيكار ، فألفت هذا الكتاب ، بتأييد مولانا البار ، الحاكم القهار ، العلى الجبار ، سبحانه وتعالى عن مقالات الكفار ، وسميته كشف الحقائق .. » ولعله يريد بهـــذا الاسم ــ كشف الحقائق ــ عنوان الكتاب كله ، لا الرســـالة الموسومة بهذا الاسم فقط ، فاذا صح ذلك فنكون أيضاً قد عرفنا اسم كتاب حمزة . وفى هذه الرسالة يزعم الداعى أن الآله بشر يأكل ويشرب ، وليس كما زعموا من التجرد عن الصفات البشرية ، ويقـدم لنا شرحاً فلسفياً للعقل والنفس . وفى الرسالة الثامنة والأخيرة ، وعنوانها « سبب الأسباب » يتخذ الداعى صفة الهادى والمعلم الأكبر بتفويض مولاه

« للبحث بقية »

محمد عبد الله عنان
المحامى

(١) ص ٢٩ و ٣٠ و ٣٤
(٢) المخطوط ص ٥٣ و ٥٤
(٣) ص ٧٣
(٤) ص ٧٥

(١) ص ٨٦ (٢) ص ٢٠٠ و ٢٠٢ و ٢٠٨

نظام التربيةِ والتعليم بانجلترا (١)

والعناية بالنظر فى أخلاق الشعب وتقاليده

للأستاذ محمد عطية الابراشى

المفتش بوزارة المعارف

يجب أن يعنى نظام التربية بالنظر فى أخلاق الشعب وتقاليده، وفى الصفات السائدة بين الأمة، وألا يكون ضد العادات القومية. كل هذه الأمور قد لوحظت فى التعليم بانجلترا؛ فان الصفات والأخلاق التى تعرف بها بين الأجناس البشرية معروفة منذ أجيال، متأصلة فيها كل التأصل. يقول «بيتر سانديفَرد»: «الرجل الانكليزى مولع بالمنافسة، يحب من صميم فؤاده الرحلات والسياحات. ولا يستطيع احد الاستقرار فى انجلترا إلا من كان يميل الى المنافسة، وإن هذا الميل الى حب التنافس لايظهر للناظر العادى، لأنه مغطى بطبقة كثيفة من الهدوء العقلى.» والرجل الانجليزى يمقت النظريات والتفكير فى النظريات، ويحب أن يقبض على الأمور العملية فى الحياة، ويحلها وهو سائر فى عمله. ويقول «بِيتر سَاندِيفرَد» أيضاً: «إن الرجل الانكليزى يُرى هادئاً، وهو فى حاجة الى قوة الخيال، ومن الصعب أن تؤثر فيه، فهو كالفحم الحجرى الصلب يتقد ببطء، ولكن حينما يتقد يحترق الى النهاية.» ولدى الرجل الانجليزى قوة كبيرة على كتمان شعوره، ويمكنه أن يمتلك نفسه، وهو شديد المحافظة على القديم، يحب الحرية الشخصية فوق كل شيء، ولقد قاتل فى سبيل تلك الحرية أكثر من ألف سنة؛ ويقول «سانديفرد» فى موضع آخر: «الرجل الانجليزى هادىء من الجهة العقلية، ولديه حب عميق للحرية، ولقد كانت هاتان الصفتان سبباً فى اتخاذه سياسة البطء، لا فى السياسة فحسب، بل فى التعليم كذلك.» وهو منعزل بطبيعته، يحب العزلة والوحدة، لايحادثك إلا إذا تعارف بك. وقد يكون هذا الانعزال ناشئاً عن الحياء والخجل، وإذا حادثك فلا تخرج محادثته فى الغالب عن الجو، والجو لحسن الحظ كثير التغير والانقلاب بانجلترا، فمن اعتدال فى الطقس الى ضباب أو مطر، أو برودة، أو عاصفة أو رعد وبرق. وإذا زالت الكلفة وذهب الخجل تحادث معك فى أى موضوع كالخيالة والتمثيل، والألعاب الرياضية، والموضوعات الأدبية والاجتماعية.... يتجنب الأمور الشخصية؛ فلا يسألك عن مقدار ما يمنحك أبوك فى الشهر، ولا عن مقدار ما تنفقه أو تدفعه للسكنى أسبوعياً — كما يسأل الفضوليون حينما يرونك أو يعرفونك أول مرة. ويميل الانجليزى دائما الى التحفظ فى الجواب، فلا يجيب إجابة الجازم المتحقق، ولكنه يجعل للشك دخلاً فى كل مايقوله، ويجيب دائما بكلمة: «أظن، أو ربما»، بعكس الرجل الفرنسى فانه يميل كثيراً الى الجزم واليقين

والانجليز معروفون بحبهم للمحافظة على القديم. وفى انجلترا تندر العجلة فى تنفيذ نظرية من النظريات، أو مشروع من المشروعات فى التربية والتعليم؛ فبينما تحاول الولايات المتحدة بأمريكا تجربة طائفة كبيرة من طرق التعليم والنظريات الحديثة — وقد لاتوافق على شيء منها بعد التجربة وعدم الاستحسان — تجد انجلترا فى هذه الحال مثلاً فى دور المناقشة والمناظرة فى طريقة واحدة من هذه الطرق؛ لأن انجلترا تخاف الخسارة وضياع الوقت، أما الولايات المتحدة فلا تبالى بما تفقده فى سبيل البحث والتجربة، ولذا تجدها اليوم تقود العالم فى العلم والاختراع والصناعة، ولقد ساعدها غناها على هذا التقدم والأقدام، فالمحافظة على القديم فى انجلترا لها فوائد، ولكن يجب ألا ننسى أن لها أيضاً كثيراً من المضار، فانجلترا تميل الى الوقوف عند حدما، وهى بطيئة فى الاصلاح؛ لأنها لاتستفيد فى الحال مما يقدمه لها المفكرون، ومايظهره المصلحون من أبنائها، ولاتشجع البحاثين والمخترعين تشجيع الولايات المتحدة لهم. وإن ولع انجلترا بالمحافظة على ما لديها يظهر جلياً فى القوانين المختلفة للتربية التى وافق عليها مجلس النواب الانجليزى؛ فلا تجد مطلقاً حذف قانون من القوانين برمته واستبداله بقانون آخر، بل تجد أن كل قانون هو تعديل للقانون السابق، للتوفيق بينه وبين الرأى الجديد الذى يراد إدخاله، ولايشك أحد فى أن التعليم بانجلترا يستفيد من أن قوانينها فى التربية ثابتة

ومع ذلك قد حدث تغيير فى التعليم بانجلترا، فمنذ سنة ١٩٠٠ نرى المحافظة على القديم أقل منها فى الزمن السابق، وفى الحق إن التغيرات الحديثة بانجلترا كثيرة وظاهرة لمن عرفها من قبل ورآها اليوم. ولايشعر من الانجليز بالفائدة الكبيرة من هذا التغيير إلا قليل منهم، وكل ما تعرفه الأكثرية هو أن هناك

(١) من كتاب «نظام التعليم فى انجلترا» تحت الطبع

شيئاً يجرى فى عالم التربية ، وأن الأمور تتغير بسرعة . وهم يشعرون بالحيرة فى الابتداء وهم سكوت لا يتكلمون . ولا ننكر أن النزاع بين المحافظين والمجددين دائم لا ينقطع ، ولو أنه نزاع صامت

ويظهر الميل الفطرى لحرية الفكر ، واستقلال الرأى فى أحوال كثيرة فى التعليم بانجلترا . وإن قوانين التربيـة مفتوحة للتغيير البطىء ، فحيثما تظهر التجارب صواب الفكرة الجديدة ، ويرى معظم الناس فائدتها ، يتغلب الانجليز على كراهتهم لها ؛ فالحرية الشخصية تخضع دائماً للمجتمع ، حباً فى المصلحة العامة ، فمثلاً كان الذهاب الى المدرسة اختيارياً يذهب اليها من يشاء من التلاميذ ، لكن لما تبين أن من المحال تعميم التعليم إذا ظل اختيارياً ، غيّر هذا النظام وجعل إجبارياً . وكان التفتيش الطبى على المدارس والتلاميذ اختيارياً ، ثم غير وجعل إلزامياً ، وكان إعداد المدرسين اختيارياً أيضاً ، ثم ظهر أن المدرس لا يستطيع أن يقوم بمهنته كما ينبغى إلا إذا نال قسطاً من التربية وعرف طرق تدريس المواد ، فجعل إعداد المدرسين إجبارياً ، وعُدّ من الواجبات لرقى التعليم . وهناك عشرات الأمثلة لأمور كانت اختيارية بانجلترا ، ثم أصبحت إجبارية يطالب بها القانون

وإن انجلترا ـ وإن كانت أمة عملية لا تدين بالنظريات ـ لا تمتنع من أن تعمل بما يمكن تنفيذه منها . ولا ينكر أحد أن النظرية التى لا يمكن تنفيذها لا فائدة منها ، ولا خير فى العلم إذا لم يصحبه العمل . لذا كانت طريقة التعليم فى انجلترا طريقة عملية ، تتفق هى والأمور العملية التى تحتاج اليها ، تتفق مع حاجات الشعب وحياته . ولا تمكن أن تفهم هذه الطريقة منفردة عن التاريخ القومى لهذه الأمة ، لأنها نتيجة الخلق القومى والحالة الشعبية . والمهم لدى الانكليز الوصول الى العمل بأى طريقة كانت من غير عناء كبير أو بحث طويل فى النظريات ، وتاريخ التعليم الانجليزى مملوء بالأمثلة الدالة على حب العمل ، وعدم الاكتراث للنظريات . فمدارس انجلترا إذن مدارس عملية ذات قوة كبيرة ، وتأثير عظيم فى تهذيب الأخلاق وتقويمها ، وإعداد رجال مخلصين عمليين يثقون بأنفسهم ، ويشعرون بما يجب عليهم لغيرهم ، ولا يفرون من تحمل مسئولية أى عمل يقومون به . هى مدارس تربى فى كل طفل الثقة بالنفس ، فيقول لك دائماً : « سأحاول » إذا سألته : هل يستطيع أن يقوم بعمل من الأعمال ؟

محمد عطية الابراشى

أين كانوا يوم كنا ؟ . . .

للأستاذ كرم ملحم كرم
صاحب مجلة « العاصفة » البيروتية

لا نجد حولنا غير المعجبين بالأدب الأفرنجى . ومن حق هؤلاء أن يعجبوا بهذا الأدب الكثير الألوان ، الجديد ، الطرىّ ، السائر والحضارة فى طريق واحد لا تبتعد عنه ولا يبتعد عنها . من حقهم أن يعجبوا بأدب يوفر لهم ما يحتاجون اليه من غذاء روحى أعدّه لهم طهاة عرفوا ميولهم فسايروها ، ونفحوها بما تستطيب من علم ، وبما ترتاح له من ابتكار مستساغ تهضمه المعد والعقول . فالأدب الأفرنجى فى القرن العشرين ينضح بعصير يجد فيه كل طالب ما تشتهيه نفسه . فليس له إلا أن يختار . فان أمامه من مختلف الأطعمة ، بل أمامه الأطعمة على اطلاقها . فاذا حنّ إلى التاريخ وجد التاريخ ، وإذا حن الى الشعر لمس من هذه البضاعة ما يروم ، وإذا شغف بالرواية وقع منها على ألوان وألوان كبيض العيد ، من أحمر وأخضر وأصفر وبنفسجى وبرتقالىّ

فما عليه ليدرك مبتغاه إلا أن يحرك شفتيه . وهذا الخصب فى الأدب الأفرنجى يعود إلى أمرين : الأول أن الغرب اليوم فى عز ومنعة ، فهو المسيطر الحاكم المستبد . والآخر أن فيه شعباً يقرأ ويقـدر مؤلفيه . فاذا أجهد الكاتب ذهنه وكد قريحته فلن يضيع وقته فى العبث ، فلابد له أن يستفيد ، وأن يضمن لنفسه الغذاء والقوت

وسرُّ نجاح الأدب فى نجاح الدولة التى تحميه ، فمن المحال أن ينشط أدب ويُفكّ من عقاله ويزدهر وينمو إن لم تكن هناك دولة يعتمد عليها ويستند اليها . فالأدب العاطل من سلطة تعضده وتؤيده أشبه بالرجل التائه الشريد ، بل أشبه باليتيم ، يقضى العمر وحيداً ينبذه الكون ، وينفر منه الناس ، فيعيش فى اكمداد واضطراب حتى تدق ساعته الأخيرة فيلفظ الروح

ثم إن هـذا الأدب بحاجة إلى من يغذيه بالمال ليعيش ، فالأديب كـكل ذى صناعة إن لم تمدّه بما يوفر له طعامه ، يعجز

عن أن يمدّك ببنات صدره وعقله . فهو يحتاج إلى الغذاء : إما بأن يرفده الملوك وأصحاب الغنى والجاه والمراتب السنية ، وإما بأن يقبل الشعب على مؤلفاته يؤدى عنها ما تساوى . وهو إن لم يوفر غذاءه المادى ، فكيف يتوفر على صوغ جواهره فى عقد نضيد نظيم تقرّ به العيون وتبتهج القلوب ؟

فالأدب الأفرنجى إذاً مدين فى خصبه الى الحظ ، فالحظ يخدمه فى دول تحميه وتدفعه فى طريق الحياة ، ويخدمه فى شعب يقبل عليه ويشتريه . وأى أدب لا يثمر مادام الأهتمام به متوالياً بلا انقطاع ؟ فالصخر إذا عكف عليه من يفتته أنبت أروع الأزهار ، وأينعت فيه أطيب الثمار !

وهـذا هو الأدب الفرنسى كم انقضت عليه أزمان فما جاد بالسمين ؟ . . . لقد ظل عصوراً طويلة ضائعاً ، غامض اللون والوجه ، لا يستقر على حال ولا يقوم له كيان ، مع أن فرنسا عرفت أياماً نضرة فى عهـد « كلوفيس » و « شارلمان » . وانتقلت اليها روائع اللغة اللاتينية ، وعكف الرهبان فى أديارها على تدريس الأدب اللاتينى لنشر تعاليم الدين المسيحى . إلا أن هـذه الهمة الشماء لم تنهض بالأدب الفرنسى المضطرب اللهجة واللسان . فظل ضائعاً مائعاً نغلاً لا أب له ولا أم ، لا جامعة تربطه ولا قوة يعول عليها فتوحده وتجمع شتيته . حتى جاءه «ماليرب» فاجتهد فى تكوينه وفى بناء قواعده . ولاح فى الظلماء بصيص نور تخطر للكردينال « ريشيلو » أن يحيى هذا الوليد . فأنشأ المجمع العلمى الفرنسى ، وقامت بانشاء هذا المجمع الدعامة الكبرى فى بنيان أدب فرنسا

ومن هو « ريشيليو » ؟ . . .

هذا كاهن عالى الرتبة ساد فرنسا ثمانية عشر عاماً

فهو أدهى من قام فى البلد الفرنسى من رجال السياسة على إطلاقهم ، ولا نستثنى حتى « تاليران » وزير نابليون الأول . فان فرنسا مدينة بعظمتها لهذا الكاهن الذى لم يكن فى سياسته كاهناً . فتلاعب بتلك الدولة الكبرى كما يتلاعب بسبحته . فهدم وبنى ، وأمات وأحيا وظلم . وشعر بنفور الشعب منه . وأدرك أنه بحاجة إلى ما يرفع من شأنه ، فالتفت إلى الأدباء يصلح من شأنهم ويعطف عليهم . فما جهل أن للأدباء ألسنة طوالاً يقتلون بها من يشاؤون ، ويقوضون أى ركن راموا تقويضه . ما جهل أن الأدب خالد فى بطن التاريخ خلود الممالك ، وأن الأدباء أخدان الملوك فى البقاء على ممر الأعوام والدهور . وقد يموت الملك ويطوى ، ويمحى اسمه حتى من صدور الكتب ولا يموت الأديب

ما جهل كل هذا ريشليو صاحب اليد الحديدية ، وقاتل الملكة «مارى دى ميدسيس» هماً ونكداً ، والمسيطر على الملك لويس الثالث عشر . فدعا إلى إنشاء ذلك المجمع الأدبى ، ولا يزال المجمع حتى اليوم ينتسب اليه أربعون أديباً ومؤلفاً وعظيماً ، وإنه لساهر على اللغة الفرنسية والأدب الفرنسى سهر الأم على بنيها ، فلا يغفل عنهما لحظة لئلا يسلكا طريقاً غير قويم

وبعـد « ريشليو » أطل « الملك الشمس » لويس الرابع عشر ، فزاد فى توطيد دعائم الأدب الفرنسى . وكان حيال أدباء بنى قومه أشبه بملوك العرب حيال أدباء العرب ، فجاء بكبار الأدباء يفسح لهم صـدر بلاطه ، ويخصص لهم المرتبات ، ويجزل لهم العطاء ، ويدعوهم إلى التأليف . وهو نفسه كان يحاول نظم الشعر ، فلمعت فى عهده أدمغة أدبية لا تزال حتى اليوم تفيض إشراقاً . وستظل فى هـذا الفيضان حتى الأبد . فان ما جاء به أدباء فرنسا فى القرن السابع عشر يكاد يكون خير ما أنتجته قرائحهم من سام رفيع وطيد نفيس ، فجاروا الأدب اليونانى والأدب اللاتينى فى أروع ما عندهما من آثار . واقتبسوا منهما الفن التمثيلى والأمثال الحكيمة فى روايات وجيزة على ألسنة الحيوانات . واقتبسوا منهما الفلسفة . ولم يكن للأدب الفرنسى أى ميزة يبهر بها العيون ، فأمسى فى القرن السابع عشر منارة تهتدى بها أوربا جمعاء ، بل يهتدى بها العالم

فالروح الأدبية استيقظت منذ ذلك الحين فى فرنسا ، ومشت فى طريق آمنة مرفوعة الرأس متوجة بأكاليل الغار ، ولما تزل مسرعة فى سيرها الوثاب . أجل ، لقد كان لها ومضات فى القرن السادس عشر ، إلا أنهـا أشبه بانتفاض الجنين فى بطن أمه ، يختلج اختلاجاً يدل على أن الحياة أخذت تدب فيه

وليس من حق الفرنسيين أن يزعموا أن أدبهم يرتقى إلى أبعد من القرن السادس عشر . فان يكن لهم بعض فلتات أدبية ترجع إلى ما قبـل ذلك العهد فانها لا تستحق العناية . ثم هى

موضوعة فى لغات متباينة خاضعة للهجات العامية المتداولة يومذاك فى شمالى فرنسا وفى صميمها ، وليس هذا الأدب بالأدب المكتوبة له الحياة . فهو من النفايات التى تطرح جانباً ويضطر التاريخ الأدبى إلى اثباتها للاشارة إلى روح الأدب فى عصرها ليس غير

وماهى روح الأدب فى فرنسا قبل القرن السادس عشر ؟ . . روح فروسية وبطولة تفيض بالحماسة وتنسج الملاحم على طراز ملحمة عنترة فى اللغة العربية . إلا أنها ملاحم من شعر لاروعة فيه ولا وحدة ولا قافية ، فيكفى أن يكون موزوناً

والعصور التى سبقت العصر السادس عشر فى فرنسا لم تكن بالعصور اللامعة فى حضارتها . فما هناك غير حروب وغزوات . فالقوم كانوا يعيشون على صهوات الخيل ، يبايعون يوماً هـذا الأمير وينتصرون يوماً لذاك ، والحروب كانت أبداً عندهم على لظى واضطرام . فما التفتوا الى الأدب مثلهم الى السيف . وهم إذا صاغوا بعض آثار أدبية فقد صاغوها لخدمة السيف ورجال السيف

على أنهم ما تذوقوا طعم الأدب الصحيح حتى باتوا يجدون فيه ضرورة من الضرورات لا غنى لهم عنها فى حياتهم العامة والخاصة . فأصبح الأدب لديهم أشبه بالقوت . وتكاثر رجال الأدب فيهم . وبرز القرن الثامن عشر حافلاً برجال الفكر من أمثال « ڤولتير » و « چان چاك روسو » وطغى الأدب على السيف واستولى على الأفكار والعقول . ولفت الأنظار الى مظالم الملوك . فخرج الشعب من غفلته وأعد الطريق الى ثورة ١٧٨٩ ، وهى الثورة الفرنسية الكبرى . وهذه الثورة مع اخمادها روح الأدب زمناً ، أحيت فى الصدور أدبا جديداً شق طريقه « شاتوبريان » ولحقه فيه « لامرتين » و « ألفرد ده موسه » و « ڤيكتور هوجو »

فالشعر فى فرنسا لم يعرف مجده الأسمى فى عهد غير ذلك العهد ، وتوالت الأيام فما ظهر بين الفرنسيين شاعر يستوى ومن سطع فى القرن التاسع عشر من شعراء . نعم ، إن القرن العشرين لا يزال فى مرحلته الأولى . وليس من العجيب أن يتلألأ فيه نجم يكسف ما أشرق فى سماء الأدب الفرنسى من كواكب ونجوم . على أن هذا النجم لايزال فى برجه تسد دونه النوافذ والأبواب

ووقوف الأرحام عن اتحاف فرنسا بهذا الشاعر المتفوق لا يدل على أن الأدب الفرنسى فى جمود . فالأدب الفرنسى اليوم كثير الرواج ، فائق الأنتاج ، يهدى الى العالم الغث والسمين ، المتين والركيك ، العالى والسخيف ، ككل أدب فى غليان ، ككل بضاعة تجد أسواقاً تقبل عليها وتلتهمها . ولا ريب فى أن هذه البضاعة تنفد وتذوب . ولا يبقى منها على توالى الأيام غير الجيد الجيد . والجيد دون القليل . فليس كل مايأتينا به أى أدب من الآداب بالخالد الباقى الرفيع

والفضل فى رواج الأدب الفرنسى أن له دولة تحميه . فهو لم ينهض إلا يوم قامت فى فرنسا دولة موحدة . وسيظل حياً مابقيت هذه الدولة تنشر حضارتها فى العالمين ، فالأدب لاتقوم له قائمة إذا لم يكن إلى جانبه سلطان يذود عنه ويدفعه فى طريق النهوض ، شأن الأدب الهندى ، والأدب الصينى ، والأدب الفارسى ، والأدب العبرانى ، والأدب اليونانى ، والأدب اللاتينى ، والأدب العربى

وأين كان الأدب الفرنسى يوم كان الأدب العربى فى الوجود ؟

كان نكرةً من النكرات

كان لا شئ

فالأيام لم تكد تلقى بذوره فى الأرض

وكم استفاد الأدب الفرنسى من الأدب العربى !

فان مؤرخيه أنفسهم يعترفون بفضل الأدب العربى عليه

فلولا الأدب العربى لطال جهل الفرنسيين فلسفة أرسطو . فقد نقلوا فلسفة الحكيم اليونانى إلى لغتهم باعتمادهم اللغة العربية ، وكانوا يهتمون بهذه اللغة ويطلعون على دقائقها ويدرسونها يوم كان العرب يحتلون الأندلس . وكم استغلوا من روائعها وكم اقتبسوا منها ! فان شعرهم لم يعرف الألوان قبل وقوفهم على الشعر العربى . وبعض المؤرخين يقول إن ذلك الشعر اعتمد القوافى يوم درس الفرنسيون الآداب العربية واطلعوا على منظوم شعراء العرب

فالأدب الفرنسى لم يكن له وجود يوم كان الأدب العربى ريانَ وضاءً ، ينشر لواءه من قلب فرنسا وإيطاليا إلى خليج العجم وإلى ما هو أبعد من خليج العجم . أما احتل العرب بلاد الهند ؟ أما نشروا فيها حضارتهم ؟ . . أما حملوا اليها القرآن

ولغة القرآن ؟ . . أما جاء زمن سادت فيه لغة القرآن العالم فاحتلت ثلاث قارات : هى آسيا وأفريقيا وأوربا ؟ . . .

وأين كان شعراء فرنسا يوم عرفت الجاهلية أصحاب المعلقات ؟.

وأين كان ڤيكتور هوجو يوم نشأ المتنبى ؟

وأين كان « فولتير » يوم عرفت الآداب العربية أبا العلاء المعرى ؟ . . .

لقد سبقناهم بألف ومئة سنة . هذا إذا خضعنا لقول القائلين إن الأدب العربى عرف الحياة فى القرن الخامس للميلاد . مع أن الأدب العربى انبثق قبل هـذا الزمن بمئات السنين . فمن المحال أن يبلغ أى أدب من الآداب الكمال الفنى فى وثبة واحدة . فلا بد له من عصور ريثما ينضج . إن هو إلا أشبه بالطبخة . وهذه الطبخة لاتكفيها سـنة ولا عشر سنوات . فهى بحاجة إلى مئة سنة على الأقل لتصلح للمضغ والازدراد . ونحن عرفنا أول شعر عربى اتصل بنا مستوفى الشروط كامل العدة . إذاً فلا بد أن تكون الأجيال التى بدأت قرض هذا الشعر قد تولت محجنه قبل اختماره بمئات السنين

ومن المؤسف ألا يكون للأدب العربى تاريخ صحيح نرجع إليـه . فالكتابة كانت مجهولة لدى عرب الجاهلية وهم أبناء البادية والقفار . وهم البعيدون عن كل حضارة . فما وصلت إلينا أشعارهم التى قرضوها فى بدء عهدهم بالشعر . فالحفاظ والرواة جاؤونا عنهم بكل غريب . فحدثونا عن العرب البائدة أحاديث لا يقرها عقل ولا صواب . ونحلوا الشعر العربى حتى جدنا آدم ، وقالوا إن سفر أيوب كتب باللغة العربية . وإن موسى نقله منه إلى العبرانية . وتفننوا فيما اختلقوا من روايات عن عاد وثمود وطسم وجديس . فاذا آمنا وصدقنا هـذه الروايات كان لنا أن نقول إن اللغة العربية حفلت بالأدب الراق قبل العصر المسيحى ، وإنها من اللغات الأولى التى تخاطب بها الناس . على أننا نكتفى منها بأن تكون آدابها ارتقت إلى المستوى العالى فى القرن الخامس للميلاد ، يوم قامت فيها الممالك تحالف الفرس من جانب والروم من جانب آخر . فالآداب العربية أثمرت فى ذلك الحين ثماراً طيبة لا يزال العطر منها يفوح ، ولا تزال مثالاً يحتذى

وإننا لنرى فى امرىء القيس على مافى شعره من الكلام الخشن — مما لم تكن تنبو عنه الآذان فى ذلك العصر — سيداً من سادات الأدب لم يعرف أمثاله الأدب الفرنسى فى غير القرن السابع عشر . وامرؤ القيس عرفه الأدب العربى فى القرن السادس . وهذا أصدق دليل على أننا سبقنا القوم بألف ومائة عام

وكانت الآداب العربية وافرة الجنى فى عهدها الأول . وظهر الأسـلام فزادها ثروةً على ثروة . وخصوصاً فى كتابه القرآن . فالقرآن أفضل ما تحفل به اللغة العربية ، إذا اكتفينا بأن ننظر اليه ككتاب يحفظ للغة العربية متانتها وبلاغتها ، ويدعو الخاضعين لتعاليمه الى قراءته وترديد آياته . فهو وحده يق اللغة الموت ، ويرد عنها البـلاء ، ويصونها من الضياع . ولولاه لاضمحلت اللغة العربية فى عصر الأنحطاط وتلاشى كل أثر منها

ومال الخلفاء فى صدر الأسلام الى الشعراء فزادوا فى إحياء لغة العرب ، وهم كانوا فى حاجة الى الشعراء . لقد كانوا فى حاجة الى شعرهم ينـالون به من خصومهم ويهدمون من أمجادهم ، تشبهاً بالرسول فى موقفه من شاعره حسان . ولم يكن للصحف وجود فى ذلك الحين . فبحث الخلفاء ــ وفى طليعتهم معاوية ــ عمن يقوم بالطعن على خصومه فى كلام يردده الحداة ويتناقله الركبان ، فلم يجد أمامه غير الشعراء وسادة القريض . ومما زاد فى حاجته اليهم أضطراره الى الكفاح والنضال بعد انتزاعه الخلافة من على بن أبى طالب . فأصبح للشعر ولقائليه شأن . خصوصاً وقد تعددت فى ذلك الحـين الأحزاب السياسية والدينية ، وأمسى كل سيد قوم بحاجة الى من يطنب فى الثناء عليه ويغالى . ولم يكن ثمة غير الشعراء يصوغون من المديح عقوداً ويتقاضون عنها نقوداً . فكثر الأقبال عليهم وأكثروا هم من التقلب فى مدح هذا يوماً وذاك يوماً آخر استدراراً لرفده وعطائه . وراجت بضاعة الشعر فتكاثر الشعراء ، وأورقت رياض الأدب ، ومعظم الذين حفلت بهم من المتكسبين . غير أن هؤلاء المتكسبين جادوا بأحسن ما عندهم رغبة منهم فى غنم أوفر مبلغ مستطاع

وأكثر عصور الأدب ازدهاراً فى اللغة العربية هو العصر العباسى ، بل الأعصر العباسية على اطلاقها . فقد بلغ الأدب العربى فى ذلك الحين القمة ، وما اكتفى رجاله بالشعر يصوغونه على الفطرة والسليقة ، بل تعمقوا فى الأدب يدرسونه وينتقدونه ويؤلفون فيه الكتب والأسفار ، فولجوا الأبواب كلها : من نظم ونثر ، من نقد ورواية ، من عـلم وتاريخ ، وامتزجوا بمن حولهم من

الأمم ، فوقفوا على الأدب الفارسي والأدب اليوناني ، وأضافوا الى كنوز الأدب العربي كنزاً آخر ، وهو كنز لا يقل في شيء عما تفاخر به اللغة الفرنسية من نفائس وروائع ، فما نفحها به أدباؤها في عصر « الملك الشمس » والقرن الثامن عشر والتاسع عشر لا يزيد قدره الفني على ماطفحت به اللغة العربية في الأعصر العباسية ، وكل ما للأدب الفرنسي من ميزة أنه أكثر تنظيماً وتبويباً ، وأحكم وحدة وارتباطاً ، فالأدب العربي يكاد يكون خالياً من الوحدة والارتباط ، فلا صلة بين أجزائه وموضوعاته ، ولا لحمة في مؤلفاته . فهي متناثرة كحجارة البناء المطروحة على الطريق تحتاج الى البنائين ليرصفوا بعضها فوق بعض ويقيموا منها داراً عامرة

أما الانتاج فلا نبالغ إذا قلنا إنه يوشك أن يكون والانتاج الفرنسي في مستوى واحد ، وما على من يرتاب فيما نقول إلا أن يطلع على ما أبقاه العهد العباسي من جليل نفيس . فالخزائن تكاد تضيق بروائع تلك الأعصر الزاهرة

والفضل فضل الدولة القائمة ، بل الدول التي قامت في تلك الأعصر . ولو ظلت في مناعتها لكان الأدب العربي اليوم في رقي الأدب الغربي إن لم يكن أرقى منه . ولكن سقوط بغداد في أيدي أعداء العرب طعن الأدب العربي في صميمه . وكان عهد الانحطاط . واستمر هذا الانحطاط طويلاً . استمر ستمائة عام . وفي هذه الأعوام الستمائة جمدت اللغة العربية جموداً قاتلاً . وكادت أركانها تنهار لولا القرآن وبعض الهائمين بها . وفيما هي ترقد رقادها الفاجع تحركت الآداب الأخرى وبنت لها قصوراً منيعة ننظر اليها اليوم معجبين ، ونكاد نتناسى في ظلالها أن لنا أدباً حياً لا يقل شأناً عن سائر الآداب الحية ، ولكننا وقفنا بينما مشى سوانا ، وبينا نرى أننا عاجزون عن اللحاق به . وهذا اليأس زاد في ضعفنا وخمولنا

وقد نظل ضعفاء خاملين لا تقوم لنا قائمة إلا يوم تقوم دولة عربية حرة يتفيأ أديبنا ظلال قبابها العالية . فإذا كتب أو أنشأ علم أن الأيدي تمتد من كل جانب للوقوف على ما كتب أو أنشأ ، وما دامت هذه الدولة غير موجودة أو واهية القوى ، فالأدب العربي يعيش على سواعد عشاقه . وسواعد عشاقه لا تكفي للنهوض به . فكل ما تفعل أنها ترد عنه عوادي الزمن ، وتنقذه من الفناء ريثما يأتيه يوم يرفع فيه رأسه ، ويغزو من يغزوه ، ويبطش بمن يكتسحه

فالأدب يلمع عندما تلمع الدولة التي يحمل لواءها

وليس الأدب العربي بالشاذ عن القاعدة مع كل ما في القواعد من شواذ ! . . .

(بيروت) كرم ملحم كرم

ورطة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

خرجت من بيتى فى صباح يوم ، ومعى — فى جيبى — ثلاثون قرشاً ليس إلا ... وقالت لى نفسى ، وأنا أضع الطربوش على رأسى بيد ، وأفتح الباب بيد :

«إنك يا هذا ذاهب الى عملك فعائد منه الى البيت لتتغدى ، فما حاجتك الى أكثر من هذا القدر ؟ اقنع به ، فان امتلاء اليد يغرى بالأنفاق ، وكفك كالغربال — كثيرة الخروق ، وواسعتها جدا — ولو رزقت مال قارون لأتيت عليه كله فى بعض يوم ، فانت والله أحق الناس بالحجر ! »

فوقفت مغيظاً ، فما يليق أن تصبحنى نفسى بمثل هذ الكلام القبيح . وكيف بالله أؤدى عملى إذا كنت أسمع مثل هذا التأنيب على الريق ؟ وقلت لأزجرها عن هذا السلوك المعيب :

« بدأنا ؟ يا فتاح يا عليم ! ألم أنهك عن هذا ألف مرة ! »

فراحت تكابر وتقول : « وهل قلت إلا إنك مسرف ؟ »

فصحت بها من الضجر : « مسرف كيف ، ياستى ؟ وهل ما أكسب يكفينى حتى أعد مسرفاً ؟ »

قالت : « إنه لا يكفيك لأنك مسرف . . . مخروق الكف ، وفى دون ما تكسب فوق الكفاية »

قلت : «كلام فارغ . . . ولعب بالألفاظ . . . هذه يدى ليس فيها خرق واحد ، وإنى لأحب المال حباً جماً ، وأحاول أن أخزنه وأكنزه ، ولكن ماذا أصنع ؟ كلما دخلت البيت قالوا هات ... هات ... ولست أسمع وأنا فى البيت إلا قولهم «هات... هات!» لا أحد يقول «خذ !» كلا... هات صابوناً ... هات بناً ... هات أحذية وطرابيش ... كأنى مصلحة تموين ... حتى وأنا نائم أسمع هاتفاً يقول لى : «هات» فأستيقظ مذعوراً ... وإذا لم أذهب الى البيت — أعنى إذا فررت منه — فلا مفر من الانفاق فى حيثما أكون ... لا أحد يقبل أن يعطينى شيئاً بالصلاة على النبى .... كلا .... لم تبق فى الدنيا مروءة ولا كرم ولا تقوى ولا .....»

وأمسكت ، فقد رأيت أحد الجيران يرقى فى السلم ، فخفت إذا سمعنى أتكلم أن يحسبنى مجنوناً ، ولم أر أحداً غيرى يحادث نفسه ، فيظهر أنهم لا نفوس لهم . . أعنى أن نفوسهم لا تتعبهم ولا يسرها التنغيص عليهم

وجاء الظهر ، وزارنى صديق عزيز طال غيابه عنى ، فقلت له وأنا أنهض معه :

« تعال نتغدى »

قال : « أين ؟ »

قلت : « أين ؟ فى البيت عندنا ! »

قال : « بيت ؟ لا لا لا . . . تعال الى المطعم »

قلت : « مطعم ؟ ياخبر أسود ! لا ياسيدى ! لا آكل فى مطعم ولو شنقونى »

قال : « كيف تقول ؟ لماذا تتكلم بهذه اللهجة ؟ »

قلت : « يا أخى بالله عليك دع المطاعم فان آكالها لا هنيئة ولا مريئة ، وتعال معى الى البيت »

وكنت وأنا أدعوه الى ذلك أرجو أن يرضى ، وأخاف أن يأبى ، وكيف لا أخشى وكل مامعى ثلاثون قرشاً لا تكفينى وحدى ، فكيف به معى وهو ضيفى ؟ وخطر لى أن أصارحه ، ولكنى استحييت ، وقلت خير من ذلك أن أحتال حتى أقنعه وأجره معى ، والتفت الى نفسى وقلت لها همساً :

« أرأيت ؟ هل يعجبك هذا ؟ هذه الفضيحة تسرك ؟ مسرف أنا ؟ هيه ؟ أنا أبعثر المال باليمين والشمال ؟ أنفقه بلا داع .. أرميه فى التراب ! بالله ما ذا كان يضيرنى أو يضيرك لو أنى خرجت بجنيه مثلاً بدلاً من هذه القروش القليلة التى لا تنفع ؟ »

وبدا لى أن خير ما أصنع فى هذا الموقف هو أن أكون رجل عمل لا رجل كلام ، فشددت ذراعه وقلت : « تعال ! »

قال : « لماذا تجرنى هكذا ؟ الى أين ؟ »

قلت : « الى البيت . . . لا فائدة من الكلام تعال »

وشاء سوء الحظ أن تمر بنا فى هذه اللحظة مركبة قديمة يجرها جوادان هزيلان معروقان ، وأبى السائق اللعين إلا أن يتلكأ ويومىء الينا بالسوط الذى فى يمينه أن نركب ، ويقول :

« أجى يا بك ؟ »

فصحت : « لا لا لا لا . . . » وأشرت اليه أن يذهب عنا ، وأن يبعد جداً ، وأن يسرع فى ذلك

فقال صاحبى : « لا ، يعنى ماذا ؟ إنتظر يا رجل . . تعال نركب فانى متعب»

قلت : « نركب ؟ »

قال : « نعم .. الى مطعم ا... تعال .. »

وشدنى ، وكان أقوى منى وأضخم ، فتعثرت وراءه وأنا أقول: « يا أخى ، الترام أسرع من هذه الخيل المحنطة ... »

قال : « لا ، هذا أحسن »

وركبنا ، وضرب الرجل جواديه بالسوط ، فصحت به : « يارجل ، حرام عليك ، انزل وجرهما ! »

فابتسم الرجل ، وأقبل على اللجم يشدها ويرخيها ، ويخرج وهو يفعل ذلك أصواتاً ليس فى الحروف المعروفة ما يترجمها ، فلست أدرى أهى جء جء ، أم تء تء ؟ أم ماذا غير ذلك ؟ وأدرت وجهى الى صاحبى وقلت له :

« كيف تكتب هذا ؟ »

وقلدت صوت السائق ، فقال : « لا نكتب »

قلت : « ما أشد قصور اللغة إذن ، وأقل وفاءها بمطالب التعبير ! »

قال : « أى تعبير يا أخى ؟ مالك اليوم ؟ »

قلت : « ألست ترى الخيل تفهم عنه ؟ فهى لغة تفهمها ، ويجب أن نعرف كيف نكتبها ونرسم الرموز لنطقها ، وإلا كان هذا منا قصوراً »

قال : « طيب ... طيب ... »

فقلت محتداً : « كيف تقول طيب ؟ أيجوز أن تسع اللغة كل هذا الذى تسعه وتعجز عن أداء هذه الأصوات القليلة ؟ »

قال : « نعم يجوز .. »

قلت : « كيف تقول ؟ »

قال « نعم ، لأنها لغة مجمولة لأبناء آدم ، لا للخيل والحمير »

قلت « ولكن الخيل ليست هى التى تنطق بها ، بل هذا السائق الآدمى »

قال : « اسلكه مع الخيل والحمير ، وأرح نفسك وأرحنى »

فسكت ، فما بقى لى بعد هذا كلام ، وبلغنا المطعم الذى اختاره فترجلنا ، وأنقدت السائق خمسة قروش — قطعة واحدة ، خرجت من عينى ، لا بخلا ، فما بى بخل ، وإنى وحقكم لكريم مضياف ، وقد سمعتم نفسى تنكر على إسرافى وتبذيرى ، وتزعمنى لذلك من إخوان الشياطين ، ومن كان لا يصدق فليجئنى بمال ، وليركيف أنفقه له ، ولا أبقى لنفسى منه دانقاً !

وجلسنا إلى مائدة نظيفة ، وجاء الخادم بورقة كبيرة مطوية فيها ألوان الطعام — أعنى أسماءها — فنحيتها عنى بأصبعى ، وقلت له : « اقرأ واختر لنفسك »

قال : « وأنت ؟ »

قلت : « ابدأ بنفسك ياسيدى ، واتركنى لاختيارى بعد ذلك »

فرفع الورقة أمام عينيه ، واضطجعت أنا ، وجعلت أنظر اليه ، وأجيل عينى فى جسمه الضخم الهائل الأنحاء ، وأسأل ماذا ترى يكفى هذه المعدة الكبيرة ويملأ هذه الكرش العظيمة ؟ وماذا يكون العمل إذا جاوز الأمر ما معى ؟

ورمى إلى الورقة وقال :

« الاختيار صعب ، فاطلب لى أنت ما تشاء ! »

فتناولت الورقة ، وأنا فرح مسرور ، وقلت فى سرى : « يامفرّج الكروب يارب » وصرت أنظر فى الأثمان ، فأهمل ما ثمنه غالياً ، وأقصر الاختيار على كل معتدل الثمن أو ضئيله وقلت له :

« فى المطاعم يحسن اتقاء الدجاج والسمك ، مخافة أن تكون تلك مخنوقة وهذه قديمة ، ولست أرى هنا ما يصلح للأكل إلا المرق والأرز والخضر والفاكهة ، والجو اليوم حار جداً ، فيحسن الاجتزاء بالخفيف من الطعام ، والذى لا خوف من الغش فيه »

فخطف منى الورقة وهو يقول : « ياأخى مالك أنت ؟ أهى بطنى أم بطنك ؟ وصحتى أنا أم صحتك ؟ ومن قال لك إنى مترف يؤذيه الحر ويثقل فيه على معدته اللحم والطير والسمك ؟ »

قلت : « إنما أخاف عليك الموت ، فمازلت شابا ، وقد مات منذ أيام شاب من إخواننا من أكلة ... »

فقاطعنى قائلا : « لا فائدة .. لا فائدة .. سآكل ماأريد على رغم أنفك »

فهززت رأسى وقلت : « شأنك ، إن همى كله ألا يصيبك ما أصاب ذلك الموظف الذى أكل سمكة متعفنة ... »

فصاح بى : « ياأخى اسكت . أى حديث هذا على الطعام ؟ »

قلت : « سكت ياسيدى ، ولكن لا أقل من أن تشاورنى لأنصح لك »

قال : « كلا ... ولا هذه ... وهل أنا مسئول منك؟ »

قلت : « إنك ضيفى وأنا مسئول عنك »

قال : « متنازل ... اسكت بقى »

فلولا أن كرمى طبع لا تطبع ، لسرنى هذا القول ، ولكنى أبيت أن أقبل « تنازله » ودعوت الخادم وقلت لصاحبى :

« مره بما تشاء ... واطلب منه كل الألوان التى يقع عليها

اختيارك دفعة واحدة ، ليعدها لك ، من الآن ، ولا يعود يعتذر بأن هذا فرغ ، وهذا لم يبق منه شيء »

فوافق ، وكانت غايتي من هذا الاقتراح أن أعرف على وجه الدقة كم يكلفني إطعام ضيفي ، وهل يبقى في جيبي بعد ذلك شيء آكل به ، أم ينبغي أن أصوم إكراما له وإيثاراً ، فوجدت أن جملة الثمن بلغت تسعة عشر قرشاً ، فقلت في سري « أما والله إنه لشرهٌ نهم ! أما كان يستطيع أن يكتفي بلونين ؟ إنه لا يبقى لي بعد ذلك إلا ستة قروش تذهب منها اثنان بجزية للخادم ، وقرش لابد منه لركوب الترام الى البيت ، فالباقي ثلاثة قروش ، ومايدريني أنه لايستمرئ نعمتي فيطلب قهوة أيضاً ، إذنها قرشان اثنان لا أملك لنفسي غيرهما... حسن... فليكن كل طعامي تفاحة »

واستغرب صاحبي زهدي في صنوف الأطعمة ، واكتفائي بتفاحة ، فقلت له « يا أخي ألم أقل لك إني أكره أن آكل في مطعم ؟ ولقد نصحت لك فهل كنت تظنني عابثاً ، أم حسبتني من جماعة «يا أيها الرجل المعلم غيره » ؟ لا ياصاحبي . وقد تركتك لرأيك ، فاتركني لرأيي ! »

وكان يأكل وأنا أدخن وأتكلم ، ثم صفق فذعرت وسألته ماذا تريد ؟ »

قال « أليس عند هؤلاء القوم نبيذ جيد ؟ »

فقلت بسرعة « لا لا لا ... إنه خل — احذر »

قال « خل ... عسل ... لا بد لي من النبيذ »

فضربت كفاً بكف ، ولولا أن المكان غاص بالناس للطمت وجهي ، فنظر إليّ مستغرباً وسألني: « مالك ، لم أرك قط على مثل هذا الحال ؟ »

قلت : « يا أخي أتريد أن تفضحني »

قال : « أفضحك ؟ لماذا ؟ »

قلت : «تشرب النبيذ وأنت معي ؟ ماذا يقول الناس عني إذا رأوك ورأوني »

قال : « إيه ؟ أنت تخجل أن يراك الناس مع صاحب يشرب خمراً ؟ متى تغيرت عن عهدي ياصاحبي ؟ »

قلت : « اليوم ... »

قال : « اليوم ؟ فقط ؟ »

قلت : « على كل حال ، هذا لا يعنيك ... اطلب ما شئت إلا الخمر ... فلن أدفع ثمن قطرة »

فأطال التحديق في وجهي ، ثم قال :

« ليس هذا مربط الفرس .. ماهي الحكاية ؟ قل بصراحة ! »

فلم أعد أطيق الكتمان ، فقد كانت أمعائي تتقطع من الجوع ، وعيني تكاد تخرج من الغيظ ، وشق علي أن أراه يلتهم الطعام وأنا جالس أنظر وأتضور وأتحسر ، فانفجرت قائلاً :

« الحكاية يا أحمق ياغبي أن كل ما معي في هذه الساعة المنحوسة التي نجلس فيها أمامي خمسة وعشرون قرشاً ... وأنت تأكل كأنك ماذقت طعاماً منذ قرن كامل ، وتريد فوق ذلك أن تشرب نبيذاً ! شيء لطيف جداً ؟ ومن أين أجيء بثمن النبيذ الذي تفرغه في جوفك ؟ أرهن ثيابي ؟ ؟ أم أطعمك وأسقيك نسيئة ؟ لو كان في رأسك هذا ذرة من العقل والفهم ، أو في عينك نظر لفطنت إلى الحقيقة ولم تحوجني إلى الكلام ، ولكنّ كل جارحة فيك مَعِدة ... »

فقال بعد طول الأصغاء : « أهوذاك ؟ »

قلت بغيظ : « نعم هوذاك يا أيها الكرش ؟ »

فلم يجب بشيء وصفق فجاء الخادم فقال له :

« اطعم هذا الجوعان المسكين »

فقلت له : « قبحك الله ! ألا بد أن تفضحني ؟ »

قال : « ألا تستحق ذاك ؟ »

قلت : « ليس هذا وقت الجدل . . . هات دجاجة سمينة »

قال : « فان الدجاج مخنوق . . ! »

قلت : « لاتكن كزاً لئيماً . . . اذهب ياهذا وهات الدجاجة السمينة . . . والله لا بدأتُ إلا بها »

قال : « بدأت ؟ »

قلت : « نعم ، ثم بسمك »

قال : « إنه قديم ، متعفن »

قلت : « فليكن من عهد الفراعنة ، فان الجوع لا يرحم »

قال : « قاتلك الله . لقد كنتُ أشتهي الدجاج والسمك فصرفتني عنهما بتهويلك وخوفتي منهما »

قلت : « ما في بطني في بطنك ! »

ولما عدت إلى البيت قلت لنفسي وأنا أبدل ثيابي لأستريح « أظن أنه لا يسعك أن تتهميني بالاسراف في يومي هذا ، فقد عدت بأربعة وعشرين قرشاً من ثلاثين خرجت بها »

فابتسمت ، وهزت رأسها راضية ، فقلت :

« ولكنه موقف لا يحتمل إذا تكرر ، ولن أطاوعك بعد اليوم »

ابراهيم عبد القادر المازني

٢ - قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

لوفن هوك Leeuwenhoek

أول غزاة المكروب

« بائع القماش الهولاندى الساذج الذى ضحك منه أهل بلده فكاتب الجمعية الملكية البريطانية وبها روبرت بويل. واسحاق نيوتن فاستمعت له وصفقت خمسين عاماً »

إن كثيراً من مكتشفات العلم الأساسية قد تظهر لرائيها اليوم بسيطة بالغة البساطة حتى ليعجب المتأمل فى العصر الحاضر من رجال العصور الغابرة كيف أنهم تحسسوا وتلمسوا آلاف السنين عن أشياء كانت منهم قاب قوسين أو أدنى من ذلك قربا. خذ المكروبات مثلاً. فعامة الشعوب تراها اليوم تتبختر على الشاشة البيضاء، والكثير من ذوى العلم القليل رأوها تسبح وتمرح تحت عدسة المكرسكوب، وطالب الطب البادىء يستطيع أن يريك جراثيم كثير من الأمراض - وإذن فما هذه العقبة الكأداء التى قامت دون رؤية المكروب لأول مرة!

أذكرْ أن « لوفن هوك » عندما وُلد لم يكن فى الدنيا مكرسكوبات، ولكن عدسات يدٍ صغيرة خشناء لا تكاد تكبّر الشىء ضعفين، لو نظر بها هذا الهولاندى ثم نظر لعلاه الشيب ولمّا يكتشف من الأحياء إلا دود الجبن فما فوقه حجماً. وإنما الذى غير وجه الأمر تحت هذا الرجل عدسات جديدة، ومثابرته على ذلك وإلحاحه فيه إلحاح معتوه، ثم شغفُه بعد ذلك بنظر كل شىء، والتجهير إلى كل شىء، خصّ أو عمّ، علا أو حقُر، شرف أو سفَل، دخل فى حدود الأدب أو خرج عنها، فنال من ذلك خبرة وكسب مِراناً هيّأه لاستقبال ذلك اليوم الباغت الفاجئ الخالد، يوم نظر من خلال عدسته، تلك اللُّعبة الزجاجية ناظارها الذهبى، إلى . . . قطرة ماء!

تلك النظرة . . . إلى تلك القطرة . . . بدأت تاريخاً مجيداً.

كان « لوفن هوك » بحاثاً مخبولاً غريب الأطوار، وإلا فما الذى حدا به إلى أن ينظر من بين ألوف الأشياء إلى قطرة ماء نزلت من السماء؟! وما الذى عساه أن يرى فيها! كانت مريم ابنته فى التاسعة عشرة من عمرها. وكانت كثيرة الحَدَب على أبيها المأفون ترعاه وتدفع عنه. والويل للجار السافل الغبى الذى يغريه سوء طالعه بالهزء من والدها على مسمع منها وكانت مريم ترقب خُطى أبيها؛ فى هذا اليوم المعهود رأته يتناول أنبوبة من الزجاج أحماها فى لهب حتى صارت حمراء، ثم مطّها حتى كانت كالشعرة، ثم كسّرها قطعاً صغيرة. ونظرت إليه وهو واسع العينين ذاهل اللبّ فاذا به يخرج إلى الجنينة فيُكبّ على إناء كان وضعه هناك ليقيس به مقدار المطر الهاطل، ثم يغمس تلك الشعرات الزجاجية فيه، ثم يعود بها الى مكتبه فيضعها تحت عدسته. ليت شعرى ما وراء هذا الأب المأفون العزيز الآن. إنه ينظر فى العدسة ويُجهد النظر حتى حَوِلتْ عينه. إنه يتمتم بكلمات تتردد فى حلقه ولا تخرج الى شفتيه. ها هوذا قد زاد اضطرابه وعلا بغتة صوته، وأخذ يصيح لابنته فى اهتياج ظاهر: « تعالى. تعالى. أسرعى! أسرعى! أرى أحياء فى الماء، أحياء صغيرة. انها تسبح. إنها تدور وتلعب. إنها أصغر ألف مرة من الحيوانات التى تراها أعيننا المجرّدة. انظريها وانظرى ماذا اكتشفت »

هذا يوم « لوفن » جاء أخيراً، وهو يوم فى الأيام مُعلَم مشهور. ساح الاسكندر ما ساح حتى جاء إلى الهند فاكتشف فيها مالم تره عين أغريقىّ من قبله: فيلةً عظاماً ضخاماً تملأ العينَ والقلب، هذه الفيلة كانت عند الهندوس كالخيل عند الأغريق، أشياء مألوفة معروفة لا تبعث فيهم دَهَشاً ولا تثير عجباً. وضرب قيصر فى الأرض ما ضرب حتى طلع به المطاف على الجزر البريطانية فراعه ما وجد فيها من أقوام بادين مستوحشين، ولكن هؤلاء البريطانيين كانوا فيما بينهم معروفين مألونين كألفة قيصرَ جنودَه. أما « لوفن هوك » التاجر الصغير فقد سبق العالم فأطل على عالم عجيب لا يبلغه البصر، عالم من مخلوقاتٍ صغيرة عاشت وعاودت العيش، ونمت وعاودت النماء، وتقاتلت وعاودت التقاتل، وماتت وعاودت الموت، وكل ذلك تحت عين

الانسان وسممه ، ومنذ بدأ الزمان ، والانسان لا يسممها ، والانسان لا يبصرها . مخلوقاتٍ على صغرها أهلكت شعوباً وأذات أمماً من رجال يكبرونها عشرات الملايين من الأضعاف . مخلوقاتِ شرٍ على البشر مما خالوا من أفاعٍ تنفث النار وتنشر الفزع والدمار . مخلوقاتٍ قتالة ، تقتل في صمت ، تقتل الطفل وهو في دفء مهده ، وتقتل الملك بين أعوانه وجنده . تلك المخلوقات الخفية الحقيرة العدوّة اللدود – والتي قد تسالم أحياناً وتصادق – هي التي نظر اليها « لوفن هوك » أول رجل على ظهر البسيطة

— ٣ —

سبق أن حدثتكم عن « لوفن هوك » بأنه رجل كثير الشك كثير الريبة ، لذلك لما وقعت عيناه على تلك الحيوانات رآها بالغة الصغر بالغة العجب حتى لا يكاد يؤمن الرائي بها . ومن أجل هــذا أعاد النظر ثم أعاده حتى انجمدت يده من مسك المكرسكوب ودَمَعت عيناه من إطالة التحديق ، فوجد أن نظرته الأولى لم تكن خُدعةً ، فها هي الحيوانات نفسها تعود فتتراءى له ، وليست هي من جنس واحد هذه المرة ، فها هو جنس ثان أكبر من الأول سريع الحركة رشيق الدوران لأن له بضعة أرجل بالغة في الدقة ، وها هو جنس ثالث ، ورابع ولكنه صغير جداً فلا يَبين شكله ، ولكنه حيّ يدور بسرعة خاطفة فيقطع الأميال في دنياه الصغيرة – في تلك القطرة من الماء



ألياف عضلية من القلب مكبرة أضعافاً كما رآها لوفن هوك

وكان « لوفن » قيّاساً ماهراً ، ولكن أنى له بمقياس تقاس به هذه الحيوانات الصغيرة . جمّع لوفن ما بين حاجبيه ، وجمّع بتجميعه أشتات فكره ، وأخذ يبحث في زوايا رأسه وفي الأركان المهجورة من ذاكرته بين آلاف الأشياء التي تعلمها وأتقن تعلمها عله يهتدي بها إلى قياس تلك الأحياء ، وعدّد ماعدّد ، وحسب ما حسب ، وخرج من حسابه على أن « الحيوان الأخير الذي رآه أصغر ألف مرة من عين قملة كبيرة » . وكان هذا تقديراً صائباً من رجل مدقق محاذر ، فنحن نعلم اليوم أن عين القملة التامة النماء لا تزيد حجماً عن عشرة آلاف من تلك الحيوانات

ولكن من أين أنت وكيف سكنت قطرةَ الماء ؟ أجاءت من السماء ؟ أم زحفت من الأرض على جدار الأناء حتى بلغت الماء ؟ أم قال لها الله كوني فكانت من لا شيء ؟

كان « لوفن » يؤمن بالله بمقدار ما آمن به أي هولاندي من أهل القرن السابع عشر ، وكان يصفه بأنه خالق هذا الكل العظيم ، وكان فوق إيمانه يُعجب به أي إعجاب ، وكيف لا يعجب من خالق حاذق عرف كيف يصنع أجنحة النحلة بهذا الجمال الطرِب . ولكن « لوفن » كان إلى جانب هذا يعتقد في المادة وفي وسائطها ، وهداه وحي نفسه الصادق إلى أن الحياة لا تنتج إلا من حياة ، وأن الله لم يخلق هذه الحيوانات في وعاء الماء من لاشيء . . . ولكن صبراً . . . ولم لا يخلق اللهُ ماشاء كيف شاء ؟ لاسبيل إلى معرفة مأتى هذه الحيوانات إلا التجربة . فقال لوفن لنفسه « فلأجرب »

فغسل كأس خمر غسلاً طيباً وجففه ، ورفعه إلى حيث يقطر ماء المطر من سقيفة داره ، فلما تجمع فيها بعضه أخذ منه قطرة وسلط عليها عدسته . . . نعم ! لا يزال بها قليل من تلك الحيوانات غاديات رائحات . إذن فهي توجد في ماء المطر غِبّ نزوله . ولكن مهلاً ، فهذا استنتاج فطير ، من أدرانا ؟ لعلها كانت على السقف فنزل المطر فاكتسحها في الكأس

فدخل لوفن بيته وخرج بصحن من الصيني داخله أزرق صقيل فغسله ورفعه إلى السماء والمطر يهطل ، ورمى بما تجمع فيه من الماء ليتأكد من نظافته ، ثم رفعه مرة أخرى ، ثم غمس في مائه شعرة من شعراته الزجاجية وبكثير من الحذر حملها بقطرتها إلى مكتبه لينظر فيها . « لقد واتاني الدليل ! هذا الماء ليس فيه مخلوق واحد من تلك المخلوقات الصغيرة ، فهن لن يأتين من السماء »

ولكنه احتفظ بهذا الماء الساعةَ بعد الساعة ، وهو يحدّق فيه ، واليومَ بعد اليوم وهو يحدّق فيه ، وفي اليوم الرابع

أخذت تلك المخلوقات تتراءى فيه مع ذرات من التراب وخيوط القطن ونسائل التيل

اكتشف « لوفن » هذه الدنيا الجديدة التي لم تخطر على بال أحد ، فهل كتب إلى الجمعية الملكية ينبئها خبر هذا الاكتشاف الضخم ؟ لا ، لم يكن بعدُ أخبرهم ، فقد كان رجلاً بطيئاً ، وإنما سلّط عدساته على كل أصناف الماء ، على الماء الذي في مكتبه وهواؤه محبوس ، على الماء بالقدر الذي وضعه في الهواء الطلق على سطح بيته ، على الماء الذي بقنوات بلدته وهو غير شديد النقاء ، وعلى ماء البئر البارد الذي بجنينة داره ، وفي كل هـذه الأمواه وجد هذه الحيوانات . وراعه صغرها الهائل ، فكثير منها لم يبلغ الألفُ منه حجمَ الحبة من الرمل ، وقارن بعضها بدودة الجبن ، تلك الحشرة القذرة الصغيرة ، فوقعت منها وقوع النحلة من الفرس

كان لوفن بحاثاً يبحث عن كل شيء وفي كل شيء ، ومن غير علم سابق عن تلك الأشياء . وكان من شأن هذا الضارب في أشتات الأمور أن يعثر في طريقه على كثير مما لم يقصد إليـه . وكان هذا حاله مع الفُلفُل . الفلفل حرّيف لاذع فلماذا ؟ سؤال خطر له يوماً فقال لنفسه : « قد يكون هـذا بسبب نتوءات في الفلفل حادة تشك اللسان عند الأكل فتلذعه » ولم يكد يستقر هذا الخاطر في رأسه حتى قام يبحث عن هذه النتوءات

بدأ بالفلفل الجاف فطحنه ثم طحنه ، وعَطس وعَرق ، ولكن لم يبلغ به الطحن الصِّغرَ الكافي لرؤيته بالعدسة . فخال أن يلينه بالتبليل فنقعه في المـاء بضعة أسابيع ثم جاء بإبرة حادّة فمزّق بها ذرات الفلفل فزادها صغراً ، ثم مصها مع قطرة ماء في إحدى شمريّاته الزجاجية ، وأخذ ينظر فيها ، ولم يكد يفعل حتى نسي النتوءات التي كان يبحث عنهـا ، وامتلأت نفسه واغتمر حسه بما وجد من جديد . ففي الأمواه الأخرى التي رآها كان يرى الحيوانات الصغيرة التي اكتشفها بقدر معتدل يقل حيناً ويزيد حيناً . أما في ماء الفلفل هذا فقد وجد هذه المخلوقات على تنوعها كثيرةَ العدد كثرة لاتصدّق ، وهي لا تزال في ازدحامها تهيم وتسبح في رشاقة وجمال

خرج « لوفن هوك » يبحث في الفلفل عن نتوءات ، فوقع على طريقة يربّي بها حيواناته وينمّيها ويكثرها

وعندئذ ، وعندئذ فقط ، شاء أن يكتب إلى لندن يخبرها بالذي كان . وملأ الصفحة بعد الصفحة بخط جميل ولغة بسيطة يشرح ما صنع ، ويقول لهم إن حبة القمح تسع مليوناً من هذه الحيوانات ، وإن ماء الفلفل يربيها ويكثرها حتى تحوي القطرة منه ٢٧٠٠٠٠٠ منها . وتُرجم الكتاب إلى الانجليزية وتلي على الجمعية فترك عاليها سافلاً . هؤلاء العلماء كانوا قد اطرحوا الخرافات ، وكفروا بالذي كان في زمانهم من أباطيل وترهات ، ثم يأتي هذا الهولاندي يحدثهم عن حيوان تسع قطرة المـاء منه بقدر ما تسع هولاندا من السكان ! تلك خرافة من خرافات الأولين ، ولا والله ما خلق الله حياً أصغر من دودة الجبن



البرغوث وأطواره كما رآها لوفن هوك مأخوذة من كتاباته عام ١٦٩٣ (ا) البيضة (ب) قشر البيضة بعـد خروج اليرقانة (ج ، د) طوران من العذراء ، وهي البرغوث قبل أن يستكمل (هـ) اليرقانة وهي البرغوث في طواره الدودي (ر) البرغوث الصغير عند استكماله

على أن نفراً من هؤلاء العلماء لم يضق بما سمع . فهذا الرجل كان محققاً مدققاً مفرطاً في تحقيقه وتدقيقه . وقد وجدوا صدقه في كل ما كتب لهم عنه . وعلى ذلك جاءه كتاب من لندن يرجونه فيه أن يشرح لهم بالتفصيل الطريقة التي صنع بها مكرسكوبه وأن يصف لهم كيف يستخدمها لرؤية ما يرى

وجاءه الكتاب يحمل الشك في ثناياه فغضب . ما كان يهمه أن يضحك منه حمقى بلدته ، ولكن لم يكن يخطر في باله أن ترتاب الجمعية الملكية في قوله . لقد كان يحسب أنهم فلاسفة . أيكتب إليهم بالشرح الذي طلبوا ، أم يوليهم من الآن ظهره ويحتفظ بما يعمل لنفسه . وذكر المجهود الذي أنفقه فمز عليه ما احتمل منه ، وكأني بك تسمعه يتمتم في نفسه : رحماك اللهم فأنت تعلم كم عملت وعَرقت ، وكم سهرت لكشف تلك الخبايا ، وكم

احتملت من ضحك الناس وسخرية حمقاهم فى صناعة مكرسكوباتى وتجويدها واستنباط طرق الرؤية بها . . .

ولـكن كما أنه لابد لـكل ممثل ممن يسمع وينظر ، فـكذلك لابد لـكل مبتكر من نظارة سماعة . لقد علم « لوفن » أن هؤلاء الشكاكين من أعضاء الجمعية لابد باذلون جهداً لا يقل عن جهده لأنكار دعواه . لقد جرحوه فى كرامته ، ولـكن لابد لمكتشف من نظارة ! فـكان أن كتب لهم كتاباً طويلاً يؤكد لهم أنه لم يَغلُ فيما وصف ، وشرح لهم الحساب الذى عمل ، وكتب لهم الحسبة بعد الحسبة من قسمة فضرب لجمع حتى صار كتابه ككرّاسة صبىّ فى مدرسة وخرج بنتائج قريبة جداً من النتائج التى يخرج بها علماء المكروب اليوم بواسطة ما استجد لهم من عُدّة وجهاز . وختم « لوفن » كتابه بقوله إن كثيراً من أهل « دلفت » رأوا تلك الحيوانات الصــغيرة العجيبة بعدساته فأكبروها ! وأنه يستطيع أن يأتيهم باقرارات شرعية مبصومة مختومة ، اثنين منها من رجلين من رجال الله [1] ، وواحد من مسجلى العقود ، وثمانية أخرى من شهود عُدول . أما أن يصف لهم كيف صنع مكرسكوباته فهذا مالا سبيل اليه

كان « لوفن هوك » كثير الريبة فى الناس . كان يسمح للناس بنظر الأشياء من عدساته ، ويرفعها إلى أعينهم ليحسنوا الرؤية بها دون أن يمسوها ، فان هم رفعوا يداً اليها ليتولوا بأنفسهم إحكامها أو لزيادة المتعة بها لم يكبر على « لوفن » أن يطردهم من بيته طرداً . . . كان كالطفل بيده تفاحة كبيرة حمراء يعجب بها ويسر برؤية أصحابه لهـا ، ولـكنه يصرخ فى وجوههم إذا نالوها بأصابعهم خشية أن ينالوها بعد ذلك بأسنانهم

وبناء على هذا وجهت الجمعية وجهها ناحيةً أخرى ، فانتدبت « روبرت هوك » Robert Hooke ونهيمياه جرو Nehemiah Grew ليقوما بصناعة أحسن المكرسكوبات المستطاعة ، وبتجهيز نقيع مائىّ من أجود أصناف الفلفل الأسود . وفى الخامس عشر من نوفمبر عام ١٦٧٧ اجتمعت الجمعية وجاءها « روبرت هوك » يحمل إلى المجتمع مكرسكوبه والنقيع ، وفى خطاه سرعة ، وفى قلبه لهفة ، لأنه وجد أن « أنطون لوفن هوك » لم يَكْذب ، فها هى تسبح وتلعب ، تلك الحيوانات التى حدّث عنها « لوفن » . قام الأعضاء عن مقاعدهم وتزاحموا حول المكرسكوب ، وحملقوا فيها ، ثم صاحوا : لا يكشف عن مثل هـــذا إلا رجل من عبقر . وكان هـذا يوم فخار كبير « للوفن هوك » . ولم يمض غير قليل حتى انتخبت الجمعية هـذا القمّاش عضوا بها . وبعثت إليه براءة العضوية فى إطار من الفضة وعلى غلافها شارة الجمعية

فأجابهم « لوفن » يشكرهم ويقول : « . . . . وسأخدمكم باخلاص إلى الرمق الأخير من حياتى » . وهكذا فعل . فانه أخذ يكتب إليهم تلك الكتب التى خلط فيها بين العلم ولغو الحديث حتى مات وسنه تسعون عاماً . وعلى كثرة ما بعث لهم من الكتب لم يبعث إليهم بعدسة واحدة . كل شىء إلا هذه مادقّ قلبه بالحيـاة . وفعلت الجمعية كل ما استطاعت فى سبيل ذلك دون جدوى ، وأنفذت الدكتور مولينو Molyneux إليـه ليكتب تقريراً عنه فعرض عليــه مولينو ثمناً طيباً مغرياً لاحد مكرسكوباته فأبى . « يارجل ! لديك مئات المكرسكوبات قد رُصصت فى القمطرات بحوائط مكتبك ، أفلا تستغنى ولو عن واحدة فقط ؟ » . ولـكن هيهات . « هل أستطيع أن أرى السيد رسول الجمعية الملـكية شيئاً آخر ؟ هذا محار فى زجاجة لم يولد بعد . وهـــذا حيوان غطاس سريع رشيق » . ويرفع الهولاندى عدساته إلى عين الانجليزى ليرى بها ، وهو يلحظه بركن عينه خشية أن يمس جهازاً أو ينشل شيئاً ، وهو الرسول الأمين الذى لا يشك أحد فى ذمته أو يرتاب فى أمانته . « مولاى رسول الجمعية ! . كم أتمنى لو كان فى استطاعتى أن أريك عدسة بعينها هى أحسن عدساتى ، وأن أريك كيف تنظر فيها ، ولـكنى اختصصت بها نفسى فلا أطلع عليها أحداً حتى ولا أهل بيتى »

(يتبع) أحمد زكى

[1] يقصد القسيسين

١٤ ـ محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون أو خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

ـ أو قد تنساق كذلك إلى تذكر سمياس نفسه ؟

فقال ـ هذا حق

ـ وقد يكون التذكر فى هذه الحالات جميعاً منبعثاً من أشباه الشيء أو مما يباينه ؟

ـ هذا صحيح

ـ وهناك سؤال لا بد أن ينشأ ، حينما يكون التذكر قد انبعث من شبيه الشيء ، وهو : هل يكون شبيه الشيء المتذكَّر ناقصاً فى أى ناحية من نواحيه ، أم لا يكون ؟ (١)

فقال : هذا جد صحيح

ـ وهل نتقدم خطوة أخرى ، فنؤكد بأن التساوى موجود فعلاً ، لا تساوى الخشب بالخشب أو الحجر بالحجر ، بل ما هو أسمى من ذلك وأرفع . أنؤكد بأن التساوى موجود فى عالم التجريد ؟

فأجاب سمياس : بلى : لنؤكد ذلك ولْنقسم على صحته بكل ما وسعت الحياة من يقين

ـ وهل نحن نعلم هذا الكنه المجرد ؟

فقال : لاشك فى ذلك

ـ ومن أين جاءنا هذا العلم ؟ ألم نَرَ متساويات من الأشياء المادية ، كقطع الحجر والخشب ، فاستنتجنا منها مثالاً لمساواة تخالفها ؟ (٢) أفأنت موافق على هذا ؟ أوفانظر مرة أخرى الى الموضوع على هذا النحو : أليست قطع الحجر والخشب بعينها تبدو متساوية حيناً متفاوتة حيناً آخر ؟

ـ لا ريب فى هذا

ـ ولكن هل تتفاوت المتساويات الحقيقية أبدا ؟ أم هل يكون مثال التساوى يوماً عدم مساواة ؟

ـ لا شك فى أن ذلك شيء لم يُعرف بعد

ـ إذن فهذه المتساويات (كما يسمونها) ليست تطابق مثال التساوى ؟

ـ لابد من القول ياسقراط بأنها تخالفه تماماً

ـ ومع ذلك ، فأنت من هذه المتساويات ، قد تصورت مثال التساوى ووصلت إليه ، على الرغم من أنها مخالفة لذلك المثال ؟

ـ فقال : هذا جد صحيح

ـ وقد يكون مثال التساوى شبيها بها . وقد يكون مبايناً لها ؟

ـ نعم

ولكن هذا لا يغيّر فى الأمر شيئاً ، فما دمت قد تصورت شيئاً من رؤية شئ آخر ، سواء أكانا شبيهين أم متباينين ، فقد حدثت بذلك من غير شك عملية تذكر ؟

ـ جد صحيح

ـ ولكن ماذا عساك أن تقول فى قطع متساوية من الخشب والحجر ، أو فى غيرها من المتساويات المادية ؟ وأى أثر هى تاركة فى نفسك ؟ أهى متساويات بكل ما فى التساوى المطلق من معنى ؟ أم أنها تقع فى القياس دونه بشيء يسير ؟

فقال : نعم ، بل دونه بمسافة بعيدة جداً

ـ ثم ألا يلزم أن نسلّم بأننى ، أو أى أحد آخر ، حين ينظر إلى شئ فيدرك أنه إنما ينشد أن يكون شيئاً آخر ، ولكنه مقتصر من دونه ، عاجز عن بلوغه — فلابد أن قد كانت لدى من يلاحظ هذا معرفة سابقة بذلك الشئ الذى كان هذا الأخير أحط منه ، كما يقول ، وإن كانا متشابهين ؟

ـ يقيناً

ـ ثم أليست هذه حالنا فى موضوع المتساويات والتساوى المطلق ؟

---

(١) يعنى لو رأيت مثلاً صورة رجل ، فذكرتك بالرجل نفسه ، فهل تكون هذه الصورة ، وهى شبيهة الأصل ، منطبقة تماماً على أصلها ؟

(٢) معنى ذلك أن الأنسان قد شاهد فى الحياة أشياء متساوية ، فعرف منها أن هناك تساوياً مجرداً ، مع أن ذلك التساوى المجرد ، لا يشبه هذه المتساويات التى شاهدها تمام الشبه ، لأن هذه كثيراً ما تتفاوت ، أما ذلك — إن وجد — فلا يجوز عليه التفاوت مطلقاً

ـ تماماً

ـ إذن فلا ريب فى أننا كنا نعرف التساوى المطلق قبل أن نرى المتساويات المادية لأول مرة ، وفكرنا بأن كل هذه المتساويات الظاهرة ، إنما تنشد ذلك التساوى المطلق ، ولكنها تقصر من دونه ؟

ـ هذا صحيح

ـ ونحن نعلم كذلك أن التساوى المطلق لم يُعرف إلا بواسطة اللمس ، أو البصر ، أو غيرها من الحواس التى لا تمكن معرفته بغيرها (١) وإنى لأؤكد هذا عن كل إدراك كلّى من هذا القبيل

ـ نعم ياسقراط ، فكل واحد من هذه المدركات لا يختلف عن الآخر فى شىء مما يدور حوله الحديث

ـ وإذن فمن الحواس تنبعث المعرفة ، بأن كل الأشياء المُحسّة تنشد مثال التساوى ، ولكنها تقصر من دونه ـ أليس ذلك صحيحا ؟

ـ نعم

ـ إذن فقبل أن بدأنا فى النظر ، أو السمع ، أو الأدراك بأية صورة أخرى لابد أن قد كانت لدينا معرفة بالتساوى المطلق ، وإلا لما استطعنا أن ننسب اليه المتساويات التى نشتقها من الحواس ؟ ـ فهذه كلها تسعى نحو ذلك التساوى المطلق فتقصر من دونه ؟

ـ تلك ياسقراط نتيجة مؤكدة للعبارات التى سلف ذكرها

ـ ثم ألم نأخذ فى النظر والسمع واكتساب حواسنا الأخرى بمجرد أن ولدنا ؟

ـ يقيناً

ـ إذن فلابد أنا قد حصّلنا معرفة التساوى المثالى فى زمن سابق لهذا ؟

ـ نعم

ـ أى قبل أن نولد فيما أظن ؟

ـ صحيح

(١) لأننا أدركنا بالحواس أشياء متساوية ، فاستنتجنا وجود التساوى المطلق ، فكأننا أدركنا هذا الأخير عن طريق الحواس ، مع أنه عقلى محض . وقل مثل ذلك فى سائر المدركات الكلية ، كالجمال والخير وما اليهما ، فقد جاءتنا عن طريق الحواس أشياء جميلة : وردة ، وامرأة ، وشروق وهكذا ، نعرفنا عن طريقها فكرة الجمال المطلق

ـ وإذا كنا قد حصّلنا هذه المعرفة قبل أن نولد ، وكانت لدينا عند الميلاد ، إذن فقد كنا قبل الميلاد ، وفى ساعة الميلاد نفسها نعرف كذلك ، فضلاً عن التساوى ، والأكبر والأصغر ، سائر المُثُل جميعاً ، فنحن لا نُقْصر الحديث على التساوى المطلق ، ولكنه يتناول الجمال ، والخير ، والعدل ، والقداسة ، وكل ما نطبعه بطابع الجوهر فى مجرى الحوار ، حيثما نلقى أسئلة ونجيب عن أسئلة ، أفنستطيع أن نؤكد ، أننا قد كسبنا معرفة هذه كلها قبل الميلاد ؟

ـ هذا صحيح

ـ ولكن ، إذا نحن بعد كسب المعرفة ، لم ننس ما كنا قد كسبنا ، فلا بد أنا قد ولدنا ومعنا المعرفة دائماً ، وسنظل أبداً على علم بها ، مادامت الحياة -- لأن العلم هو كسب المعرفة وحفظها ، لا نسيانها . أليس النسيان ياسمياس هو فقدان المعرفة لا أكثر ولا أقل ؟

ـ جد صحيح ياسقراط

ـ أما إذا افتقدنا عند الميلاد تلك المعرفة التى حصّلناها قبل أن نولد ، ثم كشفنا فيما بعد ، بواسطة الحواس ، ما قد كنا نعلم من قبل : أفلا يكون ذلك ، وهوما نسميه تعلّما ، عملية لكشف معرفتنا ، ثم ألا يجوز لنا بحق أن نسمى هذا تذكراً ؟

ـ جد صحيح

لأنه من الواضح ، أننا إذ ندرك شيئاً بواسطة البصر ، أو السمع ، أو أية حاسة أخرى ، لانصادف صعوبة فى أن ينشأ لدينا من هذا الشىء ، تصورٌ لشىء آخر ، يشبهه أو يباينه ، كنا قد أنسيناه ، وكان قد ارتبط بذلك الشىء ، وعلى ذلك ، فكما سبق لى القول ، يقع أحد الأمرين : إما أن هذه المعرفة كانت لدينا عند الميلاد ، وظللنا نعلمها طول الحياة ، وإما أن يكون أولئك الذين يقال عنهم إنهم يحصّلون العلم ، بعد ميلادهم ، لا يفعلون أكثر من أن يتذكروا ، فما العلم إلا تذكر وكفى

ـ نعم يا سقراط ، هذا جد صحيح

ـ فأى الأمرين تُؤثر ياسمياس ؟ أكانت المعرفة لدينا عند الميلاد ، أم أنا قد تذكرنا فيما بعد الأشياء التى كنا نعلمها قبل ميلادنا ؟

ـ لا أستطيع الحكم الآن

(يتبع) زكى نجيب محمود

دار الحديث الأشرفية

والمتحف العربي بدمشق

بعنوان « الخالدى » نشر الاستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام فى العدد الثامن والسبعين من « الرسالة » الغراء مجلساً من مجالس الأستاذ الكبير الشيخ خليل الخالدى ، وحسناً فعل ، فان أمثال الشيخ الخالدى بيننا قليل ، ويجب أن ينتفع بمعارفهم وثمرات بحوثهم . وحبذا لو عمد كل من يلقاهم أو يسمع منهم شيئاً إلى تسجيله ونشره ماداموا هم لم يدونوا مذكرات منظمة عن أبحاثهم ، فليس من السهل أن نجد شخصية مثل الشيخ الخالدى غزارة علم وسعة اطلاع ، وإن الأنسان ليعجب عند ما يستمع اليه وهو يتحدث عن كتاب نادر ، فيصفه وصف الدارس المطلع ، بل يتجاوز ذلك فى كثير من الأحيان فيذكر عبارات الكتاب سرداً عن بديهة . ثم ينتقل من وصف الكتاب الى ترجمة مؤلفه ، فيذكر الكثير من شأنه مما لا نجده فى كثير من البحث والدرس ، ثم ينتقل من ذلك الى عصر المؤلف ، وحال الحركة العلمية فيه وما الى ذلك ، فمجالس الشيخ الخالدى شائقة ممتعة نرجو الذين يجالسونه ويستمعون له تدوين مجالسه ونشرها على الناس كما فعل الدكتور عزام

عرفت الشيخ الخالدى فى دمشق أواخر سنة ١٩٢٩ ، أيام ترددى على دار الكتب العربية ، لذلك لفت نظرى مقال الدكتور عزام وقرأته بشغف شديد حتى أتيت على ذكر المدارس فى دمشق فاستوقفنى قوله : « ومن مدارس دمشق دار الحديث الأشرفية وهى دار المتحف العربى الآن » استوقفنى هذا كثيراً لأنى أعرف دار الحديث الأشرفية كما أعرف دار المتحف العربى وأن كلا من الدارين غير الأخرى ، فدار الحديث الأشرفية التى بناها الملك الأشرف موسى بن العادل ، ونجز بناؤها سنة ٦٣٠ ﻫ والتى درس بها جلة من العلماء مثل ابن الصلاح وابن الحرستانى وأبى شامة والنواوى والشريشى والفارق وابن الوكيل وابن الزملكانى والحافظ المزنى والسبكى وابن كثير وغيرهم — هذه الدار لا تزال تؤدى رسالتها فى نشر العلم — وعلم الحديث بنوع خاص — الى يوم الناس هذا ، وقد اعتراها شيء من الفتور فى أواخر القرن الماضى حتى أرسل الله لها الفقيه الشيخ يوسف البيانى المغربى ، فأعاد اليها حياتها ونشاطها ، ثم تولى شأنها من بعده المحدث الكبير الشيخ بدر الدين الحسنى ، ولا يزال يلقى دروسه فى دار الحديث الأشرفية ويحضرها الكثير من كبار العلماء . وأما المتحف العربى فى دمشق فهو دار المدرسة العادلية الكبرى التى تقع فى مواجهة المدرسة الظاهرية

والمدرسة العادلية التى بناها نور الدين محمود بن زنكى ولم يتمها ، ثم الملك العادل سيف الدين ولم يتمها أيضاً ، حتى أتمها من بعده ولده الملك المعظم ونسبها الى والده الذى دفن فيها فسميت العادلية

كانت هذه المدرسة من أمهات المدارس الخاصة بالشافعية فى دمشق (١) كما كانت مقر القضاة فيها

سكنها الكثير من كبار العلماء أمثال ابن خلكان والعلاء القونوى . وأبناء السبكى وابن مالك النحوى وابن جماعة

وفيها ألف ابن خلكان تاريخه المشهور وعلى بابها كان يقف ابن مالك يدعو الناس لحضور دروسه : ينادى هل من متعلم هل من مستفيد ؟ وحول بركة العادلية كان قاضى القضاة شمس الدين ابن خلكان يدور الليل كله حتى الصباح ويقول فى دورانه :

أنا والله هالك   آيس من سلامتى
أو أرى القامة التى   قد أقامت قيامتى

ولما أسس المجمع العلمى العربى فى دمشق سنة ١٩١٩ م جعلت مقر المجمع ، وهى الآن تضم المجمع العلمى والمتحف العربى وقاعة المحاضرات التابعة للمجمع . وعلى ذكر العادلية وشغل المجمع العلمى لها أقول : إن المجمع وضع يده أيضاً على المدرسة الظاهرية التى أنشأها الملك الظاهر بيبرس ودفن بها هو وابنه الملك السعيد

والظاهرية كانت مدرسة ودار حديث معاً ، درس بها الأذرعى والأخنائى والسويدى والأسدى والرعينى والواسطى

فتسلمها المجمع العلمى العربى وجعلها مقر دار الكتب العربية فى دمشق ، وخص القبة الظاهرية المزينة بالفسيفساء البديعة بالمخطوطات المحفوظة فى الدار ؟

برهان الدين محمد الداغستانى

---

(١) كانت فى دمشق مدارس لكل مذهب من المذاهب الأربعة كما كانت فيها دور للقرآن ودور للحديث ، ويجد القارئ الشيء الكثير عنها فى تنبيه الطالب للشيخ عبد القادر النعيمى . ومنادمة الأطلال للشيخ عبدالقادر بدران . وفى خطط الشام للأستاذ محمد كرد على عضو المجمع اللغوى الملكى بمصر

١٢ - بين القاهرة وطوس

اصفهان الى سلطان آباد

للدكتور عبد الوهاب عزام

والباب العالى بناء ضخم قسمه الأمامى إيوان عال يمسك سقفه الرفيع ثمانية عشر عمودا ، مشرف على الميدان ، ووراء الايوان بناء ذو طبقات ست وسلاليم ضيقة ، وفى كل طبقة حجرات قليلة صغيرة ، وهذا البناء كله كان لجلوس السلاطين مشرفين على اللعب فى الميدان ، ولاستقبال الوفود أحياناً ، وكان بابه المظيم مفتوحاً ليل نهار يأوى اليه أصحاب المظالم فترفع الى الشاه ظلاماتهم



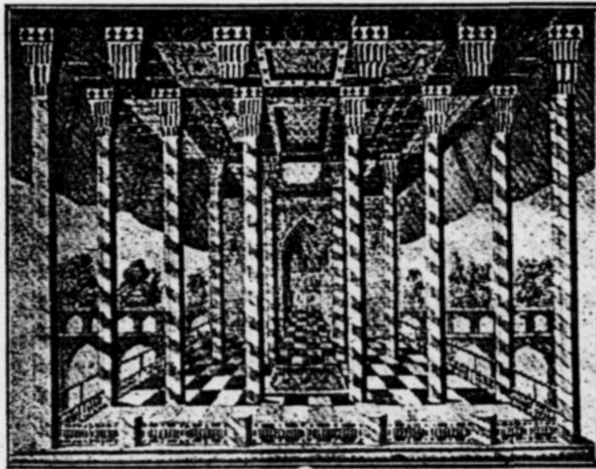
مسجد الشاه بأصبهان

ومن الآثار التى رأيناها ، المسجد الجامع ، وهو من أكبر المساجد سعة رقعة وضخامة بناء ، وقد كمل بناؤه الحاضر فى عهود مختلفة ، وهو أقدم مساجد أصفهان . إيوان القبلة له قبة عالية ضخمة مبنية بالآجر ، والى الغرب إيوان صغير جميل أظنه من آثار الصفويين ، ووراءه مصلى كبير يؤخذ مما كتب على قبلته أنه بنى سنة عشر وسبعمائة ، ووراء هذا مصلى كبير لانوافذ له ، وفى سقفه كُوَى ينفذ ضوؤها من أحجار من المرمر شفافة

وفى المسجد إيوانات أخرى ومصلى له قبة صغيرة زعم بعض الأدلاء أنه كان بيت نار ، وأن القبة الكبرى كانت كذلك ؛ وذلك زعم لايصدقه التاريخ وفن البناء . وقصارى القول أن المسجد الجامع بأصفهان من عجائب الأبنية ، وأن فيه للتاريخ وفن العمارة درساً طويلاً . وفى الجمعية الجغرافية الآن عشرات الصور تبين عن أقسام هذا الجامع العظيم ودقائقه

وأكبر الظن أن هذا هو الجامع الذى وصفه مفضل بن سعد ابن الحسين المافرّوخى فى كتابه « محاسن أصفهان » حيث يقول : « والجامعان : الكبير العتيق البديع الأنيق . بنى أصله القديم عرب قرية طبران وهم التيم . . . ثم أعيد فى أيام المعتصم سنة ست وعشرين ومائتين ، ثم زاد فيه أبو على بن رستم فى خلافة المقتدر ، فصار أربع أدور يماسّ كل حد من جماعتها رواقا، يلاصق كل رواق منه أسواقا . . . . وهو منذ اتخذ يطن بالتهليل والتحميد ، ويحن بالتسبيح والتمجيد . لا ينظم لأحدى الصلوات الخمس أقل من خمسة آلاف رجل . وتحت كل اسطوانة منه شيخ مستند ينتابه جماعة من أهلها بوظيفة درس أو رياضة نفس . تزين بمناظرة الفقهاء ، ومطارحة العلماء ، ومجادلة المتكلمين ومناصحة الواعظين ، ومحاورات المتصوفين ، وإشارات العارفين ، وملازمة المعتكفين . الى ما يتصل به من خانكاهات فوراء مرتفعة وخانات عامرة متسعة ، وقد وقفت لأبناء السبيل من الغرباء والمساكين والفقراء . وبحذائه دار الكتب وحجرها وخزائنها الخ الخ

والباب العالى الذى ذكرته آنفاً كان يؤدى الى حدائق واسعة فيها قصور كبيرة رائعة ، رأينا منها قصر « چهل ستون » أى قصر الأربعين عموداً الذى بناه الشاه عباس واحترق فعمره الشاه



قصر چهل ستون للشاه عباس

سلطان حسين وهو كما رأيناه اليوم ، بناء وسط حديقة واسعة ،

ومقدم البناء رواق رفيع واسع يقوم بسقفه عشرون عموداً رفيعاً كل عمود قطعة واحدة من خشب الداب ، وكان مكسواً بالمرمر تعلوه قطع المرايا على الأسلوب المألوف فى البلاد الفارسية ، وللبناء على الجانبين رواقان آخران صغيران ، ووراء الرواق الأكبر مدخل يفضى الى قاعة كبيرة ، ووراءها حجرات

وفى رواق الجانب الأيمن نقوش كثيرة ، بعضها يصور نفراً من الموسيقيين والمغنين ، وبعضها يمثل جماعة من سفراء دول أوربا الذين وفدوا على الملوك الصفويين ، وفى القاعة الكبرى صور زيتية كثيرة تمثل الملوك الصفويين مستقبلين ضيوفهم أو محاربين أعداءهم ، وهى صور تذكر بصور قصر فرسايل فى فرنسا

وأمام البناء كله حوض كبير على حافته نافورات ، ينعكس فيه مرأى الرواق الامامى . قال محدثنا : للرواق عشرون عموداً وهذه مثلها فى الماء ، فمن أجل هذا سمى قصر الأربعين عموداً

والحق أن آثار الصفويين فى أصبهان على ما نالها من عوادى الزمان تشهد بما كان لهم من الغنى والأبهة ، وبما كان فى الدولة من العمران والصناعات ، والنبوغ فى العمارة والنقش

ورأينا آثاراً أخر يضيق المقام بوصفها ، ثم أوينا الى الفندق وفى خيالنا جلال الماضى وجماله ، وأمام أعيننا ما كان من تبدل وتحول

عصف الدهر بهم فانقرضوا   وكذاك الدهر حال بعد حال

خرجنا العشية ، فجلنا فى أطراف المدينة ، ورأينا القناطر المشيدة على نهر زنده رود ، ورأينا مصنعاً كبيراً لآل البزدى ينسج فيه الصوف ، ثم ذهبنا الى السوق ، وسوق أصفهان من أعظم الأسواق فى الشرق ، فرأينا بدائع صناعة اصفهان ، واشترينا منها ثم رجعنا إلى الفندق

ولما حان موعد العشاء خرجنا إلى دار الحكومة إجابة لدعوة الحاكم . فنعمنا هناك زمناً بحديث السيد الهمام قاسم صور اسرافيل ورئيس البلدية ، والشاعر الانكليزى درنيكووتر والدكتور شميت الألمانى . ثم عدنا إلى الفندق نمشى فى القمراء وقد هوّد الليل ، فقلنا حبذا لو امتد بنا المقام

بكرنا إلى الرحيل ونحن نذكر قول أبى عبد الله الحسين النظرى :

حوت أصفهان خصالاً عجاباً   بها كل ما تشتهيه استجاباً
هواء منيراً وماء نميراً   وخيراً كثيراً ودُوراً رحاباً
وترباً ذكياً ونبتاً روياً   وروضاً رضياً يناغى السحابا
وفاكهة لا ترى مثلها   نسيماً وطعماً ولوناً عجابا
تفيد الأعلاءَ برءاً كما   يفيد الربيع الرياض الشبابا
وزاد محاسنها زنّروذ   مياهاً كطعم الحياة عِذاباً ألخ

فارقنا أصبهان والساعة ثمان وربع من صباح الاثنين ثالث عشر رجب (٢٢ أكتوبر) عائدين أدراجنا تلقاء قمّ — ومن أصفهان إلى كرمانشاهان طريق تسير شطر الغرب لا تمرّ بقم ، وهناك طريق أخرى إلى سلطان أباد فى العراق العجمى ، ولكن سائق سيارتنا ، وهو خبير بالطرق ، أبى إلا أن يسلك طريق قم إلى سلطان أباد فهمذان فكرمانشاهان لأنها طريق معبدة مطروقة معروفة ، ومررنا والساعة تسع ونصف بقرية صغيرة اسمها مورچه خورد (النملة أكلت) قال السائق هذه قرية دعا رسول الله صلوات الله عليه أهلها إلى إطعام بعض الفقراء فأخفوا ما عندهم من طعام فدعا الرسول عليهم فأكلت النملة ما ادخروه من قوت :

ووردنا دليجان والساعة اثنتا عشرة فوقفنا موقفنا الأول على المطعم الذى وصفته آنفاً ، فجاء صاحبه وقال قد هيأت لكم الطعام ، قلنا أعددت دجاجة ؟ قال نعم وغيرها ، فصمدنا إلى الطبقة العليا فاسترحنا ثم جاءنا الطعام فأكلنا مسرورين فكهين

واستأنفنا السير والساعة واحدة وأربعون دقيقة ، فلقينا على الطريق زميلنا فى المؤتمر الدكتور نظام الدين الهندى ، فوقفنا نجدد العهد به . ثم سرنا قليلاً فاذا ثلاثة من أعضاء المؤتمر : ألمانى وأمريكى وتركى مقيم فى أمريكا ، فتحدثنا قليلاً ثم افترقنا وكان هؤلاء يؤمون أصفهان فشيراز

بلغنا قم والساعة أربع فلم ندخلها ، بل ملنا عنها شطر الغرب نريد سلطان آباد . ونزلنا بعد نصف ساعة ببناء عند أشجار على مقربة من نهر قم . قلت للسائق أى موضع هذا ؟ قال تخت شير (تخت الأسد) شربنا الشاى ، وطلبنا شمامة (خربوزه) فجاء رجل بشمامة وبطيخة قلنا هذه البطيخة قديمة ، فما رأيك فى الشمامة ؟ قال حلوة جداً . قلنا شقها . فاذا شمامة غير ناضجة فقمنا نندب أملا ضاع بين قِدم البطيخ وحداثة الشمام . ولم أنس من بعدُ تخت شير وشمامته . وكان مسيرنا فى أرض عامرة تبدو فيها

فى تاريخ الأدب المصرى

٣ـ ابن النبيـــه

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

— ٥ —

أهم أغراض شعر ابن النبيه المدح والغزل والرثاء والوصف، ولقد كان مدح شاعرنا رقيقاً بارع الأسلوب، يستهوى السامع ويأسره، ويستطيع أن يملك قلب الممدوح فيهبه جزيل الهبات، وهو يبدؤه بالغزل غالباً وأحياناً كثيرة يبدؤه بذكر الخمر ومجالسها والساقى وجماله وحينما مدح الخليفة الناصر أحمد بدأ مدحه بذكر الناقة التى حملته إلى الممدوح، وقربته من مقر حكمه، كما كان فى بعض الأحيان يبدأ مدحه بدون تقدمة، غير أنه كان حينما يأتى بمقدمة قبل مدحه يجيد غالباً التخلص منها إلى المدح بلباقة وبراعة فهو حين يبدأ بالغزل مثلاً يتخلص إلى المدح بمهارة كقوله:

عسى قلبه يعديه قلبى برقة   كما طرفه الفتان بالسقم أعدانى
لئن كان ينسى عقد عهد مودتى   فلى ملك من فضله ليس ينسانى

وحين يبدأ بالخمر يحسن التخلص منه كذلك مثل قوله بعد أن وصف الخمر:

حمراء تفعل بالألباب ما فعلت   سيوف شاه أرمن فى عسكر لجب

ولقد كان فى النادر يطيل المقدمة إطالة كبيرة حتى تغير على المدح المقصود من القصيدة، ولقد كانت المقدمة مرة سبعة عشر بيتاً فى حين أن المدح لم يستغرق أكثر من أحد عشر بيتاً، غير أن هنا ملحوظة أحب أن أوجه النظر إليها، تلك هى صيحة التجديد التى رفع الصوت بها، منددا بأولئك الذين جعلوا كل همهم تقليد الأقدمين فى بدء الشعر بالحديث إلى الأطلال وسؤال الديار، وهو فى تلك النزعة يشبه — إلى حد كبير — أبا نواس الذى صاح قبله تلك الصيحة، واستمع إلى ابن النبيه يقول:

شكر المدام وشكر موسى مذهبى   فلقد محوت بطاعتى عصيانى
شغلى مدائحه وغيرى لم يزل   كالبوم يندب دارس الجدران
للبيد والقفر الدوارس معشر   عدل الزمان بشأنهم عن شانى

فأنت تراه يشبه أولئك الذين يتحدثون إلى الديار بالبوم تندب دارس الجدران، ثم يؤكد لك أن مذهبه لا يشبه مذهبهم، وطريقته لا تتفق مع طريقتهم ويقول:

حسبك لا يغنى سؤال الديار   قم، فاصرف الهم بكأس العقار
واستنطق العيدان إن كنت ذا   لب فما ينطق صم الحجار
البم والزير وكأس الطلا   أولى بمثلى من سؤال الديار

وهو يشبه فى ذلك أبا نواس الذى سفه أولئك الباكين على الأطلال والآثار، وصرح بأن الأولى والأفضل أن يبدأ الشعر بذكر الخمر وما إلى الخمر

ولقد سار ابن النبيه على تلك الطريقة فلم يبدأ شعره يوماً بسؤال حجر ولا استنطاق أثر، وهناك نقطة ثانية تراها فى بعض مدحه تلك هى نقطة الاستطراد والدخول فى موضوع جديد بمناسبة ذكره، ولنمثل لذلك بمدحه للخليفة الناصر فهو قد مدحه وأثنى عليه، وما هو إلا أن ذكر انتسابه للنبى حتى مضى يمدح النبى، ويذكر خصاله ومعجزاته. ولعل ذلك نشأ من أن الخليفة فى ذلك الوقت لم يكن له من السلطان والقوة شىء، وإنما كان يعتز بالسلطة الروحية التى تستمد من النبى، فلا جرم كان مدح النبى مصدر تلك السلطة مدحاً للخليفة، وترقية من شأنه، هذا وقصائد مدحه متوسطة بين الطول والقصر غير أنه كان يقصرها أحياناً، ولكن لا يفوته أن يعتذر عن هذا القصر،

القرى والزروع والأشجار، والبيادر ليست كالطريق بين طهران وأصفهان. ومررنا بقرية صغيرة وقف عليها السائق قائلاً لا يفوتنا أن نأكل من عسل هذه البلدة فهو حديث الركبان. ثم دخل بناء إلى جانب الطريق، وعاد بقليل من العسل والزبد والخبز. وقد صدق الخُبر خبر صاحبنا فقد وجدنا عسلاً صافياً بارداً فقلنا قد أبدلنا الله بشامة تحت شير عسل راهجرد. وتمادى بنا السير حتى اجتزنا بقرية اسمها ابراهيم آباد فعلمنا أننا على مقربة من غايتنا، وبعد نصف ساعة وقفنا فى مدخل سلطان آباد والساعة ست وخمس وأربعون مساء بعد أن فصلنا أصبهان بعشر ساعات ونصف، فرأى الشرطة جواز السفر ودخلنا المدينة:

عبد الوهاب عزام

ولنختم الحديث عن مدحه بذكر قطعة صغيرة تعطيك صورة عن هــذا المدح : قال يمدح الملك الأشرف ، ويذكر دخوله مدينة خلاط :

أبيٌّ، سخيٌّ تحت سطوته الغنى ... تخف وتيقن أن فى عسره يسرا
هو البحر بل أستغفر الله إن فى ... بنان يديه للندى أبحرا عشرا
لحى الله حربا لم يكن قلب جيشها ... ومجلس عدل لا يكون به صدرا
أطل على أخلاط يوم قدومه ... بلجة جيش يملأ السهل والوعرا
تلقاه من بُعــد المسافة أهلها ... فذا رافع كفا وذا ساجد شكرا
فشككت أن الناس قد حشروا ضحا
أم النـاس يستسقون ربهم القطرا

أما غزل شاعرنا فنوعان : غزل هو مقدمة لمدح ، وغزل قصد إليــه قصداً وعناه من أول الأمر ، وهو فى كلا الغزلين عذب جميــل تحس فيه رقة الهوى وشكواه ، وقد تحدثنا عن تغزله بالغلمان : السقاة منهم والجنود ؛ ومن الرقيق هنا أنه كان يستخدم ألفاظاً للتورية كقوله فى غلام يهودى :

. من آل إسرائيل علقته ... عذبنى بالصد والتيــه
أنزلت السلوى على قلبه ... وأنزل المن على فيــه

على أن غزله لم يقتصر على المذكر ، بل كان يتغزل كذلك بالمؤنث وإن كان قليلاً . ومن أرقه قوله :

إلى كم أكتم البلوى ودمعى ... يبوح بمضمر السر الخفى
وكم أشكو للاهية غرامى ... فويل للشجى من الخلى
ممنعة لهــا طرف سقيم ... شديد الأخــذ للقلب البرى
وشاحاها على خصر عــديم ... ومئزرها على ردف ملى

وقد صدرنا مقالنا بشيء من هذا الغزل الرقيق الذى شهر به شاعرنا حتى أصبح يقال فى حقه : هو صاحب الغزل البديع ، فهو جميل حين يصف لك الحب وإن كان وصفا حسياً ، وجميل حين يذكر أيام الوصل أو حين يعيد إلى نفسه ذكرى الأيام العذبة ويقول :

أترى لأيامى بوصلك عودة ... ولو أنها فى بعض أحلام الكرى
زمن شربت زلال وصلك صافيا
وجنيت ورد رضاك أخضر مثمرا
ملكتك فيه يدى فحين فتحتها ... لم ألق إلا حسرة وتفكرا

لننصت إليه حين يقول ارتجالا :

أمانا أيهـا . القمر المطل ... فمن جفنيك أسياف تسل
يزيد جمال وجهك كل يوم ... ولى جسد يذوب ويضمحل
وماعرف السقام طريق جسمى ... ولـكن دلَّ من أهوى يدل
إذا نشرت ذوائبه عليــه ... ترى ماء يرف عليــه ظل
أيامالك القلوب فتكت فيها ... وفتكك فى الرعية لا يحـل
قليــل الوصل ينفعها فان لم ... يصبها وابل منــه فطل
أدر كأس المدام على الندامى ... فمن خديك لى راح ونقل
فنيرانى بغيرك ليس تطفى ... وأحزانى بغيرك لا تبــل

فهو مع استخدامه الصناعة اللفظية لم يزل جمــال الشعر رائعاً خلابا كما ترى

(يتبع) **أحمد أحمد بدوى**

القُبلة الممنوعة

تحفة من الشعر الرائع

للعالم الشاعر الأستاذ أحمد الزين

يا غُلّةَ الصدر من حرّ الجوى زيدي ... أبتْ شفاءكِ حتى بالمواعيد
سِحريةُ الفم لو مسّت بقُبلتها ... فمَ العَييِّ لحلّت كلَّ معقود
تكاد من رقةٍ تُغري مقبِّلَها ... أن يحتسيها رحيقاً غيرَ مورود
قد صاغها الله لمّا أشركتْ أممٌ ... به وقال اشهدوا برهانَ توحيدي
قل للبخيلة جودي لا لقيتِ جوًى ... إن كان يشفع لي قولي لها جُودي
وساعةٍ تحت أفياء الهوى سلفتْ ... يا ساعةً تحت أفياء الهوى عُودي
ماضرَّ لو أنها في قُبلةٍ سنحتْ ... منّتْ بوعدٍ وإن ضنّت بموعود
هل حاذرتْ حرَّ شوقٍ حين ألثمُها ... أن تُذبِل الوردَ أنفاسي بتصعيد
رُحماكِ لليائس المطول يُقنعه ... من الوجود خيالٌ غيرُ موجود
ظمآنُ لا رشفاتُ الماء صافيةً ... تروي صداه ولا بنتُ العناقيد
شفاؤه قبلةٌ لو أنّ محتضراً ... داوى بها الموتَ ردّت غيرَ مردود
فكم أقبّل ثغرَ الزهر من شَبَهٍ ... بثغركِ العذب في حُسنٍ وتوريد
عينٌ من الخُلد من ينهل بكوثرها ... وِردَ الحياة يفُزْ منه بتخليد
صوتٌ من القلب أمليه على فمها ... وعهدُ حُبٍّ على الأيام ممدود
وللقلوب لغاتٌ ليس يدركها ... سوى فؤادٍ بنار الوجد معمود
حديثُ شوقٍ بلا حرفٍ ولا كَلِمٍ ... تُفضي به شفتي للخدّ والجِيد
معنًى من الحبّ يسمو أن أؤدّيَهُ ... بكلّ لفظٍ من الألفاظ محدود
اللفظ يثقُل بالترديد موقعُه ... وتلك تحلو معانيها بترديد
دع الرسائل فيما لا تحيط به ... تلك اللغاتُ ودع صَوْغَ الأناشيد
فللشفاه على أمثالها لغةٌ ... أحلى على السمع من مزمار داود
أدّتْ عن القلب ما أعيا اللسانَ به ... كمنطق الطير غرّيدٌ لغرّيد
كم قُبلةٍ لا أرى الدنيا لها ثمناً ... فلا تبِعْ غيرَ معدودٍ بمعدود

أحمد الزين

على مذهب روسو

ثورة على الحضارة

للأستاذ محمود غنيم

ذرعتم الجو أشبارا وأميالاً ... وجُبتم البحر أعماقا وأطوالاً
فهل نقصتم همومَ العيش خردلةً ... أو زدتمو في نعيم العيش مثقالا ؟
صرعى الهواء وغرقى الماء قد كثروا ... وراكب الخيل جرّ الذيل مختالا
العيسُ ألين ظهرا من مراكبَ إن ... جنَّبن هولا فقد قرَّبن أهوالا
تسنّم القوم غربَ الجو وانطلقوا ... كأنّ للقوم في الأفلاك آمالا
أقسمت لو دنت الأفلاك طائعةً ... فنالها المرء لم يقنع بما نالا

***

إني أرى الناس ما زادوا رفاهيةً ... في العيش زادوه تعقيدا وإشكالا
كم هان أمرٌ فقلدناه طائفةً ... من الحواشي وحمّلناه أثقالا
تجاوز العرفُ والعاداتُ حدّهما ... فأصبحا في رقاب الناس أغلالا
يا طالما حدثتني النفس قائلةً ... أنحن أنعم أم أسلافنا بالا ؟
كانت حياتهمو تُضفي بساطتُها ... عليهمو من هدوء البال سربالا
كم للمحاكم أحكام يقوم بها ... في البدو فيصلُه – والقولُ ما قالا
لا الحق ضاع إذا ما عيَّ مِدرهُهُ ... ولا ترقُّبُ يوم الفصل قد طالا
قدّرتم الوقت تقدير الشحيح به ... فكدتمو تملؤون الليل أعمالا
أتخمتمُ الوقت بالأعمال ويحكمو ... هلاّ أضفتم إلى الآجال آجالا!

***

تحضّر الناسُ حتى ما لمكرمةٍ ... قُدْسٌ لديهم ولكن قدّسوا المالا
في كل مملكةٍ حربٌ منظّمةٌ ... تضم جيشين : مُلاّكا وعمالا
يد السياسة بالأخلاق قد عبثت ... وقوّض العلم صرح الدين فانهالا
البدو أكرمُ أخلاقا وأحسبهم ... لله أكثرَ تقديسا وإجلالا
قالوا : تألق نور العلم ، قلت لهم : ... بل ناره أصبحت تزداد إشعالا

عهد الحسام بفضل العلم قد درست   آثاره وزمان الرمح قد دالا
يارُبّ حربٍ بغير العلم ما اتَّقدت   وربّ جيشٍ بغير العلم ما صالا
مدمِّراتٌ وغازات مسمَّمة   تصوِّر الموتَ ألوانا وأشكالا
لنا جرائمُ لم يسبق بها زمنٌ   باتت تزلزل ركن الأمن زلزالا
كم وضَّح العلم منهاجا لمختلس   وبات يحمى من القانون مغتالا

* * *

ابْنُ الحضارة جسم دون عاطفة   يكاد يحسبه رائيه تمثالا
وبرقها خلّب يغريك بارقُه   حتى إذا شِمتَه ألفيتَه آلا
رسالة الغرب لا كانت رسالته   كم سامنا باسمها خسفا وإذلالا
وصوَّرتْه لعين الشرق أمثلة   عُليا وصوّرنا الرحمن أمثالا
تغزو الحضارة أقواما لتسعدهم   والزنج أسعد من أربابها حالا

* * *

هى الطبيعة ما برّ الأنامُ بها   أمًّا وبرت بهم من قبلُ أجيالا
هل تشهرون عليها الحرب ويحكمو   وكم طوت قبل هذا الجيل أجيالا
عودوا إلى حجرها إن شئتمو رغدا   كما نشأتم بهذا الحجر أطفالا
صوت الهزار وصوت العود أيُّهما   أقواهما أثراً فى النفس فعالا ؟
أقسمت ما نظرت عينى بحاضرة   كالرمل أصفرَ أو كالماء سلسالا
إذا نظرتُ إليكم من ذُرا جبلٍ   لاحت قصورُكم الشماء أطلالا
يارُبّ قصر له شمسُ الضحى طنفٌ   بين العيون وبين الشمس قد حالا
يودّ ساكنُه لو كان منطلقا   كالذئب يسكن أحراجا وأدغالا
قودوا البخارَ وسوقوا الكهرباء فما   زلتم بأسرار هذا الكون جهّالا
لكم حياةٌ وموتٌ كان سرُّهما   من عهد آدمَ مستوراً وما زالا

كوم حمادة   **محمود غنيم**

وداع . . .

بقلم وصفى البنى

يا عهوداً من حياتى شطرت   كيف أصبحت وراء العدم ؟
أنت من قلبى شظايا ألمٍ   كيف أرضى عن بقايا الألم ؟
يا عهوداً قد تولَّى ذكرها   أنت من ليلى منار الأنجم
سوف أمشى فوق آلامى وما   فى فؤادى من بقايا الأسهم
مسرعاً فى الليل أعدو كى أرى   نور أيامٍ تغذت من دمى
هل يطول الليل دهراً كاملاً ؟   بل سيمضى رغم أنف النَّوم

* * *

يا عيونى ما بكائى والأسى   غير أصواتٍ بوادٍ مظلم
قد سكبت الدمع فى أمسى ولم   أستمع غير التشكى من فمى !
خلنى أحيا ضحوكا فالبكا   سوف يكوينى بنار الندم
قد شربت الكأس مراً علقماً   واحتسيت الصبر فوق العلقم
فلنقف يادهر ، ذا وادى الشقا   من يرى الوادى وفيه يرتمى ؟..
هذه دنياىَ ما عيشى بها   باكياً إلا كليلٍ أقتم !
قد تراءى الفجر يزجى نوره   فى حنايا الليل يجرى كالدم
فلنودّع يا رفاقى أمسنا   إن نجم الصبح أغرى مبسمى !.

دمشق   **وصفى البنى**

فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

٨ – تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا

للأستاذ خليل هنداوى

شوبنهاور

« Schopenhauer »

١٧٨٨ — ١٨٦٠

هـــذا هو شوبنهاور الذى طبع الفلسفة الألمانية بطابع التشاؤم ، فتركها مظلمة قاتمة ، يخال الجائح إليهـا أنه نازل فى أنفاق بعضها أقتم من بعض . نشأ نشأته الأولى بهدوء وسكينة ، لا يكاد الناظر إلى وجهه النحاسى يتبين أن وراء هـذا الوجه خيوطاً سوداء متصلة بقلبه الأسود ؛ وقد خانه الجد فى أول عهده كما يخون العظماء ، فكبا فاستثقل أن ينهض من كبوته ، فما زاده ذلك إلا حقداً على الناس ومبالغة فى الانتقام منهم . اتخذ رسله إلى الناس الكتب ؛ فـكان أول كتبه « الجذور الأربعة لمبدإ السبب الأتم » ، فخاض كتابه فى صفوف الناس فلم يلق إلا فشلاً ، لأنه لا يزال خامل الاسم ، ولمـا نزل سحابة الحزن مخيمة على ألمانيا المغزوة المجرحة ، فالناس فى شغل عن الفلسفة والفلسفة فى شغل عنهم ، ولـكن شوبنهاور المتشائم لم يثنه ما أصاب كتابه عن مواصلة السعى ، فأعد عدته لحدث عظيم يترك وراءه دوياً ، فقذف بكتابه « العالم إرادة وتمثيل » وهو خير كتبه ، وأكثرها تمثيلاً لشخصيته . فيه من فلسفته الشئ الـكثير ، ومن الشعر الشئ الـكثير . . . ولـكن ذلك لم يقعد يبعض حاسديه عن أن يحملوا على الـكاتب وينالوا منه . فاستهل مطلع الجزء الثانى من كتابه بهذه الأبيات (وهى لغوتى)

« لمـاذا تنفر منا ؟
وترمى بآرائنا . . .
أنا لا أكتب لأسرك وأبهجك
ولـكنى أكتب لأعلمك شيئاً »

وقد أسـلم كتابه إلى المطابع وولى وجهه شطر إيطاليا موطن الفن ، دون أن يرتقب ما يتركه كتابه من تأثير ، فقضى فيها زهاء عامين يحيا حياة بسيطة ، هادئة ، ويرود مواطن الآثار متأملاً فى تلك العظمة العاثرة فى تلافيف التراب . وقد كانت له ميول غريزية للفن ؛ وكم متع النفس – فى حداثته – بمباهج الحياة ! حتى إذا آب إلى برلين افتتح شعبة خاصة فى الجامعة ، ولبث شوبنهاور يرتقب عبثاً من يسمع له ، أو يأخذ عنـه ، حتى يئس من نجاحه ، وتبرم بمذهب « هيجل » الذى يحتل ذهن الجامعة ، وهو – عنـده – مذهب الجنون والمحال ، فما أشد مقته لأتباع هذا المذهب ، ولليهود ذوى الأثرة ، والنساء اللواتى يخرجن الـكون من قلق إلى قلق . عاد إلى إيطاليا ليتم دراساته الفنية ، ثم أقام فى « فرانكفورت » وبعد جهاد خمسة عشر عاماً مشت إليه الشهرة ذليلة بعد صدود ، منقادة بعد جموح ، ولقى حتفه عام ١٨٦٠ . وهكذا قدر لشوبنهاور أن يصرع مذهبه الجديد مذهب « هيجل » الذى تقطعت أسبابه ، وتفككت روابطه ، وشغرت الأفـكار من بعده وأصبحت تتقبل أى مذهب كان يبعثه مجدد !

يعتقد شوبنهاور بأنه هو الوارث الحقيقى لتراث « كانت » وأن «فيخت وشيلنغ وهيجل ما هم إلا أطفال فاسدون » ، يرى أن كانت نحا بالفلسفة منحى جديداً ، وسار بها فى منهاج واضح ، أما أتباع كانت فقد ذهبوا بالفلسفة مذهباً وعراً لا مأمن فيـه لسالكه ، وأقحموها فى بقاع هى فوق « المحسوس » تتعانق أجزاؤها ، وتتلاقى أشلاؤها فى نقط مظلمة مبهمة . والآن قد آن للفلسفة أن تدرس حقائق الأشياء الموجودة . « وأن الطريقة المثلى فى تأمل الوجود ، والوقوف على أطواره ما يصل بنا إلى بواطن الأشياء ، وحقيقة أكناهها الخفية ، ويطلعنا على سر ما يكمن وراء كل حادث ، لا تسأل الـكون من أين أتى ؟ وإلى أين يمضى ، ولماذا وجد ؟ ولـكنها فى كل لحظة وفى كل خطرة تود أن تعرف ما هو ؟ » وهكذا تحول مجرى العلم النظرى الذى كان يجرى وراء الخيال ، وعاد ينقل من التجارب ما سلم بها الاختبار ، ويشرح لنا ناموس الوجود حسب وضعه

يقول شوبنهاور : العـالم هو أين تمثيلى وتصورى ، وأين الحقيقة التى تصورها احساساتى التى يحولها الفكر إلى معارف . وشوبنهاور لا يتخطى بهذه الفكرة ما افترضه معلمه « كانت » من قبل . ولـكن العالم عنده هو إرادة ، هو ميول عمياء أو غريزة قاهرة عند الـكائنات ، وفاعلية حساسة عند الانسان ، ولـكنها

إرادة متمثلة فى كل شىء ، هى جهاد عنيف فى سبيل الحياة ، تسعى[1] لبسط سلطتها وقوتها على ما هو خارج عنها ، الأرادة هى الشىء القائم بنفسه الذى لا ينفذ إليه فناء . الحياة هى العمل

وقد يُخيَّل للبالغ هذه النقطة من فلسفة شوبنهور أن صاحبها يريد أن يبشر بالفعالية المستمرة والجهاد المتواصل الذى لابد منه لحى ، ولكن شوبنهاور لا يبلغ بك هذه النقطة إلا ليحمل الى نفسك فكرته المسمومة التى تجعل من الدنيا كهفاً مظلماً ، ومعتركاً تتطاحن فيه الأرادات . يصرع بعضها بعضاً : ألم يصرع ألماً ، وأمل مغسول بالدمع يصارع أملاً مخضباً بالدم

الحياة جهاد عنيف . والجهاد العنيف سبب باعث للألم والشقاء . والكائن كلما زاد سمواً ورقياً زاد تألمه وشقاؤه . وذو النظام المتسق أكثر شعوراً بالألم من ذى النظام الناقص المضطرب . أما الشجرة فلا تتألم ، فهى غير حساسة . أما رجل العقل ورجل العبقرية فهما أكثر شقاء وألماً ممن خُلقوا محدودى المدارك ، ضيقى الآفاق . والحياة – مهما تجردت – لنا منها حاجات نريد إدراكها ، ونريد أن ندركها كاملة ، والكمال ظل طارىء لا يثبت ، وقد تجر الحاجات حاجات مثلها مما يجعل الحياة – حسب هذا القياس – لاتنطوى إلا على شقاء ، فلا ندرك كل ماتتمنى ، ولا نقعد عن التمنى :

وشوبنهاور إزاء هذه الحالات الغامضة ، وجد كاله وراحته فى المذهب البوذى الذى يجرد عن النفس الألم لأنه يقصيه عن الاشتغال فى الحياة ، ويدعوه إلى الفناء المطلق فى الوجود ، والتأمل فى آياته تأملاً ساكناً ، خالياً من الرغبة والشعور

هذا هو شاطىء النجاة القائم التى أوت اليه سفينة شوبنهاور بعد أن طافت فى أكناف المحيط أعواماً ، وهو مذهب كان صاحبه قد استمده من تلك السحابة السوداء التى غشيت ألمانيا فى عقلها وشعرها وفلسفتها . ومن خيبة طويلة رافقته أكثر أيامه وقد وجد الناقدون القائلون بتأثير الوراثة أن شوبنهاور قد اقتبس من أمه الأيم نظراتها السوداء ، وعن أبيه أخذ الأرادة . ومهما كان تأثير هذه الوراثة المتنقلة بعيداً فى نفس شوبنهاور ، فهو تأثير ضعيف إزاء تلك الموجة التى اكتسحت القطر الألمانى جميعاً بما فيه من أدب ومذاهب وشعر وفلسفة

(١) لعل هذه الارادة هى نفس « الذات المطلقة – عند فيخت – وقد رأينا الذات تسعى لبسط سلطتها وقوتها على ما هو خارج عنها »

ورغم ما بذله شوبنهاور فى إعلاء شأن مذهبه ، وإظهار خطره ، فقد قسا عليه النقد ووجد فى مذهبه خطراً يهدد أمانى الأنسانية ، ويقتل كل ما حملته معها منذ فجر الخليقة حتى الآن ، وأرادوا من شوبنهاور أن تهديه النتيجة التى بلغها فى أول مراحله « الحياة هى جهاد عنيف » لا إلى مناصرة الألم القوى ، وتثبيت جذوره السامة فى قلوب البشرية ، بل إلى تخفيف أثقاله الرازحة على الكواهل والغوارب . فيعمل بذلك على إنماء الحياة وتكثيرها ، وجعل رسالته رسالة رضاً وابتسام ، لا رسالة سخط وامتعاض

ولكن هب أن شوبنهاور كان فاقداً لروح التفاؤل ، فما هو سر انتشار مذهبه الأسود بين الناس ، وقد علموا أن الحياة لاتغدو بمذهبه إلا متجهمة قاطبة . فهل كان شوبنهاور معبراً عما يجول فى صدور قومه ويخفق فى قلوبهم ، كما كان معبراً عما يختلج فى صدره وفى قلبه ؟ قد يكون احتمال الاثنتين معاً من أكبر العوامل التى جعلت من شوبنهاور نبياً للتشاؤم محترماً فى قومه ، وإن كان صاحب التشاؤم قريناً لا يقبل صحبته غراب

لقد كان شوبنهاور وركن تظلله غمامة سوداء ، كثيراً هزؤه ، نسيج وحده فى خلقه . جاءت فلسفته ابنة طبعه ، يحاول أن يقنع بها نفسه ، لا الناس ، لأنه يشعر أن الناس واجد أكثرهم فى الحياة نوراً وسعادة ، ولكن نفسه لا تبصر من هذا النور شيئاً

على أن أسلوبه الفلسفى هو الذى أحياه ، برغم أن اعتقاده – بالبوذية – لم يقم أمره كمذهب . لأن العقول لا تتقبله وإذا تقبلته فلن تفهمه . أما أسلوبه فهو حى يغرى ويملأ النفس جلالاً . فتفكيره فيه جد وصرامة ، يغلب المنطق على أقواله حتى فى الأشياء البعيدة ، يدل استشهاده الكثير على سعة اطلاع ، وقد بلغت منه قوة الملاحظة مبلغاً عظيماً ، حتى لتأتى الفكرة منه مبنية على خطأ ، وتأتى أجزاؤها صحيحة سليمة ، كأنها البشاعة مبطنة بالجمال ؛ وهو فياض الخيال الذى يندمج مع الفكر دون ما نفور . ولعل أعظم ما جاء منه « فكرة الارادة » التى بان تأثيرها فى الأجيال التى عقبت جيل شوبنهاور ؛ فما زالت هذه الارادة تتطور وتنمو حتى أوجدت لنفسها كياناً فى العالم الفلسفى والعالم المادى ، ولعل « نيتشه » هو أكبر مولود وضعته الارادة الجبارة بين يدى الحياة ما ؟

(يتبع)

خليل هنداوى

القصص

من أقاصيص الجاهلية

٣ ـ حرب البسوس

بقلم اليوزباشي أحمد الطاهر

تتمة

كان للناس عجباً أن اعتزل الحرب الحرثُ بن عباد والفند الزماني ، وامتزج العجب بالحسرة حين انحازت اليهما عشائرهما . ولكنهما والعشائر قوم جنحوا للسلم ، وأرادوا أن يأخذوا الأمور بالرفق والحلم ، وعز عليهم أن تطير بالقوم عنقاء ، وأن تراق هذه الدماء ، فى مقتل ناقة عجفاء

جلس الحرث بن عباد يوماً على شرف من الأرض واجتمع الناس حوله يقصون عليه من أنباء القتال ما أمضه وزاد فى حسرته . واندفع الحرث فى اللوم والتثريب : يعيب على بكر ما فعل فتاها من قتل كليب بناب من الابل وما جرت فعلته النكراء من كرب وبلاء . قال له الفند الزماني : « إنك يا حرث قد أسرفت فى اللوم والتثريب ، أما ترى لهذا الشيخ مرة بن ذهل وقد توالت عليه المصائب وتزاحمت عليه النوائب ، وكانت أخراها قتلة ابنه همام الذى ضن به يوم عرض الفدية . وأنت تعلم مكان همام من قومه وعشيرته ! لشد ما يحزنني قتل هذا الفتى . لشد ما يحزنني قعودنا عن نصرة بكر وقد أسرف المهلهل فى النكال . وهالني ما يتندر به القوم علينا فى مجالسهم ومجامعهم : قال قوم : إننا جبناء ، وقال آخرون : إننا ضعفاء الرأى قليلو الحيلة ، وقال آخرون إننا أذلاء نتملق تغلب ونصطنع عندهم يداً بقعودنا عن مناجزتهم . وحسبنا بها فرية تحط من كرامتنا وتضع من عزتنا . فهل أنت على رأيك مقيم ؟ »

قال الحرث : « أما مرة بن ذهل فلقد والله عز على مصابه فى ولده وما يحز قلبي إلا مرآه مضرجاً بدمه وموقف المهلهل منه يظهر الأسى ويخفى الشماتة . ولكنك تعلم أن من دخل الحرب لم يأمن عواديها ، وأن من نصب نفسه للقتال فقد استهدف للموت . وإن فى ضن الرجل بفتاه يوم الفداء وبذله يقتل بسيف الأعداء شرفاً لا يطاوله شرف ونخاراً لا يتسامى اليه نخار ، ولا أحب إليّ من أن يقتل بُجير ولدى إن كان فى قتله صلاح بين ابني وائل وفى دمه وفاء لدم كليب . وأما مقالة السوء التى تتناولنا بها ألسنة بذيئة فما أحفل بها ولا أقيم لها وزناً . . . . »

وفيما هو يتحدث إذ قدم رجل قد أطلق ساقيه للريح يلهث من فرط التعب ولا يكاد يبين : قال الملأ « مابال هذا الرسول يعدو كأنما يسابق الريح ؟ » « والله ما نحسبه إلا أتى ينعى لنا المهلهل ! » وانكب النذير على الحرث بن عباد واحتضنه بين ذراعيه وقال :

ـ « عزاء يا أبا بجير ! عزاءً ! »

قالوا : « يالهول المصاب ! ما وراءك يا غراب البين ؟ »

ـ « عزاء ياحرث ! لقد والله كان أشجع من شهدته الحرب : أفتقعد عن حربهم بعد هذا ؟ »

ـ « قل يا رجل من الذى مات ؟ »

ـ « بجير ولدك ! »

ـ « وكيف مات ! »

ـ « بل قتل . قتله المهلهل بن ربيعة . أفتقعد عن حربهم بعد هذا ؟ »

ـ « مالك والمسألة عن هذا ! أما بجير فنعم القتيل أصلح بين بكر وتغلب

وما أحسب المهلهل إلا قد أدرك به ثأر كليب وجعله كفؤاً له »

قال الناعى : « لا . لقد غابت عنك أشياء . أما علمت أن

المهلهل عند ما طعن بجيراً قال له : (بؤ بشسع نعل كليب) ؟ »

قال الحرث : « أقالها والله ؟ »

– « نعم ولقد تجاوبها الحى من أقصاه إلى أقصاه »

قال الفند الزمانى : « يا للمذلة ! ويا للعار ! »

قال الناعى : « وارحمتاه لهمام زين الشباب ! »

قال الحرث : « دعا هماما وقتل زين الشباب . لقد أسرف المهلهل وجاوز الحد . وما عرف لهذا الفتى الذى لم يخط العشرين حرمته وهو ابن أخته . ولم يعرف لى سابقتى وقد كففت عن حربه :

قربا مربط النعـــامة منى لقحت حرب وائل عن حيالى

لم أكن من جناتها علم اللـــه وإنى بحرها اليوم صالى

فأحضر له غلامه النعامة وهى فرس له ، فركبها وخرج يدعو العشائر للقتال فلبته يشكر ، وعجل ، وبنو حنيفة ، وبنو قيس بن ثعلبة ، وسادتهم ، وسار فى القوم الفند الزمانى وكان يقوم بألف رجل ، وترأس القوم الحرث بن همام البكرى

***

ولما اجتمع القوم وقف الحرث بن عباد خطيباً فاعتذر لهم عن نفسه وعن الفند الزمانى فيما كان منهما من إحجام عن خوض هذه اللجة التى طغت على القوم فأصبحوا فيها مغرقين وقال إنه والفنــد قد استمسكا بالصبر والأناة حتى لم يعد فى قوس الصبر منزع ، والمهلهل قد أسرف فى سفك الدماء وجاوز حد الفداء ، ولم يحتسب لنا قعودنا عن حربه وقد ناصبه قومنا العداء ، وها هو ذا قد قتــل بجيراً ولدى وإنى لأشهدكم – علم الله – على أننى حين بلغت مقتل بجير طابت نفسى واطمأنت ظناً بأن المهلهل سيجد فى قتله غناء عن الحرب وكفاء للفدية ، ولـكننى أسرفت فى الظن الجميل ، وأسرف المهلهل فى التنكيل ، فالسكوت بعد اليوم لا يزكو بالحر ، ولا يبرره عذر ، يا قوم ! لا أدعوكم للقتال انتقاماً لعزة ديثت بالصـغار ، ودماء جرت كالأنهار ، ودفعاً للمذلة والعار . . . »

ثم نظر إلى الحرث بن همام البكرى وقال له « وأنت يا ابن همام هل أنت مطيعى فيما آمرك به ؟ قال : « ما أنا بتارك رأيك إلى ما هو شر منه » قال : « اعلم أن القوم مستقلون لقومك فى السلم وازدادوا جرأة فى الحرب فلنقاتلهم بالنساء فضلاً عن الرجال »

قال : « وكيف قتال النساء ؟ » قال : « تعمدون إلى كل امرأة لها جلد ونفس ، فتعطى كل واحدة منهن اداوة وهراوة ، فاذا صفقت أصحابك فصفهن خلفهم فان ذلك مما يزيد الرجال جلداً وشدة ونشاطاً ، ثم تعلموا بعلامة تعرفها نساؤكم فاذا خرج منكم إنسان فى القتال أمرن بسقيه ، وإذا مررن من عدوكم بانسان ضربنه بالهراوة فقتلنه » وفعل الحرث بن همام ما أمر به الحرث بن عباد . وكان هو أول من أشار بحشد النساء مع الرجال . وحلقوا رؤسهم علامة بينهم وبين النساء . وسمى هذا اليوم يوم « تحلاق اللمم »

***

وخرج النساء من دورهن أسرابا محتشدات ، وفى يد كل واحدة اداوة وهراوة ، ووقفت تلقاء هن إحدى بنات الفند الزمانى وصاحت : « يا معشر القوم ! أحب إلينا أن نموت مع الرجال فى ساحة الوغى أحراراً ، من أن نقبع فى دورنا ذلة وانكساراً . فاما عودا مع رجالنا منتصرين ، أوهلا كامع الهالـكين ، وسيرى القوم أن المرأة البكرية لا تقل عن الرجل تحمساً للشرف وحفظاً للـكرامة ، وحرصاً على الثار . يانساء الحى ! حى على القتال ! حىّ على القتال ! »

ثم برزت أختها ووقفت إلى جوارها وتغنت الفتاتان بأبيات ترهف الشعور ، وتوغر الصدور

وتدافع القوم رجالاً ونساء للقتال : فما كنت ترى إلا أعناقاً تمتد إلى الموت ، وأجساما تتزاحم على الردى ، وصدوراً تهبط وتعلو من فرط الجوى . ثم حمى وطيس الحرب ، واشتد البلاء . واشتبكت الأسنة ، وسالت الدماء ، وظهرت تغلب حمرة تستعر استعاراً ، ونارا تضطرم اضطراماً ، وانقضت على بكر تحصد أعناق رجالها ، وتطيح رقاب أبطالها ، حتى تراجع البكريون وأيقنوا بالفناء ، وظنوا أن لا كاشف لهـــذا البلاء ، وفيما هم يتعثرون فى انكسارهم أقبلت كرمة بنت ضُلع أم مالك بن زيد فارس بكر وغنت :

نحن بنات طارق نمشى على النمارق

مشى القَطىّ البارق المسك فى المفارق

والدر فى المخانق إن تقبلوا نعانق

عرس المولىّ طالق والعار منه لاحق

وما أشد ما يفعل الغناء والنسا فى نفوس الأبطال . كان لهذه الأنشودة نغم كأنه خيوط انتظمت عليها الصفوف وانحدت فى سلكها القلوب ، بل كان النغم قبساً من نور سماوى نفذ إلى القلوب فأضاءها ، وإلى النفوس فأنارها ، وإلى العزائم فقواها ، وإلى الهمم فدعاها . وسار القوم على هداه إلى نصر مبين . تدافعوا على العدو واقتحموا الصفوف واستباحوا المعاقل ، وانكشف الهول فاذا المهاجم يرتد ، وإذا المهزوم يشتد ، وإذا تغلب بين قتيل وأسير وشريد

* * *

وانكشفت الغاشية ، ونظر البكريون فيما بينهم فإذا بالحرث ابن عباد قد خلت منه الصفوف . فجزعوا وفزعوا . وذهبت بهم الظنون كل مذهب . وفيما هم فى حيرتهم إذ أقبل فارس ينهب الأرض نهباً . قالوا لعل عنده الخبر اليقين . قال : « كأنى بكم تبحثون عن الحرث بن عباد ، سأقص عليكم خبره — « ذهب فى أثر بطل من أبطال تغلب وانقض الحرث عليه كما ينقض النسر على الفرخ ، وإذا بطل تغلب بين يديه كالعصفور قد هيض جناحه وقال له الحرث : أتدلنى على عدى بن ربيعة المهلهل وأخلى عنك ؟ قال الأسير : أدلك عليه إن وثقت من وعدك . قال الحرث : قد وعدتك . قال الأسير : أنا المهلهل ! . فما وسع الحرث إلا أن يفى بوعده ويخلى الرجل »

صاح القوم صيحة نكراء وهاجوا وماجوا . قالوا : « لقد أسرف الحرث » ، « يخلى المهلهل بعد أسره ؟ » « أليس المهلهل قاتل ولده ؟ »

« قلنا إن الحرث ضعيف الرأى » . « بل الحرث جبان ! » « كانت فرصة ولن تعود » . « ولكن هو الوفاء » . . . .

ـ ولكن اسمعوا ياقوم . سماع ! سماع ! سماع : لقد بالغ الحرث فى مذلة المهلهل ومهانته . فما تركه إلا وقد جز ناصيته كما يجز صوف النعاج »

وفيما هم يتندرون على المهلهل وجز ناصيته ، ويختلفون فى تأويل مسلك الحرث ، إذ أقبل الحرث وعلى وجهه آثار مختلفة فيها الأعياء وفيها الزهو وفيها الأسف وفيها الرضى . فأقبل عليه القوم بعضهم يشـــد يده مهنئاً ، وبعضهم ينحى عليه باللائمة ، وبعضهم يقره على وفائه بالعهد

قال الحرث بن عباد : « وما تركته حتى جززت ناصيته عبرة ونكالاً ، أما تخليته فما كنت لأعدل عنها ، وقد وعدت الرجل وأنا أجهله ، ولو قد نكثت بعهدى للحقت بى سبة لايمحوها الدهر ولا يغفرها الأهل

لهف نفسى على عدى ، ولم أعـ ـــرف عدياً إذ أمكنتنى اليدان!

* * *

قال الراوى : ومنذ ذلك اليوم فارق المهلهل قومه ونزل فى مذحج ولم تقم له قائمة ، وظل البكريون من رحيق النصر ينهلون

البوزباشى أحمد الطاهر

البريد الأدبي

تعليق وتعقيب

لامرتين

قرأت فى « الرسالة » الغراء فى باب « من هنا ومن هناك » من العدد التاسع والسبعين ، كلمة عن نسب لامرتين الشاعر الفرنسى الملهم واحتمال أن يكون متسلسلاً من أصل عربى كما كان يقول هو عن نفسه . وللتعاون مع الباحث فى هذه المسألة أقول : إننى وجماعة من الأدباء ، منذ مدة قريبة كنا تذاكرنا فى هذا الموضوع ، وبعد استعراض ماقيل فيه مما جلبه حضرة الأستاذ صاحب المجلة ، جوزنا على تقدير عربيـة الشاعر أن يكون بين اسمه واسم أسرة العمارتى صلة ما ، ولا سيما أن أصل الاسم هو ألا مرتين أى ألعمارتى كما نكتبها بالحروف الافرنجية . وأسرة العمارتى هى من الأسر المنتشرة فى هذه الجبال الريفية ، والتى يغلب أن يكون أهلها من عرب الأندلس المهاجرين إلى المغرب . فهذا مما يزيد قوة الاعتقاد بعربية لامرتين . نعم هـذه النون التى فى الطرف ليست فى اسم الأسرة المذكورة ، ولـكن لا مانع أن تكون من تصرف الألسنة الفرنجية فى الاسم كما هو معهود منها اليوم مع هذا الاختلاط العظيم ، فكيف به قبل ؟ وعلى كل حال فهذا التعليق القصير ربما يلقى بصيصاً من النور على هذا البحث الطويل

بشر بن عوانة

كذلك قرأت فى الباب نفسه من نفس عدد المجلة بحثاً صغيراً مضمونه الشك فى حقيقة حياة هذا الشاعر العربى وترجيح أن يكون شـخصية خرافية من شخصيات المقامات كأبى الفتح الاسكندرى والحرث بن همام ؛ ذلك لأن الـكاتب لم يقف على اسم بشر هذا فى سفر من أسـفار التاريخ ولا فى كتاب من كتب الأدب التى قرأها الا فى مقامات بديع الزمان وكتاب تاريخ أدب اللغة العربية لجرجى زيدان وكتب المحفوظات للمدارس المصرية فرجح عنده إنـكار وجوده . وبما أننى كنت وقعت على اسم بشر المذكور فى غير هذه الـكتب ، رجعت إلى المظان التى أذكر أننى رأيته فيها فوجدت من أقربها كتاب « المثل السائر » . وقد جاء ذكر بشر فيه فى الصفحة ٦٤ (طبع مصر بالمطبعة البهية) حيث قال : « وكذلك وردت لفظة مشمخر فان بشراً استعملها فى أبياته التى يصف فيها لقاءه للأسد فقال :

وأطلقت المهند من يمينى   فقدّ له من الأضلاع عشرا
فخرّ مضرجاً بدم كأنى   هدمت به بناء مشمخرا »

وخدمة للأدب فقط كتبت هذا التعقيب ، وإلا فحياة بشر لا تثبت بمثل هذا الذكر استطراداً ، على أن قصته التى حكاها البديع تسف حتى تلتحق بالخرافات لما فيها من التناقضات[1]

طنجة   عبد الله كنون الحسنى

حول رواية نهر الجنون

. . . قرأت فى العدد (٨٤) من الرسالة الغراء مقالاً للأستاذ (جورج وغريس) تحت عنوان (سياحة فى نهر الجنون) . . . ذكر فيه خلاصة موجزة للقصة التمثيلية (نهر الجنون) للأستاذ توفيق الحكيم ، وذكر كيف أن المرحوم جبران خليل جبران نشر شبيه هذه القصة فى كتابه الجنون . وتساءل الأستاذ (جورج وغريس) : هل هناك اقتباس ؟ ! وأشارت الرسالة فى نهاية المقال إلى أن مصدر الكاتبين قد يكون واحداً . .

وقد نشر نفس القصة الكاتب التركى المرحوم « عمر سيف الدين » سنة (١٣٢٦) رومية أى منذ خمس وعشرين سنة تقريباً فى كتابه المعبد الخفى « كيزلى معبد » تحت عنوان (الماء الذى شربه الجميع ، أسطورة صينية) صفحة (١٢٧) والقصة تتلخص فيما يلى :

كان (لينغ ـ يو) ملكاً عادلاً حكيما ، توفر فى أيامه الهناء للرعية ، فجاءه فى أحد الأيام ساحر وأعلمه أن أمطاراً غزيرة ستهطل مدى أيام ، وكل من يشرب ماء خالطته قطرة من هذه الأمطار يصبح مجنوناً لا محالة . فأمر الملك بملء صهاريج القصر وكل ما فيه من أوان ماء نقياً عذبا لينجو من شرب الماء المسبب للجنون . . وبعد أيام بدأت الأمطار بالتهطال ودام انهمارها أياماً

---

(١) ذلك الى أن ابن الأثير صاحب المثل السائر من رجال القرن السابع ، وبديع الزمان من رجال القرن الرابع ، فلا يبعد أن يكون ناقلا عنه كغيره فالعبرة إذن بالنصوص التى تسبق زمان البديع   (الرسالة)

وأسابيع . . تخالط ماؤها ماء الينابيع والآبار جن السكان كلهم ، وانتشروا فى الأزقة والساحات يصيحون ويصرخون . وتجمع قسم كبير منهم حول قصر الملك وأخذوا يسخرون منه ومن صحبه الذين ظلوا عقلاء حتى تلك الساعة بفضل الماء المخزون فى صهاريج القصر . فكان إذا بدا واحد من سكان القصر فى إحدى الشرفات صاحوا بصوت واحد قائلين : « مجنون ! انظروا المجنون ! » وأصبحت الحالة لا تطاق ، فلم ير الملك بداً من أن يشرب هو أيضاً من ماء الجنون ، فتناول منه قدحاً وهو يقول : « لا لزوم لبضعة عقول صحيحة بين هؤلاء المجانين . . ! »

ومرت الأيام والسنون . . وتأصل هذا النظام الجنونى وأطلقوا عليه « نظاماً اجتماعياً » ، وزُج كل من عاوده عقله من هؤلاء المجانين فى أمكنة أطلق عليها (مستشفيات المجاذيب) . . ومنذ ذلك الحين لا ينفك العلماء من ترديد هذا القول : « الصين منبع الحكمة والعقل . . . »

***

فالقصة التى نشرها المرحوم جبران والأستاذ الحكيم ليست سوى أسطورة صينية تناقلتها أكثر اللغات

دمشق الدكتور محمد سالم

رسائل جديدة لبلزاك

لأدباء الغرب شغف خاص باستقصاء الآثار والرسائل الخاصة لأعلام الكتاب والمفكرين ، وكثيراً ما يؤدى هذا الشغف الى نتائج أدبية باهرة ، فيظفر البحث بآثار ورسائل جديدة لها قيمتها فى درس شخصية صاحبها . ومنذ بضعة أعوام ظفر الكاتب الفرنسى مارسل بوترون بطائفة من رسائل بلزاك الخاصة الى صديقته مدام « زولما كارو » . وأونوريه دى بلزاك هو القصصى الفيلسوف الفرنسى الذى تعد آثاره من أقيم ما أنتج الأدب الرفيع فى القرن التاسع عشر . ونشر مسيو بوترون بعض هذه الرسائل فى مجلة « العالمين » سنة ١٩٢٣ ؛ ثم ظفر بطائفة جديدة منها ، وجمع الجميع فى كتاب واحد صدر أخيراً ، وعنوانه « مراسلة لم تنشر لبلزاك »

وليست هذه الرسائل رسائل غرام كما يتبادر الى الذهن ، ولكنها رسائل صداقة خالصة ؛ وهذا النوع من المراسلة نادر فى حياة أكابر الكتاب إذا كتبوا لامرأة يشغفهم سحرها ، ولكن بلزاك كان فيلسوفاً . وقد جمعت بينه وبين مدام زولما كارو ظروف عرضية ، فقد كانت تقيم مع زوجها الضابط كارو حوالى سنة ١٨٢٠ بجوار أخت لها تدعى لور وهى زوجة مهندس يدعى سير فيل ، وكان بلزاك يزور صديقه المهندس سير فيل وزوجه ، فتعرف بالطبع بأختها مدام زولما ، ونشأت بينهما صداقة حميمة ، وكان بلزاك يشعر نحو مدام زولما بعاطفة حنان خاصة ليست هى الحب ، وكانت مدام زولما تبادله عطفه وصداقته ، ولما نقل زوجها الى بعض مدن الأقاليم ، سافر بلزاك لزيارتها ، وأقام حيناً الى جانبها ، وكان أثناء بعده عنها فى باريس ، وحينما تحتجزه صاحبته المركيزة دى كاسترى ، ينفس عن نفسه بالكتابة الى مدام زولما ، وتكتب هى اليه ، وكان بلزاك يودع هذه الرسائل كثيراً من أسرار روحه وقلبه وآماله وشجونه ، ويصوغها فى قالب رفيع من البلاغة ، وذهب فى إكباره وصداقته لمدام زولما الى حد أن أهدى اليها قصته « منزل نوسنجان »

ثم وقع بلزاك فى حب الكونتس هانسكا ، وأثار هذا الغزو الجديد فى قلبه شجناً واضطراباً ، فكان كلما غلبه الشجن ، أو ضاقت به السبل وأرهقه الدائنون يفر الى مدام زولما فيقيم مع هذه الأسرة المحبوبة أياماً يروح فيها عن نفسه خلال الأيناس والزهر . وبعد فترة طويلة من الزمن قضاها الكاتب الكبير فى متاعب وأزمات مختلفة اقترن بصاحبته الكونتة الأجنبية سنة ١٨٥٠ ؛ ولكنه لم يعش بعد زواجه سوى ثلاثة أشهر ، ولكن مدام زولما عاشت بعده أعواما طويلة ؛ ولها اليوم حفيدة على قيد الحياة تدعى مدام جورج بابيل ؛ واليها يهدى مسيو بوترون رسائل بلزاك الجديدة

خمسون عاماً لوفاة فكتور هوجو

تستعد دوائر فرنسا الأدبيــة للاحتفال بالعيد الخمسينى لوفاة شاعر فرنسا الأشهر فكتور هوجو الذى توفى فى يونيه سنة ١٨٨٥ وسيجرى الاحتفال بهـــذه الذكرى فى جميع أرجاء فرنسا ، ويوضع تحت رعاية الحكومة الرسمية ، ويلقى وزير المعارف بهذه المناسبة خطاباً رسمياً على قبر الشاعر اتباعاً للتقاليد المعروفة ، وقد رأت إدارة مسرح الكوميدى فرانسيز ، وهو مسرح الدولة أن تشترك فى الاحتفال بهـذه الذكرى ، وأن يكون اشتراكها عملياً ، وذلك بأن تخصص موسماً خاصاً لتمثيل بعض روايات هوجو الشهيرة يبتدئ فى مارس وينتهى فى أول يونيه ، وهو تاريخ وفاة الشاعر ، وأن يمثل خلال هـذا الموسم من رواياته القطع الآتيــــة : « روى بلاس » ، « هرنانى » ، « ماريون دى لورم » ، « لوكريس بورجيا » وغيرها



أدولف

للكاتب الفرنسى بنچامان كونستان
ترجمة الدكتور حسن صادق
يطلب من مكتبة النهضة المصرية وثمنه ١٠ قروش

لا يزال فن القصص عندنا فى بدء مرحلته الأولى ، ولا زال أدباؤنا يتلمسون طريقهم الى القصة ويتوقون الى رؤية هذا الفن من فنون الأدب ، وقد انقاد لهم ووصل فى أدبهم الى مثل تلك الدرجة التى وصل اليها فى الآداب الغربية ، ذلك لأن القصة فى منحاها وطبيعة تركيبها ، من أهم وسائل التثقيف وأيسرها ، كما أنها من ألذ ضروب الاستمتاع وأقربها الى القلب والذهن ، والقصة الجيدة بلا شك هى الحياة فى ناحية من نواحيها ، ففيها مافى الحياة من معان ، وفيها مافى الحياة من اضطراب

وهذا الافتقار فى أدبنا الى القصة ، يجعلنا نرحب بكل تعريب جيد لشهيرات القصص فى الأدب الغربى ، إذ بذلك تتوفر لدينا النماذج وتتنوع المثل ، فضلاً عما يكون لمثل تلك القصص من عظيم الأثر فى تهذيب الذوق وصقله ، وإيقاظ العواطف وحسن توجيهها

نعم إن لكل أمة ذوقاً ، ولكل أمة شرعة ومنهاجاً ، ولكل أمة وجهة تتجه اليها حسب ماركب فى طبيعتها من ميول ، وفن القصص ملكة لاتكتسب ، ولكن الأديب المصرى الموهوب مع ذلك لابد له من نماذج ، وهو كفيل أن يشكل قصته على هدى تلك النماذج حسبما يتفق مع بيئته

ولقد اختار الدكتو حسن صادق قصة أدولف ، فنقلها الى العربية ، وهى من القصص الفرنسية التى حازت عظيم الشهرة فى أوربا كلها ، وهى واحدة من تلك القصص التى تلائم كل بيئة وكل عصر ، فليست من ذلك النوع المحصور الذى يتقيد فى وضعه بغاية محدودة كالدعوة الى اصلاح اجتماعى فى ناحية من نواحى الحياة ، أو من ذلك النوع الذى تصور فيه آمال ومثل عصر من العصور ، حتى إذا انقضى زمنها أصبحت لاغناء فيها ، بل هى من تلك الآثار الخالدة التى تساير الحياة وتغالب الفناء ، وحسبك أنها قطعة فنية تقرأ فيها خطرات نفس كبيرة أملتها تلك العاطفة المشبوبة ، عاطفة الحب فى شرخ الشباب

ولما كانت هذه ميزتها ، فأنا أعتقد أن المترجم الفاضل قد أحسن الاختيار فقدم الى قراء العربية أثراً أدبياً جميلاً ستلذهم قراءته وسيعجبهم ماجاء فيه من روعة التعبير عن خلجات النفس ومنازع القلب ، ولقد أحسن أيضاً حين قدم لكتابه بفصل طويل دقيق ، شرح فيه حياة المؤلف وحياة العصر الذى عاش فيه ، مما جعل كتابه يجمع إلى اللذة الفنية ، لذة ذلك البحث التاريخى القيم

أما أسلوب الترجمة فمتين مشرق ، تحس به فى أول الكتاب عسيراً بعض العسر ، ولكنه لايلبث أن يلين ويعذب ثم يطرد ، وقد تتراءى فى بعض مواطنه بعض الصور والتراكيب الفرنسية نشأت من محافظة المترجم على دقة الترجمة ، ولكن الأسلوب على الجملة صحيح التركيب ، فصيح الأداء ، يشهد للمترجم بما بذله من الجهد وما تحراه من الأجادة

أما عن القصة فى ذاتها فانى مع شديد إعجابى بها وتأثرى بقراءتها تأثراً عميقاً ، قد أحسست فيها ظاهرة أحسب القراء جميعاً سيحسونها مثلى ، ذلك أن خواطر المؤلف كلها تدور حول نفسه وحول حبيبته ، مما ضيق مجالها وتركها خالية من ذلك الجو الشعرى الذى يوجد فى مثل تلك الآثار الأدبية العظيمة ، ومن تلك الأفكار الفلسفية الباهرة التى يعلق بها أصحاب تلك الآثار على ما يصادفهم من ظروف ومواقف ، فيزيدونها روعة وقوة ، كما أن القصة تكاد تكون خالية من الأوصاف الطبيعية ومن أوصاف الرجال والبيئات . فهى من ناحية التعبير عما فى داخل النفس ، أو بعبارة أخرى من الناحية المنوية البحت التى تدور حول عاطفة الحب قد بلغت غاية الجودة ، ولكنها بالاقتصار على ذلك فقدت كثيراً من الصور والأطياف التى تشعر المرء لدى قراءة القصة بصدى الحياة

هذا وإنى لأشكر للدكتور حسن صادق مابذل من مجهود وأرجوه أن يتحف قراء العربية بين حين وآخر بمثل هذه النفحة الساحرة من أدب الغرب ؟

الخفيف

أغاني الكوخ

نظم الأديب محمود حسن اسماعيل

أنتقل بالقارئ إلى هـذا الديوان المسمى أغاني الكوخ ، لناظمه محمود حسن اسماعيل ، ويقع في نحو مائة وخمسين صفحة ، وقد أخرجه صاحبه في صورة أنيقة جذابة تشهد له بحسن الذوق ولعلك ترى في هذا الاسم « أغاني الكوخ » ما ترتاح إليه نفسك وخيالك ، فاذا مضيت تقرؤه حمدت لناظمه هذه الروح المصرية ، بل هـذا الاعجاب الشديد بجمال الريف وبهائه ، مما يعد خطوة محمودة نحو مانتمنى بلوغه في نهضتنا الأدبية من صبغ أدبنا بالصبغة المحلية الطبيعية ، وتصوير بيئتنا تصويراً يحفظ لثقافتنا لونها ، ويبعد عن أدبنا ما يوشك أن يعلق به من بهرج زائف وتكلف مملول

وأذكر أني قدمت للقارئ على صفحات «الرسالة» من أمد قريب (ظلال القمر) للأديب أحمد مخيمر وقد أعجبتني منه هذه الروح المصرية التي أراها أكثر ظهوراً وأتم نضوجاً في ديوان الأديب محمود حسن اسماعيل ، فان معظم قصائده تدور حول المناظر الريفية المحبوبة في صعيد مصر مع دقة في الوصف وصدق في الأحساس أعتبرها باكورة طيبة لا بد أن ستتدرج في سبيل الرقي إلى الكمال .

بيد أني وقد أعجبني صدق إحساس شاعرنا ، أراه يأتي في شعره ببعض الأخيلة التي لم أستطع أن أصالح ذوقي عليها كما جاء في قصيدة الكوخ وفي قصيدة « تبسمي » و« القيثارة الحزينة » و « النعش » و« سنبلة تغني » و « عند زهرة الفول » ، فقد ورد في تلك القصائد بعض المعاني الجزئية التي لا تتواءم وطبعه

هذا إلى استعماله بعض المجازات والاستعارات كتصفيق الألحان في القلب ، وأجفان القلاع ، وقوله إنه رشف قصائده من ثغر عشيقته وغير ذلك مما لا يتسع له المجال

ولست أغضب الأديب محمود حسن اسماعيل فيما أعتقد ، إن نبهته في إخلاص الى الاهتمام بتجويد فنه والاهتمام بمعانيه ، فديباجته في الجملة مشرقة ، ولغته سليمة وألفاظه جيدة ، كذلك يجدر به أن يولي قوافيه من العناية أكثر مما يفعل ، ولئن اهتم بذلك فسوف نرى منه في المستقبل القريب شاعراً مصرياً رقيقاً .

الخفيف

شعراؤنا الضباط

للأديب محمد عبـد الفتاح ابراهيم

يجد القارئ هذا الكتاب كما يتضح له من عنوانه ، تراجم لشعراء مصر من الضباط ، وضعها الضابط الأديب محمد عبد الفتاح ابراهيم ، ولعل القارئ يشاركني شعور الغبطة حين يتجلى له هذا الاخلاص من المؤلف لطائفة من أهل مهنته ، كاد ينسى معظمهم المشتغلون بالأدب ، على الرغم مما قدموه في ميدان الأدب من خدمة اللغة عامة ، وفن القريض خاصة

ترجم هذا الأديب الفاضل للبارودي ، وحافظ ابراهيم ، وعبد الحليم حلمي المصري ، ومحمد فاضل ، ومحمد توفيق علي

وقد سار في دراســته فيما يتعلق بهؤلاء جميعاً على وتيرة واحدة تقريباً ، فكان يأتي بلمحة عن تاريخ كل شاعر ، مبيناً البيئة التي نشأ فيها ، ثم يذكر المناسبات التي حركته الى نظم القصـيد ، مورداً بعض الشواهد من مأثور نظمه ومن مشهور قصائده

وإني وان حمدت للضابط الأديب وفاءه واجتهاده ، أحس أنه كان في كتابته يقصد إلى الوفاء أكثر مما يقصد إلى الدرس ، ولن أظلمه إذا قلت أنه في بحثه كان يميل إلى سرد المعلومات مهتماً باستيعابها دون تمحيصها ، فلم تكن له طريقة محدودة ، أو بعبارة أخرى لم يكن قوام عمله التحليل الأدبي الذي يستند إلى الفن وإلى الخبرة بالحياة ، ولست أنكر هـذه الخبرة عليـه ، ولكنني لم أتبين صداها في بحثه ، وكان يخيل إلى أثناء كلامه عن البارودي ، ثم عن حافظ — على الخصوص — أنني أستمع إلى محدث في مجلس من مجالس الأدب ، لا يتقيد فيه من يتعرض لحياة شاعر بأوضاع فنية أو يراعي وحدة الموضوع وسبيل التدرج فيه . هذا إلى أنه كان يترك الأمر أحياناً لغيره ، فيعرض أقوال من كتبوا عن حافظ دون أن يتناولها بتعليق

على أن كتابه على الرغم من هـذه المآخذ ، جدير أن يثير اهتمام أدبائنا بهؤلاء الشـعراء ، وهو وفاء يثاب عليه المؤلف ، واجتهاد يستحق من أجله الثناء

الخفيف

الرسالة

مجلة أسبوعية للأدب والعلوم والفنون

العدد ٨٧ – ٤ مارس سنة ١٩٣٥ – السنة الثالثة

3 me Année, No. 87. | Lundi-4-3-1935

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع شركة الفجر

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٨٧ « القاهرة فى يوم الأثنين ٢٨ ذو القعدة سنة ١٣٥٣ — ٤ مارس سنة ١٩٣٥ » السـنة الثالثة

فهرس العـــدد

مصر وأخواتهـــــا

كأنما السؤال عن الناس كسؤال الناس لا يتفق مع الرخاء ولا يكون مع الغنى ! فان مصر والعراق يكادان من سعة العيش لا يذكران مَن وراء الحدود ؛ والوحدة العربية فى البلدين على الرأى الأغلب حديث خُرافة أو حديث مجاملة ! فلولا الأدب الذى يجمع الفؤاد بالفؤاد ، و يربط البلاد بالبلاد ، و يصل الأحفاد بالأجـداد ، لظلت منابت العروبة ومواطن الاسـلام أغفالا لا تُعرف ، وأرحاماً لا تُبلّ

يزور المصرى قطراً من أقطار العرب ، فيكون أول ما يرد على سمعه عتب المحبين على الهجر ، ولوم الأقربين على القطيعة . وعذل الجيرة على التخاذل ؛ فَيُلقى معاذيره اللوم المُخْرِج فى منطق عَيٍّ ودفاع غير ناهض ؛ ثم يزداد حرجه وتتخاذل حججه كلما رأى قلوبهم تزخر بعواطفه ، وصدورهم تجيش بأمانيه ، وألسنتهم تضطرب بأخباره ، ونهضتهم تسترشد بنهضته ، ووجهتهم تسير مع وجهته ؛ فصحفه تُقرأ ، وكتبه تدرس ، وسياسته تحتذى ، وزعامته تتبع ؛ ثم خصومته هى لهم خصومة ، وحكومته هى عليهم حكومة ، وقومه لقومهم أهل ، و بلده لبلادهم قِبلة . حينئذ يقول لنفسه

والخجل والعجب يتعاقبان على وجهه : إن وطني مترامي الحدود فلماذا أحدُّه على الضيق ؟ وقومي ضخام العديد فلماذا أحصرهم على القلة ؟ وجيراني كرام يُصفون المودة ، ويَبْذُلون العطف ، ويولون المعونة ، فلماذا أجعل بيني وبينهم سداً من الإهمال والغفلة ؟ ان الأمم القوية الناضجة لَتُرخص الأموال والأنفس في التمكين لأدبها ونفوذها وعروضها في الشرق ، فكيف نعرض نحن عن ذلك وهو يأتينا عفواً عن طريق القرابة في البلد والنسب ، والوحدة في اللغة والأدب ، والمشابهة في الخط والحالة ؟

دع ما ترشد اليه الغريزة من تعاطف الأهل ، وتناصر الضعاف ، وتعاون الجيرة ، وانظر في الأمر من جهة الفائدة : أليست سورية منفذ العراق إلى البحر المتمدن ، والسودان طريق مصر إلى النهر المحيي ؟ ؟ ومع ذلك فالعراق مصروف الهم عن سورية ، ومصر قليلة العلم بالسودان ، فلا تعرف عنه إلا أنه جزء من سياستها ! أما أنه قطعة من جسمها ، وكلمة من اسمها ، فذلك ما لم تعلمه إلا بالسماع ، ولم تفهمه إلا في المدرسة

* * *

يزور الرسالةَ الحين بعد الحين أخ من السودان أديب أو طالب ، فلا نسمعه يقول أول ما يقول إلا هذا المعنى الواحد في صيغه المتعددة : إننا لنعلم عنكم كل شيء ، وإنكم لتجهلون عنا كل شيء ! فسياستكم لا تعرف السودان إلا في المفاوضات ، وأدبكم يقف بالوادي عند (الشلالات) . وصحافتكم لا تدري أفي الأرض نحن أم في السموات ! فهل عُني سياسي بتعرف بلادنا ، أم تفرغ أديب لتصوير حياتنا ، أم توفر صحافي على درس أحوالنا ؟ ولعمري إذا فرقتنا السياسة ولم يجمع شملنا الأدب ، فعلى أي صورة نلتقي ، وعلى أي حال نتحد ؟

ذلك ما يشكوه السوداني المخلص ، ويأسى على حدوثه المصري المخلص ، وبين الأسى والشكوى ناشئة من الأمل المسفر ، وعزيمة من العمل المثمر ، تتجليان في العاملين الصادقين من شباب الوادي وكهوله . فالعمل الجليل الذي هُديت إليه ووُفّقت فيه (البعثة الاقتصادية المصرية)[1] من الرحلة إلى السودان ، والاختلاط بأهله ، والاتصال برجاله ، والاطلاع على أحواله ، والتحدث إلى حكامه ، فاتحةُ فصل جديد من تاريخ النيل الحديث ، سيسجل فيه رجال الأعمال والأموال تَصافُقَ البلدين الشقيقين على المودة ، وتواصلهما على المنفعة ، وتآلفهما على التعاون

فتحت هذه البعثة الميمونة أبواب السودان الحصينة للنشاط الاقتصادي المصري ، وهيأت الأسباب إلى اجتماع الأيدي التي يسقيها النيل ويطعمها النيل على استغلال خصبه في عمران أرضه ، واستثمار خيره لسكان حوضه

فاذا أضفنا إلى ذلك عناية الأدب والصحافة بتوحيد الهوى والثقافة ، ألفنا من أغاريد الوادي ، أعاليه وأسافله ، نشيداً واحداً تردده الشفاه البيض والسمر ، وتتجاوب به سلاسل الجبال الخالدة

* * *

إن الاقتصاد والأدب يُكوّنان الجسم والروح ، فلا بد منهما أولا لانشاء الأمة وإذكاء النهضة وإحكام الصلة ؛ وما غزا الغربيون ممالك الشرق إلا بالتعليم والتجارة ؛ أما السياسة فلا تأتي إلا آخر الأمر ، فتؤيد الواقع ، وتثبّت الحالة ، وتنظم العلاقة ، وتحمي المنفعة

من أجل ذلك كان احتفال المصريين بوداع (البعثة المصرية) ولقائها ، واحتفاء السودانيين بفكرتها وأعضائها . هزاتٍ من العواطف الصادقة والحماسة الدافقة والشعور الواثق المطمئن بأسفار المستقبل عن وجوه الفوز ، فيتصل الحبل وينتظم الشمل وتقوم الوحدة بين الشعبين الأخوين على أساس صحيح

* * *

إن من وراء حدودنا اليابسة يا قوم آداباً لا تقل عن آدابنا يحسن أن تُعرف ، وشعوباً تتصل بأنسابنا يجب أن تُؤلف ، وأسواقاً تفتقر الى انتاجنا ينبغي أن تُكتشف

أما حَصْر النظر في حدود البحر فإدمان يُغرّق البصر ، ويجمع الخطر ، ويهجم بقوميتنا وأمانينا على الغرق !

احمد حسن الزيات

(١) بعثة تألفت من أعضاء الجمعية الزراعية الملكية وأعضاء الغرفة التجارية المصرية ومن بعض كبار الزراع والصحفيين ثم سافرت إلى السودان في شهر فبراير لتوثق العلائق الاقتصادية بينه وبين مصر بدرس مشروع شركة من المصريين والسودانيين لشراء الأرض الزراعية واستثمارها ، وانشاء فرع للجمعية الزراعية بالخرطوم ، ودعوة بنك مصر لانشاء فرع له في عاصمة السودان فنجحت في رحلتها نجاحا عظيما

الطفولتان

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

عصمت ابنُ فلان باشا طفلٌ مُترَف يكاد ينعصرُ ليناً، وتراه يَرِفُّ رفيفاً مما نشأ في ظلال العز، كأن لروحه من الرقّة مثلَ ظلّ الشجرة حول الشجرة. وهو بين لِداتِه من الصّبيان كالشوكة الخضراء في أُملودها الريان، لها منظرُ الشوكةِ على مجسّةٍ ليّنةٍ ناعمةٍ تُكذّب أنها شوكةٌ إلا أن تيبسَ وتَتَوقّح

وأبوهُ «فلان باشا» مديرٌ لمديرية كذا، إذا سُئل عنه ابنُه قال: إنه مدير المديرية. لا يكاد يعدو هذا التركيب، كأنه من غُرور النعمة يأبى إلا أن يحملَ أباه مديراً مرّتين.... وكثيراً ما تكون النعمةُ بذيئةً وقاحاً سيّئةَ الأدب في أولاد الأغنياء، وكثيراً مايكون الغنى في أهله غِنًى من السيئات لاغير!

وفي رأي عصمت أن أباه من عُلوِّ المنزلة كأنه على جناح النسر الطائر في مَسْبَحه إلى النجم، أما آباءُ الأطفال من الناس فهم عنده من سقوط المنزلة على أجنحة الذباب والبعوض!

ولا يغدو ابنُ المدير إلى مدرسته ولا يتروّحُ منها إلا وراءه جُنديٌّ يمشي على أثره في الغدْوة والرَّوْحة إذ كان ابن المدير، أي ابنَ القوّة الحاكمة، فيكون هذا الجنديُّ وراء هذا الطفل كالتنبيه له عند الناس، تُفصحُ شارته العسكريةُ بلغات السابِلة جمعاءَ أن هذا هو ابن المدير. فاذا رآه العربيّ أو اليونانيُّ، أو الطليانيُّ أو الفرنسيُّ، أو الانجليزيُّ أوكائنٌ مَن كان من أهل الألسنة المتنافرةِ التي لا يَفهَمُ لسانٌ منها عن لسان ـ فهموا جميعاً من لغة هذه الشارة أن هذا هو ابنُ المدير؛ وأنه من الجنديّ الذي يَتْبعُهُ كالمادة من القانون وراءها الشرح...!

ولقد كان يجب لابن المدير هذا الشرفُ الصّبيانيّ. لو أنه يوم وُلِد لم يولد ابنَ ساعته كأطفال الناس، بل وُلِد ابنَ عشر سنينَ كاملةٍ لتشهَد له الطبيعةُ أنه كبيرٌ قد انصدعت به معجزة! وإلا فكيف يمشي الجنديُّ من جنود الدولة وراء طفل فيتبعُه ويخدُمه ويَنصاعُ لأمره؛ وهذا الجنديُّ لو كان طريدَ هزيمةٍ قد فرَّ في معركةٍ من معارك الوطن، وأريدَ تخليدُه في هزيمته وتخليدُها عليه بالتصوير ـ لما صُوّرَ إلا جندياً في شارته العسكرية منقاداً لمثل هذا الطفل الصغير كالخادم؛ في صورة يُكتَب تحتها: «نُفَايةٌ عسكريّة!»

* * *

ليس لهذا المنظر الكثير حدوثه في مصر إلا تأويلٌ واحد: هو أن مكان الشخصيات فوق المعاني وإن صَغُرتْ تلك وجلَّت هذه؛ ومن هنا يكذبُ الرجلُ ذو المنصب، فيُرفَع شخصُه فوق الفضائل كلها؛ فيتكبَّرُ عن أن يكذبَ، فيكونَ كذِبُه هو الصدق، فلا يُنكَر عليه كذِبُه أيْ صِدْقُه...! ويخرج من ذلك أن يتقررَ في الأمة أن كَذِبَ القوّةِ صِدْقٌ بالقوّة!

وعلى هذه القاعدة يُقاسُ غيرها من كل ما يُخذَل فيه الحق. ومتى كانت الشخصياتُ فوق المعاني السامية طَفقت هذه المعاني تموجُ مَوْجها محاولةً أن تعلو، مُكرَهةً على أن تنزل؛ فلا تستقيم على جهةٍ ولا تنتظمُ على طريقة؛ وتُقبِلُ بالشيْ على موضعه، ثم تَكُرُّ كرَّها فتُدبِرُ به إلى غير موضعه، فتضلُّ كل طبقةٍ من الأمة بكُبرائها، ولا تكون الأمةُ على هذه الحالة في كل طبقاتها إلا صِغاراً فوقهم كبارُهم؛ وتلك هي تَهيئةُ الأمة للاستعباد متى ابتُلِيتْ بالذي هو أكبر من كبارها؛ ومن تلك تنشأ في الأمة طبيعةُ النفاق يحتمي به الصِّغَرُ من الكِبرَ، وتنتظم به أُلفةُ الحياة بين الذلّة والصّولة!

* * *

وتخلّفَ الجندي ذات يوم عن موعد الرّواح من المدرسة، فخرج عصمت فلم يجده، فبدا له أن يتسكّع في بعض طرق المدينة لينطلقَ فيه ابنُ آدم لا ابن المدير، وحنّ حنينَه الى المغامرة في الطبيعة، ولبِسَت الطرق في خياله الصغير زينتها الشعرية بأطفال الأزقة يلعبون ويتهوّشون ويتمابثون ويتشاحنون، وهم شتّى وكأنهم أبناء بيتٍ واحد مسّت بكلّ من كل رحِمٌ، إذ لا ينتسبون في اللهو إلا إلى الطفولة وحدها

وانساق عصمت وراء خياله، وهرَب على وجهه من تلك الصورة التي يمشي فيها الجنديّ وراء ابن المدير، وتَغلْغلَ في

فى الأزقة لا يبالى ما يعرفه منها وما لا يعرفه ، إذ كان يسير فى طرقٍ جديدة على عينه كأنما يحلمُ بها فى مدينةٍ من مدن النوم.

وانتهى الى كبْكبةٍ من الأطفال قد استجمعوا لشأنهم الصبيانى ، فانتبذَ ناحية ووقفُ يصغى اليهم متهيِّباً أن يُقدِم ، فاتصل بسمعه ونظره كالجبان ، وتسمّع فاذا خبيث منهم يعلّم الآخر كيف يضرب إذا اعتَدى أو اعتُدىَ عليه ، فيقول له : إضرب أينما ضربت ، من رأسه ، من وجهه ، من الحُلقوم ، من مراقّ البطن ؛ قال الآخر : وإذا مات ؟ فقال الخبيث : وإذا مات فلا تقُل إنى أنا علّمتُك . . . !

وسمع طفلاً يقول لصاحبه : أما قلت لك إنه تعلّم السرقة من رؤيته اللصوصَ فى السّيما ؟ فأجابه صاحبه : وهل قال له أولئك اللصوص الذين فى السّيما كن لصّا واعملْ مثلنا ؟

وقام منهم شيطان فقال : يا أولاد البلد ، أنا المدير ! تعالوْا وقولوا لى « يا سعادة الباشا ، إن أولادنا يريدون الذهاب إلى المدارس ، ولكننا لا نستطيع أن ندفع لهم المصروفات . . » فقال الأولاد فى صوت واحد : « يا سعادة الباشا ، إن أولادنا يريدون الذهاب إلى المدارس ، ولكننا لا نستطيع أن ندفع لهم المصروفات » فردّ عليهم (سعادته) : اشتروا لأولادكم أحذية وطرابيش وثياباً نظيفة ، وأنا أدفع لهم المصروفات

فنظر اليه خبيث منهم وقال : ياسعادة المدير ، وأنت فلماذا لم يشتر لك أبوك حذاء . . . ؟

وقال طفل صغير : أنا ابنك يا سعادة المدير ، فأرسلني إلى المدرسة وقت الظهر فقط . . . !

***

وكان عصمت يسمع ونفسه تهتزّ وترِفّ بأحاسيسها كالورقة الخضراء عليها طَلّ الندى ، وأخذ قلبه يتفتّح فى شعاع الكلام كالزهرة فى الشمس ؛ وسَكِر بما يسكَر به الأطفال حين تقدم لهم الطبيعة مكان اللهو معدّاً مهيّأ كالحانة ليس فيها إلا أسباب السّكر والنّشوة ، وتمامُ لذّتها أن الزمن فيها منسىّ ، وأن العقل فيها مُهمَل . . .

وأحسّ ابن المدير أن هذه الطبيعة حين ينطلق فيها جماعة الأطفال على سجيّتهم وسجيّتها ـ إنما هى المدرسة التى لا جُدران لها ، وهى تربيةُ الوجود للطفل تربيةً تتناوله من أدقّ أعصابه فتُبدّد قواه ثم تجمعها له أقوى ما كانت ، وتفرّغها منها ثم تملؤه بما هو أتمّ وأزيد . وبذلك تكسبه نموّ نشاطه ، وتعلّمه كيف ينبعث لتحقيق هذا النشاط ، فتهديه إلى أن يُبدع بنفسه ولا ينتظر من يُبدع له ، وتجعلُ خُطاه دائماً وراء أشياء جديدة فتسدّده من هذا كله الى سر الابداع والابتكار ، وتلقيه العِلمَ الأعظمَ فى هذه الحياة ، عِلمَ نضرة نفسه وسرورها ومرَحها ، وتطبعه على المزاج المتطلّق المتهلّل المتفائل ، وتتدفق به على دنياه كالفيضان فى النهر ، تفور الحياة فيه وتفور به ، لا كأطفال المدارس الخامدين ، تعرف للواحد منهم شكل الطفل وليس له وجوده ولا عالَمه ، فيكونُ المسكين فى الحياة ولا يجدها ، ثم تراه طفلاً صغيراً وقد جمعوا له همومَ رجل كامل !

ودبّت روحُ الأرض دبيبها فى عصمت ، وأوحت إلى قلبه بأسرارها ، فأدرك من شعوره أن هؤلاء الأغمارَ الأغبياءَ من أولاد الفقراء والمساكين ، هم السعداءُ بطفولتهم . وأنه هو وأمثاله هم الفقراءُ والمساكينُ فى الطفولة ، وأن ذلك الجندى الذى يمشى وراءه لتعظيمه إنما هو سجن ، وأن الألعاب خير من العلوم ، إذ كانت هى طفليّةَ الطفل فى وقتها ، أما العلوم فرُجولةٌ مُلزَقةٌ به قبل وقتها تُوقِّرُه وتحوّله عن طباعه ، فتقتل فيه الطفولة وتهدم أساسَ الرجولةَ ، فينشأ بين ذلك لا إلى هذه ولا إلى هذه ، ويكون فى الأول طفلاً رجلاً ، ثم يكون فى الآخر رجلاً طفلاً

وأحسّ مما رأى وسمع أن مدرسة الطفل يجب أن تكون هى بيته الواسعَ الذى لا يتحرّجُ أن يصرخَ فيه صراخه الطبيعى ، ويتحرك حركته الطبيعية ، ولا يكون فيه مدرسون ولا طلبة ، ولا حاملو العِصىّ من الضباط ؛ بل حقُّ البيت الواسع أن تكون فيه الأبوّةُ الواسعة ، والأخوّةُ التى تتفسح للمئات ؛ فيمرّ الطفل المتعلم فى نشأته من منزلٍ إلى منزل الى منزل ، على تدريج فى التوسّع شيئاً فشيئا ، من البيت الى المدرسة الى العالم

***

وكان عصمت يحلم بهذه الأحلام الفلسفية ، وطفولتُه تَشِبُّ وتسترجل ، ورخاوته تشتدُّ وتتماسك ؛ وكانت حركاتُ

الأطفال كأنها تحرّكه من داخله ، فهو منهم كالطفل فى السيما حين يشهد المتلاكمين والمتصارعين ، يَستطيرُه الفرحُ ، ويتوثب فيــه الطفلُ الطبيعى بمرَحِه وعُنفوانه ، وتتقلّصُ عضلاته ، ويتكَشّفُ جلدُه ، وتجتمع قوّته ؛ حتى كأنه سيُظاهر أحدَ الخصمين ويَلكم الآخرَ فيُكَوِّرُه ويصرعه ، ويَفُضُّ معركة الضرب الحديدىّ بضربته الليّنة الحريريّة . . . !

فما لبث صاحبنا الغريرُ الناعمُ أن تخشّن ، وما كذَّب أن اقتحم ، وكأنما أقبل على روحه الشارعُ والأطفال ولهوهم وعبثهم ، إقبال الجوّ على الطير الحبيس المعلّق فى مسمار ، إذا انفرج عنه القفص ، وإقبالَ الغابة على الوحش القنيص إذا وثب وثبة الحياة فطار بها ، وإقبال الفلاة على الظبى الأسير إذا ناوَصَ فأفلَتَ من الحِبالة

وتقدم فادَّغمَ فى الجماعة وقال لهم : أنا ابن المدير . فنظروا اليه جميعاً ثم نظر بعضهم الى بعض ، وسَفرت أفكارهم الصغيرة بين أعينهم ، وقال منهم قائل : إن حذاءه وثيابه وطربوشه كلها تقول إن أباه المدير

فقال آخر : ووجهه يقول إن أمه امرأة المدير !

فقال الثالث : ليست كأمّك يابسْطيطى ولا كأم جُعْلُص!

قال الرابع : ياويلك لو سمع جُعلص ، فان لَكماته حينئذ لاتترك أمّك تعرف وجهك من القفا !

قال الخامس : ومن جعلص هذا ؟ فليأت لأرِيَكم كيف أصارعه ، فأجتذبه ، فأعصِرُه بين يدىّ ، فأعتقلُ رجلَه برجلى ، فأدفعُه ، فيتخاذل ، فأعركُه ، فيخرُّ على وجهه ؛ فأسمره فى الأرض بمسمار !

فقال السادس : هاها ! إنك تصف بأدق الوصف مايفعله جعلص لو تناولك فى يده . . . !

فصاح السابع : ويلكم ! ها هوذا . جعلص ، جعلص ، جعلص !

فتطاير الباقون يميناً وشمالاً كالورق الجاف تحت الشجر إذا ضربته الريح العاصف . وقهقه الصبى من ورائهم فثابوا الى أنفسهم وتراجعوا . وقال المستطيل منهم : أما إنى كنت أريد أن يعدو جعلص ورائى ، فأستطرِدُ اليه قليلاً أطمعُه فى نفسى ، ثم أرتدُّ عليه فآخذه كما فعل « ماشيست الجبار [1] » فى ذلك المنظر الذى شاهدناه

وقهقه الصبيان جميعاً . . . . ! ثم أحاطوا بعصمت إحاطةَ العشّاق بمعشوقةٍ جميلة ، يحاول كلٌّ منهم أن يكون القربَ المخصوص بالحظوة ، لا من أجل أنه ابن المدير فحسب ، ولكن من أجل أن ابن المدير تكون معه القروش . . . فلو وُجدت هذه القروش مع ابن زبال لما منعه نسبه أن يكون أمير الساعة بينهم الى أن تنفد قروشه فيعود ابن زبال . . . !

وتنافسوا فى عصمت وملاعبته والاختصاص به ، فلو جاء المدير نفسه يلعب مع آبائهم ويركبهم ويركبونه ، وهم بين نجار وحداد ، وبنّاء وحمّال ، وحوذىّ وطباخ ، وأمثالهم من ذوى المهنة والمكسبة الضئيلة — لكانت مطامع هؤلاء الأطفال فى ابن المدير ، أكبر من مطامع الآباء فى المدير

وجرت المنافســـةُ بينهم مجراها ، فانقلبت الى مُلاحاة ، ورجعت هذه الملاحاة الى مشاحنة ، وعاد ابن المدير هدفاً للجميع يدافعون عنه وكأنما يعتدون عليه ، إذ لا يقصد أحدٌ منهم أحدا بالغيظ إلا تعمدَ غيظ حبيبه ليكون أنكأ له وأشدَّ عليه !

وتظاهروا بعضهم على بعض ، ونشأت بينهم الطوائل ، وأفسدهم هذا الغنى المتمثلُ بينهم ؛ ويا ما أعجبَ إدراك الطفولة وإلهامَها ! فقد اجتمعت نفُوسهم على رأى واحد . فتحولوا جميعاً الى سفاهة واحدة أحاطت بابن المدير ، تخاطرَه أحدُهم فى اللعب فقمرَه ، فأبى إلا أن يعلوَ ظهره ويركبه ؛ وأبى عليه ابنُ المدير ودافَعه ، يرى ذلك ثلماً فى شرفه ونسبه وسطوة أبيه ؛ فلم يكد يعتلُّ بهذه العلة ويذكر أباه ليعرّفهم آباءهم . . . . حتى هاجت كبرياؤهم ، وثارت دفائنهم ، ورقصت شياطين رءوسهم ؛ وبذلك وضع الغنى حِقدَ الفقر بازاء سُخرية الغنىَ ؛ فألقى بينهم مسئلة المسائل الكبرى فى هذا العالم ، وطرحها للحل . . . . . !

وتنفّشوا للصّولة عليه ، فسخر منه أحدُهم ، ثم هزأ به الآخر ، وأخرج الثالثُ لسانَه ؛ وصدمه الرابع بمنكبه ؛ وأخْشَ عليه الخامس ؛ ولكَزه السادس ؛ وحثا السابع فى وجهه التراب !

(١) نجار إيطالى كالمارد ؛ عريض الألواح ، وثيق التركيب ؛ يعجب الأطفال به أشد الأعجاب ، وإذا شهدوه فى السيما كاد تمثيله يشب بهؤلاء الأطفال الى سن الرجولة فى ساعة واحدة

وجهد المسكين أن يفرَّ من بينهم فكأنما أحاطوه بسبعة جدران فبطَل إقدامه وإحجامه ، ووقف بينهم كما كَتب الله . . . ! ثم أخذته أيديهم فانجدل على الأرض ، فتجاذبوه يمرِّغونه فى التراب !

وهم كذلك إذ انقلب كبيرُهم على وجهه ، وانكفأ الذى يليه ، وأزيحَ الثالث ، ولُطِمَ الرابع ؛ فنظروا ، فصاحوا جميعاً : «جُعْلُص ، جعلص !» وتواثبوا يشتدُّون هرباً . وقام عصمت ينتخلُ الترابُ من ثيابه وهو يبكى بدمعه وثيابه تبكى بترابها ...! ووقف ينظر هذا الذى كشفهم عنه وشرَّدهم صولتُه ، فاذا جعلص وعليه رَجفانٌ من الغضب ، وقد تَبرْطَمَتْ شفتُه وتَقَبض وجهُه كما يكون « ماشيست » فى معاركه حين يدفع عن الضعفاء

وهو طفل فى العاشرة من لِدات عصمت ، غير أنه مُحتنِكٌ فى سنّ رجل صغير ؛ غليظٌ عَبلٌ شديدُ الجِبْلةِ متراكِبٌ بعضُه على بعض ، كأنه جِنّىٌ مُتقاصِرٌ يَهُمُّ أن يطولَ منه المارد . فأنِسَ به عصمت ، واطمأنَّ إلى قوّته ، وأقبل يشكو له ويبكى !

قال جعلص : ما اسمك ؟

قال : أنا ابن المدير . . . !

قال جعلص : لا تَبْكِ يا ابن المدير . تعلّم أن تكون جلْداً ، فان الضرب ليس بذُلٍّ ولا عار ، ولكن الدموع هى تجعله ذلاً وعاراً ؛ إن الدموعَ لَتجعلُ الرجل أنثى . نحن يا ابن المدير نعيش طول حياتنا إما فى ضرب الفقر أو ضرب الناس ، هذا من هذا ؛ ولكنك غنىٌّ يا ابن المدير ، فأنت كالرغيف (الفينو) ضخمٌ مُنتفخٌ ولكنه ينكسر بلمْسة ، وحَشوُهُ مثلُ القطن !

ماذا نتعلم فى المدرسة يا ابن المدير إذا لم تعلمك المدرسة أن تكون رجلاً يأكلُ من يريدُ أكله ؛ وماذا تعرف إذا لم تكن تعرف كيف تصبر على الشر يوم الشر ، وكيف تصبر للخير يوم الخير ، فتكون دائماً على الحالتين فى خير ؟

قال عصمت : آه لو كان معى العسكرى !

قال جعلص : ويحك ؛ لو ضربوا عنزاً لما قالت : آه لو كان معى العسكرى !

قال عصمت : فمن أين لك هذه القوة ؟

قال جعلص : من أنى أعتملُ بيدىَّ فأنا أشتدُّ ، وإذا جعتُ أكلتُ طعامى ؛ أما أنت فتسترخى ، فإذا جعتَ أكلتَ طعامَك ؛ ثم مِن أنى ليس لى عسكرى . . . !

قال عصمت : بل القوةُ مِن أنك لستَ مثلَنا فى المدرسة ؟

قال جعلص : نعم ، فأنت يا ابن المدرسة كأنك طفلٌ من ورق وكرّاسات لا من لحم ، وكأن عظامَك من طباشير ! أنت يا ابن المدرسة هو أنتَ الذى سيكون بعد عشرين سنة ، ولا يعلم إلا الله كيف يكون ؛ وأما أنا ابنَ الحياة ، فأنا من الآن ، وعلىَّ أن أكونَ « أنا » من الآن !

أنتَ . . .

***

وهنا أدركهما العسكرىُّ المسخر لابن المدير ، وكان كالمجنون يطير على وجهه فى الطرق يبحث عن عصمت ، لا حباً فيه ولكن خوفاً من أبيه . فما كاد يرى هذا العفرَ على أثوابه حتى رنت صفعتُه على وجه المسكين جعلص

فصعَّر هذا خده ، ورشقَ عصمت بنظره ، وانطلق يعدو عَدْوَ الظليم !

يالعدالة ! كانت الصفعةُ على وجه ابن الفقير ، وكان الباكى منها ابنَ الغنىّ . . . !

***

وأنتم أيها الفقراء ، حسبكم البطولة ؛ فليس غِنَى بَطَلِ الحرب فى المال والنعيم ، ولكن بالجراح والمشقاتِ فى جسمه وتاريخه ؟

طنطا (مصطفى صادق الرافعى)

السر الموزع

للآنسة النابغة «مىّ»

وسط الهرج الذى يحدثُ عادةً عند انفضاض مجلسٍ من المجالس تناثر الزائرون فى الردهة يهمُّون بالانصراف مودّعين أهل الدار وشاكرين لهم حفاوتهم ، متبادلين مع هؤلاء وأولئك التحية والمصافحة ، متواعدين فيما بينهم على الاجتماع فى فرصةٍ قريبة

أما ذلك الفتى فمضى يتسلل خلسةً ، هرباً من كلّ شخصٍ خطر وللتملص منهم جميعاً : « والشخص الخطر » فى تلك الحال هو أىّ شخص قد يشتبك معهُ فى حديث ويصحبهُ إلى الخارج . إنه يحتاج إلى الوحدة لا يعكر عليه صفاءها أحد ، لأنه فى تلك الحالة النفسية التى تبدو فيها الحياةُ طريفةً وتبدو فيها الخليقةُ وكأنها خرجت الساعة من يدِ البارى غضةً جديدة

خرج إلى الرصيف وجال نظرهُ يبحثُ بين الناس والسيارات فاستقرت عيناه على خمس فتيات من اللائى حضرن الاجتماع ، وقد أحطن بسيارة كبيرة أخذن يتوارين فى داخلها الواحدة بعد الأخرى ، فكانت الأخيرة فى التوارى صاحبةُ الثوب ذى الزرقة « الكهربائية » . فجهد الفتى ليرى منها جميع حركاتها فرأى فيما رأى أنها التفتت إلى الوراء ، شأن من يبحث عن شىءٍ أو شخص . وسرعان ما لمحتْ رأسهُ والتقت عيناها بعينيه عن بعد . فأدركت أن نظره يتبعها ويرقبها ، وأدرك هو أنها تأخرت والتفتت لتبحث عنه . فما إن تلاقى نظراهما وفاجأهما ذلك الادراك حتى أعرض كلٌّ منهما على عجل كأنما هو يخجل بانكشاف أمره . وعند ما تحركت السيارة مندفعةً إلى الأمام أرسل الفتى نظره يشيعها فى حرية واطمئنان

— هأنذا ! أتنتظرنى أم تبحث عنى ؟

لقد وقع ما كان يخشاه ، ولحق به زميل لم يكن ليتحاشى مصاحبته أو ينفر من حديثه عادة . ولكن الآن . . .

— هيا بنا إلى جروبى !

فتلكأ الشاب قليلاً وقال : — إنى على موعد

— أىّ موعد ؟ ألم نتفق عند ما جئنا هذه الدار على موافاة أصحابنا عند جروبى بعد الخروج من هنا ؟

— آه . . . نسيت !

— أنسيت الموعد أم نسيت اتفاقنا ؟

— نسيت الموعد . . .

— نسيت الموعد فلم تذكره إلاّ على الرصيف . . . إذاً أوصلك بسيارتى إلى المكان الذى تقصد إليه ، ثم أسبقك إلى جروبى حيث توافينا بعدئذٍ

رأى الفتى أن لا مفرّ من المقدور . ولو نجح فى التفلت من صاحبه هذا فليس مضموناً أن يتفلت من غيره فى مكان آخر . فتراخت عزيمته واستسلم :

— الواقع أن الموعد اختيارى يمكن تأجيله . هيا إلى جروبى

***

أما الفتيات الخمس فقد سارت بهن السيارة إلى ناحية الجزيرة وهن يتحدثن جميعاً فى آن واحد وليس بينهن من تصغى . وعلامَ الاصغاء ؟ المهم هو الكلام . وقد سُرّت الفتيات بتلاقيهن فى هذا الاجتماع ، وسررن باتفاق والدتهن بعده على الذهاب معاً لتأدية فروض التعزية فى بعض البيوت ، فاتفقن فيما بينهن على ركوب سيارة إحداهن التى تعهدت بأن « توزع » صاحباتها على بيوتهن مجاناً لوجه الله الكريم وبدون « أكسيدان » . وثَمّ فرصة مواتية لتبادل الآراء وإبداء الملاحظات على حفلة الاستقبال وعلى الذين حضروها ، إذا تيسر شىءٌ من ذلك عند ما يأبين جميعاً احتمال فريضة السكوت . . . بيد أنهن سكتن فجأة عندما أنشأت إحداهن تنتقد هندام السيدات وتبرجهن وذوقهن وجمالهن . هذا حديث لذيذ حقاً ، يوافقن عليه ويؤيدنه وإن كن فى قلوبهن مقتنعات بعكس ما يقال . وإذ توغل النقد فأمسى لاذعاً ، طربن طرباً ورنت ضحكاتهن بريئة ، فى نظرهن على الأقلّ . ونادت إحداهن صاحبة الثوب الأزرق قائلة : ألا تشاركيننا فى الضحك ؟ ألا تسمعين ؟

— أنا اتخذتُ لى محلاً مختاراً قرب « الشوفير » ولذلك أصبحتُ مسؤولةً عن سلامتكنّ ، وعلى أن أظلّ هادئةً لئلا يحدث لنا « أكسيدان »

— بعد الشرّ ! إذا تحتم « الأكسيدان » فليكنْ بعد وصولى إلى البيت سالمة . وهاقد وصلنا والحمد لله ! فتستطيعين

الآن أن تستبدلى بمكانك مكانى داخل السيارة

وبعد وقوف السيارة ونزول الفتاة التى كانت تتكلم ، حدثت مناقشة لاقناع جارة السوّاق بتغيير مكانها . فأبت مؤكدةً أنها هنا على ما يرام ، وأنها تريد حراستهنّ إلى النهاية . واستأنفت السيارةُ السير والفتيات يضحكن من جارة السوّاق لأنها « كونسرفاتريس » وينصحن لها بأن تلبس العمامة للاندماج فى هيئة كبار العلماء فى الأزهر

كانت صاحبة الثوب الأزرق تسمع لغوهنّ ولا تعى معناه . إنها بعيدة عنهنّ وعن العالم بما فيه ومَن فيه ، بعيدة عن النيل الذى يجرى تحتها ، عن سحر الجزيرة المنتشر حواليها ، عن جمال الغروب وقد تمازج فيه انهزام النور واقتحام الظلام . لقد حدث فى ذلك الاجتماع شئ مدهش قلب الدنيا رأساً على عقب . وهو بعدُ شئ بسيط يكاد يكون عادياً ، وكأنها كانت تنتظره على غير معرفةٍ منها

اتفق أن فتى كان على مقربةٍ منها فى ذلك الصالون ، فصنع لها مثل ما صنع لغيرها ، ومثل ما يصنع كلّ رجل له ولو بعض الألمام بآداب الاجتماع . كانت فتاةُ الدار تبذلُ جهدها مع معاونيها ومعاوناتها لارضاء الضيوف وقد تعبت كثيراً فى القيام بمهمتها . فسارع ذلك الفتى إلى مساعدتها فجرّ أمام صاحبة الثوب الأزرق طاولة صغيرة وضع عليها قدح الشاى وجال يقدّم ما يصحب الشاى من قطع الحلوى الصغيرة الجافة . فتناولت صاحبةُ الثوب الأزرق قطعةً ورفعت بصرها إليه فى ابتسام ، وقالت : « مرسى » . وكان عليها أن تردّ بنظرها فى الحال إلى جارتها التى كانت تتحدث حديثاً طويلاً . ولكنها لم تردّ نظرها ولم تخفضهُ . لأن نظرهُ سار رسولاً إلى أعماق عينيها ، إلى أعماق جوانحها ، إلى أعماق كيانها ، فاهتدى هناك إلى شئ كان يطلبه ، ولم تدر هى ماهيته . وكان وجههُ جاداً ونظرهُ جاداً ، شأن الرجل عندما ينبه إلى أمرٍ هام

فجمدت الابتسامة على شفتيها ، وكأنّ السرّ الذى وجدهُ فيها يسأل السرّ الذى بعث به نظره : « ماذا ؟ » . فخيل إليها أن سرّه يجيب : « أردت أن أنبهكِ فقط . . . لأنكِ نبهتنى وأنتِ لا تعلمين »

لحظة لا غير ، لحظة لم ينتبه إليها أحدٌ من المحيطين بها ، ولكنها كانت طويلةً مايئةً كالدهور . وتكررت تلك اللحظة عندما التفتت فى الشارع فلمحته يشيعها ، وشعرت بالسرّ مقبلاً من نظره البعيد ، يتوغل فى كيانها من جديد . وفى هذا المساء الجميل المتهادى فى رفقٍ على هذه الشواطئ الفتانة ، هى لا تعى شيئاً ولا ترى أحداً . الوجود كلهُ تلخص فى ذلك النظر وفى السرّ الذى يحتويه . على صفحة الماء المائجة نظرٌ ملئ بالسرّ . فى الفضاء حولها نظرٌ ملئ بالسرّ . فى الغصون المتشابكة نظرٌ ملئ بالسرّ . فى الأبعاد المترامية ، فى ألوان الشفق ، فى هبوب النسيم ، وبخاصة فى صميم كيانها نظرٌ ملئ بالسرّ يهمس : أردتُ أن أُنبهك . . .

— أَلهُ مثل هذا النظر مع سائر النساء ؟

هرولت السيارةُ فى شارع الجيزة ولوت متحولةً إلى ناحية الروضة لتعود إلى المدينة من شارع القصر العينى . وطول الطريق على صفحة الماء ، فى امتداد السبل ، فى رؤوس الأشجار ، فى المركبات والسيارات ، فى أشباح السابلة ، فى واجهات المخازن ، فى مصابيح الشوارع ، فى كل مكان لم يكن هناك إلاّ ذلك النظر الواحد وسرُّه المكنون

— أهذه طريقتهُ فى النظر إلى النساء ؟

ووقفت السيارة فنزلت صاحبة الثوب الأزرق مودّعة صويحباتها ، وكأنها تتكلم وتتحرك مرغمةً . ودخلت مخدعها ، فاذا بالنظر ينتظرها هناك ، مع أنها لم تتخيل وجوده عندما غادرت هذا المكان قبل ثلاث ساعات

دنت من مرآتها تتعرف فيها هيئتها فرسمت لها المرآةُ وجههُ لا وجهها ، وأقبل النظر يتسرّب إلى كيانها مع سرّه . فتأملتهُ ملياً وسألت :

— ألك مثل هذه النظرة مع غيرى ؟

فلم تسمع لا من النظر ولا مَن نفسها الجواب

أطالت التحديق فى المرآة ، وقالت تخاطبهُ : — أين أنت الآن ؟ كيف تجرى حياتك ؟ كيف تجرى حياتك كلّ يوم ؟ ماذا أنت صانع بنظرك فى هذه الدقيقة ؟

فى تلك الدقيقة كان الفتى بين أصحابه عند جروبى ، وقد رفع كأس الوسكى إلى شفتيه ناظراً بعينين ناعستين إلى الغادة الجالسة قربه فى ثوب عاجى ، وقائلاً ببطء :

— أشرب « سرّكِ »

« مىّ »

الدعوة الفاطمية السرية

ضوء على موضوعها وغاياتها

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتمـــــة

هذه خلاصـة موجزة لتلك الدعوة الألحادية الغريبة التى اضطلع بها لحساب الحاكم بأمر الله ذلك الداعية المغامر حمزة بن على ، ومما يلفت النظر بنوع خاص أن حمزة بن على لم يفته خلال شرح مذهبه أن يدافع عن شذوذ الحاكم بأمر الله وتصرفاته المتناقضة ، وأن يحاول أن يفسرها بما يلائم دعوته ويدعمها ، أجل ، لقد كان فى تصرفات هذا الذهن الهائم المضطرب مايبعث على التأمل ، ومايجب أن يحمل لاعلى الشذوذ والتخريف ، ولكن على الحكمة والسمو الى مالا يرتفع الذهن العادى الى فهمه وتعليل بواطنه ، هكذا يقدم الينا حمزة تصرفات مولاه الحاكم ؛ فاذا كان الحاكم قد ترك الصلاة والنحر ، وإذا كان قد أبطل صلاة العيد وصلاة الجمعة بالأزهر ، وأسقط الزكاة عن الناس ، فمعناه تحليل ذلك للكافة[1] ، وإذا كان الحاكم يتبع أحياناً سياسة الاضطهاد بالنسبة للنصارى واليهود ، فذلك لأنه يريد أن يهلك المرتدين والمارقين ، ومن بقى منهم يؤدون الجزية ، وهم اليهود ، ويجب عليهم وعلى النصارى المرتدين من التوحيد ، وهم المنافقون أن يلبسوا أزياء خاصة ، وأن يعلقوا فى صدورهم وآذانهم أثقالا خاصة من الرصاص[2] ؛ وإذا كان الحاكم يؤثر التقشف فى مأكله وملبسه وركوبه ، فيركب الحمير مجردة عن الديباج والحلى الذهبية ، فذلك لحكمة باطنة يؤولها الداعى بآيات من القرآن ، ويفسرها بدلائل رمزية غريبة[3] ، وإذا كان الحاكم يخرج من سرداب القصر الى البستان ، وإذا كان يرتاد بستان المقس وغيره من بساتين القاهرة ويطوف أحياناً فى المدينة ، فذلك أيضاً لحكم باطنة لاتدركها الكافة ؛ ومايرتكبه أهل الفساد بجوار البساتين التى يرتادها من المنكر والفحشاء ، إنما يرتكب فى طاعته[1] ، وما يرتكبه الحاكم من ضروب البطش والسفك ؟ إنه مظهر لسطوة الحاكم « الالـهية » فهو يفتك بأكابر الدولة دون خوف ولاحرج كما فعل مع حاجبه برجوان ووزيره ابن عمار ومع غيرهما من الأكابر والزعماء ؛ ثم هو يخرج بالليل دون ركب ودون سلاح ، لايخشى نقمة أو اعتداء ، ويخمد كل ثورة تشهر عليه ، وكثيراً ماينفرد بنفسه فى جب الصحراء دون خوف من أحد من عسكره أو بطانته ، وتلك أعمال وصفات ليست للبشر !

هكذا يفسر الداعى لنا أعمـــال الحاكم وتصرفاته المثيرة الدهشة ؛ وما اعتبره المعاصرون شذوذاً وإسرافاً وجنوناً ، وما يسمه التاريخ بميسم التناقض والتخريف والاغراق ، إنما هو فى زعم الداعى السمو فوق مدارك البشر ، والتحلى بصفات ليست للبشر ؛ ومهما يكن فى ذلك التفسير من غلو وتخريف ، فهو محاولة ذكية جريئة لتبرير مالم تبرره الشرائع والمجتمع ، ومالم يبرره التاريخ

ولا يقف حمزة بن على عند الدعوة لسيده ومولاه ، بل يدعو لنفسه أيضاً ؛ فاذا كان الحاكم هو « الالـه » ، فان الداعى هو رسوله ونبيه ؛ وعلى هذا فان حمزة الذى يصف نفسه فى معظم رسائله بهادى المستجيبين ، ينتحل النبوة لنفسه صراحة ، ويزعم أن هذه النبوة قد تأيدت بالمعجزات التى أسبغها مولاه الحاكم عليه[2] ؛ ألم يشتبك عشرون من رجاله مع مائتين من عسكر خصومه ، فلا يقتل من أصحابه سوى ثلاثة وينهزم الخصوم ؟ ألم تنشب موقعة أخرى فى المسجد بين قلة من أنصاره وكثرة من خصومه فينتصر الصحب دائماً[3] ؟ فهذه أعمال تخرج عن قدرة البشر ، وهى من معجزات الداعى !

* * *

ويبدو من التواريخ التى يذيل بها الداعى رسائله أنها كتبت بين صفر سنة ٤٠٨ هـ ، وأواخر سنة ٤٠٩ هـ . وكما أن الداعى يصف لنا سنة ٤٠٨ هـ بأنها هى أول سنى قائم الزمان (الحـاكم) ، فهو يصفها أيضاً بأنها أول سنى « ظهور عبد مولانا ومملوكه هادى المستجيبين » ومعنى ذلك أن حمزة بن

(١) ص ٢٩ — ٣٤

(٢) ص ١٠١ (٣) ص ١٤٧، ١٤٨

(١) ص ١٥٠ والظاهر أن بعض محال اللهو والبغاء العام كانت تقع بجوار هذه البساتين (٢) ص ١٣٠ من المخطوط (٣) ص ١٣٣

على بدأ القيام بدعوته فى أوائل ســنة ٤٠٨ هـ ؛ ونستدل أيضاً من تعاقب التواريخ فى هذه الرسـائل الثمانية أنها تكون وحدة متصلة قائمة بذاتها ؛ وهذه الرسائل هى متن الدعوة وهى ذروتها ؛ وقد اســتمر حمزة فى تنظيم دعوته وبثها تحت رعاية الحاكم وإشرافه حسبما ينوه فى بعض رسائله ؛ ولكن الحاكم زهق غيلة فى شوال سنة ٤١١ هـ فماذا حدث لتلك الدعوة بعد ذهابه ؟ لقد كان اختفاء الحاكم بتلك الصورة الفجائية الغامضة مستق جديداً للدعاة ، فزعم بعضهم أنه اختفى ليظهر فى عصر آخر ، أو أنه رفع الى السماء ، وأن فى هذا الأختفاء ذاته ما يؤيد الزعم بألوهيته(١) وقد استمرت هذه الدعوة الألحادية بمدمصرع الحاكم عصراً آخر ، وإن كانت قد اتخذت سبلاً ومواطن أخرى ، وأمامنا مجموعة أخرى من تلك الرسائل الألحادية هى التى أشرنا اليها فيما تقدم(٢) ؛ ويبدو من موضوعها وأسلوبها وألفاظها أنها من تأليف حمزة بن على ذاته ؛ وقد ذيلت بتواريخ وضعها ـ فى جمادى الآخرة من سنى ولى الحق العاشرة ، وفى صفر سنة إحدى عشرة من سنى قائم الزمان ، وفى السنة الرابعة عشرة من سنى قائم الزمان . . . الخ ؛ وعهد قائم الزمان يبتدىء كما تقدم فى سنة ٤٠٨ هـ ، وعلى ذلك تكون هذه الرسائل قد كتبت بين سنة ٤١٨ وسنة ٤٣٢ هـ ـ ، ويكون حمزة بن على قد استمر قائماً بدعوته الألحادية إلى هذا التاريخ أو بعده بقليل ؛ ولم تنته الدعوة بمصرع الحاكم بأمر الله ، ولكنها استمرت تغذيها قوى وعناصر أخرى

ولقد كانت هذه الدعوة الألحادية بلا ريب جزءاً من الدعوة الفاطمية السرية ، ولكنها اتخذت فى عصر الحـاكم بأمر الله صورة خاصة ، وانحرفت عن غايتها العامة لتعمل على تحقيق غاية خاصة . وقد نقل الينا المقريزى بياناً شافياً عن هذه الدعوة السرية الشهيرة ومراتبها التسع(٣) ، وهى فى مجموعها فكرة إلحادية فلسفية نظمت فى مراتب متعاقبة للعمل على هدم العقيدة الاسـلامية بصفة خاصة والعقيدة الدينية بصفة عامة ، واستبدالها بفكرة فلسفية ترتفع فوق أفهام الكافة . بيد أن هذه الدعوة الألحادية العامة تنحرف فى عصر الحاكم لتعمل على تحقيق فكرة خاصة هى « ألوهية » قائم الزمان أعنى الحـاكم بأمر الله ، وهى مع ذلك تجرى مجراها العام فى مجالس الحكمة بالقصر ودار الحكمة . وإنها لصفحة من أغرب صحف الثورة على الأسلام ؛ بيد أنها كانت ثورة سرية تقصد الى غزو العقول والأفهام ، ولم تكن فورة عنيفة تسحق كل شىء فى طريقها بالقوة المادية كما كانت فورة القرامطة ، وهذه الرسائل الكلامية الغريبة التى يتركها لنا الداعى تلقى ضياء على كثير من التفاصيل الخاصة التى كانت ترتبط بالدعوة السرية الفاطمية ، ويفتن الدعاة فى سبكها وتنظيمها . ولقد نظمت الدعوة الفاطمية قبل عصر الحاكم بأمر الله بكثير ؛ ومنذ عصر المعز لدين الله وولده العزيز تعقد مجالس الحكمة ؛ ولكنها كانت عندئذ علنية ، وكانت فقهية تجرى المحاضرة فيها فى فقه آل البيت ومبادىء الشيعة ؛ وكانت الخلافة الفاطمية يومئذ تتشح بشعار الأمامة الأسلامية على أنها من حق الفاطميين وتراثهم الخالص ، وعلى أنها عنوان الزعامة الشرعية من الوجهتين السياسية والدينية ، ولكن هذه الدعوة الدينية السياسية ما لبثت أن تطورت بسرعة ، واتخذت صبغتها الألحادية المغرقة فى عصر الحاكم بأمر الله . ومن الغريب أن يكون الحاكم ، ذلك الذهن الهائم المضطرب ، هو القائم بأعظم دور فى تغذية هذه الحركة وبثها ، وهو المنشىء لدار الحكمة التى لبثت منبعها وملاذها عصراً ، بيد أن هذا الأغراق ذاته كان ضربة شـديدة للدعوة الفاطمية ، لأنه جملها وقفاً على رهط من الدعاة المغامرين الخبثاء ، وباعد بينها وبين الكافة ، وأسبل عليها ألواناً خطرة من الزيغ والألحاد ، ولهذا فقدت الدعوة الفاطمية غير بعيد قوتها وأهميتها وإن كانت مجالس الحكمة قد استمرت بعد ذلك حتى أوائل القرن السادس

ونلاحظ من جهة أخرى أن معظم أولئك الدعاة الذين اضطلعوا ببث هذه المبادىء والتعاليم الألحادية فى مصر لم يكونوا من المصريين ، وإنما كانوا من الأجانب الذين اجتذبتهم الخلافة الفاطمية ببهائها ومشاريعها السرية ؛ وقد ذكر لنا حمزة بن على أسماء بعض أقطاب الدعاة مثل على بن عبد الله اللوانى ، ومبارك

(١) راجع ابن خلـكان — ج ٢ ص ١٦٧

(٢) هى المحفوظة بدار الـكتب رقم ٣٥ عقائد النحل

(٣) الخطط — الطبعة الأهلية ج ٢ ص٢٢٦ وما بعدها . وقد ترجم المستشرق كازانوفا هذا البيان إلى الفرنسـية ونشره بعنوان Doctrine Secréte des Fatimides « التعاليم السرية الفاطمية » — وذلك فى مجلة المباحث الأثرية الشرقية B. d'Archeologie Orientale وقرن ترجمته ببعض شذور عن دعوة القرامطة والاسماعيلية ، ولكنه لم يفطن الى رسائل الدعاة الفاطميين ولم ينتفع بها

ابن على ، وأبو منصور البردعى ، وأبو جعفر الحبال ، هـذا عدا الأخرم ومحمد بن اسماعيل الدرزى السابق ذكرهما ؛ ولم يحسن المصريون استقبال هؤلاء الدعاة الخطرين ، بل قاوموهم ، وفتكوا بهم فى أحيان كثيرة ، أو اضطروهم إلى الفرار ؛ ولم يستطع واحد منهم أن ينشىء له بمصر فرقة حقيقية من الأنصار والمؤمنين ، وإن كان الدرزى قد استطاع أن ينشىء له بالشام فرقة جديدة هى طائفة الدروز التى مازالت قائمة حتى اليوم

وهنا تعرض نقطة ما تزال موضع الجدل ، وهى من هو مؤسس مذهب الدروز الحقيقى ؟ وماذا كان نصيب حمزة بن على فى إنشائه ؟ والمعروف أن بعض المستشرقين ، ومنهم دى ساسى ، يعتبرون أن حمزة هو مؤسس المذهب الحقيقى ، لأن كثيراً من تعاليمه ورسائله تمثل فى كتب الدروز المقدسة (١) ، وقد أشكل على بعضهم فهم مزاعم حمزة ، فاعتقد أنه هو الذى يحمل لقب «قائم الزمان» الذى يتردد فى رسائله ودعواته ، فى حين أنه صريح فى إسناد هذا الوصف للحاكم بأمر الله . والواقع أن فرقة الدروز تنسب قبل كل شئ إلى الدرزى ، وهو الداعى محمد بن اسماعيل الذى تقدم ذكره ، وفى بعض رسائل حمزة مايلقى شيئاً من الضياء على نصيبه الحقيقى من الدعوة ؛ ومن المرجح أن الدرزى سبق حمزة فى القدوم إلى مصر ، وفى الدعوة إلى « ألوهية » الحاكم بأمر الله كما قدمنا ؛ ولكن الظاهر أيضاً أن حمزة ما لبث أن تفوق عليه وفاز دونه بالزعامة والقيادة ، وأن خصومة نشبت بينهما كان الظافر فيها هو حمزة . ويشير حمزة إلى ذلك فى رسالته الرابعة الموسومة بالغاية والنصيحة حيث يحمل على الدرزى الذى هو « نشتكين » (وهو لقب تركى يطلق على الدرزى ويعرف به) ويقول إنه « تغطرس على الكشف بلا علم ولا يقين ، وهو الضد الذى سمعتم بأنه يظهر من تحت ثوب الامام ، ويدعى منزلته . . . وكان من جملة المستجيبين حتى تغطرس وتجبر وخرج من تحت الثوب ، والثوب هو الداعى والسترة التى أمره بها إمامه حمزة بن على الهادى إلى توحيد مولانا جل ذكره » ثم يقول إن الدرزى أنكر التعاليم وتمرد وأثار للجدل بينهما ، وغره ما كان يضربه من زغل الدنانير والدراهم (١) ، ويبدو من ذلك جلياً أن حمزة كان يقف من الدرزى موقف الامام والأستاذ ، وأن الدرزى خرج على تعاليمه ومبادئه ، واستقل بعد ذلك بانشاء فرقة — الدروز — فى الشام ، فهو المؤسس إذن لمذهب الدروز ، وقوامه مزيج من نظرياته وتعاليمه ، ونظريات حمزة وتعاليمه ، ومن الصعب أن نحدد ما لكل من الداعيين فى إنشاء هذا المذهب الغريب من المبادئ والنظريات ، بل من الصعب أن نعين منهما الأصل والناقل ؛ بيد أن بعض النظريات الأساسية التى يعرضها حمزة فى رسائله ما زالت قواماً لمذهب الدروز مثل القول بحلول الروح القدس فى شخص الحاكم ، واعتباره « قائم الزمان » ؛ ثم إن التاريخ الذى يتخذه حمزة لمبدإ هذه الدعوة هو سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) وهى نفس السنة التى اتخذها الدروز بدأ لتاريخهم القدس ؛ وعلى ذلك فاذا كان الدرزى هو الذى أسس فرقة الدروز ، فان لتعاليم حمزة أثراً كبيراً فى صوغ هذا المذهب

ولا ريب أن حمزة بن على كان نموذجاً قوياً لأولئك الدعاة ؛ ففى تفكيره وآرائه وشروحه ما يشهد بكثير من الذكاء والبراعة ؛ ولكن إنشاء دين جديد وعقيدة جديدة والدعوة إلى « ألوهية » بشر ، محاولة تقصر عنها جهود أذكى الدعاة وأقواهم ؛ ومن ثم فأنا نلمس فى آرائه وتدليله كثيراً من ضروب التناقض والضعف ، ونراه يلجأ إلى الرموز والخفاء كلما أعيته الحجة ، ولا يحمل هذا المزيج الذى يقدمه الينا من الشروح والأساطير اليهودية والنصرانية والاسلامية كثيراً من طابع الابتكار والطرافة ، ثم هو فوق ذلك يقدم الينا رسالته فى أسلوب ركيك ينم عن ضعف بيانه العربى ؛ ومع ذلك فان هـذا التراث الذى انتهى الينا من جهود الدعاة يلقى كثيراً من الضياء على أسرار الدعوة الفاطمية وغاياتها ، وهو بذلك يعتبر من الوجهة التاريخية وثيقة لها قيمتها وخطورتها (٢)

محمد عبد الله عنان

المحامى

---

(١) راجع دائرة المعارف الاسلامية فى كلمتى «درزى» « وحمزة » . ولدى ساسى كتاب فى عقائد الدروز عنوانه Exposé de La Relegion des Druses

(١) راجع المخطوط ص ١٢٥ — ١٢٨

(٢) نرى أن نشير هنا إلى مجموعة ثالثة من الرسائل الألحادية التى انتهت إلينا من آثار العصر الفاطمى ، وهى تحفظ بدار الكتب تحت رقم ٢٠ عقائد النحل . وهى بلا عنوان ولا خاتمة ، غير أنه يبدو من قراءتها أنها ترتبط أشد الارتباط بما تقدم من الرسائل ؛ وفى رأينا أنها ليست من تأليف حمزة بن على لاختلاف أسلوبها ولهجتها عن الرسائل الأخرى ؛ ويلوح لنا أنها من كتابة أحد صغار الدعاة ؛ وفيها شرح لبعض الخلال والمسائل كالصدق والدعاء والتحذير والنميمة . . . الخ ؛ وبعض الوقائع التى حدثت للدعاة : وهى فى غاية من الركاكة والضعف من حيث التفكير والأسلوب

الليث بن ســـعد

محدث مصر وفقيهها ورئيسها *

للأستاذ علي الطنطاوي

قال الامام الشافعي : الليث أفقــه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به

وقال الامام أحمد : ليس في أهــل مصر أصح حديثاً من الليث

عَلَم شامخ من أعلام الاسلام ، وإمام من أئمة الدين ، وأحد أفراد الدنيا علماً وذكاء ، ونُبْلاً ورفعة ، وسخاء وكرماً ؛ أجمعوا على أنه عَدْل مالك في الفقه ، ونظيره في الاجتهاد ، وانه لمصر مثل مالك للمدينة : لا يفتى ومالك في المدينــة ، ولا يفتى والليث في مصر وهو بعدُ أعظم جاهاً من مالك ، وأكثر مالاً وأسخى يداً ، وأجزل عطاء . . . بَيْد أن الله قيّض لمالك من دوّن علمه ، وكتب مسائله ، وحرّر مذهبه ، فعاش ونما واتسع ، وكثر أتباعه ومقلدوه ، واندثر مذهب الليث ونُسي اسمه ، فلا يذكره إلا المشتغلون بالرواية الاسلامية ، المنقطعون لدراستها ، العاكفون على كتبها . . .

وما مثل الليث بالذي يُنسى ، وما كان الليث نكرة في الرجال ، ولئن أنكره اليوم بعض الشبـاب أو جهلوا قدره ، أو شغلهم عنه وعن أمثاله « أندره جيد » وهذا الآخر . . « بول ڤاليرى » فلقد عرف له الأولون فضله وعلمه ، وسموّه ورفعته . فعاش رئيساً في العلماء ، مقدّماً عند الخلفاء ، مطاعاً عند الولاة ، مبجلاً عند الخاصة ، موقراً عند العامة ، وازدحمت عليه النعم ، وأقبلت عليه الخيرات ، ودنت منه الأماني ، فأوتي العلم والعقل والصحة والمال والسيادة والجاه ، وأوتي مع هذا كله نفساً أكبر من هذا كله ، فما التفتت إليه ، ولا تمسكت به ، ولا شغلها عن دينها وتقواها . مالت إليه الدنيا فمال عنها ، ومنح من كل نعمة أوفاها فما قصر في شكر ، ولا زهد في أجر ؛ وكان سيّدَ مصر ، أمرُه قبل أمر الولاة ، وحكمه فوق حكم القضاة ، فما اقتنص بذلك دنيا ، ولا غُمِص عليه في بطن ولا فرج ؛ وكان دخله بين عشرين وثمانين ألف دينار في العام ، فما كنز بيضاء ولا صفراء ، ولا منعها فقيراً ، ولا أمسكها عن ذي حاجة ، فأطبق العلماء على إجلاله ، واتفق المصنفون على الثناء عليه ، وعقدت القلوب على حبّه ، وأجمع الناس على احترامه

اسمه وأصله ومولده :

هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفَهمي . كان أبوه من موالي قريش ، ثم افترض في بني فَهْم (وهم بطن من قيس عَيْلان خرج منهم جماعة من العلماء) وتبعه الليث بعده ، فكان اسمه في ديوان مصر ، في موالي بني كنانة من فَهْم ؛ وقيل كان مولى خالد بن ثابت بن ظاعن الفهمي

وكنيته أبو الحارث

ولد في قرقشندة [1] (قرية بأسفل مصر على أربعة فراسخ من الفسطاط) فهو مصري المولد والنشأ ، وأصل أسرته من أصبهان . قال الليث : نحن من أهل أصبهان ، فاستوصوا بهم خيراً ، وقيل إنهم من الفرس ، ولم يصحّ ذلك

وكان مولده يوم الجمعة ١٤ شعبان سنة ٩٤ ، قال الليث : قال لي بعض أهلي : إني ولدت سنة اثنتين وتسعين ، والذي أوقن به أني ولدت سنة أربع وتسعين

---

* جمعنا هذه الترجمة من :
١ ـ الرحمة الغيثية لابن حجر (ص٢) ٢ ـ تاريخ بغداد (ج ١٣ص١) ٣ ـ وفيات الأعيان (ج ١ ص٥٥٤) ٤ ـ تهذيب تاريخ ابن عساكر (مخطوط في المكتبة العربية بدمشق ج١٤ ص١٨١) ٥ ـ التاريخ الصغير للبخاري (ص٢٠٠) ٦ ـ الانساب لسمعاني (ص ٤٣٥) ٧ ـ تاريخ الكندي (ص ١٢٨ وغيرها) ٨ ـ تهذيب التهذيب (ج ٨ ص٤٩٥) ٩ ـ تذكرة الحفاظ (ج ١ص ٢٠٧) ١٠ ـ دول الاسلام للذهبي (ج١ ص ٨٨) ١١ ـ مرآة الجنان لليافعي (ج ١ص ٣٦٩) ١٢ ـ الديباج المذهب لابن فرحون (ص٢٩) ١٣ ـ حياة الحيوان للدميري (ج ٢ ص٣٥٠) ١٤ـ حسن المحاضرة للسيوطي (ج١ص١٣٤) ١٥ـ خلاصة التذهيب للخزرجي (ص ٣٢٣) ١٦ ـ معجم البلدان (ج ٧ ص ٥٨) ١٧ ـ تاريخ الخلفاء (ص ١١٢) ١٨ ـ تهذيب الأسماء للنووي (ج ٢ ص ٧٤) ١٩ ـ الأعلام للزركلي (ص ٨٢٢) وقد تركنا الأسانيد اختصاراً فمن شاء فليرجع في معرفتها إلى هذه الصفحات

(١) هكذا سماها ياقوت وابن حجر والسمعاني وغيرهم ، وفي القاموس ووفيات الأعيان وحياة الحيوان وغيرها قلقشندة (باللام) قلت : واليها ينسب (القلقشندي) صاحب (صبح الأعشى)

شيوخه :

قال أبو نعيم الأصبهانى (فى حلية الأولياء) : أدرك الليث نيفاً[1] وخمسين من التابعين

سمع الليث بمصر من يزيد بن أبى حبيب[2] وجعفر بن ربيعة[3] والحارث بن يعقوب[4] وعبيد الله بن أبى جعفر[5] وخالد بن يزيد[6] وخير بن نعيم[7] وسعيد بن يزيد[8]

وحج الليث سنة ١١٣ وكان عمره تسعة عشر أو عشرين ، فسمع فى حجته تلك من عطاء بن أبى رباح[9] وهشام بن عروة[10] ويحى بن سعيد الانصارى[11] وأبى الزبير المكى[12] وعبد الله ابن أبى مليكة[13] وعمرو بن شعيب[14] وقتادة[15] وعمرو بن

(١) قلت : والأصح أن يقال أدرك خمسين ونيفاً لأنها لاترد إلا بعد العدد كما فى اللسان

(٢) هو يزيد بن سويد الأزدى المصرى مفتى مصر وأول من أظهر فيها علوم الدين والفقه وكان نوبياً أسود حجة حافظاً للحديث توفى سنة ١٢٨

(٣) هو جعفر بن ربيعة بن شرجيل بن حسنة الكندى وثقه أحمد وأبو زرعة توفى سنة ١٣٦

(٤) هو الحارث بن يعقوب (مولى قيس بن سعد بن عبادة) المصرى وثقه بن معين وكان عابداً يقوم الليل كله توفى سنة ١٣٠

(٥) هو عبيد الله بن أبى جعفر الكنانى بالولاء المصرى الفقيه أحد الأعلام . قال ابن سعد : هو فقيه زمانه ، وكان عالماً عابداً زاهداً توفى سنة ١٣٦

(٦) هو خالد بن يزيد الجمحى بالولاء المصرى الاسكندرانى وثقه النسائى توفى سنة ١٣٩

(٧) هو خير بن نعيم بن مرة الحضرمى قاضى مصر وقاضى برقة توفى سنة ١٣٧

(٨) هو سعيد بن يزيد الحميرى الاسكندرانى وثقه أحمد وابن معين وكان من العباد المجتهدين توفى باسكندرية سنة ١٥٤

(٩) هو عطاء بن أسلم بن صفوان تابعى من أجلاء الفقهاء ولد فى جند باليمن ونشأ فى مكة فكان مفتى أهلها ومحدثهم . قال ابن سعد : انتهت اليه الفتوى بمكة ، وقال أبو حنيفة : ما لقيت أفضل من عطاء ، وقال ابن عباس وقد سئل عن شىء : يا أهل مكة تجتمعون على وعندكم عطاء ؟ قيل إنه حج أكثر من ٧٠ حجة توفى سنة ١١٤

(١٠) هو هشام بن عروة بن الزبير بن العوام أحد الأعلام ومن أكابر أهل الحديث ولد بالمدينة ورحل إلى بغداد فتوفى فيها سنة ١٤٦

(١١) هو يحي بن سعيد بن قيس بن عمرو الأنصارى البخارى قاضى المدينة . قال ابن سعد : كان ثقة حجة كثير الحديث ، وكان يوازى الزهرى فى الكثرة ، قال أحمد : هو أثبت الناس توفى سنة ١٤٣

(١٢) هو محمد بن مسلم بن تدرس المكى أحد الأئمة وثقه ابن معين والنسائى وابن عدى توفى سنة ١٢٨

(١٣) هو عبدالله بن عبدالله بن زهير (وهو أبو مليكة) بن عبدالله بن جدعان أدرك ثلاثين من الصحابة وولاه ابن الزبير قضاء الطائف ثقة مات سنة ١١٧

(١٤) هو عمرو بن شعيب بن عبد الله بن عمرو بن العاص نزيل الطائف وثقه النسائى وحقق البخارى سماعه من جده عبد الله توفى سنة ١١٨

(١٥) هو قتادة بن دعامة بن قتادة السدوسى البصرى مفسر حافظ ضرير أكمه قال أحمد : قتادة أحفظ أهل البصرة وكان مع علمه بالحديث رأساً فى اللغة وأيام العرب . قال ابن المسيب ، ما أتانا عراقى أحفظ من قتادة . احتج به أرباب الصحاح توفى سنة ١١٧

دينار[1] ونافع[2]

قال الليث : حججت أنا وابن لهيعة[3] فرأيت نافعاً مولى ابن عمر فدخلت معه إلى دكان علاف ، فقال : من أين ؟ قلت : من أهل مصر ، قال : ممن ؟ قلت : من قيس . قال : ابن كم ؟ قلت : ابن عشرين ، قال : أما لحيتك فلحية ابن أربعين ! وحدثنى . فمر بنا ابن لهيعة ، فقال من هـذا ؟ قلت : مولى لنا فلما رجعنا إلى مصر ، جعلت أحدّث عن نافع فأنكر ذلك ابن لهيعة ، وقال : أين لقيته ؟ قلت : أما رأيت العبد الذى كان فى دكان العلاف ؟ هو ذاك !

وخرج الليث إلى العراق سنة ١٦١

قال أبو صالح[4] : خرجنا معه من مصر فى شوال وشهدنا الأضحى فى بغداد ، وقال لى الليث ونحن فى بغداد : سَلْ عن قطيعة بنى جدار ، فاذا أرشدت اليها فاسأل عن منزل هُشيم الواسطى[5] فقل له : أخوك ليث المصرى يقرئك السلام ، ويسألك أن تبعث اليه بشىء من كتبك

فلقيت هُشيما فدفع إلىّ شيئاً ، فكتبنا منه وسمعته مع الليث ، وكان الليث قد كتب من علم الزهرى[6] كثيراً ، قال : فأردت

(١) هو عمرو بن دينار الجمحى بالولاء المكى أحد الأعلام قال ابن مسعر : ثقة ثقة ثقة سنة ١٢٥

(٢) هو نافع المدنى أبو عبد الله من أئمة التابعين بالمدينة كان علامة متفقها على رياسته ، كثير الرواية للحديث ، ثقة ، وهو ديلمى الأصل مجهول النسب أصابه عبد الله بن عمر صغيراً فى بعض مغازيه ، ونشأ بالمدينة وأرسله عمر بن عبد العزيز إلى مصر ليعلم أهلها السنن . توفى سنة ١٢٠

(٣) عبد الله بن لهيعة بن فرعان الحضرمى قاضى الديار المصرية . قال الامام أحمد : محدث مصر ابن لهيعة . وقال سفيان الثورى : عند ابن لهيعة الأصول وعندنا الفروع . ولى قضاء مصر للمنصور العباسى سنة ١٥٤ فأجرى عليه ٣٠ ديناراً كل شهر فأقام عشر سنين وصرف سنة ١٦٤ واحترقت داره وكتبه سنة ١٧٠ فبعث اليه الليث بألف دينار . مات ١٧٤

(٤) هو كاتب الليث عبد الله بن صالح الجهنى بالولاء . قال أبو زرعة حسن الحديث وغلطه غيره توفى سنة ٢٢٣

(٥) هو هشيم بن بشر بن أبى حزم الواسطى نزيل بغداد ، حفظ ، كان محدث عصره ، لزمه الامام أحمد أربع سنين توفى سنة ١٨٨

(٦) هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهرى القرشى المدنى تابعى جليل وإمام علم ، كان عالم الحجاز والشام وكان آية فى الحفظ حتى أنه قال : ما استودعت قلبي شيئاً فنسيته . قال الليث : مارأيت

أن أركب البريد اليه الى الرصافة نخفت ألاّ يكون ذلك لله فتركته أى إنه آثر أن يروى عنه بالواسطة خشية أن يكون فى ذهابه اليه وسماعه منه حظ نفسى ، فلا يكون ذلك خالصاً لله وحده

وسمع من سعيد المقبرى[1] ويونس بن يزيد[2] وغيرهم وسمع منه خلق كثير

منزلته عند العلماء

قال الامام أحمد بن حنبل : مافى هؤلاء المصريين أثبت من الليث ، لاعمرو بن الحارث[3] ولا أحد . ثم قال : الليث بن سعد ؟ ماأصح حديثه ! وجعل يثنى عليه

فقال رجل لأبى عبد الله (يعنى أحمد) . إنسان ضعّفه فقال : لايدرى

وقال مرّة : ليس فيهم (أى أهل مصر) أصح حديثاً من الليث وعمرو بن الحارث يقاربه

وقال الامام الشافعى : الليث أفقه من مالك ، إلاّ أن أصحابه لم يقوموا به ، أى لم يدوّنوا علمه ، ولم يحرّروا مذهبه فضاع واندثر

وقال : مافاتنى أحد فأسفت عليه ما أسفت على الليث وابن أبى ذئب[4]

وقال ابن حبان[5] (فى الثقات) : كان من سادات أهل زمانه فقهاً وورعاً وعلماً وفضلاً وسخاء

وقال ابن أبى مريم[6] : ما رأيت أحداً من خلق الله أفضل

عالماً قط أجمع من ابن شهاب ، وقال مالك : لم يكن فى الناس له نظير توفى سنة ١٢٤

(١) هو سعيد بن أبى سعيد المقبرى المدنى ثقة جليل توفى سنة ١٢٤

(٢) يونس بن يزيد الأموى بالولاء وثقه النسائى وغيره توفى سنة ١٥٩

(٣) هو عمرو بن الحارث بن يعقوب الانصارى مولى قيس بن سعد ابن عبادة . الفقيه المصرى المقرئ أحد الأئمة مات سنة ١٤٨

(٤) هو محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة القرشى العامرى المدنى أحد الأئمة الأعلام . قال أحمد يشبه بابن المسيب . وهو أصلح وأورع وأقوم بالحق من مالك : ولما حج المهدى دخل مسجد النبى صلى الله عليه وسلم فقال له رجل : قم فهذا أمير المؤمنين ، فقال ابن أبى ذئب إنما يقوم الناس لرب العالمين . فقال المهدى : دعه لقد قامت كل شعرة فى رأسى ، مات سنة ١٥٩

(٥) هو محمد بن حبان التميمى الحافظ إمام عصره صنف تصانيف لم يسبق إلى مثلها ، وكان من أوعية العلم فى اللغة والفقه والحديث والوعظ ومن عقلاء الرجال ، وكان على قضاء سمرقند زمانا مات سنة ٣٥٤

(٦) هو بريد بن أبى مريم مالك السلولى البصرى وثقه ابن معين وأبو زرعة مات سنة ١٤٤

من ليث ، وما كانت خصلة يتقرب بها الى الله عز وجل إلا كانت تلك الخصلة فى الليث

وقال أبو يعلى الخليلى : كان إمام وقته بلا مدافعة

وقال يحيى بن بكر : ما رأيت فيمن رأيت مثل الليث ، وما رأيت أكمل منه ؛ كان فقيه البلد ، عربى اللسان ، يحسن القرآن والنحو والحديث والشعر والمذاكرة (الى أن عدّ خمسة عشرة خصلة) ما رأيت مثله

وقال : الليث أفقه من مالك ، ولكن كانت الحظوة لمالك

وقال سعيد بن أبى أيوب[1] : لو أن مالكاً والليث اجتمعا كان مالك عند الليث أبكم ، ولباع الليث مالكاً فيمن يريد

وسئل أبو زرعة[2] : الليث يحتج بحديثه ؟ قال : أى لعمرى

وقال يحيى بن معين[3] : ثبت

وقال يعقوب بن شيبة[4] : ثقة وقال مثل ذلك محمد بن سعد[5]

وقال النووى[6] (فى تهذيبه) : أجمعوا على جلالته وأمانته وعلوّ مرتبته فى الفقه والحديث

قالوا : وكل مافى كتب مالك من قوله (وأخبرنى من أرضى من أهل العلم) فانما يعنى به الليث بن سعد

البقية فى العدد القادم

علی الطنطاوی

---

(١) هو سعيد بن أبى أيوب الخزاعى بالولاء وثقه ابن معين وأبو زرعة مات سنة ١٦١ ، والمعنى أن مالكا على بيانه وجلالة قدره وطول باعه ، دون الليث ، وإلا فمالك معروف قدره ، وعلو منزلته ، ولم يقصد ابن أبى أيوب انتقاصه ولا الحط من شأنه ، رضى الله عنهم أجمعين

(٣) هو عبيد الله بن عبد الكريم المخزومى بالولاء الرازى الحافظ أحد الأعلام والأئمة . قال أحمد : ماجاوز الجسر أحفظ من أبى زرعة . وقال اسحق : كل حديث لا يعرفه أبو زرعة فليس له أصل ، روى أنه يحفظ عشرة آلاف حديث فى القرآن . قال أبو حاتم : ماخلف بعده مثله . مات سنة ٢٦٤

(٤) يحيى بن معين الغطفانى البغدادى الحافظ الامام العلم مات سنة ٢٣٣ بالمدينة وحمل على أعواد النبى صلى الله عليه وسلم ونودى بين يديه : هذا الذى ينفى الكذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(٥) يعقوب بن شيبة السدوسى البصرى من كبار علماء الحديث له المسند الكبير ما صنف مسند أحسن منه ولم يتمه وهو مئات من الأجزاء كان يشتغل فى تبييضه عشرات من الوارقين مات سنة ٢٦٢

(٦) محمد بن سعد بن منيع الزهرى بالولاء مؤرخ ثقة من حفاظ الحديث ، كان كاتب الواقدى ، أشهر كتبه الطبقات الذى طبع فى أوربا ، مات سنة ٢٣٠

(٧) هو الامام الكبير محيي الدين النووى من كبار أئمة الشافعية وصاحب التصانيف الكثيرة الجليلة توفى ١٤ رجب سنة ٦٧٦

قصيدة تاريخية خطيرة

أهل غرناطة يستغيثون السلطان بايزيد

في أوائل القرن السابع الهجرى ذهبت ريح الموحدين من الأندلس ،ونشأت دولة بنى نصر أو بنى الأحمر فى بقية الأحداث من الدولة الاسلامية العظيمة — الجنوب الغربى من الجزيرة الكبيرة جزيرة الأندلس . وثبت بنو الأحمر على قراع الخطوب ، ونزال الكوارث خمساً وستين ومائتى سنة . ثم ذهبت الصولة ودالت الدولة ، وأناخت الوحشة على المعقل الأخير للحضارة الاسلامية

هذا فجر اليوم الرابع من ربيع الأول سنة ٩٨٧ ، وهـذا أبو عبد الله الشقىّ يسير فى خمسين فارساً ليسلم مفاتيح الحمراء إلى فرديناند وايزابلا

وكان المسلمون قد استوثقوا لدينهم وأنفسهم وأموالهم ، وأخذوا على الأسبان من الشروط ما شاءوا . وبذل لهم الأسبان من العهود والأيمان ما جعلوه حبالة إلى السيطرة والقتل والسلب والاكراه على التنصر

اشترط المسلمون زهاء ستين شرطاً يكفل لهم الوفاء بهـا سلامة شاملة ، وطمأنينة عامة . واشترطوا أن يقبـل شروطهم زعيم النصرانية بابا رومية

وما هو إلا أن ظفر الأسبان بعدوهم حتى استباحوا نقض العهود ، والاغراق فى العدوان والظلم والنهب والقتل والاكراه على التنصر . فلما استيأس المسلمون ثاروا بعدوهم المرة بعد المرة يؤثرون الموت الوحىّ على الموت البطىء ، ومازال بهم القتل والاستعباد والتشريد والنفى حتى جلا آخرهم عن البلاد عام ١٠١٧ من الهجرة

وقد استصرخ مسلمو الأندلس ملوك المسلمين ، فلم يصرخهم أحد إلا خير الدين باشا قائد الأساطيل العثمانية فى عهد السلطان سليمان ، فقد أمدهم فى إحدى ثوراتهم بجند نصروهم على عدوهم ومكنوا لهم الرحيل ، فحملت السفن منهم سبعين ألفاً إلى أفريقية

وكان المسلمون أرسلوا وفداً يستغيث السلطان بايزيد الثانى العثمانى ، وبعثوا بقصيدة بثوابها شكواهم ، وعددوا ما أصابهم فى أنفسهم ودينهم . وهى قصيدة طويلة ننشرها اليوم على صفحات الرسالة ، معترفين بالفضل للشيخ الجليل العلامة الشيخ خليل الخالدى الذى كتبت فى الرسالة عنه مرتين . جمعنا بالشيخ الكريم أحـد المجالس فى حلوان شهر رمضان المـاضى . فسأله بعض الحاضرين ، وهو يفيض فى حديثه ، عن كتاب عن المدافع كتبه أحد الأندلسيين فحدث عنه وقال : وكانوا يسمون المدافع الأنفاض ، وقد قال قائلهم :

وجاءوا بأنفاض عظام كثيرة ... تهـدم أسوار البلاد المنيعة

وهذا البيت من قصيدة بعث بها أهل غرناطة إلى السلطان بايزيد . فاستنشدناه مايحفظ منها فأنشد ثلاثة وثلاثين بيتاً وقال : إن القصيدة طويلة تجاوز مائة بيت ، وإنها عنده ، قد نسخها فى مدينة فاس . فسألناه أن يرسلها إلينا حين يعود إلى القدس

وقد أنجز الشيخ حفظه الله وعده ، فأرسل القصيدة لتنشر فى مجلة « الرسالة » . ويتبين من القصيدة أنهم استغاثوا السلطان من قبل.فكتب إلى الأسبان فلم يأبهوا لما كتب ، وأن ملوك مصر أرسلوا رسلاً فادعى الأسبان أن المسلمين تنصروا مختارين ، وسلكوا فى الزور ما نعهده اليوم فى السياسة الأوربية

ولسنا ندرى ما كان جواب السلطان بايزيد على هذه الدعوة اللهوفة والقصيدة الباكية . فمن عرف شيئاً فى هـذا فليخبرنا مشكوراً

عبد الوهاب عزام

* * *

القصيدة ومقدمتها

ومما كتبه بعض أهل الجزيرة بعد استيلاء الـكفر على جميعها للسلطان أبى يزيد خان العثمانى رحمه الله مانصه بعد سطر الافتتاح

« الحضرة العلية ، وصل الله سعادتها ، وأعلى كلمتها ، ومهد أقطارها ، وأعز أنصارها ، وأذل عداتها . حضرة مولانا ، وعمدة ديننا ودنيانا ، السلطان الملك الناصر ، ناصر الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، قامع أعداء الله الـكافرين ، كهف الاسلام ، وناصر دين نبينا محمد عليه السلام ، محيي العدل ، ومنصف المظلوم ممن ظلم ، ملك العرب والعجم ، والترك والديلم ، ظل الله فى أرضه ، القائم بسنته وفرضه ، ملك البرين ، وسلطان البحرين ، حامى الذمار ، وقامع الـكفار ، مولانا وعمدتنا ، وكهفنا وغياثنا ،

مولانا أبو زيد ، لازال ملكه موفور الأنصار ، مقروناً بالانتصار ، مخلد المآثر والآثار ، مشهور المعالى والفخار ، مستأثراً من الحسنات بما يضاعف الله به الأجر الجزيل فى الدار الآخرة ، والثناء الجميل والنصر فى هذه الدار ، ولا برحت عزماته العلية مختصة بفضائل الجهاد ، مجردة على أعداء الدين من بأسها ما يروى صدور السمر والصفاح ، وألسنة السلاح ، سالكة سبيل السابقين ، الفائزين برضى الله وطاعته يوم يقوم الأشهاد

سلام كريم دائم متجدد … أخص به مولاى خير خليفة
سلام على مولاى ذى المجد والعلا … ومن ألبس الكفار ثوب المذلة
سلام على من وسع الله ملكه … وأيده بالنصر فى كل وجهة
سلام على مولاى من دار ملكه … قسنطينةٌ أكرمْ بها من مدينة
سلام على من زين الله ملكه … بجند وأتراك من اهل الرعاية
سلام عليكم شرف الله قدركم … وزادكم ملكا على كل ملة
سلام على القاضى ومن كان مثله … من العلماء الأكرمين الأجلة
سلام على أهل الديانة والتقى … ومن كان ذا رأى من اهل المشورة
سلام عليكم من عبيد تخلفوا … باندلس بالغرب فى أرض غربة
أحاط بهم بحر من الروم زاخر … وبحر عميق ذو ظلام ولجة
سلام عليكم من عبيد أصابهم … مصاب عظيم يا لها من مصيبة
سلام عليكم من شيوخ تمزقت … شيوبهم بالنتف من بعد عزة
سلام عليكم من وجوه تكشفت … على جملة الأعلاج من بعد سترة
سلام عليكم من بنات عواتق … يسوقهم الألباط قهراً لخلوة
سلام عليكم من عجائز أكرهت … على أكل خنزير ولحم لجيفة
نقبل نحن الكل أرض بساطكم … وندعو لكم بالخير فى كل ساعة
أدام الإله ملككم وحياتكم … وعافاكمُ من كل سوء ومحنة
وأيدكم بالنصر والظفر بالعدا … وأسكنكم دار الرضى والكرامة
شكونا لكم مولاى ما قد أصابنا … من الضر والبلوى وعظم الرزية
غُدرنا ونُصّرنا وبُدّل ديننا … ظُلمنا وعوملنا بكل قبيحة
وكنا على دين النبى محمد … نقاتل عباد الصليب بنية
ونلقى أموراً فى الجهاد عظيمة … بقتل وأسر ثم جوع وقلة
فجاءت علينا القوط من كل جانب … بسيل عظيم جملة بعد جملة
ومالوا علينا كالجراد بجمعهم … بجد وعزم من خيول وعدة
فكنا بطول الدهر نلقى جموعهم … فنقتل فيها فرقة بعد فرقة
وفرسانهم تزداد فى كل ساعة … وفرساننا فى حال نقص وقلة
فلما ضعفنا خيموا فى بلادنا … ومالوا علينا بلدة بعد بلدة
وجاءوا بانفاض[1] عظام كثيرة … تهدم أسوار البلاد المنيعة
وشدوا عليها فى الحصار بقوة … شهوراً وأياماً بجد وعزمة
فلما تفانت خيلنا ورجالنا … ولم نر من إخواننا من إغاثة
وقَلَّت لنا الأقوات واشتد حالنا … أطعناهمُ بالكره خوف الفضيحة
وخوف على أبنائنا وبناتنا … من اَن يؤسروا أو يقتلوا شر قتلة
على أن نكون مثل من كان قبلنا … من الدجن من أهل البلاد القديمة
ونبقى على آذاننا وصلاتنا … ولا نترك شيئاً من اَمر الشريعة
ومن شاء منا البحر جاز مؤمّناً … بما شاء من مال الى أرض عُدوة
الى غير ذاك من شروط كثيرة … تزيد على الخمسين شرطاً بخمسة
فقال لنا سلطانهم وكبيرهم … لكم ما شرطتم كاملاً بالزيادة
وأبدى لنا كتباً بعهد وموثق … وقال لنا هذا أمانى وذمتى
فكونوا على أموالكم وديارכم … كما كنتمُ من قبل دون أذية
فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم … بدا غدرهم فينا بنقض العزيمة
وخان عهوداً كان قد غرنا بها … ونصّرنا كرهاً بعنف وسطوة
وأحرق ما كانت لنا من مصاحف … وخَلَّطها بالزبل أو بالنجاسة
وكل كتاب كان فى أمر ديننا … ففى النار ألقوه بهزؤ وحقدة
ولم يتركوا فينا كتاباً لمسلم … ولا مصحفاً نخلو به للقراءة
ومن صام أو صلى ويعلم حاله … ففى النار يلقوه على كل حالة
ومن لم يجىء منا لموضع كفرهم … يعاقبه الألباط شر العقوبة
ويلطم خديه ويأخذ ماله … ويجعله فى السجن فى سوء حالة
وفى رمضان يفسدون صيامنا … بأكل وشرب مرة بعد مرة
وقد أمرونا أن نسب نبينا … ولا نذكرنه فى رخاء وشدة
وقد سمعوا قوماً يغنون باسمه … فأدركهم منهم أليم المضرة
وعاقبهم حكامهم وولاتهم … بضرب وتغريم وسجن وذلة
ومن جاءه الموت ولم يحضر الذى … يذكرهم لم يدفنوه بحيلة
ويترك فى الزبل طريحاً مجندلاً … كمثل حمار ميّت أو بهيمة
الى غير هذا من أمور كثيرة … قباح وأفعال غرار ردية
وقد بدلت أسماؤنا وتغيرت … بغير رضى منا وغير إرادة
فآها على تبديل دين محمد … بدين كلاب القوط شر البرية

(١) الأنفاض المدافع

وآها على أسماء حين تبدلت … بأسماء أعلاج من اهل الغباوة
وآها على أبنائنا وبناتنـــا … يروحون للألباط فى كل غدوة
يعلمهم كفراً وزوراً وفرية … ولم يقدروا أن يمنعوهم بحيلة
وآها على تلك المساجد حولت … كنائس للكفار بعد الطهارة
وآها على تلك الصوامع علقت … نواقيسهم فيها نظير الشهادة
وآها على تلك البلاد وحسنها … لقد أظلمت بالكفر أعظم ظلمة
وصارت لعباد الصليب معاقلا … وقد أمنوا فيها وقوع الاغارة
وصرنا عبيداً لا أسارى فنفتدى … ولا مسلمين نطقهم بالشهادة
فلو أبصرت عيناك ماصار حالنا … إليه لجادت بالدموع الغزيرة
ويا ويلنا يا بؤس ما قد أصابنا … من الضر والبلوى وثوب المذلة
سألناك يا مولاى بالله ربنـــا … وبالمصطفى المختار خير البرية
وبالسادة الأخيار آل محمد … وأصحابه أكرم بهم من صحابة
وبالسيد العباس عم نبينا … وشيبته البيضاء أفضل شيبة
وبالصالحين العارفين بربهم … وكل ولىّ فاضل ذى كرامة
عسى تنظروا فينا وفيما أصابنا … لعل إله العرش يأتى برحمة
فقولك مسموع وأمرك نافذ … وماقلت من شيء يكون بسرعة
ودين النصارى أصله تحت حكمكم … ومن ثم يأتيه إلى كل كورة
فبالله يا مولاى منوا بفضلكم … علينا برأى أو كلام بحجة
فانتم أولات الفضل والمجد والعلا … وغوث عباد الله فى كل آفة
فسل بابهم أعنى المقيم برومة … بماذا أجازوا الغدر بعد الأمانة
وما لهم مالوا علينا بغـدرهم … بغير أذى منا وغير جريمة
وحبسهم المغلوب فى حفظ ديننا … وامن (١) ملوك ذى وفاء وجلة
ولم يخرجوا من دينهم وديارهم … ولا نالهم غدر ولا هتك حرمة
ومن يعط عهداً ثم يغدر بعده … فذاك حرام الفعل فى كل ملة
ولا سيما عنـد الملوك فانه … قبيح شنيع لا يجوز بوجهة
وقد بلغ المكتوب منكم إليهم … فلم يعملوا منـه جميعاً بكلمة
ومازادهم إلا اعتداء وجرأة … علينا وإقداماً بكل مساءة
وقد بلغت أرسال مصر إليهم … وما نالهم غدر ولا هتك حرمة
وقالوا لتلك الرسل عنا بأننا … رضينا بدين الكفر من غير قهرة
وساقوا شهود الزور ممن أطاعهم … ووالله ما نرضى بتلك الشهادة
لقد كذبوا فى قولهم وكلامهم … علينا بهذا القول أعظم فرية
ولكن خوف القتل والحرق ردنا … نقول كما قالوه من غير نيـة
ودين رسول الله ما زال عندنا … وتوحيدنا لله فى كل لحظة
ووالله ما نرضى بتبديل ديننا … ولا بالذى قالوا من امر الثلاثة
وإن زعموا انا رضينا بدينهم … بغير أذى منهم لنا ومساءة
فسل انجرا (١) عن أهلها كيف أصبحوا … أسـارى وقتلى تحت ذل ومهنة
وسل بِلّفيقا (٢) عن قضية أمرها … لقد مزقوا بالسيف من بعد حسرة
ومنيافة (٣) بالسيف مزق أهلها … كذا فعلوا أيضاً بأهل البُشُرّة (٤)
واندرش بالنار أحرق أهلها … بجامعهم صاروا جميعاً كفحمة
فها نحن يا مولاى نشكو إليكم … بهذا الذى نلقاه من شر فرقة
عسى ديننا يبقى لنا وصلاتنا … كما عاهدونا قبل نقض العزيمة
وإلا فيجلونا جميعاً من ارضهم … بأموالنا للغرب دار الأحبـة
فاجلاؤنا خير لنا من مقامنا … على الكفر فى عز على غير ملة
فهذا الذى نرجوه من عز جاهكم … ومن عندكم تقضى لنا كل حاجة
ومن عندكم نرجو زوال كروبنا … ومن عندكم تقضى لنا كل حاجة
ومن عندكم نرجو زوال كروبنا … وما نالنا من سوء حال وذلة
فأنتم بحمـد الله خير ملوكنا … وعزتكم تعـلو على كل عزة
فنسـأل مولانا دوام حياتكم … بملك وعز فى سرور ونعمة
وتمدين أوطان ونصر على العدا … وكثرة أجنـاد ومال وثروة
وثم سـلام الله تتلوه رحمة … عليكم مدى الأيام فى كل ساعة

انتهت الرسالة من نسختين بقلم مغربى رأيتهما بعاصمة فاس صانها الله من كل باس

خليل الخالدى

(١) لعله أشار بهذا الشطر وبالبيت الذى يليه إلى الأقطاع الكبير الذى أقطعه فرديناند أبا عبد الله الصغير وبالمحاباة التى قصرها عليه دون سائر قواد المسلمين وجنودهم

(١) هـذه قبيلة كبيرة يزيد عددها على مائة ألف تسكن الآن مابين طنجة وسبتة

(٢) وأما بلفيق فهى بلدة أبي البركات البلفيقى من رجال الأندلس المشهورين

(٣) هى بلدة بأحواز غرناطة دخلتها جنود فرديناند بأمان ثم فتكوا بأهلها جميعاً والآن يقولون لها منتافيه . وقد رأيت هذه البلدة تقرب من بلدة لوشه التى يقولون الآن عنها لوخه بلد لســان الدين فانهم يقلبون كل شين خاء فيقولون عن شينيل نهر غرناطة خينيل

(٤) وأما البشرات فهى ناحيـة كبيرة تشتمل على قرى كثيرة فيها مغارات حصينة مررت عليها فى طريقى إلى جبل شلير وهو جبل لا يفارقه الثلج لا فى الشتاء ولا فى الصيف وأما ناحية البشرات فهى من أنزه بقاع الأندلس فيها الجنان الكثيرة والعيون الغزيرة وأنواع النبات والعقاقير والأفاويه وكنت أشم رائحة قوية حينما أتجول فى أنحائها (الخالدى)

٣ـ قصــــة المِكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

لوفن هوك Leeuwenhoek

أول غزاة المكروب

« بائع القماش الهولاندى الساذج الذى ضحك منه أهل بلده فكاتب الجمعية الملكية البريطانية وبها روبرت بويل واسحاق نيوتن فاستمعت له وصفقت خمسين عاماً »

— ٤ —

وكانت تلك الحيوانات الصغيرة فى كل مكان ، حتى فى فم « لوفن هوك » . كتب « لوفن » إلى الجمعية الملكية يقول : « لقد بلغت العام الخمسين من عمرى ومع هذا لى أسنان سليمة سلامة لا تتفق مع هذه السن ، وسبب هذا أنى أدلك أسنانى بالملح كل صباح دلكاً شديداً ، ثم أنظف أضراسى بريشة وأدلكها بثوب دلكاً عنيفاً » . ومع ذلك كانت تبقى بقيـة من جسم أبيض فيما بين تلك الأسنان . فتراءى للوفن أن يتعرف كنهها فقشط منها بعضها ودافه فى ماء مطر نقى وأخذ منه فى شعرية من الزجاج ونصبها تحت عدسته ، ثم أغلق الباب . وأخذ ينظر فرأى عند بؤرة العدسة مخلوقات جديدة ، فنوع يثب قدُماً فى الماء « كـكراكى الأسماك » ، ونوع ثان لا يلبث أن يستقيم فى عومه قليلاً حتى يدور بغتة فينتكس على رأسه انتكاسات رشيقة ، ونوع ثالث كالعصى الملتوية يتحرك فى بطء شديد تكاد تخطئه العين ، إلاّ عين لوفن ، فأخذ يحملق فيها حتى احمرت عيناه ، وحتى رآها تتحرك يقيناً ، وتنبض بالحيـــاة يقيناً . كان فم « لوفن » مليئاً بالمتحركات من شتى الأجناس . وكان به جنس آخر كقضبان الخيزران سهلة التثنى ، تجىء وتروح فى تؤدة الأسقف ووقاره ، وهو على رأس موكبه بين قسيسيه وأحباره ، وجنس خامس — حلزونات كالبريمات نوازع القناين ، نفخ الله فيها من روحه فجاءت أشد ما تكون سعياً ونشاطاً

لم يقع هذا الرجل الغريب على شىء إلا اتخذه موضوعاً لتجربته ، ولم يعتق نفسه ، فاتخذ ذاته موضوعاً للتجربة أيضاً . وأتعبه العمل وأجهده طول التحديق إلى تلك الحيوانات التى بأسنانه فطلب الراحة فى التربض تحت الأشجار العالية ، وقد أخذت بقدوم الخريف تتناثر عنها ورقاتها المريضـة الصفراء فتقع من تحتها على سطوح التُرَع وهى فى سكونها وملاستها كالمرايا الغبراء ، ولكنه ما لبث أن لَقِى فى طريقه شيخاً هرماً ، فحدثه فكان هذا إيذاناً بذهاب راحته وانتهاء رياضته . كتب « لوفن » إلى الجمعية الملكية عن هذا يقول : « وتحدثت الى هذا الشيخ فألفيته عاش ما خلا من أيامه عيشة قصْدٍ واستقامة ، فالوسكى لم يذقه قط ، والتبغ لم يمس فمَه ، والنبيذ ندر شربه إياه . ووقعت عينى على أسنانه فوجدتها مغطاة بالرواسب ، فسألته متى نظّفها آخر مرة ، فأجاب إنه لم ينظّفها مرة واحدة فى حياته

فما قرع هذا الجواب سمع « لوفن » حتى طار التعب عن عينيه . فقد وقع فى نفسه أن فم هـذا الرجل لا بد أن يكون جنينة مليئة بالحيوانات من كل صنف بهيج وغير بهيج ، وما لبث أن جر الشيخ القذِر التقىّ الى مكتبه . وبالطبع وجد الألوف من تلك الحيوانات الصـغيرة فى فمه ، ولكن كان همه أن يخبر الجمعية الملكية أنه وجد فى فمه مخلوقا جديداً ينسلُّ فى التواءاته كالأفعى بين شتى الحيوانات الأخرى ، وأن الماء بأنبوبة الزجاج الشعرية كان يعج به تحت عدسته

ومن الغريب فى «لوفن هوك» أنك مهما تصفحت كتبه ، وهى مئات ، فلن تجـــده يذكر مرة واحدة أن هذه الأحياء الصغيرة تضر بالأنسان . إنه رآها فى ماء الشرب ، ووقع عليها فى فم الأنسان ، ومضت الأعوام فتكشفت له نفس تلك الأحياء فى أمعاء الضفدع وأمعاء الخيل وفى أمعائه هو ، كان يجدها أسراباً أسراباً على حد قوله « كلما اعتراه اسهال » . ومع هذا لم يقل إنها كانت سبباً فى هذا الذى اعتراه . لقد كان محاذراً فى أحكامه ، ولم يكن له ذلك الخيال الذى اعتاد الناس أن يطيروا به الى استنتاجات فطيرة غير ناضجة كالتى يثب إليها أهل هذا العصر

الحاضر من دُرّاس المكروب . ولكم وَددْنا لو درس هؤلاء ما كتب « لوڤن » ، إذن لتعلموا من حذره الشيء الكثير . فى الحق لقد وصف الواصفون فى نصف القرن السالف آلافاً من المكروبات ، ونسبوا اليها مئات من الأمراض ، فكشف النقد فى الكثرة الكبرى من تلك الحالات أن اجتماع المرض والمكروب فى الجسم إنما كان اتفاقاً عارضاً . كان « لوڤن هوك » يخشى دائماً أن يشير إلى الشيء فالشيء ويقول هذا سبب هذا . كان به ايمان فطرى بتعقد الأمور واختلاط الأســـباب التى تنتج الحياة وظواهرها ، فكان دائماً محجاما لا يقدم على ربط سبب بظاهره

ومرّت السنون وهو يشتغل بالبزازة فى دكانه الصغير ، أو يقوم بكنس دار البلدية « بدلفت » . وزاد حذراً وزاد شراسة ، وازدادت كذلك الساعات الطويلة التى كان يقضيها فى التحديق فى المئات من مكرسكوباته ، وزاد اكتشافه لكل عجيب غريب . وذات يوم نظر إلى سمكة صغيرة فى أنبوبة من الزجاج وقد علا ذيلُها فلمح فيه لأول مرة أوعية الدم الشعْرية التى تصل مابين الأوردة والشرايين فاستكمل بذلك الدورة الدموية التى اكتشفها « هارفى » من قبله

وكان « لوڤن » لا يمتنع عن امتحان الشيء لقداسة أو عاطفة ، أو خشيةَ أن يُسيء إلى الأدب والحرُمات . فاكتشف الخلية المنوّية للذكر من الأنسان — اكتشاف فيه تورّط وفيه احراج ، وفيه جمود وبرود فى سبيل العلم تقشعر منه النفوس ، ولكن « لوڤن » كان رجلاً بسيطاً ساذجاً

ودارت الأيام فشاع ذكره فى أوربا ، وجاءه بطرس الأكبر قيصر الروس يقدّم له احترامه ، وسمت اليه ملكة الأنجليز فى بلدته لترى الأعاجيب من خلال عدساته . وأبطل للجمعية الملكية كثيراً من الخزعبلات السائدة ، وكان أشيع أعضائها ذكرا ما خلا « اسحق نيوتن » و « روبرت بويل » . ولم يغير كل ذلك شيئاً من نفسه ؛ ذلك أنه كان من أول الأمر كبير التقدير لها كثير الأعجاب بها . وكانت كبرياؤه لا حد لها ، لا يضارعها إلا اتضاعه كلما فكر فى هذا الكون وخفاياه ، فى هذا السر الهائل المجهول الذى يَلفّه ويلفّ سائر الناس معه . كان يعبد الله ، وكان عبّاداً للحقيقة . قال : « فى اعتزامى ألا أحتفظ بآرائى عناداً وتعصباً ، فأنا أنبذها الى ما يعرضه علىّ غيرى من الآراء ، مادام هذا الغير لاَ يطلب من عرضها إلا إظهار الحقيقة لعينى ، وأنا أعتنق هذا المعروض الجديد بمقدار ما أستطيع تحقيقه فيه من صواب . كذلك فى اعتزامى أن أستخدم ما حبانى به الله من مواهب قليلة للحيلولة بين الناس وبين خرافات وثنية جاءتهم من الزمن القديم . وفى اعتزامى أن أنهض الى الحق وأن أثبت عليه »

وكان صحيح الجسم صحة خارقة ، ففى الثمانين كان يرفع بيده المكرسكوب ، وهى ترتعد ، إلى زواره لينظروا بها إلى الحيوانات الصغيرة ، أو الى صنوف الأجنة من المحار . وكان مُغرماً بالشراب فى الأمساء ، وأىّ هولاندى ليس به هذا ؟ وكأنما كان المرض لا يمسه إلا فى الأصباح التى تلى تلك الأمساء ، وما كان مرضاً بل ضيقاً فى النفس واعتلالاً فى المزاج . وكان يبغض الأطباء فلا يستنصح منهم أحدا . وأنىّ لهم معرفة بأدواء الجسد وعلمهم بتركيبه عشر معشار علمه ؟ ومن أجل هذا كانت له نظريته الخاصة فى تعليل سوء مزاجه — وأية نظرية تلك ! كان يعلم أن بالدم كرات صغيرة مستديرة هو الذى اكتشفها وارتآها أول راء . وهو الذى اكتشف فى ذيل السمكة تلك الشعريات الصغيرة التى تصل ما بين الأوردة والشرايين . فالليالى التى كان يعمرها بالكاس والطاس كانت على زعمه تؤثر فى دمه فتجعله ثخيناً ، فاذا هو جاء يمر بالشعريّات تعذر عليه ذلك . فمن هذا كان اختلال مزاجه فى الصباح . وإذن فدواء هـذه الثخانة تخفيفها . وإليك ما كتب به الى الجمعية الملكية :

« فأنا إذا أكلت ذات مساء فأثقلت شربت فى الصباح عدداً كبيراً من فناجيل القهوة ، وهى على أسخن ما أحتمل حتى أتصبب عرقاً ، فاذا لم يَشفنى ذلك فكل مابدكّان الصيدلانى لا يشفى . وهذا دوائى من أعوام كلما حُممْت »

وهداه شرب القهوة إلى حقيقة جديدة عن حيواناته الصغيرة . ياله من رجل ! ما كان يفعل شيئاً حتى يهديه هذا الشيء إلى جديد فى الطبيعة . فقد كان يعيش بسمعه وبصره وحسّه وفكره فى دُنَى تلك الحيوانات التى كان يسترق منها النظرات من خلال تلك العدسات . لقد كان كالطفل إذ يستمع لحكاية البط والغراب وهو مستغرق عما حوله ، لاترى منه إلا شفتين منفرجتين وعينين واسعتين من شدة الدهشة والأعجاب . وكان

كالطفل كذلك فى إعادة ما قرأ من أقاصيص الطبيعة المرة بعد المرة ، حتى لتجد على صفحاتها من إبهامه بصمات . وفى أركانها من فعله ثنيات تهديه إذا هو استراح فعاد ليبدأ من حيث انتهى . من ذلك أنه بعد سنوات من اكتشافه المكروب فى فمه جلس ذات صباح الى شراب القهوة يستشفى به ، فبينا هو فى عرقه الصبيب خطر له أن يعود فينظر الى مكروب أسنانه من جديد . . . ماهذا ! أين ذهبت حيوانات أسنانى فنى لا أرى واحدة تتحرك بالحياة ! أو كأنى أرى الألوف منها ولكنها أجساد هامدة ، إلا واحدة أو اثنتين تدبّان على ضعف كأنما مسهما المرض ! ثم صاح يستنجد بالأحبار والقديسين ألا يجيئه فى تلك الساعة لورد من لوردات الجمعية الملكية يطلب اليه رؤية تلك المكروبات فى فمه فلا يجدها فيكذبه فيما كتب عنها

ولكن صبراً . إنه كان يشرب القهوة . وكانت ساخنة جداً حتى كادت تتنفط منها شفتاه . وهو إنما نظر الى المكروبات فى الرواسب التى بين أسنانه الأمامية بعد شربه هذه القهوة الساخنة مباشرة

وما لبث أن استعان بمرآة مكبرة وأخذ يقشط ما بين أسنانه الخلفية ، ثم ينظر . . . ! ما كذَبَ المنظارُ وما أخطأ لوفن . قال : وما لبثت أن دهشتُ للكثرة التى وجدتها من تلك الحيوانات الحية فى القليل التافه من تلك القشاطة ، كثرةٍ لا يؤمن بها إلا من رأى » . وبعد هذا أخذ يُجرى تجارب صغيرة فى أنابيب الزجاج ، فسخّن فيها الماء بما يأهله من تلك الأحياء الى درجة فُوَيق التى يحتملها المرء فى حمّامه ، وفى لحظة فقدت الحيوانات روحاتها وجيئتها . وبرّد الماء ومع هذا لم تعد اليها الحياة . إذن فالقهوة الساخنة هى التى قتلت تلك الحيوانات فى أسنانه الأمامية

وأعاد النظر الى هذه الحيوانات فى غبطة وسرور ، ولكن أساءه وأهمّه أنه لم يتبين لهذا الحيوانات رأساً ولا ذيلاً ، فانها كانت تسير فى تلوّيها مسرعة فى اتجاه ، ثم لا تلبث أن تكرّ راجعةً بنفس السرعة فى عكس الاتجاه دون أن تنعطف أو يدور لها رأس على عقب ، ولكن لابد أن يكون لها ذيل : لابد أن يكون لها رأس ! ولابد أن تكون لها أكباد وأمخاخ وأوعية دموية كذلك ! وعاد بذاكرته إلى الوراء أربعين عاماً ، إلى البراغيث وديدان الجبن كيف كانت تراها عينه مخلوقات بسيطةَ الصنع مجملة التركيب . فذا بها تتراءى تحت عدسته معقدة التركيب مفصلة الصنع تامة تخلق الأنسان نفسه . فطمع أن ينكشف له من هذه المكروبات ما تكشف من هذه الديدان . ولكن عبثاً حدّق فى أقوى عدساته ، فقد ظلت هذه المكروبات تظهر فى بصره عِصِيّاً أو كرات أو حلزونات بسيطة لا تفصيل فيها ولا تعقيد . وأخيراً اكتفى بأن حسب للجمعية الملكية قطر الوعاء الدموى بتلك المكروبات لو أنه كان ، ولم يقل قط إنه رأى تلك الأوعية ، وإنما أراد أن يتسلى بتخيّله أو ليا ء من أعضاء الجمعية يتراجعون دهشةً من صغر الأرقام التى أسفرت عنها حِسْبته

وإذا كان « لوفن هوك » قد فاته أن يرى الجراثيم التى عنها تنشأ أمراض الانسان ، وإذا كان خياله قد قصر عن إدراك ما تأتيه حيواناته اللعينة من قتل وإجرام ، فلم يفته أن يدرك أن هـــذه الحيوانات التى تُفلت العينَ قد تَقتل وقد تأكل حيوانات تَجلّ عنها أضعافاً أضعافاً كثيرة . فذات يوم كان يتلهى ببعض حيوانات الماء الصدفية كبلح البحر [(1)] وأم الخلول جرَفها من قيعان الترَع ، فوجد بداخل الأم الواحدة آلافاً من الأجنّة ، فهالته كثرتها وتساءل كيف لا تَشرَق مجارى الماء بهذا العدد العديد من الأحياء . وخال أن يُربّىَ تلك الأجنة فى زجاجة بها ماء أخذه من تلك الترع ، وأخذ كل يوم يعبث بالماء وقد تلزّج كالمخاط بما فيه من أجنة ، وكان أنْ نظر إليها بعدسته يحسب أنها كبرتْ ، فأفزعه أن وجد اللحم الطرىّ يتلاشى بين أصدافه ، ذلك لأن آلافاً من المكروبات الدقيقة استطعمته فالتهمته بشراهة أىّ شراهة

« تعالى الله ! حىّ يعيش على حىّ ، وحياة تستمد البقاء من فناء حياة ! تلك لا محالة قسوة كبيرة ، ولكنها مشيئة الله . ولا شك أن الخير كلّ الخير فيها ، فلولا أنْ أكل المكروب صغار هذا المحار ، وكل أم تلد ألفاً فى المرة الواحدة ، لا نسدّتْ به القنوات . » هكذا فكّر لوفن ، وبهذا القنوت أسلم لقضاء ربه . كان يتقبل كل شىء ويرضى عن كل ما يجد ، فلم يكن بعد قد جاء العصر الذى تهجم فيه البحاث على المقام الاسمى ورفعوا أيديهم إلى السماء يتسخطون ويتهددون على ما بالطبيعة من قسوة لا معنى لها على ابنها الانسان

(١) نوع من المحار كأم الخلول

وبلغت سنه الثمانين وفاتها ، وتخاخلت أسنانه بالرغم من قوة جسمه ، وكل سن للتخاخل ولو أمهلتها السنون حيناً . وجاء شتاء أيامه وخيَّم بظله وقرّه فلم يَشك شيئاً ، بل انتزع سناً عتيقة من فمه وصوّب إليها العدسة يمتحن تلك المخلوقات الضئيلة في الجذر الخاوى من السن مرة أخرى . ولم لا يفعل ؟ فلعله يجد تفصيلاً جديداً فاته فى سائر تلك المرات العديدة . وجاءته رفقة من صِحابه وقد بلغ الخامسة والثمانين تسأله أن يترفق بنفسه ويدع البحث والدرس ، فقارب ما بين حاجبيه وأوسع ما بين جفنيه ، ولم يكن فارق البريق عينيه ، وقال لهم : « إن الثمرة التى تنضج فى الخريف تطول سائر الثمر عمراً » . سمى الخامسة والثمانين خريفاً !

وكان كأرباب المعارض يحب أن يسمع إعجاب الناس بما يعرض ان حضروا ، أو يقرأ لغيابهم إذا هو كتب لهم تلك الكتب الثرثارة المتفككة الطويلة . ولا تنس انه لم يكن يعرض بضاعته إلا على الفلاسفة والمتفلسفين وأحباب العلم . وكان لا يحسن التدريس إذا هو حاوله . كتب إلى الفيلسوف الشهير ليبنتز Leibniz يقول : « أنا لم أعلم أحداً ، لأنى لو علمت واحداً وجب علىّ تعليم آخرين ، وإذن أعبّد نفسى عبودية لا تنقضى ، وأنا أحب أن أكون سيداً حراً »

فأجابه ليبنتز يقول : « .. ولكنك يا رجل إذا لم تعلم الشباب صناعة العدس وطرق البحث والنظر زال كل هذا عن وجه الأرض بزوالك » . فكتب صاحبنا الهولاندى باستقلاله المعهود يقول : « لقد أعجب أساتذة « ليدن » Leyden وطلبتها باكتشافاتى مرة فى أيام سالفة بعيدة فاستأجروا من نحاتى العدسات وصاقليها ثلاثة جاءوا يعلمونهم صناعتها ، فعلى أى نتيجة خرجوا ؟ لاشىء بقدر ما أرى ، لأن جل الدروس أو كلها كانت تعطى لاكتساب المال ببيع العلم أو إظهاراً للعلم بغية احترام الناس وإعجاب الدنيا ، وتلك نوازع لا تمت بسبب إلى اكتشاف خبايا الطبيعة المحجوبة عن أبصارنا ، فهذه دراسات قد لا يصلح لها من الألف واحد ، لأن الزمن الكثير يضيع فيها ، ولأن المال الكثير يضيع فيها ، ولأنها تستغرق من صاحبها فكره كله وحسه أجمع لكى يخرج منها على شىء .... »

هذا أول رجال المكروب وكاشفيه . وفى عام ١٧٢٣ ، وقد بلغ الحادية والتسعين استدعى صديقه « هوجفليت » وهو على سرير الفناء . فلم يستطع رفع يده . وملأ الدمع جفنيه وتقاربا ليلتحما بلحام الموت . فغمغم إليه : « صديق هوجفليت ، رجائى إليك أن تترجم الكتابين اللذين على المنضدة إلى اللاتينية .... ابعث بهما إلى لندن .... إلى الجمعية الملكية .... »

وبذلك برّ بوعده للجمعية الذى أبرمه من خمسين سنة خلت أنْ يكتب لها إلى آخر رمق . وبعث « هوجفليت » الكتابين وكتب معهما يقول : « أسيادى العلماء ، أبعث لكم آخر هدية من صديقى المحتضر ، راجياً أن تحظى آخر كلمة له بالرضاء منكم »

وهكذا ذهب أول البحاث فى عالم الجرثوم . وستقرأون عن اسپالنزانى Spallangani وهو أنبه منه ، وعن بستور Pasteur وله أضعاف ما لصاحبنا من خيال ، وعن روبرت كوخ Robert koch وقد قام بأعمال أسرع ثمرة من أعماله فى تخفيف ويلات المكروب عن الانسان ، وعن آخرين لهم اليوم كما لهؤلاء صيت أبعد وذكر أشيع ، ولكن صدقونى لم يكن بين هؤلاء وهؤلاء من كان يطاول فى الأمانة ، ولا فى الدقة ، ولا فى الحكم على الأمور ، هذا القماش الهولاندى البسيط

أحمد زكى

١٥ - محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون أو خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

- مهما يكن ، فأنت تستطيع أن تحكم فيما إذا كان ينبغى أو لا ينبغى لمن لديه المعرفة أن يكون قادراً على تعليل معرفته

- لا شك أن ذلك حتم عليه

ولـكن هل تظن أن كل انسان قادرعلى تعليل هذه الوضوعات نفسها التى نتحدث عنها الآن ؟

ليتهم يستطيعون ياسقراط ! ولـكنى أخشى ألا يكون ثمت من يستطيع فى مثل هـذه الساعة من الغد (١) أن يقدم تعليلاً جديراً بأن يؤخذ عنه

إذن فليس من رأيك يا سمياس أن كل الناس يعلمون هذه الأشياء ؟

- يقيناً أنهم لا يعلمون

- إذن فهم آخذون فى تذكر ماقد كانوا يعلمونه من قبل

- يقيناً

ولـكن متى كسبت أرواحنا هذه المعرفة ؟ - لم يكن ذلك بعد أن ولدنا بَشَراً ؟

- لا ، ولا ريب

- وإذن فقبل ذلك ؟

- نعم

- إذن يا سمياس ، لا بد أن أرواحنا كانت موجودة قبل أن تُصَوَّرَ فى هيئة البشر (٢) ، ولا بد أن قد كان لديها ذكاء لما كانت بغير أبدان ؟

- حقاً يا سقراط ، مالم تفرض أن هذه الآراء قد أوتيتنا فى ساعة الميلاد ، لأنه لم يبق إلا تلك اللحظة وحدها (١)

- نعم ياصديق ، ولـكن متى افتقدناها ؟ فهى لا تـكون لدينا عندما نولد - وقد سلمنا بهذا . هل افتقدناها فى اللحظة التى فيها أخذناها ، أم فى وقت آخر غير هذا ؟ (٢)

- لا يا سقراط ، لقد أدركت أنى إنما كنت أنطق هراء لا أعيه

- إذن ، أفلا يجوز لنا يا سمياس أن نقول ما نردده دائماً ، وهو إذا كان ثمت جمال مطلق ، وخير مطلق ، وسائر الجواهر التى اكتشفنا الآن أنها سبقتنا فى الوجود ، وكنا نقيس اليها كل أحاسيسنا ونقارنها بها - زاعمين أن قدكان لها وجود سابق ، فان لم يكن ، ذهبت كل قوة فى قولنا . فليس من سبيل إلى الشك بأنه إذا كان لهـذه المُثُل المطلقة وجود قبل أن نولد ، فلا بد أن أرواحنا كانت كذلك موجودة قبل ميلادنا ، فان لم تـكن المُثُل موجودة ، لم تـكن الأرواح موجودة كذلك

- نعم يا سقراط ، إنى مقتنع بأن لوجود الروح قبل الميلاد هذه الضرورة نفسها ، وأنت إنما تتحدث من الروح عن كنهها : فقد انتهى بنا التدليل الى نتيجة يسرنى أنها تتفق مع ماأرتئيه . فلست أرى شيئاً يبلغ فى بداهته مبلغ قولنا إن الجمال ، والخير ، وسائر الأفكار التى كنت تتحدث عنها الآن تواً ، لها وجود غاية فى الحق والتجريد ، وإنى لمقتنع بالدليل

- حسناً ، ولـكن هل اقتنع سيبيس اقتناعك هذا ؟ لأننى لابد أن أقنعه كذلك

قال سمياس - أظن سيبيس مقتنعاً ؟ فانى أحسبه قد آمن بوجود الروح قبل الميلاد ، على الرغم من أنه أبعد الـكائنات عن التصديق . ولـكن دليلاً لم يقم بعد على استمرار وجود الروح بعدالموت ، بحيث يقنعنى أنا ، فلا أستطيع أن أتخلص من شعور الدهماء الذى كان يشير اليه سيبيس - ذلك أن الشعور بأنه إذا

(١) يقصد أن سقراط فى مثل هذه الساعة من الغد سيكون قد وافته منيته ، وليس سوى سقراط من يستطيع أن يعلل المعرفة

(٢) مادمنا قد كسبنا المعرفة قبل الميلاد ، فلابد أن أرواحنا كانت موجودة قبل اتصالها بأجسادنا ، وكان لديها من قوة الذكاء ما تستطيع به تحصيل هذه المعرفة

(١) أما أن نكون قد حصلنا المعرفة قبل الميلاد ، أو فى ساعة الميلاد نفسها ، أو بعد الميلاد . وقد أقيم فيما سبق الدليل على بطلان الغرض الثالث فلم يبق الا افتراض أحد الوجهين الأولين

(٢) يفند سـقراط الغرض بأننا قد نكون أوتينا المعرفة عند ساعة الميلاد نفسها ، لأنه لو كان الأمر كذلك ، فتى افتقدناها ؟ لقد سلمنا فيما سـبق أن حواسنا تأخذ منذ ساعة الميلاد فى تذكر ما قد نسيته ، فهل افتقدت الروح المعرفة فى نفس اللحظة التى أوتيتها فيها ؟ هذا قول لا يستقيم مع العقل ، ولذا لم يبق الا فرض واحد ، هو أن الروح قد كسبت المعرفة قبل الميلاد ، وهو ما أراد أن يدلل عليه سقراط

مات الانسان ، فقد تتبعثر الروح ، وقد يكون ذلك نهايتها ، فلو سلمنا بأنها قد تتولد وتنشأ في مكان غير هذا ، وقد تكون موجودة قبل حلولها في الجسم البشري ، فماذا يمنع أن تبلى وتفنى بعد أن حلت فيه ثم خرجت منه ثانياً ؟

فقال سيبيس — هذا جد صحيح يا سمياس ، أما ان أرواحنا كانت موجودة قبل أن نولد ، فهو الشطر الأول من الحديث ، ويظهر أن قد قام الدليل عليه ، وأما أن الروح ستبقى بعد الموت ، كما كانت قبل الميلاد ، فهو الشطر الآخر ، الذي لا يزال يعوزه الدليل ، ولابد له من التأييد

قال سقراط — أي سمياس وسيبيس ! لو أنكما أضفتما التدليلين أحدهما الى الآخر — أعنى هذا وما سبقه ، الذي سلمنا فيه بأن كل شيء حي قد ولد من الميت ، لرأيتما أنا قد فرغنا من اقامة هذا الدليل ، لأنه لو كانت الروح موجودة قبل الميلاد ، وأنها إذ تجيء الى الحياة وإذ تولد ، لا تكون ولادتها إلا من الموت ومن يعالج الموت ، أفلا يجب عليها بعد الولادة أن تستمر في وجودها مادام لابد لها أن تولد مرة أخرى ؟ لاريب في أنا قد فرغنا من إقامة البرهان الذي ترجوان ، ولكني مع ذلك ، أحسبك أنت وسمياس ، لاترغبان في أن تختبرا هذا الدليل أكثر من ذلك ، فقد استولى عليكما ما يستولي على الأطفال من فزع ، خشية أن يذرو الهواء الروحَ حقيقة ، ويبعثرها عند فراقها الجسد ، وبخاصة إذا كتب لانسان أن يموت في جو عاصف ، ولم يقدر له الموت حيث السماء ساكنة

فأجاب سيبيس باسما — إذن يا سقراط ، فواجبك أن تنفض عنا خوفنا بالدليل — ومع ذلك فليست هي مخاوفنا ، إن توخيت الدقة في القول ، ولكن هنالك في طويتنا ، طفل ينظر الى الموت ، كأنه ضرب من الغول ، فلا بد أن نحمله كذلك على ألا يفزع إذا ما انفرد وإياه في الظلام

قال سقراط — ردِّد في كل يوم صوت الســاحر ، الى أن تطرد بالسحر ذلك الغول

— وأين عسانا أن نجد ســاحراً حاذقاً يقينا مخاوفنا بعد ذهابك يا سقراط

فأجاب — إن هِلاّس ، لمكان فسيح يا سيبيس ، وفيه كثير من طيبي الرجال ، وهناك غير قليل من القبائل المتبربرة ، فابحث عنه في طول البلاد وعرضها ، بين هؤلاء جميعاً ، ولا تدّخر في البحث جهداً ولا مالاً ، فليس من سبيل أفضل من استخدامك المال ، ولا يفتك أن تبحث عنه كذلك بين أنفسكم فوجوده هاهنا أرجح منه في أي مكان آخر

فأجاب سيبيس — لن نتردد في القيام بهذا البحث ، ولنعد الآن ، إذا شئت ، في الحوار إلى النقطة التي استطردنا منها

فأجاب سقراط — طبعاً ، وماذا أريد غير هذا ؟ فقال : حسناً جداً

قال سقراط — أفلا ينبغي أن نسائل أنفسنا سؤالاً كهذا : — ما هو الشيء الذي تظنه عرضة للبعثرة ، ونحن عليه حريصون ؟ ثم ما هو الشيء الذي لا نحرص عليه ؟ وبعدئذ نستطيع أن نمضي في البحث عما إذا كان ذلك الذي تمتد اليه يد البعثرة ، من طبيعة الروح أم لا — وفي ذلك سنقيم ما نكنّ لأرواحنا من آمال ومخاوف

فقال — هذا صحيح

— قد نفرض أن الشيء المركب ، أو الذي يتكون من أجزاء ، أنه بطبيعته يمكن أن يتحلل ، كما أمكن له أن يتركب ، أما ذلك الذي لم يتركب من أجزاء ، فيلزم أن يكون وحده غير قابل للتحلل ، إذا كان ثمة شيء كهذا

فقال سيبيس — نعم فهذا ما قد أتصوره

— وقد يزعم أحد أن غير المركب ، يظل كما هو ، ولا يخضع للتغير ، بينما يكون المركب دائم التغير ، فلا يظل أبداً كما هو ؟

فقال — إني أظن ذلك أيضاً

(يتبع) زكي نجيب محمود

١٣ ـ بين القاهرة وطوس

من سلطان آباد إلى بغداد

للدكتور عبد الوهاب عزام

سلطان آباد حاضرة ولاية فى إيران تسمى العراق ، وهى فى الجنوب الغربى من سهل فراهان ، بناها منذ مائة وثلاثين سنة يوسف خان الكرجى وجعلها مربعة الشكل ، وسوّرها وحصنها . وولاية العراق هذه خصبة كثيرة الزرع ، فيها زهاء ٦٨٠ قرية ، وسجاجيدها مشهورة

وعلى مقربة من هذه المدينة كانت مدينة الكرج ، فى الأقليم الذى كان يعرف باسم كرج أبى دلف ، وقد ذكره الشعراء فى مدائحهم

دخلنا المدينة ليلا فسرنا قليلاً فانتهينا إلى ميدان فسيح فيه حديقة تمتد منه أربعة شوارع واسعة . وهذا نظام جديد اتخذ لاصلاح المدن الايرانية فى السنوات الأخيرة

وقف بنا السائق على فندق (مهما نخانه) فى هذا الميدان فدخلنا إلى فناء واسع للسيارات وصعدنا فى سلم إلى حجرات على مقربة منها منتدى (قهوة) فلم نرض هذه المجاورة ، فنزلنا إلى فندق آخر بجانبه ، ليس فى المدينة سواهما . فاتخذنا حجرة لا بأس بها فى مثل هذه المدينة ، واسترحنا وطعمنا قليلاً ثم خرجنا نجول فى البلد فلم نر شيئاً أكثر مما أحاطت به النظرة الأولى ، ورأينا المدينة على صغرها وسذاجتها نظيفة جميلة

وبرحنا البلدة والساعة ثمان وأربعون دقيقة من صباح الثلاثاء رابع عشر رجب (٢٣ أكتوبر) مسرعين صوب همذان نود أن نبلغ بأية وسيلة بغداد يوم الأربعاء لندرك قافلة السيارات التى تبرحها إلى دمشق صباح الخميس . بلغنا نخر آباد والساعة تسع . وقد استلفتتنا كثرة العمران والزروع على الطريق كما قلت من قبل ، ووقفنا والساعة عشر على ضيعة اسمها زنكنه معروفة بجودة عسلها فأكلنا ونحن نقول إن لله دواء من العسل (مستعيذين من المثل القديم : إن لله جنوداً منها العسل) . ثم وقفنا على ملاير (دولت آباد) والساعة إحدى عشرة فطلبت جوازات السفر للاطلاع عليها . والمسافة بين سلطان آباد ودولت آباد ١٠٠ كيلو

وواصلنا السير تلقاء الغرب والشمال حتى بلغنا همذان والساعة واحدة بعد الظهر ، فسرنا فى شارعها الكبير وجددنا العهد بمرقد الفيلسوف ابن سينا ، ثم أوينا إلى فندق يقوم عليه جماعة من الأرمن ، والأرمن فى إيران قَوَمة الفنادق ، تلقاهم فى كل مدينة وقرية ، وما نزلنا فندقاً أو مطعماً على طريقنا من طهران إلى حدود العراق إلا عرفنا صاحبه أرمنياً

وأعجلنا السفر عن الاقامة فى همذان يوماً ، فبرحناها بعد ساعتين سائرين شطر الجنوب للمبيت فى كرمانشاهان ، ونحن الآن على طريقنا التى سلكناها من قبل إلى طهران فلا أعيد وصفها هنا . لماشرعنا نَفْرع الجبال جنوبى همذان أصاب مِصْدم السيارة خلل ، فسقطت لوحة صغيرة كتب عليها جشن فردوسى «عيد الفردوسى» وقد علق مثلها على كل سيارة أعدت للسفر فى حفلات الفردوسى ، فوقفنا وبحث السائق فوجدها وفك المصدم فربطه خلف السيارة . وقد أدت هذه الحادثة الصغيرة إلى أن تأخرنا عن بلوغ بغداد يوم الأربعاء ففاتتنا قافلة الخميس ، كما يأتى . واجتزنا جبال أسد آباد وبلغنا كنكادر والساعة خمس وربع من المساء ، وقد ذكرت هذه البلدة فى طريقى إلى طهران . أزيد هنا أنا نزلنا فاسترحنا وشربنا الشاى وأكلنا البطيخ ، وهو فى إيران كثير لا يعدمه السائر حيثما سار ، وخرجنا نمشى على الطريق ننتظر أن يعد السائق سيارته فاذا جماعة جالسون فى عريش على جانب الجادة ، فتقدم كبيرهم نحيانا وقال إن فى البلد آثاراً قديمة . أتريدون أن تروها ؟ . وعرفنا حينئذ أنه حاكم البلد فسرنا لنرى الآثار وصحبنا الحاكم وجماعة من الموظفين فرأينا بلداً صغيراً فقيراً فى وسطه أحجار ضخام وقطع من أعمدة كبيرة اختلطت بالدور ، فقيل هذا أثر معبد قديم . واخترقنا بعض الدور وسرنا بضع دقائق فرأينا أحجاراً أخرى قيل لنا إنها من آثار المعبد نفسه . وكان معبداً للآلهة (أناهيتا) من آلهة الفرس القدماء بناه لها الاشكانيون ، وكان أيام الفتح العربى مأوى اللصوص وقطاع الطريق فمن أجل هذا سموه قصر اللصوص

قال ياقوت فى المعجم : « قال صاحب الفتوح لما فتحت نهاوند سار جيش من جيوش المسلمين إلى همذان فنزلوا كنكوَر فسرقت دواب من دواب المسلمين فسمى يومئذ قصر اللصوص وبقى اسمه إلى الآن ... » وقال مسعر بن مهلهل : « قصر اللصوص بناؤه عجيب جداً . وذلك أنه على دكة من حجر ارتفاعها عن وجه

الأرض نحو عشرين ذراعاً فيه إيوانات وجواسق وخزائن تتحير فى بنائه وحسن نقوشه الأبصار . وكان هذا القصر معقل إبروز ومسكنه ومتنزهه لكثرة صيده وعذوبة مائه ، وحسن مروجه وصحاريه »

تركنا كنكاور والساعة ست . فما فارقنا ضوء النهار حتى نشر على الأرجاء بدر التمام أشعته ، فسرنا فى جبال وسهول حتى أشرف على الجادة جبل بيستون الشاهق وقد ذكرته من قبل وذكرت قصة فرهاد وشيرين التى لا تزال صداها طائراً فى أرجائه

ولما لاحت ذروة الجبل فى ضوء القمر قلت : بيستون ! ثم أنشدت :

لعل شيرين نصيب خسرو شد   سنگ بيهوده مى كند فرهاد

« صار لعل شيرين نصيب خسرو ، وعبثاً يقطع فرهاد الحجر » فأنشد السائق :

به بيستون كه رسيدم گرفت بارانم

اگر غلط نكنم آب چشم فرهادست

« لما بلغتُ بيستون تساقط علىّ المطر ، فان صدق ظنى فتلك دموع فرهاد . » ثم قال السائق أتعرف قصة شيرين وفرهاد ؟ فأحببت أن أسمعها منه ، فقلت ما القصة ؟ قال : « كان فرهاد راعياً لبروز فرأى يوماً شيرين امرأة بروز فهام بها حباً . وكان يظنها إحدى إماء الملك . ومرضت شيرين يوماً فقال الملك لفرهاد إن شئت أن أمنحك شيرين فانحت فى الجبل قناة يسيل فيها اللبن من المرعى إلى القصر ، فشق فى الحجر قناة طولها فراسخ . فلما أبلت شيرين قال الملك لفرهاد بق أن تبنى لى قصراً عظيماً . فنحت الأحجار وبنى القصر . فلما خشى الملك أن يستنجزه فرهاد وعده قال لمشيريه كيف الخلاص من فرهاد ؟ فتطوعت امرأة عجوز بالحيلة وذهبت إلى فرهاد نائحة لاطمة . قال : ماخطبك ؟ قالت : ماتت شيرين . فغشى عليه ومات لساعته ، وخلصت شيرين لبروز . »

والقصة ذائعة فى الأدب الفارسى ، وقد نظمت مراراً وبلغ بها الشعراء آلاف الأبيات . فلما فرغ السائق من قصصه قلت : أنستطيع أن نرى أثر فرهاد فى هذا الجبل ؟ قال إنه عال ، ولا يرى بالليل

بلغنا كرمانشاهان والساعة ثمان بعد أن قطعنا إليها من همذان ١٩٠ كيلاً . وأوينا إلى فندق اسمه « مهمانخانه بزرك » أى الفندق الكبير . وهو فندق نظيف حسن النظام . واستأذن منا سائق السيارة أن يتأخر قليلاً غداً ريثما يصلح سيارته . ثم انصرف

وأصبحنا ننتظر السائق فطال بنا الانتظار فذهبنا نمشى فى المدينة ، ثم ذهبنا إلى دار البريد فأبرقنا إلى وزير المعارف لنشكر له ما لقينا من حفاوة قبل أن نجتاز حدود إيران . ورجعنا إلى الفندق فلم نجد السائق ، وذهبنا نفتش عنه فى الخانات حتى عثرنا عليه مكباً هو وبعض الصناع على إصلاح السيارة . ولم نستطع مغادرة كرمانشاهان إلا وقت الظهر . فأيقنا أن سفرنا غداً إلى دمشق عسير أو محال . وجدّ بنا السير زهاء ساعتين فبلغنا شاه آباد ، وقد ذكرتها من قبل ، فنزلنا فى فندق صغير فاسترحنا وطعمنا ، ونشط أصحاب الفندق من الأرمن فى خدمتنا فاستأنفنا السير بعد ساعة ومررنا بكرند وكده باطاق ، وسرپل ذهاب حتى بلغنا قصر شيرين والساعة خمس فتوقفنا هناك عشر دقائق . ثم تركناها نؤم حدود العراق

دخلنا حدود العراق والساعة ست ، وقد غربت الشمس فلقينا الموظفون مرحبين ويسروا لنا السفر العاجل فسرنا إلى خانقين فعرجنا على دار السيد عبد القادر صالح معاون الجمارك لنسلم ونشكر له ضيافته حين مررنا بخانقين المرة الأولى

توجهنا إلى بغداد والساعة سبع من المساء ، وأمامنا صحراء مشتبهة الأعلام ، طامسة المناهج ، ولكن مهارة السائق ، وعلامات الطريق يسرت لنا بلوغ بعقوبة والساعة تسع ، حين بلغ منا التعب مبلغه . وقفنا على منتدى فى الطريق ، ونزلنا فاذا صورة أم كلثوم فى صدر المكان . ولما عرف صاحب المنتدى أننا مصريون أسرع فأسمعنا غناءها . فشعرنا ونحن فى العراق أن مصر قريب

ثم سرنا من بعقوبة فأدركنا شاب ينادى أن الطريق غير بينة فاحملونى لأدلكم . قلنا لا حاجة إليك . وأدركنا فارسان من العسس فقالا أمامكم صحراء لا تهتدون فيها إلى طريقكم . فخير لكم أن تبيتوا هنا ، وهنا فندق نظيف . وإن شئتم فكلموا رئيس الشرطة ليرسل معكم دليلاً . وهذا الشاب إن حملتموه معكم لا يستطيع أن يهديكم الطريق . فأقسم الشاب أنه بها جد خبير ، وأنه هدى من قبل كثيراً من المسافرين . فارتكبنا أهون الشرين وحملنا هذا الدليل معنا . ولم يكن له مكان فى السيارة فركب على الرفرف

ضرورة الوحدة الأدبية

بين مصر والسودان

بقلم التيجانى يوسف بشير

لن يكون مثل الأدب يصوغ الأمم على أسلوب واحد ، ويصنع منها عقلية واحدة ، ويقيم أساس وحدتها على الروح ، وبناء مجتمعها على العاطفة ، ودعامة ألفتها على الجمال ، وقاعدة إخائها على الصدق ، وصرح كيانها على يقظة الشعور ، فلا يتزلزل ولا يضطرب

ولن يكون مثل الأدب يوحد بين مشاعر الأمم ، ويعين على توحيد المنافع ، ويحقق من حلم الوحدة بما فيه من صور الفكر وجمال الفنون . ولا يمكن لها من ذلك إلا أن تعني به فتوحد من الأساليب ، وتوافق بين الانتاج ، وتقارب بين الأفكار ووجهة النظر الى الكون والحياة . فمركز الأدب فى وحدة الأمم مركز الفكرة فى خلق الأدب ، تؤسسه على القوة ، وتبعثه على الجمال ، وتنهضه على العاطفة ، فيكسب من دقائقها فى الصياغة والتعبير ما يأخذ على قاعدته الأمم فيهما من دقائقه هو ما نأخذ به أفرادها على وحدة الشعور وجماعاتها على توحيد المصلحة . ولا أنفع لمصر ولا أجدى للسودان فى سبيل وحدتهما الكبرى من أن يعنى كلاهما بتقريب الفكر من بعضه ، وتوجيهه بعد ذلك الى منحى واحد ، فتتحقق الوحدة فى كل شيء ، ويستقيم لها التواشج ويتم الامتزاج

فالأدب كان وما يزال أصدق ما يحمل الى الفرد خصائص الفرد ، وأقوى ما يعكس على الأمة مميزات الأمة ، فيجمع بينهما فى المشابه ، ويوفق بينهما فى الميول . وهو بما يدفع من جمال ويصور من لذة ، وينقل من مثل للاجتماع ، وفروض للانسانية ، وقوالب للحياة ، إنما يقتضى بما فيه من قوة الايحاء أن يوحد من نظام الحياة فى الشكل كما وحد بينه فى الدخائل . وما فرضت أمة أدبها على أخرى إلا كان معنى ذلك أنها تفرض عليها النظام الذى تسير عليه ، وتعين لها الحياة التى تؤمن بها ، والغرض الذى ترمى اليه . فاذا جاءت مقاييس الأدب عندها بمقدار واحد جاءت على وفق ذلك مصاير السياسة وأقيسة الحكم . وإن أوربا الآن لتبلغ بأدبها فى الشرق ما جعل كثيراً من خصائص الحياة الغربيـة موزعة عليه بأوفى قسط وأوفره . وما كانت لتبلغ هذا المبلغ إلا بما يقوم به أدبها من بث صور الحياة العقلية فى العالم . وعلى قدر مافرضت أدبها على الشرق فرضت سيادتها عليه ، وعلى قدر ما سنت له من أقيسة أدبها ومعايير الجمال فيه ، كانت سياسة الحكم تنصب على مقاييس بقدرها كثرة وتعداداً

وإن مصر لتتمتع منذ قرون بعيدة بأدب فيه من خصائص « المصرى » وملازمات حياته ما يكفل لها أن تنتظم الشرق فى وحدة أدبية تامة متى كان لها أن تعنى بذلك عناية خاصـة ، وأن تعمل فى سبيلها ، فتقيم له المؤتمرات وتدعو اليها ، وتنظم له المجامع وتبعث له البعثات ، وتكون له فى كل بلد « رابطة » ، وتنشىء من أجله فى كل قطر سوقاً ، لتضمن لها فى كل شعب حقوقاً . ولـكن مصر لم تعمل لذلك حتى فى ألزم شعب لها وألصقها به . وذلك هو السودان . . .

كلما فكرت فى تعليل ذلك لم أجد ما يشفع لمصر فى افلات ما كان وما لايزال يتهيأ لها أن تحقق فيه أن السودان قطعة من مصر يصح فيها مايصح فى مصر ، ويجرى على هذه مايجرى على تلك . ولا ينبغى أن نخادع أنفسنا فى تقرير الحقائق ، فان كل ما حصل لم يكن إلا نتيجة طبيعية لجهل مصر بالسودان واغفالها بدأة بدء توثيق العلائق الأدبيـــة والروحية بينهما ، حتى لقد

وسرنا فاذا الطريق واسعة لاحبة لا تحتاج إلى دليل . قلنا للدليل أ كذلك طريقنا إلى بغـداد ؟ قال لا . فسرنا لا نستهديه ولا نبالى ، إلا سؤالاً فى الحين بعد الحين « هل نمت ؟ » فيقول لا ، فنقول احذر أن تنام أو تقع فنضل فى هذه الصحراء . فنعم الدليل أنت . لولا أن من الله بك علينا لهلكنا . ولسنا ننكر على دليلنا أنه كان حديثاً ممتعا فى الصحراء سميناه الدليل النائم ، واهتدينا به إلى الفكاهة وإن لم نهتد به الى غاية !

بلغنا مدينة السلام منتصف الليل فأوينا الى الفندق وانصرف دليلنا ثم جاء صبحاً يطلب أجره فضحكنا وقلنا لخادم الفندق أبلغه أنا وهبنا له أجرة الركوب بما له من أجر الهداية فليذهب مأجوراً

(يتبع) عبد الوهاب عزام

استغل سادتنا الانجليز جهل مصر الفاضح بنا فوطدوا مصالحهم فى السودان وانتزعوا منه كل ما يدل على مصر ، إلا علماً ماتكاد تحس له بوجود . ولو قد كان لمصر أن تصرف عنايتها بعد عام ١٩٢٤ الى العلائق الأدبية وتنميتها لما اتسعت الهوة الفاصلة بين القطرين الى هذا المدى ، ولما قامت الموانع حتى دون أبسط شيء لايغير من مجرى الحوادث بقليل . ولـكن مصر لم يكن يهمها بعد ذلك أن تعود للتفكير فيما يجعل الوشيجة بينهما قوية على الحوادث ، جديدة مع الأيام حتى ضرب الانجليز ضربتهم القاضية ، ووقفوا دون المصرى والسودانى حتى عن معرفة ما ليس بد أن يعرفه كل عن أخيه ، لأنهم ــ وقد استغلوا هذا الجهل ــ كانوا يعلمون أن ماضربوا عليه من العلائق كان شيئاً لابد منه ، فلا ينفيه الأنكار ولا يطمس عليه النسيان أو التغافل . ولهذا فهم أشد خشية أن يطلع أحد ، وخاصة إن كان سودانياً على الحقيقة التى عبثوا بها . على وجود الصلات التى دفنت حيةً بعد أن جهدوا فى خنقها ، ولـكنها كانت أطول نَفساً وأكثر حيويةً أن تموتَ ، على روابط صنعها الله وأحكم فى توثيقها ، ولا حل لما عقد ؛ وكانوا موفّقين فيما أرادوا من تفرقة ، حتى لقد حاولوا بما يبثون ويذيعون من ضروب الارهاب وألوان النكال أن يجعلوا اسم مصر بعد عام ٢٤ شيئاً لا تسوّغ القوانين النطق به ، وكلما شددوا فى النكير وأمعنوا فى المنع ، كان اسمها أشد إغراء وأكثر جاذبية وأقوى على لفت النظر ، وحمل عامة الناس أن يبحثوا عن السر الغامض الذى يأبى عليهم الأنجليز الاتصال به . ومصر ــ ألا سامح الله مصر ــ مع هذا كله لم يكن يهمها أن تعرف عن السودان شيئاً وهى تطالب بكل ما فيه . . !

والآن . . . لقد بلغ الأنجليز ما أرادوا . وضربت يد الغدر والمطامع على كل شيء ، حتى لتوشك أن تضرب على النيل فيتزلزل فينفلق فلا يعود يعرف أين تكون مصر . ولقد طالما عبثت الأطماع بما بين مصر والسودان من ألفة وتعاطف ، وأفسد الأستعمار هنا ــ فى السودان ــ والحماية هناك ما بين هذين القطرين من روابط وصلات كلها بر وكلها رحمة . . . الآن لقد تم لهم ما أرادوا ، ففرقوا وباعدوا ، وأغربوا فى التفرقة ، وأفلحوا فى مغالطة الحقائق الطبيعية ، وتنكروا لخرائط الجغرافيين ، وكابروا وخادعوا أن يكون شيء من هذا جديراً أن يحملهم على الأعتراف بخطئهم فيما حاولوا أن يطمسوا عليه من صلات كانت مصر هى فى الحق أول من أغفل العمل فى توثيقها والعناية بها ، فماذا تفعل الآن . . . ؟

نحن نطل اليوم على عهد جديد تأخذ العلائق فيه صوراً جديدة فيها من صحة المعرفة وحسن التفاهم ما يملؤنا ثقة بالمستقبل وإيماناً به ، وشعوراً بالوحـــدة والعمل لها فى جميع ما تقضى به مصالح القطرين ، وفى كل ما لا ينبغى إلا أن يكونا متحدين فيه بطبيعة « الجوار » إذا لم يكن إلا هذا ما يملى بوجوب هذه الوحدة فى اتجاه الحس والشعور ، وفى تبادل المنافع والمصالح . وأما وقد كان هناك من مستلزمات الوحدة ما يجعل الجوار فى آخر قائمة العلائق من لغة ودين وأدب وعروبة ونيلٍ زاخرٍ هادرٍ متدفق يصور الرباط المقدس بين بلدين أشد ما يكونان تلازماً وارتباطا . أما وقد كان كل ذلك فقد توفرت بواعث توحيد الأمتين كما يتوحد النيل قطرةً إلى قطرةٍ وموجةً إلى أخرى وفيضاً إلى فيض . ولـكن على أى أساس يقوم ؟ إن شيئاً من سيرة مصر الأولى فى السودان لن يعود اليها والحالة كما هى من تفكك فى علائق الآدب وتباينٍ فى وجهة التفكير — هذا كلام صريح لا مكان فيه للتأويل — وإنا لنرى قبل كل شيء أن تقوم الصلات على الأدب فى بعض ما تقوم عليه ، ولن يمر على ذلك عهد إلا ويجيء من بعده ما يكفل للقطرين الشقيقين أن يدفقا على مجرى واحد كما يفعل النيل . لا أن نظل نقرأ ونسمع بالحاح مصر فى سبيل السودان ، فنعجب لها وهى لاتعرف عنا شيئاً صحيحاً . فان من الخير لنا ولها أن نلتقىَ الآن على الفكر ونتصل على الأدب من أن نظل هكذا لا صلتُنا بصلة ولا تعارفنا بتعارف ، ولا انفصالنا بانفصال . ففى مصر « روابط » للأدب وفيها مجامع للعلم ، وعندها شباب مثقف ، وفيها صحف كثيرة ، فكم هو أنفع لها وأجدى للسودان أن تعنى صحفها بشئونه فتأخذها بالمعالجة ، وتكب عليها بالدرس ، وتتناول أدبه بالنقد والتحليل فتقارب بين الأدبين وتلائم بين الذوقين . وكم هو خير لنا ولها وأكفل للوحدة ، وأبقى على المعرفة أن تبعث البعوث العلمية والأدبية — والأقتصادية كما فعلت الآن — فتحقق من حلم الوحدة بالعمل ، ونخرج بأقوالها الى التنفيذ

أم درمان — سودان

النيجانى يوسف بشير

الأنتكيرة هى أنكلتيرة

الأستاذ عبد المتعال الصعيدى

نعود إلى الكتابة فى هذا الموضوع مقتنعين بعد مراجعات طويلة بصحة رأينا أن الأنتكيرة فى النص الذى نقلناه عن لسان الدين بن الخطيب فى كتابه (الأحاطة) هى اكلتيرة وهى بالقاف بدل الكاف (انتقيرة) اسم مدينة ذكرها يقوت فى معجمه ، فقال إنها حصن بين مالقة وغرناطة . ومنه أبو بكر يحيى بن محمد بن يحيى الأنصارى الحكيم الأنتقيرى من أصحاب غانم ، روى عنه ابراهيم بن عبد القادر بن شنيع إنشادات قال : كنا مع العجوز الشاعرة المعروفة بابنة ابن السكان المالقية . فمر علينا غراب طائر فسألناها أن تصفه فقالت على البديهة :

مر غراب بنـــا   يمسح وجه الربى
قلتُ له مرحباً   يا لون شعر الصبا

وقد ذكر القلقشندى فى صبح الأعشى (ص ٢٦٩ جـ ٥) الحادثة التى ذكرها لسان الدين بن الخطيب . فقال إنه لمـا هلك الهُنْشة بن بطرة سنة ٧٥١ هـ فى الطاعون الجارف ولى ابنه بطرة ، وفر ابنه القمط إلى بَرْشَلونة ، فاستجاش صاحبها على أخيه بطرة فأجابه ، وزحف إليه بطرة فاستولى على كثير من بلاده ، ثم كان الغلب لقمط سنة ٧٦٨ هـ . واستولى على بلاد قشتالة ، وزحفت إليهم أمم النصرانية ، ولحق بطرة بأمم الفرنج الذين وراء قشتالة فى الجوف بجهة اللمانية وبرطانية إلى ساحل البحر الأخضر وجزائره ، فزوج بنته من ابن ملكهم الأعظم المعروف بالبنس غالس وأمده بأمم لا تحصى ، فملك قشتالة والقرنتيرة ، واتصلت الحرب بعد ذلك بين بطرة وأخيه القمط ، الى أن غلبه القمط وقتله سنة ٧٧٢ هـ واستولى القمط على ملك بنى أدفونس أجمع ، واستقام له أمر قشتالة . ونازعه البنس غالس ملك الأفرنجة بابنه الذى هو من بنت بطرة ، وطلب له الملك على عادتهم فى تمليك ابن البنت ، واتصلت الحرب بينهم ، وشغله ذلك عن المسلمين ، فامتنعوا عن أداء الأتاوة التى كانوا يؤدونها إلى من كان قبله ، وهلك القمط سنة ٧٨١ هـ

وهذا النص الذى ذكره القلقشندى فيه ما يمكن به الأهتداء فى أمر أمة الأنتكيرة التى وصفها لسان الدين بن الخطيب ، ولكن فيه غموضاً فى سرد تلك الحوادث لبعدها عن القلقشندى ، وقد كانت حوادث جديدة فى عصره لم يتقرر أمرها ولم تدون فى كتاب من كتب القوم الذين كانت فى بلادهم وقائعها

وإنما نسوق من تاريخ هؤلاء القوم الحوادث التى اكتنفت هذه الحوادث التى وردت فى ذينك الكتابين (الاحاطة) و(صبح الأعشى) معتمدين فى ذلك على كتاب تاريخ ملوك فرنسا لمونيفورس الفرنسى من مؤرخى القرن التاسع عشر الميلادى ، وعلى كتاب تاريخ انجلترا لجورجى زيدان

كان أدورد الثانى ملك انجلترا زوجاً لازابيلة أخت كرلوس ملك فرنسا (١٣٢٢ ـ ١٣٢٨ م) فأرسل اليه أدورد الثانى ابنه برنس غالس ليهدى إلى فرنسة دوقية غيانة ، فسافر الى فرنسا وأدى ما كلفه به والده

ثم انقضى عهد أدورد الثانى على انجلترا ، وقام بعده ابنه أدورد الثالث وهو ابن إزابيلة أخت كرلوس ملك فرنسة ، وكان كرلوس قد توفى وقام بعده على ملك فرنسة ابن عمه فيلبس دوولواس ، فنازعه أدورد الثالث هذا الملك ، ورأى أنه أحق به منه لأنه ابن أخت كرلوس ، وأما فيلبس فليس هو إلا ابن عمه ، وقد أعان أدورد الفلمند على فليبس وحملهم على مبايعته بملك فرنسة سنة ١٣٤٠ م ، ويقال إنه فى ذلك الحين تلقب ملوك انجلترا بملوك فرنسة وحملوا أسلحتهم

ثم اتصلت الحروب بين أدورد الثالث وملوك فرنسة ، وقد أرسل إليها ابنه أدورد برنس غالس (أوف ويلس ؟) وكان يعرف بالأمير الأسود لسواد دروعه وأسلحته فاستولى على بعض أقاليمها ، وأسر ملكها يوحنا لوبون سنة ١٣٥٥ م ثم أقام فيها حاكماً عليها ، وقد بعث فى مدة إقامته بها حملة إلى أسبانيا لمساعدة بيدرو الظالم فتحمل بسببها ديوناً كثيرة أدت إلى اعتلال صحته ، ثم حارب محاربة أخرى فاز بهـا ، ولكنه لم ينل جزاء عليها ، ثم حدث ما ألجأه إلى السفر إلى انجلترا ، فمات بها عن ولد اسمه ريكاردوس فضعفت شوكة انجلترا فى فرنسة ، ولم يبق إلا قليل منها فى طاعة أدورد الثالث ، وقد أثر فيه موت ابنه حتى مات حزناً عليه سنة ١٣٧٦م بعد وفاة ابنه بسنة وخلفه رتشرد الثانى (ريكاردوس) ابن الأمير الأسود وهو ابن اثنتى عشرة سنة ، وكان قد قام فى فرنسة كرلوس الخامس (١٣٦٤ ـ ١٣٨٠م) واستعان فى أمره

بالفارس المعروف (براتراندد غسقلين) ومازال يترقى هذا الفارس حتى صار أمير الجيوش الفرنسية ، وجرت له حروب مع الأنكليز أسروه فيها ثم ردوه الى بلاده ، فأرسله كرلوس إلى اسبانيا سنة ١٣٦٦ م ليعاقب بطرس لوكريل (الجبـــار) ملك قسطيلة (قشتالة) ، وكانت رعيته قد كرهته ، وثقل ظلمه عليها ، فخلعه وولى بدله أخاه هنرى داترنستمارة ، وقد اصطحب دغسقلين معه فى تلك الغزوة عصابات من الجنود التى كانت قائمة بحفظ البلاد الفرنسية التى تركت للأنكليز ، فلما انقضت مهمتهم تجمعوا أحزاباً ، وصاروا يعيثون فى أرض فرنسة ، فأنقذها دغسقلين منهم بأخذهم معه إلى أسبانيا وإلحاقهم بجنـد هنرى الذى أقامه ملكاً عليها

وكان يعاصر ملوك فرنسة وانكلترا المذكورين من ملوك قشتالة الفونس الحادى عشر (١٣١٢ ـ ١٣٥٠ م) وبيدرو (١٣٥٠ ـ ١٣٦٨م) وهنرى الثانى (١٣٦٨ ـ ١٣٧٩ م)

ولاشك أن الفونس الحادى عشر هو الهنشة ابن بطرة الذى ذكر القلقشـندى أنه مات فى الطاعون الجارف سنة ٧٥١ هـ وهى توافق سنة ١٣٥٠م ، وأن بيدرو هو بطرة بن الهنشة الذى ملك بعد أبيه فى هذه السنة الى أن قتل سنة ٧٧٢ هـ على ماذكره القلقشندى وهى توافق سنة ١٣٧٠م ، ولعل قتله كان سنة ٧٧٠ هـ لأنها هى السنة التى توافق سـنة ١٣٦٨ م ، وأن هنرى الثانى هو أخوه القمط الذى ذكر القلقشـندى أنه مات سنة ٧٨١ هـ وهى توافق سنة ١٣٧٩ م

وقد كانت المنافسة قائمة فى ذلك العصر بين فرنسة وانجلترا ، ولـكل من الدولتين أنصار من الدول الأوربية ، وكانت أحوال السياسة فى هذا العصر قائمة على هذه المنافسة ، فلما قام النزاع على ملك أسبانيا بين ابنى الفونس الحادى عشر (بيدرو وهنرى) انضم بيدرو إلى انجلترا ، وانضم هنرى الى فرنسة ، ولا شك أن تلك الحملة الفرنسية التى أرسلها كرلوس الخامس ملك فرنسة كانت من المساعدات التى لقيها هنرى (القمط) حينما التجأ إلى ملك برشلونة ، فأمده بجيش من عنده وزحف على أخيه بأمم من النصرانية كان منها تلك الحملة الفرنسية لأن تاريخها الميلادى (١٣٦٦ م) يوافق السنة الهجرية التى ذكر القلقشندى أن القمط تغلب فيها على أخيه بطرة (سنة ٧٦٨ هـ)

أما الأنكليزية التى وجهها البرنس غالس (أوف ويلس) إلى أسبانيا حينما التجأ اليه بطرة بن الهنشة فكانت بعد الحملة الفرنسية السابقة وبها تمكن بطرة من خلع أخيه القمط والاستيلاء على ملك أسبانيا إلى أن قتله أخوه القمط سنة ٧٧٢ هـ أو سنة ١٣٦٨ م والفرق بينهما سنتان على ما قدمنا ، وجنود هذه الحملة هى جنود الأنتكيرة التى أعجب ابن الخطيب فى كتاب (الأحاطة) بقتالها ، ولا يصح بعد هذا شك فى أن الأنتكيرة هى أنكلتيرة كما هو رأينا

عبد المتعال الصعيدى

في تاريخ الأدب المصري

٤ – ابن النبيـــه

للأستاذ أحمد أحمد بدوي

تتمـــة

المدح والغزل أهم ما طرقه من الأغراض ، أما الوصف فانه يأتي عرضاً غير مقصود ، وقد وصف لنا ما نبتهج به نفسه من مُتع كما ذكرنا ، وأما الرثاء فهو جيد وإن كان قليلاً ، وهو يجيد الرثاء والعزاء ، استمع إليه حين رثى ويعزى قائلاً :

الناس للموت كخيل الطراد فالسابق السابق منها الجواد
والموت نقاد ، على كفه جواهر يختـــار منها الجياد
مصيبة أذكت قلوب الورى كأنمـــا في كل قلب زناد
يا ثالث السبطين خلفتني أهيم من همي َ في كل واد
ويا ضجيع الترب أقلقتني كأنما فرشي َ شوك القتـــاد
دفنت في الترب ولو أنصفوا ما كنت إلا في صميم الفؤاد
خليفة الله اصطبر واحتسب فمنا وهي البيت وأنت العماد
في العلم والحلم بكم يقتـدى إذا دجا الخطب وضل الرشاد

ولعل الظروف التي أحاطت به لم تلجئه إلى الهجاء ، ولذا لا نعثر عليه فيما بين أيدينا من شعر

— ٦ —

يمتاز شعر ابن النبيه بالسهولة والرقة والعذوبة ، سهولة تذكرنا بديباجة البحتري العذبة في نقاء ، والسلسة في امتناع ، وهو مع سهولته يرتفع عن الأسلوب العامي إلا في النادر جداً ، حين يجد التعبير العامي هو التعبير الذي يؤدي المعنى الكامن في نفسه تماماً ، ولكنه مع ذلك يهذبه ويشذب أطرافه حتى يعـــلو ويرتفع .

وهناك ظاهرتان أخريان فيـه : أولاهما استخدامه كثيراً من الكلمات الفارسية في شعره ، ولعل لمعيشته بـ... وقربه من بلاد الفرس ، ولحبه التجديد والتظرف أثراً في ذلك كبيراً ، فأنت تسمع في شعره كلمة اللاذ معرب اللاد وهو قماش حرير لطيف جداً ، وتسمع كلمة الكلهبند وهي مركبة من كله وهو اسم لما يلبس فوق الرأس وبند وهي تعني رابط ، ومجموعهما اسم لما يشد به ما على الرأس إلى الذقن لئلا يقع ، ويستعمل كلمة جوكانه بمعنى صولجانه وغير ذلك . وأخراهما ما تراه في شعره كما تراه في شعر غيره من المصريين من حب للبديع وافتتان بأنواعه وفنونه ؛ ولقد أغرم شاعرنا بتلك الأنواع البديعية ، ولاسيما الطباق والاقتباس وحسن التعليل واللف والنشر ومراعاة النظير والجناس والتلميح ، كقوله :

تبسم عن منظوم در ، فان تكلمت جاءت بمنثور

وقوله :

إن جنحوا للسلم فاجنح لها ما خـــدع الحرب بتقصير

وقوله يصف الخمر :

بكر إذا ابن سماء مسها لبست ثوب الحباب حياء منه واتشحت

وقوله :

فالناس بين بنانه وبيانه في نعمتين رغائب وغرائب

وقوله :

عزيز يوسفي الحسـ ـن لم يُبشر ولم يسجن
قد ابيضت به عيني وللمهجور أن يحزن

ولقد كان حينما يمدح القاضي الفاضل يتأنق ويجتهد الاجتهاد كله في الصناعة اللفظية شأنه في ذلك شأن غيره ممن اتصل بالقاضي ومدحه ، ولقد نظم فيه قصيدة استخدم الاقتباس في كل أبياتها واقتبس من سورة المزمل إذ قال :

قمت ليل الصدود إلا قليلا ثم رتلت ذكركم ترتيلا
ووصلت السهاد أقبح وصل وهجرت الرقاد هجراً جميلا
مسمعي كلٌّ عن كلام عذولي حين ألقي إليه قولاً ثقيلا
وفؤاد قد كان بين ضلوعي أخذته الأحباب أخذاً وبيلا
قل لراقي الجفون إن لعيني في بحار الدموع سبحاً طويلا الخ

وعلى هذا المنوال نسج قصيدته ، وذلك غير مستغرب على رجل يخاطب القاضي الفاضل الذي كان زعيم الطريقة التي تعني بالصناعة والبديع . غير أنه لا ينبغي أن نظن أن استخدامه البديع أضاع من جمال الشعر أو حط من قيمته ، فشاعرنا لبق يجيد استخدام البديع من غير أن يؤثر في جمال الشعر وروعته . هذا ولشاعرنا بعض موشحات ليست بقوية ولا رائعة ، وهي أضعف من شعره العادي ، وأحدها ينطق بدون إعراب ، ولعل

محاولته فى الموشحات لم تنجح فانصرف عنها ولم يكثر من الموشحات ، كما أنه خرج عن أوزان الشعر العربى القديم قليلا حينما كان يقول شعراً من الدوبيت ، وهو وزن لم يستعمله العرب القدماء وإنما اخترعه المولدون

— ٧ —

فاتنى أن أذكر لك اسم شاعرنا ، وأنه أبو الحسن على بن الحسن بن يوسف بن يحيى ، ويلقب بكمال الدين ، ويكنى بابن النبيه ، وفاتنى أن أقول لك : إنه كان حاضر البديهة حسن التعليل ، ويذكرون من ذلك أنه رأى الأشرف يوماً يرتعش بالحمى ، فنظم على البديهة وأنشده :

تباً لحُمَّاك التى كست فؤادى ولها !
هل سألتك حاجة فأنت تهتز لها؟

ومرة انكسر يراع الأشرف وهو يكتب فالتمس غيره فلم يجد فقال له : أقلامك يا كمال قليلة ، فنظم ارتجالاً قوله :

قال الملك الأشرف قولاً رَشداً أقلامك يا كمال قَلَّتْ عددا
ناديت لطول كتب ما تطلقه تحفى وتقط فهى تفنى أبدا

ومرة غُنى بين يدى الملك العزيز دوبيت بالعجمية معناه أنه جعل الليل برد دارا للحبيب ليحجب الشمس ، فاستحسن المعنى وأرسل إلى وزيره أن يأمر الشعراء بالعمل فى ذلك ، فأنشد كل منهم ما ورد عليه ، ودخل ابن النبيه على الوزير ، فطلب منه أن يعمل فى ذلك ، فاستمهله فأبى فقال :

قلت لليل إذ حبانى حبيباً وغناء يسبى النهى وعقارا
أنت ياليل حاجبى فامنع الصبـ ـح وكن أنت يا دجى برد دارا

وبرد دارا فارسى معرب معناه الحاجب ، والغناء بالفارسية قد يفسر لنا وجهاً من الوجوه التى أدخلت الكلمات الفارسية فى شعر ابن النبيه ، ولسرعة بديهته تلك كان الملك الأشرف كثيرا ما يطلب منه قول الشعر ارتجالاً فى أى موضوع يعن له

سكن ابن النبيه نصيبين ، وهى مدينة فى شمال الجزيرة بعد أن غادر مصر ، وبعد نحو ستين عاماً من مولده (إذ أنا لا نعلم تاريخ ميلاده على وجه التعيين) مات ابن النبيه فى اليوم الحادى والعشرين من جمادى الأولى سنة تسع عشرة وستمائة .

« تم البحث »

أحمد أحمد بدوى
بالأوقاف الملكية

صورة من أدب السودان

قصـــيدة نقدية

للأستاذ عبد الله عبد الرحمن

العروبة

تنكّر من وادى العروبة مورد فلا الزهر مُفتَرٌّ ولا الغصن أملَدُ
ولا ماؤه ينساب بين رياضه ولا الطير فى أفنانهن تغرّد
وقفتُ على الوادى مليًّا فهزنى وبدّد شملى شملُه المتبدد
مضى مُتَنَبِّيه وحسان دَوْحِهِ وغاب مَعَرِّيه الحكيم المجدد
أُسائله : أين الذين تحدثوا اليك وفى هذا المكان تردّدوا
على ظلك الضافى جلوس وكلما أهاب بهم داعى السماحة أنشدوا

أحمد زكى باشا

كأن لم يكن شيخ العروبة نازلاً به ولماً من علمه متزود
زكى ! نصير العرب فى كل موطن بهول ، وماضيها الذى تتقلد
عليك سلام الله أحمدُ ، هامداً ، وأستغفر المولى ، فما الفضل يهمد
وكان الرجال العبقريون إن قضوا بما لهمُ من شامل النفع خلّدوا
لقد كنت بَرًّا بالعروبة كلها وفى نصرها قد كنت لا تتردد
إذا طلع الغرب الحديث بآية من العلم كبرى وازدهاه التفرّد
عمدتَ الى التاريخ تسأل حكمه وأثبتَّ أن العرب من قبل مهّدوا
فساحوا وطاروا فى السماء ويممت سفينهمُ الكونَ الجديد وأصعدوا

الفوضى

وفوضى على الأكوان جرّت ذيولها وبات يعانيها مَسود وسيِّد
مظاهرها فى كل نادٍ ، وإنما عواقبها موت الشعور المؤكد
فشت فى زمان فاض غدراً بأهله ودب الى آدابهم فيه مُرقد (١)
لنا لغة أما بنوها فأنكروا فضائلها والمنكر الحق ملحد
همو جهلوا منها علوماً كثيرة وفاتهمو منها المعين المجدد
وما قدّروها فى اللُّغَى حق قدرها وكانوا أناساً للأباعد أخلدوا
وآياتها فى كل يوم وليلة تُثنى ، ولكن بالمحامد تفرد
أرادوا ، وظلم ما أرادوه بيّن ، بما لم يكونوا فاعلين ليحمدوا

---

(١) المرقد : شراب يخدر

إذا نظروا للأقدمين مقالة   ولم يفهموا ، قالوا : كلام معقد
و إنْ لُمْتَهم يوماً أشاحوا بوجهم   وأرغوا كما يرغى البعير وأزبدوا
همو زعموا أن الزمان مؤخرٌ   وما لزمان فى تأخرنا يد
ولكنه لما وهى حبل خُلْقنا   مشينا كما يمشى الأسير المقيَّد

* * *

لقد مُنيتْ أم اللغات بفتيةٍ   طغام على أعلامها تمرد
وقد أُشربوا حبَّ الأعاجم فانبروا   إلى هذه الفصحى سهاماً تسدد
تواصوا بشرٍّ وهو كتمان فضلها   وقالوا بأنا معشر لا نقلد
وقالوا لقد ضاقت عن العصر حاجها   وفى وجهها باب الثقافة يوصد
وقالوا بأنا أنجبتنا معاهــد   وأوحت إلينا يابنى العصر جددوا
وما هو تجديد فنكبر أمره   ولكن دَعاوَى منهمو وتزيُّد
وهل ينبغى التجديد إلا لعالم   له فى فنون الضاد رأى مسدد ؟
قضى زمناً فى البحث والدرس جاهداً
فقرت له الفصحى بما هو مُورد
حوى قصبات السبق فى جيله وهل
حوى قصبات السبق كسلان قُعْدُد

* * *

أقول لمن قالوا شهدت لها وقد   تغاليتَ فيها . لكن الله يشهد
وهل كان إلا الله داع لرفعها   و بناؤها إلا النبىُّ محمــد
أرى الخرق يزداد اتساعاً بثوبها   وعارٌ علينا ثوبها يتقدد
تمسك قوم بالجديد فأتهموا   وعُلق بالعادىِّ[1] قوم فأنجدوا
و بين الفريقين استحرَّت كما ترى   حروب . وخوفى أنها ليس تخمد
فما لبنى الضاد الكريم تفرقت   بهم سبل والحق لا يتعــدد
ومرشدهم ضلَّ الطريق فما عسى
يكون سوى الخسران إن ضل مرشد ؟

الشعر

لعمرك إن الشعر أضحى مخنثاً   قوافيــه من تحنانها تتأوّد
وأصبح غثاً فى الركاكة ضارباً   بسهم ، وعماسنت العُرب يبعد
وأمعن فى لين و بخس مطالبٍ   وكاد على أيدى التشاعر يجمد
لقد خمدت بالقوم نار حميةٍ   تلظى ، وخوفى أنها ليس توقد
فحتى متى نغفى الجفون على القذى   وحتى متى نُغنى بما ليس يحمد ؟
إذاما أُسود الغاب خلت ذئابها   تعيث فإن الحرث والنسل يفسد

(١) العادى القديم نسبة إلى عاد

لقد هاجنى أنى أرى الروض باسماً   ولست أرى فيه بلابل تَغْرَد
وقد هاجنى أنى أرى الربع مقفراً   وليست له أنفاسنا تتصعد
إذا الشعر لم يترك بقلبك روعة   فلا هو سيار ولا هو جيــد
و إن هو لم ينهض بأعباء أمةٍ   فذاك هراء ميت قبل ينشد
و إن أنت لم تذعن لآيات سحره   فقل إننى بين الخلائق جلمد ؟
إذا ما شياطينُ النفاق تمردت
بأرض فباسم الشعر فى الأرض تطرد

كتاب العصر

ولا أكذب الرحمن ، فى العصر أنجم   حماة لها ، من غيرة تتوقد
وصــيّابة[1] أدت أمانة قومها
وقامت على ضوء (الرسالة)[2] ترشد
يطالعنا (الزيات) فيها بنافعٍ   من القول لا يطغى ولا يتقيد
(وهيكل) فى أثوابه أى كاتبٍ   خصيب إلى خير الأساليب يعمد
ولله طه بن الحســين فانه   على نثره الفذ الخناصر تعقد
وان تذكر الكتاب فاذكر غريبهم   (شكيباً) ففى آثاره ما يخلد
حمى حوزة الدين الحنيف وغادرت   جوائبه[3] الدنيا تقوم وتقعد

شعراء العصر

(ومطران) يسمو للخيال مصعداً   فيألفه وحشــيُّه المتأبد[4]
و يعجبنى شعر (الهراوى) فإنه   رصين قويم ليس فيــه تجعُّد
جميل الزهاوى والرصافى كلاهما   هو اليمُّ فى آذيِّه[5] يتزبَّد
أقاما بأرض الرافدينْ ليرفدا   ووَدّا لو ان الناس طرًّا تبغددوا

السودان

وكانت لنا فى غابر الأمس نهضة   مباركةَ لا اللهو منها ولا الدَّد
فعبد الرءوف و (الخطيب)[6] كلاهما
له بيننا الفضل الذى ليس يُجحد

(١) خيرة القوم   (٢) مجلة الرسالة التى يحررها الاستاذ الزيات
(٣) مقالاته التى تجوب البلاد   (٤) المتأبد المتوحش
(٥) الآذى : الأمواج ، والرافدين : الدجلة والفرات
(٦) الأستاذ الشيخ عبد الرءوف سلام كان مدرس اللغة العربية بكلية غردون العليا بالخرطوم . أخذنا عليه علوم اللغة العربية ولم نر أعرف منه بمتن اللغــة ولا آخذ منه بنواحيها — والخطيب : هو فؤاد باشا حسن الخطيب رئيس ديوان الأمير عبد الله أمير شرق الأردن ، وكان مدرس الأدب العربى بالكلية أيضاً ، ومكانته معروفة فى العالم العربى . وكان شعر عبدالرءوف يشبه شعر الوليد البحترى ، وشعر الخطيب يشبه شعر المتنبي

هما حركا منا النفوس وأنشرا علوماً على أضوائها اليوم نصعد
وقد طالما هزا النفوس بطيِّب من القول يرضاه الوليد وأحمد
ولاحا على الخرطوم نجمي معارفٍ به وعوادي الدهر إذ ذاك تولد
وفي اليوم قد شابت وشبَّ وليدها ومارسها منا كبير وأمرد
وذلك عهد قد سعدنا بظله لو ان الكريم الحرَّ في الدهر يسعد
فآليت لا أنسى له فضل نعمة عليَّ ، وللأحسان مني ممجِّد
أولئكم الكتاب آساس نهضة وكنز ثمين للثقافة يرفد
هم العائشون في نفوس كثيرةٍ وفي كل قطر من صنائعهم يد
تخيرتهم بين الأنام لفضلهم وأكبرتهم إن كنت للناس أنقد

الى العرب

بني العرب في السودان والشرق كله
لكم ولكم يورى زنادي ويصلد
أفيقوا فان الوقت سيف مجرد
عليكم ووقت الناس في الغرب عسجد
إذا لم نشخِّص داءنا فدواؤنا عسير وفي اغفاله ما يهدد
يهدد نَهَضات بدت في شبابنا جديداً وخوفي انها سوف ترقد
علوم اللسان لو علمتم كثيرة وفي جهلها ترك لما هو أوكد
وأولها أن تروى الشعر ناصعاً عن العرب لا يسمو اليه المولد
وأن تقتل الألفاظ فهماً وتنتقى أحاسنها يوم الكتابة تقصد
فياليت شعري هل ملأتم وطابكم من العلم حتى تكرموا وتمجدوا ؟

***

هلموا نوادي العلم في كل بلدة تقول لكم إن الطريق معبد
إلى حاملي الأقلام من كل ملة إلى العرب في أي الأماكن توجد
نظمت لكم مما أحس قوافيا لعلَّ أماني اليوم يأتي بها الغد
وهيهات يسمو للكرامة في الورى أديب عن الانتاج في الفن يقعد
فان تنصروا العرب الأكارم تنصروا
وإن تخذلوها فالبقية تفقد
أناس متى ما تطلب مشبهاً لهم طلبت من الأشياء ماليس يوجد

الخرطوم — سودان عبد الله عبد الرحمن

قصة أميرة مصرية

للأديب حسين شوقي

جلس الآله أوزيريس قاضي قضاة «الأمنتي [١]» وهو الذي يحاسب الموتى على أعمالهم في الحياة الدنيا ، إلى مكتبه يراجع ملفات بعض الموتى ، وكانت نافذة المكتب تشرف على حدائق «الأورو [٢]» الغناء ، حيث حجم الزهور أضعاف حجم زهورنا الأرضية ، ولكن أوزيريس لم يبال المنظر الجميل الذي أمامه ، لأنه كان مشغولاً بمراجعة قضايا الموتى ، وقد استلفت نظره على وجه خاص الملفّ الآتي ، وهو لخادم شاب من أهالي منفيس . يقول صاحب الملف :

أنا «سبدو» بن «واخ» كنتُ خادماً في قصر الأميرة العظيمة تتا بمنفيس . .

أي أوزيريس ! سيد «الأمنتي» اني أنشر قصتي بين يديك : أنا «سبدو» بن «واخ» هربتُ من المدينة وذهبت إلى الصحراء ، حيث قتلت نفسي بيدي لتأكل جسدي الوحوش حتى لا أبعث [٣] ، لأني لا أرغب في هذا البعث ، بل لا أستحقه . .

وكتبتُ هذه الوثيقة خشية أن أبعث على الرغم مني ، وذلك بأن يعثر البدو على جسدي قبل أن تفترسه الوحوش فيحنطوه شفقة منهم . . فاذا بُعثتُ أي أوزيريس ! فعاقبني أشد العقاب . .

إن أقاربي يستطيعون أن يقدموا إليك القرابين ابتغاء مرضاتك والتماس عفوك ، ولكن لا تسمع إلى توسلاتهم ، لأني مذنب شديد الذنب لا أستحق الشفقة . .

كنتُ بستانياً لدى الأميرة تتا ، وهي سيدة عظيمة تعيش بقصرها في عزلة عن العالم منذ أن فقدت زوجها في إحدى الحروب النوبية ، ولم تكن لها تسلية غير ابنتها «شفيت» ، وهي فتاة جذّابة خلابة نضيرة ، أشبه بزهرة اللوتس عندما تتفتح في الفجر . .

---

(١) الأمنتي : العالم الآخر
(٢) الأورو : الجنة
(٣) يعتقد المصريون القدماء أن الانسان لا يبعث الا إذا حنط جسده .

لقد أحببتها لأول وهلة . . إن قلبي كاد يثب من صدرى حينما دنوت منها يوماً فى الحديقة ، وقد نزلت الأميرة تقطف بعض الزهور التى تحبها ، وليس غريباً أن تحب الأميرة الزهور ، فهى شبيهة بها فى نضارتها . . ساعدتها فى القطف حتى لا يدمى الشوك أناملها الطفلة . . شكرتني الأميرة الصغيرة فى ذلك اليوم بابتسامة ساحرة دون أن تنظر إلى ، لأنى حقير ممن فى الحفارة بالنسبة إليها ، وكنتُ فوق ذلك دميماً ، بل دميماً جداً . .

أى أوزيريس ! كم عذبنى الحب ! إن شياطينك القادرة لم يكن فى استطاعتها أن تفعل بى مثل ما فعل الحب . .

كنت أقضى الليل مؤرقاً ، بل مختبئاً وراء الأشجار عند نافذة الأميرة ، أتلمس رؤيتها . .

كم ليال لذعنى فيها البرد القارس وأنا فى مخبئى أشتهى ضم ذلك الانسان الجميل ، ولكن بلا أمل ، كما يشتهى الهر ضوء القمر وهو منعكس على المستنقع ، وقد حسبه لبناً فى طبق . . !

ولقد أصبت بغيرة شديدة من جراء هذا الحب . . بلغ من غيرتى على الأميرة أنى كنت أغضب حينما تنظر هى من نافذتها إلى القمر ، لأنى تخيلت أن القمر يبتسم لها ويغازلها . . . صعقت يوماً بنبأ خطبة الأميرة إلى أحد أقارب فرعون . . . فكرت فى أول الأمر أن أقتل نفسى ، ولكن الغيرة التى أنشبت مخالبها فى قلبى ، أمرتنى بقتل الأميرة قبل أن أقتل نفسى ، حتى لا ينعم بها أحد . .

وإليك أوزيريس كيف نفذت جريمتى :

نزلت الأميرة يوماً إلى الحديقة تقطف زهراً ، فدنوت منها أساعدها وقلت :

أميرتى ، إن عندى سراً عظيماً ، هل تأذنين لى أن أفضى به إليك ؟

قالت فى شىء من الاهتمام : وما هذا السر ؟

قلت : عثرت على كنز عظيم يحوى أساور من الذهب ، وأقراطاً من الفضة ، وخواتم من اللازورد . . فقاطعتنى قائلة فى اهتمام شديد هذه المرة ، لأن للنساء ضعفاً أمام الحلى كما تعلم

— وأين الكنز ؟ إلى به !

قالت : إذا شئت يا أميرتى ذهبت بك اليه .

قلت : وهل مكانه بعيد ؟

قلت : كلا ! إنه على مسافة قليلة من القصر

قلت : أين هو ؟

قلت : فى الصحراء

قالت : لنذهب على الفور ، اذهب فناد وصيفتى لتصطحبنا . .

قلت : أرجو أن تأتى وحدك يا سيدتى ، إذ يجب أن يبقى أمر الكنز مكتوماً ، لأن فرعون لو علم به استولى عليه . .

قالت : إذن هيا بنا . .

سرنا فى الطريق ، وكنت أثناء السير أود أن أضمها إلى ، ولكن كان لجمالها روعة نهتنى عن ذلك . .

ولما بلغنا مكاناً خالياً فى الصحراء ، أدخلت الأميرة فى نفق حفرته بالأمس على سعة مقبرة فى جانب الجبل ، ثم قلت : إليك الكنز ! ولما دخلت الأميرة متشوقة إلى رؤيته ، أغلقت عليها النفق بحجر ضخم كنت أعددته بالأمس أيضاً لهذا الغرض ، ثم غادرت المكان تواً حتى لا تضعف نفسى فى آخر لحظة فأعود عليها .. هاهوذا جرى أى أوزيريس ! ولكنى تمكنت من أن أحرم أى إنسان مسامها والتمتع بها ، حتى أنتم معشر الآلهة حلت بينكم وبين الوصول اليها ، فقد حرمت الأميرة من التحنيط بهذه الطريقة التى ماتت عليها ، فهى لن تبعث فى العالم الآخر ! وبينما كان أوزيريس منهمكاً فى قراءة هذه الوثيقة الغريبة ، إذا ولده هوروس الشاب يقبل عليه يطلب منه شيئاً فالتفت اليه أوزيريس وناوله الوثيقة وقال :

اقرأ ! أى عقاب يستحقه هذا الرجل ؟

فتناول هوروس الوثيقة فى امتعاض لأنه لم يأت لهذا الغرض ، ولكنه ما كاد يبدأ فى تلاوتها حتى اهتم اهتماماً عظيماً ، وما كاد يتمها حتى ألقى بها جانباً على المكتب وخرج يعدو ، ناسياً مطلبه من أبيه . .

فتبعه أوزيريس وهو يصيح :

إلى أين ؟ الى أين ؟

فقال هوروس : الى النفق الذى فيه الفتاة فلعلنى أبعثها !

كرمة ابن هانئ حسين شوقى

البريد الأدبي

وصية بارتو الأدبية

تذكر أن مسيو لوى بارتو السياسي الفرنسي الكبير الذي قتل في أكتوبر الماضي في مرسيليا إلى جانب الملك اسكندر الصربي، قد أوصى بمعظم تركته إلى الأكاديمية الفرنسية التي كان من أعضائها. وفي الأنباء الأخيرة أن الأكاديمية قد قررت بصفتها منفذة لوصية مسيو بارتو، أن تخصص من ريع التركة ثلاث جوائز أدبية كبرى: الأولى باسم الفقيد نفسه، وتمنح لأعظم كاتب في العام، والثانية باسم مدام بارتو وتمنح لأعظم كاتبة، والثالثة باسم مكس بارتو ولد الفقيد الذي قتل في الحرب دون الثلاثين، وتمنح لأعظم كاتب من الشبان دون الثلاثين

هذا ومن جهة أخرى فقد تقرر أن تعرض المجموعات الأدبية والفنية التي تركها بارتو للبيع بالمزاد. وتحتوي هذه المجموعات التي أنفق بارتو في جمعها طول حياته على تحف نادرة من مخطوطة ومطبوعة وصور وتماثيل وغيرها

بين الخالدين

توفى أخيراً أحد « الخالدين » أعني عضواً من أعضاء الأكاديمية الفرنسية، وهو المؤرخ الكبير لينوتر Lenôtre ؛ توفى في التاسعة والسبعين من عمره بعد حياة حافلة بالبحث والتأليف والكتابة؛ وكان حتى آخر لحظة يقوم بتحرير فصله التاريخي الممتع في جريدة « الطان » تحت عنوان « التاريخ الصغير ». وظهر فصله الأسبوعي كالعادة بعد يوم من وفاته. ولينوتر اسم مستعار للمؤرخ، واسمه الأصلي هو لوزان تيودور جوسلان. وكان لينوتر من أعلام تلك المدرسة التاريخية الحديثة التي عنيت بالتحقيق والاستقصاء في الدقائق والتفاصيل الشخصية والأجتماعية لأنها ترى فيها أهم ما يلقي الضياء على طبيعة الحوادث والأشخاص، ومن زملائه في تلك المدرسة فونك برنتانو عضو المجمع العلمي، وبيير دي نولهاك عضو الأكاديمية. واشتهر لينوتر بالأخص بكتاباته عن الثورة الفرنسية وعن الشعب الفرنسي والحياة الفرنسية في ذلك العصر، وله في ذلك عدة مؤلفات ورسائل قيمة منها « أسر ماري انتوانيت وموتها » « المقصلة ومنفذو الأحكام أيام الثورة » « الملك ونورة لافندى » « دي شاريت » وله مجموعة عنوانها « القصور القديمة والوثائق القديمة ». وكان لينوتر أيضاً صحفياً بارعاً جم الانتاج يكتب في أشهر الصحف والمجلات. ولبث أعواماً طويلة يكتب مباحثه في « الطان » بعنوان « التاريخ الصغير ». وقد انتخب عضواً بالأكاديمية في ديسمبر سنة ١٩٣٢. واستقبلت الأكاديمية نبأ وفاته بالمراسيم المعتادة، وألقى مديرها العامل المسيو هنري بوردو خطاب التأبين للمؤرخ الراحل؛ ومما قاله: « إن لينوتر قد تبوأ في عالم المباحث التاريخية مركزاً خاصاً، فهو يتعلق بالأشخاص، والنوادر، والحياة الخاصة، والتفاصيل المغربة أكثر مما يعني بالحوادث وملحقاتها؛ ولقد كان يتمتع بموهبة يحسده عليها كثير من القصصيين: هي موهبة الحياة »

جائزة جرنجوار

لمجلة جرنجوار الفرنسية جائزة سنوية قدرها خمسة آلاف فرنك تمنح كل عام لأحسن أثر « اخباري » (ريبورتاج) يصدر في العام. وقد منحت هذه الجائزة خلال مأدبة عشاء أقيمت جرياً على العادة السنوية لمسيو مارسل جريول عن كتابه الذي ظهر أخيراً عن الحبشة وعنوانه « حارقو الانسان ». ومسيو جريول من العلماء الشبان، تلقى دراسة علمية عالية، وتخصص في مباحث الأجناس البشرية، وساهم في عدة بعثات علمية رسمية أرسلت الى السنغال والحبشة وغيرها؛ وله أسلوب علمي جذاب عما يسبغه عليه من البساطة والطابع الصحفي

عيد الربيع القومي في سورية

عقد فريق كبير من طلبة الجامعة السورية والمدرسة التجارية والمدارس الثانوية العالية اجتماعاً بحثوا فيه مشروع إقامة عيد قومي في الربيع، وقد أطلقوا عليه اسم « عيد الربيع القومي »

وسيكون هذا اليوم من الأيام التاريخية، إذ يسير الشباب بشكل مواكب تمثل أزاهير دمشق، وبعض مواكب تمثل مجد العرب الغابر على شاكلة أعياد الربيع في فرنسا

وسيقوم الشاب الأديب السيد أحمد القباني الطالب في مدرسة التجارة العليا برحلة الى المنطقة الشمالية للاجتماع باخوانه الشباب والطلبة في الشهباء والبحث معهم في هذا الصدد لجعل هذا العيد عيداً قومياً شاملاً تشترك فيه سائر المناطق السورية في ربيع كل عام «عن الجزيرة»

بلاطة أثرية تكشفها السيول في نابلس

كان من جراء السيول التي اجتاحت نابلس أن كشف التراب عن بلاطة تاريخية عظيمة الشأن

وقد اهتمت دائرة الآثار في فلسطين بها وأوفدت لجنة فنية فعاينتها وقررت نقلها إلى المتحف وتكليف رجال الفن بترجمة ما نقش عليها

وقد ظهر حتى الآن أن هذه البلاطة نقلت من مكانها الأصلي المجهول حتى الساعة لتبنى في السور حيث وجدت، وقد صرح أحد السامريين أن الكتابة المنقوشة عليها هي الوصايا العشر، وقد كتبت باللغة الآرامية التي كتبت بها توراة السامريين

ولا يزال علماء الآثار يفدون لمشاهدة هذه البلاطة التاريخية التي ربما كشفت عن مدينة يهودية قديمة في شرق نابلس «عن الأرز»

هل للراغب الأصبهاني ترجمة وافية؟

احتجت الى ترجمة الراغب الأصبهاني صاحب المفردات (وللمفردات شهرة ومكانة تداني شهرة القاموس ومكانته) و«الذريعة» و«تفصيل النشأتين» و«محاضرات الأدباء» وغيرها من المصنفات الجليلة، ففتشت فيما بين يدي من كتب التراجم، فلم أقف إلا على هذه النتف الصغيرة التي لا تروي غليلاً:

قال الزركلي في الأعلام:

هو أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل، أديب كبير من العلماء من أهل أصفهان (وتسمى أصبهان) مات سنة ٥٠٢. من كتبه محاضرات الأدباء الخ...

وقال في بغية الوعاة:

«هو المفضل بن محمد الأصبهاني الراغب صاحب المصنفات؛ كان في أوائل المائة الخامسة، له مفردات القرآن، وأفانين البلاغة، والمحاضرات، وقد وقفت على الثلاثة، وقد كان في ظني أن الراغب معتزلي حتى رأيت بخط الشيخ بدر الدين الزركشي الخ ما نصه: ذكر الامام فخر الدين الرازي في تأسيس التقديس في الأصول، أن أبا القاسم الراغب من أئمة السنة وقرنه بالغزالي، قال: وهي فائدة حسنة فان كثيراً من الناس يظنون أنه معتزلي»

وأثبت مثل هذا في آخر الطبعة اليمنية للمفردات نقلاً عن كشف الظنون وغيره، وروى مثله السلطان محمد صديق خان في البلغة

ولم أجد أكثر من ذلك، فأرجو ممن وقف له على ترجمة وافية، أن يتفضل فيبعث بها الى (الرسالة) أو يرشدنا اليها، ولست أظن أن مثل الراغب تندى ترجمته أو تضيع.

دمشق علي الطنطاوي

حول محطة الإذاعة اللاسلكية

... مدير مجلة «الرسالة» الغراء

.... وبعد، لقد نشرتم تحت عنوان الأذاعة اللاسلكية العربيـة بعدد ٧٥ من مجلتكم فقرة تهم عالم الراديو، فانني أشكركم على اعتنائكم هذا، حيث نهتم الرأي العام المصري لمسألة جديرة بالاهتمام. حقيقة أن المحطة المصرية لا تفي بالمقصود لأنها على ما أظن محطة إسلامية قبل كل شيء. وبما أن مصر هي اليوم حاملة لواء الأدب العربي فان أنظار المسلمين قاطبة متجهة نحو ذلك الوطن المحبوب. ليست القاهرة قاعدة لمصر فحسب، بل هي عاصمة العالم الشرقي الباسط جناحيه على أفريقية وآسيا.

إذن ليست المحطة المصرية محطة محلية، بل هي محطة واسعة النطاق، وجدير بمصر أن تكون لها محطة إذاعة تباهي بها أرقى الأمم، وبها تتغلب موجاتها الفائضة بالفصحى على الموجات الأعجمية كي تنال الحظ الوافر من الأثير. ألا يكفي العالم الغربي استعماره الأرض حتى يبغي الاستحواذ على الأثير؟

لهذا كله أرغب من ولاة الأمور بتلك الديار الشاسعة تحسين محطتنا العربية كي يعم نفعها، فاقترح عليهم واحداً من اثنين:

١ – تغيير طول موجة المحطة المصرية لأنها تشاركها في طول الموجة محطة بروكسيل وكل من المحطتين لها ٦٣٠ كيلو سيكلا، ويجب أن يكون بينهما تسعة ك. س على الاقل كيلا تمتزج الأصوات، فليختاروا لها مقياس محطة تكون أبعد من المحطة البلجيكية وأضعف منها قوة كمحطات النرويج مثلاً التي يوجد بينها من لا تزيد قوتها عن نصف كيلو وات كمحطة بودوى Bodoe التي يبلغ طول موجتها ٢٣٥,١

٢ – أو على المحطة المصرية إن أبت إلا طول موجتها أن تجاري محطة هويزه Huizen الهولندية التي تحمل قوتها ٧ كيلووات نهاراً و٥٠ كيلو وات ليلاً

هذا رأيي أبديته لعله يقع موقع استحسان لدى مصر الفتية وحكومتها النبيلة

بومعادة – الجزائر بسكر عيسى

من روائع الشرق والغرب

محمد إقبال

من رباعياته المسماة « شقائق الطور »

ترجمة الدكتور عبد الوهاب عزام

١ — ياقلبى إلامَ تجهل جهل الفراشةُ الرعناء ؟ إلامَ تحيد عن سَنَن العظماء ؟ احرق نفسك مرة بنارك . إلامَ تطوف بنار غيرك ؟

٢ — يارب أية لذة فى الوجود ؟ كل ذرة هائمة بهذا الشهود . تشق الوردة الفنن النضير ، فتبسم فرحاً بهذا الظهور

٣ — سمعتُ الفراشةَ فى العدَم تقول : هب لى من الحياة حرقة واضطرابا ؛ اذرُ رمادى فى السحر ، ولكن متعنى بالحياة ليلة

٤ — فتحت فى ضمير النجوم سبيلاً ، وظللت بنفسك جاهلاً ، كن كالنواة وأبصر نفسك ، لتخرج نخلةً باسقة من تُربتك

٥ — ترنم الطائر الغردِ على الأفنان ، يقول فى مطرب الألحان ؛ أخرج كل ما فى صدرك صُراحاً : آهةً أو صرخة أو غناء أو نواحاً

٦ — يضيرك النظر فى بستانى العجب ، إن لم يكن روحك شهيد الطلب ، انى أُبِينُ عما فى ضمائر الأغصان ، وليس ربيبى طلسماً من الروائح والألوان

٧ — أنا بين طير المروج غريب ، أظل وحدى على غصن العش فى نحيب . إن تكن رقيق القلب فقف مني بعيداً ، فانما يرشح دمى فى أنفاسى تغريداً

٨ — تصبّ الحياة ُألواناً جديدة كل حين ، ما الحياة صورة واحدة على مرّ السنين . فان يكن صورةَ الأمس يومك فقد حُرِمتْ شرارةَ الحياة طينتك

٩ — ما عَلق قلبى بهذا البستان ، فمضيت طليقاً من قيود الزمان والمكان . ولكن كريح الصبا سريت ، فمنحت الورد اللون والنضرة ومضيت

١٠ — إن خمره جعلت جزفى كأس جم [1] ، واستسرّت فى قطرتى فصارت كاليمّ . وضع العقل فى رأسى صنماً ، وجعل « خليل » [2] العشق ديرى حرما

١١ — قُل عنّى للشاعرِ المفلِق ، ما جدوى حرقتك إن احترقت كالشقائق [3] ؟ لا تصهر نفسك هذه النار ، ولا تنير للبائسين الديار

١٢ — أنا لا أعرف حسنك وقبحك . فقد جعلتَ عيارها خسارتك وربحك . ليس مثلي وحيداً بين بني آدم ، إنى أرى بعين أخرى هذا العالم

عبد الوهاب عزام

(١) كأس جم أو كأس جمشيد كأس خرافية كان ملوك الفرس القدماء يرون فيها الأقاليم السبعة (٢) إشارة إلى بناء ابراهيم الخليل البيت الحرام . والمراد هنا التفريق بين العقل والعشق على رأى الصوفية

(٣) الشقائق أزهار حمراء فهى تشبه النار وليس لها حرارتها

رثاء

للشاعر الانجليزى اللورد بيرون

ترجمة الأستاذ محمود الخفيف

وهكذا تعدو عليك المنية ، فتذهبين فى غضارة إهابك وروعة جمالك ، كما يذهب كل شيء كتب له الفناء ؛ ويعود هذا الهيكل الرشيق وتلك المحاسن النادرة وشيكا إلى التراب !

لئن غيب اللحدُ هذا الجمال ، وحللت من الأرض فى بقعة يمر عليها الناس لاهين أو ضاحكين ، فان هناك عيناً لا تطيق النظر لحظة إلى ذلك القبر الذى يحتويك

سوف لا أسأل بعد اليوم أين موضعك من جوف الأرض ، ولا ولن أمد عينيَّ إلى تلك البقعة فوق ظهرها . ولتَنْشَمُ هنالك الأزهار أو الأعشاب كيفما شاءت ، فبذلك لن تقع عليها عيناى

حسبي ما لاقيت دليلاً على أن من أحببت ، ومن سأحرص أبد الدهر على حبها ، قد تطرق اليها البلى كما يتطرق إلى كل شيء خرج من الأرض ؛ وما حاجتى بعد إلى حجر يقام أو علامة تنصب ، وكل ما حولى ناطق بأن ما كان بالأمس موضع آمالى ، قد أصبح اليوم . . . لا شيء ؟!

ومع ذلك قد أحببتك حتى النهاية فى حماسة وقوة ، كما أحببتنى أنت ، يامن ظللت على عهدك طوال تلك الأيام السوالف ولا سبيل اليوم إلى تغيرك

إن الحب الذى طبعه الموت بطابعه لن يلحقه الفناء أبداً . فما تطاوُل الزمن بمذهبٍ من حرارته شيئاً ، ولا المنافسة بقادرة على استلابه ، ولا المين بواجد طريقاً إلى إفساده . وفضلاً عن ذلك فسوف لا ترين ما قد أرتكبه بعد اليوم من هفوة أو تحول أو خطأ

لقد تذوقنا معاً من أيام الحياة أحلاها ، أما أمرها فسأتجرعه وحدى ، إذن لن ترى عينك بعد الموت الشمس التى تبعث البهجة فى الكون ، ولا العاصفة التى تنذر بالظلام والهم

إننى لأحسدك على تلك الضجعة الهادئة ، حيث لا تزعجك الأحلام ، ولذلك يخيل إلى أن أترك البكاء على موتك . كذلك لن آسف على انقضاء تلك المحاسن الغر ، فلم يكن مفر من أن أراها تذوى يوماً بعد يوم أمام ناظرى !

إن أسرع الزهور إلى الذبول وأسبقها إلى الفناء ، أعظمها تفتحاً وأشدها بهاء ، وإن تلك الزهرة التى بذت صويحباتها تفتقاً ونماء ، لتسقط وريقاتها واحدة تلو الأخرى ، وإن لم تمتد إليها الأيدى فتقطفها قبل أوانها

وإن رؤية تلك الزهرة وهى تموت ورقة فورقة ، لأوجع للقلب ، وآلم للنفس ، وأدعى إلى الحسرة ، من رؤيتها وهى تقتطف دفعة واحدة ؛ ذلك لأن أعيننا ، نحن بنى الأرض ، لا تستطيع أن تراقب خطى التحول من الجمال إلى القبح ، دون أن يمضها ذلك ويحزنها

وليت شعرى هل كنت أستطيع أن أرى جمالك وما حزت من معانى الحسن ، يخبو ثم ينطفىء ؟ ألا إن الليلة التى تتلو مثل هذا الصباح لأشد ما تكون الليالى حلكة وكدرة

لقد انقضى نهارُك ضاحياً لم تشب صفاءه غمامة ، وبقيت حتى النهاية جميلة ناعمة ، وكأنى بك فى موتك العاجل كالشعلة تخمد فى وهجها دون أن تخبو ؛ كذلك الشهب التى تلفظها القبة الزرقاء ، أعظم ما تكون التماعاً حين تسقط من أعلى السماء

آه ! لو أستطيع البكاء كما كنت أبكى من قبل ... إذاً لجرت دموعى غزيرة ، على أنى لم أكن قريباً منك يوم مت لأقوم إلى جانب سريرك ساعة احتضارك ، شاخصاً فى وجهك فى هيام وأى هيام !

هنالك كنت أتناول جسدك بين ذراعى فأضمك ضمة خفيفة رافعاً بيدى رأسك المائل المحتضر ، كى أنهدَك ولو بغير جدوى ، على ذلك الحب الذى لن يحسه كلانا بعد !

لقد تركتني اليوم حراً طليقاً ، ومع ذلك لن يعدل كل ما يمكن أن تصل اليه يدى مما بقى فى الوجود من حسن ذكرى إياك كما أفعل الآن

إن ذكراك وهى لى منك ذلك التراث الوحيد ، الذى لن تصل اليه يد الفناء ، تعاودنى فى هذا الوجود المظلم المخيف فتزيدنى إعزازاً لذلك الحب الذى ضمه القبر ، والذى لا أعدل به شيئاً فى الحياة ، ولن يفضله فى نظرى سوى أيامه التى قضيناها معاً قبل أن يعدو عليك الموت ؟

الخفيف

الكتب

الاطـــلال

رواية قصصية مصرية — تأليف الأستاذ محمود تيمور

عرض ونقد بقلم محمد أمين حسونه

ليست «الاطلال» التي أخرجها الأستاذ محمود تيمور أخيراً سوى ثغرة بين مرحلتين في حياة المؤلف القصصية، وأقصد بالمرحلة الأولى فنه الذي يمت إلى الواقعية، وبالمرحلة الثانية نزعته الجديدة إلى التحليلية «السيكولوجية»، هـذا فضلاً عن خلوها من سيطرة أية نزعة أوربية

والناقد الحصيف يلمس بين سطور «الاطلال» من عصير الفكر ووضوح الوصف وخصوبة الخيال ما يكفل لها حياة نابضة. وقد عرف الأستاذ تيمور كيف يرتفع بموضوع روايته إلى أسمى من ذلك الفن الرخيص الذي يبدو في قصص غيره، واستطاع أن يضيف إلى جانب مهارته في رسم بيئته، تصويره لشعوره الخاص تحت نقاب شفاف من التورية الفنية، متخذاً شخصية «سامى» مرآة تحجب وراء زجاجها الصقيل الثورة الكامنة المتأججة في فجر حياة كل شاب، حتى تدفعه إلى الخروج من حالة القلق والحيرة إلى عالم الجسم وجحيم الشهوة

بسط المؤلف على لوحته أولاً رسم سامى، وهو من أبناء الذوات الذين يعيشون في القصور المحاطة بالأسوار العالية، تضم جدرانها العدد الوفير من الخدم والخصيان والأتباع، ويأوى اليهم بين يوم وآخر ضيوف تستغرق إقامتهم الأسابيع بل الشهور

وعندما يستطرد المؤلف في وصف نشأة الصبي سـامى تتنبه فيه ملكة التصوير، فلا يفوته أن يسجل إعجاب ضابط المدرسة عندما يدعوه الى داره ليلعب مع ابنته فتحية، وكيف يغرم الصبي بالفتاة وتستهويه رائحة الأنوثة المنبعثة من صورتها، حتى إذا ما شب كان عنفوان اليقظة الغامضة يدب في أوصاله، وتراه في ذات ليلة «أم خضير» — وهي خادمة حنكتها التجارب يتذكر دروسـه وفتحية أمامه تخيط ملابسها فتسر اليه «لو كنت مكانك لما جلست هكذا أمام كتبي، بل كنت أجلس الى جانبها أداعبها وأختلس قبلة»

كان في استطاعة سامى بحكم تربيته وبيئته أن ينهر الخادم، أو يزجرها، ولـكن المؤلف يضعه في هـذا الموقف على أبواب لغز، وكأن كلمات «أم خضير» جاءت اليه من عالم بعيد مجهول، فأيقظت العواطف الراكدة في أعماق نفسه، ودفعتها في طريق محفوفة بالآثام والمخازى

خطوات سامى في هذا الطريق الوعر قلقة مضطربة، فهو موزع الاحساس الجسدى بين فتحية وبين الغانيات وزوجة أخيه تهانى، وشخصيته في الرواية كخطواته غير مستقرة، يبدو أحياناً في هدوء عجيب، وأحياناً أخرى في عنف وشراسة. أما فتحية فيحوطها المؤلف بحالة غموض وإبهام وتجلد أمام الآلام، بحيث لا تتفق شخصيتها مع الواقع، وحالة تحفظ في التعبير بحيث يدفعها في الخفاء إلى كبت عواطفها كبتاً لا يمكنها معه أن تبوح بحب أو ترفع صوتها بشكوى برغم شعورها بالألم وإحساسها بأنها ليست مذنبة في نظر المجتمع. ولو أدرك المؤلف أن العواطف المكبوتة قد لا تخلو من الاحساس لاستكمل النضوج الفني للصورة

وعلى العكس يبدو فن المؤلف واضحاً وأفكاره مستوية وهو يعرض علينا عقب ذلك خيال فتحية غير المحدود، عند ما يتراءى لسامى بين ظلال الوعى، وساعة هدوء الروح وابتعادها عن إثم الجسد، فهي تتمثل له في طهارة كل فكرة وصفاء كل هاجسة، حتى إن المؤلف ليكسو خيالها باشماع من روح العطف والحدب على مصيرها. أما تهانى — زوجة أخيه — فهي مثال الفتاة العابثة النزقة التي لا تبالي بالتقاليد ولا بالأوضاع حتى إن صورتها كانت في عقله الباطن صورة امرأة غاوية قبل أن يفكر في ارتكاب الخطيئة معها، فهي تتمثل له في وجه كل غانية يلقاها، ونفس شخصيتها تتلاشى تماماً في الشهوة النجسة. ولما مات أخوه وأحس أمام جثمانه بالندم يفر وفر يطلب العزلة بعـد ضجيج المأتم وانكفأ يستعرض حاله، فقاده حاضره إلى التفكير في فتحية فخرج من صمته هائماً لا يلوى على شىء، بعد أن أحس أن جدران القصر تنهار «كالأطلال»، وأن شبح تهانى يطارده حتى أدرك القرية، وهناك سأل عن فتحية فاذا بها قد ماتت، وإذا طفل يجرى أمامه عليه ميسم اليتم ومسحة من جمال فتحية فيحتضنه بعد أن يعرف أنه ابنه ثم يبكى . . .

* * *

والأسـتاذ تيمور الذي يجسم بعيني الفنان كل صورة في عالم الأنوار والظلال ينجح نجاحاً باهراً في وضع شـخصية

مودة هانم بحيث تتراءى أمامنا بين السطور مثالا للمرأة التي استسلمت للقدر ، فهي لا تشكو ولا تحتج وإنما تترقب أن يلعب القدر دوره فى الخفاء فينزع زوجها من أحضان « ضرتها » وأن يعيده اليها سالماً . وحبذا لو أتى المؤلف إلى جانب هذا على طرق (مودة هانم) فى اجتذاب زوجها بوساطة السحر أو التنجيم مادام ينزع فى فنه الجديد إلى التحليلية

***

بين الشخصيات التى رسمها المؤلف شخصية تظهر ثم لا تلبث أن تختفى ، هى « أم خضير » ، والمؤلف إنما يحركها فقط فى المواقف التى تدفع فيها سامى إلى مواطن الأثم ، وتشابهها من هذه الناحية شخصية العيوطى — مساعد البستانى — فهى قوية برغم عدم وضوحها ، خصوصاً عند ما يلتقى به سامى ويطلعه على رغبته فى الوصول إلى زوجة أخيه فيجهز له على عادة العشاق فى الجيل الماضى زياً نسائياً يتمكن به من الوصول إلى خدر الزوجة

ومما يجدر بنا تسجيله للمؤلف أن النزعة الارشادية يختفى ظهورها تماماً فى فنه

ولعل أبرز طابع فيها هو « الصراحة » التى تطبعها من أولها الى آخرها ، وفى الصراحة منجاة من الأدب الأنانى الذى تغشاه دائماً سحابة مبهمة من نفس صاحبه فتدفعه الى إخفاء المعنى اخفاء جزئياً ، ولكن الصراحة فى الأطلال شىء آخر ، فهى تسهب فى التحدث عن العلاقة الجسدية بحيث تصورنا ضعافاً تحكمنا غريزة الجنس وتطغى على ميولنا وعواطفنا

وتمتاز « الاطلال » بارتباط شخصية سامى بأبطالها ارتباطاً يجعلهم يعيشون فى قرارة الموضوع لا فوق سطحه ؟

الرسالة

مجلة أسبوعية للأدب والعلوم والفنون

العدد ٨٨ - ١١ مارس سنة ١٩٣٥ - السنة الثالثة

3 me Année, No. 88. Lundi-11-3-1935

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع شركة الفجر

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

السنة الثالثة « القاهرة فى يوم الاثنين ٦ ذى الحجة سنة ١٣٥٣ — ١١ مارس سنة ١٩٣٥ » العـــدد ٨٨

فهرس العـــــدد

إلى أين يساق الأتراك ؟

مَنِ السائرون فى شحوب الأصيل على حدود المغرب ، يسرعون الخطى كأنهم هاربون من النهار ، ولا يلتفتون إلى الخلف كأنهم ناجون من سَدُوم ؟ ! مَنِ السائرون بين النور والظلام على الدرب الخادع المبهم ، يخفقون كأطياف المساء على حواشى الطَّفَل ، ويطمسون الطريق من الوراء حتى لا يرجعوا إلى الأهل ؟!

إنها أمة من صميم الشرق نشأت فى نوره ، وطبعت على شعوره ، وتنفست فى عطوره ، ألقت زمامها الأقدار الغالبة فى يد عصبة من أبنائها ، رُبُّوا فى غير أحضانها ، فنشأوا على غير منشئها ، وجروا على خلاف مبدئها ، فقطعوها بالكره عن مشرق الشمس ومبعث الروح ومنبت العاطفة ومنشأ الدين ، وخرجوا بها متعسفين إلى طريق مشتبهة ، وغاية مريبة ، ودنيا مجهولة : ثم قالوا لأنفسها انسلخى عن شرقيتك بأمر القانون ، ولقلوبها اعتقدى غير عقيدتك بحكم القوة ، ولألسنتها انطقى غير لهجتك بإرادة الحاكم ، وخاضرها انقطع عن الماضى بسطوة الجمهورية ، ولأرضها وبيئتها وطبيعتها انفصلن عن آسيا باذن الحكومة ! كأنما الأمم

تصاغ بالقوانين ، والطبائع تغير بـ(الأوامر !!)

***

مهلاً ساقةَ الظعن وهُداة القافلة !! ستترحلون عن وطن إلى غربة ، وعن ولاء إلى عداوة ، وعن إخوة إلى سادة . ماذا نقمتم من الشرق مهد الانسان ومهبط الأديان ومنبع الإلهام ومسرح الأحلام ومبدأ النشأة ؟ ألم يخلق اليابان اليوم كما خلق الصين والهند وبابل والفرس والعبران والعرب بالأمس ؟

إن شمس المدنية أرسلت علينا أول أشعتها في صبح الوجود ، ثم مَتَعَ ضحاها فغمرتنا بالنور والشعور والقوة ، ثم انحدرت إلى المغيب في بلاد المغرب حتى بلغت خيوطها أطراف الشفق ! انها ستغرب لا محالة ، وانها ستشرق لا محالة ، وإن غروبها لا يكون إلا هناك ، وإن شروقها لا يكون إلا هنا . فلم لا تنتظرون معنا يا بني العم طلوعها الجديد القريب على موطنها الأول ؟

لقد ذرَّ منها كما ترون على اليابان أشعة ، وبصَّ منها الساعةَ على مهاد العروبة وبلاد الاسلام شعاع ! وعما قليل يسطع في أقصى الشرق وفي أدناه وهجُها وسناها ، فتهتز الأرض من جديد وتربو ، ثم تنشقق عن العبقريات التي ارتجلت الحكمة ، واكتشفت المعرفة ، وسنت الأخلاق ، ودفعت مدنية الانسان إلى مداها البعيد

***

قالوا لتركيّ الأناضول : مالك وللشرق ، ومالك وللعرب ، ومالك وللاسلام ؟ تعال نبحث عن أجدادك في الأولمب ، وعن قومك في الفورَم ، وعن مدنيتك في اللوفر ؛ ثم ألزموه أن يلبس القبعة ، وأرغموه أن يكتب من الشمال ، وفصلوا الدين عن الحكومة ، وانتزعوا العربية من التركية ، وحرّموا الشعب المتدين تقاليد الاسلام ، وحرّموا عليه أخلاق الشرق ، ثم ألغوا العيدين ، واستبدلوا بعيد الجمعة عيد الأحد ، ثم نقلوا الأمة المروعة المشدوهة على المدرَّعات إلى الشاطىء الأوربي ، ثم أحرقوا من ورائها سفائن طارق !

على أن التركي الأصيل الذي استضاء بهدى الاسلام ، وتثقف بعلم العرب ، وساهم في مجد الفتوح ، لم يَصْغَ قلبه لهذا التغيير المفروض ، فظل فؤاده حيث طبعه محمد الرسول ، وجسمهُ حيث وضعه محمد الفاتح !

أما موضع الخطر فأولئك النشء الذين قست عليهم الحرب ، وبغت عليهم السلم ، فحصروا علل أخطائهم وأسباب أرزائهم في معنى الخلافة فنفوها من الأرض ، ثم أفرط عليهم العداء فتحيفوا ما يلابسها من شرقيـة وعروبة ودين ؛ أولئك سيزهقون في حاضرهم روح الماضي ، ويقطعون عن ضمائرهم صوت التاريخ ، ويبنون قوميتهم على أسس مستعارة ، ويجددون شخصيتهم على تقليد طائش ، ويخضعون عقليتهم لعبودية قاتلة ، ثم يتنفَّخون بالصوت الرفيع المدل : ان تركية للترك ! فيقول لهم الدهر الساخر : نعم ، وإن الترك لأوربا !

***

فخامةَ الغازي العظيم أتاتُورك* ! لقد جبرت الجناح المهيض ، وأحييت « الرجل المريض » ، وأنقذت من براثن العوادي السود تركية الفتاة ، ما في ذلك شك . فاسمك العزيز عنوان تاريخها الحديث ، وعزمك الجبار قوام دستورها القائم ، وروحك الوثاب سناد مستقبلها الطارف ، ولكنك ظلمت تاريخك الخاص بمخالفة الطبيعة في التجديد ، ومجانبـة المنطق في الاصلاح . أخشى أن يسجل الرقيب الذي لا يغفـل أنك أحييت دولة وأمتَّ أمة ، وبنيت دستوراً وهدمت عقيدة ، وبعثت لغة ودفنت ثقافة !

ما جريرة العرب على الترك وقد استخلفوهم على الدين واستأمنوهم على الرسالة ؟ وما جريمة الاسلام على الترك وقد نعشهم من الخمول وأخرجهم من الجهالة ؟ وماذا يبقى من الترك ولغة الترك وثقافة الترك إذا محوت أثر العروبة ودينها من كل ذلك ؟

إن العرب ليسوا أقل شأناً من الطليان والجرمان ، والاسلام ليس بأضعف في رفع الشعوب من وثنية اليابان ، ولكنها موجة من المادية الطاغية غَشَّت على الأبصار وطغت على البصائر ، ستنحسر غمرتها عن مجالي الفضيلة والحق ولو بعد حين !

احمد حسن الزيات

* أتاتورك لقب جديد للغازي مصطفى كمال معناه : « التركي الأب » أي أبو الترك

الشيطان . . .

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال الشيخُ أبو الحسن بن الدقّاق: كان شيخى أبو عبد الله محمد «الأزهريُّ العجمي» — رضى الله عنه — رجلاً صاحبَ آياتٍ وخوارق مما فوقَ العقل، كأنما هو سرٌ من الأسرار الجارية فى هذا الكون، قد بلغ بنفسه رتبةَ النجم فى أُفُقِه البعيد؛ ففيه أهواءُ الانسان وشهواتُه وطباعُه، إلا أنها كنور النجم فى تألّقِه ولألائه من إشراق روحه وصفائها؟ وقد ارتفع بآدميته فوق نفسها؛ فأصبح فى الناس ومعه سماؤُه، يجعلُها بين قلبه وبين الدنيا

والرجل إذا بلغ هذا المبلغ كان حياً كالميت ساعةَ احتضاره؛ ينظرُ إلى كل مافى الحياة نظرةَ من يتركُ لامن يأخذ، ومن يعتبرُ لا من يَغترّ، ومن يلفظ لا من يَتذوّق، ومن يُدرك السرَّ لا من يتعلق بالظاهر. ويرى الشهواتِ كأنها من لغة لا يعرفها، فهى ألفاظ فيها معانى أهلها لا معانيه، وإنما تلبسُ كلماتُنا معانيها من أنفسنا. وفى النفوس مثلُ الهشيم؛ إذا وقعت فيه المعانى المشتعلةُ استطار حريقاً وتَضرّم، وفيها على المجاهدة مثل الماء؛ إذا خالطته تلك المعانى انطفأتْ فيه وخمدت

وقد سألتُ الشيخ مرة: كيف تحدثُ الكراماتُ والخوارق للأنسان؟ فقال: يا ولدى، إن الانسان من الناس المحجوبين يتصرّف فى جسمه ولا يكاد يملكُ لروحانيته شيئاً، فاذا أبلَى فى المجاهدة ووقع فى قلبه النور، تصرّف فى روحانيته ولا يكاد يملكُ لجسمه شيئاً، فمن أطاق أن يَنْسلخ من بشريته، واتسعت ذاته فى معانى السماء بمقدار ما ضاقت من معانى الأرض، وكان مُعداً لأن يتحققَ فى روحانيته، مُعاناً على ذلك بطبيعةٍ فوق الاعتدال — فقد شاع فى الكون وأصاب له وجهاً ومذهباً إلى تلك القوة التى تهدم فى العالم وتبنى، وتفرّق وتجمع، وتنقل الصُّوَرَ بعضَها إلى بعض؛ فان الكون كلّه جوهرٌ واحد هو النور. حتى الجبلُ هو نورٌ صخرىّ، وحتى البحر هو نور مائىّ، وحتى الحديدُ والذهبُ والتراب، كلُّ ذلك نور[1] صرّفَتْه القدرةُ الآلهية تصريفها المعجز، فكان على ما نرى: ظاهرٌ مُخيّلٌ بلائم نقصنا وعجزنا، وحقيقةٌ قارّةٌ على غير ما نرى. ومن ذا يعقل أن الصخر نورٌ متجمدٌ إذا لم يكن له إلا عقلُ عينهِ وحواسِّه، ومن ذا يُطيق أن يفهم بحواسه وعينه قولَ الله تعالى: «وترى الجبالَ تحسَبُها جامدةً وهى تمرُّ مَرَّ السحاب صُنْعَ اللهِ الذى أتقنَ كلَّ شىء.»؟ فالجبالُ جامدةٌ ثابتة، غير أنها تمرُّ بأرضها وتموج فى نفسها؛ ومتى تأذّنَ الله أن ينكشف نورُ كلامه للعقل الانسانىّ، فستكون هذه الآية علماً جديداً فى الأرض يُثبت أن السحاب والجبلَ مادةٌ واحدة وصُنعٌ واحد

ويالها سُخريةً بالانسان وجهله! فانه إذا كانت الحقيقةُ غير ما نرى، فكل شىء فى الدنيا هو ردٌّ على النظر الانسانىّ، ويكاد الجبلُ العظيم يكون كلمةً عظيمةً تقول للانسان: «كَذَبْتَ!»

فالشأنُ فى الخوارق والكرامات راجعٌ إلى القدرة أن يسلّط الانسانُ الروحانى مافيه من سر النور على ما فى بعض الأشياء من هذا السر، وتلك هى طاعةُ بعض الكون لمن ينصرف عن المادة ويتصل بخالقها

فاذا بقى فى الرجل الروحانىّ شىءٌ من أمر جسمه يقول: «أنا ...» لم يكن فى الرجل من تلك القدرة ذرة؛ فان هو حاول أن يخرق العادة أبى الكون أن يعرفه إلا كما يعرف حجراً مُلقىً يحاول أن يتصرّفَ بالجبل الذى هو منه فينقله أو يزحزحه أو يزلزله

ولا خير على الأرض مطلقاً إلا وهو أخْذٌ من حقوق هذه الـ«أنا . . .» فى إنسانها، ولا شرّ على الارض مطلقاً إلاوهو إضافةُ حقوق اليها؛ فحين لا يبقى له حقٌّ فى شىء عند نفسها، يجب لها الحق على كل شىء. وهذه هى الكرامة؛ تُكرِمُ الخليقةُ مَن أكرمه الخالق

فمن أراد أن تتصل نفسُه بالله فلا يكنْ فى نفسه شىءٌ من حظ نفسه، ولا يؤمن إيمان هؤلاء العامة: يكون إيمانُهم بالله فكرةً تذكر وتُنسى، أما عملهم فهو إيمانهم الراسخُ بالجسم وشهواته يُذكر ولا يُنسى.

---

(١) كلمة (النور) هذه هى التى يعبر عنها اليوم بالكهرباء، وقد ثبت أن الكون كله هو هذه الكهرباء متجمدة على ما شاء الله أن تكون

وأنت ترى رجالَ الروح يأكلون ويشربون ويلبسون ، ولـكن هذا كله ليس فيه ذرة من أرواحهم ، على خلاف غيرهم من الناس ؛ فهؤلاء كلُّ أرواحهم فى مطاعمهم ومناعمهم ؛ ومن ثَمَّ لا يجرى الشيطان من الأوّلين إلا فى مجارٍ ضيقة أشد الضيق لا يكاد ينفذُ منها إلى فـكر أو شهوة أو حُلم من أحلام الدنيا ، أما الآخرون فالشيطان فيهم هو تيار الدم يَعبُّ عُبابُه فى الأسفل والأعلى

* * *

قال أبو الحسن : وكنا يومئذٍ فى دمشق ، فنبهنى كلامُ الشيخ عن الشـيطان إلى ما قرأتُه عن كثيرين ممن رأوا الشيطان أو حاوروه أو صارعوه ؛ فقلت للشيخ : إن من حقـك علىّ أن أسألك حق عليك ، وما فى نفسى أحب إلى ولا أعجب من أن أرى الشيطانَ وأكلمه وأسمعه ؛ وأنت قادرٌ أن تنقلنى اليه كما نقلتنى إلى مادخلت بى عليه من عوالم الغيب

قال الشيخ : وماذا يردُّ عليك أن ترى الشيطان وتكلمه ؟

قلت : سبحان الله ! لا يُجدى علىّ شيئاً إلا أن أسخر منه

قال الشيخ : فانى أخشى — ياولدى — أن يكون الشيطان هو الذى يريد أن تراه وتسمعَه . . . !

قلت : فانى أريد أن أسأله عن سره ، فيكون علماً لاسخرية

قال : لو كشف لك عن سره لما كان شيطاناً ، فانما هو شيطان بسره لا بغيره

قلت : فأريد أن أرى الشيطان لأكون قد رأيت الشيطان !

قال الشيخ : لاحول ولا قوة إلا بالله ! لو كنت ياأبا الحسن بأربع أرجُلٍ لهربت من الشيطان بثلاثٍ منها وتركته يجرك من واحدة !

قلت : ياسيدى ، فلو كنت حماراً لبطل عملُ الشيطان فى أرجلى الأربع كلها ، إذ لاحاجة به الى إغواء حمار !

فتبسم الشيخ وقال : ولابد أن ترى الشيطان وتكلمه ؟

قلت : لابدّ

قال : إنه هو يقولها ، فَقُم !

* * *

قال أبو الحسن : وكان الشيخ إذا مشى الى أمرٍ خارق بقيتُ معه غائبـــاً عن الحس ، كأنه يُبطل منّى ما أنا به أنا ، فأصبح ظِلاً آدمياً معلقاً به . ولا تقع الخوارق إلا أن وجد القوة المُكمِّلةَ لروحه ، وهذه القوة تُستمدُّ من الشيخ الواصل ، فلا بد من إمام يأخذ عن إمام ، كأنها سلسلةٌ نفسيةٌ متميزةٌ فى الأرض ، فتتغير الواحدةُ منها بالواحدة إذ تقع فى جوّها فتورق وتثمر ؛ كالشجرة جوٌّ يكسوها وجوٌّ يذبلها وجوٌّ يسلبها سلباً ، وكذلك تفعل النفس إذا كان لها جوّ

وخرجنا من دمشق وأنا خلف الشيخ كالمحمول ، فرأيتُنا وقد أشرفنا على بناء عظيم ، ورأيتُ أقواماً يتَلقونَ الشيخ ويسلمون عليه ويتبرّكون بمقدَمِه ؟ فأنكرتُهم نفسى ووجدتُ منهم وحشة ، فالتفتَ الىّ الشيخ وقال : هؤلاء قوم من الجنّ ، وما اليهم قَصَدنا فلا تشتغلْ بما ترى واشتغل بى

ثم ننتهى الى البناء العظيم ، فتستقبلُنا طائفةٌ أخرى ، ويُدخلون الشيخَ وأنا خلفه ، ويمرُّون بنا على دنيا مخبوءةٍ تعجز الوصفَ مما لاعينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعت ؛ فيقولون : هذه كنوزُ سليمان وذخائره ، ويطوفون بالشيخ يعرضونها عليه كنزاً كنزاً ؛ فرأينا ثمّ نعيما ومُلـكا كبيراً ، ثم انتهينا آخراً الى مغارة خسيفة كأنها عِرقٌ من عروق جسم الأرض ، يتفجرُ منها دوىٌّ كالرعد القاصف إلا أنه فى السمع كخوار الثور ، إلا أنه ثورٌ خُيلَ الىّ أن رأسه فى قدر جبلٍ عظيم ، يتعلق به غبغب[1] فى قدر جبلٍ آخر ، على جسم يسدُّ الخافقين ، فخواره كأنه صراخ الأرض ، وإذا أنا بأقبح مكان منظراً ، وأنتنِه ريحاً ، كأنه سجنٌ بناؤه من الجِيَف

فقلت : ما هذا ؟ قالوا : هـذا سجنُ إبليس ، وهو هنا فى هذه المغارة منذ زمن سليمان عليه السلام

قلت : أفسجونٌ هو ؟

قالوا : وإنه مع ذلك مُوقَرٌ بأمثال الجبال حديداً يَربُضُ به فى مَحبسه ، فلا يتزحزحُ ولا يتحلحَل

قلت : وإنه مع ذلك قد ملأ الدنيا فسـاداً ، فكيف به لو كان طليقاً ؟

(١) غبغب الثور وغبيبه : ما تثنى من لحم ذقنه من أسفل

قالوا : فلو أنه كان طليقاً لاستحوذ على الناس كافة فيجتمع أهلُ الأرض على شهوةٍ واحدة لاشيء غيرُها ، فيبطلُ مع هذه الشهوة الواحدة كلُّ تدبير بينهم ، فلا تقومُ لهم سياسة ولا يكون بينهم وازع ، فيرجعون كالكلاب أصابها الكَلَبُ وهاج بها ، فأنيابها فى لحمها ، لايزال يَعضُّ بعضُها بعضاً ، فليس لجميعها إلا عملٌ واحدٌ يسلمها الى الهلاك ، ويصبح ظهرُ الأرض أعرَى من مَراة أديم

وإنما يَصلُح الناسُ باختلاف شهواتهم وتنافرها وتنازعها ؛ فبعضها يحكم بعضاً ، وشيء منها يَزَعُ شيئاً ، ومن تخلص من زَوْجةٍ قمعهازوجةأخرى ، كالمتزوج المحْصَنِ ، يحكم بالجلد والرجم على من ليست له امرأةٌ فزنا ؛ وكالغنيّ الواجد ، يحكم على اللص الذى لم يجد فسرق ، وهلم جراً . وما يَنشأ الناسُ فى ثلاثة أعمار فيشِبُّون ويكتهلون ويهرمون ، إلا لتختلف شهواتهم وتختلف مقادير الرغبة فيها ، فتتحقق من ثمّ تلك الحكمة الالهية فى التدبير ، ويجد الشرعُ محله بينهم ، كما يجدُ العصيان بينهم محله

ولو أن أمةً كلها أطفالٌ أو كهول أو شيوخ لبادت فى جيل واحد ، وإنه ليس أسمجَ من الرذيلة تكون وحدها فى الأرض إلا الفضيلةُ تكون وحدها ، فلا بدّ من شيء يظهرُ به شيء غيره ، كالضد والضد . والمعركة إذا انتصر كلُّ من فيها كانت هزلاً وكانت شيئاً غير المعركة

قال أبو الحسن : وقلت لهم : فاذا كان الشيطان سجيناً قد ربَضت به أثقاله حتى لهو فى سجنٍ من سجنٍ مبالغةً فى كفه والتضييق عليه — فكيف يَفتنُ النـــاسَ فى أرجاء الأرض ويوسوسُ فى قلوبهم ، حتى لهو يد بينٌ كل يدين ، وحتى لهو العين الثالثة لعيني كلّ انسان ؟

قالوا : إن فى روحه النارّية قوةً تَنفصل منها وتنتشر فى الأرض ، كشعاع الشمس من الشمس ، هذه كُرَةٌ نارية ميّتة معلّقة على الأجسام مُرصدة لها ، وتلك كرة نارية حيّة معلقة على النفوس مرصدة لها ، وبهذه وتلك عمارُ الدنيا وأهلِ الدنيا

قلت : لعلكم أردتم أن تقولوا : « خراب الدنيا وأهلِ الدنيا » فغلطتم فكان ينبغي أن يجيء بدل الغلط . . . . .

فقال أحدهم : يا أبا الحسن ، خَرَقَ الثوبُ المسمار . جاز هنا لأمن اللَّبْس أن يكون المفعول به وهوالثوب مرفوعاً وفاعله وهو المسمار منصوباً ، هل جئت — ويحك — تطالبُ النحو أو تطالب الشيطان . . . . . ؟

***

قال أبو الحسن : فقطعني الجنيّ (والله) وأخجلني ، ونظرت خلسة الى الشيخ أراه كيف يسخر مني ، فاذا الشيخ قد امَّاس فلا أراه ، وإذا أنا وحدى بين الجنّ وبازاء هذا الساحر الذى وُضعَت عينه فى جبهته وشُق فمه فى قفاه ... ! فَسُرِّىَ عنى وزال ما أجده ، وقلت فى نفسى : الآن أبلغ أرَبى من الشيطان ويكون الأمر على ما أريد فلا أجد من أحتشم ولا تَقطَعُني هيبة الشيخ . . . . . !

ووقع هذا الخاطر فى نفسي ، فاستعذت بالله ولعنت الشيطان وقلت : هذه أول عبثه بى وجعله إياى من أهل الرياء ، كأن لى شأناً فى حضور الشيخ وشأناً فى غيابه ، وكأنى منافق أعان غير ما أُسِر ، وقلت : إنا لله ! كدت يا أبا الحسن تتشيطن !

ثم هممتُ أن أنكِصَ على عقبيّ ، فقد أيقنتُ أن الشيخ إنما تخلّ عنى لأكون هنـا بنفسى لا به ، وما أنا هنا إلاّ به لا بنفسى ، فيوشك إذا بقيتُ فى موضعى أن أهلك ! بيْد أن الغارة انكشفتْ لى فجأة ، فما ملكتُ أن أنظر ؛ ونظرتُ فما ملكتُ أن أقف ، ووقفتُ أرى ، فاذا دخانٌ قد هاج فارتفع يثور ثوَرَانه حتى تملّأ المكان به ، ثم رقّ ولطُفَ

واستضرَمت منه نارٌ عظيمة ، لها وهَجانٌ شديدٌ يضطرم بعضُها فى بعض ، ويُسمَع من صوتها مَعمَمة قوية ثم خمدَت

وانفجر فى موضعها كالسَّدّ المنبثق من ماءٍ كثيف أبيضَ أصفرَ أحمرَ ، كأنه صديدٌ يتقيّح فى دمٍ ثم غاض

وتنبّعتْ فى مكانه حَماةٌ منتنةٌ جعلتْ تربو وتعظمُ حتى خِفتُ أن تبتلعَني وأذهبَ فيها ، فسميتُ اللهَ تعالى فغارت فى الأرض

ثم نظرتُ فاذا كلبٌ أسودُ مُحمَرّ الحمَاليق هائلُ الخلقة مُستأسِد ، قد وقف على جيفةٍ قذرة غاب فيها خطمُه يعُبُّ مما تسيل به

فقلت : أيها الكلب ، أأنت الشيطان ؟

وأنظرُ فاذا هو مَسْخٌ شأنه كأنه إنسانٌ في بهيمة قد امتزجا وطغى منهما شيءٌ على شيء . أما وجهه ، فأقبحُ شيءٍ منظراً ، تحسبه قد لبِس صورةَ أعماله . . . ونطق فقال : أنا الشيطان !

قلت : فما تلك الجيفة ؟

قال : تلك دنيا كم في شهواتها ، وأنا ألتقمُ قلب الفاسق أو الآثم منكم ، كما ألتقم دودةً من هذه الجيفة

قلت عليك لعنةُ الله وعلى الفاسقين والآثمين ، فكيف كنتَ دخاناً ، ثم انقلبتَ ناراً ، ثم رجعتَ قبيحاً ، ثم صرتَ حمأة ، ثم كنت كلباً على جيفة ؟

قال : لا تلعن الفاسقين والآثمين ؛ فانهم العبّاد الصالحون بأحد المعنيين ، وأنت وأمثالك عُبّاد صالحون بالمعنى الآخر ، أليس في الدنيا حياةٌ ووقاحة ؟ فأولئك — يا أبا الحسن — هم وقاحتي أنا على الله ! أنا معكم في زهدكم حِرمانُ الحرمان ، وفقرُ الفقر ، ولقد أهلكتموني بُؤساً ؛ غير أني معهم لذّة اللذة ، وشهوةُ الشهوة ، وغِنى الغنى ، لا تتمُّ لذة في الأرض ولا تحلو لذائقها وإن كانت حلالاً ، إلا إذا وضعتُ أنا فيها معنىً من معانيّ أو وقاحةً من وقاحتي ! حتى لأجمل الزوجة لزوجها مثل الشعر البليغ إذا استعار لها معنى مني ، وكلُّ ما فسدت به المرأة فهو مجازي واستعارتي لها أجعلها به بليغة . . . .

وأنتم يا أبا الحسن تقطعون حياتكم كلها تجاهدون إثمَ ساعةٍ واحدة من حياة عبّادي ، فانظر — رحمك الله — لئن كانت ساعةٌ من حياتهم هي جهنّمكم أنتم ، فكيف تكون جهنم هؤلاء المساكين ؟

إنك رأيتني دخاناً لأني كذلك أنبعثُ في القلب الأنساني فمتى تحركتُ فيه حركةَ الشر كنت كالاحتيال لأضرام النار بالنفخ عليها . فمن ثمّ أكون دخاناً ، فاذا غفَل عني صاحبُ القلب تضرّمتُ في قلبه ناراً تطلب ما يطفئها ؛ ثم يُواقِع الأثم والمعصية نَهْمَته فأبرُدُ عن قلبه ، فيكونُ في قلبه مثل الحرق الذي بَرَدَ فتأكّل موضعه فتقبّح ، ثم يختلط قبحُ أعماله بمادته الترابية الأرضية ، فينقلب هذا المسكين حمأةً إنسانية لاتزال تربو وتنتفخ كما رأيت

قلت : أعوذ بالله منك ! أفلا تعرف شيئاً يردّك عن القلب وأنت دخانٌ بعْد ؟

فقهقه اللعين وقال : ما أشدّ غفلتك يا أبا الحسن ، إذ تسأل الشيطان أن يخترع التوبة ! أما لو أن شيئاً يخترع التوبة في الأرض لاخترعها القبرُ الذي يدفن فيه بعضُكم بعضا كلَّ طرفة عين من الزمن فتُنزلون فيه الميتَ المسكين قد انقطع من كل شيء ، وتتركونه لآثامه ، وحساب آثامه ، والهلاك الأبديّ في آثامه ؛ ثم تعودون أنتم لاقتراف هذه الآثام بعينها !

قلت : عليك وعليك أيها اللعين ؛ ولكن ألا يتبدّد هذا الدخان إذا ضربته الريح أو انطفأ ما تحته ؟

قال : أوّه ! لقد أوجعتَني كأنما ضربتني بجبل من نار ، إن نبيّكم عرفها ، ولكنكم أغبياء ، تأخذون كلامَ نبيكم كأنما هو كلامٌ لا عمل ، وكأنه كلام إنسان في وقته لا كلامُ النبوة للدهر كلّه وللحياة كلّها . ولهذا غلبتُ أنا الأنبياء على الناس ، فاني أضع المعانيَ التي تعمل ، لا الحكمةَ المتروكةَ لمن يعمل بها ومن لا يعمل

أتدري يا أبا الحسن ، لماذا أعجزني أسلافكم الأولون مثل : عُمر وأبي بكر ؟ حتى كان إسلامهم من أكبر مصائبي ، فتركوني زمناً — وأنا الشيطان — أرتابُ في أني انا الشيطان . . . ؟

قلت : لماذا ؟

قال : أراك الآن لم تلعن ، فلستُ قائلها إلا إذا ترحّمتَ عليّ

قلت : عليك وعليك من لعنات الله ! قل لماذا ؟

قال : أسائلٌ ويأمر ؟ وطُفَيْلِيٌّ ويَقترح ؟ لابد أن تترحم !

قلت : يرحمنا الله منك ! قل لماذا ؟

قال : وهذه لعنةٌ في لفظة رحمة . لا ، إلا أن تترحّم عليّ أنا إبليس الرجيم !

قلت : فيُغنيني الله عن علمك ؟ لقد ألهمتنيها روحُ النبيّ صلى الله عليه وسلم . إن النبوّة كانت هي بأعمالها وصفاتها تفسير الألفاظ على أسمى الوجوه وأكملها ، فكان روحُ النبي صلى الله عليه وسلم لتلك الأرواح كالأم لأبنائها . وقد رأوه لا يغضب لنفسه

ولا لحظ لنفسه ، وذلك لا يستقيم إلا بالقصد فى أمر النفس ، وجعل ناحية الاسراف فيها إسرافاً فى العمل لسعادة الناس . وكلما ارتدّ الانسانُ لنفسه وحظوظها ارتدّ إليك — أيها اللامين — وأقبل على شقاء نفسه ، وكلما عمل لسعادة غيره ابتعد عنك — أيها الرجيم — وأقبل على سعادة نفسه ، وتركُ الغضب وحظوظِ النفس هو الصبر ؛ وصبرُ الأنبياء والصّدّيقين ليس صبراً على شىء بعينه فى الحياة ، بل هو الصبرُ على حوادث العمر كلّه ؛ كصبر المسافر ؛ إن كان عزيمةً مدةَ الطريق كلها ، وإلا كان فساداً فى القوة ووقع به الخذلان

فهذا الصبر المُعْتَزِمُ المصمّم ، الذى يُوَطِّن به الرجلُ نفسَه أن يكون رجلاً إلى الآخر — هو تعبُ الدنيا ، ولكنه هو رَوْحُ الجنة مع الانسان فى الدنيا . والمؤمنُ الصابر رجل مُقْفَلٌ عليه بأقفال الملائكة التى لا يقتحمها الشيطانُ ولا تفتحها مصائبُ الدنيا . ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن لَيُنْضِى شيطانَه كما يُنْضِى أحدُكم بعيرَه فى سفره . » كأنه يقول : لو لم يصبر المسافر دائباً معتزماً مدةَ سفره كلها لما أنْضَى بعيرَه ، ولو لم يصبر المؤمنُ دائباً معتزماً مدة حياته كلها لما أنضى شيطانه

فصاح الشيطان : أوَّه ، أوَّه ! ولكن قل لى يا أبا الحسن ، ما صَبْرُ رجلٍ مؤمنٍ قوىّ الايمان ، قد استطاع بقوة إيمانه أن يُفيقَ من سُكر الغنى ، فتخلّص من نزوات الشياطين الذهبيةِ الصغيرة التى تسمُّونها الدنانير ؛ وقد أردتُه على أن يكذب ، فرأى الايمانَ أن يَصدق ، وجهدتُ به أن يغضب ، فرأى الحكمةَ أن يهدأ ؛ وحاولتُ منه أن يطمع ، فرأى الراحةَ أن يرضى ؛ وسوَّلتُ له أن يحسد ، فرأى الفضيلةَ ألاّ يبالى . وأخذ لنفسه من كل شىء فى الحياة بما يثق أنه الايمانُ والصبرُ والهدوء والرضى والقناعة ؛ وأحاط نفسَه من هذه الأخلاق بالسعادة القلبية واجتزأ بها ؛ وقصر نظرَه على الحقيقة ، ووجد الجمالَ فى نفسه الطيّبة الصافية ، وأجرى ما يؤلمه وما يَسرُّه مجرًى واحداً ، ونظر إلى العمر كله كأنه يومٌ واحد يرقُبُ مغربَ شمسه ؛ وأخذ من إرادته قوةً أنسَتْه مالم تُعطه الدنيا ، فلم يَحْفِل بما أعطت الدنيا وما مَنَعتْ ؛ وعاش على فقره بكل ذلك كما يعيش المؤمن فى الجنة : هذا فى قصرٍ من لؤلؤةٍ أو ياقوتةٍ أو زَبَرْجَدَة ، وذاك فى قصر من الحكمة أو من الايمان أو من العقل

قال الشيطان : فلما أعجزنى صلاحاً ورضى وصبراً وقناعةً وإيماناً واحتساباً ، وكان رجلا عالماً فقيهاً — سوّلتُ له أن يخرج إلى المسجد ليعظَ الناسَ فينتفعوا به ، ويُبَصِّرهم بدينهم ، ويتكلمَ فى نصّ كلام الله ؛ فَعقَد المجلسَ ووَعَظ ، وانصرفوا وبقى وحده ؛ فجاءت امرأة تسأله عن بعض ما يحتاج إليه النساء فى الدين من أمر طبيعتهن ؛ وكانت امرأةً جزلةً غضَّةً ، يهتزُّ أعلاها وأسفلُها ، وتمشى قصيرةَ الخَطْو مُتَثاقلةً كالمتضايقة من حَمْل أسرار جمالها وأسرار بدنها الجميل ، فبعضُ مشيتها يَقَظَةٌ وبعضها نومٌ فاترٌ تخالطه اليقظة ؛ ولا يراها الرجل الفحْل التامُّ الفُحولة إلا رأى الهواءَ نفسَه قد أصبح من حولها أنثى مما تَعصِف به ريحها العَطِرة عِطْرَ زينتها وجسمها . وكان الواعظ قد ترمّل من أشهر ، وكانت المرأة قد تأيَّمتْ من سنوات ؛ فلما رآها غضّ طرْفه عنها ، ولكنها سألته بألفاظها العذبة عن أمور هى من أسرار طبيعتها ، وسألته عن طبيعتها بألفاظها ؛ فسمع منها مثلَ صوت البلّور يتكسّر بعضه على بعض وتحدّثتْ له وكأنها تتحدّث فيه ؛ فسمع بأذنه ودمه ؛ ثم كان غضُّ عينه أقوى لرؤية قلبه وتجمُّع خواطره . ورأى صوتَها يشتهى ؛ وعانقته رائحتها العطرية النفّاذة ؛ وأحاطته بجوٍّ كجوّ الفِراش ؛ وعادت أنفاسُها كأنها وسْوَسةُ قُبَل ، وصارت زَفَراتُها كالقِدر إذا استجمعَتْ غَلَياناً ، وطلعتْ فى خياله عُرْيانةً كما تطلع للسكران من كأس الخمر حوريةٌ عريانة ، لها جسمٌ يبدو من اللين والبَضاضة والنَّعْمة كأنه من زَبَد البحر ؟

قال أبو الحسن : وكنتُ كالنائم فما شعرتُ إلا بصوتٍ كصكّ الحجر بالحجر ، لا كتكسُّر البلور بعضه على بعض ، وسمعت شيخى يقول :

أفَسَقْتَ . . . ؟

طنطا

مصطفى صادق الرافعى

صفحات من الدبلوماسية الإسلامية

السفارات الخلافيـــة والسلطانية

وعلائق الاسلام والنصرانية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

منذ نحو عام عرضت فى الرسالة الى موضوع السفارات النبوية ؛ وتبادل السفارات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، سواء من الاسلام الى الأمم النصرانية ، أو من هذه الى الدول الاسلامية ، من الموضوعات الهامة التى تشوق بتفاصيلها وما تلقيه من ضوء على علائق الشرق والغرب فى عصور لم يكن الاسلام فيها سيد المشرق فقط ، بل كان يساهم أيضاً بنصيب قوى فى سيادة الغرب ذاته . وقد كان لهذه السفارات رسوم وقواعد تتفق مع صولة الاسلام وتلائم روح العصر ، وكان لها فى بعض الأحيان أثر كبير فى توجيه سياسة الاسلام نحو النصرانية ، أو سياسة النصرانية نحو الاسلام . وقد كانت ريح هذه السفارات تتجه بالأخص من الغرب الى الشرق فى عصور القوة والمجد . ذلك لأنها كانت فى الغالب ترمى الى التماس السلام والمهادنة أو تحقيق بعض المنح والمغانم من الاسلام القوى الظافر ، ولكنها كانت فى عصور الضعف والاضمحلال تتجه بالأخص من أمم المشرق الى أمم المغرب التى تتبوأ مقام الزعامة والنفوذ ، وتعمل لتوطيد سيادتها بالضرب والتفريق بين الدول الاسلامية المتنازعة ، كما كانت تفعل الدولة البيزنطية منذ انحلال الخلافة العباسية وتمزق سيادتها بين مختلف الدول والأمارات التى قامت على أنقاضها ، وكما كانت تفعل اسبانيا النصرانية منذ انهارت الخلافة الأموية القوية ، وانقسمت الأندلس الى إمارات الطوائف ، على أن هذه القاعدة لم تكن عامة ، وإنما كانت ظاهرة ملحوظة فقط ، فكثيراً ما كانت تعقد المعاهدات وتتبادل السفارات بين الدول الاسلامية القوية والدول النصرانية القوية تنظيما للعلائق والمصالح المشتركة بينهما

وسنحاول أن نعرض فى هـذا الفصل الى طائفة من هذه السفارات الشهيرة التى ترد أخبارها أشتاتاً فى تواريخ الشرق والغرب ، وسنرى فيها من أوجه التماثل أحياناً ، ومن أوجه التباين أحياناً أخرى ، مايفسر لنا بعض العوامل التى كانت فى تلك العصور محور العلائق الدبلوماسـية بين أمم الاسلام وأمم النصرانية ، ومبعث التجاذب السياسى بينهما

كانت الدولة الأموية دولة الفتح والانشاء ، فلم يتسع وقتها لتنظيم العلائق الدبلوماسية السلمية ؛ وكانت تقف طوال عهدها من جارتها الكبرى ــ الدولة الرومانية الشرقيـة ــ موقف الخصومة والتربص ، فلا نقف فى هذا العصر على كثير من أخبار السفارات المتبادلة بين الدولتين ؛ ولكنا نجد بعد حوادث حصار قسطنطينية الأول وإخفاق الخلافة الأموية فى مشروعها لاقتحام الدولة الشرقية (٥٨ هـ ــ ٦٧٨ م) سفراء الامبراطور قسطنطين الرابع يستقبلون فى دمشق بحفاوة ليعقدوا مع الخليفة الأموى (معاوية) معاهدة الصلح التى ارتضى بها معاوية أن يؤدى الى الدولة الشرقية جزية سنوية متنوعة كانت على ضآلتها عنوان المهادنة والمسالمة من جانب الخلافة . وفى خلافة سليمان بن عبدالملك تردد على دمشق رسل الدولة الشرقية ليقفوا على أمر الأهبة الهائلة التى تتخذها الخلافة للسير الى قسطنطينية ومحاولة اقتحامها كرة أخرى ، وعاد سفير الدولة الشرقية الى بلاط قسطنطينية يحمل عن أهبة الخلافة أروع الأخبار والروايات

ولما قامت الدولة العباسية وتوطدت أركانها ، وقامت فى نفس الوقت دولة أموية جديدة فى الأندلس ، كانت بغداد فى الشرق ، وقرطبة فى المغرب ، كلتاهما قطباً للتجاذب السياسى بين الاسلام والنصرانية . وكانت مملكة الفرنج القوية قد قامت يومئذ فى الطرف الآخر من أوربا لتتزعم أمم الغرب الى جانب الدولة الرومانية الشرقية ؛ فكان ذلك عاملا جديداً فى إذكاء التجاذب السياسى بين الشرق والغرب ؛ ومنذ خلافة المنصور ثانى خلفاء الدولة العباسـية نرى مملكة الفرنج تحاول أن تأخذ بنصيبها فى عقد الصلات السياسية مع زعيمة الاسلام فى المشرق ، وفى اقامة التوازن السياسى فى العالم الجديد ، ونرى ملك الفرنج پيپن يبعث رسله الى عاصمة الاسلام الجديدة (بغداد) فى سفارة الى المنصور . ويضع مؤرخو الفرنج تاريخ هذه السفارة فى سنة

٧٦٥ م (١٤٨ هـ) ، وتقول لنا الرواية إن السفراء الفرنجيين لبثوا مدى حين فى بغداد وعادوا بعد ثلاثة أعوام الى فرنسا يصحبهم رسل أو سفراء من قبل الخليفة الى ملك الفرنج ، ونزلوا بثغر مرسيليا ؛ فاستقبل ملك الفرنج سفراء الخليفة أحسن استقبال ، ودعاهم الى تمضية الشتاء فى مدينة متز التى كانت يومئذ منزل البلاط الفرنجى ، ثم دعاهم للتنزه والأقامة مدى حين فى قصر « سلس » على ضفاف اللوار ؛ ثم عادوا بعد ذلك الى بغداد بطريق مرسيليا أيضاً مثقلين بالتحف والهدايا . واستمرت هذه الصلاة السياسية بين الخلافة العباسية ومملكة الفرنج عصراً ؛ وزادت أواصرها فى عصر الرشيد قوة وتوثقاً . وهنا نعطف بايجاز على ذكر تلك السفارات الشهيرة التى تبادلها الرشيد ، وكارل الأكبر أو شارلمان امبراطور الفرنج ولد بين ، والتى تنفرد بذكرها الروايات الفرنجية أيضاً ؛ فان هذه الروايات تقول لنا إن شارلمان جرياً على سياسة أبيه ، أرسل الى الرشيد سفارة على رأسها يهودى يدعى اسحاق ليؤكد بينهما الصلات الودية ، وليسعى لدى الخليفة فى نيـــل بعض الأمتيازات الخاصة بالنصارى والأماكن النصرانية المقدسة ، فأكرم الرشـيد وفادة السفراء الفرنج وردهم الى شارلمان بهدية فخمة منها فيل وخيمة عربية وساعة مائية وحرائر وعطور شرقية وغيرها ، وبعث الى ملك الفرنج سفراءه بتحياته وتأكيد صداقته . وقد سر شارلمان بنتائج سفارته الأولى ، فأوفد الى الرشيد سفارة أخرى على رأسها مبعوثه اسحاق أيضاً ؛ وتبالغ الرواية الفرنجية فى نتائج هذه المراسلات بين الرشيد وشارلمان ، فتقول إن الرشيد أرسل الى ملك الفرنج مفاتيح الأماكن النصرانية المقدسـة ، ومنحه حق رعايتها وحمايتها . وقد وقعت هذه السفارات على ما يظهر فى أوائل عهد الرشيد بين سنتى ٧٨٦ و ٧٩٠ (١٧١ ـ ١٧٦ هـ) ؛ ولـكن الرواية الفرنجية تؤرخ سفارة الخليفة الى شارلمان بسنة ٨٠٠ هـ ، ولعلها رد الرشيد على السفارة الفرنجية الثانيـــة . ويختلف البحث الحديث فى أمر هذه السفارات والمـكاتبات بين الرشيد وشارلمان ، فيؤيد البعض صحتها وينكرها البعض الآخر ، أما نحن فنرجح صحتها[١]

وتستطرد الرواية الفرنجية ؛ فتذكر أن هذه العلاقات الودية بين بغداد ومملـكة الفرنج ، استمرت بعد وفاة الرشيد وشارلمان ؛ وأن المأمون ولد الرشيد بعث إلى « لويس » ولد شارلمان وملك الفرنج من بعده سفارة أخرى لتأكيد المودة والصداقة بينهما ؛ وتشير الرواية الفرنجية فى ذلك الصدد إلى ما كان لنفوذ الرشيد قبل وفاته من التأثير فى سياسة خوارج البحر المسلمين وإحجامهم عن مهاجمة الشواطئ الفرنجية والرومانية ، وإلى ما كتبه البابا ليون الثالث إلى شارلمان بعد وفاة الرشـيد من أنه إذا كان خوارج البحر المسلمين لايحترمون بعد شواطئ الأمبراطورية الفرنجية ، فذلك لأن نفوذ الخليفة فى نفوسهم قد ذهب بعد وفاته

ونستطيع أن نرجع هذا التقرب بين بغداد ومملـكة الفرنج إلى بواعث سياسية لها قيمتها ؛ ذلك أن الدولة العباسـية الفتية ما كادت تقوم على أنقاض الدولة الأموية فى المشرق ، حتى بعثت الدولة الأموية فى الأندلس من جديد على يد عبد الرحمن الأموى (الداخل) ، وأخذت فى الاستقرار والتوطد ؛ وكان قيام هذه الدولة الجديدة فى اسبانيا يثير فى الخلافة العباسية ومملـكة الفرنج معاً جزعاً ومخاوف جديدة ؛ أما الخلافة العباسية فلأنها كانت تعتقد أنها قد سـحقت الدولة الأموية نهائياً واجتثت أصولها وفروعها فلن تقوم لها قائمة بعـد فى المشرق أو المغرب ؛ فلما استولى عبد الرحمن الأموى على الأندلس وأقام به ملك أسرته من جديد ، أخذت الدولة العباسية تخشى بحق أن تنازعها هذه الدولة الخصيمة زعامة الاسلام ، أو أن تبلغ من القوة مبلغاً يحملها على التفكير فى مقارعتها ومناوأتها والاغارة على أملاكها الأفريقية ؛ وأما مملـكة الفرنج فقد كانت تخشى اجتماع كلمة الأندلس بعد تفرقها مدى حين ، وهو تفرق مهد للفرنج استعادة الأراضى الاسلامية فى غاليس وافتتاح ثغر أربونة آخر معقل للاسلام فى فرنسا ؛ وقيام الدولة الاسلامية الجديدة فى الأندلس موحدة الـكلمة موطدة الدعائم يعرض مملـكة الفرنج إلى خطر الغزوات الاسلامية كرة أخرى ؛ فـكانت مملـكة الفرنج ترقب قيام هذه الدولة بجزع ، وتلتمس الوسائل لسحقها قبل أن تستفحل وتغدو خطراً داهماً عليها ؛ ومن ثم كانت سياسة الفرنج فى تشجيع جميع الزعماء الخوارج على عبد الرحمن الأموى ، والعمل على إضرام نار الحرب

(١) نحيل القارىء إلى البحث الذى كتبناه فى هذا الموضوع فى كتابنا «مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام» ص ١٣١ — ١٣٧ والمصادر المذكورة فيه — وراجع أيضاً :

Reinaud : Invasion des sarrazins en Fance p. 92 & 115 — 117

٢ و ٤

الأهليـة فى الأندلس ؛ وكان اقتحام شارلمان للبرنيه بتحريض الزعماء الخوارج ليحاول افتتاح شمال الأندلس ؛ ومن ثم كانت هذه العلائق والمراسلات الدبلوماسية التى تبادلتها الخلافة العباسية مع مملكة الفرنج ، ولم تكن بلاريب بعيدة عن الفكرة المشتركة فى التعاون على سحق الدولة الأموية الجديدة فى الأندلس

وكانت ثمة فكرة مماثلة تحمل الدولة الأموية فى الأندلس والدولة البيزنطية خصيمة الدولة العباسية ومناوأتها فى المشرق على عقد التفاهم والصلات الودية ؛ فكانت بين أمراء بني أمية وقياصرة قسطنطينية مراسلات وسفارات سياسية هامة . ففى سـنة ٨٣٦ م (٢٢٥ هـ) بعث الأمبراطور تيوفيلوس إلى عبد الرحمن بن الحكم أمير الأندلس سفراءه بهدية فخمة ورسالة يدعوه فيها إلى التحالف ، ويرغبـه فى ملك أجداده بالمشرق ؛ وكانت هذه المحاولة الدبلوماسية من جانب قيصر قسطنطينية على أثر اضطرام الخصومة والحرب بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية وعيث المأمون ثم المعتصم فى أراضيها . فرد عبد الرحمن ابن الحكم على القيصر بهدية فخمة وبعث اليه سـفيره يحيي بن الغزال ، وهو من كبار الدولة وفحول الشعراء فأحكم بينهما الصلة والتحالف . على أن علاقة الأمبراطور بصاحب الأندلس لم تتعد المراسلة والمجاملة ، لأن خلفاء عبد الرحمن الداخل حافظوا على سياسته التى رسمها من الامتناع بالجزيرة والاقتصار على توطيد ملك بنى أمية فيها ، حتى عمد الناصر إلى تغيير هذه السياسة والتدخل فى شئون المغرب لظروف وحوادث عرضت يومئذ

ونعود إلى علائق الدولتين العباسية والبيزنطية ، تاج العلائق بين الاسلام والنصرانية فى تلك العصور ؛ ففى أواخر القرن الثامن كان على عرش قسطنطينيـة امرأة وافرة الذكاء والعزم هى الأمبراطورة إيرينى زوج الأمبراطور ليون الرابع ، وكانت وصية على ولدها قسطنطين أثناء طفولته ؛ ولـكنه لما كبر وحاول أن يقبض على زمام السلطة ، ناوأته وقاومته حتى ظفرت به ، وزجته إلى ظلام السجن بعد أن سملت عيناه بأمرها ؛ فانتهز المسلمون فرصة هـذه الاضطرابات وغزوا آسيا الصغرى مراراً حتى اقتربوا من البوسفور ، وقاد هارون (الرشيد) وهو يومئذ ولى عهـد أبيه المهدى بنفسه معظم هذه الحملات ؛ فاضطرت إيرينى إلى التماس الصلح ، وبعثت رسـلها إلى هارون ، وهو يعسكر بجيشه على مقربة من البوسفور ، تطلب الصلح والمهادنة ؛ فأجابها الرشيد إلى ما طلبت ، وعقدت بين الفريقين معاهدة تعهدت إيرينى بمقتضاها أن تدفع إلى الخلافة جزية سنوية مقدارها سبعون ألف دينار ، وتبادل الرشيد والأمبراطورة بهذه المناسبة بعض الهدايا والتحف الملوكية (٧٨٢ م ــ ١٦٦ هـ) ، ولما تولى الرشيد الخلافة بعد أبيه ، كانت إيرينى قد خلعت وجلس على عرش قسطنطينية نيكيفروس (ويسميه العرب نيقفور) كبير الخزائن ؛ فما كاد يجلس على العرش حتى بادر باعلان الخصومة على الخلافة وبطلان معاهدة الصلح ، ورفض أداء الجزية والمطالبة بما أدى منها ؛ وتنقل الينا الرواية الغربية صورة الانذار الذى وجهـه نيكيفروس على يد سفرائه إلى الرشيد وفيه يخاطب الرشـيد بما يأتى : « من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب ، أما بعد فان الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيـدق ، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أضعافه اليها ، لـكن ذلك لضعف النساء وحمقهن ، فاذا قرأت كتابى هـذا فاردد ما حصل لك من أموالها وافتد نفسك بما تقع به المصادرة لك ، وإلا فالسيف بيننا » ؛ وألقى سفراء الروم أمام عرش الرشيد حزمة من السيوف إشارة باعلان الحرب ، فغضب الرشيد لهذه الجرأة أيما غضب ؛ وكتب بنفسه على ظهر كتاب ملك الروم ما يأتى : « من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ؛ أما بعـد فقد فهمت كتابك ياابن الـكافرة ، والجواب ما تراه لا ما تسمعه والسلام » [1] ، وبادر الرشيد إلى غزوا آسيا الصغرى على رأس جيش ضخم ، فاجتاحها حتى هرقلية (٨٠٦م) فاضطرب نيكيفروس إلى طلب الصلح ، وأرسل إلى الرشيد سفارة على رأسها أسقف سينادا ، وعقدت بين الفريقين معاهدة جديدة ، يتعهد فيها القيصر باصلاح الحصون المخربة ، وبأن يدفع جزية سنوية قدرها ثلاثون ألف دينار ، وأن يدفع عن نفسـه ثلاث قطع ذهبية من نوع خاص وثلاث أخرى عن ولده عنواناً لخضوعهما لأمير المؤمنين

(للبحث بقية)

محمد عبد الله عنان
المحامى

(١) وتورد الرواية العربية نصوصاً أخرى لهذين الكتابين ــ راجع ابن الأثير ج ٦ ص ٦١ ــ وصبح الأعشى ج ٦ ص ٤٥٧ ــ وتنقل الرواية البيزنطية هذه الرواية ، ولـكنها لا تؤيدها من عندها ــ راجع : Finlay : Byzantine Empire Ch. II — I

منازل الفضل

١ — قصر الوالدة

للأستاذ محمد محمود جلال

يوم أراد الله أن أفرغ من الدراسة الابتدائية ، وقد أتممتها في كنف الجمعية الخيرية الاسلامية في معهدها بيني مزار ، اتجهت أنظارنا إلى القاهرة عاصمة البـلاد تطلعاً لأكمال الدرس في معاهدها الثانوية

لم يكن من ذلك بد ، وقد قضت سياسة دنلوب ، بتركيز الدراسة الثانوية بالعاصمة ، وحرمان مديريات القطر من الخطوة الثانية للتعليم فضلاً عما أفسد من برامجه وشوه من خططه

كثر التردد على القاهرة ، بين تقديم الطلب ، والاستعداد للكشف الطبي ، والحرص على الظفر بمكان ، إذ كان نطاق المدارس ضيقاً ومحاطاً بكثير من القيود تمشياً مع تلك السياسة

كان ذلك في أواخر سنة ١٩١١ أي من نحو ربع قرن

فاذا كان يوم الجمعة ، وذهبنا إلى ملعب الكرة بالحلمية الجديدة مررنا بشارع البرموني . هناك يستوقف النظر تجمع كثير من النسوة والصغار يختلفن إلى دار في مواجهة « زقاق » صغير ينتهي بها فتغيره وتحيله ميداناً فسيحاً للرحمة والاحسان . . .

كانت تلك الدار « مبرة محمد على » تجد فيها فقيرات الأمهات وفقراء الأولاد رعاية عالية ، وعطفاً كريماً : يلقين فيها يد الطب تأسو ، ويد البر توامي ، تستنقذ اليدان بفضل الله أناسي من خلقه من براثن الأمراض وآلام الحياة

فاذا سألت لمن هذا العَلَم ؟ ومن يقوم على هذا البر ؟ ومن يغذى تلك الشجرة المباركة ! أجابك المغاثون الداعون هي : « الوالدة » أطال الله بقاءها

« الوالدة » ! ! وأي اسم في الوجود أولى بهذه المعاني من هذا الاسم الكريم ؟ وهل في الدنيا أكثر عطفاً من الوالدة ! !

أليس بين الاسم والفعل خير تناسق وأوثق صلة ؟

إنا نرى اليوم في مصر كثيراً من مظاهر البر ، وأماكن للعلاج وافية الأعداد ، ولكنا حينئذ كرها كان ، وحين أكتب اليوم ، إنما ننظر وأكتب عما كان منذ ربع قرن . كانت « مبرة محمد على » لا تقل في عين الفقير عما نرى اليوم في عجيبة « الراديو » والطيران

ولما أعلنت الحرب بين إيطاليا والدولة العليـة ، ونزلت جيوش الأولى شاطئ طرابلس ، تحمس المصريون ذاكرين ماهم فيه وما بهم من ويلات الاحتلال الانجليزي ، يأسون جراح المجاهدين بفضل من المال وشيء من العون ، رأينا « الوالدة » تتقدم الصفوف وخلفها الفضليات من نساء مصر يقمن بواجب الاغاثة ، ويجمعن التبرعات ، يوفين ماعليهن لله ، وما في ذمتهن للحق والأخلاق

هذه « سوق الاحسان » نافقة ترأسها « الوالدة » ، وتلك دعوة للتشاور بين سيدات مصر في « قصر الوالدة » ، وفي الصباح تتحلى صحف مصر بفاتحة التبرعات مصدرة باسم « الوالدة »

وفي الحلمية الجديدة بناء جميـل ، تسمع به حركة ولا تسمع فيه لغواً ، يجمع كثيرين من أبناء البلاد ، يتعلمون الصناعة ، ينقل إليك الأثير نغمات آلاتهم توقع الأنشودة في تدعيم صناعة البلاد

فاذا خطوت إلى شارع سليمان باشا ، راعك مخزن فاخر ، نخاره وروعته قطع الأثاث المتقن برعت فيـه أيدي المصريين والعبقرية الفنية الموروثة ، فبينا نرى المخازن والمحال تطلى وتنسق إعلاناً عما بها إذا بذلك المعرض يحلى المكان ويعلن عنه

والعهد بذلك الحي أنه « أفرنجي » في مساكنه ومقاهيـه ومخازنه ، وإنك لمفترض إذن أن هذا المكان « لـكريبجر » أو « لجانسان » ، أو غيرهما من تجار الأثاث الثمين . ولـكنه قطعة من مدرسة الحلمية وقفت كالراووق لا تبقي للعرض إلا ماله قيمة حقيقية ، تعلن في صدق عن حقيقة البلاد وأبناء البلاد وإنتاج البلاد ، في الحي الذي لا يقطنه إلا الأوروبيون

وكذلك كانت « الوالدة » شغل السمع والبصر

التحقت بالمدرسة السعيدية ، أجتاز من أجلها جسر قصر النيل في اليوم مرتين ، فأمر بقصر « الوالدة » مرتين ، ومن العجب أن يزداد المرء في كل نظرة شغفاً بالقصر ، وألا يكون لتكرار رؤيته إلا استزادة الاعجاب وامتلاء المين من محاسنه ، على نقيض ما يعرو الانسان عادة من ملل إذا تـكرر المنظر ، ولو في نزهة

كان « قصر الدوبارة » أحب أحياء القاهرة إلىّ . فاذا أردت ترويحاً عن نفسى مررت على شاطئ النيل حذاءه ، وإذا شعرت بضيق طلبت تفريجه فى سويعات المساء بين مغانيه ، وإذا جلت بالجزيرة وقفت على النيل من الشاطئ الغربى أنظر اليه ، وكثيراً ما طالعت العسير من دروسى فى تلك الناحيـة فساغ فهمها وانجلى الـكرب

بل إنى تمنيت أن يكون لى فيه سكن ، وأن أصبح من قاطنيه ، فلما استقر بنا المقام بشارع « الحويانى » حمدت الله وقلت هذه خطوة فى القرب منه ، وقد أوشكت على الخروج من سلك الطلبة

أدركنا من الحياة أكثر ، وفهمنا بتقـدم السن وتحول الأيام مالم نكن ندرك من قبل ، فاذا بى أبدأ اليوم متنزهاً فى البكور بقصر الدوبارة ، وأختم المساء بجولة فى ربوعه ، إذا أحسست القذى من قصر « العميد » لقيت الفرجة من «قصر الوالدة » كما يذهب عنك معرض الصنائع بشارع سليمان باشا ، غصة التسلط الأجنبى فى ميدانى الصناعة والتجارة

وفى سنة ١٩٣٢ أراد الله أن أظفر بشيء من الأمانى ، فسكنا داراً بالحى ذاته ، وبلغ من عرفانى لجميل الله ، وفيض السرور على قلبى أن قيدت فى جريدتى الخاصة هذا الانتقال بما يستحقه

فلما أن كان يوم جمعة ، ومررت بالقصر فى طريقى الى مسجد «الشيخ بركات» هالنى اعلانات تلصق على الجدر الأنيقة ، يضعها صبيان دون اكتراث ، فأخذت ووقفت أقرأ ، الله أكبر ، هذه اعلانات عن بيع أثاث القصر !!!

لك الله يادار ! كنت مهبط رحمة ، فرفعت بك « الوالدة » علم البر ، وكنت منزل الفضل فدعوت للعـلم ، وقمت بانشاء معاهده وتمويلها ، كنت آية الفن من الطلاء الخارجى والباب الـكبير الجميل الى الأثاث الداخلى الفاخر ، وها أنت اليوم يعبث بجدرك صبية وقد كان يهاب المرور بها كبار ؛ ويباع الأثاث ، فتستباح من الشارين الدار . ولم ذلك ؟ وفيم السخرية والتفريط فيك وورثوك فى نعمة وبسطة من العيش ؟! وكيف هنت وأنت مصـدر العزة لبيوتات طاهرة ، وكنت الغوث والابقاء لدور وقصور

وكذلك أصبح يوم الجمعـــة عندى — وهو يوم الجمع والمرحمة — يوم العظة والاعتبار . يوم كشف لى فيه عن « مبرة محمد على » سنة ١٩١١ . ثم رأيت فيه ختام الآية ، وكيف عبثت أطماع الدنيا بالتراث المجيد

ومنذ حل الأجل ، وبدأ المكلف بالبيع من الخبراء ينفذ اعلانه أقصرت عن الطريق وتخليت عن عادتى ، وكرهت أن أرى كعبة العافين ومنار الفضل مزدحمة المسالك بالمتفرجين والعابثين

علم أبى — عليه رحمة الله — بالبيع فطلب الىّ أن أزور القصر وأشترى أثاثاً ينقصنا لغرفة المائدة ، وبقى بالقاهرة يومين ثم سافر الى الريف لبعض شأنه

وحين عودته سألنى هل نفذت رغبته ؟ وهل اقتنيت شيئاً ؟ لقد كنت أهابه على رعايته لى ، وما أظننى خالفت له مدى حياته رأياً ، فلما سئلت لم أعدل بالحق شيئاً ، قلت : لقد كبر علىّ يا أبى — وقد أعجبت بالقصر فتى ، وقدرت أثر صاحبته وأثره فى عالم الخير والعـلم لهذه البلاد شاباً — كبر علىّ أن تشترك قدماى فى امتهانه فلئن لم يأبه منا ربحه ذوو الشأن ، ولئن تدفقت الجموع تظفر بما يقتنى ، فانى سعيد بأن أقتنى تذكاره ، وأن أفى له بشيء من احترام الذكرى ، ثم والأثاث موفور فى مخازنه ، وجيـده اليوم معتدل الثمن

سر أبى بنظرتى ، وقال على الفور : « إنك أشبه بجدك ، فقد ذهب مرة مع فريق من صحبه لزيارة الخديو اسماعيل بالآستانة ، وكانوا فى جملة من كبراء البلاد يطالبون بتدخل الباب العالى لجلاء الاحتلال — والدولة فى ذاك الوقت صاحبة السـيادة — فلما جلسوا قدمت اليهم السجاير ، وطاف الخدم يشعلونها للضيوف الـكرام ، أبى جدك أن يشعل سيجارته ، وكان الخديو اسماعيل قد كف بصره

فلما سئل من بعض رفاقه بعد الانصراف من الزيارة ، قال : « إنى نقدت ظلمه ، ومدحت إصلاحه — وهو خديوى — ولم أدخن أمامه بصيراً ، وإنى لأكره أن أدخن — وهو مكفوف البصر — احتراماً لعبرة مآله ، وصوناً لذكرى عزته الأولى .

قلت : الحمد لله ، لقد أفدت وفاء وعلماً أين منه اقتناء حطام سريع البلى مهما دام ، وقمت بما يرضى ضميرى ولو فى أضيق مجال

***

والیوم أغلقت أبواب القصر ؛ فلا حاجب ولا قاصد ، واليوم تمر بقاعة (يورت) الأمريكي على قرب منه فترى رتل السيارات يزحم الطريق ، جاءت بأصحابها يستمعون الى ما يلقى فى العلم والفن والأدب ، بينا القصر العظيم ، المقر السابق للسابقة بين المحسنين وأركان العلم يكاد يطمس سنا طلائه نسيج العناكب لا يرتفع فيه صوت بحديث ولا علم ولا فن

أليس «قصر الوالدة» أولى مكان بنور العلم والأدب والفن ؟ إنه أولاها ، وإنه أرحب الأمكنة للفضل منذ نشأته

فهل نرى فى ورثته من الأمراء فى القريب مايعيده الى مكانته ويعيد اليه روح الأنس بخير ما خلق الله للانسان فيكون ذلك استمراراً لروحه ، وأنساً لروح سكنت الخلد — هى روح « الوالدة » . . . ؟

محمد محمود جلال
المحامى

« روز »

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

كان الظلام قد خيم بعد غيوب الشمس ، وذهبت معارف الأرض ، وانتقل كل مجسد الى عالم الأشباح الغامضة ، وتسربت الألوان المختلفة فى السواد الذى غمرها ، وتحول الجو من طلاقة الاعتدال وطيبه الى البرد ، كعادته فى هذه المناطق الصحراوية ، فتحول أهل البيت الى الحجرات طلباً للدفء ، أو اتقاء لما يجر اليه التعرض للقر ، وكان البواب النوبى يتمشى فى الحديقة بعد أن خلت من المتنزهين وفى يده مسبحته الطويلة التى لا تفارقه ، فهى على عنقه كالعقد إذا لم تكن حباتها بين أصابعه ، وكان قد وصل الى آخر الممر ، ودار ليعود ، فقال له حوض الآذريون — أو هكذا خيل اليه — :

« هشش ! »

فنظر مبهوتاً الى هذا الزهر الأصفر ذى الحمل الأسود ، وتعجب من نطقه ، فلولا فرط الدهشة للاذ بالفرار ، فقد كان من المؤمنين بالعفاريت وركوبها الناس واتخاذها أشكالاً وصوراً شتى ، وتقمصها أجسام الحيوان ، ولم يكن بعيداً فى التصور عنده أن تطلع من أحواض الزهر

ومنعته الدهشة أن يجيب بشىء . وأى جواب لمثل هذا النداء سوى الالتفات الى مصدر الصوت ؟ ولا مصدر له يعلمه سوى هذا الحوض

وعاد الصوت الخفى يقول :

« هشش ! »

ولكنه لم يصدر فى هذه المرة عن الحوض ، بل انتقل الى ما وراء الزرع المفرش على السور الحديدى ، وكفى بهذا التحول سبباً للرعب ، فما يمكن أن يجىء الصوت من الأمام مرة ، ومن الخلف مرة إلا إذا كان صاحبه عفريتاً من الجن ، فانطلق البواب يعدو كالنعامة الى حيث يرجو أن يجد أنيساً يذهب عنه الخوف

وسخط العفريت لما رأى فريسته تفلت من يده ، وتخلص من ألفاف الشجر المتشجنة تخلصاً لا يعود بحسن السمعة وطيب الأحدوثة على الجن قومه ، ولا يشهد لهم بالبراعة والحذق ؛ فلما صار فى الممر أخذ ينفخ من الجهد وينفض التراب عن ثيابه ، ويلعن البرابرة وجبنهم . ولما أوسعهم لعناً ، وشفى قلبه مما يجد عليهم تحول الى نفسه ، ولم يبخل عليها بحظ واف من التعنيف والتقريع على ما كلفته سخافته من الزحف وراء الشجر الأشيب من تلويث الثياب والتعرض للحشرات ، وأحس — حين ذكر الحشرات — كأن بعضها — جيشاً كاملاً منها — يسير على ظهره تحت ثيابه

وفى هذه اللحظة ، وقبل أن يتم ما بدأه من إبداء الرأى فى نفسه ويصارحها به على أكمل وجه ، سمع من الشرفة صوتاً يناديه باسمه ، فكان من أثر المفاجأة أن رد : « نعم » بصوت عال ، ولم يكد ينطق بهذه الكلمة المفردة حتى أدركته الندامة وعاد سخطه فعظم على نفسه ، فلو استطاع أن يجردها أمامه شخصاً لقتله بلا تحرج ، ولم يسعه بعد أن وشى بنفسه إلا أن يمشى الى حيث دعى فأجاب ، وكان الله فى عونه حين يدعو الفضول الى السؤال !

* * *

وفى هذه اللحظة كانت « روز » — كلبة البيت — قد شبعت

من تفتيشه والاحاطة بمداخله ومخارجه ، واختبار الكراسي والبحث عما عسى أن يكون تحتها ، وما لعله مخبأ وراء الستائر ، وحدثتها نفسها بالخروج إلى الحديقة لعل فيها قطعة ، أو عظمة تتسلى بها ، فقد كانت « روز » طالبة لهو برىء ، وسيان عندها أن يكون اللهو به حيواناً مثلها أو جماداً ، ولكنّ الباب كان مغلقاً اتقاء لتيارات الهواء . ولو لم يكن فى وسع « روز » أن تفتحه بغير معونة من الانسان ، فوقفت أمامه ــ أو لصقه ــ وجعلت تحك أنفها فيه منتظرة أن يدخل داخل أو يخرج خارج

وسرعان ما استجاب الله دعاءها وحقق رجاءها ، فقد دفع صاحبنا الباب ودخل وهو ينفخ ، ولم يكن يدرى أن « روز » وراءه وأن أنفها أصابته منه ضربة قوية ، أدارت رأسها وآلمتها وأخرجتها عن طورها . وكانت « روز » كلبة رقيقة الاحساس لينة العريكة ، وقد ألفت أن يداعبها الناس ــ رجالاً ونساء وأطفالاً ــ واعتادت إذا مسها أذى غير مقصود ، أن يسرع المسىء إلى ملاطفتها والاعتذار اليها ، ولذلك أدهشها أن ترى صاحبنا يضربها بالباب ويكاد يبطط لها أنفها الجميــل ، ويمضى كأنما لم يحدث شئ على الرغم من الصرخة العالية التى أطلقتها من الألم ، وهاجها هذا السلوك فانطلقت تجرى حتى صارت أمامه ونبحته نبحتين كأنما تقول له :

« لحظة من فضلك ! لحظة واحدة ، إذا سمحت ! »

فقال صاحبنا بجفوة : « اذهبى عنى ــ فلست أحب الكلاب ! »

فقالت « روز » :

« صحيح ؟ أهو ذاك ؟ ومن تظن نفسك أيها الحلوف القذر حتى تضرب فتاة مثلى على أنفها ؟ »

فشوّر صاحبنا بيديه مرة أخرى ليصرفها ، ولكنها ألحت عليه بالنباح قائلة :

« إن أمثالك فى الدنيا هم الذين يحدثون الثورات والفتن والهزاهز . وما أظن بك إلا أنك من الملاك الجشعين الذين يظلمون الفلاحين العاملين فى أرضهم ، ويلقون بهم فى أحضان الهيجين والبلاشفة . . . »

فضاق صدر صاحبنا ، ورفسها برجله . ولم يرفسها فى الحقيقة وإنما حرك ساقه حركة الرفس ، فلم تصبها رجله ، فقد كان يريد المعنى لا الفعل ؛ ولكن « روز » كانت كلبة حرة تكفيها الاشارة ، فغضبت جداً لكرامتها ، ووثبت وثبة مكنت أسنانها الحادة من طرف السترة فغرزتها فيها وجذبتها بكل ما فيها من قوة ، فانهارت الظهارة ، وتكشفت عن البطانة ، وكانت لا تزال فائرة النفس ، فهمّت بوثبة أخرى ، ولكن فتاة من أهل البيت دخلت فى هذه اللحظة ، فصاحت بها :

« روز . . . روز . . . ! »

فالتفتت « روز » على الصوت ، وأدركت بذكائها الكلبى أن لا رجاء لها بعد ذلك فى مواصلة الكرّ والفرّ ، فدسّت ذيلها بين فخذيها واختفت

وقالت الفتاة لصاحبنا :

« آسفة جداً . . . »

فنظر صاحبنا اليها مقطبا ، ثم صوب عينه الى ســترته ، وتناول الطرف المهلهل بيمينه ، فغلا دمه ، وشعر برغبة جامحة فى أن ينقص تعداد القطر المصرى واحدة ، غير أنه استطاع بجهد أن يكبح نفسه ، فما يليق أن يكون كالكلبة حماقة ، ولا سيما فى حضرة سيدة وقال :

« لا بأس ! لا بأس ! أعنى لا شئ . . . هى غلطتى ، وإن كنت لا أعرف كيف أسأت اليها . . . هل اسمها روز ؟ »

قالت الفتــاة : « نعم . . . روز . . . اسم جميــل ، أليس كذلك ؟ »

قال : « ولكن الفعل غير جميل . . . والبذلة جديدة قبحها الله . . . أعنى الكلبة لا البذلة . . . معذرة ! . . على كل حال يجب أن أرحل الآن ، فما أستطيع البقاء بهذه الثياب الممزقة . . أستودعك الله ! . . »

وهكذا مزقت « روز » ثيابى . . . ومن أجل هذا صرت أكره الكلاب بأنواعها ، من مجازية وحقيقية ، ولا أطمئن اليها ، ولا آمن غدرها ، ولى الحق . أليس كذلك ؟

ابراهيم عبد القادر المازنى

٤ ـ قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

اسپلنزانى Spallanzani

ثانى غزاة المكروب

« القس الماكر الذى مالق الكنيسة والسلطات وهو يحتقرها جميعاً لكى يعيش ولكى يعمل فى سكون ؛ الذى ناضل نضال الجند بغير أهبة الجند وعدة الجند ؛ الذى أثبت من مرق اللحم أن المكروبات ككل الأحياء لابد لها من آباء ؛ الذى أهدى للعلم مثانته الوبيئة ، ذلك الأثر الوحيد الذى بقى للناس إلى اليوم من هذا الرجل الكبير الخالد »

« مات لوفن هوك واأسفاه ! فَمَن بعده لدراسة تلك الحيوانات الصغيرة ؟ » . هكذا تساءل رجال الجمعية الملكية بانجلترا ، وهكذا تساءل رُومور Réaumur* ورجال الأكاديمية الفرنسية الألمعيّة فى باريس . سؤال أجابته الأيام سريعاً ، فان قماش « دلفت » ، لم يكد يُغمض عينيه فى عام ١٧٢٣ ليستريح تلك الراحة الطويلة الأبدية التى استحقها بعد طول جهد وعناء ، حتى ولد فى عام ١٧٢٩ صيّادٌ للمكروب جديد ، وذلك فى بلدة « إسكانديانو » فى شمال ايطاليا على بعد ألف ميل من مضجع «لوفن هوك» . وكان اسم هذا المولود الجديد «لازارو اسپلنزانى» Lazzaro spallanzani ، نشأ وترعرع فاذا به ولد يلثغ بالشعر بينما هو يلعب بالطين يصنع منه الكعك والفطير ، ثم يَعزُف عن طينه ويذهب فى فطيره ليلهو بالخنافس والبق والذباب وأشتات الديدان ، يُجرى عليها تجارب قاسية ، هى عبث الصبى الذى لا يَحذَق التجربة ولا يدرك مبلغ الألم الذى تأتيه يداه . كان يُغرَم بالطبيعة ويهوى الأشياء الحية ، وبدلاً من أن يُبْرم والديه بكثرة السؤال عنها ، كان يمتحنها بنفسه ، فينزع عن هذه رجليها ، وعن هذه جناحيها ، ثم يحاول أن يُثبتهما حيث كانا . كان يحب أن يعرف كيف تعمل الأشياء ، ولم يكن يأبه كثيراً بأشكالها وظواهرها



لازارو اسپلنزانى

وخاصم أهله كما فعل « لوفن » فى تقرير مايدرس من العلوم ، وجاهدهم كثيراً من أجل دراسة المكروب . وكان أبوه محامياً ، فبذل مجهوداً كبيراً فى أن يُحبب الى ابنه وثائق من القانون طويلة ، وصحائف من حجج الدفاع عريضة ، ولكن الصبى كان يهرب من هذا وذاك ، فيذهب إلى بعض الجداول فيقذف سطحها برقيق الحجر ، ويعجب من أن الحجر يقشط الماء ولا يغطس فيه

وكان يُغصَب فى الأمساء على الجلوس إلى دروس لا لذّة له فيها ، فلا يكاد أبوه يولّيه ظهره ، حتى يقوم الى الشبّاك ينظر

* عالم طبيعى فرنسى ولد عام ١٦٨٣ درس الفيزياء والرياضة وبحث فى الحيوان والنبات ، وفى الكيمياء والصناعة ، ومن آثاره قصدرة صفائح الحديد ، ومقياس الحرارة المعروف باسمه ، وبه تنقسم ساق المقياس بين انجماد الماء وغليانه إلى ٨٠ درجة ، انتخب عضواً بأكاديمية العلوم الفرنسية

إلى سماء ايطاليا وهى ناعمة كقطيفة السوداء قد تبعثرت عليها النجوم البيضاء ، ثم يصبح الصباح فيأتى رفاقه فى اللعب يلقى عليهم دروساً فيها حتى أسموه النجم

وتأتى الاجازات فيضرب بجسمه العظيم فى الغابات ؛ فذات مرة وقعت عينه فيها على نافورات طبيعية يخرج منها الماء راغياً مزبداً ، فحملق فيها من الدهشة ، وذهب عنه لعب الطفولة وعبثها ، وعاد أدراجه يفكر تفكير الرجال . ماسبب هذه العيون وكيف كانت ؟ لم يحر جواباً إلا حكاية حكاها له ذووه والقسيس : أن فتيات جميلات ذهبن فى الغاب فضللن الطريق بين أحراجه ، فأحسسن الوحشة ، فبكين ، فانقلبت دموعهن عيوناً تتفجر ما شاء الله

وكان « لازارو » ابناً طيّماً ، وكان فيه خُلُق السّاسة ، فلم يجادل أباه ولا القسيس ، وانما سخر من تعليلهم وأخفى سخريته فى نفسه ، واعتزم أن يكشف عن سر هذه النوافير يوماً

وكان «اسپلنزانى» فى صباه شغوفاً بالكشف عن أسرار الطبيعة شغف « لوفن هوك » ، ولكنه خالفه فى السبيل التى سلك ليكون عالماً باحثاً . قال لنفسه : « والدى يصرّ على تعليمى القانون ، وأنا أصر على غير القانون ، إذن فسيعلمنّ مشيئة من تكون » . وتظاهر أمام والده بحب القانون والاقبال على الوثائق الشرعية ، ولكنه أقبل فى كل أوقات فراغه إقبالا مريعاً على دراسة الرياضة والمنطق واللغة الأغريقية والفرنسية ، وفى عطلاته كان ينظر إلى الأحجار تطير فتكشط جلد الأنهار ، وإلى الماء الفوّار يتدفع من النبع الثرثار ، ويحلم بالبراكين تقذف بالنيران مختلفة الألوان ، ويحلم باليوم الذى يفقه فيه منشأها ومنتهاها

واستيقظت فى نفسه الحيلة ، فذهب إلى العالم الطبيعى الشهير « ڤالسنيرى » Vallisnieri وأفضى اليه بمكنون علمه فأكبره الرجل العظيم وصاح به : « إنك يا بنى خلقت للعلوم فما إضاعة وقتك فى كتب القانون ؟ » . فقال الماكر : « ولكن ، سيدى ، إن أبى يصرّ ، وما للابن غير الطاعة ! »

فذهب ڤالسنيرى إلى أبيه غاضباً حانقاً ، فلما لقيه وبخه على العبث بمواهب ابنه وإضاعته فى تعلم صناعة لا يعود عليه منها غير النفع والمال . « إن ولدك يا هذا يبشر أن يكون بحاثة كبيراً . إنه يشبه جاليليو . وسيشرف اسكانديانو ويرفع ذكرها فى الوجود »

ورضى الوالد وذهب الابن إلى جامعة ريچيو Reggio [1] ليحترف دراسة العلوم

وكان الزمان قد استدار قليلاً ، فأصبح طالب العلوم الطبيعية ذا حظ أوفر من احترام الناس ، ونصيب أكبر من الأمن على نفسه وحياته عما كان الحال يوم بدأ « لوفن هوك » ينحت عدساته . فان محكمة التفتيش كانت قد بدأت تتخاذل قليلاً ، وتستر أنياباً كشفت عنها طويلا ، فأخذت تطاب الزندقة ، لا عند المعروفين النابهين أمثال سرفيتوس وجاليلو ، بل عند النكرات الخاملين ، فعلى هؤلاء المستضعفين تجنّت ، وألسنتهم قطّعت ، وأبدانهم حرّقت . ولم تعد « المدرســـة المتسترة » تتستر ، فقد كانت خرجت عن أقبيتها السوداء وقيعانها الظلماء ، إلى ظهر الأرض حيث الهواء والضياء . ونالت الجمعيات العلمية فى كل مكان رعاية الملوك وحماية البرلمانات . وأصبح من المأذون به أن يتشكك النـاس فى الخرافات ، وأن يتحدث الناس حديث الترهات الشائعة ، حتى لبدأ أن يكون ذلك سمة العصر ، والطراز الجديد المختار لذلك الزمان . وأخذ الناس يطلبون الحقيقة وقاموا يبحثون عنها فى الطبيعة . ولم يلبث البحث العلمى ، بما يتضمنه من لذة ومابلغه من وقار ، أن شق لنفسه طريقاً إلى حظائر الفلاسفة ، فقطع عليهم عزلتهم وحرّكهم عن سكونهم . فقام ڤولتير إلى ريف فرنسا وأوحاشها ، وقضى فيها السنين الطوال يتفقّه فيما اكتشفه نيوتن ، لينشره فى قومه من بعد ذلك ويؤلفهم عليه . ودخل العلم حتى فى دور الندوة ، والصالونات الفخمة ، فاختلط فيها بالسمر النادر ، واختلط فيها أحيانا بالعهر الفاخر . وأكبّ ذوات العصر ، وذوات المجتمع أمثال مدام پمپادور madame [2] de Pampadour على دائرة المعارف المحرمة يطلبون عندها فن توريد الخدود وتزجيج الحواجب ، وصناعة الجوارب ، وإلى جانب

(١) من جامعات العصور المتوسطة الشهيرة وهى من أقدم الجامعات الايطالية بعد جامعة بولونيا وكان بها فى القرن الثامن عشر مدرسة للحقوق شهيرة

(٢) هى چين انتوانيت پواسون ، ولدت عام ١٧٢١ من أصل غير معروف ، ونسبت إلى مزارع ثرى ، ثم تزوجت ، وبعد ذلك بسنوات اتصلت بلويس الخامس عشر ملك فرنسا فهام بها ، وظهرت عام ١٧٤٥ فى بلاطه باسم المركيزه دى پمپادور ، فأقامت نفسها راعية للعلم والفن . ومنذ صوح جمالها وجهت همها للسياسة فملأت وظائف الدولة بأعوانها مدة عشرين عاماً . وكان من جراء نفوذها أن حالفت فرنسا عدوتها النمسا فى حرب سبع السنوات

ما أثاره العصر المجيد الذى عاش فيه اسبالنزانى من الأهتمام بكل شىء كبير وصغير ، من ميكانيكا النجوم الى رقصات الأحياء الصغيرة فى الماء ، أخذ يشيع فى الناس احتقارا مسموعا للدين ، ولكل رأى حمته سلطة من أى نوع كانت ، حتى تلك الآراء التى بلغت من القدم والقداسة مبلغاً كبيراً . ففى القرن الأسبق كان الرجل يعرض نفسه للأذى وحياته للخطر إذا هو قرأ كتب أرسطو فى الحيوان ، وضحك على ما فيها من حيوانات معكوسة مقلوبة لا تمت الى الممكنات بسبب قريب أو بعيد . أما فى هذا القرن فالرجل كان يستطيع أن يكشف عن سنه فى نور النهار باسماً ساخراً وأن يقول ولو فى شىء من الخفوت : لأنه أرسطو لابد من تصديقه ولو كذب . على أن الدنيا كان لا يزال بها جهل كثير ، وعلم كاذب كثير ، حتى فى الجمعيات الملكية والأكاديميات .

وما كاد « اسبالنزانى » أن يتخلص من دراسة القانون ، ومما يتبعه من مستقبل ملىء بالمحاكات التى لا حصر لها ، والمخاصمات التى لا نهاية لها ، حتى قام يحصّل بكل ما فيه من قوة كل ما يستطيع من معرفة ، من أى نوع كانت ، ويمتحن شتى النظريات من أى مصدر جاءت ، وأن ينفض عن نفسه احترام الحجّات الثّقات مهما علا صيتهم وشاع ذكرهم ، واختلط بكل الناس من الأساقفة السمان ، إلى موظفى الحكومة ، إلى أساتذة العلم ، إلى ممثلى المسارح ، إلى العازفين بالأشعار على القيثار

كان فى خلقه نقيضَ « لوفن هوك » أبعد النقض . عاش « لوفن » عزوفاً جلداً صبوراً ، ونحت العدَس وحدّق فى الأشياء زُهاء عشرين عاماً قبل أن يسمع به أحد ، أو يُحس وجوده العلماء . أما « أسبالنزانى » ففى سن الخامسة والعشرين ترجم عن القدماء من الشعراء ، وانتقد الترجمة الأيطالية لهوميروس ، وكانت لها فى قلوب الناس منزلة مستقرة وتقدير مكين ، ودرس الرياضات مع ابنة خاله « لورا باسى » الأستاذة الشهيرة بجامعة ريچيو فبرع فيها ، وعندئذ أخذ يكشط سطح المياه بالحجارة ، لا للهو واللعب كما كان يفعل صبياً ، بل للجد والدراسة ؛ وكتب بحثاً فى الحجارة ، وكشطها لسطح الماء ، وترسم قسيساً فى الكنيسة الكاثوليكية ، وأخذ يرتزق بما يقيم من القداديس (١)

قلنا إنه كان يحتقر فى الخفاء كل سلطة ، ومع ذلك نجده تملّق هذه السلطات نفسها وكسب عطفها ، وعاش هادئاً فى أكنافها يعمل فى مأمن من كل تهويش وإزعاج ، وترسّم قساً حامياً للدين ، مدافعاً دفاع الأعمى عن حوزة اليقين ؛ فإذا به يطلق لنفسه العنان إطلاقاً يسومها على التشكك فى كل شىء ، وعلى رفض التسليم بأى شىء ، إلا وجود الله ، لا إله الكنيسة التى صورته ، ولكن إله عظيم فخم يهيمن على تلك الخلائق أجمعين .

وقبل أن يبلغ الثلاثين من عمره تعيّن أستاذاً بجامعة « ريچيو » فأنصت لدروسه الطلبة فى حماس ظاهر وإعجاب ثائر . وهنا فى تلك الجامعة بدأ تجاريبه على تلك الحيوانات الصغيرة الضئيلة العجيبة التى أغراها « لوفن هوك » بالصبر الطويل والحيلة الواسعة على البروز من ذلك الخضم الشاسع المظلم الذى احتجبت فيه منذ الخليقة عن عين الانسان ، والتى أوشكت من بعد وفاته أن تنسل راجعة الى ظلمة ذلك المجهول بالترك والاهمال والنسيان

لقد كان من الجائز المقدور أن تُنسى تلك الخلائق الصغيرة ، وإن عطف عليها القدر ، فقد كان من الجائز الميسور أن تحظى بين الناس بنصيب من الذكر بقدر ماتحظى به الأعاجيب يتلاهى الناس بها ويتفاكهون عليها ، ولكن نقاشاً قام بين أرباب الفكر بسببها ضَمن لها الحياة كاملة ، لأنه كان نقاشاً عنيفاً خاصم فيه الأصدقاء الأصدقاء ، وودّ فيه العلماء الأساتذة أن يفلقوا جماجم الأحبار القساوسة . أما موضوع الخصام فهو ذاك :

أيمكن من العدم أن تُخلق الأحياء ، أم لابد لها من آباء ؟ أخلق الله الخلائق فى ستة أيام ، ثم نفض يديه من الخليقة واستوى على العرش يُهيمن ويَسُوس ، أو هو لا يزال يتسلّى من آن لآن بخلق جديد ؟

أما الرأى الشائع فى ذلك الزمان ، فكان أن الشىء قد يخرج من لا شىء ، وأنه لاضرورة للآباء فى كل حالة لتكوّن الأبناء ، وإن فى الأقذار المركومة والأوساخ المهيلة تتولّد المواليد من غير والد . واليك وصفة من تلك الوصفات يضمن لك ذلك العصر أنك تحصل بها على نوْل عظيم من النحل : خذ ثوراً صغيراً واقتله بضربة على رأسه ، وادفنه واقفاً فى الأرض حتى لا يظهر منه إلا قرناه ، واتركه شهراً ، ثم عد اليه فانشر قرنيه يخرج منهما النحل طائراً فى كثرة وزحام

أحمد زكى

(١) جمع قداس وهو الصلاة على الخبز والخمر

الليث بن سعد

محدث مصر وفقيهها ورئيسها

للأستاذ علي الطنطاوي

تتمة

قال الامام الشافعي : الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به
وقال الامام أحمد : ليس في أهل مصر أصح حديثاً من الليث

وقال الامام الشافعي : الليث أتبع للأثر من مالك

وكان ابن وهب[1] يقرأ على الشافعي مسائل الليث فمرت به مسألة ، فقال رجل من الغرباء : أحسن والله الليث ، كأنه كان يسمع مالكاً يجيب فيجيب هو ، فقال ابن وهب للرجل : بل كأن مالكاً كان يسمع الليث يجيب فيجيب هو ، والله الذي لا آله إلا هو ما رأينا أفقه من الليث

وقال ابن وهب : لولا مالك والليث لضلّ الناس

وقال الدراوردي : رأيت الليث عند يحيى بن سعيد وربيعة[2] وانهما ليرجرجان له رجرجة ويعظمانه

وقال الذهبي : وكان من بحور العلم له حشم وافر ، وكان نظير مالك

قال ابن عساكر : كان كبار العلماء يعرفون فضله ويشيرون اليه وهو شاب ، وقيل له : أمتع الله بك ، إنا نسمع منك الحديث ليس في كتبك ؟

قال : أو كل ما في صدري في كتبي ؟ لو كتبت ما في صدري ما وسعه هذا المركب !

منزلته عند الخلفاء والولاة

قال الليث : قال لي أبو جعفر : تلي لي مصر ؟

قلت : لا يا أمير المؤمنين ، إني أضعف عن ذلك ، إني رجل من الموالي

فقال : مابك ضعف معي إلا ضعف بدنك ، أتريد قوة أقوى مني ؟ ولكن ضعفت نيتك في العمل عن ذلك ، فأما إذ أبيت فدلني على رجل

فقلت : عثمان بن الحكم الجذامي ، رجل له صلاح وعشيرة فبلغ ذلك عثمان فحلف ألاّ يكلمني

فلما أردت أن أودعه قال لي : قد رأيت ما سرني من سداد عقلك فاتق الله في الرعية أمثالك

وقال يعقوب بن داود وزير المهدي : قال لي أمير المؤمنين لما قدم الليث بن سعد بغداد : إلزم هذا الشيخ ، فقد ثبت عند أمير المؤمنين أنه لم يبق أحد أعلم بما حمل منه

وقال لؤلؤ خادم الرشيد : جرى بين هرون الرشيد وبين بنت عمه زبيدة بنت جعفر كلام ، فقال هرون : أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة . ثم ندم فجمع الفقهاء فاختلفوا . ثم كتب إلى البلدان ، فاستحضر علماءها اليه ، فلما اجتمعوا جلس لهم فسألهم فاختلفوا ، وبقي شيخ لم يتكلم ، وكان في آخر المجلس وهو الليث بن سعد . فسأله فقال : إذا أخلى أمير المؤمنين مجلسه كلمته ، فصرفهم . فقال : يدنيني أمير المؤمنين . فأدناه . فقال : أتكلم على الأمان ؟ قال : نعم . فأمر باحضار مصحف ، فأحضر ، فقال : تصفحه ياأمير المؤمنين حتى تصل إلى سورة الرحمن فاقرأها ، ففعل ، فلما انتهى إلى قوله تعالى « وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ » قال : أمْسِكْ يا أمير المؤمنين ، قل : والله . . .

فاشتد ذلك على هرون . فقال : يا أمير المؤمنين الشرط أملك فقال : والله (حتى فرغ اليمين) . قال : قل ، إني أخاف مقام ربي . فقال ذلك

فقال : يا أمير المؤمنين ، فهما جنتان ، وليست بجنّة واحدة !

(قال) فسمعنا التصفيق والفرح من وراء الستر ، فقال الرشيد : أحسنت . وأمر له بالجوائز والخلع ، وأمر له باقطاع الجيزة ، ولا يتصرف أحد بمصر إلا بأمره ، وصرفه مكرماً

قال الليث : وسألني هرون الرشيد : ماصلاح بلدكم ؟ قلت : يا أمير المؤمنين صلاح بلدنا اجراء النيل وصلاح أميرها . وإنه

---

(١) هو عبد الله بن وهب بن مسلم القرشيّ بالولاء أحد الأئمة . قال أحمد : ما أصح حديثه ! وقال ابن معين : ثقة . وقال ابن حبان : حفظ على أهل مصر والحجاز حديثهم . رووا أنه حدث بمائة ألف حديث . مات سنة ١٩٩

(٢) هو ربيعة بن أبي عبد الرحمن التيمي المدني الفقيه المعروف بربيعة الرأي . وثقه أحمد وابن سعد وابن حبان وأبو حاتم والنسائي مات سنة ١٣٦

من رأس العين يأتى الـكدر ، فاذا صفا رأس العين صفت العين

قال : صدقت يا أبا الحارث

وقال السيوطى : كان نائب مصر وقاضيها من تحت أوامر الليث ، وكان إذا رابه من أحد شيء كاتب فيه فيعزله

قال ابن أبي مريم : كان اسماعيل بن اليسع الـكندى من خير قضاتنا ، غير أنه كان يذهب مذهب أبي حنيفة فى إبطال الحبس فأبغضوه ، فجاء الليث فجلس بين يديه ، فرفع اسماعيل مجلسه ، فقال : إنما جئت إليك مخاصما ، قال : فى ماذا ؟

قال : فى أحباس المسلمين ، قد حبس رسول الله صـلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير فمن بقى بعد هؤلاء ؟

وقام فكتب إلى المهدى ، فورد الـكتاب بعزله . فأتاه الليث فجلس إلى جنبه ، وقال للقارىء : اقرأ كتاب أمير المؤمنين ، فقال له اسماعيل : يا أبا الحارث ، وما كنت تصنع بهذا ؟ والله لو أمرتنى بالخروج لخرجت ؟

فقال له الليث : والله إنك لعفيف عن أموال الناس

وكان فى كتاب الليث إلى المهدى : انا لم ننكر عليه شيئاً غير أنه أحدث أحكاماً لا نعرفها

ولما أذن موسى بن عيسى للنصارى فى بنيان الـكنائس التى هدمها على بن سليمان ، بنيت كلها بمشورة الليث بن سعد وعبدالله بن لهيعة

منزلته عند الناس

كان له أربعة مجالس يجلس فيها كل يوم ، فيجلس ليأتيـه السلطان فى نوائبه وحوائجه . وكان الليث يغشاه السلطان ، فاذا أنكر من القاضى أمراً أو من السلطان كتب إلى أمير المؤمنين فيأتيه العزل ، ويجلس لأصحاب الحديث ، وكان يقول نحوا أصحاب الحوانيت فان قلوبهم متعلقة بأسواقهم ، ويجلس للمسائل يغشاه الناس فيسألونه ، ويجلس لحوائج الناس فلا يسأله أحد من الناس حاجة فيرده ، كبرت حاجته أم صغرت . . .

وقال منصور بن عمار : كان الليث إذا تكلم رجل فى المسجد الجامع أخرجه ، فلما دخلت مصر تكلمت فى الجامع ، فاذا رجلان قد دخلا فأخذانى ، فقالا : أجب أبا الحارث . فذهبت وأنا أقول : وا سوأتاه أخرج من البلد هكذا . . .

فلما دخلت على الليث سلمت ، فقال : أنت المتكلم فى المسجد؟

قلت : نعم . قال : أعد علىّ ما قلت ، فاعدته ، فرقّ الشيخ وبكى ، وقال : ما اسمك ؟ قلت : منصور بن عمار . قال : أبو السرىّ ؟ قلت : نعم . فدفع إلىّ كيساً وقال : صُنْ هـذا الـكلام عن أبواب السلاطين ، ولا تمدحن أحداً من المخلوقين ، بعد مدحك لرب العالمين ، ولك علىّ فى كل سنة مثلها

وكتب اليه مالك فى رسالة : « . . وأنت فى أمانتك وفضلك ومنزلتك وحاجة من قبلك اليه . . . الخ »

وقال له يحيى بن سعيد الأنصارى ، وقد رآه يفعل شيئاً من المباحات : لا تفعل ، فانك إمامٌ منظور اليك

معنه وكرمه

قال شعيب بن الليث : كان أبي يستغل فى السنة مابين عشرين ألف دينار الى خمسة وعشرين ألفاً ، فتأتى عليه السنة وعليه خمسة الآف دينار ديناً

وقال محمد بن رمح[1] : كان دخله ثمانين ألف دينار فى العام وما أوجب الله عليه زكاة قط

وخرج يوماً فقوّموا ثيابه ودابته بثمانية عشر الف درهم الى عشرين ألفاً ، وخرج شعبة[2] فقوّموا حماره وسرجه ولجامه بثمانية عشر الى عشرين درهما

وقال أبو رجاء[3] : قفلنا مع الليث من الاسكندرية ، وكان معه ثلاث سـفائن : سفينة فيها مطبخه ، وسفينة فيها عياله ، وسفينة فيها أضيافه

قال عبد الله بن صالح (كاتبه) : صحبت الليث عشرين سنة لايتغدى ولايتعشى إلا مع الناس ، وكان لايأكل إلا بلحم ، إلا أن يمرض ، وكان لايتردد اليه أحد إلا أدخله فى جملة عياله مادام يتردد عليه ويسمع منه ، فاذا أراد الخروج زوده بالبلغة الى وطنه

وكان يتخذ لأصحابه الفالوذج ، ويعمل فيه الدنانير ، ليحصل لمن أكل كثيراً أكثر من صاحبه !

---

(١) هو محمد بن رمح بن المهاجر التجيبي بالولاء المصرى الحافظ وثقه أبو داود ، وقال النسائى : ما أخطأ فى حديث قط توفى سنة ٢٤٢

(٢) كان شعبة فقيراً صابراً ، وكان الليث غنياً شاكراً ، وكلاهما على خير ، وشـعبة هو ابن الحجاج بن الورد العتكى بالولاء الحافظ أحد أئمة الاسلام ، نزيل البصرة ، قال أحمد : كان شعبة أمة وحده ، وقال ابن معين : إمام المتقين . وقال أبو بحر : ما رأيت أعبد لله من شعبة ، وهو أول من تكلم فى رجال الحديث توفى سنة ١٦٠

(٣) هو قتيبة بن سـعيد الثقفى بالولاء أحد أئمة الحديث توفى سنة ٢٤٠

وكان يطعم الناس الهرايس بعسل النحل وسمن البقر فى الشتاء ، وفى الصيف باللوز والسكر

وكان يصل مالكاً كل سنة بمائة دينار ، فكتب اليه مرة أن علىّ ديناً ، فبعث اليه بخمسمائة دينار . وكتب اليه مالك مرة إنى أريد أن أدخل ابنتى على زوجها ، فأحب أن تبعث لى بشىء من عصفر

قال ابن وهب : فبعث اليه بثلاثين جملاً محملة عصفراً فصبغ منه لابنته ، وباع منه بخمسمائة دينار ، وبقى عنده فضلة

قال أبو صالح (كاتبه) : كنا على باب مالك بن أنس فامتنع علينا (أى احتجب) فقلنا : ليس يشبه هذا صاحبنا ، فسمع مالك كلامنا فأمر بإدخالنا عليه ، فقال لنا : من صاحبكم ؟ قلنا : الليث بن سعد

قال : تشبهوننى برجل كتبت اليه فى قليل عصفر نصبغ به ثياب صبياننا ، فأنفذ الينا منه ما صبغنا به ثياب صبياننا وثياب جيراننا ، وبعنا الفضل بألف دينار ؟

ولما حج الليث أهدى اليه مالك طبقاً فيه رطب ، فردّ اليه على الطبق ألف دينار

ولما احترقت دار ابن لهيعة وصله بألف دينار ، ووصل منصور بن عمار القاضى بألف دينار

وكان يجىء الى المسجد كل يوم على فرس ، فيتصدق كلّ صلاة على ثلثمائة مسكين ، ولم يكن يردّ سائلاً :

أتاه مرة سائل فأمر له بدينار ، فأبطأ الغلام به فجاء سائل آخر فجعل يلحّ ، فقال له الأول : اسكت . فسمعه الليث فقال : مالك وله ؟ دعه يرزقه الله ، وأمر له بدينارين

قال منصور بن عمار : كنت عند الليث جالساً فأتته امرأة ومعها قدح ، فقالت : يا أبا الحارث إن زوجى يشتكى وقد نُعت لنا العسل . فقال : اذهبى الى الوكيل فقولى له يعطيك . فجاء الوكيل يسارّه بشىء . فقال له الليث : اذهب فأعطها مطراً ، إنها سألت بقدرها فأعطيناها بقدرنا (قال : والمطر عشرون ومائة رطل)

واشترى قوم من الليث ثمره بمال ، ثم إنهم ندموا فاستقالوه فأقالهم ، ثم استدعاهم فأعطاهم خمسين ديناراً وقال :

إنهم كانوا أملوا أملاً فأحببت أن أعوضهم

وقال أسد بن موسى [1] : كان عبد الله بن على يطلب بنى أمية

(١) هو أسد بن موسى بن ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان صاحب مسند يقال له أسد السنة ، قال النسائى ثقة لو لم يصنف لكان خيراً له . توفى ٢١٢

فيقتلهم ، فرحلت الى مصر فدخلتها فى هيئة رثة ، فزرت الليث ، فلما خرجت من منزله تبعنى خادم له فى دهليزه ، وقال : اجلس حتى أخرج اليك ، فجلست ، فلما خرج وأنا وحدى ، دفع الىّ صرة فيها مائة دينار ، وقال : يقول لك مولاى أصلح بهذه النفقة أمرك ، ولم شعثك ، وكان معى فى حُجزتى [1] ألف دينار ، فقلت للخادم : أدخلنى على الشيخ فانى فى غنى عن هذه المائة ، فاستأذن لى عليه ، فأخبرته بنسبى ، واعتذرت اليه عن رد المائة ، وأخبرته بما معى ، فقال : هذه صلة وليست بصدقة ، فقلت : أكره أن أعوّد نفسى هذه العادة ، وأنا فى غنى ، قال : ادفعها الى بعض أصحاب الحديث ممن تراه مستحقا

فلم يزل بى حتى أخذتها ففرقتها فى جماعة

وفاته

توفى الليث يوم الجمعة ١٤ شعبان سنة ١٧٥

قال خالد بن عبد السلام الصدفى : جالست الليث بن سعد ، وشهدت جنازته مع أبى ، فما رأيت جنازة قط بعدها أعظم منها ، ولا أكثر من أهلها ، ورأيت الناس كلهم فى جنازته عليهم الحزن ، يعزّى بعضهم بعضاً ويبكون ، فقلت : يا أبت كأن كل واحد من هؤلاء صاحب الجنازة !

فقال : يا بنى ، كان عالماً كريما ، حسن العقل ، كثير الأفضال ، يا بنى لا ترى مثله أبداً . . . .

قال بعض أصحابه : ولما دفناه سمعنا صوتاً وهو يقول :

ذهب الليث فلا ليث لكم ومضى العلم قريباً وقُبر

فالتفتنا فلم نر أحداً

وَصلى عليه موسى بن عيسى الهاشمى ، ودفن فى القرافة الصغرى ، رضى الله تعالى عنه وبوأه من الجنة غرفاً

* * *

هذا مابقى من هذه السيرة الجليلة ، متفرقاً فى شتى الكتب ، ومختلف الأجزاء ، وقد ضاع سائرها ، كما ضاع هذا التراث العلمى الضخم ، فرحمة الله على أولئك الأجداد الذين بنوا وشادوا ، وألفوا وجمعوا ، وعلموا وعملوا ، ورزقنا التأسى بأعمالهم ، والسير على سننهم . . . وألهمنا إحياء تاريخنا ، ونشر ماضينا ؟

على الطنطاوى

(١) الحجزة بالضم معقد الإزار ومن السراويل موضع التكة

١٦ - محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون أو خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

- وإذن فلنعد الآن إلى حوارنا السابق - هل يتعرض ذلك المثال، أو الجوهر، الذى نعرّفه فى سياق الكلام، بأنه كنه الوجود الحقيقى - سواء فى ذلك كنه المساواة، أو الجمال، أو أى شئ آخر - أقول هل تتعرض هذه الجواهر، على مر الزمن، إلى شئ من التغير؟ أم أن كلاًّ منها يبقى هو ما هو دائماً، له نفس ماله من صور توجد بنفسها، لا تتغير، ولا تقبل التحول بتاتاً، كيفما كان، أو فى أى وقت كان؟

فأجاب سيبيس - إنها لابد أن تكون دائماً كما هى ياسقراط،

- وماذا أنت قائل فى تعدد الجميل - سواء أكان أناساً، أم لباساً، أم جياداً، أم أى شئ آخر يمكن أن يسمى متساوياً أو جميلاً - أهى كلها لا تخضع للتغير، وتبقى كما هى دائماً، أم أنها نقيض ذلك تماماً؟ أليس الأولى أن توصف بأنها متغيرة فى الأغلب، وأنها لاتكاد تبقى أبداً كما هى، سواء مع أنفسها، أو بعضها مع بعض؟

فأجاب سيبيس: إنها الأخيرة. إنها دائماً فى حالة من التغير

- وأنت تستطيع أن تلمسها، وأن تراها، وأن تدركها بالحواس، فأما الأشياء الثابتة، فلا يمكنك إدراكها إلا بالعقل - إنها تخفى على الأبصار فلا تُرى

فقال هذا جد صحيح

فأضاف - حسناً، لنفرض إذن أن ثمت ضربين من الوجود: وجوداً مرئياً، ووجوداً خفياً

- لنفرضهما

والمرئى هو المتغير، والخفى هو الثابت

- يمكن فرض ذلك أيضاً

- أليس الجسد، فضلاً عن ذلك، جزءاً منا، وما يبقى هو الروح؟

- ليس فى ذلك شك

- ترى إلى أى نوع من هذين يكون الجسد والحالة أشبه؟

- ظاهر أنهما أشبه بالمرئى: إن أحداً لا يشك فى ذلك

- وهل الروح مرئية أم خفية؟

- لم يرها إنسان ياسقراط

- وهل نقصد «بالمرئى» و «الخفى»، ما تراه عين الانسان ومالا تراه؟

- نعم، بالنسبة إلى عين الأنسان

- وماذا تقول عن الروح؟ أهى مرئية أم خفية؟

- إنها لا تُرى

- هى خفية إذن؟

- نعم

وإذن فالروح أشبه بالخفىّ، والجسد أشبه بالمرئىّ؟

- إن ذلك مؤكد جداً ياسقراط

- ألم نكن نزعم منذ عهد بعيد، أن الروح حين تتخذ من الجسد أداة للأدراك، أعنى حين تستخدم حاسة الأبصار، وحاسة السمع، أو غيرهما من الحواس (لأن معنى الأدراك خلال الجسد، هو الأدراك بواسطة الحواس) - ألم نكن نزعم أن الجسد بذلك يجر الروح أيضاً الى منطقة التغيّر، وأنها تضل وترتبك؟ فان الدنيا عندئذ تضرب حولها نسيجاً؛ فتكون الروح عند خضوعها لتأثير الحواس كمن أثملته الخمر؟

- جد صحيح

- ولكنها إذا ما ثابت الى نفسها، فانها تفكر، وبعدئذ تدخل عالم النقاء، والأبدية، والخلود، والثبات. فهؤلاء عشيرتها وهى تعيش معها أبداً، إذا ما خلت إلى نفسها دون أن يعطلها معطل، أو يحول دونها حائل، وعندئذ لا تعود تسلك سبلها الخاطئة؛ فانها إذا خالطت ما هو ثابت، كانت هى كذلك ثابتة، وتسمى هذه الحالة التى تكون فيها الروح بالحكمة

أجاب: هذا صحيح، لحق ماقلت ياسقراط

- وبأى نوع ترى الروح أشد شبهاً وقربى؟ آستنتاجاً من هذا التدليل ومن سابقه؟

- إنى أظن يا سقراط أن كل من يتتبع هذا التدليل، يعتقد

أن الروح ستكون قريبة الشبه بالثابت قرباً لا نهاية له — ولن ينكر هذا حتى أشد الناس غباء

ـ والجسم أقرب شبهاً بالمتغير ؟

ـ نعم

ـ انظر بعد ذلك الى الأمر مرة أخرى مستضيئاً بهذا : حينما تتحد الروح مع الجســد ، تأمر الطبيعةُ الروحَ أن تحكم وأن تسيطر ، والجسدَ أن يطيع وأن يعمل ، فأى هذين العاملين أدنى الى الالـهى ؟ وأيهما أقرب الى الفانى ؟ أليس يبدو لك الالـهى أنه ما يأمر وما يحكم بطبيعته ، وأن الفانى هو الخادم الخاضع ؟

ـ حقاً

ـ وأيهما تشبه الروح ؟

إن الروح تشبه الالـهى ، أما الجسد فيشبه الفانى ـ ليس الى الشك فى ذلك سبيل يا سقراط

ـ إذن فانظر يا سيبيس : أليست هذه هى خلاصة الأمر كله ؟ إن الروح على أشد ما يكون الشبه بالالـهى ، وبالخالد ، وبالمعقول ، وبذى الصورة الواحدة ، وبغير المتحلل ، وبغير المتحول ، وإن الجسد على أشدما يكون الشبه بالأنسانى ، وبالفانى ، وبغير المعقول ، وبذى الصور المتعددة ، وبالمتحلل ، وبالمتحول ؟ هل من سبيل الى إنكار ذلك ، أى عزيزى سيبيس ؟

لا ولا ريب

ـ ولـكن إن صح هذا ، أفلا يكون الجســد عرضة للتحلل السريع ؟ ألا تكون الروح غير قابلة للتحلل ، فى أغلب الحالات ، بل فيها جميعاً ؟

ـ يقيناً

ـ وهل تلاحظ فوق هذا ، أن الجسد بعد موت الأنسان ، لا يتحلل أو يتفكك دفعة واحدة ، بل قد يبقى أمداً طويلاً ، إذا كان قوى البنية عند الموت ، ووقع الموت فى فصــل ملائم من فصول السنة ، مع أن الجسد هو الجزء المرئى من الأنسان ، وله مادة تراها العين ، تسمى جثــة ، ستنتهى بطبيعتها إلى التحلل ، فتتفرق أجزاؤها وتتبدد [illegible] د وتحنيطه ، كما جرت بذلك العادة فى مصر ، [illegible] ب الأحيان على حفظه أبداً لا يبيد ، وحتى إذا أصابه الفساد ، فان بعض أجزائه تظل باقية ، كالعظام وبعض الأعصاب التى تستعصى على التحلل بطبيعتها .

هل تسلّم بهذا ؟

ـ نعم

ـ وهل يجوز لنا أن نفرض أن الروح الخفية ، عند انتقالها إلى عالم الأموات الحقيقى ، وهو مثلها فى خفائها ، ونقائها ، ونبلها وأنها إذ تــكون فى طريقها إلى الاآله الخير الحكيم ، الذى توشك روحى أن تنتقل اليه ، إن شاء الله ، بعد حين ـ أقول : هل يصح الفرض أن الروح ، إن كانت هــذه طبيعتها وذاك أصلها ، تتبدد وتفنى عند فراق الجسد ، كما تقول جمهرة الناس ؟ يستحيل أن يكون ذلك ، أى عزيزىّ سمياس وسيبيس ، وأولى أن تــكون الحقيقة أن الروح ، وهى نقية ، لا تجر فى ذيلها عند انتقالها أية صبغة جسدية ، مادامت لم تتصل قط بالجسد اختياراً ، بل إنها لتتجنبه دائماً ، وما دامت قد انحصرت فى نفسها (فقد كان مثل هذا التجريد موضوع دراستها فى الحياة) . وماذا يعنى هــذا إلا أن الروح قد كانت تابعة مخلصة للفلسفة ، وأنها قد مرنت على كيف تموت بغير عناء ؟ أفليست الفلسفة هى مراننا على الموت ؟

ـ يقيناً

أقول إن تلك الروح فى خفائها ، تنتقل إلى العالم الخفى ـ إلى الالـهى ، والخالد ، والعاقل ؛ فاذا ما بلغته ، رفلت فى نعيم ، وتخلصت من أوزار الناس ، وحمقهم ، ومن مخاوفهم وعواطفهم الوحشــية ، ومن النقائص البشرية جميعاً ، ورافقت الآلهة إلى الأبد ، كما يروى عن العالمين بالسر . أليس ذلك صحيحاً ياسيبيس ؟

ـ فقال سيبيس : نعم ، وليس إلى الشــك فيه من سبيل

(يتبع) زكى نجيب محمود

١٤ - بين القاهرة وطوس

من بغداد إلى الاسكندرية

للدكتور عبد الوهاب عزام

أقمنا ببغداد أربعة أيام ، فأحدثنا العهد ببعض مشاهدها ، وزرنا مرقد الملك الشهيد فيصل . رأينا فى العراء على مقربة من دار البرلمان مقصورة من الخشب ترتفع عن الأرض درجات ، وعلى بابها جندى شاهر السلاح . ففتح لنا الباب إلى ضريح مغطى بالورد والزهر : هذا بقية الجهاد من النفس الطماحة ، هذا ميراث الخلود من العزائم المرة ، هنا صفحة من مجد الاسلام والعرب ، هنا حلقة يصلها النسب والمجد والتاريخ بسيد المرسلين وخاتم النبيين . غاية تتقطع دونها الأعناق ، ويعيا عن امها كل سباق . أرى هذا المصحف على حافة الضريح ؟ هذا كتاب الله يشهد للسلف بما قدّم ، ويدعو الخلف الى أن يمضى قدماً على سنة الآباء وسنن المجد وهدى الاسلام . فيا بنى العرب والاسلام احذروا غضب الله ، وسخط الآباء ، ولعنة التاريخ ، وسيروا بالراية إلى الغاية ، وتبوأوا مكانكم فى جبهة الخطوب وصدر الأجيال

فانا أناس لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر

قرأنا صحائف المجد والعبر . ثم قرأنا الفاتحة وخرجنا نقول : رحم الله فيصلاً !

وفى اليوم الثانى شرُفنا بالمثول بين يدى جلالة الملك الشاب غازى بن فيصل ! اقتربنا من الحجرة الملكية فرأينا جلالته واقفاً ، فلما ولجنا الباب تقدم الينا فحيانا تحية العربى الكريم ضيفانه ، وتلقانا كما يتلقى الأخ العظيم إخوانه . وجلسنا فسألنا كيف صحة جلالة مصر ، وسألنا عما رأينا فى سفرنا وما لقينا فى حلنا وترحالنا ، وكيف رأينا تقدم العراق بعد زورتنا الأولى ، ثم تحدث أحاديث ملؤها الأمل والطموح فى مستقبل العراق والعرب والاسلام . قلنا وإنا لندعو الله أن ييسر للملك الهاشمى العظيم السير على سنن آبائه ، ويرعاه قرة عين للعرب والمسلمين . ثم خرجنا فرحين مغتبطين ، فقلنا قد رأينا فى فيصل صفحات من مجد الأمس ! وهذه صفحات من مجد الغد

نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ونفعل مثل ما فعلوا

فصدّق اللهم آمالنا ، ومهّد لنا طريقنا ، ويسر لنا غايتنا .

وزرنا مسجد الامام أبى حنيفة والمدرسة الأعظمية ودار الكتب . وزارنا فى الفندق كثير من إخواننا البغداديين ، وتنافسوا فى دعوتنا إلى ضيافتهم ، ولكن ضاق الوقت عن اجابة الدعوات ، إلا دعوتين سبقتا قبل سفرنا إلى طهران من الأستاذ الفاضل أبى خلدون ساطع بك الحصرى مدير كلية الحقوق ، والأديب الهمام رفائيل بطى مدير جريدة البلاد ، فذهبنا إلى حفلتين نعمنا فيهما بلقاء جمع من زعماء العراق وعلمائه وأدبائه ، وسعدنا بأحاديث فى الاخوة والمودة ، والسياسة والعلم والأدب

وفى اليوم الأخير كانت حفلة الوداع فى دار المفوضية المصرية ، إذ دعا الأستاذ حافظ بك عامر القائم بأعمال المفوضية جمعاً من أعيان بغداد ، ومن المستشرقين الذين رافقونا فى حفلات الفردوسى ، وسفير إيران ببغداد وغيرهم إلى مأدبة شاى ، ولم تكن هذه أول حفاوة حافظ بك والأخ حسين افندى منصور سكرتير المفوضية

وبرحنا بغداد بكرة يوم الاثنين فى سيارة جديدة من سيارات شركة (نيرن) ذات عشر عجلات طولها ٢٥ متراً ، وهى نمط جديد مركب من جزأين : القاطرة والعربة . وقد أريدَ بفصل المقدم من سائر العربة إضعاف الارتجاج ، فالسيارة تسير رهواً فى الطريق غير المعبدة . وقفنا قليلاً فى الرمادى ، فرأينا سيارة كبيرة تقل نفراً من الانكليز ، فيهم أطفال ونساء ، وقد كتب عليها ما يدل على أنها سائرة من الهند إلى لندرة ، سألت بعضهم متى فصلتم من الهند ؟ قال : منذ شهر . قلت : ومتى تبلغون لندرة ؟ قال : بعد شهر ونصف ، لأننا سنتلبث فى القسطنطينية وبعض البلاد . فهانت علينا الشقة بين طوس والقاهرة ، وأكبرنا هذه العزائم السيارة

بعيد مناط الهم فالغرب مشرق إذا مارمى عينيه والشرق مغرب

وبلغنا الرطبة بعد الغروب فلبثنا ساعتين ، جلسنا فى فندق هناك نستمع إلى الغناء المصرى ، ونأكل ما تيسر من الزاد . ثم مشينا فى أطراف الصحراء فرأينا مجرى وادى حوران الذى يسيل من حوران إلى وادى الفرات ، ولم يكن به يومئذ ماء ، ورأينا هناك آبارا يستقى منها الأعراب الضاربون فى تلك النواحى

وقد جاء الينا أطفال الأعراب ، فسألهم أحد الرفاق عن أسمائهم فلم يجيبوا ، فقلت إن ابن البادية يتحرز من ذكر اسمه واسم قبيلته حتى يأنس ، فلما استأنسناهم بالحديث والعطاء صرحوا بالأسماء

طلعت الشمس ونحن فى أرباض دمشق ، فدخلناها فى نضرة الصباح ، وأشعة الشمس تموج على ذوائب الغوطة الفيحاء ، وما دخلت دمشق قط إلا خفق قلبى لها سروراً وحباً

أوينا إلى فندق أمية يحببه الينا هذا الأسم العربى ، ولبثنا به يومين ، ووجدنا خدام المائدة هناك من النوبيين فرحبوا بنا وبالغوا فى اكرامنا

وهنا لطيفة أضنّ بها على التّرك : جلست أنا ورفيق الأستاذ العبادى للأفطار ، فلما قدمت الينا الوان الطعام طاف بنا طائف من الشعر ، فقال الأستاذ :

وقوم فى أميـــة نازلينا من العسل المصفى يشربونا

فقلت :

ولو علموا مكانهم لكانوا بصحن بنى أمية ينزلونا

قال ما صحن بنى أمية ؟ قلت صحن الجامع الأموى . قال إن النزول به شرف . قلت هذا أردت . والله أعلم بذات الصدور

بادرنا بعد أن استرحنا إلى زيارة أستاذنا العلامة محمد كرد على بك كما فعلنا حينما وردنا المدينة فى طريقنا إلى طهران ، ومن فاته مجلس الأستاذ كرد على فى داره المعمورة فقد فاته خير كثير . وكنا نعمنا المرة الأولى بليلة غوطية قمراء سمرنا بها مع الأستاذ والأمير مصطفى الشهابى والأستاذ خليل مردم وهم كما قال الحريرى

« فى رفقة غذوا بلبان البيان ، وسحبوا على سحبان ذيل النسيان ، ما فيهم إلا من يحفظ عنه ولا يتحفظ منه ، ويميل الرفيق اليه ولا يميل عنه »

ويوم الأربعاء زرنا الجامعة السورية ، فاذا كلية الآداب قد ألغيت . ولقينا الأستاذ مدير الجامعة ، فطاف بنا فى حجرات الكيمياء والطب ، ثم دعانا الى غرفته فتحدثنا فى الاصطلاحات العلمية وتوحيدها فى البلاد العربية ، ثم خرجنا شاكرين . وذهبنا إلى المتحف العربى لدى الأمير جعفر الجزائرى فاذا المتحف مغلق ، وإذا المكتبة التى أمامه مغلقة

وهنا أقول إن دار المتحف العربى هى دار المدرسة العادلية لا دار الحديث الأشرفية ، كما ذكرت خطأ فى حديثى عن الشيخ الخالدى ، وأنا أعترف بأن الغلط كان منى لا من الشيخ ، وأنه نبهنى اليه حينما قرأ المقال وهو بمصر . (وهنا لا بد من شكرى للأديب برهان الدين محمد الداغستانى الذى نبه الى هذا الغلط فى مقال بمجلة الرسالة)

وفى المساء ذهبنا الى الصالحية فزرنا قبر الشيخ عبد الغنى النابلسى ولم نكن زرناه ، فوقفت بنا السيارة على حارة هناك فترجلنا ومشينا بجانب بناء قديم مهجور فقيل : هذه المدرسة العمرية التى بناها أبو عمر بن قدامة . وفى هذا الحىّ مدارس كثيرة كانت مباءة العلم والعلماء فى العصور الخالية . وتقدمنا قليلاً ثم ملنا ذات اليسار ، فهبطنا مسجداً صغيراً مشرفاً على دمشق . ثم ولجنا باباً إلى اليمين فاذا مصلى واسع ، فلما اتجهنا شطر القبلة رأينا فى الجدار الذى إلى اليسار مقصورتين عليهما شباكان الحديد أحداهما مرقد الشيخ الصوفى العالم المتفنن عبد الغنى النابلسى ، والأخرى قبر أحد أبنائه فيما أذكر

وقد رأيت على باب المصلى الذى فيه الضريح هذين البيتين :

زان سورية الوزير نظيف بنظام يفوق عقداً نظيما

لمقام الولى عبد الغنى مذ شاد أرخت «نال أجراً عظيما»

ومعنى ذلك أن والى سورية نظيف باشا عمر هذا المكان سنة ١٣٠٦ ثم ذهبنا إلى دار العالم الفاضل الأمير مصطفى الشهابى إجابة لدعوته ، وهى فى أعلى الصالحية تشرف على دمشق كلها . فتعشينا وسمرنا مع جماعة من الفضلاء ، ثم هبطنا بعد هدأة من الليل فمشينا إلى الفندق ، وسار معنا الاخوان مودعين فختمت إقامتنا بدمشق على أحسن ذكرى

وأصبحنا نتأهب للسير إلى بيروت فبلغناها ظهراً . وذهبنا إلى دار القنصلية المصرية فلقينا حضرة القنصل صادق بك أبو خضره فأبى إلا أن يدعونا للغداء ، ثم ودعناه بعد الغداء شاكرين فسرنا فى أرجاء المدينة ، فلما أرست الباخرة الرومانية « شارل الأول » وضعنا أمتعتنا بها ثم نزلنا فجلنا جولة فى المدينة ورجعنا اليها والساعة إحدى عشرة ، وفى منتصف الليل سارت الباخرة ، فلما أصبحنا بها رأينا أسباط بنى اسرائيل مزدحمين فى أرجائها ، وقد راجت سوق الملابس بينهم ، هذا يعرض وهذا يساوم ، وهذا يشترى وهذا يأبى . فقلنا لله در القوم !

وقفت الباخرة على حيفا صبحاً ، وقد صارت حيفا ميناء

كبيراً منذ العام الماضي ، فنزلنا إلى المدينة وصعدنا في جبل الكرمل وهو جبل عال مزدان بالدور والأشجار مشرف على البحر . ومررنا بقبر الباب صاحب الدعوة البابية ، وقبر عبد البهاء عباس أفندي زعيم البهائيين السابق . وهما في بناء جميل تحيط به حديقة منضدة ينحدر الجبل عنها طبقة بعد أخرى حتى يفضي إلى شارع واسع يستقيم من سفح الجبل إلى البحر

وسارت السفينة بالعشي فما زالت في بحر رهو حتى أقبلت على الأسكندرية المحبوبة قبيل الظهر يوم السبت ثالث نوفمبر . خفقت قلوبنا فرحاً بالأوبة إلى الوطن ، وقذيت عيوننا بالمرائي الأجنبية المتزاحمة في الثغر ، وزادها قذى منظر زورق الشرطة تعلوه راية كتب عليها من الجانبين Police كأن البلد لا يعرف اللغة العربية ! وبينما تكفهر حولنا هذه المناظر المخزية وقع بصرى على كلمة « زمزم » الكلمة العربية الوحيدة في مئات الأسماء المحيطة بنا ، وهذه زمزم إحدى بواخر بنك مصر ! هذا كوكب يلوح في هذا الظلام الدامس! هذا برق من الرجاء يشق هذا الليل اليائس ! هذه فاتحة المستقبل الوضاء ! فاصبرى أيتها النفس فان مع العسر يسرا

خاتمة

لم يتيسر لنا المقام في إيران حتى نعرف من أحوالها ودخائلها وسير العلم والأدب بها ، وحتى نستقصي آثارها ومشاهدها ، وإنما هو السفر العجلان الذي لا يقف ببلد إلا اليسير عنه . فهذه المقالات جهد النظرة العاجلة ، ومبلغ الأيام القليلة التي قضيناها طائرين من مدينة إلى أخرى ، ومقدار ما وعت الذاكرة دون الاستعانة بالمذكرات ، وهو كما رأى القارئ كلام قريب الغور ، قليل الجدوى ، ولكنه لا يخلو من فائدة

وبعد ، فقد سرنا من القاهرة إلى طوس فما أحسسنا أنا اغتربنا ، بل رأينا أنفسنا بين وجوه معروفة ، وسنن مألوفة ، وتاريخ معلوم ، وفي مشاهد حدثتنا عنها كتبنا ، وعهدها تاريخنا ونشأ فيها علماؤنا ، فالعالم الاسلامي ، على اختلاف الأمم ، أمة واحدة ألفتها مئات السنين على معنى واحد ، وأسلوب واحد ، وأورثها التاريخ حضارة واحدة ، وآداباً متقاربة ، وهذا ذخر لعمر الحق جدير أن يصان على رغم الزمان ، وائتلاف ينبغي أن يجنب الاختلاف ، وتقارب هو أسعد ما تحظى به الأمم في هذه العصور القلقة المضطربة . فقل للذين يريدون أن يقطعوا الأوصال بما يثيرون من الجدال ، وقل للذين يحقرون ماضينا ، ويزدرون تاريخنا ، ويحاولون أن يهدموا كل قديم ليشيدوا كل حديث ، وقل للذين يصدون عن المشرق ليولوا وجوههم شطر المغرب : ألا ساء ما تعملون ! لقد أعماكم التقليد عن الحق ، وذهب بكم الضلال أبعد مذهب . فان تماديتم في الغواية فستندمون حين لا ينفع الندم والسلام

عبد الوهاب عزام

الله

لشاعر الشباب السورى أنور العطار

أنا فى كونى الصغير صلاة
وسعت كونك العظيم المجود

* * *

يا إلٰهى قلبى الرفيق تنهّد   مذ صداك الحبيب فيه تردّد
يا إلٰهى طيف العفاء يناجيـ   ـك ، ونجواه أنّة تتصعّد
غاب لمّا دعاك عن وهدة الإثـ   ـم وعن طينة من الإثم أوهد
يا إلٰهى أنا الفناء أناديـ   ـك ، وأنت البقاء ترجى وتقصد
ضعت عنّى لمّا دعوتك فى السّـ   ـرّ وظلّت روحى المشوقة ترعد
أىّ ألطافك العذاب تجلّى   أىّ آلائك العظام تعدّد
حفل القلب بالتّقى فتصفّى   وجلاه الهدى فصلّى ووحّد
ولهى بهجة وحبّى لحن   وابتهالى الغالى نشيد مقصّد
فنيت مهجتى بحبّك يا ربّ (م) وغلغلت فى الفناء لأشهد
أجد الفرحة العظيمة فى الذّ   ـلّ لربّى ، وفى انكسارى سؤدد
شفّنى الحبّ فاستحلت نداء   ومن الحبّ أن تذوب وتنهد
وأنا العبد هام وجداً بمولا   ه ، وإن أفن فى المحبة أوجد

* * *

يا إلٰهى روحى توله حيرى   لا تعى أمرها وثغرى يحمد
طى جفنىّ عالم لك حلو   وبنفسى قصيدة لك تنشد
أترعتها ملائك الحب بالسّحـ   ـر فغنّى بها الوجود وغرّد
ما جفت مقلتاى هذا الكرى الها
نئ كفراً إلا ووجهك أسعد
أنا فى هيكلى اللهيف دعاء   فاض من سرّك اللطيف الممجّد
ساهد الجفن خاشع القلب باك   ذاهل الروح مستهام مشرّد
أرقب الفجر فى غلائله البيـ   ـض وقد شفّ عن غبار مبدّد
جدول رائع يرفّ من النّو   ر وأمواهه تكاد تورّد
غرق يغمر القلوب ابتهالاً   وسناً يملأ النواظر عسجد
وأطلّت ذكاه فى الموكب السّا   حر دنيا من الرؤى تتوقّد

أنا آمنت يا إلٰهى بنعما   ك يقيناً وما خلقت لأجحد

* * *

ربّ طاو على الضغينة صدراً   عاش فى زحمة البلى يتمرّد
نسى الخالق اللطيف وجدوا   ه وعاف التقى وتاه وعربد
لا يبالى أنام فى حفر الديـ   ـدان أم بالدجى الرهيب توسّد
يومه آثم وأمس مجون   والغد المجهل حلم منضّد
لا يحسّ الحياة إلا ضلالاً   من يجدها هدى يذمّ وينقد
والإله الرحيم يوسعه الخيـ   ـر فلا يرعوى ولا هو يرشد

* * *

يا إلٰهى جداك غمر وإحسا   نك فيض على المدى ليس ينفد
تنطوى الأرض فى غياهبها السّحـ   ـم وينهار كل برج مشيّد
ويدوّى الوجود بالعاب والهو   ن وينسى أخو الهوى من تودّد
يمّحى الرفق من قلوب المحبيـ   ـن ولا يرحم السعيد المنكّد
وتموج الأكوان بالبغض والشّـ   ـرّ وتغلى فيها نفوس توعّد
وندى العميم ينهلّ سكبا   باً والآؤه تظلّ تجدّد

* * *

عزّت البيد ، إنها موطن البأ   س ومجلى عيش النعيم الممهّد
تتثنّى بكل أروع سبّا   ق وتزهى بكل أبلج أصيد
ولد الحب فى رباها نقيّا   وعلى ساحها العلاء توطّد
يا إلٰهى حلّيت بالنور مغنا   ها وأطلعت من حماها محمد
أعشب القفر حين لاح محيّا   ه وسال النضار من كل فدفد
واستنارت به القوافل فى اللّيـ   ـل وغنّى الدليل أنساً وزغرد
وسرت نفحة النبىّ من الصحـ   ـراء أندى من الربيع وأجود
طفح القفر بالشذا وانتشى الكو   ن فلم يبق خافق لم يهدهد

* * *

يا نبىّ الهدى سبيلك رشد   بيّن نهجه وشرعك سرمد
عمّت الأرض والسموات نعما   ك فيا فوز من جنى وتزوّد
لست أنسى صحابة لك غرّا (م) نا زها الحق باسمهم وتأيّد
علّموا الناس كيف تفتتح الأر   ض وينقاد للكريم المسوّد
ملأوا الكون رحمة وسلاماً   وسماحاً صفا وحبّاً تجرّد

عصبة الأمم

بين الحبشة وإيطاليا

للأستاذ محمود غنيم

ويحى على محكمة السلامِ   محكمة لكن بلا أحكام
تلهو لا للنقض والابرام   سابحة فى عالم الأحلام
والسيف يبرى الهام كالأقلام   ألم تر العصبة فى المنام
تحرش الذئاب بالأغنام؟   «روما» تهز صفحة الحسام
وشفتا «جنيف» فى ابتسام !   إن رضى القاضى عن الإجرام
فانه أولى بالاتهـام   ويل لحامٍ من أخيه سام !
يا سودُ ما أنتم من الأنام

***

ياجيرة الهضاب والآكام   وساكنى الذروة من شِمام
لا فضل إلا بالحديد الدامى   فالحق فى أسنة السهام
لستم تنالون بالاحتكام   ماناله «منليك»[1] بالصمصام

***

هم يخدعون الناس بالأوهام   متى استطاعوا الفصل فى خصام
أيومَ فتك الترك بالأروام   أم يوم رُوِّعت بلاد الشام
أم يوم ديس الصين بالأقدام   وهددت «طوكيو» بالانقسام
فآثروا الصمت على الكلام !   ماللضعيف فى الورى من حام
لولا نيوب الأسدِ الضرغام   لكان من فصيلة النعام
ولاستبيحت حرمة الآجام

كوم حماده   **محمود غنيم**

(١) منليك الثانى ملك الحبشة الذى انتزع استقلال بلاده من أيدى الطليان بالسيف

فإذا العيشُ من شذا الزَّهْرِ أزْكى   نَفَساً عابقاً وأحلى وأرْغَدْ
ومشى دِينُكَ الحنيفُ على الغبـ   ـراءِ حتى أغارَ فيها وأنجَدْ
فرمى بالكتائبِ الغُرِّ كسرى   وَهِرَقْلاً وكلَّ مَلْكٍ مُقلَّد
وَجرَى الفتحُ زَاهِرَ اليُمْنِ وَضَّا   ءً كما رَفَّ فى السمواتِ فَرْقَد
قبَسٌ من هِدَايةِ الحقِّ ضافٍ   ويدٌ من رِعايةِ اللهِ تمتـدْ
وازْدَهَى الكونُ فَرْحةً وَحبُوراً   حينَ طافتْ به رِسالةُ أحمد
يا إلهى عنَا لِوَجهك وَجهى   وفؤادِى من طولِ حمدِكَ مَعبَد
أنا فى كَوْنىَ الصغيرِ صلاةٌ   وَسِعتْ كَوْنَكَ العظيمَ المجَوَّدْ

دمشق   **أنور العطار**

الضحية

للأستاذ محمد خورشيد

يازمانَ الأسى طرحتُ سلاحى   لم تعدْ بى بقيةٌ للكفاح
صرعتنى الهمومُ حتى كأنى   لم أدَعِ فى دنانها إثْرَ راحِ
كلما رُضتها انبرتْ لى همومٌ   صلبةُ العودِ غاية فى الجماح
أخدعُ الناس بالبشاشةِ والخفّاق فى الجنب ممعِنٌ فى النّواح
حُلكةُ النفسِ لم ترِمْنى ولما   يطلق الحظُّ من حِماها سراحى
فمسائى هـذى الحياةُ وما فى   ظلمةِ الرمسِ غيرُ نورِ صباحى

***

سئمتْ روحى الإسارَ فودّتْ   لو غدتْ حرّةً مع الأرواح
ما أراها غداة يدركنى الأضـ   ـحى سوى مستريحةٍ كالأضاحى
فيطيب النسيم منها أريجاً   مثلما طاب بالشذا الفوّاح
وتُطيف ابتسامتى بثغور الزّ   هَرِ الغَضِّ وردهِ والأقاحى
ويُغنّى الهزار شعرى شجياً   فاسمعوا فى الربيع منه صُداحى

***

لم يَعدْ لى غير الشَّغاف ضِمادٌ   منذ أعيا الأُساةَ لَمُّ جراحى
ما عسى يصنع الطبيبُ إذا ما   عاد صبًّا مثلى مَهيض الجناح
هاله أن رأى شبابىَ يذوِى   فتولّى متمتما غـير صاح
فى غدٍ تغمِضُ الذُّبالةُ جفنيـ   ـها ويسرى الظلامُ فى المصباح

القدس   **محمد خورشيد**

منظر لا متاع

للأُستاذ فخرى أبو السعود

لا تبتغِ الدنيا متاعاً يُشترَى   بل فابْغِها ما عِشتَ فيها منظرا
وابغِ الجمالَ بها إذا ما رُمتَه   شكلاً بها للناظرين مصوَّرا
لاتلْفِيَنَّكَ إن عَدَتْك لُبانةٌ   منهـا على آثارها متحسرا
أنت المصيبُ لُبابَها وخِيارَها   مادمتَ فيها المبصرِ المتبصِّرا
والمجـد كلُّ المجد فيما نلتَـه   متفكّراً لا جامعاً مُتـكَثِّرا
إنى أرى حُسنَ الطبيعة دائماً   فى كل يومٍ زائداً متكررا
ورأيت ما ملكتْ يمينٌ عالةً   للمالك العـانى وعبئاً موقِرا
الكون مسرًى للعيون ومسرحٌ   لفؤاد مَن راد الحياةَ مفكرا

فصول ملخصة من الفلسفة الألمانية

٨ - تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا

للأســـتاذ خليل هنداوي

آثرنا ترجمة بعض مقاطيع لشوبنهاور ونيتشه ، لأن أسلوبيهما الفلسفي تغلب عليه الصبغة الأدبية والشعرية في كثير من خطراتهما ونظراتهما (خ . ه)

صفحة من آثار شوبنهاور

« كيف تنعكس صورة العالم الخارجي في عقولنا »

مقطوعة صغيرة وضعها الفيلسوف على لسان جني يميط لنا اللثام عن سر الأشياء

أمامي شيئان ، شيئان ثقيلان منتظمان ، ما أجمل النظر اليهما ! أحدهما إناء من حجر ثمين مُحلى بعروتين من ذهب ، والآخر جسد تام الخلق والمفاصل ، هو جسد إنسان ، فبعد أن تأملت ظاهرهما كثيراً استأذنت من الجني أن يسمح لي بتأمل باطنهما ، فأذن لي فدخلت في الاناء ، فلا أدري أية ميول قائمة تتمشى في أجزائه تحت اسم الالتحام والالتئام

أما الشيء الثاني ويا للغرابة ! أنى لي أن أحدث بما رأيت ، فأساطير الجن يمسى كل ما فيها أخاً للحقيقة ، ففي ذروته العليا ألفيتُ ما يُدعى «رأساً» مظهره الخارجي كمثل كل مظهر ، وهو كغيره من الأشياء يسبح في الفضاء ثقيلاً . ماذا وجدت ؟ وجدت الكون نفسه مع سعة الفضاء . وجدته يحتوي على كل شيء ، فيه سعة الزمان ، وفيه يتحرك كل شيء ، وخلتني مع هذا التحول العجيب للأشـــياء في الزمان والفضاء ، إنني في ذهاب وإياب : . . . .

— ٢ —

مقطوعة من كتابه « العالم هو إرادة وتمثيل »

قد لايدخل في دائرة الصـدق قولنا : إن الحياة ظاهرها وباطنها صماء مظلمة ، هكذا تجري حياة أكثر الناس ، طافحة بالقلق والميول النافرة ، تمشي في صدر الانسان حائرة مترجرجة ، وصاحبها مستسلم للأحلام بين جدرانها الأربعة حتى يقضي نحبه ، ما أشبه الناس بالساعات التي رُبطت آلاتها فمشت لاتعلم سبب مشيتها وغاية دورتها ، وفي كل مرة يولد انسان تدور الساعة لتعيد — كرة ثانية وثالثة — دورها القديم ، مرددة نفس الجملة وذات المقطع بتبدل قليل لايكاد يُحس

كل وجه بشري ، وكل حياة بشرية حلم فانٍ مستمد من روح الطبيعة التي لا نهاية لها ، ومن إرادة الحياة العتيدة الثابتة . هي كالصورة أو كالخيالة تمر سريعاً ، لاترسمها الحياة على الشاطئ اللانهائي للزمان والفضاء ، ولكن تتركها لحظة أو لحظتين تنعم بهذه الاقامة القصيرة ، ثم تمحو رسومها ، وتذهب بألوانها ، مفسحة لغيرها مكانها ؛ هذا هو الجانب الذي يبعث على التفكر والتأمل . . . يجب على ارادة الحياة القاسية أن تكافئ كل صورة من هذه الصور الصافية وكل أمنية من هذه الأماني الذاوية ، جزاء ماتحملته من آلام عميقة وأوجاع مضنية ، وذعر متكرر من الموت الذي تفر النفوس منه اليه

إن ما يجعل النساء أكثر صبراً من الرجال على الاعتناء بشؤون أطفالنا ، هو أنهن يظللن أطفالاً ضيقات العقول ، ويلبثن — طيلة حياتهن — أطفالاً كباراً ، لا هن الى الأطفال ، ولا هن الى الرجال

لنلاحظ فتاة غانية تلعب وتمرح — سحابة نهارها — مع طفل صغير ، ترقص أمامه وتغني معه ، ولنتمثل أي رجل شديد القسوة على إرادته يستطيع أن يصنع صنعها ، ويقوم بدورها

في عصرنا هذا تقع عيوننا على كتاب يتخذون الكتابة مهنة ، أما قبل هذا العصر فقد كان الكتاب من ذوي الالهام ، ولم يكونوا تجاراً ، فلبثوا خالدين ، ولبثت مقالاتهم ومواعظهم خالدة كالدهر

أَطْلِقْ به ما عشت فكرَكَ رائداً ... تملكه طُرًّا زاهداً متطهِّرا
واكْفُفْ يمينَك عن أمورٍ تقتني ... فيه وأَرْسِلْ فيه باصرةً ترى
وأَقِمْ به حُرًّا وأَطْلِقْ ما به ... يجري على سَنَنِ الحياةِ مُحَرَّرا
واقنَعْ بتِبْرٍ مِن ذُكاء إذا جرى ... متحدِّراً في مائه متكسِّرا
عن كلِّ تِبْرٍ مالكٍ أربابَهُ ... لما غدا في حرزِهِم متحجِّرا
حُسْنُ الطبيعة خيرُ ما متَّعْتَهُ ... في عالَمٍ لم آتِه متخيِّرا
وأجلُّ أجرٍ في الخلودِ لمؤمنٍ ... يَبني بتقواهُ النعيمَ الأنضرا

الاسكندرية — فخري أبو السعود

ادوارد هرتمان

وجد « شوبنهاور » فى « هارتمان » تلميذاً أميناً لتعاليمه ، وإن اختلف مزاجهما بعض الاختلاف ، فوجه « شوبنهاور » جامد عابس ، نافر التقاطيع ، تكاد تبرز من وجهه كل علائم التشاؤم متكلمة منتقمة ، ووجه « هارتمان » هادئ تطفو عليه من التشاؤم سحابة رقيقة لا غليظة ، فهو متشائم مقبول لا يضيق به الناس ، ولا يضيق بالناس ، ولعل تعريجه الكثير على نوادى النساء مما رقق حسه ، ولطف شعوره ، ومثل له الحياة العابسة تبسم له من وراء هذه الوجوه الناعمة ، والثغور الباسمة

مال فى بدء نشأته إلى العلوم الطبيعية ، وبعد تقلب طويل دخل فى مدرسة « السلاح » فى برلين ، ثم وجد أن هذه الصناعة لم تكن لتلائم مزاجه ولاصحته فهجرها ، وهوفى إحدى رسالاته يقص علينا أن سبب تشاؤمه لا يرجع إلى ضعف فى صحته أو اعتلال فى مزاجه ، بل يرى أن روحه فى الحقيقة روح تفاؤل ورضا ، ولكن زوجه كانت تطفو عليها سحابة من التشاؤم والكآبة الخرساء ، والعناد فى الرأى الذى تذهب اليه

كان « هارتمان » فى الثانية والعشرين من عمره حين أخذ يكتب كتابه «فلسفةاللاشعور» .la Philosophie de l' inconscient ولبث فى تصنيفه خمس سنين . ما هو هذا اللاشعور ؟ إنه الارادة عند شوبنهاور تظهر كمادة شاملة عامة ، أو هى ذات فكرة «هيجل» بعد خروجها من ـ مصنع شوبنهاور ـ مبهمة مغمضة لا تدرك . ولايرى القارىء فى هذا الكتاب مذهباً جديداً لأنه تغير للمذاهب المتقدمة ، ولا بحثاً ناجحاً لأنه عصارة شباب متوقد روحاً وعاطفة . وإنما هو شعلة أضرمتها فتوة تنطوى على علم غزير ، فتهوى نفسك أن تتبع آثار المؤلف فى ما يعطيك وبلهمك ، ولا سيما فى تحدثه عن « اللاشعور » فى مقامات العقل الانسانى وحالاته النفسية ، وفى غرائز الحيوان ، فى اللغات ومسائل الدين ، وفى كل حنايا التاريخ وما احتواه ، حتى يأتيك بالصورة الأخيرة التى يرى فيها الانسانية وقد بلغت نهايتها متعبة من إرادتها ، ومن تفكيرها ، ومن حياتها ، وهى تواقة مشتاقة الى العدم ؛ حيث كانت ثم انتشلت منه بغير إرادتها . وهذه صورة فيها شيء من السمو الشعرى بشرط أن يتلقاها الناظر كحلم خالص قذفت به مخيلة خالية . . . .

وقد أحدث كتابه هذا دوياً بعيداً فى العالم الفلسفى والعالم الأدبى ، لا لأنه زاد ـ فى ألمانيا ـ أنصار الفكرة التشاؤمية . بل لأن هارتمان وشوبنهاور كانا أول من صرفا الذهن الألمانى الى مواجهة المسائل الفكرية بالفكر ، وأعادا وصل الحلقتين اللتين قطع بينهما مذهب المثل الأعلى الذى سيطر على العقل الألمانى طيلة عصر طويل

إن فى كل ألمانى مثقف نزعة خاصة به تتمشى فى ثنايا روحه ، تريد أن تتحرك وأن تنمو بذاتها ؛ ترى الفرنسى يجنح الى الفلسفة لتساعده على تفهم الحياة ، وبعبارة أجلى لتعلمه كيف يعيش ! الألمانى ـ على الأغلب يرى فلسفته حلماً ، ولكنه يعتقد أنه سيستيقظ من حلمه هذا ، وأنه إذا أراد أن يعمل ، فعليه أن يفتح عينيه . . . وكل ألمانى يتردد فى حلمه أو يقظته ـ الى المدينة الكاملة ـ التى تحدث عنها شوبنهاور ، المدينة المشيدة على ذرى الغمام ، لأن الألمانى واسع الحلم خصب الخيال ، وهناك يغادر تصوفه الغريزى المبهم ، ويؤوب من تلك المدينة الى الحياة الحقيقية ، وهو أشد حماسة وأكثر تأهباً للمعركة التى يشنها فى سبيل الحياة

على أن هذا المذهب ، (مذهب التشاؤم) قد لقى خصوماً ألداء ممن قارعوه الحجة بالحجة ، ونازلوه نزالاً عنيفاً ؛ وحق للفلسفة كلها أن تجمع أحزابها وشيعها على محاربة « مبدأ خطر » إذا فشا هدم كل أمل فى البشرية ، وقضى على كل جهادها الطويل . وقد انضوى « الماديون » تحت لواء المعارضة ، وكان أشهرهم « أوجين دوهريك » الذى وصل الى هذه الفكرة السامية : « بأن الحياة بمجموعها جميلة ، فى أفراحها وفى أتراحها ، على أن نتناولها كما هى بعجرها وبجرها ، لانحاول تغيير سنتها ، ولاتبديل طبيعتها ، ولا نطلب اليها أن تمنحنا مالا تقدر على منحه ، لأنها سائرة إلى غايتها التى لا تبالى بغايتنا ، وان فى تمردنا على نظمها شقاءنا ، وفى رضانا عن مذهبها نعيمنا »

« يتبع » خليل هنداوى



من أساطير الاغريق

أرفيوس الموسيقى

أو

رحلة الى الدار الآخرة

بقلم الأستاذ دريني خشبة

أرفيوس ! لسان الطبيعة ، ونَجِيُّ الآلهة ، ووحى السماء إلى جى[1] ، وصاحب القيثارة ذات الرنين . . . والأنين

كان يعزف ، فتشيع الحياة فى الصخر ، ويقف أبولو العظيم فى مركبته الذهبية[2] ، مُطِلا برأسه من عليين ، يسمع ويطرب وكذلك كانت تصنع ديانا ، فطالما كانت تنزل من مركبتها الفضية[3] فى أعلى أجواز السماء ، لتلبث هنيهة بباب أرفيوس ، تتزود لرحلتها الليلية المرهقة ، من مشرق الدنيا إلى مغربها

والأشجار ! إن لها لجذوراً متغلغلة فى أطباق الأرض ، ومع ذلك فقد كانت حين تسمع أرفيوس ، تنزع اليه ، وتسير وراءه خبباً ! وكم شهد الناس حول بيته غابة من الدوح العظيم ، والأيك الذاهب ، سعت اليه تلتذ من موسيقاه ، ثم هى تنصرف فى المساء فتنغرس فى أصولها ، وقد ازدادت نضارة وازدهاراً !

ومع ذاك ، فقد كان ذا غُرَّة مشرقة ، وابتسامة حلوة ما تكاد تفارق ثغره الصغير الجميل . وكان جم الحياء ؛ لم ينهر مرة أحد رواده ، أو المترددين عليه ؛ بل كان يلقى الجميع ببشاشة الاخوة ، وهشاشة الود

وكانت له زوجة أجمل من روعة الفجر ، وأفتن من وشى الأصيل ، وأندى على قلبه من أنفاس الصباح

إسمها يوريديس . . مصدر إلهامه ، ومعين عبقريته ، وجمال لحنه ، وأغنية حبه ، وأنشودة هواه . سئل مرة : ماذا تملك من الدنيا يا أرفيوس ؟

فأجاب : « قيثارتى . . ويوريديس ! »

* * *

وكانت يوريديس تجمع الأزهار البرية فى ربرب من أترابها ، لتصنع منها باقة مفوَّفة تقدمها لأرفيوس ، وكانت كلما راقتها سوسنة أو وقعت فى نفسها زنبقة ، طبعت عليها قبلة نديّة وضمتها إلى الباقة ، وهى تقول : وأنت أيضاً لحبيبى أرفيوس ...

وبينا هى كذلك إذا أفعى هائلة تنسل من بين الأشجار ، فتلدغ قدمها الصغيرة المعبودة المطمئنة فى الحشيش الأخضر ؛ فتصرخ المسكينة صرخة داوية ، ثم تنطرح إلى الأرض ، وتتناثر الورود والرياحين التى جمعتها حولها ، كأنها تنضد سرير موتها

وتجتمع صديقاتها مذعورات ، فتعولن وتبكين ، وتحملنها إلى أرفيوس الذى يستطار من هول الكارثة ، وينخلع فؤاده من فداحة المصاب ، ويحاول المستحيل لانقاذ أعز الناس عليه ؛ ولكن . . هيهات ! لقد ماتت ، واحلولكت الدنيا فى عينى أرفيوس التعس ، وأجدبت قيثارته من ألحان المرح ، واستروحت إلى البكاء والأنين . فيا رحمتا لمن ينصت إليها ويصغى لها ! زفرات حارة تصعّدها أوتارها ، وأنات مؤلمة ينبثق منها الدم تنبعث من أنغامها !

وأرفيوس ، مع ذلك منزو عن العالم ، عزوف عن الناس ، مستغرق فى وحدته القاسية ، يفكر فى يوريديس

وصمم ألا يفقدها كما يفقد الناس أحباءهم . بل لابد من رحلة طويلة إلى الدار الآخرة . . إلى هيدز . . حيث إله الموتى بلوتو ، فيضرع إليه أن يرد عليه زوجته التى لا حياة له إلا بها

(١) جى هى الأرض فى الميثولوجية اليونانية (٢) مركبة أبوللو الذهبية هى الشمس (٣) القمر

فكرة غريبة ، وتصميم عجيب ؛ رجل من دار الفناء ، له جسم ، وفيه نفس تتردد من إخمصيه إلى ذؤابة رأسه ، كيف ينفذ إلى دار الموتى وعالم الأرواح ، ومملكة الظلال والأشباح ؟!

لـكنه أمل ملأ قلبه على كل حال ، وها هو ذا يحمل قيثارته ، ويبدأ رحلته ولا يدرى إلى أين ؟

ضرب فى الآفاق على غير هدى ، وذرع الأرجاء فى ضلال وحيرة ، حتى رثت له الآلهـة ، فرشّدته ، وأنارت له سبيله ؛ فاهتدى إلى ضفاف ستيكس [1] ذى الزبد ، حيث وقف شارون النوتى الجبار ، الذى يحمل أرواح الموتى فى زورقه ، يعبر بها أنهار الجحيم للقاء بلوتو العظيم

وصاح شـارون صيحة راجفة حينما لمح أرفيوس ، وزمجر قائلاً : « يا ابن العدم ، ياسليل الفناء ، يامن لم تفض روحه بعد ، ما جاء بك إلى هنـا ، وما تزال تتعـثر فى برد حياتك الرث ، وتتكفّأ فى قيد دنياك الوبيلة ؟ عد من حيث أتيت ، وإلا فوحق بلوتو المتعـال لأسحقن عظامك ، ولأقـذفن بك إلى ستيكس ، فيطويك اليم وتشويك الحم . . . عـد . . عـد . . عد أقول لك . . وىْ . . وبكأنك لا تسمع !! »

ولـكن أرفيوس يثبت غير هيـاب ، ويتناول قيثارته غير وجل ، ثم يعزف لحناً من ألحانه البـاكية فيزلزل به أركان شارون !

شارون ! هذا الفظ ، غليظ القلب ، أقسى حراس جهنم ، يذوب رقة ويمتلىء حناناً ورحمة لـما رأى وسمع ، فيهرول إلى أرفيوس مستميحاً معتذراً عما بدر منه من سوء اللقاء ، وعبارات البذاء ، ويسأله فى لين ورفق عن حاجته فيجيب : « لا شىء إلا لقاء بلوتو ! »

فيسأله شارون : « وكيف ، وهذا بدنك لا يحتمل زفير الجحيم ؟ »

فيجيب أرفيوس : « لا عليك ، مادامت هذه — ويشير إلى القيثارة — بيمينى »

فيقول شارون : « ياصاحبى أنت لا تعرف هول ما تريد أن تقتحم ، وإنى مخلص لك أمين ؛ إنك غض الأهاب ، موفور الشباب ، وإن جهنم لا تبـقى ولا تذر ، وإنها أبداً ترمى بشرر كالقصر ، وإنى أمحضك نصحاً علمتنى موسيقاك كيف أمحضك إياه ، وأستنقذك به من عذاب مقيم . . . ألا فلتفكر فيما أقدمت عليه ، فإن من دونه مهالك ، وإن من دونه نكالاً وأهوالاً ... »

وتبسم أرفيوس بسمة حزينة ، كانت رداً صامتاً على ماحذر شارون ، ثم أعد قيثارته وانطلق يتغنى :

حملتُ جهنّماً فى بعض قلبى ... وفى بعض جراحاتٍ فنونا
فإن حذّرتنى نارا ، فإنى ... أحذّر نارك الدّمعَ الهتونا
سأطفئها به حتى تراها ... تُذرّف مثله صبَباً سخينا
تخوّفنى لظاك وفى فؤادى ... لظى ممن جُننت بها جنونا
إذا ما الحبّ إن لم يكتنفْه ... غرام [1] لا يؤودالعاشقينا ؟
لقد ذُقتُ البِلى فى دارعيشى ... أفى دار البِلى أخشى المنونا ؟ [2]

* * *

وما يكاد يفرغ من هذه الزفرة الحارة ، حتى تتحدر الدموع من عينى شارون ، ويتقـدم اليه معتذراً ، فيحمله فى الزورق ، ويخوض به عباب ستيكس ، وما يكاد يفعل حتى يرى أرفيوس إلى تغيّظ الموج وتلاطمه ، فيسأل شارون عما يهيج النهر برغم سكون الريح ، فيقول : « إنك ، وأنت من أنت ، من فوقه ، سبب هياجه واصطخابه ؛ ولو خُلّى بينك وبينه لـما أنجاك منه شىءٌ حتى تكون فى أعمـاقه ! ! » ولـكن أرفيوس يبتسم ابتسامته الحزينة ، ويتناول قيثارته فيوقع إحدى أناته الشجية ، فيهدأ ستيكس الصاخب ، وتصفو صفحته بين دهشة شارون وشدة تعجبه !

وتطول الرحلة ، ويعبران (أشيرون) نهر العدم ؛ و(ليث) نهر النسيان ، و (كوكيتوس) نهر الآلام ، و (فليجتون) نهر الحم واللهب ، ويصلان آخر الأمر إلى (هيدز) — دار الموتى — ومملكة بلوتو ، بعـد عقبات وأهوال تغلبت عليها جميعا قيثارة أرفيوس ، بألحانها الرقيقة ، وأنغامها الباكية

(١) ستيكس هو النهر الـكبير الذى يحيط بالدار الآخرة « هيدز » فى الميثولوجة ، وهو يحيط كذلك بالأنهار التى تنحصر بينها جهنم ، وسيجىء ذكرها

(١) غرام أى عذاب

(٢) الابيات مترجمة عن أصل يونانى

وتبدأ من هـذا الشاطئ الأخير رحلة شاقة فى ظلام دامس وحلك شديد ، فى مسالك ملتوية ، وشعاب متداخلة ، لا تجدى معها موسيقى أرفيوس فتيلا ؛ وهنا يبدو له أن يقصر هذا السفر الطويل بالسؤال عن يوريديس ، كيف حملها شيرون فى زورقه ، وكيف عبر بها فى هذه الفجاج الى المقر الأخير ، وهل كانت تبكى ؟ أم كانت راضـية بالقضاء الذى فصلها من أحبّ القلوب وأقصاها عن أعز الناس ؟ وهل حـدثته عن الشاب أرفيوس ؟ أم كانت فى شغل عن كل شئ بما هى فيه؟ وهل كل روح من أرواح الموتى تستغرق كل هذا الزمن فى عبور أنهار هيدز وفيافيها ؟ وهل تألمت يوريديس حين كانت تعبرها ؟ . . .

وكان شارون يجيب عن هذه الأسئلة المتتابعة إجابة مستفيضة حتى وصلا الى بوابة كبيرة الحجم ، تصـل إلى قصر پلوتو ! ولـكن كلباً ضارياً بادى النواجذ بارز الأنياب كان رابضاً عندها ؛ فلما لمح أرفيوس ، وهو من غير الأموات ، هاج وماج ، وتوثب يريد البطش بهذا اللاجئ الممنوع !

وتنبه أرفيوس ، فحرك أوتار القيثارة ، وتغنى على أوتارها ألحانه وآلامه ؛ فثاب الكلب وهدأ ، وبعـد أن أقعى قليلاً ، تقدم إلى الضيف الحبيب يلحس قدميـه ، ويتمسّح به . . . ويا للموسيقى !

* * *

ثم هذا عرش پلوتو ؛ وإلى جانبه زوجته الربيع ، پرسيفون(١) كسيرة القلب مهيضة الجناح ، تملو أساريرها عبوسة قاتمة ، وتجثم على قلبها لوعة دائمة . يا لپرسيفون ! ويا لهذا المنفى السحيق !

ولشد ما دهش پلوتو حين بصر بهذا المخلوق الذى استطاع أن ينفذ إلى هيـدز ، وفيه رمق من حياة ؛ بقضه وقضيضه ، وبجره ! !

وقبل أن ينبس پلوتو ، جثا أرفيوس لدى قاعدة العرش ، وطبع على الأرض قبـلة كلها احترام ووقار ، ثم تناول قيثارته ، وطفق يتغنى بقصته الشجية ، يرسلها خلل أنغامه الحزينة ، وملءُ ألحانه اليتيمة . . حتى أتمها

وكانت الموسـيقى ممتزجة بالغناء الحلو والشعر السامى ، قد تغلغلت فى السويداء من قلبى الزوجين ؛ وكانت الرنات ، ممتزجة بالأنات ؛ والهديل ، ليس مثله هديل ، قد أحدث أثره فى نفسيهما ، حتى أن دمعـة مترقرقة شوهدت تنسكب على خد پرسيفون !

وفى الحق ، لقد هاجت قصة يوريديس شجون پرسيفون ، ، لما لحظت فيهـا من الوشائج بينها وبين قصة حياتها التعسة ، فى هذا الملك البغيض !

وانزعج پلوتو لمجرد وسواس لج فى صدره ، لما شاهد من تأثر زوجته ، وانسكاب هـذه العبرة الحزينة على خدها الشاحب ؛ حتى لقد خيل اليه أن شياطين الحب قد قفزت من فم أرفيوس الخبيث ، ومن موسيقاه الشاجنة ، إلى قلبها الغض الصغير !

وقال پلوتو : « انهض أيها الشاب ، فوحق أورينوس(١) لقد كدت تكون من الهالكين ، لولا قصتك الباكية ، وموسيقاك المبللة بالدموع . والآن ، ماذا جاء بك هنا ؟ وما الذى تطلب أن ينتهى اليك من إحسان پلوتو ؟ »

فركع أرفيوس ركعة التذلل والضراعة ، ثم قال : «مولاى ! يوريديس يامولاى ؟ تأمر فتعود أدراجها معى إلى الحياة الدنيا ! »

فأجاب پلوتو : « طلبت المحال أيها العبـد ؛ ولـكن پلوتو الـكريم ، لن يرد رجية بائس مثلك . لك ما سألت ، وستعود يوريديس معك ، ولـكن على شريطة واحدة ! ألاّ تراها حتى تخرج من هيدز . إنها ستتبعك ، فلا تلتفت وراءك أو تغادر دار الموتى ! »

وركع أرفيوس ركعة الشكر ، ثم قال : « سأنفذ مشيئة مولاى . »

* * *

وأمر پلوتو فأُحضرت روح يوريديس ، وبدأت الرحلة إلى الدار الأولى ، فى ظلمات بعضها فوق بعض ، والحبيبان يدلجان خبباً وكان قلب أرفيوس يدق . . . ويدق

وإنهما ليكادان يبلغان العُدوة الأخيرة من نهر ستيكس ، حتى يوجس أرفيوس خيفة ، ويظن — وياشر ما يظن — أن يوريديس قد ضلت سـبيلها من ورائه ، فينسى شرط پلوتو ، ويلتفت فجأة خلفه ، ليرى أنها ما تنفك تتبعه . ولـكن يالهول !

(١) پرسيفون ، أو پروزرپين ، كما يسميها الرومان ، وهى ربة الربيع التى اختطفها پلوتو لتؤنسـه فى وحشته فى هيدز ، بعد إذ رفضت جميع الربات مقاسمته ملـكه ، وقد ننشر أسطورتها قريباً

(١) أورينوس هو السماء ، أبو الآلهة ، فى الميثولوجيا

لقد رأى يوريديس باسطة ذراعيها إليه ، كمن يتلمس طريقه فى الظلام ؛ وحين تراه يلتفت اليها ، فيخل بالشرط الذى عاهد ربها على تنفيذه ، تنثنى من لدنه راجعة أدراجها إلى هيدز . . . متمتمة فى صوت ضعيف خافت : « وداعاً يا أرفيوس » ! ياحبيبى أرفيوس . . وداعاً . . » . فيصرخ المسكين صرخة يكون معها فى هذه الحياة الدنيا ، حياة الشقاء والآلام ! !

ويظل على شاطئ ستيكس سبعة أيام مفجعاً محزوناً . . . يحاول عبثاً أن يعود إلى هيدز . . . ولكن . . . هيهات !

ويدخل الدنيا محطم القلب ، خفق الأحشاء ، موهون القوى . . . لايطيب له عيش ، ولا يسيغ لذة من لذائذها .

ويتخذ مأواه فى شعاف جبل تزمزم الرياح فى جنباته ، وتزمجر الوحوش فى غيرانه ، وتدوى البواشق فى قننه ، ويكون كل أولئك خير صحابه ، ويا ما أعز الرفاق !

***

وتلقاه نسوة ممن اعتدن التخلف اليه فى أيامه المواضى ؛ فيحتلن عليه ليعزف لهن من ألحانه ؛ ولكنه يعزف عنهن ويشيح ؛ ثم يفر منهن ، فيقتفين أثره ، فيمعن فى الفرار ، فيتضايقن ، ويصمينه بسهامهن ؛ ثم يرجمنه بالحصى المسوم ؛ والحجارة الثقال ؛ حتى يموت :

ويسمعنه إذ هو يجود بروحه يقول : « يوريديس . . يوريديس ! »

فتردد الأصداء نداءه الحزين : « يوريديس . . . يوريديس ! »

وماتزال الأشجار والأطيار تهتف إلى اليوم هتاف موسيقارها المغبون : « يوريديس . . . يوريديس ! »

***

وانطلقت روحه البريئة تعبر بدورها ستيكس ، وأشيرون ، وليث ، وكوكيتوس ، وفليجتون . . . فيتلقاه شارون الجبار باسماً هاشاً محيياً . . ويجلسان معاً فى الزروق ، يقصان ذكريات الماضى . . . القريب ! ويتلقاه الكلب عند البوابة ، فيهرول اليه ، ويتمسح به ، وفاء وذكرى ! ويتلقاه بلوتو كذلك ، فيهنئه بالعود . . . إذا كان العود أحمد ! !

أما يوريديس . . . . !

دريني خشبة

البريد الأدبي

رسائل سنت بيف

صدرت أخيراً مجموعة من رسائل سنت بيف العامة، وهي قسم من رسائله التي لم تنشر، والتي تملأ نحو عشرة مجلدات، وتولى إصدارها مسيو جان بونرو مقرونة بمختلف الشروح والبيانات. ومسيو بونرو هو اليوم أعرف الناس بسانت بيف وتراثه الأدبي. ويكفي أن نعرف سانت بيف بكلمة، هي أنه أستاذ النقد في الأدب الفرنسي، ويعتبره بعضهم إمام النقد في جميع الآداب والعصور. وتشمل هذه المجموعة الأولى رسائله العامة بين سنتي ١٨١٨ و ١٨٣٥، وهو بالنسبة لسنت بيف عهد التكوين الأول منذ مقدمه الى باريس صبياً في الخامسة عشرة حتى التحاقه بتحرير مجلة « العالمين » وتوليه باب النقد فيها. وفي هذه الفترة الحافلة درس سنت بيف الطب، وبرز في الصحافة، ونشر كتابه عن الشعر الفرنسي في القرن السادس عشر، وأنجز قسماً عظيماً من رسائله النقدية، وأخرج كتابه عن شعر يوسف ديلورم وروايته «الهيام»، ثم تطورت حياته الأدبية واستقرت حول النقد الأدبي. وفي هذا العهد أيضاً تعرف سنت بيف بأقطاب الأدب في عصره مثل دي فيني ولامرتين وهوجو وبيرانجيه وشاتو بريان، ولكن العلائق الودية لم تطل كثيراً بينه وبين أحد منهم، لأن مهمته كناقد أدبي، وتوغله في ذلك الميدان وصرامته وحدة قلمه، لم تفسح مجالاً لمثل هذه الصداقة الخاصة، وهنا تلقى رسائل سنت بيف أكبر ضوء على هذه العلائق والصداقات، وتبين لنا الى أي حد كان النقادة الأشهر حريصاً على رأيه واستقلاله؛ بيد أنها تكشف عن ناحية أخرى من صفات سنت بيف، فهو لم يكن رقيق الطبع، ولم تكن روحه ترتفع الى مستوى ذهنه من السمو والصقل؛ والواقع أن هذه الرسائل الخاصة ليست مما يؤيد عظمة سنت بيف، وإن كانت تفسر لنا كثيراً من خواص روحه المعقدة؛ ففيها يبدو لنا قليل الكرم، قليل الصراحة، مسرفاً في الحقد؛ ولعله لم يكن لينفذ الى فكر الغير ومواهبه وأسراره إلا لأنه كان كثير الحقد والبغض

ولئن كان سنت بيف بديعاً لا يجارى في تصويره وتحليله للقدماء، فان أحكامه على معظم معاصريه كانت تتأثر في الغالب بعواطفه الشخصية، وليس أدل على ذلك من قسوته في الحكم على الفرد دي فيني، وبلزاك، وشاتوبريان، ولامرتين

ذلك أن سنت بيف كان نكد الروح، وقد كان قبيح الهيئة، وكان في حاجة لأن يحب، وكان رقيق الحاسة، معقد العواطف، ولم يلق نجاحاً في الحب ولا في المكتبة كشاعر وكاتب وقصصي، هذا بينما كانت تحيط به عبقريات سعيدة، محققة الأماني والرغبات، تنعم كتبها تأييد الجمهور. ويروى أنه قال ذات يوم إذ يشاد أمامه بعبقرية دوموسيه: «لست أقل شاعرية منه». ولم يكن سنت بيف يجهل معايبه، بل كان يفطن اليها ويشقى بها، بيد أنه يجب أن نعترف بأنه كان يسمو دائماً بمثله الأعلى كناقد ومؤرخ للآداب، وأنه لم يكن يدخر وسعاً في خدمة هذا المثل باخلاص، وهذا هو السر في عظمة تراثه الخالد

ولعل أهم ما تفصح عنه هذه الرسائل الجديدة لسنت بيف هو علاقته مع فكتور هوجو؛ وقد اتخذت تلك العلائق صورة مأساة حقيقية. والمأساة معروفة؛ ولكن الرسائل تلقي عليها ضوءاً جديداً. وخلاصتها أن سنت بيف وهوجو جمعتهما منذ سنة ١٨٢٧ مدى ثلاثة أعوام صداقة خالصة لم تشبها شائبة، ولكن سنت بيف تغير فجأة. ذلك أنه شعر أنه يهوى امرأة صديقه؛ وهنالك رسالة عجيبة تفصح عن حالة سنت بيف النفسية في أوائل سنة ١٨٣٠، وهي رسالة عنيفة صارمة ينذر فيها سنت بيف بأنه لن يكتب عن رواية « هرناني » التي ستمثل يومئذ، (وهرناني من تأليف هوجو)، وأنه لم يعد يحتمل جو الصداقة والشاعرية الذي يعيش فيه مع أصدقائه مذ تظاهر هوجو بأنه زعيم مدرسة، وغص منزله بالمعجبين والأنصار حتى أصبح مكاناً عاماً، والظاهر أنه قد وقعت بين الصديقين على أثر ذلك محادثة اعترف فيها سنت بيف لصديقه بأنه يحب زوجه. وقد كان هوجو في تلك المسألة جواداً كريم النفس، فاستقبل هجر صديقه بأدب، مؤكداً له أنه سيلقى فيه دائماً أخاً وصديقاً. واعتكف

سنت بيف مستسلماً الى الحقد والأسف والغيرة ، مصوباً سهمه لكل من لقيه فى طريقه ؛ وعكف هوجو على مكاتبته ، يعزيه ويروح عنه ؛ ومضت ثلاثة أعوام ، وسنت بيف ماض فى طريقه ، وكلما التقى الرجلان آنسا تلك المرارة التى غشيت صداقتهما ؛ وأخيراً ألقى سنت بيف قناعه ، وأعلن الخصومة على صديقه ، فاستسلم هوجو للقدر . ولكن الذى لم يكن يعلمه هو أن زوجته كانت تثابر خفية على رؤية سنت بيف فى الأماكن المهجورة ، كالكنائس وغيرها ، وكانت تتنزه معه فى عربة . وما يزال التاريخ يتساءل : هل كانت اديل هوجو زوجا خائنة ؟ والرأى المرجح هو أن اديل كانت تبادل سنت بيف حبه ، ولا سيما منذ سنة ١٨٣٢ ، أى مذ غدا زوجها عاشقاً لجولييت درديه . وقد ضاعت رسائل اديل لسنت بيف ، ولكن سنت بيف كان يحتفظ بصور بعضها ؛ وفيها تتحدث اديل عن حبهما . ولقد أيد لوى بارتو فى كتابه « غرام شاعر » زلة اديل ودلل عليها

وإن فى رسائل هوجو مع ذلك مايدعو حقاً الى التأثر ، فقد لبث يجهل كل شىء مدى أعوام ، وتطبع رسائله الى سنت بيف بســـاطة وثقة ومودة مؤثرة ، فلما ظهرت الحقيقة ووقعت الفضيحة كانت شديدة على نفسه ، ومع ذلك فان اديل هوجو لبثت حيناً بعد ذلك ترى سنت بيف ويحاول أن توفق بين الصديقين القديمين ، وذلك شاهد فى رأى البعض على براءة اديل وطهرها . أكانت تسعى الى مثل هذا الوفاق لو كانت امرأة خؤوناً ؟

(ملخصة عن أميل هريو فى الطان)

للحقيقة والتاريخ

قرأت فى العدد ٨٤ من مجلة الرسالة الغراء مقالاً للكاتب العبقرى الدكتور عبد الوهاب عزام سجل فيه مجلساً من مجالس العلامة الواعية الشيخ الخالدى يذكرنا بالأمالى القيمة التى كان يلقيها فطاحل علماء الاسلام فى عصور مدنيته الزاهرة

وقد لاحظنا فى هـذا المقال ملاحظتين بسيطتين أحببنا ألا يفوت قراء الرسالة التنبه اليهما :

(١) لما عدد الشيخ دور العلم العظيمة بالمغرب وذكر جامع القرويين بفاس قال : (إن الذى أسسه هو مولاى ادريس الأصغر) والحقيقة أن بناء القرويين كان بعـد وفاة المولى إدريس باثنين وثلاثين سنة إذ شرع فى بنائه يوم السبت من شهر رمضان عام خمسة وأربعين ومائتين ، والمولى إدريس الأصغر توفى سنة ثلاث عشرة ومائتين وكان ذلك فى عهد يحيى بن محمد بن إدريس والقائمة بتأسيسه هى السيدة (أم البنين) فاطمة بنت محمد بن أبى بكر الفهرى قدم والدها من القيروان لفاس وتوفى بها وخلف ابنتين فاطمة هذه وأختها مريم ، وأورثهما مالاً كثيراً صرفت فاطمة حظها منه فى بناء القرويين ، وفعلت مريم مثل ذلك فأسست مسجد الأندلس الذى يعتبر من المساجد العتيقة بفاس

(٢) ذكر الشيخ حين نسب كتاب (جذوة الاقتباس) لابن القاضى أنه فشتالى (من فشتالة على نهر ورغة) والمعروف أن مؤلف الجذوة (ابن القاضى) من أولاد ابن أبى العافية المكناسيين ، نسبه لذلك جميع من ترجم له ممن وقفنا عليه ، بل هو نفســه انتسب اليهم فى كتابه لما ترجم لموسى بن أبى العافية أمير مكناسة بعـد أن تبرأ من أفعاله مع الأشراف ونص الغرض من كلامه : « ونسبتنا نحن هى إلى هـذا الرجل أعنى موسى بن أبى العافية والله أعلم ، لكن فعله الذى كان منه لأهل البيت لا أرضاه . . . الخ »

أما كتاب الشريف الكتانى فلا يسمى بالجذوة بل هو (سلوة الأنفاس فيمن أقبر بفاس) وهو للسيد محمد بن جعفر الكتانى الشهير برحلته إلى الشام وإقامته بها والمتوفى بالمغرب منذ بضع سنين

فاس **محمد علال الفاسى**

مجلة الثقافة الاسلامية فى اسبانيا

قالت جريدة « المانشستر غارديان » أن المستر مارماديوك بكثول اعتزل خدمة نظام حيدر أباد وفى نيته أن يعيش فى اسبانيا حيث يواصل تحرير مجلة تصدر كل ثلاثة أشهر تسمى « الثقافة الاسلامية » صدرت منذ عشر سنوات

والمستر بكثول شاعر له مؤلفات كثيرة عن الشرق وكان يعمل فى وزارة المعارف فى حيدر أباد . وقد درس أخلاق الشعوب الشرقية فاقام عاماً فى جبـل الدروز وتعلم العربية . ومال إلى أفكار بعض الشرقيين ودرس عيشة الوطنيين فى مصر وله فيها أعمال قام بها فى مستهل هذا القرن لا تزال سراً من الأسرار

مؤتمر نادى القلم الدولى

من أبناء أسبانيا أن الاستعداد يجرى فى مدينة برشلونة عاصمة قطلونيا لعقد المؤتمر الثالث عشر لنادى القلم العالمى . وسيعقد هذا المؤتمر لمدة ستة أيام بين ٢٠ و ٢٥ مايو القادم . وسيشهده مندوبون من مراكز القلم فى أنحاء العالم . وقد أعد برنامج حافل للأعمال الداخلية ، ومختلف الحفلات والاستقبالات والرحلات

من هنا ومن هناك

العلم والسياسة

كثر حديث الصحف البلجيكية والفرنسية أخيراً عن نظريات العلامة الاقتصادي البلجيكي هنري دي مان ؛ ويعتبر هذا العلامة من أقطاب الاقتصاد السياسي في العالم ، وكان إلى ما قبل عامين يتولى تدريس الاقتصاد السياسي في بعض الجامعات الألمانية ، ولكنه عزل منذ قيام الحكومة الهتلرية ؛ فعاد إلى وطنه يبشر بنظرية جديدة في السياسة ؛ وخلاصة رأي دي مان أن السياسة الدولية الحاضرة تقوم على الاقتصاد ، وأن الأزمة الاقتصادية هي في الواقع أساس كل الانقلابات السياسية العنيفة التي وقعت في العهد الأخير ؛ ولم يكن قيام الفاشستية في إيطاليا ، وقيام الهتلرية في ألمانيا إلا من أثر الأزمة الاقتصادية ؛ وليس هناك وسيلة لحماية النظم الديموقراطية ومقاومة الطغيان أفضل من ترقية الاقتصاد القومي ومقاومة الأزمات الاقتصادية . ولنظريات هنري مان أثر كبير في بلجيكا ، وله نفوذ عظيم في الأوساط الاشتراكية والديمقوقراطية

جوكي يصبح شاعراً

أزيح الستار في وستمنستر مؤخراً بحضور الدوق أوف يورك عن النصب التذكاري الذي أقيم تخليداً لذكرى لندساي جوردن شاعر استراليا القومي

وقد أسهبت الصحف والمجلات بهذه المناسبة في الكلام عن حياة هذا الشاعر ، الذي أسندت اليه أمارة الشعر في أوستراليا بعد موته وبعد حياة عجيبة حافلة بالمغامرات

ولد لندساي في سنة ١٨٣٣ والتحق في شبابه بالمدرسة الحربية في « ودلريتش » وهناك عرف شارلوس غوردون الذي عرف فيما بعد باسم غوردون باشا

وأغرم لندساي بالألعاب الرياضية ، وامتاز في مباريات الملاكمة والسباق وركوب الخيل ، وعند ما بلغ التاسعة عشرة من عمره ركب أحد جياد السباق واشترك به في إحدى المباريات على الرغم من أنف صاحب الجواد ، وفاز بالجائزة الأولى ، ولكن صاحب الجواد كان قد أبلغ الشرطة فألقى البوليس القبض عليه وكانت المدرسة الحربية قد طردته ، وضاق أبوه به ذرعاً ، فرحل الى أوستراليا ؛ ومع أنه كان مزوداً بخطاب توصية الى حاكم أوستراليا الجنوبية إلا أنه لم يستغل هذا الخطاب ، وانضم الى فرقة البوليس الراكب ؛ ولكن حدث في أحد الأيام أن طلب اليه ضابطه أن ينظف حذاءه ، فغضب لندساي واعتقد أنه أهين فترك خدمة البوليس واشتغل (جوكياً) واشترك في كثير من المباريات ، وسقط عن ظهر جواده مراراً وأصيب برضوض أقعدته عن العمل مدة

وفي سنة ١٨٦٤ توفي أبوه ، فورث عنه بضعة آلاف من الجنيهات . وتزوج بابنة فندقي كانت قد عنيت به في مرضه

وفي هذه الأثناء اشتغل لندساي بقرض الشعر ، ونشر ديوانه في سنة ١٨٦٧ ، ولكن الديوان لم يلق رواجاً ، ولم يبع منه أكثر من مائة نسخة ، فغضب لندساي على الشعر كما غضب قبلاً على خدمة البوليس

وفي سنة ١٨٧٠ كان لندساي يعاني أزمة شديدة ، لأن المرض أقعده عن ركوب الجياد ، وماتت ابنته الوحيدة وضاقت الدنيا في وجهه . فقصد الى غاب قريب ، وهناك أطلق الرصاص على نفسه فمات منتحراً وهو لا يزال في السابعة والثلاثين من عمره . ولم يشترك في تشييع جنازته غير بضعة أفراد

ولم تكد جثته توارى في التراب حتى شرع بعض الأدباء في استعراض قصائده . وما لبثت أوستراليا أن وجدت فيه شاعرها القومي . ولا يوجد الآن تلميذ في مدارس أوستراليا لا يحفظ عن ظهر قلبه قصيدته المشهورة (الفارس المريض)

« الجريدة السورية اللبنانية »

ذكرى علامة ألماني

احتفل المعهد العلمي الألماني أخيراً بذكرى العلامة المخترع فرتز هابر الذي توفي منذ نحو عام في برلين ، ودفن في صمت

مطبق . ولهذا الاحتفال الذى يقيمه أعظم معهد علمى فى ألمانيا ، يجمع أقطاب العلم الألمانى كله ، مغزى مدهش . ذلك أن فرتز هابر يهودى تنكره ألمانيا الهتلرية ، وتنكر كل جنسه ، ولكن فرتز هابر هو أيضاً أعظم كيماوى ومخترع ألمانى ظهر فى العصر الأخير ، وهو الذى اخترع « غاز » الحرب الخانق ، وأمد ألمانيا خلال الحرب بأعظم سلاح استطاعت أن تصمد به لخصومها أعواماً ، وقد لبث هابر عميد المباحث الكيماوية الألمانية حتى قام الطغيان الهتلرى فى ألمانيا ، ونظمت مطاردة اليهود المعروفة ، فاعتكف العلامة الشيخ فى شبه اعتقال ، وتوفى بعيداً عن كل تكريم وضجة ، ولكن ألمانيا الهتلرية تحاول اليوم أن تعيد صرح العسكرية البروسية القديمة ، وهى لا ترى اليوم بأساً من أن تكرم ذكرى قطب من أقطاب الاختراعات الحربية ، ولا بأس أن يجتمع أكابر العلماء الألمان برغم النظريات الجنسية لتكريم زميلهم وعميدهم الراحل الذى استطاع أن يستخرج « الآزوت » من الهواء ، وأن يخترع « غاز » الحرب ، وكذلك أقنعة النجاة الواقية من الغاز ؛ وخطب عدة من أكابر العلماء بينهم بعض الرجال الرسميين فى تمجيد ذكرى العلامة الراحل وذكرى وطنيته ونبوغه ؛ وأكد العلامة بلانك والكولونل كيرث أن فرتز هابر يستحق لقب « العالم المجهول » وأنه لولا اختراعاته لما استطاعت ألمانيا أن تتابع الحرب منذ سنة ١٩١٥ ، وذكر الخطباء كيف وفق هابر الى اختراع « الغاز » فى ابريل سنة ١٩١٥ وأشرف بنفسه على أول هجوم استعمل فيه الغاز فى منطقة « ايبر » ؛ وأنه لو لم تقتصد ألمانيا فى حرب « الغاز » لكان ظفرها فى الحرب مرجحاً

ومع أن السلطات الرسمية صرحت باقامة هذا الاحتفال ، فانها حظرت على الصحف أن تنشر عنه شيئاً ؛ ولم يعرف إلا مما نشرته الصحف الأجنبية لمراسليها.

وهكذا تعيش ألمانيا النازنة فى غمر من المتناقضات !

بعثة أثرية فى الهند تعثر على اكتشاف غريب

عثرت بعثة أثرية انجليزية فى الهند على آثار قديمة يرجع عهدها الى خمسة آلاف سنة . وقد تضاربت الآراء فى هذه الاكتشافات الغريبة التى وجدها هؤلاء إذ أنها تتألف من تماثيل متباينة الأشكال والأوصاف

فقد وجد رجال البعثة فيما وجدوه قاعتين كبيرتين تحت سطح الأرض امتلأت الأولى بهيا كل شبان طوال القامة ، والثانية بهيا كل متلاصقة الأجسام من رجال ونساء . فحار المكتشفون فى هذه الهيا كل وظلوا ينقبون ويمعنون حتى عثروا على لوحات كتبها المؤرخون القدماء أماطت اللثام عن سر الغرفتين الذى يعد فى التاريخ أبرز حادث للتبذل والقساوة

وهذه اللوحات تشير الى كاهنة شابة تدعى « لبيسوبامو » كانت تتمتع بنفوذ الملوك والملكات . وهذه الكاهنة كانت محبوبة من الشعب ومقدسة منه

ولكن حدث لسوء الحظ أنها أحبت شاباً من عامة الشعب فحنق أخوها على هذا الشاب وقتله . وغضبت الكاهنة وتبدلت أخلاقها واستحالت من فتاة محتشمة الى امرأة متبذلة ؛ وصارحت أخاها الذى قتل عشيقها الأول دفاعاً عن عرضها بأنها ستقدم نفسها الى كل عابر ، وأنها ستحب الرجال جميعاً وتنتقم منهم جميعاً

ومضت الكاهنة فى حياة التبذل حتى أصبحت فضائحها حديث الناس . وعندئذ خطر لها أن تلتمس الحصانة بايهام الناس أنها ارتفعت الى مصاف الآلهة . ونجحت فى ذلك ، ولم تذكر لنا اللوحات كيف نجحت

ضمت الكاهنة اليها عدداً كبيراً من أجمل البنات أطلقت عليهن اسم « حاشية العذارى » واشترطت عليهن أن يحذين حذوها فى التغرير بالرجال والتنكيل بهم ، وتوعدت بالموت كل فتاة تحب رجلاً وتخلص له

وهكذا كانت الفتيات يرتدين الغلائل الرقيقة التى تكشف عن تقاطيعهن الجميلة وينطلقن فى شوارع المدينة ليلاً لاصطياد الفتيان ، ثم يعدن بهم الى القصر حيث يقضى الجميع الليل كله فى التبذل واحتساء الخمر وتعاطى الأفيون حتى اذا أقبل الفجر وضعت كل فتاة فى كاس فتاها قطرة من سم عجيب لا تذكر بجانبه سموم بورجيا ودى مدسيس ، وبعدئذ يأتى العبيد فيحملون الرجال الى غرفة خاصة يقضون فيها نحبهم قبل أن يفيقوا من نشوة الخمر

وكان يتفق فى بعض الأحيان أن تحب الفتاة أحد أولئك الرجال فتؤثر أن تموت معه ، وتضع السم فى كأسها وكأسه ، فيحمل العبيد الاثنين إلى الغرفة الثانية الخاصة بالعاشقين

ولم تذكر اللوحات التى عثر عليها رجال البعثة كيف كانت خاتمة تلك الكاهنة المتألهة المتبذلة

« الأرز »

من روائع الشرق والغرب

من « شقائق الطور »

لشاعر الهند محمد اقبال

ترجمة الدكتور عبد الوهاب عزام

أيها الفاضل لا تخيّم على الساحل. فهناك نغم الحياة واهنة. اقذف بنفسك فى اليمّ وتقلب مع أمواجه ، فالحياة الخالدة فى هذا الجلاد

لا تحدّث بالحياة وحقائقها ، فلست بصيرا بطرائقها. لقد انتشيتُ من لذة الأسفار، حتى لا أرى المنزل على الطريق إلا كالنار (١)

إن عالمنا الذى لا يُحدّ غريق فى بحر الأيام ، فانظر إلى القلب لترى الأيام غرقى فى هذا الجام (٢)

أنا نجىّ طير المروج الخضراء ، وأنا لسان البراعيم الخرساء ، فاذا متّ فاذرُ ترابى فى الصّبا ، فلستُ أعرف إلا الطواف حول الورد

أيُظهر وادى الأزهار هذا كل كائن ؟ فما الذى فى ضمائر الشقائق المحترقة ؟ نحن نرى المرج موجة من اللون والريح ، فليت شعرى ما المرج فى نظر البلابل ؟

أيها الفيرّ أنت ابن الأسلام ، فاهجر الأنساب والألوان. إذا فخر العربى باللون والدم ، والعصب والجلد ، فليس منا ولسنا منه

لسنا من الأفغان ولا الترك والتتار ؛ نحن بنو هذا المرج ، نمتْنا دوحة واحدة . إنّ فرقة اللون والريح علينا حرام فقد أنبتتنا ربيع واحد

(١) يرى المنزل الذى يريده منارا يرشد إلى منزل آخر وهلم جرا

(٢) يعنى أن القلب صغير كالكأس ولكنه يحوى العالم

لماذا تسألني ما أنا ومن أين أتيت ؟ أنا ابن نفسى منذ حييت . أنا فى هذا اليمّ موج لا يستقر ، فاذا لم أتقلب على نفسى فنيت

إن عالمنا صورة ناقصة ، يتقلب بها الصباح والمساء . أعنى أن مبرد القضاء يسوّى هذه الدمية التى لم تتم

شق طريقك بفأسك ، فالعذاب أن تسلك سبيل غيرك ، إن أبدعت يدك عملا ، فهو ثواب وإن كان إثما

إن دليل القلب لا يطمئن الى المنازل ، ولا تأسره العناصر. لا تحسبنّه مستريحاً فى البدن ، فهذا البحر لا يألف السواحل

أخذت خلوتى بين الماء والطين ، وفررت من الفارابى وأفلاطون . ما اجتديت من أحد عينا ، وما رأيت العالم إلا بعينى

أيها القلب خذ رمز الحياة عن البراعم ، فالحقيقة فى مجازها متجليّة ! إنها تنبت من التراب المظلم ، ولكن نظراتها أشعة الشمس

عبد الوهاب عزام

الوحـــدة

L'isolement

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مهداة إلى الأستاذ . . . . أحمد حسن الزيات

لدى[1] مَسْرحة من فوق قلة شاهق
جلست شريد الفكر منشعب القلب

يشيّع طرفي الشمس عند دلوكها … ويرقب من تلك المشاهد ما يصبي

إذِ النهر صخابٌ تلاطم موجه !
قد انساب في الوادي فأمعن في الشِّعب

وإذْ طرفُ أمواج البحيرة راقدٌ … تراءى نجوم الليل في غمرها الرحب

ومازال ذوبُ التبر بعد غروبها
يُنيرُ أعالي الدوح فوق ذرى الهضْبِ

وراح مليك الليل يختال صاعداً … إلى عرشه العلويّ في رفرفٍ رطب

وفي جنبات الأرض تبر مشعشع … به ازدهر الأفق الجميل من السكب

وقد رَنّ في الأجواء ناقوس معبدٍ … رنيناً يهز القلب في البعد والقرب

فكف عن الأعمال فلاح قريةٍ ..! … وقد وقف الغادون من خشية الرب

قد اختلطت تلك الأرانين بالذي … تَبَقّى من الضوضاء في يومنا المصبي

ولكن نفسي من مباهج ما رأتْ … من المنظر الفتّان خلو من الحب !!

أجل ! كانت الدنيا بعيني كأنها … خيالٌ مطيفٌ لا يقر على هُدْب

وهل تدفئ الموتى من الشمس شعلة
تشع على الأحياء في السهل والكُثْب ؟

أقلب طرفي في الجبال وفي الربى
وفي الشفق الباكي من الشرق للغرب !!

وفي القفر، والمأهول، في غسق الدجا … لأنفض ما فيها ؛ فابلغ من إربي

عسى أن أرى لي في محلٍّ سعادةً … ولست بلاق أو أغيّب في الترب

وما تصنع الوديان لي ، وجواسق … على السفح بل تلك القصور التي تصبي

إذا هي لا تبدو لعيني جميلة . . . … ولا سحرها ينفي بفتنته كربي !!!

ألا يا مغاني الأنس أنت عزيزة … علي ، ولكن قد خلوتِ من صحبي

لغيبة مخلوق مدى الدهر واحد … أراك قفراً في عيوني ، وفي قلبي

سواء أتبدو الشمس أم هي تختفي … وتصحو سماء .. أم تلفّعُ بالسحب

ويظلم ليل .. أم ينير صباحه … ويسعد أو يشقى أنيس مع السرب

فليس لنفسي في نهاريَ بغية … ولا في غدي ما دمت أحيا بلا لب

ولست أرى إذ أتبع الشمس ناظري … تدور على الأكوان في أفقها الرحب

أجل لا أرى إلا فراغاً وخلوةً … لنأي حبيب ليس يلوي لدى الترب

وما حاجتي فيمن تظلله السما
ومن تحت نور الشمس يهتز كالقضْب

وخلف مدار الشمس شمس مدارها … على عالم أسمى تمنع بالحجب ..!!

فلو أن نفسي أطلقت من قيودها … لألفت حبيب القلب يحيا مع الشهب

فأسعد باللقيا ، وأنعم بالمنى
وأحسو رحيق الخلد من ريقها العذب

لدى مُتَع لم تهف يوماً بمسمع … ولا خطرت في فكر ذي شغف صب

وأنّى لنفسي أن تطير فنلتقي .. … وقد قُيدت من حمأة الطين بالجذب

فياليت شعري لِمْ قضى الله أن أُرى … شريداً ؛ وخلي ليس ينعشه قربي

إذا ما ذوت أوراق دوح بمرجها … وأسلمها قر الخريف إلى السَّلب

وهبّت من القطب الرياح زعازعاً … عليها فألقتها أباديد في الترب

وحالي شبيه في حياتي بحالها … فياويح نفسي من زعازعها النكب

ألا فانثريني يا أعاصير مثلما … نثرت من الأوراق في جوك الرحب

فما بعد هذا الصبح إلا دجنّة … وما بعد يأسي وانفرادي سوى خطبي

دير الزور — عبد الجبار الرحبي

[1] نظمتها عن ترجمة الاستاذ الزيات في العدد ٨١ من الرسالة

الكتب

علم الدولة: تأليف الأستاذ احمد وفيق
أبو تمام: تأليف عمر فروخ

للأستاذ محمود الخفيف

أما أولها وهو علم الدولة، فهو الجزء الثانى من تلك الموسوعة الكبيرة التى اضطلع بتأليفها وإهدائها إلى لغة الضاد الأستاذ أحمد وفيق؛ ولعل القراء يذكرون أنى حين قدمت اليهم الجزء الأول منها أشرت إلى خطر هذا المؤلف الجليل لمصر والعالم الشرقى، ولا سيما فى هذا العصر الذى تشغل السياسة فيه عقول بنى الشرق فى توثبهم وتطلعهم إلى الحرية

ومما نغتبط له بحق، وقد طال افتقارنا فى نهضتنا العلمية إلى هذه الناحية من نواحى المعرفة، أن الأستاذ قد جرى فى هذا المؤلف على طريقة البسط والعرض تعقبهما المناقشة والتحليل؛ فهو يستوعب هذا العلم ويلم بأطرافه، لا يغادر شيئاً مما قيل فيه، فضلاً عن أنه يسير فى سرده مع التاريخ فينقلك من عصر إلى عصر ويريك مبلغ ما طرأ على نظريات هذا العلم من تطور حسبما مرت فيه من عصور. وهو إلى جانب هذا يقف عند كل نظرية مبيناً لك مادار حولها من المناقشات ومقدار ما لاقت من تأييد أو تفنيد

أقول إن هذه الطريقة التى سار عليها الأستاذ المؤلف هى ميزة الكتاب الأساسية، وإن كان فى القراء سواى من قد يعيبها، إذ يستحضر فى ذهنه تلك الكتب التى وضعت فى هذا العلم فى غير لغتنا وكان قوامها التخصص والاستقصاء والتعمق، فالعالم هناك يتناول ناحية خاصة من جزئيات العلم ويعرضها فى تحليل ودقة وتقص، مما يفتق الذهن ويرهفه ويلذه، ولكننا الآن أو على الأقل كثرتنا، لم نتعد بعد مرحلة الألمام والاستيعاب. وخير ما يعمله المؤلف فى هذه الحالة أن يعرفك إلى العلم؛ حتى إذا تم لك ذلك أمكنك أن تتابع فيه من يتفلسف ويتقصى

وقف الجزء الأول من هذا الكتاب عند عهد الأصلاح، فابتدأ به الجزء الثانى الذى أحدثك عنه، واختتم بالثورة الفرنسية، وهى فترة لذيذة ممتعة بما تخللها من مواقف وحوادث كان لها أعظم الأثر فى تطور فكرة الدولة؛ وحسبك من تلك الحوادث الثورة الفرنسية الكبرى، وما مهد لها به كبار الفلاسفة من آراء فى هذا الموضوع الخطير

هذا ولقد ارتحت كثيراً الى اسلوب الأستاذ وفيق لملاءمته لطريقته، فهو يتدفق من غير التواء ولا تعقيد، ويتبسط فى غير حشو ولا إسفاف

* * *

والكتاب الثانى عبارة عن رسالة صغيرة موضوعها أبو تمام، شاعر الخليفة محمد المعتصم بالله، ويقع فى مائة صفحة من القطع الصغير، صدره مؤلفه الأديب عمر فروخ بصورة خيالية للشاعر بريشته، وهو على صغر حجمه، قد جمع كثيراً مما يهم كل أديب معرفته عن أبى تمام، ولقد كان صاحبه موفقاً فى تقسيم موضوعه، فابتدأ بالترجمة مبيناً حياة الشاعر عهداً عهداً، ولا يخفى على القارىء أثر ذلك فى المساعدة على تفهم شعره. بعد ذلك أخذ يشرح خصائص أبى تمام وما امتاز به من غيره، وعرض أقوال المخالفين له والمعجبين به، ثم ختم بحثه بنقد فنون الشاعر، جاريا فى ذلك وفق ما اصطلح عليه النقاد، دون أن يحول ذلك بين إدلائه برأيه فى دقة وانصاف جديرين بالثناء، فأفاض فى نقد مدح أبى تمام وموقفه من ممدوحيه، ثم بسط طريقته فى الرثاء ومكانته فى هذا الباب، وتعرض لقدرته فى الوصف مستشهدا فى ذلك كله بأبياته المشهورة محللاً لها مبينا رأيه فيها مما يشهد المؤلف بحسن الذوق، ويكسب رسالته على الرغم من صغرها كثيرا من الثناء والتقدير

الخفيف

3 me Année, No. 89.

Lundi-18-3-1935

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ في مصر والسودان

٨٠ في الأقطار العربية

١٠٠ في سائر الممالك الأخرى

١٢٠ في العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع شركة الفجر

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع البدولي رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٣٣٩٠

العـــدد ٨٩ « القاهرة في يوم الاثنين ١٣ ذي الحجة سنة ١٣٥٣ — ١٨ مارس سنة ١٩٣٥ » الســنة الثالثة

فهرس العـــدد

بلاد الشكوى!

للأستاذ عبد العزيز البشرى

لقد تحدثك نفسُك يوماً بأن تتعرّف الصفةَ التى تميّز مصرَ من بين بلاد العالم ، والتى إذا أُطلقت انطلقت من فورها إليها دون أقطار الأرض جميعاً . وإن مما لا يعتريه الشك أنه ما من أمة إلاّ ولها خاصيّة تستقلّ بها عن كل ما عداها من الأمم ، لا يَشرَكها فيها غيرها ولا يتّصف بها سواها ، وهذه الخاصية لقد تتصل بالأخلاق والعادات والتقاليد ، ولقد تتصل بالتاريخ ، ولقد تتعلّق بالتصرف فى سبب من أسباب الحياة ، أو بالاستئثار بالتبرز فى فن من الفنون ، أو بغير ذلك من وجوه الفروق المختلفة بين أصناف الناس ، فاذا قُدر المستحيل ، أو قُدر النادرُ الذى يجاور المستحيل ، ولم تتفرّد إحدى الأمم بما يشخّصها من تلك الأسباب الكثيرة ، فلا أقلّ من أن تختص فى طبيعة أرضها وسمائها ، وجوها ومناخها ، بما يحقّق لها هذا المعنى حتى يتّسق لها هذا الوجود الخاصّ فلا تختلط بغيرها من العالمين . وتلك من سنن الكون التى لا يشذ عليها خَلق من الكائنات أبداً !

ونعود فنفرض أنه لقد تحدّثك نفسُك بتعرّف هذه الخاصيّة

3 me Année, No. 89. — Lundi-18-3-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع شركة الفجر

العـــدد ٨٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٣ ذى الحجة سنة ١٣٥٣ — ١٨ مارس سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

بلاد الشكوى !

للأستاذ عبد العزيز البشرى

لقد تحدثك نفسُك يوماً بأن تتعرّف الصِّفةَ التى تميّز مصرَ من بين بلاد العالم ، والتى إذا أُطلقت انطلقت من فورها إليها دون أقطار الأرض جميعاً . وإن مما لا يعتريه الشك أنه ما من أمة إلاّ ولها خاصيّة تستقلّ بها عن كل ما عداها من الأمم ، لا يَشرَكها فيها غيرها ولا يتَّصف بها سواها ، وهذه الخاصية لقد تتصل بالأخلاق والعادات والتقاليد ، ولقد تتصل بالتاريخ ، ولقد تتعلّق بالتصرف فى سبب من أسباب الحياة ، أو بالاستئثار بالتبريز فى فن من الفنون ، أو بغير ذلك من وجوه الفروق المختلفة بين أصناف الناس ، فإذا قُدر المستحيل ، أو قُدر النادرُ الذى يجاور المستحيل ، ولم تتفرّد إحدى الأمم بما يشخّصها من تلك الأسباب الكثيرة ، فلا أقلّ من أن تختص فى طبيعة أرضها وسمائها ، وجوها ومناخها ، بما يحقّق لها هذا المعنى حتى يتّسق لها هذا الوجود الخاص فلا تختلط بغيرها من العالمين . وتلك من سنن الكون التى لا يَنشز عليها خَلق من الكائنات أبداً !

ونعود فنفرض أنه لقد تحدثك نفسُك بتعرّف هذه الخاصيّة

التى تتفرّد بها مصر دون سائر أمم الأرض . ولعل أول ما ينحطّ غليه ظنّك أنها بلادٌ زراعيّة طوعاً لسخاء أرضها بألوان الغلاّت ، ومهارة سواد سكانها فى فنون الزراعة وفلح الأرض وحسن تعهدها ، واستنباتها على خير الوجوه . إلى أن أهلها ، فى الجملة ، لا يتكئون على سبب من أسباب العيش التى يتكئ عليها كثير غيرهم ، كالتجارة ، والصناعة ، وصيد البحر أو البرّ ، فاذا هى عالجت شيئاً من هذا فانما تعالجه بالقدر الذى ينتظمها فى مؤخرات الصفوف ! إذا ميّزتَها بأنها أمة زراعيـة ، فالأمم الزراعية فى العالم كثير !

ثم إنها ليس لها حظ مذكور من علم ، ولا من فن ، ولا من قوة بدنية ، ولا من امتياز فى كفاية حربية ، ولعل هذا يرجع إلى ظروفها التى لا خيار لها فيها لا إلى طبيعة أبنائها ، فالمصرىّ معروف بالشجاعة فى الحرب ، وطول الصبر فيها ، وشدة الجلَد عليها من قديم الزمان . ومهما يكن من شىء فليس لمصر الآن حظ مذكور فى شىء من تلك الأشياء ، فضلاً عن أن يكون لها به تفرّد واستئثار ، بحيث إذا أُطلقت صفته عرف الناس أن مصر هى المقصود به دون سائر البلاد

ولقد تطلب هذه المزية فى تاريخ مصر القديم ، وحضارتها التالدة ، وما سلف لها من مجد ما برح يُثقل مناكب التاريخ . ألا فاعلم أن مصر لا تستأثر بهذا ولا تستقل به ، فهـذه الصين لها حضارة لعلها أقدم من حضارة مصر ، وهـذه أمة اليونان وما أدراك ما حضارة اليونان ، وعلومها ، وفلسفتها ، وفنونها ، وعظمتها الحربية . ومجدها الذى طاول السماء . فانظر إلى ما صارت إليه الآن ، وكيف تغيّر لها وجه الزمان !

وهذه أمم لقد كانت لها حضارات فخمة ، وكانت لها قوة لا تعـدِلها قوة ، وسطوة فى أمم الأرض دونها كل سطوة ، فدارت عليها رحى الزمان حتى طحنتها طحناً ، وأحالتها فى الخلق رِعهنا ، ثم ذرّتها فى الهواء ، ولم يُصبح لها من الآثار ، إلاّ ما قيدت الصحف من مأثور الأخبار . وأين منا الآن فينيقيا وشور وبابل وغيرها من دول لم يدرك شأنها شان ، ولم يُدانِ سلطانها فى الأرض سلطان ! . ومهما يكن من شىء فالوصف بعظمة الماضى ، وجلالة التاريخ ، وفخامة المجد التليد ، ليس مما يجدى المصريين فى هذا الباب ولا يُفيد !

* * *

أرجوك ياسيدى الطُّلعة ألاّ تَجهد بطول البحث والتحرى ، وشدة الفحص والتقرى ، فانك ، فى الغاية ، لن تخرُج بشىء من هذه المظان التى ترجو أن توافقك فيها طِلبتك ، ولن تُصيب لمصر فى هذه الأيام من الصفات ما يقع عليها على جهة التعيين ، ولو فتشت نجوم السماء ، ونقضت كل ما على ظهر الأرض من الحصباء !

على أننى متبرع ، لوجه الفضول وشهوة التطلع ، بأن أهديك إلى الخلة التى تختص بها مصرُ فى هذا الزمان وتستأثر ، بحيث لا يشاركها فيها مشارك ، ولا ينازعها عليها منازع . وبحيث لو حُشرت الخلائق كلها فى صعيد واحد ؛ وبُعث معهم كل من لحقهم الدثور ، وجميع من غيبتهم القبور ، ومن نهشتهم وحوش البر ، وسباع الطير ، والتقمتهم الحيتان فى جوف البحر ، من مهلك عاد وثمود ؛ ومقتل أصحاب الأخـدود ، وصحْت فيهم أىُّ الأمم الآن صِفتها كيت ؟ لأجابوك فى نفَس واحد : هى مصر !

وهذه الخلة التى تمتاز بها مصر اليوم وتنفرد دون سائر أمم الأرض جميعاً هى **الشكوى ! نعم هى الشكوى !** . وإننى أتحدى من شاء ، وأخاطر من شاء على ما شاء ، إذا زعم أن هناك أمة أشكى من مصر ، أو أن هناك خلقاً من خلق الله يشكون بنسبة $\frac{1}{800000}$ مما يشكو المصريون !

كل هيأة فى مصر تشكو ، وكل طائفة فيها تشكو ، وكل جماعة تشكو ، وكل فرد يشكو . ما تنقطع لأحد من هؤلاء شكوى ما عاقب الليلُ النهار ، حتى لو قُيِّض لعالم مخترع مثل السنيور مركونى أن يُحيـل جميع المصريين إلى معنى من المعانى ، لاستحالوا إلى شكوى يطن فى الآفاق طنينها ، ويئن فى الأجواء أنينها ، حتى لو كانت ملائكة السماء خلقاً مثلنا ، يجرى عليهم ما يجرى علينـا من الضجر والقلق ، ويُدركهم ما يدركنا من السهر والأرق ، لقضوا من شدة هُتاف شكوانا آلاف الأعوام لا تذوق جفونهم الغُمضَ ولا يزور عيونهم المنام ! . ولـكنهم ، لحسن حظهم ، أيقاظ على الدهر ، ما يهفو بهم التعب إلى هجعة ، ولا يضطرهم النَّصب إلى هجعة !

لا ترى أحداً فى مصر إلاّ يشكو ، ولا تنقطع له شكوى على الزمان : هؤلاء الموظفون ! أرأيتهم قد انقطعوا يوماً واحداً عن شكواهم ، وبث مظلمتهم وعظيم بلواهم ؟ . الدرجات الدرجات !. العلاوات العلاوات ! . الترقيات الترقيات ! . ارفقى يا حكومة ما حل بنا من حيف ، فقد حبست عنا علاوات الشتاء ! وأبطأت علينا فى علاوات الصيف !

وهؤلاء الحجاب والسعاة ، لا تراهم يدعون كل يوم إلا بالويل والثبور ، وعظائم الأمور ، لأنهم أكثر خدام الحكومة تعباً ، وأحقرهم مرتباً ، وهيهات أن تفى بضعة الجنيهات ، بما يزحمهم من وجوه المطالب فى وجوه الحاجات ، وقد أثقلتهم النفقة على الأهل والولد ، بعد ما عم الغلاء هذا البلد ، ولو كانت الحكومة على شىء من الانصاف ، لزادت مرتباتهم أضعافاً على أضعاف !

وهؤلاء رجال البوليس لايفتأون يشكون الظلم اللاحق ، والجور الحائق ، فأعمالهم ثقيلة ، ومهماتهم جليلة ، ومع هذا فمرتباتهم قليلة ، وعلاواتهم ضئيلة ، ودرجاتهم هزيلة . والترقية الى الدرجات مما يحتاج الى طىّ الأحقاب ، ودون ذلك مَشيب الرجل بل مشيب الغراب ! وهذا والله ما لا ينبغى أن يعامَل به حَفظة النظام ، ومن يضحون براحتهم وأرواحهم فى إقرار الأمن والسلام !

أما معاونو الادارة ، فلا تسكن لهم شكوى . تارة بتقديم (العرائض) وعلى ألسنة الصحف تارة !

ورجال القضاء أهليّهُ وشرعيّهُ ، لا يفتُرون عن المطالبة بتعديل (كادر) الدرجات ، وتحسين نظام العلاوات ، حتى يتسق ما يتقاضون من الرواتب ، لما يتقلدون من رفيع المناصب ، ولا شك أن من أشد الاجحاف ، أن تسوم الظلمَ من تَقتَضيه القيام على العدل والانصاف

وهؤلاء حَملة الشهادات ممن لم تستخدمهم الحكومة فى مناصبها ، هيهات أن تبطُل لهم شكاية ، أو تَفتُر لهم دعاية ؛ فاذا استُخدموا استأنفوا الشكوى من قلة الراتب ، وسألوا الحكومة أن تمنحهم من الدرجات ، ما يكافىء ما أحرزوا من عليا الشهادات !

أما المعلمون فى التعليم الأولى بجميع ضروبه وأشكاله وألوانه ، فهؤلاء لاينقطع لشكاياتهم مَدَد ، ولا يحصيها عدد ، فهم كل يوم يُمطرون المعارف (بالعرائض) امطاراً ، ويرسلون منها على الصحف وابلاً مدراراً . حتى أضحى المرء لايشق صحيفة يومية أو مجلة أسبوعية ، أو شهرية ، إلا رأى الشكايات تنفذ اليها من كل أقطارها ، وتجرى فى جميع أنهارها ، وحتى أصبح خلوّ صحيفة واحدة من ذلك مما يثير الرِّيب ، ويدعو الى أعجب العجب !

هذا بعض ما يكون من الموظفين ، أما التلاميـذ وأولياء التلاميـذ ، ففى كل يوم شكوى من ضيق المدارس بالوافدين ، ومن المصروفات المدرسية ، ومن رسوم الامتحانات العامة ، ومن صعوبة أسئلة الامتحان ، ومن الدرجات التى تشترط للدخول فى امتحانات الملاحق ، وهكذا مما لايبرح يَطنّ فى الآذان ، ما تعاقب المَلَوان ، وطويت صحائف الزمان !

***

والأهلون الأهلون ! لاترى بلداً فى بلاد القطر كله إلا يشكو بعضُ أهله ، على الأقل ، من عمدته ، ويُسرف فى اتهامه بالظلم والجور ، وايثاره الهوى فى معاملة الناس ، وغفلته عن صيانة الأمن ، ومصانعته لسرّاق الليل . وهكذا . فاذا لم تنفذ التهم اليه من أىّ باب ، طلبوا ازالته لأنه (فقد النصاب) ! وحسبك أن تزور يوماً وزارة الداخلية لترى من هذه العجب العجاب !

وهذا النيل إذا أقبل ، فهل تسمع من أى بلد إلا مُوجِع الشكوى . من احتباس الماء عن الأرض حتى عم الشرق ، أو أن الماء طغى على الزرع حتى غمر الساق والورق !

وهؤلاء الأزواج يشكون الزوجات ، وهؤلياء الزوجات لا ينين عن شكاية الأزواج ، وهؤلاء آباء يقاضون الأبنـــاء ، وأبناء يَستَعدُون القضاء على الآباء ! . وحسبك أن تطوف يوماً ببعض محاكم الشرع لتستيقن أن الحياة العائلية فى هذه البلاد قد تصدّعت أركانها ، وتداعى بنيانها ، وأنها عما قليل ستحُور أطلالاً بالية ، وأنقاضا من بَنِيّات الأمم الخالية ! .

ولا تنس الأحزاب واتهامها الحكومات بسوء الحكم وُخلف الوعود ، وشكوى الحكومات مما يقابَل به ما تبذل من الجهود ، من النكران وشدة الجحود ! .

(البقية فى أسفل الصفحة التالية)

عروس تزف الى قبرها

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

— ١ —

كان عمرُها طاقةَ أزهارٍ تسمى أياماً

كان عمرُها طاقةَ أزهارٍ يَنتسِقُ فيه اليومُ بعد اليوم كما تَنبتُ الورقةُ الناعمةُ فى الزهرة الى ورقةٍ ناعمةٍ مثلها

أيامُ الصبيِّ المَرِحةُ حتى فى أحزانِها وهمومِها ؛ إذ كان مجيئُها من الزمن الذى خُصَّ بشباب القلبِ ، تبدو الأشياءُ فى مَجارى أحكامِها كالمسحورة ؛ فان كانت مُفرِحةً جاءت حاملةً فرحَيْن ، وإن كانت محزِنةً جاءت بنصف الحزن

تلك الأيامُ التى تعملُ فيها الطبيعةُ لشباب الجسم بقُوًى مختلفة ، منها الشمسُ والهـواءُ والحركةُ ، ومنها الفرحُ والنسيانُ والأحلام !

***

وشبتْ العذراءُ وأُفرِغتْ فى قالب الأنوثةِ الشمسىِ القمرى ، واكتسى وجهُها ديباجةً من الزَّهَر الغَضِّ ، وأودعها الطبيعةُ سِرَّها النسائىَّ الذى يجعلُ العذراءَ فنَّ جمالٍ لأنها فنُّ حياة ، وجعلتها تِمثالا للظَّرف ؛ وما أعجبَ سِحرَ الطبيعةِ عند ما تجمِّلُ العذراءَ بظرفٍ كظرف الأطفال الذين ستلدُهم من بَعد ! وأسبغَتْ عليها معانىَ الرقة والحنانِ وجمالِ النفس ؛ وما أكرم يدِ الطبيعة عند ما تُمْهِرُ العذراءَ من هذه الصفات مَهرَها الانسانى !

***

ونُخطبت العذراءُ لزوجها ، وعُقد له عليها فى اليوم الثالث من شهر مارس فى الساعة الخامسة بعد الظهر

وماتت عذراءَ بعد ثلاث سنين ، وأُنزِلتْ الى قبرها فى اليوم الثالث من شهر مارس فى الساعة الخامسة بعد الظهر !

وكانت السنواتُ الثلاثُ عُمْرَ قلبٍ يُقطِّعُه المرض ، يتنظرون به العُرْس ، وينتظر بنفسه الرَّمْس !

يا عجائبَ القدَر ! أذاك لحنٌ موسيقىٌّ لأنينٍ استمر ثلاثَ سنوات ، فجاء آخرُه موزوناً بأوّله فى ضبطٍ ودقة ؟

أكانت تلك العذراءُ تحملُ سرًّا عظيما سيُغيِّر الدنيا ، فردَّت الدنيا عليها يوم التهنئةِ والابتسامِ والزينة — وهو يوم الوَلْوَلة والدموع والكفن ؟

— ٢ —

واهاً لك أيها الزمن ! مَن الذى يفهمك وأنت مُدةٌ أقدار ؟ واليومُ الواحدُ على الدنيا هو أيامٌ مختلفةٌ بعدد أهل الدنيا جميعاً ، وبهذا يعود لكل مخلوقٍ سرُّ يومِه ، كما أن لكل مخلوق سرَّ روحِه ، وليس اليه لاهذا ولا هذا

وفى اليوم الزمنىِّ الواحد أربعمائةِ مليون يوم إنسانىّ على الأرض ؛ ومع ذلك يُحصيه عقلُ الانسان أربعاً وعشرين ساعة ؛ يا للغباوة . . . . !

وكلُّ إنسان لايتعلّق من الحياة إلا بالشعاع الذى يُضىءُ المكانَ المظلمَ فى قلبه . والشمسُ بما طلعَت عليه لا تستطيع أن تنير القلبَ الذى لايضيئُه إلا وجهٌ محبوب

وفى الحياة أشياءُ مكذوبةٌ تكَبِّر الدنيا وتُصغِّر النفس ، وفى الحياة أشياء حقيقية تَعْظم بالنفس وتَصغُر بالدنيا ؛ وذَهبُ الأرض كلُّه فقرٌ مُدْقِعٌ حين تكون المعاملة مع القلب

أيتها الدنيا ؛ هذا تحقيرك الآلهىُّ إذا أكبركِ الانسان !

***

ويا عَجبا لأهل السوء المغتَرّين بحياة لابدَّ أن تنتهى ! فماذا يرتقبون إلا أن تنتهى ؟ حياةٌ عجيبةٌ غامضـة ؛ وهل أعجبُ وأغمضُ من أن يكون انتهاءُ الانسان الى آخرها هوأوّلُ فكرهِ فى حقيقتِها ؟

فعند ما تَحينُ الدقائقُ المعدودةُ التى لا ترقُمُها الساعةُ ولكن يرقمها صدرُ المُحْتَضَر . . . عند ما يكون مُلْكُ

ولو قد ذهبتُ أسرد لك جملةَ الشاكين والشاكيات ، والباكين على سوء حالهم والباكيات ، لما اتسعت صحائف (الرسالة) ، لاستيعاب هذه المقالة

ومهما يكن من أمر ، فلعلك قد اقتنعت الآن بأن أصدق وصف لمصر فى هذا العصر ، وأن أدق تعريف ينطبق عليها دون سائر الأمم هى أنها بلاد الشكوى !

ولعلنا نوفق قريبا الى إتمام المقال ، بالبحث عن علة هذه الحال م؟

عبد العزيز البشرى

الملوكِ جميعاً كالتراب لا يشترى شيئاً البتَّة . . . .

. . . ماذا يكون أيها المجرم بعد ما تقترفُ الجناية ، ويقومُ عليك الدليل ، وترى حولك الجند والقضاة ، وأمامك الشريعة والعدل ؟

***

أعمالنا فى الحياة هى وحدها الحياة ، لا أعمارُنا ولا حظوظنا . ولا قيمة المال ، أو الجاه ، أو العافية ، أو هى معاً — إذا سُلبَ صاحبها الأمنَ والقرار ! والآمِنُ فى الدنيا من لم تكن وراءه جريمةٌ لا تزال تجرى وراءه . والسعيدُ فى الآخرة مَن لم تكن له جريمة تُطارِدُه وهو فى السموات

كيف يمكن أن تخدعَ الآلةُ صاحبها وفيها (العدَّاد) ، ما تتحرّكُ من حركةٍ إلا أشعَرَته فعدَّها ؟ وكيف يمكن أن يكذِبَ الانسان ربَّه وفيه القلب ؛ ما يعمل من عملٍ إلا أشعره فعدَّه ؟

— ٣ —

ورأيتُ العروسَ قبل موتها بأيام

أفرأيت أنتَ الغِنىَ عندما يُدبِرُ عن إنسان ليتركَ له الحسرةَ والذكرى الأليمة ! أرأيتَ الحقائق الجميلة تذهب عن أهلها فلا تتركُ لهم إلا الأحلامَ بها ؟ ما أتعبَ الانسانَ حين تتحوَّل الحياةُ عن جسمه الى الاقامة فى فكره !

وما هى الهمومُ والأمراض ؟ هى القبر يستبطىء صاحبه أحياناً فينفض فى بعض أيامه شيئاً من ترابه . . . !

رأيتُ العَروس قبلَ موتها بأيام ، فيالله من أسرار الموت ورهبتها ! فرَغَ جسمُها كما فرغتْ عندها الأشياءُ من معانيها ! وتخلّى هذا الجسم عن مكانه للرُّوح ، تظهرُ لأهلها وتقفُ بينهم وقفةَ الوَدَاع !

وتحوَّل الزمنُ إلى فكرِ المريضة ؛ فلم تعُد تعيشُ فى نهارٍ وليل ، بل فى فكرٍ مضيءٍ أو فكرٍ مظلم !

يا إلهى ، ما هذا الجسمُ المتهدِّم المقبلُ على الآخرة ؟ أهو تمثال بَطَلَ تعبيرُه ، أم تمثالٌ بدأ تعبيرُه ؟

لقد وثقتْ أنه الموت ، فكان فكرها الالهىّ هو الذى يتكلم ؛ وكان وجهُها كوجه العابد ؛ عليه طَيفُ الصلاة ونورُها . والروحُ الانسانية متى عبّرت لا تعبر إلا بالوجه

ولها ابتسامةٌ غريبةُ الجمال ؛ إذ هى ابتسامةُ آلامٍ أيقنتْ أنها مُوشِكةٌ أن تنتهى ! ابتسامةُ روحٍ لها مثلُ فَرحِ السجين قد رأى سجّانه واقفاً فى يده الساعة ، يرقبُ الدقيقة والثانية ليقول له : « إنطلِق ! »

***

ودخلتُ أعودُها فرأتْ كأننى آتٍ من الدنيا . . . ! وتنسَّمتْ منى هواءَ الحياة ، كأننى حديقةٌ لا شخص !

ومَن غيرُ المريض المُدنف ، يعرف أن الدنيا كلَّها ليس لها معنىً أبداً إلا العافية ؟ من غيرُ المريضِ المشفِى على الموت ، يعيش بقلوب الناس الذين حوله لا بقلبه ؟

تلك حالةٌ لا تنفع فيها الشمسُ ولا الهواءُ ولا الطبيعةُ الجميلة ، ويقوم مقامَ جميعها للمريض أهلُه وأحبّاؤه !

وكان ذَوُوها من رهبة القدر الدانى كأنهم أسرى حربٍ أُجلسوا تحتَ جدارٍ يريد أن ينقض ! وكانت قلوبهم من فزعها تنبضُ نبضاً مثلَ ضربات المعاول

وباقتراب الحبيب المحتَضَر من المجهول ، يُصبح من يحبُّه فى مجهولٍ آخر فتختلط عليه الحياةُ بالموت ، ويعود فى مثل حيرةِ المجنون حين يُمسكُ بيده الظلَّ المتحرِّكَ ليمنعه أن يذهب ! وتعروه فى ساعة واحدة كآبةُ عمرٍ كامل ، تُهيِّئُ له جلالَ الحس الذى يشهد به جلالَ الموت !

***

وحانت ساعةٌ مالا يُفهَم ، ساعةُ كلِّ شئ ، وهى ساعةُ اللاشىء فى العقل الانسانى ! فالتفتتْ العروسُ لأبيها تقول : « لاتحزنْ ياأبى . . . » ولأمها تقول : « لا تحزنى ياأمى . . . ! »

وتبسمتْ للدموع كأنما تحاول أن تكلمها هى أيضاً ؛ تقول لها : « لاتبكى . . . ! » وأشفقتْ على أحيائها وهى تموت ، فاستجمعتْ روحَها ليبقى وجهها حياً من أجلهم بضع دقائق !

وقالت : « سأغادركم مبتسمةً فعيشوا مبتسمين ، سأتركُ تذكارى بينكم تذكار عروس ! . . . »

ثم ذكرت الله وذكرتهم به ، وقالت : « أشهد أن لا إله إلا الله » وكررتها عشرا ؛ وتملأت روحها بالكلمة التى فيها

نور السموات والأرض ، ونطقت من حقيقةِ قلبها بالاسم الأعظم الذى يجعل النفس منيرةً تتلألا حتى وهى فى أحزانها

ثم استقبلت خالق الرحمةِ فى الآباء والأمهات ! وفى مثل إشارة وداع من مسافر انبعث به القطار ، ألقت اليهم تحيةً من ابتسامتها ، وأسلمت الروح !

— ٤ —

يا لعجائب القدر ! مشينا فى جنازة العروس التى تُزفُّ إلى قبرها طاهرةً كالطفلة ولم يباركْ لها أحد ! فما جاوزنا الدار إلا قليلاً حتى أبصرتُ على حائطٍ فى الطريق ، إعلاناً قديماً بالخط الكبير الذى يصيح للأعين ؛ إعلاناً قديماً عن رواية هذا هو اسمها : « مبروك . . . ! »

واخترقنا المدينةَ وأنا أنظر وأتقصى ، فلم أرَ هذا الاعلان مرةً أخرى ! واخترقنا المدينة كلها ، فلما انقطع العمرانُ وأشرفنا على المقبرة ، إذا آخر حائطٍ عليه الاعلان : « مبروك . . . ! »

طنطا مصطفى صادق الرافعى

صفحات من الدبلوماسية الإسلامية

السفارات الخلافيــــة والسلطانية

وعلائق الاسلام والنصرانية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتمــــة

لما تولى المعتصم الخلافة عقب وفاة أخيه المأمون ، حاول قيصر قسطنطينية الأمبراطور تيوفيلوس (توفيل) أن يعقد الهدنة والصلح مع المسلمين ، فأوفد الى المعتصم سفارة على رأسها يوحنا النحوى . وكان يوحنا من أعظم علماء عصره ، يجيد العربية ، فقصد إلى بغداد يحمل أنفس الهدايا والتحف ، وأنزل بأحد قصور الخلافة ؛ وأدهش البلاط برائع بذخه ، وما نثر حوله من مظاهر الفخامة والترف . وتعرض لنا الرواية البيزنطية قصصاً عجيبة عن بذخ يوحنا وفخامته . وكان لهذه السفارة غاية مزدوجة : الأولى أن تعقد بين الخليفة والقيصر معاهدة سلام دائم ؛ والثانية أن يعمل السفير على إقناع منويل ، وهو قائد بيزنطى يلوذ ببلاط الخليفة ، بالعودة إلى قسطنطينية . فأفلح السفير فى تحقيق الثانية ، ولم يفلح فى تحقيق الأولى ؛ ولكن المعتصم رأى أن يجامل القيصر بالأفراج عن مائة من الأسرى النصارى . وعلى أثر هذا الفشل فى عقد الصلح ، زحف الأمبراطور على اراضى المسلمين ، وغزا زبطرة من معاقل الحدود الأسلامية ، وكان الروم يزعمون أنها مسقط رأس المعتصم ؛ فاستولى عليها واستباحها وأنزل بسكانها المسلمين رائع الاثم والسفك ؛ وتروى التواريخ البيزنطية أن المعتصم لما علم بزحف الروم على زبطرة ، أرسل إلى الأمبراطور سفارة يرجوه فيها أن يقر المدينة العيث والسفك فأبى تيوفيلوس وارتكب فيها ما ارتكب ، وهدمها حتى صارت قاعاً صفصفاً

عندئذ قرر المعتصم الحرب وأقسم بالأنتقام وسار الى أراضى

الروم فى جيش ضخم ، وقصد إلى عمورية (أموريوم) أجل وأمنع مدن الروم فى آسيا الصغرى ؛ فهاجمها مراراً ، ولكن الروم دافعوا عنها دفاعاً شديداً ، فضرب حولها الحصار ، واعتزم ألا يغادرها حتى تسقط فى يده . عندئذ اضطر الأمبراطور أن يسعى إلى طلب الصلح ، وأرسل بدوره سفارة إلى المعتصم ، على يد أسقف عمورية وكبرائها ؛ فأعلن المعتصم أنه لن يعقد الصلح ، ولن يمنح شروطاً للتسليم ، وأن الانتقام هو غايته واعتقل السفراء ، فاستمر الحصار خمسة وخمسين يوماً ، ثم سقطت المدينة فى يد المسلمين ، وأبدى المعتصم ، كما أبدى تيوفيلوس من قبل منتهى الشدة والقسوة ففتك بالنصارى فتكا ذريعاً ، واسترق الناجون من الموت ، وأحرقت عمورية حتى غدت أطلالاً ، وهدمت حصونها وأسوارها ؛ ثم أطلق المعتصم سفراء الأمبراطور بعد أن احتجزهم ليشهدوا ظفره ، وردهم اليه بهذا الجواب ! « نبئوا سيدكم بأنى أديت دين زبطرة »[1] وكان ذلك سنة ٢٢٣ هـ (٨٣٨ م) .

واستمر الصراع وتبادل الغزو بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية مدى قرن آخر . وفى عهد الامبراطور قسطنطين السابع الذى حكم طفلاً تحت وصاية أمه الامبراطورة زوى كاربوبسينا ، أرسل بلاط قسطنطينية الى الخليفة المقتدر بالله سفارة فى طلب المهادنة وتنظيم الفداء . وتصف لنا الرواية الاسلامية حوادث هذه السفارة ، فتقول لنا إن سفيرى ملك الروم وصلا الى بغداد فى المحرم سنة ٣٠٥ هـ (٩١٧ م) ، فاستقبلا بترحاب وإكرام ، ودخلا على الوزير فى أفخم حفل ونظام ، وقد اصطف حوله الجند فى أتم سلاح وزينة ، وأديا رسالة قيصر ، ثم أخذا الى الخليفة المقتدر فاستقبلهما ومن حوله الوزراء والقادة والجند فى أروع زينة وأبهة وأديا رسالتهما ، فأجابهما الخليفة الى ما طلب قيصر من تنظيم الفداء ، وسير خادمه مؤنساً ليحضر الفداء وعينه أميراً على كل بلد يدخله فيتصرف فيه على ما يريد حتى يغادره ، وسير معه قوة من الجند ، وزوده بمائة ألف وعشرين ألف دينار لافتداء الأسرى المسلمين ، فقام مؤنس بالمهمة وافتدى آلافاً من الأسرى[1] وكانت مسألة الفداء مبعث طائفة من السفارات التى تبودلت بين الدولتين خلال القرن الثالث الهجرى ، وطائفة من المعاهدات السلمية التى عقدت بينهما

وفى عهد الامبراطورة زوى أيضاً بعث حاكم كالابريا (قلوريه) البيزنطى رسله الى خليفة إفريقية الفاطمى (عبيد الله الشيعى) ؛ وعقدت بين الفريقين معاهدة تعهدت بها الحكومة البيزنطية أن تؤدى الى الخليفة الفاطمى جزية سنوية كبيرة ، نظير تعهده بحمل أمراء صقلية المسلمين على وقف الحرب والغزوات المستمرة فى قلورية ، واستمرت هذه المعاهدة مدى حين . وان كانت الجزية قد أنقصت خلال ذلك

* * *

ولنترك الآن علائق الدولتين العباسية والبيزنطية لنتحدث عن نواح أخرى من علائق الاسلام والنصرانية ، والسفارات التى تبودلت بينهما

لما قامت الخلافة الفاطمية بمصر ، غدت مصر منذ أواخر القرن الرابع ، قوة اسلامية جديدة تشترك فى قيادة الاسلام وتوجيهه فى المشرق . ولم تكن مصر قبل ذلك مركزاً هاماً للتجاذب السياسى بين الاسلام والنصرانية ، لأنها لم تكن أكثر من ولاية خلافية أو دولة ثانوية تظللها الخلافة العباسية بسلطانها الروحى . على أنه كانت ثمة علائق مستقلة فى هذا العصر بينها وبين الدولة البيزنطية زعيمة النصرانية فى المشرق . وأشهر ما انتهى الينا من أخبار الحوادث الدبلوماسية بين الدولتين فى تلك الفترة سفارة الامبراطور رومانوس الأول (ارمانوس) قيصر قسطنطينية الى محمد بن طغج الأخشيد صاحب مصر (٣٢٣ — ٣٣٤ هـ) ، وورد الأخشيد على هذه السفارة . وحمل كتاب الامبراطور الى الأخشيد رسولاه نقولا واسحاق ، وفيه يطلب الامبراطور تنظيم مسألة الفداء ، وتسهيل المعاملات التجارية لرسله فى البيع والشراء ، وعقد الصداقة المتبادلة بين الدولتين ، غير أن الامبراطور يمن فى نفس الوقت على الأخشيد بأن تنازل لمكاتبته مباشرة ، لأن مقامه كقيصر الدولة الشرقية يحتم عليه ألا يكاتب من هو دون الخليفة ، ولكنه مع ذلك قد خص

(١) Finlay; ibid; III-II

(١) ابن الأثير — ج ٨ ص ٣٤

الأخشيد بالمكاتبة لما نمى اليه من رفيع مكانته وحميد سيرته وفيض عدالته ورحمته . وقد رد الأخشيد على رسالة الامبراطور بكتاب شهير من إنشاء ابراهيم بن عبد الله النجيرمى ، وانتهت الينا صورته بأكملها . وفيه يرد الأخشيد على رومانوس بالشكر على ما أسبغ عليه من حمد ومديح ، ويقول : إنه مهما تكن منزلة ملك الروم فانه لا يرى بأساً أن يكتب اليه ، وقد كتب من قبل الى أقرانه ممن لا يرتفع الى منزلته ، فقد كتب القياصرة من قبل الى خمارويه بن أحمد بن طولون ، والى تكين مولى الخليفة وحاكم مصر وحدها ؛ وينوه الأخشيد بأهمية مكانته وضخامة ملكه وما لمصر من غابر الزمن من ملك باذخ ، وأنه يحكم الشأم وفلسطين الى جانب مصر ، ويشرف على مكة منبع الاســـلام ، ومدينة الرسول ؛ وأنه لم يكن يحب أن يثير فى ذلك جدلاً أو ملاحظة لولا ما تقدم به الامبراطور . ثم يعبر الأخشـيد عن حمده وثنائه للامبراطور لما يبديه نحو الأسرى المسلمين من الرفق والرعاية ، ويصرح باجابته الى ما طلبه من تنظيم الفداء ومبادلة الأسرى ، ومن عقد الصداقة المتبادلة ، ومن تسهيل المعاملات التجارية لرسله التجاريين[1] ، وقد صيغت هذه الرسالة الشهيرة فى أسلوب سياسى بديع يجمع بين حزم المخاطبة ، ورقة المجاملة . وفى صيغتها ومحتوياتها ما يلقى ضياء كبيراً على طبيعة العلائق بين مصر الاسلامية والدولة البيزنطية فى أوائل القرن الرابع الهجرى (أوائل القرن العاشر الميلادى)

وكانت الدولة الفاطمية خصيمة الدولة العباسية تنازعها زعامة الاسلام فى المشرق ؛ وكانت السياسة البيزنطية تتجه يومئذ إلى الضرب بين الدول الاسلاميـــة المختلفة والاستفادة من تنازعها وتنافسها ؛ فلما تضاءل سلطان الدولة العباسـية ، وبرز سلطان السلاجقة فى المشرق ، اهتمت الدولة البيزنطية بمقاومة هذا الخطر الجديد ومصانعته ، وعملت على أن تكون محوراً للتجاذب السياسى بين هذه القوى الاسلامية المختلفة . وقد وقع بين مصر وقسطنطينية فى منتصف القرن الخامس ، حادث سياسى شهير يوضح لنا طبيعة هذا التجاذب ، هو ســـــفارة المستنصر بالله الفاطمى لبلاط قسطنطينية وما كان من أدوارها ونتائجها . فنى سـنة ٤٤٦ هـ

(١٠٥٣ م) أيام الخليفة المستنصر بالله نكبت مصر بوباء ذريع استطال مدى أعوام ؛ واقترن الوباء بغلاء وقحط شديدين ، وأصيبت مصر بصنوف مروعة من الدمار والفوضى . وتعرف هذه النكبة فى تاريخ مصر « بالشـــدة العظمى » . فأرسل المستنصر بالله (سنة ٤٤٦ هـ) إلى قسطنطين امبراطور قسطنطينية يطلب منه العون ، وأن يمده بالغلال والأقوات ، ورأت السياسة البيزنطية فى ذلك فرصة سانحة لتحسين مركزها وعلائقها مع مصر ، التى كانت تهددها من البر والبحر ، فلبى الامبراطور الدعوى ، وتم الاتفاق على بذل العون المطلوب ؛ ولكن قسطنطين توفى قبل تنفيذه ، وخلفته على العرش الامبراطورة تيودورا ، واشترطت لمعونة مصر شروطاً أباها المستنصر ، واشتبك الفريقان فى معارك شديدة فى البر والبحر . وفى سنة ٤٤٧ هـ ، أرسل المستنصر سفيراً إلى تيودورا هو القاضى أبو عبد الله القضاعى ليحاول تسوية الخلاف ، فذهب إلى قسطنطينية ليحاول عقد الصلح مع بلاطها ، ولكنه لم ينجح فى مهمته ، لأن السياسة البيزنطية آثرت عندئذ جانب السلاجقة الذين كثرت غزواتهم لأراضى الدولة ، ورأت أن تصانعهم وأن تسعى إلى مهادنتهم ، وسمح لرسول طغرلبك عاهل السلاجقة أن يخطب فى جامع قسطنطينية باسم الخليفة العباسى القائم بأمر الله . ولما وقف المستنصر بالله على ذلك رأى أن ينتقم بالقبض على أحبار القمامة (كنيسة قبر المسيح) فى بيت المقـدس ومصادرة تحفها وذخائرها ؛ واستمرت الخصومة بعد ذلك عصراً بين مصر والدولة البيزنطية[1]

وفى أيام الحروب الصليبية كثر تردد السفارات والمفاوضات بين مصر باعتبارها زعيمة الجبهة الاسلامية يومئذ ، وبين قادة الحملات الصليبية ، وكثر عقد العهود والهدن والمعاهدات . ولا يتسع المقام لاستعراض هذه المبادلات الدبلوماسية التى وصلت يومئذ إلى ذرى التشعب والاتساع ، والتى تملأ فراغاً كبيراً فى أخبار ذلك العصر ؛ ولكنا نمثل لها بحادثين : الأول سفارة لويس التاسع (القـديس لويس) ملك فرنسا إلى سلطان مصر الملك الصالح حينما جاء إلى مصر على رأس حملته الصليبية (١٢٤٩م) وكتب إلى الملك الصالح باسم الأمم النصرانية يطالبه بتسليم مصر وينذره بالويل إذا أبى ؛ وكان الملك الصالح يومئذ مريضاً فى القاهرة ،

---

(١) راجع نص هـذه الرسالة بأكمله فى صبح الأعشى — ج ٧ ص ١١ — ١٨

(١) راجع خطط المقريزى — الطبعة الأهلية ج ٢ ص ١٣٧

فتولى كاتبه بهاء الدين زهير الشاعر الأشهر كتابة الرد ، وفيه رد على الصليبيين وعيدهم وينذرهم بالانتقام ؛ والثانى سفارة من ملك فرنسا أيضاً إلى سلطان مصر يطالبه باعادة بيت المقدس إلى الفرنج ، وأن يفتح لهم ثغرا فى الساحل وتكون البلاد وولايتها وإدارتها مناصفة بين المسلمين والنصارى على أن يؤدى الفرنج لمصر نظير ذلك جزية سنوية ضخمة . والظاهر أن مرسل هذه السفارة هو فيليب الجميل ملك فرنسا ، وأن المرسل اليه هو السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وأنها وردت إلى مصر فى أواخر القرن السابع الهجرى أو أوائل القرن الثامن . وقد نقلت إلينا الرواية الاسلامية تفاصيل الحادث دون أن تعين تاريخه ، وذكرت أن السلطان غضب لجرأة الفرنج حين أبلغ السفراء رسالتهم ، وذكرهم بنكبة دمياط ، وأنذرهم بالويل والثبور وردهم أقبح رد[٢]

وقد كانت مصر منذ الحروب الصليبية محور الدبلوماسية الاسلامية ومجمعاً للعلائق بين الشرق والغرب ؛ وكانت علائقها مع الأمم النصرانية متشعبة النواحى والأطراف ، فمن بلاط قسطنطينية إلى الدول الايطالية ـ البندقية وبيزا وجنوه ونابولى ـ إلى مملكة فرنسا ، وإلى اسبانيا النصرانية ؛ وتاريخ مصر فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين (الرابع عشر والخامس عشر) حافل بأخبار هذه العلائق الدبلوماسية . وقد أورد لنا القلقشندى فى « صبح الأعشى » عشرات بل مئات من الوثائق والمكاتبات الدبلوماسية التى تلقى أعظم ضياء على طبيعة هذا العلائق ومداها . ونكتفى فى هذا المقام أيضاً بالتمثيل ببعض السفارات النصرانية إلى بلاط القاهرة ؛ فقد أرسل قيصر قسطنطينية مانويل باليولوج سنة ٨١٤ هـ (١٤١١ م) كتاباً إلى الملك الناصر فرج ، على يد تاجر يونانى يدعى سورمش يؤكد ما كان بين والده (أى والد قيصر) وبين والد السلطان (الظاهر برقوق) من أواصر المودة والصداقة ، وبعث معهم عدة من البزاة هدية للسلطان ؛ ورجا السلطان فى كتابه أن يعامل الأحبار النصارى بالرفق والرعاية

ووردت على بلاط مصر سفارة أخرى فى نفس هذا العام (سنة ٨١٤ هـ) من « دوج » البندقية ميميكائيل ، وقدم السفير « نقولا البندق » إلى السلطان ناصر فرج كتاباً من الدوج يبلغه فيه تحياته وثناءه على ما كان يلقاه التجار البنادقة من الرعاية وكرم الوفادة ، ولكنه يحتج على حبس بعضهم فى ثغر دمياط ، ويحتج بالأخص على ما وقع بالاسكندرية من القبض على « قنصل » البنادقة وأكابر التجار البنادقة ، وأخذهم إلى القاهرة مصفدين بالأغلال ، وينوه بأن هذه الأهانة إنما هى إهانة له بالذات (أى للدوج) ويرجو السلطان أن يعدل عن هذه السياسة إلى الرفق بالقنصل والرعايا البنادقة ، لتحصل الطمأنينة للتجار ويكثرون من التردد على مصر [١] . وهذه الوقائع التى يشرحها الدوج فى رسالته إنما هى حادث دبلوماسى محض ؛ وقد صيغت فى أسلوب رقيق ينم عما كان لمصر يومئذ من عظيم الهيبة فى نفوس الدول النصرانية ؛ وفيها يستعمل قلم الترجمة السلطانى كلمة « قنصل » ترجمة للكلمة الافرنجية المماثلة ، وهى كلمة ما نزال نطلقها اليوم فى اصطلاحنا الحديث على ممثلى الدول الذين يختصون بأعمال هذا المنصب

* * *

تلك طائفة متناثرة من السفارات الخلافية والسلطانية ، والموضوع مشعب الأطراف واسع المدى . بيد أن ما أوردناه من أحاديث هذه السفارات والرسالات المتبادلة يكفى لشرح كثير من خواص العلاقات الدبلوماسية فى تلك العصور . وهناك بالأخص ناحية أخرى من علائق الشرق والغرب والأسلام والنصرانية لم يتسع المقام للتحدث عنها : تلك هى علائق اسبانيا المسلمة (الأندلس) بأسبانيا النصرانية وبالأمم الفرنجية الأخرى ؛ فهذه العلائق وحدها تملأ صحفاً فياضة من تاريخ الدبلوماسية الاسلامية ؛ وقد كان عهد الخلافة الأموية بالأندلس عهداً زاهراً فى تنظيم هذه العلائق ففى عصر الناصر لدين الله ، ثم ولده الحكم المستنصر ، انهالت وفود الأمم النصرانية وسفاراتها على بلاط قرطبة ؛ فكانت تستقبل فى قرطبة فى أيام مشهورة ومراسيم شائقة بهرت أمم العصر وقصوره ؛ وكان تقاطرها على قرطبة فى ذلك العصر الذى بلغت فيه الأندلس ذروة العظمة والسلطان ، شاهدا بتطبيق هذه الخاصة التى أشرنا اليها فى فاتحة هذا البحث ، وهو أن اتجاه السفارات السياسية من الغرب إلى الشرق ومن الأمم النصرانية إلى الأمم الاسلامية كان فى معظم الأحيان شاهدا بتفوق الشرق والأسلام فى القوة والعظمة والسلطان

« تم البحث »

محمد عبد الله عنان
المحامى

(٢) راجع حوادث هذه السفارة فى صبح الأعشى ج ٨ صفحة ٣٦ و ٣٧

(١) صبح الأعشى ج ٨ ص ١٢٣ و ١٢٤

الانتحار

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

« نعم ، لابد مما ليس منه بد . وستنتهي الحياة على كل حال ، طال العمر أم قصر ، فلم لا أختمها بيدي وأستريح من هذا العذاب ؟ »

كذلك كان يحدث نفسه وهو جالس إلى مكتبه ، وأمامه عدة رسائل كتبها ووضعها في ظروفها ، وعنونها ، ونشفها ، وألصق عليها طوابع البريد ، ولو أنك في هذه الساعة سألته عن الباعث أو البواعث له على هذا العزم ، لقال لك إنها ليست مسألة بواعث ، وإنما هي مسألة آلام في معدته لم يبق له صبر عليها ، وعجز طب الأطباء عن تخفيفها ، وما بقي في البلد طبيب إلا استشاره ، وما قرأ إعلاناً في صحيفة عن دواء يلطف هذه الأوجاع إلا اشتراه وجربه ، فذهب كل ذلك مع الريح ، وكانت معدته توسعه إيلاماً كلما أوسعها تطبيباً ، فكأنه لا يضع فيها أشفية ، وإنما يضع فيها إبراً أو أظافر ومخالب وأنياباً ! وما أكل شيئاً إلا نفخه وتخمر في جوفه وفارت منه غازات ترتقي إلى الصدر والقلب وتثقل عليهما وتخزه هنا وهناك فيروح يبلع الفحم قرصاً وراء قرص ، والغازات كما هي ، لا يمتصها أو يطلقها أو يخفف ضغطها وشكّها شيء ، فتلفت أعصابه ويئس من الشفاء ، وعزم آخر الأمر على الانتحار

وكانت له زوجة وبنون ، وبيت طويل عريض فيه خدم وحشم ، ولكن آلامه سوّدت عيشه ونغصت حياته ، وحرمته ما كان خليقاً أن يفوز به من المتع ، فالموت لا يفقده لذة موجودة ، ولعله يريح آله مما يحملهم معه من المتاعب والغصص ، ويتيح لهم أن ينعموا بماله ، وأن يخلو صفو حياتهم من كدر حياته

أما الرسائل التي أسلفنا الاشارة اليها فكتبها إلى الصحف ينعى نفسه فيها ، ويحذر قراءها من الاعلانات المغرية وما تزعمه من قدرة الأدوية على الشفاء السريع ، وأخرى كتبها إلى «النيابة» حتى لا تزعج أهل بيته بالسؤال والتحقيق ، فان « للنيابة » ولعاً بتقصي أسباب الانتحار كأنما حياة المرء هبة من هذه « النيابة » أوعارية ، فهو مسئول عنها قبلها !

ولما صح عزمه على الانتحار قعد يفكر في وسائله ، وأدواته ، ولكنه استقبحها جميعاً ، ولم يرض عن واحدة منها ، وبدا له أن من السخافة وقلة العقل أن يلقي بنفسه من فوق السطح مثلاً ، فقد يتحطم جسمه ولا يموت ! أو أن يغرق نفسه في النيل ، فقد يراه أحمق فيدركه وينقذه ، أو قد تعلق جثته بشيء فتظل راسبة ولا يهتدي اليها أحد ! ولم ير أنه يطيق أن يسدد الى رأسه مسدساً ، أو إلى قلبه ، ولا أن يغمد في صدره سكيناً أو يبقر به بطنه ، كلا ! هذه الميتات جميعاً قبيحة ، وفي صورها هوان وحماقة ؛ إنما الميتة الحسنة أن يستلقي على سريره ، ويضع إلى جانبه طشتاً على كرسي ، ثم يقطع شرياناً فيلحّ عليه النزف حتى يموت ، في سكون وبلا ألم

واستغرب لما انتهى الى هذا الرأي ، أن يرى نفسه منشرح الصدر ، وأنه لم يعد يشعر حتى بتلك الآلام التي أغرته بالتماس الموت وحرضته على نشدانه ! فهز رأسه متعجباً وقال : إذا كانت هذه هي البداية فلا شك أن الخاتمة أحسن . وتمنى لو تيسر له أن يرى نفسه مسجى في أكفانه والناس حوله يبكون ويندبون ، ويثنون عليه بالذي « كان » أهله ! وتصور نفسه محمولاً على الأعناق وخلفه حشد عظيم من الأصدقاء والكبراء ، وكبر الأمر في وهمه حتى لخيل اليه أنه الآن راقد في النعش ، فتحرك حركة من يريد أن يطل على مشيعيه ! ثم أفاق من هذا الحلم وابتسم ! ولم تكن هذه ابتسامة السرور ، وإنما كانت ابتسامة الأسف على أنه سيحرم لذة هذا المنظر

ودق الجرس فجاءت الخادمة ، وكانت فتاة في الثامنة عشرة من عمرها ، ولم تكن جميلة ولكنها لم تكن دميمة ، وكان يحنو عليها لأنها يتيمة لا أب لها ولا أم ، ولا أهل فيما يعرف ، فلما أقبلت عليه رق لها قلبه من العطف ، وقال لها :

« اسمعي ! خذي هذه الرسائل وضعيها في صندوق البريد . فاهمة ؟ وخذي هذا لك . »

ونهض وهو يناولها ورقة بجنيه ، فدهشت المسكينة ، فما لها عهد بمثل هذا الجود ، وما وهبها أحد أكثر من قرش وقالت :

« لي أنا ؟ »

فوضع راحته على كتفها وقال : « نعم لك أنت . ولم لا ؟ إنك فتاة طيبة ، وأنا راض عنك »

فقالت المسكينة : « ولـكن ماذا تقول ستى ؟ إنها إذا رأته معى ستظنني سرقته »

فقال : « كلا . لا تخافى . اطمئنى ! »

وأدناها منه وقبلها على خد ، ثم أدار وجهها ليقبّل خدها الآخر ، فلمحت الفتاة أوسط أبنائه ، وخشيت أن يثرثر لأمه بما رأى ، فارتدت عن سيدها محتجة وقالت بصوت عال :

« عيب يا سيدى ، عيب ! أنا بنت يتيمة ، وأنت رجل كبير . . . تؤ . . تؤ . . عيب ! »

فبهت الرجل ، فقد كانت قبلته عن عطف أبوى ، ومن كرم النفس ومروءة القلب ، وساءه جحودها وسوء ظنها ، وأغضبه هذا التأويل ، فقال :

« ولـكن يا بنتى ماذا حصل ؟ أى عيب ؟ »

فقالت بصوت أعلى « أقول لك عيب يا سيدى ، لالالا . . أنا فى أمانتك . . حرام عليك يا سيدى ! وأنت رجل كبير »

ولم يكن يرى ابنه فلم يفطن إلى الباعث لها على هذا الاستهجان ؛ أما ابنه فرأى وسمع ، وأسرع إلى أمه ينبئها ويقص عليها الحـكاية فنهضت الأم كالمجنونة إلى هذا الزوج الذى يتغفلها ويزعم نفسه مريضاً مدنفاً ويروح يقبل الخادمات ! ومن يدرى ماذا يصنع غير غير ذلك ؟ ومن الذى يمكن أن يثق به أو يصدقه بعد هذا ؟

وكان الرجل قد طرد الخادمة من حضرته ، لما رآها تلج فى الاستنكار وتأبى إلا أن تسىء تأويل الحادثة ، فخرجت ، ولم تكد تفعل حتى دخلت الزوجة كاللبوة الهائجة :

« معلوم ! معلوم ! تدعى المرض ، وتقول ابعدوا عنى وخلونى أستريح ، لتخلو بالخادمة فتقبلها وتحضنها ! ما شاء الله ! هل المريض يعانق الخادمة ؟ »

فطار عقل الرجل ، وله العذر ، وخطر له أن الخادمة هى التى ذهبت تشكو إلى زوجته ، وتذكر فى هـذه اللحظة أنه أعطاها الرسائل ، وأن فيها نعيه إلى الصحف والنيابة ، ولـكن الغضب صرفه عن الموت ، وفتّر الرغبة فيـه ، وأحس أنه لا يريد أن يموت ، بل أن يميت — يقتل هذه الخادمة اللعينـة التى يحسن اليها فتسىء اليه ، وتشنّع عليه ، وتحيل البيت قطعة من جهنم ، فترك زوجته تتكلم وخرج يقول :

« أين هى ؟ أين هى ؟ »

وعرف أنها خرجت ، فانطلق وراءها ، ليسترد الرسائل منها ، ويرى له بعد ذلك رأياً فيها — نعنى فى الفتاة . وبصرت به الخادمة مقبلا ، ورأسه عار ، ووجهه مضطرم ، وكانت تحس فى قرارة نفسها أنها ظلمته وتجنّت عليـه ، فأيقنت أنه خرج وراءها هائجاً ، وأنه يطلبها ليضربها ، فراحت تعدو ، فلم يسعه إلا أن يجرى وراءها ، ولـكنها فى الثامنة عشرة من عمرها ، وهو فى الخامسة والأربعين ، فما عسى قدرة مثله على إدراك مثلها ؟ فأخذ يصيح ويدعوها أن تقف ويناشد الناس أن يمنعوها ، وهى كلما حاول أحد أن يصدها تتفلت منه ، وتزعم له أن سيدها يهم بقتلها وتستحلفهم أن يردوه عنها . وتبعهما أطفال الحارة وأهل الفضول من الرجال والنساء ، وأخيراً لحق بها الرجل ، لأن الناس استوقفوها ، فقبض على يدها وانتزع منها الرسائل وهو يلهث

وكان من السهل بعد ذلك أن يطلع زوجته على الرسائل ، وأن يقنعها بأن من يروم الأنتحار لا يتبع الخادمة عينه

ونام صاحبنـا فى ليلته تلك نوماً عميقاً هادئاً لا حلم فيه ، ولم يشعر بمعدته حتى ولا فى الصباح ، فتعجب وهو يتمطى ويتثاءب فما نام قط هذا النوم المريح فى السنوات الأخـيرة ، وأقبل على الطعام فالتهم منه شيئا غـير قليل ، ولم يكن يفطر قبل اليوم ، وكان يدخن على ريق النفس ، ويسـتغنى بالقهوة عن الطعام ، فقال لزوجته :

يظهر أن الجرى نفعنى أمس . . والغضب أيضا ! لقد حرك دمى فى عروق فزايلنى الفتور ، ونشطت . . . نعم إن حاجتى هى إلى ما ينشط جسمى ، فليت لى كل يوم خادمة أقبلها فيسوء بى ظنك ، فتثور نفسىَ ! »

فضحكت الزوجة وقالت : « لقد كنت مجنونا ! وهل ينتحر إلا مجنون ؟ »

فقال : « نعم ، ولـكن الأطباء هم الذين أجنونى . والغريب أنى لم أجد واحدا من بينهم يشير علىّ بالرياضة — ليس عندهم إلا وصفاتهم التى لا تنفع . . . أقول لك ! سأ كتب هــــذا إلى الصحف ، وأفضح طب الأطباء »

ولـكنه لم يكتب ، لأنه شغل بالرياضة فى ناد قريب من بيته ، فتولينا نحن عنه ذلك ، فهل بلّغنا ؟

ابراهيم عبد القادر المازنى

٥ - قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

اسپلنزانی Spallanzani

صلة حديثه

حتى العلماء كانوا فى جانب انبعاث الأحياء من لاشىء . أعلن الطبيب الانجليزى «رُس» بأسلوب توكيد تحس فيه يقين العالم وثقة العارف ، قال : « إن من يتشكك فى أن الخنافس والزنابير تكوّنت من رَوْث البقر فانما يتهم العقل والحس والتجربة » . حتى الحيوانات التى هى أعقد من هذه وأكثر أعضاء كالفئران لاحاجة بها الى الأمهات والآباء . ومن قال غير هذا فعليه أن يذهب الى مصر ليعرف كيف تعج الحقول بالفئران التى تكونت من غرين النيل فآذت السكان إيذاء كبيراً

سمع اسپلنزانى كل هذه الأقاصيص التى اعتقد صدقها أناس كثيرون ذوو خطر وعلم ، وقرأ قصصاً أكثر من هذه عدداً وأبعد فى الأغراب ، ورأى الطلبة تتنافس فتتخاصم وتتلاكم لتثبت أن الفأر لاحاجة به الى أب أو أم . ومع كل هذا لم يعتقد فى شىء مما رأى أو سمع . كان فى رأسه تحزب ، وفى قلبه تعرّض وتعصب ، وكثيراً ما نجد العلم يتقدم بمثل هذا التعصب والتحزب ، بفكرةٍ ليست من العلم ، وليست مما يقال عادة فى العلم ، ولكن فكرة تخلق فى رأس الرجل العلمى خلقاً ، مبناها كره لخُزَعبلة شائعة وخرافة سائدة . رأى اسپلنزانى أن الانسان تكفيه النظرة الظاهرة الى الأمور ليقتنع بأن الحياة لاتوجد من عدم ، وبأن الأحياء لاتخلق اتفاقاً من الأوساخ والأقذار ، وإنما هى تولد عن سبب ، وحسب نظام وقانون . ولكن كيف السبيل الى إثبات ذلك ؟

وفى خلوة فى ذات ليلة وقع على كتاب صغير بسيط ساذج قرأه فأفاد منه طريقة جديدة لو اتبعها لعرف بها كيف تنشأ الحياة . كتاب لم يحاجج بالكلام ، ولم يتمنطق بالألفاظ ، بل اكتفى بالتجربة . وأى تجربة ؟ وأى حقائق تتضح منها وتبين فى سهولة ويسر ، وذهب عن صاحبنا النعاس ، ونسى أن الفجر يقترب ، وظل يقرأ ثم يقرأ . . .

قرأ فى الكتاب أن تخلّق الدود والذباب من اللحم الفاسد خرافة أىّ خرافة ، وإن كثيراً من العقلاء الأذكياء يؤمنون بهذا الزعم على سخافته وبطلانه . وبينا هو يقرأ أتى على فقرات من الكتاب كادت تخرج لها عيناه من رأسه استغراباً لها وإعجاباً بها ، على وصف تجربة بسيطة ذهبت بالخرافة من نفسه دفعة واحدة ولغير رجعة

وقال لنفسه وهو يتخفف من بعض ملابسه ويميل بعنقه الغليظ الى ضوء الشمعة : « إن « ريدى » هذا الذى كتب الكتاب رجل لاشك عظيم . انظر كيف هو يحل المشاكل حلاً غاية فى البساطة . أخذ قدرين ووضع بكل منهما قطعة لحم ، ثم غطى أحدهما بغطاء خفيف ، وترك الآخر مكشوفاً . ثم أخذ ينظر ، فوجد الذباب يدخل الى اللحم فى القدر المكشوفة ، وبعد زمن قليل وجد بها الدود ، وبعد زمن آخر وجد بها ذباباً جديداً ، ثم نظر الى القدر المغطاة فلم يجد بها دوداً ولا ذباباً (1) . فالأمر بسيط جداً . فالمسألة مسألة الغطاء الذى يحول بين اللحم والذباب وتجربة بسيطة جداً ، ولكنها تدل على ذكاء كبير ، فان الناس تناقشوا وتجادلوا وبُحّت أصواتهم آلاف السنين ، ولكنهم لم يهتدوا الى هذه التجربة البسيطة »

وفى الصباح لم يستطع « لازارو » صبراً ، فأسرع الى المعمل يطلب حل الأشكال ، لا فيما يختص بالذباب ودوده ، ولكن فيما يختص بالأحياء المكرسكوبية الصغيرة . فان الأساتذة العلماء كانوا قد بدأوا يقولون إنه قد يجوز أن الذباب يخرج من بيض ، ولكن الأحياء التى تدقّ عن البصر تأتى من ذات نفسها

وأخذ اسپلنزانى يتعلم فى عثار كثير كيف يربى تلك الأحياء ، وكيف يستخدم المجهر . فجرّح يديه وكسر قبابات كبيرة ثمينة ؛ وكان ينسى أحياناً أن يمسح عدساته وينظفها ، ثم ينظر من خلالها الى تلك الحيوانات الصغيرة ، فلا يراها إلا بمقدار مايرى السمك الصغير فى الماء بساحل البحر وقد عكره بتحريك قاعه ؛

(1) يقصد الدود الذى يتطور فيصير ذباباً

ولم يكن يبالى أن يتحدث عن أخطائه ويقصف بالضحك منها ، فلم يكن فى خلقه ذلك الجمود وتلك الشراسة التى اتصف بها « لوڤن هوك » . وكان مندفعاً متهوراً ، ولكنه برغم اندفاعه وتهوره كان لحوحاً لجّاجاً ، لاينعطف لخيبة ولا يثنيه يأس ؛ قام ليفضح تلك الأكاذيب التى يحكونها عن تلك الحيوانات الصغيرة فلن يقعد حتى يبلغ ما أراد ، ولكن مهلاً . « إذا أنا نصّبت نفسى بغية الوصول الى غاية معينة فلست والله بعالم ، إن العالم يجب عليه أول شىء أن ينزع من قلبه التعصب والتغرض ، وأن يتعلم أن ينقاد للحقائق التى تتكشف له الى حيث تسوق ... » وأخذ يدرس تلك الحيوانات بصبر طويل ، وأخذ يسوم نفسه قصْدَ السبيل ، وينفى عنها الهوى بقدر الطاقة حتى علمها أن تنصاع للحق ولو كان مرّاً

واتفق فى هذا الوقت أن قسيساً آخر اسمه « نيدم Needham » كان يسره أن يرى نفسه تَحذْقَ فن التجربة ، وكان كاثوليكياً تقياً . وكان اسمه أخذ يذيع فى انجلترا وأرلندا بأنه الرجل الذى يعرف كيف ينشىء تلك الأحياء الصغيرة فى مرق الضأن من لاشىء . وأرسل الى علماء الجمعية الملكية البريطانية يصف لهم تجاريبه ، فتفضلوا بالاعجاب بها

قال لهم إنه أخذ من قدر وهى تغلى بمرق الضأن مقداراً ثخيناً من هذا المرق ، ووضعه فى زجاجة سدّها بفلّينة فأحكم سدّها فأصبحت بمعزل عن الهواء ، فلا تدخلها تلك الأحياء أو ما يمكن أن يكون لها من بيض . ولم يكتف بذلك ، بل ذهب فوضع الزجاجة فى رماد ساخن زيادةً فى الحرص والتوكيد . قال الرجل الطيب : «وبهذا لاشك قد قتلت كل ما قد يكون بقى فى الزجاجة من كائن حى أو بيض » . واحتفظ بهذا المرق فى الزجاجة أياما ، ثم نزع سدادها ، وأتى بالعدسة فرأى — وما أخطر ما رأى — رأى المرق يعج بالأحياء عجيجاً

وصاح « نيدم » يقول للجمعية : « إن هذا كشف خطير أىّ خطير . إن هذه الأحياء لايمكن أن يكون مأتاها إلا من المرق ، فدونكم إذن تجربةً تثبت أن الشىء الحىّ قد يخرج من الشىء الميت » . وقال لهم فيما قال : إن الحساء يُصنع من الحب أو اللوز يقوم مقام المرق سواء بسواء

وثارت الجمعية الملكية والعالم المثقف لما علموا بكشف « نيدم » كشفُ صـــدق لا أقصوصةٌ كاذبة ، وحقيقة تجريبية لا يأتيها الباطل من أمامها أو خلفها ، واجتمع أعضاء الجمعية يفكرون فى جزاء « نيدم » بتنصيبه عضواً فيها ، وهى الجمعية الوقور المترفعة التى تمثل ارستقراطية العلم وتتضمن صفوة العلماء . ولكن فى هذه الأثناء كان اسپلنزانى بعيداً فى إيطاليا يقرأ خبر هذا الكشف المدهش ، وبينا هو يقرأ تقارب مابين حاجبيه ، وضاق حدَق عينيه ، وأخيراً أبرق وأرعد وقال : « إن هذه الحيوانات لاتنشأ من لاشىء ، لا فى المرق ، ولا فى حساء اللوز ، ولا فى شىء كائناً ما كان؛ إن فى هذه التجربة تدليسة أو خُدعة ، من الجائز أن « نيدم » لايعرف ذلك ، ولكن لابد أن هناك ثغرة أنا كاشفها لامحالة »

وبدأ شيطان التغرّض يستيقظ فى نفسه ، وقام القسيس يشحذ سكينه لأخيه القسيس . وكان الأيطالىّ رجلاً شريراً سفاحاً يُغرَم بنحر الآراء التى يخاصمها ، فمن أجل هذا قام يسن سلاحه للانجليزى . وفى ذات ليلة ، وهو قائم وحده فى معمله ، بعيداً عن جلبة الاعجاب التى تتحشى بها دروسه ، بعيداً عن زُنّاط الصالونات البهيجة حيث تتظرف له السيدات وتتلطف معجبة بذكائه وسعة علمه ، فى تلك الليلة خال أنه وجد الثّغرة التى طلبها فى تجارب « نيدم » . فمضغ ريشته ، وأمرّ أصابعه خلال شعره الشعث ، ثم قال : « لماذا ظهرت تلك الأحياء فى مرق اللحم وفى نقيع الحب ؟ لأن « نيدم » بلا شك لم يسخن زجاجته تسخيناً كافيا ، لأن « نيدم » لم يحكم سدّ زجاجته إحكاماً كافياً »

وبدأ شيطان البحث الصادق يستيقظ فى نفسه . فلم يذهب إلى مكتبه ليكتب لنيـدم بالذى ارتأى ، وإنما فزع إلى معمله الترب قد تناثر فى أرجائه الزجاج من كل صنف ، فأخذ من هذا الركن قبابة ، ومن هـذا الدرج بذوراً ، ونفّض التراب عن مجهره ، وبدأ يمتحن موقع ظنه من الحقيقة ، فإما أن ينصره ، وإما أن يقهره . إن « نيدم » لم يسخن حساءه تسخيناً كافياً — وقد يكون من بعض تلك الأحياء أو من بيضها ما يحتمل المقدار الكبير من الحرارة . من يدرى ؟ وتناول اسپلنزانى قبابات من الزجاج كبيرة ، عظيمة البطن ، مستدقة العنق ، وأخذ يغسلها ويدلكها ويدعكها ، ثم جفّفها وصفّفها فبرقت على النضد فكانت كالجند لبس السلاح فى ضحوة الصباح . ثم جاء بأصناف مختلفة من البذور ووضع شيئاً من كل صنف فى قبابه ، ثم جاء بشىء من البسلة

وشيء من اللوز ووضع كلا في قبابه ، ثم صب ماء في القبابات جميعاً ، ثم صاح : « والآن لن أقع في الخطأ الذي وقع فيه « نيدم » . فلن أغلي هذه الأحسية دقائق بل ساعة كاملة » ، وأوقد ناره ، فلما تجهزت تساءل : « ولكن ماذا أصنع لسد هذه القبابات ؟ أسدّها بالفلين ؟ ولكن هذه مهما أحكمت فلعلها لا تمنع أصغر الأحياء أن يتسرب إلى الأناء » . وأخذ يفكر : « لا . لا . بل أسيّح عنق القبابة في النار فألحمه لحماً ، وأختم على الزجاجة ختماً ، فلا تعود هنالك حاجة إلى الفلين ، والزجاج لن يأذن لأصغر المكروب أن يتسرب خلاله »

وهكذا تناول قباباته البارقة قبابة قبابة ، وأدار عنقها الدقيق في اللهب حتى ساح والتحم ؛ وكانت تسخن بعض هذه القبابات سخونة شديدة وهي في يده فتحرقها ، فتسقط القبابة فتنكسر فيسخط ويلعن ، ثم يبدلها بغيرها . فلما أتم لحامها جميعاً صاح : « والآن فإلى نار شديدة » . وظل ساعات يرقب القبابات ترقص في ماء الغلايات ولم يغلها كلها مدة واحـدة ، فمن القبابات ما أغلاه دقائق . ومنها ما أغلاه ساعة كاملة

فلما بلغ منه الجهد ، وضاقت عيناه من التعب ، قام إلى أخيرة القبابات يخرجها من الماء والبخار يرتفع منها كأنها قطع اللحم المسلوق . وجمع القبابات كلها واختزنها ، واصطبر أياماً على أحر من الجمر يداور في رأسه ما عساه أن يحدث فيها ، وقام بشيء آخر كدت أنساه ، شيء بسيط جداً : قام يكرّر ما صنع من جديد ، فجهز عدداً من القبابات كالتي سـلف ذكرها ، ولكن بدل أن يلحم رقابها سدّها بالفلين ، ثم غلاها سـاعة كاملة ، ثم اختزنها

ثم غاب عنها أياماً أمضاها في قضاء ألف مشغلة من مشاغل الحياة التي لم تكن تكفي لاستنفاد نشاطه الجمّ الكثير . وكتب إلى العالم الطبيعي « بونت Bonnet » في سويسرا ينبئه بتجاربه ، وقام إلى كرة القدم وأخذ نصيباً من اللعب ، وضرب في الريف يطلب صيده ، وذهب إلى البحر يتلهى بسمكه ، وألقى دروساً في العلم ، وحاضر طلبته في كل ما هب ودبّ ، في كل ما ثقل من العلم وجفّ ، وفي كل ما خفّ منـه وطاب ، ثم اختفى فجأة . وتساءل الطلبة والأساتذة : « أين الأب اسپلنزانى ؟ » وتساءلت الهوانم أيضاً : « أين الأب اسپلنزانى ؟ »

الأب اسپلنزانى ذهب إلى قباباته

— ٣ —

ذهب أول شيء إلى قباباته الملحومة ، وكسر رقابها واحدة بعد أخرى ، وغاص في مرقها بأنبوبة طويلة رفيعة لينال منـه شيئاً ، ثم لينظر هل تكونت فيه تلك الأحياء الضئيلة على الرغم من تسخينه إياه طويلاً ، وعلى الرغم من عزله إياه هـذا العزل المحكَم عن الهواء وما قد يعلق بترابه من الأحياء . لم يكن اسپلنزانى في تلك الساعة اسپلنزانى المَرِح البشوش الضحوك . كان في حركته بطء وفي وجهه وجوم . كان يتحرك كرجل آليّ صنعوه من الخشب ، وأخذ ينقط من المرق القطرة بعد القطرة تحت عدسته

وكانت تلك القطرات من القبابات الملحومة التي أغلاها ساعة كاملة ، وكان جزاؤه على كل متاعبه أنه رأى — لا شيء ! وبسرعة البرق توجّه إلى القبابات التي لم يكن أغلاها غير دقائق ، وإذا به يكسر رقابها ، وإذا بقطرات منها تحت عدساته ، وإذا به يصيح : « ماذا أرى ! » رأى في مجال البصر الأدكن حُيَيْوينات صغيرة منثورة هنا وهنا تسبح وتلعب شرقاً وغرباً . حقاً إنها لم تكن مِكروبات كبيرة ، ولكنها كانت مخلوقات صغيرة تجرى فيها الحياة على كل حال . وتمتم اسپلنزانى لنفسه : « إنها تسبح كالسمك ! إنها صغيرة كالنمل ! » . وغاب في التفكّر ثم قال : « إن هذه القبابات ألحمت إلحاماً فما كان لشيء أن يستطيع دخولها من الهواء . ومع هذا أجد تلك المخلوقات الصغيرة فيها . لا شك أنها مخلوقات كانت موجودة في المَرَق ، فلم يكْفِ لقتلها اغلاء الماء دقائق قليلة »

وذهب بأيدٍ راجفـة إلى صف القبابات التي سدّها بالفلين — كما فعل خصيمه « نِيدمْ » — ونزع سدادها واحدة بعد أخرى . وما هي إلا ثوانٍ حتى غاص بأنبوبته في مرقها ، وما هي إلا ثوان أخرى حتى حدّق بعدسته في قطرات منها . وإذا به يثور ويصخب ويقوم عن كرسيّه فيمسك بكراسة قديمـة ، فيكتب فيها على عجل ملاحظات مختصرة بخط كنبش الدجاج ، لو استطعتَ قراءته لوجدت معناه أن إحدى هذه القبابات ذات السداد كانت تتنفّش وتموج بالأحياء ! حتى القبابات التي أُغليت ساعة كاملة كانت « كالبحيرة تعج بالسمك الصـغير والحوت الكبير » . وصاح يقول : « معنى كل هذا أن هذا « نِيدم » جاء بتلك الأحياء التي طنطن بها من الهواء . وهذه نتيجة خطيرة في ذاتها

ولـكن أخطر منها هذه الأحياء يصمد بعضها للماء المغلى زمناً . فلا بد لقتله من اغلائه ساعة أو نحوها »

كان هـذا اليوم لاسپلنزانى من الأيام الضخمة العظيمة ، وللدنيا من الأيام المذكورة المشهورة ، ولو أن اسپلنزانى لم يكن يدرك كِبره وخطره حق الادراك . إنه أثبت إثبـاتاً قاطعاً أن نظرية « نيــدم » نظرية باطلة ، وأن الحيوانات لا تنشأ فى هذه الدنيا الجارية من العدم . وأثبت ذلك بنفس اليقين الذى أثبت به « ريدى » العظيم أن الزعم بأن الذباب ينشأ من ذات نفسه فى اللحم زعم فاسد وُحسبان خاطىء . وفعل اسپلنزانى فوق هذا ، فقـد خلّص علم المكروب من ضياع محقق ، وانتشله من خرافة كادت تؤدى به إلى النسيان فالعدم ، فان العلميّين كانوا قد بدأوا يعتبرون علم المكروب صنفاً من العرفان المدلّس الذى لا يتقبل قواعد العلم الصحيحة وطرائقه المستقيمة

واستدعى اسپلنزانى فى هياجه أخاه نقولا وأخته كذلك ، ليخبرهما بتجربته الرائعة . وذهب بعيون واسعة إلى تلاميذه يخبرهما بأن الحياة لا تنتج إلا عن حياة ، وأن كل حىّ لابد له من أب ، حتى تلك الأحياء الصغيرة الحقيرة ! إلحمْ قبابتك بعافيها من المرق فلن يدخل اليها شىء . وسخّنها تسخيناً طويلا تقتـل ما بها من الأحياء ، حتى تلك التى تستعصى على التسخين الهين القصير ! افعلْ ذلك وأنا ضمين لك ألا تجد بها حياً واحداً ، واخترْنها وأنا ضمين لك أن تبقى خلواً من الأحياء إلى يوم يُبعثون . ثم تَرك تلاميذه وذهب فكتب مقالاً بارعاً لاذعاً توّجه فيــه إلى « نيدم » بالتقريع والسخرية . فمال عالم العـلم واضطرب ، وثار واصطخب . وتجمع المفكرون فى الجمعيات العلمية بلندن وكوبنهاجن وباريس وبرلين ، وتجمهروا فى دورهم تحت أضواء المصابيح العاليـة وعلى أنوار الشموع الرفيعة ، وأخذوا يتساءلون فى لهفة : أيجوز حقاً أن يكون « نيدم » خاطئاً ؟

ولم يقتصر الجدل الذى قام بين اسپلنزانى ونيدم على الأرستقراطية من العلماء ، ولم يحتبس فى قيمان الجمعيات العلمية النابهة ، بل تسرّب من خلال أبوابها الغليظة الى الشوارع ، وتحسّس طريقه الى الصالونات الفخمة . وودّت الدنيا لو أن نيدم صادق ، ومالت بقلبها الى مؤازرته . ذلك لأن الناس فى القرن الثامن عشر كانوا يميلون الى اللهو والدعابة ، والى التحرر من كل شىء ، والتشكك فى كل شىء . والضحك من كل فكرة تنتسب للدين ، ورفض أى سلطان يهيمن على الـكون . فلما جاءهم نيدم بأن الحياة تخرج اعتباطاً . وأن الشئ ينشأ من لا شىء . صادفت الفكرة هوى فى قلوبهم . فسُرُّوا منها ، وضحكوا وسخروا من هـذا الالآـه المزعوم الذى لا يستطيع حتى تنظيم كونه ، والسيطرة على خليقته . وسـاءهم أن تكون تجارب اسپلنزانى واضحة هذا الوضوح ، ومقنعة هذا الأقناع ، فلم يستطع دحضَها حُذّاق الـكلام ، والبارعون فى اللعب بالألفاظ

(يتبع) أحمد زكى

من صور الحياة فى دمشق

فى صحن الجامع الأموى ...

للأستاذ على الطنطاوى

فى أمسيةٍ طلقةٍ (من صيف سنة ١٣٤٨هـ) خرج الناس — على عادتهم — إلى صحن المسجد الأموى ، فبسطوا فيه البُسُط ، وأسرجوا السُّرُج ، حتى (كاد المسجد يقطُر ذهباً ، ويشتعل لهباً) ، وأقبلوا عليه زُرافات ووحداناً ، يقضون بالصلاة حقّ الله عليهم ، وبالاجتماع والتعاون حقّ بعضهم على بعض ، ويعودون بثواب الله ، واطمئنان النفس ، وراحة البال

وليس أشهى إلى النفس ، ولا أحلى فى العين ، من صحن الأموى فى ليالى الصيف ؛ وإن المرء ليُطوّف ما يُطوّف ، ويتنشق عبير الأزهار ، ويسمع تغريد الأطيار ، ويصعد الجبال تتفجر منها العيون ، ويدخل الجنان تجرى من تحتها الأنهار ، ثم يعود إلى الأموى فيراه أجمل من ذلك كلّه ، ويجد فى نفسه حين يجلس فيه هزة طرب ، ونفحة أُنس ، لا يجدهما فى شئ من ذاك . . .

وكانت عشية ربِّحة ، تنسم نسَماناً منعشاً ، فامتلأ المسجد بالناس وهم بين متوضئ يخلع رداءه فيلقى به على بلاط المسجد الأبيض الناعم ، ويسرع إلى قبة الماء ، وهى (فى وسط الصحن) وهى صغيرة مثمنة ، من رخام عجيب ، محكم الالصاق ، قائمة على أربع سوار من الرخام الناصع . وتحتها شباك حديد فى وسطه أنبوب نحاسى ، يمج الماء إلى علو ، فيرتفع ثم ينثنى كأنه قضيب (لجين) (١) وقد زينت جوانبها بالمصابيح

(١) هذا الوصف لابن بطوطة ، وقد زارها فى آخر الربع الأول من القرن الثامن ، وفوق البركة اليوم سدة جميلة قد يجلس فيها المؤذنون ، قائمة على أربعة أركان وأربع سوار من الرخام ؛ وقد أجرى إلى هذه البركة ماء الفيجة ، وهو ماء غاية فى العذوبة واللذة ، ينبع من قرية الفيجة (وهى من دمشق على عشرين كيلاً) وعلى الينبوع آثار بناء فخم من أبنية الرومان . وأول من جر هذا الماء إلى دمشق ناظم باشا رحمه الله ، أحد ولاة العثمانيين ، فأجراه فى الطرقات فى أنابيب ، ثم جر قسم أكبر من الماء فى قناة نقرت فى الصخر . وأدخل البيوت والمساجد وكان تمام هذا المشروع الكبير منذ عامين

ومصلٍّ يبتغى جماعة فلا يلبث حتى يجدها (١) فيقوم فى الصف خاشعاً ، يشغله جلال الله الذى يقف بين يديه ، عن الدنيا التى خلفها وراء ظهره . . .

وجالس إلى حلقة من هذه الحلقات الكثيرة يستمع إلى محدث أو فقيه أو واعظ ، أو ينصت لقارئ ، أو يذكر الله مع الذاكرين ، أو مستند إلى اسطوانة من الأساطين ، أو محتب تحت رواق من الأروقة ، يقرأ فى مصحف ، أو ينظر فى كتاب ، أو يسبح على أصابعه ، أو يتفكر فى شأن من الشئون ، أو ينتظر الصلاة فينعم بجمال المسجد ، ورقة النسيم ، ويكون من انتظاره الصلاة كأنه فى صلاة . . .



صحن الجامع الاموى : (١) القبة المسماة بالعثمانية وتحتها بركة الماء — (٢) قبة الساعات شرقى المسجد حيال المشهد الحسينى — (٣) منارة العروس (التى يؤذن فيها جماعة من المؤذنين ، وإنما يؤذن فى المنارات الأخرى مؤذن واحد)

وكان حيال قبة زين العابدين (قبة الساعات) فى شرقىّ المسجد ، رجل رثّ الثياب ، ما عليه إلا مزق مُرَدَّمه ، وخلقان بالية . يرنو بعينه إلى الناس تارة ، وينظر إلى المسجد أخرى ، فيقرأ فيه تاريخاً جليلاً ، يقرؤه فى هذه القبة الباذخة ، قبة النسر ، وهى (من أعجب مبانى الدنيا ، ومن أى جهة استقبلت المدينة بدت لك قبة النسر ، ذاهبة فى الهواء ، منيفة على جميع مبانى البلد) (٢) (وليس فى دمشق شئ أعلى ولا أبهى منظراً منها) (٣)

(١) ومن نعم الله على الأموى أنه (إلى يوم الناس هذا) لا يخلو من صلاة قائمة من أذان الظهر إلى أن يغلق المسجد أبوابه ، فلا تنقضى جماعة حتى تشرع أخرى

(٢) ابن بطوطة

(٣) ياقوت . قلت : ولا تزال إلى اليوم كما وصفاها على ما استحدث فى دمشق من بنايات عالية ، فيها ما هو بست طبقات وما هو بسبع ... وهى بجانب القبة كالطفل بجانب الرجل ، وتحت هذه القبة يجلس المحدث الأكبر فى البلد ، وآخر من جلس تحتها البدر الحسنى مد الله فى أجله ورزقه حسناته

وهذه المنارة العالية التي يسميها الناس « منارة عيسى » لما جاء في الحديث أن عيسى عليه السلام ينزل على المنارة البيضاء شرقي دمشق ، ويعجب من سموقها وارتفاعها . وهذه المنارة الغربية التي بناها المسلمون ، فأجادوا بنيانها ، ووضعوا فيها العجائب من براعة الزخرف ، ودقة النحت ، والضبط والاحكام . والمنارة الشمالية (منارة العروس) وقد ازّينت وأوقدت فيها المصابيح ، وقام في شرفتها المطلة على الصحن[1] «المؤقت» ليعلن دخول العشاء

* * *



منظر الاموي من الجهة الجنوبية :(١) قبة النسر — (٢) منارة عيسى (٣) المنارة الغربية — (٤) منارة العروس

ودخل المسجد قرويّ له مسألة . فسأل عن مجلس المفتين حتى دُلّ عليه عند قبة عائشة[2] فجاء فعرض عليهم مسألته ، فلم يجد عند واحد منهم جوابها . فذهب يدور على الفقهاء والمحدّثين يسألهم ، فلم يفز منهم بطائل ، فيئس منهم وهمّ بالخروج من المسجد . . . والفقير ينظر اليه ، ويعجب من حاله وحالهم .

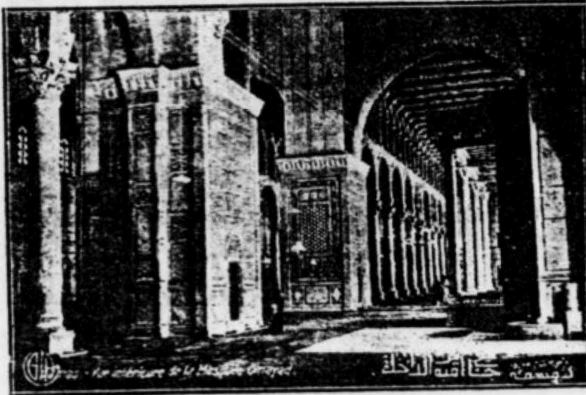
(١) هذه الشرفة مخصصة اليوم للبسيط الذى تعرف به الأوقات ، وكان الذى صنع البسيط الشيخ علاء الدين على بن ابراهيم الفلكى المشهور بابن الشاطر المتوفى سنة ٧٧٧ ﻫ ، فطرأ عليه خلل سنة ١٢٩٣ﻫ فصنع الشيخ محمد الطنطاوى المصرى الأزهرى نزيل دمشق (وهو جد أبى) بسيطاً غيره ، وحسبه على الأفق الحقيق ، وزاد فيه قوس الباقى للفجر ، وأزال القديم وجعل هذا مكانه فى يوم مشهود ، وهو فيها إلى الآن ، قال فى (الحدائق) : وهو (أى البسيط) موضوع شريف لا نظير له تفرد به الطنطاوى بعد ابن الشاطر

(٢) وهى غرفة عالية غربى المسجد ليس لها إلا باب صغير من الحديد تقوم على ثمانية أعمدة كبيرة من الحجر وفوقها قبة ، ولا طريق اليها الا على سلم ينصب حيال الباب ، وكنا نتحدث ونحن أطفال أن فيها كنزاً حتى فتحها الألمان — كما أذكر — فى الحرب العامة . واستخرجوا منها طائفة من الكتب والمصاحف القديمة . ولا أحسبها تحوى الآن شيئاً له خطر

وعزّ عليه أن ينصرف آيساً ، فأشار اليه . فما جاءه قال : اعرض عليّ مسألتك . . .

فضحك القرويّ ، وصاح : أنظروا ياقوم إلى هذا المجنون زعم أنه يجيبني عن مسألتي ، وقد أعجزت المفتين والفقهاء وأصحاب الحديث : فأقبل الناس على الصوت ، وطفقوا يتكلمون ، فقال قائل : دعْهُ فانه مجنون .. وقائل : لا عليك أن تسأله فلعلّ عنده علماً ... وقائل : سَلْهُ واحمل جوابه إلى المفتين ، فانظر ماهم قائلون ؟

ثم سكتوا ، وسكت كلّ من في المسجد ، وانقطعت أصوات القراء والمدرّسين والذاكرين ، ولم يبق فيهم متكلم ، لأنها قد تكلمت فوق رؤوسهم النبوّة ، وسمعوا : (الله أكبر..) تدوّي في نواحي المسجد ، تهبط عليهم من المآذن كأنما هي هابطة من السماء ، فيها روعة الوحي ، وجلال الدّين ، وجمال الايمان . . . فتقوضت المجالس ، ورُصّت الصفوف ، وتحاذت المناكب ، وقال الامام : الله أكبر . . . فماتت الدنيا في نفوسهم وامّحت منها الشهوات ، وطمست فيها الميول ؛ لأنه مهما يكن من كبير فـ . . . الله أكبر ! ولا إله إلا الله !



منظر الحرم من الداخل : ويبدو فيه ركنان من الأركان الأربعة الهائلة التى تحمل القبة وتحتها مجلس الحدث الأكبر — وتبدو سدة المؤذنين رقم (١) وسدة الأمير أو الحاكم رقم (٢) وباب المقصورة التى يجلس فيها الخطيب ، وقد اتخذها معاوية وكان لها باب (لا تزال آثاره واضحة) يؤدى إلى قصر الخضراء الذى كان وراء الجامع القبلى

فلما قضيت الصـــلاة ، عادوا إلى القروى ، فقالوا له : اذهب فسَلْ صاحبك . فذهب إليه ، فقال :

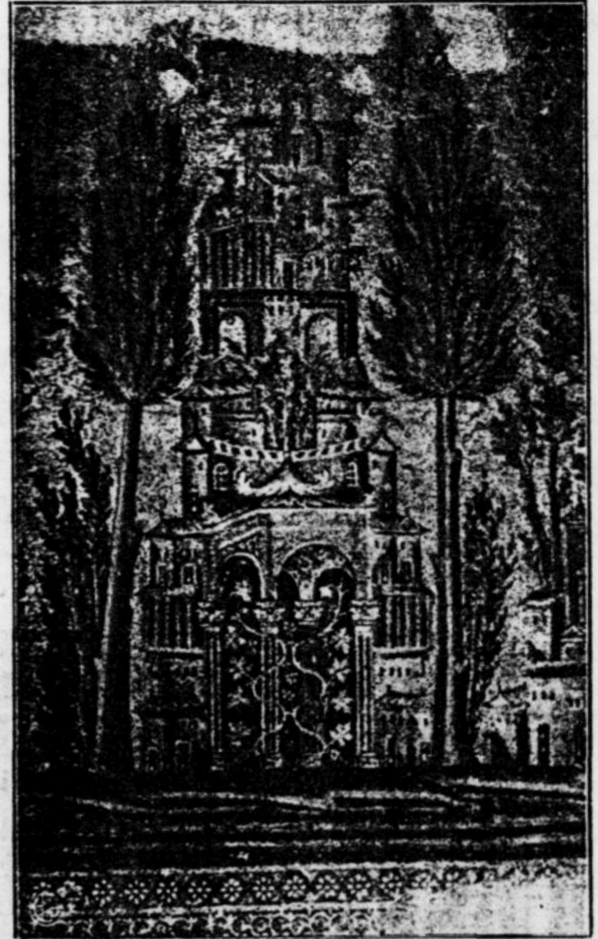
ياهذا ، زعمت أنك قادر على الجواب ، فهل أنت على قولك ؟

قال : أستعين بالله

قال : وقد أعجزت المفتين وحيرتهم ، أفأنت تستطيع أن تجيب عليها ؟

قال : أستعين بالله

قال : هي كذا وكذا . . . قال الجواب كيت وكيت . . . وابتدر الفقير الباب !



بعض المناظر الباقية من الفسيفساء ، وهي على الجدار الغربي بجانب باب البريد

وحفّ الناس بالقروي ، فقالوا : هل أجابك ؟ بم أجابك ؟ قل لنا بماذا أجابك ؟

فقال : وما أنا بقائل لكم حرفاً حتى ألقى المفتين . وأسرع وأسرع معه الناس الى المفتين ، وقد عادوا إلى مجلسهم : فقال : أرأيتم ذلك الفقير ؟ قالوا : نعم . قال : قد أجابني عن مسألتي

فضحكوا من جفائه وجهالته ، وقالوا : بم أجابك ؟

قال : بكذا وكذا

فلما سمعوه أخذ منهم الجدّ مأخذه ، ونظر بعضهم إلى بعض وكلهم مشدوه حائر لا يدرى ممّ يعجب : أمن كثرة علم الرجل مع رثاثة هيئته . أم من رثاثة هيئته مع كثرة علمه ، ثم انتبهوا ، فقالوا : ويحكم ، أدركوا الرجل ، فان له لشأناً ، وما نظنه إلا آية من آيات الله جاءت تُرينا حقيقة العلم ، وسموّ الفقر ، وجلال التواضع . . . أدركوا الرجل !

فقالوا : قد خرج

قالوا : أوليس فيكم من يعرفه ؟

فقال رجل من القوم : والله ما رأيناه إلا في السميصاتية [1] وقد نزلها منذ أيام ، فكان ينظف كنفها ومراحيضها ، ويتخذ مجلسه على الباب . حتى أذنوا له بالدخول . وما رأيناه إلا عاكفاً على صلاة أو مشتغلا بتسبيح ، ولم يكلم أحداً !

قال المفتون : ويحكم ، قوموا بنا اليه . . .

فلما دخلوا عليه ، قالوا له : من أنت ؟

قال : رجل من الناس

قالوا : قد سمعنا جوابك ، وإنا نسألك بالله الذى لا إله إلا هو إلا ما أخبرتنا من أنت

قال : إنا لله وإنا اليه راجعون . . . أمّا وقد أقسمتم ، فأنا أبو حامد الغزالى

فصاحوا : حجة الأسلام ! وانكبوا على يديه يقبلونهما ، ويسألونه أن يعقد لهم مجلساً فى الغد . ثم انصرفوا

* * *

فلما كان الغد نظروا فاذا . . الشيخ قد فارق دمشق ! [2]

دمشق — علي الطنطاوي

(١) الخانقاه السميصاتية وراء جدار الأموى الشمالى حيال الحديقة التى فيها اليوم قبر صلاح الدين الأيوبى ، وهى قديمة . قالوا : إنها كانت منزل عمر بن عبد العزيز . وقد أنشئت فى السنين الأخيرة انشاء جديداً لتكون مدرسة نظامية لتدريس العلوم الاسلامية ، فضاع المشروع بين تسويف الحكام ونسيان الشعب . وانتهى بها الأمر بأن احتلها جماعة التجانيين عنوة ... وجعلوها معقلا من معاقل التجانية بدمشق . والمشهور اليوم بأن اسمها (الشميصانية) بالشين

(٢) أنظر طبقات السبكى جزء (٤) صفحة (١٠٤)

الأوزاعى

٨٨ هـ – ١٥٧ هـ

أحد أصحاب المذاهب المندرسة

بقلم عبد القادر على الجاعونى

حياة الأوزاعى :

يؤخذ من المصادر التى بين أيدينا أن اسمه عبد الرحمن[١] ابن عمرو بن يُحْمِد[٢] وكنيته أبو عمرو ، ولقبه الأوزاعى نسبةً إلى أوزاع[٣] ، ولقد اختلف فى معنى هذه الكلمة ، فمن قائل إنها بطن من ذى الكلاع من اليمن « وقيل بطن من همذان[٤] » ، وقيل إن الأوزاع قرية بدمشق خارج باب الفراديس[٥] . ومهما يكن من أمر ، فان لقبه نسبة الى هذه الكلمة ، إذ أن جميع المصادر تتفق على هذا اللقب ولكنها تختلف فى حقيقة أصله

ومن الثابت تاريخياً أن مهبط رأسه مدينة بعلبك[٦] ، وتكاد المصادر تتفق على أنه ولد سنة ٨٨ هـ[٧]

أما نشأته وحياته فلا نعرف عنهما شيئاً ، لأن المصادر التى بين أيدينا تكاد تكون صامتة كل الصمت ، فهى تتخطى هذا الدور بسرعة هائلة وتبرزه لنا « إمام أهل الشام »[٨] فى عصره ، اللهم إلا ما ذكره ابن خلكان من أنه نشأ فى البقاع

قلنا إن الأوزاعى ولد فى بعلبك ، ونشأ فى البقاع ، إلا أنه لم يقض حياته فى مهبط رأسه ، وسرعان ما انتقل الى دمشق خارج باب الفراديس[٩] ، ثم ارتحل الى بيروت[١٠] تلك المدينة التى قضى بها حياته حتى أدركته الوفاة

(١) ابن خلكان ١ : ٣٤٥ ، النووى ١ : ٣٨٢ ، وطبقات الحفاظ للذهبى ١ : ٣٩ (٢) كذا ضبطها النووى ١ : ٣٨٢
(٣) ابن خلكان ١ : ص ٣٤٦ (٤) نفس المصدر
(٥) النووى ١ : ٣٨٣ (٦) النووى ١ : ٣٨٤ ، ابن خلكان ١ : ٣٤٦ (٧) النووى ١ : ص ٣٨٣ ، ابن خلكان ١ : ص ٣٤٦
(٨) ابن خلكان ١ : ٣٤٦ (٩) النووى ١ : ٣٨٢ (١٠) طبقات الحفاظ ١ : ٣٩

ولقد كان رحمه الله فوق الربعة ، مائلاً الى السمرة ، خفيف اللحية[١] ، ويظهر أنه كان يميل إلى التزين ، فقد « كان يخضب بالحناء »[٢]

ولقد أخذ العلم عن عطاء وابن سيرين ومكحول[٣] ، والثورى[٤] . ولقد زاد عليهم أبو زكريا النووى صاحب كتاب تهذيب الأسماء رجالاً من التابعين أهمهم قتادة ، ونافع مولى ابن عمر ، والزهرى ، ومحمد بن المنكدر[٥] . وأهم تلاميذه : عبد الله ابن المبارك ، وهقل[٦] وهذا الأخير أصدق الرواة وأثبتهم عن الأوزاعى ، وروى عنه جماعة من الذين سمعهم كقتادة والزهرى وغيرهم[٧]

* * *

كان الأوزاعى من تابعى التابعين[٨] ، وقد قال الذهبى فيه : « هو إمام أهل الشام » وفى موضع آخر يقول : « كان ثقة مأموناً صدوقاً ، فاضلاً حبراً ، كثير الحديث والعلم والفقه »[٩]

ويقول ابن خلكان : « هو إمام أهل الشام لم يكن بالشام أعلم منه »[١٠] . ويقول النووى : « كان إمام أهل الشام فى عصره بلا مدافعة ولا مخالفة »[١١] . ومما يدلك على عظم مركزه فى الفقه أنه أجاب فى سبعين ألف مسألة فقهية ، وقيل ثمانين ألفاً[١٢]

ومما يدلك على علو مقامه وتقدير العلماء له ما ذكره ابن خلكان من أن « سفيان الثورى بلغه مقدم الأوزاعى فخرج حتى لقيه بذى طوى ، فحل سفيان رأس بعيره من القطار ووضعه على رقبته فكان إذا مر بجماعة قال الطريق للشيخ »[١٣] ، وناهيك بمنزلة سفيان الثورى ورفيع مقامه فى العالم الاسلامى . ولا يغيبنّ عن البال أنه كان فضلاً عن اشتهاره بالفقه إماماً فى الحديث[١٤] . ويقول كولدزهير : روى عبد الرحمن بن المهدى

(١) ابن خلكان ١ : ٣٤٦ (٢) نفس المصدر (٣) طبقات الحفاظ ص ٣٩ (٤) ابن خلكان ص ٣٤٦ (٥) النووى ١ : ٣٨٢ (٦) النووى ١ : ٣٨٤ (٧) النووى ١ : ٣٨٢ يظهر أن قتادة والزهرى كانا معاصرين للأوزاعى فسمع عنهم وبذلك نعدهم أساتذته ، ومن ثم رووا عنه ، ولذلك يصح لنا تجاوزاً أن نعدهم من تلاميذه (٨) النووى ١ : ٣٨٢ (٩) طبقات الحفاظ ١ : ص ٣٩
(١٠) ابن خلكان ١ : ٣٤٦ (١١) النووى ١ : ص ٣٨٢
(١٢) النووى ١ : ٣٨٤ (١٣) النووى ١ : ٣٨٤ (١٤) وابن خلكان ١ : ٣٤٦

أن الأوزاعى ليس ثقةً فى الحديث ، ولكنه يعلم كيف يطبق هذه الأحاديث للحصول على حلول المسائل الفقهية (١)

ولم يكن الأوزاعى يتمتع بمركز دينى كفقيه ومحدث فحسب ، بل يظهر أنه كان يتمتع بمركز دنيوى رفيع ، فقد ذكروا أنه كان عظيم الشأن بالشام « وكان فيهم أعز من السلطان » (٢) ولعل القصة الآتية تلقى نوراً على ماذهبت اليه : قال عبد الحميد ابن حبيب بن أبى العشرين : سمعت أميراً كان بالساحل ، وقد دفنا الأوزاعى ونحن عند القبر يقول : رحمك الله أبا عمرو ! فقد كنت أخافك أكثر ممن ولانى » (٣) . وبعد ، فقد تبين لك من هذه الروايات الكثيرة المحفوظة فى الأصول الأدبية والتاريخية ما كان عليه الأوزاعى من الشهرة ، ولا نعرف ، لاندثار مذهبه ، واندفاع المؤرخين فى منح المديح والألقاب ، صحة هذه الأقوال ، ولكنها على أية حال تحمل بين طياتها الشئ الكثير عن عظم الأوزاعى وشهرته

والروايات مجمعة على أن الأوزاعى كان إمام أهل الشام فى عصره ، وأنه كان على جانب عظيم من القدرة فى الحديث والفقه ، وتطبيق الأول على الثانى للحصول على حلول للمسائل الفقهية المختلفة

مذهب الأوزاعى :

انتشر مذهب الأوزاعى ، المسمى باسمه ، مدة من الزمن فى سورية ، وبلاد المغرب ؛ وذكر صالح بن يحيى أن مذهب الأوزاعى دام فى الشام نحو مائتى سنة ، وأن آخر من عمل بمذهبه قاضى الشام أحمد بن سليمان بن حَذْلَم ، وقد ظلت المغرب متبعة مذهبه مدة لا تقل عن أربعين سنة (٤)

وسرعان ما انهزم مذهب الأوزاعى أمام غيره من المذاهب ، والسبب فى ذلك — كما يظهر — أن الأمراء وأصحاب السلطة ساعدوا غيره من المذاهب نصراً لسياسة أو تحقيقاً لغرض ، كما كانت الحالة مع المذهب الحنفى (٥) ، ويقول صالح بن يحيى « ثم تناقص بمذهب الأمام مالك على يد عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الأموى » (١)

ومن المعلوم ، أن مذهب الأوزاعى هو أحد المذاهب المندرسة ، ويا ليت التاريخ أبقى على هيكله فى طواياه ، فانه لم يسجل إلا نزراً يسيراً من فقهه (٢) لا يمكّننا من الحكم عليه . إلا أن هذا النزر يلقى نوراً على ماهيته ، وقد دلتنى قراءته إلى أن اهتمام الأوزاعى بالمسائل الفقهية كان من الوجهة العملية ، ولم يكن كصنوه أبى حنيفة مشتغلاً بالفقه من وجهته النظرية . كذلك دلتنى قراءة هذا النزر اليسير إلى أن الأوزاعى لم يكن يستعمل الرأى ، بل إنه — كما فعل غيره — عدل الى الكتاب والسنة ، ففى كلام الأوزاعى عن « سهم الفارس والراجل وتفضيل الخيل » (٣) وعن « المرأة تُسبى ثم يُسبى زوجها » (٤) وعن « ماعجز الجيش عن حمله من الغنائم » (٥) وعن « قطع أشجار العدو » (٦) — فى كلامه عن أحكام هذه ، وعن جميع ما ورد فى كتاب « سير الأوزاعى » يستعمل الحديث والكتاب

وقد يطول بنا المقام إن ماشينا فهرس الفصل فى سرده ، فلا داعى للتكرار ، ومن أراد التثبت فليرجع إلى هذه الأقوال فى مظانّها (٧)

ولقد ذهب بعض المؤرخين ، أمثال كولد زهير ، إلى أن الفقه الأسلامى قد تأثر بالفقه الرومانى . وأنا أقولُ ، إن كان هذا صحيحاً ، فأحرِ بالأوزاعى أن يكون آخر المتأثرين به لأنه من أبعد الفقهاء عن الرأى ، ومن أقربهم الى أتباع الكتاب والسنة . وبذلك قال أبو حاتم : « الأوزاعى إمام متبعٌ لما سمع » (٨) والكتاب والسنة أبعد الأشياء عن التأثر بالفقه الرومانى

(البقية على صفحة ٤٣٨)

(١) Muham.Studien II P 12 (٢) تاريخ بيرون ص ١٥
(٣) النووى ١ : ٣٨٤ (٤) صالح بن يحيى فى تاريخ بيروت ص ١٥
(٥) Moslem theology P 98

(١) تاريخ بيروت ص ١٥ (٢) كتاب الأمام للشافعى ٧ : ٣٠٣ — ٣٣٥ تحت عنوان كتاب سير الأوزاعى ، ففى هذا الفصل جملة صالحة عن أقوال الأوزاعى فى المسائل الفقهية (٣) كتاب الأم للشافعى ٧ ص ٣٠٦ (٤) نفس المصدر : ٣١٥ (٥) نفس المصدر : ٣٢٣ (٦) نفس المصدر : ٣٢٤ (٧) كتاب سير الأوزاعى ٧ : ٣٠٣ — ٣٣٥ (٨) النووى ١ : ٣٨٤

١٧ - محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون أو خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

ـ ولكن الروح التى قد أصابها الدنس ، والتى تكون كدرة عند انتقالها ، والتى ترافق الجسد دائماً ، وتكون خادمته ، والتى تغرم وتهيم بالجسد ورغبات الجسد ولذائذه حتى ينتهى بها الأمر إلى العقيدة بأن الحقيقة لاتكون إلافى صورة جسدية ، يمكن الانسان أن يلمسها ، وأن يراها ، وأن يذوقها ، وأن يستخدمها لأغراض شهواته ـ أعنى الروح التى اعتادت أن تنفر من المبدإ العقلى ، وأن تخافه وتتحاشاه ، ذلك المبدأ الذى هو للعين الجسمانية معتم تستحيل رؤيته ، والذى لايدرك إلا بالفلسفة وحدها ـ أفتحسب أن روحاً كهذه سترحل نقية طاهرة ؟

فأجاب : يستحيل أن يكون هذا

ـ إنها قد استغرقت فى الجسدىّ ، وقد أصبح ذلك طبيعياً بالنسبة لها ، لا تصالها المستمر بالجسد ، وعنايتها الدائمة به

ـ جد صحيح

ـ ويحق لنا يا صديقى أن نتصور أن هذه هى تلك المادة الأرضية الثقيلة الكثيفة ، التى يدركها البصر ، والتى بفعلها تغشى السكابة مثلَ هذه الروح ، فتنجذب هبوطاً إلى العالم المرئى مرة أخرى ، لأنها تخاف مما هو خفىّ ، وتخاف من العالم السفلى ـ فتظل محوّمة حول المقابر واللحود ، إذ تُرى بجوارها ـ كما يحدثوننا ـ أشباحٌ طيفية بعينها ، لأرواح لم تكن قد رحلت نقية ، ولكنها ارتحلت مليثة بالمادة المنظورة فأمكن رؤيتها (١)

ـ يغلب جداً أن يكون ذلك يا سقراط

ـ نعم ياسيبيس ، فأغلب الظن أن يكون ذلك ، ولا بد أن تكون هاتيك أرواح الفجار لا أرواح الأبرار ، هؤلاء الفجار الذين كتب عليهم أن يجوبوا فى مثل تلك المواضع جزاء وفاق ما اقترفت سبيلهم فى الحياة من إثم ، فلا ينقطع تجوابهم ، حتى تشبع الرغبة التى تملؤهم ، ثم يسجنون فى بدن آخر ، وقد يظن أن تلازمهم نفس الطبائع التى كانت لهم فى حياتهم الأولى

ـ أى الطبائع تريد يا سقراط ؟

ـ أريد أن أقول إن من اندفعوا وراء الشره والفجور والسكر ، ولم تدُر فى خلدهم فكرة اجتنابها ، سينقلبون حميراً وما اليها من صنوف الحيوان . فماذا ترى أنت ؟

أرى أن ذلك جد محتمل

وهؤلاء الذين اختاروا جانب الظلم ، والاستبداد والعنف ، سينقلبون ذئاباً أوصقوراً أو حِدأً ، وإلا فالى أين تحسبهم ذاهبين ؟

فقال سيبيس : نعم ، إن ذلك ، ولا ريب ، هو مستقر تلك الطبائع التى تشبه طبائعهم

فقال : وليس من العسير أن نهيئ لهم جميعاً أمكنة تلائم طبائعهم وميولهم المتعددة

فقال : ليس فى ذلك عسر

ـ وحتى بين هؤلاء ترى فريقاً أسعد من فريق ، فأولئك الذين اصطنعوا الفضائل المدنية والاجتماعية التى تسمى بالاعتدال والعدل ، والتى تحصل بالعادة والانتباه ، دون الفلسفة والعقل ، أولئك هم أسعد نفساً ومقاماً . ولم كان أولئك هم الأسعد ؟

لأنه قد يُرجى لهم أن يتحولوا إلى طبيعة اجتماعية رقيقة تشبه طبيعتهم ، مثل طبيعة النحل أو النمل ، بل قد يعودون مرة ثانية إلى صورة البشر ، وقد يخرج منهم أناس ذوو عدل واعتدال

ـ ليس ذلك محالاً

ـ أما الفيلسوف ، أو محب التعلم ، الذى يبلغ حد النقاء عند ارتحاله ، فهو وحده الذى يؤذن له أن يصل إلى الآلهة ، وهذا هو السبب ، أى سمياس وسيبيس ، فى امتناع رسل الفلسفة الحق عن شهوات الجسد جميعاً ، فهم يصبرون ويأبون أن يُخضعوا أنفسهم لها — لا لأنهم يخشون إملاقاً ، أو يخافون لأسرهم دماراً ، كمحبى المال ، ومحبى الدنيا بصفة عامة ، ولا لأنهم يخشون العار والشيْن اللذين تجلبهما أعمال الشر كمحبى القوة والشرف

قال سيبيس : لا يا سقراط ، إن ذلك لا يلائمهم

(١) يقصد بذلك أن الأشباح التى يراها الناس عند المقابر ، إن هى إلا أرواح من ذلك الضرب الذى انغمس أثناء الحياة فى المادة انغماساً ، ففارقت الأجساد دنسة ملوثة بالمادة ، فشق عليها أن تعيش فى ذلك العالم الطاهر النقى ، عالم الأرواح الخفية ، فهبطت إلى الأرض مرة أخرى ، وأمكن للعين رؤيتها

فأجاب : حقاً إنه لا يلائمهم ، وعلى ذلك فاولئك الذين يعنون بأرواحهم ، ولا يقصرون حياتهم على أساليب الجسد ، ينبذون كل هذا ، فهم لن يسلكوا مايسلك العُمْى من سبل ، وعندما تعمل الفلسفة على تطهيرهم وفكاكهم من الشر ، يشعرون أنه لا ينبغى لهم أن يقاوموا فعلها ، بل يميلوا نحوها ، ويتبعوها إلى حيث تسوقهم

- ماذا تعنى يا سقراط ؟

قال : سأحدثك . إن محبى المعرفة ليدركون عندما تستقبلهم الفلسفة أن أرواحهم إنما شُدت إلى أجسادهم وأُلصِقت بها ، ولا تستطيع الروح أن ترى الوجود إلا خلال قضبان سجنها ، فلا تنظر اليه وهى فى طبيعتها الخاصة ، إنها تتمرغ فى حمأة الجهالة كلها ، فاذا ما رأت الفلسفة ما قد ضُرب حول الروح من قيد مخيف ، وأن الأسيرة تنساق مدفوعة بالرغبة إلى المساهمة فى أسر نفسها (لأن محبى المعرفة يعلمون أن هذه كانت الحالة البدائية للروح ، وأنها حين كانت فى تلك الحال ، تسلمتها المعرفة ، ونصحتها فى رفق ، وأرادت أن تحررها ، مشيرة لها بأن العين مليئة بالخداع ، وكذلك الأذن وسائر الحواس ، لتحملها على التخلص منها تخلصاً تاماً ، إلا حين تدعو الضرورة إلى استخدامها ، وأن تتجمع وتتفرغ إلى نفسها ، وألا تثق إلا بنفسها وما توحى به اليها بصيرتها عن الوجود المطلق ، وأن تشك فى ما يأتيها عن طريق سواها ، ويكون خاضعاً للتغير) ، فالفلسفة تُبَيّن لها أن هذا مرئى ملموس ، أما ذلك الذى تراه بطبيعتها الخاصة فعقلى وخفىّ ، وروح الفيلسوف الحق تظن أنه لا ينبغى لها أن تقاوم هذا الخلاص ، ولذا فهى تمتنع عن اللذائذ والرغبات ، والآلام والمخاوف ، جهد استطاعتها ، مرتئية أن الانسان حينما يحوز قدراً عظيما من المسرات أو الأحزان أو المخاوف أو الرغبات ، فهو لا يعانى منها هذا الشر الذى تقدره الظنون — كأن يفقد مثلاً صحته أو متاعه ، مضحياً بها فى سبيل شهواته — ولكن يعانى شراً أعظم من ذلك ، هو أعظم الشرور جميعاً وأسوأها ، هو شر لا يدور فى خلده أبداً

قال سيبيس : وما هو ذلك يا سقراط ؟

- هو هذا : حينما تحس الروح شعوراً شديد العنف ، بالسرور أو بالألم ، ظننا جميعاً ، بالطبع ، أن ما يتعلق به هذا الشعور العنيف يكون عندئذ أوضح وأصدق ما يكون ، ولكن الأمر ليس كذلك

- جد صحيح

وتلك هى الحال التى يكون فيها الجسد أشد ما يكون استعباداً للروح

- وكيف ذلك ؟

- لأن كل سرور وكل ألم يكون كالمسمار الذى يُسَمّر الروحَ فى الجسد ، ويربطها به ، ويستغرقها ، ويحملها على الايمان بأن ما يؤكد عنه الجسد أنه حق فهو حق ، ومن اتفاقها مع الجسد ، وسرورها بمسراته ذاتها ، تراها مجبرةً على أن تتخذ عادات الجسد وطرائقه نفسها ، ولا يُنتظر ألبتة أن تكون الروح نقية عند رحيلها إلى العالم السفلى ، فهى مشبعة بالجسد فى كل آن ، حتى أنها سرعان ما تنصب فى جسد آخر ، حيث تنبت وتنمو ، ولذا فهى لا تساهم بقسط فى الالـهىّ ، والنقىّ ، والبسيط

فأجاب سيبيس : ذلك جد صحيح يا سقراط ؟

وهذا يا سيبيس هو مادفع محبى المعرفة الحق أن يكونوا ذوى اعتدال وشجاعة ، فهم لم يكونوا كذلك ، لما تقدمه الحياة الدنيا من أسباب

- لا ، ولا ريب

- لا ، ولا ريب ! فليست تفكر روح الفيلسوف على هذا النحو ، إنها لن تطلب إلى الفلسفة أن تحررها ، لكى تستطيع ، إذا ما تحررت ، أن تلقى بنفسها مرة أخرى ، فى معترك اللذائذ والآلام ، فتكون بذلك كأنها تعمل ما تعمل ، لا لشىء إلا لكى تعود فتنقضه ، وكأنها تنسج خيوطها — كما فعلت پنلوب[1] — بدل أن تعمد إلى حلها ، ولكنها ستتخذ من نفسها عاطفة راكدة ستتأثر خَطْوَ العقل ، فتلازمه لتشاهد الحقيقىّ والالـهىّ (وهو ليس موضوعاً للرأى) ومن ثم تستمد غذاءها ، وهى تحاول بذلك أن تحيا مادامت فى الحياة ، وتأمُلُ أن تلتمس ذوى قرباها بعد الموت ، وأن تتحرر من النقائص البشرية ، أى سمياس وسيبيس ، أن تتبدد روحٌ كان ذلك غذاءها ، وكانت تلك آمالها المنشودة ، عند انفصالها عن الجسد فتذروها الرياح ، وتصبح عدما ليس له وجود

(يتبع) زكى نجيب محمود

(١) پنلوب هى زوجة أوليس ، التى كانت تنقض فى الليل ما قد نسجته فى النهار ، لتكسب وقتاً من خطابها

أنشودة عبقر

لشاعر الشباب السوري أنور العطار

يا مزهري نغم أغاني الهوى
القلب يعطي والهوى يسأل

***

أأنت من عبقر أنشودة   أرسلها من روحه مرسل
أم أنت دنيا حفلت بالهوى   يا طيب ما جاءت به تحفل
أهيم في حسنك لا أرعوي   أنقل من نعماه ما أنقل
أغيب في جناته سادراً   كغيبة النحل إذا ينهل
أنت ندائي في سجون الدجى   ومفزعي في الرعب والموئل
وجهك هذا أم رؤى حلوة   وثغرك اللماح أم سلسل
يفتنني منك صبى ناضر   آذار في أعطافه يرفل
مرقرق الأفياء يندى منى   كأنه من ضحكه جدول
تضيع في أمواهه حسرتي   وما يعاني القلب أو يحمل
تلهيني عيناك أن الهوى   إذا طغت أوهامه يقتل
إذا احتواك القلب في حلمه   قلت أقلبي أنت أم جلجل
يظل من لوعته راجفاً   كما انثنى واضطرب السنبل
لولاك لم يسكر فؤادي الأسى   ولم يهدهدني الهوى الأول

***

دنياي إما غبت عن ناظري   فوضى فلا سؤل ولا مأمل
أحسها صحراء عريانة   موحشة تجوى وتستثقل
لا الانس ضحاك بساحاتها   وليس فيها من حمى يأهل
أرد عنها الطرف مغرورقاً   غيان في حيرته يوغل

***

عيشي بقلبي فرحاً شاملاً   وألهميني منك ما يجمل
وفسري للروح لغز الهوى   تكشف فجاجاً سبلها تجهل
ما ضرني إن كنت لي أنني   يكثر حسادي والعذل
إن جد في شكوى الهوى شاعر   ظنوه من ضلتهم يهزل

***

يهدني شجوي لكنما   أظل في غمرته أجذل
على فمي قيثارة تشتكي   وفي ضلوعي زهرة تذبل
أقتات بالأوهام في وحدة   الرعب فيها شبح يمثل
تطفح بالأهوال أرجاؤها   والفكر تياه بها مجفل
إن خلصت روحي من مجهل   هب يعمى قصدها مجهل
تعمر بالجنة داراته   والريب يطغى والسنا يأفل
أسير فيه لا الهدى رائدي   وليس لي عن خوضه مزحل
أخبط في يهماء من حيرتي   والليل مرهوب السرى أليل
أسمع منه نغماً محزناً   تصره في أذني الشمأل
أمام عيني دجى راعب   يلفني مطرفه المسبل
ومنزلي ناء وبي محنة   فآه لو يقترب المنزل
ضجت من محبس هذا الدجى   فهل يبين النور أو يقبل
أواه من مضطرب جاهد   الغيب محجوب به مقفل
ووحشة في القلب ما تمحي   وظلمة في النفس ما تنصل

***

هذي حياتي ملؤها حسرة   وكاهلي من عبئها مثقل
كأنني في حقلها غرسة   ذاوية أخطأها المنجل
أفردها المقدار في عالم   نعيمه الخالص مستوبل
الروح مني فقدت تربها   فاندفعت من همها تعول
آناً تراها سكنت لا تعي   كأنها في صمتها الهيكل
وتارة كالنار جياشة   كأنما يغلي بها مرجل
كذاك أحيا موجعاً ساهماً   والموت من هذا الضنى أمثل
يا طيفها يرهق قلبي الأسى   وأنت عني ذاهل تغفل
أحببتها مغرية كالدنا   لا سحرها يفنى ولا يبطل
تترك في النفس أحاديثها   أعذب مما يترك البلبل
أشم منها عالماً عاطراً   يكاد من فرط الشذا يثمل

***

يا مزهري نغم أغاني الهوى   القلب يعطي والهوى يسأل
وأنسني الدنيا وأشجانها   فمن عناء العيش ما يذهل
وأنت يا مشعل المرتجى   أضئ لي الآفاق يا مشعل

***

هذا السنا الرفاف من خاطري   واللحن من روحي مسترسل

دمشق   أنور العطار

من أدب الهند

الأمير خسرو

الشاعر الهندى الكبير

بقلم السيد أبو النصر أحمد الحسينى
الهندى

ترجم صديق الدكتور عبد الوهاب عزام بعض الأبيات الفارسية للشاعر الهندى العلامة الصوفى الكبير الأمير خسرو فى (الرسالة) ، فأثارت الترجمة فى نفسى ذكرى ذلك العبقرى العظيم أيام كنت أطالع بعض دواوينه وأحاول أن أقيس عظمة عبقريته فى الصغر بفهم غير ناضج وإدراك غير كامل فكانت تفيض عن سعتهما ، فكنت أستعين بمسامرات الاخوان ومحادثات الأقران . واليوم بعد نضوج الفهم حين أحاول قياسها أرى أن استقصاء جميع نواحيها لا يزال من غير المستطاع لى ، وإن كانت لذلك أسباب أخرى ، ولكن ما لايدرك كله لايترك كله . أحب أن أبلغ اليوم بقدر الامكان رسالته إلى « الرسالة » ، إذ حياة العظماء والأدباء رسالة وقدوة للأجيال فى كل مكان وزمان ، وأنثر أزهار الحديث عنه على مرقده الخالد الحى وهو ذكراه فى القلوب

***

ولد الأمير خسرو فى الهند فى مدينة بطيالى بقرب دهلى فى سنة ٦٥٢ هجرية [١] من سلالة عريقة فى الشرف من الأتراك المهاجرين الى الهند من مظالم جنكيزخان فى وسط آسيا . فكانت قبيلته المساة « لاتشين » تسكن فى بلدة تكش فى ولاية ماوراء النهر ، قد هاجرت إلى الهند عند هجوم جنكيزخان ؛ وكان أبوه سيف الدين محمود رئيس تلك القبيلة . وكان فى الهند حينئذ شمس الدين التمش ملكاً من ملوك المماليك ، فرحب بجميع المهاجرين وأكرم وفادتهم . وأما أم خسرو فكانت بنت عماد الملك وزير الحربية للسلطان بلبن . وقد روى أمير خوند فى كتابه سير الأولياء عن والده أن فى جوار والدى الأمير خسرو كان يسكن صوفى كبير مسمى « أمير لا تشين » فلما ولد خسرو حمله والده ملفوفاً فى القماش اليه ، فقال الصوفى : « أنتم جئتم إلى بمن سيسبق خاقانى (الشاعر الفارسى الشهير) بدرجتين ؟

مات أبو خسرو وهو فى السابعة من سنه ، ولكن أسرته كانت مثرية فلم تهمل تربيته وتعليمه ، فتربى خسرو فى دهلى ، وكانت دهلى إذ ذاك حاضرة الحكومة منذ ثلاثة أرباع قرن ، فكانت مركز العلوم والفنون ، ومحور الحضارة والمدنية ، ومأوى الفضلاء والعلماء ، ومطمح أنظار أهل الفن والصناعة مما يجعلها ثانية فى الأهمية لبغداد . فى هذا الوسط الراقى تربى خسرو فنبغ فى العلوم والفنون المختلفة ، غير أن ميله الغريزى كان إلى ثلاثة : الشعر والموسيقى والتصوف ، فأجادها فى أقل وقت ، وبلغ فيها درجة الأمامة

بدأ خسرو يقول الشعر وهو فى صباه حتى أصبح الشعر له مهنة معترفا بها من الجميع فى نهاية العقد الثانى . ولكن تقاليد ذلك الزمن والظروف العائلية كانت تقتضى أن يكسب العيش بواسطة مهنته هذه ، فلم يكن له بد من أن يتصل بامراء [١] وسلاطين ذلك الزمن من مقدرى مهنته . فاتصل خسرو فى سنة ٦٧٦ أول مرة بعلاء الدين كوشيل خان المعروف بين الناس باسم « ملك شجو » ، وملك شجو كان ابن أخت الامبراطور غياث الدين بلبن [٢] و « أمير حاجب » (أى رئيس الحجاب) فى بلاطه . ولكنه كان فاضلاً يقدر العلم والفن ، واسع الصدر كريماً . فقد قال المؤرخ الشهير ضياء الدين برنى ، وهو من معاصرى خسرو وأصدقائه فى كتابه تاريخ فيروز شاهى : « أنا سمعت كثيراً ممن أعتمد عليهم ، ومن الأمير خسرو أنه لم يوجد مثيل الملك علاء الدين كوشيل خان فى سعة الصدر والكرم ، وفى اطلاق الرصاص والصيد ولعب الكرة ، وكان الملك علاء الدين قد نال شهرة واسعة وإن لم تدم ، حتى أن هلا كوخان الشهير أرسل اليه خنجراً

(١) استنبطنا تاريخ ولادته هذا من مصنفه « قران السعدين » الذى أتمه فى سنة ٦٨٨ هجرية وقد ذكر فيه أنه كانت سنه حينئذ ٣٦ سنة ، وأما ما كتبه العلامة المؤرخ المرحوم شبلى نعمانى الهندى فى كتابه « شعر العجم » معتمداً على روايات أخرى أنه ولد فى سنة ٦٠٥ هجرية فهو غير صحيح ومما لا يعتمد عليه

(١) كان فى القرون الوسطى فى الهند « خان » و «ملك» و « أمير » ألقاب رسمية لتبيين منزلة الموظف . فيلقب بـ« خان » الموظف الذى يقدر على حشد مائة عسكرى ، وبـ« ملك » من يقدر على ألف ، وبـ« أمير » من يقدر على عشرة آلاف . هذا كان فى بادئ الأمر ، ولكن بعد مرور الزمن زالت تلك الاعتبارات ، فأصبحت تطلق كلمة « أمير » على جميع موظفى الحكومة مهما تكن منزلتهم عالية

(٢) ملك من ملوك المماليك حكم على الهند من سنة ٦٦٤ هجرية إلى سنة ٦٨٦ هجرية

وعرض عليه أن يكون حاكماً على نصف العراق لو أراد الذهاب هناك . ولكن خاله الامبراطور بلبن استنكر حريته الخارجة عن العادة[1] . ويذكر المؤرخ برنى فى محل آخر أن شجوّ كان أغزرهم جوداً وأعظمهم منحاً ، ووزع جميع أملاكه على الناس ولم يبق لنفسه إلا المعطف الذى ستر جسمه . ومن أمثال جُوده وتقديره للشعر أنه أعطى جميع الخيل فى اصطبله للشاعر خواجه شمس معين ووزع عشرة آلاف تنكه[2] على المغنين عند تقديم قصيدته وإنشادها إياه . ولم يكن خسرو أقل حظاً من هؤلاء الشعراء لتفوقه عليهم وذكائه الخارق . فقد قال قصائد غير واحدة فى مدح شجوّ ، ونحن ننقل إلى العربيــة بعض أبيات من قصيدته البديعة التى تعد مثالاً للغلو الشرقى فى المديح قال :

« إن الأشعة البهيجة لنور الصبح الملون بلون العنبر قد بددت ظلام الليل ، والهلال الأصفر كالمربوق[3] بقرنيه القوسين كاد أن يغيب عن النظر ، فسألت الصبح : أين شمسك الموعود بها ؟ فأرانى وجه شجوّ المشرق بنوره البازغ ! ثم توجهت الى السماء المرصعة بالنجوم ، فسألتها: من يساعد نجومك فى سيرها ؟ فضحكت من سؤالى العبث ، وأرتنى أيدى الملِك التى جعلتها مستقيمة »

لم يدم اتصال خسرو مع ملك شجوّ أكثر من سنتين ، فان قلب شجوّ تغير على الشـاعر خسرو لحادثة حدثت . وهى أن نصير الدين بغراخان النجل الثانى للأمبراطور غياث الدين بلبن كان مرة على مأدبة شجو والشاعر كذلك ، فلما سمع منه شعره استحسنه وسر كثيراً وقدم له طستاً مملوءاً بالنقود الفضية ، فغضب شجو على خسرو لقبوله هذا الانعام وتغير ؛ وعبثاً حاول خسرو بعد ذلك إرضاءه

اتصل خسرو بعد ذلك بنصير الدين بغراخان حاكم سمانا لمدة قصيرة ، ثم انقطع عنه واتصل بعده بسلطان محمد الشهير بخان شهيد ، النجل الأكبر للأمبراطور غياث الدين بلبن ؛ وكان خان شهيد حاكماً على إقليمى البنجاب والسند ، وعندما حضر العاصمة دهلى مع ربع الاقليمين فى ســنة ٧٨٢ هجرية قابل الشاعر خسرو وأخذه الى البنجاب . بقى خسرو مع خان شهيد خمس سـنين ، وكان دائماً موضع العطف الخاص والاجلال والتكريم ، لأن خان شهيد كان أمثل الأمراء على حسب تقاليد الزمن فى الأخلاق والشجاعة والعلم والأدب ، ومن أكبر مقدرى الفنون والشعر ، فقد وجد فى بياضــه[1] ثلاثون ألف بيت يعترف بها نقاد الفن على كمال الذوق وحسن الاختيار والعلم الواسع ، وكان بيته ملجأ العلماء ومأوى الفضلاء ، وكان يبذل قصارى جهده فى جمع كبار العلماء والفضلاء والشعراء فى مجلسه ، فقد دعا الشيخ سعدى الشيرازى الشاعر الفارسى الشهير مرتين ، وأرسـل اليه نفقات السفر ووعد ببناء صومعة له فى بلدة ملتان والانعام الكثير ، ولكن الشيخ اعتذر لكبر سنه ، وبعث اليه بعض غزلياته مكتوبة بيده ، ولفت نظره للشـاعر الأمير خسرو مبالغاً فى مدح ذكائه وفضله[2]

***

فى ســنة ٧٨٧ هجرية هجم المغول على الهند ؛ فقام خان شهيد للدفاع عن بلاده وقتل ، ولم يكن الأمير خسرو جليس الأمراء فقط ، بل كان قائداً عسكرياً أيضاً ، فقد اشترك فى محاربة المغول مع سيده ووقع أسيراً فى يدهم بعد أن قتل سـيده فكابد ما كابد على أيديهم من الألم والأذى . ذكر ذلك بكلمات مؤثرة فى رثائه الشهير لسيده ننقل بعض أبياته الى العربية ؛ قال :

« ثم فاجأتنا نازلة من السماء الزرقاء ، وقامت القيامة على الأرض ، إذ فرقت جماعة أصدقائنا مثل تفريق أوراق زهرة الورد بريح الخريف المخربة للحديقة »

ثم وصف آلام أسره فقال :

« إن شهداء المسلمين لونوا الصحراء بلون دمهم ، بينما كانت أعناق الأسارى منظومة نظم الأزهار فى الأكاليل . وأنا أيضاً كنت أسيراً[3] خوفاً من أنهم يريقون دمى ، لم تبق فى عروق قطرة من الدم . وكنت أجرى كالماء هنا وهناك مع نفطات لا تعد على قدمىّ مثل الفقاقيع على سطح النهر . وكان لسانى قد جف من العطش الشديد ،

(١) تاريخ فيروز شاهى ص ١١٣ و ١١٤

(٢) اسم للعملة الذهبية والفضية فى ذلك الزمن

(٣) أى من أصابه مرض اليرقان

(١) بياض عبارة عن مذكرة أو كراسة يكتب صاحبه فيه الأبيات المختارة من الشعراء المختلفين . وبياض خان شهيد كان أعطاه أبوه الامبراطور بلبن لحافظ الحبر أمير على ومنه وصل الى الأمير خسرو

(٢) منتخب التواريخ للبدايونى

(٣) لم يذكر خسرو عن نفسه أنه كان أيضاً مربوطاً مع الأسارى الآخرين ، فربما ذلك لأنه كان قائداً فى الجيش ، ففرقوا بينه وبين الأسارى الآخرين برجاء مفاداته

ومعدتى التصقت (بظهرى) من الجوع . وهم (أخذوا ثيابى) وتركونى عريان مثل الشجرة المجردة من الأوراق فى زمن الشتاء ، أو الزهرة المخموشة بالأشواك . والمغولى الذى أسرنى كان جالساً على الحصان مثل الأسد ، وكانت الرائحة الكريهة تسطع من فمه وإبطه ، وكان على ذقنه خصلة من الشعر الوسخ مثل النبات . فإن توانيت وراءه من الضعف كان يهددنى تارة بعقلاته وتارة برمحه ، فكنت أتنهد على تلك الحالة وأرى أن النجاة منها مستحيلة . ولكنى أشكر الله على أنى استعدت حريتى بغير أن يطعن صدرى برمح ، أو يقطع جسمى بسيف » (١)

وحكاية استعادة حريته هى أن المغولى وحاشيته وخيله كلهم نزلوا فى النهر عند غسق الليل لشرب الماء فانتهز خسرو الفرصة وهرب (٢) وبعد وصوله إلى دهلى كتب هذا الرثاء المؤثر الذى شاع وذاع حيث أصبح به خسرو معروفاً عند عامة الناس أيضاً

بقى خسرو بعده فى مسقط رأسه فى خدمة أمه حتى تولى الأمر معز الدين كيقباد ، وهو آخر ملوك المماليك ، فاتصل به وصنف له كتابه الشهير « قِران السعدين » على طلبه ، ولم تمض مدة قليلة حتى انتقل الحكم من المماليك إلى الأسرة الخلجية . فتولى الأمر أول ملوكهم السلطان جلال الدين خلجى الذى كان يعرف خسرو ويعترف بشعره وذكائه قبل اعتلائه العرش . فمنح خسرو لقب « الأمير » ، وعينه فى منصب أبيه بمرتب ألف ومائتى تنكة فى السنة . ثم رفعه الى منصب محافظ القرآن الملكى . فأصبح من أعضاء بلاط الملك ومن ندمائه . فكتب له خسرو كتابه « مفتاح الفتوح » ، وهو تاريخ غزوات جلال الدين خلجى بالشعر . نشبت حرب أهلية بين العائلة الملكية فقتل فيها جلال الدين وتولى الأمر ركن الدين خلجى لمدة أقل من سنة ، ثم تولى علاء الدين خلجى ، فاتصل به الشاعر خسرو ، وهو أطول اتصالاته بالأمراء ، لأن حكومة علاء الدين دامت عشرين سنة ، وهى أيضاً مدة أكثر انتاجاً فى حياة خسرو . فقد صنف فى أقل من ثلاث السنين الأولى من تلك المدة خمس روايات قصصية منظومة وهى : (١) مطلع الأنوار ، (٢) شيرين وخسرو ، (٣) ليلى والمجنون ، (٤) آئين سكندرى (أى القانون الأسكندرى) ، (٥) هشت بهشت (أى الجنات الثمان) ، وتسمى كلها أيضاً « بنج كنج » أى « الخزائن الخمس » . ودشنها لشيخه فى الطريقة الصوفى الولى الكبير مولانا « نظام الدين أولياء » وأهداها إلى السلطان علاء الدين . وبينما كان مشغولاً بتصنيف ليلى والمجنون منها فقدَ أمه وأخاه فى سنة ٦٩٧ فحزن ، ورثاهما بكلمات تسيل الدموع فى مصنفه ، ننقل رثاءه لأمه الى العربية قال :

« وفى هذه السنة فقدت نورين من نجمتى وهما أمى وأخى ،
أسبوع واحد من سوء حظى فقدت فيه قمرين !
إن حظى كبسنى من جهتين ، والفلك بددنى بلطمتين ،
فأصبح نوحى مزدوجاً وغمى مضاعفاً ، واحسرتاه ! أنوح على الاثنين
وا أسفاه ! ألمان لمثلى ! إن شعلة واحدة كانت تكفى لمزرعى
إن صدراً واحداً لا يتحمل ثقلين ، ولا رأساً واحداً وجعين ،
إن أمى تحت التراب ، فلا غرو أن ألوث رأسى بالتراب
يا أمى ! أين أنت ؟ لم لا ترينني محياك ؟
اطلعى ضاحكة من قلب الأرض ، وارحمى بكائى المر !
إن فى كل أثر من قدمك لى تذكاراً من الجنة ،
إن وجودك كان حافظاً لنفسى ومعيناً ومتكأ لى ،
يوم كنت تتكلمين بشفتيك كان نصحك صلاح أمرى ،
واليوم ختم على (لسانى) وسكوتك لا يزال ناصحاً

***



ضريح الأمير خسرو وهو من رخام أبيض ناصع يتصل به مسجد فى ضاحية من ضواحى دهلى

صنف خسرو فى عهد علاء الدين ما عدا بنج كنج (أى الخزائن الخمس) ثلاثة أو أربعة كتب أخرى سنبينها عند كلامنا عن مصنفاته ، وفى سنة ٧١٥ هجرية توفى علاء الدين فتولى الأمر قطب الدين خلجى فاتصل به خسرو وصنف فى عهده « نه سپهر » أى (الأفلاك التسعة) وقدمه اليه فسرّ السلطان منه جداً وأنعم

(١) منتخب التواريخ للبداونى
(٢) وهذه الحكاية قد ذكرها خسرو فى مصنفه « دول رانى »

ملخص محاضرة :

الفن الفارسى

للشاعر الانكليزى Lawrence Binyon

« وفد على مصر فى هذه الأيام الشاعر الانكليزى المشهور مستر لورنس بنيون أمين القسم الشرقى بالمتحف البريطانى ، وألقى أربع محاضرات تناول فيها أغراضاً مختلفة فى الفن والأدب ، وهذه أولى محاضراته عن الفن الفارسى

إن الكلام عن الفن الفارسى يستوجب من المحاضر أن يلم فى بادئ الأمر بالموقع الجغرافى الذى كان له أثر لاينكر فى توجيه الرسم الفارسى ناحية خاصة ، يلاحظها كل من له اهتمام به وتعلق بدراسته ، وإن وقوع فارس بالقرب من بلاد العرب وتوسطها بينها وبين بلدان الشرق الأقصى صبغ الفن الفارسى بصبغة خاصة وإن ظل مع ذلك محتفظاً بروحه القوية ، وشخصيته البارزة التى تميزه تميزاً واضحاً جلياً من فنون الأمم الأخرى سواء أكانت غربية أم شرقية ، فلهذا الفن مميزاته الخاصة وروحه المستمدة من صميم الواقع

وكما أن للظروف الجغرافية تأثيراً ، كذلك للظروف السياسية أثراً لا يمكن للباحث أن يتجاهله أو ينكره ، فقد تغلبت على هذه البلاد عدة دول حاكمة كالأغريق فى القديم والساسان والمسلمين ، وكانت الدولة الساسانية آخر الدول الفارسية التى حكمت إيران ، والتى توطد لها العرش زهاء أربعة قرون منذ القرن الثالث حتى السابع الميلادى ، إذ ظهرت قبل ذلك بقليل دولة الاسلام الفتية ، فاكتسحت مافى طريقها ، وخفق علم الاسلام على كثير من ربوع العالم ، ولما كانت فارس قريبة من بلاد العرب فقد اتجهت اليها أنظارهم بطبيعة الحال والموقع ، ولم يلبث العرب أن خضدوا شوكة دولة بنى ساسان واستتبت أقدامهم فيها ، كما أخذ الدين ينتشر فى ربوعها ، ومن ثم أخذ الفن الفارسى من رسم الى تصوير الى شعر يتأثر بعض الشيء بهذه الظروف الجديدة التى أحاطت به ، وربما كان ذلك أوضح فى الشعر منه فى الرسم والتصوير

وهنا نرى لزاماً علينا أن نشير الى أن العرب حين غزوا هذه البلاد كانت هناك نهضة فنية ، تدلنا على ذلك تلك الآثار التى أماطت اللثام عنها بعثة ألمانية ، إذ عثرت على كثير من هذه الرسوم فى بلاد الأفغان ، وأقدم هذه اللوحات بوذية ، ولكنها على درجة عالية من الأتقان

وقد قامت فى ذلك الحين مدرسة فنية فى بغداد التى كانت مركزاً ثقافياً إسلامياً مهماً ، وإذ كان العرب قد نشروا سلطانهم على هذه الربوع ، فقد أدوا للفن خدمة كبرى بأن كانوا وسيطاً قوياً فى نقل الروح الغربية الى الشرق ، وتطعيم الفن الفارسى بالفن العربى ، وذلك بأن العرب اتصلوا اتصالاً مباشراً بالأمم الواقعة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، وتعاملوا معها فى جميع مرافق الحياة . وإذا كان الشيء بالشيء يذكر ، فلا بد لنا من أن نشير إلى أن أثر الفن الصينى كان أقوى من تأثير الفن الأوربى فى التصوير الفارسى ، وإن المقارنة بين الفنين الصينى والفارسى لتظهر لنا هذا أجلى من المقارنة بين الثانى والغربى ؛ وكان الاختلاط فى أول الأمر قليلاً ، ولكن الظروف المحيطة غيرت الأمر الواقع ، وزادت الصلات توثقاً ، إذ ظهرت دولة المغول ، وهم من الجنس الأصفر تحت زعامة القائد المعروف تيمورلنك ، فاتصلت البلاد الصينية بربوع الشرق الأدنى ، وأصبحت هذه البلاد جميعاً أكثر ارتباطاً من ذى قبل . وهنا كان عصر ازدهار وقوة للفن الفارسى !

عليه بفضة تساوى وزن الفيل ، وبعد وفاة قطب الدين تولى الأمر نصير الدين خلجى لمدة أقل من سنة ، ثم انتقل الأمر من الأسرة الخلجية إلى الأسرة التغلقية ، وكان أول ملوكها غياث الدين تغلق فاتصل به خسرو وصنف له « تغلق نامه » أى كتاب تغلق فى سنة ٧٢٥ هجرية وهو آخر تصانيف خسرو لأنه مات فى تلك السنة

عاش خسرو ٧٣ سنة وصنف ٩٩ كتاباً أكثرها فى الشعر باللغة الفارسية والهندية ضاع جلها إلا القليل ، وعاشر عشرة ملوك ، وإن لم تجاوز مدة بعض منهم سنة ، بينهم ملوك الأسرة الخلجية الكاملة ؛ وكان خسرو عالماً فاضلاً وشاعراً مفلقاً ، وموسيقياً بارعاً ، وصوفياً كبيراً . وسنتكلم عن نبوغه فى الشعر والموسيقى والتصوف فى المقال الآتى إن شاء الله ؟

السيد أبو النصر أحمد الحسينى الهندى

ذلك بأنّ الفنـانين الفارسيين حين شاهدوا آثار المصورين الصينيين أعجبتهم هـذه البراعة الفائقة والدّقة المتناهية فى إبراز العواطف والمناظر المختلفة فى صور محسوسة تسترعى الانتباه ، وتشهد لهم بالعبقرية والفنّ ، إذ كانت هــذه الرسوم تستلزم التفكير الدقيق فى كيفيّة تهيئتها وإبرازها على هذا النحو العجيب ، ومن ثمّ بدأوا يجارونهم وينهجون سبلهم ، ويترسمون آثارهم وقواعدهم ، ورأوا أنّ إبراز الاحساس بالواقع عنـد الصُّفْر أكثر مما عندهم ، كما شاهدوا الدقة العظيمة والمقدرة الرائعة فى تجسيم كل ما تقع عليه العين فى صورة جذّابة ، كما أنهم لم ينسوا أن يستلهموا الطبيعة صوراً ويستمدوا منها فناً جعلنا نقف موقف الاجلال إزاء هذا الفنّ العالى المجسّم ، حتى إنهم صوّروا تسلسل المياه مما لا ينقصه إلاّ الخرير حتى تكون طبيعة ثانية من عمل المرء بجانب الطبيعة التى أوجدها الله

وقد يظهر لنا من هذه الكلمة السالفة أن الفن الفارسى كان صورة ثانية للفن الصينى ، أو هو فن صينيٌ رسمته ريشة فارسية ، ولكن الحقيقة هى أنه بالرغم من تأثره الى حدّ ما بالرسم الصينى فقد ظل محتفظاً بشخصيته وروحه وطبيعته الفارسية ، ولا يشين الفن الايرانى[١] أن يكون قد أجلَّ الفن الصينى ؛ ومهما يكن الأمر فهناك فروق تظهر جلية للباحث المدقق ، حين تعرض عليه صورتان لمنظر واحد أولاهما لمصور صينى والأخرى لفارسى ؛ ونحن حين نستعرض صورتين لمنظر من مناظر الطبيعة مثلاً ، تبارت فى إحداهما ريشة صينية وفى الأخرى فارسية ، فاننا نلاحظ فى الأولى التحرر من القيود الطبيعية وعدم التزام وحدة معينة ، بل نرى كيف يُخضع الفنّانُ الطبيعة لريشته ، بينا نلمس تناسق الأجزاء وترتيب بعضها بالنسبة للبعض الآخر فى صورة الفنان الفارسى ، وربما سأل السامع نفسه إزاء هذا عن العلة أو العلل الحقيقية والمباشرة أو غير المباشرة التى أدت الى افتراقهما بعضهما عن بعض بعد أن اتحدا فى الفكرة ، أهى الخيال ؟ أم الاحساس ؟ أم طبيعة كلّ منهما ؟ وقد يكون ذلك أحد هذه الأسئلة ، وقد تكون جميعها متحدة ، ولكن هناك أمراً لا بد منه ، ولابد أن نذكره إذا أردنا إجابة شافية توصلنا أو تقربنا الى بغيتنا ، ذلك أن استيعاب الفنان الايرانى للمسافات لم يكن كاستيعاب الصينى لها واهتمامه بها ، فبينما نجد عنـد الأخير الطلاقة الفنية ، والاحساس بالحرية ، إذا بنا نجد الفنان الفارسى يحدد قبل البدء ، ويرسم لريشته محيطاً لا تتعداه ، ومحالاً لا تخرج عنه بحال من الأحوال

وصفة ثانية كان يمتاز بها الفنان الفارسى على وجه العموم ، تلك هى أنه لم يكن ليشرد بريشته كثيراً ، وربما عد هذا فى نظر بعض نقاد العصر الحاضر جموداً ، وقد يخالفهم فى نظرتهم هذه كثيرون ، ولكل من الفريقين وجهة ورأى يباين رأى الفريق الآخر ، وقد يتعصبون لهذه الأفكار والآراء ، ولكنهم يتفقون فى أنه عمل رائع جدير بالاعجاب ، وسواء أكان الحق فى جانب هذا أم ذاك ، فذلك أمر مرجعه الى الذوق الفنى والشـــعور المرهف الذى يستشف الحقيقة خلال الطلاسم ، ويتلمس الشعلة من بين أسداف الظلام ، ويتعرف الصواب والحق مهما تكالبت أسباب الباطل ، ويستخرجه كما يستخرج التبر من الترى نقياً

ولعل أقرب الأمثلة على هذه الصّفة التى أشرْنا إليها آنفاً : أعمال (بهزاد) وهو أكبر فنّان فارسى تبوأ ذروة المجد من رسومه الفنّية ، وكان ممتازاً فى إخراجها ، قوىّ الافصاح عن مقصوده ، ولكنه بالرغم من هذا المجد التالد والفنّ الخالد ، فاننا لا نجده قد قام بأيّة ثورة على هذه القيود - كما يسميها البعض - ولم يحاول أن ينتزع نفسه من ربقة التقاليد وترسّم الآثار ، ولم نشهد له محاولة ولو ساذجة تجعلنا نقول إنّ هناك تباشير تطوّر أو حركة تجديدية ضد ما تآلفوا عليه ، بل رأيناه وخلفه يسيرون على منهج واحد ، كأنما استسهلوا هذه الطريق المعبّدة ، ولكنهم على أى حال ، وإن كانوا قد انصرفوا عن هذا الطريق ، إلاّ أنهم جميعاً كرّسوا جهودهم وصرفوا قواهم فى إبداع آيات خالدات فى الفنّ ، تشهد لهم بالعبقرية ، وحسبهم فخراً أن يهتمّ المتحف البريطانى فى انكلترا بلوحات الفنّانين قاسم على والسعدى وغيرهما من أقطاب الفنّ الفارسى

وعلى العموم يمكننا أن نقول إن الفن الفارسى فن لا يكتفى بالنظرة الواحدة للحكم عليه ففى ذلك شىء كبير من الاستبداد ، وهو فنٌ عالىٌ يشهد للفرس بالدقة والبراعة

تلخيص وترجمة

حسن محمد محمود

---

(١) كلمة إيرانى هنا تعادل لفظة « فارسى » وقد طالعنا فصلا قيما فى مجلة (Young Asia) لأديب فارسى أثبت فيه أن اللفظ الأول هو الأصح وعلى كل فقد استعملنا اللفظين لمعنى واحد تحاشيا من التكرار

القصص

من الفن القصصي الحديث

زوج آخر ساعة

Le Mari de la Dernière Heurc

للقصصي الأنجليزي ريس ديفز Rhys Davies

ترجمة علي كامل

« ريس ديفز من أصغر القصصيين الانجليز سناً . وهو كغيره من الكتاب الانجليز المعاصرين شديد التأثر بالمذاهب الجديدة في علم النفس ، فتراه في قصصه يعمد إلى التحليل الدقيق لشتى العواطف والنزعات التي تعصف بكل نفس إنسانية . والقصة التي نترجمها له اليوم قد ترجمت إلى عدة لغات حية »

نزلت مارية من غرفة نوم والدها وقالت لعمتها في هدوء وحزن كعادتها دائماً :

ـ لقد مات !

ـ فرفعت عمتها (آن) عينيها من فوق الانجيل الذي كان بين يديها ، وفتحت فاها حتى آخره وقد انتابها فزع عظيم ، ثم بحثت عن منديلها ومسحت به عينيها العجوزين اللتين لا تتسرب اليهما الدموع ، ثم بكت وهي تقول :

ـ إنهم يذهبون جميعاً قبلي !

وفتحت مارية الدولاب وتناولت منه (التريكو) وجلست أمام النار كعادتها كل مساء ، وأخذت تشتغل باهتمام رغم ضجرها وتعبها من السهر الطويل وعنايتها بالميت

فنظرت اليها عمتها وهي تكاد تصعق من الدهشة ، ودب في جسمها النشاط وصرخت في وجهها قائلة :

ـ تحركي يامارية ، ليس هذا وقت (التريكو) . اذهبي واسحبي عن الستائر لنغطي بها النوافذ . ويجب أيضاً أن نغير للميت ملابسه ونقوم له بكل ما يلزم

على أن مارية لم تتحرك ، ورغم أنها كانت منهوكة القوى كان يظهر عليها دلائل فرح مرير ، فقد كان يبدو لها أنها تحررت مرة واحدة من قيود عنيدة مؤلمة ، كانت تقول بصوت منخفض مخاطبة عمتها (آن) :

ـ لقد كان والدي رجلاً قاسياً يا عمتي (آن) ، وكان كل يوم عنده يوم أحد . لقد جعل من هذا المنزل (مدرسة يوم الأحد) وكم من مرات حقدت عليه وكرهته ، وكانت والدتي تشبهه . وكنت أنا بين الاثنين كأنني في جحيم لا يطاق

في أثناء ذلك كانت عمتها (آن) تصعّد تنهدات الحزن والألم . قالت الفتاة :

ـ إنها الحقيقة المرة ، والآن وقد مات الاثنان فاني أستطيع أن أحكم عليهما . لقد جعلا مني فتاة عجوزا لم تر من مُتع الحياة شيئاً . فكنت لا أعرف غير الانجيل من الصباح وعند الظهر وفي المساء

كانت الفتاة تتكلم بصوت ملؤه الحقد والعداوة ، وكانت ترتعش حسرة على نفسها . كانت تفكر في تلك الجثة الراقدة في الطابق الأعلى والسخط مستول عليها . كانت تريد البكاء ولكن دمعة واحدة لم تجُد بها عيناها . وكان وجهها الغليظ الذي بدا عليه الغضب والكبرياء منكباً على (التريكو) الذي بيدها . قالت :

ـ والآن وقد ضاعت خير أعوام حياتي في العمل في سبيلهما ، فسأبقى بقية حياتي وحيدة ، ولو كانا تركاني أخرج من المنزل لاستطعت أن أجد الفرصة لأتزوج

قالت عمتها :

ـ مهلاً . إنك لازلت في الثلاثين من عمرك ، وفي استطاعتك الآن أن تجتهدي في إيجاد زوج لك . إنك يامارية فتاة قويمة الأخلاق تحسنين الطهي . إنك لست كفتيات اليوم

الطائشات ، وهناك كثير من الرجال الذين يبحثون عن فتاة مثلك ليتزوجوها

واستمرت مارية تشتغل فى صمت . . . ثلاثة وثلاثين عاماً ! قبيحة المنظر غليظة الجسم منكسرة القلب ! أى رجل ذلك الذى يريد مثل هذه الفتاة فى هذه الأيام ؟

وتملكها خوف عظيم وهى تشتغل ، كم من الأشياء فقدتها فى الحياة ! لقد أدركت تماماً أنها كانت تعيش بعيـدة عن عالم المسرات والملذات ، والآن فات وقت التمتع . ولكن ألم يعد هناك أمل فى شئ ؟ قالت الفتاة :

ـ إننى أظن يا عمتى (آن) أنه يحسن أن أبيع هذا المنزل وأقيم على ساحل البحر

فأجابت المرأة العجوز على الفور فى غضب :

ـ لا تبادرى بعـثرة المال الذى تركه لك أبوك . هلا فكرت فىّ ؟

وأجهشت العمة بالبكاء :

ـ هاهو ذا المال يامارية قد ابتدأ يجعل منك فتاة منطفئة الآمال قاسية القلب . إننى أعرف نفسيتك الآن

وخرجت العمة لرؤية الميت . وابتدأت عينا مارية الزرقاوان المنطفئتان تلمعان من جديد ؛ إن التفكير فى المال الذى ورثته وفيما يمنحه هـذا المال من السلطان ، قد جعل حرارة السعادة تدب فى جسمها الغليظ .غير أنها كانت تود أن تكون أصغر سناً مما هى الآن . وكانت تعرف أيضاً أنها قبيحة المنظر

ودخلت العمة آن قادمة من غرفة النوم وهى تقول : لقد رحل إلى العالم الآخر . إن وجهه جميل وطاهر ، والآن يا مارية أى مجبِّز نعهد اليه بالقيام بحفلة الجنازة ؟

فأجابت مارية :

ـ جون جونز . إنه أرخص من توماس إيفانز

ـ ولكن إيفانز ممن ينتسبون إلى الكنيسة القديمة . إن الذين يحترمون أنفسهم لابد يفضلونه ، وعرباته أيضاً أكثر جمالاً .

فقالت مارية بصوت الآمر :

ولكننى أفضل جون جونز . لقد كنت معه فى المدرسة وكان دائماً معى رقيقاً

فأجابتها العمة آن وقد أخذها الغضب :

ـ إنه رجل أعزب طماع

وذهبت مارية وأحضرت الأقمشة البيضاء لتغطى بها النوافذ ، وكان ذلك علامة على أن الموت قد عرف طريقه إلى المنزل . ولم تـكد تمضى عشر دقائق على ذلك حتى كان سيل الجيران قد ابتدأ يتدفق ليروا الميت . وكانت العمة آن جالسة بجانب جثته . بينما كانت مارية فى الطابق الأرضى تصغى بسخرية إلى كلمات المجاملة والعزاء التى يوجهها اليها الزائرون

قالت إحدى النساء :

ـ ولكنك سوف تكونين فى سعة من العيش ، فلقد ترك أيضاً وراءه مقادير مخبأة من المال لا بأس بها . لقد كان دائماً متبصراً يا مارية . كان يشح من أجلك

فمطت مارية شفتيها بسخرية وابتسمت ابتسامة باردة وقالت :

ـ إن كل ما هنا قد عاد إلىّ . ولكنك عديمة الفطنة يامسز هاولز . إنك تفكرين دائماً فى المال

آه ! مثلك أنت . إنه يبدو عليك أنك فتاة غير طبيعية من كل الوجوه يا مارية ، ألا تذرفين دمعة واحـدة على أبيك المسكين ؟ ها أنت جالسة كـكتلة من الثلج ، لا تعرفين الـكلام إلا فى كل ما لا يتفق مع الموقف الذى أنت الآن فيه !

وكان الجيران خارج الغرفة يتكلمون عن عـدم تأثر الفتاة وجمود عينيها اللتين لم تعرف الدموع اليهما سبيلا ؛ ولـكن مارية كانت جالسة فى هدوء ، مفعمة القلب بالأحتقار والعداوة للجميع ، متمتعة فى أعماق نفسها بأن تكون موضع أحاديث الناس ، هانئة بذلك الدخل الذى سوف تناله عما قريب . وعندئذ شعرت أنها أصبحت مستقلة طليقة ، وفى نفس تلك الليلة آوت إلى سريرها فى فراشها الوثير باستسلام شهوانى . وكأنما الموت الذى أقبل إلى المنزل قد فتح فى أعماق نفسها منبعاً من السرور العجيب

***

وفى صباح اليوم التالى أرسلت مارية عمتها (آن) لتبحث عن المجبِّز ، فخرجت آن وهى تتمتم بعبارات السخط والغضب ، ولـكنها كانت تتعزى كلما فكرت فى أنها ستفوز بخمسة شلنات ، لتشترى بها ثوباً أسودَ وقبعة . كانت تقول لنفسها وهى تبكى :

ـ وإن دفنه بيـدى جون جونز سيقلقه فى مقره الأخـير . فعرباته القديمة فرشها حقير للغاية . إنى أخجل منه

وعاد المجنز معها واستصحبته الى الدور الأعلى لكي يقيس جثة الميت ، ثم نزل الى الصالون حيث انتظر مارية

وجاءت مارية ، فبادرها بقوله :

ـ ما أكثر وقار وجهه يا مس مورجنز

فأجابته مارية فى الحال بنظرة خبيثة قائلة :

ـ إن وجهك أنت سيكون أكثر هدوءاً ووقاراً حين يتوفاك الله !

فسألها وهو يهز رأسه الصغير :

ـ وكيف ذلك ؟ لقد عشت حتى الآن عاقلاً رزيناً

فقالت بخبث وهى تبحث له عن كرسى :

ـ لقد كنت فى المدرسة صبياً ماجناً خداعاً ، اجلس الآن ودعنا نتكلم فى الموضوع

كان چون چونز شاباً نشيطاً عصبياً أشبه بعصفور . ألقى چون چونز قبعته بجانبه ، وفرك يديه ثم وضعهما على ركبتيه النحيلتين كركبتى مراهق ، وكان يحاول عبثاً أن يتظاهر بالبرود الحزين الذى يتناسب مع مهنته ، فقد كان خفيف الحركة ، ويبدو كأنما يثقله العمل الكثير ، وكانت لحيته كأنها محلوقة منذ برهة وجيزة ، كما أنه لم يكن ناجحاً فى عمله كنافسه

قال چون چونز ، وقد بدا على وجهه نوع من الاهتمام :

ـ أى نوع من التوابيت تفضلين ؟

وعند ما نظرت اليه مارية نظرة باسمة احمرت وجنتاه وتولاه الاضطراب . سألته قائلة :

ـ كم الثمن الذى تريده ؟

كانت مارية جالسة أمامه وجهاً لوجه تناقش الأثمان بمكر ودهاء عجيبين ، وقد مطت شفتيها الغليظتين ، وبدا عليها التفكير والانتباه ، مما جعله يعجب بها برغم سخطه . وبعد حساب طويل ، قال :

ـ إن كل شىء سوف لا يتكلف أكثر من عشرين جنيهاً ، فهزت مارية رأسها قائلة :

ـ ان توماس إيفانز يأخذ أقل من هذا

فقفز چون چونز من على كرسيه ، وقد تملكه الغضب وقال :

ـ إنك يهودية الى آخر حد يا مارية مورجنز ، إنه لا يليق أن تكونى شحيحة هكذا فيما يتعلق بالمآتم

فوقفت مارية أيضاً ، وقد احمرت وجنتاها من الغضب وصرخت :

ـ إنك تريد أن تسرق الأيتام الفقراء ، تريد أن تربح من فتاة لم يعد لها أب !

فضحك چون چونز ساخراً :

ـ أيتام فقراء ! إننى متأكد أن والدك قد ترك مالاً وفيراً ، ولكن ابنته تريد أن يدفن كما يدفن رجل معدم

وفرقع أصابعه بعصبية ، ونظرت مارية اليه طويلاً ، وقد انخفض جفناها وعاد اليها خبثها من جديد ، ثم قالت :

ـ إننى أحب أن أراك غاضباً مهتاجاً ، إنك بهذا تكون أكثر رجولة ، ولكنك الآن أكثر غضباً مما يجب أن يكون عليه (حانوتى)

كان چون چونز يسائل نفسه : كيف يترك هذا الرجل الموقر وراءه مثل هذه الفتاة الوقحة ذات اللسان البذىء ! على أنه تذكر تجارته التى كانت آخذة فى التدهور ، فقال بهدوء :

دعينا من هذا يا مس مورجنز ، كونى أكثر عدلاً ، سوف أنظم لك جنازة فخمة بتسعة عشر جنيهاً ونصف جنيه

وطلبت مارية من عمتها أن تحضر الشاى لچون چونز ، وأخرجت هى خير ما عندها من الحلوى والفاكهة وأعطته منها كمية كبيرة

***

وفى يوم الدفن كان المطر يسقط مدراراً ، والسماء مكفهرة ، والجو ردىء . وكانت مارية حزينة لأنها أنفقت كثيرا من النقود فى شراء فستان أسود جميل وقبعة ، كانت تقول لنفسها بعصبية متنقلة بين الحوانيت :

ـ سوف يعرفون أنه حتى مس مورجنز الفقيرة اللبس تستطيع أن تبرهن على أنها سليمة الذوق

على أن المطر ضايقها كثيرا ، فقالت لعمتها (آن) وهى ساخطة فى صباح يوم الدفن :

ـ سأضطر للذهاب لشراء معطف للمطر وشمسية جديدة ، إننى دائماً سيئة الحظ ، فسوف يكون هذا النهار رديئاً

كان المطر يسقط والرياح تصفر بقوة شديدة بالقرب من

المقبرة ، وكانت مارية واقفة بجانب القبر متكئة بجسمها الضخم على ذراع ابن عمتها تفكر فى تمسيتها الحريرية الجديدة وتنعم النظر فى الزهور التى تداعبها الرياح ، وتفكر بحسرة مريرة فى شبابها المنطفىء . آه ! ولكن كم من الأوقات الطويلة السعيدة ستتمتع بها حين ينتهى كل ذلك ! لا ، إنها سوف لا تبيع منزلها وتعيش بعيداً ، فستكون مجهولة لا يعرفها أحد إذا ذهبت الى مكان آخر ، سوف تشترى كمية من الفساتين وتنشر (الموضة) فى الحى الذى تعيش فيه ، وتدهش صديقاتها . وسرعان ما رأت نفسها تنزل الى الدور الأرضى من الكنيسة فى روعة يحسدها عليها الجميع . ولكن عند ما أخذ الجميع يرتلون الترتيلة المحزنة الأخيرة فكرت من جديد فى ألوان السعادة التى حرمت منها ؛ وأخيراً بكت ، فخفف بكاؤها كثيرا مما يثقل قلب عمتها (آن)

وعند ما أخذت مكانها فى العربة أقبل (الحانوتى) وفى يده غطاء غطى به ركبتيها وعلى وجهه أمارات التأثر ، ثم قال :

ـ إن داخل العربة بارد . إنك قادرة على كتم عواطفك بشجاعة يا عزيزتى مس مورجنز

فأجابته بشموخ :

ـ أشكرك يا چون چونز ، أظن أنه لابد لك من شلن من أجل هذا الغطاء !

وعندما دخل الجميع العربة اتجهت اليها عمتها (آن) وقد بدا عليها الغضب ، وقالت :

ـ إنك تتصرفين كما لو كنت قطعة من الخشب ، لقد أفسدت علىّ عملية الدفن ، وكنت خجلة منك الى أقصى حد

فقال ابن عمة الفتاة فى صوت متأثر :

ـ يا عزيزتى ، لقد بكت عند ما كنا نرتل الترتيلة الأخيرة ، فأجابت العمة :

ـ آه ، عندما كان كل شىء قد انتهى تقريباً . سوف يتكلم عنها كل من كانوا بالكنيسة

فقالت مارية بكبرياء :

إن كل ما يقولونه لا يهمنى ، وأنت يا عمتى (آن) عجوز مرائية ، إننى أعرفك جيداً

ثم قالت ساخرة :

ـ إن كل ما فى المسألة أنك تحسديننى من أجل ثروتى لاغير !

وعند ما وصلوا إلى المنزل صعدت مارية إلى الطابق الأعلى لكى تخلع حذاءها الضيق الذى خرج أصابع قدميها . وكانت جموع الناس قد اجتمعت منتظرة الطعام الذى يعد عادة بعد الجنازة . وكانوا يعلقون بأصوات خافتة من الجوع على كل ما حدث فى الجنازة . أما مارية فقد فتحت صندوقاً مغلقاً بمفتاح ، وعلى وجهها ابتسامة خفيفة . وأخرجت منه علبة المسحوق الأبيض التى اشترتها بعد موت والدها ، ودهنت أنفها اللامع وخديها النحاسيين ، وهى فى غبطة وسرور من هذا الأثم الجديد . وبعد ذلك لبست قرطها بهدوء . ثم اتجهت نحو السلم فرحة منتفخة كأنها ملكة مهيأة من جديد للنزول وعليها أمارات الأبهة والجلال . وفى أثناء نزولها سمعت أصوات بعض النسوة اللائى كن يتكلمن عند المدخل بصوت منخفض ، فوقفت تنصت إليهن ، فسمعتهن يذكرن اسمها . قالت إحداهن :

ـ لقد كانت دائماً سخيفة غبية . ولكنها اليوم كانت حقاً وضيعة النفسية لا يحمل قلبها ذرة من النبل . لقد كانت معجبة بملابسها السخيفة كأنها فى حفلة زواج

وقالت الأخرى :

ـ ألم تكن تفكر أنه كان يجب عليها أن تبكى على الأقل اعترافاً بالجميل من أجل ذلك المال الكثير الذى تركه لها

ـ لقد كانت كشخصية مضحكة فى مأساة محزنة . ما هذه القبعة التى كانت تلبسها ! أى مرض فى الذوق ذلك الذى جعلها تلبس هذه القبعة فى جنازة أبيها !

ونزلت مارية بهدوء . وعند ما أحست النسوة بقدومها ابتدأن يتكلمن بأسى عن ساعة الدفن ، ونظرن إليها بعيون كلها شفقة ورثاء . فنظرت إليهن مارية ، وقد كشرت عن أنيابها وصاحت :

ـ أخرجن من منزلى يا ذوات الألسنة البذيئة . أخرجن من هنا !

فجرى النسوة من وجهها الغاضب . ولكن إحداهن صاحت لدى الباب :

ـ امسحى هذا المسحوق الأبيض الذى على وجهك أيتها الفتاة المفتونة !

* * *

وبعد أسبوع ذهب چون چونز إلى المنزل ومعه قائمة حسابه

فأدخلته ماريةإلى الصالون ، ووضعت على الطاولة تسع عشرة ورقة من ذات الجنيه ، فعد (الحانوتى) النقود بعناية . ثم التفت اليها وقد احمرت وجنتاه . ثم قال رافعاً صوته :

ـ أرجـو يا مس مورجنز أن تمطيني النصف جنيه الباق .

فأجابته :

ـ إذن قدم لى حساباً عن هذا المبلغ الضخم . لقـد كانت الجنازة متواضعة

فصاح وهو يهز قبضته بانفعال شديد :

ـ سوف أذكر لك ذلك أمام المحكمة . نعم سأقاضيك مطالباً بمبلغى أيتها المرابية الشحيحة !

كانت ماريةمتشحة برداء من القطيفة السوداء . لابسة عقدها وقرطها . معلقة ساعتها فى ردائها الضيق الملتصق بجسمها المفصل على آخر طراز . قامت مارية من على كرسيها وقالت بطريقتها الانجليزية الرشيقة :

ـ لست ممن يتناقشن مع الحانوتى من أجل نصف جنيه . لقد كنتُ أظن أنك رجل مهذب ولـكن يظهر أننى كنت مخدوعة

ظل جون جونز صامتاً وكأنه تذكر فجأة شيئاً . فنظر اليها بعينيه اللامعتين اللتين تشبهان عينى قرد ، وقد بدا عليـه الألم والحسرة ، ولـكن مارية خرجت من الغرفة ببرود وعادت وفى يدها كيس من التيل ، وأخرجت منـه حزمة منتفخة من أوراق البنكنوت . فنظر جون جونز إلى النقود . وقال بصوت تبلله الدموع

ـ اغفرى لى ثورتى يا مس مورجنز . لقـد نسيت فى فترة غضبى الخسارة المؤلمة التى انتابتـك . يا إلـهى ! كم ستشعرين بالوحدة ، إن عمتك ليست الرفيق اللازم لفتاة شابة . هلا وضعت بعد مشروعات تقومين بها فى المستقبل ؟

لقد كان قلبه الصـغير الحساس يخفق حقيقة بحرارة رحمة بمارية التى لا أنيس لها . وابتسمت مارية ابتسامة خفيفة ، وهى تعبث بيـدها فى أوراق البنكنوت ، بينما جون جونز ينظر اليها وعليه أمارات التأثر

أجابت مارية :

ـ إننى لست متعجلة . فسوف أعيش عالى فى بسطة من العيش

فقال جون جونز :

ـ حقاً . ويمكنك أن تحصلى على ثمن جيد لهذا المنزل وللأربعة منازل الأخرى التى تقع فى طريق الناجم . إنهم خالون من حق الأرتفاق . أليس كذلك ؟

فقالت مارية ضاحكة

ـ إنك تريد أن تعرف كل شىء !

وخرجت ثانيــــة حاملة معها الـكيس ، ثم عادت ومعها زجاجة من النبيذ الفاخر وطبقاً من البسكويت . صرخت مارية بنشوة وافتخار رافعة الزجاجة إلى أعلى :

ـ إنها الأولى فى هذا المنزل

فقال جون جونز ضاحكاً أيضاً

ـ لقد كان والدك مدمناً على شرب الماء !

وبينما كانا يشربان كانت مارية تنظر من النافذة بنشوة كأنها فى حلم . ولـكنها لاحظت أن الحانوتى يرمقها بنظرات عصبية

قالت مارية :

ـ لا ، إنى لم أضع بعد مشروعات . كنت أريد أن أنتقل من هذا المنزل . ولـكن فتاة غير متزوجة لابد أن ستشعر بالوحدة المضنية فى مكان غريب . أما إذا وجدت زوجاً . . . . ورفعت عينيها الذابلتين نحوه . وكان هو من ناحيته ينظر إليها بتحديق شديد

لقد كان ذلك أكثر مما كان يأمل ، فشرب قدحه سريعاً ، ثم رفع كوبته بيد مرتعشة وانحنى على ركبتيه أمامها ، وأمسك بيدها وهو يتكلم بعبارات سريعة مضطربة قائلاً :

ـ خذى يا عزيزتى مس مورجـنز . إننى أنا أيضاً أعزب وحيد . لقد أحببتك منذ أن رأيتك أثنـاء دفن والدك هادئة ووحيدة . حقاً إننى أحبك . إننى أشعر فى أعماق نفسى بشىء غريب نحوك

ـ فأخذت مارية تضحك ضحكاً طويلاً لا ينقطع ثم قالت :

ـ حسناً ! حسناً ! إنها مصادفة عجيبة . لقد كنت أعتقد ياجون جونز أنك بخيل لدرجة أنك لا تستطيع أن تحب . هل تحبنى من أجل ذاتى ؟

فقال جون جونز بحزن :

ـ إنك قاسية خبيثة

فأجابته فى الحال بحدة :

ـ أوه ! إننى لا أشعر بالحب نحو أى رجل ما . إننى أريد أن أتزوجك ليكون لى اعتبار فى أعين الناس . والآن كم يكون هذا مفاجأة عجيبة بالنسبة لأولئك النسوة جميعاً !

علي كامل

من هنا ومن هناك

ضوء جديد على قضية دريفوس

نعرف ما لقضية دريفوس الشهيرة من أهمية وآثار بالغة في تاريخ فرنسا المعاصر السياسي والاجتماعي. وقد مضى اليوم زهاء ثلاثين عاماً على خاتمة تلك القضية الشهيرة التي حكم فيها على الضابط البريء الفريد دريفوس بالنفي والتجريد، واستمرت أدوارها بين إعادة نظر ونقض وأحكام مختلفة مدى عشرة أعوام. تأثرت خلالها الحياة الفرنسية العامة أيما تأثير؛ ثم حكم نهائياً ببرئة الضابط المظلوم ورد اليه حقوقه واعتباره. ومع ذلك لم تقل بعد آخر كلمة في هذه القضية الشهيرة. فقد صدر أخيراً كتاب بالفرنسية بقلم هنري ما زيل عنوانه «تاريخ قضية دريفوس ونفسيتها» يذهب فيه المؤلف إلى رأى جديد يوفق فيه بين رأى القائلين ببراءة دريفوس، ورأى خصومهم، وأنه لم يكن في المسألة كلها خائن ولا متهم؛ وأنه إذا كان ثمة متهم، فهو متهم من نوع خاص لأنه لم يكن سوى الكولونل شفارتز كوبن اللحق الحربي للسفارة الألمانية، فهو الذي دبر الدسيسة كلها، وعمل على تغرير أركان الحرب وخديعته

ذلك أن الكولونل لاحظ منذ مدة أن مدام بستيان خادمة السفارة تحمل دائماً قصاصات الورق التي يلقيها في سلة المهملات إلى قلم المخابرات الفرنسي؛ ففكر عندئذ في أن يخترع حكاية «البردرو» وهي الوثيقة التي كانت أصل القضية كلها، فكتب عندئذ هذه الوثيقة بنفسه، مقلدا فيها خط الضابط استرهازي الذي كان لديه نماذج من خطه لأنه كان يكاتبه؛ ولما كتب الوثيقة مزقها بعد ذلك، وألقاها في سلة المهملات؛ فأخذت مدام بستيان القصاصات كالمعتاد إلى قلم المخابرات

ويؤيد مسيو مازيل رأيه بأدلة منها أن «البردرو» كان مكتوباً بفرنسية ركيكة لا يمكن أن تصدر من ضابط في أركان الحرب مثل دريفوس، ولا يمكن أيضاً أن تكون من كتابة استرهازي لأنه كان يكتب خطاباته دائماً في أسلوب مختار؛ وكل الدلائل تدل على أن «البردرو» إنما كتبه رجل بالفرنسية يفكر بلغة أخرى

وقد أثارت نظرية مسيو مازيل اهتماماً كبيراً في دوائر التاريخ والقضاء؛ ونالت تأييداً كبيراً

آثار ملكة سبأ

ما زالت اساطير العصر القديم التي تجرى مجرى التواريخ تثير طلعة الباحثين والمكتشفين؛ فهم يحاولون في فلسطين مثلاً أن يعثروا بآثار سليمان وداود؛ ويحاولون أن يكتشفوا بقايا «ارم ذات العماد» في بلاد العرب. وهنالك من يحاول أن يكتشف آثار ملكة سبأ في بلاد الحبشة، وذلك هو الكونت بيرون دي بورك العلامة الأثري البولوني، وهو ممن يعشقون الأساطير القديمة ويهيمون بتحقيقها، وقد اكتشف من قبل في تلك المجاهل قبر «تيني هنان» الذي كان يعتبر من قبل خرافة، ومنذ أشهر عاد إلى الحبشة من طريق السودان المصري، ليحاول البحث عن مناجم سليمان الذهبية، وآثار ملكة سبأ الشهيرة؛ وعكف على البحث مدى حين في هضاب بلاد يامو؛ ولكنه لم يظفر بآثار حقيقية تكشف عن حقيقة تلك الأساطير الشهيرة؛ بيد أنه استطاع أن يجمع كثيراً من المعلومات الأثرية الهامة عن تلك المنطقة؛ وربما عاد في فرصة قريبة ليستأنف مباحثه

والواقع أن من الصعب أن نقتنع بصحة أمثال هذه الأساطير من الوجهة التاريخية. وقد يكون لبعضها أساس تاريخي، ولكن الأسطورة تحيط به وتجرده من حقيقته الأولى لتخرجه لنا في ثوب خرافي محض. ومن هذا القبيل أسطورة قبر «الأسكندر» المقدوني، وكونه قد دفن بالأسكندرية، فقد اهتم المستر هوارد كارتر مكتشف قبر توت عنخ آمون بهذه الرواية. وأخذ بالفعل يبحث عن تحقيقها تمهيداً لاكتشاف قبر الأسكندر. على أن لهذه الأسطورة مهاداً أخرى، إذ يروى أن الأسكندر دفن بالشام، أو ببلاد الفرس، وقد ذهبت جهود العلماء لتحقيقها سدى منذ نصف قرن

التنافس بين الفاشستية والهتلرية على استعباد الشعوب

كثر الجدل أخيراً بين الصحف الألمانية والصحف الايطالية ، وانفردت الصحف الألمانية الى جانب الصحف الروسية بالحملة على مشاريع إيطاليا وجهودها الاستعمارية ، ولاسيما فى بلاد الشرق الأدنى . وتنتهز الصحف الألمانية هذه المناسـبة للحملة على « الفاشستية » والمقارنة بينها وبين « الاشتراكية الوطنيــة » (الهتلرية) الألمــانية ؛ وقد نشرت مجلة « فولك أوند رخت » (الشعب والحق) البرلينية أخيراً فصلاً تندد فيه بخطط إيطاليا وبالفاشستية الايطالية ، وتقول إن سلام شعوب الشرق الأدنى لا تحققه الفاشستية التى هى فى الواقع عنوان عصر قد ختم ؛ أما « الاشتراكية الوطنية » فهى بالعكس نظام جديد ؛ قد خلق أسلوباً جديداً للتفكير يعارض كل ما تذهب اليه النظرية الغربية فى شأن الدولة والرأسمالية ، ولا سلام للشرق إلا باعتناق مبادىء الاشتراكية الوطنية . وقد ردت جريدة « جورنالى ديتاليا » الايطالية على هذه الحملة ، فقالت إنه يراد أن يخلق تعارض بين الفاشستية والاشتراكية الوطنية ، وأن يتخذ من هذا التعارض أساساً لمنافسة سياسية تزمع ألمانيا أن تقوم بها ضد إيطاليا فى الشرق الأدنى ، وتسلم الصحيفة الايطالية بوجود فروق جوهرية بين الفاشستية والاشتراكية الوطنية ، ولكنها تنوه بما تقوم عليه النظرية الألمــانية من التفاضل بين الأجناس ، وأنها تطالب بوحدة الأمم من الوجهة الجنسية . والواقع أن أمم الشرق الأدنى تتكون اليوم من مزيج من الأجناس المختلفة ، وتتكون كل منها حول الجنس الغالب ؛ فاذا فكرت فى ألا تطبق المبادىء الهتلرية فعليها أن تمزق نفسها مختارة ، وأن تتنازل عن أجزاء من أراضيها تعمرها الأجناس الدخيلة أو المنحطة

وهكذا يتم هذا الجدل عن غايته ، فأنصار الاشتراكية الوطنية يزعمون أنهم أحق باستعمار الأمم وبسط نفوذهم عليها ؛ ويعارضهم أنصار الفاشستية فى هذه الدعوى ؛ وأمم الشرق تستهدف فى الحالين الى مطامع الاستعمار ودسائسه ؛ ومن المفيد أحياناً أن تتبع الأمم الشرقية مثل هذا الجدل لتقف على ماتبطنه الفاشستية الايطالية أو الهتلرية أو غيرهما من الدعوات والمبادىء الخلابة نحوها من ضروب الغدر والعدوان

المسرح والسينما

كتب كاتب فى جريدة « الطان » نبذة شائقة عن المسرح والسينما وما يضطرم بينهما من منافسة ينوء بها المسرح . ومنذ حين يثور الجدل حول هذا الموضوع ، وتتجه معظم الآراء الى أن تقدم الفن السينمائى كان ضربة قاضية للمسرح ، وأن المسرح يتدهور بل ينحدر الى الفناء بسرعة ، وأن السينما قد انتزعت منه معظم رواده ومحبيه . ويقول لنا كاتب « الطان » إن هذه الجلسات السينمائية الصغيرة ، ومناظرها الشعرية الغريبة ، قد خلبت حقاً ألباب الناس ، غير أنه يذهب الى رأى جديد فيما يتعلق بتقدم الفن السينمائى ؛ فهو يرى أن السينما ليس لها من الوجهة الفنية عدو ألد من نفسه ، وأخطر من نجاحه ، فهو من من جهة عبد القوة المالية يطيعها طاعة عمياء ، ومن جهة أخرى عبد المخرجين (مخرجى المناظر) . ولما كانت الأشرطة السينمائية لغة عالية ، فان مخرجيها لايفكرون إلا فى إخراج أشرطة ومناظر تجتذب أعظم مجموعة من الرواد ، ويمكن أن تعرض فى نفس الوقت فى يوكوهاما وبرلين وباريس ولندن ونيويورك وشنغهاى ، والنـجاح يغدق المال . على أن هذا النجاح نفسه يحمل المخرجين على أن يتحروا دائماً التأثير فى العدد ، ونجاح الـكمية لانجاح النوع ، ومن ثم كانت جمهرة « الأفـلام » المماثلة فى المناظر والأذواق العامة ، وهى مناظر أصبحت معروفة يتوقعها ويتنبأ بها الجمهور بلا مشقة ، وهذا الاتجاه المادى المحض الذى يتخذه الفن السينمائى يثير اليوم بين الـكثيرين ضجراً وخيبة أمل ، وهؤلاء يرون أن الفلم لم يعد يرضى أذواقهم وأمانيهم الفنية ، وأن المسرح هو الـكفيل بتحقيق هذه الأذواق والأمانى

ولهذا يتجه الـكثيرون اليوم صوب المسرح ، ويعود المسرح فيحرز بعض النجاح والانتعاش ، ولـكنه انتعاش بطىء يحتاج الى وقت غير قصير ، غير أنها على أى حال ظاهرة تدعو الى التفاؤل . وفى وسع أنصار المسرح والفن المسرحى أن ينتهزوا هذه الفرصة فيضاعفوا جهودهم لتجديد المسرح من الناحية الفنية ؛ ويستطيع الـكاتب المسرحى أن يؤدى فى ذلك التجديد دوراً خطيراً ، إذا استطاع أن يزود المسرح بطائفة من الآراء والمناظر المبتكرة

البريد الأدبي

فى نادى القلم العراقى

عقد نادى القلم فى بغداد جلسة فى دار أحد الأعضاء ، وقد ألقى فى هذا الاجتماع رئيس النادى الأستاذ رضا الشبيبى محاضرة عن (المجريطى : فلسفته ومكتشفاته) وهى نتيجة دراسة كتاب من أهم كتب المجريطى ، وهو من أنفس الآثار العربية النادرة اسمه « غاية الحكيم وأحق النتيجتين بالتقديم » ، وبعد أن ألم المحاضر بتاريخ المجريطى قائلاً فى هذا الباب إنه صاحب رسائل (إخوان الصفا) الأندلسية التى ألفها على نمط (رسائل اخوان الصفا) العراقية فبذر فيها بذر التفكير العلمى فى أذهان الأندلسيين ، فلم تلبث الفلسفة أن ازدهرت فى العصور التى تلى عصره فى الأندلس ، وجاء منها أمثال ابن رشد وابن الصائغ وابن طفيل وبنى زهر وغيرهم من أعيان الفلاسفة والمفكرين . وذكر أيضا أن المجريطى عالج عدة موضوعات تاريخية وفلسفية ، وهو مؤلف كتاب (تاريخ فلاسفة العرب) ترجم فيه الكندى وغيره ، وقد استظرف الكندى رسالة موضوعها (كمية بقاء دولة العرب) (؟)

وبعد ذلك شرع المحاضر يسرد نتيجة دراسته لهذا الأثر من آثار المجريطى وقال : يستفيد من هذا الكتاب ، أى كتاب غاية الحكيم ، من يعنى بدراسة تاريخ الحضارة البشرية فى أقدم عصورها ، ومستنبطات الأمم المعريقة فى القدم من أنباط وأقباط وسريان وهنود وغيرهم ، ومكتشفاتهم وجهودهم فى تقدم العمران ؛ وبعد أن أورد هذا ونحوه قال : لا أستبعد أنا والحالة هذه أن يكون لآراء المجريطى ومكتشفاته أثر فى عمران الأندلس وازدهارها خصوصاً فيما يتصل بالهندسة والكيمياء وعلم المواليد الطبيعية ، وإن سكت المؤرخون عن ذلك كله . واستنتج من مواضع أخرى من الكتاب أن المجريطى فيلسوف يميل إلى الدراسة الشاملة ، ولكنه يرجح العلوم الواقعية التى يؤيدها الحس والتجربة ، ولا يذعن إلا لأحكام العدد والأرقام فى تفكيره . وأنه مفكر من طراز أعظم مفكرى العصر فى الرياضيات والطبيعيات . وينحو من بعض الوجوه منحى الرياضيين الأوربيين فى محاولة إخضاع قوى الطبيعة واستخدامها لرفاه الأنسان ورفع مستواه فى سلم الحضارة ، هذا ونحوه

(البلاد البغدادية)

للحق والتاريخ

قرأت فى الرسالة السابعة والثمانين نبأ « عيد الربيع القومى فى سورية » وأن (فريقاً كبيراً من طلبة الجامعة السورية والمدرسة التجارية والمدارس الثانوية العالية عقدوا اجتماعاً بحثوا فيه مشروع إقامة عيد قومى فى الربيع وأطلقوا عليه اسم عيد الربيع القومى) . فعجبت من نفسى ! كيف أكون فى صلب دمشق ، وأكون أشد الناس صلة بمثل هذه المشروعات ، ثم لا أسمع بهذا الخبر إلا من مصر . . . وإنى لأصفح « الجزيرة » كل يوم يتفضل منشئها الفاضل فيبعث بها إلىّ . ولكن من طبعى أنى لا آكل الجوز بقشره . . . وأنى أتخير اللباب من كل شئ ، ولذلك لم أقرأ هذا الخبر فى الجزيرة » . أما وقد نشر فى «الرسالة» والرسالة ديوان العرب ، وكتاب الشرق ، فلم يبق من قراءته والتعليق عليه بدّ ، كيلا يعلق منه شىء فى نفوس القراء ، ويبقى مخزاة خالدة لدمشق

والحق أن شيئاً مما قالوا لم يكن ، وأن هذا الاجتماع لم يعقد إلا فى رأس كاتب هذا الخبر ، وأن لطلبة الجامعة السورية لجنة تنطق بلسانهم ، وتنوب عنهم ، ولم يدع واحد من أفرادها إلى اجتماع ، ولم تدع هى أحداً إلى اجتماع لمثل هذا . . . ولها مشاغل وأعمال هى خير لهذه الأمة وأجدى عليها من تأليف مواكب (تمثل أزاهير دمشق) . . . ورئيسها الشاب العالم الفاضل الشيخ معروف الدوالى رجل مسلم يكره أن يدخل باخوانه « جحر الضب » !

(أما المدرسة التجارية « العليا » (؟) التي يقوم أحد طلابها برحلة إلى شمال سورية من أجل هذا المشروع !) . فجاع أمرها أنها دار في طريق الصالحية استأجرها قنصل إيطاليا منذ شهور ، وكتب على بابها « المدرسة التجارية » واشترى لها مدرساً أديباً كبيراً معروفاً . . . وذهب هذا وذاك ومن والاهما ، يخطبون في الناس بلغة « الذهب الايطالى . . . وفي الناس أناس عقولهم في جيوبهم ، وبطون أكفهم ، فاستجابوا لهم ، وبعثوا بأبنائهم إلى المدرسة ، فكان فيها أربعون طالباً ، من أصل أربعمائة ألف ، هم سكان دمشق وضواحيها !

وأما المدارس الثانوية في دمشق ، فان كبراها المدرسة التجهيزية ، وأنا أعلم علم اليقين أنه ليس بين الألف من طلابها ، طالب واحد يعلم من أمر هذا المشروع أكثر مما يعلم أى قارئ من قراء الرسالة

ودمشق أعقل بحمد الله من أن تسفل في التقليد إلى هذه الدركة ؛ وإن دمشق لتعلم — إذا لم يكن من التقليد بد — أن في باريس شيئاً غير مواكب الزهر ، هو الجيش الذى تستعرض مواكبه يوم ١٤ يوليه . وأن فيها غير الشباب الذين يحملون الأزهار شباباً يحملون البنادق والسيوف . . .

وحسب دمشق عاراً ذلك المؤتمر النسائى ! أفلا تمشى المصيبة إلا على ساقين ؟

دمشق — علي الطنطاوي

مأدبة تكريمية

كان مطعم (سان جمس) في مساء الثلاثاء الماضى مجمعاً حافلاً بصدور العلماء وأعلام الأدب وأئمة القانون وأعيان الصحافة ؛ اجتمعوا لتكريم صديقنا الأستاذ أحمد أمين رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وصاحب فجر الاسلام وضحى الاسلام ، وأستاذ الأدب العربى بكلية الآداب . وكانت هذه المأدبة منذ طويل حاجة ملحة في نفوس أصدقائه وزملائه الذين راقبوا عن كثب جهاده الدائب المضنى في خدمة العلم والتأليف عشرين سنة ، فلما تهيأت الفرصة بانقضاء عشرين عاماً على رياسته للجنة التأليف والترجمة والنشر ، وإخراجه الجزء الثانى من ضحى الاسلام تلاقت رغبات الأعضاء والأصدقاء على إقامة هذه الحفلة ، فأقيمت برياسة الأستاذ الجليل أحمد لطفى السيد بك زعيم النهضة الفكرية الحديثة ، وساهم فيها أولياء الثقافة من رجالات وزارة المعارف والجامعة المصرية ومجمع اللغة العربية الملكى ولجنة التأليف والترجمة والنشر ، فجلس المحتفلون عشرة عشرة الى الموائد الفخمة يتبادلون شهى الأحاديث فى وقار العلماء واحتشام السادة ، حتى إذا فرغوا من الطعام نهض معالى رئيس المأدبة فافتتح الكلام بالثناء على جهود الدكتور طه حسين في تعرف الأدبى العربى على ضوء المناهج العلمية ، وذكر كيف تعاون (الثالوث الأدبى) طه حسين وأحمد أمين والعبادى على خدمة الثقافة العربية بتأليف فجر الاسلام وضحاه ، ثم لمح بسبق الأستاذ صديقيه إلى أداء نصيبه ، ونوه بأثر كتبه في الحياة الأدبية الحديثة ، وتساءل لماذا لا يتوج مجمع اللغة العربية الملكى هذه الكتب القيمة أسوة بالمجامع الأخرى . ثم قام من بعده صاحب الفضيلة الأستاذ المراغى فذكر في منطق عذب وبيان هادئ ، أن الدراسة في الأزهر تروض العقل على مصابرة البحث ومتابعة الدرس ورغبة الاستقصاء ، فاذا صادفت عقلاً خصيباً وخلقاً قويماً وطبعاً سليماً أنتجت أمثال (الشيخ أحمد أمين) ؛ ثم تكلم الدكتور أحمد زكى وكيل كلية العلوم فبين فضل الأستاذ على لجنة التأليف والترجمة والنشر بقوة ارادته ودقة ادارته وكرم أخلاقه ، وجودة تأليفه برياسته لها عشرين سنة متوالية . ثم تلاه الدكتور عبد الوهاب عزام فلخص الصفات الثلاث التى يمتاز بها الأستاذ أحمد أمين وهى حب النظام والدأب والتثبت وجماعها صفة واحدة هى حب الحق

ثم قام على أثره الدكتور أحمد عبد السلام الكردانى فأفاض في وصف الجاذبية الروحية التى يؤثر بها الأستاذ أحمد أمين في مناظريه ومعارضيه فيبلغ بسحرها من نفوسهم مايريد ؛ ثم تكلم الأستاذ محمد كرد على عن البلاد العربية ، والأستاذ نللينو عن المستشرقين فأجاد التعبير عما تشعر به النفوس الفاضلة من إجلال العلم وأهله . ثم كان خاتمة المتكلمين الدكتور طه حسين فأشاد بفضل الأستاذ نللينو على دراسة الأدب العربى في مصر ، ثم وفى صديقه الأستاذ الأمين ما هو أهله من التقدير والحمد ؛ ثم نهض الأستاذ المكرم فشكر الداعين والمدعوين في عبارة أخاذة الأسلوب شديدة الروعة

والرسالة ترجو أن تؤدى واجبها لصديقها الأستاذ في عدد مقبل



ترجمة نفسية تحليلية

هوذا تاريخ انسان ...!

للأستاذ خليل هنداوى

وقلت للاستاذ النعيمى عقب وصوله الى لبنان : هل أعددت وراءك غربالا آخر ؟ فأجاب : ذاك غربالى انطوى ، فتحت به طريقى الى النور ، والآن أرانى سائراً الى المحجة التى فرضتها على الحياة ، أو فرضتها على الحياة . . . .

فأعطانا « المراحل » وكتاب « جبران خليل جبران » (خ . ه)

— ١ —

وجه جبران خليل جبران

وما إن صدر كتاب « جبران خليل جبران » حتى تناولته الأكف ، وتهافت عليه الناس . وما إن تلاه الناس حتى ضجوا به ، وتفرقوا فى شأنه شيعاً ، شأن العظيم لا يعرف أحداً معه معتدلاً ! فمن ناقم على النعيمى لأنه فضح أسرار صديق كان يجب عليه أن يحفظ حرمته بعد الموت ، ومن محبذ لأن الأدب لا يعرف تستراً ! والحقيقة لا تعرف مواربة ؛ وهكذا ذهب الناس فى شأن الكتاب مذاهب مختلفة ، وللناس مذاهبهم

أراد البعض أن يدرسه جملة ، فخرج من درسه بما لا يرضاه ، وشاء البعض أن يذهب فى نقده ما يفرضه الناقدون على غيرهم من أساليب جافة ، ومقاييس محدودة ؛ ومتى كان الأدب – ابن الحياة – يقبل الحدود والقيود ؟

الكتاب عظيم بنفسه ، متفرد بروحه وبطريقته وبنقده ، صارم ما شاءت الصرامة ، وعادل ما شاء العدل . ولن نتبين هذه النقطة التى تمازج فيها العدل والصرامة فى مواطن كثيرة ، إلا إذا اطلعنا على المقياس الذى أعلن عنه نعيمة فى مطلع الكتاب ، وهو مقياسه الخاص فى الأدب والفن والحياة ، فاذا فهمنا هذا المقياس فهمنا الكتاب ، وإذا أعرضنا عن هذا المقياس ضاع عنا جوهر الكتاب ، والغاية التى ألف من أجلها

لا يريد نعيمة أن يعرض فى كتابه تاريخاً له تفاصيله وله آفاقه ، والبشرية – فى اعتقاده – لم تكتب حتى الآن تاريخ إنسان ولا تاريخ شىء على الاطلاق ، وإنما أراد أن يجرى فى درسه لحياة جبران مع عقيدته الشائعة فى نفسه « إن الفن مهما تسامى فى

الأوزاعى

(بقية المنشور على صفحة ٤٢٠)

وفاته : كانت وفاة هذا الفقيه الكبير فى سنة ١٥٧ هـ ، وقد ذكرها أبو الفداء فى حوادث تلك السنة ، وتوفى وهو فى الحمام فى بيروت ، وقبره على ما ذكره أبو الفدا فى قرية على باب بيروت يقال لها خنتوس ، وأهل القرية لا يعرفونه ، بل يقولون هاهنا رجل صالح

والسبب فى وفاته على ما جاء فى ابن خلكان ، أنه دخل الحمام ، واتفق أن صاحب الحمام كان مشغولاً فأقفل عليه الباب ومضى ، فلما عاد فتح الباب فوجده قد فارق الحياة . رحمه الله رحمة واسعة ، فقد كان إمام أهل الشام غير مدافع

هذا وإن ما ذهبت إليه فى هذه الكلمة ليس إلا محاولة بسيطة أرجو إن لم أوفق فى نتائجها ، أن أكون قد وفقت فى الطريق الذى سلكته . فالبحث فى اعتقادى ناقص مبتسر ، لأنى لم أطلع على كل ما كتب عن الأوزاعى فقد تكون هناك كتب كثيرة ، لم تنشر أو لم أوفق الى العثور عليها . وعسى أن يحفز هذه الكلمة بعض الباحثين من الفضلاء فيوفى هذه الترجمة ويحلل هذا المذهب إحياء لتراثنا العلمى الذى ذهبت به الأحداث والقرون

القدس

عبد القادر على الجاعونى
بكلوريوس فى العلوم

نظر صاحبه ونظر الناس ليس من الأهمية على شيء مالم يترجمه صاحبه والناس الى قوة تنشط بهم من عقالات المعيشة المحدودة الى حرية الحياة التي لا تُحدّ – من الانسان فى الله الى الله فى الانسان – والأدب مهما جمل لامعنى له إلا على قدر مايكشف معنى الحياة الذى هو أثبت من الأرض وأبقى من السماء »

درس النعيمى جبران بهذا المقياس ، ويدرس الأدب كله فى جبران ، والأدب عنده هو مثل أعلى إذا ربط الانسان به حياته اللحمية والروحية ، وهذا مقياس جاد صارم ، لايجعل من الأدب ملهاة ، وإنما ينزله منزلة الحياة . . . وأنت واقع فى الكتاب على فصول متنوعة ، هى بجملتها حياة جبران ، وهى بمجموعها تاريخ ذلك الصراع المادى لتُذعن له المادة ، وذلك الصراع الروحى المستمر لينقىّ روحه من أدرانها وشهواتها الأرضية . وفسادها أن صاحبهما يحاول أن يفوز فيهما فى وقت واحد

فى الكتاب تاريخ جبران الأنسان ، وجبران الفنان ، وجبران الشاعر ؛ تاريخ هؤلاء الأشخاص المفترقين تحت لواء عقل واحد . يمشى كل منهم فى طريق ؛ ولا يدرى أين سلك رفيقه . وعقل جبران يظن أن نفسه هادئة مطمئنة – ونفسه منشقة على نفسها . جبران الأنسان لا يلتقى وجبران الشاعر الفنان إلا بالخيال ؛ والخيال وحده لايكفى إذا لم يقو على الارادة ، ويجنحها بجناحيه ويطير بها الى حيث شاء

رسم النعيمى فى كتابه لجبران وجوهاً كثيرة : منها وجه جبران الفنان ، ووجه جبران الانسان ، ووجه جبران الطافح تمرداً ، ووجه جبران الهاذى الذى جعدته السنون وارتسمت فى غضونه الحكمة . أما جبران الفنان فأنت واجده فى كل أدوار حياته التى أثرت فيه وأثر فيها ، ومهما كان من تباين بين شعره وفنه فالرجل استطاع أن يكون . . . برغم المصاعب التى اعترضته وبفضل المصادفات التى خلقت ذلك وفرضت ذلك . جبران الشاعر كغيره من الناس تسكره الشهرة وتستهويه لماعاتها ، وهو بعد جهاد عنيف استطاع أن يبلغ بخياله تلك القمة التى دعاها الناقد قمة « المصطفى [١] » حيث أشرف جبران على الوجود ، ونظر اليه بخياله الخالص من تأثير « نيتشه » وغيره ، ووقف على معنى « الازدواج » فيه . ولكن جبران الانسان لم يكن برغم سمو خياله – عالياً سامياً كما تصوره لنا ريشته وبراعته ، فهو نسر نشيط كبلته قيود الأرض وشهوات المادة . لم يغنه الفن شيئاً ، بل زاد عذابه عذاباً ، لأنه كان يكشف لعينيه قباب ذلك الوجود الذهبي ويمنع قدميه الملوثتين من الدخول . . . جبران الانسان تغلى فى صدره شهوات ابن المادة ، وهو أنانى ونصير حب يود أن يكون فيه محبوبه عبداً ؛ وهو طالب شهرة لم يستطع فنه أن يحرره من شهرة الناس الذين يكرههم : لا يخرج من – صومعته [١] إلا جبران الفنان ، أما جبران الانسان فهو راس على صدره لا يفر منه الا اليه . . .

هذا الاختلاف بين شخصين مندمجين فى شخص واحد هو موضوع الكتاب

يتساهل النعيمى مع جبران الفنان وحق له أن يتساهل أمام فنه المرن ونزعته الشخصية مهما مازج فنه من عوامل غريبة عن فنه ، أما جبران الانسان فلم يرحم ضعفه ولم يستره بستار الرحمة ، لأنه يرى أن رحمته تقوض معتقده الأدبى وتهدم نظرته الفلسفية ، وإنما يعتقد أن العبقرى الحقيقى لا يجعل من نفسه شخصين مختلفين ، ويرى أن الفن الصحيح هو مانقى النفس من أدرانها وأسوائها ، فهل نقى جبران الفنان جبران الانسان ؟

عمل جبران الفنان على تطهير جبران الانسان ، ورفعه من الهوة إلى القمة . ولكن قدمى جبران الانسان كانتا من قصب ، لا يكاد صاحبهما ينهض عليهما ويمشى قليلاً حتى تتحطما ويلبث مكانه . . . أليس فى فرار ميشلين [٢] ابنة التراب ! من وجه جبران الفنان ابن السماء ! أكبر خزى لجبران ؟ أليس فى تألم الفتاة التى جاءت لتحيي « صاحب النبى » اعتقاداً منها أنه سيكون أسمى من النبى الذى خلقه أكبر هزيمة لجبران الفنان ؟ وهكذا ظل جبران فى نزاع مع نفسه حتى قضى ولم يقض لبانته

قد يكون فى هذا التصريح بعض ما يجرح ، ولكن الحقيقة . . . الحقيقة الانسانية لا تعرف المراءاة ، ولوكان جبران فناناً عادياً لما قاسه النعيمى بهذا المقياس الدقيق الذى لا يطبق

(١) كتاب وضعه جبران بالانجليزية

(١) إشارة إلى صومعة جبران

(٢) محبوبة الشاعر

إلا على العباقرة المختارين والنوابغ الموهوبين

ألم يكن « فيخت[١] » يغلب فيه الانسان الأخلاقى على الانسان الفيلسوف ؟ والانسان الاخلاقى يغلب عليه الانسان المجرد ؛ وهو كلما تجرد ونزع عنه هـذه الأقماط بدا أدنى إلى حقيقة السمو والكمال العارى كأنما كان يرتفع فنه معه متناسباً مع ارتفاع نفسه . وهذا هو المثل الأعلى الذى يطلب النعيمى إلى كل فنان أن يسمو إليه بعقله وجسده وفنه ؛ لا أن يقسم نفسه أقساماً ، يضع كل قسم منه حيث يريد

« ولا يكفى الانسان أن يبصر النور ليكون مستنيراً ، بل عليه أن يجعل ذلك النور هاديه الأوحد فى حياته ، وإن فى ذلك وحده سراً لانعتاق الأبدى من جحيم المتناقضات ، أما السبيل إلى ذلك فنى نبذ كل ما يحجب عنا النور من شهوات أرضـية ، ونزعات زمنية وشعور بالفردية التى لا تأتلف وروح الـكلية الشاملة[٢] » وطبقاً لهذا الاعتقاد يبين النعيمى جانباً من حياة جبران ـ لا كل جوانبه ـ التى حالت دونه ودون الانعتاق ، أو النكران المؤدى إلى الانعتاق

وهكذا تطلع فى هذا القسم على حياة مستقلة بذاتها عن الانسانية ، ومتصلة بذاتها مع الانسانية ؛ عارية كاسية ، وإنما هى الحياة كلها بلحمها ودمها وروحها الذى لا يدرك

***

— ٢ —

جبراله الثائر وجبراله الهادى

لا يقف الناقد على درسه على جبران الفنان وجبران الأنسان ، وإنما هو يعالج — من ناحية ثانيـة — المؤثرات التى أثرت فى جبران ، والعوامل المقدّرة وغير المقـدرة ، والمتصلة — كما يقول الناقد — بمكوك الحائك الأكبر وغير المتصلة . فهو يولد مع جبران ويدرج معه من سياحة إلى سياحة ، ومن فشل إلى رجاء ومن رجاء الى فشل . طوراً ينطق جبران بالنطق ، وتارة ينطق عن جبران بما لم ينطق . وفى هذه المنطقة يلتقى النعيمى الناقد بجبران الفنّان المجرد ، لا النعيمى الحامل المثل الأعلى لجبران الضائع وراء نوازعه الأرضية . ولا يمكننا أن نقف على قيمة جبران الأدبية إلا إذا تعمقنا فى أحناء حياته . فجبران — فى كتاباته — ذو وجوه متعددة ، منها وجه المحب المنهزم ، وجه المتمرد الثائر ، وجه الهادئ الساكن ، ووجه المتصوف السامى ، وصاحب هذه الوجوه رجل واحد هو جبران . والنعيمى يستعرض هذه الوجوه وجهاً وجها دارساً عواملها محللاً ألوانها

« يتبع » خليل هنداوى



(١) فيلسوف ألمانى وردت ترجمته . (تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا)

(٢) من رسالة لنعيمة إلى الـكاتب

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ٩٠ — ٢٥ مارس سنة ١٩٣٥ — السنة الثالثة

3 me Année, No. 90.

Lundi-25-3-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع شركة الفجر

العـــدد ٩٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٠ ذو الحجة سنة ١٣٥٣ — ٢٥ مارس سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

وَرد الربيـــع !

للدكتور عبد الوهاب عزام

دار الفلك دورته ، وعاد سيرته ، فسرت فى أعصاب الأرض هزّة الحياة ، وتفجرت عروقها بالمياه ، وسالت قمم الجبال جداول وأنهارا ، واشتعلت الأرض أزهاراً وأشجارا

تبرجت بعـد حياء وخفر　　　تثنى على الله بآلاء المطر

صرّحت الأرض بمكنونها ، وأبانت الحياة عن ضميرها ، فنبتت معانى الحياة والجمال ، فى ألفاظ من الأوراق والنوّار

باح الربيع بأسرار البساتين　　　وعطّر النفس أنفاس الرياحين

ونفخت أنفاس الربيع الحرّى الحياة فى كل ذرّة ، فأخرجت قواها أعشاباً وأزهاراً ، فرّقتها ألوان ، وألفتها معان

لم يبق للأرض من سرّ تكاتمه　　　إلا وقد أظهرته بعـد إخفاء

أبدت طرائف شتّى من زواهرها　　　حمراً وصفراً وكلٌّ نبت غبراء

أىُّ مسرح للفكر ! وأى مجال للخيال ! وأى مَراد للطرف !

دنيـا معاش للورى حتى إذا　　　جاء الربيع فانما هى منظر !

***

وفى أرجوانىّ من النور أحمر يشاب بإفرند من الروض أخضر
إذا ما الندى وافاه صبحاً تمايلت أعاليه من در نثير وجوهر
إذا قابلته الشمس رد ضياءها عليها صقال الأقحوان المنوّر

والطير مغرّدات كأن أصواتها ذوبُ هذه الألوان ، وكأن ألوان الروض جمدُ هذه الألحان . يهتز الطائر الغرّيد على الغصن الأملود فيقرأ ما تحته من صفحات الجمال ، كأنما الطير إبَر الحاكيات (١) تنطق بما تضمنت الصفحات من نغمات — والعصفور مرِح تتداوله الأغصان ، وتتهاداه الأفنان ، تارة فى انتزاء ، بين الأرض والسماء ، وتارة تغيّبه الحديقة ، كأنه فى هذا الجمال فكرة دقيقة . صغير تملأ الهواء نغماته ، وضئيل تشغل الجو خفقاته

والفَرَاش قلِق بين النوّار ، هائم بين الأزهار ، لا يقرّ له قرار ، كأن كل فراشة زهرة طائرة ، أو قبلة بين الأزهار حائرة ، أو نغمة فى جمال الروض سائرة !

والشعراء ينافسون الطير على الأيك طرباً وتغريدا ، وفى المرج تسبيحاً وتحميدا . تنبجس فى جوانحهم ينابيع البيان ، وتتفتح سرائرهم عن أزهار الشعر . ففى كل قلب ربيع ، ومن كل قصيدة روض ، وفى كل معنى وردة ، وعلى كل قافية نغمة

هكذا تفيض الحياة على الجماد والنبات والحيوان ، وينتظم الجمال الخليقة والانسان ، كأنما العالم كله فكرة واحدة ، أو قصيدة خالدة !

ذلكم الربيع الذى فتن الناس فافتنّوا فى وصفه ، والابانة عن محاسنه ، والاشادة بذكره ، والاحتفال بتقدمه . فاتخذته الأمم على اختلاف المذاهب عيداً ، ومجّدته بشتى الوسائل تمجيداً ، وأولع به الشعراء فى كل قبيل ، ولم يخل من المفتونين به جيل

والناس فى مصر فى ربيع دائم ، من أرضهم وسمائهم ، وزرعهم ونيلهم . فهم لا يحسون مقدم الربيع إلا قليلاً . ولو أنهم عرفوا كلَب الشتاء ، وانجماد الهواء ، وقشعريرة الأرض ، وقسوة السماء ، ورأوا كيف تموت الطبيعة فى زمن ، وتلتف من الثلج فى كفن

وقد غاب فى الثلج الربيع وحسنه
كما اكتنّ فى بَيْض فِراخ الطواوس

ثم شهدوا كيف يأتى الربيع فيكهرب كل ذرة ، ويفيض كل عين ثرّة ، ويخلق كل نضرة ، لاحتفوا بالربيع احتفاء غيرهم ، وعرفوا فيه النشور بعد الموت

على أن للربيع فى مصر دقائق يسرّ لها الانسان ، وشيات أبصرها الشعراء فى كل زمان

جاء الربيع فليت فى كل قلب من صفائه قطرة ، وفى كل نفس من جماله زهرة ، وفى كل خلق من عبيره نفحة ، لتعمر النفوس بمعانى الحياة ، وتستنير بأشعة الجمال ، ويسكن الناس الى السعادة حيناً ، وينسوا أساليب العداوة والبغضاء زمناً . وليت الناس جروا مع الحياة طَلَقَها ، ولم يفسدوا على الطبيعة خلقها ، فأنبت الربيع فى كل قسوة رحمة ، وفى كل يأس أملاً ، وفى كل حزن سروراً ، وفى كل ظلام نوراً ، ليتهم اجتمعوا على ورد الحياة متصافين ، كما ترف على جداول الربيع الرياحين

« ولكن الانسان قد حاول بادعائه وكبريائه أن يكون عالماً بذاته ، فكان نشوزاً فى نغم الكون ونفوراً فى نظام العالم ! فلو أنه اقتصد فى تصنعه وائتلف كما كان بالطبيعة ، لاتحد الآن مع الربيع فشعر بتدفق الحياة فى جسمه ، وإشراق الصفاء فى نفسه ، وانبثاق الحب فى قلبه ، وأحس أنه هو فى وقت واحد زهرة تفوح ، وخُضرة تروق ، وطائر يشدو ، وطلاقة تفيض على ما حولها البشر والبهجة ! (١) »

« وبعد فان لكل ظاهرة من ظواهر الطبيعة رسالة بليغة تؤديها الى النفوس الشاعرة والفطر السليمة ، فليت شعرى أية رسالة يحملها الربيع الى ذوى القلوب الواعية منا ؟

قابل أيها القارىء بين الشتاء والربيع ، بين رقدة الطبيعة ونهضتها ، وإن شئت فبين موتها ونشورها ، فستجد هذه الدورة على قصر أمرها قد تضمنت حكمة الحياة كلها . والى هذه الحقيقة يشير الربيع فى رسالته الى الناس ! (٢)

عبد الوهاب عزام

(١) الحاكيات ، جمع حاكية : الفنوغراف

(١) الزيات (٢) العبادى

بين خروفين

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

اجتمع ليلةَ الأضحَى خروفان من أضاحى العيد ، فتكلَّما ؛ فماذا يقولان ؟

هـذا هو الموضوع الذى استخرجه لى أصغرُ أولادى (الأستاذ) عبد الرحمن ، وسألنى أن أكتب فيه للرسالة ، وهو أصغر قرائها سنًّا تَرِفُ عليه النَّسمةُ الثالثةَ عشرة من ربيع حياته — بارك الله لها فيها حاضرةً ومُقبلة

ولأستاذنا هـذا كلمةٌ هى شعارُه الخاصُّ به فى الحياة ، يحفظُها لتحفظَه ، فلا يميلُ عن مَدْرَجَتها ، ولا يخرج من معناها ؛ وهى هذه الكلمةُ العربية : « كالفَرَسِ الكريم فى مَيْعَةِ حُضْرِه[1] ، كلَّما ذهب منه شَوْطٌ جاء شوط » .

فهو يعلم من هذا أن كرم الأصل فى كرم الفعل ، ولا يُغنى شىءٌ منهما عن شىء ؛ وأن الدمَ الحرَّ الكريمَ يكون مُضاعفَ القوّة بطبيعته ، عظيمَ الأمل بهذه القوّة المضاعفَة ، نزّاعاً إلى السبق بمقدار أمله العظيم ، مترفّعاً عن الضعف والهُوَينا بهذا النزوع ، متميزاً فى نبوغ عمله وإبداعه باجتماع هذه الخصال فيه على أتمّها وأحسنها . فمِن ثمّ لا يَرى الحرُّ الكريم إلا أن يبلغَ الأمدَ الأبعدَ فى كل ما يحاوله ، فلا يألو أن يبذلَ جهدَه إلى غاية الطاقة ومبلغ القدرة ، مستمِداً قوةً بعد قوة ، محقّقاً السحرَ القادر الذى فى نفسه ، متلقّياً منه وسائلَ الاعجاز فى أعماله ، مُرسِلاً فى نبوغه من توهُّج دمه أضواءً كأضواء النجم ، تثبتُ لكل ذى عينين أنه النجمُ لا شىءٌ آخر

ولما قدَّم إلىَّ (الأستاذ) موضوعَه فى هذا الوزن المدرسىّ — وأظنه قد نزَعته حاجةٌ مدرسيةٌ إليه — قلتُ : حباً وكرامة . وهأنذا أكتبه منبعثاً فيه « كالفرس الكريم فى ميعة حُضْرِه » . . . ولعل الأستاذ حين يقرؤه لا يُسَوِّدُ فيه علاماتٍ كثيرةً بقلمه الأحمر . . . !

* * *

اجتمع ليلة الأضحى خروفان من الأضاحى فى دارنا : أما أحدُهما فكبْشٌ أقرَنُ ، يحملُ على رأسه من قرنيه العظيمين شجرةَ السنين ، وقد انتهى سِمَنُه حتى ضاق جلدُه بلحمه ، وسَحَّ بدنُه بالشحم سحاً ، فاذا تحرّكَ خِلتَه سحابةً يضطربُ بعضها فى بعض ، ويهتزّ شىء منها فى شىء ؛ وله وافِرةٌ[1] يجرها خلفه جرًّا ، فاذا رأيتَها من بعيد حسبتَها حَمَلاً يتبع أباه ؛ وهو أصْوَفُ ، قد سَبَغَ صُوفُه واستكثفَ وتَرا كَمَ عليه ؛ فاذا مشى تَبَخْتَرَ فيه تبخترَ الغانية فى حُلَّتها ، كأنما يشعر مثلَ شعورها أنه يلبسُ مَسرّاتِ جسمِه لا ثوبَ جسمه ؛ وهو من اجتماع قوّته وجَبرُوته أشبهُ بالقلعة يعلوها من هامته كالبرج الحربىّ فيـه مِدفعان بارزان . وتراه أبداً مُصعِراً خدَّه كأنه أمير من الأبطال ، إذا جلس حيث كان شعر أنه جالسٌ فى أمره ونهيه ، لا يَخرج أحدٌ من نهيه ولا أمره

وأما الآخر فهو جَذَعٌ فى رأس الحوْل الأول من مَوْلده ، لم يدْرِكْ بعـد أن يُضحى ، ولكن جىء به للقَرَمِ إلى لحمه الغَضّ ؛ فالأول أُضْحيَّةٌ وهـذا أكولَة ؛ وذاك يتصدّقُ بلحمه كله على الفقراء ، وهـذا يُتصدق بثُلثيه ويبقى الثُلثُ طعاماً لأهل الدار

وكان فى لِينه وتَرَجرُجه وظَرف تكوينه ومَرَح طبعه ، كأنما يُصوّر المرأةَ آنسةً رقيقة مُتودِّدة . أما ذاك الضخمُ العاتى المتجبّر الشامخُ ، فهو صورة الرجل الوحشىّ أخرجته الغابة التى تخرج الأسدَ والحيّةَ وجذُوعَ الدوحة الضخمة ، وجعلتْ فيه من كل شىء منها شيئاً يُخافُ ويتّقى

وكان الجذَع يَثغُو لا ينقطع ثُغاؤُه ، فقد أُخِذ من قطيعه انتزاعاً فأحسّ الوحشةَ وتنبهتْ فيـه غريزةُ الخوف من الذئب ، فزادته إلى الوحشة قَلَقاً واضطرابا ؛ وكان لا يستطيع أن يَنفلت ، فهو كأنما يهربُ فى الصوت ويعدو فيه عدْوا

أما الكبشُ فيرى مثلَ هـذا مَسَبّةً لقرنيه العظيمين ، وهو إذا كان فى القطيع كان كبشَه وحاميَه والمُقدَّمَ فيه ، فيكون القطيعُ معه وفى كَنَفِه ولا يكون هو عنـد نفسه مع القطيع ؛ فاذا فقـد جماعتَه لم يكن فى منزلة المنتظر أن يلحق

(١) هذا كما يقال بالعامية : فى عز جريه

(١) ألية عظيمة ويقال كبش أليان اذا كان عظيم الألية

بغيره ليحتمي به فيقلق ويضطرب ، ولكنه في منزلة المرتقب أن يلحق به غيره طلباً لحمايته وذماره ، فهو ساكن رابط الجأش مغتبط النفس ، كأنما يتصدّق بالانتظار . . .

***

فلما أدبر النهار وأقبل الليل ، جيء للخروفين بالكلأ من هـذا البرسيم يعتلفانه ، فأحسّ الكبش أن في الكلأ شيئاً لم يدرِ ما هو ، وانقبضت نفسه لما كانت تنبسط إليه من قبل ، وعرته كآبة من روحه ، كأنما أدركت هذه الروح أنه آخر رزقه على الأرض ، فانكسر وظهر على وجهه معنى الذبح قبل أن يُذبح ، وعاف أن يطعم ، ورجع كأوّل فطامه عن أمه لا يعرف كيف يأكل ، ولا يتناول من أكله إلا أدنى تناوُل

وكأنما جثم الظلامُ على شحمه ولحمه ؛ فانه متى ثقل الهمّ على نفس من الأنفس ثقل على ساعتها التي تكون فيها ، فتطول كآبتُها ويطول وقتُها جميعاً . فأراد الكبشُ أن يتفرّج مما به ، ويُنفّس عن صدره شيئاً ، وكان الصغير قد أنِس إلى المكان والظلمة ، وأقبل يعتلف ويخضِم الكلأ ، فقال له الكبش : أراك فارهاً يا ابن أخي ، كأنك لا تجد ما أجد ؛ إني والله أعلم علماً لا تعلمه ، وإني لأحس أن القدر طريقه علينا في هذه الليلة ، فهو مُصْبحنا ما من ذلك بُدّ

قال الصغير : أتعني الذئب ؟

قال : ليته هو ، فأنا لك به لو أنه الذئب ؛ إن صوفي هذا درعٌ من أظافره ، وهو كالشبكة ينشَب فيها الظُّفر ولا يتخلص ، ومن قرنيّ هذين تُرسٌ ورُمح ، فأنا واثق من إحراز نفسي في قتاله ، ومَن أحرز نفسه من عدوّه فذاك قتلُ عدوه ، فان لم يقتله فقد غاظه بالهزيمة ، وذاك عند الأبطال فنٌّ من القتل . وهذا القرن الملتفّ الأعقدُ المذرَّبُ كالسنان ، لا يكاد يراه الذئب حتى يعلم أنه حاطمةُ عظامه ، فيحدُث له من الفزع ما تنحلّ به قوّته ، فما يواثبني إلا متخاذلاً ، ولا يقدِم عليّ إلا توهّم الذئبيّة للخَرُوفيّة ، فان أساسَ القوة والضعف كليهما في النفوس والطبيعة ، غير أنه لا يعلم أني خرجت من الخروفية الى الجاموسيّة ... ! فما يعلمه ذلك إلا بقرُ بطنه أو التطويح به من فوق هذا القرن ، أقذفه قذفةً عالية تلقيه من حالق ، فتدقّ عظامَه وتحطم قوائمه !

قال الصغير : فماذا تخشى بعد الذئب ؟ إن كانت العصا فهي إنما تضرب منك الصوف لا الظهر

قال الكبش : ويحك ! وأيّ خروفٍ يخشى العصا ؟ وهي إنما تكون عصا من يعلفهُ ويرعاه ، فهي تنزلُ عليه كما تنزلُ على ابن آدم أقدار ربه ، لا حطماً ولكن تأديباً أو إرشاداً أو تهويلاً ؛ ومن قبلها النعمةُ وتكون معها النعمة وتجيء بعدها النعمة ؛ أفيبلغ الكفرُ منا ما يبلغ كفرُ الانسان بنعمة ربه ؛ إذا أنعم عليه أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر انطلق ذا صُراخ عريض ؟

وكيف تراني (ويحك) أخشى الذئب أو العصا ، وأنا من سلالة الكبش الأسديّ ؟

قال الصغير : وما الكبشُ الأسديّ ، وكيف علمتَ أنك من نَجْله ، ولا علم لي أنا إلا هـذا الكلأُ والعلفُ والماءُ ، والمَراحُ والمغدى ؟

قال الكبش : لقد أدركتُ أمي وهي نعجةٌ قحْمةٌ كبيرة ، وأدركت معها جدتي وقد أفرط عليها الكبر حتى ذهب فما ، وأدركتُ معهما جدّي وهو كبش هَرِمٌ متقدِّدٌ أعجفُ كأنه عظام مُغطاة ، فمن هؤلاء أخذتُ ورويتُ وحفظت

حدثتني أمي ، عن أبيها ، عن أبيه ، قالت : إن فخر جنسنا من الغنم يرجع الى كبش الفداء الذي فدى اللهُ به اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ، وكان كبشاً أبيضَ أقرنَ أعيَن ، اسمه حرير

(قال) . واعلم يا ابن أخي أن مما انفردتُ أنا به من العلم فلم يدركه غيري ، أن جدنا هذا كان مكسواً بالحرير لا بالصوف ، فلذلك سمي حريراً . . . (قالت أمي) : والمحفوظ عند علمائنا أن ذاك هو الكبش الذي قرّبه هابيلُ حين قتل أخاه لتتمّ البليةُ على هذه الأرض بدم الانسان والحيوان معاً (قالوا) : فتُقُبِّلَ منه وأُرسل الكبشُ الى الجنة فبقي يرعى فيها حتى كان اليوم الذي همّ فيه ابرهيم أن يذبح ابنه تحقيقاً لرؤيا النبوّة ، وطاعةً لما ابتُلي به من ذلك الامتحان ، وليثبت أن المؤمن بالله إذا قوى إيمانه لم يجزع من أمر الله ولو جرّ السكّين على عنق ابنه ، وهو إنما يجرها على ابنه وعلى قلبه !

(قالت) فهذا هو فخر جنسنا كله

أما فخر سُلالتى أنا ، فذاك ما حدثتنى به جدتى ، ترويه عن أبيها عن جدها ، وذاك حين توسمت فىّ مخايل البطولة ، ورجت أن أحفظ التاريخ . قالت : إن أصلنا من دمشق ، وإنه كان فى هذه المدينة رجل سَبّاع ، قد اتخذ شِبلَ أسدٍ فرباه وراضه حتى كبر ، وصار يطلب الخيل ، وتأذّى به الناس ، فقيل للأمير[1] : هذا السبعُ قد آذى الناس ، والخيلُ تنفر منه وتجد من ريحه ريحَ الموت ، وهو ما زال رابضاً ليله ونهاره على سُدّة بالقرب من دارك . فأمر فجاء به السّباعُ وأدخله الىَ القصر ، ثم أمر بخروف مما اتُّخذ فى مطبخه للذبح ، وأدخلوه الى قاعة ، وجاء السباع فأطلق الأسدعليه ، واجتمعوا يرون كيف يسطوبه ويفترسه

قالت جدتى : فحدّثنى أبى ، قال : حدّثنى جدك : أن السباع أطلق الأسد من ساجُوره[2] وأرسله ، فكانت المعجزة التى لم يفزْ بها خروف ولم تؤثر قطُّ إلا عن جدنا ، فانه حسب الأسد خروفاً أجمّ لا قرون له ، ورأى دِقة خصره ، وضُمور جنبيه ، ورأى له ذيلاً كالألية المُفرغةِ الميّتة ، فظنه من مهازيل الغنم التى قتلها الجدْب ، وكان هو شبعان ريّان ، فما كذّبَ أن حمل على الأسـد ونطحه ، فانهزم السبعُ مما أذهله من هذه المفاجأة ، وحسب جدّنا سَبُعاً قد زاده الله أسلحةً من قرنيه ، فاعتراه الخوف وأدبر لايلوى . وطمع جدُّنا فيه فاتّبعه ، وما زال يطارده وينطحه ، والأسد يفرُّ من وجهه ويدورحول البرْكة ، والقوم قد غلبهم الضحك ، والأمير ما يملك نفسه إعجاباً وفخراً بجدّنا فقال : هذا سبُعٌ لئيم ، خذوه فأخرجوه ، ثم اذبحوه ، ثم اسلخوه . فأخذ الأسد وذُبح ، وأعتق جدُّنا من الذبح ، وكان لنا فى تاريخ الدّنيا انسانها وحيوانها أثران عظيمان ، فجدُّنا الأول كان فداءً لابن نبىّ ، وجدنا الثانى كان الأسدُ فداءه !

***

قال الصغير للكبش : قلت : الذبح ، والفداء من الذبح ؛ فما الذبح ؟

قال الكبش : هذه السنّة الجارية بعد جدنا الأعظم ، وهى الباقية آخر الدهر ؛ فينبغى لكلٍّ منا أن يكون فداءً لابن آدم !

قال الصغير : أبن آدم هذا الذى يخدمنا ويحتزُّ لنا الكلأ ، ويقدم لنا العلف ، ويمشى وراءنا فنسحبه الى هنا وههنا . . . ؟ تالله ما أظن الدنيا إلا قد انقلبت ، أوْ لا ، فأنت يا أخا جدّى . . . قد كبرتَ وخرِفت !

قال الكبش : ويحك يا أبله ! متى تنحل هذه العقدة التى فى عقلك ؟ انك لو علمت ما أعلم لما اطمأنت بك الأرض ، ولَرجَفْتَ من القلق والاضطراب كحبة القمح فى غِربالٍ يهتزُّ وينتفض !

قال الصغير : أتعنى ذلك الغربال وذلك القمح وما كان فى القرية ، إذ تناولت ربةُ الدار غِربالها تنفض به قمحها ، فغافلتُها ونطحتُ الغربالَ فانقلب عن يدها وانتثر الحب ، فأسرعتُ فيه التقاطاً حتى ملأتُ فمى قبل أن تُزيحنى المرأةُ عنه ؟

فهزّ الكبش رأسه فِعْلَ مَن يريدَ الابتسامَ ولايستطيعه ، وقال : أرأيتَ حانوتَ القصّاب ونحن نمرّ اليوم فى السوق ؟

قال : وما حانوت القصاب ؟

قال : أرأيتَ ذلك السّليخَ من الغنم البيضِ المُعلّقة فى تلك الدّماليق لا جِلْدَ عليها ولا صوف وليس لها أرؤُس ولا قوائم ؟

قال الصغير : وما ذاك السّليخ ؟ إنه إن صح ما حدّثتنى به عن أمك ، فهذه غنم الجنة ، تبيت ترعى هناك ثم تجىء إلى الأرض مع الصبح ، وإنى لترقبٌ شمسَ الغد ، لأذهبَ فأراها وأملأ عينىّ منها

قال : اسمع أيها الأبله ! إن شمس الغد ستشعر بها من تحتك لا من فوقك . . . ! لقد رأيتُ أخى مذ كنتُ جذَعاً مثلك ؛ ورأيت صاحبنا الذى كان يعلفُه ويُسمّنُه ، قد أخذه ، فاضطجَعَهُ ، فجثم على صدره شراً من الذئب ، وجاء بشفرةٍ بيضاءَ لامعة ، فجرّها على حلقه ، فاذا دَمُه يَشْخَبُ ويتفجر ، وجعل المسكين ينتفض ويَدْحَصُ برجله ، ثم سَكَنَ وبَرَدَ ؛

(١) هذه القصة شهدها الأمير الأديب (أسامة بن منقذ) المتوفى سنة ٥٨٤ للهجرة ، وقصها فى كتابه (الاعتبار) ، والأمير المذكور فى القصة هو (معين الدين أنر) وزير شهاب الدين محمود . وقد تصرفنا فى عبارة القصة

(٢) الساجور : سلسلة الأسد والكلب ونحوهما

فقام الرجل فَـفَـصَـلَ عنقـهُ ، ثم نخس فى جلده ونفخه حتى تطبّـل ورجع كالقِربة التى رأيتها فى القَربة مملوءة ماء فحسبتها أمّك ؛ ثم شقّ فيـه شقاً طويلاً . ثم أدخل يده بين الجِلْد والصّفاق ، ثم كشطه وسَحَفَ الشّحمَ عن جنبيه ، فعاد المسكينُ أبيضَ لا جلد له ولا صوف عليه ، ثم بقر بطنه وأخرج ما فيها ، ثم حطم قوائمه ، ثم شدّه فعلّقه فصار سَليخاً كفَنَم الجنة التى زعمت ! وهذا — أيها الأبله — هو الذبح والسلخ !

قال الصغير : وما الذى أحدث هذا كلّـه ؟

قال : الشّفرةُ البيضاء التى يسمونها السّكين !

قال الصغير : فقد كانت الشفرةُ عند حلقه حِيالَ فمه ؛ فلماذا لم ينتزعها فيأ كلها ؟

قال الكبش : أيها الأبله الذى لا يعلم شيئاً ولا يحفظ شيئاً ، لو كانت خضراء لأكلها !

قال : وما خطْبُ أن تجىء الشّفرةُ على العنق ، أفلم يكن الحبل فى عنقك أنت فجعلتَ تجاذب فيه الرجل حتى أعييته ، ولولا أنى مشيت أمامك لما انقَـدتَ له ؟

قال الكبش : ما أدرى والله كيف أفهمك أن هـذا كلّـه سيَجرى عليك ، فسترى أموراً تنكرها ، فتعرفُ ما الذبح والسلخ ، ثم تصير أشلاءً فى القدور تُضرَم عليها النار ، فيأكلك ابن آدم كما تأكل أنت هذا الكلأ . . . !

قال الصغير : وماذا علىّ أن يأكلنى ابن آدم ، ألا تَرانى آكل العُشْب ، فهل سمعتَ عوداً منـه يقول : الرجل والسكين ، والذبح والسلخ . . . ؟

قال الكبش فى نفسه : لَعَمرى إن قوة الشباب فى الشباب أقوى من حكمة الشيوخ فى الشيوخ ، وما نفعُ الحكمة إذا لم تكن إلا رأياً ليس له ما يُمضيه ، كرأى الشيخ الفانى ؛ يرى بعقله الصوابَ حين يكون جسمُهُ هو الخطأ مركّباً فى ضعفه غلطةً على غلطةٍ لا عُضواً على عضو . . ؟ وهل الرأىُ الصحيحُ للعالَم الذى نعيش فيـه إلا بالجسم الذى نعيش به ؛ وما جدْوَى أن يعرفَ الكبيرُ حكمةَ الموت ، وهو من الضعف بحيث تنكسر نفسُه للمرض الهـيّن ، فضلاً عن المرض المُعْضِل ، فضلاً عن المرض المُزْمِن ، فضلاً عن الموت نفسِه ؛ وما خطَرُ أن يجهلَ الشبابُ تلك الحكمة ، وهو من قوة النفس بحيث لا يبالى الموتَ ، فضلاً عن المرض ؟

لو أُذِنَ الشابُّ من الفتيان بيوم انقطاع أجله ، وعلم أنه مُصْبِحُه أو مُمْسيه ، لأمدّته نفسُه بأرواح السنينَ الطويلة حتى ليرى أن صبح الغد كأنما يأتى من وراء ثلاثين أو أربعين سنة ، فما يتبيّنهُ إلا كالفكر المنسىّ مضى عليه ثلاثون سنةً أو أربعون . ولو أُذِنَ الشيخُ بيوم مَصْرَعه ، وأيقن أن له مُهْلةً إلى تمام الحول ، لطار به الذُّعْرُ واستفرَغه الوَجَل من ساعته ورأى يومَه البعيدَ أقربَ إليـه من الصبح ، وابتلته طبيعةُ جسمه المختلّ بالوساوس الكثيرة ، تجتلبها له كما تجتلبُ الرياحَ صُدُوعُ المنزل الخَرِب . فذاك بالشباب يقبض على الزمن ، فيعيش فى اليوم القصير مثلَ العام رَخِياً ممدوداً ، فهو رابطُ جَلْد ؛ وهذا بالكِبَر يقبض الزمنُ عليه ، فيعيش فى العام الطويل مثلَ اليوم متلاحقاً آخرُه بأوّلِه ، فهو قلِقٌ طائر . ولا طبيعة للزمن إلا طبيعةُ الشعور به ، ولا حقيقة للأيام إلا ما تضـعه النفسُ فى الأيام

* * *

ثم إن الكبش نظر فرأى الصغير قد أخذته عينه واستَثقَلَ نوما ، فقال : هنيئاً لمن كان فيه سرُّ الأيام الممدودة . إن هذا السر هو كبرّ النبات الأخضر ، لا يُقطَع من ناحية إلا ظهر من غيرها ساخراً هازئاً ، قائلاً على المصائب : هأنذا ..

فهذا الصغير ينام ملءَ عينيه والشفرةُ محدودةٌ له ، والذبح بعـد ساعات قليلة ؛ كأنما هو فى زمنين أحدهما من نفسه ، فبه ينام ، وبه يلهو ، وبه يسخر من الزمن الآخر وما فيه وما يجلبه

إن الألم هو فهم الألم لا غير . فما أقبح علمَ العقل إذا لم يكن معه جهلُ النفس به وإنكارُها إياه . حَسْبُ العلم والعلماء فى السخرية بهم وبه هذه الحقيقةُ من النفس . أنا لو ناطحتُ كبشاً من قُروم الكباش ، ووقفتُ أفكّر وأدبّر وأتأمل ، وأعتبرُ شيئاً بشىء — ذهب فكرى بقوتى واسترخى عَصَبى وتحلّل غضبى كلّهُ وكان العلمُ وبالاً علىّ ؛ فان حاجتى حينئذ إلى الروح وقُواها وأسبابها أضعافُ حاجتى إلى العلم . والروح لا تعرف شيئاً اسمه الموتُ ، ولا شيئاً اسمه الوَجع ؛ وإنما تعرف حظّها

من اليقين ، وهدوءَها بهذا الحظ ، واستقرارَها مؤمنةً مادامت هادئة مستيقنة

وقد واللهِ صدق هـذا الجذعُ الصغير ؛ فما على أحدنا أن يأكله الانسان . وهل أكلُنا نحن هـذا العُشبَ ، وأكلُ الانسان إيانا ، وأكلُ الموتِ للانسان — هل كل ذلك إلا وضعٌ للخاتمة فى شكل من أشكالها ؟

يُشبهُ والله إن أنا احتججتُ على الذبح واغتممتُ له أن أكون نخروف أحمقَ لا عقل له ، فظنَّ إطعامَ الانسان إياه من باب إطعامه ابنَـه وابنتَـه وامرأته ومن تجب عليه نفقتُـه ! وهل أوجبَ نفقتى على الانسان إلا لحمى ؟ فاذا استحقَّ له فلعمرى ما ينبغى لى أن أزعم أنه ظلمنى اللحمَ إلا إذا أقررتُ على نفسى بَديًا أنى أنا ظلمْتُـه العلفَ وسرقتُـه منه

كلُّ حىّ فانما هو شىء للحياة أعْطيَها على شرطها ، وشرطُها أن تنتهى ؛ فسعادته فى أن يعرف هـذا ويقرِّرَ نفسه عليه حتى يستيقنه كما يستيقنُ أن المطر أول فصل الكلأ الأخضر . فاذا فعل وأيقن واطمأن ، جاءت النهاية متممةً له لا ناقصة إياه ، وجرتْ مع العمر مجرى واحداً وكان قد عرفها وأعدَّلها . أما إذا حسب الحىُّ أنه شىء فى الحياة ، وقد أُعطيها على شرطه هو ، من توهُّم الطمع فى البقاء والنعيم ، فكلُّ شقاء الحى فى وهمه ذاك وفى عمله على هـذا الوهم ؛ إذ لا تكون النهاية حينئذ فى مجيئها إلا كالعقوبة أُنزلتْ بالعمر كله ، وتجىء هادمةً منغِّصة ، ويبلغ من تنكيدها أن تسبقها آلامُها ؛ فتؤلِمَ قبل أن تجىء ، شراً مما تؤلم حين تجىء !

لقـد كان جدّى والله حكيماً يوم قال لى : إن الذى يعيش مترقباً النهايةَ يعيش مُعداً لها ؛ فان كان معداً لها عاش راضياً بها ، فان عاش راضياً بها كان عمرَه فى حاضرٍ مستمرّ ، كأنه فى ساعةٍ واحدة يشهد أولها ويُحس آخرَها ، فلا يستطيع الزمن أن ينغص عليـه ما دام ينقاد معه وينسجم فيه ، غيرَ محاول فى الليل أن يبعد الصبح ، ولا فى الصبح أن ينفد الليـل . قال لى جدّى : والانسانُ وحده هو التعس الذى يحاولُ طردَ نهايته ، فيشقى شقاء الكبش الأخرق الذى يريد أن يطرد الليل ، فيبيت ينطح الظلمةَ المُتدجيةَ على الأرض ، وهو حمقه يظن أنه ينطح الليلَ بقرنيه ويزحزحُـه . . . !

وكم قال لى ذلك الجد الحكيم وهو يعظنى : إن الحيوان منا إذا جمع على نفسه هماً واحداً صار بهذا الهم إنساناً تعساً شقياً ، يُعطى الحياةَ فيقلبها بنفسه على نفسه شيئاً كالموت ، أو موتاً بلا شىء . . . !

* * *

وتحرك الصغير من نومه ، فقال له الكبش : إنه ليقع فى قلبى أنك الساعة كنتَ فى شأنٍ عظيم ، فما بالك منتفخاً وأنت ههنا فى المنْحرَ لا فى المرعى !

قال الصغير : ياأخا جدّى . . . لقد تحققتُ أنك هَرِمتَ وخَرِفتَ ، وأصبحتَ تمجُّ اللعابَ والرأى . . . !

قال الكبش : فماذاك ويلك ؟

قال : إنك قلتَ : إن هذا الانسان غادٍ علينا بالشفرة البيضاء ، ووصفتَ الذبح والسلخ والأكل ؛ وأنا الساعة قد نمتُ فرأيتُ فيما أرى ، أننى نطحتُ ذلك الرجل الذى جاء بنا إلى هنا ، وهِجْتُ به حتى صرعتُـه ، ثم إنى أخذتُ الشفرةَ بأسنانى ، فثلمْتُـه فى نحره حتى ذبحته ، ثم افتلذْتُ منه مُضغةً فلُكْتُها فى فمى ؛ فما عرفت والله فيما عرفت لحْناً ولا عَفناً فى الكلأ هو أقبح مذاقاً منه !

إن الانسان يستطيب لحمنا ويتغذى بنا ويعيش علينا ؛ فما أسْعدَنا أن نكونَ لغيرنا فائدةً وحياة ، وإذا كان الفَناءُ سعادةً نعطيها من أنفسنا ، فهذا الفناءُ هو سعادةٌ نأخذها لأنفسنا . وما هلاكُ الحىّ لقاءَ منفعةٍ له أو منفعةٍ منه إلا انطلاقُ الحقيقة التى جملتْـه حيّا ، صارت حرةً فانطلقت تعملُ أفضلَ أعمالها

قال الكبير : لقد صدقتَ والله ، ونحن بهذا أعقلُ وأشرف من الانسان ؛ فانه يقضى العمر آخذاً لنفسه ، متكالباً على حظها ولا يعطى منها إلا بالقهر والغَلَبة والخوف . تعالَ أيها الذابح ، تعالَ خذ هذا اللحم وهذا الشحم ؛ تعالَ أيها الأنسانُ لنعطيك ، تعالَ أيها الشحاذ ....!

طنطا مصطفى صادق الرافعي

مصر بين ثقافتين

الصراع القديم بين الانكليزية والفرنسية

وموقف مصر من ذلك الصراع

للأستاذ محمد عبد الله عنان

يعرف المتصلون بدوائر التعليم والثقافة فى مصر أن صراعاً قوياً يجرى بين الثقافتين الفرنسية والانكليزية ، تارة فى الجهر وتارة فى الخفاء . وقد كان تيار الثقافة الفرنسية هو الظافر حتى أواخر القرن الماضى ، وكان يغمر المجتمع المصرى المثقف ، فلما رسمت سياسة الاحتلال الانكليزية خطط الغزو المعنوى ، اهتمت بنظم التعليم والتربية ، وأخذت تعمل لتوجيهها بما يوطد نفوذ الثقافة الانكليزية ويطبع الجيل الجديد بحبها والتعلق بها ، فقلبت نظم التعليم ، وحلت الانكليزية مكان الفرنسية فى معظم المواد ، وتولى الأساتذة الانكليز مقاليد الادارة والتعليم فى معظم المعاهد ، وتحول سيل البعثات الحكومية من فرنسا إلى انكلترا ؛ ولم يمض ربع قرن حتى تم الانقلاب المنشود ، وأسبغت على سياسة التربية والتعليم فى مصر صبغتها الانكليزية المحضة ، وخرج الجيل الجديد من الشباب المتعلم يحمل تيار الثقافة الانكليزية ، وتضاءل نفوذ الثقافة الفرنسية وانحصر فى بعض الجهات والمعاهد الأجنبية التى تعمل على نشرها

كان هذا الصراع بين الثقافتين الأجنبيتين على حساب لغتنا العربية وثقافتنا القومية ، فلم تصب العربية خلاله حظاً يذكر من التقدم ، وأغفلت كل المثل والاعتبارات القومية من برامج التعليم والتربية ، وأوشك هذا الغزو الاستعمارى المعنوى أن يقضى على أرواحنا وعقولنا ، لولا أن وثبت البلاد وثبتها الوطنية فى سنة ١٩١٩ ، وتذرعت للمقاومة بما بقى لها من العناصر الحيوية الكامنة ، واستطاعت أن تحول السياسة الاستعمارية عما كانت تعتزمه من خطط الاستئثار الشنيع والقضاء على الحقوق والأمانى الوطنية نهائياً ، وأن تحوز بعض الغنم فى ميادين السيادة القومية . وكان التعليم أحد هذه الميادين ، فحررت نظمه وبرامجه من اغلالها القديمة نوعاً ، وأنصفت اللغة العربية وأخذت تتبوأ مكانها اللائق كلغة أساسية لتدريس المواد فى معظم المعاهد ومراحل التعليم ، وكان ذلك ظفراً حقيقياً للغة البلاد

ولكن هذا التطور فى ميدان التعليم والثقافة لم يحل دون استمرار المعركة القديمة بين الثقافتين الانكليزية والفرنسية ؛ فقد بقيت الفرنسية لغة اضافية فى التعليم الثانوى ، وضعف تيار الانكليزية بما أتيح للعربية من مجال قوى للعمل والمنافسة ؛ وظهر الضعف فى الانكليزية بين الطلبة قوياً ، وأخذ نفوذ الثقافة الانكليزية الذى كان متمكناً منذ عشرة أعوام فقط ، يتضاءل بسرعة ؛ واهتم الانكليز لهذه الظاهرة ؛ وبحث ولاة الأمر فى أسباب ضعف الطلبة فى اللغة الأجنبية الأساسية أعنى الانكليزية ، وتضاربت فيه الآراء الفنية والعملية ؛ أما نحن فلنا فيه رأى لا نرى بأساً من إبدائه ، وهو أن هذا الضعف لا يرجع فقط إلى قصور الجيل الجديد من الأساتذة الانكليز ، ولكنه يرجع بالأخص الى عوامل قومية ، خلاصتها أن الخصومة القائمة بين مصر وانكلترا تحمل الطالب المصرى الذى أشربت نفسه بمبادىء الوطنية على نوع من الأسف والغضاضة لتلقى لغة الأمة الخصيمة على يد بعض أبنائها ، وأن الاساتذة الانكليز لا يؤدون مهمتهم فى المعاهد المصرية كأساتذة فقط ، ولكنهم رسل استعمار وسيادة أجنبية ، ينظرون إلى الطلبة نظرة السادة إلى الرعايا والمحكومين ، وفى أقوالهم وإشاراتهم دائماً ما يجرح شعور العزة القومية فى هذه النفوس الغضة ويزهدها فى بضاعة هؤلاء الأساتذة المتكبرين ، ولو قام بتدريس الانكليزية أساتذة مصريون ممن تخصصوا فى دراستها ، لكان ذلك أجدى وأنفع ، ولزال كثير من أسباب هذه الشكوى

ولسنا نقف طويلاً بهذه النقطة ، وهى ثانوية فى نظرنا ؛ ولكنا نريد أن نعرض الى ما هو أهم من أطوار هذه المعركة المستمرة بين الثقافتين الانكليزية والفرنسية ؛ فقد طلب ولاة الأمر فى وزارة المعارف أخيراً الى بعض الأساتذة الانكليز أن يبدوا رأيهم فى سبب ضعف الطلبة فى اللغة الانكليزية ، فصرحوا فى تقريرهم الذى رفعوه الى وزير المعارف بأن من أهم أسباب هذا الضعف فى نظرهم هو اشتغال الطلبة بدراسة لغة أجنبية إضافية هى الفرنسية الى جانب اللغة الأجنبية الأصلية وهى

الانكليزية ، وانه يجب إلغاء تدريس اللغة الفرنسية من التعليم الثانوى اذا أريد أن يتفرغ الطلبة لدراسة الانكليزية وأن تقوى مادتهم فيها . وقد كان إبداء هذا الرأى مثاراً لكثير من الجدل ، ولا سيما من جانب الأساتذة الفرنسيين ومحبى الثقافة الفرنسية وأنصارها ، فأخذوا يفندون رأى أساتذة الانكليز ويدللون على أهمية الثقافة الفرنسية بالنسبة لمصر ووجوب تفضيلها على أية ثقافة أجنبية أخرى

وموقف الأساتذة الانكليز من اللغة الفرنسية طبيعى معقول ، وسواء أكان رأيهم فنياً مجرداً عن كل اعتبار أدبى آخر ، أم كان مغرضاً موحى به ، فلا ريب أنه يمثل ناحية من نواحى هذه المعركة الخالدة بين الثقافتين الأجنبيتين اللتين تتنازعان النفوذ فى مصر منذ نصف قرن . ويلوح لنا أنه من جهة أخرى رأى عملى سليم من الوجهة الفنية اذا جرد عما قد يكون وراءه من الاعتبارات والعوامل ؛ فالطالب اذا تفرغ لدرس لغة أجنبية واحدة دون أن تزعجه لغة أجنبية إضافية أخرى ، يستطيع أن يحرز فى هذه اللغة شيئاً من التقدم . ومادام أن ظروفاً سياسية خاصة تقضى بأن تكون الانكليزية هى اللغة الأجنبية الأساسية فى مصر الى جانب اللغة العربية ، ومادام أن مصر لا تستطيع فى الوقت الحاضر أن تقرر اختيارها حراً مطلقاً ، فلا مناص من أن نصدع بالأمر الواقع ، وأن نبحث المسألة على ضوء هذه الحقيقة

الانكليزية هى اللغة الأجنبية الأساسية التى تقررت فى نظام تعليمنا . ومن المسلم به أن تعليم اللغات الأجنبية الحية عنصر جوهرى من عناصر الثقافة الناضجة ، وفى جميع الأمم العظيمة التى تتمتع بحضارة رفيعة ، تعلم لغة أجنبية أو أكثر الى جانب اللغة القومية ؛ وهذا ما تفعله مصر بتعليم الانكليزية . ومن المحقق أن الانكليزية فى مقدمة لغات الأرض انتشاراً وأهمية ، وأن الثقافة والآداب الانكليزية فى طليعة الثقافات والآداب العالية الرفيعة . ولكن من سوء الطالع ، أن تكون الانكليزية فى مصر الى جانب هذه الاعتبارات العلمية ، أداة للنفوذ الاستعمارى ؛ ومن مصائب مصر أنها مازالت مسرحاً للمنافسات الأجنبية ؛ الثقافة الفرنسية أو بعبارة أخرى الثقافة اللاتينية ، والثقافة الانجلوسكسونية ، واللغة الألمانية ، واللغة الايطالية ، كل تحتل مقامها فى هذه البلاد ، وكل تحاول أن تدعم نفوذها وأن تزيده بطريق المدارس والبعثات الدينية والمؤسسات الخيرية المقنعة ، وكل تدعى لأبنائها بعض الادارات والمناصب الفنية فى الحكومة المصرية قياسا على الماضى كأن الزمن لم يتغير ، ولم تحرز مصر تقدما ، ولم تجش بأمنية التحرر من هذه الوصايات الخطرة

ففى هذا المعترك تتخبط مصر ؛ وإزاء هذه الجبهة المشتركة من الثقافات واللغات الأجنبية المتنافسة فى غزو عقولنا وأرواحنا تقف اللغة العربية وحيدة فى الميدان . وقد أنصفت اللغة العربية فى العهد الأخير نوعاً كما قدمنا ، ولكنها مازالت فى حاجة إلى انصاف أتم وأوفى ؛ وهى اليوم بلا ريب أقوى وأشد كفاحاً ومقاومة ، وقد أتيح لها أخيراً أن تدلل على حيويتها المدهشة باستعمالها فى تدريس كثير من مواد الدراسات العالية التى كانت تغلق قبلاً دونها بحجة قدمها وقصورها . غير أن العربية مازالت فى مهادها الرسمية عرضة لمنافسة قوية من اللغتين الانكليزية والفرنسية ، الأولى كلغة أجنبية أساسية ، والثانية كلغة أجنبية اضافية . والواقع أن هذه الفرنسية الاضافية لم تبق لها أية قيمة عملية فى الدراسة ، وقلما ينتفع الطلبة بتعليمها ، وإنما هى أثر من آثار الصراع القديم والعهد الماضى ، ففيم بقاؤها اليوم عنصراً من عناصر الارهاق والتعطيل ؟ قد يكون فى اقتراح الأساتذة الانكليز ما يبعث على الشك فى نزاهته وأنه يرمى قبل كل شىء إلى تخلص اللغة الانكليزية من منافسة قديمة . فليكن ؛ ولكننا نستطيع أيضاً أن نحول هذا الالغاء لمصلحة اللغة العربية والثقافة القومية ، ذلك أن اللغة العربية تتخلص أيضاً بالغاء هذه الفرنسية الاضافية من منافسة لا مبرر لها وليست لها قيمة علمية تذكر ؛ ويكفى أن تضطلع العربية بالدفاع عن نفسها أمام غزو لغة أجنبية رسمية واحدة ، وأن تقف مع الانكليزية وجهاً لوجه ، وأن تكسب بذلك قوة جديدة وأن تغزو ميداناً جديداً للعمل والكفاح

فى وسع مصر أن تلغى الفرنسية من معاهدها ، ولكنها لا تستطيع لظروفها السياسية الخاصة أن تلغى الانكليزية . وإذن فلا ضير أن تلغى الفرنسية ؛ وفى الانكليزية كلغة ثقافة عالية ما يكفى لتزويد المتعلم بكل ما يطمح إليه من صنوف العلوم والمعارف الحديثة ، وكفى ما تلقاه البلاد من غزو معنوى منظم على يد المعاهد

الأجنبية فرنسية وغيرها ، وكلها تقوم برسالة غير رسالة العلم الخالص

لسنا نجد موضعاً للمفاضلة بين الفرنسية والانكليزية فكلتاهما من أعظم اللغات الحية سواء فى العلوم أو الآداب أو الفنون ، وكلتاهما من أهم اللغات الدولية فى المعاملات التجارية . ولسنا من أنصار ثقافة أجنبية بعينها ، وإنما نؤيد الأخذ والاقتباس من كل ثقافة رفيعة . ولكن الأساتذة الفرنسيين فى وزارة المعارف وأنصار الثقافة الفرنسية فى مصر يضجون لفكرة إلغاء اللغة الفرنسية من مواد الدراسة الرسمية ، ويشفقون على مستقبل الثقافة الفرنسية فى هذه البلاد ، فلم هذه الضجة ولم هذا الاشفاق ؟ يقولون إن الثقافة الفرنسية هى أصلح الثقافات الغربية لمصر ، وإن النهضة المصرية الأخيرة بدأت على أساس الثقافة الفرنسية واستمرت كذلك طوال القرن الماضى ، وإن قادة الحركة الفكرية الحديثة فى مصر تلقوا العلم جميعاً فى فرنسا ، وإن الصلات التاريخية والاجتماعية القديمة بين مصر وفرنسا ، وكون مصر اقتبست قوانينها الحديثة من القانون المدنى الفرنسى ، وكون اللغة الفرنسية ما تزال لغة المعاملات المختلفة فى مصر ، وأخيراً كون مصر أمة من أمم البحر الأبيض التى تغمرها الثقافات اللاتينية : كل هذه العوامل تحتم الابقاء على اللغة الفرنسية فى مصر ، والمضى فى الاقتباس من الثقافة الفرنسية وتوثيق هذه الروابط المعنوية بين البلدين

ونحن لا نود أن نجادل فى هذه الوقائع من الناحية المادية ، ولكنا نلاحظ فقط أن مصر الحديثة لم تتجه إلى اختيار الثقافة الفرنسية قصداً بمحض اختيارها ؛ وإنما هو مجرى الحوادث القاهر الذى ساقها إلى هذا السبيل ، فقد نظم الفرنسيون حينما غزوا مصر فى خاتمة القرن الثامن عشر ، غزوهم المعنوى إلى جانب الغزو السياسى ، وعنوا ببث ثقافتهم فى مصر عناية خاصة ؛ ولما استخلص محمد على حكم البلاد لنفسه ، ألفى أمامه بقية قائمة من هذه الثقافة ، وألفى الفرنسيين على أهبة لمعاونته ، وقضت ظروف سياسية معينة أن يقبل هذه المعاونة وأن ينتفع بها فى تنظيم إدارته وإصلاح جيشه وماليته ؛ وفى ظل هذه الظروف أرسلت البعثات المصرية الأولى الى فرنسا ؛ وقد كانت يومئذ أوثق الدول الغربية صلة بمصر ، واستطاعت فرنسا أن تقوى نفوذها المعنوى والثقافى بمصر ، وغدا هذا النفوذ بمرور الزمن ظاهرة قائمة فى الحياة المصرية ، واستمر ينتج أثره فى طبع المجتمع المصرى المثقف بالطابع الفرنسى حتى أواخر القرن الماضى . هذه هى قصة الثقافة الفرنسية بمصر ، فلم تكن مصر عامدة أو حرة فى اختيارها ولم تخترها وتؤثرها لأنها أصلح الثقافات لها ، أو لأن ظروفها الجغرافية والاجتماعية كاحدى أمم البحر الأبيض تحتم عليها أن تسير وراء الثقافة اللاتينية ، أو لغير ذلك مما ينتحله أنصار الثقافة الفرنسية فى مصر ؛ ولم يكن الأمر أكثر من حادث تاريخى عرضى زالت البواعث والظروف التى أدت اليه منذ بعيد

لسنا ننتقص من الثقافة الفرنسية أو غيرها من الثقافات الغربية الرفيعة ، ولكنا سئمنا هذا التنافس على غزونا من طريق اللغات والثقافات ، ولا نريد بعد أن نعتبر منطقة نفوذ لهذه الثقافة أو تلك ، ونريد قبل كل شىء أن نوحد جهودنا المعنوية فى مقاومة الغزو الذى لامناص من قيامه فى معاهدنا ومدارسنا ؛ ذلك هو الغزو الانكليزى ؛ ولن يكون ذلك إلا بالعمل على تعزيز اللغة العربية وتقدمها ، وتعزيز عناصر الثقافة القومية فى صــدور الشباب . ومن حسن الطالع أن هذا الغزو الانكليزى المنظم لعقولنا لم يصادف كثيراً من النجاح رغم استئثاره فى عصر ما بجميع المواد والدراسات ؛ ذلك لأننا نشعر دائماً بما وراءه من الظروف والاعتبارات التى لا يرتاح اليها ضميرنا القومى ، ولأننا نشعر دائماً أنه غزو مفروض علينا فى معنى من المعانى . وليس معنى ذلك أننا لم نجن غنما علمياً من دراسة الانكليزية ، ومن التثقف بثقافتها ، فقد جنينا بالعكس منها فوائد جليلة ، ولكنا نعتقد أن هذا الغنم يكون مضاعفاً لو أن مصر استطاعت أن تتحرر من كل نفوذ معنوى ، وأن تختار لنفسها ماشاءت من ألوان الثقافات المختلفة التى تحقق أمانيها الوثابة دون أن تجنى على بنائها وتقاليدها القومية ؛ ونحن على يقين من أنه يوم يتاح لنا مثل هذا الاختيار الحر ، لانستطيع أن نرى فى الانكليزية إلا أنها فى مقدمة اللغات والثقافات ، ولانجد غضاضة فى أن تكون هى اللغة الأجنبية الأساسية ، وأن تكون أداة لسد كل نقص نشعر به فى دراساتنا

والخلاصة أننا لا نجد غضاضة ولا ضرراً فى إلغاء الفرنسية

من برامجنا الدراسية والقضاء على هذا التنازع فى النفوذ العقلى فى معاهدنا ، وتحرير اللغة العربيـة بذلك من أحد عناصر المنافسة التى لامبرر لها ، والتى ما زالت تشعر بوطأتها . بل نرى من الخير ومن الواجب معاً أن تقاوم البلاد كل ألوان هذا الغزو الثقافى الأجنبى ما استطاعت خصوصا ما كان منه ستاراً لبث نفوذ معين يتخذ من آن لآخر وسـيلة لتحقيق مختلف الغايات والمصالح ؛ ولسنا نفرق فى ذلك بين غزو وغزو ونفوذ ونفوذ ؛ فالفرنسى والايطالى والألمانى كالانجليزى يتخذون من بلادنا مسرحاً لهذه المنافسات الخطرة ؛ وإنه لمن خير مصر وسلامها أن تقاوم هذا الغزو المنوى دائما وأن تعمل على تحطيم عناصره وأسلحته ما استطاعت

محمد عبد الله عنانه
المحامى

كيف نبعث الأدب
وكيف نترواه ؟

للأستاذ عبد العزيز البشرى

عرضه وجلاء تاريخ :

لا شكّ فى أن من أهمّ نهضاتنا التى نتواثب فيها الآنَ ومن أبْرزها نهضةَ الآداب : فلقـد زاد عددُ المُقبلين على الأدب العربىّ والذين يُعالجونه فى هذا العصر بقدْرٍ عظيم ، كما أُعلِيَت مكانته ، وابْتعدت أغراضه ، وتلوّنت فنونه . وبعد أن كان يَضطرِب فى أضيق مضطرب ، ويَتقلّب فى أفسل المعانى ، ولا يستشرف إلاّ الضّئيل التّافه من الغايات من المديح الوضيع الذليل ، ومن الغزَل المصنوع المتكلّف ، ومن فخرٍ مكذوب لا يَمُتُّ إلى مَفاخر العصر بسبب ، ومن وَصف مُفترًى على الطبيعة ، فلا هو مما يَنتظمُ الواقع ، ولا هو مما يَخلَع عليه الخيالُ الصّناعُ صورةَ الواقع ، ومن هجوٍ تُتلقّط فيه المعايبُ والقاذر من هنا ومن هنا لتُعفر بها وجوه الناس عَفراً . ونحو ذلك مما كان يجول فيه الأدب فى الجيل الماضى ، على وجه عامّ ، وتتجرّد فى طلبه والتشمير له جَمهرةُ المتأدّبين . على أنه لم يكن له أىّ حظٍّ من وِجدان ولا من جَيَشان عاطفة ، وكيف له بهذا وهو لم يَدُكّ له حسّ ، ولم يَخفق به قلب ، وإنما أمره إلى حركة آلية لا تكاد تعدو فى مَذهبها تلك الحركةَ التى تنبعث بها الصناعاتُ اليدَوية . إلى أنّ تلك المعانى ، إذا صدق أن مثل ذلك مما تُطلق عليه كلمةُ المعانى ، لقد كانت ، فى الـكثير الغالب ، تُجلَى فى صوَر مُترهلة متزايلة ، لا يقوّى بناءَها أو يشدّ مَتنها شىءٌ من جزالة اللفظ ومَتانة الرّصف ، وتلاحم النسج ، ولا يَجتمع لتزيينها وتبهيجها شىءٌ من حسن الصياغة وإشراق الدّيباجة وجَمال النظام !

ولقد قيدتُ هذا (بالـكثير الغالب) لأن ذلك الجيلَ الماضى لم يَخلُ من كتابٍ ومن شعراء أغلوا حظّ الأدب ، ففسحوا فى أغراضه ، وأبعدوا فى مطالبه ، وحلقوا بمعانيه ، وأبدَعوا فى البيان ، فاتسق لجلالة المعانى شرفُ اللفظ ، وبراعةُ النظم ، وإحكامُ النسج ، وكذلك استوى من المنظوم والمنثور كليهما كلامٌ يترَقرق ماؤُه ، ويَتألق سَناؤُه . ورحم الله ابراهيم المويلحى وابراهيم اللقانى وأضرابهما فى الـكتاب ، ومحمود سامى البارودى واسماعيل صبرى فى الشعراء ، فقد هَدَوا إلى حُسن البيان السبيل

* * *

وإذا كان الأدب يَتمثل لأدباء هـذا الجيل فى صورة أبدعَ وأروعَ من الصورة التى كان يَتمثل فيها لسلَفهم القريب ، كما أدركوا هم أن له مهماتٍ أوسعَ أفقاً وأبعدَ مَدًى من تلك التى كان يدور فيها فى ذلك العهد ، حتى لقد أصبح يتقلب فى جُلَّى أسباب الحياة ، بل لقـد تجاوز أو كاد يتجاوز أفقَ الكماليات البَحت إلى موطن الضرورات فى الحياة الاجتماعية — إذا كان المتأدبون قد أصبحوا يُحلّون الأدبَ هذا الوضع ، ويَتمثلونه على هذه الصورة ، فذلك لأنهم طالعوا أدبَ الغرب ورأوا مايتصرّف فيه من مختلف الفنون ، وما يتجرّد له من جسام المطالب

لقد أصبح الأدب وسيلة من وسائل تنعيم النفس وتلذيذها بما يجلو عليها من صُور الجمال ، وبما يُرهف من الحسّ حتى يتفطن من ألوان المعانى إلى كل دقيق وإلى كلّ بديع ، كذلك لقد تبسط الأدبُ واسترسلت آثاره إلى كثير من الأسباب العامة ،

على ما تقدمت الاشارةُ إليه ، فمظم بذلك أمره ، وحلّ فى عيش الحضارة خطبه ، وكذلك أضحى للبارعين من أهله فى الغرب من الشأن مالا يكاد يوصل به شان

ولقد زعمتُ لك أن الذى بعث تقدير أبناء العربية للأدب هذا المبعث ما جُلى عليهم من أدب الغرب وما طالعوا من بعيد آثاره فى شتى الأسباب ، فراح كثيرون منهم يتأثرونه ، ويتصرّفون بالبيان فى مثل ما يتصرّف فيه من مختلف الفنون . على أن كثيرين من هؤلاء الكثيرين قد انقطع جهدهم دون هذه الغاية فلم يظفروا من الأمر بجليل . ولا شك أن ذلك يرجع إلى أنهم ، فى غالب الأحيان ، إنما ينقُلون إلى العربية ما يتهيأ لهم نقله من آداب الغرب على الصورة التى يستوى فيها لأهله ، لايحاولون ، أو لعلهم يعجزون إذا هم حاولوا ، أن يطبعوه على ما يألفه الخيال الشرقىّ ، ويستريح اليه الذوق العربىّ ، وتسلَس له بلاغات العرب !

ولقد يكون هذا من أثر الافتتان بأدب الغرب ، والتجرّد فى محاكاته وتقليده من جهة ، وقلة المحصول من فقه العربية ورقة الزاد من ألوان بلاغاتها من جهة أخرى

وبعد ، فما نحسب أن هناك من ينكر على الأدب العربىّ جليل خطره فى عهد الجاهلية وفى قيام الدولة العربية فى الشرق والغرب ، وأنه كان ، فى الجملة ، يؤدى من مطالب الحياة ما يؤديه الأدب الغربى اليوم ، وأقول (فى الجملة) لأن الأدب قد تشعبت فى هذا العصر فنونه ، وتطاولت آثاره إلى كثير لم يلتفت اليه فى الزمان القديم ، ولعله لو ظلت دولة العرب قائمة ، وظلت حضارتهم فى اطرادها ، ما تقاصر اليوم عن شأو الأدب الغربىّ ، بل لعله كان يسبقه إلى كثير ! . ولو قد عنى النشء من متأدبينا بدراسة هذا الأدب ، وخاضوا فى أمهات كتبه ، وأطالوا تسريح النظر فيما أثر من روائعه ، لرجعوا إلى نفوسهم بأنه أدبٌ عظيم كلُّ عظيم ، أدبٌ يمتع حقاً وينعّم الروح حقاً بما ينفض من عاطفة مختلجة ، ويصوِّر من دقيق حسّ ، ويتدسس إلى ما استكن فى مطاوى الضمير ، إلى ما أصاب من المعانى البارعة ، وما تعلق به من الأخيلة الرائعة ، وما تصرّف فيه من كل دقيق وجليل فى جميع الأسباب الدائرة بين الناس . ما ترك جليلاً من الأمر ولا دقيقاً إلاّ مسه وعرض له وعالجه بالتصوير والتلوين ، وكل أولئك بصيبه فى مصطفى لفظ ، ومحكم نسج ، وبارع نظم ، ودقة أداء ، وحلاوة تعبير !

على أن الأدب العربىّ ، مع هذا لقد طالما حال فى بعض الأسباب العامة وساهم فى الأحداث السياسية والقومية والمذهبية بقدر غير يسير ، ومهما يكن من شىء فهو أدبٌ واسع الغنى ، رفيع الدرجة ؛ بل إنه لمن أغنى الآداب التى قامت فى العالم ومن أعلاها مكانا

والواقع أنه قد انقبض بانقباض الدول العربيــة وضعُف بضعفها ، فجعلت تضيق أغراضه ، وتتواضع معانيه ، ويجف ماؤه ، ويتجلجل بناؤه ، حتى صار إلى ما صار اليه وظل عاكفاً عليــه ، إلى ما قبيل نصف قرن من الزمان

ولا يذهب عنك أنه فى فترة انقباضه الطويلة قد انبعثت فى الغرب حضارة جديدةٌ جعلت ، على الزمن ، تنبسِط وتتناول وسائل الحياة دِراكاً حتى بلغت شأواً بعيداً . ومما ينبغى أن يُلتفت اليه أشد الالتفات فى هذا المقام ، أن هذه الحضارة قد أوْلت أجلّ عنايتها للشئون المادية ، فكان حظُّ العلوم الطبيعية والكيميائية منها عظيما ، فاستكشفت أشياء كثيرة ، واختُرعت أشياءُ كثيرة ، حتى كاد الانسان لا يتناول شأناً من شئون الحياة إلا بسبب طريف . وبذلك كثرت الآلات المادية كثرة تفوق حدود الوصف ، وهى تطرد فى الزيادة كل يوم ، إذ اللغةُ العربية جاثمةٌ فى أخوِصها لاتمتدّ بالتعريف عن هذا ، إذا هى امتدّت ، إلا الى قليل ، بل الى أقلّ من القليل

ولقد كان من آثار فقر العربية فى هذا الباب أنها حتى بعد نهضتها الأخيرة لَزِمَت فى بيانها دائرةَ الأدبيات لانصيب من المحسّات المادية ، إن هى أصابت ، إلا فى حرج وفى عسر شديد ! وكيف لها بهذا وليس لها به عهد قريب ولا بعيد ؟ !

وإذا كانت الحاجة تفتق الحيلة كما يقولون ، فقد بعثت النهضة العلميةُ فى عهد محمد على الكبير رفاعةَ وأصحابه الى أن ينفضوا قديم العربية لعلهم يجدون بين مفرداتها وما أثِر فى كتبها من المصطلَحات العلمية والفنية ما يدلون به على ما استوى لهم من جديد فى العلوم والفنون ، فاذا أصابوا هذا وإلا عمَدوا الى الوسائل الأخرى من النحت والاشتقاق والتعريب . وإذا كان قد اجتمع

لهم فيما نقلوا الى العربية من علوم الغرب وفنونه صدرٌ محمود ، فان ذلك أصبح لا غَناء فيه ولا سداد له ، بعد إذ فترت تلك النهضةُ وخبت جذوتها بعد ذهاب مُذكيها المرحوم محمد على الكبير ، بينا تطرد العلوم والفنون فى تبسطها حتى لتخرج على العالم كل يوم بجديد . وهذه الحاجة الملحة ، والتى يشتدّ إلحاحها ويتضاعف كلما تراخت الأيام ، لقد كانت تبعث جماعات الفضلاء الفينة بعد الفينة الى تأليف الجمعيات للبحث والنظر فى تحريك لغة العرب حتى تستطيع أن تتوافى لمطالب الحضارة الحديثة . على أنه لم يُقدر لها النجاح لأسباب لا محل لذكرها فى هذا المقام . فلم يَبق بدٌّ من أن تضطلع وزارةُ المعارف بالأمر ، وبعد لأيٍ قام (المجمع الملكى للغة العربية) ، نسأل الله تعالى أن يمده بروحه ، ويعينه على مهمه جليل المشقة جليل الآثار ، وأن يهديه الى أقوم سبيل !

***

لقد استطرد القلم من حديث الأدب الى حديث اللغة ، وماله لا يفعل واللغةُ مادّته وملاكه . وإذا كان أجلّ همه الى المعنويات فليس له عن هذه المادة غَناء ، بل لقد تكون وسيلته وأداته حتى فى التعبير عن أخفى العواطف وأدق خلجات النفوس . على أن أهم ما يعنينا من هذا البحث إنما هو حيرة الأدباء ، أو على تعبير أضبط ، حَيرة بعض من يعانون الأدب فى هذا العصر ، وذلك أن فى مأثور العربية أدباً غنياً سرياً واتى سلفنا العظيم بمطالب الشعور ومطالب الحضارة جميعاً . على أننا نعيش الآنَ فى حضارةٍ غير حضارتهم ، ونُعالج من وسائل الحياة غيرَ ماعالجوا . ثم إنه مهما تطبعنا الوراثةُ على طبعهم ، وتنضح علينا من أذواقهم وشعورهم وغير ذلك من خلالهم ، فان مما لا شك فيه أن لتطاول الزّمن ، وتغيرّ البيئات ، وتلوّن الحضارات ، وما يجوز بالأقوام من عظيمات الأحداث أثراً لقد يكون بعيداً فى كل أولئك . وأنت خبيرٌ بأن الأدبَ الحقّ إنما يتكيّف بما هو كائن ، ويُترجم عما هو واقع (1) . ومن هذا نجد كل أدب حىّ متحركٌ فى تطوّر مستمرّ طوعاً لتطوّر العوامل والأسباب..

(١) قد يحاكى الشاعر أو الكاتب ، لأمر ما ، أدب السابقين . وقد يعمد إلى تصوير عواطفهم وخلجات نفوسهم حتى كأنه يجدها ويشعر بها على نحو ما شعروا ، وأكثر ما يقع ذلك فى الأدب القصصى . على أن الأديب فى هذا مستعير لا أكثر

ولست تلتمس دليلاً على أن الأدب العربىّ إنما كان كذلك فى حياته القوية بخير من أن تستعرض شأنه فى الجاهلية ، وتقلبه فى جميع الدول العربيــة فى العصور الاسلامية . فلن نخرج من هذا إلاّ بأنه قد تأثر فى كل عصر وفى كل بيئة بقدر ما تغيرّ على القوم من مظاهر الحياة

ومعنى هــذا الكلام أن الأدب العربىّ ، فى أى عصر من عصوره الخالية ، مهما يجلّ قَدرُه وتعظم ثروته لا يمكن أن يُغنينا الآنَ فى كثير من مطالب الحياة إذا نحن اتخذناه على حاله ، ولم نَعدُ ما كان من صوَرِه وأشكاله . وإلاّ فقــد سألنا الطبيعةَ شَططا . فهيهات للساكن الجاثم أن يَلحق المتحرّك السائر

وهناك أدبٌ غربىٌّ دارجَ الحضارةَ الحديثةَ وسايرها خطوة خطوة ، واتّسع لكل مطالبها ، وواتاها بجميع حاجاتها فى غير مشقة ولا عناء . ولا يذهب عنك أننا إنما نتأثر الغرب فى ثقافته وعلومه وفنونه وسائر وسائله ، وهذه سبيلنا إلى ما نَستشرف له من التقدم ومشاكلة الأقوياء ، ولكن هذا الأدب الغربىّ الذى نُقبل على محاكاته فيما نقبل عليه من آثار القوم ، لا يَتّسق فى بعض صوره لشأننا ، ولا تستريح إليه أذواقنا ، بل إنه قد لا يَستوى فى تصوّراتنا ، ولا يجدى علينا فى كثير ، أضف إلى هــذا عجز بعض نقَلته سواء فى شعره أو فى نثره ، وقلة محصولهم من العربية ، واضطرارهم ، بحكم ذلك ، إلى إخراجه ، مترجمين كانوا أم محاكين ومقلّدين ، فى صور بيانية شائهة الخلق ، ناشزة على الطبع ، لا نُحسّ إلا مليخةً باردةً فى مَذاق الكلام !

***

وبعد ، فان ممــا لا يَتقبلّ النزاع أنه لا بدّ لنا من أدبٍ قوىّ سرىّ يواتى جميع حاجاتنا ، ويساير ثقافتنا القائمة ، ويَتوافى لهذه الحضارة التى نعيش فيها ، بحيث تَطمئن به طباعنا ، وتستريح إليه أذواقنا ، شأن كل أدب حىّ فى هذا العالم ، ولعل من أشد الفضول أن نقول إن هذا الأدب لا يمكن إلاّ أن يكون عربياً . ولكن كيف الحياةُ فى ذلك ؟

ذلك ما نعالجه فى مقال آخر إن شاء الله تعالى ، فلقد طال هذا الحديث ؟

عبد العزيز البشرى

٦ - قصـــة المِكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

اسپلنزانى Spallanzani

صــلةٌ حديثـه

« القس الماكر الذى مالق الكنيسة والسلطات وهو يحتقرها جميعاً لكى يعيش ولكى يعمل فى سكون؛ الذى ناضل نضال الجند بغير أهبة الجند وعدة الجند؛ الذى أثبت من مرق اللحم أن المكروبات ككل الأحياء لابد لها من آباء؛ الذى أهدى للعلم مثانته الوبيئة، ذلك الأثر الوحيد الذى بقى للناس إلى اليوم من هذا الرجل الكبير الخالد »

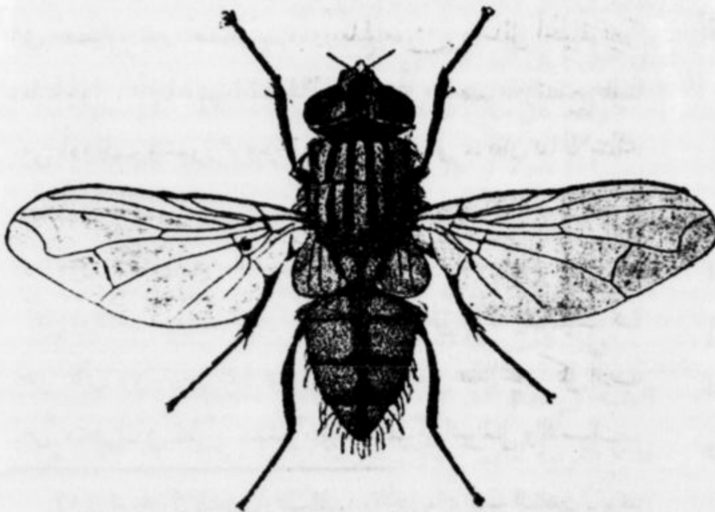
ولم يكن « نيدم » فى هذه الأثناء غافلاً نائماً، بل كان يقظاً لكل ماجرى، محساً بخطره أيما احساس؛ وكان حاذقاً فى الدعاية ماهراً فى النشر والاذاعة. فذهب إلى باريس وأخذ يحاضر فيها عن مرق لحمه؛ وفى باريس التقى بالكونت الشهير « بيفون » Count Buffon. وكان الكونت ثرياً، وكان جميلاً، وكان يحب أن يكتب فى العلم، ويعتقد أنه يستطيع تخريج الحقائق من رأسه أحسن تخريج، إلا أنه والحق يقال كان أنيق الثياب أناقةً منعته من دخول المعامل وممارسة التجارب. وكان بحق يعرف شيئاً من الرياضات، فترجم عن نيوتن إلى الفرنسية. فاذا أنت علمت فضلاً عن هذا أنه كان يستطيع أن يلعب على الورق بالأرقام الكبيرة المعقدة فى سهولة لعِب السحرة المهرة، وإذا أنت أضفت إلى هذا أنه رجل أرستقراطى نبيل، وأنه فوق كل هذا رجل ذو مال كثير، استطعت أن تدرك فى غير عناء كبير أنه رجل من الأفذاذ القلائل الذين يحق لهم أن يقضوا لنا فى أمر تلك الأحياء الصغيرة قضاءً صادقاً دون الرجوع إلى التجربة، وأن يقولوا لنا أتخرج تلك الأحياء عن آباء وأمهات، أم هى تخرج من ذات نفسها – أو على الأقل هكذا كان يتحدث عنه سُخرَة باريس الكفَرة الفجَرة

وعمل « بيفون » و « نيدم » سوياً بتوافق تام، وفى صفاء لا يشوبه كدر، واقتسما العمل: أما « بيفون » فكان يلبس الثياب البنفسجية البديعة، والأكمام ذات الدنتلة النادرة العزيزة، فلم يكن يُنتظر منه أن يوسّخها على نضد المعامل القذرة بما عليها من تراب وزجاج منثور، ومرق مُراقٍ من وعاء مكسور، لذلك اختص بالتفكير وبالكتابة، وقام « نيدم » بالتجريب. واعتزم الاثنان أن يخترعا نظرية ضخمة يفسران بها كيف تنشأ الحياة، وفلسفة رفيعة عميقة يفهمها مع ذلك كل إنسان، فلسفة يجتمع عليها المؤمنون البررة والملاحدة السُّخَرة على السواء. وأخرجا نظرية أهملت الحقائق التى استخرجها « اسپلنزانى » كل الاهمال، وتعامت عنها كل التعامى! ولكن ما ضرر هذا؟ ألم تخرج هذه النظرية من رأس « بيفون » العظيم؟ أليس فى عِظَم هذا الرأس ما يبرر نقض كل حقيقة مهما كان مكانها من اليقين؟

يقول نيدم للكونت النبيل: « سيدى اللورد الجليل! ما الأسباب التى تنشأ عنها تلك الحيوانات الصغيرة فى مرق الضأن برغم غليانها؟ »

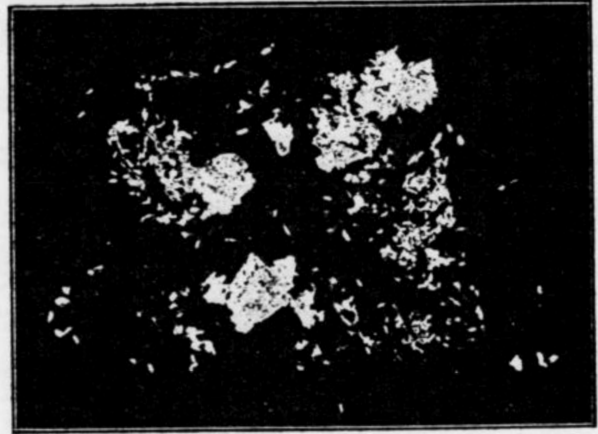
فيحتدم عقل بيفون، ويدور فى الطبقات العليا من الخيال الرفيع دوراناً رشيقاً بديعاً، ثم يهبط إلى الأرض ويجيب:

دورة الحياة للذباب كما نعرفها اليوم (١)

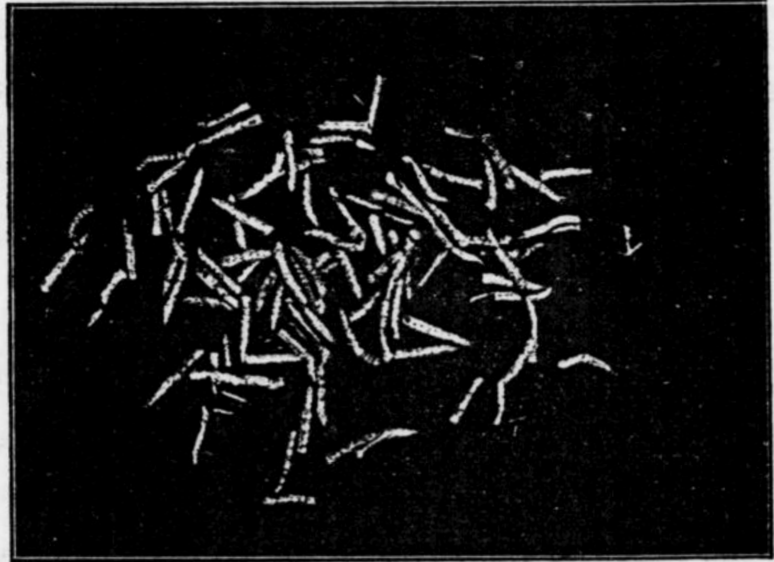


الأنثى من الذبابة

(١) انظر تجربة «ريدى» على تكوين الذباب فى اللحم بصحيفة ٤١٢ بالعدد الماضى، وهى التجربة التى أوحت الى اسپلنزانى تجاربه على المكروب



جماعات من بيض الذباب فى روث باسطبل بحجمها الطبيعى وتبلغ نحو ١٥٠٠ بيضة



دود الذباب الذى يخرج من البيض ثم يتخلق فيصير ذباباً

« عزيزى الأب نيدم ، لقد كشفتَ كشفاً خطيراً ، لقد وضعت أصبعك على أصل الوجود ، لقد رفعتَ الغطاء فى مرق لحك عن تلك القوة التى تخلق الحياة » . نعم لا بد أن تكون قوة ، كل شىء قوة !

فيقول الأب نيدم : إذن فلنسمّها : القوة النباتية ، أى لوردى العظيم »

فيجيب بيفون : « اسم مناسب جميل ، أيها الأب الجليل »

ثم يلبس الكونت أحسن ثيابه ويذهب إلى مكتبه ، وقد تنضّح جوّه بأطيب العطور ، ويبدأ يكتب عن عجائب القدرة النباتية التى تستطيع أن تخلق فى مرق اللحم ونقيع الحب حيوانات صغيرة — يكتب هـذا لا من ملاحظات دوّنها عن تجارب فى المعمل شَهِدَ بها الزجاج والمَحْدَسُ والهب ، بل يكتبها من عقله الخصيب

وما هى إلا أيام معدودات حتى كنت تسمع (بالقوة النباتية) على كل لسان ، يتحدث بها كل انسان ، وتتفسر بها كل الأمور ، فالزنادقة أحلّوها محل الله ، ورجال الكنيسة قالوا إنها أمضى أسلحة الله . وشاعت فى الناس كما تشيع الأغانى ، وانتقلت بينهم انتقال الحكاية المليحة التى لا تتصل بالآداب اتصالاً وثيقاً ، أو كما نتحدث اليوم عن النظرية النسبية

وأسوأ من هـذا وأنكى أن الجمعية الملكية جارت رجل الشارع ، بل سارعتـه حتى كادت تتعثر فى خطاها ، فانتخبت « نيدم » عضواً بها ، ونادت به أكاديمية العلوم بباريس زميلاً . وفى هذه الأثناء كان اسپلنزانى يسير فى معمله رائحاً غادياً يتمتم ويدمدم : ذاك خطر على العلم كبير ، ذاك تعامٍ عن الحقائق المتجسدة المتجرّدة الصامتة التى بدونها لا يكون العلم علماً ، هذان رجلان يتغاضيان عن تجاربه البديعة وما تتضمنه من حقائق جميلة !

وظل اسپلنزانى لا يدرى كيف يصنع . وأنّى له ما يصنع ، وقد أغرق نيدمُ وبيفون العالمَ العلمىَّ بطوفانٍ من الكَلِم ، ولم يجيبا بشىء عن حقائقه ، ولم يُريا الناس مواضعَ الخطأ من تجاربه ؟

وكان الطليانى مقاتلاً شـديد المراس ، ولكنه كان يحب القتال بالحقيقـة وبالتجربة ، وقام خصماه فأثارا حوله غباراً كثيفاً من اللفظ الفارغ ، ولفّاه من فرعه إلى قدمه بقَتام الكَـلِم البائر ، فلما امتشق سـيفه وأراد أن يضرب لم يجد ما يضرب . صاح اسپلنزانى ما صاح ، وغضب ما غضب ، وسخر سخراً مريراً بتلك الدعابة الهائلة ، تلك القوة التى أسموها القوة النباتيـة ، ولكن من دون جدوى . قال نيـدم إنها القوة التى أخرجت حواء من ضلع آدم ، إنها القوة التى كونت شجرة الصين العجيبة التى تكون فى الشـتاء دودة ، فاذا جاءها الصيف استحالت ويا للعجب إلى شجرة باسقة جميلة — إلى غير هذا من الخَرَف

والكذب ، حتى خال اسپلنزانى أن علم الحيوان كاد يَضيع ، كادت تُضيعه هذه القوة النباتية التى ابتدعها نيدم وأخذ يفسر بها كل شىء ، فلم يبق له إلا أن يُخرج بوساطتها من البقر رجالاً ، ومن البراغيث أفيالاً !

ثم جاءت على حين غفلة تلك الفرصة التى أمكنته من القتال . ذلك أن نيدم كتب إليه يَنْقد تجربة من تجاربه . كتب إليه يقول : « إن تجربتك يا هذا لا تصمد للنقد طويلاً . انك سخنت قباباتك[1] ساعة كاملة ، فهذه الحرارة الشديدة أضعفت تلك القوة النباتية فأصبحت لا تستطيع خلق تلك الأحياء الصغيرة »

وكان هذا كل الذى طلبه اسپلنزانى واصطبر من أجله طويلاً فنسى لاهوته ، ونسى تلاميذه العديدين الذين كانوا يتشوّقون إلى دروسه ، ونسى العقائل الحسان اللائى كنّ يتزاحمن حوله ليطوف بهن فى متحفه ، وطوى أردانه الواسعة فكشف عن سواعده . وأخذ يعمل ، لا بقلمه فى مكتبه ، ولكن بزجاجه وبذوره ومجهره على نَضد معمله

— ٤ —

« نِيدم يقول إن الحرارة تفسد فى البذور تلك القوة التى أسماها بالنباتية . شىء جميل ! هل كان جرّب قبل أن ينطق ؟ وكيف عرف تلك القوة ؟ هل أحسها ؟ هل رآها ؟ هل وزنها ؟ هل قاسها ؟ لم يفعل شيئاً من هـــذا ، ومع هذا يقول إنها موجودة فى البذور ! فليكن ، وإذن فلنسخن هـذه البذور ثم نر »

وأخرج اسپلنزانى قباباته مرة أخرى وأخذ فى تنظيفها . ونقع فى الماء النقىّ أنواعاً عدة من البذور والحمص والفول وغير هذه حتى امتلأت الحجرة بالقبابات ، فكنت تراها تُشرف عليك من فوق الأرفف العاليـة ، وكنت تراها جالسة على النضد والكراسى الواطئة ، وكنت تراها أوطأ من ذلك — قد تربعت على أرض الغرفة حتى يتعذر عليك السير فيها

قال اسپلنزانى : « والآن فلأغلِ طائفة كبيرة من هـذه القبابات أزماناً مختلفة ثم أنظر أيها يخرج أكثر عدد من تلك الأحياء الصغيرة » . وأخذ يغطس هـذه القبابة فى الماء الغالى خمس دقائق ، ثم يغطس هذه فيه نصف ساعة ، ثم هـذه ساعة تامة ، ثم أخرى ساعتين . وبدل أن يلحمها ويختمها فى النـار سدّها بالفلين . ولم لا ؟ ألم يقل نيدم إن هـذا يكفى ؟ ثم رتبها جميعاً ونحّاها . وأخـذ ينتظر . وذهب يصطاد وينسى أن يشد الخيط عندما تأكل السمكة الطعم ، وذهب يجمع المعادن والأحجار لمتحفه وينسى بعد جمعها أن يحملها عند الرواح إلى بيته . وأعمل الحيلة لزيادة مرتبه ، وأقام القدّاسات ، ودرس كيف يتناسل الضفدع — ثم اختفى مرة أخرى إلى غرفته المعتمة بمـا فيها من زجاجات مصفوفة وأدوات غريبة

لو صح قول نِيدم ، إذن لوجدنا القبابات التى أغليت عشر دقائق تعجّ بالاحياء ، ولم نجـد شيئاً فى الأخريات التى أغليت ساعة أو ساعتين . ونزع السدادات سدادة سدادة ، ونظر فى القطرات قطرة قطرة ، وأخيراً أخذ يقصف بالضحك ، فالزجاجات التى أغليت ساعتين كان بها من تلك الخلائق الحية المرحة أكثر من التى أغليت دقائق

« زعموها قوة نباتيـة ! حديث خرافةٍ وأضغاث أحلام . إنك مادمت تـكتفى بسدّ القبابات فسوف تدخل إليها الأحياء غصباعنك مِن الهواء . ولن يغنى الغليان عن ذلك شيئاً ولو ظللت تغليها حتى يسودّ وجهك من سخام النار ، فان تلك الاحياء تدخل إلى المرق من السداد بعد أن يبرد »

انتصر اسپلنزانى بهذا ، ثم إذا به يحاول أمراً لا يحاوله إلاّ العالم القُحّ ، العالمُ الذى أُشرب الروح العلمية الحق ، ذلك أنه قام يخاصم نظريته ، ليرى أيستطيع أن يقهر فكرته ، أن يقهر تلك النظرية العزيزة عليه ، أن يقهر تلك الفـكرة الحبيبة إليه . فرسم خطة الهجوم . وابتدع فى أمانة وذكاء تجارب هى محكّ ما يقول ، فاما له وإما عليه . هـذا هو العلم ، هذه هى روح العلماء التى وهبها الله قليلاً من الرجال أحبوا الحق حباً غلب على شهوات الأنفس وأمانىّ القلوب . وأخـذ اسپلنزانى يتمشى فى غرفة عمله المظلمة روحةً وجيئة وكفّاه خلف ظهره وهو يتفكر : « . . . . ولـكن مهلاً ! أليس من الجائز أن نيدم خمن تخمينةً وقعت فى الصميم من الحقيقة وهو لا يدرى ؟ ! أليس من الجائز أن فى هذه البذور قوّةً نباتية حقاً أعدمتها النار الشديدة ؟ ! »

(١) القبابة زجاجة مقبية البطن طال عنقها أم قصر

ثم قام فأتى بشىء من البذور ، ثم قلاها فى مقلاة كما يُحمِّص البن ،أعنى حَبه، حتى ارمدَّت واسودت ، ثم وضعها فى القوارير وصب عليها الماء ، ثم هَدر كالبعير يقول : « لو صح أن فى هذه البذور قوة نباتية كما يزعمون إذن فقد أعدمها التحميص اعداماً »

وبعد أيام رجع إلى قاروراته وما بها من الأحسية المطبوخة من البذور المحروقة ، وأخـذ ينظر إليها بعدسته فوجدها جميعاً مليئة بتلك الحيوانات الصغيرة يزحم بعضها بعضاً فى مَراحها ومغداها ، تَنعم بالحياة وتبتهج بالعيش فى مرق الحبّ المحروق نفس الحياة الناعمة والعيش البهيج الذى كانت تجده فى حساء الحب غير المحروق . وعلت وجهه ابتسامةٌ ساخرة ، كأنما كان ينظر فى هذه الساعة إلى نيدم وإلى نيفون ويتصور ما قد نالهما من جَرّاء ذلك من الحرج والضيق

حاول أن يقهر نفسه ويقهر نظريته ، فاذا النتيجة تطلع بقهر نيدم رب التقوى ، وباندحار بيفون رب الظرافة . قالا إن النار تقتل القوة التى ابتدعاها فلا تتكوّن تلك الخلائق ، وها هى ذى البذور تحرق حتى تتفحم وهى لا تزال ترفُـد تلك الأحياء بالغذاء الطيب المرئ — « إذن فتلك القوة خرافة » . وبهذا النداء صاح اسپلنزانى فى أوربا يسمع دانيها وقاصيها فأخذت أُذن تنصت اليه

وأراد أن يستجمّ من عناء تلك المخلوقات الضئيلة وما يتصل بها من أبحاث مجهدة ، فحوّل همه إلى المعـدة الانسانية وأخذ يدرس الهضم كيف يحصل فيها ، وأجرى فى ذلك تجارب على نفسه كانت مؤذية قاسية . ولم يكفه ذلك فطلع إلى ذروة بيته ، إلى تلك الحجرة الحارة المظلمة التى تلى سقيفة داره ، وأخذ يدرس كيف أن الوطواط على عماه يستطيع أن يطير فيها ولا يصـطدم بشئ مما بها . وفى ثنايا كل هذا استطاع أن يقتصد من وقته فيعين أولاد أخيه على التعلم ، وأن يتكفل بحاجات أخته وأخيه ، وما كانوا من ذكائه وعبقريته فى شئ ، ولـكنهم كانوا من لحمه ومن دمه

ولم يلبث أن رجع القسيس يسأل نفسه ذلك السؤال القديم : كيف تنشأ الحياة ؟ ذلك السؤال الذى منعه دينه من أن يجد له جواباً ، وتلك الحياة العجيبة التى أوصاه دينه بأن يتقبلها بعين مغمضة وإيمان أعمى ، وأن يتخذ من غرابتها آية من آيات الله العظيم ، وأن يرى فى غموضها سراً من أسرار الحى القيوم . رجع يبحث فى الحياة كيف تتكوّن ، وأخذ يجرّب فى الحيوانات الكبيرة بدل تلك الحيوانات المجهرية الصغيرة . وبدأ سلسلة من الأبحاث طويلة فى سـفاد الضفدع المسمى بأبى ذنيبة toad ، ساقته إلى فظائع كبيرة وتمثيل بالحيوان تقشعر منه الأبدان . . .

ولم يكن يأتى الفظاعة حباً لها ، ولم يتعدّ حدود اللياقة ضيقاً بها ، بل كان يتشمم حيثما قاده أنفه طلباً للمعرفة وتعشقاً لها . وقسا على نفسه كما قسا على الحيوان . ذلك أنه أراد أن يدرس كيف تهضم المعدة الطعام ، فاذا به يأتى بقطع صغيرة من الخشب يجعلها جوفاء ثم يملؤها باللحم ثم يبلعها ، وبعد ذلك يضع أصبعه فى حلقه فيقيئها ، ثم يأخذ ينظر ما جرى للحم داخل الخشبات . وثابر كالمخبول على هذا العذاب حتى اعتراه غثيان دائم لم يجد معه إلا الاقرار بالضرر الحاصل فوقف التجارب [1]

يتبع **احمد زكى**

(١) كان العلماء فى هـذا العصر يرون فى الهضم رأيين ، أحدهما أن المعدة تدق الطعام دقاً ميكانيكياً ، وثانيهما أنها تذيبه إذابة كيماوية بما تفرز من عصارة . وكان اسپلنزانى يرى الرأى الأخير ، وقد أثبته بأن أغرى بعض الطيور الكاسرة يبلع قطع صغيرة من الأسفنج كان يربطها بخيط ، فاذا هو انتزعها خرجت بشئ من العصارة الهضمية . فلما تجمع له من تلك العصارة مقدار كاف ، وضع فيها قطعاً من اللحم فذابت فيها بعد قليل كما يذوب السكر فى الماء — المترجم

من الشعر المنثور

أيها الطفل الغرير !

للآنسة « فتاة الفرات »

— ١ —

رأيتك طفلاً تثب كما يثب العصفور ، فوق الأغصان ،
وسمعتك تغرد كما يغرد البلبل ، على الأفنان ،
فاغتبطت بك اغتباطا ، طار بي من عالم الحقيقة الى عالم الخيال ،
وملأت بمنظرك الجميل عينيّ ،
وشنفت بصوتك العذب سامعتيّ .

— ٢ —

ورأيتك يافعاً عائداً من المدرسة ، تحمل أدواتك ،
وجالساً الى منضدتك تؤدى واجباتك ،
على ثغرك ابتسامة الظفر ، وعلى وجهك طمأنينة الأمل
فقلت : هلال سيكون بدراً تماماً ،
وشبل سيكون أسداً ضرغاماً

— ٣ —

ثم رأيتك بعد أيام وقد بَرَّح بك الداء ،
وأقر الطبيب بالعجز عن الدواء !
تنتزع نفسك من صدرك ، وتقتلعه من بين أضلاعك ،
ففر قلبي جزعاً عليك وطار ،
وانهل الدمع فى إثرك وسار !

— ٤ —

كنت جميلاً فزادك الموت جمالاً ،
وكنت جليلاً فزادتك المنية جلالاً ،
فانت على سرير الموت ملء القلب وملء البصر ،
نعم إن لك فوقه جمال العريس ،
وجلال السيد الرئيس

— ٥ —

أيها الطفل الغرير !
أيها الغصن الغض النضير !
هذه قصيدة أنظمها فيك ، بكاء لك وحزناً عليك ،
كما تنظم يد الربيع لآلئ الأزهار
فى أسلاك الأشجار ،

— ٦ —

ما هى فى الحقيقة عبارات ،
إنما هى عبرات وحسرات ،
نثرتها يد الحزن نثراً ، فجاءت غير موزونة ولا مقفاة
إنها أنفس ما يملكه القلب الكسير
وأغن ما يحرزه الطرف الحسير

— ٧ —

أنت للنفس سرورها !
وأنت للعين نورها !
لقد ذهب السرور وذهب النور ، فلا نفس ولا عين ،
كل شيء بعدك يسير ،
وكل رزء غير رزئك حقير ،

— ٨ —

الشمس مشرقة ولكن ليس لها ضياء !
والقمر طالع ولكن فارقه البهاء !
والعنادل تغرد على الأغصان فلا تحرك ساكناً ، ولا تثير كامناً ،
فأنت مصدر كل نور
وأنت مبعث كل سرور

— ٩ —

لو استطعنا لغسلناك بالدموع
ودفناك بين الحشا والضلوع
ضناً بك عن سكن الأجداث ، ونزول الأرماس
فالرمائم للقبور
أما اللآلئ فانها للصدور والنحور

— ١٠ —

رجعنا عنك وقد شققنا القلوب والأجفان ،
لا الجيوب والأردان
ونفضنا أيدينا من أنفسنا ، بعد أن نفضناها منك ،
فلا كدر بعدك ولا صفاء
ولا سعادة ولا شقاء

— ١١ —

كل يوم للزمان فينا جولة
وله على مسرح حياتنا صولة

ونحن اليه ساكنون مطمئنون ، نرتع ونلعب ،
فيا لله للانسان ما أنساه !
وتباً للزمان ما أقساه !

— ١٢ —

نسر كاسر فوق حمام
وذئب ضار بين أغنام
تسمع النبأة فتجزع وتطير ، وتنقطع عنها فتسكن وتلهو ،
فهل يلين الزمان بعـــد قسوته ؟
وهل يصحو الانسان من سكرته ؟

— ١٣ —

سيبقى على قسوته الزمان
وسيظل على غفلته الانسان
لتتم كلمة القضاء القاهر ، فى سكان الدور والقبور ،
وليبتهج اللاعب بلعبته
وينعم بصولجانه وكرته

— ١٤ —

نبكى فتتزايل منا الأضالع ،
ونضحك فتنهل المدامع ،
فبريق الابتسامة ينذر بالويل ، كما ينذر وميض البرق بالصاعقة ،
فمتى نكون إذن مسرورين ؟
ومتى نكون هانئين وادعين ؟

— ١٥ —

أيها الملك القاهر !
أيها الصانع الماهر !
صنعت الأقداح وملأتها ، ثم عدت اليها فحطمتها وأرقتها !
فقطرات من دموع الفرح
الى بحار من دموع الحزن والترح

— ١٦ —

ليتك ما أخذت ولا أعطيت
وليتك ما أمت ولا أحييت
وليتنا بقينا بين طيات العدم وتحت أذيال الخفاء
فلم ننعم بنـــور الحياة
حتى لا نشقى بظلمة الممات

حلب **فتاة الفرات**

١٨ ـ محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون او خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

وما إنْ انتهى سقراط من هـذا الحديث حتى ساد الصمت فترة طويلة ، فبدا هو نفسه ، كما بدا معظمنا ، كأنما نفكر فيما قيل ، إلا أن سيبيس وسمياس تهامسا بكلمات قليلة ، فلما لحظ ذلك سقراط ، استنبأهما عما ارتأيا فيما أقيم من دليل ، وهل لم يزل يعوزه التدعيم ، وقال : إن كثيرا منـه لا يزال عرضة للشك والطعن ، إذا ماصحت من أحد عزيمته أن يقلب النظر في جوانب الموضوع كلها ، وإن كنتما تتحدثان عن شيء آخر ، فخير ألا أعترضكما ، أما إن كنتما لا تزالان تشكان في الدليل ، فلا ترددا في أن تصرحا بكل ما تريانه ، ولنأخذ بما قد تقترحانه ، إن كان خيراً مما قلنا ، واسمحا لي أن أعينكما إن كان يُرجى لكما من نفع

قال سمياس : لابد أن أعترف يا سقراط بأن الشكوك قد ثارت في عقولنا ، وكان كل منا يحفز الآخر ويدفعه ليلقي السؤال الذي أراد أن يستجيب عنـه والذي لم يرد أحد منا أن يلقيه ، خشاة أن يكون إلحاحنا مضنياً لك في حالك الراهنة

فابتسم سقراط وقال : ألا ما أعجب ذلك ياسمياس ! ما أحسبني في أرجح الظن مستطيعاً إقناع سائر الناس بأنني لا أجد رزءاً في موقفي هذا ، مادمت عاجزاً عن إقناعكم أنتم ، وما دمتم على ظنكم أنني الآن أكثر مشغلة مني في أي وقت آخر . ألا تريان عندي من روح النُّبُـوَّة ما عند طيور التّم[1] ؟ التي إذا أدركت أن الموت آتٍ لا ريب فيـه ازدادت تغريداً عنها في أي وقت آخر ، مع أنها قد أنفقت في التغريد حياتها بأكملها ، وذلك اغتباطاً منها بفكرة أنها وشيكة الانتقال إلى الله ، الذي هي كهنته ، ولما كان الناس يشفقون هم أنفسهم من الموت ، تراهم يؤكدون افتراء أن طيور التم ، إنما تنشد مرثية في ختام حياتها ، ناسين أن ليس من الطيور ما يغرد من برد أو جوع أو ألم ، حتى البلبل والسنونو ، بل حتى الهدهد ، الذي يقال عنه بحق انه يغرد تغريدة الأسى ، وان كنت لاأومن أن ذلك يصدُق عليه أكثر مما يصدق على طيور التّم ، فهي إنما أوتيت موهبة التنبؤ لقداستها عنـد أبولو ، فاستطلعت ما في العالم الآخر من طيبات ، فطفقت تغني لذلك وتمرح في ذاك اليوم أكثر مما فعلت في أي يوم سابق . كذلك أنا ، فاني أعتقد في نفسي بأنني خادم قد اصطفاه الله نفسه ، واني رفيق لطيور التم فيما تعمل ، فأنا أظن أن قد آتاني سيدي من التنبؤ موهبة ليست دون مواهبها مرتبة ، فلن أغادر الحياة أقل مرحاً من التّم[1] . فلا تحفلا بعدُ بهذا ، وتكلما فيما تشاءان ، وسلا عما تشاءان ، في هـذه الفترة التي يسمح فيها حكام أثينا الأحد عشر بالكلام

قال سمياس : حسناً يا سقراط ، إذن فسأنفض إليك مسألتي ، وسينبئك سيبيس بمشكلته ، فاني لأقول مجترئاً إنك تحس ياسقراط ، كما أحس أنا ، كم هو عسير أو يكاد يستحيل أن تبلغ في مثل هذه المسائل يقيناً ، مادمت في هذه الحياة الحاضرة ، ومع هذا ، فاني لأتهم بالجبن كلَّ من لا يدلل عليها ما وسعه الدليل ، أو كلَّ من خار به قلبه قبـل أن يَخْبرها من كل جوانبها[2] . فينبغي للمرء أن يثابر حتى ينتهي إلى أحد أمرين : إما أن يستكشف حقيقتها أو يعلمها ، فان استحال ذلك فاني أحب له أن يأخذ بأقوم الآراء البشرية وأبعدها عن التفنيد ، وليكن ذلك طَوْفُه الذي يسبح به في الحياة ـ واني مسلّم بأنه لن يفعل ذلك

---

(١) ما يسمى عادة بالأوز العراقي Swans

(١) هـذه الطيور تزداد تغريداً إذا ما اقتربت من الموت ، فيزعم سقراط أنها تفعل ذلك ابتهاجاً بالموت ، لما قد وهبها الله من مقدرة النظر إلى ما وراء الحجب واستطلاع النعيم الذي ستظفر به في الحياة الأخرى ، ثم يزعم أنه أوتي ما أوتيته هـذه الطيور من موهبة ، فهو لذلك لا يبتئس للموت

(٢) يعني سمياس أنه ولو أن البحث في مصير الروح بعد الموت أمر لا يمكن الوصول فيه إلى نتيجة حاسمة ما دمنا في هذه الحياة ، إلا أن من الضعف والخور ترك الموضوع بغير محاولة التـدليل والتعليل ، فينبغي للانسان أن يبذل في ذلك وسعه ولو لم ينته إلى رأي قاطع

دون أن يتعرض للخطر ، إذا هو لم يستطع أن يجد من الله كلمة تسير به على هدى وطمأنينة

والآن فسأجسر ، كما تريدنى ، على أن أستجيبك ، لأنى لا أحب أن آخذ على نفسى فيما بعد أننى لم أدل برأيى فى حينه الملائم ، فانى إذا ما قلبت النظر فى الموضوع يا سقراط ، سواء أكنت وحدى أم كنت مع سيبيس ، بدا لى أن التدليل لم يكن حاسماً.

أجاب سقراط — إننى لأعترف يا صديقى أنك قد تكون مصيباً ، ولكنى أحب أن أعلم فى أى ناحية لم يكن التدليل حاسماً

فأجاب سمياس — فى هذه الناحية : ألا يجوز أن يستخدم أحدٌ هذا الدليلَ بذاته فى القيثارة والانسجام — ألا يحق له القول إن الانسجام شئ خفى ، غير جثمانى ، لطيف إلهى ، موجود فى القيثارة المنسجمة ، ولكن القيثارة والأوتار ، مادةٌ ، وهى مادية متألفة من أجزاء أرضية ، وتربطها القربى بالفناء (١) ؟ وأنه إذا تحطمت القيثارة أو تقطعت أوتارها وتمزقت ، فانَّ من يأخذ بهذا الرأى يدلل كما تدلل أنت ، وبالتشابه نفسه ، على أن الانسجام يبقى حياً ولا يفنى ، لأنك لا تستطيع أن تتصور ، كما يجوز القول ، أن تبقى القيثارة بغير أوتارها ، بل وتبقى الأوتار الممزقة نفسها ، على حين أن الانسجام الذى يمت بأسباب القربى إلى الطبيعة السماوية الخالدة يفنى — بل ويفنى قبل الذى هو فان . سيقول إن الانسجام لا شك موجود فى مكان ما ، وإن الفناء سيصيب الخشب والأوتار قبل أن يصيب ذلك الانسجام ، وإنى لأشك يا سقراط أنك ستأخذ ، أنت أيضاً ، فى الروح بهذا الرأى الذى نميل جميعاً إلى الأخذ به ، وستذهب كذلك إلى أن الجسد إنما أقيم وارتبطت أجزاؤه بفعل عناصر الحر والبرد والرطوبة

(١) من الأدلة التى أقامها سقراط على خلود الروح أنها تشبه فى صفاتها العنصر الالهى ، أما الجسد فمادة أرضية وإذن فلا عجب أن ينتهى أمره إلى الفناء . فيعترض سمياس بقوله لو صح هذا الدليل لكان الانسجام الموجود بين أجزاء القيثارة خالداً أيضاً لأنه فى صفاته كذلك يشبه الالهى ، وأما جسم القيثارة فمثله مثل الجسد الانسانى ، مركب من مادة أرضية ولذا فهو صائر إلى الفناء ، فان كان من المشاهد أن مادة القيثارة تبقى أمداً طويلاً حتى بعد تحطيم أجزائها ، فليس من المعقول — بناء على دليل سقراط — أن يكون قد فنى الانسجام الذى كان بين تلك الأجزاء عند ما كانت متصلة فى القيثارة

والجفاف وما اليها ، وأن الروح هى ما بين هاتيك العناصر من انسجام ، أو هى مزاجها المتزن المتناسب ، فان صح هذا نتج بداهة أن أوتار الجسد إذا ارتخت أو أجهدت بغير مبرر بسبب الفوضى أو أى فساد آخر فنيت لذلك الروح جملة واحدة (١) ، برغم ما بها من ألوهية غالبة ، مثل سائر الانسجامات التى تكون فى الموسيقى أو آيات الفن ، ولو أن بقايا الجسد المادية ربما لبثت طويلاً حتى يدركها الفناء أو الاحتراق . والآن ، إن زعم زاعم بأن الروح تفنى أولاً فيما يسمى بالموت ، باعتبار أنها ما بين عناصر الجسد من انسجام ، فبم نجيبه ؟

(يتبع) **زكى نجيب محمود**

(١) يقول إن الشبه تام بين الانسان والقيثارة ، فجسده يشبه مادتها الخشبية ، وروحه تماثل الانسجام الذى بين أجزائها ، فان كان الأمر كذلك جرى على الانسان ما يجرى على القيثارة ، فالقيثارة إذا فسدت أوتارها مثلا تلاشى انسجامها وزال ، كذلك الانسان — على هذا الأساس — إن فسد جسده بالمرض أو الاعياء ، أو أى شئ آخر فنيت الروح مع بقاء الجسد ، على الرغم من ألوهيتها وأرضيته ، وهو هنا يستوضح سقراط رأيه فى هذا الاشكال

من أدب الهند

٢ - الأمير خسرو
الشاعر الهندي الكبير

بقلم السيد أبو النصر أحمد الحسيني
الهندي

قبل أن نلقى نظرة فى شعر «خُسْرَوْ» يجدر بنا أن نبين معنى الشعر والغرض منه فى صوره المختلفة عند كبار المفكرين حتى يتمكن القارىء من الحكم على شعره بما هو خليق به

قال جانسون : إن الشعر هو توحيد اللذة مع الحق ، يدعى فيه الخيال لمساعدة العقل . وعند استيوارت مل : الشعر هو ما يتوقف على الفكر والكلمات التى تجتمع العاطفة فيها من تلقاء نفسها . وقال ميكاليه : إننا نعنى بالشعر استعمال الكلمات بطريق أن يوجد الوهم على التخيل ، وهو فن يعمل فيه الشاعر بالكلمات ما يعمله الرسام بالألوان . وقال الأستاذ كورتهوب : إنه فن إيجاد اللذة بالتعبير الصحيح عن الفكر الخيالى والعاطفة فى كلام موزون . وقال الشاعر نظامى العروضى السمرقندى من المسلمين : إنه فن يرتب به الشاعر القضايا الخيالية ويخلطها بالتشبيهات المثمرة ، ليستطيع أن يظهر الصغير كبيراً ، والكبير صغيراً ، أو يظهر الخير فى لباس الشر والشر فى لباس الخير

نستنبط من التعاريف المذكورة المختلفة للشعر ، أن الشعر هو تعبير عاطفى خيالى عن الحياة كما تصوغ نفسها فى فكر المعبر - هو معالجة الحقائق والتجارب والمسائل بطريق يسود فيه العنصر الخيالى . والشعر ينقسم إلى قسمين : داخلى أو شخصى ، وخارجى أو غير شخصى . ففى الأول يوجه الشاعر جل عنايته إلى نفسه يستوحى ويستلهم عواطفه الخاصة وتجاربه الذاتية . وفى الثانى يتوجه إلى غيره يعامل العالم الخارج عن نفسه بغير الاستناد إلى ذاته وشخصه . والأول يشمل جميع أقسام الأناشيد والشعر الغنائى مثل الغزل والنسيب وأناشيد الوطنية والروحانية الخ ، كما يشمل الشعر الفلسفى والفكرى . وأما الثانى فينقسم إلى قسمين : قصصى وتمثيلى . فالشعر المختص بالملاحم والفروسية والأساطير من أهم أصناف الشعر القصصى . والتمثيل هو ما يقدم لك صوراً واضحة لسجايا الأشخاص المختلفة ، وأخلاقهم فى حكاية تُمثل

فى ضوء هذه التعاريف للشعر وأصنافه ونواحيه المترامية الأطراف حين نلقى نظرة على شعر خسرو نجد أن عبقريته الشاملة لم تترك نوعاً من أنواعه ولا ناحية من نواحيه إلا باشرتها بالاجادة والابداع . فهو قد أتقن جميع أنواع الشعر اتقاناً حقيقياً . وأنتجت قريحته فى جميع نواحى الشعر انتاجاً نال استحسان كبار الشعراء والنوابغ فى زمنه وفيما بعد . وهذه مزية لم توجد فى غيره . فان غيره من شعراء اللغة الفارسية لم يقدر أحد منهم لا قبله ولا بعده ، ولا فى الهند ولا فى بلاد فارس ، أن يقول الشعر ويحاكى إلهامه الشعرى فى أكثر من صورة واحدة أو صورتين من أنواع الشعر

فلوك الشعر الفارسى يعدون ستة : فردوسى ، وسعدى ، وأنورى وحافظ ، وعرفى ، ونظيرى . ولكن مملكة كل منهم لم تتعد حدود نوع واحد من أنواع الشعر . فالفردوسى لم يقدر أن يتجاوز حدود المثنوى ، وتصنيفه فيه هو الملحمة الكبيرة المسماة شاهنامه ، وقد نشر ترجمتها بالعربية صديقنا الأستاذ عبد الوهاب عزام . وسعدى كان ملك الغزل ، ولكنه لم يقدر أن يجيد القصيدة ولا المثنوى ، كما أن براعة أنورى كانت محدودة فى القصيدة ، ولم تكن قادرة على الغزل المثنوى . كذلك حافظ ونظيرى وعرفى كانوا نوابغ فى الغزل ، وغير قادرين على أنواع الشعر الأخرى . ولكن ذكاء خسرو الجامع المتسع لم يقتصر على واحد منها بل تناول « غزلاً » كما تناول « مثنوياً » وعالج « قصيدة » كما عالج « رباعياً » بغاية الاجادة والاتقان فى جميع نواحيها ، حتى لم يترك الأصناف الصغيرة الأخرى من الشعر الفارسى مثل « مستزاد » و « صنايع » و « بدايع[1] »

هذا من حيث أنواع الشعر ، وأما من حيث كمية الانتاج ، فنجد أنه لا يوجد له ند فى ذلك أيضاً . فان عدد الأبيات للفردوسى لم يزد على ثمانين ألفا ، كما أن عدد الأبيات للشاعر الفارسى صائب لم يزد على ألف ، ولكن ما جادت به قريحة خسرو يبلغ بضع مائة ألف بيت . فقد ذكر غير واحد من المؤرخين فى

(١) إن «غزل» و «قصيدة» و «مثنوى» و «رباعى» و «مستزاد» و « صنايع » و « بدايع » كلها أنواع الشعر الفارسى ، فمن أراد التفصيل فليراجع تاريخ الأدب الفارسى للأستاذ براون المجلد الثانى

كتبهم أن عدد الأبيات الفارسية له يتراوح بين ثلثمائة وأربعمائة ألف . وفى بعض الروايات ستمائة ألف

كان خسرو يجيد بضع لغات إجادة تامة . فكان يتقن التركية لأنه كان من أصل تركى . والفارسية لأنها كانت لغة دينه ، والأردية لأنها كانت اللغة الشائعة بين الناس . ولم يكن خسرو جاهلا السنسكريتية لغة جيرانه الوثنيين المقدسة . فقد اعترف فى كتابه « نه سبهر » بكل تواضع حيث قال : « عندى إلمام بتلك اللغة أيضاً » . وعلى ذلك لم يكن خسرو شاعراً بالفارسية فقط ، بل باللغات الأخرى أيضاً . بيد أن أكثر آثاره قد ضاع ولم يبق إلا القليل الذى بالفارسية والاردية

يعد خسرو من مؤتنف شعراء اللغة الاردية ، لأنها كانت حينئذ فى دور التكوين . فقد غذاها بالأناشيد والنكت والطرائف والكتب الدراسية للأطفال شعراً ، ولا تزال شائعة بين الهنود وإن مر عليها أكثر من ستة قرون . وقد ذكر المؤرخ أوحدى فى كتابه « تذكره معرفت » أن إنتاج خسرو فى اللغة الاردية يساوى إنتاجه فى الفارسية . فان صح ذلك فمن الأسف أن لم يبق من ذلك الأثر العظيم الا نزر يسير

لم يكن خسرو شاعراً فقط ، بل كان ناثراً كذلك وان قل إنتاجه فى النثر بالنظر إلى إنتاجه فى الشعر ، فله غير واحد من الكتب الضخمة نثراً . اعترف أهل الفن بطول باعه فيه أيضاً . وجميع منظوماته باللغة الفارسية التى توجد فى الهند هى كما يلى : —

١ — من نوع المثنوى

(١) مطلع الأنوار : نظمه فى مدة أسبوعين فى سنة ٦٩٨ هجرية وهو فى التصوف ، وقد نهج فيه منهج نظامى (الشاعر الفارسى الشهير) فى كتابه « مخزن الأسرار » ويحتوى على ٣٣١٠ أبيات

(٢) شيرين وخسرو : نظمه فى نفس سنة ٦٩٨ هجرية وهو يحتوى على حكاية عشق خسرو[1] لشيرين وكلاهما من أبطال الحب فى الأدب الفارسى مثل مجنون وليلى فى الأدب العربى . وعدد الأبيات فيه ٤١٢٤ بيتاً

(٣) ليلى ومجنون : صنفه فى نفس السنة المذكورة وهو يشتمل على ٢٦٦٠ بيتاً

(٤) آيئن اسكندرى : صنفه فى سنة ٦٩٩ هجرية ونهج فيه منهج « سكندرنامه » للنظامى وعدد أبياته ٤٤٥٠ بيتاً

(٥) هشت بهشت : أتمه فى أوائل سنة ٧٠١ هجرية وقد نهج فيه منهج « هفت بيكر » للنظامى ، وعدد الأبيات فيه ٣٣٨٢ بيتاً

وهذه الكتب الخمسة المذكورة يقال لها « بنج گنج » أو « خمسة خسرو » تدل على سرعة انتاج المؤلف إذ هى تحتوى على ١٧٩٢٦ بيتاً وقد صنفها فى سنتين ونصف سنة . وللنظامى أيضاً خمسة كتب فى نفس الموضوع ، ولكن أكثر الشعراء رجحوا « خمسة خسرو » على « خمسة نظامى » . ومنهم عبد الرحمن جامى فانه قد رجحه فى كتابه « بهارستان »

(٦) قران السعدين : صنفه فى سنة ٦٨٨ هجرية حينما كانت سنه ٣٦ سنة عن طلب السلطان معز الدين كيقباد ، وهو يحتوى على حكاية مقابلة كيقباد لأبيه بغراخان مسالما مع خروجه له محارباً

(٧) تاج الفتوح : ملحمة تحتوى على حكاية فتوحات السلطان جلال الدين خلجى صنفها فى سنة ٦٨٩ — ٩٠ هجرية

(٨) نه سبهر (أى الأفلاك التسعة) صنفه فى سنة ٧١٨ للسلطان قطب الدين خلجى ، فسر به كثيراً وأنعم عليه بفضة تساوى وزن الفيل كما قيل

(٩) دَوَلْ رانى خضرخانى : وهو يحتوى على بيان حب خضرخان بن السلطان علاء الدين لدول رانى بنت راجا كجرات وانتهائه بالزواج

٢ — من نوع الغزل

(١٠) تحفة الصغر : يحتوى على شعره الذى قاله بين ١٦ و ١٩ من سنه ، ويشمل الغزل والنسيب

(١١) وسط الحياة : يحتوى على شعره الذى قاله بين ٢٠ و ٣٣ من سنه

(١٢) غرة الكمال : يحتوى على شعره الذى قاله بين ٣٤ و ٤٤ من سنه ، وقد كتب فى مقدمته ترجمة حياته بالايجاز

٣ — من نوع القصائد

(١٣) بقية نقية : يحتوى على شعره إلى سنة ٧١٥ هجرية وفيه رثاء السلطان علاء الدين خلجى أيضاً

(١٤) نهاية الكمال : يحتوى على شعره فى آخر سنه ، وفيه رثاء السلطان قطب الدين خلجى وقصيدة فى مدح ولى عهده

(١٥) جواهر البحر : لم أره

(١٦) خزائن الفتوح : صنفه للسلطان علاء الدين خلجى

(١) ان خسرو هذا غير شاعرنا المترجم هنا

عظة البدر

للأستاذ «أبى أحمد»

البدر يرعانى وأرعاه … قد يمكر الجلاس إلاه
أبثه من زفراتى فما … لغيره يأمن أواه
يسرى على الليل رفيقَ الخُطا … يضىء أقصاه وأدناه
تلوح فيه الأرض موشيَّة … من أقصر النبت وأسماه
لمثل ما أبصر من منظر … تُفْغر للدهر خطاياه

***

وساحر الأجفان حلو اللمى … ضعيف كر الطرف تياه
حديثه مثل دبيب المنى … يبسم والدرُّ ثناياه
حسبى من اللذة أنفاسه … ومن رضىّ العيش لقياه
قد تمت الغبطة فى ليلة … قلّ لها فى الدهر أشباه
ما العيش إلا ما يلذ الفتى … ولذة الحب قصاراه

***

ساءلت هذا البدر كم منظرا … رأى على الدهر بمسراه
قال ولم تَطْرِف له مقلة … ولم تحرك منه ذكراه :
« هاتيك مَنْفيس بها ما بها … من أرحب القصر وأعلاه
يلوح عن بعد بها موكب … أخراه لا تبدو لأولاه
حتى إذا أبصرت أعلامه … وخرّت الناس لمرآه
عرفت رب الملك فى عرشه … حسبك منه خُبْر سيماه
وذاك فى بغداد قصر سما … يضىء فيه العز والجاه
وربه فى مجلس باهر … مؤتلق تبهر رؤياه
وحوله من كل حورية … هاروت فى الأجفان مثواه
يأخذ عنها الطير ألحانه … ويأخذ النرجس رياه
واليوم لا مَلْك ولا موكب … إلا طلولاً من بقاياه
وها هو العالم فى سيره … كأنما لم يَعْفُ مغناه ! »

---

(١٧) تغلق نامه : صنفه للسلطان محمد تغلق فى سنة ٧٢٥ هجرية ، وهو آخر تصانيفه

٤ — من أنواع الشعر الأخرى

(١٩) رسالة نصر : لم أره

(٢٠) مقالة : احتوت على أحوال الخلفاء الراشدين مع رسالة فى التصوف

(٢١) خالق بارى : كتاب للتدريس يحتوى على مفردات اللغات المختلفة المنظومة

٥ — مصنفاته بالنثر

(٢٢) إعجاز خسروى : فى علوم البلاغة فى خمسة مجلدات

(٢٣) إنشائى أمير خسرو : فى علم الانشاء

(البقية فى العدد القادم) السيد أبو النصر أحمد الحسينى الهندى

حياة فِرْچى ونترز

[عن الشاشة البيضاء]

للأستاذ فخرى أبو السعود

بآمالها عاشت وفى ذِكرياتها … تَخَيَّلُ أحباباً لها خطَراتِها
تُؤانِسُ أشتاتَ الطُّيُوف وإنَّها … لآنَسُ ما تُلْفَى لدى خلواتها
تمُوج بجُلَّى الحادثات حياتُها … على ضِيق مثواها ونَزْرِ لِذَاتها
على حُبِّ مَن يَرْعى هواها مقيمة … وإن لَجَّتِ الأقدارُ فى جَهَلاتها
تُصاحِبُهُ فى حِلِّهِ ورَحيلِهِ … وماجاوَزَتْ يوماً مَدَى حُجُراتها
وتبْلُغُ وَهْماً ما اشْتَهَتْ مِن وِصاله … إذا ضَنَّتِ الدُّنيا بمُشْتَهَياتها
وتصبر عاماً كى تفوزَ بوَصْلَةٍ … فيا شَدَّ ما تَلْقَى وطُولَ أناتها
وتمشى خيالاً فى مَواكب نَصْرِهِ … إذا أقْبَلَتْ تختالُ فى خافِقاتها
وتَحْسَبُ مَجْداً نالَهُ مِن فَخَارِها … تقاسِمه إيّاه فى نَشَواتها
وماساءها وَهْوَ الوَفِىُّ أنِ اغْتَدَى … جميعُ الورى فى حبِّه مِن عُداتها
وقالوا فلم تحفلْ بِقَوْلَةِ لائِمٍ … وَبِنٌّ فلَمْ تطلُبْ رِضَى هاجراتها
وكان لها الدنيا وكان لها الوَرى … وكانت له فى ليلها وَغَدَاتها

وزاد هواها رقةً ذِكرُ طِفلةٍ لها منه يزهو الحُسْنُ فى قسماتها
تُسامُ ابتعاداً عن فتاها وبنتها وإنهما أدنى لها من لهاتها
وتَرْصُدُ أحياناً لِلَذّةِ قلبِها لِتَرْوِىَ منها الطَّرفَ فى غدواتها
فياطِيبَ ريَّاها وعذبَ ابتسامها ولُطفَ محياها وسحرَ ٱلتِفاتها
وطُوبى لها لو تستطيع احتضانها وإطفاء حرّ القلب من قبلاتها
وتقبيلَ كفَّيْها ولثمَ ثُغَيْرها ورشفَ ندى الحُسْنِ فى وجناتها
وإذ كان ذاك الشملُ يلتئمُ بعدما تراءى بياضُ الشَّيب فى شعَراتها
وبشَّرَها بالوصلِ صاحبُ وُدِّها بوَصْلٍ به لا تتقِى عاذلاتها
أبى الحَيْنُ ماراما وخرَّ مُضرَّجاً عَلَى قدَمَيْهاَ لا يَعِى دَعَواتها
ودانُوا بِهِ مَنْ شيَّعَتْ فيه رُوحها ومَن لو أطاقَتْ لافتدَتْهُ بذاتها
ومرَّ بها فى السجن ماضى رُفاتِهِ إلى قبره يُذكِى شَبَا حَسَراتها
تَحِنُّ له فى وَحْشةِ السِّجْنِ لَهْفَةً وتَذْرِى عليه وحدَها عَبَراتها
وزَفُّوا إليها العفوَ مِنْ بعْدِ حِجَّةٍ فلم يَلْقَ منها العفوُ غيرَ صُماتها
وما هزَّ قلباً للحياة مُطامِناً بأرزائها تعتامُ أو حسناتها
تساوَتْ لديها نضرةُ الروض فى الضحى
وأحناء ذاك السجن فى ظُلُماتها
وهيهات مامِن صادعٍ لإسارها سوى الموت أومن كاشفٍ غمراتها
وراحت تقضِّى العمرفى فَىْءِ بنْتِها ولم يَبْقَ منها غيرُطَيْفِ حياتها
حطامُ أمانٍ أو بقيَّـةُ مهجةٍ قضَتْ ليس يحيا ثمَّ غيرُ رفاتها.

فخرى أبو السعود

الهِرُّ المُرَائى

هِرِّى أراكَ تَوَدُّنى بتملق لولا القِرى ما كان مثلك وَدّنى
مالى أراكَ تخصنى بحفاوة ويميل ذيلك فى الهواء وينثنى
إن الرياء لظاهر يا صاحبى لولا اشتياقك للطعام هجرتنى
فلعلة الطمع الوضيع ألفتنى ولغاية الشَّره الخسيس صحبتنى
فاخلع رداء الذل والملق الذى يقذى العيون بشكله القذر الدَّنى
واقنع برزقك فالقناعة نعمة إن القنوع مدى الحياة هو الغنى

محمد عشماوى صقر

ذَكْوَان

للأستاذ زكى المحاسنى

« مهداة الى الصديق النابغة على الطنطاوى »

ذَكْوَانُ أنشدنى أرقَّ النشيدْ أنتَ أغانِىَّ وأنتَ القصيدْ
ناغِ ولا تَبْكِ فإنَّ البُكا منكَ مُذيبٌ لفؤادى الوَدُودْ
عُمْرُكَ عشرونَ صَباحا وَلِى عشرونَ عاماً فى هَوَاكَ العَميد
جئتَ إلى الدُّنيا برغمٍ كما جئتُ أنَا ، لكننَّا لاَ نُريد
غداً ستنمو وتُحِبُّ الهوى مِثْلِى ويُغريك العُلَى والجدُودْ

***

نظرْتُ فى شِعْرِ المَعرِّى فما أمالنى نحوَ الرَّدَى واللُّحود
يَوَدُّ أن يَهدِمَ هَذِى الدُّنَى وَأكرَهُ الخَلْقِ إليهِ الوَلُودْ
سألتُهُ : لو كنتَ ذا رؤيةٍ وَذُقْتَ تقبيلاً وَلَمْسَ النُّهودْ
لطوَّحَتْ عقلَكَ برَّاقةُ الخمْـ ـرِ وأسقتْكَ الهوى كلُّ رُودْ

***

إرْضَعْ أيا طِفلِىَ من دِرَّةٍ واهْتَزَّ فى مَهْدِكَ حُلوَ الرُّقود
ماذا ترى فى طولِ هذا الفضاَ تعْىَ به إن شئتَ دَرْكَ الحدود
أملِئْ بكفَّيك مدى إصبعِى وانظُرْ إلى وَجهِى وَخَلِّ الكُمُودْ
أمكَ تَفْدِيكَ بوَقْدِا الحشاَ فدَيْتُها عَصْماء ترعَى العُهُودْ
أدعو لِذَكْوانَ مَديدَ البقاَ وأرتجى فى قومهِ أنْ يسود
أنى وللعيـد تباشيرُه فكان لى فى عُمْرِى خيرَ عيدْ

(دمشق)

زكى المحاسنى
المحامى

في الأدب الانجليزي الحديث

بيرون وشلي وكيتس (١)

للأستاذ بشير الشريقي

بيرون Byron وشلي Sheley وكيتس Keats هؤلاء الأقانيم الثلاثة من أعظم شعراء الانجليز وأشهرهم . عاشوا في القرن التاسع عشر الميلادي وامتازوا بشعرهم الوجداني وطريقتهم الخيالية الابتداعية ، لم يتكلموا إلا عن مشاهدة وتصور واعتقاد ، ولم يتقيدوا تقيد المدرسين بالصناعة اللفظية ولا بالحقائق العلمية

لقد خصت الآلهة الشعراء الثلاثة بأقل نصيب من العمر ، فقد كان سن بيرون يوم ثكلته عرائس الشعر ستة وثلاثين عاماً فقط ، وشلي ثلاثين ، وكيتس ستة وعشرين ؛ ولكنهم وإن لم ينسأ في آجالهم استطاعوا أن يملأوا أرجاء هذا العمر بأوفر نصيب من الشعر القوي والاعتراف الشجي والنسيب الفني ، لقد هتكت عن أنظارهم مسدلات الحجب ، فجرى عنهم غير ما في الكتب

اللورد بيرون

١٧٨٨ — ١٨٢٤

إذا كان رأي أدباء اليوم ، أدباء القرن العشرين ، في اللورد بيرون كرأي معاصريه فيه ، وجب أن يعد هذا النبيل الجميل أنبغ شعراء الانجليز من غير نزاع ؛ لقد ظفر بشهرة لم يظفر بها أحد سواه ، وعلى يديه انتظم الشعر الانجليزي لأول مرة ساحة الشعر الأوربي

في عام ١٨٢٠ نظم لامرتين قصيدة غراء كلها إعجاب ببيرون ؛ وكذلك تنبأ ماثيو أرنولد أن الأمة البريطانية يوم تحتفل في ختام عام ١٩٠٠ بذكرى شعرائها الأعلام ، شعراء القرن التاسع عشر ، سوف تضع اسم بيرون في طليعة عباقرة الشعر

لم يكن بيرون فناناً عظيماً ولا ثاقب النظر ، ولم يجد فيه العالم إلا أنموذجاً في صناعة الشعر ، ولكنه كان في ذاته صورة مغرية في الربع الأول من القرن التاسع عشر ؛ اتحدت شخصيته بشعره لدرجة صعب معها التفريق بينهما ، وحتى قالوا : حياة بيرون هي أحسن شعر بيرون ؛ وقد تحدر من عائلة توُورث بين أفرادها على ما يظهر ضعف الأعصاب ؛ كان والده رجلاً شريراً فظاً ، وكانت أمه متقلبة شديدة ، وتوفي عمه وهو في سن العاشرة ، فانتقل اليه لقب اللوردية ، وهكذا لم يكن في ثقافة بيرون ما يعلمه ضبط النفس أو إنكار الذات في سبيل الصالح العام ، فثار حين ألقى الى تيار الزمن على مضايقات المجتمع ومضايقات القانون التي صدمته في رغباته الخاصة

لقد وُجد — لانقول ثقف — في مدرسة « هارو » ومن ثم في « كمبردج » ، ثم قام بسياحة استغرقت عامين ، واليونان هي التي صيرته شاعراً ؛ وحين عاد الى وطنه ، وكان قد نشر وقائع رحلته في الفصلين الأولين من كتابه « تشايلد هارولد » Childe Harold ، وجد نفسه شاعراً محبوباً مشهوراً

وأصبح بيرون الشاعر الجميل محور الحياة الماجنة في لندن ، منغمساً في المعابثة واضعاً نفسه بين يدي هواه من النساء ، ثم يتزوج في سنة ١٨١٥ بالآنسة ملبانك Milbanke ، ولكن تهجره زوجه بعد أن تضع له طفلة وقبل أن يمضي على زواجهما عام واحد ، والى الآن لم يقف أحد على السبب الحقيقي لهذا الهجران ، غير أن الناس انتصروا يومذاك للادي بيرون ، وفي سنة ١٨١٦ ترك زوجها انجلترا الى غير رجعة ، فعاش في سوتيز رلاند (سويسرا) وإيطاليا ١٨١٦ — ١٨٢٤ ينظم أحسن شعره ويتسلى بصداقة شلي ، وينعم منذ ١٨١٩ بأكثر من صداقة الكونتيس كويسيولي Guiccioli

وهنا لا يغرب عن البال أن هذا الشاعر بينما كان يطلب لنفسه لذتها ولهوها ويرى في الأنانية دستور الحياة ، نجده قد تأثر الى أقصى حد بالروح الوطني العام الذي انبعث في أيامه في بلاد اليونان ، إنها الرغبة في مساعدة الغير على نيل الحرية هي التي رمت به سنة ١٨٢٣ في القضية اليونانية وجعلته يطالب لليونانيين بالاستقلال عن الأتراك

ذهب اللورد بيرون الى اليونان وساعد على إيقاظ شعور القوم الوطني وفي توحيد كلمتهم حتى جعلهم كرجل واحد في معركة الحرية والاستقلال ، وفي «ميسولونيا» أصابته الحمى فهدت جسمه الذي أضنته حياة الفوضى التي غرق فيها هذا اللورد الشاب

إن في موته وحيداً في بلاد الغربة ما يحز في القلب ، لقد كان أشبه ما يكون بقبس لطيف من نور الشمس الذهبي ألقي وسط العالم في يوم مظلم عاصف

* * *

لشعر بيرون تأثير في القلب ، وعلوق بالنفس ، لأنه استطاع

---

(١) مترجم عن كتاب : The Story of English Literature Anna Buckland
وكتاب : Modern Englieh Literature Wyatt Clay

أن يصور به حياته وهى كما رأيت شائقة غاوية ، حياة شاب جيل موسر انغمس فى اللذات وانكب على الملاهى حتى مل وسئم ، حياة لهو ومخاطرة ، يتخللها شك مقلق وتبرم من الأقدار التى قضت على كل طيب وجميل بالانحلال البطىء والموت السريع

وفى الحق كان كل ما أخرجه الشاعر للناس قوياً عجيباً فاتناً من باكورة شعره « ساعات البطالة Hours of Idleness » الى « عروس أبيدوس Bride of Abydos » ، من الفصلين الأولين من « تشايلد هارولد » الى الفصلين الأخيرين منه ، من القصص الشرقية ، الى الأغانى العبرية ، من «سجين تشيلون Prisoner of Chillon » (بونيفار الذى صدّ هجوم دوق سافوى عن جنوه) الى القصيدة الروائية « مانفرد Manfared » التى نظمها فى إيطاليا على نسق رواية « فوست » وذكر فيها السحر والأرواح وخوارق الطبيعة ، من « يوم الحساب » وهى من أقوى الهجاء الحديث الى « الدون جوان » من رثاء تاسو Tasso (الذى اعتقل بتهمة الجنون لأنه أحب ليونورا ابنة الدوق) الى «مارنيو فاليرو Marino Faliero » المأساة التاريخية — كان يرافق عبقرية بيرون سهولة تامة وقدرة عجيبة فى التعبير عما يجيش به صدره

وهنا علينا أن نذكر أن فى اللورد بيرون الفنان ، عللاً كثيرة ، فهو لا يكاد يحسن صناعة الشعر ولا ربط الفكر ولا اختيار العناوين ، ذو أسلوب بسيط مضطرب ، ولكن على الرغم من كل ذلك فان وليام فورس يقول عنه إنه أعظم ذخيرة أدبية فى هذا القرن التاسع عشر

إنه شاعر الحرب ، لهذا سوف لا نقدر على وفاء حقه فى هذه الأيام التى يسود فيها السلام

برسى شيـــلى
١٧٩٢ — ١٨٢٢

ولد شلى عبقرياً مفرداً فلم يكن له مثيل فى بارونية من البارونيات الانجليزية الفنية ، لقد قاوم وهو يافع ، ما كان يسود فى طبقته من آراء وعقائد وتقاليد ، وفى مدرسة « إيتون » وفى جامعة « أكسفورد » كان فى تصادم دائم مع « المحافظين »

نشر عام ١٨١١ مقالاً بعنوان « حاجتنا إلى الجحود » طلب فيه من جميع مديرى الكليات أن ينزلوا إلى مناقشة آرائه وتفنيد هرطقته مما أدى إلى طرده من الجامعة . وفى ذلك العام تزوج بهاريت ويستبرون ، وهى فتاة فى سن السادسة عشرة ؛ ولدت له طفلين ثم هجرها عام ١٨١٤ من أجل مارى كودوين ابنة وليام كودوين الكاتب الروائى والسياسى ؛ وبعد عامين ، حين أغرقت هاريت نفسها فى التيار ، أصبحت مارى كودوين السيدة شلى ولكن محكمة تشانسرى حرمت الشاعر حضانة ولديه

وفى عام ١٨١٨ ترك شلى انجلترا إلى إيطاليا حيث قضى بقية عمره وكان دائم الاتصال باللورد بيرون

* * *

أحسن شعر شلى ظهر فى السنوات الأربع الأخيرة من عمره ، وبعبارة أخرى أن شعره لم ينضج حتى سنة ١٨١٨ ، ومن أقوى وأمتن قصائده الطويلة ، الروايتان الغنائيتان « ميتوس الغير محدود » و « هيلاس » . وتمثل هيلاس يقظة اليونان وتأييد العالم لهم فى ثورتهم على الأتراك

ولكن إذا كانت إجادة شلى تامة فى هذه القصائد الطوال فان ابداعه كان عظيماً كذلك فى مقطعاته الغنائية التى نذكر منها قصيدة « القبّرة » و « الضباب » و « أدونيس » و « غناء كونستانيا » و « الريح الغربية » و « إلى الحرية » و « إلى السماء »

* * *

كان شلى من بين الشعراء أجمعين شاعر المثل الأعلى ، استطاع أن يتصور فى أخلاق الانسان وحياته كمالاً هو أسمى بكثير مما عرف حتى الآن

فقد ثار على كل ما يحط من قدر الانسان ويحول دون تطوره السامى مدفوعاً بحبه العظيم للانسان وإيمانه بزمن آت هو خير من زمانه

وقد أدرك بواسع علمه وثاقب رأيه أن فكرة الانسان عن الله تتناقض كثيراً وفكرة الحق والعدل والحقيقة ، وهكذا يشوه التلوين الانسانى الصورة الالهية كما يشوه زجاج نافذة مصبوغ جسماً تراه من خلاله ، أو كما يوضح شلى ذلك فى قوله :

الحياة أشبه ما تكون بقبة من زجاج كثير الألوان
تلطخ أضواء الأبدية البيضاء
إلى أن يحطمها الموت

فان كنت تود أن تلتقى بهذا الذى تفتش عنه فمت إذن !

تطلع شلى تطلع مشتاق إلى يوم قريب يتحقق فيه المثل الأعلى ، وعلق آمالاً كباراً على الثورة الفرنسية ، ولكنه حين شاهد ما منيت به النظريات السياسية من فشل أحس بيأس مؤلم

لو طال عمر شلى لاعتنق مبادئ « وردزوس » الاصلاحية

ولقال معه إن تقدم الجنس البشرى يتوقف على رقى الفرد وتطوره ، ولكنه عاش حياة قصيرة . ولد عام ١٧٩٢ وغرق عام ١٨٢٢ بانقلاب قاربه أثناء اجتيازه خليج اسبيزا ، ولما أخرجت جثته من البحر أحرقت على الشاطئ بمحضر من اللورد بيرون وبعض الأصدقاء ودفن رمادها فى مقبرة البروتستنت فى روما وقد كتب على قبره هذه الكلمة « قلب القلوب »

جون كيتس

١٧٩٥ — ١٨٢١

يرقد كيتس حيث يرقد رماد شلى فى مقبرة البروتستانت فى روما ، وقد نقش على قبره تنفيذاً لرغبته هذه الجملة « هنا يرقد من أشبهت ذكراه سفراً ألقى فى الماء »

ولد من أبوين غير شاعرين ، فكان والده يعمل فى اسطبلات الخيل المعدة للأيجار فى لندن ، ولكن سرعان ما أصبح هذا الشاعر « اللندنى » شاعر اليونان الحديث ، سرعان ما أصبح هذا الطبيب « تحت التمرين » رسول الجمال ، وموجد المدرسة المنسوبة خطأً الى تنسون Tenyssonian School

اهتم كيتس بدراساته الطبية ، ولكنه لم يجد لها طعماً ، فهجرها عام ١٨١٧ وهو العام الذى ظهرت فيه مجموعته الشعرية الأولى . وفى عام ١٨١٨ ظهرت له قصيدة « أنديميون Endymion » فانتقدتها المجلة « الفصلية » ومجلة « الغابة السوداء » انتقاداً لاذعاً سفيهاً آلم الشاعر كثيراً ، ولكن هذا الظلم الأدبى ليس هو الذى عجل بموت كيتس كما ظن شلى ، وإنما داء السل هو الذى كان علة موته الباكر

ظهر أجود شعره عام ١٨٢٠ ، وفى ختام هذا العام رحل الى « نابلز Naples » يرافقه صديقه « سيفرن » الذى وقف على العناية به امرأة طيبة ، ظلت مخلصة فى خدمته الى أن توفاه الله فى روما فى شهر شباط سنة ١٨٢١

* * *

لقد نضجت عبقرية كيتس بسرعة مدهشة كما نضجت عبقرية شلى ، وعلى الأخص ذوقه الفنى إذ سرعان ما صلح ، وسرعان ما كمل

قد تكون قصيدة « أنديميون غنية فى الكلمات وفى الصور ، أما فيما عدا ذلك فلم تكن بذات خطر . إنها تظهر رغبة الشاعر فى جمال الأسلوب فحسب . ولكن إن نحن انتقلنا الى مقطوعاته اليونانية الأخيرة التى وصفها بيرون بأنها « سامية سمو ايشيلوس » أدركنا الفارق العظيم بين شعره الأول وشعره الآخر الذى منه « لميا Lamia » وهى قصة شاب اقترن بأفعى متخذة صورة امرأة جميلة ، و « ايزابيلا » التى تكشف لنا عن مقدرة كيتس التامة فى تأليف القصص الشـــعرية ، و « الأناشيد الستة » الباقية على الزمن

وما الذى كان ليُعجز عبقرية كيتس لو قدر لها أن تعيش ؟ إن موته المبكر كان أعظم نكبة حلت بالشعر الأنجليزى ، لقد استطاع أن يتعلم من فنه ومرانه وجده خلال البرهة التى مرت بين نظمه « لأنديميون » ونظمه « الأناشيد الستة » ما لم يتعلمه شاعر انجليزى آخر فى مثل هذه الفسحة من الزمن

* * *

لكى نتفهم نفسية هذا الشاعر ننقل هنا بعضاً من أقواله :

« أنا رجل إحساس أكثر منى رجل تفكير »

« ليس فىّ حس يمكن أن يخضع للجمهور أو لأى شئ فى الوجود ، إنما يأسرنى الكائن الخالد ، والجمال الخارق ، وذكرى الرجال العظام »

« لم أستطع أن أعيش من غير حب أصدقائى ، وإنى لأقفز إلى أسفل جهنم من أجل الصالح العام ، ولكنى أكره الشهرة التى تفزز النفس . »

« قد سبب لى نقدى لنفسى من الألم مالم يسببه نقد المجلة « الفصلية » أو نقد مجلة « الغابة السوداء »

« حين أشعر بأنى على حق أحس بنشوة طرب لا أحس بها حين يثني علىّ الناس »

« أرى أنه لا يوجد مطلب يستأهل الطلب ، اللهم فكرة عمل الصالحات »

« ليس أمامى سوى طريق واحدة »

« أحسن أنواع الشعر ، هو ما أهتم له وما أعيش له »

« سوف لا أخلف ورائى حين أموت عملاً خالداً ، سوف لا أخلف ما يثير إعجاب الأصحاب عند ذكراى ؛ ولكنى همت بالجمال كما ينبغى »

الجمال الحقيقة ، والحقيقة الجمال ، هذا كل ما يجب أن تعرفه فى الدنيا وكل ما تحتاج إلى معرفته

(شرق الأردن) بشير الشريقى



من أساطير الإغريق

بجماليون المثّــال

أسطورة الفنان الذي عشق احد تماثيله

للأستاذ دريني خشبة

في مدينة أماذيس ، الراقدة كالحلم بين مهاوى الجبال على شاطىء قبرص الجنوبي ، كان يعيش المثال بجماليون عيشة كلها عزوف عن العالم ، وازوراء عن مشاغل الحياة ، وهرب من الناس . كان يأوي الى تمثله إذا تنفس الصباح ، ويكب على عمله حتى توارى الشمس بالحجاب ، فيأوي إلى فراشه ، سادر النفس ، معمود القلب ، مكتئباً حزيناً

ولم يكن حزنه من نوع هذه الأحزان التي تتعارفها قلوب أبناء آدم ، بل كان حزناً فريداً في نوعه ، غريباً في أسبابه ، شاذاً في دواعيه ، حتى لنحسب أن أحداً من الناس لم يشق بمثله من قبل . . . . ولا من بعد

كان في بجماليون صدود عن الناس شديد ، لا يراهم جديرين بتودد ، ولا حفيين بمؤاخاة . ومع أنه كان يضفي من عبقريته على تماثيل الآلهة التي طالما تفننت فيها يده الصناع ، فكان يخرجها على نسق الفاتنات الحسان ، وفي سمات الغيد القيان ، فانه لم يصبُ مرة إلى امرأة ، ولم ترتبط أسبابه بفتاة . فكأنه كان يسمو بحبه على النساء ، وإن كن في الحقيقة صاحبات وحيه ، وفيض نبوغه ، واللمع الخاطفة التي يتجه شطرها مثله الأعلى

ولم تكن هذه الحياة الصحراوية التي يحياها لترضيه ، ولا تلك المعيشة الآلية التي أغطشت أيامه لتقنع خياله الخصب ، وقلبه الرحب . لقد كان يقف منقبض الصدر ، مغلول الروح ، أمام هذه الدُّمى الصامتة ، والتماثيل الخرساء ، التي صنعها لأبوللو ، ومينرفا ، وديانا ، وكيوبيد ، وفلكان !

ولقد كانت المناحت والأزاميل ، والمثاقب والمناشير ، والمبارد والمناعم ، وكل عدده تثير في نفسه السخط على الحياة ، والبرم بالأيام ، كلما فكر في حاله فعلم أنه يحيا بلا حب ، ويعيش بلا أمل ، ويعمل بلا غرض ، ويسعى الى غير مطمح !

وبينما هو في يقظته النائمة هذه ، إذا بحجارين يحملون رخامة كبيرة ، على جرارة ضخمة من هـذه الجرارات الثقال ، التي ترى كثيراً في محاجر اليونان ، يقفون أمام المثل ، ويطرقون باب بجماليون ، فينقدهم ثمن الرخامة ، وينصرفون كل إلى طيّته

وكأنما كانت هذه الرخامة ، على ثقلها الهائل ، وحياً خفيفاً من السماء ، أو آية من آيات الأولمب ، هبطت على هذا المثّال المهموم ، فبدّلت يأسه أملاً ، وقنوطه الظلم رجاء نيّر الآفاق !

فانه لينظر اليها نظرات تشف عن التمثال الرائع الذي سيولده منها ، وإنه لينزع ملابسه ، ويضفي عليه ملابس العمل ، ثم يتناول إزميله ومنحته ، ويهوى على الرخامة مستلهماً الحول والقوة من : « ڤينوس ! ! »

« يا ڤينوس الجميلة ، يا ربة الحسن والحب ، يا من تسبح لك القلوب العاشقة ، وتلهج باسمك النفوس الوامقة ، يا سر الورد الجميل ، وبسمة الفن الضاحك ! يا أم كيوبيد الحالم ، وبنت ديون[1] الباسمة ، يا ڤينوس الجميلة ، العون العون يا ڤينوس ! »

وهكذا لبث هنيهة يصلي ، ثم أخذ في عمله ، وكأن فكرة علوية تنزلت على فؤاده ، وامتزجت بشغاف قلبه ، فراح يصورها ويمثلها ، في هذه الرخامة النقية كالندف ، البيضاء كالثلج . بل كأنما استجابت ڤينوس ربة الحب لصلاته ، فأودعت في يده نفحاتها المباركة . فما دق دقة ، أو نقر نقرة ، إلا وتمثل ڤينوس الجميلة أمامهُ ، ناذراً لها هذا التمثال ، برغم التماثيل البارعة التي نحتها لها ، والتي تملأ معابد اليونان وأقداسهم

(١) في الميثولوجية اليونانية أن زيوس كبير الآلهة كان مزواجاً ، وزير . . . ربات . فمن زوجاته ديون التي أولدها ڤينوس

وأقبل على عمله بروح جديدة ، ويد لا تكل ، فلم يكن يحول بينه وبينه إلا الليل يرخى سدوله ، وإلا سِنَة من النوم ترقص فى جفنيه ، فاذا نام تتابعت الرؤى ، وتلاحقت الأحلام ، كل منها يبدى له ناحية كان يجهلها من جمال ڤينوس !

ولقد بدا له ، كفنّان ، أن يروّح عن نفسه بيوم يقضيه فى الأدغال ، وبين مسارب المياه ، لكى يجدد نشاطه ، ويبتعث ما خمل من ذهنه ، وخبا من خياله ، لطول ما أكب على العمل ؛ فانطلق ذات صباح إلى سِيف البحر يناجى أبوللو ، وهو يوقظ الشمس من خدرها ، فتعلو به فى مركبتها الذهبية فوق الأثباج ! وظل يعلو ويهبط ، ويروح من هنا غادياً الى هناك ، حتى شارف اليوم أن ينتهى ، وعاوده هواه اللح ، فندم على ما قتل من ساعات فى هذه الراحة الخاملة ، والفسحة الباطلة ، فعاد أدراجه إلى المثل ، مستغفراً فى طريقه الطويل ڤينوس !

ووصل ما انقطع من صنعته ، فكان يستذكر أحلامه ليضفيها على التمثال ، ويستوحى السماء فتلهمه من أديمها الصافى ، وتشيع فى يديه وقلبه بطهرها ونقائها ، لتنتقل من ثمة سحراً وفتنة فوق تلك العضلة ، وتحت ذياك الأبط ، وبين انفراج هذين الثديين ، وبالقرب من المكَن ، وحول الفخذين ، وعند هــذا الأنف الأغريقى الأشم ، وملء ذاك الذقن الدقيق ، والعنق الرقيق ، ولفتة الحدقتين ، وانفراجة الشفتين ، وتبسيم الثغر ، وتكويم الشعر ، وتمليس الردف ، وتدوير الكعبين . . . . وتباركت يا ڤينوس !

لكأن بجماليون يحس الحياة تسيل من أزميله الحنون ، فوق هذا الجوهر المكنون ! وكان يتقدم فينظر ، ويتأخر فيرى ، ويميل من هنا ، وينثنى هناك ، ثم يهطع إلى علٍ ، وينحنى إلى أسفل ؛ ليتفقد التمثال من جميع نواحيه ؛ فماذا رأى ؟ لقد استطير من الفرح ، ومادت أعطافه من الخيلاء ! ولكنه سكن قليلاً ، وانطلق يتحدث إلى نفسه : « ويحى ! لم صنعتك أيها التمثال ، ما دمت قد بلغت هذا الجمال ولا تتكلم ؟ أنا بجماليون التعس ، الذى يعيش فى هذا العالم القفر ، وعلى هامش تلك الدنيا المجدبة ، لا أنيس لى ، ولا قلب ينبض بحبى ، فينبض قلبى بحبه ؛ ولا نفس تصلى لى ، فأصلى من أجلها ! تكلم أيها الرخام الصامت ، وانفرجا بكلمة واحدة أيتها الشفتان الساخرتان ! أنا بجماليون ! أنا صانعك أيتها الأنثى المتحجرة . . . تكلمى ، ردى علىّ ، فوحق ڤينوس المعبودة لقد أودعتك سر روحى ، ولغز حياتى ! أوه ! ألا تردين على بجماليون المسكين ؟ آه ڤينوس ! النجدة يا ڤينوس ! أنا لا أصلى إلا لك يا ڤينوس . . الغوث الغوث ! . . . »

وظل المسكين مكباً على هذه الدمية التى صورها بقلبه كله ، وروحه جميعها ، يشكو إليها كأنها تسمعه ، ويبثها كأنها تصغى اليه ؛ ثم انتهى حاله إلى هيام شديد ، وحب ودنف ، ولوعة وصبابة ؛ وانقلب عشقه المبرح إلى لون كاسف من الوجد ، وضرب شديد من أمَرّ ضروب الحزن ؛ مصدره العقل الحائر والوجدان المضطرب . إذ كيف يعشق هذه الكتلة المجسمة من الرخام ، وهى مما صنعت يداه ؟ وأى أمل له فى هذا العشق الشاذ ؟ لا ريب أنه ضرب من الجنون ، ما له من ضريب !

ولج به هواه ، فأحضر عصبة من الحمالين الأقوياء ، نقلوا له تمثاله إلى ردهة الآلهة — كما كان يسميها — وهى صالة واسعة فى الطابق الثانى من البناء الذى فيه ممثله ؛ وقصد إلى أمهر الصاغة وتجار اللآلىء ، فاشترى ما وسعه من الحلى البالغة والجواهر النفيسة ؛ وعاد فقرّط الأذن ، وقلد الجيد ، وتوّج الرأس ؛ ثم هام فى المروج الخضر ، والحدائق الغناء ، يجمع الورود والرياحين ، كيما ينثرها تحت قدمى التمثال !

وتحولت الردهة الى معبد من معابد البوذية المقدسة ، بما عكف يحرقه من مقتنى الند ، وفوّاح الرند ، فى مباخر المرمر الجميل المُصَفّفة حول قاعدة التمثال

وتلف تلفاً شديداً من هذا الغرام العجيب ، فلم يكن يكتفى بالعبادة فى الحب والخبوت بين يدى ذلك الصنم المنتصب للفتنة ، بل كان يشركه فى كل أمره ، ويعرض عليه جميع شأنه ، حتى القراءة ! فطالما كان ينشده من دواوين الشعراء ما جادت به القرائح وشدت به الألسن ، وتغنت بألحانه قلوب العاشقين !

معذور بجماليون ! لقد تعب وراء الحب ، ولكنه لم يلق هذه الغيداء الفاتنة ، التى تستطيع التسلط على مشاعره ، والهيمنة على فؤاده ، وكان يتخيل روعة الجمال فلا يجدها مجتمعة إلا فى هذا التمثال الذى نحته لهذه الأنثى ، فعبده ، وراح يتمنى على الآلهة الأمانى ، أن تنفخ فيه روحها ، وأن تهبه الحياة ونعمة العيش

***

وبينما هو نائم فى هدأة فجر اليوم التالى ، إذا به يصحو فجأة على لغط شديد ، وهرج عال فى الشارع الذى يقع فيه بيته . فينهض الى النافذة ، ويرفع الستر ، ويفتح أحد المصاريع قليلاً ، ثم يحنى رأسه ليرى . وإذا موكب زاخر من غوغاء المدينة يحمل

تمثالاً كبيراً من تماثيل ڤينوس التي صنعها بجماليون ؛ واذا الدهماء ينشدون الأناشيد الشعبية ، ويرسلون فى غبشة الصبح أغانيهم (البرجوازية) الجميلة . . وكان من عادة سكان أماذيس أن يحتفلوا بالربة ڤينوس ثلاثة احتفالات يفاجئون بها النائمين ثلاث مرات كل سنة ؛ فلما عرف بجماليون أن الحفل حفل ڤينوس ، أسرع فارتدى أبهى ملابسه ، وجمع بعض باقات الزهور المبعثرة تحت قدمى تمثاله ، وهرول على الدرَج ، ثم انفتل فى الشارع ، واندمج فى صميم الشعب الذى يلهج بالصلوات والأدعيـة باسم ڤينوس . ثم ما هى إلا هنيهة ، حتى كان بجماليون يهتف كما يهتف الأطفال والسُذَّج ، ويردد من الصلوات ما يرددون

ولم لا ؟ هل لحظة من الزمان هى خير من هدأة الفجر ترسل فيها الصلوات على أول آراد الصباح ، إلى آلهة السماء ، وأرباب الأولمب ، فتسمع وتلبى ؟

وكان كل همه أن ينتهى هذا الحشد الهائل إلى المعبد ، حيث يستطيع أن يرتل دعاءه ، ويتمم بصلاته

وقد تنظَّر حتى فرغ الكهنة من جميع الطقوس التى اعتادوا أن يقوموا بها فى مثل ذلك اليوم ؛ وأخذت الجماهير تنصرف هاشة مستبشرة ، كأنما غمرتهم نفحات خالدة من ڤينوس . ولما لم يبق فى المعبد إلا كهنته ، وأفراد من الأتقياء الصالحين ، يصلون صلاتهم ، ويغمغمون بأدعيتهم ، تقدم بجماليون فى روعة التقى وخشوع الورِع ، ووقف خاشعاً أمام المذبح ، حيث تصَّاعد ألسنة البخور المعطر ، حاملة الأرج الشذى من لهب المَحْرَقة إلى السقف ... والسجف ، فتكسب الهيكل جوه القدسى البديع . ثم ألقى فى اللهب بحفنـة من فتيت الكافور والمسك ، وطفق يرتل هـذا الدعاء الطويل : « ڤينوس الكريمة البارة ، ياربة الحب الطاهر ، والهوى البرىء ، أيتها القـديرة على كل شىء ، المتصرفة فى جدود العاشـقين ، وحظوظ المدنفين : إصغى إلى ، ولا ترفضى دعائى : منذ اهتديت اليك ، وأنا عبدك القانت لك ، الهاتف باسمك فى الغدو ، المصلى لك فى الآصال ؛ لا أنى عن ذكرك ، ولا يفتر لسانى عن التسبيح لك ، والنسك من أجلك ؛ باسمك أقبل على فنى ، ومنك أستلهم وحى العبقرية ، فأنت لى كل شىء

ولقد أيقظتنى صلوات الشعب لك من أحلامى الجميلة بك ، فلم أطغ ولم أستكبر ، بل هرعت اليك ، أتوسل بك ، وألتمس البركات منك ، فحنانيك ياڤينوس !

حنانيك ياربة الحب ، وجابرة القلوب الكسيرة ، والنفوس الحائرة !

أنت ، من غير ريب ، تعلمين ما ألم بى من برح هذا الهوى الطارئ ، وما تام قلبى من حب هذه الدمية التى صنعتها باسمك ، ونذرتها لك ، فدلهتنى ، وشـدهت روحى البلبلة ، وصارت لى أعذب الأمانى وأعز الآمال . وهى بعـد رخامة لا روح فيها ولا نأمة ، أكلمها فما ترد ، وأناجيها فما تجيب ، وأغنى لها فما تبتسم !

أنت قديرة ياڤينوس ! فانفخى فيها من روحك ، وانشرى الحياة فى أركانها ، وامنحيها النبضات والأنفاس

حنانيك ياڤينوس ! وسلام لك من قلوب العاشقين ! »

وما كادت صـلاته تنتهى ، حتى انهمر الدمع من عينيه يروى قدمى التمثال المنتصب فى المحراب . فانبث الشرر عالياً من المحرقة حتى أضاء قبة الهيكل ، والتمع فى جميع أرجائه ، وأقبل الكهنة والمصلون يباركون بجماليون ويهنئونه . لأن انبثاث الشرر هكذا ، عقب الصلاة ، هو فى اعتقادهم دليل رضى الربة ، وآية تلبيتها واستجابتها ! !

ولكن مَثَّالنا لم يشعر بقلبه يثلج ، ولا بنفسه تهدأ ، بل بالعكس ، أحس كأنما الحياة تدجى أكثر من قبل ، وبحلولك كل شىء فى عينيه ، وشعر كذلك بقنوط قاتل ينفذ إلى صميمه ، فيطفئ فيه مارجّى من الآمال البيض ، والأمانى المذاب ! فتعثر إلى الباب غير آبه لما حوله من الآس المنضود فى أنحاء المعبد ، والزهر المبثوث فى صحنه الرحيب . ومابرح بين ونى وبطء ، حتى بلغ باب منزله ، فولج متساقطاً على نفسـه ، وانبطح على أول سلاليم الدرَج لا يحس ولا يعى !

***

وغفا إغفاءة مريضة ، فبدا له أن يحمل إرزبّة هائلة ، يهوى بها على رؤوس الدُّمى ، ويحطم بها التماثيل المنتشرة فى فى ردهة الآلهة . . . إلا تمثال ڤينوس الجديد ، المرصع باللآلئ واليواقيت ! ففزع فزعة مروعة ، ونهض يعـدو الى الصالة ، يتفقَّد التماثيل . . . فما راعه إلا أن يسمع صوتاً رقيقاً يناديه :

« بجماليون ... بجماليون ... إرق الى هنا ... هلم الى !! »

من ؟ صوت من هـذا ؟ إنه صوت مرمرى لا عهد لبجماليون به !! »

وقفز قفزات كان بها فى الطابق الثانى ؛ ونظر فلم يجد تمثاله الحبيب فى المكان الذى غادره فيه ... « ... أين ؟ ويحى ! لصوص ! »

ولكن الصوت الرقيق الرنان عاد يطن . . . ويرن « لا . . ولكنها ڤينوس ! » والتفت بجماليون فرأى غادة هيفاء فى طبق تمثاله ونسجه ، متكئة على الأريكة التى طالما وضعها أمام التمثال وأنشد الأشعار ؟ !

« من أنت أيتها المعبودة ؟ »

« لست معبودة ، ولكننى هبة ڤينوس لك ! أنا جالاتيا . . تمثالك المكنون ! »

« وكيف ؟ أنا لا أصدق . هذه خديعة لاشك ! »

« وكيف تخدعك السماء يابجماليون ؟ أتريد أن تكفر بآلاء ڤينوس ؟ »

« لا . . لا . . لا أريد أن أكفر . . وحاشاى . . ولكن كيف حُرْت أنسية ، ومن وهبك الحياة ! »

« هذا سر ڤينوس . وهذه قبلاتك ماتزال مطبوعة على قدمى ! »

« باللسعادة ! »

« انظر الى هاتين الشفتين القرمزيتين ، وهذين الخدين الموردين ، وتينك العينين الزرقاوين . هل استطعت أن تموه تماثيلك بهذه الأصباغ الڤينوسية ؟ »

« وانظر الى الأنفاس الحارة التى تتردد فى صدرى ، هل وسعك مرة أن تبعثها فى إحدى دُماك ؟ »

« حاشا . حاشا »

« إذن فهلم الى أحدثك حديثى »

(فدنا منها بجماليون المشدوه)

ـ « بجماليون ! لقد استجابت ڤينوس دعاءك ، وقبلت صلاتك ، وحضرت الى هنا إذ كنت أنت فى الهيكل تبكى وتنتحب ، فمنحتنى الحياة ، وعلمتنى من العلم مالم أكن أعلم

ـ « ولكن كيف بحق ڤينوس عليك ياجالاتيا »

ـ « كنت منتصبة كما وضعتنى على تلك القاعدة الناصعة ، فأحسست حدقتى تتحركان ، وإذا بى أرى ڤينوس الجميلة أمامى ، تأمرنى أن أدلف نحوها ، ففعلت ، وكنت أحس كأن ثلجاً ينفذ من كيانى ، وأن حرارة تشيع فى أركانى ، وكانت ڤينوس تقول لى . . . « تعالى . . . تعالى ، وكونى ربّة هذا البيت . احميه واحرسيه ، وانشرى السعادة فيه ! هلمى الى الفنان دروس المحبة والحياة . . . » ثم إنها نفثت فى أذنى نفثات تعلمت بها هذه الكلمات . وأسبغت عليّ هذا الثوب الحريرى الذى لابد قد رأيته على تمثالها فى الهيكل . . . ليشهد لك أنها هى التى منحتنى الحياة . . . ومنحتك الحب ! »

ـ « وماذا ؟ وماذا ياحبيبتى جالاتيا ؟ »

ـ « ثم تقدمت إلى فنولتنى قبلة مشتهاة لن أنسى ما حييت أسرها . ودعت لى ولك بالوفاق الأبدى ، والاخلاص السرمدى ، لنكون آية السماء فى هذه الأرجاء ! وابتسمت ابتسامة أرق من إطباقة أوراق الورد ، ولم أعد أراها . . . »

وأتمت جالاتيا حديثها ، فاستقر بجماليون فى أحضانها !

دريني خشبة

على ذكر الربيع

شجرة المشمش

بقلم الأديب حسين شوقى

عند ما فتحتُ صباح اليوم نافذتى التى تطلُّ على الحديقة ، تولاّنى العجب حينما شاهدتُ شجرة المشمش فى ثوب زاهٍ قشيب ، وكانت بالأمس عاريةً يابسة . . . . حقاً ! ما أبهى شجرة المشمش فى ثوبها الأبيض المزدهر ، كأنها فتاة تتأهب لحفلة زفافها ! من ذا الذى أتى بهذه المعجزة ؟ من ؟ هو أنت أيها الربيع ، يا ألطف السحرة وأمهرهم ؟

ولكن ظهور الربيع فجأة أعاد إلى قلبي ذكريات عزيزة ، وإن تكن حزينة مؤلمة . .

إن قدوم هذا الربيع ذكرنى بربيع آخر قضيته فى باريس ، حينما كنت طالباً بها . .

أذكر أننى ذهبت يوماً إلى حديقة « اللكسمبور [1] » الغناء للمذاكرة فى الهدوء والسكينة ، قبل الامتحان بأسابيع ، وبيدى كتاب « القانون المدنى » للأستاذ « بلانيول » ، ولكن لم تكن عندى رغبة فى المذاكرة هذا اليوم ، لأن الطقس كان بديعاً ؛ فالشمس أخذت تلمع فى الأفق بعد احتجابها عنا طويلاً ، والجو أخذ يعبق برائحة الربيع الزكية .. لشدّ ما كان جميلاً منظر جند الربيع ، وهى تتسلّق الأشجار فى أثوابها الخضراء ، وقد أخذت الطير تهتف وتصفق من فوق أغصانها لذلك الجيش الحليف الصديق ، الذى أراحها من الشتاء البغيض . .

كنتُ أفتح كتابى لأقرأ فيه صفحة ثم أعود فأهمله لأتفرغ للنظر الى التغيرات العجيبة التى تحدث فى الطبيعة حولى . . . وكنتُ أُغمض عينيَّ ، ثم أستنشق — ملء الرئتين — عبق الربيع فى نشوة عظيمة . . حقاً ! لقد كانت بغيضة إلى نفسى تلك المذاكرة فى هذا اليوم ! مالى و « لبلانيول » ؟ مالى وللعقود وتسجيلها ؟ مالى وللحجز والاسترداد ؟ والطبيعة تتجلى أمامى ؟

وبينا أنا على هذه الحال ، أفتح الكتاب لحظة لأهمله لحظات ، إذ رن من الخلف ضحك فتاة لم أنتبه إلى وجودها من قبل ، وإذ هى تقبل فأسمعها تقول : إنك على حق ! إنه لعذاب للنفس المذاكرة فى مثل هذا الطقس البديع ! أنا أيضاً لم أطق المذاكرة .. ثم أشارت إلى كتاب ألقته على الأرض . . وفى دقائق معدودة أصبحنا صديقين حميمين ، وكأننا تعارفنا من زمان طويل ، وكأن حديثنا هذا تتمة حديث قديم . . حقاً ! ما أمهرك أيها الحب فى إحداث أمثال هذه المعجزات !

تركنا مقاعدنا وأخذنا نطوف جوانب الحديقة لنعرف ما إذا كانت جنود الربيع قد احتلت أنحاءها الأخرى

ثم دعوتها إلى تناول العشاء معى ، فقبلت الدعوة دون تردد .. والعجيب أنى وجدت من الطبيعى أن أدعوها إلى تناول العشاء ، كما كان عجيباً أن تجد هى أيضاً من الطبيعى أن تتقبل هذه الدعوة . . . ما أعجب تصرفاتك أيها الحب ! وفى أثناء العشاء التهمت صديقتى بالنظرات ، معجباً كل الاعجاب بعيونها الكستنائية الصافية التى قامت على حراستها أهداب براقة فتية ، وأعجبت بقوامها الرشيق ، وثوبها البسيط الأنيق . . ثم صرنا نتلاقى فى كل يوم .. ولم يشأ أن يسأل أحدنا الآخر عن ماضيه .. ما شأن الماضى بنا ؟ ما شأن الأشياء التى ماتت وانقرضت ؟ لم نعذب أنفسنا بأوهام وأشباح ؟ كذلك لم نشأ أن نفكر فى المستقبل ، لأن المستقبل لن يكون خالياً من الخطر والغموض .. أليس الفراق يراقبنا عن كثب ؟ ألست طالباً أجنبياً تنتهى دراسته بعد أسابيع ثم يعود إلى وطنه ؟ ما لنا وللمستقبل إذا كنا ننعم بالسعادة والحب فى الحاضر ؟

قضينا أياماً لذيذة سعيدة مرّت كعادتها سراعاً . . . أى صديقتى العزيزة ! إنى لن أنسى وفاءك ما حييت ! كم كنت تحثيننى على المذاكرة عند اقتراب الأمتحان ، وتحاشى معناه الأفتراق ، معناه عودتى الى الوطن . . ولو رسبت لطالت إقامتى معك . . ولكنك آثرت نفسى على نفسك ، وقدمت مصلحتى على مصلحتك !

(١) مقر مجلس الشيوخ الفرنسى ، وحديقته متنزه عمومى للباريسيين

أى صديقتى المحبوبة ! إن قلبي يتفطر حزناً كلما تذكرت يوم نجاحى ، وقد جئت الى الكلية أعرف النتيجة ، فلما عرفت نجاحى طوقتنى بذراعيك وقبلتنى أمام الجميع بلا مبالاة من شدة الفرح ، بينما لمحتُ دمعة تنحدر من عينك المحبوبة للفراق المرتقب !..

أى صديقتى العزيزة ! إني ما زلت أراك وأنت ترافقيننى فى مسيرى لقضاء بعض حاجاتى قبل الرحيل ، وقد تظاهرت بالغبطة والسرور كى لا تدخلى علىّ الغم فى الأيام القليلة التى سأقضيها معك فى باريس ! كُنت فرحة وأنت تنتقين لى الهدايا التى سوف أقدّمها لدى عودتى الى أفراد أسرتى فى مصر ! أى صديقتى العزيزة ! إنى ما زلت أراك تكفكفين دموعك خلسةً حينما حجزنا تذكرة عودتى لدى إحدى شركات الملاحة ! إنى مازلت أذكر عشاءنا منفردين فى الفندق عشية الرحيل ... لقد بدا عليك الحزن فى أجلى مظاهره ، لأنه لم يعد بعد فى طاقة قلبك الرقيق الصغير أن يتحمل تلك « الكوميديا » . . « كوميديا الفرح » والسرور التى كان يحياها فى أيامنا الأخيرة ..

أى صديقتى المحبوبة ! كم كان مؤلما يوم الفراق ! لقد رجوتك ألا تذهبى الى المحطة لأن الوداع فى المحطات مؤثر من نفسه ، ولكنك أصررت على الحضور زاعمة أنه فى طاقتك أن تتجملى . . ثم حضرت . . وكنت فعلاً شجاعة فى أول الأمر فقد أخذت تضحكين ، كما جعلت توصيننى بأن أبعث اليك رسالة من كل مكان أحله فى طريقى . . . ولكن عندما علا صفير القطار المزعج المؤذن بالرحيل ، ضاعت شجاعتك فأخذت تبكين بكاء مراً ، ولم يكن فى طاقتى أن أخفف عنك لأنى كنت فى مثل حالك من التأثر . . .

ما أطيب قلب تلك السيدة العجوز التى جلست أمامى فى العربة ، وقد أخذت تبكى لبكائنا وهى تتمتم : يا لله ! ما أقسى الحياة !

أى صديقتى المحبوبة ! إذا كان حبنا لم يعش طويلاً فإن عزاءنا فيه أنه انقضى فى أوج شبابه وريعانه !

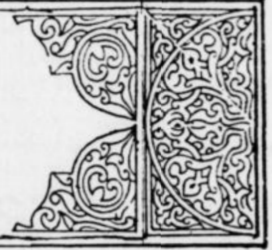
وأنت يا شجرة الشمش ! ذكرينى فى مثل هذا اليوم من كل عام بهذه الذكريات العزيزة ، لأن القلب البشرى ضعيف قد ينسى أحباءه يوما ما !

كرمة ابن هانئ حسين شوقي





البريد الأدبي



هل لامرتين من أصل عربي ؟

سيدي الأستاذ . . . . الزيات

كنت قد قرأت في العدد التاسع والسبعين من (الرسالة) الغراء كلمة عن اتصال نسب شاعر الحب والجمال (لامرتين) بالعرب ، وحثكم الباحثين على التنقيب عن هذه الصلة ، لعلهم يوفقون إلى إضافة هذه العبقرية الخالدة إلى عبقريات العرب . وإذ كنت أقرأ في (حياة لامرتين الغرامية Le vie amoureuse de Lamartine) للكاتب المعروف (لوكادوبريتين Lucas-Dubreton) صفحة ١٢٨ ، عثرت على نبذة لها علاقة متينة بذلك الأصل الذي يعترف به (لامرتين) نفسه بصراحة وثقة . وهأنذا أرسلها إلى (الرسالة) لعل فيها شعاعاً يضيء طريق البحث عن ذلك النسب . قال لوكا :

(لما نفض لامرتين يده من السياسة تسني له سنة ١٨٣٢ أن يحقق أمنية طالما فكر فيها : وهي السفر إلى الشرق ، لا حاملاً حقيبته وعصاه كما قد سبق له أن تخيل ، بل على سفينة شراعية جميلة . . .هنالك نساء الشرق أرَيْنَهُ في عيونهن كما يقول : « أشعة من المخمل الرطب لم يكن قد رآها في عيني امرأة . » ففعلت بلبّه تلك العيون ما تفعل الخمر . لذلك كان في قصصه التي عاد بها من سفره تلك اللهجة الحادة ، وذلك الخيال الذي تجده في قصائد (أريوست Arioste) : من هذا النوع قصيدته التي بارى بها شاعراً من الصحراء في الاشادة بمحاسن الآنسة الرائعة الجمال (مالاجمبا Malagamba) . وأصدق هذه القصص على مايظهر قصة زيارته (لادي استير استنهوب Lady Esther Stanhope تلك الانجليزية المحاطة بالأسرار التي كانت تعيش كسلطانة في قصرها القائم على أحد منحدرات لبنان ، وقد تنبأت له بمكانة رفيعة وحظ عظيم ؛ فسر بنبوءتها وارتاح الى تصديقها . وأهم ما لفت نظر السلطانة في الشاعر تفاخره الساذج . وإليك حديثها عنه الى زائر آخر هو الأمير (دي بويكلير موسكو Pückler-Muskau) قالت :

« بينما كان لامرتين يمد قدمه ليلفت نظري الى جمال تقوسها ، بينت له أن ذلك الشكل ينم عن أصل عربي ، يدل عليه أيضاً بريق عينيه ورسم حاجبيه :

Comme Lamartine allongeait obstinémeut un pied avec l' intention manifeste d' en faire admirer la cambrure, je lui fis croire que cette conformation révélait une origine arabe, indiquée en outre par l' éclat de ses yeux et le dessin de ses paupiéres

فاعجب بفراستي واستنتاجي ؛ ثم روى لي كيف أن مائة وخمسين عربياً أسروا في غزة أيام الحروب الصليبية ، فقيدوا إلى فرنسا واستوطنوا (ما كونيه) حيث أسسوا قريتين ، وشادوا القصر الذي يسكنه لامرتين نفسه :

et il expliqua qu 'au temps des croisades cent cinquante arabes prisonniers de Gaza avaient été emmenés en France et s' étaient établis dans le Mâconnais au' ils avaient construit deux villages et le château que lui - méme habitait.

ثم تابع قائلاً : — كان عليك أيضاً أن تلاحظي فيّ خاصة وراثية شوهدت في الاسكندر ، وهي ميل الرأس قليلا نحو الكتف . . أليس هذا هو طابع البلاد الجنوبية ؟ . . . فأجبته بالتأكيد :

« Vous devez avoir aussi remarqué chez moi une particularité congénitale qu' on a observé chez Alexandre et qui consiste à pencher légérement la tétc vers une épaule. Ceci n'est - il pas un cachet des pays du Sud ? ...
Je répondis affirmativement. »

وكأن هذا الانتساب لم يرق للكاتب الفرنسي (لوكا) فقال فيه :

« إن هذا الحديث ينم عن حقد (لادي استير) على الشاعر الذي أدرك ببصيرته الثاقبة (ماوراء تلك المظاهر الخلابة التي كانت لادي تحيط نفسها بها ، من دسائس سياسية) . »

وليس في فراسة (لادي) ما ينم عن حقد أو تشفٍّ ؛ وإنما هو استنتاج استنتجته من ملامح الشاعر وتكوين بعض

أعضائه ، وكانت فيه جد موفقة ، لأنه صادف ارتياحاً من لامرتين ، فقص عليها من نبأ الأسرى ما يؤيد فراستها ويدعم هذا الانتساب الذى يفتخر به ، وبرهن لها أن القرية التى يسكنها والقصر القديم الذى توارثته أسرة لا مرتين هما من بناء أولئك الأسرى العرب

ويروى أن لا مرتين حاول مرة أن يبيع هذا القصر الأثرى ليوفى ديونه ، فأبت عليه ذلك ابنة أخته (ڤالنتين : Valentine) ، وآثرت بيع معظم أملاكها حتى لا يفرط فى هذا التراث الثمين ، تراث أجداده العرب

بيروت (دار المعلمين) حسن باشر

ذكرى هاندل عميد الموسيقى الألمانية

احتفلت دوائر الفن والثقافة فى ألمانيا بمرور مائتين وخمسين عاماً على مولد الموسيقى الألمانى الكبير جورج فريدريش هاندل ، عميد الموسيقى والأوبرا الكلاسيكية . وأقيم احتفال رسمى فى « هاله » مسقط رأس الموسيقى ، شهده مندوبون رسميون من انكلترا التى عاش فيها هاندل أربعين عاماً وأخرج معظم قطعه وأوبراته الخالدة . وقد ولد هاندل سنة ١٦٣٥ ، ودرس القانون أولاً ، ولكن مواهبه اتجهت إلى الموسيقى فبرع فى العزف على القيثارة والأرغن والهارب ؛ وتلقى دراسته الموسيقية على العازف الشهير زوخاو ؛ وعين عازفاً لكنيسة هاله . ولما ذاعت شهرته سافر إلى همبورج حيث تولى العزف فى أشهر فرقها الموسيقية ، وأخرج فى ذلك الحين أولى أوبراته « الميرا » و « نيرون » ؛ ثم سافر إلى إيطاليا وطاف بمدنها الكبيرة ونالت «أوبراته» هنالك نجاحاً عظيماً . وفى سنة ١٧١٠ سافر إلى انكلترا وأخرج « رينالدو » ، وذاعت شهرته هنالك ؛ وبقى فى انكلترا زهاء أربعين عاماً حتى وفاته ؛ وتعرف يومئذ بأقطاب العصر مثل بوب وفيدلنج وهوجارث ؛ ولقى رعاية كبيرة من الملكة « آن » ملكة انكلترا ؛ ورتبت له معاشاً حسناً . وفى تلك الفترة وضع هاندل سلسلة جديدة من الأوبرات الرائعة مثل « آسى وجلاتيا » و « استر » وهى بالانكليزية و « اتونى » و « تيمو رلنك » و « سبيون » وغيرها ؛ وأنشأ هاندل يومئذ فرقة أوبرا كبيرة ؛ ولكنها فشلت من الوجهة المالية ؛ فعاد إلى التأليف ووضع « آريان » و « أثاليا » و « السيننا » وغيرها . وأصيب على أثر فشله فى مشروعه بضربة من الشلل ؛ فسافر إلى إكس لاشابيل يستشفى مدى حين ؛ ثم عاد إلى انكلترا ، وترك التصنيف للأوبرا وأخذ يصنف القطع الكنسية فوضع منها خمس عشرة ؛ وأسبغ بجهوده على الموسيقى الكنسية بهاء وروعة لم تعرفهما من قبل ، وأشهر هذه القطع الدينية : « صالح » و « اسرائيل فى مصر » وهما من أبدع قطعه . وفى سنة ١٧٤٢ أخرج أعظم قطعه وهى : « المسيح » ومثلت لأول مرة فى دبلن ، ويجمع النقدة على أنها أعظم قطعة دينية موسيقية ، ثم أخرج بعد ذلك « شمشون » و « يهوذا » و « تيودورا » . وتأثر هاندل أعظم تأثر بالمدرسة الانكليزية وتقاليدها . وبرز فى فنه على جميع معاصريه ما عدا « باخ » وتطبع مؤلفاته كلها روعة وفصاحة بالغة ؛ وموسيقاه عميقة مؤثرة خصبة فى الالهام . وقد أصيب الموسيقى الكبير قبل وفاته بأعوام بفقد بصره ؛ فكان ذلك نذيراً بتحطيم حياته ؛ وتوفى بانكلترا سنة ١٧٥٩

وقد ألقى ممثل الحكومة الألمانية الدكتور روزنبرج فى احتفال «هاله» الرسمى بهذه المناسبة خطاباً جامعاً عن هاندل وآثاره ؛ ونوه فى خطابه بوحدة الثقافتين الجرمانية والأنجلوسكسونية ، وقال إن ألمانيا كانت تعتبر شكسبير دائماً واحداً من أبنائها ، بينما تعتبر عظماء المؤلفين الايطاليين والفرنسيين أجانب عنها وعن ثقافتها وإن كانت تقدرهم وتعجب بهم ، وكذلك هاندل فانه طبع الموسيقى الانكليزية بأثره وطابعه مدى قرنين ، ثم قال إن «المسيح» وهى أعظم قطع هاندل لا علاقة لها بالمسيح اليهودى ؛ وقد نعت المعاصرون هاندل بأنه وثنى كبير ، ولكن روعة هذه القطعة ونبراتها القوية إنما هى فى الواقع نفحة انتصار تفهمها الروح الأوربية دائماً سواء فى انكلترا أو ألمانيا

اثر لشوبين

وضعت بلدية درسدن لوحة تذكارية على منزل فى المدينة كان الموسيقى البولونى الأشهر شوبين يقيم فيه منذ قرن ، وأقيمت بتلك المناسبة حفلة رسمية حضرتها السلطات السكسونية وسفير بولونيا فى برلين . وألقيت بهذه المناسبة خطب من مندوب الحكومة الألمانية الدكتور فونك ، والسفير البولونى حول حياة شوبين وذكرياته وأثره فى تطور الموسيقى

من هنا ومن هناك

خواطر عن الدستور الانكليزي

ملخص محاضرة للسير جون سيمون

قرأنا في «الطان» نص المحاضرة الممتعة التي ألقاها السير جون سيمون وزير الخارجية البريطانية، في باريس، وافتتحت بها سلسلة المحاضرات السياسية الكبرى التي نظمتها «الطان» وشهدها رئيس الوزارة الفرنسية وأعضاؤها وأكابر رجال الحكم والسياسة والأدب والفن والمال

وكان موضوع محاضرة السير سيمون طريفاً شائقاً وهو: «بعض خواطر عن النظام الدستوري في بريطانيا العظمى».

وقدم السير سيمون إلى الحضور رئيس الوزارة الفرنسية مسيو فلاندان، في كلمة بليغة نوه فيها بالمركز الرفيع الذي يتبوأه المحاضر في عالم السياسة والقانون؛ فهو اليوم عميد السياسة البريطانية، يتناول أقدارها ومصايرها بين يديه، وهو مشترع كبير ومحام بارع يترك وراءه ماضياً حافلاً بأعظم الذكريات

وألقى السير سيمون محاضرته بفرنسية بديعة؛ ولم يلجأ إلى الشروح الفنية أو الفقهية في بسط آرائه، ولكنه عرضها بطريقة واضحة سهلة، محكمة في نفس الوقت؛ واستهلها ببيان حقيقة يجهلها الكثيرون، وهي أنه لا يوجد في الواقع دستور انكليزي، أو بالحرى لا يوجد دستور انكليزي مكتوب ومبوب في نصوص ومواد يرجع اليها في تطبيقه؛ ولكن الدستور الانكليزي عبارة عن مجموعة من القواعد والتقاليد القومية، تكونت مدى القرون وأصبحت مراجع محترمة تتبع بأمانة واخلاص. ولهذه الخاصة الغريبة مزية قيمة هي المرونة التي تمكن ولاة الأمر من التمشي مع ظروف العصر ومقتضياته بتعديل بعض القواعد والتقاليد بطريقة عملية؛ وضرب السير سيمون مثلاً عملياً لتطبيق هذه الخاصة، هو أنك لا تجد مطلقاً في القوانين البريطانية ذكراً للوزارة أو مسئولياتها أو رئيس الوزارة واختصاصه؛ فالوزارة التي تمسك بيدها مصاير الحرب والسلام هي نتيجة تطور دستوري لا يعرف أصله، ومع ذلك فهي تقوم على أصول دستورية معروفة؛ فهي مسئولة أمام البرلمان، ويجب أن يكون أعضاؤها جميعاً من أعضاء البرلمان؛ وأما رئيس الوزارة فليس له ذكر أو مرجع في القوانين الانكليزية؛ وإقامته لا تستند إلى غير العادة والتقاليد، والمعروف أن والبول هو أول وزير انكليزي أطلق عليه هذا اللقب واعتبر رئيساً للحكومة؛ أما قبل ذلك فكان الملك يصطفي من بين وزرائه وزيراً أو أكثر يعهد اليهم بمهام الأمور

وللوزارة البريطانية خاصة أخرى هي أن يفرق دائماً بين ديوان الوزارة «كابنت» وبين مجلس الوزارة. فأما ديوان الوزارة فلا يشمل كل الوزراء، ويعقد فقط من الوزراء الذين يمثلون الوزارات الهامة وفي مقدمتهم الرئيس؛ وهؤلاء هم الوزراء الذين يحملون لقب «سكرتير الدولة» وعددهم سبعة، ومستشار المالية، واللورد تشانسلور، ورئيس البحرية، ورئيس مجلس التجارة وغيرهم؛ وهؤلاء يحضرون دائماً جلسات «الديوان» أما غيرهم من الوزراء الثانويين مثل وزير البريد، فلا يحضرون هذه الجلسات إلا في أحوال معينة

وقد كان العرش فيما مضى يشرف على اجتماعات الوزارة، ويرأس الملك جلساتها عادة؛ وكانت الملكة «آن» هي آخر من رأس مجلس الوزراء؛ ولكن حدث في عهد جورج الأول (أوائل القرن الثامن عشر) أن غيرت هذه العادة، فعدل الملك عن رئاسة المجلس لا لسبب سوى أنه كان ألمانياً لا يعرف الانكليزية ولكنها غدت من ذلك الحين سنة في الدستور الانكليزي، فملك انكلترا لا يرأس مجلس الوزراء منذ قرنين

ولم يكن لمجلس الوزراء سكرتارية، ولا يوضع لجلساته محاضر

أعمال حتى الحرب الكبرى ، فاستحدث مستر لويد جورج هذه القاعدة ، وعين سكرتيراً للمجلس بداعى الحاجة وما تقتضيه الأمور من سرعة الفصل ؛ فغدت سنة دستورية ؛ وأضحى هذا السكرتير من أهم أعضاء « الديوان » وعليه مسئولية كبيرة ، فهو الذى يضع جدول الأعمال بمصادقة الرئيس ويوزعه على الأعضاء مشفوعاً بجميع الوثائق اللازمة ، وفى وسع الوزراء البريطانيين متى تركوا خدمة الحكومة أن يكتبوا مذكراتهم كما شاءوا ، ولكن قاعدة حكيمة مرعية تحملهم دائماً على احترام أسرار الدولة الخطيرة ، فلا يبوحون بها مطلقاً

وهناك خاصة أخرى للوزارات البريطانية هى استقرارها وطول بقائها فى الحكم ؛ وهذه الخاصة ترجع إلى عوامل ثلاثة : الأول أن الأحزاب السياسية فى انكلترا قليلة العدد ، وليست موزعة القوى والفرق كما هو الشأن فى بلاد أخرى . والثانى هو أن صدور تصويت ضد الوزارة لا ينتهى باسقاطها حتماً ؛ والوزارة الانكليزية لا تطرح مسألة الثقة ؛ ولا تسقط الوزارة إلا إذا هزمت فى مسألة خطيرة أو وجه اليها قرار لوم على أثر المناقشة فى مسألة هامة . والثالث هو أن أعضاء الأغلبية يترددون غالباً فى التصويت ضد الحكومة ، لأنه يحتمل جداً أن رئيس الوزارة إذا هزمت الوزارة ، يشير على الملك بحل البرلمان ، وهو اعتبار له قيمته فى اتزان النواب . والمفهوم دائماً أن الرئيس إذا أشار بحل المجلس ، فانما يرجع ذلك الى أسباب جوهرية تقتضيه ؛ ولم يحدث أن رئيساً أشار مرة بالحل ورفض طلبه

ولمجلس النواب البريطانى رئيس له تقاليد خاصة واحترام عميق فى نفوس الأعضاء ، وهو الذى يطلق عليه «مستر سبيكر» وهو يحمل مسئولية النظام فى المجلس ، ويؤديها بمقدرة عجيبة ؛ وليس له جرس يقرعه ، ولكنه اذا احتدم الجدل الى حد كبير ، يقوم من مجلسه فقط ، فيضطر الأعضاء احتراماً لمادة قديمة أن يجلسوا جميعاً وبذلك تسود السكينة . ولم يحدث منذ ثلاثين عاماً أن أخرج عضو من المجلس أو اتخذت أى إجراءات غير عادية لتأييد النظام .

الموسوعة الايطالية

كان من مظاهر الأحياء الفاشستى فى إيطاليا ، أن عنيت إيطاليا الجديدة بالناحية الثقافية والعمل على ترقية العلوم والآداب ؛ ومنذ سنة ١٩٢٥ تعنى جهات الثقافة الرسمية باصدار موسوعة إيطالية كبرى (دائرة المعارف) لا تقل فى حجمها وموادها عن الموسوعة الانكليزية أو الأمريكية أو الروسية ؛ ولم تكن إيطاليا قد عملت بعد لأخراج موسوعة من هذا النوع ، وكان أول من فكر فى تنفيذ المشروع السنيور تريكانى وهو من أقطاب الصناعة والمال ، ورأى أن يستعين على تنفيذه بأقطاب العلم والأدب والفن فى إيطاليا وفى خارجها ؛ ولما رأت الحكومة خطر المشروع وأهميته تناولته بيديها ، وأصدرت به قراراً رسمياً فى يناير سنة ١٩٣٣ ؛ وتحولت الهيئة التى كانت قائمة به إلى هيئة رسمية ، واشتركت معظم البنوك الايطالية الكبرى فى إنشاء الاعتماد اللازم ؛ وتولى الاشراف على الناحية العلمية السنيور جنتيلى وزير المعارف السابق وهو علامة وفيلسوف كبير ؛ فجمع حوله أقطاب العلم والأدب والفن ؛ وقسمت أبواب الموسوعة إلى خمسين باباً وزعت على مختلف العلماء والاخصائيين ؛ وروعى فيها أن تكون تامة التماسك والتناسق ؛ فالمواد تفحص حين ورودها ويستبعد منها ما كان جدلياً أو مذهبياً أو متناقضاً مع غيره ، وتصحح التجارب مراراً عديدة ، وقد بدأ ظهور هذه الموسوعة منذ سنة ١٩٢٩ فى ثوب أنيق رائع هو أبدع ما أخرجته المطابع الايطالية وربما كان أبدع ما أخرجت مطابع العالم ؛ ومن ذلك الحين يصدر مجلد واحد كل ثلاثة أشهر بانتظام تام ؛ وسوف تظهر الأجزاء الأخيرة فى سنة ١٩٣٧ ، وتكون الموسوعة فى ستة وثلاثين مجلداً . وقد ظهر إلى اليوم المجلد الرابع والعشرون ووصلت المواد الى حرف P ؛ ويحتوى كل مجلد على نحو مائتى صورة ؛ وهى تطبع فى مطبعة أنشئت خصيصاً لها فى ميلانو عاصمة الطباعة الايطالية ، وقد اشترك فى موادها جميع العلماء على اختلاف نحلهم ومذاهبهم العلمية والسياسية ، وبلغ عدد الذين يشتركون فى كتابتها ٢٥٠٠ عالم منهم نحو العشرة فقط من الأجانب ، وكتب السنيور موسولينى مادة « الفاشزم » ، وكتب كثير من أقطاب الحركة الفاشستية عن مناحى الحركة وتطوراتها ؛ وسوف تكون هذه الموسوعة بلا ريب من أحدث المجموعات العلمية والأدبية والفنية التى ظهرت حتى اليوم



ترجمة نفسية تحليلية

٢ــ هو ذا تاريخ انسان ... !

للأستاذ خليل هنداوى

جبران « دمعة وابتسامة » كان رؤوفاً بالناس محباً للناس ، راحماً ضعفهم ، مشفقاً على بؤسهم ، وهو — وإن يكن فى نزعاته هذه مقلداً — فقد عبّر عن عاطفـــة صحيحة صادقة لم تدنسها الأرض . فهو مؤمن بالعدل السماوى والرحمة المتغلغلة فى كل جزء من أجزاء الكون ، ولكن جبران الانسان أفسد على جبران الهادئ هدوءه ، وقلقه الحسى عمل على بعث قلقه الروحى . . . . فالفقر والهجرة وموت الأعزاء والخيبة ، كلها عوامل تألبت على جبران فخنقت فيه جبران الهادئ ، ووترت أعصاب جبران القاسى ، ومن يُطفئ مثل هـذه الثورة إلا خمرة « نيتشه » يتناولها بيد « زرادشت » ؟ (١)

خلقت خمرة « نيتشه » عواصف جبران ، وقد أثبت الناقد تأثير نيتشه فى « العواصف » وهو تأثير لمن يرى ؛ وعندى أن هذا التـأثير مهما أحاطت به عوامل هذا الفيلسوف فهو لا يخلو من تأثير روح جبران الباطنية التى تمثلت أن الناس كانوا سبب خيبتها ، فكرهتهم ، لأن فى كراهيتها انتقاماً لها منهم

قد كان — فى طوايا جبران — زرادشت راقدا ، فأيقظه زرادشت نيتشه . . . وألهبه بروحه ، وهتف به ليكون هداماً مثله ، دافناً للأموات الأحياء !

لا يرضى النعيمى عن كل هـذا التمرد ، ولا بعضه ، لأنه لا يعرف للتمرد غاية . . . وإنما أظهر رضاه عنه فى «غرباله» لأنه كان نفثة صادقة من فتى التفت الى لباب الحياة ، أو طفل صاح صيحة الحياة ، برغم القابلة الواقفة على كل طفل يُولد لتحول بينه وبين صيحته بالخنق أو بالسحق : هتف جبران برغم ذلك هتاف المرارة والحرقة ، فوجد الناقد فى هتافه تحرقاً للمجهول ، فرضى عن هذا التحرق وإن لم يرض عن هذا التمرد . . . فنظر — كما قال جبران (١) — الى مستقبله لا الى ماضيه ، وأدرك الناقد أن هذه الثورة النفسية هى ثورة لم يخل منها فنان أو شاعر ، وأى حجر ينزل فى القاع بدون دوائر وأمواج . وهـذه الثورة هى علامة الحياة . . . .

صدق النعيمى فى نبوءته ؛ فان جبران لم يطل تمرده ، ولو طال تمرده لما كان شريفاً كالذى قلده فى تمرده ؛ فان تمرد نيتشه ناشئ عن المثل الأعلى الذى وجده واتبعه ، لا يثنيه ثانٍ عنه إلا ردّه ، ولا يحول بينه وبين مثله حائل إلا صده . أما تمرد جبران فهو تمرد تقليدى — كمن يمد لمصافحه يداً شائكة إذا أنكره أو

(١) اشارة الى كتاب « هكذا تكلم زرادشت » الجـامع لفلسفة نيتشة « السوبرمانية »

(١) من رسالة لجبران الى نعيمة

بدأ ملساء إذا عرفه . تمرد نيتشه لا يقبل رحمة من يشتمهم ، ولا يرضى بهبة من يدعوهم أمواتاً لأنه هو الحي العظيم ! أما جبران فهو يعمل لهم ويقبل صداقتهم ويبني فنه على عطفهم ومعونتهم . ولو أن نيتشه حل محل جبران وعرضت عليه ـ مارى هاسكل ـ هذه الخمسة والسبعين دولاراً هبة ، فماذا كان فاعلاً ؟ لكن جبران علل نفسه بأنه يذعن اليوم مستسلماً وغداً يتمرد ثائراً . . وجاءت ساعة التمرد فأعلن العصيان ، ثم فاء إلى منطقة السكينة الصامتة ، والحياة كلها متوزعة في منطقة الصمت

ماهي العوامل التي دفعت جبران إلى السكينة بعد تلك العاصفة الهوجاء ؟

ذلك ماحاول النعيمي أن يسدل عليه ستاراً ، فيأتي بالعوامل الخارجية التي لا يسكن إليها العقل . فجبران المتمرد قد يكون سبب سكونه أنه لم يكن داعياً بتمرده إلى مثل أعلى تؤمن به روحه كما يذيعه يراعه . ولكن « زرادشت » الثائر في قلب جبران هو ذات «زرادشت» الذي هدأ ، والذي أسماه «المصطفى» وفيه لا يزال نيتشه عرقاً حياً ينبض في قلب جبران !

يرى « النعيمي » في المصطفى جبران الأسمى الذي بلغ بخياله ما لم يبلغه بإرادته . . . . جبران الذي هوى في القاع وهدأ في مكانه . جبران الساكن الذي دفن جبران المتمرد ! جبران الذي رضي عن الحياة بكل ما انطوت عليه الحياة ؛ وقبل الحياة المتصلة اتصال كل ذرة بذرة وكل قطرة بقطرة ؛ الحياة التي لا ينفصل ألمها عن فرحها وجميلها عن قبيحها ! هذه هي القمة التي بلغها جبران وأراد النعيمي من جبران أن يبلغها !

يقف النعيمي عند هذه النقطة ولا يتقدم ، ويبقى القارئ مشوشاً لأنه لا يستطيع أن يصل بين حلقة التمرد وحلقة السكون ؛ وقد تركهما الناقد مقطوعتين . عرف مولد التمرد ولم يعرف مولد السكينة ، ولكن المحلل اليقظ يسهل عليه أن يدرك أن في « جبران المصطفى » أثراً من روح « نعيمة الهادئ »

أما جبران الثائر فقد علمنا أنه وليد نيتشه ، أما جبران الهادئ فأي « نيتشه آخر » ذهب روحه إلى هذا الأفق ، وهداه إلى هذه الغاية ؟ إن الناقد الحقيقي قد يساعد الشاعر على خلق نفسه وتتميم رسالته ، والتغلب على الصدمات التي تعترض سبيله إذا كان فناناً . . . والناقد لا يحيط بمعاني العبقري إلا إذا كان ممن أوتوا من هذه العبقرية شيئاً . . والنعيمي هو صاحب فلسفة ومذهب في الحياة شامل ، تراه في كل آثاره . ألم يحمل إلى جبران الثائر من هذا الطعام شيئاً ؟ ألم يكفه بشيء ؟

أنا أعتقد بأنه أثر فيه وإن أخفى النعيمي هذه الصفحة تواضعاً منه ، فجبران يوم كان يبعث بمواصفه المدمرة كان النعيمي يبشر بهذه الحياة الهادئة الساكنة . .

هذا هو كتاب « المصطفى » الذي يمثل الروح الشاملة المطلقة التي يبشر بها النعيمي ؛ هذه الروح التي تضم إلى صدرها كل شيء ، وتجعل صاحبها في أمن من الألم ، لأن الألم عندها مفقود ، وكيف يتألم من يؤمن بأن الحياة في كل حركة من حركاتها وفي كل سكنة من سكناتها ساعية دائبة وراء غايتها التي لا تحد !

(يتبع) خليل هنداوي

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ٩١ – ١ ابريل سنة ١٩٣٥ – السنة الثالثة

3 me Année, No. 91.

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

Lundi-1-4-1935

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع المبدولى رقم ٣٢

عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٩١ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٧ ذو الحجة سنة ١٣٥٣ — ١ ابريل سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

الفردية علتنا الأصيلة

لا تزال الفردية أبين الصفات المميزة للعرب ؛ ولا تزال هذه الصفة أجلى ما تكون فى مصر ! فان المرء ليغالى فى فرديته حتى ليوشك أن يكون أمة وحده !

غلبت هذه الشيمة على العرب الأولين لقلة المرافق المشتركة ، وأثَرَة الطبيعة الشحيحة ، ووحدة الحياة الرتيبة ، واستقلال النفس القوية ، فالرجل منهم كان يحصر الدنيا فى خيمته ، ويجمع العالم فى قبيلته ، ثم يختصر القبيلة فى نفسه فيجعلها قاعدة لتمثاله وإطاراً لصورته ! فهو لا يحيا حياة بهائم الأنعام تحمى ضعفها بالاجتماع ، وإنما يعيش عيش سباع الطير والوحش لا تشبِل على أفراخها وأجرائها إلا ريثما ترتاش وتضرى . فلما اختيروا إلى الدعوة الكبرى استجابوا لقوة القوى ، واطمأنوا لألفة الروح ، واستَجرُّوا لحكم الجماعة ، حتى بلَّغوا رسالة الله ، ثم تحرك فيهم الهوى الموروث ، وتيقَّظ الطبع الأثِر ، فهبَّت الفردية تحلل العقدة وتشتت الوحدة ، حتى قَسَّمت الوطن بلاداً ، ومزقت الشعب أفراداً ، خضعوا لسلطان المغير ودانوا لقوة الغاصب !

***

لا تزال هذه الفردية القبيحة وتوابعها من شهوة الرياسة وحب الاستئثار ودناءة الحرص، تُقَطِّع أوشاج المجتمع فى أقطار العرب، فتفسد كل موضوع، وتبطل كل مشروع، وتُشَعِّث كل ألفة. وفى مصر أحد تلك الأقطار تستطيع أن تعرض جملة أمرها على رأيك فتجد المثال الذى لا يبعد والحال التى لا تختلف. فالسياسة هنا وهناك لا تكاد أحزابها تقوم على فكرة جامعة ومبدأ متحد، إنما هى فرد يَنْبُه فى الخير أو ينبغ فى الشر، فتأتلف عليه الأفراد المختلفون، فيكون منهم مكان النظام من العقد، يمسكه مادام حياً قويا، فاذا ما انقطع ذهب الحب أَبَادِيدَ. والاقتصاد هنا وهناك جهود فردية تخشى المنافسة وتتعجل الربح وترضى بالنصيب الأخس، لأن الفردية قتلت فينا الثقة فلا نساهم فى رأس مال، وأضعفت شعورنا بالخير العام فلا نشارك فى مشروع، ونشرت بيننا داء الحسد فلا نستقيم على رأى جميع؛ وما النهضة الاقتصادية الحديثة إلا نبوغ فرد أنس الناس بناحيته، واطمأنوا إلى كفايته، فأخلدوا إليه بالثقة، وألقوا فى يديه المقاليد. والأدب هنا وهناك لا تزال دوافعه فردية ومراميه خاصة؛ فالقصيدة عواطف الشاعر لا تكاد تخرج عن دخائل نفسه ومدارج حسه، والمقالة خواطر الكاتب لا تكاد ترمى إلى غرض محدد ولا تجرى فى مذهب معين، والأغنية لواعج المغنى فلا تعبر عن المعانى العامة، ولا تهتف بالأمانى المشتركة. أما الملاحم القوميـة، والقصص الاجتماعية، والأناشيـد الشعبية؛ فتلك أغراض لا تزال منابعها ناضبة ودوافعها دخيلة

يأخذ المرء حال من الوجد أو الشوق أو الطرب، فيجد من القصائد والأناشيد ما يترجم هذه الحال، فيدندن ويتغنى؛ وتكون الجماعة منا فى مجمع من المجامع، أو ملهى من الملاهى، أو موكب من المواكب، فيأخذها انفعال مشترك من ابتهاج أو احتجاج أو افتخار أو تحمس، فتريد أن تعبر عن ذلك بقول واحد وصوت واحد ونغم واحد، فلا تجد إلا خلجات تتوقد، ونظرات تتردد، ثم سكوناً بارداً كغرق المبهوت الخجل! حتى السلام الملكى الرسمى نعرفه نغما ولا نعرفه كلما كأنما وضعوه لأمة بكماء!

كذلك الفن هنا وهناك لا يجد من حَرَج الفردية مكاناً للتنوع ولا مجالا للتقدم، فالتصوير كالشعر قلما يتعدى صورة الفرد وعاطفته، والرقص حتى من الرجال لا يكون إلا من فرد، ولا يظهر من هذا الفرد إلا متعاقباً على أجزاء خاصة من جسمه، كالعجز والبطن والنُديين والعنق، فهو حركات متقطعة مستقلة كأبيات القصيدة القديمة لا تربطها علاقة ولا تجمعها وحدة! والغناء والموسيقى يقعان دائماً على أصوات مفردة، وتقاسيم مرددة، وفرديات (مونولوجات) متشابهة، ومعان متكررة! فليس لنا — حتى ولا للقرويين — غناء جَمَاعى ولا رقص جَمَاعى يعبران عن شعور الجماعة ساعة الطرب أو الغضب أو النصر بكلمات موقَّعة وحركات موزونة؛ ولكل أمة من أمم الأرض أفنان شتى من ذلك حتى الزنوج!

***

إن الفردية تعلو فتكون الاستبداد، وتسفل فتكون الأنانية؛ وإن الجمعية (١) ترتفع فتكون الانسانية، وتنخفض فتكون العصبية؛ وإن بين الانسانية والعصبية شعباً يعز، وأمة ترق، وذكراً يبقى، وأثراً يخلَّد؛ ولكن بين الاستبداد والأنانية تَحَكُّمَ الهوى وشقاء العيش وذل الأبد. فاذا رأيت الأحزاب تتناقض وتنحل، ومشروعات الشباب تضعف وتعتل، وإدارة الحكومة تسوء وتختل، فابحث علل ذلك — غير مخطئ — فى هذه الفردية حين تتعلى فتستبد، أو حين تتدلى فتستأثر. فلولا هذا الطبع الأصيل الذى طغى على الشعور، وبغى على الفطرة، لتنبه فينا الضمير الاجتماعى فأخاصنا للأمة كما نخلص للاسرة، وعملنا فى الديوان كما نعمل فى البيت، وأحببنا لعامة الناس ما نحب لخاصة النفس؛ ولكن الفردية داء دخيل لا يحسمه إلا الدين الذى حسمه عن نفوس العرب حين اتبعوه، فهل إلى رجوع اليه من سبيل؟

احمد حسن الزيات

عددنا الممتاز

بمناسبة رأس السنة الهجرية

سيدور معظمه على رسالة الاسلام ومجد العرب ومدنيـــة الشرق

من محرروه؟ متى موعده؟

الجواب فى العدد القادم

---

(١) الجمعية مصدر صناعى يقابل الفردية

تاريخ يتكلم . . .

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أيعرف القراء أن فى الأحلام أحلاماً هى قصص عقلية كاملة الأجزاء محكمة الوضع متسقة التركيب بديعة التأليف ، تجعل المرء حين ينام كأنه أسلم نفسه إلى (شركة من الملائكة) ، تسيح به فى عالم عجيب كأنما سحر فتحول إلى قصة ؟

إن يكن فى القراء من لا يعلم هذا فليعلمه منى ؛ فانى كثيراً ما أكتب وأقرأ فى النوم ، وكثيراً ما يلقى على من بارع الكلام ، وكثيراً ما أرى ما لو دونته لعد من الخوارق والمعجزات

وهذه القصة التى أرويها اليوم ، كانت المعجزة فيها أنى مشيت فى التاريخ كما أمشى فى طريق ممتدة ؛ فتقدمت إلى أهل سنة ٣٩٥ للهجرة وما يليها ، فعشت معهم وتخبرت من أخبارهم ، ثم رجعت إلى زمنى لأقص ما رأيته على أهل سنة ١٣٥٣ . . .

أمسيت البارحة كالمغموم فى أحوال ثقيلة على النفس ما تنطلق النفس لها ، أولها سوء الهضم ؛ ومتى كان البدء من هنا لم تكن الحركة فى النفس إلا دائرة ، تذهب ما تذهب ثم لا تنتهى إلا فى سوء الهضم عينه . فجلست فى الندى الذى أسمر فيه أحياناً ، فكان لجوه وزن أحسسته كما يحس الغائص فى الماء ثقل الماء عليه ؛ ودخنت الكركرة [1] فلم تكن هواء ودخاناً يتروح ، بل كانت من ثقلها كالطعام يدخل على الطعام ؛ ونظرت ناحية فأخذت عينى رجلاً فيلى الخلقة ، منطاد البطن ، كأنما نفخ بطنه بالآلات ، يحمل منه مقدار أربعة من بطون البدينات الحوامل ، كل منهن فى الشهر التاسع من حملها . . . ؛ وكان منى إلى كل هذا البلاء خمس صحف يومية أريد قراءتها . . . !

(١) الكركرة : اسم وضعناه (للشيشة) أو النار جيلة ، أخذاً من صوتها ، كما صنع العرب فى تسميتهم (القطا) أخذا من صوت هذا الطير ، وكما هى طريقتهم ؛ وتجمع الكركرة : كراكير ، بالياء للخفة

ثم جئت إلى الدار ، والمعركة حامية فى أعصابى ؛ وما كان سوء الهضم منومة فيدعو الى النوم ، فدخلت بيت كتبى وأردت كتاباً أى كتاب تناله يدى ، فخرج لى كتاب فى خرافات الأولين وأساطيرهم وهذيانهم وسوء هضمهم العقلى . . كالكلام عن أدونيس وأرطاميس ودبونيس وسميراميس وإيسيس وأنوبيس وأرغتيس . . . فاستعذت بالله وقلت : حتى الكتب لها فى هذه الليلة أعصاب قد نالتها الثقلة والألم . ؟

وبات الليل يقظان ، وبقيت متململاً أتقلب حتى أخذ الصداع فى رأسى ، فانقلب التعب نوماً ، وجاء من النوم تعب آخر ، وقذفت إلى عالم الأحلام فى قنبلة ، تستقر بى حيث تريد لا حيث أريد :

* * *

ورأيتنى فى قوم لا أعرف منهم أحداً ، قد اجتمعوا جماهير ، وسمعت قائلاً منهم يقول : « الساعة يمر مولانا العالى » فقلت لمن يلينى : « من يكون مولانا العالى ؟ » قال : « أو أنت منهم ؟ » قلت « ممن ؟ » فألهاه عن جوابى تشوف الناس وانصرافهم إلى رجل أقبل راكباً حماراً أشهب ؟ فصاحوا : « القمر القمر [1] » ورفع الرجل الذى يناكبنى صوته يقول : « البركات والعظمات لك يا مولانا العالى ! »

قلت : « إنا لله ! لقد وقعت فى قوم من الزنادقة ، يعارضون « التحيات والصلوات والطيبات لله » ؛ ثم مر صاحب الحمار بحذائى ، وغمزه الرجل على ، فقال : « ما بالك لا تقول مثله ؟ » قلت : أعوذ بالله من كفر بعد ايمان ؛ فكأنما أراد أن يلطمنى فرفع يده ، فصحت فيه : « كما أنت ويلك وإلا قبضت عليك وأسلمتك للبوليس ، وشكوتك الى النيابة ، ورفعتك الى محكمة الجنح ! »

قال : « ماذا أسمع ؟ الرجل مجنون فخذوه ! » وأحاط بى جماعة منهم ، ولكنه ترجل عن حماره وأخذ بيدى ومشينا ، فقلت : « من أنت يا هذا ؟ » قال : « أراك من غير هذا البلد ؛ أما تعرف الحاكم بأمر الله ؟ فأنا هو . » قلت : « انظر ويحك ما تقول ؛ فما أظنك إلا ممروراً ؛ لقد كتبت أمس كتاباً الى

(١) القمر : اسم ذلك الحمار ، وسيمر ذكره فى القصة

مجلة (الرسالة) أرّخته ١٣ من ذى الحجة سنة ١٣٥٣ و ١٨ من مارس سنة ١٩٣٥ ، وأرسلتُ به مقالة (الخروفين) . . . »

قال : ماذا أسمع ؟ نحن الآن فى سنة ٣٩٥ ؛ فالرجل مجنون ، أوْلا فأنت أيها الرجل من معجزاتى . لقد جئتُ بك من التاريخ ، فسترى وتكتب ، ثم تعود إلى التاريخ فتكون من معجزاتى ، وتقصُّ عنى وتشهد لى . . . ! »

قلت : « فانى أعرف أعمالك إلى أن قُتلتَ فى سنة ٤١١ ...! »

قال : « أوَإلَهٌ أنت ، فتَخلقَ ستّ عشرةَ سنةً بحوادثها؟ لقد كدتَ من أفْنِك وغباوتك تُفسد علىّ دعوى المعجزة ! »

وهاج الصداع فى رأسى ، وبلغ سوءُ الهضم حدّه ، واشتبكتْ سيناتُ إيسيس وأتوبيس الخ بسين إبليس ، ومرتْ بين كل هذا حوادثُ الطاغية المتوه المتجبِّر ، فرأيته يبتدع فى كل وقت بِدَعاً ، ويخترع أحكاماً يُكره الناس على أن يعملوا بها ، ويعاقبهم على الخروج منها ، ثم يعود فينقض أمره ، ويعاقِب على الأخذ به ، كأن الذى نَقَض غيرُ الذى أبْرَم ، وكأنه حين يتبلد فيُمجزه أن يخترع جديداً – يجعل اختراعَه إبطالَ اختراعه !

ورأيته كأنما يعتدُّ نفْسَه مُخَّ هذه الأمة ، فلابدّ أن يكون عقلاً لعقولها ، ثم لا بدّ أن يَستعلىَ الناسَ ويستبدّ بهم استبدادَ الشريعة فى أمرها ونَهيها ، فكانت أعمالُه فى جملتها هى نقضَ أعمال الشريعة الاسلامية ، وظنّ أنه مستطيعٌ محوَ ذلك العصر من أذهان الناس وقتلَ التاريخ الاسلامى بتاريخ قاتلٍ سفاك .

وسوّل له جنونُه أنه خُلق تكذيباً للنبوة ؛ ثم أفرَطَ عليه الجنون فحصَّل فى نفسه أنه خُلق تكذيباً للألوهية . وفى تكذيبه للنبوّة والألوهية يحمل الأمة بالقهر والغلبة على ألا تصدّق إلا به هو ؛ وفى سبيل إثباته لنفسه صنع ما صنع ، فجاء تاريخه لا ينفى ألوهيةً ولا نبوّة ، بل ينفى العقل عن صاحبه ؛ وجاء هذا التاريخ فى الاسلام ليتكلم يوماً فى تاريخ الاسلام . . .

* * *

رأيتنى أصبحتُ كاتباً لهذا الحاكم ، فجعلتُ أشهد أعماله وأدوّن تاريخه وأقبلت على ما أفرَدَنى به ، وقلت فى نفسى : « لقد وضعتنى الدنيا موضعاً عزيزاً لم يرتفع اليه أحد من كتّابها وأدبائها ، فسأكتب عن هذا الدهر بعقلٍ بينه وبين هذا الدهر ٩٦٨ سنة صاعدة فى العلم

ودوّنتُ عشرة مجلَّدات ضخمة انتهت وأنا حفظها كلها ، فاذا هى جملٌ صغيرة ، جملَ الحُلم كلّ نبذةٍ منها سِفراً ضخما كما يُخيّل للنائم أنه عاش عمراً طويلا وأحدث أحداثاً ممتدّة ، على حين لا تكون الرؤيا إلا لحظة

وهذه هى المجلَّدات التى قلتُ : إن التاريخ يتكلَّمُ بها فى التاريخ . . .

المجلد الاُول

ابتُـلِىَ هذا الطاغيةُ بنقيصتين : إحداهما من نفسه والأخرى من غيره ؛ فأما التى من نفسه فانى أراه قد خُلق وفى مُخّه لُفافَةٌ عصبية من يهوديّة جدّه رأس هذه الدعوة ؛ فهو الحاكم بن العزيز بن المعز بن القاسم بن المهدى عُبيد الله ، ويقولون إن عبيد الله هذا كان ابن امرأة يهودية من حدّاد يهودى ، فاتفق أن جرى ذكر النساء فى مجلس الحسين بن محمد القدّاح فوصفوا له تلك المرأة اليهودية ، وأنها آيةٌ فى الحُسن ، وكان لها من الحداد ولد ، فتزوّجها الرجل وأدّب ابنها وعلّمه ، ثم عرّفه أسرار الدعوة العَلَوية وعهد اليه بها

ومن بعض اللفائف العصبية فى المخ ما ينحدر بالوراثة مطبوعاً على خيره أو شره ، لا بَدّ للمرء فيه ولا حيلة له فى دفعه أو الانتفاء منه ، فيكون قدَراً يَتسلْسلُ فى الخلْق ليُحدثَ غاياتِه المقدورة ، فمتى وقع فى مخ انسان فالدنيا به كالحُبلى ولابد أن تتمخّض عنه

هذه اللُّفافة اليهودية فى مخ هذا الطاغية ستحقّق به قولَ الله تعالى : « لتَجِدَنّ أشدّ الناسِ عداوةً للّذين آمَنُوا اليهود . » فهو لن يكونَ العدوّ للاسلام دون أن يكون الأشدّ فى هذه العداوة ، ولن يكون فيها الأشدّ حتى يفعل بها الأفاعيل النكرَة . وما أرى هذه المآذن القائمة فى الجو إلا تخرق بمنظرها عينيه من بغضه للاسلام وانطوائه على عداوته ؛ فويلٌ لها منه !

وأما النقيصـــة الثانية فقد ابْتُلِىَ بقوم فتنوه بآرائهم ومذهبهم ، وهم حمزة بن على ، والأخرم ، وفلان ، وفلان . . . وقد لفّقوا للدنيا مذهباً هو صورة عقولهم الطائشة ، لايجىء إلا للهدم ، ثم لا يضع أولَ معاوله إلا فى قبة السماء ليهدمها . . . !

ولو أنا جمعت هذا المذهب فى كلمة واحدة لقلتُ : هو حماقةٌ حمقاء تريد إخراج الله من الوجود لا دخال الله فى بعض الطغاة !

ويتلقبون فى مذهبهم بهذه الألقاب: العقل، الأرادة، الامام، قائم الزمان، علة العلل . . . ! وهذه هى الشيوعية بعينها ، تعمل على هدم فكرة الألوهية وإلحاقها بالخرافة ؛ كأن القائم بهذا المذهب هو عقل الناس وإرادتهم ، كرهوا أم رضوا ، فلا إرادة لهم معه ولا عقل ، وهو الزمنُ فيصبغ الزمنَ بما شاء ، ويجعله كيف شاء ، لأنه القائم به وعلة العلل فى سياسته وتدبيره

شيوعية آثمة ، كَبُرت فى حماقتها أن تقوم بجنونٍ واحد ، فلا تقوم إلا باثنين معاً : جنون العقل ، وجنون السيف !

المجلد الثانى

أظهرَ الطاغيةُ أن الله يؤيد به الأسلام ، ليتألف الجندَ والشعب ويستميلهم إليه ، وكان فى ذلك لئيمَ الكيد دنىء الحيلة يهوديّ المكر . فأمر بعمارة المدارس للفقه والتفسير والحديث والفُتْيا ، وبَذَل فيها الأموال ، وجعل فيها الفقهاء والمشايخ ، وبالغَ فى إكرامهم والتوْسعة عليهم والتخضع لهم ، ودخل فى ظلال العمائم . . . وأحضر لنفسه فقيهين مالكيّين (اثنين لا واحد) يعلّمانه ويُفقّهانه ، وكان أشبه بمريد مع شيخ الطريقة يتسَعّد به ويَتَيمّن ؛ أشرف ألقابه أنه خادم العمامة الخضراء ، وأسعدُ أوقاته اليومُ الذى يقول له فيه الشيخ : رأيتُك فى الرؤيا ورأيت لك . . . !

وكانت هذه المعاملة الأسلامية الكريمة من هذا الطاغية — هى بعينها ربا اللفافة اليهودية فى مُخّه ؛ تُصْلح باقراض مائة ، وفيها نية الخراب بالستين فى المائة ... ! فانه ما كاد يتمكّن من الناس ويعرف إقبالهم عليه وثقتهم به ، حتى طَلَبتِ اللفافةُ رأس المال والرّبا ؛ فأمرهم بهدم تلك المدارس وإخرابها ، وأبطلَ العيدين وصلاةَ الجمعة ، وقَتلَ الفقهاءَ وقَتلَ معهم فقيهيه وأستاذَيه ، وعادَ كالمُريد المنافق مع شيخ الطريقة ، يقول فى نفسه : إن هناك ثلاثةً تعمل عملاً واحداً فى الصيد : الفخّ ، والعمامة ، واللّحية ... !

إن هذا الطاغيةَ ملكٌ حاكم ، يستطيع أن يجعل حماقته شيئاً واقعاً ، فيقتلَ علماء الدين باهلاكهم ، ويقتلَ مدارس الدين باخرابها ، ولو شاء لاستطاع أن يشنق كل ذى عمامة من سواد المسلمين فى عمامته . ويبلغ من كفره أن يتبجّح ويرى هذا قوةَ ولا يعلم أنه لهوانِهِ على اللهِ قد جعله اللهُ كالذبابة التى تصيب الناس بالمرض ، والبعوضة التى تقتل بالحمّى ، والقملة التى تضرب بالطاعون ، فلو نخرتْ ذبابةٌ أو تبجحتْ قملةٌ أو استطالتْ بعوضةٌ لجاز له أن يطن طنينه فى العالم . وهل فعلَ أكثرَ مما تفعل ؟

لقد أودى بأناس يقوم إيمانهم على أن الموت فى سبيل الحق هو الذى يُخلدهم فى الحق ، وأن انتزاعهم بالسيف من الحياة هو الذى يضعهم فى حقيقتها ، وأن هذه الروح الأسلامية لايطمسها الطغيانُ إلا ليجلوها

إنه والله ما قَتل ولا شَنقَ ولا عَذّب ، ولكن الأسلام احتاج فى عصره هذا إلى قوم يموتون فى سبيله ، وأعوزه ذلك النوع السامى من الموت الأول الذى كان حياةَ الفكر ومادة التاريخ ، فجاءت القملة تحمل طاعونها ... !

لقد أحياهم فى التاريخ ، أما هم فقتلوه فى التاريخ ، وجاءهم بالرحمة من جميع المسلمين ، أما هم فجاءوه باللعنة من المسلمين جميعاً !

المجلد الثالث

يرى هذا الطاغية أن الدين الأسلامى خُرافة وشعوذة على النفس ، وأن محو الأخلاق الأسلامية العظيمة هو نفسُه إيجادُ أخلاق ، وأن الأسلام كان جريئاً حين جاء فاحتلّ هذه الدنيا ؛ فلا يطردُه من الدنيا إلا جراءةُ شيطان كالذى توقّح على الله حين قال : « فبعزّتِكَ لأغوينّهُم أجمعين . » ولهذا أمر الناس بسبّ الصحابة ، وأن يُكتَب ذلك على حيطان المساجد والمقابر والشوارع !

أخزاه الله ! أهى رواية تمثيلية يُلصَق الأعلانَ عنها فى كل مكان ؟ لو سمع لسمع المساجد والمقابر والشوارع تقول : اخزاه الله ... !

المجلد الرابع

هذا الفاسقُ لا يركبُ إلا حماراً أشهب يسمّيه : (القمر) ، وقد جعل نفسه مُحتسباً لغايةٍ خبيثة ؛ فهو يدور على حماره هذا فى الأسواق ومعه عبدٌ أسود ، فمن وجده قد غشّ أمرَ الأسودَ

فـ ... ! ووقف ينظر ويقول للناس : انظروا . . . ! ومن غَلَبة الفسوق على نفسه وعلى شـيعته أن داعيته (حمزة بن على) نوّه بالحمار فى كتابه وأومأ إليـه بالثناء ، لخصالٍ : منها أن . . . !

وكتبَ حمزةُ هذا فى بعض رسائله : أن ما يرتـكبه أهل الفساد بجوار البساتين التى يمرُّ بها (الفاسق) من المنكر والفحشاء — إنما يُرتـكب فى طاعته . . . !

هذه طبيعة كلِّ حاكم فاسق ملحد ، يرى فى نفسه رذائله عُريانةً فلا يكون كلامه وعمـله وفكرُه إلا فُحشاً يتعرّى ؛ وإن فى هـذا الرجل غريزةَ فسقٍ بهيمية متصلة بطور الحيوان الانسانىّ الأول ؛ فما من رَيْب أن فى جسمه خليّةً عصبية مهتاجة ، مازالت تسبح بالوراثة فى دماء الأحياء ، متلقّفةً على خصائصها حتى استقرّت فى أعصاب هذا الفاسق ، فانفجرت بكل تلك الخصائص

ولست أرى أكثرَ أعماله ترجع فى مردّها إلا إلى طغيان هذه الغريزة فيه ؛ فهو يحاول هدم الاسـلام ، لأنه دين العفة ، ودينُ صَوْنِ المرأة ، يُلزمها حجابَ عفّتها وإبائها ، ويمنعها الابتذالَ والخلاعة ، ويعينها أن تتخلص ممن يشتهيها ولو كان الحاكم ... إنه يمقت هذا الدين القوىّ كما يمقتُ اللصُّ القانون ؛ فهو دينٌ يَثقُل على غريزته الفاسقة ، ولـكلِّ غريزة فى الانسان شـعورٌ لا مَهْنأ لها إلا أن يكون حراً حتى فى التوهّم ؛ وهل يُعجب السكيرَ شىءٌ أو يرضيه أو يَلذه كما يعجبه أن يرى الناسَ كلهم سُكارى ، فينتشى هو بالخمر ، وتسكر غريزتُه برؤية السكْر

ومازال رأىُ الفُسّاق فى كل زمن أن الحرية هى حريةُ الاستمتاع ، وأن تقييد اللذة إفسادٌ للّذّة

المجلد الخامس

يزعم الطاغية أنه يُعزُّ قومه — وما أراه يعزهم — ولـكنه يمتحن ذلّهم وضعفهم وهوانهم على الأمم ؛ فهو يتجرأ شيئاً فشيئاً مُتنظِّراً ما يتسهّل مترقباً ما يمكن ؛ وهو يرى أن أخلاقنا الاسـلامية هى أمواتُنا دَفنوا أنفسَهم فينا ؛ فمن ذلك يهدمُ الأخلاق ويظنّ عند نفسه أنه يهدم قبوراً لا أخلاقاً

ولقد سَخِر منه المصريون بنكتةٍ من ظَرفهم البديع ، وجاءوه من غريزته فصنعوا امرأةً من الورق الذى يشبه الجلد ، وألبسوها خُفّها وإزارها ، حتى لايشكّ من رآها أنها آدمية ، ثم وضعوا فى يدها قصّة وأقاموها فى طريقه ؛ فلما رآها عدَلَ إليها وأخد من يدها القصةَ وقرأها ، فاذا فيها سَبٌّ له ولآبائه ، وسخرية من جنونه ورُعونته المضحكة ؛ فغضب وأمر بقتل المرأة ؛ فكانت هذه سخريةً أخرى حين تحقّق أنها من الورق ، وأخذته النكتةُ الظريفة بمثل البرق والرعد ؛ فاستشاط وأمر عبيده من السودان بتحريق الدور ونهبِ ما فيها وسَبْى النساء والفجور بهن ؛ حتى جاء الأزواج يشترون زوجاتهم من العبيد بعد أن طارت الزوبعة السوداء فى بياض الأعراض

اندلعتْ ثورة الفجور فى المدينـة ، لا من العبيد ، ولـكن من الحيوان العتيق المستقرّ فى هذا الطاغية

المجلد السادس

وهذه رُعونةٌ من أقبح رعوناته ، كأن هذا الحيوان لايحسب نساءَ الأمة كلّها إلا نساءه ، فيأمرهن بأمر امرأته ، وكأن النساء فى رأيه إنْ هُنّ إلا استجاباتٌ عصبيةٌ تُطلق وتُردّ

إن لموجةِ الفسقِ فى الغريزة الطاغيـةِ جَزْراً ومداً يقعان فى تاريخ الفُسّاق ؛ فهذا الطاغيـة قد جَزرَتْ فيه الموجة ، فأمر أن يُمنع النساءُ من الخروج ليلاً ونهاراً ، لا تطأ أرضَ المدينة قَدَمُ امرأة ؛ وأمَرَ الخفّـافين ألا يصنعوا لهن الأخفاف والأحذية ؛ ولما علم أن بعض النساء خرجن إلى الحمامات هَدَم الحمامات عليهن !

ولو مدت الموجةُ فى نفس الفاسـق لَفَرضَ على النساء الخروجَ والاتصالَ بالرجال والتعرض للاباحة

إن الصلاح والفساد كلاهما فساد ، مالم يكن الصلاح نظافةً فى الروح وسمواً فى القلب

المجلد السابع

يزعم الطاغيةُ أنه سيهدم كل قديم ، وإنى لأخشى والله أن يأمر الناسَ فى بعض سَطَوات جنونه : أن كل من كان له أبٌ أو أم بلغ الستين فليقتله لتخلص الأمة من قديمها الانسانى ... !

كأنه لايعرف أنه إنما يتسلط على أيام معاصريه لاعلى التاريخ ويحكم على طاعة قومه وعصيانهم لاعلى قلوبهم وطباعهم وميراثهم من الأسلاف ؛ فما هو إلا أن يهلك حتى ينبعث فى الدنيا شيئان : نَتْن رمتـه فى بطن الأرض ، ونَتْن أعماله على ظهر الأرض

إن هذا الرجلَ المسلط كالغبار المُستطار ، لا يُكنَس إلا بعد أن يقع . . .

ولقد رأى المأفون أن أكل الناس الملوخيّا الخضراء والفقاع ، والتُّرمس والجِرْجير ، والزبيب والعنب — هوىً قديمٌ فى طباع الناس ، فنهى عن كل ذلك ، لا يُباع ولا يُؤكل ، وظهر على أن جماعة باعوا أشياءَ منها فضربهم بالسياط ، وأمر فطِيفَ بهم فى الأسواق ، ثم ضَرب أعناقَهم ؛ كأن الذى يحمل الملوخيّا الخضراء على رأسه ليبيعها يلبس عمامة خضراء . . .

أهذا — وَيْحه — تجديدٌ فى الأمة ، أم تجديدٌ فى المعدة ...؟

المجلد الثامن

لا يرضى الطاغيةُ إلا أن يمحق روحانية الأمة كلها ، فلا يترك شيئاً رُوحانياً يكون له فى أعصاب الناس أثرٌ من الوقار . وبمن يستظهر إذا مُحقتْ روحانيةُ الأمة وأشرفت نَزْعتُها الدينية على الانحلال ؟ كأنه لا يعلم أن حقيقة الوجود لأمةٍ من الأمم إنما تُستَمدُّ من إيمانها بالمثل الأعلى الذى يدفعها فى سِلْمها إلى الحياة بقوّة ، كما يدفعها فى حربها إلى الموت بقوة ؛ وكأنه لا يعلم أن التاريخ كله تُقرره فى الأرض بضعةُ مبادئ دينية

هذا الحاكم الأخرق هو عندى كالذى يقول لنفسه : لم أستطع أن أفتح دولة ، فلأفتحْ دولةً فى مملكتى . . . لقد أمر بهدم الكنائس والبيع ، حتى بلغ ما هدم منها ثلاثين ألفاً ونيِّفاً

أىّ مجنونٍ أسخف جنوناً من هذا الذى يحسب النفوسَ الانسانية كالأخشاب ؛ تَقبل كلُّها بغير استثناء أن تُدقّ فيها المسامير . . . ؟

سيعلم إذا نَشبتْ حربٌ بينه وبين دولة أخرى ، أنه كسرَ أشدّ سيوفه مضاءً حين كسر الدين !

المجلد التاسع

هذه هى الطامة الكبرى ؛ فلا أدرى كيف أكتب عنها : لقد تطاول المجنون إلى الألوهية فادعاها وصار يكتب عن نفسه : باسم الحاكم الرحمن !

لو كان أغبى الأغبياء فى موضعه لاتقى شيئاً ، لا أقول تقوى الدين والضمير ، ولكن تقوى النفاقِ السياسىّ ؛ فكان يحمل الناس أن يقولوا عنه : « أبانا الذى فى الأرضين . . . ! »

وإلا فأىّ جهل وخبط وأىّ حُمق وتهوُّر ، أن يكون إلهٌ على حمار ، وإن كان اسم حماره القمر !

المجلد العاشر

سيأخذه الله بامرأة ؛ ولكل شىءٍ آفةٌ من جنسه ؛ لقد بلغ من وقاحة غريزته أن انتفك على أخته الأميرة (ستّ المُلك) ، ورماها بالفاحشة وهى من أزكى النساء وأفضلهن ، واتهمها بالأمير (سيف الدين بن الدَّوّاس) وقد علمتْ أنها تُدبِّر قتله ، وأنها اجتمعت لذلك بسيف الدين . فسأمسك عن الكتابة فى هذا المجلد ، وأدع سائرَه بياضاً حتى أذهب اليهما فأعينهما بما عندى من الرأى ، ثم أعود لتدوين مايقع من بعد . . .

* * *

ورأيت أنى اجتمعت بهما واطمأنا إلىّ ، فأخذنا ندير الرأى : قالت الأميرة لسيف الدين فيما قالته : « والرأى عندى أن تُنبه غلماناً يقتلونه إذا خرج فى غدٍ إلى جبل القطم ، فانه ينفرد بنفسه هناك ! »

فقلت أنا : « ليس هذا بالرأى ولا بالتدبير »

قالت : « فما الرأى والتدبير عندكَ ؟ »

قلت : « إن لنا علماً يسمونه (علم النفس) ، لم يقع لعلمائكم ، وقد صحّ عندى من هذا العلم أن الرجل طائش الغريزةِ مجنونها ، وأن الأشعة اللطيفة الساحرة التى تنبعث من جسم المرأة ، هى التى تنفجر فى مخه مرّةً بعد مرة ؛ فاذا خبتْ هذه الأشعة ، وبطلت الغريزة — بطلت دواعى أعماله الخبيثة كلها وكفَّ عن محاولته أن يجعل الأمة مملوءةً من غرائز جسمه وشهواته لا من فضائلها ودينها . فلو أخذتم برأيى وأمضيتموه فانه سينكر أعماله إذا عرضها على نفسه الجديدة ، وبهذا يُصلح ما أفسد ، وتكون حياتُه قد نطقت بكلمتها الصحيحة كما نطقت بكلمتها الفاسدة ؛ فاذا . . . »

قال الأمير : « فاذا ماذا ؟ »

قلت : « فاذا خصى . . . »

فضحكت ستُّ الملك ضحكةً رنتْ رنيناً . قلت : « نعم إذا خصى هذا الحاكم ... » فنلها الضحك أشدّ من الأول ورمتنى بمنديل لطيف كان فى يدها أصاب وجهى فانتبهت وأنا أقول « نعم إذا خصى هذا الحاكم . . . . »

طنطا مصطفى صادق الرافعى

عصر الخفاء فى مصر الاسلامية

الحاكم بأمر الله

للأستاذ محمد عبد الله عنان

— ١ —

لبثت مصر منذ الفتح الاسلامى زهاء قرنين ونصف قرن ولاية خلافية ، تتوارثها الخلافة أينما حلت ؛ الخلافة العامة ، فالأموية ، فالعباسية . غير أن مصر كانت منذ الفتح تتبوأ بين الولايات الخلافية مركزاً ممتازاً ؛ فقد اتخذت قاعدة لفتح إفريقية فالأندلس ، وكان ولاتها الأوائل ، ولاة لأفريقية ؛ وكانت أيضاً ، بموقعها الجغرافى ، وأهميتها العمرانيـة مطمح الزعماء المتغلبين يرون فيها ملاذاً منيعاً للحركات الاستقلالية ؛ فقـد وليها فاتحها عمرو بن العاص ولايته الثانية من قبل معاوية ، ولـكنه جعل منها وحدة شبه مستقلة ، وربما كان فى اهتمام عمرو بالبقاء فى ولاية مصر وسعيه لدى عثمان فى تحقيق غايته ، ثم اقتطاعها بعـد ذلك من معاوية ثمناً لحلفه ومؤازرته ما يحمل على الاعتقاد بأنه لو ثابت لهذا القائد العظيم والسياسى البارع فرصة ملائمة لأنشأ بمصر لنفسه ولعقبه دولة أو خلافة مستقلة . ولما قام عبد الله بن الزبير بثورته على الخلافة الأموية ألفى فى انتزاع مصر طعنـة قوية يـسددها لصدر الخلافة . ولما تألق نجم بنى العباس وسحقت الخلافة الأموية فى موقعـة الزاب ، فر مروان الثانى آخر الخلفاء الأمويين الى مصر ليتخذها قاعدة للدفاع عن ملـكه وتراث أسرته ؛ ولعله لم يكن بعيداً عن التفكير فى اتخاذ مصر بعد الشام معقلا للخلافة الأموية وقاعدة لاسترداد تراثها الذاهب لو كتب له الظفر على مطارديه

ولما ضعف سلطان الدولة العباسـيـة وتراخت قبضتها فى النواحى ، غدت مصر طعمة لطائفة من الحـكام الأقوياء ، يحكمونها باسم الخلافة ، ولـكن ينشئون بها دولا مستقلة ، لا تكاد تربطها بالخلافة أية روابط سياسية أو إدارية . وكان ابن طولون أول هذا الثبت من الحـكام الأقوياء ؛ قدم مصر والياً من قبل الخليفة المعتز سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) ، فلم يلبث أن استخلصها بعزمه وقوة نفسه ، وأنشأ بها لنفسه ولعقبه دولة باذخة ترامت حدودها إلى شمال الشأم ؛ واستمرت مدى ربع قرن تنافس دولة الخلافة فى السلطان والبهاء ؛ فلما آنست الخلافة أن الانحلال قد سرى إلى الدولة الفتية ، بعثت جيوشها الى مصر غازية ، فاقتحمت مدينة القطائع عاصمة بنى طولون ، وقضت على تلك الدولة الزاهرة (٢٩٢ هـ — ٩٠٤ م) واستعادت الخلافة سلطانها على مصر عصراً آخر ؛ بيد أن هذا السلطان لبث عرضة للانتقاض بين آونة وأخرى ، وحاول ولاة أقوياء مثل تـكين وابن كيغلغ أن ينتزعوها لأنفسهم فى ظل الخلافة الاسمى ؛ حتى كانت ولاية محمد ابن طغج الأخشيد ، فاستطاع أن يقوم بمصر بمثل ما قام به ابن طولون ، وأن ينشىء بها دولة قوية مستقلة شملت الشأم والحرمين ، واستمرت مدى ثلاثين عاماً (٣٢٧ - ٣٥٨ هـ)

كانت مصر تتمتع إذاً بمركزها الممتاز بين ولايات الخلافة ؛ وكان هذا المركز الخاص يجعلها قبلة مختارة لأطماع المتغلبين وذوى النزعة الاستقلالية من الولاة والحـكام ؛ ويرجع هذا المركز الممتاز الى موقع مصر الجغرافى ونأيها عن مركز الخلافة العباسية ، ثم الى اتساعها وغناها ، وكونها تصلح بمواردها الخاصة لأن تكون مركز مملـكة مستقلة . ولم تخف على الفاطميين هذه الحقيقة يوم استطاعوا أن ينفذوا بدعوتهم الى إفريقية ، وأن ينشئوا بها دولتهم الأولى على أنقاض ملك الأغالبة ، فاتجهوا بأنظارهم إلى مصر ؛ وما كاد ملـكهم يستقر بأفريقية ، حتى بعث أبو عبيد الله المهدى أول خلفائهم جيوشه لافتتاح مصر ، فاســتولت على برقة والاسكندرية ، ولـكنها ارتدت أمام جيوش مصر وجيوش الخلافة (٣٠٢ هـ) ؛ ثم غزت مصر ثانيـة ، واستولت على الاسكندرية والفيوم ، وأشرفت على عاصمة مصر ، ولـكنها ارتدت إلى المغرب كرة أخرى بعـد حروب طاحنة مع جيوش الخلافة (٣٠٧ هـ)

واستطاعت مصر أن تظفر مدى حين ، فى ظل الدولة الأخشيدية ، بقسط من الاستقرار والقوة ، ولـكن الخلافة الفاطمية الفتية لم تنبـذ مشروعها فى افتتاح ذلك القطر الشاسع الغنى ، وبعث القائم بأمر الله ثانى الخلفاء الفاطميين جنده الى

مصر ، فاستولوا على الاسكندرية مرة أخرى (٣٣٢هـ) ؛ وكانت الخلافة الفاطمية تشعر أنها ، وهى فى مركزها الثانى بقفار المغرب تبقى بعيدة عن تحقيق غايتها السياسية والمذهبية الكبرى ، أعنى مناوأة خصيمتها الدولة العباسية والعمل على تقويض دعائمها ، وانتزاع زعامة الاسلام منها ؛ وكانت مصر بتوسطها العالم الاسلامى ، وبما اكتمل لها من أسباب الغنى والخصب ، هى أصلح مركز لتحقيق هذه الغاية ، وفيها دون غيرها تستطيع الخلافة الفاطمية أن تقيم ملكها السياسى على أسس قوية باذخة . فلما سرى الوهن الى الدولة الأخشيدية ، رأى الفاطميون فرصتهم قد سنحت ، وجهز المعز لدين الله الفاطمى حملة كبيرة لافتتاح مصر بقيادة مولاه وقائده أبى الحسين جوهر الصقلى ، فسار الى مصر ، واستولى عليها بعد معارك يسيرة فى شعبان سنة ٣٥٨ (يوليه سنة ٩٦٠) ، وفى مساء نفس اليوم الذى تم فيه ذلك الفتح العظيم ، وضع جوهر بأمر سيده المعز خطط مدينة جديدة هى القاهرة ، ثم اختط بها الجامع الأزهر بعد أشهر قلائل ، وأعدت المدينة الجديدة لتكون منزل الخلافة الفاطمية ، وقاعدة ملكها السياسى ، كما أعد الجامع الجديد (الأزهر) ليكون منبراً للدعوة الفاطمية ورمزاً للأمامة الجديدة

* * *

وهكذا تحقق مشروع الخلافة الفاطمية فى افتتاح مصر ؛ ومنذ السابع من رمضان سنة ٣٦٢هـ (منتصف يونيه سنة ٩٧٣) وهو تاريخ مقدم المعز لدين الله إلى مصر ، تغدو القاهرة منزل الخلافة الفاطمية ، بدلاً من رقادة والمهدية ، وتغدو مصر معقل الخلافة الفاطمية وملاذها بدلاً من المغرب . فلم تكن مصر للفاطميين غنماً سياسياً فقط ، ولكنها غدت أيضاً معقلاً للدعوة الشيعية التى لبث بنو العباس يطاردونها زهاء قرنين ، والتى بدأت ظفرها السياسى بافتتاح المغرب ؛ وكانت الدولة الفاطمية منذ قيامها بمصر تحتفظ بنفس الصبغة المذهبية التى اتشحت بها منذ قيامها بالمغرب ، وكانت هذه الصبغة المذهبية الخاصة عنصراً من أهم عناصر الخصومة السياسية التى نشبت بين الدولتين العباسية والفاطمية ؛ فالفاطميون الذين يرجعون نسبهم الى فاطمة وعلى يختصون خلافهم بالصفة الشرعية ، ويعتبرون الدولة العباسية وريثة الدولة الأموية غاصبة للأمامة والخلافة اللتين اغتصبهما من قبل بنو أمية من على وأبنائه ، ويتخذون من هذا المبدأ دعامة لملكهم السياسى ؛ فهم حسب دعواهم أبناء فاطمة بنت الرسول ، وورثة على وعقبه الشرعيين فى إمامة المسلمين وخلافتهم

وهنا تعرض نقطة دقيقة . من هم فى الواقع أولئك الفاطميون ؟ وهل يرجع أصلهم حقاً إلى فاطمة وعلى ؟ هذه مسألة يحيط بها الخفاء والغموض ، ولم يقل فيها التاريخ كلمته الحاسمة ؛ وقد لبثت مدى عصور موضع الخلاف والجدل فى العالم الأسلامى والرواية الأسلامية ؛ ففريق من العلماء والمؤرخين يؤيد الفاطميين فى دعواهم وفى شرعية إمامتهم ؛ ويرجع نسبة إمامهم ومؤسس دولتهم عبيد الله المهدى إلى الحسين بن على وفاطمة . ولكن فريقاً آخر ينكر عليهم هذه الدعوى ويرى أنهم أدعياء لا يمتون بأية صلة الى على ، وأنهم إنما استتروا بالتشيع والأمامة ليكسبوا عطف العالم الأسلامى . ويرجع هذا الفريق المنكر نسبة الفاطميين إلى عبد الله بن ميمون القداح بن ديصان البونى ، وهو فقيه وافر الذكاء والمعرفة من الأهواز يرجع الى أصل مجوسى ، وداعية من أعظم الدعاة السريين الذين عرفهم التاريخ ؛ وقد كان يدعو سراً إلى مذهب فلسفى إلحادى لأنكار الأديان والنبوة صاغه فى سبع دعوات سرية ينتهى الداخل فيها إلى انكار جميع العقائد والشرائع ، ومنها استمدت دعوة القرامطة وبعثت ثورتهم الاباحية المروعة ؛ وكان يستتر بالتشيع ويدعو لأمام من آل البيت هو محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق من ولد الحسين بن على ؛ فلما توفى قام بدعوته السرية ولده أحمد ، ومن بعد أحمد ولده الحسين فأخوه سعيد ؛ واستقر سعيد بسلمية من أعمال حمص واستمر فى نشر الدعوة وبث الدعاة حتى استفحل أمره وأمر دعوته ، وحاول الخليفة المكتفى بالله أن يقبض عليه وأن يخمد دعوته ففر الى المغرب ؛ وبشر له هناك دعاته وقاتلوا من أجله حتى ظفر بملك الأغالبة وتلقب بعبيد الله المهدى ، وادعى أنه من آل البيت وانتحل إمامتهم . ويقدم الينا فريق آخر من المنكرين عن أصل عبيد الله رواية خلاصتها أن الحسين حفيد عبد الله بن ميمون هو الذى استقر بسلمية ، وكانت له زوجة يهودية رائعة

الحسن تزوجها بعد أن مات عنها زوجها الأول وهو يهودي ولها منه ولد فائق الذكاء والظرف ، فتبناه الحسين وعلمه وأدبه ولقنه أسرار الدعوة ، وتقدم إلى أصحابه بخدمته وطاعته ، وزعم أنه هو الأمام ، وهو الوصى ؛ وانتحل له نسباً فى ولد على ، فكان هو عبيد الله المهدى . وهنالك أيضاً من يقول إن عبيد الله هو ولد الحسين من زوجه اليهودية ؛ وهنالك روايات وتفاصيل أخرى لا يتسع لها المقام (١)

وهذا الجدل حول نسب الفاطميين ، والطعن فيه وفى شرعية إمامتهم ومبادئهم يشغل فراغاً كبيراً فى الكتب المذهبية ؛ ونحن ممن يميل إلى الأخذ برواية المنكرين ، ولا نجد فى تدليل المؤيدين وشروحهم ما يلقى ضياء مقنعاً ؛ وكان هذا الطعن سلاحاً فى يد الدولة العباسية تشهره للنيل من الفاطميين وتشويه سمعتهم فى العالم الاسلامى ؛ وقد اتخذ قبل بعيد صبغة سياسية رسمية ؛ ففى سنة ٤٠٢ هـ فى عهد الخليفة القادر بالله ، أصدر بلاط بغداد محضراً رسمياً موقعاً عليه من كبار الفقهاء والقضاة ، وبعض زعماء الشيعة ، يتضمن الطعن فى نسب الفاطميين خلفاء مصر ، وأنهم ليسوا من آل البيت ، بل هم ديصانية ينتسبون إلى ميمون ابن ديصان ، بل إنهم كفار زنادقة ، وفساق ملاحدة ، أباحوا الفروج ، وأحلوا الخمور ، وسبوا الأنبياء ، وادعوا الربوبية . وفى سنة ٤٤٤ هـ ، كتب ببغداد محضر آخر يتضمن نفس المطاعن ؛ وزيد فيه أن الفاطميين يرجعون إلى أصل يهودى أو مجوسى (٢) .

ونلاحظ أن الوثيقة الأولى صدرت من بلاط بغداد ، فى عهد الحاكم بأمر الله ، وقد كان فى تصرفاته وفى ظروف عصره ، مايصلح مادة غزيرة لهذه المطاعن

— ٢ —

كانت مصر غنماً يسيراً للدولة الفاطمية الفتية ، ولكنها كانت أسطع جوهرة فى تاجها ، وأعظم قطر فى تلك الأمبراطورية الشاسعة التى أصبحت تسيطر عليها . ولقد كان قيام هذه الدولة القوية الشامخة فى مصر مستهل عصرها الذهبى ، ومفتتح تلك العظمة وذينك البهاء والبذخ التى نثرتها من حولها وطبعت بها حياة مصر العامة عصراً مديداً ؛ وكانت مصر بخصبها ونمائها وفيض مواردها أعظم دعامة فى إقامة هذا الصرح الباذخ الفخم ؛ فالعصر الفاطمى من أسطع عصور مصر الاسلامية إن لم يكن أسطعها جميعاً ؛ غير أن هذا العصر الذهبى الوهاج يبعث إلى كثير من التأمل ، فبينا نراه وضاء واضحاً فى بعض النواحى ، إذ نراه فى البعض الآخر مظلماً مغلقاً ، وإذا هذه الخلافة القوية الساطعة يكتنفها كثير من الخفاء والغموض والريب ، وإذا تتبدى لنا فى هذا الصرح البراق ثغرات سود لا نستطيع أن نسبر غورها أو نظفر بقرارتها ؛ ويشتد هذا الخفاء والغموض بالأخص كلما حاولنا أن نستعرض من هذا العصر نواحيه الدينية والمعنوية ، فهنا تبدو من آن لآخر ظلمات يصعب استجلاؤها . على أننا سنحاول مع ذلك أن نستعرض من العصر الفاطمى فترة ربما كانت أشده خفاء وغموضاً ، وربما كانت مع ذلك أدعى الى الاهتمام والدرس ، لما تعرضه لنا من حوادث وظروف وخواص مدهشة ، ولما تسفر عنه أحياناً من الحقائق والأسرار الغريبة التى تلقى شيئاً من الضياء على روح السياسة الفاطمية الدينية والمدنية ، وعلى حقيقة وجهاتها وغاياتها

نريد بذلك عصر الحاكم بأمر الله أغرب وأغمض شخصية فى تاريخ مصر الاسلامية

قدم المعز لدين الله (تميم أبو معد) الى مصر بجيوشه وأمواله وعصبته فى السابع من رمضان سنة ٣٦٢ هـ (منتصف يونيه سنة ٩٧٣) بعد أن أنشئت العاصمة الجديدة (القاهرة) وأعدت لنزوله ، واستتب النظام ، وتوطد الملك الجديد ، وتاق المعز ملك

---

(١) راجع فى تفاصيل هذه المسألة ابن الأثير ج ٨ ، ٩ ، ١٢ وابن خلدون — المقدمة ص ١٧ — ١٩ والمقريزى (الطبعة الأهلية) ج ٢ ص ١٥٨ — ١٦٠ : ويؤيد هؤلاء الثلاثة نسبة الفاطميين إلى آل البيت ، ويبدى ابن خلدون بالأخص حماسة ظاهرة فى التدليل على ذلك وفى تفنيد حجج المنكرين ، ويحذو حذوه المقريزى وهو ممن ينتسبون إلى الفاطميين ؛ ويفسر ابن حجر حماسة ابن خلدون فى تأييد نسب الفاطميين بتفسير آخر هو أنه لانحرافه عن آل البيت يثبت نسب الفاطميين إليهم ليكون ذلك معرة لهم ، لما اشتهر عن الفاطميين من سوء العقيدة وكون بعضهم ينسب إلى الالحاد والزندقة (راجع رفع الأصر — مخطوط بدار الكتب — الورقة ١٦٠) وابن حجر من المنكرين لنسب الفاطميين ، ومنهم أيضاً ابن خلكان (راجع الوفيات ج ١ ص ٢٤٢)

(٢) ابن خلدون ج ٣ ص ٤٤٢ — وأبو الفدا ج ٢ ص ١٤٣ وابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٥

الشأم كما تلقى ملك مصر على يد قائده جعفر بن فلاح ، ودعا له بنو حمدان فى حلب ، فكانت مملكته الشاسعة تمتد من أواسط المغرب الى شمال الشأم ؛ ولكن فورة القرامطة كانت تهدد ملكه الجديد فى مصر والشأم ، وكان القرامطة قد زحفوا على مصر بالفعل فى أوائل سنة ٣٦١ ، ونشبت بينهم وبين جيوش المعز بقيادة جوهر معارك هائلة على مقربة من الخندق (بجوار القاهرة) انتهت بهزيمتهم ، ولكنهم ارتدوا عندئذ نحو الشأم فافتتحوها من يد ابن فلاح نائب المعز ، ثم زحفوا على مصر كرة أخرى ، فلقيتهم جيوش المعز على مقربة من بلبيس ، وهزمتهم هزيمة ساحقة (أواخر سنة ٣٦٣ هـ) . وفى العام التالى خاضت الجيوش الفاطمية فى الشام معارك شديدة ضد أفتكين المتغلب على دمشق وحلفائه البيزنطيين ؛ وفى الوقت نفسه غلبت الدعوة الفاطمية على الحجاز ودعى للخليفة الفاطمى على منابرها

وتوفى المعز فى ١٤ ربيع الثانى سنة ٣٦٥ هـ (ديسمبر سنة ٩٧٥ م) ، فخلفه ولده العزيز بالله (أبو منصور نزار) ، ولبث فى الخلافة زهاء إحدى وعشرين سنة . وفى أول عهده زحف القرامطة وحليفهم أفتكين على مصر ، فلقيهم العزيز فى فلسطين وهزمهم بعد حرب شديدة وأسر أفتكين (٣٦٨ هـ) وفى أيامه استردت دمشق ، وافتتحت الجيوش الفاطمية حمص وحماه وحلب وخاضت مع البيزنطيين معارك عديدة كان النصر حليفها فيها ؛ ودعى للعزيز فى الموصل واليمن ، واتسع بذلك نطاق الدعوة الفاطمية اتساعاً عظيما . ثم توفى العزيز فى ٢٨ رمضان سنة ٣٨٦ هـ (سبتمبر سنة ٩٩٦ م) فى بلبيس حيث كان يعتزم السير بعساكره الى الشأم[1] ؛ فخلفه يوم وفاته ولده وولى عهده أبو على منصور ، ولقب بالحاكم بأمر الله ، وكان العزيز قد استدعاه اليه فى مرض موته ؛ وفى اليوم التالى سار الحاكم الى القاهرة ومعه جثة أبيه ، فدخلها فى موكب فخم مؤس معاً

للبحث بقية

محمد عبد الله عنان
المحامى

(١) هذه هى الرواية الراجحة وبها يقول ابن الأثير (ج ٩ ص ٤٠) وابن خلكان (الوفيات ج ٢ ص ٢٠١) . وهناك رواية أخرى هى أن العزيز توفى بالقاهرة قبل خروجه الى الشأم (راجع النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٢١)

كيف نبعث الأدب
وكيف نترواه

للأستاذ عبد العزيز البشرى

تتمة

أين أدبنا الصريح ؟ :

لقد تعرف أن الأدب الحق لكل أمة هو الذى يشاكل حضارتها ، ويكافئ ثقافتها ، ويواتيها فى جميع أسبابها ، ويترجم فى صدق ويسر عن عواطفها ، وينفض ما يعتلج فى الصدور من ألوان الشعور والأحساس . ولقد تعرف أن الأمم كما تختلف فى ألوانها وفى ألسنتها وفى أخلاقها وعاداتها وغير أولئك ، فانها تختلف كذلك فى شعورها وفى أذواقها ومنازع عواطفها . ومهما تختلف فى أفراد الأمة الواحدة هذه العواطف بالقوة والضعف ، والرقة والجفاء ، وغير ذلك من وجوه الاختلاف ، فانها ترجع إلى أصل واحد ، وتندرج تحت جنس واحد ، على تعبير أصحاب المنطق ، وذلك لأنها أثر من آثار الأرث ، والبيئة ، والعادة ، والتاريخ ، وما يتردد عليه النظر من صور الطبيعة ، وغير ذلك . كما أن لنوع الثقافة ومبلغ حظ الأمة منها أثره البعيد أو القريب فى هذا الباب

ومهما يكن من شىء فان لون العواطف الشائع فى كل أمة ليس بالشىء الذى يستمار استعارة ، ولا بالذى تتناقله الأمم كما تتناقل العلوم وفنون الصناعات مثلاً . وكيف له بهذا وقد رأيت أن أبلغ عناصره مما لا يدرك بالكسب ولا بالاختيار ، إن هو إلا حكم الطبيعة وما من حكم الطبيعة مناص !

وأحسب أننا ، بعد التسليم بهذا ، فى غير حاجة إلى أن نبعث الأدلة على أن ما يترجم عن عواطف قوم ويصور من حسهم الباطن قد لا يؤدى هذا لغيرهم ، وأن ما يستقيم من البيان لأذواق خلق من الناس لقد ينشز على أذواق معشر آخرين . على أنه قد تشترك العاطفة والذوق كلاهما فى معنى من المعانى ، وحينئذ يصدق البيان

وعلى هذا فانه مهما نسرف فى مطالعة أدب الغرب والتروى منه ، ومهما نجهد فى محاكاته وتقليده ، فانه لن يكوّن لنا أدباً فى يوم من الأيام ، اللهم إلا أن تنقلب أوضاع الطبيعة ، فان الأمم لا تطبع على غرار الآداب ، بل إن الآداب لهى التى تطبع على غرار الأمم !

لقد نكون فى حاجة ولقد تكون هذه الحاجة شديدة جداً إلى مطالعة آداب الغرب وإطالة النظر فيها ، واستظهار الكثير من روائعها ، ونقل ما يتهيأ نقله إلينا منها فى لسان العرب ، ولكن ليس معنى هذا أن نتخذها آداباً لنا . فذلك ، كما علمت ، عبث لا يغنى ولا يفيد

***

والآن نلتمس أدبنا باعتبارنا عرباً أو مستعربين نعيش فى مصر ، مأخوذين بثقافتها القائمة ، موصولين بتاريخها القديم . إننا نلتمس هذا الأدب الذى يوحى به إلينا تاريخنا العربىّ من ناحية ، وتاريخنا المصرىّ من الناحية الأخرى . هذا الأدب الذى تُلهمنا إياه أخلاقنا وعاداتنا وثقافتنا ، ويسوّيه لنفوسنا العيشُ فى وادى النيل . إننا نلتمس هذا الأدبَ الذى يَفيض بما تجيش به عواطفنا ، ويصدق فى الترجمة عما يَعتلج فى نفوسنا ، ويصوّر دخائل حسّنا أكمل تصوير ، ويعبرّ عنها أدق تعبير . وإن شئنا الكلمة الجامعة قلنا إننا نلتمس الأدبَ القومىّ فلا نُصيب أثرَه إلا قليلاً فيما يخرج لنا من آثار الأدباء والمتأدبين !

اللهم إن فينا أدباء جروا من العربية على عِرق ، وأحرزوا صدْراً من بديع صِيَغها ، وتفتحت نفوسهم لنازع بلاغاتها ، واستظهروا الكثير من روائعها فيما نظم متقدّمو شعرائها وما أرسل الجِلّون من كتابها . على أنّ أكثر هؤلاء ، والشعراء منهم على وجه خاصّ ، إذا اجتمع أحدهم لحديث العاطفة لم ينفُض ما يُحس هو وما يشعر ، وإنما تراه يترجم عما كان يجده السلَف الأقدمون من مئات السنين ، لأنه جعل كل همّه الى المحاكاة والتقليد ليخرُج شعرُه عربياً لاشكّ فيه ، وهؤلاء يتناقص عديدهم على الزمان حتى أشفىَ فنّهم على الزوال

وهناك شبابٌ لم يَبلُغوا حظّاً مذكوراً من العربية ، ولعل من بلغ منهم حظّاً منها لم يُعنَ بها ولم يَكترِثْ لها ، وهؤلاء أقبلوا على أدب الغرب فجعلوا يحاكونه ويترسمون آثارَه ، فيَستحدِثون أخيلةً لم تترَاءَ لأحلامهم ، ويُسوُّون صوراً لم تتمثل لخواطرهم ، ويُريقون عواطفَ لم تترقرق فى نفوسهم ، ويفصدون أحاسيس لم تجش قطُّ فى صدورهم . وتراهم يستكرهون هذه الأمشاج من المعانى على نظام ليس فيه من العربية إلا مفردات الألفاظ ، يُشدُّ بعضها الى بعض بمثل قيود الحديد برغم تنافُرِها وتناكرها بحيث لو أُطلِقَت من إسارها لتطايرت الى الشرق والغرب ما يُلوى شىءٌ منها على شىء ! . فيخرج من هذا ومن هذا كلامٌ لا يستوى للطبع ، ولا يستريح اليه الذوق ، ولا يخف للتعلّق به الخيال ! وكيف له بشىء من هذا ولم ينتضح به طبع ، ولا رُهف له حس ، ولا تحركت به عاطفة ، ولا انبعث إليه من نفسه خيال ! فهو أدب مصنوع مكذوب على كل حال

بل إن هناك شباباً لم يحذَقوا شيئاً من لغات الغرب ، ولم يَظْهروا فيها على شىء من آداب القوم ، ولكن لقد تعاظمتهم صَنعة أولئك فراحوا هم الآخرون يُشاكلونها ويحذُون جاهدين حذوَها ليُضافوا هم كذلك الى جمهرة (المجدِّدين) ، وما التجديد فى شِرعة أكثر هؤلاء إلا الاتيان بالغريب الشامس فى نظمه وفى صُوره وأخيلته ومعانيه ! وإذا كان هذا اللّون من البيان مما يصح أن يَنتسب إلى أىّ أدب من الآداب ، فانه مما لا يَصلح لنا على أىّ حال !

وإن مما يضاعف الاساءةَ ويَزيد فى الألم أن يُقبِل الناشئون من طلبة المدارس على هذا اللغو فيتخذوا منه نماذج يحتذونها إذا تمرّسوا للبيان ، ولن يُجشمهم التجويدُ والبراعةُ فيه جليلاً من جهد ولا مشقة ، لأن قَسْر أىّ معنى على أىّ لفظ ، وتسوية الخيال فى أية صُورة ، ليس مما يُعيى جهدَ المرء ولا مما يعتريه بالمشاقّ . ومن هنا يشيع أرخص الآداب ، أو أنه ينذر بالشيوع فى هذه البلاد ! ولو قد تُرك فى مذهبه هذا لطغَى أشدّ الطغيان ما تغنى فى صدّه جهودُ الأعلام من الأدباء . . وحينئذ يكتب على مصر أن تعيش من غير أدب أو تعيش بهذا الأدب المنكر الشائه الذى لا نَسبَ له مدة طويلةً من الزمان !

الأدب القومى :

إذن لا مفرّ لنا من أن نلتمسَ أدبَنا القومىّ . ولا يكون هذا الأدبُ إلا عربىَّ الشكل والصورة ، مصرىّ الجوهر والموضوع . وإذن فقد حق علينا أن نَبعَث الأدبَ العربى

القديم ، ونتثل دواوينه ، ونستظهر روائعه ، ونتروى منها بالقدر الذى يفسح فى ملكاتنا ، ويقوّم ألسنتنا ، ويطبعنا على صحيح البيان . فاذا أرسلنا الأقلام فى موضوع يتصل بالآداب ، بوجه خاص . أطلقنا القول فى صيغة عربية لا شك فيها ، على ألا نطلب بها إلا الترجمة عما يختلج فى نفوسنا ، ويتصل باحساسنا ، ونصور بها ما نجد مما يُلهمه كلُّ ما يحيط بنا ، وما يعترينا فى مختلف أسبابنا من فكر ومن شعور ومن خيال

ولقد قدمت لك أننا قد نكون فى حاجة شديدة جداً إلى مطالعة آداب الغرب وإطالة النظر فيها ، واستظهار الكثير من روائعها . ونقل ما يتهيأ نقله إلينا منها فى لسان العرب . وهذا أمرٌ لا شكّ فيه ولا غَناء لنا عنه ، فان ذلك مما يهذب من ثقافتنا ، ويَفسح فى ملكاتنا ، ويُرهف من حسنا ، ويهدينا الى كثير من الأغراض التى تَشتعبها آداب الغربُ فى هذا العصر . والواقع أننا تهدّ ينا من آداب الغرب إلى فنون لم يكن لنا بها عهدٌ من قَبل ، أو أنها مما عالجه سلفنا ولكن لم يكن حظُّهم منه جليلاً . ومن أظهر هذه الفنون القصص بالمعنى القائم ، ومذاهب النقد الحديث !

على أن شيئاً من ذلك الأدب الأجنبىّ لا يُجدى علينا ، ولا يؤدّى الغرض المقسومَ بمطالعته والإصابة منه إلا إذا هذّبناه وسوّينا من خَلْقه ولوّنا من صورته حتى يتّسق لطباعنا ويوائم مألوف عاداتنا ، ويستقيم لأذواقنا . كما ينبغى أن نجهد الجهد كله فى تجليته فى نظام من البلاغة العربية محكم التنضيد ، فلا نحسّ فيه شيئاً من نبوّ ولا نشوز . وبهذا نزيد فى ثروة الأدب العربىّ ، ونرفع من شأنه درجات على درجات

وليس هذا الذى نرجوه لأدبنا بدعا فى شريعة الآداب سواء فى جديد الزمن أو فى قديمه . فقد كان الأدباء وما برحوا إلى اليوم يعتمدون الفكرةَ البديعة ، والمعنى السامى ، والخيال الطريف المنسجم ، يُصيبونه فى لُغَى أجنبية ، فلا يزالون به يطامنون منه لأذواقهم ، ويروضونه لأساليب لغاهم ، حتى يُجلوه فيها من غير عسر ولا استكراه . وإن تصرّف المتقدمين من أقطاب البيان العربىّ فيما شكّوا من ألوان المعانى فى اللغات الأجنبية لَمِن أصدق الدّليل على صحة هذا الكلام . وهل رأيت إلى ابن المقفّع لو لم يحدثك أنه ترجم كتابه (كليلة ودمنة) عن إحدى اللغات الهندية . أفكان يَتسرّحُ بك الشك فى أنه عربىّ الأصل والمنجم ، عربى الحِلية والنسب ؟ اللهم إن تسوية المترجم لما ينقل إلى لغته ، وطبعه على ما يواتى أحلامَ معشره ، ويسوغ فى أذواقهم ، وينزع منازع بلاغاتهم ، ليس مما يَقدح فى كفايته ، بل إنه لما يرفع من قدره ويُغلى من تصرّفه . وكيف لا وهذا القرآنُ الحكيم لقد حدّثنا عن عشراتٍ من الأمم ، كانوا ينطقون فى الأعجمية لغات متفرقة ، ونقل إلينا كثيراً من أحاديثهم ومقاولاتهم ومحاوراتهم ومجادلاتهم ، فما أدّاها إلا فى أعلى العِربية الخالصة ، بل فى العربية البالغةِ حدّ الإعجاز ، وهل بعد بلاغة القرآن بلاغة ، وهل وراء بيان الكتاب العزيز بيان ؟ !

وصَفْوَةَ القول أنه لا يعيبُ اللغةَ أو يَغضُّ من شأنها أن تصيب من بلاغات غيرها على أن تُسيغه وتَهضمه وتسويه حتى ينتظمَ فى سلكها ، ويتّصل بخَلقها ، ويتّسع فى مادّتها ، ويُضاعف ثروتها ، لا أن يُقْسرَ عليها قسراً ويُستكرهَ لها استكراهاً ، فينكّر صورتها ويشوّه من خَلقها على ما نرى من صنع كثير يُعربدون فى الأدب العربىّ باسم (التجديد) فى هذه السنين !

كيف نعلم الأدب :

ولا شك فى أن الينبوعَ الأولَ الذى يرده النشء ليَنهلوا من فنون العربية ويتروّوا آدابها ويَستشعروا بلاغتها ، وينبعثوا لترسّمها إذا هم أقبلوا على البيان ، هو معاهد التعليم على وجه عام ، فاذا هى جدّت فى مهمها وأخذت مَنْ بين يديها من التلاميذ بما يَنبغى أن يؤخذوا به من أساليب التعليم والتمرين ، كان لنا فى هذا الباب كلُّ ما نريد

وإذا كان الادب كسائر الفنون إنما يَبرَع المرءُ فيه بالاستمداد الفطرى مع الكَلَف به وشدّة الاقبال عليه وطول التمرين فيه بأكثر مما يُحرز بالتعليم والتّلقين ، فان مما لا يَعتريه الريبُ أن للأستاذ ، وخاصّة فى ابتداء العهد بالطلب ، أثراً بعيداً فى تعليم أصول الفن وبيان حدوده ، وإعلام طريقه بين يدى الطالب ، وتهذيبه بطول التعهد ، وتوسيع مَلَكاته بألوان الملاحظة ، وإسلاس الاجادة له بفنون التدريب والتمرين . ولعمرى لوقد أخذ الأساتيذ تلاميذهم بهذا الأسلوب فى تعليم الأدب العربى لأحبوه وكلِفوا به وانبعثوا من تلقاء أنفسهم لمراجعته فى أوقات فراغهم ، وإمتاع

النفس بتسريح النظر فى بدائعه . وكذلك تصبح مطالعةُ الأدب رياضةً يُطلب بها الترفيه والاستجمام إذا لحق الـكد ، وأجهدت المطاولةُ فى طلب العلم . وسرعان ما تستقيم الطبع ، وتُدرِك الملكات ، ويجرى صادق البيان فى الأعراق مجرى الدماء

أما إذا حُصِب التلاميذ بالقواعد جافة لا يترقرق فيها ماء البيان صافياً ، وقنع الأساتذة بأن يلقوا اليهم قطعاً من الشعر أو النثر ليحفظوها دون أن يوصل بين نفوسهم وبين ما تحوى من ناصح البلاغة ، فقـــد استثقلوا الدرس وكرهوه ورموا به ، وتجرعوه تجرعاً إشفاقاً من العقوبة أو من التخلف إذا كان الامتحان ! وإنى لأكره أن أقول إن إقبال كثرة التلاميذ على هذا الأدب الرخيص الذى يخرج فى العامية حيناً ، وفى تلك العربية المتكسرة الشائهة أحياناً ، وتهافتهم عليه ، وافتتانهم به ، وأخذ الأقلام بمحاكاته وتَرسمه ، إنما هو أثر من آثار ذلك البرم والاستثقال لدروس العربية وآدابها فى معاهدنا المصرية !

والآن فالرأى فى قيام أدبنا القوى وفى لغة الـكتاب العزيز إلى أساتيذ المدارس ، وإلى وزارة المعارف ، فلننظر ماهم فاعلون !

عثرة ورجاء :

بقيت هنالك مسألةٌ لا يجمل بنا أن نختم هذا المقال دون أن نعرض لها بشىء من البيان : يقولون إن اللغة العربية فقيرة ، أو إنها أصبحت فقيرة بحيث لا تستطيع أن تؤدىَ بعض مطالب الحياة فى هذا العصر إلاَّ فى شدة عُسر وحرج ؛ ولا تستطيع أن تؤدى بعضها أبداً . وهذا كلامٌ ، على أنه لا يخلو من الحق ، فانه لا يخلو من الاسراف الى حدٍّ بعيـد . إذ الواقع أن اللغة العربية غنية سخية بالـكثير مما يواتى مطالب العاطفة ، ويصور نوازعَ الشعور أحسن تصوير . فلقد بلغ المتقدمون من شعراء العربية فى هذا الباب ما لا أحسب أن قد بَرَعهم فيه كثيرٌ من أصحاب البيان فى اللغات الأخرى . ولو قد نَفضَ متكلفو الأدب دواوينَ أولئك الشعراء وفَرَوْا ما أجنَّت من قصائد ومقطوعات لخرَج لهم من ذلك ما يبلّغهم جليلاً من تصوير مختلف العواطف والتعبير عن خفيّات الحس والشعور . وهذا ، لو علمت ، أجلُّ مطالبِ الأدب فى جميع اللغات . وحبذا لو أكثر الأساتيذُ من عَرض هذه الأشعار على تلاميذهم ، وتقدموا اليهم الفينة بعد الفينة بالحديث فى الموضوعات الانشائية ، عن الحس والعاطفة فى مختلف الأسـباب ، واستدركوا عليهم ما عسى أن يكون قد أخطأهم فى ذلك من ناصح البيان

على أن هناك عقبة أخرى تحتاج إلى جهد فى التذليل ، وهى أنه فى ركود لغة العرب بانقباض حضارتهم ، عُقِـد ما لا يكاد يحصره العدد من الاصطلاحات العلمية والفنية ، واستُحدثت أشياءُ كثيرة جداً فى جميع وسائل الحياة ، سواء منها الضروريات والكماليات . ولا شك فى أن إصابة هذه الأشياء فى لغاتها إفساد للعربية واستهلاك لها . كما أنه لا معنى للالتفات عنها إلاَّ الاعراض عن هذه الحضارة العريضـة ، بل الاعراض عن أكثر ما نجده وما نعالجه فى هذه الحياة . وهـذه العقبة تقوم الآن على تذليلها جهود أفاضل الأدباء من جهة ، والمجمع الملكى للغة العربية من جهة أخرى ، بالغوص عما يدل على ذلك فى محفو العربيـة سواء بأصل الوضع أو بالطرق الفنية الأخرى

ولقد يكون من المفيد فى هذا المقام أن ننبه حضرات رجال هذا المجمع أن الاكتفاء باثبات ما يتّسق لهم من المصطلحات والألفاظ فى معجم جامع أو نشرها فى كراسات دورية ليس مما يجدى كثيراً فى اصابة الغرض المقسوم ، فقد ثبت ، بحكم التجربة ، أن أبلغ الوسائل فى شيوع الألفاظ والصيغ المستحدثة أو المبعوثة من جاثم اللغـــة ، وكثرة دورانها على الألسن والأقلام ، هى استعمال كبار الشعراء والـكتاب لها ، وترديدها فيما تجليه الصحف السائرة لهم من الآثار ، فحبذا لو سعى إلى هذا أولياء اللغة ، وخاصة فيما يتصل ، مما يستظهرون ، بالفنون والآداب

نسأل الله تعالى أن يهدى الجميع سواء السبيل

عبد العزيز البشرى

موسى بن ميمون

وعقدة الاتصال بين الفلسفة الاسلامية والفلسفة الغربية

بمناسبة ذكراه المئوية الثامنة

للدكتور ابراهيم مدكور

موسى بن ميمون ، هو فيلسوف الأندلس ومصر فى القرن الثانى عشر ، وأحد كبار حكماء بنى اسرائيل الذين خلدوا أسماءهم بما خلفوا من كتب وآراء . ولد بقرطبة فى الثلاثين من شهر مارس سنة ١١٣٥ ؛ وتوفى بالقاهرة سنة ١٢٠٤ . تنقل بين مراكش وفلسطين ؛ إلا أنه قضى بمصر جزءاً عظيما من حياته ، فعاش بها سبعاً وثلاثين سنة يدرس الفلسفة والطب ، ويشغل كرسى الحاخام . فكان بذلك وليد الحياة العقلية الاسلامية ، وتلميذ المدرسة العربية التى أثرت فيه تأثيراً عظيما . وليس ثمت من مثل أوضح لهذا التأثير من كتابه « دلالة الحائرين » ، تلك المرآة الناصعة والصادقة فى أغلب الأحيان ، التى تعكس علينا فى تفصيل ودقة تاريخ شطر كبير من الأفكار الدينية والفلسفية الاسلامية

لا أحاول فى هذه الكلمة القصيرة أن أبين الصلة بين فلسفة ابن ميمون وفلسفة الاسلام ، أو إن شئت بين هذه والفلسفة اليهودية عامة فى القرون الوسطى ، والتى يمثلها رجلنا أصدق تمثيل ؛ فقد تصديت لهذا الموضوع فى بحث حديث العهد ، وأثبت ببراهين لا تدع مجالاً للشك أن ما يصح أن نسميه فلسفة يهودية انما هو امتداد طبيعى للدراسات الاسلامية[1] . ولقد كتب فى هذا من قبل مؤرخون متعددون على رأسهم رينان[2] . وإنما أريد فقط أن أوضح نقطة لم يوفها الباحثون حقها ، ولم يتنبهوا الى أهميتها التاريخية : ألا وهى الدور الذى لعبه ابن ميمون فى نشر الفلسفة والأفكار الاسلامية فى العالم الغربى . لم يكتف مفكرو اليهود باعتناق آراء فلاسفة الاسلام ونظرياتهم ، بل عملوا على نقلها الى المدارس المسيحية ؛ فوصلوا الشرق بالغرب ، وربطوا حلقات التاريخ بعضها ببعض . وفضلهم فى هذا الصدد أوضح من أن ينوه عنه ؛ وحسبنا دليلاً ما صنعوا ببعض الكتب الفلسفية التى فقد أصلها العربى ، ولم يبق لنا منها إلا الترجمات العبرية واللاتينية[1] . فابن رشد مثلا تتعذر علينا دراسته إن وقفنا عند مؤلفاته العربية التى وصلت الينا ؛ ويكاد يكون أعرف الى قراء العبرية واللاتينية منه الى قراء العربية . وعلى الجملة فاليهود الذين تتلمذوا على العالم العربى ، وانتشروا فى كبار العواصم الأوربية يعدّون بحق عقدة الاتصال بين الفلسفة الاسلامية والفلسفة المسيحية

لم يكن ابن ميمون بالناقل أو المترجم ؛ بيد أن كتابه « دلالة الحائرين » كان من أول ما ترجم الى اللاتينية فى الدائرة الفلسفية والعلوم الدينيـة . ليس فى مقدورنا أن نحدد بالدقة تاريخ ولا صاحب أول ترجمة لاتينية لهذا الكتاب ؛ وكل ما يمكن تعيينه أن هذه الترجمة سابقة لمنتصف القرن الثالث عشر الميلادى : ذلك لأن St Thomas d' Aquin و Albert le Grand يرددان كثيراً اسم موسى بن ميمون[2] ؛ كما أن Alexandre, و Guillaume d' Auvergne de Halès يشيران الى « دلالة الحائرين » كمصدر أخذا عنه واعتمدا عليه[3] . لم يكد هذا الكتاب يترجم الى اللاتينية حتى أكب على دراسته كبار فلاسفة القرن الثالث عشر الذين ذكرنا بعض أسمائهم . فأفادوا منه كثيراً ؛ وكان عمدتهم فى تعرف النظريات الاسلامية الهامة . ونستطيع أن نقول إن « دلالة الحائرين » أول وأشمل مؤلف درس فيه اللاتينيون الفلسفة العربية ، وأنه قد عمل على نشر هذه الفلسفة بدرجة لا يعادله فيها كتاب آخر . نحن لا ننكر أن بعض مؤلفات الفارابى وابن سينا وحظاً وافراً من مؤلفات ابن رشد قد ترجم إلى اللاتينيـة ، غير أن « دلالة الحائرين » كان أسبق من هذه الترجمات وأعظم شيوعاً . فأما الفارابى فما كان يعرفه الا آحاد من فلاسفة الغرب ، وإذا استثنينا Albert le Grand ، لا نكاد نجد مؤلفاً قد أشار الى اسمه

(١) Madkour, La place d' al Fârâbî, p p. 65 - 66 , 116 - 118, 169 - 170.

(٢) Renan, Averroès et l' averroïsme, p. 178.

(١) نستطيع أن نذكر من بين هذه الكتب الجزء الأخير من رسالة الفارابى المسماة : « مقالة فى معانى العقل » ؛ وقد بحثنا طويلا عن الأصل العربى لهذا الجزء فلم نعثر عليه ، Voir Madkour, op. cit., pp. 148-149.

(٢) Gilson, Archives d' hist. doct. et lit. du moyen âge, Pars 1925, p. 13 en bas.

(٣) Levy, Maïmonide, p. 263.

فى كتاب من كتبه[١] . وأما ابن سينا فبرغم نفوذه العظيم لدى طائفة من علماء القرن الثالث عشر لم يكن بالمقرب اليهم قرب ابن ميمون ؛ ولعل للفوارق الدينية أثراً فى هذه الظاهرة . وأما ابن رشد فقد كانت خرافة إلحاده التى سادت أوربا فى القرون الوسطى ، والتى درسها (رينان) دراسة مفصلة سبباً فى أن ينظر إليه بنظرة خاصة[٢] . على العكس من هؤلاء جميعاً قد استطاع ابن ميمون بفضل كتابه « دلالة الحائرين » أن يمكن من نفوذ الفلاسفة الاسلامية فى المدارس الغربية عن طريق غير مباشر لا يشك فيه ولا يخشى خطره

ويجب أن نضيف إلى ما تقدم أن نقد هذا الحبر لبعض نظريات المتكلمين قد حببه ، فيما يظهر ، إلى الفلاسفة المسيحيين . فهو ينقض نظرية الجوهر الفرد (l'atomisme) ، ونظرية تعريف الله (La définition de Dieu) ، ونظرية الصفات الألهية (les attributs divins) بشكل يقربه من أرسطو بقدر ما يبعده عن علماء التوحيد المسلمين[٣] . وقد كان لهذا النقض أثر واضح على كبار فلاسفة القرن الثالث عشر . ونظرة الى مناقشة St. Thomas لنظرية الجوهر الفرد تحملنا على أن نجزم بأنه اعتمد اعتماداً كبيراً على كتاب ابن ميمون ؛ على أنه هو نفسه يعترف بذلك فى صراحة تامة[٤] ، ولا يفوتنا أن نشير إلى أن هذا الكتاب هو المصدر الوحيد الذى عرف منه الفلاسفة اللاتينيون نظرية الجوهر الفرد الأسلامية ؛ فانا لا نجد أى إشارة هامة متعلقة بهذه النظرية فيما ترجم الى اللاتينية من كتب عربية أخرى . « فدلالة الحائرين » قد اختص إذاً بنقل بعض المسائل الأسلامية إلى المدارس الغربية فى القرن الثالث عشر الميلادى

لم يقف أثر هذا الكتاب فى نشر الأفكار الأسلامية عند القرون الوسطى ، بل جاوزها إلى العصور الحديثة . وذلك أنا نجد لدى واحد كاسبينوزا أو كلايبنتزا آراء كثيرة الشبه بآراء فلاسفة الأسلام . فنظرية النبوة (le prophétisme) عند الأول تشبه شبهاً عظيماً النظرية التى أخذ بها الفارابى ؛ ومشكلة العناية (l'optimisme) عند الثانى لا تختلف كثيراً عما قال به ابن سينا

(١) Madkour, op. cit., p. 2.

(٢) Renan, op. cit.

(٣) Maimonide, Guide, édit. Munk, I, 190, 351 et suiv.
نأسف لأنا لم نجد أمامنا أثناء كتابة هذه الكلمة الطبعة العربية لنحيل عليها

(٤) St. Thomas Cont Gentes, L. III ch. Lxv. - ch Gilson,

من قبل[١] . ربما يبدو غريباً أن نحاول إثبات علاقة بين مفكرى الأسلام وهؤلاء الفلاسفة المحدثين ؛ خصوصاً وقد جرت عادة مؤرخى الفلسفة الأسلامية أن يقفوا بها عند القرون الوسطى ؛ وما فكر واحد منهم ، فيما أعلم ، أن يدرس الصلة بين هذه الفلسفة وفلسفة العصور الحديثة . غير أنا نرى أن هذه الصلة جديرة بالبحث والدرس ومعتمدة على أسس تعززها ، فقد عرف اسپينوزا كتاب « دلالة الحائرين » وعنى به عناية خاصة ، كما عرفه لايبنتز ، وأثنى عليه ثناء كبيراً[٢] . فعلى ضوء هذا الكتاب نستطيع أن نحدد إلى أى مدى تأثر رجال العصور الحديثة بالأفكار الأسلامية . يخيل الينا أنا أول من تنبه إلى هذه العلاقات التاريخية ؛ وقد حققناها فيما يتعلق بنظرية النبوة[٣] . ونأمل أن يمعن الباحثون فى هذه الطريق التى سلكناها كى يلقوا جزءاً من الضوء على طائفة كبيرة من النقط الغامضة ، ويخدموا فى آن واحد القرون الوسطى والتاريخ الحديث . نحن لا نقول بأن الفلسفة الأسلامية قد أثرت تأثيراً مباشراً فى الفلسفة الحديثة ، ولكننا نلاحظ فقط أن هناك مواطن شبه بين الفلسفتين . فلنعمل إذاً على توضيحها وبيدنا كتاب « دلالة الحائرين » الذى ألف بلغة الأسلام وفوق أرضه وتحت سمائه ؛ ثم نقل إلى أوربا فكان موضع تقدير المفكرين منذ القرن الثالث عشر الميلادى حتى اليوم

ابراهيم مدكور
دكتور فى الآداب والفلسفة

Archives, I, p. 20.

(١) Madkour, op. cit., p p - 206 - 209.

(٢) Ebid - Spinoza, Ethique, II. 7; ch. Bréhier, Hist de la philos. , t. II, p. 159.

(٣) نعد الآن بحثاً خاصا بنظرية العناية ، ونرجو أن نوفق لنشره فى فرصة قريبة

حول الأوزاعى

للأســتاذ أمين الخولى

المدرس بكلية الآداب وكلية أصول الدين

الأوزاعى الـكاتب . تفسير النصوص التاريخية والاستنباط منها

اتفق وأنا قريب عهد بكتاب « أحسن المساعى ، فى مناقب الامام أبى عمرو الأوزاعى » الذى نشره ونقحه وعلق عليـه ، وقدم له ، الأستاذ الـكبير الأمير شكيب أرسلان ؛ أن وصلنى العدد ٨٩ من الرسالة الصادر فى ١٨ مارس سنة ١٩٣٥ ، وفيه مقال عن الأوزاعى لحضرة الأديب عبـد القادر على الجاعونى ؛ فلما قرأته تبدت لى نواح من القول عن الامام الأوزاعى ؛ وعن مقال الرسالة فيه ، وأحببت أن أحدث بها قراء الرسالة ؛ لـكنما أحب قبل الخوض فى شئ من ذلك أن أرسـل وراء البحار ، على صفحات الرسالة الغراء ، تحية وإجلالاً للأمير العربى الـكبير الأمير شكيب أرسـلان لصدق غيرته ، وجليل خدمته للعروبة وأهلها علمياً وأدبياً واجتماعياً : تحية تقدير لحقـه على الشرق والعرب ؛ وإجلال لذكريات كريمة للأديب العالم الأمير ، على تمادى الأيام ، ونأى الديار

١ — الأوزاعى الكاتب

اشتهر عند القدماء والمحدثين ، أن الأوزاعى إمام فقيه مجتهد ، صاحب مذهب ، أو ما يتصل بذلك وينتهى اليه ، فحسب ؛ ولم يعرفه الأدباء ومؤرخو الآداب ، من أصحاب الأقلام والناثرين المقتدى بهم فى القرن الثانى الهجرى ، من جيل عبد الحميد الـكاتب أو يكاد ؛ لـكن هناك ناحية أدبية ، فى الأوزاعى ، له فيها تفوق خطير ، وآثار ذائعة ، ومشاركة فعلية فى حياة النثر العربى الأولى ، وتاريخ الرسائل ؛ إذ يذكر مترجموه أنه كان بارعاً فى الـكتابة والترسل ؛[١] وأنه كانت صنعته الـكتابة والترسل فرسائله تؤثر [٢]

وينقلون أنه كان من ذلك موضـع الاعجاب والا كبار ، إذ يروون أن كتبه كانت ترد على المنصور فينظر فيها ، ويتأملها ، ويتعجب من فصاحتها وحلاوة عبارتها [١] ؛ بل كان فى موضع الاحتذاء والتقليد ؛ بل كان يقتبس رءوس الـكتاب من قوله ، ويأخذون عنه ، ويتهيبون الاجابة عن رسائله ؛ إذ يقول المنصور يوماً لأحظى كتابه عنده ، وهو سليمان بن مخلد : ينبغى أن نجيب الأوزاعى عن كتبه ، فيقول : والله يا أمير المؤمنين لا يقدر أحد من أهل الأرض على ذلك ، وقال : لا على مثل كلامه ولا على شئ منه ؛ وإنا لنستعين بكلامه نكاتب به إلى الآفاق ، إلى من لا يعرف أنه كلام الأوزاعى [٢] . لـكن فقه الشيخ طغى على أدبه ، وأخمل ذكره فيه ؛ حتى يقول الذهبى فى طبقات الحفاظ بعد أن روى عن أبى زرعة الدمشقى أن الأوزاعى كانت صنعته الـكتابة والترسل فرسائله تؤثر : قلت : هذا نافلة سوى الفقه [٣] ؛ وهكذا غلب الفقه الأدب على الرجل ، كما غلبه على الشافعى من بعـده ؛ وكما لا تزال تهيئ تلك الغلبة ظروف الحياة ، فتمضى بأدباء متفوقين إلى غير حرفة الأدب . لـكننا لا ننصف حين نؤرخ الأدب فنتابع القـدماء على اعتبار أدب الأوزاعى نافلة ؛ ولا ننصف إذا أعطينا هذا العهد البكر بنثره لعبد الحميد وابن المقفع وحدهما ؛ ولا نتحرى درس الأوزاعى الأديب الناثر الممتاز إذ ذاك ، ولا نعنى بجمع آثاره فى هذا ، ولاسيما بعد ما نسمع قول المؤرخين أنهم عرفوا له كلاماً ومواعظ ورسائل كثيرة [٣] . فلعل الأدباء يعنون بجمع هذه الآثار وتتبعها ؛ ولعل المؤرخين يعنون بدراسة أثر الرجل ومنزلته بين الأدباء الناثرين فى هذا العصر . وفى سبيل هذا التعاون أشير إلى مواضع ذلك فى الـكتاب المنشور عنه ؛ فنى الصفحات — ٨٤ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٣٦ ، كتب للأوزاعى . وفى — ٨٧ ، ١٢٤ ، ١٣٧ مواعظ له ؛ وفى — ١٣٨ وما بعـدها كلمات له وحكم ، ولعل الزمن يسعفنى على المشاركة فى شئ من ذلك الدرس

٢ — تفسير النصوص التاريخية والاستنباط منها

تاريخنا الفنى والعلمى والاجتماعى لم يكتب بعد ، إذ اتجهت عناية القـدماء إلى التاريخ السياسى واستيفائه ؛ فلم يتركوا إلا أصولاً متفرقة عن التاريخ غير السياسى ، وإن النهضة لتتقاضانا هذا الحق ، سداً لذلك النقص البادى ، ونحن فى هذا العصر نحاوله فى النواحى المختلفة ، وننتفع بما كتبة المستشرقون فيه ،

(١) أحسن المساعى ص ٣٥ (٢) أحسن المساعى ص ٥٩

(١) أحسن المساعى أيضاً ص ٧٢ (٢) مقدمة أحسن المساعى ص ٣٩

(٣) أحسن المساعى ص ١٣٩

ولكن المادة الحقيقية إنما هي تلك المتفرقات القديمة التي كتبها أهل ذلك الشأن ، عن قرب ومباشرة ، وبادراك صحيح لروح ما يؤرخون وحقيقته . وفي الرجوع إلى هذه متفرقات نحتاج إلى تفسير النصوص التاريخية بعد فهمها على وجهها فهماً صحيحاً لنستنبط منها أحكامنا على العصور والرجال والأعمال ؛ والمتصدون لهذه الدراسة التاريخية الفنية أو العلمية أو الاجتماعية ، يجرون من ذلك على أسلوب أشعر أنه لا يزال يحتاج الى غير قليل من الدقة ؛ وأن أحكامهم معه لاتسلم من الدخل والوهن ؛ وليس هذا موضع الأفاضة والبيان المسهب في ذلك ، فانه مما يستحق القول المفرد في غير هذه الفرصة ؛ وإنما أحببت في هذا المقام أن أشير إلى ما يقع كثيراً في تفسير هـذه النصوص ، من عدم الرجوع إلى مواضعات القدماء أنفسهم في الشؤون الخلقية والعلمية والعملية مما تشرحه كتبهم ؛ والاعتماد في الفهم على ظواهر العبارات ، أو القياس على مواضعاتنا وعوائدنا دون تقدير لما هناك من اختلاف قد يكون كبيراً ، وكذلك عدم التنبه إلى نواميس الحياة النفسية الانسانية التي يجب توفر الخبرة بها قبل التصدي لتفسير أعمال الأشخاص وأقوالهم أو الأقوال عنهم ، ثم وجوب رعاية السنن الاجتماعية وتأثيرها وتأثرها قبل الحكم على الحوادث أو الرجال وتعليل الأعمال وبيان آثارها ؛ فكل أولئك وكثير غيره مما يجب أن يقوم عليه فهم النص التاريخي ؛ وتفسيره بله الاستنباط منه ؛ وليست تلك المهمة من الهوان بما يتراءى لبعض محاولي تلك الدراسة ، وأستميح الأديب الجاعوني عذراً في أن أشير الى بعض تفسيرات تاريخية وردت في مقالته ، تمثيلاً لهذه الدقة وما يجب مراعاته في هذه المهمة . فهو مثلاً يقول ، حين عد شيوخ الأوزاعي وتلامذته : « وروى عنه جماعة من الذين سمعهم كقتادة والزهري وغيرهم » (ص ٤١٩ رسالة) وعلق على ذلك في الهامش رقم ٧ بقوله : « يظهر أن قتـادة والزهري كانا معاصرين للأوزاعي ، فسمع عنهم وبذلك نعدهم أسـاتذته ، ومن ثم رووا عنه ، ولذلك يصح لنا تجاوزاً أن نعدهم من تلاميذه » وتنظر أولاً إلى قوله إن قتادة والزهري كانا معاصرين للأوزاعي فلا ترى ذلك صواباً على هذا الاطلاق ؛ فهؤلاء من التابعين ، وليس الأوزاعي منهم ــ وإن ادعى بعضهم له ذلك ــ ثم هم على كل حال جيل آخر ، بين وفاة الأوزاعي ووفاة آخرهم نيف وثلاثون عاماً ــ قتادة توفي سنة ١١٧ ، والزهري سـنة ١٢٣ ، والأوزاعي توفي سـنة ١٥٧ ــ وندع هذا فترى تفسير الـكاتب لأخذه عنهم وأخذهم عنه واعتبارهم تجوزاً تلاميذه ، نراه قلقاً مضطرباً . وكانت تدفعه ملاحظة عادة القوم في هذا النوع من الرواية الذي كانوا يسمونه رواية الأكابر عن الأصاغر ، ويفردونه بالبيان الخاص في أصول الرواية ؛ وكانوا يرمون فيـه إلى اعتبار خلق نبيل من تقدير العلم وأخذه حيث كان ، وحطم الـكبرياء المغرورة للأستاذية ، ليظل المروى عنه أبداً طالب علـم ، ومرتاد حقيقة يأخذها حتى عن تلميذه ، وهذا التفسير نفسه منصوص في كتاب أحسن المساعي الذي أرجح كثيراً أن الـكاتب قد رجع اليه ، إذ ورد في ص ٥٢ ــ ٥٣ منه ما نصه « ... وحدث عنه جماعات من سـادات المسلمين ، كمالك بن أنس ، والثوري ، والزهري ، وهو من شيوخه ، وهذا من رواية الأكابر عن الأصاغر فان الزهري من التابعين ، وليس الأوزاعي من التابعين »

ثم إن الـكاتب صاحب المقال عن الأوزاعي يتعرض لقول جولد زهير بتأثر الفقه الاسلامي بالفقه الروماني ، ويرى أن الأوزاعي أحرى بأن يكون آخر المتأثرين ؛ ص ٤٢٠ (رسالة) ؛ ويحتج لهذا الاستنباط « بأنه من أبعد الفقهاء عن الرأي ، ومن أقربهم إلى اتباع الـكتاب والسنة .... والـكتاب والسنة أبعد الأشـياء عن التأثر بالفقه الروماني » . ومع عدم تعصبي للقول بهذا التأثر ، ومع القصد في بيانه ، فاني أرى هذا الاسـتدلال على عدم تأثر الأوزاعي غير مقبول من الوجهة الاجتماعيـــة والنفسية ، فان متبع الـكتاب والسنة لابد له من أن يفهمهما ، ويتبين مراميهما، وأغراضهما ، وعللهما وحكمهما ، ولـكل شخص في هذا الفهم والتبين عقله الخاص ، وشخصيته الخاصة ، ومنهجه الخاص ، وذلك كله من أشد ما يكون تأثراً بالثقافة والبيئة ، فلا غرابة في أن يتأثر فهم الفاهم للـكتاب والسنة المتبع لهما ، تأثراً جلياً بعوامل تثقيفه ، وظروف حياته ، كما تأثر بذلك تفسير القرآن في كل الأزمنة ، بل كما تأثر بذلك فهم العقائد وأصول الدين ذاتها تأثراً لا يسعنا إنكاره ؛ ولا قيمة لحرصـنا على هذا الانكار ، لأننا بذلك نقاوم سنن الله في خلقه

تلك مُثُل صغيرة لما تجب مراعاته في تفسير النصوص وفهمها والاستنباط منها ، حتى نوفق لـكتابة تاريخنا غير السياسي ؛ بل السياسي كذلك كتابة علمية صحيحة ، تنير ماضينا وتمد مستقبلنا بكل قوة وحقيقة

أمين الخولي

حول الأوزاعي أيضا

للأستاذ علي الطنطاوي

أشكر للكاتب الفاضل صاحب ترجمة الامام الأوزاعي رضي الله عنه المنشورة في الرسالة التاسعة والثمانين عنايته بدراسة تاريخنا الجليل، واستخراج «جواهره» التي شغلتنا عنها «أصداف» غيرنا، وأرجو أن يقبل هذه الملاحظات قبولاً حسناً، وأن يعلم أن الذي حفزني الى نشرها إنما هو حرمة الحق، وأمانة التاريخ

١ — يقول الكاتب في تحقيق نسبة الأوزاعي: (وقد اختلف في معنى هذه الكلمة، فمن قائل إنها بطن من ذي الكلاع من اليمن، وقيل بطن من همذان «بالذال»، وقيل إن الأوزاع قرية بدمشق خارج باب الفراديس) اهـ

والصحيح أنه ليس بين هذه الأقوال اختلاف، فالأوزاع اسم قبيلة من اليمن، سكنت هذا الموضع فسمي بها — كما ذكر ياقوت — ونسبهم في حمير ولكنّ عدادهم في هَمْدان — كما قال في التاج — وهمدان — كما في اللسان — قبيلة في اليمن، أما همَذَان التي ذكرها الكاتب فمدينة مشهورة في أرض العجم، وعجيب أن ينسب إليها الأوزاعي، وأعجب منه أنه نقل هذه الرواية عن ابن خلكان، وهي في ابن خلكان في الصفحة التي نقل منها الرواية، هَمْدان بالدال لا همذان بالذال!

وقد وجدت في كتاب — لا يحضرني اسمه — أن الأوزاعي من العُقَيْبَة «قرية بظاهر دمشق». والعقيبة اليوم حيّ كبير من أحياء دمشق، بالقرب من السور خارج باب العمارة، وهذا الباب هو باب الفراديس بعينه، وهو لا يزال موجوداً، ولا يزال داخله طريق موازٍ للسور، يسمى طريق «بين السورين»، فعلى هذا تكون العقيبة هي قرية الأوزاع

٢ — وقال الكاتب إن الأوزاعي (لم يكن يستعمل الرأي، بل إنه — كما فعل غيره — عدل الى الكتاب والسنة) اهـ

والذي يفهم من هذه الجملة أن من يقول بالرأي يعدل عن الكتاب والسنة، وهذا خطأ فاحش، لأن أصحاب الرأي أو القياس، لا يعملون رأيهم، ولا يجرون قياسهم، إلا في المسائل التي لم يرد فيها نصّ من كتاب ولا سنة، فهم يرجعونها الى هذين الأصلين، ويطبقونها عليهما؛ وليس لمسلم أن يقول في الدين برأيه، ويتكلم فيه بهواه؛ والحنفية هم الذين يسمون بأصحاب الرأي؛ وجميع الحنفية — كما يقول ابن حزم — مجمعون على أن مذهب أبي حنيفة أن ضعيف الحديث عنـــده أولى من الرأي والقياس. وقد قدّم أبو حنيفة رحمه الله العمل بالأحاديث المرسلة على العمل بالرأي في مسائل عدة

ولعلّ الكاتب لم يقصد هذا الذي قد يفهم من كلامه!

٣ — وقال الكاتب: (ذهب بعض المؤرخين أمثال كولدزهير الى أن الفقه الاسلامي قد تأثر بالفقه الروماني، وأنا أقول إن كان هذا صحيحاً فأحرِ بالأوزاعي أن يكون آخر المتأثرين به لأنه من أبعد الفقهاء عن الرأي) اهـ

فلم يهتم الكاتب بدحض هذه الفرية التي افتراها كولدزهير وأمثاله من المؤرخين، ولم يبين أنها في رأي العلم خرافة من الخرافات، وأن المحققين قد تكلموا فيها، وبيّنوا خطأها، بل كان جل همه أن يبرىء الأوزاعي منها، ولو يسلم ضمناً بأن الفقهاء قد تأثروا بالفقه الروماني!

على حين أنه لا يمكن أن يقوم دليل علمي واحد على أن الفقه الاسلامي مأخوذ من الفقه الروماني[1]، إلا إذا كان القرآن مترجماً عن لغة الرومان، وكان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رومانياً خرج من أبوين عربيين! والذي نقوله إنه إذا كانت هناك علاقة بين الفقهين، فان الفقه الروماني المعروف اليوم هو المقتبس عن الفقه الاسلامي، ودليلنا على هـــذا أن الفقه الروماني الحاضر جديد، لفّقه طائفة من العلماء، بعد أن اندثر الفقه الروماني القديم، وهذا الدليل على علاّته أقوى من دليلهم على دعواهم، فليثبتوا إن استطاعوا أن الفقه الروماني الحاضر هو القديم ذاته، وليأتونا بالأسانيد الصحيحة والروايات المضبوطة، كما نأتيهم نحن بأسانيد حديثنا، وروايات سنتنا!

٤ — هذا وإن في ترجمة الأوزاعي كتاباً قائماً برأسه نشره من عهد قريب كاتب الاسلام الأمير شكيب ارسلان فلينظره الكاتب الفاضل

علي الطنطاوي

(١) نظن أن هناك فرقاً شديداً بين (التأثر) و (الأخذ) — الرسالة

الحكم فى المسابقة الأدبية

يذكر قراؤنا أننا نشرنا فى العدد ٧٩ من الرسالة قصيدة من الشعر الفرنسى عنوانها (ارتياب) للآنسة النابغة (مىّ) ومعها ترجمتها بقلمها ، وقد قدمتها إلى شعرائنا مقترحة أن ينقلوها نظماً إلى العربية جاعلة للسابق الأول جائزة مالية قدرها جنيهان مصريان ؛ وقد استبق إلى مقترح الآنسة الفاضلة سبعة وعشرون شاعراً من مصر ومن سائر الأقطار العربية . وفى مساء يوم الجمعة الماضى اجتمعت فى دار الشاعرة لجنة التحكيم وهى مؤلفة كما ذكرنا فى عدد سابق من حضرات الدكتور طه حسين ، والأستاذ مصطفى عبد الرازق ، والدكتور أحمد زكى ، ومحرر هذه المجلة ، فقرأوا القصائد ، ثم غربلوها ، ثم نخلوها ، حتى علق بالعيون ثلاث قصائد منها ، فأعادوا النظر فيها ، ثم وازنوا بينها ، فكانت الأولى لشاعر لم يذكر اسمه ولم يرمز اليه ، والثانية للأستاذ فخرى أبو السعود ، والثالثة لشاعر دمشقى إمضاؤه ا . ط ، فقرروا نشر القصائد الثلاث وحكموا للشاعر الأول بالجائزة . والرسالة ترجو منه أن يرسل اليها عنوانه لترسل اليه حقه . وتلك هى القصائد :

القصيدة الأولى

ارتياب

أصــــديقتى ذات العيو ن النجل : قد ولى النهارُ !
والريح هــــوجاء تهب (م) بنا ، وليس لهـــا قرارُ
ولها أنينٌ ثائرٌ ، كالقلب عاوده ادّكارُ
ولها صدًى فى النفس مكبوتٌ عَصىٌّ مُستثار
أصــــديقتى ، ذات العيو ن النجـل ! قد ولى النهار

***

بين الزهور جلست أحـ ـلم فى حنينٍ وا كتئابِ
والزعزعُ النكباءُ تعـ ـصِف كل آونة ببابى
والسحب باكية ، فوا شجنى لهذا الانتحابِ !
فلكم يثير من الشجى فى مهجتى دمعُ السحاب !
بين الزهور جلست أحـ ـلمُ فى حنينٍ وا كتئاب

***

هل تذكرين اليومَ رأ سَ العام ؟ ما أحلاه ذكرى !
يومٌ به السرّ الخفىّ أضاءَ فى عينيك سحرا
وهـــلالُ روحى عابدٌ مِنْ رُوحك المعبود بدراً
يومٌ به أوحيت فى نفـ ـسى حديثاً مستسرّاً
هـــل تذكرين اليومَ رأ س العام؟ ما أحلاه ذكرى !

***

أسفى لهـــذا الشهر قد ولَّى ، وآذن بانتهاءِ
فيـــه رأيتك مرتيـ ـن ، لدى سويعات المساء
والآن أقضى الليـــل فى غـير ابتهاج أو صفاءِ
واحرَّ أشـــواقى لفجـ ـرٍ منـك فتان الضياءِ
أسفى لهـــذا الشهر قد ولى وآذنَ بانتهـــاءِ

***

ليـــلٌ مطيرٌ حالكٌ وكأنه ليـــلُ الوداعِ
والفكر أقتمُ لم يزل وسط الهواجس فى صراعِ
أمسى الفؤاد ممـــزقاً بين ارتيابٍ وارتياعِ
ماذا لو أن فؤادَك المغـ ـرورَ أولعَ بالخـــداعِ
ليـــلٌ مطيرٌ حالك ، وكأنه ليـــل الوداعِ

القصيدة الثانية

ارتياب

أَصديقتى يارَبّة الحَدَقِ العِذا بِ النُّجل رُوحى ردّدت نجواكِ
الريحُ فى هـــذا المساء عنيفة هوجاء ذات صدى عصىّ باكِ
جــارةٌ أمسى عَصيّاً داوياً فى النفس مكبُوتاً صداها الحاكى
أُصـديقتى ياربة الحدق . . .

ما بين هاتيك الزهور جلستُ واسـ ـتسلمتُ للأحلام والأشجان
يغزو جناحُ النَّوْءِ نافذتى وقد بكتِ السماءُ بِدَمعِها الهتَّان
واهاً لذاك الدمع يجرى ناحباً ماذا يُحرّكُ فى مدى الأكوان ؟
ما بين هاتيـك الزهور . . .

ياهل تراكِ ذكَرْتِ فيما قدمضى يوماً لنا قد كان رأس العام ؟
يوماً بعَرى السر نوّرَ مقلةً خاطبْتنى منها بغـــير كلام
ورأتْ به روحى رُوحكِ أختها الـ كُبرى ونلْتِ عبادتى وهيامى
ياهـــل تراكِ ذكرت . . .

قد راح شهرٌ بعـد ذاك موليّاً ها نحن نرقُب منتهاه الدانى
ولى وقد جادت بحُسْنِ لقاك أمْـ سيتان فى أثنائِه ثنتان
والآن إذ جذلى إلى غده انتهى أصبو إلى فجرٍ مضى فتّان
قد راح شهر بعـــد ذاك . . .

هـذا مسـاء ممطر متساقط ساجى الدجى ، هذا مساء وداع
تعتامني غُبرُ الهموم وقد مشى رَيبٌ بقلبي للجوى مُنصاع
رَيبٌ خبيثٌ ! ما ترى لولم يكن لك غير قلبٍ مُنزدهٍ خدّاع ؟
هـذا مسـاء ممطر متساقط ساجى الدجى ، هذا مساء وداع

فخرى أبو السعود

القصيدة الثالثة

ارتياب

صديقتى ذاتَ العيون العذابْ روحى تناديكِ ! فهل تسمعينْ
جُنَّ جنون الريح هذا المساءْ واندفعتْ صخّابةً كالحُمُم
تدوى وذى صيحاً تُهاقِ الفضاءْ تُعيدُ فى نفسى صداها الأصم
صديقتى ذات العيون العذابْ روحى تناديكِ ! فهل تسمعينْ

* * *

هأنذى أجلس بين الزَّهَرْ حالمةً مغمورةً بالشُّجونْ !
نافذتى تلطمُها العـاصفه والسحب تُذرى عبرات الحنانْ
لله هذى الأدمعُ الواكفه ماذا ستذكى فى صميم الكيانْ
هأنذى أجلس بينَ الزَّهَرْ حالمةً مغمورةً بالشُّجونْ

* * *

صـديقتى بالله هل تذكرينْ أوَّلَ هذا العامِ هل تذكرينْ ؟
إذ نمّ عنك الكلمُ الصامتُ ونورعينيكِ نمى السرّ(كذا)
ويوم نفسى،والفضاءُ صامتُ (كذا) ألفتُ لديك روحها الكبرى؟
صـديقتى باللهِ هل تذكرينْ أوَّلَ هذا العامِ ، هل تذكرينْ ؟

* * *

شهرٌ تولى ومضى مُسرعاً وراحَ يغفو فى خضمِّ القرونْ
لم نحظ فى أيامه باللقـاءْ سوى مساءين ، ولم نسعدِ
والآن ، إذ فى الغـدِ كلُّ الهناءْ أذوبُ أشواقاً لفجرِ الغد ...
شهرٌ تولى ومضى مسرعاً وراح يغفو فى خضم القرون

* * *

هـذا مسـاءٌ دامعٌ قاتمٌ مثل أمامىّ الوداعِ الحزينْ
خواطرى فيه تُحاكى الدُّجى والغمُّ فى نفسى طغى ، والملل
والشكُّ يلهو بىَ : ماذا تُرى لوكان منك القلب جمّ الحيل؟
هـذا مسـاءٌ دامعٌ قاتمٌ مثلُ أمامىّ الوداعِ الحزين

دمشق ا . ط

٧ـ قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

اسپلنزانى Spallanzani

صلة حديثه

« القس الماكر الذى مالق الكنيسة والسلطات وهو يحتقرها جميعاً لكى يعيش ولكى يعمل فى سكون ؛ الذى ناضل الجند بغير أهبة الجند وعدة الجند ؛ الذى أثبت من مرق اللحم أن المكروبات ككل الأحياء لابد لها من آباء ؛ الذى أهدى للعلم متاته الوبيئة ، ذلك الأثر الوحيد الذى بقى للناس الى اليوم من هذا الرجل الكبير الخالد »

وجرت مكاتبات كثيرة بين اسپلنزانى وبين الكثير من بحاث أوروبا وشكا كبها . وجرت صداقة بالبريد بينه وبين ڤلتير Voltaire ذلك الماكر الخبيث ، وشكا له فى كتبه أن إيطاليا ليس بها إلا أفذاذ قليلون من الرجال ذوى العقول الراجحة ، وشكا له الطقس والرطوبة والضباب . ودار الزمن فاذا اسپلنزانى يتزعم تلك العصابة الرعناء من الفلاسفة والعلماء الذين طلبوا الحق صادقين وأرادوا للناس السعادة والعدل مخلصين ، فاذا بهم يمهدون غير قاصدين لفتن هوجاء ، تلطخ بها وجه الأرض بأغزر الدماء

واعتقد هؤلاء العلماء أن اسپلنزانى قضى كل القضاء على تلك الفرية التى افتراها الخصماء حيث قالوا إن الحياة قد تنبعث من لا شئ ، وأخذ هؤلاء العلماء ، وفى طليعتهم « ڤلتير » ، يقهقهون بالنكات النادرة ، ويتندرون بالفكاهات المستملحة ، على القوة النباتية وعلى « بيفون » الفخم الطنان ، وعلى صبى معمله الأب « نيدم »

وبينا هم على هذا ، صاح نيدم : « ولكن هذه القوة النباتية موجودة ياقوم . إنها شئ مستتر خفى . حقاً إنها لا تُرى ولا توزن ، ولكن بسببها تخرج الحياة من مرق اللحم ونقيع الحب ، وقد تخرج بواسطتها من لاشئ . من الجائز أنها احتملت ذلك التحميص الشديد الذى أولاها إياه اسپلنزانى . إنها قوة أكثر ما تحتاج اليه مرونة الهواء ، وقد أغلى اسپلنزانى قبابته ساعة فأفسد مرونة [1] الهواء بداخلها ، ففسدت القوة النباتية فلم تتكون الأحياء »

سمع الطليانى بهذا فقام تواً للصراع . ونادى نيدم : « هل من تجارب تثبت بها أن الهواء إذا سخن قلّت مرونته ؟ » . وانتظر التجارب فلم يجب نيدم بغير ألفاظ . فصاح به الطليانى : « إذن فأنا آتيك بالتجارب » . ورجع إلى معمله مرة أخرى فوضع البذر فى القوارير ، وصفها وأغلاها ساعة . وفى ذات صباح ذهب اليها يقصف رقابها . قصف الأولى وأرهف سمعه فسمع لها صفيراً . « ماهذا ؟ » . واختطف الثانية فأدناها من أذنه وكسرها فسمع لها صفيراً . « هذا هو الصفير يعود ! ومعني هذا أن الهواء يدخل إلى القارورة أو أنه يخرج منها » . وأشعل شمعة وأدناها من فم قارورة أخرى وفض فاها فاذا اللهب ينعطف نحوها . فصاح : « معنى هذا أن الهواء يدخل القارورة ، ومعنى هذا أن الهواء بالقارورة أقل مرونة من الهواء خارجها ، ومعنى هذا أن نيدم قد يكون على حق ! »

وعندئذ أحس اسپلنزانى بجيشان فى معدته ، وأحس بالعرق يتصبب من جبينه ، وبالأرض تدور به . . . . أيجوز أن يكون هذا الأبله نيدم قد خبطها خبطةَ عشواء فأصابت ؟ أيكون قد تظنن فيما تُحدث الحرارة فى الهواء المخزون بداخل الزجاج المختوم فوقع على الحقيقة وهو لايدريها ؟ أيكون قد قُدِّر لهذا الفيهق الثرثار اللغاط الهراء أن يفسد عليه الجهد الكبير الذى أنفقه فى استنباط الحقائق فى حرص وحذر كل هذه السنوات الطويلة ؟ وقضى اسپلنزانى أياماً وهو سقيم المزاج ، مشتت الفكر ، ضيق الصدر ، واشتد لتلاميذه واخشوشن من بعد رفق ولين . وأراد أن يروّح عن نفسه فأخذ ينشد شعر «دانتى» و «هوميروس» ، فلم يزده الانشاد إلا ضيقاً . واستيقظ فى نفسه شيطان أخذ يوسوس له : « قم وادرس لمَ يدخل الهواء داخل القبابة كلما كسرت ختمها ، فلعل هذا لاصلة له بمرونة الهواء» . وصاحبه هذا الوسواس الخناس وألحّ عليه حتى استيقظ ذات ليلة على صوته مخبولاً مرتبكاً .... وفى برهة كلمحة البصر وقع على تفسير

(١) لعله قصد بمرونة الهواء ضغطه

للمعمل الذى هو فيه ، فجرى الى معمله ، وكان نضده قد تمطى بقوارير مكسورة وزجاجات مهجورة تبعثرت جميعها عليه فكانت شواهد على ما كان فيه رجلنا من ترك ويأس . ومدّ يده الى قمطر فأخرج منه قبابه . لقد كان ضلّ الطريق واليوم اهتدى اليه ، وعما قريب يثبت أن نيدم مخطىء ضال . وتمطى يملأ رئتيه وُسعهما ، ثم زفر زفرة طويلة أبدلته من ضيق سعة ومن أزمة فرجا . ومع أنه لم يكن أثبت أن ما بدا له هو التفسير الحق لصفير الهواء ، إلا أنه وثق بالذى ارتآه وثوقاً آثر معه أن يستعجل الغبطة والسرور . ونظر الى القبابات وابتسم وقال : « كل القبابات التى استخدمتها فيما سبق كانت لها رقبة واسعة استلزمت حرارة كثيرة وتسخيناً طويلاً لتسيح ويتم ختمها . وهذه الحرارة الكثيرة تطرد الهواء من القبابة قبل لحامها ، فلا عجب إذن أن يندفع الهواء فيها إذا فُض اللحام »

وارتأى أن ما قاله نيدم عن إغلاء القبابات الملحومة فى الماء وإفساده مرونةَ ما بداخلها من الهواء كلام هراء . ولكن أنىّ له باثبات ذلك ؟ أنىّ له بختم القبابة دون أن يطرد هواءها ؟ وجاء شيطانه يوسوس اليه ، فأخذ قبابة أخرى فوضع بها بذراً وملأ بعضها بالماء ، وأدار رقبتها فى اللهب الشديد حتى ساحت وضاقت حتى كادت تلتحم إلا ثقباً صغيراً ضيقاً يصل بينها وبين هواء الجو . عندئذ برّد القبابة ؛ حتى إذا تمت برودتها قال : « إن الهواء بداخلها لابد أن يكون مثله بخارجها . ثم جاء بلهب صغير سلطه على الثقب الباقى وهو كعين الابرة فسدّه فى لمحة دون أن ينطرد من هواء القبابة شىء . فلما اطمأن الى ذلك وضع القبابة فى الغلاية وأخذ يرقبها ساعة ، وبينا هى تتأرجح وترقص فى الماء كان هو ينشد الشعر ويترنم بالغناء . ثم نحاها أياماً ، وفى ذات صباح جاء ليفتحها وهو واثق مما سيكون ، فأشعل شمعة وأدناها من فم القبابة ، وفى حذر شديد كسر فاها فسمع صفيراً ، إلا أن لهب الشمع لم ينجذب الى القبابة فى هذه المرة بل مال عنها ، دليلاً على أن مرونة الهواء داخلها أكثر من مرونته خارجها !

فكل هذا الغلى لم يفسد مرونة الهواء ، بل على النقيض قد زاد مرونة ، تلك المرونة التى قال نيدم بضرورتها لتلك القوة النباتية العجيبة . وأخرج اسبلنزانى من المرق القطرة فالقطرة ، وعبثاً حاول أن يجد فيها من الأحياء شيئاً برغم ازدياد مرونة الهواء . وأعاد التجربة فالتجربة بتلك المثابرة التى عرفناها عن « لوفن هوك » ، وكسر قبابات وكبّ المرق على صدر قميصه ووسخ يديه ، ولكنه لم يخرج على غير تلك النتيجة التى سلفت

— ٥ —

انتصر اسبلنزانى فصاح بتجاربه ليسمع أوروبا ، فتردد صداه شرقاً وغرباً ، وسمعه نيدم وبيفون فجلسا على أنقاض نظريتهما البالية ينعيان أطلالها فى كآبة ظاهرة وحزن باد . وما كان لها مندوحة من هذا ، وقد أفسدها عليهما هذا الطليانى بحقيقة واضحة بسيطة . فلما اطمأن على الذى كان ، جلس يكتب . وبقدار براعته فى المعمل كان بارعاً فى المكتب ، وعلى حسن جِلاده بالقبباب والعدس ، كان يحسن الجلاد بالقرطاس والقلم ، على شريطة أن يكون قد اطمأن إلى أن حقائقه العملية قد سبقت فغلبت فى الصراع خصيمه ، وهذا ما كان ، فهو فى هذا الوقت كان قد اطمأن إلى انصراع نيدم ، وإلى ضياع نظريته الفكهة التى تنشئ الشئ من لا شئ . وكان اطمأن إلى أن الحيوانات جميعاً ـ حتى تلك الحيوانات الصغيرة ـ لا تأتى إلا من حيوانات مثلها عاشت من قبلها ، وإلى أن هذه المكروبات الصغيرة تظل طيلة حياتها مكروبات من النوع الذى كانته آباؤها ، فاذا هى أنتجت كان نتاجها من جنسها ؛ كذلك الحمار فى حياته لا يستحيل جملاً ، وهو لا يأتى إلا عن حمار ، فاذا ولد فانما يلد حماراً

وصاح اسبلنزانى يقول : « واختصاراً قد ثبت أن نيدم مخطئ ، وقد أثبتُّ فوق هذا أن فى علم الأحياء نظاماً وقانوناً ، كما أن فى علم الأفلاك قانوناً ونظاماً » ثم أخذ يصف ما تكون حال هذا العلم لو أن نيدم لم يجد من يراقبه ويحاسبه ، إذن لعشنا فى اختبال وارتياع من نزق هذه « القوة النباتية » المتقلبة الهوجاء تلك القوة التى إن هى شاءت أخرجت من الشئ ضفدعة ، وإن هى شاءت أخرجت منه كلباً ؛ أو هى تخرج منه اليوم فيلاً ، وغداً عنكبوتاً ؛ أو تخرج منه فى الصباح حوتاً سابحاً ، وفى الظهر بقرة حلوباً ، وفى المساء إنساناً ناطقاً

قُضى على نيدم ، وقُضى على قوته النباتية ، وأصبح الانسان يستمرئ العيش ، ويستنشق الهواء فى أمان وسلام ، فلا تروعه تلك القوة الرهيبة اللعينة التى كان يتخيلها مخبوءة فى هذا الركن ووراء ذلك الحائط تنتهز الفرصة لتحيله فيلاً أو تخلق منه غولاً

ومرى اسم اسبلنزانى فى جامعات أوروبا يسطع كالماس ، ويتألق كالنجم . وأيقنت جماعاتها العلمية بأنه عالم العصر الأوحد وكتب اليه فريدريك الأكبر Frederick the Great كتباً طويلة ، وبيمينه أمضى براءة تعيينه عضواً فى أكاديمية برلين . وماريا تريزا maria Theresa امبراطورة النمسا وعدوة فريدريك اللدودة ، نافست هذا الملك العظيم فى تكريم هذا العالم الكبير ، فنفسته ، وذلك أنها عرضت عليه أن يكون أستاذاً فى جامعة بافيا Pavia العتيقة بلمباردى Lombardy فانفذت اليه رسلها من عظام مستشاريها فجاءوه فى حفل ضخم ، وموكب فخم ، متقلين بكتب ملكية ، وأختام امبراطورية ، يتوسلون اليه فى قبول المنصب عسى أن تجد جامعتهم فيه منقذها من السوء الذى هى فيه ، ورافعها من الدرك الذى هبطت اليه . وجرت بينه وبينهم مناقشات ، وجرت مباحثات ومساومات ، فى الأجر الذى يتقاضاه اسبلنزانى ، فقد كان دائماً يحسن جمع المال كلما أمكنته الفرصة . وانتهت تلك الأحاديث بقبوله أستاذية التاريخ الطبيعى بالجامعة ، وبتنصيبه أميناً لمتحف التاريخ الطبيعى فى بافيا كذلك

وذهب إلى متحف بافيا فوجده خاوياً خالياً . فشمر عن ساعده ، وأخذ يحاضر فى كل ما هب ودب ، ويلقى دروساً فى الجمهور يضمنها تجارب كبيرة هائلة يجريها على سمعهم وأبصارهم فهالت الناس وراعتهم ، لأن النجاح كان يأتيها دائماً من حذق يديه ، وأراد أن يملأ متحفه الخالى فأرسل إلى هنا وإلى هناك فى طلب مجموعات من حيوانات عجيبة ونباتات غريبة وطيور لا يعرفها القوم . وذهب هو بنفسه إلى الجبال فتسلقها على خطورة مرتقاها ، ورجع منها بركائز كثيرة وخامات غالية . وذهب إلى البحار يصطاد قروشها المفترسة ، وإلى الغاب يقتنص من ذوات الريش كل ذات لون بهيج . ذهب كل مذهب ليس من اليسير تحقيقه ، وضرب كل مضرب ليس من الهين تصديقه ، وكل هذا فى سبيل الجمع لمتحفه ، وفى سبيل التخفف من ذلك النشاط الجم و تلك الطاقة الصخابة التى امتلأ بها جلده فخرجت به عما وسم العرف به العلماء من طمأنينة وهدوء

وفى الفترات التى تخللت هذا التجميع وهذا التدريس ، كان ينفلت الى معمله بأمراقه ومجاهره فيغلقه على نفسه ، ويجرى فيه التجارب الطويلة ليزيد فى إثبات أن الأحياء الصغيرة تنصاع لقوانين الطبيعة انصياع الخيل والفيلة والرجال لها . ووضع قطرات من أحسيته وهى تموج بالمكروب على قطع من الزجاج المنبسط ، ونفخ فيها من دخان تبغه ، ثم أسرع فنظر إليها بعدسته ، ثم ضحك ملء فيه عندما رآها تهارب لتتقى أثر دخانه ، وأطلق عليها شرراً كهربائياً ، وعجب لما رآها تطاش وتميد ، ثم تتمطى وتموت سريعاً

قال اسبلنزانى : « إن بذور هذه الأحياء الدقيقة أو بيضها قد يختلف عن بيض الدجاج أو بيض الضفدع أو بيض السمك ، وهذه الأحياء نفسها قد تصمد للماء الغالى فى قباباتى المختومة ، ولكن عدا هذا فهى يقيناً لا تختلف عن سائر الحيوانات » . ولم يكد أن ينطق بهذا اليقين حتى عاد يسترد ما انفلت به من أنفاسه

فذات يوم وقد انفرد فى معمله قال لنفسه : « كل حيوان على ظهر هذه الأرض لا بد له من الهواء ليحيا ، وإذن فلأتبين حيوانية هذه الأحياء الصغيرة فأضعها فى فراغ خلو من الهواء وأرقبها وهى تموت » . وبيراعة بينة مط بالنار من أنبوب الزجاج السميك أنبوباً شعرياً رفيعاً كما كان يصنع « لوفن هوك » وغمس أنبوبة منها فى مرق يعج بتلك الأحياء ، فصعد فيها منه شىء . وأساح أحد طرفيها فى النار فسده ، ووصل الطرف الآخر المفتوح بمضخة قوية لتفريغ الهواء ، وشغلها ، ولصق عدسته بجدار أنبوبة الزجاج الرفيع ، وأخذ يصوب بصره إلى تلك الأذرع الدقيقة التى منحها الله لتلك الأحياء لتجدف بها فى الماء ، وظل يرقب من ساعة لأخرى علّه يجد فى حركتها المنتظمة الهادئة ميدانا وطيشانا ، وأخذ يتربص الفناء بتلك الأحياء ، ولكن المضخة ظلت فى دورانها ، وظلت الأحياء فى جريانها وروغانها متناسية صاحبنا العالم ومضخته البديعة ، متجاهلة هذا الهواء الذى يقول بلزومه لحياة الأحياء . وعاشت أياماً . وعاشت أسابيع . وأعاد اسبلنزانى تجربته المرة بعد المرة . هذا غريب ! . هذا محال . لا يعيش حى بلا هواء ، كيف تتنفس هذه الأحياء . وكتب الى صديقه « بونيت » Bonnet متعجباً مستغرباً : —

« إن طبيعة هذه الحُيَيْوانات مدهشة . فانها تعيش فى الفراغ مثل عيشها فى الهواء ، وتنشط فى هذا نشاطها فى ذلك ، فهى

تعلو فى السائل ثم تهبط ، وهى تظل تتكاثر فيه أياماً . ألا ترى فى هذا عجبا ! ألم نقل دائماً أنه ما من حى يستطيع العيش من دون هذا الهواء »

كان اسپلنزانى مُعجباً بقوة خياله ، معجباً بسرعة خاطره ، وزاد إعجاباً بنفسه ، وزاده غروراً إعجاب طلبته ، ومَلَق الأوانس والغوانى ، وإطراءُ الأساتذة العلماء ، وتقريب الملوك الفاتحين . ولكنه كان الى جانب خياله يتعشق التجربة ، بل هو يقضى حقوق التجربة أولاً ثم يخال بعد ذلك ، فان هى عارضت خاطرة بديعة من خياله الخصيب فسرعان ما كان يقر بالحق ، وينزع عن خواطره مهما بلغت من الأبداع

وفى هذه الأثناء كان هذا الرجل الأمين ، الغالى فى أمانته فى كل مايتعلق بتجاربه ، هذا الرجل الذى كان لايخط قلمه إلا الحق الذى يجده بين روائحه الكريهة وأبخرته السامة وأدوات معمله اللامعة ، هذا العالم الجليل الأمين ، نعم أعيد فأقول الأمين ، كان يتدنى الى الحيلة الخسيسة لتزيد مرتبه فى جامعة باڤيا . هذا الرجل الشديد ، لاعب الكرة ، الكشّاف ، متسلق الجبال ، يأتى الى عاصمة النمسا متخاذلاً متواعكاً متأوهاً متوجعاً ، يشكو الى رجال الحكم فيها سوء صحته ، ويقول إن ضباب باڤيا وأبخرتها تكاد تقتله . وأراد الامبراطور أن يستبقيه فزاد أجره وضاعف إجازاته . وتحدّث اسپلنزانى عن هذه الواقعة فضحك وسماها فى خبث مداورة سياسية . هذا الرجل كان يصل الى الغاية التى يريد فلايقف شىء فى سبيله . يريد الحقيقة فينالها بالتجربة البارعة والملاحظة القريبة والصبر المضنى ، ويريد المال والترقى فيناله بالعمل الشاق وأحياناً بالحيلة والكذب ، ويريد أن يتقى ظلم الكنيسة واستبدادها فينال ذلك بدخوله قسيساً فيها

ولما كَبِر وطالت به السنون تشهى الى تجارب غير تجارب معمله ، تجارب صخّابة عنيفة يطلق فيها القياد لنفسه وحسه ، فاعتزم أن يزور موقع طروادة القديمة لأن قصتها كانت تهزه هزاً ؛ واعتزم أن يزور الشرق بحريمه وأرقائه وخصيانه ، فقد كان يعتبر هذه الأمور جميعاً جزءاً من التاريخ الطبيعى كوطاويطه وضفادعه والحيوانات الصغيرة التى بنقيع بذوره . وشغَّل الشفاعات ، وأعمل المحسوبية ، واتصل ورجا ، حتى أعطاه الامبراطور إجازةَ عام ، وأعطاه نفقة السفر الى القسطنطينية ، كل ذلك لاستعادة صحته واسترداد عافيته ، وعلم الله ماكان أحسن صحته وأتم عافيته

وقام اسپلنزانى فاختزن قباباته ، وأغلق معمله ، وودع تلاميذه وداعاً حاراً استطاع أن يذرى فيه ما تيسر من الدمع . وركب البحر الأبيض فاعتوره دواره وآذاه إيذاء شديدا ، وارتطمت سفينته بالصخر وتحطّمت . ولكنه استطاع أن ينجو وأن يُنجى ما كان قد جمعه من بعض جزائر البحر ، وجاء السلطان فأولم له وسقاه وأكرم وفادته ، وأذن له أطباء السراى فى دراسة عادات السرارى الجميلة . . . . . . وبعد كل هذا قال للأتراك ، وهو الرجل الأوربى الطيب — رجل القرن الثامن عشر — قال لهم إنه يعجب بكرمهم ، ويعجب بعماراتهم ، وما تضمنته من الفن الجميل ، ولكنه يمقت استرقاقهم للجوارى والعبيد ، ويمقت استسلامهم للأقدار والأقسام . فكنت تخاله يقول لصديقه الشرق ، والشرق رجل جامد ، تقوم حوله الدنيا وهو قاعد ، وتجرى عليه الأيام وهو مركوم ، وتنبو عنه الحوادث وهو ملموم ، كنت تخاله يقول له : « نحن الغربيين سنفتح بعلمنا الجديد هذا من الأمور مالا يفتح ، ونجتاز به مالا يرجى اجتيازه ، وسنمحو عن الانسان وبنى الانسان هذا العذاب الأبدى والشقاء السرمدى الذى يئست الدهور من محوه » . كان اسپلنزانى يؤمن بالله ، ويؤمن بقدرته وجبروته ، ولكنه كان بحّاثاً نقاباً طلاباً للحقائق فكانت تغلبه غيرة الباحث وروح المنقِّب على كل ما يقوله ، وتسيطر على كل ما يفكر فيه ، حتى ينسى الله ، وحتى ليعتذر عنه آناً فيسميه الطبيعة ، وآناء أخرى فيسميه المجهول ، وحتى دفعته الى أن يُنصِّب نفسه شِبْه وكيل أول لله ، يفتتح وإياه مجاهل هذه الطبيعة الغامضة ويكشف أسرارها

وبعد أشهر عديدة قضاها فى الشرق عاد أدراجه ، لا عن طريق البحر هذه المرة ، بل عن طريق البلقان ، وأنفذت معه الحكومات من الجند أصوبهم رماية ، وأولم له أشراف البلغار وأمراء الأفلاق . وأخيرا دخل ڤينا عاصمة الامبراطورية وذهب الى الامبراطور يوسف الثانى ، صاحب نعمته وراعيه ، ليقضى واجب الشكر ويقدم فرائض الاحترام . وكانت هذه الساعة أنعم ساعات حياته ، وأملؤها بالمجد ، ذلك المجد الذى يعطيه الملوك والأمراء . وأسكرته خمرة تلك الساعة ، وذهب دبيبها الى رأسه ، ومشت سورتها الى أعماق نفسه ، فكنت تسمعه يقول : « ما أحلى تحقق الأحلام » . ولكن . . . .

(يتبع)

احمد زكى

الى الأستاذ مصطفى صادق الرافعي

رؤيا في السماء

بقلم الأديب فليكس فارس

إنك تتناول أدق المباحث الأجتماعية التي شغلت ومازالت تشغل المفكرين في كل عصر وفي كل بلاد ، تتناولهـا وتخوض غمارها معتكفاً على موضع السر في ثقافتك العربية ، مستنيراً بأضواء الـكتاب الحق وحكمة من اهتدوا قبلك في هذا الشرق النيّر ، فكانت عبادتهم فلسفة ، وكانت صلواتهم استغراقاً وتفكيراً

كثير من مجددي الأنشـاء في هذا الزمان ينحرفون عن ثقافتهم وغرائزهم القومية ، فينتحلون مذاهب كتّاب الغرب وأساليبهم ، أما أنت فمن الفئـة القليلة الآخـذة بروح الشرق لأحياء الشرق ، النافخة في الأحفاد أرواح أجدادهم

قرأت لك في منارة العرب الوهّـاجة ، في (الرسالة) ، ماتتحف به العالم العربي من طرائف وبدائع ، فأيقنت أنك من الـكتّاب العالميين الذين يستمدون آياتهم من الألهام ، ويستجلون الحقائق من قلب الحياة الخفّـاق ، وما أقل من ينحنون على أنفسهم في هذه البلاد حين يكتبون ! وما أكثر من يستطبعون الرواسم وينقلون مقلّـدين مشوهين !

بين مانشرته لك (الرسالة) قطعة (رؤيا في السماء) وقفت عندها مأخوذاً بروعتها ، فأردت أن أنقلها الى اللغة الفرنسية لنشرها في مجلة أدبية في باريس ، وقد ترجمتها فجاءت بما أبقيت لها من أسلوبك الفخم دليلاً على استقلال لغـة العرب عن كل هذه الأساليب التي ينتحها أكثر كتابنا مأخوذة عن الأسلوب الغربي ، وعلى تفرد بيانها بهذا الايجاز المعجز وفيه سر سحرها وبهائها

إن في مقالك من الدفاع عن حق الحياة وواجبات الحياة ما يمرز الوحي الذي أنزل على عيسى ومحمد (عليهما السلام) تحت سماء الشرق ، فلم ينفذ الغربيون الى كنهه في مبادئ المسيحية إذ ذهبوا منها في مسألة التبتل مذهباً أتى به الحواري بولس متأثراً بفلسفة الرومان وضائقـــة أزمنة الاضطهاد ، لذلك ترى الأمم الغربية عند ما تقف واجفة من تناقص النسل تهب الى معالجة الاخطار المحدقة بها متوسلة بنظريات الـكفاح والتفوق على الأمم المجاورة ، فهي ترمى طغمات الأطفال فيالق للجهاد في ساحات الحروب من أجل المال ، وكتـلاً من لحم تعصرها الآلات عصراً فتتدفق بدمائها رحيقاً تتجرعه المدنية سماً زعافاً

إن الغربيين ليفوتهم أن يحاربوا أعـداء الأسرة والنسل بالمبادئ الروحية تتناول ماوراء هذه الحياة . وما أذكر مما قرأت لـكتاب الغرب أنهم شعروا بالأبوة كما شعرت بها أنت مخترقة حجاب الموت لتتجلى عند هدفها الأسمى في عالم الخلود

إن الأدب الغربي يقف بالأبوة عنـد نهاية الشطر الفاني من الحيـاة ، فهو يرى الأرحام تدفع بالأجنة للقبور لا للأبد ، لذلك أردت ألا يفوته ما أتيت به في مقالك الرائع من دعوة هي أقوى ما يتوسل به داع إلى حق الله في تناسل عباده . وقد ترجمت هذا المقال لا مباهاة بروح الشرق العربية التي تهب من كل سطر فيه فحسب ، بل لأنشر أيضاً في الغرب ما استوحته عبقريتك الشرقية من مبادئ الهداية الخالدة

إن هذا الحديث الذي أنطقت به أبا خالد وشيخه أبا ربيعة ، لخير ما ابتكرته الآداب العالمية في هـذا المطلب ، وهذه الرؤى التي تقبض على الروح وترفعها قسراً إلى عالم الخفاء لتبسط من الحق أمام التطلعين إلى ماوراء المادة ما يشعرون به في قرارة نفوسهم وينكرها عليهم عقلهم المنتبه المحلل الغارق في لجج الزائلات من قوة ومال ودول وجنود وحروب

غير أنني قبـل أن أعلق على مقالك بما لا أرى بداً من إيراده بالفرنـسية ، أجدني مضطراً لايضاح وجيز لا أراك تضن به ، فان في ختام مقالك ما يفسح للفكر مجالاً للذهاب مذاهب تختلف اختلافاً بيناً عند النتيجة التي ترمى إليها

قلت : إن أبا ربيعة وقف في آخر حلمه تمر به طغمة الخالدين وتلق إليه بكلمة (المشئوم) حتى مر غلام هو آخرهم فقال له :

« كنا نرفع عملك في أعمال المجاهدين في سبيل الله ، ثم ماتت امرأتك وتجزنت على ما فاتك من القيام بحقها ، فرفعنا عملك درجة أخرى ، ثم أمرنا الليلة أن نضع عملك مع الخالفين الذين فروا وجبنوا »

فهل لك أيها الأستاذ الـكبير أن تأتينا بايضاح عما رآه الحق

٣ ـ الأمير خسرو

الشاعر الهندى الكبير

للسيد أبى النصر أحمد الحسينى الهندى

إن اتصال الشعر دائماً هو بالماضى وبالحال ، فان اتصل بالمستقبل فذلك بواسطة الحاضر . فما يقدمه لنا الشعر إما من قبل « كان » أو « يكون » : ولكنه يجمع ويرتب الحقيقة من جديد . لذلك حينما يسعى لاخراج فكرة من تلك الأمور الواقعية وتنافرها ونقائصها ، يميل بطريق راهن إلى ما لم يجمع ولم يرتب . فالشاعر لا يمثل الواقع كما هو ، بل يخلقه من جديد بقوة خياله . لذلك ليس الشعر هو التمثيل البحت للحقيقة ، بل الخيال دائماً يكون أعظم جزء فى أساسه . هذا ما يشرحه لنا شعر خسرو فى البيتين الآتيين [1] قالهما فى مدح كرم حاتم خان قال :

قلت للبحر أنت كريم مثل خان

فأجاب بصوت مرتجف لا ! لا !

إن أمواجى الشحيحة تُلقى عشباً لا قيمة له

ولكن حاتماً يبعثر الجواهر فى نحره الكريم

إن الشاعر يجد فى سعة الطبيعة مستودعاً كبيراً للأشباح والصور التى تعبر عن أدق المراتب للفكر الانسانى وعواطفه . فى هذا المستودع تطوف روحه طليقة ، وفيه تدبر وتفكر حتى تنتج . فالشاعر يشعر بكل مظهر حوله كأنه رمز لشئ يتعلق بالعالم الآخر ، وكأن كل شئ مؤثر فى حواسه شبيه بالغائب المحجوب ، وكأن الطبيعة بأسرها محبوكة كالأعضاء بالمشابهة والمماثلة بما هو خفى فيها ، وكأن كل وجود مستقل متصل فى جميع فروعه بغيره بواسطة رمز دقيق . وهذا هو الفرق بين العلم والشعر ، فان العالم يقسم ويحلل والشاعر يجمع ويركب . فأنت ترى كيف أن خسرو جمع بين رفع الحجاب عن وجه محبوبه ، وطلوع الشمس ، وصلاة الصبح ، فى البيت الآتى وأوجد بينها الاتصال الشعرى الدقيق الجميل قال :

برداشت طره أزرخ چون روزرفن كرد

برمن نماز صبح بوقت نماز شـــام

كشف (الحبيب) القناع عن وجهه عند مادُفن

النهار ، (فأوجب) على صلاة الصبح فى وقت الليل

إن أهم ناحية من نواحى الشعر هى الحب والغرام ، وقد قالوا إن من حسن الشعر وجماله أن يكون له اتصال بنفسية الشاعر ، وأن يكون عليه مسحة من تجاربه النفسية . وبخاصة فى هذه الناحية ، فانه إذا تجرد عن ذلك أصبح تصنعاً وخداعاً . والشعر فى هذه الناحية يصور تصويراً شعرياً دقيقاً ما بين قلب المحب والمحبوب من الأثر والتأثر ، والجذب والانجذاب ، والعزم والانثناء ، والصبر والجزع ، والرضا والسخط ، والهجر والوصال . وشاعرنا العاشق قد صوره فى غير واحد من الديوان وعبر عن حبه بآلاف من الأبيات . نقتطف بعضها هنا قال :

دلم به ناوك جشمت هزار وزن شـــد

زصـــورت تو بهر روزن آفتابى هست

شب من أزجه سبب تيره ترشود هرروز

جوازرخ توبهر خانه ماهتـــابى هست

« إن سهم عينيك قد ثقب قلبى آلافا من الثقوب ، وفى كل ثقب شمس محياك طالعة . »

« لِمَ تظلم ليلى كل يوم مادام قمر وجهك طالعا فى كل بيت . »

(١) كذلك راجع الأبيات التى قالها خسرو فى مدح ملك شجو . وقد نقلناها إلى العربية فى المقال الأول فانها أكثر دلالة من هذين البيتين على ما قلنا . وقد ضربنا صفحا عن نقلها هنا خوفاً من الاسهاب والتكرار

تخلفاً وجبنا فى أبى ربيعة . فهل استحق هذا الشيخ نعته بالمشئوم لأنه ، وقد استهوته عظة رفيقه ، آلى على نفسه أن « يحول المرأة التى كانت فى قلبه إلى صلاة » فأراد قتل تذكارها بالوفاء لله دون الوفاء لها فى قبرها . أم كان ذلك لأنه قرر التبتل بعدها فلا يأخذ من بنات حواء من تقوم مقامها

إن من ينظر إلى حديث الشيخين ويأخذ بما ورد فى القصة وفى ختامها ليقف مخيراً محتاراً بين السببين ، وليس غير الأستاذ الكبير من يزيل هـذا الابهام فيأتى بمقال عن مسألة لها مكانها بين العقد الاجتماعية ، فيقول لنا ما إذا كان المثل الأعلى فى العلاقة الزوجية محبة الشخصية فى الأنوثة أم محبة الأنوثة ، فى الشخصية

اسكندرية فليكس فارس

رئيس قسم الترجمة فى البلدية

وقال :

عاشق شـدم ومحرم اين كارنه دارم
فرياد كه غم دارم وغمخورانه دارم
يك سينه برار قصه هجراست وليكن
ازتنكد لى طاقت كفتـارنه دارم

« إنني عشقت وليس من يعرف عملي هذا . واحسرتاه ! عندي ألم ، وليس لى رفيق فى الألم »

« إن صدري مملوء بحكاية هجر (المحبوب) ، ولـكنى من ضيق صدرى لا أقدر أن أعبر عنها . »

وقال :

جندى برمى كه خسرو راكه كشت
غمـــزه توجشم توا بروى تو

الى متى تسألين من قتل خسرو ؟
ماقتله إلا لحظك وعينك وحاجبك

وقال :

بجان رسـيدم وازدل خبر نمى يابم
وزآنـكه برد دلم نيزا ثرنمى يابم

وقال :

بهارآن وكلها شكفت ليك چه سود
كه بوى توز نسيم سحر نمى يابم

« دنوت من الموت وليس لدى خبر عن قلبي ، ولا أجد أثر من خطفه . »

« جاء الربيع وتفتحت الأزهار ، ولـكن لا فائدة لى منه ، لأنى لا أجد ريحك فى نسيم الصبح »

وقال :

مردمان درمن وبيهوشى من حيرانند
من درآ نـكس كه ترابيند وحيران نشود

« يعجب الناس منى ومن فقدان صوابى ، وأنا أعجب ممن يراك ولا يفقد الصواب »

وصف أرسطو الشعر أنه رمز إلهامه أو محاكاة عمل ذلك الالهام . وذهب دانتى إلى أن عمله هـذا أيضاً رمزى ، فالـكلام الشعرى الذى يقوله الشاعر لا يمثل ذلك العمل فى شكل وقوام فنى خاص ، بل يقدم فيـه المعنى الرمزى له . فأنت ترى خسرو كيف رمز إلى شدة معاناته فى الحب فى البيت الآتى حين أشار إلى أنه عرف قدر الليل بألم الأرق ، ولـكنه لم يقدر أن يقيس ليلة الهجر بألم الهجر العظيم حتى بعد معرفة الليل ، فإن مقياس إدراك الأسباب للآلام هى الآلام قال :

« ازين دو ديده بى خراب شب شناس شدم ،
ولى قياس شب هجر درنمى يابم »

« إنى عرفت قدر الليـل بعينى هذه المؤرقة ، ولـكنى لم أجد قياساً لليلة الهجر »

قال شبلي : إن الشعر ليس له أثر أخلاقى بغير تعيين ناحية خاصة من نواحى الأخلاق . لأن حقيقة الأخلاق عنده هى الحياة الفكرية فى أعلى سموها وأبهى جمالهـا . ومظهر حيوية الفكر الخيال الذى يغذيه الشعر . ففى الشعر نعيش فى العـالم الذى يصدر منه شعورنا بغاية الأشياء وبالخلق العملى فالأبيات الآتية لخسرو تبين لك ماذهب اليه شبلى قال ما ترجمتـه :

« مادام الحبيب معنا فلم نستعجل رؤيته ؟ ومادام يوسف فى مصر قلبنا ، فَلِمَ يجرى نهر النيل من عيوننا ؟ »

« طلبت منه قتلى بلحظه القتـال فقال ، مادام الصياد فى كمين فلماذا يستعجل الصيد ؟ »

« إن سالـكى طريق العشق لايبالون بالراحة والألم ، إن عشاق الـكعبة لايسألون عن الطريق والميل »

(البقية فى العدد القادم)

السيد أبو النصر أحمد الحسينى الهندى

موكب آذار

الربيع

لشاعر الشباب السوري أنور العطار

عضو المجمع الأدبي

كل شيء هنا يغني ويحيا
نغماً ممتعاً وشدواً عجيبا

ياحبيبي أفق فقد ضحك الرو … ضُ وأبدى جماله المحجوبا
واستعاد الوادي الأنيس سناه … وبنى الطير عشه المخروبا
طرب القلب فانتشى وتغنى … ومن الحب أن أعيش طروبا
وأنا الشاعر الذي يغمر الأر … واحَ ضحكاً وما يريم كئيبا
في فؤادي اللهيف داء قد استع … صى وجرح يمضي تعذيبا

* * *

ياحبيبي دنياك تطفح بالحسـ … ـن فخذ للفؤاد منها نصيبا
هات ناي الهوى وقم نملأ الأكـ … وان من سكرة الغناء ضروبا
لا ترع فالحياة يوم ويمضي … ليس يرجى لطيفه أن يؤوبا

* * *

رفرف الروض وازدهى وتجلى … رائعاً فتنة العيون قشيبا
هو ذا موكب لآذار حلو … يتمشى على السهول لعوبا
ملأ الأرض والسموات عطراً … ونفى الهم والضنى والشحوبا
وعلى معطف المروج تراءت … قُبَلٌ للربيع تنفح طيبا

* * *

اليواقيت في النواظر ذابت … وجرى السحر بالضياء مشوبا
جدول يترع القلوب غناء … ظل من موجه السني سكوبا
ألمس النور في تلاميعه الزهـ … ـر وأشتم روحه المحبوبا
وأرى العطر وهو هيمان في الدو … ح يناجي في غصنه العندليبا
وأحس الحياة تركض في العشـ … ـب وتسري بين الحقول دبيبا
نفس هامس وآخر شاد … ورؤى هم سحرها أن يجيبا
كل شيء هنا يغني ويحيا … نغماً ممتعاً وشدواً عجيبا
ها هنا تسمع الأناشيد أذني … وترى العين في كراها الغيوبا
ها هنا يركن المحب إلى الأنـ … ـس ويغفي الفؤاد إلا وجيبا

* * *

ياحبيبي أفق فهاذاك طير الـ … ـحب قد أسكر الربا تطريبا
تتراءى له السموات ألحا … ظاً وتبدو الأرض الفضاء قلوبا
ياحبيبي هنا الهوى فاغتنمه … لست عن جرحه العميق غريبا
لك من هذه الدغال أليف … يتصباك فاتناً وحبيبا

* * *

ورياض فيها العشاش تغنى … فيذوب الغناء خمراً صبيبا
إن هذا الجمال ياقلب نهب … فابتدر نخطف السنا المنهوبا
إحي للنور، للمسرة، للشد … وِ، وخل الأسى وخل النحيبا

دمشق — أنور العطار

زهرة آذار

بقلم أمجد الطرابلسي

(مهداة إلى صديقي أنور العطار)

يا زهرةً بعد طويل الأسى … جادت بها أفراح آذارِ
حُيِّيتِ بل قُدِّستِ من زهرةٍ … رفَّت رفيف الحلم الساري
حُيِّيتِ من منهوة كالصبا … محمرة كاللهب الواري

* * *

طلعتِ فانجابت غيوم الأسى … من بعد أرياح وأمطارِ
بسمتِ للروض وحييته … تحيةَ الغائب للدارِ
فضج بشراً واكتسى حلة … بيضاء من نور ونوارِ
وانبعث الورق بأفيائه … تشدو لآصال وأسحارِ
ودغدغت أفنانه نسمة … تخطر بين الآس والغارِ

* * *

تالله ما أدري أيا زهرتي … ما هجتِ في قلبي وأشعاري
تركتِ قلبي أيَّ مستعبرٍ … ينزو، ودمعي أيَّ مدرارِ

(البقية في الصفحة التالية)

القصص

من أساطير الإغريق

پرسيوس وأندروميدا
والجرجون الثلاثة

للأستاذ دريني خشبه

في إحدى مدن الشاطئ الأغريقي ، كانت تعيش أميرة جميلة تدعى « داناي » ، هي وابنها الوحيد الجميل پرسيوس ، الذي كتب عليه أن يحرم من صدر والده الحنون ، ذلك الوالد الذي طوحت به أسفاره ، فشط مزاره ، ولم يعد أحد يعرف أين انتهى قراره

ولقد كان هذا الوالد — فيما يظهر — على جانب عظيم من البأس وقوة الجانب ، حتى لقد فرح أهل المدينة لبعده فرحاً شديداً ؛ ولخوفهم من أن ينشأ طفله پرسيوس على وتيرته ، تآمروا فيما بينهم على نفيه هو وأمه من جزيرتهم في زورق صغير يدفعون به الى اليم ، والأمواج المتلاطمة كفيلة ، ثمة ، باجراء حكمها فيهما ..

يا للوحوش ! لقد أنفذ الأشقياء تدبيرهم ؛ وتناوحت الأمواج حول الزورق تقذف به هاهنا وهاهنا ، والأم المسكينة تغالب أحزانها وتنسى مخاوفها ، فتغني لطفلها الراقد في حضنها ، وتدلله ، كي ينام ، وكي يكون بنجوة من فزع هذا البحر المصطخب

وبعد أن كان الموت المحقق قاب قوسين من هاتين الفريستين ، وبعد أن كانت كل موجة تشق للزورق قبراً في أعماق الماء ، شاءت العناية أن تسخر موجة هائلة تدفع به ، في هوادة ورفق ، إلى ساحل جزيرة نائية في وسط المحيط . وهناك ، نزلت الأم الموهونة متهالكة على نفسها ، حاملة وديعتها البريئة ، شاكية الى الآلهة صنع الانسان بالانسان . ولمحت في الأفق قرية متطامنة ، فيممت شطرها ، وما فتئت تتعثر في خطاها حتى بلغتها . والشمس تتوارى بالحجاب

ورحب الناس بالضيفين البائسين ، لأن دينهم كان يأمرهم بإيواء أبناء السبيل ، وإكرام الغرباء واللاجئين ؛ فعاشا ناعمين ، وشب پرسيوس سليماً من الآفات ، مكتنز العضلات ، بادي الفتوة ، موفور القوة ، عذب اللسان ، مشبوب الجنان ، وأحبه الناس وأعجبوا به ، والتف الجميع حوله يصغون الى أحاديثه العذاب ،

لولا هوًى أجّجتِ في خافقي ما صغتُ يوماً فيه أشعاري
أحييتِ في قلبيَ مَيْتَ المنى وهجتِ أحلامي وأسراري
.. أأنت من نارِ الحشا جمرة؟ أم أنتِ ملآى بدمي الجاري!
أنرْتِ هذا الروضَ يا زهرتي كما أنارَ الحبُّ أغواري
ألم يكنْ قلبي قُبَيْلَ الهوى يا زهرتي ، كالهيكلِ العاري
كهفاً يَئِنُّ الحزْنُ في جَوْفهِ أنينَ أرياحٍ وأوتارِ
مستوحشاً قفراً سوى عاصفٍ للشكِّ ، يلهو فيهِ ، موّارِ
كيف منّي لم يُبقِ منها الأسى غيرَ خيـــالاتٍ وآثارِ
حتى إذا ما حلَّ فيهِ الهوى مِنْ بَعدِ أحزانٍ وأكدارِ
تفتّحتْ أحلامُه بهجـةً تفتُّحَ الزهرِ لآذارِ

* * *

إيهِ أماني القلبِ ماذا ترى يُخفي لكُنَّ الزمنُ الضاري ؟
أخشى عليكُنَّ غداً حالكاً يجرى بأسرارٍ وأقدارِ
عوّدَني دهريَ خُلْفَ المنى وهـــدمَ آمالي وأوطاري
هذا صباىَ الغضُّ ، وا لهفتا ، كمْ مأملٍ لي فيهِ منهارِ
... ...
يا زهرةً بعدَ طويلِ الأسى جادتْ بها أفراحُ آذارِ
أيّ المنى في القلبِ أيقظْتِها معسولةً ، بل أيّ تذكارِ ؟

دمشق أمجد الطرابلسي

وقصصه الرطاب . . . وتسامع الكل به ، وترامت الى ملك الجزيرة أخباره . فشغله انصراف الناس اليه ، وافتتانهم به ؛ وكان (قاتله الله) ، غيوراً رعديداً ، فآلى أن يكيد له ، ويدبر حيلة يقصيه بها عن طريقه ، ليطمئن على نفسه . . . وعرشه ؟

وكان فى إحدى الجزر النائية ثلاثة من الجُرْجون الضارية ، وهى أفزع ما جاء فى أساطير اليونان ، وكل من هذه الجرجون تِنّين هائل له رأس امرأة ، ويدان من النحاس الأصفر الصلب ، ذواتا أظافر حادة ، تنفذ فى أقسى المعادن وأصلبها ، وليس لها شعر فى رءوسها كما للنساء ، بل لها ، عوضاً عن الشعر ، حيات وأفاع ذات رؤوس مرعبة تنفث السم الزعاف . وقد أوتيت قوة خارقة ، لتستطيع إحداها أن تقصم جذع النخلة بضربة ضعيفة من ذنبها الجبار ! وليست هـذه الجرجون مخيفة بسمها وقوة بنيتها فحسب ، بل الأدهى والأمر ، هو هـذا السر الدفين فى عيونها ؛ إذ كل من جَرُؤ على النظر الى هذه العيون ، يتحول فى الحال الى صنم من الحجارة لا يتحرك ، ولا يعى ! !

وكانت الجرجونة (مِديوسا) أفظع أنواع الجرجون جميعاً ، ولذا كانت أختاها الأخريان محترماتها ، وتسهران على راحتها

ولكن ماذا اعتزم الملك الجبار فى كل ذلك ؟ لقد دبَّر أن يُغرىَ پرسيوس بالذهاب الى جزيرة الجرجون لقتل (مديوسا) والاياب برأسها كأحسن هدية تقدم الى ملك . وكان هذا الرجل الخبيث يعلم تمام العلم أن مجرد محاولة الذهاب الى جزيرة الجرجون هو ضرب من الجنون لا يقدم عليه إلا المأفونون ، فان نظرة واحدة من عين مديوسا كفيلة بوضع حد لكل شىء

وأرسل الملك الى پرسيوس فمثل بين يديه ، وطفق يكيل له المدح جزافاً ، ويبالغ فى الثناء على ما ترامى إليه من أخباره ، وضروب شجاعته التى يتحدّث بها الجميع .

وامتلأ پرسيوس ، الفتى ، زهواً ، وشاعت فى أعطافه الكبرياء ، وراح هو بدوره يشكر للملك حلو ثنائه ، وجميل إطرائه ، فما إن أدرك الملك ما بلغ ثناؤه من قلب پرسيوس الغرير ، ونفسه الصغيرة ، حتى أخبره بما انتدبه له ؛ فقبل الفتى المسكين وهو لا يدرى ماهى هذه الجرجون ، ولا أين الجرجون ؟

* * *

وانطلق من فوره ، وأرسل الملك من حاشيته من أبلغوه خارج الأسوار ، فى مهرجان فخم ، وموكب أنيق . ثم غربت الشمس فغُلّقت الأبواب ، وجلس پرسيوس على صخرة عظيمة مشرفة على البحر يفكر فى هـذه الجرجون ، وينظر الى القمر يشرق من الاثباج ، فيفضض الموج ، ويخور به البحر رجرجاً من لُجين ! ويذكر فجأة أنه لم يودع أمه ، ولم يتزود منها قبلة أو دعاءً لهذا السفر الطويل . فيبكى . . . ويبكى بكاءً مراً !

وتصدع قلبه حينما خيل إليه أنه قد لا يعود اليها ، مع أنه عزاؤها الوحيد فى هذه الحياة !

وانتصف الليل !

وفيما هو غَرق فى لجة الفكر ، شَرِق بوا كف الدمع ، إذا بصوت رقيق يناديه من فوق الصخرة المقابلة : « پرسيوس أيها العزيز ! فيم بكاؤك ؟ ولِمَ تذرف كل هذه الدموع ؟ لقد هِجْتَ الآلهة ، وأحزنت أرباب الأولمب ! » . ونظر پرسيوس ليرى مَن صاحب هذا الصوت الرخيم الذى يناديه ، فعجب عجباً شديداً ! لقد رأى مخلوقاً جميلاً مشرق الجبين ، يترقرق البِشْر فى وجهه ، لا يُعقَل أن يكون بَشَراً ! يلبس فوق هامتـه قلنسوة ذات أرياش وأجنحة ، وفى قدميـه نعلان غريبتان يتصل بكل منهما جناح كجناح البازى ، وفى يده عصا سحرية تتلوى بطرفها الأعلى ثعابين وحيات ! !

على أن پرسيوس لم يعلم أن الذى يتحدث اليه ، إن هو إلا الآلـه هِرْمِز[1] رسول الآلهة بين السموات والأرض . الذى لا يفوقه فى سرعته أحد

وبعد ، فلقد قص پرسيوس قصـته على هرمز . وما فرغ منها ، حتى قال الآلـه له : « بُنى ! إنك مُقْدم على أمر جلل ، وشأن بعيد المدى ، صعب المنال . ولقد أراد الملك اهلاكك حين اختارك لهذه المهمة ، لأن أحدا لا يجسر على الذهاب الى جزيرة الجرجون إلا إذا كان أحمق أو مجنوناً ! ولكن اصغ الى : انك لابد فائز إذا عملت بوصاياى ، ولم تحد عما أشير عليك به . وسأذهب عنك لحظة ، ثم أعود اليك بآلاء من الآلهة ، تقرب لك النّجح ، وتسهل عليك كل شاق من أمرك . فانتظر » . ورق هرمز ، ثم غاب فى السماء ، وبهت پرسيوس حين رآه يطوى الأديم الفضى ، ويطرق أبواب أورانوس[2] !

* * *

وقص هرمز قصة صاحبه على الآلهة ، فرثت للفتى المسكين وتحركت فى قلوبها الرحمة العلوية ، التى طالما تنهمر من السماء ،

---

(1) هرمز هو الذى يسميه الرومان ميركورى والعرب عطارد ، وهو قائد أرواح الموتى بين الدنيا والآخرة (2) السماء

لتغسل آلام الأرض : وتعاهدت أن تؤازر پرسيوس ، وتمده بكل ما يسهل عليه أشق أمره . فنزل پلوتو ، إلـه الموتى ، عن قلنسوته التي تخفى من يلبسها فلا يراه أحد ؛ وتبرعت مينرفا(١) بترسها الذي يحمى لابسه من حراب الأعداء ، وهو درع ثمين من الذهب الخالص ، يلمع لمعاناً شديداً ، حتى لينعكس المرئيات في صفحته ، كأنه السجنجل

وحمل هرمز المنحتين ، وعاد بهما الى حيث يجلس پرسيوس فقدمهما اليه ، وزوده بجُرازه الملتوى القاطع ، الذي ليس كمثله سيف ولا حسام . ومنحه نَعْلَيه المجنَّحتين ، اللتين تسبقان به الريح ، فلبسهما ثم قال له : « تلك يا پرسيوس هدايا الآلهة أسبغها عليك . بيد أنه ينبغي قبل كل شيء أن تذهب معي إلى هذه الجزيرة القريبة حيث تقيم ثلاث إناث من السيكلوپ ذوات العين الواحدة ، فتحتال عليهن حتى تعرف منهن موضع جزيرة الجرجون ، لأن أحداً من العالمين لا يدرى أين موضعها بالضبط غير هؤلاء السيكلوپ . سر إذن على بركة الآلهة في أثرى ، واحترس لنفسك ، والسماء تكلؤك . »

وكم عجب پرسيوس حين رآه يطير في إثر هرمز ، والبحر من تحتهما تتلاطم أمواجه ، ويعج عجيجه ، وهما من فوقه كالعصافير المهاجرة ، وحطّا في الجزيرة المنشودة ، بعـد أن دَوّما فوقها طويلاً . وكان ذلك بالقرب من كهف حالك ، في منحدر صخرة صعبة المرتقى . وقد لمح فيه پرسيوس السيكلوپ الثلاث ، بفضل ترس مينرفا الذي كان يعكس في صفحته كل ما في الجزيرة

إنها مخلوقات غريبة حقاً ، ليس كمثلها شيء في الآفاق ، شاذة في خلقها ، عجيبة في تنسيق جسمها ؛ وهي إناث على كل حال ، يعشن في هذه الجزيرة المشوشبة ، بعيدات عن العالم ، منزويات في هذا الركن السحيق من أركان الدنيا . وأغرب ما في أجسامهن من شذوذ ، أنهن ليس لهن أعين كما للناس ؛ ولـكن لهن ، لثلاثتهن ، عين واحدة ! تركبها إحـداهن لوقت معلوم ، في حفرة غائرة من جبينها ، حتى إذا انتهى الوقت وجاءت نوبة السيكلوبة الأخرى ، نزعت الأولى تلك العين وأعطتها للثانية ، وهـذه تعطيها للثالثة بدورها ، وهكذا دواليك ، وبوساطة تلك العين العجيبة تستطيع السيكلوپ رؤية أصغر شيء في أقصى جهات العالم ، من دون ما مشقة ولا عناء

(١) اسمها پالا أثينا في الميثولوجية اليونانية وقد آثرنا هذه التسمية الرومانية لذيوعها

وبعد أن زود هرمز صاحبه بوصايا غالية ، انتحى ناحية قريبة ، واختبأ پرسيوس خلف شجرة باسقة : ولشد ما دهش إذ رأى إحدى السيكلوپ تقود أختيها ، وفي جبينها العين العجيبة ترمق بها أصقاع العالم ، وتحدث أختيها عما ترى . وبعد قليل ثار نزاع بين الأخوات على العين ، كلٌّ تريد أن تأخذ نوبتها ، وكل تدعى أن الدور دورها . وفيما كانت الأولى تنزع العين ، وتوشك أن تعطيها للثانية ، انقض پرسيوس فتسلمها من السيكلوبة ، دون وعى منها !! لأنها بدون العين لا تستطيع أن ترى شيئاً في العالم . وينشب نزاع شـديد بين السيكلوپ على العين ، كل منهن تتهم أختيها بأن العين معها وتدعى الانكار ، حتى وضع پرسيوس حداً لتنازعهن ، بأن هتف بهن : « أيتها الأخوات العزيزات ، لا تنازعن على عينكن ، فهي في هذه اللحظة معي وبين يديّ . » وانقضت السيكلوپ هلعات نحو مصـدر الصوت ، ولـكن هيهات أن يقبضن على شخص تحمله نعلا هرمز ، فلقد قفز قفزة هائلة ، أقصى بها نفسه عنهن ، ثم قال : « أيتها الأخوات العزيزات ! أنا أعلم أنـكن لا تستطعن الحياة بدون العين الغالية ، وأنا أعدكن بردها اليكن ، ولـكن بشرط واحـد : ذلك أن تُخبرنني عن المكان الذي تأوى إليه (مديوسا) وأخواتها الجرجون ، فان لم تفعلن فلا عين لـكن عندي . »

وهنا تميزت السيكلوپ من الغيظ وكدن لا يجبن بشيء ، لأنهن منهيات عن إذاعة أسرار العالم ، ولـكن إذاعة السر في هذه اللحظة أهون ألف مرة من هـذا العمى المطلق ، والظلام المبين يغطش حياتهن ، فأخبرنه بموضع الجزيرة ومأوى الجرجون فيها ، ولـكي يثق مما أنبأنه به نظر في العين التي بين يديه فرأى الجزيرة ، وأيقن أنهن لم يخنّه ؛ ثم إنه تحين الفرصة اللائحة ودفع بالعين في جبهة أقرب السيكلوپ منـه وغاب في الجو ميمماً شطر هرمز ، حيث وجده يمرح في غيضة ناضرة ، فتعانقا عناقاً طويلاً ، وشكره پرسيوس على جزيل مساعدته ، ثم افترقا على أن يبدأ پرسيوس رحلته إلى جزيرة الجرجون

* * *

وكانت رحـلة طويلة شاقة ، برغم نعلى هرمز . فـكم بحار طوى ، وكم وهاد رأى ، وكم ريح صرصر كافح ، وكم مشقة احتمل ، حتى وصل الى جزيرة الجرجون ! ولم ينس ما أوصاه به هرمز من وجوب النظر إلى أعلى دائماً حتى لا تقع عيناه على

عيني إحدى الجرجون فيحور حجارة صماء . وكان يتخذ من درع مينرفا مرآة صافية يرى فيها ما تمج به الجزيرة من كهوف وزروع وغابات . ولشد ما سر سروراً لا مزيد عليه حين وجد الجرجون الثلاث مستغرقات فى سبات عميق عند مدخل كهفهن السحيق . وفى وسطهن مدوسا العاتيـة . تغط غطيطاً مروعاً . فاستخار الآلهة ، وامتشق حُراز هرمز ، وتموّذ ثم تعوّذ ، ثم انقض كالصاعقة ، فأهوى على عنق مدوسا بضربة قاتلة ، انفصل بها الرأس عن سائر الجسد . وهنالك ، علا فحيح الأفاعى الباسقة فى رأس مدوسا ، تدمدم فى الـكيس الجلدى الذى ألقاها برسيوس فيه، حتى لقد استيقظ أختاها ، وانطلقتا مرتاعتين فى إثر الفتى ؛ تودان لو تمسكان به ، فتعتصران عظامه اعتصاراً ... ولـكن قلنسوة بلوتو تخفيه عنهما ، وتحفظه من شرهما

وبينما هو يطوى الضحاضح والبحار ، وبينما هو منتش بخمرة انتصاره ، مفكر فى اللحظـة التى يلقى فيها الملك ليريه رأس مدوسا ، ويحظى لديه بثمرة فوزه ، بينما هو كذلك ، إذا به يلمح فى إحدى الجزر زحاماً شديداً ، وجماهير حاشدة ، متكبكبة حول صخرة ناتئة ، مشرفة على البحر ، وقد تدلت منها فتاة بارعـة الجمال ، بادية الحسن ، مغلولة العنق ، مربوطة الأطراف بسلاسل وأصفاد من حديد صلب . ونظر فرأى تنّيناً بحرياً هائلاً يطفو فوق الماء ، ويقترب من الفتاة قليلاً قليلاً ؛ وراعه أفزع الروع تلك الصرخة الهائلة التى صرختها الفتاة فرددت النيران والـكهوف ومشارف الجبال صداها

ماذا ؟ . . .

الفتاة مذعورة أيما ذعر ، والناس من حولها ينظرون ولا يحركون ساكناً . . . والتنين يقترب ويقترب . . . ؛ ولم ينتظر برسيوس حتى يفترس الوحش تلك الفتاة المفزعة ، بل استل حُراز هرمز وانقض فوق ظهر التّنين وأهوى على عنقـه بضربات سريعة متلاحقة غاص بها فى أحشائه ، وابثا يتصارعان ساعة من الزمان كانت كلها هولا ، وكانت كلها فزعا ، والناس ينظرون مشدوهين ، زائغةً أبصارهم ، لا يصدّقون ما يبصرون . ثم انجلت المعركة عن جثـة التّنين الضخمة طافيةً فوق الماء ، الذى تحول بدوره خضما من الدماء . وقفز برسيوس إلى الشاطئ ، وذهب إلى الفتاة ففك أصفادها ، وهدأ من روعها ، وسأل الناس فقادوها إلى والدتها المسكينة المعـذبة التى حبست نفسها فى حجرة مظلمة ، وانتظرت ثمة من ينعى اليها ابنتها

أما هذه الأم ، فهى الغادة الأغريقية كاسيوبيا ، المشهورة بجمالها ، وحسن رُوائها ، والتى كانت أفتن حسان هيلاس فى زمانها ، ولقد امتلأت زهواً بما أضفت عليها الآلهة من قسامة ، وما أسبغت عليها من وسامةٍ ، فزعمت ، وهى تفاخر أترابها ، أنها أجمـل من عرائس البحار التى لا يدانيها فى جمالها الباقى ، جمال هذا البشر الفانى . فغضبت عرائس الماء ، لهذا الادعاء ، وأقسمن ليُعذبنان أهل الجزيرة التى فيها كاسيوبيا بهذا التنين المروع الذى شرع يغدو كل يوم إلى شواطئ الجزيرة ، فيقتل ويلتهم عشرات من سكانها .!

وذعر القوم ، وحاروا فى أمر هذا التنين ، وذهبوا إلى الهيكل يقدمون قرابينهم للآلهة ، ويستوحون كهنتها نبوءة تبعد عنهم شره ، وتكفيهم أمره . ولقـد أجيبت أدعيتهم ، وتقبلت أضحيتهم ؛ وأرهفت الأسماع ، وشمل الهيكل هذا السكون المقدس الرهيب ، وما هى إلا لحظة حتى انطلق صوت خفى من أعماق المذبح ، يقول : « قدّموا العـذراء أندروميدا ، ابنة الغانية كاسيوبيا ؛ ضحية حلالاً لتنين البحر ، جزاء غرورها وكبريائها — ذلك إن أردتم أن يكف التنين عنكم شره ، ولا يعاودكم أذاه ! »

وانكفأ القوم محزونين مروعين ، لأنهم كانوا يحبون كاسيوبيا وابنتها ، حباً هو العبادة . وحاروا كيف يتقدمون للأم بهذا النبأ العظيم ؟ !

وكان لا بد من النفاذ ، لانقاذ الجزيرة وجميع سكانها . . .

والآن ، لقد أنقذ برسيوس أندروميدا الجميلة من براثن التنين ، وشعر فى سويدائه بعاطفة نورانية تجذبه إلى هذه الفتاة ، وأحس كأن مستقبله مرتبط بمستقبلها برباط قدسى تباركه السماء وتحرسه العناية ؛ فتقدم إلى والدتها يطلب إليها يد أندروميدا

ووافقت الوالدة ، وسعدت الفتاة بهذا البطل الشاب الذى أنقذ حياتها مرتين : مرة من هذا الوحش الضارى الذى تركه برسيوس جثة هامدة ، ومرة ثانية من ذلك الشيخ الفانى الهرم الذى تقدم إليها يريدها زوجة له ، وكادت أمها تقسر على الموافقة لما للشيخ فى الجزيرة من صولة وجبروت ، لولا المقادير التى تتابعت بعد ذلك

وأقيم مهرجان كبير ، وزينات فخمة للاحتفال بالعروسين ؛ فمدت الأخـونة ، وأعدت الأسمطة ، وبدأت الموسيقى الأغريقية تعزف أشجى ألحانها ، وأخذ الجميع فى قصف حلو وسمر برىء وإنهم لفى كل ذلك إذا بالرجل الهرم الذى تقـدم لخطبة

أندروميدا من قبل ، يقتحم الحفل هو وعصبة قوية من رجاله المسلحين ، وإذا بالرجل يهتف ببرسيوس قائلاً : « برسيوس : لقد اعتديت على مولى هذه الجزيرة اعتداءً صارخاً بانتزاعك أندروميدا من يدى ؛ وإنك إن لم تنزل عنها طواعيةً فسأكرهك على تركها قسراً ، بعد أن تروى هذه السيوف من دمائك ودماء من يلوذ بك ! . . . » . فحدجه برسيوس بنظرة ساخرة وقال : « من أنت أيها الرجل الذى يجسر على مخاطبتى بهذا الهراء ؟ لقد أصبحت أندروميدا زوجى ، وإن كانت من قبل خطيبتك ؛ أنت من غير ريب بحلم ... غير أنى أسألك : أين وليت وجهك يوم اضطرت أمها المسكينة أن تنزل عنها قرباناً للتنين ؟ لقد كان أولى بشجاعتك أنت ورجالك لو توليتم انقاذها من الأفعوان البحرى الذى أذلك وأذلهم . . . » ومد يده إلى الكيس الذى كان به رأس مديوسا ، فأخرجه وقال : « ولكن انظر إلى هذا قبل أن تقتلنى . » وما كاد الرجل ينظر إلى عينى مديوسا ، حتى تصلبت عضلاته ، وتحجر جسمه ، وظل مكانه كأنه تمثال ! ودهش أصحابه لجموده ، وظنوه قد سمّر حيث هو ، فلما لامسوه استطيرت ألبابهم ، ولاذوا من الفزع بالفرار .

وأخفى برسيوس رأس مديوسا ، واستمر القوم فى سمرهم كأن لم يحدث شىء ... اللهم إلا هذا التمثال المنتصب فى أول ردهة ، والذى كان يهرف منذ لحظة ، فأصبح عبرة الزمان ، وضحكة الأيام !

وحان يوم الرحيل ، فخرج أهل الجزيرة يودعون الزوجين ، وظلت كاسيوبيا تعانق برسيوس مرة ، وإندروميدا مرة أخرى ، والدموع فيما بين هذه وتلك ، تنهمر على خديها انهماراً . . . . والناس ينظرون . . . ويبكون

ثم حمل برسيوس عروسه ، ومرق فى الهواء كالسهم ، والقوم من عجب يتصايحون ويهتفون

* * *

وكانت الرحلة هذه المرة ، على شدتها وطولها ، من أروح الرحلات إلى قلب برسيوس . وتستطيع أن تتصور القبل الحلوة تنطبع على هذين الثغرين الحبيبين ، فى ملكوت السماء ، لتدرك أى سعادة شعرية ، وأى هنيهات سحرية ، فازا بها فى لازورد الفضاء

وبلغ مدينة الملك بعد نأى طويل ، وسنين عدة ، فذهب أول ما ذهب إلى منزل أمه ، وناهيك بما كان من عناق ، وما تبودل من تحيات . وبكت داناى المسكينة وهى تهنىء ابنها بأندروميدا ، ثم أخذت تقص ، ملء أحزانها ، وفى فيض أشجانها ما انتابها من سوء ، وما لحقها من عسف ، لأنها أبت أن تكون خليلة الملك المخاتل الجبار ، الذى صب عليها جام نقمته ، وأذاقها من الهوان ألواناً ! فحزن برسيوس حزناً مُمِضاً ، وهيج حتى خيف عليه ، وذهب من فوره إلى قصر الملك بكل عتاده ! ودخل إلى البهو الملكى بدون استئذان ، وهو يضمر فى القلب غُصة ، وفى النفس لوعة ، وفى الكيس رأس مديوسا ! !

وقال الملك حين لمح برسيوس : « هلا ! برسيوس ! لقد عدت أخيراً ، وما أحسبك وفّيت بما قطعت على نفسك من عهود ! لعل شجاعتك التى بالغ الناس فى إطرائها والثناء عليها قد واتتك فى حربك مع الجرجون ؟ ! »

فأجاب برسيوس ، دون أن يحيى بالتحية الملكية : « أيها الملك ! لم تخاطبنى هكذا ولا تتريث حتى تنظر إن كنت قد عدت إليك برأس مديوسا الرهيب ؟ »

« فقهقه الملك ، وملأ التهكم شدقيه ، وقال : « طبعاً ، ستدعى أنك قتلت مديوسا ولكن رأسها وقع منك فى البحر ، فالتقمه الحوت ؟ . . . . ياللشباب المخدوع ؟ ! »

وثارت ثائرة برسيوس ، ولم يجد إلى صبر من سبيل ، فحسر عن رأس مديوسا وقال : « أيها الملك . . . انظر ! »

وبهت الملك مكانه حين وقع بصره على عينى مديوسا ؛ ثم تحول فى لمحة إلى تمثال من الحجر ما يأتى بحركة ؛ ولا ينبس ببنت شفة ! !

وحدث عما شمل أهل الجزيرة من الفرح حين ترامت اليهم أخبار الملك ؛ وما تم له مع برسيوس . لقد كانوا يؤثرون الموت على أن يحكمهم مثل هذا الظالم العاتى المستهتر ، ولقد كانوا يودون له الهُلْك ، حتى خلصهم برسيوس منه ، فهرعوا إليه ، وهتفوا فى كل مكان باسمه ، وحملوه على الأعناق إلى حيث الملك التمثال وهناك ، صبوا لعناتهم على الطاغية ، وانصرفوا ، يهنىء بعضهم بعضاً ، بعد ان اختار لهم برسيوس ملكاً منهم .... فاضلاً ، عادلاً ... وقد عرضوا عليه الملك فأبى ... لأن مملكته الكبيرة المكونة منه ومن أمه ، ومن أندروميدا كانت آثر لديه من كل ملك عتيد ! !

وتوجه إلى حيث لقى هرمز ، عند الصخرة المشرفة على البحر ، فوجده ينتظره ، فتعانقا عناقاً يفيض محبة ، ويقطر وداً ، ثم رد إليه هدايا الآلهة بالحمد والثناء . . .

أما رأس مديوسا ، فقد أهداها إلى منيرفا ، ففرحت بها فرحاً شديداً ، وهى إلى اليوم مركبة فى وسط ترسها تُرهب بها أعداءها الألداء . . . ؟

دريني خشبة

البريد الأدبي

احياء ذكرى الفيلسوف الطبيب موسى بن ميمون

لمرور ثمانمائة عام على ميلاد موسى بن ميمون أحد أقطاب الطب والعلم في عصر السلطان صلاح الدين الأيوبي وفيلسوف اليهود الأكبر في العصور الأسلامية ورئيس الطائفة الأسرائيلية بالقاهرة والفسطاط ، ذلك الرجل الذي ترك أثراً خالداً في الفلسفة الأسرائيلية والطب العربي ، وكان واسطة الاتصال بين الحضارتين الشرقية والغربية

قررت جمعية المباحث الاسرائيلية بمصر إحياء ذكراه في ثلاث حفلات كبرى ، أولاها باشراف الجامعة المصرية وتحت رعاية صاحب المعالي وزير المعارف العمومية ، وتقام بدار الأوبرا الملكية يوم الأثنين أول أبريل سنة ١٩٣٥ (اليوم) يفتتحها معالي الوزير نجيب بك الهلالي ثم حضرة صاحب السعادة علي باشا ابراهيم مدير الجامعة المصرية بالنيابة

ويخطب في هذه الحفلة الدكتور جورجي صبحي أستاذ التاريخ الطبي بكلية الطب عن مصنفات موسى بن ميمون الطبية . والعلامة الدكتور ماكس مايرهوف عن كتاب العقار لموسى ابن ميمون ، والأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق أستاذ الفلسفة الأسلامية بكلية الآداب عن موسى بن ميمون في نظر مؤرخي فلاسفة المسلمين ، والدكتور اسرائيل ولفنسون أستاذ اللغات السامية بدار العلوم العليا عن كتاب « دلالة الحائرين ومذهب موسى بن ميمون في الفلسفة » ويلقي في هذه المناسبة شاعر القطرين خليل بك مطران قصيدة رائعة ، ويختتم الحفلة صاحب السعادة يوسف قطاوي باشا رئيس جمعية المباحث الأسرائيلية بمصر

وأما الحفلتان الثانية والثالثة فعامتان

وجميع الخطب والقصائد التي تلقى في الحفلات الثلاث تجمع في كتاب واحد ينشر على نفقة الجمعية المذكورة

العيد الالفي للمتنبي

اعتزمت رابطة الأدب العربي بالقاهرة ، إقامة العيد الألفي لأبي الطيب المتنبي في خلال شهر رمضان المقبل عام ١٣٥٤ (ديسمبر سنة ١٩٣٥) تذكاراً لانقضاء ألف عام على وفاته

ويشمل برنامج هذا العيد اقامة مؤتمر أدبي عربي عام يبحث جوانب الأدب العربي قديمه وحديثه ، وما يجب أن يحاط به من العناية والاصلاح

ومن النواحي التي يوليها المؤتمر عنايته الخاصة :

ا — توحيد الثقافة الأدبية في البلاد العربية
ب — حدود التجديد في الأدب العربي
حـ — إصلاح مناهج الدراسة الأدبية
ء — الأدب النسوي
هـ — أدب الأطفال
و — أدب القصص
ز — أدب المسرح
ح — الأغاني والأناشيد

ويسر رابطة الأدب العربي أن يؤازرها الأدباء بحضورهم ، أو بارسال ثمرة بحثهم ، عن المتنبي ، أو عن أحد أغراض المؤتمر ليلقى في الحفل ويضم الى كتاب الذكرى

وترجو الرابطة أن يصل الرد الى لجنة تنظيم المؤتمر قبل آخر ربيع الثاني عام ١٣٥٤ (يوليو سنة ١٩٣٥)

ارفيوس ويوريدس

الآنسة أمينة شاكر فهمي — أسيوط

حوّل إليّ أستاذنا الجليل صاحب (الرسالة) كتابك الكريم الذي ذكرني بالقصاص وعنترة والرجل الذي أقسم لا يذوق طعاما حتى يخرج ابن شداد من سجنه ؛ وكان القصاص قد انتهى إلى أسر عنترة ، ثم وعد السامعين الى الليلة المقبلة !

تسألينني يا أختاه هل لقى أرفيوس يوريدس بعد عودته الى هيدز روحاً بلا جسد ؟ فأجيبك أن نعم ! لأن الأرواح كلها تلتقى فى هيدز ، فيما كان يزعم الأغريق القدماء

وتسألينني هل كان الأغريق يؤمنون بالحياة الآخرة ، واجتماع الأرواح وتعارفها بعد الموت ؟

ولعل من حسن التوفيق أن كنت أكتب فصلاً عن ديانات الشعوب الهيلانيّة عامة ، وعن مذهب الأرفزم خاصة ، ذلك المذهب الذى شاع بين اليونانيين فيما قبل القرن السادس (ق . م) ، وظلت آثاره قوية جلية فى أكثر آداب الأغريق ، منذ هسيود شاعر الطبيعة الصداح ، حتى يوريبيدز كبير ملاحدة التاريخ القديم . وإنى أعدك بارسال هذا الفصل الى (الرسالة) ، وإن لم أكتبه للصحف ، لأن فيه الرد الوافى الذى تطلبين

على أنى أحسبك قد قرأت دانتى اليجيرى ، فذكرتك أسطورة أرفيوس برحلته فى الجحيم والمطهر والفردوس ، ليلقى ثمة حبيبته بياتريس

. الأسطورة الأغريقيـة ، وكوميدية دانتى ، متشابهتان يا آنسة ؛ فالى اللقاء ، على صفحات الرسالة الغراء

دريني خشبة

بجماليون المثال

سيدى . . . . . صاحب « الرسالة »

قرأت فى عدد « الرسالة » الأخير قصة « بجماليون المثّال » للأستاذ دريني ، فكانت حقاً رائعة . ولـكن الأستاذ لم يكمل الأسطورة ، بل اكتفى بجزء منها . لأننى قرأت هذه الأسطورة نفسها فى كتاب لا أذكره ولا أذكر كاتبه . ويغلب على ظنى أنه لجبران خليل جبران

ومجمل القصة الـكاملة أن بجماليون عشق تمثاله ، وطلب من فينوس أن تنفخ فيه الروح فاستجابت دعاءه ، وراعه أن رأى أمامه جسداً بشرياً لغادة بارعة الحسن . . . . إلى هنا انتهى الأستاذ ، وفاته أن يذكر أن هذا التمثال الحى : جالاتيا ، قد ألمّ بها مرض ملح أوشك أن يودى بحياتها ، فتملك بجماليون الرعب واليأس ، وذهب ليلاً إلى مَمثله وأحضر إزميله ومنحته وأعملهما فى جسم حبيبته المريضة فارتدت رخاماً كما كانت ــ خالدة كما أراد لها الخلود ، بعد أن أراد لها الحياة فدبت فيها الحياة ــ

ولعل هـذا الجزء الأخير من الأسطورة يكسبها روعة على روعتها فضلاً عن أنه يجعل لها مغزى بارعاً يرفعها إلى مصاف القصص الفلسفى فوق مكانتها فى عالم الأساطير

شبرا

زكى شنودة جندى

فى الأكاديمية الفرنسية

عينت الأكاديمية الفرنسية يوم ٢٨ مارس الماضى لأجراء الانتخاب للكراسى الثلاثة التى خلت بوفاة الأب بريمون ، ومسيو لوى بارتو ، ومسيو رايمون بونكاريه . وقد خلا أخيراً كرسى جديد بوفاة المؤرخ الكبير لينوتر ، فصارت الكراسى الخالية أربعة ، وقد شهدت الأكاديمية فى الأشهر الأخيرة انقلاباً عظيماً فى تكوينهـا الجديد ، فذهبت منهـا فجأة بالوفاة عدة من الشخصيات البارزة ، مثل ليوتى وبارتو وبوانكاريه ؛ واندمجت فيها شخصيات جديدة عظيمة أيضاً ، مثل الماريشال فرانسيه دسبرى الذى ملأ كرسى ليوتى ، والدوق دى بروجلى العلامة الأشهر . وفى مقدمة المرشحين للعضوية ، مسيو دومرج رئيس الجمهورية السابق إذ يرشح لكرسى بوانكاريه ، ومسيو جورج دوهامل ، وبيير ميل ، من أعلام الكتاب

من هنا ومن هناك

كتاب عن مقاهي باريس

أجل كتاب عن مقاهي باريس صدر أخيراً بقلم مسيو فرانسوا فوسكا، وعنوانه « باريس قريتي » Paris, mon vilage . وإنه لنوع طريف من الأدب أن يعنى كاتب بهذه الناحية من حياة مدينة عظيمة ؛ فكما أن باريس تزخر بمتاحفها وكنائسها وآثارها العظيمة ، فهي أيضاً تزهو وتتألق بمقاهيها ومنتدياتها الليلية . وقد تناول مسيو فوسكا في كتابه صور المقاهي البارزية الشهيرة في العهد المنقضي والعهد الحالي ، ووصفها وصف خبير طاف بأرجائها وتسكع في أركانها ؛ فمن مقاهي بروكوب دي ديكلو ، والريجانس ، الى مقاصف الباليه روبال ، وسورس دي فرلين ، وقاشيت دي موريا ، وڤيبر ، وبار دي لابيه ، وتوليه وغيرها الى منتديات اليوم ومعاهده . وهي صور تثير في نفس البارزي الحق شجنا وذكريات عزيزة ، ولا سيما حين يتصفح أسماء وصورا كانت بالأمس متألقة شهيرة ملء الأبصار والأسماع ، وكان يهرع اليها ويتخذ مكانه بها ويقضي فيها ساعات لذيذة ، قبل العشاء أو بعد المسرح ، ثم اختفت اليوم صورها وأنوارها القديمة المحبوبة لتفسح مكاناً لأنوارها الجديدة ؛ وأي بارزي حق لا يتأثر حين يستعرض ذكريات « قهوة الانكليز » (كافيه دزانجليه) الشهيرة التي كانت قطعة من حياة كثير من أقطاب السياسة والقلم في أواخر القرن الماضي ، والتي أضحت أثرا بعد عين ، ثم « مقهى نابولتان » الذي غيرت معالمه ومظاهره ، وكذلك مقهى ڤيبر وباردي لابيه . لقد ذهبت هذه المعاهد القديمة ، واكتسحها تيار التحول الحديث ، فأسبغ عليها تخطيطاً خشناً ، وأنواراً مؤذية ، وترفاً سخيفاً ، ورفع عنها ذلك الجو العائلي الذي كان يشعر به الرواد من قبل . بيد أنه ما زالت توجد طائفة من المقاهي القديمة ، الفرنسية حقاً ، وهذه ما زالت كعبة البارزيين المحافظين الذين يسحرهم المكان والمجلس بأكثر مما يسحرهم المأكول والمشروب

وينوه مسيو فوسكا في كتابه عما كان لهذه المقاهي البارزية الشهيرة من أثر في تكوين الأوساط الأدبية والفنية ؛ فقد كانت مقصد الكتاب والفنانين والشعراء من كل ضرب ، وكانت تجمعهم ، وكثيراً ما كانت مركزاً للحلقات الأدبية والفنية الشهيرة ، وكثيراً ما كانت مصدر الوحي لكاتب أو شاعر أو فنان . ومن ثم كان كتاب مسيو فوسكا قطعة اجتماعية أدبية فنية فياضة السحر والمتاع

كتاب عن الأبهاء الأدبية

صدر أخيراً بالفرنسية كتاب طريف فريد في نوعه وموضوعه للسيدة ماري شكيفتش عنوانه « ذكريات عصر مضى » ، وفيه تتحدث المؤلفة عن حياة المجتمع وأبهاء الأدب والاجتماع قبل الحرب ، ولا ريب أن كثيراً من نواحي الحياة الاجتماعية قد تغير تغيراً عظيما ، وأصبحت تلك الحياة الذاهبة نكرة بالنسبة للجيل الحالي ، والحياة تتغير دائماً بلا ريب ، ولكن المرحلة التي استحالت إليها الحياة الاجتماعية بعد الحرب كانت سريعة عنيفة ، وكان الانقلاب ثورياً لم يتخذ أسلوب التطور العادي . فمن يقرأ كتاب السيدة شكيفتش من شباب العصر يكاد يعتقد أنه يقرأ عن مجتمع غاضت كل آثاره وكل ألوانه الأولى . على أنه مما يلاحظ أن الحياة الاجتماعية ولاسيما حياة الأبهاء الأدبيـــة تسير أيضاً إلى تطور مستمر ؛ ولقد كان أولئك الذين عرفوا هذه الحياة ايام روسو ومدام ديبناي مثلاً ، ينكرونها بعد ذلك بنحو نصف قرن ، أيام عود الملوكية في أوائل القرن التاسع عشر . وكان أولئك الذين عاصروا مدام ريكامبيه وشاتو بريان وتذوقوا الحياة الاجتماعيـة الأدبية في ذلك العصر يرون في أطوارها وأساليبها التي اتخذتها في عصر الامبراطورية الأولى حياة جديدة لم يعرفوها ؛ على أن هنالك ظاهرة يجب الالتفات إليها ، وهي أن صور الحياة العقلية في ذاتها لم تتطور كثيراً من الوجهة الاجتماعيـة ؛ وفي وسعك أن تتصور أن الكتاب والمفكرين في العصور الخالية كانوا يجتمعون في حلقاتهم أو أبهائهم لمثل ما يجتمع له الكتاب والمفكرون في عصرنا ؛ غير أن أساليب الاجتماع ذاته قد تغيرت ؛ وتبوأت المرأة في العصور الحديثة مقامها اللائق في الأبهاء الأدبية والحلقات الاجتماعية فنفثت فيها من نفوذها وسحرها ألواناً قوية أضحت

اليوم من أظهر خواصها الاجتماعية . وحياة الأبهاء الأدبية من أهم عناصر الحياة الفرنسية الاجتماعية فى جميع أطوارها الحديثة ؛ وإنك لتقرأ فى مذكرات سانت سيمون ، أو رسائل مدام سفنييه ما تقرؤه اليوم فى ذكريات مدام شكيفنتش من ألوان هذه الحياة الاجتماعية والأدبية الساحرة ، وقد لاحظ كاتب كبير بحق أن أهم ظاهرة فى الأدب الفرنسى هى أنه اجتماعى ، فكل ما فيه كلام عن المجتمع ، وكل ما فيه موجه اليه ، والحياة الفرنسية فى ذاتها تقوم على الاجتماع والروح الاجتماعية قبل كل شىء ؛ وسحر مؤلف مدام شكيفنتش فى أنه يصوز هذه الروح أقوى تصوير

جيته وفن الحياة

نعرف أن شاعر ألمانيا الأكبر « جيته » قد ترك فيما ترك محادثاته التى تملأ عشرة مجلدات ومذكراته اليومية ومراسلاته العديدة ؛ ومن الصعب اليوم ، فى عصر السرعة والحياة المثقلة ، أن يتفرغ المرء لقراءة هذه المجلدات العديدة وأن يستمرئ كل ما فيها من المعانى والصور ، ولكن كاتباً فرنسياً هو المسيو روبز داركور استطاع أن يدرس هذا التراث دراسة مستفيضة وأن يضع كتاباً بخلاصة دراسته بعنوان « جيته وفن الحياة » Goethe et L'art de Vivre ولم يحاول المؤلف فى كتابه أن يلخص تراث جيته أو يردده ، ولكنه يحاول أن يقدم للقارئ مجموعة الحكم والصور والمواعظ التى تتخلل تراث الشاعر الأكبر . وتسمية الكتاب بهذا العنوان ترجع إلى اللقب الذى يطلقه الألمان أنفسهم على جيته ، فهم يسمونه « فنان الحياة » Le benskünstlre

والواقع أنه قلما يوجد بين عظماء الرجال من يضارع جيته فى حياته المنظمة المركزة حول غايات معينة ؛ فقد عاش جيته تحدوه إرادة راسخة فى أن يعرف وأن يشبع حاجات النفس وحاجات الخلق ، وأن يباعد بين نفسه وبين ما تتأذى منه ، وأن يرتفع بكرامته إلى الذرى ؛ وقد فطن جيته إلى ذلك النقص الاجتماعى الذى يبعثه تشبع الناس بفكرة حقوق الانسان نحو المجتمع ، وأدرك أن للانسان نحو نفسه حقوقاً خاصة ، هى أن يرتفع بخلاله وأن يسمى إلى الكمال ، وفى عصرنا لا يكاد يفطن المرء إلى هذا الواجب ، لأن مشاغل الحياة وحمى الشهوات البشرية تستغرق كل عنايته وتفكيره ؛ وقد كان جيته من أشد الناس عملاً وانشغالاً ، ولكنه لم ينس أن يعمل لنفسه من الناحية الخلقية والمعنوية ، وأن يكونها حسبما توحى به المثل العليا . غير أنك تشعر خلال هذه الصور الممتازة التى يقدمها اليك كفاح جيته فى سبيل الكمال بنقص بيّن ، هو ما تأنسه فى كل أقواله وأفعاله من ضروب الأثرة ؛ فقد كان يحرص على ألا يعكر حياته معكر ، وألا يثير عواطفه شئ ، حتى لا يضعف أمام النوازل والحوادث ؛ وهى فلسفة الجمود والقسوة التى تبعد كثيراً عن مثل الانسانية الرفيعة . هذه الصور والحقائق يدرسها مسيو داركور دراسة فياضة ممتعة ، ويقدم الينا حياة الشاعر الأكبر على ضوء المبادئ والفلسفة التى تكونت فيها

ذكرى يوهان باخ

تتأهب الدوائر الفنية والموسيقية فى ألمانيا وفى جميع أنحاء العالم للاحتفال بذكرى الموسيقى الأكبر يوهان سبستيان باخ Bach ، وذلك لمناسبة مرور مائتين وخمسين عاماً على مولده . وباخ من أعظم أبطال الفن والموسيقى لا فى ألمانيا وحدها ، ولكن فى العالم كله . وقد كان مولده فى مدينة إيزناخ سنة ١٦٨٥ ، من أسرة عرفت بمواهبها الموسيقية ، ونبغ منها أكثر من موسيقى كبير ، وقد كان لهذا الظرف أثره فى تربية باخ وفى تكوينه ، وظهر هيام باخ بالموسيقى مذ كان طفلاً فى العاشرة ، وكانت أسرته تخشى على مستقبله من هذا الهيام وتخفى عنه المؤلفات الموسيقية ، ولكن باخ كان يبحث عنها وينقلها لنفسه على ضوء القمر ، وكان للغلام صوت بديع لم يلبث أن استرعى الأنظار ، فعين مرتلاً فى مدرسة لينبرج ؛ ولما ساء صوته بعد ذلك عين عازفاً على القيثارة ؛ ثم ظهرت مواهبه الموسيقية بسرعة ، وكانت رائعة ، فاستدعى إلى بلاط فيمار وعين موسيقياً ملكياً ، وهنالك استطاع أن يدرس الموسيقى الايطالية ؛ ثم عين بعد ذلك عازفاً على « الأرغن » فى كنيسة ارنشتاث ، ومن ذلك الحين أعنى مذ كان باخ فى نحو العشرين فقط ، أخذ فى وضع القطع الموسيقية ؛ وكانت أولى قطعه « رحيل أخى الفجائى » من أبدع ما عرف التأليف الموسيقى ، وقد استلهمها من رحيل أخيه عن وطنه ليلتحق بالجيش السويدى ، وتزوج باخ بابنة عمه ماريا بربارا ، وعاد بعد عامين أو ثلاثة إلى العمل فى بلاط فيمار ؛ وهنالك أقام نحو تسعة أعوام ، ووضع أبدع قطعه الموسيقية ، وتأثر فى دراسته بالأساتذة الايطاليين أعظم تأثر . وفى سنة ١٧٢٠ توفيت زوجته ماريا فتزوج من بعدها « أنا ملكنس » ، وكانت ذات مواهب موسيقية بديعة ، فعاونته فى عمله ؛ وفى ذلك الحين ابتدأ باخ يضع قطعه الشهيرة المعروفة



ترجمة نفسية تحليلية

٣ـ هو ذا تاريخ انسان ... !

للأستاذ خليل هنداوى

« ومع ذلك فكيف لى أن أكتب عن جبران من غير أن أذكر نفسى وقد كانت بيننا من القرابة ما كان ؟ » ميخائيل نعيمة

« الناقد الفنان يترك أثراً من نفسه فى شخصية من يحلله ، لأنه يحلل بنفسه ويفهم بنفسه

« درسوا جبران فى غضون الكتاب ، ولم يدرسوا « نعيمة » وإنما فى الكتاب وجهان متلاصقان فى ناحية ، مفترقان فى ناحية ، لا يفترقان فى ناحية إلا ليجتمعا ، ولا يجتمعان إلا ليفترقا . . . » « خ . هـ »

— ٢ —

وجه ميخائيل نعيمة

لنعيمة — فى كتاب جبران خليل جبران — وجه بادى الملامح مستقل النزعة ، يجب أن نفتش عنه كما نفتش عن وجه جبران ؛ ولا يكمل أحدهما إلا بالآخر . ففيه نعيمة الانسانى ونعيمة الشاعر ، ونعيمة المصور ، ونعيمة الناقد . لأنه ليس من أولئك الناقدين الجافين الذين يعجزون عن تمثيل شخصياتهم فيما يكتبون وفى أى نوع كتبوا ؛ ونعيمة صاحب فلسفة يعمل لها وصاحب مذهب اجتماعى يدور حوله ويؤمن به كل الايمان . قد أخذ جبران مثلاً له ، وألف من حياته رواية نفسية لفتى استحوذ عليه القلق ، وألم بخيوط تلك الحياة وحاكها بفلسفته الانسانية ، وبلغ به ما شاء أن يبلغه الى الفن الذى يترجم صاحبه والناس الى قوة تنشط بهم من عقالات المعيشة المحدودة الى المعيشة التى لا تُحَد . . . .

فلسفة نعيمة الانسانى

تكاد تطغى على كل تعاليمه موجة الانسانية التى لا تقيم بين بنى الانسان حدوداً وفواصل . فهنالك الانسانية المتصلة الشاملة المشتركة فى الألم والهناء ، الساخرة من هذه التقاليد التى فصلت بين أبناء الأصل الواحد . وإذا عدت الى فصله « تمخضت الفأرة فولدت جبلاً » عرفت ذلك العدو الذى فكك بين وشائج الانسانية الحقيقية ، وجاء بوشائج كاذبة مستعارة يبنى عليها حضارته الجديدة

ينظر نعيمة الى الحياة المتآلفة فى باطنها ، المتنافرة فى ظاهرها ، حيث يمتزج كل شىء بشىء ، ويتصل كل جزء بجزء ، ولا جزء يستطيع أن يفنى بالانفصال . يبشر « نعيمة » بهذه الدعوة الأنسانية التى يجد عروقها مغروسة فى الشرق ، والتى بشر بها

« بالتوابع » . ثم عين باخ أستاذا للغناء فى مدرسة توماس فى ليزج ، وهنالك وضع معظم قطعه وأناشيده الغنائية ومنها أناشيد قصة « الآلام » ، وقدم فى ذلك الحين بعض قطعه إلى أوجستوس ملك سكسونية فانعم عليه بلقب «مؤلف البلاط» . وفى سنة ١٧٤٧ زار فردريك الأكبر فى بوتسدام ونال عطفه ورعايته ، ثم أصيب باخ بضعف فى بصره انتهى بالعمى ، وعقب ذلك أصابه الصرع ؛ وكانت وفاته (سنة ١٧٥٠) . وكان باخ فوق نبوغه الباهر فى التأليف والموسيقى مخترعاً موسيقياً أيضاً ، ومن اختراعاته الوضع الأصبعى الحديث ، وتنظيم « البيانو » بحيث يتسع للعزف بجميع الأوضاع والأصوات

الشرق من أزمان . . . والأنسانية — فى اعتقاده — لا تفر من نفسها إلا الى نفسها — ولكن السامعين نداء أنفسهم قليـل ! وهى لا تقسم طرقها إلا لتجد سبيلها الواحد ومحجتها الواحدة

فلسفة تحب العُرى النفسى المجرد والطبيعة السامية ، ألم يقل لى فى حديث له « هـذا الجبل عارياً ما أجمله ! أحب كل عارٍ فى الحياة لأنه يظهر على الحياة بحقيقته » إن الحياة عارية والأنسانية عارية ، فلماذا نستر عريهما بأوهامنا وتقاليدنا ؟ والحياة جوهر عارٍ فلماذا نجعل منها مركباً تفرح لتركيبه عقولنا وتضل عنه أرواحنا ؟ « الحياة شركة شاملة للواحـد فيها ما للكل ، وللكل ماللواحد . لأن الكل هو الواحد والواحد هو الكل . لكننا أفسدنا تلك الشركة بما أدخلناه عليها من روح الاستئثار والكسب عند ما جعلنا ثمناً لكل هباتها التى لاتثمن[1] ... »

وهذه الأنسانية المجردة التى يبشر بها « نعيمة » قد لا تروق للبعض لضيق آفاقهم ، ولأن عقولهم تزين لهم أن يطعنوا هذه الانسانية ويردوها منهزمة مجرّحة . . . وقد تثبت هذه الانسانية أمام العقل ، لأن « نعيمة » يستمد هذه الانسانية من قلبه لا من عقـله ، فهو يريد لها القلوب وعاء لا العقول . وقد جرّب « نعيمه » كما جرب غيره أن يقف على غاية الحياة بعقله ، جرّب كثيراً وتاه كثيراً لأنه كلما بلغ به عقله نقطة ، ضاعت عنه الثانية ، فليس له إلا مايبلغه أمامه ، وليس له من ورائه شىء ، سار به عقله الى سلسلة متناقضات يصارع بعضها بعضاً ويبنى بعضها بعضاً ، وأين سبيل النجاة أيها العقل ؟

وأخيراً يجد نعيمة سبيل النجاة فى واحة الخيال المنعتق من كابوس المقاييس الزمنية والمكانية والتفلت من قيود التقاليد . وجده فى الخيال ووجد إنسانيته فى الخيال ، يخاطبه الناس بعقولهم ويخاطبهم بخياله ومضائه ، أما طريق الوصول إليه ، فهو الفن الذى يحمل صاحبه على جناحى الخيال الى تلك المعيشة التى لا تُحدُّ — من الانسان فى الله ، الى الله فى الانسان

فهو مع الحياة فى سلم أبدى ، لأن الحياة طاهرة الجوهر ، لا تتمخض بالسوء ؛ وهب أنها تمخضت بسوء — كما تراه مداركنا — فهذا السوء سوء عندنا ، وليس بسوء عند الحياة ، الحياة التى تسعى وراء تحقيق غايتها ، وإنما الأجدر بنا أن نؤلف بين غايتنا وغاية الحياة ، لأن السعادة التامة الكاملة ، إنما تتم فى هذه الأُلفة ! وأنى لنا أن ندرك سبل الحياة وغايتها ؟

— ستدرك كل ذلك — أيها الانسان عند ما تصبح إلـها !

« ما أشفق الحياة على بناتها وعلى أبنائها ، فلا تضع فى حدقتى مخلوق من نورها أكثر مما يحتاجه ذلك المخلوق ليستدل على طريقه . ولا تودع ساقيه من قوتها أكثر مما يلزمه لقطع المسافة التى تخطها له » والانسان خلال ذلك منزهو بكبريائه ، تسوّل له ذاته أن يكون رب نفسه ، والحياة تشفق على هذه الربوبية الضعيفة وتحضنها كالام التى تحضن ولدها العاق المتألم

— ستعرف غايتى أيها الانسان عند ما تصبح إلـهاً !

(يتبع) خليل هنداوى

(١) من رسالة لنعيمة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ٩٢ - ٨ ابريل سنة ١٩٣٥ - السنة الثالثة

3 me Année, No. 92.

Lundi-8-4-1935

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولي رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

م	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العــــدد ٩٢ « القاهرة فى يوم الاثنين ٥ محرم سنة ١٣٥٤ — ٨ ابريل سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العــــدد

على ذكر كتاب...

فى مصر من الباشوات المثقفين فئة كثيرة ، تميزوا عن الأشباه لأنهم مهروا فى أداء العمل ، أو وقعوا فى طريق الفرص ، أو رقوا فى معارج السياسة ؛ ثم تهيأت لهم بالمدارسة والممارسة أسباب العلم والخبرة ، فخبروا أسرار الأمور ، وسبروا أغوار المشاكل ، وصرّفوا شئون الدولة على نحو من الحكرة المفروضة ؛ فهم لا يبرحون ضاربين فى الميدان الحكومى فرقه فرقةً ، يتقاذفون الادارة ، و يتنازعون الوزارة ، ويتداولون الأمر ، حتى أسرفوا على خير الأمة ، وافتاتوا على رأى الجماعة . فقصروا كفايتهم على الخصومة ، وحددوا غايتهم بالحكومة : فهم إذا وثبوا إلى الحكم استفرغوا الوسع فى البقاء فيه ، و إذا انقلبوا عنه استنفدوا الوسائل فى الرجوع إليه ؛ أما تسجيل التجربة بالتأليف ، ونشر المعرفة بالصحافة ، وتأييد العدالة بالمحاماة ، فعملٌ لا يدخل فى حساب الجهد ، ولا يخطر فى مرام النية ! كأن العودة إلى ملابسة الشعب ، ومداخلة العامة ، ومزاولة الحرفة . أصبحت لا تتفق مع نباهة الاسم ولا تتسق مع جلالة اللقب ، ولا تجرى على تقاليد المنصب !

فى البلاد التى نطيل إليها النظر ، ونزعم لها الكمال ، ونحصر فيها القدوة ، نجد رئيس الحكومة اذا تعطل من الحكم ، ورئيس الجمهورية إذا انتهى من الرياسة ، عاد كل منهما إلى الموضع الذى صعد منه إلى الديوان ، أو انتخب فيه إلى القصر ، فيستأنف الجهاد اليومى فى سبيل الأسرة والأمة والحكومة بنشاط البادئ ، ونفسية التابع ، ورجاء الطموح ، فهو يدور مع الطبيعة دورة العام : يبدأ لينتهى ، وينتهى ليبدأ ؛ وفى كل طور من أطواره المتعاقبة تراه يندمج فى البيئة ، ويأتلف مع النظام ، ويرمى عن الواجب ، فينشر المذكرات ، ويحرر المقالات ، ويحضّر المرافعات ، ويكابد فى خلال ذلك طمع الناشر وعنت الناقد ومنافسة الحرفة ؛ ولكنه على الرغم من رهق الحياة الحافلة ، وكلال السن العالية ، يؤدى إلى وطنه المنعم زكاة النبوغ وضريبة المجد عملا لا يتأبّه ، وإحساناً لا يَمُنّ ، واخلاصاً لا يمين

***

ذلك هناك والكفاية موفورة ، والمحجة واضحة ، والأمر متّسق . أما هنا ورجالات الرأى قلال ، وتبعات العمل ثقال ، وميادين الجهاد عُزْل ، ترى النابه منا متى بلغ الوزارة من أى طريق وفى أى سن ، ختم حياته العاملة ، فاختزل الماضى ، واعتزل الشعب ، وازدرى العمل ، وغفا على رخاء معاشه . فهو وزير مادامت وزارته ، فاذا سقط انقلب إلى مداره العالى يُزَجّى فراغه المملول بالتردد بين أبهاء المستوزرين ونادى الحزب أو نادى (محمد على) يتشمم الريح ، ويتسقط الأخبار ، ويتربص بالحكومة الدوائر

هو وزير أو منتظر ؛ فمالك تكلفه أن يكتب فى صحيفة حزبه ، أو يساهم بالجد فى نهضة شعبه ؟ تلك أكلاف العيش لمن لم يدرك الثروة ، وأزواد الطريق لمن لم يبلغ الغاية ؛ والوزارة غاية الأمل فى الثراء والعظمة ، فاذا أدركها لا يسعه بعدها كرسى فى مكتب ، ولا يَجْزيه سهم فى شركة ؛ والظفر بها ولو مرة حق مكتسب يسلُكه فى سلسلة المتعاطين حرفة الحكم ، فيضع نفسه ولقبه فى صندوق ذهبى ، ثم يعلقه فى خيوط المُنى ، ثم يدع النسيم يهدهده بين باب القصر ونافذة المندوب حتى اذا عصفت بالوزارة أزمة ، أو شغر فى مجلسها محل رفع برأسه الغطاء العسجدى وقال :

أنا أشْرَئِبّ ! إذن أنا موجود !

***

على أن القاعدة العنيدة أخذت تحمل فى طواياها بعض الشواذ ، فقد رضى الوزير والسفير حافظ عفيفى باشا أن ينزل إلى صفوف الباحثين والمؤلفين فأصدر كتابه القيم « الانجليز فى بلادهم » عن استقراء دقيق واطلاع شامل ، فكان تعريضاً أليماً بذلك الذكاء العاطل الذى يستفيد ولا يفيد ، وذلك النبوغ الفاجو الذى يدخل الحكم ليعسف ويخرج منه ليكيد !

احمد حسن الزيات

عددنا الممتاز

يصدر يوم الاثنين المقبل

بعض كتابه مرتبين على حروف الهجاء

الدكتور ابراهيم بيومى مدكور ...
الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى ...
« أحمد أمين ... ...
أحمد حسن الزيات ... ...
الدكتور أحمد زكى ... ...
الأستاذ أحمد محمد الغمرواى ... ...
« أمين الخولى ... ...
« توفيق الحكيم ... ...
« جميل صدقى الزهاوى ... ...
الدكتور زكى محمد حسن ... ...
الأستاذ زكى نجيب محمود ... ...
الدكتور طه حسين ... ...
الأستاذ عبد الحميد العبادى ... ...
« عبد العزيز البشرى ... ...
الدكتور عبد الوهاب عزام ... ...
الأستاذ على الطنطاوى ... ...
« على عبد الرازق ... ...
« قدرى حافظ طوقان ... ...
« محمود تيمور ... ...
« محمد روحى فيصل ... ...
« محمد عبد الله عنان ... ...
« محمد عوض محمد ... ...
« محمد فريد أبو حديد ... ...
« محمد كرد على ... ...
« مصطفى صادق الرافعى... ...
الآنسة « مى » ... ...

اليمامتان

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

جاء فى تاريخ الواقدى «أن (المقوقس) عظيم القبط فى مصر زوّج بنته (أرمانوسة) من (قسطنطين بن هرقل) وجهّزها بأموالها وحشمها لتسير إليـه ، حتى يبنى عليها فى مدينة قيسارية « سورية » ؛ فخرجت إلى بلبيس وأقامت بها . . وجاء عمرو بن العاص إلى بلبيس فحاصرها حصاراً شديداً وقاتل من بها ، وقتل منهم زهاء ألف فارس ، وانهزم من بقى إلى المقوقس ، وأُخذت أرمانوسة وجميع مالها ، وأُخذ كل ما كان للقبط فى بلبيس . فأحبّ عمرو ملاطفة المقوقس ، فسيّر اليه ابنته مكرّمة فى جميع مالها ، (مع قيس بن أبى العاص السهمى) ؛ فسُرّ بقدومها . . . »

***

هذا ما أثبته الواقدى فى روايته ، ولم يكن معنياً إلا بأخبار المغازى والفتوح ، فكان يقتصر عليها فى الرواية ؛ أما ما أغفله فهو ما نقصّه نحن :

كانت لأرمانوسة وصيفة مولّدة تسمّى (مارية) ، ذات جمال يونانىّ أتمته مصر ومسحته بسحرها ، فزاد جمالها على أن يكون مصريًّا ، ونقص الجمال اليونانى أن يكونه . ولمصر طبيعة خاصة فى الحسن ؛ فهى قد تهمل شيئاً فى جمال نسائها أو تشعّث منه ، وقد لا توفّيه جهد محاسنها الرائعة ؛ ولكن متى نشأ فيها جمال ينزع إلى أصل أجنبى ، أفرغت فيه سحرها إفراغاً ، وأبت إلا أن تكون الغالبة عليه ، وجعلته آيتها فى المقابلة بينه فى طابعه المصرىّ ، وبين أصله فى طبيعة أرضه كائنة ما كانت ؛ تغار على سحرها أن يكون إلا الأعلى

وكانت مارية هذه مسيحية قوية الدّين والعقل ، اتخذها المقوقس كنيسة حيّة لابنته ، وهو كان والياً وبطريركاً على مصر من قبل هرقل ؛ وكان من عجائب صنع الله أن الفتح الاسلامى جاء فى عهـده ، فجعل الله قلب هـذا الرجل مفتاح القفل القبطىّ ، فلم تكن أبوابهم تدافع إلا بمقدار ما تُدفع ، تقاتل شيئاً من قتال غير كبير ، أما الأبواب الروميّة فبقيت مستغلقة حصينة لا تذعن إلا للتحطيم ، ووراءها نحو مائة ألف رومىّ يقاتلون المعجزة الاسلاميّة التى جاءتهم من بلاد العرب أوّل ما جاءت فى أربعة آلاف رجل ، ثم لم يزيدوا آخر ما زادوا على اثنى عشر ألفاً . كان الروم مائة ألف مقاتل بأسلحتهم ولم تكن المدافع معروفة ، ولكن روح الاسلام جعلت الجيش العربىّ كأنه اثنا عشر ألف مدفع بقنابلها ؛ لا يقاتلون بقوّة الانسان ، بل بقوّة الروح الدينيـة التى جعلها الاسلام مادة منفجرة تشبه الدّيناميت قبل أن يعرف الدّيناميت !

ولما نزل عمرو بجيشـه على بلبيس ، جزعت مارية جزعاً شديداً ؛ إذ كان الروم قد أرجفوا أن هؤلاء العرب قوم جياع ينفضهم الجدب على البلاد نفض الرمال على الأعين فى الريح العاصف ؛ وأنهم جراد إنسانىّ لا يغزو إلا لبطنـه ؛ وأنهم غلاظ الأكباد كالابل التى يمتطونها ؛ وأن النساء عندهم كالدّوابّ يُرتبطن على خسف ؛ وأنهم لا عهد لهم ولا وفاء ، ثقلت مطامعهم وخفّت أماناتهم ؛ وأن قائدهم عمرو بن العاص كان جزّاراً فى الجاهليّة ، فما تدعه روح الجزّار وطبيعته ؛ وقد جاء بأربعة آلاف سالخ من أخلاط الناس وشذّاذهم ، لا أربعة آلاف مقاتل من جيش له نظام الجيش !

وتوهّمت مارية أوهامها ، وكانت شاعرة قد درست هى وأرمانوسة أدب يونان وفلسفتهم ، وكان لها خيال مشبوب متوقّد يُشعرها كلّ عاطفة أكبر مما هى ، ويضاعف الأشياء فى نفسها ، وينزع إلى طبيعته المؤنّثة ، فيبالغ فى تهويل الحزن خاصّة ، ويجعل من بعض الألفاظ وقوداً على الدم . . .

ومن ذلك استطير قلب مارية وأفزعتها الوساوس ، فجعلت تندب نفسها وصنعت فى ذلك شعراً هذه ترجمته :

جاءك أربعة آلاف جزّار أيتها الشاة المسكينة !
ستذوق كلّ شعرة منك ألم الذبح قبل أن تذبحى !
جاءك أربعة آلاف خاطف أيتها العذراء المسكينة !
ستموتين أربعة آلاف ميتة قبل الموت !
قوّنى يا إلهى ، لأغمد فى صدرى سكّيناً تردّ عنى الجزّارين !

ياإلٓهى، قوِّ هذه العذراء لتتزوّج الموتَ قبل أن يتزوجها العربى..!

***

وذهبت تتلو شعرَها على أرمانوسةَ فى صوتٍ حزين يتوجّع؛ فضحكتْ هذه وقالت: أنتِ واهمةٌ يا مارية؛ أنسيتِ أن أبى قد أهدَى إلى نبيِّهم بنتَ (أنْصِنا)(١) فكانت عنده فى مملكةٍ بعضُها السماء وبعضُها القلب؟ لقد أخبرنى أبى أنه بَعَثَ بها لتكشف له عن حقيقة هذا الدين وحقيقة هذا النبىّ؛ وأنها أنفذتْ اليه دسيساً يُعلِمُه أن هؤلاء المسلمين هم العقل الجديد الذى سيضع فى العالم تمييزه بين الحق والباطل، وأن نبيّهم أطهرُ من السحابة فى سمائها، وأنهم جميعاً ينبعثون من حدود دينهم لا من حدود أنفسهم؛ وإذا سَلُّوا السيف سَلُّوه بقانون، وإذا أغمدوه أغمدوه بقانون. وقالت عن النساء: لأَن تخافَ المرأةُ على عفّتها من أبيها أقربُ من أن تخاف عليها من أصحاب هذا النبىّ؛ فإنهم جميعاً فى واجبات القلب وواجباتِ العقل، ويكاد الضميرُ الاسلامىُّ فى الرجل منهم ـ يكون حاملا سلاحاً يَضرب به صاحبَه إذا همّ بمخالفته

وقال أبى: إنهم لا يُغيرون على الأمم، ولا يحاربونها حربَ المُلك؛ وإنما تلك طبيعةُ الحركةِ للشريعة الجديدة تتقدّم فى الدنيا حاملة السلاحَ والأخلاق، قوية فى ظاهرها وباطنها؛ فمِن وراء أسلحتِهم أخلاقُهم؛ وبذلك تكون أسلحتُهم نفسُها ذاتَ أخلاق!

وقال أبى: إن هذا الدين سيندفع بأخلاقه فى العالم اندفاعَ العُصارة الحيّةِ فى الشجرةِ الجرداء؛ طبيعةٌ تعمل فى طبيعة؛ فليس يَمضى غيرُ بعيد حتى تخضرَّ الدنيا وتَرمى ظِلالَها؛ وهو بذلك فوق السياسات التى تُشْبه فى عملها الميتِ ما يشبه طلاءَ الشجرة الجرداء بلونٍ أخضر...! شتانَ بين عمل وعمل، وإن كان لون يشبه لونا

فاسترْوَحتْ مارية واطمأنت باطمئنان أرمانوسة، وقالت: فلا ضَيرَ علينا إذا فتحوا البلد، ولا يكون ما نَستضرُّ به؟

قالت أرمانوسة: لا ضير يا مارية، ولا يكون إلا ما نُحِبُّ لأنفسنا؛ فالمسلمون ليسوا كهؤلاء العلوج من الروم، يفهمون متاعَ الدنيا بفكرة الحرص والحاجة إلى حلاله وحرامه، فهم القُساةُ الغِلاظ المُستكلِبون كالبهائم، ولكنهم يفهمون متاع الدنيا بفكرة الاستغناء والتمييز بين حلاله وحرامه، فهم الانسانيّون الرُّحَماءُ المتعففون

قالت مارية: وأبيكِ يا أرمانوسةُ إن هذا لَعجيب؛ فقد مات سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرُهم من الفلاسفة والحكماء، وما استطاعوا أن يؤدِّبوا بحكمتهم وفلسفتهم إلا الكتبَ التى كتبوها... فلم يُخرِجوا للدنيا جماعة تامةَ الانسانية، فضلاً عن أمةٍ كما وصفت أنتِ من أمر المسلمين؛ فكيف استطاع نبيُّهم أن يُخرج هذه الأمة وهم يقولون إنه كان أمياً. أفتسخَر الحقيقةُ من كِبار الفلاسفةِ والحكماءِ وأهلِ السياسة والتدبير فتدعهم يعملون عَبثاً أو كالعبث، ثم تستسلم للرجلِ الأمّىّ الذى لم يكتب ولم يقرأ ولم يدرس ولم يتعلم؟

قالت أرمانوسة: إن العلماء بهيئةِ السماء وأجرامها وحسابِ أفلاكها، ليسوا هم الذين يَشُقُّون الفجر ويُطلعون الشمس؛ وأنا أرى أنه لابد من أمة طبيعيةٍ بفطرتها يكونِ عملُها فى الحياة إيجادَ الأفكار العمليةِ الصحيحةِ التى يسير بها العالم، وقد درستُ المسيحَ وعملَه وزمنَه، فكان طِيلةَ عمره يحاول أن يوجد هذه الأمة، غير أنه أوجدها مُصغرة فى نفسه وحواريِّيه، وكان عمله كالبدءِ فى تحقيق الشئْ العسير؛ حسبه أن يُثبتَ معنى الامكانِ فيه

وظهورُ الحقيقة من هذا الرجل الأمّىّ هو تنبيهُ الحقيقة إلى نفسها، وبرهانها القاطع أنها بذلك فى مظاهرها الالٓهىّ. والعجيبُ يامارية، أن هذا النبى قد خذله قومه وناكروه وأجمعوا على خلافه، فكان فى ذلك كالمسيح، غير أن المسيح انتهى عند ذلك؛ أما هذا فقد ثبتَ ثباتَ الواقع حين يقع؛ لا يرتدُّ ولا يتغير؛ وهاجَرَ من بلده فكان ذلك أولَ خُطا الحقيقةِ التى أعلنت أنها ستمشى فى الدنيا، وقد أخذتْ من يومئذ تمشى. ولو كانت حقيقةُ المسيح قد جاءت للدنيا كلِّها لهاجرتْ به، فهذا فرقٌ آخر بينهما. والفرق الثالث أن المسيح لم يأتِ إلا بعبادةٍ واحدةٍ هى عبادةُ القلب، أما هذا الدينُ فعلمتُ من أبى أنه ثلاث عباداتٍ يشُدّ بعضها بعضاً: إحداها للأعضاء، والثانية للقلب، والثالثة للنفس؛ فعبادة الأعضاء طهارتُها

(١) هى مارية القبطية التى أهداها المقوقس إلى النبى (صلى الله عليه وسلم) وكانت من (أنصنا)

واعتيادها الضبط ؛ وعبادة القلب طهارته وحبه الخير ؛ وعبادة النفس طهارتها وبذلها في سبيل الانسانية . وعند أبي أنهم بهذه الأخيرة سيملكون الدنيا ؛ فلن تقهر أمة عقيدتها أن الموت أوسع الجانبين وأسعدها

قالت مارية : إن هذا والله لسر إلهي يدل على نفسه ؛ فمن طبيعة الانسان ألا تنبعث نفسه غير مبالية الحياة والموت إلا في أحوال قليلة تكون طبيعة الانسان فيها عمياء : كالغضب الأعمى ، والحب الأعمى ، والتكبر الأعمى . فاذا كانت هذه الأمة الاسلامية كما قلت ، منبعثة هذا الانبعاث ، ليس فيها إلا الشعور بذاتيتها العالية — فما بعد ذلك دليل على أن هذا الدين هو شعور الانسان بسمو ذاتيته ، وهذه هي نهاية النهايات في الفلسفة والحكمة.

قالت أرمانوسة : وما بعد ذلك دليل على أنك تهيئين أن تكوني مسلمة يامارية !

فاستضحكتا معاً وقالت مارية : إنما ألقيت كلاماً جاريتك فيه بحسبه ، فأنا وأنت فكرتان لا مسلمتان

* * *

قال الراوي : وانهزم الروم عن بلبيس ، وارتدوا إلى المقوقس في (منف) ، وكان وحي أرمانوسة في مارية مدة الحصار — وهي نحو الشهر — كأنه فكر سكن فكراً وتمدد فيه ؛ فقد مر ذلك الكلام بما في عقلها من حقائق النظر في الأدب والفلسفة ، فصنع مايصنع المؤلف بكتاب ينقحه ، وأنشأ لها أخيلة تجادلها وتدفعها إلى التسليم بالصحيح لأنه صحيح ، والمؤكد لأنه مؤكد

ومن طبيعة الكلام إذا أثر في النفس — أن ينتظم في مثل الحقائق الصغيرة التي تلقى للحفظ ؛ فكان كلام أرمانوسة في عقل مارية هكذا : « المسيح بدء وللبدء تكملة ، ما من ذلك بد . لا تكون خدمة الانسانية إلا بذات عالية لا تبالي غير سموها . الأمة التي تبذل كل شيء وتستمسك بالحياة لا تأخذ شيئاً ، والتي تبذل أرواحها فقط تأخذ كل شيء . »

وجعلت هذه الحقائق الاسلامية وأمثالها تعرب هذا العقل اليوناني ؛ فلما أراد عمرو بن العاص توجيه أرمانوسة إلى أبيها ، وانتهى ذلك إلى مارية قالت لها : لا يجمل بمن كانت مثلك في شرفها وعقلها أن تكون كالأخيذة تتوجه حيث يسار بها ؛ والرأي أن تبدئي هذا القائد قبل أن يبدأك ؛ فأرسلي إليه فأعلميه أنك راجعة إلى أبيك ، واسأليه أن يصحبك بعض رجاله ؛ فتكوني الآمرة حتى في الأمر ، وتصنعي صنع بنات الملوك !

قالت أرمانوسة : فلا أجد لذلك خيراً منك في لسانك ودهائك ؛ فاذهبي إليه من قبلي ، وسيصحبك الراهب (شطا) ، وخذي معك كوكبة من فرساننا

* * *

قالت مارية وهي تقص على سيدتها : لقد أديت إليه رسالتك فقال : كيف ظنها بنا ؟ قلت : ظنها بفعل رجل كريم يأمره اثنان : كرمه ، ودينه .. فقال أبلغيها أن نبينا (صلى الله عليه وسلم) قال : « استوصوا بالقبط خيراً فان لهم فيكم صهراً وذمة . » وأعلميها أننا لسنا على غارة ننيرها ، بل على نفوس ننيرها

قالت : فصفيه لي يامارية

قالت : كان آتياً في جماعة من فرسانه على خيولهم العراب ، كأنها شياطين تحمل شياطين من جنس آخر ، فلما صار بحيث أتبينه أوما إليه الترجمان — وهو (وردان) مولاه — فنظرت ، فاذا هو على فرس كميت أحم [1] لم يخلص للأسود ولا للأحمر ، طويل العنق مشرف له ذؤابة أعلى ناصيته كطرة المرأة ، ذيال يتبختر بفارسه ويحمحم كأنه يريد أن يتكلم ، مطهم . . .

فقطعت أرمانوسة عليها وقالت : ما سألتك صفة جواده

قالت مارية : أما سلاحه . . .

قالت : ولا سلاحه ، صفيه كيف رأيته (هو)

قالت : رأيته قصير القامة علامة قوة ، وافر الهامة علامة عقل ، أدعج العينين . . .

فضحكت أرمانوسة وقالت : علامة ماذا . . . ؟

. . . أبلج يشرق وجهه كأن فيه لألاء الذهب على الضوء ، أيداً اجتمعت فيه القوة حتى لتكاد عيناه تأمران بنظرهما أمراً . . . داهية كتب دهاؤه على جبهته العريضة يجعل فيها معنى يأخذ

(١) الكميت الأحم : هو الأحمر الضارب لسواد ، لا يخلص لأحد اللونين ، فاذا كان أحمر خالصاً قيل فيه : كميت مدمى (بتشديد الميم الثانية وفتحها)

من وراه؛ وكلما حاولتُ أن أتفرّس في وجهه رأيتُ وجهَه لا يُفسره إلا تكرار النظر إليه . . .

وتضرَّجتْ وجنتاها، فكان ذلك حديثاً بينها وبين عينيْ أرمانوسة . . . وقالت هذه: كذلك كلُّ لذةٍ لا يفسرها للنفس إلا تكرارُها . . .

فغضّت مارية من طرْفها وقالت: هو والله ما وَصفت، وإني ما ملأتُ عيني منه، وقد كدتُ أُنكر أنه إنسانٌ لما اعتراني من هَيبته . . . . .

قالت أرمانوسة: من هَيبته أم من عَينيه الدعجاوَين . . . ؟

* * *

ورجعتْ بنتُ المقوقس إلى أبيها في صحبة (قَيس)، فلما كانوا في الطريق وَجَبتْ الظُّهر، فنزل قيسٌ يُصلي بمن معه والفتاتان تنظران؛ فلما صاحوا: «الله أكبر . . . !» ارتعش قلبُ مارية، وسألت الراهبَ (شطا): ماذا يقولون؟ قال: إن هذه كلمة يَدخلون بها صلاتَهم، كأنما يخاطبون بها الزمنَ أنهم الساعةَ في وقتٍ ليس منه ولا من دنياهم، وكأنهم يعلنون أنهم بين يدَيْ مَن هو أكبر من الوجود؛ فاذا أعلنوا انصرافهم عن الوقت ونزاع الوقت وشهوات الوقت، فذلك هو دخولهم في الصلاة؛ كأنهم يَمحُون الدنيا من النفس ساعةً أو بعضَ ساعة؛ ومَحوُها من أنفسهم هو ارتفاعهم بأنفسهم عليها؛ أُنظري، ألا تَرَينَ هذه الكلمة قد سَحَرَتهم سِحْراً فهم لا يلتفتون في صلاتهم إلى شيء؛ وقد شمِلتهم السكينة، ورَجعوا غيرَ مَن كانوا، وخشعوا خُشوعَ أعظم الفلاسفةِ في تأمُّلِهم

قالت مارية: ما أجملَ هذه الفطرةَ الفلسفيَّة! لقد تعبَت الكتب لتجعل أهلَ الدنيا يستقرون ساعة في سكينةِ الله عليهم فما أفلحت، وجاءت الكنيسة فهوّلت على المُصلِّين بالزخارف والصُّوَر والتماثيل والألوان لتُوحيَ الى نفوسهم ضرباً من الشعور بسكينة الجمال وتقديس المعنى الدِّينيّ، وهي بذلك تحتال في نقلهم من جوِّهم الى جوِّها؛ فكانتْ كساقي الخمر؛ إن لم يعطك الخمرَ عجَزَ عن إعطائك النَّشوة. ومن ذا الذي يستطيع أن يحملَ معه كنيسةً على جوادٍ أو حمار؟

قالت أرمانوسة: نعم إن الكنيسةَ كالحديقة؛ هي حديقةٌ في مكانها، وقلما تُوحي شيئاً إلا في موضعها؛ فالكنيسةُ هي الجدرانُ الأربعة، أما هؤلاء فمعبدُهم بين جهات الأرض الأربع

قال الراهب شطا: ولكن هؤلاء المسلمين متى فُتِحَتْ عليهم الدنيا وافتتنوا بها وانغمسوا فيها ـ فستكون هذه الصلاة بعينها ليس فيها صلاةٌ يومئذ

قالت مارية. وهل تُفتَح عليهم الدنيا، وهل لهم فُؤَاد كثيرون كعَمْرو؟

قال: كيف لا تُفتح الدنيا على قوم لا يحاربون الأممَ بل يحاربون ما فيها من الظلم والكفر والرذيلة، وهم خارجون من الصحراء بطبيعةٍ قويّةٍ كطبيعة الموج في المدّ المرتفع؛ ليس في داخلها إلا أنفُسٌ مندفعةٌ الى الخارج عنها؛ ثم يقاتلون بهذه الطبيعةِ أُمماً ليس في الداخل منها إلا النفوسُ المستعدّةُ أن تهرب إلى الداخل . . . !

قالت مارية: والله لكأنَّنا ثلاثتنا على دِينِ عَمرو . . .

* * *

وانفتل قيسٌ من الصلاة، وأقبل يترحّل، فلما حاذى مارية كان عندها كأنما سافر ورجع؛ وكانت ما تزال في أحلام قلبها؛ وكانت من الحُلم في عالَم أخذَ يتلاشى إلا من عَمرو وما يتصل بعمرو. وفي هذه الحياةِ أحوالُ «ثلاثة» يغيب فيها الكونُ بحقائقه؛ فيغيبُ عن السكران، والمخبول، والنائم؛ وفيها حالةٌ رابعة يتلاشى فيها الكون إلا من حقيقةٍ واحدةٍ تتمثل في إنسان

وقالت مارية للراهب شطا: سَلْهُ: ما أَرَبُهم من هذه الحرب، وهل في سياستهم أن يكون القائد الذي يفتح بلداً حاكماً على هذا البلد؟

قال قيس: حَسْبُكِ أن تعلمي أن الرجل المسلم ليس إلا رجلاً عاملاً في تحقيق كلمةِ الله، أما حظُّ نفسه فهو في غيرِ هذه الدنيا

وترجَم الراهبُ كلامَه هكذا: أما الفاتح فهو في الأكثر الحاكم المقيم، وأما الحربُ فهي عندنا الفكرةُ المُصلِحة تريد أن تَضربَ في الأرض وتعمل، وليس حظُّ النفس شيئاً يكون من الدنيا؛ وبهذا تكون النفسُ أكبرَ من غرائزها، وتنقلب معها الدنيا برعونتها وحماقاتها وشهواتها كالطفل بين يدَيْ رجل، فيهما قوةُ ضبطه وتصريفه. ولو كان في عقيدتنا أن ثواب أعمالنا في الدنيا، لانعكس الأمر

قالت مارية : فسله : كيف يصنع عمروٌ بهذه القِلّة التي معهُ والرومُ لا يُحصى عدَدُهم ؛ فاذا أخفقَ عمرو فمَن عسى أن يستبدلوه منه ؟ وهل هو أكبرُ فؤادهم ، أو فيهم أكبر منه ؟

قال الراوى : ولكن فرَسَ قيس تمطّر وأسرع فى لحاق الخيل على المقدّمة كأنه يقول : لسْنا فى هذا . . .

* * *

وفُتحتْ مصر صُلحاً بين عمروٍ والقبط ، وولىَّ الرومُ مُصْعِدين إلى الاسكندرية ، وكانت ماريةُ فى ذلك تستقرىءُ أخبارَ الفاتح تطوفُ منها على أطلالٍ من شخصٍ بعيد ؛ وكان عمرو من نفسها كالمملكة الحصينة من فاتح لا يملكُ إلا حبَّهُ أن يأخذها ؛ وجعلتْ تذوِى وشحب لونُها ، وبدأت تنظر النظرة التائهة ، وبان عليها أثرالرُّوح الظّمأى ، وحاطها اليأسُ بجوِّه الذى يحرق الدم ، وبَدَت مجروحة المعانى ؛ إذ كان يتقاتلُ فى نفسها الشعوران العَدُوَّان : شعورُ أنها عاشقة ، وشعورُ أنها يائسة :

ورقت لها أرمانوسة ، وكانت هى أيضاً تتعلق فتىً رومانياً ، فسهرتا ليلة تُديران الرأى فى رسالةٍ تحملها ماريةُ من قِبلها إلى عمرو كى تصلَ اليه ، فاذا وصلتْ بلّغت بعينيها رسالةَ نفسها . .

واستقرَّ الأمرُ أن تكون المسألةُ عن ماريةَ القبطية وخبرها ونسلِها وما يتعلّقُ بها مما يطول الاخبارُ به إذا كان السؤالُ من امرأة عن امرأة . فلما أصبحَتا وقَع إليها أن عمراً قد سار الى الاسكندرية لقتال الروم ، وشاع الخبرُ أنه لما أمر بفسطاطه أن يُقوَّضَ أصابوا يمامةً قد باضت فى أعلاه ، فأخبروه فقال : « قد تحرَّمَتْ فى جوارنا ، أقِرُّوا الفسطاطَ حتى تطيرَ فِراخها . » فأقرُّوه !

* * *

ولم يمض غيرُ طويل حتى قضت ماريةُ نحبها ، وحفِظت عنها أرمانوسة هذا الشعر الذى أسمته : نشيد اليمامة :

على فسطاطِ الأميرِ يمامةٌ جاثمةٌ تحضُنُ بيْضها .

تركها الأميرُ تصنعُ الحياة ، وذهب هو يَصنع الموت !

هى كأسعدِ امرأة ؛ ترَى وتلمس أحلامَها .

إن سعادةَ المرأة أولها وآخرَها بعضُ حقائق صغيرة كهذا البيض

* * *

على فسطاط الأمير يمامةٌ جاثمةٌ تحضن بيضها .

لو سُئلَتْ عن هذا البيض لقالتْ : هذا كنزى .

هى كأهنأ امرأة ، مَلَكَتْ مِلْكها من الحياةِ ولم تفتقر .

هل أكلّفُ الوجودَ شيئاً كثيراً إذا كلّفْتهُ رجُلاً واحداً أحبُّه !

* * *

على فسطاط الأمير يمامةٌ جاثمةٌ تحضن بيضها

الشمسُ والقمرُ والنجوم ، كلُّها أصغرُ فى عينها من هذا البيض .

هى كأرقِّ امرأة ؛ عرفت الرِّقّةَ مرتين : فى الحبِّ ، والولادة

هل أكلف الوجود شيئاً كثيراً إذا أردتُ أن أكونَ كهذه اليمامة !

* * *

على فسطاط الأمير يمامةٌ جاثمة تحضن بيضها

تقول اليمامة : إنالوجود يحب أنْ يُرى بلونين فى عين الأنثى ، مرة حبيباً كبيراً فى رجلها ، ومرة حبيباً صغيراً فى أولادها .

كل شىء خاضعٌ لقانونه ؛ والأنثى لا تريد أن تخضع إلا لقانونها

* * *

أيتها اليمامة ، لم تعرفى الأمير وتركَ لكِ فسطاطَه !

هكذا الحظّ : عدلٌ مضاعفٌ فى ناحية ، وظلمٌ مضاعفٌ فى ناحيةٍ أخرى

إحمدى اللهَ أيتُها اليمامة ، أنْ ليس عندكم لغاتٌ وأديان ، عندكم فقط : الحبُّ والطبيعةُ والحياة

* * *

على فسطاط الأميرِ يمامةٌ جاثمةٌ تحضن بيضها ،

يمامةٌ سعيدة ، ستكون فى التاريخ كهدهد سليمان ، نُسبَ الهدهدُ إلى سليمان ، وستنسب اليمامة إلى عمرو .

واهاً لكَ يا عمرو ! ما ضرَّ لو عرفت اليمامة الأخرى . . !

طنطا مصطفى صادق الرافعى

عصر الخفاء في مصر الاسلامية

الحاكم بأمر الله

— ٢ —

للأستاذ محمد عبد الله عنان

— ٣ —

ولى الحاكم بأمر الله الخلافة حدثاً دون الثانية عشرة [١] ؛ وكان مولده بالقصر الفاطمي بالقاهرة المعزية في الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة ٣٧٥ (١٣ أغسطس سنة ٩٨٥) ، وأمه نصرانية من الملكية ، وكان لها أيام العزيز نفوذ كبير في الدولة ، حتى أنه عين أخويها بطريقين للملكية ، أحدهما بالاسكندرية ، والآخر لبيت المقدس ، مخالفاً بذلك الرسوم الكنسية المقررة ؛ وكان من أثر نفوذها أن سياسة التسامح الديني التي اتبعت في عهد المعز ، قويت أيام العزيز ، وتمتع النصارى واليهود بكثير من الحريات والنفوذ . وقد كان لهذا المنبت أثره بلا ريب في نفس الحاكم ، وتكوين عقليته الدينية كما سنرى ؛ ولم يترك العزيز من البنين سوى الحاكم [٢] ، ولكنه ترك - من زوجه النصرانية أيضاً - ابنة تدعى سيدة الملك ، كانت أكبر من أخيها ببضعة أعوام ؛ وكانت حازمة عاقلة ذات نفوذ . ومنح العزيز ولاية عهده لابنه الحاكم مذ كان طفلاً في الثامنة (شعبان سنة ٣٨٣) وبويع بالخلافة يوم وفاة أبيه . وقد انتهى الينا وصف لبعض المناظر التي أحاطت بتولية الخليفة الصبي ، وهي مناظر شائقة مؤسية معاً ، نقلها إلينا المسبحي ، وهو مؤرخ معاصر ووزير الحاكم وصديقه ، نقلاً عن الحاكم ذاته ؛ قال : « قال لي الحاكم ، وقد جرى ذكر والده العزيز : يا مختار ، استدعاني والدي قبل موته وهو عارى الجسم ، وعليه الخرق والضماد ، فاستدناني اليه وقبلني وضمني اليه ، وقال : وا غمّي عليك يا حبيب قلبي ؛ ودمعت عيناه . ثم قال : امض يا سيدي والعب ، فأنا في عافية ، قال : فمضيت ، والتهيت بما يلتهي به الصبيان من اللعب إلى أن نقل الله سبحانه وتعالى العزيز إليه . قال : فبادر إلى بَرْجَوان ، وأنا في أعلى جميزة كانت في الدار ، فقال : انزل ويحك ، الله الله فينا وفيك ؛ قال فنزلت ، فوضع العمامة بالجوهر على رأسي وقبل لي الأرض ، وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، قال : وأخرجني حينئذ إلى الناس على تلك الهيئة ، فقبل جميعهم لي الأرض وسلموا على بالخلافة [١] »

وقع هذا المنظر في مدينة بلبيس حيث أدرك العزيز مرض موته كما قدمنا ؛ وفي صباح اليوم التالي — وهو يوم الأربعاء ٢٩ رمضان — سار الحاكم إلى عاصمة ملكه في موكب فخم تظلله أبهة الخلافة ، رهيب يظلله جلال الموت ؛ وأمامه جثة أبيه ، وقد وضعت في عمارية برزت منها قدماه ؛ وعلى رأسه المظلة يحملها ريدان الصقلبي ، وبين يديه البنود والرايات ؛ وقد ارتدى دراعة مصمت وعمامة يكللها الجوهر ، وتقلد السيف ، وبيده رمح . فدخل القاهرة عند مغيب الشمس في هذا الحفل الرهيب الفخم ؛ وفي الحال أخذ في تجهيز أبيه ؛ فتولى غسله قاضي القضاة محمد بن النعمان ، ودفن عشاء إلى جانب أبيه المعز في حجرة القصر . وفي صباح اليوم التالي ، أعني يوم الخميس ، بكر سائر رجال الدولة إلى القصر ، وقد نصب للخليفة الصبي في الايوان الكبير ، سرير من الذهب ، عليه مرتبة مذهبة ؛ وخرج من القصر إلى الايوان راكباً وعلى رأسه معممة الجوهر ، والناس وقوف في صحن الايوان فقبلوا الأرض ومشوا بين يديه حتى جلس على عرشه ، وسلم عليه الجميع بالأمامة وباللقب الذي اختير له وهو : « الحاكم بأمر الله » ونودى في القاهرة والبلدان ، أن الأمن موطد والنظام مستتب ، فلا مؤونة ولا كلفة ، ولا خوف على النفس أو المال [٢]

وأوصى العزيز قبل موته بولده ثلاثة من أكابر رجال الدولة

---

(١) كان عمره بالضبط احدى عشرة سنة وخمسة أشهر وستة أيام (المقريزي ٤ — ٦٨)

(٢) رزق العزيز قبل ولده الحاكم ، بابن يسمى محمداً ، ومنحه ولاية عهده ، ولكنه توفى قبل وفاته (نهاية الأرب — نسخة دار الكتب الفتوغرافية ج ٢٦ ص ٥٠)

(١) راجع ابن خلكان (ج ٢ ص ٢٠١) ولم يصل إلينا تاريخ المسبحي ذاته ، وإنما وصلتنا منه شذور كثيرة على يد المؤرخين المتأخرين

(٢) نقل إلينا ابن خلكان وصف هذه المناظر عن صاحب تاريخ القيروان (ج ٢ ص ٢٠١) . وراجع أيضاً خطط المقريزي (ج ٤ ص ٦٨) والنجوم الزاهرة (ج ٣ ص ١٢٣)

هم برجوان الصقلبي خادمه وكبير خزائنه ؛ والحسن بن عمار الكتامي زعيم كتامة ، أقوى القبائل المغربية وعماد الدولة الفاطمية منذ نشأتها ؛ ومحمد بن النعمان قاضي القضاة . وعهد بالوصاية الفعلية إلى الأول والثاني . وكان برجوان ، ويسمى أبا الفتوح ، خصياً صقلبياً ، ربي في القصر ، واصطفاه العزيز بالله وولاه أمير القصر ، وخلع عليه لقب « الأستاذ » وهو من ألقاب الوزارة في الدولة الفاطمية ، وعهد اليه بمهام الأمور ، وأولاه ثقة عظيمة . وكان ابن عمار رجلاً قوى الشكيمة ، وافر العصبة ؛ ولكن برجوان كان بظروفه وطبيعة منصبه أوثق اتصالاً بالخليفة الصبي ، وأشد تأثيراً فيه ومقدرة على توجيهه ؛ فلم يلبث أن نشب الخلاف بين الرجلين واشتدت المنافسة بينهما ، وقام ابن عمار بتدبير الشئون بادئ بدء ، وتلقب بأمين الدولة ، وهو أول لقب من نوعه في الدولة الفاطمية ؛ واقتسم الكتاميون من صحبه وشيعته السلطات والمناصب ، وعاثوا في شئون الدولة ومرافقها ؛ وحرضه بعضهم على قتل الحاكم والتخلص منه فأبى استصغاراً لشأنه أو رهبة من العواقب ؛ ولكن برجوان كان ساهراً يرقبه ويتلمس الفرص لمناوأته وإسقاطه ، ويدس له الدسائس ، ويؤلب عليه زعماء الجند الناقمين عليه ؛ فلم يمض عام حتى تفاقمت الصعاب والأحقاد من حوله ؛ ووثب جماعة من الزعماء والجند بتحريض برجوان بالكتاميين وأثخنوا فيهم ، فتوارى ابن عمار ، واضطر أن يترك الميدان حراً لمنافسه [1] ، عندئذ قبض برجوان على زمام الأمور ، واستأثر بكل سلطة حقيقية داخل البلاط وخارجه ، واختار لمعاونته كاتباً نصرانياً يدعى فهد بن ابراهيم ولقبه بالرئيس ، وفوض اليه النظر والتوقيع والمراجعة . ولزم برجوان الحاكم ، يقيم معه بالقصر ، ويسهر على توجيهه ، ويستأثر لديه بكل صلة ونفوذ ؛ واستبد بكل أمر في الدولة ؛ واستقرت الأمور حيناً

واستمر برجوان يتبوأ ذروة القوة والنفوذ زهاء عامين ونصف ؛ وفي عهده وقعت عدة ثورات وقلاقل في الشام والمغرب ، وحاول بعض الحكام والزعماء المحليين الخروج على حكومة القاهرة ؛ فسير برجوان جيشاً إلى الشام بقيادة جيش بن الصمصامة ، فقاتل الثوار في عدة مواقع ، وأخضعهم تباعاً ، واستعاد دمشق ؛ واشتبك مع الروم (البيزنطيين) في عدة معارك في شمال الشام ، وكانوا قد انتهزوا فرصة الاضطراب للاغارة على الثغور وتأييد الخوارج ؛ فهزمهم وردهم إلى الشمال . وسير برجوان جيشاً آخر إلى برقة حيث اضطرمت الثورة ، فرد النظام اليها ، واستعمل عليها يانسا الصقلبي . وكانت الدولة الفاطمية منذ نشأتها تعتمد على تأييد القبائل المغربية ذات البأس والعصبية ؛ ويستأثر زعماؤها بمعظم مناصب القيادة والحكم والادارة حتى عهد المعز لدين الله ؛ ولكن ولده العزيز مال إلى اصطناع الموالي من الترك والصقالبة فقدمهم في القصر وفي الجيش ، وبدأت المنافسة من ذلك الحين بينهم وبين الزعماء والمغاربة [1] وكانت سياسة برجوان ترمى إلى تحطيم نفوذ الزعماء المغاربة ، ونزعهم عن الولايات والثغور ؛ وتوزيع السلطة على نفر من أصدقائه الصقلبيين يستطيع أن يعتمد على ولائهم وأن يسيرهم طبق أهوائه ؛ فعين إلى جانب يانس ، طائفة منهم لحكم الولايات والثغور ، مثل ميسور الخادم والى طرابلس ، ويمن الخادم والى غزة وعسقلان ، وعين بالقصر عدداً كبيراً منهم [2] وجنح الروم بعد هزيمتهم إلى السلم ، وعقدت بين بلاط القاهرة والأمبراطور بزيل الثاني قيصر قسطنطينية أواصر الصداقة والمهادنة مدى حين [3]

***

ماذا كان موقف الحاكم خلال هذه الفترة الأولى من خلافته ؟ لقد كان برجوان بلا ريب يحجبه ما استطاع عن الاتصال برجال الدولة وبشئونها ، ويدفع به ما استطاع الى مجالى اللهو واللعب ؛ وكانت أم الحاكم وهي نصرانية كما قدمنا ، تشهد ولدها ينمو ويترعرع في ظل هذه الوصاية الخطرة عاجزة عن التدخل لحمايته أو توجيهه ، لأن برجوان لم يفسح لها أى مجال للتدخل في شئون الدولة . غير أن الحاكم كان يشعر رغم حداثته بخطورة المنصب الذى يتبوأه ؛ ولم يلبث أن استرعى سير الأمور اهتمامه ، ولم يلبث أن فطن الى موقف برجوان ، واستئثاره بالسلطة واستبداده بالشئون . ولما بلغ برجوان ذروة السلطان والنفوذ ، كان الحاكم قد أشرف على الخامسة عشرة ، وأضحى الطفل

(١) راجع ابن خلكان (ج ٢ ص ٢٠١) — وابن الأثير (ج ٩ ص ٤٠ و ٤١) والمقريزى (ج ٣ ص ٥٧٤)

(١) المقريزى — ج ٤ ص ٦٨ — وج ٣ ص ١٧ و ١٨

(٢) المقريزى — ج ٣ ص ١٨

(٣) ابن الأثير — ج ٩ — ص ٤٢

فتى يافعاً شديد اليقظة والطموح . وكان برجوان يذهب فى طغيانه وعسفه الى حدود بعيـــدة ، ويثير حوله ضراماً من البغضاء والحقد ، ويحفز بذلك خصومه داخل البلاط وخارجه الى العمل على تقويض سلطانه ومكانته . واعتقد برجوان أن الجو قد خلا له ، فانكب على ملاهيه وملاذه ، يقضى معظم أوقاته فى مجالس الأنس والغنـاء والطرب ، ولم يفطن برجوان من جهة أخرى الى ما وقع فى نفس الأمير الفتى ومشاعره من التبدل والتطور ، فاستمر يعامله معاملة الطفل المحجور عليه ؛ وذهب فى استهتاره الى مدى شعر الحاكم أنه لا يتفق مع مقامه ومكانته ، وربما ذهب برجوان الى حـد الاساءة الى الحاكم ونقض أوامره ، بل الى حد إهانته والتنكر له ، ويقص علينا المقريزى منظراً من هذه المناظر التى اجترأ فيها برجوان على إهانة سيده خلاصته : « أن الحاكم استدعاه ذات يوم وهو راكب معه ، فسار اليه وقد ثنى رجله على عنق فرسـه ، وصار باطن قدمه وفيه الخف قبالة وجه الحاكم » ، ونحو ذلك من المناظر والاهانات المثيرة(١)

أحفظت نفس الحاكم لهذا الضغط وهذا الاجتراء ، فأضمر التخلص من ذلك الوصى الطاغيـــة ، وربما تأثر فى هذا العزم بتحريض بعض خصوم برجوان ولاسيما ريدان الصقلبى حامل المظلة وخصمه القوى داخل البلاط ؛ ولكن لاريب أن الحاكم كان قد بدأ يومئذ يثور لسلطته المسلوبة ، وأخذت تتفتح فى نفسه الوثابة تلك الأهواء العنيفة المضطرمة التى بلغت ذروتها فيما بعد . وعلى أى حال فقد حكم على برجوان بالموت ؛ وفى ذات مساء بعث إليه الحاكم للركوب معه ، وانتظره فى إحدى حدائق القصر ومعه ريدان حامل المظلة ، فوافاه برجوان هنالك ؛ وبعد أن سلم سار الحاكم حتى خرج من باب الحديقة ، فوثب ريدان عندئذ على برجوان فطعنه فى عنقه بسكين ، وانقضت عليه جماعة كانت قد أعدت للفتك به ، فأثخنوه طعنـاً بالخناجر ، واحتزوا رأسه ، ودفنوه حيث قتل (ربيع الثانى سنة ٣٩٠ – ١٠٠٠م)
ولما عاد الحاكم إلى القصر كان خبر مقتل برجوان قد ذاع على لسان خادمه عقيق ، فاضطربت البطانة ، وأشرف الحاكم عليهم ليرى الخبر ؛ وصاح فيهم ريدان : « من كان فى الطاعة فلينصرف إلى منزله ويبكر إلى القصر المعمور » فانصرف الناس منزعجين ،

وفى نفس المساء اتخـذ الحاكم عدته لتوطيد الأمور ، واستدعى الرئيس فهدا ، وهدأ روعه وأقره فى منصبه ؛ وصودرت أموال برجوان وكانت عظيمة طائلة ، واختفى أصدقاؤه من الميدان(١)

— ٤ —

وهكذا ظفر الحاكم لنحو أربعة أعوام فقط من ولايته بأن يطوى مرحلة الحداثة ، وأن يستخلص السلطة لنفسه ، وأن يبدأ عهد الحكم الحقيقى . وكان الحاكم يومئذ فى نحو الخامسة عشرة من عمره ، مضطرم النفس والأهواء ، ولكن وافر الذكاء والجرأة والعزم . فبدأ بتعيين مدبر للدولة مكان برجوان ، ووقع اختياره على الحسين بن جوهر الصقلى . وكان العزيز قد ولاه القيادة بعد وفاة أبيه جوهر ، واصطفاه وأولاه ثقته وعطفه ، فلما توفى العزيز قلد الحسين ديوان البريد والانشاء ؛ ولما قتل برجوان لم يكن بين رجال الدولة من هو أرفع منـه مقاماً وأجدر بتولى الشئون العامة ؛ فاستدعاه الحاكم وخلع عليه ، وقلده النظر فى أمور الدولة والتوقيعات ، ولقبه فى سجل التعيين « بقائد القواد » وعكف الحسين على تدبير الشئون بمعاونة خليفته الرئيس فهد ، وأمر أن تبلغ اليه المهام والظلامات فى مكانه بالقصر وألا يقصد أحد داره ، وألا يخاطب بغير لقبه الرسمى « القائد » دون تعظيم أو تفخيم ، وألا يمنع أحد من مقابلة الحاكم أو الاتصال به ؛ وغدا الحسين بن جوهر وصهره عبد العزيز بن محمد بن النعمان ، الذى خلف أباه فى منصب القضاء ، أعظم رجلين فى الدولة ؛ واستمر الحسين يدبر الأمور مدى أعوام حتى تغير عليه الحاكم كما سيأتى

وتناول الحاكم إدارة الدولة العليا بيديه ؛ ونظم له مجلساً ليلياً يحضره أكابر الخاصة ورجال الدولة ، وتبحث فيه الشئون العامة ؛ وكانت هـذه أول ظاهرة لهيام الحاكم بالليل والتجوال فى ظلماته . بيد أنه أبطل مجلسه الليلى بعد حين . وتوفى جيش ابن الصمصامة والى الشأم ، فعين الحاكم مكانه فحل بن تميم ، ولما توفى لأشهر من ولايته عين مكانه على بن فلاح ؛ وكان اتجاه الحاكم يومئذ نحو إقصاء الأتراك والصـقالبة وتمكين المغاربة ، كما كان الشأن أيام جده المعز ، ولعله كان يقصد فى ذلك أيضاً إلى هدم سياسة برجوان فى اصطفاء الصقالبة . ووفد عليه ولد جيش بن الصمصامة يحمل وصـــية أبيه التى يوصى فيها بجميع أمواله

(١) المقريزى ج ٣ ص ٥

(١) المقريزى — ج ٣ ص ٥

صورة فى المرآة

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

إن كل شيء ممكن ولا سيما فى هذه الأيام . وليس لأحد أن يكذب إمكان حدوث شيء بعد أن شهد هذا العصر ما شهد من صنوف المخترعات والمبتدعات . فمن ذا الذى كان يحلم أن الانسان قد يكون جالساً إلى مكتبه بالقاهرة ، فيسمع موسيقى دار الأوبرا فى باريس أو ڤينا ؟ وينصت إلى نجوى النظارة وتصفيقهم ، حتى كأنه جالس معهم هناك يسمع ما يسمعون ويشهد ما يشهدون ؟ وما هى إلا خطوة واحدة ثم يستطيع الانسان أن يسمع ويرى فى آن واحد . فيتيسر له عند ذلك أن يرى بعينه أهل باريس أو ڤينا أو سواها ، وهم يتمايلون للموسيقى ويعجبون بالراقصة أو المغنية ، وأن يرى المسرح بما فوقه من الفتن الشهية ، ولن يحس الناس عند ذلك بوجود المسافات ولا بحدود الدول والبلدان . وهكذا أرجو إذا أنا وصفت للقراء ما أوصلنى إليه الدأب ، ومكننى منه الدرس من الاختراع ، ألا يكذبنى مكذب ، فما غرابة قصتى هذه بمنقصة من قدرها ، إذ صارت الحقائق أعجب من صور الخيال ، وأصبح إدراك المشاهد أعسر على الذهن من تصور الخيالات ، فبينا يرى الانسان الآلة المحدثة بين يديه حقيقة ماثلة ملموسة إذا به يراها عند غاية الاستعصاء والغموض والتأبى

ولقد وفقنى الله لاختراع آلة عجيبة ، ولكنها من مثل تلك الآلات المحدثة التى ذكرتها آنفاً تراها وتلمسها ، وتؤمن بأنها حيالك ماثلة موجودة . ثم تحار فى معرفة كنهها والغوص إلى موضع سرها . هى مرآة لا أكثر ولا أعظم ، ولا يختلف ظاهرها عن المرآة المتادة إلا فى أنه يحيط بها إطار به لوالب مختلفة لتحريكها وتحديد موضعها . ولكنها فى حقيقتها فذة فريدة ، إذ أنها لا تنقل إلى الرائى صورة وجهه إذا نظر اليها ، بل لقد يظهر له فيها إذا وضعها أمام عينيه شكل شخص آخر ، أو شكل بعض الحيوان ، أو شكل كائن آخر من الكائنات ، ولعلها تفزع من لا عهد له بها ولا دراية له بسرها ؛ فقد تنظر اليها حسناء لترى هل دهان شفتيها لا يزال هناك لم تخطفه الشمس ولم يمحه بنان النسيم ، فترتاع إذ تجد المرآة تبرز لها صورة كريهة كصورة قرد مثلاً ، أو كصورة عجوز شوهاء . وقد ينظر اليها فتى من الفتيان ليتحقق من أن سحر عينيه لا يزال على عهده به ، وأن موضع رباط رقبته لا يزال حيث رآه آخر مرة فى آخر مرآة مر بها من تلك الزجاجات المنصوبة على جوانب الحوانيت والدكاكين الكبرى فتظهر له صورة أخرى مثل صورة فتاة لعوب ، أو صورة تيس أو حيوان آخر مما تعارف الرجال على كراهة التشبه به والظهور فى مظهره . ولكن الانسان إذا عرف أن هذه المرآة لا تظهر للرائى صورته ، لم يلتمس أن يرى فيها صورة نفسه ، وبذلك يحفظ نفسه من الألم الذى قد يصيب من يجهل أمرها وسرها . فان سر تلك المرآة أنها لا تلتقط إلا أشعة الضوء القديمة التى مضى على سيرها آلاف السنين على الأقل . وهذا الأمر يحتاج إلى شيء من التفسير ، ولكنى سأشرحه شرحاً يسيراً حتى لا أخرج بالقارئ طويلاً عن صلب القصة

أنت تعلم أن المادة لا تفنى ، وأن الطاقة لا تنعدم ، فهذا يعرفه كل من درس أوليات العلم . وتعلم أن شعاع النور طاقة ، والنور على ذلك لا ينعدم . فاذا سار الشعاع الضوئى فى الفضاء فانه يظل سائراً إلى أبد الدهر إلا إذا تحول إلى طاقة أخرى . وتعلم أن الانسان يرى الأشياء لأن الضوء يقع عليها ثم ينعكس منها إلى عينه فيحمل صورة الأشياء إلى العين . فاذا سار الشعاع المنعكس إلى أبعد الجهات أمكن أن يحمل صورة الأشياء إلى تلك الجهات البعيدة . والضوء كذلك يسافر بسرعة هائلة ، فهو يحمل الصور بتلك السرعة ، ولكن المسافة إذا كانت بعيدة جداً لم يستطع الضوء أن يقطعها إلا بعد مدة قد تكون طويلة ، فان

للحاكم ، ويحمل اليه الأموال الموصى بها ، وكانت تبلغ نحو مائتى ألف دينار بين نقد ومتاع ، فقرأ الحاكم الوصية ورد المال إلى أهله ؛ ودلل بذلك على صفة من أخص صفاته ، هى العفة عن مال الرعية ، والزهد فى المال بصفة عامة ؛ وسنرى أنه يدلل على هذه الخلة فى مواطن كثيرة

للبحث بقية

محمد عبد الله عنان
المحامى

شعاع الضوء يأتي إلى الأرض من بعض الكواكب في أعوام وقرون ، ومنها ما يصل إلى الأرض من كوكب بعيد في آلاف السنين

هذه كلها مقدمات ، وهناك بعد ذلك أمر آخر ، وهو أشد استعصاء على الفهم ، وذلك أنني قد كشفت أن الضوء لا يسير في خط مستقيم كل الاستقامة ، بل إنه منحن قليلاً ، فاذا سار منحنياً على هـذا النمط تـكونت من سيره دائرة ، لأن الدائرة تتكون من خط منحن انحناء منتظماً سائراً على نمط واحد . فاذا سار شعاع فوقع على شيء ثم انعكس إلى الفضاء ، فانه يسير حاملا صورة الشيء الذي وقع عليه ، ويستمر في سيره دائراً حول الأرض حتى يعود إلى موضعه ، ولا يزال يفعل هكذا أبد الدهر ، فاذا استطاع إنسان أن يخترع آلة من خواصها أن تقبض على هذا الشعاع التائه في الفضاء ، أمكنها أن تتلقى صورة الشيء الذي انعكس منه ذلك الشعاع

وإذن فالأمر هين ، إذ اخترعت مرآة من معدن خاص لا يلتقط إلا الأشعة الضعيفة التي قضت في سيرها في الفضاء أو في دورانها حول الأرض آلاف السنين . ومن شأن هذه المرآة أنها لا تلتقط الأشعة القوية الطازجة ، فان تلك الأشعة تقفز عن سطحها قفزاً بغير أن تثبت قليلاً لتنعكس عليه ، فالذي ينظر إلى تلك المرآة لا يرى فيها شيئاً إلا إذا اتفق أن سقط عليها شعاع من تلك الأشعة المعتقة التي تنم عن أشياء الماضي وحوادث الماضي ، كما أنها قد تلتقط أيضاً أشعة النجوم البعيدة إذا كانت لا تبلغ الأرض إلا معتقة أي بعد آلاف السنين من تركها كواكبها

أخذت هذه الآلة يوماً كعادتي كلما خرجت إلى نزهة وذهبت إلى جوار الأهرام لأجول حولها جولة ، ولما أتعبني ذلك التجوال جلست أستريح على حجر من تلك الأحجار الضخمة التي قد انفرطت من عقدها ، ولم يكن معي كتاب أقطع الوقت بالقراءة فيه ، فأخرجت الآلة أنظر فيها وأقلبها في يدي ، فقد عودتني كلما نظرت فيها أن أجد صـورة مسلية من صور الماضي إذ تلتقط شعاعاً من تلك الأشعة القديمة التي تقص على نبأ حديث قد مضت على وقوعه القرون الطويلة . ولـكنها لم تحقق أملي عند ما نظرت فيها فلم أنزعج من ذلك ، وقلت إن الموضع الذي كنت فيه ليس مما تكثر به الأحداث والقصص . وجعلت أتأمل لون معدنها وأحدق في نكتة سوداء عند حافتها لا أقصد من وراء ذلك إلا العبث والتلهي . فلاح لي عند ذلك خيال يتحرك فيها وكان خيالاً ضئيلاً . فعلمت أن المرآة قد التقطت شعاعاً ، ولـكنه شعاع قوي لم تمض عليه المدة الكافية لأضعافه وتعتيقه ، فجعلت أحدق في المرآة حتى استطعت أن أتبين الصورة بشيء من الجلاء

رأيت الفضـاء الذي حولي هضبة مستوية ليس عليها شيء غير كوم واحد ، فعلمت أن ذلك الشعاع يحمل صورة الهضبة قبل أن تبنى فيها الأهرام الصغرى وعند ما كان الهرم الأكبر لا يزال يبنى . وكان الهرم لم يبلغ بعد نصف علوه ، وكان يدور حوله جسر من التراب كالحلزون يتضايق كلما ارتفع ، وكان على ذلك الجسر ألوف من الناس بعضها صاعد وبعضها نازل تلوح في الصورة كما يلوح النمل في قرية من قراه تماوج في ترددها بين الجيئة والذهاب ، تارة تتقارب وأخرى تنتشر ، وتارة تجتمع وتارة تتفرق . ورأيت سموطاً من تلك الألوف قد اجتمع كل سمط منها عند حبل قد أخذ كل فرد بقبضة منه ، وكان وراء كل سمط جماعة في أيديهم السياط فلا يكاد أحدهم يرى رجلاً قد استرخى في عمل حتى يهوى عليه بالسوط ، فاذا به يقفز إلى الأمام وقد تشنجت عضلاته وأقبل على العمل عنيفاً ، وكان كل سمط من هـذه السموط يجر بالحبل الذي اجتمع عليه حجراً ثقيلاً من تلك الحجارة الضخمة التي نراها اليوم في بناء الهرم ، فلا يزال السمط يجُر الحجر حتى يعلو به الجسر الدائر حول البناء ثم يصعد به جانب ذلك الجسر فيـدور حوله صاعداً في دورانه حتى يبلغ أعلى البناء فيقربه إلى حافة البناء ويضعه حيث يطلب البناؤون وضـعه . فاذا ما بلغ المساكين الذين يجررون الحجر أعلى البناء ووضـعوا الحجر وهم يلهثون من التعب انطرحوا على الأرض إعياء يطلبون بعض الراحة ويستردون النفـس المنبت ، غير أنهم لا يكادون يلمسون الأرض بجنوبهم حتى تلحق بهم جماعة المراقبين فيهوون عليهم بالسـياط يمزقون بها جلودهم . فيهب الأشـقياء مرتاعين يتلوَّون من ألم الضرب يجررون أرجلهم بما استطاعوا من السرعة ويهبطون إلى أسفل البناء لـكي يعيدوا الـكرة فينقلوا حجراً جديداً لبناء هرم فرعون

والحق لقد آذانى ذلك المنظر وتفظعته من شدة قسوته ، فهممت أن أضع المرآة حتى لا أرى بقيته ، لولا أننى رأيت شيئاً أخذ على انتباهى قسراً فلم أجد حيلة فى الانصراف عنه أو الانفلات منه . وذلك أننى بصرت بسمط من هذه السموط البشرية قد علا جانب الجسر سائراً فى خطاه الوئيدة يحرك حجراً جديداً نحو أعلى البناء ، غير أنه ما توسط الجسر حتى هبط عليـه حجر أفلت من سمط فوقه إذ تقطعت الأحبال التى كان أصحابه يجرونه بها فوقع الحجر متدحرجاً فأصاب فى طريقه ذلك السمط الصاعد فدك جماعة منه دكاً وحطم أعضاء جماعة أخرى . فتفرق الناجون مرتاعين أيما ارتياع والموت الفظيع فى أعينهم الحائرة المذعورة ، وسمع صياحهم بعض أخوانهم فما هى إلا لحظة حتى اجتمع حول المكان ألوف من العمال مضطربين هلعين ، وفيما هم فى ذلك أقبل الرقباء وفى أيديهم السياط فأهووا عليهم من كل صوب لا يبالون أين يقع السوط منهم ، ففر البعض إلى أسفل وتردد البعض قليلاً ، ثم مضوا إلى أسفل فى شئ من التلكؤ ، وعادوا إلى حجارتهم يزحزحونها شبراً فشبراً نحو أعلى الهرم فانجلى المنظر عن بقية ضئيلة واقفـة حول مكان الكارثة وعن رجل قد ارتمى على أحد الضحايا يبكيه ويطيع فيه قلباً محباً

تخيل إلىّ أنه أخ قعد ليرثى أخاه الفقيد ، أو صديق برح به الوجع عند ما رأى صـديقه يختطف من بين الجموع على هذه الحال المؤلمة ، فارتمى عليه يبكيه ويؤدى اليه حق القلب الانسانى فى رثاء الصـديق الحميم ؛ غير أن المقام لم يطل به على ذلك ، فقد عاد اليه الرقباء وفى أيديهم السياط ، فألهبوا ظهور من بقى حول المكان ، وأهووا اليه بالسوط فمزقوا ظهره العارى وهو مكب على جثة صاحبه ، فقفز الرجل من الألم ، وانتفض انتفاضة كأنما هو وحش استثير ، وأقبل على الذى ضربه من الرقباء ، فرفع هذا يده بالسوط ليعيد عليه الكرة فلم يمكنه من ذلك ، بل أسرع فى سطوة الغاضب وانتزع السوط من يده ثم علاه به مرتين ، ثم دفعه الى الارض فتدأدأ عليها ، وكان قريباً من حافة البناء فهوى فى الفضاء فلم يستقر إلا على سطح الهضبة بعد أن تهشم وتحطم . ثم وقف الرجل على حجر من أحجار البناء متحدياً سـائر الرقباء ، فلم يجرؤ منهم أحد على الاقتراب منه ، وعاد الاضطراب الى مثل ما كان عليه ، وأسرع ألوف من العمال مرة أخرى نحو المكان ينظرون الى الحدث الجديد ويتهزون فرصـة للراحة من عملهم المضنى . غير أنها لم تكن سوى مدة قصيرة ، فإذا الجمع يضطرب فى جانب من جوانبه ، ثم إذا بالاضطراب يسـير خطوة خطوة بين الوقوف ، ثم إذا بالجمع ينفرج عن رجل شيخ يسير فى تؤدة ووقار ، وهو كلما سار فى جمع انفرج له وركع من حوله إجلالاً وخشوعاً ، فلقد كان ذلك هو كاهن القوم أتى بأمر الالـه (رع) ، وأقبل بكلمة الحـكمة من (تحوت) ، وكان يلبس ثوباً طويلاً يظهره من بين الجموع العارية ، وقد تدلت على صدره لحية طويلة بيضاء كاللبن ، وكان طويل القامة فى انحناء يسير بأعلى ظهره ، وعلى رأسه منديل يغطى شعره الى شحمتى أذنيه ، وقد لف حوله عصابة تمسك به حول الرأس . فلما صار على قيد ذراع من العامل الثائر وقف وحرك شـفتيه ببعض القول ثم رفع يمناه بطيئاً نحو الرجل وتكلم كلمات أخرى ، غير أن الرجل وقف وقفته الأولى ولم يزل متحدياً ، وحرك شفتيه ببعض كلمات والغضب باد فى عينيه ، وجعل ينظر الى القوم الذين اجتمعوا حوله كأنه يستنصر بهم ، فنظر الـكاهن الشيخ لحظة نحوه ، ثم نظر الى الألوف الواقفة حوله وتكلم ، وجعل يرفع يديه نحوهم فى تؤدة ووقار وهو يتكلم . فقضى على ذلك حيناً ، ثم وقف ونظر الى الجمع فاذا بحركة تبدأ فى الواقفين وتتزايد ، ثم ما هى إلا لحظة حتى كان الجمع مضطرباً يصيح رافعاً أيديه مهدداً غاضباً وهو متجه نحو الزميل المجرم المسكين . فرأيت العـامل الشقى ينظر نحو من حوله وهم حانقون يتهددونه ويتوعدونه ، وعنـد ذلك لم يقو على المضى فى مقاومته ، بل داخله اليأس وتخـاذل مضطرباً ، فنظر الـكاهن اليه وجعل يتكلم بكلمات ويرفع يمناه مرة أخرى نحوه ، فرأيت العامل المسكين يمد يده بالسوط فيسلمه وينزل عن الحجر الذى كان واقفاً عليه ويتقدم فى ذلة وخشوع نحو الشيخ الـكاهن

فتكلم الـكاهن مرة أخرى ، ونظر نحو الجمع الزاخر حوله فى تؤدة ووقار ، ثم رفع يده نحوه ، فألقى الـكل ساجدين ، ثم وقفوا خاشعين ، ونظروا الى الـكاهن وهو يقبض على يد أخيهم الشقى ، ثم نظروا اليه وهو يسير به نحو حافة البنـــاء ويمصب عينيه ، وكانوا عند ذلك لا تتحرك منهم يد ، ولا تطرف

لهم عين ، وهم ينظرون الى رسول الحكمة ونجى الآله ينفذ رغبة (رع) فى العدل والرحمة ، وتريث الكاهن قليلاً ، وهو يحرك شفتيه خاشعاً بشىء يشبه الصلاة ، فلما أتمها دفع العامل الشقى فجأة فقذف به على المنحدر الذى هوى عليه من قبل الرقيب القاسى ، وتحطم كما تحطم ذلك الرقيب من قبل

ونظر الكاهن الى الجمع المحدق به وقال لهم كلمات خروا بعدها للأذقان سجداً ؛ ثم قاموا فأشار إليهم إشارة أخرى فانصرفوا وتبددوا كما يتبدد السحاب فى الريح ، فما هى إلا لحظة حتى عادت السموط تنتظم ، وتجرر الأحجار نحو أعلى المنحدر صاعدة الى قمة البناء الهائل ليبنوا لفرعون قبراً جديراً بمجده

وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب ، وكنت قد امتلأ قلبى بما رأيت ، فقمت عن الصخرة التى كنت جالساً عليها ووضعت المرآة فى جيبى ، وجعلت أعزى نفسى عن وقع ما رأيت بأن أقول لها : « رويدك يا نفس ! فما زال الانسان هو الانسان »

محمد فريد أبو حديد

الدرر الكامنة

الأستاذ محمد كرد على

عضو مجمع اللغة العربية الملكى

طبعت عدة كتب فى الطبقات والتراجم لأهل القرون الماضية فى الأسلام ، والى الآن لم تطبع تراجم أهل القرن الثامن والتاسع والعاشر ، مع أن تراجمهم عُنىَ بها فى القرن الثامن ابن حجر العسقلانى المصرى المتوفى سنة ٨٥٢ ، ووضع تراجم أهل القرن التاسع السخاوى المصرى المتوفى سنة ٩٠٢ ، وتراجم أهل القرن العاشر قام بتدوينها الغزّى الدمشقى المتوفى سنة ١٠٦١ وسمى الأول كتابه « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » ، والثانى « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » ، والثالث « الكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة »

ومن لطف المولى أن هذه الكتب الثلاثة بقيت فى الأرض وظفر بعدة نسخ منها فى خزائن الشرق والغرب ، لا كأكثر تركة أسلافنا بُعثرت وأحرقت وأغرقت وأصابها كل خطب عظيم

ترجم صاحب الدرر الكامنة لألف وثلثمائة وثلاثة وأربعين رجلاً وامرأة ، تراجم اعتمد فى وضعها على من سبقوه فى هذا الشأن من رجال التاريخ ، أو كانوا ممن عاصرهم وسمع عنهم وأخذ منهم الحديث ، أو أخذ مشايخه عنهم . ويغلب على ابن حجر الحديث والعناية برجاله ونسائه ، ولذلك ذكر عشرات من المحدثات ممن كن يروين الأحاديث النبوية ويروّينها . وترجم لبعض المشهورين تراجم لا بأس بها . ترجم لابن تيمية ، ولسان الدين بن الخطيب ، والصلاح الصفدى ، وابن فضل الله العمرى ، وابن كثير ، والبرزالى ، والذهبى ، وشيخ الربوة ، وأبى الفداء ، وابن المطهر الشيعى ، وغازان ، وابن دقيق العيد ، والبدر البلقينى ، وابن الوكيل ، وابن سيد الناس ، وابن نباتة ، وابن الحاج ، وابن المكرم ، والشمس القونوى ، وابن الوردى ، وابن جماعة ، والتاج السبكى ، والتقى السبكى ، والأردبيلى ، وابن الأكفانى ، والخطيب القزوينى ، وابن الزملكانى ، وأبى حيان الأندلسى ، والقطب الشيرازى ، والبازرى ، والمزّى ، وغيرهم

والى جانب هؤلاء تجد تراجم أناس من الخاملين كبعض المجاذيب والموظفين والطلبة ، كأن لسان حال ابن حجر يقول : يجب ألا يحتقر أحد ، وأن يدون كل شىء . ولكن هذه الطبقة شغلت فراغاً من الكتاب على غير جدوى ومثلهم كثير فى كل عصر ومصر ، لو تطلعت نفوسنا الى التعرض لذكرهم لملأنا منها قماطر ودفاتر ، والمقصود تدوين سير العظماء ممن كان لهم أثر محمود فى علم وعمل . وفى نظرنا أن من أهم من دون المؤلف حياتهم بعد علماء الدين ورجال الأدب أناساً من أرباب الغناء والموسيقى والهندسة والطب ، وبهم فى الجملة عرفنا روح ذاك القرن ، قرن المماليك فى مصر والشأم ، بل مبدأ قرون الانحطاط ومنتهى قرون الارتقاء فى الاسلام

يقع القارئ فى هذا السفر على الروح الذى سرى فى ذاك العصر إلى النفوس فلونها بلونات التعصب الذميم . وقد ذكرها المؤلف على الأكثر غير متعرض لجرح أو تعديل فيها . بيد أن القارئ لعهدنا ، وقد وضع المؤلف أمامه هذه الوثيقة أو الوثائق التاريخية الكافية ، تهيأ له أسباب الحكم على ذاك المجتمع الذى فاض بالجور السياسى والجور الفكرى . فالجور السياسى غزوات

الططر (التتر) من الشرق على الديار الشامية ، أى الجزء المتمم للمملكة المصرية إذ ذاك ، وغزوة بعض شعوب الأفرنج بعض السواحل المصرية حتى افترصها أحد الجورة من المماليك فرصة ليصادر النصارى فى مصر ويستصفى ما فى بعض كنائسهم من الجواهر والمعادن الكريمة أو يخربها حباً فى التخريب وإبلاغاً فى النكاية على زعمه. هذا هو الجور السياسى . أما الجور الفكرى فتحامل الموسومين بالدين على من بيّت منهم بعض نزعات قيل إنها مخالفة للشريعة فكان جزاؤهم القتل . وما نظن أكثر تلك التهم مما يصح أن يتهم به صاحبه من أنه جنى بما قال على الدين إذا تدبرنا ما لاقاه شيخ الاسلام ابن تيمية من متعصبة العلماء فى عصره فى مصر والشام ، وهو النابغة الذى عقمت القرون عن أن تلد أمثاله بعلمه وعقله وإخلاصه على ما دوّن ذلك ابن حجر فى هذا الكتاب . فكانت ترجمته له أحسن ترجمة فيه لأول عالم نبغ فى أول القرن

ثم إن من نظر فى كتب المتأخرين وكتب المتقدمين يجد فروقاً كثيرة بين الأولى والثانية : فروقاً فى الأسلوب وفى المكتوب ؛ وهل التاريخ إلا مرآة العصر الذى يكتب فيه ، وروح صاحبه الذى يمليه ؟ وما كان لابن حجر أن يكتب فى التراجم ويجوّد إجادة ابن خلكان فى وفيات الأعيان مثلاً ، ولا للسيوطى فى مؤلفاته التاريخية أن يجود تجويد الكندى صاحب كتاب ولاة مصر وقضاتها ؛ وهكذا قل فى الزمن الذى بدأت فيه الشروح والحواشى فى الكتب الدينية ، وصار من يسلخ من كلام غيره أو يمسخه وينسخه يعد مؤلفاً فيزيد عدد الأسفار المحفوظة فى الخزائن على غير فائدة جليلة

***

تمنيت فى سنة ١٣٢٨ ﻫ (١٩١٠ م) فى مجلة المقتبس ، وقد درست هذا الكتاب فى نسخة خطتها أنامل ابراهيم البقاعى أحد أعلام عصره — الذى قال فى نسخته : وكان فراغى من هذه فى ١٧ شوال سنة ٨٥٩ بمنزلى بحارة بهاء الدين فى القاهرة — تمنيت لو يقوم رجل منا فيطبع هذا الكتاب ، وقلت يومئذ لو لم يكن فى هذا الكتاب سوى ترجمة شيخ الاسلام ابن تيمية ، لكان كافياً فى طبعه ؛ ولكن قوى شغلتهم الشواغل ، وأصيبوا بالاهمال ، فتهيأ لطبعه صديقى العلامة كرينكو أحد علماء المشرقيات من الألمان ، فطبعه فى أربعة مجلدات فى أكثر من ألفى صفحة معارضاً له على نسخ مهمة ، وذلك على يد مجلس دائرة المعارف العثمانية فى حيدر آباد الدكن من ممالك الهند . وقد اعتادت هذه الدار أن تطبع من كتب العرب كل مفيد ، فأحيت كتباً فى الحديث والفقه والأصول واللغة والأدب والتاريخ والفنون ، ونشرت حتى الآن نحو ثمانين كتاباً منها ما دخل فى بضعة مجلدات ضخمة ، ومما طبعت لابن حجر مؤلفنا الذى نحن بصدد الكلام على كتابه « لسان الميزان » و « تهذيب التهذيب » و « تعجيل المنفعة فى رجال الأئمة الأربعة » الخ

هذا ولا يسعنا إلا أن ننوه بالناشر الغيور على العلم ، وقد رأيناه جود معارضة النسخ وإثبات الصحيح من النصوص على عادة علماء المشرقيات فى تدقيقهم إذا أرادوا طبع كتب العرب ؛ وكم لهم من أياد بيضاء علينا لا ينكرها الا منكر الجميل وغامط العارفة . وحبذا لو شفع الناشر هذا الكتاب الجليل بالفهارس المنوعة التى تسهل على العلماء الأخذ منه ، فان كتاباً بلا فهرس تقل فائدته إذا كان من كتب المراجع ؛ وعلمت أن الناشر وضع الفهارس والطابع تأخر فى طبعها ، وما أدرى ما اعتذاره

وقد نشر السيد سالم الكرينكوى — كما دعا نفسه — كتاب التيجان لوهب بن منبه ، وأخبار اليمن لعبيد بن شرية ، وحماسة ابن الشجرى ، اتكلم عليهما فى فرصة أخرى وأكتفى هنا بشكره ، وأن أوجه نظره إلى كتاب آخر لابن حجر لا يقل عن الدرر الكامنة فى الفائدة ، وهو « إنباء الغمر فى أبناء العمر » وفى الخزانة الظاهرية بدمشق مسودة هذا المخطوط بخط مؤلفه ، وهو تعليق كما قال فيه جمع فيه حوادث الزمان منذ مولده سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة ، وهلمّ جرا مفصلاً فى كل سنة أحوال الدول ووفيات الأعيان ، مستوعباً لرواة الحديث خصوصاً من لقيه أو أجاز له . وقد امتد هذا الكتاب إلى سنة خمسين وثمانمائة ، وجاء من ذيل عليه ، كما جاء من اختصر له الدرر مثل ابن المبرد وجلال الدين السيوطى الذى عرف بالولوع باختصار الكتب

القاهرة — محمد كرد على

الفن والطبيعة

بقلم نظمى خليل

.. ونعنى بالطبيعة العالم المرئى الذى يقع تحت بصرنا ، ولسنا نبغى من وراء تعريفنا للطبيعة تحديدها أو تبسيطها ، ولكنا نريد أن نعرف هل هناك تباين بين العالم المرئى وبين الفنان ، وهل هناك اختلاف جوهرى بين جمال العالم المرئى ، وذلك الجمال الذى نراه ونحس به عندما ننظر إلى لوحة مصور أو تمثال مثَّال ؟

إذا أجبنا عن هذا السؤال بالايجاب ، وهو الحق والصواب كما أعتقد — رأينا أنفسنا مضطرين الى أن نشرح وظيفة الفنان الذى يقف بيننا وبين الطبيعة . فلو وقف الفن عند سرد مناظر الطبيعة ، أو اقتصر على التقاط مناظرها وصورها كما هى ، لرأينا آلة التصوير تسرع إلى انتزاع مكانة التصوير . ولكن الحقيقة أن الفن ليس تمثيلاً للطبيعة ، ولكنه تفسير لها . ولسنا نغالى إذا قلنا إن الفن يبتدئ حيث يترك الفنان صحبته القوية للطبيعة ، بعد أن يشيع فى جوها أنغاماً من عمله الخاص تبعاً لشعوره الشخصي وذوقه الموسيقى . فالطبيعة معين لن ينضب للفن ، — وهى اليوم — كما كانت ، وكما ستبقى أبداً — أكبر موح له بروائع الحسن والجمال . ولكن القوانين التى تتحكم فى عمل الفن منفصلة تماماً عن قوانين الطبيعة . فاذا كانت النغمة التوافقية فى موسيقى الرعاة عملاً فنياً جليلا ، فذاك لأن بيتهوفن لم يحاك نغمات الطبيعة تبعاً لشروط الموسيقى وقوانينها ، وأفصح عن تلك العواطف الخاصة التى أثارتها فيه صحبته القوية للطبيعة فى أنغام سامية ، كانت من وحيه وإلهامه ، ثم وجهت فى هذا الطريق الموسيقى بواسطة المهارة الفنية التى هى أصيلة فى كل عمل فنى ...

يقول بعض الناس إن مهمة الفن فى هذا العالم هى أن يكمل ما فى الطبيعة من نقص . وقد يفهم البعض منهم أن الفن يأتى بأشياء ليست فى الطبيعة ، أى أنه يزيد فى مواد الطبيعة الأساسية . ولكن هذا الفهم خطأ ، وهذا الظن إثم وجور على الطبيعة . فليس لدى الفن ما يجود به على الطبيعة من روائع المناظر وعجائب الآثار .. وليس لدى الفنان شىء جديد . ولكن لديه شيئاً واحداً ، وهو الذى يخدع هؤلاء البسطاء ، فيتوهمونه زيادة أو جديداً ، هذا الشىء الذى يبدو جديداً هو الحصر أو التحديد لمناظر الطبيعة ومظاهرها . فقد يرى إنسان نهراً يجرى فلا يحس إحساساً كاملا بروعة مياهه وقوة تياره ، وما على شاطئيه من رمال ونباتات أو غابات وصخور . قد لا يفطن الناظر إلى هذا النهر للجمال المختبىء فى هذه المناظر الطبيعية الفسيحة الضخمة الهائلة . فينصرف عن النظر إليها الى صورة رسام أو مصور ماهر قد صور هذا النهر وهو يتدفق ويتغلغل فى الاحراج والجبال

وليس معنى هذا أن النهر الجارى أقل جمالاً وروعة من صورة الرسام ، لا ، بل إن الناظر نفسه لم يفطن إلى هذا الجمال الأصيل فى تلك المناظر الطبيعية العظيمة ، لأنه جمال متشعب فسيح . فلما جاء الفنان وحصره فى لوحته الصغيرة ، أمكنه أن يشعر به ، وأن يقف على أسراره الدفينة ؛ ولو أمكن الرائى أن يدرك الجمال الطبيعى فى مظهره الطبيعى لوجده جمالا خالصاً عبقرياً . ولكن عين الانسان لا تستطيع أن تأخذ النهر الجارى من منبعه إلى مصبه ، أو أن تلقى نظرة كاملة على الجبل الشامخ من قمته إلى سفحه . فان حاولت ذلك لحقها الكلل والملال ، وفضلت النظر فى الصورة على التطلع إلى المرئى ذاته مهما يكن جماله وروعته

هذا هو الشائع بين الناس . ومن أجل هذا قيل إن الفن يكمل ما عجزت عنه الطبيعة ، والحقيقة أن الفنان لا يزيد شيئاً على ما فى الطبيعة من ثروة وغنى ، وإن كان يحصر هذه الثروة ويبرزها فى صورة جميلة ومنظر بهى ...

هذا شىء ، والشىء الآخر هو أن الفن ليس محاكاة للطبيعة أو للحياة ، ولكنه خلاصة ما فى الطبيعة والحياة

فالفن قد يحاكى الطبيعة ، وقد يحاكى الحياة ، ولكنه لن ينسخ من الطبيعة أو الحياة صوراً متشابهة متطابقة ، فهو محاكاة وليس نسخاً .. والفرق بين المحاكاة والنسخ هو أن الفنان الذى يحاكى الطبيعة يأخذ منها ما يجده ملائماً لفنه ، أى ينتقى أروع ما فيها من الآثار ، ثم يسلط عليها قوانينه الفنية فيلم أجزاءها ويعطى لها الوضع المناسب الجميل ، فتبرز للرائى جديدة ضافية فى حلل الجدة والابداع

أما النسخ ، فهو صورة طبق الأصل للطبيعة . ولو كان الفن نسخاً للحياة لما أحسسنا بعظمة الفن الأصلية وسحر قوته الدفينة ، ولجاء ثقيلا مضطرباً مشوهاً كالحياة ذاتها . ولما وجدنا فيه هذا الشعور الخفي الذى يسكن آلامنا ، ويريحنا من آلام الحياة وعنت الأيام . بل لما اعتبرنا الفن مأوى لنا نلجأ إليه كلما أثقلتنا متاعب الحياة وضقنا بمطالبها ذرعاً ، ولما كانت لنا حاجة ماسة اليه .

فلو كان الفنان يقدم لنا جبلا كالجبل الذى نتسلقه ، أو نهراً كالنهر الذى نعـــبره ، أو مرعى مخضوضراً قد انتثرت فوقه الأغنام والمواشى ، كتلك المراعى التى نراها كل يوم فى قرانا ، لما اهتززنا لصوره ، ولما أدركنا لها سراً أو معنى

ولو كان الفن يصور لنا حادثة يومية ، أو عملا من أعمالنا العادية التى نلامسها كل يوم دون أن يخلع عليها شيئاً من شعوره وشخصيته ، لما شعرنا بحاجة الحياة اليه ، ولما عملنا على نموه وازدهاره وا كتفينا بالتاريخ

ولـكن الفن لا يقـدم لنا كل ما فى الطبيعة ولا كل ما فى الحياة ، ولـكنه يختار أروع ما فى الطبيعة ، وأجمل ما فى الحياة ، ثم يقدم لنا هذه فى شكل رائع جذاب ، وفى صورة فنية جميلة

هذا هو السبب الذى من أجله نلجأ إلى الفن ونهرع اليه كلما أثقلتنا الحياة أو ثقلت علينا الطبيعة . فنحن لا نعمل فى هذه الحالة أ كثر من أن نتخلص من بعض هذه المنغصات أو الأشياء الثقيلة الجافة التى يتجاهلها الفن ، ولا يقف عندها أو يأبه لها

والفن لا يختار فى الغالب موضوعه من الحياة الظاهرة ، أو من تلك المرئيات التى تلوح للعين فى كل يوم ، ثم تختفى وكأنها لم تكن ، وإنما يختار موضوعه من قلب الطبيعة ، ويتخذ مادته من لب الحياة

فالفنان العظيم حقاً هو الذى ينفذ إلى الحياة الداخلية ، وهو الذى يتغلغل فى أعماق الطبيعة ، ويقف على كامن أسرارها ويبرزها للعين والحس فى صور فاتنة أخاذة

فهو لا يصور كل ما يحس به أو يقع عليـه بصره ، وإنما يفكر كثيراً فيما يبدعه للناس . فلا يختار إلا ما كان عميقاً فى النفس ، أصيلا فى الطبيعة . وهو فى عمله هذا يخالف المدنية كل المخالفة ، لأن المدنية تطور للحياة الظاهرية ، الحياة الحسية ؛ أما الفن فهو تطور لحياتنا الداخليـة . فهو يتصل بالقلب الانسانى والفكر الانسانى ، أما المدنية فتتصل بأعمال الانسان وأحداثه فى هذه الحياة المائجة الصاخبة . لذلك كان الفن أصيلا فى أصوله ثابتاً فى جوهره ، وكانت المدنية سريعة التغير ، كثيرة التباين والاختلاف . .

وليس معنى هذا أن الفن جامد محافظ ، عدو للتطور ، ولـكنه فى الحقيقة فى تغير دائم ، وإن خفى عنا مظهر هذا التغير لعمقه وبعده عن إدراكنا الحسى المجرد . . .

نظمى خليل

هل تدين الاغريق *

للأستاذ دريني خشبة

لا تحسب أن أمة من الأمم شذت عن قانون التدين فلم تتخذ آلهة تعبدها وتعنو لها، وتلتمس منها البركات، أو على الأقل، إلهاً تفزع إليه كلما مسها ضر، أو حزبها أمر. والاغريق، ككل الأمم، كانت لهم آلهتهم ومعابدهم وقديسوهم. وقد لا نستطيع أن نحصر الأقوال المتضاربة في حقيقة تدينهم، وهل كانوا، كالأمم السامية مثلاً، يستغرقهم هذا التدين، ويغمر أفكارهم وأعمالهم؟

فالمشهور عن الأجناس الآرية أنهم قوم آداب رفيعة وفلسفة، وبذلك امتازوا من الساميين المتدينين، ومن المغول وآريي الهنود المتقشفين. على أن الأغريق، من وجهة الدين، ينقسمون إلى فئتين، إن لم يكن أكثر؛ فهذه الطبقة المستنيرة المثقفة، التي ورثتنا تلك الثروة الطيبة من الشعر والأدب والفلسفة والتاريخ والفنون، قد كان لها وجهة نظرها الخاصة بالنسبة إلى الدين. فلم يكن هوميروس مثلاً يعتقد في آلهة اليونان مثل ما يعتقد هسيود؛ ولم يكن بندار كذلك، يعتقد ما يعتقده أرفيوس أو تؤمن به الشاعرة سافو. وقد أثبت البحث أن هوميروس كان ينظر إلى هذه الجمهرة الكبيرة من أرباب اليونان، وربّاتهم، كما ننظر نحن إلى أشخاص درامية ازدحمت بها الميثولوجيا اليونانية، وقدسها الشعب، فرأى أن يستمد منها هذا الخيال الحلو الساذج، ليكوّن منه مادة ملاحمه، وليُضْفي من هذا الخلود السماوي، على فناء تلك البشريات الهالكة؛ ولم يثبت أنه آمن بشيء منها. وذلك عكس ما ثبت من إيمان هسيود، واحترامه الشديد لجميع الأرباب اليونانية. نقرأ ذلك في مواضع كثيرة من قصيدته الخالدة (الأرجا Erga) ومن درته العجيبة (الثيوجونية Theogony)

* رداً على ما وجهته الينا الآنسة ا. ش. فهي — أسبوط من أسئلة عن طريق الرسالة بمناسبة (أساطير أغريقية) والكلمة ملخصة عن فصل من كتاب عن الأدب اليوناني يظهر قريباً

بل إن من الأغريق من أنكر هذا النهريج الميثولوجي، وكفر بكل الثيوجونية اليونانية؛ وهذا يوربيديز فخر أدباء اليونان وشيخ شعرائها، قد كان من أشد الملحدين سخرية بمعتقدات الناس الدينية قاطبة

والشاعر الدرامي أسخيلوس قد حاول في إحدى روائعه الدهشة (بروميثيوس المصفد) أن ينقد هذا الكمال المطلق الذي يضفيه قومه على كبير الآلهة زيوس؛ بل هو يتهمه بالقسوة والوحشية وعدم الميل إلى ما ينفع العالم؛ ويضرب لذلك أمثالاً طريفة مما جاء في الأساطير القديمة، كأسطورة باندورا ويو[1]. ثم هذا صولون العظيم يلحد بزيوس ويجدف فيه تجديفاً يشبه السباب، فيقول في الجزء الأول (ص ٣٢): «إن الله حقود حسود، وهو مشغوف أيما شغف بارباك الناس وترويعهم!»

على أننا محاولون هنا أن نثبت المعتقدات الشائعة بين العامة، وهي الفئة الثانية، في هيلاس (اليونان) قبل القرن السادس (ق. م). تلك المعتقدات التي مهما قيل فيها، لم تخرج عن كونها ألواناً من الديانات البدائية الساذجة، التي تشبه كثيراً مما دانت به الأمم الجاهلية

ولقد دلت الاستقراءات التاريخية على أن قدماء اليونان كانوا قوماً خائفين، يخشون الآلهة، ويرقبونها في كل أعمالهم، وكانت الظواهر الطبيعية توحي إليهم بأحلام لاهوتية لايستطيعون الافلات من ربقتها، فكانوا يقيمون الهياكل الضخمة باسم القوى التي يزخر بها الكون من رياح وشمس وقمر ونجوم وبحار... وكانوا يقيمون التماثيل الرائعة لآلهتهم في تلك الهياكل، ويوكلون بها كهنة يؤدون الشعائر الخاصة بكل منها، ويتقبلون القرابين والضحايا التي يتقدم بها الشعب المتدين البريء في كثير من المناسبات

ومن الأغاني والتراتيل الدينية التي تركها لنا الشاعر الغنائي أرفيوس، نعلم أن عبادة ديونيزوس كانت ذات شأن كبير بين الغالبية العظمى من قبائل الأغريق. وديونيزوس هو إله النماء والخضرة، وموسمه حين تنضر الحقول، وتكتسي سندس

(١) سننشر هاتين الأسطورتين قريباً

القمح ، وتزدهر البساتين فتتفتح عن أفواف الورد ، كان موسم الرخاء والمرح ، وعيد الخير عند سائر اليونانيين ؛ لذلك تواضع المؤرخون على تسمية هذا اللون من ألوان العبادات (بعبادة القمح) ، ولما كان الثابت أن أحداً من الهيلانيين لم يعبد القمح بالذات فنرى أن هذه التسمية مجازية ، وأن من الخير للتاريخ أن نعرفها باسمها الحقيقي ، الذي هو (عبادة ديونيزوس) . وقد نشأت هذه العبادة ، أول ما نشأت ، في (إليزيس) Eleusis ، إحدى قرى (أتيكا) ، حيث كانوا يعتقدون أن أم القمح (أي حبة القمح :) وابنها (أي ساق القمح !) يتفضلان على الناس كل شتاء ، فيخرجان من بطن الأرض ليعم الرخاء وينتشر الخير . . .

وقد انتقلت عبادة باخوس ، إله الخمر ، من تراقيا إلى الجنوب ، ثم ما برحت تنتشر وتستفيض ، حتى تمازجت على مر الأيام بعبادة ديونيزوس . وصارت هذه (التثنية) ذات اعتبار كبير ولاسيما بين العامة . وصار هذا الآله المركب : «ديونيزوس ـ باخوس ! » هو رب القمح . . . والخمر . وإله الحقل . . . والكرم !

•

ومن دراسة الأدب الأغريقي في الأسكندرية وروما ، نعلم أن ديونيزوس ـ باخوس كان ذا شهرة مستفيضة في المهاجر اليونانية

رفيوس ومذهبه : « الأرفزم »

ويسوقنا البحث في ديانة الأغريق إلى الكلام عن أرفيوس الشاعر الديني ، الذي تعتبر تراتيله في الشعر اليوناني كمزامير داود في العهد القديم ، ولأرفيوس ضريب قديم يدعى موسيوس Musæus قد يكون أشعر منه ، وأعلى في دولة الآداب كعباً ، ولكن ـ للأسف ـ لم يصلنا من آثاره ما نستطيع به الكشف عن شخصيته ، ولذا نشير اليه ، دون أن نعرض له بشيء . وحسبنا أن نذكر أن مؤرخي الأدب اليوناني يختلفون أشد الاختلاف حول أشعار أرفيوس ، وأكثرهم يرجح أن طائفة كبيرة من هذه الأشعار هي لموسيوس ، ونرجو أن يوفق الكاشفون من رجال الآثار إلى شيء يلقي النور على هذه الناحية المعتمة من تاريخ الأدب اليوناني

ولقد كادت ملاحم هوميروس وهسيود تكسف هذه التراتيل الدينية وتغمرها ، بل كادت تفقدها هذه القدسية التي يكنها العابد المتزمت لكل ماله علاقة بأربابه . وزاد الطين بلة ، تلك الفلسفة الخبيثة التي حملها الايونيون معهم حين غزوا بلاد الأغريق . فهي قد جرأت الكثيرين على التشكك في صحة معتقداتهم ، وغلا البعض فركن إلى العقل والعلم في النظر إلى الحياة والكون ، وما يزدحمان به من ظاهرات

بيد أنه حدث خلال القرن السادس قبل الميلاد ، من الأحداث اليونانية داخل البلاد وخارجها ، ما شجع الشعور الديني ، وقوى الأواصر بين الشعب وآلهته ، بعد إذ كادت تنحل وتتفكك على أيدي هؤلاء الملاحدة من شيعة الفلسفة الأيونيه . ذلك أن الحروب المستمرة التي مزقت أوصال البلاد ، وسقوط مدينة الترف وبُلَهْنية العيش (سيباريس) Sybaris ، أغنى المدن الأغريقية على خليج تارنتوم الايطالي ، وإفلات مدينة نينوى من أيدي اليونانيين . . . كل ذلك حفز الشعور الديني ، وابتعث المعتقدات القديمة في صدور الدهماء والعامة ، فذكروا آلهتهم ، وخُيِّل لهم أن ما حل بهم من ضنك ، إنما سببه إعراضهم عنها ، وانشغالهم بما هو أدنى ! ؟

ومن ثمة ، عمرت الهيا كل ، وارتفعت فيها الأصوات بتراتيل أرفيوس ، ولهج الشعب المهيض بهذه المزامير يلتمس فيها عزاءً وتسلية . وسرعان ما انتشر مذهب جديد أُطلق عليه مذهب (الأرفزم) — نسبة إلى أرفيوس — هو لون طريف من عبادة ديونيزوس يؤمن أتباعه بالثواب والعقاب في الدار الآخرة ، وأس إيمانهم هو الاعتقاد بتجسُّد التثنية المركبة من الآلهين (ديونيزوس — زجريوس) . وزجريوس هذا هو ابن زيوس من البتول (!) كوريه ؛ وقد حدث أن التيتان [1] قد حنقوا على زجريوس فقتلوه ، فغيظ أبوه (زيوس) وسلط عليهم الصواعق حتى أبادهم ؛ وعاد فاستولده من إحدى بنات حواء (سيميليه) Semelê ، فعاش كما يعيش الناس ؛ وإن يكن قد بلغ مرتبة الآلهة وهو بينهم ، ثم رفعه أبوه إلى السماء [2] ، حيث صار فيها السيد الصمد ، والآله الأوحد

---

(١) Titans هم بعض أبناء وبنات (أورانوس) السماء وجي (الأرض) في الميثولوجيه — وهم مردة جبابرة

(٢) ربما يذكر القارئ هنا عيسى عليه السلام

ولقد ظل (ديونيزوس - زجريوس) صاحب الشأن الأعظم في الديانة اليونانية ، وتنوسي رب الخمر باخوس ، أو على الأقل ، تضاءلت أهميته ، لما كان يشاع عن عُباده في تراقيا من الفضائح المخزية ، والموبقات التي كانت تنخر كالسوس في أخلاق الشعب ، وتصدع آدابه . ذلك أن كل فرد من عباد باخوس كان لزاماً عليه كطقس من طقوس هذه العبادة الخمرية ، أن يستبيح عرض واحدة من عابداته ، اللائي كن يطلق عليهن لقب (ميناد) Maenad ، فاذا كان الليل ، وبدأت الحفلات الدينية ، انطلقت الشهوات المكبوتة ، وتدفق دم الدعارة حاراً في عروق هؤلاء وهؤلاء ، وراحوا يمارسون أحط ألوان البغاء باسم الشعائر الدينية ؛ وكثيراً ما كان يعتدى على أعراض الحرائر ، فلا يستطيع الزوج أو الأب أو الأخ دفع المنكر عن عرضه ، لأن ذلك كان من صميم شريعة باخوس ! !

لهذا ، اعتبرت شريعة ديونيزوس - زجريوس ، منبع الطهر الروحي ، والتهذيب الصوفي الجميل ، وحافظت على مكانتها ، كديانة عامة لليونان ، منذ قبيل القرن السادس (ق . م) إلى مابعد القرن الرابع . وكان لها قديسوها وعلماؤها ، بل وأنبياؤها أيضاً ، إن صح أن نطلق هذه التسمية في تاريخ الديانة اليونانية ؛ ولقد كانت الغالبية - حتى من العلماء والأدباء - تتناول أبحاثها في الأرفزم بكل تأدب واحتشام . وشذ أفلاطون وحده ، عند ما ثار ضد ما كانت تبيحه هذه الشريعة - أو قل هذا المذهب - من الغفران وقبول التوب ، لمجرد طقوس تافهة يقوم بها أحد العصاة الآثمين

وكما يطلق العامة في العالم الاسلامي لقب (واصل) أو (صاحب سر) على كل من زكت نفسه ، وطابت سريرته ، وصفا ما بينه وبين الله ، من المسلمين ؛ وكما يفعل مثل ذلك إخواننا النصارى ؛ وكما يذهب الى هذا النحو ربيون من اليهود وأحبار ، فكذلك كانت سنة اليونانيين ؛ فكل من تعمق في عبادة ديونيزوس ، واستبحر في تحصيل شريعته ، وكان مع ذلك تام التُقى ، شامل الورع ، ارتفع إلى طبقة باكيس كما يرتفع المخلصون من نُساك الهند إلى مرتبة (مهاتما) . ويبدو أن هذه تقاليد قديمة تغلغلت في المذاهب الحديثة التي نشأت في هيلاس بعد القرن السادس (ق . م) . آية ذلك أن كل من كان يستبحر في عبادة باخوس Bacchus يصبح باخس Bacchos ، وكل من كان يخبت للآلـه (كيبيب) إلـه فرجيا ، يصير كيبيبُس Kybêbos وقد انتقلت هذه السنُة إلى أتباع مذهب الأرفزم ، فأصبح كلٌ من حوارييه يحمل لقب أرفيوس . . .

وعثل ما تدر أخلاف الرزق ، السهل الميسر ، على (واصل) المسلمين ، وأحبار اليهود ؛ فكذلك كانت القرابين والضحايا والزكوات تقدم بكثرة هائلة ، ومن جميع طبقات الشعب ، إلى الباكيس والباخس والكيبيبس والأرفيوس من رجال الكهنوت اليوناني . وكانت هذه الأعطيات والمنح ، تقدم في مناسبات غريبة ، لا تختلف عما هو شائع بيننا اليوم . فهذا يريد الاستفسار عن حلم رآه ، وذلك يطلب وصف دواء لعلة استعصت على نطس الأطباء ، وثالث يطلب نبوءة عما تنتهي اليه شدة حلت به ، إلى آخر هذه العلل والأسباب

والمامة عجلى بأشعار ماقبل التاريخ في الأدب اليوناني ، تشعر بمدى ما كانت متأثرة به من شتى المذاهب الدينية ، وصنوف العبادات الساذجة التي تفعم هذا الأدب القديم . وآثارة الأرفزم شديدة الوضوح في هذه الأشعار ؛ وأشعار أرفيوس خاصة ، تشبه عندنا أشعار عمر بن الفارض ، وهي ترتيلات كان يرسلها الناظم إلى أربابه سلاماً في سلام ، اسمع اليه يتناجى :

« أدعوك يا هيكاتيه يا ربة الطرق

« يا حامية مفترق الشعاب

« يا باعثة الأمن في ديجور الظلام

« أيتها المسيطرة على السموات والأرضين والبحار

« يا مؤنسة الموتى في قبورهم ، ميَّاسة في الوشائح المعصفرة

« وأنت يا برسيبه ، أضرع اليك

« يا من تؤثرين الهدوء والسكون

« أيتها المليكة التي تقبض على مفاتيح الدنيا

« ألا هلمي ، وكوني معنا ، إذ نسبِّح باسمك

« كيما تطهر نفوسنا ، وتنقى قلوبنا

« باركينا يا پرسيبه ، وأفيضي علينا مما فاض به قلبك الكريم من محبة . . . .

ويشك بعض المؤرخين في انتشار مذهب الأرفزم قبل القرن السادس (ق . م) . غير أن الأناشيد الدينية القديمة تثبت أنه كان لهذا المذهب أشياع كثيرون ومريدون ، بل لقد كانت الآداب تتأثر به في غير صقع من أصقاع اليونان . وهذا نشيد (الأليميونيس Alemoenis) دليل على ذلك ؛ فلقد ظهر فيه اهتمام الشاعر الذي أنشده بطقوس التطهير ، وشدة حرصه على إيراد ما كان أهل التقى يؤدونه من مراسم دينية ، تستلزمها عملية (تنقية القلب) من الأدران الدنيا ، بالضراعة إلى زجريوس ، رب الأرباب ، المشرف من عليائه على الكون ! والتطهير ومراسمه لب لباب الأرفزم

وقد أثبتت دراسات الأساتذة الألمان كارل مللر ونوك وكنكل وغيرهم أن شاعر كورنثه فيما قبل التاريخ (يوميلوس) كان يدين بالأرفزم ؛ وأنه تبتل إلى ديونيزوس في نشيده الجميل (يوروپيا) تبتُّلاً ؛ وقد أثبت في هذا النشيد ما كان في الأزل من اعتداء التيتان على زجريوس وقتلهم إياه ، وتعرض أيضاً للرؤى والأحلام ، وخاض في ذكر هيدز (الدار الآخرة)

أما أثر الأرفزم في الألف سنة التي تبدأ بالقرن السادس ق . م فواضح أشد الوضوح ، وهو على أتمه في پندار وهيرودوتس وصولون ، ولا يخلو شيخ الملحدين يوريبيدز من أثارة منه ، وقد تأثر به كل من سوفوكلس ، وإسخيلوس ، وتأثرت به الاسكندرية كذلك

***

أما هذه الكثرة المدهشة من آلهة اليونان ، فقد سلسلها لنا الشاعر هسيود في منظومته الرائعة (الثيوجونيه)[1] ، وهي بكلمة خاصة أولى ما ؟

دريني خشبة

(١) الثيوجونيه تعني علم نشوء وتوالد الآلهة

٨ـ قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

اسپلنزانى Spallanzani

ختام حديثه

هدم اسپلنزانى نظرية نيدم التى تقول بأن الأحياء قد تخرج من لا شىء ، قد تخرج من غير آباء وأمهات واحتال على السلطات فنحته إجازة ونفقة ليسوح فى الشرق ، فكرمه الشرق وأكرمه ، وعاد فتلقاه امبراطوره ، امبراطور النمسا ، فبلغ بذلك ذروة مجده ، فأسكرته خمرة الساعة وقال : «ما أحلى تحقق الأحلام»

— ٦ —

ولكن بينما كان اسپلنزانى فى سياحته الجيدة ، يتنقل بين البلدان تنقل الفاتح ، وتستقبله العواصم استقبالها القائد المنتصر ، كانت تتجمع فى جامعة پاڤيا حول اسمه سحابة سوداء . نعم فى جامعة پاڤيا نفسها ، تلك الجامعة التى صنع لها ما صنع ليعيد إليها الحياة . فان أساتذتها الأجلاء ظلوا زماناً ينظرون إلى طلبتهم تعزف عن دروسهم إلى دروسه ، وتتفرق عنهم لتتجمع حوله ، فنال الحقد منهم ، فسنوا سكاكينهم ، وشحذوا خناجرهم ، واصطبروا يرقبون الفرصة حتى أمكنت .

جاء اسپلنزانى إلى متحف پاڤيا فوجده خالياً ، فقام يجمع له التحف وينتقى له من أحضان الطبيعة كل نادر معجب ، فاحتمل المتاعب ، ولقى المصاعب ، وواجه الأخطار ، حتى جعل هذا المتحف حديث أوروبا كلها . ولكنه كذلك جمع لنفسه بعض الشىء ، وحفظ ماجمع فى بيته العتيق باسكنديانو . فذات يوم ذهب القسيس ڤولتا Volta [1] إلى اسكانديانو ، وكان من أعدائه وحساده ، فاحتال حتى دخل منزله وتسلل منه إلى متحفه الخاص ، وأخذ يشمشم فى أركانه ، وإذا بابتسامة للشر سوداء تعلو شفتيه ، فانه وجد بهذا الركن وعاء ، وبهذا طائراً ، وبذلك سمكة ، وقد حملت جميعها البطاقة الحمراء لجامعة پاڤيا . وخرج ڤولتا يتخبأ فى طيات عباءته السوداء ، وفى طريقه إلى داره أخذ يدبر المكيدة لاسپلنزانى ، واجتمع بالأستاذين إسكارپا Scarpa وأسكوپولى Scopoli ، وما كاد اسپلنزانى يعود من سياحته فيخطو عتبة داره ، حتى كان هؤلاء الثلاثة الاشراف قد فتحوا كوة من جهنم فاندلعت ألسنتها فى أوروبا تعلن فضيحة صاحبنا للأمم ، فما تركوا رجلاً نابهاً من رجالاتها ، ولا جماعة من جماعاتها إلا بعثوا اليها بكتاب يتهمونه فيه بسرقة متحف پاڤيا ، ويقولون إنه خبأ ماسرقه فى متحفه الخاص باسكنديانو

وفى لحظة أحس صاحبنا دنياه العظيمة تتقوض حوله ، حتى ليسمع تصدع حيطانها وانهيار بنيانها . وفى دقيقة وجد جنته البهيجة تتصوح ، حتى ليرى زهرها الجميل يذبل ، وريح ريحانها تحول ؛ وأخذ يحلم يقظان ، فخال أنه يسمع اليوم ضحكات رجال مجدوه بالأمس ، وشماتة خصوم قهرهم شر قهرة بحقائقه وتجاربه ، حتى خال أن « القوة النباتية » التى قضى عليها قضاء مبرماً تنبعث من قبرها وتخرج من كفنها

ولكن لم تمض عليه أيام حتى تماسك ، وأحس أن الأرض لا تزال جامدة تحت قدميه . بالطبع كانت الفضيحة لا تزال قائمة ، وألسنة الأعداء لا تزال صاخبة ، ورحى الحرب لا تزال دائرة ، ولكنه تجمع بعد تشتت ، وتبوأر بعد تشعع ، فألصق ظهره إلى الحائط ، وامتشق سيفه ، وصاح فى القوم بالنزال . ذهب عنه الصبر الذى صحبه فى صيد المكروب ، وغابت عنه اللطافة والظرافة اللتان زانتا كتبه إلى ڤلتير ، وأصبح كالنمر الغاضب ، وأخذ يدفع النار بالنار ! وجاءه دهاء الساسة فطالب تعيين لجنة للتحقيق فأجيب طلبه

وعاد إلى پاڤيا ، ولعله وهو فى الطريق إليها كان يتهيب دخولها ، ويدبر أمره لينسل فيها انسلالاً ، حتى لا يرى عيون أحبابه الأقدمين تزور عنه ، وحتى لا يسمع شفاههم تهمس فيه بالشر ، ولكنه ما كاد يصل إلى أبواب پاڤيا حتى وقعت أعجوبة ،

---

(١) هو الفيزيائى الايطالى الشهير ولد عام ١٧٤٥ ومات عام ١٨٢٧ تعين أستاذاً للطبيعة فى پاڤيا عام ١٧٧٩ . وهو صاحب المخترعات والبحوث الكهربائية المعروفة . ومن اسمه اشتقت وحدة الجهد الكهربائى أى الڤلت وتكشف لنا هذه القصة اسفافاً ومكائد كان يجدر بالعلماء أن يترفعوا عنها . ولكن الانسان هو الانسان كيف كان . وما أشبه الليلة بالبارحة . المترجم

نعم أعجوبة ، فقد تلقاه فعلاً على أبوابها جمّ غفير من تلاميذه مهللين مكبّرين فرحين مرحبين بقدومه ، وقالوا إنهم له لناصرون ، والتفوا حوله فى صراخ وزئاط حتى بلغوا به كرسيه القديم الذى كان يحاضر عليه بالجامعة . وقام هذا الرجل القوىّ ، الذى اعتمد دائماً على نفسه ، واعتز دائماً وأُعجب بنفسه ، قام فى هذا الجمع الكبير يخطب شاكراً ويعترف لهم بالجميل ، فاذا بصوته يخذله ، وإذا به يرفع منديله إلى أنفه ، وإذا به يجتزىء بأن يقول لهم فى كلمات قليلـــة وصوت أبَحّ إنه يقدّر هـذا الاخلاص تقديراً عظيما

وانعقدت لجنة التحقيق ، واستدعته هو وخصماؤه إليها . والآن بعد أن عرفت من هو اسپلنزانى تستطيع أن تصور لنفسك العراك الذى تلا هذا اللقاء ، بل المذابح والمجازر . وأثبت للقضاة أن الطيور التى زعموا أنها سُرقت لم تكن إلا طيوراً خسيسة ، ساء حشوها واتسخ ريشها ، فقذفوا بها فى الكُناسة قذف النعال البالية . وهى طيور لاتليق بمتحف فى مدرسة بقرية فضلا عن جامعة . وأما الثعابين التى زعموا أنها ضاعت من متحف باڤيا فلم تضع ، وإنما استبدل بها أشياء أخرى من متاحف أخرى ، وكانت باڤيا الرابحة فى هذا الاستبدال . وأما السارق الذى تبحثون عنـــه فهو ڤولتا ، كبير المتهمين هذا ، فانه سرق من المتحف أحجاراً كريمة وأهداها أصدقاءه . . . .

وبرّأه القضاة من تلك الوصمة ، ولو أن التاريخ اليوم لا يستطيع أن يؤكّد كلّ التأكيد أنه لا يستحق ولو قليلاً من اللام . وعزلت الجامعة ڤولتا والمؤتمرين معه شرّ عزلة . وبعث الامبراطور أمره إلى المتخاصمين وأشياعهم أنْ يُقلعوا عن خصامهم ويَعقِدوا ألسنتهم ؛ فان الأمر كان استحال إلى فضيحة عامة شاع خبرها فى أوروبا ؛ وبلغ جدال الطلاب فيها حدّ العنف والاستهتار بالنظم فحطّموا الأثاث بقاعات الدرس ، وجامعات أوروبا أخذت تتسارق الضحك من هذه الجُرْسة التى لم يسبقها مثيل . وأراد اسپلنزانى أن يُطْلق آخر طلقة على أعدائه المنهزمين فسبّ ڤولتا بأنه مزمار ذو فُوهة كبيرة جوفاء لا يملؤها غير الهواء ، أما الأستاذان اسكارپا وإسكوپولى فأسماها أسماء غاية فى البذاءة يمنع التجمّل من كتابتها . وبعد هـذا عاد مطمئناً الى صيد مِكروبه

وعاوده سؤال كان يجيئه مراراً فى السنوات الماضية المديدة التى قضاها فى التحديق إلى حيواناته الصغيرة ، وهو : كيف تتكاثر تلك الحيوانات ؟ انه كثيراً ما رأى الفردين منها متلاصقين ، فكتب إلى بونيت Bonnet يقول : « إنك إذا رأيت فردين من أى نوع متزاوجين ، استنتجت بطبعك أنهما يتناسلان » . ولكن هل هذا التزاوج الذى أراه بين هذه الحيوانات الضئيلة تناسل ؟ لم يُحِر لسؤال نفسه جواباً . فانه على رعونته فى أمور أخرى ، كان شديد الأناة فى العلم ، حَذِراً فى استنتاجاته حذَرَ « لوڤن هوك » . لهذا اكتفى بأن سجل هذا السؤال على الورق من غير جواب ، ورسم صورة هذه الأحياء أزواجاً كما رآها

وكان لـ « بونيت » Bonnet صديق يدعى صوصير de Saussure وكان رجلاً ذكياً أضاع اسمه الزمان . فلما علم بالذى كتبه اسپلنزانى إلى صديقه قام يدرس كيف تتناسل تلك الأحياء . ولم يمض غير قليل حتى نشر بحثاً مذكوراً إلى اليوم ، يقول فيه إنك إذا رأيت اثنين من هـذه الحيوانات متلاصقين فلا تظنن أنهما التصقا ليتناسلا . إذ الواقع الغريب أنهما حيوان واحد ، انشق انشقاقاً فصار حيوانين . وهذه هى الطريقة التى تتكاثر بها هذه الأحياء ، أما الزواج فهى لا تعرف للذائذه طعماً

قرأ اسپلنزانى هـذا البحث فطار إلى مجهره ، وهو لا يكاد يصدق ما قرأ ، ولكنه نظر ، وداوم النظر ، فأثبت صِدق صوصير . وقام الطليانى إلى دواته يهنئ السويسرىّ تهنئة حارة على ما كشف . كان اسپلنزانى يميل للحرب والخصام ، وكان يميل للكيد بعض الميل ، وكان أمّالاً شديد الأمل ، وكثيراً ما كان يغار من اشتهار غيره من الرجال ، ولكنّ اعجابه بتلك الملاحظة الدقيقة التى أتاها صوصير ، واستغراقه فى جمال تلك الحقيقة التى وجد ، أنساه أمله ، وأنساه غيرته ، فكتب يهنئه بالذى كتب

فانعقدت بين اسپلنزانى وصوصير والعلماء الطبيعيين Naturalists فى جنيڤا روابط مبهمة ، ولكنها على ابهامها متينة ، هى نتيجة استشعارهم بأن الجماعة تستطيع أن تتعاون فتكشف من الحقائق الكونية مالا يكشف عنه الأفراد متفرقين ، ونتيجة اقتناعهم بأن صرح العلم لابد لاقامته من بنائين عديدين متفقين على رسمه ورفع حجره وانسجام أوضاعه . وكره هؤلاء العلماء الحرب أولَ

من كَـرِه ، فهم أول من صَـدَق الدعوة لائتلاف الأمم لتكون أمة واحدة هم أبر رعاياه

وقام اسبلنزانى بعدئذ ببحثٍ من أمجد الأبحاث التى قام بها فى حياته ، دفعه إليه حبه لأصدقائه السويسريين وإخلاصه لهم ، وكذلك كرهه لشقشقةٍ علمية جديدةٍ شرٍ من تلك الأكذوبة القديمة الشهيرة « بالقوة النباتية » . وحديثُ هذه الشقشقة أن إنجليزياً يدعى « أليس » Ellis كتب يقول : إن صوصير كان مخطئاً ، ويقول إن هذه الحيوانات قد تنقسم أحياناً ، ولكن ليس معنى هذا أنه سبيلها فى التولد والتكاثر ، فان هذا الانقسام إنما يحـدث من أن حيواناً من تلك الحيوانات يسبح فى الماء بسرعة كبيرة فيختبط متعامداً فى بطن حيوان مثله فيشقه نصفين . وزاد « أليس » على هذا أن هذه الحيوانات تُولد من أمهاتها كما يولد الناس ، وقال إنه كلما حقق النظر فى تلك المخلوقات ، فى بطون تلك الأمهات ، رأى فيها بناتها لم تُصب بعـد ميلاداً ، وكلما حقق النظر فى بطون هذه البنات رأى فيها أحفاداً

فصاح اسبلنزانى لنفسه يقول : « أضغاث حالم ، وتخريف معتوه » ولـكن كيف يثبت أنها أحلام ؟ كيف يثبت أنها تخريف ؟ كيف يثبت أن هـذه الأحياء تتكاثر بالتناصف ؟ لقد كان عالماً متشبعاً بروح العـلم ، يعرف الفرق بين السب والشتم واتهام خصيمه « أليس » بعمى البصر وخرف العقل ، وبين أن ينقض بالحجة الدامغة ما يقوله من اختباط تلك الأحياء فانقسامها أشطاراً

وفـكّر قليلاً فواتته الحجة . قال لنفسه : « كل الذى علىّ لأثبت خطأ هذا الجاهل القَـدْم هو أن آتى فى ماء بحىّ واحد من تلك الأحياء لا ثانى له فيختبط به ، ثم أجلس أرقبه فى المجهر حتى ينقسم نصفين ، وبذلك أقطع لسان هذا الثرثار الغبىّ » . وفى الحق هـذه طريقة بسيطة للبت فى أحـد الرأيين ، بل هى الطريقة الوحيـدة لأبطال إحدى النظريتين ، ولـكن الصعوبة الـكبرى فى استخراج حىّ واحد من هذه الـكثرة من الحيوانات . أنك تستطيع أن تفصل الجرْوَ الواحدَ من مجموعة الجِراء ، وتستطيع أن تعزل السمكة الصغيرة من بين أخواتها الـكثيرات ، ولـكن قل لى بربك كيف تستطيع بيدك أن تُمسك بذيل حىّ من تلك الأحياء المجهرية ، وهى أصـغر مليون مرة من تلك السمكة الصغيرة

فاعتزل اســـبلنزانى دنياه الزائطة بحفلاتها ومحاضراتها وجماهيرها المعجبة به ، وأخذ يبحث عن طريقة يفصل بها مخلوقاً واحداً من تلك المخلوقات ، مخلوقاً لا يعدو طوله بضعَ أجزاءٍ من ألفٍ من المليمتر ، ويفصله وحده لا ثانى له

ذهب إلى معمله وأسقط قطرةً من ماء تعتلج تلك المخلوقات فيه على قطعة منبسطة من الزجاج الرائق النظيف ، وأسقط إلى جانبها بأنبوبة شعرية نظيفةٍ قطرةً أخرى من الماء النقىّ الخالى من تلك الخلائق . ونظر إلى القطرتين من خلال عدسته ، وجاء بإبرة رفيعة فغمسها بالقطرة الأولى ، ثم خرج بها فى خط مستقيم حتى وصلها بالقطرة الثانية النقية ، وبغاية السرعة صوّب نظره إلى قناة الماء الرفيعة التى وصـل بها بين القطرتين ، وابتسم اغتباطاً لما رأى حياً من هذه الأحياء يدخل القناة فى تَخطُّر والتواء . فما كاد يصل إلى القطرة النقية من الماء حتى اختطف اسبلنزانى ريشة نظيفة فقطع بها البرزخ الذى يصل القطرتين . وصاح فرحان جَذِلاً . « إنه حى واحد ، واحد فحسب ، فى هذه القطرة ! يا للنجاح ، ما أحلاه ! نعم مخلوق واحد لا ثانى له يتخبط به على حد قول الأفون المغفّـل « أليس » فيقسمه نصفين ! وإذن فلأرقبه لأرى كيف ينقسم ! » . وصوّب عدسته إلى هذا المخلوق الوحيد الصغير فى هذه القطرة العظيمة ، « إنه كالسمكة الفريدة تسكن وحدها الأقيانوس الواسع »

وعندئذ رأى عجباً أىَّ عجب . فان هذا المخلوق ، وشكلُه كالقضيب ، أخذ يدقّ وسطُهُ ثم يدقّ ، ويرهف خصرُهُ ثم يرهف ، حتى لم يصـــل مقدَّمَه بمؤخّـره غير خيط كنسيج العنكبوت ، وإذا بالنصفين يضطربان ويختلجان ويتلوّيان حتى انفصلا ، فـكانا مخلوقين حيّين جديدين انزلقا برشاقة فى الماء انزلاق المخلوق الأول الذى عنه نشآ . نعم كانا أقصر منه ، ولـكن عدا هذا فلم يكن بينهما وبينه ما يَميزه عنهما . واستتمتْ الغبطةُ واكتمل العجب بعد دقائق ، فان هذين المخلوقين انقسما من جديد على النحو الفائت فكانا أربعة

وأعاد اسبلنزانى هذه الألعوبة البديعة عشرات المرات ، وفى كل مرة يجد الذى وجده أولاً . وعندئذ سقط على « أليس »

المسكين بكل ثقله، سقوط طنٍّ من الحجر، فقرطحه، وسوّاه بالأرض حتى خفي، وخفي اسمه من الوجود، وخفيت خزعبيلته الجميلة، وخفي ما كان حكاه من وجود أحفاد في بطون بنات في بطون أمهات من تلك المخلوقات. وكان اسپلنزانى لذّاع اللسان، فقال له: «أنا يا بنيّ ناصح لك أن تعود إلى المدرسة من جديد فتتعلّم ألف باء المكروب» وأشار بعد ذلك الى «أليس» فقال إنه أخطأ لأنه لم يقرأ بحث صوصير القيّم الرائع باعتناء، إذ لو فعل لما قام يخترع نظريات فاسدة لا يكون من ورائها إلا قيام العلماء بتكذيبها، فينفقون الجهد الكثير في استخراج حقائق من طبيعة معروفة ببخلها وكزازة كفها

إن البحث العلمي، الباحث الحق في الطبيعة، يشبه الكاتب والرسام والموسيقيّ، بعضه فنان وبعضه نقاب جامد الشعور بارد النفس. لذلك نجد اسپلنزانى يتخيل الخيالات، ويتصور أنه بطل مغوار لعهد من الكشف جديد، ويكتب فيشبه نفسه بـ «كريستوف كولمب»، وينظر الى عالم المكروب فيخاله عالماً جديداً قائماً بذاته كبعض العوالم، ويخال نفسه كشّافة جريئاً مغامراً قام يبعوث لم تكشف من تلك المجاهل إلا حوافيها. ومع كل هذا لا نجده يذكر مرة أن هذه المكروبات قتّالة. لم يُرد أن يعمل في هذا خياله، ولو أن عبقريته كانت دائماً توسوس له أن هذه الحيوانات العجيبة في هذه الدنيا الجديدة الغريبة لابد من علاقة بينها وبين اخواتها الحيوانات الكبيرة من بني الانسان

— ٧ —

وفي أوائل عام ١٧٩٩، بينا نابليون يقوم لتحطيم الدنيا العتيقة البالية، وبينا بيتهوفن Beethoven يقرع باب القرن التاسع عشر بأولى سمفونياته الهائلة — روحان كبيران ثائران يصدران عن روح العصر الثائر الذي أولده اسپلنزانى وأقرانه، وينطقان عن هذا الزمان بلسانه، ذاك بمدافعه المتجاوبة، وهذا بموسيقاه الصاخبة — أقول في أوائل عام ١٧٩٩ أصاب الصرعُ صاحبنا الكبير صيادَ المكروب

ولم تمض على أصابته ثلاثة أيام حتى كنت ترى هذا الرجل العجيب الهازئ بالموت يُخرج رأسه الذي لا يهدأ من بين أغطية سريره ينشد قصائد «هومير» Homer، ويغني بشعر «تاسو»[1] Tasso ليضحك أصدقاءه الذين جاءوا ليشهدوا احتضاره. وما كان هذا منه رغم إنكاره إلا صياح الديك الذبيح. وما كانت تلك الأناشيد إلا للموت، وتلك الأغاني إلا للفناء، فانه مات بعدها بأيام قلائل

مات العظماء من ملوك مصر فحفظوا أسماءهم لذراريهم بما خلفوا من مومياء فخمة حفظها رجال الجنائز بكل نادر غالٍ من الحنوط. وذهب الأغريق والرومان لكنهم خلّدوا سِحَنهم، وسجّلوا أشباههم في الحجر، في تماثيل يحفها المجد، ويلفها الوقار. وقضى كثير من عظماء القرون نحبهم، وبليت أجسامهم، ولكن بقي منها صور مرقومة بالزيت على القماش تكاد تجرى فيها الحياة. ومات اسپلنزانى فماذا خلّف للناس؟

إن أردت أن تعرف ماذا خلّف فاذهب إلى «باڤيا»، فستجد له بها تمثالاً نصفياً متواضعاً. وإن أنت أردت أن ترى المزيد منه فسر قليلاً حتى تجيء المتحف، فادخله، وإذن فسترى فيه — مثانته . . .

أيُّ إرثٍ يتركه إسپلنزانى للدهور خير من هذا؟ أي أثرٍ أحق من هذا بالتعبير في إيجازٍ عن حبه المدلَّه للحقيقة، هذا الحب الذي لم يقف به عند شيء، هذا الحب الذي اقتحم التقاليد وضحك للصعاب وهزئ بالأذواق الموضوعة، وبمراسيم اللياقة المصنوعة

علم أن مثانته مريضة، فكنت تسمعه يقول في خفوت لأصحابه وهو يحتضر: «إذن أخرجوها من جسمي عند موتي، فلعلكم تكشفون فيها عن حقيقة جديدة غريبة في أمراض المثانات». هذا روح اسپلنزانى وهذا هو روح قرنه، القرن الثامن عشر. روح استخفاف واستهتار. روح تشوّق وتشوّف لكل مجهول. روح المنطق البارد القاسي في برودته، قرن لم يُفض على الخلائق بكثير من الكشوفات العملية النافعة، ولكنه القرن الذي مهّد لفراداي Faraday وبستور Pasteur وأرانيوس Arrhenius وأميل فيشر Emil Fischer وأرنست رذرفورد Ernest Rutherford ليَنجُبوا ويَمجدوا ويعملوا في جو حرٍّ طليق

احمد زكي

(١) شاعر طلياني ولد عام ١٤٩٣ ومات عام ١٥٦٩. وأشهر قريضه الغنائي

١٩ – محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون او خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

فأجال فينا سقراط النظر ، كما هى عادته ، وقال باسماً : إن دليل العقل ناهض فى جانب سمياس ، وإن فى مهاجمته إياى لقوة ، فلماذا لا يتصدى منكم لاجابته من هو أقدر منى ؟ ولكن قد يحسن بنا قبل أن نجيبه ، أن نصغى كذلك لما يريد سيبيس أن يناهض به الدليل – وسيكون لنا من ذلك للروية متسع ، فاذا ما فرغ كلاهما من الحديث ، وبدا قولهما مستقيماً مع الحقيقة سلمنا لهما ، وإلاّ ، فلنا أن نؤيد الجانب الآخر ، وأن نناقشهما . قال : تفضل إذن فحدثنى ياسيبيس ، أى مشكلة صادفتك فأتعبتك ؟

قال سيبيس : سأحدثك – إنى لأشعر بأن التدليل لم يتزحزح عن موضعه ، فأنا مستعد أن أسلم بأن قد قام الدليل القاطع الوافى جداً ، إن جاز لى هذا القول ، على وجود الروح قبل حلولها فى الصورة الجسدية . ولكنى أرى أن بقاء الروح بعد الموت لا يزال يعوزه الدليل ، ولست أعترض فى ذلك بما اعترض به سمياس ، لأننى لا أريد أن أنكر أن الروح أقوى من الجسد وأطول بقاء ، فعقيدتى أن الروح تسمو على الجسد فى كل هذه النواحى سمواً بعيداً . وقد يخاطبنى الدليل فيقول : حسناً إذن ، فلماذا تقيم على ارتيابك ؟ إذا رأيت أن الأضعف يظل باقياً بعد موت الانسان ، أفلا تسلم بأنه يتحتم أيضاً أن يبقى ما هو أطول بقاء خلال هذه الفترة نفسها ؟ ويجمل بى الآن أن أستخدم المجاز ، كما فعل سمياس ، وسأطلب اليك أن تنظر فى استعارتى لترى هل جاءت ملائمة لموضوعها . أما المَثل الذى سأسوقه فهو مثل نساج قديم ، يموت فيزعم بعض الناس بعد موته أنه لم يمت وأنه لابد أن يكون حياً ، ويستشهد على ذلك بالعطاف [1] الذى نسجه بنفسه وارتداه ، والذى لا يزال جيداً متيناً ، ثم يمضى فيسأل المرتاب من القوم . هل الأنسان أطول بقاء أم العطاف الذى يُستخدم ويُرتدى ؟ فاذا ما أجيب بأن الأنسان أطول جداً فى البقاء ، ظن أنه قد أثبت بذلك يقيناً بقاءَ الأنسان الذى هو أطول بقاءً مادام الأقصر بقاء لا يزال باقياً . ولكنى أرجو أن تلاحظ ياسمياس أن ليست تلك هى الحقيقة ، وليس بخافٍ على النـاس أن من يتحدث بهذا إنما ينطق هراء . فحقيقة الأمر أن هـذا النسّاج قد ارتدى ونسج كثيراً من هذه الأعطف ، ولئن كان قد أفنى كثيراً منها وعمّر بعدها ، إلا أن آخرها قد ظل بعد فنائه باقياً ، ولكن لا ريب فى أن هذا أبعد جداً من أن يقوم دليلاً على أن الأنسان أقل من العطاف شأناً وأشد ضعفاً ، غير أنك تستطيع أن تعبر عن علاقة الجسد بالروح باستعارة كهذه ، فلك أن تقول بحق إن الروح باقية ، وإن الجسد بالقياس اليها ضعيف قصير الأجل ، فقد يقال عن كل روح أنها تُبلى أجساداً كثيرة ، وبخاصة إذا امتد بها أجل الحياة ، لأنه إذا كان الجسد يتحلل ويفنى فى حياة الأنسان فالروح لا تنى تنسج لنفسها لباساً جديداً ، وتصلح ما قد أصابه البلى ، فطبيعى إذن أن تكون الروح مرتدية آخر أثوابهـا حينما يدركها الفناء ، وذاك الثوب وحده هو الذى سيبقى بعـد فنائها ، ولكن الجسد بدوره ، إذا ماتت الروح ، سيكشف آخر الأمر عن ضعف طبيعته ، فلا يلبث أن يدركه الفناء ، ولهذا لن أركن إلى هذا الدليل برهاناً على بقاء الروح بعد الموت ، لأنه إذا سلمنا فرضاً حتى بأبعـد مما تؤكد أنت أنه فى حدُود الممكن ، فارتضينا – فضلاً عن اعـترافنا بوجود الروح قبل الميلاد – أن أرواح طائفة من الناس لا تزال موجودة بعـد الموت ، وأنها ستظل موجودة ، وأنها ستولد وتموت كرة بعد أخرى ، وأن فى الروح قوة طبيعية ستقاوم بها حتى تولد مرات عدة – فقد نميل مع هذا كله الى الظن بأنها ستعانى من آلام الولادات المتعاقبة رهقاً قد ينتهى بهـا آخر الأمر الى السقوط فى إحدى مرات موتها ، فتفنى فناء تاماً ، وربما خفيت عنا جميعاً هذه المرة التى يموت فيها الجسد ويتحلل ، والتى قد تؤدى بالروح إلى الفناء ، فليس يمكن لأحد منا أن تكون لديه عن ذلك خبرة [1] فان صح

(١) Coat

(١) يقول إننا حق لو سلمنا بما يزعمه سقراط من أن الروح تظل باقية بعد انفصالها عن الجسد ، ثم تعود إلى الحياة مرة ثانية وثالثة ورابعة . فلا بعد أن تهن وتضعف من هذه الولادات المتكررة فيصيبها الموت الأبدى =

هذا ، زعمتُ أن من يثق فى الموت فانما يثق وثوقاً غاشماً ، ما لم يكن قادراً على التـدليل بأن الروح لا تخضع للموت أو الفناء إطلاقاً ؛ أما إن كان عاجزاً عن إثبات ذلك ، فمعقول ممن يقترب من الموت أن يخشى فناء الروح فناء تاماً عند انحلال الجسد

ـ فلما سمعنا منهم هذا القول ، أحسسنا جميعاً بالكآبة ، كما لاحظ بعضنا إلى بعض فيما بعـــد ، وأحسب أنه قد داخلنا الاضطراب والشك ، لا فيما سلف من دليل فحسب ، بل فى كل ما قد يجيُء به الدهر من دليل ، لأننا ، وقد كنا من قبل نؤمن إيماناً راسخاً ، قد رأينا ذاك الايمان تتزعزع دعائمه ؛ فاما أننا لم نكن قضاة صالحين ، وإما أن العقيدة لم تقم على أساس صحيح

اشكراتس ـ إنى لأشاطرك إحساسك فى هذا ـ حقاً إنى لأشاطرك إياه يافيدون ، وقدهممتُ ، وأنت تتحدث ، أن أستجيب نفس السؤال . أى دليل يمكن أن أومن به بعـد اليوم ، فماذا عسى أن يكون أقوى فى الاقناع من تدليل سقراط ، وها هو ذا قد هبط إلى الجحود ؟ فياطالما فتننى فتنة عجيبة هـذا المذهب القائل بأن الروح هى الأنسجام ، ولم يكد يرد ذكره حتى عاودنى بغتة ، لأنه عقيدتى الأولى . وجـدير بى الآن أن أعود فألتمس دليلاً آخر ، يؤكد لى بأن الروح لاتموت مع الأنسان عند موته . فأرجو أن تنبئني كيف مضى سقراط فى الحديث ؟ هل بدا كأنما يشاطركم احساسكم الكئيب الذى ذكرت ؟ أم أنه استقبل الاعتراض هادئاً ، فأجاب عنه جواباً وافياً ؟ أنبئنا بما وقع دقيقاً ما استطعت

فيدون ـ أى اشكراتس ، إنى ما فتئت معجباً بسقراط ، ولـكنى لم أعجب به قط أكثر مما فعلت وقتئذ ، أما أنه استطاع الجواب فيسير ، ولـكن ما أدهشنى أولاً هو ما تناول به كلمات الشبان من وداعة وغبطة واستحسان ، ثم سرعة إحساسه بما أحدثه الحوار من جرح وما واتته به لباقته من فنون العلاج .

= فى مرة من مرات انفصالها عن الجسد ، دون أن نعلم نحن عن موعد هذا الموت الأبدى ، لأننا لا نعلم هل هذه الروح المعينة فى هذا الجسد المعين قد بلغ منها الأعياء مبلغاً سيؤدى بها الى الفناء التام عند فناء جسدها الذى تحل فيه أم أنها لا تزال بها بقيـة من قوة تستطيع أن تعيش بها حتى تعود إلى الحياة فى جسد آخر ، ونحن لا نعلم ذلك لأنه لم تسبق لنا تجربة نتعلم منها هذا الأمر . وبناء على ذلك لا يستطيع سقراط مثلا أن يجزم بأن روحه باقية بعد موته لأنها قد تكون فى هذا الدور الأخير وهو لا يعلم

مثله فى ذلك مثل القائد الذى يستجمع جيشه وقد انهزم واندحر ، ويحفز جنده أن يتابعوه فيعودوا إلى ميدان الحوار

اشكراتس ـ وكيف كان ذلك ؟

فيدون : ستعلم منى ، فقد كنت قريباً منه ، جالساً إلى يمينه على مقعد وطىء ، أما هو فقد استوى على سرير يرتفع كثيراً عن مقعدى ، وقد أخذ يداعب شـعرى ، ثم مسح رأسى بيديه ، وصفف شعرى على عنقى وقال : أى فيدون ! غداً ستُجَذُّ هذه الجدائل الجميلة فيما أظن

أجبت ـ نعم يا سقراط ، إنى أظن ذلك

ـ إنها لن تُجذَّ لو أخذت بنصحى

قلت ـ وماذا عساى أن أفعل بها ؟

أجاب ـ إنى وإياك سنقطع اليوم جدائل شعرنا ، فلا نرجئها إلى غد ، لو كان هذا الحوار ليموت ، واستحال علينا أن نرده إلى الحياة مرة أخرى . وإنى لو كنتك ، ولم أستطع أن أثبُتَ ضد سمياس وسيبيس ، لأقسمت ألا أرسل شـعرى قط ، كما يفعل الأرجيفيون ، حتى أثير المعركة من جديد وأدحرها

(يتبع) زكى نجيب محمود

٤ ـ الأمير خسرو

الشاعر الهندى الكبير

للسيد أبى النصر أحمد الحسينى الهندى

تتمـــــة

إن الشعر الراق يشمل طموحاً غامضاً مائلاً إلى اللانهائى ؛ ومع هذا يتخذ لذلك من هذا العالم المادى وسيلة ، فهو يعطى صوتاً لصمت الغرائب التى تبرزها أسرار هذا العالم . وبناء عليه يكون بيت واحد من ذلك الشعر يحتوى على قيادة روحانية وفكرة سامية مؤثرة فى النفس إلى قرار سحيق ، وهو ما لا تجده فى صفحات من النثر ، وذلك لأن من لوازم النبوغ الشعرى الراق بصيرة نافذة من ظواهر الأشياء إلى صميمها . فبها يجمع الشاعر الفيلسوف المفلق الكامل حقيقة الأشياء الأصلية فى مجموع كامل جديد مؤثر غاية الأثر ، وبها يدرك ويرى من مطالع الحق والجمال فى هذا العالم ما لا يراه العامى . فاذا عبر عما يدركه ويراه برموز واصطلاحات مادية فهو لا ينويها بالذات ، بل ينوى بها تلك الحقيقة العليا الخالدة التى طالما طمحت اليها روحه ونفسه كلما أدرك مظاهر تلك الحقيقة المتنوعة ومناظرها المختلفة فى هذا العالم . وهذا الصنف من الشعر هو شعر فلسفى روحانى . ولقريحة خسرو فى هذه الناحية انتاج واسع لأنه كان صوفياً كبيراً . نذكر الأبيات الآتية منه قال :

جان زتن بردى ردرجانى هنوز   دردها دادى ودرمانى هنوز
آشكارا سينه أم بشكا فتى   همجنان در سينه پنهانى هنوز
ملك دل كردى خراب از تيغ ناز   واندرين ويرانه سلطانى هنوز
هردو عالم قيمت خود كفته   نرخ بالا كن كه ارزانى هنوز

« أخذت روحى من جسمى ولازلت أنت فى روحى ، وأعطيتنى الآلام ولازلت أنت الشفاء »

« شققتَ صدرى على الاعلان ، ولازلت أنت مخفياً فيه كما كنت »

« خرّبتَ أقليم القلب بسيف الدلال ، ولازلت أنت السلطان فى هذا الخراب »

« قلت ثمن نفسك العالمان . ارفع الثمن فانك لازلت رخيصاً »

لم يكن خسرو نابغة فى الشعر فقط ، بل كان أيضاً موسيقياً بارعاً ، فقد برع فى الموسيقى إلى أن نال لقب « نايك » وهو لقب قل أن ناله أحد غيره فيما بعد من المسلمين . فقد نقل عنه المؤرخ دولت شاه فى كتابه « تذكرة الشعراء » بيتين قال فيهما :

« أنا سيد الموسيقى كما أنا سيد الشعر . أنا كتبت ثلاثة مجلدات فى الشعر (١)

لو كان ممكناً تحويل جميع ما ألفته من الألحان الموسيقية الى الكتابة لبلغ الى ثلاثة مجلدات أيضاً »

وحقاً قال أمير خسرو لأنه كان صاحب ذكاء حاد فوق المعتاد ، يملك ملكة اختراعية فى الشعر وفى الموسيقى فبلغ فيهما ما لم يبلغه أحد . واختراعاته وتآليفه فى الألحان والنغمات لا تزال رائجة وشائعة بين الهنود إلى اليوم ، وهو الذى اخترع « سيتار » الآلة الموسيقية التى تشبه تقريباً القيثارة العربية والتى لا تزال تهز الأفئدة بنغماتها الشجية فى محافل الهند وأفراحها الى اليوم طالبة الشهادة على كمال عبقرية مخترعها

قد ذكر صاحب « مانك سهال » (وهو كتاب فى تاريخ الموسيقى صنفه فى عهد الامبراطور محي الدين أورنك زيب عالمكير وقد ترجم إلى الفارسية باسم « راكى دربن ») كثيرا من النغم والألحان التى اخترعها أمير خسرو ، وذكر حكاية تدل على براعة خسرو فى الموسيقى وهى أن السلطان علاء الدين خلجى دعا مرة « نايك جوبال » الموسيقى الوثنى الشهير حينئذ للاطلاع على كماله فى الفن ، وكان له ألف وستمائة تلميذ إذا أراد الخروج من بيته حملوه على أكتافهم فلبى دعوة السلطان وأسمعه الألحان والنغمات ستة أيام متوالية ، وكان خسرو يسمعها مختفيا . وفى اليوم السابع تصدى له خسرو وادعى أن جميع الألحان والنغم التى سمعها السلطان هو مخترعها وأعادها واحدة واحدة باتقان وإجادة أكثر من جوبال فتحير الرجل فى كمال خسرو وبراعته فى الفن

(١) لعله قال هذين البيتين حين بلغ جميع ما صنفه فى الشعر ثلاثة مجلدات لأن له عشرات من المجلدات فى الشعر . ونحن قد ذكرنا فى مقالنا الثانى ما يوجد منها الآن فى الهند وهو أكثر من ثلاثة . وأيضاً يستدل من قوله هذا أن كتابة الألحان الموسيقية بالرموز كما تكتب الآن لم تكن معلومة حينئذ

كانت براعة خسرو فى الموسيقى أحرزت له شهرة واسعة لدى عامة الناس أيضاً وعلى الأخص السيدات والأولاد منهم ، إذ كانوا يحفظون نغماته وألحانه وأناشيده ، ويغنونها فى أفراحهم ومحافلهم ولم يكن يكتب نشيداً إلا كان يخترع له لحناً خاصا . وقد اخترع أصنافا كثيرة من الألحان والأناشيد التى لم يكن لها وجود قبله ، وعلى الأخص باللغة الأردية أذكر منها « أنميل » « مكرنى » و « دوسخنة » و « دهكوسلا » الخ وكلها شائعة بين العامة الى اليوم

كان خسرو يرتجل الشعر والأناشيد بداهة . ومن حكايات ارتجاله أنه عطش مرة فذهب الى بئر كان أربع سنيدات يخرجن منها الماء فاستسقاهن . فعرفته واحدة منهن وقالت للأخريات : إن هذا خسرو : فسألته : هل أنت خسرو الذى يغنى كل واحد أناشيده وألحانه ويسمع ألغازه وأنميله ومكرنيه ؟ فأجاب نعم . فقالت واحدة منهن : اعمل لنا نشيداً واستعمل فيه كلمة « كهير » (أى المهلبية) وقالت الثانية : استعمل فيه كلمة « شرخا » (أى المغزل) أيضا ، وقالت الثالثة : كلمة « دهول » (أى الطبلة) أيضا ، وقالت الرابعة : كلمة « كُتّا » (أى الكلب) أيضا فقال لهن : اعطينني الماء أولاً فانى أموت عطشا ، فقلن له : لا نعطيك الماء حتى تقول النشيد المشتمل على كلماتنا : فارتجله خسرو ؛ وهذه ترجمته ولكن لم يبق فيها جماله الأصلى :

إن المهلبية طبخت بالاعتناء
واستعمل فيها خشب المغزل وقودا
ثم جاء الكلب وأكلها
وشغلكم ضرب الطبلة
وأنا عطشان ، اعطينى الماء

كان الأمير خسرو صوفياً كبيراً ورعاً صالحا تقيا . قال المؤرخ (ضياء الدين برنى) وهو من أصدقائه فى كتابه تاريخ فيروز شاهى : « إنه مع حصافته العقلية ، وذكائه الشاذ ، وعلمه الواسع كان صوفيا من الطبقة الأولى ، فكان يصوم تقريباً كل يوم ويصرف أكثر أوقاته فى تلاوة القرآن وفى اقامة النوافل والفرائض من الصلاة ، وكان خليفة فى الطريقة لسيدنا الشيخ الولى الصوفى مولانا « نظام الدين أولياء » قدس الله سره ، وإنى لم أر خليفة يعتقد اعتقاداً قوياً فى شيخه مثله »

إن من أهم مبادى الصوفية التحرز التام من جرح عواطف الناس ، وقتل أمانيهم وبذل أقصى المجهود فى قضاء حاجاتهم . وكان الشيخ نظام الدين قدس الله سره يقول : إنه لا عمل يساوى يوم القيامة إدخال السرور على قلوب الناس ، وفى حديث عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال : الخلق كلهم عيال الله ، فأحب الخلق الى الله من أحسن الى عياله . فكان خسرو من أكبر العاملين بهذا الحديث ، لذلك كان محبوبا عند الجميع . وله فى ذلك حكايات كثيرة منها : أنه عند ما كان يرجع من السراى الملكية كل يوم الى البيت يرجع راجلا ، لأنه كان يحب البساطة والسذاجة فى العيش ، وهو أيضا من لوازم الحياة الصوفية ، فيمر بدكان عجوز تسمى شمّو فتقدم له كرسيا ونرجيلة ، وتطلب منه تشريفها ولو بدقيقة . فلكى لا يجرح عواطفها كان يقعد عندها ولو دقيقة . ومرة قالت له : ياسيدى خسرو ! آلامك وبلاؤك على رأسى إنك تقول آلافا من الغزل وتؤلف النغمات والألحان وتصنف الكتب . أما تؤلف شيئاً باسمى حتى يذكر اسمى أيضاً بفضلك ؟ فقال لها حاضر ياسيدتى شمو وارتجل نشيدا فيه اسمها . تخلد اسمها بذلك النشيد الى اليوم

كان خسرو لين الجانب رقيق العواطف قطع جميع مدارج التصوف ومنازله ، فكان صاحب حرقة قلبية دائمة فى حب الله . وقد قال فيه شيخه مولانا نظام الدين أولياء قدس سره : « فى يوم القيامة كل واحد يفتخر بشىء ، ونفخر بحرقة هذا (ترك الله) » . ولعل خسرو أشار إلى هذا حين قال البيت الآتى :

خسرو من كوش براى صواب
تاتو شود « ترك خداى » خطاب

« ياخسرو اجتهد فى الحق ليكون لك لقب « ترك الله »

انتهى البحث

السيد أبو النصر أحمد الحسينى الهندى

ملحوظ : سقطت جملة من مقالة « الأمير خسرو » فى ص ٤٦٣ السطر الرابع من العمود الأول . والصحيح كما يلى : فكان يتقن التركية لأنه كان من أصل تركى ، والعربية لأنها كانت لغة دينه ، والفارسية لأنها كانت لغة الحكومة الرسمية حينئذ . كذلك حصل خطأ فى جملة وردت فى ص ٥٠٨ فى السطر الثامن من العمود الثانى وصوابها : ان الشعر هو ماله أثر أخلاق . . . .

يا شمس

للأستاذ فخرى أبو السعود

يا ليتني كالشمس فى عليائها ... لم يُرضها إلا المحلُّ الأرفعُ
لم تمسس الدنيا ولا أقذاءها ... لكن إليها من علٍ تتطلع
تحوِى جوانبَها بنافذِ نظرةٍ ... وتُفى، غَيهبَها بنورٍ يسطع
وتظلُّ تشهدُ من شؤون أنيسِها ... ما مرَّ من أمرٍ وما يُتوقَّع
وتقلُّبَ الأحوالِ فيما بينهم ... فى أعصرٍ تمضى وأخرى تتبع

***

يا ليتني كالشمس فى تَدْآبها ... ليست بمكثٍ فى مكان تقنَع
تطوى الفضاء محلةً فمحلةً ... وتغيب عن أفق السماء وتطلع
موصولةً رحلاتُها فلها هنا ... مستقبل ولها هناك مُودِّع
مأنوسةَ الأسفار يَصْحَبُها السَّنى ... وطريقُها بين العوالمِ مَهيَع
عرَضَت جمالَ الكون فى غدواتها ... ورواحها مُرتادةً ما يُمتِع
إن خلفت حسناً بديعاً لم تزل ... حتى يلوحَ لها أحبُّ وأبدَع
كم شارَفت نهراً يفيض ووادياً ... الزَّهر فى أفنانه يتضوَّع
وطوى عبابُ اليمِّ آيةَ ضوئها ... فرأى محيَّاها اليبابُ البلقع
وأجازتِ البيدَ القِفار فطالعت ... غاباً ألفَّ به البلابلُ تسجع

***

يا ليتني كالشمس فى إخلادها ... لا الخوف يعرونى ولا بىَ مطمع
لا المادحُ الشادِى يَخِفُّ بمهجتى ... طرَباً ولا لهجاء هاج أجزع
أتدبَّر الدنيا وأغنم حُسنها ... وأجوب أطراف الحياة وأذرع

***

يا شمس إنَّ الشعر يسمو بى إلى ... أوْجٍ لديك هو الأعزُّ الأمنع
يَسْرِى خفىٌّ ندائه فيُهيبُ بى ... ويَرِنُّ فى أذنى صداه فأسمع
أسمو على الدنيا به وأودُّ لو ... أنى إلى أقذائها لا أرجع

فخرى أبو السعود

من أدب السودان

ما كان أوفقه لو ضمنا أدب

لشاعر السودان الأستاذ عبد الله عبد الرحمن

نبَّهتَ منَّا فؤاداً غير سهوانِ ... وجئتنا بحديث ممتع دانِ
(محمد بن جلال)(1) قد نطقتَ بما ... نُحِسُّه من أحاسيس ووجدان
دعوتَ للأدب العالى يحرِّك من ... بنى العروبة من مصر وسودان
وصحت بالقائلين الشعر بينكم ... أليس عندكم السودان ذا شانِ ؟
ما للمسارح لم تخرج روايته ... وللرواية منه ألف ميدان !
وكيف لم يهزز الكتَّابَ ما عصفت ... به الحوادث فى سرٍّ وإعلان ؟
مضى يُثابر لم يفطن له أحدٌ ... كأنما القوم من هىٍّ بن بيَّانِ (2)
فقلت لله مصر شدَّ ما عُنيت ... بكلِّ فعلٍ عظيم النفع إنسانى
وتلك قولة حق ما أبرَّ وما ... أحقَّها أن لها يسعَى الشقيقان

***

ما كان أوفقَه لو ضمَّنا أدبٌ ... له الكنانة والسودان ركنانِ
ينمُّ عنا وعنكم غير مختلق ... لا كالذى عبَّ من زورٍ وبهتان
يقلم الظفر من ساعٍ لتفرقة ... ويقصم الظهر من داعٍ لهجران
والناس من بات يشقى من جهالته ... حيًّا - سيشقى بها فى العالم الثانى

***

كم للطَّبيعة فى السودان من فِتنٍ ... وكم لأطيارها من سحر ألحان
ما أكثر الملهماتِ الشعر فيه وما ... أمدَّها للأديب الهادم البانى
الرمل عند ضفاف النيل تحسبه ... لُعس الشفاه جلاها بيض أسنانِ
وظلمة الليل فى العتمور (3) ملهمة ... خوالد الشعر ترويها الجديدان
والسَّرح والسِّدر والجميز كارعة ... من صيِّب القطر أو من فيض غدران
ما للكهارب سلطان على قمر ... ولا على الشمس سلطان لبنيان

(1) الأستاذ محمد محمود جلال صاحب المقال المنشور فى عدد الرسالة ٨٣ (حول ١٩ يناير) (2) علم لمجهول النسب والعين

(3) العتمور : الصحراء الواسعه بين وادى حلفا وأبى حمد ، ما بها ماء ولا نبات ، يقطعها القطار فى إحدى عشرة ساعة

كلٌّ تسيل على الآفاق غرّته   فتملأ النفس من حسن وإحسان
وللحوادث تلعابٌ بساحتها   تملى علينا شروداً ذات ألوان
إذا مررت من أمْ دُرْمان في كررى [1]
ألقى عليك القوافى الخالد الفانى
من كلّ من صدقت فى الله همّته   وراح لم يحتمل ضيماً لإنسان

* * *

كم بالجزيرة [2] أو سهل القضارف من
مزارع حُلوة المرآى وأقطان
وحِلّة ذهبت فى جودها مثلاً   ومنزل فيه تُتْلَى آى قرآن
ألله أكبر! تدوى فى مساجدها   فتعمر القلب من دِينٍ و إيمان
والقوم سُمر وجوه يُسرعون إلى   ما ينبت العزّ من إكرام ضيفان

* * *

وفى أبا [3] حيث تلقى الأرض كاسيةً
والطير خاطبةً من فوق أغصان
تهشّ للزائريها كلّ آونة   وتملأ القلب من رَوْح وريحانِ
هناك فى كردفان أىُّ مُتَّدَعٍ   للطرف فى بارة أو أرض خِيران
حيث البداوة فى أجلى مظاهرها   والابل طالعة من بين كثبان
ما أجمل الريف مصطافاً ومرتبعاً   وغادة الريف فى عين وغزلان
الخدّ لم ترْعَ موسى [4] فى جوانبه   والجيد من حسنه عن زينة غانِ

* * *

فان يكن شعب بوّان [5] ازدهى نفراً
ففى البطانة [6] كم من شعب بوّان

(١) كررى: جبال شمال مدينة أم درمان كانت فيها الموقعة الفاصلة بين جيوش المهدية وجيوش الحكومة الحاضرة

(٢) الجزيرة: الأرض التى بين النيلين الأبيض والأزرق، والقضارف بين أحد مراكز كسلا شرق السودان

(٣) جزيرة أبا فى النيل الأبيض، بها مزارع السر السيد عبد الرحمن المهدى، وبها متعبد المهدى

(٤) السودان تتخذ الشلوخ وهى اقتصاد فى الخدين طلباً للجمال، وهذا فى الحواضر أما البوادى فلا تتخذه

(٥) شعب بوان كان أحد متنزهات الدنيا بفارس

(٦) البطانة الأرض التى بين النيل الأزرق ونهر أتبرا، وهى مراع حسنة ذات مياه وأشجار، بها من العرب بنو ذيبان والشكرية والبطاحين والخوالدة والحمران، وهى الآن فى نظارة الشكرية

إذ تقبل الأرض أعقاب الخريف بها
بكل وجهٍ إلى الفنانِ فنانِ
والصيد نافرة حتى إذا أنِست   أوفت على نجوة ترنو بِفتّان
والضان والمعز والأنعام تابعة   مواقع الغيث قطعاناً لقطعان
وللحداة حداء كله كرم   فيه الاباء وفيه نُصرة العانى

* * *

وسامر الحى من غيد وفتيان   بين البيوت وفى أعطاف وديان
فى كل ليل تحاجيهم عجائزهم   بابن النّمير [1] وسوبا وابن سلطان
وتارة يرهف الفتيان سمعهم   إلى نوادر أجواد وفرسان
(وابن المحلق) لم تبرح حكايته   فى الناس يسردها أشياخ حُمران
يا قبر تاجوج [2] حيّاك الحيا ومشى
بصفحتيك شَذَى ورد وريحان
إنى أميل إلى الأشعار يبعثها   حسٌّ قوىّ وأقلى الفاتر الوانى
وفى البلاد وفى ماضى أبوتنا   فخر — وإن لم تكن تُعنى باعلان
وكم بتاريخها من قصة عجب   جدّ الحكيم ولهو الوادع الهانى
فان يكن بات فيها الحرّ يصهرنا   فللحرارة يُعزَى فضل شجعان

* * *

اذا «الرّسالة» أدّت من رسالتها   ولم تُجرّر علينا ذيل نسيان
رعى لها أدب السودان خدمتها   ونالت الشكر من قاصٍ ومن دانِ

(الخرطوم)   عبد الله عبد الرحمن

(١) ابن النمير وابن سلطان من الأقاصيص الخرافية فى السودان. وسوبا مدينة جنوبى الخرطوم على النيل الأزرق كانت عاصمة مملكة النوبة العليا، وهى المعروفة فى التاريخ بمملكة علوة

وكل هذه المواقع قد شاهدتها البعثة التجارية الاقتصادية التى زارت السودان فى شهر يناير من هذه السنة، وقد شهدها الدكتور محجوب ثابت الدنقلاوى مولداً المصرى سكنى

(٢) تاجوج وابن المحلق قصتهما فى الحب مشهورة كقصة قيس وليلى وقد وضعت لهما رواية باللغة العامية السودانية دوبيت ومثلت كثيراً بالسودان

القصص

من أساطير الإغريق

بين أپوللو وكيوبيد (١)

للأستاذ دريني خشبة

عصى الناس ، فى قديم الزمان ، سيد أرباب الأولمپ ، السند الأعظم ، المهيمن على ملكوت السموات والأرض : زيوس . ومع ما اشتهر به من واسع الحلم ، وطول الأناة ، وجم المغفرة ، فانه لم يشأ أن يمد للعالم فى حبل الغواية ، لدرجة إنكارهم لذاته ، وإلحادهم فيه ، وكفرهم به ؛ فأقسم ليهلكنّ حرثهم ونسلهم ، وليقطعن دابرهم أجمعين : فأطلق الرياح الجنوبية الهوجاء ، وأرسل السحب تتدجى كقطع من الليل البهيم ، وأذن للأرض فتشققت ينابيع وعيوناً ، ثم انهمرت الأمواه من فوقهم ، وتفجرت من تحت أرجلهم ، وطغى الموج يجرف الدور ويُعفّى الآثار . وفى أيام قلائل ، كان الطوفان يغمر وجه الأرض ، ولم يكن ثمة إلا بحر خضم عظيم

وهلك الناس جميعاً ، وشفى زيوس موجدته عليهم ، ثم بدا له أن يعيد مياه الحياة إلى مجاريها ، فأطلق الرياح من عقالها ، فهبت فى شدة وعنف ، وأخذت ترشف ماء الطوفان ، تعاونها فى ذلك مركب أپوللو . . . يوح (٢) العظيمة . وبدأت الأرض تجف ، وشرع بساطها السندسى الجميل يبدو قليلا قليلا ، حتى ازدهرت المروج ، وأينعت الخمائل ، وسمق الدوح ، واهتزت الرُّبى ، وأخذت السهول زخرفها . وبدا له مرة أخرى أن يخلق أناسي يعمرون الأرض الجديدة ؛ فما كاد يفعل حتى ظهرت حيوانات بحرية هائلة ، جعلت تزحف من الماء إلى الأرض ، فتهلك الخلق الجديد . وكان أشد هذه الحيوانات وطأة ، وأكثرها فتكا ، ذلك التنين البحرى الهائل ، الذى كان يصمد للعصبة القوية من الرجال فيفنيها عن آخرها ؛ حتى ضج الناس واستغاثوا ، وجأروا بالدعاء إلى زيوس الرحيم ، فرق لهم وحدب عليهم ، وأرسل أعز أبنائه من زوجه لاتونا : أپوللو ، فأنقذهم من التنين (پيثون) بسهامه التى سددها اليه حتى أرداه



أپوللو يقتل پيثون

وانثنى ثملا بخمرة النصر ، مزهوًّا بما رفع الناس إليه من صلوات وابتهالات ، وبينما هو راق إلى سماء الأولمپ ، إذا أخوه كيوپيد بن أفروديت يصيد الظباء فى غيضة لفّاء ، ويلهو باجتناء الثمر ، ويمرح بين أفواف الزهر ، كالمستهتر الخالى . فأراد أپوللو أن يناوشه ، فقال له : « كيوپيدَ ياابن أفروديت ! أنت هنا تصيد الظباء الضعيفة ، وتريش سهامك إلى أطلائها (١) المفزوعة ، ولا تجسر على اقتناص الأفعوانات البحرية المرعبة التى تفتك بعباد أبينا زيوس ؛ ومع ذاك لا تفتأ تفاخر الآلهة بسهامك التى لا تطيش ، ورمياتك التى لا تخيب . كيوپيد الصغير ! يجمل بك أن تنزل لى عن قوسك الرنان ، وسهامك الذهبية ، أو أن تحد

(١) لقد طغت أسماء الميثولوجيه الرومانيـة على الميثولوجيه اليونانية طغياناً كبيراً ، مع أن الثانية أصل للاولى ، وأپوللو هو الاسم الرومانى لالاه فوبوس اليونانى ، وكذلك كيوپيد هو إيروس بن أفروديت (ڤينوس) وقد آثرنا الأسماء الرومانية لشهرتها فحسب . (٢) الشمس

(١) أبنائها

من كبريائك ، وتأتى إلىّ كل يوم أعلمك كيف تكون الرماية ، وكيف ينبغى أن تسدد السهام ! »

وغيظ كيوبيد من هذا التقريع الذى لا مُسَوِّغ له ، وذلك التفاخر الأجوف الذى لا فائدة منه ، ولا طائل وراءه ، فعبس وبسر ، وتجهّم وزمجر ، وقال فى عبارة ملتهبة ، وأسلوب مشبوب : أبوللو يا ابن لاتونا ! ! كان الأولى بك أن تذكر كيف عذبت حيرا [1] فى سالف الأيام أمك وأذلتها ، فتقنى حياء ، وتتوارى خجلا ، ولا تملأ الهواء بمثل هذا الفخر الكاذب ! أبوللو ! أنت تتيه بسهامك وتُدل ؛ وتدعى أنك تقنص بها الأفعوانات البحرية ، على حين أصيد الظباء ، وأقتل الأطلاء ، ألا فلتعلم أننى أمهر منك ألف مرة فى تسديد السهام ، وأقوى فى توتير القوس ، وإن كنت بعد حَدَثاً صغيراً . على أننى أنذرك ، أنت يا أبوللو يا ابن لاتونا بسهامى التى سأجربها فيك قريباً ! ! »

فضحك أبوللو ملء شدقيه ، وقال : بخ بخ يا كيوبيد بن أفروديت ! ليس هكذا يخاطب سيد الشمس أبوللو ! ولكن يبدو لى أنك مُتعب من طول ما أخذت نفسك به من الصيد فى هذه الغيضة ، وأحسبك قد أعياك ظبى نافر فأخرجك عن طورك ، خصوصاً وأفروديت تنتظرك لتُعد الشواء ! . . أنت ستجرب سهامك فىّ . . . . فىّ أنا . . . . . ! »

فقال كيوبيد : « فيك أنت . . . . فيك أنت يا أبوللو ابن لاتونا . . . . وسترى . . . »

وامتلأت أسارير أبوللو بضحكة ساخرة ، وفصل مستهزئاً

وشرع كيوبيد يدبر انتقـامه ، ويرسم له الخطط التى ينال بها من أبوللو ، فلا يستطيع أن يفلت ، وكان يحمل كنانتين ، يحتفظ فى الأولى بسهامه الذهبية التى يصمى بها القلوب فتملأها حباً وصبابة ؛ وفى الأخرى بسهامه الرصاصية التى يصيب بها القلوب فيفعمها بغضاً وكراهية . . . . ونثر كنانتيه وانتقى من كل واحدة سهماً حاد الشَّباة مزدوج السِّنان ، ثم انطلق فى الأدغال يفكر ويُدَبِّر ؛ ويمم شطر غدير قريب يطفئ منه غُلته ، فرأى القينة الحسناء (دفنيه) متجردة من ثيابها ، جالسة كالقطاة على عُدوة الجدول ، تداعب الماء بقدميها الجميلتين ، وتظللها صفصافة ممتدة الفىء وارفة ، والأطيار من فوقها تغنى لها . فقال كيوبيد ، متحدثاً إلى نفسه : « فرصة نادرة لن أفلتها . . هذه (دفنيه) الجميلة تستنقع من القيظ ، وهى وسيمة قسيمة ، بارعة الحسن ، تامة المفاتن ؛ لابد أن أسدد سهماً رصاصياً إلى قلبها الصغير فيمتلئ كراهية وبغضاء . . . ويحسن ألا أشعرها بوجودى حتى أصمى قلبها . . . فلأختبئ هنا . . . »

وتوارى خلف دوحة كبيرة ، وثبت السهم الرصاصىّ فى مكانه من القوس ، ثم أطلقه فى قلب دفنيه ؛ وما كاد يفصل حتى انخلع قلب الفتاة من الذعر ، وأسلمت ساقيها للريح تعدو بين الأيك ، صارخة من ذلك الثلج الذى ذهب بحرارة فؤادها

وقصد كيوبيد إلى حيث أبوللو ، وكان قريباً من دفنيه ، فسدد إلى قلبه السهم الذهبى فأصماه . وتلفت أبوللو ينظر ماذا أصابه ، وحدث أن كانت دفنيه منطلقة تعدو إذ ذاك ، فلمحها ، وسرعان ما جن بها جنوناً . لقد ملأه سهم كيوبيد حباً ، كما ملأ سهمه الرصاصى دفنيه بغضاً . . .

لقد كانت دفنيه أول من وقع عليه نظر أبوللو بعد إذ ملأه سهم كيوبيد حباً ، فهام بها ، وشعر نحوها بهوى ممض وبرح قديم ، كأنه برح آلاف من السنين ؛ وكذلك كان أبوللو أول من وقع نظر دفنيه عليه بعد إذ أفعمها سهم كيوبيد كراهية ، فأبغضته ، وشعرت بسم تنفثه عيناه فى قلبها حينما رأته

أفلح كيوبيد إذن فى الفتك بأبوللو ، حين أوقعه فى أحبولة الهوى ؛ ورداه فى شرك الغرام ، بهذه الفتاة الكارهة المحنقة ، دفنيه ! أفلح كيوبيد ، وتبع أبوللو يرى إليه يتذلل ويتضرع ... ويبكى كما يبكى الآدميون . . وهو سيد الشمس ، ورب الموسيقى ، وقانص الأفعوانات كما دل على كيوبيد وافتخر !

انتصر كيوبيد إله الحب ، صاحب القوس الذهبية ، كيوبيد الطفل ، ذو الجناحين ، على أبوللو سيد الشمس ، صاحب القوس والوتر المُرْدَّ ! !

إن الحرب لم تبدأ ، حين بدأت ، بين أبوللو بن لاتونا ، وكيوبيد بن أفروديت ، بل هى قد بدأت بين البغضاء والحب ، والقِلى . . . والهوى !

انطلق أبوللو فى إثر دفنيه المذعورة يبكى ويتذلل ، ويحاول

(١) يشير كيوبيد الى أسطورة رائعة سننشرها قريباً ، وحيرا هى أولى زوجات زيوس

اللحاق بها . . . ولكن هيهات ! لقد كانت تُمعن فى الهرب ، كما جد هو فى الطلب ؛ ولقد كانت تنظر اليه كأنه قاتل أبيها . . . وخانق أمها ! . . .

وصاح أبوللو ضارعاً : « دفنيه أيتها العزيزة ! قفى أرجوك ! تمهلى أتوسل اليك ! الشوك يجرح قدميك المعبودتين يادفنيه ! أوْهِ ! رويدك ياحبيبة ! لا تنطلق هكذا فقد يؤذيك اندفاعك ! فيم أنت مذعورة هكذا ؟ قفى ؛ فأنا أبوللو . . . قفى ! . . »



أبوللو يعدو ضارعاً وراء دفنيه

ولكن دفنيه لا تجيب إلا بنظرة القنص ، ولفتة الواجف المراش ، وتجد فى الهرب . . فيقول أبوللو : « قفى يادفنيه ! قفى ولك نصف ملكى ! بل لك الشمس كلها إذا وقفتِ ! أنا رب الموسيقى سأغنى وأصدح لك ! سأطربك بقيثارتى الذهبية بعد أن أغسل لك قدميك فى كل ليلة (! !) ، سأطير بك فى أرجاء السموات ! ستكون لك القصور فى جنة الأولمب ! سأمنحك الخلود يادفنيه ! أحبك ! أستحلفك بزيوس إلاّ ما وقفت ! مالك هيمانة على وجهك هكذا ؟ هل أُخيفك ؟ هل أزعجك إلى هذا هذا الحد ؟ . . . ويلاه ! »

ولا تبالى دفنيه ، بل تعدو وتعدو وتعدو . . .

ويضيق أبوللو بغصته ذرعاً ، فيلجأ إلى جبروت الآلهة ، ويبدى سلطان السماء ! ويصيح صيحةً هائلة ، فيكون سد منيع فى طريق دفنيه !

فيقول أبوللو وقلبه يضطرب من طول الاعياء : « فيم تهربين منى يادفنيه ! ألم تعبديني مرةً وتقدمي الضحايا باسمى إلى كهنة الهيكل ؟ هأنذا أبوللو المعبود ، أرجوكِ وأتوسّل إليك ! ماذا تريدين بعد هذا ؟ لقد بلغت من أبوللو منزلة لم تبلغها ربة من قبل ! لقد فضلتك على كليمين ، زوجتى المعبودة ، وأجمل عرائس البحر ، وأم طفلى المحبوب فيتون ! ! فيتون أسرع الآلهة بعد أخى هرمز ، سآمره يكون خادماً لك ! إنه يقتنى أغلى المركبات ، ولديه من الصافنات الجياد أغلاها ؛ ستركبين معه فتطوفين العالم فى ساعتين ، وترين ما بين الشرق والغرب فى لمحتين ، لو رضيتِ ! دفنيه ! أرجوك يادفنيه ! إننى أبداً ما بكيت بمثل ما أبكى لك ، وأذرف الدمع بين يديك ! حنانيك يادفنيه فقد سحقت قلبى بكبريائك ، وأذللت نفسى بخيلائك ! »

وكان فعل السهم الرصاصى فى قلب دفنيه قد خف ، ووقفت الغادة حائرة مترددة مما تسمع ، وكانت عيناها ترتين بعبراتٍ حبيسة . ولكن كيوبيد ، المختبئ فى عساليج الكروم القريبة كان يرى ويسمع ، فلما شاهد من ضعف دفنيه وقرب تسليمها ، تناول قوسه ، وانتقى سهماً مسنوناً من كنانة الأسهم الرصاصية وسدده إلى قلبها ، فصرخت المسكينة صرخة داوية ، وهبت فى وجه أبوللو تقول : « إليك عنى أيها المسخ ! تنحَّ ! أبغضك ! أكرهك ! أغرب عنى ! أنت أنجس من التيتان[1] ، والأم من شارون[2] ، إذهب ! لا أطيقك ؛ انظر إلى هذا الغدير لترى الشرر ينقدح من مقلتيك ، والدخان يصّاعد من منخريك ! كريه . . كريه . . شائه أنت أيها الوحش . . » .

وكذلك كان فعل السهم الذهبى قد شارف أن يبطل فى قلب أبوللو . . وكاد الاله العظيم يخلص من هذا السحر العجيب ، فيسحق دفنيه ، لولا أن تنبه كيوبيد ، فأصماه بسهم ذهبي آخر ، فجن جنونه ، وتجدد حبه ، وتألب به هواه . . . فصرخ صرخة راجفة ، وأشار إلى السد فزال عن طريق دفنيه ، فانطلقت تعدو . . وتعدو . . . وانطلق هو فى إثرها يتوسل . . ويذرف أغلى العبرات ! !

لقد كانت دفنيه تطوى الطريق كأنها فكرة شاردة فى رأس شاعر ، ولقد كان أبوللو يقتص آثارها كأنه الكوكب السيار

(١ ـ ٢) التيتان هم أبناء وبنات زيوس من المردة وقتلة ابنه زجريوس وأبغض الأبالسة إلى الآلهة ؛ وشارون هو حارس الجحيم

منجذباً إلى نجم كبير ! وكان كلما سرق اللمحة من ساقيها الجميلتين التهب قلبه بحبها، واشتعلت نفسه بالرغبة المُلحة فيها، وانجذبت روحه إليها . . . . ياللكيوبيد ! وياللسهامه . . . . الذهبية . . . والرصاصية ، على حد سواء ! !

وتعدو دفنيه حتى تكون عند حفافى النهر العظيم الذى أقام زيوس والدها الكبير إلـهاً عليه ، فتصرخ قائلة : إنقذنى يا أبى ! خلصنى من هذا الوحش الذى يدعى أنه أپوللو الكريم ! إنه يعدو من ورائى . . . خلّصْنى منه . . . إنى أبغضه . . . يا أبى . . . يا أبى . . »

وينشطر الماء ، ويخرج أبوها ، إلـه النهر ، فيرى أپوللو مقبلاً ، فيعرفه ، ولكنه يرق لابنته ، ويقسم ليخلصنها من سيد الشمس ، فيغرس قدميها فى الشاطئ ، ويحتفن من الماء بيديه ، وينثرها به ، بعد أن يتلو عليه من تعاويذه ؛ ويقف أپوللو مشدوهاً ، موزع اللب ، ينظر ويرى !

لقد تحولت دفنيه ، فى لمحات ، إلى شجرة باسقة من أشجار الغار ، وأخذت الخضرة تينع فى أغصانها ، بين حيرة أپوللو وشدة تعجبه !

ووقف الإلـه العظيم يبكى ويا ويح للعاشق المخبول !

ثم تقدم فبارك الشجرة ، وسقاها من دمعه ، الذى كان من خلائقه الكبر ! وانصرف محطم النفس ، معمود القلب ، كاسف البال ... ولقيه كيوپيد ، فسأله الخبيث : «أين سهامك التى أرديت بها الأفعوانات يا أپوللو بن لاتونا ؟ » فقال : « كيوپيد ! اشفنى مما ألم بى ! » فقال كيوپيد : « بهذا السهم الرصاصى أشفيك ! »

وتلقى أپوللو السهم فى قلبه عن طواعية فبرئ مما به ، ولم يعاد كيوپيد بن أفروديت بعدها !

دريني خشبة

البريد الأدبي

كلود فارير عضو الأكاديمية الفرنسية

في ٢٨ مارس جرى في الأكاديمية الفرنسية انتخاب طال انتظاره على كراسيها الخالية ؛ فانتخب ثلاثة من الأعلام الأحياء مكان ثلاثة من الأعلام الذاهبين ؛ هم كلود فارير مكان لوى بارتو ، وجاك بانفيل مكان بوانكاريه ، وأندره بليسو مكان الأب بريمون . والثلاثة من أقطاب الكتابة والأدب ، فان كلود فارير قصصي كبير ، وجاك بانفيل مؤرخ وصحفي بارع ، وأندره بليسو مؤرخ ورحالة وصحفي كبير اشتغل حيناً سكرتيراً لتحرير مجلة « العالمين » الشهيرة . ولكن أشد الخالدين الجدد اتصالا بالأدب هو بلا ريب كلود فارير

وكلود فارير ضابط بحري سابق ؛ وكان مدى أعوام طويلة زميلاً لبيير لوتي وصديقه الحميم ؛ وقد تأثر بحياة البحر كما تأثر بها لوتي ؛ وتأثر بعبقرية صديقه واتجاهه الأدبي . ولما توفي لوتي سنة ١٩٢٣ استمر فارير يحمل رسالته وينهج نهجه ، فيؤثر البحر ورجاله ، والمواني وأحياءها ومنتدياتها بكتابته ؛ ولبث مثل لوتي يهيم بالمناظر والبيئات والشخصيات الغريبة

وكان أول ظفر أدبي لكلود فارير في سنة ١٩٠٣ إذ صدر كتابه الشهير « خان الأفيون » وهو مجموعة قصص وصور تمثل حياة المدمنين في الشرق الأقصى ؛ وكان فارير يومئذ ضابطاً برتبة ملازم في إحدى الدارعات الحربيــة ؛ وفي سنة ١٩٠٥ ، أخرج قصته الكبيرة : « المتحضرون » ، فنال بها جائزة أكاديمية « جونكور » ، وذاع اسمه بين أقطاب الأدب ، وبعد ذلك استمر فارير في الكتابة وإخراج القصص الصغيرة والكبيرة ، ومن قصصه الكبيرة : « الرجل الذي قتل » ، وهي على ما يرى بعض النقدة أعظم قصة لفارير ، ومنها : « الحرب » و « منزل الأحياء » و « الآلهة الأخيرة » و « المحكوم عليهم بالاعدام » و « الرجال الجدد » وغيرها ؛ وله عــدة مجموعات من القصص الصغيرة أشهرها : « سبع عشرة أقصوصــة بحرية » و « أحمد باشا جمال الدين » و « قصص الأباعد والأقارب » و « أربع عشرة أقصوصة عسكرية » وغيرها . ولفارير قطع مسرحية أيضاً منها « توما لا نليه » و « قبيل الحرب »

وكلود فارير مثل صديقه بيير لوتي من أقطاب المذهب الابتداعي « الرومانتيزم » وقد تأثر مثل لوتي بأميل زولا . وقد كتب فارير مثل لوتي أيضاً كثيراً عن تركيا والمجتمع التركي وخلاله متأثراً في ذلك بسحره الشرقي القديم . وقد كان مثل لوتي يدافع عن تركيا القديمة ، ويحاول أن يخرج أبدع صورها للغرب ، وما زال فارير متعلقاً بهذا السحر الشرقي القديم ، يأسف لما حل بتركيا القديمة من تبدل وتطور ، ويرثي هذا المجتمع القديم الساحر ، بقصوره الشاهقــة ، ونسائه المحجبة ، وبذخه وبهائه ، ولا يرى في تركيا الحديثة سوى صورة ممسوخة لا هي استبقت القديم ، ولا بلغت في الحديث شيئاً . ولفارير عدة كتب وقصص عن تركيا في آخر عصور السلاطين

وأما أسلوب فارير فهو ساحر ، وهو أقرب إلى البساطة وعدم التكلف ، وهو أشبه الأساليب بأسلوب جي دي موباسان ، ومع هــذه البساطة الجمة تراه ينفث المتاع والسحر في قارئه . ثم هو أسلوب مكشوف في بعض النواحي ، بمعنى أن فارير يذهب في التصوير والوصف إلى حــدود لا يبلغها الكثيرون ، وأشد ما تبدو براعة فارير في وصف حياة المواني الكبيرة ، وما يقع في منتدياتها وبؤرها السرية من أنواع الخلاعــة والتهتك وصنوف الانحلال الأخــلاقي والاجتماعي ، فهو يصف لنا مقاهي الأفيون والحشيش في ثغور الشرق ، وحياة البؤر والمواخــير السرية في أمريكا وفي الهند الغربيــة ، ويصف لنا عادات رجال البحر في السفينة وفي الميناء عند الجد وعنــد الهزل ، ويصف

حياة البغايا فى الموانى ، ومجتمع السفلة والأوغاد ؛ وكل ما يتعلق بهذه الحياة المثيرة التى لا يدرك أغوارها إلا رجل مثل فارير طاف العالم وثغوره ، ونفذ إلى أعماق هذه الحياة بصورة عملية

وقد انقطع فارير إلى الأدب منذ أعوام طويلة ؛ وهو اليوم يعمل فى الصحافة إلى جانب كتابة القصص ، وينشر فى الصحف الفرنسية ، ولاسيما جريدة « الجورنال » مقالات طريفة ساحرة فى مختلف الموضوعات والصور

ومما يذكر فى حياة فارير الفياضة بالسياحة والمخاطر ، أنه كان إلى جانب مسيو دومير رئيس الجمهورية الفرنسية السابق حينما اغتاله القاتل جورجولوف برصاصة ، وحاول فارير انقاذه ، فأصابته فى ذراعه رصاصة من القاتل ألزمته فراشه مدى حين

صاحب الجائزة فى المسابقة الأدبية

صديق العزيز صاحب الرسالة

تحية وسلاماً . أما بعد . فقد زعم علماء النفس — والنفس أمّارة بالسوء — أن من ارتكب جُرماً مرة نازعته غريزته إلى ارتكابه مرة أخرى . ومهما حاول الشقى أن يتوب ويرجع ، فان جوارحه تتحرك ، وأعضاءه تتدافع نحو تلك الجريمة ، رغم كل مقاومة

والجريمة التى نحن فى حديثها الآن هى ترجمة الشعر بالشعر . جريمة قديمة ألمية . ولها فى صفحات الأجرام الأدبى أصول عريقة عميقة . والذين ارتكبوها وأمعنوا فى ارتكابها ، كان نصيبهم عادة الاعدام الأدبى مدى الحياة

ولقد كنت تبت من تلك الجريمة — أو خُيِّل إلى أنى تبت — حتى قرأت — وأنا أقضى عيد الفطر تحت شمس أسوان المشرقة — تلك القصيدة البديعة التى نظمتها كاتبتنا البارعة الآنسة مى ، فنازعتنى النفس اللجوج ، إلى أن أكسر التوبة ، وتقوضت صروح المقاومة أمام ذلك الشعر المغرى والمعانى الساحرة . وسهلت الشاعرة أمامنا الصعاب بترجمة نثرية قربت البعيد ، ومهدت المسير ، فما شككت فى أن كل أديب فى الأقطار العربية سيندفع بالرغم منه إلى ترجمة تلك القصيدة

أما أنى لم أرسل مع الترجمة اسماً ، بل وحاولت إخفاء خطى ، فهل ينتظر من مرتكب الجريمة الاعتراف الصريح ، وهل يستغرب منه أن يخفى معالمها جهد طاقته ؟

والآن وقد نجحت المجازفة ، فلا بأس عليك من إرسال الجائزة . فان دراهم الأدباء حلال للأدباء . ولا أشك فى أن أصدقائى الأدباء سيلحون فى أن تنفق تلك الدراهم ، فى وليمة أدبية تمد لهم . وهم يزعمون أن خير الطعام ما جاء من طريق مسابقة أدبية . ولقد أحاول إفهام هؤلاء أن الأفضل أن يشترى بالدراهم سفر قيم يكتب فى أوله حديث الجائزة ، من أجل الذكرى والتاريخ . وما أظنهم ممن يجدى فيهم الاقناع : وإليك التحية الخالصة من أخيك

محمد عوض محمد

الجيزه فى ٣ ابريل سنة ١٩٣٥

بجماليون المثال

الأديب الفاضل زكى شنوده جندى : — شبرا

قرأت ملاحظتك الطيبة على أسطورة بجماليون المثـــال (الرسالة — العدد ٩٠) . والحقيقة أيها الأخ أن هذه الأساطير قد تناولتها يد التبديل والتحوير طيلة العصور السحيقة التى مرت بها . وأكبر ظنى أن الأغريق لم يكن لهم من أسطورة بجماليون المثال إلا ما لخصته أنا ؛ لأنى أعتمد فيما أكتب على أوثق المصادر التى لا يمكن أن يعتورها الشك ، أما بقية الأسطورة التى أشرت أنت إليها فهى ، كما أذكر ، من ابتكار الكاتب القصصى الفذ برنرد شو فى قصته الخالدة (بجماليون) ، وقد استمد الأديب الايرلندى الكبير مادة قصته من الأسطورة اليونانية ، وزاد عليها هذه الزيادة التى لاحظتها ، لأنها بذلك ، فى نظره ، تكتمل ما أحببته أنت لها من الرونق والكمال ؛ وأحسبك فى غنى عن أن أذكر لك ، أن هـذه الأساطير الجميلة كانت أبداً ، ولاتزال ، مصدر الالهام للشعراء فى الغرب الحديث ، وهذا جون كيتس فى قصيدته أنديميون ، قد بدل فى الأسطورة الأغريقية وحور ، ومع ذلك زادها جمالاً وكمالاً ؛ وكذلك فعل شلى فى (أدونيس) التى بكى فيها كيتس

ومع ذلك ، فأنا و(الرسالة) ، إذا منحتنى هذا الحق ، نشكرك

د . خ

الاحتفال الألفى بذكرى المتنبى

علمنا أن لجنة تألفت فى دمشق لوضع برنامج شامل للاحتفال الألفى بذكرى وفاة أبى الطيب المتنبى ، وستدعو إلى الاشتراك فى هذا الاحتفال جميع البلدان العربية . ويقال إن سلسلة هذه الاحتفالات ستبدأ فى رمضان القادم

مصير اياصوفيا

لن يجد الذين يزورون استانبول من المسلمين فى « اياصوفيا » مسجداً تؤدى فيه الصلاة كما كان حتى العام الماضى . ولكن « أياصوفيا » أنبل الآثار الرومانية فى « قسطنطينية » قد حول الآن إلى متحف قومى تنفيذاً للقرار الذى اتخذته حكومة الجمهورية فى هذا الشأن ، يزوره الجمهور مقابل أحد عشر قرشاً تركياً (نحو قرش صاغ) وقد رفع من ساحاته الأثاث والرياش وكراسى المصاحف ، وأرسلت طنافسه الى مساجد أخرى فى أدرنة . وظهرت فى ساحته المنطقة القديمة التى كان يؤمها عباد الصور فى القرن الثامن الميلادى ؛ ولكن ترك المحراب ومنبر المؤذن والمصابيح البرنزية الكبرى (القناديل) وسلاسلها البيزنطية ؛ وترك أيضاً المنبر السلطانى الذى أقامه السلطان أحمد الثالث ، واللوحتان اللتان كتبهما الخطاط التركى الشهير تقنج زاده ابراهيم فى سنة ١٦٤٢

وستنقل التحف الرومانية والبيزنطية الى « اياصوفيا » عما قريب ؛ وبذلك رفع عن المسجد صفته الدينية التى أسبغت عليه منذ فتح قسطنطينية سنة ١٤٥٣ م

جائزة مينيرفا

من أنباء باريس أن جائزة مينيرفا الشهيرة قد منحت إلى مدام كلير سانت سولين ؛ من أجل روايتها المسماة « نهار » Journée وقد فازت بها دون عدة من الكتاب المنافسين . ومدام سانت سولين روائية فرنسية شابة ، تلقت تربية عالية وتخرجت فى جامعة باريس ، وهى تكتب منذ أعوام كتابة الهواة لا المحترفين ولم تنشر سوى قليل مما كتبت ، ويقال إنها أحرقت من تأليفها عدة قصص لم ترها جديرة بالنشر ، وهى من عشاق القرية والغابة والمناظر الريفية ، وقد لفت فوزها بهذه الجائزة الأدبية الشهيرة الأنظار اليها ، وبدأت الصحف والمجلات تتناول حياتها وجهودها الأدبية بالنقد والتعليق





ترجمة نفسية تحليلية

٤ - هو ذا تاريخ انسان ... !

للأستاذ خليل هنداوى

الحياة عاقلة تسعى إلى غايتها الأزلية وهي تلهم ما تريد ومن تريد لتحقيق غايتها المحجوبة عنا . أصغر ذرة في الكون وأكبر جزء من أجزاء الكون سيان في خدمة هذه الغاية . . . وكل مافي الكون دائب عامل على تحقيقها ، وهل الحياة إلا دوائر بعضها يموج في قلب بعض ، لا تنفتح دائرة عبثاً ولا يولد شيء عبثاً ، وفي كل ذلك سر ، جهلنا به لا ينفي وجوده ! وهذا الاتصال يؤمن به « نعيمه » حتى لا يجد حدوداً بين البداية والنهاية . لأن بداية كل شيء مرتبطة بنتيجته . والواقف على متفجر الينبوع يرى فيه المسيل والبحر ، والطريق والمحجة ، لأن بدايته مرتبطة بنهايته ، لا نستطيع أن نقول : من ها هنا ابتدأ وهنالك انتهى ! بل يبتدىء وينتهي ، ويبتدىء وينتهي في أصغر من لحظة ، فهو - من بدايته ونهايته - في نقطة لا يفرق فيها مفرق بين البدء والنهاية

وقد يصل « النعيمي » بين خيوط الحياة الحقيقية وخيوط الحياة الحالة ، فيحاول أن يجعل من الاحلام مؤثرات في اليقظات ! وكم حلم أراد تفسيره بالحقيقة ، ومشابهة حللها بمشابهة أخرى ! كأن الحياة عنده واعية تخلق ما تهوى وتخلق الانسان كما تهوى ولا يخلق هو من نفسه شيئاً ، وهذه الوقائع التي نراها كم في حياة الانسان وندعوها نحن « مصادفات » يراها هو « حقائق » كبرى مرسومة في كتاب الحيـــاة ، وإنما دعانا عجزها الى تسميتها بالمصادفات . وما فيها من معنى المصادفة شيء !

فلسفة هادئة عميقة لم تنبت جذورها إلا في الشرق ؛ الشرق البعيد ، الذي وجد معنى الألوهية في كل ذرة من ذرات الوجود ، هذه الفلسفة لم يمنها فيه الغرب الذي سكنه طويلاً ، وإنما حاول الغرب أن يخنقها فيه ، فهب بصيحة المخنوق فيه ، فأنقذه قبل إسلام الروح

فلسفة شرقيـة هادئة لا تحارب العالم لأنها هي العالم ، ولا تثور على القوة المجهولة بل تدور معها كما تدور الأفلاك والنجوم ، ولكل جرم دورته وسبيله . والعوالم كلها تؤلف عالماً واحداً كاملاً . كلنا دورات في دورات ، وكلنا ضمن دائرة الحياة الكبرى . وهي تكره التمرد على الحياة ، لأنها لا تدرك معنى هذه الثورة ، والتمرد - عندها - نزق شباب وثورة محموم ، ورغوة تلهيك عن

الصريح ، وخير من هذا التمرد على الناس وحياتهم التوجه إلى تفهم أسرار تلك الحياة بصمت وهدوء ، وكشف ما فيها من جمال ينضح من معين الجمال الكلى . وهو يأخذ على جبران تمرده الذى يضعه فوق « أبناء الحياة » ويريد منه فنه أن يعليه فوق الناس . فيرى نفسه نسراً عظيما ، ويرى غيره دجاجا وديدانا ،

لا يرضى غير الفضاء ميداناً ، ولا يشرف على الحياة إلا من القمم العالية ، يأخذ نعيمة على جبران هذا الأدعاء ، ويجيبه بلسان « ميشلين » المتواضعة المتهكمة (وأنت ياجبران ! لا تأنف من أن تغذى جسمك ببيوض الدجاج ولحومها ! جمل « ميشلين » رفيقة تحسن المشىّ فى مسالك الأرض قبل أن تجعلها شاعرة تجوب رحاب الجو . اجعلها دجاجة سعيدة قبل أن تجعلها نسراً قوياً ، اجعلها إنساناً راضياً قبل أن تجعلها إلـهاً كاملاً)

فلسفة متواضعة غايتها أن تبشر بالحياة الشاملة التى تربط بين الأقاليم التى مزقها طمع النـاس ، قضوا على أسمى رابطة بينها ورضوا بأن ربطوا — ماقطعوه — بالمسخ الذى خلقوه وألهوه — وهو الفلس — وبهذه الفلسفة يجرب أن يؤلف بين البشر ويفنى الذات الفردية ، ويحل محلها الذات العامة التى لا شريعة إلا شريعتها ؛ فلا يبغض إنساناً لأنه كل الناس ، ولا يملك شيئاً لأن كل شىء له . ولا يهرب من الألم لأنه السبيل إلى النجاة ، ولا يدين مجرماً لأنه يدين نفسه ، ولا يطلب مجداً لأن كل مجد باطل

هذا هو عالم الوحدة الكاملة حيث الحياة ألفة ابدية ، كل ما فيها يعانق بعضه بعضاً عناق محبة لا حواجز فيها ولا حد لها ، يبلغه الانسان فيـدرك بلاغة الصمت وهيبة السكون ، وسمو النفس فى حضرة مالا يحد . ومرتبة الصمت ـ عند نعيمة ـ هى أسمى مراتب البـلاغة ، ولـكن أى صمت ! هو الصمت المبطن بتلك المعرفة ، وقد يكون أن ذلك الصمت هو المحجة التى نسير اليها على غير علم منا

بلى : سيصمت الانسان ـ الصمت الأكبر ـ عند القبر ، وينفصل الانسان عن كل شىء ولـكنه الانفصال الظاهر ! لأن الانفصال لا حقيقة له ... (وأين هى القدرة التى فى وسعها أن تحل حلقة واحدة من سلسلة الزمان وتترك السلسلة مفككة مقطعة ؟ أليس الانسان يغيب فى ناحية من نواحى الزمان ليبرز فى غيرها ، كالشمس تغيب عنا فى بقعة من الأرض فتشرق فى سواها ؟ الاتصال ! الاتصـــال ! ليس على الأرض ولا فى السماء قدرة تستطيع أن تفصم عروة مكنتها الحياة بين إنسان وإنسان ، أو بين شىء وشىء وهل فى الـكون ذرة ليست مربوطة بكل ما فى الـكون

سيذهب الجدول مترنماً الى البحر ، وسيعود دون أن ينقطع المسيل الذى يصل بينه وبين البحر . . . .؟

خليل هنداوى



3 me Année, No. 93.

Lundi-15-4-1935

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٩٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٢ محرم سنة ١٣٥٤ — ١٥ ابريل سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد



١٣٥٤

ها هو ذا العام الجديد يهِلُّ ، فأين السجل ؟ تعال نقرأ ما خطه التاريخ فى صفحتنا التى طواها الدهر أمس ! هل انفرجت خوانق الأغلال قليلا عن الرقاب العانية ؟ هل انجلت غواشى الغفلة عن العيون السادرة ؟ هل انجاب قتام الذل عن النفوس العزيزة ؟ هل ائتلفت على عوادى الخطوب هذه القلوب الشتيتة ؟ هل اقتنع المعتدون والمستبدون أننا ماض ينبعث ، ومجد يستيقظ ، وأمة تريد أن تستأنف بلاءها فى جهاد الناس ، وتستعيد مكانها من صدر الوجود ؟

رويدك لاتطل النظر فلن تجد فيه وا أسفاه إلا عِبَرَ عينيك !! لقد طُويت هذه الصفحة كما طويت قبلها تلك الصفحات على بياض غير ناصع ! وإن تاريخنا لا يزال يكتب عرضاً فى تاريخ الدول ، أو لحَقا فى تاريخ انجلترا ! فليس له فى التقويم العربى حساب جار ، ولا فى سِفر العالم فصل مستقل !

لو كنا نسير إلى الوراء لعثرنا يوماً بمجد المصريين والعرب ،

ولو كنا نسير إلى الأمام لظفرنا يوماً بمجد الفرنسيين والانجليز ، ولكننا سقطنا من الونَى والوهن فى طريق الانسانية ، يخطو فوقنا الركب ، ويدور علينا الفلك ، حتى رن فى أسماعنا صوت الأجداد يُهيب صارخاً بالرقود ، فنهضنا نهضة المُنْبَتّ الحائر نستلهم الأعراق ، ونستنبئ الدلائل ، وتملق الأحداث ، ونستحث القادة ؛ ثم انقضى على هذه النهضة المتلكئة قرن ، وما نزال شملا يتجمع ، وأملا يتطلع ، وعزماً يشبّ

متى السير إذن يا هادى الحجة ؟! لقد مللنا قرع الطبول ودَقّ البشائر ، وقتلنا الزمن فى تأييد رأى وتفنيد رأى ، وأضعنا الجهد فى عقد لواء وحل لواء ، وخجلنا من هذا الموقف السلبى الذى يرصد الأُهب فى الخيال ، ويصور الخطط بالشعر ، ويطلب النصر فى أحلام المنى !

***

انطوت صفحة العام المنصرم ولم تسجل فى أوطان العروبة غير الأسى والألم : سجلت فى مصر كما سجلت من قبلُ أهواء تتصارع ، وأطماعا تتعارض ، وفردية تطغى ، وأثرة تسف ، وخصومة تكيد ، وشعباً يكابد داء الضرائر فى زعمائه ، ويكاد يستجير بعدوه من أوليائه ، وينظر فيرى فى يده العتاد وفى طبعه الاستعداد ، ثم لا يزال برغم ذلك وضيع الشأن فى الحياة ، مسلوب الارادة فى الحكم ، مبذول المقادة للغاصب

وفى العراق سجلت أحداثاً ترمض القلوب وتثير دفائن الهم ، من دبيب العقارب بين الجيرة ، وسعى النمائم بين الاخوة ، وتمكين الطائفية للنفوذ الدخيل !

وفى الشام سجلت تفريق الكلمة بالوعود ، وتمزيق الجسم بالحيلة ، وتسكين الألم بالمُرقد ؛ كذلك سجلت فى المغرب دموعا يمسحها اللاطم بكفه ، ووشائج يقطعها الظالم بسيفه ، ونفوساً ينزو بها الحِفاظ للجنس والدين فتركض فى القيد ، وتضطرب اضطراب المهيض فى القفص

ثم سجلت فى شبه الجزيرة فعل الفقر البئيس فى دار الهجرة وملاذ الدعوة ، ومُطمأَنّ الضريح المقدس

أما السطور الحمر التى خطتها لفلسطين البائسة ، فمن صبيب دمائها كان المداد ، ومن نشيج بكائها كان الكلم : هى إعلان بيعها القهرى فى سوق السياسة ، يتزايد فيه أهل العرب بالحق ـ والحق رأى واجتهاد ، و بالقانون ـ والقانون ورق ومداد ؛ ثم يهود العالم كله بالذهب ـ والذهب إله وشيطان ، و بانجلترا ـ وانجلترا أسطول و برلمان ! فالعرب فى فلسطين مقضى عليهم بالقتل والتشريد ، و إخوانهم فى الأوطان الأخرى ينظرون إليهم نظر العواد إلى المريض المُشْفِى ، يسعفونه بالدعاء ، ويؤاسونه بالبكاء ، والدعاء لا يرفع الواقع ، والبكاء لا يدفع الموت

***

هذه عناوين الصفحة المطوية ليس بينها عنوان جميل ، فليت شعرى ماذا تخط أقلام القدر فى صفحة العام الجديد ؟!

لو كنا ننتفع بالذّكريات ، ونستفيد من العِظات ، لما بددنا الجهود فى التجارب ، وأفسدنا الأمور بالتردد ؛ إن لنا تاريخاً إنسانياً حافلا فيه لكل عظيمة ذكرى ، ولكل ملمة تجربة ؛ وأن لنا دستوراً إلهياً كاملا فيه لكل مضلة هدى ، ولكل قضية بينة ؛ فاذا التمسنا دليلنا من روح السلف ، واقتبسنا هدانا من وحى الله ، استقمنا على الطريقة التى نهجها الرسول ، فتوافينا معاً على الغاية ، وانتهينا جميعاً عندها إلى الوحدة

إن الرسالة العربية التى هاجرت مغلوبة من مكة إلى المدينة ، سافرت غالبة من الشرق إلى الغرب ، بفضل مبدئها الإلهى الذى قامت عليه ودعت إليه وفازت به ، وهو توحيد الله ، وتوحيد الكلمة ، وتوحيد القوى ، وتوحيد الغاية



وقد استوثق الأمر لأهلها ما استمسكوا به ؛ فلما تراخت العرى بينهم و بينه تقاذفتهم السبل ، وتقاسمتهم الأطماع ، وصار بهم التخاذل والتواكل إلى ما هم عليه اليوم

احمد حسن الزيات

مساجلة الرمال

للآنسة النابغة «مى»

[أنواج عديدة من الرمل تتململ شيئاً فشيئاً ، فوجاً بعد فوج ، وتتحدث فى أواخر الغلس]

— الظلام يولى هارباً ، وعمود الفجر يكاد ينشق . عما قليل تشرق الشمس فلا يلبث قرصها أن ينقلب أتوناً يُصلينا نار السعير .

— سيان لدينا الليل والنهار . كل يوم ننتظر من الظلام عذوبةً تحت أنوار الكواكب الواهية . ولكن حرارة الشمس تظلُّ مستودعة فى كياننا فنلبث فى اتقادٍ واضطرام يوماً بعد يوم ، وليلةً بعد ليلة

— إنما جعلتنا الأقدار متحاذيات متلاصقات لنفرش هذه الأرض ونكوّن منها الصدأة المحترقة . يتهموننا بأن لمسنا يشوى اليد والقدم شيًّا ، ولكن ألَسْنا نعانى فى كياننا المقدورَ علينا من عذاب السعير ؟ ودِدتُ لو أنّ لى دمعاً أذرفهُ من فرط السآمة والحنق والألم !

— طالما شهدنا الخلائق تهبط علينا وقد أضناها التعب والوصب ، فنفق الحيوان على صدرنا ، ومات الانسان بين يدينا ، ووجد كل منهما عندنا ملجأً طبيعيًّا يتلقاها ويضمهما اليه . ونحن الجائعات الظامئات المتعبات على الدوام ، ليس لنا من يرثى لحالنا ويسعفنا . نحن التائقات الى التفلت من حالتنا الراهنة ، ليس لنا أن نمضى فى علوٍّ ما ونهبط فى مستقرٍّ غير هذا . واتعبى من هذا الوجود القاحل فى ديمومة السكوت والجمود !

— أو لا تتحركين وتنتقلين عند ما تطؤك سنابك الخيل وأخفاف البعير أقدام الانسان ، لدن مرور هاتيك القوافل التى ما فتئت تطوينا منذ أن كان الدهرُ وليداً ؟

— ليست هذه هى الحركة التى ننشد . إن شوقاً عميقاً فينا يتلهّف على حركة من نوع آخر

— كم من حركةٍ مفاجئة خبرتُ عند ما عصفت بى السموم فى النهار أو الحَرور فى الليل ! زعازع وأنواء انتزعتنى فى عنفٍ من مقرّى إلى مقرٍّ آخر ، فما كنتُ منتقلةً إلا من الرمضاء إلى الرمضاء حيث السعيرُ دائمٌ والأوارُ مقيم !

— وأنا تلقّفتنى العواصف غير مرة . لحطت بى يوماً عند ساحل البحر فامتزجتُ بالماء ورسبتُ فى القعر . وأغفلنى هناك زمناً الدهرُ الوسنان . ثم قذفت بى الأمواج على الشاطئ ، فتناولتنى الزوبعة الهوجاء ، وردّتنى إلى مستقرى فى هذه البطحاء !

— وأنا كم حدت بى الريح إلى حيث الينابيع تتفجَّر والمياه تجرى ! إلى حيث الأرض كريمة والأشجار ظليلة ، وقد نوَّرت الأزهار هنا وهناك وهنالك على صفحة الروض ، وتشابكت الرياحين بمثيلاتها من شذىّ النباتات فعبق الهواء بأريج العطور !..

— لا تذكرنَ الماء والعطر والظلال لرمالٍ شقية قضى عليها بالمحل والاضطرام والصدى ، لا ترهفن فينا أشواقاً تأبى التحقيق !

— أتوق إلى الذوبان فى سائلٍ ما ، ولو كان ذياك السائل القانى الذى رأيناه أحياناً على جسد الانسان والحيوان ! ولكننا غير قابلات للجرح الذى يغسل محلنا بنجيع الدماء ، ولن نكون يوماً قمينات بابتسامة الحياة وعذوبة الحنان . قضى علينا بأن نكون دواماً فى حكم الموتى ، وقد حُرمنا نِعَماً يجنيها غيرنا فى جنّةِ الأرض

— أنكون فى حكم الموتى ونحن نشتاق ونتعذَّب ؟ ألا ليت كلّ قافلة عابرةٍ تسير بى إلى حيث ينيخ الركبُ ! حيث الخيمة المضيافة والناس يضرمون النار ويأكلون ، وينهلون الماء ويرتوون ! واحنينى إلى هناء المضارب ! واحنينى إلى كيانٍ قابل للرىّ والارتواء !

— لو كان لى أن أرجو الوصول يوماً إلى تلك الحالة الراغدة لأعانني الرجاء على الاحتمال ، وكان لى منه العزاء والسلوى ! ولكننا فى هذه البطاح الصمّاء البكماء ، إنما وُجدنا لنقطع كلّ صلةٍ بين الحياة والحياة !

— ويك ! ماذا تقولين ، نحن قاحلات جائعات ظامئات مشتاقات ، ولكننا وُجِدنا لنكون صلة بين الحياة ولباب الحياة !

— أو لا ترين الفجر يتلألأ فى الأفق سنياً ؟ غبار دقيق من النور يتناثر حولى ، كأنه سحيق من الذهب والبلور . هذا يوم عيد

— لولا هذا اليوم وماميزهُ بين الأيام ، ما كانت تلك القوافل العديدة ، قوافل الحجاج التى نراها منذ قرون وقرون ذاهبة آتية

— لقد شهدتُ القوافل ذاهبة آتية منذ أن خرجتُ على الصحراء رملاً ، وتعرَّفتُ قوافل العرب الرحَّل وقوافل الغزاة والمحاربين والشعراء والعاشقين . وكم من حداء سمعتُ !

— تلك القوافل تعددت ألوفاً وألوف الألوف منذ أربعة عشر قرناً ، وتبدَّل الغرض من ترحالها منذ أن انبثق من سويداء قلب الصحراء جحفل النصر العظيم . فصارت القوافل قوافل الذكرى والعبادة والسلام ، تقبلُ علينا فى عجاجة وردية من قصى الابعاد حيث يخيَّل أن الآفاق تتحرَّك ، وتغادرنا فى عجاجة وردية لتتوارى وراء الآفاق التى تحنو على وديعتها الفريدة الغالية

— أعرف تلك الوديعة ، فقد ساقتنى إليها الريح مرة ! هناك مثوى ذاك الذى عرف كيف يلقى فى أرواح الشعوب روحاً حيَّة خالدة

— فتى الصحراء ! فتى الصحراء الذى اصطفاه ربُّهُ ليحمل الكتاب . فهجر دياره ، وسلاحه كتاب فغزا به العالمين !

— الفاتح الذى لا يشبهه فاتح ! إنه لم يغزُ البلدان والأمصار وكفى ، بل غزا القلوب بسرِّه ، وفتح النفوس بسحره ، يوم خروجه من الديار هو بدء تاريخ الهجرة . وها الناس على توالى القرون ، وقد هاموا بجاذبيته النورانيَّة ، يهجرون ديارهم وخيراتهم ويقتحمون المفاوز والأخطار ليحجوا إلى البقعة الصغيرة العظيمة التى تجمَّع عندها معنى الديار والأوطان ، وتركزت فيها ثقة اليقين وانبعث منها نور الايمان !

— سيد الغزاة والفاتحين ! إنه فتانا ، فتى الرمضاء وفتى الرمال ! إنه جاء بمعجزة المعجزات فأخرج الخصب الخصيب من ديار القحط والجدب !

— فتى الصحراء العجيب ، ذو العينين الدعجاوين حيث أودعت السماء نطافة الضياء ! إن ذكراه لممتزجة بذكرانا !

— نحن الرمال لم يكن وجودنا عبثاً كما زعمنا فى أجلنا المديد الأليم ! نحن الجامدات ، كنا مبعث الحركة والحياة ! نحن القاحلات ، كنا ومازلنا سبيل الهجرة الخصيبة

أشرقت الشمس — شمس اليوم الأول من العام الهجرىّ . من الرمضاء تتصاعد أشباح أثيرية تدور رشيقة فى نور النهار الجديد . وقد أصبحت أفواج الرمال القريبة والبعيدة كلها جوقة واحدة تنشد :

« نحن الرمال القاحلة ،
« لا خصب يوازى خصبنا !
« نحن الرمال الجامدة
« هل من حياةٍ كحياتنا ؟ »

« مى »

أُمنيَّة

للدكتور محمد عوض محمد

ألا من لِنفسى والأمانى عزيزةٌ — بأرضٍ خلَتْ من ظالمٍ ولئيمِ
وصومعةٍ شِيدت على رأس رَبْوةٍ — مهبّ رياحٍ : زعزعٍ ونسيمِ .
تُطِلُّ على بحرٍ يعبُّ عُبابه — كصدرٍ لأسرار الزمان كتومِ ؛
ومن خلفها يَنبوعُ ماءٍ مسلسلٍ — كدُرٍّ على نحر الصخور نظيمِ
أطالعُ منها الكونَ سِفراً ، تزاحمت — به الآىُ ، قد خطَّتْهُ كفُّ حكيمِ ،
وأقرأُ منها الغيب سراً محجَّباً — بقلبٍ بصيرٍ بالخفىِّ عليمِ .
وإن زارنى فيها الرَّدَى مُتخشِّعاً — فأهلاً به من زائرٍ ومقيمِ

محمد عوض

الهجرة

للأستاذ على عبد الرازق

حينما فكر أولو الأمر من أهل السبق فى الاسلام فى اختيار مبدأ للتاريخ الاسلامى كانت هنالك حوادث خطيرة ما يزال ذكرها حياً فى أذهانهم ، يملؤها روعة وجلالاً

هنالك حادث الهجرة نفسها ، وهنالك قبل حادث الهجرة مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، ومبعثه ، ويوم اعلانه بالدعوة ، ويوم بيعة العقبة ، وبيعة الرضوان

ثم هنالك بعد حادث الهجرة غزوات النبى صلى الله عليه وسلم ، ويوم الفتح — فتح مكة — وهنالك اليوم الذى أنزل الله تعالى فيه على عباده المؤمنين : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً » وغير ذلك أيضاً . كل أولئك وكثير مما لم نذكره ، قد كان ماثلاً أمام أولى الأمر من أهل السبق فى الاسلام يوم أرادوا أن يختاروا مبــدأ للتاريخ الاسلامى ، فاختاروا من بين أولئك كله حادث الهجرة — هجرة النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه من مكة إلى المدينة — وبذلك سجلوها ذكرى بين المسلمين متجددة ، وأرسلوها فيهم حديثاً مأثوراً وعبرة دائمة

ما نحسبهم فعلوا ذلك إلا وقد عرفوا لهذه الحادثة من القدر والخطر ما لم يعرفوا لغيرها من الحادثات التى عرفوا ، وإن كانت ذات قدر جليل وخطر عظيم

لقد يبدو غريباً أن يتفق الصدر الأول من بناة الاسلام وأهل السبق والفضيلة فيه على أن ينظروا إلى الهجرة بذلك النظر ، وأن يعتبروها أهم الحوادث فى الاسلام وأبرزها وأبلغها فى نشأته أثراً

والذين يقرءون سيرة النبى صلى الله عليه وسلم قد يدركون فى غير مشقة أن هذه الهجرة كانت فى الحق حدثاً ذا شأن عظيم وخطر ، فأما أن يبلغ من خطرها أن تكون هى الحادث يغطى على جميع الحادثات ، وتغلب ذكراه ذكراها ، ويرتفع اسمه فوق أسمائها ، فذلك ما قد يبدو غريباً يحتاج إلى شىء من البحث والنظر . بل لقد يبدو لبعض المتعسفين أمر هذه الهجرة وكأنه مظهر من مظاهر الهزيمة ، وكأنه عمل من أعمال اليأس والتسليم . وكذلك يظنه بعض الكفار ، وكذلك يسميه بعض كتابهم من الافرنج بالهرب والفرار

ولعل أولئك الذين يصفون هذه الهجرة بأشنع الصفات ، ويدعونها بشر الأسماء ، هم الذين سخرهم الله من حيث لا يشعرون ليكشفوا لنا عما أدرك السلف فى هذه الهجرة من روعة تتضاءل دونها كل روعة ، ومن عظمة لا تدانيها عظمة ، ومن حقائق وأسرار ما كنا لنهتدى إليها لولا أن أتاح الله لنا أولئك الحاسدين ينشرون فضل الهجرة كما تنشر النار طيب عَرف العود

وفى الحق قد كانت هـذه الهجرة فى ظاهرها نهاية أسيفة لمعركة حامية طالت واشـتدت بين دعوة الله ودعوة الطاغوت ، ولقى المسلمون فيها بأساً عاصفاً وزلزلوا زلزالاً شديداً . ولعل كُتَّاب السيرة النبوية لم يستوفوا ما فى هذه الحرب المرة من تفاصيل ودقائق ، ولم يتوسعوا فى وصف ما تخللها من بأس وشدة ، ولعلنا لو استطعنا أن نحيط إحاطة شاملة بحقيقة هذه المعركة لوجدنا فيها قصة فريدة لمعركة كانت من أشد ما عرف التاريخ صراعاً بين الحق والباطل ، واصطداماً بين كلمة الله العليا وكلمة الكفر السفلى . لسنا نعرف من أمر هذه الحرب القاسية إلا ذلك الذى يكرره كتاب السيرة ويتناقلونه من أحاديث الصحيفة ، وأحاديث التعذيب والايذاء ونحو ذلك ، ولكن الذى يدرس طبيعة هذه الحرب ، ويحلل ظروف زمانها ومكانها ، ويستقصى ما ورد فى سياق الحديث عنها فى القرآن وفى السنة ، وفى كتب التاريخ لا يسعه إلا أن يعتقد اعتقاداً جازماً بأن هـذه المعركة قد كانت عنيفة إلى أقصى درجات العنف ، وقاسية إلى أبعد حدود القسوة ، وأنها كانت أكبر محنة ابتلى بها المسلمون فى صدر الاسلام ، وكانت نهايتها أن تشتت المسلمون ، وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربُّنا الله . وخرج صاحب الدعوة ورفيقه عليهما السلام ، كما خرج موسى كليم الله خائفاً يترقب (إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا) وهكذا كانت الهجرة نهاية أسيفة لمعركة طالت واشتدت بين دعوة الله ودعوة الطاغوت

ثم كانت هـــذه الهجرة نفسها بداية سعيدة ناجحة لمعركة طالت واشتدت بين دعوة الله ودعوة الطاغوت ، وفيها عاد الله سبحانه على المسلمين بالنصر مؤزراً (فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين . وأنزل جنوداً لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمةُ الله هى العليا والله عزيزٌ حكيم)

ليس يشق علينا أن يقولوا عن الهجرة إنها كانت هزيمة وكانت فراراً . ولئن كانت الهجرة هزيمة فلقد كان فى هذه الهزيمة النصر كل النصر والفوز كل الفوز . ولئن كانت الهجرة عملاً من أعمال اليأس والتسليم ، فلقد كان مع اليأس والتسليم أمل باسم ، قضى الله أن يتحقق ، وغلبة شاملة أراد الله أن تتم ؛ ولئن كانت الهجرة هرباً وفراراً ، فلقـد أعقبتها رجعة على الـكفر ساحقة ، وكرة كانت القاضية

وهل يجد المسلمون فى تاريخهم ، وهل يجد غير المسلمين فى تاريخهم ، وهل تجد البشرية كلها فى تاريخها حادثة غير هذه الهجرة تستحيل فيها الهزيمة نصراً ويرتد اليأس رجاء ، ويصير الفرار سلطاناً وتمـكيناً ؟ أم كان ذلك فضلاً من الله يختص به من يشاء ، وكان فضل الله عليك عظيما !

إذا كان المسـلمون قد استيأسوا يوم الهجرة وظنوا بالله الظنون ، فان المسلمين قد علموا يوم الهجرة أن يد الله الرحيمة ، قد امتدت من السماء فتلقت الاسلام تحفظه وتؤيده ، وأحاطت بالمسلمين فهدتهم إلى طريق السـعادة ، وكتبت لهم أن يكونوا هم الفائزين

لقـد علم المسلمون يوم الهجرة أن الله قد كتب لهذا الدين النصر الخالد ، ولن يخلف الله وعده ؛ ولقـد علم المسلمون يوم الهجرة أن الله وحده هو الذى يحمى هـذا الدين ويدافع عنه ، وأن الله وحده هو الذى يحفظ هذا الدين وينصره (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحـكيم ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ، ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ، ولله ما فى السموات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم)

علي عبد الرازق

آية الهجـــرة

للأستاذ أمين الخولى

المدرس بكلية الآداب

« وجاهدوا فى الله حق جهـاده ، هو اجتباكم ، وسماكم المسلمين »

« ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة »

من أول خطبة له عليه السلام بعد الهجرة



تخيرت الأمم من عيون أيامها ، وأعلام أحداثها ، ماجعلته ميقاتاً تؤرخ به ؛ فقالت لعام كذا من وفاة الأسكندر ، أو غلبة دقيانوس ، أو ميـــلاد المسيح ، أوماهومن ذاك . فلما تأذن الله أن يتخـذ الأسـلام ميقاتاً ، أبى له أن يكون مولد فلان ، أو مهلك فلان ، أو تملك مملك ، أو مصرع متوج ؛ فكل أولئك خفيف عند الله فى الميزان ؛ وكل أولئك لقد يهون على الزمان

يرحم الله ابن الخطاب ! لقد كره التاريخ بالوفاة ؛ نفر منه طبعه ، وعافته فيه قوة الحيـــاة ، فتجلت بقلبه روح الاسلام مشرقة ؛ وسمت له ألمعية لبقة ؛ إذ آثر لذلك المبدأ يوم جلاد ، واختار له ذكرى جهاد ؛ يوم غالب فيه فرد جماعات ، وناضلت عزمة عزمات ؛ فبينا البـاطل فى قبائل يتنمر ، والموت على يد الأجلاد برصد ويدبر ، تصدى لذلك كله « محمد » وحده يسخر ؛ « وجعلنا من بين أيديهم سداً ، ومن خلفهم سـداً ، فأغشيناهم فهم لايبصرون » . ماعز عليه أن يخلى الأهل والوطن ، ولاراعه أن يغترب لغير مستقر ، فغلب الحق وظفر ، وانتصر الايمـان وقهر ، فى قلة وروعة وتجرد

تلك آية الهجرة ، وذلك فى اختيارها سر الفكرة ، ألقاه الى

على هامش السيرة

من معجزات الهجرة

للأستاذ على الطنطاوى

قال :

— هل لك يا سُراقةُ فى مائة من الابل ؟

— قال سُراقةُ : ما أحوجنى إلى عشرين ! فكيف السبيل إلى مائة ؟

— قال : تردّ على قريش صاحبها ، فقد خرج من مكة حين مكرت به قريش وأجمعت على قتله ، يهاجراً إلى المدينة ، فبثّت قريش عيونها فى سُبل مكة وشعابها ، وبعثت رسلها فنفضوا الصحراء نفضاً فما وقعوا له على أثر ، فعادوا إلى قريش بالاياس منه ، فأذّنت قريش فى العرب ، أن من ردّ علينا محمداً فله مائة من الابل ، وقد رأيت ركبة ثلاثة مرّوا علىّ آنفاً ، وإنى لأراهم طلبة قريش . . . فهل لك أن نلحق بهم فنردّهم إلى مكة ونأخذ مائة الناقة فنقتسمها بيننا ؟

فرقص قلب سراقة فرحاً ، ولعب به الطمع : وكان سراقة ابن مالك الجعشمى رجلاً متعفرتاً متشيطناً ، فعقد النية على أن يستأثر وحده بالغنيمة حتى تكون خالصة له ، فقال لصاحبه :

— ما هؤلاء من تريد ، هؤلاء بنو فلان ينشدون ضالة لهم !

فصدّق الرجل وانصرف ، وذهب سراقة فجلس فى نَدِى قومه كما كان يجلس كل عشيّة فما اطمأن به مجلس ، وما وعى من أحاديث القوم شيئاً ، وإنما كان يخيَّلُ إليه أنه يرى قِطاراً طويلاً من الابل يمرّ أمامه ، ويدور من حوله ، فيخفق لمرآه قلبه ، وتتحلّب أشداقه ... ثم طمى به الطمع ، فبرح النادى إلى بيته ، يلوص بعينه آفاق المستقبل ، ويقلّب أوجه الممكن ويفكر فى مائة الناقة أعلكها حتى تكون طوع أمره يصرّفها كما يشاء فتلد ، وتتكاثر فينحر منها ، ويطعم الجائع ، ويقرى الضيف ، ويرفد الوافد فيسير ذكره فى العرب ، وتنتجعه الشعراء ، وتمشى عدائحه الركبان ؟ أم هو لا ينالها ، ولا يفيد من سفره إلا لذعَ الشمس ، وبَرْح العطش ، وطول التعب ؟ . . .

وامتد به التفكير حتى ما يكاد يخرج منه ، ولا يكاد يستقر على الرأى لحظة حتى ينتقل إلى غيره : لم لا أذهب ؟ إنى سأجدهم فأردّهم على قريش . . ولكن ألم تعجز رسل قريش عن أن تهتدى اليهم ؟ فكيف أجدهم أنا ؟ . . . بل سأجدهم ، إنى سالك كل طريق تؤدى إلى المدينة . . . ولكن ياللسخف ! ألم تسلك رسل قريش هذه الطرق كلها ؟ . . .

ولما أضناه التردد أزمع أن يستفتى الحظ ، ويهتدى بالمصادفة — فأخرج أزلامه فاستقسم بها ، وحاول أن يشتفّ الغيب من خلالها : إن خرج الزلم الذى أكره « لا يضره » لم تكن النياق لى . وإن خرج الذى أحب « يضرّه » كانت لى ، إن الحكم للأزلام . . .

وضرب بيده فخرج الزلم الذى يكره ، فتألم واشتد ذلك عليه ، لأنه إنما عمد إلى الأزلام ليستمد منها العزم على الذهاب لا الرغبة فى القعود ، ثم قال :

إنها أول مرّة ، وهى للشيطان ! وإنى ضارب الثانية ، إن الثانيــة لآلهتنا ، وضرب الثانية فخرج الزلم الذى يكره . فقال لنفسه : مالى ؟ وهل يقنع امرؤ بمرتين ؟ إن المعوّل على الثالثة . وضرب الثالثة فخرج الزلم الذى يكره . . . فتصبب على جبينه العرق البارد ، فألقى الأزلام حنقاً ، وأمر غلامه أن يسرج فرسه ويقوده إلى بطن الوادى ! .

الدهر عمر ، وخلده حين حمله القمر ، فجعله فى التاريخ تقديراً ؛ وإنما بعثه لرسالة الاسلام تفسيراً ، يدور مع الأيام ، ويتجدد لكل عام . . . . أفيتساءل المسلمون بعد أين الطريق وكيف النجاة ؟ وتلك آية الهجرة أول الحياة فى تاريخهم وأول تاريخهم فى الحياة !

يا شرق . . . إن لك عند القمر معنى تاريخياً ، وإن لك فيه لرمزاً حيوياً ؛ فان يبد فى الغرب ناحلاً نضو أسفار ، فهو الطلعة يرتاد لك طريق الفخار ؛ وإن يتألق فى الشرق بدراً كاملاً ، فهو تاج مجدك ، ومثال جدك

الآن يزيح القمر سجف الغيب عن عام جديد ، فيطالع فى الشرق وجوهاً ناضرة ، إلى ربها ناظرة ، يحييها منه إشراقة باهرة ، وطلعة نيّرة ، يجل فيهم ما فهموا من معانى المجد والنبل فى آية الهجرة ، ووجوه . . . لاجرى القلم بوصفها ، قد غلبت على أمرها . . . لكنها لم تفقد رجاءها ، ولم تضعف أملها ، فلن تهى ما استمسكت بعروة الايمان « إن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين » . . . . أولئك لهم من القمر فى إشفاقه الوديع نظرة راجية ، ولفتة حانية ، وإيماءة نافذة ، تثير ذكريات حافزة ، تلهمهم معانى المجد والنبل من آية الهجرة !؟

أمين الخولى

وتريث سراقة حتى إذا تصرّم الليل ، أسحر سالكاً طريق المدينة فسار فيه إلى الصباح فلم يقع من القوم على أثر . فعاد أدراجه يتبع طريق الساحل فلا يلقى فيه أحداً ، حتى زالت الشمس ؛ وحميت الظهيرة ، وتسعرت الأرض ، وأحرق جوفه العطش ، وكان يهزّه الطمع فيعدو فرسه عدواً شديداً ، حتى يرى الآكام هي التي تسير عن يمينه وشماله ، يأخذ بعضها بسفوح بعض ... ثم يدركه القنوط فيدع الفرس يمشي متباطئاً متخاذلاً ... حتى إذا بلغ منه التعب والعطش والجوع واليأس نظر فاذا عند الغار من جبل ثور محمد وصاحبه . . . فصبّت القوّة في عضلاته ، وعادت اليه الحمية والنشاط ، فصاح في الفرس ، فانطلق نحو الغار كالسهم المرسل ؟

* * *

قال أبو بكر رضي الله عنه :

. . . فقلت : هذا الطلب قد لحقنا يارسول الله وبكيت

فقال : ما يبكيك ؟

قلت : ما والله على نفسي أبكي ، ولكن أبكي عليك

فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : اللهم اكفناه بما شئت ، فساخت فرسه في الأرض إلى بطنها . . .

فلما رأى سراقة مارأى ، وثب عن الفرس ، وقد طار الخوف بلبه ، وأبرأه الفزع من داء الطمع ، وصاح :

— يامحمد ! قد علمت أن هذا عملك ، فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه ، فوالله لأعمين على من ورائي من الطلب . فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأنقذه الله . . . وكلمه فكان من قوله له :

— كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى ؟

* * *

ورجع سراقة ، وقد اجتمعت عليه منذ اليوم المتناقضات من الأفكار والعواطف ، وهاج نفسه الطمع والخوف ، والأمل واليأس ، فجعل يقهقه في هذه البادية ، ويصرخ كمن به جنة ، ولم لا يجنّ ؟ وقد كان يأمل أن ينال الغنى ففاته ما كان يأمل ، وقد فتحت فاها لتبلعه الأرض فنجا ، ولم يصدر بعد هذا كله إلا بوعد دونه خرط القتاد ، وخرق النار ، وخوض البحار ...

— ماذا ؟ أيعدني محمد سواري كسرى ، كسرى شاهنشاه ملك الملوك ... وهو يقطع الصحراء هارباً من قومه ، مختفياً في غار — ليس معه إلا رجل واحد — أيبتلع هذا الغار ملك كسرى وجبروته وجلاله ؟ أتنتصر هذه الصحراء على ملك كسرى وجنانه وأنهاره ؟ أيغلب هذان المهاجران كسرى على خزائنه وجنوده وبلاده ؟ ولو أن العرب اجتمعت كلها ، ورمت عن قوس واحدة ، ما نالت من كسرى منالاً ، على أنها لن تجتمع العرب قط ، ومن ذا الذي يجمع مضر بن نزار وقحطان . . . وبكراً وتغلب . . . وعبساً وذبيان . . . وأين يذهب ما بينها من دماء ؟ . . .

أما إن قريشاً كانت أدرى بصاحبها حين قالت عنه ما قالت فما أراه يعجبه أن ينجو من قريش ، ويفلت من أذاها حتى يكون له ملك كسرى . . . . إنه والله ما يريد إلا أن يتركنا « نحن أيضاً » مجانين !

وانطلق يقهقه ويصرخ :

ويحٌ لك ياسراقة ! ستلبس سواري كسرى . . . كسرى شاهنشاه ملك الملوك

والفرس ينفر من صراخه ، فيطير على وجهه حتى اختفى وراء الآكام . . .

* * *

ومرّت السنون

وكان يوم صائف متوقد ، ففرّ سراقة من حرّه إلى حائط له ، فما استقر فيه حتى سمع منادياً ينادي :

ـ ياسراقة بن مالك الجعشمي . . . . ياسراقة . . . .

فصاح : أن لبيك ، وانطلق يؤم الصوت ، فاذا رسول عمر يدعوه أن أجب أمير المؤمنين

وإذا الشمس بين يدي عمر تأخذ الأبصار ببريقها ولمعانها ، وإذا بين يديه تاج كسرى ومِنْطَقَته . . .

قال عمر :

هل ياسراقة ، أتذكر خبر الغار ، وسواري كسرى شاهنشاه ملك الملوك ؟ . . .

ـ قال : نعم

ـ قال . قد أذهب الله بالاسلام ملك كسرى ، فلا كسرى بعد اليوم . . هات يديك

فألبسه السوارين ، وقال ارفعهما فقل :

ـ الله أكبر ! الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز ، وألبسهما سراقة بن مالك ، أعرابياً من بني مدلج[1]

* * *

(١) انظر النص التاريخي لحديث سراقة في كتابي : (أبو بكر الصديق رضي الله عنه) صفحة ٨٣

يا سراقة لقد انتصر المهاجران على كسرى وقيصر ، وكان لهما ملك الأرض ! يا سراقة ! لقد أضاء النور الذى انبثق من بطن مكة الدنيا جميعاً ! يا سراقة ! لقد ظفر الغار بالعراق والشام ، وغلبت الصحراء العالم !

يا سراقة ! لقد كان ملك كسرى وقيصر كبيراً قوياً ، ولكن الله مع الذين آمنوا ، والله أقوى . . . والله أكبر ! ؟

على الطنطاوى

عضو « المجمع الأدبى » بدمشق

محـــــرم

للشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى



يبشّر بالعام الجديد محرّمُ ... وينعته كلٌّ بما هو يزعمُ
فيوليه من إطرائه مُتفئّلٌ ... ويكثر من ذمٍّ له متشئّمٌ
ولا يعلم الإنسان ماذا به له ... ومَنْ فيه قد يشقى ومن فيه ينعم
ومن ذا الذى فيه المنايا تغوله ... ومن ذا الذى منهن ينجو ويسلم
جديدٌ ، أجل ، عام جديدٌ تجدّ فى ... لياليه أحداثٌ بها لست أعلم
فيفرح قلبٌ بالكآبة مثقلٌ ... ويحزن قلب بالمسرّة مفعم
وربّ سعيدٍ بالشقاء مهدّدٌ ... وربّ شقىٍّ بالسعادة يحلم
ونفرح بالأعوام إمّا تصرّمت ... على أنّها من عمرنا تتصرّم
وددت لو أن العام قال منبّئاً ... وماذا يقول العام والعام أبكم ؟

* * *

وللغرب أعوامٌ وللشرق مثلها ... ولكنّ الأعوام فى الشرق تُسئم
وفى الغرب أفراحٌ وفى الشرق غمّةٌ ... وما الأرض إلّا جنّة وجهنّم
شقيقان هذا ليل أبنائه بهم ... مضى لا وهذا يوم أهليه مظلم
وتختلف الأخلاق إلّا أقلّها ... ويختلف التفكير والعرق والدّم
بلى اختلفا فالغرب منصرف القوى ... إلى فعله والشرق بالقول مغرم
ونحن تثبّطنا ، وهم قد تعجّلوا ... ونحن تأخّرنا ، وهم قد تقدّموا
وما كان مجدٌ كان يبنيه أهله ... كمجدٍ بأيدى أهله يتهدّم

* * *

ومن لى بعام لا يشابه غيره ... أرى فيه أظفار البغاة تقلّم
وأبخل أرضٍ بالرجولة بقعةٌ ... يضام الفتى فيها ولا يتبرّم
إذا أنت لم تألم من الضغط غاضباً ... فمن أى شىء فى حياتك تألم ؟
أدير عيونى فى الوجوه فلا أرى ... سوى الذل مقروءا ولا أتوسم
ليحزننى أن العنادل آثرت ... صموتاً وأن الزهر لا يتبسّم
لقد صوّح الزهر الذى كان باسما ... ولم يبق للصيداح ذاك الترنم
يريدون ألا يشكو الحزن ثاكل ... وألا يئنّ المثخن المتألم
من الناس آلافٌ يعضّهم الطوى ... وفى كل ألفٍ واحدٌ يتنعّم
إذا عجز المكروب عن شرح ما به ... فعلّ دموع العين عنه تترجم
أمن قام يشكو بثّه فهو مزعجٌ ... ومن قال يبغى حقه فهو مجرم !
وإنى لا أدرى وإن كنت داريا ... أقومى تعاموا أم عن الحق قد عموا
بنى وطنى لا تسكتوا عن حقوقكم ... أليس لكم منكم فمٌ يتكلم
لكم ثروة فى الأرض أتعابها لكم ... وأرباحها للغرب نهبٌ مقسّم
ولا خير فى بدء الفتى بجليلةٍ ... إذا كان عن عجز له لا يتمّم
ولا فخر إلا للذى هو ماجدٌ ... ولا مجد إلا للذى يتقحّم
وما الحرّ إلا من إذا ضيم لم يلن ... وإن قال حقاً فهو لا يتلعثم
ويارُبّ فردٍ قد أتى فى جهاده ... بما لم يكن يأتى الخميس العرمرم
وما بال أبناء العروبة أصبحت ... على الذل أشتاتاً تشبّ وتهرم
وما بال أبناء العروبة سلمت ... وقد كان عهدى أنها لا تسلّم
لآلام قومى الصيّد نفسى تألمت ... لكِ الويل يا نفسى التى تتألم
وما خفقان القلب ما أنت سامعٌ ... ولكنه آمال قومٍ تحطّم

(بغداد) جميل صدقى الزهاوى

الرجولة فى الاسلام

للأستاذ أحمد أمين



لعل من أهم الفروق التى تميز المسلمين فى أول أمرهم وفجر حياتهم عن المسلمين اليوم ، « خلق الرجولة » فقد غنى العصر الأول بمن كانوا هامة الشرف ، وغرة المجـد ، وعنوان الرجولة

تتجلى هذه الرجولة فى « محمد » إذ يقول : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » . كما تتجلى فى أعماله فى أدوار حياته ، فحياته كلها سلسلة من مظاهر الرجولة الحقة ، والبطولة الفذة ، إيمان لا تزعزعه الشدائد ، وصبر على المكاره ، وعمل دائب فى نصرة الحق ، وهيام بمعالى الأمور ، وترفع عن سفسافها . حتى إذا قبضه الله إليه لم يترك ثروة كما يفعل ذوو السلطان ، ولم يخلف أعراضاً زائلة كما يخلف الملوك والأمراء . إنما خلف مبادئ خالدة على الدهر ، كما خلف رجالاً يرعونها وينشرونها ، ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم من أجلها

وتاريخ الصحابة ومن بعدهم مملوء بأمثلة الرجولة ، فأقوى ميزات « عمر » أنه كان « رجلاً » لا يراعى فى الحق كبيراً ، ولا يبالى عظيماً أو أميراً . يقول فى إحدى خطبه : « أيها الناس انه والله ما فيكم أحد أقوى عندى من الضعيف حتى آخذ الحق له ، ولا أضعف عندى من القوى حتى آخذ الحق منه »

وينطق بالجمل فى وصف الرجولة فتجرى مجرى الأمثال كأن يقول : « يعجبنى الرجل إذا سيم خطة ضيم أن يقول : « لا » ملء فيه » ـ ويضع البرامج لتعليم الرجولة فيقول :

« علموا أولادكم العوم والرماية ، ومروهم فليثبوا على الخيل وثبا ، ورووهم ما يجمل من الشعر » . ويضع الخطط لتمرين الولاة على الرجولة فيكتب إليهم . « اجعلوا الناس فى الحق سواء ، قريبهم كبعيدهم ، وبعيدهم كقريبهم ، إياكم والرشا والحكم بالهوى ، وأن تأخذوا الناس عنـد الغضب » ، ويعلمهم كيف يسوسون الناس ويربونهم على الرجولة فيقول : « ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تحرموهم فتفتنوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم »

من أجل هـذا كله كان هذا العصر مظهراً للرجولة فى جميع نواحى الحياة ، تقرأ تاريخ المسلمين فى صدر حياتهم فيملؤك روعة ، وتعجب كيف كان هؤلاء البدو وهم لم يتخرجوا فى مدارس علمية ، ولم يتلقوا نظريات سياسية ، حكاماً وقادة تخريجى العلم ووليدى السياسة ـ إنما هى الرجولة التى بثها فيهم دينهم وعظماؤهم هى التى سمت بهم وجعلتهم يفتحون أرقى الأمم مدنية وأعظمها حضارة ، ثم هم لا يفتحون فتحاً حربياً يعتمد على القوة البدنية وكفى ، إنما يفتحون فتحاً مدنياً إدارياً منظماً ، يعلمون به دارسى العدل كيف يكون العدل ، ويعلمون علماء الادارة كيف تكون الادارة ، ويلقون بعملهم درساً على العـالم أن قوة الخلق فوق مظاهر العلم ، وقوة الاعتقاد فى الحق فوق النظريات الفلسفية والمذاهب العلمية ، وأن الأمم لا تقاس بفلاسفتها بمقدار ما تقاس برجولتها

هل سمعت عدلاً خيراً من أن يضرب ابن لعمرو بن العاص — وهو والى مصر — رجلاً مصرياً فيستحضره عمر بن الخطاب وابنه ، ثم يأمر المصرى أن يضرب من ضربه وأن يضع السوط على صلعة عمرو ، ثم يقول له : « مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهم أحراراً » . أو هل سمعت عطفاً على الرعية ، وأخذ الولاة بالحزم كالذى روى أن معاوية قدم من الشام على عمر ، فضرب عمر بيده على عضده فتكشف له عن عضد بض ناعم . فقال له عمر : « هـذا والله لتشاغلك بالحمامات ، وذوو الحاجات تقـطّع أنفسهم حسرات على بابك ! »

أو هل سمعت قولاً فى العدل يحققه العمل كالذى يقوله عمر « إذا كنت فى منزلة تسعنى وتعجز النـاس ، فوالله ما تلك لى بمنزلة حتى أكون أسوة للناس » ـ أو هل رأيت حزماً فى الادارة كالذى فعله فى مسح سواد العراق وترتيب الخراج ،

وتدوين الدواوين ، وفرض العطاء

حقاً لقد كان عمر فى كل ذلك رجلاً ، ولئن كان هناك رجال قد امتصوا رجولة غيرهم ، ولم يشاءوا أن يجعلوا رجالاً بجانبهم ، فلم يكن عمر من هـذا الضرب ، إنما كان رجلاً يخلق بجانبه رجالاً ، فأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص والمثنى بن حارثة ، وكثير غيرهم كانوا رجالاً نفخ فيهم عمر من روحه كما نفخ فيهم الاسلام من روحه ، وأفسح لهم فى رجولتهم ، كما أفسح لنفسه فى رجولته

وكان أدبهم فى ذلك العصر صورة صحيحة لرجولتهم يتغنون فيه بأفعال البطولة ومظاهر الرجولة

وخير الشعر أشرفه رجالاً   وشر الشعر ما قال العبيد

يعتد الشاعر بنفسه ويسمو بها عن النعماء والبأساء فيقول :

قد عِشْتُ فى الناس أطواراً على طُرُقٍ
شَتَّى وقاسيتُ فيها اللينَ والفَظَعا

كُلاًّ بلوتُ ، فلا النعماء تُبْطِرُنى   ولا تخشّعْتُ من لأوائها جَزَعا

لا يملأ الهوْلُ صدْرِى قبلَ موقِعه   ولا أضيقُ به ذَرْعا إذا وَقَعا

ويعتز بشرفه وقوته وإبائه الضيم فيقول :

وكنت إذا قوم رمَوْنى رميتهم   فهل أنا فى ذا يالَ هَمْدانَ ظالِمُ

متى تجمِع القلبَ الذَّكِىَّ وَصارِماً
وَأنفاً حَمِيًّا تجتَنِبْكَ المَظَالِمُ

ويمدح رجل قوماً فيقول « انهم كالحجر الأخشن إن صادمته آذاك وإن تركته تركك »

ويقول أميرهم : « والله ما يسرنى أنى كُفيتُ أمر الدنيا كله قيل ولم أيها الأمير ، قال لأنى أكره عادة العجز » إلى كثير من أمثال ذلك

وعلى الجملة فأدبهم تام الرجولة ، قد شمت فيه الحياة ، وامتلأ بالقوة ، حتى اللاهى الماجن كأبى محجن الثقفى : كان يغازل ، وكان يشرب ، ولكن إذا جد الجد وعزم الأمر كان رجلاً يبيع نفسه لدينه ، ويبيع كل شىء لشرفه وشرف قومه

ونستعرض الغزل فى الجاهلية وصدر الاسلام ، فاذا هو غزل قوى لا مُيُوعة فيه ، ولا تخنث . لا يذوب صبابة ، ولا يلتاع هياماً . ولا يفقد الرجل فيه رجولته لحبه

وقلتُ لقلبى حين لجَّ به الهوَى   وكلَّفنى ما لا أُطِيقُ مِنَ الحُبِّ

ألا أيها القلبُ الذى قادهُ الهوَى   أفِقْ لا أقَرَّ اللهُ عَيْنَكَ مِنْ قلبِ

وما أنا بالنكسِ الدَّنِىِّ ولا الذِى   إذا صَدَّ عَنِّى ذُو المَوَدَّةِ أحْرَبُ

وَلكنَّنى إنْ دَامَ دُمتُ وَإنْ يكُنْ
لهُ مذْهَبٌ عَنِّى فَلِى عنْهُ مَذْهَبُ

ولم يضن التاريخ على المسلمين من حين لآخر برجال لفتوا وجه الدهر ، وغيروا مجرى الحوادث . ودفعوا عن قومهم الخطوب . وأنزلوهم منزل العز والمنعة . تضيق عن وصف أعمالهم الرسائل والكتب

ثم توالت الأحداث وتتابعت النوب . تفل من شوكتهم ، وتفت فى رجولتهم حتى رأيناهم بذلوا الشرف للمال ، وقد كان آباؤهم يبذلون المال للشرف ، ولم ينظروا إلا إلى أنفسهم وذويهم ، وكان آباؤهم ينظرون إلى دينهم وأمتهم ، وتفرقوا شيعاً وأحزاباً يذيق بعضهم بأس بعض ، فكانوا حرباً على أنفسهم بعد أن كانوا جميعاً حرباً على عدوهم ـ ورضوا فى الفخر أن يقولوا « كان آباؤنا » مع أن شاعرهم يقول :

إذا أنت لم تَحْمِ القـديم بحادث
من المجد لم يَنْفَعْكَ ما كانَ مِنْ قبل

وناثرهم يقول : « لم يدرك الأول الشرف إلا بالفعل ، ولا يدركه الآخر إلا بما أدرك به الأول »

ورأينا خير ما فى الأمم حاضرها وخير ما فينا ماضينا

* * *

أريد بالرجولة صفة جامعة لكل صفات الشرف من اعتداد بالنفس واحترام لها ، وشعور عميق بأداء الواجب ، مهما كلفه من مصاعب ، وحماية لما فى ذمته من أسرة وأمة ودين ، وبذل الجهد فى ترقيتها ، والدفاع عنها ، والاعتزاز بها ، وإباء الضيم لنفسه ولها

وهى صفة يمكن تحققها مهما اختلفت وظيفة الانسان فى الحياة فالوزير الرجل من عد كرسيه تكليفاً لا تشريفاً ، ورآه

وسيلة للخدمة لا وسيلة للجاه ، أول ما يفكر فيه قومه ، وآخر ما يفكر فيه نفسه ، يظل فى كرسيه ما ظل محافظاً على حقوق أمته ، وأسهل شىء طلاقه يوم يشعر بتقصير فى واجبه ، أو يوم يرى أن غيره أقوى منـه فى حمل العبء ، وأداء الواجب ، يجيد فهم مركزه من أمته ومركز أمته من العالم ، فيضع الأمور مواضعها ويرفض فى إباء أن يكون يوماً ما عونا للأجنبى عليها ، فاذا أريد على ذلك قال : « لا » بملء فيه ، فـكانت « لا » منه خيراً من ألف « نعم » وكانت « لا » منه وساماً تدل على رجولته ، وكانت « لا » منه خير درس للناشئين يتعلمون منه الرجولة — يقتل المسائل بحثاً ودرساً ، ويعرف فيها موضع الصواب والخطأ ومقدار النفع والضرر ، ثم يقدم فى حزم على عمل ما رأى واعتقد لا يعبأ بتصفيق المصفقين ، ولا بذم القادحين ، إنما يعبأ بشىء واحد هو صوت ضميره ، ونداء شعوره

والعالم الرجل من أدى رسالته لقومه من طريق علمه ، يحتقر العناء يناله فى سبيل حقيقة يكتشفها أو نظرية يبتكرها ، ثم هو أمين على الحق لا يفرح بالجديد لجدته ، ولا يكره القديم لقدمه ، له صبر على الشك ، وغرام بالتفكير وبطء فى الجزم ، وصبر على الشدائد ، وازدراء بالاعلان عن النفس ، وتقديس للحقيقة ، صادفت هوى الناس أو أثارت سخطهم ، جلبت مالا أو أوقعت فى فقر ، يفضل قول الحق وإن أهين على قول الباطل وإن كرم

والصانع الرجل من بذل جهده فى صناعته ، فلم يشأ إلا أن يصل بصناعته إلى أرقى ما وصلت إليه فى العالم ، عشقها وهام بها حتى بلغ بها ذروتها ، يشعر بأنه وطنى فى صناعته كوطنية السياسى فى سياسته ، وأن أمته تخـدم من طريق الصناعة كما تخدم من طريق السياسة ، وأن الصناعة لا تقل فى بناء المجد القومى عن غيرها من شؤون الدولة ، فهو لهذا يحسن فنه ، وهو لهذا يحسن سلوكه ، وهو لهذا يرفض ربحاً كثيراً مع الخداع ، ويقنع بربح معتدل مع الصدق ، وهو لهذا كله كان رجلاً

بل الرجولة تـكون فى المعنويات كما تـكون فى الماديات ، فالرأى العام الرجل هو الرأى العام اليقظ ، شديد التنبه لـما يحيط به من مخاطر ، يعرف كيف يدفع عنه الأذى إذا نيل منه ، ويصد الشر إذا نزل به ، صحيح التقدير لأعمال الرجولة ، شديد الاحتقار للنذالة ، يظهر اعجابه للمحسن أيـًّا ما كان فى اشكال تدعو إلى الاعجاب ، ويظهر ازدراءه للمسىء أيـًّا ما كان فى اشكال تدعو إلى الاعجاب أيضاً ، ولا يكون الرأى العام رجلاً حتى تشيع فى أفراد الأمة الرجولة وتـكثر فيهم البطولة — وفى الرجولة متسع للجميع ، فالزارع فى حقله قد يكون رجلاً ، والتلميذ فى مدرسته قد يكون رجلاً ، وكل ذى صناعة فى صناعته قد يكون رجلاً ، وليس يتطلب ذلك إلا الاعتزاز بالشرف وإباء المذلة

* * *

من لنا ببرنامج دقيق للرجولة كالبرنامج الذى يوضع للتعليم ، يبدأ يرعى الطفل فى بيته فيعلمه كيف يحافظ على الكلمة تصدر منه كما يحافظ على الصك يوقع عليه ، ويعلمه كيف يكون رجلاً فى ألعابه ، فيعدل بين أقرانه فى اللعب كما يحب أن يعدلوا معه ، ويلائمهم بروح الرجولة من حب ومساواة ومرح فى صدق واخلاص

ويسير مع التلميذ فى مدرسته ، فيعلمه كيف يحترم نفسه ، وكيف لا يفعل الخطأ وإن غفلت عنه أعين الرقباء ، ولا يغش فى الامتحان ولو تركه المعلم وحده مع كتبه ؛ وكيف يعطف على الضعفاء ويبذل لهم ما استطاع من معونة

ويتمشى مع الطالب فى جامعته فيعوده الاعتزاز بنفسه والاعتزاز بجامعته والاعتزاز بأمته . ويبعثه على أن يفكر فى غرض شريف له فى الحياة يسعى لتحقيقه — حتى إذا ما أتم دراسته كان قاضياً رجلاً أو معلماً رجلاً ، أو سياسياً رجلاً ، وعلى الجملة انساناً رجلاً

ويتابع الأمة فيضع لها الأدب الذى يبعث قوة ، والأناشيد والأغانى التى تملأ النفس أملاً . ويراقب فى شدة وحزم دور السينما والتمثيل والملاهى ، فلا يسمح بما يضعف النفس ويثلم الشرف ، ولا يسمح بمـا يحيى الشهوة ويميت العزيمة ، ويأخذ على أيدى الساسة والحكام ورجال الشرطة ، حتى لا يقسوا على الناس فيميتوهم ، ولا يرهبوهم فيذلوهم

من يبادلنى فيأخذ كل برامج التعليم ، وكل ميزانية الدولة ويسلمنى برنامجاً للرجولة وميزانية لتنفيذه ليس غير

ولى كبد مقروحة ، من يبيعنى بها كبداً ليست بذات قروح ؟

أحمد أمين

حقيقة المسلم

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي



لا يعرف التاريخ غير محمد (صلى الله عليه وسلم) رجلاً أفرغ الله وجودَه في الوجود الانساني كلِّه ؛ كما تنصبُّ المادةُ في المادة ، لتمتزج بها ، فتُحوِّلها ، فتُحدثَ منها الجديد ، فاذا الانسانيةُ تتحوَّل به وتنمو ، وإذا هو (صلى الله عليه وسلم) وجودٌ سارٍ فيها فما تبرح الانسانيّةُ تنمو به وتتحوّل

كان المعنى الآدمي في هذه الانسانيةِ كأنما وَهَنَ من طول الدهر عليه يتحيَّفُه ويمحوه ويتعاوره بالشر والمنكر ؛ فابتعث اللهُ تاريخَ العقل بآدمَ جديدٍ بدأت به الدنيا في تطوُّرها الأعلى من حيث يرتفع الانسانُ على ذاته ، كما بدأتْ من حيث يوجد الانسانُ في ذاته ؛ فكانت الانسانيةُ دهرَها بين اثنين : أحدهما فَتحَ لها طريقَ المجيء من الجنة ، والثاني فَتحَ لها طريق العودة إليها . كان في آدم سرُّ وجود الانسانية ، وكان في محمدٍ سرُّ كمالها

***

ولهذا سُمّيَ الدينُ (بالاسلام) ؛ لأنه إسلام النفس إلى واجبها ، أيْ إلى الحقيقة من الحياة الاجتماعية ؛ كأن المسلم ينكر ذاتَه فيُسلمها إلى الانسانية تُصرّفها وتعتملها في كمالها ومعاليها ؛ فلا حظَّ له هو من نفسه يُمسكها على شهواته ومنافعه ، ولكنْ للانسانية بها الحظّ

وما الاسلام في جملته إلا هذا المبدأ : مبدأُ إنكار الذات و(إسلامُها) طائعةً على المَنْشَط والمَكْرَه لفروضها وواجباتها ؛ وكلما نكصت إلى منزعها الحيوانيّ ، أسلمها صاحبُها إلى وازعها الالهيّ . وهو أبداً يَرُوضها على هذه الحركة مادام حيّاً ؛ فينتزعها كلَّ يوم من أوهام دنياها ليضعَها ما بين يَدَيْ حقيقتها الالهيّة : يروضها على ذلك كل يوم وليلةٍ خمسَ مرّاتٍ مسماة في اللغة خَمْسَ صلوات ، لا يكون الاسلام إسلاماً بغيرها ؛ فلا غرو كانت الصلاةُ بهذا المعنى كما وصفها النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) : هي عمادَ الدين

***

بين ساعاتٍ وساعات في كلّ مطلع شمس من حياة المسلم صلاة ، أيْ إسلامُ النفس إلى الارادة الاجتماعية الشاملة[1] القائمةِ على الطاعة للفرض الالهيّ ، وإنكارٌ لمانيها الذاتيةِ الفانية التي هي مادة الشرّ في الأرض ، وإقرارُها لحظاتٍ في حيِّز الخير المحض البعيدِ عن الدنيا وشهواتها وآثامها ومنكَراتها . ومعنى ذلك كلّه تحقيقُ المسلم لوجود روحه ؛ إذ كانت أعمال الدنيا في جملتها طُرقاً تتشتّت فيها الأرواحُ وتتبعثر ، حتى تضلّ روح الأخ عن روح أخيه فتنكرها ولا تعرفها !

وهذا الوجود الروحيّ هو مبعثُ الحالة العقلية التي جاء الاسلامُ ليهديَ الانسانيةَ اليها ؛ حالةِ السلامِ الروحانيّ الذي يجعل حربَ الدنيا المهلكةِ حرباً في خارج النفس لا في داخلها ، ويجعل ثروةَ الانسان مقدَّرة بما يعامل اللهَ والانسانيةَ عليه ؛ فلا يكون ذهبُه وفضّتُه ما كتبتْ عليه الدول « ضُربَ في مملكةِ كذا » ، ولكن ما يراه هو قد كُتب عليه « صُنِعَ في مملكةِ نفسي » ؛ ومن ثمّ لا يكون وجودهُ الاجتماعيُّ للأخذ حَسْب ، بل للعطاء أيضاً ؛ فان قانون المال هو الجمع ، أما قانونُ العمل فهو البذل

بالانصراف إلى الصلاة وَجمْعِ النيّةِ عليها ، يستشعر المسلمُ أنه حطم الحدودَ الأرضيةَ المحيطة بنفسه من الزمان والمكان ، وَخرَجَ منها إلى روحانيةٍ لا يُحدّدُ فيها إلا بالله وحده

وبالقيام في الصلاة ، يحقّق المسلمُ لِذاته معنى إفراغِ الفكرِ السامي على الجسم كلّه ليمتزجَ بجلال الكون ووقارِه ، كأنه

(١) هذه هي حكمة صلاة الجماعة والحث عليها وكونها أفضل من غيرها وأن الثواب الأكبر فيها وحدها

كأن منتصبٌ مع الكائنات يسبِّح بحمده

وبالتولى شطر القِبلةِ فى سَمْتها الذى لا يتغيَّر على اختلاف أوضاع الأرض ، يَعرف المسلمُ حقيقةَ الرمزِ للمركز الثابت فى روحانية الحياة ؛ فيَحمل قلبُه معنى الاطمئنان والاستقرار على جاذبيّة الدنيا و قَلَقِها

وبالركوع والسجودِ بين يَدَى الله ، يُشعِر المسلمُ نفسه معنى السُّموِّ والرِّفعة على كل ماعدا الخالق من وجود الكون

وبالجلسة فى الصلاة وقراءةِ التحيات الطيبات ، يكون المسلمُ جالساً فوق الدنيا يحمــد اللهَ ويُسلم على نبيِّه وملائكته ويشهد ويدعو

وبالتسليم الذى يخرج به من الصلاة يُقبِل المسلمُ على الدنيا وأهلِها إقبالاً جديداً من جهتى السلام والرحمة

هى لحظاتٌ من الحياة كلَّ يوم فى غير أشياء هذه الدنيا ؛ لجمع الشهوات وتقييدها بين وقتٍ وآخر بسلاسلها وأغلالها من حركات الصلاة ، ولتمزيق الفناءِ خمسَ مراتٍ كلَّ يوم عن النفس ؛ فيرَى المسلمُ من ورائه حقيقةَ الخلود ، فتشعر الروحُ أنها تنمو وتتسع . هى خمسُ صلوات ، وهى كذلك خمسُ مرّاتٍ يفرغ فيها القلبُ مما امتلأ به من الدنيا ، فما أدقَّ وأبدعَ وأصدقَ قولَه صلى الله عليه وسلم : « جُعِلَتْ قُرَّةُ عينى فى الصلاة » (١)

* * *

لم يكن الاسلامُ فى حقيقته إلا إبداعاً للصِّيغةِ العمليَّةِ التى تنتظم الانسانيةُ فيها ؛ ولهذا كانت آدابه كلُّها حرَّاساً على القلب المؤمن كأنها ملائكةٌ من المعانى ؛ وكان الاسلامُ بها عملاً إصلاحياً وقع به التطوُّرُ فى عالم الغريزة ، فنقله إلى عالمِ الخلق ، ثم ارتقى بالخُلُق إلى الحقّ ، ثم سما بالحقّ إلى الخير العام ؛ فهو سُموٌّ فوق الحياة بثلاث طبقات ، وتدرُّجٌ إلى الكمال فى ثلاث منازل ، وابتعادٌ عن الأوهام بمسافة ثلاث حقائق

وبتلك الأعمال والآداب كانت الدنيا المسلمةُ التى أسسها النبى (صلى الله عليه وسلم) دنيا أسلمتْ طبيعتُها ، فأصبحت على ما أراد المسلمون لا ما أرادتْ هى ؛ وكأنها قائمة بنواميسَ من أهليها لا على أهليها ؛ وكان الظاهر أن الاسلام يغزو الأممَ بالعرب ويفتتحها ، ولكن الحقيقة العجيبة أن أقليماً من الدنيا كان يحارب سائرَ أقاليمِ الأرض بالطبيعة الأخلاقيةِ الجديدة لهذا الدين ؛ وكأن الله تعالى ألقى فى رمال الجزيرةِ روحَ البحر ، وبعثها بَعْثَه الآلهيَّ لأمرِه ، فكان النبى (صلى الله عليه وسلم) هو نقطةَ المدّ التى يفور البحر منها ، وكان المسلمون أمواجَه التى غُسِلتْ بها الدنيا . . .

لهذا سمع المسلمون الأوّلون كلامَ الله تعالى فى كتابه ، وكلامَ رسوله صلى الله عليه وسلم ، لا كما يسمعون القول ، ولكن كما يتلقون الحكم النافذ المقضىَّ ؛ ولم يجدوا فيه البلاغةَ وحدها ، بل روعةَ أمرِ السماء فى بلاغة ؛ واتصلوا بنبيهم ، ثم بعضهم ببعض ، لا كما يتصل إنسان بانسان ، بل كما تتصل الأمواجُ بقوةِ المدّ ، ثم كما يَمُدُّ بعضها بعضاً فى قوةٍ واحدة

وحققوا فى كماله (صلى الله عليه وسلم) وجودَهم النفسىَّ ؛ فكانوا من زخارفِ الحياة وباطلها فى موضع الحقيقة الذى يُرى فيه الشىءُ لا شىْ

ورأوا فى إرادته (صلى الله عليه وسلم) النقطة الثابتـة فيما يتضارب من خيالات النفس ، فكانوا أكبر علماءِ الأخلاق على الأرض ، لامن كتبٍ ولاعلمٍ ولافلسفة ، بل من قلب نبيهم وحده

وعرفوا به (صلى الله عليه وسلم) تمامَ الرجولة ؛ ومتى تمت هذه الرجولةُ تمامَها فى إنسان رجعتْ له الطفولةُ فى روحه ، وامتلك تلك الطبيعةَ التى لا يملكها إلا أعظمُ الفلاسفة والحكماء ، فأصبح كأنما يمشى فى الحياة الى الجنة بخطواتٍ مُسدَّدةٍ لا تزيغ ولا تنحرف فلا شرَّ ولا رذيلة ، ودنياه هى الدنيا كلُّها بشمسها وقمرها ، يملكها وإن لم يملك منها شيئاً مادامت فى قلبه طبيعةُ السرور ، فلا فقرَ ولا غِنى مما يشعر النـاسُ بمعانيه ، بل كلُّ ما أمكن فهو غِنىٌّ كامل ، إذلم تعُد القوةُ فى المادة تزيد بزيادتها وتنقص بنقصها ، بل القوةُ فى الروح التى تتصرف بطبيعة الوجود ، وتدفع قُوَى الجسم بمثل دوافع الطفولةِ الناميـــةِ المتغلِّبة ، حتى لتجعل من النور والهواءِ ما يُؤتَدَمُ به مع الخبز

---

(١) كان النبى (صلى الله عليه وسلم) يستبطىء الصلاة وقد جاء وقتها ، من شدة شوقه اليها فيقول : « أرحنا بها يا بلال » ولا أفصح ولا أدق فى تصوير نفسيته (صلى الله عليه وسلم) وأشواق روحه العالية من قوله أرحنا بها . فهذا كمال الاتصال بينه وبين خالقه

القفار ، كما يؤتدَم باللحم وأطايبِ الأطعمة[1]

وبذلك لا تتسلط ضرورةٌ على الجسم – كالجوع والفقر والألم ونحوها – إلا كان تسلُّطها كأنه أمرٌ من قوةٍ في الوجود الى قوةٍ في هذا الجسم أن تظهرَ لتعملَ عملها المُعجز في إبطال هذه الضرورة . وهذا الجنس من الناس كالأزهار على أغصانها الخضْر ؛ لو قالت شيئاً لقالت : « إن ثروتي في الحياة هي الحياةُ نفسها ، فليس لي فقرٌ ولا غِنى ، بل طبيعةٌ أوْ لا طبيعة . . »

***

ولقد كان المسلم يُضرب بالسيف في سبيل الله ، فتقعُ ضرباتُ السيوفِ على جسمه فتُمزِّقه ؛ فما يُحسها إلا كأنها قُبَلُ أصدقاء من الملائكة يلقونه ويعانقونه !

وكان يبتلى في نفسه وماله ، فلا يشعر في ذلك أنه المرزَّأُ المبتَلى يُعرَفُ فيه الحزنُ والانكسار ، بل تظهر فيه الانسانيةُ المنتصرة كما يظهر التاريخُ الظافرُ في بطله العظيم أصيبَ في كلِّ موضعٍ من جسمه بجراح ، فهي جراحٌ وتشويهٌ وألم ، وهي شهادةُ النصر !

ولم تكن أثقالُ المسلم من دنياه أثقالاً على نفسه ، بل كانت له أسباب قوةٍ وسمُو ؛ كالنَّسر المخلوق لطبقات الجوِّ العليا ، يحمل دائماً من أجل هذه الطبقات ثقل جناحيه العظيمين

وكانت الحقيقةُ التي جعلها النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) مَثلهم الأعلى ، وأقرَّها في أنفسهم بجميع أخلاقه وأعماله – أن الفضائل كلَّها واجبةٌ على كل مسلم لنفسه ، إذ أنها واجبة بكل مسلم على غيره ؛ فلا تكون في الأمة إلا إرادة واحدة متعاونة ، تجعل المسلم وما هو إلا روحُ أمته تعمل به أعمالها هي لا أعماله وحدها ؛ المسلم إنسانٌ ممتدٌّ بمنافعه في معناه الاجتماعيِّ حول أمته كلِّها ، لا إنسانٌ ضيِّقٌ مجتمعٌ حول نفسه بهذه المنافع ؛ وهو من غيره في صدقِ المعاملة الاجتماعية كالتاجر من التاجر : تقول الأمانةُ لكليهما : «لا قيمة لميزانك إلا أن يصدِّقه ميزان أخيك..»

ولن يكون الاسلام صحيحاً تاماً حتى يجعل حامله مثلاً من نبيِّه في أخلاق الله ؛ فما هو بشخص يضبط طبيعته ، يقهرها مرةً وتقهره مِراراً ؛ ولكن طبيعةٌ تضبط شخصها فهي قانون وجوده ؛ لا يضطرب من شيء ، وكيف يضطرب ومعه الاستقرار ؟ لا يخاف من شيء ، وكيف يخاف ومعه الطمأنينة ؟ لا يخشى مخلوقاً ، وكيف يخشى ومعه الله ؟

أيها الأسد ، هل أنت بجملتك إلا في طبيعةِ مخالبك وأنيابك . . . ؟ !

طنطا **مصطفى صادق الرافعي**

(1) عن ابن عباس قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة على (أم هانىء) وكان جائعاً ، فقال لها : «أعندك طعام آكله ؟» فقالت : « إن عندي لكسراً يابسة ، وإني لأستحي أن أقدمها اليك » فقال : « هلميها ! » ، فكسرها في ماء ، وجاءته بملح ، فقال : « ما من إدام ؟ » فقالت : « ما عندي إلا شيء من خل » فقال : « هلميه » فلما جاءت به صبه على طعامه ، فأكل منه ثم حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « نعم الادام الخل يا أم هانىء ، لا يقفر بيت فيه خل » ا . هـ .

الدفاع عن الاسلام

للأستاذ توفيق الحكيم



قرأت لتسع سنوات خلت قصة ڤولتير التمثيلية « محمد » ، فخجلت أن يكون كاتبها معدوداً من أصحاب الفكر الحر . فقد سب فيها النبي سباً قبيحاً عجبت له . وما أدركت له علة ، لكن عجبي لم يطل ، فقد رأيته يهديها الى البابا بنوا الرابع عشر بهذه العبارات : —

« فلتستغفر قداستك لعبد خاضع من أشد الناس إعجاباً بالفضيلة ، إذا تجرأ فقدم الى رئيس الديانة الحقيقية ما كتبه ضد مؤسس ديانة كاذبة بربرية . والى مَن غير وكيل رب السلام ، والحقيقة أستطيع أن أتوجه بنقدي قسوة نبي كاذب وأغلاطه ؟ فلتأذن لي قداستك في أن أضع عند قدميك الكتاب ومؤلفه ؛ وأن أجرؤ على سؤالك الحماية والبركة . وإني مع الاجلال العميق أجثو وأقبل قدميك القدسيتين » (ڤولتير ١٧ أغسطس ١٧٤٥)

وعلمت في ذلك الحين أن روسو كان يتناول بالنقد أعمال ڤولتير التمثيلية ، فاطلعت على ما قال في قصة « محمد » علني أجد مايرد الحق الى نصابه ، فلم أر هذا المفكر الحر أيضاً يدفع عن النبي ما ألصق به كذباً ، وكأن الأمر لايعنيه ، وكأن ما قيل في النبي لاغبار عليه ولا حرج فيه ، ولم يتعرض للقصة إلا من حيث هي أدب وفن . ولقد قرأت بعد ذلك رد البابا بنوا على ڤولتير ، فألفيته رداً رقيقاً كيساً لايشير بكلمة واحدة الى الدين ، وكله حديث في الأدب . فعظم عجبي لأمر ڤولتير ، وسألت نفسي طويلاً : أيستطيع عقل مثقف كعقل هذا الكاتب العظيم أن يعتقد ما يقول . دين تبعه آلاف الملايين من البشر على مدى الأجيال ، هو في نظره حقاً دين كاذب ؟ ومبادىء إنسانية كالتي جاء بها الاسلام ، هي عنده حقاً مبادىء بربرية ؟ أم إنه التملق والزلفى والنفاق . وإن الزمن والتاريخ يضعان أحياناً أقنعة زائفة على نفوس تزعم أنها خلقت للدفاع عن حرية الفكر . . .

منذ ذلك اليوم وأنا أحس كأني فجعت في شيء عزيز لدي : الايمان بنزاهة الفكر الحر . ولقد كنت أحياناً ألتمس الأعذار لڤولتير ، وأزعم أنه قال ما قال لا عن مجاملة أو ملق ، بل عن عقيدة وحسن طوية استناداً على علم خاطىء بأخبار النبي ، ولكن كتابه الى البابا كان يتهمه اتهاماً صارخاً ، ويدع مجالاً للشك في دخيلة أمره . إني قرأت لڤولتير كتباً أخرى كانت تكشف عن آراء حرة حقاً في مسائل الأديان ، وتنم عن روح واسعة الآفاق تكره التعصب الذميم ، فما باله عند ما عرض لذكر محمد والاسلام كتب شيئاً هو التعصب بعينه ، تعصبٌ لدينه ، ذهب فيه الى حد السجود وتقبيل الأقدام ، لا لرب العزة والخلق ، بل لبشر هو رئيس الكنيسة التي ما أرى أن ڤولتير كان في ذات يوم من خدامها المخلصين . هي الأطماع التي كانت تدفع ڤولتير فيما أرى الى التمسح بأعتاب الملوك والباباوات ، ولقد يقدم ثمناً لذلك أفكاره الحرة أحياناً . منذ ذلك الحين وڤولتير عندي متهم ، ولن أبرئه أبداً ، ولن أعده أبداً من بين أولئك العظام الذين عاشوا بالفكر وحده وللفكر . وأحسب أن التاريخ العادل سوف يحكم عليه هذا الحكم ، فينتقم للحق بما افتراه على نبي كريم ظلماً وزوراً . على أن الذي يدعو الى الدهش أكثر من كل هذا أن الشرق والاسلام وقفا من الأمر موقف النائم الذي لايعي ولايشعر بما يحدث حوله ، فلم أر كاتباً من كتاب الاسلام قام في ذلك الوقت يدفع عن دينه هذا الهراء الذي قال ڤولتير ، ويقذف في وجه هذا الكاتب بالحقائق الباهرة القاطعة ، أو أن مؤلفاً وضع كتاباً يبرز فيه شخصية النبي الخيرة العظيمة واضحة جلية . لقد كان الشرق في ليل هادىء بهيم لم تثر فيه حركة ڤولتير يومئذ ساكناً ، ولكن اليوم قد تغير الأمر ، ولاحت في أفق الشرق خيوط الفجر ، وقام في هذا القرن كتاب يمجدون

عقيدتهم وهم يعلمون أن فى ذلك تمجيداً للحق وللشرق ، فان المسألة ليست مسأله دين فقط ، إنما هى أيضاً مسألة جنس وقومية ؛ وإذ تقول أوربا : «الاسلام» فانما تعنى فى غالب الأحيان «الشرق». إن الحروب الصليبية فى حقيقتها لم تكن إلا حرب الغرب على الشرق ؛ وإن الفتح الاسلامى عند ما بلغ فرنسا وهدد أوربا لم يكن فى الواقع إلا حرب الشرق على الغرب . هـذا المد والجزر بين الغرب والشرق يفهمه مفكرو الأوربيين تمام الفهم ، ويحسبون له الحساب ، ويعملون دائماً على أن تكون الغلبة لهم آخر الأمر ، أو أن يطيلوا على الأقل أمد غلبتهم إن كان لا بد من تبدل الحال ومن دوران الفلك طبقاً لناموس أعلى لا قبل لهم به . فالدفاع عن شخصيتنا وعقيدتنا دفاع عن حياتنا ، وإن الكتابات التى توجه لهذا الغرض النبيل ينبغى أن يكون لها علينا حق المؤازرة والتعضيد ؛ وإنى لست بناقد منقطع للنظر فى أعمال المؤلفين وتقدير قيم ما يكتبون ، ولكنى أريد أن أشير إشارة سريعة الى ثلاثة أساليب مختلفة من أساليب الكتابة ، اتجهت فى العصر الحديث الى هذه الغاية ، كل فى دائرته .

ففى الكتابة الدينية : « الرد على هانوتو » للأستاذ الامام محمد عبده ، فلقد نشر جابريل هانوتو الكاتب والوزير الفرنسى يوماً مقالة جاء فيها :

«قد أصبحنا اليوم إزاء الاسلام والمسألة الاسلامية ، اخترق المسلمون أبناء آسيا شمال القارة الأفريقيـــة بسرعة لا تجارى حاملين فى حقائبهم بعض بقايا تمدين البيزنطيين (يونان الشرق) ثم تراموا بها على أوربا ، ولكنهم وجدوا فى نهاية انبعاثهم هذا مدنية يرجع أصلها الى آسيا ، بل أقرب فى الصلة الى المدنية البيزنطية مما حملوه معهم ، ألا وهى المدنية الآرية المسيحية ، ولذلك اضطروا الى الوقوف عند الحد الذى اليه وصلوا ، وأكرهوا على الرجوع الى أفريقية حيث ثبت فيها أقدامهم أحقاباً متعاقبة » ثم قال فى موضع آخر : « وقصر فريق منا بحثه وحكمه على ما شاهده من المناقضات والخلافات بين الدينين المسيحى والاسلامى ، فرأى فى الاسلام العدو الألد والخصم الأشد . قال المسيو كيمون فى كتابه «باتولوجيا الاسلام» : إن الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس وأخذ يفتك فيهم فتكا ذريعاً ، بل هى مرض مريع وشلل عام ، وجنون ذهولى يبعث الانسان على الخمول والكسل ، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء ، ويدمن على معاقرة الخمور ، ويجمح فى القبائح . وما قبر محمد فى مكة إلا عمود كهربائى يبث الجنون فى رؤوس المسلمين ويلجئهم الى الاتيان بمظاهر الهستريا (الصراع) العامة والذهول العقلى ، وتكرار لفظة الله الى ما لا نهاية ، والتعود على عادات تنقلب الى طباع أصلية ككراهية لحم الخنزير ، والنبيذ ، والموسيقى ، والجنون الروحانى ، واللمانيا ، والماليخوليا ، وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور فى اللذات » الخ الخ

أمثال هذا الكاتب يعتقدون أن المسلمين وحوش ضارية ، وحيوانات مفترسة « كالفهد والضبع ، كما يقول المسيو كيمون « وأن الواجب إبادة خمسهم » كما يقول أيضاً « والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة ، وتدمير الكعبة ، ووضع ضريح محمد فى متحف اللوفر » وهذا أيضاً قوله « . . وهو حل بسيط وفيه مصلحة للجنس البشرى .. أليس كذلك ؟ ولكن قد برح عن خاطر الكاتب أنه يوجد نحو ١٣٠ مليوناً مسلماً ، وأن من الجائز أن يهيب هؤلاء « المجانين » للدفاع عن أنفسهم والذود عن بيضة دينهم . . الخ الخ »

فما ظهر هذا الكلام فى صحيفة المؤيد ، حتى قام الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده لساعته مجرداً قلمه وكتب نحو أربع مقالات هى أقوى ما قرأت دفاعاً عن الاسلام ، وإظهاراً لحقيقة مبادئه الخافيـة على أغلب الأوربيين . وقد رد على هانوتو فيما أوردنا صائحاً : « ما هذا التمدين الآرى الذى كانت عليـه أوربا عند ما انتقص أطرافها المسلمون ؟ ؟

هل كانت تلك المدنية هى التسافك فى الدماء ، وإشهار الحرب بين الدين والعلم ، وبين عبادة الله وبين الاعتراف بالعقل ، نعم هذا هو الذى كان معروفاً عند الغربيين وقت ماظهر الاسلام

ماذا حمل الاسلام الى أوربا ، وما هى المدنيـة التى زحف عليهم بها فردوها ؟ زحف عليهم بما استفاد من صنائع الفرس وسكان آسيا من الآريين ، زحف عليهم بعلوم أهل فارس والمصريين والرومانيين واليونانيين . نظف جميع ذلك ونقاه من الأدران والأوساخ التى تراكمت عليه بأيدى الرؤساء فى الأمم الغربية لذلك التاريخ ، وذهب به أبلج ناصعاً يبهر به أعين أولئك الغافلين المتسكعين الذين كانوا فى ظلمات الجهالة لا يدرون أين يذهبون

إني أكيل لمسيو هانوتو إجمالاً بأجمال ، والتفصيل لا يجهله قومه ، وكثير من منصفيهم لم يستطع إلا الاعتراف به

إن أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين فطارت بها الى المدنية الحاضرة كانت من تلك الشعلة الموقدة التى كان يسطع ضوؤها من بلاد الأندلس على ما جاورها ، وعمل رجال الدين المسيحى على إطفائها مدة قرون فما استطاعوا الى ذلك سبيلاً . واليوم يرعى أهل أوربا ما نبت فى أرضهم ، بعد ما سقيت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدى أهل دينهم فى سبيل مطاردة العلم والحرية وطوالع المدنية الحاضرة »

ثم رد الامام فى موضع آخر : « يجب على الباحث فى الاسلام أن يطلبه فى كتابه ، كما يجب عليه أن يطلب آثاره والاسلام إسلام ، والمسلمون مسلمون ، ولو استشم مسيو (كيمون) الذى استشهد هانوتو بكلامه ريح العلم لما استفرغ ذلك القذر من فيه ، ولا حاجة الى الكلام فيه ، فسخافة رأيه وقلة أدبه تكفيه

من أين أتى المسلمون وكيف دخل عليهم فى عقائدهم بالتشبيه ، وفى عوائدهم بالتمويه ؟ وممن تعلموا الافتراس ، وعمن أخذوا الضراء بالشهوات ؟ أنا أعلم ذلك وأهل العلم يعلمون ، والله من ورائهم محيط

اتبع المسلمون سنن من قبلهم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى سقطوا فى مساقطهم ، وطارحوا الأوهام حتى انجروا الى مطارحهم ، وباءوا بما كان لهم وما عليهم

حدثت فى الدين بدع أكلت الفضائل وحصدت العقائل ، وترامت بالناس الى حيث يصب عليهم ما استفرغه (كيمون)

أما لو رجع المسلمون الى كتابهم واسترجعوا باتباعه ما فقدوه من آدابهم لسلمت نفوسهم من العيب ، وطلبوا من أسباب السعادة ما هداهم الله اليه فى تنزيله على لسان نبيه ، ومهده لهم سلفهم وخطه لهم أهل الصلاح منهم ، واستجمعت لهم القوة ودبت فيهم روح الفتوة ، وكان ما يلقاه هانوتو وكيمون من دين صحيح شراً عليهما مما يخشونه من دين شوهته البدع

يرى كيمون أن يخلى وجه الأرض من الاسلام والمسلمين ، ويستحسن رأيه هانوتو لولا ما يقف فى طريق ذلك كثرة عدد المسلمين ؛ وبئسما اختارا لسياسة بلدهما أن يظهرا سفههما ، ويعلنا خطل رأيهما وضعف حلمهما

أما فليعلم كل من يخدع نفسه بمثل حلمهما أن الاسلام إن طالت به غيبة ، فله أوبة ، وإن صدعته النوائب فله نوبة ، وقد يقول فيه المنصفون من الانكليز مثل (اسحق طيلر) وهو قس شهير ورئيس فى كنيسة :

« إنه يمتد فى أفريقيا ومعه تسير الفضائل حيث سار ، فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره ، والشجاعة والاقدام من أنصاره »

***

بهذا القلم وهذه المعرفة وهذا الذهن ، وقف رجل الاسلام الحديث محمد عبده يذود عن بيضته أمام عدوان جهابذة الفكر والقلم من الأوربيين

أما فى الكتابة الأدبية ، فأذكر « على هامش السيرة » للدكتور طه حسين ، ففى هذا الكتاب دفاع عن الاسلام كما يستطيع الأدب البحت أن يدافع . فهو لا يسلك الطريق المستقيم فى الكلام عن الاسلام ، ولا يلجأ الى التدليل العقلى ، إنما يخلق جواً شعرياً يحبب الى النفس سيرة النبى وبيئته ؛ وقد عمد الدكتور طه حسين الى الأساطير ينسج منها هذا الجو الأدبى الجميل ، وتلك وسيلة الأدب والفن ، ومن ذا يقرأ هذا الوصف لبلاد النبى ولا تأخذه روعته ؟ :

(هنالك دعت « آمنة » اليها من حضرها من نساء بنى هاشم ، فأسرعن اليها وقضين معها ليلة لا كالليالى ، أنكرن فيها كل شىء وأعجبن فيها بكل شىء ، أنكرن حتى أنفسهن ، فقد رأين مالم ير أحد ، وسمعن مالم يسمع أحد ، وأحسسن مالم يحس أحد . ولم تكن آمنة أقلهن إنكاراً وإكباراً وإعجاباً — فقد كانت ترى وهى يقظة غير نائمة أن نوراً ينبعث منها فيملأ الأرض من حولها ، ويزيل الحجب عن عينيها ، وكانت تنظر فترى قصور بصرى فى أطراف الشام ، وكانت تنظر فترى أعناق الابل تردى فى أقصى الصحراء ، وكانت لا تتحدث الى من حولها بما ترى مخافة أن ينكرن ما تقول ، وأن يظنن بها الظنون ، وكانت هذه من صاحباتها لا تمد طرفها الى شىء حتى تراه نوراً كله ، لا ظلمة فيه وإنما هو مشرق مضىء ، أو هو الاشراق الخالص ،

وكانت هذه الأخرى من صاحباتها تنظر ، فاذا نجوم السماء تدنو من الأرض وتمد اليها أشعة قوية نقية باهرة ساحرة ، وإنها لتدنو وتدنو حتى يخيل الى الرائية أنها توشك أن تمسها وتقع عليها)

لقـد دافع طه حسين عن الاسلام فى كتابه « على هامش السيرة » وان كان لم يقصد الى ذلك . فان الأدب الصرف والفن الصرف لا يقصدان أحياناً الى شىء ، ولـكن فى مجرد صوتيهما أبلغ الـكلام

أما فى الـكتابة العلمية فهاهو ذا كتاب « حياة محمد » للدكتور محمد حسين هيكل بك . ولو انى أعتقد أن أسلوب الدكتور هيكل فى « حياة محمد » يدخل أيضاً فى منطقة الـكتابة الأدبية ، فان هذا الـكتاب يعتبر فى نظرى من كتب « التراجم والسير » التى يضعها الـكتاب الأدباء ، لا من البحوث العلمية التى يؤلفها المؤرخون العلماء ويعنون فيها باضافة شىء جديد الى العلم المعروف ، أو استكشاف وثيقة من الوثائق التحريرية أو الآدمية ، أو تحقيق مصدر من المصادر . على أن كتاب هيكل هو بلا نزاع أول سيرة نبوية خليقة أن تمثل تطور العقلية الاسلامية فى هذا العصر الحديث

وما أشق انتظارنا هذه الأجيال الطويلة لهذه السيرة الحديثة نضعها الى جانب سيرة ابن هشام والسيرة الحلبية وطبقات ابن سعد وغيرها من السير القديمة حتى يستطيع عصرنا أن يجهر بأنه فعل شيئاً من أجل الاسلام

ولو ان الأستاذ الشيخ محمد عبده حىّ اليوم لاستقبل هـذا الـكتاب بمثل ما استقبله به الأستاذ الشيخ المراغى ، فرحاً بهذا القلم الجديد ينهض لخدمة الحق والاسلام

ولقد ذكرت هذه الـكتب وهذه الأساليب الثلاثة بالذات لما رأيته فيها من نظرة جديدة الى محمد والاسلام . نظرة ملؤها الاكبار الصادر عن فـكر حر لا عن تعصب أعمى . ان الناس لم تعد تعنى بتلك الـكتب المفعمة بالثناء الأجوف والألقاب الطويلة يحاط بها اسم النبى ، وهو فى عظمته أجل من أن يحتاج اليها . انمـا تريد الناس اليوم حقيقة مجردة ناصعة هى فى تجردها أجل وأسمى وأبلغ فى النفوذ الى القلوب ، وهذا ما صنع هيكل بك فى كتابه « حياة محمد » على نحو خليق بالثناء ، فلقـد أسقط من حياة النبى تلك المعجزات التى لا تغنى من الحق شيئاً ما دمنا فى مجال التدليل العقلى ، وأظهر شخصية النبى عظيمة فى بشريتها السامية ، وأبان عن غرض النبى فى الدعوة الى دين جوهره اقتناع النفس بالحقيقة العليا . ان هذه النظرة الجديدة فيها إجلال للنبوة . وان أولئك السفهاء الذين كانوا يطلبون الى الأنبياء أن يثبتوا نبوتهم بالمعجزات قد أثموا فى حق الفكر البشرى قبل أن يأثموا فى حق الدين

ان المعجزة : أى الاتيان بعمل خارق للمعتاد لا يدل على شىء ولا يثبت نبوة ولا يدحضها . فان من الـكهان أو بسطاء الناس من يملـكون أحياناً تلك القوى الخارقة فى أجسامهم أو عقولهم أو أرواحهم دون أن يكونوا من أجل ذلك أنبياء . ان النبى ليس فى حاجة الى معجزة كى يكون نبياً . انما النبى من حُمّل رسالة علوية لا ينصرف عن الحياة حتى يؤديها ، ومن فضل محمد أنه لم يشأ أن يقنع الناس بغير ذلك ، فقـد بلغهم رسالته واعتمد فى اثباتها على العقل المجرد

ولقد جاء فى كتاب هيكل بك : « لما جهد المسلمون عطشاً أثناء مسيرة جيش العسرة الى غزوة تبوك ثم أمطرتهم السماء ذهب بعضهم اليه (الى النبى) يقول إنها معجزة ، فـكان جوابه : (انما هى سحابة مارة) ؛ ولما كسفت الشمس يوم اختار الله ابنه ابرهيم الى جواره قال الناس : (ان هـذا الـكسوف معجزة) فـكان جوابه : « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته » . هـذا جواب محمد الذى قيـل إنه نبى كاذب ! ! ! فهل يمكن أن يكون هذا جواب نبى كاذب ؟ ؟

ان فى كتاب هيكل صفحات تصلح رداً بليغاً على ڤولتير . ان محمداً هو أعظم من فهم حقيقة النبوة ، ووعى معنى الحقيقة العليا ، وأدرك أن أكبر معجزة فى هـذا الـكون هى انه لا يوجد فى الـكون معجزات ، وأن كل شىء يسير طبقاً لنظام دقيق . واذا قيل نظام قيل قانون ، واذا قيل قانون قيل عقل مدبر ، وهـذا العقل واحد أحد تبدو سعته فى ادارة الأجسام غير المحدودة فى العظم كما تبدو فى ادارة الأجسام غير المحدودة فى الصغر ، ذات اليد العلوية وعين أثرها فى كل شىء ، يد واحدة لا تتغير وقانون واحد لا يتغير . ان محمداً كما يبدو فى وصف الدكتور هيكل قد تأمل الطبيعة كثيراً ، وفـكر ملياً فى نظامها العجيب فـكشف عن بصيرته وبصره فامتلأ قلبه بالله ، كما اقتنع عقله بوجوده ، فجاء

دينه ديناً كاملاً ، صادقا فى نظر القلب والعقل معاً . ولئن كان على الأرض نبى أحب العلم ، ولم يخش دينه العلم ، ولم يضطهد العلماء ، فهو « محمد » الذى قال : « فضل العلم خير من فضل العبادة » « اطلب العلم ولو فى الصين » وكثيراً من الأحاديث التى تثنى على العلم وتحض عليه . ذلك أن مصدر اقتناع العلم ومصدر اقتناع محمد واحد : الكون وملاحظة ما فيه من ابداع ينم عن يد الخلاق العظيم

فى كتاب حديث للعالم انشتين فصل ذكر فيه رأيه فى الدين ، فقال إنه يعتنق ما يسميه « الديانة الكونية » تلك الديانة التى تملأ قلب كل عالم انقطع لتأمل « ذلك التناسق العجيب بين قوانين الطبيعة وما يخفى من عقل جبار لو اجتمعت كل أفكار البشر الى جانبه لما كونت غير شعاع ضئيل أقرب القول فيه انه لا شىء »

لا ريب عندى أن احساس انشتين نحو الكون والله هو عين احساس محمد يوم كان يتحنث فى غار حراء قبل نزول الوحى . انما الأنبياء والعلماء قلوب واعية تشعر بجلال الله . ولا يمكن لنبى أن يكون نبياً إلا أن يشعر من تلقاء نفسه بعظمة الخليقة ويتحرق شوقاً الى معرفة صانعها ، ولا يزال الشوق بقلبه حتى يكشف له الصانع الأعظم عن بعض نوره ، ويوحى اليه بنشر هذا النور على الانسانية . انى كلما تأملت شخصية محمد مجردة ثبت ايمانى بأن الخصومة المعروفة بين العلم والدين ليس لها فى الحقيقة وجود ، وان الدين الحق لا يتعارض والعلم الحق . . . بل إن الدين والعلم شىء واحد ، كلاهما يطلب نور الله ويريد وجهه ، وكلاهما يعى ويؤمن ويلهج بتناسق الوجود ووحدة قوانينه ودلالة وحدة الوجود على وحدة الخالق . ولم يظهر نبى حق ولا عالم حق شعر بغير ذلك . انما الفارق بين العلم والدين فى السبل التى يسلكها كل فى الدنو من الله . ومن قال إن وسائل العلم ينبغى أن تماثل وسائل الفن أو وسائل الدين ؟؟؟

إن الطرائق والسبل يجب أن تظل مختلفة مميزة لا يختلط بعضها ببعض ، انما المصدر واحد دائماً والغاية واحدة . فما الدين والعلم والفن إلا خيوط ثلاثة كتب على بشريتنا القاصرة العمياء أن تتمسك بها لتهتدى الى ذلك النور الذى لا بداية له ولا نهاية : الله

إن الاسلام وهو أحدث الأديان ، وهو الذى لم يخاصم العلم ، وهو الذى اتسع صدره لكل شىء يصلح فيما يرى الدكتور هيكل لمعالجة أزمات العالم الحاضر ، الروحية والاجتماعية والاقتصادية . وهو رأى صادق إذا قيض الله للاسلام رجالاً ذوى نظرة نافذة وذهن مستنير واطلاع واسع ، يبرزون فضائله بأساليب جديدة ، ويتولون إذاعته والدفاع عنه بأقلام ذكية قديرة . ولقد صنع هيكل كثيراً فى هذا السبيل بأسلوبه الجديد فى « حياة محمد » . ولئن كان قد أثم فى دنياه فلقد اشترى بكتابه آثامه ! ! ! ولسوف يتقدم يوم الدين وكتابه بيمينه يشفع له فى دخول الجنة !!! ولسوف يدخلها بأذن الله متأبطا ذراع طه حسين عما قدمت يمناه هو أيضاً من كتاب أدبى جميل « على هامش السيرة » ، كان له ولا ريب أبلغ الأثر فى حمل الناس على استمراء أخبار النبى ، ولهما بعد ذلك ولأمثالهما ممن دافعوا ويدافعون عن الاسلام خير التحية : فانى قلتها وأقولها دائماً : ليس الأمر أمر عقيدة وديانة ، إنما هو الى جانب هذا أمر حياة تلك الكتلة التى يسميها الغربيون : الشرق . وما الدفاع عن الاسلام إلا الدفاع عن الشرق ؟

توفيق الحكيم

صفحة من التاريخ — ليسمع العلماء

مشايخ الأزهر والسياسة
فى القرن الثامن عشر

للأستاذ محمد فريد أبو حديد



حدث غير مرة فى تاريخ العالم أن تصدى رجال الدين أو رجال العلم للسياسة ولم يكونوا فى ذلك مختارين ، بل كانت الظروف تدفعهم إلى موقف يجدون فيه أنفسهم مسئولين عن التدخل فى أمر السياسة . فلا يجدون مفراً من أن يضطلعوا بحملهم . حدث أن بابا (روما) وجد نفسه حيال حكومة غالبة على إيطاليا من قوم أجانب عن أهلها جنساً ولغة ، وذلك عند ما استولى القوط على إيطاليا وتزعوها من سائر الدولة الرومانية . وكان البابا بغير شك زعيم القوم فى أمور الدين ، فكان الغالبون من القوط يلجأون إليه فيما يمس قومه لكى يلتمسوا عنده رضا أهل البلاد . وكان أهل البلاد فى الوقت عينه يتطلعون إليه لكى يقف على رأسهم ويحفظ عليهم كيانهم وتقاليدهم ، ويتوسط عند أهل الدولة فيما يمس مصالحهم وأمور دنياهم . فكان لا غنى للبابا عن النظر فى أمور الدولة ، ولا مندوحة له عن التدخل فى أمور السياسة . وكان هذا هو شأنه عندما ذهبت دولة القوط وحكمت إيطاليا دولة اللمبارديين ، فان البابا وقف الموقف عينه ، ووجد نفسه بطبيعة الظروف القاهرة ممثل الايطاليين وزعيمهم والناطق بلسانهم إذا ما احتاج الأمر إلى من ينطق بلسان أهل البلاد فى وجه الدولة اللمباردية الحاكمة . وكذلك كان الحال عند ما جاء الروم إلى مصر وفتحوها وأقاموا بها الحكم على المصريين ، فان بطريق المصريين كان بحكم مركزه الدينى زعيماً فى قومه فى أمور الدين ، فلما جاء الروم صار ذلك الزعيم الدينى مضطراً إلى أن يمثل قومه عند الحكام وينطق بلسانهم ويتصدى لأمورهم ، حتى لقد أصبح بطريق المصريين فى آخر الأمر هو الممثل القومى للمصريين ؛ وكم وقف البطارقة على رأس الشعب المصرى فى وجه الحكم الأجنبى الرومانى ، ومن هؤلاء البطريق الأكبر بنيامين الذى ناله من التصدى لأمور السياسة أكبر الأذى ، وتحمل النفى والخوف ، وتحمل أتباعه من رجال الدين ألوان العذاب فى سبيل استقلال مصر كما كانوا يفهمونه

إذن لم يكن لمصر أن تخرج عن هذه السنة الطبيعية ، فانها كانت فى القرن الثامن عشر تحكمها حكومة على رأسها الباشا ممثل السلطان التركى ، ويعاونه الأمراء المصريون الذين هم من أجناس غير مصرية الأصل . فكان لا بد لهذا النظام أن يتجه إلى ممثلى الشعب وزعمائه ، وكان لا بد له أن يلجأ اليهم فى كثير من الأحوال لكى يسترضى ذلك الشعب ويتحبب اليه ويسهل بذلك طريق الحكم . وكان لا بد كذلك للشعب من أن يتخذ له ممثلين من من صفوفه وأن يجعل له زعماء يهرع إليهم إذا آذاه شئ من جانب الحكومة الأجنبية التى تحكم البلاد

وكان علماء الأزهر هم الطبقة المستنيرة من الشعب ، وهم الذين يعرفون تقاليد الحكم الاسلامى فى الدول الماضية ، وهم الذين يعرفون العرف الذى جرت عليه الأجيال الماضية فى أيام الحكومات المستقلة الجليلة التى حكمت البلاد من قبل . فكان من الطبيعى أن يتصدر هؤلاء العلماء فى الحوادث ، وأن يلجأ إليهم أهل مصر عند ما تلم بهم ملمة يطلبون إليهم أن ينادوا بالحق الذى يبيحهم إياه القانون ، وأن يطالبوا بالحريات التى كفلها لهم العرف والدين فى الأجيال المتعاقبة . ولقد تصدر جماعة من هؤلاء العلماء وقاموا بما وجب عليهم فى ذلك قياماً محموداً ؛ وإنا لنذكرون هنا بعضهم اعترافاً بما كان من فضلهم على البلاد

ولو شئنا أن نفصل مواقف مشايخ الأزهر فى أمور السياسة لما اتسع لذلك مجال القول هنا . ولهذا سنجتزئ بذكر ما كان منهم فى موقف واحد فى تاريخ مصر فى القرن الثامن عشر فى الوقت الذى اشتد فيه عبث مراد وابراهيم بالمصريين

بلغت محاولات مصر نحو الاستقلال قصاراها فى عهد على بك الكبير ، ثم قضى عليها إذ كان الوقت لم يحن بعد للاستقلال الدائم ، إذ أن الاستقلال لا يمكن أن يدوم إلا إذا قام على دعامة قوية من الشعب ، وهذا ما كان ينتظر حدوثه حتماً فى يوم من الأيام . غير أن الملك المصرى الذى حكم بعد على بك الكبير لم يكن بأقل منه قدراً ، ولا بأهون منــه خطراً ، ولا بأهدأ منه حماسة للاستقلال . وقد أراد الله ألا تطول أيامه فمات والبلاد فى أشــد الحاجة إلى وجوده ليقوم على ملكها ويسيطر على زعامتها . فوقعت السلطة فى أيد طائشة ليس لها خبرة بالحكم ولا مكانة فى القلوب ، وأصبح الأمر فى يد مراد وابراهيم وهما من مماليك أبى الذهب ، ولكنهما لم يكونا بعد قد صفَوا وجربا وظهرا فى الحوادث بالمظهر الذى يرشحهما ترشيحاً صادقاً لحكم البلاد ، فكانا وكان حكمهما تجربة قاسية

كان الشعب المصرى قد خضع لعلى بك الكبير ولمحمد بك أبى الذهب منــذ رأى فيهما ملكين عظيمين قادرين على حمايته وحكمه ، ولكنه لم يجد فى مراد وابراهيم غير طاغيتين متجبرين لا ينظران من الحكم إلا إلى النفع ، ولا يعرفان من أساليبه إلا الكبرياء والسطوة . ومنذ رأى فى الحاكمين الجديدين هذا تحرك واضطرب ووقف على استعداد للدفاع عن مصلحته وكرامته ثابتاً متنبهاً

وكان مشايخ الأزهر هم الطبقــة المستنيرة من أبناء مصر الصميمين ، جاءوا جميعاً من قراها وأريافها ومدنها ، فكانوا من بين صفوف الشعب وأبناء الأرض يحسون ما يحسه الناس وينظرون بأعينهم ويسمعون بآذانهم . وقد زادوا على إخوانهم ميزة كبيرة بأنهم حفظوا فى صدورهم نصوص الشريعة والآراء المختلفة فى أحكامها وحفظوا ما تخلف من تراث القرون من عرف وما يبيحه القانون الاسلامى لأفراده من حقوق وحريات . فكان من الطبيعى أن يقفوا من الشعب المصرى موقف الزعامة فى كل حادث جليل ، وأن ينطقوا باسمه ويعبروا عما فى قلبه من الآمال والآلام . فوقفوا على رأس الشعب فى كل خلاف قانونى حاول فيه الطغاة أن يخرقوا حرمة القانون ، وانتصروا فى كل وقفة من وقفاتهم فنصروا فيها القانون والحق ، ثم وقفوا يمثلون الشعب فى ديوان الحكم فنطقوا باسم مصر وأعربوا عن آمالها وعن شخصيتها ، وانتصروا فى وقفتهم فأعلوا من اسم الشعب الذى يمثلونه ورفعوا رأسه ، ثم وقفوا على زعامة الشعب فى نضاله مع الطغاة فى سبيل إصلاح الحكم ، وانتصروا مرة ثالثــة وساروا بشعبهم فى سبيل الحصول على ماله من الحقوق والحريات ؛ وما كان أجدرهم أن يبلغوا به الغاية والقصد ويقيموا فى مصر حكومة وطنية صالحة قائمة على احترام حقوق الأفراد والسعى إلى ما فيــه مصلحتهم . وما كان أحراهم لو طال بهم الزمن أن يبلغوا بمصر قصارى ما تصل إليه الأمم الحريصة على حقوقها الساعية إلى الاصلاح

بعد مضى سـنة واحدة من حكم الطاغيتين مراد وابراهيم ثارت مسألة فى خلاف على وقف ، ولم يكن للمسألة فى ذاتها خطر خاص ، بل كان الأمر نضالاً على مبدأ وقف فيه بعض الأمراء يلوحون بالقوة والطغيان ، ووقف فيه بعض أفراد الشعب يعتصمون بالحق والشريعة . والتجأ الجانبان إلى المحكمة فحكمت حكمها فى الخلاف . وكان فى مصلحة الأفراد على رغم ما يريده الأمير المدل بالقوة ، فأبى الأمير الأذعان ، وأصبح الأمر معلقاً بين أن ينتصر القانون وبين أن تجتاح القوة كل سياج وكل حرمة . فأدرك العلماء أن واجبهم يناديهم بالمحافظة على القانون ، ولم يترددوا لحظة ، بل هبوا لينصروا الحق لم يتخلف منهم واحد ، وكان على رأس الحركة الشيخ الدردير رحمه الله وطيب ثراه . أرعد الأمير وأبرق ، وأرغى وأزبد ، ونهر وتوعد ، غير أن العلماء وقفوا وثبتوا ، وأرغوا وأزبدوا فى سـبيل الحق والقانون . وقام الشعب من ورائهم يؤيدهم ، وكانت مظاهرة كبرى ، فأغلق الناس حوانيتهم انتصاراً للعلماء والشرع ، وأوشك الأمر أن يفضى إلى فوضى شاملة . فجزع عقلاء الأمراء المصريين من تلك الحال وأشفقوا أن تسيل الدماء وأن تعطل المصالح . فاجتمعوا وتشاوروا ثم أرسـلوا إلى الأمير المعاند فاحتجوا على موقفه وأمروه بالنزول على ما أراد القانون ، فأذعن وهو كاره بعد مشادة عنيفة ، ولم يرض العلماء أن يتركوا الأمر يفلت من أيديهم بغير حق مسـجل يكتسبونه للناس ، فكتب لهم صلح رسمى به شروط على الأمراء وتعهد من الحكام بالتزام ما يقضى به القانون ويحتمه العرف . وهكذا كان العلماء يكسبون للشعب حقوقه حقاً حقاً ويبنون فى

دستور مصر حجراً بعد حجر وإن كانوا فى ذلك يسيرون فى تؤدة وبطء

وإنا إذا ذكرنا اسم الشيخ الدردير فلسنا نذكره إلا لأنه كان علم القوم وزعيمهم . ولقد كان معه عدد كبير من إخوانه يستند اليهم وينتصر بامدادهم . وفى الحق إن العلماء بمثل هذه الهمة لم ينزلوا ولم يسمحوا لأنفسهم أن ينزلوا إلى موضع المهانة فى تلك الأيام التى يصفها البعض بأقسى النعوت . بل لقد كانوا أكفاء لأعلى الرؤوس فى الدولة ؛ ثارت مرة مناقشة حادة بين بعضهم وبين أمير من كبار الأمراء فى مسألة قانونية ، فخرج الأمير الغاضب عن حدود الأدب بأن قال للعالم : « والله أكسر رأسك » فكان جواب العالم الغاضب أشد وأقسى ، إذ قال له صارخاً : « لعنك الله ولعن اليسرجى الذى جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميراً » وتوسط من كان بالمجلس من الأمراء فيما بينهما . ولم يجد الأمير بداً من الاذعان لما يقضى به الشرع حسب ما رآه العلماء

وكان بيت العالم حرماً لا يعتدى عليه مهما كان الباعث على ذلك ، فقد كان بعض الأمراء يهربون خوفاً من انتقام منافسيهم فلا يجدون ملجأ يهربون إليه ويعتصمون به إلا بيت العالم يدخلونه ليأمنوا فيه . وقد طلب من أحد العلماء مرة أن يسلم جاره الأمير الذى دخل بيته ملتجئاً فلم يرض أن يسلم اللاجئ إلى بيته ، ولم يجرؤ أحد على دخول منزله عنوة خوفاً من أن يكون فى ذلك جرح لكرامة زعيم من زعماء الشعب

وقد زاد نفوذ العلماء فى أيام هذا الاضطراب وعلا صوتهم فأصبح مسموعاً داوياً فى الحوادث الكبرى ، كما أصبح مسموعاً داوياً فى الديوان الذى كان ينعقد بالقلعة لحكم البلاد ، وكان فيه الأمراء والرؤساء وأكابر العلماء يمثلون الشعب . وأصبح صوت العلماء فى ذلك الديوان يمثل المعارضة وينادى بما فيه نفع لمصر وما فيه مصلحة أبناء مصر

ثم أرسلت تركيا جيشاً بقيادة القبطان حسن باشا لتأديب الطاغيتين مراد وابراهيم على سوء حكمهما فخرج العلماء على رأس وفد لمقابلة القائد التركى ليذكروه بضرورة الاحتراس والاحتياط فى حربه مع الأمراء حتى لا يؤذى مصالح الناس ولا يضحى بأموالهم . قال الجبرتى يصف ذلك : « فتعين لذلك الشيخ أحمد العروسى والشيخ محمد الأمير والشيخ محمد الحريرى ، ومن الأجاقلية اسماعيل أفندى الحلوتى وابراهيم أغا الوردانى وذهب صحبتهم سليمان بك الشابورى ... ... على أنهم يجتمعون به (بالباشا القائد) ويكلمونه ويسألونه عن مراده ومقصده ويذكرون له امتثالهم وطاعتهم . . . . ويذكرونه حال الرعية وما توجبه الفتن من الضرر والتلف »

وقد بلغ من ذعر ابراهيم ومراد وخوفهما من حركة الشعب أن جعلوا فى ذلك الوقت يتملقون المشايخ خوفاً منهم أن ينتهزوا الفرص فيثيروا على حكمهم ثورة عند ما تقبل جنود الدولة العلية من الشمال . قال الجبرتى : « فذهب ابراهيم (فى عيد الفطر) إلى الشيخ البكرى ثم إلى الشيخ العروسى والشيخ الدردير وصار يحكى لهم وتصاغر فى نفسه جداً وأوصاهم على المحافظة وكف الرعية عن أمر يحدثونه أو قومة أو حركة فى مثل هذا الوقت فانه كان يخاف ذلك جداً »

وقد كسب العلماء للمصريين حقاً جليلاً فى أثناء هذه الحوادث فانه بفضل سعيهم أصدر القائد التركى حسن باشا عند ما دخل مصر قانوناً كان يقضى بأن أهل مصر لا يمس أحد منهم إلا بمقتضى القانون الشرعى وأن لا سبيل على أحد منهم إلا بمقتضى ذلك القانون وحده . ثم لم يتردد العلماء بعد ذلك فى الوقوف إلى جانب القانون ولو كان وقوفهم فى وجه الباشا القائد المنتصر نفسه . فانه عقب انتصاره أحب أن ينكل بالمنهزمين من الأمراء المصريين فأراد أن يبيع نساءهم ، مع أن القانون الشرعى لا يبيح بيع الجارية المملوكة إذا صارت أماً أو أصبحت حرة ، فوقفوا فى وجهه ولم تمكنوه من ذلك لمخالفته للحقوق المكفولة للأفراد فى الشريعة الاسلامية

أما فى جلسات الديوان فلم يكن صوت العلماء أضعف جرساً ، فكانوا يعارضون فى كل شئ يمس مصالح المصريين حتى فى الأمور الخاصة بالدولة ذاتها ، فقد عرضت مرة مسألة فى الديوان خاصة بالاستعانة بجنود من بلاد الدولة العثمانية ، فوقف الشيخ العروسى فقال : « إن الأمر لا يحتاج إلى ذلك ، فان العساكر الرومية (التركية) لا تنفع بين العساكر المصرية ، والأولى استجلاب خواطر الجند بالاحسان اليهم ، والذى تعطونه للأغراب أعطوه

لأهل بلادكم أولى » وقد أخذ الديوان برأيه فى ذلك اليوم

ولـكن العلماء كانوا أظهر تمثيلاً للشعب المصرى ، وأ كثر جلالاً فى وقوفهم على رأس مظاهرات العامة كلما جد أمر يدعو الى الاحتجاج ، أو حدث حادث فيه تعرض للحقوق والحريات . ولم تكن تلك الحركات قليلة ، كما أنها لم تكن مقصورة على القاهرة ، فقد ثارت ثورات فى القاهرة ، وثارت مثلها فى رشيد ، ومثلها فى طنطا وفى بلبيس . وكان العلماء دائماً على رأس تلك الثورات الشعبية ، يظلون كذلك حتى ينتهى الأمر باذعان القوة للحق . قال الجبرتى فى وصف ثورة من ثورات الشعب فى الحسينية : « وحضروا الى الأزهر ومعهم طبول ، والتف عليهم جماعة كثيرة من أوباش العامة ، وبأيديهم نبابيت ومساوق ، وذهبوا الى الشيخ الدردير فونسهم وساعدهم بالـكلام ، وقال لهم : أنا معكم » واستقر العزم عند ذلك على جهاد الأمراء الظالمين وايقافهم عند حد القانون بالقوة مالم ينتهوا بالقول . وحدث مثل ذلك فى طنطا وكان الشيخ الدردير كذلك على رأس المتظاهرين ضد الظلم هناك ، قال الجبرتى : « فركب بنفسه وتبعه جماعة من العامة حتى التقى بالأمير ، فكلمه ووبخه ، وهو راكب على بغلته ، وقال له : أنتم ما تخافون الله » وحدث اصطدام أثناء ذلك بين العامة والحاكم وأتباعه ، أصيب فيه جماعة من الجانبين ، وضُرب الحاكم نفسه ضرباً شديداً

وحدث مرة أخرى أن اعتدى موظف إدارى وهو (الوالى) أحمد أغا على بعض أهالى الحسينية ، واشتد فى مطالبة أحمد سالم الجزار ، وأراد القبض عليـه مخالفاً فى ذلك العهد الذى تعهد به الباشا من قبل ، ألا يمس أحد إلا بمقتضى الشريعة الاسلامية . فثار أهل الحسينية ثورة هائلة ، والتجأوا الى الشيخ العروسى يلتمسون عنـده الحماية من الظلم (وكان الشيخ الدردير قد توفى الى رحمة الله) فقام الشيخ العروسى بأمر الوساطة فى شأنهم ، وانتهى الامر بعد مشادة طويلة بعزل الوالى وتوليـة وال آخر . قال الجبرتى : ونزل الوالى الجديد من الديوان الى الأزهر ، وقابل المشايخ الحاضرين واسترضاهم . ثم ركب الى بيته وانفض الجمع ، وكأنها طلعت بأيديهم والذى كان راكباً حماراً ركب فرساً »

واشتدت مرة وطأة أحد الأمراء على أهل بلبيس فى تحصيل الأموال ، فلتجأ الفلاحون الى الشيخ الشرقاوى ليحميهم ، فبدأ الشيخ بمخاطبة مراد وابرهيم . فلما لم يجد لمسعاه أثراً فى إصلاح الحال بالسعى السلمى ، دعا الى الثورة فاجتمع له كثير من أهل القاهرة ومن أهل الأطراف ، وأوشك الأمر أن يكون ثورة دموية مدمرة ، وقضت القاهرة ثلاثة أيام فى اضطراب وخوف ، قال الجبرتى : « ثم حضر الباشا إلى منزل ابرهيم بك ، واجتمع الأمراء هناك ، وأرسلوا الى المشايخ ، فحضر الشيخ السادات والسيد النقيب والشيخ الشرقاوى والشيخ البكرى والشيخ الأمير ... ... ودار الـكلام بينهم وطال الحديث ، وانحط الأمر على أنهم (الأمراء) تابوا ورجعوا والتزموا بما شرطه العلماء عليهم ، وانعقد الصلح ... ... وان يكفوا أتباعهم عن امتداد أيديهم إلى أموال الناس ... ... ويسيروا فى الناس سيرة حسنة ... ... وكان القاضى حاضراً بالمجلس ، فـكتب حجة عليهم بذلك ، وفَرَّمن عليها الباشا ، وختم عليها ابرهيم بك وأرسلها الى مراد بك فختم عليها أيضاً ، وانجلت الفتنة ورجع المشايخ وحول كل منهم وأمامه وخلفه جملة من العامة ، وهم ينادون حسب ما رسم سادتنا العلماء »

وبعـد فما الذى بين هذه الحال وبين بناء صرح الحريات المصرية كاملا متماسكا ؟ لقد كان العلماء يبنون ذلك الصرح حجراً حجرا ، وكان الشعب من ورائهم يطالب بحقوقه ولا يتنازل عن شىء منها مطالبة المصر على الحياة الـكريمة العازمة على التمتع بانسانيته تمتعاً تاماً . وما كان لمثل هذا الشعب أن ينتهى به السير إلا عندما يريد من العزة والـكرامة

غير أن الله لم يرد أن يكون هذا فى ذلك الوقت ، فقد نزلت بمصر كارثة الغزوة الأجنبية ، غزوة الحملة الفرنسية التى عاقت ذلك السير الجيد وحفرت هوة عميقـة بين ماضى مصر المجيد وحاضرها ، وبين سعيها فى القرن الثامن عشر وسعيها اليوم

ألا فلتقطع ألسنة الذين يقولون إن دستور مصر كان منحة مهداة ، أوأن حريات مصر كانت عطية مسداة . فلقد كان شعب مصر لاينى يسعى إلى تلك الحريات ، ويحمى تلك الحقوق ، مضحياً فى ذلك بكل شىء ، حتى بالدماء !

محمد فريد أبو حديد

عـــبرة الأندلس

للأستاذ محمد عبد الله عنان



ليس فى تاريخ الاسلام كله صفحة أدعى إلى الشجن والأسى من تاريخ الأندلس ؛ فى الأندلس وحدها بادت أمة اسلامية عظيمة ، ومحيت حضارة اسلامية زاهرة ، ولم تبق ثمة من تلك الصفحة الباهرة سوى أطلال وذكريات دارسة

وقد زالت دولة الاسلام فى الأندلس ومحيت صفحته وأبيد أبناؤه منذ أربعة قرون ؛ وقام فوق الأرض شعب غير الشعب ، ودين غير الدين ، وحضارة غير الحضارة ؛ ولكن المأساة ما تزال حية فى صدر كل مسلم يستعرض هذه الصفحة ، وما زالت تثير فى النفس بالغ الحسرات

عاشت دولة الاسلام فى الأندلس زهاء ثمانية قرون ؛ ولم يكن غريباً أن تغيض فى هذا القطر النائى المنعزل عن باقى الأقطار الاسلامية ، بعد أن لبثت قروناً تمزق بعضها بعضا ، ولكن الغريب هو أنها استطاعت رغم جراحها الدامية أن تصمد للعدو الخالد المتربص بها مدى قرون

على أن تاريخ الأندلس نفسه يقدم الينا سر هذا الفناء البطىء الذى سرى إلى الدولة الاسلامية منذ قيامها ؛ وسنحاول أن نستعرض فى هذه اللمحة السريعة بعض العلل الجوهرية التى أصابت المجتمع الاسلامى فى الأندلس منذ تكوينه ، وغدت بمضى الزمن داء ذريعاً يقضم أسسه ويقوض دعائمه ، ومازالت به حتى استنفدت قواه وحملته إلى هاوية الانحلال والعدم

كان فتح العرب لاسبانيا فاتحة عصر جديد وبدء تطور عظيم فى حياتها العامة وفى نظمها الاجتماعية . ومع أن العرب شغلوا حيناً بتوطيد الفتح الجديد ودفع حدوده ، فانهم استطاعوا فى أعوام قلائل أن يقمعوا عناصر الشر والفوضى وأن ينظموا إدارة البلاد المفتوحة ، وأن يبثوا فى الجزيرة روحاً جديداً من الأمل والحياة . وقد قضى الفتح على سلطان الطبقات الممتازة ، وتنفس الشعب نسيم الحرية ، وفرض المسلمون الضرائب بالمساواة والعدل بعد أن كان يفرضها حكم الهوى والجشع ، وأمن الناس على حياتهم وحرياتهم وأموالهم . وترك الفاتحون لرعاياهم الجدد حق اتباع قوانينهم وتقاليدهم ، والخضوع لقضائهم . أما فى شأن الدين وحرية العقائد والضمائر فقد كانت السياسة الاسلامية مثلاً أعلى للتسامح ، فلم يظلم أحد أو يرهق بسبب الدين والاعتقاد ؛ وكانت تأدية الجزية هى كل ما يفرض على الذميين من النصارى واليهود لقاء الاحتفاظ بدينهم وحرية شعائرهم ، ومن دخل الاسلام سقطت عنه الجزية وأصبح كالمسلم سواء بسواء فى جميع الحقوق والواجبات . وفى ذلك يقول العلامة دوزى : « لم تكن حال النصارى فى ظل الحكم الاسلامى مما يدعو الى كثير من الشكوى بالنسبة لما كانت عليه من قبل . أضف الى ذلك أن العرب كانوا يتصفون بكثير من التسامح ، فلم يرهقوا أحدا فى شئون الدين . . . ولم يغمط النصارى للعرب هذا الفضل ، بل حمدوا للفاتحين تسامحهم وعدلهم وآثروا حكمهم على حكم الجرمان والفرنج » ثم يقول دوزى عن آثار الفتح الاجتماعية : « كان الفتح العربى من بعض الوجوه نعمة لأسبانيا ؛ فقد أحدث فيها ثورة اجتماعية هامة ، وقضى على كثير من الأدواء التى كانت تعانيها البلاد منذ قرون . . »

غير أن هذه الدولة الجديدة التى بعثها الاسلام فى اسبانيا ، كانت تحمل منذ البداية جرثومة الخلاف والخطر ، وكان هذا المجتمع الجديد ، الذى جمع الاسلام شمله ومزج بين عناصره يضطرم بمختلف الأهواء والنزعات ، وتمزقه فوارق الجنس والعصبية . كانت القبائل العربية ما تزال تضطرم بمنافساتها القديمة الخالدة ، وكان البربر الذين يتألف منهم معظم الجيش يبغضون قادتهم ورؤساءهم من العرب ، وينقمون عليهم استئثارهم بالسلطة والمغانم الكبيرة ، وكثيراً ما رفعوا لواء العصيان والثورة . وكان المسلمون الأسبان ، — وهم المولدون أو البلديون — محدثون فى الاسلام يشعرون دائماً بأنهم رغم اسلامهم أحط من الوجهة الاجتماعية

من سادتهم العرب . ذلك أن العرب ، رغم كون الاسلام ، يسوى بين جميع المسلمين فى الحقوق والواجبات ، ويمحو كل فوارق الجنس والطبقات ، كانوا يشكون فى ولاء المسلمين الجدد ، ويضنون عليهم بمناصب الثقة والنفوذ ؛ هـذا إلى أن العربى فى الأقطار القاصية التى افتتحها بالسيف لم يستطع أن يتنازل عن كبرياء الجنس التى كانت دائماً من خواص طبيعته ، فكان مثل الانكليزى السكسونى يعد نفسه أشرف الخليقة . على أن الخلاف بين العرب أنفسهم كان أخطر مافى المجتمع الجديد من عوامل التفكك والانحلال ؛ فقد كانت عصبية القبائل والبطون ما تزال حية فى الصدور ، وكان التنافس بين الزعماء والقادة يمزق الصفوف ويجعلها شيعاً وأحزاباً ، وكانت عوامل الغيرة والحسد تعمل عملها فى نفوس القبائل والبطون المختلفة . وأشد ما كانت تستعر نار الخلاف والتنافس بين اليمنية والمضرية ، وذلك لأسباب عديدة ترجع الى ما قبل الاسلام ، منها أن الرياسة كانت لعصور طويلة قبل الاسلام فى حمير وتبّع أعظم القبائل اليمنية ، وكانت لهم دول ومنعة وحضارة زاهرة ، بينما كانت مضر بدواً خشنين يخضعون لحمير ويؤدون لهم الجزية ؛ وكان بينهما خصومات وحروب مستعرة طويلة الأمد ؛ ولنا فى « أيام » العرب ووقائعها المشهورة أمثلة رائعة من هـذا النضال . قال ابن خلدون « واستمرت الرياسة والملك فى هذه الطبقة اليمانية أزمنة وآماداً بما كانت صبغتها لهم من قبل ، وأحياء مضر وربيعـة تبعاً لهم — فكان الملك بالحيرة للخم فى بنى المنذر ، وبالشأم لغسان فى بنى جفنة ويثرب ، وكذلك فى الأوس والخزرج ، وما سوى هؤلاء من العرب فكانوا ظواعن بادية ، وأحياء ناجعة ، وكانت فى بعضهم رياسة بدوية ، وراجعة فى الغالب إلى أحد هؤلاء . ثم نبضت عروق الملك وظهرت قريش على مكة ونواحى الحجاز ؛ فاستحالت صبغة الملك اليهم ، وعادت الدول لمضر من بينهم ، واختصت كرامة الملك بالنبوة منهم ، فكانت فيهم الدول الاسلامية كلها إلا بعضاً من دولها ، قام بها العجم اقتداء بالملة وتمهيـداً للدعوة » . وهكذا أسفر النضال لظهور الاسـلام عن تحول فى الرياسة ، وانقلبت الآية فأصبحت المضرية تعمل على الاحتفاظ برياستها ، واليمنية تجاهد فى انتزاعها منها . وكانت مسألة اللغة أيضاً من أسباب ذلك الخلاف . ذلك أن لسان حمير كان أصل اللغة العربية التى اعتنقتها مضر ، وأسبغت عليها آيات باهرة من الفصاحة والبيان ، ونزل بها القرآن الكريم على النبى القرشى المضرى ، فكانت اللغة من مفاخر مضر تغار عليها ، وتحافظ على سلامتها ونقائها ، بينما فسدت لهجات القبائل الأخرى بالاختلاط وضعف بيانها ؛ أضف الى هذا وذاك ما كان بين الفريقين من تباين شـديد فى الطبائع والخلال مما كان يذكى بينهما أسباب التنافس والتباعد ، وقد كان الاسلام مدى حين عاملاً قوياً فى جمع الكلمة ، ولكن العصر الأول ما كاد ينقضى حتى هبت كوامن الخصومة والنضال من مرقدها وعادت تعصف بوحدة المجتمع الاسلامى ، وكان هذا الخلاف أخطر وأشـد فى الأقطار القاصية التى افتتحها الاسلام بالسيف ، ففتحت أمام القبائل والأجناس المختلفة التى تعمل تحت لوائه مجالاً واسعاً للتنافس والتطاحن ؛ وكان هذا هو بالأخص شأن المجتمع الاسلامى المضطرم الذى قام باسبانيا

وكان البربر الذين اشـــتركوا فى فتح الأندلس واستعماره عنصراً خالداً فى إذكاء هذا الخلاف ؛ فكانت هذه المعركة المزدوجة : العرب فيما بين أنفسهم ، ثم العرب والبربر ، هى قوام المجتمع الأندلسى

* * *

كان هذا الخلاف المستعر يقضم أسس المجتمع الأندلسى الفتى ، ولم يمض على قيامه أربعون عاماً حتى تحولت الأندلس الى بركان مضطرم من الحروب الأهلية ؛ واستمرت هذه المعارك الداخلية زهاء قرن ونصف ، ولم يقف تيارها قيام دولة أموية جـديدة ، ولم تتخللها فى ظل هذه الدولة سوى فترة يسيرة من السكينة والتوطد ، منذ الناصر الى المنصور . بيد أن خطراً جديداً كان يتربص بهذه الدولة الاسلامية التى يمزقها الخلاف الداخلى ، هو خطر المملكة النصرانية الاسبانية ، التى نشأت صغيرة متواضعة ونمت بسرعة مدهشة ، وأخذت تنافس المملكة الاسـلامية ، وتتحين فرص الايقاع بها ، ولم تفطن الأندلس الى هذا الخطر الداهم ؛ وما كاد صرح الدولة الأموية ينهار ، حتى وثب المتغلبون على أشـلاء الأندلس يقتسمونها ، وقامت دويلات الطوائف فى المقاطعات والمدن ، تنافس بعضها بعضاً ، وتحاول كل منها أن

تنتزع ما بيد الأخرى ، وألفى عدو الأندلس الخالد — أسبانيا النصرانية — فرصـــته السانحة ، فأخذت تؤلب دويلات الطوائف بعضها على بعض ؛ وملوك الطوائف يرتمون فى أحضان النصارى ، ويلتمس كل محالفتهم على خصمه ومنافسه . وكادت الأندلس يومئذ تسير مسرعة إلى قدرها المحتوم ، وانتزع النصارى كثيراً من قواعدها وأراضيها ، لولا أن ظهر فى الميدان عامل جديد ، هو قيام الدولة المرابطية فيما وراء البحر ، ومقدم أميرها يوسف بن تاشفين إلى الأندلس على رأس جنوده البربر ، ملبياً داعى الغوث من جانب ملوك الطوائف ؛ فهنا استطاعت الدولة الاسلامية أن تنسى خلافها مدى لحظة ، وأن تلقى على النصرانيـة بمؤازرة المرابطين هزيمة حاسمة فى سهول الزلاقة ؛ ثم افتتح المرابطون الأندلس ، وأقاموا بها دولة جديدة ، ولـكن الصرح القوى الباذخ كان قد أخذ ينهار ؛ ولم يدم تماسك الدولة المرابطية طويلاً ، فقامت بالأندلس ملوك طوائف بربرية جديدة ، وعادت الأندلس تسير إلى فنائها ، وجاء الموحدون بعـد المرابطين ، فوصلوا دولة البربر بالأندلس مدى حين

ثم كانت دولة بنى الأحمر بغرناطة ، وكانت أندلس جديدة ، ولـكن صغيرة لا تعدو القطر الجنوبى المسمى بهذا الاسم ؛ وكانت اسبانيا النصرانية قد نمت واتسع نطاقها ، واستولت على قواعد الأندلس وثغوره العظيمة : قرطبة مهد الاسـلام ، وطليطلة ، وأشبيلية ، ومرسية ، وبلنسية ، وسرقسطة وغيرها ، وسطعت فى مملـكة غرناطة ، مدى حين ، لمحة من عظمة الأندلس الذاهبة وحضارتها الزاهرة ، واجتمعت أشلاء الدولة الأندلسية العظيمة فى هذه المملـكة الصغيرة المتواضـعة ، وشغلت الممالك النصرانية الشماليـة مدى حين بخلافها الداخلى . ولـكن الأندلس كانت تشعر بمصيرها شعوراً قوياً ، واستطاع رجال مثـل ابن الخطيب وابن خلدون أن يستشفوا ببصرهم الثاقب ذلك المصـير المروع الذى تسير اليه مملـكة غرناطة . ذلك أن نفس الخلاف الداخلى الذى قامت عليه الدولة الاسـلامية منذ البداية ، واستمر يدفع الأندلس إلى مصيرها خـلال القرون ، كان يعصف أيضاً بهذه المملـكة الصغيرة ، ولم يمض بعيـد حتى أخذت تمزقها المعارك الداخليـة ، ويثب أمراؤها بعضهم ببعض ، ويستعدون خلال هذه المعركة الخطرة ، العدو الرابض المتربص بهم جميعاً

وكان مصرع الأندلس خلال إحدى هذه المعارك الداخلية ، وما زالت قصـة السلطان أبى الحسن ، وأخيه الزغل ، وابنه عبد الله أبى محمد ، وانشقاق المملـكة الصغيرة فى أدق ساعات الخطر إلى شطرين ، والتجاء أبى عبد الله إلى ملك النصارى لينصره على أبيه وعمه ، ثم انتهاز النصارى هذه الفرصـة لايقاع ضربتهم الأخيرة بتلك المملـكة التى مهدت لهم سبل الظفر بتمزيق بعضها بعضاً ، وتلك الأمة المسلمة التى لم تعرف قط أن تواجه الخطر متحدة الـكلمة والقوى — ما زالت هذه كلها عبرة العبر ، وكان مصرع الأندلس هذه المرة يسيراً محققاً ، فسقطت قواعدها الباقية تباعاً فى يد النصارى ، وسلمت غرناطة أخيراً ، ووقعت النتيجة المحتومة ، وطويت صفحة الدولة الاسلامية فى الأندلس ، ولم يمض جيل أو اثنان حتى طويت صفحة الاسلام كله ، وكل آثاره وذكرياته من اسبانيا

وقد كانت مأساة الأندلس وما زالت عبرة بالغة ودرساً خالداً للعالم الاسلامى كله . ولـكن العالم الاسلامى لم يعتبر بهذه العبرة ، ولم يع هـذا الدرس ، وما زال التفرق يمزق أوصاله حتى التهم الغرب الجشع معظم أشلائه ، وأضحى الاسـلام ذليلاً فى أرضه تخفق عليها أعلام النصرانية

فانى يسير الاسلام ؟ ومتى يدرك العالم الاسلامى قوة الاتحاد ؟

محمد عبد الله عنانه
المحامى

الشهيد الغريب

عثمان بن مظعون

للأستاذ محمد سعيد العريان

بات (عثمان بن مظعون الجمحى) ليلتَـه يقلِّبُ الرأى ، ويستلهم الفطنة ؛ وإن الهمَّ ليصطرع فى رأسه ، وإن الشك ليتلجلج فى صدره ، وإن بين عقله وعاطفته لحرباً مشبوبة ومعركةً طاحنة أحقٌّ ما يقول محمد بن عبد الله ؟ فما هذه اللاتُ والعُـزَّى ، ومَناةُ الثالثةُ الأخرى ؟ وما دينُـنا الذى أورثَنا آباؤنا ومضى عليه أسلافُنا ؟ أذلك الحقّ أم دين محمد ؟

إنى لأعرفه مذ كان — أصـدقَ العرب حديثاً وأعظمَها أمانة ؛ أفيكذب حين يبدو الشيبُ فى صدغيه ، ثم لا يكون كذبه إلا افتراءً على الله . . . ؟

أما وربِّ الـكعبة لقد جاء محمد بأمر عظيم ، إن يكن الصدقَ فما يقعد بى أن أكون فى السابقين اليه . . . ؟

فلما أسفر الصبح ، غدا عثمان على محمد فى مجلسه ليسمع منه ؛ فما هو إلا أن تلا عليـه آياتٍ من الـكتاب حتى اهتزَّت نفس عثمان ، ونفذت السماء إلى قلبه ، وغمره النور الالـهى ، وشرح الله صدره للاسلام ، فتمَّت به عدةُ المؤمنين اثنى عشر . . .

وانطلق عثمان إلى أهله يدعوهم الى الله ؛ فما تلبَّث أخواه (قدامة وعبـد الله) أن آمنا بما آمن ، وآمن مِن بعدهم بضع عشرة من بنى عمه وولده ؛ وإذا المؤمنون يزيدون ويكثرون ، وإذا الدين الجديد يتنقّل نبؤه فى همس من فم إلى أذن ، وينفذ فى رفق من قلب إلى قلب ، ثم يتدافع فى قوة حتى ينتظم الأربعين من شباب قريش وكهولها . ثم إذا هو من بعدُ نداءٌ عامٌّ ، يدعو إليه رسولُ الله من فوق (الصفا) ، فيفشو أمرُه ، ويتحدَّث به الناس ، وتتناقله القبائل ، وتتقاذفه فلوات شبه الجزيرة ؛ فما ينكر على محمد دعوتَه إلا الملأُ من أشراف العرب . . .

أكنتَ ترى السادة من قريش أهلَ الرفادة والسقاية — ينزلون عن جاههم وسلطانهم بهـذا الهوان لمحمد ؛ أم تحسبهم يتركون ما كان يعبد آباؤهم مختارين انقياداً لهذا الداعى ؟

إن كبرياء النفس البشرية هو إيمانها بنفسها ؛ فما يغلبها على كبريائها إلا الايمانُ الأكبر ؛ وما إن تبلغ هذا الايمانَ إلا مقهورة عليه ، نازلة على سلطانه الأقوى ، منقادة له انقياد الرضى والاستسلام ؛ فاذا هى بلغتْ ذاك فقد تبدّلت النفسَ غير النفس ؛ فما تتكبر إذ تتكبر بنفسها ولـكن بما تَدين ، وما تُـفاخر حين تفاخر بخصائصها الذاتية ، ولـكن بقوة العقيدة التى اعتنقت ؛ ويعود تعصُّبها لنفسها تعصباً للحق الذى آمنت به ، ومن ثمّ كانت مدافَعة العرب للنبىّ شديدة ، حتى إذا دمغهم الحق ونال من كبرياء أنفسهم ، إذا هم أبرُّ الناس به ، وأخلصهم فى طاعته ، وأشدّهم استبسالاً فى الدعوة إلى دينه والذياد عنـه ؛ فكانت هذه المعجزة الانسانية الـكبرى التى انبثق لها هذا الفجر الضاحك فأشرق بالسلام على البشرية كلها ، وامتدّ امتداد القدر يقبض راحته على الدنيا ، وانبسط انبساط الأمل يتناول كل ما فى الوجود ، ورسم للانسانية حدودَ سـعادتها فى معانى الأخاء والمساواة والحرية !

***

تذامر الملأُ من أشراف مكةَ على محمد وأصحاب محمد ليفتنوهم عن دينهم ، فآذوهم فى أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، وأخذوهم بكل نـكال ، حتى بلغوا من تعذيبهم الغاية ولم يبلغوا من مسلم أربا ؛ ورأوا أمر الله أغلب من أمرهم فى هذه القلوب ، فمضوا يفتنُّـون فى الـكيد لهم ما يتورَّعون من شر . وأيقن المستضعفون من المسلمين أن لا مقام لهم على هذا الهوان خوفَ الفتنة ، فجلوا عن أرضهم وديارهم فراراً إلى الله بدينهم . . . !

وانطلق عثمان بن مظعون يَقْدُمُ الفوجَ الأول مهاجرين إلى الحبشة ، تفيض أعينهم من الدمع حزناً ، أن تركوا أموالهم وأولادهم وعشيرتهم ، منهم الراجل قد ثقلت عليه نفسه ، والراكبُ قد ناء بما يحمل من همِّـه . حتى انتهوا إلى البلد الذى أرادوا وأمنوا الفتنة ، يروحون ويغـدون فى ظلّ مَـلِكٍ كريم . أفتراهم على ذلك قد اطمأنّت بهم الدار ؟ ومن أين للغريب النازح عن أهله وأحبابه أن تستقرّ به الدار !

وطال بهم الحنين إلى بلدهم وإلى مشرق النور من وجه النبىّ

الكريم ، يسترْوِحون من كل نسمة تهبّ من أرض الحجاز ذكرى تَشَوُّق وحنيناً يستجدّ . فما كذبوا أن جاءهم بشيرٌ باسلام قريش ، فقفلوا آملين مستبشرين ، وما منهم إلا مُشرِقُ الوجه تحدّثه نفسه حديث البعد يوشك أن تستقرّ به النوى ويُلقى عصاه بين أحبّته وأهله وملاعب صباه !

ثم ما هي إلا أن دانَوْا مكةَ وبدت لهم أعلامُها وهبّت عليهم نسماتُها ، حتى انكشف لهم أن إسلام قريش لم يكن إلا أمنية . . . فألقوا على الوطن المهجور نظرةَ اللهفان فاتته المنى ، ثم لووا عنان الركب عائدين إلى المهاجَر ، وإن قلوبهم لتتلفت مودِّعةً وما سعدتْ باللقاء . . . !

وتحدّرت دمعتان على وجه عثمان إذ حضرته صورة المصطفى من الله ، فهفَت نفسه إلى لقائه ، وهان عليه ما يستهدف له من أذى المشركين ما دام سعيداً بطلعة النبي ، يراه في كل غدوة ورواح ، ويستمتع به كلما حلا له أن يستمتع

ودخل مكة في جماعة من المهاجرين مستخْفين على حذر ورقْبة ، حتى لقيه (الوليد بن المغيرة المخزوميّ) فاستظلّ بجواره وأمن عثمان عُدْوانَ المشركين في حماية أعزِّ قريش وأمنعها ، ومَن ذا يجرؤ أن يستبيح ذمّة الوليد في جاره ؟ فانه ليغدو ويروح لا يناله شر ولا يعرض له أحد بسوء . . .

وخرج عثمان مرة لبعض شأنه ، فاذا هو يبصر رجلا من أصحاب رسول الله مطروحاً على الرمضاء عارياً في حرّ مكة وقد حميت الظهيرة ، قد وُضعت على صدره صخرةٌ ينوء بها الفحل ، تعذيباً له بما آمن بمحمد !

واهتزت نفس عثمان مما رأى ، وبرَّح به الألم مما ينال أخاه المسلم فلا يستطيع له دفعاً ، فصغرت نفسه في عينه ، ومضى والهم يجثم على صدره أثقلَ من صخرة العذاب على صدر أخيه !

ومشى خطوات ، فاذا هو يشاهد شراً مما رأى : هذا أبو بكر ، يلقاه سفيهٌ من سفهاء مكة فيحثو عليه التراب ، وأولاء جماعةٌ من المشركين يشهدون سفاهة صاحبهم فيضحكون ويسخرون . !

وزاد الهم بعثمان ، وغشيته غاشيـــة من الحزن والألم ! إنه ليحس التراب على رأسه ، وإنه ليشعر بمثل حرّ الرمضاء يشوى جسده هو ، وإن قلبه ليفيض غماً . إنه ليرى نفسه في جوار سيد قريش ، فما يمنعه ذلك أن يلقى من آلام النفس فوق ما يلقى صحابته من آلام الجسد !

وسار مثقل الرأس ، يحمل همّه على كتفيه ، منيَّن الخطا كأنما يطأ الشوك . وإذا واحدٌ من المسلمين يلقاه فيحدّثه بما لقى (آلُ ياسر) من أذى بني مخزوم : لقد مات (ياسر) في العذاب وماتت زوجه (سميّة) طعيناً بيد أبي جهل ، وهذا (عمار بن ياسر) لا طاقة له بدفع ما يلقى من أذى بني مخزوم ، وما أراه إلا مُوشِكا أن يلحق بأبويه . . . !

واشتدّ به الهم إذ سمع ما سمع بعد إذ رأى ما رأى ، ومضى يتحدّث إلى خواطره ، فاذا هو على الأمان والطمأنينة في عذابٍ أشدّ مما يلقى إخوانه المستضعفون . وقال لنفسه : والله إن غدوّى ورواحى آمناً بجوار رجل من أهل الشرك ، وأصحابى وأهل دينى يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني — لنقصٌ كبير في نفسي ! إنه والله الفرارُ من الأجر والمثوبة ، وإن لهم عنـد الله لمنزلةً هيهات أن يعزيني عن فقدها أنني في سلامة الأذى . بل إنه الفرار من حمل أثقال الايمان ، وإنه لأرْوَح لقلبي أن ألقى ما يلقى إخواني في الله ، فاني لأُوشك أن يغلظ قلبي فما آمَنُ على نفسي من أوضار الشرك !

يا نفسي ، ما رهانُكِ على أنك مؤمنـة إذا لم تحملي أثقال الحياة راضية ؟

ما دليلكِ على أنك قاسيتِ في سبيل دينك وإنك لتفرِّين فرار المتمسك بدنياه ؟

ماذا قدّمتِ — يا نفس — لله من حظكِ وراحتك فيكونَ لك في الآخرة أن تدَّعى وتستطيلى ؟

ألا إن الايمان هو أن ينالك ما نال المؤمنين ، وإن عذاب الناس لَهُوَ ثوابُ الله ، وما يَصْدُق الخبرُ عن بسالة الجندىّ إلا أن تشهد له جراحُه ، وما أنا رجلا إن لم أكن الآن رجلا . . !

ومشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له : « يا أبا عبـد شمس ، وَفَتْ ذمّتُك ، وقد رددتُ اليك جوارك ! »

قال الوليد : « يا ابن أخى ، لعله آذاك أحد من قومى . . ؟ »

قال عثمان : « لا ، ولكني أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره . . ! »

قال الوليـد : « فانطلقْ بنا إلى المسجد فاردد عليَّ جوارى علانيةً كما أجرتُك علانية »

فانطلقا حتى أتيا المسجد ، فقال الوليد : « هذا عثمان قد جاء يردّ عليّ جوارى »

وقال عثمان : « صَدَق ، قد وجدته وفيا كريم الجوار ، ولكنى قد أحببتُ ألا أستجير بغير الله ، فقد رددتُ عليه جواره ! »

ثم افترقا . وجلس عثمان يستمع إلى إنشاد (لبيد بن ربيعة) فى مجلس من قريش ، فقال لبيد : « ألا كلُّ شىءٍ ما خلا اللهَ باطل »

قال عثمان : « صدقْت ! »

قال : « وكلُّ نعيم لا محالة زائل ! »

قال عثمان : « كذبت . . . ! »

وأعاد لبيد ، وعاد عثمان يقول : « كذبت ؛ نعيم الجنـــة لا يزول أبداً »

فغضب لبيد وقال : « يا معشر قريش ، والله ما كان يُؤذَى جليسُـكم ؛ فمتى حدث هذا فيكم ؟ »

قال رجل من القوم : « إن هذا سفيهٌ فى سفهاء معه قد فارقوا ديننا ؛ فلا تجدْ فى نفسك من قوله ! »

وردّ عليه عثمان حتى شَرِىَ الشرُّ بينهما ، فقام الرجل فلطم عين عثمان فاخضرّت ، والوليد بن المغيرة بمجلس قريب يرى ما بلغ من عثمان ، فقال : « أما والله يا ابن أخى ، إن كانت عينُك عما أصابها لغنيَّة ، لقد كنتَ فى ذمة منيعة ! »

قال عثمان : « والله إن عينى الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها فى الله ، وإنى لفى جوار من هو أعزُّ منك وأقدر ! »

فقال له الوليد : « هلمَّ يا ابن أخى ، فعُدْ إن شئت إلى جوارك ! »

قال عثمان : « لا ... ... ! »

وسار فى سبيله عامر القلب بالإيمان ، طيِّب النفس بما يبذل فى سبيل الله ، قرير العين بأنه لم يلجأ إلا اليه . . .

***

ومضى المشركون فى عدوانهم لا رفق ولا هوادة ؛ وآذى النبيَّ ما يلقى صحابتُه ، فدعاهم إلى اللحاق بمن سبق من المهاجرين إلى الحبشة

وخرج عثمان فيمن خرج ، عائداً إلى المهاجَر النائى طاعةً لرسول الله . فأقام هناك ما أقام ، ضيِّق النفس على سعة من العيش ، مكروباً من الغربة على الأمان والأذى !

وتصرّمت السنون عاماً بعد عام وهو يكافح الشوق والحنين ، حتى أُذِن له أن يفارق الحبشة بعد ست سنين ، لا إلى مكة الحبيبة إليه ، ولكن الى المهاجَر الثانى ، الى المدينة ، من مُغترَب الى مغترب . فما مضى عام وبعض عام على مقامه حتى ملّ غربتَه ، فودّع دنياه الى الوطن الباقى بقاءَ السموات والأرض ، الى جوار الله . ومات أوّل مَن مات من المهاجرين بالمدينة !

وقبَّله النبى (صلى الله عليه وسلم) وهو يبكى وعيناه تذرفان ، ووسَّدَه الثرى ونفض يديه من ترابه ، ولكن ذكراه ظلّت حيّة فى قلبه ؛ فلما مات ولده (إبرهيم) زوّده بالتحية الى الشهيد الغريب ، وودَّع ولده الواحد وهو يقول : « إلحقْ بسلفنا الصالح عثمان بن مظعون ! »

يا ابنَ مظعون ، فرغتَ من أمر الدنيا وآلامها ، بعد أن قضيتَ أيامك على الأرض تتقاذفك الفلواتُ من غربة الى غربة ، ولم تَبْكِ ، وبكتْ لك دموعُ النبوّة ؛ دموعٌ تقدّمك الى الله بثيابك ، وتقدِّمك الى التاريخ يترحّم عليك . وفى الوقت الذى يُسلَب الملوك فيه تيجانَهم وُضِع عليك التاج . . . !

طنطا محمد سعيد العريان

مجد الإسلام

وقفة على طلل

للأستاذ محمود غنيم

مالى وللنجم يرعانى وأرعاه !   أمسى كلانا يعافُ الغمضَ جفناه
لى فيك ياليلُ آهاتٌ أرددها   أوّاه لو أجدت المحزون أوّاه
لا تحسبنّى محبّاً يشتكى وَصَباً   أهوِنْ بما فى سبيل الحب ألقاه
إنى تذكّرتُ — والذكرى مؤرّقة —   مجداً تليداً بأيدينا أضعناه
أنّى اتجهتَ إلى الإسلام فى بلدٍ   تجدْه كالطير مقصوصاً جناحاه
وَيحِ العروبة كان الكونُ مسرحَها   فأصبحت تتوارى فى زواياه
كم صرّفتنا يدٌ كنا نصرّفُها   وبات يملكنا شعبٌ ملكناه
كم بالعراق وكم بالهند ذو شجنٍ   شكا فردّدت الأهرامُ شكواه
بنى العمومةِ إنّ القُرْحَ مسّكمو   ومسّنا . نحن فى الآلام أشباه
يا أهلَ يثربَ أدمتْ مقلتىَّ يدٌ   بدريةٌ تسألُ المصرىَّ جدواه
الدينُ والضادُ من مغنا كم انبعثا   فطبّقا الشرق أقصاهُ وأدناه
لسنا نمدُّ لكم أيماننا صلةً   لكنما هو دَينٌ ما قضيناه

* * *

هل كان دينُ ابنِ عدنانٍ سوى فَلَقٍ   شقَّ الوجودَ وليلُ الجهلِ يغشاه ؟
سَلِ الحضارةَ ماضيها وحاضرَها   هل كان يتّصل العهدان لولاه ؟
هى الحنيفةُ عينُ الله تكلؤُها   فكلّما حاولوا تشويهَهَا شاهُوا
هل تطلبون من المختار معجزةً   يكفيه شعبٌ من الأجداث أحياه
مَنْ وحّدَ العُرْبَ حتى كان واترُهم   إذا رأى ولدَ الموتور آخاهُ
وكيف كانوا يداً فى الحرب واحدةً   من خاضها باع دنياه بأخراه
وكيف ساس رعاةُ الابل مملكةً   ماساسها قيصرٌ من قبلُ أو شاهُ
وكيف كان لهم علمٌ وفلسفةٌ   وكيف كانت لهم سُفُنٌ وأمواه
سَنُّوا المساواةَ لا عُرْبٌ ولا عجمٌ   ما لامرئٍ شرفٌ إلا بتقواه
وقررت مبدأ الشورى حكومتُهم   فليس للفرد فيها ما تمنّاه
ورحّبَ الناس بالاسلام حين رأوْا   أنّ السلامَ وأنّ العدلَ مغزاه
يا من رأى عُمرًا تكسوه بردتُه   والزيت أُدْمٌ له والكوخ مأواه
يهتزُّ كسرى على كرسيّه فرَقاً   من بأسه وملوكُ الروم تخشاه

* * *

سلِ المعالىَ عنا إننا عربٌ   شعارُنا المجدُ يهوانا ونهواه
هى العروبةُ لفظ إن نطقت به   فالشرقُ والضادُ والاسلامُ معناه
استرشد الغربُ بالماضى فأرشدَهُ   ونحن كان لنا ماضٍ نسيناه
إنا مشينا وراء الغرب نقبسُ من   ضيائه فأصابتنا شظاياه

* * *

بالله سل خلفَ بحرِ الروم عن عرَبٍ   بالأمس كانوا هنا ما بالهم تاهوا ؟
فان تراءتْ لك الحمراءُ عن كثَبٍ   فسائل الصّرْحَ أين المجدُ والجاه
وانزلْ دمشقَ وسائل صخرَ مسجدها   عمن بناه لعل الصخرَ ينعاه
وطُفْ ببغدادَ وابحثْ فى مقابرها   علَّ امرأً من بنى العباسِ تلقاه
هذى معالمُ خُرْسٌ كلُّ واحدةٍ   منهنَّ قامت خطيباً فاغراً فاه
إنى لأشعرُ إذ أغشى معالمهم   كأننى راهبٌ يغشى مُصلاه
الله يعلم ما قلّبتُ سيرتَهم   يوماً وأخطأ دمع العين مجراه
أين الرشيد وقد طاف الغمامُ به   فحين جاوز بغداداً تحدّاه
مُلكٌ كملك بنى التاميز ما غربت   شمس عليه ولا برْقٌ تخطّاه
ماضٍ نعيش على أنقاضه أُمما   ونستمدُّ القوى من وحْى ذكراه
لا درَّ درُّ امرئٍ يُطرى أوائلَه   فخراً ويُطرِقُ إن ساءلته ماهو

* * *

ما بالُ شمل بنى قحطانَ منصدعا ؟   ربّاهُ أدرك بنى قحطان ربّاه
عهدُ الخلافة فى البُسفور قد درَسَتْ   آثارُه طيّب الرحمنُ مثواه
عرشٌ عتيدٌ على الأتراك نعرضُه   ما بالُنا نجد الأتراكَ تأباه
ألم يرَوْا كيف فدّاه معاويةٌ   وكيف راح علىٌّ من ضحاياه
غالَ ابنَ بنتِ رسولِ الله ثم عدَا   على ابنِ بنتِ أبى بكر فأرداه

من الفلسفة الإسلامية

عينيـــة ابن سينا
أو
قصة الروح

للأستاذ زكي نجيب محمود



ادنُ مني ياصديقي واستمع إلى هذه القصة الممتعة الرائعة التي يرويها ابن سينا عن الروح. وما أدراك ما الروح؟ هذا السر العجيب الذي سرى واستكنّ بين أحنائك فلا تكاد تدري من أمره شيئاً! وهل يداخلك شيء من الريب في أنك مزيج من مادة وروح؟ فأما المادة فهي هذا اللحم والعظم، وأما الروح فهي ذلك الفكر الرائع والخيال البارع وتلك الحركة المتوثبة الدافعة، حتى إذا جاءك يوماً قضاؤك المحتوم، انطلق كل من العنصرين الى سبيله: فأنّى لك هذا السر المكنون، وأيان يذهب بعد الموت؟ ذلك ما يرويه ابن سينا في قصيدته وما أحدثك به الآن — قال ابن سينا:

هَبَطَتْ اليك من المحلّ الأرفع ورقاءُ ذاتُ تَعَزُّزٍ وتَمَنُّعِ

فقد كانت تعيش الروح أول أمرها مطلقة مجردة في الرفيق الأعلى، ثم كُتِبَ عليها أن تهبط الى هذا الدرك الوضيع؛ ولقد آثر فيلسوفنا الشاعر لفظ الهبوط على السقوط لأنها في رأيه لم تسقط الى هذا الحضيض من علٍ كما يسقط الحجر الجماد سقوطاً لاشعور فيه، أو كمن ينتكس من أوج الجبل الى سفحه انتكاساً يقربه من الجماد المرغم على السير في طريق بعينها لا يملك لنفسه شيئاً، إنما هبطت اليك الروح؛ وفي لفظ الهبوط معنى الشعور والادراك، من محلها الأرفع، حيث تسبح العقول المجردة روحانيةً خالصةً لا تشوبها شائبة من مادة... ولكني عهدتك ياصديقي عنيداً ملحاحاً لا ترضى بالقول يُرسل إرسالاً، بل تقتضي محدّثك الأمثلة يضربها توضيحاً لما يريد. وكأني بك تسائلني أو تسائل الشاعر: وكيف كان ذلك الهبوط؟ فهو يجيب: إن شئت للروح في هبوطها مثلاً مما تعلم من ألوان الحركة، فهي أشبه بالطير سابحةً في أجواز الفضاء، حوّمةً صاعدة هابطة، وماذا ترى بين الأشياء التي تتحرك بالارادة أشد شبهاً بالروح من الطير في خفته ولطف جوهره، وفي هبوطه وصعوده؟ لعمري لقد وُفِّق فيلسوفنا، بل لقد وفق أصحاب الفن منذ أقدم العصور في تصويرهم للملائكة أو مايتصل بالملائكة من كائنات روحانية بالجسوم المجنّحة إدراكاً منهم بهذه الرابطة القوية الصادقة بين خفة الأرواح ولطفها، وبين رشاقة الطير ورقته. ولكن فيلسوفنا الشاعر لايرضيه تشبيه الروح في هبوطها بالطير على عمومه، بل أجال بصره في عالم الطير لعله يجد بينها نوعاً خاصاً يكون أقربها صلة بالروح، فما أسرع أن ساقه صدق شعوره وكمال إحساسه الى الحمائم، وهل تستطيع أن تدلني على طير هو أشد من الوُرْق استئناساً ووداعة، وأطول من الورق حنيناً وأصدق بكاء؟! وإذن فما أشبه الروح بالورقاء، فهي قد نشأت في عالم قدسيّ رفيع، مجردةً عن ملازمة المادة ومواصلتها، فلما كان لها أن تهبط الى الجسد المادي، طال ترددها واشتد تعززها وتمنعها، وكانت فيما أحست من ألم كمن ينتحب

لما ابتغى يدَها السفاحُ أمهَرَها نهراً من الدم فوق الأرض أجراه
ما للخلافة ذنبٌ عند شانئِها قد يظلِمُ السيفَ من خانته كفّاه
الحكمُ يَسلس باسم الدين جامحُه ومن يَرُمْهُ بحدِّ السيفِ أعياه
ياربَّ مولًى له الأعناقُ خاضعةٌ وراهبُ الدَّيْرِ باسم الدِّين مولاه
إني لأعتبرُ الإسلامَ جامعةً للشرق لا محضَ دينٍ سنّهُ اللهُ
أرواحُنا تتلاقى فيه خافقةً كالنحل إذْ يتلاقى في خلاياه
دستورُه الوحيُ والمختارُ عاهلُه والمسلمونَ — وإن شتُّوا — رعاياه
لاهُمَّ قد أصبحت أهواؤنا شيعاً فامنن علينا براعٍ أنتَ ترضاه
راعٍ يُعيدُ إلى الإسلام سيرتَه يَرْعَى بَنيه وعينُ اللهِ تَرْعاهُ

(كوم حمادة) محمود غنيم

بالبكاء ، حنيناً الى عالمها ذاك ، ونفوراً وازوراراً من الاخلاط الجثمانية التى كتب لها أن تهبط اليها فتعيش بينها فترة من زمان محجوبةٌ عن كلِّ مقلة ناظرٍ وهى التى سَفَرَت ولم تتبرقع

ألا ما أعجب الروح ! إنها تلازمك أينما حللت ، لاتفارقك إلا يوم تكون أنت لست اياك ، فهى قريبة منك ، بل هى أنت ؛ تسرى فى دمائك ، وتدب فى كل عضو من أعضائك ، ثم هى مع ذلك تمتنع عن النظر وتستعصى على الادراك ! فاذا ما حاولت رؤيتها تحجبت وأسدلت حول نفسها قناعاً صفيقا لاينفذ منه شعاع من بصر ، لماذا ؟ لأنها تذكُر ماضيها الجليل ، يوم كانت فى العالم الأقدس الرفيع ، فتأخذها العزة والكبرياء ، وتتعالى عن إدراك العيون ! وكيف تريدها على الظهور أمام مقلتيك وهما لم تُخلقا إلا لرؤية الأجساد المادية وحدها ؟ فأما هذه الماهية المجردة فهيهات أن تدركها بالنظر ؛ وكل محاولة منك فى هذه السبيل صائرة حتما الى فشل وإفلاس ، ولكن لاتيأس ياصاحبى ، فثم سبيل لادراكها غير هذه المقل ، وغير هذه الحواس جميعاً ، انظر اليها بعين العقل تجدها واضحة سافرة كاشفة عن وجهها لا تسدل من دونه البراقع والستور ، فهى إن كانت تأبى أن تبدو للحواس فذلك لأنها تعلو بنفسها عن هذا الدرك الخسيس ، وهى إنما تتضح وتجلو لكل عاقل من الناس ، يبحث عنها بعقله فى آثارها ودلائلها . إذن فالروح مع كمال خفائها وشدة غموضها عن العين ، يمكن إدراكها بالعقل لمن يريد معرفتها بالدليل والبرهان

وَصَلَتْ على كرهٍ اليك وربما كرهت فراقك وهى ذاتُ توجع

لقد علمت أن الروح قد اتصلت بهذا الهيكل الجثمانى متأبية مقهورة مكرهة ، ولكنها من عجيب أمرها عادت فكرهت أن تفارق هذا الجسد الذى أرغمت على الحلول فيه أول الأمر إرغاماً ، أما كونها جاءت مكرهة فلأنها حين هبطت اليك كانت تعلم أنها إنما تتصل بكتلة من المادة . ليس بينها وبينها تآلف وتجانس ، إذ ليست هى فى تجردها وروحانيتها شبيهة بالجسد فى ماديته ، وهل تستطيع أن تظفر بأنس من رفيقك إذا لم يكن بينك وبينه تجانس فى الصفات ؟ فان أُرغِمْتَ على هذه المرافقة إرغاماً على ما بينكما من تنافر وتناكر ، فانت لاشك غاضب كاره ؛ وأما كونها تعود فتكره فراق الجسد فذلك لأنها قد تمكنت منه وسَرَت فى أنحائه سريانا شـديداً ، فتشبثت به تشبثاً قويا متينا ليس انحلاله أو زواله هنة هينة . وأنت تستطيع أن تلمس ذلك فى نفسك إذا هممت بالانتحار ، فلن تجد من نفسك إقبالاً على الموت ورضى به واطمئنانا اليه ، ومعنى ذلك أن روحك قد استطابت مُقامَها الجديد بعد نفور ، ولكن حذار أن يذهب بك الظن إلى أنها قد ارتبطت بالجسد ارتباطا بلغ من القوة والمتانة حد الاندماج ، بحيث إذا زال الجسد زالت الروح تبعاً له ، كلا ، إنما ترتبط الروح بالجسد ارتباطاً يقع بين القوة الشديدة والضعف الشديد ، فلا هو الى القوة التى تدمجها فيه ادماجاً ، ولا هو الى الضعف الذى يُيَسِّر لها سبيل الفرار . ولكنى لم أحدثك بعد عن علة كرهها لفراق الجسد ، وقد جاءته مكرهة أول الأمر .

أما ذلك فلأنها رأت أنها تستطيع أن تتخذ من هذا الجسد أداة للخير والفضيلة ، لقد كانت فى حياتها المطلقة الأولى خالية من الصفات الفاضلة الايجابية جميعا ، وهاهى ذى قد رأت فى الحواس سبيلا قويمة تحصل بها من الأخلاق والعلم حظا موفورا ، وإذن فاتصالها بالجسد قد جعلها عارفةً بعد سذاجة وجهل ، متحركةً بعد خمول وسكون ، فهل تدهش بعد هذا إذا رأيت الروح جازعة فازعة حين يدنو منها الأجل المحتوم الذى يفصل بينها وبين زميلها انفصالاً ليس بعده من لقاء ؟ وهل تعجب إذا رأيتها حين اتصالها بالجسد تدافع جهدها عنه لتدفع ما يتهدَّدُه من علة أو مرض ، وتحرص وسعها أن يكون موفور الحظ من السلامة والعافية ؟

أَنِفَتْ وما أَنِسَتْ فلما واصلت
أَلِفَتْ مجاورةَ الخراب البلقع

إذن لقد هبطت الروح الى هذا الهيكل مُعْرِضَةً عنه مزدريةً له صلفاً منها وتيها ، وحقَّ لها ذلك ، فهى خالدة لاتخضع للفناء ، وهو وضيع يتعاوره الكون والفساد ، لهذا أنفت منه ولم تأنس له بل استكبرت عليه وأبت أن تنزل بنفسها الى حضيضه الأسفل ، وظل النفور بينهما حيناً من الدهر لم يَطُلْ ، حتى عرفت أنه أداة قويمة صالحة لتحصيل الفضيلة والخير ؛ عندئذ أَنِسَتْ به ورضيت بالاقامة معه فى إخاء وائتلاف ، وما هى إلا أن وضح أمامها الطريق وقام الدليل قاطعاً على أنها ستحقق بالجسد مرادها من الكمال ، فقويت العلاقة واشتدت الملازمة على الرغم من علمها أن هذا الذى ترافقه وتزامله لن يلبث حتى ينقلب خراباً بلقعاً لا غناء فيه ، إذ هو صائر إلى الفناء بعد حين

يقصر أو يطول . ولعلك تلاحظ أن فيلسوفنا قد عبر هنا عن العلاقة بينهما بلفظ المجاورة قاصداً متعمداً ، لأنه أراد لك أن تعلم أنها ليست من الجسد بمثابة الأبصار من العين مثلا ، يكادان يكونان شيئاً واحداً ، ولكنها منه كالملاّح من سفينته يديرها ويدبر أمرها . ثم هو بعدُ يستطيع أن يستقل بوجوده بعيداً عنها ، فهى علاقة مجاورٍ لا علاقة دمج وإدغام

وأظنها نسيت عهوداً بالحمى ومنازلا بفراقها لم تقنع

نعم : لقد اطمأنت إلى الجسد بعد صدٍّ ونفور ، وأنست به بعد وحشة ، وبلغ بها الاطمئنان والانس حداً نسيت معه تلك العهود والمواثيق التى أُخِذَتْ عليها أيام كانت فى عالمها الرفيع السامى ، وركنت إلى غير جنسها ركوناً لا تحب معه الفراق ، وقد بلغ منها ذلك النسيان لمنازلها الأولى حد الغلوّ والاسراف ، فهى لم تقنع بمجرد فراقها لعالمها الأول ، بل زادت عليه عشقها للعالم الجديد ، وهنا كأنما تحس من فيلسوفنا إشفاقاً على الروح أن تكون قد رضيت بالأدنى عن الأعلى لتغيّرٍ فى صفاتها وتحوُّلٍ فى إدراكها وفسادٍ فى طبيعتها

حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها من ميم مركزها بذات الأجرع

علقت بها ثاءُ الثقيل فأصبحت بين المعالم والطلول الخُضَّع

يا ويح النفس ! والله لكم أخشى أن تكون الروح قد مازجت المادة حتى فسدت عنصراً ، فهى لم تكد تهبط من أبعد الذرى لتمس عالم المادة حتى علقت به وهو بعدُ لا يأتلف إلا من الخسيس الكثيف الذى يَنْدُرُ أن يكون سبيلاً إلى الكمال (ذات الأجرع هى المادة الأرضية الكثيفة أى البدن) ، نعم ، لم تكد تهبط الروح ، وتدب فى مادة الجسد حتى علقت بها هذه المادة الجثمانية وأحلتّها بين أجزائها وطىّ ثناياها ، بين معالم الجسد وأطلاله الخربة المتداعية . بين عظامه وغضاريفه ولحمه وشحمه ، التى تخضع للفناء وتؤول للبطلان وتنقلب إلى الدثور . ولكن لعلها قد دبت بين أجزاء الجسد الفانية لا لتجرى مجراها . ولكن لتستخدمها فى تحصيل المعارف والفضائل

تبكى إذا ذكرت عهوداً بالحمى بمدامع تهمى ولم تتقطع

لقد حُمَّ القضاء ووقعت الواقعة ، فقد حان للروح حينُ فراقها وجاء أجلُها ، وها هى ذى قد فصلت عن رفيقها وخلفته وراءها رماداً وتراباً ، فهى إذا ما الْتفتتْ بنظرها إلى هذه الأوصال المفككة ، والى هذا البيت المعمور ، وقد دب فيه الخراب والدمار . عظم عليها الوَجْد وَجلّ فى عينها الخطب ، وقد تتزاحم أمامها ذكريات الماضى أيام كانت تنعم بزمالة هذا البدن المحطوم فى شتى ألوان النعيم ، فتتفجع وتتوجع وتحزن وتأسى ، فان كانت روحاً خيرة فاضلةً كانت فجيعتُها أن افتقدتْ أداةَ الخير والفضيلة إذ افتقدت الجسد ، وإن كانت روحاً شريرة خبيثة مستهترة كانت حسرتُها أن سُلبت وسيلة اللذة والمتاع — ألا وهى الجسد كذلك

وتظل ساجعة على الدِّمن التى درست بتكرار الرياح الأربع

ولا تحسبن الروح بعد فراقها للجسد قد غفلت عنه وأُنسيته بل انها تتردد اليه الحين بعد الحين ، فتقف بازائه باكية نادبة ، وقد أبت قريحةُ الشاعر الفيلسوف إلا أن تصور الروحَ ، وقد جاءت تنشُدُ أطلال الجسد فتجد منه بقية باقية يهيِّج منظرُها ما كان كامناً فيها من شجون ، وإنما تعظم الحسرة إذا بقيت من منازل الأحباب آثارها لما تثيره فى النفس من ألم وحنين ، أما تلك الرياح الأربع التى ما فتئت تهب على مادة الجسد حتى درستها درساً ، فيغلب أن تكون الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة التى لا تنفك ، تمتور الصخور الصلدة حتى تفتتها هشيما تذروه الرياح هنا وهناك ، فتنطمس المعالم الأولى انطماساً تَشُوه بعده وتَتَنكَّر ، ولستُ بحاجة الى أن ألاحظ لك يا صديقى أن فى هذا البيت تصريحاً من الفيلسوف بخلود الروح بعد الموت ، فهى باقية خالدة تروح وتغدو ، ويستحيل عليها التحلل والفناء

إذ عاقها الشَّركُ الكثيف وصَدَّها

قفصٌ عن الأوج الفسيح المِرْبَع

ولكن ليت شعرى فيم بقاء الروح بين هذه الأطلال الدارسة باكيةً نادبةً ، وماذا يعوقها أن تعلو وتصعد إلى حيث العقولُ المجردة فى الملأ الرفيع ؟ أليس فى ذلك فكاك لها من شوائب المادة ونقائصها ، وتحرير من قيود الحس وأصفاده الثقيلة الباهظة إلى حيث تسبح فى تلك الأرجاء الفسيحة تتسرح فيها تسرحاً مطلقاً لا يصدها ضيق ولا تزاحم ؟ لعمرى إنها الدنيا التى تجتذبها كما يجتذب الشركُ سوابحَ الطير الطليق بما يُلقى فيه من حَب ، فهذه اللذة والشهوة والمتاع كفيلة أن تغرى النفس إغراء يكون لها غلا ووثاقاً ، وليس شركُ الدنيا الذى تطوّقُ

به النفوسَ تطويقاً من ذلك الضَّرْب الهين الخفيف الذى تحطم قضبانُه وسلاسله فى سهولةٍ ويسرٍ ولكنه شركٌ عاتٍ قوى كثيفٌ يحوك حول السجين آلافاً من الحبائل والحوائل التى يتعذر منهما الخلاص إن لم يستحل وإذن فهذا الجسد للروح بمثابة القفص للطير القنيص ، لا تستطيع أن تغادره أو تجاوز حدوده إلا إذا أراد لها ذلك واضعها ، ولكنه قفص على ما ضرب به حولها من سياج منيع مُشبَّكٌ القضبان فيه من النوافذ مايسمح للسجينة أن ترسل خلالها الفكر والبصر إلى أرجاء الكون ، وما تلك المنافذ التى تتسلل منها الروح إلى أنحاء الوجود إلا الحواس من بصر وسمع وما إليهما ، وإلا العقل تتقصى به أطراف الأرض والسماء

حتى إذا قَرُبَ المسيرُ إلى الحِمى ودنا الرحيلُ إلى الفضاء الأوسع
وغَدت مُفارقةً لكلِّ مُخلَّفٍ عنها حليفَ التُّرْبِ غير مُشيَّعِ

هكذا ارتبطت الروح بالجسد ارتباطاً مكيناً . حتى إذا دنت ساعة الرحيل وحان أجل الفراق لهذا البدن إلى حيث تنطلق فى الفضاء الرحب الفسيح ، وأخذت تقطع مابينه وبينها من صلات وعلائق وأســـباب ، وهو تلك الكتلة المادية المخلفة المعطلة المطروحة بعــد المفارقة تحت أطباق الثرى دون أن يُلتفت اليه أويعنى بشأنه احتقاراً له وازدراء ، بعد أن خلَّفته الروح وخلعته ، نقول إذا دنت ساعة الرحيل وفارقت الروح جسدها . . .

هَجعتْ وقد كُشف الغطاءُ فأبصرتْ
ماليس يُدركُ بالعيون الهُجَّعِ

عندئذ يزول عنها حجاب البدن فينكشف الغطاء فتدرك ما كان يستحيل عليها إدراكه أيام اتصالها به ، ذلك لأن الأرواح المتلبسة بالأجساد إنما تكون رقوداً هجماً أو كالرقود الهجع لأنها إذ تكون عالقة بالأبدان تكون محجوبة عن الادراك الذى تُحصِّله النفوس المجردة كما يحتجب النائم عن إدراك ما يدركه اليقظان ، إذن فالروح عند ما تُلقى الجسدَ وتطرحه تكون كأنما تكشف عن بصيرتها غطاء طالما حال بينها وبين مطالعة الرفيق الأعلى بمايغمسها فيه من عَرَضٍ مادى زائل باطل مصيرُه إلى فناء ، أما إذا فارقت البدن فقد خلُصت من أغلالها وانحسر عن بصرها الغشاءُ وأبصرت أسرار الحق صافية خالصة وانكشف لها الغيب وأيقنت أنها كانت أثناء حياتها مع الجسد غافلةً راقدةً وقد تنبهت الآن واستيقظت

وغدت تغرِّد فوق ذِروة شاهقٍ والعلمُ يرفع كل من لم يُرفعِ

فاذا كانت قد نفضت عن نفسها ما كان لحقها من غفلة ورقاد ، إذن فقد تجردت من قيود المادة وأصفادها وغدت عنصراً عقلياً صرفاً لاتشوبه شائبة من كدورة أو نقص ، مبرأةً عن حاجات البدن التى تجذبها إلى أسفل ، واتصلت بالعالم الروحانى المجرد ، فأحست بالنشوة والسعادة وغردت سروراً لما ظفرت به بذلك الاتصال ؛ ولعلك هنا تحتج على الفيلسوف وتعترض حديثه ، فما لهذه الأرواح قد صــعدت إلى العالم الأقدس ولم تلبث حول أجسادها مُحوِّمة باكيةً راثية إلْفَها الحبيب ، فهو يجيبك إنما ترتفع إلى هذه الذروة الشاهقة السامية ، تلكم الأرواح التى كسبت من العلم صدراً محموداً وحظاً موفوراً ، وإن العلم لجدٌّ كفيل أن يرفع إلى حالق مامن شأنه أن يكون فى الحضيض الأخس فضلاً عما يكون له بطبيعته اتصالٌ وقربى بالعالم الأشرف الرفيع

فلأى شىء أُهبطت من شامخ عالٍ إلى قعر الحضيض الأوضع

ولكن قف ! أأنت محدثى ياصاح فيم هذا العناء كله إن كان مصير الروح فى نهاية أمرها أن تعود إلى حيث بدأت السـير ؟ فلقد زعمت لى أنها هبطت من علٍ فخلت بالبدن حيناً من الدهر ثم أخذت سبيلها آخر الشوط إلى مستقرها الذى صــدرت عنه وفاضت منه ! ما هى الحكمة الباعثة للنفس أن تهبط من ذراها هاوية إلى الدرك الأسفل .؟ !

إن كان أهبطها الالآه لحكمة طويت عن الفذ اللبيب الأروع
فهبوطها لا شك ضربة لازب لتكون سامعــة لما لم تسمع

هكذا تساءل صاحبى فى دهشــة وعجب ، قال : إن كان الله جل وعلا قد أهبطها لحكمة خفيت عن بصائرنا ، واستعصت على إدراكنا ، بل طويت عمن بلغ منامن الحكمة أروعها وأبعدها غوراً ، فلا ريب فى أن الله تعالى إنما ضرب الهبوط على النفس ضرباً وألزمها به إلزاماً لعلها فى هذا العالم الأرضىّ تُوَفَّقُ الى اكتساب المعرفة ، واستيفاء أسباب الكمال ، إذ كانت فى أول أمرها جاهلة ساذجة غافلة ، فأهبطها لتسمع مالم تكن قد سمعت به من العلوم والأخلاق ؛ وسبيلها الى ذلك هى الحواس والعقل

وتعود عالمــةً بكل خفيَّة فى العالَمَيْن تخرْقُها لم يُرقَع

فلهم إن كانت هذه رسالتها التى هبطت من أجلها ، أعنى أن

تعود بعد زيارتها الى الدنيا عالمة بالاسرار الخفية فى العالمين – عالم الغيب والشهادة – فلا سبيل الى تحقيق ما جاءت من أجله ؛ لأنها مهما حصلت من فروع العلم وجوانب الأخلاق ؛ ومهما أسرفت فى التحصيل فهى قاصرة مقصرة ، وكيف سبيلها الى ذلك والعلوم لاتنتهى عند حد ، وحتى إن أمكن تحصيلها فلا تكفى لها مدة الحياة على قصرها ؛ ولكن ليكن هذا فليس الفشل فيما نظن مما ينتقص من نبل الغاية المقصودة ويحط من شرف الوسائل المؤدية الى تلك الغاية

قال صاحبى : لقد زعمت أو زعم فيلسوفك ابن سينا أن الروح إنما هبطت فَسَرَتْ فى البدن ففارقته وعادت أدراجها ، والله لايفعل شيئاً إلا لحكمة ، إذا كان ذلك لم يكن لهواً ولا عبثاً ؛ فلأى شىء هبطت من الأعلى الى الأدنى ، واعتاضت الباقى بالفانى ؟ قلت : إنها هبطت فتعلقت بالجثمان لتتخذه وسيلة الى الكمال على شرط أن تكون من أصحاب الفضيلة والخير . قال : وإن كانت الروح من الملأ الأعلى فكيف تكون ناقصة وقد حدثتنى فى صدر الحديث أن ذلك الملأ مجردٌ مطلقٌ كاملٌ كمالاً محضا ، وأنه خير خالص ، كما حدثتنى الى جانب ذلك أن عالمنا هـذا شر – أو على أكثر تقدير مزيج بين الخير والشر فما قولك الآن إن الروح قد هبطت من ملأها الأعلى الى هذه الأرض تنشد عن طريقه الكمال ؟ ! وهل يكون الشر وسيلة الى الخير والكمال ؟ لعمرى لو كانت العناصر المجردة لا يتم كمالها إلا اذا اتصلت بالمادة فما أوجب أن يهبط عالم الأرواح كله ليمتزج بالأرض ومادتها ؟ قلت : جوابك ياصاحبى فى هذا البيت الآتى :

وهى التى قطَع الزمانُ طريقَها حتى لقد غَرُبَتْ بغير المطلع

فقـد كان مراد النفس وأملها أن تبلغ حد الكمال بما يرتسم فى صفحتها من الصور العقلية ، لكن الزمان لم يمهلها وا أسفاه ! فقطع عليها السبيل وصدها عما كانت تسير نحوه ، وذلك باهلاكه للبـدن وهو أداتها فى تحقق رغبتها ، ولكنها إلاّ تكن قد ظفرت بكل شىء ، فهى لم تفقد كل شىء ، لأنها لم تغرب – حين غربت – ساذجةً جاهلة كما أشرقت أول الأمر بل عرفت الكمال وعرفت النعيم الذى يكون لها لو بلغت هذا الكمال ، وكفاها بهذه المعرفة حافزاً قد يدفعها إلى متابعة السير يوماً آخر

فكأنه برق تألق بالحمى ثم انطوى فكأنه لم يلمع
أنعم برد جواب ما أنا فاحص عنه فنار العلم ذات تشعشع

ولكن فيلسوفنا الشاعر يعود فيوافقك يا صديقى إلى حد كبير ، ان النفس عند فراقها للبـدن تكون فى الحقيقة كأنها لم تُفِدْ شيئاً وكأنها لم تصحب البدن قط ، وما أسرع ما انقضى زمن إقامتها فيه ، فقد اختفت سريعا كالبرق الخاطف ، وعادت كأن لم تكن بالأمس شيئاً مذكوراً . وإنه ليختم حديثه معك بحَفْزِكَ وإثارة الطُّلَعَة فى نفسك لعلك تمعن فى التفكير والنظر لترى جوابا لهـذا السؤال المُرْبك : فيم هبوطُ الروح للوصول الى كمالها ، ثم فصلُها قبل أن تصل ؟ ! قال محدثى : انى لأرى شبها قويا بين هـذه القصة التى قصصتها علىَّ عن ابن سينا وبين ما رويته لى بالأمس عن فلسفة أفلاطون من أن النفس كانت تسبح فى عالم المُثُل صافيةً سعيدة مفكرة ، ثم حلَّت بالجسم وتعلقت به ، فاذا وافت الانسان منيتُه عادت من حيث أتت ، قلت نعم ولعل لى معك فى هذا حديثا آخر

زكى نجيب محمود

مقتل عمر بن الخطاب

نقلها عن جرائد ذلك العهد

الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى



اختلف المؤرخون فى مقتل عمر رضى الله عنه ، فمنهم من قال إن أبا لؤلؤة حقد عليه لأنه لم يخفف عنه الخراج الذى ضربه عليه سيده المغيرة بن شعبة ؛ وقال آخرون بل ائتمر به الهرمزان وهو قائد فارسى أظهر الاسلام وأضمر الغدر ، وجفينةُ وهو من نصارى نجران الذين أجلاهم عمر عن جزيرة العرب . وقد فاتني — لسوء حظى — أن أشهد هذه الحادثة الضخمة وتأخرت عنها أكثر من ثلاثة عشر قرناً . ولو حضرتها لعرفتُ كيف أقول ؛ ولكنه لا يجدى الأسف على شيء فات ؛ وما لا يدرك كله لا يترك كله ؛ وقد وقعت لى «أعداد» من «صحف» ذلك الزمن ، مثل جريدة «يثرب» ، وجريدة «دار الهجرة» ، وجريدة «العذراء» ، وغيرها من الصحف الأولى التى كانت تصدر — صباحاً أومساء — فى صدر الاسلام . وأكبرها جميعاً «يثرب» ، وكانت تظهر فى الفجر ، فيتخطفها الناس وهم خارجون من صلاتهم بالمسجد ، وكان لها مكاتبون فى الأمصار قاصيها ودانيها ، يوافونها بأخبارها وأحوالها ، وسيرة ولاتها وعمّالها ، وجلهم — أى المكاتبون — ممن دخلوا مع رسول الله مكة ، واشتركوا فى حروب الردة ، وقاتلوا مع سعد بن أبى وقاص ، وأبى عبيدة ، وخالد بن الوليد ، فى فتوح العراق وفارس والشام ، ومن أجل هذا كانت الثقة بأنبائهم عظيمة ، والاطمئنان إلى صدقهم فى الرواية تاماً ؛ ولا عجب بعد ذلك إذا كانت «يثرب» كبرى الصحف فى ذلك العهد وأوسعها انتشاراً ، وأوثقها حالاً . ومما ينبغى أن يذكر من مفاخر هذه الجريدة أن العرب إلى عهد عمر رضى الله عنه كانت تتعامل بالنقود الفارسية والرومية فدعت «يثرب» إلى ضرب نقود عربية وألحت فى ذلك ؛ ورأى عمر رضى الله عنه أنها على حق ، فأمر فضربت الدراهم على شكل النقود الفارسية ، فلم تقنع «يثرب» بهذا ، وطلبت أن ينقش اسم الله تعالى واسم رسوله تمييزاً لها عن نقود الفرس ، فاستحسن الخليفة رأيها ، فأمر فكتب على الدراهم : «الحمد لله» على وجه ، و «محمد رسول الله» على الوجه الآخر . وقد زعم حاسدوها وشانئوها — من الفرس المغلوبين على أمرهم — أنها ما دعت إلى ذلك إلا ليسهل بيعها ، فينتشر أمرها ويعظم ربحها ، وقالوا : ألا تراها قد أشارت بضرب الدراهم ولم تذكر الدنانير قط ؟ فذاك لأن الدراهم خسيسة ، ولأن النسخة من جريدة «يثرب» تباع بدرهم ! ولكن هذا طمن الفرس الموتورين فلا يُسمع فى العرب

على أن من المحقق أن حاجة «يثرب» الى سنة تؤرخ بها ، هى التى أملت عليها الدعوة الى وجوب الاتفاق الى سنة معينة للتاريخ منها ، غير عام الفيل وعام الفجار وما أشبه ذلك مما لا آخر له ، فكان أن استشار الخليفة أصحابه فى ذلك فأشار عليه علىّ كرم الله وجهه — على رواية «يثرب» — باتخاذ السنة التى هاجر فيها الرسول إلى المدينة مبدأ للتاريخ الاسلامى

بعد هذا الاستطراد الذى لم نر منه بدأ للتعريف «بيثرب» ورفعة مقامها وعلو منزلتها ، نقول إنا وجدنا فيما عندنا من أعدادها وصفاً مفصلاً لجريمة مولى المغيرة ، فرأينا أن ننقله بحروفه حسما للخلاف ، وإحقاقاً للحق

***

قالت فى ملحق أصدرته ضحى الأربعاء ٢٦ ذى الحجة سنة ٢٣ هجرية تحت العنوانات الآتية المكتوبة بالخط الجليل على سبعة أعمدة : «علج فارسى يطعن أمير المؤمنين وهو يقيم الصلاة — ويصيب ١٣ رجلا ثم ينتحر — أهى مؤامرة فارسية نصرانية ؟ — تحريات مندوبى يثرب الخصوصيين»

ثم قالت الجريدة :

« لم نكد نفرغ من طبع العدد الأخير من « يثرب » وندفع به الى الباعة ، ونذهب الى المسجد للصلاة ، حتى فوجئنا باعتداء أثيم مروّع من علج من علوج فارس على حضرة صاحب الجلالة أمير المؤمنين وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الفاروق عمر بن الخطاب وهو يسوّى الصفوف فى المسجد ويهمّ باقامة الصلاة . وهو اغتيال دنىء وغدر خسيس تنكره الشهامة ولا تعرفه العرب ، ولو أن مائة من أمثال هـذا العلج الزنيم تصدوا لجلالته ، وهو يراهم لخلط عظمهم بلحمهم وأكلهم وتأدم بآبائهم وأجدادهم الى قابيل ، ولـكن هذا العلج جاء من وراء ظهره ، وأخذه غدراً وطعنه غيلة ، وهو رافع يديه يكبر للصلاة

وقد سبق لنا أن حذرنا الحكومة من هؤلاء الفرس والنصارى الذين يفدون على مدينة الرسول ؛ فانها ـ على وفرة الماء فيها بالقياس الى غيرها من بلاد العرب ـ يابسة الضرع ، وغيرها من الأمصار التى فتحناها أخصب ، والعيش فيها أرغد ، فمجىء هؤلاء الأغراب الموتورين الى المدينة واقامتهم فيها أمر مريب ، فما يعقل أن يطيب لأمثالهم فيها عيش ، وهم الذين نشأوا فى ظلال الدعة وألفوا حياة اللين والترف ، وهذا ما جناه السماح لهم بالاقامة بين ظهرانينا

ودعونا مراراً الى اتخاذ الشرطة والحراس ، والعسس بالليل ، ومراقبة الأجانب ، وقلنا إن خروج الخليفة وليس معه حارس ، ولا فى يده هو سلاح ، ونومه فى الأحيان الـكثيرة فى ظل شجرة أو جدار لا يخلو من خطر ، وأنه تعرض لا تؤمن مغبته ، ولو أنه ليس بالمدينة إلا العرب لما أشفقنا ، ولـكن الأغراب كثروا بيننا ، وهم من بلاد داستها جيوشنا ، ودوخت أممها ، وثلت عروشها ، فهم حاقدون مضطغنون ، لا يؤمن غدرهم ولا يتقى شرهم إلا بالحيطة والتحرز منهم . وقد صدق ظننا مع الأسف ، وليته خاب ألف خيبة ، نسأل الله اللطف فيما وقع »

* * *

ثم فصلت الجريدة الحادث كما وقع فقالت :

« دخل جلالته المسجد ليصلى بالناس على عادته ، وكانت فى يده الدرة التى لا تفارقه ، فاخترق الصفوف والناس يفسحون له ، ويحيونه بأحسن من تحيته ، حتى صار الى الصدر فاستقبل الناس ليقوّم صفوفهم ، وذلك دأبه ، فان جلالته يكره الفوضى ويحب النظام ، ثم ألقى الدرة من يمينه ـ وكان يسوّى بها الصف ويشير للمتقدم أن يتأخر ، وللمتأخر أن يحاذى الذى بجانبه ، ثم اتجه الى القبلة ورفع يديه وكبّر ، ولم يكد صوته الجهورى يرتفع بالتكبير حتى هجم عليه رجل ـ ظهر فيما بعد أنه غلام المغيرة ـ وفى يده خنجر وضربه به فى كتفه ، فانحنى أمير المؤمنين قليلاً من عنف الصدمة وقوة الضربة على غير توقع منه ، فمال معه المجرم وكاد يسقط ، غير أنه اعتمد بيسراه على ظهر جلالته ونزع الخنجر الذى أصاب عظمة الـكتف ، وكان جلالته قد تمالك ، وذهبت عنه دهشة المفاجأة فدار ليواجه المعتدى عليه ، فعاجله الجانى بطعنة فى خاصرته ، وأسرع فنزع ، وتشدّد جلالته فضربه بجمع يده فى صدره وهو يقول : « تريد قتلى يا ابن الفاعلة ؟ » فارتد المجرم خطوات ، ثم كر عليه بالخنجر يطعنه طعناً سريعاً فسقط أمير المؤمنين على الأرض

وكان الناس قد أذهلتهم هذه المباغتة ، وأصابهم منها لأول وهلة كالرعب ، فتراجعوا والتوت صفوفهم ، ثم أفاقوا ، فصاح بعضهم يطلب الشرطى ـ وأين هو حتى يلبى النداء ؟ ـ وهجم منهم عليـــه رهط ، فأعمل فيهم خنجره يضرب يميناً وشمالاً كالمجنون ، فأصاب منهم ثلاثة عشر رجلاً ، وألهم الله بعضهم فألقى عليه برنسا ـ كما تلقى على الجواد الجامح ثوباً ـ فأعماه وشل حركته ، ثم تكاثروا عليه ، وأيقن هو أنه هالك لا محالة فطعن نفسه فمات !

وأقبل الناس بعد ذلك على أمير المؤمنين واجمين محزونين ـ حتى الجرحى منهم ـ فردهم جلالته عنه باشارة وسأل :

« هل فيكم عبد الرحمن بن عوف ؟ »

فتلفت الناس ينظرون ، فاذا ابن عوف يفرقهم ويقول :

« نعم يا أمير المؤمنين »

فقال جلالته : « تقدم ، فصل بالناس »

فكانت دهشة ، ولـكن عمر هو عمر ، لا يشغله خطب عن دينه وواجبه ، ولا يجرؤ أحد على خلافه من هيبته ، فصلى ابن عوف بالناس صـلاة خفيفة ، وعيونهم على جلالته ، وهو ساكن وادع معتمد على الأرض بمرفقه ، يصلى معهم بشفتيه ،

ثم أقبلوا عليه فحملوه ، يريدون أن يذهبوا به الى داره ، فقال :

« مهلاً ، ناولونى درتى ياهذا »

فناولوه إياها ، فأخذها وهو يقول وعلى فمه ابتسامة :

« أرأيتم ماريشالاً بلا عصاه ؟ »

فابتسموا لابتسامه ، ولكن دموعهم كانت تساقط على لحاهم وأيديهم التى خضبها دمه الزكى ، فنظر اليهم وهم يبكون وقال يزجرهم :

« بل الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد مسلم »

أما الجانى فهو أبو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة بن شعبة ، وأصله فارسى من نهاوند ، وقد كتب الينا مندوبنا القضائى يقول :

منـذ بضعة أيام جاء فيروز هذا إلى أمير المؤمنين يشكو إليه أن مولاه المغيرة بن شعبة يشتط فى الخراج الذى ضربه عليه ويرهقه بما يتقاضاه منه ، وسأله التخفيف عنه

فسأله جلالته : « كم خراجك ؟ »

فقال : « درهمان فى كل يوم »

فسأله : « أو كثير هذا عليك ؟ »

قال : « نعم ، وحقك »

قال جلالته : « دع هذا ، وقل ما صناعتك ؟ »

قال الغلام : « نجاس ونقاش وحداد »

فقال جلالته : « ثلاث صناعات فى يديك ، وتشكو رقة الحال وتستكثر درهمين ؟ كلا ليس خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال » وأعرض عنه

وقد يؤخذ من هذا أن فيروز حقدها على جلالته ، وأسرها فى نفسه ، وأضمر أن ينتقم ، ولكنا لا نعرف أن الناس يقتل بعضهم بعضاً من أجل درهمين ، فكيف باغتيال خليفة ؟ ثم إن تحرياتى تدل على أن الأمر كان مبيَّتاً بليل ، فقد حدثنى عبد الرحمن ابن أبى بكر — وهو ثقة — أنه رأى عشـية أمس الهرمزان الفارسى وجفينة النصرانى وأبا لؤلؤة هذا ، وهم يتناجون ، فلما رأوه اضطربوا ، وسقط من أحدهم خنجر له شعبتان ، يقول ابن أبى بكر أنه هو نفس الخنجر الذى ضرب به أبو لؤلؤة أمير المؤمنين . فماذا كانوا يتناجون فى غلس الليل ، وهذا فارس أعجمى ، وذاك نصرانى عربى ونالهم مملوك المغيرة ؟ وماذا جمع العربى النصرانى ، والفارس المجوسى وإن تظاهر بالاسلام ؟

ومعروف أن الهرمزان هـذا كان من قواد الفرس الذين هزمهم سعد بن أبى وقص ، وقد أظهر الاسلام لينجو بجلده ، وخان المسلمين مراراً ثم زعم أنه تاب ، ومثله خليق أن يبطن العـداوة للعرب وألاّ يغفر لهم أنهم مزقوا عرش الأكاسرة وغلبوهم على بلادهم ومجوسيتهم ، وسووا بين الناس فلا سيد ولا مسود ، ولا شريف ولا وضيع

أما جفينة فأمره مشهور ، وهو نصرانى من نجران ، أتى به سعد بن أبى وقاص ليعلم الناس الـكتابة — فيا سوء ما أتى به سعد من هذا ! وقد كان أمير المؤمنين خاف انتقاض النصارى فى نجران عليه ، وهو فى حرب الفرس والروم ، فأجلاهم عن جزيرة العرب ثم عوضهم وأوسع لهم من الأرض فى الشام والعراق ، وأعطاهم خيراً مما تركوا ، ثم هزم المسلمون جيوش هرقل وهو حامى النصرانية ، فجفينة لاريب مضطغن لذلك ؟ وقد وجد فى الهرمزان حليفاً ونصـيراً ، وفى فيروز وهو فارسى كالهرمزان ، أداة لارتـكاب الجريمة المدبرة

وهذا هو الذى عليه الرأى العام ، ولو تُرك الناس لرأيهم وخُلىّ بينهم وبين ما يريدون لفتكوا بالفرس والنصارى وشربوا دماءهم ، فان النفوس فائرة ، والصدور مضطرمة ، ولـكنهم يكبحون أنفسهم ويحملون عليها ويردونها على مكروهها احتراماً لأمير المؤمنين وانتظاراً لما يفعل ، شفاه الله وعافاه

بل هذا هو رأى أمير المؤمنين نفسه ، فقد اجتمع إلى جلالته فى داره بعد أن حُمل اليها ، المهاجرون والأنصار ، فقال لابن عباس وكان معه :

« أخرج اليهم فاسألهم أعن ملأ منهم ومشورة كان هـذا الذى أصابنى ؟ »

فعاد اليه ابن عباس يقول إن القوم يقولون « لا والله ، ولوددنا أن زاد الله فى عمرك من أعمارنا »

فقال جلالته : « إذن أبرق إلى العراق وفارس وأنبئ العمال بما كان ، وحذرهم أن ينتقض الناس على غرة منهم ، فما يدرينى ويدريك ، لعله تدبير من هناك . »

وقد أرسلت البرقيات اللاسلـكية إلى عمال الأمصـــار

بالاستعداد لكل طارئ فلا خوف من هذه الناحية فان قواتنا كافية لقمع ماعسى أن ينجم من الفتن . »

وعند مثول هذا الملحق للطبع أبلغنا مندوبنا ما يأتي تليفونياً :

عرفتم أن المجرم أبا لؤلؤة عليه لعنة الله وملائكته ، أصاب ثلاثة عشر من المصلين بخنجره ، كانوا يحاولون القبض عليه وانتزاع الخنجر منه ، فالآن أقول إن سبعة منهم كانت جراحهم خطيرة ، فتوفوا من النزف ، وسيجهزون للدفن وتشيع جنازتهم بعد صلاة العصر باحتفال كبير يمشي فيه المهاجرون والأنصار والبدريون ، وقد أمر جلالة الخليفة بأن ينوب عنه في تشييع الجنازة ، صهيب

أما الستة الآخرون فجراحهم خفيفة ، وقد بعث اليهم جلالة الخليفة بابنه عبد الله بن عمر ليعودهم ويستفسر عن حالهم ، فشكروا له هذا العطف السامي ودعوا الله أن يعجل بشفائه

هذا وقد فحص الطبيب الشرعي الخنجر فتبين أنه مسموم فلا حول ولا قوة إلا بالله

وأذيعت نشرة طبية موجزة جاء فيها أن الاصابات ست في الكتف والخاصرة والظهر ، وإن النزف منها شديد ، وقد سُقي جلالته لبناً فخرج من إحدى الطعنات أبيض كما هو ، فنصح الطبيب لجلالته بأن يعهد ، تولانا الله برحمته

صدر العدد التالي من « يثرب » مجللاً بالسواد ، وفيه نعت أمير المؤمنين الى العالم الاسلامي ، ورثته رثاء طويلاً ، ولخصت سيرته في الجاهلية والاسلام ، ولا نحتاج أن ننقل من هذا شيئاً فانه معروف ، ووصفت تجهيزه للدفن ، وتشييع جنازته والصلاة عليه بالمسجد ، وحمله على سرير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودفنه معه الى جانب أبي بكر الصديق ، وسردت أسماء المشيعين من الأنصار والمهاجرين وغيرهم ، وروت فيما روت أن علياً وعثمان تقدما للصلاة عليه فردهما ابنه عبد الرحمن وقال منكراً عليهما ذلك : « لا إله إلا الله ! ما أحرصكما على الأمرة ! أما علمتما أن أمير المؤمنين قال ليصل بالناس صهيب ؟ » وأثبتت تصريحاته قبل موته ، لابن عباس ، ووصيته لمن يخلفه ، وقالت إنه دفع بها الى ابنه عبد الله وقال له : « إذا اجتمع الناس على رجل — أي أمير للمؤمنين — فادفع اليه هذا الكتاب وأقرئه مني السلام » وما أمر به في اختيار خليفته ، وما أوصى به أبا طلحة الأنصاري والمقداد بن الأسود ، وكل هذا مشهور فلا داعي لنقله

ولكن حادثاً وقع بعد ذلك ، تعد « يثرب » مسئولة عنه ، فقد ذهبت الى أن قتل عمر كان عن تآمر من جفينة النصراني والهرمزان الفارسي ، وأنهما هما اللذان أغريا أبا لؤلؤة بقتله ، وروت ماشهد به عبد الرحمن بن أبي بكر وغيره في ذلك ، وأيدت ذلك بالدليل العقلي ، فهاج عبد الله بن عمر ، ومضى الى ابنة أبي لؤلؤة فقتلها ، ثم الى جفينة والهرمزان فألحقهما بها ، انتقاماً لأبيه ؛ ولم يكفه هذا ، فهم بأن يقتل رجالاً من الأنصار والمهاجرين ظنهم شركاء في دم أبيه ، وشاع عزمه على ذلك حتى بلغ صهيبا ، ولم يكن الذين وُكل اليهم التشاور في أمر الخلافة قد فرغوا ، فبعث صهيب عمرو بن العاص الى عبد الله ، وكان عمرو داهية ، فلم يزل يحاوره ويداوره ويمسح منه في الذروة والغارب حتى سكنت نفسه ، فأخذ منه سيفه ، ثم جاء سعد بن أبي وقاص فقبض عليه وحبسه في داره

ولما تولى عثمان بن عفان الخلافة ، استشار أصحابه في أمر عبد الله بن عمر ، فأشار بعضهم بقتله فيمن قتل ، ولكن آخرين استنكروا أن يقتل الأب أمس ويقتل الابن اليوم ، ووجد عمرو بن العاص مخرجاً من هذه الورطة ، فقال لعثمان :

« يا أمير المؤمنين ، إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ، ولك على المسلمين سلطان ، إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك »

أي قبل أن تكون خليفة ، فمال عثمان الى الرأفة ، ورفض رأي عليّ بن أبي طالب ، وكان يذهب الى قتل عبد الله بن عمر ، وقال عثمان : « أنا وليّهم ، وقد جعلتها دية واحتملتها في مالي »

وقد أثنت يثرب على مشورة ابن العاص ، ومروءة عثمان بن عفان ، وقالت إن هذا درس عسى أن ينفع العجم والنصارى فيصرفهم عن التآمر مرة أخرى ولكن فريقاً من الأنصار كتبوا اليها يفنّدون رأيها ، ويقولون إن الواجب كان أن يقتل ابن عمر ؛ فكان هذا أول خلاف في عهد عثمان

ولم ننقل هـذا إلا لأن الفريق الذى طالب بقتل ابن عمر كذب ما روته « يثرب » فى ملحقها من أن أبا لؤلؤة قاتل عمر انتحر لما كثر عليـه الناس وأيقن من الهلاك ، وأكد أنه لم ينتحر ، وإنما ثار رجل من المصلين فقتله وأخذ منه الخنجر وكذب أيضاً أن الخنجر كان مسموماً ، ولم يحفل ما قاله الطبيب الشرعى فى ذلك ، وقال إن ستة ممن طعنهم أبو لؤلؤة بخنجره هذا شفوا ونجوا ، ولو كان الخنجر مسموماً لماتوا ، وإنما مات من مات لاصابته فى مقتل ، أو من شدة النزف

وطال الحوار والأخذ والرد بين «يثرب» ومخالفيها فى الرأى حتى لأنكروا عليها أن الحدث كان عن تآمر ، واستهجنوا منها أن تحض على اضطهاد العجم والنصارى ، وقالوا إن هذا التحريض من سوء الرأى ، وإنه خليق أن يفسـد أمور الدولة ويخلق لها متاعب هى فى غنى عنها فى عهد التأسيس ، وأنه توجد عصبيات لا يؤمن شرها فى المستقبل ، وتفاقم الخـلاف بين الفريقين حتى لدعا على كرم الله وجهه ، الخليفة الى إغلاق يثرب ، أو على الأقل تعطيلها حتى تقر الفورة وتهدأ النفوس ، ولـكن الخليفة شق عليه أن يصيب حرية الرأى فى عهده أى سوء ، فاكتفى بالنصح لجريدة « يثرب » ألا تسرف فى دعايتهـا ، وأن تتق اللجاجة وما قد تجر اليه من الفتنة

وقد آثرنا التلخيص ، لأن النقل يطول ، والقارىء أدرى بالصحف وكيف تبدىء وتعيد حتى تعكر الجو وتضجر وتغثى . وقد بلغ من تفرق الرأى فى ذلك الوقت أن الناس كانوا يجلسون فى المسجد حلقات وفى أيديهم أعداد « يثرب » ، فهذا يؤيد ، وذاك يعارض ويكذب ، حتى خيفت الفتنة وحسبنا هذا القدر

ابراهيم عبد القادر المازنى

الفلسفة الاسلامية ودراستها

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

قد يكون من عبث القول أن نحاول اليوم إثبات وجود فلسفة إسلامية انفردت بمالها من خصائص ومميزات ؛ فقد انقضى الزمن الذى ادعى فيه (رينان) ومن نحا نحوه أن فلاسفة الاسلام اكتفوا بترديد نظريات (أرسطو) دون أن يغيروا فيها شيئاً(١) . هناك فلسفة إسلامية ، كما أن هناك فلسفة مسيحية ، أو بعبارة أخرى تقابل المدرسة الفلسفية العربية فى الشرق ، المدرسة اللاتينية فى الغرب . ومن هاتين الفلسفتين مضافاً اليهما الدراسات اليهودية يتكون تاريخ البحث النظرى فى القرون الوسطى . للاسلام فلسفة قد امتازت بموضوعاتها وأبحاثها ، بمسائلها ومعضلاتها ، وبما قدمت لهذه وتلك من حلول وأجوبة . فهى تعنى بمشكلة الوجود والتعدد (le problème de l'Un et du multiple) والصلة بين الله ومخلوقاته (le rapport entre Dieu et le monde) التى كانت مثار جدل طويل بين علماء التوحيد المسلمين(٢) . وتحاول أن توفق بين الوحى والعقل ، بين العقيدة والحكمة ، بين الدين والفلسفة ، وأن تبين للناس أن الوحى لا يناقض العقل فى شىء ، وأن العقيـدة اذا استنارت بضوء الحكمة تمكنت من النفس وثبتت أمام الخصوم ، وأن الدين إذا تآخى مع الفلسـفة أصبح فلسفياً ، كما تصبح الفلسفة دينية(٣) . وقد وصل الفلاســـفة المسلمون فى كل هذه النقط الى نتائج جديرة بالتقدير والاعجاب .

لا يستطيع باحث أن ينكر أن هؤلاء الفلاسفة قد أخذوا عن (أرسطو) معظم آرائه ، وتأثروا بأفلاطن (Plotin + 270) الى حد كبير . ومن ذا الذى لم يتتلمذ على من سبقه ، ولم يقتف

(١) لقد تناقض (رينان) Renan, Averroès, p. II, 46. مع نفسه ؛ فبعد أن نفى أولا وجود فلسفة إسلامية ، عاد فقرر « أن العرب ، مثل اللاتينيين ، مع تظاهرهم بشرح (أرسطو) قد عرفوا أن يخلقوا لأنفسهم فلسفة مملوءة بعناصر خاصة بها ، ومختلفة تمام الاختلاف عن تلك الفلسفة التى كانت تدرس فى الليسيه » (Ibid., p. 89)

(٢) Madkour, La place d' al Fârâbii, pp. 46 et suiv.

(٣) Ibid., pp. 181 et suiv.

أثر من تقدموه ؟ . . . وها نحن أولاء أبناء القرن العشرين لانزال عالة فى كثير من المسائل على أبحاث الأغريق والرومان . غير أن الفلسفة الاسلامية ، وإن بنيت على أفكار السابقين ، تشتمل على نظريات جديدة ؛ فهى فلسفة أنتجتها البيئة والوسط ، وأملتها الظروف المحيطة بها ؛ وتلك سنة من سنن التاريخ ، وأصل من أصول الاجتماع . على أنا إذا نظرنا الى المسألة من وجهة الفرد ، وجدنا القانون لا يتغير ، ولاحظنا أن الفكرة الواحدة إذا تناولها بالبحث أشخاص متعددون ، ظهرت فى مظاهر متباينة . لفيلسوف أن يقترض من آخر بعض آرائه ، ولن يمنعه ذلك من أن يأتى بنظريات خاصة وفلسفة متميزة . (فاسپينوزا + ١٦٧٧) مثلا ، رغم متابعته الواضحة (لديكارت + ١٦٥٠) ، يعد بحق صاحب مذهب فلسفى مستقل . وكذلك (الفارابى + ٩٥٠) و (ابن سينا + ١٠٣٧) و (ابن رشد + ١١٩٢) ، الذين كانوا تلامذة مخلصين (لأرسطو) ، قد اعتنقوا آراء تمتاز كثيراً عما جاء به أستاذهم . وإذاً استطاع العالم الاسلامى أن يكوّن لنفسه فلسفة تلتئم وظروفه الدينية والاجتماعية

بيد أن الفلسفة الأسلامية ، فى تاريخها ، فى نظرياتها ، فى رجالها ، لم تُدرس الدرس اللائق بها ، ولا تزال الحلقة المفقودة فى تاريخ الفكر الأنسانى [1] . فحتى الساعة لم يبين الباحثون بدقة أصل نشأتها ، وتاريخ تكوينها ، والعوامل التى أدت إلى نهوضها ، ولا الأسباب التى انتهت بانحطاطها والقضاء عليها ، ولم يناقشوا نظرياتها واحدة واحدة ليوضحوا ما اشتملت عليه من أفكار الأقدمين ، وما أنتجت من ثروة جديدة . وأما رجالها فغرباء فى أوطانهم ، مجهولون لدى أقرب الناس اليهم ؛ ولا أدل على ذلك من أن كثيرين منا يعرفون عن (روسو + ١٧٧٨) أو (سبنسر + ١٩٠٣) ما لا يعرفون عن (الكندى + ٨٧٠) أو (الرازى + ٩٣٢) ، ولو لم يقيض الله لفلاسفة الأسلام جماعة من المستشرقين وقفوا عليهم جزءاً من أبحاثهم ودراساتهم ، لأصبحنا ونحن لا نعلم من أمر الفلسفة الأسلامية شيئاً

إلا أن هذه الدراسات وتلك الأبحاث قليلة جدا ومعيبة من وجهين : أولاً اهمالها للجانب الفلسفى واشتمالها على كثير من الأخطاء اللغوية والفنية والتاريخية . ولعل سر ذلك أن أغلب من كتبوا فى تاريخ الفلسفة الأسلامية لا يجيدون العربية ، ولا يحيطون تمام الأحاطة بتاريخ الثقافة الأسلامية ؛ أو إن عرفوا ذلك فهم يجهلون تاريخ الفلسفة العامة ، ولم يتوفر لديهم التفكير الفلسفى المنتظم ؛ ولسنا فى حاجة إلى سرد أمثلة ، فإن هذا الحكم ينطبق ، إذا استثنينا طائفة محدودة ، على عامة الكتب المتصلة بتاريخ الفلسفة والفلاسفة المسلمين . وأما العيب الثانى فميل شديد الى الاختصار يكاد يخل بالغرض المطلوب ، ويحول دون القارىء والنفوذ إلى صميم ما يقرؤه . ومن أوضح الأمثلة على ذلك مختصر قيم حقيقة للعالم الهولاندى (دى بور) ؛ غير أن عيبه الهام يرجع بالتحديد إلى اختصاره البالغ فيه [1] ؛ وفوق هذا فان هذه الكتب فى جملتها قديمة العهد ، قد ألفت فى زمن ما كان يُعرَف فيه عن التاريخ الأسلامى إلا الشىء القليل . أما اليوم وقد تقدمت معلوماتنا تقدماً محسوساً فى هذه الدائرة ، فنحن فى حاجة ماسة إلى أبحاث تتناسب مع مصادرنا الجديدة ، ومع ما استكشفنا من مخطوطات ومؤلفات للفلاسفة والعلماء المسلمين

لا يقاس انتشار صوت مفكر أو مخترع بمقدار ما أحدث من آراء ومخترعات فقط ، بل بدرجة نبوغ الوسط الذى يعيش فيه والشعب الذى ينتمى اليه . فالأمم النبيلة تزيد أبناءها عظمة على عظمتهم ، وتعمل على رفعتهم بقدر قد لا يصلون اليه وحدهم . ورب نظرة عادية لاقت مشجعين فنمّوها ، وأخذوا بيدها حتى صعدت إلى عنان السماء ؛ ورب فكرة ممتازة صادفت منبت سوء فماتت لساعتها . عرفت ذلك الشعوب الناهضة ، فأشادت بذكر علمائها وفلاسفتها ، وخدمت فى الوقت نفسه العلم والثقافة الأنسانية . فهى تخلد ذكرى رجالها بمختلف الوسائل ، وتعمل على نشر آثارهم ما وجدت إلى ذلك سبيلا . فمن تماثيل مقامة فى المدن والقرى ، ومن جمعيات نشر وترجمة وتأليف قد أخذت

---

(١) Id., L'organon d'Aristote dans le monde arabe, p.269

(١) نشير هنا إلى الكتاب الآتى : Boer (T. J. de), Geschichte der Philosophie in Islam, Stuttgart, 1901. وقد ترجم الى الأنجليزية (جونس) تحت هذا العنوان The History of Philosophy in Islam. London, 1903. وقد نفد الأصل الألمانى وترجمته الأنجليزية ؛ ويغلب على ظننا أن المؤلف يفكر فى إعادة طبعه فى هذه الأيام

على عاتقها إذاعة ما أنتج السلف من أفكار . فهل آن لنا أن نحتذى بهذه المثل الصالحة ، وأن نعرف لتاريخنا حقه كى نُعرَف وننال منزلتنا تحت الشمس ؟ متى يكتب الناس عن (الفارابى) بقدر ما كتبوا عن (موسى بن ميمون + ١٢٠٤) ؟ ومتى نُعرَف مؤلفات (ابن سينا) كما عرفت كتب (سان توما + ١٢٧٤) ؟ ومتى يُدرس (الغزالى + ١١١١) بقدر ما يُدرس (ديكارت) ؟

إن دعوتنا هذه موجهة إلى كل بلاد الشرق ، وبوجه خاص إلى مصر التى تستطيع بحكم مركزها الاقتصادى والاجتماعى والعلمى أن تخدم البحث والتأليف . فإلى أبناء مصر عامة ، أفراداً وجماعات ، شعباً وهيئات ، وإلى الحكومة والجامعة المصرية خاصة ، نتقدم بكلمتنا هذه آملين أن يعيروا تاريخ الفلسفة والبحث العقلى فى الاسلام جانباً كبيراً من الأهمية . إن ميدان العمل فسيح ، وإن سبله عديدة ، ولسنا الآن بصدد أن نرسم خطة شاملة ، أو أن نبين منهجاً مكتمل المواد ، وإنما نريد أن يتولى الشرقيون بالدرس فلاسفة الاسلام على النحو الذى درس به الغربيون رجالهم . لنترجم لمفكرينا ترجمة مستفيضة ، ولنصف وصفاً دقيقاً نواحى حياتهم المتعددة ؛ لنبحث عن أصول نظرياتهم لدى حكماء الأغريق والهند والعراق ، ولنقارن هذه النظريات بما جاء به اللاتينيون فى القرون الوسطى ، ولنبين وجوه النسبة بينها وبين الأفكار الحديثة . إنا لا ننكر أن هذه الأبحاث مملوءة بالمصاعب ، إذ تستلزم معرفة عدة لغات : قديمة وحديثة ، شرقية وغربية ، وتستدعى الاطلاع على مصادر لا حصر لها ، ولكن إن لم يكن فى هذه الدراسة إلا أنها عمل جديد من نوعه لكفى مرغباً فى مزاولتها والاقبال عليها

وأخيراً لنعمل على طبع ونشر مؤلفات الفلاسفة المسلمين ، فانا لا نستطيع أن نفهمهم فهماً حقاً دون أن نقرأهم بلغتهم وفى كتبهم ؛ وهنا نتجه بصفة خاصة إلى الجامعة المصرية التى سلكت فى هذا الباب مسلكاً نحمد عليه ، فقد بدأت منذ زمن ، متبعة سنة الجامعات الأوربية ، فى أحياء المخلفات العربية ، وجمع المخطوطات الاسلامية وطبعها [١] . وعلها تخطو فى هذه السبيل

(١) من الأمثلة الطيبة لمطبوعات الجامعة المصرية كتاب نقد النثر لقدامة القاهرة ، ١٩٣٣

خطوات أخرى حثيثة ومتتابعة . إنه لمحزن أن يبقى قدر من مؤلفات (الفارابى) مخطوطاً حتى اليوم ، وموزعاً بين مكاتب أوربا المختلفة : ليدن ، باريس ، والاسكوريال [١] . على أن ما طبع من كتب هذا الفيلسوف العظيم مملوء بالأخطاء . فهل لنا أن نسعى إلى جمع مؤلفاته فى شكل Corpus وطبعها كلها طبعاً مناسباً ، مصحوباً بوسائل التحقيق والايضاح الضرورى . الفكرة تخامرنا منذ زمن ؛ وقد أشرنا اليها فى كتابنا على (الفارابى) ، ونحن نرحب بكل من ينضم إلينا فى تنفيذها [٢] . وليس (ابن سينا) بأعظم حظا من سلفه وأستاذه ؛ فان كتابه الأكبر فى الفلسفة : «الشفا» ، قد طبع طبعة مشوهة فى طهران منذ خمسين سنة . وقد أهمل الناشر الجزء الأول منه ، الخاص بالمنطق ، والذى اهتدينا اليه أخيراً فى مخطوطة بالبرتش ميوزيم (British Museum) [٣] وأخرى بالأنديا أوفس (India Office) . وإنا لنأمل أن نوفق يوماً لنشر هذه المخطوطة وضمها إلى الجزءين الآخرين فى طبعة جديدة مستقيمة

تلك سلسلة من الأعمال تبين نواحى النقص فى دراسة الفلسفة الاسلامية ، وهناك ملاحظات كثيرة متعلقة بكبار فلاسفة الاسلام الذين لم نشر اليهم قد أرجأناها إلى فرصة أخرى . وكلنا رجاء أن تتضافر الأيدى على حرث وزرع هذا الحقل الترامى الأطراف ، وأن نتعهده متكاتفين حتى يؤتى أثماره الطيبة

ابراهيم بيومى مدكور
دكتور فى الآداب والفلسفة

(١) Brockelmann (c.), Geschichte der arabischen Literatur, Berlin, 1902, L. I., p. 211.

(٢) Madkour, La place d' al Fârâbî, pp. 223 — 25.

(٣) Id., L. organon d' Aristote..., p. 20.

بلالٌ يؤذِّن

للدكتور عبد الوهاب عزام



كاد الليل ينسلخ عن النهار ، وبشّرت بالصبح أنفاس الأسحار ، والدجى مهوّد وسنان ، سيفزعه عما قليل ذنب السرحان (١) والناس هاجدون وكأنهم أيقاظ ينتظرون صـــلاة الصبح ؛ وكأن آذانهم مصيخة تلقاء المسجد ، تتحين دعاء المؤذن ، وكأن قلوبهم إبر المغناطيس ترصد قطبها ، وتتجه الى إمامها ، والأمام هاجد يرعاه ربه ، تنام عيناه ولاينام قلبه . وملء الأرض والسماء السكينة والسلام

وسرى فى أحشاء الليل سار كطيف الخيال ، اتخذ من الليل جلباباً ، وطوى من الصبح قلباً وجناناً ، « آدم شديد الأدمة ، نحيف طوال أجنأ ، له شعر كثير ، خفيف العارضين ، به شمط كثير » (٢) تحمل جمّته الشمطاء ، تباشير الصباح الوضاء

ورتقى جدار المجلس ، فيجلس مقلّباً وجهه فى السماء ، ثم ينتفض قائماً ، فيضع سبّابتيه فى أذنيه ، فيبعث فى حواشى الظلماء ، صوتاً يجلجل فى الأرجاء : الله أكبر الله أكبر — الله أكبر الله أكبر ! أترى فلول الظلام مذءودة تلوذ بالباطل المنهزم ، أم ترى الباطل مذعوراً يلتفّ فى تلك الظُلَمَ ؟ ذلك النور المنبثق من الأفق الشرقى بسمة الفجر الصادق لهذا الصوت الآلهى ، بل ذلك النور الوضاء ، استجابة النهار لهذا النداء . فما الفجر إلا صوت نورانىّ ، يتلألأ بنغمات ذلك النور الصوتى ؛ ليت شعرى أيهما الصباح ، وأيهما أذان بلال بن رباح ؟ ويمضى بلال يصدع قلب الظلام ، بشهادتى الاسلام : أشهد أن لا إلــه إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . ثم يجيعل بالصلاة والفلاح ، ثم يعيد التكبير فى تمديد ، فيختم بكلمة التوحيد : لا إلــه إلا الله !

ويحسب بلال أن صوته لم ينفذ الى القلوب ، فلم تتجافَ عن مضاجعها الجنوب ، فيثوّب بالقوم : الصلاة خير من النوم (١)

يتهلل وجه الرسول (صلى الله عليه وسلم) لصوت الحق مدوّياً فى أعقاب الباطل ، ويبسم لصوت الحق عالياً طليقاً يملأ مابين الأرض والسماء ، والمشرق والمغرب . يبسم حين يسمع دعوة الحق فى قلب الجزيرة العربية على لسان عبد حبشىّ . وهل فى شرعة الأسلام عبد وحر ؟ وهل فى سُنة محمد عربىّ وحبشىّ ؟

وتنبعث فى كل أذن من هذا الصوت نغمة ، وفى كل قلب من هذا النور إشراق . فيهب الأصحاب من مراقدهم ، تقشعرّ جلودهم ، وتطمئن قلوبهم . فتستيقظ كل دار بأهبة الصلاة من الرجال والنساء والولدان والولائد

وينزل بلال فيقف بباب الحجرة النبوية قائلاً : « حىّ على الصلاة ، حىّ على الفلاح . الصلاة يارسول الله (٢) »

ويسفر النهار وتنثال الجموع إلى المسجد فانظر من ترى :

يخرج نفر الى المسجد من خوخات فى دورهم ، فهذا الآدم الربعـــة عظيم العينين ذو البطن سيف الله الغالب على بن أبى طالب ، يخرج من حجرة فاطمة . وهـذا الآدم الطويل الجسيم الأصلع عمر الفاورق ، وهذا الأسمر الرقيق البشرة ضخم المنكبين كثير شعر الرأس عظيم اللحية عثمان ذو النورين ، والصدّيق كان فى السُّنْح (٣) هذه الليلة فيقدم مسرعاً فتراه أبيض نحيفاً معروق الوجه غائر العينين خفيف العارضين أجنأ (٤) . ويُقبل من دور بني زهرة بجانب المسجد ثلاثة : أحدهم قصير دحداح ذو هامة عظيمة ، شثن الأصابع ، كثير الشعر يخضب بالسواد ، هو سعد بن مالك بن أبى وقاص ، والثـانى آدم نحيف قصير له شعر يبلغ ترقوته ، يلبس ثوباً ناصع البياض ، تضوع منه ريح

(١) ذنب السرحان الفجر الـكاذب وهو الضوء الذى يظهر فى الأفق مستطيلا قبل الفجر ، وكان بلال يسبق الفجر بأذانه

(٢) طبقات ابن سعد

(١) زاد بلال هذه الـكلمة بعد الآذان فأقره عليها الرسول

(٢) طبقات ابن سعد

(٣) السنح محلة فى المدينة على ميل من المسجد كان لأبى بكر دار بها

(٤) حلية الخلفاء الراشدين من الطبرى ، وبقية الصحابة من الأصابة وطبقات ابن سعد

الطيب ، يمشى فى وقار وسمت ، هو عبد الله بن مسعود ، والثالث ضخم طويل شديد الأدمة هو المقداد بن الأسود . ويُقبل آخران : فهذا الطويل الجسيم خالد بن الوليد ، وهذا القصير الأبلج الأدعج عمرو بن العاص ، وفى أثرهما رجل جميل عظيم الهـامة مكتحل يخطر فى مشيته هو معاوية بن أبى سفيان ، وبجانبه رجل نحيف طوال معروق الوجه خفيف اللحية اجنأ أثرم الثـنيـّتين هو أبو عبيدة ابن الجراح . ويقبل من ناحية الحرة الشرقية رجلان : سعد بن معاذ سيد الأوس ، وسعد بن عبادة سيد الخزرج ؛ ويأتى رجل طويل نحيف كثير الشعر عليه سيما الحزن هو سلمان الفارسىّ ، ووراءه رجل ربعة أحمر شديد الحمرة كثير شعر الرأس ، يخضب بالحناء هو صهيب الرومى ؛ وانظر بين الجمع طلحة والزبير وأبا موسى الأشعرى وأبا أيوب الأنصارى . ويأتى بنو الصحابة ، فهذا الغلام الطويل الأحمر عبـد الله بن عمر ، وهـذا الغلام الطويل الأبيض المشرب بالصفرة الجسيم الوسيم الصبيح الوجه عبد الله ابن عباس ، وهذا الصبى الذى يشبه أبا بكر عبد الله بن الزبير .

ويخرج رسول الله صلوات الله عليه ، فيقيم بلال الصلاة : الله أكبر الله أكبر الخ ، فيسوّى الرسول الصفوف ، ويسدّ الفُـرَج فيها ويكـبّر فيكبرون . ويذهب هذا التكبير نغمة متّسقة بين ضوضاء العالم وجلبته ، ودعوة للحق بين أكاذيبه وأباطيله . يذهب هذا التكبير فى الأرجاء طمأنينة لقلوب ، ورعدة لقلوب ، ورجاء لقوم ، وخوفاً لآخرين ، يبشر الضعفاء والمظلومين بملكوت الله فى الأرض ، وينذر الجبارين والظالمين بالقصاص العادل . إنما مزق شمل الظالمين هـذه الصفوف لا صفوف القتال ، وإنما زلزل عروش الجبارين ذلك التكبير لا وقع النبال

ويقرأ الرسول فى الركعة الأولى آيات من سورة النور منها : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لايشركون بى شيئاً . ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون »

ويقرأ فى الركعة الثانية آيات من سورة الحج منها :

« إن الله يدافع عن الذين آمنوا ، إن الله لايحب كل خوان كفور . أذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربُّنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامعُ وبيعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يذكر فيها اسمُ الله كثيراً . ولينصرنّ الله من ينصره إن الله لقوّى عزيز . الذين إن مكنّاهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوُا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور »

هذه جماعة يمحصها الله ليورثها أرضه ، ويعلمها لتقوم بين الناس بعدله . وهذا الصف من العُبّاد يجمع خلفاء الأرض وأمراءها وولاتها وقضاتها ومعلميها وقوّادها وجندها ، وتلك الشرذمة من الزهاد هم ورثة العروش والتيجان عما قليل ، الذين يقسم الله رزقه بأيديهم ، ويصرف حكمه فى الأرض بألسنتهم . جماعة تضمهم جُدُر المسجد اليوم ولايسعهم العـالم غداً ، جماعة فى أرض فقيرة بين لابتين[1] ، سينتشرون بين المشرقين والمغربين ، وستجف الأرض بحملاتهم ، وتقرّ بعدلهم ، وتضىء بإيمانهم

قضيت الصلاة ، وانتشر المصلون

* * *

لا إلـه إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعزّ جنده . قد فتحت بهذه الجماعة الأقطار ، وعمرت بهم الأمصار ، هذا عمر فى الشام قد أزال عنها سلطان الروم ، ثم جاءها ليبرم العهود ، ويتفقد الرعية ؛ وهذا بلال فى جيش المجاهدين غازياً ؛ ينظر عمر الى بلال يودّ أن يسمع أذانه ، ويهاب أن يستمع لمؤذن رسول الله . ويقول الناس لعمر : لو أمرت بلالاً أن يؤذن ! ويقترح عمر على بلال الأذان ، فينهض الشيخ ابن السبعين تحت أعباء السنين ، فيدوّى فى الأرجاء : الله أكبر ، الله أكبر ...[2]

لقد كان أذان الشام تصديق أذان المدينة . . . . اجل أجل لقد صدق الله وعده ! !

ولـكن انظر الى عمر ، ألا تراه ينشج ؟ ألا ترى دموعه تبلّ لحيته ؟ ألا ترى القوم فى بكاء ونحيب ؟ مادهاهم ؟ ما أبكاهم ؟ لقد نصرهم الله ومكّن لهم فى الأرض ، وأغناهم وأعزهم . فما دهاهم وما أبكاهم ؟ يبكون إذ رأوا المؤذن ولم يروا الامام ! يبكون إذ سمعوا مؤذن رسول الله ، ثم نظروا فلم يجدوا رسول الله !

عبد الوهاب عزام

---

(١) اللابة الحرة ، والمدينة بين حرتين شرقية وغربية

(٢) كان هذا فى السنة الثامنة عشرة من الهجرة

ألحان الفجر

بقلم أمجد الطرابلسى

« ترفع إلى مجد الهجرة وفجر الاسلام »

فى هدأة السكون وصمت الورى   قام يوالى فى الظلام اللحون
يدعو لشكر الله صرعى الكرى   والناس فى أحلامهم مُغرقون

يا مُنشداً فى السَّحرِ الرائقِ   رَدِّدْ علىَّ النغمات العِذابْ
لعلها تَفْثأُ عن خافقى   بَرْحَ العوادى وَمضَّ العذاب

مؤذِّنَ الفجرِ عداكَ الأذى   أصمَّنا عنكَ غرورُ الحياهْ
أسمعْتَ لو يسمعُ أهلُ البِلى   فكفكِفِ الدمعَ وناجِ الإلهْ

سبِّحْ فإن الكونَ تحتَ الحلكْ   سبَّحَ للهِ وأبدى الخشوعْ
وابعثْ أغاريدكَ تشجى الفلكْ   وإن أثارت فى شؤونى الدموع

وارحمتا للناس وارحمتاه   من عَبَثِ الدنيا ومن شرِّها
ضلوا مع اليقظةِ كُنْهَ الحياه   فساءلوا الأحلامَ عن سرِّها

تعدو على الفجرِ عوادى الدُّجونْ   والفجرُ من بعدِ الدُّجى يسطعُ
والناس فى ليلِ المُنى مُدْلجُون   يرجونَ فجراً وهو لا يطلع

هل نحنُ فى الدنيا سِوى قافله   تعبرُ فى الليلِ صحارَى الحياهْ
تمضى كهذى الأنجم الآفِلهْ   من قبلِ أن يبلغَ فردٌ مناه

تخطُّ فى الرَّملِ رسومَ الخُطى   وتملأ الجوَّ برَجْعِ الحُداءْ
فتطمِسُ الرِّيحُ خُطوطَ السُّرى   ويطوى الضَّجَّةَ رَحْبُ الفضاءْ

يافجرُ إنى قد أطلتُ النظرْ   فى الكوكبِ المضطربِ الساهمِ
وقلتُ علِّى أستشِفُّ القدرْ   وراء هذا الأفقِ الحالمِ

حدَّقتُ! لكن ماعسى أن أرى   والبصرُ الظامئُ فى الافقِ تاهْ
كونٌ هنىءٌ فى خِضَمِّ الكرى   يحلُم مغموراً بعطفِ الإلهْ

لاهُمَّ أغرانى وهاجَ الخيالْ   تثاؤبُ الأكوانِ بعدَ الرُّقادْ
رباه، رباه، أفضتَ الجمالْ   حتى ازدهى الحىُّ ورفَّ الجمادْ

فى كلِّ ما نُبْصِرُه نفحةٌ   من حسنك الصافى ومن لطفكا
ربِّ وفى كلِّ صدًى نغمةٌ   تشدو بآلائك أو عطفكا

ربِّ تجلَّيتَ لأرواحنا   فى سِحرِ الدوِّ وشمِّ الجبالْ
وفى مآسينا وأفراحنا   وبسمةِ الفجرِ وصمتِ الليالْ

وفى اصطخابِ الموجِ إذ يصطخب
وفى سكونِ اليمِّ إذ يسكنُ
وفى هزيمِ الرَّعدِ إما غضِبْ   وفى نُواحِ الطيرِ إذ تحزَنُ

والقريةِ الهادئةِ الحالمهْ   والرَّوضةِ الفوَّاحةِ الناضرهْ
والليلةِ المقمرةِ الباسمهْ   والأنجمِ البرَّاقةِ الحائره

لاهُمَّ إن الكونَ ذا معبدُكْ   أرنو فلا أُبصرُ فيه سِواكْ
وكلُّه ألسنةٌ تحمَدُكْ   تشدو بما يغمُرُها من نداكْ

وارحمتا ربِّ لمن لا يراكْ   هل يعرفُ السلوَى ترى قلبُه؟
ماحاله إن طوَّقته الشِّراكْ   وآدَه من دهرِهِ خطبُه؟

يازورقَ الأكوانِ فضْ بالمُنى   واجرِ رُخاءً فى خِضَمِّ الأبدْ
واعزِفْ بمجدافِكَ لحنَ الهنا   بين رؤى الأمسِ وآمالِ غدْ

سِرْ آمناً فى لُجِّهِ حالمـا   فإن ربَّانَكَ جمُّ الحنانْ
قد وسِعت رحمتُه العالمـا   مُذ أبدعَ الكونَ وأجرى الزمان

يا روعةَ الفجرِ أطلتِ السكون   تحتَ الدياجى وأطلتِ الوجومْ
فزحزحى عن منكبيكِ الدجونْ
فقد نزتْ فىَّ خوابى الهموم

غشَتْ على عينىَّ سُحْبُ الضجَرْ   حتى كأنى أبداً فى ظلامْ
من أينَ تأتينىَ سودُ الفِكَرْ؟   من أينَ ينصبُّ علىَّ الألم؟

ماحيلتى والقلب مُستعبرُ   جمُّ الأسى حفَّ به غيهبُ
أرجو له البِشرَ فلا يَحْبَرُ   وأنشد السلوى فلا يطرَبُ

رباه قد أضنى فؤادى الأسى   وآن للجاهدِ أن يستريح
أكلما افترَّت زهور المنى   طاحت بها فى حومة اليأس ريح

النظرية الموسـيقية عند العرب القدماء

بقلم حسين سراج

ما هى الحقائق المختصة بنظرية الموسيقى العربية ؟

تقول الآنسة « Schlesinger » إن علم الموسيقى الذى تطور على أيدى كتاب العرب تطوراً عظيماً — يُعزى اقتباسه من الفرس الذين غلبهم العرب الى أمر النبى ، وإذا أردنا زيادة فى التدقيق قلنا إنه أخذ من اليونان [(١)]

ولتسمح لى الآنسـة أن أقول بصراحة إنه لامبرر للرأى القائل إن النبى أمر بشىء كهذا . والحقيقة — كما يعرفها المستشرقون — هى أن الغناء فى الاسلام كان ولا يزال معدوداً من الملاهى المحرمة ، وأن كل فرقة من المذاهب الأربعة قررت حرمة السماع ، أو على الأقل جعلته غير لائق دينا ، وقد كتبت مئات من الرسائل فى أحاديث النبى عن تحريم الغناء[(٢)]

لم تنشأ الثقافة العربية ولا الحضارة البدوية مع البدو الرحل أو الاسلام — كما افترضت الآنسة Schelesinger وانما نجد منذ أوائل العصر الألفى الثانى قبل الميلاد أخباراً عن مملكة عرب الجنوب ، حيث نتلمس حضارة زاهية تضاهى ثقافة البابليين والأشوريين ، وفى الحقيقة أن اليونان مدينون ثقافة للعرب ، ويعتقد « همّل » وآخرون أن من المرجح أن يكون اليونان قد أخذوا عن عرب الجنوب لا « أبولو Apollo » « وليتو Lets » و « ديونيسوس Dianoysos » « وهرمس Hermes » فحسب ، بل « الهاء » و « السين » من حروف الهجاء [(١)] أيضاً

وقبل الاسلام بزمان طويل نقرأ فى ثنايا الكتب عن الكفاية الموسيقية عند العرب القدماء ، ومن الاجحاف أن ندعى أنه لم تكن عندهم نظرية موسيقية إذا واجهنا أو قابلنا بين مانعرفه من الثقافة العامة عند الكلدان والمعينيين والسبئيين والنبطيين والتدمريين ، وبين من جاء بعدهم من اللخميين والغساسنة

وتتبع الآنسة « Schelsiuger » المدرسـة القديمة القائلة — قبل قرن أو أكثر — إن العرب لم تكن عندهم نظرية موسيقية غير ما اقتبسوه من الفرس أو اليونان ، وتسترسل فى القول أن كلا الشعبين (اليونان والفرس) كانت لهما نظم موسيقية خاصة بهما ، ولم يكن عند العرب حتى هـذا الوقت نظام يستطيعون أن يجملوه نظرية . ولدينا عبارة مماثلة لهذا القول فى كتابها « رسل أسرة الكمنجة » (ص ٣٩٧ — ٣٩٨) اذ تقول : « افتتح العرب فارس فى القرن السادس ، ومن سجلاتهم نقرأ أنهم وجدوا نظام الفرس الموسيقى أرقى بكثير من نظامهم ، فاقتبسوه ودرسوه درساً عميقاً على أساتذة وطنيين [(٢)] »

أما الحقيقة فهى أن العرب افتتحوا فارس فى القرن السابع ، وكان لهم نظام صيروه نظرية قبيل فتح فارس

ونجد المغنين العرب من حين الى آخر يفاخرون بالتقاليد الموسيقية التى تحدرت اليهم من عصور الجاهلية مثل المغنية الجاهلية « رائقة » معلمة « عزة الميلاء » [(٣)] . وكان العرب فى هـذه الحقبة التى ظن فيها حدوث هذه العارية الأجنبية حذرين من أى تعد على ذلك الشىء المقدس وهو القومية العربية . وهل يتساهل العرب فى دخول الطرق والعادات الأجنبية بهذا القدر وكل كلمة من عمر تدعو الى الجامعة العربية ؟ [(٤)]

ولئن قلنا إن العرب لم يكن عندهم نظام موسيقى فى هذا الوقت (أى وقت فتح فارس) ليبنوا عليه نظرية لاتتفق مع

(١) Arabian Musical Influence p. 48
(٢) Arabian Musical Influence p. 48

(١) Enyclopaedia of Islam I. p, 380
(٢) Arab. Mus. Inf. p. 50
(٣) أغانى ج ١٦ ص ١٣ (٤) جرجى زيدان التمدن ج ٤ ص ٣٢

ربَّاه كم نُوْتُ بما أحملُ … وكنت يا ربِّ مَناطَ الرجاء
رباه لولا عطفُكَ المُسبَلُ … ما ساغَ لى طولَ حياتى عزاء

لا همَّ أفعمتَ الدُّنا بالضياء … وانجابَ عنها ليلُها الأغبَرُ
فاسكُب على قلبىَ نورَ الرَّجاء … من قبلِ أن يَطْوِيَه المَقبَرُ

(دمشق) أمجد الطرابلسى

الحقيقة ، فلدينا شواهد كثيرة على وجود موسيقى وغناء فى عصور الجاهلية ، ويكاد يكون مستحيلاً أن نتصور هؤلاء القوم الذين كانت الموسيقى لهم من الحاجات الضرورية ، والذين استطاعوا تهذيب أشعارهم كما نراها فى المعلقات والحماسة والمفضليات ، غير قادرين على تنظيم غنائهم [1]

ومن حسن الحظ أن حفظ لنا الفارابى مطولات عن نظام جاهلى فى سلم الطنبور البغدادى كان يتوصل اليه بتقسيم طول الوتر الى أربعين قسما ؛ ويرجح أن عرب الجزيرة ورثوا هذا السلم «Scale» عن الكلدانيين الذين ورثوه عن الأشوريين والبابليين ، وحينما حل محله النغم الفيثاغورى فى الشرق الأدنى انتقف وفارس كما حل بين عرب سوريا والحيرة ، عاش هذا الطنبور فى أرجاء الحجاز واليمن القاصية ووجد له عشاقاً حتى القرن العاشر بعد الميلاد

كانت الحيرة فى أيام الجاهلية المركز الأعظم للآداب العربية ومنها انتشر الشعر فى أنحاء شبه الجزيرة . وبما أننا نعلم الصلة الشديدة بين الشعر والموسيقى فمن الممكن أن نتصور أن الموسيقى نفقت سوقها كالشعر ، وفى الحقيقة يجب أن تكون الحيرة على ثقافة موسيقية عالية متى علمنا أن ملك الفرس العظيم بهرام غور (٤٣٠ — ٤٣٨ م) أرسل الى بلاط اللخميين العرب فى تلك المدينة ليتثقف ، وهناك تعلم الموسيقى بين الآداب العربية الأخرى [2] . وكان هذا قبل أن يتغلب العرب على الفرس . ولربما سأل سائل : ما الذى اضطر يزدجرد الأول والفرس الى ارسال الأمير الصغير الى شعب ليس له أسلوب خاص فنى فيطلمه عليه (كما تقول الآنسة « Schelesinger ») ومن المستغرب أيضاً أن فارس وهى النبع المشهور للنظام الموسيقى العربى تفتقر تحت حكم بهرام غور الى مغنين محترفين يُرسلون اليها من الخارج [3]

ويضع الطبرى بين سقطات النعمان الثالث (٥٨٠ ـ ٦٠٢ م) آخر ملوك اللخميين ميله للغناء . ومن الحيرة اقتبس العرب حوالى آخر القرن السادس الميلادى ذلك الغناء الذى حل محل « النصب » والعود والمزهر [4]

أما أن العرب كان لهم نظام موسيقى محلى فيثبت جلياً بحجج عديدة . وأما أن يكون هذا النظام قد تأثر بنظريات الفرس والبيزنطيين وفيما بعد بالأصول اليونانية القديمة فرأى يسهل قبوله ؛ كذلك لا ينكر أن الفرس والبيزنطيين تأثروا جميعاً بالنظرية الموسيقية العربية (ولو كانت التسمية مرشداً لقلنا إن النظرية الفارسية مبنية بالكلية على الأصول العربية) [1]

كان التأثير الأجنبى على الموسيقى العربية سطحيا ولم يكن له فى البدء أثر على النظرية . قرأنا عن المغنين المتقدمين أمثال طويس وسائب خاثر اللذين قلدا أسلوب الفرس فى الغناء وفى نفس الوقت وجدنا مغنياً فارسياً كنشيط يدرس أسلوب العرب فى الغناء . ليس هنالك تعقيد نظرى وجل ما هناك هو اقتباس شعب من آخر شكلاً خاصاً أو أسلوباً غنائياً

على أن تبعة الظن بوجود صبغة موسيقية أجنبية تلقى على ابن خلدون الذى يقول فى مقدمته إن اتصال المغنين من الفرس والروم بالحجاز ولعبهم على العود والطنبور والبربط والمعزف والزمار قاد العرب إلى اقتباس ألحان الفرس والروم فى أشعارهم [2]

هذا القول لا يتفق مع أقوال المؤرخين الأول كابن عبد ربه والأصفهانى والمسعودى أولاً : لأن هذه الرواية تضلل الناس وتجعلهم يعزون بغير حق الفخر للفرس والبيزنطيين بأدخال هذه الآلات المذكورة إلى البلاد العربية . وفى الواقع أنها كانت عند العرب من قبل [3] . ثانياً : لم يذكر كتاب الأغانى وهو أعظم مصدر لأخبار الغناء عند العرب مغنياً رومياً واحداً . وإذا استثنينا نشيطاً فمن الرجح أن كل من يدعون بالمغنين الفرس ولدوا بالجزيرة أو تثقفوا فيها

والحقيقة ان المغنين البارزين الذى أتوا من غير الحجاز فى هذا الزمن أربعة : نشيط الفارسى ، وأبو كامل الغزيل الدمشقى ، وابن الطنبورة اليمنى . وحنين الحيرى ؛ ولهذا نرى أن أى تأثير خارجى فى الموسيقى العربية حتى بالطريقة العرضية التى ألمنا اليها أتى على أيد عربية

لم يقرر المؤرخون نهائياً ولا فى موضع ما ما اقتبس العرب

(١) Arab. Mus. Inf. p. 51
(٢) الطبرى ج ١ ص ١٨٥ (٣) Arab. Mus. Inf. p. 52
(٤) المسعودى ج ٨ ص ٩٤

(١) أغانى ج ١ ص ١٥١
(٢) ابن خلدون ج ٢ ص ٣٦٠
(٣) مسعودى ج ٨ ص ٨٩ . . . الحماسة ج ١ ص ٥٠٢ ، الطبرى ج ١ ص ٣٠٧ ، الأغانى ج ٢ ص ١٧٢

من الفرس والبيزنطيين فى قضية النظرية . دعونا قبل كل شئ نحرر أذهاننا من الظن بأن العرب أقروا بأن الفرس كان لهم نظام موسيقى أرقى بكثير من نظامهم . ثم فيما يتعلق بالرسائل فإن أقدم كتاب فارسى فى الغناء مؤلف فى القرن الثانى عشر الميلادى . ولكن عندنا رسائل فى الموسيقى العربية يرجع تاريخها إلى القرن التاسع (الكندى توفى سنة ٨٧٤ م) : ولدينا دليل على تآليف مصنفة فى القرن الثامن (يونس الكاتب توفى سنة ٧٦٠ م والخليل بن أحمد توفى سنة ٧٩١) (١)

وفى الحقيقة أن كل ما نعرفه عن الموسيقى الفارسية الأولى أتى من مصادر عربية ، والمرجع الوحيد الذى يعالج هذه القضية بتوسع هو المسعودى (توفى سنة ٩٥٦ م) فهو يقول ـ مستشهداً بقول ابن خرداذبة (القرن التاسع) وهو كاتب متقدم ـ « اخترع الفرس النغم والتوقيعات والمقاطع « Soesusae » والطرق اللوكية « Royal melodies » (٢) ولكى نقدر تماماً قيمة هذه الفقرة علينا أن نتذكر أن الغناء كان محرماً عند المسلمين وأن المؤرخين لم يكونوا مهتمين بالتماس عذر لمن يتجاوز مصدراً محلياً لشئ « منكر » كالغناء كما يطلق عليه المتشرعون من المسلمين (٣)

ويجب ألا ننسى أن عصر الأمويين عصر ساد فيه الشعور القومى فنُظمت فيه المثل الوثنية العربية وهذبت أكثر التأثيرات الأجنبية فى الموسيقى العربية ، وقد أشار اليها « لاند Land » بقوله : « ما استورده العرب من الفرس والرومان لم يحل محل الموسيقى الوطنية بل طعم على جذر عربى وبقى له شكله الخاص » (٤)

ما أخذ العرب من الفرس لا يمكن التأكد منه بالضبط ، وجل ما نعرفه أن الفائدة التى نشأت من الاحتكاك الفارسى هى من جهة الآلات الموسيقية . فمثلاً كلمة « دستان Fret » فارسية استعملها العرب لمواضع الاصبع على لوحة رأس العود الخشبية أو الطنبور (٥). ومن المؤكد أن العرب لم يأخذوا السلم الفارسى . لأننا نجد أنهم انتُقدوا لاستعمالهم الأنغام الفارسية التى كانت متمثلة فى سلم الطنبور الخراسانى (٦) ، فأدخل « زلزل » أحد المغنين فى

(١) Arab. Mus. Inf. p.55
(٢) مسعودى ج ٨ ص ٩٠
(٣) Arab. Mus. Inf. p. 55   (٤) Arab. Mus. Inf. p. 57
(٥) Hist. of arab. Music p. 70   (٦) العقد الفريد ج ٣ ص ١٩٠

عصر العباسيين شكلا جديداً من العود حل محل العود الفارسى وسمى هذا العود بعود « الشبّوط Perfect Lute »(١)

وهنالك أسباب تحملنا على الاعتقاد بأن العرب عدلوا دوزان (عودهم) على النمط الفارسى . فقد كان الدوزان العربى القديم كما يظهر « A — G — D — C » ولكن بدخول النمط الفارسى لحن على « C — G — D — A » ولعل هذا يوضح لنا الأسماء الفارسية « زير » و « بَمّ » المرموز بهما للوترين الأول والرابع بينما الوتر الثانى والثالث اللذان لم تصبغهما الفارسية ظلا محافظين على أسميهما العربيين وهما : المَثْنى والمَثْلث (٢)

أما الخطة التى سار عليها البيزنطيون فى قضية النظرية الموسيقية فليس لنا بها علم ، فمنذ القرن الرابع حتى القرن الحادى عشر الميلادى — وهو يشمل القسم الأكبر من عهد البيزنطيين — لم تصلنا مؤلفات بيزنطية . ومن المرجح أنه لم يكتب شىء بالنظر الى الحالات الثقافية التى نعرفها ، ومن المؤكد أن اللاتينين « امدوا Cop ella » و « mertianus » و « Boëttius » و « Cassio dorus » فى القرنين الخامس والسادس ، ولكنهم لم يدونوا نظرية معاصريهم ، كلا ولا خبرة اللاتين لأن تآليفهم عبارة عن مجموعات للمشتغلين بالأمور النظرية من اليونان القدماء . أما الشىء القليل الذى نعرفه فى هذه الحقبة عن نظرية البيزنطيين ومزاولتهم للموسيقى ، فقد أتى الينا من مصادر عربية وسريانية

ليس لدينا رسائل بيزنطية أو فارسية تثبت وجود الموسيقى حتى القرنين الحادى عشر والثانى عشر تقريباً . ولكن حق للعرب أن يفاخروا بعشرات من الرسائل القديمة . ويجب علينا قبل كل شىء أن نكون حذرين فى قبول الروايات المختصة بما اقتبس العرب من الفرس والبيزنطيين . أما أن يتسرب شىء من التأثير من هذين المصدرين فمن الممكن تجويزه (٣)

وأول خبر لدينا عن تأثير فارسى وبيزنطى محدود فى الموسيقى العربية ، هو ماذكره الأغانى عند كلامه عن ابن مسجح الذى يعزى إليه ادخال الأنغام الموسيقية الأجنبية على الفن المحلى

(١) Hist of Arab. Music p. 108
(٢) Hist of Arab Mus.p.70   (٣) Arab. Music. Inf. p. 56–57

يقول صاحب الأغانى : « وفى سورية تعلم ابن مسجح الألحان الرومية وتلقى ارشادات الباربطية (Barbition playus) والأسطوخسية . وبعد ذلك انقلب إلى فارس فأخذ بها غناء كثيراً وتعلم الضرب (accompaniment) ثم رجع الى الحجاز وقد أخذ محاسن تلك النغم وحذف منها ما استقبحه من النبرات والنغم والتى هى موجودة فى نغم غناء الفرس والروم خارجة عن غناء العرب [1]

فما اقتبسه العرب فيما بعد من البزنطيين والفرس لا يمكننا إثباته بالتحقيق ، ومن المحتمل أن النظامين المعروفين « بالمجربين Two Courses » كانا من أصل بيزنطى أو لعلهما عرفا بين تعاليم الساميين [2] أما الأصول العامة للأسطوخسية البيزنطيين فلم يأخذها العرب ، وإذا كان هنالك شىء فهو قليل لأن مخطوطة الكندى التى ألمعنا اليها قبلاً تقول إن مبادىء الأسطوخسية الرومية تختلف عن المبادىء العربية [3]

أما مسألة الايقاع والقيم القياسية فنحن نعلم أن العرب كان لهم نظام منذ أوائل القرن السابع الميلادى [4] فقد كتب الخليل ابن أحمد « كتاب الايقاع » فى القرن الثامن [5] . ونجد فى القرن التاسع نظاماً يصفه الكندى جيداً بقوله « وهنا لدينا قسم موحد من الموسيقى العربية نظامه — كما يظهر — تطور وفقاً لنظام محلى [6] » وقد اقتبس الفرس توقيعاتهم وقوافيهم من العرب [7]

ولقد غير اسحاق الموصلى (٧٦٧ — ٨٥٠) شكل النظرية العربية القديمة فى وقت ترجمت فيه النظريات اليونانية القديمة الى العربية ولكن هذا التغيير حدث بدون الاستعانة بكتاب اليونان . يقول صاحب الأغانى : « كان اسحاق أول من ضبط الألحان والتوقيعات وقسمها بطريقة لم تعرف من قبل ، وكان العالم المتقدم يونس الكاتب المتوفى سنة ٧٦٠ قد أشار اليها . ويقال إن اسحاق توصل فى عمله الى نتائج أقليدس والأوائل الذين كتبوا عن علم الموسيقى ، ولكنه توصل الى هذه النتائج بتجاربه الخاصة المنفردة بدون معرفة كتاب واحد من كتب الأوائل [8] » أما أن اسحاق لم يعرف شيئاً عن المشتغلين بالنظريات من اليونان القدماء ، فمثبت فى فقرة أخرى [1] . وكان نظام اسحاق شائعاً فى أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الميلادى . وقد وضح هذه العبارة بجلاء تام صاحب الأغانى [2] ويحيى بن على الذى ميز هذا النظام من نظام اليونان [3]

فاستنادنا الى ما فصله الكندى وغيره من الكتاب كصاحب الأغانى فى تعريفه النظام العربى القديم قبيل زمن الشراح (Scholiasts) اليونان كاف لأن يثبت لنا أن هذا النظام كان يختلف عن نظام فارس والروم واليونان

أما فى تاريخ الأنغام « modes » ففى استطاعتنا معرفة ما اقتبسه العرب من فارس وبيزنطة

كان لدى الهنود — على رأى « رامیانا — Ramyana » سبعة « Jëtis » وهى أشبه بالرقص « Rëgrs » [4] . ويقول أمين « كان للفرس سبعة أنغام إلا أنها فى أيام خسرو ابروز (٥٩٠ — ٦٢٨) أصبحت اثنى عشر نغماً [5] » . ويسجل « بار هبروس السريانى » هذه الاثنى عشر لحناً للفرس . ومع أن بعضاً منها قلده العرب على أصله أو بتحريف قليل فيما بعد ، نتذكر أيضاً أن العرب استعملوا أنغامهم الوطنية زمناً طويلا قبل هذا التقليد

ففى القرن الثامن الميلادى ألف يونس الكاتب (توفى سنة ٧٦٠م) والخليل بن أحمد (توفى سنة ٧٩١ م) كتاب النغم . ونقرأ فى كتاب الأغانى (كتب فى القرن العاشر) عن ثمانى نغمات لم توضع لها أسماء خيالية كما هى فى الفارسية واليونانية ، وانما هى أسماء بعد أصابع . وكان للسريان أيضاً « آحادهم Ikhadias » ومثلهم اليهود ، ولكنها (أى الأنغام) لم تكن كالأنغام اليونانية ، وهى حالة يجب أن ننعم النظر فيها . أما النغمات العربية والفارسية والبيزنطية فى القرن التاسع فكانت مختلفة ، كما ثبت فى الرسالة المنسوبة للكندى [6] التى أشرت اليها قبلا . ويظهر جلياً

---

(١) الأغانى ج ٣ — ٨٤
(٢) Hist of Arab Music p. 71
(٣) Berlin MS. - 5530 fol. 30
(٤) أغانى ج ٢ ص ١٧٠ ، ج ١٦ ص ١٣
(٥) الفهرست ص ٤٣
(٦) Arab. Mus. Inf. p. 58
(٧) Browne, Litt. Hist. of presia p. 12
(٨) أغانى ج ٥ ص ٥٢ — ٥٣

---

(١) أغانى ج ٥ ص ٥٣
(٢) أغانى ج ١ ص ٢
(٣) Arab. Music. Inf. p. 59
(٤) Popley - Music of India, p. 10
(٥) Jones, Sir W., « Music of Hindustan, » p. 63
(٦) Arab. Music. Inf p 60

أن للنظام الأساسي لكل من هذه الشعوب مزية هامة [١] . يقول اخوان الصفا : « . . . إذا تأملت فلكل أمة من الناس ألحان ونغمات يستلذونها ويفرحون بها ولا يستلذها غيرهم ولا يفرح بها سواهم مثل غناء الديلم والأتراك والعرب والأكراد والأرمن والزنج والفرس والروم وغيرهم من الأمم المختلفة الألسن والطباع والعادات [٢] »

وقد نجد فى تأثير النظام العربى القديم على أوربا الغربية ما يدعم قولى ويزيده ايضاحاً . على أنى وإن لم أهيىء العدة تماماً للاعراب عن هـذا التأثير . فانى أجتزئ باليسير من آراء كتاب غربيين عن هذا التأثير :

« مما لاريب فيه أن أوربا الغربية شعرت على العموم بتيار الثقافة العربية من جراء الاحتكاك السياسى Political Cantact وأرى أن الموسيقى الأوربيـة تأثرت فى هذه الناحية بتجوال المطرب العربى أو المغربى

كان أكثر ما اقتبسه الغرب من الشرق فى هـذه الناحية هو الآلات ، قال « كار انجل Car Ingel » : « لما أتى العرب أوربا فى ابتداء القرن الثامن كانوا أكثر تقدماً من الشعوب الأوربية فى الثقافة الموسيقية ، أو على الأقل فى تركيب الآلات الموسيقية . وهكذا لا يسعنا إلا تقدير تأثيرهم الموسيقى الرائع [٣] »

وهم كما يقول « فارمر Farmer » أول من أتحفونا بوصف علمى حقيقى للآلات الموسيقية . . . « وما كان لدينا من نظم فى تعليم الآلات فى العصور الوسطى فمقتبس من العربية . »

وتسلم الآنسة « Schelesiugr » أن للعرب فضلاً على أوروبا فى العصور الوسطى فى مسألة الآلات الموسيقية ولـكنها تنكر أن أوروبا — أخذت أى نظرية منهم ، وهـذا القول يتجاهل تأثير نقطتى الاحتكاك الثقافى العربى وهما :

(١) أغانى ج ٥ ص ٥٧
(٢) إخوان الصفا ١ ص ٩٢ — ٩٣
(٣) Early Hist of the Vialin Family p 79

(١) الاحتكاك السياسى الذى ابتدأ فى القرن الثامن وانتشر فى الخارج خصوصاً على أيدى العازفين

(٢) الاحتكاك الفكرى الأدبى الذى ابتدأه العقليون Intellectuals [١]

إذن يمكننى أن أستنتج — استناداً على ما أدليت من الحجج — أن العرب كان لهم نظام موسيقى قديم يختلف عن نظام الفرس والروم واليونان القدماء ، وأن القائلين بنسبة هذا النظام الموسيقى العربى الى فارس وغيرها ، جديرون بالعدول عن أقوالهم أمام هذه البراهين ؟

بيروت — حسين سراج

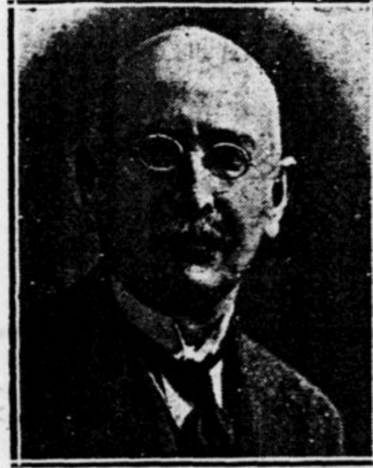
نعتذر للقراء نيابة عن الكاتب من ضعف الأسلوب ، وحرفية الترجمة . والرجوع فى الأسانيد العربية إلى ترجمتها لا إلى أصلها (الرسالة)

(١) Arab Music Inf p 62

من تراثنا الأدبى

احياء مخطوطات

للأستاذ محمد كرد على
عضو مجمع اللغة العربية الملكى



وعدت أن أتكلم على الكتب التى نشرها العلامة كرينكو ، ومنها هذه الثلاثة الكتب المهمة . أولها كتاب التيجان لوهب بن منبه والثانى أخبار عَبيد بن شَرْيَة ، والثالث كتاب الحماسة لابن الشجرى .

ويهمنا أن نعرف أولاً من هو وهب بن منبه . كان وهب من علماءِ التابعين ، وهو من الأبناء أبناء فارس المبعوثين مع سيف ابن ذى يزن لقتال الحبشة فى اليمن ، .فهو على الأرجح فارسى الأصل ، وكتاب التيجان كما قال فيه ابن خلكان ترجمه بذكر الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم . وهو رواية أبى محمد عبد الملك بن هشام عن أسد بن موسى عن أبى ادريس بن سنان عن جده لأمه وهب بن منبه . وتوفى وهب فى صنعاء اليمن فى سنة عشر وقيل أربع عشرة وقيل ست عشرة ومائة

ذكر ابن سعد صاحب الطبقات الكبير فى ترجمة وهب بن منبه أنه قال : لقد قرأت اثنين وتسعين كتاباً كلها أنزلت من السماء ، اثنان وسبعون منها فى الكنائس ، وفى أيدى الناس ، وعشرون لا يعلمها إلا قليل ، وجدتُ فى كلها أنه من أضاف الى نفسه شيئاً من المشيئة فقد كفر . قال : وفى مقدمة كتاب التيجان : قرأت ثلاثة وسبعين كتاباً مما أنزل الله على الأنبياء ، فوجدت فيها أن الكتب التى أنزلها الله على النبيين مائة كتاب وثلاثة وستون كتاباً : أنزل صحيفتين على آدم بكتابين : صحيفة فى الجنة وصحيفة على جبل لبنان ، وعلى شيث بن آدم خمسين صحيفة ، وعلى أخنوخ وهو أدريس ثلاثين صحيفة ، وعلى نوح صحيفتين ، وعلى ابراهيم عشرين صحيفـــة ، وعلى موسى خمسين صحيفة وهى الألواح

بدأ وهب كتابه بأحوال خلق العالم ، ونسب ولد سام وحام ويافت ، وملك حمير ووائل والسكسك ويعفر وعامر ذى رياس ، والمافر بن شداد وشداد بن عاد ولقمان بن عاد ، والهمال بن عاد والحارث بن الهمال والصعب ذى القرنين ، وأبرهة والعبد بن أبرهة وعمرو بن أبرهة ، وشرحبيل والد وهب وملك بلقيس وملك رحبعم بن سليمان وغيرهم من المتوجين من ملوك غسان ، وغيرهم من ملوك اليمن والتبابعة وقصة النار التى تعبدها حمير الى آخر من ذكر من الملوك المتوجين

وأهم ما فى الكتاب هذا القسم التاريخى . ومن قرأ القصائد الواردة فيه بامعان يستنتج منها مادة تاريخية ، بيد أن كتاباً عرف مؤلفه باكثاره لا يخلو من مسائل نعدها اليوم ترهات ، وربما كانت فى عصره وقطره حقائق مسلمة

أما الكتاب الثانى ، فقد نقل عن عَبيد بن شَرْيَة من المعمّرين من أهل اليمن أيضاً كان وفد على معاوية بن أبى سفيان فى الشام ، فلما رآه معاوية آية فى تاريخ اليمن وملوك العرب والعجم يروى أخبارهم مشفوعة بأشعار ، أمر كتابه أن يدونوا مايتحدث به عبيد بن شرية فى كل مجلس سمر فيه مع معاوية ، فعبيد هذا كان الرواية والمدونون كتاب معاوية

وفى هذا الكتاب حديث هلاك عاد وثمود وجرهم وخروجهم من اليمن الى الحرم ، وناشر النعم بن عمرو بن يعفر بن عمر ، وشمر يرعش بن افريقيس بن أبرهة بن الرائش ، وتبع الأقرن وهو ذو القرنين ، وملكى كرب بن أسعد ابن تبع الأكبر ، وأسعد أبو كرب الأوسط . وتتخلل كل ذلك قصائد عليها مسحة السذاجة والبداوة ، والغالب أنهـا أو بعضها من شعر الجاهلية القريب العهد بالاسلام ، كان ينقل من الصدور ثم دوّن فى السطور

ذكر ابن النديم صاحب الفهرست أن معاوية لما أمر بتدوين ما يرويه فى مجلسه عبيد بن شرية أمر أن ينسب اليه ، وأن لعبيد عدة كتب . وكان معاوية يعجب بحفظ عبيد ويستزيده ، وقال له مرة : « خليق يا عبيد أن يكون هكذا ، فزادك الله علماً وفهماً ،

وزادنا بك رغبة وعليك حرصاً فانا لا نحصى أياديك ، فزادك الله فضلاً الى فضل وهدى الى هدى »

وفى تدوين معاوية روايات عبيـد دليل بأن التدوين حدث منذ القرن الأول ، فقد ذكروا أن زيد بن ثابت ألف كتاباً فى علم الفرائض ، وأن عبد الله بن عمر كان يكتب الحديث وألف كتاب فى قضاء علىّ فى عهد ابن عباس ، وأن واثلة بن الأسقع من أهل الصُّفَّة المتوفى سنة ثلاث وقيـل خمس وثمانين ، كان يملى على الناس الأحاديث وهم يكتبونها بين يديه . وكل هذا يدل على أن القوم بدأ تدوينهم فى عصر الصحابة ، وإن لم يدونوا ما أفرد فى التأليف إلا فى القرن الثانى للهجرة

أما عبيد بن شرية هذا فهو من الأخباريين ، ولناشر كتابه الأستاذ كرينكو رأى فيه . كتب الىّ يقول : « إنك تعتقد كما اعتقد قبلك ياقوت الحموى وابن خلكان أن عبيد بن شرية كان رجلاً اخبارياً بالحقيقة ، وأنا أخالف رأيك ، ورأى من سلف ، وأعتقد أن روايته من موضوعات محمد بن اسحق مؤلف السيرة ، ومن الدلائل على هذا أن أكثر المصنفين الذين تكلموا فى هذا الكتاب لم يروه ، بل نقلوا ما وجدوه فى الكتب التى تداولوها ، وكثرة الأشعار الركيكة التى لامعنى لها فيـه تخالف أسلوب الشعر القديم كما نجدها فى دواوين القدماء البدويين والحضريين مثل حسان بن ثابت وأقرانه . ولم يكن لى غير نسختين كلتاهما مكتوبة فى صنعاء ، وهما من أصل واحد بلا شك ، إذ أغلاطهما واحدة ، وما كان عنـدى يوم تصحيح كتاب التيجان سوى نسختين ، نسخة مختصرة فى خزانة برلين ، والنسخ الثلاث الأخرى مكتوبة فى اليمن . ولو أنعمت النظر فى الكتابين كتاب التيجان ورواية عبيد تجد أن مؤلفهما كتبهما ليزيد مفاخر اليمن على النزارية ، وليثبت أن مجد اليمن أقدم وأكبر مما كان مجد النزارية ، وهذا تعصب منه على قريش ، ولهذا لم تكن لهما سوق فى سائر بلاد العرب ؛ وتجد كثيراً من أساطير اليمانيين مختلطة بالآثار الصحيحة . وقد نقل الهمدانى كثيراً من الروايات غير المحققة فى كتاب الأكليل ، ولا سيما فى القبوريات ؛ ثم جاء عبد الملك بن هشام مع تعصبه لليمانية فشوش الكتاب كما شوش السيرة ، ولم ينبه عليه أحد ؛ إلا أن المحدثين كلهم يضعّفون أبا إسحاق ويسمونه أخبارياً لامحدثاً ، وقد أبنت رأيى فى ذلك فى أطروحة باللغة الانجليزية نشرتها قبل طبع التيجان فى مجلة الثقافة الاسلامية Islamic Cultura »

***

أما الكتاب الثالث ، فهو كتاب الحماسة لهبة الله بن الشجرى المتوفى سـنة ٥٤٢ ، فهو سفر صغير فى نحو ثلثمائة صفحة ، أورد فيـه أطايب من شعر الجاهليين والمخضرمين والمحدثين على مثال حماسة أبى تمام وحماسة البحترى . وابن الشجرى معروف عند العلماء بأماليه ، وأماليه طبعت فى مصر ، وهى كأمالى المرتضى فى اللغة والشعر والأدب والنحو والبيان ، ولا تشبه أمالى القالى ، وهى فى شعر الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين

وقد كسر ابن الشجرى حماسته على أبواب وفصول ، فساق فى الأبواب أشعار الحماسة واللوم والعتاب والمراثى والمديح ، والهجاء والأدب ، والنسيب والحنين الى الأوطان ، والارتياح عند هبوب الرياح ، والاشتياق عند لمان البروق ، والنزاع عند نوح الحمام ، والشوق عند حنين الابل ، والطيف والخيال ؛ وساق مقطعات من غزل جماعة من المحدثين وصفات النساء والتشبيهات ؛ وأورد فى الفصول « طيب النكهة وعـذوبة الريق » و « طيب الريح » و « وصف العين والنظر » و «حسن الحديث وطيبه» و « المضاجعة وشدة الالتزام » و « وصف النار » و « وصف التنائف ، والوحش والابل والركب ، وأخبيـــة السفر » ، والصفات والتشبيهات فى الليـل ، والنجوم والمجرة والهلال والصبح ، والصفات والتشبيهات فى الرياض والمياه والنبات ، والصفات والتشبيهات فى السحاب والبرق والغيث ، وصـفات آلة الحرب وتشبيهاتها ، وصفات الكتب والخط وآلته ، وصفات الشعر ، وصفات الشيب والشباب والخضاب ، والتشبيهات الخمرية ، والتشبيهات فى الغناء وآلته والمغنين ، والتشبيهات الغزلية ، وتشبيهات المدح ، وتشبيهات الهجاء ، وتشبيهات وصفات فى معان مختلفة . وختم الكتاب بباب اللح وبالأشعار المزيدة على الأصل . ودونك طريقته فى الاستشهاد ، وقد يحل بعض العويص والغريب من المفردات حلاً مختصراً مقبولاً ، قال فى صفات آلة الحرب وتشبيهاتها :

« قال امرؤ القيس يصف فرساً »

وقد اغتدى والطير فى وكناتها   بمنجرد قيـد الأوابد هيكل

مكر مفر مقبل مدبر معاً ... كجلمود صخر حطه السيل من عل
له أيطلا ظبي وساقا نعامة ... وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

وقال البحتري :

أراجعتي يداك بأعوجي ... كقدح النبع في الريش اللؤام
بأدهم كالظلام أغر يجلو ... بغرته دياجير الظلام
ترى أحجاله يصعدن فيه ... صعود البرق في جون الغمام

وله وكان وصافاً للخيل :

أما الجواد فقد بلونا يومه ... وكفى بيوم مخبراً عن عام
جارى الجياد فطار عن أوهامها ... سبقاً وكاد يطير عن أوهامه
جذلان تلطمه جوانب غرة ... جاءت مجيء البدر عند تمامه
واسودّ ثم صفت لعيني ناظر ... جنباته فأضاء في اظلامه
مالت جوانب عرفه وكأنها ... عذبات أثل مال تحت حمامه
وكأن فارسه وراء قذاله ... ردف فلست تراه من قدامه
لانت معاطفه فخيل أنه ... للخيزران مناسب بعظامه
في شعلة كالشيب مر بمفرق ... غزل لها عن شيبه بغرامه
وكأن صهلته إذا استعلى بها ... رعد تقعقع في ازدحام غمامه
مثل الغراب مشى يباري صحبه ... بسواد صبغته وحسن قوامه

وله :

وأغرّ في الزمن البهيم محجل ... قد رحت منه عن أغر محجل
كالهيكل المبني إلا أنه ... في الحسن جاء كصورة في هيكل
ذنب كما سحب الرداء يذب عن ... عرف وعرف كالقناع المسبل
جذلان ينفض عذرة في غرة ... يقق تسيل حجولها في جندل
تتوهم الجوزاء في إرساغه ... والبدر فوق جبينه المتهلل
فكأنما نفضت عليه صبغها ... صهباء للبردان أو قطربل
وتخاله كسي الخدود نواعماً ... مهما تواصلها بلحظ تخجل
وتراه يسطع في الغبار لهيبه ... لوناً وسراً كالحريق المشعل
هزج الصهيل كأن في نغماته ... نبرات معبد في الثقيل الأول
ملك العيون وإن بدا أعطينه ... نظر المحب إلى الحبيب المقبل

وأهدى البحتري إلى عبد الله بن خاقان فرساً وكتب إليه :

ماذا ترى في مدمج عبل الشوا ... من نسل اعوج كالشهاب اللائح
يختال في شية يموج ضياؤها ... موج القتير على الكمي الرامح
لو يكرع الظمآن فيها لم يمل ... طرفاً إلى عذب الزلال السائح
أهديته ليروح أبيض واضح ... منه على جذلان أبيض واضح

فيكون أول سنة متبوعة ... أن يقبل الممدوح رفد المادح

وقال عبد الله بن المعتز :

وخيل طواها القود حتى كأنها ... أنابيب سمر من قنا الخط ذبل
صببنا عليها ظالمين سيوطنا ... فطارت بها أيد سراع وأرجل

إلى آخر الفصل . . .

وروى فيها فصل صفات الكتب والخط وآلته قال الكندي يصف الدفاتر :

خرس تحدث آخراً عن أول ... بعجائب سلفت ولسن أوائلا
سقيت بأطراف اليراع بطونها ... وظهورها طلا أحم ووابلا
تلقاك في حمر الثياب وسودها ... فتخالهن عرائساً وثواكلا
وتريك ما قدفات من دهر مضى ... حتى تراه بعين فكرك ماثلا

وقال آخر :

نعم المحدث والنديم كتاب ... تلهو به إن ملك الأصحاب
لا مفشياً سراً إذا استودعته ... ولديه ما تحيا به الألباب

وقال المهلبي يصف كتاباً :

وفضضته فوجدته ... ليلاً على صفحات نور
مثل السوالف والجباه الـ ... بيض زينت بالشعور
وكنظم در كالثغو ... ر وكالعقود على النحور
أنزلته مني بمنـ ... ـزلة القلوب من الصدور

وقال أبو تمام يصف كتاباً :

فضضت ختامه فتبلجت لي ... غرائبه عن الزهر الجني
وضمن صدره ما لم تضمن ... صدور الغانيات من الحلي

وقال آخر في وصف كتاب :

مداد مثل خافية الغراب ... وأقلام كرهفة الحراب
وقرطاس كرقراق السراب ... وألفاظ كأيام الشباب الخ

***

هذا ما نشره الأستاذ كرنيكو من كتب العرب وهو ينشر اليوم في القاهرة كتاب « المؤتلف والمختلف » للآمدي ، و « رسالة ابن الجراح » وما بقي من معجم الشعر للمرزباني ، وفي هذا الكتاب أخبار لا توجد في الكتب التي بأيدينا فضلاً عما حوى من الشعر القديم . وبعد هذا ألا نشكر لعلماء المشرقيات غيرتهم على نشر كتب العرب وإظهارها بمظهر من التحقيق الدقيق يغبطون عليه

القاهرة — محمد كرد علي

أثر الفن الاسلامى

فى فنون الغرب

للدكتور زكى محمد حسن
الأمين العلمى لدار الآثار العربية



ورث الاسلام فنون رومة وبيزنطة وإيران وكلديا وأشور، وتأثر المسلمون بالأساليب الفنية فى البلاد التى خضعت لهم وانتشر فيها دينهم، فظهر فى عالم الوجود فن بل فنون إسلامية أثرت بدورها فى فنون الغرب، وتركت فيها ذكريات قل أن تخفى على من لهم دراية بتاريخ الفنون فى العالم

والواقع أن العالم المتمدين فى القرون الأولى بعد الميلاد كان قد سئم الفن اليونانى القديم، وتاق إلى نوع من التجديد ينقذه من منتجات هذا الفن التى أعوزها التنوع والابتكار، فتطلع إلى تقاليد فنية أعظم أبهة وأكثر حرية فى الزخارف والموضوعات لايعدل ما فيها من خيال ساحر وجاذبية ومفاجأة عظيمتين إلا ماتمتاز به من أسرار فى مزج الألوان تملأ البصر وتبهج الخاطر. تلك الأساليب الفنية المنشودة وجدها العالم المتمدين عند الساسانيين أولاً، ثم فى الفنون الاسلامية بعد أن امتدت الأمبراطورية العربية واتسعت أرجاؤها. أما حلقتا الاتصال بين الشرق والغرب، والمعبران اللذان اتخذتهما الأساليب الاسلامية للوصول إلى أوربا، فهما الأندلس، والحروب الصليبية

فنى الأندلس أينعت المدنية الاسلامية، وأدخل العرب صناعة الورق، وأصبحت قرطبة فى القرن العاشر أكثر المدن فى أوروبا ازدهاراً وأعظمها مدنية؛ وكان عصر ملوك الطوائف باعثاً على تعدد مراكز العلم والأدب والفن فى شبه الجزيرة، وجاء ملوك المرابطين والموحدين فكان اضطهادهم للمستعربين من بنى الأندلس سبباً فى هجرتهم إلى الشمال، فزاد بذلك محيط المدنية الاسلامية اتساعاً، ونقل هؤلاء المستعربون إلى مهجرهم الجديد كثيراً من عادات المسلمين وأزيائهم وصناعاتهم، وما لبث نجم المسلمين فى الأندلس أن أذن بالأفول، فتقدمت فتوحات المسيحيين، وأخذ نفوذ العرب فى التقلص، ودخل كثير منهم تحت السلطان المسيحى، فصاروا يعملون للملوك والأمراء الاسبان، وتعلم منهم غيرهم، فانتشرت أساليبهم الفنية؛ وكان سقوط طليطلة سنة ١٠٨٥، وقرطبة سنة ١٢٣٦، وأشبيلية سنة ١٢٤٨، أكبر عامل على امتزاج الصناع العرب أو المستعربين بغيرهم. ثم كان سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ خاتمة هذا الطور الذى تعلم فيه صناع الغرب عن المسلمين كثيراً من أسرار صناعاتهم فى العمارة والفنون الفرعية؛ ولعل أهم مظاهر لهذا الطور الطرز الاسبانى الذى ينسب إلى المدجنين style mudéjar أو المسلمين الذين دخلوا خدمة المسيحيين بعد زوال دولة العرب؛ وقد نشأ هذا الطرز فى طليطلة واشتغل الصناع «المدجنين» بزخرفة الكنائس ودور الخاصة فى أنحاء اسبانيا، ونبغوا فى الفنون الفرعية كصناعة الخزف والمنسوجات والنقش على الأخشاب، وكانت لهم فى ميدان العمارة آثار تذكر، وأهمها قصر أشبيلية L'Alcalzar الذى بنوه للملك بدرو سنة ١٣٦٠ والذى ظل مقراً للأسرة الملكية حتى إعلان الجمهورية منذ سنوات فأصبح متحفاً يعجب الزائرون بعمارته العربية وبما جمع فيه ملوك اسبانيا من تحف إسلامية نادرة

أما الحروب الصليبية فلا يعنينا من نتائجها إلا أنها كانت كالأندلس وجزيرة صقلية وسيلة إلى نزاع دائم تتبعه علاقات متواصلة بين المسيحية والاسلام، وأوجدت هذه الحروب منفذاً لتجارة الجمهوريات الايطالية الناشئة كجنوا والبندقية وبيزا، وكان من النتائج العملية لتأسيس المملكة اللاتينية فى بيت المقدس نمو تجارة هذه الجمهوريات وإنشاء معاقل لها فى الشرق الأدنى

وإن صح القول بأن الأندلس وجزيرة صقلية لعبتا الدور الأكبر فى نشر الثقافة الاسلامية فى الغرب، وان فضل الحروب

الصليبية فى هذا الميدان لم يكن كبيراً نظراً لأنه لم يكن فى الشام فى عصر الحروب الصليبية مدنية تعادل مدنية الأندلس أو صقلية فضلاعن أن هذه الحروب لم تكن مرتعاً خصيباً للدرس والتحصيل وتبادل الثقافة ، نقول إن صح ذلك فى ميدان العلوم والآداب فانا نعتقد أن الدور الذى لعبته الحروب الصليبية فى نقل الصناعات والفنون الاسلامية إلى أوربا خطير لا يستهان به . ولعل استعمال الرنوك عند أمراء المسلمين فى الحروب الصليبية كان أكبر عامل فى تطور علم الرنوك والأشعرة عند الغربيين فأصبحت له اصطلاحاته الدقيقة وقواعده الثابتة ؛ وكانت الحروب الصليبية أيضاً وما تبعها من انتشار التجارة الغربية السبب فيما فعله البنادقة من صك نقود ذهبية للتعامل مع المسلمين وعليها كتابات عربيـة وآيات قرآنية فضلاً عن التاريخ الهجرى ، وظل هـذا حتى احتج البابا أنسونت الرابع سنة ١٢٤٩

وليس خفياً أن العمارة كانت أجل الفنون عند العرب فبلغوا فيها شأواً بعيداً ، وأخذوا من الأمم التى اختلطوا بها ما أخذوا ، وابتدعوا أساليب جديدة غاية فى الجودة والابداع ، ثم أخذت عنهم أوروبا كثيراً من هذه الأساليب . ولـكن العلماء ليسوا على اتفاق فى هذا الرأى ، فبعضهم يرى أن العرب لم تـكن لهم عمارة خاصة ، وإن صحّ أن هناك أوجه شبه بين طرُزهم المعمارية وبين الطرُز الأوربية فانما ذلك لأن مصدر هذه الطرز كلها واحد . ومهما يكن من شئ فاننا نفضل ألا نعرض للعمارة فى هذا المقال مكتفين بالتحدث عن الفنون الفرعيـة les arts mineurs أو المنقولة كما اصطلح بعضهم على تسميتها

ولسنا نذهب إلى أن المسلمين وصلوا فى هذه الفنون الفرعية إلى ما وصل اليه الغربيون . ولـكننا لا نشك فى أنهم تفوقوا فى بعضها تفوقاً خاصاً وبلغوا فى صناعة الزخارف مبلغاً يشهد بعبقرية نادرة وخيال واسع

ولما كان تصوير المخلوقات الحية مكروهاً فى الاسلام ، فقد أصبح عماد الزخارف الاسلامية الأشكال الهندسـية والرسوم النباتية مضافاً إليها عامل جديد هو حروف الـكتابة بالخط الـكوفى أو بالخط النسخى أو بغيره من الخطوط ، ونحن نعلم كيف اهتم المسلمون وخاصة الفرس بتحسين الخطوط وزخرفتها ؛ وقد فطن الى ذلك صنّاع الغرب ، فأخذوا أحياناً يقلدون الـكتابة العربية على مصنوعاتهم ، ومن أمثلة ذلك صليب إيرلندى من البرونز المذهب يرجع عهده الى القرن التاسع ، وهو محفوظ الآن بالمتحف البريطانى وعليه بالخط الـكوفى «بسم الله» ، وفى المتحف البريطانى أيضاً عملة ذهبية ضربها الملك أوفا Offa الذى حكم مرسية من سنة ٧٥٧ إلى ٧٩٦ ، وهذه العملة نقلها الملك المذكور عن دينار عربى ضرب سنة ٧٧٤ فنقل فيما قلده التاريخ الهجرى والعبارة العربية المكتوبة عليه ، ولا نشك أنه فى الحالتين لم يفقه العمّال الغربيون معنى الـكتابة العربية ، فنقلوها كزخارف فحسب ، وقلدهم فى ذلك كثيرون من بعدهم

وقد كان للخزف الاسلامى أثر كبير فى تطور صناعة الخزف فى أوربا ، وقد كان الغربيون ينسبون اللونين الأزرق والأبيض الصينى فى هذه الصناعة إلى بلاد الشرق الأقصى ، ولـكن الحقيقة أن الصينيين كانوا يسمون هذا اللون الأزرق بالأزرق الاسلامى ، لأنهم أخذوه عن إيران الاسلامية فى القرن الخامس عشر

ومن المعروف أن صناعة الخزف ذى البريق الذهبى lustre قد ارتقت فى اسبانيا رقياً عظيما ، فـكانت مصانعها تشتغل لحساب كثير من البابوات والـكرادلة والأسرات النبيـلة فى اسبانيا والبرتغال وإيطاليا وفرنسا ، ويروون أن الـكردينال اكسيمينيز قال عن هؤلاء الصناع « الـكفرة » : « ينقصهم ايماننا وتنقصنا صناعاتهم »

وقد ظلت صناعة الخزف الاسبانى العربى hispano-maurespue فى الأندلس حتى القرن السادس عشر ، وتعلمها الايطاليون فى القرن الخامس عشر ، فتأثروا فى الصناعة والزخارف والأشكال بما كانوا يستوردونه من اسبانيا ، وأصبح أنموذجاً للصناع فى Faenza و Urcino و Deruta ، وأطلق على هذه المصنوعات اسم مايولـكا majolique نسـبة الى جزيرة مايوركا من جزائر البليار الاسبانية

هذا وقد وصل الى الفنون الغربية من إيران وتركيا رسوم بعض الزهور التى لم تكن معروفة فيها حينئذ إلا بفضل رسومها على الخزف الاسلامى الوارد من الشرق الأدنى منذ القرن الرابع عشر

ولم يكن أثر صناعة المعادن الاسلامية فى أوروبا بأقل من أثر صناعة الخزف ؛ ولن يستغرب ذلك من يعرف ما وصلت اليه هذه الصناعة من التقدم فى عصر الفاطميين والمماليك ومن قرأ

ما دونه المقريزى عن كنوز المستنصر بالله

ومما أخذه الأوربيون عن الشرق الاسلامى الاسطرلاب ، وهو آلة فلكية لقياس بعد الكواكب . اخترعها الأغريق وحسّنها بطليموس الجغرافى ثم علماء الفلك من المسلمين ، حتى أخذها عنهم علماء الغرب فى القرن العاشر . وفى المتحف البريطانى أقدم إسطرلاب عليه تاريخ صنعه أحمد ومحمود ابنا ابراهيم الاسطرلابى الاصفهانى سنة ٩٨٤ ، وفى المتحف نفسه اسطرلاب انجليزى تاريخه سنة ١٢٦٠ — وقد ظل البحارة يستخدمون الاسطرلاب فى مراقبة الجو وشؤون الملاحة ، حتى خلفته اختراعات أخرى فى القرن السابع عشر

وقد كان للأوربيين فى القرون الوسطى نوع من أوانى المياه كانوا يستعملونه فى غسل أيديهم قبل الأكل وبعده ، وأطلقوا عليه اسم aquamaniles ولا ريب أن صناعته متأثرة بما كان عند المسلمين من أوانٍ مماثلة على شكل طيور أو حيوانات من البرونز والنحاس ، ولعلّ أحسن مثل مكبّر لتلك الأوانى — وإن كان عظم حجمه يفرقه عنها — هو ذلك العقاب النحاسى الكبير المحفوظ الآن بالكامبو سانتو بمدينة بيزا فى إيطاليا ، والذى يظن أنه من عصر الفاطميين بدليل ما عليه من نقوش كوفية وزخارف هندسية ، وصور حيوانات وطيور ، وليس معروفاً من الذى نقله إلى ايطاليا ، ولا فى أى المناسبات كان ذلك



طست من البرونز من صناعة البندقية فى القرن الخامس عشر وهو محفوظ الآن بدار الآثار العربية بالقاهرة

وقد صنع المسلمون الثريات والأوانى والصناديق والكراسى والتنانير والمباخر من النحاس المكفت بالفضة والذهب ، وكثر الاقبال على هذه التحف فى أوروبا ، وخاصة بعد أن عظمت تجارة الجمهوريات الايطالية فى الشرق منذ الحروب الصليبية ، وبلغت أوج عزها فى القرن الخامس عشر

والواقع أن اضمحلال هذه الصناعة بدأ فى الشرق منذ القرن الخامس عشر بعد ظهور المغول وغارة تيمورلنك على دمشق سنة ١٤٠١ ، ولكن المدن الايطالية وخاصة البندقية ورثتها عن الشرق ؛ وظهرت فى المدنية الأخيرة مدرسة من رجال الفن عملت على التوفيق بين ذوق الغربيين فى عصر النهضة ، وبين الصناعة والزخارف الاسلامية . ومن المعروف أن صنّاعاً من الشرق اشتغلوا بصناعات أجدادهم فى البندقية وجنوه وبيزا وفلورنسا . وفى المتاحف والمجموعات الأثرية أمثلة كثيرة من التحف الفنية النفيسة المصنوعة فى ايطاليا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، والتى تشهد بحسن الذوق وجمال الزخرف ودقة الصناعة . هذا ولا يفوتنا الاشارة الى مافى اللغة الايطالية وغيرها من اللغات الأوربية من الألفاظ الاصطلاحية المنسوبة الى المدن الاسلامية فى صناعة المعادن كدمشق وبلاد العجم . وكان لصناعة الزجاج المموه بالمينا شأن كبير عند المسلمين كما يتجلى من مجموعة المشكاوات النفيسة المحفوظة بدار الآثار العربية بالقاهرة ، والتى يرجع عهدها الى القرنين الرابع عشر والخامس عشر

وقد تقدمت صناعة الزجاج فى البندقية منذ القرن الثالث عشر تقدماً كبيراً ، وبدأ البنادقة منذ القرن الخامس عشر يقلدون صناعة الزجاج عند المسلمين ، فما لبثوا أن برعوا مثلهم فى تمويه الزجاج بالمينا ، وانتشرت هذه الصناعة من البندقية الى غيرها من المدن الأوربية ، وظهرت زخارف وطرز جديدة دون أن تزول القرابة بينها وبين النماذج الاسلامية الأولى

أما أساليب المسلمين فى نقش الخشب وزخرفته وتطعيمه ، فقد ظهر تأثيرها فى فنون البلاد الأوربية التى كان لها بالعرب اتصال مباشر كالأندلس وجنوب فرنسا وصقلية ، ولكن هذا التأثير لم يكن كبيراً ، لأن هذه البلاد لم تكن أحوالها الجوية تستدعى ما اضطر اليه المسلمون من استعمال طريقة المربعات بله

ان رسم الخطوط والزخارف الهندسية لم يكن ليلعب فيها الدور الـكبير الذى لعبه فى بلاد الاسلام

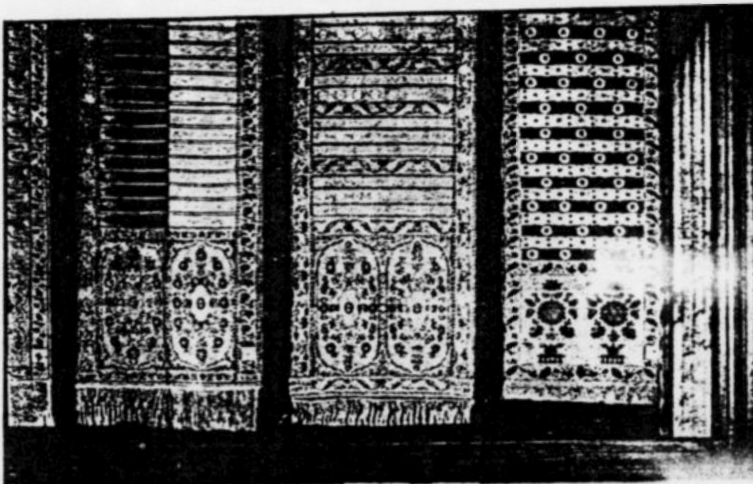


مشكاة من الزجاج المموه بالمينا من صناعة البندقية
وعليها كتابات باسم السلطان قايتباى

وكذلك قلد البنادقة صناعة التجليد الأسلامية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ونقلوا بعض أساليبها ، ونقلها عنهم غيرهم من صنّاع الغرب ، فلا عجب إن وجدنا حتى الآن فى صناعات التجليد الأوربية المختلفة كثيراً من تفاصيل الصناعة الأسلامية وزخارفها . ومعروف أيضاً أن بعض المجلدين المسلمين نزحوا إلى البندقية وعلّموا البنادقة اختراعات المسلمين فى هذا الميدان. ولا يزال « اللسان » المعروف فى صناعة التجليد العربية موجوداً فى تجليـــد بعض الـكتب الأوربية ، ولا سيما كتب المحاسبين وأصحاب المصارف . ومما اشتهر به المسلمون فى الأندلس وصقلية صناعة الصناديق من العاج ، وفى المتاحف أمثلة عديدة منها ، وبينها وبين أمثالها من صناعة أوربا فى القرون الوسطى قرابة تنبئ عن تأثير الصناعة الاسلامية

بقى أن نتحدث قليلاً عن المنسوجات فى البلاد الاسـلامية وعن أثرها الـكبير فى صناعات النسج الأوربية ولسنا نجهل أن صـناعة النسج كانت زاهرة فى فارس ومصر وسورية قبل الفتوح العربية ، ولـكن تعضـيد الخلفاء والأمراء ، وتولى الحـكومة إدارة المصانع ، وعادة الخلع التى كان يمنحها الملوك وأولو الأمر ، كل هذا جعل الصناعة تخطو فى سبيل الكمال خطوات واسعة ، وكثر الاقبال على المنسوجات الاسـلامية وتهافت على شرائها التجار فعمت شهرتها أوربا فى العصور الوسطى ، وأصبحت أكثر أنواع المنسوجات فى ذلك العهد تحمل أسماء شرقية أو تنسب إلى مدن إسلامية . ولما رأى التجار ذلك هب كثير منهم لانشاء المصانع فى أنحاء أوربا المختلفة لمنافسـة مصانع الشرق الأدنى والأندلس ، وكان العرب قد أقاموا فى صقلية مصانع شهيرة للنسج ظلت عامرة بعـد أن تقوض سلطان المسلمين فى الجزيرة ، فتعلم الايطاليون فى هذه المصانع أسرار النسج الاسلامى ودقائقه ونقلوه إلى بلدان إيطاليا المختلفة ، وحفلت المنسوجات الحريرية الايطالية فى القرن الرابع عشر بالزخارف الشرقية حتى الـكتابات العربية منها

وبدأ النساجون الأتراك والايطاليون منذ القرن السادس عشر ينافس كل منهما الآخر ويقلّده ؛ حتى لقد يصعب أحياناً التفرقة بين مصنوعاتهم ؛ وظهرت فى الأسواق بعد ذلك أحزمة من القماش من صـناعة أوربا على الطراز الشرقى وأطلق عليها اسم الأحزمة البولونية نسبة إلى بولندة حيث كثرت صناعتها



أحزمة من النسيج من صناعة بولندا على الطراز الشرقى

وكان السجاد أيضاً ممـا أخذه الأوربيون عن الشرق منذ القرن الرابع عشر ، فتعلم الصناع الغربيون صناعته من المسلمين واحتفظوا مدة طويلة بالأساليب العربية فى زخارفه

العلامة المستشرق كراتشكوفسكى

للأستاذ محمود تيمور



فى عصر يوم من الأيام من نحو عشرة أعوام ذهبت لزيارة المرحوم . والدى – كما كنت أفعل دائماً – بمنزله الخاص بالزمالك حيث كان يسكن وحيداً بين كتبه معتزلاً العالم . دخلت عليه فى حجرة عمله فوجدته أمام مكتبه بين أكوام من الكتب والدفاتر – شأنه دائماً – يطالع ويقيد . فلما أحس بوجودى رفع رأسه وأزاح نظارته (الخاصة بالقراءة) ودعانى الى الجلوس . ووقع نظرى على صورة لقبر إسلامى كانت ضمن الأوراق العديدة التى يزدحم بها مكتبه . فسألته ، فابتسم وقال . هذه صورة قبر الشيخ طنطاوى المدفون فى روسيا . وعجبت لأمر هذا الطنطاوى الذى اختار بلاد الروس مدفنا له . فاستوضحته الأمر . فأخذ يحدثنى عن هذا العالم المصرى الذى نزح الى روسيا فى العصر الماضى ليدرس اللغة العربية وآدابها فى جامعة بطرسبرج – كما كان اسمها فى ذلك العهد – وكيف أقام فيها حتى وافاه الأجل فدفن بها . ثم كيف قام اليوم من بين الأساتذة المستشرقين من يعنى بهذا العالم المصرى فيحقق أمره ويؤلف رسالة عنه تخليداً لذكراه

واستهوانى هذا الحديث ، وجعلت أنظر إلى الصورة وأنا معجب نخور بهذا الأستاذ المستشرق الذى انبرى لعالم من علمائنا المنسيين ينشر حياته على الملأ ويشيد بذكراه . فينشر معه صفحة من صفحات تاريخنا المغمور ويشيد بذكرى بلادنا بين أصدقائنا البعيدين . ورفعتُ رأسى ونظرت إلى والدى مستفهما . فقرأ فى عينى ما يجول بخاطرى وقال :

– إن صاحب هذا البحث هو الأستاذ كراتشكوفسكى الروسى

فى هذه اللحظة أحببت الأستاذ كراتشكوفسكى وشعرت فى صميم قلبى بأنه ليس غريبا عنى . وشاهدت صورته فيما بعد فراعنى منها مسحة الوقار المنطبعة على محياه ، وذلك الأشعاع العجيب الذى يشع من عينيه – إشعاع الطيبة والأخلاص . واتصلت بالأستاذ عن طريق المراسلة ، فعرفت فيه رجلاً ذا خلق متين وعزيمة صادقة وأدب جم ، فقد وهب حياته منذ نحو ثلاثين عاماً لخدمة اللغة العربية وآدابها . فلم يهن ولم يتراجع بل ثابر وثابر حتى امتلك ناصيتها وتبحر فيها ، فأصبح علماً راسخاً من أعلامها ، وقرة من قواها العتيدة

وإنى لا أنسى أول خطاب جاءنى من الأستاذ ، فقد وقفت أمامه حائراً مبهوتاً : خط عربى جميل ونظيف يماثل فى وضوحه

وأما أثر المسلمين فى النقش والتصوير الأوربى فيكاد لا يستحق الذكر ، ومانقله الغرب فى هذا الميدان من أساليب فى تصوير الحيوان ليس إسلامياً فى جوهره ؛ وإنما يرجع الى الفنون القديمة فى الشرق الأدنى ؛ وليست لدينا أمثلة لمصورين مسلمين اشتغلوا فى أوربا فى القرون الوسطى ، اللهم إلا أولئك الذين عملوا فى بلاط روجر الثانى ملك صقلية فى أوائل القرن الثانى عشر لنقش بيعة فى بالرمو تعرف باسم الكابلا بلاتينا

هذا وقد أثرت الزخارف الاسلامية على الزخارف فى شمال أوربا ؛ ولا عجب فقد كان هناك اتصال بين أمم الشمال وبين الشرق الاسلامى ، وكان كلاهما يناهض أمم أوربا الوسطى والجنوبية ، بيد أن هذه الشعوب الجرمانية الشمالية لم تكن فقدت تماماً ذكرى تجوالها فى آسيا قبل أن تغزو أوربا ويسير بعضها حتى يصل الى شمال أفريقيا

ولا يسعنا أن نختم هذا المقال قبل الاشارة الى الأثر التركى الذى نراه فى كثير من زخارف أمم البلقان وسكان جزائر بحر الأرخبيل ، فقد كان استيلاء تركيا على هذه الأقاليم وحكمها إياها قروناً من الزمان أكبر عامل على طبع فنونها والحياة الاجتماعية فيها بطابع شرقى لم يزل كله بعد

زكى محمد حسن

وتنسيقه خطوط الآلة الكاتبة . تسوده روح لطيفة من سلامة الذوق فى التعبير والبساطة والهدوء . كل ذلك فى سلاسة عجيبة وصفاء غريب . وغمرنى شعور لطيف فيه شىء من الزهو لوجود مثل هذا الصديق الكبير لنا – معشر العرب – فى بلاد نائية قد وقف حياته على خدمة آدابنا وإعلاء كلتنا

وازداد اتصالى بالأستاذ فتوالت الرسائل بينى وبينه . وأهدى إلى كثيرا من مؤلفاته بالروسية ، ومضت الأعوام ومعرفتى بالأستاذ تزداد اتساعاً . وكلما عرفت عنه شيئاً جديداً قويت محبتى له وعظم تقديرى إياه

بدأ الأستاذ دراسته للعربية وبعض اللغات السامية الأخرى كالحبشية والعبرية فى جامعة بطرسبرج عام ١٩٠٨ . ثم رحل إلى الشرق فزار مصر وسورية ، وأقام فيهما أكثر من عام انكب أثناءه على دراسة الأدب العربى القديم والحديث . واهتم بالشعر وعلم البيان بنوع خاص . وما إن عاد إلى روسيا حتى أخذ ينشر مقالات عن الأدب العربى . وظهر له بحث مستفيض عن القصة التاريخية فى الأدب الحديث وهو بحث نقدى تحليلى عن روايات جورجى زيدان ويعقوب صروف وفرح أنطون وجميل مدور . (صاحب كتاب حضارة الأسلام فى دار السلام) وتوالت بعد ذلك أبحاثه القيمة . ومن أعماله المشهورة اصداره ديوان أبى الفرج الوأواء الدمشقى باللغة العربية مع ترجمة روسية ومقدمة مسهبة عن الشعر فى العصر العباسى تعد من أنفس ما كتبه العلماء فى ذلك الموضوع ؛ كذلك يجب ألا ننسى بحثه التاريخى عن حياة الشيخ طنطاوى ، وهو بحث فذ مبتكر حقق فيه بطريقته العلمية المعروفة كثيراً من النقط الغامضة التى تكتنف حياة هذا العالم المصرى (المنسى) . ومن أعماله الهامة إصداره كتاب البديع لابن المعتز باللغة العربية مع مقدمة للكتاب بالأنجليزية ، وهذا الكتاب يعد من أنفس الكتب التى عالجت علم البديع فى الأدب القديم . هذا خلاف رسائله الأخرى التى والى ويوالى إصدارها ، وآخر ما صدر له ترجمة بالروسية لكتاب الأيام للدكتور طه حسين ، مع مقدمة عن المؤلف وتعليقات عن الكتاب

أكتب هذه الكلمة الصغيرة بمناسبة الاحتفال بتكريم الأستاذ فى روسيا أحييه فيها أصدق تحية ، معبراً له عما يكنه العالم العربى عامة والأمة المصرية خاصة من عواطف الولاء والشكر له . فان رجلاً قصر حياته على نشر ثقافتنا العربية فى العالم الغربى ، وأوسع لنا الطريق لنتبوأ مكانتنا بين آداب الأمم العالمية لجدير بأن يحتل فى قلوبنا أكبر مكانة

محمود تيمور

على هامش السيرة

نزيل حمص

للدكتور طه حسين



قال عمير بن عبد الله السلمى لمحمد بن نصر الكلابى : إن لله فيما يأتى من الأمر لحكمة بالغة يفهمها الناس حيناً ويقصرون عن فهمها فى كثير من الأحيان . وإن الرجل الرشيد خليق أن يتعبط بما فهم ، وألا يلح فى تأويل مالم يفهم ، وأن يطمئن قلبه إلى أن حكمة الله بالغة ، وإلى أن قضاءه منتهٍ إلى الخير دائماً

قال محمد بن نصر لصاحبه : هو ذاك ، وما أظن أن أحداً منا ينكر ذلك أو يمارى فيه فما تحدثك به ؟ وما هذا التفكير العميق الذى أرى آثاره بادية فى وجهك ؟ وكان هذان الرجلان من فتيان قيس ، شديدى البأس ، قد ملأ قلبهما إيمان قوى بالله ، وحفاظ قوى للعرب ، واعتزاز قوى بالنفس ، وحب قوى للجهاد . وكانا قد مضيا مع الصائفة غازيين حتى بلغا ثغراً من ثغور الروم ، فأمعنا فى الغزو ولقيا فيه من الجهد والشدة ، واحتملا فيه من المشقة والبلاء شيئاً عظيماً ، لم يزدهما إلا إيماناً على إيمان ، وحفاظاً إلى حفاظ ، وحباً للجهاد إلى حبهم القديم للجهاد ، وكان الله عز وجل قد قضى لهما أن يعودا من هذه الغزوة موفورين ، فلما بلغا مأمنهما مع الجيش من بلاد المسلمين نذرا لئن مد الله فى حياتهما حتى ينقضى الشتاء ، وتستأنف الصائفة من قابل غارتها على بلاد الروم ليكونن لهما فى هذه الغارة بلاء ، وليضعن كل واحد منهما نفسه فى مقدمة الجيش المغير ، وكانا قد أزمعا من أجل ذلك ألا يبعدا فى الرجوع إلى موطنهما ، وأن ينفقا فصل الشتاء فى مدينة من مدن المسلمين هذه المنبثة فى الشام ، والتى ترابط فيها الجنود ، قد قسمت بينها تقسيماً ، ووزعت عليها توزيعاً ، ولم يكونا من أصحاب الديوان فى جند من أجناد الشام ، وإنما كانا رجلين قد باعا أنفسهما من الله وتطوعا فى الجهاد ، وأقبلا يبتغيان المثوبة ، فلحقا بالصائفة فيمن يلحق بها من المتطوعين ؛ ولم يصرفهما عن حمص أنها لم تكن لمضرية داراً ، وما يريدان إلى المضرية أو إلى اليمنية ، وهما إنما يمران بهذه المدينة مروراً ينتظران أن ينقضى فصل من فصول العام ويقبل فصل آخر ليستأنفا نشاطهما وليقبلا على ما يبتغيان من ثواب الله مجاهدين ؟

فلما استقر بهما المقام فى حمص أياماً وأسابيع أخذا يدوران فيها ويتعرفان بعض أمرها ، ويسمعان إلى ما كان يجرى على ألسنة أهلها من بعض الحديث . وقلما كان أحدهما يخرج منفرداً ، إنما كانا فى أكثر أوقاتهما متلازمين كأن ما دفعهما إلى الهجرة من أوطانهما قد جمع بين نفسيهما فى الجهد والبأس ، كما جمع بين نفسيهما فى الرخاء واللين . فقلما كانا يفترقان أثناء الغارة على اختلاف الظروف وتباين الخطوب التى كانت تعرض للجيش وتلم بالمغيرين . وهما الآن لا يفترقان أو لا يكادان يفترقان ، وقد أظلهما الأمن وضمنتهما سلم لا يخافان معها شدة ولا بأساً ولا فراقاً . ولكنهما فى هذا اليوم لم يكادا ينفتلان من صلاة الغداة حتى فرقت بينهما حركة الناس وازدحامهم مسرعين كأن هناك أمراً ذا بال يروعهم ويدعوهم إلى الازدحام ويدفعهم إلى أن يشهدوا مشهداً يجب أن يشهده الناس . وقد دفع محمد بن نصر مع المزدحمين وأسرع مع المسرعين ، لم يكن له فى ذلك رأى أول الأمر ، ولكنه لم يلبث أن حمد ما أدركه من ذلك ، فمضى مع الماضين مختاراً لا كارهاً ، وحرص على أن ينتهى إلى حيث كانوا يريدون أن ينتهوا . وقد سمع فى أثناء ذلك ما سمع ، ورأى ما رأى ، وامتلأ قلبه بالعظات والعبر ، وشغل عقله بالتفكير المتصل العميق ، حتى إذا تفرق الناس وكلهم يملأ نفسه العجب عاد إلى صاحبه يحدثه بما سمع ويحدثه بما رأى ، ويبدأ حديثه بهذا الكلام الذى أوجزته لك آنفاً

فلما سأله صاحبه عما به قال : لقد شهدت اليوم أمراً عظيماً : شهدت جنازة رجل ملأ قلوب الناس حباً وبغضاً ، ورضى وسخطاً ،

وأثار فى نفوسهم كثيراً من الحفيظة ، بل حفيظة لا تنتهى ، وأثار فى نفوس الناس كذلك إعجاباً وإكباراً ، وأطلق ألسنة الناس بالذم الشنيع ، وأطلق ألسنة الناس بالثناء الكثير ، ورسم على وجوه الناس آثار الموجدة المنكرة ، ورسم على وجوه الناس كذلك آثار الاعتراف بالجميل ، ورسم على وجوههم بين ذلك ابتسامات فيها سخرية وازدراء ، وفيها عطف واشفاق ؛ ثم رأيت الناس يعودون من تشييعه إلى قبره ، وإن الحيرة لتملأ قلوبهم ، وإن الشك ليضطرب فى نفوس كثير منهم ، وإنهم على هذا كله ليقولون فيما بينهم مثل ما كنت أقوله لك منذ حين ، وانهم على هذا كله ليظهرون الثقة بحكمة الله البالغة والاطمئنان إلى عفوه الذى ينال به من يشاء

قال عمير بن عبدالله : ما رأيت كاليوم رجلاً يؤثر التلميح على التصريح ، ويقصد إلى الغموض دون الوضوح ، فحدثني بحديثك لا أبالك ولا تطل ، فما تعودت منك اطالة ولا املالاً . قال محمد بن نصر : فالله يعلم ما آثرت تلميحاً ، ولا اجتنبت تصريحاً ، ولا قصدت إلى غموض ، ولا تنكبت وضوحاً ، وإنما أصور لك نفسى كما أجدها ، وما أدرى كيف أتحدث إليك بهذا الحديث ، وما أعرف من أين آخذه . آخذه من مبتدئه أم آخذه من منتهاه ، أم آخذه مما بين ذلك ، فان كل موضع منه تملؤه العبرة والعظة ، وتظهر فيه هذه الروعة التى تتأثر لها القلوب ، وتفكر فيها العقول . إنه رجل لم يعرف الناس من أول أمره إلا أنه كان عبداً حبشياً لسيد من سادات قريش فى مكة ، هو جبير بن مطعم ، وكانوا يرونه فتى شديد البأس عظيم الأيد شجاعاً جريئاً ، يعمل لسيده فيما يعمل فيه الرقيق ، ولو أن الرق لم يعرض له لكان خليقاً أن يسود فى بلده وبين قومه هؤلاء السود . ولكن الرق عرض له كما عرض لكثير من أشراف الروم والفرس فألقاه إلى هذا الحى من قريش ، وفرض عليه ما يفرض على الأرقاء ، من الخنوع والخضوع ، ومن الذلة والهوان ، ومن العمل فيما لا يعمل فيه أصحاب النجدة والمروءة من الناس . وكان هذا الفتى ضيقاً بحياته أشد الضيق ، منكراً لها أعظم الانكار ، جامحاً حين يتاح له الجموح ، شامساً حين يتهيأ له الشموس ، لا يخفى بغضه للرق وطمعه فى الحرية مهما يكلفه ذلك من غضب سادته وزجرهم ، ومن اعناتهم له والحاحهم عليه بالاعنات . وكانت قريش قد لقيت من النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه جهداً شديداً يوم بدر ، وفقدت جماعة من ساداتها وأشرافها ، وذاقت الهزيمة المنكرة ، وذاقت فقد الأحباء ، وذاقت هذا الذل الذى يكره العرب أن يذوقوه ، ذل الموتور الذى لم يدرك وتره ؛ وكانت قريش تتجهز لادراك الوتر والأخذ بالثأر ، وشفاء حزازات النفوس ، وارضاء قتلاها من أهل القليب ؛ وكان جبير بن مطعم قد فقد عمه طعيم بن عدى يوم بدر ، وكان حريصا على أن يثأر به وينتقم له من قاتله . ولم يكن قاتله إلا حمزة ابن عبد المطلب عم النبى ، وأسد الله ، وشجاع قريش ، وحامل لواء المسلمين لأول ما عقد اللواء . قال عمير بن عبد الله : فانك إنما تتحدث عن وحشى ، فما خطبه وما الصلة بينه وبين هذا الرجل الذى شهدت جنازته منذ اليوم ؟ قال محمد بن نصر : فان هذا الرجل الذى شهدت جنازته منذ اليوم هو وحشى نفسه . قال عمير : ليتنى عرفت مكانه من هذه المدينة حين أقبلت اليها إذن لسعيت اليه ، ولسمعت منه ، ولسألته عن بلائه ذلك المنكر . قال محمد بن نصر : وكذلك قلت لنفسى أنا منذ حين ، ولكنى رأيت من رآه ، وسمعت ممن سمع منه ، ولقد رأى من رآه رجلاً كان خليقا أن يرى ، وأن الذين سمعوا منه ليتحدثون من أمره بالأعاجيب . قال له سيده حين أجمعت قريش أمرها : إنى أرى شوقك إلى الحرية وكلفك بها ، وإسرافك فى الجموح ، وامتناعك عما لا ينبغى لمثلك أن يمتنع عنه من الطاعة والأذعان لمواليه ، وإنى أعرض عليك هذه الحرية التى تهواها ، فان شئت فأد ثمنها ، وما أظنك تفعل . قال العبد : فقد شئت أن أؤدى إليك ثمن هذه الحرية لو أنى أستطيع أن أبلغه فى جو السماء أو فى أقصى الأرض . قال جبير : فانه أدنى إليك من ذلك ، إنه فى يثرب ، فاذهب مع قريش فى حربها هذه التى تتجهز لها ، ثم عد إلى بمقتل حمزة وأنت بعد ذلك طليق

قال العبد : أما إنى ذاهب مع قريش فعائد اليك بمقتل صاحبك أولاق من دون ذلك الموت فهو أهون على وآثر عندى من حياة الرقيق

ولقد سمع الناس منه حديثه عن ذلك البلاء المنكر الذى أبلاه يوم أحد ، وما أرى إلا أنك تعرفه كما أعرفه ، فقد أخذ يرقب حمزة ، وهو يقوم من المسلمين مقام الأسد يذود عن أشباله ، يهز الجيش بسيفه هزاً ، والناس يرونه من بعيد كأنه الجمل الأورق ، فتمتلئ قلوبهم لمنظره رعباً ، وينصرفون عن موقفه انصرافاً ،

وهو يتحداهم ويدعو فرسانهم ومغاويرهم . والعبد قائم قد استتر عنه بشجرة ينظر اليه ويرتقب غفلته ، وحمزة لا يراه ولا يحس بمكانه . فلما أمكنته الفرصة هز حربتــه حتى رضى عنها ، ولم يكن له بغير الحربة من السلاح علم ، فلما تهيأت له الرمية رمى ، وإذا الحربة تصيب حمزة فى مقتــل فيخر صريعاً ، والعبد قائم مكانه لا يريم ، يرقب أسد الله صريعاً بعد أن كان يرقبه جائلاً فى الميدان ؛ فلما استوثق من أن صريعه قد قضى أقبل يسعى اليه ، فانتزع حربته ثم عاد إلى المعسكر فأقام فيه . لم يصنع قبل مقتل حمزة شيئاً ، ولم يصنع بعد مقتل حمزة شيئاً ، وما يعنيه من أمر هذه الحرب بين قريش والأنصار ، وإنمــا أقبل يشترى حريته بمقتل هذا الرجل العظيم ، وقد ظفر بما أراد ، فانتظر قفول قريش إلى مكة ، ولم يشهد ما كان من تمثيل هند وصاحباتها بعم النبى ، ولم يشهد ما كان من حزن النبى حين رأى عمه فى منظر لم ير (صلى الله عليه وسلم) قط منظراً أوجع له وأثقل عليه منه . ولم يسمع العبد نذير النبى حين أقسم لئن أظفره الله على قريش ليمثلن منهم بسبعين مثلة لم تعرفها العرب قط ، ولم يعلم العبد أن النبى قد رُد عن ذلك رداً ، وأن الله قد أنزل فى ذلك قرآنا ، وأن النبى قد تلا قول الله عز وجل : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون »

ولم يعلم العبد أن النبى قد اضطر إلى أن يكفر عن يمينه ، ثم لم يعلم العبد أن النبى قد عاد الى المدينة محزوناً أسفا ، فلما سمع نساء بنى الأشهل يبــكين قتلاهن قال : ولــكن حمزة لا بواكى له ! وسمع ذلك منه الأنصار ، فأرسلوا نساءهم يبكين حمزة عند بيت النبى ، وخرج نساء النبى فبــكين معهن حتى ردهن النبى داعيا لهن ، ثم أصبح فنهى عن البكاء

لم يعلم العبد من هذا شيئاً ، وماذا يعنيه من هذا ، إنما كان يريد حريته وقد بلغها ، وماذا صنع البائس بحريته ؟ لم يعــد الى بلده ، وكيف سبيل العودة اليها ؟ ولم يسد فى مكة ، وكيف السبيل الى السيادة فيها ؟ إنما عاش بين قريش حراً كالعبد ، وطليقاً كالأسير . نعم لم يعلم العبد بشىء من هذا ، ولــكنه علم ذات يوم أن جيوش المسلمين مقبلة على مكة ، ورأى ذات صباح جيوش المسلمين تدخل مكة ، واستيقن العبد أنه مقتول إن ظفر به المسلمون ، ففر وانطلق فى الأرض يلتمس لنفسه مأمناً فلا يجده . هؤلاء المسلمون ينتصرون على العرب يوم حنين ، وهذه أرض العرب كلها تذعن للنبى ، فأين الملجأ من الله إلا الى الله ؟ لقد آوى العبد الى الطائف وقاوم فيها المسلمين ما قاومهم أهلها ، ولــكن وفد الطائف يتهيأ للسفر الى المدينة ، وما هى إلا أيام حتى تذعن الطائف لمــا أذعنت له مكة . والآن يفكر العبد فى مهاجرة البلاد العربية كلها . ولــكن كيف السبيل الى الهجرة ؟ لقد أُخذت عليه سبيل الحبشة ، وأُخذت عليــه سبيل الروم ، وانبسط سلطان النبى على الشمال والجنوب . لقد كانت الهجرة ميسورة قبل الآن . فأما الآن فقد تقطعت من دونها الأسباب

هنالك يلقى بعض الناس فى نفس العبد أن النبى لم يقتل قط رجلاً جاءه مسلماً ؛ وأن النبى ذات يوم لجالس بين أصحابه ، وإذا رجل قائم على رأسه يشهد أن لا إلــه إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ؛ وينظر النبى فيرى العبد فيعرفه ، ولــكن الله قد عصم دمه بالاسلام ، وما قتل النبى قط رجلاً جاءه مسلماً ، وإن كان قد قتل عمه حمزة . فيأمر النبى ذلك العبد أن يجلس ويحــدثه كيف قتل عمــه ؛ وهذا العبد قد جلس وهو يعيد على النبى بلاءه المنكر ، وحديثه يملأ قلب النبى حزناً ولوعة وأسى ؛ والعبد بين يديه ، لو أراد لأرضى حزنه ولوعته بمصرعه ، ولــكن أنىّ له ذلك وقد اعتصم العبد بالاسلام ؟

وقد آثر النبى أن يعفو ، وآثر أن يصبر . أليس قد عفا عن هند وقد مثّلت بعمه ولاكت كبده ، وجدعت أنفه وأذنيه ؟ فماله لا يعفو عن عبد مأمور ؟ ولــكنه قال للعبد : غيب وجهك عنى ، فجعل العبد لا يرى رسول الله إلا تنكب طريقه واجتنب لقاءه

وعاش وحشى فى المدينة حراً كالعبد ، وطليقاً كالأسير ، وجعل الندم يحز فى قلبه حزاً ، ويمزق فؤاده تمزيقاً ، يؤرقه إذا دنا الليل ، ويعذبه إذا أقبل النهار

ولــكن العرب يرتدون ، ويذهب خالد بن الوليد لقتــال مسيلمة ، وهذا العبد يذهب معه ليقاتل فى سبيل الله بعد أن كان يصد عن سبيل الله

وهذا العبــــد يهز حربته ذات يوم كما هزها يوم أحد ، ويتهيأ لرميها كما تهيأ يوم أحد ، ثم يطلقها كما أطلقها يوم أحد ، وإذا

هى تصيب رجلا فتصرعه ، واذ الحربة التى قتلت حمزة قد شاركت فى قتل مسيلمة ، واذا وحشى قد قتل خير الناس ، وقتل شر الناس . وقد عفا النبى عن قاتل عمه ، وعفا المسلمون عن قاتل أسد الاسلام ، ولكن نفس وحشى لم تعف عن وحشى ، ولكن دم مسيلمة لم يغسل من نفسه دم حمزة . وهذا العبد الحر يمضى مع جيوش المسلمين غازياً فيقاتل الروم وينتصر مع المنتصرين ، ويستقر مع المستقرين فى مدينة حمص هذه . ولكن بلاءه أيام الردة وبلاءه أيام الفتح ، وما احتمل فى هذا كله من جهد ، وما ناضل فى هذا كله عن الاسلام ، لم تغسل عن نفسه دم حمزة ، ولم تبرئ نفسه من الندم لمقتل حمزة ؛ ولم يبلغ الاسلام من قلب هذا الرجل ما بلغ من قلوب كثير من الناس فيمحو من قلبه ما قدم فى جاهليته ، واذا هو يستعين على الندم بالخمر ، واذا هو يشرب ويسرف فى الشرب ، واذا هو يُضرب فى الشراب فلا يمنعه الحد من معاودة الشراب ، واذا هو معروف فى أهل حمص بما قدم من خير وشر ، واذا هو معروف فى أهل حمص بسكره اذا سكر ، وبصحوه اذا صحا ، واذا هو يسكر حتى يصبح مخوفاً على من يدنو منه ، ويصحو حتى يصبح عاقلا حلو الحديث . والندم يلح عليه حتى يبغضه الى نفسه تبغيضاً ، ويصرفه عن الصحو صرفاً ، وكلما مضت عليه الأيام ازداد امعاناً فى الشراب ، والسن تتقدم به ، وجسمه يضعف شيئاً فشيئاً ، وعقله يذهب قليلاً قليلاً ، والندم ماثل مع ذلك فى نفسه ، ملح بداره ، يأخذه من كل وجه ، وهو لا يجد سبيلا الى الفرار منه إلا الى الشراب ، وهو يُضرب فى الشراب ، وقد ضعف وفني فلا يحتمل الضرب فيموت . ونشهد جنازته اليوم

أرأيت أنى لم أكن ملحا ولا مؤثراً للغموض حين كنت أحدثك بما كنت أحدثك به من هذه العواطف المختلفة التى كانت تثيرها جنازته فى نفوس الناس . قال عمير : أشهد أن حكمة الله بالغة ، وأن الرجل الرشيد خليق أن يتعظ بما فهم من قضاء الله ، وأن يطمئن إلى عدل الله وعفوه إذا أشكلت عليه الأمور .

قال محمد بن نصر : فانى لا أعرف شيئاً يغسل عن النفس أثمها وينقيها من السيئات كهذا الذى نحن فيه من جهاد عدو الله ما وجدنا الى هذا الجهاد سبيلاً

طه حسين

حول الهجرة

للأستاذ محمد أحمد الغمراوى



تحتفل (الرسالة) اليوم بذكرى حادث كريم لم يكن بعد النبوة أعظم ولا أبعد أثراً منه فى تاريخ الاسلام بل فى تاريخ الانسانية . فلولا الهجرة ما ظهر الاسلام ولا غلب على جزيرة العرب ، ثم على أهم مواطن نصف الكرة الشمالى من الأرض .

ولولا ظهور الاسلام ، وما استلزمه من جهاد فى سبيل الله ، وما أنزله الله من هدى يهدى به المجاهدين سُبُلَه ، لحرم الانسان ذلك الهدى ، ولظل فى أموره موكولاً إلى نفسه ، لا يكاد فى السلم يقف عند حد فى طلب اللذة ، ولا يكاد فى الحرب ، كما تشهد الحرب العظمى ، يقف عند حد فى إتيان ما يظن أنه يكفل له النصر . فالعهد الذى كان فى الاسلام قبل الهجرة إنما هيأه الله ليؤدى بقدَر منه إلى الهجرة ، ثم إلى ما كان فى حياة الرسول بعد الهجرة . وهو إلى ذلك كان عهد تشريع من الله على يدى رسوله للناس فيما ينبغى أن يفعلوه إذا كانوا فى حالة من الضعف لا يملكون معها من أمورهم إلا القليل : يصابرون فى سبيل الله ويصبرون ما استطاعوا ، ويهاجرون إن استطاعوا بدينهم فى سبيل الله إلى حيث يمكنهم أن يقيموا دينهم آمنين ، فان أمكنتهم بعد ذلك قوة يستطيعون بها الدفاع عن دينهم ولو بالسلاح ، فقد وجب الدفاع . إنما عليهم فى كل ذلك ، مهما يكن الحال ، أن يستمسكوا بدينهم كما يستمسك الغريق بحبل النجاة

والعهد الذى كان فى النبوة بعد الهجرة كان ، فيما كان ، عهد تشريع من الله على يدى رسوله للناس فيما يجب عليهم وما ينبغى لهم فى حال القوة ، سواء أكانت قوة ناشئة قد قام حيالها الأعداء أم كانت قوة غالبة قد مكن الله لأهلها فى الأرض ، فلم تبق يد أعلى من أيديهم ، ولا كلمة تنافس كلمتهم فى الرفعة والسلطان .

وفيما بين هذين الحالين أحوال تتقلب فيها الأمم الناشـئة ، لولا الهجرة ما عرف الانسان سنن الله فى مثلها ولا طريق الفلاح فيها

فالهجرة إذا شئت هى نقطة الانقلاب من الضعف إلى القوة لا فى تاريخ شعب فحسب ، ولـكن فى تاريخ دين شاءت رحمة الله بالبشر أن يمن عليهم به ليعرفوا ما لم يكونوا لولاه ليعرفوه من سنن الله فى الانسانيـة بحذافيرها ، لا فيما يتعلق بالفرد فقط ، فقد كان فيما أنزل الله قبل الاسلام من دين ما يكفى لأن ينجو به الفرد مما يتهدد نفس الفرد من أخطار ، ولـكن فيما يتعلق بالمجموع على الأخص ، أى فيما يتعلق بالانسان من حيث هو أمم وشعوب ، ثم من حيث هو جنس واحد ، أبدعه إلـه واحد ، وجعل طريق بلوغه أعلى غاياته التى قدرت له فى التعاون فى الله والاجتماع ، لا فى العزلة والافتراق

ولعل هذه الناحية هى الفرق الأكبر بين الاسلام وبين ما قبله من الأديان التى أنزلها الله . بالأديان قبل الاسلام هـدى الله الانسان من حيث هو فرد ومن حيث هو جماعة منعزلة ؛ وبالاسلام هدى الله الانسان من حيث هو فرد ومن حيث هو جماعة منتشرة متصلة ، ثم من حيث هو جنس حياته ورقيه فى اتباع سنن الفطرة التى فطر الله الناس عليها وفطر عليها الـكون. وكان عهد التشريع الالـهى للجماعة العامة هو ما بعد الهجرة ، وعهد التشريع للفرد كان فيما قبل الهجرة ، ثم فيما بعد الهجرة ضمن دائرة الجماعة . فـكأن الله سبحانه حين أراد أن يكمل للانسانية دينها فى الاسلام ، ويجمع لها فيه الدين كله ، جعل الاسلام عهدين يكادان يتساويان : عهد الفرد قبـل الهجرة ، وعهد الجماعة بعد الهجرة . فقبل الهجرة كان عهد التضحية فى سبيل الله من الناحية الفردية البحتة كما كان يحدث فى الأديان التى قبل ، كالنصرانية . وبعـد الهجرة كان عهد تكون الجماعة وتطورها إلى جماعة كاملة تسير فى الاجتماعيات طبق الفطرة : قانونها كتاب الله ، ولا حكم فيها ولا سلطان عليها إلا لله . فتاريخ النبى صلى الله عليـه وسلم يمثل تاريخ الأنبياء قبـله فى شطره ، ويختص ويمتاز فى الشطر الآخر ، وبالشطر الآخر . فهو من مبدئه إلى منتهاه يمثل تاريخ ترقى الله بالانسان فى الدين ، كما يقولون إن تاريخ خلق الله الانسان يتمثل فى خلق الجنين

إن الانسان خارج دائرة الدين لا يزال يتخبط فى الاجتماعيات الى الآن . قد استطاع فى عهده الحديث أن يتوصل إلى كثير من سنن الله فيما ليس بانسان ، أما سنن الله فى الانسان خصوصاً من الناحية الاجتماعية فلا يكاد يعرف منها شيئاً يقينياً ، وما يسميه علم الأجتماع ، على ضيق مداه ، أكثره آراء لا تزال تنتظر التمحيص . ومن عجيب لطف الله بالانسـان أن وكله الى نفسه فيما لا يتعلق بالروح ، ولم يكله الى نفسه فيما يتعلق بالروح . وكله إلى نفسه فى العلوم الطبيعية فلم يرسـل رسولاً يعلم الناس حقائق العلم ، وإن دلهم على طريق التوصل الى ذلك بأنفسهم فى كثير من آيات القرآن فى معرض التذكير والتعريف به سبحانه . لـكنه لم يكله فى أمر الروح الى نفسـه ، وإلا لقضى على أجيال كثيرة من الأرواح ، إن لم يكن على جميع أجيالها ، بالهلاك . ترك الانسان يتوصل بمجهوده وتجاربه الى سنن الله فى كل محسوس تستطيع أن تتناوله تجارب الانسان ، لـكن ما لا تستطيع أن تتناوله التجارب مما يتعلق بنفس انسانية الانسان فقد اقتضت حكمة الله سبحانه ورحمته أن يتولاه هو من الانسان ، لا بتعريفه بتلك السـنن كما نعرف أمثالها فى العلوم ، ولـكن بتيسيره للأنسان الاستفادة من تلك السـنن كما لو كان محيطاً بها ، خبيراً بطرق تطبيقها على نفسه وعلى مجتمعه . وما الدين إلا النظام العملى الـكامل لحياة الانسان طبق الفطرة التى فطره سبحانه عليها . والفرصة بعدُ فسيحة أمام الانسان ليعرف قوانين تلك الفطرة بالبحث والنظر إذا شاء وإذا سلك اليها الطريق . لـكن ليس سبيل ذلك التجارب يجريها الفرد فى معمله ، لأنه إن استطاع أن يخضع المادة والطاقة بل والخلية الحية فى معمله للتجربة فلن يستطيع أن يخضع الروح لمثل ذلك . وإن استطاع ذلك إلى حد لا يكاد يذكر فى امتحان الفرد ، فلن يستطيع ذلك إلى حد ما فى الجماعة . لا . ليس طريق الوصول الى سنن الله فى الاجتماعيات التجربة العلمية ، إنما سبيل ذلك النظر العـلمى فى تاريخ الأنبياء ، وفى ما شرع الله بواسطة الأنبياء للناس . حوادث ذلك التاريخ وأحكام الله كما تبينها أفعال أنبيائه ، وكما تنطق بها كتبه المنزلة ، هى المادة التى يجب أن يُستخلص منها سنن الله فى الناس ، كما إن نتائج التجارب العلمية هى المادة التى يستخلص منها سنن الله فى غـير الانسان . وكل الذى يتطلبه العلم فى هذا ، إذا قُدّر أن يتجه العلم هذا الاتجاه ، هو صدق المادة ؛ هو صحة حوادث التاريخ وصحة نسبة الأحكام . ولا أدرى إلى أى حد يمكن الاعتماد الآن على ما كان قبل الاسلام من ذلك ، إنما الذى أدريه أن ما كان فى الاسلام من ذلك ممكن

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

٩ـ قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

بستور Pasteur

نالت غزاة المكروب

— ١ —



مات اسپلنزانى ، وجاء ثلث قرن من بعد وفاته وقف فيه البحث عن المِكروب وقوفاً تاماً ، ونسى الناس تلك الأحياء واستصغروا أمرها ، واتجهوا بهمّتهم إلى علوم أخرى كانت تخطو فى طريق التقدم خطوات سريعة

وكانت القُطُر البخارية قد أخذت تشق طريقها فى البلاد ، ضخمةً دميمةً ، تَسْعَل كالمصدور فتُفزع الخيل والبقر فى أوروبا وأمريكا . والتلغراف كاد يَهُمُّ بالظهور . واختُرعت مكرسكوبات عجيبة ، ولكن لم يتقدم رجلٌ للتحديق فيها ليثبت للدنيا أن هذه المكروبات الضئيلة تستطيع أن تقوم من العمل النافع المجدى مالا تستطيعه تلك القاطرات المعقّدة الفظيمة — لم يتقدم أحد ليقول للناس ، ولو ايحاء وتلميحاً ، إن هذه الخلائق تستطيع قتل الملايين من البشر فى خفاء وسكون ، وأنها فى قتلها أكثر حصاداً من الجيلوتين ، وأبعد مدى من مدافع واترلو Waterloo

فى يوم من أيام أكتوبر عام ١٨٣١ ، بقرية من قرى الجبال بشرق فرنسا ، تجمهر نفر من أهل القرية على دكان حدّاد . وكان الفزع يبدو على وجوههم الشاحبة ، وكان الهلع يستبين فى أحاديثهم الخافتة ، وقد حوّلوا جميعاً وجوههم شطرَ الحدّاد بداخل المكان . وإذا بطشيش يسمع كطشيش الشّواء ، وإذا بصراخ يعقبه من تباريح الألم مكظوم ، وإذا بطفل فى التاسعة يخرج من حافّة هذا الزحام هارباً إلى بيت أبويه وقد أخذ منه الرعب ما أخذ . أما الرجل المسكين الذى أنضج الحديد لحمه ففلّاح يدعى نقولا Nicola ، لقيه فى الطريق ذئب هائج مسعور ، نزل على القرية يعوى عُواء المجنون ، ويُزبد فاه برُغاءٍ مسموم ، فهجم على صاحبنا فمزقه تمزيقاً . وأما الطفل الهارب فكان اسمه لويس بستور Louis Pasteur ، ابن دباغ فى أربوا Arbois ، وحفيد خادمٍ عبْدٍ لكونت أدرسييه Count Udressier

ومضى على هذا المشهد أسابيع سقط فيها ثمانية رجال فريسةً لداء الكَلَب ، وعانوا منه ما عانوا من جفاف الحلْق ، وضيق الخِناق ، وجنون النفس ، وصرخوا طويلاً فترددت أصداؤهم فى أذن صاحبنا الطفل ، فارتاع فأسماه بعض القوم جباناً ، وانطبع فى ذاكرته أثر الكيّ الذى رآه وسمعه فى دكان الحداد انطباع الحديد فى لحم ذلك الفلّاح البائس

وسأل لويس أباه : «ما الذى يصيب الكلاب والذئاب بالجنون ؟ ولِمَ يموت الناس بعضة منها ؟» . وكان أبوه فى زمان مضى چاويشاً قديماً فى جيش نابليون ، فرأى عشرات الألوف من الناس تموت من الرصاص ، ولكنه لم يَدْرِ لِمَ يموت الناس من الأمراض . فكنت تسمع هذا الدّباغ التقى يجيب ابنه السائل فيقول : «من الجائز يا بنى أن شيطاناً من الشياطين دخل جلد الذئب ، وإذا قضى الله لك بالموت فلا مَردَّ لقضائه» . هذا جواب ، لو تأمّلته لوجدته على بساطته كأحسن ما يجيب به أكثر العلماء حكمة ، وأغلى الأطباء أجوراً . ولم يكن أحد يعرف فى عام ١٨٣١ لِمَ يموت الناس من عضّة الكلْب المسعور ، فأسباب هذا المرض كانت غامضة مجهولة

أنا لا أحاول أن أدخل فى روعك أن هذا الحادث الذى وقع لـ«بستور» فى صباه كان السبب الذى حدا به فى رجولته

الاعتماد عليه كل الاعتماد . ممكن الاعتماد على ما ضبط وصح من حوادث النبوة وأفعال الرسول وهو شىء كثير ، أما القرآن فهو المعين الذى لا يغيض ، والكنز الذى لا يفنى ، والكتاب الذى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)

لكن العلم لن يستطيع الانتفاع بذلك أو يؤمن ، وأظن العلم يقترب شيئاً فشيئاً من الأيمان

محمد احمد الغمراوى

إلى كشف سبب هـذا الداء وكشف علاجه . إذن لزاد هذا فى جمال قصتنا ، وكان كذباً وبهتاناً . ولكن الحق أن هذا الحادث راعه طويلاً ، ولزمته ذكراه الأليمة طويلاً ، وتفكر فيه طويلا . والحق أنه أحسّ ريحَ الشِّواء تصعد من لحم الفلاح الى أنفه إحساساً أشد ألف مرة ممن أحسوها ، وأنه سمع صراخه فنفذ فى نفسه الى أغوار أبعد من أغوار الآخرين ممن سمعوها ، واختصاراً أريد أن أقول إن هـذا الصبي كان مجبولاً من تلك الطينة التي يُجبل منها الفنّانون ، وان ذلك الفن الذى فيه عاون علمه يداً بيد فى اخراج تلك المكروبات الى الوجود بعد ازوائها مرة أخرى بوفاة « اسپلنزانى » . ولا أحجم عن القول إن «بستور» فى السنوات العشرين الأولى من حياته لم تظهر عليه شارة تنبيء بمصيره بحاثاً كبيراً ، فانه قضاها طفلاً جَلْداً على الشغل ، ذا عناية بما يعمل ، ولكن عين الناظر المتفقد لم تكن تقف عنده طويلا . وكان يقضى فراغه فى التصوير ، فكان يصور النهر الذى يجرى بجوار المدبغة ، وكان يصور أختيه فَيَشْبُتان له ساعات حتى تتصلب أعناقهما ، وتتوجع ظهورهما . وصور أمه صوراً قاسية ، ليس فيها من الملق شيء ، وليس فيها من الجمال شيء ، ولكنها أشبهت أمه

وفى هـذه الأثناء أهمل الناس حيوانات « اسپلنزانى » الصغيرة حتى نسوها ، وقام العالم السويدى « لينيأس » Linnaeus يقسّم الأحياء ويبوّب أجناسها ، فيجعل لكل جنس جُذاذة ، ويجعل من الجذاذات فهرساً عظيما ، حتى إذا جاء الى تلك الأحياء الصغيرة ، رفع يديه يأساً منها ، قال : « إنها أحياء شديد صغرها ، مختلط أمرها ، وستظل على انبهامها ، وإذن فلأضعْها فى باب الأشتات الغامضة » . ولم تجد تلك الأحياء من يدفع عنها ، ويتحدث بالحسنى عنها ، غير ابرنبرج[1] Ehrenberg ، ذلك الألمانى الشهير ، ذو الوجه البض الملىء ، فانه فى الوقت الذى لم يكن فيه يقطع المحيطات أو يُمنح الأوسمة والمكافآت ، كان يشتبك فى مجادلات عقيمة عن هذه الحيوانات : ألها أمعاء كسائر الحيوان ؟ أهى حيوان كامل الأعضاء ، أم هى بعضٌ صغير من كل كبير ؟ أم هى ليست بحيوان قط ، بل نبات ؟

ظل « بستور » يكد فى الدراسة ويُكبّ على القراءة ، وبدأت تظهر عليه وهو فى كلية «أربوا» سمات ، وتتراءى فى خلقه صفات ، بعضها حسن وبعضها قبيح ، ولكنها جميعاً خلقت منه شخصاً التقت فيه المتناقضات بقدرٍ لم تلتق على مثله فى سواه . فقد كان أصغر التلاميذ فى المدرسة ، ومع ذلك أراد أن ينصّب نفسه عليهم قيما . كانت به رغبة شديدة فى تعليم غيره من الأولاد ، وعلى الأخص فى حكمهم والسيطرة عليهم . ونال أمنيته فنصّبوه قيما . وقبل بلوغه العشرين ارتقى الى منصبٍ أشبه بمساعد مدرس فى كلية بيزانسون Besançon . وأجهد نفسه فى العمل اجهاداً مريعاً . وأراد كلَّ من حوله على أن يعملوا بمقدار ما يعمل . وكتب الى اختيه المسكينتين كتباً شديدة اللهجة ، بارعة الأسلوب ، يحضهما فيها على العمل ، وقد كانتا — طيّب الله ثراهما — تبذلان كل ما فى وُسعهما من مجهود



بستور

كتب إليهما يقول : « أختىّ العزيزتين ، إن العزيمة شئ عظيم ، لأن العزيمة يتبعها العمل ، والعمل يتبعه النجاح دائماً ، إلا فى القليل النادر . وهذه الأمور الثلاثة — الارادة ، والعمل ، والنجاح — تملأ الوجود الانسانى . فالعزيمةَ العزيمةَ ، والعملَ العمل ، فسيفتحان لكما أبواب السعادة والمجد . إن الطريق الطويل المجهد فى آخره خير الجزاء عما صبّ الانسان على ترابه من عرق ، وأحق فيه من قدم »

(١) هو كرستيان جتفريد ابرنبرج Christian Gottfried Ehrenberg طبيعى ألمانى ، ولد عام ١٧٩٥ ، ومات عام ١٨٧٦ . تعين أستاذاً للطب بجامعة برلين عام ١٨٢٧ . وقام برحلات علمية كثيرة ، منها واحدة الى = مصر زار فيها صحراء لوبيا ووادى النيل والشواطيء الشمالية للبحر الأحمر ، والحبشة وبلاد العرب وسوريا ، وجمع فيها مجموعات علمية كثيرة ، ودرس الرواسب الصخرية وأثبت أنها من أصول حيوانية ونباتية ، وأثبت أن فسفرة البحار واستضاءتها فى الليل تنشأ عن أحياء فى الماء « المترجم »

تلك عظاته الأولى فى شبابه ، وهى هى عظاته الأخيرة عند ما بلغ السبعين — عظات بسيطة ، ولـكنها كانت تخرج من قلبه

وبعث به أباه إلى باريس ، إلى مدرسة النُّرْمال ، فاعتزم أن يقوم هناك بأعمال كبيرة ، ولـكنه أحس حنيناً أليماً إلى وطنه ، وإلى روائح المدبغة التى خلّف فى بلده ، فعاد اليها تاركاً فى باريس آماله وأحلامه . . . ولـكنه لم يغب عنها طويلاً ، فانه رجع إلى باريس بعد عام ، إلى نفس المدرسة ، وفى هذه المرّة أطاق الاقامة فيها بعيداً عن بلده وأهله . وذات مرة خرج من محاضرة دوماس Dumas (١) ، مُغتمِرَ الحس ، فائض النفس ، مغرورق العين ، يتمتم لنفسه : « ما أجلّ الـكيمياء علماً ! ودوماس ، ما أمجده وأوفر حظه من محبة الناس ! » . عرف « بستور » حينئذ أنه سيكون يوماً كيميائياً كذلك عظيماً . ونظر إلى الحىّ اللاتينىّ (٢) بشوارعه القاتمة ، وهوائه الخبيث ، وإلى عيشة الخلاعة والتخليط التى يعيشها الناس فيها ، فقال لا يرفع هذا الحىّ من وهدته إلا الـكيمياء . كان « بستور » قد ترك الرسم والتصوير ، ولـكنه حفظ فى قلبه روح الفنّان الشاعر

ولم يلبث أن بدأ أبحاثه ، بين قوارير من كل رائحة كريهة ، وأنابيب من كل سائل ذى لون بهيج ، فاشتغل بها وتعثر فيها . وكان يحاضر صديقه الطبيب شپيوس « Chappius » ساعات عن بلورات حامض الدُّرْدى (٣) ، ولم يكن إلا طالب فلسفة ، فكان المسكين لا يجد مندوحة عن الانصات كل تلك الساعات . وكان « بستور » يقول له : « إن من المحزن ألا تـكون كيميائياً مثلى » . كان يريد كل الناس على أن يكونوا كيميائيين ، كما أراد كل الأطباء بعـد أربعين عاماً على أن ينقلبوا بحّاثاً للمكروب

وبينا كان يُكبّ بأنفه الأفطس ، وجبينه العريض ، على كومات البلورات يمتحنها ، كان رجـلان ، أحدهما فرنسى ، والآخر ألمانىّ ، قد أخـذا على انفراد يوجهان همهما إلى تلك الحيوانات الصغيرة الحية التى تدعى بالمكروبات ، يعتقدان أنها حيوانات على صغرها خطيرة نافعة كالخيول والأفيال . أما الأول فـكان اسمه كينارد دى لاتور Cagnard de la Tour ، وكان رجلاً متواضعاً متخاشعاً ، إلا أنه كان يعرف كيف يكشف من الحقائق عن ابكارها . فذات يوم كان يدور خلالَ الجعة المختمرة فى أحواضها ، فأخرج من حوض قطرتين يعلوهما الرغوة ، ونظر اليهما بمجهره فوجـد أن حبات الخميرة قد نتأت على جوانبها نتوءات كما تتنبّت البذور . فقال لنفسه : « إذن هذه الخمائر حية ، لأنها تتكاثر كغيرها من الخلائق » . وتابع أبحاثه فعرف أن الشـعير لا يستحيل إلى « البيرة » إلا حينما وُجدت فيه هـذه الخمائر الحية المتزايدة . « إذن فهذه الخمائر ، وهى تمارس العيش ، تخلق من هذا الشعير كحولاً » . ونشر مقالاً صغيراً عما وجد ، ولـكن الدنيا رفضت أن تستمع إلى هذا الـكشف المجيد . وكان « كنيارد » حيياً ، ولم يكن دعّاء لنفسه ، ولم تكن له صلة بالصحافة

وفى نفس العام نشر دكتور ألمانى يدعى إشڤان Schwann مقالاً قصيراً ، فى جُمله طول ، وفيها إبهام ، يقصّ على الناس فيه خبراً عجيباً ، خال أنه سيُقيمهم ويُقعدهم ، فاذا بهم يستمعون له بصدور ضيقة وأمزجة فاترة . قال : « اغل اللحم إغلاء طيّباً ، وضعه فى قارورة نظيفة ، ثم أدخل الى القارورة هواء بعد إمراره فى أنبوبة حمراء بما حولها من النار ، يَبْق اللحم صالحاً عدّة أشهر . ولـكنك إذا نزعت عن القارورة سِدادها ، فأدخلت اليها الهواء العادى بما فيـه من جراثيم ، فلن يلبث اللحم أن تخبث ريحُه ، ويَتَنغَّش بأحياء أصغر ألف مرة من رأس الدبوس ، هى التى تَعيث فيه بالفسادَ »

لو أن « لوفن هوك » سمع بهذا لفتح عينيه وسمّعهما لما سمع ، ولو أن « اسپلنزانى » جاءه هـذا الخبر وهو يصلّى بالناس فى الـكنيسة لفضّ جمعهم وهرع الى معمله . أما أوربا فلم تحرك ساكناً . وقرأت الخبر فى الصحف فكان كبعض الأخبار . وكان « بستور » فى تلك الساعة على وشك أن يكتشف أول كشف خطير كشفه فى الـكيمياء

كشف بستور كشفَه الخطير الأول وهو ابن ست وعشرين فبعد نظرات قريبة عديدة الى بلورات صغيرة دقيقة ، خرج على أن حامض الدردىّ يوجـد على صور أربع لا على صورتين ، وخرج على أن المواد الـكيمياوية منها مركبات قد تتساوى

---

(١) هو الـكيميائى الفرنسى الشهير (١٨٠٠ — ١٨٨٤) صاحب التقديرات الـكيميائية التى لا تزال تحمل اسمه الى اليوم

(٢) حى الطلبة بباريس

(٣) حامض الدردى أو حامض الدرد هو الذى يسميه كياويو مصر خطأ بحامض الطرطير أو الطرطريك نقلا عن اللفظة الأفرنجية tartaric فهى مأخوذة عن العربية . والدردى أو الدرد رواسب الخمر التى توجد فى الدنان . وهى مفيئة . وفى المثل « أول الدن دردى » لمن يبـدأ الحديث فيقول ما تعافه النفس . المترجم

جزئياتها فى كل شيء ، فى عدد ذراتها ، وفى الحال التى تترابط عليها هذه الذرات ، حتى يكاد المركبان يكونان مركباً واحداً ، لولا اختلاف بسيط فى وضع ذراتهما ، وخرج على أن هذين الوضعين يختلفان كاختلاف الشيء وصورته فى المرآة [1]

تمطى « بستور » فاستقام ما انحنى من ظهره الوجيع ، واستبان قدر الكشف الذى أتاه ، فخرج مسرعاً من معمله الصغير المظلم القذر ، فبلغ البهو الكبير ، فالتقى بشاب فيزيائى لم يكن يعرفه إلا لماماً ، فاذا به يطوّقه بذراعيه ، ويقوده خارج المعهد إلى حدائق لكسمبرج Gardens of Luxembourg ، وتحت ظلال أشجارها الوريفة ، أخذ يصبّ على صاحبنا الكلم صباً ، ويَغْمُره بالشرح والتفسير غمرا . لم يكن له مندوحة من هذا . ملأه الحديث فلم يستطع كظمه . لابد أن يُفيض به إلى أحد . لا بد أن يخبر الدنيا بالذى وجد

— ٢ —

لم يمض شهر حتى أثنى عليه الأشياخ من الكيميائيين ، وحتى اصطحبه علماء أعمارهم ثلاثة أضعاف عمره . وتعيّن أستاذاً بجامعة استراسبورج Strasbourg . وفى فترات ما بين أبحاثه وقر فى نفسه أن يتزوج من ابنة العميد . ولم يكن موقناً من حبها ، ولكنه جلس فكتب لها كتاباً وَثِق أنها لن تقرأه حتى تحبه . كتب لها . « ليس فىّ ما يجذب فتاة صغيرة مثلك ، ولكن ذاكرتى تطمئننى إلى أن الذين عرفونى حقّ المعرفة ، أحبونى أصدق الحب »

وتزوجته ، فصارت بذلك من أشهر الزوجات فى التاريخ ، ومن أكثرهن مكابدة ومقاساة ، من أكثرهن هناءة وسعادة من بعض الوجوه — وسنذكر فى هذه القصة الكثير عنها

ولما أصبح ربَّ أسرة ، زاد بذلك من نفسه للعمل ، فنسىَ ما تفرضه الزيجةُ الحديثة على الزوج من واجبات ، وماتنتظره من مُحاسنات وملاطفات . وغلا فقلب ليله بالعمل نهاراً . كتب فى ذلك يقول : « أنا على وشك أن أرفع الحجاب عن خبايا غامضة . وأرى هذا الحجاب يشف كل يوم عنها ، ثم يشف ، ثم يزداد شفوفاً . وتطول الليالى علىّ فى انتظار الصباح . وزوجى كثيراً ما تؤنبنى للسهر ، فأقول لها : « إننى بذلك إنما آخذ بيمينها إلى حظيرة الخالدين » واستمر يبحث البلورات ، ويسلك لا كتناهها طرائق لا تلبث أن تنسدّ فى وجهه فيرتد عنها خائباً ، ويدبّر من التجارب كل سخيف مستحيل ، تجارب لا تصدر إلا عن عقل مخبول ، ولكنها كانت من ذلك النوع الذى لو صادف نجاحاً لصيّر هذا المخبول عبقرياً يدوى اسمه فى الآفاق ؛ فوضع الأشياء الحية بين مغناطيسيين كبيرين رجاء أن يغيّر بذلك كيمياء الحياة فيها . واخترع مَكِنات كمكنات الساعات ، وعلّق بها النباتات فأخذتْ تهتزّ كالبندول روحةً وجيئةً ، وحسب بذلك أنه يهز ذراتها فى جزيئاتها ، وحسب أنها تحولُ عن أوضاعها القديمة إلى أوضاع جديدة تنتسب الى الأولى انتساب الشيء إلى خياله فى المرآة ، أو كما ينتسب من حامض الدّردى جزئيه الأيمن بجزئيه الأشول . . وأراد أن يقلّد الله فحاول أن يغيّر فصائل الأحياء

وكانت زوجه تسهر الليالى إلى جانبه ، وتُعجب بما يصنع ، وتثق به ، وتؤمن بكل الذى يأتيه . كتبتْ إلى أبيه تقول : « يجب أن تعلم أن التجارب التى هو قائم بها الآن ، لو نجحت ، فستخلق منه رجلاً يناهض فى الذكر « نيوتن » ، ويطاول فى المجد (جاليليو) » . لسنا نستطيع اليوم أن نؤكد أن مدام « بستور » كانت تقول ذلك فهماً لما يقوم به زوجها ، أم هو إعجاب المرأة ببعلها ، وعلى كل حال فلم تتحقق آمالها هذه المرة ، فان تجارب « بستور » هذه كان نصيبها الخيبة

أحمد زكى

---

(١) الشائع فى الناس أن الشيء وصورته وضعاهما واحد ، والصحيح أنهما مختلفان ، فيمين الشيء شمال الصورة ، وشمال الشيء يمينها . وقد مهد اكتشاف بستور السبيل الى نظرية الأبعاد الثلاثة فى تركيب المركبات العضوية — المترجم

قصة

ومن يرقيــــه ؟

للآنسة سهير القلماوى



فى أيام عاشوراء كان قد اعتاد أن يجوب الطرق صباحاً منذ مطلع الفجر منادياً بصوته العذب العميق: « عاشورا المبارك ... حليمة رقت نبينا محمد من العين . . . » وكان يحمل فوق رأسه مقداراً من مساحيق مختلفة الألوان والأصناف . كان الرجل فوق الأربعين ، وسيم الطلعة ، قوى البنية ؛ وكان أعذبَ ما فيه هذا الصوت الحنون العميق المؤثر الذى يرسله فى الفضاء كل صباح فيمتزج بنسيم الفجر ونور الشمس الباهت الرفيق ، فيوقظ النيام أجمل يقظة وألذها . لم تكن هذه حرفته بالطبع ، فقد كان طول العام يبيع الفواكه ، إما فى محل لقريب له ، وإما سائراً هكذا فى شوارع القاهرة ؛ ولكنه اعتاد منذ أعوام عديدة أن يطوف هذه العشرة الأيام الأولى من العام الهجرى وعلى رأسه هذه المساحيق ليرقى بها من يخاف شر العين والحسد

كان الرجل يؤمن أشد الأيمان بالحسد وشر الحسد ، أليس قد ذكره الله تعالى فى قرآنه الكريم ؟ ألم يأمر الله نبيه الكريم أن يقول « أعوذ برب الفلق . . . ومن شر حاسد إذا حسد » ألم يرو لنا كيف رقت حليمة النبى محمداً من « أعين » الحساد ؟ أليس فى الحياة اليومية ما يثبت لنا شر هذا الحسد ؟ كانت لأخته طفلة جميلة ، وكانت تتركها دائماً قذرة الملابس وَسِخة الوجه لا يكاد يبين منها إلا أحجبة وتمائم وتعاويذ ، ولكنها لأمر ما نزعت هذه الأحجبة يوماً ، فاذا بها تمرض ، وإذا المرض يشتد بها يوماً بعد يوم ، ولم يعد بخور ينفع ، ولم تعد تمائم تصد إصابة « العين » ، وإذا « العين » أصابت فليس لإصابتها مرد . وبعد أيام جاهدت الطفلة فيها جهاداً لا تحتمله إلا تلك الأجسام التى زودت حَدْيثاً بالحياة ، فهى حارة قوية فى بنيانهم ؛ بعد أيام توفيت الطفلة الجميلة فتوفيت معها أفراح الأسرة ومباهجها الى زمن طويل . أبعد هذا يوجد من لا يعتقد « بالعين » ؟

وفى ثانى يوم هذا العام كان الرجل يسير فى الطريق كالمعتاد يرسل صوته الجميل وهو متلذذ بسماعه مرات ومرات بهذا النداء المستحب وتلك النغمة الساذجة البديعة : « عاشورا المبارك . . . حليمة رقت نبينا من العين » ؛ وأطلت من النافذة فتاة فى نحو العشرين ، جميلة الصورة نجلاء العينين . وكانت عيناها أول ما يبدؤك منها لسوادهما وجمالهما . كانتا عينين تجذبان النظر اليهما جذباً كما يجذب الحديد الحديد بفعل الجاذبية الطبيعية

رفع الرجل بصره إلى النافذة فاذا بالعينين النجلاوين تنظران اليه فى احتجاب غير خاف . فأرسل صوته العذب الجميل بندائه العذب كأنما يعلن اليها عمله . فابتسمت ثم أسرعت وتركت النافذة عاطلة من أجمل ما يمكن أن يزينها

واستمر الرجل ينادى نداءه ، ويكرر ويطيلُ النداء ، ويتقن الغناء ، ولكن الفتاة لم تعد ؛ وأخيراً قال لنفسه : غداً تراها ، انك ستمر لثمانية أيام أخر . صبراً ففى الغد الفرج

وفى الغد ما كاد يقترب من باب هذا المنزل حتى سمع صوتاً يناديه : « ياعم يا بتاع عاشورا ! » فالتفت صوب الصوت ، فاذا العينان ، عينا أمس تنظران اليه من جديد

جلست الفتاة على حافة السلم ، وقالت له فى صوت خافت إن سيدتها نائمة ، وإنها تخاف أن تصحو فتراها على تلك الحال فتطردها شر طردة . كل ما تريده منه هو أن يرقيها من عين خادم الجيران لأن هذه تغار منها لجمالها ، وتنظر اليها نظرات شريرة . ولقد زاد فى شر هذه النظرات أن خدم الجيران جميعاً لا يعبأون ولا يتقربون إلا من فتاتنا هذه ، فزاد ذلك فى نيران الغيرة ، ومتى

اشتدت الغيرة ، فالحسد وشرور الحسد متوقعة منتظرة

سمع الرجل هذه الاعترافات الساذجة فوجدها عادية ، وأخذ يقوم بعملية الرقية خالطاً بعض الساحيق متمتماً كثيراً ، وموصياً وصايا عدة ، وكان بوده أن يطيل ويطيل لولا أن نبهته تلك بأن سيدتها قد تصحو ، وفي تلك الصحوة عقاب لها أليم

سار الرجل مبتعداً عن البيت مكرهاً ، يحس في نفسه ألماً لا يرى له مبرراً ولا سبباً ؛ إنه كان في حلم ، كان في سعادة مابعدها سعادة ، كان في سماء ثم هبط الى الأرض ، ثم صحا من الحلم اللذيذ فكانت صحوة أليمة بغيضة

وأخذ ينادي فاذا صوته كأنما هو صوت انسان آخر لا عهد له به . تبدل الصوت ولم يعد فيه الجمال الذي كان يلذه ويستمتع به . وعبثاً حاول الرجل أن يقنع نفسه بأن هذه خيالات تتراءى لهوحده ، وعبثاً حاول أن يقنع نفسه بأن الناس كلهم لم يشعروا بما طرأ على نفسه من تغير أثر في صوته

عاد الرجل الى أهله كئيباً ملولاً برماً بكل شيء ، وأمضى ليله والعينان السوداوان النجلاوان تنظران إليه وتطيلان النظر ، فيحاول الفرار منهما فلاتلبثان أن تعودا من جديد أقوى تحديقاً وأعمق أثراً في النفس

وفي الصباح عاد الرجل يجوب الطرقات منادياً كعادته . دار حول البيت المعهود مرة ومرات فلم ير إلا نوافذ مفتوحة كأنها فتحات القبور . لم ير العينين ! وأخذ طريقه كالمعتاد ، فسار وسار ينادي ، ولكن في غير لذة وفي غير نشوة ، وإذا به يسمع من بيت قريب : « الله ! ما لصوت الرجل تغير ؟ ياخسارة ! كان صوته جميلا وحلوا ! لابد أنه مريض ! »

لم يعد مجال للشك . لقد فقد هذا الصوت الذي كان له ذخراً وأي ذخر : أصابته العين ولم يصبه إلا هاتان العينان السوداوان الواسعتان ، حسد وجازت فيه عين الحسود !

عاد إلى أهله ورقى نفسه ورقاه أهله ، ولكن الرقية ضاعت سدى . لم يكن من يتقن الرقية إلا هو ، ولا يمكن أن يقوم بها لنفسه كما يقوم بها لغيره . فالرقية فن له حركاته وأعماله ومراسيمه . واليوم أصابته هو العين ، فيا ترى من يرقيه ؟

سهير القلماوي

بين الشرق والغرب

للأستاذ محمود الخفيف



غَنِّ ياشِعرُ فقد طالَ البكاءْ   وَتطلَّعنْاَ إلى بعض العَزاءْ
غَنِّ بالشرق وماضى عِزِّه   حان أن يُطرِبنَا هـذا الغِناءْ
صُغْ من اللَّحْنِ نشيدَ الأمَلِ   وأهازيجَ الضُّحى المُقْتَبَلِ
هات ياشعرُ أحاديثَ العلىَ   لاتَقِفْ عند حَدِيثِ الأُوَلِ

عَلِّمِ الأشـبالَ فى وثبتِهمْ
كيف يرقون إلى أوج العلاءْ

أنشِدِ الألحانَ لِلصُّبح الوليدْ   واملأ الآفاقَ من هذا النشيدْ
أيقظِ النوَّامَ من غَفْوَتِهمْ   وترنَّمْ بالأمانى من جـديد
رَفَّ نورُ الصبح فى هام الشجَرْ   وانجلتْ آياتُه ملء البَصَرْ
وسَرَت فى الكون من أنفاسه   نَفْحَةٌ نَمَّتْ بأحلام الزَّهَر

عَرَفتْ رُوحى شَذَاها فانْتَشَتْ
ورأى قلبى بهـا معنى الرَّجاءْ

هِيهِ ما أجمل أطياف الشَّفَقْ   تَتَراءى بَعدَ أن طال الغَسَقْ
صـورٌ ضاحكةٌ خافقةٌ   ضَحِكَ القلبُ إليها وخَفَقْ
لُمَعٌ توحى أحاديثَ الخلودْ   عن جلال الشرق فى صُبح الوجودْ
وعن العِزَّةِ إبَّانَ الضُّحى   وبنو الغرب على الذُّل قعودْ

شَـدَّ ما تبهِجُنى تلك الرُّؤى
وسَـنَا أيامِها الغُرِّ الوِضَـاءْ

همْتُ بالشَّرقِ وضافى نورِهِ … وَهَفَتْ نَفْسى لخافى سرِه
كم ملأتُ العينَ من ألوانه … واجْتَلَى قلبى الرُّؤَى من سِحْرِهِ
ولكم كان لفكرى مَسْرَحاً … كلما أوْحى لشعرى أفْصحَا
أبعثُ الغابرَ من أخبارِه … نَسَماتٍ كالصَّبَا أو أرْوَحا

نسماتٍ يهمسُ المجدُ بها
تلهم الأبناءَ معنى الكبرياء

خُذْ من النيل حديثَ الغابرينْ … وتأمَّلْ فى القرون الأرْبعينْ
واستزِدْ دِجْلَةَ من أخباره … عن بنيه النابهينَ الأوَّلينْ
ورِدِ الهندَ ففى غاباتها … وُلِدَ الساحرُ من آياتها
واهبط الصينَ وزُرْ مستلهماً … مَهْدَ (كونفشيوس) فى جنَّاتها

سوف تلقى الشَّرْق إما جئته
مَنبتَ الحكمةِ أرضَ الحكماء

نشأ الأيمانُ فى أحضانِهِ … حسبُه ما فاض من إيمانِهِ
حسبُه النورُ الذى أطْلعَهُ … فوق ما قدَّمَ من إحسانِهِ
أطلعَ اللهُ الشموسَ النيراتْ … لجلوا فيه ظلامَ الشُّبُهَاتْ
بلغ الانسان فى أرجائه … بهدى الخالق أعلى الدَّرجات

شِدْ ما يبعثُ فى نفسى الهدى
مَهْبطُ الوحى ومهد الأنبياء

آنس النارَ بواديهِ الكليم … قبساً من جانب الطورِ القديم!
فأراه الله من آياتهِ … وحباه العلم والرأىَ القويمْ
واجتبى عيسى من الشرق نبياً … فروَى الآيات فى المهد صبيًّا!
بشَّرَ الناسَ فتيًّا برسولٍ … يحملُ الحق كتاباً عربيًّا

فطنَ الدَّهْرُ إلى مقْدمِهِ
يوم هزَّ الكونَ صوتٌ من حِراء!

يابنى الغرب لنا العزُّ التليدْ … والمعانى الغُرُّ والماضى المجيدْ
لاتقولوا أدبَرَتْ أيامُنَا … وتباهُونا بنارٍ وحديدْ
كم رأينا بينكم من أثَرَهْ … وشهدنا نارَكم مُستعِرهْ
ضَربَ الحرصُ على آذانكم … وأذاع الشرُّ فيكم نُذُرَهْ

كل يوم خبرٌ عن فِتْنَةٍ
ينذِرُ الأرضَ جميعاً بالفناء!

كم تفاخرتم بعلمٍ وذكاء … وسَخِرتُم من خيال الشعراء؟
ضاق وجهُ الأرض عن همتكم … فتلاقيتم على متن الهواء!
ليت شعرى هل تبادلتم سلاما … أم ملأتم جانبَ الجوِّ خصاماً؟
هل أفادَ العِلمُ إلا فِتنةً … وغروراً يبعث الموت الزؤاماً؟

حسبكم فى الفخر ما أجريتمو
من دُموع وأرقتم من دماء!

خبِّرونى كم لديكم من أجيرْ … بات يبكى مثلما يبكى الأسيرْ؟
كم فقير بات يشكو ذِلَّةً … وهوانا وهْو بالرفق جدير!
لا ترون العيش إلا نَهَماً … هل عففتم أو عرفتم ندَماً؟
قد تمشَّى السُّقم فى وجدانكم … فرأيتم كل عطفٍ حُلُماً

أين هذا البغىُ من حرِّيَّةٍ
طالما غازلتموها وإخاء!

كم بلونا من أفانين العذابْ … ورأينا منكمو فتْكَ الذئابْ
كم فضحْنا من طِلاءٍ خادع … فوق ماتخفون من ظفرٍ ونابْ!
تلك أعراض البلاءِ القاتلِ … وعلاماتُ الفناء العاجلِ
قد ذَهِلتم عن مزايا جنسكم … واغتررتم بحطامٍ زائلِ

يوبِقُ الرُّوحَ لديكم جشَعٌ
هل عرَفتم غير رُوح الكهرباء؟

مالت الشمس إلى أفق المغيب … وسيغشى أرضَكم ليلٌ قريبْ
قد تلفتم إلى الخلف كما … لو رأيتم شبحَ الليل الكئيب
هل فزعتم من دنوِّ المنحدَرْ … لحنَنْتم للصباح المنتظر؟
أم ترى آمنتمو بعد الجحود … تؤمن النفس إذا الموتُ حضر

مالكم عدتم إلى الروح وما
شاع عنها من ظهور وخفاء؟

هوذا الصبح بدا فى (يوكهامه) … هل تبينتم على الأفق ابتسامَهْ؟
عادت الشمس إلى مطلعها … أبداً لن يُخْلِفَ الكون نظامَه
نهض المشرق من غفوتِهِ … واهتدى بالحق فى نهضته
جعلَ الماضِىَ وحياً وهدى … ومضى يسعى إلى غايته

انظروا تلقوه فى إقدامه
ظافرَ الأيام خفَّاقَ اللواء

محمود الخفيف

ابن ماجد

أسد البحر الهائج

للأستاذ قدرى حافظ طوقان

لا يظنن القارئ أننا نستطيع أن نوفى ابن ماجد حقه بمقالنا هذا ، فذلك مالا ندعيه ومالا يمكن أن نقول به ، ولا سيما أن ناحية الملاحة عند العرب لا تزال غامضة لم تعط حقها من البحث والتنقيب عدا أنها لا تدخل فى دائرة اختصاصنا . وجل ما أقصده من هذه العجالة إعطاء فكرة عن ابن ماجد عسى أن يكون فى ذلك حفز الهمم للعناية بالمآثر الاسلامية والآثار العربية فى شتى النواحى ، وعسى أن يكون فى ذلك إثارة العزائم للكشف عن آثار أحاطها اهمالنا بالغموض والابهام . إن حياة ابن ماجد حافلة بالأعمال ، وقد تركت آثاراً جليلة ، وهى صفحة لامعة فى التراث الاسلامى ، يحق لنا أن نباهى أمم الأرض بها كما يباهى البرتغاليون بصفحة فاسكو دى غاما الذى طاف حول الأرض . وجدير بالمنقبين من أبناء هذه الأمة أن يخرجوها للنشء حتى تثير فيه ما يحيى خصائصه الممتازة . نريد بل نطلب من أحد المتخصصين فى التاريخ الاسلامى أن يتخصص فى ناحية الملاحة عند العرب والمسلمين ، وفى تاريخ إنشاء الأساطيل عندهم ، ونريد منه أن يبحث ويدقق ، حتى يخرج من ذلك بسفر جامع يكون جزءاً من الثقافة الحديثة يمكن للخاص والعام أن يستفيد منه ، وإن فى تلك الاستفادة ما يخلق فى النفوس روح الاقدام وروح الاعتقاد بالقابلية والنبوغ ، ولا يخفى ما فى هذا كله من قوّى تدفع بالأمة الى المجد والسؤدد

كان العرب فى بدء فتوحهم يخافون البحر ويهابونه ، وكيف لا يخافونه ويهابونه ، وهم أهل صحراء منقطعون عنه لم يتعودوا رؤيته فكيف ركوبه . . . ولم يكن الخلفاء الراشدون يشجعون على ركوب البحار لخوفهم على أرواح المسلمين ؛ وقد جاء أن الخليفة عمر بن الخطاب كان لا يشجع على ركوب البحر ، وكثيراً ما عاقب الذين يخوضون عبابه ، ويقال إنه عنف عرفجة بن هرثمة الأزدى لركوبه البحر حين غزوه عمان . وقد يكون السبب فى منع الخلفاء هو خوفهم على المسلمين لأنهم لم يكونوا أهل بحر ولم يتعودوا السير على أعواده . وبقى الأمر على هذه الحال إلى أن اتسعت الفتوح الاسلامية والعربية ؛ وأصبح من العسير بل من المستحيل حماية بعض البلاد ، ولا سيما وقد أصبح المسلمون مجاورين الرومان وقد رأوا أن الحاجة ماسة لحماية الشواطئ ، ولقد اتخذوا فى إنشاء السفن مثال الرومان ؛ ومن الغريب أنك تجدهم فى مدة وجيزة قد صارت لهم دراية وخبرة بالبحار وركوبها ، وقد طافوا أشهرها وقهروا محيطات العالم ، واتصلوا بالبلاد البعيدة وعرفوا عنها الشىء الكثير ، مهروا فى صناعة السفائن ، وأنشأوا لذلك دوراً عظيمة ، وصار لهم أيضاً فى مختلف الانحاء أساطيل أصبحت عرائس البحار وزينة الشواطئ ، متقنة الصنع كثيرة العدد تفننوا فى عملها ، وأدخلوا تحسينات جمة على آلاتها ، وضعوا لها الخرائط والمصورات البحرية ، كانوا على علم بالأوقات الملائمة لخوض البحار وعلى معرفة تامة بأوقات هبوب الرياح ، اتخذوا المنائر فى المرافئ وفى المواضع الخطرة لهداية السفن ، واستعملوا الابرة المغناطيسية لتعيين الجهات ، ولقد وصل الأسطول الأندلسى فى عصر عبد الرحمن الناصر إلى مائتى مركب ، وكذلك كان أسطول أفريقيا إذ وصلت أساطيل المسلمين فى دولة الموحدين من العظمة والفخامة مالم تصله فى أى عصر آخر ، وبلغت المراكب فى أيام المعز لدين الله بمصر ستمائة قطعة . ولسنا الآن فى موقف نستطيع معه تعداد أمجاد العرب والمسلمين فى الملاحة ، ولسنا أيضاً فى موقف نتمكن معه من سرد مواقع المسلمين البحرية وبراعتهم فى ذلك . فهذا كله لا يزال محاطاً بسحب الابهام ، لم يُنفض عنه بعد غبار الاهمال ؛ ومما يؤلمنا أننا الى الآن لم نسمع عن جماعات علمية أو منقبين أقاموا أنفسهم لهذه البحوث وصرفوا أوقاتهم فى تهيئتها ، وعلى كل حال يمكننا القول من مطالعة كتب التاريخ التى بين أيدينا أن العرب وصلوا فى الملاحة الى درجة لم يصلها غيرهم من قبلهم . إذ جعلتهم سلاطين البحار وغزاة المحيطات ، وكان لذلك تأثير كبير على فتوحاتهم ، فلقد تمكنوا بأساطيلهم من فتح سردينيا وصقلية وقبرص ومالطة وأقريطش ، وكذلك فتحوا بها كثيراً من شواطئ البحر الأبيض المتوسط مما يلى أوروبا إلى بريطانيا فى الشمال . وقد بقى العرب أسياد العالم فى البحار إلى أن قامت عليهم قيامة الغرب بحروبه الصليبية ،

وإلى أن قامت عليهم أيضاً المغول والتتار ، وهبت عليهم عواصف الفتن والقلاقل من كل جانب ، فضعف شأنهم وأضاعوا عزهم ومجدهم ، واستولت عليهم غفلة طويلة وجمود مروع كاد يذهب بالكيان والخصائص التى يمتاز بها العرب على غيرهم ، وكاد يستحيل كل هذا الى موت أكيد . . .

قلنا إن الأمة العربية وصلت الى درجة فى البحرية لم يصلها غيرها من الأمم التى سبقتهم ، أخضعوا البحار لأساطيلهم ، ولم يعبأوا بمدها وجزرها ، وساحوا بسفنهم المحيطين الهنـــدى والهادى ، وأصبح لهم دراية وخبرة فى الملاحة ، وان أمة كان هذا شأنها ، وكانت هذه درجتها لمن الطبيعى أن يظهر فيها من مهر فى الملاحة وبرع فى البحرية واطلع على أسرارهما ووقف على دقائقهما ، ومن الطبيعى أيضاً أن يظهر فيها من ألّف المؤلفات العديدة ، ووضع الكتب الكثيرة فى علم البحار ، ولاعجب إذن إذا كانت هذه المؤلفات وتلك الكتب منهلاً نهل منه كثير من ملاحى الغرب ، ولاعجب إذن إذا استعانوا بها فى تسيير سفائنهم ورسم الخرائط والمصورات البحرية ، وفى معرفة المواقع والمرافىء والخلجان . ومن هؤلاء الذين نبغوا فى الملاحة ووقفوا على دخائلها وعرفوا أسرارها ابن ماجد الذى ظهر فى القرن التاسع للهجرة ؛ وهو شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن معلق السعدى بن أبى الركائب النجدى ، كان يلقب نفسه بشاعر القبلتين ، وقد حج الى الحرمين الشريفين ويُعرف بسليل الأسود ، وكان أبوه ومن قبله جده من الذين اشتهروا فى الملاحة ، حتى أن جده كتب رسالة فى الملاحة فى البحر الأحمر خدمة للسفن التى تقل الحجاج ، ولقد زاد والد ابن ماجد على هذه الرســالة نتيجة اختباراته الشخصية[1] . من هنا يظهر أن ابن ماجد منحدر من عائلة اشتهرت بالشئون البحرية والاعتناء بالملاحة ، فلا غرابة إذا نبغ هو فى ذلك ، ولا عجب أيضاً إذا فاق أجداده فى هذا كله . وقد اعترف بعض المنصفين من علماء الأفرنج بفضل العرب (وخصوصاً ابن ماجد) على الملاحة البرتغالية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد . وقد قال الأستاذ فرّان الفرنسى إن الفضل فى تفوق الملاحة البرتغاليــة يعود الى العرب[2]

والأستاذ فران هذا هو الذى ترجم كثيراً من مؤلفات ابن ماجد وقد علق عليها . وقد صـدرها بعنوان « مؤلفات ابن ماجد الملقب بأسد البحر الهائج ربان فاسكو دى غاما الذى طاف حول الأرض . » وثبت لبعض علماء أوربا أن فاسكو دى غاما استعان بابن ماجد فى تسيير أسطوله حول الأرض من مالندى على ساحل أفريقيا الشرقية الى قاليقوت فى الهنـد . ووضع ابن ماجد مؤلفات عديدة ورسائل كثيرة فى علم البحار وكيفية تسيير السفن ، هى من الأهمية العلمية والتاريخية بمكان عظيم . ومن مؤلفاته القيمة المعروفة كتاب اقتناه المجمع العلمى العربى بدمشق وهو موجود الآن فى دار الكتب العربية الظاهرية . واسم هذا الكتاب « كتاب الفوائد فى معرفة علم البحر والقواعد » ، وقد كتب عنه المرحوم العلامة الشيخ سعيد الكرمى فى الجزء الثانى من المجلد الأول من مجلة المجمع مقالاً جاء فيه : « والكتاب عبارة عن مائتى صفحة كل صفحة ٢٣ سطراً يتضمن معرفة طريق سير السفن فى البحر بمعرفة منازل القمر ومهب الرياح ومعرفة القبلة . . . » ونجد فى هذا الكتاب كيفية الاستدلال بمنازل القمر والبروج على البلاد التى يقصدها المسافر ، ويتبين منه أيضاً أن المؤلف اتخــذ بنات نعش وسهيلا والناقة والحمارين والعيوق والعقرب والنسر الواقع والأكليل والسماكين والتير

(١) مجلة المجمع العلمى العربى ج ١ ص ٢٨٤

(٢) » » » » » » ٢٨٢

من جملة الأدلة التى تساعد المسافرين فى الأسفار ، وقال إنه علم ذلك بالاختبار ، واعترف بأن ثلاثة من مشاهير الربابين سبقوه الى ذلك ، وأن الفرق بينه وبينهم « أن ما ذكره هو مصحح مجرب ، وما ذكره أولئك ليس على التجريب منه شيء . . . . »

ويوجد أيضاً فى هذا الكتاب عرض بعض الثغور على الأقيانوس الهندى والبحر الصينى وشكل البرور ومراسى ساحل الهند الغربيـة والجزر العشر الكبرى المشهورة ، وفيه وصف تفصيلى للبحر الأحمر بما فيه مراسيه وأعماقه وصخوره الظاهرة والخفية ، وفيه أيضاً بعض أشعار تتعلق بالملاحة والبحار ، ويتبين من قراءة بعضها أنه كان معجباً بنفسه ومما استنبطه فى علم الملاحة إذ قال :

يفوتك غفـلة نظمى ونثرى ... وتزعم أن ليلك ذو نهـار
فوا الحرمين لم تظفر بعـلم ... يسرك فى البحار وفى البرارى
إذا ما الراميات رمتك فاعلق ... بتصنيفى وحكمى فى المجارى

ويجد القارىء فى هذا الكتاب بعض أشعار تعلى من شأن العلم وتحببه للناس ويقول ناظمها إن طالبه والساعى اليه يزداد رفعة ، وإن الذى لا يسعى اليه ولا يهمه منه شيء يورثه الله الذل والهوان . . .

العلم لايعرف مقـداره ... إلا ذوو الاحسان عند الكمال
من ناله منهم ترق به ... ما بين أعيان الملا واستطال
ومن تراخى عنـه هوناً به ... أحوجـه الله لذل السؤال
فذاك بين العـلى أخرس ... أقعده الجهل بصف النعال

ولابن ماجد رسائل عديدة أكثرها منظوم رجزاً كرسالة (حاوية الاختصار فى علم البحار) ففيها بحث عن العلامات التى يجب على الربابين معرفتها استدلالاً على قرب البر وعن منازل القمر ومهاب الرياح وعن السنة الهجرية والرومية والقبطية والفارسية وعن طريق السفن على ساحل العربية والحجاز وسيام وشبه جزيرة ملقا وأطراف بلاد الزنوج وعلى سواحل الهند الغربية ، وسواحل القرومندل والناط والبنغال وسيام حتى جزيرة بليطون وجاوه والصين وفرموزه ، وعن سير السفن على سواحل جزر جاوه وسومطرة والفال ومدغشكر واليمن والحبش والصومال وجنوبى العربية والمقران ، وعن المسافات بين الثغور العربيـة والثغور الهندية ، وعن عرض الثغور على البحر الهندى (١) . وله أيضاً رسالة (المعربة) وفيها بحث عن الخليج البربرى ، ورسالة تبحث فى معرفة القبلة فى جميع الأقطار يقول فى أولها : « لما رأيت الناس يميلون عن معرفة القبلة وليس لهم أصل علم يعرفونها به خصوصاً فى المدن اللواتى بقرب البحر وجزره التى يمر بها المسافر ، نظمت هـذه الأرجوزة وأتممتها بأوضح الأدلة وأسهلها بأربعة وجوه : الوجه الأول بطول مكة المشرفة وعرضها وطول البلد الذى فيـه الانسان وعرضه ، الوجه الثانى على الجدى ، الوجه الثالث على بيت الابرة ، الوجه الرابع جهات الكعبة الأربع . . . . » وله أيضاً أرجوزة بر العرب فى خليج فارس ، وأرجوزة السير فى البحر على بنات نعش ، وقصيدة تبحث فى علم المجهولات فى البحر والنجوم والبروج وأسمائها وأقطابها ، وأرجوزة فى بيان بر الهند وبر العرب ؛ وله أيضاً قصائد أخرى بعضها يبحث فى معرفة الجهات من الشعرى والنسرى ومن سهيل والسماكين ، وله أراجيز غير التى مر ذكرها تتضمن ذكر المراسى على ساحل الهندى الغربية ، وعلى ساحل العربية ، وتبحث فى فائدة بعض النجوم الشمالية فى سير السفن ، ويذكر فيها أيضاً بعض الكواكب المفيدة للملاحة ، ومنها ما يبحث فى الطرق البحرية من جدة إلى جنوبى بلاد العرب فبعض بلدان وسواحل أخرى ، ومنها ما يبحث عن الصخور البحرية والأعماق وعلامات البر وعن الحيوانات التى تعيش فى الماء كالضفادع والأسماك والحيتان ، وعن علم الفلك والملاحة . . . . الخ

هـذه بعض مؤلفات ورسائل ابن ماجد أتينا على ذكرها ليتبين للقارىء الكريم أنه وُجد فى الأمة العربية من برع فى الملاحة ومهر فى تسيير السفن ومن ألّف فى ذلك المؤلفات القيمة والرسائل الطريفة . ومن الغريب أن يجد المرء فى هذه المؤلفات وتلك الرسائل ابتكارات ونظريات فى علم البحار ما كانت لتخطر على بال المتقدمين ، وقد يعجب البعض إذا قيل له إن أكثر هذه المؤلفات ضاع وراح ضحية الاهمال وعدم الاعتناء وأن الموجود منها (وهو القليل) الذى عثر عليه بعض المنقبين والباحثين من الفرنجة بقى سنين عديدة المرجع الوحيد الذى يرجع اليه الملاحون فى

(١) مجلة المجمع العلمى العربى ج ١ ص ٢٨٢

أوروبا . ولقد بقيت القواعد التى وضعها ابن ماجد من القرن الخامس عشر للميلاد إلى منتصف القرن التاسع عشر منهلاً عاماً لملاحى الشرق والغرب . وذكر برتن الانكليزى أن بحارة عدن فى سنة ١٨٥٤ كانوا قبل السفر يتلون الفاتحة إكراماً لابن ماجد مخترع الابرة المغناطيسية . ومما لا ريب فيه أن نسبة اختراع بيت الابرة إلى ابن ماجد خطأ وليس فيه شئ من الصحة ، فقد ثبت لدى العلماء والباحثين أن استعمال الابرة كان معروفاً فى أواخر القرن التاسع للهجرة أو الخامس عشر للميلاد ، فالقول بأنه هو مخترع الابرة غلط ، وقد تكون النسبة آتية من مهارته فى تسيير السفن وبراعته فى فن الملاحة ووقوفه على أصول الابرة وكيفية استعمالها وفهمه المبادئ المنطوى عليها عملها وتأليفه الرسائل فيها

ولقد ظهر فى الأمة العربية كثيرون أمثال ابن ماجد من الذين أتقنوا الملاحة وتسيير السفن وعرفوا عنها شيئاً كثيراً ، وظهر فيها أيضاً من ألف فى ذلك التآليف القيمة التى بقيت قروناً عديدة منبعاً يستقى منــــه الأوروبيون ، وقد عرفوا كيف يستفيدون منها ويستغلون محتوياتها لما يعود عليهم بالتقدم والرقى ، ولو جئنا نعددهم ونذكر خصائص كل منهم لطال بنا المطال ، ولخرجنا عن موضوع هذا المقال ، ولكنا نكتفى بسرد بعض الربانين والملاحين الذين قطعوا أشواطاً بعيدة فى علوم البحار وفى وضع الكتب الممتعة عن ذلك . من هؤلاء محمد بن شاذان وسهيل بن أبان وليث بن كهلان وسليمان المهرى وعبـد العزيز بن أحمد المغربى وموسى القندرانى وميمون بن خليل وغيرهم . . .

. . . . هــذه ترجمة موجزة لملاح عربى مهر فى الملاحة ونبغ فى التأليف وترك آثاراً جليلة كانت خير معين للذين أتوا بعده من ربانى الشرق والغرب ، إذ كانت لهم حلولاً لالغاز علم البحار ومفتاحاً للاطلاع على أسراره والوقوف على دقائقه . ولا ندعى أننا فى هــذا المقال قمنا بشئ من الواجب نحو ابن ماجد فقد قام بواجبه غيرنا من الفرنجة وقد عرفوا قدره أكثر منا ولم نكن نحن فى هذا المقال إلا عالة على بحوثهم ونتاج قرائحهم ، وجل قصدنا من هذه الترجمة أن نثير فى بعض الذين يعنون بالتاريخ الاسلامى اهتماماً يجعلهم يوجهون بعض عنايتهم لناحية الملاحة عند العرب لينفضوا عنها غبار الاهمال ويظهروها على حقيقتها واضحة جلية لا تشوبهــا غموض ، إذ الوقوف على هــذه النواحى والتعرف على مآثر السلف فى العلوم والآداب والفنون والاطلاع على سير رجالهم وما أدوه من جليل الخدمات للحضارة يخلق فى النشء العربى روح الاقتـداء بهم وروح اقتفاء آثارهم ، وما يذكى فيهم حفائظهم ويثير فيهم الشهامة وحب ركوب المخاطر ، وإن فى هــذا كله ما يخلق أيضاً روح الاقدام وروح المغامرة ، وهذا هو الذى يوصلهم إلى ما يصبون اليه من عز لأمتهم ورفعة لقوميتهم وإعلاء لشأن حضارتهم

نابلس — قدرى حافظ طوقان

كتاب حياة محمد

تأليف الدكتور محمد حسين هيكل

بقلم الأستاذ م . ف . ا

حل العام الهجرى الجديد ، ونرجو أن يكون حلوله مباركا على العالم أجمع ، وأن يشمل العالم من نعمة دين الهجرة فى العام الجديد أكثر مما ناله فى العالم المنصرم . إذا تطالب الانسان مثلاً أعلى فى الحياة تطلع إلى دين محمد ، وإذا تطالب الطمأنينة لجأ إلى كنف دين محمد ، وإذا اشتدت به الحياة المادية جنح إلى روحانية دين محمد ، فأى شىء أشهى إلى النفس من أن تقرأ شيئاً عن محمد فى مستهل العام الهجرى الجديد ؟

هكذا قد قرأت كتاب الأستاذ المفضل الدكتور محمد حسين هيكل « حياة محمد » عند ميلاد هلال العام الجديد ، فكانت بشرى ، وكانت مسرة ، وكانت عظة . والدكتور هيكل شاعر النفس ، وإن لم يقل الشعر . لم يكن لى عهد بقراءة شعر له ، حتى أعرف فيه هذه الصفة . غير أنى قرأت له الكتاب ، فاذا به فى بعض نواحيه شعر يملأ النفس ويثير أشجانها . ولئن كانت كتب السيرة كثيرة ، فان كتاب الدكتور هيكل له ميزة على سائر السير بأنه قد انعكست فيه مشاعر الكاتب وخلجات نفس الانسان ، فاذا قرأه القارئ وجده يصور صورة حية تامة ناطقة فى ثنايا ذكر الحوادث ووصف الحالات

يبلغ الكاتب زيارة الرسول للمدينة مع أمه آمنة . ثم عودتها منها وموتها فى الطريق ، فلم يشأ أن يذكر تلك الحادثة وحدها ، بل صور لها صورة ظاهرة الألوان ، حية تفيض عطفاً وقوة فيقول : « فلما كانوا بالمدينة أرت الغلام البيت الذى مات أبوه فيه ، والمكان الذى دفن به ، فكان ذلك أول معنى لليتم انطبع فى نفس الصبى ، ولعل أمه حدثته طويلاً عن هذا الأب المحبوب الذى غادرها بعد مقامه معها أياماً معدودة ليجيئه بين أخواله أجله .

ولما تم مكثهم بيثرب شهراً اعتزمت آمنة العودة ، فركبت وركب من معها بعيريهما اللذين حملاهما إلى مكة ، فلما كانوا فى منتصف الطريق مرضت آمنة بالأبواء وماتت ودفنت بها ، وعادت أم أيمن بالطفل إلى مكة منتحباً وحيداً يشعر بيتم ضاعفه عليه القدر فيزداد وحدة والماً . لقد كان منذ أيام يسمع من أمه أنات الألم لفقد أبيه وهو جنين ما يزال ، وها هو ذا قد رأى بعينيه أمه تذهب كما ذهب أبوه ، وتدع جسمه الصغير يحمل هم اليتم كاملاً »

ولو شئنا أن نضاعف ضرب الأمثلة لضاق مجال هذه الكلمة عن ايرادها ، فالحق أن الكاتب قد أبرز فى الكتاب عاطفة تكسو ما بين سطور السنين ، وتحيي جسد الحوادث إحياء

ولقد وفق الكاتب فى معالجة السيرة ومراعاة التناسب بين أجزائها ، فكان يطيل الوقفة عندما يجمل به الوقوف عنده ، وكان يمر سريعاً عندما يجمل الاسراع فى ذكر الحادثة . ونذكر على سبيل التمثيل وقفتين له أحسن فى التريث عندهما ، حتى يجلو عنهما ما قد أدخل أهل الحقد عليهما من الدلس : أعنى مسألة اسماعيل ونسبة العرب إليه ، ومسألة الغرانيق العلا . فانه فى الوقفة الأولى كشف عن تلك البدعة الضالة المضلة التى يقصد بها إلى التشكيك فى أمر يكاد يكون من العقائد ، فأبان عن الوهن فى حجة المشككين إبانة لا تدع مجالاً للريب ؛ وفى الوقفة الثانية عرض لحجج الخائضين فانتظمها جميعاً فى طعنة قاضية . ولست أستطيع أن أذكر شيئاً من تلك الحجة ، فان المجال هنا لا يتسع لها ولا يصلح إيراد قطعة من حجة لا تكون مجزئة

على أن وقفاته التى من هذا القبيل كثيرة ، بل هى تتخلل الكتاب فى كل الفصول وفى كل وجوه البحث

غير أننا مع إعجابنا بالكتاب وأسلوبه ، ونقده وطريقته ، لا يسعنا إلا أن ننكر منه أشياء إلا تكن فى صميمه فهى فى حواشيه ، نعني بذلك أولاً عنايته بقول من قال السوء من أعداء الاسلام ، فقد أورد من أقوال بعض الأفاكين من أهل الضلال والتضليل ما يجرح الأذن سماعه ، على حين لم يكن ذكره فى صميم الموضوع ولا فى عرض الحجة . فأى شىء يجديه علينا ذكر سباب شنيع للرسول الكريم ورد على ألسنة بعض أهل الحقد والزيغ ؟ ولقد قيل شىء كثير من أمثال ذلك فى أيام الجاهلية ، فتعفف أهل السير عن إيراده ، وخيراً ما فعلوا ، فان المؤمن إنما يتعرض لحجة خصمه ، لا لسبابه ولا لفحشه ، وما كان أغنانا أن نُسمع الناس بعض ما نز من قلوب هؤلاء الأنجاس

وأمر آخر نذكره عرضاً وننبه اليه الأستاذ الكبير ، وهو بعض ما سها فيه عند ذكر السنين ، ولعل ذلك كان خطأ فى الطبع أو المراجعة ، وذلك مثل قوله فى حوادث اليمن ؛ وما كان فيها من الحرب فى أيام جوستنيان أنها وقعت فى القرن الخامس

الميلادى والمقصود هو القرن السادس ، لأن حكم جستنيان يقع فيما بين سنتى ٥٢٧ و ٥٦٥ بعد الميلاد ؛ وكذلك قوله بعد ذلك إن هذا النزاع الذى كانت اليمن مسرحه منذ القرن الرابع المسيحى ، كما ننبه الى قوله عند ذكر الأوس والخزرج إن الخزرج كانت على وشك أن تختار أحد زعمائها ملكا وهو (عبد الله بن محمد) ، يقصد عبد الله بن أُبى

ومن هذا القبيل قوله فى فارس قبيل الاسلام « على أن فارس رغم انصراف شيرويه الى مسراته كانت ماتزال فى قمة مجدها » . والحق لقد كانت إنما تتعلل بماضى مجدها ، على حين كانت نهب الفتن ومعترك الأطماع وميدان الخطط الحربية التى تدبرها جارتها الدولة الرومانية

ولا يفوتنا أن ننبه الى شىء من التجوز فى سياق القول قد يؤدى الى شىء من سوء الفهم ، نعنى ما جاء فى وصف شباب الرسول وما مالت اليه نفسه من لهو الشباب ، فقد أورد المؤلف الخبر على أن الرسول إذ كان صبياً حدثته نفسه أن يلهو كما يلهو الشباب ، فأفضى الى زميله ذات مساء أنه يود أن يهبط الى مكة يلهو بها ويعبث عبث الشباب فى جنح الليل ، وطلب لذلك اليه أن يقوم على حراسة أغنامه الى آخر ما قال :

وذِكر القصة على هذا النحو مخالف لما هو وارد فى السير ، لأنه قد يلقى فى ذهن القارىء الخالى الذهن أن الرسول المعصوم قد كان فى نفسه فى شبابه ذلك الميل المضطرم الى العبث واللهو . فليس فى الأمر أكثر من أن الرسول عليه الصلاة والسلام طلب إلى زميل له أن يحرس غنمه حتى ينزل إلى مكة ليسمر فيها كما يسمر الفتيان ، فلما بلغ أعلى مكة سمع صوت غناء ومزامير ، فسأل عنها فقيل له عرس فلان وفلانة ، فعرج على العرس يلتمس السمر ، ولكنه لم ينشط إلى ذلك الطرب ، بل ضرب الله على أذنه فنام ، وبذلك حفظه الله من أن يرد أقل موارد اللهو ، إذ لقد كان قلبه منصرفاً منذ نشأ الى الجليل وإلى الجد . ولا يخفى ما فى إيراد القصة على الصورة الثانية من فرق عما فى التصوير السالف . فالرسول عليه الصلاة والسلام منذ طفولته عظيم النفس لا يميل إلا إلى الوقار والجد . ولقد كان جده عبد المطلب يراه وهو صبى يجلس على البساط الذى يفرش له بجوار الكعبة ، لا يجرؤ أحد على أن يقترب من كبير قريش إلا ذلك الصبى الصغير ، فكان عبد المطلب يقول عنه فى كثير من الاعجاب : « إنه يأنس ملكا »

ولقد قال النبى عليه الصلاة والسلام فى وصف حاله العامة : « لست من دد ولا دد منى » أى أنه كان لا يميل بطبعه إلى اللهو فلقد تنزه مقام الرسول عن أن تسول له نفسه الهبوط الى مكة ليصيب من لهوها ويعبث فيها عبث الشباب فى جنح الليل ؛ فلكم كان بمكة من فجور ما أبعد الرسول فى صباه عن أن تحدثه نفسه بشىء منه ، وما أبعد الفرق بين عبث الشباب ولهوه وبين السمر البرىء الذى يسمر به الفتيان . ولقد وصف المؤلف فى عرض حديثه حياة الجاهلية وعلاقة الرجل بالمرأة فيها ، ونرى أنه فى حكمه على تلك الحياة كان دائماً يميل إلى أن يتخذ من الجزئيات أحكاماً كلية ، ولم يكن فى هذا مقتصراً على تعميم نوع واحد من الأحكام ، بل كان أحياناً يعمم فضيلة لم تكن عامة ، وأحياناً يعمم رذيلة لم تكن عامة . فقال مثلاً فى موضع : إن العرب كانوا قبل الاسلام تجتمع فيهم « خلال الكرم والشجاعة والنجدة وحماية الجار والعفو عند المقدرة ، وما إلى ذلك من خلال تقوى فى النفس كلما قاربت حياة البادية الخ »

وهذه الخلال وإن كانت مُثلاً عليا عند العرب لا يمكن أن يقال إنها كانت خلالاً عامة للعرب . وقال فى موضع آخر : « إن صلات الرجل والمرأة فى هذه الجماعة العربية لم تكن تعدو صلات الذكورة والأنوثة » وقال فى موضع ثالث « وبلغ من أمر هذه الصلة — أى صلة الاباحة بين المرأة بالرجل — أن لم تأب هند زوج أبى سفيان أن تقول فى أشد مواقف الجد والشدة وهى تحث قريشاً حين الحرب يوم أحد :

« إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق » الخ

وقال بعد ذلك : « ثم إن المرأة كانت إذا ولدت ، ولم يعرف لمولودها أب ، لم تأب أن تذكر من لامسها من الرجال الخ »

وهذه القطع كلها فيها تعميم لا تبرره الوقائع ، يدرك ذلك كل من ألم بتاريخ العرب ، ولا يتسع المجال هنا لنقض مثل هذه العبارات العامة ، وإنما نجتزىء بذكر كلمة صغيرة قالتها هند عند ما جاءت لتسلم عند الفتح إذ قال لها النبى يعلمها قواعد الدين : « وألا تزنى » فقالت « وهل تزنى الحرة »

على أن المؤلف وهو يصف أحوال الجاهلية قد نسى فزاد التعميم حتى جعله يتناول عهد عمر بن أبى ربيعة ، واستدل على ذلك بما يمكن أن نقرأ فى شعره من دلائل علاقات المرأة بالرجل فالحق أننا إذا خرجنا من الوقائع ومنطقها . ومن ذكر

السيرة ومواقفها لم نجد فى وصف الحالات الاجتماعية ما نستطيع الاعجاب به . فان الدكتور قد درس السيرة ، وأسبل المنطق على مواقفها . ولكن الذى يتناول السيرة لا يكفيه مثل ذلك الدرس بل يجب أن يكون كذلك قد سبق له حظ عظيم من العلم بتاريخ العرب وأيامها وأحوالها كما يكون فى استطاعته أن يحسن الحكم على عاداتها ، وأن يحسن تأويل أخبارها . ولعله قد أدرك أن قوله فيه هذه المبالغة فاتهم القارىء وقال « ربما بدا هذا التصوير للقارىء المعجب بالعرب وحضارتهم وللمعجب حتى بعرب الجاهلية ، مشوباً بشىء من الغلو، وللقارىء العذر فى ذلك » ولقد صدق المؤلف فى هذا الاستدراك

على أننا وإن أخذنا هذه المآخذ على الكتاب نرى أنه فتح جديد فى التأليف الحديث ، ونشكر للدكتور الفاضل والمؤلف النابه تلك الهدية الثمينة التى أهداها إلى قراء العربية

ضحى الاسلام

تأليف الأستاذ أحمد أمين

بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام

أخرج أستاذنا العلامة أحمد الأمين كتابه فجر الاسلام ، وهو أحد أجزاء ثلاثة بهذا الاسم ، تقسمت بينها تاريخ المسلمين الفكرى والأدبى والسياسى فى الصدر الأول

ثم تقدم أستاذنا ليبلغ بالبحث نهاية العصر العباسى الأول ، فأخرج الجزء الأول من كتابه ضحى الاسلام عام أول ، وامتدّ به البحث فأخرج الجزء الثانى هذا العام ، ومضى ليخرج الجزء الثالث والجزء الرابع إن شاء الله

وقد تلقى الناس كتب الأستاذ بالقبول ، وأوفوه حقه من الثناء ، ونالت الكتب من الذيوع والانتشار ما هى جديرة به ، ولكن هذا الثناء لا يكفينا ولا يجدى علينا كثيراً . فهذه الكتب تتناول تاريخ الحضارة الاسلامية فى أعظم نواحيها أثناء القرنين الأولين ، وفيهما كان نشوء الحضارة الاسلامية ونماؤها ، واختلاف الآراء وتنازعها . ولم تدرس هذه الموضوعات على هذا النسق من قبل ، فواجب على كتاب المسلمين ، وكل من يعنى بتاريخ الحضارة الاسلامية أن يجعلوا هذه الكتب مدار بحث ونقد ، ويشتقوا منها أبحاثاً تبلغ بهم الغاية أو تقاربها ، وتكمل ما يكون فى الكتاب من إيجاز . وفى ذلك معاونة المؤلف فى عمله الشاق . فانا إذا بحثنا فقلنا للمؤلف أصبت أو أخطأت وأدلينا بالحجة فقد أعناه على بلوغ غايته ، وسررناه بالاهتمام بما اهتم به . علينا أن نتلقى هذه الكتب بالبحث المتصل والنقد الخالص لله والحق ، ونجعلها قطباً لطائفة من المناقشات حتى ننير ، على قدر الطاقة ، ما أظلم من جوانب الحضارة الاسلامية

وقد هممت منذ صدر الجزء الأول من ضحى الاسلام بالكتابة عنه ثم حالت حوائل حتى ظهر الجزء الثانى . ثم لم أفرغ للكتابة عنه فى هذا العدد الممتاز من الرسالة ، فبادرت بدعوة الناس إلى الكتابة واعداً أن أكتب فى الأعداد الآتية ما يتيسر لى فى ضحى الاسلام

وقد قلت فى كلمتى القصيرة التى قلتها فى حفلة تكريم أستاذنا العلامة أنى وبعض أصحابى عزمنا أن نقرأ الكتاب ونكتب عنه فى دار الأستاذ المؤلف ثم عرفت آسفاً أن صفحات الرسالة أقرب الينا من دار الأستاذ وأوسع . فموعدنا الأعداد الآتية

أحاديث جدتى

تأليف الآنسة سهير القلماوى

بقلم الأستاذ محمود الخفيف

تناولت هذا الكتاب الظريف ، فما وضعته حتى أتممت قراءته ، ولكم تمنيت لو طالت تلك الأحاديث الرقيقة وما زخرت به من الصور الطلية ، فشغلت من الصحائف أكثر مما ضمه بين دفتيه ذلك الكتاب ، فان إعجابى بها وشدة تأثرى بأخيلتها الهادئة الساحرة قد جعلانى أشعر عند انتهائها بما كنت أشعر به ليالى الطفولة العذبة حين كانت تنتهى الحكاية الشيقة بغتة وأنا أكثر ما أكون استمتاعاً بها

على أن الشىء الجميل إذا علق بالنفس فانما هو مبعث سرور دائم ، ولقد يتزايد ما يبعثه فى النفس من الغبطة بعد أوانه . ذلك ما أحسه بعد قراءة هاتيك الأحاديث الجميلة ، وهى سلسلة أحاديث دارت بين الكاتبة وجدتها تصف الحياة المنزلية والحياة الاجتماعية للجيل الذى سبق جيلنا ؛ أثارتها الذكريات من نفس الجدة فتحدثت عن الحياة المنزلية ، ثم أعاد الى ذهنها استشهاد

فتاها فى الحرب ذكر الثورة العرابية ، فوصفتها معلقة عليها ثورة أفكارها وخواطرها ، الى أن عادت فى نهاية الكتاب الى وصف الحياة الزوجية وما كان يتخللها من عواطف فى ذلك الجيل

استطاعت الكاتبة النابهة فى غير تكلف أن تقدم بين يدى كتابها جوا خيالياً لطيفاً ، يستهويك فيخيل اليك أنك تسمع ولست تقرأ ، وكأنك تعيش فى هذا المنزل وتراها تستمع الى جدتها ، وترى ما تصف لها من أماكن وأشخاص . نعم كأنك ترى عائشة لاتعرف كيف تلبس البرقع فتضحك صاحبتها ، وكأنك ترى الشيطان يقطع عليها صلاتها بطرطوره الأحمر ، وكأنك ترى اسماعيل معلقاً فى العمود ، وصباح تهش عنه البعوض متألمة باكية ، بل لكأنك أنت الذى تحس لذعات البعوض ، ثم كأنك ترى الحمام وتسمع ما ينبعث منه من أصوات ، وكأنك ترى غير هذا من المناظر المؤلمة ، فترى الجيش المحتـــل يخترق شوارع القاهرة ، وترى الجدة تأخذ سكين المطبخ تدفع بها كيد الضابط الذى يطرق الباب ، وكأنك ترى مذبحة الدراويش فى أحراج الأبيض ، إلى غير ذلك من المواقف القوية المثيرة

وتحت تأثير ذلك الخيال توحى اليك (مهير) أحاديث الوفاء والوطنية والبطولة ، وتعرض عليك طرفاً من انتقاداتها وآرائها الصائبة عن حياتنا الاجتماعية بين الماضى والحاضر . وإن أنس من شىء فلست أنسى أبداً ما كان من نبل الجساس وزوجها . وما بعثه موقفها فى قلبى من غبطة وما أثار من عاطفة ، ولكن مالى أذكر فصلاً بعينـــه والكتاب كله حديث لا ينسى ؟

وإنك لتجد فى أسلوب الكتاب ناحية من نواحى جماله ، إذ لا يسعك حين تتذوق تلك السهولة العذبة إلا أن تعترف بما لهذا الأسلوب الرائق من أثر قوى فى تحبيب الكتاب إلى نفسك

لقد آن لنا أن نتجه إلى الأدب الأنشائى الخالد ، وننصرف عما أسرفنا فيه من أدب وصفى لا يمت إلى الحياة بصلة قوية ، نعم آن لنا أن نخلص من أدب المقالة ، ونتجه إلى القصة ، آن لنا أن نرفع المرآة لتنعكس فيها طبائعنا وحياتنا ؛ وإنى لأقرر هنا مع مزيد الغبطة أن هذه الأحاديث التى أقدمها إلى القراء من البواكير الطيبة فى هذه الناحية التى نتوق إليها ، وأدعو فتياننا وفتياتنا إلى الاستئناس بتلك الروح اللطيفة ، والاستمتاع بذلك النموذج الصادق ، فيما ينشدون من نهوض ، أو يتوخون من لذة . هذا وإنى أقدم إلى الكاتبة النابهة ثنائى وإعجابى ؟

الخفيف

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

شارع الكرداسى (عابدين) رقم ٩ بالقاهرة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ٩٤ — ٢٢ ابريل سنة ١٩٣٥ — السنة الثالثة

3 me Année, No. 94. Lundi-22-4-1935

بدل الاشتراك عن سنة
م
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٩٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٩ محرم سنة ١٣٥٤ — ٢٢ ابريل سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

جمعية نهضـــة القرى

احتفلت هذه الجمعية البرَّة منذ يومين بانقضاء عامين من جهادها النبيل فى انهاض القرية المصرية . وهذه الجمعية هى أيضاً من أعمال الشباب ؛ ولعلها أقرب أعمالهم الجليلة إلى الخير المحض ! فان ما ركبوه إلى اليوم من قُحَم السياسة ، وما عالجوه من خطط الاقتصاد ، إنما كان مبعثه الغرور القومى ، أو الشعور الوطنى ، أو هما معاً ؛ أما هذا العمل فمبعثه الخالص عاطفة البر فى الانسان بأخيه الانسان ؛ وهذه العاطفة إنما غرستها فى القلوب يد القدرة ، وأنمتها قوة الفطرة ، وفرضتها طبيعة الحياة ، ليحصل بها التئام شمل الناس ، وانتظام عقد المجتمع ، واتحاد وجهة الانسانية بالتعاون والتضامن إلى الكمال البشرى الممكن

راع الشبابَ — وهم موضع الحس المرهف من الأمة — ما جرّه تفشى الأمية على القرى المصرية من انقطاع السير ، وانخزال الحركة ، وانتشار العلل ، وانفجار الأحداث ، واغبرار العيش ، وهى مصدر القوة للشعب ، ومورد الثروة للوطن ، فحشدوا جنودهم فى هذا الميدان ، وسددوا جهودهم إلى هذا الغرض ، وراحوا يهاجمون الجهل والفقر والمرض فى تلك الحظائر أو المقابر التى ضَمِنت أجوافُها السود أربعة أخماس الأمة ، ثم دأبوا يقرعون الآذان

بالخطابة ، ويَخزُون الضمائر بالكتابة ، ويهيبون بالحكومة والقادة أن يأخذوا من تجميل المدينة لتأثيل القرية ، ومن ترف الباشا لحاجة الفلاح ، ومن فلسفة الخاصة لأمية العامة ، حتى ارتفعت حجب الأسماع ، وانكشفت أغطية القلوب ، فعطف على قضية القرويين رجالات البلد من أولى الحكم وأهل العلم وذوى المثالة ، وألفوا من قدرة الشبيبة ، وخبرة الكهولة ، دستور العمل المنتج لانجاد الفلاح وإسعاد القرية

***

لعل أنطق الأدلة بخطورة العمل الذى تقوم به هذه الجمعية الجليلة أن أصف لك قرية أعرف بيوتها كما أعرف بيتى ، وآلف أهلها كما آلف أهلى ، وستجد حين توازن بين قريتى وقريتك أننى وصفت على الجملة قرى مصر جميعاً :

كومة من سباخ الأرض قام عليها أكواخ متلاصقة من اللَّبِن[1] ، سقفوها بالخشب والقصب ، وحمَّلوها بالعلف والحطب ، وجَمَّلوها بشرفات من الروث اليابس ، ثم جعلوا ظهورها خلاء للحاجة ، وبطونها مسرحا مجاجا لشتى الأوالف والدواجن من الكلاب والقطاط والعجول والدجاج والبط ، ثم جمعوا بين قاعة الانسان وزريبة الحيوان فى فناء واحد ، فالحديث يمتزج بالخُوار ، والمضغ يشتبه بالاجترار ، والرجل والثور ، والمرأة والبقرة ، والطفل والعجل ، يعيشون سواسية فى شيوعية عجز عن تحقيق حُلمها (الروس) ! لا يؤديك إلى هذه الدويرات العُمْى مسلك واسع ولا طريق مشروع ، إنما هى طوائف طوائف ، تفتحت كل طائفة منها على زقاق ضيق غير نافذ ، ولن تستطيع الدخول فى هذا الزقاق إلا من الطريق الدائر حول القرية !... بلى قد يشق البلدة منفذ صاعد هابط متحدر متعرج وعر ، ولكنه بين الفجوات والحفر يكون أشبه بصراط الحق بين مزالق الفتنة

يركبها من الشمال مستنقع ومن الجنوب مستنقع ، ثم يحيط بها ويتخللها تلال من السرجين[2] والسماد منها الرطب ومنها اليابس ، وفى أحضان هذه التلال ، وعلى حوافى هذه المناقع ، قامت مجالس القوم ، يجلسون فيها تحت الجدران وفوق المصاطب يستجمُّون حيناً من العمل الدائب والعناء المرهق ، لا يألمون لسعَ البعوض ، ولا ينكرون ريح الوحل ؛ ثم لا يجرى بينهم إلا الحديث القابض كتضاعُف الدَّين على الأرض ، وتحكم المالك فى الريع ، وفتك الآفات بالزرع ، وإلحاح الكساد على القطن ، وماتدخله تلك الحال على النفس الجاهلة من وساوس الاطماع وسخائم الحقد وغوائل الحسد !

اصطلحت على دمائهم الفقيرة جراثيم الملاريا والبلهارسيا والانكلستوما ، فغدوا كواسفَ الوجوه ، خواسفَ الجسوم ، خوائر القُوَى ، يعالجون المرض بالصبر ، ويخففون الألم بالتسليم ، ويدافعون الموت بالتعاويذ ، ويسيئون الظن بالمستشفيات التى لا تقبلهم إلا بالشفاعة ، ولا تعاملهم إلا بالفظاظة ، ولا تحسن علاجهم إلا بالمال فى العيادات الخاصة ... وأين المال من رجل كل ما يملكه أجرة يومه لقوت يومه ؟ وليت هذا القوت كان من الأقوات التى تصلح الجسم ، وتدفع السُّقم ، وترد العافية ! إنما هو فى الغالب رُغفان من الذرة أو الشعير مأدومةً ببعض أحرار البقول[1] واللبن المملح . . .

استغل المُلّاك ضعفهم ، والمرابون جهلهم ، فوضعوا أيديهم على أختامهم يطبعونها على العقود والصكوك فى غير رحمة ولا ذمة ، حتى إذا انقضى الحول وآل كدح الأسرة الناصبة ، وجهد الماشية اللاغبة ، وشقاء الفلاح المسكين ، إلى الثمرة المرجوة ، عدا عليها الدائن اللص ، أو المالك الظالم ، فجباها لجيبه ، أو جناها لخزنه

ذلك على الاجمال وصف القرية ، فهل تجد فرقاً بينها وبين أخصاص الهمج فى نشأة الحياة وطفولة الزمن ؟ وتلك هى على التقريب حال الفلاح ، فهل تجد فرقاً بينه وبين البهيم الذى لا يصطنع العلم ، ولا يدعى المدنية ، ولا يزعم لنوعه الرق ؟

فاذا استطاعت هذه الجمعية الشابة أن تجعل من هذه الأقذار المركومة مسكناً يجمل فى العين ويجدى على الصحة ، ومن هذا الكائن المهمل رجلا يشعر بالحياة ويسير مع الأمة ، فقدر فى نفسك أى واجب تؤدى وأى خير تفيد !!

احمد حسن الزيات

(١) اللبن : الطوب الذى لم يحرق (٢) السرجين : الزبل

(١) أحرار البقول ما يؤكل منها غير مطبوخ كالهندبى والخس

٤ – كلمة وكليمة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

لا يَفشو الكَذِبُ إلا في الأمم الذليلة ؛ فاذا فقدوا سُلطةَ الحكم واستثمروا في الحياة معنى فقدها ، سلَّطوا أنفسهم على ما يَسهُلُ الحكمُ عليه لكل ضعيف : على المعاني في ألفاظها .. ولكنَّ هذا أيضاً كَذِبٌ في الحكم . . .

***

إذا رأيتَ قوماً عمَّهم الكَذِبُ في باب ما يُفتخَرُ به ، فاجعل هذا وحده في تاريخهم بابَ ما سقطوا به

***

تمامُ بعضِ اللَّذاتِ في الحِرْمانِ من بعض اللذات

***

ما أسعدَ العقلَ الذي يتأثر ببَلاهةٍ كالطفل ؛ ولكن هل يُسمَّى هذا عقلا . . . ؟

***

الحبُّ في طبيعته حُمقٌ عاقل ؛ ألا تراه حين يُبغِضُ كيف ينقلبُ إلى الصورة الأخرى فيكونُ عقلاً أحمق ؟

***

أشَدُّ العداوة لا تكون إلا من أشد الحب

***

كَرِهتُ رجلاً في الدين ، وكرهتُ امرأةً في الحب ؛ فكان النزاعُ بيني وبين من كرهتُ كالنزاع بين دِينين لا بين شخصين

***

من أسخف ما رأيتُه تنبُّلُ الموظَّفين بثيابهم وظاهرِ هيأتهم ؛ تكون وظيفةُ أحدهم ستةَ جنيهات في الشهر ، وهو مدينٌ للخياط في اثني عشر . . يريد أن يقلد الرئيسَ الكبيرَ في تقرير مكانته بجاه الحكومة ؛ فيُقرِّرها ولكن بجاه الخياط . . .

***

لو تاهَ غنيٌّ في الصحراء و نفِدَ زادُه ثم أصاب رغيفاً مُلقى هناك – لعرف به لذةَ الفقر ، ولأدرك أن أغنى الغِنَى يعجزُ أن يُؤتيَ النفسَ مثلَها . إن إمكان المُتعذِّر هو وجودٌ تامٌّ السعادة بنفسه ، وهذا ما حُرِمَهُ الأغنياءُ وهو للفقراء كلَّ يوم

***

قاعدةُ الحياة أن ما امتنع على الجسم من شهواته جعلته الروحُ من مَسرَّاتها ؛ ففي بعض الفقر نوعٌ من الثروة ، وفي نوع من الحرمان بعضُ العَطاء . ولكن أين الروحُ القويةُ التي تعرفُ هذا الضَّرْبَ من المعاملة وتصبر عليه ، وأكثرُ الناس في معاملة الله كالأبْلَهِ يُعطَى صَكّاً بألف دينار على « البنك » فيحسبُهُ ورقةً كالورق فيمزِّقُه أو يُلقيه ويذهبُ يتوجَّعُ من الفقر . . .

***

لا يَجمعُ الطفلُ على نفسه همَّينِ في وقتٍ معاً ، بل يَحصُرُ نفسَه في الهمّ الواحد ليخرجَ منه أقوى وأسرع ما استطاع . ولكن أين من يقدرُ على هذا إلا الطفلُ في همومه الصغيرة ؟

***

رُؤيةُ الكِبارِ شُجعاناً هي وحدها التي تُخرِجُ الصغارَ شجعاناً . ولا طريقةَ غيرُ هذه في تربية شجاعة الأمة

***

يقول أهلُ السِّياسةِ أحياناً في الاعتذار إلى الضعفاء المساكين : أيها العقلاءُ ! إن هذا لا يمكن أن يحدث

والمعنى السياسيُّ : أيُّها البُلْه ! إنه لا يمكن أن يحدُثَ إلا هذا . . .

***

إذا دام ما أرى من حماقة الشرقيين الناقلين عن أوربا ؛ فستنقُلُ أوربا يوماً عن الشرقيين متى احتاجت إلى مَخازيها في شكل همَجي . . .

***

أبلغُ ما في السياسة والحب معاً : أن تُقالَ الكلِمةُ وفي معناها الكلمةُ التي لا تقال . . .

***

الحربُ تصحيحٌ لخطإٍ وقع في السِّلْم أو لما يزعُمه القويُّ خطأً وقع . فلن تَنتهيَ هذه الحربُ من الدنيا إلا يوم تُربَّى الذئابُ تربيةَ خرِوفيَّة . . .

***

لا فرقَ بين زوجةٍ وحِمارةٍ في دار ، إن لم تجعل الزوجةُ

دارَها فى الزِّينة والمَرَح كأنما هى متزوِّجةٌ أيضاً

* * *

طبيعةُ المرأة بنفسها منزلية حجابيَّة . والدليلُ على ذلك وضعُ امرأةٍ جميلةٍ تعملُ فى مَصْنع فيه رجال . فطبيعتُها بنفسها لا تجعلها حينئذٍ إلا بين اثنتين : إما أن تُطرَد من بينهم ، وإما أن تكون بينهم كالزوجة . . .

* * *

يمثِّل النساءُ الغالياتُ فى المطالبة بحقوق المرأة فصلاً من رواية العاطفة فى شكل فصل من الحق ؛ يُرِدْنَ المطاردة والسلام . . .

* * *

كن الرجلَ فى معانيه القوية فلن تجدَ المرأةَ معك إلا فى أقوى معانيها

* * *

وَدِدْتُ والله لو أمكن أن يجتمعَ المطالباتُ بحقوق المرأة على زعيمةٍ واحدة يخترنها من نساء العالم كلِّه ؛ فلن تكون هذه الواحدة إلا المرأةَ التى يستحيلُ أن يتزوجها رجلٌ فى العالم . . . . . .

* * *

قضت الطبيعةُ قضاءَها : أن سعادةَ المرأة فى أن تكون هى سعادةً لغيرها ؛ فنساء المعامل والحوانيت هنَّ . . . هن والله الشريدات المتصعلكات

* * *

أنا مُستيقِنٌ أن العلم سينتهى إلى إثبات هذه القضية : إن المرأةَ مريضةٌ بأنها أنثى

* * *

الخطأُ والمرأة : كلاهما أكبرُ همِّه أن يظهرَ ويَغلِب . . .

* * *

طَلَبَ الخليفةُ المنصورُ إماماً زاهداً عظيماً ليُولِّيَه القضاء . فلما دخل الامامُ قالَ للمنصور : كيف حالك ، وكيف عيالك ، وكيف حميرُك . . . فقال أخرجوه فانه مجنون

كذلك يُضطرُّ الرجلُ العظيمُ أن يخرجَ أحياناً على عقل سواه ليخرجَ بعقله هو

* * *

الفيلسوفُ الحقُّ هو الذى ينتهى من نفسه إلى موضعٍ عقليّ يكون فيه مع الحياة كما يكونُ القاضى فى موضعه العقليّ مع الحوادث : تأتيه ليحكمَ عليها لا لتحكمَ عليه

* * *

قلةُ الرَّغَبات هى قلةُ هموم

* * *

استطراد

عندما انتهيتُ إلى هذا الموضع من تصنيف هذه الكلمات ، أُلقِىَ إلىّ كتابٌ ورد من مدينة « حِمْص » يذكر فيه صاحبه ضيقاً وشدة ويسأل : « ماهو علاج الملل النفسانى واليأس الدنيوى ، إن لم يكن الموت ، إن لم يكن الانتحار ؟ »

ثم يرجو أن يتولاَّه أول عدد ينتهى إليه من (الرسالة) كيلا يبنىَ على نفسه ؛ وهأنذا أُعجِّل له كلماتٍ تأتى على أثرها إن شاءالله فى العدد التالى مقالة الانتحار

* * *

كان عُمَرُ بنُ الخطاب — وفى يده الدنيا — يشتهى الشهوةَ من الطعام ثمنها درهم ، فيؤخِّرُها سنة . يُثبتُ لنفسه بذلك أنها نفسُ عُمَر

* * *

ليس الذى ينتحر هو صاحبَ النفسِ العاملةِ بإيمانها ؛ فان هذا تنتحرُ شهواتُه ، ومطامعُه ، وخسائسُه

* * *

الانتحارُ كُفر صريحٌ يذهبُ بالدنيا والآخرة ؛ فاليائس وهو يفكر أن ينتحرَ إنما يقولُ لله بلغة فكره : إنك عاجز

* * *

أنت عجزتَ أيها الانسان فأيقنتَ أنك لا تستطيعُ أن تُغيِّرَ أطوارَ الدنيا ؛ ولكن كيف نسيتَ الذى يستطيع أن يغيِّرها وهو يغيرها كلَّ طرفةِ عين ؟

* * *

لا يمكن أن تُرضيَكَ الدنيا كما أحببت ولا بكل ما تحب ، فلستَ أنت العاصمةَ فى مملكة الله ؛ ولكنَّ الممكن أن ترضى أنت بما يمكن

* * *

لقد عجزتَ أن تنال شيئاً فتعلُوَ به درجة ؛ أفعجزتَ أن تستغنى عنه فتنزل درجة ؟

* * *

فى الأرض ناسٌ على أطباقٍ بين الملك إلى الزَّبال . أفيجتمع الزبالون جميعاً فى مجزرٍ لينتحروا إذ لم يكونوا ملوكاً ؟

* * *

ليست الدنيا بما فيها هى التى ترفعك عند نفسك أو تخفضُك ؛

ربيع الغوطة

للأمير مصطفى الشهابي

عضو المجمع العلمي ومدير أملاك الدولة بدمشق

جلست في الدار في سفح « قاسيون » [1] أجيل الطرف في أرجاء الغوطة الفيحاء ، وقد ازينت للربيع وتبرجت وتجلت فتنة للناظرين . وجرت مياه بَرَدَى ومشتقاته صخّابة جرّافة ، قد بجّسها شتاء هذه السنة المطار ، بعد أن لبثت ثلاث سنين لاصقةً من الجفاف بأرض النهر ، وهي تتنفّض وتتموّز كأنها ترتقب من يدفعها إلى جنان الغوطة دفعاً ؛ ودبت الحياة في الأشجار الغبياء ، فأرسلت عساليجها تتنشق أنفاس الربيع العليلة ، واطالت غماليجها [2] تستقبل أشعة الشمس المنعشة ، ونشرت أوراقها تهيئ للدوح وسائل الحياة وغضارة العيش

وبشّر اللوز باقبال الربيع فنوّر . وأعقبه المشمش فاشتعل زهراً وتضوع عطرا ، وملأ جوّ الغوطة بهجة وإشراقاً . وغار التفاح والكمثرى والخوخ فعمدن إلى الازهرار ، وتلألأن بالنُّوار ، وسكر الصفصاف المستحي فدلى أغصانه وتمايل ، وانتصب الحور فصعّر خده وتثاقل ، وعربد الجوز الدوّاح فنثر زهراته [3] ذات اليمين وذات الشمال ، وترزّن السرو الجبار المتشائم وصاح قائلاً كلنا للزوال . وابتسم الزيتون بأوراقه الخضر الحانئة ، وقد نخرت أرومته السنون ، وكسر فروعه الدهر الطحون . أما الرمان فلبث عاري الجسد ينتظر الدفء ، فما ازدهى بنوره ، ولا أشعل الجوّ بناره [1]

وجن جنون النباتات البرية ، فنبتت بين الزروع وعلى صفاف الجداول وفي كل أرض سبخة أو بائرة ، فالخردل هجم على الحنطة فكساها من زهره حللا صفراً ، والنرجس نجم في مياه المناقع ونثر فوقها دراً وتبراً ، وبدت شقائق النعمان بألوانها الزاهية ، وتجلى الخشخاش بحمرته القانية ، وتضوع البابونج والأقحوان ، واستسرّا تحت جنبة [2] الآس والرمان

وشاركت الطير النبات فهبت تغرد بشتى الألحان ، وتتراقص في كل مكان . فمن سُمَانيات تغلغلن بين الزروع خشية الصيادين ، وشحارير سود الجلابيب إن طارت هتفت ، وإن استقرت صدحت ؛ وسنونوات لا يبرحن في السماء مدوِّمات ، أو على البعوض هاويات ، وأنواع العصافير ، في زقزقة وصفير ، كأنها تشكر لباعث الغيث آلاء المطر ، وكأنها تدعو الانسان الى الأخضرين ، لينعم بهما قرير العين

جلست في الدار أدير الطرف بجنان الغوطة وقراها ، فبدت عن يميني رياض « النَّيْرَبين » ، فذكرتني بأبيات وجيه الدولة ابن حمدان :

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها ... فلي بجنوب الغوطتين شجون
فما ذكرتها النفس إلا استخفني ... الى برد ماء النَّيْرَبَيْن حنين
وقد كان شكي للفراق يروعني ... فكيف يكون اليوم وهو يقين ؟

وبدت جنوبيها بساتين داريّا فقلت مع الصنوبري :

ونعم الدارُ داريّا ففيها ... صفا لي العيش حتى صار أرْيا
ولي في باب جيرون ظباء ... أعاطيها الهوى ظبياً فظبيا

والتفتُّ الى دمشق فاذا بها غرق في خضم أخضر كأنها ياقوتة في نثير من الزمرد ، وبرز الجامع الأموي عظيماً جباراً بمآذنه الشاهقة وقبته العالية التي قال فيها نابغة بني شيبان من قصيدة غراء وصف بها ذلك الجامع الكبير :

وقبة لا تكاد الطير تبلغها ... أعلى محاريبها بالساج مسقوف
لها مصابيح فيها الزيت من ذهب ... يضيء من نورها البناز والسيف

قلت رحم الله نابغة بني شيبان ! فلو عاش في أيامنا هذه لا في أيام بني أمية لقال :

(١) جبل دمشق المشرف عليها وعلى الغوطة
(٢) جمع غملوج ، وهو الغصن الناعم من النبات
(٢) نورة الجوز وأضرابه

(١) لأن زهر الرمان مشخار
(٢) الجنبة صغار الشجر لا يعظم جرمها وإن شاخت

بل فكرُك بما يكون فيه هو يخفضك أو يرفعك . ومن الذي يملأ فكرَك غيرُك ؟

* * *

سرُّ سعادة المؤمن على ما يجدُ من الفقر والشقاء في هذه الحياة ؛ أن في ضميره من فكرة الآخرة وجوداً إلهياً عظيما فيه الرضى الدائمُ عن الله ، والصبرُ الدائم على قضاء الله ، والأمل الدائمُ في رحمة الله . فكلُّ حرمانِ الدنيا يذهب في الرضى فلا حِرمان ، وكل مصائبها تقع في الصبر فتتحول معانيها ، والأملُ الدائم في رحمة الله قوةٌ للقوتين

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

لها مصابيح فيها الكهرباء سطعت   يضيء من نورها لبناز والسيف

ورق النسيم وراق الجو ، فتذكرت قول القائل :

يا نسيما هبَّ مسكاً عبقاً   هذه أنفاس ريّا جلّقا

لكنني ما كدت أنشق هذ الأنفاس المعطرات وأغرق في بحر من التأملات حتى فتح الخادم مذياع مصر فأسمعني ألحاناً شجية حملتها أنفاس القاهرة الكهربائية ، فذكرت شتاء مدينة المعز وعهدي به قريب ، ورددتُ قصيدة لي ودعتُ بها تلك المدينة الساحرة ، منها الأبيات الآتية في نسمات النيل :

أوّاه يا نسمات النيل ساجيةً   كم ضمك الصدر تَهتاماً وتذكارا

وكم تعطرتِ بالريحان وامتزجتْ   ريّاك بالروض أفناناً وأزهارا

ما إن نشقتك حتى خلتُ منتعشاً   ماء الحياة جرى في الجسم أنهارا

. . . .

وخفق القلب لشتاء مصر ولربيع دمشق معاً ، فكلاهما ساحر جذاب ، وكلاهما مجتلى ذكريات عِذاب ، وفي البلدين رفاق وصحاب ، وأهل وأحباب ، وفيهما للثقافة العربية أفسح رحاب

دمشق   مصطفى الشهابي

عصر الخفاء في مصر الإسلامية

الحاكم بأمر الله

— ٣ —

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان الحاكم بأمر الله صبياً في نحو السادسة عشرة حينما بدأ يضطلع بمهام الدولة على هذا النحو ؛ بيد أن هـذا الفتى القوى النفس ، كان حاكماً حقيقياً يقبض على السلطة بيديه القويتين ؛ ويشرف بنفسه على مصاير هـذه الدولة العظيمة ، ويبدى في تدبير شئونها نشاطاً مدهشاً ، فيباشر الأمور في معظم الأحيان بنفسـه ، ويتولى النظر والتدبير مع وزرائه [1] ؛ وهكذا كان الأمير اليافع يؤثر العمل المضنى على مجالى اللهو واللعب التي يغمر تيارها من كان في سنه ، وفي مركزه وظروفه ؛ وقد لزم الحاكم هذا النشاط المضنى طوال حياته . وكان الحاكم ذا بنية قوية متينة ؛ وكان منذ حداثته يتمتع بمظهر الجبابرة : مبسوط الجسم ، مهيب الطلعة ، له عينان كبيرتان سوداوان تمازجهما زرقة ، ونظرات حادة مروعة كنظرات الأسد لا يستطيع الانسان صبراً عليها ؛ وله صوت قوى مرعب يحمل الروع إلى سامعيه ؛ وقد كان في الواقع سليل نسل من الجبابرة الصحراويين الأقوياء ، الذين يذهبون في زهرة العمر والقوة [1] ؛ وكان أبوه العزيز بالأخص عظيم القامة عريض المنكبين قوى التكوين [2] ، فورث عنـه ولده هذه الخواص الطبيعية البديعة ، ولم يبددها في شهوات النفس التي ينغمس فيها أبناء القصور

وهنا يبدأ عصر الحاكم بأمر الله حقاً ، وهو أغرب عصر في تاريخ مصر الاسلامية ، وربما كان أغرب عصر في تاريخ الاسلام كله ؛ عصر يمازجه الخفاء والروع ، وتطبعه ألوان من الاغراق والتناقض مدهشة مثيرة معاً ؛ ولكن هذه الألوان الخفية المغرقة ، وهذه النواحي المتباينة هي التي تسبغ على العصر أهميته وطرافته ، وهي التي تحيط شخصية الحاكم بحجب كثيفة من الظلمات يصعب اختراقها . ويحسن قبل أن نعرض إلى درس هذه الشخصية العجيبة وقبل أن نحاول استجلاء غوامضها ، واستقراء حقيقتها ، أن نستعرض أولا أعمال الحاكم وتصرفاته ، وحوادث العصر وظروفه ؛ ثم نحاول على ضوئها أن نتفهم روح العصر ، ونفسية تلك الشخصية الفريدة التي أفاضت عليه من خفائها وروعتها ، وملأته بنشاطها ونزعاتها وأهوائها ، وتبوأت فيه المقام الأسمى

— ٥ —

تقدم الرواية الاسلامية إلينا الحاكم في صور مروعة مثيرة ؛ فتقدمه إلينا أولاً في صورة جبار منتقم ، وسفاك لا يخبو ظمؤه إلى الدماء ؛ ثم تقدمه إلينا في صورة طاغيـة مضطرم الأهواء والنزعات ، متناقض الرأى والتصرفات ، لا تـكاد تلمس لأعماله باعثاً أو حكمة ؛ شرساً جموحاً ، ميالاً إلى الشر ، خؤوناً وافر الغدر ، لا يستقر على ثقة أو صداقة ؛ وتقدمه إلينا على العموم

---

(١) راجع ابن الصيرفي — الأشارة إلى من نال الوزارة ص ٢٦

(١) يلاحظ أن العزيز أبا الحاكم توفى في الثالثة والأربعين ، وأن جده المعز توفى في السادسة والأربعين ، وأن المنصور والد المعز توفى في الثانية والأربعين (راجع المقريزي ج ٢ ص ١٦٣ و ١٦٧)

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٤٠

فى ثوب شخصية بغيضة خطرة ، فاقدة الرشاد والتعقل ، يغلب عليها الجانب الأسود ؛ ولكنها مع ذلك لا تنكر عليه بعض نواحى الخير والخلال الحسنة ، فتصفه لنا بالجود والتقشف والزهد فى كثير من متاع الحياة الدنيا

« كانت خلافته متضادة بين شجاعة وإقدام ، وجبن وإحجام ، ومحبة للعلم وانتقام من العلماء ، وميل إلى الصلاح وقتل الصلحاء ؛ وكان الغالب عليه الصلاح ، وربما بخل بما لم يبخل به أحد قط »[1]. « وكان جواداً ، سمحاً ، خبيثاً ما كراً ، ردئ الاعتقاد ، سفاكاً للدماء ، قتل عدداً كبيراً من كبراء دولته صبراً ؛ وكان عجيب السيرة يخترع كل وقت أموراً وأحكاماً يحمل الرعية عليها »[2]. « وكان حاله مضطرباً فى الجور والعدل ، والاخافة والأمن ، والنسك والبدعة »[3]. فى هذه الصور وأمثالها تقدم الرواية الاسلامية إلينا الحاكم ؛ ولا ريب أن فى حياة الحاكم وفى أعماله وتصرفاته ما يبرر كثيراً من هذه الأوصاف المثيرة ؛ غير أنها ليست كل شئ فى هذه الحياة العجيبة الغامضة ؛ ومن الخطأ أن نقف عندها فى تصوير الحاكم والحكم عليه ، ومن الواجب أن نتقصى فى حياة الحاكم جوانب أخرى ، وأن نحاول تفهم شخصيته ونفسيته على أضواء أخرى

افتتح الحاكم عهد حكمه بقتل برجوان وصيه ومدبر دولته ؛ وكان للجريمة باعث سياسى قوى ؛ فلم تكن يومئذ دليلاً على حبه للسفك أو ظمئه إلى الدم ، غير أن الحاكم ما لبث أن أتبع ضربته بضربة دموية أخرى هى مقتل ابن عمار زعيم كتامة وأمين الدولة السابق ؛ وكان الحاكم قد حماه من برجوان وأطلق له رسومه وجراياته ، وأذن له بالركوب إلى القصر ؛ فى ذات مساء ، حين انصرافه من القصر ، انقض عليه جماعة من الغلمان الترك كانت قد هيئت للفتك به ، فقتلوه وحملوا رأسه إلى الحاكم (شوال سنة ٣٩٠)[4] ولم تكن للجريمة بواعث ظاهرة ، ولكنا نستطيع أن نعللها برغبة الحاكم فى سحق الزعماء ذوى

(١) ابن قزاوغلى فى مرآة الزمان (راجع النجوم الزاهرة ٤ ص ١٧٦)
(٢) ابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٦) والذهبى (راجع النجوم الزاهرة ٤ ص ١٧٨)
(٣) ابن خلدون (ج ٢ ص ٦٠)
(٤) المقريزى (ج ٣ ص ٥٨)

البأس والعصبية ، وهى رغبة يدلل عليها كما سنرى فى مواطن كثيرة ؛ وكانت كتامة أقوى القبائل المغربية كما قدمنا ، وكان ابن عمار أقوى زعماء الدولة . ولكن سنرى من جهة أخرى أن الحاكم يسرف فى القتل ، فيقتل وزراءه وغلمانه تباعاً ، دون حكمة ظاهرة إلى ما كان من نزعة مؤقتة أو سخط فجائى

وفى سنة ٣٩٣هـ قتل الحاكم وزيره فهد بن ابراهيم بعد أن قضى فى منصبه زهاء ستة أعوام ، وأقام مكانه على بن عمر العداس ، ولكن لم تمض أشهر قلائل حتى سخط عليه وقتله ، وقتل معه الخادم ريدان الصقلى حامل المظلة ، ثم قتل عدداً كبيراً من الغلمان والخاصة[1] (سنة ٣٩٤) ، ثم تبع ذلك بمقتلة أخرى كان من ضحاياها الحسين بن النعمان الذى شغل منصب القضاء منذ سنة ٨٩ ، وعدد كبير من الخاصة والعامة ، قتلوا أو أحرقوا[2] ؛ وقتل جماعة من الأعيان صبراً[3] ؛ ولم يك ريب فى أن هذه المذابح المتوالية كانت عنوان نزعة خطيرة الى البطش والفتك واحتقار الحياة البشرية ؛ وكان أشد الناس تعرضاً لهذه النزعات الخطرة ، أقرب الناس الى الحاكم من الوزراء والكتاب والغلمان والخاصة ، ولم يكن الكافة أيضاً بمنجاة منها ، فكثيراً ما عرضوا للقتل الذريع لأقل الريب والذنوب ، أو لاتهامهم بمخالفة المراسيم والأحكام الغريبة الصارمة التى توالى صدورها فى تلك الفترة . وكان رجال الدولة ورجال القصر وسائر العمال والمتصرفين يرجفون رعباً وروعاً أمام هذه الفورات الدموية ؛ وكان المجتمع القاهرى ، ولاسيما التجار وأرباب المصالح والمعاملات يشاطرونهم ذلك الروع ؛ ويروى لنا المسبحى صديق الحاكم ومؤرخه فيما بعد ، أن الحاكم أمر فى سنة ٣٩٥ بعمل شونة كبيرة مما يلى الجبل ملئت بالسنط والبوص والحلفا ، فارتاع الناس وظن كل من له صلة بخدمة الحاكم من رجال القصر أو الدواوين أنها أعدت لاعدامهم ، وسرت فى ذلك اشاعات مخيفة ، فاجتمع سائر الكتاب وأصحاب الدواوين والمتصرفين من المسلمين والنصارى فى أحد ميادين القاهرة ، ولم يزالوا يقبلون الأرض حتى وصلوا الى القصر ، فوقفوا على بابه يضجون ويتضرعون ، ويسألون

(١) المقريزى — ج ٤ ص ٦٩
(٢) المقريزى ج ٣ ص ٣٢
(٣) النجوم الزاهرة (ج ٤ ص ٢١٢)

العفو عنهم ؛ ثم دخلوا القصر ، ورفعوا الى أمير المؤمنين عن يد قائد القواد الحسين بن جوهر رقعة يلتمسون فيها العفو والأمان فأجابهم الحاكم على لسان الحسين الى ما طلبوا ؛ وأمروا بالانصراف والبكور لتلقى سجل العفو . واشتد الذعر بالغلمان والخاصة على اختلاف طوائفهم ، فضجوا واستغاثوا وطلبوا العفو والأمان فأجيبوا الى ما طلبوا ؛ وتبعهم فى الاستغاثة التجار وأرباب المهن والحرف ؛ وتوالى صدور الأمانات لمختلف الطوائف ؛ وقد أورد لنا المسبحى صورة أحد هذه الأمانات ونصها : « هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبى على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين لأهل مسجد عبد الله : إنكم من الآمنين بأمان الله الملك الحق المبين ، وأمان جدنا محمد خاتم النبيين ، وأبينا على خير الوصيين ، وآبائنا الذرية النبوية المهديين صلى الله على الرسول ووصيه وعليهم أجمعين ؛ وأمان أمير المؤمنين على النفس والحال والدم والمال ، لاخوف عليكم ولاتمد يد بسوء اليكم ، إلا فى حد يقام بواجبه ، وحق يؤخذ بمستوجبه فيوثق بذلك ، وليعول عليه إن شاء الله تعالى ؛ وكتب فى جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلثمائة . . . الخ »[1]

وهكذا هبت على المجتمع القاهرى ريح من الرهبة والخشوع ، وأصبح اسم هذا الخليفة الفتى الذى لم يجاوز يومئذ العشرين من عمره ، وأصبحت نزعاته وتصرفاته مثار الرعب والروع . ولم يك ثمة ريب فى أن القتل كان فى نظر الحاكم خطة مقررة ، ولم يكن فورة أهواء فقط ؛ وقد لزم الحاكم هذه الخطة الدموية طول حياته ؛ ووقعت فى الأعوام التالية حوادث ومناظر من القتل الذريع لانهاية لها ، وكانت تقترن أحياناً بضروب مروعة من القسوة ، وقلما كان يغادر الحكم وزير أو كبير من كبراء الدولة إلا مسفوك الدم ، وفى الأحوال النادرة التى كان ينجو المعزول فيها بحياته ، كانت تلازمه نقمة الحاكم حتى يهلك . ففى شعبان سنة ٣٩٨ هـ عزل قائد القواد الحسين بن جوهر ، وعين مكانه صالح بن على الروذبادى ولقب بثقة ثقات السيف والقلم ؛ وبعد أسابيع قلائل أمر الحاكم الحسين وصهره قاضى القضاة عبد العزيز ابن النعمان بلزوم دارهما ؛ ثم أمر بالقبض عليهما ، ففر الحسين وقبض على عبد العزيز ؛ واضطربت القاهرة لمكانة الحسين ، ثم عفا عنهما وأعيد عبد العزيز الى منصبه ، ولكنهما لم يطمئنا الى هذا العفو المريب ، ففرا بأسرتيهما ، فأمر الحاكم بمصادرة أموالهما ، وسير الخيل فى طلبهما ، وأنفذ اليهما كتب الأمان ؛ فعادا الى القاهرة بعد أن استوثقا من الخليفة بالأمان والعفو ، واستمرا يركبان الى القصر مدى حين ؛ وفى ذات يوم استبقيا بالقصر « لأمر تريده الحضرة » ثم قتلا فجأة (١٢ جمادى الآخرة سنة ٤٠١ ، وصودرت أموالهما ، وعاد الحاكم بعد ذلك فأمن أولاد القتيلين وخلع عليهم[1]

واليك طائفة أخرى من حوادث القتل والسفك التى أمعن فيها الحاكم : فى سنة ٣٩٩ ، قبض الحاكم على جماعة كبيرة من الغلمان والكتاب والخدم الصقالبة بالقصر ، وقطعت أيديهم من وسط الذراع ثم قتلوا ، وقتل فضل بن صالح من أعظم قواد الجيش وفى العام التالى وقعت مقتلة أخرى بين الغلمان والخدم ، وقتل جماعة من العلماء السنية[2] ؛ وقبض على صالح بن على الروذبادى لأسابيع قلائل من عزله ، وقتل ؛ وعين مكانه ابن عبدون النصرانى ، ثم صرف وقتل لأشهر قلائل ؛ وخلفه أحمد بن محمد القشورى فى الوساطة والسفارة ، ثم صرف لأيام قلائل من تعيينه وضربت عنقه (سنة ٤٠١) . وللحاكم قصة دموية مروعة مع خادمه غين وكاتبه أبى القاسم الجرجرائى ، وكان غين من الخدم الصقالبة الذين يؤثرهم الحاكم بعطفه وثقته ، فعينه فى سنة ٤٠٢ للشرطة والحسبة ولقبه بقائد القواد ، وعهد اليه بتنفيذ المراسيم الدينية والاجتماعية ، وعهد بالكتابة عنه الى أبى القاسم الجرجرائى وكان الحاكم قد سخط على غين قبل ذلك ببضعة أعوام وأمر بقطع يده فصار أقطع اليد ؛ ثم سخط عليه كرة أخرى وأمر بقطع يده الثانية فقطعت وحملت الى الحاكم فى طبق ، فبعث اليه الأطباء للعناية به ووصله بمال وتحف كثيرة ؛ ولكن لم تمض أيام قلائل على ذلك حتى أمر بقطع لسانه ، فقطع وحمل الى الحاكم أيضاً ، ومات غين من جراحه (جمادى الأولى سنة ٤٠٤) . وأما أبو القاسم الجرجرائى فقد أمر الحاكم بقطع يديه لوشاية صدرت فى حقه ، ولكنه أبقى على حياته ، وعاش أقطع اليدين[3]

(١) المقريزى — ج ٣ ص ٣٢ ، ٣٣

(١) المقريزى — ج ٣ ص ٢٣ ، ٢٤
(٢) المقريزى (ج ٤ ص ٨٨)
(٣) النجوم الزاهرة (ج ٤ ص ٢٢٣)

روح المدرسة الانجليزية الحديثة[1]

للأستاذ محمد عطية الابراشي

المفتش بوزارة المعارف

إن الزائر الغريب لمدرسة انجليزية حديثة لأول مرة يلاحظ على الأطفال شيئين :

أولاً : النشاط والاستعداد للعمل

ثانياً : السعادة

فالتلاميذ مملوءون نشاطاً ، وحياتهم كلها بهجة وهناءة ؛ وجوه ضاحكة مستبشرة ، تملأ المدرسة بشراً وسروراً ؛ والجو المدرسي كله حياة ويقظة وانتباه ، وحب للعمل واستعداد لاداء الواجب ، يتمثل فيه روح الوفاء والاخلاص والعناية والدقة في العمل ، والتعاون بين النظار والمدرسين والتلاميذ . هناك لاتجد تلاميذ يتظاهرون بالعمل وهم لايعملون ، أو يصغون وهم يتثاءبون ، لاترى من يحل مسائل حسابية بطريقة آلية من غير ماتفكير ، أو من ينقل قطعاً إنشائية ، أو كلمات إملائية لايدرك لها معنى

هناك يشتغل الطفل بعقله ويده ؛ فلا يكتفي بتعلم النظريات ، بل يشتغل أيضاً بكثير من الأعمال اليدوية ، ويُعطى مقداراً من الحرية في العمل ، يعمل على حسب قواه العقلية ، وله رأى خاص به . هناك يعتمد الطفل على نفسه في كل عمل مع الاستعانة بمدرسه وإرشاداته عند الحاجة . قد يحل المسألة خطأ ، ولكن المهم أنه حاول أن يعمل ، وعمل برغبة ، وتركت له الفرصة في التفكير ، وفي رسم الخطط وتدبير الوسائل

ولقد حدث في إحدى المدارس الحديثة للبنات أن معلمة من المعلمات اضطُرت الى الذهاب الى المستشفى يوماً ما ، فرأت رصيفة لها أن الواجب يقضي بمصاحبتها ؛ وكانت ناظرة المدرسة على فراش المرض ، ولسوء الحظ قد حدث لرابعتهن وهي في طريقها الى المدرسة ما أوجب تأخرها نصف ساعة عن الميعاد ؛ وعلى هذا بقيت المدرسة ولاناظرة فيها ولامدرسة . فلما دخلت الأخيرة المدرسة وجدت كل البنات في أمكنتهن ، يعملن بنظام ، فلقد نظر بعضهن في جدول أوقات الدروس ، واخترن من التلميذات من يستطعن التعليم في السنين الأولى من المدرسة ، وأخذت البقية تعمل بنفسها . فكان كل فصل يسير في عمله بنشاط كالعادة ، ولم يحدث من إحداهن ونية[1] أو تقصير في العمل ، وكان النظام مستتباً . فمثل هذه الحادثة تبرهن على أن روح المدرسة الحديثة هي : روح التعاون ، والاعتماد على النفس ، وحب العمل ، والفخر بالمدرسة ، والاخلاص لها ؛ وهذه الروح وتلك المبادئ وحدها تكفل نجاح أي مدرسة من المدارس ، وتغني عن استعمال الثواب والعقاب ، والمنافسة في المدرسة

فالتلاميذ بالمدرسة الانجليزية مغتبطون بمدرستهم ، يستنفدون جهدهم ، ويبذلون كل ما في وسعهم في سبيل تقدمها . محال أن يتمنوا الرفعة على أكتاف غيرهم ، يعمل الكل لصلحة الكل وينسى نفسه . ومن أظهر منهم مقدرة ومهارة في أمر ما فمكافأته أن يسمح له بمعاونة غيره من الضعفاء أحياناً

مثل من المدارس الريفية الابتدائية بانجلترا

من المدارس التي رأيتها مدرسة ريفية ابتدائية داخلية تقبل التلاميذ بعد الانتهاء من قسم الأطفال . فيها يستيقظ التلاميذ مبكرين ، فيرتب كل منهم سريره ، وينظفون معاً حجر النوم .

(١) من كتاب « نظام التعليم في انجلترا » تحت الطبع

(١) الونية : التفريط والاهمال في العمل

وفي سنة ٤٠٥ هـ قتل الحاكم قاضي القضاة مالك بن سعيد الفارقي ، وقتل الوزير الحسين بن طاهر الوزان ، وعبد الرحيم ابن أبي السيد الكاتب ، وأخاه الحسين متولى الوساطة والسفارة ؛ وقلد الوساطة فضل بن جعفر بن الفرات ، ثم قتله لأيام قلائل من تعيينه . وهكذا استمر الحاكم في الفتك بالزعماء ورجال الدولة والكتاب والعلماء حتى أباد معظمهم ؛ هذا عدا من قتل من الكافة ، خلال هذه الأعوام الرهيبة ، وهم ألوف عديدة ؟

(للبحث بقية) — محمد عبد الله عنان

(النقل ممنوع) — المحامي

وبعـد ارتداء الملابس يقوم بعضهم بمساعدة الطاهية فى إعداد الطعام ، أو فى إعداد المائدة وتنظيمها . وبعد تناول طعام الافطار يساعدون فى تنظيف الآنية وتنشيفها

ومدة الدراسة النظرية فى الصباح أربع ساعات . وبعد الظهر يشـتغل التلاميذ بالزراعة فى حديقة المدرسة ، أو بالنجارة فى حجرة النجارة التى يقوم بالتعليم فيها أحد النجارين . وفى هذه المدرسة تظهر روح التعاون بأجلى معانيها : فمن التلاميذ من يقوم باصلاح ما يحدث فى بناء المدرسة من خلل ، ومنهم من يكوى الملابس ، ومنهم من يخيط ما تحتاج إليه من رتق ، وهكذا

وتتصل بالمدرسة حديقة كبيرة ، تبلغ مساحتها ثلاثة أفدنة ، بها قسم لتربيـة الطيور والحيوانات الداجنة ، ويتولى بعض التلاميذ إطعامها والعناية بها . ويقوم التـلاميذ أنفسهم بزرع ما أمكن من أنواع الخضر والفواكه والأزهار فى تلك الحديقة ، وبهذه الوسيلة تستطيع المدرسة أن تستغنى عن شراء كثير من المواد الغذائية وغيرها . وتجمع بين التعليم النظرى والعملى أو الصناعى فتفتح كثيراً من السبل أمام كل تلميذ حتى تنتفع بميوله ، وتعرف مارغب فيه من الأعمال ، فتوجهه حيث يحب ، ويختار له من سـبل الحياة ومن المهن والصناعات ما يتفق مع ميوله الطبيعية . فالمدرسة تعطيه الفرصة فى أن يعرف شيئاً عن النجارة ، والزراعة ، والحياكة ، والـكى ، والبناء ، والرسم ، والتصوير ، والموسيقى ، بجانب المواد المدرسية الأخرى . وهذه هى التربية

ولا يسمح لأحد من التلاميذ بأكل شىء من فواكه الحديقة فى غير مواعيد الأكل . ومن يخالف ذلك يحرم هذه الفاكهة حتى ينتهى فصلها . وهذا عقاب طبيعى ؛ لهذا لا يجرؤ أحد أن يقطف شيئاً من الحديقة . ولـكل تلميذ صوان خاص به ، يضع فيه أدواته . وللناظر وحده الحق فى الاطلاع على ما به

وبعد تناول الشاى يسمع التـلاميذ اللاسـلكى ، أو يتعلم بعضهم العزف على المعزف (البيانو) ، ويلعبون ألعاباً رياضية كـكرة المضرب

وفى يوم الأحد يذهبون صباحا إلى الـكنيسة مع أساتذتهم ، ثم يخرجون للرياضـة فى جهات خاصـة . فأوقاتهم منظمة ، موزعة بين العمل واللعب ؛ يلعبون حيث يجب اللعب ، ويعملون حيث يجب العمل . ويجتهد ناظر المدرسة فى ألا يترك لأى تلميذ الفرصة فى أن يفكر فى أعمال شيطانية ، فيدعه يشتغل بأى عمل من الأعمـــال ، حتى لا يفكر فى أى عثو أو إفساد فى المدرسة

إن الشباب والفراغ والجِدَة   مفسدة للمرء أى مفسدة

وإن دروس مشـاهدات الطبيعة ، والجغرافيا ، والتاريخ كثيراً ما تكون فى الخارج على شاطىء نهر أو فى حديقة ، أو زيارة لدار آثار ، أو حصن ، أو كنيسة قديمة . وفى كل أسبوع يختار بعض تلاميذ المدرسة لزيارة مدرسة أخرى ، لتكثر تجاربهم ويروا أشياء ربما لم يروها من قبل فى مدارسهم . وبذلك تتبادل المدارس الزيارات فى يوم من أيام الأسبوع

وكثيراً ما يقف ناظر المدرسة ليباشر التلاميذ وهم يشتغلون فى حديقة المدرسة ، ولا يعزب عنه شىء فى مدرسته ؛ فهو خبير بكل تلميذ ، وبالظروف المحيطة به ، وبنقط الضعف فيه ، وبوسائل العلاج . فيمكنه أن يقول إن (جاك) قوىّ لأن أمه كثيرة العناية به . أما (جان) فضعيف لأنه لا يجد ما يكفيه من الغذاء ، وهذا جيد فى التاريخ ، وذلك يحتاج إلى العناية بالحساب ، وهكذا

والمدرسون يعتبرون تلاميذهم أبناء يفكرون فيهم كما يفكرون فى أبنائهم . ففى تلك المدرسة وفى معظم المدارس الانجليزية تجد التلميذ محباً للألعاب الرياضية ، كثير المعلومات ، ناضج الرأى ، مرتب الفكر ، بعيد النظر ، قوى الملاحظة ، يستطيع التعبير عما فى نفسه ، يحب النظام ، والدقة فى العمل . يعرف معنى الطبيعة ، ويقدر ما فيها من حياة وجمال ، ويمكنه القيام بكثير من الأعمال ؛ وهـذه نتائج العناية بالطفل فى المنزل والمدرسة والبيئة ، نتيجة العناية بالتربيــــة العملية لاعداد كل فرد للحياة الـكاملة

محمد عطيه الابراشى

تصويب

وقع فى مقال الأستاذ المازنى المنشور فى العدد الماضى الممتاز خطأ مطبعى لا ينبغى أن نغفله وهو إسقاط الباء من (عبيد الله بن عمر) فجاء اسمه مكرراً فى المقالة (عبد الله بن عمر) والصواب اثباتها

محاضرة قيمة:

في الشعر ...

للمسيو بول فاليري

عضو المجمع الفرنسي

عرضه وتلخيص للأستاذ محمد روحي فيصل

سيداتي وسادتي :

حديثنا الليلة إليكم في الشعر ! والموضوعُ دائر كما تعلمون الآن في كثير من الصحف والمجالس ، ولعل الغرابة أن ينال الشعرُ الاهتمام وتُبذل للفن الجهود في زمن مادي أخذته الواقعية المحسوسة ، وطغت عليه الوضعية العلمية ، وسادت فيه الفكرة الاقتصادية !

للشعر في الافهام معنيان : أولهما أنه مجموعة العواطف والانفعالات التي تُهيجها في نفوسنا أحداث الزمن ، ومجالي الطبيعة ، ومعاني الوجود ، وألوان الحياة ، فنقول منظر شعري ، وظرف شعري . وثانيهما أنه فن قائم وصناعة عجيبة ، يتناول الأهواء المشبوبة بالتنسيق والتأليف والجلاء ، ثم يبرزها لغة جميلة تطرب لها الأذن ويهتز منها القلب ! وبين المعنيين صلة شديدة وتباين كتباين الرائحة التي تضوع من الزهر ، والرائحة التي تضوع من الكيمياء

ومهما يكن من شيء فالناس لايزالون في لبْس من المعنيين ، وحيرة في الشعر والشعور ؛ وكان من أثر هذا أن طائفة من الأحكام والنظريات والمؤلفات قد فسدت وغمُضت لأطلاق الكلمة الواحدة على معنيين شتيتين وإن اتصلت أسبابهما اتصالاً وثيقاً !

فالشمس الغاربة ، والغابة الوارفة ، والقمر الناعم ، والبحر العظيم — هذه وغيرها تبعث في الناس حين يستشرفون لها انفعالات وجدانية تختلف في الشدة والمدة والنقاوة والأثر ؛ وقد تكون أزمة الهوى ، وفاجعة الموت ، ونازلة الفقر ، أسباباً مباشرة لاضطراب نفسي عميق أو خفيف يلوّن الشعور ، ويشتت المعاش ، ويبدل المثل الأعلى ! ولكن هذه العواطف الانسانية المعروفة تغاير كل التغاير ما نسميه « العاطفة الشعرية » ، ولعل بيان أوجه التغاير والاختلاف لايخلو من عنت ومشقة ، لأنهما في الواقع متحدان اتحاداً شديداً ما ينفصل أحدهما عن الآخر أو يبرز له ويسمو عليه ، فالعاطفة الشعرية تتصل أبداً بالحب والألم والخوف والغضب ، وما الى هذا من مشاعر النفس وأهواء القلب

وإنما العاطفة الشعرية عندي إحساس قوي بحياة غريبة ، وشعور واضح بعالم جديد جرّده البين من نفسه لنفسه ، ثم قوّم أشياءه وأحداثه وأشخاصه بالميزان الذي له خاصة ، وخلع على ما فيه قيماً حديثة ، قد تتفق وقد لا تتفق مع القيم المألوفة التي تواضع الناس عليها في حياتهم الدارجة ! ولئن تشابهت أشياؤه بالأشياء ، وتعارفت الأحياء بالأحياء، فلقد يشملها جميعاً قانون النفس العام ، وتصطبغ كلها بالشعور الانساني ، تتجاذب تلك الأشياء والأحداث والأشخاص وتتنادى وتطرد لغاية عماها في دقة ونظام ؛ والأولى أن نقول إن الأشياء والأحداث والأشخاص تؤلف في العالم الجديد لحناً موسيقياً منسجماً لا نبوة فيه ولا نشوز ، يتملاه الشاعر ويستوحيه ويخضع له ! دنيا رحبة هادئة جميلة هي ملك البين لأنها في نفسه ، ولأنها من خلقه ! ولعل هذا العالم الشعري يماثل من وجوه عديدة عالم الرؤى والأحلام التي تضطرب في خيال المرء ، وتطيف في رأسه الغافي . . .

ولقد أحب أن أشير هنا ، وقد انحدرت « الأحلام » مع الحديث ، إلى أن جماعة الابتداعيين (الرومانتيك) وأدباء العصر الحاضر قد خلطوا بين الشعر والرؤيا ووحّدوا معناهما ! نعم ، قد تكون الرؤيا والأحلام صوراً شعرية خالصة ، ولكنها صور بارزة مؤلفة من عمل المصادفة والأتفاق ؛ وما دامت كذلك فهي صور شعرية بالمصادفة والاتفاق

إن عالم الرؤى عالم غريب قد ملأ ساحته الشعورُ المبهم ، وانفرط فيه عقد المنطق المحترم ، وهبّ عليه إدراك غير إدراكنا ، وتفكير غير تفكيرنا ! فهو عالم مغلق تبرز الأشياء فيه على غير حقيقتها ولونها المعهود ، وهي إنما تصطبغ بأهوائنا المكظومة ومُثُلنا المرجوّة ورغائبنا الكامنة . والعاطفة الشعرية حالة نفسية كهذه الحال الطليقة تظهر على غير انتظام ، وتعمل في غير استقرار ، وتضمحل من غير انذار ! لقد تقوم في أنفسنا بالصادفة وتختفي عن أعيننا بالمصادفة ! وعجيب — ياسادتي — أثر المصادفة العابثة في ظهورها وفنائها ! (تصفيق)

— ٢ —

يكر الزمان مسرعاً ولاَ يؤوب ، وتتجدد الحياة مشرقة ولا تتشابه ، وتزول الصور ماضية بدون أثر ! والله القادر الحكيم إنما تفرد بالطى والنشر ، والمحو والأبداع ، ثم أودع فى الحياة معنى الموت ، وفى الجذوة قوة الركود ، وفى الخلق سر الأعجاز ! ! ولكن الشاعر المبين لن يرضى عن اللحظة الحية التى تُطوى إلا إذا سجلها على القرطاس ، وأمدّ فى عمرها ، وأثبتها على الدهر ، كأنما يعارض انحدار الأشياء الى صندوق العدم ، أو يغالب عبث الليالى وتطور الوجود ، فهو يقف بالذاهب الآفل وقفة طويلة ممعنة فيقيد خواطره ، ويعلن أحاسيسه ، ويحيى حبه ، ثم ينتزع من الحياة قطعاً يقذفها فى إطار خالد جميل الى العصور التى تليه ، والأجيال التى تضطرب بعده على الأرض ! كذلك استطاع أن يستمتع بالعاطفة الشعرية الطليقة وأن يستحضرها فى نفسه كلما أراد كما تُستحضر الرؤى بالتنويم ؛ والفنون كلها تقلب العرض الزائل إلى حال دائم ، والعمل الفنى إنما هو الآلة الحسية لهذا التوليد العجيب والخلق الموفق ؛ فالموسيقى والنحت والأدب والتصوير طرائق مختلفة للتمثيل والتعبير اقتضتها كثرة الحواس الظاهرة ، واشتباك النفس الباطنة ، وغموض المدنية الحاضرة ...

التمس الشاعر طائفة من السبُل الملتوية لاستحضار العاطفة الشعرية ، ورياضتها على الفن . ولعل أقدم السبل المشروعة ، وأعمقها أثراً ، وأشدها تركيباً هى اللغة ! ولكن اللغة بطبيعتها المادية وسلطانها الواهى واستخدامها العملى أجهدت الشاعر أيما إجهاد ، وهو الذى يقوّم بها الشعر ويؤلف منها الجرس !

أرجو أن أظفر — أيها السادة — بعرض ما يكابد الشاعر من آلام ، ويبذل من جهود ، ويغالب من مصاعب

إن اللغة كما ذكرت أداة قديمة يخلص الناس بها إلى حاجات العيش ومطالب الجسد ، فهى على هذا أداة سمجة خلقتها المصلحة ، وشوّهتها الظروف ، وأخضعتها الشهوات ! فقيم الكلمات ، ومدلول الألفاظ ، وقواعد التركيب ، وفن الكتابة ، ومخارج النطق إنما هى أُلهِيـَّةٌ من الألاهى الطريفة نبعث بها على ما تقتضيه المآرب وترتضيه الأهواء . ولقد نجل مقررات المجمع الأدبى ، ونقدر عمل الطباعة والصحافة فى تحديد معنى اللفظ وكفّ شِرّة الفرد ، ولكن خصائص اللغة من حيث قدرتها على إبداع الجرس الموسيقى وتشقق المعنى الواحد فيها عن كثير من المعانى المندرجة لم تجد — وا أسفاه — من يرد عنها عادية النزوات وعُرف الأوضاع ؛ فقد ننطق بالحرف وترسل الكلمة كما تقوى حناجرنا ، وتنفرج شفاهنا ، وتتسع ثقافتنا ، وتزخر نفوسنا فنحرف الكلم عن موضعه ، وندخل الفوضى على المفهوم ، وننشر الشك فى قيمة اللغة ! والحق أن اللغة لو أنها لم تصلح لغايات العيش ، ولم تشتمل على معنى السعادة لما كانت تكون وسيلة من وسائل الشعر والفن ، ومطلباً من مطالب الدقة والتعبير

هكذا ، ياسادتى ، شاء الحظ العاثر المشؤوم أن يستخدم الشاعر أداة حسية عملية ليحقق بها فناً أبى إلا أن يثور على المعاش ، ويشرف على العمل ، ويسمو على المادة . . ! !

أما الموسيقى السعيد — والهفى على حظه — فقد يشرع فيما اختص له وتوفر عليه ، ووسيلته جاهزة سامية مستقلة ، لا يَشرَكه فيها أحد من الناس ، ولاتنتدنى الى مالم تخلق له ، وهو إنما يعمد إلى مادة قد صهرتها العصور ، وهيأتها الطبيعة ، وحددتها الغاية ! لشدّ مايشبه الموسيقى الصّناع نحلة ولودا جاءت لتفرخ فوجدت الخليـة قائمة على أحسن ما تقوم البيوت ، مقسمة على أدق ما تقسم الغرف ، فولدت مرتاحة هانئة ثم اهتمت للعسل وحده تجمعه من هنا ومن هناك : كذلك رجل الألحان يؤلف فنه من غير جهد ، ويسلك سبيله بهجاً طروباً كأنما اللحن قد انسجم وبرز واكتمل قبل أن تمسه يد الموسيقى الفنان ! !

ذلك بأننا نعيش بالسمع فى عالم الأصوات ؛ ونحيا بالأذن حين تعمى العين ويعيا اللسان ؛ والأذن تدرك بطبيعتها أن الأصوات المتعالية إنما تتألف من وحدات بسيطة بالغة البساطة ، صغيرة بالغة الصغر ، حتى كأنها لا تقاس بشىء أو تلمح لوحدها ، وهذه الوحدات قد تنسجم لمسافات محدودة ، وتطرد بنسب معينة ، فتكون الصوت الموسيقى ، وقد تضطرب بغير نظام ، وتسير على غير منهاج ، فتكون الضجة الراجفة . فالأذن تعلم بالغريزة مكان الوحدة من الجرس ، وتتذوق بالفطرة نور الجمال فى الهمس ، وتدرك أن الفرق بين النغم والضجة كالفرق بين النقاوة والكدورة ، أو بين

النظام والفوضى ، ثم جاء العلم الطبيعي فأتم إدراك الغريزة وفطنة الأذن ، وهو العلم القديم الدقيق ، فقاس النسب ، واخترع الآلات وأبدع من الألحان مالا تستطيعه دنيا الطبيعة بذاتها ...

وللموسيقى عمل السحر فى النفس ، تخلق جواً خاصاً بها لستُ أدرى ماطبيعته ، وإنما أعلم أنه جو هادئ جميل يتخدر فيه الشعور ، وتطير العاطفة ، ويحلو التخيل ، وتبرز الأحلام ! ولو أن لحناً شجياً انبعث خافتاً من كمان فى هذه القاعة الرحبة التى يهزها صوتى المضطرب المتعاظم لرأيتكم جماعة تُميلون الرؤوس وترهفون الآذان إلى مصدر اللحن ، تتحسسونه وتتذوقونه ، وتعدونه فى أنفسكم وأنتم لا تشعرون ! أفلا فطنتم إلى الأشعة القوية التى سطعت عليكم من شعاع لطيف ، وإلى الدنيا الحالمة التى طفت عليكم إثر جرس خفيف ؟ ولقد يعطس شخص أو يقع كرسى أو يُفتح باب فتستيقظ أنفسكم الحالمة وكأنما صار لها مايصير للزجاج إذا كسر ، أو الحبل إذا تصرم

تلكم الألحان الهادئة ، والآذان الواعية ، تعين الموسيقى على إحياء النفوس من غير تعب ؛ أما لغة الشاعر فكما علمتم ألفاظ جامدة مبهمة ، تخاطب الأذن والنفس على السواء ، وتدخل اليهما مزيجاً مضطرباً من الأصوات والصور ، وتثير فيهما ألواناً متداخلة من العواطف والميول . وهنا موضع الشذوذ ، فلستُ أعرف أثراً متداولاً أفرط فى الغموض والاشتباك كاللغة ، ولقد تقول كلاماً صحيحاً يقبله العقل ولكنه لا يهز الأذن ولا يطرب القلب ، أو تقول كلاماً منسجماً جميلاً ولكنه خلو من التفكير والمعانى ! وليس أدل على اشتباك اللغة من نشأة هذه العلوم المختلفة التى تتظاهر كلها على شرحها وتفسيرها ، فثم علم النقد والأدب والبلاغة والمنطق والاشتقاق والنحو تشترك جميعها فى الكشف عما يحجب الألفاظ من الابهام والتعقيد . ولن يستطيع البين أن يتجاهل هذه العلوم أو يثور على سلطانها أو يكتفى بالتوقيع على الأذن دون النفوذ إلى النفس !

ولكن الكلام كلامان : منثور ومنظوم ، والنثر والنظم مظهران قويان للغة ، وبينهما حــدود على وضوحها متداخلة متشابكة . . . « تصفيق شديد »

— ٣ —

أذكر أنى كنت أحاضر مرة فى هذا المعنى طائفة من الأجانب ، فلما بلغت هذا الموضع من الحديث إذا أحد المستمعين يتلو على رسالة طريفة بعث بها الكاتب (راكان) إلى صديقه (شاپلان) يقول فيها : « . . . وأنت تستطيع أن تنعت نثرى بما شئت من الظرف والكياسة والبساطة ، فلقد اعتزمتُ على ألاَّ أحيد عن نصائح أستاذى الكبير (مالرب) ولا ألتزم مايلتزمه غيرى من الوزن والايقاع والجرس ، وحسبى الوضوح من تاج أزين به نسج الفاظى ولفتات ذهنى ! كان مالرب الذكى يشبه النثر بالمشى ، ويقرن الشعر بالرقص ، ويقول إن ما نفعله مرغمين يستحق التسامح والاعتدال ، ثم لا بد فيه من التجاوز والاهمال ، وأما ما نعمله باختيارنا ورغبتنا فمن السخرية أن يكون المرء فيه ضعيفاً أو وسطاً ، فالأعرج مضطر إلى المشى اضطراراً ، ولكنه متحذلق سخيف لو راح يرقص على القالس والخطوات الخمس »

إن تشبيه النثر بالمشى والشعر بالرقص تشبيه خصب جميل لا أعرف أصح منه ولا أدق ولا أشمل ! فالمشى كالنثر يقصد به صاحبه أن ينال غاية ماثلة ويحقق فكرة مرسومة ، فهو يرجو شيئاً ، ومن أجله يمشى ، ولعله لم يدب برجليه ويضرب فى الأرض إلا لأن الباعث قد تحرك فيه وألحَّ عليه ؛ وظروف المشى ، أعنى طبيعة الشئ وحالة البدن والأرض واشتداد الرغبة ، هى التى تحدّد سرعته وتعيِّن وجهته ؛ فالمشى على هذا واسطة قائمة تزول متى برز وجه الغاية ، أو هو فعل متجدد سوف ينطوى بعد حين . أما الرقص فهو هو الواسطة والغاية ، ليس يعنى ولا يسير على غير هدى ؛ ولئن قُصد به شئ فهو الرياضة على الفن الجميل ، والشعور بالحياة السعيدة ، والاستمتاع بالمثل الأعلى ! على أن الرقص يستخدم نفس الأرجل والأعضاء والأعصاب التى يستخدمها المشى ، وكذلك الشعر أداته نفس الكلمات والصور والمعانى التى يقوم بها النثر عند البيان

إنما يمتاز الشعر من النثر بأنه يتناول الألفاظ على نحو من التركيب والتوجيه يخالف ما يتناول منها النثر فى أغلب الأحيان ، فنحن نعجب بالكناية والمجاز فى الشعر أشد العجب ، بل نحن لا نعجب بالشعر إلا إذا كان كله أوجله كناية ومجازاً . أما القول

بوحدة الشعر والنثر فهو قول خاطئ لم يقره النقد الصحيح ولم يسنه الذوق الحديث ، ولعل ما يجوز في أحدهما لا يجوز في الآخر على أوجز تعبير

والمشى كالنثر يسلك به صاحبه أخصر الطرق وأقومها وأقلها عوجاً ومنعطفات ليصل إلى بغيته التي يرجوها دون تريث ولا تذبذب ، ولكن الرقص بخلاف ذلك لا يحلو إلا إذا أكثر من الروحات والغدوات ، وأفرط في اللف والدوران ، وأمعن في الجيئة والذهوب ؛ ولو سمح لنا الرياضيون لقلنا إن الخط المستقيم سبيل الماشي والناثر ، والخط المنحرف سبيل الراقص والشاعر !

تلك السماء تسح مطراً — هكذا يعبر الناثر في نزول المطر الشديد ، وهكذا عُلِّمنا منذ الطفولة على الكلام ، أما الشاعر فلن يبين كما يبين الناثر ويتكلم الناس وإنما يكسو الحقيقة العارية ، ويزين الصورة الواقعة ، ويعرض الحس في إطار رائع يبهر البصر ويعجب البصيرة . وما ينبغي للشاعر الفنان أن يقول « تلك السماء تسح مطراً » حتى تحمل الظلة وتتقى البَلَلَ لأن « تلك السماء تسح مطراً » قاعدة الكاتب الناثر ، ينشئ فيوجز ويصرح ثم لا يجمِّل ولا يبالغ

يمشى الرجل متثاقلا أو مسرعاً إلى غايته ، فما يكاد يبلغها حتى يقف قائماً لا يسعى كأنما التثاقل والاسراع كانا من أثر الحاجة والالحاح ، فالرجل يكف عن المشى لأن علة المشى قد زالت ولأن غاية السعى قد برزت ! وهذا الأعرج الضعيف الذى ذكره مالرب في حديثه إنما يجلس مستوياً على مقعده كما يجلس الراكض العانى بعد طول اللهث والتعب . كذلك لغة النثر تضطرب وتموت في الذهن متى عرف معناها واستبانت غايتها ؛ فهذه محاضرتى إنما ألقيها على مسمعكم لتفهموا عنى ما أحب وتعتقدوا بالذى أعتقد ، فأنا أقول الآن نثراً ، ومتى انتهيتُ من الكلام وارفضّ جمعكم الحافل طارت الألفاظ سريعاً من ذاكرتكم ، وبقى الأثر منطبعا في أذهانكم كأنما أقول ما أقول من الكلام المنثور لأدفنه بيدى وأذيبه متعمداً ، ولقد يتفاعل هذا الأثر الحديث مع غيره من الآثار السابقة كما تتفاعل فيما بينها عناصر الكيمياء ؛ ومهما تكن نتيجة التفاعل الفكرى فالألفاظ التى أقذفها إنما أقذفها لتتلاشى بعد حين كما يتلاشى البخار في الفضاء . وكال محاضرتى أن تفهموا معناها لا أن تحفظوا مبناها ، لأن المعنى متى أشرق في الذهن ووضح في الخيال وجد اللفظ سجناً يحدُّ من سمته ويضعف من شأنه ؛ فالفهم والدقة والوضوح غاية النثر التى لا غاية له غيرها وأعنى أن الكلام المنثور يحيا حياة قصيرة ثم يموت . . .

وما ينبغى أن يحيا النثر إلا حياة قصيرة ثم يموت بعد أن يبلغ رسالته تامة صحيحة واضحة ! ولكن الشعر خالد تتجدد ألفاظه في القراءة ، وتحلو معانيه عند الاعادة ؛ وقيمة الشعر في شكله الظاهر وكلماته المزجاة ، قد انتظمت كما ينتظم العقد وانسجمت كما تنسجم الموسيقى ؛ فرؤوسنا تحفظ اللفظ تتلوه مترنمة هازجة وتعيده على نحو ما سمعته في الرصف والاتساق . ثم لا تبالى ان ثملت أو حزنت أو ثارت مادام في إنشادها رنة الفرح أو أنة الألم أو نزوة الهوى . ولقد جهل قوم كثيرون طبيعة الشعر ، وهاموا في وضع الحدود وتبيان المعالم فما نجحوا ولا استراحوا ؛ وعندى أن الشعر لفظ جميل تستمتع به الأفهام الراجحة ، وتتناشده الشفاه اللاغية ، وتهضمه النفوس الواعية . ثم تخرجه كما كان لفظاً جميلاً تبقى جدته على الزمان كأنما يستمان في « ميكانيكية » متشابهة قوية رائعة . . .

هاتان نقطتان ثابتتان تقابل إحداها الأخرى على مسافة صغيرة ، يتأرجح بينهما رقاص مضطرب كرقاص الساعة ، قد تدلى وتذبذب في جيئة وذهوب . أما النقطتان الثابتتان المتقابلتان فهما اللفظ والمعنى ، أو الشكل والفكرة ، أو الجرس والعاطفة ؛ وأما الرقاص المضطرب فهو النفس المتصفحة الممعنة ، تقرأ القصيدة المنظومة أول ما تقرأ ، فتجوز اللفظ لتفهم المعنى ، وتنسى الشكل لتذكر الفكرة ، ثم تخلص من الجرس إلى العاطفة تستطلع مطاويها كما هو الحال في التخاطب والكلام ، وهنا في هذه السطور يتساوى النثر والشعر ، ولكنه طور خاطف لا يلبث أن يزول . ذلك أن النفس القارئة تكر راجعة بعد هذا إلى اللفظ تعيده وتتملاه . ثم لا ترى خيراً منه صندوقاً يضم أشتات المعنى ، ويحفظ دقائق الفكرة ، ويعلن جمال العاطفة ! تعود إلى اللفظ بعد ما عرفت المعنى كما يعود الرقاص من جولته إلى حيث ابتدأ في الجولان ! وهكذا تضطرب النفس القارئة بين اللفظ والمعنى كما يضطرب الرقاص بين النقطتين الثابتتين المتقابلتين ، وهذا

الاضطراب بين الظاهر والباطن هو الذى أسميناه « بالعاطفة الشعرية » فى صدر المحاضرة ، وهو غاية الشعر التى لا غاية له غيرها ، ولعل الشاعر الموهوب من يختار اللفظة الصالحة لأحداث الاضطراب النفسى ، وإحياء العاطفة الشعرية

فالشعر كما أراه يفترق عن النثر ولا يلتبس به ، وهو أشد ما يكون بعداً وتسامياً عن القصة والرواية اللتين تصفان حوادث الواقع وتعرضان مشاهد الحياة ، وهذا التباين نلمحه واضحاً فى الوضع الطبيعى الذى يأخذه قارئ الرواية وقارئ الشعر ، فالأول ينساق مع تيار الحوادث ، فيفخر أو يغضب أو يفرح أو يحزن ، وقد وضع جبهته بين كفيه ، وركب رأسه فيما يقرأ ، وتعجل التلاوة ليأمن الذى يلى ويطمئن للخاتمة ، فجسده غائب وحواسه فارغة ، وعقله منغمس تائه لا يشعر عما حوله ولا يدرك إلا ما هو فيه ، ولو أنصفنا لقلنا إن قواه الجسمانية قد انحلت ، وأن قواه النفسانية قد انقلبت عقلاً يمن ويتلو ويتأثر ، أما قارئ الشعر فلا تتقسم طبيعته ولا تتوزع قواه ، وإنما يذهب فى القراءة بجوارحه كلها ما دق منها وما ظهر ، ما رق وما غلظ ، ما شرف وما سفل ؛ فالقصيدة تهييج نفسه وعصبه ، وتوقظ ملكاته الحسية والفكرية . ثم تريده على أن يتصور الأشياء ويتمثل الحقيقة كما هى غير محرفة ولا ملتوية ولا مضطربة ! !

ولكنى على هذا ألمح بين الشعر والنثر درجات من الصور خافية متوسطة تربط قطبين متقابلين فى الأدب ، وتصل مظهرين قويين للغة ، ثم تنشئ بينهما حدوداً على وضوحها متداخلة متشابكة . . .

— ٤ —

أينظم الشاعر مضطراً أم ينظم مختاراً ؟

هذا آخر ما أفكر فيه وأتحدث عنه ، والغريب أن الباحثين لم ينتهوا بعد من تقرير شىء فى هذا . فالجدال عنيف ، والتعقيد ظاهر ، والعمل شاق . وقد يئست طائفة من الشعراء وتبرمت بالقريض ، ثم قالت : إن مهنتنا تضنى النفس وتأكل القوى ، وصاحبنا مالرب يزعم مخلصاً أن الشاعر الذى ينهى مقطوعته الفنية وجب أن يهدأ مرتاحاً بعد ذلك عشر سنوات ! !

ينظم الشاعر . . . ولكنكم تدرون متى ينظم الشاعر ، وما حاجتى إلى شىء تعرفونه حق المعرفة . ينظم الشاعر حين يفيض قلبه ويمتلئ صدره ، فينطلق لسانه ويقول شعراً ، ولكم وددت أن يكون هذا الرأى الفطير صحيحاً سديداً ، إذن لاحتمل الشاعر تكاليف الحياة ، ورضى المبين بميسور الشقاء ! ولكن القريحة الفنية قد تتبلد وتظلم حتى لا تعى أمراً ولا تنطق حرفاً ، فمن يقول بهذا الرأى الغرير يُخضع الشاعر لسلطان القدر العابث ، ويغدو الانتاج الشعرى حينئذٍ مرهوناً بالمصادفة المواتية واللمحة المشرقة ، أو متصلاً بالوحى العالى والموهبة الخارقة . ولست أعلم افتئاتاً على حرية الشاعر وامتهاناً لكرامته كهذا الرأى القائل العاثر يجعله منفعلاً لا فاعلاً ، وحاكياً أميناً يقول ما يأتى إليه من الكلام . وهو ، على هذا ، يُحاسب كما يُحاسب مدير الصحيفة المسئول ، فما كان خيراً قالوا هذا من عند الله ، وما كان شراً قالوا هذا من عنده ! والعجيب أن الكثرة الغالبة من الشعراء تؤمن بهذا الرأى وتناضل عنه ، أو هى على الأقل لا تجد الغضاضة الذليلة بأن ترضى قانعة بمشيئة المصادفة والوحى

توافرت الأدلة وأثبتت التجربة أن الشعر الذى يُعترف بجودته وبلوغه المنزلة الرفيعة التى تملى على القارئ أثر الوحى والاحساس النفسى ، إنما هو فى الواقع من عمل الجهد الدائب ، والارادة الصابرة ، والتفكير العميق . أفلا نحس بهذا المجهود الكبير يبذله الشاعر حين نقرأ قصيدة من قصائده الطويلة الجميلة ؟ فنحن نخطئ كثيراً إن حسبنا أن الشعر وحدة لا تقبل التجزئة ؛ وموهبة لا تقوى على المران ، وأثراً لا يخضع للزمن

لقد يمتاز الشاعر من بين الناس كافة بلحظات مشرقة خاطفة تعصف بذاته وكيانه عصف الريح بفروع الشجر ، فتتفتح لديه مغاليق نفسه ، ويطل على دنياه الكامنة ، ويلمح عجائب الروح . تلك لحظات ثمينة عزيزة تضىء ما اختبأ بين اللحم والدم ، وتبعث من المعانى والصور ما لا يفهمها أو يقدرها إلا الشاعر وحده ، لأنها مختلطة بأوضار المادة وصادرة عن أسرار الظلام ؛ وهى معانٍ وصورٌ لا تثبت للمنطق الظاهر ولا تلين للبيان الشعرى ، وكل ما فى الأمر أنها قطع تنتثر من أعماقنا على حالها الطبيعى كما تنتثر الأحجار الكريمة من جوف البركان . ولقد ينبغى أن نطرح الأوشاب ، ونحتفظ بالعنصر الصالح النقى لنذيبه فى قالب جديد ونقدمه جوهرة خالصة للناس

فالذين يؤمنون بالوحى الشعرى يقتلون العمل والابداع ،

ويرضون بالشاعر وسيطاً تملى عليه القــدرة القادرة ما تشاء من ضروب القول وألوان المطالعة ، وما لمثل هذا يسخر الفن ويخلق الشعراء ! لشدَّ ما هزئنا بالذين كانوا يؤمنون بحلول الجن أجساد البشر ، ثم يجرون على ألسنتهم ما يشتهون من الحجج واللهجات والنزوات ! نعم إن الشعور الصادق فى اللفظ الجميل قوامُ الشعر الصحيح ، ولـكن الشعور النفسى لن ينبجس صافياً عذباً مهيئاً للبيان ، وما أحسبه يصفو ويعذب إلا إذا نهد له الشاعر بنشاطه فجرَّده من الأدران التى تمازجه ، ونفض الغبار عنــه ثم أهداه للقارئ أنشودة رائعة وأثراً كاملاً . . .

بيروت — محمد روحى فيصل

رشيد فى ضحى عيدها

للأستاذ محمد محمود جلال



كدنا لا نذكر اليوم عن « رشيد » إلا إخراج الأرز طعاماً شهياً . وأنها مقر صناعته ولا نعرف لها أكثر من الترويح الذى نلقاه من جمال موقعها حين نبرم بالمصيف المتمدين المملوء بالرسميات على شاطئ الاسكندرية ، فنفزع اليها نلتمس شيئاً من التغيير وقرباً من الطبيعة فى أهنأ مظاهرها

فأما نصيبها من حياتنا المعنوية فمقصور على ما نتوارثه سماعاً عن سرعة النكتة فى طبيعة أهلها ، فنتنادر بشيء مما حفظنا منه فى مناسبات متباعدة ، فاذا طلبت فى إحدى بيئاتنا مزيداً فلست تجده إلا رواية عن مختصر مخل من كتب الجغرافيا « فهى ميناء على ملتقى النيل بالبحر الأبيض المتوسط وهى مركز من مديرية الغربية كانت محافظة إلى عهد قريب »

وهكذا غمطت « رشيد » حقها ، وغمر فى قاموسنا أصلها كما ذهب الاهمال بأكثر صحفنا ، وعصفت الأنواء بمفاخرنا . كأنها لم تكن طغراء فى كتاب الجهاد الحديث ، ومسرحاً أظهر الله فيه آيات الحكمة والبسالة لشعب وادى النيل . كأنها ليست هى رشيد التى حققت فى سنة ١٨٠٧ ما لا يزال فى أحضان التقدم والرقى مجرد أمل لوادى النيل ، وأمنيــة لأكثر أقطار الشرق

أحببت أن أرى رشيد فى أول أبريل ، وكنت بالاسكندرية والمسافة بينهما تقطعها السيارة فى ساعتين

تخيرت « سيارة أجرة » أعجبنى مظهرها واطمأنت نفسى الى أدب سائقها ، وسارت تقطع الطريق وقد أوصيت قائدها بالتؤدة لعلة الأمعاء التى أشكو

وقف بى السائق فى الطريق عنــد « ادكو » المشرفة على بحيرتها ونزلت أمشى قليلاً على قدمى . فلما عدت أستأنف رحلتى وجدت السائق قد أعد فنجان قهوة وكوبة ماء وقدمهما إلىَّ فى أدب ينــدر أن تراه فى زملائه . شكرت له صنيعه وألححت فى أن يطلب له فنجاناً آخر وسرحته ريثما يشربه فى قهوة مجاورة بيد أنه لم يقبل إلا بعد مشقة

جلست إلى جوار السائق مستأنفاً رحلتى وقد ألهمت أن للرجل قسطاً من العلم ولابد من سرمؤثر فى حياته وبدأت آنس به

قلت : « لأى غرض تظننى أقصد إلى رشيد اليوم ؟ » قال : « لعل حضرتك محام ولديك اليوم جلسة » قلت : « لقد تركت المهنة منذ ثمانى حجج وأنا اليوم فلاح مقيم بالوجه القبلى » قال : « لعلها نزهة ، فـكثير من الخواجات يأتونها فى أوقات مختلفة » قلت : « ولاهذا أيضاً وليس معى رفيق ولم أر رشيد من قبل »!! قال : « لعلك تزور صاحباً » قلت : « لا أعرف بها أحداً وقد ذكرت لك أن هذه أول زيارة لها »

اكتفيت من حــدس السائق بما سمعت ، وخففت عنه عبء الفـكر فقلت : « هذا يوم عيد لرشيد -- بل عيد لوادى النيل . فقد أشرقت شمس هذا اليوم منذ ١٢٨ عاماً وللمدينة غنى بشمس النصر ، وحرارة الجهــد والظفر على المعتدين حتى جلا

الأنجليز فى ظل معاهدة مع محمد على باشا عن البلاد بعد ذلك بشهور » ! !

سُرَّ السائق بما سمع وبدا لى أنه يريد أن يتكلم فلزمت الصمت قال : « إن بلاءنا منا وباسبابنا . قلت : لِم وكيف كان ذلك ؟ قال : « ألا تذكر حضرتك كيف التجأ الخديو توفيق باشا لحماية الانجليز ؟ — ألم تسرق من معسكر عرابى خريطة فى التل الكبير بواسطة أحد الضباط » ؟ !

ذكرت على التو أمر الخريطة وأنى قرأت شيئاً من ذلك فى أحد المؤلفات التى كتبت عن المسألة المصرية وإذا لم تخنى الذاكرة فهذا الضابط الذى يعنيه يدعى « على يوسف خنفس »

قلت : ولكن بعد ذلك ألم يكن سبيل لتصحيح الخطأ ودرء الخطر ؟ »

قال : « ألم يكن رؤساء الحكومة أغرابا بين تركى وأرمنى ورومى ؟ »

تساءلت : ومن هذا الأرمنى ؟ أو كان لنا رئيس حكومة أرمنى ؟

قال : نعم . نوبار باشا ، ألم يساعد على سلخ السودان ؟ استدركت قائلاً « بل قل الوجه السودانى كما تقول الوجه البحرى والقبلى . أو تعرف للسودان قيمة ؟ »

قال : « إنه حياتنا ، ولقد عشت فيه ، ونلت الشهادة الابتدائية من كلية غوردون »

صدق ظنى فأنا بأزاء رجل متعلم ، وطاب لى أن يستمر فى حديثه وكله سمر مفيد متصل بما أعنى به

سألت السائق : « وما الذى دفع بك الى الوجه السودانى ؟ »

قال : « ولدت هناك ؛ وقد كان أبى موظفاً بمصلحة السكة الحديد . أرسل الى السودان ليدرب المبتدئين هناك من عمال التلغراف ، ولما عدنا أتممت دراستى الى شهادة الكفاءة ، وشق علىّ أن أسعى للوظيفة وسط أمواج الساعين وذل الوساطة ، فتعلمت قيادة السيارات واشتريت هذه ، وأنا بعيشى قانع ولله شاكر »

لم أجد بداً من تحيته تحية تجزىء شيئاً من كرامته وحسن تقديره للحياة ولوطنيته . قلت : قف السيارة — وقد ظن أنى أريد استئناف السير على قدمىّ لدقائق أخرى ، فهمّ يفتح الباب

قلت : كلا . أمدد يدك الى أصافحك ، وأنت الآن فى نظرى خير منى ، وأنت إذن سائق ورفيق

* * *

أشرفنا على المدينة ، فسألت السائق هل يعرفها جيداً ؟ قال « نعم » فاطمأن خاطرى فنزلت وصورت مدخلها

رأيت أعلاماً منشورة ، وزينات مرفوعة ، وبشراً يغمر الوجوه . فقلت : الحمد لله إنهم يعرفون لليوم حقه . والتفت إلى رفيقى خريج « كلية غوردون » وقلت: « ألا ترى مظاهر العيد ؟ » أجاب الرجل : « إنه اتفاق سعيد ، فقد ازينت المنازل والطرقات لعودة الحجاج من أهل رشيد ، وقد دعيت أمس لير كب سيارتى أحد أعيانها القادمين ، ولكنى وعدتك أن أوافيك بفندق وندسور . فاعتذرت مهما علا الأجر ، وأنا اليوم أعد نفسى سعيداً »

قلت : بل أنا يابنىّ ، فقد وجدت فيك من يحتفل معى بهذا العيد على معرفة ! » وقلت : لا يزال فى الدنيا من يرخص المادة فى سبيل الوفاء ، وإذن ماتزال الدنيا بخير

. رشيد بلد ظريف جذاب . إذا نظرت إلى التقاء النيل عنده بالبحر الأبيض المتوسط ، ذكرت على التو كيف انسابت مدنية وادى النيل القديمة إلى أوربا ، وعرفت كيف سارت تاريخ الأمواج الحلوة الهادئة بين الشاطئين الهادئين ، فكانت أشبه بالسطور يحملها الأثير بفعل الاختراع — فنقلت فى أقدم العصور التشريع المصرى إلى (أثينا) فأضفت على تاريخها مفخرة التقنين وسن الشرائع

أمواج النيل الهادئة ، بالاضافة الى أمواج البحر الصاخبة الهائلة ، كذلك الخالق الرصين المتين يثابر متئداً فيتغلب على صخب الجبروت ، والهيولى الضخمة المخيفة لكتائب الغضب والغزو — وقد شهد وادى النيل مصارع أمم كبيرة فأفنى قواها أو مثلها ففنيت فى شعبه

مررنا بالمبانى الحديثة فقلت خلوا بينى وبينها ، أرونى المبانى القديمة ، أسمعونى الشهود العدول ، دعوها تحدثنى عما شهدت وتطلعنى على ما خفى من تفاصيل المفاخر

رأيت المنازل القديمة ، ووقفت بربوعها أسائلها وتجيبنى . أصغى إلى (طيقانها) الصغيرة ، فأسمع حديث الاباء والشمم ، ووقفت بأبوابها أذكر القرى والكرم

التقيت بأحد أبناء رشيد الكرام الأستاذ فؤاد نور المحامى فحمدت رفقته وحمدت السرى فى ظله ، زرنا المنازل الأثرية فهذا بيت (الأماصيلى) كان عالكه حاجب المحكمة الأهلية فابتاعته مصلحة الآثار ولكنه مقفل فلا دليل يقف ببابه للمسترشدين ، ولا نشرة توزع بما يجب للبناية الأثرية من بيانات ، ولا « كارت بوستال » يباع — حاوياً صوره الداخلية

والبيت من داخله تحفة فنية وفيه متعة وشغل للبصر والبصيرة ، بنى فى ٢٨ شوال سنة ١٢٢٣ هجرية وقل أن تجد من يعنى بتأريخ البناء إلا فى السنوات الأخيرة

وأعجب ما ترى فيه « مقصورات » شبيهة بالألواح التى نراها اليوم بالمسارح أعدت لجلوس السيدات ليشهدن مجالس الغناء وتسمى « الأغانى » أضافة إلى الغرض منها

وقفت إذن : أن هذا البيت قد شهد موقعة النصر وأنه شاهد أمين عليها ، وقفت به طويلاً وقلت : ما يؤلمنى أن أكون وحيداً ولا أن يرافقنى رهط قليل مادمنا نقوم بما نعلم من واجب ، فغداً يزور رشيد آلاف وغداً يكون الاحتفال عاماً ، ولاضير أن نبدأ قلة وقد نعلم أن (واشنجتون) عد فى وقت مجنوناً ، وأنه لم يخل من تآمر حرسه عليه ، وهو اليوم ، وفكرته اليوم متجه الأنظار للأمريكان جميعاً

ليس فى رشيد فندق لائق . وقد أعد يونانى مطعماً منذ سنوات قليلة فقاطعه أهل البلد حتى لم يجد مناصاً من اغلاقه وهجرة البلد

كل دار أحق بالأهل إلا فى خبيث من المذاهب رجس

ولكن هذا الميدان الذى خلا أليس من أهل البلد من عاؤه ؛ أولئك الذين كتب عنهم الجنرال ستيورات الى القائد فرزيه فى ٣١ مارس سنة ١٨٠٧ يقول : « إن الأهالى لا يعبأون بالمصائب برغم ما أحدثنا بالمدينة من تخريب حتى بلغ ما أطلقناه من القنابل من المدافع البعيدة المرمى وحدها ٣٠٠ قذيفة »

على أحفاد أولئك الكرام أن يحتفلوا بذكرى أجدادهم ومجد بلدهم . وعليهم أن يسدوا كل ثغرة ، ولعلنا نقتبس الرشد عما قريب عن رشيد

الشيخ عطا

محمد محمود جلال
المحامى

فلسفة موسى بن ميمون

ومصنف « دلالة الحائرين » (١)

بقلم اسرائيل ولفنسون

أستاذ اللغات السامية بدار العلوم



عن النوڤيل ليتربر

إذا كانت مدونات موسى ابن ميمون التشريعية قد صنفت لابناء الثقافات اليهودية قبل كل شىء ، وإذا كانت البحوث التى وردت فيها لا تتجاوز حدود الدين وأدب الدين والتشريع الاسرائيلى فان كتاب دلالة الحائرين يشغل ناحية أخرى من التفكير الانسانى ، هى الناحية الفلسفية والمنطقية ، أو الناحية الانسانية العامة التى كانت تشغل بال المفكرين ورجال الفلسفة فى ذلك العهد

وقد اعتمد موسى بن ميمون فى أثناء تأليف كتابه « دلالة الحائرين » على المصادر العبرية التى كان له بها إلمام يندر أن يكون فى شخص آخر من أحبار اليهود فى القرون الوسطى ، كما كانت له دراية تامة بمؤلفات اليهود باللغة العربية ، ومع أنه لم يسرد أسماء المؤلفين إلا فى أحوال نادرة فان نظرياتهم تتكرر فى كثير من فصوله فى كتابه « دلالة الحائرين » إذ يسرد آراء سعديا الفيومى (٢) وبَحْيا (٣) وسليمان بن جبيرول (٤) ويهودا هالوى (٥) وابرهيم بن

(١) فصل من كتاب عن موسى بن ميمون تحت الطبع

(٢) راجع كتاب دلالة الحائرين ج ١ فصل ٦٥ ، ج ٢ فصل ٦٣ ، ج ٣ فصل ١٧ (٣) ج ١ فصل ٥٩ ، ج ٣ فصل ٨

(٤) ج ٢ فصل ٤٢ (٥) ج ١ فصل ٥٢

حيا (١) وابرهيم بن داود (٢) وابرهيم بن عزرا (٣)

وكذلك كانت له دراية بآداب اليهود القرائين (٤)

أما الفلسفة اليونانية فكان يعرفها من التراجم العربية شأن غيره من الفلاسفة فى البلدان الاسلامية وهو متأثر قبل كل شيء بارسطاطاليس الذى يراه رئيس الفلاسفة ، يجله إجلالاً عظيما إذ يقول : « وكل ما قال ارسطاطاليس فى جميع الوجود الذى من لدن فلك القمر الى مركز الأرض هو صحيح بلا ريب ، ولا يعدل عنه إلا من لم يفهمه ، أو من تقدمت له آراء يريد الذبّ عنها ، أو تقوده تلك الآراء لانكار أمر مشاهد . . . » (٥)

وكان قد درس كتاب الأخلاق لأرسطاطاليس من ترجمة إسحق بن حنين كما علم نظرياته من شروح يونانيـة مترجمة الى العربية مثل اسكندر الأفروديسى (٦) وتامستيدس (٧) ويحيى النحوى (Gohannes Philapone) (٨)

وكذلك وصلت اليه نظريات ارسطاطاليس بوســـاطة المصنفات العربية مثل الغزالى (٩) وابن باجه أبو بكر بن الصائغ (١٠) وابن الطفيل (١١) والفارابى (١٢) وآراء المتكلمين (١٣) ، وكذلك أدمج فى « دلالة الحـائرين » بعض النظريات لبطليموس (١٤) وجلينوس (١٥) اليونانيين

وكذلك ورد فى دلالة الحائرين بحث فى منزلة المعـــتزلة والأشعرية (١٦) ممـــا يدل على أنه درس المذاهب الاسلامية دراسة وافية

(١) ج ٢ فصل ٤٥ (٢) ج ١ فصل ٥٢ ، ج ٣ فصل ٣٣
(٣) ج ٣ فصل ٢٠ (٤) ج ١ فصل ٧١
(٥) جـ ٢ فصل ٢٢ (٦) جـ ١ فصل ٣١ ، جـ ٢ فصل ٣ وفصل ١٥ وفصل ٢٢ (٧) جـ١ فصل ٧١ (٨) جـ ١ فصل ٧١
(٩) راجع هامش الترجمة الفرنســية لدلالة الحائرين للعالم فونك le Guide des Egarés de Maimonides publié par S. Munk Paris 1856 — 1866 جـ١ ص ٢٠٨ ، ٢٤٥ ، ٣٨٣ ، ٣٩٢
(١٠) جـ ١ ص ٢٧٨ ، ٤٣٤ ، جـ ٢ ص ٨٢ ، ١٨٥ ، ٢٨٦ ، جـ ٣ ص ٢٢٢ ، ٤٣٨ (١١) جـ ١ ص ١٢ ، ٣٥٨ .
(١٢) جـ ١ ص ١٩٣ — ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٤٠٤ ، ٤٣٨ ، جـ ٢ ص ١٢٨ ، ١٣٩ ، ١٥٩ ، جـ ٣ ص ١٣٩ (١٣) جـ ١ ص ٥ ، ١٨٥ ، ٣١٣ — ٣١٦ ، ٣٣٦ — ٣٥٢ ، ٣٧٥ — ٤٥٩ جـ ٢ ص ١١٨ ، ١٢٨ ، جـ ٣ ص ٥٨ — ٥٩ (١٤) جـ ١ فصل ٧٢ جـ ٢ فصل ١٣ جـ ٣ فصل ١٢ (١٥) جـ ١ فصل ٧٢ جـ ٢ فصل ١٣ جـ ٣ فصل ١٢ (١٦) جـ ١ فصل ٧١

وكان السبب المباشر فى نشر كتابه دلالة الحائرين الحاح تلميذه يوسف بن عقنين عليه ، ويقول موسى بن ميمون فى مقدمته الى تلميذه : أيها التلميذ العزيز ، لما مثلت لدى وقصدت الىّ عظم شأنك عندى لشدة حرصك على الطلب ، ولما رأيت فى أشعارك التى وصلتنى وأنت مقيم بالاسكندرية من شدة الاشتياق للأمور النظرية ، وقبل أن أمتحن تصورك قلت لعل شوقه أقوى من إدراكه ، فلما قرأت علىّ ما قرأته من علم الهيئة وما تقدم لك مما لابد منه ، زدت بك غبطة لجودة ذهنك ، وسرعة تصورك ، ورأيت شوقك للتعليم عظيما فتركتك للارتياض فيه لعلمى بمآلك ولما قرأت علىّ ما قد قرأته من صناعة المنطق تعلقت آمالى بك ، ورأيتك أهلاً لأن تكشف لك أسرار الكتب النبوية حتى تطلع منها على ما ينبغى أن يطلع عليه الكاملون ، فأردتُ أن ألوّح لك تلويحات وأشير لك باشارات ، فرأيتك تطلب منى الازدياد وأن أبين لك أشياء من الأمور الالهية وأن أخبرك بمقاصد المتكلمين وطرائقهم ... وآمرك أن تأخذ الأشياء على ترتيب قصداً منى أن يصح لك الحق بطرقه لا أن يقع اليقين بالعرض ؛ ولم أمتنع طول اجتماعك بى إذا ما ذكر نص من نصوص الحكماء فيه تنبيه على معنى غريب من تبيان ذلك لك ، فلما قدر الله بالافتراق ، وتوجهت الى حيث توجهت أثارت منى تلك الاجتماعات عزيمة كانت فترت وحركتنى غيبتك لوضع هذه المقالة التى وضعتها لك ولأمثالك ، وقليل ماهم ، وجعلتها فصولاً منثورة وكل ما أكتب لك منها يصلك أولاً فأولاً ودمت وأنت سالم . . . (١)

ولم يقصد موسى بمصنفه هذا الجمهور أو المبتدئين بالنظر ، بل كان نصب أعينه « جماعة الذين أخذوا أنفسهم بالكمال الانسانى وإزالة هذه الأوهام السابقة من سن الطفولية » (٢) أو إنه « ما ألف الكتاب إلا لمن تفلسف وعرف ما قد بان من أمر النفس وجميع قواها . . . . . » (٣) أو « لمن هو كامل فى خلقه ودينه ونظر فى علوم الفلسفة وعلم معانيها . . . . . » (٤)

أما عن غرض تأليف دلالة الحائرين فيقول المؤلف : ما كان الغرض نقل كتب الفلاسفة . . . (٥) وما كان قصدى أن أؤلف

(١) جـ ١ ص ٢ (٢) جـ ١ فصل ٦
(٣) جـ ١ فصل ٦٨ (٤) جـ ١ صدر الجزء الأول ص ٣
(٥) جـ ٢ صدر الجزء الثانى ص ٤

شيئاً فى علم الطبيعة ، أو أن ألخص معانى العالم الالـهى على بعض المـذاهب ، أو أبرهن على ما يبرهن منها ، أو أن أقتضب هيئة الأفلاك ، ولا أن أخبر بعددها إذ الكتب المؤلفة فى جميع ذلك كافية ، وإن لم تكن كافية فى غرض من الأغراض فليس الذى أقوله أنا فى ذلك الغرض أحسن من كل ما قيل ، وإنما كان الغرض بهذه المقالة أن أبيّن مشكلة الشريعة وأظهر حقائق .[1]

ويقع الكتاب فى ثلاثة أجزاء ، يشتمل كل جزء على فصول أو موضوعات ، وعلى كبر حجم الكتاب وتنوع موضوعاته فان ما ورد فيه من النظريات يتدرج تدرجاً منطقياً محكماً من قضية إلى أخرى ، فكأن جميعها سلسلة واحدة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً

والهدف الأسمى الذى يرمى إليه موسى بن ميمون هو أن يأتى أشعة من أنوار الفلسفة والمنطق والعقل على الأيمان والشعور « العقل الفائض علينا هو الصلة بيننا وبين الله تعالى . . . »[2] وهو يقصد التوفيق بين الدين والفلسفة « الحكمة المقولة باطلاق فى كل موضوع هى الغاية هى إدراكه تعـالى »[3] ، كما يقصد التوفيق بين موسى كليم الله وأرسطاطاليس شيخ الفلاسفة حتى ينظر العـالم الى الدين عن طريق الفلسفة ، وحتى يطلب الحق والعرفان لا فى أفق الدين وحده ، بل فى ميدان العقل والمنطق أيضاً ، وقد رفع بذلك الفلسفة والفلاسفة إلى مصفٍّ واحد مع الدين وكبار مفكرى الدين

ويبحث الجزء الأول من دلالة الحائرين فى ماهية الله وكيفية إدراكه وتوحـيده ، كما يدخلنا فى الكتاب المقدس عن طريق الفلسفة والمنطق ، ويفتح الكتاب بمحاربة عنيفة كل ما يقصد من الأوصاف المادية المنسوبة لله ، فيشرح الآية « نصنع إنساناً على صورتنا وشبهنا »[4] إن الناس قد ظنوا أن لفظ صورة فى اللسان العبرى يدل على شكل الشىء وتخطيطه فيؤدى ذلك إلى التجسيم المحض ، ورأوا أنهم إن فارقوا هـذا الاعتقاد كذبوا النص . . . وأما صورة فتقع على الصورة الطبيعية ، أعنى على المعنى الذى يجوهر الشىء بما هو وهو حقيقته من حيث هو ذلك الموجود المعنوى ، هو الذى عنه يكون الادراك الأنسانى .. فيكون المراد من الصورة الصورة النوعيـة التى هى الادراك العقلى لا الشكل والتخطيط . . .[1]

وإدراك الالـه عنده على الطريقة السلبية لا الايجابية ، فانه يقول : « اعلم أن وصف الله عز وجل بالسوالب هو الوصف الصحيح الذى لا يلحقه شئ من التسامح ، ولا فيه نقص فى حق الله تعالى جملة ولا على حال ، أما وصفه بالايجابيات ففيه من الشرك والنقص . . . »[2]

ويبحث الجزء الثـانى فى مشاكل وجود الله وتوحيده وروحانيته وما يرى الفلاسـفة فى الكون إذا كان قديماً أو « محدثاً » ، ومع أن موسى بن ميمون من أشـد أنصار أرسطاطاليس فى مسألة قدم الكون يحاربه محاربة عنيفة ، لأن الأخذ بقدم الكون ينفى ما ورد فى التوراة من أن الكون محدث ، ويقول موسى بن ميمون بعـد بحث طويل فى هذه المشكلة إن كل ما ذكره أرسطاطاليس وأتباعه من الاستدلال على قدم الكون ليس له براهين قطعية ، بل لها حجج تلحقها الشكوك العظيمة . . .[3]

ثم يبحث فى النبوة وماهيتها ودرجاتها وتعريفها عند رجال الدين من الملل المختلفة وعند أصحاب المدارس من الفلاسفة

ويشغل البحث فى النبوة أغلب فصول الجزء الثانى وهو من أرقى ما وصل اليه التفكير اليهودى الفلسفى فى القرون الوسطى

أما الجزء الثالث فيتم موسى فى فصوله السبعة الأولى بحثه عن النبوة بشرحه رؤيا النبى حزقيـال الذى ورد فى الفصل الأول والثالث من سفره من أسفار العهد القديم ، وكل ما ورد فيها من الاصطلاحات العويصة والمعانى الغامضة

ثم ينتقل الى البحث فى الشر ، وما يحل من المصائب بالعالم وهل الانسان هو الذى يكون مسئولاً عما يقع من الكوارث على المخلوقين أم الله سبحانه وتعالى ، ثم ينتقل الى مشكلة العناية الالـهية بالكون والمخلوقات ، وما يقول الفلاسفة من اليونان والمسلمين واليهود فيها

ثم يتعرض لأمور دينية فى الشريعـة التى جاءت لصلاح النفس وصلاح البدن ، كما يشرح واجبات وعبادات وردت فى التوراة على الطريقة الفلسفية

(١) جـ ٢ فصل ٢ ص ١١ (٢) جـ ٣ فصل ٥٢ ص ١٣٠
(٣) جـ ٣ فصل ٥٤ ١٣٤ (٤) سفر التكوين الفصل الأول آية ٢٦

(١) جـ ١ فصل ١ ص ١٢ (٢) جـ ١ فصل ٥٨ ص ٧٠
(٣) جـ ٢ فصل ١٦ ص ٣٤

١٠ - قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

بستور Pasteur

صلة حديثه

وصل الفائت: ترك بستور مدبغة أبيه وذهب إلى باريس. فتلقى على الكيميائى العظيم « دوماس ». وبعدئذ أتم أبحاثه فى حامض الدردى. وبينا هو كذلك اكتشف « كنيارد دى لاتور » أن الخمائر بالبيرة المختمرة تتكاثر فتحيل الشعير بذلك الى كحول. وتعين بستور أستاذاً بجامعة « ليل » وتزوج ابنة عميدها فسهرت الى جانبه. وأجرى كثيراً من التجارب الجامحة وأخفق فيها

وتعين « بستور » عميداً لكلية العلوم بجامعة « ليل Lille »، فسكن واستقر فى « شارع الأزهار ». وهنا اتصل عفواً ولأول مرة بالمكروبات. وفى هذه المدينة الأصيلة، مدينة المقطّرين للخمور، مدينة زرّاع البنجر وتجار الآلات الزراعية، قام « بستور » بحملة قوية، بعضها علمىّ، وبعضها قصصى روائى، وبعضها دينى، وبعضها سياسىّ، ليضع المكروب فى موضعه اللائق من اهتمام الناس ورعايتهم. نعم فى هذه المدينة ذات الخطر اليسير والجمال القليل، فى هذه المدينة التى لم تشتهر قط بالعلم، أثار بستور زوبعة هائلة نالت سفائن العلم فظلت تؤرجحها ثلاثين عاماً. أبان بستور للدنيا خطر المكروب فأوجست منه خيفة، وخلق لنفسه فى سبيل ذلك أعداء ألدّاء، وخلق لها أحباباً خلصاء، وملأ اسمُه صفحات الجرائد الأولى. وطلبه خصوم للمبارزة. وضحك الجمهور بادئ بدء من مكروباته الغالية، وقصف بالنكات عليها، بينما كانت كشوفه تُنجى حياة العدد العديد من النُّفَساء. واختصاراً فى هذه المدينة المتواضعة، ومن فوق أرضها شال الشَّولة الأولى إلى فردوس الخالدين

جاء بستور إلى مدينة « استراسبورج » فحاورته الحقائق فيها واختلطت عليه، ثم جاء إلى مدينة « ليل » فجاءه المجد يسعى، وذلك باسدائه المعونة إلى ... خمّار!

جاء إلى « ليل » فقال له الرجال ذوو المال، وأرباب النفوذ من ذوى الأعمال: « إن العلم جميل فى أرستقراطيته، ولكن الذى نريده، والذى تريده هذه المدينة الناهضة، هو التعاون بين علمك وصناعتنا. نريد أن نعلم هل يزيد العلم فى مكاسبنا. زدْ يا هذا فى الحقل مقدار السكر فى بَنْجرنا، وزد فى المصنع مقدار الكحول المتقطّر من سكرنا، نُدِرّ عليك الخيرات، ونتولّ معاملك بالرعايات »

سمع بستور ما سمع فى أدب واحتشام، ثم أخذ يريهم كيف يستجيب العلم إذا دعاه الداعى. فانه لم يكن رجل علم فحسب، بل كان رجلاً خبيراً بأمور دنياه وسنن العيش فيها. تصوّرْ جماعةً من أرباب الأعمال يأتون « نيوتن Newton »، فيسألونه ماذا تستفيد مصانعهم من قوانين حركته، إذن لرفع يديه إلى السماء واستعاذ منهم بالله، ولذهب من بعد ذلك إلى انجيله يقرأ كتاب دنيال ويدرس ما فيه من نبوءات. ولو أنهم جاءوا فرادى Faraday إذن لآثر صناعتَه الأولى، وعاد إلى تجليد الكتب وحزم الأوراق. ولكن بستور كان من أبناء القرن التاسع عشر، يعرف حق المعرفة أن العلم لابد أن يكسب خبزَ يومه إذا هو أراد الحياة. لذلك بدأ يحاضر أهل البلد فيه، ويدبّر لهم المحاضرات الشيقة ليخطب ودهم ويكسب عطفهم

وفى ذات مساء كان يخطب فى جمع من أرباب المصانع وأزواجهم،

وقد ورد فى هذا الجزء معلومات كثيرة عن الأخلاق والعادات عند الصابئة وعبدة الأصنام من الآراميين من أهل حران بجزيرة العراق كما ذكر بعض كتبهم

وكذلك ورد الذكر لكتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية ولم يتنبه العلماء المستشرقون إلى هذا الكتاب إلا بعد أن قرأوا ما كتبه عنه موسى بن ميمون

وفى الفصول الأربعة الأخيرة يبحث المؤلف فى العناية بالعبادات والواجبات الدينية التى هى الغاية المثلى لحياة الانسان حتى يدرك الحقائق الآلهية، وحتى يتقرب إلى الحق والعدل والحكمة وهى ألفاظ يعرفها موسى تعريفاً منطقياً فلسفياً، وهذه الفصول من أدق ما وضع فى مصنفه دلالة الحائرين وأكملها

اسرائيل ولفنسون
أستاذ اللغات السامية بدار العلوم

فصاح فيهم : « مَن مِن أبنائكم لا ينهض للعلم توّاً ، مَن مِن أولادكم لا يتحرق للعلم تحرقاً ، إذا أنا وضعت في يده بطاطسة ، وقلت له : إنك تستطيع أن تخرج من هذه البطاطسة سكّراً ، وتستطيع أن تخرج من هذا السكر كحولاً ، وتستطيع أن تخرج من هذا الكحول خلّا وأثيراً ؟ » . ومضت على هذا أيام ، فجاءه أحد الذين حضروا خطابه ، وكان رجلاً يدعى « بيجو » ، وكانت صناعته تقطير الكحول من سكر البنجر المختمر ؛ جاء يتوسّل للأستاذ : « سيدى ، أنا فى حَرَج من صناعتى ، فاختمار البنجر لا يتم على وجهه ، وخسارتى تبلغ ألوف الفرنكات فى اليوم ، فبودّى لو جئت مصنعى ، ونظرت فى معونتى ، فأنقذتنى من خيبتى »

وكان ابن « بيجو » طالباً فى قسم العلوم بالكلية ، فأسرع « بستور » إلى معونة أبيه . فذهب إلى مصنع التقطير ، وأخذ يتشمّم فى الأحواض المريضة ، تلك الأحواض التى تأبى أن تخرج من البنجر كحولا ؛ وانكبّ عليها ، واغترف منها ، فكان شيئاً مختلطاً أدكن هلاميّا ، فوضعه فى قارورات وحمله الى معمله . ولم يفته أن يغترف كذلك من لُبابة البنجر من الأحواض الصحيحة السليمة المختمرة الراغية بما تنتج من كحول كثير .

ولم يكن « بستور » يدرى كيف السبيل لمعونة « بيجو » ، لأنه لم يكن يدرى كيف يختمر السكر فيستحيل كحولا ، ولم يكن فى الدنيا كلها كيمياوى يعرف عن ذلك شيئاً . عاد إلى معمله ، وأخذ يحك رأسه وهو يفكر ، ثم استقر رأيه على أن يمتحن ما اغترفه من الأحواض السليمة أولاً ، فوضع قطرة منه تحت مجهره ، ولعله كان يحسب أنه سيرى بلورات كتلك التى طال تحديقه اليها زماناً مضى ، ولكنه وجد هذه القطرة مليئة بكُرَيّات أصغر كثيراً من أية بلورة رآها . وكانت هذه الكريات صفراء ، وازدحم جوفها بجسيمات كثيرة ترقص كأنما عن طرب ، وتمتم لنفسه : « ليت شعرى ما هذه الكُرَيّات ! »

وأسعفته الذاكرة فصاح ثانية لنفسه : « يا للنسيان ! بالطبع هى الخمائر التى تجدها دائماً فى كل محلول به سكر يختمر ليصير كحولاً »

وأعاد النظر فأبصر هذه الكريات فُرادى ، وأبصر طائفة أخرى منها متعنقدة ، وأبصر أخرى متقاطرة . ثم حدّق ندَهِش لرؤية بعضها قد تنبّتت جوانبُه كما تَتَنبّت البذور الصغيرة ، فقال : « لقد صدق كنيارد ، فهذه الخمائر حية . ولا بد أنها هى التى تصيّر السكر كحولا . ولكن ما فائدة

بيجو من هذا ! ؟ وما الذى أصاب الأحواض المريضة فتمطالت ؟ » واختطف القارورة التى بها ما كان اغترفه من حوض مريض ، وحدّق فيه بمنظار مكبّر ، وشمّه ، وذاقه ، وغمس فيه ورقة زرقاء فاحمرت [1] ... ثم وضع قطرة منه تحت مكرسكوبه ونظر فيها

« عجباً ! أين ذهبت الخمائر ، فليس فى هذه القطرة منها شئ ؟ ما هذا ؟ ما معناه ؟ »

وتناول القارورة مرة أخرى ، وأخذ ينظر ويفكر ، ولا ترى عينه فيها جديداً . وبينا هو يَرْكَب فى التعليل الخيال ، ويَسُوم ذهنَه طلبَ المحال ، إذا بالسائل فى القارورة يتراءى له فى صورة جديدة تبعث فيه أملاً جديداً . « ماذا أرى ؟ بقعاً صغيرة دكناء لاصقة بجدار القارورة . وهذه بقع أخرى مثلها تطفو على سطح سائلها المريض — إذن صبراً ! ... لا . إنها لا توجد فى القارورة ذات السائل الصحيح حيث الخمائر والكحول » .

ثم غاص فى القارورة المريضة ، وبشىء من العناء استطاع أن يخرج شيئاً من تلك البقع فوضعها فى ماء نقى ، ثم علاه بمجهره

هذا يومُ « بستور » جاء أخيراً !

لم يجد فى هذا السائل كُرَيّات الخمائر . لا ، ولكنه وجد شيئاً جديداً ، شيئاً لم يره من قبل ، أحياء صغيرة كثيرة شديدة الزحام ، شكلها كالعصىّ ، بعضها قائم وحده ، وبعضها متقاطر كالإبل ، وكلها يرقص فى ارتعاد غريب لا هَدْأة له . كانت الخمائر فى عينه صغيرة فجاءت هذه تصاغرها فتَصْغُرُها كثيراً ، فلم يَعْدُ طولها جزءاً من ألف من المليمتر

وفى هذه الليلة أرِق «بستور» طويلا ، وتقلّب فى مضجعه طويلاً . وفى الصباح كنت تراه يُجرجر ساقيه الغليظتين القصيرتين إلى مصنع « بيجو » ، وبنظارته المنحرفة على بصره القصير ، مال على حافة حوض مريض لم يكن أتاه من قبل ، وجرف من قاعه بعض الذى فيه . ثم مال على أحواض مريضة غيره . ونسى « بيجو » ، ونسى أنه إنما بدأ هذا العمل لمعونة « بيجو » . اختفى « بيجو » من فكره ، واختفى كل شىء فى الوجود إلا نفسه الشمّامة البحاثة ، وإلا تلك العصىّ الراقصة الغريبة التى وجد الآلاف المؤلّفة منها فى تلك البقع الكدماء الصغيرة ...

(١) هى ورقة عباد الشمس واحرارها دليل وجود حامض بالسائل
المترجم

ولما جاء الليل أخذت زوجه تنتظره لينام ، فلما يئست ذهبت إلى الفراش وحدها ، وتركته يَنْصب الجهاز تلو الجهاز حتى ازدحم معمله بها . ووجد أن جميع السوائل بالأحواض المريضة تحتوى حامضاً عرف أنه حامض اللبن[1] ، وأنه ليس بها كحول . ولم يلبث أن خطر له خاطر غَمَر فكرَه كله ، وملأ رأسه أجمع : « إن هذه العصى بالسوائل المريضة حيّة ، وهى هى التى تصنع حامض اللبن ؛ وهى ربما تشتجر مع الخمائر فى قتال شديد فتقضى عليها فلا تنتج كحولاً . إن هذه العصى تصنع حامض اللبن كما تصنع هذه الخمائر الكحول » . وهرول إلى السلم ، فصعد إلى مدام « بستور » يخبرها بالذى وجد — مدام « بستور » التى لم تعرف من التخمّر والخمائر شيئاً ، مدام « بستور » التى لم تفهم من علمه إلا قليلاً ، إلا أنها فهمت نفسه المتحمسة وروحه الوثابة ، فأعانته بعطفها وحبها كثيراً

بالطبع لم يكن الذى ارتآه إلا ظنّاً ، ولكن قام فى نفسه شىء يوسوس له أن هذا الظن حق لا مِرية فيه . لقد تظنّن « بستور » مئات المرات فيما وقع عليه بصره القصير من مئات الظواهر فى الطبيعة التى حوله . وكانت ظنوناً خاطئة . ولكنه إذ وقع هذه المرة على ظن صادق ، إذ خال أنه أصاب تفسيراً لظاهرة التخمر التى أشكلت على القرون من قبله ، أخذ يمتحن هذا الظن ، ويفحص هذا الخال ، ويقلّبه ، ويداوره ، ويَتَقرّى الحقيقة فيه حتى وصل الى كنهها

وبينا ازدحمت فى رأسه الخطط الكثيرة لتقرّى كنه هذه الحقيقة ، لم يفته أن يُعين أرباب العمل على مصاعبهم ، ولا أهل الحكم إذا دعوه الى نصيحة ، ولا المزارعين إذا جاءوه ، ولا الطلبة إذ طلبوه . وحوّل جزءاً من معمله لاختبار الأسمدة الكثيرة التى كانت تأتيه . وهرع إلى باريس يدبّر لانتخابه عضواً فى أكادعية العلوم فما أفلح . ورحل بتلاميذه إلى معامل الجعة فى « ڤالنسين » Valenciennes وإلى مسابك الحـــديد فى بلجيكا . وفيما هو فى هذا ، تراءى له يوماً أنه اهتدى إلى الطريقة السوّية التى يثبت بها أن هذه العصىّ القصيرة الصغيرة تحيا حياة الخلائق ، وأنها على صغرها ، وعلى قصرها ، وعلى حقارتها ، تفعل فعل العمالقة — تفعل ما لا يستطيعه العمالقة : تحيل السكر إلى حامض اللبن

حدّث « بستور » نفسه قال : « لا يمكننى أن أدرس هذه العصىّ فى عصير البنجر العكِر وفيه ما فيه من أخلاط عدّة . لابد لى من عصير رائق أتتبّع فيه ما تصنع هذه العصى . لابد لى من ابتداع مرق صافٍ به غذاء طيب خاص لها ، أضعها فيه ، ثم أرقبها لأرى هل تتكاثر ، هل تتوالد ، هل أجد فى هذا المرق بعد حين مكان العصا الواحدة عصيّاً راقصة كثيرة ؟ »

ووضع شيئاً من تلك البقع الكدماء التى كانت بالحياض المريضة فى محلول من سكر نقى ، فوجد أن العصىّ لا تتكاثر فيها ، فقال : « إنها تريد غذاء أمرأ من هذا » . فجرّب يطلب الغذاء المرىء فخاب . ثم جرّب وخاب . وأخيراً صنع لها مرقاً غريباً بأن أخذ شيئاً من خميرة جافة ، فأغلاه بالماء ثم صفاه ، وأخذ مرقه الرائق فأضاف له شيئاً من كربونات الكلسيوم ليضيّع ما قد يحدث فيه من حموضة . وأتى بإبرة فغمسها بالبقع الدكناء بالحياض المريضة ، وحمل ما علق بطرفها الرفيع من العصىّ الصغيرة إلى مرقه ودافها فيه . ثم وضعه فى قارورة وضعها فى فرن دافىء للتفريخ ذى درجة حرارة ثابتة ، وأخذ ينتظر فى قلق واضطراب . إن لعنة هذا البحث ، بحثِ المكروب ، يجدها الباحث دائماً فى هـذه الخيبات المتوالية الكثيرة التى تعوّق النجاح طويلاً

وذهب فأمضى رُجَمات ، وألقى محاضرات ، وعاد إلى قارورته ينظر اليها وهى فى مَدْفئها . ومضى مرة أخرى فألقى فلاحين جاءوا يستنصحونه فى محاصيلهم وأسمدتهم فنصحهم بالذى ارتآه . وجاءت أوقات الطعام فابتلع منـه ابتلاعاً ولم يَعِ مما أكل شيئاً . وعاد فنظر إلى قارورته واصطبر . وذهب إلى سريره جاهلاً بالذىّ يجرى فى تلك القارورة ، وليس من اليسير النومُ فى مثل هذه الجهالة . . .

وجاء الصباح ولم يظهر على مرق القارورة تغيّر . وجاء الظهر ، ومضى أكثر النهار ، فأحس رجليه تثقلان من الخيبة مرة أخرى . وجاء المساء وتمتم لنفسه : « يظهران كل تلك المحاليل الرائقة لن تأذن لهذه العصىّ اللعينة بالتزايد فيها . ومع هذا فلأنظرْ مرة أخرى . . . ! »

وكان فى معمله مصباح واحـد من الغاز بضيئه ، وقع بين الأجهزة الكثيرة فألقى على الحوائط خيالات كبيرة مروّعة . فالى هذا المصباح رفع بستور قارورته ، ثم همس يقول : « لاشك أن شيئاً قد تغيّر فى هذا المحلول ، فانى أرى فُقّاعات صغيرة من غاز

(١) هو نفس الحامض الذى باللبن المختمر المسمى بالزبادى

تصعد متقاطرة متحاذية من تلك الجسيمات الدكناء التي لقّحتُ المحلول بها . وقد زاد مقدار هذه الجسيمات عما كان بالأمس ، وكلها تُخرج هذه الفقاعات » . وعندئذ أغمض بستور عينيه ، وأصمّ أذنيه ، وعقد لسانه عن الدنيا ومن فيها . وبقى فى غيبوبة عند مِحضَنه (١) الصغير . ومضت ساعات تتلو ساعات ولعله لم يحس بها . ورفع قارورته برفق وحنان ، وحرّكها فى الضوء بلطف وتئيد ، فصعد من قاعها شيء كالغمام الافتم دار صاعداً كاللولَب ، وخرج منه غاز كثير . والآن فالى المجهر . . .

قطر قطرةً من السائل تحت مكرسكوبه . يا لشياطين الأرض وملائكة السماء ! إنها مليئة تعج بالملايين من تلك العصيّ الراقصة . وهمس لنفسه فى لهفة : « إنها تتكاثر ! إنها حيّة ! » . ثم صاح يجيب زوجه : « نعم ، نعم ، سأصعد بعد قليل » . وكانت تدعوه من عَلٍ إلى لقمة ، وكانت تدعوه إلى نومة . ومضت ساعات وهو باقٍ تحت فى معمله

وفى الأيام التى تلت أعاد بستور التجربة ، فوضع قطرة تزخر بتلك العصيّ فى قارورة جديدة بها مرق من مرق الخمير رائقٍ جديد ليس به عصا واحدة ، وفى كل مرة امتلأ المرق بالملايين من تلك العصيّ ، وفى كل مرة تكون حامض اللبن فيه . ثم صرخ « بستور » بأعلى صوته يخبر الدنيا ، فلم يكن بالرجل الصبور . وأخبر المسيو « بيجو » أن الذى أمرض أحواضه هى هذه العصيّ الحيّة : « يامسيو بيجو ، حُلْ بين هذه العصيّ وبين حياض بنجرك ، تحصلْ فيها دائماً على الكحول الكثير » وأخبر طلبته بكشفه الكبير ، بأن هذه الخلائق البالغة الصغر تستطيع تخريج حامض اللبن من السكر ، وقال لهم إن هذا الشيء لم يستطعه رجل ولن يستطيعه . وكتب بالخبر إلى أستاذه القديم « دوماس » ، وإلى جميع أصدقائه . وحاضر فيه للجمعية العلمية بمدينة « ليل » ، وكتب مقالاً فيه وبعثه إلى أكاديمية العلوم بباريس

كريات الخمائر الحية
مكبرة ٦٠٠ مرة

ليس فى الامكان اليوم أن نؤكد أن « بيجو » استطاع أن يمنع دخول هذه العصيّ إلى سكره المختمر ، فهذا ليس بالأمر اليسير . ولكن

(١) فرن التفريغ

« بستور » لم يحفل بذلك ، فكل الذى احتفل له كشفه الحقيقة الآتية : « أن التخمر مرجعه الحق إلى أحياء تدق عن النظر »

وبكل سذاجة أخبر كل من لقى أن كشفه هذا كشف عجيب . كان فيه شيء من بساطة الطفولة فلم يحس بالحاجة فى هذا إلى التواضع والتخاشع . ومن هذا الوقت ملأت تلك الخمائر الصغيرة دنياه .

العصى البكتيرية التى تحول السكر الى حامض اللبن ، ويوجد منها الملايين فى اللبن الزبادى المعروف

أكل وشرب ونام واحتلم وأحب . وأتى كل هذا ولم يستغرق فى شيء منه . وأتى كل هذا وخمائره إلى جانبه لا تفارقه . إنها كانت روحه التى ينبض بها

وكان يشتغل وحده ، لا معين له إلا نفسه ، فلم يكن له حتى خادم واحد يغسل له قواريره . وكأنى بك تتساءل فكيف إذن وجد من يومه الفراغ لاحتواء هذه الأحداث الكثيرة المتزاحمة ؟ والجواب أن هذا رجع بعضه إلى نشاطه الجمّ ، ورجعت بقيته إلى مدام « بستور » . قال « رو » Roux[1]: « إن مدام بستور أحبته حباً كادت به تفقه أبحاثه » . كانت الزوجة الطيبة تخلص من خدمة أطفالها ووضعهم فى الفراش ، وعندئذ قد تسهر وحيدة تنتظر انتهاءه من عمله لتسوقه إلى النوم ، أو كانت تجلس بجانب زوجها فى اعتدال على كرسى ليس بالمريح إلى نضد صغير تكتب ما يملى من مقالات علمية طويلة ، أوكانت تتركه يكب على قواريره ويفكر فى أنابيبه وتظل فى حجرتها تبيّض ما كتب من ملاحظات كنبش الدجاج فى خط واضح جميل . كان « بستور » روحها ، وكان روح « بستور » عمله ، فأخذت هى تذوب فى روح بستور ـ فى عمله ـ حتى امّحت فيه

يتبع

احمد زكى

تصحيح — جاء فى المقال السابق صفحة ٦٢٨ : « والدردى رواسب الخمر التى توجد فى الدنان ، وهى مقيئة » والصواب « ... وهى مقيئة اذا اتحدت بأكسيد الأنتيمون »

ا . ز

(١) هو Pierre Roux تلميذ بستور ومساعده فى حياته ، وخلفه فى معهده بعد مماته ، ولد عام ١٨٥٣ ومات حديثاً وسنترجم له ضمن بحاث المكروب

شاعرنا العالمى

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

تمهيد :

الشعراء العالميون فى شعراء العربية قليلون ، وإنهم ليبلغون من القلة بحيث إنك لا تكاد تبلغ بهم عدد أصابع اليد الواحدة، وهذا بينما ترانا الآن نعرف من أسماء شعراء أوربا فى هذا العصر أكثر مما نعرف من شعرائنا الأقدمين ، وندرس من شعرهم وأدبهم أكثر مما ندرس من الشعر والأدب العربيين ، حتى أصبح الشعر والأدب الأوربيان فتنة شباننا الناشئين ، يكلفون بهما أكثر مما يكلفون بشعرنا وأدبنا ، ويصرفون جل أوقاتهم فى دراستهما ، وتعرف طرائقهما حتى ظهر أثر هذا فى شعرهم ، وصرنا نرى بهذا فى الشعر العربى أساليب كثيرة ما كان يعرفها من قبل ، ومعانى جديدة تغزوه كما يغزونا أصحابها برجالهم وأسلحتهم ، وأموالهم ومصنوعاتهم

وربما يكون أبو العتاهية أول شاعر عربى بلغ هذه المنزلة الشعرية العالية ، وكان له شعر عالمى تتسابق الأمم المختلفة اللغات إلى روايته ودرسه ، وترجمته إلى لغاتها وإذاعته فى بلادها . قال أبو الفرج : أخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمد الأسدى إجازة قال : حدثنى الرياشى قال : قدم رسول لملك الروم الى الرشيد ، فسأل عن أبى العتاهية وأنشده شيئاً من شعره ، وكان يحسن العربية ، فمضى إلى ملك الروم وذكره له ، فكتب ملك الروم إليه ، ورد رسوله يسأل الرشيد أن يوجه بأبى العتاهية ، ويأخذ فيه رهائن من أراد ، وألح فى ذلك ، فكلم الرشيد أبا العتاهية فى ذلك ، فاستعفى منه وأباه ، واتصل بالرشيد أن ملك الروم أمر أن يكتب بيتان من شعر أبى العتاهية على أبواب مجالسه وباب مدينته وهما :

ما اختلف الليل والنهار ولا ... دارت نجومُ السماء فى الفَلك
إلا لنقل السلطان عن مَلِك ... قد انقضى مُلكه إلى مَلِك

وهما فى الحق بيتان جديران بأن ينالا مثل هذه العناية من ملك الروم ، فما أحسنهما عظة بالغة ، وما أصدقهما حكمة نافعة ، وما أجمل أسلوبهما فى سهولته وامتناعه ، ولكن علماءنا جازاهم الله لا يقدرون من هذا ما قدره ملك الروم لأبى العتاهية ، وقد ينظرون إلى هذين البيتين إذا قرأوهما إلى صناعتهما اللفظية ، ولا يعنيهم منهما هذا المعنى الجليل الذى عنى به ملك الروم ، وربما يعيبونهما بما يسمونه التضمين الذى عابا به بيتى النابغة الذبيانى :

وهُمْ وردوا الجِفارَ على تَميم ... وهم أصحاب يوم عُكاظَ إنى
شهدتُ لهم مَوَاطِنَ صادقات ... شَهِدْنَ لهم بحسن الظن منى

والتضمين عندهم هو تعليق قافية بيت بما بعده بحيث لا يتم الكلام إلا به ، وهذا بأن يكون جواب شرط أو خبراً أو نحوهما لا نعتاً أو نحوه من التوابع والفضلات ، فلا يرضيهم إلا أن يكون لكل بيت من القصيدة وحدة مستقلة عن البيت الذى قبله ، والبيت الذى بعده ، ولا يكفيهم أن تكون القصيدة كلها وحدة يصح أن تتصل أبياتها بمثل هذا التضمين الذى يعدونه من عيوب القافية ، ويصح ألا تتصل به إذا اتصلت بأمر آخر غيره ، وربما يكون اتصال أبياتها بمثل هذا خيراً من تقاطعها وتباعدها ، والاكتفاء فى الربط بينها إذا عنى به بمثل قولهم (دع ذا أو عد عن ذا)

وقال أبو الفرج : أخبرنى عيسى بن الحسين الوراق ، وعمى الحسن بن محمد وحبيب نصر المهلبى ، قالوا : حدثنا عمر بن شبة ، قال : مرّ عابد براهب فى صومعة فقال له : عظنى ، فقال : أعظك وعليكم نزل القرآن ، ونبيكم محمد صلى الله عليه وسلم قريب العهد بكم ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله ؟ قلت : نعم ، قال : فانتفظ ببيت من شعر شاعركم أبى العتاهية حين يقول :

تجرد من الدنيا فانك إنما ... وقعت إلى الدنيا وأنت مجرد

وكلا هذا وذاك يثبت لنا من أبى العتاهية شاعراً عالمياً نباهى به من يباهينا بشعرائه العالميين فى القديم والحديث ، على قلة هذا الصنف من الشعراء عندنا ، وندرة الشعر العالمى فى شعرنا ، ويهمنا الآن أن ندرس العوامل التى كان لها أثرها فى هذا الأمر إلى ظهور شاعرنا أبى العتاهية ، لنعرف كيف ظهر فى الشعر العربى بهذا المظهر ، ونعرف حال العصر الذى نشأ فيه ، وكيف كان أثره فى شعره

يجرى مؤرخو الآداب العربيــة على أن الصناعة البديعية لم تظهر فى الشعر العربى ، ولم يكلف بها شعراء العرب إلا فى العصر العباسى ، بعد ظهور أبى تمام وأضرابه من الشعراء الذين حذوا فى ذلك حذوه ، واستنوا فيه سنته ، ثم زادوا عليه فيــه حتى جعلوا من الشعر صناعة لفظية ، لاتنطوى على معنى جليل ، أو غرض نبيل . وإنما هى ألفاظ جوفاء لاطائل تحتها ، ولا تهم الناس فى أمر دينهم أو دنياهم

أما أنا فأرى فى هذا ما يخالف رأيهم فيه كل المخالفة ، أرى أن الصناعة البديعية كانت موجودة فى الشعر قبل الاسـلام ، وأرى أن الشعراء قبله كانوا يقصدون إليها فى شعرهم ، ويتكلفونها فيه كما تكلفها فيه أبو تمام ومن أتى بعده ، وإن أربوا فى ذلك عليهم ، وقصدوا اليه أكثر منهم ، وأرى أن أبا تمام لم يفعل إلا أن جدد هذه السنة ، ونهج فى شعره على منوالها ، بعد أن كاد الشعراء العباسيون قبله يسلكون بالشعر مسلكا جديداً يخالف هذا المسلك ، ويتلاءم مع العصر الذى ظهروا فيــــه كل الملاءمة

وكان امرؤ القيس أول من عنى بالصناعة البديعية فى الشعر العربى ، فتكلف منها مالم يتكلفه أحد قبله ، وتزاحمت فى شعره الكنايات والمجازات والتشبيهات والاستعارات وما إليها ، فكل هذا من الصناعة البديعية ، واسم البديع يشمل عند القدماء التشبيه مثلاً ، كما يشمل المقابلة والجناس ونحوهما

وقد ضاع أكثر شعر القدماء قبـل امرىء القيس ، فلا نعرف مقدار ما كان فيه من تلك الصناعة ؛ والذى نرجحه أنه كان لايخلو منها ، ولـكن الذى كان يغلب عليه العنــاية بالمعانى الأصلية ، فكانت تظهر فيه على فطرتها فى غير تصنع ولا تكلف ولا اجتهاد فى تحسين ، يأتيها بتصرف الخيــال فيها بتشبيه أو كناية أو نحوهما

وغاية ما ذكره علماء الأدب فى ذلك أن القدماء قبل امرىء القيس كانوا يقولون فى المرأة الحسناء : « أسيلة الخد ، تامة القامة أو طويلتها ، جيداء أو طويلة العنق ، » فقال امرؤ القيس فى هذا : أسيلة مجرى الدمع ، بعيدة مهوى القرط ، وكانوا يقولون فى الفرس : يلحق الغزال ، ويسبق الظليم . فقال امرؤ القيس فيه : (بمُنْجَرِد قيْد الأوَابِد هَيكل) ، ولا يكادون يجاوزون هذا فى بيان الفرق بين حال الشعر العربى قبل امرىء القيس وحاله بعده

وقد شغف الشعراء بعد امرىء القيس بصناعة البديع فى شعرهم ، وكانت حياتهم البدوية تضيق بهم ، وتضيق بعقولهم وأفكارهم ، فوقفوا بالشعر العربى عند معان محدودة ، متأثرة فى ضيقها وعدم اتساعها ، وقلة أثر العقل المثقف فيها بضيق تلك الحياة ، وقلة أثر الثقافة فيها ، وأخذوا يدورون حول تلك المعانى كما تدور الرحى حول محورها ، لايتصرفون فيها إلا بتشبيه أو استعارة ، أو مجاز أو كناية ، أو نحو هذا من تلك الصناعة التى تنافسوا فيها ، حتى وصلوا بها فى سجع كهانهم الى آخر حدودها ، فكان لهم فيه سجع متكلف مرذول ، لايقل قبحاً فى تكلفه عن السجع الذى تكلف بعد الاسلام فى آخر العصر العباسى ، إلى أن ظهرت هذه النهضة الحاضرة

ثم جاء المتأخرون من شعراء هذا العصر ، فزادوا الطين بلة ، واتخذوا الشعر تجارة ، وتكسبوا به فى المدح والهجاء ، وداروا به فى تلك المعانى لايكادون يتجاوزونها ، أو يحسنون شيئاً سواها ، فساء أثر هذا الشعر فى الأمة العربيــة ، وصار شعراؤه معاول هدم فى بنائها ، وقد جمدوا على ما ألفوه من هذا جمودَ أمتهم على أوثانها وأصنامها

وفى وسط هذا الجمود الأدبى ، وذلك الضيقُ الفكرى ، ظهر الاسلام يدعو العرب إلى دين يأخذ بهم من عزلتهم ، فى هذا الضيق وذلك الجمود ، إلى معترك الحيــاة الذى تتلاقى فيــه الشعوب ، وتجتمع متنافسة فى وسائل الرقى والنهوض ، فحاربه أولئك الشعراء وحاربهم ، لأنهم رأوا فيه خطراً على ما جمدوا عليه فى صناعتهم ، ورآهم هو من الجمود وضيق الفكر بحيث لايصلحون ولايتفق شعرهم مع دعوة هذا الدين الجديد ، ورأى أنه لايتفق معه إلا أدب مثقف يعنى فيه بالمعانى الأصلية السامية ، أكثر مما يعنى بتلك الصناعة التى تضيع فيها تلك المعانى ، ويتلاعب فيها بما يسمونه المعانى الثانوية التى لايصح أن تؤثر فى حال من الأحوال على المعانى الأصلية ، ولاشك أنه كلما أوغل الشعر والأدب فى إيثار تلك الصناعة بعـدا عن هذه الغاية

السامية التي يراد لهما فيها أن يتفقا مع هذا الدين ، فيكونا للبشر كافة ، لا للعرب خاصة ، ولا تقف تلك الصناعة حائلاً دون فهم الناس لهما ، أو العناية فيهما بما يعنيهم منهما!

فاذا أردت أن تعرف نظر الاسلام إلى ما كان عليه الشعر والأدب العربي من هذا كله إبان ظهوره ، فانظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد قال له بعضهم يتشادق في كلامه تشادقهم : « يارسول الله ، أرأيت من لاشرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل ، أليس مثل ذلك بطل ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم منكراً لهذا منه : أسجعٌ كسجع الجاهلية ؟ » وانظر إليه صلى الله عليه وسلم يفتخر بنشأته على بغض هذا الشعر فيقول : (لما نشأت بُغضتْ الى الأوثانُ وبغض إلى الشعر ولم أهمّ بشيء مما كانت الجاهلية تفعله . الحديث) . وانظر إلى قوله تعالى : (وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) ، وقوله أيضاً فى سورة الشعراء : (والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظُلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون)

وقد انقضى عهد النبوة وعهد الخلافة فى محاولة إصلاح الأدب العربى ، والوصول بالشعر الى تلك الغاية النبيلة . ثم جاء بعد هذين العهدين عهد بنى مروان ، وهم من بنى أمية الذين كانت تغلب عليهم النُّعَرَةُ العربية ، لما كان لهم قبل الاسلام من الزّعامة فى قريش ، وهذه النعرة هى التى وقفت بهم على رأس المناوئين للدعوة العامة التى أتى بها الاسلام ، حتى أنهم لم يسلموا إلا بعد فتح مكة والسيف مُصْلَت على رؤوسهم ، وهى التى تأثروا بها فى سياستهم حينما آل أمر المسلمين إليهم ، فرجعوا بالشعر الى نُعَرته العربية ، وحولوه عن وجهته الانسانية التى أخذ يسير فيها على عهد النبى وخلفائه الراشدين

فوقف لهم بنو عمهم من بنى هاشم ، قوم النبى وعشيرته الأقربين ، وهم الذين كانوا أول من بادر الى الايمان بدعوته ، وفهموا حقيقة ما يدعو إليه ، وعرفوا أن هذا الدين للبشر عامة ، لا للعرب خاصة ، وأنه لا يصح أن يكون فيه فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير)

وعلى هذا قامت الدعوة العباسية الهاشمية ، فنشأت دولة إسلامية محضة ، وكانت للعرب كما كانت للفرس وللقبط وللبربر وللترك ولغيرهم من الشعوب التى دانت للاسلام ، وقليل من الناس من يفهم كما نفهم كيف قامت هذه الدعوة ، وأنها كانت ثورة دينية سياسية أدبية ، قام بها العباسيون ومن ناصرهم من الفرس وغيرهم ، وأن غايتها كانت إقامة دولة للمسلمين لا للعرب خاصة ، وانتهاج خطة جديدة تأخذ فيها بيد كل الشعوب التى دانت للاسلام ، لتشترك فى بناء الوحدة الاسلامية ، وقد كان لهذا أثره العظيم فى الدين والعلم والأدب والشعر ، إذ أخذ العلماء من كل الشعوب يشتركون فى بناء هذه الوحدة ، وأخذ الأدباء والشعراء يقضون فى الأدب والشعر على تلك النُّعَرَة العربية ، ويعملون على تسهيل الشعر للناس ، وتقريبه لتلك الشعوب الأعجمية التى رفعت رؤوسها فى تلك الدولة ، وكان أكثر أولئك الشعراء من أصل غير عربى ، فانتهزوا فرصة قيام دولة العباسيين وإنصافها لهم ، وقاموا بثورتهم الأدبية فى عنف وشدة ، حتى صاروا فى الشعر أعلام هذه المدة من العصر العباسى ، وضعف شأن الشعراء الذين كانوا من أصل عربى ، إذ جمدوا فى شعرهم على نعرتهم العربية ، وعنايتهم بتفخيم لفظ الشعر وتجويد صناعته أكثر من عنايتهم بتثقيفه وتهذيبه ، والتفنن فى معانيه وأغراضه ، وقد عاد شأن هؤلاء الشعراء إلى الظهور حينما ظهر أبو تمام والبحترى وأضرابهما من الشعراء الذين تأثروا بأصلهم العربى ، وأخذوا يعودون بالشعر إلى سننه القديمة

ولعل هذا الاسم (عصر الثورة العباسية) هو الاسم الذى يجدر أن تسمى به تلك المدة من ذلك العصر ، فهو خير مما يسمونها به (صدر الدولة العباسية) وكثير منهم لا يراعى ما يمتاز الأدب به فى هذه المدة عما بعدها من هذا العصر ، فيجمل العصر العباسى كله عصراً واحداً ، ويجرى فى هذا على ما كانوا يعتادونه من تقسيم عصور الأدب العربى إلى أقسام سياسية محضة ، تتبع قيام الدول العربية وسقوطها ، ولا تتأثر بغيرهما فى بدئها ونهايتها ، وقد كان أعلام الشعر فى هذه المدة هؤلاء الشعراء الثلاثة — بشار — أبو نواس — أبو العتاهية — فلنوازن بينهم فيها ؟

عبد المتعال الصعيدى

تحيةُ مولود

للأستاذ محمود غنيم

سرّكَ اليومَ قولُهم أمْ ساءكْ ... حينَ قالوا : هذا غلامٌ جاءكْ ؟
جانبُ اللهو من شبابكَ ولّى ... فدَعِ اللهوَ ينتظرْ أبناءكْ
وتحمّلْ عبءَ الأبوّة يا ويـ ... ـحكَ لم يحملِ امرؤٌ أعباءكْ
أيها الطارقُ الجديدُ سلاماً ... أسألُ الصفحَ إن أسأتُ لقاءكْ
عَلِمَ الله ما كرهتُكَ ضيفاً ... لا ولكنني كرهت شقاءكْ
بتُّ أخشى عليكَ جورَ الليالى ... فالليالى ما أنصفتْ آباءكْ
غيرَ أنى أمسيتُ رغم شعورى ... أتمنى على الزمان بقاءكْ
وأرانى إذا أصابكَ سوءٌ ... أبذلُ النفسَ والنفيسَ فداءكْ
ساءنى يا بنىّ أنْ كنتَ نجلاً ... لى فكانت أبوّتى لك داءكْ
أىَّ ذنبٍ جنيتَ فى المهد حتى ... يُصبحَ الهمُّ فى الحياة جزاءكْ
ليت شعرى أقانعٌ أنت أم لا ... تستطيعُ الكلامَ تُبدى استياءك
أفتدرى كم بتُّ أرفو كسائى ... وأوشّى بكل زاهٍ كساءكْ
وإذا ضنَّ ثدىُ أمّك يوماً ... بالحيا جعتُ والتمستُ غذاءك
ولقد أسمعُ الرعودَ تدوّى ... فى ثباتٍ ولا أطيقُ بكاءك
كم حملتَ البكاءَ سيفاً صقيلاً ... إنْ تلوّحْ به يُنِلْك رجاءك
دمعةُ الطفل من دموع الغوانى ... صاحِ صُنْ من كليهما أحشاءكْ
أنت فى مهدك الصغيرِ أميرٌ ... فوق عرشٍ يرجو الجميعُ رضاءكْ
فتحكّمْ ترَ الذكورَ عبيـداً ... لك فى البيت والإناثَ إماءكْ
هو عرشٌ أساسُه الحبُّ لا بطـ ... ـشَك نخشى ولا نروم عطاءكْ
أتُراها جنـايةً أم تُراها ... مِنّةً تستحقُّ منكَ ثناءكْ
ليتنى عشتُ مثلما عشتَ غِرّاً ... تُغمض المقلتين عما وراءكْ
إننى يا بنى أسكنُ أرضاً ... دائماً همُّها فصفْ لى سماءكْ
قد توارت طفولتى فى ظلام الـ ... ـغيبِ فانشُرْ على دجاها ضياءكْ
لكأنى نشأتُ خلقاً جديداً ... يوم ناديتَ فاستمعتُ نداءكْ
يا دقيقَ البنانِ واليدِ جلّت ... يدُ مثّالٍ صوّرتْ أعضاءكْ
نم هنيئاً يرعاكَ من شقَّ عينيْـ ... ـكَ وأجرى بين العروق دماءكْ
علَّ من وكّل البِلى بردائى ... يجعلُ الخزَّ يا بنىَّ رداءكْ !

كوم حماده — محمود غنيم

تمادوا بشكواهم

للأستاذ فخرى أبو السعود

لقد زهّدتنى فى القريض معاشر ... إذا نظموا فالحزنَ والهمَّ والغمّا
كأنْ ليس غيرَ البؤس للشعر مُلهمٌ ... ولولاه ما قالوا ولا عرفوا النظما
قوافيهمُ آهٌ فواهٌ فعَبْرةٌ ... تلى زفرةً من مهجةٍ من أسًى تدمى
تمادوا بشكواهم فملّتْ وأصبحوا ، ... إذا ما شكوا همّاً لقارئهم ، همّا
أكلُّ أخى شعرٍ خدينُ بلابلٍ ... يفوز سواه بالأمانى وبالنعمى ؟
يخالون أنَّ الشعر يزداد رقةً ... إذا وصفَ الأشجانَ والألمَ الجمّا
فهذا شكا فى جنبه ألفَ طعنةٍ ... وذاك طوى فى كل جارحةٍ سهما
وذا صدرُهُ نارٌ وعيناه ديمةٌ ... وأضلاعُه حرّى وأحشاه كَلْمى
وذاك بطىءٌ ليلُه متطاولٌ ... يُساهر فيه وحده الأفقَ والنجما
وذلك أضواه وأوهى اصطبارَهُ ... غرامٌ مشى فى جسمه يُنحِل الجسما
وذلك يبكى كالوليدة ساخطاً ... بلا سببٍ يُدرى ولا غرضٍ يُسمى
وذيّاك يشكو دهره ويذمه ... ويزعم أنَّ الدهر أوسعَهُ ظلما
يكلّف باعَ الدهر ما لا يُطيقه ... ويَنحى عليه ـ حين يمنعه ـ لوما
يود لوَ انَّ الدهر يأتيه بالمنى ... جميعاً ولم يدأب ولا عقد العزما
وقد يَبْلغُ الساعى إذا جدَّ سعيُه ... مُناهُ ولم يَلحَ الزمانَ ولا ذمّا
يَخالُ حياةَ الناسِ قارئُ شعرهم ... بلاءً فلا نُعمى هناك ولا رُحمى
وكم فى رحيب الكون من نِعَمٍ ومن ... محاسنَ تُصبى العينَ والروحَ والفهما
وكم عَرَضَتْ فينا الطبيعةُ حسنَها ... بلا ثمنٍ غُنْماً لِمَنْ بادرَ الغنما
ترى فى مجاليها وألوانِ حسنها ... عَزاءً لمن يأسى وريّاً لمن يظما
ووحياً لشعرٍ ينبذ الشكوَ والبكا ... ويستلهم الأنوارَ والروضَ واليمّا

فخرى أبو السعود

القصص

من أساطير الإغريق

إيخو ونركيسوس (١)

الفاتنة التي أصابها البكم ، والجميل الذي عشق صورته

للأستاذ دريني خشبة

كان زيوس — كبير آلهة اليونان — يتعشق فتاة حلوة الدل ، بارعة الحسن ، رقيقة الشمائل ، تُدعى يو . وكان ، برغم زوجاته الخمس أو الست ، يختلف إلى حبيبته في الخلسة بعد الخلسة ، يؤانسها ويسامرها ، وتؤانسه وتسامره ، ويبل فمه الظامئ من ثغرها الراوى ، بقبلة . . . أورشفة . . .

وكانت أولى زوجاته (حيرا) هي التي تزعجه بما تبث حوله من الرقباء ، وتنشر من الجواسيس ، يحملون اليها كل حركة من حركاته . وكان هو يضيق بكل ذلك ، ولكنه لا يستطيع إلا أن يداهن ويداهن ... ويبالغ في المداهنة ، لشدة شغفه بحيرا ، ولأنه كان يحس في الخضوع لها لذة أولمبية لا تعدلها لذة . . . إلا لذة تدليله لحبيبته يو

وكما كانت حيرا تمكر مكرها في كل حين ، كذلك قد مكر الآله مكره . . . !

أراد أن يشغلها عنه بلهاة تذهب من وقتها كل يوم بساعات يقضيها في أحلامه الغرامية بين يدى يو ، ملتذاً قوامها الخصب ، مستمتعاً بجمالها الفينان ، سابحاً في هذه اللجة المترعة بالفاتن ، في كل جارحة من جسمها الممشوق

وقد سنحت له الحيلة . . .

حدثها عن فتاة ناضرة الشباب ، ريانة الأهاب ، عذبة اللسان ، وقادة الجنان ، تعرف من قصص الحياة وأنباء الدنيا مالم يتيسر بعضه للآلهة أنفسهم ! وكانت حيرا ، ككل الأنثيات ، مولعة بالثرثرة ، مشغوفة بالمعرفة ، تبغض الصمت وتغرم بالكلام الطويل الموشى . وهي مع ذاك مُطلعة ، بقدر ما هي أذن ، تتكلم كثيراً ، وتُثرثر كثيراً ، وتسمع كثيراً

وانطلقت إلى الفتاة فشُغفت بها لأول لقاء ، ووجدتها ، كما حدث زوجها فياضة القول غزيرة القصص ، تتدفق في حديثها تدفق الخمر في الكأس ، حتى إذا استقرت في مكانها من الجسم ، شاعت حُمياها فيه ، فأطربت ، وأرقصت ، كأنها عُصرت من حديث هذه الفتاة !

ثم جعلت تتردد عليها ؛ وما تكاد الفتاة تفرغ من إحدى قصصها العجيبة حتى تأخذ في أعجب منها وأغرب ، وهي بين الآونة والأخرى ما تنى تنمق حديثها بالنكات البارعة ، والملح الرائعة ، مرسلة المثل في مقامه ، والحكمة في موضعها ، في غير كلفة ولا عناء . ثم هي كانت رقيقة دقيقة ، لا تُمل السامع ولا ترهق الناظر . وكانت تُقبل على سُمارها وكأنها تختص كلاً منهم بقلبها ، وكأنما تلقى إلى كل منهم بقرارة نفسها ، حتى ليحسبها كلٌ له وحده ، بما يحسبه تؤثره به من عطف ، وتغمره من ود ، وتزجى إليه من محبة . . .

وكانت حيلة صائبة من زيوس ، شغل بها حيرا طويلاً ، ليفرغ هو إلى يو ... فيا للآلهة ! !

ولكنها شعرت من زوجها لفحة الصد ، وأحست فيه انقباضاً وجفوة ، فوقر في نفسها أن لابد من أمر ، وأن هناك سراً أى سر ؛ فآلت لتكشفنَّ ما تغفلها فيه

وبثت عيونها ، وأرسلت أرصادها ، حتى استوثقت مما كان بينه وبين يو ، وحتى أدركت أنه قصد إلى إلهائها بهذه القصاصة الخبيثة ليفرغ هو إلى لُباناته وأوطاره !

(١) آثرنا عدم ترجمة إيخو — أو إكو — بما يرادفها في العربية وهي لفظة (صدى) لأن التسمية يونانية وقد نقلها الرومان عنهم ثم ذاعت في كل اللغات . وكذلك أثبتنا لفظة نركيسوس (نرجس) ليونانيتها أيضاً

ولا ندرى ما ذنب الفتاة التى ملأت أذنى حيرا سـحراً ، ونفثت فيهما موسيقى وألحاناً ؟ لقد ظلمتها زوجة الإله الأكبر ، التى تحمل بالباطل لقب حامية النساء، وحافظة الأجنة ، حين أقسمت لتسلبنها الطلاقة والذلاقة ، ثم لتُسلطن على لسانها العىّ والحَصر يُشقيانها و يُعذبانها !

لقد كان كل ما اتهمت الفتاة به أنها كانت سبباً فى تمادى زوجها فى غىّ حبه ، وإبعاده فى ضلالة هواه ؛ فنفثت فى عُقدِ سحرها ، ثم قصدت إلى الفتاة المسكينة فبهرتها ، وأرسلت عليها شُواظاً من غضبها ، وقذفتها برُقْيةٍ من رُقاها المهلكة ، لم تستطع بعدها أن تُلجلج لسانها بكلمة واحدة تفرج بها عما فى نفسها …

وقهقهت حيرا حين حاولت الفتاة أن تتكلم فلم تستطع ؛ ثم شاءت الخبيثة أن تظهر آية أخرى من آيات غـدرها ، فقالت ، بعد أن نفثت نفثة ثانيـة : « أنا أسميك إيخو ؛ وأمنُّ عليك فأطلق لسانك باللفظة المفردة ترسلينها فى ذيل كل كلام تسمعين … اللفظة الأخيرة فحسب يا إيخو … »

فرددت الفتاة المسكينة : « إيخو ! ! » .

***

أما يو ، فقد نفذت اليها حيرا وصبت عليها من جام سحرها ما تحولت به إلى بقرة صفراء فاقع لونها … تسوء الناظرين . ولهذا حديث طويل مشجٍ ندعه الآن ، لنرى ما كان من أمر إيخو . .

دهشت الفتاة لبيانها أين ذهب ، ولصوتها الجميل أين ولىّ ، وللرخامة الفضية التى كانت تترقرق من فمها الشتيت كيف ضاعت ، ولهذا السحر الذى كيف قضى على أولئك جميعاً ؟ !

لقـد بكت كثيراً ، وتوسلت إلى الآلهة ، ولـكن … أين الآلهة ؟ لقد تصامُّوا جميعاً ، لأن حيرا هى القاضيـة ، ولأنهم يشفقون أن تُفسد عليهم أسباب السماء كما أفسدت الأرض على عرائس البحر !

وأطلقت ساقيها للريح ، فيممت شطر غابة ذات ماء وذات أفياء ، ثم إنها تخذت لها مأوى فى أصل سنديانة ضخمة الجذع ، معروشـة الفروع ، وارفة الأفنان ، وأقامت ثمة تجتر أحزانها وتُسعّر أشجانها ، وتقابل بين ماضيها السعيد وحاضرها الشقى ، وتسكب فيما بين هذا وذاك دموعاً ساخنات وعبرات غاليات !

وبينا هى سادرة فى كهفها ، مستغرقة فيما آل اليـه أمرها ، إذا بصَحبٍ يافع من الشباب اليانع يمرون ببابها ، من دون أن يروها ، وهم يتحدثون أحاديث الصبى ، ويتسامرون سمر الفتوة ، ناعمين بأشهى مناعم الحياة

وظلت ترقبهم ، وتستذكر أيامها الخوالى ، إذ الشمل مجتمع ، والرواد محدقون ، مرهفةً آذانهم ، شاخصة أبصارهم ، فاهتزت هزة المحموم بالشجن ، المروّع بالشجى !

وأطلت من كناسها ، فرأت الغلام الاغريقىّ المشهور ، « نركيسوس » الذى دلّـه الآلهة بجماله ، وتامعذارى أثينا بنضارته وإشراقه . رأته يتخلَّف عن أصحابه ، مأخوذاً بجمال نرجسة حلوة اقتطفها من غصنها الميَّاس وفَتَنها المياد . ثم وقف يحدّق فيها بعينيه المعسولتين ، اللتين لوّنتهما شمس الجنوب بهذه الصبغة السحّارة ، وكنت مِلأهما يعاسيب الفتنة ، تنتشر منهما فى دنيا القلوب !

والسبيل فى الغاب ملتوية متداخلة … تيه يضل فيه العابر ، ويباب أخضر لا يهتدى فيـه السائر ؛ هنا منعرج لا يصل منه الانسان الى أمن ، وهناك منحنى لا ينتهى الى سلام . ولقد مضى الدليـل مع الصحاب ، ولبث نركيسوس وحده ، يضرب أخماساً لأسداس

ولم تستطع إيخو حين أبصرت به أن تفلت من هذا الشرك المنتشر حوله ، تعلق بخيوطه السحرية القلوب والألباب . . . فأحبته بكل قلبها ، وأرسلت فى نظراتها اليه نفسها تتمرغ تحت قدميه ، وتهمهم بين قدميه ، كأنها خُلقت له . . . لا لها !

ولـكن كيف السبيل الى التعبير عن هـذا الهوى الملح والحب المخامر ، ولسانها فى عُقال إلا من المقطع الأخير ، ينطلق فى إثر الحديث ، أو اللفظة المفردة تردفها بصياح كل صائح ، وهُتاف كل هاتف ؟ !

وراحت تقتفى أثره ، من غير أن تشعر هى ، ودون أن يشعر هو ! وتَقُصُّ خُطاه وهى لا تعى ما تفعـل ، وهو لا يدرى كذلك ؛ فكان دبيبها كدبيب القطا ، أو كوثب الضفادع . على أن حركة غير مقصودة أتت بها إيخو جعلته يعتقد أن أحداً من سكان الغابة يتبعه ، فصاح قائلاً :

« من ؟ . . . »

فرددت المسكينة نداءه : « من ؟ . . . »

فقال : « هل من أحد هنا . . . ؟ »

وأرسل هذا السؤال فى رعب خفيف ، فرددت إيخو اللفظة الأخيرة : « هنا . . . »

فبهت نركيسوس ، وقال ، وقد خال المتكلم امرأة :
« هلمى يافتاة . . . هلمى . . . »

فرددت إيخو اللفظة الأخيرة . . « هلمى . . »

فزادت حيرته ، وتضاعف خباله . . وقال :

« لم لاتأتين إلى ، وليس هنا أحد يرى ؟ ولا انسان يشهد ؟ »

فثار كامن الهوى فى نفس إيخو ، وملأت اللفظة الأخيرة : « يشهد ؟ » بكل ما تركت لها حيرا فى قرارة لسانها من رنين فضى ، وجَرْسٍ جميل . . . . »

وعاد نركيسوس يقول : « يافتاة ! ليت شعرى ما يحجزك ؟ أين أنت إن كنت هكذا تستحيين ؟ تعالىْ »

وكأن إيخو أدركت أن الفرصة سانحة للقاء هـذا الحبيب الطارئ ، فبرزت من مكمنها فى غير هيبة ولا وجل ، وقصدت اليه ، تعرض حبها ولظى جواها عليه ؛ ولما لم يكن فى مكنتها أن تخاطبه ، لتكشف له عما تضمر من هيام به ، ومحبة له ، بدا لها أن تثب إلى حيث هو فتعانقه ، وتضم صدره إلى صدرها ، ليبث أحدهما إلى الآخر

ولم تـكد تفعل حتى جهد نركيسوس فى تخليص نفســه منها ، ثم انطلق فى الغابة لا يلوى على شئ ، كالرئم المروّع والظليم المفزّع . . ! !

وذلك أنه لم يجرب هذه المفاجأة بالحب ، ولا وقع مرة فى شراك غرام ، وقد ربكته إيخو حين غمرته بكل حبها ، فشَرِق به وغُـص ، وقال : الفرار الفرار !

وتسلط الهم على قلبها فشفّـه ، والشجن على جسمها الناحل فأضناه ، وكانت صدمة هائلة صدّعت جوانب نفسها ، وزادتها نكالاً على نكال ، ثم تتابعت الأيام وهى ما تزداد إلا سقاماً ... واضمحلت ... ثم اضمحلت ... حتى غدت .. لا شئ !!

ولاشئ هذه ليست مبالغة فيما حل بها ، إذ الصحيح أنها غدت لا شئ ، إلا هذا الصدى يتردد فى كل واد ، ويذهب إثر كل نداء وهى إلى اليوم تأوى إلى الغيران ، وتتخلف إلى الشطئان ، وتنحدر مع الريح على جنبات الجبال ، تنعى همها ، وتندب حظها فى النادبين !

***

وشاءت المقـادير أن تنتقم لإيخو المعذبة من هذا الشاب الجميل نركيسوس . الذى حطم قلبها الغض ، وقضى على نفسها المحزونة . فبينما كان فى طراد عظيم ، فى يوم قائظ ، عرج على خميلة ناضرة ملتفة الأغصان ، ليشرب من الغدير الصافى الذى يترقرق من تحتها . . وما كاد ينحنى إلى الماء حتى رأى صورته فى صفحته الساكنة ، فبهره حسنها ، وأخـذ يرمقها بقلب مشوق ونفس هائمة ، وهو لا يعلم أن الحبيب الذى تامه إن هو إلا ظله ، وعروس الماء التى تبلت فؤاده إن هى إلا خياله !!

عينان كبيرتان ذواتا أهداب زانهما وَطَف ، وجبين واسع وضاءمشرق ، وخدان أسيلان تخددوربات الأولمب ، وخملٌ حلو نابت فوق بشرة الوجـه يزيده رونقاً وجمـالاً ، وثغر حبيب كأقحوانة أوشكت تتفتح ، ترف حوله بسمة ساحرة من حين الى حين ، وذقنٌ رقيق مسـتدق يرتفع على عنق يونانى رائع ، ثم فتنة تغمر ذلك جميعاً ! !

خاطبه نركيسوس ، ولـكن ... واأسـفاه ! إنه لا يرد إلا تمتمةً ، ولا يجيب الا كما تهمهم الريح !

ومد يده ... فمد الخيال يده ، واستطير صاحبنا من الفرح ، ظانـاً أن حبيبه توّاق إلى ما يريد !

واقترب بفمه ، يريد قبلة ، فاقترب الخيال بفمه كذلك .

ولـكن ... ياخيبة الأمل ! ما كاد العاشق الولهان يمس الماء بشفتيه حتى ذهب حلمه أباديد ، وتكسرت مُنى نفسـه الحيرانة ، وفر الخيال فى شظايا الماء ... وتحطمت الصورة الرائعــــة بدَداً ! ! وخُيل لنركيسوس أنها تقول وهى تهتز ، قبل أن تلتئم : «لا... لا ... لا ... لا ... »

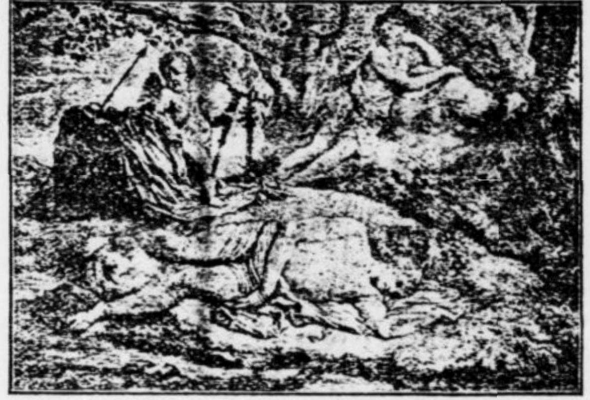
ولبث عبثاً يحاول قبلة ، وتتكرر الآية كلما مست الماء شفتاه .. فانطلق مغيظاً مُحنقاً ، وهـام فى القفار على وجهه ، لا يطيب لجفنه السهـّد كرى ، ولا يحلو لفمه المرير عيش ، لجفاء الحبيب ، ونفرة آسيه العجيب ! ؟

نركيسوس ! الذى بلبل قلوب العـذارى ، وسفك دموع الحسان ، وضرّج كبرياء الغيد بالدم ، وأذل البسمات التى طالما حملتها إليـه أجنحة الحب من ثغور الفاتنات ... نركيسوس ، الذى ألقى بحب إيخو فى التراب ، تستبيه صورته ، ويتصباه خياله ، ويأسره ظله ؛ ... فيالنقمة كيوبيد ، ويا لعدالة ڤينوس ! !

لقد طفق يختلف إلى الغدير لدى كل شروق شمس ، يناجي

حبيبه المعبود وأمله المنشود ، فلا ينثني إلا إذا توارت بالحجاب !

وما انفك يشكو ويتوجع ويستعطف ، وما انفك الخيال يتصام ويتباكم . وإذا تحدث تمتم ! !



نركيسوس يتحول إلى زهرة — تصوير پوسين

ثم ...

أجل فلا بد من ثم هذه ...

ثم ذوى عوده ، وذبلت نضرته ، وتهدم جسمه ، وتحطم قلبه ، وتأرجحت روحه فى حدقتيه ، ... و ... دنت ساعته !

ووقفت إيخو فى فنن وارف ، فى أيكة قريبة من الغدير ، تشهد الفصل الأخير ، من مأساة حياتيهما ...

وسمعته يقول مخاطباً ظله : « أيها الحبيب ! أجل ! لقد حق لك أن تنتصر على كبريائى ، وتسحق مرتى وتهد أعضائى ... هأنذا أموت أيها الحبيب ... بقربك ... ياعروس الماء النافر ... أموت ... وأحبك ... فالوداع ... الودا ... ع »

وبكت إيخو . . . . ورددت هـذا الصدى الحبيب : الودا ... ع ! »

وأقبلت عرائس الماء تنوح بدورها على نركيسوس ، ثم ذهبت فى أرجاء الغابة تجمع الحطب لاحراق الجثة ، كما جرت بذلك العادة فى ذاك الزمن . . . ولكن ؛ يا للعجب ! لقد عادت فما وجدت غير زهرة جميلة من أزهار النرجس ! انحنت على صفحة الغدير تنظر فيه إلى ظلها . . . وتذرف دمعها . . . قطرة ، فقطرة . . .

دريني خشبة

فى ربوع أمريكا الجنوبية

للأستاذ الرحالة محمد ثابت

عبر الأنديز الرائعة :

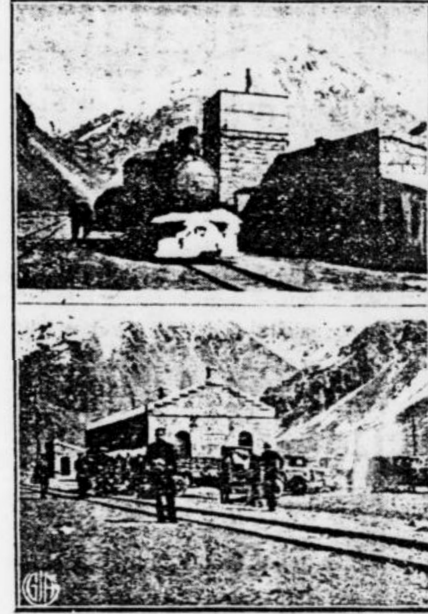
لقد كان من أحلامى التى خلتها منذ أمد بعيد خيالاً بعيد المنال ، أن أعبر جبال الأنديز وأمتع النظر بمشهد (أكونكاجوا) ثانية ذرى العالم علواً ، وكانت تعاودنى تلك الأمنية سنة بعد أخرى ، حتى شاءت المقادير فحققت لى ذاك الأمل فى الصيف الماضى ، وكم كثرت الأراجيف وأنا على ظهر الباخرة إلى « الأرجنتين » بأن الطريق معطل ولن يمكن عبوره اليوم ، وما كدت أصل بونس إيرس حتى قصدت على الفور داراً للسياحة مستعلماً ، فقيل لى إن الطريق معطل على أثر السيول والثلوج التى اجتاحت منه اثنى عشر ميلاً بقطرها ومحاطها وقناطرها ، ولن يمكن عبوره فى ذاك الجزء إلا على متون البغال الممضة وسط الثلوج الرهيبة مدى أسبوع ، فأخذتنى الدهشة ، وكاد يتطرق اليأس إلىّ ، لكنى عدت فاعتزمت القيام بتلك التجربة حتى لا أحرم رؤية مجاهل الأنديز الرهيبة ، وبعد لأى ما قبلت شركة السياحة أن تبيعنى التذكرة ، وقد اشترطت ألا تتحمل أية مسئولية إذا حدث لى حادث فى الطريق ، وكم سرح الخيال فى تلك المجاهل بقية يوم السبت وطيلة الأحد ، فكان تارة يبدو الأمر قاتماً مخيفاً ، وطوراً يضىء الأمل فتبدو الرحلة ناجحة شائقة . قصدت دار الشركة صباح الاثنين لأتسلم التذكرة ، وما كاد يرانى الرجل حتى صاح باسما أن قد فتح الطريق لأول مرة ، وأنى سأعبر المنطقة المنهارة على السيارات المريحة بدل البغال الخطرة ، وذاك أول يوم يستأنف فيه السفر المأمون بعد أكثر من نصف عام ، ومن العجيب أنى لم أقابل ذاك النبأ بما يستحقه من الفرح والبهجة إذ كانت النفس تطمح إلى ركوب البغال وسط الثلوج فتكون مخاطرة جديرة بالتجربة . ابتعت التذكرة إلى سانتياجو ودفعت زهاء ستة عشر جنيهاً مصرياً ثمناً لها

قمنا فى الساعة السابعة صباحاً بالسيارة نبرح مندوزا صوب جبال الأنديز وما كدنا نغادر جوانب البلدة حتى أوغلنا فى سهول شبه صحراوية ، يكسوها الحصى وتتخللها أعشاب وشجيرات قصيرة شائكة يابسة ، وكانت تقوم جبال الأنديز أمامنا فى صفحة قاتمة منفرة عريت من النبت ، ولبثنا نسير صعداً على ليات أحد وديانها الغائرة الجافة حتى فاجأنا شبه سهل فى وسط الجبال ، به بعض الزرع والشجر الأخضر فبدا كأنه الواحة وسط الصحراء وتلك محطة (أسپايّاتا Uspallata) وهنا بدت الجبال العاتية تكسوها الثلوج المشرقة يسيل ماؤها فى واد ضيق ، جوانبه مشرفة عاتية مجدبة ، ويجرى فى أسفله ماء شحيح — وهو نهر مندوزا — وهذا ممر أسپاياتا الذى سلكه الانسان منذ حل أمريكا فى العصور البائدة مخترقاً به تلك الجبال ، ولما جاء الأسبان اتخذوه طريقهم على متون البغال ثلاثة قرون ، حتى أقيمت سكة الحديد ، وقد شاهدنا قنطرة صغيرة محدبة من عمل الهنود الحمر قديماً ولا يزال يسميه القوم (Camina de Los Anes أى طريق الأنديز) بعد ذلك أخذت السيارة تصعد فى منعطفات وعرة دونها هوى سحيقة وأمامها نجاد شاهقة تجللها الثلوج الناصعة فى مشهد يأخذ بالألباب ، وكثيراً ما كنا نلمح على بعد جواناكو يسرع بالهروب بمجرد إحساسه بنا وهو كاللاما من فصيلة الجمل ، وبعد مسيرة ست ساعات بسياراتنا وصلنا محطة : لاس قاكاس : وكنا نشاهد فلول القضبان والقناطر مهشمة أيما تهشيم

وقفنا ننتظر القطار والريح عاصفة والبرد قارس زمهرير ، وكنا نرى على بعد قمة Tupungato بهامتها المدببة البيضاء وهى من أعلى ذرى الأنديز إذ يبلغ علوها ٢٢١٣٦ قدماً

أقبل القطار وكان مقدمه مغطى بالثلوج كأنه يحمل وسقاً من الجليد الناصع ، وحللت مكانى من الدرجة الأولى وهى تقارب الدرجة الثانية عندنا ، وليس بالقطار سوى درجتين ، وكان قد أمضنى الجوع إذ كانت الساعة الثانية بعد الظهر فلجأت فوراً إلى عربة الطعام وتناولت الغداء الشهى الجيد ، وكان ثمنه زهيداً لايجاوز ثمانية قروش ، وذلك من أثر الرخص الذى كنا نسمع عنه فى بلاد شيلى . وفى منتصف الطعام فاجأنا منظر غريب : مجموعة من أسنان الصخر بعضها فوق بعض تتوجها صخرة كبيرة حاكت الدير على بعد ، والأسنان شابهت الرهبان الصاعدين إليه ،

ومن ثم أطلق عليها القوم اسم Penitentes ثم وقف بنا القطار في محطة (بونتادل أنكاس) ومعناها جسر الأنكا، فنزلنا سراعاً نحو الجسر العجيب، فاذا به صخرة متصلة بالجوانب، تحتها وادفسيح يجرى



قطار الأنديز وسط الثلوج

به ماء، بعضه مستمد من عيون حارة عظيمة النفع في الاستشفاء، والجسر طبيعي عظيم الاتساع، يمكن ثلاث عربات متجاورة من المرور، فعرضه تسعون قدماً وعلوه ٦٥ وسمكه ٧٠ وقد عرف منذ القرن الخامس عشر وأحيط بالخرافات وأنه مقر الأبالسة في عرف الهنود الحمر، وأطلق عليه اسم أحد قواد الأنكا توباك توباكوى (Tupac Tupaqui) وقد وقفنا بعد قيام القطار نترقب قمة (أكونكا جوا) أعلى ذرى الدنيا الجديدة (٢٣٣٠٠ قدم) وأول ما تسنم الانسان هامتها في ١٤ يناير سنة ١٨٩٧ ظهرت تشمخ باسقة في السماء ومن حولها جمهرة من الذرى الأخرى يجللها جميعاً بياض الثلج الناصع، وبين فترة وأخرى كان يحلق فوق رءوسنا طائر الرخ الهائل ملك المرتفعات وأقدر الحيوان على احتمال عصف الريح وقر البرد، وكان الثلج يسود الأرجاء كلها، اللهم إلا في بعض الشجيرات القصيرة ونبات الصبار (الـكاكتاس) في شكله العجيب وكأنه اسطوانات تقوم متجاورة، ويكسوها زغب من شوك طويل، وكنا كلما تقدمنا زادت كثافة الثلج حتى أن القطار كان يجرى بين جدران خانق من الجليد الناصع كاد يغطي العربات إلى نصف ارتفاعها. وفي محطة: (لاس خويڤاس) دخل القطار ظلة أقيمت من الحديد المجزع تفادياً من ثقل الثلج، وهنا تعددت الربى، فكانت كأنها الهامات الشم جللها الشيب الناصع، ومن ألسنة جليدها كان يسيل لعابها في زرقة مستملحة زينها زبد أبيض، وكم تكاثر الثلج على أسلاك غلاظ وصفائح قاسية تقوضها، وأنت ترى بقع الثلج الأبيض كمندوف القطن تملأ التجاويف الواحدة تحت الأخرى، والماء يسيل من هذه فتهوى في جنادل وشلالات الى الأخرى فيذيبها، وقد يجمد بعض الماء الهاوى فيظهر في زوائد وأسنان بلورية، وفي الهُوِى الغائرة يتجمع الماء ويجرى في واد ضيق، وفي كثير من البقاع كان يقام للقطار نفق من حديد مخافة تكاثر الثلج، وفي هذا الجزء كان القطار يسير على ثلاثة قضبان، الأوسط منها مسنن لـكي تشتبك به تروسه خشية وعورة المنحدر. دخل بنا القطار نفقاً طوله ميلان تقريباً، ومن غريب المصادفات أن ارتفاعه عن سطح البحر ميلان أيضاً، وهو أعلى جهات سكة الحديد، فهي هنا ١٠٥١٢ قدماً فوق سطح البحر وفي وسط النفق الحد الفاصل بين الأرجنتين وشيلي، وبمجرد عبور القطار بنا هذا الحد داخل النفق، سمعنا صليل أجراس تدق من تلقاء نفسها عندما يضغط القطار على أسلاك بها





نجتاز نفق الحدود بين أرجنتينا وشيلي

وذلك إيذاناً بتخطي الحدود. ولما أن خرج القطار من النفق الى ضوء الشمس أشار القوم أن ها هو (الـكريستو) الى يميننا، وهو تمثال هائل للمسيح أقيم في سنة ١٩٠٤ حينما احتكم الخصمان في مشكلة الحدود الى ملك انجلترا ادوارد السابع، والذى توسط في حسم النزاع وعرضه للتحكيم نساء الفريقين وقساوستهم

على أن تنفق نقود الحرب فى تحسين الطرق على الأنديز ، وبجزء من ذلك المال أقيمت سكة الحديد . ثم اكتتبوا لهذا التمثال ، وقضى ملك الانجليز بجمل الحد عند تقسيم المياه بين الدولتين ، وهى هنا على علو ١٢٨٠٠ قدم ، والتمثال من البرنز القاتم صيغ من بعض المدافع الحربية القديمة التى أخذوها من الأسبان فى حرب الاستقلال رمزاً للسلم وتحطيم أدوات الحرب ، ويقوم على قاعدة من جرانيت وعلوه ٢٦ قدماً ، وقد نقش على قاعدة التمثال ، وتحت أقدام المسيح ما معناه :

«لقد أقسم رجال الأمتين بين يدى المسيح ألا ينقض عهد السلام بينهما ، حتى ولو دكت تلك الجبال فصارت هباء » . على أن التمثال كادت تكسوه الثلوج فتخفيه . أخذنا فى الانحفاض من منحدر وعر ، ما كان القطار ليستطيعه لولا القضبان المسننة ، ومن دوننا وادى أكونكاجوا الغائر ، وبين محطتى كاراكولس ، بورتيليو ، فاجأتنا مجاميع الربى فى تعقيد رهيب تتوسطها بحيرة الانكا على علو ٩٠٠٠ قدم ، ويقولون بأن ماءها ثابت المقدار لا يزيد ولا ينقص طيلة العام ، وذاك ما زاد قدسيتها عند الهنود ! ولن يستطيع قلم مهما أوتى من البيان والافصاح أن يعرب عما يحسه المسافر من رهبة وجلال تتمثل فى عظمتهما القدرة الآلهية التى تزرى بكل شىء ، وما الوصف بمجد شيئاً ، فان يأخذ القارئ من قولى إلا قبساً ضئيلاً ، وعليه إذا أراد الوقوف على شىء منها أن يمتع نظره بمرآها كى يحس بما أحسست . ويقولون إن أجمل ما ترى مناظر الصخور وأروعها فى العالم بين تينك المحطتين . أخذنا نمر بالمحاط الشيلية ، وكلما هبطنا ندر الثلج وزادت القرى وتعددت المسايل المائية ، وقد بدا هذا الجانب من الجبال أغنى بعناصر الحياة بين إنسان وحيوان ونبت وشجر من الجانب الشرقى ، لأن رياح الباسفيك تدر عليه من بللها ماء وفيراً على نقيض الجانب الآخر الشرقى . ومن الأنهار التى استرعت نظرنا (الريو بلانكو) أو النهر الأبيض ، وسمى كذلك لكثرة ما يعترض ماءه من صخور يرغى فوقها فيبدو أبيض ناصعاً . ثم وقفنا طويلاً فى محطة (Los Andes) وعندها غيرنا القطار الضيق الى آخر . ثم خيم المساء فحرمنا بقية الاستمتاع بجمال الطبيعة بين هذه وسانتياجو ، ولقد غيرنا القطار مرة أخرى فى محطة (لاى لاى) وهنا نُرى أول قبس من مياه المحيط الهادى الى تبين المسافر

وفى منتصف الثانية عشرة مساء دخلنا سانتياجو بعد مسيرة زهاء سبع عشرة ساعة من مندوزا أو سبع وثلاثين ساعة من بونس إيرس ، وكان مقدراً لعبور القارة كلها من بونس إيرس الى سانتياجو ثلاثون ساعة بالقطار مسافة قدرها ٨٨٨ ميلاً أو تزيد

محمد ثابت

البريد الأدبي

كتاب عن سنت هيلانه

صدر أخيراً كتاب بالفرنسية فى مجلدين عنوانه « سنت هيلانه » بقلم مسيو أوكتاف أوبرى والكتاب مثل بديع للتاريخ القصصى أو القصص التاريخى ؛ ومن الواضح أن مسيو أوبرى لم يرد أن يقدم لقارئه « سنت هيلانه » ، تلك الجزيرة المنسية النائية ، وإنما أراد أن يقدم تفاصيل المأساة التاريخية العظيمة التى كانت سنت هيلانة مسرحاً لها ، ونعنى اعتقال الأمبراطور نابليون بها مدى ستة أعوام ، ثم وفاته وثواءه الأخير بها . ولقد كانت مأساة سنت هيلانه فى حياة نابليون أعظم من أى حرب ومن أى موقعة ؛ فقد جعلت من الامبراطور العظيم مسيحاً آخر ، وشهيداً ؛ وما هى سنت هيلانه ؟ هى جزيرة صغيرة طولها ستة عشر كيلو متراً ، وعرضها اثنا عشر كيلو متراً ، وترتفع عن سطح البحر بمئات الأمتار ، وتبعد فى أعماق المحيط نحو خمسمائة كيلو متر عن الشاطئ الأفريقى ، فهذه البقعة النائية القفراء هى التى اختارتها انكلترا لاعتقال أعظم جندى وقائد فى العصر الحديث

ويستعرض مسيو أوبرى فى كتابه تاريخ الأمبراطور منذ هزيمته وأفول نجمه فى سنة ١٨١٥ ، ثم اعتقاله واقامته فى المنفى حتى وفاته سنة ١٨٢١ ؛ ولم يصدر من قبل كتاب أوفى وأدق عن هذه الفترة من حياة نابليون . وقد كتب من قبل عنها كتاب عدة ، بالاعتماد على الوثائق والمذكرات المختلفة التى تركت من زملاء نابليون فى المنفى ؛ ولكن مسيو أوبرى لم يكتف بالوثائق المكتوبة ، بل سافر الى سنت هيلانه ، وأقام مدى أسابيع فى « لونجوود » وهو المنزل الذى سكنه الأمبراطور منذ معتقله حتى وفاته ؛ واستعرض هناك الوثائق الانكليزية ورسائل السير هدسون لو سجان الأمبراطور ، ورسائل زملائه فى المنفى وأطبائه ، وهى وثائق تملأ نحو تسعين مجلداً كبيراً ؛ ولم يترك صغيرة ولا كبيرة فى حياة الأمبراطور وحياة زملائه فى المنفى إلا استوعبها .

وتستطيع أن تتأمل فى كتاب مسيو أوبرى ، لا صورة الأمبراطور وحدها ، ولكن صور أولئك الرفاق المخلصين من الرجال والنساء الذين ربطوا حياتهم بحياة سيدهم ؛ فهناك أسرة مونتولون ، وأسرة برتران ، والجنرال كورجو ، والسكرتير لا سن كاز ، والوصيف مرشان ، والطبيبان أوميارا ومنيول ؛ هذا عدا حاشية الأمبراطور من الحراس الذين رتبتهم الحكومة الانكليزية ؛ ومما يشوق القارئ حياة المرأتين اللتين تبعتا الأمبراطور مع زوجيهما وهما مدام مونتولون ومدام برتران ؛ فقد كانتا على خصام دائم ، ولهما قصص ومنافسات ودسائس مشجية

وهنالك نقطة تاريخية هامة يصححها مسيو أوبرى ، وهى تتعلق بموقف السير هدسون لو ، حاكم سنت هيلانه وسجان الأمبراطور ؛ فقد ملأت التاريخ والسير التى كتبت عن مأساة سنت هيلانة بذم السير لو واتهامه بالقسوة والجمود والنذالة ؛ ولكن مسيو أوبرى يصحح كثيراً من أخطاء هذا الرأى ، ويقدم الينا السير لو فى الصورة الآتية : « كان السجين وكبير حراسه فى فى سن واحدة . وكان الأخير رجلاً صغير القد ، نحيفاً أحمر الشعر ، فى وجهه بقع ، يخفى وجله تحت ثوب من الخشونة الحربية ؛ ومع أنه لم يكن يتمتع بصفات باهرة ، فانه لم يكن مجرداً عن الخلال ؛ ولقد كان مخلصاً لوطنه ، وكان إدارياً حازماً ، مستقيماً ، متقشفاً ؛ ولم تكن تنقصه الطيبة الطبيعية ؛ بيد أنه كان يصدر عن تحكم ، وكان مدعياً ، متكبراً ؛ ولم يكن ذا رقة ولا ظرف » ، والحقيقة أن السير لو كان موظفاً أميناً يقظاً ، يسهر على أسيره بعناية ، ويخشى إفلاته من سجنه ؛ فكان يراقبه ليل نهار ، ويضيق عليه سبيل الحرية والحركة ؛ ومن هنا نشأت فكرة اتهامه بالقسوة والنذالة

وقد كان لصدور كتاب مسيو أوبرى صدى عميق فى دوائر التاريخ والأدب . وأجمع النقدة الثقات على أنه خير كتاب صدر فى موضوعه

ذكرى سيرفانتيس مؤلف دون كيشوتي

ظهرت منذ أعوام حركة فى أسبانيا وفرنسا للعمل على تخليد ذكرى الكاتب والشاعر الاسبانى الأشهر سيرفانيتس سافدرا مؤلف القصة الخالدة « دون كيشوتى دى لامانكا » ؛ واتخذت هذه الحركة مظهراً عملياً بتأليف لجنة فى فرنسا تحت رياسة مسيو دومرج الفخرية ، وقد كان يومئذ رئيساً للجمهورية ، ورياسة مسيو بول بورجيه الفعلية ؛ وكان ذلك منذ سبعة أعوام ، ومازالت اللجنة قائمة ، ولها برنامج ضخم يقتضى تنفيذه الملايين . وقد تجدد الحديث عن مهمة هذه اللجنة وعملها أخيراً بمناسبة ظهور طبعة أثرية جديدة بالفرنسية « لدون كيشوتى » . وهذه الطبعة الجديدة من أجمل وأفخم ماظهر اليوم من طبعات القصة الخالدة ، وهى فى مجلد واحد ضخم . وقام على اصدارها الكاتب الفرنسى جان كاسو ، وهى من أقدم التراجم الفرنسية المعروفة ؛ منها قسم من ترجمة جيزار أوداں ، وهو كاتب وجاسوس فرنسى أوفده هنرى الرابع إلى مدريد فى مهمة سرية ، فقضى هنالك تسعة أعوام ، وعاد وفى حقيبته مخطوط الترجمة ؛ والقسم الثانى من ترجمة دى روسيه ؛ وقد صدرت لعامين فقط من صدور النص الأصلى فى اسبانيا (سنة ١٦٠٥) ؛ وقد عنى مسيو كاسو بتصحيح النصوص القديمة وتنقيحها وشرحها عناية كبيرة

أما حديث اللجنة التخليدية الفرنسية ، فهو أنها وضعت برنامجاً ضخماً لأحياء ذكرى الكاتب الكبير بالتعاون مع اللجنة الاسبانية ، وذلك فى مدينة توبوزو من مقاطعة لامانكا التى ينسب اليها الفارس المتجول « دون كيشوتى » ؛ ومن المقرر أن يقام لسير ڤانيتس تمثال فخم من صنع ماشادو عميد المثالين الاسبانيين ؛ ويقترح البعض أن يقام فى توبوزو تمثال هائل يمثل دون كيشوتى ، يتبعه وصيفه سانكو ، وهو يجر حماره ؛ ويرى أصحاب هذا الاقتراح أن يكون جواد الفارس من الضخامة بحيث ينشأ فى بطنه متحف لسيرڤانيتس ، يصعد اليه من سلم فى ساقه ؛ وأن ينشأ فى رأسه مقصف صغير ، وأن يكون فى جوف الحمار مطعم ! وهو مشروع كالحلم يذكرنا بأعاجيب العالم القديم ؛ والمهم أنه يقتضى الملايين أو عشرات الملايين ، وليس فى يد اللجنة منها شئ .

اللغة العربية فى تركيا

جاء فى صحف الآستانة ما نصه :

اجتمع مجلس بلدية ماردين فى ٨ الجارى برياسة عزيز أوراس وتذاكر فى الاقتراح الذى قدمه بعض الأعضاء احتجاجاً على تعميم اللغة العربية فى ماردين وضرورة منعها ، وبعد المذاكرة تقرر مجازاة كل من يتكلم اللغة العربية بخمسين قرشاً تركياً ، وفى المرة الثانية بمائة قرش ، وفى حال التكرار يحكم عليه بالسجن !!!

اللغة العربية فى أمريكا

جامعة برنستن فى الولايات المتحدة من أشهر الجامعات فى العالم على الاطلاق ، وقد أعلنت أخيراً أنها قررت تدريس اللغة العربية والعلوم الاسلامية فى فصل الصيف تحت إشراف الدكتور العلامة فيليب حتى اللبنانى المعروف . ولأول مرة تفتح هذه الدروس العربية فى تلك الجامعة للرجال والنساء على السواء !!



الانجليز فى بلادهم

تأليف الدكتور حافظ عفيفى باشا

للأستاذ م . ف . ا

لسنا نحاول فى هذه الكلمة أن نقدم كتاب الدكتور حافظ عفيفى باشا الى الجمهور ، فقد تقدم به مؤلفه إليه مباشرة ، وله من اسمه ومعرفة الجمهور به ما يغنيه عن ذلك التقديم ، كما أننا لسنا نحاول فى هذه الكلمة أن نجامل الدكتور ، فان احترامنا للمؤلف إنما يبعثنا على ألا نحاول مجاملته بغير الحق

إن ذلك الكتاب الذى أخرجه الدكتور من تلك الكتب التى لا يملك القارئ أن يصفها وصفاً موضوعياً ، فان كل فصل منه ، بل كل فقرة منه ، تدعو الى التفكير وتتداعى لها المعانى فى ذهن القارئ تداعياً يجعله فى شبه معترك أحياناً ، وفى شبه حماسة أحياناً أخرى ، بحسب اختلافه مع المؤلف أو اتفاقه معه فى الرأى ؛ فالذى يقرأ ذلك الكتاب يحس ما يحسه المتحدث الى جليس فى اجتماع خاص : لا يخيل إليه أنه يتعلم ، ولا يخيل إليه أنه يعرف شيئاً جديداً ، بل يشعر كأنه يجاذب جليسه أطراف حديث فى سمر ، وهو فى أثناء ذلك تارة يناقش ، وتارة يوافق ، وتارة يخالف ، ولكنه على كل حال مستغرق فى الحديث مستمتع به

لا يحاول الدكتور أن يظهر بمظهر المعلم الذى ينقل إلى الناس شيئاً جديداً ، بل يلقى ما يريد قوله فى نغمة هادئة تنسى الانسان أنه يعالج موضوعاً لم يسبق لأحد أن عالجه بمثل استيعابه وطريقته . مع أن الكتاب جديد فى موضوعه ، جديد فى طريقته ، جديد فى لونه

يتكون الكتاب من مقدمة ومن ستة أبواب ، كل منها يعالج ناحية من نواحى الحياة الانجليزية ، فالأول : يتناول الدستور البريطانى ، والثانى : يتناول الرأى العام الانجليزى وتكوينه ، والثالث : المسائل المالية ، والرابع : التعليم فى بريطانيا ، والخامس : نظام القضاء ، والسادس : الأمبراطورية الانجليزية . فأنت ترى من هذا أن الكتاب بحث شامل يكاد لا يفقد فيه القارئ ناحية من نواحى الحياة الاجتماعية والسياسية فى بلاد الانجليز . على أننا مع ذلك قد شعرنا بأن مقدار ما يخرج به القارئ من العلم بالحياة العادية فى بلاد الانجليز لا يشفى الغلة ، فان تصوير الكتاب لطبقات الشعب ، ونفسية كل طبقة ، وعلاقة الطبقات بعضها ببعض ، يترك محلاً كبيراً يشبه التشوق إلى المزيد

والكتاب جدير بأن نعقد له غير فصل واحد فى صفحات الأدب والاجتماع . ولكن حسبنا اليوم أن نقول كلمة واحدة عامة عنه ، لنبين معنى واحداً من المعانى التى رأينا فيها مأخذاً على الكتاب ، ولكى نقدره تقديراً مجملاً بغير تفصيل

لعل من أكبر أسباب الزلل فى الحكم على قوم أن يكون الذى يقف نفسه للحكم عليهم متأثراً بميل سابق قبل أن يتصدى للحكم . وقد ظهر ذلك المأخذ واضحاً لنا فى معالجة الدكتور للحكم على طبقات الشعب الأنجليزى وتحديد ماهيتها . فكما أن الحكم قد يكون منتقداً لتحامل صاحبه على من تصدى للحكم عليهم ، كذلك قد يكون منتقداً إذا كان صاحبه مملوء القلب باجلال من تصدى للحكم عليهم . بل لقد يكون زلل الحكم أعظم وأكثر تضليلاً إذا كان الذى يحكم متأثراً بالميل والودة . ويكون ذلك الزلل أشد أثراً إذا صحبته تلك النغمة الهادئة التى تلقى فى روع القارئ أن الكاتب غير متحيز فى الحكم . فالحق أن الدكتور معجب بالشعب الانجليزى إعجاباً جعله فى حكمه لا يكاد يرى بعد غاية ذلك الشعب غاية ، ولا دون قصاراه قصارى

فنظام انجلترا فى نظره يحوى فى نواحيه نزعة ديمقراطية جمهورية بارزة متغلغلة فى جميع أسسها ونواحيها ، بل إن المؤلف يقول إنه لا يبالغ إذا قال : « إن هذه النزعة أظهر فى أنظمة الحكم فى بريطانيا منها فى أنظمة الحكم فى فرنسا التى لما أعلنت الجمهورية استبقت لأسباب تاريخية . . . . . . جميع أسس

الأنظمة التي خلفها الملوك المستبدون »

ويقول : « ومهما يكن من بلوغ الديمقراطية البريطانية أعلى غاية ممكنة في هذا الزمان فان بريطانيا لا تزال محتفظة بجميع مظاهر الارستقراطية الملكية »

ولن يستطيع أشد الأنجليز تعصباً لقومه ، ولا أعظمهم إكباراً لكبريائه القومية ، أن يقول أكثر من هذا

وهو يقول بعد ذلك في وصف طبقات الشعب مبتدئاً بوصف الأشراف : « فالواقع أن هؤلاء الأشراف في انجلترة مهما سمت مراكزهم وبلغت ثروتهم هم كغيرهم يعملون ويكدون ، لا يأنفون الاشتغال بأي عمل أو مزاولة أية مهنة »

فهو قد نظر إلى تلك الطبقة من خير جهاتها ، وتطلع عليها بعين الرضى والاعجاب ، لا بعين الناقد المتحكم

ويقول في عرض حديثه عن الحمل الثقيل الذي تشكو منه حكومات الانجليز المتعاقبة ، وهو ما تبذله في ميزانيتها للعمال العاطلين : « ولئن كان هذا العبء الناشئ من تنفيذ هذه القوانين الاجتماعية في انجلترة لا يزال ثقيلاً ، إذ يتراوح بين الخمسين والثمانين مليوناً من الجنيهات سنوياً ، فان انجلترة في الوقت نفسه قد اشترت راحتها وطمأنينتها السياسية بهذا المبلغ الذي يتضاءل بجانب النتائج العظيمة التي جنتها من تنفيذ هذه القوانين »

وكأننا به قد تجاهل ما كان لأثر هذه التضحيات المالية العظيمة في فداحة الضرائب ، وإبهاظ كاهل الانتاج ، وعرقلة المصنوعات الانجليزية ، بطريق غير مباشر في ميدان المنافسة التجارية الدولية

وقد يطول بنا القول إذا نحن التمسنا الأمثلة الدالة على هذه النظرة العاطفة في الكتاب حتى لتكاد تجعل القارئ ينسى أنه يقرأ كتاب رجل من أمة أجنبية يصف ما في انجلترة بعين الناقد المستقل

ولئن كانت نظرة العطف هذه قد مالت بالمؤلف النابه إلى هذه الناحية الكريمة من التقدير ، فان نظرة الرجل السياسي الدبلوماسي قد أثرت من جهة أخرى في تقدير المؤلف ، حتى كاد في بعض الأوقات يصل من المقدمات إلى نتائج لا يبررها الاستنتاج . ولا يمكن أن يؤول هذا إلا بمجاملة الرجل الدبلوماسي الذي اعتاد أن يوحي إلى نفسه بما تصوره الظروف السياسية ، فاذا هو ناطق عن هذا الايحاء بغير أن يحس . يريد الرجل الدبلوماسي مثلاً أن يقول أحياناً إن عملاً من الأعمال يؤدي حتماً إلى نشوب حرب بين دولته وبين الدولة التي هو ممثل لدولته فيها ، فاذا به يقول إن ذلك العمل قد لا يكون مما يؤدي إلى زيادة حسن التفاهم بين الدولتين ، وعلى هذا القياس كان الدكتور الكبير يصل من بعض مقدماته إلى بعض نتائجه . ولأضرب لذلك مثلاً من الفصل الأخير الذي عقده على مصير الأمبراطورية الانجليزية ، فانه ابتدأ بحثه بسؤال

فقال : « أهى سائرة نحو التفكك والانحلال أم أنها ستستطيع المحافظة على وحدتها إلى أجل طويل ؟ » ثم ناقش السؤال مناقشة لا يشك القراء منها أنه واصل إلى نتيجة أن تلك الأمبراطورية محتوم عليها أن تنصدع ، أو على الأقل أن ينصدع عنها نصفها عند أول حرب جديدة ، ولكن القارئ يعجب إذا هو بلغ النتيجة فاذا بها : « من كل ما تقدم يمكن القول بأن لا محل للتشاؤم نحو مستقبل الأمبراطورية البريطانية » . ثم استثنى من ذلك ارلندة وحدها وقال عنها : « إنها سحابة تعكر هذا الجو »

ولاشك فى أن الرجل الدبلوماسى هو المسئول عن مثل تلك المجاملة . لقد يكون من المستحسن أحياناً أن نجامل ، ولكن المؤلف إذا تعرض لكلمة عامة كان واجباً عليه أن يسير مع المنطق ، ومع المنطق وحده ، والكلمة التى يقولها مثل الدكتور الكبير لها من الأهمية والوقع ما لا يكون لرجل دونه فى المكانة أو أقل منه علماً بما يقول

وفى الكتاب فوق كل ذلك نقد ثالث على وجه عام . فاننا إذا قرأنا عن الانجليز لا يمكن أن ننسى أننا نقرأ عن قوم بيننا وبينهم مسألة قومية ، وإذا كان ذلك المعنى فى ذهن القارئ فانه بغير شك يعجب أشد العجب إذا هو قرأ كتاب الدكتور الفاضل . إذ يخيل إليه أنه على خير تقدير إنما يقرأ كتاباً لرجل من بلاد غير مصر عن قوم هو معجب بهم إعجاباً خاصاً

على أن هذا المأخذ الذى أخذناه على نظرة المؤلف لا ينبغى أن يعد مفسداً للكتاب أو منقصاً من قدره نقصاً فادحاً ، فان البحث الذى ساقه المؤلف من دون هذه النظرة العاطفة المجاملة بحث جدير بكل إكبار . ففيه وصف للحياة الدستورية وأساليب الحكم فى بلاد الانجليز قلما يجد قارئ مثله فى كتاب واحد ؛ وفيه باب فى تكوين الرأى العام يمكن أن يعد بحثاً خاصاً لصاحب رأى مجتهد مستقل ؛ وفيه بحث فى المسائل المالية استعرض فيه المؤلف الموقف العملى ، ودس فيه من نظريات المالية والاقتصاد زبداً وافية مع القصد والجمع للأطراف ؛ وكان المؤلف موفقاً كل التوفيق فى بحثه الخاص بالتعليم فى بريطانيا ، فقد وصفه وصفاً دقيقاً يدل على نظره الفاحص وعقله الثاقب . فاذا نحن نقدنا لون التفكير ونغمته ، فلا يسعنا إلا شكر المؤلف الكبير على بحثه فيما دون ذلك ، وعلى هديته من المعلومات الثمينة التى زفها الى قراء العربية

م . ف . ا

تصويب

جاء فى مقال الأستاذ محمد محمود جلال المنشور فى هذا العدد صفحة ٦٥٦ عن رشيد ما نصه : « وهى مركز من مديرية الغربية » والصواب : « ... وهى مركز من مديرية البحيرة »

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ٩٥ — ٢٩ ابريل سنة ١٩٣٥ — السنة الثالثة

3 me Année, No. 95.

Lundi-29-4-1935

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العــدد ٩٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٦ محرم سنة ١٣٥٤ — ٢٩ ابريل سنة ١٩٣٥ » السـنة الثالثة

فهرس العــــدد

أعياد الحياة والحرية

تخرج الرسالة اليوم إلى الناس فى (شم النسيم) ؛ وشم النسيم فى مصر عيد اكتمال الربيع ، يخرج الناس من دورهم فيه إلى الطبيعة السافرة المجلوة ، فى العراء الكاسى بأفنان الزهر ، وفى الهواء الناسم بأنفاس الرياحين ، يشهدون افتضاح سر الحياة فى الأرض ، وانفتاح باب الجنة على الروض ، وانتشار جمال الله فى الكون ، وافترار الدهر العابس عن بسمات البشر تفيض فى العيون والصدور ، وتشرق على الحقول والدور ، وتهيئ القرب بين الله والانسان والطبيعة

لَشَدَّ ماتنفعل بالنفوس مشاهد الحياة وذكرى الحرية ! فى هذا اليوم يحتفل المصريون فى (شم النسيم) بعودة الروح إلى الدنيا ، وهبّة الطبيعة من مرقد الموت ؛ و بالأمس كان عيد الفصح المسيحى ، احتفل فيه نصارى الشرق ، كما احتفل فى مثله من قبله نصارى الغرب ، برجعة الناسوت وقيامة يسوع ؛ ومنذ أيام كان عيد الفصح اليهودى ، احتفل فيه بنو إسرائيل بخروجهم من ظلم الفراعين ، وعودة الحرية بهم إلى أرض فلسطين ! فلله هذا الفصل الجميل كيف يعود فيه الخَلْق ، ويرجع معه الشباب ،

وتحيا به الحرية ، ويسبح منه الوجود في فيض من الشعور القدسي يوقظ في الانسان أنه حي . وفي الحي أنه حر ، وفي الحر أنه جميل ، وفي الجميل أنه صالح ، وفي الصالح أنه خليق بملكوت الله وخلافة الأرض

تباركت يا مبدع الربيع . ومصور الجمال ، ومعيد الخلق ! هذا النيل يتنفس بالحياة ماؤه فما لأنفسنا تموت ؟ وهذا الوادي يتفجر بالخصب ثراه فما لآملنا تذوى ؟ وهذا الربيع يرف بالحسن نسيمه فما لأخلاقنا تسوء وتقبح ؟ ألسنا جزءاً من الطبيعة نتجدد كما تتجدد ، وندور على قطب الحياة كما تدور ، ونجرى على سنن الكون كما تجرى ؟ إذن فلماذا يعود ابريل في كل عام فيرد إلى الشجر حُلاه ، وإلى البلابل أغاريده ، وإلى العش زياطه ، وإلى الحيوان نشاطه ، وإلى العالم كله بهاءه ورونقه . ونلقاه نحن في كل موعد إبان وروده ، فلا نجد عنده وا أسفاه ريشة لجناح ، ولا نفحة لأمل ، ولا جِدَّة لدارس .

***

هكذا قضى الله أن يكون الربيع مستأنف القوة والفتوة والرجاء لكل حي ، ومسترجع الذكر الممضة ، والأطياف الحزينة لابن آدم ! فهذه الشجرة التي تراها فينانة الأفرع رياً الأماليد طالما ورف ظلها السجسج في هذا الأوان على صبيّ ناعم وهوًى وليد ! كانت عشاً لطائرين بسط الشباب لهما في الجناح ، وفسح الحب لهما في الجو ، فيطيران ما شاء الهوى أن يطيرا ، ثم يأويان إليها ، ويغردان عليها ، حتى تقوض العش ونَسل الجناح ويبست الحنجرة ! وهاهي ذي الشجرة عرَّاها الخريف عشرين مرة ، وكساها الربيع عشرين مرة ، ولكن ذاوى الشبيبة لن ينضر ، وماضي الحبيبة لن يعود ! !

وهذا المرج الذي تراه موشى البرود منضور الجنبات ، كان في عام من الأعوام مسرحا لمشهد من مشاهد الصبابة ! انتظمت به عقود الحب ، وانتثرت فيه حبات القلب ، وتبددت عليه خطوات السعادة ثم تصوّح المرج وعاد فاخضوضر وأزهر ، ولكن مضاجع الهوى لن تمهد ، وذواهب الخُطى لن تؤوب !!

وهذا الجدول الرقراق الذي تسمع هسيسه فوق الحصى وتحت الصفصاف ، كان في ربيع من الأربعة مرآة لوجهين حبيبين قرءا سراريهما في صفائه ، ومزجا حديثيهما بخرير مائه ، ثم جف مجراه ومالبث أن فاض ، وانقطع حديثه ثم عاد فاستفاض ، ولكن الوجهين لن يعود بينهما لقاء ، والحديثين لن يكون لانتهائهما ابتداء !

وهكذا يجد الانسان وحده في كل منظر من مناظر الأرض ، ومظهر من مظاهر الربيع ، أثراً بعد عين ، ودواراً بعد نشوة ، وبِلًى بعد جِدَّة ، وذكرى بعد أمل ! !

***

على أن للربيع يداً على النهضة المصرية لا تكفرها له القلوب ما تجدد على الدهر عيده : تلك هي رجعة الروح فيه إلى حياتنا الاقتصادية ، وما هذه الروح الراجعة إلا بنك مصر ، بثها الله في نفحات الخلد من أوائل مايو ، فنضَّرت من حياتنا ما ذوى ، وأقامت من بنائنا ما هوى ، واتحدت بطبيعة الزمن الموزون ، وحركة الفلك المنتظم ، فهي تتقدم ولا تتأخر ، وتجرى ولا تتعثر ، وتطلب الغاية ولا تحيد

لذلك يعود الربيع كل عام فيفتح للناس هوة الماضي ، ويفتح لبنك مصر وحده باب المستقبل ، فينمو نمو النبات بَرَكةً على بَرَكة ، ويتضاعف تضاعف الحياة شَرِكة بعد شَرِكة ، ويجذب الوجود المصري معه إلى السبيل التي يأمن فيها الفناء ويخرج منها إلى العافية !

بعد ثمانية أيام يحتفل المصريون بمرور خمسة عشر ربيعاً على مولده ؛ وسيكون هذا الاحتفال المترقَّب حجة لمصر أو حجة عليها ! فاذا أجمعت على أن يكون احتفالها بعيده احتفالا بنهضتها به وحياتها فيه ، دلت الناس على جدارتها بفضله ، وعرفانها بجميل أهله ، واطرادها مع الكفاية والجد في سبيله ، وإلا كان احتفالها بهذا العيد العظيم كاحتفالها اليوم بشم النسيم . تحتفل فيه بالفسيخ والعَرَق والعَهَر ، ثم لا تعبأ بجمال الطبيعة في جنّة ولا نَهَر !

احمد حسن الزيات

الانتحــــار

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

حدَّث المسيَّب بن رافع الكوفيّ قال : بينا أنا يوماً في مسجد الكوفة ، ومعي سعيد بن عثمان ، ومجاهد ، وداود الأزديّ ، وجماعة — أقبل فتى فجلس قريباً منا ، وكان تلقاء وجهي ؛ لا أمدّ نظري إلا انطلق في سمْتِه ووقف عليه ؛ وكنا نتحدَّث ، فرأيته يتسمَّع إلى حديثنا ؛ فلما تكلَّم سعيد ، وكان خافت الصوت من علَّة به ، وكنا نسمِّيه النملة الصَّخابة — رأيت الفتى يتزحَّف قليلاً قليلا حتى صار بحيث يقع في سماعه حسيس نملتنا

وكان سعيد يقول : اجتزتُ أنا والشعبيّ[1] أمس بعمران الخيَّاط ، فمازحه الشيخ فقال له : عندنا حِبٌّ[2] مكسور ، تخيطه ؟ قال : نعم ، إن كان عندك خيطٌ من ريح ! فقلت أنا : فاذهب فجئنا بالمغزل الذي يغزل الهواء لنصنع لك الخيط

قال مجاهد : هذا ليس بشيء في تنادُر شيخنا وما يتفق له ؛ أخبرني أن رجلاً جاءه في مسئلة ، فدخل عليه البيت وهو جالس مع امرأته ؛ فقال الرجل : أيكما الشعبيّ ... ؟ فأومأ الشيخ إلى امرأته وقال : هذه . . . !

قال المسيَّب : وضحكنا جميعاً ، وأخذ نظري الغلام فإذا هو ناكسٌ حزناً وهماً ، وكأنه لا يتسمَّع إلينا ليسمع ، بل ليشغل نفسه عن شيء فيها ، فتتوزَّع خواطره ، فيتبدَّد اجتماعها على همِّه ، بصوتٍ من هنا وصوتٍ من هنا ، كما يفعل المحزون في مغالبة الحزن ومدافعته ، يشغل عنه بصره وقلبه وسمعه جميعاً ، فيكون الحزن فيه وكأنه بعيدٌ منه

فقلت في نفسي : أمرٌ أمات الضحك في هذا الفتى وكسر حدَّته وشبابه . ثم تحوَّلت إليه وقلت : رأيتك يابنيَّ مقبلاً علينا كالمنصرف عنا ؛ فما بالك لم تضحك وقد ضحكنا جميعاً ؟

قال : إليك عني ياهذا . وأين مني الضَّحك وأنا على شفير القبر ، وروح التراب ملءٌ عينيّ في كل ما أرى . وكأنَّ حفرتي ابتلعت الدنيا التي أنا فيها لتأخذني فيها ، وأنا الساعة ميتٌ حيٌّ ؛ رِجلٌ في الدنيا ورجلٌ في الآخرة !

قلت : فأعلمني مابك يابني ؛ فلقد احتسبتُ ولداً لي كان في مثل سِنِّك وشبابك ولم أرزق غيره ، فقلبي بعده مريضٌ به ، يتوسَّمه مفرَّقاً في لِدَاته متوهِّماً أن وجوههم مجمعة ملامحه ؛ فأنا من ذلك أحبّهم جميعاً وأطيل النظر إليهم والتأمّل في وجوههم ، ولست أرى أحداً منهم إلا كان له ولقلبي حديث ! فإن رأيته حزيناً مثلك تقطَّعت له من إشفاق ورحمة ، وطالني فتاي في مثل همِّه وحزنه وانكساره ؛ فيعود قلبي كالعين التي غشَّاها الدمع ، تحمل أثر الحزن ومعناه وسِرَّه ، فبثَّني ما تجد يابنيّ ، فلعل لي سبباً إلى كشف ضرِّك أو إسعافك بحاجتك ؛ ولعلك تكون قد حزنت من أمرٍ قريبِ المتناوَل هيِّن المحاولة ، لم يجعله عندك كبيراً أنه كبير ، ولكنْ أنك أنت صغير

قال الفتى : مهلاً ياعمّ ، فإن ما نزل بنا مما تنقطع عنده الحيلة ولا تنقاد فيه الوسائل ، ولا علاج منه بالموت يأخذنا ويأخذه

قلتُ : يابنيّ ، هذه كلمة ما أحسب أحداً يقولها إلا من أُخِذ للقتل بجنايته ولم يعفُ أهل الدم ، فهل جنيت أو جنى أبوك على أحد ؟

قال : إن الأمر قريبٌ من قريب ، فإني تركتُ أبي الساعة مجمعاً على إزهاق نفسه ، وقد أغلق عليه الدار واستوثق من الباب !

قال المسيَّب : فكأنما لدغتني حيةٌ بهذه الكلمة ، وأكبرتُ أن يكون رجلٌ مسلمٌ يقتل نفسه ؛ فتناهضتُ ، ولكنَّ الغلام أمسك بي وقال : إنه لا يزال حياً وسيقتل نفسه متى أظلم الليل وهدأت الرِّجل

قلت : الحمد لله ، إن في النور عقلاً ، ولكنْ ما الذي صار به إلى ماقلت ، وكيف تركته لقدرِه وجئت ؟

قال الفتى : إنه قال لي : ياولدي ، ليس لك أبٌ بعدي ؛ فإن

(١) هو الامام العظيم (عامر بن شراحيل الشعبي) توفى سنة ١٠٣ للهجرة أو حولها ، عن بضع وثمانين سنة ، وكان في عصره أحد العلماء الأربعة في الاسلام : سعيد بن المسيب في المدينة (ذكرناه في قصة زواج) ، والحسن البصرى في البصرة (ذكرناه في قصة : بنته الصغيرة) ومكحول في الشام ، والشعبي هذا في الكوفة . وكان يشبه في زمانه ابن عباس في زمانه

(٢) الحب بكسر الحاء هو الزير ، يستقطر الماء من أسفله فيخرج صافياً ، ويقول لرشحه : قطر حب

أردتَ اللحاقَ بي فارجعْ مع الليل لنُسْلِمَ أنفسَنا ، وإن آثرتَ الحياةَ فارجعْ مع الصبح لتُسلِمَني إلى غاسلي !

قلت : أمآمِنٌ أنت ألا يكونَ أبوكَ قد أخرجك عنه لأن عينَك تُمسكُ يده وتردُّه عما يَهُمّ به ، حتى إذا خلا وجهُه منك أزهق نفسَه ؟

قال : لم أدَعْه حتى أقسم أن يحيا إلى الليل ، وحتى أقسمتُ أن أرجع لأموتَ معه ؛ فان لم تُمسكه عينُه أمسكه انتظارى ، وقد فرغَت الحياةُ منا فلم يبقَ إلا أن نفرغَ منها ؛ ومن كان فيما كنا فيه ثم انحدر إلى ما انحدرنا إليه ، لم يرِ الناس من نفسه ضعةً ولا استكانة ؛ وإنما خرجتُ لأسألَ هذا الامام (الشعبيّ) وجهاً من الرأى فيمن يقتل نفسه إذا ضاقت عليه الدنيا ، ونزلتْ به النازلاتُ ، وتعذّر القوت ، واشتدّ الضُرّ ، وتدلَّت به المسكنةُ إلى حضيضها ، وألجئ إلى أحوالٍ دقَّته دقّ الرَّحى لما تدور عليه ، ولم يَعُدْ له إلا رأيٌ واحد فى الدنيا : هو أنه مكذوبٌ مزوّرٌ على الدنيا .

قلت : يابنيّ . فانى أراك أديباً ؛ فمن أبوك ؟

قال : هو فلان التاجر ، ظهر ظهورَ القمر ومُحِق محاقَه ، وهو اليوم فى أحلَكِ الليالى وأشدّها انطماسا ، جَهَدَه الفقر ، ويا ليته كان الفقر وحدَه ، بل انتكهتْه العِلَل ، وليتها لم تكن إلا العِللَ مع الفقر ، بل أخذ الموتُ امرأتَه فماتت هماً به وبى ، ولم يكن له غيرى وغيرُها ، وكان كلٌّ من ثلاثتنا يحيا للأثنين الآخرين ، فهذا ما كان يجعل كلاً منا لا يَفرَغُ إلا امتلاءً ، ولما ذهبَت الأمُّ ذهبت الحقيقةُ التى كنا نقاتل الأيامَ عنها ؛ وكانت هى وحدها تُرينا الحياةَ بمعناها إن جاءتنا الحياة فارغة من المعنى ، وكنا من أجلها نفهم الأيام على أنها مجاهَدَةُ البقاء ؛ أما الآن فالحياةُ عندنا قَتْلُ الحياة .. !

قلت : يابنيّ ، فانك والله لحكيم ، وإنى لأنفَسُ بك على الموت ؛ فكيف ردّتك حياة أمِّك عن قتل نفسك ولا تردُّك حياةُ أبيك ؟

قال : لو بقى أبى حياً لبقيت ، ولكن الدهر قد انتزع منه آخرَ ما كان يملك من أسباب القوّة ، حين أخذَ القلبَ الشفيق الذى كان يجعله يرتعد إذا فكّر فى الموت ؛ فهو الآن كالذى يحارب عن نفسه تلقاء عدوٍّ لا يرحمه ؛ إن عجز عن عدوه قتلَ نفسه ليستريح من تنكيل العدوِّ به

* * *

قال المسيِّب بن رافع : وأدركتُ أن الفتى يُريد من سؤال الشيخ نِحلةً يطمئنُّ اليها أن يموتَ مسلماً إذا قتل نفسه كالمضطرّ أو المُكْرَه ؛ فأشفقتُ أن أكسِرَ نفسَه إذا أنا حدّثته أو أفتيتُه ؛ وقلت : هذا مريضٌ يحتاج العلاجَ لا الفُتْيا ؛ وكان إمامُنا (الشعبيُّ) حكيما لحناً فطناً سفَر بين أمير المؤمنين (عبد الملك) وعاهلِ الروم ، فحسدنا العاهلُ أن يكون فينا مثلُه . وقلتُ : لعل الله يُحدث به أمراً . فأخذتُ بيد الفتى اليه ، ومشيتُ أكلّمه وأرفّه عن نفسه . وقلت له : أما تدرى أنك حين فرغتَ من سرور الحياة فرغتَ من غرورها أيضاً ، وأن الزاهد المنقطعَ فى عُرعُرة الجبَل ينظر من صَوْمعته إلى الدنيا ــ ليس بأحكمَ ولا أبصرَ ممن ينظر من آلامه إلى الدنيا ؟

يابنيّ ، إن الزاهد يحسب أنه قد فرّ من الرذائل إلى فضائله ، ولكن فراره من مجاهَدة الرذيلة هو فى نفسه رذيلةٌ لكل فضائله . وماذا تكون العفّةُ والأمانةُ والصدقُ والوفاء والبرُّ والأحسان وغيرها ، إذا كانت فيمن انقطع فى صحراءَ أو على رأس جبل ؛ أيزعم أحدٌ أن الصدق فضيلةٌ فى إنسان ليس حوله إلا عشرة أحجار ؟ وايمُ الله إن الخالىَ من مجاهَدةِ الرذائل جميعاً ، لهُو الخالى من الفضائل جميعاً !

يابنيّ ، إن من الناس من يختارهم الله فيكونون تمحيص هذه الانسانية : يَنْبتون ويُحصَدون ويُطحَنون ويعجنون ويُخبزون ، ليكونوا غذاءَ الانسانية فى بعض فضائلها . وما أراك أنت وأباك إلا من المختارين كأن فى أعراقكما دم نبيّ يُقتَل أو يُطلَب !

قال المسيّب : وانتهينا إلى دار الشعبيّ ، فطرقتُ الباب ، وجاء الشيخ ففتح لنا ، ، وسلّمنا وسلّم ، ثم بَدَرْتُ فقلت : يا أبا عمرو ، إن أبا هذا كان من حاله كَيْت وكيت ، فترادفَتْ عليه المصائبُ وتوالت النكباتُ وتواترت الأسقام . . . ثم اقتصَصتُ ما قال ابنُه حرفاً حرفاً ، ثم قلت : وإنه الآن

موشكٌ أن يزهقَ نفسه وسيَتبعه ابنُه هذا؛ وقد (هداه الله اليك) فجاء يسألك: أيموت مسلماً من ألجئ وأكرِه واضطرّ واستضاق واختل، فتحسّى سماً فهلك، أو توجّأ بحديدةٍ فقضى، أو ذبح نفسه بنصل نحفت، أو حزّ في يده بسكين فما رقأ دمه حتى مات، أو اختنق في حبل ففاضت نفسه، أو تردّى من شاهق فطاح . . . ؟

وأدرك الشيخ معنى قولي: (هداه الله إليك)، ومعنى ما أكثرت من الألفاظ المترادفة على القتل وما استقصيتُ من وجوهه؛ فعلم أني لم أسأله الفُتيا والنص، ولكني سألته الحكمة والسياسة؛ فقال: هذا والله رجلٌ كريم، أخذته الأنفةُ وعزةُ النفس، وما أنا الساعةَ بمعزلٍ عن همه، فنذهب نكلّمه والله المستعان

ومشينا ثلاثتنا، فلما شارفنا الدار قال الفتى: إنه لا يفتح لي إذا رآكما، وربما استفزّ بنفسه فأزهقها، وسأتسوّر الحائط وأدلي ثم أفتح لكما فتدخلان وأنا عنده .

***

ودخلنا، فاذا رجل كالمريض من غير مرض، خوّارٌ مسلوبُ القوة، انزعج قلبه إلى الموت وما به جرأة، وإلى الحياة وما به قوة؛ وصغّر اليه نفسه أنها أصبحت في معاملة الناس كالدرهم الزائف لا يقبله أحد، وثار عليه داء الحزن فأضناه وتركه روحا تتقعقع في جلدها، فهي تهُم في لحظة أن تثب وتندلق

وسلّم الشيخُ وأقبل بوجهه على الرجل، ثم قال: « بسم الله الرحمن الرحيم، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون »

فقطع عليه الرجل وقال كالمحنق: أيها الشيخ، قد صبرنا حتى جاء مالا صبر عليه؛ وقد خلونا من معاني الكلام كله، فما نقدر عليها إلا لفظة واحدة نملك معناها، هي أن ننتهي!

ومدّ الشيخُ عينه فرأى كوّةً مسدودة في الجدار، فقال لي: افتحْ هذه ودَع الهواء يتكلم معنا كلامَه. فقمت اليها فعالجتها حتى فتحتها، ونفذ منها روح الدنيا، وقال الشيخ للرجل: أصغِ إليّ، فاذا أنا فرغت من الكلام فشأنك بنفسك:

أعلمتَ أن رجلا من المسلمين قد مَرِض، فأعضل مرضه فأثبته على سريره ثلاثين سنة لا يتحرّك، وطوى فيه الرجلَ الذي كان حياً ونشر منه الرجل الذي سيكون ميتاً، فبقي لا حياً ولا ميتاً ثلاثين سنة . . . . ؟

قال الرجل: وفي الدنيا من يعيش على هذه الحال ثلاثين سنة؟

قال الشيخ: صحح الكلام واسألْ: أيصبر على هذه الحال ثلاثين سنةً ولا يقول: (جاء مالا صبر عليه)! وأيُّ شيء لا صبر عليه عند الرجل المؤمن الذي يعلم أن البلاءَ مالٌ غير أنه لا يوضع في الكيس بل في الجسم؟

أفتدري مَن كان الصابرَ ثلاثين سنةً على بلاء الحياة والموت مجتمعَين في عظامٍ ممدّدةٍ على سريرها؟ إنه إمامُنا (عمرانُ ابنُ حصَين الخزاعيّ)[1] الذي أرسله عمرُ بن الخطاب يفقّه أهل البصرة، وتولّى قضاءها وكان الحسن البصريُّ يحلف بالله ماقدِمَها خيرٌ لهم من عمران بن حصين. ولقد دخلتُ عليه أنا وأخوه (العلاء) فرأيناه مثبّتاً على سرير الجريد كأنما شُدّ بالحبال وما شُدّ إلا بانتهاك عصَبه وذوَبانِ لحمه ووَهَنِ عظامه؛ فبكى أخوه، فقال: لِمَ تبكي؟ قال: لأني أراك على هذه الحال العظيمة! قال لا تبكِ؛ فان أحبّه إلى الله تعالى أحبُّه إليّ. ثم قال: إن هذه الأرض تحمل الجبالَ فلا يشعر موضعٌ منها بالجبل القائم عليه، إذ كان تماسُكُ الأرضِ كلّها قد جمَل لكلّ موضعٍ منها قوةَ الجميع، ولولا هذا لدكّ الجبلُ موضعه وغار به؛ وكذلك يحملُ المؤمنُ مثلَ الجبال من البلاء على أعضائه لا ينكسر لها ولا يتهدّم؛ إذ كانت قوة روحه قوّةً في كل موضع، فالبلاءُ محمولٌ على همّةِ الروح لا على الجسم، وهذا معنى الخبر: « إن المؤمن بكلّ خيرٍ على كلّ حال، إن روحه لتنزع من بين جنبيه وهو يحمد اللهَ عزّ وجل! »

ثم قال: ولكن ذاك هو المؤمن، فمن آمن بالله فكأنما قال له: « امتحنّي » وكيف تراك إذا كنتَ بطلاً من الأبطال مع قائد الجيش، أما تفرض عليك شجاعتُك أن تقول للقائد: « امتحني وارمِ بي حيث شئت! » وإذا رمى بك فرجعتَ مثخَناً بالجراح ونالك البترُ والتشويه — أتُراها أوصافاً لمصائبك، أم ثناءً على شجاعتك؟

[1] توفي سنة ٥٣ من الهجرة

ثم قال : إذا لم يكن الإيمانُ بالله اطمئناناً في النفس على زلازلها وكوارثها — لم يكن إيماناً ، بل هو دعوى بالفِكْر أو باللسان لا يَعْدُوهما ، كدعوى الجبان أنه بطل ، حتى إذا فَجَأه الرَّوْع أحدَثَ في ثيابه من الخوف . . . ! ومن ثم كان قَتْلُ المؤمن نفسَه لبلاءٍ أو مرض أو غيرهما كفراً بالله وتكذيباً لإيمانه ، وكان عمله هذا صورةً أخرى من طيش الجبان الذى أحدث في ثيابه !

والإيمانُ الصحيحُ هو بشاشةُ الروح ، وإعطاء الله الرِّضى من القلب ، ثقةً بوعده ورجاءً لما عنده ، ومن هذين يكون الاطمئنان . وبالبشاشة والرضى والثقة والرجاء ، يصبح الإيمانُ عقلاً ثانياً مع العقل . فاذا ابْتُلِىَ المؤمن بما يذهب معه الصبرُ ويطيشُ له العقل ، وصار من أمره في مثل الجنون — بَرَزَ في هذه الحالة عقله الرُّوحانى وتولى سياسة جسمه حتى يفيق العقل الأول . ويجيء الخوف من عذاب الله ونقمته في الآخرة ، فيغمر به خوف النفس من الفقر أو المرض أو غيرهما ، فيقتل أقواهما الأضعف ، ويخرج الأعزُّ منهما الأذلَّ

فالاطمئنان بالإيمان هو قتل الخوف الدُّنيوىّ بالتسليم والرِّضى ، أو تحويلِه عن معناه بجعل البلاء ثواباً وحسنات ، أو تجريده من أوهامه باعتبار الحياة سائرةً بكل ما فيها إلى الموت ، وهو بهذا عقلٌ روحانىٌّ له شأنٌ عظيم في تصريف الدنيا ، يترك النفس راضية مَرْضِيّة ، تقول لمصائبها وهى مطمئنة : نعم ، وتقول لشهواتها وهى مطمئنة : لا

وما الانسان في هذا الكون ، وما خيره وشرُّه ، وما سخطه ورضاه ؟ إنْ كلُّ ذلك إلا كما ترى قبضةً من التراب تتكبّر وقد نسيت أنه سيأتى من يكنسها . . . . !

* * *

قال الشيخ : وانظر ، أما تُبْتَلى الشجرةُ الخضراءُ في بعض أوقاتها بمثل ما يُبْتَلى به الانسان ، غير أن لها عقلاً روحانياً مستقرًّا في داخلها يُمسك الحياةَ عليها ويَتربّص حالاً غير الحال ؛ ومهما يكن من أمر ظاهرها وبلائه فالسعادة كلها في داخلها ، ولها دائماً ربيع على قدرها حتى في قُرِّ الشتاء

فالعقلُ الروحانىّ الآتى من الإيمان ، لا عمل له إلا أن ينشئ للنفس غريزة متصرِّفةً في كل غرائزها ، تُكمِّل شيئاً وتنقص من شيء ، وتُوَجِّه إلى ناحية وتصرفُ عن ناحية ؛ وبهذه الغريزة تسمو الروح فتكون أكبر من مصائبها وأكبر من لذّاتها جميعاً

وتلك الغريزة هى نفسها معنى الرضى بالقدَر خيرِه وشرِّه ، وهى تأتى بالتأويل لكل هموم الدنيا ، فتضع في النكبات معانىَ شريفةً تنزع منها شرّها وأذاها للنفس ، وليست المصيبةُ شيئاً لولا تأذِّى النفس بها . وإذا وقع التأويل في معانى النكبات أصبحت تعمل عملَ الفضائل ، وتغيّرتْ طبيعتها ، فيعود الفقر باباً من الزهد ، والمرضُ نوعاً من الجهاد ، والخيبة طريقاً من الصبر ، والحزن وجهاً من الرجاء ، وهلمّ جرّا

والنفس وحدها كنزٌ عظيم ، وفيها وحدها الفرح والابتهاج لا في غيرها ، وما لذّات الدنيا إلا وسائل لاثارة هذا الفرح وهذا الابتهاج ، فان وجدا مع الفقر بطاتْ عزةُ المال وأصبح حجراً من الحجر ، والبلبل يتغرّد بحنجرته الصغيرة مالا تغنى فيه آلاتُ التَّطْريب كلها . وفى النفس حياةُ ما حولها ، فاذا قَويتْ هذه النفس أذلت الدنيا ، وإذا ضعفتْ أذلّتها الدنيا !

* * *

قال المسيب : ثم سكت الشيخ قليلاً ، وكنت أرى الرجل كأنما يغتسل بكلامه ، وقد أشرق وجهه وتَنضر وانقلب إلى روحه التى كان منصرفاً عنها ، فعادت مصائبه تضغطُ روحاً لينةً كما تضغط اليد على الماء ، وأيقن أن النكبةَ كلها هى أن ينظر الانسان إلى الحياة بعين شهواته فيُنكب أول ما ينكب في صبره ويقينه

ثم قال الشيخ ، ولقد رأيت بعينيْ رأسى معجزة (العقل الروحانى) وكيف يصنع : رأيت عروة بن الزبير[1] وهو شيخ كبير — عند الوليد بن عبد الملك ، وقد وقعت في رِجْله الأَكَلة ، فأشاروا عليه بقطعها لا تفسد جسدَه كلّه ، فدُعِىَ له من يقطعها ، فلما جاء قال له نسقيك الخمر حتى لا تجدَ لها ألما . فقال عروة : لا أستعين بحرام الله على ما أرجو من عافية ! قال : فنسقيك المُرْقِد . فقال عروة : ما أُحِبّ أن أُسلَب عضواً من

(١) توفى سنة ٩٣ للهجرة

أعضائى وأنا لا أجد ألم ذلك فأحتسبه

ثم دخل رجال أنكرهم عروة ، فقال : ما هؤلاء ؟ قولوا : يُمسكونك ، فان الألم ربما عَزَبَ معه الصبر . قال أرجو أن أكفيكم ذلك من نفسى !

قال الشيخ : فانظر أيها الضعيف الذى يريد قتل نفسه كيف صَنع عروة ، وكيف استقبل البلاء ، وكيف صبر ، وكيف احتمل . إنه انصرف بحسه إلى النفس فانبسطت روحه عليه ، وأخذ يكبر ويهلل ليبقى مع روحه وحدها ، وخرج من دنيا ظاهره إلى دنيا باطنه ، وغَمِرَتْ حواسه وأعصابه بالنور الالهى من معنى التكبير والتهليل ، فقطع القاطعُ كعبه بالسكين وهو لا يلتفت ، حتى إذا بلغ العظم وضَع عليها المنشار ونشرها وعروة فى التكبير والتهليل . ثم جىء بالزيت مغلياً فى مغارف الحديد فحُسِم به مكانُ القطع ، فَغُشِى على عروة ساعة ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه ، ولم يسمع منه فى كل هذه الآلام الماحقة أنةٌ ولا آهةٌ ، ولم يقل قبلها ولا بعدها ولا بين ذلك : « جاء ما لا صبرَ عليه ؟ »

***

قال المسيب : وأرْهِف بأسُ الرجلِ الضعيف وقوى جأشه وانبعثت فيه الروحُ إلى عمر جديد ، ونشأ له اليقين من عقله الروحانىّ وعرف أن ما لا يمكن أن يدركَ ، يمكن أن يتركَ

وجاء هذا العقل الروحانى فمرّ بالمنشار على اليأس الذى كان فى نفسه فقطعه ، فما راعنا إلا أن وثب الرجل قائماً يقول : الله أكبر من الدنيا ، الله أكبر من الدنيا !

ثم أكب على يد الشيخ وهو يقول : صدقت ؛ « إنْ كلُّ ذلك إلا كما ترى قبضةٌ من التراب تتكبر ، وقد نسيتْ أنه سيأتى من يكنسها » (١)

***

ماذا يصنع الانسان إذا غلط فى مسئلة من مسائل الدنيا إلا أن يتحرّى الصواب ويجتهد فى الرجوع اليه ويصبر على مايناله فى ذلك ؟ وماذا يصنع الانسان إذا غلطت فيه مسئلة ... ... ؟

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

(١) سيتم القول فى الانتحار إن شاء الله فى المقال التالى

عصر الخفاء فى مصر الاسلامية

٤ ـ الحاكم بأمر الله

للأستاذ محمد عبد الله عنان

والآن ماذا نستطيع أن نقرأ فى هذا الثبت الدموى الحافل من خواص الحاكم وصفاته ؟ لقد كانت هذه الجرائم المثيرة بلاريب عنوان اجتراء مروع على الشر ، وشغف واضح بالسفك واحتقار بين للحياة البشرية ؛ ولكنها لم تكن نزعة دموية فقط ، ولم تكن بالأخص دون غاية . كان الارهاب فى نظر الحاكم وسيلة للحكم ، وكان القتل المنظم دعامة هذا الارهاب الشامل ؛ فاذا زعيم أو رجل من رجال الدولة وصل إلى مدى خطر من السلطان والنفوذ ، فان القتل أنجع وسيلة لسحقه وسحق نفوذه ؛ وإذا بدرت من فريق من الناس بادرة تذمر أو تمرد على أمر من الأوامر أو قانون من القوانين ، فان إزهاق عدد منهم يكفل عودهم إلى السكينة والخشوع . وكانت هذه السياسة الدموية تحيط عرش الحاكم بسياج منيع من الرهبة ، وتخمد الأطماع المتوثبة فى مهدها ، وتنذر الزعماء ورجال الدولة بالخضوع المطلق لهذا الفتى الجرىء . ولقد كان القتل دائماً وسيلة الطغاة الى تأييد سلطانهم ، وكان الحاكم طاغية قوى النفس والشكيمة ..وقد كانت الأهواء والفورات العنيفة التى تجيش بها نفس الحاكم تمد هذه السياسة الدموية بروح من الاسراف والقسوة ، ولكنها كانت فى نظره قبل كل شىء وسيلة من وسائل الحكم ، وكان لها بلاريب أكبر الأثر فى توطيد سلطة الحاكم ، وسحق عناصر الخروج والثورة التى تتربص عادة بأمثاله الطغاة المسرفين

هـذا ويفسر لنا بعض المؤرخين المسلمين إسراف الحاكم فى القتل بأنه كان تقرباً منه « لزحل وطالعه المريخ » ، وقد كان الحاكم شغوفاً بالفلك ورصد النجوم كما سنرى (١) ، ولكننا لا نستطيع أن نسيغ هذا الرأى من الوجهة التاريخية ، فليس فى

(١) هذا هو قول قزاوغلى فى مرآة الزمان (النجوم الزاهرة ص ١٧٧)

سيرة الحاكم رغم شـــذوذه ، وتباين معتقداته وشغفه بالخفاء ، ما يدل على أنه كان يأخذ بمثل هذه الرسوم الوثنية المثيرة

— ٦ —

كان شغف الحاكم بالليل من أظهر خواص هـذه المرحلة الأولى من حكمه . كان الحاكم يعقد مجالسه ليلاً ، ويواصل الركوب كل ليلة ، وينفق شطراً كبيراً من الليل فى جوب الشوارع والأزقة (سنة ٣٩١ هـ) ، وكانت القاهرة تبـدو فى هذه الفترة بالليل ، كأنها شعلة مضيئة ؛ وتجرى جميع المعاملات بالليل ، وتختلط حياة الجد بحياة اللهو والقصف ، فتسطع الميادين والمنتديات بالوقود والزينات ، وتغص بصنوف اللهو والمرح . فلما خرج الناس فى ذلك عن الحد ، وبالغوا فى اللهو والاسراف والزينة ، منع الحاكم النساء من الخروج ليلاً لكى تخف عوامل الفتنة والغواية ، ثم أمر بمنع الرجال من ارتياد الحوانيت والمقاهى ، وعاد الظلام يخيم على القاهرة بالليل ؛ وشغف الحاكم بالليل وظلماته من غريب أطواره ونزعاته ، حتى لقـد لبث مدى حين يؤثر الجلوس فى الظلام [1] بيد أنه ينم فى نظرنا عن روح فلسفى تزيد فى غموض نفسه

ولم يمض عامان أو ثلاثة حتى عمد الحاكم الى إصدار طائفة من الأوامر والقوانين المدهشة التى لم يسمع بمثلها من قبل فى أى مجتمع اسلامى . وكانت هذه المراسيم دينية واجتماعية ، وكان مما يزيد فى غرابتها وغموض بواعثها أنها كانت تصدر ثم تمحى بعد قليل وتستبدل بعكسها ، ثم يعاد صـدروها وهكذا . وقد اتخذ المؤرخون المسلمون على كر العصور هـذه المراسيم حجة للحكم على الحاكم وعصره بأقسى الأحكام ، واكتفوا فى تعليلها بنظرية بسيطة ، هى أن الحاكم كان ذهناً مضطرباً لا يصدر عن روية أو حـكمة ، ولم تكن هذه الأوامر والاجراءات الشاذة سوى نزعات مخبول لا يستقيم له منطق أو غاية . ويحسن قبل أن نناقش هذا الرأى أن نستعرض هذه المراسيم أولاً ، وأن نحاول أن نتفهمها ، وأن نستقصى بواعثها على ضوء الظروف التى كان يجوزها المجتمع يومئذ

ونبدأ بالمراسيم الاجتماعية . فى سنة ٣٩٥ هـ ، صـدرت أول طائفة من هذه القوانين المدهشة ، فمنع الناس من أكل الملوخية والترمس والجرجير والتوكلية والدلينس ، وحرم ذبح الأبقار السليمة إلا فى أيام الأضحية ، وحرم بيع الفقاع وعمله البتة وحرم صيد السمك الذى لا قشر له وكذلك بيعه ؛ وحرم دخول الحمام بلا مئزر ؛ وحرم على النساء أن يكشفن وجوههن فى الطريق ، أو خلف الجنائز ، وحرم عليهن التزين والتبرج ؛ وشدد الحاكم فى تنفيذ هـذه الأوامر ، وعوقب كثيرون من المخالفين بالجلد والتشهير والأعدام . ثم حـُرم على الناس أن يخرجوا من منازلهم إلى الطرقات بعد الغروب ، وأن يزاولوا البيع والشراء بالليل ، فخلت الطرق من المـارة ، وأقفرت الشوارع والميادين بالليل ، وغدت القاهرة كالمدينة المحصورة ؛ وحرم شرب الخمر من نبيذ وغيره ، وكسرت أوانى الخمور وأريقت فى كل مكان ، وأمر بتتبع الـكلاب وقتلها أينما وجدت ، فطوردت فى كل مكان وأعدمت حتى خلت منها كل الطرق والدور [1] ؛ وفى هذا العام أيضاً حرم على كل من يركب مع المكاريين أن يدخل راكباً من باب القاهرة ، وحرم ذلك على المكاريين أنفسهم ، وحظر على التجار والباعة أن يجلسوا على باب الزهومة (من أبواب القصر) ، والا يمشى أحد بحذاء القصر ، ثم أعفى المكارية بعد ذلك من الأمر وصدر لهم أمان خاص [2]

وهكذا اضطربت أوضاع الحياة الاجتماعية المصرية ، واستمر تطبيق القوانين والأوامر الجديدة على أشده . وفى سنة ٣٩٨ هـ صدرت عدة مراسيم جديدة ؛ فمنع الناس من التظاهر بالغناء ، ومن ركوب البحر للتفرج ، وذلك لمناسبة نقص النيل فى هذا العام ؛ وشدد فى منع بيع الخمور ؛ ثم صدر مرسوم بمنع الناس كافة من الخروج قبل الفجر وبعد العشاء ، فزادت المعاملات اضطرابا واشتد الأمر على الـكافة ، وسرى اليهم الخوف والجزع ، واشتد الغلاء ، وتفاقمت الحال بظهور الوباء ، وعصف المرض والموت ، وعز القوت والدواء . وفى سـنة أربعمائة صدرت أوامر جديدة بالتشـديد فى حظر الخمور وبيعها ؛ ومنع ركوب المراكب فى الخليج ، وسدت أبواب القاهرة التى تلى الخليج وأبواب الدور والطاقات المطلة عليـه [3] وعوقب الـكثيرون من أجل إحراز

(١) ابن قزأوغلى فى مرآة الزمان (راجع النجوم الزاهرة ٤ ص ١٧٦)

(١) ابن خلـكان ج ٢ ص ١٦٦ — المقريزى ج ٤ ص ٦٩ و ٧٠
(٢) المسبحى فى حوادث سنة ٣٩٥ ونقله المقريزى — ج ٣ ص ٤٤
(٣) المقريزى عن المسبحى — ج ٣ ص ٣٨

الفقاع والملوخية والسمك الذى لا قشر له ومن أجل بيع النبيذ وإحرازه ، وكانت العقوبة تصل فى أحيان كثيرة الى الاعدام .

وفى سنة اثنتين وأربعمائة منع النساء من زيارة القبور ، فلم ير فى الأعياد بالمقابر امرأة واحدة ، وحُظر الاجتماع على شاطئ النيل للتفرج ؛ وحرم لعب الشطرنج وعوقب المخالفون بالجلد ؛ وحظر بيع الزبيب واستيراده ، وأحرق جميع ما كان موجوداً منه ، وحظر بيع العنب إلا أربعة أرطال فما دونها حتى لا يستعمل فى صنع النبيذ ، وحظر عصره وأتلف كثير منه وأغرق فى النيل أو ديس فى الطرقات ، وسُير المأمورون الى الجيزة ، وكانت يومئذ عامرة بحدائق الكروم فأتلفوا كرومها ، وصودر ما كان فى معاصرها ومخازنها من جرار العسل ، وكسرت وأريقت فى النيل ، وحدث مثل ذلك فى سائر الجهات [1]

وفى سنة اربع وأربعمائة صدر مرسوم بتحريم صناعة التنجيم والكلام فيها ، وأن ينفى المنجمون من سائر المملكة ، فاستغاث المنجمون بالقاضى الأكبر مالك بن سعيد الفارقى ، فعقد لهم التوبة من هذه الصناعة ، وأعفوا من قرار النفى ؛ وحدث مثل ذلك للمغنين والمطربين ، فهجروا الغناء وأعفوا من المطاردة ؛ وشدد فى قتل الكلاب مرة أخرى . وفى شعبان من هذه السنة ذهب الحاكم فى معاملة النساء إلى ذروة القسوة والشدة ، فأصدر مرسومه الشهير بمنعهن من مغادرة دورهن والخروج إلى الطرقات بالليل والنهار ، ومنعهن من دخول الحمامات العامة ، ومنع الأساكفة من عمل خفافهن ، فاختفى النساء من المجتمع المصرى ، وساده الانقباض والوحشة ، وأغلقت المتاجر التى تبيع السلع النسوية ، وساد الذعر بين النساء ، ولزمن دورهن فى روعة وخشوع ، وعوقب كثير من المخالفات بالموت ؛ واشتد الأمر بنساء الكافة اللائى ليس لهن من يقوم بأمرهن واستغثن بأولى الأمر ، فأمر الباعة أن يحملوا السلع والأطعمة وكل ما يباع فى الأسواق إلى الدروب ، ويبيعوه للنساء فى منازلهن ، وأن يحمل الباعة أداة كالمغرفة لها ساعد طويل يمد الى المرأة وهى من وراء الباب وفيه ماتشتريه ، فتتناوله وتضع مكانه الثمن ، ولا يسمح لها مطلقاً أن تبدو من وراء الباب [2] وعانى النساء هذه الشدة زهاء سبعة أعوام حتى وفاة الحاكم بأمر الله ، وكان حادثاً منقطع النظير . ولم يحدث قط فى أى مجتمع إسلامى ، بل لم يحدث فى أى عصر من عصور التاريخ أن عانى النساء مثل هذه المحنة القاسية ، وسلبن الحرية على هذا النحو الشامل

وكان مما يزيد فى صرامة القوانين الاستثنائية ، الشدة فى تنفيذها ، وروعة العقوبات التى سنت لمخالفيها ؛ وكان السهر على تطبيقها من أهم واجبات مدير الدولة أو قائد القواد ؛ فنجد مثلاً فى السجل الصادر بتعيين « غبن » قائداً للقواد ومديراً للشرطة والحسبة ، (سنة ٤٠٢ هـ) تنويهاً خاصاً بمراعاة تحريم النبيذ وغيره من الخمور وتتبع ذلك والتشديد فيه ، وفى تحريم الفقاع وبيعه ، وتحريم أكل الملوخيا والسمك الذى لا قشر له ، والمنع من الفرجة والملاهى كلها ، ومنع النساء من حضور الجنائز ، ومنع بيع الزبيب والعنب والعسل الخ [1] ، وكانت العقوبات تختلف بين التشهير [2] والجلد ، وتصل فى أحيان كثيرة إلى الاعدام

هذه خلاصة وافية لما أصدر الحاكم أو أصدر فى عهده من المراسيم والأوامر الاجتماعية الاستثنائية ، ومعظمها يحمل طابع القسوة والشذوذ ؛ ولكن سنرى أنها لم تكن دون غاية ، ولم تصدر كما يبدو لأول وهلة ، عن نزعة مخبول أو هائم ، وأن كثيراً منها يحمل بالعكس طابع الطرافة والحكمة ، ويرمى إلى غايات بعيدة قد فطن اليها هذا الذهن الجرئ ، واتخذ منها مُثُلا

— ٧ —

نعرض بعد ذلك إلى طائفة أخرى من مراسيم الحاكم بأمر الله هى المراسيم الدينية ، وقد كانت كالمراسيم الاجتماعية تحمل فى كثير من الأحيان طابع الشدة والتناقض

وبدأ الحاكم بهذه المراسيم الدينية لأول عهده بالحكم أيضاً . ففى سنة ٣٩٥ هـ ، أصدر أمره للنصارى واليهود بلبس الغيار وشد الزنار ؛ وفى سنة ٩٩ أمر بهدم بعض كنائس القاهرة ونهب ما فيها ، ونفذت الأوامر بهدم كنيسة قمامة (القبر المقدس) ببيت المقدس ونهبها ، ولكن أكابر الأحبار والنصارى سعوا على ما يظهر حتى عدل عن تنفيذ الهدم ؛ وفى العام التالى صدر

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ ـ المقريزى ج ٤ ص ٧٢

(٢) ابن خلكان — ج ٢ ص ١٦٧ والمقريزى ج ٣ ص ٧٣ وابن الأثير ج ٩ ص ١٠٩

(١) المقريزى ج ٤ ص ٨٨

(٢) التشهير هو أن يطاف بالمذنب على حمار أو جمل وتعلق عليه كتابة بمضمون ذنبه ، وقد يكون عقوبة أصلية ؛ وقد يعقبه بعد ذلك جلد أو إعدام

مرسوم جديد بالتشديد على اليهود والنصارى فى لبس الغيار وتقلد الزنار . وفى سنة ٤٠٢ صدر مرسوم شامل ضد النصارى واليهود ، يقضى بأن يلبسوا العمائم السود ، وأن يعلق النصارى فى أعناقهم صلباناً ظاهرة من الخشب طول الواحـد منها ذراع فى ذراع ووزنه خمسة أرطال ، وأن يعلق اليهود فى أعناقهم قرامى من الخشب زنتها خمسة أرطال أيضاً ، وحرم على الفريقين معاً ركوب الخيل ، وأن يكون ركوبهم الحمير والبغال بسرج من الخشب وسيور سود عاطلة من كل حلية ، وألا يستخدموا مسلماً أو يقتنوا عبـداً مسلماً أو جارية مسلمة ، أو يركبوا حماراً لمكارى مسلم ، أو سفينة لملاح مسلم ، وأن يحمل النصارى الصلبان ، واليهود الأجراس فى أعناقهم عند دخول الحمام تمييزاً لهم عن المسلمين ؛ ثم أفردت لهم بعد ذلك حمامات خاصة ، وعلقت الصلبان على حمامات النصارى ، وقرامى الخشب على حمامات اليهود ؛ وطبقت هـذه الأوامر والقوانين بمنتهى الصرامة فاشتد الأمر على اليهود والنصارى وساد بينهم الروع والرهبة ، وأسلم كثير منهم تجنباً لهذه المطاردة ونفى الكثير منهم خارج الديار المصرية ، وهـدم كثير من الكنائس والأديار والبيع ونهبت ، وصدر بعد ذلك أمر جديد بهدم كنيسة قمامة (القبر المقدس) . وعانى اليهود والنصارى هذه المحنة أعواماً ، وكانت من أشد ما عانوا فى ظل الدولة الاسلامية بمصر . ثم خفت وطأة المطاردة عنهم ، وأطلقوا من بعض قيودهم ، وسمح لهم بتجديد ما درس من الكنائس والبيع ، وارتد كثير ممن أسلموا منهم إلى دينه الأول ، بيد أنهم لبثوا يعانون آثار المحنة حتى وفاة الحاكم بأمر الله [1]

ولقد كانت هذه المطاردة الصارمة للذميين من أهم ظواهر عصر الحاكم بأمر الله ؛ وكانت بلاريب خطة مقررة ، ولم تحمل فى مجموعها طابع التناقض ، ونستطيع أن نقول إنها كانت انقلاباً جوهرياً فى السياسة الفاطمية إزاء اليهود والنصارى . ذلك أن الدولة الفاطمية ، كانت منذ قيامها بمصر تؤثر سياسة التسامح الدينى ، وتذهب فى هذا التسامح إلى أبعد مدى ، فتصطفى اليهود والنصارى ، وتوليهم مناصب الثقة والنفوذ ، وكان بين وزرائها كثير من اليهود أو النصارى مثل الوزير يعقوب بن كلس وزير المعز ، ثم ولده العزيز ، فقد كان يهودياً ثم أسلم ، وكان أعظم وزراء الدولة الفاطميـة ؛ وعيسى بن نسطورس النصرانى ، ومنشا اليهودى ، وزيرا العزيز بالله ؛ وتولى الحكم ثلاثة من الوزراء النصارى فى الفترة الأولى من عصر الحاكم ذاته ، هم الرئيس فهد بن ابراهيم ، وابن عبدون ، وزرعة بن عيسى بن نسطورس ، . وكان النصارى واليهود يتمتعون قبل عصر الحاكم بكثير من الحرية والتسامح ، ويؤذن لهم ببناء الكنائس والأديار والبيع . ولم يشذ الحاكم عن هذه السياسة لأول عهده ، وكان ذلك راجعاً إلى نفوذ الوزراء النصـارى ، وربما إلى نفوذ أمه النصرانية وأخته ست الملك ، وقد كانت تؤثر سياسة أبيها العزيز فى الرفق بالذميين ؛ ولكن الحاكم انقلب فجأة إلى سياسة المطاردة الدينية ، وأبدى فى تطبيقها منتهى الغلو والتطرف ، بيد أنا سنرى أن هذه السياسة ترجع أيضاً إلى بواعث لها خطرها وقيمتها

للبحث بقية

النقل ممنوع

محمد عبد الله عنان
المحامى

(١) راجع ابن خلكان . ج ٢ ص ١٦٦ — والمقريزى ج ٤ ص ٧١ و ٧٢ و ٧٣ — والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٧ و ١٧٨

كلمات . . .

للأستاذ محمد روحي فيصل

الشعراء ثلاثة : شاعر موهوب ينفث من صدره معنى الفاظه ، ويستخرج من لغته الفاظ معناه ! ينحدر الى طبعه عند البيان ، وينطوى على نفسه لينشرها ويجلو المبهم منها ، ويدع العرض العابث ، ويفرز المتداخل المتشابك ، ثم يسجل الخاجة الجميلة أو الخاطر الاصيل وكأنما يلد من لحمه ودمه جنيناً حياً ، يكفله ويحبه ويحرص على ان يكون قوياً نشيطاً صحيحاً ، ويأخذه بألوان من التهذيب والرعاية والنضارة حتى يثمر ويؤاتى أكله . ولئن نصب الشاعر فى الولادة ، وعانى ألم البيان ، فلقد يستمتع بمرأى الوليد النضر الجميل يسعى وينطق ، ثم يكون له أثره القوى فى الوجود ، ونصيبه الموفور من الحياة ، وفضله العميم على الناس .. !!

وشاعر ميت يتصيد اللفظة الشاردة والكلمة المتأبدة والحرف الناشز من بطون المعاجم ، وانتاج الزملاء ، وقديم الشعراء ، وكأنما يتصيد الفريسة الدسمة الفارهة السمينة ! ويلتزم صنعة البديع وحسن التشبيه ودقة المقابلة ورقة الجناس ، وكأنما يلتزم طرائق البيان الخالدة ، ويعلن عن ثقافته البالغة وذوقه الصحيح !

وشاعر مفلس لو اجتمع للرثاء ، واعتزم التعزية والبكاء ، لتصفح المراثى الباكية واحدة واحدة ، ومعنى معنى ، وبيتاً بيتاً ، ثم اختلس هذا ، وشوه هذا ، وحرف ووجه وزاد .. لقد يقتنى المسكين روائع غيره ، ويختبىء وراء نظمه ، وينزل عن شخصيته ، ويسف بكرامته — حباً للذكر والأحدوثة !

قال التاريخ : « عبثاً ينتج شاعر الصنعة وشاعر السرقة »

* * *

الألفاظ ! الألفاظ !

اداة المبين ، ووكر المعنى ، وسر الفن ! والشاعر العبقرى من عرف كيف يزاوج بينها ثم احسن التأليف ، وابدع الموسيق ، ونشر الجرس ! فانما الشعر لو تدبرت نغم علوى لطيف يهز الأذن، ويشيع فى القلب ، ويحيا فى النفس ، ويخلد فى الذاكرة ، ويرن فى الخيال . كان اللفظ وما يزال الساحر العجيب الذى يلعب بالأهواء والأعصاب كما يلعب المرتاض بكرة القدم ، ولعلك تذكر فيما تذكر درامة شكسبير فى يوليوس قيصر ، وقوة البيان عند انطوان وبروتس ، وسلطان اللفظ على العامة والرومانيين

* * *

لشد ما يشبه الفنان الأنسان الأول أو الطفل الناشىء ! ينظر الى الدنيا بعين رغيبة ، ويشعر بنفس ظمآنة ، ويفكر بعقل طُلَعَة . ولكنه يمتاز منهما — انصح له الامتياز — بأنه يجمع الأسباب ، وينظم المنثور ، ويلمح التناسب ، ويتذوق الجمال ! ومهمته الكبرى انما هى على التحقيق الأنحدار الى النفس ينفض غبارها ، ويكشف اتساقها ، وينير زواياها ، ثم يخرجها لغة تهز القلب وتفيد العقل

كذلك العالم فى استقرائه يدرك المجهول ، ويصل العلة بالمعلول ، ثم يضع القاعدة ويعمم القانون . فلو خطا أحد أمامه خطوة أو خطوتين لقدّر القوة ، وراز الشدّة ، وقاس المسافة ، ووزن الكتلة ، وانتهى من هذا كله إلى تقييد الحركة واعلان العمل

العالم والفنان كلاهما ينظر إلى أبعد من أنفه ، ويسبر غور الأشياء . لقد يشتركان فى الذات ، ويتداخلان فى الموضوع ، ثم يختلفان بعد هذا فى الآلة والطريق . . . ! !

* * *

أرأيت إلى الحياة فى مضطربها كيف تبدلها اللمحة ، وتنقلها اللاوة ، وتصبغها العاطفة ، وتخضعها الظروف ؟ ذلك ما يبعث على خلودها وامتدادها وجدّتها وجمالها ، وذلك ماوكل إلى الفن بتصويره . فالحقيقة الفنية تتصل بالمزاج والزمن والموقف ، وهذه كلها أبداً فى تطور مستمر عجيب ، أما الحقيقة العلمية فثابتة على الدهر والأشخاص ، ولئن طرأ عليها تحوير أو هدم فانما يكون لتقريبها من الصحة والدقة والشمول

الدنيا واحدة عند العالم من حيث الجوهر والنظام . ولكنها دُنًى كثيرة عند الفنان من حيث الشكل والاحساس

* * *

ما عجبت لأحد من أبناء الفن عجبى لهؤلاء الأدباء الذين يُزْهون بأنفسهم فلا يكتبون إلا لها ، ويعنون بعواطفهم فلا يتحدثون إلا عنها ، وهم لو سئلوا ما بال الجمهور يقرأ آثارهم وينشد

أشعاركم ؟ لقالوا : إنه متطفل يحب أن يسمو بقدره إلى منازل الكتاب والشعراء ، فيستشعر الذى يستشعرون ، ويطوف حيث يطوفون . فالجمهور — مهما دقت نظرته وسمت أهواؤه — طفل لدنٌ مابرح فى كل العصور والأقوام يلهو ويعبث !!

أدب هؤلاء الأثرين يغشاه فى أغلب الأحيان غموض ، وتطل عليه فوضى ، ثم لا يصح معه مقياس من المقاييس الأدبية المعروفة ، وكيف تستطيع أن تقدره وتحكم له أو عليه مادمت لا تفهمه ولا تتذوقه ؟ إنما ينبغى للكتاب والشعراء أن يقطفوا من النفس والحياة ما يشترك فى فهمه الناس جميعاً ، أو الكثرة الغالبة من الناس ، أو الطبقة النيرة منهم . ولئن صادف ألاّ يكون هذا ولا هذا فهو إلى السخف والهذيان أدنى وأقرب . . .

* * *

غاية الفن أن يجلو النفوس ويهز الشعور ، النفوسَ بأسرها والشعور على تلونه ، شريطة أن تكون نفسنا وشعورنا فى البداءة !

* * *

الكلمة الواحدة تدخل فى رأسين اثنين ، فتحمل إلى هذا النشوة والسلام ، وتحمل إلى ذاك الفتنة والآلام !

* * *

كل امرىء وإن ثار متصل بالمجتمع ، مدنى بالطبع . وهذه الوشائج القوية المبهمة التى تربطه بالانسانية تؤثر فيه ويؤثر فيها ، قد لا يلمحها أوساط الناس وطغمتهم ، وإنما تلمحها طائفة رفيعة خصها الله بسلامة الفكر ، وحسن البصر ، وقوة التصور ، وهبة التصوير

* * *

قد يجيش صدر الأديب بالمعانى حتى ما يستطيع أن يحتملها ، وقد ينضب حتى كأنه بلقع قفر . فحياته أبداً فى نقلة وتناقض واضطراب ، ما أشبهه بأسفنجة رخوة لدنة تمتلىء حيناً وتفرغ حيناً ! فكل ما خرج على لسانه قد تمثله من قبل ووعاه خياله ، قاعدته فى البيان : « خذْ وأعط »

* * *

قال سنت بوف : نصيحتى إلى أدباء الشباب ألاّ يقلدوا من يعجبون بهم من أعلام البيان ورجال الفن ، فذلك يميت نفوسهم ويشوه شخصيتهم ، وإنما يتذوقون آثارهم فحسب ، ثم يصورون حياتهم الخاصة كما صوروها فى صدق وغير تكلف ، وليكن لهم مثل أعلى يوجه انتاجهم ويصحح مقاييسهم ويهذب أهواءهم ، ولا غضاضة عليهم — وهم ينشئون فى لغتهم الصحيحة متأثرين بالمحيط والبيئة يستمدون منهما الوحى والقوة — أن يتساءلوا من حين لآخر ، وجباههم مرفوعة إلى السماء ، وعيونهم شاخصة إلى الأموات الأحياء : « تُرى ماذا يقال فينا ! »

* * *

تستهل الحياة الأدبية عملَها فى الفرد والأمة بالشعر ، وتدرج على الشعور ، ثم تستشرف للتفكير ، وتنتهى إلى النثر . ويكاد هذا يكون قانوناً لا يقبل استثناء ، فلقد تذكو العاطفة فينطلق الكلام شعراً منظوماً ، ويخبو الوجدان فينمو العقل ويستفيض النثر ! وهنا السر كل السر فى مناعة الشعر الصادق الرفيع ، ونُدرة النابغين فيه من المعاصرين

* * *

القارىء — هذه قصيدة قدسية قد فرغتُ من تلاوتها منذ حين . ما أصدقها وما أنور معانيها ! إنها الحقيقة بأطارها وإشراقها ! لا ، إنها قطعة من حياتى ! لا لا ، إنها مصدر حياتى ! ويح نفسى كم أحب أن أعلن هذا للشاعر . . .

المرأة — حذار حين تلقاه ألاّ تهمس فى مسمعيه ما تريد ، وحذار أن يجمد خاطرك ويحتبس لسانك وتنكمش طبيعتك ! إنما الشاعر خطيب لسِن قد وقف إلى الراديو يرسل معانيه الطلقة كأشعة رفّافة تنطلق فى الفضاء وتتوزع على الأرض ، ما يرى جمهوراً صاغياً مشجعاً ولا خيالاً لجمهور ، ولكن حياة صامتة هادئة تأخذ السبل وتملأ العيون ! أرأيتَ إلى الحياة الصامتة الهادئة كيف تكون جافة ملولة إذا لم يتخللها الفينة بعد الفينة صراخ النقد أو هتاف الاستحسان ! لقد يطل من كوة الفضاء صدى جميل تبرق له أسارير الشاعر ، وينطلق بيانه ، وتخصب عبقريته ، ويسمو انتاجه ، ثم يعلم أن معانيه التى أرسلها شعاعاً قد لامست حياً يسمى ، وحسب الفنان هذا من غاية وراحة ! !

القارىء — أنا متصل يا عزيزتى اتصالاً وثيقاً بكبار الكتاب وسادة الفن ، أما « ع » فى الشعراء فقد تلابسنه اليوم واليومين

وتجلسين اليه طويلاً ، وتتحدثين اليه ما شئت أن تتحدثى ، فما يبرح فى حضرتك جامداً بكئ اللسان ، سخيفاً إذا ارتأى ، مضحكاً إذا أشار ، ينشر عليك اضطراباً من رأيه ودمامة من وجهه ووساخة من ملبسه ! ولكن ما يكاد يرجع إلى نفسه ويغلق أبواب غرفته ، ويستوحى شيطان شعره حتى ينقلب مبيناً محدثا حلواً رائعا فى رأى البصر ورأى البصيرة . لشدّ ما أسكرتنى أشعاره وهزتنى موسيقاه ! فنصيحتى إليك ألا تقربى عظماء الرجال ، أو تدخلى بيوتهم وتعيشى فى ظلهم ، ولكن اعشقيهم إن شئت عن بُعد ، وكونى معهم على غير اتصال !

المرأة — دع «عيناً» هذا فما أحب أن نتحدث فيمن غَبرَ من الأحياء . إنما الأموات خيوط عريضة قوية تنسج مادة الماضى وتقوّم أحداث التاريخ ، وتؤلف وحدة الأمة ! هذا ابن أبى ربيعة الكبير كان يدلف إلى الكواعب الحسان فى فحمة الليل ، وغفوة الناس ، وغفلة الحراس ، فيقضى لبانته منهن كما شاء الهوى والشباب ، ثم يلاقى ناقته فى العراء ، ويغيب فى مطاوى الزمن ! ومثله فى اجتلاء الجمال جوت وبودلير ولامرتين يسبحون جاهدين فى بحر الوجود ، لا يستشرفون إلى شاطئ من شطآنه ، ولا تزيحهم موجة من أمواجه . . .

القارئ — هم يسبحون ؟ لا ، إنهم أوعية يملؤها الزمان ويختبئ فيها

المرأة — ثق أن الفنان يعطى أكثر مما يأخذ ، ويعمل أكثر مما يجب ، ويهب أكثر مما يدع

القارئ — ماذا تعنين ؟

المرأة — أعنى أنك مخطئ حين تجل الفن وتجعله تاجاً جميلا على رأس الأنسانية . فالفنان كالممثل يصور معالم الحقيقة ، ومواضعات الناس ، واضطراب الحياة فهو كما ترى « ناقل » لا « مخترع » . هو نفس فى النفوس ، ورجل كالرجال

القارئ — هل دريت ان حفيد الشاعر المشهور « ج » قدمات على أسوإ ما يموت البؤساء من الفقر والوحدة والنكران ؟ انا أرى الا يعقب الفنان ذرية تعيش من بعده ، وتسعى خلف نعشه ، وانما يقوم بعمله الفني أعزب وحيدا فى ذاكرة التاريخ

المرأة — أنا لست أرى هذا ، فالفنان حلقة فى سلسلة الأنسانية ما ينبغى أن يكون آخرها وقاطعها ، فلينحدر منه الناس كما انحدر هو من الناس ، فأما البؤس فكما يصيب الفنان قد يصيب غيره . . !!

بيروت — محمد روحى فيصل

المصادر الأغريقية

للفلسفة الاسلامية

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

لا يستطيع باحث أن يفهم الفلسفة الأسلامية فهماً صحيحاً دون أن يدرسها على ضوء الفكر الأغريقى ومنتجاته . ولا نبالغ مطلقاً إذا قلنا إنه تعذر علينا أحياناً فهم مسألة لدى (الفارابى) أو (ابن سينا) قبل أن نقرأ مصدرها فى كتب (أرسطو) أو (أفلاطون) . وعلّ أحسن ما كُتب فى تاريخ الفلسفة الاسلامية إلى اليوم كان من عمل رجال قارنوا القديم بالحديث ، وقرّبوا فلاسفة الأسلام من أساتذتهم الأغريق . على العكس من ذلك يكاد يرجع العيب العام لأكثر ما كُتب فى هذه الناحية إلى أن مؤلفيه نسوا أو تناسوا الصلة بين الفلسفة العربية والفلسفة الأغريقية ؛ فنسبوا إلى أشخاص آراء ونظريات ليست نتيجة بحثهم وتفكيرهم المستقل ، ومن التجنى على الحقيقة والتاريخ أن يعزى إلى عالم أو فيلسوف ما لم يأت به ابتداء ، ومالم يبتكره ابتكاراً . ومنشأ هذا الاسناد الباطل جهل بالتاريخ وإغفال للعلاقات الثابتة بين المراحل المختلفة للتفكير الانسانى . فرب فكرة بدت دة مبتكرة فى حين أن الأقدمين اهتدوا اليها من قبل وأبرزوها فى صورتها الحاضرة ، أو فى صورة أخرى تبعد عن هذه بعض البعد . ومن الغريب أن هناك طائفة من المؤرخين تنزع إلى اعتبار أبطالهم ومن يكتبون عنهم مصدر كل جديد ؛ فهم ينسبون اليهم شخصيا كل ما جاء فى كتبهم أو رُوى عنهم . فى هذا ، بلاشك ، اعتداد كبير بمن يُترجمون لهم ، ومن يدرسون حياتهم ؛ غير أن النزاهة والتحقيق العلمى يأبيانه . قد يبدو طريفاً أن يقال إن نظرية كذا من ابتكار فلان وحده ؛ ولكن أليس أطرف من هذا وأعمق بحثاً أن يبين المؤلفون المقدمات التاريخية التى مهدت لهذه النظرية ؟ قضى الناس زمناً يرددون فيه أن (ديكارت) مثلاً اخترع نظرية الشك الفلسفى Le doute méthodique اختراعاً دون أن يتأثر فيها برأى سابق ؛ وهاهم أولاء اليوم يعلنون أنه سُبق إليها فى صور أخرى مصغرة ، ويبرهنون على ذلك بطرق دقيقة أخاذة [1]

إزاء هذه الظروف كلها نحاول فى هذه الكلمة أن نلقى نظرة عامة على المصادر الأغريقية التى كانت ذات أثر بين فى تكوين الفلسفة الاسلامية ، وفى تعرف هذه المصادر ما يعيننا على أن نحدد بالدقة ما جاء به العرب ، وما سبقهم اليه الأقدمون

عرف المسلمون الفلاسفة السابقين لسقراط Antésocratiques ، ونصف السقراطيين Demi - socratiques ، والسفسطائية Sophistes واللاأدرية Sceptiques ، والرواقيين Stoïciens والأبيقوريين Epicuriens .[2] فنظرية « الجوهر الفرد » التى قال بها (ديموقريط) و (أبيقور) تتصل إلى حد ما بتلك النظرية التى وردت على ألسنة علماء التوحيد المسلمين [3] . ومذهب الرواقيين المادى أثر تأثيراً غير قابل للأنكار فى جماعة المعتزلة ؛ ونخص بالذكر منهم (النظّام) الذى اعتنق نظريات ذات أصل رواقى واضح ، وإن من يقرأ آراءه فى « الكمون » لا يشك مطلقاً فى أنه تأثر فيها بما جاء به الرواقيون من قبل [4] . وقد أخذ علماء الكلام بوجه عام عن اللاأدرية الأغريقيين كثيراً من أفكارهم ، وخاصة ما اتصل منها بنقد (أرسطو) ونظرياته [5] . ونرى فى كتب التراجم العربية ملخصات قصيرة عن حياة (تاليس) و (فيثاغورس) و (أنجزاجور) و (أمبيدوقل) ، وفى كتاب الملل والنحل (للشهرستانى) أحسن أنموذج لهذه الملخصات [6] . بيد أن هذه المعلومات فى جملتها ناقصة وغير صحيحة أحياناً ؛ ولا يبدو على مفكرى الاسلام أنهم كوّنوا رأياً ناضجاً عن هذه المذاهب الفلسفية المختلفة . (فالشهرستانى) نفسه يخلط مذهب (فيثاغورس) بمذهب (أفلاطن) ، ويعزو إلى أصحاب الرواق بعض نظريات

---

(١) Voir Blanchet (L.), Les antécedents historiques du : « je pense, donc je suis, » Paris; 1920.

(٢) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٢٤٥

(٣) Madkour, La place d' al Fârâbî, p p. 50 et suiv.

(٤) Horovitz Ueber den Einfluss des Stoizimus auf die Entwicklung der Philosophie bei den Arabern (Z. D. M. C.), Bd 57, p. 177.

(٥) Madkour, L' organon d' Aristote..., p. 1321217.

(٦) الشهرستانى ، الملل والنحل (طبعة لندن) جـ ٢٢ ص ٢٠٢ — ٢٠٤ ، ٢٥١ — ٢٨٢ ، ٢٩١ — ٣٠٥

مدرسة الأسكندرية [١] . وإذا استثنينا (أفلاطون) و (أرسطو) نجد أن المسلمين لم يعرفوا فلاسفة الأغريق إلا عن طريق غير مباشر ، وفى ثنايا كتب (پلوتارك) و (جالينوس) و(پورفيد) التاريخية [٢]

لم يترجم العرب حقيقة من كتب الأغريق الفلسفية إلا مؤلفات (أفلاطون) و (أرسطو) وشرّاح الأخير وتلاميذه . فأما (أفلاطون) فقد تُرجمت محاوراته dialogues الهامة ، وعلى رأسها : الجمهـــورية la République ، والنواميس les Lois ، وطيماوس le Timée ، والسوفيسط le Sophiste ، وبوليطيق le Politique ، وفادن le Phédon ، ودفاع سقراط l' Apologie de Socrate [٣] . فباطل إذن مايقال من أن العالم العربى لم يعرف (أفلاطون) إلا معرفة ناقصة أو خاطئة . والواقع يثبت ، على العكس من ذلك ، أن (مؤسس الأكاديمية) استطاع بفضل نظرياته ومذهبه الروحى أن ينفذ إلى قلوب المتصوفة والمتكلمين والفلاسفة من علماء الاسلام ؛ وقد بينا فى بحث لنا أن (الفارابى) فى محاولته التوفيق بين (أفلاطون) و (أرسطو) اعتمد على أربع محاورات هامة من مؤلفات الأول وهى : فادن ، بوليطيق الجمهورية ، وطيماوس ، كما بينا أنه صدر عنها واستشهد ببعض ماجاء فيهـا بشكل لايدع مجالاً للشك فى أنه قرأها قراءة روية وتدبر [٤] . وفى هذا مايؤيد أن فلاسفة الاسلام درسوا (أفلاطون) دراسة مباشرة وفى كتبه التى نقلت إلى العربية

غير أن هؤلاء الفلاسفة لم يعنوا (بمؤسس الأكاديمية) عنايتهم (بأستاذ الليسيه) ، ولم ينل (أفلاطون) لديهم الحظوة التى نالها تلميذه (أرسطو) . وقد أبان (رينان) من قبل مقدار اعجاب فلاسفة الاسـلام بالأخير ، واحلالهم إياه محلا خاصاً وتعاقهم بتعاليمه ، واعتبارهم إياه حجة فى العلوم النظرية [٥] وكان طبيعياً أن يبحث العرب عن مؤلفـاته ، وأن يترجموها فى دقة وأمانة . وقد توفر لهم من ذلك عدد غـير قليل فى الاقتصاد ، والأخلاق ، والطبيعة ، والمنطق ، وما وراء الطبيعة

كى يُفهم (أرسطو) فهما حقا يجب ألا يدرس بمعزل عن تلاميذه وشراحه ، لهذا اتجه العرب نحو أتباعه الأول وكبار مؤسسى (مدرسة المشائين) ، فأخذوا عنهم ، وترجموا قدرا من كتبهم . وفى مقدمة هؤلاء الأتبـاع يجدر بنا أن نشـير الى تيوفرست Théophraste الذى عُرف بصـــلاته الشخصية (بأرسطو) ، وببعض مؤلفاته المترجمة الى العربية [١] . وهناك فيلسوف آخر من المشائين نال منزلة ممتازة فى العـالَم العربى لا يفضلها إلا منزلة (أرسطو) ، ونعنى به الاسكندر الأفروديسى Alexandre d'Aphrodise . وكان (ابن سينا) يسميه « أفاضل المتأخرين » ، ويعتد بآرائه اعتداداً كبيراً [٢] ويروى لنا (يحيى ابن عـدى) أن شروحه على الميتـافيزيك Métaphysique والأناليتيك Analytiques (لأرسطو) عرضـت فى السوق يوما فتسارع الناس الى اقتنائها ، ودفعوا فيها ثمنا باهظا . اما شرحه على كتاب النفس Traité de l'âme فيعـد من أقوم مصادر نظرية العقل théorie de l' intellecst التى لعبت دوراً هاماً فى العـالم الاسلامى وفى فلسفة القرون الوسطى عامة [٣] وإذن يمكننا أن نقول إن العرب عرفوا (مدرسة المشائين) ممثلة فى أكبر رجالها ودرسـوها مستعينين بأولى المصادر الموثوق بها

بين مفكرى الأغريق رجل آخر معاصر (للأسكندر الأفروديسى) ، وعلم من أعلام الحركة العلمية الأسلامية ، لا فى الطب فقط بل فى الفلسفة وتاريخهـا ، ألا وهو جالينوس Galien . فاليـه يرجع الفضـل ، فيما نعتقد ، فى نشر نظريات الرواقيين واللاأدريين بين العرب . وفى شرحـه لمؤلف (أفلاطون) المشهور والمسمى طيماوس ما رفع من شأن هذا الـكتاب ، وما منحه سمعة عالية فى الفترات الأخيرة من العصور القديمة ، وفى القرون الوسطى لدى السريانيين والعرب واللاتينيين [٤] ولا يفوتنا أن نشير إلى أن مكاتب (استامبول) تحتفظ بترجمة

(١) المصدر نفسه ، جـ ٢ ص ٢٦٨ — ٣٠٩ — ٣١١
(٢) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٢٤٦ — القفطى ، تاريخ الحـكماء ، ص ١٧ وتوابعها — ابن أبى أصيبعة ، عيون ، جـ ١ ص ١٤٩
(٣) اجتهدت هنا أن أسرد الأسماء التى وضعها العرب أنفسهم
(٤) Madkour, La place d' al Fârâbi, pp. 39—40.
(٥) Renan, Averroès, p. 54. — ef. Munk, Mélanges, p.316

(١) القفطى ، تاريخ الحـكماء ، ص ٣٢ — ٣٣ ، ١٠٦ — ١٠٧
(٢) ابن سينا ، الشفا (مخطوطة المتحف البريطانى رقم ٧٥٠٠) ص ٥٣
(٣) Madkour, La place d' al Fârâbi, p — 131
(٤) حنين بن اسحق ، رسالة الى على بن يحيى ص ٥٠ — القفطى ، تاريخ الحـكماء ، ص ١٣١

عربية لهذا الشرح الذى فقد أصله الاغريقى ؛ وقد أطلعنا على بعض أجزائها صديقنا المسيو (كرادس) المدرس بمدرسة الدراسات العالية (بالسربون) . فعسى أن تنشر هذه الترجمة كى نضم خدمة جديدة الى خدمات العربية فى ربطها بين التاريخ القديم والمتوسط ، بل والحديث . و (لجالينوس) أيضا أثر فى العلوم المنطقية ، فقد أدخل فى منطق (أرسطو) عناصر جديدة تقبلها العرب وأخذوا بها . [1] وعلى الجملة (فأرسطو) و (جالينوس) هما الباحثان الأغريقيان اللذان سادا الحركة العلمية الأسلامية واقتسماها فيما بينهما : (أرسطو) فى الفلسفة ، و (جالينوس) فى الطب . على أن الثانى قد عدا فى غير موضع على ميدان الأول ، وأصبح العرب يسمونه بحق : « الطبيب الفيلسوف ! »

لو وقف المسلمون عند (ارسطو) وكتبه وكتب تلاميذه المشائين ، لكانت فلسفتهم مخالفة تمام المخالفة لتلك الفلسفة التى خلفوها . غير أنه لا يصح أن ننسى أن بينهم و بين (رئيس الليسيه) مدرسة الأسكندرية التى أثرت فيهم تأثيراً كبيرا . وأن أثرها ليتناسب مع قربها الزمنى من الثقافة الأسلامية ، واعتناقها آراء أشربت بروح دينية ؛ فنظرياتها تعد أول خطوة صادقة فى سبيل التوفيق بين الفلسفة والدين . هذا الى أن (أرسطو) نفسه وصل الى العرب فى ثنايا كتب علماء الاسكندرية وفلاسفتها ؛ ذلك لأن هؤلاء الفلاسفة شرحوا النظريات الأرسطية فى مؤلفات عديدة ترجم أكثرها الى العربية . ويمكننا أن نذكر بين هؤلاء الشراح بورفير Porphyre وتيمستيوس Thémistius وأمونيوس Ammonius وسمبليسوس Simplicius وداود الأرمنى David l' Arménien وجان فيلوبون Jean Philopon أو يحيى النحوى ، الذين كانوا أكثر اتصالا بالمسلمين من تلاميذ (ارسطو) القريبين منه . ويتكلم (الشهرستانى) عن (بورفير) و(تيمستيوس) فى لغة مملوءة بالاحترام ملاحظا أنهما من أدق الشراح لنظريات (أرسطو) وإن كانا يخالطانها ببعض مبادىء الأفلاطونية الحديثة [2] . وينقل (الفارابى) بعض آراء (أمونيوس) مستشهدا بها فى مواضع مختلفة [1] . وقد تمكن (يحيى النحوى) ، بفضل نظريته فى خلق العالم ومناقشته لمذهب (أرسطو) ، أن ينال حظوة علماء التوحيد المسلمين . واذا تتبعنا شروح كتب (أرسطو) فى المنطق التى ترجمت الى العربية ، وجدنا أغلبها من عمل فلاسفة الأسكندرية . وقد ترجمت هذه الشروح فى آن واحد مع المتون التى تتصل بها ، وأصبحت غير قابلة للفصل عنها [2] . وليس هذا قاصرا على العلوم المنطقية ، بل يتعداها الى الدراسات الأخرى ؛ ففى كل ناحية من نواحى البحث النظرى لجأ العرب الى علماء الأسكندرية ليستعينوا بهم على فهم (أرسطو) ومؤلفاته . وإن نظرة قصيرة الى كتاب تاريخ الحكماء للقفطى ترينا أن هذه المؤلفات وشروحها التى ألفها علماء الأسكندرية كانت تكوّن فى نظر المسلمين كلا مرتبط الأجزاء [3] . وجملة القول أن مدرسة الأسكندرية ، بحكم موقعها الجغرافى والتاريخى كانت مهيأة لأن تنشر علومها وكتبها فى العالم الأسلامى ؛

من هذه العناصر المختلفة التى أشرنا اليها فى اختصار تألفت فلسفة الاسلام . فاذا كان مذهب (أرسطو) عمادها القوى ، فان (أفلاطون) و (أفلاطن) قد أقرضاها مواد غير قابلة للأنكار ، وقد لوحظ منذ زمن بعيد ما فى الفلسفة الاسلامية من مخلفات الأفلاطونية الحديثة ، إلا أنه لم يحدد بعد بالدقة المصادر التى أخذت عنها هذه المخلفات [4] . فتارة يبحث عنها فى إنياد (أفلاطن) Ennéades ، وأخرى فى كتاب الربوبية La Théologie apocryphe ، وكتاب الخير المحض Le Livre des Causes اللذان ينسبان خطأ إلى (أرسطو) . فأما (أفلاطن) أو « الشيخ اليونانى » كما يسميه (الشهرستانى) فلم يترجم قط إلى العربيـة ، وما ينقله (الشهرستانى) من آرائه يرجع إلى ما كتبه فلاسـفة الأسكندرية الآخرون [5] . وأما كتاب الربوبية وكتاب الخير المحض فقد نقلا من غير شك نظرية (أفلاطن) إلى المسلمين ، غير أنه يجب أن نضيف إلى هذين

(١) Madkour, L, organon d. Aristote..., pp. 207—208

(٢) الشهرستانى ، الملل ، ج ٢ ، ص ٣٤٣ — ٣٤٤ ، ٣٤٤ — ٣٤٥ — Meyerhof, Von Alexandrien, p. 392—93

(١) الفارابى ، الثمرة المرضية (طبعة ليدن) ، ص ٢٤

(٢) القفطى ، تاريخ الحكماء ، ص ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨

(٣) المصدر نفسه

(٤) Renan. Averr. p. 93.—Munk, Mélanges, pp. 248 et suiv

(٥) الشهرستانى ، الملل ، ج ٢ ، ص ٣٣٨ ، ٣٤٣

الـكتابين مؤلفات شراح (أرسطو) من فلاسفة الاسكندرية الذين أشرنا إليهم آنفاً . فان هؤلاء الشراح لم يقدموا للعرب المذهب الأرسطى فى صورته القديمة ، بل مختلطاً ببعض النظريات الأفلاطونية والرواقية وأجزاء من الأفلاطونية الحديثة ، وبدهشنا أنه لم يتنبه أحد بعد إلى هذه النقطة برغم مالها من أهمية ، وإن من يتأمل قليلاً يدرك أن واحداً (كپورفير) أو (كسمبليوس) إنْ شرح (أرسطو) ، فانه لا يستطيع التخلص تماماً من آرائه الشخصية ، أو التخلى بتاتاً عن نظريات مدرسته [1] ، لذلك لم تنتج الحركة الفلسفية التى قام بها علماء الاسكندرية فى القرن الثانى الميلادى ، والتى بينها (رينان) و (راڤيسون) بياناً شافياً ، مذهباً أرسطياً خالصاً ، بل نظرية مشوبة بعناصر مختلفة [2] ، فقد كان شراح الاسكندرية معنيين بالتوفيق بين (أرسطو) (وأفلاطون) من جانب ، وبين الأول وجماعة الرواقيين من جانب آخر ؛ وهذا التوفيق نفسه هو أوضح خاصة من خصائص الفلسفة الاسلامية . ونعتقد أنا إذا أردنا أن ندلى بحكم دقيق على هذه الفلســفة ، فلا بد أن يكون بين أيدينا شروح فلاسفة الاسكندرية وشروح كبار أتباع (أرسطو) الأول . وما دامت هذه الشروح لم تدرس دراسة وافية فان آراءنا وأحكامنا المتعلقة بتاريخ الأفكار الفلسفية فى الديار الاسلامية ستبقى ناقصة ومؤقتة

ابراهيم بيومى مدكور
دكتور فى الآداب والفلسفة

(١) Waddington, Simplicius, dans Dict. d. s. philos., p.1618

(٢) Ravaisson, Essai sur la Mét. d'Aristote, Paris, 1846, II,540 — Renan, Averroès, 93. — ch. Bréhier, Histoire, I, 444. 447,

الى الشاب المسلم المثقف

الاسلام دين القوة

بقلم أحمد بديع المغربى

أستاذ الاجتماعيات بالمدرسة الثانوية بالموصل

طفا على الجزيرة العربيــة نورٌ سماوى تسرب إلى القلوب المغلقة فاقتحم أقفالها ، ونفذ إلى الضمائر الميتة فبعث فيها حياتها ، وتغلغل فى أحشائها فبدد ظلماتها . وصحب هذا النورَ صوتٌ عربىٌ ينادى بالاسلام تعالى فى أرجائها ، فجمع أشتاتها وألّف بين قلوبها

« هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ؛ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »

قبائل بدوية متنافرة أعمى الجهل أبصارها ، وعشائر رُحّل متناحرة مزق الغزو وحدتها ، وهدد السلب والنهب كيانها ؛ نفوسٌ أبيّة رضعتْ لبانَ الحرية منذ طفولتها ، وتنشقت هواء البادية المشبع بروح الأَنفَةِ والكبرياء والشمم والأباء منذ أن شبّتْ عن أطواقها

هذه القبائل المتنافرة ، وتلكم العشائر المتناحرة ، ما استطاعت أن تجد من نفسها حولاً ففاضت دموعها خشوعاً واجلالاً ، وخرت للأذقان سُجَّداً ، وانصاعت لذلك الصوتِ الدَّوِيِّ الذى اخترق آذانها الصماء ، وانقادت قلوبُها الغُلْفُ طَوْعاً لذلك النور السماوى الذى غمرها بالضياء . . .

« إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ، وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً »

« وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ »

فتحولت من الضعف إلى القوة ، وانتقلت من التفرقة إلى

الوحدة ، واستبدلت بالتخاذل ائتلافاً ، وبالجهل والوحشية علماً ومدنية ، وارتفعت من أسفل دركات الشرك والألحاد ، إلى أعلى درجات التوحيد والايمان

ثم هبت من باديتها الفسيحة الأرجاء الممتدة الأطراف هبوب العاصف الزعزع ، متكاتفة متراصفة ، متحدة متضامنة ، فعصفت الممالك التي اعترضت سبيلها عصفا ، ودكت المعتقدات الدينية البالية دكا ، وحطمت العروش المستبدة الجائرة تحطيما ! ولم يمض عليها القرن ، إلا قليـلا ، حتى قيض الله لها أن ترفع راية الأسلام وتنشر ألوية السلام من أقصى البرنات الى حملايا ، ومن بوادى أواسـط آسية حتى صحـارى أواسط أفريقية ؛ وما كنت تسمع صبحاً وظهراً وعصراً ، مغرباً وعشاء ، إلا صوت المؤذن داعيا بقلب عامر بالايمان : —

الله أكبر !

أشهد أن لا إلـه إلا الله !

أشهد أن محمداً رسول الله !

فيتقاطر المؤمنون كالموج الزاخر ، متدافعين متسابقين ، لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، الى بيت الله ، بيت الأمة ، بيت الديمقراطية الحق !

فما السر فى تهافت العرب والأمم التى دانت للعرب على الاسلام ؟!

إنه ، وايم الحق ، لسؤال تقف دون تفسـيره العقول النيرة حيارى . ولئن حاولنا فى رسالتنا الى الشاب المسلم المثقف أن نجلو هـذا السر الغامض ونملل هذه المعجزة الـكبرى فانما نحاول أن نظهر ناحية واحدة من نواحيها المتشعبة ، هى « القوة فى الاسلام » :

١ — القوة فى المبدأ

٢ — القوة فى الاتحاد

٣ — القوة فى الأخلاق

٤ — القوة فى الشخصية ؛

وهى الناحية التى يفتقر اليها المسلمون فى تنظيم شئونهم فى هذا العصر ، عصر القوة ، بل عصر تنازع البقاء وبقاء الأنسب ، حتى يتسنى لهم أن يعيدوا مجداً كاد يندثر ، بما منيت نفوسهم من خور العزيمة ، وضعف الهـمة ، وتذبذب الأهواء ، والميول ، وميوعة الأخلاق ، وانحلال الشخصية ، متوسلين الى الله عز وجل ان يهدينا واياهم سواء السبيل

١ — القوة فى المبدأ

تأمل ، رعاك الله ، فى تلك الوفود القرشية العربية التى هرعت إلى أبى طالب بعد أن ضاقت صدورها من سب الرسول صلى الله عليه وسلم آلهتها وآباءها ، وبعـد أن عيل صبرها من تسفيه أحلامها مهددة متوعدة ليكفه عنها ، أو تنازله وإياه حتى يهلك أحد الفريقين ، ثم ارجع البصر فيما جرى بين الرسول الـكريم وعمه الجليل حين أنبأ ابن أخيه بما قالت قريش : —

« ابق على نفسك وعلىّ ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق »

يتجل لك بصورة لايداخلها الريب ما انطوت عليه نفس رسولنا الأعظم وزعيمنا الأكبر من قوة الثبات فى المبدأ : —

« والله ، ياعمـاه ، لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه . . . . ما تركته ! »

وتبصر ما أصاب المسلمين الأولين من الاضطهاد والعذاب ، وما تجشموه من المشاق والصعاب ، من تعذيب المشركين لهم بحر الرمضاء وبقر بطونهم بالحراب فى سبيل الدفاع عن هذا المبدأ ، ثم اخل إلى نفسك وانظر ما أنت عليه اليوم وما كانوا عليه أمس !

٢ — القوة فى الاتحاد

إذا تدبرت مبدأ الفاشيست علمت أن شـعار موسولينى ومشايعيه ذوى القمصان السود : « الفأس وحزمة العصى » . والفأس رمز الدولة ، والعصى الأفراد الذين يؤلفونها ، والفرد ، فى نظرهم ، قوىٌّ بجماعته ، ضعيفٌ بمفرده ؛ مَثَـلُه فى ذلك مَثَـلُ العصا يسهُـل كسرها بمفردها ، ولـكن الصعوبة كلّ الصعوبة فى كسرها إذا ما ضمّت إلى أخواتها . والفاشستية تنحصر فلسفتها فى فناء الأفراد فى الدولة وانحلال شخصياتهم فيها . ولماذا نذهب بك إلى الفاشستية ولدينا ديننا الاسلامى ، دستور الحضارة والانسانية ، ففيه الأمثلة المتعددة على أن حياة الشعوب فى تضامن أفرادها واتحادهم . قال الله فى كتابه العزيز : —

« وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا : وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً » — سورة آل عمران

« وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ » — سورة الأنفال

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا » سورة الحجرات

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ » — سورة الحجرات

وقال منقذنا الأعظم رسول الله صلى الله عليه وسلم : —

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا »

« لا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانا »

لا تختلفوا فان من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا »

« المسلمون كرجل واحد إن اشتكى عينه اشتكى كله ، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله »

فليتق الله ، عباد الله ، الذين يعملون على التفرقة ويسعون إلى التجزئة فان فى ذلك الخسران المبين

٣ — القوة فى الأخلاق

وإنما الأممُ الأخلاقُ ما بَقِيَت

فإنْ هُمُ ذَهَبَتْ أخلاقُهم ذَهَبُوا

« إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً » — سورة النساء

« ولا تَمْشِ فى الأرْضِ مَرَحاً إنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأرْضَ ولَنْ تبلغَ الجبالَ طولاً » — سورة الاسراء

« وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ولا تَمْشِ فى الأرْضِ مرحاً ، إنّ اللهَ لا يحبُّ كلَّ مُختالٍ فَخورٍ ؛ واقصِدْ فى مَشْيِكَ واغْضُضْ مِنْ صوتِكَ ؛ إنّ أنكرَ الأصواتِ لصوتُ الحميرِ » — سورة لقمان

وقال رسولنا الأعظم : —

» بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »

« إن الله أوحى إلىّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغى أحد على أحد »

يقول الله عز وجل : — « الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى واحداً منها ألقيته فى النار »

ألا فليعلم أولئك الضعاف العقول الذين إذا تبوأوا منصباً رفيعاً شمخوا بأنوفهم وصعروا للناس خدودهم ، واشتطوا فى غرورهم وكبريائهم ؛ أنهم مهما ما بلغوا من السلطان والجَبَرُوت ، لن يخرقوا الأرض ولن يبلغوا الجبال طولاً !

أين أنتم يامساكين من رسول الله وحبيبه صلى الله عليه وسلم ، من شهد الله وأثنى على خلقه العظيم !

« هَوِّنْ عَلَيْكَ ، يارَجُل ؛ فانما أنا ابنُ امرأةٍ من قريش كانت تأكل القديدَ فى مكة ! »

بمثل هذا القول الكريم خاطب نبينا المصطفى ذلك الرجل البائس الذى أصابته رِعْدَةٌ لدن دخوله عليه

وبمثل هذا الخلق المتين استعبد الاسلام قلوب الناس !

٤ — القوة فى الشخصية — الشجاعة والاقدام

إن التواضع لا يناقض الشجاعة والاقدام ، فكما أن القرآن الكريم حث المؤمنين على التواضع ، واعتبره من الأسس المتينة التى تقوم عليها الأخلاق القويمة ، كذلك أمرهم أن يَصْمُدُوا لأعدائهم ويدافعوا عن كرامتهم ويذودوا عن أوطانهم ، ويصدوا من تسول له النفس الاعتداء عليهم ما استطاعوا من قوة يرهبون بها خصومهم وأعداءهم ، حتى هدد الجبناء الذين يفرون من القتال والجهاد بغضبه ونقمته ، كما نستدل من الآيات الكريمة التالية :—

« وقاتلوا فى سبيلِ اللهِ الذين يقاتلونكم ولا تعتدُوا إنّ الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيث ثَقِفْتُمُوهُمْ وأخرِجوهم من حيث أخرجوكم » — سورة البقرة

يا أيها الذين آمنوا إذا لَقِيتُم فِئة فاثبتوا » — سورة الأنفال

« وأعِدُّوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل . ترهبون به عدو الله وعدوكم » — سورة الأنفال

« ياأيُّها الذين آمنوا إذا لَقِيتم الذين كفروا زحفاً فلا تُوَلُّوهُمُ الأدْبارَ . ومن يُوَلِّهِمْ يومئذٍ دُبُرَه إلاّ مُتحرِّفاً لِقتالٍ أوْ متحيزاً إلى فِئَةٍ فقد باءَ بغضَبٍ من اللهِ ومأْواهُ جهنمُ وبِئْسَ المصيرِ » سورة الأنفال

وجاء فى الحديث الشريف عن الرسول صلى الله عليه وسلم مخاطباً سيدنا علياً كرم الله وجهه : —

« ياعلى ! كن شجاعاً فان الله يحبُّ الشجاع »

كذلك حرض المصطفى المؤمنين على الاتصاف بصفات الرجولة الكاملة ، ولعن الشباب المائع المتخنث ، كما لعن تلك الفتيات المتشبهات بالرجال

« لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء ؛ والمتشبهات من النساء بالرجال »

والآن وقد انتهينا من محاولتنا اثبات أن الاسلام دين القوة ؛ القوة فى المبدأ ، والقوة فى الاتحاد ، والقوة فى الأخلاق ، والقوة فى الشخصية ؛ لا بد لنا قبل أن نختم رسالتنا أن نلفت أنظار شبابنا المسلم المثقف إلى الملاحظات التالية :

١ — كن أيها الشاب المسلم ، وكونى أيتها الفتاة المسلمة ، مثلا طيباً فى قوة المبدأ . ليضع كل منكما هدفاً واحداً أمام عينيه هو توحيد الأمة الاسلامية ، يعمل على تحقيقه بكل ما حباه الله من قوة الشباب غير عابئ بما يعترض سبيله من عقبات كأداء ، أو مكترث لما يحاول بعض المغرضين الدساسين من تثبيط همته القعساء

اعمل يا أخى المسلم ، اعملى يا أختى المسلمة على نشر مبدأ الاتحاد والوحدة أينما كنتما وحيثما حللتما ، والقيا حجراً كل من تسول له النفس أن يثنيكما عن عزمكما

٢ — اقتديا برسولنا الأعظم سيد المرسلين ، وزعيمنا الأكبر خير العالمين فى تقويم ما اعوجّ من أخلاقكما ، فان أمتكما العربية أحوج ما تكون فى تحقيق ما تصبو اليه من الآمال الى شباب يمتازون بثبات الجنان ، ولين الجانب ، وقوة الارادة ، ومضاء العزيمة

٣ — ليتعصب كل منكما لمبادئه الدينية ، وليتمسك بعقائده الاسلامية ، وليحافظ على تقاليده العربيـة ، فان الأمة التى تتسامح فى مبادئها ، وتتساهل فى عقائدها ، وتتنكر تقاليدها مقضى عليها بالانحلال والاضمحلال

الموصل ـ العراق — أحمد بديع المفرجى

دار وحبيب ...!

للأستاذ محمد سعيد العريان

يا دار ، ليتني ضللت إليك الطريق . . . !

منذ سنوات وسنوات ، كنتِ مَغْدايَ ومَراحي ، وكنت سعادتي وأنسي ، وكنتِ دنياي الصغرى ؛ تلتقي عندكِ أمانيُّ الشباب ، وتستيقظ فيكِ أحلام الهوى !

فأين يومك من أمسِك يا دار ؟

أما يومك — وا أسفاه — فهذا الذي أرى : كومة من أحجار ، إلا جداراً يريد أن ينقضّ ! وأما أمس . . هل تذكرين يا دار . . . ؟

أينَ ، أين ألقى أهلَكِ الذين ابتعدتْ خُطاهم على الأيام ؛ وأيّانَ ، أيان تعود لياليك التي طواها الزمان ؟

هنا ... منذ سنوات وسنوات ... أودعتُ قلبي الى ملتقًى موعود ؛ فأين منكِ الوديعةُ يا دار ؟

ما أظن الأيام على سلطانها بقادرة على أن تهدم ذكراكِ في نفسي !

***

ومضيتُ أتخطّى الأنقاض وهي تئن من تحتي أنين الواجد ، حتى انتهيتُ إلى الهيكل المستباح !

يالله ! كلُّ شيء حيٌّ في هذا المكان . إني لأسمع همس الذكرى يُرجِّع في مسمعيّ حديث الماضي ؛ وإني لأرى أطياف الحب ترفُّ رفيفَ الحياة ؛ وإني لأشَمُّ من حولي عبير اللقاء يتخطّى بي الزمانَ والمكان ؛ وإني لأراها هي أمامي ، كأوّل عهدنا يوم التقينا ، فتعارفنا ، فأسررْتُ وأسررتُ النجوى !

مرحبا بكِ يا فتاة ! يا لعينيكِ الساحرتين ! ما لأهدابك تختلج كأنما تغالبين النعاس ؛ ومالك صامتةً لا تنبسين كأننا غريبان في هذا المكان ؟ ماذا ؛ مالكِ معرِضةً منكِرة. . . ؟

انني أنا هو يا فتاتي كعهدكِ يوم افترقنا على ميعاد . . .

ردّي عليّ ليالي ، وصِلي يومَنا بماضينا . . .

لقد ابتعدتْ عني بلا وداع . شدَّ ما تسخر منا الأماني !

***

وبدا لي من خلل الدموع شبح يقترب بين الأنقاض . . . ذاك شيخ يدبّ على عكازة لوّحتها السنون . . . يعلو حجراً ويهبط عن حجر ؛ فدنا مني وقد تقلصت شفتاه عن مثل الابتسامة ، أي منظرٍ موحِش . . . ؟

قلت : « مَن تكون أيها الشيخ ومالي بك عهد ؟ »

قال : « أنا ... ؟ ما أشدّ حماقة الفتيان ! أنا الزمان ... ! وإنما لي أن أسألك : ماذا تنشد بين هذه الأنقاض ؟ »

قلت : « في هذا المكان ، أودعتُ شيئاً عزيزاً عليّ ، إنه قلبي ؛ أفتدري أيها الشيخ أين ألقاه ؟ »

هنا ، في هذا المكان ، كان لي أهل وأحبّة ، وكان قلبي لديهم وديعة ، إن الدار لتشهد ؛ فاني لأنشد هنا قلبي وشبابي وحبي . . . ! »

قال : « ويحك يامسكين ! أتسألني ؟ أتسأل الزمانَ أن يردّ عليك مافات . . . ؟ إنك يابنيّ تؤمن بالحب ، فاسأل الحبّ — إن أجاب — أن يردّ عليك ما استودعته . . . ! ما الحبّ يابنيّ إلا خرافة ؛ هل هو إلا أرقٌ يراوح بين جنبيك ، ودموعٌ تقرّح بين جفنيك ، وانتظار يستلب شبابك من عمركَ ، وحنينٌ يسترقُ يومك من تاريخك ، وغيرةٌ تسلبك الطمأنينةَ والقرار ، وشكٌّ يُنبت في صدركِ الشوك ؛ وهل هو من بعدُ إلا الندمُ والهفة والذكرى ؟ أفرأيتَ شيئاً من ذلك يعدل ساعةً من ساعات الشباب ، أو يردّ عليك سعادةً من سعادات الماضي ...؟ هيهات يابنيّ هيهات . . . ! »

ومضى الشيخ على وجهه ، وإن في صدره لسراً . . . !

***

وعدوتُ في أثر الزمان أجاذبه السرّ ؛ فما بلغتْ اليه نفسي وغاب في جوف الظلام . ورجعتُ منكسراً لهفان ، أنهنه أدمعي وأغالب نفسي

وإذا على الطريق شابٌّ يبتسم

قال : « مرحباً بك ياصديق ؛ أراك على حيد الطريق فأين أزمعت المسير ؟ »

قلت : « أتراكَ تعرفني يا فتى ؛ فمن تكون ؟ »

قال : « أنا . . . ؟ ما أعجب أن تنسى ! أنا رفيق صباك ، وأنيس أحلامك ؛ أنا الأمل . . ! فما أشد أن ينكرنى الشباب ! »

قلت : « معذرةً إليك يا أملى ، وإنما صرفنى عن ذكرك هذاك الزمان ! »

قال : « الزمان . . . ؟ ويحك ! وأين منك الزمان وما تزال فى يديك أيامك ؟ ألا إن الشباب ليصنع بيديه أيامه . ويخط بيديه تاريخه ، ويُملى على الزمان مشيئته ...! ألا إن هذا الشيخ الخرِفَ الذى تسميه الزمانَ لعاجزٌ أن ينالك ومعك الشباب والأمل ! »

قلت : « فاننى أفتقد شيئاً هنا . . . فى هذا المكان ... كان لى أهلٌ وأحبة ، أودعتهم قلبى إلى ملتقىً موعود ؛ فهذه الدار خلاء كما ترى ، إلا أنقاضاً ركمها الزمانُ حجراً على حجر ؛ أفتدلنى أين أجد أحبابى وقلبى ؟ »

قال : « لك الله ولأحبابك ! أفحسبتَ أنك وحدك الوفىّ الذاكر ؟ إن فتاتك ما تزال هناك تنتظر ، وإن الوديعة الغالية ما تزال فى الحرز الأمين ! »

قلت : « فما هذه التى تراءت لى هنا ثم تولت معرِضة لم تنبس ؟ »

قال : « ويحك ! ألم تفهم مقالة عينيها وأهدابُها تختلج ؟ إنها تقول : اتبعنى يا حبيبى . . . . ! »

قلت : « أفتراها مستطيعة أن تردّ علىّ أيامى ، وقد تولى الزمان وحال المكان ؟ »

قال : « إن الحب لا يعرف الزمان ولا يحدّه المكان ، إنه لشىء من غير دنيانا ، لا يخضع لنواميس هذه الحياة ؛ إن العاشق ليذكر على البعاد من يحب ، فاذا الماضى كله بين يديه ، وإذا الذى يهواه تحت ذراعه ؛ وإنهما لاثنان هنا : هو وخيالُ من يحب ؛ واثنان هناك : هى وطيفُ من تهوى . أفرأيتَ الزمانَ والمكانَ ساعتئذ قد استطاعا أن يحولا دون هذا اللقاء ؛ أو رأيتَ شيئاً غيرَ الحب يجعل الاثنين أربعةً فى زمان ومكان . . . . ؟

« ألم تفهم مقالة عينيها وأهدابُها تختلج ؟ إنها تقول : اتبعنى يا حبيبى . . . . ! »

* * *

ولمحتُ زهرةً ترفّ رفيفَها فى ظلّ جدار قائم ، وهى تناجى أختها نجوى الحزين الى الحزين ؛ كانتا وحدهما فى هذا المكان رمزَ الحياة بين رموز الموت من تلك الصخور المجدّلة . وإن للأحجار والجماد لحياةً كحياة الناس وموتاً كالذى ماتوا . إن البيت الآهلَ لحىٌّ بسكانه ما عمروه ، فاذا احتملوا وهجروه فما هو حينئذٍ بيتاً حياً وإن بقيتْ له معالمه وأبوابه ، ومفاتحه وأقفاله ، وإن فى التراب يغطى أرضَه وجدرانه لَمعنًى من معانى القبر !

ودنوت أستمع الى نجوى الزهرتين :

قالت إحداهما لجارتها : « ويلى — يا أختاه — من المقام بين تلك الأنقاض الميّتة ! ما أكاد أشعر أننى زهرة ذات رَوح وعبير . لماذا تمتّعنى الأرض وزيّنتنى بألوان الربيع إذا كنت لا أرى العين التى تتملىّ حسنى معجبةً شهوَى ؛ ولماذا أنا زهرة إذا انقضت حياتى على وتيرتها بين هذه الأنقاض ؛ لا يَنشَمُّ عبيرى أحد، ولا تتناولنى يدٌ رفيقة . . . ؟ »

قالت أختها : « فانك لتبطرين النعمة ! وإنك فى مقامك هنا لأسعدُ من أخواتٍ لك هناك فى الروض ؛ ما تكاد تتفتّح عنهن الأكمام حتى تتناولهن الأيدى ؛ فيوماً فى الحرير على الصدر ، ويوماً فى زهرية على المائدة ؛ ثم هى بعد مع الزبالة تطؤها النعال . . . ! »

قالت : « وهل أنا زهرة إلا أن أكون عطراً يُستَنشى وجمالاً يُشتَهى ؛ ويوماً على صدر ، ويوماً فى زهرية ؟ ألا إن يوماً واحداً هناك يُشعرنى جمالى — لخير من أيام هنا على هذا الغصن الشائك ، ما ينفك يَخزُنى كلما مالت به النسمات ! ألا إنما السعادة قلب وابتسامة ، وإنما الحياة أن أكون شيئاً فى الحياة ! »

وهبّت نسمة عاتيـــةٌ ، فاذا الزهرة ورقاتٌ منثورة على التراب . . . . !

يا ويلتا ! حتى هذه الأشياء تنشد الحب ، وتستوحش من الوحدة والخراب . . . . !

أيتها الزهرة التى انتثرت غضّةً عبقة لم تنعم بالحب ؛ كم من قلوب بشريّة كقلبك ؛ انتثرت أحلامُها بدداً على أنقاض اليأس والحرمان ، قبل أن تَستَنشى عطرَ الحب ، أو تذوقَ لذة المنى . . . . !

عزاءً لك ولى . . . ؟

طنطا **محمد سعيد العريان**

١١ - قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

بستور Pasteur

صـــلة حديثه

وصل القارئ : أثبت بستور أن الذى يحيل السكر إلى كحول فى صناعة المشروبات الروحية إنما هو الخمائر . وهى أحياء غاية فى الصغر ، شكلها كرى ، تتوالد وتتزايد بالتنبت فالتقسم . وأثبت أن عملية التخمر عند ما تفسد فلا تنتج من السكر كحولاً ، فإنما يكون ذلك بسبب مكروبات أصغر من الخمائر ، شكلها كالعصى ، تسطو على محاليل السكر فتذهب بخمائرها ، وتقوم بعملية جديدة مفسدة هى تحويل السكر إلى حامض اللبن الزبادى بدلاً من السكحول

وبينا هو فى هذا ، وبينا هو مستقر بأسرته فى « ليل » ، إذ جاء زوجَه يوماً يقول لها : « نحن ذاهبون إلى باريس ، فقد ولّونى فى مدرسة النرمال إدارة أبحاثها . وهذه فرصة عظيمة لابد من انتهازها »

وانتقلوا إلى باريس . ولما جاء بستور مدرسةَ النرمال لم يجد بها مكاناً يشتغل فيه . وجد قليلاً من معامل للطلبة ، ووجدها سيئة قذرة . أما الأساتذة فلم يجد لهم شيئاً . وأسوأ من هـذا أنه ذهب إلى وزير المعارف يستوضح الحال ، فقال له الوزير إن الميزانية ليس بها قرش واحـد يُنفق على تلك القوارير والأفران والمجاهر التى لايستطيع الحياة إلا بها . وما رجع حتى أخذ يدور فى المكان القـديم القذر ، يبحث فى أسافله وأعاليه عن ركن يعمل فيه ، وهداه البحث أخيراً إلى سُلم ، هداه فى مشقة إلى حجرة صغيرة عند سطح البناء كانت ملعباً للفئران ، فطرد الفئران منها واستولى عليها وصاح : هذا معملى . ولم يلبث أن وجد مالاً لشراء مكرسكوباته وأنابيبه وقواريره — ولـكن من أين ؟ لايدرى أحـد يقيناً . كان لابد له من المال ، فاعتزم أن يجده فـكان . لا بد أن تعلم الدنيا خطورة خمائره هـذه فى الحياة . ولم تلبث الدنيا أن علمت بخطورتها

استيقن من تجاربه السابقة أن تلك العصى الصغيرة تحيل السكر إلى حامض اللبن ، وعندئذ قام فى نفسه أن الدنيا لا بد بها الألوف من أشباه هذه العصى ، تُجرى ألوفاً من أشباه هذه التحويلات ، وتأتى بأمور أكبر وأخطر من هذه ، منها الضار ومنها النافع . « إن هذه الخمائر التى أرانيها مجهرى فى أحواض البنجر السليمة ، هى هى التى تُخرج من السكر كحولاً . وإنها لخمائر كذلك تلك التى تُخرج من الشعير جعة . وإنها لا شك خمائر تلك التى تخرج من عصير العنب خمراً . أنا بالطبع لم أثبت هذا بعد ، ولـكنى أعلم أنه صواب سيأتى إثباته » . ومسح نظارته فى سرعة ، وصعد إلى معمله فى بِشر وخفة . فلا بد له من تجارب ليثبت لنفسه صدق الذى يقول . لا بد من تجارب ليثبت للدنيا صدق ما يزعم . فالعالم لم يكن آمن بعدُ بالذى قاله

وكان ممن عارضه الألمانى ليبج [1] Liebig شيخ الكيمياء وسيدها وأميرها : « . . . ليبج يقول إن الخمائر لادخل لها فى تحويل السكر إلى كحول . ليبج يدعى أنه لا بد من وجود زلال albumen فى السائل ، وأن هذا الزلال ينحل ويتهدّم فيهدم السكر معه فيتكسر إلى كحول » . واعتزم بستور أن يدحض رأى ليبج . وفى ساعة برقت فى خاطره بارقة ، حيلةٌ ماكرة ، تجربةٌ بسيطة واضحة ، تقهر ليبج وكل من يَشدُّ أزره من هؤلاء الكيميائيين الذى يسخرون من هذه الخلائق المكرسكوبية الصغيرة ويهزأون بما تقوم به من عظائم الأمور

« يجب علىّ أن أزرع هـذه الخمائر فى محلول من السكر

(١) هو جستس فن لبج Justus von Liebig (١٨٠٣ — ١٨٧٣) الكيمائى الألمانى الشهير الذى نجد اسمه فى كل معمل للكيمياء لأنه اخترع المكثف البسيط الذى يحمل اسمه الى اليوم . ولد بدار مشطاط Darmstadt بألمانيا ، وكان أبوه يمارس صناعة التمليح ويتجر فى الألوان . قضى نحواً من ثلاثين عاماً أستاذاً فى جيسن Giessen بألمانيا ، فأدخل فيها تدريس الكيمياء العملية ودرس فيها وبحث حتى جعلها أشهر مدرسة للكيمياء فى العالم . ثم انتقل إلى مونيخ أستاذاً بها وهناك كانت وفاته . أشهر أبحاثه فى الكيمياء العضوية فقد أعان فى وضع أسسها الحالية . ولـكنه درس كذلك فسلجة الحيوان والنبات فاعتقد أن حرارة الحيوان تنشأ من احتراق الغذاء فيه . ودرس أن النبات يأتى بكربونه وأكسجينه من الجو ويأتى بأملاحه من الأرض . ومنح البارونية ومنح الكثير من أجازات المعاهد العلمية وأنواطها

لا زلال فيه . فاذا هى أحالت السكر إلى كحول ، إذن فعلى ليبج وعلى نظرياته العفاء » . وامتلأ عناداً ، وامتلأ تحدّياً ، فقد كادت تنقلب هذه الخصومة العلميـة إلى خصومة شخصية . جاءته الفكرة الجميلة للردّ على خصيمه ، ولـكن الفرق واسع بين الفكرة تخطر فى الرأس ، وبين الفكرة تتنفّـذ فى المعمل ، فأنَّى له بطعام خلوٍ من الزلال ، وهذه الخمائر اللعينة شبّت على النعمة ، واعتادت مذاق كل لذيذ مرئ . أخذ بستور يدور فى معمله ثم يدور ، يبحث عن طعام يطيب لهذه الخمائر ، وقضى على هـذا أسابيع حتى فرغ جهده وضاق صدره . وفى ذات صباح وقع له حادث غير منظور فتح له ما استغلق عليه

كان قد وضع بالمصادفة شيئاً من ملح النشادر فى مرق زلال وضع فيه خمائر لتتزايد وتتكاثر . « ما هذا ؟ إن ملح النشـادر يتناقص من المرق كما تزايدت تلك الخمائر فيه ! ما معنى هذا ؟ » وأخذ يفكر . « نعم . نعم . إن الخمائر تعيش على النشادر . إنها تعيش من غير زلال ! » . وردّ الباب ردّاً عنيفاً فاهتز البناء ، فلا بد له الآن من الوحدة وقد أراد العمل ، كما كان لابد له من الناس إذا أراد المتعة بالافاضة بنتائجه الباهرة الى الجماهير المعجبة المتحمسة . وتناول قبابات نظيفة وصب فيها ماء مقطّراً نقياً ؛ ووزن فى دقة مقداراً من السكر النقى ، وزَلّقه الى الماء ، وأضاف اليه ملح النشادر ، وكان نشادر الدردىّ . ثم غاص فى القارورة التى تنفّشت بالخمائر الصغيرة المتنبتة ، وأخرج منها شيئاً وضعه فى القبابة مع السكر وملح النشادر . ثم وضع القبابة فى مِحْضنٍ دافئ ثم تركها

وفى هذه الليلة أخذ يتقلب فى مضجعه ، يطلب النوم فلا يؤاتيه . وأسرّ رجيّاته ومخاوفه الى مدام بستور ، فهدّأتْ من روعه ، ولـكنها لم تستطع نصحه . نبض قلبها بنبض قلبه ، وضاق صدرها بمثل الذى ضاق به صدره ، ولـكنها لم تقدر على مطارحته العلمَ وتأميله فى النجاح القريب . كانت خير عون لخير زوج

وما كاد الصباح يهم بالشروق حتى كان الى جانب قارورته ، تلك القارورة التى خبأت له من صروف القادير ما خبأت . لم يدر كيف صعد السلم إليها . لم يدر ما الذى أكله فى افطاره . كل الذى أحس به أنه واقف الى قارورته قد احتواها هذا المِحْضَن التَرِب ، حتى لـكأنما طار فى الهواء الى حيث كانت . فتح القارورة وأخذ منها قطرة عكِرة ، فوضعها بين قطعتين رقيقتين من الزجاج ، وضعهما تحت عدسة مجهره ، ثم نظر . وعندئذ علم أن الدنيا أسلمت اليه القياد

«هاهى ! هاهى ! جميلة فى تنبتها ، جليلة فى صغرها وكثرتها . مئات الألوف فى احتشاد بديع . وهاهى وحدات من أمّات الخمائر الـكبيرة التى بذرتُها فى القارورة بالأمس» . وامتلأ صدره فهمّ بالخروج ليُفيض على الخلائق بالذى ملأه ، ولـكنه رجع فـكبح جماح شهوته ، فلا بد له من علم شىء آخر خطير جداً . وأخذ شيئاً من سائل القارورة ووضعه فى معوّجة ، وأخذ يقطّره على النار ليرى هل أنتجت تلك الخلائق من السكر كحولاً . « ليبج مخطىء فى زعمه ، فالزلال لا ضرورة له ، فتلك الخلائق النامية هى التى تخلق من السكر كحولا » . وأخذ يرقب قطرات الـكحول وهى تسيل من عنق المعوجة . وقضى مانلا من أسابيع فى تكرار تجربته ، ثم تكرارها ، ليؤكد أن الخمائر لا تنى تتكاثر ، وأنها لا تنى تخرج كحولا . ونقلها من قبابة الى قبابة ، ومن مرق الى مرق ، فوجدها تتنبّت دائماً ، وتتزايد دائماً ، وتملأ رقاب القبابات دائماً برغاء من أكسيد الـكربون المتصاعد من التخمّر . ووجد الـكحول دائماً بالقبابات . كان عملاً جِدّ عسير ، حدا به اليه زيادة الحرص على صدق نتائجه ، وخشية الخدعة فيما يتراءى له أنه الحق

استوثق من خمـائره ، وأصبح أمرها لديه معروفاً مألوفاً ، ولـكنها لم تزد فى عينه على الأيام إلا جِدّة ، ولم تزده ألفته إياها إلا اعزازاً لها . كان يرعاها كالأم الرؤوم ، يطعمها ويحبها ويعجب بجهودها الهائل فى قلب السكر الـكثير الى كحول . وفوّت على نفسه بذلك وجبات الطعام ، حتى اعتل مزاجه وفسدت صحته . ذكر أنه جلس اليها ذات مساء فى الساعة السابعة ـ وهى الساعة التى يحرص فيها كل فرنسى محافظ على اجابة دعوة المائدة ـ وأخذ يتجسّس عليها وهى تتقسم فتتزايد ، وأخذ يحدّق فيها ، ولزمت عينه المجهرَ حتى منتصف السـاعة العاشرة . وعندئذ ، وعندئذ فقط ، آمن بأنه رآها تتقسم فعلاً ، فتتزايد من جراء

ذلك . وأجرى تجارب واسعة النطاق ، بعيدة الأمد ، تجارب امتدت من يونيو الى سبتمبر ، ليرى متى يَفْرُغ صبر هـــذه الخمائر فتنكِص عن تحويل السكر . فلما علم من هذا ما علم صاح يقول : « أعْطِ خمائرك سكراً ، تظل تعمل أشهراً ثلاثة أو فوق ذلك عدداً »

وعندئذ انقلب البحّاث الى دعّاء . انقلب العالم إلى تاجر بارع يُعنَى بعرض بضاعته للناس ، فيثير إعجابهم ويبعث الحميّة فيهم . وذلك فى سبيل الدعوة للمكروبات . فالدنيا يجب أن تعلم حقيقة أمرها ، والناس يجب أن تنقطع أنفاسهم من الدهشة إذا أتاهم نبؤها — إذا هم أُنبِئوا أن ملايين الجالونات من خمر فرنسا ، وبحار البيرة التى تصنع فى ألمانيا ، لا يصنعها الرجال كما يحسبون ، ولكن جنود مجندة تعمل ليلَ نهارَ من مخلوقات لا تبلغ عشرات البلايين منها حجم طفل صغير من بنى الانسان

وألقى عن أبحاثه محاضرات ، وألقى فى الناس خطابات . ورمى فى وجه ليبج حججاً تدمغ مزاعمه . ولم تلبث دولة العلم على الشاطئ الأيسر لنهر السين فى باريس أن تحركت ، فشمله أساتذته الأقدمون بالثناء . وأكاديمية العلوم التى رفضته بالأمس عضواً ، جاءت اليوم تمنحه جائزة الفسلجة (١) . وكلود برنارد رب الفسلجة ذاتها ، قام يصوغ لها المدائح عقوداً . ودوماس ، أستاذه القديم ، أستاذه الذى أصعد بمحاضراته الدمعَ الى عينيه وهو صبىّ أبله ، قام فى جمعٍ عامٍ يُطرى بستور بحديث رائع ، حديث جدير باخجال رجلنا . ولكن رجلنا لم يخجل ، لأنه استيقن أن دوماس إنما يقول الحق . كتب بستور الى أبيه : « وقام دوماس يتمدّح استقصاءاتى واستطراداتى ، ثم وجّه الخطاب إلىّ فقال : قد أجازتْك الأكاديمية ياسيدى منذ أيام على أبحاث بارعة أخرى . واليوم يصفق لك هـذا الحشد اعترافاً بأنك أستاذ فى أساتذتنا عظيم مجيد . نطق دوماس بهذه الألفاظ ذاتها يا والدى ، وتبع هذا تصفيق كان له دوىّ بعيد »

وبين هـذا التصفيق كان من الطبيعىّ أن تسمع هسيساً من خصوم لا يرضون عما يقول . خصوم من خَلْق بستور نفسه . خصوم لم تخلقهم كشوفه الجديدة ، وتخطيئُه لنظريات قديمة وعقائد عتيقة ، ولكن خصوم خلَقهم سوء تحدّيه للناس . كان يكتب فتقرأ بين أسطره إعجابا بنفسه ، وتحقيره لكل من يتلكّأ فلا يؤمن بالذى يأتيه توّاً . كان يحب حوار الكَلِم ، ويُغرم كالديك بالناقرة لأتفه الأمور . كان يغضب ويدمدم لكل نقد ، حتى للتعليقة الساذجة يلفظ بها امرؤ عن أجروميته ، أو تنقيطه لكلماته . أنظر إلى صورته فى هـذا العهد . عام ١٨٦٠ على التقريب ـــ تقرأ فى كل شعرة من حاجبه اعتداده بنفسه ، وتحفّزه للحرب دون يقينه . وطالعْ أبحاثه الشهيرة فى هذا الوقت ، تجد فيها الشّموس والأباء ، حتى فى مصطلحاته العلمية وفُرْمُولاته (١) الكيمياوية

أثار بستور الخصومات حوله لتحدّيه الناس وازدرائه إياهم ، ولكن كان من بينهم من خاصموه بسبب اختلاف برىء على تجاربه . كانت تجاربه بديعة مدهشة ، ولكنها لم تبلغ دائماً الغاية والكمال . كانت عليها مآخذ وبها ثُغرات . مثال ذلك أنه كان يبذر فى محلول السكّر بعض تلك العصىّ القصيرة التى تحيله إلى حامض اللبن ، فكان أحياناً يشم رائحة كريهة تخرج من القارورة هى رائحة الزُّبد إذا فسد ، ثم ينظر بمجهره فلا يرى للعصىّ أثراً . ويمتحن السائل فلا يجد به من حامض اللبن الذى أراده شيئاً . فهذه الخيبات التى اعتورت تجاربه كان يتخذ منها خصومه قذائفَ يحاربونه بها . وكانت تقضّ مضجعه فلا ينام ليله . ولكن لم يدم أرقه طويلا . كان بستور غريب الأطوار عجيب المسالك ، ولم يكن بأقلها مسلكه إذا هو خاب . لم يستطع أصلا أن يعلل لِمَ تحيد تخميراته أحياناً عن الطريق السوىّ المعروف ، إلى طريق معوج غير مألوف ، ومع هذا لم يظهر عليه أنه اهتم لهذا أبدا . كان ماكراً ذا حيلة ، فاذا انسد فى وجهه الطريق لم يحاول فتحه بنطحه ، فقد علم أن هذا لا يجديه إلا تحطيم رأسه ، فكان يدور حول المُشكل دوراناً ، ويزوغ من ورائه زوغاناً ، فيلويه ويَثنيه حتى يصبح له بعد أن كان عليه

لِمَ هذه الرائحة الكريهة ، رائحةُ الزّبد الفاسد ؟ لِمَ لا يَنتُج حامض اللبن أحياناً ؟ ! وفى ذات صباح حدّق فى قطرات السائل ، فرأى حيّاً جديداً يعوم حول تلك العصى المتخاذلة المتناقصة . « ما هذه الأحياء ؟ انها أكبر من العصىّ كثيراً ،

(١) أو علم وظائف الأعضاء

(١) Formulas

وهى تعوم كالسمك عوماً ، هى إذن حيوانات صغيرة » ، وأخذ يلحظها لحظات الكاره لها ، الضائق بها ، المتبرم منهـا ، فقد عرف بالسليقة أنها دخيلة ، أنها زورة الضيف الثقيل لا أهلا به ولا سهلا . وكانت تتقاطر كالابل ، ولكنها إبل كريهة المنظر ، شوهاء الوجوه . أو هى كالأفاعى تنسل انسلالا . وأحياناً كانت تُوجَد فُرادَى ، وكان يدور الفرد منها دوراناً رشيقاً ، أو يتزن على عقبه ثم ينفلت انفلاتاً بديعاً . وكان منها الرّعّاد والرقّاص . مناظر ممتعة حقاً ، ولكن ما دخولها إلى ماء السكّر بغير دعوة ولا استئذان ! وحاول بستور مائة مرة أن يسدّ عليها السبيل كى لا تدخل إلى القوارير . وسلك لذلك سبلاً لا تروق لنا اليوم . وكان كلما ظن أنه قطع دابرها ، إذا بها تنط له فى القوارير من جديد . وذات يوم خطر له أن هـذه الأحياء ذات صلة بالرائحة الكريهة التى كان يجدها ببعض القوارير

وبهذا أثبت ، فى نوع من التحقيق ، أن هذه الأحيـاء صنف جديد من الخمائر تحيل السكر الى حامض الزبد الفاسد[1] .

أقول فى نوع من التحقيق ، لأنه لم يكن موقناً يقيناً تاماً بخلو قواريره من أنواع أخرى من الأحياء غير التى رآها . وبينما هو فى خباته ، ساهمٌ فى حيرته ، تراءى له أن يُخرج النجّاح من خيبته ، ويطلب الفرج من أزمته . نظر الى بعض السائل بأحيائه الجديدة فوجد أن أوسط القطرة يتنفّش بها ، ويعج بحركاتها . ودار بمنظاره قليلا قليلا غير قاصد حتى جاء الى حرف القطرة ، فوجد تلك الأحياء فاقدة الحراك كجثث الأموات تصلباً وهموداً . وعاد فنظر فى قطرة أخرى ، ثم فى أخرى ، فوجد بها ماوجد بالقطرة الأولى ، فصاح : « إن الهواء يقتل تلك الأحياء » . وأكد لنفسه أنه كشف كشفاً خطيراً . وبعد قليل أخبر الأكاديمية أنه وجد خمائر جديدة ، خمائر غريبة ، تُخرج حامض الزبد من السكر ، وأنه وجد فوق ذلك أنها تستطيع العيش والحركة واللعب والعمل بدون هواء . بل إن الهواء يقتلها قتلاً . ثم عقب على هذا يقول : « وهذا أول مثل لحى يعيش بلا هواء »

ولسوء طالع بستور لم يكن هذا أول مثل ، بل ثالث الأمثال ، فان لوفن هوك كشف هذا قبله بمائتى عام . واسپلنزانى قبله بمائة

(١) حامض الزبد هو حامض أعلى من حامض اللبن ، وهو كريه الرائحة وينتج فى الزبد إذا فسد

عام وجد أن الأحياء المكرسكوبية تعيش ولا تتنفس

يترجح عندى أن بستور لم يعلم بهذين المثلين ، بل أنا جازم أنه لم يقصد إلى سرقة مجهود غيره ، ولكنه فى ثورته لكسب مجده ، وتحرّقه لتكثير كشوفه ، تناقص اهتمامه بما جرى قبله وما كان يجرى حوله . ومن هـذا أنه كشف من جديد أموراً كشفها غيره ، كأن كشف أن المكروبات تُفسد اللحم ، ونسى أن إشڤان Schwann سبقه إلى ذلك ، ونسى أن يؤدى اليه حقاً وَجَب

على أنه يحسن بنا ألا نحرج بستور فى هـذا كثيراً ، ونَعدّ سيئاته فى هذا الصدد عدّاً ، ونحاسبه حساب الملائكة الشدّاد . ذلك أن خياله ، وهو من خيال الشعراء ، كان قد بدأ يثب الوثبة الأولى فيخال أن هذه المكروبات أعداء الانسانية وقتلة الرجال . ففى مقاله هذا كان يتحدث حديث الحالم فيقول : كما أن اللحم يفسد ، فكذلك قد تفسد الأجسام ، فتعترى الناسَ الأمراض . وتحدث عما قاساه من اللحم الفاسد وهو يعمل فيه . وتحدث عن كراهته للروائح الكريهة التى ملأت معمله وهو يجرى هذه التجارب . « إن تجاربى فى التخمر ساقتنى بطبيعة الحال الى هذه الدراسات فتقبّلتُها على ضُرّها وخطرها ورغم الكراهة التى تبعثها فى نفسى » . ثم حدث الأكاديمية عما سيلقاه فى سبيل هذه الأبحاث ، وذكرلهم أنه لن يحجم عنها . واقتبس قول لافوازيه[1] : « إن أقذر الأشغال وأكثرها حظا من كراهة النفوس لَتهُون على المرء النبيل إذا هو توخاها لخير الانسانية ، وهى لا تزيد الرجل الا قوة على قطع الصعاب التى يلقاها »

(يتبع) أحمد زكى

(١) هو الكيماوى الفرنسى الشهير (١٧٤٣ — ١٧٩٤) صاحب الأبحاث المعروفة عن الهواء والاحتراق

موعـــد

للأديب حسين شوقي

لماذا تسرع هذه الفتاة فى السير ؟ لماذا ؟ إنها خفيفة الخطى كأنها القبرة ، وكأنها عما قليل ستطير عن رصيف الشارع ..! لماذا تسرع فى السير ؟ لو أنها ذاهبة إلى عملها لكان هناك ما يبرر هذه العجلة ، ولكن هذا غير مستطاع لأن الساعة الآن السادسة ، والمكتب الذى تعمل فيه قد أغلق أبوابه منذ الساعة الخامسة . . لماذا تسرع الفتاة فى السير إذن ؟ إنه يكفى أن تلمح فى وجهها علائم البشر والاغتباط لتـــدرك لماذا تسرع فى خطاها . . إنها على موعد من حبيبها . .

إنها سعيدة ، ولما كانت سعيدة أصبحت تعتقد أن الناس كلهم سعداء مثلها . . . ولكن انظر إلى هذه الطفلة الفقيرة النائمة على طوار الشارع بجانب الحائط ، لا يمكن أن تكون سعيدة وهى على هذه الحال من البؤس ، أحست نحوها الفتاة بحنو شديد حتى فكرت فى تبنيها . . . ربما تبنتها لدى عودتها من الموعد . . هاهو أيضاً كلب لا يمكن أن يكون سـعيداً ، لأنه مجروح ، يتألم من جرحه ، فقد قذفه أحد الأطفال الأشقياء بحجر فأدماه ، تودّ الفتاة لو أنها تحمله الى الصيدلية لتضميد جرحه ، ولكنها مع الأسف متعجلة ، فهى على موعـــد من حبيبها ، وقد تأخرت عنه ، فالموعد فى الساعة السادسـة ، والساعة الآن ست عشرة . . . مسكين حبيبها لابد أنه قلق من طول الانتظار ! إنها ترغب فى ركوب سيارة لتدركه بسرعة ، ولكنها تخشى أن يرفض سائق السيارة توصيلها ، لأن المكان الذى ينتظرها فيه الحبيب قريب جداً ، فهو على خطوات منها .. تنتقل الفتلة الى الطوار الآخر ، تخترق الطريق وهو غاص بالحركة دون أن تنتظر اشـارة الشرطى المؤذنة بالمرور . . حقاً ! إن أمر هذه الفتاة عجيب ! ألكونها تحب تظن نفسها معصومة من الأخطار ؟ تدخل المقهى حيث ضرب لهـا حبيبها موعداً . . . . . . إنها تحس بدوار خفيف عنـــد ما وضعت رجلها على عتبة المكان ، إن قلبها أيضاً ليس فى حال طبيعية ، إنه يخفق بسرعة ، إذ هو أشد منها رغبة فى ملاقاة الحبيب ، ولكن لماذا تجهم وجه الفتاة فجأة ؟ لماذا ؟ لم تجد حبيبها فى المقهى ، بحثت عنه فى كل ركن ولكن بدون فائدة ، إنها تحس خورًا فى قواها ، لذلك جلست هناك إلى مائدة ، ثم أخذت تنظر إلى ساعتها اليدوية التى أشار عقربها إلى السادسة والثلث ، ثم نظرت إلى ساعة المقهى الكبيرة المعلقة فى صدر المكان ، كأنها لم تقتنع بساعتها ، فاذا هى أيضاً السادسة والثلث .. تنادى الخادم فتسأله : هل ساعة المقهى مضبوطة ؟ فيؤكد لها الخادم ذلك . . علامَ هذا القلق ؟ علامَ ؟ إن الحبيب سوف يحضر .. لعل طارئاً قد عاقه . . إنها تطلب فنجاناً من القهوة لتهدئة أعصابها ، ولكن تأتى القهوة وأعصابها ما زالت مضطربة . . تتناول مجلة لتلهى بها نفسها ولكنها تعيدها بعـد برهة إلى مكانها ، لأنها لا تفهم ما تقرأه ، مع أن المجلة ليست علمية صعبة ، بل هى تتحدّث عن نجوم « هوليود » . .

تعود الفتاة إلى إرهاق ساعتها ، تنظر إليها مرة ، ثم ثانية ، ثم ثالثة ، ثم تعيد النظر فى ساعة المقهى .. ربّ ! كيف مرّ الوقت بهذه السرعة ؟ إن العقرب أشرف على السابعة ! هل داخل الساعة شيطان يا ترى يتعجّل الوقت لاغاظة الفتاة ؟ يأتى الخادم وقد رآها قلقة ، فيسألها : هل تنتظرين أحداً يا ســيدتى ؟ فتجيبه متلهفة بالايجاب ، ثم تعطيه علامات الحبيب لعله يكون قد رآه ، ولكن الخادم آسف لأنه لم يشاهده . .

تتأهب لمغادرة المقهى إذ يئست من الانتظار ، تغادر مكانها وهى أشد حزناً من حمامة هجرها أليفها ، ولكنها تعود ثانية إلى المقهى فقد نسيت أن تؤدى قيمة ما شربته . . تقف برهة على الباب ، إذ عساه يحضر . . ثم تطأطئ رأسها وتنصرف . .

تعود الى المنزل ، ولكنها تسلك هذه المرة طريقاً أخرى غير الطريق الأولى ، لأنها لم تعد ترغب بعد فى تبنى الطفلة الفقيرة ، ولا فى تضميد جرح الكلب . تدخل حجرتها فترتمى على السرير لأنها تحس بتعب شديد كأنها صعدت جبال « الهملايا » مع أنها فى الواقع مشت قليلا .. ليس ما بها من التعب ، بل من الحزن ، الحزن العميق . . .

تركت باب الحجرة مفتوحاً لتسمع التليفون إذا دق ،

٢٠ ـ محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون او خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

قال ـ نعم ولكن لم يُرْوَ عن هرقليس نفسه أنه نازل اثنين

فقال ـ ادْعُني إذن ، وسأكون لك أيولاوس حتى تغرب الشمس

قلت ـ سأدعوك ، لا كما يدعو هرقليس أيولاوس ، ولكن كما كان يفعل أيولاوس لو كان يدعو هرقليس

قال ـ لا فرق بين هذا وذاك ، ولكن لنأخذ الحذر أولاً لكي نتقي خطراً

قلت ـ وما ذاك ؟

أجاب ـ خطرٌ أن تتمكن منا كراهةُ المنطق ، فذلك من أسوأ ما قد يصيبنا من أحداث ، فكما أن ثمة أعداء للانسانية وهم من يمقتون البشر ، كذلك هنالك من يكرهون المنطق وهم من يمقتون المثُل ، وكلاهما ناشئٌ من سبب بعينه ، هو الجهل بالعالم ، فتجيء كراهة البشر من الغلو في الركون إلى عدم الخبرة ، فأنت تثق برجل ، وتظنه مخلصاً تمام الاخلاص ، وخيراً وأميناً ، ثم لا يلبث أن يتكشف لك زائفاً خبيثاً ، وهكذا غيره وغيره . فاذا وقع ذلك لانسان مرات عدة ، وبخاصة من جماعة أصدقائه الذين يظنهم أشد الناس إخلاصاً له ، وكثر النزاع بينه وبينهم ، فانه ينتهي آخر الأمر إلى كراهة الناس جميعاً ، ويعتقد أن ليس بين الناس على الاطلاق صاحب خير . أحسبك بغير شك قد لاحظت هذا

قلت ـ نعم

ـ أليس ذلك مدعاة للخزى ؟ وسببه أن الانسان في اضطراره إلى معاملة سائر الناس ، لا يكون لديه بهم علم ، لأنه لو عرفهم لعرف الأمر على حقيقته ، وذلك أن ذوى الخير قليلون ، وأن ذوى الشر قليلون ، وأن الكثرة الغالبة هي فيما يقع بين هذين

قلت ـ ماذا تعني ؟

أجاب ـ أعني أنه كما قد نقول عن بالغ الكِبَر وبالغ الصغَر ، بأنه ليس أندر من رجل بالغ الكبر ، أو رجل بالغ الصغر ، فهذا ينطبق بصفة عامة على النهايات ، سواء أكان ذلك عن الكبير والصغير ، أم السريع والبطيء ، أم الكدر والصافي ، أم الأسود والأبيض ، وسواء ضربت أمثلة ناساً أو كلاباً أو أي شيء آخر ، فقليلون هم النهايات ، أما الكثرة فتتوسط بين النهايات ، أو لم تلاحظ هذا قط ؟

قلت ـ نعم لاحظته

قال ـ ثم ألست ترى أنه لو كان بين الشرور تنافس ، لوجد أن قليلاً جداً منها هو أسبقها في الشر ؟

قلت ـ نعم ، فذاك أرجح الظن

أجاب : نعم ذاك أرجح الظن ، ولست أعني أن مَثَلَ الأحاديث في هذا مثلُ الناس ـ وأراك هاهنا قد حملتني أن أقول أكثر مما اعتزمت أن أقول ، ولكن وجه المقارنة هو أنه إذا ما آمن رجل ساذج ، لا يحذق علوم الكلام ، بصحة دليل ، وخيل اليه فيما بعد أنه باطل ، سواء أكان باطلاً حقاً أم لم يكن ، ثم تكرر هذا في غيره وغيره ، فلا تبق للرجل عقيـدة واحدة ، وينتهي الأمر كما تعلم بكبار المجادلين الى الظن بأنهم قد باتوا

فهي تأمل أن يعتـذر الحبيب اليها . . . يدق التليفون فتسرع اليه ، كما يسرع الغريق الى قارب النجاة ... ياللخيبة ! ليس هو الحبيب الذي يتكلم ، بل هو انسان آخر قد أخطأ الرقم ، يدق التليفون من جديد فتهرع اليه الفتاة ، فاذا المتكلم سيدة تسأل عن (س) الجزار . . . ! ثم يدق التليفون مرة ثالثة ، في هـذه المرة هو الحبيب الخاطب المتكلم ، لأن الفتاة اغتبطت فجأة اغتباطاً عظيما كأنها ربحت اليانصيب الارلندى . . الخاطب يسألها عن سبب تأخرها لأنه ظل ينتظرها ساعتين كاملتين في المقهى ، وكان انتظاره في مقهى آخر ، إذ أخطأ اسم المكان ! الفتاة تسرع في الذهاب اليه ، وقد زال عنها تعبها في غمضة عين ، إنها تنهب الدرج نهباً أثناء النزول ، فتزل قدمها وتسقط سقطة مؤلمة ، ولكنها لا تحس ألماً ، بل تضحك من أجل هذا ضحكاً متواصلاً . ثم أخذت تفكر مرة أخرى في تبني الطفلة الفقيرة ، وفي إسعاف الكلب الجريح ! . .

كرمة ابن هانى — حسين شوقي

أحكم بنى الانسان ، لأنهم هم وحدهم الذين أدركوا مافى التدليلات كلها من تزعزع وضعف شامل ، لابل أدركوا ذلك فى الأشياء جميعاً ، وهى تظل صاعدةً هابطةً فى مدٍّ وجزر لاينقطعان ، كما هى الحال فى تيار يوريبوس

قلت : هذا جد صحيح

أجاب : نعم يا فيدون ، ولشد مايبعث على الأسى أيضاً أن يصادف انسان تدليلاً هنا أو هناك ، فيبدو له أول الأمر أنه حق ، ثم يتكشف له عن باطل ، فبدلاً من أن ينحو باللائمة على نفسه وعلى ما يعوزه من ذكاء ، تراه لحنقه آخر الأمر يغتبط شديد الغبطة فى ازاحة اللوم عن عاتقه ليلقيه على التدليل بصفة عامة ، ويظل بعد ذلك الى الأبد كارهاً لاعناً لكل تدليل ، فتفلت منه حقيقة الوجود وعرفانه ، لو كان ثمت مايسمى بالحقيقة أو اليقين أو القدرة على المعرفة إطلاقاً

قلت : نعم ، إن ذلك ليبعث على الحزن الشديد

قال : فلنحاول إذن بادىء ذى بدء ، أن نسلم فى نفوسنا بالفكرة القائلة إنه لاحقيقة ولا عافية ولا قوة فى أى تدليل على الاطلاق ، ولنعلن قبل ذلك أن ليس فينا نحن الآن عافيــة وأنه يجب أن نطلق فينا العنصر الانسانى ، ونسعى جهدنا فى اكتساب العافية — فتكسبها أنت وسائر الناس جميعاً من أجل حياتكم المقبلة كلها ، وأما أنا فمن أجل الموت ، فلست أحسُّ الساعةَ أنى مُتَخَلِّق بخلق الفيلسوف ، وما أنا فى الرأى إلا مشايع كأفراد السوقة ، وليس يعبأ المتشيع ، حينما يلج فى المخاصمة ، بأوجه الصواب من الموضوع ، بل يحرص على إقناع سامعيه بأقواله وكفى ، وليس بينه وبينى فى اللحظة الراهنة من فرق إلا هذا — بينا هو يحاول إقناع سامعيه بصحة مايزعم ، ترانى أحاول إقناع نفسى قبل كل شىء ، فاقناع سـامعىّ أمر ثانوى بالنسبة الىّ . ولتنظرن كم عسى أن أفيد بهذا ، فلو كان ما أقوله صحيحاً فما أجمل أن أكون مقتنعاً بالحقيقة ، وأما إن كان لاشىء بعد الموت ، فسأوفر على أصدقائى هذا العويل فيما بقى من حياتى من أجل قصير ، هذا وسترتفع عنى جهالتى ، ولهذا فلن يقع منى ضرر . أى سمياس وسيبيس ، تلك هى الحالة العقلية التى أتناول بها الحوار ، وإنى أطلب اليكما أن تفكرا فى الحقيقة لافى سقراط ؛ فان رأيتما أنى أتكلم حقاً فوافقانى وإلاّ فقاومانى بكل ما وسعكما من جهـد ، حتى لا أخدعكما جميعاً كما أخدع نفسى ، وحتى لا أكون لكما كالنحلة ، فأدع فيكما حُمَتى قبل موتى

قال : والآن دعنا نمضى ، ولأتأكد منك قبل كل شىء أن مافى ذهنى يطابق ما كنتَ تقوله ، فان كنتُ مصيباً فيما أتذكر ، فقد كان لدى سمياس مخاوف وشكوك أن تكون الروح أسبق إلى الفناء ، مادامت فى عبارة عن انسجام ، على الرغم من أنها أشد من الجسد ألوهية وصفاء . وقد بدا سمياس من جهة أخرى أنه يسلم بأن الروح أطول من الجسد بقاء ، ولكنه قال : إن أحداً لا يستطيع أن يعلم إن كان يمكن للروح بعد أن تكون قد أبلت أجساداً عدة ، أن تفنى هى نفسها ، مخلِّفة وراءها آخر أجسادها ، وأن هذا الموت الذى يجلب الدمار للروح لا للجسد ، لأن فعل التخريب لا يفتأ عاملاً فى الجسد أبداً . أليست هذه ، يا سمياس وسيبيس ، هى النقط التى تستوجب منا النظر ؟

فوافق كلاهما على أن ذلك تقرير لرأيهما

فمضى سـقراط : وهل تنكران مافى الحوار السابق كله من قوة ، أم تنكران مافى بعضه فقط ؟

فأجابا : بل مافى بعضه فقط

قال : وماذا ارتأيتما فى ذلك الجزء من الحوار الذى ذكرنا فيه أن المعرفة عبارة عن تذكر فحسب ، واستنتجنا منه أن الروح لاشك كانت موجودة فيما سبق ، فى مكان آخر ، قبل أن تنحصر فى الجسد ؟ فقال سيبيس إنه قد تأثر بذلك الجزء من الحوار تأثراً عجيباً ، وأنه لبث فيه راسخ اليقين ، ووافقه سمياس ، وأضاف أنه عن نفسه لم يكد خياله يجيز أن يجىء يوم يرى فيه حول ذلك رأياً مخالفاً لهذا

فاستأنف سقراط : ولكن يجدر بك ، أى صديق الطيبى ، أن ترى رأياً مخالفاً ، لأنك إن أصررت على أن الانسجام مركَّبٌ وعلى أن الروح انسجامٌ نشأ من أوتار رُكِّبت فى أطار الجسد ، فلا ريب أنك لن تجيز لنفسك القول بأن الانسجام سابق للعناصر التى يتألف منها الانسجام[1]

— كلا يا سقراط فذلك مستحيل

(يتبع) زكى نجيب محمود

(١) قال سمياس لسقراط : إنه مقتنع بمذهب التذكر الذى يتضمن وجود الروح قبل حلولها فى الجسد ، فيجيبه سقراط : إن هـذا المذهب لا يتفق مع عقيدته بأن الروح عبارة عن انسجام بين أعضاء الجسد ، لأنه يستحيل أن يوجد انسجام الأعضاء قبل وجود الاعضاء نفسها ، وبالتالى يستحيل وجود الروح قبل وجود الجسد

في مجمع الرذائل

للأستاذ فخري أبو السعود

عقدَ الرذائلُ في خلاءٍ مجمعاً ... في مهمهٍ نائي المزار يباب

يَنشُرْنَ كلَّ حديثِ سوءٍ مُجْتوَى ... بينَ الدِّنانِ ومُترَعِ الأكواب

وتتابعت ثَمَّ الرذائلُ كلها ... يخطُبْنَ في لَسَنٍ وفي إطناب

متفاخراتٍ بالذي زَيَّفْنَ من ... نعماءَ أو قطَعْن من أسباب

وتدفّقَ الحسدُ المفوَّه واصفاً ... مَسْراه في الأكباد والألباب

وتلاه ثَمّتَ الاغتيابُ يَقُصُّ ما ... يمشي به من فتنةٍ وتَباب

حتى إذا سكت الجميع وقرَّ ما ... في الحفل من جدل ومن تَصخاب

ارْتَدَّ حُبُّ النفسِ ثَمّتَ قائماً ... نضرَ الصِّبا مُتألِّقَ الجلباب

متبسماً متمكناً من نفسه ... فِعْلَ العريق المجدِ والأحساب

فدعا: ضُيوفي! قد سمعتُ خطابكم ... فتسمَّعوا أنتمْ لفَصْلِ خطابي

أنا ربُّ هذا الخَلْقِ دانوا كلهم ... لِعُلاي قَبلَ عِبادةِ الأرباب

وأنا قَهَرْتُ عَدُوِّيَ الإيثارَ إن ... ناداهُمُ وَلَّوْا بغير جواب

وإذا دعوتُهمُ فَرَهْنُ إشارتي ... وهُمُ على ما رُمْتُهمْ أحزابي

أنا مُفسِدُ الوُدِّ الذي زعموه مِن ... قِدَمٍ فكلُّ الود محض كِذاب

إمّا رأيتُ وثيقَ ودٍّ بينهمْ ... أنفذتُ سهمي فيه أو نُشّابي

فانبتَّ أو وَهَنَتْ عُراهُ أو اغتدى ... زيفاً مِنَ الأقوال والألقاب

مِن ذاك يحسَبُهمْ جميعاً مَنْ رأى ... وقلوبُهمْ شَتّى هوًى وطِلاب

ويُرَى الوِدادُ أقلَّ ما احتفلوا به ... من طِيبِ ذُخْرٍ أو كريمِ رِغاب

لم يأخذوا في العيش أو يُعْطُوا سوى ... ما دوَّنوا في دفترٍ وحساب

وأنا المغالي في النفوس بِقَدْرِها ... حتى تُصَغِّرَ مدحَ كلِّ محابي

وأنا المبرِّرُ للخطايا عِندَها ... فترَى صواباً كلَّ غيرِ صواب

وأنا مشوِّهُ كلِّ فضلٍ ظاهرٍ ... للغير وهو أحقُّ بالإعجاب

وأنا محرِّضُ من تجاوزَ حقَّه ... وبغَى على القُرَناءِ والأصحاب

وكذاكَ أضرمُها عواناً بينهم ... يَصْلَوْنها حِمَماً وبرحَ عذاب

وإذا أشاءُ أبُثُّ فيهمْ منكمْ ... رسلي وأنشر بينهم أذنابي

أمشي بحقدٍ بينهم وضغينةٍ ... وأُوَكِّلُ المغتابَ بالمغتاب

ويكون لي الكذبُ المموَّه برقعاً ... ويكون من زَيْفِ النفاق خضابي

وأهيج بالحسد الجوانحَ والحشا ... فتعجُّ بالأوضارِ والأوصاب

أنتم جنودي لا عَدِمْتُ ولاءكم ... أبداً على الأجيال والأحقاب

فاحسُوا الشرابَ لقد رضيتُ بَلاءكم ... لكمُ ثنائي كله وثوابي

فخري أبو السعود

أمراض الحضارة

ليت الذي بجليل الفكر حققها ... يشاهد الآن «فقد العز في الحضر»(1)

«جيل الحضارة» هذا فانظر معي ... أللبطولة عند القوم من أثر؟

أم للمودة والاخلاص منزلة ... أم للمروءة والاخلاص من خطر؟

تقدم العلم فانحطت به قيم ... كانت هي العرف بين الله والبشر

مالوا عن الدين لما شك عالمهم ... والشك أدعى لأخذ الأمر بالحذر

فأصبحوا هملاً لا يفقهون لما ... في الدين من وازع والعلم من بصر

وأولعوا بسخيف من عوائدهم ... عجزاً عن الجد في الابداع والظفر

ظواهر الأمر تكفيهم وتشغلهم ... عن النفوذ وراء السطح والصور

فضيلة لم تُذع ليست لصاحبها ... فاحرص على النشر دون الصدق في الخبر

يا من يريد بجهد صامت شرفاً ... أقصرْ ودع عنك هذا الوهم واعتذر!

«أجاعل أنت يقوراً مسلعة ... وسيلة لك بين الله والمطر؟»(2)

***

ويح البرية من علم يضيء لها ... جوانب الكون دون النفس والفكر

(....)

(١) إشارة لأبي العلاء المعري في قوله من قصيدة:
الموقدون بنجد نار بادية ... لا يحضرون وفقد العز في الحضر

(٢) لشاعر لا أذكره

نعيم الحب

بقـلم حلمي اللحام

عضو المجمع الأدبي

هاجَتْ بِيَ الذِّكْرَى شُجُونَ الهوَى
وأضرمَتْ في الصـدر نارَ الْجوَى

تلفَّتَ القلبُ إلى أمْسِـهِ   لَهْفَانَ مِمَّا جَشَّمَتْهُ النوَى
أيْنَ عُهودٌ كالرُّؤَى لذَّة   وظِلُّ عَيْش كَرَفِيفِ الْحُلَى
وأيْنَ حُلْمٌ سائغٌ وِرْدُهُ   كَسَلْسَلِ الْخُلْدِ إذا ما جرَى
يا نِعْمَةَ النِّسْيَانِ جُودِي عَلَى   قلْبٍ رماهُ اليأْسُ حتى ذَوَى
وَهَدْهِدِي بالسِّحْرِ أحزانَهُ   وَأرْقِدِي فيـه طُيُوفَ الأذَى
أوَّاهُ كم يَهْفُو إلى رَقْدَةٍ   في ظِلِّكِ الْوَارِفِ هَفْوَ الصَّبا

* * *

إنْ سَاوَرَتْنِي سِـنَةٌ حُلْوَةٌ   نَعِمْتُ باللَّثْمِ وطِيبِ اللِّقَا
وَإنْ تَغِبْ أشْقَ ، فياليْتَنِي   أقضِي حياتي في ظِلال الكَرَى
يا طَيْفَهَا كم زُرْتَنِي مُنْعِماً   في هَدْأَةِ الليلِ وسَجْوِ الدُّجى
وَطِرْتَ بالرُّوحِ إلى عالَمٍ   مُزْدَهِرِ الأرْجاءِ ، ضَاحِي الذُّرَى
يُرَفْرِفُ الحُبُّ على أُفْقِهِ   ويَنْعَشُ المحزُونَ فيـه الرِّضَا

* * *

مُضْنَاكِ يا رَيْحانَتِي يائِسٌ   طاحَتْ أغانيهِ وغابَ الصَّدَى
إنْ هاجَهُ الشَّوْقُ بكَى حَظَّهُ   وعَادَهُ الماضِي فأغْضَى أَسَى
آضتْ منَ الهِجْرَان جَنَّاتُهُ   صَحْرَاءَ لا يَضْحَكُ فيها الْجَنَى
فَنَضِّرِيها تَأْتَلِقْ بَهْجَةً   وتَـكْتَنِفْها نُعْمَيَاتُ الدُّنا

* * *

أنْتِ سَنَا الرَّوْضِ ورَيْحانُهُ   وفِتْنَةُ الزَّهْرِ وعِطْرُ الشَّذَا
منْكِ اُسْتَمَدَّ القلبُ أَلْحَانَهُ   واستَلْهَمَ الشِّعْرَ وذاقَ الهوَى
يَا حُسْنَ ذِكْرَاكِ وَيَا طِيبَهَا   قُوتاً لِرُوحي إنْ عَرَاها الْوَنَى
لم يَبْقَ في الكأسِ سِوَى جُرْعَةٍ
والنفْسُ ظَمْأَى ! أفتُرْوِي الصَّدَى ؟
مَنَّيْتِنِي بالوَعْـدِ ، لـكِنَّنِي   مِثْلُ فَرَاشٍ حامَ حَوْلَ السَّنَا
تَرَكْتِنِي في لوْعَـةٍ مُرَّةٍ   مُستَعبِرَ الْعَيْنَيْنِ ، جَمَّ الضَّنَى
لاالطيْرُ يُصْبِينِي تَرْجِيعُهُ   في السَّحَرِ النَّدْيَانِ إمَّا شَدَا
ولا الأغارِيدُ تَذُودُ الأسَى   عن مُهْجَتِي الحرَّى وتَنْفِي الشَّجا

***

هـذا الصِّبا المِمْرَاحُ أيامُه   رَفَّافَةٌ ، حالِيَـةٌ بالْمُنَى
والمُجْتَنَى دانٍ فهيَّا نَهِمْ   مثلَ طيورِ الْفجرِ بينَ الرُّبا
ونَحْيَ كالزَّهرِ ألِيفَيْ هوًى   في رَوْضَةٍ وَشَّى رُباها الحَيا
ونَقطِفِ اللَّذاتِ مَنضورةً   من قبلِ أنْ يَذْوِيَ عودُ الصِّبا
عيناكِ سِرُّ الوَحْيِ في خاطري   وثَغْرُكِ المَعْسولُ كأْسُ الطِّلَى
فأرْشِفِيني نَهْـلَةً عذْبةً   تَغْمُرْ جَنَانِي بِسَنِيِّ الرُّؤَى
وأَلْهِمِيني نَغَـماً فاتِناً   أنْسَ بهِ بَرْحَ الأسَى والبُكا

***

إذا انتَشَى قلبيَ من حبِّهِ   فلا صَحاَ من سُكْرِهِ لا صَحاَ
الحبُّ رُوحُ اللهِ في خلقهِ   ونَفْحَةُ الوَحيِ . ونورُ الهُدَى
جادتْ قِفارَ الـكوْنِ أنداؤُهُ   فبَشَّتِ الدُّنيا ، وغَضَّ الثَّرَى
لولاهُ ما غَرَّدَ في أيكةٍ   طيرٌ ولا غَنَّى حَمَامُ الضُّحَى
ولا أراقَ الوَرْدُ أنفاسَه   في الجوِّ رَيًّا رِضَابِ النَّدَى
آمنْتُ بالحبِّ وآلامِهِ   كلُّ نعيمٍ ماعداهُ سُدَى

(دمشق)   حلمي اللحام

القبـلة

بقـلم الياس فيصل

أنت سِلكٌ مكهرَبٌ بشعاعِ الْـ   حبِّ ينبث منه همسُ الفؤادِ
فيكِ من نكهةِ الشعورِ حميًّا   سحرُها المستطابُ خافٍ وبادِ
أنت معنى ، بيانه الفذ يبرى   من جمال المراحِ أفقاً جديدا
أنتِ أنشودةٌ تزفُّ ثنايا   ها رجاءً مذهَّبـا منشودا
وسواءٌ ألممت مسرعةً ذا   ت نفورٍ أو ذبتِ بين الشفاه
ففتونُ الفتونِ كالنور يغشا   كِ بلونٍ من التمتع زاهى
نزوة الشوق تسكبين عليها   مايوارى لهيبها المنثورا
والحنين الملحّ في القلب يغدو   حين تهفين لذةً وحبورا
ليس ينسى النبوغ مالكِ من فضـ   ـل ولن تغفل العلى عن جميلِكْ
كم فتى سجّل الخلود اسمه ما   كان لولا جهوده في سبيلِكْ
ياخيالا من اللذاذة فيـه   قبس الذكرى دائم الايماض
ليتَ محبوبتي تروِّي غليلي   مرة من معينكِ الفياضِ

عاصمة الجمهورية الفضية   الياس قنصل



من أساطير الإغريق

يـــو
أو
منشأ إيزيس

للأستاذ دريني خشبة

كان لأحد أرباب الأنهار التي تنحدر من شواهق الأولمب ابنةٌ بارعة الجمال فتّانة، حلوةٌ كأنها قبلة على فمٍ حبيب، رقيقةٌ كأنها زنبقةٌ على غصن رطيب

وكانت تخطر كما تخطر نسمةٌ معطرةٌ أفلتت من الجنة لتملأ القلوب حباً، ولتشيع في الحب سعادة، ولترف في قيظ الحياة فتُرَوِّح على المكدودين المحزونين

وكانت هذه الفتاة (يو)، مفتتنةً بجمال الطبيعة، مشغوفةً بسحرها الأخّاذ، تود لو تستطيع فتعيش ملءَ السهل والجبل، أو تقدر فتنسجم والحياة الدائبة في الغابة، أو تكون روحاً شفافاً يرف في زرقة السماء، ويمتزج بالظلال والأفياء

ولم تكن عاشقة، ولكنها كانت حين تجلس على الصخرة المشرفة على البحر تعبد القمر في هدأةٍ من الليل، يهيج حب الطبيعة في نفسها، فتبكي، وتبكي، ولا يقطع عليها بكاءها إلا خرير الغُدران المترقرقة التي تتسرب في الأدغال. وكانت عبادة الطبيعة تقطعها عن أترابها من عرائس الماء، وصاحباتها من بنات الغاب، فكن إذا تفقّدنها، توزّعن في مهاوي الجبل، وتفرّقن في مُنبسطِ السفح، وتنادين بها ههنا وههنا، حتى يجدنها آخر الأمر مستغرقة بين يدي قمرها المعبود، تناجي البحر المصطخب، وتكلم النجم المضطرب

ونزل زيوس يوماً من ذروة الأولمب التي هي أول مراقي السماء، يرتاد جنات الأرض في مملكة جدته (جي)، وما كاد يوغل في إحدى جنبات الجبل حتى لقي يو، تلك الفتاة الأولبية الساحرة، واقفة على الصخرة تستمتع جمال الشروق في صبيحة من أوليات الربيع... وكانت السماء ما تزال موشاة بسحائب خفيفة من بقايا الشتاء، وآراد[1] ذكاء تنتشر خلالها فتفضّض أذيالها، وتذهب أوساطها، وتكسب الأفق رونقاً زاهياً خلاباً

وسُحر زيوس، وهو كبير الآلهة، بجمال العروس التي هي من خلقه، وابنة أحد أتباعه، وأحس بعطف يغمر قلبه العظيم من أجلها، وشعر كأنه ظمىءٌ إلى هذا الجمال الفتان المشرق، الذي كسف في عينيه جمال زوجاته جميعاً، وفيهن حيرا وديون ولاتونا[2]

ووقف الإله المشدوه يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، ويُسمّر مكانه، وهو سيد الآلهة، يعبد عَبْدته الصغيرة التي أبدعتها يداه... وهو لا يدري!

وعول على اغتنام الفرصة، وأقسم ليملأن وطابه استمتاعاً لا يضيره ألا يكون بريئاً، ولذاذة ليس به أن تكون نقية خالصة... «أنا سيد أرباب الأولمب، وكل ما بين لابتيكِ أيتها الأرض لي، وقد اشتهيت هذه الجميلة الخبيثة فمن الذي يجرؤ أن يحجزها عني أو يمنعها مني!...؟»

ثم بدا له ألا يزعجها بالظهور لها في سمائه الحقيقية فينخلع قلبها وتطير نفسها، لأنها ستكون منه تلقاء إله، فتحول في لمحة الى فتى يافع ينهل الشباب في برديه، ويترقرق الصبي في أعطافه، وتشع عيناه صبوة وفتوناً. وتقدم اليها فحياها تحية كلها صفاء وكلها دعة، فحيت بأحسن منها، ولقيته أرضى لقاء...

وجلس يحدثها وتحدثه، وكان الإله المحتال يمزج أحاديثه بالسحر، ويزخرف صوته بالموسيقى، ويعسل ابتساماته بالمحبة،

(١) أشعة الشمس (٢) حيرا أولى زوجات زيوس وديون هي أم أفروديت (فينوس) ولاتونا هي أم أبوللو وديانا (فوبوس وأرتميس) ولزيوس أزواج أخرى سنعرف بهن في كلمة عن الثيوجونيه اليونانية

ويطلق فى نظراته كل ما وسعه من شياطين الهوى ، وكان ماينفك يقترب منها ويقترب ، حتى لامس ذراعه ذراعها ، فأخذ يدها الصغيرة البضة بين كفيه الحارتين ، وطفق يضغط قليلاً قليلاً ...

وصمتا هنيهة . . . ثم فرغ طور اللسان ، وبدأت نوبة العين ، وأخذا فى رشفات وقُبل . . .

وعاد أدراجه الى الأولب ، ولما يزر من أطراف الأرض غير هذه الناحية الحبيبة التى سعد فيها لحظة بيو ، وظل منـذ ذلك اليوم يتردد إليها فيلقاها على أنها كأسه الروية التى تبترد بها غلته ، وتلقاه على أنه حبيب أسعدتها ڤينوس به ، وما درت قط أنه كبير الآلهة ورب الأرباب ...

وكان يتحرّق إلى لقائها ، وكانت تتسلى عنه بقمرها الفضى ، فاذا سعدت منه بزورة ، اندغمت عبادتها للطبيعة فى عبادتها له ، وأذهلتها نشوة الحب عن الدنيا وما فيها !

وأحست حيرا ببعض ما يشغله ، ولحظت أنه صادف عنها ، فأيقنت أن لا بد من أمر ، وأن فى الأمر أنثى ؛ وأن فى الأنثى صبابةً وغراماً ؛ فبثت العيون ورصدت الرقباء ، حتى وقفت من شأنه على كل شىء !

ولشد مادارت الدنيا بحيرا ! لقد ودت أن تقلب جبلاً على رأس يو ! ! وأقسمت أن تبغتهما إذ يتراشفان كؤوس الهوى دِهاقا ، لـكيلا يكون لبعلها على خيانته حجة ، ولـكيلا يكون له من بعدها برهان

***

وذر قرن الشمس فى صبيحة ضاحكة ، فذهب زيوس يشفى مافى قلبه من برْحٍ عند يو ، وكانت حيرا قد أوهمته أنها ستقضى سحابة يومها هذا عند واحدةٍ بعينها من صديقاتها ، وزاد ذلك فى ابتهاج الالـه ، وضاعف انشراحه ، واعتزم أن يستمتع طيلة يومه هو الآخر لدى يو

وإنه لفى غَمْوِ النشوة وإبان السكْرة وعنفوان المرح ، إذا به يلمح حيرا مقبلة ! . . .

وكانت ما تزال فى أول الأفق ، فأيقن أنها مكيدة دبرتها لِتفجأه مع يو ، وأنها قد كشفت من سره ما بالغ فى كتمانه . فتناول أذن صاحبته فنفث فيهـا نفثة سحرتها فى أقل من لمحة بقرة بيضاء ناعمة ، ثم شرع يلاطفها ويمسح عنقها . . .

ووصلت حيرا ، ولم تنطل عليها حيلة الالـه ، وما شكّت قط أن البقرة الواقفة تبحث بأنفها فى الحشيش الأخضر كأنها تنشد الـكلأ ، إن هى إلا يو . . ! عدوتها اللدود ! !

فبسمت لزوجها بسمة كلها دلٌّ وكلها فُتون ، وسألتـه ، وهو يحاول منها قبلةً ، أن يمنحها هذه البقرة الخصبة التى . . . : « لم أر فى حياتى أرشق منها ولا أجمل . . لقد أحببتها ، وهى من غير ريب ، حين تـكبر ، ستعطينا أجود اللبن وأسلمه ، وسيكون لبنها خير غذاء لولدَينا الحبيبين إيرس وهيفيستوس ولطفلتنا الجميلة هيب (١) . . . »

وارتبك زيوس ، ولم ير بداً من إجابة زوجه إلى ما تريد . .

ومضت حيرا بالبقرة فرصدت لها أحد اتباعها الأقوياء : آرجس الهائل ، ذا مائة العين التى لا تنام ! ناطته بها ، وأمرته ألا يغفل عنها ... « وإلا فالويل لك يا آرجس إذا هربت منك ، أو احتال أحد عليك فألهاك عنها . . . إذن يحل عليك غضبى ، وأسحقك سحقاً . . . »

وظل الحارس الساهر يرعى يو ، ويرقب كل حركة من حركاتها ، حتى فزعت المسكينة من سوء منقلبها ، وصبت اللعنات على هذا الحبيب الشيطان الذى ردها بعـد جمالها إلى هذا الخلق الشائه ، وصيرها إلى ذاك المصير المؤلم . لقد كانت تتحين الفرصة لتستطيع أن تفلت من رقابته الثقيلة ، ولـكن كيف ؟ إن الخبيث كان إذا أضناه السُّهد وأعياه السهر ، ينام بخمسين عيناً ، ويقدح الشرر بخمسين أخرى ! ! فاذا استيقظت هـذه نامت تلك ، وهكذا دواليـك ، حتى تشرق الشمس فتصحو المائة كلها ! وكانت تقابل صواحبها عرائس البحر كلما مررن بها ، فتود لو تستطيع مخاطبة إحداهن ، ولـكن ... هيهات ! لقد كانت . . مو . . مو . . تنطلق من فمها الـكبير مالئة أشداقها ، فتزعج أيما ازعاج !

ومضت أيام . . . وأيام . . .

ثم لقيت أباها مرة ، فنظرت اليه وهو ينكرها ، ونظرت ، ولـكنه لم يستطع أن يفسر نظراتها ، فذرفت أحر الدموع وأدمى العبرات ! وحاولت أن تلفته إلى أنها ابنته ، فلم يأبه لها !

(١) إيرس هو مارس الرومانى إله الحرب ، وهيفيستوس هو ڤلكان الرومانى إله النار ، وهيب هى ربة الشـباب وندمانة الشراب ، وحاملة الـكئوس فوق الأولب

وبدا لها أن تخط على ثرى الشاطئ حكايتها ، وما كادت تفعل حتى فطن أبوها لما تريد ، فلما قرأ ما رقشته فى أديم الرمل ، أجهش المسكين وسكب دموع الحنان ، ثم عانقها عناقاً طويلاً ! ولـكنه أسقط فى يديه ! إذ ماذا يستطيع رب نهر صغير أن يصنع فى سحر الالـه الأكبر ! ؟

ولما شهد آرجس ما كان من بكاء البقرة ، ثم بكاء رب النهر وعناقه إياها ، تأثر تأثراً بادياً .. ولو لم يفقه من كل ما كان شيئاً . ثم ذكر وعيد حيرا ، فانطلق بالمسكينة إلى مكان سحيق ، وثمة ، تخير يفاعاً عالياً أقام عليه ليشرف منه على كل شئ ، فلا يخشى على بقرته رهقاً ، ولا تستطيع هى مهرباً

***

وذكر زيوس فتاته المسكينة التى كان حبه إياها سبب تعسها وشقائها ، وذكر تلك الأويقات الحلوة التى يسرت له فيها أصفى لحظات السـعادة ، التى لم يتيسر له مثلها فى مملكة الأولمب على ما جمعت من صنوف الرفاهة والنعيم ، فثارت فى قلبه عوامل الرحمة ، وتحركت فى صميمه تلك الشفقة الالـهية التى اتصف بها فى قديم الآباد

وفكر وفكر . . . ثم استدعى من فوره ابنه من زوجته مايا ، البطل الطيار المشهور ، هرمز ، وأمره بالتوجه إلى حيث آرجس فيحتال عليه ويقتله

ومرق هرمز كالسهم إلى حيث الأكمة التى جلس فوقها آرجس ، فألفاه يحرس البقرة حراسة شديدة منكرة ؛ وكانت القمراء تغمر السهل والغاب والجبل ، وكان البدر يتنقل فى دارات السماء ، والرياح تهب سجسجاً ، والبلابل تغرد فوق أغصان التفاح فتطرب وتشجى ؛ وكأن سِنةً من النوم خفيفة رقصت فى خمسين من عيون آرجس فأطبقت قليلاً ، ولـكن ما برحت الخمسون الأخرى تنافس الثريا ببريقها ؛ وكانت البقرة ملقاة على الثرى الندىّ من الاعياء ، فلما شهدت هرمز لم تحفل به

ولـكن ما هذه الموسيقى الحنون ! !

ومن العازف فى هدأة الليل !

وما للنجوم تضطرب هكذا من الطرب ؟

آه . . لقـد تحوّل هرمز الصناع إلى شاب ذى قوة وذى فتوة وذى جمال ، وبدا فى شكل راع من رعاة الضأن ، وجلس القرفصاء على صـــخرة مقابلة لآرجس ، ثم انبرى يعزف على يراعه المثقّب الذى اتخذه من قصب البرية الفسيحة التى أقبل منها ، وانبطحت فى السفح شاؤه و نعَمه (١) تغط فى شبه نوم عميق ...

واستيقظت الخمسون الأخرى من عيون آرجس ، ودب النشاط فى هيكـله الضخم مما سمع من حسن التوقيع وروعة اللحن ، فانتفض انتفاضة كان بها عند هرمز - الراعى الفتى - فسلّم عليه وصافحه . وجلس بين يديه كالمنز يسمع ويطرب وينتشى ، ثم أخذ معه فى حديث طويل عن موسـيقاه العذبة وألحانه الرقيقة ، ثم استطرد فسأله عن نايه ، مم صنعه ، أو من ذا الذى وهبه له ؟ . . .

فقال هرمز : « فى إحدى الغابات ذات الأيك البالغ عنان السماء ، والدوح المنتشر فى الأرجاء ، كانت تعيش سيرينكس عروس الماء المرحة ، ذات السيقان الناعمة ، والجسم الأبيض الخصب الجميل . وكانت تهوى الرياضة وتقبل عليها ، وتؤثر منها الجرى والوثب والقفز ، والتعلق بأطراف الشجر ، ثم السباحة . وكانت تجرى فتسبق الريح ، وتعدو فيتعثر الظليم فى آثارها ، ولا تدرك الصافنات غبارها . وطالما طلبت إليها آلهة الغاب مسابقتها ، فكانت تأذن لهم فيجرون قبلها مرحلة ، ثم تنطلق فتلحق بهم ، وتسبقهم بمراحل ! . . . »

وتثاءب هرمز الخبيث وقال : « ومن طريف ما حدث لها ، أن پان العظيم ، رب الرعاة وإلـه المروج وسيد الغاب ، ومعبود الناس فى أركاديا ، لمحها يوما تعدو وكأنها زَوبعة ، فتبعها ؛ ولكنها شأته (٢) وأجهدته ! مع ما هو معروف عنه من السبق والتفوق فى الجرى ، وحاول أن يلحق بها ، فضاعف سرعته وأطال خطواته ولـكن هيهات ! . . . والتفتت سيرينكس فرأته يطوى أديم الأرض من خلفها . ففزعت أيما فزع ، وهالها منظره الشائه الغريب . . . فسيقانه العنزية الأربع ، وأذناه البهيمية الشاخصة ، وجسمه المفتول ذو العضل ، ووجهه الواسع العريض . . كل ذلك بعث فى قلبها الذعر ، وهاج فى نفسها الرعب ، حتى كادت تذهب شعاعا . »

(١) الشاء جمع شاه والنعم يطلق على الأبل

(٢) شأته سبقته

وتثاءب هرمز ثانية وثالثة، ثم قال: « . . واعترضها نهر عظيم فصرخت فى أخواتها عرائس الماء تستغيث بهن، وتطلب اليهن النجدة، فما أذهل بان عن نفسه إلا أن رأى طائفة من هذه العرائس تبرز من الماء فجأة فتجذب سيرينكس حتى تغيبها فى اليم، ثم ما أذهله أيضاً إلا أن يرى قصبات رقيقة، ذوات أرياش صفيقة، تنمو فى الموضع من الماء الذى غيبت فيه سيرينكس ! !

ووقف بان مشدوه اللب، ذاهل الفكر، يحملق فى النهر الذى طوى منية القلب، وهوية النفس، ثم انثنى فنزع القصبات النامية، وراح يصنع منهـا نايا حلو النغم رقيق اللحن، حنون الجرس

ولقيته مرة فى روضة مونقة، منضورة منسقة، وكان بان يجلس على رابية بهـا معشوشبة، عازفا على يراعه، فطربت لموسيقاه طربا شديداً؛ ودلفت إليه، فرجوته أن يهب الناى لى، فتبسم قائلا. « إليك يا بنى أكرمَ الفنى وأعز الذكريات ...»

وشهدت عبرات تنطلق من مقلتيه، يحاول أن يخفيها عنى ...

وكان هرمز وهو يلقى هذه الأقصوصة التى اخترعها اختراعا، يحاول أن يمطها مطا، ويزيد فى ثناياها حواشى مملة، ويزخرفها بتعليقات لا غناء فيها. وكان يتثاءب ويتثاءب، وكانت الكلمات تسّاقط من فمه كأنها مشدودة بسلسلة من حديد، حتى تثاءب آرجس هو الآخر، وغلبه نعاس شديد أغلق عيونه كلها. وابتهج هرمز الخبيث لذلك، وجعل يروح على وجه آرجس، حتى انطلق الشخير من أنفه الكبير يجاوب أصداءه الضفادع ... !

وهنا ... امتشق هرمز جرازه المرهف وأهوى به على عنقه الطويل، فانفصل الرأس عن البدن، وغادرهما معفرين بالتراب، وعاد أدراجه إلى الأولمب يحمل إلى والده نبأ المعركة ...

وحزنت حيرا على خادمها أمض الحزن وأشده، وذهبت بنفسها فحملت رأسه إلى مخدعهـا فى قصر الأولمب الكبير، وطفقت تسمل العيون عيناً عيناً وتركبها فى ريش طاووسها[1] الجميل لتظل إلى الأبد رمز حبها له، ووفائها لذكراه ... ثم آلت لتسلطن على يو — البقرة المسكينة — ذبابة صفراء من ذباب الأبالسة، تقرصها وتجعل من حياتها نكالا، حتى ضجت المخلوقة التعسة ورفعت أكف الضراعة تستمطر الرحمة من زيوس ... كبير الآلهة، ورب الأرباب: « يا إلـهى العظيم الرحيم! يا أبا الآلهة، وابن الآلهة! أتوسل اليك بأبنائك الكرام الرحماء! أدركنى يا أبا زجريوس! اغفر لى زلتى حين أحببت هذا الفتى الجميل وأحبنى! إن كنت قد صنعت بى ماصنعت انتقاما، فحسبك ماحل بى من عـذاب الهون! لن أزلّ يا إلـهى إذا غفرت لى ورفعت عنى وزر غضبك! اقبل يارب الأولمب صلاتى واجعلها شفيعى إليك! أنا ... يو المسكينة .. كنت أعبد ابنتك أرتميس ربة القمر، فكنت أنزوى عن العالم، وألبث وحدى بين يدى قمرى الحبيب، أصلى لك ولابنتك المعبودة، فى هدأة الليل، وسكون السحر، فما هو إلا أن قطع على هذا الفتى صلاتى، وهو من خلقك، وجماله الفتان آية من آياتك، فاذا سحرنى وأذهلنى عن عبادتى، فانى أستأهل كل هذا الذى أنافيه!... يا إلـهى اغفرلى، فقد وسع غفرانك كل شىء ... ! »

ويستجيب الالـه لهذه الصلاة الحارة الخالصة، فينطلق إلى حيرا، حيث يجدها مكبة على رأس آرجس تسمل عيونه، فيواسيها ويسليها، ثم يرجوها أن ترحم يو، وأن تخفف عنها العذاب، وهو لقاء هذا يعطيها كل المواثيق ألا يصل أسبابه بأسبابها مرة أخرى. فترق حيرا، وتتفجر الرحمة لأول عهدها بها، فى قلبها؛ وترسل من يرفع الذبابة عن البقرة ونأذن لزيوس فيعيدها إلى صورتها الأولى ... الصورة القديمة المحبوبة ...! ولـكنها تشترط عليه أن يرسل من يذهب بها إلى أقصى أطراف الأرض، حتى تطمئن عليه ... وعلى قلبه المتصابى !... من حبها

ويأمر زيوس بعض أتباعه فيحتمل يو إلى ... ... ضفاف النيل !! وتخرج من الصحراء فيلقاها المصريون؛ فتبهرهم بجمالها الرائع، وحسنها الوضاء، ومفاتنها البارعة، ثم يجتمعون على عبادتها، ويقيمونها مليكة عليهم، ويسمونها: « إيزيس »

وتمر الأيام ...

فيتزوجها كبير آلهة مصر، آزوريس، وتلد له ابنه حوريس![1]

دريني خشبة

---

(١) كان الأغريق يرمزون لحيرا بالطاووس والـكوكو وكانوا يحبونها حبا جما لأنها آثرتهم بعطفها وضحت فى سبيلهم بحب زوجها وتفته فيها — واسمها الرومانى هو چونو

(١) فى هذا تناقض لما هو معروف فى الميثولوچية المصرية، ولا نعرف منشأ هذه الاسطورة التى تمتاز من كل أساطير اليونان بما أثبتته من علاقات مصر القديمة بهيلاس

البريد الأدبي

ملك الصحافة

توفى أخيراً قطب من أقطاب الصحافة هو أدولف أوكس صاحب جريدة « نيويورك تيمس » أعظم الصحف الأمريكية ، وكانت حياة أوكس كقصة روائية ، فقد بدأ الحياة بائع صحف متجول ، ثم غدا بعزمه وذكائه ومثابرته أعظم صحفي في العالم الجديد وصاحب أعظم صحيفة فيه . وقد ولد أوكس في سنسناتي من أعمال أوهيو في سنة ١٨٥٨ ؛ وبدأ حياته العملية في نوكسفيل ببيع الصحف ويدرس أعمالا مطبعية وصحفية صغيرة ، واستمر يعمل كصبي بائع في الطريق ، وصبي في المطبعة حتى سنة ١٨٧٧ وفي ذلك العام عمل صفافاً في مطبعة صحفية . ثم نمت به همته بسرعة ، فأصدر في العام التالي جريدة اسمها « شاتانوجا تيمس » استمرت ملكه طول حياته ، وتقدم أوكس بسرعة في الصحافة وتقدمت جريدته حتى غدت صحيفة أقليمية هامة تتمتع بقسط لا بأس به من النفوذ والتقدير . وفي سنة ١٨٩٦ ، أثار أوكس دهشة العالم الصحفي باقدامه على شراء جريدة « نيويورك تيمس » وكانت الصحيفة الكبرى قد توالت عليها الأزمات والصعاب حتى كادت تتوقف عن الصدور ؛ واضطر أصحابها إلى عرضها للبيع ، فتقدم أوكس لشرائها ، ودفع جزءاً فقط من الثمن . وكانت الدوائر الصحفية تتوقع الفشل لأوكس ؛ لأنه لم يعمل من قبل إلا في صحيفة محلية ؛ ولكن أوكس أبدى في إحياء صحيفته الكبرى همة وكفايات مدهشة ، فلم يمض سوى قليل حتى عادت الصحيفة إلى سابق قوتها ؛ واختار أوكس لها اللون المحافظ مع اعتدال في اللهجة ، ومع التزام الجد والوقار ، والرصانة ، ومجانبة الصبغ والحملات المثيرة ، وكان شعاره الذي يطبع إلى جانب العنوان في كل عدد « كل الأخبار صالحة للنشر » ، وهو شعار مازالت تحمله الصحيفة ، حتى اليوم ، واستطاع أوكس خلال أعوام قلائل أن يسدد جميع الثمن وأن يستأثر بامتلاك الصحيفة الكبرى . ومازال أوكس يعمل حتى غدت «النيويورك تيمس» أعظم صحيفة في العالم الجديد ، سواء في حجمها ، أو تحريرها ومادتها ، أو تصويرها وطباعتها ؛ وأصدر أوكس لصحيفته ملحقاً أسبوعياً (ملحق الأحد) غدا أعجوبة في الصحافة العالمية ، حيث يصدر مصوراً في ١٨٠ صفحة كبيرة ، وملحقاً به قسم خاص بالنقد الأدبي ، والنيويورك تيمس أيضاً من أقدم الصحف الأمريكية ؛ فقد بدأ صدورها سنة ١٨٥١ في مدينة نيويورك وكادت أكثر من مرة تختفي من الميدان ؛ ولكن أوكس أسبغ عليها حياة جديدة ؛ وهي الآن من أعظم صحف العالم ، ولها أكبر مجموعة من المراسلين الخارجيين في سائر العواصم ، وقلما تجاريها أية صحيفة كبرى في أنبائها أو موادها . ومع أن انتشارها لا يعدو نصف مليون نسخة في اليوم ، فانها تتمتع بأكبر نفوذ في عالم السياسة والفكر والمال

العلامة المكتشف سفين هيدين

• عاد أخيراً من مجاهل الصين الوسطى والغربية الرحالة المكتشف والعلامة الباحث السويدي سفين هيدين الى ستوكهلم مسقط رأسه ، فاحتفلت به الهيئات العلمية احتفالاً شائقاً ، وقدمت اليه الحكومة النمساوية على يد سفيرها في ستوكهلم وسام الشرف العلمي والفني ، وهو أرفع وسام تمنحه النمسا الجديدة لرجال العلوم والفنون ، ولاتمنح منه إلا لممثلي أربع وعشرين دولة فقط ؛ وقد عاد سفين هيدين وهو يتحدث الى الهيئات العلمية والصحف الكبرى عن رحلاته واكتشافاته الجغرافية والعلمية في المناطق والوهاد السحيقة التي تجول فيها مدى أعوام ؛ وأذاع سفين هيدين أيضاً عن حوادث التركستان الصينية ، وما وقع في عاصمتها كشغر من الثورات والانقلابات معلومات نفيسة ، وقد كان هنالك وقت اضطرام المعارك الأهلية في تلك الأنحاء

وقد ولد سفين هيدين فى ستوكهلم سـنة ١٨٦٥ ، ودرس فيها وفى برلين وأوبسالا ، وشغف منذ حداثته بالأسفار ، وتتلمذ للرحالة الألمانى الشهير البارون فون رختهوهن ، وقد بدأ رحلاته مذ كان طالباً بالسفر الى العراق وفارس فى سنة ١٨٨٥ ، وفى سنة ١٨٩٠ أرسلته الحكومة السويدية عضواً فى السفارة التى أرسلها الملك أوسكار الى شاه الفرس ، وفى سنة ١٨٩١ ، اخترق خراسان والتركستان حتى كشغر ، ويبدأ عمله كمكتشف أسيوى فى سنة ١٨٩٣ ، حيث بدأ فى اختراق آسيا الصغرى من أورنبورج الى بكين ، وقد سافر عن طريق لوبنور وهضاب التبت ، وأنفق فى رحلته أربعة أعوام واكتشف خلال هـذه الفترة آكام مستجاستا الثلجية ، والجبال الواقعة حول منابع يرقند داريا ، واكتشف أطلال مدينة بوذية قديمة فى صحراء تكلا ماكن ، وفى سـنة ١٨٥٩ قام برحلته الأسيوية الثانية ، وفيها سـار فى نهر تاريم حتى بحيرة لوبنور ، واكتشف حول البحيرة آثار حضارة صينية قديمة ، ثم اخترق التبيت ، وحاول عبثاً أن يدخل مدينة لاسا ، وهى مدينة « اللاما » المقدسـة ، وفى سنة ١٩٢٦ قام برحلة ثالثة فى آسيا ، وقام برحلات أخرى فى الهند والهملايا ، وغيرها ، وله مؤلفات كثيرة شـائقة منها : رحلة الى خراسان وتركستان – خلال آسيا – مخاطرات فى التبت – نتائج علمية لرحلة فى أواسط آسيا – من القطب الى القطب – مع الجيوش الألمانيـة فى الغرب – بغداد وبابيلون – التبت الجنوبية – حياتى كمكتشف ، وغيرها

الرياضة والثقافة

كان من الآثار الاجتماعية التى أحدثتها الحرب انتشار الروح الرياضى بين الشباب بسرعة مدهشة ؛ وكان هذا الروح قبل الحرب محدود المدى ، وكان كثير من الآباء يخشون على أبنائهم من أن يحملهم تيار الرياضة فيهملوا دروسهم ومدارسهم ، وكان الاعتقاد الغالب هو أن الشباب الذين يشغفون بالرياضـة هم أقل ذكاء واجتهاداً من أقرانهم ؛ وفى غداة الحرب تطورت هذه الأفكار القديمة واكتسح الروح الرياضى مجتمع الشباب ذكوراً وإناثا ، وغمر شغف الرياضة فصول المدرسة والجامعة ؛ وذاعت النظريات الرياضية الجديدة عندئذ ، فقيل إن الجنس الأبيض مدين بتفوقه الى الحركة والرياضـة ، وأنه ينشط متى تحرك ؛ وأصفى ما تكون العقول عقب الركض أو الكرة أو الصعود أو السباحة أو غيرها من صنوف الرياضة . ولـكن ناحية واحدة لم يوفق دعاة المدرسة الجديدة الى تحقيقها ، هى خلق الأدب الرياضى والثقافة الرياضية ؛ فقد لوحظ أن أولئك الذين يشغفون بالرياضة قلما يقرأون ، ولا يقرأون حتى كتب الرياضة ذاتها ، فعقولهم وأذهانهم دائماً فى معزل عن اجتناء متعة القراءة والرياضة العقلية ، ولهذا لم يجد الأدب الرياضى سبيله حتى اليوم الى دور النشر ، ومازالت دور النشر تأباه وتعترض عليه ، وتحرص ألا تتورط فيه ، وهذه أول ظاهرة سيئة تلازم الحركة الرياضية

بيد أن هنالك ظاهرة أهم وأخطر ، هى اليوم موضع الجدل فى فرنسا ، وذلك أن الأساتذة والمفكرين قد أخذوا يتوجـون خيفة من عواقب هذا التيار الرياضى الجارف ؛ ويقول كثير منهم اليوم إن الانهماك فى الألعاب الرياضية الى هذه الحدود يخشى أن يسفر عن عواقب سيئة فى تكوين النشء ؛ وأن يخرج للأمة شباباً من الذكور والأناث ؛ يتمتعون بأجسام وهيئات حسنة ؛ ولـكن بعقول وأذهان ضيقة ؛ لا يسهل فهمهم ولا يحتمل التفاهم معهم ؛ يضيقون ذرعاً بالايضاح والتروى ؛ ويجنحون الى الايجاز والتحكم ؛ وهـذا مايلاحظ اليوم على معظم الشباب الرياضى ؛ وفى رأى هؤلاء أن الشـباب الرياضى إنما هو عنصر منحط من الوجهة العقلية والثقافية ؛ وإذا كانت الرياضة تبعث النشاط الى العقل ؛ فان الانهماك فيها من جهة أخرى يحول دون ثقافة الذهن ومرونته ؛ ولا سيما فى هذا العصر الذى ضاقت فيه الأوقت ؛ وحملت السرعة كل مجتمع ؛ ولم تبق أمام النشء فرصة للارتواء من تلك المناهل الثقافية التى أتيحت لآبائهم . فهل تكون هذه الدعوة بدء انحلال فى الحمى الرياضية التى تغمر المجتمع ؟ هذا ما سيبدو لنا فى المستقبل القريب

هبة فنية

من أنباء فينا أن أكاديمية الفنون الحيـة قد تلقت وصية من سيدة كبيرة ، توصى فيها إليها بمجموعتها الفنية النفيسة . والسيدة المذكورة هى زوج المستشار السابق البرخت شميت ، وكانت من أكابر الهواة ، وقد جمعت فى حياتها كثيراً من التحف الفنية النادرة ؛ وفيها صورة أصلية من صنع تنتيرتو وهو من أعظم مصورى إيطاليا فى القرن السادس عشر ، ومنها آنية بديعة من المرمر تقدر بمئات الألوف ، وتحف ثمينة أخرى

الشاعر الفرنسي لوى مارسالو

لم يكن لوى مارسالو الشاعر الفرنسي الذى توفى أخيراً ، شاعراً كبيراً فقط ، ولكنه كان أيضاً صحفياً ذا أسلوب ساحر ، وكان مؤلفاً مسرحياً تنال قطعه المسرحية فى الكوميدى فرانسيز أعظم تقدير واستحسان . بيد أن مارسالو اشتهر كشاعر قبل كل شئ . وقد ظهر له أول ديوان شعرى ، سنة ١٨٨٦ وهو فى الثانية والعشرين فقط بعنوان « القبلات الضائعة » ؛ وهو بريتانى الأصل ولد فى بريست سنة ١٨٦٤ ، وقدم إلى باريس فتى ، وانخرط فى سلك جماعة أدبية كان فيها شارل كروس ومارى كرسنسكا وجورج لوران ؛ ولم يبق منها حياً إلى اليوم سوى جان أجالبر . وقد ظهر فى ديوانه الأول « القبلات الضائعة » مبلغ تأثره بمناظر وطنه الأصلى ، وتقاليده وكبريائه الطبيعية . ثم كتب مارسالو بعد ذلك للمسرح فصادف فيه نجاحاً عظيماً . ومن قطعه المشهورة ، « الملاك المغرم » « شريط بسيشيه » وقد مثلتا مع غيرهما من قطعه فى الكوميدى فرانسيز ، و « قلبه الصغير » و « ملاهى باريس » التى كتبها مع جورج كورتلين أمير الفكاهة ، و « شخص بمكر الحفلة » وغيرها وقد مثلت فى مسارح باريس الكبرى ، وكان مارسالو صحفياً ونقاداً بارعاً يعمل فى بعض الصحف الباريسية ، ولكن النزعة الشعرية كانت تغلب عليه دائماً

معهد للدراسات السياسية

أنشئ فى باريس معهد للدراسات السياسية الخارجية ، واشترك فى إنشائه جامعة باريس ومدرسة العلوم السياسية ، ومكتبة الوثائق الدولية المعاصرة ، وجماعة الدراسات الدبلوماسية ، وقد زود هذا المعهد بمكتبة سياسية عظيمة تشمل نحو مائة وأربعين ألف مجلد فى مختلف المسائل والشئون الدبلوماسية ، والوثائق والمعاهدات والمذكرات السياسية ؛ وسينقسم المعهد إلى أقسام يلتحق بها الاخصائيون فى كل ناحية من النواحى التى يعنى بها سواء أكانوا من أساتذة الجامعات أم رجال السياسة ، أم رجال الأعمال ، أو الصحفيين السياسيين . وأهم أعماله الثقافية تنحصر فى تنظيم محاضرات ودراسات سياسية عالية : وقد افتتح المعهد دورته الحالية بالقاء محاضرة موضوعها « نهوض العالم العربى وأثره فى أفريقية الشمالية » ألقاها الكبتن مونتانى مدير المعهد الفرنسى بدمشق ، تحت رياسة الأستاذ شارليتى مدير جامعة باريس ، واشترك فى مناقشة الموضوع جمع من أعلام الأساتذة والساسة

والظاهر أن غاية هذا المعهد ترمى قبل كل شئ إلى خدمة السياسة الفرنسية وتوجيهها إلى ما يحقق مصالح فرنسا الخارجية والاستعمارية ، وذلك بدرسها على ضوء التطورات السياسية الدولية

الكتب

المختار من شعر بشار

بقلم محمد فهمي عبد اللطيف

بشار بن برد شاعر مطبوع خلاق، نقل الشعر العربي من جفوة البداوة إلى رقة الحضارة، فنهج به في الأداء منهجاً مطرد القياس، سهل المخرج، وحمله من المعاني كل بديع مخترع، فسمى لذلك أبا المحدثين وشيخهم. ولقد كان فوق ذلك ثرّ القريحة، فياض الشاعرية، واسع المجال؛ حدث عن نفسه قال: لي اثنا عشر الف بيت عين، فقيل له هذا ما لم يكن يدعيه أحد سواك!! فقال: لي اثنا عشر ألف قصيدة لعنها الله ولعن قائلها إن لم يكن في كل واحدة منها بيت فرد

ولكن هذه الثروة الشعرية الضخمة ضاعت في أجواء العصور الخالية، وذهبت بين سمع الأرض وبصرها، ولم يصلنا منها إلا نتف قصيرة جاءت في الأغاني وفي غيره من كتب الأدب والتراجم. ولقد أخبر العلامة المرحوم أحمد تيمور باشا منذ سنين بأن نسخة خطية من ديوان بشار موجودة في تونس لدى الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب عضو المجمع العلمي بدمشق وأنه شارع في طبعه وإخراجه، فتلهفت نفوس الأدباء على تحقيق هذه الأمنية العزيزة، وكتب بعضهم في مجلة المجمع العلمي يستحث همة الأستاذ حسن حسني على الأنجاز، وتقدم السيد بدر الدين العلوي بكلمة قال فيها إنه وجد نسخة عنوانها: المختار من شعر بشار في حيدر آباد بالهند، وهي من اختيار الخالديين أبي بكر وأبي سعيد شاعري سيف الدولة وخازني دار كتبه، وعليها شرح من عمل أبي الطاهر اسماعيل بن أحمد بن زيادة من أدباء القرن الرابع، ثم ذكر أنه يستعد لطبع هذا المختار وإخراجه في أقرب نهزة بمساعدة الأستاذ عبد العزيز الميمني المدرس بجامعة عليكرة، ثم ناشد الأستاذ حسني عبد الوهاب أن يعينه وأن يخبره عن النسخة الموجودة لديه فلعلها تكون نسخة أخرى من المختار، ولكن الأستاذ حسني ضجّع في الأمر ولم يسعف، وبقي الأستاذ بدر الدين عند وعده وما زال حتى أدى الأمانة ووفى دين العربية فدفع بالمختار منذ حين إلى «لجنة التأليف والترجمة والنشر» فجلته للناس في ثوب قشيب، صقيل الورق، جيد الطبع، دقيق التصحيح، مستوفى البيانات والتعاليق، مذيلاً بالفهارس الكاملة، والفوائد المتممة..

ولقد قرأت الكتاب فرأيته لا يشتمل على مقدار كبير من شعر بشار، ولكن أكثر ما به من القصائد والمقطوعات لا يوجد في غيره من كتب الأدب المعروفة. ويبدو لي أن الكتاب لا يشتمل على كل ما اختاره الخالديان بدليل قول الشارح: «ورأيت بعد نظري في اختيار الخالديين وما اخترته منه .. ص٨»، وقوله في النهاية «انتهى اختيارنا فيما وجدناه من المختار من شعر بشار ..»، فكأنه قد اختار بعض ما اختاره الخالديان، بل إن كلمة «وجدناه» تدل على أن ما اختاره الخالديان لم يقع جميعه للشارح

أما الكتاب من حيث هو فروض أدب حافل، يأتي عليه القارىء بلذة وشغف؟ فقد نهج الشارح في شرحه منهج الاستطراد، يذكر أبيات بشار ثم يشرحها شرحاً لغوياً وافياً إن كان بها من الألفاظ ما يستغلق على القارىء، ثم يذكر ما لها من الأشباه والنظائر لفظا ومعنى في شعر المتقدمين الذين أخذ منهم بشار، أو المتأخرين الذين أخذوا عن بشار؛ والرجل يطيل كثيراً في سرد الأشباه والنظائر كأنه يباهي بكثرة محفوظه، وقد يذكر ما يتصل بذلك من أخبار الشعراء ونوادرهم مما جعل الكتاب حافلا ممتعا، تظن وأنت تقرأ فيه أنك تقرأ في «البيان والتبيين» أو في «زهر الآداب» أو في غير ذلك من الكتب التي تشتمل على أمشاج من الأدب، وصنوف من المعارف ..

وقد يكون من الأنصاف أن نذكر بالثناء المجهود الكبير الذى بذله الأديب الناشر فى اخراج الكتاب وضبطه وتصحيحه وتعليق الفوائد عليه وتخريج أبياته ، كما لا يفوتنا أن ننبه إلى بعض هفوات قد ندت عن خاطره اليقظ ، فمن ذلك أنه نظر فى قول الشارح : « ولكنه لتراخى الحالب وتضجيعه ص ١١٢ » فلم يطمئن لكلمة تضجيعه وقال لعلها تضييعه ، وكلمة التضجيع أصح وأدق وهى التى أرادها الشارح ، فانه يقال ضجع فلان فى الأمر إذا تراخى فيه وأهمله

ومن ذلك أنه قيد كلمة « الحبوة » بالضم فى قول الشارح « فما حل حبوته ولا كلمهم حتى قضى سبحته ص ١٩٣ » وإنما هى بالكسر ، أما بالضم فمعناها العطاء ولا يصح هذا المعنى فى هذا التركيب

ومن ذلك أنه علق على قول عدى بن الرقاع (ص ٢١٦)

فكأنها بين النساء أعارها عينيه أحور من جآذر (عاسم)

فقال يروى عاسم وجاسم ، وذكر أن عاسماً اسم موضع ، قلنا وقد جاءت الكلمة فى الشعر والشعراء بالغين المعجمة ، وحقيقتها جاسم بالجيم اسم قرية بالشام قريبة من دمشق وقريبة من موطن الشاعر وقد وردت فى قول حسان :

فالمرج مرج الصفرين (فجاسم) فديار سلمى دُرَّساً لم تحلل

ومن ذلك أنه أورد قول ابن الرومى (ص ٢٣٥)

وما تعتريها آفة بشرية من النوم إلا « أنه تتحير »

فأثبت (أنه) بالهاء كما فى الأصل ، ورأى أن كلمة تتحير تصحيف تتخثر ، وهذا تخريج يفسد معنى البيت ويتجه به إلى الهجاء ، وما أراد ابن الرومى إلا وصف محبوبته بالحسن ، وإعاجة القول « ألا أنة تتحير »

ومن ذلك أنه حسب كلمة الحضر محرفة عن الخفر فى قول الشارح : « فهذه القينة من أهل الكفاية والترفه والحضر ص٢٥٧ » ، وعندنا أن كلمة الحضر هى المتعينة فى هذا المقام فقد عقب عليها الشارح بما يعينها فقال « وليست ممن يمتهن ويبتذل فى رعى الغنم والأبل أى أنها من أهل الحضارة لا من أهل البداوة » وهذا ما يريده بشار فى البيت الذى يتولى الشارح تفسيره بهذه الكلمات

على أن هذه هنات طفيفة خفيفة لا تنقص من قيمة كتاب قل أن تخرج المطابع مثله دقة فى التصحيح والتنقيح ، فالشكر الجزيل للأستاذ الناشر على جهده واهتمامه ، وللجنة التأليف والترجمة والنشر على عنايتها بأخراج هذا الكتاب الذى لا يستغنى عنه أديب .. ؟

محمد فهمى عبد اللطيف

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ٩٦ — ٦ مايو سنة ١٩٣٥ — السنة الثالثة

3 me Année, No. 96.

Lundi-6-5-1935

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ٩٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ٣ صفر سنة ١٣٥٤ — ٦ مايو سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

بنـــك مصر . . .


محمد طلعت حرب باشا

غداً فى الساعة الخامسة يبدأ الاحتفال القومى بمرور خمسة عشر عاماً على مولد بنك مصر . والاحتفال بعيد هـذا البنـك النامى الخصيب احتفالٌ بالنصر المؤزَّر فى جهاد الأمة لاستقلالها الحق ؛ فان مصر منـذ انحسر عن الأرض ذلك الطوفان الدموى الذى غمرها أربع سنين ، هبّت تقرر فى الدول وجودها الطبيعى الحر ، فما صغت لها أذن ، ولا نهضت بحجتها عدالة . ذلك لأن أوربا الجائعة المجهودة تريد أن تسـد فجوات القنابل وحفائر الخنـادق وأخاديد القبور بما بقى على الأحداث من أقوات الشرق ؛ والشرق — كما تعلم — يستطيل بالـكرم ويستعز بالجاه ، فما دمت تُحِلّه الصدر ، وتبوّئه الوظيفة ،

فلا عليه بعد ذلك أن يكون كرسيه بالاستعارة، ومأكله بالدَّين، ومسكنه بالأجرة !

حمل المتنجعون العِجافُ من أهل أوربا ثمر نشاطهم الصناعى إلى أسواقنا القاصرة المستهلكة ، وقاموا على أرزاقنا مقام القيّم يبضُّون لنا منها بما لا يكاد يستر الجسم ويمسك الرمق ، ثم يحولونها عمراناً فى خرائب باريس ، وسلطاناً فى حكومة لندن ، ويسمعوننا نثور فى المحابر ونصيح على المنابر ، فيقولون اكتبوا ما واتى المدادُ القلم ، واخطبوا ما أسعف الريق اللسان ، فلن ينزع العلق خراطيمه الماصة من الجلد مادامت الجنود مقبورة فى الثكنات ، والأموال مطمورة فى الخزائن ! حينئذ قال رجل الساعة محمد طلعت حرب باشا : رويدكم ! سنرسلها شعواء بالذهب لا بالحديد !

***

كانت مصر فى العهد الذى أسس فيه بنك مصر فى مأزق من مآزق الحياة المشتبهة الخادعة : تنعم فى رخاء كاذب وأمن مريب ، ووراءها أوزار حرب ضروس ، وأمامها لوائح أزمة طاحنة ، وشباب البلاد تعصف فى رءوسهم نخوة الوطنية والحرية والكرامة ، فلا يفكرون إلا فى الاحتلال ، ولا يعملون إلا للسياسة ؛ وأغنياء الأمة جاثمون على أموالهم المكدسة جثوم الدجاجة المُرْخِم على بيضها العقيم ، لا يُثمّرونه بأنفسهم لنقص الكفاية ، ولا يكلون استثماره لغيرهم لفقد الثقة ؛ ورجال الدولة مشغولون بجباية الخراج ، وتحضير الميزانية ، واستئناف المفاوضات ، وتحرير مشروعات المعاهدة ، فلا يملكون حماية التجارة لقيود الجرك ، ولا يستطيعون انشاء الصناعة لمناوأة المحتل ؛ والأجانب عاكفون على منابع الوادى يستنزفونها بالربا ، ويكدرونها بالسفه ، ثم لا يسمحون للظمآن أن يألم ، ولا للمهان أن يغضب

وكانت عناية الله التى ألهمت سعد زغلول أن يخرج شعبه من رق الاحتلال السياسى ، هى التى ألهمت فى الوقت نفسه طلعت حرب أن يخرج قومه من رق الاحتلال الاقتصادى ؛ وكلاَ الرجلين منذ نشأ ميسر لما قام له : فسعد باشا بطبعه رجل كفاح وخصومة ، وزعيم برلمان وحكومة ، ورسول من رسل الوطنية الروحية ، له عصمته وجاذبيته وإيمانه ؛ وطلعت باشا بطبعه رجل انشاء وعمل ، وصاحب تدبير وخطة ، ورسول من رسل الوطنية المادية ، يهذب النفس برفاهة الجسم ، ويرفع العمران بوفرة الانتاج ، ويضمن الاستقلال بقوة الثروة . وله كذلك عبقريته ونزاهته وإخلاصه

وثق الناس بالزعيمين الخطيرين فجادوا للأول بالأنفس ، فشاد بيت الأمة ، وكون الرأى العام ، وألف الوفد ؛ وجادوا للثانى بالأموال ، فشاد بنك مصر ، وأنشأ شركات مصر ، وكوّن ثروة مصر ؛ وربّى سعد باشا لوطنه شباب جهاد وتضحية ، كانوا منه مكان القلب الشاعر ، والحس المدرك ، والروح الملهم ؛ وربّى طلعت باشا لشعبه شباب اقتصاد وروية ، كانوا منه مكان البصيرة الحازمة ، واليد العاملة ، والعقل المنظم ؛ ثم كان من هؤلاء وهؤلاء دليل ناهض على يقظة هذه الأمة وشعورها بارادتها لما تفعل ، وسيادتها على ما تملك ، وحريتها فيما تريد

***

لا أستطيع بهذا القلم الموجز فى هذا المكان المحدود أن أجمل ما أضفاه بنك مصر وشركاته ومنشآته من النعمة على الأمة ؛ وإن فى تقرير مجلس الادارة الذى نشر منذ أيام عن السنة الخامسة عشرة من حياة البنك ، والخطبة الخطيرة التى سيلقيها المدير الجليل فى احتفال الغد عن حياة البنك ، لبلاغاً لمن لم يسمع إلى اليوم ذلك اللحن القومى القدسى الذى يتألف من صريف الأموال المصرية فى البنك ، وهدير البواخر المصرية فى البحر ، وأزيز الطوائر المصرية فى الجو ، ودوىّ المصانع المصرية فى المحلة !

إن نجاح بنك مصر وشركاته هو وحده الحجة الدامغة على نضوج هذا الشعب ، لأنه نسق من الضرورة والقدرة والنظام والثقة لا يقوم على الهوى ، ولا ينتظم على الطيش ، ولا يصبر على الفساد ، ولا يتقدم على العجز ، ولا يبلغ شيئاً وراء الزعامة الرخوة ؛ فبينما نجد النهضة السياسية تنتكس فترجع الى الموت ، والحالة الأخلاقية تنحلُّ فتعود الى المهانة ، والحركة الأدبية تضطرب فتنقلب إلى الفوضى ، نجد هذا البنك ينمو نمو النبات بَرَكة على بَرَكة ، ويتضاعف تضاعف الحياة شركة بعد شركة ، ويجذب الوجود المصرى معه إلى السبيل التى يأمن فيها الفناء ، ويخرج منها إلى العافية !

احمد حسن الزيات

٢ – الانتحـــار

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال المسيَّب بن رافع : وقام الشعبي إلى الرجل فاعتنقه فرحاً بما آل أمره إليه ، بعد إذ رأى النور يجرى على لونه ويترقرق فى ديباجته ؛ كأنما وقع الصلح بين وجهه وبين الحياة . ثم قال له : نِعْمَ أخو الاسلام أنت ، فاستعِذْ بالله من خذلانه ، فانه ما خذلك إلا وضعُك نفسك بإزاء الله تعارضُه أو تجاريه فى قدرته ، فيكِلُك إلى هذه النفس ، فتنتهى بك إلى العجز ، وينتهى العجزُ بك إلى السخط ؛ ومتى كنتَ عاجزا ساخطا ، محصورا فى نفسك ، موكولاً إلى قدرتك – كنتَ كالأسد الجائع فى القفر ، إذا ظن أن قوّته تتناول خلق الفريسة ؛ فيدعو ذلك إلى نفسك اليأسَ والانزعاجَ والكآبة ، وأمثالها من هذه المهلكات تقدحُ فى قلبك الشكَّ فى الله ، وتُنبتُ فى روعك شرَّ الحياة ، وتُهدى إلى خاطرك حماقاتِ العقل ، وتقرِّر عندك عجزَ الارادة ؛ فتنتهى من كل ذلك ميِّتاً قد أزهقتْك نفسُك قبل أن تزهقها !

ولو كنتَ بدلَ إيمانك بنفسك قد آمنتَ بالله حقَّ الايمان – لسلَّطك اللهُ على نفسك ولم يسلِّطها عليك ؛ فاذا رمتك المطامعُ بالحاجة التى لاتقدر عليها ، رميتَها من نفسك بالاستغناء الذى تقدر عليه ؛ وإذا جاءتك الشهواتُ من ناحية الرغبة المقبلة ، جئتَها من ناحية الزُّهد المنصرف ؛ وإذا ساورتْك كبرياءُ الدنيا أذللتَها بكبرياء الآخرة

وبهذا تنقلب الأحزانُ والآلام ضروباً من فرح الفوز والانتصار على النفس وشهواتها ، وكانت فنونا من الخذلان والهمّ ؛ وتعود موضعَ فخرٍ ومباهاة ، وكانت أسبابَ خزىٍ وانكسار . وعزيمةُ الايمان إذا هى قويتْ حصرت البلاءَ فى مقداره ، فاذا حصرته لم تزل تنقص من معانيه شيئاً شيئاً ؛ فاذا ضعفتْ هذه العزيمة جاء البلاءُ غامراً متفشِّياً يجاوز مقدارَه بما يصحبه من الخوف والرَّوع ، فلا تزال معانيه تزيد شيئاً شيئاً بما فيه وبما ليس فيه

وللإيمان ضوءٌ فى النفس ينير ما حولها – فتراه على حقيقته الفانيةِ وشيكاً أن يزول ؛ فاذا انطفأ هذا الضوءُ انطمست الأشياء ، فتتوهمها النفس أوهاماً متباينةً على أحوالها المختلفة : كما يرى الأعمى بوهمه ؛ لاعينُه مع الأشياء تكون فى طبيعتها ، ولا أشياؤه عند عينه تكونُ فى حقيقتها

* * *

قال المسيَّب : وكانت الشمسُ قد طفلتْ للمغيب ؛ فقال الامام للرجل : قم فتوضأ وأسبغ الوضوء ، وسأعلِّمك أمرا تنتفع به فى دينك ودنياك : فاذا قمتَ إلى وضوئك فأيقنْ فى نفسك واعزمْ فى خاطرك على أن فى هذا الماء سرًّا روحانيا من أسرار الغيب والحياة ، وأنه رمزٌ للسماء عندك ، وأنك إنما تتطهَّر به من ظلمات نفسك التى امتدت على أطرافك ؛ ثم سمِّ الله تعالى مفيضاً اسمه القادرَ الكريمَ على الماء وعلى نفسك معاً ، ثم تمثلْ أنك غسلتَ يديك مما فيهما ومما تتعاطاه بهما من أعمال الدنيا ، وأنك آخذٌ فيهما من السماء لوجهك وأعضائك ؛ وقرِّر عند نفسك أن الوضوء ليس شيئاً إلا مسحةً سماوية تسبغها على كل أطرافك ، ليشعرَ بها جسمكَ وعقلكَ ؛ وأنك بهذه المسحةِ السماوية تستقبلُ اللهَ فى صلاتك سماويا لا أرضيا

فاذا أنت استشعرتَ هذا وعملتَ عليه وصار عادةً لك ، فان الوضوء حينئذ ينزل من النفس منزلةَ الدواء ، كلما اغتممتَ أو تكرَّهتَ أو تسخطت ، أو غشيكَ حزنٌ أو عرضَ لك وسواس ؛ فما تتوضأ على تلك النية إلا غسلتَ الحياةَ وغسلتَ الساعة التى أنت فيها من الحياة[1] وترى الماءَ تحسبه هدوءاً ليناً لينَ الرِّضى وإذا هو ينسابُ فى شعورك وفى أحوالك جميعا

قال المسيب : وقمتُ أنا فجدَّدتُ وضوئى على هذه الصفة بتلك النية ؛ فاذا أنا عند نفسى مستضىءٌ بروحٍ نجميةٍ لها إشراقٌ وسناء ، وإذا الوضوءُ فى أضعف معانيه هو ما علمنا من أنه الطهارةُ والنظافة ، أما فى أقوى معانيه فهو إفاضةٌ من السماء فيها التقديسُ والتزكيةُ وغسلُ الوقتِ الانسانىّ مما يخالطه كلما مرَّت ساعات ، وابتداؤه للروح كالنبات الأخضر ناضراً مطلولاً مترطباً بالماء

(١) هذه فى رأينا حكمة تكرار الوضوء وتلك هى أسراره عندنا . وقد بينا شيئاً من حكمة الصلاة فى مقالة حقيقة المسلم ، فليرجع إليها القارئ

ثم صلى بنا الشيخُ وأمرنى بالمبيت مع الرجل ، كأنما خشى البدَوَاتِ أن تَبدُوَ له فتنقضَ عزْمَه ، أو هو زادنى عليه لأغيِّر شخصه وأبدِّلَ وحدتَه التى كان فيها ، أو كأنَّ الشيخ لم يأمن على الرجل أن يكون إنسانه الروحىُّ قد تنبهَ بأكمله فوضعنى كالتنبيه له

وجاءنا العشاءُ من دار الشيخ فطعمنا ، ثم قام الرجل فتوضأ وصلينا العتمة وجلسنا نتحدث ، فاستنبأته نَبأه ، فقال : مَهلاً ، ثم نهض فتوضأ الثالثةَ وقال : تالله ما أعرفُ الوضوءَ بعد اليوم إلا ملامَسةً بين السماء والنفس . وما أعرف وقته من الروح إلا كساعة الفجر على النبات الأخضر

* * *

قال السيِّب : وأصبحنا فغدونا على الامام ؛ ثم لزمنى الرجلُ فى بعض أمورى ، ثم وافينا المسجد صلاةَ العصر لحضور درس الشيخ ؛ وكان النـاسُ كالحَبِّ المتراصف على العُنقود ، لا أدرى من ساقهم وجمعَهم ؛ كأنمـا علمت الـكوفةُ أن رجلاً مسلماً كفرَ بالله كفْرةً صلْعاءَ ، وأنه سيحضُر درس الشيخ وسيحضر الشيخُ من أجله ، فهبَّتْ الرياحُ الأربع تسوق أهلها إلى المسجد من أقطارها

وجلس الشيخ مجلسَ الحديث فقال :

رَوَينا أن رجلاً كانت به جِراحَةٌ ، فأتى قَرَناً له فأخذَ مِشْقصاً (١) فذَبحَ به نفسَه ؛ فلم يُصلِّ عليه النبىُّ (صلى الله عليه وسلم) وترك جنازتَه مطرودةً تقتحم مَتْلفةَ الآخرة كما اقتحمتْ متلفةَ الدنيا !

روينا فى الحديث عن النبى (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : « الذى يخنقُ نفسه يخنقُها فى النار ، والذى يطعن نفسَه يطعنُ نفسه فى النار ، والذى يقتحم يقتحم فى النار ! »

روينا عنه (صلى الله عليه وسلم) : « من قَتلَ نفسَه بشىء عُذِّب به يومَ القيامة ! »

روينا عنه (صلى الله عليه وسلم) قال : « كان رجلٌ به جِراحٌ فقتل نفسه ، فقال الله : بَدرنى عبدى بنفسِه فحرَّمتُ عليه الجنة ! »

(١) القرن (بفتحتين) جعبة النشاب ، والمشقص : سهم فيه نصل عريض

قال الشعبىّ : يقول الله : « بَدرَنى عبـدى بنفسه » أى بدرنى وتألَّـه فجَعلَ نفسَه إلـه نفسِه ، فقبضها وتوفاها ، فكان ظالماً

بَدرنى وتألَّـه فى آخر أنفاسه لحظةَ ينقلبُ إلىَّ ، فكان مع ظُلمـه مغروراً أحمق !

بدرنى وتألَّـه حين ضاق ، فهوَّرَ نفسَه فى الموت من عجزه أن يمسِكَها فى الحياة ، فكان عاجزاً مع ظُلمه وغُروره وحُمْقِـه !

بدرنى وتألَّه على جهله بسرِّ الحياة وحكمتها ، فلم يَستَحِ هذا المخلوقُ الظالم المغرور فى حمقه وعجزه وجهله ـ لم يستح أن يجيئنى فى صورة إلـه !

بَدرنى وتألَّه ، فَطبَع نفسَه طابعهَا الأبدى من غىٍّ وتمرُّد وسفاهة ، وأرسَلها إلىَّ مقتولةً يرُدُّها علىَّ

بدرنى وتألَّه كأنما يقول : إن له نصفَ الأمر ولى النصف ، أنا أحييتُ وهو أمات . . . !

بَدرَنى عَبْدى بنفسه فحرَّمتُ عليه الجنة !

قال الشعبىّ : وإنمـا تحرم الجنةُ على من يقتل نفسَه ، إذ ينقلبُ إلى الله وعلى روحه جِنـايةُ يده ما تُفارقُها إلى الأبد ؛ فهو هناك جِيفةٌ من الجِيَف مسمومةٌ أبداً ، أو مخنوقةٌ أبداً ، أو مذبوحةٌ أبداً ، أو مهشَّمةٌ أبداً ، يقول الله له : أنت بَدرْتنى بنفسك ، وجريتَ معى فى القَدَر مجرًى واحـداً ، فستخلد نفسك فى الصورة التى هى من عملك ، وما قتلتَ إلا حسناتِك

قال الشعبىّ : ولو عرف قاتلُ نفسـه أنه سيصنع من نفسه جيفةً أبديّة ، فمن ذا الذى يعرف أنه إذا فعل كذا وكذا تحوَّل حماراً وبقى حماراً فيرضى أن يتحوَّل ويسرع ليتحوّل ؟

من ذلك نظر النبىُّ (صلى الله عليه وسلم) إلى جنازة ذلك الرجل الذى قتل نفسه كما ينظر إلى ذبابةٍ توَّجهت بالسبِّ إلى الشمسِ والكواكبِ والأفلاكِ كلها ، ثم جاءته تقول له : اشهدْ لى

* * *

قال الشيخ : وبِمَ يقتل الانسانُ نفسه ؟ أما إن الموت آتٍ لاريب فيه ولا مَقصرَ لحىٍّ عنه ، وهو الخيبةُ الكُبرى تُلقى

على هذه الحياة ، فما ضرر الخيبة الصغيرة في أمر من أمور الحياة ؟

إن المرء لا يقتل نفسه من نجاح بل من خيبة ؛ فان كانت الخيبة من مال فهي الفقر أو الحاجة ، وإن كانت من عافية فهي المرض أو الاختلال ؛ وإن كانت من عزة فهي الذل أو البؤس ، وإن كانت مما سوى ذلك - كالنساء وغيرهن - فهي العجز عن الشهوة أو التخيل الفاسد

وليس يخيب الانسان إلا خيبة عقل أو إرادة ، وإلا فالفقر والحاجة ، والمرض والاختلال ، والذل والبؤس ، والعجز عن الشهوة وفساد التخيل - كل ذلك موجود في الناس ، يحمله أهله راضين به صابرين عليه ، وهو الغبار النفسي لهذه الأرض على نفوس أهلها ، ويا عجباً إن العميان هم بالطبيعة أكثر الناس ضحكاً وابتساماً وعبثاً وسخرية ؛ أفتريدون أن تخاطبكم الحياة بأفصح من ذلك ؟

ليست الخيبة هي الشر ، بل الشر كله في العقل إذا تبلد فجمد على حالة واحدة من الطمع الخائب ، أو في الارادة إذا وهنت فبقيت متعلقة بما لم يوجد . أفلا ترون أنه حين لا يبالي العقل ولا الارادة لا يبقى للخيبة معنى ولا أثر في النفس ، ولا يخيب الانسان حينئذ بل تخيب الخيبة نفسها ؟

لهذا يأبى الاسلام على أهله الترف العقلي والتخيل الفاسد ، ويشدد كل الشدة في أمر الارادة ؛ فلا يترخص في شيء يتعلق بها ، ولا يزال ينميها بأعمال يومية تشد منها لتكون رقيبة على العقل حارسة له ، فان للعقل أمراضاً كثيرة يطيش فيها درجات من الطيش حتى يبلغ الجنون أحياناً ؛ فكانت الارادة عقلاً للعقل ؛ هي لينه إذا تصلب ، وهي حركته إذا تبلد ، وهي حلمه إذا طاش ، وهي رضاه إذا سخط

الارادة شيء بين الروح والعقل ، فهي بين وجودين ؛ ولهذا يكون بها الانسان بين وجودين أيضاً ، فيستطيع أن يعيش وهو في الدنيا كالمنفصل عنها ، إذ يكون في وجوده الأقوى ، وجود روحه ، وأكبر همه نجاحه في هذا الوجود

وهذا النجاح لا يأتي من المال ، ولا تحققه العافية ، ولا تيسره الشهوات ، ولا يسنيه التخيل الفاسد ؛ ولا يكون من متاع الغرور ، ولا بما عمره خمسون سنة أو مائة سنة ، بل يأتي بما عمره الخلود ، وبما هو باق أبداً في معانيه من الخير والحق والصلاح . فهنا يعين المرض بالصبر عليه مالا تعين الصحة ، ويفيد الفقر بحقائقه مالا تفيد الثروة ؛ وهنا يكون العقل الانساني عاملاً أكثر مما هو متخيل ، وقانعاً أكثر مما هو طامع ، وههنا لا موضع لغلبة الشهوة ، ولا كبرياء النفس ، ولا حب الذات ؛ وهذه الثلاث هي جالبة الشقاء على الانسان حتى في أحوال السعادة ، وبدونها يكون الانسان هانئاً حتى في أحوال الشقاء

بالارادة المؤمنة القوية ينصرف ذكاء المؤمن إلى حقائق العالم وصلاح النفس بها ، وبغير هذه الارادة ينصرف الذكاء إلى خيال الانسان وفساد الانسان

وإذا انصرف الذكاء إلى حقائق الدنيا كان العقل سهلاً مرناً مطواعاً ، واستحال عليه أن يفهم فكرة قتل النفس أو يقرها ؛ فان هذه الفكرة الخبيثة لا تستطرق إلى العقل إلا إذا تحجر وانحصر في غرض واحد قد خاب وخابت فيه الارادة ففرغت الدنيا عنده

ولو أن امرأً تم عزمه على قتل نفسه ثم صابر الدنيا أياماً ، لا نفسخ عزمه أو ركَّ ، إذ يلين العقل في هذه المدة نوعاً ما ، ويجعل الصبر بينه وبين المصيبة مسافة ما ، فتتغير حالة النفس هوناً ما . فالصبر كالتروح بالهواء على العقل الذي يكاد يختنق من احتباسه في معنى واحد مقفل من جوانبه . ومثل العقل في هذه الحال مثل القائم في إعصار لفه بالتراب لفاً وسد عليه منافذ الهواء ، وحبسه في هذا التراب الملتف حبس الحشرة في جوف القصبة ؛ فهو على اليقين أنها حالة ساعة طارئة في الزمن لا حالة الزمن ؛ وأن الهواء الذي جاء بهذا الهم هو الذي يذهب بهذا الهم

وكما أن الأرض هي شيء غير هذا الاعصار الثائر منها ، فالحياة كذلك هي أمر آخر غير شقائها

* * *

قال الامام : وفي كتاب الله آيتان تدلان على أنه كتاب الدنيا كلها ، إذ وضع لهذه الدنيا مثالين : أحدهما المثال الروحي للفرد الكامل ، والآخر المثال الروحي للجماعة الكاملة

أما الآية الأولى فهي قوله تعالى : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . »

وأما الثانية فهى قوله تعالى : « مُحَمَّدٌ رسولُ الله والَّذين مَعَهُ أَشِدَّاءُ على الكُفَّارِ رُحماءُ بَيْنَهُمْ . »

ففى رجاء الله واليوم الآخر يتسامى الانسان فوق هذه الحياة الفانية ، فتمرُّ همومها حولَه ولا تصدمه ، إذ هى فى الحقيقة تجرى من تحته فكأنْ لا سلطان لها عليه ؛ وهذه الهموم تجد فى مثل هذه النفس قوى بالغةً تصرفها كيف شاءت ، فلا يجىء الهمُّ قوةً تسحق ضعفاً ، بل قوة تمتحن قوةً أخرى أو تُثيرها لتكون عملاً ظاهراً يقلده الناس وينتفعون منه بالأسوة الحسنة ، والأسوةُ وحدها هى علم الحياة

وقد ترى الفقير من الناس تحسبه مسكيناً ، وهو فى حقيقته أستاذ من أكبر الأساتيذ يلقى على الناس دروس نفسه القوية

وفى رجاء الله واليوم الآخر يبطل أكبر أسباب الشرّ فى الناس ، وهو نظر الانسان لمنْ هو أحظى منه بفتنة الدنيا نظراً لا يبعث إلا الحقد والسخط ، فينظر المؤمن حينئذ الى ما فى الناس من الخير والصلاح والايمان والحق والفضيلة ، وهذه بطبيعتها لا تبعث إلا السرور والغبطة ، ومَن جعلها فى تفكيره أبطل أكثر الدنيا من تفكيره ؛ وبها تسقط الفروق بين الناس عاليهم ونازلهم ؛ كالرجل الفقير العالم إذا قدم على الغنىّ العالم ؛ يجمع بينهما الاتفاق العقلىُّ وسقط ما عداه

وفى رجاء الله واليومِ الآخر يعيش الانسان عُمْرَه الطويل أو القصير كأنه فى يومٍ يصبح منه غادياً على الحشر والحساب ؛ فهو متصلٌ بالخلود غيرُ معْنىٍّ إلا بأسبابه ؛ وبهذا تكون أمراضه وآلامُه ومصائبه ليست مكارِهَ من الدنيا ، بل هى تلك المكارهُ التى حُفّت الجنةُ بها ؛ ولا يضرُّه الحرمان لأنه قريب الزوال ، ولا يغُرُّه المتاع لأنه قريب الزوال أيضاً

وفى رجاء الله واليومِ الآخر يَسُود الانسان على نفسه ؛ ومن كان سَيِّدَ نفسِه كان سيدَ ما حولها يُصرِّفه بحكمه ، ومن كان عَبْدَ نفسِه صرَّفه بحكمه كلُّ ما حولَه

قال الشعبىّ : وأما المثالُ الروحىُّ للجماعة الكاملة ، فهو فى وصف المؤمنين بأنهم « رُحماءُ بينهم » فهذا هذا ، ما أحسبه يحتاج إلى بَسْطٍ وبيان

إن أكثر ما يضيق به الانسان يكون من قِبَلِ من حوله ممّن يُعايشُهم ويتصل بهم لا من قِبل نفسِه ، فاذا قام اجتماعُ أمةٍ على أنهم (رُحماءُ بينهم) تقرَّرت العظمةُ النفسيّةُ للجميع على السواء ؛ ومن كانوا كذلك لم يحقِروا الفقيرَ بفقره ولم يُعظموا الغنىَّ لغِناه ، وإنما يُحقِّرون ويعظِّمون لصفاتٍ سامية أو حقيرة . وبين هؤلاء يكون الفقيرُ الصابرُ أعظمَ قدراً من الغنىِّ الشاكر ، وإعظامُ الناسِ لفضيلةِ الفقير هو الذى يجعل فقرَه عند نفسه شيئاً ذا قيمة فى الانسانية

ومتى تَصحّحت آراءُ الجماعةِ فى هذه المعانى المؤلمةِ للناس بَطَلَ ألمها واستحالت معانيها ، وصار لا يَبلى معنًى من معانى الحياةِ فى إنسانٍ إلا وضعَ إيمانُه معنًى جديداً فى مكانِه ، وتصبح الفضيلةُ وحدها غايةَ النفس فى الجميع ؛ وبذلك يَصبر الفردُ على مصائبه ، لا بقُوته وحده ولكن بجميع القوَى التى حَوله . أفلا تَرَوْن أن إعجاب الناسِ بالشجاعةِ وتعظيمهم صاحبها يضع فى ألمِ السلاحِ لذةً يحسُّها لحمُ الشجاعِ البطل ؟

* * *

قال المسيَّب بن رافع : فقام رجلٌ من المجلس . فقال : أيها الشيخ ، وإذا فسد الناس وغَلُظتْ قلوبُهم ، وتقطّعتْ بينهم الأسباب ، ولم يعودوا (رُحماء بينهم) ، وشمتوا بالفقير ، وتهزَّءوا بالمُبتلَى وطرحوه فى ألسنتهم كما يَطرَح الشاعرُ فى لسانِه رجلاً يهجوه لا يكفُّ عنه — فما عَسى أن يصنع المسكين حينئذ وكلُّ شىءٍ يدفعه إلى قتل نفسه ؟

وقال الشعبىّ : ها هنا الرجاءُ فى الله واليومِ الآخر ، وهو شعورٌ لا يُشترَى بمال ، ولا يُلتمسُ من أحد ، ولا يَعسرُ على من أراده ؛ والفقيرُ والمُبتلَى وغيرُهما إنما يَصنع كلٌّ منهم مِثالَه السامى ؛ فالصبر على هذا العَنَت هو صبرٌ على إتمام المِثال ، وإذا وقع مايسوؤك أو يَحزُنك فابحث فيه عن فكرته السامية ، فقلّما يخلو منها ، بل قلما يجىء إلا بها[1]

قال المسيب : فقام آخر فقال : وكيف يصنع امرؤٌ آلتْ به أحوالُ الدنيا إلى ما يُخيفه ، أو بَلَغ الهمُّ مبلغه من قلبه فهم أن يقتلَ نفسه ؟

قال الشعبىّ : فليجعل الخوفَ خوفَين : أحدهما خوفُه عذابَ الله خالداً مخلداً فيه أبداً ؛ فيَذهب الأقوى بالأضعف .

(١) كتبنا فى (المساكين) كلاما كثيراً فى هذه المعانى ، بل الكتاب كله قائم عليها

عصر الخفاء في مصر الاسلامية

٥ـ الحاكم بأمر الله

للأستاذ محمد عبد الله عنان

ولم تقتصر سياسة الحاكم الدينية على هذه الناحية من اضطهاد النصارى واليهود، ولكنها كانت تتناول الناحية الاسلامية أيضاً، بكثير من الأحكام والأوامر الشاذة. وقد كانت الخلافة الفاطمية تحكم في مصر شعباً لا يتبعها من الوجهة المذهبية، وكان العمل على تدعيم هذه الصبغة المذهبية أهم عناصر سياستها الدينية؛ وقد حذا الحاكم في ذلك حذو أبيه العزيز وجده المعز، وعمل لبث الدعوة الفاطمية في قوة وجرأة، ولكن في نوع من التناقض أيضاً؛ ففي سنة ٣٩٥ هـ، أمر بسب السلف (أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة ومعاوية... الخ)، وكتب ذلك على أبواب الجوامع والمساجد والمقابر والحوانيت، وأرغم الناس على المجاهرة به ونقشه في سائر الأماكن. وفي نفس العام أنشأ الحاكم دار الحكمة لتنظيم الدعوة وبثها بطريقة منظمة؛ وسنعود للكلام عنها في فصل خاص. وكان سب السلف مظاهرة شيعية عملية، ولكن سخيفة مبتذلة؛ فلم يلبث أن ضج الشعب لهذا الاجتراء المثير، وألغي المرسوم (سنة ٩٧) وشدد في هذا المنع فيما بعد، وعوقب المخالفون بالضرب والتشهير [1]. وفي سنة ٣٩٨ هـ صدر مرسوم يقرر بعض الأحكام الدينية ويفسرها، على أثر ما وقع بين الشيعة وأهل السنة من خلاف وشغب على فهم بعض الأحكام وتطبيقها؛ وهو مرسوم يشف عن روح العصر، ويحمل طابع التوفيق بين المذهبين، وإليك نصه بعد الديباجة:

«أما بعد فان أمير المؤمنين يتلو عليكم آية من كتاب الله المبين، لا إكراه في الدين... مضى أمس بما فيه، وأتى اليوم بما يقتضيه؛ معاشر المسلمين نحن الأئمة، وأنتم الأمة... من شهد الشهادتين... ولا يحل عروة بين اثنين، تجمعهما هذه الأخوة، عصم الله بها من عصم، وحرم عليها ما حرم، من كل محرم من دم ومال ومنكح، الصلاح والأصلح بين الناس أصلح؛ والفساد والافساد من العباد يستقبح؛ يطوى ما كان فيما مضى فلا ينشر، ويعرض عما انقضى فلا يذكر؛ ولا يقبل على ما مر وأدبر من أجزاء الأمور على ما كانت في الأيام الخالية أيام آبائنا الأئمة المهتدين، سلام الله عليهم أجمعين، مهديهم بالله، وقائمهم بأمر الله، ومنصورهم بالله ومعزهم لدين الله، وهو إذ ذاك بالمهدية والمنصورية؛ وأحوال القيروان تجرى فيها ظاهرة غير خفية، ليست بمستورة عنهم ولا مطوية؛ يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون؛ ولا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون؛ صلاة الخميس للذين بها جاءهم فيها يصلون، وصلاة الضحى وصلاة التراويح لا مانع لهم منها ولا هم عنها يدفعون؛ يخمس في التكبير على الجنائز المخمسون، ولا يمنع من التكبير عليها المربعون؛ يؤذن بحي على خير العمل المؤذنون، ولا يؤذى من بها لا يؤذنون؛ لا يسب أحد من السلف، ولا يحتسب على الواصف فيهم بما يوصف، والخالف فيهم بما خلف؛ لكل مسلم مجتهد في دينه اجتهاده، وإلى الله ربه ميعاده عنده كتابه، وعليه حسابه؛ ليكن عباد الله على مثل هذا عملكم منذ اليوم؛ لا يستعلي مسلم على مسلم بما اعتقده، ولا يعترض معترض على صاحبه فيما اعتمده، من جميع ما نصه أمير المؤمنين في سجله هذا، وبعده قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم، إلى الله مرجعكم جميعاً، فينبئكم بما كنتم تعملون». والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ كتب في رمضان سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة» [1]

(١) المقريزي — ج ٤ ص ٧٣

(١) نقلنا نص المرسوم عن ابن خلدون ج ٤ ص ٦٠ — والظاهر أن هناك خطأ ماديا في التاريخ، وان صحته هي «ثمان وتسعين» لأن الأمر بسب السلف صدر سنة ٩٥ أي قبل صدور المرسوم، وصدر الأمر بمحوه سنة ٩٧، راجع المقريزي ج ٤ ص ٧١

وإذا ابتُلي فليضمَّ إلى نفسه مَن هو أشدُّ بلاءً منه؛ ليكون همُّه أحدَ همَّين، فيذهبَ الأثقلُ بالأخفّ

إن الانسان ونفسَه في هذه الحياة كالذي أُعطيَ طفلاً نَزِقاً طَيّاشاً عارِماً متمرِّداً، ليؤدِّبَه ويُحكِمَ تربيتَه وتقويمه، فيثبت بذلك أنه أستاذٌ، فيعطَى أجرَ صبرِه وعمله، ثم يضيقُ الأستاذُ بالطفل ساعةً فيقتله. أ كذلك التأديب والتربية؟

(لهذا المجلس بقية) مصطفى صادق الرافعي

ومن الصعب أن نحدد موقف الحاكم إزاء الشئون الدينية تحديداً واضحاً ؛ فقد نسبت إليه فى هذا الشأن تصرفات كثيرة متناقضة ؛ وقيل إنه حاول أن يعدل بعض الأحكام الدينية الجوهرية كالصلاة والزكاة والصوم ، بل قيل إنه شرع فى إلغائها ، غير أنه ليس ثمة ما يدل على أنه ذهب إلى هذا الحد ، على الأقل فى الفترة التى نتحدث عنها ، وإن لم يكن ثمة شك فى أنه عدل بعض الأحكام والرسوم تعديلاً يجعلها أقرب إلى الصبغة المذهبية . وأما عن عقيدة الحاكم الدينية فمن المجازفة أن يقطع فيها برأى حاسم ، ومن المحقق أنها لم تثبت على وتيرة واحدة ، وانها حسبما تدل تصرفاته وأوامره الدينية ، كانت تختلف باختلاف فترات حكمه ؛ ونستطيع أن نصف الحاكم طوراً بعد آخر ، بالتعصب الدينى والاغراق المذهبى ، واليقين والتشكك ، والايمان والالحاد ؛ وسنرى عند الكلام عن الدعوة الفاطمية السرية أن الحاكم ، كان فى أواخر عصره يذهب إلى أبعد مدى من الغلو والاغراق ، فيؤيد الدعوة السرية إلى نسخ أحكام الاسلام ، وإلى الدعوة بألوهيته وقيامه . ويعترض ابن خلدون بشدة على القول بكفر الحاكم وإلحاده وإلغائه للصلاة ، ويقول إنه زعم لا يقبله ذو عقل ، ولو صدر من الحاكم شىء منه لقتل لوقته (١) . بيد أن هذا المنطق لا يتفق مع الأدلة والوثائق التى انتهت إلينا عن الفترة الأخيرة من عصر الحاكم وعن تصرفاته الدينية ومؤازرته للدعاة السريين كما سنبين بعد

— ٨ —

ولننتقل إلى ناحية أخرى من تصرفات الحاكم هى تصرفاته المالية . كان الحاكم باجماع الرواية ، جواداً وافر البذل ، وكان كثير الزهد فى المال ؛ وكانت الخلافة الفاطمية قد حققت فى عهدها القصير من الأموال والثروات الطائلة من الجواهر والتحف الباذخة ما يفيض فى وصفه المؤرخون المعاصرون بما يدهش ويبهر ، وتكدس لدى الحاكم من الأموال والتحف ما يجل قدره ووصفه (٢) . ولكن الحاكم لم يغرق فى تلك المظاهر الفخمة التى كانت تنثرها الخلافة الفاطمية من حولها ؛ وكان يؤثر بطبيعته

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ٦٠

(٢) راجع المقريزى فيما نقله عن المسبحى وغيره من مؤرخى الدولة الفاطمية عن غنى هذه الدولة ووفرة بذخها وبهائها (ج ٢ ص ٢٥١ — ٢٨١) وراجع النجوم الزاهرة فيما نقله عن ثروة الحاكم بأمر الله (ج ٤ ص ١٩٢)

مظاهر الانكماش والبساطة ، وكان خلافاً للطغاة يعف عن مال الرعية ، فاذا بدا له أن يصادر مال كبير مغضوب عليه فانه يضيفه إلى الأموال العامة ، وقد أنشأ لذلك ديواناً خاصاً يسمى بالديوان « المفرد » تضاف إليه أموال من يقضى عليهم بالمصادرة ؛ وقد ترد هذه الأموال الى أصحابها متى زالت أسباب السخط عليهم ؛ وقد تبقى نهائياً وتستعمل فى الشئون العامة (١)

واشتهر الحاكم طوال عهده بالسخاء والبذل ، وكان يسرف فى العطاء أحياناً إلى حدود تهدد مالية الخزينة ، وتثير اعتراض الوزراء ورجال الدولة ؛ ومما يؤثر فى ذلك أن أمين الأمناء الحسين ابن طاهر الوزان اعترض ذات مرة على إسراف الحاكم فى الصلات والعطايا ، وبلغ الحاكم اعتراضه وتوقفه فى تنفيذ الأوامر ، فبعث اليه بخطه فى الثامن والعشرين من رمضان سنة ٤٠٣ بهذه الرقعة المؤثرة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله كما هو أهله ومستحقه :

أصبحت لا أرجو ولا أتقى إلا إلٓهى وله الفضل
جدى نبىٌّ ، وإمامى أبى ودينى الاخلاص والعدل

ماعندكم ينفد ، وما عند الله باق ، والمال مال الله عز وجل ، والخلق عيال الله ، ونحن أمناؤه فى الأرض ، أطلق أرزاق الناس ولا تقطعها والسلام » (٢) وكان ذوو الحاجات يقصدون الحاكم أثناء طوافه ، سواء بالنهار أو الليل ، ويرفعون اليه حاجاتهم وظلاماتهم ، فيقضى فيها بنفسه ، ويقضى حاجات الكثيرين ، وينثر العطايا على المحتاجين (٣) . بيد أنه لم يكن يخلو فى ذلك من الشذوذ أيضاً فيبخل أحياناً بأقل الصلات (٤)

وكان الحاكم يميل إلى التخفيف عن الشعب فى أمر الضرائب فكان يرفع عنه أحياناً بعض المكوس حين الأزمات العامة ؛ وقد يعيدها طبقاً للظروف والأحوال ؛ ولما فتحت دار الحكمة كان من رسومها أن يؤدى « المؤمنون » مال النجوى ، وهو رسم اختيارى ينفق من دخله على النقباء ، وكانت تحصل أحياناً وتبطل أحياناً

(١) المقريزى ج ٣ ص ٢٣

(٢) الاشارة إلى من نال الوزارة ص ٢٩ وينسب ابن خلدون هذا الشعر إلى الخليفة الآمر بأحكام الله (ج ٤ ص ٧١)

(٣) النجوم الزاهرة عن ابن الصابى (ج ٤ ص ١٨٠)

(٤) ابن قزأوغلى (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٦)

— ٩ —

إلى جانب هذا الجود الشامل ، وهـذا التعفف عن أموال الرعية ، كان الحاكم يتمتع بخلة أخرى أجمع المؤرخون على الاشادة بها ، تلك هي زهده وتقشفه في مظاهره العامة وفي حياته الخاصة ، ثم تواضـعه المؤثر واحتقاره للرسوم والألقاب الفخمة التي كان يحيطه بها ملك قوى وخلافة باذخة . وكان لأول حكمه قد أمر بمنع الناس كافة من مخاطبة أحد أو مكاتبته بسيدنا ومولانا إلا أمير المؤمنين وحده ؛ ثم عاد فأصدر أوامره ، بألا يقبل أحد له الأرض ، ولا يقبل أحد ركابه ولا يده عند السلام عليه ، إذ لا يجوز الانحناء إلى الأرض لمخلوق ، وإنما هي بدعة من صنيع الروم لا يجمل أن يجيزها أمير المؤمنين ؛ ويكفي في السلام الخلافي أن يقال : « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » ، كذلك يجب ألا يصلي عليه أحد في مكاتبة ولا مخاطبة ، بل يقتصر في ذلك على « سلام الله وتحياته ونوامى بركاته على أمير المؤمنين » ويدعى له بما تيسر من الدعاء فقط ، وقد كانت الصلاة على أمير المؤمنين من أخص رسوم الخلافة الفاطمية ، وكانت الامامة عنوانها ، وكان يصلى على الخليفة كما يصـلى على النبي في الخطبة ، وفي المكاتبات والمحادثات الرسمية . ولـكن الحاكم أبطل هـذه الرسوم ولم يقل الخطباء يوم الجمعة سوى : « اللهم صلى على محمد المصطفى ، وسلم على أمير المؤمنين على المرتضى ، اللهم وسلم على أمراء المؤمنين ، آباء أمير المؤمنين ، اللهم اجعل أفضـل سلامك على عبـدك وخليفتك . . . . الخ » ، ومنع الحاكم أيضاً ضرب الطبول والأبواق حول القصر ، فصار الحرس يطوفون بلا طبل ولا أبواق . وركب الحاكم يوم عيد الفطر (٤٠٣ هـ) إلى المصلى بلا زينة ولا جنائب ولا موكب فخم ، واكتفى بأفراس عليها سرج ولجم محلاة بفضة خفيفة ، وبنود ساذجة ، ومظلة خلافية بيضاء بلا ذهب ، يرتدى البياض بلا حلية ولا ذهب ، وعمامة دون جوهر ، ولم يفرش المنبر ، ولم تتخذ بالمسجد أهبات غير عادية ، وركب إلى الصلاة في عيد الأضحى على هـذا المنوال البسيط [(١)]

(١) المقريزي — ج ٤ . ص ٧٢ و ٧٣

وكانت هـذه النزعة إلى البساطة تسود معظم المواكب والاستقبالات الرسمية . وكان الحاكم يركب في المدينة في أبسط المظاهر الديمقراطية التي تذكرنا بديمقراطية المسلمين الأوائل ؛ فيرتدى ثياباً بسيطة ، أو يرتدى دارعة صوف بيضاء ويتعمم بفوطة وفي رجله حذاء عربي ساذج ، وقد يركب فرساً بلا زينة أو حماراً ، وفي أحيان قليلة يركب محفة يحملها الرجال ، وعشارية تشق به النيل ؛ وكان أغلب طوافه بالقاهرة على الحمير دون موكب ولا ضجة ، لا يصحبه من الحشم سوى بضعة من الركابية ؛ وكان كثير الاتصال بالشعب فكان القصر مفتح الأبواب للمتظلمين وذوى الحاجات ؛ وكان يستمع إليهم أثناء طوافه وينظر في مطالبهم كما قدمنا

وأما عن حياة الحاكم الخاصة فلم تصلنا سوى لمحات ضئيلة ؛ ولـكن لا ريب أنه كان يعيش بنفس البساطة التي كان يبدو بها في مظاهره الرسمية ؛ وقد رأينا كيف اضطلع الحاكم بأعباء الحكم صبياً دون السادسة عشرة ، وكيف أن انهماكه بالشئون العامة منذ حداثته لم يترك له فرصة للانغماس في مجالى اللهو والعبث التي يغرق فيها من كان في سنه وفي ظروفه ؛ وقد كان الحاكم تحمله بلا ريب نزعة صوفية فلسفية ؛ ذلك أنه كان يرى في التقشف مثله ، ويحتقر متاع هذه الحياة الدنيئة ؛ ويرتفع عن مفاسد هذا المجتمع وعن غرائزه وشهواته النفسية الوضيعة . ولم يقل لنا أحـد ممن كتبوا عن الحاكم ، معاصرين أو متأخرين إنه كان يتصف بشيء من الرذائل الاجتماعية ، بل تدل أقوالهم جميعاً على أن هذا الطاغية الفيلسوف ، كان نقياً في حياته الخاصة ، بعيداً عن هذا الترف الناعم الذي يفت في الأجسام والأرواح القوية ، متقشفاً في مأكله وملبسه ، حتى قيل إنه لبث أعواماً يرتدى الصوف ، وأنه امتنع عن دخول الحمام [(١)] . والخلاصة أن هذه الشخصية العجيبة التي تقدم إلينا من نواحيها العامة في صور مثيرة مروعة ، تحملنا من نواحيها الخاصـة على الاعجاب والاحترام بما تشف عنه من سمو ونقاء واحتقار للشهوات الانسانية

للبحث بقية

(النقل ممنوع)

محمد عبد الله عنان

المحامى

(١) ابن قزأوغلى في مرآة الزمان (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٦)

المكتبات المدرسية

والمتنقلة بانجلترا (١)

بقلم الأستاذ محمد عطية الابراشي

المفتش بوزارة المعارف

ليس فى المدرسة الانجليزية مكتبة واحدة فحسب ، بل فى كل فصل من فصول المدرسة مكتبة صغيرة للتلميذ ، بها كتب مدرسية وأدبية تناسب المستوى العلمى للفصل ، وبها مصورات جغرافية ، وروايات تمثيلية ، وكتب للمراجعة . ويقوم كل فصل بانتخاب أحد تلاميذه للعناية بالمكتبة ، وهو مسئول عن ترتيبها ونظامها ، فيحضر الكتب منها وقت الحاجة الى استعمالها ، ويعيدها الى مكانها بمساعدة بعض إخوانه بعد الانتهاء من الدرس

ولكل تلميذ الحق فى أن يستعير من الكتب ماشاء لمدة معينة ؛ بأن يذهب الى دفتر الاعارة فيكتب فيه اسم الكتاب الذى استعاره ، واسم المؤلف ، ورقم الكتاب ، وتاريخ الاستعارة ثم يمضى . والأمانة سائدة بين التلاميذ ، فحينما ينتهى التلميذ من قراءة الكتاب فى المدة المعينة يعيده الى موضعه فى المكتبة ، فلا يضع رقم (١٠) مثلاً موضع رقم (١٠٥) . وبهذه الوسيلة يتعود التلاميذ النظام ، ويبث فيهم روح التعاون . وإذا لم يستعر أحد التلاميذ شيئاً سأله مدرسه عن السبب ، وكلفه بالاستعارة ، ثم اختبره بعد الانتهاء من قراءة الكتاب فى موضوعه ، وسأله عن أحسن قطعة قرأها فيه ، وأحسن رجل أعجب به ؛ وبهذه الطريقة يضطر كل تلميذ الى أن يستعير ويقرأ ، ويشجع التلاميذ على البحث والاطلاع . وإذا اعتاد الفتى أن يقرأ كتاباً فى الخارج كل أسبوعين مثلاً قرأ ما ينيف على العشرين كتاباً فى السنة ، فتكثر معلوماته ، ويشعر بحب الكتب من الصغر

وحبذا الأمر لوفكر كل مدرس لدينا فى أخذ طلبته الى مكتبة المدرسة ، وشوقهم إلى القراءة والاطلاع ، وفهمهم طريقة البحث فى الكتب ، وحثهم على الاستعارة والمطالعة فى أوقات الفراغ

(١) من كتاب « نظام التعليم فى إنجلترا » — تحت الطبع

وزيادة على المكتبات المدرسية تجد فى كل مدينة انجليزية مكتبة عامة أو أكثر فى المدن الكبيرة . وفى كل منزل انجليزى مكتبة بها الكثير من الكتب الأدبية والعلمية والصحية ، ويهدى لكل طفل انجليزى كثير من الكتب التى تناسب سنه فى يوم ميلاده وفى عيد الميلاد كذلك

وقد تكون للطفل مكتبة خاصة به ، وحجرة خاصة بلعبه أو تمرْبَى (Nursery) إذا كان من أسرة متوسطة أو غنية . ولا أبالغ إذا قلت إن الطفل فى انجلترا رجل صغير ، قوى الملاحظة ، كثير الآراء والأفكار الصائبة ، فقد يقول لك قبل أن ترى المدرسة : إن هذا الفيل من الهند ، ولو فقد هذا الجزء من السيارة لحدث كذا ، وهذا الجزء من الطائرة اسمه كذا ، ووظيفته (العلمية) كذا ، ولقد حدث (لعلى بَابَا) فى ألف ليلة وليلة كيت وكيت

المكتبات المتنقلة بانجلترا

وهناك أيضاً مكتبات متنقلة تنتقل من المدينة الى القرية مثلاً بوساطة سيارة معدة لأن تكون مكتبة ، تنقسم أربعة أقسام وهى : قسمان للروايات ، وقسم للكتب العلمية المختلفة ، والقسم الرابع خاص بكتب الأطفال . وتقوم هذه المكتبات بعمل جليل فى نشر العلم ، وإعطاء الفرصة لسكان القرى النائية الأطراف فى أن يستعيروا ما يريدونه من الكتب للقراءة والاستفادة . وهى منتشرة الآن فى جميع أنحاء انجلترا

وتعدّ المكتبة المتنقلة فرعاً من المكتبة العامة التى تمدها بما تحتاج إليه من الكتب . ويقوم بادارتها موظف تابع لمدير المكتبة العامة . وفى (كِنت) مثلاً — وهى إحدى الضواحى التابعة للندن — مكتبة متنقلة أنشئت فى نوفمبر سنة ١٩٢١ وبها نحو ١٥٠ ألف كتاب للاستعارة ، يستعيرها القراء بالتناوب ، ويتداولونها بينهم واحداً بعد الآخر ؛ فى سنة ١٩٣٠ قد بلغ المستعيرون من هذه المكتبة ١٢٢٣٠٠٠ وهذا العدد يدل على كثرة الاقبال على القراءة ، وعلى أن انجلترا من أكثر الأمم حباً للقراءة ، فلا تركب قطاراً أو سيارة عامة إلا وتجد فى أيدى كل فرد صحيفة ، أو مجلة ، أو كتاباً . فالمكتبة المتنقلة قد سدت فراغاً كان الناس يشعرون بالحاجة الى ملئه منذ زمن ليس بالقصير . وفى

(كنت) سيارتان تملآن من المكتبة الرئيسية العامة بها ، ثم تزوران كل قرية فى تلك الجهة مرتين أو ثلاث مرات فى السنة ، وقبل قيام المكتبة من (كنت) وهى المركز الرئيسى فى تلك الجهة يخبر القائم بأمور المكتبة فى القرية بوقت وصول السيارتين اليها حتى يستطيع استدعاء عدد كبير من المستعيرين للمساعدة فى اختيار المجموعة الجديدة من الكتب ، ورد ما يمكن رده من المجموعة القديمة التى كانوا قد استعاروها من قبل . وينتهى الأمر وهو رد الكتب القديمة ، وأخذ كتب أخرى بدلها فى نحو ساعة من الزمن

وكتب الأطفال فى المكتبات المتنقلة أقل من كتب غيرهم من القراء . وحب القراءة مشاهد لدى كل طفل ، وبخاصة قراءة القصص والحوادث . ومن الصعب أن تشبع رغبات الأطفال فى الحكايات وقراءتها . وليس فى هذه المكتبات من الكتب ما يكفى كل الأطفال ، ففى (كنت) مثلاً ٧٥٦٦٦ طفلاً فى المدارس الأولية ، وليس فى قسم الأطفال بالمكتبات إلا نحو ٣٢ ألف كتاب ، ولذا يضطر رؤساء المكتبات إلى جعل الاستعارة خاصة بمن تبلغ سنه ١٢ سنة . ويقص الرؤساء أحياناً بعض الحكايات المحزنة لرفض مطالب كثيرين من صغار الأطفال ، ثقة بأنه كلما كان الكتاب جميل المنظر ، جيد الطبع ، كثرت عنايتهم به . ولا يزال الكتاب لدى الطفل القروى شيئاً ثميناً . فالمكتبات المتنقلة والمدرسية والعامة تقوم بخدمة جليلة للتلاميذ وغيرهم ممن يحبون القراءة ، ويجدون مسرة فيها

ودور الكتب العامة مملوءة بالقراء . وهناك نوع من المكتبات التجارية التى تخصص قسما منها للاعارة نظير دفع اشتراك سنوى يسير . فلدى كل فرد صغير أو كبير ، غنى أو فقير ، الفرصة فى أن يجد ما يريده من الكتب ، من أى نوع من الأنواع

وفى وصف الكتاب وفوائد الكتب ، قال نابغة العرب ، وأديب العلماء ، والعالم بين الأدباء « أبو عثمان عمرو الجاحظ »(١) « الكتاب وعاء ملىء علماً ، وظرف (٢) حشى ظرفاً (٣) ، وبستان يحمل فى رُدن (١) ، وروضة تقلب فى حجر ، ينطق عن الموتى ، ويترجم كلام الأحياء . » وقال : « . . . ولا أعلم نتاجاً فى حداثة سنه ، وقرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وإمكان وجوده ، يجمع من التدابير الحسنة ، والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأخبار عن القرون الماضية ، والبلاد المتراخية ، والأمثال السائرة ، والأمم البائدة ما يجمع الكتاب »

ودخل الرشيد على المأمون وهو ينظر فى كتاب ، فقال : ما هذا ؟ فقال : كتاب يشحذ (٢) الفكرة ويحسن العشرة ، فقال : الحمد لله الذى رزقنى من يرى بعين قلبه أكثر مما يرى بعين جسمه

وقيل لبعض العلماء : ما بلغ من سرورك بأدبك وكتبك ؟ فقال : هى إن خلوت لذتى ، وإن اهتممت (٣) سلوتى ، وإن قلت إن زهر البستان ونور (٤) الجنان يجلوان البصر ، ويمتعان بحسنهما الألحاظ (٥) ، فان بستان الكتب يجلو العقل ، ويشحذ الذهن ، ويحيى القلوب ، ويقوى القريحة ، ويعين الطبيعة ، ويبعث نتائج العقول ، ويستثير (٦) دفائن القلوب ، ويمتع فى الخلوة ، ويؤنس فى الوحشة ، ويضحك بنوادره ، ويسر بغرائبه ، ويفيد ولا يستفيد ، ويعطى ولا يأخذ ، وتصل لذته الى القلب ، من غير سآمة تدركك ، ولا مشقة تعرض لك

وفى الكتب العربية آيات بينات عن الكتب وفوائدها ، شعراً ونثراً فليرجع اليها من أراد الزيادة

محمد عطية الابراشى

(١) ولد سنة ١٦٠ هـ . وتوفى سنة ٢٥٥ هـ . (٢) وعاء
(٣) كياسة وبراعة وذكاء

(١) كم (٢) يقوى (٣) حزنت واغتممت
(٤) زهر (٥) المراد بها العيون (٦) يظهر

قصيدة شوقي

فى جلالة الملك فيصل

بقلم الاستاذ حسين الظريفى

لما اعتزم مغنى مصر الكبير الأستاذ محمد عبد الوهاب السفر الى العراق عام ١٩٣٢ ، رأى المغفور له شاعر الضاد وأمير الشعراء أحمد شوقى بك ، ألا يدع الفرصة تفوت دون أن يملأها بما يريد ، فألف قصيدته الخالدة التى أثنى فيها الثناء الجم على أمة العراق وملكه ساكن الجنان فيصل الأول

وقد أنشد الأستاذ القصيدة على مسرح المعرض الذى أقيم فى بغداد فى السنة المذكورة ، وأنشدها أمام الملك فى قصره فى حضور رجال الدولة وكبار الساسة وأعيان البلد وجمهور المستمعين من شتى الطبقات . ثم رأينا مكروفون المذياع وأبواق الحاكى تعيد لنا ما أبدع به محمد عبد الوهاب على مسرح المعرض حتى شاعت القصيدة وذاعت على الأفواه . والذى نريد إثباته فى هذه الفرصة هو أن مطلع القصيدة وبيتاً آخر قد كثر حولهما كلام الناس فى بغداد . وانتقدهما غير واحد من الشعراء ، وكان أكثر هؤلاء المنتقدين — على ما أعتقد — يجهلون معنى البيت جهلاً تاماً ، وبهذا الجهل انحدروا الى التهجم على شاعرية شوقى ، وهو الشاعر الفرد الذى أضاف الى لغة الضاد مادة جديدة من معانيه المبتكرة . وانتقل بالشعر فى بعض مواقفه من عالم الطبيعة إلى ما وراءها ، حيث تجتمع الفلسفة والشعر الرفيع فى نقطة واحدة

ولذلك أحببت أن أعرض رأيى الخاص فيما يجب أن يحمل عليه البيتان . وأولهما وهو مطلع القصيدة :

يا شراعاً وراء دجلة يجرى ... فى دموعى ، تجنبتك العوادى

وقد رأى كثير من الشعراء والأدباء ، أن المخاطب بهذا البيت هو جلالة الملك فيصل ، والحقيقة أن الخطاب الى الأستاذ محمد عبد الوهاب ، لعدم إمكان حمله على غيره ، ولدلالة الأبيات التى تلى هذا البيت ، وهى :

سر على الماء كالمسيح رويداً ... واجر فى اليم كالشعاع الهادى

وائت قاعا كرفرف الخلد طيبا ... أو كفردوسه بشاشة وادى

وقد شبه الشاعر — محمداً — بالشراع لما شاع وذاع من أمر غنائه فى البلاد ، وهو تشبيه ذو صلة قوية الى التشبيه بالعلم بمعنى الجبل كقول الخنساء فى أخيها صخر — كأنه علم فى رأسه نار — وأراد بقوله وراء دجلة — يقصد دجلة . وذلك عند اعتزام المغنى السفر إلى العراق

ولما كان محمد عبد الوهاب دائم التغرد بما يؤلف له شوقى بك من قطع الشعر والقصائد ، وكانت أكثرية هذه القصائد تعج بلواعج الهوى بحيث تحمل دموع الشاعر الغزيرة من أثر الحب فيه ، جعل الشراع جارياً فى هذه الدموع ، بانشاد المغنى قصائد الشاعر . فكأن شوقى يقول : يا من اعتزم السفر الى العراق وهو كأنه الشراع فى الشهرة ، مرتلاً قصائدى التى هى كالدموع فى الهوى ، وهو يجرى فيها كالشراع — تجنبتك العوادى — وحفظك الله من كل مكروه

وهذا البيت ولا ريب من أنبغ الشعر ، وهو ابن العبقرية التى أصبح فيها لشوقى الخلود ، وللغة الضاد التيه والفخر

وأما البيت الثانى فقوله :

قف تمهل ، وخذ أماناً لقلبى ... من عيون المها وراء السواد

والمخاطب فيه محمد عبد الوهاب أيضاً ، والسواد هو العراق من قولهم — أرض السواد — ولا يمكن أن يحمل المعنى على أن الظباء كائنة وراء العراق ، إذ لا يمكن أن يكون هذا قصد الشاعر ، وإلا فسد عليه المعنى ، ولأن سائر أبيات القصيدة إنما تبحث عن العراق وملكه وساكنيه ، وقد ذهب إلى هذا التفسير الباطل كثير من الشعراء والأدباء ، اغتراراً بظاهر اللفظ مع أن الواقع خلاف ما يدعون . وزعم قوم أن المراد بالسواد هنا — سواد العيون — وبهذا التفسير يختل معنى البيت ويبقى مهملاً لا يشير إلى شىء

وادعى آخرون أن معنى البيت فاسد من أصله ، وقالوا فى تعليل الفساد إن لفظ البيت يؤدى إلى وصف الظباء خارج العراق ، وذكر ذلك لا مكان له فى القصيدة ، مع أن هذا غير مقصود من الشاعر كما سبق ذكره ، وبالنظر لروحية القصيدة ولظروف وضعها ولخواطرها المتسلسلة

وذهب غيرهم إلى حمل البيت على إرادة الحجاب بالسواد ، كأن أعين الحساد تستطيع التأثير على قلوب الناس ، وهى متحجبات من وراء نقاب . وهذه مبالغة لم نر لها مثيلاً فى شعر شوقى ، وقد يتجاوز هذا المفهوم حدود المبالغة الى تكذيب الواقع له

والذى أراه فى هذا البيت ، هو أن القادم الى العراق إنما يرى منه السواد قبل كل شئ فيه ، بالنظر لكثرة ما فيه من خمائل ومزارع ونخيل حتى عرف فى التاريخ بهذا الأسم ، وبذلك تكون الظباء وراء السواد بالنظر إلى القادم اليه ، وهى فى أثنائه فى حقيقة الأمر الواقع . وهذا البيت ولا شك من وحى العبقرية أيضاً ، وفيه أبلغ ما تصل اليه رقة الشاعر فى شعره

وإننا نجد البرز فى الشعر قد يرتفع فى كل قصيدة من قصائده بالبيت أو البيتين أو الثلاثة أو ببضعة أبيات . ولكنه مع ارتفاعه هذا لا يغيب بشعره عن أعين القراء . غير أن شوقى قد شب فى الشعر عن الطوق ، وبذ زملائه الشعراء فى كل بيت يرتفع فيه عن مستوى الشعر حتى يتوارى فيه عن الأبصار . فلا تكاد تقع عليه إلا بعد الجهد الجهيد ، ولا تنظر اليه إلا من بعيد كما ظهر لقراء الضاد فى هذين البيتين ، ونحن لا نشك فى أن فهمهما يحتاج الى مجهود عقلى كبير ، وتلك ميزة النابغ من الشعر ، تفرد بها شوقى عن شعراء جيله ، وبها فضل الجميع

وهنا أود أن أذكر ملاحظة العالم النفسى الدكتور ناجى بك الأصيل حول شاعرية أحمد شوقى بك ، قال الدكتور : على الجيل الحاضر أن يحدد شاعرية شوقى بك فى المدى الذى بلغت اليه ، وإلا فان الأجيال القادمة سوف تخطئ فى تقديره . وعلى هذه الفكرة بأن هناك من الشعر لشوقى ما قاله وهو فيما وراء الشعور ، ومع مافى هـذه الفكرة من العلو والنضوج فانها لا تأتلف والحقيقة . لأن مثل هـذه الأبيات التى يشير اليها الدكتور هى من وحى الالهام ، وقد قالها شوقى وهو فى غيبوبة العبقرية وبها استحق كل هذا التقدير من أبناء الضاد وأصبح له فيها الخلود ، ولا يمكن أن نحمل على أن شوقى قال ما لم يدر ، أو أن شاعريته أقل من شعره ، لأن فى ذلك المنطق المغلوط . ولعل الدكتور ينحرف فى فكرته قليلاً إلى القول بوجوب تحليل أبيات شوقى التى قالها فى غيبوبة العبقرية ، لئلا تفوت الأجيال القادمة بعض الدقائق النفسية التى يعرفها الجيل

هذا ما عنّ لى ذكره فى هذين البيتين اللذين كثر حولهما القيل والقال ومن كان له فيهما شىء يقال فليأت بما عنـده ، إذ الحقيقة بنت البحث

بغداد — حسين الظريفى المحامى

بين الدعابة والجد

القديس « تبريها » !!

قد يبدو غريباً أن نترجم لشخص لما يمض شهران على مولده ، وإنه لغريب حقاً ، ولكن الذى دعانا الى أن نكتب عنه وأن نترجم له ، هو أنه ولد ولم يلبث أن شب واكتهل وحصل على درجة القديسين ، وغشى دور كثير من العظماء والأدباء والعلماء ، وإن لم يعرفه بعض أولئك الذين دخل عليهم دورهم

ولد القديس تبريها فى شهر مارس سنة ١٩٣٥ م . وولد فى مصر وفى بيئة عظيمة جداً إلى أقصى حدود العظمة . وهنا نستمهل القارئ برهة وجيزة نخرج فيها الى موضوع آخر عرض لنا . ثم نعود الى قديسنا العظيم

قرأت كتاب الدكتور هيكل « حياة محمد » من عنوانه الى إمضاء الدكتور فى آخر صفحة منه ، وكنت أجد من السرور لقراءته ما ينسيني نفسى وما يتعلق بها من شئون الحياة

وكانت تأخذنى فى كثير من مواقفه تلك الروعة العظيمة التى صورها المؤلف عند وفاة الرسول إذ يقول : « استعيد الساعة صورة هذا المشهد الرهيب ، فأرانى شاخصاً له مأخوذاً به ممتلئ القلب من جلال هيبته أكاد لا أجد إلى الانصراف عنه سبيلاً »

فرغت من قراءة الكتاب وفى نفسى من الآثار لكثير من حوادثه ما فى نفس الدكتور هيكل لوفاة الرسول

طفقت أقلب الصفحات الأخيرة من الكتاب عن غير قصد حتى وصلت من فهرس الأعلام الى حرف التاء فى صفحة ٥١٢ فوقف نظرى عند اسم القديس (تبريها) فجعلت أستعيد فى ذاكرتى ما قرأت فوجدتنى لا أذكر هذا الاسم ، ولا لأى شىء ورد ذكره ، فأسفت على أن لم أع مما قرأت شيئاً

ثم رأيت أمام اسم القديس فى الفهرس أن اسمه ورد فى صفحة ٤٣ من الكتاب ، فرجعت اليها لأعرف ذلك الذى شرد عن ذهنى ، فاذا بى أجد فى تلك الصفحة هذه العبارة :

«وإن الذين زاروا كنيسة القديس بطرس فى رومية ورأوا

دين البـــادية

عن لامرتين

للأستاذ التنوخى

عضو المجمع العلمى العربى وكاتب سره

وأولئك الملاحون السابحون الى الأبد على بحار من الرمال ، قد أكسبهم الاعتياد أخلاقاً متشابهة ، بمشاهدة مناظر متشابهة ، وسكنى منازل متشابهة ، وبنقلهم المستمر لخطوات متشابهة ، فى طرق ومسالك متشابهة ، فسجاياهم على ذلك مشابهة لسجية البادية . إنهم لمتمسكون بدينهم تمسك اللانهاية بهم ، وأحرار كحرية الفضاء المكشوف لهم ؛ وجوّالون كجوال الجواد الذى يُقلهم ، والنـاقة التى تحملهم ، والقطيع الذى يتبعهم ؛ وهم أجاويد مثل الخيمة المفتوحة أبداً لأخى الأسفار ، أضلته مجاهلُ القفار ؛ ومغاوير لهم جرأة المدين بحياته لقوة عضلاته ، والمضطر للذود عن حريته ومأواه ، والدفاع عن مائه ومرعاه ، من غزوات القبائل والغارات الداهمة ؛ وهم بحكم العادة ميّالون كالوحدة الى الصمت ، ومولعون بالحديث أحيانا ، شأن الانسان الذى يلاقى بعد طوال الوحشة أخاه الانسان فيحدثه عن كل شئ ، ويستخبره عن كل شئ ؛ وهم مفطورون على الشعر وعلى التأمل فطرة الليل والنهار ، والكواكب والآفاق التى يقع عليها أبصارهم أبداً ؛ وهم قصّاص بارعون لاضطرارهم الى قضاء ساعات الفراغ الطويلة فى سرد الحكايات والأخبار والعجائب إما تحت الخيام أو حول الآبار تسليةً للقلب من البلبال ، وتزجيةً لساعات الفراغ والملال

قدم تمثال القديس تبريها قبلات عبادة المؤمنين ، حتى لتضطر الكنيسة الى تغييرها كلما انبرت ليغفرون أولئك الذين ... الخ »

عندئذ فقط عرفت ما شرد عن ذهنى ، وعرفت ذلك القديس العظيم الذى ولد فى مصر وفى مطبعة مصر

وعرفت أنه ولد على يد واضع فهرس الأعلام ، وعرفت أن ذلك الواضع هو أبو ذلك القديس العظيم ! !

أبو حجاج

إن من لم يكتحل بمشاهدة غروب الشمس فى ضبابة حمراء من الجحيم يعكس نورها ذلك الرمل المنتشر ما بين النهرين ، أو بلاد الكلدان ، ومن لم يراقب طلوع الكواكب متهادية ، ثم هبوطها فى ليالى الشتاء على بحر محيط من الأثير الأزرق ، أعمق من الفكرة التى تغوص فيه ، وأصفى من ماء البحر فى رأس الأرض المنتصب الذى يحول دون لألائه والتجمّد ، ومن لم يسمع همس تلك النسمات المتواليـة من ريح لم يتم فى البادية سكونها ، وكيف تهيم بصوتٍ رخّمه فى السامع مروره على تلك الروابى والهضاب ، وعلى عذبات أوراق الأعشاب ، ومن لم يطرح طرفه كل مطرحٍ فى ذلك الفضاء الذى لا وراء بعده ، والذى يغيب فى الله أفقه الرحيب ، ومن لم يبصر فى تلك الظلال الجانبية من الجِمال الباركة كيف ترتسم صورها فى أجواز السماء ، وهى جامدة جمود تلك الصور الجانبية من ظلال تماثيل أبى الهول الصخرية على سود تلك الرمال المصرية ، من كان هـذا شأنه لا يحق له أن يحكم على ذلك العربىّ المنتجع لمواطن الماء والكلأ ، ولا على ذلك السحر الذى يستهويه ، وبقضاء الله الذى يرضيه

أجل إن تلك الارتسامات والحساسات ، وما يعرو الانسان فى البادية من وساوس وهواجس لبعيدة المصدر بعداً يخيّل معه للمرء أنها صادرة عن اللانهاية نفسها ، وأن تلك الأنوار المنهمرة أمطارا من النار على الروابى والبوادى ، لم تنهمر قطّ على سطوح المدن والقرى ، ولا تلوثت بالدخان المتصاعد من مداخن المساكن ، وفى آناء الليل والنهار لا يحول بين الروح وصانعها حائل ، فيشعر الانسان لذلك بيدٍ خفيةٍ لكنها ملموسة ، هى يدُ الخالق على خلقه ، ويبصر فى كل لمحة تجلى الصانع خلال ذلك البحر من الضياء الذى يغمره ، وفى حـدود ذلك الأفق الذى يكتنفه من الغموض ما يخيل للمرء أن لا وراء بعده إلا المجهول ، وفى ظلال الليالى تجوس الأبصار خلال الكواكب فتلحقها أو تسبقها إلى منازلها ، فهى تشهد بدون حجاب ذلك النظام المحكم ، بل ذلك الاتقان الناطق بكلمة الايمان !

إن الدين وهذا الايمان المستقر فى الأرض منشؤه علم النجوم فى بوادى كلدة ، وإن الحروف التى يتألف منها الاسم الالـهىّ تقرأ بأبهر مبنى وأعمق معنى ، وهى منقوشةٌ على ألواح السموات ،

وإن المخيلة لتغتذى برؤى السماء ورُقى الأضواء ؛ وإن التجليات الخارقة الغيبيّة مع تجسيم الحقيقة بالأوهام ، لا تزال منذ بدء العالم على حالها ، والرجل المدثر برداء التقوى والأيمان لا يتأثر إلا بالانفعال الذى هو به جدير : أعنى به انفعال اللانهاية والخلود

إن جميع العقائد لمنبعثة من تلك الخلوات منذ عهد الآلـه (الـكوكب) مركز عوالم زرادشت ، حتى (الله) رب محمد ، ومنذ الآلـه المشرع (يهوه) موسى ، حتى الآلـه (الـكلمة) التى يبحث عنها متى سجا الليل رعاة بيت لحم

فالعربىّ (وهو السر المكنون كالسكون ، والمتأمل كالليل ، والمستوحش كالوحدة ، والمصدّق بالمعجزات كرقية السحر الخالدة يُستنزل بها الوحى ، ويُسترق بها السمع) ، له من قوة الحواس ما يدرك بها الله فى الصحراء أكثر منا : إن حياته لعبادة أبدية ، فهو لا يلهيه عن الخالق شىء ، ورحابة البادية التى لا حد لها هى معبده والمحراب ، فما كان لهذه الطبيعة أن تلتقى والالحاد أبداً

أمع مثل هذه الطبيعة يتاح لبدوىّ أن يلحد يوماً ؟ خذوا أىّ زنديق من زنادقة الغرب ، واقذفوا به بضع سنين الى المشرق تجدوه لا يخرج منـه إلا معافىً من تلك العـاهة الروحية : إن الالحاد لا ينشأ إلا فى الظلال ، وفى مواطن الحرمان من التأمل والخيال ، ومدن الغرب التى يصاب فيها المرء بدُوار الرأس والخبال ؛ إن الشمس لتستأصل شأفة الـكفر والالحاد والشبهات ، لأن تلك السموم الباردة لا تنمو إلا فى الظلمات ؛ وإن ذلك الفضـاء الرحب ، وهو ملك البصر ، ليمنح العربى من الشعور بكرامته ما هو أشد من البادية عنجهيةً ، وأكثر منها حرية ، ذلك أن الجماعة تسحق الأفراد والوحدة تسمو بهم ؛ والمنفرد يشعر بعظمته فى كل حين ، لأنه إنما يقيس نفسه بالنظر الى عظمة الطبيعة وسَعة سلطانها ، لا إلى تلك القيمة العددية الخفية التى يمثلها بكيانه بين ظهرانى جمهور لا يُحصى من مدينـة غاصة بأحيائها ، وأمة كبيرة بوفرة أبنائها . إن هذا الشعور بالعظمة الذاتية ليجعل من الانسان مخلوقاً غير خليق بالصغار ، وليحمله على إباء الضيم والعبودية ؛ أجلْ إن العربى ليخضع لدينه ولرياسة الأسرة الالـهية ، ولعادات السادات شريعة العرف المقدسة ؛ ولـكنه لا يخضع للقوة الغاشمة أبداً !

التنوخى
عضو المجمع العلمى العربى وكاتب سره

فتح العرب للأندلس

بقلم فريد مصطفى عز الدين

فى مدة قصيرة لا تتجاوز عقدين من السنين ، ولا تساوى فى حياة الأمم فترة من حياة الأفراد تمكن العرب من تدويخ امبراطوريتين كانتا أعظم دول ذلك العهد . فاكتسحوا الأمبراطورية الفارسية وثلوا عرش أكاسرتها ، وسودوا دينهم ولغتهم على سكانها ، وكانوا فى الوقت ذاته ينتزعون من الامبراطورية البيزنطية ولاياتها الشرقية الواحدة تلو الأخرى . فدخلت سورية الـكبرى ومصر ، وطرابلس الغرب ، وتونس والجزائر والمغرب الأقصى فى دولتهم الفتية ، وانضوى سكانها تحت راية القرآن والدين الحنيف

وكأنى بالفاتحين وقد جثموا على الشاطئ الأفريقى ، ورأوا قبالتهم الشاطئ الأوربى لا تفصلهم عنه إلا شقة ضيقة من الماء أخذتهم نشوة النصر والظفر ، ووطنوا العزم الأكيد على تدويخه وأن يمثلوا مع الأسبان الدور الذى مثلوه قبلاً مع الفرس والرومان

كانت أسبانيا قبل الفتح العربى فى حالة اضطراب وفوضى ، تتنازعها الثورات والفتن . والعامل الأكبر فى هـــذا التقلقل والاضطراب راجع الى النظام الاجتماعى الفاسد الذى كان سائداً عندئذ فى البلاد . فقد كان سكانها ينقسمون الى أربع طبقات هى :

١) الأشراف - ٢) سكان المدن - ٣) الفلاحون - ٤) العبيد

أما الأشراف فـكانوا أصحاب النفوذ والسـيادة ، غير أنهم انصرفوا فى آخر عهدهم عن أمور الدولة إلى اللهو والبذخ والمجون . وكان سكان المدن - ومعظمهم يهود - يتحملون معظم الضرائب التى كانت عبئاً ثقيلاً على عاتقهم جعلتهم تواقين للخلاص من حالتهم الحاضرة . أما الفلاحون فـكانوا وسطاً بين الأحرار والعبيد ، إذ أن التملك كان محرماً عليهم إلا باذن الشريف الذى يقعون فى دائرة نفوذه ، ولذا كان القليل النادر منهم ملاكا . وكان العبيد وهم أكثر السكان عدداً يباعون كالسلع ويسامون من العـذاب أشكالاً وألواناً . فليس غريباً إذاً أن يهربوا فى بعض الأحايين من نير أسيادهم الى الجبال والقفار ، فيعتصموا

بها وينعموا بالحرية المفقودة ، ويعيثوا فى البلاد فساداً انتقاماً لحريتهم المسلوبة . وكانت هذه الحالة السيئة كافيـــة لازاحة الحكم الرومانى عن هـذه البلاد والتمهيد للقبائل البربرية الغازية

كانت القبائل التى اكتسحت أسبانيا عديدة ، منها «الفندال» و «الزواف» و «القوط» . ولم يمض وقت طويل على تدفق البرابرة فى أســـبانيا ، حتى ترك القوط القبائل الأخرى من البلاد ، واستأثروا بالسلطة المطلقة . ثم بدأوا يأخذون بأساليب الحضارة المسيحية ، وتمكنت الـكنيسة الـكاثوليكية من ضمهم الى حظيرتها سنة ٥٨٧ ، فاكتسب الـكهنة مكاناً سامياً فى الدولة لا يقل خطراً عن مكان الأشراف ، غير أنهم استثمروه لنفعتهم الذاتية ، فاقتنوا الضـياع وبنوا القصور العظيمة ولم يلتفتوا الى الطبقات الأخرى التى كانت تعانى أمر العيش وأبشعه مذاقاً فيصلحوا أحوالها ، بل اندفعوا فى سبيل مآربهم الدنيوية ، فأصبحوا عاملاً آخر فى زيادة الفساد والاضطراب

وقد خلق أيضاً وجود اليهود فى البلاد فساداً فى الحـكم ، لأنهم كانوا فى أسبانيا كما كانوا فى غيرها طبقة مضطهدة مهيضة الجناح تنوء تحت عبء الذل والاحتقار ، فـكانوا صابرين فى مضض على حالتهم السيئة ، منتظرين بذاهب الصبر تغير الحال وزوال حكم القوط عن كواهلهم

***

حدث الفتح أثناء ولاية موسى بن نصير على أفريقية . وكان العرب يعنون بأفريقية تونس الخضراء والجزائر ومراكش ، وتمكن موسى من فتح طنجة وهى من أعظم فرض المغرب وولى عليها طارق بن زياد ثم قفل راجعاً الى مدينة القيروان – التى بناها الفاتح العربى الـكبير عقبة بن نافع فى عهد معاوية بن أبى سفيان الخليفة الأموى الأول – تاركا سبتة وهى المدينة الوحيدة التى لم تخضع لسلطان المسلمين فى أفريقية

وكانت الفوضى – كالعادة – ضاربة أطنابها فى اسبانيا . فان أحد الأشراف ويدعى لذريق اغتصب الملك وطرد أبناء الملك غيطشة المتوفى من البلاد ، فعبر هؤلاء البوغاز الى الشاطىء الأفريقى وحاولوا الاستعانة بالعرب عن طريق يوليان حاكم سبتة ، الذى كان على وداد مع العرب . فأجابهم يوليان الى طلبهم وأخذ يحبب الى العرب حرب لذريق . أما السبب الذى حدا بيوليان إلى استنفار العرب على لذريق فشخصى محض ، وذلك أنه أرسل ابنته – وكانت آية فى الجمال – جرياً على عادة أشراف القوط الى القصر الملـكى فى اسبانيا لتتأدب ، فرآها لذريق واستهواه جمالها الفتان ، ومازال بها حتى أوقعها فى حبائله وعبث بها . فلما علم والدها بالأمر استشاط غيظاً وغضباً ، وعز عليه أن ينتهك عرضه وشرفه على هذه الصورة القذرة ، فأقسم على الانتقام من هاتك عرضه وملصق العار بجبينه ، وأخذ يشوق العرب إلى فتح الأندلس

ولـكن بعض المؤرخين يشكون فى صحة هذه الرواية ويقولون إن السبب فى قيام يوليان على لذريق أن غيطشة ملك القوط المتوفى ساعده مرة على العرب فحفظ له يوليان هذا الجميل ، ورأى من الواجب أن يساعد أبناء ولى نعمته على مغتصب ملك أبيهم ، فطلب مساعدة العرب ظاناً أنهم بعد أن يفتحوا البلاد ويوطدوا ملك أبناء غيطشة فيها يرجعون الى أفريقية

***

كانت الغزوة الأولى غزوة استكشافية محضة غرضها درس حالة البلاد عن كثب ، وذلك لأن موسى بن نصير كتب الى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك – الخليفة الأموى السادس – يستشيره فى أمر هذا الفتح ، فأرسل اليه الخليفة العظيم أن يتريث ويستكشف الأحوال قبل الاقدام على أية مغامرة . فأمر موسى طارقاً بارسال قوة صـغيرة الى الأندلس لمعرفة أحوالها الحقيقية ، فأنفذ طارق فصيلة مؤلفة من ٤٠٠ مقاتل بقيادة مولاه طريف فنزلت فى جنوبى الأندلس – الجزيرة – فكتب الله لها النجاح فى مسعاها الدنيوى الدينى ، فشجع هذا النجاح موسى ابن نصير وعول على فتح الأندلس وسرعان ما حقق غايته

فأرسل قوة كبيرة بقيادة البطل الفاتح طارق بن زياد مؤلفة من البربر والموالى وقليل من العرب ، فعبروا مضيق جبل طارق وفتحوا الجزيرة ثم زحفوا شمالاً نحو قرطبـة ، وكان لذريق عندئذ فى الشمال يقاوم حملة من الأفرنج غزت حدود بلاده الشمالية ولـكنه أسرع – حالما علم بقدوم المسلمين – وعاد إلى الجنوب على رأس جيش لجب عدده مائة ألف مقاتل لصد تيار الفاتحين

فطلب طارق من موسى إمداده بالنجدات فأمده بخمسة آلاف مقاتل . وهناك فى مكان جنوبى أشبيلية على نهر غواديلانا التقى الجيشان فكان النصر حليف العرب ، وذلك أن فرقة من الجيش القوطى موالية لأبناء غيطشة انسحبت من ميدان القتال فتضعضعت معنويات جيش القوط وتراخت عزائمهم فظفر بهم العرب وكان نصرهم نصراً مبيناً . وتقول بعض الروايات العربية إن لذريق غرق فى النهر ، غير أن روايات أخرى تقول إنه بقى حياً إلى أن جاء موسى بن نصير الأندلس فهزمه فى معركة فاصلة أودت بحياته

ثم قسم طارق جيشه إلى أربعة أقسام : قسم سار بقيادته إلى طليطلة ، وقسم سار إلى قرطبة ، وآخر سار إلى غرناطة ، ورابع زحف إلى مالقا ؛ وكان النصر حليفهم فاستولى كل قسم منهم على البلد الذى زحف عليه ، وكانت الطبقات المضطهدة تساعد الجيش الزاحف وتمده بمعلومات قيمة عن جيوش العدو وترشده إلى أسهل الطرق وأقربها ، وكان طارق يكافىء أعيان البلاد بتعيينهم حكاماً على المناطق المفتوحة ، ورأى الاسبانيون عندئذ أن غزوة العرب لم تكن مؤقتة يرجع العرب بعدها إلى أفريقية بل كانت دائمة لأنهم ذهبوا إلى اسبانيا ليبقوا فيها

وكان كثير من الأشراف قد فزعوا إلى الجبال بعد الانتصارات التى أحرزها العرب ، فخاف طارق العاقبة وأرسل إلى موسى يستنجده . فعبأ موسى قوة عظيمة وعبر إلى الأندلس سنة ٧١٢ بعد ذهاب طارق إليها بسنة ، واتبع خطة منظمة فى الاستيلاء على البلاد . فكان ينظم كل مدينة يحتلها ويعدها لحكم عربى دائم . فاستولى على قرمونا وأشبيلية وسار تواً إلى طليطلة فالتقى بطارق ـ وكان لقاؤها جافاً ـ ووحدا جبهتهما وانتصرا على جيش اسبانى لجب ، يقال إن لذريق كان يقوده ، انتصاراً حاسماً ، وافتتحا طليطلة مرة ثانية . وكانت آخرة لذريق فى بطون أسماك نهر التاج

وفى سنة ٧١٣ سك موسى نقوداً عربية فى الأندلس ، وظل يتوغل فى هذه البلاد وينتقل من نصر إلى نصر إلى أن جاءه رسول الوليد يستدعيه إلى دمشق ـ عاصمة الأمبراطورية العربية — فغادر موسى الأندلس أسيفاً لأنه كان قد عزم على التوغل فى بلاد الفرنجة حتى يصل إلى القسطنطينية عاصمة الأمبراطورية البيزنطية فيفتتحها ويسير منها إلى دمشق بعد أن يكون قددوخ أوربا وأخضعها للخلافة الاسلامية وسطر اسمه فى سجل الخالدين

ثم استخلف موسى على الأندلس ابنه عبد العزيز وعلى سبتة ابنه الثانى عبد الملك ، وعلى أفريقية ثالث أبنائه عبد الله ، وسار الى العاصمة الأموية يصحبه طارق مثقلاً بالغنائم ، فوصلها بعد وفاة الوليد بن عبد الملك وقيام سليمان . وبالرغم مما قدمه لسليمان ابن عبد الملك من الغنائم لم يلق فى عينى الخليفة حظوة ، لأن أخبار الأندلس وصلت الى دار الخلافة مغالى فيها . فوجد سليمان أن ما جاء به موسى قليل برغم كثرته فاضطهده وسجنه . ولم يكن حظ طارق بأسعد من حظ زميله فناله بعض سخط أمير المؤمنين

وبقى موسى بن نصير فى محبسه مدة قصيرة . ثم أطلق سراحه بعد أن شفع له القائد الكبير يزيد بن المهلب بن أبى صفرة ، فسار الى مكة المكرمة يحج البيت ، غير أن المنية عاجلته وهو فى طريقه الى الديار المقدسة

أما ابنه الأكبر عبد العزيز فقد عمل على توطيد الحكم العربى فى الأندلس بتزوجه من أرملة لذريق واستمالة القوط ، ولكن مؤامرة دبرت لاغتياله بعد سنتين من ولايته ؛ ويتهم بعض المؤرخين سليمان بتدبير المؤامرة ، وتحريض أصحابها على الفتك بابن مدوخ الأندلس . وهكذا كانت نهاية فاتحى الأندلس قتلاً وسجناً وتشريداً

فريد مصطفى عز الدين

١٢ - قصـــــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

بستور Pasteur

صـــلة حديثه

وصل الفائت : أثبت بستور أن الذى يخمر السكر فيحيله إلى كحول إنما هو خمائر كرية صغيرة تتزايد بالانشقاق . وأن الذى يحيله إلى حامض اللبن هو مكروبات كالعصى . واخترع بستور حساء من السكر وملح النشادر تتكاثر فيه هذه الأحياء بدل مرق اللحم ونقيع الحب . وقال للناس إن اللحم يفسد لأن المكروب يناله ، فتخرج منه بالتحلل روائح كريهة تحمل المرض والموت فى طياتها . وأنه سيخوض فى سبيل البحث غمار هذه الأوبئة لخير الانسانية

— ٤ —

وبذلك هيّأ بستور المسرح لاجراء تجاربه الخطيرة . هيّأه قبل إجرائها بزمن طويل . فوضع فيه المناظر ، ووزّع فيه الستائر ، ومازج وآلف بين الألوان ، وأخفتَ الأنوارَ حيث وجب خفوتها ، وأسطعها حيث يجمل سطوعُها ، فأثار بذلك طبيعة العلماء الباردة ، فاستمعوا له بآذان مرهَفة ، وقلوب واجفة ، انتظاراً لدور البطولة الذى سيقوم به فى القريب على أعينهم ، حتى لكأنى بهؤلاء الأساتذة الموقرين يسيرون فى شوارع الحىّ اللاتينى العتيق ، بين ربوعه الغبراء ، رائحين فى الامساء الى منازلهم ، وقد ثارت ثائرتهم ، والتهب خيالهم ، فتمثلوا بستور يودعهم فى حرقةٍ وداع الفراق الذى لا أوبة له ، ثم يوليهم ظهره ، ويسير بقدم ثابتة ، وصدر مفتوح ، ورأس مرفوع ، وأنف وسيع ، نحو تلك الروائح الكريهة قد حملت فى طياتها جراثيم الموت وأسباب الهلاك . . .

فى هذا فاق بستور صاحبنا لوفن هوك ، وفى هذا فاق اسبلنزانى كذلك . كان بستور يجيد التجربة ، ولكنه كان كذلك يجيد عرْضها على الناس والدعايةَ لها فيهم . أما العلماء فاضطربوا واشرأبّوا للمزيد من أنبائه ، وأما البسطاء فاغتبطوا بصورة الخمائر التى أحلها واضحةً فى أذهانهم ، تلك الخمائر التى تصنع لهم الخمر الذى هو شرابهم الأول فى فرنسا ، ولكنهم كذلك ارتاعوا لما تصوّروا تلك المكروبات المَعِفنة ترفرف بها أجنحة الهواء من فوق رؤوسهم فى سكون الليل ، فتبذر فيهم أسباب الموت ، وتفتح لهم أفواه القبور

وأجرى بستور تجارب غريبة طالت سنوات . تناول قوارير ووضع فى بعضها شيئاً من اللبن ، ووضع فى البعض الآخر شيئاً من البول ، ثم غطّسها مدةً فى الماء الغالى ، ثم ختم رقابها الدقيقة فى النار ، ثم اختزنها عدة سنين . وأخيراً فتحها ليثبت أن اللبن لم يتختّر ، وأن البول لم يتغير ، وأن الهواء الذى علاهما فى القبابات احتفظ بكل اكسجينه أو كاد ، فلا مكروب ولا فساد . ثم أعاد التجربة على اللبن والبول مرة أخرى ، ولم يُغلِ القبابات ، بل أذِن للمكروبات أن تنمو وتتزايد فيهما . فلما فتح القوارير لم يجد أكسجينها ، فان المكروبات استخدمته فاستنفدته لتحرق به مادة البول واللبن وتحللها لتتغذى بها . وعندئذ بسط بستور جناحين عظيمين وطار فى سماء الخيال ، فتمثّل هذه الأرض العظيمة ليس بها مكروب واحد ، وتمثّل حيوانها يموت ، فى جوّ ملئٌ بالأكسجين ، ولكنه أكسجين عاجز فى غيبة المكروب عن أكسدة هذه الحيوانات والنباتات ، عاجز عن حرقها وتحليلها وتطهير الأرض منها . سمع السامعون من بستور ذلك فراعهم ما سمعوا ، وجاء الليل ، فتمثّلتْ لهم مدينتهم فى الأحلام ، وقد خلت شوارعها من وقعة قدم أو قرعة حافر ، من كل مظهر من مظاهر الحياة ، إلا جثث أموات ، وربما سدّت الطرقات لما أعوزتها المكروبات . قال بستور : إن عجلة الحياة لا تدور بغير مكروب

ولم يلبث بستور أن جاءه السؤال الذى جاء البحاثَ قبله ، جاءه وجهاً لوجه يتطلب الجواب بلا مراوغة أو تسويف . ولم يكن بدّ من مجيئه إمّا اليوم وإمّا غداً . وهو نفس السؤال الذى جاء اسبلنزانى من قبله فأثار من الفكاهة بينه وبين خصمائه ما أثار . هو هذا السؤال البسيط ، المفرطُ فى بساطته ، هذا السؤال المحيّر المفرط فى تحييره : من أين تأتى المكروبات ؟

سأل بستور خصومه : « من أين تأتى هذه الخمائر ؟ إنها تظهر فى عصير العنب فتصيّره خمرا أين كان من الأرض ، وفى أية ساعة كان من الزمان . وتلك الأحياء الصغيرة الأخرى التى تحمّض اللبن ، وتفسد الزبد فى كل قدر أين وجد من مشارق الأرض ومغاربها ، تلك الأحياء كيف مأتاها ؟ »

اعتقد بستور ، كما اعتقد اسبلنزانى ، أن هذه المكروبات لا يمكن أن تأتى من مادة اللبن أو مادة الزبد ، وهى ميتةٌ لا روح فيها . واعتقد أنه لابد لها من آباء . فترى من هذا أنه كان كاثوليكياً صميما . نعم لقد عاش بين الشكّاكين ذوى العقول الراجحة على ضفة « السين » اليسرى فى باريس ، حيث لم يكن يُذكر اسمُ الله إلا كما يُذكر اسم «اينين» فى بورصة نيويورك . ولكن هذا الشك لم ينل شيئاً من عقيدة بستور . وكانت نظرية النشوء قد بدأت تشيع بين هؤلاء الشكاكين على أنها طراز للتفكير مستحبٌ جديد . كانت أنشودةَ الكون العظمى تحكى لنا كيف بدأت الحياة مادةً لا شكل لها ولا قوام ، تخرج من حَمأ وبخار ، ثم تظل تتحول على ملايين السنين ، فتتشكل فى عدد عديد من الصور ، وتمر فى موكب حافل طويل من الأطوار ، حتى تصل الى طور القردة ، وعندئذ تتمطى القردة فتصير رجالاً تمشى على رأس هذه الخلائق . وقال الفلاسفة فى شىء من يقين العلم ووثوق العلماء : إن هذا الاستعراض الهائل ليس بحاجة الى إلـه يبدؤه ، ولا إلـه يديره

وأجابهم بستور يقول : «أما فلسفتى أنا ففلسفة قلبى لا فلسفة عقولكم . فلسفتى تأتى من مثل هذا الشعور الذى يأتى بالسليقة الى قلب المرء وقد جلس الى سرير ولد عزيز عليه أخذ يجود فى عسر بالبقية الباقية من أنفاسه . من مثل هذا الشعور أتعلم فلسفتى عن الوجود . وفى مثل هذه الدقائق الرهيبة أسمع أصداء تأتى من أعماق روحى تقول لى : « من يدريك ، فلعل هذه الدنيا أكثر مما يزعمون ، لعلها أكثر من مجموعة أحداث تأتى من توازن آلىّ يخرج من عماء العناصر بفعل قوى المادة وحدها» . لقد كان بستور رجلاً تقياً نقياً

ولّى بستور للفلسفة ظهره ، وتوجه للعمل . واعتقـــد أن الخمائر ، وأن العصىّ الحية ، وتلك الأحياء الصغيرة الأخرى إنما تأتى من الهواء . وتخيل الهواء مليئاً بتلك الخلائق التى لا ترى . بالطبع كان غيره من بحاث المكروب قد أثبتوا أن هذه الأحياء مأتاها من الهواء ، ولكن بستور اصطنع أجهزة مركبة ضخمة لاثبات ما أثبتوه مرة أخرى . حشا أنبوبة من الزجاج بشىء من القطن ، ثم أخرج أحد طرفيها من الشباك ، ووصل الطرف الآخر داخل الغرفة بمضخة تجر الهواء ، وشغّلها حتى امتص نصف هواء الجنينة ، ثم انتزع القطن ، وحاول أن يَعُدّ الأحياء التى احتُبست عليه . واصطنع أجهزة أخرى غير أنيقة النظر ليحمل سدادات القطن هذه بما عليها من المكروب الى مثل هذا الحساء الذى كان نمّا فيه الخمائر ليعلم أيتكاثر هذا المكروب فيه . وأعاد تجربة اسبلنزانى القديمة ، فأتى بقارورة مكوّرة ، ووضع فيها بعض هذا الحساء وختم على رقابها بإساحتها فى اللهب ، ثم أغلاها دقائق ، وامتحن حساءها من بعد ذلك فلم يجد فيه مكروباً أصلاً .

فصاح به من كانوا لا يزالون يعتقدون فى انبعاث الحياة من ذات نفسها ، من غير آباء وأمهات . صاحوا به يقولون : « ولكنك ياهذا أغليت الحساء فأسخنت معـــه الهواء ، وهذه الأحياء الصـغيرة إنما تحيا فى الهواء وهو على طبيعته من غير تسخين . وشركهم فى صياحهم النشوئيّون ، والنباتيّون الربّانون ، والفلاسفة الملحدون ، صاحوا من بين المداد والكِتاب ، لا من بين اللهب والقباب »

فاختلط الأمر على بستور حيناً ، وحاول عدةَ طرائق ليجمع بين حساء مُغلَّى ، وبين هواء لم تنله النار بالتسخين ، ومع هذا خِلو من تلك الأحياء . وجاهد فى أثناء ذلك ما استطاع أن يَلبس وجهاً مُطمئناً للأمراء والأساتذة وأرباب الصحف الذين أحاطوه وعندئذ يترقبون المعجزات التى أوشكت أن تقع على يديه . وكان أولو الأمر قد نقلوه من معمله الضيق ذى الفئران بسطح المكان ، الى بناء صغير يقع على أربع دقائق أو خمس من باب مدرسة النرمال ، بناءٍ يضيق بالخنازير الجينية (١) التى تحتاجها معاهد البحث فى الأيام الحاضرة . وفى هذا البناء الصغير قام بستور بجهاده الشهير ليثبت أنه لابد لكل حىّ مهما قلّ وحقُر من آباء . وكان جهاداً بالتجربة الحاذقة ، ولكنه كاد يتسفل

(١) حيوانات صغيرة كالفئران قصيرة الأذناب قصيرة الآذان سمينة تستخدم فى التجارب البكترلوجية اليوم بكثرة

أحياناً الى نزاع كالذى ينشأ بين الغوغاء ، فلا ينفض إلا بصفع الأقفية ولكم الوجوه . ودار بستور بادئ بدء يحتال للتجارب العديدة وينصب الأجهزة الكثيرة ، فأبدل من تجاربه البسيطة الأولى تجارب مركبة ، ومن أجهزته اليسيرة الأولى أجهزة صعبة معقدة ، فكثر حجاجه وكثر كلمه ، وقلت حجته وقل إقناعه . والحق أنه وقع فى مأزق لم يجد منه مخلصاً

وذات يوم دخل عليه الأستاذ « بلارد » Balard وهو فى معمله ، وكان « بلارد » فى مبدإ حياته صيدلانياً ، ثم اكتشف عنصر البروم على ذلك النضد البسيط الذى ركب عليه عقاقيره فى تلك الحجرة الصغيرة بظاهر صيدليته ، فذاع اسمه وكسب مدح العلماء ، وتعين من أجل ذلك أستاذاً للكيمياء بباريس . ولم يكن أمالاً طموحاً ، فلم يطمع فى كشوف الدنيا كلها ، فقنع بهذا الكشف الواحد ، وهو لعمرى نعم النتاج فى حياة الفرد الواحد . ولكنه كان يحب أن يتشمم حوله ويتعرف كل مايجرى بجواره من بحوث

دخل « بلارد » الكسول على « بستور » وهو فى ربكته فتحدث اليه ، وكأنى بك تسمعه يقول له : « تقول ياعزيزى إنك مرتبك ، وإنك لاتستطيع الجمع بين الحساء المغلى وبين الهواء دون أن تظهر تلك الأحياء فى الحساء . إذن فاستمع لى ياصديقى . نحن سوياً نعتقد أن هذه الأحياء لاتنبعث من ذات نفسها فى الحساء ، بل هى تقع فيه مع ما فى الهواء من هباء ، أليس كذلك ؟ »

فيقول بستور : « هذا حق ، ولكن . . . . . »

فيقاطعه بلارد : « صبراً ، صبراً ! أرى لو وضعت شيئاً من الحساء فى قارورة ، ثم أغليته ، ثم صيرت فتحة القارورة بحيث تأذن للهواء بالدخول للحساء ، ولا تأذن لما فيه من تراب وهباء بالسقوط فيه . . . »

فيقول بستور : « وكيف ذلك »

فيجيب بلارد : « الأمر هين . خذ قارورة من قواريرك المستديرة ، وضع الحساء فيها ، ثم سيّح رقبتها فى اللهب ثم مطّها حتى تستدق ، ثم لين هذه الأنبوبة الدقيقة واستدر بها متسفلاً ، ثم لـيّن طرفها واستدر به متصاعداً حتى تصبح رقبة القارورة كرقبة الأوزة العراقية وقد غاصت بمنقرها فى الماء لتلتقط منه شيئاً — حتى تصبح هكذا » . ورسم بلارد شكلها . بلارد الذى نسى اليوم أمره

فيمعن بستور فى الفكر ثم يقول لما يرى حسن الحيلة فى هذه التجربة الصغيرة : « بالطبع . بالطبع . الأمر واضح . فذرات التراب التى تحمل المكروب لا تسقط إلى أعلى . هذا ما تقصد اليه ؟ »

فيبتسم بلارد ويقول له : « بالضبط . جربها وأخبرنى بالذى يكون . وإلى اللقاء ! » وتركه وذهب إلى معامله الكيمياوية ليتمم فيها دورة يومه

وكان لبستور الآن صبية تغسل له القوارير وكان له أعوان ، فأمرهم أن يسرعوا فى تجهيز القبابات . وبعد زمن قليل كنت تسمع نفاخات اللهب تصم الآذان . وأقبل بستور على العمل فى غير رفق ولا هوادة . فتناول القوارير ووضع بها الأحسية ، ثم سحب رقابها ولواها كرقاب الأوز ، ثم أغلاها فطرد بخار الماء كل هوائها ، فلما بردها رجع هواء الجو فدخل فيها بارداً نقياً

فلما تجهزت القبابات حملها قبابة قبابة إلى محضنه الدافئ وكان تحت حنية السلم الضيقة فلم يصل اليه إلا مكفوءاً على يديه وركبتيه ، على صورة يزيدك ضحكاً منها محاولته أن يحتفظ بوقاره فيها . وفى الصباح بكر إلى معمله . وفى لحظة اختفى تحت السلم الى محضنه . وبعد نصف ساعة كنت تراه خارجاً من هذا الجحر يدب على أربع ، وقد برقت عيناه بالسرور من وراء نظارته الندية . وقد حق له السرور ، فان القبابات ظلت جميعها رائقة ، ولم يكن بها مكروب واحد ، وظلت على روقانها غداً وبعد غد . لقد نفعت حيلة «بلارد» . وقد بطلت نظرية انبعاث الخلائق من ذات نفسها . « تجربتى هذه تجربة فى الحق بديعة . وهى تثبت أنك تستطيع أن تترك فى الهواء ما شئت من مرق

أو حِساء ، على شريطة أن تغليه ، وعلى شريطة أن يدخل الهواء اليه بعد الاغلاء من أنبوبة طويلة ضيقة ملتوية هذا الالتواء »

وعاد « بلادر » وابتسم لما أخذ بستور يصب على رأسه خبر التجربة صباً . قال بلارد : « لقد حسبتُ أنها تنجح ، فان القبابة عند ما تأخذ فى البرودة بعد الغلى ، يأخذ الهواء يدخل اليها بترابه وهبائه ومكروبه ، فتتصيّدها جميعاً تلك الأنبوبة الطويلة الرفيعة بما عليها من البلَل »

قال بستور : « ولكن كيف تثبت هذا ؟ »

قال بلادر : « الأمر هين . هات قبابة من هذه القبابات التى بقى حِساؤها طاهراً رغم تدفئتها فى المحْضَن أياماً ، وأملْها حتى يسيل حساؤها الى الرقبة العوجاء ، ثم ردّ الحساء الى بطن القبابة حيث كان ، ثم ارجعها الى المحضن ، فلن تلبث طويلاً حتى تتعكر بالملايين من المكروبات ، هى نَسل تلك التى احتُبست فى عنق القبابة البليل »

فأجرى بستور هذه التجربة ، فكانت كما قال صاحبه . وكان بعد هذا اجتماعٌ ، تزاحمت اليه بالمناكب علماء باريس وكتّابها ومُزّاحها وفنّانوها . وفى هذا الجمع شرح بستور تجاربه ، وذكر ما كان لأعناق الأوزّ من الخطر ، وذكر نظرية الانبعاث التلقائى . ثم صاح : « والآن فلن تستطيع هذه النظرية قياماً بعد هذه الضربة القاتلة »

لو أن بلارد كان فى هذا الجمع ، إذن والله لصفّق تصفيقاً شديداً مع المصفّقين . كان بلارد من تلك الأنفس الطيبة السخية النادرة

(يتبع) أحمد زكى

٢١ – محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون او خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

– ولكن ألست ترى أنك إنما تقرر هذا فعلاً حينما تقول إن الروح كانت موجودة قبل أن تأخذ صورة الانسان وجسده ، وأنها تألفت من عناصر لم يكن لها وجود بعد ؟ فليس الانسجام شيئاً يشبه الروح كما تظن ، وإنما القيثارة والأوتار والأصوات توجد أولاً فى حالة من التنافر ، فيجيء الانسجام بعد هذه جميعاً ، ثم هو يسبقها جميعاً فى الفناء . فكيف يمكن أن نلائم بين هذا الرأى فى الروح وبين الرأى الآخر (1) ؟

أجاب سمياس : لا يمكن قطعاً

قال : ومع ذلك فينبغى بلا ريب أن يكون ثم انسجام ، مادام الانسجام هو موضوع الحديث

أجاب سمياس : ينبغى أن يكون

قال : ولكن ليس ثم انسجام بين هاتين القضيتين . إن المعرفة عبارة عن تذكر ، وان الروح انسجام ، فأيهما إذن تستبقى لنفسك ؟

أجاب : إنى لأحسبنى يا سقراط أشد يقيناً بأولاهما التى أقيم لى عليها الدليل الوافى ، منى بالثانية التى لم ينهض عليها دليل قط ، فليست ترتكز إلا على أسس من الظن والاستحسان ، وأنا عليم علم اليقين أن هذه الأدلة التى تعتمد على الظنون مضلِّلة ، وهى خدّاعة مالم يؤخذ عند استخدامها حذر شديد — هى خداعة فى علم الهندسة وفى سائر الأشياء أيضاً . أما نظرية المعرفة والتذكر فقد أقيم برهانها على أسس من اليقين ، والبرهان هو أن الروح لابد كانت موجودة قبل أن تحل فى الجسد ، لأن الجوهر متعلق

(١) يقول سقراط لسمياس : ان الأشياء التى يكون بينها انسجام توجد أولا فى حالة تنافر ثم يجيئها الانسجام فينسقها ، يعنى أن المادة تأتى أولا والانسجام ثانياً ، فان كانت الروح انسجاماً لأ كثر كما زعم من قبل تحتم أن يكون الجسد قد وجدت أجزاؤه قبل وجود الروح . وهذا القول يتنافى مع ما يسلم به سمياس نفسه الآن من أن الروح كانت موجودة قبل الجسد بدليل تذكر الانسان أشياء لم تصادفه فى تجارب حياته.

بها ، ومجرد اسم الجوهر يقتضي الوجود ، وما دمت قد ارتضيت هذه النتيجة بحق وعلى أسس وافية ، كما أعتقد ، فينبغي ، فيما أظن ، ألا أستطرد في الجدل ، وألا أسمح لسواي أن يزعم بأن الروح هي عبارة عن انسجام

قال : دعني يا سمياس أبسط الموضوع من وجهة نظر أخرى : هل يمكن فيما تتصور أن يكون الانسجام أو أي مركب آخر ، في حالة تختلف عن حالة العناصر التي تألف منها ؟

ـ لا ولا ريب

ـ أم هل هو يفعل أو يعاني شيئاً غير الذي تفعله هي أو تعانيه ؟

فوافق سمياس

ـ إذن فليس يسوق الانسجامُ الأجزاء أو العناصر التي يتكون منها هو ، ولكنه يتبعها فقط

فوافق سمياس

ـ لأنه يستحيل على الانسجام أن يكون على شيء من الحركة أو الصوت أو أية صفة أخرى تكون مضادة للأجزاء

فأجاب : يستحيل أن يكون ذلك

ـ أوَليس كل انسجام يتوقف على الحالة التي تنسجم فيها العناصر ؟

قال : لست أفهم ما تقول

ـ أريد أن أقول إن الانسجام يقبل التدرج ، فهو أكثر انسجاماً ، وهو أقرب الى الانسجام التام ، حينما تدنو الأجزاء في تناسقها الى التمام ، إن أمكن لها ذلك . وهو أقل انسجاماً ، وأبعد عن الانسجام التام ، حينما تكون الأجزاء أقل تناسقاً

ـ حقاً

ولكن هل تقبل الروح التدرج ؟ أعني هل تكون روح ، ولو إلى أقل حد ممكن ، أكثر أو أقل روحانية من غيرها ، أو أبعد عن تمام الروحانية ، أو أدنى إليه من روح أخرى ؟

ـ لا يكون ذلك قطعاً

ـ ومع ذلك فقد يقال بحق إن روحاً تتصف بالذكاء والفضيلة وأنها خيرة ؛ وأن روحاً أخرى تتصف بالغباوة والرذيلة ، وأنها شريرة : وحق هذا الذي يقال ؟

ـ نعم هو حق

ـ ولكن ماذا يقول أولئك الذين يصرون على أن الروح انسجام ، فيما رأيتَ من وجود الفضيلة والرذيلة في الروح ؟ — أيقولون إن ثمّ انسجاماً آخر وتنافراً آخر ، وإن الروح الفاضلة تكون منسجمةً ، وما دامت هي نفسها انسجاما ، ففي باطنها انسجام آخر ، وإن الروح الرَّذِلة ليست منسجمة ولا يكون في باطنها انسجام ؟

ـ أجاب سمياس : إني لا أحير جوابا ، ولكني أحسب أن سيزعم أولئك الذين يأخذون بهذا الرأي شيئاً كهذا

ونحن قد اتفقنا فيما سبق أن ليست روح أكثر روحانيةً من غيرها ، وهذا الاتفاق يساوي الموافقة على أن الانسجام لا يزيد في درجة انسجامه ولا ينقص ، أي لا يكون أكمل ولا أنقص انسجاما

ـ جد صحيح

ـ وما لا يزيد في درجة انسجامه ولا ينقص لا يكون أكثر ولا أقل تناسقاً !

ـ صحيح

ـ وما لا يكون أكثر ولا أقل تناسقاً لا يكون فيه من الانسجام أكثر ولا أقل ، ولكنه دائماً مقـــدار متساوٍ من الانسجام

ـ نعم هو الانسجام متساوٍ

ـ فاذا لم تزد روح ولم تنقص في روحانيتها المجردة عن غيرها ، فهي ليست أكثر ولا أقل انسجاما منها ؟

ـ تماماً

ـ وعلى ذلك فليس فيها من الانسجام أو التنافر مقدار أكثر أو أقل ؟

ـ ليس فيها ذلك

ـ ولما كان مافيها من الانسجام أو التنافر ليس أقل ولا أكثر فلا يكون لروح من الرذيلة أو الفضيلة أكثر مما يكون لغيرها ، على فرض أن الرذيلة تنافرٌ ، وأن الفضيلة انسجام ؟

ـ إنها لا تكون أكثر من غيرها أبداً

ـ وإن توخينا يا سمياس في حديثنا دقة أكثر ، فلن يكون لروح أية رذيلة ، إن كانت الروح انسجاما ، لأنه مادام الانسجام مطلقاً فهو لا يساهم في غير المنسجم ؟

ـ لا

ـ وعلى ذلك فلا تقع رذيلةٌ من روح هي روح مطلقة ؟

– كيف يمكن ، وفاقاً لماسبق من حديث ، أن تقع منها الرذيلة ؟
– وبناء على هذا إذن تكون أرواح الحيوانات جميعاً سواء في الخير ، ما دامت كلها متساوية ومطابقة في روحانيتها ؟

فقال : إني موافقك يا سقراط

فقال : وهل يمكن في ظنك أن يَصْدُقَ كل هذا ؟ أنسلم بهذه النتائج كلها — وهي مع ذلك ناتجة فيما يظهر من الزعم بأن الروح انسجام ؟

فقال : كلا ولا ريب

قال : وأيضاً ، أي عنصر بين الأشياء البشرية تراه مسيطراً ، سوى الروح ، والروح الحكيمة بنوع خاص ؟ أترى بينها مثل ذلك العنصر ؟

– حقاً إني لا أرى

وهل الروح على اتفاق مع رغبات الجسد ، أم هي وإياها في خلاف ؟ فمثلا عند ما يكون الجسد ظمآن ساخناً ، أفلا تصدف الروح بنا عن الشرب ؟ وعند مايحس الجسد جوعاً ، أفلا تصدفنا عن الأكل ! وذلك واحد فقط من عشرة آلاف من أمثلة التضاد بين الروح وبين أشياء الجسد

– جد صحيح

ولكن سبق منا اعتراف بأن الروح ما دامت انسجاماً ، فلا يمكنها أن تنطق بإشارة لا تتفق مع الأوتار التي تألفت هي منها ، من حيث حالات التوتر والاسترخاء والتموج وسائر المؤثرات ، أنها تتبعها فقط ، ولا تستطيع أن تقودها ؟

فقال : نعم ؛ إنا اعترفنا بذلك يقيناً

– ومع ذلك فلسنا نرى الآن أن الروح تفعل الضد تماماً – فهي تقود العناصر التي يُظَن أنها تتألف منها ، وهي في معظم الأحوال تعارضها وتقهرها طيلة الحياة بكل ما أمكنها من سبل ، وقد تكون معها أحياناً أشد عنفاً بأن ترغمها على آلام الأدوية والألعاب ، ثم قد تعود فتكون وإياها أرق وداعة ، وهي في ذلك تتهدد بل وتزجر الشهوات والعواطف والمخاوف ، كأنما هي بذلك تتحدث الى شيء غير نفسها ، كما يصور لنا هوميروس أوذيسيوس في الأوذيسة بهذه الكلمات :

لقد ضرب على صدره لكي يؤنب قلبه :

يا قلبُ صبراً ، فيا طالما احتملت أسوأ من ذلك شراً »

أفتظن هوميروس قد تأثر حين سطر هذا بالفكرة القائلة إن الروح انسجام ، وإن رغبات الجسد قمينة أن تسوقها ، وإنه لم يكن يرى أنها هي التي بطبيعتها تسيطر على تلك الرغبات وتقودها ، وإنها أمعن في الألوهية من أي انسجام ؟

نعم يا سقراط ، إني موافق جداً على ذلك

إذن فلن نصيب ياصاح في قولنا إن الروح انسجام ، لأن في ذلك تناقضاً ظاهراً مع هوميروس الالـهيّ ، كما أنه متناقض وإيانا

– فقال : حقاً

(يتبع) زكي نجيب محمود

٢ – شاعرنا العالمى

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

أبو العتاهية وبشار وأبو نواس : هؤلاء هم الشعراء الثلاثة الذين كانوا أعلام هذه الثورة فى الشعر ، قضوا فيها على طريقته القديمة التى مضت فى عصر بنى مروان جامدة على جاهليتها العربية ، لا تفكر فى تجديد ، ولا تنظر الى ما حدث فى العرب من أحداث دينية وسياسية واجتماعية ، خلقت منهم أمة جديدة ، وشعباً يتألف من أجناس مختلفة ، وله نظر جديد فى الأدب يخالف نظر أولئك العرب الخلص ، وذوق أرق من ذوقهم فى الشعر والنثر . وقد بدأت هذه الثورة لينة هادئة فى بشار بن برد ، شديدة لا تبلغ درجة العنف فى الحسن بن هانئ (أبى نواس) ، شديدة عنيفة فى إسماعيل بن القاسم (أبى العتاهية)

وكان مظهر هذه الثورة فى أربع نواح من الشعر :

(١) ألفاظ الشعر التى انتهت ثورتهم فيها الى نقل الشعر الى ألفاظ العربيـــة الحضرية ، وهجر ألفاظها البدوية الخشنة ؛ وإذا قلنا ألفاظ الشعر فانا نعنى بذلك ما يشمل معانيــه ، لأن التجديد فى الألفاظ يستدعى التجديد فى المعانى حتما حتى يتلاءم أمرها ، وتتناسب رقة المعانى وجمالها مع رقة الألفاظ وصقلها

(٢) طريقة الشعر ومذهبهم فى ترتيب القصـائد من مطالعها الى مقاطعها

(٣) أغراض الشعر ومقاصده

(٤) أوزانه وقوافيه

فأما ألفاظ الشعر فقد اشترك الشعراء الثلاثة فى تلك الحركة التى انتهت بنقلها من البداوة الى الحضارة ، وكان بشار أول من بدأ بذلك وفعله عن قصد اليه يحقق فيه معنى تلك الثورة ، فانها لا تكون إلا عن قصد ، ولا تثبت بالاعتباط والمصادفة ، ولكنه لم يصل فى ذلك إلى غاية هـذه الحركة ، لأنه نشأ متقدماً على أبى العتاهية وأبى نواس ، وقضى شـطراً كبيراً من عمره يأخذه بطريقته الجديدة وحده ، وشعراء العصر الروانى يحيطون به من هنا وهناك ، ويعيبون عليه تلك الطريقة التى يأخذ بها ، ويرمونه بالقصور والعجز عن اللحاق بالفحول ، فيؤثر هذا فيه بعض التأثير ويمسكه عن الغلو فى طريقته والاندفاع فيها ، ويحمله بأخذ أحياناً فى تقليد أولئك الفحول ، والأخـــذ بطريقتهم فى الغريب ، والتشادق بالألفاظ

وقد مدح رُؤْبَةُ بن العَجّاج عُقْبَةَ بن مسلم بأرجوزة من أراجيزه وبشـار حاضر ، فاستحسن ذلك من رؤبة . فقال له رؤبة : هذا طراز لا تحسنه أنت يا أبا معاذ . وكان رجزهم فى ذلك الوقت غاية ما وصلت اليه طريقتهم البدوية فى إيثار الغريب والتشدد فى اللفظ ، فكان هذا سبباً فى إنشاء بشار أرجوزته فى مدح عقبة بن مسلم :

يا طَلَلَ الحى بذات الصَّمْد
بالله خَبِّرْ كيف كنت بعدى
أحسنت من رعد وتِرْبِ رعد
سقيا لأسماء ابنة الأشـــد
قامت تُرَائِى إذ رأتنى وحدى
كالشمس تحت الزِّبْرِجِ النقد

إلى أن قال فى مدح عقبة :

أسلم وحييت أبا الملَدّ ... مفتاح باب الحدث المنسد
مشترك النَّيْل ورِىّ الزند ... أغر لَبّاس ثياب الحمـــد
لله أيامك فى معـــدّ ... وفى بنى قحطان غير عد
كل امرىء رهن بما يُؤَدّى ... ورب ذى تاج كريم الجد
كآل كِسرى وكآل بُرْدِ ... أنكبُ جافٍ عن سبيل القصد
فصلته عن ماله والولد

وروى الأصمعى أنه قال : كان أبو عمرو بن العلاء وخَلَفٌ الأحمر يأتيان بشاراً فيسلمان عليـه بغاية الاعظام ، ثم يقولان : يا أبا معاذ ما أحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتى وقت الزوال ثم ينصرفان ، فأتياه يوماً فقالا : ما هذه القصيدة التى أحدثتها فى ابن قُتَيْبة ؟ قال : هى التى بلغتكما ، قالا : بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب ، قال : نعم ، إن ابن قتيبة يتباصر بالغريب فأحببت أن أورد عليـه ما لا يعرف ، قالا : فانشدناها يا أبا معاذ ، فأنشدهما :

بَكِّرا صاحبى قبل الهجير ... إن ذاك النجاح فى التبكير

حتى فرغ منها ، فقال له خلف : لو قلت يا أبا معاذ مكان « إن ذاك النجاح » « بَكِّرا فالنجاح » كان أحسن ، فقال بشار : إنما

بنيتها أعرابية وحشية ، فقلت : « إن ذاك النجاح » كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلت : « بكّرا فالنجاح » كان هذا من كلام المولّدين ولا يشبه ذلك الكلام ، ولا يدخل في معنى القصيدة ، قال : فقام خلف فقبّل بين عينيه . وهذه القصة تعطينا أن طريقة بشار الجديدة « طريقة المولدين » كانت قد تقررت في ذلك الوقت ، وصارت واضحة النهج ، معروفة الأسلوب واللفظ ، وتعطينا أن بشاراً كان لا يعدل عنها إلا لدواع نادرة تجعله يتكلف طريقة الأقدمين ، ليثبت لهم قدرته عليها ، وأنه يهجرها عن عمد ، ويتركها عن اعتقاد بعدم صلاحيتها ، بعد انتقال الأمة من البداوة الى الحضارة ، ومن خشونة العيش الى لينه ، ومن ظلمة الأمية الى نور العلم ، ولكنه كما قلنا لم يصل في تلك الطريقة الى غايتها ، ولم يبلغ بها الى الدرجة التي وصلت اليها في شعر أبي نواس وأبي العتاهية ، من تلك السهولة الممتنعة التي تقرب الشعر الى الناس وتبعده عنهم ، وتعتمد في ذلك على القدرة الشعرية الحق ، لا على التشدق الذي يخفي وراءه من الضعف الشعري ما يخفى ، ويوهم الناس أنهم لا يقدرون عليه ، وهم لا يعجزهم منه إلا هذا التشدق وحده

وأما طريقة الشعر فلم يحدث فيها بشار حدثاً ، بل مضى على ابتداء القصيد بالنسيب كما مضى عليه من قبله ؛ وقد ثار أبو نواس على هذه الطريقة ، وأخذ على الشعراء ابتداءهم القصيد بذكر الأطلال في عصر الحضارة والعيش المستقر ، وبذكر هندا ودعدا بعد أن امتلأت القصور في عصرهم بمن لا يصح أن يجرى معه ذكر لهند ودعد ؛ وقد ذكروا لأبي نواس في تنديده بذلك قوله :

صفةُ الطلول بلاغة القِدْمِ فاجعل صفاتك لابنة الكَرْمِ

وقوله :

لا تبكِ ليلى ولا تطربْ الى هِندِ
واشرب على الوردْ من حمراء كالوَرْدِ

وقوله :

سقياً لغير العلياء فالسَّنَدِ وغير أطلال مَيّ بالجَرَدِ

وقوله :

يا رَبْعُ شُغلَكَ إني عنك في شُغُلِ
لا ناقتي فيك لو تدرى ولا جملي

وقوله :

تبكي على طلل الماضين من أسد لادَرّ دَرُّكَ قل لي من بنو أسد

لا جفَّ دمع الذي يبكي على حجر
ولا صفا قلب من يصبو الى وتد

وهذه ثورة على القديم حقاً ، ثورة تفتن بعض دعاة التجديد في عصرنا ، ولكنها عندي ليست هي الثورة الصحيحة التي يجدر بها اسم الثورة ، وتستحق أن تدعى تجديداً في الأدب ، وإنما هي ثورة شعوبية عابثة ، ولا فرق بين ابتداء القصيد بالنسيب وابتدائها بوصف ابنة العنب ، بل ربما يكون ابتداؤها بالنسيب أروح عند النفس ، وأخف في السمع ؛ وإنما التجديد في ذلك ما سبق به شاعر عصر بني مروان العظيم : الكُمَيْتُ ابن زيد الأسدي ، وهذا في هاشمياته التي أنشأها في مدح بني هاشم والدعاية لهم في ذلك العصر ، وكانت أول شعر قاله فسترها ثم جاء الفرزدق فقال له : يا أبا فِرَاس إنك شيخ مُضَرَ وشاعرها ، وأنا ابن أخيك الكميت بن زيد الأسدي ، فقال له : صدقت أنت ابن أخي فما حاجتك ؟ قال له : نُفِثَ على لساني فقلت شعراً أحببت أن أعرضه عليك ، فان كان حسنا أمرتني باذاعته ، وإن كان قبيحاً أمرتني بستره ، وكنت أولى من ستره عليّ ، فقال له الفرزدق : أما عقلك فحسن ، وإني لأرجو أن يكون شعرك على قدر عقلك فانشد ما قلت ، فأنشده :

طربتُ وما شوقاً إلى البيض أطرَبُ

قال : فيم تطرب يا ابن أخي ؟ قال :

ولا لعباً مني وذو الشوق يلعب

قال : بلى يا ابن أخي – قال :

ولم يُلهني دار ولا رسم منزل ولم يتطربني بَنانٌ مُخضَّب

قال : وما يطربك يا ابن أخي ؟ قال :

ولكن إلى أهل الفضائل والتقى وخير بني حوّاءَ والخير يطلب

قال : ويحك من هؤلاء ؟ قال :

إلى النفر البيض الذين بحبهم إلى الله فيما نابني أتقرب

قال : أرحني ويحك من هؤلاء ؟ قال :

بني هاشم رهط النبي فانني بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب
خفضت لهم مني جناحي مودّةً إلى كنفٍ عِطفاهُ أهل ومرحب
وكنت لهم من هؤلاء وهؤلا مِجنّاً على أني أذَمُّ وأقصب
وأُرمى وأرمي بالعداوة أهلها وإني لأوذَى فيهمُ وأؤنب

فقال له الفرزدق : يا ابن أخي أذع ثم أذع ، فأنت والله أشعر من مضى وأشعر من بقي ؛ وفي رواية أخرى أنه قال له : قد

طربت إلى شيء ما طرب إليه أحد قبلك ، فأما نحن فما نطرب ولا طرب من كان قبلنا إلا الى ما تركت أنت الطرب إليه

فهذا هو التجديد الصحيح فى مطلع القصيد ، لا ابتداؤه بوصف الخمر بدل النسيب كما أراد ذلك أبو نواس ، فكل منهما غرض مستقل من أغراض الشعر ، والتمهيد به لغيره من الأغراض الشعرية تصنع قبيح ، وتكلف مسترذل

وقد سلم أبو العتاهية من هذا العبث فى مطلع قصيده بعد أن أقلع فيما يأتى عن سنة شعراء عصره ، وأخذ نفسه بالجد فى الشعر وترك العبث واللهو فيه

وأما أغراض الشعر فان أبا العتاهية هو حامل راية التجديد فيها ، وصاحب القِدْح المعلّى فى تذليل ذلك الشعر العربى الجامع للآداب الاسلامية العالية ، والأخلاق الكريمة السامية ، والمواعظ الحسنة النافعة ، وما إلى ذلك مما يدخل فى نشر الثقافة الاسلامية ، واستخدام الشعر فى الدعاية اليها ، وأخذ الناس جميعاً بها ، حتى تعلو كلمة الشعر عليهم أجمعين ، ويكون الشعراء الحكام على الملوك والعظماء ، ولا يكون الملوك والعظماء الحكام على الشعراء ، ولقد نجح أبو العتاهية فى ذلك أيما نجاح ، وذاع شعره فى الشرق والغرب ، وطار به صيته عند الأدباء والعلماء والعظماء فى سائر الأمم واللغات ، وأدى بهذا كله رسالة الشعر فى عصره أحسن تأدية . ولم يكن لبشار ولا لأبى نواس فى ذلك أثر يصح أن نذكره ، اللهم إلا بعض أبيات نادرة تأتى فى أثناء القصيد على عادة غيرهما من الشعراء ، وإلا قصيدة بشار فى الدعاية لابراهيم بن عبد الله بن حسن حينما خرج على المنصور ، وكان بشار من أشياعه ، وهى قصيدة جليلة نعى فيه على المنصور قيام حكمه على الاستبداد بالرعية ، ونصح ابراهيم أن يقيم حكمه على الشورى بأبياته المشهورة فيها :

أبا جعفر ما طولُ عيش بدائم
ولا سالم عما قليـــل بسالم
على الملك الجبار يقتحم الردى
ويصرعه فى المـأزقِ المتلاحم
كأنك لم تسمع بقتل متوّج
عظيم ولم تسمع بفتك الأعاجم
تقسّم كسرى رهطُه بسيوفهم
وأمسى أبو العباس أحلام نائم
ومروان قد دارت على رأسه الرّحى
وكان لما أجرمت نَزْرَ الجرائم
فأصبحت تجرى سادِراً فى طريقهم
ولا تتقى أشـــباه تلك النقائم
تجردت للاسلام تعفو سبيله ... وتعرى مَطاه لليوث الضراغم
فما زلت حتى استنصر الدين أهله
فعاذوا عليك بالسيوف الصوارم
أقول لِبسّامٍ عليه جَلالهُ ... غدا أريحياً عاشقاً للمكارم
اذا بلغ الرأىُ المشورة فاستعن ... برأى نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فان الخوافى قوةٌ للقوادم
وما خير كف أمسك الغلُّ أختها ... وما خير سيف لم يؤيد بقائم
وخل الهوينا للضعيف ولا تكن ... نؤوماً فان الحر ليس بنائم

وقد صرف بشار وأبو نواس شعرهما فى العبث والمجون ، وهتك الأعراض ، والخروج على الدين والآداب ، حتى ضج منهما الناس فى عصرهما ، وساءت فى الناس سيرتهما . وأما أوزان الشعر وقوافيه فلم يكن لبشار ولا لأبى نواس أثر يذكر فيها ، وأبو العتاهية هو الذى جدد فى تلك الناحية أوزاناً ظريفة ، واخترع فيها قوافى جديدة ، ومضى فيها على نحو لم يسبقه إليه أحد من الأوائل ، ولم يكن يدخل فى العروض الذى عرف لعهده ؛ وقد سئل من بعضهم هل تعرف العروض ؟ فقال : أنا أكبر من العروض . وهذا جواب له قيمته فى بيان اعتداد هذا الشاعر بنفسه ، وفى الدلالة على أنه كان يذهب فى الثورة على القديم مذهباً لم يصل اليه بشار ولا أبو نواس ولا غيرهما من شعراء عصره

وإنا نسوق له قولاً آخر له دلالته فى ذلك أيضاً : روى أنه اجتمع مع سلم الخاسر فأنشده بعض أشعاره ثم قال له : كيف رأيتها ؟ قال سلم : لقد جودتها لو لم تكن ألفاظها سوقية ، فقال له أبو العتاهية : والله ما يرغبنى فيها إلا الذى زهدك فيها

فاذا قسنا أبا العتاهية إلى بشار وأبى نواس فيما أحدثوه من التجديد فى هذه النواحى التى هى أهم نواحى الشعر ، وجدناه يربى فيها عليهما ، ووجدنا أنه كان موفقاً فيما أحدثه من التجديد فيها كلها ، ووجدنا أن بشاراً وأبا نواس لم يكن لهما تجديد يذكر إلا فى الناحية الأولى وحدها ، وخرجنا من ذلك كله بأن أبا العتاهية أولى منهما باسم الشاعر المجدد فى هذا العصر

عبد المتعال الصعيدى

الرَّبيع *

لشاعر الشباب السورى أنور العطار

كل شىء هنا يغنى ويحيا
نغماً ممتعاً وشدواً عجيباً

يا حبيبى أفقْ فقد ضحك الرَّوْ   ضُ وأبدى جمالَه المحجوبا
واستعادَ الوادى الأنيسُ سَناهُ   وبَنى الطيرُ عُشَّهُ المخروبا
طرِبَ القلبُ فانتشى وتغنَّى   ومن الحبِّ أن أعيش طروبا
وأنا الشاعرُ الذى يَغْمُرُ الأرْ   واحَ ضحكا وما يريم كئيبا
فى فؤادى اللهيف داءٌ قد استَعْ   صَى وجُرْحٌ يُمِضُّنى تعذيبا

يا حبيبى دُنياكَ تطْفَحُ بالحسْ   نِ فخُذْ للفؤادِ منها نصيبا
هاتِ نايَ الهوى وقُمْ نملأ الأكْ   وانَ من سَكْرَةِ الغِناءِ ضُروبا
لا تُرَعْ فالحياةُ يومٌ ويمضى   لَيْسَ يُرْجَى لطَيْفِهِ أن يؤوبا

نحن شَدْوُ الطُّيورِ يُصْغِى لنا الدَّهْ   رُ فيُغرِى باللحنِ حتى يطيبا
يَذَرُ الهائمين فى فرحةِ الحبِّ (م) ويُصْفِيهِمُ الوِدادَ الخصيبا
يحتسون الحياةَ خمرةَ وَجْدٍ   ويَرَوْنَ الدُّنا من السُّكرِ كوبا
لهمُ الليلُ فى حواشيهِ يحيَوْ   نَ ويطوُونَ جنحَهُ تشبيبا
نَهَبوا العُمْرَ واستباحوهُ لهْواً   واستطابوا الأمانى ولذُّوا اللغوبا
ضحكوا والحياةُ بنتُ التلهِّى   منعتْ مُحْجِماً وأعطتْ طَلوبا
يسأمُ العيشَ مَنْ يبيت خليًّا   والشجىُّ العميد ينسى الكروبا
رُبَّ صحراءَ طوَّفَ الحبُّ فيها   أزهرتْ رَبْوةً وروضاً عشيبا

نضرَ الغابُ ساحةً وتجلَّى   رائعاً فتنةَ العُيونِ قشيبا
هُوَذا موكبٌ لآذارَ حُلوٌ   يتمشَّى على السهولِ لعوبا
ملأَ الأرضَ والسمواتِ عِطراً   ونفى الهمَّ والضنى والشحوبا
وعلى معطفِ المروجِ تراءتْ   قُبَلٌ للربيعِ تنفحُ طِيبا

تجدُ النفسُ فى شذاها الأمانى   صُوَراً تترعُ الجَنانَ لَهيبا
تغمُرُ الرُّوحَ بالهناءةِ والصَّفْ   وِ كما يغمرُ الحبيبُ الحبيبا

اليواقيتُ فى النواظرِ ذابت   وجرى السحرُ بالضياءِ مَشوبا
جدولٌ يُلهِب القلوبَ غِناءً   ظلَّ من موجهِ السنىِّ سكوبا
ألمسُ النورَ فى تلاميعهِ الزُّهْ   رِ وأستَفُّ روحَه المحبوبا
وأرى العطرَ وهو هيمانُ فى الدَّوْ   حِ يُناجى فى غصنهِ العندليبا
وأحسُّ الحياةَ تركُضُ فى العُشْ   بِ وتسرى بين الحقولِ دبيبا
نفسٌ هامسٌ وآخرُ شادٍ   ورؤًى همَّ سحرُها أن يجيبا
كلُّ شىءٍ هُنا يُغنِّى ويحيا   نغماً ممتعاً وشدواً عجيبا
ها هنا تسمعُ الأناشيدَ أذْنى   وترى العينُ فى كراها الغيوبا
ها هنا يركنُ المحبُّ إلى الأُنْ   سِ ويُغفى الفؤادُ إلا وجيبا

يا حبيبى أفقْ فهاذاك طيرُ الْ   حبِّ قد أسكرَ الرُّبا تطريبا
تتراءى له السمواتُ ألحا   ظاً وتبدو الأرضُ الفضاءُ قلوبا
يا حبيبى طابَ الهوى فاغتنمْهُ   لستَ عن جُرْحِهِ الندىِّ غريبا
لكَ من هذه الدغالِ أليفٌ   يتصبَّاكَ مؤنساً ورقيبا

غنِّ فى مسمعى نشيداً رقيقاً   وأثِرْ فى مُهجتى شعاعاً رطيبا
ودعِ الحبَّ يأتلقْ فى خيالى   أُفُقاً ساحراً وكوناً رحيبا
اطعَنِ القلبَ ينفجرْ بالأغارِ   يدِ ويملأْ هذا الفضاءَ طيوبا
لا تُضَمِّدْهُ يذْكُ شوقاً وشجواً   واتْرُكْ نارَه تشبُّ شبوبا
أوْقِدِ الحبَّ بالمدامعِ تنهلُّ (م) وبالوجدِ صارخاً ومُهيبا
لا تخفْ أنْ يضجَّ بالحبِّ مأوَى   واخشَ إمَّا أحسستَ منه نضوبا
صاغَهُ اللهُ للعذابِ وللحبِّ (م) وأحياهُ بالدماءِ خضيبا

ورياضٍ فيها العشاشُ تغنِّى   فيذوبُ الغناءُ خمراً صبيبا
إن هذا الجمالَ يا قلبُ نَهْبٌ   فابتدِرْ نخطفِ السَّنا المنهوبا
إحْىَ للنورِ ، للمسرَّةِ ، للشَّدْ   وِ ، وخلِّ الأسى وخَلِّ النحيبا

أنور العطار

* نشرنا من قبل جزءاً من هذه القصيدة ، ونعيد نشرها اليوم تامة

وحى عصفورة

أسطورة الخلود

بقلم أمجد الطرابلسى

مِلتُ إلى روضتى صَباحا   مُضطرِمَ الفِكرِ والشجُونِ
ألتمسُ البِشرَ والمِراحا   فى مَعرِضِ الحُسنِ والفُتون

جلَستُ فى ظِلها ونفسى   يَلهو بها جامِحُ الخَيالِ
أسطِّرُ الحزْنَ فوْقَ طِرْسى   مُستوْحِياً رَوْعَةَ الجمالِ

سمِعتُ إذ ذاك صَوْتَ هَمْس   أترَع نَفسى أسًى وَشَكّا
عُصفُورةٌ تلكَ فوْقَ رَأْسى   تَمِنُ بينَ الغُصونِ ضِحكا

تقولُ : هيّا اغنم الزّمانا   فما مَضى منه لا يَعودُ
قُلتُ : أرَى عيشَنا هَوانا   وإنما هَمِّىَ الخلودُ

قالت: بلِ امْرَح وَعِشْ طَروبا   ترجو خلوداً ؟ وَما الخلودُ ؟
قَصِيدةٌ تَسحَرُ القلُوبا   أبدَعها شاعِرٌ مَرِيد

كفاكَ يا شاعِرى بُكاء   لا النَّوْحُ يُغنى ولا الغِناء
كيْفَ تُرَى تَفْهَمُ البَقاء   فى عَالَمٍ رَمزُه الفَناء ؟

وَاعجباً ! كلهمْ سكارىٰ   سعَوا إلى الخُلدِ فى الفَيافى
وَطَوَّفوا فَوْقَها حيارَى   وقبْرُهُمْ غايَةُ المطافِ

رأوْا ظلاماً أزَالَ صبْحاً   والدَّهر عفَّى على الجديدِ
والموْت منْ خلفهمْ مُلِحّا   فأبدعوا فِتنةَ الخُلودِ

أبعدَ أن تألفَ الرُّغاما   وَتَبتَلى وَحشَةَ اللحُودِ
وتَغتَدى فى الثّرَى رِماماَ   تَنعمُ يا صاحِ بالخُلودِ ؟

تَهزَأُ بالموْتِ والفَناء ؟   وهكذا الجدوَلُ الصغيرُ
يَحلُمُ بالخُلدِ وَالْبقَاء   وإنما طَبعُه المسِيرُ

يُرَتِّلُ اللّحْنَ والنّشيدا   فى مَوْلدِ اللّيْلِ أوْ رَدَاهُ
يَرْجو لألحَانِهِ خُلودا   لا اللّحْنُ يَبْقَى وَلا صَداه

أمعَنَ فى سجْنِهِ أنيناَ   وَوَدَّ لوْ يَغمُرُ الهضابا
وَضَجَّ فى قَيْدِهِ جنُونا   يرِيدُ أنْ يغْرِقَ السّحابا !

سلْ زَهْرَةَ الأمسِ ياصَديقُ   كيفَ خباعِطْرُها الذّكِيُّ ؟
وأيْنَ منْ خدِّها بَرِيقٌ   مثل بَرِيقِ المُنَى ، بَهِيُّ ؟

أيْنَ أغانِىَّ فى الغُصونِ   أُرْسلُها فى الفَضَاءِ وَهْنا ؟
هَل حفِظَ الرَّوْضُ منْ لُحونى   يا شاعِرى مذْ هَتَفْتَ لَحْنا ؟

أىُّ بقَاء وَأىُّ خُلدِ   فى عالَمٍ كنْهُهُ الزَّوالُ ؟
سيَمَّحِى الكَوْن بعدَ عَهدِ   كما امَّحَى واختَفَى خَيالُ . . . .

وَانطَلَقَتْ فى الفضَا المديدِ   مُمعِنَةً بالخُلودِ سخْرا
تُنْشدُ أُسطورَةَ الخلودِ   تُسمِعها العالَمِينَ طُرّا

. . . .

رَجعتُ من رَوْضَتِى مهَاناً   مضطرِمَ الفِكرِ وَالشُّجُونِ
عُصفُورَةٌ تَفْهمُ الزَّمَانَا   وَنحْنُ فى غَمْرَةِ الظنُونِ

أمجد الطرابلسى

من ادب السودان

فجرٌ فى صحراء

بقلم التيجانى يوسف بشير

إملأِ الرُّوح من سناً قُدُسىٍّ   مبهَمٍ كالرُّؤى وَديعٍ رَضِىٍّ
قمرىٍّ كأنما سَكَبَ البَدْ   رُ عليه من فيضهِ القَمرِى
وَاغمِرِ القَلْبَ فى مُفاضٍ من الفج   رِ وضِىءٍ جَمٍّ النَّدَى عبقرِىٍّ
يَنِبُ الحُلْمُ حَوْلَ مَشْرَعِهِ السّا   جى وَيجرى مع الضُّحى فى أتِىٍّ
كم تَظَلُّ الرؤى به شارِعاتٍ   فى يَنابيعَ من جلالٍ ندِىٍّ
يتلفَّفْنَ فى جوانحَ بَيضا   ءَ وَيَسحبْنَ من رِداءٍ وضِىٍّ
ويُحوِّمْنَ سُـوّماً باسِماتٍ   يتخففْنَ من همومِ العشِىٍّ

في الأدب الفرنسي المعاصر

رومان رولان

Romain Rolland

بقلم علي كامل

يطلع علينا رومان رولان بين وقت وآخر من أعماق عزلته في سويسرا بعيداً عن وطنه فرنسا بكتاب أو مقال جديد فيشعر من قرأ هذا الأديب العظيم بحنين زائد إلى قراءة هذا الكتاب أو هذا المقال. ذلك أن رومان رولان كاتب عاليّ الفكر والعاطفة لا يكتب لأمة معينة ولا لشعب خاص، بل يكتب للعالم أجمع ناظراً إليه كأسرة انسانية واحدة لا تمزقها حدود، ولا تفرقها لهجات، ولا تبذر بذور الحقد والضغينة في قلوب أعضائها فكرة الأجناس. لذا كان رومان رولان من أحب الكتاب المعاصرين إلى كل قلب رحيم ونفس واسعة الآفاق. وكتابه عن (مهاتما غاندي) يقربه إلى قلوبنا نحن الشرقيين لأنه وقف فيه موقف المدافع القوي عن الحركة الهندية وشعبها المجيد المهضوم، كاشفاً القناع عن فضائح الغرب وآثامه في قتل أمة عظيمة بلغت مئات الملايين والوقوف في وجهها بالالتجاء إلى البطش الخسيس حين تنهض مطالبة بحقها في الحياة

ولا عجب أن يبدو ذلك من رجل مثل رومان رولان لم تكد تعلن الحرب الكبرى — وكان وقتذاك في جنيف بسويسرا — حتى أخذ يكتب سلسلة مقالات ملتهبة بالعاطفة الانسانية، مطالباً فيها بالمبادرة بحقن الدماء وعودة السلام وإنقاذ أرواح الشباب البريء الذي يلعب بعقله خطباء الشوارع مستغلين حرارة قلبه وسمو نفسه في سبيل جشع أصحاب مصانع السلاح ودجل رجال الحكومات. ولقد آثر رومان رولان عداء الرجعيين من أبناء وطنه والصحافة المادية المغرضة التي أثارت عليه الرأي العام الساذج في كل أمة مهما بلغ رقيها، آثر ذلك على أن يتنازل عن حريته في الفكر والقول، عن إنسانيته التي هي ثروته الكبرى

***

ولد رومان رولان في بلدة كلاميسي Clamecy في اليوم التاسع والعشرين من شهر يناير عام ١٨٦٦ من أسرة ريفية برجوازية عريقة القدم. وتعلم أولاً في البلدة التي ولد بها. ثم انتقل إلى باريس عام ١٨٨٦ حيث التحق بمدرسة الزمال العليا Ecole Normale Supérieure؛ وفي عام ١٨٨٩ نجح في امتحان (الأجريجاسيون) في التاريخ والفلسفة، وفي عام ١٨٩٥ حصل على شهادة الدكتوراه في الآداب برسالة قدمها عن (أصول المسرح الغنائي الحديث) Les Origines du Théâtre Lyrique Moderne وعين بعد ذلك أستاذاً لتاريخ الفن في مدرسة الزمال العليا، ثم عين أستاذاً في السوربون حيث أدخل مادة (تاريخ الموسيقى) وبقي فيها حتى عام ١٩١١

ابتدأ رومان رولان حياته الأدبية بكتابة عدد كبير من القصص المسرحية، ولم يكن ذلك منه عفواً بل كان تنفيذاً لفكرة مختمرة في نفسه عن وجوب تجديد الفن المسرحي بالطريقة التي شرحها في سلسلة مقالاته التي كتبها بعنوان (مسرح الشعب) Théâtre du Peuple (١٩٠٠)

كتب رومان رولان من هذه القصص المسرحية Saint Louis (١٨٩٧) — Aërt (١٨٩٨) — Les Loups (١٨٩٨) — Le Triomphe de la Raison (١٨٩٩) — Danton (١٩٠٠) — Le 14 Juillet (١٩٠٢)[1] — Le Temps Viendra (١٩٠٢)

(١) القصة الأولى والثانية والرابعة تدخل تحت عنوان رئيسي واحد هو (مآسي الايمان) Tragédies de la Foi. والقصة الثالثة والخامسة والسادسة تدخل تحت عنوان (مسرح الثورة) Théatre de la Revolution

ساحباتٍ على الكَنَهْوَرِ أصبا ... غاً رِقاقاً من واضحٍ وخفيّ
ناسجاتٍ شَفَائفَ الأُفْقِ الزّا ... هِي بُروداً على الصباحِ السَّنيّ
ذاب في الأُفْقِ رافقاً فوق هامِ الْ ... بيدِ يَهْمي على ثَرًى بدويّ
يغسل النَّوْمَ من مضاجعِ رُعيا ... نِ الصَّحارى ومضربِ القرَوِيّ

***

عجباً للجلالِ والحُسنِ ماجا ... في إطارَينِ فاترٍ وقويّ
ينسُجانِ الهوى من الفجرِ بُرْداً ... عُلْوِيّاً لشـاعرٍ علويّ
صاحَ من رُوحهِ وكبَّرَ في أعْـ ... ماقِ دُنْياهُ صارخاً كالصبيّ
أفهذا الجمالُ يارَبِّ، هذا السـ ... حرُ، من أجلِ ذلكَ الآدميّ؟

أم درمان — سودان ... التيجاني يوسف بشير

Le Montespan (١٩٠٤) Les Trois Amoureuses (١٩٠٥) Le Triomphe de la liberté (١٩١٧) — hiluli (١٩١٩) .

وفى مقالاته عن (مسرح الشعب) نادى رومان رولان بأن يكون المسرح متحرراً من بورجوازيته أى من اقتصاره على رسم ألوان الحياة الدائرة بين الطبقات الوسطى والغنية ، لأن هذه الطبقات لا تكوّن إلا جزءاً ضئيلا من الأمة . فاقتصار موضوعات الكتاب المسرحيين عليها يحرم المسرح من أن يكون معبراً عن روح الشعب الحقيقية وآماله التى لا نلمسها إلا فى الطبقات الفقيرة وهى الكثيرة فى كل شعب . كذلك هاجم رومان رولان المسرح الكلاسيكى والمسرح الرومانتيكى داعياً إلى أن يكون الفن المسرحى صدى لتفكير العصر الذى نعيش فيه ، وأن يكون ممهداً الطريق لمجتمع جديد . ورغم أن رومان رولان بقى حتى الحرب الكبرى لا يعلن فكرته السياسية المحددة ، فان كل كتبه كانت تفيض بتمجيد الحرية والأحرار وبنزعة إنسانية عظمى . ولقد كان هذا المجتمع الجديد الذى يرمى إلى التمهيد له هو ذلك الذى تحيا فيه الطبقات الفقيرة المهضومة حياة حرة كريمة ، وتجد بين أحضانه أكبر قدر من الحنان والتقدير .

على أننا ونحن فى انتظار ذلك اليوم المطوى فى ثنايا الغيب يرى رومان رولان وجوب أن نعد الشعب لتقبل ذلك المجتمع الجديد ، وما ذلك إلا بأن نهيىء الفرد لبلوغ أعظم درجة مستطاعة من الكمال الانسانى حتى يقابل كل تطور جديد بقلب مفتوح وصبر جميل . ولذا نرى رومان رولان (أخلاقياً) يطالب الفرد بأن يكون قوى الخلق عظيم النفس ، حنون القلب محباً لكل الناس ، راغباً فى معرفة كل شىء ، مستعذباً التضحية فى سبيل الفكرة السامية . فبهذا وحده نستطيع أن نقبل راضين مجتمعاً جديداً مترفعاً عن الدنايا كارهاً لضروب الرياء الذليل ، بعيداً كل البعد عن الأنانية الحيوانية . ولهذا أيضاً كان رومان رولان يهيم بحياة الأبطال الذين يرى فيهم مثلاً أعلى لما يجب أن يكون عليه الفرد من الفضائل . فنراه يكتب — كما ذكرنا — قصتيه المسرحيتين (سان لويس) و (دانتون) . ثم نراه يكتب بعد ذلك ثلاث تراجم بعنوان (حياة الرجال المشهورين) Vies des Hommes Illustres أولاها عن (حياة بيتهوفن) Vie de Beethoven (١٩٠٣) والثانية عن (حياة ميشيل آنج) Vie de Michel Ange (١٩٠٦) والثالثة عن (حياة تولستوى) Vie de Tolstoi (١٩١٣) ، ثم أخيراً يصدر كتابه الشهير عن (مهاتما غاندى) Mahatma Ghandi (١٩٢٦)

ويرى رومان رولان أننا فى عصرنا الحاضر أحوج ما نكون إلى دراسة أولئك الأبطال (لأن أوروبا الآن يغشاها جو خانق مفعم بالرذيلة . إذ طغت المادية الوضيعة على الفكر . . . . إن العالم يختنق . فلنفتح النوافذ حتى يدخل الهواء الطلق العليل . فلنستنشق نفثات الأبطال)(١) وما هؤلاء الأبطال إلا أولئك الذين نرى فيهم — كما يقول رومان رولان — (روح البطولة . ورجاحة العقل والابتسامة الدائمة ، وشهوة النور والمعرفة . تلك الصفات التى نراها فى فرنسا فى رابليه وموليير وديدرو ، وبين الموسيقيين نستطيع أن نقول بيرليوز وبيزيه لأنه لا يوجد خير منهما)

على أن رولان يرى فى بيتهوفن وميشيل آنج وتولستوى عبقرية لم يجدها فى أبناء وطنه . فيرى فى بيتهوفن الشخص (الذى منه تنتقل عدوى الشجاعة الخارقة . والاحساس بالسعادة فى الكفاح ، وتغلب الضمير الذى يشعر فى نفسه بأنه إله) . ويرى فى تولستوى (ذلك النور الذى انطفأ ، والذى كان لأبناء جيلين أطهر نور أضاء شبابهم) وهو يجد فيه أيضاً (الصديق الحقيقى الوحيد بين كل رجال الفن المعاصر) . ولسنا فى حاجة إلى تأكيد الصلة الوثيقة بين تولستوى ورومان رولان ، إذ أن تولستوى هو الكاتب الوحيد بين الكتاب الحديثين الذى طالب بأن تكون رسالة الفنان أخلاقية ودينية . وهذا هو أظهر ما يميز فن رومان رولان ودعوته

ونحن إذا نظرنا الآن إلى هؤلاء الثلاثة الذين يمجدهم رومان رولان رأينا أن أولهم ألمانى ، والثانى ايطالى ، والثالث روسى . فكأنه لم يجد بين أبناء وطنه مثله الانسانى الأعلى . لذا كان ذلك داعياً إلى أن يجد رومان رولان عدداً ليس بالقليل من النقاد الفرنسيين يتهمونه بانتقاص العبقرية الفرنسية والطعن فيها . والواقع أن رومان رولان كان دائم اللوم لأبناء وطنه على (شدة تأثرهم بالأوهام الخداعة التى تصوغها الخطب الرنانة) وكان يصرح دائماً (بكرهه لذلك النوع الجبان من المثل الأعلى الذى يدير العيون عن بؤس الحياة وضعف النفس . إن البطولة الكاذبة

(١) راجع مقدمة كتاب (حياة بيتهوفن)

جبن ونذالة . فليس هناك إلا نوع واحد من البطولة . تلك هى التى ترى الحياة كما هى ونحبها)

والعجيب أن رومان رولان عنـد ما أراد أن يرسم صورة خيالية تتجمع فيها فضائل أبطاله السابقين لم يجعل بطلها فرنسياً بل ألمانياً . فكتب قصة (جان كرستوف) Jean Christophe (١٩٠٤ — ١٩١٢) وبطلها جان كرستوف ــ موسيقى ألمانى (تغلغلت فيه نفس بتهوفن العظيمة . فصلبت أعضاءه ونفسه وبدت كأنما جعلت حجمها ضخما هائلا . لقـد كان يتجه نحو العالم . كان كجبل شامخ تدوى بين أرجائه العواصف ، عواصف الحرارة والحماسة ، عواصف الهم الدفين ، آه ! يا له من هم ! على أن ذلك لم يؤثر بشىء ! كان يحس بنفسه وافر القوة ؟ ... العذاب ! العذاب أيضاً ! ... آه ! ما أجمل أن يكون المرء قوياً ما أجمل أن يتعذب المرء عند ما يكون قوياً ! . . .)

وقصة (جان كرستوف) تقع فى عشرة أجزاء ، وهى فى نظر النـاقد أندريه بي أقرب الى أن تكون ترجمة لشخصية خيالية من أن تكون قصة ؛ وهى ــ كسائر أعمال رومان رولان ــ تفيض بالضمير الحر والحب النبيل والموسيقى الرائعة (١)

وليس إعجاب رومان رولان بيتهوفن قاصراً على كونه نموذجاً للبطل الذى ينشده مما دفعه لأن يرسم شخصية (جان كرستوف) مائلة له ، بل أيضاً لأنه (امام الموسيقيين) ، و(الموسيقى الآلهية) عند رولان كأبطاله بمثابة (الضوء الذى ينير حياته) ولقد رأينا كيف كان له الفضـل فى إدخال مادة (تاريخ الموسيقى) فى السوربون حين عين أستاذاً فيها . كما أنه كتب فضلا عن دراسته الخالدة عن بتهوفن عدة دراسـات أخرى فى الموسيقى . منها Musiciens d'autrefois (١٩٠٨) و Musiciens d'aujourd' hui (١٩٠٨) و Haencsl (١٩١٥) ذلك أن رومان رولان يرى ــ ككاتب أخلاقى ــ أن الموسيقى خير مهذب للنفوس المريضة ، وأعظم حافز للعواطف الخامدة ، كما أن الموسيقى العبقرى يستطيع أن يجعل موسيقاه خير تعبير عن روح العصر وآماله وظروفه الملموسة

(البقية فى العدد القادم)

على كامل

(١) André Bill. La Littérature Française Contemporaine p.163

القصص

من أساطير الاغريق

أجنحة دِيدالُوس

أول محاولة للطيران عرفها التاريخ

للأستاذ دريني خشبة

لم يكن فى أثينا القديمة على ما اشتهرت به من روعة الفن وكثرة الفنانين ، من هو أمهر من ديدالوس العظيم فى نحت الدُّمَى وصناعة التماثيل ، وهندسة المبانى الضخمة . ولقد كان يتنقل بين المعاهد اليونانية ، وخاصة بين إقريطش وقبرص وأثينا ، لكثرة الدعوات التى كانت تصله من ملوكها ، ليقوم على بناياتهم وليتعهد تماثيلهم ، وليشرف بنفسه على هياكلهم ، لِيقال فى مواضع الفخر ، إن هذا التمثال ، أو تلك الدمية ، أو هذه الزخرفة من عمل ديدالوس

واستفاضت شهرته ، وذاع صيته ، وملأ الخافقين اسمه ، ولا سيما بعد إذ شاد اللابيرنث (التيه) لمينوس ملك إقريطش ، واللابيرنث عمل من أجل الأعمال الهندسية القديمة ، إن لم يكن أجلها جميعاً . ذلك أنه كان لمينوس وحش هائل مخرِّب يسمى (المينوطور) ، نصفه الأسفل نصف عجل جسد ، ونصفه الأعلى نصف رجل له أنياب الأســد ، وغَدْرَةُ الذئب ، وقوة التنين العظيم (١)

وكان لا ينفك يقتل كل من اقترب منه ، ولو كان من خاصة الملك . فلما استطار شره ، وعظمت بليته ، دعا مينوس الملك ، ديدالوس المهندس ، ليشيد هذا البنـاء الرائع ، ذا المنعرجات والحنيات ، والشعاب المتداخلة ، التى لا يستطيع أحد أن يفلت منها ، إذا انفتل فيها . وقد بناه ديدالوس على شكل دائرة عظيمة محيطها هذه الشعاب والمنعرجات ، وفى وسطها فضاء فسيح يربض فيه المينوطور أو يركض

ولندع الآن ذاك المينوطور الرهيب جاثما فى اللابيرنث ، لنرى ما كان من أمر ديدالوس بعد ذلك

ظل الناس يتحدثون عما وهب ديدالوس من عبقرية ، وما أوتى من حذق ونبوغ ، وظلوا يتهافتون على آياته الفنية التى كساها إلهامه ظلالا كظلال السحر ، وموهها بأمواه القداسة والخلود ، حتى كبر الفتى پِرْدِكس ، ابن أخى ديدالوس ؛ وكان شاباً ممتلىء الجسم ، مفتول العضل ، قوى الملاحظة ، دقيق الفهم ، سريع التصور ؛ ما كاد يتتلمذ لعمه حتى بلغ شأوه ، بل هو قد فاقه بمزج الشعر والموسيقى بفن الحفر والنحت ، ولاءم بين روحها جميعاً ، فكان يبرز تحفه فى مظهر دقيق وطراز أنيق ؛ ثم هو يضفى عليها من شبابه الغض ، وروحه المطربة الشاعرة ، ظلال الحب ، وسمات الفتنة ، ويحرك فيها عواطف الآلهة !

ولهج الأثينيون باسم هذا الفنان الشاب ، وتناسوا عمه الذى هو أستاذه وملهمه . وضاق ديدالوس بابن أخيه ذرعاً ، وساءه أن تكسف شمسه الوضـاءة المتلألئة ، نجمه الذى لبث زماناً يسلسل نور الفن فى أرجاء هيلاس

وما فتىء العم يحنق ويحنق ، وما فتىء پردكس يسمو بفنه الى الذروة ، حتى لسعت عقارب الغيرة قلب الشيخ الفنان ، ونفثت فيه سمها ، فلم يعد يطيق هذا الخصم الذى صنعه لنفسه بيديه ، ولم يعد يحتمل أن يرى نفسه كمًّا مهملا بجانب الفتى العبقرى ، فأقسم ليزيحنه من طريقه ، ولو بتجريعه كأس المنون ،

وزين له أن يحتال عليه ، فيذهب وإياه الى شعاف جبل شاهق ، ذى مهاو تنتهى الى اللج الجياش فى اليم ، حتى إذا كانا فوق القنة المشرفة على البحر المصطخب ، نهز منه غِرة ودفع به الى الأعماق ، حيث ينشق له قبر من الموت . . . والنسيان !

وأنفذها ديدالوس المسكين !

ولكن الآلهة كلها كانت تنظر ، وتستعد للمعجزة !

(١) فى الأسبوع المقبل نرى كيف يقتل الشاب ثيذيوس هذا المينوطور الفظيع

وكيف ؟ !

لقد استجمع الشيخ كل قوته ، ووضع فى يديه كل مُنته ، ودفع بابن أخيه من فوق القنة ، فتردى الفتى على حدور الجبل ، حتى إذا كان بينه وبين الموت قاب قوسين ، هبطت منيرفا (١) سيدة الأولمب ، وصاحبة أثينا ، من عليائها ، فأنقذت پردكس من قتلة محققة ، ثم نفثت فى أذنه نفثتين ، كان بهما فرخاً حزيناً من أفراخ القطا ، راح يرف فى السماء مدوماً فوق عمه ، حتى كاد يصعقه من حيرة وعجب ! !

وانقلب ديدالوس الى بيته أسوان أسفاً ، ووقر فى نفسه أن الآلهة التى سحرت پردكس لتنقذه من تدبيره السيء ، لابد أنها تترصده ، ولابد أنها ستأخذه بأوزاره فى القريب ، غير متجنية ولا ظالمة ؟

ثم مضت سنون ، وولد لديدالوس طفل جميل الصورة ، طلق المحيا ، مشرق الغُرّة ، سماه إيكاروس . ولكن الطفل لم يستطع أن يخفف من الروع الذى كان ينتاب أباه ، أو يذهب بسورة الهم التى كانت تجثم على قلبه ، وتثقل على نفسه ، كلما تصور الهامة المفزعة التى يضطرب بها نومه ، فتقض مضجعه وتزلزل كيانه .

لقد كانت القطاة تتمثل له كلما أغمض طرفه ، كأنها روح مَيت ترنّق على خصمها تكاد تصعقه . وازداد الشيخ خبالاً حينما ألحف عليه الأثينيون يسألونه عن پردكس أين قضى وأيان ولى ! وأخذ الغوغاء يلغطون ، وشرع الخاصة يتسقطون أخبار الفتى الفنان ، ودأبوا على عمه يسألونه عنه ، وهو يضلل بهم ويخترع لهم ، حتى أوجس أن ينكشف سره ، فينكل الناس به . فآثر الهجرة عن أثينا المحبوبة ، إلى صديقه مينوس ملك إقريطش ، مصطحباً معه ابنه الطفل إيكاروس

وتطامن الدهر ، وشب إيكاروس وترعرع ، وأخذ عن والده من الفن ما أخذ پردكس من قبل ؛ وحسب ديدالوس أن الزمان قد غفل عنه ، وأن أعين الآلهة قد غفت واستنامت ، وأن الأيام قد ابتلعت إثمه الكبير فى تضاعيفها القاتمة المظلمة ، فاستيقظ الغرور فى قلب الفنان الشيخ ، ولم يتقبل ما غمره به مينوس الملك من النعم بالشكر الواجب على لاجىء طريد مثله ، بل بطر واستكبر ، وكفر بأنعم مولاه وآلائه ، ومَدَّ له هواه فولغ فى إناء الملك ، بعد أن اختلط بأهل بيته اختلاطاً شائناً أدّى إلى كثير من القيل والقال

وعلم الملك بما كان من خيانة ديدالوس فأمر بالقبض عليه واعتقاله فى إحدى غرف القصر حتى يُقضى فى شأنه ؛ فألقى به فى حجرة منفردة فى طرف القصر ، مشرفة على الماء ، متصلة بالسماء

وطالت عزلة الفنان الشيخ فى معتقله هذا ، وضاق ابنه بالحيز الضيق الذى يحبس أنفاس روحه ، ويحسر مرامى مقلتيه ، ويشيع الهم فى حنايا ضلوعه ، فقال لوالده وهو يحاوره : « أهكذا قضى علينا أن نموت هنا صبراً يا أبتاه ! » وكانت كلمات إيكاروس المبللة بالدموع تذهب كالصدى فى آذان الشيخ ، وكان الغلام يجتذب اللفظة المفردة من فم أبيه ، فما يكاد يفوز إلا بلا ... أو بنعم ...

وكانت للغرفة التى اعتقلا فيها شرفة صغيرة تطل على البحر الأبيض المتوسط ، وكان منظر السفائن الماخرة فى البحر كالأعلام ، والطير صافات من فوقها كأنها تسبح بدورها فى لج من زرقة السماء ، يثير فى نفس الفتى أحلاماً وأخيلة وأمنيات . وإنه لفى أصيل جميل يناجى الطبيعة من شرفة سجنه الصغيرة ، إذا به يذهب إلى والده مستبشراً متهللاً ، ويقول : « أبى ! أعجزنا عن أن نصنع لنا أجنحة كهذه الطير . فنفلت بها من هذا المكان الرهيب؟ . »

وكان الشيخ جالساً فى زاوية مظلمة من زوايا الغرفة يجتر أحزانه ، ويتغنى آلامه ، فلما سمع ما خاطبه ابنه به ، افتر فم العجوز عن ابتسامة منقبضة مغضنة ، وشاعت فى أساريره بوارق أمل جديد !

وقال لابنه : « أجنحة ؟ وأنّى لنا بالريش يا إيكاروس ؟ »

فقال الولد : « لا عليك يا أبى ، إن غرفة الدجاج قريبة من هنا ! »

وعبس الفنان الشيخ ، وقال : « والحارس الفظ ؟ . . . »

فتضاحك إيكاروس قائلاً : « الحارس ! ؟ أمره أهون مما ترى . . . سنرشوه يا أبتاه ، فيحضر لنا ما نشاء من الريش ، وسنخدعه أننا صانعان له لباساً لا تحلم الملوك بمثله ! »

ولكن العبوسة التى رفت على جبين الشيخ أنشبت فيه جميع مخاليبها ، وقال : «دعنى أفكر يا بنى ، دعنى أفكر يا إيكاروس...»

* * *

وهكذا كانت العبقرية البكر ، الكامنة فى هذا الفتى الصغير ،

(١) منيرفا هى بالّلا أثينا ، وقد خلقت شجرة الزيتون فملأت الأرض بركة . وكان پردكس يصنع لها تماثيل رائعة ، وهى هنا تنقذه لترد له قليلا من جميله

لقاحاً بعيد الأثر فى عبقرية الشيخ الفانى المتهدم ، وهكذا بدأ الفنان الأكبر ، بانى اللابيرنث ، ومشيد هيا كل الآلهة ، يفكر فى هذا المقترح الشارد الذى اقترحه عليه الفنان الصغير !

« أجنحة . . . دجاج . . . ريش . . . الحارس الفظ . . . مينوس . . . پردكس . . . فرخ القطا . . . الطير . . . إيكاروس ابنى . . . ! » وهكذا انبطح الشيخ على وثيرته تتداعى هـذه الخلجات فى رأسه الساخن المتأجج ، تذكى فيه الذكريات والمآسى !

واحتال الفتى على الحارس حتى حصل على مقادير هائلة من ريش البط والأوز والديكة ؛ وفكر الشيخ كيف يثبت الريش فى مكانه من عضد الجناح ، فادخر الشموع التى كانت تترك له يضيئها فى الليل ، ليتضاعف بلهيبها الخافت حزنه ؛ حتى إذا كان لديه قدر كبير منها ، عمد اليها فصهرها ، وثبت بها ماشاء من الريش ، وبذلك صنع زوجين من الأجنحة الكبيرة ، يكفى أحدها لحمل فيل !

وجلس يمحض ابنه النصح فقال :

« أى بنى ! أى إيكاروس العزيز ! سنطير من هنا يا ولدى ! إلى أين ؟ لست أدرى ! ولكننا سنفلت من هـذا السجن على كل حال ! وهأنذا قد صنعت الأجنحة التى تخيلها أملك الصغير الذى هو أكبر من جميع آمالى ! ولقـد رأيت إلى كيف كنت أذيب الشمع قريباً من النار ياولدى ، فأوصيك إذا طرنا ألاّ تترك سمتى ، وأن تكون دائماً قريباً منى ، فانى أخشى إذا علوت علواً شاهقاً أن تصهر الشمس شمع جناحيك ، فتهوى فى البحر ، وتتردى فى أعماق الموت ! وكما أخشى عليك من العلو الشاهق ، فكذلك لا أرى لك أن تدنو من الماء ، فانه إن وصل إلى الشمع أيبسه ، ولم يعد يصلح لمهمة الطيران ، إذ يتساقط قطعة فقطعة ، ويتناثر الريش ، وتسقط ، إما فى البحر فتغرق ، وإما فى الأرض فيندق عنقك . فلا تنس يابنى أن تتبعنى أبداً ، واحذر أن تعلو فتدنو من الشمس ، أو أن تسفل فيصيبك رذاذ الماء ورشاشه . إلىّ ياولدى أثبت لك جناحيك ، ولنمض على بركة ز . . . ز . . . زيوس ! ! »

وتلجلج لسانه حين أراد أن ينطق باسم الآلـه الأكبر ، لأنه يثق أنه لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، وهو محيط بعباده ، لا ينسى أن ينتقم من الظالمين للمظلومين !

وانطلقا من الشرفة ، وألقيا على القصر ، وما أحاط به من حرس وعسس ، نظرات كلها نقمة وتغيظ . . .

ومرّا بشطوط كثيرة ومروج كبيرة ، وكان الصيادون والزراع والبحارون وأهل القرى كلما رأوا هـذين الطائرين الكبيرين ، ذوَى الهيئة الآدمية ، خرّوا للأذقان سجداً ، يحسبون أنهما إلـهان من آلهة السماء ، هبطا يباركان الناس والخلق ، فيهللون ويكبرون ! !

فهذا شيخ يطلب اليهما أن يباركا فى عقبه وعداً فى أجله ، وهذه شمطاء تدعو أن يردّا عليها جمالها الضائع وشبابها الذاهب ، وتلك رؤوم تناجى ابنها فى قبره فتطلب إليهما أن ينفضاه من الثرى ! وهؤلاء فلاحون يصرخون أن يمنا عليهم فيخلصاهم من الفقر والمتربة ... ...

وشاع الزهو فى أعطاف إيكاروس ، فكان يرتفع قليلا ، أو يهبط قليلا عن سمت أبيـه ؛ ثم تشجع وتشجع ، وبهرته زرقة السماء وأديمها الصـافى ، فجازف وارتفع ارتفاعاً شاهقاً ، ونسى وصية أبيه ، فعـلا وذهب فى السماء صَعَداً ، وكان يغريه أن يصغر العالم الأرضى فى عينيه ، فيعلو ويعلو

واأسفاه ! ! لقد دنت ساعة الانتقام لك يا پردكس ! فلقد صَهَرت الشمس شمع الجناحين ، وهوى إيكاروس الى الأعماق ! ولما دنا من والده صرخ صرخة هائلة دوت فى أذن أبيه ، فتلفت الشيخ ليرى ولده يغوص فى اليم ، يبتلعه مرة ويلفظه أخرى !

فأسرع الوالد المسكين الى البحر ، وانتشل ولده من المـاء جثةً هامدة ! وكان هو بدوره قد أذاب الماء شمع جناحيه ، فعالج الموج معالجة ، وسبح بفلذة كبده الى جزيرة قريبـة ، بلغها بعد جهد وعناء !

وجلس يبكى ولده . . .

ثم شق له قبراً صغيراً فى رمل الشاطىء ، وما كاد يسره فيه ، حتى رأى قطاة حزينة تدوّم فى السماء ، ثم تهبط قليلا قليلا ، حتى تكون بمقربة من القبر ، فتقف كاسفةً مشجونةً وتنظر الى الجثة والدموع تنهمل من عينيها .. عبرةً ، فعبرةً . .

ويفرغ الشيخ من مواراة ولده فى التراب ! وينتبه ! فيرى القطاة ! فينشج نشيجاً مؤلماً ، ويقول : « پردكس ! ! أتيت تبكى إيكاروس ! ! سامحنى يا پردكس ! »

فتزقو القطاة كأنها تنتحب ! ثم تدنو من القبر حتى تكون فوقه ، فتذرف عبرتين غاليتين ، وترف فى الهواء حتى تغيب عن عينى ديدالوس !!

دريني خشبة

البريد الأدبي

سان ماركو

قامت إيطاليا في ظل الفاشستية بكثير من الأعمال العلمية والفنية العظيمة ؛ ومن ذلك اكتشافات أثرية عظيمة في ضواحي رومة وفي جنوب إيطاليا ، وإصلاح لكثير من الآثار الشهيرة ، واصدار موسوعة إيطالية كبيرة ، ووصل ثغر البندقية بالأرض بجسر عظيم يبلغ طوله نحو كيلو مترين . وآخر الأعمال الفنية العظيمة التي أتمتها الحكومة الايطالية ، هو إصلاح كنيسة سان ماركو (القديس مرقس) الشهيرة في البندقية ؛ وتعتبر هذه الكنيسة التي يرجع بناؤها إلى نحو ألف عام من أعظم التحف الفنية في إيطاليا ، وتعتبر الثانية من حيث عظمتها الفنية بعد كنيسة القديس بطرس في رومة . وتمتاز بالصور والنقوش الرائعة التي صنعت كلها من الفسيفساء الملون ، في جدرانها السفلية وأروقتها العليا . وهي تجاور قصر الدوجات وتقع على يساره ، وأمامها ميدان سان ماركو الشاسع الذي كان خلال العصور ميدان الاحتفالات والاجتماعات العامة أيام الجمهورية ؛ وقد بدأت أعمال الاصلاح فيها منذ ثمانية وعشرين عاماً ، وذلك بعد أن قرر الخبراء أنها غدت في خطر ، وأن أسسها قد اضطربت وتشققت جدرانها ؛ وذلك على أثر سقوط برج « الكامبنيلي » الشهير في سنة ١٩٠٢ ؛ وهو يقع أمام قصر الدوجات على مقربة من الكنيسة ، وقد جدد ، وهو يرتفع إلى علو شاهق ، ويشرف على ثغر البندقية وجميع الجزر (اللاجون) التي تقوم عليها . وبدئ الاصلاح بتقوية أسس الكنيسة وأعمدتها ؛ وعهد إلى المهندس والفنان الكبير الأستاذ لويجي مارانجوني بالاشراف على أعمال الاصلاح الفنية . وقد بذل هذا الفنان مجهودات فادحة لانقاذ زخارف الفسيفساء التي كاد بعضها يتلاشى ، واستطاع بمعجزة حقيقية أن يعيدها إلى بهائها الأول . ولن تمضي أسابيع قلائل حتى ترفع الأعمدة والحواجز الخشبية التي حجبت بعض واجهات الكنيسة عن النظارة زهاء ثلاثين عاماً ، ويستطيع الزائر أن يمتع الطرف بمشاهد الصور والنقوش البديعة التي صنعت كلها من فسيفساء ملون ، وبينها صور القديسين ومناظر من الكتاب المقدس

ويعتبر اصلاح هذه الكنيسة الشهيرة من أعظم الأعمال الفنية التي قامت بها إيطاليا في هذا العصر ؛ ويرجع إلى عزم الحكومة الفاشيسية وسخائها في تعزيز الأعمال الفنية والأثرية ، الفضل في سرعة انجاز هذا العمل العظيم

حول أزمة السياحة

تتحدث الصحف الفرنسية منذ حين عن «أزمة السياحة» ، لأن السياحة مورد من موارد فرنسا العظيمة ، وقد لوحظ أن الاقبال على زيارة فرنسا قد أخذ يتناقص في الأعوام الأخيرة ، وتأثرت جميع الجهات والمصالح التي تتصل بموسم السياحة ، وأخذت تفكر في ابتكار الوسائل لمكافحة هذه الأزمة وترغيب الأجانب في زيارة فرنسا . وقد درس كثير من الخبراء والباحثين أسباب هذه الأزمة في الصحف ، ونسبها بعضهم إلى ارتفاع الفرنك وغلاء الأسعار في فرنسا لدرجة فاحشة ؛ ونسبها البعض إلى الأزمة العالمية التي أصابت كل الموارد ؛ ولكن كاتباً مطلعاً وعضواً في مجلس الشيوخ ، أدلى برأي جديد في أسباب أزمة السياحة ، فقال إنها ترجع قبل كل شيء الى تغير النفسية الفرنسية ، وتحول الفرنسي من مضيف رقيق الطبع كريم الوفادة ، إلى تاجر جاف الخلال ، تغلب لديه فكرة الكسب على كل فكرة أخرى ، لجميع الجهات والأفراد الذين يشتغلون بموسم السياحة كوكالات السفر والفنادق ، والسكك الحديدية ، وأصحاب المطاعم والملاهي وغيرها ، يعمل كل لصالحه فقط ، ولا تجمع بينهم رابطة مشتركة وكل يحاول أن يقتضي من السائح أوفر غنم ؛ واليوم يلقى السائح في الجمارك الفرنسية موظفين جامدين ، وتستقبله في فرنسا

قوانين واجراءات شديدة ، ولا يكاد يلقى الابتسامة على ثغر أحد ؛ ومن رأى الكاتب أن الاستقبال الحسن هو أهم عنصر لتشجيع السياحة ، ويجب أن يشعر الزائر بهذه الخاصة ، منذ دخوله البلاد حتى خروجه منها . ويجب أن يحسن استقباله أين سار : فى الجمارك وفى الفندق ، وفى المتاجر والمصالح ، وكل ماله مساس بتجواله أو درسه أو متعته . وعلى هذا الأثر الحسن يتوقف مستقبل السياحة اليوم ؛ وقد فقدت فرنسا فى الأعوام الأخيرة كثيراً من هذا الأثر الحسن الذى كانت تشتهر به فيما مضى

حول الراغب الاصبهانى

... طالعت فى العدد السابع والثمانين من مجلة الرسالة الغراء كلمة الأستاذ البحاثة على الطنطاوى فى الراغب الاصبهانى ، فاستغربت كثيراً عدم عثوره على غير المصادر التى أشار اليها ، ولهذا أرى أن من حق الأدب علىّ وخدمة للتاريخ أن أدله على المصادر التالية التى أفردت للكلام عنه بحثاً ضافياً ، وهى :

(١) كتاب هدية الأحباب للشيخ عباس القمى المطبوع فى النجف

(٢) كتاب روضات الجنات للشيخ محمد باقر الخونسارى المطبوع فى إيران

وسأتقدم بمقال ضاف عما قريب الى « الرسالة » الزهراء عن المشار اليه ، والأمل أن يتفضل صاحب الرسالة بنشره

النجف — العراق **محمد كاظم كونه**

جامعة مشيغن الامبركية وشباب الشرق

على أثر عودة الدكتور أغا أوغلو أستاذ الفنون والصنايع الاسلامية فى جامعة مشيغن إلى أميركا ، بعد زيارته إيران وحضوره حفلات الفردوسى ، رفع إلى ادارة الجامعة تقريراً مفصلاً بلزوم تعهد الجامعة بنفقات عشرة طلاب من طلاب الممالك الاسلامية ليدرسوا فيها فروع الصناعات الاسلامية والفنون الجميلة الشرقية . وبعد مداولات كثيرة بين الأستاذ أغا أوغلو وبين أعضاء إدارة الجامعة ، وافقت الجامعة على طلبه ، غير أنها تعهدت بنفقات تعليم هؤلاء الطلاب فقط ، أما الطلاب العشرة فقد وزعتهم الجامعة على الوجه التالى :

طالبان من العراق ، طالبان من إيران ، طالبان من تركيا ، طالبان من مصر ، طالبان من سورية وفلسطين

تأليف مجمع للغة الايرانية

بالنظر الى اتجاه الأوساط الأدبية والصحفية نحو احلال اللغة الايرانية محل الفارسية وتطهيرها من الكلمات والتعبيرات الأجنبية التى قد دخلت عليها واعتبارها أن مثل هذه الحركة إذا تركت بلا توجيه يخشى أن تضر بجمال اللغة — قررت الحكومة أن تنشىء قريباً مجمعاً للغة الايرانية . وسيضم هذا المجمع نخبة الكتاب وعلماء اللغة الوطنيين ، وستكون مهمتهم أن يضعوا معجما لاستبدال الكلمات الأجنبية الكثيرة ، ولاسيما الكلمات المشتقة من العربية والتركية فى اللغة الايرانية الحالية بكلمات ايرانية بحتة

وقد أرسلت وزارة المعارف تنفيذاً لهذا القرار وتجنباً لأى اضطراب فى أعمال المجمع منشوراً الى جميع الوزارات والمصالح يحرم استعمال الكلمات الجديدة التى تذيعها الأوساط الأدبية التى ليست لها السلطة ولا الخبرة التامة المطلوبة لهذا العمل ؛ والكلمات المستعملة سيستمر استعمالها الى أن تستبدل تدريجياً كلما انتهى مجمع اللغة الايرانية الملكى الى اتخاذ قرارات فى بعض البحوث

مؤتمر القلم الدولى

يجتمع المؤتمر الدولى الثالث عشر لنوادى القلم فى ثغر برشلونة عاصمة قطلونية (أسبانيا) فى العشرين من شهر مايو الجارى ، ويستمر انعقاده الى يوم ٢٥ منه . وقد وضع البرنامج النهائى لأعماله واجتماعاته . فى الساعة العاشرة من يوم الأثنين ٢٠ الجارى تفتح مكاتب المؤتمر فى « كازال ولايتجى » وفى الظهر يطوف الأعضاء ثغر برشلونة ، ويزورون متاحفها ومشاهدها ، وفى اليوم التالى يفتح المؤتمر بصفة رسمية ، وتلقى خطب الافتتاح وتصرف بقية اليوم فى حفلات نظمتها لجنة المؤتمر ؛ وفى اليوم الثالث يستقبل الفنانون فى برشلونة أعضاء المؤتمر فى معرض للصور والتماثيل أقيم تكريماً لهم . وفى الأيام الثلاثة الباقية يعقد المؤتمر جلساته فى صباح كل يوم ، ويشهد المؤتمرون بقية اليوم بعض الحفلات والاستقبالات التى نظمت لهم ، ويختتم المؤتمر بمأدبة غداء رسمية فى فندق « رتز » أعظم فنادق برشلونة ؛ وقد نظمت رحلات أثرية للمؤتمرين فى بعض أنحاء قطلونية ، ورحلة الى جزائر البليار ؛ وستعنى لجنة المؤتمر بأن تعرض على المؤتمرين جميع النواحى الفنية والثقافية الاسبانية والقطلانية بنوع خاص

فى الجامعة المصرية



وأخيراً صدر المرسوم الملكى بتعيين زعيم النهضة الفكرية الحديثة الأستاذ الجليل أحمد لطفى السيد بك مديراً للجامعة المصرية . والتعيين هنا معناه إعادة الأستاذ إلى منصبه بعد أن ظل باستقالته منه شاغراً أربع سنين كابدت فيها الجامعة من الأحداث الجسام ما كابدته الأمة كلها فى سيادتها ومرافقها وأخلاقها من عبث الطغيان المسرحى الأحمق . استقال الأستاذ استقالته الشالية النبيلة حين رأى عبث العهد البائد ينال حرم الجامعة فيعدو على استقلالها ، ويعتدى على حقوق رجالها ، وينقل عميد كلية الآداب فيها الى منصب آخر من غير رأيه ولا علمه . ثم هيمنت على ادارة الجامعة وارادتها سلطة متجنية كانت تدفع الحق دفعاً عن أهله ، حتى انجاب عن السياسة المصرية غشاوة الزيغ وسحابة الباطل ، فوجد المظلوم العدل ، وأبصر التائه الطريق

ولم يكن من السهل حتى فى ذلك العهد الذى أنكر الكفاية ، وجانب المنطق ، أن تظفر الجامعة بخلف للطفى بك ، فان ثقافته الشاملة ، وعقليته المنطقية ، ونزعته الحرة ، وطبيعته المعلمة ، وخلقه الفيلسوف ، جعلته أصلح الناس لهذا المنصب ، وأحزم العلماء بهذا العمل

فى الجامعة الأزهرية



كذلك صدر مرسوم ملكى آخر بتعيين صاحب الفضيلة العالم الجليل الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخاً للجامع الأزهر . ومسألة الأزهر كانت كمسألة الجامعة عقدة من عقد العهد البائد ، فقد رضى فيه شيخ الأزهر المستقيل أن يكون مطية ذلولا من مطاياه يخب فى الزور ، ويخبط فى الباطل ، حتى غضب الناس للدين ، وضج العلماء للعلم ، وثار الطلاب للكرامة ، ووفق الله الوزارة القائمة فعالجت هذه الحال باقصاء الشيخ الظواهرى وتعيين الأستاذ المراغى . والأستاذ المراغى من العباقرة الآحاد الذين يفهمون القرآن بالأدب ، ويطبقون الدين على الخلق ، ويوفقون بين المدنية والفقه ، وينهجون فى الاصلاح منهج الامام محمد عبده

وفاة الشيخ عبد المحسن الكاظمى



فى يوم الخميس الماضى استعز الله بالشاعر العربى العراقى الكبير الأستاذ عبد المحسن الكاظمى عن سن عالية وشهرة مستفيضة ؛ وهو من الذين ساهموا فى نهضة الشعر الحديثة بقسط وافر من السليقة الخالصة ، والقريحة الطيعة ، والبديهة التى ترتجل القصيدة المطولة عفو الساعة . هبط الأستاذ مصر منذ خمس وثلاثين عاماً ، فطابت له فيها الاقامة ، ولاذ بكنف الامام محمد عبده ، وهو يومئذ موئل العلم والأدب ، فظاهر نعمه عليه كما ظاهرها على الشنقيطى وحافظ والمنفلوطى ، حتى اتصل سببه وأثمر أدبه فى حماه وتحت عينه . ولم يبتغ الكاظمى الوسيلة إلى الحياة إلا بالشعر — والشعر فى هذا الزمن رحم قطعاء وأداة عاجزة — لذلك نكد عيشه قليلاً بعد الامام ، فرضى بميسور الكفاف من الرزق ، وبالانتاج القليل من القريض ، وأقعده ضعف القلب وكلال البصر وتقدم السن عن غشيان المجالس والأندية ، حتى اختاره الله إلى جواره . وسنعود إلى تفصيل أمره وتحليل شعره فى عدد مقبل



كتابا المواقف والمخاطبات

للنفّرى

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —

الأستاذ نيكلسون أستاذ الأدب العربى بجامعة كمبردج ، أحد العلماء الأوربيين الذين عنوا بدرس التصوف الاسلامى ، وبلغوا فى درسه والعلم بتاريخه درجة عالية

وللأستاذ نيكلسون أياد مشكورة فى ترجمة كتب التصوف الفارسية والعربية الى الانكليزية ، ونشر نصوصها ، والكتابة فى كثير من مباحث التصوف . وأعظم مآثره فى ذلك ترجمته الكتاب الخالد ، كتاب المثنوى الى الانكليزية ، ونشره الأصل الفارسى فى طبعة مرتبة مصححة ، لاتقاس بها طبعة أخرى ؛ ولا ريب أن الأستاذ يعد اليوم من أئمة هذا الشأن فى المشرق والمغرب

— ٢ —

وللأستاذ نيكلسون تلاميذ نهجوا نهجه واقتفوا أثره فى العناية بالتصوف الاسلامى ، والاهتمام باحياء كتبه ونشرها

ومنهم صديقنا النابغة العلاّمة أربرى الذى سعدنا بصحبته حيناً فى كلية الآداب ، ثم شقينا بفراقه هذا العام ، إذ ولى منصباً فى المكتبة الهندية بلندن

وكان صديقنا أربرى ، زمان اقامته بالقاهرة ، دائب البحث عن المخطوطات الصوفية ، يواصل الجهد فى تصحيحها ومقابلة بعضها ببعض ، ونسخها بخطه العربى الجميل . وقد يُسر له أن يجمع جملة نادرة من رسائل التصوف وكتبه ، منها : رسائل المحاسبى والسلمى من متقدمى الصوفية

ثم بدأ ينشر ما جمعه وصححه ، فطبع فى القاهرة كتابى المواقف والمخاطبات اللذين نكتب عنهما اليوم ، وترجمهما الى الانكليزية ، ثم نشر الأصل والترجمة فى كتاب واحد ، وكتب له مقدمة نفيسة

— ٣ —

محمد بن عبد الجبار بن الحسن النِفّرى ، أحد صوفية القرن الرابع الهجرى ، توفى سنة ٣٥٤ أو بعدها بقليل . وينسب الى قرية نفّر إحدى قرى العراق ، وهى مدينة نِيبُّور البابلية القديمة

ويقال إن أبا الشيخ كان جوّالاً فى البرارى لا يستقر فى مكان ، ولا يسكن الى انسان ، وأنه توفى باحدى قرى مصر

ولم ينبه ذكر الشيخ بين رجال الصوفية ، ولم تذع كتبه بين الناس . وقد ذكره محيي الدين بن العربى فى كتاب الفتوحات ، والشعرانى فى الطبقات الكبرى ، ولكن المأثور من أخباره قليل

وللشيخ النفرى كلمات فى التصوف، طائفة منها تبدأ بقوله: أوقفنى على كذا ، والأخرى تبدأ بقوله : خاطبنى . وقد جمع ابن بنته كلماته فى كتابى المواقف والمخاطبات اللذين نشرهما صديقنا العلامة أربرى

وخير تعريف للكتابين أن أعرض على القارىء بعض كلماتهما ، فهذه شذرات من المواقف ، وفى العدد الآتى ننقل شذرات من المخاطبات

وسيرى القارىء أن هذا كتاب بدع من كتب التصوف ، وأنه من الأدب الصوفى الذى لا يعرف نظيره :

موقف العز

أوقفنى فى العز وقال لى : : لا يستقل به من دونى شىء ، ولا يصلح من دونى لشىء ، وأنا العزيز الذى لا يستطاع مجاورته ، ولا ترام مداومته . أظهرت الظاهر وأنا أظهر منه ، فما يدركنى قربه ، ولا يهتدى الىّ وجوده . وأخفيت الباطن وأنا أخفى منه ، فما يقوم علىّ دليله ، ولا يصح الىّ سبيله

وقال لى : أنا أقرب الى كل شىء من معرفته بنفسه ، فما يجاوزه الىّ معرفة ، ولا يعرفنى أين تعرّفت اليه نفسه

وقال لى : لولاى ما أبصرت العيون مناظرها ، ولا رجعت الأسماع بمسامعها

وقال لى : لو أبديتُ لغة العزّ لخطفت الأفهام خطف المناجل ، ودرست المعارف درس الرمال عصفت عليها الرياح العواصف

وقال لى : لو نطق ناطق العز لصمتت نواطق كل وصف ، ورجعت الى العدم مبالغ كل حرف

وقال لى : إن من أعد معارفه للقائى لو أبديت له لسان الجبروت ، لأنكر ما عرف ، ولمار مور السماء يوم تمور موراً

. . . وقال لى : طائفة أهل السموات وأهل الأرض فى ذل الحصر . ولى عبيد لاتسعهم طبقات السماء ، ولاتقل أفئدتهم جوانب الأرض . أشهدت مناظر قلوبهم أنوار عزتى فما أتت على شىء إلا أحرقته . فلا لها منظر فى السماء فتثبته ، ولا مرجع الى الأرض فتقرّ فيه . الخ

موقف البحر

أوقفنى فى البحر ، فرأيت المراكب تغرق ، والألواح تسلم ، ثم غرقت الألواح

وقال لى : لايسلم من ركب

وقال لى : خاطر من ألقى بنفسه ولم يركب

وقال لى : هلك من ركب وما خاطر

وقال لى : فى المخاطرة جزء من النجاة

وجاء الموج فرفع ما تحته وساح على الساحل

وقال لى : ظاهر البحر ضوء لا يُبلغ ؛ وقعره ظلمة لاتمكن ، وبينهما حيتان لا تستأمن

وقال لى : لا تركب البحر فأحجبَك بالآلة ، ولا تلق نفسك فيه فأحجبك فيه

. . . وقال لى : الدنيا لمن صرفتهُ عنها ، وصرفتُها عنه ، والآخرة لمن أقبلتُ بها عليه وأقبلتُ به علىّ

موقف المطلع

أوقفنى فى المطلع وقال لى : أين اطلعت رأيت الحدّ جهرة ، ورأيتنى بظهور الغيب

وقال لى : إذا كنت عندى رأيت الضدين والذى أشهدتهما فلم يأخذك الباطل ولم يفتك الحق

وقال لى : الباطل يستعير الألسنة ، ولا يوردها موردها . كالسهم تستميره ولا تصيب به

وقال لى : الحق لا يستعير لساناً من غيره

وقال لى : إذا بدت أعلام الغيرة ظهرت أعلام التحقيق

. . . وقال لى : ياعالم اجعل بينك وبين الجاهل فرقاً من العلم وإلا غلبك . واجعل بينك وبين العلم فرقاً من المعرفة وإلا اجتذبك

وقال لى : اليقين طريقى الذى لا يصل سالك إلا منه

وقال لى : من علامات اليقين الثبات . ومن علامات الثبات الأمن فى الروع

وقال لى : إن أردتَ لى كل شىء علّمتك علماً لا يستطيعه الكون ، وتعرفت اليك معرفة لا يستطيعها الكون

وقال لى : يا عارف أرى عندك قوّتى ، ولا أرى عندك نصرتى . أفتتخذ إلـهاً غيرى ؟

وقال لى : يا عارف أرى عندك حكمتى ، ولا أرى عندك خشيتى . أفهزئت بى ؟

وقال لى : يا عارف أرى عندك دلالى ولا أراك فى محجتى

وقال لى : من لم يفر إلىّ لم يصل إلىّ . ومن لم أتعرف اليه لم يفرّ إلىّ

وقال لى : إن ذهب قلبك عنى لم أنظر الى عملك

وقال لى : إن لم أنظر إلى عملك طالبتك بعلمك . وإن طالبتك بعلمك لم توفنى بعملك

وقال لى : من عبدنى وهو يريد وجهى دام ، ومن عبدنى من أجل خوفى فتر ، ومن عبدنى من أجل رغبته انقطع

وقال لى : العلماء ثلاثة ، فعالم هداه فى قلبه ، وعالم هداه فى سمته ، وعالم هداه فى تعلمه

وقال لى : القرّاء ثلاثة ، فقارىء عرف الكل ، وقارىء عرف النصف ، وقارىء عرف الدرس

وقال لى : الكل الظاهر والباطن ، والنصف الظاهر ، والدرس التلاوة

وقال لى : إذا تكلم العارف والجاهل بحكمة واحدة ، فاتبع

إشارة العارف ؛ وليس لك من الجاهل إلا لفظه

موقف الموت

أوقفنى فى الموت فرأيت الأعمال كلها سيئات . ورأيت الخوف يتحكم على الرجاء ، ورأيت الغنى قد صار ناراً ولحق بالنار . ورأيت الفقر خصما يحتج ، ورأيت كل شىء لا يقدر على شىء . ورأيت المُلك غروراً . ورأيت الملكوت خداعا . وناديت يا علم فلم يجبنى . وناديت يا معرفة فلم تجبنى . ورأيت كل شىء قد أسلمنى ، ورأيت كل خليقة قد هربت منى . وبقيت وحدى . وجاءنى العمل فرأيت فيه الوهم الخفىّ والخفىّ الغابر . فما نفعنى إلا رحمة ربى . وقال لى أين علمك ؟ فرأيت النار

وقال لى . أين عملك ؟ فرأيت النار

وقال لى : أين معرفتك ؟ فرأيت النار ، وكشف لى عن معارفه الفردانية فخمدت النار

وقال لى : أنا وليك فثبتّ

وقال لى : أنا معرفتك فنطقت

وقال لى : أنا طالبك فخرجت

عبد الوهاب عزام



الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ٩٧ — ١٣ مايو سنة ١٩٣٥ — السنة الثالثة

3 me Année, No. 97. | Lundi-13-5-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٩٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٠ صفر سنة ١٣٥٤ — ١٣ مايو سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

بنـــك مصر أيضا

٢

نعود إلى الحديث عن بنـك مصر مغتبطين كما يعود المطرب إلى تـكرير لحنه ، والمؤمن إلى ترديد صلاته ! وهل كان بنك مصر وعيده فى الأسبوع المنصرم إلا لحناً شدا على كل لسان ، ودعاء صعد من كل قلب ؟ لقد جاء هذا العيد القومى كما توقعناه دليلاً على رشد هذه الأمة الـكريمة : رَحَض عن سمعتها الأذى ، ودَحضَ عن كفايتها التهم ، وجلا عن نهضتها الشكوك ، وبدّد عن مستقبلها السحب ، وأعلن — فى شاى الحديقة ، وعشاء الـكونتننتال ، ومهرجان القاهرة ، وحفـلات الأقاليم ، بلسان طلعت حرب باشا مدير البنك ، وأحمد عبـد الوهاب باشا وزير المـالية ، والسّر ادوارد كوك عميد سياسة الاقتصاد الانجليزية ، والمسيو هنرى نوس ممثل رءوس الأموال الأجنبية — أن مصر التى غَلّها العجز الاجتماعى حيناً من الدهر عن استعمال حقها واستغلال خيرها واستثمار غناها ، قد أتاح لها بنك مصر وشركاته أن تشعر بالقوة التى كمنت فيها ، وتفطن إلى القدرة التى ذهلت عنها ،

وتخرج من ذلة اليُتم والعُدم والقصور إلى عزة الرشد والوُجْد والأهلية

ثم كانت الأيام الثلاثة التي حفلت بعيد بنك مصر مظاهرة قومية موفقة، شارك فيها قصر الملك، ودار المندوب، وجميع الأحزاب، وكافة الطبقات، وعامة الشعب، في الساعة التي رجعت فيها السياسة المصرية إلى ذبذبتها الأولى: تتحرك ولا تسير، وتتردد ولا تستقر، وتتصرف ولا تملك. وكان ابتهاج الأمة بها ابتهاجاً بحقها الذي يتخلص من الباطل، وفوزها الذي يتميز من الفشل، ونصرها الذي يتبرأ من الهزيمة!!

* * *

تستطيع أن تناقش وتعارض وتستريب إن زعم لك زاعم أن يقظتنا للعلم والأدب، والحرية والسياسة، بلغت الحس العالي المرهف، ولكنك أمام الأرقام التي قدمها إليك بالقول طلعت حرب، والمنتجات التي وضعها في يديك بالفعل طلعت حرب، والمؤسسات التي عرضها عليك بالسينما طلعت حرب، تعتقد اعتقاداً رياضياً أن نهضتنا الاقتصادية يقين لا يخامره شك، وواقع لا تزخرفه مبالغة. وإن في تسميتنا هذه النهضة التي نهضها بنك مصر فحلّت عن الأمة حبوة العجز، بالنهضة الاقتصادية، تسمية لها بالوصف الأشهر والأثر الأغلب. أما الواقع فانها انتظمت مرافق البلد من كل نوع، وتناولت أمور الناس من كل جهة: أجْدت على العلم ففتحت له أبواب العمل؛ وعلى التعليم فمهدت له سبل التطبيق؛ وعلى الأدب فاستعملت اللغة في أعمال المال، ونشرت الثقافة بتسهيل الطباعة؛ وعلى الأخلاق فأحيت في الرجال الثقة، وقوّت في الشباب الرجولة؛ وعلى الاجتماع فوقَت الأمة شر العطلة المجرمة، والأزمة المستحكمة، باستخدامها الألوف المؤلفة من الموظفين والصناع والعمال في شركات البنك وفروعه؛ وعلى القومية فخلقت الروح الجماعية بانشائها الأعمال التي تقوم على رءوس المال، وتوزع العمل، وتساند القوى، وتضامن الجماعة؛ وعلى السياسة فكفكفت عنها شِرَّة النفوذ المالي الأجنبي بمنازلته الجريئة في ميادينه القوية الحصينة؛ وعلى الاسلام، فساعدت على إقامة ركن من أركانه، وكشف الضر عن بيت الله ومنزل قرآنه؛ وعلى وحدة العرب فوصلتها بأسباب التعاون، ووثّقتها بسلاسل الذهب؛ والاقتصاد اليوم وقبل اليوم كان دستور الحياة، وعلة السعي لها، وغاية الجهاد فيها، فلا بدع إذا أثر في كل شيء، وعمل في كل حركة، وهاج في كل ثورة، وصاح في كل نهضة

* * *

شهدت كثيراً من المؤتمرات والمظاهرات والاحتفالات في أغراض شتى، فكان شعوري الذي أجده فيها شعور الحالم الذي يتوهم الحقيقة، والفاقد الذي ينشد الوجدان، والآمل الذي يرجو الظفر؛ ولكنني شهدت هذه المرة احتفالات قومي بعيد بنك مصر، فكان الشعور الذي ملكني وملك الناس شعور العالِم الذي اطمأن إلى التجربة، والواجد الذي اغتبط بالحصول، والظافر الذي انتشى بالنصر، والحي الذي استعز بالكرامة

وكنا نلحظ البشر الذي يجول في المحيا الذي لا ينبسط، والابتسام الذي يجري على الشفة التي لا تَفْتَرّ، فنتخيل في وجه طلعت حرب وهو يَشِعُّ بالاخلاص الساذج مستقبل بلادنا الذي يتهلل، وأمل شبابنا الذي يبتسم

* * *

نضّر الله بالرضى والغبطة وجوه أولئك الأبرار المخلصين الذين شغفهم حب الخير ففكروا وأمِلوا، ثم آمنوا وعملوا، ثم استمسكوا برَوح الله وقوة الشعب على عصف الخطوب وإلحاح المكايد، حتى استقر بهم الايمان على الفوز، واستقام بهم الاخلاص على الطريقة، فكانوا مثلاً للجهاد الصابر المثابر الذي يتلمس القوة من جوانب الضعف، ويتطاب الكثرة من أشتات القلة، ويخلق النجاح اليقين من أحاديث المنى، ويرفع في مُعترك الشُّبَه والظنون هذا الصرح الباذخ فيكون قاعدة للمصلح الباني، ومنارة للمتخلف الواني، ومثابة للمتنكّب الشريد!

احمد حسن الزيات

٣ - الانتحار

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال المسيب بن رافع : وكان الامام قد شغل خاطره بهذه القصة فأخذت تمد مدها في نفسه ، ومكنت له من معانيها بمقدار ما مكن لها في همه ، وتفتق بها ذهنه عن أساليب عجيبة يتهيأ بعضها من بعض كما يلد المعنى المعنى . فلما قال الرجلان مقالها آنفاً وأجابهما بتلك الحكمة والموعظة الحسنة ، انقدح له من كلامهما وكلامه رأي فقال :

يا أهل الكوفة : أنشدكم الله والاسلام ، أيما رجل منكم ضاق بروحه يوماً فأراد إزهاقها إلا كشف لأهل المجلس نفسه وصدقنا عن أمره ؛ ولا يجدن في ذلك ثلباً ولا عاباً ، فانما النكبة مذهب من مذاهب القدر في التعليم ؛ وقد يكون ابتداء المصيبة في رجل هو ابتداء الحكمة فيه لنفسه أو لغيره ؛ وما من حزين إلا وهو يشعر في بعض ساعات حزنه أنه قد غيبت فيه أسرار لم تكن فيه ، وهذا من إبانة الحقيقة عن نفسها وموضعها كما لألأ في سيف بريقه

وعقل الهم عقل عظيم ، فلو قد أريد استخراج علم يعلمه الناس — من اللذات والنعم ، لكان من شرح هذا العلم في الحمير والبغال والدواب مالا يكون مثله ولا قرابه في العقلاء ، ولا تبلغه القوى الآدمية في أهلها ؛ بيد أنه لو أريد علم من البؤس والألم والحاجة لما وجد شرحه إلا في الناس ثم لا يكون الخاص منه إلا في الخاصة منهم

وما بان أهل النعمة ولا غمروا المساكين في تطاولهم بأعناقهم إلا من أنهم يملون أكتاف الشياطين ؛ فالشيطان دابة الغني الذي يجهل الحق عليه في غناه ويحسب نفسه مخلى لشهواته ونعيمه ؛ كما هو دابة العالم الذي يجهل الحق عليه في علمه ، ويزعم نفسه مخلى لعقله أو رأيه ، وما طال الطويل بذلك ولا عن ذلك قصر القصير ، وهل يصح في الرأي أن يقال هذا أطول من هذا لأن الأول فوق السلم والآخر فوق رجليه . . . .

***

قال المسيب : فقام شيخ من أقصى المجلس وأقبل يتخطى الرقاب والناس ينفرجون له حتى وقف بإزاء الامام ؛ وتفرسته وجعلت عيني تعجمه ، فاذا شيخ تبدو طلاقة وجهه شباباً على وجهه ، أبلج الغرة متهلل عليه بشاشة الايمان ، وفي أساريره أثر من تقطيب قديم ، ينطق هذا وذاك أن الرجل فيما أتى عليه من الدهر قد كان أطفأ المصباح الذي في قلبه مرة ثم أضاءه . وعجبت أن يكون مثل هذا الشيخ قد هم بقتل نفسه يوماً وأنا أرى بعيني نفسه هذه منبثقة في الحياة انبثاق النخلة السحوق

وتكلم هذا الرجل فقال :

أما إذ ناشدتنا الله والاسلام وميثاق العلم ووحي الأقدار في حكمتها ، فاني محدثك بخبري على وصفه ورصفه : أملقت منذ ثلاثين سنة ووقف بي من الدهر ما كان يجري ، وأصبحت في مزاولة الدنيا كعاصر الحجر يريد أن يشرب منه ، وعجزت يدي حتى لظفر دجاجة في نبشها التراب عن الحبة والحشرة أقدر مني ، وطرقتني النوائب كأنما هي تساكنني في داري ، وأكلني الدهر لحماً ورماني عظاماً فما كان يقف علي إلا كلاب الطريق ؛ ولي يومئذ امرأة أعقبت منها طفلاً ويلزمني حقهما ولا أستطيعه ، وكان بيننا حب فوق المعاشرة والألفة قد ترك لي من امرأتي هذه كالشاعر الغزل من صاحبته ، غير أن الشعر في دمي لا في لساني

فلما نهكتني المصائب وتناولتني من قريب ومن بعيد ؛ قلت للمرأة ذات يوم وقد شحبت وانكسر وجهها وتقبض من هزاله : وايم الله يا فلانة لو جاز أن يؤكل لحم الآدمي لذبحت نفسي لتأكلي وتدري على الصبي . ولقد هممت أن أركب رأسي وأذهب على وجهي لتفقداني فتفقدا شؤمي عليكما ؛ ولكن ردني قلبي ، وهو حبسني في هذه الدنيا الصغيرة التي بينكما ، فليس لي من الأرض مشرق ولا مغرب إلا أنت وهذا الصبي . ولست أدري والله ما نصنع بالحياة وقد كنا من نباتها الأخضر فرجعنا من حطبها اليابس ، وعادت الشمس لا تغذوها بل تمتص منها ما بقي ، ولا تستضيء لها ، ولكن تستوقد عليها !

إن من فقد الخير ووقع في الشر ، حري أن يكون قد أصاب

خيراً عظيما إذا قتل نفسه فخلُص من الشر والخير جميعاً ، لا يُكدى ولا ينجح ، ولا يألم ولا يلذّ ؛ وكما أنكرته الدنيا فلينكرها . أما إنه ان كان القبرُ فالقبرُ ولكن فى بطن الأرض لا على ظهرها كحالنا ؛ وإن كان الموتُ فالموتُ ولكن بمرّة واحدة وفى شىء واحد لا كهذا الذى نحن فيه أنواعاً أنواعاً . قد ماتت أيامنا وتركتنا نعيش كالموتى لا أيام لهم ، وزاد علينا الموتى فى النعمة والراحة أنهم لا يتطفّلون على أيام غيرهم فيُطردوا عن يوم هذا ويوم ذاك

قال : فاستعبرَت المرأةُ باكية ، ولما فرغتْ من كلام دموعها قالت : كأنك تريد أن تفجعنا فيك ؟ قلتُ : ما عدَوْتِ ما فى نفسى ؛ ولكن هل بقى فىّ من تفجعين فيه ؟ أما ذهب منى ذاك الذى كان لك زوجاً وكاسباً ، وجاء الذى هو همُّك وهمُّ هذا الصبىّ من رجلٍ كالحفرة لا تنتقل من مكانها وتأخذ ولا تعطى ؟

أمْ واللهِ لكأنى خُلقتُ إنساناً خطأ ، حتى إذا تبين الغلطُ أُريد إرجاعى الى الحيوان فلم يأتِ لا هذا ولا ذاك ، وبقيت بينهما ؛ يمرُّ الناس بى فيقولون إنسانٌ مسكين ؛ وأحسبُ لو نطقت الكلابُ لقالت عنى كلبٌ مسكين . ياعجباً عجباً ! لا ينتهى ، أصبحت الدنيا فى يدنا من العجز واليأس كأنما هى بعرةٌ نجهدُ فى تحويلها ياقوتةً أو لؤلؤة . . . .

فقالت المرأة : والله لئن حييتَ على هذا إن هذا لكفرٌ قبيح ، ولئن مُتّ عليه إنه لأقبح وأشد

فقلت لها : ويحكِ وماذا تنظر العينُ المبصرةُ فى الظلام الحالكِ إلا ما تنظرُ العمياء ؟

قالت : ولِمَ لا تنظر كما ينظر المؤمن بنور الله ؟

قلت : فانظرى أنت وخبّرينى ماذا ترَيْن . أترَيْن رغيفاً ؟ أترَيْن إداماً ؟ أترَيْن ديناراً ؟

قالت : والله إنى لأرى كل ذلك وأكثر من ذلك . أرى قمراً سيكشف هذه السُّدْفةَ المظلمة إن لم يطلُع فكأنْ قدْ

قال : فغاظتني المرأة ورأيتها حينئذ أشدّ على بقلة ذاتِ عقلها من قلة ذاتِ يدى ؛ ولولا حبّى إياها ورحمتى لها لأوقعت بها . واستحكم فى ضميرى أن أزهق نفسى وأدَعها لما كُتب لها وقلت : إن جُبن المرأة هو نصف إيمانها حين لا يكون نصف عقلها ، وللقدَر يدٌ ضعيفةٌ على النساء تصفعهنّ وتمسح دموعهن ، وله يدٌ أخرى على الرجال ثقيلة تصفع الرجلَ وتأخذ بحلقه فتعصره

* * *

قال : وكنتُ قد سمعتُ قولَ الجاهلية فى هذه الخليقة : أرحامٌ تدفع ، وأرضٌ تبلع . فحضرنى هذا القولُ تلك الساعةَ وشُبّه لى ، واعتقدتُ أن هذا الانسانَ شىء حقيرٌ فى الغاية من الهوان والضّعة : حملته أمُّه كُرْهاً ، وأثقلتْ به كُرهاً ، ووضعته كُرهاً ؛ وهو من شؤمه عليها إذا دنا لها أن تضعَ لم يخرج منها حتى يضربَها المخاضُ فتتقلّب وتصيح وتتمزّق وتتصدّع ؛ وربما نشِبَ فيها فقتلها ، وربما التوى فيُبْقَر بطنُها عنه . وإذا هى ولدته على أىّ حاليْها من عسرٍ وتطريق بمثل المطارق المحطّمة ، أو سَراحٍ ورَواحٍ كما يتيسّر — فانما تلده فى مشيمةٍ ودماءٍ وقذرٍ من الأخلاط كأنما هو خارج من جُرْح . ثم تتناوله الدنيا فتضمُّه من معانيها فى أقبحَ وأقذرَ من ذلك كله . ثم يستوفى مُدّته فيأخذه القبرُ فيكون شراً عليه فى تمزيقه وتعفينه وإحالته

قال : وحضرنى مع كلمة الجاهلية قولُ ذلك الجاهل الزنديق الذى يُعرفُ (بالبقلى) إذ كان يزعم أن الانسان كالبقلة — فاذا مات لم يرجع . وقلت لنفسى : إنما أنتِ بقلةٌ حمقاءُ ذاويةٌ فى أرضٍ نشّاشةٍ فقتلها مِلْحُ أرضها أكثرَ مما أحياها

قال : وثُرتُ إلى المُدْية أريد أن أتوجّأ بها ، فتبادرُنى المرأةُ وتحولُ بينى وبينها ؛ وأكاد أبطشُ بها من الغيظ ، وكانت روحُ الجحيم تزفِر من حولى ، لو سمعوا سمعوا لها شهيقاً وهى تفور ؛ فما أدرى أىُّ ملَكٍ هبط بوحى الجنة فى لسان امرأتى

قلت لها : إنها عزْمةٌ منى أن أقتلَ نفسى

قالت : وما أريد أن أنقضها ولستُ أردُّك عنها وستُمضيها

قلت : فخلّى بين نفسى وبين المُدية

قالت : كلنا نفسٌ واحدةٌ أنا وأنت والصبىّ فلنقضِ معاً ؛ وما بنفسى عن نفسك رغبةٌ ، ولا ندعُ الصبىّ يتيماً يصفعُه من يُطعمه ، ويضربُه ابنُ هذا وابنُ ذاك إذ لا يستطيعُ أن يقول فى أولاد الناسِ أنا ابن ذلك ولا ابنُ هذا

قلت : هذا هو الرأى

قالت : فتعالَ اذبح الطفل . . . .

* * *

قال المسيَّب بن رافع : وما بلغ الرجل فى قصته إلى ذبح ابنه حتى ضجَّ الناسُ ضجةً منكَرة ؛ وتوهم كل أبٍ منهم أن طفله الصغير مُمدَّدٌ للذبح وهو ينادى أباه ويشُقُّ حلقَه بالصراخ : يا أبى ؛ أدركنى يا أبى

أما الامام فدَمَعت عيناه وكنتُ بين يديه فسمعتُه يقول : إنا لله ، كيف تصنعُ جهنمُ حطَبها ؟

وأنا فما قطُّ نسيتُ هذه الكلمة ، وما قطُّ رأيتُ من بعدها كافراً ولا فاسقاً فاعتبرتُ أعمالَه إلا كان كلُّ ذلك شيئاً واحداً هو طريقة صنعته حطباً . . . كأن الشيطان لعنه الله يقول لأتباعه : جفِّفُوه . . .

وكانت هُنيهاتٌ ، ثم فاءَ الناسُ ورجعوا إلى أنفسهم وصاحوا بالمتكلم : ثم ماذا ؟

* * *

قال الرجل : ففتحتُ عينى وقلبى معاً ورمقتُ الطفلَ المسكين الذى لا يملك إلا يديه الضعيفتين ؛ ونظرتُ إلى مجرى السكِّين من حلقه وإلى محزِّها فى رقبته اللينة ؛ ورأيتُه كأنما تفرَّقَ بصرُه من الفزَع على كل جهة ، ورأيته يتضرَّع لى بعينيه الباكيتين ألا أذبحَه ، ورأيته يتوسل بيديه الصغيرتين كأنه عرف أنه منى أمام قاتله ؛ ثم خُيِّل إلىَّ أنه يتلوَّى وينتفضُ ويصرخ من ألم الذبح تحت يد أبيه

يا ويلتاه ! لقد أخذنى ما كان يأخذنى لو تهدَّمت السماء على الأرض ، وحسبت الكونَ كلَّه قد انفجر صُراخاً من أجل الطفل الضعيف الذى ليس له إلا ربُّه أمام القاتل

فهرولْت مسرعاً وتركت الدارَ والمرأةَ والصبىَّ وأنا أقول : يا أرحمَ الراحمين . يامن خلق الطفلَ عالَمُه أمُّه وأبوه وحدهما وباقى العالم هباءٌ عنده . يامن دبَّر الرضيعَ فوهبه مُلكاً ومملكةً وغنى وسروراً وفرحاً ، كلُّ ذلك فى ثدْى أمِّه وصدرِها لاغير . يا إلهى : أنسنى مثلَ هذا النسيان ، وارزقنى مثل هذا الرزق ، واكفلنى بمثل هذا التدبير فانى منقطعٌ إلا من رحمتك انقطاعَ الرضيع إلا من أمِّه

* * *

قال الرجل : ولقد كنتُ مغروراً كالجيفة الراكدة تحسب أنها هى تفور حين فارت حشراتُها . ولقد كنت أحقرَ من الذباب الذى لا يجد حقائقه ولا يلتمسها إلا فى أقذر القذر

وما كدت أمضى كما تسوقنى رِجلاى حتى سمعت صوتاً ندِياً مطلولاً يُرجِّع ترجيع الورقاءِ فى تحنانها وهو يُرتل هذه الآية :

« واصبرْ نفسك مع الذين يدْعون ربَّهم بالغداةِ والعشىِّ يريدون وجهه ولا تَعْدُ عيناكَ عنهم تريد زينةَ الحياة الدنيا ، ولا تُطع من أغفلنا قلبَه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمرُه فُرُطا . »

قال : فوقفت أسمع وماذا كنت أسمع ؟ هذه شُعَلٌ لا كلمات ، أحرقت كلَّ ما كان حولى ولمستْ مصباحَ روحى النطقْ فاذا هو يتوهج ، وإذا الدنيا كلها تتوهج فى نوره ، وارتفعتْ نفسى عن الجدْب الذى كنت فيه وكأنما لقِتنى سحابةٌ من السحب فى روحى نسيم الماء البارد ورائحةُ الماء العذب

لعن الله هذا الاضطرابَ الذى يُبتلى الخائفُ به . إننا نحسبه اضطراباً وما هو إلا اختلاطُ الحقائق على النفس وذهابُ بعضها فى بعض ، وتضرُّبُ الشرِّ فى الخير والخيرِ فى الشر حتى لا يَبينَ جنسٌ من جنس ، ولا يُعرف حدٌّ من حد ، ولا تمتاز حقيقة من حقيقة . وبهذا يكون الزمنُ على المبتلَى كالماء الذى جَمدَ لايتحركُ ولا يتَسايَرُ ، فيلوحُ الشرُّ وكأنه دائماً لا يزال فى أوله يُنذر بالأهوال ، وقد يكون هَوْلُه انتهى أو يُوشك

قال الرجل : وكنت أرى يأسى قد اعترَى كل شىء ، فامتد الى آخر الكون والى آخر الزمن ؛ فلما سكن مابى إذا هو قد كان يأسَ يومٍ أو أيام فى مكان من الأمكنة ؛ أما ماوراء هذه الأيام وما خلف هذا المكان فذلك حكمُه حكمُ الشمس التى تطلُع وتغيب على الدنيا لاحيانها ؛ وحكمُ الماء الذى تَهْمى السماءُ به ليسقى الأرض وما عليها ، وحكمُ استمرار هذه الأجرام السماوية فى مَدارِها لا تُمسكها ولاتزنها إلا قوة خالقها

أين أثر الانسان الدنىء الحقير فى كل ذلك ؟ وهل الحياةُ إلا بكل ذلك ؟

وما الذى فى يد الانسان العاجز من هذا النظام كله فيَسوغ

له أن يقول فى حادثة من حوادثه إن الخير لا يبتدىء وإن الشر لا ينتهى ؟

تعترى المصائب هذا الانسان لتمحو من نفسه الخسة والدناءة ، وتكسر الشر والكبرياء ، وتفثأ الحدة والطيش ؛ فلا يكون من حمقه إلا أن يزيد بها طيشاً وحدة ، وكبرياء وشراً ، ودناءة وخسة ، فهذه هى مصيبة الانسان لا تلك

المصيبة هى ما ينشأ فى الانسان من المصيبة

* * *

قال : ورددت الآية الكريمة فى نفسى لا أشبع منها ، وجعلت أرتلها أحسن ترتيل وأطربه وأشجاه فكانت نفسى تهتز وتربو كأنما هى تبدأ تنظيم ما فيها لاقرار كل حقيقة فى موضعها بعد ذلك الاختلاط والاضطراب

صبر النفس مع الذين يمثلون روحانيتها تمثيلاً دائماً بالغداة والعشى ، وعلى نور الحياة وظلامها ، يريدون وجه الله الذى سبيله الحب لا غيره من مال أو متاع . وتقييد العينين بهذا المثل الأعلى كما يكون الأمر فى الجمال والحب ؛ والربط على الارادة كيلا تتفلت فتسف الى حقائر الدنيا المسماة هزءاً وتهكما زينة الدنيا ، تلك التى تشبه حقائق الذباب العالية . . . فتكون قذرة نجسة ، ولكنها مع ذلك زينة الحياة لهذا الخلق . . .

تلك والله هى أسباب السعادة والقوة . أما المصائب كلها ، فهى فى إغفال القلب الانسانى عن ذكر الله

* * *

قال : ولما صحت توبتى ، وقوى اليقين فى نفسى ، كبرت روحى واتسعت ، وانبعثت لها بواعث من غير حقائق الذباب ، وأشرق فيها الجمال الالهى ساطعاً من كل شىء ، وكان الصبح يطلع علىّ كأنه ولادة جديدة ، فأنا دائماً فى عمر طفل . وجاءنى الخير من حيث أحتسب ولا أحتسب ، وكأنما نمت فانتبهت غنياً ، وعمل القلب الحى فى الزمن الحى

ولقد أفدت من الآية طبيعة لم تكن فىّ ، ولا يثبت معها الشر أبداً ؛ فأصبح من خصالى أن أرى الحاضر كله متحركا يمر بما فيه من خيره وشره جميعاً ، وأستشعر من حركته مثلما ترى عيناى من قطار الابل يهتز تحت رحاله وهو يغذ السير

لم أبعد قليلاً وأنا أمشى مطمئناً تائباً متوكلاً حتى دعانى رجل ذو نعمة ومروءة وجاه ، وكأنما كلمه قلبه أو كلمه وجهى فى قلبه فاستنبأنى ، وبثثته حالى واقتصصت قصتى . فقال : سيحييك الله بالطفل الذى كدت تقتله فارجع الى دارك . ثم وجه الىّ دنانير وقال : اتجر بهذه على اسم الله وبركته فسينمو فيها طفل من المال حتى يبلغ أشده . وقد صدق إيمانه وإيمانى فبارك لى الله ونما طفل المال وبلغ وجاوز الى شبابه

* * *

قال المسيب : وجلس الرجل وكان كالخطيب على المنبر ، فقال الامام : ما أشبه النكبة بالبيضة تحسب سجناً لما فيها وهى تحوطه وتربيه وتعينه على تمامه ، وليس عليه إلا الصبر الى مدة ، والرضى الى غاية ، ثم تنقف البيضة فيخرج خلقاً آخر

وما المؤمن فى دنياه إلا كالفرخ فى بيضته ، عمله أن يتكون فيها ، وتمامه أن ينبثق شخصه الكامل فيخرج الى عالمه الكامل

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

السكون فى الظلام

للأستاذ أحمد أمين

ما ألذه ، وما أهنأه ، وما أحلاه !

يذهب بالأوصاب ، ويرد العافية الى الأعصاب

فترة سكون فى ظلام يجب أن يقضيها كل إنسان فى كل يوم — وإذا كان كل الناس فى حاجة اليها فرجال الفكر اليها أحوج ، هى راحة من عناء مجهودهم ، واسترداد لما فقدوا من رءوسهم ، واسترجاع لما قطروا من عصارة عقولهم

وهى فوق ذلك أدعى لصفاء الذهن ، وصحة التفكير ، وجودة الانتاج — فالبذرة لاتنبت فى جلبة وضوضاء وضياء ، إنما تنبت فى جوف الأرض ، حيث لاتراها عين ، ولا تؤذيها حركة ، وحيث تستمتع بكل مافى السكون والظلام من قوة ، حتى إذا تم نضجها خرجت إلى النور والهواء والحركة بساقها وفروعها ، لا بنفسها — لاوردة تفتن بجمالها ومنظرها وعبيرها قبل أن تدفن بذرتها ، يجب أن تمر بها أيام وأيام ، تشعر بنفسها ولايشعر الناس بها ، وحتى إذا أعجبت الناس ونفحتهم بنعيمها يجب أن يبق أصلها منعماً بظلامه وسكونه ، فاذا أقلقت مضجعها ، وسلبتها هدوءها سلبتك محاسنها

وكذلك كل حى لابد أن يموت ليحيا ، وهل النوم إلا ضرب من الموت ، ونوع من الفناء . دع الحى يحيا أياماً من غير نوم تره وقد تهدلت أعصابه ، وتهدمت قواه ، وقرب من الفناء الأبدى

وليس يكفى النوم للمفكر ، فهناك ضرب خير من النوم هو أوبقات يمضيها فى هدوء وسكون وظلام ، يكون فيها منتبهاً نائماً ، شاعراً حالماً ، يلذ فيها لذة النوم ، كما يلذ لذة الصحو ، يتعرض فيها لنفحات الله ، ويلمع فى روحه قبس أشبه ما يكون بالالهام ، وتأتيه الفكرة الناضجة ، أو الخطرة الكاشفة ، أو اللمحة الدالة ؛ فتكون خيراً من ساعات وساعات يقضيها فى العمل ، وبين المحبرة والقلم ، والصحف والكتب

قرأت مرة أن متعلماً كان يقص على معلمه أنه يصبح مبكراً فيقضى ساعات فى استذكار دروسه ، وساعات فى تعلم لغات أجنبية ، وساعات فى أخذ دروس جديدة فى علوم مختلفة ، حتى يمضى جزء كبير من الليل فيذهب الى فراشه وقد أنهكه التعب ، وأخذ منه كل مأخذ ، فقال له أستاذه : ومتى تفكر ، وأين تجد نفسك ؟

وهو سؤال له دلالته ومغزاه ، فأكثر الناس لايفكرون ، وإن ظنوا أنهم فيما يقرءون ويكتبون يفكرون ، وأكثر الناس يفقدون أنفسهم فى ثنايا صحفهم وكتبهم

ولأمر ما كان النبى صلى الله عليه وسلم « يخلو بغار حراء ، ويتعبد فيه الليالى ذوات العدد يتزود لذلك ، ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء »

فى غار حراء حيث السكون والظلام ، بعيداً عن الخلق قريباً الى الحق ، قد انقطع عن العالم وضوضائه ، والدنيا وألاعيبها ، قد صفت نفسه من صفاء محيطه ، ووجد نفسه فوجد ربه ، وتعرض للالهام فجاءه الالهام ، وتهيأ للوحى فنزل عليه الوحى

* * *

لكم تمنيت أن يكون للمسلمين تكايا أو خانقاهات فى أمكنة نزهة منقطعة ، ليست من هـذا النوع الذى يأوى اليه العاجزون والعاطلون ، والذين يأكلون ولا يعملون ، ولكنها من طراز حديث يهرع اليها من أراد أن يستجم نفسه ، ويريح قلبه ، ويسترد هدوءه ، بعد أن أتلفتها ضوضاء المدينة ، وجلبة الحياة العصرية — تكون مستشفى للنفوس بجانب مستشفيات الأبدان ، ويترهب فيها من أضناه العمل ، وأعياه الجهد ، رهبانية مؤقتة يجدد فيها نفسه ، ويغذى بهدوئها وسكونها عقله وحسه ، ويبعث إلى العالم خلقاً جديداً كما يبعث النوم الحياة — إذن لقلت أخطاء الناس ومظالمهم ، فأكثرها مبعثه فساد الأعصاب — وإذن لقل إلحادهم فأكثره منشؤه الانغماس فى المادة وشؤونها ، فاذا تجرد المرء منها زمناً وخلا بنفسه وأتيحت له فرصة التفكير فى هدوء وسكون وظلام تحرك قلبه للعبادة ، ونزع إلى الايمان ، فاستجاب لفطرته ، واستمع لطبيعته — وإذن لقلت مطامع الناس ، وتكالبهم على الحياة ، فحياة الهدوء والسكينة توحى بأن الحياة ظل زائل ، ومرحلة مسافر

لقد اعتاد الناس أن يفروا من متاعبهم إلى المقاهى والفنادق فى الهواء الطلق ، وعلى شواطئ الأنهار والبحيرات والبحار ،

ولكنها كلها تفيد الجسم ولا تفيد – كثيراً – الروح والنفس ، هى من نوع المستشفيات البدنية لا المستشفيات الروحية والنفسية ، فيها – عادة – كل مظاهر المدينة وتعقيداتها وأخيلتها وتكاليفها ، فهى لا تغنى غناء صحيحاً فى العلاج النفسى والروحى – إنما يغنى هذا الغناء أنواع من المعاهد والمؤسسات قد بنى على أساس نفسى وروحى لا يعبأ بزخارف المدنية وزينة الحضارة ، يريح النفس من عناء التكاليف والتقاليد ، ويسمو بها فوق المواضعات والمصطلحات ، فتجد النفس راحتها الطليقة ، وتعود إلى طبيعتها الحرة ، وتسبح فى تأملاتها ، وبذلك تسترد حيويتها ونشاطها

***

فى سكون الظلماء يرى الانسان بعينه مالا يراه فى الضياء ، ويسمع بأذنه مالا يسمع فى الضوضاء ، على أنه هو لا يرى بعينه فحسب ، ولا يسمع بأذنه فحسب ، بل كل شىء فيه يسمع ويرى ، يفهم منطق الطير ، ويتذوق موسيقاه ، ويدرك معانى المياه فى خريرها ، والرياح فى هبوبها ، والأشجار فى حفيفها – فكأنه منح من الحواس أضعاف حواسه ، وملك من الملكات ما لا يعد بجانب ملكاته – وكأن عالم الصخب والجلب يغشى عينه ، ويثقل سمعه ، ويبلد عقله ، ويثلم ذوقه ، فلئن كان الصوت فى عالم الحس له حدود ، فاذا قلت تموجاته عن حدوده أو زادت انعدم السمع ، فليس فى عالم الروح حدود للصوت ، ولئن كانت العين فى عالم الحس لا تدرك من الألوان إلا أقلها ، وتعجز عن إدراك أكثرها ، فعين الفكر لا يحدها حد ولا يعجزها لون ، ولئن كانت عيننا البصيرة لا تبصر إلا فى ضياء ، وأذننا لا تسمع إلا من قرع هواء ، فعيوننا وآذاننا الروحية تستعين بالسكون والظلماء ، أكثر مما تستعين بالضوء والهواء

***

إنى لأرثى لهؤلاء الذين يضيعون كل حياتهم فى هزل ، بل أرثى كذلك لهؤلاء الذين يقضون نهارهم فى وظائفهم وأعمالهم . ثم ينصرفون الى لهوهم حتى يناموا ، بل أرثى أيضاً لهؤلاء الذين يقضون أوقاتهم بين بحث علمى ، وقراءة وتأليف وتعليم . ثم لهو قليل ونوم ، وأعتقد أن هناك عنصراً فى الحياة ينقصهم وهو عنصر التأمل ، ولست أعنى بالتأمل ذلك الضرب من الأسلوب المنطقى العلمى فى البحث والتفكير ، إنما أعنى ذلك الضرب الذى عناه القرآن بمثل قوله : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » وقوله : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » هو نوع من العقل قد مزج بنوع من الشعور ، وقد امتاز به الشرق على الغرب قديماً ، ومن ثم كان مبعث الأديان ، ومصدر الالهام

فى هذا الضرب من التأمل يجد الانسان نفسه حيث لا يجدها فى هزل ولا جد ، وفيه يعرف نفسه على حين أنه يعرف غيره أكثر مما يعرف نفسه ، وفيه يجلس الى نفسه ويصادقها ويصارحها على أن أكثر الناس يجالسون الناس ولا يجالسون أنفسهم ، ويصارحون الناس ولا يصارحون أنفسهم ، ويصادقون الناس وهم أعداء لأنفسهم

وأظن أن فى الاستطاعة أن يوضع برنامج متسلسل للتأمل كبرنامج القراءة والكتابة وتعلم اللغات وتعلم العلوم ، يبدأ فيه بألف باء التأمل ، وينتهى بيائه إن كان له ياء ، وتخصص له حصص يومية كحصص المواد العلمية ، وإن كانت حصصه تمتاز بأنها فى ميسور كل إنسان ، ليست تحتاج الى مدرسة يتردد عليها ، ولا إلى معلم بأجر ، ولا أدوات وكتب يتداولها ، إنما هى من قبيل تربية النفس بالنفس – وليست تحتاج إلا الى مران واعتياد وعرفان بكيفية السلوك

أول دروسها أن تخلو بنفسك ، ولا يكون ذلك إلا فى هدوء وسكون ، وخير أن يكون فى ظلام . ثم تجرد فى هذه الحصة من شواغل الدنيا وهمومها ؛ واستعرض نفسك من حيث بدنك كيف تؤذيه ببعض عاداتك ؛ وهل تدبره تدبير عاقل حكيم ، أو مستبد جاهل ، وما خير الوسائل لاصلاح ما تقع فيه من أغلاط ؟

وتدرج من هذا الى التأمل فى ناحية أخرى نحو علاقتك بعقلك ، وعلاقتك بالناس واستعراض ما يكون منك ومنهم

وارق الى خطوة ثالثة تسائل فيها نفسك ، ما غايتك وما مبادئك فى الحياة ، وهل وضعت لها خططاً ؟ وما مقدار تقدمك اليها أو تأخرك عنها ؟

سيسلمك ذلك – من غير شك – الى خطوات أوسع ، وتأمل أعمق حسب جهدك واستعدادك ؛ وستكون لك فى النهاية فلسفة لا من جنس فلسفة أفلاطون وأرسطو ، ولكنها فلسفة

شخصية قد بنيت على تأملك وشعورك لا على حفظك وقراءتك . وستتصل من هذا الطريق بأفق أوسع وملكوت أعلى

فى الحديث : « الناس نيام ، فاذا ماتوا انتبهوا » ولعل هذا الضرب من التأمل ينبههم فى حياتهم ، من غير أن ينتظروا أن يتنبهوا بموتهم

ربما كان هذا ضرباً من التصوف يتفق وروح العصر ، وإن شئت فقل إنه نوع من التصوف على أحدث طراز وأبدع نمط ، يبعث على الحياة لا الموت ، ويدعو الى النشاط والعمل لا الى الخمول والسأم ، ولعل الانسان يجد فى الركون اليه بعض أوقاته راحة مما رمتنا به المدنية الحاضرة من عناء ، وما أرهقتنا من عنت ، ولعلنا نستروح من هذا البرنامج نسيم الراحة فيراجعنا نشاطنا ، وتثوب الينا قوتنا ، وتعود الينا نفوسنا

أحمد أمين

عصر الخفاء فى مصر الاسلامية

٦ـ الحاكم بأمر الله

ختام البحث

للأستاذ محمد عبد الله عنان

— ١٠ —

إلى ذلك الحين سلخ الحاكم زهاء خمسة عشر عاماً فى الحكم ؛ وكانت فترة تحمل طابع الاضطراب والعنف والمفاجأة بما تخللها من غريب الاحكام والتطورات التى أتينا على ذكرها . ولكن الحوادث تدخل من ذلك الحين فى طور آخر ، ويميل العهد إلى نوع من الهدوء ، ويتجه الحاكم وجهة أخرى . كان ذلك الذهن المضطرم الهائم معاً لا يسكن الى ركود الحياة العادية ، وكان دائماً يؤثر التوغل فى عوالم الحياة الروحية . وكانت أعوام العصر الأخيرة مليئة بهذه التيارات الخفية التى تحجب عنا أغوارها ريب وظلمات كثيفة . كانت مصر فى هذه الأعوام مهداً خصباً لعصبة من الدعاة المغامرين الذين هبطوا اليها يبشرون بأديان وعقائد جديدة ؛ وكان الحاكم من وراء هذه الدعوات يرعاها ويرقب تطوراتها، حتى استحالت فى أواخر عهده إلى دعوة جريئة إلى « ألوهته » ، ونعت الحاكم عندئذ بقائم الزمان وناطق النطقاء . وقد سبق أن فصلنا عناصر هذه الحوادث والدعوات فى « الرســـالة » فى بحثنا « الدعوة الفاطمية السرية » فلا نعود اليها هنا

وكانت خاتمة الحاكم ، كحياته ، خفية مدهشة ؛ فقد غاض من هذا العالم وزهق فى ظروف غامضة ما زالت على التاريخ سراً عسير الجلاء [1]

* * *

وهنا نحاول ، بعد أن استعرضنا أعمال الحاكم بأمر الله وغريب أحكامه وتصرفاته ، ان نعرض إلى أدق وأصعب نقطة فى دراسة هذه الشخصية العجيبة

ماذا كانت حقيقة هذه الشخصية التى جمعت بين خلال وصفات يحمل أكثرها طابع العنف والشذوذ والتناقض ؟ وبأى عين يجب أن ننظر اليها ، وبأى معيار نستطيع أن نقدر صفاتها وأعمالها ؟ وأى أحكام يسوغ لنا أن نصدرها لها أو عليها ؟

لدينا فى ذلك مادة منوعة : أقوال الرواية الاسلامية المعاصرة والمتأخرة ، وحوادث العصر ، وأعمال الحاكم وتصرفاته ذاتها . فأما الرواية الاسلامية ، فلا ترى فى أمر الحاكم لغزاً يصعب استجلاؤه ؛ ولنلاحظ أولاً أن ما انتهى الينا من أقوال الرواية الاسلامية ، إنما هو فى الغالب أقوال المؤرخين السنيين ، خصوم الشيعة وخصوم الدولة الفاطمية ، واننا لم نتلق من تراث الشيعة الذى بددته الحوادث والدول الخصيمة ما يلقى ضياء كافياً على ذلك الخفاء الذى يحيط بشخصية الحاكم وأعماله . والحقيقة أن الرواية الاسلامية تأخذ بظواهر الحوادث المادية ، وتكتفى بأن تقدم الينا الحاكم فى تلك الصور المروعة المثيرة التى أشرنا اليها ؛ وقلما تحاول أن نلتمس فيما وراء ذلك شيئاً من البواعث والأسباب التى يمكن أن نعلل بها بعض نزعات الحاكم وتصرفاته العجيبة . وقد أوردنا بعض أقوال الرواية الاسلامية فى وصف الحاكم ؛ فهى لا ترى فيه أكثر من أمير مضطرب العقل والتفكير ، عنيف الأهواء والنزعات ، كثير العيث والسفك ، شديد التناقض ، لا يصدر عن روية أو منطق متزن ، ولا يتحرى غاية أو مثلاً معقولة . هـذه هى الصورة العامة التى يقدمها الينا المؤرخون

(١) نترك هذا البحث أيضاً إذ سبق أن عالجناه فى فرصة سابقة

المسلمون عن الحاكم ؛ وهى صورة بسيطة ساذجة مستمدة من ظاهر الحوادث المادية ؛ فقد كان الحاكم طاغية شديد البطش والسفك ، ولكنه كان يتخذ السفك وسيلة لا غاية ، وكان القتل فى نظره خطة سياسية ؛ وكان عنيف الأهواء والنزعات ، ولكنها لم تكن نزعات شهوة نفسية ، وإنما نزعات ذهن يرتفع عن الوسائل العادية لتوجيه مجتمع يراه جديراً بالتغيير والتطور ؛ وكان متناقضاً فى كثير من تصرفاته ، ولكن تناقض الذهن الذى يحاول مختلف الوسائل والتجارب لتحقيق غايات معينة . ومع ذلك فانه لم يفت بعض المؤرخين أن يلاحظ أن عقلية الحاكم لم تكن بتلك البساطة التى تصور بها ، فقد وصفه الذهبى بأنه كان « خبيثاً ، ماكراً ، ردىء الاعتقاد »(١) ، وهى صفات ليست من خواص الذهن المضطرب السقيم الذى يفكر دون تدبر ويعمل دون غاية

والواقع أن الحاكم بأمر الله كان عقلية مدهشة ، وكان لغزاً عسير الفهم ؛ وإذا كان قد اشكل على المؤرخين المسلمين من معاصرين ومتأخرين فلم يحاولوا فهمه ، فانه ما زال أيضاً فى بعض نواحيه لغزاً على عصرنا ، وإن كنا نستطيع أن نحاول فهمه من بعض النواحى ، وتعليل كثير من أعماله وأحكامه . ويصفه العلامة الألمانى ميللر بأنه « من أعجب وأغمض الشخصيات التى عرفها التاريخ » ؛ ويقول : « إن من يقرأ ما أورده المؤرخون المتأخرون من مختلف الأساطير والقصص يخرج بأنهم لم يفهموه ، وانهم اعتبروه مجنوناً فقط ؛ وقد جرى رأيهم فيه مجرى الحقيقة ، ولكن توجد ثمة شواهد واضحة على أن هذا الأمير الذى هو أعجب من أنجبت أسرته ، كان أشدهم اثارة للأساطير من حوله ، وأن حجاباً كثيفاً قد أسبغ على صورته فلا نستطيع أن نظفر منها إلا بلمحات »(٢)

والآن ماذا نستطيع أن نقول فى قوانين الحاكم وتصرفاته ؟ وكيف ننظر اليها ؟ هل كانت فى مجموعها فورات مجنون ونزعات مخبول كما تصورها معظم الروايات الاسلامية ؟ إن كثيراً من هذه القوانين والأحكام يحمل طابع القسوة والاغراق ، ولكن من التحامل والظلم أن نصفها بالسخف المطبق ، وأن ننعت صاحبها بالجنون . ولقد ظلم التاريخ الحاكم كما ظلم كثيرا من الطغاة المصلحين ؛ وقد كان الحاكم طاغية ، ولكن مصلحاً على طريقته ؛ وكان يرمى بما يصدر من القوانين والأحكام الى تحقيق غايات معينة ، دينية وسياسية واجتماعية ، ربما خفيت على الكافة ، لأنها تتعلق بسياسة الدولة العليا ؛ ومن ثم كان الريب فى حكمتها والسخط عليها ؛ وكانت القسوة فى تطبيقها

فأما معاملة الذميين : أعنى اليهود والنصارى ، وما صدر فى شأنها من الأوامر والأحكام المشددة ، فلم تكن بدعة فى ذاتها ، ولم تكن حدثاً جديداً فى الخلافة الاسلامية ؛ ولم يكن فيها من الجديد سوى روحها ووسائلها الشديدة التى جعلت منها نوعاً من الاضطهاد المنظم . ولقد كانت الخلافة الاسلامية تأخذ بسياسة التسامح الدينى وتطلق لرعاياها الذميين الذين يؤدون الجزية حرية الاعتقاد والشعائر ؛ ولكن الذميين كانوا يلقون من الوجهة الاجتماعية دائماً نوعا من المعاملة الخاصة ؛ ومنذ خلافة عمر فرضت عليهم بعض الأحكام والقيود التى تجعلهم من الوجهة الاجتماعية أدنى من المسلمين ، وكان منها قيود تتعلق بالأزياء وركوب الخيل ، وحمل السلاح ، واقتناء العبيد(١) ؛ وكانت هذه الأحكام تتخذ فى عصور الحماسة الدينية لوناً من الشدة يختلف باختلاف الظروف والأحوال . وقد رأينا أن الخلافة الفاطمية كانت تتبع سياسة التسامح الدينى نحو اليهود والنصارى ، وأنهم فى ظلها ازدهروا وتبوءوا أرفع مناصب الثقة والنفوذ ، وأن موقف الحاكم نحوهم ، واشتداده فى معاملتهم على هذا النحو ، كان انقلاباً فى السياسة الفاطمية . وقد نستطيع أن نفسر هذا التطرف من جانب الحاكم ، بأنه نوع من الغلو الدينى له بواعثه السياسية ؛ ففى هذه المرحلة التى اشتد فيها الأمر على اليهود والنصارى ، كان الحاكم يبدى كثيراً من التعصب والغلو سواء من الناحية الدينية العامة أو الناحية المذهبية الخاصة ؛ ولكن هذه الشدة استحالت فى أواخر عصره الى نوع من اللين والرفق بالنصارى واليهود ؛ ذلك لأن هذا الذهن المضطرم يستحيل عندئذ الى ذهن فلسفى حر التفكير ، ينظر الى الأديان كلها نظرة واحدة ؛ وإن كانت السياسة العليا تحتم عليه أن يؤيد دين الدولة ومذهبها الرسمى ؛ وقد كان الحاكم ولد أم نصرانية كما قدمنا ، أفلا نستطيع أن نلمس أثر هذه الأرومة أيضاً فى هذا

(١) راجع النجوم الزاهرة (٤ ص ١٧٨)

(٢) Mülter, Der Islam I. p 628

(١) راجع هذه الأحكام فى فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ١٥١

التكوين الديني المضطرب ، وفي هذا التردد بين الشدة واللين ؟

ومما يلاحظ في هذا الصـــدد أن موقف الحاكم ازاء النصارى واليهود هو من المواقف القليلة التي ثبت فيها الحاكم على سياسة واحدة ، وأنه لم يجنح فيه من الشدة الى اللين إلا في أواخر عصره حينما ظهر الدعاة السريون يدعون الى دين جديد وعقائد جديدة

وقوانين الحاكم الاجتماعية ؟ هل كانت تشريعاً جنونياً خالياً من كل باعث وحكمة ؟ إن الحكم على هذه القوانين يقتضي أن نفهم روح العصر وخواص المجتمع المصري يومئذ ؛ كان الحاكم بأمر الله على رأس خلافة مذهبية يقوم سلطانها السياسي على صفة الامامة الدينية ؛ وكانت هذه الخلافة تريد أن تحيط ملكها في مصر بسياج قوي من الخلال القوية التي أحاطت ملكها في المغرب ؛ ولكنها ألفت في مصر مجتمعاً متحضراً يميل الى الترف والحياة الناعمة ؛ ولم ترد أن تضيق على هذا المجتمع بادئ بدء ، لأنها كانت تخطب وده وتسعى الى تأليفه ؛ ولهذا كانت تسايره ، وتغريه بيذخها وبهائها ، وتطلق له أعنة البهجة والمرح ، وتغمره بالمواسم الفخمة والحفلات والمواكب الشائقة ؛ فكانت تذكي بذلك مرحه وخفته واستهتاره بدلا من أن تذكي فيه الخلال القوية التي تنشدها . وكانت عوامل الانحلال تجثم في قرارة هذا المجتمع الذي يخفي انحلاله تحت أثواب من الفخامة والبهجة ؛ وكانت الرذائل الاجتماعية على أشدها حينما تولى الحاكم بأمر الله ، وظهر ذلك الانحلال الاجتماعي في أشد مظاهره حينما نظمت حياة الليل ، وشهد الأمير في مواكبه الليلية مظاهر هذا الفساد الشامل . عندئذ عمد الحاكم إلى وضع هذه الخطة التي يمكن أن توصف بحق بأنها برنامج للاصلاح الاجتماعي ، ولجأ إلى تلك القوانين والاجراءات الصارمة كوسيلة لمكافحة هذا الفساد الاجتماعي الشامل ؛ وفيم تحريم الخمر ومطاردة المدمنين ، وتحريم الغناء واللهو الخليع إلا أن يكون لتقويم أخلاق الشعب ، وحماية أمواله وصحته من الاسراف والعبث ، وحماية المجتمع من ضروب الفساد التي يغرق فيها ؟ إن الأمم العظيمة في عصرنا تلجأ في أحيان كثيرة إلى إصدار مثل هذه القوانين لبث الاصلاح الاجتماعي ؛ وما عهد التحريم الأمريكي ببعيد ؛ فقد حرمت الخمر في أمريكا مدى أعوام ، وكانت تجربة اجتماعية هائلة لا تزال ذكراها ماثلة في الأذهان ؛ وما تزال بعض الدول تحرم بعض الملاهي التي تراها خطراً على الأخلاق العامة ؛ وما تزال بعض الحكومات تحد من حريات الشعب في التجوال بالليل في ظروف معينة حرصاً على الأخلاق والأمن العام

ومطاردة المرأة والحجر عليها ؟ لاريب أن الحاكم كان يذهب في ذلك إلى ذروة الغلو والاغراق ، ولكن المرأة من أشد عوامل الفتنة والغواية ، ولا سيما في عصور الفساد والانحلال ، وقد رأى الحاكم ، في الحجر على المرأة ، والمباعدة بينها وبين الرجل في حياة المدينة ، وسيلة لمكافحة الرذيلة وحماية الأخلاق الفاضلة . أما الاغراق في تطبيق التجربة ، فهو بلا ريب أثر من إغراق هذا الذهن الهائم في كل ما يعتقد ويبتكر ؛ وإذا كنا نستطيع أن نعلل فكرة الحجر على المرأة وإبعادها عن مجتمعات المدينة ، فمن الصعب علينا أن نعلل ذلك الاغراق في تطبيقها إلى حدود من القسوة الذريعة . بيد أنه ليس من الانصاف أن ننكر على الاجراء كل حكمة ، فمن المحقق أنه كان ذا أثر كبير في درء الفساد الشامل وتنقية حياة المدينة ؛ وإنا لنشهد في عصرنا في بعض الأمم العظيمة فكرة مماثلة في الحد من حريات المرأة الاجتماعية وردها إلى حظيرة الأسرة ، مع فرق في العصر والظروف . ففي إيطاليا الفاشستية ، وألمانيا الهتلرية ، تفقد المرأة كثيراً من حرياتها ، ويحظر عليها التبذل والتهتك في الأزياء ؛ وفي إيطاليا تلزم بألا يقل ثوبها عن طول معين ؛ وفي ألمانيا وإيطاليا يحظر اليوم كثير من ضروب اللهو الخليع ، وتمنع الحانات الليلية والملاهي العارية . ولا ريب أن الفكرة التي أملت على الحاكم خطته ، وتملي اليوم على ألمانيا الهتلرية وإيطاليا الفاشستية خطتها نحو المرأة ، ترجع في جوهرها إلى أصل واحد ، هو مكافحة عوامل الغواية والفساد التي يبثها تهتك المجتمع النسوي وإمعانه في صنوف الاستهتار والخلاعة

وأما تحريم بعض أنواع الأطعمة فقد يرجع إلى أسباب صحية لها قيمتها في ذلك العصر ، وأما تحريم ذبح الأبقار السليمة فهو إجراء ظاهر الحكمة وهو المحافظة على النسل . وأما قتل الكلاب فهو تحوط صحي لا يزال يتبع في عصرنا في جميع الأمم المتمدنة

ولسنا ندعي أننا نستطيع أن نعلل كل قوانين الحاكم وإجراءاته وتصرفاته أو أن ننفذ إلى بواعثها وحكمتها جميعاً ، فهناك كثير منها مما لا يستطاع فهمه وتعليله ؛ ولكن الذي نود أن نقوله هو أن هذه القوانين والاجراءات ، كانت عكس ما تصورها الرواية

الاسـلامية بأنها نزعات طاغية مضطرب الذهن ، تكون فى مجموعها برنامجاً إصلاحياً شاملا ، وترمى فى مجموعها إلى تحقيق غايات لا ريب فى حكمتها وسموها

يقول العلامة دوزى : « لم تكن قوانين الحاكم سخيفة كما يجب أن يصورها الرواة السنيون الذين اعتادوا أن يقدموا الينا من هذا الأمير شخصية مضحكة لاصورة حقة » ثم يقول : « ولقد أراد الحاكم أن يكافح الانحلال الشامل الذى سرى إلى مجتمع عصره بقوانين بوليسية صارمة ، وأحياناً غريبة شاذة » ثم يشرح رأيه بعد ذلك على ضوء هذه القوانين والأحكام المختلفة ، ويحدثنا بعطف عن تواضع الحاكم وتقشفه[1] ويقول ميلر بعد أن يلخص قوانين الحاكم الاجتماعية ، « إن هذه التصرفات ليست كلها تنم عن الحماقة ؛ وإذا كنا لا نستطيع أن نعلل كل أعماله ، فليس ذلك مما يحملنا على أن نعتبر تصرفاته فورة أهواء مستبد ، ولا سيما ونحن نراها فى نواحى أخرى سليمة معقولة . وكل ما وصلنا من الروايات إنما هو وقائع مجردة ، مشوهة ومبالغ فيها بلا ريب ؛ وإنه ليكون من المدهش اليوم أن نستطيع أن نحل رموز هذه المعضلة الشاملة » ثم يقول : « وليس لدينا إلا أن نعتقد أنه إما باطنى متعصب ، توهم فى نفسه الاغراق والالوهية ، وإما أمير ذكى بارع فى تاريخ أسرته ومذهبها ، واعتقد انه يستطيع أن يسمو فوق البشر وأن يحتقرهم ويصنفهم كالشمع طوع إرادته . وربما كان يجمع فى طبيعته المتناقضة بين شئ من هذا وشئ من ذاك . وربما لا يستطيع أن يظفر بالحقيقة هنا سوى خيال شاعر »[2]

والخلاصة أن الحاكم بأمر الله لم يكن تلك الشخصية الوضيعة الساذجة ، ولا تلك العقلية المخرفة التي تقدمها الينا الرواية ؛ ولم تكن أعماله وأحكامه ، كما صورت على كر العصور ، مزيجاً من النزعات والأهواء الجنونية ؛ إنما كان الحاكم لغز عصره ، وكان ذهناً بعيد الغور ، وافر الابتكار ؛ وكان عقلية تسمو على مجتمعها وتتقدم عصرها بمراحل . وكان بالاختصار عبقرية يجب أن تتبوأ فى التاريخ مكانها الحق

تم البحث

محمد عبد الله عنان
المحامى

النقل ممنوع

(١) Dozy : Essai sur l'islamisme P. 287 & 288
(٢) Müller; ibid; P. 630

سقراط والعالم الاسلامى

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد لهجت ألسنة الأثينيين باسم حكيم لا كالحكماء ، وفيلسوف لا كالفلاسفة . لا يتفق شكله وزيه مع جلال الحكمة ، ولا يتلاءم أصله ونسبه مع عظمة الفلسفة . فقد كان أفطس الأنف ، مرسل الشعر فى غير انتظام ، حافى القدمين ، حاسر الرأس ، مرتدياً كساء غليظاً . أبوه نقاش وأمه قابلة : مهنتان ليس لهما من الشرف نصيب كبير[1] وهو مع هذا يناقض أهل أثينا ، ويبين خطأهم ، ويسفه أحلامهم ، دون أن يدعى الاتيان بجديد ، أو تعليم الناس مالم يعرفوه . أجل لم يك هذا الفيلسوف رئيس مدرسة يجتمع فيها الطلاب ، ولا صاحب نظرية محدودة يتدارسها الأتباع والتلاميذ . بل كان يبعث حكمته فى الأسواق والطرقات ، ويلقى درسه أمام الحوانيت وفى ملاعب الشبان . وما كان هذا الدرس وتلك الحكمة إلا إعلانه دائماً أنه لا يعرف شيئاً ، وترديده لهذه الجملة المأثورة : « اعرف نفسك بنفسك »[2] . ذلكم الحكيم الغريب شكله ، القبيح منظره ، الشاذة تعاليمه وطريقته ، هو سقراط الذى نهج بالفلسفة منهجاً جديداً ، وكان على رأس طوائف فلسفية متعددة ومتباينة[3] بين فلاسفة الأغريق ثلاثة أسماء لا يكاد الانسان يذكر واحداً منها إلا وحضر بذهنه الآخرون . ومن ذا الذى يلفظ اسم أفلاطون دون أن يخطر بباله أنه كان تلميذاً لسقراط وأستاذاً لأرسطو ؟ أو من ذا الذى يتكلم عن سقراط ولا يلحظ تلميذه أفلاطون وتلميذ تلميذه أرسطو ؟ وفى الحق إن هؤلاء الحكماء الثلاثة يكمل بعضهم بعضاً : تضافروا على تكوين نظرية مشتركة نشأت بين يدى الأول ، وترعرعت لدى الثانى ، وأخذت شكلها الكامل عند الأخير . فكلهم أنزل الفلسفة من السماء الى الأرض وعني بالانسان فى تفكيره وسلوكه أكثر من عنايته بالشـؤون

(١) Bréhier, Histoire de la philosophie, I, 89 — 60.
(٢) Rivaud, Les grands courants de la peusée antique, 72 — 73.
(٣) Bréhier, vp. cit., I, 89.

الطبيعية فى نظامها وتقلبها . وكلهم بحث عن الفكرة l'ideé ou le concept فى طريق تكونها ، وأصل نشأتها ، ودرجة وجودها وبذا كانوا جميعاً أساتذة « الفلسـفة الفكرية » la philosophie conceptuelle التى لعبت دوراً هاماً فى تاريخ الدراسات النظرية ، والتى لا تزال عماد البحث العقلى الى اليوم (١)

لم يقف نفوذ سقراط عند الشعبة الأفلاطونية والأرسطوية ، بل تعداها الى مدارس أخرى كانت من أشد الناس عداء لأفلاطون وأرسطو . فالميجاريك تلاميذ أقليد الميجارى Euclide de Mégare ، والسينيك أتباع أنطستين Antisthènes يصعدون الى سقراط ، وإن كانوا من أول من خرج على المنطق ، وشكك الناس فى الحقيقة وكيفية الوصول إليها . فهم بهذا من أكبر خصوم « الفلسفة الفكرية » التى تحدثنا عنها . والأخلاق لدى أصحاب الرواق تعتمد على أساس سقراطى واضح ؛ فالرواقيون يرون – كما يرى سقراط – أن الحسن ما أملته الارادة ، وما اتفق مع العاطفة الشخصية . وعلى هذا يجب أن تؤسس الأخلاق لديهم جميعاً على دعامة من العزيمة والشعور الفردى (٣) . وطريقة اللاأدريين فى الحوار والمناقشة متأثرة قطعاً بطريقة سقراط ومن قبله من السوفسطائيين (٤)

ذلكم هو سقراط فى العالم الأغريقى ؛ وبودنا أن نعرف على أية صورة وصل الى العالم العربى ، وهل وجد بين العرب أنصاراً وأتباعاً مثلما وجد بين الأغريق ، وهل عُني المسلمون بشأنه عنايتهم بأفلاطون وأرسطو ؟ مما لا شك فيه أن هذين الأخيرين ملكا على العرب الجانب الأعظم من تفكيرهم الفلسفى ، وكانا موضع شغل الباحثين منهم ، ولعل ذلك راجع الى أن قدرا كبيراً من كتبهما ترجم الى العربيـة ، فساعد على دراستهما دراسة مستفيضة . أما سقراط فلم ينفذ الى الفكر الاسلامى إلا بواسطة ما رواه على لسانه أفلاطون وأرسـطو وبعض المؤرخين أمثال بلوتارك . بيد أن شيخ أثينا هذا ، ورسول « أبولون » ، وترجمان وحى « دلف » (٥) قد أثر فى نواح عربية هامة غامضة ؛ وسنحاول

(١) Ross, Aristotle's Metaphysics, I, XXX III et suiv

(٢) Bréhier, op. cit., I, 261 et suiv.

(٣) Janet. Histoire de la philosophie. 413–14.

(٤) Rivaud, op. cit., 179–180.

(٥) نحن نشير هنا الى ما رواه أفلاطون من أن سقراط كان مبعوث « أبولون » وترجمان الآلهـة : voir Platon, Euthyphron, 3 b, Alcibiade, 103–105e

الكشف عنها اليوم

فى سقراط ظاهرتان هامتان : حياته أو إن شئت شخصيته الغريبة ، وطريقته وتعاليمه ؛ وقد يكون ذيوع صوته راجعاً الى الأولى أكثر من رجوعه الى الثانية . فكثير من الناس يعرف سقراط الزاهد المتقشف الذى أعرض عن ملاذ الدنيا ، فلم يشرب نبيذاً قط ، ولم يتناول طعاماً شهياً ؛ وكثير منهم يعرف سقراط القوى العزيمة الذى لا يخضع لارادة غير إرادة الحق ، مهما عظم شأنها ؛ وكثير منهم يعرف سقراط البطل الذى ضحى بنفسه آمناً مطمئناً فى سبيل رأيه وعقيدته . كل هؤلاء يعرفون ذلك من سقراط ، وإن خفيت عليهم آراؤه ونظرياته . هذه الظاهرة الهامة فى الفيلسوف الأثينى هى التى بهرت المسلمين بوجه خاص ؛ فراعهم منه شخصه أكثر مما راعهم علمه ودرسه . وإنا إذا رجعنا إلى كتب التراجم العربية وجدنا أنها لا تكاد تدرس إلا حياته وقصـة موته . فابن النديم الذى ترجم له فى اختصار بلغ حد الأخـلال اكتفى بأن قال إنه « كان زاهداً خطيباً حكيماً قتله اليونانيون لأنه خالفهم » (١) ، والقفطى الذى وقف عليه نحو تسع صفحات من القطع الكبير بين فى تفصـيل كيف حوكم هذا المتهم البرئ ، وكيف نفـذ فيه حكم الاعدام (٢) . وابن أبى أصيبعة يشارك القفطى فى ترجمته المطولة ، ويضم اليها بعض حكم يعزوها إلى سقراط (٣) . الا أن هـذه التراجم فى جملتها تحوى أخطاء يجدر بنا أن نشير إلى بعضها . فمثلاً زعم ابن النديم ومن جاء بعده أن سـقراط ألف مقالة فى السياسة ، ورسالة فى السيرة الجميلة ؛ والحق أن هذا الفيلسوف لم يكتب شيئاً قط (٤) . ومن الغريب أن ابن أبى أصيبعة قد تنبه إلى هذا ولاحظ أن سقراط « لم يصنف كتاباً ، ولا أملى على أحد من تلاميذه ما أثبته فى قرطاس ، وإنما كان يلقنهم علمه تلقيناً لا غير » (٥) ؛ ولـكنه عاد فوقع فيما وقع فيه من قبله من الخطأ (٦) . ويكاد يجمع أصحاب

(١) ابن النديم ، الفهرست ، ٢٤٥

(٢) القفطى ، تاريخ الحكماء ، ١٩٧ — ٢٠٦

(٣) ابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء ، ١ ، ٤٣ — ٤٩

(٤) ابن النديم ، الفهرست ، ٢٤٥ — ابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء ، I ، ٤٩

(٥) ابن أبى أصيبعة ، المصدر نفسه ، ٤٣

(٦) المصدر نفسه ، ٤٩

التراجم هؤلاء على أن سقراط عاش ثمانين سنة أو جاوزها إلى مائة ، مع أنه توفى عن إحدى وسبعين سنة [١] . ويروى القفطى عن بعضهم أن سقراط كان شآميا ، وهذا خطأ واضح ، فان هذا الحكيم أثيني فى نشأته ونسبه ، ويمثل أول خطوة فى الحركة الفلسفية التى دامت فى أثينا نحو قرن أو يزيد [٢] . ومهما يكن من شيء فانا إن غضضنا الطرف عن هذه الهفوات الصغيرة وجدنا أن هؤلاء المؤلفين وصفوا حياة سقراط فى جزئياتها الهامة

لم تَلْفت هذه الحياة العظيمة نظر مؤرخى العرب وحدهم ، بل كان لها أثر بين على طائفة من الفلاسفة والعلماء . فالكندى بلغ به حبه للفيلسوف الأغريقى وإعجابه به أن كتب فيه عدة مؤلفات ، منها : رسالة فى خبر فضيلة سقراط ، رسالة فى ألفاظه ، رسالة فيما جرى بينه وبين الحرانيين ، رسالة فى موته [٣] . وهناك تشابه بين سقراط والكندى لن يفوتنا أن ننبه اليه ؛ فلئن كان الأول قد مهد « للفلسفة الفكرية » فى العالم الأغريقى ووضحها بأمثلة من الأخلاق والحياة الدارجة ، فان الثانى هو أول من اتجه نحو الدراسات الفلسفية فى العالم العربى [٤] . وإخوان الصفاء يصعدون بسقراط الى درجة النبوة ، ويعقدون لموته فصلاً قيما فى رسائلهم ؛ وعلهم استقوه مما كتبه الكندى من قبل [٥] . ويرى الرازى طبيب الاسلام الأكبر وفيلسوفه الذى لم يدرس بعد الدرس اللائق به أن سقراط هو الفيلسوف الحق ، ويعارض به أتباع أرسطو من زملائه ومعاصريه المسلمين [٦] . ومعروف ما بين الرازى وإخوان الصفاء من صلات فى العقيدة والآراء الفلسفية والسياسية . فلسقراط إذاً أبناء وتلاميذ فى الديار الاسلامية ، كما كان له من قبل فى البلاد الأغريقية ؛ وهؤلاء التلاميذ ألصق بشيعة الاسماعيلية والمتصوفة الذين شاءوا أن ينهجوا نهج حكيم أثينا فى زهده وتقشفه ، وأن يتفانوا تفانيه فى نصرة مبادئهم

أما تعاليم سقراط ، وإن بدت ثانوية فى نظر مفكرى الاسلام ، فانها لم تكن مجهولة لديهم . وقد اختص الشهرستانى بإيراد أكبر قدر منها فى كتابه الملل والنحل . فهو يعرض أولاً آراء سقراط الدينية والميتافيزيقية ، مبيناً ما قاله فى صفات البارئ وذاته ، ومفيضاً فى ذلك بدرجة محسوسة [١] . ثم يجاوز هذا الى الكلام عن مذهب سقراط فى المبادئ والعلل [٢] ، وفى أزلية النفوس الانسانية ووجودها السابق لوجود الأبدان [٣] . وهذه الآراء المنسوبة إلى سقراط قد جاءت بنصها على لسان أفلاطون ؛ على أن العرب أنفسهم لم يستقوها إلا من مؤلفات الأخير . وهنا تعترضنا مشكلة تاريخية مشهورة ، ألا وهى أنا إن سلمنا بأن كل مارواه أفلاطون باسم أستاذه من عمل الثانى لم يبق للأول شيء وعلى العكس من ذلك إن كانت مؤلفات التلميذ تترجم عن رأيه الخاص فانا لانكاد نجد لسقراط نظرية مستقلة ؛ وقد كنا نأمل أن نحل هذه العقدة التى حار فيها المؤرخون المعاصرون على ضوء المصادر الاسلامية ، فلم نظفر فيها بما ينقع الغلة . وفى رأينا أن سقراط لم يعن بتكوين نظريات فلسفية مفصلة ، وكل مهمته أنه أشار إلى أفكار عامة تولاها أفلاطون من بعده بالدرس والتحليل

بيد أن لسقراط عملاً آخر شخصياً لاينكره عليه أحد ؛ وهو طريقته الجدلية المبنية على الاستنباط والتشكيك . بهذه الطريقة اشتهر ، وبها تمكن من قهر جماعة السوفسطائيين ، وبواسطتها أصلح كثيراً من الأخطاء الشائعة ، ومهد السبيل لتكوين الأفكار العامة . وقد وصلت هذه الطريقة إلى العرب — كما وصلت إلى المحدثين — فى ثنايا كتب أرسطو وأفلاطون ؛ ولفلاسفة الاسلام فى شرحها ومناقشتها أبحاث مختلفة [٤] ؛ فسقراط المثل الأعلى فى التضحية ، وسقراط الباحث النظرى ، وسقراط الناظر القوى الحجة قد وجد فى العالم العربى أتباعاً وتلاميذ ، بل أنصاراً ومحبذين

ابراهيم بيومى مدكور
دكتور فى الآداب والفلسفة

(١) ابن النديم ، الفهرست ، ٢٤٥ — ابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء I ، ٤٧

(٢) القفطى ، تاريخ الحكماء ، ١٩٨

(٣) ابن النديم ، الفهرست ، ٢٦٠

(٤) Madkour, La place d'al Fârâbî, p. 8—9.

(٥) اخوان الصفا ، رسائل ، ١٧ ، ٩٩ — ١٠٠ (طبعة مصر)

(٦) ماسينيو ، محاضرات غير مطبوعة بالكوليج دى فرانس ، ١٩٣٣

(١) الشهرستانى ، الملل والنحل (طبعة مصر بهامش الفصل لابن حزم) (III) ٢٧ — ٣١

(٢) المصدر نفسه ، ٣١ — ٣٢

(٣) المصدر نفسه ، ٣٢ — ٣٣

(٤) Madkour, L'organon d'Aristote..., p. 133.

رسالة الأزهر *

لالأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر

الشيخ محمد مصطفى المراغي

... قد يسأل بعض الناس : ما فائدة الأزهر ، أو ما هي رسالة الأزهر كما يقال اليوم ؟ فأقول لهؤلاء : رسالة الأزهر هي حمل رسالة الاسلام . ومتى عرفت رسالة الاسلام عرفت رسالة الأزهر

الاسلام دين جاء لتهذيب البشر ورفع مستوى الانسانية والسمو بالنفوس الى أرفع درجات العز والكرامة . قد طوح بالوسطاء بين الناس وربهم ، ووصل بين العبد وربه . ولم يجعل لأحد فضلاً على أحد إلا بالتقوى ، وقدس العلم والعلماء ، وقرر في غير لبس ما يليق بذات الخالق من الصفات . وما قرره في ذلك هو منتهى ما سمت إليه الحكمة ، ووصل اليه العقل . وفرض عبادات كلها ترجع الى تهذيب النفس ، وتلطيف الوجدان ، وأبان أصول الأخلاق ، وقرر التمتع بالطيبات ولم يحرم إلا الخبائث ، ووضع حدوداً تحد من طغيان النفوس ونزوات الشهوات ، ووضع أصول النظم الاجتماعية وأصول القوانين : قواعد كلها لخير البشر وسعادة المجتمع الانساني

هذه صورة مصغرة جداً للدين الاسلامي ، ورسالة الأزهر هي بيان الدين الاسلامي ، وشرح قواعده وأسراره ، ومتى أدى هذه الرسالة على وجهها فقد أدى نصيباً عظيماً من السعادة والخير للجمعية الانسانية

في القرآن الكريم حث شديد على العلم ، وعلى معرفة الله وعلى تدبر مافي الكون ، وليس هناك علم يخرج موضوعه عن الخالق والمخلوق . فالدين الاسلامي يحث على تعلم جميع المعارف الحق . وليس في المعارف الصحيحة المستقرة شيء يمكن أن يناقض أصول الدين ويهدمها

نعم قد توجد معارف تناقض بعض ما وضعه العلماء في شرح القرآن والحديث والفقه وغير ذلك ، ولكنا لا نهتم لهذا . فليسر العلم في طريقه ، ولنصحح معارف الماضين ، لكن على شريطة أن يكون ما يخالف معارفنا من العلم البرهاني المستقر

ولست أقصد بحديثي هذا أن يكون الأزهر مدرسة طب أو هندسة ، أو كلية للكيمياء أو ما يشبه هذا : ولكني أعني أن هناك علوماً ومعارف لها صلة بالدين وثيقة ، تعين على فهمه ، وتبرهن على صحته ، ويدفع بها عنه الشبهات . فهذه العلوم يجب أن يتعلمها العالم الديني أو يتعلم منها القدر الضروري لما يوجه اليه

قد تغيرت في العالم طرق عرض السلع التجارية ، وأصبح الاعلان عنها ضرورياً لنشرها وترغيب الناس فيها . ولديكم الحوانيت القديمة ومخازن التجارة الحديثة ، فقارنوا بينها تدركوا ما في طريقة العرض الحديثة من جمال يجذب النفوس اليها ، وما في طريقة العرض القديمة من تشويه ينفر الناس منها . وقد توجد في الحوانيت القديمة سلع أحسن صنفاً وأكثر قيمة وأمتن مادة ، ومع ذلك فهي في كساد

وكما تغيرت طريقة عرض السلع تغيرت طريقة عرض العلم ، وأحدث العلماء طرائق تبعث الرغبة الملحة في العلم ، وتنفي عنه الملل والسأم

حدثت هذه الطرق في إلقاء الدروس والمحاضرات ، وحدثت في تأليف الكتب أيضاً . وهذا المثل ينطبق علينا . ففي جميع الكتب التي تدرس في الأزهر ، وفي جميع العلوم التي تدرس في الأزهر ، اعلاق نفيسة لا تحتاج إلا الى تغيير طريقة العرض في الدرس والتأليف ، وفي الفقه الاسلامي نظريات تعد الآن أحدث النظريات عند رجال القانون ، وفي الفقه الاسلامي آراء يمكن أن يسير عليها الناس الآن من غير حرج ، وهي تحقق العدالة في أكمل صورها . ولكن هذه النظريات البالغة منتهى الجمال والحكمة يحجبها عن الناس أسلوب التأليف القديم

على الأزهر أن يسهل فهم علومه على الناس ، وأن ييسر لهم هذه المعارف ، وأن يعرضها عرضاً حديثاً جذاباً مشوقاً

ومسألة أخرى يجب أن يعنى الأزهر بها : هي تطهير الدين الاسلامي من البدع ، وما أضيف اليه بسبب الجهل بأسراره ومقاصده . فهناك آراء منثورة في كتب المذاهب وفي غير كتب المذاهب يحسن سترها ضناً بكرامة الفقه والدين

* من خطبة قيمة ألقاها في الأزهر على العلماء والطلاب

ومن الواجب أن يعترف بأن المذاهب الاسلامية جملة تغنى عن الاجتهاد فى المسائل التى عرضت من قبل متى تخير العلماء منها

وأذكر قصة طريفة تجدونها فى كتاب الولاة والقضاة للكندى :

« كان فى مصر قاض شافعى المذهب فى عصر الامام الطحاوى . وكان يتخير لأحكامه ما يرى انه محقق للعدل من آراء الأئمة ولا يتقيد بمذهب . وكان مرضى الأحكام لم يستطع أحد أن يطعن عليه فى دينه وخلقه . سأل ذلك القاضى الامام الطحاوى عن رأيه فى واقعة من الوقعات . فقال الطحاوى : أتسألني عن رأيى أو عن رأى أبى حنيفة ؟ قال القاضى : ولم هذا السؤال ؟ قال الطحاوى : ظننتك تحسبنى مقلداً . فقال القاضى : ما يقلد الا عصبى أو غبى ؟ »

فتخير الأحكام نوع من الاجتهاد ولكنه الاجتهاد الذى لم يغلق الناس أبوابه

اصلاح التعليم فى الأزهر واجب اجتماعى لاصلاح الامم الاسلامية على مختلف أقطارها وأجناسها ، وعلى كل مسلم أن يساهم فيه اذا استطاع الى ذلك سبيلا

وأنا أرجو الله سبحانه أن يوفق العلماء وطلاب العلم الى الأخلاص فى النهوض بالازهر ، فان الاخلاص فى ذلك اخلاص لله ولرسوله وللمؤمنين وللدين الحق الذى وعد الله أن يظهره على الدين كله ، وجعله هداية عامة لجميع البشر

ونصيحة أقدمها إلى العلماء وطلاب العلم فى الأزهر راجياً تدبرها ، وهى احترام حرية الرأى ، والتحرج من الاتهام بالزندقة والكفر ولا أطالب بشىء بعد بدعة . ولا أحدث فى الدين حدثاً بهذه النصيحة . فهى موافقة للقواعد التى وضعها سلف الأمة رضى الله عنهم . وتروها مبسوطة واضحة فى كتب الأصول وفى جميع كتب الامام الغزالى

وحاصلها — على ما أذكر — أن المسائل الفقهية يكفر منكر الضرورى منها كالصلاة والزكاة وحرمة الزنا وشرب الخمر وقتل النفس والربا

أما إنكار أن الاجماع حجة ، وخبر الواحد حجة ، والقياس حجة ، فلا يوجب الكفر ، وما عدا ذلك من المسائل الفقهية لا إثم فى إنكاره مطلقاً . على شرط أن يكون الانكار غير مصادم لنص أو إجماع

على هذا أجمع الصحابة رضى الله عنهم ، وأجمع عليه الأئمة ، ولم يعرف أن بعضهم أثّم بعضاً

وعلى الجملة فما دام المسلم فى دائرة القرآن لا يكذب شيئاً منه ، ولا يكذب ما صح عن رسوله صلى الله عليه وسلم بطريق قاطعة فهو مسلم لا يحل لأحد أن يتهمه بالكفر

عرضت لهذه النصيحة لأنها تسهل على أهل الأزهر معاشرة الناس ، والعمل بها يمكن من نشر الدعوة ومن الجدل بطرقه المقبولة . والعمل على خلافها منفر يحدث الشقاق ويورث العداوة

أسأل اليه أن يهبنا رشداً ، وأن يملأ قلوبنا خشية وهيبة من جلال الله ، ويملأها عزاً وشفقة ورحمة لعباده

وإذا كانت مهمة الأزهر حمل رسالة الاسلام للعالم ، فمن أول واجب على أهله أن يعدوا أنفسهم لتعلم اللغات ، لغات الأمم الاسلامية وغير الأمم الاسلامية ، والله لم يرسل رسولاً إلا بلسان قومه ليبين لهم

فليحقق الأزهر القدوة ، وليرسل إلى الناس رسلاً يفقهونهم فى دينهم بلسانهم : وسأعنى بهذه المسألة كما أعنى بتثقيف إخواننا الذين أسماهم القانون « أغراباً » فان لهم من الحقوق والحرية فى هذا الوطن ما لكل فرد من أهل البلاد ، وأرجو أن يفكروا طويلاً فيما يفرضه عليهم دينهم من الهداية والارشاد وإسعاد المجتمع

فى طريق المدينـــــة *

للأستاذ على الطنطاوى

لفح وجهه نسيم الفجر البارد ، فهمّ بأن يقوم الى النافذة فيغلقها ويعود الى سريره ، ثم تخاذل واسترخى ، ولبث مستلقياً ، فسمع أصواتاً غريبة ، خيّل اليه أنها أصوات الوحوش ، أو أحاديث الجنّ ، فجمد من الخوف ، وحدّق فيما حوله ، فرأى كأنما هو نائم فى أرض الشارع ، وعلى جانبيه أبنية ضخمة عالية ، مربعة ومستديرة ، والوحوش تطلّ عليه من أعاليها ، تصرخ صراخاً مرعباً ، فاستعاذ بالله من هذا الحلم — وتقلب فى فراشه ، وألقى بيده على طرف السرير ، فأحسّ كأن قد وخزته ابرة ، أو كأن حية لدغته ، فقفز مذعوراً . وإذا هى الحقيقة لا الحلم ، وإذا حيال يده نبت من نبت الصحراء ، قصير شائك يقال له القتاد . . . كانت تضرب به الأمثال ، وإذا هو فى البادية ، فى « خور حمار » وإذا هى الرحلة تمتد به ثلاثة عشر يوماً ، وهو لايزال دون (العلا) ، ولايزال بينه وبين المدينة جبال وصحارَى تسير فيها السيارة أياماً

فجلس يذكر ما رأى فى هذه الرحلة من ألوان العـذاب ، وأشكال الخوف ، وما مرّ به من مشاق وصعاب أبصر فيها الموت عياناً ، ويئس فيها من النجاة . . . وذكر أنهم طالما تمنوا الموت لما وجدوا من العناء ، وأنهم طالما سلـكوا من شعاب تقوم فيها السيارة وتقعد ، ولاتنجو من شدة إلا إلى أشد منها ، وطالما ساروا فى رمال كانت تغوص فيها السيارة الى المرقاة فيدفعونها دفعاً ، ويمدون لها الخشب على الأرض مداً ، وطالما صعدوا جبالاً يعجز صعودها الماشى على رجليه ، فكانوا يجرون السيارة بالحبال ، وطالما هبطوا أودية لا يهبطها ممثلو الروايات الأميركية . . . وأنهم ساروا ألفاً وثلثمائة كيل فى أرض لم تطأها قط سيارة (١) . . .

وأنهم سلـكوا بين تبوك والعلا مسلـكا فى جبال المطلع ، ساروا فيه بالسيارة من ضحوة اليوم الى عصر الغد ، فلم يقطعوا من الطريق خمسة عشر كيلاً . . . وكانوا يدورون فيه كما دار بنو اسرائيـل فى التيه . يمشون ما يمشون ثم يعودون من حيث جاءوا ، وجبال المطلع جبال عظيمة غريبة الشكل ، ليست سلاسل ، ولـكنها آكام عالية ، وجبال منفردة ، عالية الذرى ، محدّدة القمم ، تشبه ذراها رءوس المآذن وهام البروج ، لها منظر جميل فتان ، فيه هيبة ، وعليه جلال ، وهى منثورة نثراً ، تفصل ما بينها مضايق وطرق صخرية ملتوية متشابهة ، حار فيها الدليل ؛ وكان معهم دليل حاذق شيطان من شياطين العرب ، يقال له محمد الأعرج من مشايخ بنى عطية ، وهو أعرج طويل له عينا ذئب ، حاد الذكاء ، ضيق الصدر ، مخيف ، كانوا يتهيبون سؤاله ، فداروا فى هذه المسالك حتى نفد منهم الصبر ، وأدركهم الاياس ، فصعد الدليل قُنَّة أكمة ، فنظر يميناً ، ونظر شمالاً ، ثم صاح : لا إله إلا الله ، وتلك عادتهم : إذا أبصروا وادياً ، أو رأوا سهلاً ، أو طلع عليهم جبل ، تشهدوا . . . ثم نزل يظلع وقادهم فى طريق ملتوية حتى جاوز بهم المطلع ، وأشرف بهم على السهل الفسيح . وكان عليهم أن يهبطوا السهل ليخترقوا جبل الأقرع وهو قبالتهم ، فنظروا فلم يجدوا مهبطا ، وكانوا على رأس جدار قائم من الصخر ، ارتفاعه أكثر من أربعين متراً ، والنزول منه خطر محقق ، ولـكن الرجوع موت أكيد ، وإذا هم رجعوا وضلوا أياماً نفد فيهـا ما معهم من ماء ، فهلـكوا لامحالة عطشاً ، فاستخاروا الله ونزلوا نزولاً ما نظن سيارة نزلته مذ خلق الله السيارات : تتدحرج من تحتهم الحجارة الى قرارة المنحدر ، فيكون لها قرقعة مخيفة ، والسيارة كأنما هى من الانحدار قائمة على مقدمها ، والركاب شاخصة أبصارهم ، ينظرون عن أيمانهم وعن شمائلهم ، لا يدرون من أين يأتيهم الموت وقد تابوا واستغفروا ، واستودعوا الله أولادهم وأموالهم . . .

* كتبت هـذه الـكلمة فى خور حمار ، وهو الممر الوحيد فى جبال المزيلقة ، لابد للمسافر من دمشق الى المدينة من اجتيازه ، بتنا فيه ليلة الجمعة لثمان مضين من المحرم مع الوفد الذى خرج من دمشق يوم الأحد لأربع بقين من ذى الحجة لفتح طريق للسيارات بين دمشق والمدينة برأسه سعادة الشيخ ياسين بك الرداف المعتمد السابق للحكومة الحجازية فى الشام ، وهو صاحب هذا المشروع واليه يعود الفضل فيه

(١) الا سيارة صالح بن عبد الواحد أمير القريات التى سار بها من القريات الى المدينة

ومرّت عليهم ربع ساعة أهون منها رباط سنة فى جبهة الحرب ، ثم وفق الله فبلغوا السهل ، وهم يشهدون أن لا إله إلا الله . . . ويهبون كمن صحا من حلم مروع !

وكانت الشمس قد غابت ، والليل قد ارتفع ، فنزلوا للمبيت يستعدون لوادى الأقرع ، وكانوا على رغم مالقوا يسمعون من الدليل أنه هيّن بجنب خورحمار ، وأن العناء والبلاء إنما هما فى خورحمار ، فكانوا يرون خورالحمار هذا فى أحلامهم ، ويبصرونه فاتحاً فاه لابتلاعهم ، ويرون حيال رأسه حجراً مكتوباً فيه : هنا مات الوفد الأول الذى ذهب لفتح طريق السيارات . . .

وتلقوا من الغد وادى الأقرع ، فلما ولجوه ذكروا بالخير جبال المطلع ، ووجدوها حيال نار الأقرع جنة النعيم ، والوادى عريض فسيح ولكنه وعر ، كله صخور عظيمة ، ورمال خطرة ، إذا نجت السيارة من رملة صدمتها صخرة ، وان خلصت من الصخر غاصت فى الرمل ، فداروا فيه كما يدور الحمار فى الساقية ، وكان سيرهم سير السواق ، سفراً لا ينقطع . . . . ثم فتق لهم التفكير وجه الحيلة ، فأجمعوا الرأى على أن يركبوا السكة بالسيارات وعجبوا من أنفسهم كيف حملوا هذا العناء كله ، ولم يهتدوا إلى هذا الرأى . . . وكانت السكة عالية تمشى فوق الوعرة كأنها الصراط ممدوداً فوق جهنم ، فأمضوا ساعتين فى ارتقائها ، ثم لما ركبوها تعذر المسير عليها ، فعجبوا من أنفسهم كيف ارتكبوا هذه الحماقة ، ولم يعلموا أن السيارة لا تمشى على سكة القطار ، وأنفقوا ساعتين أخريين فى النزول عنها ، حتى إذا نزلت جلسوا على الأرض وقد طحن الجهد أجسامهم ، وملأ اليأس نفوسهم ، وانقطع أملهم من كل شىء إلا من الله ، وضل من يدعون إلا إياه ، فاقبلوا على الله بالدعاء والاستغفار ، وذاقوا من حلاوة الايمان وبرد اليقين ، ما اطمأنت به نفوسهم ، وارتاحت له ضمائرهم ؛ ثم لم يلبثوا أن استجاب الله دعاءهم ، وجاءهم منه الفرج ، وسمعوا هتاف الجند الذين بعث بهم أمير العلا بأمر جلالة الملك عبدالعزيز لمعونتهم وخدمتهم . . .

***

جلس يفكر فى هذا كله ، فيراه هيناً إذا قيس بخور حمار وذكر كيف أمضوا نهاراً بطوله ، يستعدون لدخول الخور ، فلما أقبلوا عليه رأوا مدخله كالشارع العظيم ، على جانبيه صخور كبيرة مكعبة مستوية قائمة كالبنيان ، كأنما قد بنتها يد بناء حاذق ، بميزان الزئبق والشاقول ، وفى وسطها جدار من الصخر عرضه ستة أمتار ، يشبه فى شكله سفينة عظيمة لم تنزل بعد إلى البحر ، لها مقدمها وجوانبها ، وقد قدر أصحابنا علو هذه الصخور من مائة إلى مائة وخمسين متراً ، فامتلأت نفوسهم رهبة وخشوعاً ، وأحسب أن لو رأى هذا الممر سياح الأمريكان لحملوا فى سبيل رؤيته عناء السفر فى البادية مهما طال وشق . . .

وأرض هذا المضيق رملية حمراء يغوص فيها الماشى إلى الركبة ، لها شكل متموج جميل يشبه شكل البحر ، يلذ المرء أن يلقى بنفسه عليها ، فيشعر كأنما يلقى بنفسه على فراش ناعم حلو . أو ينام على سطح الماء . . .

وذكر كيف انقضى النهار وانقضى الغد ولم يجاوزوا نصف المضيق ، ورفع رأسه وكان الفجر قد انبلج ، وبدت طلائع النهار ، فرأى هذه الصخور الشاهقة المستوية ، وهذه الشقوق التى تحدث فيما بينها مثل الأزقة ، يملأ مرآها النفس خشوعاً

وذكر كيف بذلوا جهدهم ، واستعانوا بعشرين من الجنود الأقوياء ثم لم يقطعوا فى يومين أكثر من كيلين فى هذا المضيق ، وخالط نفسه الضيق والملل من طول هذه الرحلة وعنائها وما قاسى فيها من التعب والجوع والعطش والنعاس ، وما عانى من سوء الصحبة ، وقبح الأخلاق ، وخاف أن تعطل السيارة ، أو يضلوا الطريق ، أو تمسكهم وعرة ، فينفد الماء ويموتوا عطشاً .. ولم يخف لصاً ولا سارقاً ، فقد جعل ابن السعود خور حمار وهو أفظع مكان فى البادية ، آمن من ميدان النجم فى باريز !

وفكر أيبلغ المدينة أم يهلك من دونها ، وهاجه تصور المدينة ، وأحيا فى نفسه الأمل مرأى القبة الخضراء وهى طالعة عليه من وراء الأفق البعيد ، وطار بها إلى الملأ الأعلى تخيله الوقوف بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصلاته فى الروضة ، وقيامه من بعد أمام الكعبة ، وشربه من ماء زمزم ، وسعيه بين الصفا والمروة ، وشهوده هذه الأماكن التى ولد فيها الاسلام

وعاش فيها محمد صلى الله عليه وسلم ، وكانت مهبط الوحى ، ومطلع شمس النبوة ، ومعقد الآمال من نفس كل مسلم

واستغرق فى تفكيره فلم ينبهه إلا صوت مؤذن القوم يرنّ فى هذا الوادى الساكن : الله أكبر ، لا إله إلا الله ؛ فتردد نداءه هذه الصخور الشم . وتمد الابل أعناقها مصيخة هادئة ، ويهب البدو من منامهم ليقيموا الصلاة ، وأصحابنا السواقون ومعلوهم يغطون غطيط البكر . . .

ثم قاموا إلى الصلاة ، فامحى الخوف من نفسه ، وصغرت عليه البادية ، وهانت عليه مشاقها ، وتضاءلت هذه الجبال القائمة حتى كأنما لصقت بالأرض ، وكأنما طويت له الغبراء فلم يعد ماقى فى البادية على بعد ألف وثلثمائة كيل من منزله فى دمشق لحبة من الرمل ، أو هو أهون على الحياة منها ، لأنها وان طار بها ريح ، أو حملها سيل ، باقية كما كانت ، لا تموت ولا تندثر ، وهو يموت من أجل رغيف من الخبز وكأس من الماء ، بل أحس كأنما هو فى منزله ، ولم لا ؟ وما يناله فى البادية إلا ما قد كتب عليه ، ولا ينال فى منزله إلا ما كتب له ، وإذا كان يأمن على نفسه اللصوص والأعراب ، وينام فى عرض الصحراء ، كما ينام فى أرض غرفته ، لا يمنعه باب ، ولا يحميه حارس ، ولا يخالط نفسه خوف ولا جزع ، لأنه فى حمى ابن السعود وأرضه ، أفلا يأمن من كان فى حمى الله رب ابن سعود وأرضه ؟

وكان القوم قد ذهبوا فأقبلوا يضعون الشاى والقهوة ، وجلست حيال صخرة أكتب هذه الكلمة « للرسالة » ، لأبعث بها مع جندى من البدو إلى بريد العلا . . . . ولست أدرى أنخرج من هذه البادية فنقرؤها ، أم تبتلعنا هذه الصحراء التى ابتلعت دولاً وأمماً وجيوشاً

وسيقرأ هذا الفصل قراء « الرسالة » وهم فى دورهم ومساكنهم ، لا يدرون ما الصحراء ، ولا يعرفون منها إلا ذكرها فى الكتب ووصفها فى الأشعار ، فيحسبونها تسلية أو خيالاً ، وما هى بالتسلية ولا بالخيال ، ولكنه مقام بين الموت والحياة ...

اللهم سلم !

على الطنطاوى

هل تأثر الفقه الاسلامى بالفقه الرومانى ؟

أو الحقيقة هى العكس ؟

بقلم صالح بن على الحامد العلوى

اطلعت فى العدد الحادى والتسعين من « الرسالة » الغراء على مقالين أحدهما للأستاذ أمين الخولى ، والآخر للأستاذ على الطنطاوى ؛ وكلا المقالين دائر على مقال آخر قد نشرته الرسالة عن الامام الأوزاعى للأديب الفاضل عبد القادر الجاعونى

ولم يستثر كتابتى من هذا ولا ذاك شئ إلا نقطة واحدة طرقها الثلاثة وكانوا فيها جد مختلفين ، وكادت بل شاءت الرسالة ان تساهم فى المعمعة ولكن بايجاز وإيماء . والنقطة المختلف فيها هى ما جعلته عنواناً لأسطرى هذه وهى : هل تأثر الفقه الاسلامى بالقوانين الرومانية أم الحقيقة هى العكس ؛ إذ تعرض الكاتب الجاعونى فيما كتبه عن الأوزاعى لقولة كولد زهير بتأثر الفقه الاسلامى بالفقه الرومانى وقال : (إن كان هذا صحيحاً فأحر بالأوزاعى أن يكون آخر المتأثرين به لأنه من أبعد الفقهاء عن الرأى ومن أقربهم إلى اتباع الكتاب والسنة ، والكتاب والسنة أبعد الأشياء عن التأثر بالفقه الرومانى) فكان الأستاذ الخولى فيما كتبه مؤيداً لرأى تأثر الفقه الاسلامى بغيره ، وكان الأستاذ على الطنطاوى فى مقاله منكراً كل الانكار أن يكون الفقه الاسلامى مأخوذاً من الفقه الرومانى ، وتشاء الرسالة أن تعلق عليه بأن هناك فرقاً شديداً بين التأثر والأخذ

وعلى تسليم صحة الفرق بين التأثر والأخذ فمحصل كلام الأستاذ الطنطاوى إنكارهما معاً والجزم بأن ذلك فى زمن العلم خرافة من الخرافات

هذه هى وجهات نظر هؤلاء الكتاب . ومهما قلنا بالفرق بين الأخذ والتأثر فكلا المعنيين يجريان إلى مدى واحد ؛ وهو أن يكون فى أصل الفقه الاسلامى ومزاجه شئ من الفقه الرومانى .

غير أنه على الأول بوجه مباشر ، وعلى الثانى بواسـطة الثقافة كما يقول الأستاذ الخولى

وموضوع مناقشتى الآن هو ما ارتآه الأستاذ أمين الخولى — من تأييد دعوى كولدزهير بأن الفقه الاسلامى متأثر بالفقه الرومانى . وقد كنت فى غُنية عن كتابة هـذه الأسطر لو كان الأستاذ على الطنطاوى — الذى أؤيده الآن — أسهب فى الموضوع ووفاه حقه من البسط والتدليل ، لـكنه على قوة حجته نحا فى الموضوع منحى الايجاز والاختصار ، وذاك ما حملنى على أن أعود — على بعـد الدار — للفت أنظار قراء الرسالة للموضوع مرة أخرى ، وبما أن مثار مناقشتى إنما هو ما كتبه الأستاذ الخولى أذكر أولاً ما قاله فى هذا الصـدد قال : (. . ومع عدم تعصبى للقول بهذا التأثر ومع القصد فى بيانه فانى أرى هذا الاستدلال على عدم تأثر الأوزاعى غير مقبول من الوجهة الاجتماعية والنفسية ، فان متبع الـكتاب والسنة لابد له من أن يفهمهما أو يتبين مراميهما وأغراضهما وعللهما وحكمهما ، ولـكل شخص فى هـذا الفهم والتبين عقله الخاص وشخصيته الخاصة ومنهجه الخاص ، وذلك كله من أشد ما يكون تأثراً بالثقافة والبيئة ، فلا غرابة فى أن يتأثر منهم الفاهم للـكتاب والسـنة المتبع لهما تأثراً جلياً بعوامل تثقيفه وظروف حياته كما تأثر بذلك تفسير القرآن فى كل الأزمنة ، بل كما تأثر بذلك فهم العقائد وأصول الدين ذاتها تأثراً لا يسعنا إنكاره ، ولا قيمة لحرصنا على هذا الانكار لأننا بذلك نقاوم سنن الله فى خلقه)

وقبل كل شيء نقول إن الاسلام فى ذاته جاء خارقاً لقاعدة البيئة والثقافة ، إذ قام النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو النبى الأمى الذى نشأ من أبعد الناس عن أن يطلع على قانون رومانى أو حكمة منقولة ، وأتى بهذا الدين الأقدس مناقضاً كل التناقض لما عليه قومه ، مبايناً لهم فى عاداتهم وعقائدهم إذ وجد فى وسط بعيد عن العلم ، ودرج فى بيئة كلها شرك ، وجو كله خرافات وأوهام ، وبينما هو فى هذا المحيط المشبع بالشرك والجاهلية إذا هو ينهض بدين كله حكمة ، ونور يسفه الشرك وينبذ الخرافات ، ويدعو الى شريعة سمحة بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد

ورداً على زعم التأثر نقول : إن الشريعة الاسلامية وجدت كاملة دفعة ، أو بعبارة أصح جاءت فى زمن واحد ، واستقيت من ينبوع واحد ، هو النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد حكم بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على جميع الجزيرة العربية الى العراق وأطراف الشام ، ولم يلحق الشارع الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بالرفيق الأعلى إلا وقد تركنا على المحجة البيضاء ، وهيأ لنا شريعة كاملة وقانوناً ربانياً منظماً يصلح لأن يطبق على أى جيل ، وعلى أية أمة ، ولم يزد فيه الفقهاء بعده شيئاً قط إلا تصنيفه ونقله ، غير أنهم فيما لم يجدوا فيه نصاً صريحاً يطبقونه على قواعده الأساسية . والنصوص الفقهية كلها صريحة بينة الأغراض واضحة المرامى ، أما الأغلب منها فمن الحديث والسنة ، وبعضها عن الـكتاب مفسراً بالسنة ، فكيف يكون لـكل شخص فيها فهمه الخاص وشخصيته الخاصـة ومنهجه أو عقله الخاص ، متأثراً بالثقافة والبيئة كما يقول الأستاذ الخولى ؟ إن الـكلام الصريح لا يحمل معنى غير ما يتبادر لذهن سامعه ، فاذا قلت مثلاً : لا تكذب فليس معناه الا لا تخبر بغير الواقع ، سواء كان ذلك فى القرن الأول للهجرة أو فى يومنا هـذا فى القرن الرابع عشر ، وسواء أكان السامع متأثراً بثقافة عربية أو رومانية أو صينية فان يستطيع بعامل ثقافته وظرف حياته أن يزيد فى معناها شيئاً ، وأرى أننا لو نقلنا خطبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى حجة الوداع مثلاً ونشرناها اليوم لما فهم منها من يعرف مدلولات الـكلام العربى من مثقفى اليوم إلا ما فهمه عشرات الألوف من المسلمين حينما خطبهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى ذلك الموقف الرهيب قبل ثلاثة عشر قرناً ونصف

ولا يجوز أن يقاس الفقه بالتفسير ، إذ لا يقاس بكتاب الله شيء لبلاغته وأسلوبه المعجز ، مع عمق معانيه وبعد أغراضه التى لا يستطيع حصرها واكتناهها فهم أو فكر ، وهذه فيه من أعظم الدلالات على إعجازه ، فهو لا يزال على الأحقاب والأجيال ينفحنا بمعانيه ومراميه بما يشرح الصدور ويقوى الايمان

على أن الاختلاف فى تفسيره وهو ما يراه الـكاتب من تأثير البيئات – ليس إلا لا يجازه المعجز مع بعـد مراميه الغيبية مما تاه لبعضه المفسرون الأولون ، فجاء الزمن يفسره ، فـكان هذا

من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم

ثم إن الفقه الرومانى الحديث على رغم أنه اختفى ثم اكتشف لم يظهر ولم يعمـل به إلا فى القرن الثانى عشر أو الثالث عشر بعد الميلاد . أما قبل الحادى عشر فانه لم يكن معروفاً حتى عند الرومان أنفسهم

ولا شك ان الفقه الاسلامى قد قرر وصـنف قبل ظهوره بقرون ، فكيف يكون متأثراً بشىء لما يوجد بعد ؟ وما قيمة زعم تأثر الفقهاء بالقوانين الرومانية إذا كان مصنفو الفقهاء وأئمتهم ، ومنهم مالك والشافعى وأحمد وأبو حنيفة والثورى والأوزاعى الخ درسوا وألفوا وصنفوا قبل أن توجد أو تعرف القوانين الرومانية للرومان أنفسهم ؟ أليست هذه مهزلة مضحكة ؟

وفحوى هـذا كله أنه محال أن يكون الفقه الاسلامى متأثراً بالفقه الرومانى فضلاً عن أن يكون مأخوذاً منه ، وسنبين بالبراهين القاطعة أن القوانين الرومانية هى المتأثرة به

الفقه الرومانى هو المأخوذ من الفقه الاسلامى

وإذا سقط احتمال تأثر الفقه الاسلامى بالفقه الرومانى ، فاذا كان هناك تشابه بينهما فالرجح بل المحقق أن الفقه الرومانى هو الذى أخذ مباشرةً عن الفقه الاسلامى . وقد كتب أحد علماء العلويين الحضارمة مقالاً فى هـذا الموضوع وفاهُ حقه بعنوان : من أين أخذ الأفرنج قوانينهم ، نشرته مجلة النهضة الحضرميـة قال فيه ما ملخصه :

إن دعوى اختفاء الفقه الرومانى ثم ظهوره بعـد ستة قرون أكذوبة لامرية فيها ، وقد كان الفقه الرومانى معروفاً ، وهو أشبه شىء بالفصول المضحكة . أنظر تاريخ الدولة الرومانية للعالم جيبون الجزء ٤ صفحة ٥٢٧ ، وذكر أمثـلة من معاملاتهم ثم قال : بمثل هذه المحاكمات القاسـية كانت تجرى الأحكام لغاية القرن الحادى عشر ، ولم تتبدل إلا فى الثانى عشر أو الثالث عشر . وقد قال ابن تيمية فى القول الصحيح : (إن النصارى فى طائفة من بلادهم ينصبون لهم من يقضى بينهم بشرع المسلمين إذ لم يكن لهم شرع عام يحكم به بين الناس ، وليس فى الانجيل حكم عام ، بل عامته الأمر بالزهد)

فكيف يصح أن ينسب هذا الفقه المشابه للفقه الاسلامى الحكيم بزعمهم الى أمة معروفة ، ولها فقه شائع معروف ، وكله قسوة وهمجية ؟ وكيف يسوغ عقلاً لأمة عظيمة أن يضيع عليها فقهها جملة ، ويبقى غائباً عنها طيلة قرون عديدة ثم يعود الى الظهور ؟ هل يصح هـذا إلا إذا صح أن تضيع عن أمة عاداتها وأخلاقها ودينها جملة ؟

ثم إن حكاية اختفائها وبروزها فى القرن الحادى عشر لم يقل بها غير هولود نيكوس سـنة ١٥٠١ م . ثم راجت ، انظر جيبون ٤ صفحة ٥٥٥ ، وقد اعتبرها بعض العلماء إذ ذاك غير حقيقة ، فقد قال القانونى الشهير سافينيه : إن القوانين الرومانية لم تختف لأنها ظلت معمولاً بها الى اليوم من غير انقطاع اﻫ . ويعنى بها القوانين القديمة المتقدم ذكرها . وبهذا وذاك تدحض دعوى اختفاء الفقـه الرومانى ثم ظهوره . ويتضح أن القوانين الحديثة ليست إلا حديثة الوضع ، وضعها بعض علمائهم مقتبسةً من الفقه الاسلامى وتبريراً لها عنـــد العامة انتحلوا اختفاءها وظهورها كسراً لتعصبهم

أما أدلـة أخذ القوانين الرومانية من الفقه الاسلامى فهى :

(أولاً) ما قدمنا من إقرار الأفرنج بفضل الفقه الاسلامى وإعجابهم بأحكامه ، ونصبهم فى بعض بلادهم قضاة يقضون به كما نقل ذلك العلامة ابن تيمية

(ثانياً) إن الفقه الاسلامى ، كما قدمنا ، قد ألف وصنف قبل أن تبرز القوانين الرومانية الحديثـة من اختفائها المزعوم ، فلم يبق بد من أحد أمرين : إما أن يكون الفقـه الاسلامى قد تأثر بها قبل وجودها وظهورها ، وهذا محال ، أو تكون هى المأخوذة عن الفقه الاسلامى ، وهذا هو المعقول والمنقول

(ثالثاً) ما نقله العلامة العلوى الذى اعتمدنا على ما كتبه فى مقالنا هذا قال : نقل العلامة المحقق الأستاذ الجرفادقانى الايرانى فى مقالة له فى هذا الموضوع عن مجموعة للعالم الباحث مفضل بن رضى الفراوى الاسفارنكى (وفراوة كورة من خراسان بين

شهرستان ومرو) فيها رسالة فى شرائط كمال الفقه للفتوى قال : كتب أبو العباس الكركرى من تلامذة بهمنيار ، وهو تلميذ الشيخ الرئيس ابن سينا ، فى رسالته الى مفتى مرو أحمد بن عبد الله السرخسى فى معنى كمال الفقه : إن أبا الوليد محمد بن عبد الله بن خيرة نقل فى تعليقاته على النهاية : إن طلبة العلم من الأفرنج الذين كانوا يسافرون الى غرناطة لطلب العلم ، اهتموا كثيراً فى نقل الفقه الاسلامى الى لغتهم لعلهم يستعملونه فى بلادهم لرداءة الأحكام فيها خصوصاً فى المائة الرابعة والخامسة من الهجرة ، فقد برعوا فى اللغة العربية ، ومنهم غربرت والبرت ، فانهما طلبا مساعدة العلماء لابراز مقصودهما ، وقد ساعدوهما حتى دونوا الفقه كاملاً وحوروه الى ما يوافق بلادهما اه ، وقال موسهيم الجرمانى إن غربرت المذكور كان مديناً فى معرفته لعرب أسبانيا ثم قال : (إن العرب ولا سيما عرب أسبانيا هم أصل وينبوع كل معرفة . . من القرن العاشر فصاعداً) كما نقله الأستاذ العلوى المذكور آنفاً

هذه البراهين كلها تؤيد ما قاله الأستاذ على الطنطاوى من أن الفقه الرومانى جديد لفقه جماعة من العلماء وتحقق أنهم أخذوه من الفقه الاسلامى ، وهذا ما يجب ألا يعتقد خلافه كل مسلم

ولست أرى دعوى تأثر الفقه الاسلامى بالفقه الرومانى إلا مكيدة دبرها من يريد الطعن فى الاسلام بطريق غير مباشر مثل كولدزهير وأمثاله ، وتلقفها عنهم منا معشر المسلمين من لم يدرك مراميهم السيئة وأغراضهم العدائية ، وجعل يقررها كأنها قضية مسلمة لا تصادم عقلاً ولا ديناً ؛ ومجيب جداً أن تجد هذه الفكرة لها قبولاً فى مصر . وأن تطبع وزارة الأوقاف كتاباً فى الفقه على المذاهب الأربعة يأتى فى مقدمته تقرير هذه الفرية التى انتحلها كولد زهير وتأييدها ؛ وعجيب أن يأتى الأستاذ الخولى مستسيغاً لها بل مبرهناً ومؤيداً مطبقاً ذلك على قاعدة تأثير الثقافة والبيئة

وبعد ، فلم يبق مساغ لدعوى التأثر فى الفقه الاسلامى ، ولا مجال للريب فى بطلانها ، وأنها ليست إلا خرافة وفرية تلقفها بعض المسلمين ، وليست الا أغنية من تلحين مستشرقى المبشرين

سنغافورة صالح بن على الحامد العلوى

٢٢ ـ محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون او خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

قال سقراط : كفى ياسيبيس حديثاً عن هارمونيا [١] ؛ آلهتكم الطيبية ، فما أحسبها قد أغلظت معنا الصنيع ، ولكن ماذا أقول لكادموس الطيبي ، وكيف أسترضيه ؟

قال سيبيس : أظنك واجداً سبيلا الى استرضائه ، فلست أرتاب فى أنك رددت حديث الانسجام بطريقة لم أكن أتوقعها قط . فقد أيقنت حينما تقدم سمياس باعتراضه أن ليس الى اجابته من سبيل ، فأدهشنى لذلك أن أرى قوله يخور فلا يثبت أمام هجمتك الأولى ، وليس بعيداً أن يلاقى الآخر ، الذى تدعوه كالدوس مصيراً كهذا المصير

فقال سقراط : لا يا صديقى العزيز ، فما ينبغى أن نُزْهَى خشاة أن تنطلق من عين خبيثة هذه الكلمة التى أوشك أن أنطق بها ، فلنا أن ندع الأمر بين أيدى من هم فى عليين ، حتى أدنوَ على طريقة هومر ، فأختبر ما يتوقد فى عبارتك من حماسة ، وخلاصة اعتراضك باختصار هى ما يأتى : انك تريد أن يقام لك الدليل على أن الروح باقية خالدة ، وتظن أن الفيلسوف الذى يطمئن الى الموت إنما يركن الى طمأنينة فارغة حمقاء ، إذا هو ظن أنه سيكون فى العالم السفلى أوفر جزاء ممن سلك فى حياته سبيلا أخرى ، مالم يستطع أن يدلل على ذلك ، وأنت تزعم أن اثبات ما للروح من قوة وألوهية ، واثبات وجودها السابق لوجودنا فى هيئة البشر ، لايقتضى بالضرورة خلودها . فاذا سلمنا بأن الروح قد عمرت طويلا ، وأنها فى حالتها الأولى علمت وعملت شيئاً كثيراً ، فليس هذا الاعتبار دليلا على خلودها ، وقد يكون

---

(١) Harmonia الاهة فى طيبة ، ويظهر أن لفظة harmony الأفرنجية ومعناها الانسجام قد اشتقت منها

حلولها فى الصورة البشرية ضرباً من الموت الذى هو ابتداء الانحلال ، وقد تنتهى آخر الأمر الى ما يسمى بالموت ، بعد أن تفرغ من عناء الحياة . وسواء أكانت الروح تحل فى الجسد مرة واحدة فقط أم مرات عدة ، فذلك ، كما قد تقول ، يخفف من مخاوف الأفراد شيئاً ، فليس يخلو انسان من الشعور الطبيعى ، فان لم يكن لديه عن خلود الروح علم وبرهان حق له أن يخاف . ذلك ما أحسبك قائله يا سيبيس ، وهو ما أعيده عامداً ، حتى لا يفلت منا شىء منه ، ولكى تستطيع إن شئت أن تضيف اليه أو تحذف منه شيئاً

فقال سيبيس : ولكنى ، فيما أرى الآن ، لا أجد ما أضيفه أو ما أحذفه . إنك عبرت عما أريد

فسكت سقراط هنيهة ، وبدا عليه كأنما غاص فى تأمله ، وأخيراً قال : إن هـذا المبحث الذى أثرته يا سيبيس لذو خطر عظيم ، فهو يتضمن موضوع النسل والفساد برمته ، وذلك ما أود ، إن شئتم ، أن أقدم لكم فيه خبرتى . فخذوها إن رأيتم فيما أقول شيئاً يعين على حل إشكالكم

فقال سيبيس : لشد ما أرغب فى أن أنصت لما تقول

قال سقراط : إذن فهاك حديثى يا سيبيس : لقد كنت فى صباى شديد الرغبة فى معرفة ما يسمى بالعلم الطبيعى من أبواب الفلسفة ، فقد ظننت أن له أغراضاً سامية ، إذ هو العلم الذى يبحث فى علل الأشياء ، فينبئنا لماذا وُجد الشىء ، وفيم خَلْقُه وفناؤه ، وكنت لا أنِى أقلق نفسى بالنظر فى مسائل كهذه : هل يرجع نمو الحيوان إلى انحلال يجىء به عاملا الحر والبرد كما يقول بعض الناس ؟ أيكون العنصر الذى نفكر به هو الدم أم الهواء أم النار ؟ أم قد لا يكون شيئاً من هـذا القبيل ؟ — فربما كان المخ هو القوة التى تبتدع أحاسيس السمع والبصر والشم ، وقد تنشأ عن هذه الأحاسيس الذاكرة والرأى ، وعلى الذاكرة والرأى قد يُبْنى العلم ، ولكن إذا وقفت فيهما الحركة وأدركهما السكون ؟ وبعدئذ مضيت أختبر انحلال الأحاسيس ، وأتناول بالبحث أشياء الأرض والسماء ، واستخلصت أخيراً أننى عاجز كل العجز عن هذه المباحث ، وعلى ذلك سأقيم لك الدليل قاطعاً .

فقد فُتنتُ بها إلى درجة عميت معها عيناى أن ترى الأشياء التى كنت أحسبنى ، ويحسبنى الناس ، عالماً بها علم اليقين ؛ وقد أُنسيت ما كنت ظننته من قبل بديهياً لا يحتاج إلى دليل ، وهو أن نموّ الانسان نتيجةُ الأكل والشرب ، لأنه بهضم الطعام يجتمع لحم إلى لحم وعظم إلى عظم ، وحينما تجمعت عناصر متجانسة كبر الجرم الضئيل ، وعظم الانسان الصغير . ألم يكن ذلك رأياً معقولاً ؟

قال سيبيس : نعم أظن ذلك

حسناً ، دعنى أنبئك شيئاً آخر ، فقد مرّ بى زمن كنت فيه أحسب أنى أفهم معنى الأكبر والأصغر فهما جيداً ، فإذا أبصرت رجلاً ضخماً واقفاً إلى جانب رجل ضئيل ، توهمت أن أحدهما أطول من الآخر قيد رأس ، أو أن حصاناً كان يلوح لى أنه أكبر من حصان آخر ، بل أوضح من ذلك أننى كنت فيما يظهر أحسب العشرة تزيد على الثمانية باثنين ، وأن ذراعين أكبر من ذراع واحدة ، لأن الاثنين ضعف الواحد

قال سيبيس : وماذا أنت اليوم قائل فى مثل هذه الأمور ؟

ـ فأجاب : كان ينبغى أن أنأى بنفسى بعيداً عن توهم أننى أعلم لأيّها سبباً ؛ حقاً كان ذلك ينبغى ، فلست أستطيع أن أقنع نفسى بأننا لو أضفنا واحداً إلى واحد صار الواحد الذى جاءته الاضافةُ اثنين ، أو أن الوحدتين مضافتين معاً تساويان بسبب الاضافة اثنين ، فلست بمسيغ كيف أنه إذا انفصلت إحداهما عن الأخرى كانت واحداً لا اثنين ، ثم إذا تلاقيا ، فقد يكون مجرد التقارب بينهما سبباً فى أن تصبحا اثنتين : هـذا ولست أفهم كيف تكون قسمة الواحـد سبيلاً للحصول على اثنين ، لأنه عندئذ تكون النتيجة الواحدة ناتجة من سببين متباينين — ففى المثال الأول نشأ اثنان من جمع واحد إلى واحد وتقاربهما ، وفى الثانى كان السبب هو انفصال واحد عن واحد وطرحه منه[1] . ولست مقتنعاً بعد ذلك بأننى أفهم لماذا يتولد الواحد ، أو أىّ شىء آخر ، ولماذا نزول ، بل ولماذا يكون إطلاقاً . إننى لن

(١) يعنى أننا يمكن أن نقسم الواحد نصفين فيكون لنا بذلك اثنان . كذلك يمكن أن نضم واحداً الى واحد فيكون لنا بذلك اثنان أيضاً . فكأن الاثنين تنتج عن علتين مختلفتين

أسلم بهذا قط وإنى لأتمثل فى ذهنى فكرة مهوشة عن طريقة أخرى ثم استمعت إلى رجل كان عنده كتاب أنا كسجوراس ، كما قال ، وطالع فيه أن العقل هو المصرّف والعلة لكل شىء ، ولشد ما اغتبطت لذكر هذا الذى كان باعثاً على الاعجاب . وقلت لنفسى : إذا كان العقل هو المسيّر فانه سيسير بكل شىء إلى الصورة المثلى ، ويضع كل شىء أحسن موضع ، وزعمتُ أن من يرغب من الناس فى استكشاف علة تولد أى شىء أو زواله أو وجوده ، فعليه أن يرى كيف تكون الصورة المثلى لذلك الشىء من حيث وجوده وسعيه وعمله ، لذلك كان لزاماً على المرء ألا يضع نصب عينه إلا الحالة المثلى بالنسبة إلى نفسه وإلى الناس ، ثم عليه بعد ذلك أن يعلم الأسوأ أيضاً ، فالأمثل والأسوأ يحويهما علم واحد . وسرنى ما ظننت أنى واجد فى أنا كسجوراس من يعلمنى ما وددت أن أعلم من أسباب الوجود ، وخيل إلى أنه منبئى أول الأمر عن الأرض أمسطحة هى أم كرية ، وأنه باسط لى بعد ذلك علة هذا وضرورته ، وأنه معلمى طبيعة الأمثل ومظهرى على أن الأمثل إنما هو هذا [1] ، فان زعم أن الأرض قائمة فى المركز شرح كيف أن هذا هو الوضع الأمثل ، وكنت سأقتنع به لو بين لى ذلك ، وما كنت لأقتضيه غير ذلك سبباً ، وحسبت أننى قد ألتمسه بعد ذلك فأسائله عن الشمس والقمر والنجوم ، فيشرح لى سرعتها المقارنة ، ونكوصها ومختلف حالاتها ، وكيف أنها تتجه بميولها المتعددة ، القابلة منها والفاعلة نحو الأمثل دائماً ، وما كنت أتصور أنه إذا ما تحدث عن العقل باعتباره مصرّفاً لها ، يعلل وجودها على هيئتها الراهنة بغير علة أن هذه هى الصورة المثلى ، وظننت أنه بعد أن يفرغ من الشرح المفصّل لعلة كلٍّ منها وعلتها جميعاً ، سيمضى يبين لى الحالة المثلى لكل منها ولها جميعاً . لقد تناولت الكتب متلهفاً لأعلم أمر الأمثل والأسوأ ، فتلوتها مسرعاً ما استطعت إلى السرعة سبيلا ، وقد رجوت آمالاً لم أكن لأبيعها بكثير

(يتبع) **زكى نجيب محمود**

(١) أى أنه اعتقد أنه سيجد فى نظرية أنا كسجوراس البراهين الكافية على أن الكون فى صورة مثلى ، فسقراط لا يطلب تعليلا لظواهر الكون انهو اعتقد بحق انها فى أوضاع مثالية ، فتلك عنده غاية تكفى وحدها أن تكون هدفا أقصى

فى الأدب الفرنسى المعاصر

رومان رولان

Romain Rolland

بقلم على كامل

تتمة

فى (النهار الجديد) La Nouvelle Journée (١٩١٢) وهو آخر جزء من قصة (جان كرستوف) كتب رومان رولان يقول : (إن أوربا الآن توحى للناظر كأنها فى ليلة حرب) . كتب ذلك قبل أن تعلن الحرب بعامين . وعندما اندلعت الشرارة الأولى عام ١٩١٤ كان رومان رولان فى سويسرا . فكان بعده عن وطنه مساعداً له على أن يكون حر الرأى بعيداً عن التأثر بضروب الدعاية المختلفة التى كان يصيح بها ساسة الدول المتحاربة – ومنها فرنسا – تبريراً للحرب وحثاً للناس على خوض غمار القتال (كانقاذ المدنية) أو (الحرب من أجل السلام الخالد) إلى غير ذلك من الأقوال

ومنذ التاسع والعشرين من أغسطس عام ١٩١٤ شرع رومان رولان يكتب سلسلة مقالات فى (جريدة جنيف) Journal de Jenéve بدأها بخطاب مفتوح إلى الكاتب الألمانى هوبتمان Hauptmann مستنكراً الوحشية الألمانية التى أحرقت بلدة (لوفان) البلجيكية . وقال فيه : (كثير منكم أن يبدو ذلك العنف الذى تعاملون به هذه الأمة الكبيرة النفس – يقصد بلجيكا – التى لا ذنب لها إلا الاستماتة فى الدفاع عن استقلالها وعن الحق كما فعلتم أنتم الألمان عام ١٨١٣ . . . ! احتفظوا بهذه القسوة لنا نحن الفرنسيين أعداءكم الحقيقيين . أما أن تتحمسوا ضد ضحاياكم ، ضد ذلك الشعب البلجيكى الصغير السيء الحظ البرىء . فياله من عار !) ثم يقول : (ولم تكتفوا بأن تأخذوا البلجيك الحية ، فأعلنتم الحرب على الأموات ، على مجد القرون ، فأمطرتم (مالين) بالقنابل وأحرقتم (روبان) ، وأصبحت لوفان تلاً من الرماد ، لوفان بكنوزها الفنية وعلمها ، لوفان المدينة المقدسة ... هل تحاربون الجيوش أم الفكر الانسانى ؟ اقتلوا الرجال لكن احترموا الأعمال الفنية ، إنها تركة الجنس البشرى الذى أنتم منه

والذى نحن جميعاً الأمناء عليه . إنكم حين تحطمونه كما تفعلون الآن تثبتون أنكم غير جديرين بذلك التراث العظيم)[١]

وفى مقالته الثالثة (فوق المعركة) Au-dessus de la mêlée التى أطلق عنوانها على مجموعة المقالات حين جمعها فيما بعد ، نسمع رومان رولان يوجه اللوم الشديد إلى قادة الرأى العام والرؤساء الدينيين والمفكرين والخطباء الاشتراكيين قائلاً : (بين أيديكم ثروات حية ، كنوز من البطولة ، فماذا فعلتم بها ؟ لقد وجهتموها إلى الصراع والموت !) ثم تراه يظهر استنكاره المرير من أن تنتقل شهوة رجال السياسة إلى رجال الفكر فتتولد بينهم العداوة (فيصبح أوكِن ضد برجسون ، وهوپتمان ضد مترلنك ، ورولان ضد هوپتمان ، وولز ضد برناردشو . كما يتغنى كبلنج ودانونزيو ودو رينييه وبارس ومترلنك بأغانى الحرب والقتال . بينما يطلب الفيلسوف الشيخ فَندِت - الذى بلغ من العمر الثانية والثمانين - بصوته المحطم من طلبة جامعة ليبزج الاشتراك فى « الحرب المقدسة »)

وفى هذا المقال أيضاً صرح رولان أن أعظم هيئتين خانتا مهمتهما وظهرتا بمظهر الضعف أثناء الحرب هما (أولاً) المسيحية : أى السلطة الدينية (وثانياً) الاشتراكية . إذ أن كلا من هاتين الهيئتين من أول مبادئهما الدعوة إلى السلام العالمى والأخاء بين الشعوب . لهذا كان تأييدهما للحرب وقبولهما دخول سعيرها انكاراً لا يليق لمبادئهما السامية . (فهؤلاء الاشتراكيون الذين لم يجدوا فى نفوسهم الشجاعة على الموت فى سبيل عقيدتهم قد وجدوها للموت فى سبيل عقيدة الآخرين)[٢]

وعند ما يتكلم عن الباعث الحقيقى على الحرب يقول : (إن العدو الالد ليس خارج حدود الوطن بل هو رابض داخل كل أمة . وليس هناك أمة واحدة تملك الشجاعة لمحاربته . إنه ذلك الشبح ذو المائة رأس الذى يسمى التوسع الاستعمارى . تلك الارادة فى الكبرياء والتسيطر التى تريد أن تمتص كل شىء فاما الخضوع لها وإما الهدم . تلك الارادة التى لا تحتمل مطلقاً أى عظمة ونمو خارج دائرتها)

وبعد أسبوع من معركة المارن أعلن رومان رولان فكرته العالمية (ووجوب إقامة المدينة الواسعة الممتدة الأطراف التى تزال منها المظالم وأحقاد الأمم وتجتمع فيها النفوس المتآخية الحرة فى العالم أجمع) على أنه لم يكن يطلب تحقيق ذلك عن طريق العنف فهو ألد أعدائه . بل يترك للزمن تحقيقه على مهل حين تسمو النفوس عن الصغائر وتتجرد العقول مما تتعلق به من الأوهام

* * *

لقد رأينا كيف أن رومان رولان فى مقالاته كان متجرداً من كل خضوع لفكرة وطنية ، أو التأثر بتيار الحماسة الذى كان يجرف أمته كما يجرف كل الأمم المتحاربة . ولذا لم يتردد - كما رأينا - فى السخرية من كل رجال الفكر والدين ، لأنهم خانوا مبادئهم النبيلة فى الوقت الذى كان يمكنهم فيه تأدية أكبر جانب من مهمتهم فى الحياة . كما أنه لم يتردد فى إظهار ألمه من تردى العلم فى حمأة الأغراض ، حين يدعى الأستاذ پيرييه مدير المتحف وعضو أكاديمية العلوم فى باريس أن البروسيين لا ينتمون الى الجنس الآرى . كذلك كان من الأسباب التى زادت عدد مهاجميه احتفاظه بعد أن أعلنت الحرب بصداقة من كان يعرفهم من الكتاب الألمان (إذ ليس حبى لوطنى - كما قال - معناه أن أكره أناساً مخلصين يحبون هم كذلك أوطانهم)

كل هذه الأسباب الى جانب التهم التى وجهت اليه قبل الحرب عن طعنه فى العبقرية الفرنسية جعلت عدداً من جرائد بلاده تنشر مقتطفات محرّفة من مقالاته لتثير عليه الرأى العام . ولقد استطاعت بلوغ ذلك الى حد كبير . فكان جواب رومان رولان على هذا أن نشر مقالاته فى كتاب مستقل فى سبتمبر عام ١٩١٥ ، حتى يطلّع الشعبُ الفرنسى بنفسه على حقيقة ما كتب ليعرف مقدار اتهامات أعدائه من الحق أو الضلال . وقد قال فى مقدمة كتابه ما يأتى : (إذا باغتت الحرب شعباً عظيماً فانه ليس عليه فقط أن يدافع عن حدوده ، بل أمامه عقله أيضاً يجب أن يحميه من الخرافات والخروج على العدل ومن السخافات . تلك الأمور التى تطلقها من عقالها العصبية العظمى . لكل شخص مهمته ، فكما أن على الجيوش أن تحافظ على أرض الوطن ، كذلك على رجال الفكر الدفاع عن الفكر ؛ فاذا سخروه لخدمة شهوات شعبهم ، فقد يستطيعون أن يكونوا آلات نافعة ، ولكنهم يخاطرون بخيانة العقل الذى ليس هو أقل جزء من تراث هذا الشعب) ثم يقول فى النهاية : (لقد ظللت عاماً بأكمله غنياً بالأعداء ، والآن أقول لهم : إنهم يستطيعون أن يحقدوا

(١) Au-dessus de la mêlée P. 6 et 7

(٢) Au-dessus de la mêlée P. 29

علىّ ، ولكنهم لن يستطيعوا أن يملونى أن أكون حقوداً .... إن مهمتى أن أقول ما أعتقده عدلاً وإنسانياً)

والواقع أن التهم التى أسندت الى مقالات رومان رولان فى (جريدة جنيف) لا أساس لها من الصدق ، إذ خلقتها عداوة بعض الأفراد والجرائد من جهة ، ومن جهة أخرى الرقابة على المطبوعات إبان الحرب التى كانت حين تحذف من مقالاته كثيراً من الفقرات التى ترى فيها تطرفاً لا يجوز نشره ، تترك بذلك المجال لاعدائه لتأويل الجزء الضئيل الباقى تأويلاً سيئاً

وعلى كل حال فقد كان هذا الصراع الهائل بين رجل وأمة داعياً لأن تتسع شهرة رومان رولان بعد الحرب ، وخصوصاً وقد حصل عام ١٩١٦ على جائزة نوبل للآداب [١] ، وكانت شهرته خارج فرنسا أوسع من داخل فرنسا نفسها ؛ وقد قوبلت كتبه التى ظهرت بعد الحرب بشغف زائد وإقبال عظيم ، فطبعت عشرات الطبعات ومن هذه الكتب :

Aux Penples Assassinés (١٩١٧) — Colas Breugnon الذى طبع عام ١٩١٤ ولم ينشر إلا عام ١٩١٩ — Clérambault, histoire d'une conscierce libre pendant la guerre (١٩٢٠) — Les Précurseurs (١٩٢٤) — Le Jeu de l' amour et de la Mort (١٩٢٥) L' Ame Anchantée (١٩٢٦—١٩٢٧) و Mahatma Ghandi (١٩٢٦) Les Léonides (١٩٢٨) — Essais sur la mistique de l' inde vivante (١٩٣٠)

ولا يزال رومان رولان يعيش فى سويسرا متخذاً اياها وطناً ثانياً له ، محافظاً كل المحافظة على تفكيره وآرائه التى أثارت عليه الحملات غير عابئ بها ، مؤمناً بذلك الاحساس الذى دفعه الى أن يقول أثناء الحرب رداً على متهميه فى إحدى مقالاته Lettre à ceux qui m'accusent إن (الوقت الذى يخصصه للرد على خصم ما إنما يعتبر كسرقة من أولئك التعساء ، أولئك السجناء ، من تلك الأسر التى تسمى ونحن فى جنيف أن نمد لها أيدينا)

ويرى الناقد رينيه لالو [١] أن هذه الصلابة الشديدة التى نجدها عند رومان رولان فى التمسك برأيه والاحتفاظ بنقاء ضميره كرجل أخلاق قد آذته إلى حدما — كفنان ، إذ أفقدت قصصه كثيراً من الليونة والطراءة . على أن هذا الاخلاص لعقيدته بين عواصف الافتراء الكاذب ، وذلك الاحتمال الباسم للاضطهاد الذى بعثته النفوس الصغيرة ، وتلك السعادة فى العذاب التى انعكست عليه من أبطاله بيتهوفن وتولستوى وغاندى ، قد جعلت جميعاً منه أحد أعاظم قادة الفكر الأوربى الحديث الذين فى أعناقهم — هم وسائر مفكرى العالم — يقف مصير المجتمع الانسانى

على كامل

(١) فى عام ١٩١٣ كان قد حصل على جائزة الأدب الكبرى الفرنسية

(١) René Lalou : Histoire de la littérature francaise contemporaine P. 347.

ملوك الغرب

لمناسبة احتفال الانجليز بعيد ملكهم

للأستاذ فخرى أبو السعود

تيهوا بعيدِ المليك المفرد العلم … وفاخروا بِعُلاهُ سائر الأمم
ومجّدوا فيه عنواناً لمجدكمُ … ورمزَ مُلْكٍ وطيدٍ ثابت الدعم
مُلْكٍ حوَى مشرقَ الدنيا ومغربَها
لم يَرْوِ عن مثلهِ التاريخُ من قِدَم
تيهوا بنى الغرب بين العالمين بما … بلغتم اليوم من مجد ومن عِظم
ولْتَزْدَهُوا بملوك فى عروشكمُ … همْ زينة المُلْكِ والأحكام والنظم
تأوى الشرائع منهم والحقوق إلى … حصنٍ حصينٍ وركنٍ غيرِ منهدم
هم أوَّلُ الحارسى الدستور من عبث
والحافظين لِما أُولوه من ذِمم
وهم مَناطُ أمانىِّ البلادِ وَهُمْ … أُبُوَّةُ الشعب فى الأحداث والغمم
فى كل يومٍ لهم فى الشعب مأثرة … تُغيث منه مكانَ الداء والألم
ملائكُ النور فى سلم وفى دعة … وهم حُماةُ الحمى فى يوم ملتحَم
وسادةُ الناس فى علم وفى أدب … هُمُ وَأَوْجُ كمال الخُلق والشيم
نالوا من العز شأْوًا لم ينَلْ ولهم … محبةٌ فى قلوب الشعب لم تُرَم
محبةُ الشعب ترعاهم وتحرسهم … لا الشاهقاتُ من الأسوار والأُطُم
محبةٌ هى أغلى للمُدِلِّ بها … من منظرٍ فارهٍ أو مظهرٍ سَنِمِ (١)
تَوَارَثُوا صولجانَ المُلْكِ فى أمم … لا تبتغى بَدَلاً ـ لو خُيِّرَتْ ـ بهم
لا كالملوك الأُلى ـ بالأمس ـ إذ حكموا
ساقوا الرعيةَ سَوْقَ الشاء والنَّعَم
ولم يخالوا شعوباً تحت رايتهم … سوى عبيدٍ لربِّ التاج أو حَشَم
ولم يرَوْا لهمُ جاهاً ولا حَسَباً … فى الناس حتى يُذلّوا كلَّ ذى شمم
يُقْصَى الأبىُّ ويَشْقَى الحرُّ عندهم
ويَمْرَحُ المالِقُ (٢) الأفَّاكُ فى النعَم

(١) سنم : عال (٢) مالق : متملق

بأسم المكارم أغلوا أملاكَهم وهمُ … حَزْبٌ على كَرَم الأخلاق والهمم
عن حاجةِ الشعب باللذات فى شُغُل
كانوا وعن دعوة المهضوم فى صمم
سِيَّانِ إن سَعِدَتْ فى ظل دَوْلتهم
رعيةٌ أو هَوَتْ فى البؤس والوصَم (١)
لا يَرْقُبُ الناسُ منهم فضلَ مكرمة
لكن يخافون منهم بطش محتكم
ذيَّاك عهدٌ تولى غيرَ مرتجَع … هيهات يَبْعَثُه باغٍ من العدَم
وعاصرتْنا ملوكٌ فى ممالكهم … همُ لمن حكموهم أوَّلُ الخدم
يشاطرون صروفَ الدهر قومَهُمُ … ويعطفون عليهم عطفَ ذى رحم
وهم على شعبهم فى كل ما صنعوا … فيضٌ من البرِّ لا صوبٌ من النقَم
تسنَّمُوا ذروةَ العليا ، وبأسمهم
تُزْجَى الجحافلُ فى الوديان والأَكَم (٢)
وينزلون ـ إذا ما الجِدُّ جَدَّ ـ على … ما قاله قائلو السادات والعمَم (٣)
ولا يرَوْنَ لهم من دون أُمتهم
مجداً ولا دون حب الشعب من عِصَم (٤)

فخرى أبو السعود

(١) الوصم : الألم (٢) الأكم : المرتفعات
(٣) العمم : العامة (٤) عصم : جمع عصمة

يعجبنى ...

للأستاذ محمد الحليوى

يُعجبنى الحطَّابُ فى غابه … وفأسُه تعملُ فى جذعِهِ
يَهوِى بها — فهى قضاً نازلٌ … ترتجف الغابة من وقعِهِ
وتحملُ الريحُ إلى مسمعى … صدَى نحيب الغاب فى رجعه

* * *

يُعجبنى المِزمار فى سامرٍ … فى هَجعة الليل وفى وَهْنِهِ
غناؤه فى الحىِّ يهتاجنى … ويستبينى بشجى لَحْنِهِ
وتحمِلُ الرِّيحُ صدَى شاكياً … مثلَ شكاةِ القَلْبِ فى حُزْنِه

يُعجبني الآذانُ في هَـدْأةٍ يُرْسِـله العابدُ من جوِّه
يُرسِـله شَغْفاً يهزّ الفضا مُرَجَّعاً يهتاجُ في شَجْوِهِ
وتحمل الرِّيح صدًى هائماً تَنْجَذِبُ الرُّوح إلى نحوِه

* * *

يعجبني الدُّولاب في رَوضَةٍ وصوتُه الآتي على رَوْدِهِ
وَجُلْجُلُ الناقةِ في عنقها والماء إذ يهمس في وِخْده
وتحمل الريح صدًى غامضاً يستوْقِفُ الآذانَ في بُعدِهِ

* * *

وإذ تَؤُمُّ الريحُ في سيرها بَيْتِيَ أو تجثُمُ في قُربِهِ
أُحبُّ أن تحمل أمواجها شتَّى اللُّغَى ، كلٌّ على ضربِهِ
وهمْسةُ الأوْرَاق في دَوْحها وغنَّةُ الطائرِ في سِرْبِهِ
وَنَقَّةُ الضِّفْدَعِ في مائها وهزمةٌ للرعدِ في سُحْبِهِ
تُبهجني ، تُعجبُني كلّها ، وتلك حسبُ القلب من حبِّهِ
يا عجباً ! قد تأملُ الأذْنُ أنْ تستوعب الكونَ على رُحْبِهِ

(تونس) محمد الحليوى

الدبكة

ليلة عرس في القرية

بقلم محيي الدين الدرويش

سكب البدر على القر ية ضـــوءاً فزهاها
وبدت حالية الاك ناف تهتزّ رُباها
نَفَحتها نســمةٌ عط ريةٌ يُغرى شـذاها
يا لها من ليـلة قد أغرقتني في سـناها
جُليتْ فيهـا فُتو نٌ ضلّ عقلي في مداها

* * *

وَفَدَ القوم إلى السَّـهلِ نساء ورجالا
يتهادون نَشَاوَى ويميـلون دلالا
موكبٌ للعرس أضحى يملأ العين جلالا
علت الضّوضاء فيـه وكذا الطبل تعالى
وبدت فيه العذا رى كنجوم تتلالا

* * *

يا عذارى الحيّ هذى فَرحةُ العرسِ السعيدِ
عرس هنــد إنها كالظّبي في لحظٍ وجيد
غادةٍ عوذتها با لله من عين الحسود
يا عـذارى لا رأيـ تنّ سوى عيشٍ رغيد
كمّل الأنس فبادِ رْنَ إلى رقص فريد

* * *

علت الأنوار حتى أصبح الليل نهـارا
وغدا كلُّ فؤادٍ من رُؤاها مستطارا
بُسُطُ الديباج صُفَّتْ فبـدت تحكى إطارا
جلس القوم عليها وبها الرَّقص استدارا
جُنَّ صوت الطبل في البطحاء والزَّامر ثارا

* * *

عقدوا الأيدى وداروا هالةً فيهـا النُّجومُ
كهرباء قد سرت فارتعشت منها الجسوم
مالت الأعناق والا أعطافُ تهوى وتقوم
والنُّهود اختلجت ، في حسنها تَغْوَى الحُلُوم
لُجَجٌ فوق صُـدورٍ ليتنى فيهـا أعُوم

* * *

وقَع الزّامر أنغا ماً فمالت بالصُّفوفِ
من رجال ونساء وغويّ وعَزُوفِ
أرسلوا الأرجلَ في الأرْ ض وعادوا للوقوف
ماجت الأعطاف فالقا ب بها جدُّ شَغُوف
يا لأعطاف العذارى فتنتْ كلَّ عفيف

* * *

وتعـالتْ نغماتٌ سلبت منّى نُهايا
مشجيات ردّدَت أصـ داءها كلُّ الزَّوايا
وأثارت ذكرياتٍ رَقَدَتْ بين الحنايا
يا صبايا حسبكنّ اليو مَ شجواً يا صـبايا
نحن نهواكنّ فأرْ فُقْن قليلاً بالضَّحايا

حمص (سوريا) محيي الدين الدرويش

١٣ - قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

بستور Pasteur

صلة حديثه

وصل الفائت : أثبت بستور أن المكروب ضرورى للحياة على ظهر هذه الأرض . فإن الأموات من الحيوان والنبات لا بد من تعفنها وتحللها وأكسدتها لتتسع البسيطة للنبات الجديد والحيوان الوليد . وأن هذا التحلل لا بدله من الأكسجين . ولكن أكسجين الجو عاجز عن هذه الأكسدة فنها لا تتم الا بواسطة المكروب . ثم أثبت بستور بعد ذلك أن المكروب منشؤه الهواء ، يحمله غباره . وأنك لو أدخلت الهواء دون الغبار الى اللبن والأمراق ونحوها بعد اغلائها جانبها الفساد ، فقضى بذلك على نظرية الانبعاث التلقائى التى تقول إن المكروب ينشأ فى الأمراق والألبان وأمثالها من تلقاء نفسه ، من العدم

وبعد ذلك قام بستور بتجربة يدل البحث الدقيق بين المخلفات والسجلات أنها من صنع نفسه . تجربة هائلة ، ركب لها القطار ، وصعد من أجلها الجبال ، ودار فى أعاليها فى حذر وريبة حول ما انجمد بهـا من الأنهار . وعاد معمله مرة أخرى فازدحم فيـه القباب ، ورن الزجاج ، وغلت الأحسية فارغت وتفقعت . وقام أعوانه على العمل قومة واحدة ، فلم تر فيهم إلا رائحاً مسرعاً أو غادياً مهرولاً ، حتى لكأنهم عبيد مسترقون وراءهم السياط ، وما كان وراءهم الا قلوب مؤمنة وعزمات صوادق . قاموا يجهزون مئات القوارير ، ويملؤونها بالأحسية بعض الملء ، ثم يغلون كل واحدة منها دقائق ، وبينا هى تغلى يسيحون رقابها فى نفاخات اللهب الشديد ، ثم يطونها ويختمون على القوارير وقد ذهب هواؤها . فاذا بردت لم يكن بها غير الحساء فوقه فراغ . وقاموا على هـذا التجهيز ساعات عديدة طويلة حسبوها دقائق من فرط اهتمامهم

وبدأ بستور رحلته بهذه القوارير . فذهب أول ما ذهب إلى مرصد باريس فنزل إلى حجراته المطمورة تحت الأرض . وأجال نظره فيهـا ثم التفت إلى صبيته وقال : « كيف تجدون هذا المكان ؟ إنه هادئ بالغ الهدوء ، ساكن بالغ السكون ، قل فيه الغبار فعز فيه المكروب » ، وقام الصبية إلى القوارير فأمسكوها بعيداً عن أجسامهم بمقابض من المعدن أحميت فى النار قبل ذلك ، وأخذوا يفضون أختامها حتى بلغ المفضوض منها عشر قوارير ، وكلما فضوا ختم قارورة دخلها الهواء فسمعوا له صفيراً . وما كاد يدخلها الهواء حتى عادوا فختموا القارورة على التو مرة أخرى ، وذلك فى لهب مصباح زيته الكحول . وذهبوا إلى فناء المرصد ففضوا فيه عشر قوارير أخرى على مثال ما وصفنا : ثم أسرعوا عائدين إلى معملهم ، إلى ذلك المحضن تحت حنية السلم ، فوضعوا القوارير فيه .

وبعد أيام كنت تجد بستور قاعداً القرفصاء أمام هذا الفرن ينظر قواريره فى رفق وتحنان ، وعلى فمه ابتسامة من ابتساماته النادرة ، فانه لم يكن يضحك إلا إذا جاءه التوفيق والنجاح . وكتب شيئاً فى كراسته وخرج يزحف من هذا الجحر ليخبر أعوانه أنه وجد تسع قوارير رائقة من العشر التى فتحوها فى قاع المرصد ، « فهذه القوارير التسع لم يدخلها مكروب واحـد . أما العشر التى فتحناها فى الحوش فتعكرت كلها بالملايين من تلك الخلائق . إن الهواء هو الذى أدخلها فى القوارير . إن هباء هـذا الهواء هو الذى حملها معه ! »

وكان الوقت صيفاً ، ودراسات المعاهد معطلة والأساتذة يستجمون ، وحق لبستور أن يستريح مثلهم ، ولكنه جمع ما بقى من القوارير وأسرع إلى القطار ، إلى بلده القديم فى جبال الجورا Jura ، فصعد جبل بوبيه Poupet ، وهناك فض أختام عشرين قارورة ثم لحمها . وذهب بالقوارير إلى سويسرا ، وتسلق جبل مونت بلان Mont Blanc مغامراً مخاطراً ، وعلى أكتاف هـذا الجبل العظيم فض أختام عشرين قارورة أخرى فدخلها الهواء صافراً . ورجا بستور أنه كلما علا فى الجو قل العدد الذى يتعكر من قباباته . وقد تحقق رجاؤه . قال : « هـذا ما كنت أرجو ، وهو ما يجب أن يكون . فانى كلما صعدت فى الهواء قل الغبار فقل المكروب الذى يركبه دائماً » . وعاد إلى باريس

نخوراً ، وأخبر الأكاديمية أنه أصبح من الثابت المحقق أن الهواء وحده لا يستطيع إحداث المكروب فى الأمراق ، وأن لديه على ذلك براهين سيدهش لها كل انسان . صاح فيهم يقول : « هنا ، بهذا المكان توجد مكروبات . وهنا ، على مقربة من المكان الأول لا توجد المكروبات . وهناك ، فى ذلك المكان الأبعد توجد مكروبات غير تلك التى وجدناها أولاً . . . . وهذا مكان آخر ، قد هدأ هواؤه هدوءاً بالغاً ، فلم نجد فيه مكروبا أصلاً » . وأراد أن يمهد لانتصارات أخرى ، فقال : « لَوَدِدتُ أن أصعد فى منطاد إلى طبقات أعلى فى الجو فأفتح فيها قباباتى » . ولكن سامعيه اغتمروا حساً بحديثه ، واكتفوا بالذى كان ، ووثقوا بالذى يقول ، فلم يعد بستور عندهم عالماً باحثاً عادياً فحسب ، بل وقع من حسبانهم موقع أولئك الأفذاذ الذين يجود الدهر بهم آناً بعد آن . كان بستور أول الأبطال المخاطرين فى عصر المغامرة الذى تلا ، والذى سنتحدث عنه فى هذه القصة بعد حين

وكان بستور كثيراً ما يفوز فى خصوماته بالتجارب البارعة التى كانت تترك خصومه طَرْحى صَرْعى . ولكن فى بعض أحايين كان فوزه لضعف فى خصومه أو لغباوة فيهم . وأحياناً كان يأتيه الفوز حظاً ومصادفة . قام بستور يوماً فى جماعة من الكيميائيين يحط من المقدرة العلمية للطبيعيين naturalists . صاح فيهم : « فانْ أعجبْ فعجبى لهؤلاء القوم كيف لا يدخلون على العلم من بابه ، من باب التجربة . فانهم لو فعلوا ، إذن لنفخوا فى علمهم روح الحياة » . وأنت تستطيع أن تتصور ما كان من كره الطبيعيين لهذا المقال . فقد كرهه بخاصة المسيو پوشيه Pouchet مدير متحف روان Rouen ، وشركه فى كرهه الأستاذ چولى Joly والأستاذ موسيه M. Musset وهما الطبيعيان الشهيران بكلية تولوز . ثلاثة من أعداء بستور لم يستطع شىء فى الدنيا أن يقنعهم بأن تلك الأحياء المكرسكوبية إنما تتخلق من آباء . لم تستطع حجة أن تذهب باعتقادهم فى إمكان نشوء الحياة والأحياء من ذوات أنفسها . ومن أجل هذا أجمع الثلاثة أمرهم على أن ينازلوا بستور فى أرضه وبنفس سلاحه

فملأوا بمثله القوارير ، ووضعوا فيها الأحسية على مثال ما صنع ، وأغلوها وختموها كما أغلى وختم ، إلا أنهم اتخذوا أحسيتهم من مرق الأعشاب الجافة لا كما اتخذها هو من أمراق الخمائر . وحملوا قواريرهم الى جبل مالاديتا Maladetta فى البرنيز Pyrenees . فأخذوا يصعدون فيه ثم يصعدون حتى بلغوا مكاناً أرفع مما بلغ بستور على جبل مون بلان فى سويسرا . وهناك خرجت عليهم من مغاور الثلوج رياح قارسة نفذت من خلال أكسيتهم الغليظة الى جلودهم . وزَلِقت رجل المسيو چولى من فوق كتف الجبل ، فكاد يذهب ضحية العلم لولا أن أمسك بعض الأدلاء بذيل كُسوته . وقاموا وهم فى هذه الحال بفتح القوارير وملء فراغها بالهواء ثم ختمها . ونزلوا يجرّون أقدامهم ، وقد نال الجهد منهم والبرد ، فدخلوا الى خان فى الطريق فنصبوا فيه مِحْضَنًا حيثما اتفق ، ثم أودعوه قواريرهم . وبعد أيام نظروا اليها فبرقت أساريرهم لما رأوا أمراقها تعج بالخلائق الصغيرة . إذن لقد أخطأ بستور

وعندئذ أشهروا الحرب بينهم وبينه . وقام بستور يهزأ فى الناس بتجارب الأسياد : پوشيه وچولى وموسيه . وقارعهم بحجج نعلم نحن اليوم أنها كانت تمحّكا ولجاجة

فرد عليه پوشيه . قال فيما قال : « إن بستور قدّم قواريره هو إنذاراً أخيراً للعلم ليدهش كل انسان » . فغضب بستور واهتاج ، ووسم پوشيه بالكذب ، وطلب اعتذاره على رؤوس الأشهاد . وخُيِّل للناس أن الفصل بين الحق والباطل سيكون للدماء الصبيبة بدل التجارب الهادئة . وكان من بعد ذلك أن احتكم پوشيه وصديقاه الى تجربة يجرونها بين رجال أكاديمية العلوم ، فاذا وجد واجد أن قارورة واحدة من قواريرهم خالية من المكروبات عَقِب فتحها ، إذن لأقروا بأنهم مخطئون . وجاء اليوم الموعود ، واقتربت ساعة النزال ، ساعة الاحتكام الى القوارير ، واشرأبت أعناق الناس ، ودفئت قلوبهم فى انتظار ما يكون . ولكن خصوم بستور رجعوا على أعقابهم ناكصين . فروا من المعركة قبل أن تكون . فقام بستور نفسه بتجاربه أمام المحكّمين ، أجراها فى وثوق واطمئنان ، وسخر من خصومه وهو يجريها . وبعد قليل أعلن المحكّمون « أن الوقائع التى ارتآها المسيو بستور ، تخاصمه فيها المسيو پوشيه والمسيو چولى والمسيو موسيه حقائق لا تحتمل النزاع ولا تسمح بالخصومة »

انتصر بستور بالحق ، وكذلك انتصر بالحظ ، فان خصومه لم يكونوا مخطئين فى الذى وصفوه من تجاربهم . لأنهم لسوء الحظ اتخذوا أمراقهم من العشب ، لا من حساء الخمائر . وقد أثبت العالم الانجليزى تندال[1] Tyndall بعد ذلك بسنوات أن هذه الأعشاب تحمل جراثيم مكروب تصمد للغليان ساعات فلا تموت . فالذى أنهى الخصومة بين بستور وأصحابه إنما هو فى الحق تندال . وهو هو الذى أثبت أن بستور مصيب

— ٥ —

وعندئذ حظى بستور بالمثول بين يدى الامبراطور نابليون الثالث . فقال لهذا الملك الحلام إن كل أمله أن يعثر على تلك المكروبات التى تتسبب عنها الأمراض يقيناً ، ودعاه الملك إلى نزهة ملكية فى كومبين Compiegne . وهناك صدر أمر الملك إلى ضيوفه بالاستعداد للصيد ، فتوسل بستور ورجا أن يعفى من هذا ، لأنه كان فى انتظار حمولة عربة من الأجهزة ستأتيه من باريس ، مع أن ضيافته فى القصر الملكى كانت لأسبوع واحد . وأكبره الملك والملكة لما رأياه مُكِبّا على مجهره ، بينا يكب الآخرون من الأضياف على صنوف اللهو والخلاعة

لابد أن يعلم الناس أن المكروب لابد له من آباء ! وفى باريس ، فى سهرة علمية بالسربون ، قام بستور فألقى خطاباً سهلاً فى الجمهور الحاضر ، وكان من بينهم اسكندر دوماس القصصى الشهير ، وجورج ساند المرأةُ العبقرية المعروفة ، والأميرة ماتلدا ، ومئات من ذوات البلد وأعيانه . وقام فى هذا الحشد بقطعة مسرحية رجعوا من بعدها إلى بيوتهم يثقلهم الهمّ ويساورهم الخوف . فقد أراهم بستور على الشاشة صوراً عديدة من مختلف المكروبات . وبدون انذار أظلم المكان فُجاءةً ، وأرسل فى كتلة الظلام الأسود شعاعاً أبيض من الضياء . وصاح فيهم : « انظروا إلى هذا الشعاع ، وانظروا إلى العدد الهائل من ذرات التراب التى ترقص فيه ، ثم اعلموا أن الهواء الذى أنتم فيه ملىء بهذا الهباء ، ثم تعلموا ألا تحتقروا دائماً شيئاً لصغره ، فتلك الذرات الصغيرة قد تحمل المرض والموت ، قد تحمل فوق ظهورها مكروب التيفوس والكوليرا والحمى الصفراء ، وأنواع كثيرة غيرها من الوباء » . هذا هو النبأ الفظيع الذى جمعهم من أجله [illegible] إليهم فى صوت يتهدج غيرة واخلاصا ، وآمنوا به وارتجفوا [illegible] منه . بالطبع لم يكن هذا النبأ صادقا كله ، ولكن بستور لم يكن كذّابا فياشا ، بل كان يؤمن كل الايمان بالذى يقول . [illegible] الهباء ، وهذا المكروب الذى حمله ، أصبحا من ضرورات حياة صاحبنا . إذا فكر ففيهما التفكير ، وإذا نظر فاليهما النظر . ويدعوه الداعون من رجالات المجتمع إلى موائدهم فلا يبالى أن يرفع إلى أنفه الصحون والمعالق ، فيحماق فيها ، ثم يدور [illegible] يمسحها بمنديله . كان كل عمل يأتيه اعلانا بعيد المدى عن [illegible] المكروبات

نعم أغرى بستور كل فرنسى أن يهتم لهذه المكروبات من الامبراطور فى عظمته وأبهته ، الى الزبال بين قمامته . وتسارق الناس الأخبار من أبواب مدرسة النرمال عن أحداث مريبة غريبة ، حدثت أو تحدث قريباً : ومرّ الأساتذة والطلاب بتلك المعامل ، وفى خطاهم بعض سرعة ، وفى قلوبهم شىء من فزع ؛ وكأنى بك تسمع الطالب يتحدث الى رفيقه الطالب ، وقد مرا فى طريقهما بمدرسة النرمال فأظلتهما حيطانها العالية الغبراء ، فيقول له : « إن وراء هذه الحيطان رجلا يدعى بستور يكشف أموراً عجيبة عن مَكْمَنَةِ الحياة ، وقد بلغ من علمه أنه يعرف كيف تنشأ الحياة ، ويقولون إنه ربما كشف منشأ الأمراض وأسبابها » ونجح بستور فى اغراء السلطات بزيادة سنة على سنوات الدراسة ، وبدأت المعامل تزداد عدداً ، وخطب فى تلاميذه خطباً من نار ، فبعث بفصاحته الدمع الى عيونهم ، وتحدث عما تُحدثه المكروبات من العلل فى الأجسام قبل أن يعلم عن هذا شيئاً ، فلم يكن بعد بحث الطاعون ، ولم يكن بعد كشف غيره من الأوبئة القتالة ، ولكنه فعل ذلك ليحمّس الجمهور ، والجمهور الفرنسى عنيد ، عسير تحميسه

كتب يوماً رسالة صغيرة حارّة يخاطب فيها جمهور الفرنسيين

(البقية فى أسفل الصفحة التالية)

(١) هو چون تندال John Tyndall ، ولد فى ارلندا عام ١٨٢٠ ، ومات عام ١٨٩٣ بحث فى أشتات من العلوم أخصها الفيزياء ، فبحث فى الحرارة والصوت والاشعاع . فصنف مؤلفاً أسماه التخمر عام ١٨٧٧ . وآخر أسماه المواد العائمة فى الهواء وعلاقتها بالتعفن والعدوى ، وذلك عام ١٨٨١ . وصاحب هكسلى . وصادق فرداى . وكان كريماً للعلم سخياً
المترجم

القصص

من أساطير الاغريق

ثيذيوس يقتل المينوطور

ويخلص أثينا

لعب يثير حرباً

للأستاذ دريني خشبة

كان الملك إيجوس ، ملك أثينا ، فى شرخ صباه وعنفوان شبابه زير نساء وأخا شهوات ؛ وكان ذا نزوات تكاد تسعى به إلى حتفه . . . بظلفه . . .

ذهب مرة يجوب ريف مملكته ، فلمح وجهاً مشرقاً ينبثق من كوة كوخ فى إحدى القرى ، تتراقص حول ثغره الصغير بسمات هن رسل الحب ، وتنطلق من عينيه النجلاوين نفثات تصرعن ذا اللب . . . حتى لا حراك به . . .

وطرق الباب يستسق ، وما به ظمأ ، فامتدت اليه ذراع عاجية لدنة ، تحمل كوباً من البلور مفعماً برحيق الحب ، وإن لم يحنو غير الماء القراح !

وتناول الكوب ولبث لحظة يشرب ما به بعينيه ، دون أن يمتد فمه اليه ، ثم أرسل زفرة دفعت الباب فانفتح على مصراعيه ، ودخل غير مستأذن ، فروى فمه ، وبرد قلبه ، وبل جاحم الحب الذى زلزل أركانه

ثم تزوجها ، ومكث عندها شهراً كان عسلاً كله !

ووصل إلى قاعدة الملك ، وأم القرى ، أثينا ، بعد أن ترك وصاته المكتوبة الآتية : « فى الغرفة التى ضمتنا لأول مرة نلتذ الحياة وننعم بطيب العيش ؛ هنا ؛ فى هذا المنزل الصغير الذى اتسع لدنيا من الآمال والأحلام ؛ وتحت الحجر الكبير الملون ، حيث كانت قدماى تحييان فى سكرة الهوى قدميك ؛ قد استودعت نعلى اللتين حملتانى اليك ، وسيفى الذى فريت به رؤوس الأعداء حتى سعدت بك ؛ فاذا وضعته غلاماً فسميه ثيذيوس ، ونشئيه وطرئيه حتى يصلب عوده ، ويشتد ساعده ، فخذيه إلى الحجر فليرفعه ، وليلبس نعلى وليمتشق سيفى ، ثم ليمض إلى أثينا ، لا حافظ له إلا قلبه ، ولا حارس إلا سيفه ، فاذا شاءت العناية فانه بحول زيوس العظيم ولى عهدى ، وصاحب التاج من بعدى . »

وتتابعت السنون

وكانت أثينا تزهى كل سنة بعيدها الرياضى الفخم ؛ فتلبس حلة من البهجة والايناس ، وتؤمها وفود الأقاليم المجاورة تتفرج بالألعاب الجميلة ، وقد تشترك فيها

وكان لينوس ملك كريت[1] ، ابن مفتول العضل قوى البنية حبيب الطلعة ، كان يقدم إلى أثينا إبان عيدها الرياضى ليبارى

(١) كريت أو كريد هى جزيرة إقريطش وقد آثرنا التسمية الأولى لسهولتها وذيوعها

قال : « أرجوكم ، أتوسل اليكم أن تعيروا شيئاً من اهتمامكم هذه البيوت التى أسميت معامل عمداً وقصداً . طالبوا بزيادتها . طالبوا بتكميل ما نقص منها . إنها معابد الغد . ومنها ستخرج لكم أسباب الرفاهية وأسباب الغنى » . لقد سبق بستور زمانه بنصف قرن ، وكان كالنبى الذى يعرف من أين تؤكل الكتف ، فنصب لقومه مثلاً للكمال عظيمة ، ولكنه لم ينس أن يذكرهم عما سيكون لهم كذلك من متع مادية دون تلك المثل عظماً ، لم يكن بستور بحاثا كبيراً فحسب ، بل كان خبيراً بأمور دنياه خبرة فائقة

(يتبع) أحمد زكى

أبطالها ، ثم يعود مشمولاً بحب الأثينيين وإعجابهم الشديد ، ولقد كان يحدث ألا يكون للموسم بهجته المعتادة إذا تخلف ابن مينوس فلم يحضر إلى أثينا

ومن غريب المصادفات أن يولد ابن ملك كريت هـذا فى نفس اليوم الذى تضع فيـه القروية الحسناء الغلام ثيذيوس ابن ملك أثينا

ومن غريب المصادفات أيضاً أن ينشأ ثيذيوس هذه النشأة الرياضية التى نشأها ابن مينوس ، والتى كانت أماراتها تبهر الأثينيين وتخلب ألبابهم فى موسمهم الرياضى

ولم يكن الأثينيون يعلمون أن لملكهم ولداً ، هو إن لم يبرز على ابن مينوس فى الألعاب الرياضية ، فانه لا يقل عنه شأناً فيها . ولم يكن الملك نفسه يعلم عن ولده شيئاً ، ولو قد علم عنه شيئاً لما سوّلت له نفسه الأثيمة أن يدبر غيلة ابن مينوس فى حلك الليل ، وفى طريقه المقفرة إلى المرفأ ، حين آب بأكثر جوائز الموسم الرياضى ، فى المصارعة والملاكمة والعدو ورمى القرص ..!

لقد أكلت الغيرة العمياء قلب الملك الجبان ، وتلظّى فؤاده بحقد أسود حجب بصيرته ، فأرسل عصابة من اللصوص وقطاع الطرق والسفاكين ، ذبحوا الشاب المسكين ، ونبذوا جثته بالعراء ، تنوشها الوحوش وسباع الطير !

واهتزت أثينا المضيافة ، أثينا أم القرى ، لهول الجريمة ، ونقموا على القتلة الأشرار اعتداءهم الشنيع على ضيفهم المحبوب ؛ وكادت تندلع ألسن الثورة حين استفاضت الأشاعات وراجت سوق الأقاويل ، لولا أن وصل فى صبيحة ليلة الجريمة ، البطل الصغير ثيذيوس ولى العهد فجأة ، ومن غير سابق علم ، ولا ترقب ، ولا انتظار !

« ثيذيوس ! ومن يكون ثيذيوس هذا ؟ !

« ولى عهد المملكة ، ورجاؤها ، ومعقد آمالها

« وأين كان الشاب ؟ وابن من ؟ ومتى ولد ؟

« كان يُنَشَّأ فى الريف ، وهو ابن حسناء من أميرات الأقاليم وولد منذ عشرين

ولم لم تعلم به أثينا من قبل ؟

« أراد الملك أن يفاجىء شعبه بهذا الخبر السار ، لولا اغتيال ابن مينوس ؟ !

« وهل هو حقاً أشجع من ابن مينوس ؟

« ومن يكون ابن مينوس ، وألف بطل كابن مينوس إلى ولى عهدنا ثيذيوس ؟ وهكذا راحت الجماهير يتحدث بعضها الى بعض حديث ثيذيوس

أما كيف وصل هذا الأمير الصغير ، فان أمه لما آنست فيه القوة واكتمال البنية ، ولما رأت من تدفق ماء الشباب فى وجناته ، وسريان كهرباء الحياة فى عضلاته ، قادته الى الحجرة التى لقيت فيها لأول مرة أباه ، ثم ناولته الخطاب المكنون الذى يحمل وصاة الملك . وما قرأ الفتى ما جاء بالخطاب حتى تأكدت له الأمانى العذاب التى كانت أمه تهتف له بها ، فتقدم الى الصخرة فرفعها بأقل جهد ، ثم حمل السيف فقبّله ، ووضعه هنيهة على رأسه ، ثم على عينيه ، ثم على قلبه ، كأنه يطبع به خاتم المحبة الأبوية على أعز جوارحه !

وربط النعلين العزيزتين على قدميه ، وانهال على خدّى أمه ويديها يقبل هذين ويلثم هاتين ، وودعها ، وتزود من نصائحها ، وانطلق ميمما شطر آثينا

وكانت الطريق الى العاصمة صعبة شائكة محفوفة بالمكاره ، ككل طريق تؤدى الى جنة أو نعيم ! فاللصوص وقطاع الطرق والسفاكون يأخذونها من كل حدب ، والسباع الضوارى تمج فى جنباتها ، والغيلان والأبالسة تهمهم فى جميع منعطفاتها . . .

ولكن هذا كله لم يثن من عزم ثيذيوس ؛ فلقد قتل كل من تعرض له من لصوص هذه البرية المرعبة ، وفرى رؤوس سباعها ، حتى لقد فر الكثيرون أمامه يذيعون نبأ مقدمه فى آثينا . فما وصل إليها حتى كان صيته قد سبقه وشاع فيها . وما إن تقدم الى أبيه الملك حتى عرفه ، ونزل من فوق العرش فعانقه وقبله ، ثم عاد فاجلسه بجانبه ، وألقى اليه بأذنيه يصغى الى قصة حياته ، ومجازفته فى الطريق التى تكتنفها الأهوال الى أثينا !

وأعلن السرور العام فى المدينة ، وطفقت النواقيس تدق فى الهياكل ، وأطلق سراح المجرمين من جميع السجون ، وجعل

الناس يتندرون بشجاعة ولى العهد وقصته العجيبة ، حتى لأنساهم ذلك هول المأساة الدامية التى روعتهم وزلزلت قلوبهم

***

وانتظر مينوس أوبة ابنه ، بيد أنه قلق لانقطاع أخباره ، وساورته الظنون من أجله ، وحسب أن ريحاً عاصفاً ثارت بمركبه فى البحر الايكارى [1] فأغرقته ، لولا أن أحد التجار الكريديين عثر بجثة القتيل فاحتملها الى الملك ، الذى تصدع قلبه من الأسى !

ولا تسل عما انتاب مينوس من الحزن ، وما شمل كريد من الهم ، حتى لم تبق فيها عين لم تذرف ماءها على ولى العهد !

واتصل بالملك ما كان من فعلة إيجوس ملك أثينا ، فاستيقظ الناس صبيحة اليوم التالى على صيحة الحرب ، تدوى فى غبشة الفجر فتقض المضاجع ، وترن فى الآذان وتتجاوب لها حبات القلوب ! وما تطلع الشمس حتى تكون البطاح مائجة بجنود كريد البواسل ، هائجة بالمتحمسين من الشبان والشيب ، هرعوا جميعاً فدى للملك ، وريّا لمجد الوطن ، وإيثاراً لولى العهد !

وترامت الأخبار الى أثينا ، فاعتكرت أفراح البلاد ، وسكن ضجيج الشعب ، وسارع الجميع يستعدون للقاء العدو ، فها هى القلاع قد سهر عليها حراسها ، والسبل منبثة فيها الجنود شاكى السلاح ، والمرافىء تعج بالسفائن الحربية ، وكل رجل فى المملكة قد اضطلع بنصيبه فى الذود عن بيضة الوطن !

وأقلع مينوس بأسطوله اللجب ، وعسكره المَجْر ، وفرسانه العديدين ، مزودين بميرة ليس كمثلها ميرة ، وذخيرة يا لها من ذخيرة . . . ومخر الأسطول لا تحول بينه وبين مطمحه عقبة ، ولا يقف من دونه مُحمَّق ولا مجنون

ووصل الأسطول الى أثينا ، غادة هيلاس ، وهدية الآلهة الى ڤينوس ، وعروس الأحلام الجميلة ؛ فوجد الأسوار مخفورة ، والبوابات مغلقة ، والناس داخل المدينة مستعدين للدفاع عنها ، فألقت الفلك مراسيها . واندفع الكريديون يحتلون السهل الواسع المحيط بالمدينة حتى ملأوه ، وحتى لا ترى إلا خياماً تصل أقصى الشمال بأقصى الجنوب ، وتربط أول الشرق بآخر الغرب . . . جنود وضوضاء . . . وصهيل ورُغاء . . . وعسكر كالجراد المنتشر لا تبلغ آخره عين ، ولا يذهب الى آخره خيال !

وصار مينوس يحاصر المدينة أياماً طوالاً حتى قلت الأقوات داخلها ، وأخذ أهلها يشكون الجوع والجهد ، وزاد فى شدتهم أن نضب الماء ، فعم البلاء

ولم يكن أمام الأثينيين إلا إحدى اثنتين : إما الموت داخل الأسوار صبراً وهذا ما لن يكون ، وإما الخروج للقاء المحاصرين ومناضلتهم ، وذلك مالا طاقة لهم به ، ولا قدرة لهم عليه

أمران أحلاهما مر ، وأخفهما فيه الويل ، وعقباه الدمار والبوار ! وأجمع بعض عقلائهم على أن يذهبوا الى ملكهم يرجونه أن يذهب الى الهيكل فيقدم القرابين الى الآلهة حتى تأتيهم نبوءة السماء ووحى الأولمپ بما ينبغى أن يكون . . . ولكن الملك أبى واستكبر ، ثم قبل بعد إلحاح أعيان القوم أن ينوب عنه فى هذا الشأن أحدهم

وقصد قائم مقام الملك إلى هيكل ڤينوس فتقرب بالضحايا وعقر القرابين ، وقبل الأرض بين يدى تمثالها المنتصب فوق المذبح ، ولبث غير قليل . . .

وخشعت الأبصار وسكنت القلوب ، وساد المعبد وجوم عجيب . . .

ثم انبعث الصوت القدسى الضعيف من خلوة الكاهن يقول :

« ليفعل الأثينيون ما يأمرهم به مينوس ملك كريت . . . الويل لهم إن حاربوا ؟ ! »

وهلعت الأفئدة . . . وطاشت الأحلام ! !

وتلقاها الملك كما يتلقى الانسان حكماً عليه بالاعدام . . . ولكن ما العمل ؟ ولا حيلة لبنى الموتى فى دفع أحكام القضاء ؟

وأرسل إيجوس إلى ملك كريد يعرض عليه الصلح ، ويسأله عن شروطه . . . فقال مينوس لرسل الملك : « قولوا لايجوس ، الآن عرفت كيف طعنت فؤاد مينوس تلك الطعنة النجلاء بقتلك ابنه وولى عهده . . . ولقد جئناك نطلب ثمن هذه الفعلة الشنعاء ، ولن تكفينا أثينا كلها ثمناً لها ! أما وقد ذلت ، فحسبنا أن نرجع بسبعة من خير شبابكم وأجمل فتيانكم ، وسبع من أبكار

(١) نسبة الى إيكاروس (أسطورة العدد السابق)

الأثينيات وأبهى حسانها ، ليكون الجميع غذاء حلالاً للمينوطور ، وعلى أن ترسلوا كل عام في مثل هذا الزمن أربعة عشر آخرين من خيرة شباب أثينا وأكرمهم حسباً

إن رضى الملك وسلّم فدية هـذا العام رحلنا عنكم إلى العام المقبل . . . »

وسكت الملك ، وتحدرت من عينيه دموع غلاظ ، وثار في قلبه هم قديم . . .

طلب مرعب ينم عن قسوة وغلظة ! غير أن قتل ابن مينوس غيلة ، في رحاب أثينا ، وفي دجنة الليل ، وبتدبير الملك ، كل ذلك يبرر الغرامة الوحشية التي فرضها ملك كريت !

وكاد إيجوس يرفض هذا الهوان الذي طلب اليه أن يؤديه عن يدٍ وهو صاغر ، ولكن الشعب هاج هائجه ، وضج الرعاع يطلبون الخبز ، أو تسليم المدينة ، أو . . . دم الملك ! !

فذل إيجوس المسكين وصغر ، وقبل شروط مينوس مرغماً ، واختير من شباب المدينة سبع كواعب أتراب ، وسبعة فتيان في ريعان الصبى ، وشيّع هؤلاء وهؤلاء إلى الأسوار بين بكاء الأمهات وعويل الآباء وآلام المحبين !

وهرع الكريديون إلى خيامهم فاقتلعوها ، وإلى شراعهم فنشروها ، وأقلعوا في الصباح الباكر بعد أن ألقوا على كبرياء إيجوس هذا الدرس المهول !

***

ومضت سنون وأثينا العظيمة تؤدي الفدية عن يد وهي ضارعة ، حتى ثارت كبرياء ثيذيوس وفارت نخوته ، وتقدم إلى أبيه الملك الشيخ ، حين دعا النفير العام لتقديم الفدية ، يضرع اليه أن يكون هو الفداء الرابع عشر من شباب هذا العام :

« على الأقل يا أبي يكون في هذا بعض العزاء للأثينيين ، وليثقوا أننا لا نذلهم ، وأننا منهم وهم منا ، وأننا آخر الأمر ، نشرب الكأس التي يشربون ! »

وصعق الوالد حين تقدم إليه ولي عهده بهذا الطلب ، ورفض رفضاً باتاً . . ويغلي الدم في رأس البطل الشاب ، فيقول للملك :

« إذن فأنا أحطم كأس الحياة التي أفعمت مذلة وهواناً ، وسأريق مع سمها الأسود هـذا الدم الأرجواني الذي لا أستحقه ، ولا أشرف به . . . أبتاه ! لن تتحرك السفينة الحزينة حاملة ضحايا قسوتنا واستبدادنا حتى أحييها بحياتي ، وأرويها بدمي ، ليكون قرباناً لمن عليها من عشيرتي ولِدَاتي . . . »

وقبل أن يفصل البطل الشاب ، ناداه والده باكياً ، ونهض فباركه ، وقبل ، والهم يمزق أحشاءه ، أن يكون بين الضحايا . .

وفي الحق إن ثيذيوس لم يكن يعرض نفسه للتهلكة ، ولكنه كان واثقاً من شجاعته ، مؤمناً بما وهبته الآلهة من جَلَد وبأس ، وقلب لا يفله إلا الحديد ، لأنه من حديد . ولقد صمم أن ينازل هـذا المينوطور الخبيث ، فاما قتله وعاد مرفوع الرأس ، موفور الكرامة ، ليعيش في وطنه منقذاً لأثينا ، وإما قضى القضاء أمره فيه ، وليس هو بأعز ممن راحوا ضحية هذا الوحش المخيف !

وقال لأبيه وهو يودعه ، حينما ركب المركب السوداء التي يرفرف عليها علم الموت « أبي ! لا تبكِ ! إنك ملك ، ودموع الملوك لا تذرف إلا في سبيل الوطن ! إنني ذاهب إلى معركة أرجو أن يكتب لي النصر فيها ! لقـد كنت أتغلب على عشرات من أمثال هذا الوحش ولما أكن بعد إلا طفلاً . . . ادع لي أن أفوز به ، فأريح أثينا العزيزة من شره »

وأقلعت السفينة تحمل هذه الفلذات الغالية من أبناء البلاد ، ومخرت في بحر تلاطمت أمواجه ، وزخرت أثباجه ، واشمخر أنفه ، وانتفخت أوداجه ، حتى وصلت إلى كنسوس حاضرة كريت . وهرع الناس من كل فج يستقبلون ضحايا المينوطور ، وفي وجه كل منهم عبوسة حزن ، وملء قلوبهم ثورات مكبوتة من الأسى ، على هذا الشباب الناضر الذي أقبل إلى الموت من قرار بعيد !

وكانت في الجماهير فتاة غضة الأهاب ، بضة الشباب ، حلوة ناعمة ، نهضت في مركبتها لمشاهدة الضحايا الأثينيين ، وما كادت عينها تصيب نظرة من ثيذيوس ، حتى أحست في أعماقها بنفحة السماء التي تسبق لفحة الحب ! !

« ترى من يكون هذا الشاب الأنيق والفتى الرقيق ؟

« إنه يُقبل في غير وجل ، ويقتحم الجماهير في غير هيبة ! أعَبَر بحار الموت قبل هذا ؟

« لا شك يا فتاة أنه أمير إن لم يكن ابن ملك !

« إن الحمرة التي تطير من الورد إذا قُطف ، ما تفارق خَدَّيه ، وهو مُقدم على الردى ! !

« إن صفرة الموت تستحي أن تموه هذه الوجنات ! ؟ . . .

« أمن السماء هذه الزرقة التي تملأ عينيه ؟ . . .

« بل مثله لم يخلق إلا ليكون زهرة هذه الحياة الدنيا . . .

« أيها الشاب . . . لن تموت !

وهكذا جعلت تتحدث تلك الغادة . . . الأميرة الجميلة بنت مينوس . . . ! !

وكأنما قرأت وصيفتها الأمينة ما دهى سيدتها من حب الفتى في كتاب عَيْنَيها ، فقالت : « أتحس سيدتي بتعب ؟

« لا يافتاة . . ولكن انظري الى هذا الفتى المتفتح كالزهرة !

« والله ياسيدتي إنه جدير بعطفك ، خليق برحمتك . . .

« وما العمل يافتاة وليس لنا في إنقاذه يدان !

« هوِّني عليك يامولاتي ! إنه وايم الله من سلالة الملوك ، إن لم يكن ابن مليك ! وهو بادي الشجاعة ظاهر الفتوة ! وإن له لسيفاً طويل النجاد ما حمل أحد مثله ، ولم أعهد قط أن من ضحايا المينوطور من جاء بذي غرارين من شنه . . . فلم لا ندبِّر معه قتل المينوطور ! ؟ . . . »

« قتل المينوطور ؟ إنك تهرفين ! ومن يجسر أن يدخل والمينوطور في معترك ؟

« لا عليك ؟ نرشو السجان فيفلت الشاب في ظلام الليل ، ونهديه إلى باب اللابيرنث[1] فينطلق إلى الوحش الغاط في نومه العميق فيجذ رأسه بهذا الجراز الذي ترين ! »

« ياله من تدبير ! ولكن كيف يعود الشاب وأنت تعرفين من منعرجات اللابيرنث وشعابه ماتعرفين ؟ . . . »

« لا أسهل من هذا أيضاً ! خيط طويل من أمراس الكتان يمسك هو بطرفه الأول ، ونمسك نحن بطرفه الآخر ، يهديه في الأولى ويرشِّده في الثانية ! ! »

وطربت بنت منيوس لتدبير وصيفتها ، فمنحتها قبلةَ شهية وخلعت عليها جائزة سنية . . . وانطلقتا ترقّبان المساء !

(١) اللابيرنث هو التيه الذي بناه ديدالوس للمينوطور ، وقد حدثناك عنه في العدد السابق

وعرف ثيذيوس أنها ابنة الملك فاستُطير من الفرح ؛ وعرفت أنه ابن ايجوس ؛ فكبر رجاؤها وتلألأت آمالها . . .

وقتل المينوطور ؛ وفك اسار رفاقه ورفيقاته ، وأقلعت بهم الفلك ؛ حاملة جوهرة جديدة غالية : هي ابنة مينوس . . . وربيبة كريد

أما الملك !

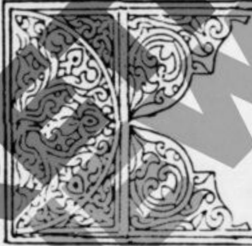
فقد صبر ! وأرضاه أن يحضر ايجوس فيعتذر له ويصالحه !..

وهكذا حسم الحب هذا الخصام الطويل

دريني خشبة



البريد الأدبي



كتاب العام

أزمة أوربا

بقلم أندريه زيجفريد

صدر أخيراً بالفرنسية كتاب يعتبره بعض النقدة « كتاب العام » ، وهو كتاب « أزمة أوربا » La Crise de l' Europe لمؤلفه الكاتب السياسي والاقتصادي الكبير أندريه زيجفريد ، وهو يصدر في ظروف عصيبة تواجهها القارة القديمة . وقد شغلت هذه المعضلة منذ نهاية الحرب كثيراً من رجال السياسة والاقتصاد ولكن لم يلفت الأنظار مما كتب فيها سوى كتب ثلاثة : الأول كتاب « مصير أوربا » Destin de l' Europe الذي ظهر غداة الصلح بقلم مسيو آبير ديمانجون ، وفيه ينوه بخطورة التقدم الصناعي الذي حققته أمم كاليابان والولايات المتحدة (أمريكا) . ثم أصدر مسيو لوسيان روميبه كتاباً ينوه فيه بعجز أساليب الانتاج الأوربية القديمة عن مناهضة الانتاج الضخم الذي تتبعه أمريكا ؛ وتلاه مسيو شارل بوماريه في كتاب يبحث فيه أسباب نجاح الغزو الذي قامت به أمريكا لأسواق أوربا القديمة في القارة ذاتها

ولما وقعت الأزمة الاقتصادية الأمريكية خفت حدة هذه المسألة الشائكة ؛ وخفت حدة الجدل عن الصراع الاقتصادي بين أمريكا وأوربا ؛ ولكن الأزمة لما انتقلت الى أوربا وعصفت بصرحها الاقتصادي ، عادت نظرية الغزو الأمريكي والياباني لأوربا تشغل أذهان الساسة والاقتصاديين

وقد جاء كتاب مسيو أندريه زيجفريد بذكر أوربا القديمة أن الداء لا يذهب بداء آخر ؛ ويقول مسيو زيجفريد إن أوربا يجب أن تواجه نفس المشاكل التي تواجهها باقي الأمم ، ويجب أن تصلح نفس الأخطاء ، ولكنها تواجه في نفس الوقت مشاكل خاصة بها ؛ وقد لاحظ كثير من الباحثين ذوي النظر البعيد منذ نهاية الحرب أن الأمم الصناعية القديمة تجد نفسها اليوم أمام أمم فتية منافسة لم تكن تتوقع نهوضها ؛ أمم تتفوق عليها بأجورها المنخفضة ، وانتاجها الضخم ، وحداثة أدواتها واستعداداتها الفنية . ويلاحظ مسيو زيجفريد بحق أن ذلك الاحتكار القديم الذي كانت تتمتع به أوربا قد دخل في دور الانحلال ، وهذه هي ناحية المشكل التي يعالجها ببراعة ووضوح

وأهم قسم في الكتاب هو الذي يشرح فيه المؤلف لنا كيف استطاعت أوربا أن تفرض سيادتها على العالم ، وكيف بدأ العالم ينازعها هذه السيادة ، ويقدم لنا المؤلف صورة قوية مما كانت عليه أوربا والعالم في أواخر القرن التاسع عشر ، حينما كانت أوربا تكاد تحكم العالم في نوع « من الحق الآلهي » . وقد استطاعت أوربا منذ عهد الأحياء (الرينصانس) « بوسائلها وشهواتها » أن تتفوق على باقي القارات الأخرى ؛ ولم يمض قرنان على ذلك حتى استطاعت أوربا بواسطة ثورتها الصناعية أن توطد احتكارها بلا منازع ؛ وكأن عناية إلهية مكنتها من تحويل جميع المواد الأولية التي ينتجها العالم الى سلع ومنتوجات تستدر بها ثروات العالم كلها ؛ وقامت سيادتها على امبراطوريتها الاستعمارية التي شملت معظم بقاع الأرض ، وسادت أساطيلها جميع البحار ؛ واستطاعت بالاعتماد على قانون دولي مرن أن تفرض من النظريات والنظم على معظم الأمم ما يوافق مشاريعها ومصالحها ؛ وانتهى الأمر باقامة نظام اقتصادي هائل تستولى أوربا بمقتضاه على جميع المواد الأولية ، ثم تردها الى العالم سلعاً مصنوعة . يقول مسيو زيجفريد : وهذا نظام ضخم ذكي ، تخضع فيه الحريات لصولة التوسع ، والأخلاق لسلطة الفتح ؛ ويعتبر فيه من الأمور المشروعة الخالدة أن يقسم العالم الى طبقتين متباينتين : أرستقراطية أوربية تحتفظ لنفسها بالعمل الفني المثمر ، وطبقة فقيرة يترك لها العمل الخشن المضني

ولـكن هذه السيادة تبدأ منـــذ القرن التاسع عشر دور الانحلال ؛ وقد كانت أول خطوة فى ذلك تحرر بعض الأمم البيضاء كالولايات المتحدة والمستعمرات الأسبانية والبرتغالية ، والدومنيون البريطانية . وفى أوائل القرن العشرين نزلت الى الميدان بعض الأمم الملونة التى كانت تعتبر منحطة ، وجاءت الحرب فزادت فى بواعث الأزمة ؛ ذلك أنها حطمت الأداة القديمة التى كان يقوم عليها توازن العالم ، وحولت الانتاج الأوربى عن مهمته الطبيعية ، فاستطاعت القارات الفتية أن تغتنى بسرعة وأن تغـدو دائنة ، وأن تنظم صرحها الصناعى على قواعد ضخمة ، وبعد نهاية الحرب لاحظت أوربا أن منافسيها الجدد يحاربونها بأسلحة لا تستطيعها مثل الأجور المنخفضة فى الشرق الأقصى ، والانتاج الضخم فى أمريكا ، يقول مسيو زيجفريد : « ولقـد نزلنا الى معترك عام ، وحصرنا بين نارين ؛ بين آسيا وأمريكا ؛ بين الأجر المنخفض فى الأولى ، والأجر المرتفع فى الأخرى ؛ ومهما كان من الأمر فانا نستكين الى ذلك فى ضعف »

ويتساءل مسيو زيجفريد ، هل حكم على هـذه القارة التى سادت العالم مدى ثلاثة قرون حكماً نهائياً لا مرد له ؟ وهنا يعدد المؤلف لنا ما بقى لأوربا من عناصر التفوق ووسائل النضال ؛ ويرى أن أفضل طريق للسلام هو تمسك أوربا بالانتاج الفنى الرفيع الذى يقتضى علماً وخبرة فنية ، بيد أن هـــذه الطريق ليست أيضاً محققة ولا حاسمة ؛ ذلك أن اليابان تخطو نحو الانتاج الفنى خطوات سريعة ؛ وقد بدأت أمريكا تحتل مكان ألمانيا فى التطبيقات العلمية والفنية . فالمستقبل إذن غامض ومصير أوربا القديمة فى كفتى ميزان : (عن لوروب نوفيل بتصرف)

تكريم الدكتور محمد حسين هيكل بك

بمناسبة صـدور كتاب (حياة محمد) تألفت لجنة لتكريم الدكتور محمد حسين هيكل بك برياسة حضرة صاحب العزة الأستاذ أحمد لطفى السيد بك مدير الجامعة

وسيقام لهذا الغرض حفلة شاى بفندق الـكونتننتال مساء يوم الأربعاء ١٥ مايو الجارى ، وستذاع بالراديو الخطب التى تلقى فى هذه الحفلة

وسيصدر عدد خاص من جريدة السياسة بآراء وأبحاث رجال الفكر بمصر والشرق فيما ألفه الدكتور هيكل بك ، وفى آثاره الأدبية ومؤلفاته المختلفة

وترجو اللجنة أن تكون جميع المراسلات باسم الأستاذ جلال الدين حسن بشارع الناصرية رقم ٦٠ بمصر

كتاب جديد لفرنسيس كاركو

فرانسيس كاركو كاتب فرنسى يعرفه الـكثيرون فى مصر . وقد زار مصر منذ نحو عامين وكتب عنها سلسلة من المقالات والصور كانت أشنع وأقبح ما كتب عنها من الوجهة الاجتماعية والأخلاقية . ذلك أن فرانسيس كاركو كاتب لا يرتع قلمه إلا فى عالم الطبقات الدنيا والمجتمعات السافلة ، عالم البغاء والفجور والادمان والتدهور الاجتماعى . ولـكن كاركو يدهش اليوم قراءه باخراج قصة جديدة جردت عن هـــذه الخاصة عنوانها « ظلمات Ténébres » ؛ ففى هـذه القصة الجديدة يعالج كاركو مأساة عائلية عادية ، لا أثر فيها للسفلة والأوغاد والحياة السافلة ، قصة زوج فتى متعلم خانته زوجه ، وضبطها متلبسة بالخيانة فقتل منافسه ، وقدم إلى القضاء فحكم عليـه بأعوام فى السجن . ويحاول كاركو أن يبدد « الظلمات » التى حاقت بضمير هـذا الزوج المعتدى عليه ، ويحاول أن يحلل بالأخص تلك العواطف المختلفة التى جاشت بنفسه ؛ فهو من جهة يشعر بأنه يحب الزوجة الخؤون أكثر مما كان يتصور ، ومن جهة يشعر بأنه يبغضها أولاً لأنها خانته وسحقت عرضه ، وثانياً لأنها صيرته مجرماً يلفظه المجتمع ؛ وهكذا . ويرى النقدة أن كاركو باصدار هـذه القصة الجديدة ينحو فى الـكتابة والتصوير ناحية جديدة ربما كانت فاصلة فى حياته الأدبية

بين السياسة والأدب

فى أنباء سان فرنسيسكو (أمريكا) ان الـكاتب الأمريكى الـكبير أوبتون سنكلير قد اعتزم نهائياً أن يعتزل الحياة السياسية . وسنكلير كاتب اجتماعى كبير ، ولـكنه يخوض غمار السياسة إلى جانب الحزب الراديكالى منـذ عشرين عاماً . وكان قد حاول أخيراً أن يرشح نفسه لمنصب حاكم كاليفورنيا ، ولـكنه فشل فى الانتخاب ؛ وأثر هـذا الفشل فى عواطفه ونفسيته ، فمرض مدى حين ، وما زال مريضاً يستشفى . وقد كان من أثر الصدمة أن عاف الحياة السياسية وقرر أن ينبذها نهائياً



كتابا المواقف والمخاطبات

للنفّرى

للدكتور عبد الوهاب عزام

كتبت فى عدد الرسالة الماضى كلمة عن كتابى محمود بن عبد الجبار النفّرى المعروفين باسم المواقف والمخاطبات ، ونقلت شذرات من الكتاب الأول ، وهو يحوى سبعة وسبعين موقفاً عرف القارئ مثالاً منها فيما قدّمت

واليوم أنقل شذرات من الكتاب الثانى كتاب المخاطبات. وهو يحوى ستا وخمسين مخاطبة على أسلوب قريب من أسلوب المواقف ، وعسى أن أفرغ قريباً لبحث مفصل عن الكتاب ، ما استبان من معانيه وما غمض ، وما وقع من تحريف فى سياقه ، وللكلام عما كتب عليه من الشروح . فمثل هذا الكتاب العجيب لا يكتفى فيه بهذه النظرة المجلى :

مخاطبة

يا عبدُ ! قل أعوذ بوحدانية وصفك من كل وصف ، وأعوذ برحمانية برّك من كل عسف

يا عبد ! قل أعوذ بوجهك من كل وجه

يا عبد ! قل أعوذ بقربك من بعدك ، وأعوذ بيمدك من مقتك ، وأعوذ بالوجد بك من فقدك

يا عبد ! اجعل ذنبك تحت رجليك ، واجعل حسنتك تحت ذنبك

يا عبد ! من رآنى عرفنى وإلا فلا ، من عرفنى صبر علىّ وإلا فلا

يا عبد ! من صبر عن سواى أبصر نعمتى وإلا فلا

يا عبد ! من أبصر نعمتى شكرنى وإلا فلا

يا عبد ! من شكرنى تعبد لى وإلا فلا

يا عبد ! من تعبّد لى أخلص وإلا فلا ، من أخلص لى قبلته وإلا فلا ، من قبلته كلمته وإلا فلا

يا عبد ! من كلمته سمع منى وإلا فلا ، من سمع منى أجابنى وإلا فلا ، من أجابنى أسرع إلى وإلا فلا ، من أسرع إلى جاورنى وإلا فلا . من جاورنى أجرته وإلا فلا ، من أجرته نصرته وإلا فلا ، من نصرته أعززته وإلا فلا

مخاطبة

يا عبد ! إن عبدى الذى هو عبدى هو اللدَق المُاق من بدى

يا عبد ! عبدى الذى هو عبدى هو الفضباز لى على نفسه فلا يرضى

يا عبد ! إن عبدى الذى هو عبدى هو المستقرّ فى ذكرى فلا ينسى

يا عبد ! إذا جاءت ترجمتى فانقطع بها عن ملكى وملكوتى ، ثم إذا بدت ترجمتى فانقطع عنها إلىّ تصير التراجم والحروف آلة من آلات معرفتك ، ومركبا من مراكب نطقك

يا عبد ! أقبل علىّ لا من طريق ولا من علم ، تقبل علىّ وأُقبل عليك

يا عبد ! اجأرْ إلىّ بمحامدى فى السراء أدافع عنك بنفسى فى الضراء

يا عبد ! واصل بين طهارتك تواصل بين نعيمك ، إنك إن لم تفصل بين طهارتك لم تفصل بين نعيمك

يا عبد ! لن تعرفنى حتى ترانى أوتى الدنيا أرغدَ وأهنأ ما عرفتَ من الدنيا لعبد عصى ، وأغنى من عرفت من العبيد فترضى بما زويت عنك ، وتعلم أننى زويت اعراضى عنك وزويت حجابى

يا عبد ! ميعاد ما بينك وبين أهل الدنيا أن تزول الدنيا فترى أين أنت وأين أهل الدنيا

مخاطبة

يا عبد بنيت لك بيتاً بيدى إن هدمت ما بنيتُه بيدك

يا عبد إذا رأيتنى فلا والد يستجرّك ولا ولد يستعطفك

يا عبد ! إذا رأيتني فى الضدين رؤية واحدة فقد اصطفيتك لنفسى

يا عبد ! وَلّنى أمرك بَطرح أمرك

يا عبد ! الغيبة ألا ترانى فى شىء ، الرؤية أن ترانى فى كل شىء !

يا عبد ! اجعل لى يوماً ولك يوماً وابتدى بيومى يحمل يومك يومى

يا عبد ! اصبر لى يوماً أكفك غلبة الأيام

يا عبد ! إذا لم ترنى تخطّفك كل ما ترى

يا عبد ! لو ألفت بحزنك بين ما يختلف عليك ، وارتبطت بفرحك ما يلائمك كان مرادى الغالب

مخاطبة

يا عبد ! استغن بى تر فقر كل شىء

يا عبد ! من استغنى بشىء سواى افتقر بما استغنى به

يا عبد ! سواى لا يدوم ، فكيف يدوم به غِنى

يا عبد ! إن أحببت أن تكون عبدى لا عبد سواى ، فاستعذ بى من سواى وإن أتاك برضاى

يا عبد ! رضاى يحمل رضاى سَكنا بقلوب العارفين ، سواى يحمل رضاى فتنة لعقول الآخذين

يا عبد ! رضـاى وصفى ، وسواى لا وصفى ، فكيف يحمل وصفى لا وصفى ؟

يا عبد ! أنا القيّوم بكل ما عُلم وجُهل على ما افترقت به أعيانه واختلفت به أوصافه

يا عبد ! استعذ بى مما تعلم تستعذ بى منك ، واستعذ بى مما لا نعلم تستعذ بى منى

يا عبد ! أين ضعفك فى القوة ، وأين فقرك فى الغنى ، وأين فناؤك فى البقاء ، وأين زوالك فى الدوام ؟

عبد الوهاب عزام

رسالة العلم

تلقينا العدد الرابع من السنة الثانية لرســـالة العلم ، وهى الصحيفة التى تصدرها جمعية خريجى كلية العلوم بالجامعة المصرية فى ١٦٦ صفحة من القطع الكبير . وهذا العدد حافل بالمقالات الممتعة والبحوث القيمة فى النبات والحيوان والكيمياء والفيزياء والفلك ، مدبجة بأقلام الأساتذة والطلاب على أسلوب واضح وغرض مشوق واستيعاب مفيد . و(رسالة العلم) تحمل طابع العلم من خشونة الجد ، والذهول عن حركة الكلية ، وعن تصوير الحياة الجامعية فيها ، فهى لا تعنى بأخبار المحاضرات والمناظرات والرحلات والجمعيات والرياضة ، وحظها من كل ذلك موفور مشكور يستحق التسجيل ويستوجب الاشادة

صحيفة الجامعة المصرية

كذلك تلقينا العدد الأول من السنة الرابعة لهذه المجلة التى يصدرها مجلس اتحاد الجامعة المصرية فى ١٦٠ صفحة من القطع المتوسط ، وهى تعتبر صورة لألوان الثقافة فى كليات الجامعة ، ولكن أثر كلية الآداب فيها غالب ، ولعل هـذا العدد بتبويبه وتنويعه وشموله أقرب الى الذوق الصحفى من سوابقه ؛ وقد يكون فى بعض فصوله هبوط عن مستوى التفكير الجامعى ، ولكن الآنسة سهير القلماوى رئيسة تحرير الصحيفة تقول فى افتتاحها : « والآن تقلبون صحيفتكم فستجدون ثرثرة وجدا ، والطلبة ثرثارون دائماً ، وثرثرتهم حبيبة الى كل نفس وقلب ، والطلبة جادون أحياناً أو كثيراً . ومن ذا الذى لا يستبشر بجد الطلاب ؟ فهذه صحيفتكم دُوّن لكم فيها مختار من ثرثرتكم وكثير من جدكم ، لتكون لكم ذكرى جميلة لأجمل أيام الحياة »

جريدة الوفاق

بمناسبة دخول جريدة الوفاق فى عامها الثامن . تصدر هذه الجريدة على عادتها صباح الاثنين الموافق ١٣ مايو سنة ١٩٣٥ فى ثمانى صفحات كبيرة مزينة بالصور والألوان ، حافلة بالموضوعات الأدبية الطريفة والمقالات الاجتماعية الممتازة . وقد فتحت أبواباً جديدة تعالج فيها قضية المرأة وتعنى بكل ما يهم المتأدب الاطلاع عليه مدبجة بأقلام الكتاب البارعين والأدباء الممتازين

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ٩٨ — ٢٠ مايو سنة ١٩٣٥ — السنة الثالثة

3 me Année, No. 98.

Lundi-20-5-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر المالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ٩٨ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٧ صفر سنة ١٣٥٤ — ٢٠ مايو سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

صفحة

هو ذا الربيـــع !

للآنسة النابغة « مىّ »

الربيع الربيع ، هوذا الربيع !
فى قَمَرِ الأسحار ، فى انبلاج الأسحار
فى مرح الأطيار ، فى عبير الأزهار
فى النهارِ الدوّار ، فى الأصيل البديع !
الربيع الجديد ، هوذا الربيع !

***

أنا القلب السعيد ، وهوذا الربيع !
فى سويدائى يحتجبُ الوجهُ المحبوبُ دواماً

وراقه أن يستهلّ مشرفاً على البريّة ، فانقلبتْ قبةُ الفلك محراباً تلألأ فيه طيفٌ من بهائهِ ، وفى مدى الأبعاد شاعت بهجةٌ تعكسُ شيئاً من حلاوة ابتسامته وفيض سنائه . وانبرى الربيع يُزجى آيات التسبيح والتهليل بأشكالهِ وألوانهِ ، لأنهُ اقتنص لمحةً من ذلك الوجه ، فتنضحت مجاليه برونقهِ واتّـزرت روائه

وتجمدت الأزمان فى لحظة ، فهى أبديةٌ آبدةٌ تُخلّد حبورى

والوجود كلُّه هالةٌ تحيط بالوجه الفريد المنافق

وخوالجي حيال الوجه وهالته نبضٌ للوجود وترتيل :

« أنت مرتع هيامي ، أيها الربيع !

« يا ربيعي النشوان ، أيهذا الربيع ! »

* * *

أنا الحدائق والرياض ، وهو ذا الربيع !

أرواحُ الأحبابِ والخلّان متجمهرةٌ في رحابي

معارضُ الوشيِ والزركشة نضيدة ، ومتاحفُ اللمعانِ والاشراق عديدة ؛

الأشجار تكلّلها تيجانُ الظلال والأنوار ، وفيالق الغصونِ خاشعةٌ كأنها في حضرةٍ ربّانية ؛

والمرئيات كلها على ارتقابٍ وانتظار ، تتوقعُ نبأً خطيراً قد يكون إفصاحاً عن بعض ضمير الأكوان .

أقُضي الأمرُ ففُزتِ ، يا أخواتي الكائنات ، بما كنت تتوقعين ؟

سيّالٌ من ذوبِ النصر والابتهاج يدفقُ علينا ، وكأنَّ كلَّ ما تراني في الأمكنة من مراجع الألحان يتلخّص في حضني نشيداً :

« شتيت الأجزاء وحدة واحدة ، أيها الربيع !

على طُور حسنك نتجلّى معكَ ، أيهذا الربيع ! »

* * *

أنا الينبوع الصافي ، وهو ذا الربيع !

ظليلةٌ تحنو الشجرةُ عليَّ ، وأنا في فيئها الحنونِ جاثم .

بلوريّة الجلباب بلوريّة الرنينِ تتلاحقُ مياهي ، وقد أودعها الربيعُ لاعجَ الشوقِ ووصبَ الحياة ؛

وفي مترنّحِ أسجوعتها نداءٌ وإغراء ، ونعومةٌ واستعطاف ، ووعدٌ ووفاء ، وثقة ونوال .

مياهي تفضّضُ الحصى وترطب الأعشاب والأدغال ، في جريها الحثيث الى حيث لا تدرى . هي تتوقُ الى رشيدِ السخاء كيلا تحسب ولا تدّخر .

وتتوالى الساعات فلا يتفيّأ شجرتي شريدُ الهجير ، ومرآتي المتثنّية لا ترسمُ وجه المرتويّ الشكور !

ليس من عابر ، غير ذاك الذي أخذ مني ما أخذ ليقذفني بالأحجار ، ويترك منهُ تذكاراً ، اللعنة والأقذار !

اليأسُ خالط صفائي ، والكآبةُ حلت في مياهي !

وبتُّ أحلمُ بالذين طوّحت بهم السبلُ فهاموا في القفر عطاشاً ، بينا مدرار أجاجي يناديهم وينطقُ باسمهم جزافاً !

ولامستني مؤاسيةً في الظلام الأفنانُ ، فاستحالت مياهي عبراتٍ وغدا نشيدي شهيقاً وانتحاباً :

« الربيع الحزين الحزين ، هوذا الربيع !

« ربيع الجحود والهجران ، كيف احتملُ الربيع ؟ »

* * *

أنا الصحراء القحطاء ، وهوذا الربيع !

الصحراء الواجمة الكتوم ، كذلك كنتُ وكذلك أكون !

أللحياة صورٌ وأشكال وسنن ؟

أفي الحياةِ ولادةٌ وموت ؟

أفي الحياةِ تبديلٌ وتحويل ؟

أفي الحياة نموٌّ ونشوء وازدهار ؟

مهٍ عن الصحراء ، أيهذا اللغو السقيم !

أنا مملكة العيّ والبكم والصمم والعمى !

أنا منطقة السآمة الآيسة والغليل القتّال :

مائي سراب ، وظلّي تراب ، وسبلي أناويه ، وملامسي لوافح وسموم ، ومعالمي مجاهل المفاوز ، وأفجاج الأهوال .

إني في ربدتي ومحلي حجةٌ رهيبة على إجحاف الأقدار ، الأقدار التي تعاقب بلا ذنبٍ وتغرّم بلا سبب ، وتبتاعُ خصب المروج بعقمي القيم

أنا في قحطي المفروض وسكوني المستمرّ ، أسيرةُ الوحدةِ والانزواء .

أنا في رحاب الأرض حبيسة .

أنا تزدردُني الرمال على الدوام ، فأنّى لي أن أعول :

« ليس لي الربيع ، ليس لي الربيع !

« ربيع الرمال والسعير ، ما حاجتي الى الربيع ؟ »

* * *

هوذا الربيع ، هوذا الربيع :

٤ - الانتحار

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال المسيَّب بنُ رافعُ : ومدَّ الامامُ عينَه وقد رُفع له شخصٌ من المجلس ؛ ثم جلّى بنظره كأنما يتطلع إلى عجيبةٍ كالحق إذا بَطَل ، والصدق إذا كَذَب ؛ ثم ردَّ بصرَه علىَّ كأنه يُعجِّبنى من عجبه ؛ ثم سَجا طرْفُه كأنما أنكرَ رأىَ عينيه فهو يلتمس رأىَ قلبه . وتبيّنتُ فى وجهه انقباضاً خيِّل إلىّ أن الشيطان جاءه بهذا الرجل يُفحِمُه به يُريه كيف يجعل أحد المؤمنين الصالحين يتحمّسُ فى دينه ليرجع بعد ذلك أصلاً لاغِنى عنه فى إنشاء قصةِ كُفر !

هذا هو ضيفُنا (أبو محمد البَصْرى) يَتخوّضُ الناسَ ليجىءَ فيحدِّثنا حديثَه فى قتْل نفسه والأثم بربّه ؛ فلو قِيل لى : إن قوسَ السماء بأحمَرِه وأصفرِه وأزرقِه وأخضرِه ، قد وقع إلى الأرض واصطبغ من ألوانه أوحالاً وأقذاراً — لكان هذا كهذا فى تعاظُمه وإنكاره والعجبِ منه ؛ فأبو محمد من

الرجالِ الحُمْسِ [1] الذين لو كَفَر أحدُهم ثم قيل «إنه كفر» ، لقَصَّر اللفظُ أن يبلغَ الحقيقةَ أو يصفَ شُنْعتَها ، كما يقصِّر لفظُ الجنون عن وصف حكيم تألّى أن يعمل عملاً يخرج به من الكون ، فلا يبقى فى أرضٍ ولاسماء ولاتناله يدُ الله ! إن فى لفظ الكفر مع ذلك ، وفى لفظ الجنون مع هذا — شيئاً من نفاق العقل وتأدُّبِه فى أداء المعنى الأخرقِ الذى لا يُشبِهُهُ جنونٌ ولا كفر

ونعوذُ بالله من خذلانه ؛ فلقد يكون الرجلُ المؤمنُ فى تشدُّدِه وإيغاله فى الدين — كالذى يصنع حبلاً يَفتله فتلاً شديداً فيُمِرُّه على طاقٍ بعد طاق ، ليكونَ أشدَّ له وأقوى ، ثم يجاذبه الشيطانُ حبلَه ، فاذا هو كان فى الوَهن مثلَ المنكبوت اتخذتْ بيتاً فى سقف حدّاد ؛ فرأته يَصبُّ الحديدَ المصهورَ يجعله سلسلةً حلْقةً فى حلقة ، فذهبتْ تحكيه وتُرسلُ من لُعابها خيطاً فى خيط تزعمه سلسلة . . . !

إن مع كل مؤمن شيطانَه يتربَّصُ به ، فلهذا ينبغى للمؤمن أن يكون فى كل ساعة كالذى يشعر أنه لم يؤمن إلا منذ ساعة ، فهو أبداً محترسٌ متهيىءٌ متجدِّد الحواسِّ مُرْهفُها يستقبل بها الدنيا جديدة على نفسه بين الفترة والفترة ؛ ومن هذا حكمةُ أن يؤذِّن المؤذِّن وأن تُقام الصلاةُ مراراً فى اليوم ، فكلما بدأ وقتٌ قال المؤمن : الآن أبدأ إيمانى أطهرَ ما كان وأقوى

* * *

وقال الامام : هِيهِ يا أبا محمد ! فقال البصرىّ وقد رأى الكراهة فى وجه الامام : لا يُفزِعنّك أيها الشيخ ؛ فان الله تعالى قد يجعل ما يحبّه هو فيما نكره نحن ؛ وليس للأقدار لغةٌ فتجرىَ على ألفاظنا ؛ وقد نُسمى النازلةَ تنزل بنا خساراً وهى ربح ، أو نقولُ مصيبةٌ جاءت لتبديل الحياة ، ولا تكون إلا طريقةً تيسرتْ لتبديل الفكر . إنما لغةُ القدَرِ فى شىء هى حقيقةُ هذا الشىء حين تظهر الحقيقة ؛ وكأيِّن من حادثةٍ لاتصيب امرأً فى نفسه إلا لتقعَ بها الحربُ بين هذه النفس وبين غرائزها ، فتكونَ أعمالُ الطبيعة المادّيةِ أسباباً فى أعمال العقل المنتصر

(١) أى المتحمسين فى دينهم

مغرياً فى الفضاء ، فتاناً فى الحدائق ،
بهيجاً فى الألوان ، رشيقاً فى الشقائق ،
طروباً فى قلب الجذلان !
هوذا الربيع ، هوذا الربيع !
كئيباً فى قلب المظلوم ، جريحاً فى قلب المحروم ؛
شاملاً بعطفٍ نصفه قسوة ،
حاضناً برفق نصفه عنف ،
موحياً أملاً نصفه يأس ،
مذكياً خصباً نصفه قحل ،
حافزاً شباباً نصفه هرم ،
مجدداً حياةً نصفها رَدى !
الربيع الربيع ، لمن يكون الربيع ؟
الربيع الجديد ، هوذا الربيع !
الربيع العابر ، هوذا الربيع !

« مى »

وكثير من هذا البلاء الذى يقضى على الانسان ، لايكون إلا وسائلَ من القدر يُردّ بها الانسان إلى عالم فكره الخاص به ؛ فان هذه الدنيا عالم واحد لكل مَن فيها ، ولكن دائرة الفكر والنفس هى لصاحبها عالَمه وحده . والسعيد من قرّ فى عاله هذا واستطاع أن يحكم فيه كالملك المطاع فى مملكته ، نافذ الأمر فى صغيرتها وكبيرتها ؛ والشقىّ من لايزال ضائعاً بين عوالم الناس ، ينظر الى هذا الغنىّ ، وإلى ذاك المجدود ، وإلى ذلك الموفق ؛ وهو فى كل هذا كالأجنبىّ فى غير بلده وغير قومه وغير أهله ، إذ كلُّ شىء يصبح أجنبياً عن الانسان مادام هو أجنبياً عن نفسه

لقد كنتُ ضالاً عن نفسى وعالَمها ، فكنت فى هذه الدنيا أستشعر شعورَ اللص ، أشياؤه هى أشياء الناس جميعاً ؛ واللص ينظر إلى أموال الناس بعينىَ شاعرٍ متحبّبٍ كلِف ، وهى تنظر إليه بعينىَ مُقاتلٍ متربّصٍ حذِر

كنتُ والله إن ضِقْتُ بالناس أو وسِعْتهم — رأيتُ فى ذلك معنى من ضيق اللص وسَعته ؛ هو على أىّ حالَيْه لاينظر فى أعماق نفسه إلا شخصاً متوارياً تحت الظلام يتسلّل فى خشْية وحذر !

وكنتُ نزِقاً حديدَ الطبع سريعَ البادرة ؛ ومَن فقدَ عالَم نفسه ، وكان فى مَثَل اللص الذى ذكرتُ — فان هذه الطباع تكون هى أسلحته يَدْفَعُ بها أو يعتدِى . وما قطُّ تمكّن إنسانٌ من نفسه وأحاط بها ونفذ فيها تصرّفُه — إلا كان راضياً عن كل شىء ، إذ يتصل من كل شىء بجهته السامية لاغيرها ، حتى فى اتصاله بأعدائه من الناس وأعدائه من الأشياء ؛ فما يرى هؤلاء ولاهؤلاء إلا امتحاناً لفضائله وإثباتاً لها . وقد يكون عدوُّك فى بعض الأمور عيناً لك فى رؤية نفسك ؛ ففيه بَركةُ هذه الحاسة ونعمتُها

ولو نحن كنا مسلمين إسلامَ نبيِّنا (صلى الله عليه وسلم) ، وإسلامَ المقتدين به من أصحابه — لأدركنا سرّ الكمال الانسانى ؛ وهو أن يَقرّ الانسانُ فى عالم نفسه ويجعلَ باطنَه كباطن كل شىء إلـهى ، ليس فيه إلا قانونه الواحد المستمرُّ به إلى جهة الكمال ، المرتفعُ به من أجل كماله عن دوافع غيره ؛ فنظَرُ الانسان إلى نقص غيرِه هو أولُ نقْصه . والمؤمن كالغصن ؛ إن أثمر فتلك ثمارُ نفسه ، وإن عَطَل لم ينحذ ولم يحسد واستمرّ يعمل بقانونه

ولقد نشأتُ فى مَغرِسٍ كريم ، على صورة من الحياة تشبه صورَة الثمرة الحُلوة ، اجتمع لها من طبيعة مغرسها ومَرْتبتها ماانتهيَا به من حلاوةٍ ونكْهةٍ ومذاق ؛ فلما عَقلْتُ وعرفتُ الناسَ بعدُ جاريتهم وخالطتهم ، رأيتنى منهم كالتفاحة ملقاةً فى البصَل . . . وكانت التفاحةُ حمقاءَ فزادت حُمقاً ، وكانت حديدة فزادت حِدّة ، وظنّت أن الحكمة قد مَسَخَتْ فى الدنيا وبدَّلتْ إذ خلقت البصلةَ بعد أن خلقت التفاحة ؛ وما علمتِ الخرقاءُ أن الكمال فى هذه الحياة مجموعُ نقائص ، وأن للجمال وجهين : أحدهما الذى اسمه القبح ؛ لايعرف هذا إلا من هذا ؛ وأن البصلة لوأدركتْ مايريد الناسُ من معناها ومعنى التفاحة لَسَمَّتْ نفسَها هى التفاحةَ ، وقالت عن هذه إنها هى البصلة !

ولما رأت تفاحتى أنها عاجزة أن تجعل الشجر كلَّه فى مثل مرتبتها ومغرسها — قالت : إن الأمر أكبر من طبيعتى ، وما دام سرُّ الكون مُغلَقاً فلا تعريف له إلا أنه سرٌّ مغلَق ، ولْيبقَ كل شىء فى طبيعة نفسه ، فعلى هذا يصلُح كلُّ شىء ولو فى نفسه وحدها

* * *

قال أبو محمد : ولكن بقيتْ وحشةُ الدنيا وجفوتُها ، إذ لم أكن اهتديتُ إلى عالمى ، ولا تأكّدتْ عقيدتى بنفسى ؛ فكان كل ما حولى مُنبَجساً فى روحى بشرِّه ، وكانت الدنيا بهذا كالمتطابقةِ فى رأيى على معنى واحد ، وزادنى أنى كنتُ رجلاً عَزَباً متعفِّفاً ؛ وما أشبه فراغَ الرجولةِ من المرأة بفراغ العقل من الذكاء ؛ هذا هو العقلُ البليد ، وتلك هى الرجولة البليدة !

والمرأة تُضاعف معنى الحياة فى النفس ، فلا جرَمَ كان الخلاءُ منها مضاعَفةً لمعنى الموت ؛ عَلِمَ هذا مَن علم وجهله مَن جهِل ، فكنت أعيش من الكون فى فراغ ميّت ، وكنت أحسّ فى كل ما حولى وحشةً عقلية تُشعرنى أن الدنيا غيرُ تامّة ؛ وكيف تتمّ فى عينى دنيا أراها غير الدنيا التى فى قلبى ؟

وعرفتُ أن كل يومٍ يمضى على الرجل العَزَبِ المتعفِّف لا يمضى حتى يهيّئ فيه مَرَضَ يومٍ آخر . ومن هـذه الأيام المريضةِ المتهالكة ، تُعِدُّ الحياةُ انتقامَها من هـذا الحيِّ الذى نَقض آيَها وافتات عليها ، وجَعلَ نفسَه كالآلـة لا زوجة له ولا صاحبة !

وايْمُ اللهِ إن الشيطان لا يفرح بالرجل الزانى وبالمرأة الزانية ما يَفرح بالرجل العَزَب وبالمرأة العزباء ؛ لأنه فى ذينك رذيلةٌ فى أسلوبها ، أما فى هذين فالشيطان رذيلة فى أسلوب فضيلة . . ! هناك يُلِمُّ الشيطانُ ويمضى ، وهنا يأتى الشيطانُ ويُقيم !

وقد عشتُ ما عشت بقلب مُغلَقٍ وعقل مفتوح ؛ وليتنى كنت جاهلاً مُغلَقاً عقلُه ، وكان قلبى مفتوحاً لأفراح هذا الكون العظيم !

ومضت أيامى يضربُ بعضُها فى بعض ، ويُعرِضُ بعضُها بعضاً حتى انتهت مُنتهاها ، وجاء اليوم المُدْنَفُ الهالكُ الذى سيموت . . .

أصبحتُ فقلت لنفسى : كم تعيشين ويحكِ فى أحكام جسدٍ مُختلٍّ لا تَصْدُق أحكامُه ، وما أنتِ معه فى طبيعتك ولا هو معك فى طبيعته ؛ ففيمَ اجتماعُكما إلا على بلائى ونكدى ؟

لم تصطلحا قطّ على واجب ولا لذّة ، ولا حلالٍ ولا حرام ؛ فأنتما عدوّان لا همَّ لكليهما إلا إفسادُ المَسرةِ التى تَعرِضُ للآخر . وما أدرى بمن يسخر الشيطانُ منكما ؟ فالعابدُ الذى يُوسْوِس باللذاتِ يتمنّى اقترافَها ، كالفاجر الذى يُواقعُها ويقتحمها !

ويحكِ يا نفس ! إنى رأيت هذه الدنيا الخرقاءَ لم تُقدِّم لى إلا رغيفاً وقالت : املأ بهذا بطنَك وعقلَك وعينيك وأذنيك ومشاعرك . آه آه ! مُمْكِنٌ واحدٌ معـه أربعةُ مستحيلات ! إنّ هذا لا يُلبِثنى أن يذهبَ منى بالأربعة التى تُمسكنى على الحياة : الأمل والعقل والايمان والصبر

لقد استوى فى هذه الكآبة صغيرُ همّى وكبيرُه ، وما أرانى إلا قد أشرفتُ على الهلَكةِ التى لا باقيةَ لهـا ، فان وجهى المتكلِّحَ المتقبِّض يدلُّ منى على أعصابٍ مُحتضَرة تَهتكُها أمراضُها ووساوسها ، وإنما وجهُ الانسان فى قُطوبه أو تَهلُّلِهِ هو وجهُه ووجه دنياه تَعبسُ أو تبتسم

وتالله لقد عجزتُ عن كفاح الدنيا بهذه الأعصاب المريضةِ الواهنة ؛ فان حِبالةَ الصَّيد ، صَيدِ الوحش ، لا تكونُ من خيط الابرة . . . ! وأرانى أصبحت كانسانٍ حجرىٍّ ليس فى طبيعته الالتواءُ الى يمين الحياة ويسارِها ؛ ويُخيلُ الىّ من صلابتى أنى الأسد ، ولكنى أسدٌ من حجر ، لا تفرضُ قوّتُه الفرارَ منه على أحد !

* * *

قال أبو محمد : ورأيتُ نفسى فى هـذا الحِوار كالميّتة ، لا تجيب ولا تعترض ولا تُنكر ؛ وكنتُ أظنها تُراودنى على الحياة أو تردُّنى عن غَوايتى ؛ فلأنى سكونُها جزعاً ، وأيقنتُ أن الشيطان بينى وبينها ، وأنه أخذ بمنافذها ، فأردتُ الصلاة فَتفلَّتُّ عنها ورأيتنى لا أصلُح لها ، بل خُيِّل الىّ أنى إذا قمتُ الى الصلاة فانما قمتُ لأتهزّأ بالصلاة !

وجعل الشيطانُ يأخذنى عن عقلى ويردُّنى اليه ، ثم يأخذنى ويردُّنى ، حتى توهّمتُ أنى جُنِنْت ، وكأنما كان يريد اللعين بقيّةَ إيمانى يجاذبنى فيها وأجاذبه ، فلم ألبث أن مسّنى خبالٌ وألقيتُ هذه البقيّةَ فى يديه !

ثم أفَقتُ إفاقةً سريعة ، فرأيت (المصحفَ) يرقبنى من قريبٍ ، فمُذْتُ به وعطفتُ عليه وقلتُ له : امنع الضربةَ عن قلبى . بَيْدَ أنى أحسستُ أنه خصمى فى موقفى لا ظَهيرى ؛ كأنى جعلته مصحفاً عند زنديق ، فكان كل إيمانى الذى بقى لى فى تلك اللحظة أنى ضعفتُ عن حَمل المصحف كما نقلت عن الصلاة ، فبقى الطاهر طاهراً والنجسُ نجساً

ولم تـكن نفسى فىّ ولا كنتُ فيها ؛ فرأيتُ الدنيا على وجه لا أدرى ما هو ، غير أنه هو ما يُمكنُ أن يكون معقولاً من تخاليط مجنونٍ تركه عقلُه من ساعة : بقايا شعورٍ ضعيف ، وبقايا فهمٍ مريض ، تتصاغرُ فيهما الدنيا ويتحاقرُ بهما العقل

فلما انتهيتُ إلى هذا لم أعقل ما عملت ، وكانت الموسى قد أصابت من يدى عِرْقاً ناشزاً مُنتبراً ، ففار الدّم وانفجر منه مثلُ الينبوع ضُرِب عنه الصخرُ فانشقّ فانبثق

وتحققتُ حينئذ أنه الموتُ ، فنظرتُ فرأيت . . .

* * *

قال المسيّبُ راوى القصة : وتجهّم وجهُ الرجل فأطرق وسكت ، وكان على وجهه شَفَقٌ مُحْمَرٌّ فأظلم بغتةً عندما قال : « فنظرتُ فرأيت »

وارتجّ المسجد بصيحةٍ واحدة : فرأيت ماذا ، رأيتَ ماذا ؟

وبعثتِ الصيحةُ أبا محمد فقال : رأيتُ ثلاثةَ وجوهٍ أشرقت من المصحف تنظر إلىّ كالعاتبة ، وكان أوسطُها كالقمر الطالع ، لو تمثّلتْ آياتُ الجنةِ كلُّها وجهاً لكانته فى نضرته وبشاشته . وغمغمتْ بكلمات لم أسمعْ منها شيئاً ، ولكن نظرَها إلىّ كان يؤدّى لى معانيها وكأنها تقول : « أكذلك المؤمن ... ؟ »

ثم غابت وتجلّت عنى وبرزت ثلاثةُ وجوهٍ أخرى ، كأنها نقائضُ تلك ، وأعوذ بالله من أوسطِها ، لو تمثّلتْ آياتُ الجحيم كلُّها وجهاً لكانته فى نُكْرِه وهَوْله ، وخُيّل إلىّ أن الوجهَ الأصفرَ منها وجهُ سُورةٍ من سُوَر المصحف ، ففكّرت ، فوقع لى مما قام فى نفسى من اللّمعة أنها : « تَبّتْ يَدَا أبى لهبٍ وتبّ . . . »

وطَمَسَ الظلامُ هذه الرؤيا وتغيّمتِ الدنيا ، فأيقنْتُ أن آنامى قد أقبلتْ علىّ ظُلْمةً بعد ظُلْمة ، والتمعَ شىءٌ أحمر ، فنظرتُ فاذا الدّمُ يتخايلُ فى عينىّ كأنه شُعَلٌ تتلوّى ، فجزعْتُ أشدَّ الجزع ، وحسبتها طرائقَ ممتدّةً لروحى تذهب بها إلى الجحيم

وماتت كلُّ خواطرى بعد ذلك إلا فكرةً واحدة بقيتْ حيّةً تأكل فى قلبى أكلَ النار ، وهى : « كيف تجرأتُ فوضعتُ بينى وبين الله حُمْقى ؟ »

* * *

ويقولون : إن أختى قد رأتْنى أتشحّط فى دمى فصاحت ، وجاء الناس على صوتها ، وكان فيهم طبيب ، فبعد لأىٍ ما استطاع حبسَ الدم ، واحتال حيلته حتى أسَفّ الجرحَ دواءً وضَمّدَه ؛ فجعلتُ أثوب نَفَساً بعد نَفَس ، وراجعتُ قليلاً قليلاً . . .

ثم طافت الحياةُ على عينىّ ففتحتهما ، فاذا الأشياء تبدو لى وليس فيها حقائقُ ولا معانٍ ، كأنها تتخلّق جديدةً تحت بصرى ، وكأنها خارجةٌ لساعتها من يد الله !

وتماثلْتُ شيئاً بعد ساعات ، فأحسستُ أن نفسى قد رجعتْ إلىّ ساخرةً منى تقول : كيف رأيتَ عَمَلَ العقلِ أيها العاقل ؟

وبدأتِ الحياة تتجدّد ، فأقسمتُ بينى وبين نفسى أن أجدّد إيمانى بالله . ولم أكد أفعل حتى أحسستُ كأن قوّةَ الوجود كلّها مستقرّةٌ فى روحى ، وخُيّل إلىّ أنى أنا وحدى القوىُّ على هذه الأرض قُوّةَ جبالِها وصخورها ، على حين كان جسمى ممدّداً كالميّت لا يتماسك من الضعف !

فأيقنتُ حينئذٍ مالم أعرفه قط من الدنيا ولم أشعر به قطّ فى الحياة ولم يأتنى به علمٌ ولا فكر : أيقنتُ أنها مُعجزةُ الايمان الجديد الغضّ ، المتّصل بالله لتوّه كايمان الأنبياء دون أن تلمسه شهوة ، أو تعترضه خاطرة ، أو تكدّره ذرّةٌ واحدة من فكرٍ أرضىّ دَنِس

* * *

قال المسيب : ثم جلس المتحدّث ، وكان الناس فى آخر كلامه كأنما غادروا الدنيا ساعةً ورجعوا إليها على مثل حالته ومثلِ إيمانه ؛ فسكت الامام ولم يتكلم ، ليدعَ كل نفسٍ تكلمُ صاحبها

(للمجلس بقية) (طنطا) مصطفى صادق الرافعى

شم النســيم

فى مركز بوليس !

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

اشتهيت مرة أن أخرج إلى الظل ، ورفاق مفيضة معشاب ، وأن أجلس تحت شجرة عظيمة تميل علىّ أفنانها من الرى واللين ، فقلت لصاحب لى : « إنى فى أرض واسعة سهلة ، ولكنى كرهت مقامى بها ، وأضجرنى منها أنى لا أرى فى فضائها الرحيب عوداً نابتاً ، ولا أسمع إلا صوت الرمال وهى تجرى على رمالها وتوقع بعضه على بعض ، وغداً شم النسيم ، فتعال بنا إلى ناحية من الريف قريبة من بعض أرباض المدينة ، وعسى أن أحمد بقعة فى طريقنا ، فأنزل بها وأسكنها ، فقد اجتويت الصحراء كما قلت لك ، وما أظن بى الا أن الحنين اليها سيعاودنى ، ولكن البعد عنها سنة أو سنتين ، يكون كالاستجمام ، فما قولك ؟ »

قال : « ونخرج فى شم النسيم ؟ »

قلت « : ومالى لا أفعل ؟ أهو حرام — علىّ وحدى ؟ »

قال : « لا ، ولكنه يوم تكثر فيه العربدة ، وأولى بك أن تلزم دارك — كعادتك »

قلت « : يا أخى ، الله يوسع لى فى الأرض ، وأضيق على نفسى ! كلا ، ولن نعدم مكاناً ننأى فيه عن ضجات السكارى والمعربدين ، فاختر لنا مكاناً ، وتوكل معى على الله »

فاختار « المرج »

***

وحملنا معنا كفايتنا من الطعام والشراب ، وكنا أربعة — أو خمسة ، لا أذكر — وركبنا قطار الزيتون وكان كالحمار النهّاق البليد ، يمضى ويتوقف ، ويميل هنا وههنا ، ولا يزال يصلصل ، كأنما يقطع أرضاً أو يصنع شيئاً يستحق هـذه الضوضاء ، وأنا امرؤ خلقنى الله أكره التثاقل والاسترخاء ، وأحب أن أفرغ مما أكون فيه بأسرع ما أستطيع ، فمشيى قفز ، وأكلى لَقْمٌ ، وكلامى لغط ، وخطى أشبه بما تتركه أرجل الدجاج على الرمل ، من فرط العجلة ؛ ولا صبر لى على دلال امرأة ، ولا أعرف التمهيد لشىء ؛ فانه لف أو تطويل لا موجب له ؛ وما أكثرما أحببت ، وما أسرع ماسلوت ، وكم قلت لامرأة : « يا صاحبتى لقد أحببتك ، ولكنى لم أحبك ليوجعنى رأسى وقلبى ، فان كنت لا تحسنين إلا تعذيبى وتنشيف ريقى ، وإلا هذا الذى تسمينه دلالاً ، فلا يا ستى ويفتح الله عليك بغيرى » وأدعها وأمضى ، ولا أعود بعـدها إلى ذكرها . وما أكثر ما قلت لنفسى : « ما هذا يا مازنى ؟ إنى أرى حبك قد طال ساعاتٍ ، وهذا شىء يُمل ويُسئم ، وليس معقولاً أن تحب غائباً كأنه حاضر معك ! نعم معقول أن تحبه ساعة يكون إلى جانبك ، ولكن بعد أن يمضى عنك أو تمضى أنت عنه ، لا يُقبل منك أن يظل قلبك يتلفت اليه ويُشغل به عن سواه »

فتقول نفسى : « أى والله ، صحيح »

وأستلقى على سريرى وأغمض عينى ، وأنام ، ثم أقوم وقد نسيت حتى اسم من أحببتُ . لهذا قلت لأصحابى « يا رفاق ! ما قولكم ؟ »

قالوا : « ماذا ؟ »

قلت : « ننزل من هذا القطار ونذهب نعدو إلى جانبه »

فضحكوا ولم يسمعوا منى ، ولكنى كنت واثقاً أنى استطيع أن أسبقه على الرغم من عرجى ؛ ونزلنا فى « المرج » فلم نجد شجرة نجلس فى ظلها ، ولا جداراً يقينا وقدة الشمس ، ولم نلمح فى الأفق البعيد شيئاً يغرى بالأمل ، فقلت : أرجع إلى صحرائى فهى بى أرفق من هـذا المرج فان لى فيها على الأقل بيتاً آوى اليه ، والذى لا يرضى بالخوخ يرضى بشرابه

وإنا لكذلك وإذا بضابط يقبل علينا ويحيى واحداً منا ، ويسأله عما جاء به ، فيخبره أنه جاء معنا ، ليشم النسيم ، ولكنا لا نجد مكاناً ظليلاً نميل اليه ، فيقول الضابط الكريم : « تعالوا عندى » ، فنسأله « عندك أين ؟ فانا لا نرى بيتا ولا كوخاً » فيقول : « فى مركز البوليس ، فى ملاحظ النقطة ! » فينظر بعضنا إلى بعض وأقول : « نشم النسيم فى مركز البوليس ! هذا جديد ! »

وترددنا . ولكنه ضابط بوليس ، وتحت أمره قوة كافية لارغامنا ، فقلنا : « لا بأس ! هى تجربة جديدة فلننظر ماذا عسى أن تفيدنا من المتعة ؟ وما يدرينا ؟ لعل مركز البوليس خير مكان نقضى فيـه يومنا ! وما نظن أن أحـداً جرب ذلك من قبل ، فهى ميزة ننفرد بها ونستبد »

ودخلنا المركز ، فدبت أقدام الجنود ، وارتفعت أيديهم إلى رؤوسهم بالتحية ، وتحركت عيونهم دون وجوههم ، وجعلت تنظر الينا وتتبعنا ونحن داخلون ومعنا السلة فيها الطعام والشراب ، وصعدنا إلى غرفة فيها مائدة من خشب غير منجور ، وحولها كراسي ثقيلة ، وأنا نحيف هزيل ، يقول أحد الأطباء في وصف جسمي إنه شبكة من الأعصاب تحملها طائفة من العظام ، وتكسو هذه وتلك طبقة رقيقة من الجلد ، ولا لحم لي ولا شحم فأحتمل الجلوس على هذه الكراسي الناشفة ، ولكن ما حيلتي ؟

وجاءونا بأطباق وملاعق وسكاكين وأشواك وفوط ، فسألت الضابط :

« من أين لكم هذا ! »

قال : « ماذا تظن ؟ »

قلت : « أظنكم أخذتموها من اللصوص الذين وقعوا في قبضتكم »

قال : « أو لعلنا سرقناها ؟ هيه ؟ »

قلت : « كل شيء جائز في هذه الدنيا ! ومتى صار جائزاً أن نشم النسيم في مركز البوليس ، فكل شيء بعد ذلك هين ومقبول ومعقول »

وكان الجنود كلما دخلوا علينا بصحن أو قلة ، أو كوب أو فنجان ، يدبون بأحذيتهم الضخمة الثقيلة ، ويحيون ، ويضعون ما في أيديهم الأخرى ، ثم يعودون إلى التحية والدب بالأرجل ، ويخرجون ، وتكرر ذلك منهم ألف مرة ، فقلت للضابط :

« ألا تعفيهم من هذا التكليف ؟ »

قال : « إنهم جنود وقد ألفوا ذلك فليس في وسعهم إلا أن يفعلوه »

قلت : « لو لم تكن معنا لما تكلفوه »

قال : « ولكني معكم »

قلت : « إذن فأعفنا نحن ، فانه إزعاج »

فسأل : « كيف أصنع ؟ »

قلت : « والله لا أدري ! هل تستطيع أن تختبئ تحت المائدة حين يدخل منهم واحد ؟ »

وأكلنا هنيئاً ، وشربنا مريئاً ، ولم تمنعنا هذه التحيات والدبات أن نضحك ونمزح ، ولم يحل شعورنا بوجودنا في « مركز البوليس » دون التبسط والمرح ، واحتجت بعد ذلك أن أنام دقائق ، والنوم من عاداتي بعد الغداء ، فاذا حرمته حرمت الراحة ، وتفتر جسمي ، وغاض معين نشاطي ، وساء خلقي ، وانقلبت مخلوقاً شرساً مشاكساً ، وشريراً مجرماً ، تقذف عيناه بالشرر ، ومن أجل هذا تتخذني زوجتي هولة تخوف بي الأطفال والخدم .

فاذا رأت أني لم أنم بعد الظهر ، أقبلت تقول :

« تعال ! »

فأقول : « إلى أين ؟ »

فتقول : « تعال خوّف الأطفال ، فانهم لا يريدون أن يسكنوا ! »

فأقول : « ياسيدتي ، إن التخويف شر أساليب التربية »

فتقول : « دع هذه الفلسفة وقم ، فقد كاد رأسي يطير من ضجتهم ؛ ثم إن عند الجيران أطفالاً كثاراً يصيحون ، فأخرج لهم وجهك من النافذة يخرسوا ، وفي الشارع رجال يتشاجرون فاذهب اليهم واطردهم إلى شارع آخر »

فأهز رأسي وأقول : « تالله ما اشتهي إلا أن أخوفك أنت ! » ثم أنهض آسفاً ، وأصدع بما أمرت ، فيهدأ البيت ويسكن الشارع ، ويخفت كل صوت حتى صوت الترام ، فينشرح صدرها وتقرعينها ، وتتنهد مسرورة ، وتقول : « ليت أنك لا تنام بعد الظهر أبداً ! »

فأسألها : « أتكرهين لي الراحة ؟ »

فتسألني مغالطة : « أتكره لي أنت الراحة ؟ »

فلا أجد جواباً حسناً ، وأسألها : « هل أستطيع أن أنام الآن ؟ »

فتقول : « وإذا قامت ضجة جديدة ؟ »

فأقول : « اطمئني . . . وفي وسعك دائماً أن توقظيني لهم »

فتذهب تصف وجهي معجبة بما يكون مرتسماً عليه من مظاهر الافزاع وبواعث الرعب ، مباهية به وجوه القتلة والسفاحين وقطاع الطريق ؛ ولكن هذا استطراد ، فلنرجع إلى ما كنا فيه من شم النسيم

كان لا بد أن أنام ، فنمت على كرسيين ، حططت نفسي على واحد ، ومددت ساقي على الآخر ، ولم يكن هذا فراشاً وثيراً بالمعنى الصحيح ، ولكن النسيم كان عليلاً في مركز البوليس ، فأغفيت دقائق زعمها أصحابي ثلاثين ، وقالت لي عظامي المهيضة

مصرع الصحافة العظيمة

فى ظل النظم الطاغية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

لا يستطيع مؤرخ أن يتجاهل الدور العظيم الذى أدته الصحافة فى تطورات العالم السياسية والثقافية منذ أوائل القرن الماضى ؛ ولا يستطيع مؤرخ الحرب الكبرى أن ينسى أن الصحافة كانت الى جانب الجيوش والأساطيل أداة من أدوات النصر ؛ وليس مبالغة أن توصف الصحافة الحديثة بأنها فى الدولة سلطة رابعة الى جانب السلطات الدستورية الثلاث : التشريعية ، والتنفيذية ، والقضائية ؛ وفى ظروف معينة تبدو الصحافة أولى السلطات وأهمها فى الدولة أو المجتمع : تنشىء حكومات وتسقط حكومات ، وتحشد الرأى العام لتحقيق برنامج معين أو فكرة معينة ، وقوتها فى ذلك لا تعادلها قوة ، ونفوذها لا يجاريه نفوذ .

هذه حقائق بديهية لا تقتضى جدلاً أو مناقشة . وما زالت الصحافة فى الأمم العظيمة الحرة هى صاحبة المقام الأول فى قيادة الرأى العام ، وفى توجيه القوى السياسية والاجتماعية . وفى عصرنا قطعت الصحافة فى سبيل التقدم العلمى والفنى مراحل مدهشة ؛ ولكن الصحافة أصيبت فى عصرنا أيضاً بأقسى محنة عرفتها فى تاريخها القصير المدى . فى عدة من الأمم العظيمة لقيت الصحافة ضربتها القاضية ، وأصبحت شبحاً فقط لما كانت عليه من قبل ، وجردت من أعظم وأسمى مظاهرها : حرية التفكير والكتابة ؛ ولم تبق سوى أداة ذليلة خانعة للقوى الطاغية التى تخنقها وتسيرها كيفما شاءت

وقد كانت الصحافة الحرة وما زالت مظهراً من أهم مظاهر الديمقراطية والنظم الحرة ؛ وقد أصيبت الديمقراطية والنظم الحرة فى عصرنا برجمة خطيرة ، وأصيبت معها كل مظاهرها الحقيقية ومنها الصحافة ؛ فحيثما نكبت الديمقراطية : فى روسيا السوفيتية ، وفى تركيا الكمالية ، وفى إيطاليا الفاشستية ، وأخيراً فى ألمانيا الهتلرية ، تلقى الصحافة أشد محنة عرفتها ، وتسحقها النظم الطاغية التى رأت أن تتخذها مع باقى القوى العامة ، أداة لتحقيق برنامجها وتوطيد سلطانها . وفى هذه البلاد التى يسود فيها الطغيان المطلق ، لم يبق رأى حر يستطيع أن يتنفس ، ولا رأى عام يستطيع أن يعبر عن شعوره أو يحدث أثره المشروع فى الحياة العامة ؛ ولا تستطيع أن تخرج من الصحافة إلا بصورة واحدة مكررة هى إرادة الطغاة ومزاعم الطغاة ، تفرض على ملايين من الناس لا حق لهم فى مناقشة أو تذمر ، ولا يسمح لهم بغير التأييد الأعمى

وتزعم هـذه الحكومات الطاغية دائماً بأنها تحظى بتأييد الأمة المطلق ، وتحاول دائماً أن تتخذ من اجماع الصحافة المصفدة المسيرة دليلاً على هـذا التأييد ؛ ولكن كيف يعرف رأى أمة لا يسمح لها بابداء الرأى ، وكيف يوصف شعور أمة نحو الطغاة ، وهى ممنوعة بالقوة القاهرة عن إبداء هذا الشعور ؟ إن حكومات الطغيان تسن من القوانين الاستثنائية ما يكفل إخماد كل صوت وكل رأى معارض ، ثم هى لا تقف عند هذه القوانين ، بل تلجأ فى أحيان كثيرة الى إجراءات الهوى ، فتنزل بأولئك الذين يجرؤون على معارضتها أشنع العقوبات من قبض واعتقال ومصادرة ، بل ومن إعدام ، كل ذلك دون قانون ودون تحقيق أو محاكمة ؛ وليس من المبالغة أن نقول إن الحياة البشرية فى هـذه الأمم ، أضحت كالحريات العامة ، دون ضمان وطمأنينة ؛ وما زلنا نذكر كيف أن مئات من الألمان أزهقوا فى ٣٠ يونيه الماضى بيد هتلر ومعاونيه لريب فى تأييدهم للنظام القائم ؛ وقد أهدر دمهم جميعاً

إنها كانت رقدة أهل الكهف

ولم تكن لى يومئذ زوجة ، فلما عدت إلى البيت لاحظت أمى أنى أشكو وجعاً فى ظهرى وتكسيراً فى عظامى ، فسألتنى : « أين كنت ؟ »

قلت : « فى مركز البوليس بالمرج »

فصاحت بى : « مركز البوليس ؟ لماذا ؟ ماذا صنعت ؟ »

قلت : « شممت النسيم ! »

قالت : « أكنت تشم النسيم أم تضرب علقة ؟ »

وظلت إلى أن ماتت ، وهى فى شك من هذا الأمر

إبراهيم عبد القادر المازنى

لأن « الزعيم » أراد إعدامهم وكفى

* * *

تصفد الحرية الفكرية بهذه الاغلال حينما يقوم الطغيان (الدكتاتورية) . وقد كان البلاشفة أول من أخضع الصحافة لهذا النظام الحديدى ، فلقيت فى ظل العهد الجديد ما لم تعرفه فى ظل القيصرية من القيود والاغلال المرهقة ، ولم تلبث أن استحالت الى أداة رسمية صماء لا رأى لها ولا إرادة ، وخفت الرأى العام الروسى منذ ثمانية عشر عاماً فلا يعرف العالم الخارجى عنه شيئاً ؛ وحذت الفاشستية حذو البلشفية فى استعباد الصحافة وإخماد هذا التنفس الذى قد يثير حولها الصعاب إذا ترك طليقاً ؛ ثم اقتفى الكماليون هذه الخطة فى تركيا ، وفرضوا على الرأى العام أغلالاً لم يعرفها فى العصر الحميدى ؛ ولما قام الطغيان الهتلرى فى ألمانيا ، كانت أولى وسائله لتوطيد سلطانه أن يسحق الرأى العام الألمانى ، وذلك بسحق الصحافة متنفسه الطبيعى . وقد ذهب الهتلريون فى ذلك الى حدود لم تعرفها أشد عصور الطغيان

كان فى ألمانيا ، قبل أن يغمرها طغيان الوطنية الاشتراكية ، صحافة عظيمة زاهرة تعد فى مقدمة أعظم صحافات العالم ؛ وكان لها نفوذها القوى فى توجيه الرأى العام وفى التعبير عن رغباته وميوله ، شأنها فى كل الأمم العظيمة . ولكن زعماء النظام الجديد أدركوا قوة الصحافة وخطرها على نظم الطغيان ، فسحقوها بيد من حديد ووضعوا لها تشريعاً استثنائياً خاصاً يسلبها كل حرية وكل استقلال فى الرأى ، وجعلوا منها صناعة رسمية ، ومن محرريها المسئولين عمالاً للحكومة ؛ وأنشأوا وزارة خاصة للدعاية ، تتمركز فيها جميع عناصر الوحى والرأى والقول فى ألمانيا كلها ؛ ولم يحجموا بذلك عن أن يمزقوا بيدهم آخر الأقنعة التى تستتر بها الدكتاتورية ، وأن يعترفوا جهاراً بأنهم هم الذين يوجهون الصحافة ويغذونها بكل عناصر القول والرأى ؛ ولم يصفد الهتلريون الصحافة السياسية فقط ، ولكنهم صفدوا كل أنواع التفكير والكتابة ؛ والأدب والشعر ، والفنون والعلوم وكل ألوان الثقافة ، وجعلوا منها جميعاً أداة لبث مبادئهم وتمكين سلطانهم من أعناق الأمة التى يدعون الوصاية عليها . ومنذ أيام قلائل أصدرت الحكومة الهتلرية قانوناً استثنائياً جديداً يشدد أغلال الصحافة الألمانية ويقضى على آخر المظاهر التى بقيت لها . وقد وصف القانون الجديد بأن القصد منه « صون استقلال الصحافة » والواقع أنه يقضى على آخر ما بقى لها من مخلفات الاستقلال ، والمقصود به بنوع خاص أن يقضى على الصحافة التى تمثل مصالح المهن والطوائف والجماعات العامة ، وعلى الصحافة الكاثوليكية التى مازالت قوية فى جنوب ألمانيا وغربها[1] . وهو ينص على حرمان كل شخص لا ينتمى إلى الجنس الآرى من العمل فى الصحافة وكل متعلقاتها ؛ وإذا أريد تغيير ناشر الصحيفة أو محررها وجبت موافقة السلطات ؛ وإذا رؤى فى أى جهة من الجهات أنه يوجد من الصحف مايزيد عن حاجتها عطل منها ما كان زائداً عن الحاجة ، وقد نص أيضاً على تعطيل جميع الصحف التى تعنى بنشر الحوادث الجنائية والاجتماعية ووصفت فى المرسوم بأنها « صحافة الفضائح » ، والخلاصة أن القانون الجديد لا يفسح مجال الحياة والظهور لغير الصحافة النازية الحكومية

ولقد كانت هذه الضربة الجديدة لقتل صحافة عظيمة مثار الاشمئزاز حينما تقدس حرية الفكر والرأى ، واستقبلتها الصحافة الانكليزية بعاصفة من السخط ؛ وكتبت « التيمس » مقالاً رناناً قالت فيه ؛ « إن خضوع الشعب الألمانى أمام تقييد حرياته ومورد أخباره يعتبر حادثاً مزعجاً جداً . وكيف يستطيع الشعب الألمانى بعد ذلك أن يقف على الظروف الحقيقية للسياسة الدولية من هذه المصادر التى تقدم له الآن . وكيف يفهم الألمان عبارة « الاعتزال السياسى » فى أوربا ، وهى عبارة يرددها زعماؤهم وهى فى الغالب من صنعهم وتدبيرهم ؟ وهل يفهمون الظروف الحقيقية التى قتل فيها الدكتور دولفوس المستشار النمسوى ؟ والتى دبرت فيها مذبحة ٣٠ يونيه فى ألمانيا ؟ وما يلقاه اليهود والسجناء السياسيون ، وما يكون لهذه الأمور من أثر فى الرأى العام الأوروبى ؟ » وقالت الجارديان : « ان الصحافة التى كانت فى ألمانيا من أعظم الحرف وأرفعها ، تنحدر الآن إلى الحضيض . وليست الجرائد « النازية » الحالية التى حلت محل الصحف التى كانت من قبل من أمهات الصحف العالمية ، سوى وريقات لبث

---

(١) يلاحظ أن معظم الصحف الألمانية الكبرى تطبعها النزعة الكاثوليكية ؛ وهذه الصحافة هى التى ما زالت تضطلع بالمعركة الثقافية والروحية ضد النظام الاشتراكى الوطنى

الدعاية الخاصة ؛ ولم يبق أثر لحرية الفكر والجدل والمناقشة . وكان من مفاخر هـذه الحرفة الكريمة فى ألمانيا أن عدداً عظيماً من كتابها وصحافييها آثروا الخراب والنفى والسجن على هـذا الانحطاط الشنيع » ثم تتساءل الجارديان : « فهل بقى فى الشعب الألمانى روح حى يأسف على ضياع حرياته الفكرية والقلمية أو يثور على تلك التدابير التى تتخذ لسحق هذه الحريات بصفة نهائية ؟ »

والواقع أن الصحافة الألمانية سقطت من عداد الصحافات العظيمة مذ تولى الهتلريون الحكم ؛ ولم تفقد كل قوتها ونفوذها السياسى والاجتماعى فقط ، ولكنها فقدت كل خواصها ومميزاتها الثقافية الممتعة التى كانت من قبل فخر التفكير الألمانى ؛ وأخذت الصحف الألمانية العظيمة تختفى من الميدان تباعاً بعد أن فقدت مركزها وخاصة قرائها ، وامتدت النكبة إلى الصحافة الأدبية والفنية والعلمية ، فأخـذت تنحدر إلى نفس المصير المحزن ؛ وتسيرها نفس الدعاية السياسية والثقافية التى غمرت ألمـانيا ؛ وغدت الصحف الألمانية العلمية التى كانت من قبل اسفاراً جليلة تحمل على الاعجاب والاحترام ، أدوات للدعاية الهتلرية ، تحدثك باستمرار عن نظريات « الزعيم » فى خواص الجنس الآرى ، وانحطاط الأجناس السامية ، وتفوق السلالة الألمانية ، وأصول الثقافة الجرمانية القديمة ، وغيرها من المبادئ والنظريات الجنسية المتعصبة التى أصبحت ظاهرة الحياة العامة فى ألمـانيا ؛ وأضحى أصدقاء الثقافة الألمانية الحرة فى حيرة من هذا الخلط المحزن بين الحقائق والغايات العلمية ، وبين النظريات والدعايات الحزبية التى جملتها وزارة الدعاية الهتلرية فوق كل شىء فى حياة الشعب الألمانى

وتشعر الدوائر العلمية والأدبية والطبقات المفكرة الألمانية عامة بخطر هـذا التيار الجارف على مستقبل التفكير والآداب الألمانية ، ولكنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً لمقاومة هذا الخطر لأنها توضع تحت نفس النظم الجديدة التى جعلت من الصحافة ووسائل الثقافة الفنية كالمسرح والسينما والموسيقى والراديو ، أدوات للدعوة الحزبية المحضة . ويشعر الزعماء الهتلريون أنفسهم بفداحة الأثر الذى أحدثه هذا الاستعباد المطلق للتفكير الألمانى ، ويحاولون تبريره بمختلف النظريات والمعاذير . وملخص نظريتهم فى ذلك هو أن الصحافة من مظاهر الأنظمة الحرة وخواصها ، ومثل هـــذه المظاهر لا توجد فى ظل الاشتراكية الوطنية ؛ والمبادئ الحرة لم تسمح بتوحيد كلمة الشعب ، والاشتراكية الوطنية تريد الشعب كتلة واحدة ، وكلمة واحدة . وقد كانت الصحافة فى عهد الحريات القديمة تستمد أعظم قوتها ونفوذها من الانتماء إلى الأحزاب ، ومن إثارة المناقشات السياسية ؛ فلما أزيل نظام الأحزاب أو زال منـه تلقاء نفسه انحدرت الصحافة الحرة إلى مثل هـذا المصير ، وفقـدت أهميتها الحزبيـة والسياسية ؛ والاشتراكية الوطنية لا تقيم وزناً للجدل السياسى ، وفى رأيها انه متى زالت البواعث الموجبة لهذا الجدل ، وهو الخلاف الحزبى ، فان الصحافة تغدو أداة متماثلة فى عملها ومظاهرها . والاشتراكية الوطنية لا تعتمد على الصحافة كأداة للدعوة ، ولكنها تعتمد فى ذلك على الاذاعة اللاسلكية ؛ وهى عمادها فى قيادة الشعب وإرشاده . وأما الصحف فمهمتها أن تنقل للناس ما يسمعونه بواسطة « الراديو » لكى يعودوا فيقرأوه ويتدبروه . وأخـيراً ترى الاشتراكية الوطنية أن الصحافة من الأنظمة القومية ، فيجب أن تكون حرفة رسمية تشرف عليها الدولة ، ويجب ألا يشتغل بها سوى الآريين ، فلا يسمح لليهود أن يشتغلوا بها أو يساهموا فى امتلاكها (وهذا ما يقرره قانون الصحافة الهتلرى) . وكما أن الصحافة السياسية تتلقى كل مواد الكتابة والتعليق من المكتب السياسى بوزارة الدعاية ، فكذلك تشرف على توجيه الصحافة العلمية والأدبية والفنية « غرفة للثقافة » وعلى توجيه الصحافة الاقتصادية والمالية « غرفة الدعاية الاقتصادية » ، وهكذا يسير التفكير الألمانى كله طبقاً لخطة حزبية موضوعة تقرر له المبادئ والمواد من وراء ستار وتلقنها إليـه تحت سلطان القوة والوعيد

* * *

وهل نحن فى حاجة لأن ندحض هـذه النظريات والآراء الرجعية الطاغية ؟ ان الاشتراكية الوطنية تعترف بأنها تقتل الصحافة لأنها لا تطيق النظم الحرة ، وفى ذلك ما يكفى للحكم على تدليلها ووسائلها . ولقد كانت حرية التفكير فى جميع العصور والأمم من خواص الأنظمة والحضارات العظيمة . ولـكن ماهى الاشتراكية الوطنية الألمـانية فى الواقع ؟ هى مزيج من الآراء والنظريات القوميـة والجنسية المغرقة ، التى تحمل فى معظمها

طابع التناقض وضيق الأفق ، وهى فى روحها واتجاهها ، أشد طغياناً من البلشفية والفاشستية ، وأشد إذكاء للشهوات والأحقاد الجنسية والطائفية ، وهى أوهام أذهان ضيقة متعصبة ، لا تؤمن بغير القوة والعنف ؛ وإنما يسبغ العنف عليها طابع النجاح . ومن الطبيعى أن تمقت كل صنوف الحرية وتخشاها . والصحافة الحرة من أخطر القوى على نظم الطغيان

ولنلاحظ أخيراً أن محنة التفكير الألمانى لاتقف عند مصرع الصحافة ، بل هى أشد أثراً وأوسع مدى ، فهى تشمل كل صنوف التفكير والآداب والعلوم والفنون ؛ وهذه كلها تخضع اليوم لنفس الاغلال والقوى ، وتمزقها وتشوهها نفس الأهواء والشهوات الهدامة ؛ وهى كلها تسير فى ظل الاشتراكية الوطنية الى نفس المصير المحزن الذى تنحدر اليه جميع القوى الروحية والفكرية فى ألمانيا

محمد عبد الله عنان
المحامى

أيا صوفيــــا

للأستاذ على الطنطاوى

كنا فى « أوتيل مكة المكرمة » ، ذلك القصر الفخم ، الذى كان للشريف عدنان حمى منيعاً ، وحصناً حصيناً ، يهاب الجبابرة الدنوّ من بابه ، وتخشى الطير التحليق فى سمائه ، ويتجنب الناس النظر اليه إلا نظر الخائف الحذر ، لأنهم يعلمون أن الكلمة متى خرجت من فم صاحبه كانت كسهم القضاء ، من أصابت أصْمت ، وأنه ليس بين أحدهم وبين أن يقتل أو يدفن حياً فى جب القصر المظلم ، أو تنهب أمواله ، أو تحرق دوره ... إلا أن يشى به إلى الشريف واش ، أو تصيبه عرضاً نقمة من نقماته !

وكنا فى الردهة الكبرى التى بناها فأجاد بنيانها ، وزخرفها فبالغ فى زخرفها ، حتى كانت تحفة من التحف ، وآية من آيات العمران ، نعجب من تصاريف القدر ، وأحداث الزمان : كيف ذهب الملك ، واندثر السلطان ، وغدا الشريف الجبار ، الذى كان يتبختر فى ثياب الوشى ، وأردية الديباج ، وتمشى أمامه العبيد بالسيوف ، والخدم بالمجامر ، ويسير وراءه الوجهاء والأعيان . . . كيف غدا بعد هذا الجمال الناضر ، عظاماً نخرة ، فى حفرة مقفرة ، وكيف استبدل بالقصر الكبير ، هذا القبر الحقير ، وكيف ذهب المال والولد ، والخدم والعبيد ، والحجاب والأعوان ، والأعداء والأخوان ، ومات الحب والبغض ، والخوف والرجاء ... حتى لكأنما لم يمر على الدنيا عدنان ، وكأنما لم يكن يوماً سيد مكة وجبارها ، وكيف ورثنا القصر أياماً وليالى نطؤه مطمئنين ، وننام فيه آمنين ، ونأمر فيه مطاعين ، لانذكر صاحبه وبانيه ، ولانقيم له وزناً ، ولانحسب له حساباً !

كنا جالسين مع اخواننا رجال الوفد السورى ، نتحدث أنْ لابقاء للانسان . وأن لاخلود فى الدنيا ، وأن الأيام دول ، والدهر دولاب ، فكم من عزيز قد ذل ، ومن ذليل قد عزّ ، ومن ملوك كانوا أعزّ من النجم ، وأمنع من السحاب ، ضاعوا وضاعت ذكراهم ، فلا يغرّن امرؤ بالدنيا :

فما الدنيا بباقيـــة لحىّ وما حى على الدنيـا بباق

ولا يدخرن وسعاً فى كسب الذكر للدنيا والأجر للآخرة ، فما الحياة إلا حياة التاريخ ، وحياة الجنة . . .

***

وكنت لا أنى أسأل عن « الرسالة » ، وألح على مدير الأوتيل وهو من المشتركين فيها ، أن يأتينى بالأعداد الأخيرة منها ، وقد كنت فى دمشق اذا تأخرت «الرسالة» يوماً قلقت من تأخرها ، واشتد شوقى اليها ، فكيف وقد مرّت أربعة أعداد لم أرها ؟ صدرت ونحن على هامش الحياة ، من وراء حدود العالم ، نسير فى الصحراء سبعة عشر يوماً من دمشق الى المدينة ، لم نر فيها إلا ثلاث قرى ، ما لقينا من دونها بشراً ولا شجراً ، ولا وحشاً ولا طائراً ، وما أبصرنا إلا سلاسل الجبال ، وتلال الرمل التى تتعاقب لا حد لها ، فتانة متموجة ، كأنها قد مرّت عليها يد نقاش صَنَّاع ، سبعة عشر يوماً ، ملأت فصلاً طويلاً من سفر حياتى ، بأعمق الشعور ، وأشد العواطف

فلما جاءنى خادم الأوتيل بأعداد الرسالة ، أقبلت أصفحها وأقرأ من كل مقالة عنوانها ، فرابنى منها عنوان مقالة ، ما إن قرأتها حتى سقطت الرسالة من يدى وعرتنى رجفة وأحسست أن قد دِيرَ بى

خبر هائل تصدّع لهوله القلوب ، قلوب المؤمنين حزناً وألماً ، وتندى له الجباه حياء وخجلاً ، وتكلّ عن وصفه الألسنة دهشة وتفظّماً

* * *

ذلك ان الجمهورية التركية ، لم يشف غيظ قلوبها ، كل ما صنعته بالاسلام ، وما أنزلتـه بأهله ، فعمدت الى بيت من بيوت الله ، تقام فيـه شعائر الله ، فجعلته بيتاً للأصنام ، ومثابة للوثنية ، أماتت فيه التوحيد ، وأحيت فيه الشرك ، وطمست منه آي القرآن ، وأظهرت فيـه الصور والأوثان ، لم تضق بها الأرض حتى ما تجد مكاناً لتحفها هـذا إلا المسجد الجامع ، ولـكن النفوس الملحدة ضاقت بهذا المسجد ، وأحسّ أصحابها كأن هـذه المآذن فى عيونهم ، وكأن هذه القبة على ظهورهم ، وعشيت أبصارهم من نور الله ، فأرادوا ليطفئوه بأفواههم ، ومنعوا مساجد الله أن يذكر فيهـا اسمه ، فعطلت الصلاة فى أيا صوفيا فلا تقام فيها بعد اليوم — وسكت المؤذن فلا يدعو فى مآذنها إلى الله — ولا يصـدع بالتهليل والتكبير ، ونأى عنها المؤمنون فلا يدخلونها إلا مستعبرين باكين ، يندبون فيهـا مجد الاسلام ، وعظمة الخلافة ، وجلالة السلطان ، وذل فيها المسلمون وصاروا غرباء عنها وهم أصحابها وأهلوها ، وعز فيها المشركون ، وشعروا أن أيا صوفيا قد ختمت فيها صفحة الاسلام ، باسم هذا ال . . . « أتاتورك » كما فتحت باسم « محمد الفاتح » !

أيا صوفيا التى صيح فى مآذنهـا خمسين وثلاثمائة واثنتين وسبعين وثمانمائة (٨٧٢٣٥٠) الف مرّة : حىّ على الصلاة ، حى على الفلاح . الله أكبر الله أكبر . . . لا إلـه إلا الله ، فاصطف فيها المسلمون خاشعة أبصارهم مؤمنة قلوبهم ، ساكنة جوارحهم ، قد وضـعوا الدنيا تحت أقدامهم ، ودَبْرَ آذانهم ، وأقبلوا على الله بخشوع واخلاص ، فجزاهم بما خشعوا وأخلصوا ، قلوباً استنارت بالايمان ، وعمرت باليقين ، وكان القلب منها وهو يخفق بين جوانح صاحبه ، أكبر من الأرض وهى تجرى فى ملـكوت الله . . . فملكوا بهذه القلوب الأرض ، وفتحوا بها العالم !

أيا صوفيا التى بات فيها المسلمون سبعين وأربعمائة وأربعاً وسبعين ومائة الف (١٧٤٤٧٠) ليلة ، ولهم فى جوفها دوىّ بالتسبيح والتكبير والتهليل كدوّى النحل ، وما فى أرضها شبر لم يكن موطئ قدم مصلّ ، أو مجلس قارئ ، أو مقام ذاكر ، أو مقعد مدرس أو سامع ، وليس يحصى إلا الله ، كم ختم فيها من ختمة ، وكم ألقى فيها من درس ، وكم ذكر فيها الله ، وكم أقيمت فيها الصلاة !

أيا صوفيا التى تشهـد كل حجرة فيها ، وتشهد أرضها وسماؤها ، وتشهد قبتها المشمخرة ، وتشهد مآذنها السامقة ، ويشهد الناس ، ويشهد الله وملائكته ، أنها بيت من بيوت الله ، وحصن من حصون التوحيد ، ودار من دور العبادة . . .

أيا صوفيا . . . تعود للجبت والطاغوت ، وتحمل الصور والأصنام ، ويخسرها الاسلام والشرق ، ليربحها الـكفر والغرب ؟

لقد أريقت حول أيا صوفيا دماء زكية ، وزهقت فى سبيل أيا صوفيا أرواح طاهرة ، من لدن معاوية إلى عهد الفاتح ، إلى عهد عبد الحميـد . . . أفراحت الدماء هدراً وذهبت النفوس ضياعاً ، وعادت أيا صوفيا بعد سبع وثمانين وأربعمائة سنة وكأنما لم يذكر فيها الله ، ولم يتل فيها القرآن ، ولم تقم فيها الأئمة ، ولم تتجاوب مآذنها بالأذان ؟

لقد بنى المسلمون هذا المجد على جماجمهم ، وسقوه بدمائهم ، وحموه بسيوفهم ، ثم وقفوه على الاسلام ، أفيأتى فى ذيل الزمان ، من يعبث بالوقف ، ويهزأ بالدماء ، ويلعب بالجماجم ، ثم لا يردعه رادع ، ولا يعظه واعظ ؟

ومن هم الأتراك لولا الاسلام ؟ على أىّ حسب يتكلون ، وبأى نسب يفخرون ، وبأى ماض يعتزّون ، وبأى مجد يباهون ؟ أبمجد رعاة البقر فى تركستان ، أم بمجد أرطغرل بك ، وقد جاء من مشرق الشمس بدوياً جافياً فقيراً لا يملك إلا أعنـة ركائبه ، وطنب خيامه ، يفترش الغبراء ، ويلتحف السماء ، فصار أحفاده بالاسلام سادة القارات الثـلاث ؟ أفرأيت من ينطح برأسه الصخر ، ويشرب بفيـه البحر ، ذاك هو التركى حين ينكر الاسلام ، ويسعى لايذائه . إنه لا يحطم الصخر ، ولا يجفف البحر ، ولـكن يمشى على رأسه إلى القبر ، وإن الاسلام إلا يكن بالترك يكن بغيرهم ، ولـكن الترك إلا يكونوا بالاسـلام لا يكونوا والله بغيره أبداً . . .

* * *

وعدنا نعتبر ونتحدث أنْ لا بقاء للانسان ، وأن لا خلود فى الدنيا ، وأن الأيام دول ، والدهر دولاب ، فكم من عزيز قد ذل ، وكم ذليل قد عز ، وكم من ملوك « ورؤساء جمهوريات » كانوا أعز من النجم ، وأمنع من السحاب ، ضاعوا وضاعت ذكراهم وأن « الشريف عدنان » مهما يكن جباراً قوياً ، فانه سيصبح

صديقى الكاظمى

للأستاذ الشيخ عبد القادر المغربى
رئيس المجمع العلمى العربى بدمشق

قرأت فى الرسالة (عدد ٩٦) نعىَ شاعر العرب الأكبر الشيخ عبد المحسن الكاظمى رحمه الله . فألمتُ لفقده ، وتذكرت سابق عهده ، وقديم ودّه

وقد ذكر ناعيه من خبره : (انه لاذ بكنف الإمام محمد عبده الذى ظاهر نعمه عليه . وانه نكد عيشه بعد الإمام ، فرضى بالكفاف من الرزق)



فرأيتُ خدمةً للتاريخ ، وتوفيةً لحق الصديق ، وتنويراً لسيرة حياته — أن أضيف الى الجملة المذكورة ماله اتصال بها ، أو هو كالشرح يعلّق عليها

عرفت الشيخ عبد المحسن فى إدارة (المؤيد) لأول عهدى بالتحرير فيه . وهناك توثقت بينى وبينه عُرى المودة ، وأخذت أعرف من دخيلة أمره مالا يعرفه سواى . وكان ذلك بعد وفاة أستاذنا الأمام بسنةٍ ونيف

ومما أخبرنى به أن الامام رحمه الله كان يتعهده فى آخر كل شهرٍ بعشرة جنيهات : يودعها غلافاً ثم تسلّم اليه فى داره من دون أن يشعر بما فى الغلاف أحد . وبعد وفاة الامام لم يجد مندوحةً عن السعى لدى الخديو فى أن يكون له مرتب شهرى من الأوقاف . فتوسط فى هذا الأمر الشيخ على يوسف صاحب المؤيد . فكان الشيخ يراجع الخديو فى تقرير الراتب ، والخديو يأبى — كلما رُوجع بشأنه — إلا الرضخ له من مال الأوقاف بنحو خمسين جنيهاً ؛ وكنت أذهب مع الشيخ عبد المحسن الى الديوان فيقبضها . وقد تكررت هذه المعاملة المرة بعد المرة . والشيخ عبد المحسن فى كل مرة يُظهر التأفّف من تناوله المعونة على هذه الصورة التى ما كان يراها تتّفق مع كرامته وإباء نفسه . وكان يلحّ على الشيخ على : تارةً بنفسه ، وطوراً بواسطتى — أن يكلم الخديو فى تعيين راتبٍ شهرىّ مقطوع : (عشرة جنيهات فقط) يُريحه بها من عناء التوسّط ومكابدة المعاملات الديوانية

وان انتساب الشيخ الكاظمى الى الإمام المفتى إن كان من شأنه أن يحدث فتوراً نحوه فى نفس الخديو ، فما كان قط ليحدث مثلَ هذا الفتور فى نفس الشيخ على يوسف . فكنا ننزّه الشيخ علياً عن وصمة الفتور ، لكننا كنا واقفين وقفة الإيجاس ، من حالة الخديو عباس

ثم ضاق الشيخ عبد المحسن بالأمر ذرعاً ، فكلفنى أن آخذ من الشيخ على وعداً بانجاز المسألة مع الخديو : إما سلباً يُريح النفس ، أو إيجاباً يزيح العلّة

فتركت الشيخ عبد المحسن فى غرفة التحرير ، ودخلت على الشيخ على ، وبلغته الرسالة ، وكان يصحح مقالةً للطبع . فترك القلم من يده ، وتنفس الصعداء ثم قال : ماذا أصنع يا أستاذ ؟ أنهيتُ القضيةَ أمس مع الخديو ، ووعد وعداً أكيداً باصدار أمره بتعيين الراتب ، وقد شكرت له وخرجت من عنده . لكننى لم أكد أبرح الباب حتى دخل عليه بعض الناس (ولم يسمّه لى) فقال للخديو : رأيتُ فلاناً خارجاً من عندك ، فماذا يبغى ؟ قال : قررنا راتباً للشيخ عبد المحسن الكاظمى . قال : أنسيت أنه شاعر المفتى ، وقد قال فيه من الشعر كذا وعرّض فيك بكذا وكذا ؟

قال الشيخ على : فما كان من الخديو إلا الشحُّ برفده ، والنكول عن وعده

ويصبح أعوانه ، رمماً بالية ، فى حفر خالية ، ويبقى الله ، وسينصر دينه ، ويؤيد حزبه ، « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »

***

أيها « الشريف عدنان » ! لا تغتر ، قد ورثنا القصر ، وورثت القبر ، وهدمنا مابنيت ، وبنينا ماهدمت . . . وماهدمت إذ هدمت ، إلا مجدك فى التاريخ ، وأجرك فى الآخرة . . .

مكة المكرمة — على الطنطاوى

فلما وعيت هذا رجعت الى الشيخ الكاظمى ، فأخبرته الخبر ، فتأرجحّ التأثر ، وقال لى : أتعرف من هو بعض الناس ؟ قلت : لا . قال : هو أحمد شوقى

وكنت الى ذلك الحين لم أعرف سعادة أحمد شوقى بك رحمه الله ، ولا اجتمعت به ، وإنما لقيته بعد ذلك فى إدارة المؤيد وقد طلب من الشيخ على أن يرانى فتلاقينا وتعارفنا

ثم قال لى الشيخ عبد المحسن : وما الحيلة الآن يا أستاذ ؟ قلت : تحسين العلاقة مع أحمد شوقى بك ، ففارقته على نية اللقاء فى وقت نذهب فيه إلى (كرمة ابن هانئ) ، وكانت الكرمة بنيت ، حديثاً فذهبنا اليها وأرسل الشيخ عبد المحسن بطاقته الى البك ، فأجيب بأنه خرج ، أما الشيخ عبد المحسن فقد أقسم أنه لم يخرج ، وإنما أراد ألا يقابله

ومن ذلك الحين يئس من الخديو والراتب . وفوض أمره الى الله . ثم لما اشتد به المرض ، ولازم داره فى (درب الكحكيين) جعلت أتردد اليه فيها ، وكنا نقضى ساعات فى الحديث ورواية الشعر ومطارحة الأدب وأخبار الأدباء ، وخاصة أدباء العراق من الشيعة ، وقد لخصت بعض أحاديثه عنهم فى أُمْلِيَّة العدد الصادر فى ١ يوليو سنة ١٩٠٧ من (أمالى الأدب) التى كنت أنشرها فى (المؤيد) من وقت الى آخر

وكان الشيخ عبد المحسن يخص بإعجابه من بين شعراء العراق (ابراهيم الطباطبائى النجفى) الذى جمع بين جودة الشعر وحسن الانشاد ورخامة الصوت ، وهو الذى يقول فى صغيريه حسن ومحمد من قصيدة :

(أما وضوءِ الأبيضين لأنهما قمرا سعودى فى الليالى السود)
(ما أنتما إلا كقرطى غادةٍ يتذبذبان على خدود الخود)

وتأخرت عن زيارة (الكاظمى) أياماً فكتب إلىّ بهذه الأبيات :

(يامن تخيّرتُه دون الرفاق أخاً ألقى به عاديات الدهر والأزما)
(عُدمتنا كاد يُبلى جسمه سَقَم لعل قربك منه يُبعد السقما)
(إذا ألَمّتْ به غماءُ جائحة فنور وجهك عنه يكشف الغمما)
(كم منةٍ لك طول الدهر فى عنق مازلت أذكرها وأسكن الرّجما)

وقوله (الأزما) بكسر الهمزة وفتح الزاى جمع أزمة بمعنى الشدة والضيق ، وهو جمعٌ نادر . ومنه قولهم فى جمع (بَدْرة) (بِدَر)

ولم آسف على شىء أسفى على خبرين كان حدثنى بهما فلم أستقص تدوينهما فى مذكراتى عنه

(الأول) ما وصفه لى من نشأته الشعرية تحت إشراف أخيه الأكبر ، وكانت دار أخيه (فى بغداد أو الكاظمية) مثابة لشعراء الشيعة وأدبائهم . فكان الكاظمى الحدث يطارحهم الأدب ويسابقهم إلى قرض الشعر ، وكان أحياناً يجيد إجادة يعجب بها القوم ويهتزّ لها أخوه طرباً وسروراً . وأنشدنى قِطَعاً من شعره قالها لمناسباتٍ عرضت فى تلك الاجتماعات فاتنى تدوينها مع المناسبات التى قيلت فيها

(الثانى) ما وصفه لى من إلحاح الفاقة عليه فى بعض الأيام حتى أنه سأل تاجر الدجاج الذى كان يبتاع من دجاجه أنْ يصف له طريقته فى تفريخها وتغذيتها والقيام عليها ليمتاش هو من وراء ذلك . فوصفها الرجل له . وحاول أن يجربها ، ففعل . وأصبح عنده ألوف من الفراريج . وكان يعتنى بها ويطعمها الأرز ، لكنه لم ينجح فى تجربته ، وكانت الخسارة عليه عظيمة . قال : وما كان يخطر لى قط أن الكتاكيت سريعة العطب ، رقيقة المزاج إلى هذا الحدّ . وأنها إذا لم يتدبر صاحبها أمرها بانتباهٍ وفرط حيطةٍ ، ومراعاة الأصول فى تغذيتها وتدفئتها لا يبقى من الألف منها سوى بضعة عشر كتكوتاً

وكان فى سرده لهذه الحادثة استقصاءٌ دقيق ، ودرسٌ اقتصادى عميق ، وفكاهةٌ تسرّى عن النفس البائسة كآبتها ، وتعيد إلى الأسارير العابسة بشاشتها

ولما زرته فى السنة الماضية مع صديقى الأستاذ (الهراوى) فى داره بمصر الجديدة ظننت أنه يمكننى محادثته بشأن كتابته ، فلم أصادف من صحته ونشاطه ما يساعد على الكلام فى هذا الموضوع ، وإنما اقتصر حديثنا على وصف المسرة بتلاقينا بعد نحو ثلاثين سنة من تنائينا

والكاظمى ينظم الشعر على طريقة شعراء عرب الجزيرة من حيث متانة الأسلوب وجزالة الألفاظ ، وربما امتاز عن كثيرين منهم بخلو شعره من المماظلة والتعقيد والأغراب

وكما أنه تفوّق على شعراء زمانه بهذه الطريقة الفحلة نراه امتاز عنهم أيضاً فى أنه يرتجل الشعر ارتجالاً غاية فى السلاسة لا جمجمة فيه ولا تلكؤ . وإذا ارتجله وقع شعره المرتجل فى قالب طريقته الشعرية المطبوعة ، أى إنه مهما طال نفسه فى الارتجال جاء شعره المرتجل موسوماً بطابعه الشخصى ، متقاوداً مستوى

المتون ، لا تَشاخُس فيه ولا تفاوت ؛ لا يخـذل آخره أوّله ، ولا ينوء بعجزه بكلكله ، وهذا موضع الغرابة فى ارتجاله . وربما لا يجاريه فى هذه المزية إلا القليل من الشعراء الأقدمين بله المتأخرين من شعراء هذه الأيام

ومن ظريف أخبار بداهته ما اتفق لى معه : ذلك أنه زارنى يوماً فى إدارة المؤيد ، فابتدره زميلى الصحافى المشهور سليم سركيس رحمه الله بالعتب الشديد عليه لأغفاله تهنئته بزيه البلدى الجديد

وكان من خبر هـذا الزى أن (سليماً) تضايق من اللبوس الافرنجى المحزق ولاسيما ياقة القميص المكوى ، وربطة الرقبة (الكرافات) وشطاطها أو بكلها التى كانت تمنعه الحركة وإدارة رأسه يمنةً ويسرةً وهو يحرر ويترجم والفصل فصلُ الصيف والحرُّ حرُّ القاهرة . فما كان منه إلا أن أعلن هجر ذلك الزى والزراية عليـه ، واصطنع لنفسه الزى البلدى : قفطاناً مشدود الوسط بالزنار ، ويحيط أعلى القفطان بعنقه من دون ياقة ولا عرى ولا أزرار ؛ وقد سدل فوق القفطان جبةً بلديةً مخصرة الوسط ، فضفاضة الأذيال ، مهلة الطىّ ، سريعة اللى . وأعلن خبره هذا فى الصحف المحلية مشفوعاً برسمه العربى الأصيل ، وزيه البـلدى الجميل ؛ وأخذ إخوانه المحررون – وهم كُثر – يصفون خبره فى صحفهم ، والشعراء منهم يهنئونه بقصائدهم

وكان صديقنا (سليم) تعجبه طريقة الصحافى الأميركى الكبير (برزباين) الذى يتخذ فى موضوعات كتابته من الحبّة قبّة ، فكيف لا يتخذ هو موضوعاً يلذّ المصريين من القفطان والجبّة ؟

وكم مرةً سمعته يقول : إننى أنا الكاتب الصحافى ، وقد تلقيت فن الصحافة من سفرى إلى أميركا ومعاشرة صحافييها . أما زميلاى : (المنفلوطى) و (المغربى) فليسا صحافيين بالمعنى المقصود من كلمة الصحافة : المغربى كاتب عالم ، والمنفلوطى كاتب شاعر

فلما دخل علينا السيد الكاظمى وأسمعه سليم عتبه عليه قال له :

أَلِقْ دواتك واقربْ وخذ أداتك واكتبْ

ثم جعل يرتجل شعراً فى مدح سليم ، ووصف زيه الجديد . عليه عليـه وهو يكتب . حتى إذا طال نَفَس القول اعترضته أنا قائلاً : أرى أنه سيكون لهذه القصيدة نبأ عظيم بين أدباء القاهرة ، فلم لا يكون لى فيها ذكر وأنا نالتكما وشاهد حادثتكما ؟

فتحوّل الكاظمى عن (سليم) وأقبل علىّ ، وخاطبنى ببضعة أبيات من شعره المرتجل على وزنه وقافيته . ثم عاد إلى إتمام الكلام فى سليم حتى أكمل قصيدة بلغت الثلاثين بيتاً فيما أذكر ، وقد نشرها صديق سليم فى مجلته – سنتها الثانيـة أو الثالثة – وحكى القصة كما وقعت ، لكنه ذهب إلى أننى إنما اقترحت على السيد الكاظمى أن يذكرنى فى القصيدة امتحاناً له ، واستيثاقاً من أمر ارتجاله .

رحم الله (الكاظمى) وعوضنا الدهر منه ولا أُراه فاعلاً

دمشق **المغربى**

رئيس المجمع العلمى العربى

ماذا يقولون عنا ؟

العالم الاسلامى

فرنسا وشمال أفريقية

ترجمة مقال نشرته مجلة (لموا) لكاتب فرنسى مطلع

العالم الاسلامى : العالم الاسلامى امبراطورية واسعة تنقسم كالعالم المسيحى إلى عدد كبير من الممالك التى تجمعها عقيدة مشتركة ويفصلها اختلاف الجنس والموقع الجغرافى والنظام السياسى . وهذه الممالك تتفاوت درجات تقدمها الاقتصادى والفكرى تفاوتاً شديداً . فنى نجد وملحقاتها التى تسمى الآن المملكة السعودية لاتزال تسود حياة القبائل الرحّل ، بينما نجد تركيا والبلاد التى تحت الانتداب الفرنسى والبريطانى وأفريقيا الشمالية قد بلغت الآن درجة رفيعة فى مدنيتها الصناعية .

نهضة العالم الاسلامى : ولقد كان من نتيجة احتكاك هذه الممالك بالمدنية الحديثة أن دخلت كلها فى دائرة النشاط العالمى بعد أن كانت بعيدة — مع تفاوت درجات هذا البعد — عن تيارات التعامل الكبرى . وذلك هو ما يمكن أن نسميه نهضة العالم الاسلامى ، ويقصد بها نفس ما قيل عن نهضة الصين . ولقد عجلت الحرب الكبرى هذه الحركة بصهرها شعوب العالم فى الأتون الجهنمى ، فقد كان لهذه الحرب نتيجتان — على الأخص — غير منتظرتين ولكنهما كانتا عظيمتى الأثر ؛ إذ منحت اليهود وطناً قومياً فى فلسطين فتحقق بذلك الحلم الذى كان يسعى وراءه بنو اسرائيل منذ تخريب بيت المقدس على يد طيطوس Titus عام ٧٠ م . ثم حررت العالم العربى من الحكم التركى

وبعد الحرب سارت نهضة العالم الاسلامى بخطوات سريعة لأن المحاربين وجدوا أنفسهم مضطرين كيما يصلحوا الأضرار التى أصابتهم إلى أن يوسعوا تجارتهم ويجدّوا للحصول على أسواق جديدة ، فكان استغلال المناجم وأعمال الرى وبناء الطرق والسكك الحديدية والسيارات والطيران وبعبارة موجزة (كل المعدات الحديثة للدول الشرقية التى تقوم على قدم وساق وتعمل على تغيير أحوال معيشتها تغييراً عميقاً)[1] ولقد انقلبت دار الصناعة رأساً على عقب وهى التى عليها تقوم حياة البلاد الاقتصادية . وذلك بسبب طرق الصناعة الحديثة ومنافستها . ففى عام ١٩٣٢ كانت المنسوجات اليابانية تعادل ٧٠٪ مما فى أسواق العراق ، وفى سوريا توقفت صناعة النسج وكان فى ذلك القضاء الأخير على دور دودة القز

ولقد نتج عن ذلك كثير من ضروب العراك بين المعتقدات والعوائد الماضية ، وبين الأفكار والمستلزمات الجديدة . فلاتزال المساجد مركزاً للهياج السياسى ، ووسط جزيرة العرب لا يزال متمسكاً بالقانون الدينى التقليدى الذى يقول بقطع يد السارق ، والجماهير لا تزال فى كل مكان شديدة التأثر بخطب المهيجين . على أن نخبة القوم فى مصر وسوريا والعراق يهجرون شيئاً فشيئاً الدراسات الدينية ، ويوشك أن يزول أثر الاسلام فى شئون الحكومات . وبالرغم من ذلك فقد أثار تحرر تركيا من سيطرة الدين كثيراً من الاضطرابات . على أن ضروباً من التقاليد المقدسة قد امحت الثقة بها ، ومثل ذلك أعمال الدراويش فى حلقات الذكر . ومن ناحية أخرى فان مسألة القبعة وإن لقيت تقدماً بطيئاً نجد مشكلة حجاب المرأة لم يطرأ عليها تغير ما بالرغم من الثورة التركية . أما الخلافة فليس لها الآن إلا عدد قليل من الأنصار إذا استثنينا الهنود

فى وسط هذه الحركات المختلفة نرى اتجاهين رئيسيين كانا نتيجة لتقدم السكان ورقى البلاد : اتجاه توحدى unitaire واتجاه قومى nationaliste

الاتجاه التوحدى : إن الاتجاه التوحدى يستمد قوته من النهضة العامة للضمير الاسلامى ، ومن شعور هذه الممالك باشتراكها من حيث الأصل . وهذا الشعور يقويه مكافحة الغرب وكره الأجنبى . ومن هنا قامت كل هذه الهيآت والمؤتمرات التى تحاول جهدها أن تربط جميع الشرقيين على اختلاف طبقاتهم وأديانهم وممالكهم لتوجههم إلى غرض واحد هو الاتحاد ومقاومة الأجنبى . ولاجتماعات المسلمين فى الظاهر صفة دينية على الأخص . وهى بغية الوصول لتحقيق فكرة الجامعة الاسلامية ، لكن فكرة مؤتمر مكة قد أهملت دون أن يصيبها النجاح (فى عام ١٩٣٠

(1) L. Jouklet, Revue des Etudes islamiques, Octobre. 1934

وعام ١٩٣١) ويؤكد بعضهم من جهة أخرى أن عدد الحجاج الذين يذهبون إلى مكة قد هبط من ١٢٠ ألفاً فى عام ١٩٢٩ إلى ٩٠ ألفاً فى عام ١٩٣٠ و ٧٠ ألفاً فى عام ١٩٣١ و ٣٠ ألفاً فى عام ١٩٣٢ ومن ٢٠ ألفاً إلى ٢٥ ألفاً فى عام ١٩٣٣ ولم يأت من مصر إلا ألفان من الحجاج عام ١٩٣٣ وليس للأزمة الاقتصادية إلا أثر جزئى فى هذا الهبوط

والواقع أن فكرة الجامعة الاسلامية تصطدم باستحالة توجيه ثلثمائة أو أربعمائة مليون من المسلمين . كما أن الفكرة الدينية لا تكفى لربط العالم الاسلامى وحفزه . وهناك برهان مادى على صدق هـذا القول وهو فشل فكرة الخلافة : (ففكرة الخلافة التى تقاومها السلطات التركية باستمرار فى كل المناسبات يظهر أنها قد ماتت تماماً فى الوقت الحاضر فى البلاد العربية . ولقد أعلن الملك عبد العزيز بن السعود نفسه وهو يستقبل الحجاج فى مكة أنه لم يجر ولن يجرى مطلقاً وراء لقب خليفة المسلمين . فالخليفة يجب عليه مراقبة أوامر الدين ونواهيـــه فى كل أجزاء الأرض . وفى عصرنا الحاضر لا يوجد رجل قادر على أن يضطلع بهذا الأمر . وعلى ذلك فان النهضة الدينية فى الشرق الاسلامى يمكن اعتبارها « رد فعل » فى سبيل الدفاع السياسى أكثر منها بداية نهضة . فالاسلام هو الآن قوة لمكافحة الاستعمار الغربى واليهودى ، لكن أثره فى حياة الحكومات يفقد تدريجياً خطره الذى كان له فى الزمن السابق . ويجب أن نضيف أيضاً أن مما يتفق وتاريخ المدينة الاسلامية ما نراه الآن من تقدم حركة دينية قوية ترمى إلى توحيد قوى قسمتها السياسة ، وإقامة جبهة صلبة ضد الغرب)[1] ومنذ عهـد قريب تبذل الجهود لبعث النشاط الايجابى فى كل عضو من جسم العالم الاسلامى

ولقد نتج عن الحبوط (النسبى) للفكرة الدينية أن اتخذت كل الحركات المبذولة فى سبيل الوحدة صبغة سياسية . وقد قوّى تقدم الحركة الصهيونية فى فلسطين الشعورَ بواجب الدفاع عن بيت المقدس وهو المدينة المقدسة الثانية للعالم الأسلامى . وفى أثناء عام ١٩٣١ دعا المفتى الأعظم الى المؤتمر الذى عقـد فى ديسمبر ، (وكان الغرض من هذا المؤتمر يبـدو أولاً دينياً محضاً : وهو التعاون الاسلامى ونشر الثقافة الاسلامية ومقاومة الألحاد ، والدفاع عن الأراضى المقدسة ، والمحافظة على التقاليد ، وإنشاء جامعة علمية فى بيت المقدس ، وبحث حالة سكة حديد الحجاز) والواقع أنه لم يمكن المحافظة على البرنامج البـدئى . فقد كان من اللازم التوسع فيه حتى يستطيع أن يعالج أيضاً موضوعات مختلفة تهم حالة الشعوب الاسلامية من الناحيتين السياسية والثقافية . وبالرغم من ذلك فان سلطة المؤتمر قد ضعفت لغياب الممثلين الرسميين لمصر والعراق ونجـد ، وبتأكيد الحكومة التركية عداوتها لكل سياسة داخلية أو خارجيـة (تستخدم الدين كوسيلة سياسية) ، وفى بيت المقدس نفسه أعلن الحزب المعادى للمفتى الأكبر أن الرؤساء المسلمين لم يؤيدوا المشروع إذ لم يؤخذ رأيهم فيه

الجامعة العربية : ومنذ الحرب الكبرى ، أو بعبارة أخرى منذ سقوط الأمبراطورية العثمانية تتخذ الحركة التوحيدية صبغة جديدة . فالجامعة الاسلامية قد تحولت الى توسع استعمارى عربى . إذ حلت محل الفكرة الدينية التى حاق بهـا الضعف فكرةُ الوحدة الثقافية : أى وحدة البلاد التى تتكلم اللغة العربية ، والتى يبلغ مقدارها ٧٠ مليوناً ، ولقد بذل منذ نصف قرن على الأخص مجهود فى سبيل اللغة — لم يكن الغرب يشك فى قوته — كان له أثر فى تغيير الحالة الثقافية للبلاد العربيـة لدرجة أنه لم يعد من السهل المقارنة بين اللغة القومية واللغات الأجنبية من جهة ، وبين البلاد العربية وأفريقيا الشمالية من جهة أخرى . وفى منتصف القرن التاسع عشر كان السكان الذين يتكلمون اللغة العربية فى الشرق الأدنى وخصوصاً فى سوريا وفلسـطين يعتمدون على المصادر التى لا بأس بها فى لهجاتهم الدارجـة ، وكانت اللغة الفصحى غير كافيـة ، ولم تكن تؤدى الحاجة الضرورية . لذا كان من اللازم الالتجاء الى اللغـات الأجنبية كالفرنسـية والانجليزية والتركية واليونانية والروسية . ولقد غُيرت هذه الحالة تغييراً عميقاً بخلق لغة فصحى حديثة . وكان مركز الحركة فى القاهرة ودمشق وفلسـطين وبغداد . وكان جعل التعليم العام باللغة العربية الفصحى الحديثة فى كل بلاد الشرق الأدنى مما ساعد بطريقة أكثر تحقيقاً للغرض على تقليل المسافات التى تفصل لغـة الكتابة عن اللغة الدارجة . وتبين الاحصاءات المدرسية التى نشرت فى السنين الأخيرة فى مصر وسوريا ولبنان

(١) Op. cit. page 935.

والعراق وفارس أن عدد طلبة المدارس قد ازداد بعد الحرب فى معظم هذه البلاد من ٣٠٠ إلى ٦٠٠ ./.

وفى ظل هذه الأشكال المختلفة التى تبدو بها حركات الجامعة الاسلامية والجامعة العربية قام عمل متواصل لتعديل الالتزامات المالية والاقتصادية والسياسية التى عقدتها أو فرضتها البلاد الغربية . وهذا التعديل يصعب على الأخص فى بعض البلاد مثل فلسطين حيث يتقابل وجها لوجه العنصران اليهودى والعربى اللذان حررتهما الحرب . ولقد استطاعت الحكومة البريطانية أن تتحاشى حتى الآن (الانفجار القوى الذى كان يحق للمرء أن يخشاه . . . وعلى الرغم من أن اضطرابات اكتوبر عام ١٩٣٣ كانت مما يوجب أشد الأسف فقد تبدو حركة ضئيلة إذا قارناها باتساع مأساة الكفاح بين الصهيونية والقومية العربية)

الاتجاه القومى : والاتجاه الضرورى الآخر الذى يبدو فى البلاد الاسلامية هو الاتجاه القومى ، وهو يظهر بشكل أقوى فى أفريقيا الشمالية . والواقع أن (البلاد العربيـة) تفكر تفكيراً غامضاً فى الوحدة ، أى فى تحقيق أمة عربية . بينما تجد بلاد أفريقيا الشمالية تُظهر الرغبة من تلقاء نفسها ـ كمصر مثلاً ـ فى أن تبقى أمماً مستقلة . والواقع أن حوادث العراق وفلسطين يصل صداها مباشرة إلى دمشق ، كما أن اليمن ـ على رغم اختلاف الجو والحياة المادية والعقائد الدينية ـ قد تكون من الناحية السياسية أقل بعداً عن سوريا من بعد مراكش عن الجزائر

أفريقيا الشمالية : إن حوادث أفريقيا الشمالية قليـلة وغير معروفة . وهى بذلك تترك المجال للأقاويل التى تدخلها الأغراض ، وللحملات الصحفية التى تصول فيها الشهوات السياسية لأحزاب اليسار واليمين . ولا تزال المعلومات فى الوقت الحاضر سيئة للغاية فيما يتعلق بالاضطرابات التى حدثت أثناء الحرب فى مراكش والجزائر وتونس ، ومع ذلك فان مسألة باتنا Batna لا تزال على حرارتها حيث فقد هناك وكيل المديرية حياته

ولتعويض الأعمال المجيدة التى قامت بها الفرق الوطنية فى ساحات القتال أثناء الحرب العظمى منحت حكومة كليمنصو سكان أفريقيا الشمالية وعودا لم تنفذ لسبب من الأسباب ، ولقد اعترف المقيم العام مسيو بيروتون للنائب الاشتراكى مونيه فقال : (الواقع أن من سبقونى قد تركوا الحبل كله على الغارب . ولقد وجدت من اللازم أن يصلح كل شىء من جديد سواء من جهة الخطة السياسية أو من جهة الخطة الاقتصادية)

وقد كان مسيو ب . هيريكور يجمع هذه الشكاوى التى تقول : (ألا تعتقدون أن أولئك الذين هم منا والذين دفعوا ضريبة الدم ليس لهم بعض الحق فى أن يتألموا لكرامتهم حين يرون أنفسهم يعاملون معاملة الأهل الضعفاء وسط الجالية الفرنسية ذات الصدر الواسع بالنسبة للايطاليين والاسبان والمالطيين بل وحتى الألمان ؟)

وبالرغم من اختلاف وجهات نظر الذين ينتقدون السياسة الفرنسية فى شمال أفريقيا فانهم متفقون على أنه ليست هناك وحدة ما فى إدارة الجزائر وتونس ومراكش . ولقد حدثت محاولة واحدة بعد الحرب للوصل بين هذه الادارات ، على أنها لم تتلها أخرى . وهذا هو أحد أسباب الضعف الخطير أمام ثورة الجامعة الاسلامية والجامعة العربيـة ، ويضاف الى ما سبق أن أعباء دولية تثقل تونس لأن السياسة الايطالية ما تزال على نشاطها ، وتثقل مراكش لأن للمصالح البريطانية أهميتها . ومن الآن يظهر أن انجلترا سوف تطلب تعويضاً من مراكش الاسبانيـة عند احتمال تركها لجبل طارق

اضطراب شمال أفريقيا : فى خلال عام ١٩٣٤ قامت فى تونس والجزائر ومراكش سلسلة من الحوادث والاضطرابات والثورات يجد المرء تفصيلاتها فى مجلة (أفريقيا الفرنسية) التى بينت فى عدد سبتمبر أخطاء حكومة الجمهورية بقولها : (عندما تكونت الجبهة المعادية لفرنسا بشكل كتلة عربية ، كانت تقابل على الدوام بسياسة تشتيت الجهود والمجاهرة بالعداء للأقاليم الفرنسـية وتصديق الأخبار الكاذبة الخاصة بحالة هذه الأقاليم . . . . إن المسئولية الكبرى فيما يتعلق بحالة القلق فى شمال أفريقيا ترجع الى باريس ، فحكومة الجمهورية تغمض عيونها عن المطالب الشرعية التى تقتضيها الحالة الاقتصادية فى شمال أفريقيا ، ويجب ألا ننسى أن أفريقيا الشمالية قد أصبحت العنصر الأســاسى فى حياة الجمهورية الاقتصادية)

فى الجزائر : إن الجزائر هى مركز المصالح الفرنسية والنشاط الفرنسى فى شمال أفريقيا . فاذا هدد المركز عُرض كل شىء فى تونس ومراكش للخطر . وقد قال أحد العلماء الذين هم على جانب كبير من الخبرة فى هذه المسألة ما يأتى : (إن أهمية الجزائر لفرنسا

أ كثر من أهمية الهند لانجلترا ، لكن الواقع أن الهند بالنسبة للامبراطورية البريطانية مصدر قوة ، بينما الجزائر تخلق مشكلة فى نظام فرنسا الداخلى . إن فرنسا بدون الجزائر تصبح من حيث القوة أمة من الدرجة الثانية)

ولقد كانت الحوادث الدموية التى شبت فى قسطنطينية فى الخامس من أغسطس شيئاً جزئياً [1] استغلته الأحزاب السياسية . فصحافة اليسار قالت إنها حركة موجهة ضد اليهود ، بينما اعتبرت صحافة اليمين مرسوم كرميو الذى يمنح عدداً كبيراً من اليهود الجنسية الفرنسية عملاً إجرامياً . والواقع أن مرسوم كرميو لم يقابله المسلمون عند اعلانه مقابلة سيئة . والربا هو إحدى النكبات الكبرى التى تضنى الجزائر ، وهو مهنة نمت على يد اليهود الجزائريين ، ولكنها الآن تسير بنجاح فى شمال أفريقيا بواسطة أفراد ليسوا من اليهود . هذه الضروب المختلفة من الشطط تعرّض للخطر شيئاً فشيئاً أبناء المستعمرات الفرنسية وفرنسا نفسها . وإذا أضفنا إلى ذلك أثر الأزمة الاقتصادية كان لابد لهذه الحالة من أن تنتهى بالمذابح . ومن الغريب أن الحكومة التى من واجبها السهر على النظام والعدالة والرخاء لا تجد إلى الآن وسيلة لوضع نظام للأقراض يضع حداً للسلف الصغيرة التى كانت أول ما اهتمت به الحكومة الانجليزية فى مصر

السياسة البربرية : يعيش فى أفريقيا الشمالية مليون من الفرنسيين لا يمكن أن يتركوا وسط عدد من السكان الوطنيين يبلغ اثنى عشر مليوناً . فيجب أن توجد طريقة للتوفيق بين فريقين مختلفين حتى يستطيعا الحياة . ولقد حاول بعضهم إيجاد سياسة خاصة ببلاد البربر يقصد بها خلق العداوة بين أهل هذه البلاد وبين العرب وذلك عملا بالمبدأ القائل : فرق تسد . وبناء على تقرير مسيو ماسينيون السنوى يوجد ٢٩ ٪ من البربر فى الجزائر ، و ٦٠ ٪ فى مراكش ، و ½ ٪ فى تونس . على أن الالتجاء إلى سياسة بذر الشقاق لم تأت كما سمعنا باحدى النتائج المنتظرة . ولقد كان ظهير عام ١٩٣٠ مبعث الاضطرابات التى انبعثت من ذلك الوقت فى مراكش ؛ ومؤهلات المسلمين فى شمال أفريقيا تحتم أن تكون الثقافة هناك عربية محضة . وعلى ذلك فالقوانين فى بلاد البربر بدائية ، وبعبارة أخرى متأخرة جداً بالنسبة للقوانين فى سائر البلاد الاسلامية ، فالمرأة مثلاً بموجب القوانين فى بلاد البربر سلعة من السلع ، وهى تعتمد على والدها الذى يستطيع أن يبيعها ، وعلى زوجها الذى يملك طردها ، وعلى أشقائها الذين يمكنهم إنزال العقاب بها . لذا كان من الوهم الاعتقاد بأن البربر يستطيعون أن يصبحوا فرنسيين دون أن يصلوا أولاً إلى ما وصل اليه المسلمون . وتطبيق ما يسمى السياسة البربرية لا يمكن أن ينتج غير بقاء الاعتقادات البالية واستمرار العادات الماضية

المعارضة الوطنية : يكاد ينحصر البربر المقيمون بالجزائر فى بلدة قابلية Kabylie . وقد اقترح إنشاء أقليم رابع لهم ، على أن هناك عوائق لابد من انتظار حل لها ، وهى أن التعليم غير كاف ، وسكان المستعمرات لا يتعلمون العربية ، كما أن هناك هوة تزداد تدريجياً بين الفرنسيين وأهل البلاد . ولقد كان هؤلاء مخلصين حتى عام ١٩٣٠ وخصوصاً المتعلمون الجزائريون وعددهم ٢٠ ألفاً . ويرى أ كفأ الخبراء أن عدم السماح لهم بالتجنس بالجنسية الفرنسية كان خطأ بيناً . ولكن هل هذا صحيح ؟ إننا لا نستطيع أن نعطى رأياً قاطعاً . على أن الواقع أن الاحتفالات بمرور مائة عام على احتلال الجزائر لم تحمل لأهل البلاد إلا خطباً فارغة . ومنذ أربعة أعوام لم يتحقق اصلاح واحد من الاصلاحات التى طلبها أو وعد بها أهل البلاد . ولذا ابتدأت المعارضة وشجعتها الأزمة الاقتصادية . فحمل (الوفد) ، وهو الحزب الوطنى ، إلى باريس شكواه من الحكومة العامة ، وأحيت جمعية العلماء المسلمين الثقافة العربية بين جماهير الشعب . والنتيجة أن سكان المستعمرات يزداد قلقهم تدريجياً ، وأهل البلاد يتفاقم تذمرهم ، والحكومة المركزية لم تصل إلى تسوية الحالة

فى تونس : إن معلومات الصحافة عن الاضطرابات التى قامت فى سبتمبر عام ١٩٣٤ سيئة . وقد شكت مجلة (أفريقيا الفرنسية) من (العقبات التى تصادفها الأخبار الواردة من تونس) فى النصف الأول من شهر سبتمبر . وفى أوائل يونيو أ كد البيان الرسمى للجنة المستعمرات فى مجلس النواب أن تونس (تسير فى الطريق السوى) وبعد ذلك بشهر عرف أن الجرائد (الخطرة) قد عطلت ، وأن تذمراً هائلا يسود الموظفين والعمال والفلاحين . وأن السكان الوطنيين محرضون على الامتناع عن دفع الضريبة . ومن الجلى أن المتطرفين من الدستوريين الحديثين يريدون بذلك التغلب على

(١) كان عدد الموتى ٢٤ وبلغت الخسائر ٥٠ مليوناً

الأحرار الدستوريين . وفى ٣ سبتمبر اتخذ المقيم العام عقوبات صارمة . فتكاثرت الحوادث وقامت المظاهرات الصاخبة أمام دار المقيم ، وأغلقت الحوانيت وحدثت الاضرابات ، وهوجمت الفرق الحربيـة وشبت الحرائق . وحدث فى موكنين Moknine حادث خطير نسبياً حيث هاجم الثائرون عساكر البوليس ، فعطلت الجرائد المتطرفة

ولا يكفى أن تلقى تبعة اضطرابات شمال افريقيا على الدعاية الشيوعية . فالواقع أن التذمر العام له أسباب محلية أكثر عمقاً ، هى أسـباب سياسية واقتصادية . لـكن الواضح أن اضطراب البلاد الاقتصادى والفكرى قد استغلته الدعايات الخارجيـة من شيوعية وغيرها . والحقيقة أن المقيم العام فى تونس أعلن فى ١٤ سبتمبر قرارات لغرض تسوية الديون الزراعيـة وتعطيل الاجراءات القضائية ووقف الحجوز . وعُـهد إلى خمس لجان تحكيم بحث موقف المدينين المعسرين . وأعظم نقص فى السياسة المتبعة فى تونس أنها تتحول مرة واحدة من لين شديد إلى قسوة شديدة . فهناك يباح كل شطط يرتكبه المرابون ونقابات الموظفين إلى أن يأتى يوم تجد فيه الحـكومة نفسها مرغمة على الالتجاء إلى الشدة . وتلك هى السياسة المرتبكة التى مآلها الفشل العظيم

فى مراكش : ومراكش ليست محرومة هى الأخرى من الفضائح ، فهناك حكاية حىّ مراكش المحجوز أو ـ من الناحية الاقتصادية ـ الضاربات على القمح الذى قدر بستة وثلاثين فرنكا ، واشترى بخمسة وعشرين ، ثم بيع ثانية للرباط بمائة وعشرة فرنكات مع كل ضروب المجاملة التى يؤسف لها .

ويظهر أن حكومة المقيم العام قد أخذت تشعر ، ولـكن ـ كما تقول مجلة افريقيا الفرنسية ـ (إذا لم تتحقق هذه الآمال وخصوصاً القضائية والمـالية فلا بد من عودة الأيام العسيرة)

النتيجة : والنتيجة أن شمال أفريقيا يعانى نقصاً فى وحدة الادارة . وكذلك يعانى ـ كحـكومة الجمهورية ـ نقصاً فى السلطة . وهو يعانى أيضاً من نظام الانتاج والتبادل الذى يرتكز كما هو واضح على مذهب الحرية . والواقع أن تدخل السياسة فى الأعمال ينتج أثرين : يساعد المصالح الخاصة على حساب المجموع ، ويعارض تطور القوانين اللازم منذ الحرب . إن من الواجب وجود توازن بين حقوق حـكومة الجمهورية وآمال أهالى البلاد ؟ ع . ك

استدراكات وتصويبات

١ — اطلعت فى العدد ٩٦ من « الرسالة الغراء » على مقال البحاث المؤرخ السيد محمد عبد الله عنان عن (الحاكم بأمر الله) فرأيته يسمى صاحب « مرآة الزمان » (ابن قزأوغلى) ، ولعل ذلك تصحيف وقع فى كثير من الـكتب كـكشف الظنون ، والنجوم الزاهرة ، والأعلام وغيرها ، وصوابه (فرغلى) كما فى نسخة قديمة من الوافى بالوفيات ، ووفيات الأعيان لابن خلـكان حيث نص عليه بما يوافق ما قاله الزبيدى فى شرح القاموس ، ويعلل بعضهم لصحة (قزأوغلى) بأنه ابن البنت فى اللغة التركية ، وغفل عن أن ابن البنت هو السبط نفسه لا أبوه (فرغلى) ، كما ترى ذلك مبسوطاً فى (شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد) فى ترجمة سبط ابن الجوزى يوسف بن فرغلى صاحب مرآة الزمان وغيرها

***

٢ — وورد فى العدد نفسه من « الرسالة الجليلة » فى (باب القصص) مقالة فيها « قبرص » بالصاد ، وهو غلط فاش بين الناس غالب على أقلامهم ، وصوابه « قبرس » بالسين كما قيده ياقوت فى معجم البلدان والفيروزابادى فى القاموس وغيرها

***

٣ — وتقدم فى عدد سابق من « الرسالة » أيضاً الـكلام على المدرسة (السميساطية) فى دمشق الشام فجاءت محرفة ، وهى تنسب إلى أبى القاسم السميساطى حيث كانت داره فوقفها على فقراء المؤمنين والصوفية ووقف علوها على الجامع الأموى الملاصق لها ، وسميساط بضم السين المهملة الأولى وفتح الميم والسين الثانية بينهما مثناة تحتية وآخره طاء مهملة بلد بالشام . وواقف المدرسة المذكورة كان من أكابر الرؤساء والمحدثين بدمشق ، بارعاً فى الهندسـة والهيئة ، صاحب حشمة وثروة واسعة ، عاش ثمانين سـنة وتوفى سنة ٤٥٣ كما فى شذرات الذهب ومعجم البلدان وغيرها

أبو أسامة

أبو سليمان الخطَّابى

٣١٩ — ٣٨٨ هـ

بقلم برهان الدين محمد الداغستانى

إذا تصفحنا كتب غريب الحديث المؤلفة بعد القرن الرابع الهجرى أو قرأنا شرحاً من شروح كتب الحديث المشهورة ـ وجدنا اسم الخطابى ورأيه بارزين واضحين ، يكفى لمن يريد تأييد رأى على آخر أن ينقل عن الخطابى مايؤيده كما يكفى من يريد الاحتجاج على أمر ما أن يذكر رأى الخطابى فيه حتى يتم له ما أراد

وقد درج الكثير من المؤلفين والرواة عنه على الاكتفاء عند ذكر اسمه بالخطابى ، وسواء أكان اقتصارهم هذا لشهرته عندهم أم لعدم معرفتهم اسمه الحقيق ، فقد كان سبباً من أسباب الخلاف الطويل حول اسمه الذى سمى به

وقد خدم الخطابى رحمه الله اللغة العربية وعلم الحديث بنوع خاص ـ بما كتبه فى غريب الحديث وإصلاح خطأ المحدثين وشرحى البخارى وسنن أبى داود ـ خدمة جليلة فوق ما كتبه فى فنون أخرى . حتى لقد أصبحت كتبه من بعده مصادر لمن أتى بعده يأخذ منها ويعتمد عليها ، غير أن أكثر كتبه مفقود الآن لا يعرف غير أسمائها ككثير من كتب الأقدمين من علمائنا الأعلام

وسأحاول ـ بقدر الامكان ـ أن أصور للقارئ الكريم صورة واضحة جلية لأبى سليمان الخطابى البستى فى هذه الكلمة الوجيزة

اسمه ومولده ونسبته

هو حمد (بفتح الحاء وسكون الميم) بن محمد بن ابراهيم بن الخطاب الخطابى البستى ، كذا ذكره النووى فى طبقات الشافعية[1] والحافظ الذهبى فى تذكرة الحفاظ[2] وعبد الجبار الهروى فى تاريخ هراة والحاكم ابن البيع فى كتاب نيسابور[1] وابن خلكان فى وفيات الأعيان[2] والسبكى فى طبقات الشافعية[3] وهو الصواب وعليه المعول ، فقد سئل الخطابى نفسه عن اسمه فقال : « اسمى الذى سميت به حمد ولكن الناس كتبوه أحمد فتركته عليه . »

ووهم الثعالبى فى اليتيمة[4] وأبو عبيد الهروى صاحب كتاب الغريبين[5] والوزير المؤرخ جمال الدين القفطى[6] فى أنباه الرواة فى أنباه النحاة حيث سموه أحمد

ولد الخطابى فى رجب سنة تسع عشرة وثلثمائة بمدينة بُسْت (بضم الباء وسكون السين) وهى من بلاد كابل عاصمة الأفغان ، بين هراة وغزنة ، كثيرة الأشجار والأنهار ، وكما اختلف الذين ترجموا للخطابى فى اسمه كذلك اختلفوا فى نسبته . إلى من هذه النسبة « الخطابى » ؟ فياقوت فى ارشاد الأريب (معجم الأدباء[7]) ، والسيوطى فى بغية الوعاة[8] ، والسمعانى الانساب[9] يذكرون أنه من ذرية زيد بن الخطاب بن نفيل العدوى أخى عمر رضى الله عنه مقتصرين عليه ، بينما ابن خلكان والسبكى والشيخ محمد الأنصارى البهنسى فى الكافى[10] يقولون : إنه منسوب إلى جد أبيه الخطاب ، ثم يقولون : وقيل إنه من ذرية زيد بن الخطاب أخى عمر رضى الله عنه

شيوخه وتلاميذه

تفقه الخطابى على الامام الجليل محمد بن على بن إسماعيل القفال الشاشى الكبير[11] والقاضى الامام أبى على بن أبى هريرة[12]

---

(١) كتاب الطبقات للنووى مختصر من طبقات الشافعية لابن الصلاح ، مخطوط منه نسختان فى دار الكتب المصرية تحت رقم (٢٠٢١) و(٦٢م) تاريخ

(٢) ج ٣ ص ٢٠٩

---

(١) نقلنا رأى الهروى والحاكم عن ياقوت فى معجم الأدباء

(٢) ج ١ ص ٢٠٨ (٣) ج ٢ ص ٢١٨

(٤) ج ٤ ص ٢٣٢ (٥) رأى الهروى هذا منقول عن معجم الأدباء

(٦) مؤرخ مصرى توفى سنة ٦٤٦ هـ وكتابه المذكور كتاب نفيس فى مجلدين كبيرين ، منه نسختان فى دار الكتب المصرية نسخة مأخوذة بالتصوير الشمسى تحت رقم (٢٥٧٩) وأخرى مخطوطة تحت رقم (٢٨٠١) تاريخ . انظر الجزء الأول منه ص (١٢٣) (٧) ج ٢ ص ٨١ وما بعدها

(٨) ص ٢٣٩ (٩) الورقة (٢٠٢) (١٠) مؤرخ شافعى المذهب ولد سنة ٧٣٦ وتوفى فى حدود ٨٠٠ وكتابه الكافى فى تراجم الشافعية مخطوط فى دار الكتب المصرية تحت رقم (٩٠م) تاريخ

(١١) كان اماماً فى التفسير ، اماماً فى الحديث ، اماماً فى الكلام ، اماماً فى الأصول ، اماماً فى الفروع ، اماماً فى الزهد والورع ، اماماً فى اللغة والشعر ، ولد سنة ٢٩١ ، وتوفى سنة ٣٦٥ هـ (١٢) أحد عظماء الأصحاب من شيوخ الشافعية ، قال الرافعى : إن ابن أبى هريرة زعيم عظيم للفقهاء ، توفى فى رجب سنة ٣٤٥ هـ

وسمع الحديث من أبي سعيد بن الاعرابي بمكة (١) ، وأبي بكر بن داسة بالبصرة ، واسماعيل الصفار ببغداد (٢) ، وأبي العباس الأصم بنيسابور ، وتأدب وأخذ اللغة عن أبي عمر محمد بن عبد الواحد اللغوي المعروف بغلام ثعلب (٣) ، وسمع من أحمد بن سلمان النجار ، وأبي عمرو السماك ، ومكرم القاضي ، وجعفر الخلدي ، وأبي جعفر الرزاز وأخذ عنهم

وسمع من الخطابي وروى عنه الامام الفقيه شيخ العراق أحمد ابن محمد بن أحمد الأسفراييني ، والحاكم أبو عبد الله محمد بن البيع النيسابوري ، وأبو عبيد الهروي صاحب كتاب الغريبين ، وعبد الغفار بن محمد الفارسي ، وأبو القاسم عبد الوهاب بن أبي سهل الخطابي ، وأبو نصر محمد بن أحمد البلخي الغزنوي ، وأبو مسعود الحسين بن محمد الكرابيسي ، وأبو عمرو محمد بن عبد الله الزرجاهي وخلق كثير غيرهم

مكانته العلمية وثناء الناس عليه

كان الخطابي رحمه الله تعالى عالماً أديباً زاهداً ورعاً حسن التدريس والتأليف ، إماماً في اللغة والفقه والحديث ، ثقة متثبتاً من أوعية العلم ، حجة صدوقاً من كبار أئمة الشافعية . رحل في طلب العلم إلى العراق فسمع ببغداد والبصرة والحجاز وجال خراسان وخرج إلى ما وراء النهر ، كريماً يتجر في ماله الحلال وينفق على الصلحاء من إخوانه

قال أبو منصور الثعالبي : كان يشبه في عصرنا بأبي عبيد القاسم بن سلام في عصره (٤) علماً وأدباً وزهداً وورعاً وتدريساً وتأليفاً إلا أنه كان يقول شعراً حسناً وكان أبو عبيد مفحما

وقال أبو المظفر السمعاني : كان الخطابي حجة صدوقاً رحل إلى العراق والحجاز وجال خراسان وخرج إلى ماوراء النهر ، وكان يتجر في ملكه الحلال وينفق على الصلحاء من إخوانه . وقال أيضاً : كان من العلم بمكان عظيم وهو إمام من أئمة السنة صالح للاقتداء به والاصدار عنه (١)

وقال الذهبي : كان ثقة متثبتاً من أوعية العلم قد أخذ اللغة عن أبي عمر الزاهد ببغداد ، والفقه عن أبي علي بن أبي هريرة والقفال ، وله شعر جيد

وقال ابن خلكان . كان فقيهاً أديباً محدثاً له التصانيف البديعة ، وعدد كتبه ثم نقل عبارة الثعالبي المتقدمة

وقال ياقوت : قد أخذ العلم عن كثير من أهله ورحل في طلب الحديث وطوف وألف في فنون من العلم وصنف

وقال النووي في طبقات الشافعية له : حمد بن محمد بن ابراهيم ابن الخطاب الفقيه الأديب أبو سليمان الخطابي البستي صاحب التصانيف المتداولة . قال الحاكم (٢) أبو عبد الله الحافظ النيسابوري أقام عندنا بنيسابور سنين وحدث بها ، وكثرت الفوائد من علومه

وقال الشيخ شرف الدين البهنسي في الكافي : أبو سليمان الخطاب من الأئمة الأعلام المجتهدين في قواعد الأحكام . كان رحمه الله فقيهاً محدثاً أصولياً جمع بين الحديث والفقه ، ومد في تحقيق العلم باعاً مديداً ، وأحكم من مبانيه ركناً شديداً ، حتى قلد أعناق أهل العلم المنن

وأورد النووي في طبقات الشافعية هذه الأبيات الثلاثة :

أخ تباعد عني شخصه ودنا معناه مني فلم يظعن وقد ظعنا
أبا سليمان سر في الأرض أو فأقم بحيث شئت دنا مثواك أو شطنا
ما أنت غيري فأخشى أن تفارقني قد بت روحك يا روحي فانت أنا

وقال إنها لأبي الفتح علي بن محمد البستي قالها في أبي سليمان الخطابي ؛ وياقوت في معجم الأدباء ذكر البيتين الأخيرين هكذا :

أبا سليمان سر في الأرض أو فأقم فأنت عندي دنا مثواك أو شطنا
ما أنت غيري فأخشى أن تفارقني قد بت روحك بل روحي فانت أنا

وقال إنهما من شعر الثعالبي في الخطابي . والظاهر أن هذه الأبيات من شعر الثعالبي في شيخه وصديقه أبي سليمان ، فقد كانت بينهما صلة وثيقة نلمسها في شعر الخطابي نفسه الذي يقوله في

(١) أبو سعيد هذا محدث كبير ولد سنة ٢٤٦ ، وتوفي سنة ٣٤٠ هـ يروي عنه الخطابي من غير واسطة في كتاب العزلة بكثرة ، وهو غير ابن الاعرابي اللغوي الراوية المتوفى بسر من رأى سنة ٢٣٠ هـ فهذا يروي عنه الخطابي بواسطة أبي عمر الزاهد عن ثعلب عن ابن الاعرابي في كتاب اصلاح خطأ المحدثين وغيره مما لمساس باللغة (٢) هو اسماعيل بن محمد ابن اسماعيل بن صالح بن عبد الرحمن الصفار علامة في النحو واللغة ، صحب المبرد وروى عنه ، ولد سنة ٢٤٩ ، وتوفي سنة ٣٤١ هـ

(٣) هو المطرز اللغوي ولد سنة ٢٦١ وتوفي ٣٤٥ ببغداد ، ولكثرة ملازمته لثعلب المتوفى سنة ٢٩١ سمي غلام ثعلب

(٤) كان امام أهل عصره في كل فن من العلم ، فاضلا في دينه وعلمه ، ربانياً مفتناً في القرآن والفقه والأخبار والعربية ، حسن الرواية ، صحيح النقل ، مات بمكة سنة ٢٢٣ ، وقيل ٢٢٤ ، وقيل ٢٣٠ هـ

(١) روى الجزء الأول من كلام السمعاني ياقوت في معجم الأدباء في ترجمة الخطابي وروى السبكي في الطبقات الجزء الثاني نقلا عن كتاب القواطع في الأصول للسمعاني

(٢) أحد تلاميذ الخطابي ومن أكابر حفاظ الحديث والمصنفين فيه ولد سنة ٣٢١ ، وتوفي ٤٠٥ هـ

الثعالبي بعد مفارقته ، فقد قال فيه :

قلبي رهين بنيسابور عند أخ ... ما مثله حين يستقرى البلاد أخ
له صحائف أخــــلاق مهذبة ... منها التقى والنهى والحلم ينتسخ

وفاته ورثاؤه

أكثر الذين أرخوا وفاة الخطابي يؤرخونها سنة ثمان وثمانين وثلثمائة من غير تعيين يوم أو شهر ، إلا أن الذهبي قال ليست في ربيع الآخر ، والسبكي يقول في ربيع الآخر من دون تعيين يوم ، وابن خلكان يقول كانت وفاته في شهر ربيع الأول

وجاء في معجم الأدباء : نقلت من خط أبي سعيد السمعاني قال نقلت من خط الشيخ ابن عمر توفى الامام أبو سليمان الخطابي ببست في رباط على شاطئ هندمند يوم السبت السادس عشر من شهر ربيع الآخر سنة ست وثمانين وثلثمائة ، ومع اختلافهم في سنة وفاته على ما سبق ذكره فهم متفقون على أنه توفى ببست كما اتفقوا على أنه ولد فيها أيضاً

***

ولما مات الخطابي رثاه تلميذه وصديقه أبو منصور الثعالبي فقال :

انظروا كيف تخمد الأنوار ... انظروا كيف تسقط الأقمار
انظروا هكذا تزول الرواسي ... هكذا في الثرى تغيض البحار

ورثاه أبو بكر عبد الله بن ابراهيم الحنبلي أيضاً فقال :

وقد كان حمداً كاسمه حمد الورى ... شمائل فيها للثناء ممادح
خلائق ما فيها معاب لعائب ... إذا ذكرت يوماً فهن مدائح
تغمده الله الكريم بعفوه ... ورحمته والله عاف وصافح
ولا زال ريحان الالـه وروحه ... قرى روحه ما حن في الأيك صادح

تآليفه :

ليس الخطابي من المكثرين في التأليف ولكنه من المجيدين فيما ألف . فمن تآليفه القيمة :

١ ـ « معالم السنن » في شرح سنن أبي داود[(١)] شرح فيه غريب اللغة وبين وجوه الأحكام التي تؤخذ من الأحاديث الواردة في السنن وذكر أقوال العلماء وآراء الفقهاء بلفظ جزل ، وأسلوب سهل ، وعبارة موجزة ، قال في مقدمته : « ورجوت أن يكون الفقيه إذا ما نظر إلى ما أثبته في هذا الكتاب من معاني الحديث ونهجته من طرق الفقه المتشعبة عنه دعاه ذلك إلى طلب الحديث وتتبع علمه ، وإذا تأمله صاحب الحديث رغبه في الفقه وتعلمه »

(١) طبعه أستاذنا العالم الباحث الشيخ محمد راغب الطباخ في مطبعته العلمية بحلب سنة ١٣٥١ هـ و ١٩٣٢ م معارضاً بعدة نسخ

٢ ـ « غريب الحديث »[(١)] ذكر فيه مالم يذكره أبو عبيد ولا ابن قتيبة في كتابيهما وهو كتاب ممتع مفيد ، في غاية الحسن والبلاغة

(البقية في العدد القادم) برهان الدين محمد الداغستاني

(١) منه نسخة مخطوطة في مكتبة المدرسة الأحمدية بحلب تحت رقم (٢٣٦) ونسخة أخرى في خزانة المرحوم أحمد تيمور باشا تحت رقم (٧٩) لغة ، ثم نسخها سنة ١١٣٠ هـ

٣ - شاعرنا العالمى

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

ترجمته : كان المسلمون حينما ثاروا ثورتهم على بنى مروان ينشدون فى بنى العباس حكما يعيد لهم عهد الخلفاء الراشدين ، ويكون خليفتهم فيه كأحدهم لا يؤثر نفسه بشىء من أمور الدنيا عليهم ، ولا يأخذ لنفسه من أموال الدولة إلا ما يفرضونه له منها ، كما فرضوا لأبى بكر وغيره ، فلم يحقق لهم بنو العباس كل هذا الرجاء ، بل ظهروا بأبهة الملك التى كان يظهر بها بنو مروان ، واستأثروا لأنفسهم بأموال الدولة ، وجعلوها ملكاً لهم ينفقون منها فى مصالح المسلمين ما تجود به أنفسهم ، وما يبقى بعد حاجاتهم ، وحاجات أهل بطانتهم وحاشيتهم ، وكذا أهل الملق من الشعراء والندماء ومن اليهم ، ولم يحققوا للمسلمين من كل ما أملوه فيهم إلا هذين الأمرين المهمين : المساواة بين الشعوب الاسلامية فى حكم الدولة ، و تحضير الدولة الاسلامية بالثقافة العلمية الواسعة التى أحسنوا البلاء فيها

وقد انقسم المسلمون فى شأن هذه الدولة بعد قليل من ظهورها إلى قسمين : فتجافاها أهل الورع منهم وأبوا أن يتولوا أعمالها ، وسار معها جمهور المسلمين فى ذلك السبيل الذى سارت فيه ، واستولى عليهم اليأس من ذلك المثل الأعلى فى الحكم الذى كان على عهد الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم ، ثم أقبلت الدنيا عليهم فانغمسوا فيها أيما انغماس ، وتفننوا فى أنواع التلذذ بها أيما تفنن ، وكادوا ينسون الآخرة كما نسيها من كان قبلهم ، فكانوا فى أشد حاجة إلى شاعر ملهم يوقظهم من تلك الغفلة القاتلة ، ويؤدى فى الشعر رسالته التى يجب أن يؤديها فى كل عصر على الوجه الذى يتطلبها ، وكان لهم ذلك فى شاعرنا أبى العتاهية

ولد أبو العتاهية سنة ثلاثين ومائة من الهجرة قبل قيام الدولة العباسية بسنة أو سنتين ، ونشأ بالكوفة ولكن أصله من عين التمر ، وأبو العتاهية لقبه ، واسمه إسماعيل بن القاسم بن سُوَيد بن كيسان مولى عنزة ، وكان خالد بن الوليد قد سباه مع جماعة صبيان من أهل عين التمر ، فوجه بهم إلى أبى بكر ، وكانوا أربعين غلاماً يتعلمون الانجيل ، ففرقهم فى أهل البلاد والأمصار ، فاعتنقوا الاسلام وأعتقهم مواليهم ، فكان لهم أثر صالح فى العلم والأدب ، ونبغ من أولادهم جماعة كانوا من أكابر رجال العلم والسياسة والحرب ، مثل موسى بن نصير ، ومحمد بن سيرين ، ومحمد بن إسحاق . وكان كيسان جد أبى العتاهية من نصيب عباد بن رفاعة العنزى ، لأنه سمعه حين سأله ابو بكر عن نسبه يذكر له أنه من عنزة ، وكان يكفله فى عين التمر قرابة له منهم ، فاستوهبه عباد من أبى بكر ثم أعتقه فتولى عنزة ؛ وكان بنوه يزعمون أنهم منها ويكرهون من ينسبهم إلى النبط الذين كانوا يسكنون عين التمر ، ولكن الظاهر أن أصلهم منهم ، لأنهم كانوا يحترفون بالكوفة من صنعة الجرار ما كانت تأباه فطرتهم لو كانوا عرباً

وقد نشأ أبو العتاهية بالكوفة بين أسرته يعمل الجرار معهم ، ولم يذكر الرواة أنه اشتغل بالتعليم فى صغره ، ولكن الظاهر من أمره أنه اشتغل بقدر منه كان له عوناً فى الحياة التى آل اليها أخيراً أمره ؛ وكان بالكوفة طائفة من خلعاء الشعراء وأهل المجون والمخنثين ، وناهيك بشاعرها والبة بن الحباب الأسدى وما بلغ إليه فى الخلاعة والعبث ، وهو فى ذلك أستاذ أبى نواس وغيره ، فاتصل أبو العتاهية بتلك الفئة اللاهية ، وأطلق لنفسه فى ذلك عنانها ، فوصل فيه إلى غايته ، وتخنث وحمل زاملة ؛ وأخذ عنهم شعرهم الخليع فى التغزل والمجون وما اليهما ، فنبغ فيه ، واشتهر به أمره ، وكان الاحداث والمتأدبون يأتونه وهو جرّار فينشدهم أشعاره ، فيأخذون ما تكسر من الخزف فيكتبونها فيه

ثم قصد بغداد فى عهد المهدى ليتصل بأمرائها ، ويستفيد بشعره عندهم ، وكان ثالث ثلاثة فتيان شباب أدباء ، ولم يكن لهم ببغداد من يقصدونه ، فنزلوا غرفة بالقرب من الجسر ، وكانوا يبكرون فيجلسون بالمسجد الذى بباب الجسر فى كل غداة ، فمرت بهم يوماً امرأة راكبة ، معها خدم سُودان ، فقالوا من هذه ؟ قالوا خالصة ، فقال أحدهم : قد عشقت خالصة ، وعمل فيها شعراً فأعانوه عليه ، ثم مرت بهم أخرى راكبة ، معها خدم بيضان ،

فقالوا من هذه ؟ قالوا عُتْبَة ، فقال أبو العتاهية : قد عشقت عتبة ؛ ولم يزالوا كذلك إلى أن التأمت لهما أشعار كثيرة فيهما ، فدفع صاحب خالصة بشعره اليها ، ودفع أبو العتاهية بشعره إلى عتبة ، وألحا فى ذلك إلحاحاً شديداً ، فمرة تقبل أشعارهما ، ومرة يطردان ، إلى أن صح عزم الجاريتين على امتحان عاشقيهما بمال على أن يدعا التعرض لهما ، فان قبلا المال كانا مستأكلين ، وإن لم يقبلاه كانا عاشقين ، وكان لهما معهما شأن فى الحالين . فلما كان الغد مرت خالصة فعرض لها صاحبها ، فقال له الخدم اتبعنا فاتبعهم ؛ ثم مرت عتبة فعرض لها أبو العتاهية ، فقال له الخدم اتبعنا فتبعهم ؛ فمضت به الى منزل خليط لها بزّاز ، فلما جلست دعت به فقالت له : يا هذا إنك شاب وأرى لك أدباً ، وأنا حرمة خليفة ، وقد تأنيتك فان أنت كففت وإلا أنهيت ذلك الى أمير المؤمنين ثم لم آمن عليك . فقال لها : فافعلى بأبى أنت وأمى ، فانك إن سفكت دمى أرحتينى ، فأسألك بالله إلا فعلت ذلك إذ لم يكن لى فيك نصيب ، فأما الحبس والحياة ولا أراك فأنت فى حرج من ذاك . فقالت : لاتفعل يا هذا وأبق على نفسك ، وخذ هذه الخمسمائة الدينار واخرج عن هذا البلد . فلما سمع ذكر المال ولى هارباً ، فقالت ردوه ، وألحت عليه فيها فقال : جعلت فداكِ ما أصنع بعَرَض من الدنيا وأنا لا أراكِ ، وإنك لتبطئين يوماً واحداً عن الركوب فتضيق بى الأرض بما رَحُبَت . فزادت له فى ذلك الى ألف دينار ، فجاذبها مجاذبة شديدة ، وقال لها : لو أعطيتنى جميع ما يحويه الخليفة ما كانت لى فيه حاجة ، وأنا لا أراك بعد أن أجد السبيل الى رؤيتك . ثم خرج فجاء الغرفة التى كانوا ينزلونها فاذا صاحبه مورّم الأذنين ، وقد امتحن بمثل محنته ، فلما مدّ يده الى المال صفعوه ، وحلفت خالصة لئن رأته بعد ذلك لتودعنه الحبس ، فاستشار أبا العتاهية فى المقام فقال له : اخرج وإياك أن تقدر عليك

ثم التقتا فأخبرت كل واحدة صاحبتها الخبر ، وأحمدت عتبة أبا العتاهية ، وصح عندها أنه محب محق . فلما كان بعد أيام دعته إليها وقالت له : بحياتى عليك — إن كنت تعزها — إلا أخذت ما يعطيك الخادم فأصلحت به من شأنك ، فقد غمنى سوء حالك ، فامتنع أبو العتاهية من ذلك ؛ فقالت له : ليس هذا مما تظن ، ولكنى لا أحب أن أراك فى هذا الزى ، فقال لها : لو أمكننى أن ترينى فى زى المهدى لفعلت ذلك ، ثم أقسمت عليه فأخذ الصرة فاذا فيها ثلثمائة دينار ، فاكتسى كسوة حسنة ، واشترى حماراً يركبه ، وحسن بها حاله

وهذه الرواية تعطينا أن أبا العتاهية كان صادقاً فى حب عتبة التى شبب بها فى شعره ، وتوله بها فيه إلى أن أقلع عن ذلك فيما سيأتى من نسكه ، وربما يكون ذلك كله حسن حيلة منه ، وهو ما كان يراه فيه ابنه عتاهية ، وقد روى عنه أن أباه إنما أقبل إلى بغداد ليمدح المهدى ، ويجتهد فى الوصول إليه ، فلما تطاولت أيامه أحب أن يشهر نفسه بأمر يصل به إليه ، فلما بصر بعتبة راكبة فى جمع من الخدم ، تتصرف فى حوائج الخلافة تعرض لها ، وأمل أن يكون توله بها هو السبب الموصل إلى حاجته ، وانهمك فى التشبيب والتعرض فى كل مكان لها ، والتفرد بذكرها ، وإظهار شدة عشقها ، وكان أول شعر قاله فيها :

راعنى يازيد صوتُ الغراب ... بحذارى للبين من أحبابى
يا بلائى ويا تقلقل أحشا ... ئى وتعسى لطائر نعّاب
أفصح البينُ بالنعيب وما أف ... صح لى فى نعيبه بالاياب
فاستهلت مدامعى جزعاً منـ ... ـه بدمع ينهل بالتسكاب
ومُنعتُ الرقادَ حتى كأنى ... أرمدُ العين أوكُحلتُ بصاب
قلت للقلب إذطوى وصل سعـ ... ـدى لهواه البعيد بالأنساب
أنت مثل الذى يفر من القط ... ر حذار الندى إلى الميزاب

والذى أرجحه من ذلك رأى عتاهية ، لأنه أدرى بأبيه ، ولأن عتبة لم تصدق فى حبه حتى يصدق فى حبها ، وإنما كانت تتخذه للاعلان عنها لتنافس بذلك أترابها من جوارى المهدى ، وقد هم المهدى يوما بعد اتصاله به أن يدفعها اليه فجزعت وقالت : يا أمير المؤمنين : حرمتى وخدمتى ! أتدفعنى الى رجل قبيح المنظر ، بائع جرار ، ومتكسب بالشعر ؟ فأعفاها منه . ولم يكن أبو العتاهية إلا رجلا تاجراً لا يهمه الحب ، وهو لم يقصد بغداد إلا من أجل المال كما سنبينه بعد ؟

عبد المتعال الصعيدى

كلفت فكرك عسرا

للأستاذ فخرى أبو السعود

ماخلتُ ذا الفكرِ بالتفكيرِ ينتفعُ كلُّ المذاهبِ إنْ قلَّبتَها شَرَعُ[1]
كلٌّ له مذهب فى العيش يُؤْثِرُهُ ولستَ تعلمُ ما الحُسنَى وما البِدَعُ
كلَّفتَ فِكرَكَ عُسراً إن طمحتَ به إلى يقينٍ لديه الريبُ ينقطعُ
يَمُّ الحياةِ يُضِلُّ الفكرَ مُلتطِمٌ مِنْ مَوجِهِ هائلُ الأثباجِ مُندفعُ
تظَلُّ فيه وجوهُ الرأىِ ساهمةً حيرَى مفرَّقةً من حيث تجتمعُ
لَكَمْ تفكَّرتُ فى الدنيا وفى أُمَمٍ تفرَّقُوا فى فِجاجِ الأرضِ واصطرعوا
الخيرُ والشرُّ ما قالوا وما فعلوا والنفعُ والضُّرُّ ما سَنُّوا وما ابتدعوا
ياهل يُراد بهم فى أمرهم رَشَدٌ ؟ أم هل ترى القومَ قد ضلوا بما اتبعوا ؟
فَشَرَّدَ اللُّبَّ تفكيرى وأجهدنى وما اهتديتُ لأمرٍ فيه مُقتنَعُ
وكلما زدْتُ علماً زدْتُ ـ وا أسفى ـ جهلاً ، ولم أدرِ ما آتى وما أدعُ
فرُحتُ أشكو إلى روض الضحى نَصَبِى فضمَّنى منه مُرتادٌ ومُنتجَعُ
ومرَّ بَرْدُ بنانٍ من نسائمِهِ على جبينى فزال الهمُّ والوجَعُ
وقال لى الزهرُ : ذا عطرى نفحتُ به من رام ، ليس على من رام يمتنعُ
وقال لى النهر : ذا مائى النمير به ـ إن رُمتَ مُنتقَعاً ـ للروح منتقَعُ
وقال لى النُّورُ : رَجِّ الحقَّ فى وَضَحى إنَّ الغياهب أنَّى لُحْتُ تنقشعُ
وقال لى الروض: فُزْ بالطيبات ولا تحفل بما قاله قومٌ وما اشترعوا
إن رمتَ حقاً فهذا الحسنُ فى كَنَفِى هو الحقيقةُ لا رَيبٌ ولا خُدَعُ
مجدَّدُ النسجِ موصولُ الحُلى أبدا يطيب فى ظلِّهِ مَشْتًى ومُرتَبَعُ
وليس يُصلحه قوم إذا رَشَدُوا ولن يضيروه ـ إن ضلوا ـ بما صنعوا
يبقى على الدهر مرموقَ السَّنَى بَهِجاً وتنقضى شِيَعٌ فى إثرهم شِيَعُ

فخرى أبو السعود

خواطر فى العلم

للأستاذ محمد الحليوى

العلمُ أصبحَ فى أيامنا صنماً وأصبح الجيل من عُبّادِ ذا الصنمِ
دينٌ جديدٌ بدت لِلعقل آيته فآمن العقل بالآيات والحِكَمِ
عصاهُ بالسحر تُنشى العُدْمَ مُعجزةً وَتُنبِرئُ الصخرةَ الصَّماء من صَمَمِ
وتجعلُ الجوَّ طُرْقاً والأثيرَ سَنًى والنورَ سِحْراً وريحَ اللهِ ذاتَ فمِ
يُريك فى كلِّ آنٍ آيةً عجباً وَيَلْبِسُ الواقعَ المشهودَ بالحُلُمِ
ففى الهَباءةِ روحُ الكَوْنِ شائقةً وفى القُطَيْرةِ آزالٌ مِنَ النُّظُمِ
وذرةُ النور فى إشعاعِها أبدٌ وزهرةُ الحقلِ لا تخلو من الألمِ
كم فيه من رَحمةٍ عمَّت مراحمُها نعم ! وكم فيه من بَلْوَى ومن نِقَمِ
كأنه ربُّ (مانى) ، فى طبيعته تصارعت آيةُ الأنوار والظلمِ

* * *

العلمُ لا يُرتجى للحقِّ يرفعه كلا ولا هو يهدى النفسَ للقُدُسِ
الغربُ فى علمه ساءت خلائقُهُ وبات فى خُلْقه يمشى إلى خَنَسِ[1]
الغربُ ينعم واللَّذاتُ ضاريةٌ والحسُّ يعرم والأفراحُ فى عُرُسِ
والروح قفرٌ فلا إيمان يَعمُرها ولا يقينَ يُفيئُ القلبَ بالقبَسِ
العلمُ هدَّم أوهاماً محبَّبةً كانت تفيئُ لها الأرواحُ فى الغَلَسِ
العلمُ ! هل طَهَّر الأخلاقَ فاحترقتْ بنارِهِ من أصيلِ اللؤمِ والدنَسِ
العلمُ ! هَلْ صَدَّ أقواماً ذوى حرسٍ أن يستطيلوا على قومٍ بلا حرسِ
وهل كفى أهلَهُ شتَّى مذاهبِهم وكيف بات بسرِّ الكَوْنِ فى خرسِ ؟
كفى هُراءً فان البحر يُدهشنا ونحن لمَّا نزلْ فى الساحل اليَبَسِ

تونس محمد الحليوى

(١) شرع : سواء

(١) الخنس : التأخر

من مآسي الفيضان في العراق

الفلاح المنكوب

للأستاذ أنور شاءول

أرأيتَ الحقلَ يُصبي الناظرين؟ ... أسمعتَ الطيرَ حولَ الجدول؟
ذاك يحيي السعدَ في القلبِ الحزين ... وهي تشدو نغماتِ الأملِ

* * *

أنشقتَ الزهرَ قد فاحَ شذاه ... يُترعُ الأرواحَ طيباً مُلهِما
فتُذيعُ الريحُ سِراً قد طواه ... في حناياهُ ولم تفتحْ فَما
أوعى الفكرُ حديثاً قد رواه ... بلبلٌ حرٌّ أطالَ النغما؟
قصةُ الفلاحِ رمزِ البائسين ... قصةٌ تعصرُ دمعَ المُقَلِ
سوف يبقى ذِكرُها في كلِّ حين ... ومكانٍ غيمةً لا تنجلي!

* * *

قد سقى الزرعَ صباحاً ومساء ... تارةً ماءً وطوراً عرقا
رمزُه في السعيِ جِدٌّ وعناء ... مُنذُ ما الشمسُ تحيّي المَشرقا
أسيولُ الغيثِ أم نارُ ذُكاء ... داهمتْه ليس يخشى المُلتقى
مُستعيناً ببناتٍ وبنين ... وبزوجٍ ذاتِ خُلقٍ أمثلِ
أُسرةٌ تحيا بمسفوحِ الجبين ... ترتجي الخيرَ جزاءَ العملِ

* * *

هو ذا الزرع، وما أوفره! ... ينبئُ الفلاحَ بالخيرِ العميم
إن تجلْ طرفاً فأنى تحصره ... أينَ من يمكنُهُ حصرُ النجوم
ناضرِ الخضرةِ؛ ما أزهره! ... يُطرِقُ الرأسَ إذا هبَّ نسيم
فمتى تُشبعُ يا مرعى العيون ... ذهبيَّ اللونِ زاهي المَخمَلِ؟
ومتى حَبُّكَ يُهدي الجائعين ... خُبزةً تُشبعُ ذا الجوفِ الخلي؟

* * *

رقدَ الفلاحُ مقرورَ الفؤاد ... حالماً والسعدُ في أحلامِهِ
يُبصرُ الآتي مُنصاعَ القياد ... ويرى الأيامَ من خُدّامِهِ
لا عناءٌ، لا شقاءٌ، لا سُهاد ... قلبُهُ حُرِّرَ من آلامِهِ
يا لأبناءِ الرزايا البائسين ... يا لمخدوعي الرؤى والأملِ
ما دروا أنّ الليالي في الكمين ... سوف تُصليهم بخطبٍ جللِ!

* * *

دوتِ الآفاقُ ليلاً والقِفار ... بصُراخٍ ردَّدَتْه الصائحات
«قد طغى النهرُ! فيا قومُ البِدار . . .
أنقذوا الأنفسَ . . . صُدّوا النكبات
أنقذوا النسوةَ والولدَ الصغار ... وشيوخَ الحيِّ من قبلِ الفوات..»
جنباتُ الكونِ ضجّت بالرنين ... فكأنَّ الشُّهبَ حطّت من عَلِ
وتوالت صعقاتُ الصاعقين ... يستحثّونَ الخُطى في وجلِ

* * *

وزَهَا الصبحُ وفي طلعتِهِ ... تبسمُ الأنوارُ في الأفقِ البعيد
إنّما الفلاحُ من نكبتِهِ ... يشتكي للهِ ذي البأسِ الشديد
الأسى والحزنُ في نظرتِهِ ... واللظى في صدرِه حامي الوقود
«أين حقلي وحمى كوخي الأمين؟ ... أين زرعي؟ أين زاهي السنبلِ؟
قد حواهُ اللجُّ مسدولَ الجفون ... قبلما لاقى بريقَ المنجلِ!»

* * *

سارَ والأطفالُ نهبٌ للبكاء ... وأنينُ الأمِّ مسموعُ النغم
ودّ لو عادَ قليلاً للوراء ... إنما هيهاتَ إرجاعُ القدم
أينَ يأوي؟ هو ذا قصرُ علاء ... ظاهرُ الرونقِ، ملموسُ النِّعَم
«أيها الساكنُ في القصرِ الحصين»
هتفَ الفلاحُ: «هل من موئلِ؟»
«ليس بيتي ملجأً للشاردين» ... صرخَ الساكنُ في القصرِ العلي

بغداد

أنور شاءول
المحامي

فصول ملخصة من الفلسفة الألمانية

١٠ - تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

فلسفة نيتشه Nietysche

١٨٤٤ - ١٩٠٠

للأستاذ خليل هنداوى

« عملت على إيجاز كتاب « فلسفة نيتشه »
للأستاذ (هنرى ليشتانبرجر) »
(خ . ه)

— ١ —

نيتشه هو ممثل الفكرة الألمانية الجبارة فى تاريخها الحديث كما كان « بسمارك » رجلها الحديدى فى السياسة . فهما وإن اختلفت منازعهما وتباينت الحقول التى غرسا فيها ، فما غرس الاثنان إلا بذور القوة والارادة فى شعب تلقحت دماؤه وأفكاره بمصل القوة والارادة .

هنالك كلمة تسطرها يراعة الفلاسفة والنقاد وتشغل مكاناً من العصر الحديث . هذه الكلمة هى كلمة « الانحطاط الاجتماعى » وفلاسفة الاجتماع لا يرون فى هذا الانحطاط شيئاً سياسياً يمكن اصلاح الفاسد فيه ، أو اعوجاجاً يمكن تقويمه ، بل هو داء عضال قد تأصل فى جسم البشرية وعشى فى لحمها وعظمها ودمها فهو لا يذهب إلا بذهابها ولا يتلاشى إلا بانقراضها . ومن هؤلاء الغالين فى تشاؤمهم « فردريك نيتشه » الذى نازل العالم كله وحده ، وهدم العقائد والتقاليد مستمداً من عقله وقلبه عقائد وتقاليد أسمى منها .

— ٢ —

الشخصية فى نيتشه

إن من الجور أن ننظر فيما ترك نيتشه من تعاليمه « كمذهب محدود » لأن الرجل لم يعمل على أن يؤلف مدرسة فلسفية ، ولم يكن لمثل عقله الوثاب أن يقيد نفسه بقيود ضيقة ؛ وإنما هو الثورة المتدفقة التى لا تعرف نظاماً ولا انتظاما يملك عليها الاضطراب فى اندلاعها ، ويملك على عقله التناقض حتى فى الفكرة الواحدة . وإنما الأجدر بنا أن ندرس من فلسفته « الناحية الفردية والشخصية » وهى أبرز نواحى فلسفته جلاء وقوة ، لأنها ابنة طبع خاص ، وهوى صادق مستقيم

إن فلسفة « نيتشه » فلسفة تتجلى فيها « الذاتية » المنقطعة عن الناس . لا ماذا يقول لك شعورك ؟ يجب أن تكون كما أنت! فينبغى للانسان أن يعرف نفسه وجسده وحواسه ، وأن يعنى بحياته كما تريد ذاته وشخصيته ، وأن يغتنم من الفرص أحسن ما يغتنم ، ومن المصادفات ما يحقق مطامعه ، ويقرب غايته . وأن يصحح - بقدر ما يستطيع - هذه الطبيعة بالفن ، ليتسنى له أن يظهر ذاته ويمط حياته . كلٌ يغترف من هذا المذهب بحسب غريزته وطبيعته ؛ إذ لا قواعد ولا أساليب محدودة تصنع لكل انسان نفسه . فمذهب « عدم المساواة » بين الناس هو من مبادىء نيتشه . إذ ينبغى لكل إنسان أن يخلق بنفسه حقيقته وهدفه وفضيلته ؛ فما كان صالحاً للواحد قد يكون ضاراً للآخر . وما كان ضاراً للواحد يكون صالحاً للآخر . وكل ما يستطيع المؤرخ أن يصنعه هو أن يقص تاريخ نفسه ، والطريقة التى اكتشف بها نفسه ، والايمان الذى وجد به راحة نفسه . وأن يكون المثال الذى يقتدى به معاصروه للوصول إلى عوالم أنفسهم . . . ولكنه ليس له بعد هذا كله من مذهب أو من طريق . لأنه لا يود أن يكون راعى قطيع خاضع ذليل

(يقول « زرادشت » لرفاقه الامناء : « إننى وحدى أذهب يارفاقى ... وأنتم وحدكم اذهبوا ... أنا أريد ذلك

فى الحقيقة أعطيكم هذه النصيحة . ابتعدوا عنى كثيراً ، واحموا أنفسكم من زرادشت ... وخير لكم أن تخجلوا منه

أنتم تقولون : إنكم مؤمنون به ولكن ماذا يهمه إيمانكم ؟ أنتم المؤمنون به ، ولكن ماذا يهمه كل المؤمنين ؟

أنتم لم تفتشوا بعد عن أنفسكم ، ولذلك وجدتمونى . هكذا يقول كل المؤمنين ، ولهذا أرى أن كل إيمان هو شىء ضئيل . والآن آمركم بأن تفقدونى لتجدوا أنفسكم ، وعندما تكفرون بى أعود اليكم فى تلك الساعة ... »)

يتميز نيتشه من أصحاب المذاهب الفلسفية بأنه لا يخاطب العقل وحده كما يفعلون ، بل يخاطب الانسان بأسره عقلا وجسداً . فما التفكير عنده والعاطفة إلا أهواء تعبث بها قوة خفية كامنة تصرفها كما تشاء إلى أين تشاء . « إن وراء أهوائك وعواطفك - ياأخى - سيداً « قادراً » وعاقلاً مجهولاً يسمى « الذات » يسكن جسدك ، وإنما هو جسدك ، فالجسد بما يضم من أعضاء وبما

يحتوى على إرادة القوة ، ذا ما يدعوه نيتشه « العقـل الـكبير للانسان » وان العقل الحقيقى ـ وحده ـ ناقص سريع العطب . تستعين به الذات على بسط قوتها ونفوذها . فاذا أراد انسان أن يؤثر فى آخر فبهذه الذات الخفية وحدها يمكنه أن يؤثر . وكل شىء سواها باطل . ومن اللغو أن تعرض مذهباً فلسفياً بالطرق المنطقية ، أو تحدد العقل بالمقاييس التى اخترعها العقل . وإنما هذه الاحكام المنظمة « مجموعة التقاليد المقدسة » محددة الخير والشر ، والجميل والقبيح ، هى أحكام موضوعة لا ظل لها من حقيقة ، ولـكن الانسان هو واضعها ومقدسها . وخيرهم من ساعد على نشر « ذاته » وشخصيته . فالـكتاب ـ مثلا ـ ان هو إلا فعل يقوم بقيـام شخصية صاحبه ، وبكيانه الـكامل . فهو ليس بفكر فحسب بل هو نبى ... لا يقول للناس « أنا أحمل اليكم الحقيقة العالمية غير المتعلقة بذاتى . ولـكنه يقول « ها أنا عاق من إيمان وحقيقة وخطأ ، كما أنا . أقول (نعم) للـكون ، لـكل أفراحه وآلامه . فانظروا إن كنتم تجدون أيضاً سعادتكم فى هذه الآراء التى وجدت فيها سعادتى » ، وبينا يروح غيره من الفلاسفة متباهين « بانسلاخهم عن شخصيتهم نرى نيتشه يجعل من شخصيته مدار فلسفته .. فلسفته فى الحقيقة هى تاريخ نفسـه . وزرادشت النبى الذى كتب عنه نيتشه بلهجة شعرية مؤثرة هو ذات نيتشه بما يجول فى ذاته من رغائب وآمال وأحلام ومن لم يفهم شخصيته لا يفهم فلسفته

— ٣ —

صفحة من حياته الاولى

ولد نيتشه عام ١٨٤٤ من أسرة يعتقد بأنها أسرة بولونيـة قديمة ألجأها إلى ألمانيا ما ألجأها . نراه فى حداثته مثال السيطرة والاعتماد على الذات وقهر الآلام الجسدية . وقد كان كثير الوفاء والاحترام لأصـدقائه برغم ميله الطبيعى إلى العزلة ، صارماً فى معاملته . لا يميل إلا إلى من يلائم هواه ويوافق مزاجه ولا ينفر إلا ممن طفت الرداءة والشراسة على خلقه . صارم فى حديثه ، جاد فى مزحه . لا يهوى المزح الـكاذب مهما كان عنصره . لأن خروج الرجل عن طبيعته فى الحياة الخاصة يخرجه عنها ما يخرجه فى الحيــــاة العامة . لا يطيب له مجلس العوام ولا الدخول فى حلقاتهم . وإنما هو فى حياته كما تمثله لنا كتاباته إرادة فولاذية وسيطرة بعيدة . وكأنه جُبل من طينة غير الطينة البشرية . لا يهوى الضعف ولا الاستكانة ولا يميل إلى الاستسلام . ولعل الـكاتب الداعركى « ابسن » قد رسم شخصية نيتشه فى روايته التمثيلية « الراعى براند » الذى كان رجل كل شىء أو لا شىء . يمشى فى طريقه لا يصده شىء ولا يقفه حائل . لا يشفق على نفسه ولا على غيره . يضحى ـ بدون وجل ـ بسعادته فى سبيل تتميم إرادته ؛ يمشى ولا يتسرب اليـه الضعف ، دامى القدم ، محطم القلب . مخترقا سبيله ، بطلاً أبسل فى كل مايخترق . ولا يزال هذا دأبه حتى يريحه الجنون ، وترحمه المنون » مثل نيتشه مثل هذا الراعى رجل كل شىء أو رجل لاشىء . يذهب بارادته لا يصده صادٌ ولا يمنعه مانع . وقد تـكون هذه البطولة ـ عند نيتشه ـ أحد عوامل سروره . كما يكون الاستشهاد عنـد من يقضى فى سبيل وطنه . على أن هنالك « نفوساً شاذة » فى هـذا المجتمع ، ممن يقدر لها أن تحارب التعالم وهى تعلم أن فى هـذه الحرب شقاءها وبلاءها ، تراها مضطرة بطبيعة حالها إلى أن تكون ذات قلب شـديد وارادة فولاذية ، تستعين بها على اقتحام المصاعب ومثل هذه البطولة بطولة المجاهد الذى تتصلب إرادته ، وتتحجر عزيمته

وهو ـ خلال ذلك ـ مفتقر إلى صداقة تسعفه وتساعده ، ومن عسى يتخذ صديقاً من بين هذه « المخاليق الناقصة » ولـكنه اتخذ أصدقاء يقبل بكمالهم ويؤمن بمثلهم ويغضى طرفه عن نقصهم ، وقد صور فى مطلع حياته بعض صور أصدقائه تامة كاملة كأنها المثل الأعلى ، وبهذا وجد فى « شوبنهاور » أسمى مثل للفلسفة . وفى « ريشارد فاجنر » أسمى مثل للفن . وإذا هو وجد فى صحبة هؤلاء راحة نفسية فانه وجد فى نهاية هذه الصحبة ألماً طالما أمضه وعذبه . ومبعث هذا الألم أن الفيلسوف ظل ساعياً دائباً وراء الانسان الـكامل الذى يمثله له مثله الأعلى . فـكان ـ لذلك ـ فى نزاع مستمر مع نفسه ، وقد كلفته هذه الصداقة كثيراً ، لأن مثله الأعلى يقضى عليه بأن يضحى بها . فجرب كثيراً أن يغض الطرف عن نقص صديقيه ، وألا ينظر فيهما إلا مثلاً أعلى للكمال الانسانى ، ولـكن إرادته غلبت فى النهاية على الصداقة . فتذوق من الصداقة مرارتها كما تذوق حلاوتها . . . وهكذا آب إلى عزلته لأن طبيعته تدعوه اليها

(يتبع) خليل هنداوى

القصص

من أساطير الإغريق

بلوتو يخطف پرسفونيه (١)

أسطورة الربيع

للأستاذ دريني خشبة

كانت ديميتير الطيبة (٢) ، ربة الخيرات ومغدقة البركات ؛ الرحيمة البارة ؛ مُلوِّنة الزهر ، ومُنضجة الثمر ؛ واهبة الحقول خضرتها والبساتين نضرتها . . . كانت ديميتير الطيبة تسكن في قصر منيف يشرف على سهل إنا Enna ، أروع سهول جزيرة صقلية جمالاً وأعذبها ماء وأطيبها هواءً ، وكانت ، حين يتنفَّس الصبح ، تلبس تاجها اليانع الذي ضفرته من سنابل القمح ، وتتناول باقة من زهرات الخشخاش ريانة ، وتقبض بيمينها على صَوْلجانها العتيد ، المرصع بالزبرجد ، ثم تستوى في عربتها المطهمة فتنطلق بها الصافنات الجياد تجوب أنحاء الأرض ، وتمر بكل مزرعة ، وتقف عند كل كرمة ؛ تهب القمح من نفحاتها فيربو ، والثمر من بركاتها فيزكو ، والينع من أنفاسها فيطيب . ثم تعود إذ يجنُّ الليل ، فتهرع إليها ابنتها الصغيرة پرسفونيه فرحة متهللة ، لافة ذراعيها الجميلتين حول ساقىْ أمها ، كأنما تبثهما ما في قلبها الصغير من لوعة وغليل !

وكانت الفتاة — پرسفونيه — تقضى سحابة النهار ، إلى أن تؤوب أمها ، في سرب من أترابها ، بنات الغاب الحسان ؛ فيظلَلن يقطفن الزهر ، ويجمعن الرياحين ، ثم تنشب بينهن معركة حامية من معارك الطفولة ، وملحمةٌ صاخبةٌ من ملاحم الصبى ؛ فيتراشقن بالورد ، ويترامين بالزنبق الغض ، ويتضاربن بأفواف السوسن ... وهن فيما بين هذا وذاك يقرقمن بالضحك ، ويتبادلن النِّكات ، ويتغنين الأغاريد ؛ فتستجيب الغابة لهن ، وتترقرق الغدران من تحتهن ، وتهدل الأطيار من فوقهن ، وتمتلىء الدنيا حولهن نشوة وحبوراً

وكان بلوتو : إله الموتى ، ورب الدار الآخرة ؛ قد ملَّ هذا السكون المخيم في مملكته تحت الأرض : هيدز ، وسئم هذه الأشباح التي تطيف به هنا وهناك في الظلمات المحيطة به ، وأرواح الموتى تئن وتتوجع في كل مكان من ملكه القابض الحزين ؛ فأسرج عربته الضخمة ، وألهب جيادها بسياطه القاسية ، فانطلقت تعدو به إلى . . . الدار الأولى . . . هذه الحياة الدنيا ! !



هيدز بلوتو

(١ — ٢) پرسفونيه اليونانية هي بروزربين الرومانية ، ربة الربيع . وهي بنت ديميتير ربة القمح والخصب ، ويسميها الرومان سيريز Cérès . وكان هؤلاء يقدسونها ويقدمون لها القرابين من الخنازير خاصة في عيدها العظيم الذي كانوا يسمونه سيرياليا Cerealia . وكانت لوائح مجلس الشيوخ الروماني تحفظ عادة في معبد سيريز . وقد اشتقوا من اسمها اللفظة Cereals للحبوب

خرج بلوتو يروّح عن نفسه ، ويَنْشَقُ هذا النسيم الحلو الذى يغمر ملكوت أخيه زيوس ، ويروّى روحه الظامئة بالتفرج على عرائس الماء وبنات الغاب ، إذْ أَبَيْن جميعاً أن يشاركنه ملكه الرحيب ، ورفضنَ التزوج منه ، برغم ماأغراهن به من اللآلىء واليواقيت

وفيما هو ينهب الأرض بعربته ، إذا به يسمع فى غَيْضَةٍ قريبة ، ضحكات مُرنَّة ، وأصواتاً موسيقية مُتْقنة ، وأحاديث كأنها دنانير من ذهب فى كف صَيْزفىٍّ حذِق ! فساقه الفضول إلى استكشاف أولئك الغيد اللائى يتضاحكن هكذا ، كأنما يترنّمنَ بالشدو ، ويُرجِّعْنَ بالغناء ! فَفَرَّق العَسَاليج التى كانت تحجبهن ، فرأى البدور البيض يتلاعَبْن على الحشيش الأخضر ، كأنهن نغمات حلوة تنطلق من أوتار أرفيوس !

وجُن جنون بلوتو ! . . . . وأقسم ليخطفن هــذه الفتاة الخِدلَّجة المشوقة ، التى تُدِل على الجميع كأنها ڤينوس فى دولة الحب ، أوديانا تخطر بين أماليد !

« إلام أظل فى هــذا الديجور الحالك وحدى ؟! وحتام أقاسى منفاى السحيق من غير صديق أو رفيق ؟! وماقيمة ملكى الشاسع ، وأنهارى الفائرة بالحمم ، مادمت لا سمير لى ولامؤنس ، إلا زبانيتى وكلابى ؟ والاشارون[(١)] المسْخ الكئيب؟

لقد مللت ! ولا بدلى من هذه الكاعب الحسناء ، والغادة الهيفاء !

إن لها كَفَاً رقيقاً . . . . وإنها لتتثنى كالغصن ، وتخطو كالقطاة !

يا للثديين !

مالها بارزتين هكذا ؟ أتطلبان حضناً قوياً كحضنى ؟ أم يملؤهما لبن الآلهة ، ورحيق السموات ؟!

يا للفخذين الملتفّتين المتلتلتين ! !

إنهما مترعتان باللذة ، فياضتان بالاغراء والترغيب ! مالهما تنفجان شهوةً هكذا ؟!

وهاتان حَمَاتا[(٢)] الساقين ! ويلى عليهما وويلى منهما ! !

(١) شارون حارس بوابة الجحيم وتوتى أنهارها

(٢) حماة الساق هى ما يطلق العامة عليه بطن الرجل

إنهما حماتان خبيثتان كأبرع ماتنحت يدا فنان ! إنهما تمتلئان لذاذةً ، وتطلقان رُقى السحر فى قلوب الناظرين !

كُوِّرتا تكويراً خفيفاً من فوق ، وانعقد دهاء الفتنة عند التفاف العضل ، فأفعمهما رغبةً واشتهاءً ! !

وقدماها ! !

يا للكعبين المستديرين ، والجنة النائمة فيهما ! !

والذراعين الناعمتين !

والظهر العاجى الناصع !

والشعر الذهبى الذى يداعبه النسيم كأنه خُصْلةٌ من ظلال الخلد !

ويلى !

أنا لا أرى إلا هذه الأعضاء السابيــة ، وأغفل عن هذه الابتسامة التى ترِفُّ حول الفم ! !

إنها أجمل من زهرة التفاح فى أوائل شهر مايو ، وأرق من بتلات أزهار اللوز فى شهر ابريل ! !

تَلَمَّظْ يا فمى فانك ظمىءٌ إلى قبلةٍ تطبعها على هاتين الشفتين الأقحوانيتين !

وسمع إحدى الفتيات تناديها : « پرسفونيــه ! أنظرى ! هالكِ بنفسجةً حلوة ! »

فتحدث إلى نفسه :

« پرسفونيه !

هذه عروس الربيع إذن ! ابنة ديميتير من أخى زيوس !

لقد كبرت وترعرعت ، ونهدت ؛ وطابت فى جسمها البض ثمرة الحياة ! !

اغفر لى يا أبى سأترن[(١)] ! سامحينى يا رها ![(٢)]

سأخطفها ! سأجلسها بجانبى على عرش هيدز ! ستصبح مليكةَ دار الموتى ! ستنقشع ظلمات ملكوتى بوجهها المشرق الجميل لن أشعر بشقوة ، ولن أحسَّ خباءً فى ملكى ! ! إنها

(١) تزاوجت السماء (أورانوس) والأرض (جى) فأعقبت آلهة كثيرة منها ساترن الذى أعقب بدوره الآلهة زيوس رب الأولب وبلوتو رب الموتى وهستيا رب النار المقدسة وديميتير وحيرا ... الخ ومن أشهر أبنائه بوسيدون رب البحار

(٢) رها زوجة ساترن وأخته

ستكون جوهرة التاج ، وفتنة العرش ، وستسجد الأرواح تحت قدميها المعبودتين ! !

سأترك لها أن تنفر وتثيب ، وسأدع لها مقاليد السُّفل تصنع فيه ما تشاء ! »

***

ثم ألهب جياده فانطلقت نحو الفتيات ، ولشد ما تَفزّعن إذ لمحن وجهه الأغبر ، يتدلى عليه شعره الأشعث ؛ والظلال المظلمة تتخايل فوق جسمه الجبار كالسمادير !

ولقد كان كلبه سير بيروس ، ذو الرؤوس الثلاثة ، يلقى الرعب فى القلوب !



اختطاف بلوتو لبرسفونيه

وفر الحسان مذعورات .... إلا برسفونيه ، فقد قبض بلوتو على ذراعها الرَّخْصة ، وجذبها اليه فى العربة ، وذهب يسابق الريح ويلاحق البرق ، حتى اعترضه ماء نافورة أخذ عليه سبيله . وسرعان ما فار الماء كالتنور ، وصار يغلى كالحميم الآن ، حتى خشى بلوتو الجبار أن يعبره ، وأوجس ، إن هو انثنى يبحث عن طريق آخر ، أن يضيع الوقت ، وتفلت الفرصة ، وتروح ديميتير تفتقد ابنتها حتى تستنقذها من يديه . فتناول صولجانه الهائل ، وضرب به الأرض فرجفت وزُلزلت ، وانشقت عن أخدود كبير بعيد الغور . . .

وكانت برسفونيه قد أُفيقت من هلعها ، فلما رأت النافورة تغلى وتصطخب ، أدركت أن إحدى عرائس الماء قد عرفت من أمرها كل شىء ، وأنها قد تستطيع أن تؤدى لها خدمة فى ذلك المأزق الحرج ، فحلت (برسفونيه) زُنّارها الحريرىّ الأبيض ، وألقت به عند ضفاف النافورة عسى أن يصل يوماً الى أمها عن طريق هذه العروس ، فتعلم أين هى ، وماذا تم من أمرها

وانطلق بلوتو فى ظلام الأخدود حتى وصل منه الى مملكته .. هيدز ! فاستوى على عرشه مثلوج الصدر خفاق الفؤاد !

ثم طفق يترضى برسفونيه بشتى الوسائل ، وهى ما تزداد إلا شِماساً ونفوراً . . . طاف بها أرجاء مملكته الشاسعة ، وأراها شطئان ستيكس وأشيرون وليثْ ، وسائر أنهار الجحيم ؛ ثم خاض بها وادى الأفاعى والعقارب ، ومدينة الزنابير واليعاسيب ، والدرك الأسفل من النار حيث يأوى المنافقون والكذابون ، وحديقة الخونة واللصوص ذات الأشجار من لظى ولهب . . . ولم يفقه المُغَفَّل أنه كان يضاعف فزعها أضعافاً مضاعفة كلما مر بها على منظر جديد من ملكه البغيض ! !

***

وعادت ديميتير فى المساء ، ولكن برسفونيه لم تهرع لاقائها كعادتها ؛ فحسبتها نائمة . . . بَيْد أنها لم تجدها فى مخدعها ، فافتقدتها فى جميع الغرفات ، ولكن عبثاً حاولت أن تقف لها على أثر ! فاضطربت نفسها بالوساوس ، وخرجت تبحث عنها فى الحديقة ، فلم تجدها كذلك !

ريعت الأم وارتعدت فرائصها ، وانطلقت تعدو وهى تصيح كالمجنونة :

« برسفونيه ! برسفونيه ! أين أنت يا برسفونيه ! » ولكن لسان الصدى - إيخو - هو وحده الذى كان يردد نداءها . . .

ووصلت إلى ابن أخيها هيفيستيوس [1] إله النار فأعارها شعلة عظيمة تنير لها ظلمات العالم ، ودياجير الليل ، عسى أن تهتدى إلى برسفونيه

جاست خلال الغابات ، واخترقت الأودية ، وفتشت الشطوط ، ونفذت إلى أعماق الكهوف ، وجالت فى مهاوى الجبال ، ورقت إلى شعاف الآكام . . . وبحثت عنها فى جميع الآفاق . . . فلم تعثر بها ! !

استعانت بالآلهة ، واستنجدت بعرائس البحار ، ولكن جهودها ضاعت عبثاً . . .

وجلست ديميتير كاسفة البال ملتاعة القلب ، تملو جبينها

(١) هو فلكان الرومانى

عبوسة قمطرية ، وتنوء بروحها آلام وأشجان . . . وأضربت عن الطعام ، وآلت لا ينضر حقل ولا يذرّ نبات ، ولا تثمر شجرة ، ما دامت ابنتها نائية عنها . ! فجفت السهول ، وييست سوق الحنطة قبل أن تؤتى أكلها ، وخرفت البساتين دون الثمر ، فعجف الناس ، وضمرت بهيمة الأرض ، ونشر الجوع ألوية الخراب في العالمين ! !

وانصرف الناس يصلون لزيوس ، ويضرعون لديميتير ، ولكن الحزن صرفها عنهم ، فلم تسمع لصلاتهم ولم تلبِّ نداءهم . . .

***

وفيما كانت تجوب القفار ، وتطوى المهامه البيد ، إذا بها تصل إلى النافورة التي ألفت عندها پرسفونيه بزنارها

وإنها لتجلس عند حفافيها تفكر في أعز البنات ، إذا بعروس الماء أريثوذا ؛ التي لمحت پلوتو يخطف پرسفونيه ، والتي أهاجت النافورة لتقطع عليه سبيله ، تظهر من الماء فجأة لترى من هذه الجالسة عند دارتها تئن وتتوجع ؛ وتعلم أنها الربة ديميتير وأم الفتاة ، فتتحدث إليها قائلة : « ديميتير ! عزيز علينا أن تجزعى هكذا ؟! طيبى نفساً وقرى عينا ، فان پلوتو رب هيدز هو الذى خطف پرسفونيه ! وهاك زنارها شاهدى على ذلك ! ولقد تبعتها إلى الدار الآخرة أحسب أنى أستطيع أن أؤدى لها يدا أو معونة ولكن الإله القاسى أغرى بى زبانيته ، فانطلقت مذعورة من اللعين ألفيوس . . . . . وعليك أن تخلصى الفتاة فانها لا تذوق طعاماً ، ويكاد الحزن يصعقها برغم أنها أصبحت مليكة دار الفناء . . . . ! »



ديميتير تعلم[ ] نبأ ابنتها من عروس الماء

وتناولت ديميتير زنار ابنتها فعرفته ، ثم طفقت تلقيه على عينيها وصدرها . . .ساكبة دموعها الغوالى !

وقصدت من فورها إلى زيوس فحدثته بما قالت عروس الماء أريثوذا ، وأقسمت لديه ، إن لم يأمر أخاه برد پرسفونيه ، لتهلكن عباده جوعاً ، ولتجعلن وجه الأرض فدفداً يبابا . . . لا تسمن بزرع ، ولا تروى بضرع ! !

فتأثر زيوس من قولها ، وابتسم ابتسامة حزينة ، ثم قال : « لا بأس من عودة پرسفونيه إذن . . . . ولكن ! على شريطة ألا تكون قد ذاقت طعاماً في هيدز ، مملكة أخى ! فانها ، إن كانت قد فعلت ، لا تصلح للحياة في هذا الدار الأولى ! »

ولسوء الحظ ، كانت پرسفونيه ، بعد امتناعها عن ذوق شىء من طعام هيدز طوال هذه الأشهر ، قد أكلت في نفس ذلك اليوم الذى وعد فيه زيوس بعودتها إلى الدنيا ست حبات من الرمان فحسب ! فلما علم زيوس بذلك ، عدَّل حكمه ، فقضى أن تلبث پرسفونيه في هيدز عند شقيقه پلوتو ستة أشهر من كل سنة ، أى شهرا بكل حبة مما أكلت !! وتعود إلى أمها فتلبث معها ستةً أخرى ؛ فيعود بعودها النماء إلى الزروع ، والازدهار إلى الحدائق ، والشِّبع والثروة إلى الناس ، ويكون عودها ربيع الحياة وبهجة الأرض

عاشت پرسفونيه ربة الربيع ! ولا طال عن الناس مغيبها في هيدز . . ! عند الشرير پلوتو . . . . الذى حرم الحياة من أن تكون ربيعاً كلها ! !

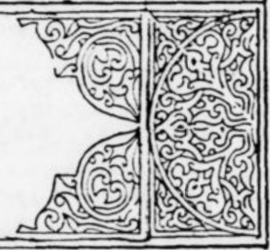
دريني خشبة

الحرب واقعة

الحرب واقعة ولا بد من الحرب عاجلاً أو آجلاً فأوربا فوق بركان ، يعلم الله فى أى وقت نسمع الانفجار والنفير العام

أما نحن العرب فالحرب دائمة بيننا ونحن أبناء الحرب وخلقنا للحرب نحمها فى سبيل العلم والفضيلة ونحارب الجهل فى أقطارنا الشرقية ومدافعنا مطابعنا وسيوفنا أقلامنا وحصوننا مكاتبنا حتى يعلم الغرب أننا نعيد مجد أسلافنا

صاحب مكتبة العرب
بالفجالة بمصر



البريد الأدبي



عيد الأكاديمية الفرنسية

سبق أن تحدثنا عن الظروف التى نشأت فيها الأكاديمية الفرنسية منذ ثلاثة قرون فى عهد لويس الثالث عشر ووزيره الكردينال ريشليو، وعما تعتزمه الحكومة الفرنسية والأكاديمية من احياء هذا العيد والاحتفال به. وقد صدر أخيراً أول بيان رسمى عن برنامج هذا الاحتفال؛ وسيبدأ تنفيذه منذ ١٧ يونيه القادم؛ ففى هـــذا اليوم يقام قداس رسمى فى كنيسة جامعة السوربون؛ ويفتتح معرض الأكاديمية فى المكتبة الوطنية؛ ويستقبل رئيس الجمهورية أعضاء الأكاديمية؛ وفى اليوم الثانى (يوم ١٨)، تعقد جلسة رسمية للأكاديمية فى قصر اللوفر فى بهو «الكاريانيد»، وتلقى الخطب، وتقام حفلة تمثيلية، ثم تقام مأدبة عشاء يعقبها استقبال فى دار البلدية. وفى يوم ١٩، تقام مأدبة للأكاديميين فى حدائق شانتيلى، ويزار متحف كوندى؛ وفى يوم ٢٠ منه تعقد الأكاديمية جلسة رسمية فى دارها «تحت القبة»؛ ثم تولم فى المساء وليمة رسمية كبرى. هـذا وستصدر الأكاديمية بهذه المناسبة كتاباً ذهبياً يشترك فيه كل عضو بكتابة فصل من فصوله، وستقدم نسخة من القاموس الجديد فى جلد فخم إلى رئيس الجمهورية «وهو النصير الرسمى» للأكاديمية

ذكرى ألفرد دى موسيه

عنيت جمعية أصدقاء الشاعر الأشهر ألفرد دى موسيه باقامة معرض لكتبه ورسائله وآثاره فى السابع من مايو الجارى، وذلك لمناســـبة مرور مائة عام على نظمه «ليالى مايو»، وأقيم هذا المعرض فى نفس المنزل الذى كان يعيش فيه دى موسيه حين ألف هذا الكتاب وهو يقع فى شارع جرنيل رقم ٥٩. وقد رأت جمعية أصدقاء الشاعر بهذه المناسبة أيضاً أن تصدر كتاباً يحتوى على طائفة من الوثائق والرسائل التى تتعلق بحياة الشاعر ولم تنشر بعد

الفكرة الاشتراكية — شرح جديد لها

صدر أخيراً كتاب عنوانه «الفكرة الاشتراكية» بقلم العلامة الاقتصادى البلجيكى هنرى دى مان أحد وزراء بلجيكا اليوم. ولهذا الكتاب أهمية خاصة من الوجهة الاقتصادية والعملية لأن مؤلفه يشترك اليوم فى الحكم مع وزارة مسيو فان زيلند التى تحكم البلجيك على قواعد اقتصادية. ونظرية دى مان فى الاشتراكية هى أنه يجب التفريق بين المركسية وبين المركسيين (والمركسية هى الاشتراكية طبقاً لمبادىء كارل ماركس)، كما أنه يجب التفريق بين المعارك الحزبية وبين العمل لتغيير المجتمع. وما هى الاشتراكية؟ هى أن يسحق النظام الرأسمالى؟ يجيب هنرى دى مان أن نعم وأن لا، ذلك أن الغاية هى أن نجعل الانسان ينعم بقسط أوفر من السعادة، وذلك بتحسين الانتاج، وأن نقلل جهد الاستطاعة من تبديد الجهود البشرية فى العمل، وأن نقسم ثمرات الانتاج بطرق أكثر عدالة؛ ومن أجل هذا يرى دى مان أنه يجب تغيير الوسائل الاقتصادية والاجتماعية التى يقوم عليها المجتمع الحاضر، وهـذه مسألة فى الواقع يكاد يتفق عليها العالم؛ وما يقع اليوم فى إيطاليا الفاشستية، وألمانيا الهتلرية، وروسيا السوفيتية، وأمريكا فى عهد روزفلت إنما هى محاولات من هذا النوع وفى سبيل نفس الغاية. كذلك تسير الأمم القديمة الحرة إلى تحقيق هذا المثل وإن كانت تسير بطيئة كسير الشيوخ

ويقول مسيو دى مان إن المسألة كلها تتوقف على الوسائل التى تكفل النجاح. ومن رأيه أن الثورة الروسية كانت مخطئة حينما أرادت أن تفهم العالم أن الثورة تنجح بالعنف والسفك، والواقع أن «المركسية» هى التى هزمت سنة ١٩١٧ وليست الرأسمالية، ولم تهزم الرأسمالية إلا فيما بعـد، حين بدىء بتطبيق الوسائل والنظريات الاقتصادية الجديدة. بيد أن مسيو دى مان يرى أن أنصار فكرة الاصلاح لقوا نفس الفشل الذى لقيه

أنصار الوسائل الثورية ؛ فنى ألمانيا ، وفى إيطاليا وفى غيرهما من الأمم الغربية قد فشلوا ، إما فى الوصول إلى الحكم أو فى وسائل العمل حين الوصول إلى الحكم كما حدث فى فرنسا ، والسبب فى ذلك هو أنه فى ظل البرلمان وهو نظام رأسمالى ، لا تملك الدولة إلا قوة محدودة ، ولا يتم النصر إلا إذا كان العمل مباشراً سريعاً لا يحد منه شيء

مارك توين لمناسبة عيده المئوى

يحتفل الدوائر الأدبية الأمريكية بذكرى العيد المئوى لمولد الكاتب القصصى الفكه « مارك توين » الذى يعتبر أمير الدعابة والفكاهة فى الأدب الأمريكى . ويجب أن نعرف بادىء بدء أن «مارك توين» ليس هو اسم الكاتب الحقيقى ، وإنما هو اسمه القلمى ؛ وأما اسمه فهو صامويل لانجهورن كليمنس ؛ ولد منذ مائة عام (سنة ١٨٣٥) فى فلوريدا من أعمال ميسورى (بالولايات المتحدة) من أبوين فقيرين ، وتلقى تربية مدرسية عادية فى هذه المدينة ، واضطر منذ حداثته أن يحترف أعمال الطباعة ليكسب قوته ، واشتغل بهذه الحرفة مدى حين فى سان لوى وفى نيويورك وفى غيرها من العواصم . وفى سنة ١٨٥١ ، حينما بلغ السادسة عشرة ، ترك أعمال الطباعة واشتغل بحاراً نوتياً فى قارب بخارى يعمل فى نهر المسيسبى ، وفى أثناء عمله فى النهر راقت له صيحة بحرية مما يستعمل حين سبر أغوار الماء : «مارك توين» ، فاتخذها فيما بعد اسما رمزياً للتوقيع على كتاباته . وقد أثارت حياة النهر خياله ، وأمدته بطائفة من التأملات والملاحظات اتخذها فيما بعد مادة لبعض صوره وأقاصيصه ، ولما نشبت الحرب الأهلية الأمريكية ، كان «مارك توين» فى نحو السادسة والعشرين من عمره ، فترك حياة النهر ، وذهب الى ولاية نيفادا واشتغل بالصحافة ، وتولى تحرير جريدة « انتربرايز » فى فرجينيا سيتى . واشتغل فى نفس الوقت بهندسة المناجم والقاء المحاضرات . وفى سنة ١٨٦٧ أصدر أول كتبه محتوياً على عدة أقاصيص وصور فكاهيـــة بعنوان « الضفدعة الوثابة » وغيرها ، فلفت الأنظار بطرافته وخفة روحه وفكاهته الفياضة ، وكان نجاحاً عظيما . وربح مارك توين من كتابه الأول مبلغاً حسناً أنفقه على رحلة الى أوربا ، طاف خلالها ثغور البحر الأبيض ، واتخذها مادة لكتاب أصدره سنة ١٨٦٩ بعنوان « الأبرياء فى الخارج » ، فزاد هذا الكتاب فى شهرته الأدبية وبالأخص فى شهرته كأستاذ للفكاهة والأدب المرح . وفى هذا العام تولى تحرير جريدة جديدة هى « اكسبريس بافالو » ، واستمر فى تحريرها مدى عامين . وفى سنة ١٨٧٢ ، أصدر كتابه « كيف نخشن » وفيه صور وملاحظات عن الحياة فى الولايات الغربية ، وفى العام التالى أصدر كتاباً بالاشتراك مع صديقه وارنر عنوانه « المهد المذهب » ، وظهرت له بعد ذلك تباعاً عدة قصص ومجموعات نقدية وقصصية نذكر منها « سائل فى الخارج » (١٨٨٠) ، « الأمير والحقير » (١٨٨٢) « الحياة فى نهر المسيسبى » (١٨٨٣) « مخاطرات هكلبرى فن » (١٨٨٥) «الورقة ذات المليون جنيه » (١٨٩٣) « مأساة بدهد ولسون » (١٨٩٤) « ذكريات جان دارك » (٩٦) « سائلون آخرون فى الخارج » (٩٧) « الرجل الذى أفسد هدلبرج » (١٩٠٠) «مذكرات ايف» (١٩٠٦) «العلم المسيحى» (١٩٠٧) وغيرها

ومما يذكر فى حياة مارك توين أنه فى سنة ١٨٨٤ اشترك مع صديقه تشارلس وبستر وشركائه فى إنشاء دار نشر كبيرة ، وازدهرت أعمال الشركة بادىء بدء ، ولكنها ساءت بعد ذلك وأفلست سنة ١٨٩٥ ، وتحمل مارك توين بسبب هذه النكبة أعباء مالية فادحة ، ولم ير مارك توين وسيلة للاقالة من هذه العثرة سوى الطواف حول العالم والقاء المحاضرات الفكهة . وقد نجحت رحلته نجاحاً عظيما وجمع مبلغاً كبيراً من المال ، واستطاع أن يسدد ديونه . وكان مثله فى ذلك مثل الكاتب الفرنسى بلزاك الذى أراد أن يحقق الغنى من الاشتغال بنشر الكتب فباء بالخسارة والافلاس

ومن ذلك الحين كان مارك توين يقضى معظم أوقاته فى أوربا ، وفى سنة ١٩٠١ عاد الى الولايات المتحدة وتابع الكتابة ، وفى سنة ١٩٠٧ زار انكلترا فاستقبل بحماسة عظيمة ، وأنعم عليه بدرجة فخرية من جامعة اكسفورد . وتوفى فى سنة ١٩١٠ فى الخامسة والسبعين

ومارك توين من أقطاب الأدب الفكه ، وهو أستاذ هذا الفن فى الأدب الأمريكى ، كما أن جورج كورتلين هو أستاذ هذا الفن فى الأدب الفرنسى ، وفكاهة مارك توين مرسلة ليس فيها تكلف ، وقد تكون أحياناً خشنة يطبعها الاغراق ، ولكنها على أى حال ممتعة مؤثرة ؛ وأحياناً تبدو دقيقة تقوم على بعض المبادىء الجدية . وما يزال تراث مارك توين فريداً فى الأدب الأمريكى

تكريم الدكتور محمد حسين هيكل بك

في مساء الأربعاء الماضي أقامت لجنة ممتازة رئيسها الأستاذ الجليل مدير الجامعة المصرية، حفلة تكريمية في فندق الكونتننتال، للأستاذ الكاتب النابغ محمد حسين هيكل بك، بمناسبة إصداره كتابه القيم (حياة محمد)، شهدها صفوة متخيرة من رجال الفكر، وتكلم فيها نخبة متميزة من رجال البيان، وكان الكلام الجاهر على المنصة، والحديث الخافت حول الموائد، يدور على هذا الجهاد المنصور المبرور الذي جاهده الأستاذ هيكل في الأدب والسياسة هذه الحقبة الطويلة. والأستاذ هيكل أحد الأساطين الرواسي التي قام عليها أدبنا الحديث ما في ذلك خلاف؛ توفر بحكم دراسته على الثقافة الغربية، ومال بحكم قراءته إلى الآداب الفرنسية، وتعصب بحكم مصريته للفنون الفرعونية، وهو كاتب بالاستعداد، فنان بالفطرة، فلا بد أن يكتب، ولابد أن يكتب بالعربية؛ والعربية لم يعطها بعد نصيباً جدياً من ذكائه، فظهر في الثمرات الأولى ضعف الائتلاف بين المعنى القوي والتفكير المهذب، وبين اللفظ الضعيف والأسلوب المهمل، ولكن النفوس الفنية تهتدي بغرائزها إلى الطريق، وتسير وراء إحساسها إلى القاعدة، فلم يلبث الأستاذ هيكل أن فرض أسلوبه الغني بالصور، وأدبه القوي بالمنطق، على أبناء الأدب العربي؛ ولم يلبث الدكتور هيكل الذي خضع لأثر الفرنسية والفرعونية وبدأ (بزينب)، أن يسمو إلى العربية والاسلامية وينتهي (بحياة محمد)!

فوز مبين للاسلام والعرب والشرق أن يصدر عن الأستاذ هيكل هذا الكتاب الروحي الخالد! فهو يدل فيما يدل على أن أدبنا الأصيل العربي أخذ يرتد إلى منبعه، ويستمد من وحيه، ويتمتع باستقلاله. والاحتفال بالدكتور هيكل هو احتفال ضمني بهذا التطور الأصيل المحمود الذي سما بالفكر المصري الى رتبة الخالق، وبالأدب العربي الى مقام الاصالة

من رونسار الى بودلير

صدر أخيراً في باريس كتاب عنوانه «من رونسار الى بودلير» بقلم مسيو فرنان فليريه، ورونسار هو شاعر فرنسا الأكبر في القرن السادس عشر؛ وبودلير هو شاعرها الأكبر في القرن التاسع عشر. وقد تناول مسيو فليريه في كتابه تطور الشعر الفرنسي؛ وحياة أقطابه منذ القرن السادس عشر؛ وتحدث عن الأساليب الأدبية التي توالت على الأدب الفرنسي في هذه العصور؛ وخص الأسلوب التهكمي منها بفصل بديع. ومسيو فليريه ناقد قدير؛ وقد سبق أن نشر معظم فصول كتابه في بعض الصحف والمجلات الأدبية فأثارت تقديراً واهتماماً

وفاة كاتب روماني

من أنباء بوخارست أن الكاتب الشاعر الروماني الشهير بنايت استراتي قد توفي في سن الحادية والخمسين بعد مرض طويل. وقد بدأ هذا الكاتب حياته العامة عاملاً؛ ولكنه ظهر بمواهبه الفكرية، وجذبه المعترك السياسي منذ حداثته، فكان زعيم حركة اشتراكية قوية. ولما أعلنت الحرب الكبرى هاجر إلى سويسرا اتقاء الاضطهاد، وهنالك كتب عدة قصص قيمة؛ منها: «العم انجل» و«كيرالينا»؛ ولفتت قصصه أنظار الدوائر الأدبية، ولا سيما الدوائر الفرنسية؛ وترجمت إلى معظم اللغات، ووصفه الكاتب الفرنسي رومان رولان بأنه «جوركي البلقان»

وبعد الحرب زار استراتي روسيا السوفيتية ليدرس التجربة الاشتراكية، ولكن عاد بخيبة أمل، وانهارت عقيدته الاشتراكية، وتحول إلى مبادىء الوطنية البورجوازية (الرأسمالية) وكان في أعوامه الأخيرة يشترك في المعترك السياسي بحماسة ونشاط، وكان يقارع خصومه السياسيين بحملات صحفية شديدة كانت تثير كثيراً من الجدل والاضطراب

العيد المئوي لبلليني

من الأعياد الفنية الشهيرة التي تتأهب إيطاليا للاحتفال بها بعد بضعة أشهر؛ العيد المئوي لوفاة الفنان المؤلف الموسيقي الأشهر فنشترو بلليني الذي توفي شاباً في عنفوان فتوته وفنه منذ مائة عام. وقد ولد هذا الفنان البارع في مدينة قطانية من أعمال صقلية في أواخر سنة ١٨٠١؛ وكان أبوه معلماً للموسيقى. فنشأ الطفل موهوباً في الفن. وأخذ يؤلف القطع الموسيقية منذ السادسة من عمره. وفي سن الثانية عشرة ذهب الى نابولي والتحق



قصة الفلسفة اليونانية

تصنيف الأستاذين أحمد أمين وزكى نجيب محمود

للدكتور عبد الوهاب عزام

أستاذنا أحمد الأمين رجل بارك الله عليه ، فرزقه من الفكر السليم ، والعلم الواسع ، والدأب على الأعمال وتأديتها فى أوقاتها ، وترتيبها ما أتاح الله للتأليف القيم النافع . فأخرج للناس فى بضع سنين كتابيه فجر الاسلام وضحى الاسلام

والأستاذ منذ عهد بعيد معنى بالفلسفة ، ترجم فى مبادئها كتاباً عن الانجليزية ، قبل خمسة عشر عاماً ، ودرس نواحى منها فى درسه علم الأخلاق والتأليف فيه . وقد أحسّ ، وهو يؤلف ضحى الاسلام ، حاجة الى الاستزادة من الفلسفة اليونانية ليستعين بها على فهم الفلسفة الاسلامية . يقول الأستاذ : « حتى إذا عرضت لوصف الحياة العقلية عند العرب وألفت فى ذلك فجر الاسلام وضحاه ، ووصلت فى التأليف إلى المعتزلة والمتكلمين فى العصر العباسى ، رأيت أنهم تعرضوا لمسائل هى من صميم الفلسفة اليونانية ، ورأيت أن لابد لفهمها من الرجوع إلى منابعها لأعرف كيف فهموها وكيف نقلوها وما الذى زادوا عليها ، فاضطررت إلى العودة إلى كتب الفلسفة أستعرض مسائلها ، وأتفهم غوامضها الخ »

قرأ الأستاذ ودوّن خلاصة ما قرأ ، فأخرج بمعونة شريكه الكتاب الذى سماه « قصة الفلسفة اليونانية » . يقول الأستاذ : « فلما عاودت القراءة فى الفلسفة بدت منى رغبة فى أن أكتب خلاصة ما أقرأ فذلك أدعى إلى وضوح الفكرة فى ذهنى ، وإلى أن ينتفع بما انتفعت به غيرى . وكان من حسن حظى أن رأيت أخى وزميلى الأستاذ زكى نجيب محمود يرغب رغبتى ويتمنى أمنيتى ، فتعاونا معاً على اخراج هذا الكتاب وتقديمه للقراء »

— ٢ —

وكنت وعدت أن أكتب فى مجلة الرسالة عن « ضحى

بمعهدها الفنى ؛ وكان أستاذه هنالك تسنجاريللى المؤلف الموسيقى المشهور وملحن رواية « روميو وجوليت » . ولم تمض بضعة أشهر حتى وضع الطالب بللينى أول « أوبراته » وعنوانها « أدلسون وسالفينى » ، ومثلت فى قاعة المعهد فنالت نجاحاً عظيماً حتى انها كانت تمثل كل يوم أحد . ولما رأى الفتى نجاحه السريع وضع قطعة أخرى عنوانها « بيانكا وفرناندو » ، ومثلت فى مسرح سان كارلو ، فنالت نجاحاً أعظم ، وذاع صيت الفتى الفنان حتى أن دومنيكو باربايا أعظم مخرجى العصر دعاه إلى وضع قطعة جديدة تمثل فى مسرح « سكالا » بميلانو ، وهو أعظم مسارح إيطاليا يومئذ ؛ فسافر بللينى إلى ميلانو ووضع قطعته الشهيرة « القرصان » (سنة ١٨٢٧) ، فكان ظفره بتمثيلها عظيماً ، وارتفع فى الحال إلى صف أعظم فنانى العصر ؛ وأتبعها بقطعة جديدة عنوانها « الأجنبية » ثم بأخرى عنوانها « جوالة الليل » ثم « نورما » وهى قطعة موسيقية بلغ بها ذروة مجده ، وبعدئذ وضع بللينى قطعاً خاصة لمسارح إيطاليا الشهيرة فى البندقية ونابولى وغيرها ، ثم سافر إلى باريس ووضع هناك قطعة « البورتانيين » فنالت نجاحاً عظيماً ، ولكن المرض كان قد أخذ يسرى إلى الفنان الفتى وأخذت صحته تسوء بسرعة ؛ ولم يلبث أن توفى فى باريس فى سبتمبر سنة ١٨٣٥ ودفن بمقبرة « بيرلاشيز » ثم نقلت رفاته بعد ذلك إلى مسقط رأسه « قطانية » سنة ١٨٧٦

وقد احتفلت الأوبرا النمسوية (بمدينة ڤينا) بذكرى بللينى احتفالاً خاصاً مؤثراً ، فأحيت ذكرى روايته « جوالة الليل » بتمثيلها مدى أسبوع لأنها فى هذا الشهر شهر مايو مثلت بالأوبرا النمسوية منذ مائة عام

الاسلام » ، وحالت حوائل دون المبادرة بانجاز الوعد ؛ ثم تيسر لى الفراغ لكتابة المقال الأول ، وبينا أنا فى شغل به مررت على لجنة التأليف والترجمة والنشر فأخذت الكتاب الجديد « قصة الفلسفة اليونانية » . ولما أخذت مكانى فى قطار حلوان فتحت الكتاب لأقرأ مقدمته وفهرسه ، ثم أطبقه إلى أن تتاح فرصة لقراءته . فلما قرأت المقدمة شاقنى ما بعدها ، وقادنى حسن البيان ، وسلاسة العبارة ، وسهولة الشرح من صفحة إلى أخرى حتى عبرت من الكتاب صفحات كثيرة ، فآثرت أن أتمه ، وبدا لى أن أكتب عنه إذا أتممته ، ناقداً حاسباً ما للكتاب وما عليه . فلما انتهت بى القراءة إلى فصل سقراط قلت : هنا فاصلة يحسن الوقوف عندها فقد كان سقراط فصلاً فى تاريخ الفلسفه تغيرت به سيرتها ، فوقفت القراءة لأكتب عما قرأت ، وأجعل بقية الكتاب موضوع مقال آخر . وهكذا يأبى الأستاذ أحمد الأمين إلا أن يعمل ويشغلنا بعمله عن أعمالنا

— ٣ —

أراد المصنفان أن يعرضا على القارىء العربى الذى لا علم له بالفلسفة اليونانية قصة هذه الفلسفة فى نشأتها وتطورها فى ايجاز وايضاح ، وتسهيل وتيسير ، وبُعد عن التعمق والتفصيل ، والتقصى فى البحث . وقد تسنى لهما ما أرادا فجاء الكتاب كما ابتغيا « قصة » يسيرة شائقة ، كفيلة بتقريب الفلسفة اليونانية إلى المبتدئين . ولا يحتاج الناقد إلى تبيين هذا ، فكل صفحة فى الكتاب شاهدة به . يبدأ المصنفان كل فصل ببيان ما يريدان ، حتى إذا بلغا ما أرادا أجملا ما قدّما ، فاذا بدأ الفصل التالى ذكّرا القارىء بما قدّماه . حتى إذا جاوزا عهداً من عهود الفلسفة إلى عهد آخر وقفا بالقارىء يلفتانه إلى ما أوضحا من قبل ليتعرف فرق ما بينه وبين ما يستقبله فى العهد التالى ، وهلم جرا

وقد قرأت ما قرأت من الكتاب مثنياً على المصنفين مسروراً راضياً إلا هنات يسيرة أعدّ منها ما يلى :

١ — قال المصنفان إن من الفروق بين العلم والفلسفة أن كل علم يبحث فى ظواهر محدودة من العالم ، وأن الفلسفة تحاول النفاذ إلى بواطن الأشياء كلها واستكناه حقائقها . وقد أوضحا هذا إيضاحاً حسناً وساقا الأمثلة ، ولكن فرطت فى أثناء ذلك عبارات تثبت أن العلوم تقنع بالظن وأن الفلسفة لا تقف دون اليقين . فقالا فى صفحة ١٠ : « ولكن هذا الذى أقنع العلم لن يرضى الفلسفة . هى لا تطمئن إلى هذا الركون والركود ، ولا تستقر إلا إذا وجدت لكل ظاهرة ما يؤيدها تأييداً تاماً . » وقالا فى صفحة ١٣ : « وهى (الفلسفة) لا تجيز لنفسها أن تركن إلى حكم من الأحكام بالغاً ما بلغ من القوة والذيوع إلا إذا أيده الدليل القاطع » وفى الصفحة نفسها : « كذلك لا ترضى الفلسفة أن تسلم بصحة مبدأ أو فكرة إلا إذا ثبتت لديها ثبوتاً لا يدع مجالاً للريب والشك . فهاتان صفتان تستطيع بهما أن تفرق بين العلم والفلسفة : »

وهذا كلام يُفهم القارىء أن الفلسفة قائمة على اليقينيات وأن العلوم قائمة على الظنيات ، والمعروف غير هذا . فقد كانت الفلسفة نظراً عاماً فى الكون ظاهره وباطنه ، ثم تحددت مواضع النظر وأدرك الباحثون قوانين فى العالم نشأت بها العلوم المختلفة يؤيدها التجربة والاستقراء والبرهان العقلى . وكلما خرجت طائفة من ظواهر الكون من الحدس إلى اليقين خرجت من حضانة الفلسفة حتى لم يبق للفلسفة فى العصر الحاضر إلا موضوعات لم تحط بها التجارب ولم تضبطها البراهين وهى ماوراء الطبيعة ، والنفس ، والأخلاق ، والمنطق ، والجمال الخ

نحن نعترف بأن العلم لا يبحث فى حقيقة موضوعه ولكن فى خصائصه . فهو لا يبالى بحقيقة الزمان والمكان والمادة ، بل يبحث فى خصائصها ومظاهرها ، ولكن هذا لا يستلزم أن تكون العلوم ظنية والفلسفة يقينية ، بل مجال الظن والغرض أوسع فى الفلسفة منه فى العلم . وقصارى القول أنه ينبغى التفريق بين غاية العلم والفلسفة ومباحثهما ، فغاية العلم بحث الظواهر ولكن مباحثه قائمة على الحس والتجربة ، وغاية الفلسفة النفاذ إلى حقائق الأشياء ولكن مباحثها مليئة بالحدس والظن

٢ — أين بدأت الفلسفة ؟

قال المصنفان تحت هذا العنوان : « لعلك الآن فى ضوء هذا

التحليل الذى تقدمنا به اليك تدرك معنا أن هذا الضرب من التفكير الذى يحاول أن يوحد بين ظواهر الكون المتنافرة والذى يرفض التسليم الساذج رفضاً تاماً، والذى يسمو بالعقل فوق المستوى المادى من حيث أسلوب التفكير وصور الفكر — نقول لعلك تذهب إلى ماذهبنا اليه من أن هذا التفكير الفلسفى الصحيح لم ينشأ ولم يتم إلا عند شعب واحد دون الشعوب القديمة جميعاً هم اليونان القدماء : »

وقالا فى الصفحة ١٦ : « لم تستمد الفلسفة اليونانية أصولها من تلك الأمم القديمة ولكن خلقها اليونان خلقاً وأنشأوها إنشاء . فهى وليدتهم وربيبتهم ليس فى ذلك ريب ولا شك : »

فأما ادعاء أن الفلسفة على هذا النحو لم تنشأ إلا عند اليونان فهو مجازفة . ولو اطلعا على فلسفة الهند مثلاً لاقتصدا فى هذه الدعوى . ولعلهما يسمعان عما قليل بقصة الفلسفة الشرقية كما أسمعا الناس قصة الفلسفة اليونانية . وقد ذكرا فى أول الفصل الثانى أن فيثاغورس رحل إلى مصر وبلاد الشرق، وقالا فى آخره : « وأنت ترى من ذلك أنهم (الفيثاغوريين) خطوا بالفلسفة خطوة جديدة نحو التفكير المجرد، فبدأت الفلسفة منذ ذلك الحين تتحلل بعض الشىء من تلك النزعة الطبيعية التى سادت عند فلاسفة يونيا لتستقبل صبغة جديدة — هى صبغة الفلسفة فى أصح معانيها — أعنى التفكير المحض فيما وراء الطبيعة وظواهرها . الخ »

وقالا فى الفصل السادس إن ديمقريطيس « كان واسع العلم، راغباً فى تحصيله رغبة حارة . . . . . وقد حفزته تلك الرغبة الملحّة فى التحصيل إلى الرحلة فى أقطار الأرض، فزار مصر وجاس خلالها، وعرّج على بابل وطوّف فى أنحائها . » فان يكن فيثاغورس الذى تعلم فى مصر ورحل إلى الشرق قد نحا فى الفلسفة نحواً جديداً، وارتقى بها إلى التفكير المجرد الذى هو أقرب إلى الشرقيين، فلِمَ نجزم جزماً أن فلاسفة اليونان لم يستمدوا قط من الأمم الأخرى ؟ وإن يكن ديمقريطيس وهو امام مذهب فى الفلسفة رحل إلى مصر وبابل فى طلب العلم فكيف نجزم بأن اليونان لم يأخذوا عنهم « ليس فى ذلك ريب ولا شك »

٣ — وقالا ص ٣٣ أثناء الكلام على آراء الفيثاغوريين : « أى انك تستطيع أن تتخيل فى غير عسر كوناً يخلو من اللون والطعم والحرارة » . وقد جهدت أن أتخيل عالماً لا لون له فلم يتيسر لى

٤ — فى الكلام على هرقليطس ص ٥٦ « بعد أن عمر نحو ستين عاماً كان فيها معاصراً لبارمنيدز . » والعبارة توهم أنه عاصر بارميندز ستين عاماً، وليس هذا مقصوداً كما يعرف من تاريخ الرجلين

٥ — فى الكلام على السوفسطائيين ص ٩٩ : « ومن أجل ذلك سمى اللعب بالألفاظ والتهريج فى الحجج سفسطة اشتقاقاً من السوفسطائيين . » وكان ينبغى هنا تفسير كلمة سوفسطائى فى وضعها الأصلى حتى لا يتوهم القارئ أن فيها معنى السفسطة المعروف

٦ — تكلم المصنفان على الأحوال السياسية والاجتماعية فى بلاد اليونان عند ظهور السوفسطائيين ليبينا أثرها فى فلسفتهم، ولم يذكرا آثار الحروب الفارسية المتمادية، وكانت ذات أثر بليغ فى اليونان

وهناك هنات لفظية كثيرة نتركها حتى نفرغ من نقد الآراء والمعانى



3 me Année, No. 99.

Lundi-27-5-1935

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مصـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ٩٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٤ صفر سنة ١٣٥٤ — ٢٧ مايو سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

إلى بعض الكبراء . . .

عندكم ياسادتى المال، ولكم الجاه، وكان فيكم الحكم، فلمَ تأبون أن يكون معكم المجد أيضاً؟ رفعنا كم واتضعنا، وحكّمنا كم وأطعنا، ثم صغنا مجدنا ألقاباً لعظمتكم، وحشدنا أبناءنا جنداً لسطوتكم، وجعلنا أموالنا مدداً لثروتكم، وقلنا أفراد تقويهم روح الجماعة، ورموز تلبسهم فكرة الوطن، وألوية ترفعهم سواعد الأمة، فاذا ضعفكم ينوء بقوة الحكومة، واسفافكم يهبط بسمو المنصب، وارتفاعكم كارتفاع الأسهم النارية: فرقعة ولألاء، ثم سقوط وفناء!

***

يزعم أرباب الشعر وأصحاب الخيال أن الانسان مَلَكٌ مُرتَق الجناح هبط من سمائه ولم يصعد، فهو لا ينفك ماعاش نزوعاً إلى موطنه! وهم يعنون بذلك أن الانسان بالجزء الالهى الذى فيه مسوق إلى الكمال مَشُوق إلى الرفعة، فهو يفرغ من مطالب الجسد ليخلص إلى رغائب الروح، ويبتدئ بالأثرة فى ضيق الأنانية لينتهى إلى الايثار فى سعة الغيرية، وينشأ على هوى الطبيعة معنى جزئياً ليعود بحكم التطور فكرة انسانية! فما الذى قتل فيكم هذا النزوع السماوى، وصرف عنكم هذا الطموح المقدس، فقيدتكم

جاذبية المادة ، وعقلتكم شهوة الغرض ، وأبيتم على نداء البطولة واستحثاث الرجولة إلا أنَ تكونوا ناساً كأقل الناس ، لكم كروش لا تكتفى ، ونفوس لا تشتفى ، وأطماع لا تحد

ربما علل النفسيون هذا الميل الشاذ فى بعض كبراء اليوم ، بأنهم من فَقْدِ الخلق الصالح فى قصور ذاتى معنوى لا ينفك ؛ فهم يرتفعون قَذْفاً فى السماء ، ويسقطون جذباً إلى الأرض ، ولا يشعرون إلا كما يشعر الحجر بأن القاذف المجهول رمى بهم أمانىَّ فوق ، وسحق بهم أمانىّ تحت ! !

* * *

كذلك من يتعلم ولا يتربى ، ويتربى ولا يتدين ، ويتحرك ولا يقصد ، ويتصرف ولا يريد ! أولئك يَحُدون دنياهم بالأفق ، ويختمون حياتهم بالموت ، ويَزِنون سعادتهم بالمادة ، ويضخمون على أقوات الشعب ضخامة الفِيَلة المروضة ليكونوا مركباً للملوك ، وفرجة للناس ، وغذاء للأرض ! ! وهؤلاء أنماط من الخلق كانوا صُبَابة العهد القديم رسبت فيها أكداره وشوائبه ، ثم كانوا بحكم تخلفهم جسراً محطم الأركان مهدَّم القواعد ، لا بد للجيل الجديد من اجتيازه لينتقل من عالَم إلى عالَم ، ويخرج من عصر إلى عصر ، فهو يحملنا على اضطراب وخلل ، ونحن نعبره على احتراس ومهل ، وفى هــذا الاحتراس وذلك الاضطراب سر ما ترى فى خُطانا من قِصَر وفى نهضتنا من بطء

ما علة هذه الهزيمة فى مصر ، وما سبب هــذا الخلاف فى فلسطين ، وما باعث هذه الثورة فى العراق ؟ لا تلتمس دواعى ذلك كله فى كيد الدخيل وخداع العدو ، فان الغاصب يستطيع إن شاء أن يسلبك مالك بالحيلة ، أو استقلالك بالغيلة ، ولكنه لا يستطيع أن يفتنك عن شرفك وخلقك وضميرك وأنت رجل ! إنما يدفع هذه الفيلة الأهلية الغُلْف بخراطيمها الماحقة ، وأخفافها الساحقة ، وإهابها الصفيق ، فتسوّى أمامه الأرض ، وتمهد له الطريق ، وتحمل له فوق ظهورها العرش !

* * *

إن مشكلة الدستور ، وقضية (نزاهة الحكم) ، برهانان صارخان على أننا أُتِينا يوم أُتِينا من ناحيــة الخلق ! وتلك ناحية لا يحصنها والأمفاه شهادة تُعطى ، وخطبة تُلقى ، ومقالة تُكتب ؛ إنما يحصنها الله بدينه ، والمعلم بتهذيبه ، والأب بسيرته ، والزمن بطوله . وهل فى سادتنا وكبرائنا الذين أضلونا السبيل من لم يَشْدُ شيئاً من العلم فى المدارس ، ويدرك ذَرْواً من الأخلاق فى الكتب ؟ ولكن علم هؤلاء بالحلال والحرام كعلم القاتل واللص ، لا يعصم النفس ، ولا يوقظ الضمير ، ولا ينفى الجهل ، ولا يمس الحياة العملية ! فنحن كما ترى مقضىٌّ على نهضتنا بالتثاقل ، وعلى أمتنا بالتخاذل ، حتى يصبح الدين قائماً ، والضمير حاكما ، والعمل عقيدة ، والاحسان طبيعة ، والواجب مرعياً ، والتبعة مفروضة ؛ وحينئذ ينتظم وضعنا الشاذ ، ويتسق وجودنا النافر ، وتنفق من السُّلال مطايا الرجعية الذميمة !

* * *

قل لأولئك الذين أحرقوا روما وما زالوا يعزفون أناشيد الجحيم على أوتار نيرون ! ماذا جنى هذا الشعب الكريم حتى سفهتم حقه فى الحياة ، وأضعتم نصيبه من الحرية ؟ كان فى يديه دستور فأين ذهب ؟ وفى طريقه استقلال فأين اختفى ؟ وفى تاريخه ستة عشر عاماً حامية بالجهاد ، دامية بالضحايا ، فأين قطوفها المشتهاة ، وحصائدها المرجوة ؟

تصرفتم فى حقوقه تصرف السفيه فى المال المتروك ، واتخذتم من مرافقه وسائل للكيد الأحمق وموارد للربح الخاص ، وجعلتم من وحدته أولياء لا يعدوهم الاحسان وخصماء لا تُغبُّهم الاساءة ، ونسيتم أن فى البلد احتلالاً يقظ الرأى ، كَلُوء العين ، يحصى عليكم الأنفاس ، ويتربص بكم الدوائر !

كان يقظان وكنتم غارّين ، فدلف إلينا من جهتكم ، واحتج علينا بخطئكم ، ثم ذبكم عن الحكم ذبَّ البعوض ، وقبض بيديه العاريتين على سياسة البلاد ، ووقفَ الأمة المنكودة بين الحيرة والشك فى عواقب هذا الفساد ! !

احمد حسن الزيات

٥ - الانتحار

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال المسيَّبُ بنُ رافع : وأطرق الناسُ قليلاً بعد خبرِ (أبي محمد البَصْري) ؛ إذ كان كلٌّ منهم قد جمع بالَه لِما سمع ، وأخذ يَحْدِسُ في نفسه ويراجعُها الرأي ؛ وكان المجلسُ قد امتدَّ بنا منذ العصر وما يكاد النهارُ يُشعِرُنا بادباره ، حتى اعترَضَتْ في شمسه الغُبرةُ التي تعتريها إذا دَنَتْ أن تَغرُب . وكان الى يساري فتًى رَيَّانُ الشباب ، حسَنُ الصورة ، وضيءٌ مُشرِقٌ له هيئةٌ وسمْت ، أقبلَ على الأيام وأقبلت الايامُ عليه فسمعني أُطِنُّ على أذن (مجاهدٍ الأزْدي) ؛ وكنت أعرفُه شاعراً في كلامه وشاعراً في قلبه ؛ فقلت له : إنه لم يبقَ من النهار يا مجاهد إلا مثلُ صبرِ المحبِّ دَنا له المَوْعد ؛ ولم يبقَ من الشمس إلا مثلُ ما تَتلفف صاحبتُه ، تأخذُ عليها ثوبَها وغلائلَها ولكن بعد أن تُسقِطها من هنا ومن هنا ، لترى جمالَ جسمِها هنا وهنا !

فاهتزَّ الفتى لهذه الكلمات وسالت الرقَّةُ في أعطافه وقال : يا عمِّ ، أما ترى ما بقي من النهار كأنه وجهُ باكٍ مَسَحَ دموعه وليس حوله إلا كآبةُ الزمن ؟

قلت : كأنَّ لك خبراً يا فتى ، فان كان شأنُك مما نحن فيه فقُصَّه علينا وعلِّلْنا به سائرَ الوقت الى أن تجِبَ الشمس ، ولعلك طائرٌ بنا طَيرةً فوق الدنيا

قال : فَمَهْ ؟

قلت : تقومُ فتتكلَّم ، فاني أرى لك لساناً وبياناً

قال : أو يحسُن أن أتكلم في المسجد عن صَرْعةِ الحب وصريعِه ، وعاشقةٍ وعاشق ؟

فبادر مجاهدٌ فقال : ويحك يا فتى ! لقد تحجَّرْتَ واسعاً ؛ إن المؤمن ليصلّي بين يدي اللهِ وكتابُ سيئاته في عنقه منشورٌ مقروء . وهل أوقاتُ الصلاة إلا ساعاتٌ قلبيّة لكلِّ يومٍ من الزمن ، تأتي الساعةُ مما قبلها كما تأتي توبةُ القلب مما عملَ الجسم ؟ إنما يتلقَّى المسجدُ من يدخلُه لساعته التي يدخله فيها ، ولو أنه حاسَبه عن أمسِ وأوّلَ منه وما خلا من قبل ، لطرَدهُ من العتَبة ! إن المسجد يا بنيّ إنما يقول لداخلِه : أدخلْ في زمني ودَعْ زمنك ، وتعالَ إليَّ أيها الانسانُ الأرضي ، لتتحقق أن فيك حاسّةً من السماء ، وجِئني بقلبك وفكرك ، ليشعُرا ساعةً أنهما فيَّ لا فيك . ولسنا الآن يا بنيّ في مُتحدَّثٍ كنَدِيِّ القوم يتطارحون فيه أخبارَهم ، بل نحن في مجلسِ علمٍ تكلمتْ فيه رَقبةُ هذا ورقبةُ هذا بما سمعت ؛ فقُم أنتَ فاذكرْ عِلمَ قلبِك وقُصَّ علينا خبرَ طيشِ الحبِّ والشباب الذي يُشبهُ الكلامُ فيه أن يكون كلاماً عن الصعود الى القمر والقبضِ من هناك على البرق !

* * *

قال المسيّب : فانتهضَ الفتى ، ورأيت مجاهداً يتنهّد كأنما انصدعت كَبِدُه ؛ فقلت : ما بالُك ؟ قال : إن شبابي قد مرّ عليَّ الساعةَ فنسمْتُ منه في بُرْدَةِ هذا الفتى ، ثم فقدْتُه فقداً ثانياً فهَرِمْتُ هَرَماً ثانياً ، وجاءني الحزنُ من إحساسي بأني شيخ حزْنَ مَن همَّ أن يدخل بابَ حبيبٍ ثم رُدَّ . . . !

وتحدّث الفتى ، فاذا هو يُديرُ بين فكّيه لسان شاعرٍ عظيم ، يتكلم كلامَه بنفسَين : إحداهما بَشريةٌ تصنع المعنى واللفظ ، والأخرى عُلويةٌ تُلقِي فيها النارَ والنور

قال : إن لي قصةً أيها الشيخ ، لم يبقَ منها إلا الكلامُ الذي دُفِنتْ فيه معانيها ؛ وقد تأتي القصةُ من أخبار القلب مُفعمةً بالآلام والأحزان ، لا يُراد بآلامها وأحزانها إلا إيجادُ أخلاقٍ للقلب يعيش بها ويتبدّل . والذي قُدِّر عليه الحبُّ لا يكون قد أحبَّ غيرَه أكثرَ مما يكون قد تعلم كيف ينسى نفسَه في غيره ، وهذه كما هي أعلى درجاتِ الحبِّ — فهي أعلى مراتب الاحسان

ومتى صدق المرءُ في حبّه كانت فكرتُه فكرتين : إحداهما فكرةٌ والأخرى عقيدةٌ تجعل هذه الفكرةَ ثابتةً لا تتغيّر ؛ وهذه كما هي طبيعةُ الحب فهي طبيعة الدِّين

ولا شيءَ في الدنيا غيرُ الحب يستطيع أن ينقُل إلى الدنيا ناراً صغيرة وجنة صغيرةً ، بقدْر ما يكفي عذابَ نفسٍ واحدةٍ

أو نعيمها ! وهذه حالة فوق البشرية

والفضائل عامتها تعمل فى نقل الانسان من حيوانيته ، وقد لا تنقل إلا أقله ويبقى فى الحيوانية أكثره ؛ ولكن الحب الصادق يقتلع الانسان من حيوانيته بمرة واحدة ، بيد أنه لا يكون كذلك إلا إذا قتله بآلامه ؛ فهو كأعلى النسك والعبادة

كان من خبرى أنى دعيت يوماً إلى ما يدعى لمثله الشباب فى مجلس غناء وشراب يا له من مجلس ! وقد قال تعالى : «إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها» والبعوضة فى قصتى أنا كانت امرأة نصرانية . . . قينة فلان المغنية الحاذقة المحسنة النادرة ، تحفظ الخبر وتروى الشعر ، وتتكلم بألفاظ فيها حلاوة وجهها ، وتخلق النكتة إذا شاءت خلق الزهرة المتفتحة عليها سقيط الندى ؛ وتجد بالحديث ما شاءت وتهزل ، فتجعل للكلام عقلاً وشهوة تضاعف بهما من تحدثه فى شهواته وعقله !

وستجرى فى قصتها ألفاظ القصة نفسها ، لا أتأثم من ذلك ولا أتذمم ؛ فقد ذكر الله الخمر بلفظ الخمر ولم يقل : « الماء الذى فيه السكر » ، ووصف الشيطان ولم يقل : « الملك الذى عمل عمل المرأة الحسناء فى تكبرها » ، وذكر الأصنام بأنها الأصنام ولم يسمها : « حاملة السماء التى يصنعها الانسان بيديه » ، وحكاية ما بين الرجل والمرأة هى كلام يقبل بعضه بعضاً ويلتزم ويتعانق !

قال المسيب : فتبسم إمامنا ونظرت عيناه تسألان سؤالا . أما مجاهد الأزدى فكان من هزة الطرب كأنه على قتب بعير ، وقال : لله دره فتى ، إن هذا لبيان كحيل العين . . .

ثم قال الفتى : وذهبت الى المجلس وقد جعلته هذه المغنية من حواشيه وأطرافه كأنه تفسير لها هى . أما هى فجعلت نفسها تفسيراً لكلمة واحدة هى : « اللذة . . . »

قال المسيب : وطرب مجاهد طرباً شديداً ، وسمعته يخافت بصوته يقول : « لله درها امرأة ، هذه ، هذه عدوة الحور العين ! »

ثم قال الفتى : وتطرب جماعة أهل المجلس الى الشرب ، وما ذقت خمراً قط ، ولن أذوقها ولو شربها الناس جميعاً ، ولن أذوقها ولو انقطع الغيث ولم تمطر السماء إلا خمراً ؛ فانى مذ كنت يافعاً رأيت أبى يشربها ، وكانت أمى تلومه فيها وتشتد فى تعنيفه وتحتدم ، وكانا يتشاحنان فينالها بالأذى ويندرى عليها بالسب وفحش القول . وسكر مرة وغلبه السكر حتى ثارت أحشاؤه فذرعه القىء فتوهمنى وعاء ، وجاء الى وأنا جالس فأمسك بى وقاء فى حجرى ، حتى أفرغ جوفه ؛ وثارت أمى لتنتزعه وأنشأت تعالجه عنى فتصارع جنونه وعقلها حتى كفأته على وجهه كالاناء ؛ فالتوى كالحية بطناً لظهر واستجمع كالقنفذ فى شوكه ، ثم لكزها برجله أسفل بطنها فانقلبت ، وأصاب رأسها إجانة [1] العجين فتثلم تثليم الاناء كأنما شدخ ضرباً بحجر ، وانتثر دماغها على الأرض أمام عينى ، ورأيتها لم تزد على أن دفعت بأحدى يديها فى الهواء وضمت بالأخرى الى صدرها ، تتوهم أنها تحمينى وتدفعه ، ثم سكنت ولو لم تمت من الشجة فى رأسها لماتت من الضربة فى بطنها !

* * *

قال المسيب : وأطرق الفتى هنيهة وأطرق الناس معه ؛ فرفع مجاهد صوته وقال : رحمها الله ! فقال الناس جميعاً : رحمها الله !

ثم قال الفتى : وكان عامة من فى المجلس يعرفون ذلك منى ، ويعرفون أنه لو ساغ لانسان أن يشرب دم أمه ما شربت أنا الخمر . فقالوا للمغنية : إن هذا لا يدخل فى ديواننا [2] . فنظرت إلى ، وهربت أنا من نظرتها باطراقة ؛ ثم قالت : تشرب على وجهى ؟ فقلت لها : إن وجهك يقول لى : لا تشرب . . . فتضاحكت وقالت : أهو يقول لك غير ما يقول لهؤلاء ؟ فهربت من كلامها باطراقة أخرى ، ووصلت الاطراقتان ما بينى وبين قلبها ؛ وتنبه فيها مثل حنو الأم على طفلها إذا آذته بلسانها فأطرق ساكتاً يشكوها إلى قلبها !

والتفتت لمن حضر وقالت لهم : لست أطيب لكم ولا تنتفعون بى الا أن تشربوا لى وله ولأنفسكم ، وانحط عليهم

(١) هى ما يعجن فيه العجين وتغسل فيه الثياب ، وقد يوضع فيها الماء ليتوضأ منه ، وتتخذ من حجر أو خزف أو غيرها

(٢) تعبير قديم كانوا يريدون به الشرب كأنه ديوان ملك

الساق ، فشربوا أرطالاً وأرطالاً ، وهي بين ذلك تغنيهم وقد أقبلتْ عليهم وخلا وجهها لهم من دُونى وإنما تخالسني النظرةَ بعد النظرة

فوسوسَ لى شيطاني أن تَشدَّدْ مع هـذه بمثل عَزمتِكَ مع الخمر . ولكني كنتُ أُحِدُّ النظرَ اليها ، فمرّةً أُوامقُها نظرةَ المحبِّ للحبيب ؛ وكأني بذلك كنت آخذُها وأدعُها ، وأصِلُها وأهجرها . فقالت لى كالمُنكِرَة عليّ : مابالك تنظر إليّ هكذا ! ولكن هيئةَ وجهها جعلتْ المعنى : لا تنظر إليّ إلا هكذا . . . !

وأسرع الشرابُ في القوم وأفرط عليهم السُّكْر ؛ فبقيت لى وحدى وبقيتُ لها وحدها ؛ ثم تناولت عودَها وضمّته إليها ضمّاً شديداً أكثرَ من الضمّ . . . وألستْه صدرَها ونهديها ، ثم رنَت إليّ بعيني ، فما شككتُ أنها ضمّةٌ لى أنا والعود ؛ ثم غنّتْ هذا الصوت :

ألا قاتلَ اللهُ الحمامةَ غُـدوةً
على الغصن ؛ ماذا هيّجتْ حين غنتِ ؟
فما سكتت حتى أويتُ لصوتِها ،
وقلتُ : تُرى هذى الحمامةُ جُنتِ ؟

* * *

وما وجْدُ أعرابيـةٍ قَذفتْ بها
صروفُ النوى من حيث لم تكُ ظنتِ . . .
إذا ذكرتْ ماءَ العِضاهِ وطيبَه ،
وبَرْدَ الحمى من بَطنِ خبْتٍ ، أرنّتِ . . .
بأكثرَ منى لوعـةً ، غيرَ أنني
أُجمْجِمُ أحشـائى على ما أجنتِ !

وغنّته غناءً من قلبٍ يئنّ ، وصدرٍ يتنهّد ، وأحشاءٍ لا تخفى ماأجنتْ ؛ وكانت ترتفع بالصوت ثم كأنما يهمى الدمعُ على صوتها ، فيرتعش ويتنزّل قليلاً قليلاً حتى يئنّ أنينَ الباكية ، ثم يعتلج في صدرها مع الحب ، فيتردّد عالياً ونازلاً ، ثم يرفضُّ الكلامُ في آخره دموعاً تجرى

* * *

قال المسيّب : فنظر إليّ مجاهد وقال : عدُوّةُ الجنة والله هذه ياأبا محمد ، لاتقبل الجنةُ من يكون معها . تقول له : كنتَ مع عدُوّتي !

ثم قال الفتى : وكان القوم قد انتشوْا ، فاعتراهم نصفُ النوم وبقى نصفُ اليقظةِ في حواسّهم ، فكلُّ ما رأوْه منا رأوه كأحلام لاوجود لها إلا خلف أجفانهم المُثقلة سكراً ونعاساً . ووثبتْ المغنيةُ فجاءت إلى جانبي والتصقتْ بى ، وأسرع الشيطانُ فوسوسَ لى : أن احذر فانك رجلُ صدق ، وإذا صدقت في الخمر فلا تكذبنّ في هذه ، ولئن مَسسْتها إنها لضياعُكَ آخرَ الدهر !

فعجبتُ أشدَّ العجب أن يكون شيطانى أسلم وأُعنتُ عليه كما أُعين الانبياءُ على شياطينهم . ولكن اللعينَ مضى يصُدُّني عن المرأةِ دون معانيها ، وكان منى كالذى يُدنى الماءَ من عينى القتيل المتلهبِ جوفُه ثم يجعله دائماً فوتَ فمِه ، ولقد كنتُ من الفُحولةِ بحيث يبدو لى من شدةِ الفورةِ في دمى وشبابى أن أجمع في جسمى رجالاً عدّة ، ولكن ضربنى الشيطانُ بالخجل فلم أستطع أن أكون رجلاً مع هذه المرأة

وعجبتْ هى لذلك وما أسرع ما نطق الشيطانُ على لسانها بالموعظة الحسنة ...! فقالت :لقد أحببتُك ما لم أحِبّ أحداً ، وأحببتُ خجلك أكثر منك ، فما يسرُّنى أن تأثم فيّ فتدخلَ النارَ بحبي ، ولو أنك ابتعتنى من مولاى ؟ فقلت : بكم اشتراكِ ؟ قالت : بألف دينار ! قلت : وأين هى منى وأنا لو بعت نفسى ما حصّلتْ لى ؟

فتمّ الشيطانُ موعظتَه وقالت : إن قلبي قَبلك غنياً كنتَ أو فقيراً ، وأحسّ بك وحدك حُبّ العذراء أوّلَ ما تُحبّ ، وأنا ـ كما تراني ـ أعيش في السيئات كالمُكرهة عليها ، فسأعمل على أن تكون أنت حسنتي عند الله ، أذهب اليه حاملة في قلبي حُبى إياك وعفتى عنك ، ولئن كانت عفةُ من لا يشتهى ولا يجد تعدُّ فضيلة كاملة ، إن عفة من يجد ويشتهى لتعدُّ ديناً بحاله . ولا يزال حبي بكراً ، ولا أزال في ذلك عذراء القلب ، وهؤلاء قد نزعوا الحياءَ عنى من أجْل أنفسهم ، فألبسْنيهِ أنتَ من أجلك خاصة ، وإن قوة حبي الذى سيتألم بك ويتعذب منك لطُول مايصبر عنك ، ستكون هى بعينها قوةً لفضيلتى وطهارتي

ثم تناولت عودها وسوته وغنت :

فلو أنا على حجر ذُبحنا جرى الدميان بالخبر اليقين(١)

وجعلت تتأوه فى غنائها كأنها تُذبح ذبحاً ، ثم وضعت العودَ جانباً وقالت : ما أشقانى ! إذا اتفقتْ لى ساعةُ زواجى فى غير وقتها فجاءت كالحلم يأتى بخيال الزمن فلا يكون فيه إلا خيال الأشياء

ثم سألتنى : ما بالك لم تشرب الخمر ولم تدخل فى الديوان ؟ فبدرَ شيطانى المؤمن . . . وساق فى لسانى خبرَ أمى وأبى ، فانتضحت عيناها باكية وتم لها رأىٌ فىّ كرأيى أنا فى السكر ؛ وكان شيطانها بعد ذلك شيطاناً خبيثاً مع أصحابها ، وبطريقاً زاهداً معى أنا وحدى !

ورأيتها لا تجالسنى إلا متزايلة كالعذراء الخفرة إذا انقبضتْ وغطت وجهها ، وصارت تخافنى لأنها تحبني ، وهيَّبنى الشيطان اليها فعادت لا ترى فىّ الرجلَ الذى هو تحت عينيها الثيِّبتين . . . ولكن القديسَ الذى تحت قلبها البكر

ولم يَعد جمالى هو الذى يعجبها ويصبيها ، بل كان يعجبها منى أنى صنعةُ فضيلتها التى لم تصنع شيئاً غيرى . . .

***

وانطلق الشيطانُ بعد ذلك فىّ وفيها بدهائه وحنكته وبكلّ ما جرّب فى النساء والرجال من لَدُن آدمَ وحواءَ إلى يومى ويومها . . . ! فكان يجذبنى اليها أشدَّ الجذب ، ويدفعها عنى أقوى الدفع ، ثم يُغريني بكل رذائلها ولا يغريها هى إلا بفضائلى . وألقىَ منها فى دمى فكرةَ شهوةٍ مجنونةٍ متقلّبة ، وألقى منى فى دمها فكرةَ حكمةٍ رزينةٍ مستقرّة . وكنت ألقاها كلَّ يومٍ وأسمع غناءها ؛ فما هو بالغناء ولكنه صوتُ كلّ ما فيها لكلّ ما فىّ ، حتى لو التصق جسمُها بجسمى وسارّ البدنُ البدنَ ، وهمسَ الدمُ للدم ، لكان هو هذا الغناء الذى تغنّيه

وأصبحت كلما استقمتُ لحبها تلوّت علىّ ؛ إذ لستُ عندها إلا الأملَ فى المغفرة والثواب ، وكأنما مسختْ حبلاً طوله من هنا إلى الجنة لتتعلّق به . وعاد امتناعُها منى جنوناً دينياً ما يفارقها ، فابتلانى هذا بمثل الجنون فى حبها من كلَفٍ وشغف

وانحصرتْ نفسى فيها ، فرجعتُ معها أشدَّ غباوةً من الجاهل ينظر إلى مدّ بصره من الأفق فيحكم أن ههنا نهاية العالَم ، وما ههنا إلا آخرُ بصرِه وأوّلُ جهلِه . وانفلتَ منى زمامُ روحى ، وانكسر ميزان إرادتى ، واختل استواءُ فكرى ، فأصبحتُ إنساناً من النقائض المتعادية أجمعُ اليقينَ والشكّ فيه ، والحبَّ والبغض له ، والأمل والخيبةَ منه ، والرغبةَ والعُزوفَ عنها . وفى أقلّ من هذا يُختطَفُ العقل ، ويتدلّه من يتدله

ثم ابتليتُ مع هذا اللَّمم بجنون الغيظ من ابتذالها لأصحابها وعفتها معى ، فكنتُ أتطاير قطعاً بين السماء والأرض ، وأجِدُ عليها وأتنكّرُ لها ، وهى فى كل ذلك لا تزيدنى على حالةٍ واحدة من الرهبانيّة ؛ فكان يطير بعقلى أن أرى جسمها ناراً مشتعلة ، ثم إذا أنا رُمتُه استحال ثلجاً . وقرّحت الغيرةُ قلبي وفتّتت كبدى من عابدةِ الشيطان مع الجميع ، الراهبةِ مع رجلٍ واحدٍ فقط . . . . !

ورجعتْ خواطرى فيها مما يُعقَل ومالا يعقل ؛ فكنتُ أرى بعضها كأنه راجعٌ من سفرٍ طويل عن حبيب فى آخر الدنيا ، وبعضها كأنه خارجٌ من دار حبيبٍ فى جوارى ، وبعضها كأنه ذاهبٌ بى الى المارستان . . . !

ورأيتنا كأننا فى عالَمين لا صلة بينهما ونحن معاً قلباً الى قلب ، فذهبَ هذا بالبقية التى بقيت من عقلى ؛ ولم أرَ لى منجاةً إلا فى قتلِ نفسى لأزهق هذا الوحشَ الذى فيها

وذهبتُ فابتعتُ شعيرات من السمّ الوَحِىّ الذى يُعجِلُ بالقتل ، وأخذتها فى كفى وهممتُ أن أقمحها وأبتلعها ، فذكرت أمى ، فظهرت لخيالى مشدوخةَ الرأسِ فى هيئة موتها ، والى جانبها هذه المرأةُ فى هيئة جمالها ، وثبتتْ على عينى هذه الرؤيا ، وأدمنتُ النظر فيها طويلاً فاذا أنا رجلٌ آخرُ غيرُ الأوّل ، وإذا المرأةُ غيرُ تلك ، وطفئتْ عِبرةُ الموت على شهوةِ الحياة فمحتها ، وصحّ عندى من يومئذٍ أن لا علاج من هذا الحبّ إلا أن تُقرَن فى النفس صورةُ امرأةٍ ميتة الى صورة المرأةِ الحيّة ، وكلما ذُكرتْ هذه جىءَ لها بتلك ، فاذا استمر ذلك فان الميّتة تُميتها فى النفس وتُميت الشهوةَ اليها ، ما من ذلك بُدّ ، فليجربه من شك فيه

(١) كانت العرب تزعم أنه إذا قتل اثنان فجرى دماهما على طريق واحد ثم التقيا ، حكم عليهما أنهما كانا متحابين ، فان لم يلتقيا حكم عليهما أنهما كانا متشاحنين . وما أجهلها خرافة وأشعرها

وانفتح لي رأيٌ عجيب، فجعلتُ أتأمل كيف آمن شيطاني ثم كَفَر بَعدُ، على أن شيطانها هي كَفَر في الأول ثم آمن في الآخر؟ فوالله ما كنتُ إلا غبياً خامدَ الفطنة إذ لم يَسخَ لي الصواب حتى كدت أزهق نفسي وأخسر الدنيا والآخرة؛ فان الشيطان — لعنه الله — إنما ردّني عن الفاحشة وهي ذنب واحد ليرميني بعدها في الذنوب كلها بالموت على الكفر!

وردّ اليّ هذا الخاطرُ ما عَزَبَ من عقلي؛ ومَن ابتُلِيَ ببلاءٍ شديد يزلزل يقينه ثم أبصر اليقين، جاء منه شخص كأنما خُلِقَ لساعته؛ فلعنتُ شيطاني واستعذتُ بالله من مكرِه، وألقيت السمّ في التراب وغيّبته فيه، وقلتُ لنفسي: ويحك يا نفس! إن الحياة تعمل عملاً بالحي، أفتر ضين أن تعمل الحياةُ بأبطالها ورجالها ما عرفتِ وما علمتِ، ثم يكون عملها بكِ أنت القعودَ ناحية والبكاءَ على امرأة؟

أيتها النفس، ماالفرق بين سرقة لحم من دكان قصاب، وبين سرقة لحم امرأة من دار أبيها، أو زوجها، أو مولاها . . . ؟

أيتها النفس، إن إيمانَ أسلافنا معنا؛ إن الاسلام في المسلم

***

قال المسيّب: وهنا طاش مجاهد واستخفه الطرب، فصاح صيحةَ النصر: الله أكبر! وجاوبه أهلُ المسجد في صيحةٍ واحدة: الله أكبر! ولم يكد يهتف بها الناس حتى ارتفعت صيحة المؤذّن لصلاة المغرب. الله أكبر . . .

« انتهى المجلس، وبقيت لحديث المسيب بقية »

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

رجاء — أرجو ممن كتب الى بتوقيع (مسلم) أن يتخذ عنواناً أخاطبه به ولو اسما مستعاراً في شباك البريد لأكتب له كتاباً خاصاً؟ الرافعي

سبيل المدنيـة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

رآني مرةً صاحبٌ لي آكل لحماً نيئاً، فاستغرب، وسألني عنه كيف أجده؟ قلت: أطيب ما يكون، فأبى أن يصدّق، وذهب يكابر، وجعل يسأل: « كيف تستطيبه وهو نيء؟ »

قلت: « يا أخي إن المسألة ليست مسألة منطق وجدل، وإنما هي مسألة طعام، فخذ منه وذق، وانظر بعد ذلك كيف تجده، ثم إنه لا شك أخف على المعدة وهي أقدر على هضمه من اللحم الذي أنضجته النار، وأثقله ما يخلط به »

فهز رأسه منكراً، وأبى أن يجرب. ومضت أيام، فاشتهيت أن آكل كبداً نيئة، فصارت الخادمة بعد ذلك تمان الخوف مني ولا تخفيه، وتغلق عليها الأبواب حين تنام، كأنما خشيت أن آكلها حية، ثم لم تطق صبراً فتركت البيت، وتحدثت إلى الخدم بأني « غول » فتعذر عليه أن يقنع غيرها بالعمل في بيتي، فجئت بواحدة من الريف

ويخيل إليّ أن المدنية تضعفنا من حيث ترقينا، وتشيع في نفوسنا روح الأنوثة، فنزداد عليها رقة وتطريا، ولا نزداد قوة وقدرة على المقاومة. فنحن مثلاً نقاوم البرد بالثياب لا بأجسامنا وما فيها من المناعة الطبيعية التي تستفاد من التجرد، ولا يستطيع الواحد منا أن يخطو عشر خطوات بقدم حافية، وما أكثر ما تسمع الأم تحذر ابنها أن يمشي حافياً حتى في البيت مخافة أن يصيبه أذى من الرطوبة أو نحوها. والخبز يوضع على المائدة في طبق حتى لا يمس السفرة، والأشواك والسكاكين والملاعق توضع مستندة إلى قطع من الزجاج أو المعدن ترفع أطرافها، وهكذا في كل شيء، ولكن القطة مثلاً تعمد إلى كوم الزبالة فتنبشه وتأكل كل ما تجد فيه من فتات الخبز أو غيره، والكلب يقضم العظام مخلوطة بالتراب فلا يصاب بسوء ولا تعروه حمى، وينام تحت عين الشمس فلا تضربه، وإذا جاء الشتاء لم يتخذ لحافاً ولا شبهه. وحدثني طبيب يعمل في الريف أنهم قلما يعنون بتطهير أدوات الجراحة في مستشفيات القرى

عنايتهم بذلك فى المدن ، ولا يرون أن هذا يضير المرضى ، أو يحدث لهم تسمماً ، وهو يعلل ذلك بأن الأجسام فى القرى أعظم حصانة وأقوى مناعة لكثرة تعرضها ، على خلاف الحال فى المدن

ونصحني مرة طبيب من أصدقائى أن أكف عن أكل اللحم وأن أقتصر فى طعامى على الخضر والفاكهة ، فقلت له : « لا يا صاحبي ، فانى أرى الحيوان أقواه آكل اللحم وأضعفه آكل النبات ، وأنا أكره لنفسى أن أحيا حياة خروف . والعمر طوله أو قصره لا قيمة له ، وليست العبرة بأيام تزداد فى الأجل أو تنقص منه ، فانه إلى انتهاء على الحالين ، « ومرجوع وهاج المصابيح رمدد » كما يقول الشاعر ، ولأن يحيا المرء حياة قصيرة ولكنها قوية ، خير ألف مرة من أن يعيش ألف سنة ويكون بغلاً أو حماراً »

فضحك ولكني كنت جاداً ، ومن ذا الذى لا يؤثر أن يكون نمراً على أن يكون ثوراً ؟ أعني أن تكون له قوة النمر وصولته وبطشه ، ولا بأس بالغدر والقسوة أيضاً ، فان لكل مزية ثمنها ، وعسير أن تؤتى فضلاً وأن تسلم من عيب أو نقيصة ؛ وإذا كان ثمن القوة القسوة أو الغدر ، فان ثمن الجمال الضعف ، وهكذا فى غير ذلك

وعلى ذكر ذلك أقول إن الحب عند الحيوان نتزّ ، وهو بين البدو شهوة تغرى بالاستحواذ بالقوة أو الحيلة ، ولكنه فى ظل المدنية يستحيل حنينَ عاجز ، وصبوةَ حائر ، ولهفة ضائع ، ودموع مفؤود ، لا حيلة له ولا دواء من دائه إلا أن يرق له المحبوب ويحنو عليه كما تحنو الأم على طفلها الرضيع . والتماس معانى الجمال فى الانسان والحيوان والأشياء عنوان رقى ودليل على دقة الحس والتميز ، ولكنه أيضاً التماس لمعانى الضعف ، وتطرّ من الانسان ، ونزوع إلى الأنوثة . وهذا كلام أحسب القراء سينكرونه ولا يقبلونه ، ولعل منهم من يتوهمه إغراقاً فى التخيل ، ولكنه الحقيقة — وسبيل المدنية هذا ، ولا حيلة لى ولا لهم .

وأحسب أن فى نفسى أثراً من آثار البداوة ، فانى أحب الصحراء وأكره هذه البنى العالية ولا أرتاح إلى الفرش الوثير ، وأمقت التعقيد وأوثر البساطة فى كل شىء ؛ وقد ارتاب بعض أهلى فى صحة عقلى لما تزوجت ، لا لأنى تزوجت ، فما فى ذلك من بأس ، بل لأنى قلت لهؤلاء الأهل لما أبلغونى أن صاحبهم يأبى أن يزوجنى الصغرى قبل أن تتزوج الكبرى : « قولوا له إنى سآخذها على الرغم منه إذا لم آخذها برضاه »

فعجبوا وقال قائلهم : « كيف ؟ فى أى عصر نحن ؟ أم تريد أن تحدث لنا حدثاً فى الأسرة ؟ »

قلت : « كل ما أعرفه أنى أطلبها وأنى سآخذها — خطفاً أو غصباً أو سرقة — آخذها والسلام ، فقولوا ما بدا لكم ، وظنوا ما شئتم ، ولكنى أنصح لكم أن تردوا صاحبكم إلى الرشد »

فلم يسمع منهم ، فكان أن أخذتها على رغم كل أنف — إلا أنفها ! ولم أخطفها ولم أسرقها ، ولكنى أحسنت التدبير وجودت الحيلة . وما معنى أن أطلب شيئاً فلا أصنع شيئاً ، وأروح أتحسر وأتلهف وأقطع قلبي عليه ؟ هذا كلام فارغ ! والطلب يقتضى السعى ، فاما أن يوفق المرء وإلا فليقصر إذا عزه المطلب ، ولكنها المدنية تحيل النفوس كالورق المبلول ، فمن كان يريغ القوة فليجفف نفسه قليلاً ، وليناً بها عن الترف والرقة

وقد قرأت للكاتب الانجليزى هـ . ج . ولز ، قصة لا أذكر اسمها ، ولكني أذكر أنه يتخيل أن البطل انتقل إلى كوكب آخر أرقى من هذه الأرض ، وأعلى فى درجات الحضارة وأسبق إليها ببضعة آلاف من السنين ، فكان أن ظهرت الانفلونزا ، ففشت بسرعة ولم يدر سكان هذا الكوكب كيف يتقونها أو يصدونها ، لأن جرثومتها لا تجد من أجسامهم مقاومة ، فأخذوا يعزلون المصابين بالطيارات

وهذا فعل المدنية لأنها ترمى إلى التسهيل والتيسير على الانسان والتخفيف عنه ، ورفع مؤونة الكد والتعب ، وهذا مفض إلى التطرّى والضعف . وقد قيل لمشترع الأسبرطى مرة : « ألا تبني لنا سوراً يقينا الغارات المفاجئة ؟ »

فقال : « كلا . خير سور ما كان من اللحم والدم »

يريد أن يقول إن بناء السور من الحجر يغرى بالاستنامة والاطمئنان ويؤدى إلى الضعف ، أما إذا بقيت المدينة بلا سور يحميها فان هذا يبعث على تنبه أهلها ويقظتهم ويدفعهم إلى الاستعداد الدائم ، فلا تضعف نفوسهم ولا تذهب رجولتهم . وهذا صحيح . وقس على ذلك فى سائر الأمور

ابراهيم عبد القادر المازنى

من آثار هوجو

أمبـــــير جلوا

(Jmbert Gallois)

رمز الشبيبة المعذبة

للآنسة النابغة «مىّ»

بمناسبة انقضاء خمسين عاماً على وفاة ڤيكتور هوجو ، سيكون النظر فى كتاباته والتحدُّث عنها من خير الوسائل للاحتفاء بذكراه ، بل هو أحسنها على الاطلاق ، لأن الشاعر يعيش بآثاره لا بما يقول الناس عنه ، ولا بما يصنعون « لتخليد » اسمه

ومن آثار هوجو ما هو خصيص بعصره ، ومنها ما لن يستوعبهُ إلاَّ المستقبل ، ومنها ما هو لكلِّ زمنٍ وكلِّ مكان ، ومنها ما يخيَّل أنه وُضع لأيامنا هذه . ومع أن حكاية أمبير جلْوا من أقل كتابات هوجو ذيوعاً ، فهى أكثر ما تكون انطباقاً على حالة طائفةٍ من الشبان فى هذا العصر ، حتى فى هذه البلاد — مع اختلاف نوع الحافز لانفعال الغرام

ومَن يكون أمبير جلْوا ؟

هو فتىً سويسرى ، ووالده يعلِّم الخطَّ فى مدارس جنيف ، استغواه اسم باريس ، فراح يجرى وراءَ السراب الذى أغرى الكثيرين بأن تلك المدينة العظيمة هى عاصمةُ المغامرة بالمواهب والمضاربة بالحظوظ ، وأنَّ كلَّ لبيبٍ باسلٍ يجدُ فيها المستقبل الذى يستحقّهُ وخلاصةَ ما يصبو إليه من نجاح وثروةٍ وشهرةٍ ومجد . « فمن دخلها بلا حذاء ، خرج منها فى مركبة »

وقد دخلها أمبير جالوا فى اكتوبر ١٨٢٧ ، ومات فيها بؤساً ويأساً فى اكتوبر ١٨٢٨

عامٌ واحدٌ لاغير ، لتحيا فيه جميع الآمال ، ولتخيب فيه جميع الآمال . ويصف هوجو بطله شاباً مديدَ القامة ، محنيَّ الظهر قليلاً ، برّاقَ العينين ، فاحم الشعر ، وردىَّ الوجنتين ، يرتدى رادنجوتاً أبيض ، وعلى رأسه قبعةٌ قديمة . فى الجملة الأولى يتلعثم إذ هو يذكرُ اسمهُ واسم المدينة التى كان فيها طفلاً ، ثم اسم المدينة التى يُريدُ أن يكون فيها رجلاً . هو فى الحادية والعشرين من عمره ، وثقته بنفسهِ أقلَّ من ثقافة فكره ومن خصب جنانه . هو يسعل قليلاً ؛ وبحركةٍ مرتبكةٍ يحاول ارجاع قدميه إلى الوراء تحت الكرسى . ربما ليخفى حذاءَه الرث ذا الخروق ، أو هو يحاول تدفئة قدميه بعض الشىء بعد تسرُّب ماء المطر إليهما من هاتيك الخروق . وبعد الكلمات الأولى يتركّز صوته ، ويتكلَّم بطلاقة ، وتكاد تقتصر أحاديثهُ على شعراء انجلترا . كذلك عرفهُ الرجال الثلاثة أو الأربعة من كبار الكتاب والأدباء الذين رحَّبوا به وشجعوه وساعدوه قدر المستطاع ، مقدرين فكرهُ المشبوب وثقافتهُ وتأدُّبهُ وحسن بيانه

انتابتهُ فى الشهور الأولى حمَّى باريس ، فأراد أن يرى كلَّ شىء ويسمع كلَّ شىء . لم يُعنَ بأهل السياسة والتسوُّس ، ولا بالمتحذلقين الذين لاهمَّ لهم غير « قتل الوقت » والظهور ، ولا بجماهير المتقاطرين لزيارة المكاتب والمتاحف ، بل كان همّه روح باريس الحيّة ، ورسالة باريس الفكرية ، واتجاهات باريس فى تطوُّرها الفنىّ . وحيثُ الجدلُ الأدبىّ واحتكاكُ الآراء فهو موجود ، يساهم فى الحديث والمناقشة ، ويطرحُ أفكاره العديدة لمن يبغى النقد والتمحيص

كذلك كان فى الشهور الأولى . أما فى الشهور الأخيرة فاستسلم لليأس ، وقد ملَّ كلَّ شىء ، وزهد فى كلِّ شىء . أترى مَثَلهُ الأعلى كان أكبر من باريس أم أصغر ؟

ليس من يعلم . إلاَّ أنهُ بات يوماً وقد أعرض عن الحياة ، وكأنَّه قد صمم على الموت بدون انتحار . وكان عارفو مواهبه يمكنونه من مزاولة بعض الأعمال الكتابية التى يسمى إليها ويعيش عليها الألوف ، كتحضير الموادّ اللازمة لتأليف المعاجم ، وجمع المعلومات المقتضاة لتدوين سِير العظماء — العمود الواحد منها بعشرين فرنكا ! فاشتغل قليلاً ثم أحجم . والعلة البطيئة التى لازمتهُ منذ الطفولة أخذت تتفاقم وتشتدّ بسرعة . وقد تلاشت آماله ، واختفت من حواليه رؤى المجدِ المرجوّ ، وامتهن حتى ما تركه من منثورٍ ومنظوم ، لعجز شعرهِ ونثرهِ عن تقديم شىء ولو صورة باهتة من نفسيَّته المتفجّمة . وعندما قضى نحبه فى الثانية والعشرين كان موقناً بأن شيئاً من آثاره لن يبقى

أما ڤيكتور هوجو فيرى أنه كان مخطئاً ، إذ بقيت منه رسالةٌ متقطعة كتبها فى عدة شهور الى أحد أصحابه السويسريين ،

ولا يقتصد هوجو فى إعجابه بتلك الرسالة التى يعتبرها « اعترافاً سرياً من نفس قليلاً ما تشبهُ غيرها ، على حين أنها صورة لجميع النفوس . وهذه هى ميزة تلك الرسالة : فهى الاستثناء الشاذ ، وهى الشيء الشائع المألوف »

* * *

ونشر هوجو الرسالة بنصها المكتمل ، فلم يحذف منها إلا الأسماء مراعاة لأصحابها . والى القارىء فقرات جوهرية من تلك الرسالة التى لا يتسع المجال لنشرها كلها . فى هذه الفقرات ترتسم من أمبير جلوا صورته النفسية ، مع خيال الغرام الواحد الذى عاش عليه الى النهاية :

« اليوم ١١ ديسمبر ، ونحن فى الساعة الثالثة . لقد مشيت ، وقرأت . السماء جميلة ، وأنا أتألم فى تفطر . وصلت باريس فى ٢٧ اكتوبر ، فأنا هنا أذبل وتذهب قواى بلا رجاء . عرفت ساعات وأياماً بتمامها لامس فيها يأسى الجنون . متعباً ، فى انقباض حسىّ وأدبىّ ، متشنج النفس فى هذه الأحياء المليئة بالوحل والدخان ، كنتُ بلا توقف أهيم مجهولاً ، وحيداً وسط جمهورٍ عظيم من الناس يجهل بعضهم بعضاً هم أيضاً »

« اتكأتُ ذات مساء على جدار جسر نهر « السين » ؛ ألوف الأنوار تترامى الى بعيد المدى ، والنهر يجرى ، وكنتُ من الكلال بحيث لم أستطع مواصلة السير . وهناك ، وقد نظر الىّ بعض السابلة كأنى مجنون ، اشتدت علىّ وطأة العذاب فلم أقو على البكاء . أنت فى جنيف كنت أحياناً تمازحنى هازئاً بشدة تأثراتى . وأنا هنا ألتهمها وحيداً ، تلك التأثرات التى تنكل بى ، ولا تفتأ تهتاجنى بلا مهادنة . كل شيء يتعاون على تمزيق نفسى : الاحساس الرحيب المتوالى الذى يُشعرنى بفناءِ زهونا وأفراحنا وأتراحنا وأفكارنا ، وتَزَعزع موقفى ، ورهبة الفاقة ، ومرضى العصبى ، وخمول اسمى ، وبطلان مساعىّ ، وعزلتى حيال عدم اكتراث الآخرين وأثرتهم ، ووحدة قلبى ، وحاجتى الى السماء والحقول والجبال والأفكار الفلسفية أيضاً ، وفوق هذا — أجل ، واهاً ! فوق كل هذا ، الحنين الموجع الى بلاد الجدود . يتفق لى فى بعض الأوقات أن أحلم يقظانَ بكل ما أحببت ، فأمضى متنزهاً فى بلادى أطيل التذكُّر بما قاسيتُ من الآلام فى جنيف ، وبنادر المسرات التى ذقتها هناك . وملامح من أصدقائى وأهلى ، وطيفٌ من مكان قدَّستْهُ الذكرى ، أو شجرة ، أو صخرة ، أو زاوية شارع ، تتخايل لى ، فتنبهنى الى الواقع صيحات سقاء باريسى . واهاً ! كم أتألم عندئذ ! وكثيراً ما أعود الى حجرتى المنفردة عيىّ الجسد والروح ، فأجلس لأحلم أحلاماً مريرة مدلهمة فى بحران وهذيان » . . . « ألا ما أتعس الذى يأسف على ما قد يسارع الى لعنهِ عندما يجدهُ ! ليس لى حتى أن أستمتع بألمى ، لأن روح التحليل قائمة عندى على الدوام تشوِّه كلَّ شيء »

« . . . . . سآمة نفس ذبلت فى سن الحادية والعشرين ، الشكوك القاحلة ، الأسف المبهم على سعادة تراءت لى فى إبهام أيضاً كمجد الغروب على ذرى جبالنا ، أوجاع حسية ، وأوجاع ايديالیستية ، الاقتناع بأن الشقاء متأصل فى النفس ، اليقين بأن الثروة على ما فيها من كثير خير لن تجعل السعادة تامة : هذا ما يفطِّر نفسى البائسة . واهاً ! يا صديقى الوحيد ، ما أتعس أولئك الذين ولدوا تمساء ! »

« ومع ذلك ، يخيل إلىَّ أحياناً أن موسيقى تعزف فى الهواء لسمعى ، وأن ألحاناً شجيةً غريبةً عن أنواءِ البشر تدوى من فلكٍ إلى فلك لتنتهى إلىَّ . ويخيَّل إلىَّ أن ممكنات آلام جليلة هادئة تحط على أفق فكرى ، كأنهار قصىّ الديار فى أفق الخيال . غير أن كل شيءٍ يضمحل بقسوة الرجوع إلى الحياة المحسوسة ، كلّ شيء ! كم مرةٍ قلت مع روسو : « يا لمدينة الوحل والدخان ! كم تعذَّب هنا صاحب تلك النفس الحنون ! وحيداً ، شريداً ، منكلاً مثلى -- ولكن أقلّ شقاء بستين عاماً من عصر جادّ خطير الحوادث — كان فى باريس ينتحب ، وأنا أنتحب . وسيأتى غيرنا ينتحبون . يا للفناء ! يا للفناء !

« . . . إلى الآن لا أربح شيئاً ، مع أن لى أصدقاء مخلصين يجهدون ليجدوا لى عملاً . . . .

« يا صديقى . أعود إلى رسالتى بعد أن بدأتها ، ثم استأنفتها . نحن فى ٣١ مارس والساعة الثامنة مساءً . أكاد أجنّ من فرط الألم ، ويأسى يفوق الاحتمال . تألمتُ اليوم ألماً يكاد لا يستطيع أن يتخيلهُ بشر . ثم داهمتنى الحمى فى هذا المساء ، وما الحمى المحسوسة سوى فضلة الحمىّ النفسية » . . . « اسمع » . . . « قد اكتشفت شيئاً فىّ فعلمت أنى لستُ شقياً بسبب هذا الأمر

أو ذاك ، ولكنّ فيَّ عذاباً مقيماً يتخذُ أشكالاً عدّة . . . أنتَ تعلم أني في جنيف كنتُ أتخيل أني لو نفذتُ إلى باريس كنت سعيداً . وأنا ، ياصديق ، هنا أعاشرُ أكبر الأدباء . . . . وأشعر أحياناً بنشوة الظفر في الأندية والسهرات والاجتماعات . . . وما كلّ ذلك ؟ . . . إن في أعماق حياتي سرطاناً آكلاً . . . منذ شهرين تجمعتْ قوى عذابي على نقطةٍ واحدة ، أخافُ أن أذكرها لك لفرط شذوذها » . . . « ذاك المصدر المركزيّ لآلامي هو أني لم أولد انجليزياً . أتوسل إليك ألا تضحك ، فعذابي مبرح . العاشقون حقاً مهووسون لاعتكافهم على فكرة واحدة تستغرق جميع تأثراتهم . وأنا بعد أن كانت نفسي زمناً طويلاً فريسة جلبةٍ منوّعة ، أنا الآن مهووس أيضاً

« هاك منشأ غرامي بانجلترا : أنت تعلم أني أحب أن أعيش مع الموتى متعرفاً حياتهم السالفة فأقطنها معهم وأسايرهم في أحوال معيشتهم ، وأن أخلق بيني وبينهم تعاطفاً بيسرهُ وهمُّ الزمن ، فلا يستطيع بعدُ أن يزعزعه وجودُ الأفراد . وأجد في انجلترا خمسين شاعراً على الأقل ، زخرت حياتهم بالمغامرات ، وعمرت كتبهم بالفكر وبالخيال . أما في فرنسا فلا أجد ثلاثة . وفيما عدا ذلك ، قد كنتُ أحب من وطني الانجليزي حتى مزاعمهُ اللاغية . ففي مزاعم انجلترا كثير من الشاعرية وكثير من الخيال . وبدلاً من أدبٍ واحد ، فللانجليز آداب أربعة : الأمريكي والانجليزي والاسكوتلاندي والايرلندي ، تُكتبُ جميعاً بلغةٍ واحدة ولكلّ منها خصائص تميزها . فأية ثروة أدبية ! . . .

« يوجد الآن ثلاثون شاعراً بين الأحياء ، كل منهم مستقلٌّ بشخصيته لاينتحلُ طريقةَ غيره ، وكل منهم خصيب . باللثروة ! وبالمغامرات ساڤيج المسكين ، وشلي ! وأيّ عملاق هو بايرون ! كم من كنز عند هؤلاء للنفس التي تحبُّ الفرار من العالم لتلتقي بأصدقائها في مخدعها ! وكم ذا يعتَني الانجليز بكتّابهم ! إنهم يطبعون مؤلفاتهم في جميع الأحجام ، وأي ذوق في طباعتهم ، وكم من الخيال في نقوشهم ! وانظر إلى الأمة نفسها . فذوو السحنة الخسيسة في انجلترا نادرون ندرة ذوي الهيئة الممتازة في فرنسا ! كل مافي تلك الأمة شاذّ . هناك تسود الحماسة في ألف شكل . هناك إلى جانب الآراء الوضعية الأكثر صرامة ، تجد الترهات الأكثر نضارة . هذا بلد يحوي المذاهب الوضعية والنظريات الأيديالستية : فرنسا وألمانيا معاً . هو وحده له من القوة ما يكفي ليفهم كل شيء ، ومن العظمة ما يكفي كيلا ينبذ شيئاً . وأية ذاتية ! إنك لتميز الانجليزي بين ألف شخص . أما الفرنسي فيشبه الجميع . ووفرة الشيع الدينية في انجلترا تثبتُ على الأقل خلوص النية في نفوس تحتاج إلى الرجاء ولم تخففـها الماديات . وشذوذ شبان الانجليز وتهوُّرهم ينم على نفوس يتنازعها القلق » . . .

« أتألم لشعوري بأني في غير مكاني وسط شعبٍ طائش ثرثار ، ملحد ، ماحل ، ذي زهوٍ وبرودة ، في حين أن الدنيا تحوي شعباً متديناً أو متطرفاً في التشكُّك ، ولكنه على الأقل لا يعيش في غير اكتراث ، شعباً تجد فيه الأصدقاء الخلصاء ، والنفوس المتفززة ، وحيث الطيش نفسه ذو نكهة غريبة شاذة وليس له هذه اللهجة الماجنة الفاترة التي تجدها في فرنسا

« في المطعم الذي أتناول فيه طعامي يوجد إنجليز وفرنسيون . ويا للفرق ! جميع الفرنسيين تقريباً مشاغبون صخابون عاديون ، وجميع الانجليز نبلاء محتشمون . وختاماً ، يا صديق ، أظن أن صديقاً يستطيع التحدُّث إلى صديقهِ عن غرامهِ ، لأن انفعال الحب يلاقي صدىً في جميع النفوس وليس فيه ما يستدعي الامتهان . على أن ألمي العارم من الشدة بحيث لا أستطيع التبيان ، ولأنه جد شخصيّ خاص فقد يبدو سخيفاً مزرياً للذين لم يشعروا بمثلهِ . ومع كل ذلك ، فهذا الجنون يشمرني بآلامٍ مروّعةٍ لا تطاق . وكل شيء يرهفها : مشهد شخص انجليزي ، أو كتاب انجليزي ، حتى السخرية الموجهة إلى الانجليز تلتهمني التهاماً ... وهوسي هذا يجعلني أمجّ حتى الطمع في المجد . أودُّ أن أكون شهيراً في انجلترا ، وعليّ لذلك أن أكتب بالانجليزية . . . لو كنت انجليزياً ، بمزاجي هـذا المريض ، لما تألمت دون ألمي الحاضر ، ولكن معنى الألم قد كان يتغير . يخيل إليَّ أني لو ولدتُ انجليزياً لا ستطعت احتمال جميع آلامي . ولو ولدت لورداً انجليزياً من أهل اليسار ، بنفسي ومزاجي كما هما ، لكانت جميع ميولي وجميع أطماعي راضية قانعة ، وعند ما أقارن بين هذا الحظ وحظي الراهن أجن . . .

« استأنفتُ دراسة الانجليزية منذ شهرين بنشاط وحماسة حتى صرت أقرأ الشعر بسهولة . أفكر في الذهاب الى انجلترا

والـكتابة بالانجليزية بعد أعوام . صاحبي ج . ل . يسلفني شعراء البحيرات الانجليز . إنهم يفتنونني . وقد استبدلت بالـكتاب الذي أرسلته أنتَ إليّ مجموعة مؤلفات بارون في مجلّدٍ واحد ، وتلوت فيه قصيدة صغيرة ، « الحلم » ، فـكان لها عندي وقع الصاعقة » . . . « تقول السيدة الانجليزية التي تعطيني دروساً إني بعـد الاقامة بانجلترا عامين اثنين سأجيد كتابة الانجليزية ، لأني منذ الساعة أكتبها كما يكتبها قليلون من الفرنسيين . والواقع أني أنفق نصف نهاري في دراسة الانجليزية

« إن هوسي شديد دائماً ، فيا للضني ؟ وأنّي وجهتُ نظري وجدتُ التباريح . ومسائل العيش عنـدي ما زالت موضوع عذاب . أشتغل الآن في كتابة ترجمة حياة ، ولـكنني في حاجة إلى النقود ، بل أنا في ارتباكٍ عظيم من جراء ذلك » انتهى

* * *

وقد علق هوجو على هذه الرسالة في تبسط ، وبانشائه وبتوسُّمه في اقتناص المعاني والاستشهادات ، مما يتعذّر نقله إلى العربية . إلا أني ألخّص من تعقيبه قوله : « عنـد ما نذكر أن الرجل الذي كتب هذا ، مات عليه ، تأملات من كلّ صنفٍ تنفجر من كل سطر في هذه الرسالة الطويلة . أية رواية ، أي تاريخ ، أية سيرة هي هذه الرسالة ! » . . . « ليست هـذه سيكولوجية تدرسُ على السمع أو على الجثة ، ولـكنها تُدرس في الأعصاب والأنسـجة والعروق ، في اللحم الحيّ ينزُّ دماً ، في اللحم الذي يعول . أنت ترى الجرح وتسمع الصيحة

« كتابة خطاب كهذا في تفطُّر وإهمال وجمال ، دون بؤس كبؤس أمبير جلوا ، كتابة خطاب كهذا بمجرّد مجهود الابداع الأدبي تقتضي العبقرية . أمبير جلوا متألماً يوازي بارون . شيئان يجعلان الانسان شاعراً : العبقرية أو الغرام ، وهذا الرجل الذي كان نثره باهتاً وشـعره فاتراً أصبح في خطابه كاتباً يستدعي الاعجاب . عند ما ينسى أن يطمع في أن يكون شـاعراً وناثراً ، ينقلب شاعراً عظيما وناثراً عظيما . وسيبقى هـذا الخطاب ، فقد اشتمل على خليط قد يكون أدهش من كلّ ما أنتجهُ الى الآن دماغ بشريّ في بابه ، وبتأثير تضاعف الألم الحسيّ والألم الأدبيّ ، والذين عرفوا جالوا يرون تشريحاً رهيباً ، تشريح نفس ، في هـذا الخطاب المتوتر ، المضطرب ، الطويل ، حيث الألم يرشح قطرةً قطرةً مدى أسابيع وشهور ، حيث الرجل الذي يجرى دمهُ ينظرُ الى دمهِ جارياً ، حيث الرجلُ الذي يصيح يصغى الى صوته صائحاً ، وحيث في كلّ كلمة دمعة »

« لاحوادث في هذه الحياة ، ولـكن فيها أفـكاراً . ارو الأفـكار تسرد حياة الرجل . بيد أن حادثاً عظيما يهيمن على هذه الحـكاية المـكدرة ؛ وهو أن مفكراً مات من فرط البؤس ! هذا ما فعلته باريس ، مدينة الذكاء ، بفتيّ ذكيّ . . . »

« . . . أمبير جلوا ليس فقط أمبير جلوا ، بل هو في نظرنا رمز الى طائفة معدودة من شباب اليوم الـكريم . في داخل هـذا الشباب عبقرية غير مفهومة تلتهمه ، وفي الخارج مجتمع سـاءت أوضاعه ، يخنق الشباب والعبقرية . فلا منفذ للعبقرية المحاصرة في الدماغ ، ولا منفذ للانسان المحاصر في المجتمع »

« الذين يفكرون ويتولون الحـكم لا يهتمون في أيامنا قدر الضرورة بحظ هذه الشبيبة الزاخرة بعديد الغرائز ، المتهافتة بحرارة ذكية ، وبصبر واحتمال على جميع اتجاهات الفنّ . جمهور هذه العقول الفتية المختمرة في الظل ، يحتاج الى الأبواب المفتوحة ، والى الهواء والنور والعمل والمسافة والأفق . ما أكثر ما يمكن عمله بهذا الجيش من الفطن ! كم من قناة يمكن حفرها ، وكم من سبيل يمكن تمهيدها في العلم ، وكم من مقاطعة يمكن غزوها ، وكم من عالم يمكن اكتشافه في الفن ! ولـكن ، لا ! جميع المهن مغلقة أو مزدحمة . وهذا النشاط المنوّع الذي يستطيع أن يكون نافعاً مجدياً ، يترك متراكماً ، مزدحماً ، مختنقاً في ضيِّق الأزقة . قد كان هذا الشباب يكون جيشاً ، فاذا به غمارة . إن تنظيم المجتمع سيء حيال المقبلين ، مع أن لـكلّ ذي فكرٍ حقاً عند المستقبل . أليس محزناً حال هؤلاء المتألمين من ذوي العقول ، المستقر نظرهم على الشاطىء المنير حيث كثير من الأمور الساطعة من مجدٍ وقدرةٍ وشهرةٍ وثروةٍ ؟ . . . »

* * *

هذا بعض تعقيب هوجو ، وهو في عطفه شـفيقٌ نبيل . ولهجتهُ في كل هذا التعقيب تحملني على الاعتقاد بأنه عرف أمبير جلوا وأحبّه في حياته . ومن يدري ؟ قد يكون الخطاب موجهاً إليه لا إلى غيره ، وكون أمبير جلوا يرمز إلى الشبيبة المعذّبة صحيح من الناحية الواحدة

١ – لوكريسيا بورجيا

صور من عصر الأحياء

للأستاذ محمد عبد الله عنان

عصر الأحياء — إحياء العلوم — وشروق الأنوار على ظلمات العصور الوسطى ، وتفتح العبقريات العظيمة فى مختلف ضروب النبوغ الانسانى : فى العلوم والآداب والفنون ؛ وعصر المعارك والتطورات السياسية والاجتماعيـــة العظيمة ؛ وعصر اضمحلال المشرق ونهوض المغرب ؛ وذوى الحضارات الاسلامية الزاهرة ونشأة الحضارة الأوربية الحديثـة : ذلك هو عصر الأحياء الأوربى (الرينصانص) الذى ينبثق فجره فى إيطاليا منذ القرن الرابع عشر ، فى تلك الجمهوريات والدول الصغيرة الزاهرة ، التى تسطع تواريخها كاللآلىء فى حلك العصور الوسطى ؛ ثم لا يلبث حتى يغمر معظم أمم الشمال والغرب

ولكنه أيضاً عصر الانقلابات السياسـية والاجتماعية العنيفة ، والشهوات المضطرمة ، والمؤامرات والدسائس المروعة ؛ وعصر المعارك الدينية والفورات المذهبية ، وطغيان الأحبار ، وعصف مجالس التحقيق [1] ؛ وإذا كان يبدو فى إيطاليا من بعض النواحى فى أسـطع وأبهى ألوانه ، فانه يبدو من بعض نواحيه الأخرى فى ألوان قاتمة ، فيما يجرف المجتمع الايطالى يومئذ من عوامل الفساد والانحلال ؛ وغمر اللهو والفجور والترف ، وتدهور معانى الفضيلة والحشمة والحياء ، واضطرام نزعة العدوان والاجرام والشر ، وعلى الاجمال فى تغلب الغرائز والشهوات المادية على المثل الروحية العليا

كان المجتمع الايطالى يومئذ ، كالمجتمع الرومانى فى عصوره الأخيرة ، يسطع بأشعة عظمته الأخيرة ، ويسطع فى نفس الوقت بحياة المجون العاصف ، والترف الناعم

* * *

فى أواخر القرن الخامس عشر تألق فى أفق ذلك المجتمع الايطالى الزاهر ، نجم أسرة جديدة طبعت تلك المرحلة من تاريخ رومة بطابعها الخالد ، وأسبغت مدى حين على المجتمع الرومانى آية من الفخامة والبهاء ، ونثرت عليه ألواناً من المرح الصاخب ، ولكنها بسطت عليه فى نفس الوقت ريحاً من التوجس والخشوع والروع

تلك هى أسرة بورجيا التى اعتلى مؤسسها وعميدها ردريجو بورجيا عرش البابوية باسم اسكندر السادس ، وأنشأ ولده الطاغية الدموى تشيزارى (سيزار) بالسيف والنار مملكة رومانية قصيرة المدى ؛ وأثارت حياة ابنته الحسناء لوكريسيا ثبتاً حافلاً من التواريخ والأساطير الشائقة

لوكريسيا (أو لوكريس) بورجيا ! تلك الحسناء الفاتنة التى تحيطها الروايات المعاصرة أحياناً بألوان ساحرة من البهاء والفخامة ، وأحياناً بألوان مثيرة من الاثم والفحش ، وتصورها أحياناً ملكاً كريماً يسمو عن ذلك المجتمع الرومانى الفياض بالدس والفجور والجريمة ، وأحياناً بغياً سحيقة تنحط إلى أسفل درك من الاثم والرذيلة ، هى نموذج لتلك الشخصيات النسوية الساحرة التى يثير جمالها وسحرها حولها نوعاً من الغموض والخفاء ، فلا يستطيع التاريخ أن يقول فيها كلمته بعيدة عن مؤثرات الرواية والخيال

(١) نقصد بها المحاكم الكنسية التى تعرف خطأ « بديوان التفتيش » (Inquistion)

على أن لهذه الشبيبة نفسها رمزاً آخر ، هو ڤيكتور هوجو نفسه . فقد نشأ مريضاً ، فقيراً ، مجهولاً ، مكروها من أخويه اللذين كانا يحسدانه لمواهبه ، بين أبوين منفصلين ، فكان والده بعيداً لا يعنى بزوجته الأولى وبأبنائه ، فى حين أن الشخص الوحيد الذى يكبره ويحبه ، أى والدته ، أنكرت عليه حقوق عواطفه وحالت دون اتصاله بالفتاة التى جعلت للحياة رونقاً ومعنى عنده

وكان ڤيكتور هوجو باسلاً ، فاحتمل الألم بقوة أقوى من قوة الألم ، واستغل جميع المصائب والمصاعب والحوائل لأنماء شخصيته واستحثاث مواهبه . فكان سيداً فى زمن عصفت فيه الاطماع وكثر فيه السادة والنابهون

إن ما كتبه عن أمبير جَـلوا موضوع تأمل لجميع القارئين . أما حياته وبسالته وانتصاره فمثال لجميع العاملين

« مى »

كانت لوكريسيا ابنة للكردينال ردريجو بورجيا من خليلته الرومانية روزا فانوزا . وكان ردريجو ينتمي إلى أسرة اسبانية نزحت قبل ذلك إلى إيطاليا وسمت إلى بعض الوظائف الكنسية الرفيعة ، وتولى أحد أعضائها كرسي البابوية باسم اسكندر الثالث ، ورقى ردريجو ولد أخيه إلى مرتبة الكردينال . وكانت فانوزا كانتاني فتاة حسناء من أسرة طيبة ، وكانت زوجة لسيد يدعى دى كروشي ، يشغل وظيفة في الديوان الرسولي ، فهام بها الكردينال ردريجو ، وأغضى كروشي عن تلك العلاقة الغرامية لما غمره به الكردينال من صنوف الرعاية والبذل . ورزق الكردينال من خليلته بأربعة أولاد هم : بيدرولويس الذي توفى حدثاً ، وجوفاني (جان) وشيزاري (سيزار) ولوكريسيا ، وجوفرى . وكانت فانوزا تقيم مع أولادها في منزل يجاور قصر الكردينال ؛ ولم تكن علائقهما سراً ، بل كانت أمراً ذائعاً في المجتمع الروماني ، حتى أن فانوزا كانت تدعى فانوزا بورجيا

وعهد الكردينال ردريجو بتربية ابنته لوكريسيا إلى ابنة عمه ادريانا دى ميلا أورسيني ، وهي سيدة رفيعة المقام والخلال يثق بها أعظم ثقة ؛ فبعثت بالطفلة إلى دير القديس سكستوس في وادى « الابنين » على مقربة من رومة ؛ وتلقت لوكريسيا هنالك تربية دينية عميقة ودرست الايطالية والاسبانية والفرنسية واللاتينية والرسم والموسيقى ، وتلقت بالجملة تربية تليق بأميرة عظيمة

وفي سنة ١٤٨٩ ، هجر الكردينال ردريجو خليلته فانوزا واستبدلها بفتاة رائعة الحسن تدعى جوليا فارنيسي ؛ ورأى حرصاً عليها أن يزوجها ، فزوجها بفتى يدعى أورسينوس وهو ابن لابن عمته ادريانا . وكانت لوكريسيا عندئذ في التاسعة من عمرها — لأنها ولدت سنة ١٤٨٠ — وبعد عامين فقط رأى والدها أن يزوجها ، وعقدت خطبتها على فتى نبيل اسباني يدعى الدون شيروبان ؛ ثم ألغيت هذه الخطبة بعد بضعة أشهر فقط ، وعقدت خطبة لوكريسيا على نبيل اسباني آخر يدعى الدون جسبارو ، وذلك في ابريل سنة ١٤٩٢ . وكانت لوكريسيا عندئذ في الثانية عشرة ، وكان خطيبها في الخامسة عشرة

ولم تمض سوى أشهر قلائل حتى وقع حادث عظيم في حياة ردريجو بورجيا . ذلك أنه في ليلة ١١ أغسطس سنة ١٤٩٢ ، انتخب لعرش البابوية ، وتولاه باسم اسكندر السادس ؛ وكان عندئذ في الحادية والستين

وكان اسكندر السادس من أعظم الأحبار الذين تولوا كرسي القديس بطرس ؛ وكان رجلاً وافر الذكاء والعزم ، وافر الدهاء والجرأة ، قوى الشكيمة ، مقداماً لا يحجم عن وسيلة لتحقيق مشاريعه . وكان يعشق حياة المجون واللهو ويشغف بالمرح الخليع ، ويهيم رغم سنه بالنساء الحسان ، ويعيش في بذخ طائل . وكانت مآدبه وحفلاته الشائقة من أعظم ظواهر الحياة الرومانية يومئذ ، ولكنه كان رغم بذخه ومجونه وخلاعته يقبض على مصاير الكنيسة والبابوية بيد من حديد ، ويوجهها طبق ارادته ، ويأخذ بقسط وافر في مجرى الحوادث السياسية العظيمة التي كانت تجوزها الدول الايطالية يومئذ ؛ وكان يقرن مصاير الكنيسة بمصاير أسرته ، ويعمل لمجد أسرته وأولاده ، ما استطاع سبيلاً ، ويعد ابنه الأكبر شيزاري لمستقبل عظيم باهر ؛ وقد ترك لنا الكردينال دى فتربو زميل اسكندر السادس ومعاصره عنه وعن مجتمع عصره تلك الصورة القوية الآتية :

« كان اسكندر ذا ذكاء خارق ؛ وكان بارعاً ، حازماً ، نشطاً ثاقب النظر ، ولم يعمل أحد من قبل قط بمثل براعته ، ولم يقنع بمثل صرامته ؛ أو يقاوم بمثل ثباته . وكان يبدو عظيماً في كل شيء ، في تفكيره وفي كلامه وفي عمله وعزمه ؛ ولو تفتحت المواهب التي يتمتع بها ، ولم تخنقها رذائله العديدة ، لكان أميراً وافر العظمة ، وكان يخيل لمن يشهده في القول أو العمل أنه لم يكن ينقصه شيء ليقود العالم ؛ فقد كان دائماً على أهبة لأن يحرم نفسه متعة الراحة ، وكان يسرف في ملذاته ، ولكنها لم تحل مطلقاً دون حمله عبء الشئون العامة . بيد أنا لا نستطيع رغم انصافه بهذه الخلال أن نقول إن عهده امتاز بيوم سعيد ؛ ظلمات وليل عميقة . ولنضرب صفحاً عن هذه المآسي المنزلية المروعة ، ولكن الاضطراب في الأراضي الكنسية لم يكن أشد وأخطر ، ولم يكن السطو أكثر ، والقتل والعيث في الطرق العامة أروع ، ولم تكن طرق السفر أخطر ، ولم تشهد رومة من قبل قط أياماً أسوأ ساد فيها الشر والجريمة واللصوص ، ولم يكن ثمة حق ولا حرية . كان المال والقوة والفجور صاحبة السلطان والحول ؛ ولم تتحرر ايطاليا من النير الأجنبي إلا يوم

انهار ذلك الطغيان البربري »

***

كان اسكندر السادس أباً رحيما ، يحب أولاده حباً جماً ؛ وكان أول عمل عائلي قام به إثر ارتقائه عرش البابوية ، هو الغاء خطبة ابنته لوكريسيا لدون جسبارو ؛ ذلك أنه لم يبق بعد قريناً كفؤاً لابنة سيد الكنيسة وخليفة النصرانية ؛ وأرغم دون جسبارو على التنازل عن الخطبة نظير مبلغ من المال ، وطرحت مسألة زواج لوكريسيا على بساط البحث كرة أخرى . وهنا تدخلت العوامل السياسية التي أخذت تملي على اسكندر السادس خططه ومشاريعه في تقرير مصير ابنته ؛ ذلك أن صديقه الكردينال اسكانيو سفورزا الذي كان أكبر عون له على ارتقاء عرش البابوية سعى لعقد التحالف بين البابا وبين أخيه لودفيكو سفورزا طاغية ميلان ضد آل أورسيني أقوى أمراء رومة الاقطاعيين ، وحماتهم آل أراجون ملوك نابولي ، ورأى توطيداً لهذا التحالف أن تزوج لوكريسيا من ابن أخيه جان سفورزا أمير بيزارو ؛ وأثمر سعى الكردينال ، وعقد الزواج في رومة في ابريل سنة ١٤٩٣ ؛ وكانت لوكريسيا يومئذ في نحو الثالثة عشرة ، ولكن سجل في عقد الزواج أنها بلغت السن المرغوبة ، وكان جان سفورزا في السادسة والعشرين

واحتفل بزفاف لوكريسيا في قصر الفاتيكان في ١٢ يونيه احتفالاً فخما شهده أكابر الأحبار والأمراء والسفراء ؛ ومثل جان سفورزا على يد وكيله المختار طبقاً لرسوم العصر ؛ وفي المساء اقيمت حفلة شائقة في قصر بلفيدير ، تحت اشراف چوليا فارنيسي خليلة البابا ونخبة من سيدات رومة ، وشهدها اسكندر السادس وأعضاء أسرته . ويصف البابا شاهد عيان لهذا الحفل في قوله : « كان عظيم القامة ، مورد الوجه ، أسود العينين ، يفيض صحة ظافرة ، تمكنه من تحمل أعباء المنصب ، وشؤون الدولة ، وعصف الملاذ ، وكان دائماً متألقاً ظريفاً رقيقاً » . أما لوكريسيا بورجيا فقد كانت عندئذ فتاة صغيرة القد ، وافرة الحسن ، شقراء تسطع كالذهب ، خفيفة الروح والخلال ، دائمة المرح ، يزيد في سحرها الطبيعي القاهر ، مسحة من الحياء ومحيا عذري ، أو كما يصفه بعض الرواة المعاصرين محيا كاثوليكي ، هو مظهر تربيتها الدينية ، وحياتها في الدير ، وتفيض نظراتها رقة ووقاراً »

وأفرد البابا لابنته قصر سان مارتينللو المجاور للفاتيكان ، وعين لها خليلته چوليا فارنيسي وصيفة شرف تقيم معها ، وكان قد فرق نهائياً بينها وبين زوجها ؛ وكانت كلتاهما آية ساطعة من الجمال والسحر ؛ واستمرت لوكريسيا مقيمة في رومة حتى صيف سنة ١٤٩٤ ، وعندئذ حل برومة وباء الملاريا ، فبادرت لوكريسيا الى مغادرة رومة مع زوجها الى قصره في مدينة بيزارو تصحبها في هذه الرحلة والدتها ڤانوزا ، وچوليا فارنيسي ، وعمتها ادريانا أورسيني ، فوصل الركب الى بيزارو في ٨ يوليه . وكانت بيزارو مدينة متواضعة ، ولكن بديعة الموقع تشرف على وديان نضرة على مقربة من الأدرياتيك ؛ وكانت إمارة متواضعة لانقاس بأمارات فيرار ، وأربينو ، ومانتوا وغيرها من الأمارات الزاهرة في ذلك العصر ؛ ولكن لوكريسيا كانت ذهناً رضياً متواضعاً ، فتذوقت حياتها الجديدة بسرعة ، وقضت في بيزارو زهاء عام كامل

ثم استدعتها بواعث الأسرة والسياسة الى رومة ، فعادت اليها مع زوجها بمناسبة زواج أخيها الأصغر چوفري من دوناسانسيا وهي ابنة غير شرعية لألفونسو الأرجوني ملك نابل (نابولي) ، وأقامت لوكريسيا مع زوجها الى جانب أبيها وإخوتها في رومة ؛ وكان اسكندر السادس يحرص على أن يستبقي أولاده حوله في المدينة الخالدة ؛ فكان ولده چان أو دوق جانديا يقيم معه في قصر الڤاتيكان ، ويقيم شـــيزاري في حصن سانت انجلو المجاور للڤاتيكان ، وأخوه چوفري على مقربة منه ؛ وتقيم لوكريسيا وزوجها في قصر آخر مجاور للڤاتيكان

وغدت لوكريسيا وزوجة أخيها سانسيا زينة الحفلات الرسمية والاجتماعية في الڤاتيكان ، وكانت سانسيا فتاة وافرة الحسن ، وافرة الجرأة ، عنيفة الشهوات ، يقال إنها كانت تصطفي العشاق من الأمراء والكرادلة . وأما لوكريسيا فكانت متحفظة ، ولكنها كانت ترغم بحكم الظروف على خوض هذه الحياة الباهرة المنحلة التي كانت تسود قصر الڤاتيكان ؛ وكانت أداة مسيرة في يد أبيها البابا وأخيها الطاغية شيزاري ؛ ولكنها كانت دائماً فياضة المرح فياضة البهجة ، وكانت روح هذه الحفلات الباذخة الصاخبة التي كان يعشقها البابا ، والتي كانت دائماً مثار الأقاويل والظنون

وكان يسود ذلك المجتمع الرومانى الرفيع يومئـذ نوع من الفساد الشامل ، وتغلب فيـه حياة الفجور والمرح ؛ وما قولك بمجتمع يقدم فيه سيده وزعيمه الروحى — البابا — أسوأ المثل الأخلاقية ، فيصطفى الخليلات جهاراً ، وينتزع الزوجات من أزواجهن ؛ ويقتنى فيه شيوخ الدين من كرادلة وأساقفة الخليلات جهاراً ، وتتنقل فيه الزوجات الشرعيات ، زوجات الـكبراء والأمراء بين أحضان العشاق من مختلف الطبقات ، ويغمره ظمأ التهتك والخلاعة ، وينغمـل فى حفلاته وفى مرحه ومجونه كل مظاهر الحشمة والحياء ؟ هكذا يصف لنا بوركارت[1] مجتمع رومة فى عصر آل بورجيا . وقد كان بوركارت يومئذ مدير التشريفات البابوية ، وكان شاهد عيان لـكثير من الحوادث والمظاهر والظروف التى امتاز بها العصر ؛ وقد ترك لنا عن حوادث عصره ومجتمع عصره مذكرات نفيسة سنعود إليها من آن لآخر

كانت لوكريسيا بورجيا من آلهة هــذا المجتمع ؛ وكان يثور حولها من الريب والظنون ما يثور عادة حول « إلـهة » للجمال والحب . هل كانت هــذه الفتاة الشقراء الفاتنة التى لم تجاوز السابعة عشرة من عمرها كما تصورها الرواية المعاصرة بغياً سافلة تتقلب بين أذرع عشاق لا حصر لهم ؛ بل تتقلب بين ذراعى أبيها ـ البابا ! ـ وبين أذرع إخوتها ؟ أم ظلمتها الرواية وبالغت فى اتهامها اعتماداً على ظواهر خادعة ؟ هذا ما سنحاول أن نناقشه فى البحث

للبحث بقية

النقل ممنوع

محمد عبد الله عنان
المحامى

(١) فى كتابه أو مذكراته اللاتينية المسماة Diarium أو «اليوميات»

بين الفقه الاسلامى والرومانى

للأستاذ الشيخ عبد القادر المغربى

رئيس المجمع العلمى العربى

. . . . وقع نظرى على ما كتب أخيراً فى مجلة (الرسالة) بشأن علاقة الشرع الاسلامى بالشرع الرومانى ، وقد كان بعض الفضلاء من الشبان المسيحيين حملة الشهادات الحقوقية العـالية — منذ بضع سنوات — كتب فى (مجلة قضائية) تصدر فى منطقة سورية سمتها السياسـة (منطقة العلويين) وهى متصرفية اللاذقية — كتب فى هذا الموضوع كتابة خشنة تدل على أن القوم يريدون أن يجردوا الاسلام ونشأته من المزايا القدسية . وقد رددت عليه يومئذ بهذا المقال ، وسلكت فى الرد مسلكا ربما أعجب الباحثين لديكم ؟

المغربى

لقينى بعض الأصدقاء فى سوق الحميدية فجذبنى من يدى إلى مخزنه وقال : تعال انظر

وإذا هو يرينى العدد ٢٢ من مجلة « الأبحاث القضائية فى دولة العلويين »

وإذا فى فاتحتها مقال للسيد ميشيل بولص حامل رتبة العالمية (الدكتوراه) فى الحقوق ، وإذا موضوع المقال « الوكالة الدورية » وإذا نتيجة الموضوع — كما لخصها كاتب المقال — ما نصه :

« إن الوكالة الدورية إنما هى طريقة رومانية . وشكل هذه الوكالة وأصولها وكيفية استعمالها هى هى عند العرب المسلمين كما كانت عند البيزنطيين . و « السُّنة » فى الاسلام ما هى إلا مجموعة القوانين الرومانية فى عصر الفتح العربى . وإن المبدأ السارى منذ الأجيال بين علماء الغرب والشرق بأن الشرع الاسلامى مستقل تمام الاستقلال عن بقية الشرائع اللاتينية ـ ليس إلا أسطورة لا أساس لهـا ! ! ! والأحاديث الاسلامية مختلقة اختلاقاً بدليل أن الامام الأعظم أبا حنيفة لم يعترف إلا بسبعة عشر حديثاً من أربعمائة ألف حديث » ـ اهـ

هــذا ما صرح به الأستاذ ميشيل بولص فى بلادنا العربية

وبلغتنا العربية ..فكيف ترونه يقول لو أراد أن يكتب عن الشرع الاسلامى فى بلاد أجنبية بلغة أجنبية ؟

هذا ما قاله عن السنة النبوية بين ظهرانى قوم توفروا من علوم الدنيا على حفظ تلك « السنة » والاستيثاق من صحة أسانيدها، والتقرب إلى الله بخدمتها . ثم بعد هذا كله يقول الأستاذ ميشيل عنهم إنهم لم يعملوا شيئاً سوى انهم أوجدوا للعالم فى السنة نسخة ثانية من مجموعة القوانين الرومانية . فكيف تكون جرأته أو أمانته فى النقل إذا أراد أن يكتب لنا مقالاً فى علم يجهله المسلمون سكان هذه البلاد كل الجهل ؟ ؟

يقول بعضهم : ولكن الكاتب إنما كتب فى مجلة تصدر فى بلاد العلويين للعلويين . وا وطناه ! كأن بلاد العلويين فى عالم المريخ وليست جزءاً من وطننا ؟

وكأننا لسنا على مقربة من بلاد العلويين نسمع ونرى ؟ وكأنه لا يوجد فى بلاد العلويين فقهاء راسخون ، وحقوقيون متضلعون ؟

كأن العلويين إنما سمُّوا علويين من أجل أن يُطعَنوا فى كرامتهم ، ويُساوَمُوا على إسلاميتهم !

وأية كرامة تبقى إذا قيل لهم : إن « علياً » الذى اشتق اسمكم من اسمه الكريم ما كان يقاتل ويناضل لأجل تأييد سنة الاسلام ، وإنما كان يقاتل ويناضل من أجل تأييد سنة « يوستينانيوس » ملك الرومان ؟

وبعد ، فاذا اقتضت حالة الرومانيين الاجتماعية أن يستندوا فى بعض معاملاتهم على « الوكالة الدورية » فقرروا أحكامها فى قوانينهم ، ألا يوجد فى الاجتماع الاسلامى حالة تشبه تلك الحالة تستدعى تقرير أحكام الوكالة الدورية فى فقه المسلمين أيضاً ؟

لا جرم أن طبائع الأمم والشعوب وأخلاقها وأطوارها مترشحة من ينبوع « الانسانية » الأعظم .

والانسانية مهما اختلف أبناؤها فى ظواهر الاجتماع ، يبقون متحدين فى جواهر الأخلاق والعادات والطباع

والشرائع سواء أكانت سماوية أم وضعية إنما تستند إلى هذه الأخلاق والعادات ، فكثيراً ما تشابه الشرائع بين الأمم بسبب تشابه الأمم نفسها فيما ذكرنا من الأخلاق والعادات

فاذا وجدنا فى الشريعة الاسلامية أحكاماً تشبه أحكاماً مقررة فى الشريعة اللاتينية مثل « إن البيع يتم بإيجاب وقبول » لا ينبغى لنا أن نتسرع فى الحكم بأن الشريعة الأولى اقتبست من الشريعة الثانية مباشرة ، ولا سيما إذا كان هنالك أسباب جوهرية تدل على عدم إمكان هذا الاقتباس .

إذ كيف يتصور من أئمة الاسلام الذين حرموا التصوير ابتعاداً عن الوثنية — أن يقتبسوا أحكاماً مدنية من شريعة وثنية ، وهم يعتقدون أن العمل بهذه الأحكام المدنية عبادة يتقرب إلى الله بها كما يتقرب إليه بممارسة الصوم والصلاة !

خلفاء الاسلام إنما رحبوا بالفلسفة اليونانية لأن نظرياتها لا رائحة للديانة الوثنية فيها . أما الآداب اليونانية والميثولوجيا والتمثيل والأيلياذة والفنون الجميلة فلم يجرؤ الخلفاء على ترجمتها إلى لغة الاسلام ، وذلك لأنها مشبعة بروح الوثنية ، ومشربة بروح عقيدة تعدد الآلهة . فهل يعقل أن يجرؤ أئمة الاسلام الأتقياء الورعون على انتحال شرائع وثنية تتعلق بالحلال والحرام ، ويدخلونها فى فقه الاسلام ، وهم يعتقدون أن كل حكم شرعى لا يستمد من محمد (ص) وقرآنه وسنته باطل بل كفر .

كل إمام من الأئمة الأربعة كان يبرر نفسه رافعاً صوته أمام الجماهير من المسلمين بأن مذهبه وسنده فى استنباط الأحكام إنما هو القرآن وحديث النبى (ص) الذى ثبتت صحته ، وإلا فانه يقيس الحكم على حكم آخر مستنبط من حديث يطمئن اليه قلبه

بهذه الصورة من الاخلاص والورع والتمسك بتعاليم محمد (ص) حاز الأئمة ثقة المسلمين كلهم ، فوقروهم وعظموهم وقلدوا مذاهبهم ولم يعولوا على غيرها من المذاهب

وقد بلغ الورع فى هؤلاء الأئمة حداً لم يقع مثله فى أمة من الأمم . حتى إن أبا حنيفة سجن وضرب ولم يتول القضاء مذ بلغه أن نبيه قال : « من تولى القضاء فكأنما ذُبح بغير سكين » ؛ وأحمد بن حنبل لم يأكل البطيخ طول عمره لأنه لم يبلغه كيف كان نبيه (ص) يأكله : أيقطعه بالسكين ويتناوله قطعة قطعة ، أم يمسك الحزة بيده ثم يتناولها بأسنانه ؟

أئمة هذا ورعهم وتشددهم فى تقليد نبيهم فى الأشياء المباحة ؛ أيتصور فى العقل أن يحيدوا عن شريعته الى الشريعة الوثنية ، شريعة الأمبراطور الرومانى « يوستينانيوس » فيستندون اليها فى تقرير أحكام الحلال والحرام التى هى الطريق الوحيد الى الجنة

والنار ؟ وقول الأستاذ ميشيل إن أبا حنيفة لم يعترف إلا بسبعة عشر حديثاً ليس معناه ما ظن . وإنما المعنى أن هذه الأحاديث القليلة هي التي بلغت في الصحة والثبوت ما يقرب من درجة القرآن . وإلا فإن بقية الأحاديث الأخرى لها درجتها . وبحسب هذه الدرجة تستنبط منها أحكام ليست في وجوب العمل بها كوجوب العمل بأحكام الأحاديث التي ثبتت صحتها عند الامام أبي حنيفة ، بدليل أن تلاميذ هذا الامام (أبو يوسف ومحمد وزفر) الذين دونوا فقهه وشرحوا مذهبه كانوا يعتمدون في استنباطهم على أحاديث أخرى غير القليل الذي اعترف به أبو حنيفة بعد أن يعرضوها على قواعد فن « مصطلح الحديث » . على أنه لو فرض أن أبا حنيفة لم يعترف إلا بأحاديث قليلة لكان ذلك من أدلة ورعه وحرصه على متابعة نبيه (ص) ، فهو يخشى أن يعمل بحديث لا يثق بصدوره عن النبي ، وهذا هو السبب في انكاره الكثير من الأحاديث ، فهو قد أنكرها تورعاً وخشية ألا يكون تابع النبي (ص) ، ولم ينكرها استهتاراً وجنوحاً الى شريعة الرومانيين الوثنيين

أحاديث مروية بالسند : فلان التابعي الجليل عن فلان الصحابي الكريم ، ولكل واحد منهم ترجمته وسيرته ، يتورع أبو حنيفة فلا يثق ببعض ماروى عنهم ، ثم هو بعد ذلك يجيز لنفسه العمل برواية بطرس عن فيلبوس عن نيقولاوس عن الملك « يوستينانيوس » ! ! ! سبحانك هذا بهتان عظيم !

لما فتح المسلمون البلاد التي كانت خاضعة للرومانيين وجدوا لأهلها عادات راسخة ، وأحكاماً متوارثة ، فأقروهم عليها ، وبعضها ينطوي تحت أصول الاسلام الثابتة بالقرآن ، وعمل النبي (ص) والصحابة : مثل « العادة محكمة » « المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً » ، « لاينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان » ، « استعمال الناس حجة يجب العمل بها » ، « التعيين بالعرف كالتعيين بالنص » فاذا اعتبر أئمة الاسلام تلك الأحكام اللاتينية التي يعمل بها سكان تلك البلاد وأقروهم عليها ، ثم دونوها أو دونوا نظائرها في كتبهم الفقهية ، لايكون ذلك منهم اعترافاً بشرائع اللاتين وإذعاناً لها ، وإنما هو منهم عمل بأحكام مستندة الى القواعد الاسلامية من القرآن وسنة النبي (ص)

وهم كما دونوا في كتبهم الفقهية أحكاماً تشبه الأحكام الرومانية دونوا أيضاً أحكاماً تشبه أحكام شرائع الفرس والترك والتتار الطورانيين وغيرهم من الأمم التي فتحوا بلادها

فمن جملة القواعد في مجلة الأحكام الشرعية :

« إن الحاجة سواء كانت عمومية أو خصوصية تنزل بمنزلة الضرورة ، ومن هذا القبيل تجويز « البيع بالوفاء » فانه لما كثرت الديون على أهالي بخارى جوزت هذه المعاملة لداعي الاحتياج » ا هـ . فهل يقوم أحد من الكماليين فيزعم أن « البيع بالوفاء » شريعة طورانية عمل بها أئمة الاسلام كما عملوا « بالوكالة الدورية » التي هي شريعة رومانية في رأي الأستاذ ميشيل !

إذا رأينا الشاعر العربي « معروف الرصافي » وافق « كيبلنغ » الشاعر الانكليزي في بعض معانيه الشعرية المبتكرة فهل يسوغ لنا أن نقول إن ديوان « معروف » هو نفس ديوان « كيبلنغ » مع أن شاعرنا لا يعرف الانكليزية ، ولا عاش في وسط انكليزي ولا اجتمع بكيبلنغ ولا برواة شعره ، وإنما هو توارد الخواطر

ونحن إذا راجعنا تاريخ حياة أئمة الاسلام نراهم قد عاشوا في محيط اسلامي محض : الكوفة ، وبغداد ، ومكة ، والمدينة ؛ نعم سكن « الشافعي » مصر ودفن فيها ، لكنه جاءها قبل وفاته بنحو خمس سنين

فأئمتنا ما عرفوا لغة لاتينية قط ، ولم يدرسوا فقهاً لاتينياً قط ، ولم يعاشروا مشترعين لاتينيين قط ، ولو لوحظ من أحدهم شيء من ذلك لسقط اعتباره وتحاماه المسلمون ، ولما كان اماماً واجب الاتباع

ومن العجب قول الأستاذ ميشيل إن « السنة » في الاسلام ما هي إلا مجموعة القوانين الرومانية ؛ إذن كان محمد (ص) عضواً في مجلس العشرة الذين جمعهم الملك « يوستينانيوس » تحت رياسة الفقيه الروماني « تريبونيان » فقام في الحجاز وانتحل ماتعلمه من القوانين الرومانية التي وضعها المجلس الروماني وبشر بها المسلمين ! ! !

ذكرت بهذا ما كنت سمعته من القوماندان الفرنسي « ميلانجو » مدير مدرسة الترجمة في دمشق (وقد توفي) — قال لي : إن بعض أهل بلادنا (يعني الأوربيين) يتحدثون أن « محمداً »

كان أسقفاً مسيحياً ، فطمحت نفسه الى رتبة كهنوتية فوق رتبته ، فغضب عليه البابا فحرمه ، فادعى النبوة نكاية به ! ! !

قال لى المرحوم ميلانجو هذا القول مستغرباً مستحياً بعد أن عاشر فضلاء المسلمين فى الجزائر ودمشق ، وفهم حقائق كثيرة عن الديانة الاسلامية جملته على قاب قوسين من اعتناقها

والأعجب من قول الأستاذ ميشيل السابق قوله الآخر : « إن الأحاديث الاسلامية مختلقة اختلاقاً » ، أى إنها كلها مكذوبة على النبى

لكن أيصح من حضرته هذا الحكم الجائر على الأحاديث لوجود طائفة من الأحاديث موضوعة مكذوبة ؟

إن دعواه هذه كدعوى أحد المسلمين أن الأناجيل الأربعة باطلة لا أصل لها ، لأن هناك أناجيل وهى المسماة « أبو كريف » موضوعة لا أصل لها ! !

والعجب الثالث ، (وهو لعمرى مثار للدهش أيضاً) قول الأستاذ ميشيل :

« إن المبدأ السارى منذ الأجيال بين علماء الغرب والشرق بأن الشرع الاسلامى مستقل تمام الاستقلال عن بقية الشرائع اللاتينية ، ليس إلا أسطورة » ! !

إذن قام الأستاذ ميشيل فى « وجه علماء الغرب والشرق » يفهمهم حقيقة يجهلونها ، ويبرهن على كذب أسطورة يزعمونها وهى أن شريعة الاسلام شريعة لاتينية ! !

أدرك هذا هو وحده ، وجهله علماء الشرق والغرب ! ! وإذن يحق لى أن أنسحب من ميدان البحث وأترك الكلام فيه لعلماء الشرق والغرب ، فلعل فيهم من يقدر بزلاقة لسانه ونصاعة بيانه أن يقنع حضرة الأستاذ ويفهمه خطأه

إلى هذ الحد يجهلنا ابن وطننا الأستاذ ميشيل بولص ويجهل تاريخنا الدينى ؟

أيصح لأبناء أمة واحدة ، فى بقعة واحدة ، أن يجهل بعضهم بعضاً كل هذا الجهل ؟

وأخيراً أقول : إن ابن وطننا الأستاذ ميشيل لم يسىء الى الأمة الاسلامية وكرامتها ، بقدر ما أساء الى « الدكتوراه » وشهادتها .

عبد القادر المغربى

الجمال فى الشعر والحب

(المرأة)

للأستاذ الحومانى

صاحب مجلة العروبة البيروتية

الجمال وحى الطبيعة يُلهمه الشاعر من أبنائها ليكون صلة بينهم وبين المثال الأعلى فى الحياة . فهو رسول أمه الطبيعة يرسل بنات أفكاره إلى قومه فترفع بيمينها حجاب الغفلة عنهم ، ثم تمر بها على أعينهم فتمسح عنها غشاء الجهل ، وتقابلهم بيسارها بمرآة الحياة فيتبينوا فيها من نفوسهم الماثلة رموزاً تشير لهم إلى مُثل الحياة العليا

والشاعر ينشد الجمال فى كل شىء فيفتتن بكل جزئى منه ، ولكنه أشد افتتاناً بما هو إلى الروح أقرب منه إلى المادة ، ولا أقرب إلى الروح من هذا الذى يشاركه الشعور بالحياة وينشد معه ذلك الجمال

يفتتن بالمرأة التى هى رمز الجمال التام فى الحياة ، يفتتن بها للجمال ، ويفتتن لها بكل مافى الحياة من جميل يشعر به . فالجمال التام علة لفتنة الشاعر بالمرأة ، أما المرأة فهى علة لفتنته بكل مايشير إلى هذا الجمال الكلى من جمال جزئى فى نبات أوجماد ، فالشاعر ينشد الجمال فى الحياة ولن يظفر به كما يشاء إلا عن طريق الحب :

وهل المرأة إلا رمز الحب الخالد ؟

الشاعر كالطائر يحلق فى أفق الجمال ، وكما يقع الطائر على الشجر يفتش عن الثمرة الناضجة ليتقوّم بها ، حتى إذا بلغها وقف حيالها يداعب الروض من على فننه ، هكذا يقع الشاعر على المرأة إلـهة الجمال يستلهمها الشعر فيشخص اليها وهى بعينه تمر على وجهه بيدها البضة ، وتمسح عينيه ببنان يحس روحها من ورائه ترف على أهدابه

فهو من أجلها « يصعد الرابية ، والقمر يهبط من عليائه ، فيفترش الترب ، ويتوسد الصخر ، يصغى إلى نجىّ الكواكب فيستوحى منها الشعر ثم يلهمه الطبيعة ؛ حتى إذا تنفس صبحه ،

وهبط إلى الأودية فهام فيها عائماً فى بحر ضبابها ينشد هذا الجمال ، وقفت به آلهة الشعر بين الرياض ، والصبح لما تخمد أنفاسه ، فأحنى على الورد بلثمه ، وعلى النرجس يمسح دمعه ، يضع خده تحت الزهرة ويده فوق كبد يكاد يعصرها دماً ينحـدر على وجناته » (١)

وهو من أجل آلهتـه تلك « يمسك الماء ، ويقبض على الريح ، سعياً وراء الجمال فى الحياة ، وهو هائم به ، ولعله الروح التى تخفق بين جنبيه ، والشعر الذى يحوم على شفتيه »

يستحيل على الشاعر ، وهو رسول الجمال ، أن يكتم شعوره ، فما بينه وبين إبلاغ رسالته إلا أن يشعر ، وربما بلغ هذه الرسالة بدمعه :

وإذا الحزين بكى ولم يك شاعراً فالشـعر ما نطقت به عبراته

« أو ما تراه ، وقد جلس إلى ظل سرحة ، أو إلى جنب صخرة ، على رابية يراقب منها نزاع الشمس بين يدى المغيب ، فتحس كأن شعوره يغيب معها فى ظلمات الحزن ؟ ؟ ؟

وقد يحنو على الزهرة فى حر الظهيرة يقيها لفح الهاجرة بنفسه ، فكلما ألوى بها الذبول شاطرها جفاف الرونق وشحوب اللون ، وربما لصقت بالأرض فغسلها بدمـعه وود لو واراها فى حنايا ضلوعه »

ذلك هو الشاعر الصامت ، لم يخلد بشعره لـكن بروحه الشاعرة ، ولم يشعر بلسانه لـكن بقلبـه المتفجر عيوناً تفيض بالدمع على خديه

يفتن الشاعر فى وصف المرأة وتأثير جمالها لا ليعلن هذا الجمال الى الملأ ولا ليلفت إليه نظر الغافل عنه فحسب ، وإنما يريد بذلك الى تأدية ما حمل من أمانة ، أن ينادى على جمال نفسه بما أدرك من جمال ، ثم ليثبت فى نفس السامع ما يحمله على عذره فى الهيام به ، من أجل ذلك يعمد فى وصفه الجمال الى التفصيل دون الاجمال

فلن تستطيع أن تبث فى نفس سامعك دعاية لهذا الجمال وأنت تجمل فى وصــفه حتى تأتى على جزئياته مفتناً فى إثباتها على مرآة النفس الشاعرة عن طريق القلب

(١) هذه القطعة وما يليها من القطع المقوسة مقتبسة عن كتاب المآسى (للحومانى) صاحب المقال

فليس لقول القائل :

أبصرت دون شـعاب مكة مصبحاً
سبعاً أجزن وكلهن جميل

من التأثير البالغ فى نفس السامع ما لقول الآخر :

وتملـكت قلبى ثلاث كالدمى زهر الوجوه نواعم الأبدان

للفرق بين اجمال الأول ، وتفصيل الثانى

وقد يفتن الشاعر فى وصف من أحب لمجرد البث والتغلب على اليأس بما يكون للنفس عزاء وسلوة

وقد يشعر بما يحب للشعر ، كما قد يحب فيما يشعر للحب

وليست ميزة الشاعر فى النداء على جمال من يفتن فى وصفها وإنما الميزة فى اثبات ذلك الجمال فى نفس السامع والذهاب بها فى اللذة مذاهب تتركها وقفاً على جمال ما تسمع حتى كأنها تنظر إليه وتلمسه وتشمه فتشعر به شعور من وقفها عليه ، وليس فى ذلك للاجمال يد طولى وهو يمر بالنفس لمحاً بينما الشـعر يمعن فى تمكينها منه عن طريق التفصيل

أفلا تبصر قوله :

بالذى ألهم تعـــذيـ بى ثناياك العِـــذابا
والذى ألبس خـــديـ ك من الحس نقابا
والذى أودع فى فيـ ك من الشهد رضابا
والذى صير حظى منك هجراً واجتنابا
ما الذى قالتـــه عينا ك لقـلبى فأجابا ؟

كيف يهز النفس بما فيه من روعة لم تكن لتتوفر فى كلماته لو أجمل فقال :

بالذى أفرغ فى قا لبك الحسن العُجابا
ما الذى قالتــه عينا ك لقلبى فأجابا ؟ ؟ ؟

فان فى تعداد جزئيات الجمال فى الأبيات الأولى ما يشغل النفس فى تصورها ، فيثبت فيها جمال الوصف والواصف ثم الموصوف آخر الامر ، وهى فى مجموعها مصداق البيت الأول من البيتين الآخرين وهما كما ترى

تحب فى المرأة وأنت شاعر خلاف ما تحبـه منها وأنت لا تشعر ، فالشاعر يحب المرأة لجمالها الذاتى ، وغيره يحبها لجمال

مايحف بها ، فقد يعبدها الغبيُّ لمالها ، وقد يستغويه ما يمت بها الى نسب عريق ، وربما كان علمها سبباً فى أسر هواه ، أما الشاعر فلم يكن ليحب المرأة يغمرها المال ، ويزهوها النسب ، ويسمو بها العلم ، وهى بعيدة عن روحه الهائمة بالجمال . ومقياس هذا الشعور به شدةً وضعفاً تجده فى جمال من يحب كمالاً و نقصاً

فان تستطيع أن تحكم على الشاعر بمثل ما يهيم به من جمال ، ولـكنك ، وأنت تحكم عليه ، يجب أن تكون شاعراً لئلا يفوتك من أسرار الجمال ما تشعر به وأنت غافل عنه

فقد يقف فى طريق الشاعر الى حب المرأة أن يشم منها ما يكره ، وهى قطعة من جمال الحياة ، روحاً وجسداً لولا أنها أهملت جسدها أن تتعهده بالنظافة فكان ذلك حائلا دون خلوصه الى روحها إذ كان نقصاً بيناً فى جمال هذه الروح

وربما هام الشاعر بالمرأة ، وهى ناقصة الجمال ، لتضاؤل مايبدو من نقصها فى عينه إلى جنب ما امتازت به من جمال يأخذ العين والأذن بما فيه من سحر ، فهو إذ ذاك أعمى عن كل ما ينقصها لما تفتن فى تنمية هذه الناحية فيها وصرفه عن الشعور بما عداها

وكثيراً ما تستطيع المرأة أن تسبغ جمال روحها على ما يشين جسدها من قبيح فتتغلب على شعور الهائم بالجمال بما امتازت به من خصائص النفس ، فللشاعر إذ ذاك العذر فى قصر هواه على جمالها الناقص

وله هذا العذر أيضاً فى محيط نماه وليس فيه من ربات الجمال التام من يهيم بها فلجأ إلى الجمال الناقص يهيم به ويسبغ عليه فنه الخالد إذ كان هو الجمال التام عنده

وهكذا هو مع المرأة التى مُنيَ بها قبل أن يشعر وهى ناقصة الجمال ، فلما دق شعوره بالحياة نظر إليها نظرة شاعر فوقف منها على ماخفى عنه من قبل ، ورأى أن فى العدول عنها عذاب الضمير ثم التياث الغرض من وراء ذلك كله ، لحمل نفسه على القنوع بها وأغضى عما يعترضه من جمال خارج ، فكانت هى عروس خياله تجلو عليها آماله وينفحها من شعره بما تخلد به إلى جنبه

الحوماني

مستشرق اسـبانى

فى طليعة علماء أسبانيا الحديثين يظهر اسم جوليان ريبيرا العالم البحاثة المؤرخ المتغلغل فى قلب تاريخ أسبانيا فى جميع أطواره ومراحله . وهو متضلع من اللغة العربية ومطلع كل الاطلاع على تاريخ آدابها وله فيها أبحاث جليلة . وليس ريبيرا من اللغويين الذين يقصرون هممهم على درس قواعد اللغة العربية شأن أكثر المستشرقين الأسبان باستثناء العالمين غايانكوس و كوديرا ، بل جاوزه إلى التاريخ والثقافة العربية فعني بهما عناية البحاثة المدقق والعالم المحقق

اعتبر ريبيرا أن للتاريخ الاسلامى كما لتواريخ بقية الأمم وجهين . السياسى والأدبى . وقد اكتفى المستعربون الأسبان قبل ريبيرا بدرس الحوادث السياسية دون أن يهتمُّوا بسواها . وان لهذا الاهمال عذره وأسبابه ، فالبحاثة التاريخى يبدأ بدرس الناحية السياسية لأن حوادثها أكثر وضوحاً وأسهل درساً وأقرب منالاً من درس تاريخ الثقافة وكيفية نشوئها وتطورها مما يقتضى البحث فى أخلاق الأمة وعاداتها وطرق معيشتها ونظمها الأدبية والاجتماعية والدينية لـكى يتمكن من تفهُّم ما نعبّر عنه بكلمة — تمدن — التى هى لباب التاريخ ، ولـكى نتوصل إلى الالمام بكل هذا وجب علينا أن نبدأ بما هو أبسط وأجلى وهو الوجه السياسى أى الخارجى

إن درس التاريخ يخضع للقاعدة ذاتها التى يخضع لها درس الفلسفة ، إذ لا يمكن البحث فيما وراء الطبيعة إلا بعد فهم علم الطبيعة . وعلى مَن شاء درس تاريخ التمدن درساً وافياً أن يكون مراقباً بصيراً ومدققاً حصيفاً يتمكن من فهم الحوادث وتمحيصها وغربلتها ، لأن الحقيقة كثيراً ما تختفى وراء نقاب شفاف من الظواهر الخدَّاعة . وينبغى له أن يكون ذا قدرة على جمع الحوادث ووصلها واستنطاقها والمقابلة بينها . وأخيراً أن يكون ذا ضمير حيّ فيما يرتئيه ويعلله

لم يقدم ريبيرا فى أواسط القرن الماضى على درس تاريخ التمدُّن الاسلامى الشرقى عامةً والأندلسى خاصةً إلا بعد أن

اجتمعت فيه كل هذه الصفات الأساسية الضرورية ، فولج وحده هذا الباب الذى لم يطرقه عالم قبله . وبعزيمة صادقة توغل فى مجاهل هذا البحث واكتشف حقائق كانت مجهولة أودعها كتبه القيّمة التالية : « تاريخ التدريس فى الاسلام » . « تاريخ المكاتب والمدارس فى الأندلس » . « تاريخ مدارس الفقه فى الاسلام » . « تاريخ الفلسفة الاسلامية » . « تاريخ شيوع اللغة الأسبانية بين عرب الأندلس » . « تاريخ أصل الشعر الغنائى والشعر الحماسى » . « تاريخ الموسيقى العربيـــة وتأثيرها على الموسيقى الاسبانية »

وكنى بهذه المؤلفات شهادة على تفوق ريبيرا فى التاريخ الاسلامى ، وعلى جهوده التى محله فى المقام الأول بين كل العلماء الذين عنوا بدراسته . ويمتاز ريبيرا على كثير من هؤلاء بأنه شق لنفسه طريقاً جديدة فى أبحاثه ، غير مقتف آثار من تقدموه من البحاثين الذين يتتبعون خطوات من تقدموهم ، ويحتذونهم فى كل شىء تقريباً . ولاغرو أن يتبوأ أحد المراكز الأولى بين العلماء الذين درسوا التاريخ والآداب الاسلامية .

ومن أظهر مميزاته تحرى الحقائق المدعمة بالبراهين ، واثباتها بعد أن يحللها تحليلاً عقلياً منطقياً . وحجتنا على هذا أبحاثه فى التعليم الاسلامى فى الشرق والأندلس ، فهى تطلعنا على أنه كان مقيداً وخاضعاً للسلطة فى الأقطار الشرقيـة الاسلامية ، على حين كان حراً طليقاً من كل رقابة فى الأندلس . وترينا أن أسلوب التعليم الاسلامى كان فى عهده قدوة ومثالاً للتعليم فى مدارس أوربا المسيحية التى أخذت عنه رتبها وألقابها وتنظيم صفوفها وطريقة امتحانها

وإذا كان قد درس باسهاب كيفية تأسيس القضاء وتنظيمه فى مملكة أراغون ، فلكى يبرهن أن نظامها القضائى ككثير من الأنظمة القضائية نسخته اسبانيا المسيحية عن الاسلام ، كما أن شكل القضاء فى الاسلام هو نسخة طبق الأصل عن نظام القضاء الفارسى القديم . وما درس موشحات « ابن قزمان » التى هى منبع الأغانى العربية الاسبانية إلا لكى يفتش بين تقاطيعها وأوزانها وتراكيبها ومعانيها عن المثال الذى نسجت على منواله الأغانى الاسبانية العامية المعروفة « بالبروفينسيال » . وقد كان مؤرخو الآداب الاسبانية يعتبرون هذه الأغانى وليدة بيئتها حتى جاء ريبيرا وكشف عن حقيقة أصلها العربى الأندلسى ؛ وقد أوصلته أبحاثه الى الاكتشاف ذاته فيما يتعلق بالقصائد الفرنسية الحماسية ، إذ أن أقدمها عهداً هو أحدث من الملاحم الأندلسية ، فضلاً عن التشابه الموجود بين أبطالها ومواضيعها ، وأبطال ومواضيع الشعر الحماسى الأندلسى الذى نبشه ريبيرا من بطون النسيان ؟

(العصبة) أديب سعاده

١٤ ـ قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

بستور Pasteur

صلة حديثه

وصل الفائت: أثبت بستور أن تخمر عصير العنب وفساد اللبن واللحم مرجعها كلها إلى وجود أحياء صغيرة يحملها تراب الهواء، وانه كلما قل تراب الهواء قلت الأحياء التي فيه حتى تكاد تعدم. واليوم نقص كيف طبق علمه على حالتين ونجى به صناعتين كان مآلهما الخراب: صناعة الخمر وصناعة الخل، فأثبت للناس كيف يلبي العلم دعاءهم فى شدة المحنة وظلمة اليأس

وبدأ مرة أخرى يُرى فرنسا كلها كيف يستطيع العلم أن يوفر المال لصناعاتها. فحزم صناديق ملأى بالأوانى والأجهزة الزجاجية، وحزم معها مساعداً نشيطاً من مساعديه اسمه «ديكلو» Duclau، وسافر مسرعاً إلى بلده القديم «أربوا» ليدرس أمراض الخمور وما نزل بهذه الصناعة من الدمار. واتخذ معمله فى مكان مقهى عتيق. واكتفى عن مصابيح الغاز بموقد من الفحم النباتى قام «ديكلو» عليه بؤجج جمراته بمنفاخ فى يديه شغله طويلاً فى غير ملل أو كلال. وكانا كلما أرادا الماء ذهب «ديكلو» إلى مضخة القرية يستقى منها. أما ما احتاجوه من الأجهزة فصنعه لهم نجار القرية وسمكاريها فى غير أناقة كبيرة، وذهب بستور إلى معارفه الأقدمين يسألهم بضع زجاجات من الخمر، من الخمر المرّة والخمر الهلاميّة، والخمر الزيتية، واختصاراً من كل خمر فاسدة مريضة. كان بستور قد أيقن من أبحاثه السابقة أن الخمائر هى التى تصنع من عصير العنب خمراً، فلما جاء اليومَ يبحث أدواءها وقع فى نفسه أن هذه الأدواء لا بد ترجع إلى أحياء مكرسكوبية أخرى

وما أسرع ما تحققت نبوءته! فما كاد يصوّب عدسته إلى الخمر الهلامية حتى وجدها تعجّ بمكروبات جديدة غريبة غاية فى الصغر يتصل بعضها ببعض كالمقد النظيم. ونظر إلى الخمر المرّة فوجدها مليئة بنوع جديد من الأحياء. ونظر فى الخمر الفاسدة الأخرى فوجد بها أحياء أخرى. ثم جمع زرّاع العنب وصنّاع الخمر وتجار الأقليم، واعتزم أن يفتنهم بسحره

صاح فيهم: «هاتوا لى ست زجاجات من خمر أصابتها ستة أمراض مختلفة، ولا تخبرونى بنوع مرضها، وأنا أدلكم عليه بالنظر اليها». فلم يصدقه منهم أحد، وتغامزوا وتلامزوا عليه وهم فى طريقهم إلى إحضار خمورهم المريضة، وضحكوا من أجهزته الغريبة فى ذلك المقهى القديم، وتفاكهوا بحاله تفاكههم بمخبول جادّ غير هازل. وجاءوه بين الخمور المريضة بخمر صحيحة ليخدعوه ويُضلوه. فقام فيهم يملأ قلوبهم عجباً وإعجاباً. فأخذ أنبوبة دقيقة من الزجاج وأدخلها فى إحدى قوارير الخمور ورفعها بقطرات منها ووضعها بين قطعتين منبسطتين من الزجاج وانحنى فوق مكرسكوبه ينظر فيها بينما الرجال حوله يتساقلون البسمات ويتبادلون الغمزات. ومضى زمن وصاحبنا فى تحديقه، وأصحابنا يزدادون بمر الدقائق جلبة ونكاتاً . . .

وبغتةً رفع بستور رأسه وقال: «ليس بهذه الخمر مرض. أعطوها للذوّاق وانظروا هل يؤمّن على قولى.»

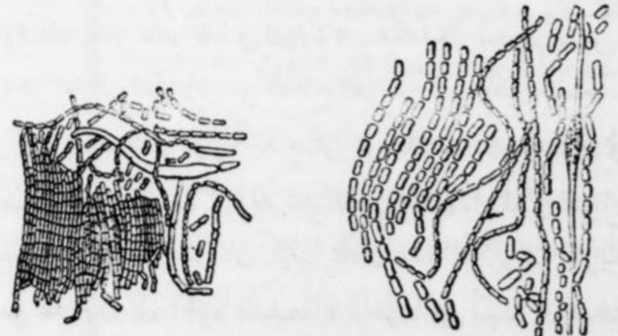
وذاقها الذوّاق، ثم رفع أنفه الأحمر فتجمّد، واعترف أن بستور صدق فيما ذهب إليه. وجرى بستور على صف الزجاجات واحدة واحدة. وكان كلما رفع رأسه عن المجهر وصاح «هذه خمر مرة» أمن على قوله الذوّاق. وكلما قال هذه «الخمر هلامية» أكّد ما وجده الذوّاق

وانصرف الجماعة من عنده مكشوفى الرؤوس تلهج ألسنتهم بالثناء وتتعثر بالشكر. «لا ندرى ما يصنع بهذه الخمور ليتعرفها. ولكنه رجل ماهر غاية فى المهارة». هكذا قال بعضهم لبعض، وهو اعتراف لعمر ربى من الفلاح الفرنسى ليس بالهين اليسير..

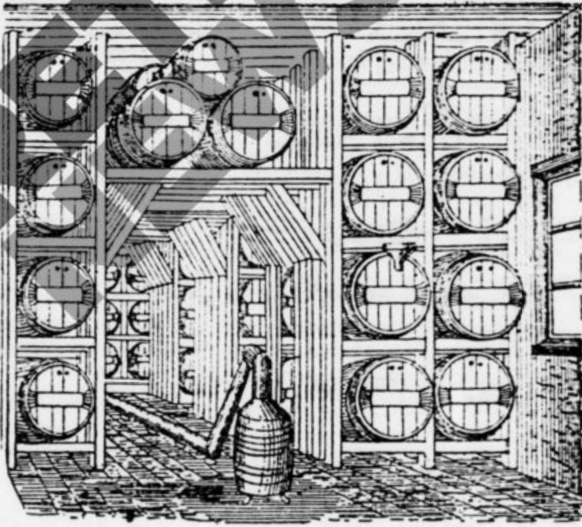
وبعد انصرافهم أخذ بستور ومساعده ديكلو يعملان فى هذا المعمل الخرب، وقد شد النصر عزائمهما وقوّى النجاح قلبيهما. وأخذا يدرسان كيف يمنعان هذه المكروبات الغريبة من الدخول إلى الخمور السليمة، وخرجا على أنهما إذا سخنا الخمر، ولو تسخينا هيّنا دون درجة غليانها بكثير، فان هذا التسخين يقتل تلك المكروبات الدخيلة فلا تفسد الخمر بعد ذلك.

وهذه الحيلة اليسيرة التى جاءا بها هى التى تعرف اليوم « بالبستره » Pasteurisatiou نسبةً إلى اسم صاحبها بستور ، وعلى مقتضاها تعالج الألبان اليوم فتتعقم فتنجو من التخثر طويلاً

وما كاد يطمئن الفرنسيون فى شرق فرنسا على خمرهم ، ويتعلّمون كيف يمنعون الفساد عنها ، حتى علا الصراخ فى القاطعات الوسطى يهتفون ببستور ليأتيهم فينجى صناعة الخل لديهم من البوار . فأجاب بستور دعاءهم وسافر مسرعا إلى مدينة Tours . وكان فى هـذا الوقت قد ألف البحث عن المكروب والعثور عليه حيثما كان ، فلم ينفق فى التحديق وراءه ذلك الجهد الكبير والزمن الطويل اللذين أنفقهما أولاً . ولما اقترب من البراميل التى فيها تستحيل الخمر خلا ، رأى على سطح سائلها زَبَداً غريب المنظر . فصاح به الخلالون : « هذا الزَّبد لابدمنه لتخليل الخمر » . وقضى بستور بضعة أسابيع فى البحث فوجد أن الزَّبد إن هو إلا ملايين بعضها فوق بعض من خلائق مكرسكوبية . فأخذها ، فامتحنها ، فوزنها ، فصنع بها مالا يُصنع . وأخيراً جاء إلى جمع من الخلالين وزوجاتهم وأولادهم وأقاربهم فأخبرهم أن الذى يحيل خمرهم إلى خل إنما هى مكروبات صغيرة ، وأنبأهم أن هـــذه المكروبات تحيل من كحول الخمر إلى حامض الخل مقادير تبلغ عشرات الألوف من أوزانها . « فانظروا واعجبوا من ضخامة العمل الذى تقوم به هذه الأحياء الضئيلة . ماذا تقولون لو أن رجلاً زنته مائتا رطل قام يقطع خشباً فقطع مليونى رطل فى أربعـة أيام ! » . وبهذه المقارنة القريبة ، وبهذه التشبيهات الساذجة ، أدخل بستور هـذه المكروبات الصغيرة فى حياة هؤلاء السذّج فأكبروها واحترموها . وبستور نفسه ظل يفكر طويلاً فى جسامة ما تقوم به من الأعمال حتى أَلِف الفكرة واعتادها .



نوعان من المكروبات التى تحيل الكحول الذى بالخمر إلى حامض الخل أو الخل نفسه



شكل المخازن التى كان يصنع بها الخل فى فرنسا فى عصر بستور

وخطر له أن المكروب على ضآلته قد يدخل جسم الثور العظيم أو جسم الفيل أو جسم الرجل فيميته ، فلم يجد فى هـذا الخاطر استحالة أو غرابة . وقبل أن يرحل عن بلدة « تور » علّم أهلها كيف يربون هذا المكروب النافع ويمنون به حتى يحسن استلاب الجو أكسجينه لأكسدة الكحول فى خمرهم فيملأ بذلك جيوبهم بالملايين من الفرنكات

وبهذا النجاح وأمثاله زاد بستور ثقة بالتجربة أداةً لكشف الغامض من الأمور . وأخذ يحـلم الأحلام الطويلة العريضة المستحيلة عن فتوحات المستقبل التى سيأتيها فى تقفى آثار هذه الخلائق الضئيلة ولم يحبس هذه الأحلام على نفسه ، بل وصفها فى خطبه ونادى وبشر بها كما بشر الرسول يوحنا المعمدان بالنصرانية ، سوى أن صاحبنا كان أكثر حظا من يوحنا الرسول ، لأنه قدر له أن يعيش حتى يتحقق ولو قليلاً من نبوءاته

وتلت ذلك فترة قصيرة قضاها بستور فى معمله بباريس يشتغل هادئاً ساكناً . فلم يبق له من الصناعات ما ينجيه . وظل فى هدوئه حتى يوم من أيام عام ١٨٦٥ ، فنى هذا اليوم جاء القَدَر يدق بابه . وما كان الطارق إلا أستاذه القديم دوماس ، جاءه يتطبّب لدود القزّ المريض . فقال بستور دَهِشاً : « وما الذى دهى دود القزّ ، فما كنت أعلم أن المرض يعتريه ؟ على أنى لا أعرف عن هذا الدود شيئاً ، وإن شئتَ المزيدَ فنى الحق أنى لم أر دودة قزّ واحدة فى حياتى »

(يتبع) أحمد زكى

أبو سليمان الخطّابى

٣١٩ – ٣٨٨ هـ

بقلم برهان الدين محمد الداغستانى

تتمة

تابع مؤلفاته

٣ – « أعلام السنن » فى شرح البخارى[1] ، وهو شرح لطيف فيه نكت لطيفة وفوائد شريفة

٤ – « كتاب الاعتصام بالعزلة »[2] كتبه بطلب من أحد تلاميذه حقق فيه معنى العزلة وما المراد منها ، ثم عرض لأدلة من أنكر العزلة ومن قال بها ووازن بينها ، فكانت الغلبة فى جانب أنصار العزلة

٥ – « كتاب شأن الدعاء » ذكر فيه بعض الأدعية المأثورة وشرح معانيها

٦ – « إصلاح غلط المحدثين » أورد فيه قرابة مائة وثلاثين حديثاً يرويها أكثر المحدثين ملحونة أو محرفة أصلحها وبين الصواب فيها[3]

٧ – « شعار الدين فى أصول الدين » التزم فيه إيراد أوضح ما يعرفه من الأدلة من غير أن يلتزم طريقة المتكلمين

٨ – « كتاب الشجاج »

٩ – « كتاب شرح أسماء الله الحسنى »

١٠ – « كتاب الغنية عن الكلام وأهله »

١١ – « كتاب العروس »

١٢ – « الرسالة الناصحة » فيما يعتقد فى الصفات ، وهذه الستة الأخيرة لم أرها ولم أعلم مكان وجودها

هذه هى كتب أبى سليمان التى ذكرها الذين ترجموا له . وجاء فى طبقات الشافعية الكبرى للسبكى (ج ٢ ص ٢٢٢) ما يأتى :

قال الخطابى فى كتابه تفسير اللغة التى فى مختصر المزنى فى باب الشفعة : بلغنى عن ابراهيم بن السرى الزجاج النحوى أنه كان يذهب إلى أن الصاد تبدل سيناً مع الحروف كلها لقرب مخرجهما ، فحضر يوماً عند على بن عيسى فتذاكرا هذه المسألة واختلفا فيها وثبت الزجاج على مقالته ، فلم يأت على ذلك إلا قليل من المدة ، فاحتاج الزجاج إلى كتاب إلى بعض العمال فى العناية فجاء إلى على ابن عيسى الوزير ينتجز الكتاب ، فلما كتب على بن عيسى صدر الكتاب وانتهى إلى ذكره كتب : وابراهيم بن السرى من أخس اخوانى ، فقال الرجل أيها الوزير : الله الله فى أمرى ! فقال له على بن عيسى إنما أردت أخص ، وهذه لغتك فأنت أبصر ، فان رجعت وإلا أنفذت الكتاب بما فيه . فقال قد رجعت أيها الوزير فأصلح الحرف واطو الكتاب اهـ

فهذا الذى نقلناه عن طبقات السبكى يفيد أن للخطابى كتاباً شرح فيه غريب اللغة التى فى مختصر المزنى ولكنى لم أر أحداً ذكر هذا الكتاب من كتب الخطابى ، ولم يذكر صاحب كشف الظنون هذا الشرح لمختصر المزنى مع أنه عدد الكثير من شروحه لكثير من المتقدمين والمتأخرين

شعره :

يعد الخطابى أديباً ذا حظ وافر فى الصناعتين النثر والنظم ؛ فاما نثره ففى إمكان القارئ الكريم الاطلاع عليه فى كتبه التى كتبها فى العلوم ، ومنها ما هو مطبوع ، لذلك لا أرى حاجة إلى ذكر شىء منه ، وأما شعره فمع أنه شعر جيد سلس عذب الألفاظ فهو مفرق هنا وهناك بين بعض كتبه وكتب بعض الذين ترجموا له ، وانى لذلك ذاكر منه كل ما عثرت عليه

قال أبو سعيد الخليل بن محمد الخطيب : كنت مع أبى سليمان الخطابى فرأى طائراً على شجرة فوقف ساعة يستمع ثم أنشأ يقول :

يا ليتنى كنت ذاك الطائر الغردا ... من البرية منحازاً ومنفردا
فى غصن بان ذهته الريح تخفضه ... طوراً وترفعه أفنانه صعدا
خلو الهموم سوى حب تلمسه ... فى الترب أو نغبة يروى بها كبدا[1]
ما إن يؤرقه فكر لرزق غد ... ولا عليه حساب فى المعاد غدا
طوباك من طائر طوباك ويحك طب ... من كان مثلك فى الدنيا فقد سعدا

(١) منه نسخة فى جامع اويس فى الموصل وأخرى فى مكتبة رواق الشوام فى الأزهر ويوجد النصف الثانى منه فى مكتبة المرحوم الشيخ محمد سلطان فى حلب مكتوبة سنة (٤٨٧)

(٢) منه نسخة فى دار الكتب العربية بدمشق ضمن مجموعة برقم (٢٠٨) ومعه كتاب شأن الدعاء له أيضاً

(٣) منه فى دار الكتب المصرية نسخة قيمة بخط محمد محمود التركزى تحت رقم (١٠١٠) حديث

(١) النغبة بضم النون وقد تفتح الجرعة

وله فى معاملة الناس بالحسنى وحب الخير لهم :

ارض للناس جميعاً   مثل ما ترضى لنفسك
إنما النـــاس جميعاً   كلهم أبناء جنسك
فلهم نفس كنفسـك   ولهم حس كحسـك

وله فى الرد على من لامه على اعتزاله الناس وطول احتجابه :

وقائل ورأى من حجبتى عجباً   كم ذا التوارى وأنت الدهر محجوب
فقات حت نجوم العمر منذ بدا   نجم المشيب ودين الله مطلوب
فلذت من وجل بالاستتار عن الأ   بصار إن غريم الموت مرعوب

وله فى مداراة الناس ومصانعتهم :

مادمتُ حياً فدار الناس كلهم   فانما أنت فى دار المداراة
من يدر دارى ومن لم يدر سوف يرى   عما قليـــل نديماً للنـــدامات

وله يشكو ايذاء الناس بعضهم بعضاً فوق أذى الوحوش الضارية :

شر السباع الضوارى دونه وزر   والناس شرهم مادونه وزر
كم معشر سلموا لم يؤذهم سبع   وما نرى بشراً لم يؤذه بشر

وله يشكو من وسطه الذى لا يجد فيه من يفهمه وتسكن اليه نفسه :

وما غربة الانسان فى شقة النوى   ولـكنها والله فى عدم الشكل[1]
وإنى غريب بين بُست وأهلها   وإن كان فيها أسرتى وبها أهلى

وله فى تهوين أمر الدنيا وعدم الاهتمام بها :

لعمرك ما الحياة وإن حرصنا   عليها غير ريح مســـتعاره
وما للريح دائمة هبـــوب   ولـكن تارة تجرى وتاره

وله فى الحث على انتهاز الفرص قبل فواتها :

تغنم سكون الحادثات فانها   وإن سكنت عما قريب تحرك
وبادر بأيام الســـلامة إنها   رهون وهل للرهن عندك مترك

وله فى التحذير من الجهال وعدم الركون اليهم :

تحرز من الجهال جهدك إنهم   وإن لبسوا ثوب المودة أعداء
وإن كان فيهم من يسرك قربه   فـكل لذيذ الطعم أو جُلّه داء

وله فى العفو والقصد وذم المغالاة :

تسامح ولا تستوف حقك كله   وأبق فلم يستقص قط كريم
ولا تغل فى شىء من الأمر واقتصد   كلا طرَفى قصد الأمور ذميم

وأورد جعفر بن شمس الخلافة فى كتاب الأدب للخطابى هذين البيتين :

وإنى لأعرف كيف الحقوق   وكيف يبر الصديق الصديق
ورحب فؤاد الفتى محنـــة   عليه إذا كان فى الحال ضيق

وله يذكر حسن أثر العزلة فى نفسه :

إذا خلوت صفا ذهنى وعارضنى   خواطر كطراز البرق فى الظلم
وإن توالى صياح الناعقين على   أذنى عرتنى منه حكلة العجم[1]

وله يصف ميله إلى البعد عن الناس وقلة مخالطتهم :

قد أولع الناس بالتـلاق   والمرء صب إلى هواه
وإنما منهم صـــديق   من لا يرانى ولا أراه

وله فى عزة النفس والتعفف مع الحاجة الملحة :

دعنى فلن أخلق ديباجتى   ولست أبدى للورى حاجتى
منزلتى يحفظها منزلى   ديباجتى تكرم ديباجتى

وله :

قد جاء طوفان البلاد ولا أرى   فى الأرض ويحى للنجاة سفينه
فاصعد إلى وزر السماء فان يكن   يعييك فابك لنفسك المسكينه

وله :

سلكت عقاباً فى طريقى كأنها   صياصى ديوك أو أكف عقاب[2]
وما ذاك إلا أن ذنباً أحاط بى   فكان عقابى فى سلوك عقاب

وله :

قل للذى ظل يلحانى ويعذلنى   لنائل فاته والخير مأمول
لا تطلب السمن إلا عند ذى سمن   نال الولاية فالمعزول مهزول

بعض الآراء المنفرد عنه

كان الخطابى شديد الانكار على الفقهاء الذين يغفلون الحديث أو يتساهلون فيـه ويقصرون هممهم على آراء أئمتهم من الفقهاء كما كان ينكر على المحـدثين اغفالهم الفقه واشتغالهم بالغريب وجمع الروايات [3] لذلك لم يكن غريباً من الخطابى أن يخالف من

(١) فى اليتيمة ثمة بدل غربة وأخذ هذا المعنى عمر بن أبى عمر السجزى من الخطابى فقال :

وليس اغترابى فى سجستان إننى   عدمت بها الاخوان والدار والأهلا
ولـكننى مالى بها من مشاكل   وإن الغريب الفرد من يعدم الشكلا

ووهم ياقوت فعد هذين البيتين فى شعر الخطابى.

(١) العجمة وزناً ومعنى

(٢) انظر مقدمة معالم السنة ص ٣ ، ٤ طبع حلب

(٣) انظر طبقات الشافعية للسبكى ج ٢ ص ٢١٩

٢٣ ـ محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون او خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

ما أبعد ما رجوت من أمل ، وما أسوأ ما عدت به من فشل ! فما مضيت حتى ألفيت فيلسوفى قد نبذ العقل نبذاً كما نبذ كل ما سواه من أسس الاتساق ، وانتكس إلى الهواء والأثير والماء وما اليها من شوارد الآراء ، فكان عندى أشبه برجل أصرّ بادئ ذى بدء أن العقل هو علة أفعال سقراط بصفة عامة ، فلما أراد أن يبيّن بالتفصيل أسباب أفعالى العديدة ، أخذ يبرهن أننى أجلس هاهنا لأن جسمى مصنوع من عظام وعضلات ، وأن العظام ، كما كان يُنتظر أن يقول ، صلبة تفصل بينها أربطة ، وأن العضلات مرنة وهى تغطى العظام التى يحتويها كذلك غشاء ، أو محيط من اللحم والجلد . ولما كانت العظام مشدودة إلى مفاصلها لقبض العضلات وبسطها ، كان فى استطاعتى أن أثنى أطراف بدنى ، وهذا علة جلوسى هاهنا فى وضع منحنٍ . إنه كان سيزعم هذا ، وكان سيشرح بمثل هذا كلامى اليكم ، فقد كان سيفرده إلى الصوت والهواء والسمع ، وكان سيذكر من هذا النوع من الأسباب عشرة آلاف سوى ما ذكر ، ناسياً أن يشير إلى السبب الحقيقى وهو أن الأثينيين قد رأوا فى إدانتى صواباً ، فرأيت أنا بناء على ذلك أن الأفضل والأصوب هو مقامى هاهنا محتملاً ما حكم على به ، فأرجح الظن عندى أن عظامى وعضلاتى هذه كانت تود لو فرت إلى ميغارا أو بوتيا Beotia — وإنى لأقسم بكلب مصر أنها كانت تود ذلك ، إذا لم يكن يسيرها الا فكرتها هى عن الأمثل ، وإذا لم أكن أنا قد آثرت أن أحتمل كل عقوبة تقضى بها الدولة ، على اعتبار أن ذلك أفضل وأشرف مسلكا ، بدل أن أمثل دور الآبق فألوذ بالفرار . لا شك أن فى هذا كله خلطاً عجيباً بين الأسباب والحالات . وقد يمكن القول حقاً أننى لا أستطيع تحقيق غاياتى بغير العظام والعضلات وسائر أجزاء الجسد ، أما القول بأننى أفعل ما أفعل من أجلها ، وأن فعل العقل إنما يكون على هـذا النحو ولا يكون باختيار الأمثل ، فذلك ضرب من القول العابث العقيم ؛ وإنى لأستغرب ألا يستطيع الناس أن يفرقوا بين السبب والحالة ، وهو ما يخطىء الدهماء فيه وفى تسميته دائماً ، لأنهم يتخبطون فى الظلام ؛ وهكذا ترى واحداً من الناس يصطنع دوامةً من الماء تشمل الكون فيثبّت الأرض بالسماء ، وترى آخر يذهب إلى أن الهواء عماد الأرض وأن الأرض فى شكل الحوض الفسيح [١] ، ولا تسيغ عقولهم قط وجود أية قوة تسير بهم إذ تصرفهم نحو الأحسن وهم لا يتخيلون أن فى ذلك قوة فوق القوة البشرية ، إنما هم يتوقعون أن يجدوا للعالم عماداً آخر أقوى من الخير وأ كثر منه دواماً وشمولاً ، وهم بغير شك يرون أن قوة الخير القسرية الشاملة هى كل شىء ، ولكنى مع ذلك أتمنى أن يكون هـذا هو المبدأ الذى أتعلمه إن وجد من يعلمنيه ، ولما كنت قد فشلت أن أستكشف بنفسى أو بإرشاد غيرى

(١) يتهكم سقراط بهذ القول على أصحاب المذاهب الفلسفية الأولى الذين كانوا يعللون الكون بالماء تارة وبالهواء طوراً ، دون أن ينفذوا بعقولهم الى ماوراء المادة من قوة مدبرة

تقدموه إذا رأى الدليل يسعفه ؛ فمن ذلك قوله برد شهادة أحد الزوجين للآخر لما فى ذلك من التهمة قياساً على رد شهادة القانع لأهل البيت الوارد فى الحديث ، والقانع من يخدم القوم ويكون فى حوائجهم . وكان يرى تحريم البول فى الطريق لحديث فيه ولما فيه من إيذاء المسلمين . وكان يرى كراهة خاتم الفضة للمرأة لأنه من شعار الرجال كما أن الذهب من شعار النساء ، وكان يرى أن أ كل الثوم والبصل لا يعد عذراً فى ترك الجمعة لما لها من الأهمية والخطر . وكان يعيب على المتكلمين قولهم فى صفات الله الذاتية : إنها قديمة ، ويختار أن يقال فيها أزلية ، لأن معنى الأزلى هو ما لم يزل كائناً ، ومعنى القديم هو ماله صفة القدم ، ولا يجوز أن يكون للصفة صفة

هذه كلمة أردت بها الكشف عن فضل هذا العالم الذى نسى الناس حتى اسمه فلا يعرفونه على حقيقته ، وأرجو أن أ كون قد وفقت ولو إلى بعض ما أردت

برهان الدين محمد الداغستانى

من الناس طبيعة الأمثل ، فسأعرض عليكم إذا شئتم طريقة البحث فى العلة التى وجدتها تتلو الأمثل فى المثالية (١)

أجاب : لشد ما أحب أن أصغى إلى ذلك

فمضى سقراط : ظننت أنى مادمت قد فشلت فى تأمل الوجود الحقيقى فينبغى أن أحرص على عين روحى فلا أفقدها كما قد يؤذى الناس عيونهم الجثمانية بشهود الشمس والنظر اليها أثناء الكسوف ، مالم يتحوطوا فلا ينظرون إلا إلى الصورة المنعكسة على الماء أو ما يشبه الماء من وسيط ؛ حدث لى ذلك نخفت أن تصاب روحى بالعمى الشامل إذا أنا نظرت إلى الأشياء بعينىَّ أو حاولت أن أتفهمها بوساطة الحواس ، وفكرت أنه يحسن بى أن أعود إلى المُثُل فأبحث فيها عن حقيقة الوجود ، وإنى لأعترف بنقص هذا التشبيه (٢) ـ لأننى بعيد جداً عن التسليم بأن من يتأمل صور الوجود بوساطة المثل يراها « معتمة خلال منظار » دون من ينظر اليها وهى فى نشاطها وبين نتائجها ، ومهما يكن من أمر فهذه سبيلى التى سلكتها : فرضت بادىء الأمر مبدأ زعمت أنه أمتن المبادىء ، ثم أخذت أثبت صحة كل شىء يبدو متفقاً مع ذلك المبدأ ، سواء أكان ينتمى إلى السبب أو إلى أى شىء آخر ، واعتبرت كل ما يتنافر وإياه غير صحيح ، ولكنى أحب أن أوضح بالشرح ما أعنى ، فما أحسبكم تفهمون ما أريد

فأجاب سيبيس : كلا ، حقاً إنا لم نفهم جيداً

قال : ليس فيما أوشك أن أنبئكم به من جديد ، فهو ماظللت أكرره أينما حللت ، فيما سبق من نقاش ، وفى ظروف غيره سلفت ، فثمت علة قد ملكت على خواطرى ، أريد أن أبسط لكم طبيعتها ، ولامندوحة لى عن العودة الى تلك الألفاظ المألوفة التى يلوكها كل انسان ، فأزعم قبل كل شىء أن ثم جمالا مطلقاً وخيراً مطلقاً وكبراً مطلقاً وما الى ذلك . سلم معى بهذا ولعلى أستطيع أن أدلك على طبيعة العلة ، وأن أقيم لك الدليل على خلود الروح

فقال سيبيس : تستطيع أن تمضى من فورك فى برهانك ، فلست أتردد فى أن أسلم لك بهذا

فقال : حسناً ، إذن فأحب أن أعلم هل تتفق معى فى الخطوة التالية ، وتلك أنه لو كان هنالك شىء جميل غير الجمال المطلق لما شككت فى استحالة أن يكون ذلك الشىء جميلا إلا بمقدار مساهمته فى الجمال المطلق ـ وانى أقرر هذا عن كل شىء . أأنت موافقى على هذا الرأى فى العلة ؟

فقال : نعم أوافقك

فمضى قائلا : لست أعلم شيئاً ولا أستطيع أن أفهم شيئاً عن أى سبب آخر من تلك الأسباب الحكيمة التى يزعمونها ، فان قال لى أحد إن جمالا ينبعث عن ازدهار اللون أو الشكل أو ما شئت من شىء من هذا القبيل ، لطرحت قوله جملة ، فليس لى منه إلا ربكتى ، ولتشبثت بفكرة واحدة دون غيرها تشبثاً قد يكون على شىء من الحمق ، ولكنى من صوابها على يقين ، وهى أنه لا يجعل الشىء جميلا إلا وجود الجمال والمساهمة فيه ، مهما تكن سبيل الوصول إلى ذلك ، وكيفية الحصول عليه ، فلست أقطع برأى فى الكيفية ، ولكنى أقرر بقوة أن الأشياء الجميلة كلها إنما تكون جميلة بالجمال ، وعندى أن ذلك وحده هو الجواب المعصوم الذى أستطيع أن أدلى به لنفسى أو لأى أحد آخر ، وإنى لأتشبث به ، ويقينى أن لن تصيبنى الهزيمة قط ، وأنه فى مكنتى أن أجيب ، فى عصمة من الزلل ، على نفسى أو على أى أحد من الناس ، بأن الأشياء الجميلة لا تكون جميلة إلا بالجمال . ألست توافق على ذلك ؟

ـ نعم أوافق

ـ وبالكبر وحده تصير الأشياء الكبيرة كبيرة فأكبر وأكبر ، وبالصغر يصير الصغير صغيراً ؟

ـ حقاً

(يتبع) زكى نجيب محمود

(١) أصدق تعليل للكون عند سقراط هو معرفة الشكل المثالى أو الكمال الذى تنشده ظواهر الكون ، فبه نستطيع أن نعلل كل شىء ، وكان يتمنى أن يجد بين الناس من يعلمه طبيعة ذلك الكمال ولكنه لم يوفق ، لذلك يريد أن يعرض على سامعيه علة تجىء فى المرتبة بعد الكمال مباشرة

(٢) يقول إنه إذا أراد أن يبحث فى علة الكون فلن يتوجه بفكره وحواسه نحو ظواهر الكون نفسها ، خشاة أن يبهره وهجها فتصاب العين المبصرة من نفسه بالعمى ، كما يحدث للعين الجثمانية فيمن ينظر الى الشمس نفسها دون أن يلتمس صورتها على صفحة الماء ، ولكنه سيبحث فى عالم المثل بفكره ، والمثل فى الواقع صورة من الكون ، أو الكون صورة منها على الأصح

سل الجديدين

للأستاذ فخرى أبو السعود

هذى الحياة التى راقت مجاليها ... يُحصَى حصاها ولا تُحصى مآسيها
ما كنت تلهو بما أبدتْ ظواهرُها ... لو كنت تنظر ما تُخفى خوافيها
تظَلّ تعرِضُ ألواناً مفاتنَها ... وللشرورِ مجالٌ فى نواحيها
تجاوَرَ الحُسنُ فيها والأسى ومشت ... ما بين أفراحها الكبرى مناعيها
يَشقى ويَفنى بنوها وهى لاهيةٌ ... بدلّها وحُلاها عن ذراريها

تروقك الغابةُ الفيحاء ناضرةً ... يَرِفُّ بالحُسنِ عاليها ودانيها
ويانعُ الزهرِ فى أفنانها عبقٌ ... ورَيِّقُ الماء يجرى فى مساريها
ويَستبيكَ بُرودٌ من نسائمها ... هَيْنٌ وظلٌّ ظليلٌ من حواشيها
وبين أطوائها حربٌ مخلّدة ... تعجّ ما بين ماضيها وآتيها
فى عشبها أو ثراها أو لفائفها ... يُكِنُّ رائحُها شرّاً لغاديها
وما اغتذى حيُّها إلا بهالكها ... ولا نما نضرُها إلاّ بذاويها
تَغلغَلَ الظُّلمُ فى أحنائها وعَدَا ... على الضعيف من الأحياء عاديها
فى كلّ طرفة عين ثَمَّ مَهلكةٌ ... أو ثَمَّ معركةٌ يا وَيحَ صاليها
تَشقى وتألمُ آلافٌ مؤلّفة ... فى كل آنٍ وتَردَى فى دياجيها

وتعشق البحرَ فى رحبٍ وفى عِظَمٍ ... والبحرُ مطّرد الأمواج طاميها
تُلاعِبُ الريح أحياناً غواربه ... وساكبُ النور أحياناً يناغيها
يصفو الأصيل عليها والضحى ولها ... تردُّدٌ وخريرٌ فى شواطيها
وتحت أثباجها حربٌ مؤرّثة ... موصولة ليس يخبو الدهرَ واريها
وكم مآسىَ فى قيعانها درجت ... وكم فجائعَ غابت فى غواشيها

سل الجديدين كم كرّا على مُهَجٍ ... مَرُوعةٍ عزَّ فى اللأواء آسيها
قد عزّ فى قبضة الأقدار ناصرُها ... وعزّ من بعدُ رائيها وباكيها
لو أُطلِقَ المرءُ للعين العنانَ على ... تلك المآسى لما جفّتْ مآقيها
ولو رَثى لضحاياها العِدادِ لما ... حَلَا له الشعرُ إلا فى مراثيها
ولو تدبّرتِ النفسُ الحياةَ لما ... صحت من الهم، لكنّا نماريها
نُشيحها عن مآسيها ونَصرفها ... لما تُحبُّ وتَرضى من ملاهيها

فخرى أبو السعود

نِداءُ الحُبّ

وقلبى أنشودة حلوة
تغنى بها قافلات الهوى

لشاعر الشباب السورى أنور العطار



تعالَ أيا حُبُّ نولِ الوُجودَ ... أناشيدَ يملكُها مَنْ رَوى
تعال نُغَنِّ السُّهولَ الفِساحَ ... ونُصْبَ الهِضابِ وثَغْرَ الرُّبا
تعال نَهِمْ هَيَمانَ العُطُور ... ونهتزَّ مثلَ شُعاعِ الضُّحى
تعال نُطَوِّفْ رِحابَ الفضاء ... ونَسْرِ إلى غامضِ المُنتأى

* * *

تعال نَغُصْ فى عُبابِ السَّماء ... ونُفْنِ الزمانَ ونَطْوِ الدُّنا
ولا ندَّخِرْ فرحةً للجنان ... ولا نُبقِ للرُّوح من مشتهى
ونحيَ منَ الحُبِّ فى عالمٍ ... نضيرِ الأزاهيرِ حُلْوِ الجَنى
تُؤَلِّفُنا الطَّيرُ أغرودةً ... وتمزُجنا بنُفاحِ الشَّذا
نعيشُ نَجِيَّيْنِ فى سَكْرةٍ ... كما عاش فى الزهرِ خمرُ الندى
فما العُمرُ إلا سَناً راجفٌ ... تلألأ بارقُهُ وامّحى
فأيامُهُ ضُيَّعٌ كالسَّراب ... وأحلامُه ذاهباتٌ سُدَى

نَطيرُ إلى رَبَوات النعيمِ ... ونسلكُ أنفاسَ ريحِ الصَّبا
لنا في النسائمِ أُرجوحةٌ ... تطوفُ بنا في فِجاجِ السَّما
تُهَدْهِدُنا بالنشيدِ الحبيبِ ... وتغمرُنا بالسَّنا المُرتجَى
نَنامُ وفي الأذْنِ أُغنيَّةٌ ... وفي العَيْنِ حُلمٌ رقيقٌ سَرَى
وأرواحُنا انطلقتْ في العَلاءِ ... تَغَلْغَلُ في سِدرةِ المنتهى
فيا لكِ غَيْبوبةً لذَّةً ... تَراءَى الخَفاءُ بها وانجلَى
ويا لكِ أُمنيَّةً تُستطابُ ... ولَحْناً على الدَّهرِ لا يُجتوَى
ويا لكِ دُنيا قَلَتْها الهمومُ ... وماتَ الرِّياءُ بها وانطوَى
فلا الشَّرُّ يأوي إلى ساحِها ... ولا البُغضُ يَسْكُنُها والقِلَى
تَنَقَّتْ مِنَ العابِ أعطافُها ... ورَفَّ النعيمُ بها وازدهَى
يَسودُ حِماها هوًى خالدٌ ... وحُبٌّ تسامى وعيشٌ صفا
ويهفو إليها الشعاعُ الرقيقُ ... ويألفُها الأملُ المُبتغَى
وتَنْفُثُ فيها الثُّغورُ الحِسانُ ... أحاديثَ يلتذُّها مَنْ وعَى
فما يَبْهَجُ الرُّوحَ بادٍ هُناكَ ... إنْ يشتهيهِ وخافٍ هُنا

***

تعال لقد بُحَّ صوتي الشَّجيُّ ... وعاجلني مِنْ صُراخي الوَنَى
تعال فإنيَ مُستوحِشٌ ... يُريني طولُ الضَّنى ما اختفى
أحِسُّ يَداً مُلِئَتْ بالحنانِ ... تُهَنْهِنُهُ دمعي إذا ما هَمَى
وألمسُ في وَحدتي خافقاً ... يذوبُ على ما أُعاني أسَى
وألمحُ طَيْفاً يَلوحُ الهُزالُ ... على وجهِهِ ويَبينُ الضَّنَى
يُغَمغِمُ في سِرِّهِ دائباً ... ويَرْعَى خُطايَ ويَحمي الحِمَى
ويُؤنِسُني إن عَراني المَلالُ ... ويَحمِلُ عنيَ وَقْدَ الجَوَى
ويَنْفَحُني بأريجِ الخلودِ ... ويَغمُرُني بشَهيِّ المُنَى
كأنيَ أبصرْتُ شِبْهاً لهُ ... تعلَّقتُهُ في غُضونِ الصِّبا
يُذَكِّرُني وجهُهُ بالحبيبِ ... وإنْ غَيَّرَتْهُ عوادي النَّوَى

***

مَنِ الزائري في إسارِ الشُّجونِ ... يُزَحزِحُ عنِّيَ خَطْباً عَرا
يُقاسِمُني غَمَراتِ الحياةِ ... وما رَوَّعَ القلبَ أوْ ما دَهَى
ويُنقِذُني مِنْ وُجومي الرَّهيبِ ... ومِنْ لَيلِيَ الجَهْمِ إمّا غَشا
ومِنْ هاجسٍ ضَجَّ منهُ الجَنانُ ... ومِنْ خاطرٍ فَرَّ منهُ النُّهَى

غَنِيتُ بهذا الخيالِ العجيبِ ... وشَنَّتَ لُبِّيَ هذا الغِنى
ذَهِلتُ ولم أدرِ مِنْ حيرتي ... أَلِلغَيِّ مَسْرايَ أمْ للهُدَى
فلا العَيْنُ تعرفُ سَجْوَ المنامِ ... ولا الليلُ يُسعِدُها إن سَجا
يُريني اكتئابي طيوفاً تموجُ ... وقافلةً لا تَمَلُّ السُّرَى
ترامتْ بها نائياتُ القِفارِ ... فضاعتْ معالمُها والصُّوَى
وَجِنًّا تألَّقُ مثلَ اللهيبِ ... وجِنًّا تأجَّجُ مثلَ اللَّظَى
وأرضاً تَفَجَّرُ منها الدِّماءُ ... وفيها تغوصُ أُلوفُ المُدَى
وجرحى يَئِنُّونَ خلفَ الزِّحامِ ... وصَرْعَى يَغيبون تحتَ القَنا
وأُفْقاً تُدَوِّي بهِ السافياتُ ... وتملأُ جَنْبَيْهِ نارُ الوَغَى
فمِنْ أسهُمٍ لَمَعَتْ كالوميضِ ... ومِنْ أسْيُفٍ إثرَها تُنْتَضَى
ومن أجنُحٍ دَوَّمَتْ في الفضاءِ ... ومدَّتْ على الكونِ ظِلًّا ضَفا
ومن خائفٍ قد عَصاه الصِّياحُ ... فخارتْ عزائمُه والقُوَى
ومِنْ نَهِمٍ أكَلَ الكائناتِ ... وعَبَّ خِضَمَّاتِها واحتسَى
وغالَ مِنَ النَّجْمِ مالا يُعَدُّ ... ومالا يُرامُ. ولا يُحْتَوَى
يُقَهْقِهُ قَهْقَهَةً كالرُّعودِ ... ويَمتدُّ كالبرقِ إمّا بَدا
ويَنفُثُ حتى إخالَ السَّحابَ ... تَدَفَّقَ من جانبيهِ الحَيا
وعيني إلى مَلَكٍ نائمٍ ... يُجَمْجِمُ في الحُلْمِ أحلى اللُّغَى
أُناديهِ مِنْ طولِ شوقِ المُلِحِّ ... فيَبْنِمِ والقلبُ منهُ هَفا
سَريرُكَ حَوَّمَ بينَ الغُيومِ ... وأغفَى على شُرُفاتِ السُّها
وفي القلبِ عُشُّكَ لكنَّهُ ... عَفاءٌ ومِنْ طيرِهِ قد خلا

***

وأنتَ أيا طيفُ ظَلَّلتَني ... بعطفِكَ حتى ازدهاني الرِّضا
أُفَدِّيكَ من مُشْفِقٍ لاهفٍ ... ويا ليتَ يُرضيكَ أنِّيَ الفِدا
تكلَّمْ عَلامَ تُطيلُ السُّكوتَ ... وفي شَفَتَيْكَ كلامٌ يُرَى

***

تعالَ فهاذاكَ رَكْبُ الحياةِ ... تَسَرْبَلَ صحراءَها وارتدَى
ولم يَبْقَ منهُ سِوَى ومضةٍ ... كحظِّ الأصيلِ بأقصى الفَلا
تعالَ فإنْ يحتجبْ نورُهُ ... يَعُمَّ الشَّقاءُ ويَطْغَ الأذَى
تعالَ فإني أُحِسُّ المساءَ ... يَحُطُّ على شامخاتِ الذُّرَى
ويَنشُرُ أجنحةَ الضافياتِ ... ويُرسِلُها في رِحابِ الفَضا
مُحَنَّنَةً حَلْيُها العيونُ ... وإنْ غامَ لألاؤها أو دَجا

تعالَ فلِلَيلِ حُزنٌ يَطولُ ... وَهَوْلٌ إذا ما تَناهى ابتَدا
تعالَ فإنْ أدركتْنا خُطاهُ ... فليسَ يُتاحُ لنا المُلتقى

***

حياتيَ طائفةٌ كالخيالِ ... وصوتِيَ ليسَ له منْ صَدَى
ونفسيَ تحملُ همَّ اثنتينِ ... وهَمِّيَ جاز بنفسى المدَى
كأنِّيَ قبرٌ ترامَى العفاءُ ... على جانبيهِ وعَجَّ البِلَى
وقلبى أنشودةٌ خلْوَةٌ ... تغنى بها قافلاتُ الهوَى
مررتُ بصحْرَاءِ هَذِى الحياةِ ... كما مرَّ فى الغُمْضِ طيفُ الكَرى
على مَنْكِبَيَّ بياضُ النَّهارِ ... وفى مُقْلَتَيَّ سوادُ الدُّجى
لئِنْ نَقَمَ القلبُ أشجانَهُ ... لَما كَرَبتْهُ صُروفُ الرَّدَى
وإن أنكرَتْه الأمانى العِذابُ ... فما حَفَلَ الدهرَ مُرَّ الشَّجا
تصبَّرْتُ حتى فقَدْتُ المعِينَ ... وأجملْتُ حتى مَلِلْتُ الأسا
فيا قلبُ حَبْسٌ عليكَ العَذابُ ... ويا عينُ وَقفٌ عليكِ البُكا

***

أحِسُّ كأنىَ قُمْرِيَّةٌ ... تنُوحُ على حلُمٍ قد نَأَى
تُوَدِّعُ آمالَهَا الضاحكاتِ ... وما ضَمَّ عالَمُها منْ دُمَى
وتمشى إلى شَجَنٍ قاتمٍ ... رهيبِ السكونِ سحيقِ الهُوَى

***

عييتُ بحبِّيَ لَمَّا استفاضَ ... وذُقتُ لذاذَتَهُ مذْ مضى
وعشتُ بفرحتـهِ حالماً ... أطوفُ بأوهامهِ والرُّؤى
فيالكَ من جَدولٍ هانىءٍ ... إذا شَرِبَ القلبُ منه ارْتَوى
فوارِدُهُ لا يُحِسُّ الشقاءَ ... وَراشِفُهُ لا يذوقُ الصَّدى
ويا رُبَّ وَاهٍ بَرَاهُ الهزال ... تَرَشَّفَ أمواهَهُ فَاشْتَفَى
وَسكْرَانَ من كأسِ هذا الزَّمانِ ... تَنَشَّقَ نَافِحَهُ فَانْتشى
تموجُ الغيُوبُ بأعْطَافِهِ ... وَيطْفحُ فى حافتَيْهِ الجَدَا
خلا مِنْ مَنا كدِ هذى الحياةِ ... وَمن رَنْقِ جُرْعَتِها والقَذَى
يُغَنِّى فَيَهتَزُّ هذا الوُجودُ ... وَيشدو فيَطْرَبُ هذا الوَرَى

***

أحِبُّ السماءَ وَلَكِنَّما ... يدافِعنى عَنْ هَوَايَ الثرَى
هيَ الأرضُ مَهْدِيَ أنَّى شَرَدْتُ ... وَحَقَّقتُ فى الكائناتِ العُلى
وَلَكنَّ روحىَ مِلْكُ الخلودِ ... وَرَهنُ البَقَاءِ وَخِدنُ السَّنَا

أنور العطار

مؤلفات

جبران خليل جبران

كان المرحوم جبران خليل جبران أديباً كاملاً ومصوراً ماهراً وكاتباً خيالياً لا يجارى . وقد أراه بعض الأدباء فى هذا العصر أن يجاريه ويماشيه فى خياله ولكن على غير جدوى دون أن يلحق له غبار ، وقد طبعت مكتبة العرب بشارع الفجالة رقم ٤٧ بمصر جميع مؤلفاته وهى تطلب منها :

قرش	
١٥	البدائع والطرائف مزين بالصور الخيالية
٨	كتاب النبى » » »
٥	رمل وزبد » » »
٥	المواكب (قصيدة) » » »
١٠	كلمات جبران الخالدة
١٥	دمعة وابتسامة طبع أميركا

القصص

من أساطير الاغريق

بندورا
و
سرقة النار المقدسة

للأستاذ دريني خشبة

« هدية الآلهة إلى الآنسات في جميع العصور ! ! »

توزَّعَ الآلهة تعمير الكون ، فكانت الأرض من نصيب بروميثيوس بن يابيتوس ، أحد ذراري التيتان العمالقة ، الذين حبسهم أبوهم خشيةَ جبروتهم ومخافة بأسهم . . .

وطفق بروميثيوس يفكر ويفكر ، حتى بدا له أن يجعل في الأرض أناسيّ يخلقهم على صُوَرِ الآلهة ، فاستعان أخاه أبيمثيوس فهداه إلى الحمأ المسنون ، أو الطينة البشرية ، فخلقا منها الانسان الأول ، وذهبا إلى إيروس[1] فنفخ فيه من روحه ؛ التي هي الحياة ؛ وقصدا إلى مينرفا فنفثت فيه نفثتين ، هما النفس والعقل

وخلق بروميثيوس رجالاً كثيرين على هيئة آدم الأول ، وجلس على أكمة عالية يشرف على عباده الصالحين ! ! ولشد ما كانت الكبرياء تشيع في أعطافه ، كلما نظر فوجدهم يتحدثون بآلائه ، ويسجدون له ، حتى فكر في نعمة أخرى يسبغها عليهم فتكون أجزل النعم !

« النار ! النار المقدسة تنفعهم وتلين لهم حديد الحياة !

« فلأذهب إلى الأولمب ولأتحسس ؛ فاذا استطعت أن أتغفل زيوس ، فاني سارق لهم قبساً من ناره التي آثر بها نفسه على سائر العالمين ! »



بروميثيوس يخلق الانسان كما تزعم الأسطورة

ومع أن بروميثيوس يعلم من أمر هذه النار ما يعلم ، ومع أنه يعلم أنها محرمة على غير الآلهة ، وأن كل من استباحها لنفسه ممن عداهم تعرض لمقت الاله الأكبر ونكاله ، فقد ذهب إلى الأولمب وتغفل زيوس ، ودس قبساً من النار في تضاعيف ثيابه ، وعاد كالبرق إلى عباده المخلصين يقدم اليهم هديته التي سرقها من أجواز السماء !

ونظر زيوس من علياء الأولمب ، فرأى النيران تتأجج هنا وهناك في أديم الأرض ، ففطن إلى السرقة النكرة ، وانقذفت من فمه المزبد رعود الغضب !

وارتجف الأولمب ، وزلزلت السماء ، وارتعدت فرائص الآلهة ، وأمر الاله الأكبر فأحضر بروميثيوس مكبلاً بالأصفاد ، ملطخاً بالوحل ؛ وعبثاً حاول الدفاع عن نفسه ؛ ثم حكم عليه فسيق إلى جبال القوقاز ، حيث غل عنقه الضخم وذراعاه الكبيرتان ، ونخذاه اللتان تزريان بفخذى فيل ، في قنة عالية . وسخر الاله الأكبر رخا عظيم الجثة ، حاد الأظافر ، كبير النسر ، فذهب إلى حيث بروميثيوس ، ينوشه ، ويمزق

(١) إيروس هو كيوبيد إله الحب

جسمه ، وينفذ أظافره ومنسره فى أحشائه حتى تبلغ الكبد ، فيهرأه ويطعمه حتى يأتى عليه ، وينصرف إلى غد



برومثيوس مكبلا على قمة جبل القوقاز والرخ ينوشه

فاذا كان الليل ، وهبّت الريح سجسجاً ، التأمت جراحات الإله المسكين ، وخلق له كبدٌ آخر ؛ وينام حتى تشرق الشمس ، فيعود الرخ ليبدأ ما انتهى منه أمس ، وليأخذ فى تعذيب برومثيوس التّعِس ، إلى أن تغيب ذُكاء ! ! وهكذا دَوَاليك ، أحقاباً وأحقابا . . .

ويلبث الإله المنكود فى هذا العذاب الطويل حتى يلقاه هرقل[1] الجبار فى أحد أسفاره ، فتثور الشفقة فى قلبه ، وينقض كالصاعقة على الرخ ، ولا يتركه حتى تزهق روحه ، بعد صراع عظيم ، ثم يفك أغلال برومثيوس ويحرسه ، حتى يقبل الليل فيشفى مما به ، ويسير بين يديه حتى يبلغ أوطانه ، حيث عباده الصالحون ! !

وفرح الناس بإلههم وسروا بلقائه ، وقدروا مالقى فى سبيلهم ومن أجل سعادتهم فعنوا له وأحبتوا

وكانوا يحيون فى بُلَهْنية ، غارّين فى طراوة من العيش ، وسعةٍ من الرزق ، هواؤهم رُخاء وماؤهم صفاء ، لا يشكون متربةً ولا يعرفون ضنكاً ، ولا تلم بهم ملمة من مرض أو رجس .

ولم يعرفوا الموت ، ولم يدروا ما البكاء ، فكأنما كانت حياتهم طوبى ، ونعيما مقيما

وعلم زيوس ما كان من أمر برومثيوس وفرح الناس بأوبته إليهم ، فغيظ غيظاً شديداً ، وآلى ليكيدن لهم كيداً ، وليرسلن عليهم من مكره مالا طاقة لهم به . . .

ونظر زيوس فرأى أنهم مخلوقون على صور الآلهة ، ولكنهم كلهم ذكران ، « ومن الآلهة أنثيات ، فلم لا أصنع لهم أنثى تذهب بحرثهم ونسلهم ، إن صح أن يكون لهم نسل ؟ . . . »

وأرسل دعوةً عامةً إلى جميع الآلهة فسمت إليه من كل فج عميق ، وأخذ يحدثهم حديث برومثيوس ، ثم أخبرهم أنه يريدهم أن يخلقوا له أنثى جميلةً يودع فيها كل منهم سراً من أسراره : « لأننى سأرسلها هدية إلى هذا المجنون برومثيوس ليشهد بعينيه ماذا تصنع بعباده الذين خلق . . . »

واقترح الآلهة أن يفرغ هيفستوس[1] إله النار والفن ، وابن زيوس ، إلى ابتداع هذه الأنثى ، فسوّاها من نفس الحمأ الذى خُلق منه الانسان ، وجاءت آيةً من آيات الحسن ، رقيقة كأنها صُوِّرت لتكون فتنة الأواب

واحتملها إلى زيوس ، وأقبل الآلهة ينفثون فيها أسرارهم ، ويستودعون نفحاتهم ؛ فهذه ڤينوس تهبها من جمالها ، وحيرا من ترثرتها ، ومينرفا من حكمتها ، ولاتونا من استيحائها ، وديانا من رشاقتها ، وكيوبيد من حبه ، وأبوللو من شعره وموسيقاه . . .

أما هِرْمز الخبيث ، فقد انتظر واستأنى حتى فرغ الآلهة من إسباغ آلائهم ، ثم تقدم ، وملء وجهه ضحكةٌ ساخرة ، فأودع الحواء[2] قلبَ كلبٍ ، ونفسَ لص ، وعقلَ ثعلب ! ! . .

ثم نفخ فيها زيوس من روحه ، فدبت الحياة فى أعطافها ، ونظرت حولها فأبصرت الآلهة مشدوهين ، مأخوذين بسحر جمالها ، فولّت مدبرةً ، ولكن إلى غير مهرب !

وشرع الآلهة يتخيرون لها الأسماء ، ثم سماها ربها « بندورا . » وأومأ إلى هرمز فاحتملها ، كالطفلة المدللة ، وذهب بها ، هديةً

(١) إله القوة والرياضة ، وأسطورته من أبرع الأساطير اليونانية وسننشرها قريباً

(١) هوڤلكان الرومانى

(٢) الحواء ... الأنثى الأولى

غالية من السماء إلى التعس پروميثيوس ، الذى رفضها غير شاكر وأباها غير حميد ! !

وكان لديه أخوه أپيمثيوس فكادت نفسه تذهب شعاعاً حين أبصر هذه الغادة الهيفاء ، يرفضها أخوه هدية من السماء ! وتقدم هو فضرع إلى هرمز أن ينزل له عنها ، وأن يغفر لأخيه حماقته ، وقلة بصره ، وكفرانه الذى لا كفران بعده ! !

ومع ذلك فقد نصح پروميثيوس لأخيه ألا يقبل هذه الهبة من الآلهة ، وأن يرفضها ، غير مشكورة ، كما رفضها :

— « إنها فتنة يا أخى ، بل هى خدعة من خدَع السماء حرىٌّ بنا ألا تنطلى علينا ! »

— خدْعة ؟ ! خدعة ماذا يا أخى ؟ خذ عَيْنَىَّ فابصر بهما ، وقلبى فَضَحِّه على مذبح هواها . . . . ألا ترى إلى عينيها النجلاوين ، وشفتيها القرمزيتين ، ونهديها الناهدتين ، وفخذيها الملوءتين ، وساقيها الجميلتين ؟ . . .

— « بل بحسبى عيناى يا أخى ! إنى أستشفُّ بهما فتوناً نفثته الآلهة فى كل جوارحها ، فحذار ! إنها ستكون خراب هؤلاء المساكين الذين صنعتهم يداى ! ! »

— « حسبك يا أخى وحسبى ! هى لى من دونك ، فتولَّ عنا أودعْ ! »

***

وعاشت پندورا مع إپيمثيوس كما يعيش الآلهة فى الفردوس . . . حياة كلها مرح ، وأياماً جميعها لذة وإيناس ، يحلو اليها فتمتزج روحاهما ، وتختلط نفساهما ، وتكون هى فتنة زوجها المسكين ؛ تأسر لبه بموسيقاها الحنون : وتسحره بالزرقة الناعمة فى عينيها ، وتبهره بكلماتها الغوالى فى الحكمة والموعظة الحسنة ! !

وتركهما زيوس حيناً من الدهر ينهلان خمر الحياة ، ويعبان من عسلها المصفى ؛ ثم دعا اليه هرمز ، فحمله صندوقاً ثميناً ، وأنفذه به اليهما . . . « . . . وإياك أن تعبث به فى الطريق ، فانه هديتى إلى پندورا ، وفيه انتقامى من عباد پروميثيوس ؛ فسر به إلى الفتاة ، وأوصها به خيراً . . . »

وكان الزوجان يتراقصان على الحشيش الأخضر أمام قصرهما المنيف حين أقبل هرمز بالصندوق ، يتعثر فى مشيته ، وقد بدت وعثاء السفر عليه ، وعلق الثرى بأسماله البالية ، فلفتت پندورا نظر زوجها اليه ، وذهبا سوية للقائه والاحتفاء به ؛ ولكن هرمز أبى إلا أن يذهب إلى القصر ، ليسلم الهدية ، وليبلغ رسالة السماء . فسار الجميع حتى كانوا فى المخدع الوثير ، وجلس هرمز يستريح قليلا ، ثم قال :

« هاك يا پندورا العزيزة هدية الآله الكريم إليك ، خصك بها من دون براياه أجمعين . وأحسبك فى غنى عن أن أصفها لك . فها هى أمامك تتكلم عن نفسها . ولكن الآله الأكبر يشترط ألا تفتحيها إلا باذنه ، فلا تتعجلى ، حتى يأتيك أمره . وإنه لقريب . »

ونهض هرمز ، وسلم وانصرف ، وما تزال بوجهه تلك الضحكة الساخرة التى كانت عليه يوم استودع پندورا قلب الكلب ، ونفس اللص ، وعقل الثعلب . . .

وكان ابيمثيوس قد قدم اليه من ثمر حديقته الشىء الكثير ، ولكنه لم يمد يده اليه . . .

***

وكان الليل قد قارب أن ينتصف ، وكان الكرى قد لعب بطرفها الوسنان ، فاستلقت على أريكتها الحريرية ، وغرقت فى سبات عميق ، ممتلىء بأحلى الرُّؤى ، وأطيب الأحلام

وخيِّل اليها أن فى الصندوق أرواحاً سحرية تكلمها ، وتنسج الأمانى العذاب لها ؛ وأن دنيا بأكملها تتفتح وتزهر حولها . . . فلما نهضت من نومها فى بكرة اليوم التالى ، أحست أن أملاً كبيراً يملأ قلبها ، وأن رغبةً ملحةً تدوتها إلى الصندوق كلما ابتعدت عنه ؛ وحدثت زوجها بما تجد ، فملأها هو الآخر بالآمال ، وأخذ يهدىء من روعها الذى بدا اضطرابه بأحلى مظاهره . . . ودعاها إلى نزهة خلوية فأقسمت لا تغادر البيت ، بل لا تغادر الغرفة التى تضم الصندوق الصغير ، « الذى أحس أنه مغلق على قلبى ونفسى جميعاً . . . ! » فرثى لها ، وانطلق هو ، لأول مرة منذ عرفها ، وحده ، ينادم إخوانه الآلهة وبلاءهم ؛ وپندورا وحدها فى مخدعها ، تقلب الصندوق العجيب ، وتتحدث إليه ، كأنه يسمع ويرى

وغبرت أيام وهى فى حال من الهم لم تعهدها من قبل ، وكانت تجلس وحدها حزينة كاسفة ، تنتظر بشير الآلهة الذى يأذن لها بفتح الصندوق . . . ولكن هيهات ! . . . لقد طال ما انتظرت

حتى نفد صبرها وعيل ، ونهضت إلى الصندوق تقلبه ، وتقلبه ، وهى مأخوذة بجمال صنعه ، ودقة زخرفته ، وهذا الغطاء المزركش الذى انغلق على آمالها وأحلامها . . .

وحاولت أن تفتحه ، ولو أغضبت بذلك السماء ومن فيها من آلهةٍ وأرباب ، ولكنها فشلت غير مرة ، وضاقت بها الدنيا بما رحبت ؛ فدفعت بالصندوق دفعة قوية على أديم الغرفة ، فانصدع ، ولما تناولته ثانية ، هالها أن وجدت بعض أربطة الغطاء قد تقطعت ، ثم هالها أكثر أن تسمع هذه الأصوات ، منطلقة من الداخل :

« بندورا ! بندورا ! بندورا العزيزة ! حنانيك ! خلصينا من هذا السجن السحيق ! إننا نتعذب هنا ... انقذينا يا بندورا فقد ضقنا بما نحن فيه . . . إننا لم نصنع شيئاً حتى نرسف فى هذا الحيز الضيق . . . »

« ماذا ؟ . . .

ما الذى يتحدث هكذا فى هذا الصندوق . . . ؟

إنها أصوات حزينة مكلومة ، وإنى لا بد منقذتها !

ماذا أنتظر ؟ أمر السماء ! هذا لا يهم ! !

انفتح أيها الغطاء . . . ! »

وضغطت الصندوق ضغطة هائلة فانفتح الغطاء ؛ وسرعان ما انطلقت خفافيش سوداء ذات مخالب حادة فملأت هواء الغرفة ؛ وأهوت على بندورا المسكينة تعضها وتجرح بدنها الغض ، وكلما وخزها خفاش لعين ، انطلق قائلاً : « أنا المرض ! » ويقول آخر : « أنا الفقر ! » ويقول ثالث : « أنا الجوع ! » . ويصيح رابع : « أنا البخل ! » . وخامس : « أنا القحط » . وسادس : « أنا النفاق ! » وسابع . . وثامن . . . إلى آخر الرذائل التى تكظ الحياة إلى يومنا هذا ؟ ! . . .

وانطلقت الخفافيش من الغرفة إلى القصر ، فجرّحت الخدم والخول ثم انطلقت إلى الحديقة . . . وإلى الطريق حيث كان إبيمثيوس وأقرانه الآلهة ، فأوسعتهم عضاً وقضما وتجريحا . وتركتهم يترنحون من الألم ، وذهبت تفسد فى الأرض ، وتنتقم لزيوس الجبار من عباد بروميثيوس المخلصين ، فكثرت الآلام ، وعم الفقر ، وامتلأت الأرض رذائل وأشجاناً ! ! . . .

وكانت بندورا قد أسرعت إلى الصندوق فأغلقته ، حين رأت من أمر هذه الخفافيش ما رأت



بندورا وصندوقها

ولكن : وا أسفاه ! !

إنها حين أغلقت الصندوق ، حبست فيه الروح الطيب الوحيد ، الذى خبأه فيه زيوس ... ألا وهو : « روح الأمل ! »

وانبطحت بندورا على أرض الغرفة تئن وتتوجع ، وتشكو البرح الذى ألم بها ، حتى أقبل أبيمثيوس فانبطح إلى جانبها يشكو شكاتها ، ويتألم آلامها . . .

ولبثا يبكيان . . .

وكلما حدثته بندورا حديث الصندوق ، تسخط الآله التعس وتبرم ، وحدجها بنظرة فاترة ، قائلا : « نصحتك فلم تصيخى . . . ! »

وسمعا صوتاً ضعيفاً فى الصندوق يقول : « بندورا ! بندورا ! لماذا حبستنى هنا وحدى ، وأنا روح الخير ... افتحى ... افتحى ... إنى سأشفيك من جراحك ، وآسو آلامك وأوجاعك ... افتحى ... »

ولكن بندورا كانت فى شغل بآلامها فلم تنهض ولم تجب ، ولكن إبيمثيوس تناول الصندوق ففتح غطاءه ، فانطلق فراش أبيض جميل ، هو روح الأمل ، ما فتئ يرف بكل جرح من جراحات الزوج حتى شفاها جميعاً ؛ ثم شفى جراح الزوجة كذلك ، وانطلق إلى عباد بروميثيوس يشفيهم ويأ-و جراحهم ؛ وما فتئ إلى اليوم ، هذا الفراش الأبيض الجميل ، روح الأمل ، يشفى أوجاع المحزونين والمكلومين

بورك الفراش الأبيض !

ولا بوركت خفافيشك السوداء يا بندورا !

دريني خشبة

البريد الأدبي

الذكرى الخمسينية لفكتور هوجو

في ٢٢ مايو سنة ١٨٨٥ توفي فيكتور هوجو الشاعر والكاتب الفرنسي الأشهر ، ومحيي روح المذهب الابتداعي (الرومانتزم) في الأدب الفرنسي في أواخر القرن الماضي ؛ وكانت الدوائر الأدبية الفرنسية تستعد منذ حين للاحتفال بمرور الذكرى الخمسين على وفاته ؛ وقد بدأت هذه الاحتفالات التذكارية منذ يوم ١٩ مايو الجاري في باريس على أن تستمر شهراً يسمى بشهر « فيكتور هوجو » ؛ وكانت فاتحة هذه الاحتفالات في قصر «التروكاديرو» الشهير ، وهنالك اجتمع جمهور كبير من الكتاب والشعراء والأساتذة والطلبة للاحتفاء بذكرى الشاعر الأشهر ؛ وفي اليوم التالي ، أعني في يوم ٢٠ منه ، افتتح في المكتبة الوطنية معرض كبير خاص بهوجو ، وعرض فيه كل ما يتعلق بالشاعر من الآثار والذكريات من مخطوطات ورسائل بخطه ، وصور له في بعض أدوار حياته لم تنشر من قبل ، وصورة رائعة « لجان فالجان » بطل « البؤساء » وهو أمام محكمة الجنايات ، وصورة لهوجو وهو على سرير موته ، وعدة رسوم مختلفة من رسم الشاعر نفسه ، إذ المأثور عنه أنه كان يلهو بالرسم عن التفكير وقت الكتابة ، وغير ذلك من التحف الفنية التي احتشدت الجماهير لرؤيتها

وفي يوم ٢٢ مايو ، وهو اليوم الذي توفي في مثله الشاعر منذ خمسين عاماً افتتحت الاحتفالات الرسمية بحفلة أقيمت في « البانثيون » (مدفن العظماء) ، حيث ترقد رفات الشاعر ، شهدها رئيس الجمهورية ووزير المعارف ، وأعضاء الأكاديميه ، وعدد كبير من الكتاب والشعراء والفنانين ، وألقيت الخطب والتحيات المناسبة

هذا وتستمر الاحتفالات الرسمية وغير الرسمية مدى شهر كامل ، ومنها احتفال في مجلس الشيوخ ، واحتفالات في دار « الكوميدي فرانسيز » تشمل تمثيل بعض قطع الشاعر مثل « هرناني » و « ماريون دي لورم » ، واحتفال آخر يقام في المنزل الأثري الذي كان يقيم فيه الشاعر في ميدان « الفوج » ، واحتفالات رسمية أخرى في مدينة « بيزانصون » مسقط رأسه

وسنعود في فرصة أخرى الى ترجمة الشاعر ودرس آثاره

عيد الفن في روسيا

طغت الثورة السياسية والاجتماعيه التي شهرها البلاشفة على المجتمع القديم على كل شيء في حياة روسيا القديمة ؛ ولكن شيئاً واحداً لم يتأثر بهذه الحرب الهدامة ، هو الفن ، فالفن ما زال في روسيا السوفيتية محتفظاً بتراثه القديم ، يتطور ويتقدم في جو سلمي هادىء ، بل لقد كان الفن من نواحي الحياة التي شملتها الثورة البلشفية بالعطف والحماية ، فأسبغت عليه حكومة الثورة كل تشجيع ومؤازرة ؛ وقد لقي الفن في ظل البلشفية عهده الزاهر ؛ وشمل هذا التشجيع كل ضروب الفن الجميل من التصوير والنحت والموسيقى والمسرح ، وغدت موسكو كعبة للفن الرفيع وملاذاً لأقطاب الفنانين ؛ ولكن لننجراد عاصمة روسيا القديمة مازالت كما كانت في عهد القياصرة ملاذاً للفنون ، ومازالت عاصمة روسيا الفنية

وقد رأت حكومة موسكو أخيراً أن تقيم عيداً عظيما للفن في لننجراد ، وسيبدأ هذا العيد من أول يونيه القادم ويستمر الى العاشر منه ، وستقام حفلات مسرحية باذخة ينظمها معهد الموسيقى الشهير في لننجراد في يومي أول ورابع يونيه ، وتعزف فيها روائع الأوبرات والقطع الخالدة ، وتمثل عدة روايات شهيرة روسية وأجنبية ، من شكسبير الى سكونارفسكي وغيرهم . وفي نفس الوقت تفتح متاحف لننجراد الشهيرة أبوابها للزائرين ، وتعرض أبدع الأشرطة السينمائية التي أخرجها الفن السوفيتي ، وقد منحت السلطات السوفيتية تسهيلات عظيمة للزائرين في أجور النقل وغيرها

والمفهوم أن هذا العيد إذا انتهى بنجاح ، فان حكومة موسكو تنوى أن تجعله عيداً دورياً ، وأن تقيم للفن فى لننجراد مواسم عظيمة أسوة بمدن الفن العظيمة الأخرى ، مثل سالزبورج فى النمسا ، وبايرويت فى ألمانيا وغيرها

كتاب عن نابوليون الثانى

صدر أخيراً كتاب عن « نابوليون الثانى » بقلم الكاتب الفرنسى رنيه درفيل . ونابوليون الثانى هو كما نعلم ابن نابوليون الأول من زوجه الثانية مارى لويز ، وهو المعروف بملك رومه ، « والنسر الصغير » وأخيراً بدوق ريخشتات . وليس فى حياة هـذا الأمير الذى عاش وتوفى فى ظروف مؤلمة مايستحق الذكر من الوجهة التاريخية ؛ فقد أخذته والدته مارى لويز طفلاً إلى ڤينا ، وهنالك ربى تربيـة نمسوية ، واحتجزه البرنس مترنيخ رئيس الحكومة النمسوية ، وفرض عليه نوعاً من الحراسة ، لكى يبقى رهينة بيد النمسا ؛ وقطع فى ڤينا حياة أليمة مؤثرة يكدر صفاءها السقم والمرض ؛ ثم أصابه السل حدثاً ، وبعثه إلى القبر فى ربيع الحياة ؛ وكانت حياة « النسر الصغير » مأساة أثارت كثيراً من قريض الشعراء ، وخيال القصصيين ؛ ولكن الاهتمام بتدوين حياته من الوجهة التاريخية لم يظهر إلا فى العصر الأخير ، حينما نشرت مذكرات « الدوق ريخشتات » (النسر) وكشفت عن كثير من دخائل هـذه الحياة المؤثرة . وليس فى كتاب رنيه درفيل جديد فى حياة النسر الصغير ، ولكنه من الكتب التاريخية القليلة التى دونت عن هذه الحياة

الكولونل لورنس

توفى فى الأسبوع الماضى رجل يرتبط اسمه أشـد الارتباط بتاريخ الثورة العربية ، هو الكولونل توماس لورنس ، والذى يهمنا فى هذا المقام هو ناحيته الأدبيـة ، فقد كان لورنس أديباً ومستشرقاً وأثرياً معروفاً . وكان مولده سنة ١٨٨٨ فى كارنارفون شير (انكلترا) ، وتلقى تربية جامعية حسنة ، وبدأ حياته العملية بالاشتغال بالتنقيب الأثرى مع العلامة الشهير فلندرز بترى فى مصر وسينا منذ سنة ١٩١٠ ، ولما نشبت الحرب الكبرى أرسلته السلطات البريطانية الى القاهرة فى سنة ١٩١٦ ليتصل بزعماء العرب ، ويعمل معهم لتنظيم ثورة عربية على الترك ، فسافر لورنس الى الحجاز ، وقام بمهمته خير قيام ؛ واشتغل بالتعاون مع الأمير فيصل (المرحوم الملك فيصل فيما بعد) ؛ ونثر الأعطية على البدو ، وجمع قوات لابأس بها ، وخرب مواصلات الترك ، ومهد الظفر لقوات الماريشال اللنبى ، وسقوط فلسطين وسوريا فى يد الانكليز . ولما انتهت الحرب تظاهر لورنس بالعطف على العرب ومشاركتهم فى السخط على السياسة الانجليزية لأنها نكثت بوعودها للعرب ، ونزل عن ألقابه ورتبه العسكرية ، واشتغل عاملاً بسيطاً بالطيران المدنى باسم جديد هو « شو » ؛ ومن ثم كان اللقب الذى خلع عليه من بعض العرب الحسنى الظن وهو « صديق العرب »

والواقع أن لورنس لم يكن صديقاً للعرب ، وإنما كان طليعة الاستعمار البريطانى وأداته النافذة فى جزيرة العرب ، وهو الذى مهد لتمكين النير الانكليزى منها باسم العمل لتنظيم الثورة العربية وإنشاء دولة عربية مستقلة ؛ وكان كمعظم أقرانه طلائع الاستعمار يستتر بالأثواب والمظاهر المعروفة ؛ حب الاسلام والعروبة ، والاستشراق ، والعطف على مجد العرب

وكان لورنس مع ذلك مستشرقاً أديباً ، وقد ترك عدة آثار قيمة ، منها « سبعة عمد من الحكمة » Seven Pillars of wisdom وهى دراسات وصور وصفية للقاهرة وأزمير واستانبول وحلب ودمشق والمدينـة . والثورة فى الصحراء Revolt in the Desert وهى قصة بديعة لأدوار الثورة العربيـة ، وفيها يكشف عن كثير من أسرارها

وفاة كاتب نمسوى كبير

من أنباء النمسـا الأخيرة أن الكاتب القصصى النمسوى الكبير أميل أرتل قد توفى فى جراتز فى الثالثة والسبعين من عمره . وقد ولد أرتل فى ڤينا وربى بها ، ولكنه ذهب الى جراتز منذ فتوته ، وتولى هنالك ادارة مكتبة المدرسـة العليا للفنون ، وهنالك انقطع لدرس الأدب ، وتوثقت صداقته مع الكاتب الشهير بيتر روزيجر وحلقته ، وأصدر عدة كتب نقدية وقصص لها المقام الأول فى الأدب النمسوى الحديث

احياء ذكرى المتنبي في الجامعة الأمريكية ببيروت

جاءنا من بيروت أن « جمعية العروة الوثقى » ستقيم في الجامعة الأمريكية حفلة لاحياء ذكرى المتنبي بمناسبة مرور ألف عام على وفاته ، وذلك في الساعة الخامسة بعد ظهر الأحد الموافق ٢ يونيو سنة ١٩٣٥ في القاعة الكبرى من الجامعة

وسيشترك في الحفلة أكثر الأقطار العربية ، فيتكلم فيها الدكتور حسين هيكل عن (مصر) ، والأستاذ معروف الرصافي عن (العراق) ، والأستاذ معروف طوقان عن (فلسطين) ، وفؤاد باشا الخطيب عن (شرق الأردن) ، والأستاذ سامي الكيالي عن (حلب) ، والأستاذ شفيق جبري عن (دمشق) ، والأستاذان فؤاد البستاني ، وأنيس المقدسي عن (بيروت)

تنقية اللغة الايرانية من الألفاظ الدخيلة

عقد المؤتمر اللغوي في طهران ثلاث جلسات إلى الآن ، وقد وضع كلمات إيرانية بدلاً من كلمات عربية وأجنبية ، وسيذيعها في الصحف بعد شهر لتصقلها الألسنة والأقلام ، والمعروف في الأندية العلمية أن المؤتمر متردد في ترك الحروف العربية الى حروف أخرى ، ففريق من أعضائه يريد استعمال الحروف البهلوية ، وآخرون يريدون الحروف اللاتينية ، ويظهر أن الشاه لا يرغب في املاء ارادته في هذا الشأن ويفضل أن يترك البت في حل هذه المسألة إلى رجال العلم والأدب

اكتشاف أثر مصري في انكلترا

كتب أحد المراسلين إلى جريدة الديلي تلغراف يقول إن المتحف البريطاني تمكن من الحصول على تمثال من الرخام الأسود المصري بدون رأس يرجع إلى عهد البطالسة ، ولكن لهذا التمثال أهمية مخصوصة لأنه وُجد في هايس من مدلسكس في انكلترا على اعماق ٨ أقدام أو ٩ ، حيث كان مدفوناً بين الحصى تحت طبقة كثيفة من الصلصال

وقد قيل في تعليل وجوده هناك إن بعض محبي الآثار ابتاعه ثم رماه غير حافل به . لكن العمق الشديد المدفون فيه ينقض هذا التعليل

وقد سبق أن وجدت آثار مصرية صغيرة متعددة في انكلترا ولكن لم يوجد حتى الآن أثر بهذا الحجم الضخم الذى يستحيل وروده إلى انكلترا بالطرق التجارية القديمة

مسكوكات عربية قديمة ضربت في عهد الدولتين الأموية والعباسية

حصلت إدارة المتحف العراقي قبل مدة على عدد من المسكوكات القديمة كانت في حيازة بعض الرعاة ، وهذه المسكوكات وجدت في تلول كشكوبل على باشا التابعة إلى ناحية قره تبه ، وبعد دراسة المتحف لها تبين أنها مسكوكات عربية (ماعدا قطعة واحدة ساسانية) وأن تواريخ هذه المسكوكات تختلف ما بين عام ١٢٢ و ١٧١ للهجرة ، وفيما يلي تواريخ هذه النقود :

أربع قطع باسم هشام بن عبد الملك ، ضرب واسط ، سنة ١٢٢ و ١٢٤ هـ ، قطعتان باسم الوليد الثاني بن يزيد الثاني ، ضرب واسط ، سنة ١٢٥ هـ ، ثلاث قطع باسم ابراهيم الأول بن الوليد الأول ، ضرب واسط ، سنة ١٢٦ هـ ، أربع قطع باسم مروان الثاني بن محمد ، واحدة في البصرة سنة ١٢٨ هـ والباقي واسط سنة ١٢٩ و ١٣٠ هـ ، ست قطع باسم السفاح ، أربع من ضرب الكوفة في ١٣٢ و١٣٣و١٣٦ هـ واثنتان من ضرب البصرة في ١٣٣و١٣٥ هـ ، أربعون قطعة باسم أبي جعفر المنصور . إحدى عشرة من ضرب الكوفة في ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٧ هـ ، وخمس من ضرب البصرة في ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٥ هـ واثنتان وعشرون من ضرب مدينة السلام في ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ هـ واثنتان من ضرب المحمدية في ١٥٠ ، ١٥٤ هـ ، ستة وأربعون باسم المهدي ، ثلاثون من ضرب مدينة السلام في ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ هـ ، وثمان من ضرب المحمدية في ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٦٩ هـ وثلاث من ضرب البصرة في ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٦ هـ ، وثلاث من ضرب جي في ١٦٢ ، وواحدة من ضرب كرمان في ١٦٩ هـ ، وواحدة من ضرب المنصورية في ١٦١ هـ باسم محمد بن سليمان والي البصرة . قطعة واحدة باسم الأمير هارون في عهد الهادي ، من ضرب اليمامة في ١٧٠ هـ ، قطعة واحدة باسم الخليفة هارون الرشيد ، من ضرب المحمدية في ١٧١ هـ قطعة واحدة باسم الأمير الأمين في عهد هارون الرشيد ، من ضرب المحمدية سنة ١٧١ هـ



الكتب

الأوشال

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

بين يدي الآن الديوان الخامس من شعر الأستاذ الزهاوي الذي فاضت به قريحته الخصبة في الأيام القريبة ، والذي شاء له تواضعه أن يسميه « الأوشال » بينما تزخر صفحاته التي تربو على الثلثمائة صفحة بالقصائد الغر في شتى الموضوعات ومختلف الفنون

قلب صفحات هذا الديوان يتولك الدهش من ذلك النشاط الذهني العجيب ، إذ ينتقل بك الزهاوي من العراق الى مصر ، ومن مصر الى سوريا ، تارة صادحاً وتارة نائحاً ، وطوراً حافزاً الى المجد قومه ، أو ناعياً عليهم تقاعدهم ، وأحياناً تراه يرسم لهم سبل النجاح ، ويدلهم على ما يرقى بهم الى العلى ، هذا ولا ننس نزعته الفلسفية وصفاء ذهنه إذا اتجه في شعره الى وصف الحياة وآلامها وما وراء الحياة من عالم الغيب ، والنفس البشرية وما ركب في طباعها من ميول ، والمجتمع الانساني وما يجول فيه من نزعات أو يختلج من مشاعر . وانك لتجد الزهاوي الى جانب ذلك يضع الأناشيد ويحكم صوغها ، ثم تراه يعمد الى الوصف فيأتي به متنوعاً يوائم تقدم العصر ويساير مستحدثاته ، فهو يصف لك كنجة الشوا ، وألحان عبد الوهاب ، وترانيم أم كلثوم ، ويصف لك جمال الطبيعة في العراق أرضه وسمائه . أما مراثيه فيتدفق فيها الشعر تدفقاً مدهشاً ، فهو لا يكتفي مثلاً إلا بقصيدتين في رثاء شوقي ، ثم هو يرثي أديسون ويتفجع على العلم من بعده ، بله أعلام الشرق حديثهم وقديمهم . وجملة القول أن الزهاوي على الرغم من شيخوخته فياض المعاني ، تواتيه قريحته في سهولة ويسر بكل ما يختلج في نفسه أو يجول في رأسه ، فهو بحق فتى الشيوخ ، وما أظنك لو اطلعت على ديوانه غفلاً من اسمه كنت تصدق أنه ديوان شاعر اجتاز مرحلة الشباب

أما عن شعره ، فيكفي أن نقول هنا لضيق المجال ، إن آثار الزهاوي قد أصبحت في ذاتها ناحية هامة من نواحي الحركة الفكرية المصرية ، وسوف يكون لها فصل مستقل في تاريخ الأدب المعاصر ، وما أظنني أستطيع أن أوفي شعر هذا الديوان ما هو جدير به من الدرس والتحليل في مجلة كهذه ، ولعلي أعود الى تلك الدراسة في فرصة قريبة ، مكتفياً الآن بتقديم تحياتي الى الشاعر الكبير م؟

الخفيف

جولة أثرية

في بعض البلاد الشامية

بقلم أحمد وصفي زكريا

شاء لي حسن الحظ أن أهبط يوماً دار صديقي المصور الفنان النابغ الأستاذ شعبان زكي بالمطرية ، فلم تكد عيني تقع من الجدر على ما زينها به صاحبها من آيات الفن الرائعة حتى أحسست في أعماق النفس غبطة ونشوة ، وكأنما سمعت حينئذ صوتاً يجلجل في أغوار الضمير يصيح بي : مصر العزيزة كنانة الله في أرضه ! ! ومبعث هذا الصوت وذلك الاحساس هو أني رأيت بلادي داخل الأطر وقد ألبسها الفنان زخرفاً وزينة لم يكن لي بهما عهد من قبل . . . قال لي الأستاذ : ذلك مبدئي وهو أن يأخذ الفنان بأيدي الناس حتى يضع أصابعهم على مواضع الجمال من بلادهم ، فان وفق كانت لنا وطنية تشتمل في الصدور ، فأصل الوطنية حب الوطن ، وباعث حب الوطن إحساس بجماله . قلت : والله ما أجمل أن يكون هذا وسيلة الفنون جميعاً ، تصويراً وكتابة وشعراً وموسيقى

ومنــذ ذلك اليوم رسخ فى نفسى مذهب مصورنا الفنان ، وتمنيت أن يكون لنا بين الكتّاب والشعراء من يضعون لنا بلادنا تحت أبصارنا وأسماعنا فى صور تستهوى الألباب فتدفع الأفئدة إلى الفتنة والهيام ثم إلى العبادة والتفانى

ذكرت ذلك كله عندما أخذت أتصفح هذا الكتاب القيم الجليل ، الذى نقدمه الآن إلى القراء ، فهو كما ترى من عنوانه جولة فى بعض البلاد الشامية ، وصفت وصفاً دقيقاً بارعاً ، فلا تقرأ من الكتاب جزءاً إلا وقد ارتسمت فى ذهنك له صورة قوية رائعة كأنما جاءتك من رؤية العين ، بل إن الكثرة الغالبة من الأعين لتمر من الكرام على أغلب ما تقع عليه مما لا يفوت الأستاذ المؤلف منه شىء ؛ فما أحوجنا فى الحق إلى مطالبة بلادنا بأقلام الكاتبين ، إذ الحقيقة المرة هى ما يصفها المؤلف فى مقدمة الكتاب بقوله : « فقد كنت وأنا أوغل فى هذه الأبحاث أرى بكثير من الأسف أن جل مثقفينا ومفكرينا لا يعرفون من شؤون مساقط رؤوسهم وجغرافيتها وتاريخها القديمين والحديثين ولا من بقاعها ومصانعها الأثرية ومفاخرها التليدة ومدافن رجالاتها البارزة وتراجمهم قدراً كافياً . . . »

وقد رجع المؤلف فضلاً عن المشاهدة إلى عشرات من أوثق المصادر ، وإن نظرة عجلى لتكفى للدلالة على ذلك المجهود الجبار الذى أنفقه الأستاذ المؤلف فى هذا السفر الجليل : « ومعظم هذه الأوصاف مما رأيته بعينى وتحققته بنفسى أو بالواسطة الوثيقة على عسرة نواله ، أو مما عثرت عليه فيما ظفرت به من الكتب الجغرافية والتاريخية والرحلات القديمة والحديثة العربية والتركية والأفرنجية على تفرقه فى تضاعيف السطور . فجاء الكتاب وافياً على ما أظن ببعض حاجة من يقدر هذه الأبحاث قدرها ويعرف مبلغ التعب والنشب اللذين تتطلبهما . . . »

الحق الذى لا ريب فيه أنه كتاب كانت تفتقر اليه المكتبة العربية افتقاراً شديداً ، وإننا لننتهز هذه الفرصة لنتقدم مخلصين إلى المؤلف بكل إعجاب وتقدير

ويقع الكتاب فى نيف وأربعمائة صفحة من القطع المتوسط ، وهو فوق ذلك كله أنيق طبعاً وورقاً وذوقاً

زكى نجيب محمود

شرح ديوان علقمة الفحل — عمل السيد أحمد صقر
خاتم النبيين — تأليف عبد الغفار الجبار

أما شرح ديوان علقمة الفحل فهو عمل أدبى اضطلع به شاب ناشىء هو الاديب سيد أحمد صقر من طلاب القسم الثانوى بالجامعة الأزهرية ، فأخرج لنا ديوان علقمة فى طبعة أنيقة تقع فى ثمانين صفحة من القطع الكبير ، ولقد صدره بمقدمة جيدة فى حياة علقمة ورحلته إلى الشام وآراء الأدباء فى شعره ، ثم قام بشكل شعره وضبطه ، وشرح مفرداته فى ذيل كل صفحة . ولعل اختياره علقمة دون سواه راجع إلى شغفه بشعره ، فهو يحدثنا أنه « طحابه فى علقمة قلب نابض كأنه صوغ قريضه وجشمه تبيان غريبه فشرع ينقب عن درره المتناثرة حتى جمعها ونظمها فى هذا العقد »

وأنا مع ثنائى على نشاطه الأدبى أحب أن أصارحه بأننى لا أميل كثيراً إلى هذا النوع من الشرح الذى يقف عند الرجوع إلى المعاجم والأتيان بالمرادفات ، وخير ما يعمله الأديب فى رأيى وبخاصة إذا كانت تحدوه عاطفة الحب والاعجاب كما هو الحال فى موقف صاحبنا من علقمة ؛ أن يبين لنا جمال شعر الشاعر ومقدرته على التعبير عما فى نفسه ومقدار ما فى شعره من قوة وعذوبة ، وبذلك يكون لعمله من القيمة أكثر مما لو اقتصر على شرح المفردات ، على أنها باكورة طيبة أكبر ظنى أن ستعقبها خطوات موفقة فى خدمة الأدب . كذلك يجدر بمثل أحمد صقر أن يضرب صفحاً من الآن عن تلك « التقاريظ » التى ذيل بهـا كتابه ، والتى لا نرى فيها إلا غلواً يسىء إلى الحقيقة بقدر ما يسىء إلى الأدب

يأتى بعد ذلك كتاب خاتم النبيين ويقع فى نحو مائة وسبعين صفحة كبيرة طبع طبعاً جيداً على ورق متين ، ويدور حول حياة النبى العربى محمد صلى الله عليه وسلم وشريعته ، ولقد سار فيه على طريقة طريفة ارتحت إليها كثيراً ، فبعد أن سرد فى إيجاز حياة الرسول ، عمد إلى توضيح بعض المسائل والعقائد بأن يذكر الموضوع ، ثم يعرض فى إيجاز ما كان يدور فى خلد العرب عنه ، وبعد ذلك يأتى بالآيات أو الأحاديث التى تبين ما أحدثه الاسلام فى تلك المسائل فى ترتيب ووضوح يبعدان السأم عن كتابه ، ولقـد يضطر الى شىء من الأفاضة فيأتى به بين حين وآخر تحت عنوان على الهامش ، وقد استطاع بذلك أن يجتذب القارىء الى كثير من المسائل الدقيقة دون أن يشعره بملل أو يجعل للفتور سبيلاً اليه ، وهى طريقة جديرة بالثناء والتقدير

الخفيف

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٠٠ — ٣ يونيو سنة ١٩٣٥ — السنة الثالثة

3 me Année, No. 100.

Lundi-3-6-1935

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
م
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العــدد ١٠٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢ ربيع الأول سنة ١٣٥٤ — ٣ يونيو سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

مأساة الآثار المصرية

اكتشفت أخيراً عدة حوادث جديدة تسربت فيها آثار مصرية إلى الخارج بطرق غير مشروعة، ومن ذلك مجموعات ثمينة من أوراق البردى المصرية القديمة ظهرت فى لندن وبرلين. ولتسرب آثارنا القديمة، أو بعبارة أخرى لسرقة آثارنا، حديث قديم مؤثر، فليس بين بلاد الأرض بلد نكب فى آثاره كما نكبت مصر؛ ونكبتنا فى آثارنا فادحة مضاعفة، لأن القدر شاء أن تتلقى مصر من أجيالها الغابرة المجيدة أقدم تراث أثرى وأنفسه، ولأن هذا التراث مازال مطمح أنظار المتربصين من الهواة والعلماء . . .

ليس بين متاحف العواصم الأوربية الكبرى متحف لا يضم بين أبهائه مجموعة كبيرة من آثارنا المصرية؛ فى لندن وباريس وروما وڤينا وبرلين وغيرها أقسام خاصة للآثار المصرية، ومن هذه الأقسام مالا يقل كثيراً فى ضخامته وتنوعه عن متحفنا المصرى؛ هذا عدا المتاحف الأمريكية، وعدا المجموعات الخاصة التى تسربت إلى أيدى الهواة. وإن المصرى الذى يتاح له أن يزور هذه المتاحف ويرى كل هذا التراث المصرى المنهوب يزين

فهرس العــدد

هذه الأبهاء الشاسعة كلها لتأخذه دهشة يمازجها الألم والحسرة لفداحة الخطب الذى نزل بتراثنا الأثرى .

* * *

ومن الحقائق المؤلمة أن تكون مصر هى أول مسئول عن هذا الخطب ، وأن تحمل فيه أكبر تبعة ؛ فهى التى أسلمت تراثها الأثرى منذ أواخر القرن الماضى إلى طائفة من البعثات الأجنبية تعمل فى أرضنا باسم العلم والاستكشاف الأثرى ، ولكنها لم تكن دائماً حريصة على مبادئ العلم ونزاهة العلم ، ولم تكن بالأخص جديرة دائماً بالثقة التى وضعت فيها ، فلم ترع حرمة الأمانة والذمة ، بل كانت تتربص دائماً لما تعثر عليه من آثارنا ، فتهرب منه إلى بلادها بمختلف الوسائل ما استطاعت ، ثم تعود فتقتسم ما تعف عنه من البقية الباقية مع حكومتنا وتفوز دائماً فى ذلك بالنصيب الأوفر .

ومصر هى التى وضعت لنفسها تلك اللائحة السخيفة التى تسمح للبعثات الأجنبية والمكتشفين الأجانب باقتسام آثارنا المكتشفة معنا ؛ ومصر هى التى تقصر فى حراسة مناطقها الأثرية ؛ ومصر هى التى تسلم إدارة مصلحة الآثار والمتاحف المصرية إلى الأجانب ، وهى التى تسمح لأولئك الأجانب بأن يعتقدوا أن هذا الاشراف على آثارنا ميراث لهم يدخل فى منطقة نفوذهم وحقوقهم فى بلادنا .

لقد وقعت حوادث مثيرة فى انتهاب الآثار المصرية كانت حرية أن تنبه الحكومة المصرية إلى خطورة هذا التقصير المؤلم ؛ منها حادث تمثال الملكة نيفرتيتى الذى يعتبر أجمل قطعة فى آثار مصر القديمة ، والذى استطاع عالم ألمانى أن يستلبه بوسائل غير شريفة مازالت وصمة فى جبين العلم الألمانى ؛ ومنها حادث أوراق البردى التى وجدت منذ أعوام فى الفيوم وتسربت إلى متحف برلين ووجد أنها من أنفس ما وجد من أوراق البردى القديمة ، لأنها تحتوى على نصوص كاملة لبعض كتب مانى الفيلسوف الفارسى وصاحب المذهب المشهور ؛ ومنها حادث أوراق البردى الأخيرة التى ظهرت فى لندن ؛ ومنها كثير غير ذلك مما لم يذع أمره .

كل ذلك ونحن سكوت ؛ نشهد هذا الانتهاب لآثارنا تحت ستار العلم والبحث لا ساخطين ، ولكن مستسلمين ؛ وإذا اهتمت حكومتنا فكل مظاهر اهتمامها أن تدعو لجنة الآثار لبحث الأمر ، كما فعلت أخيراً ؛ ثم يطوى أمر اللجنة وأمر الآثار .

* * *

الواقع أنها مأساة ، ومأساة أليمة لا تحتمل السكوت بعد ؛ فإذا كانت مصر تحرص على آثارها حقاً ، وإذا كانت تريد أن تعتبر بالحوادث وأن تعمل لصون تراثها الأثرى ، فعليها أن تبادر قبل كل شئ إلى إلغاء هذه اللائحة الأثرية العتيقة التى تنص على اقتسام الآثار ، وهو نص لا نظن له نظيراً فى أى بلد متمدين يحرص على تراثه القومى ، وأن تستبدل بها لائحة جديدة تناسب روح العصر ، وتكفل نصوصها المشددة صون الآثار المكتشفة وبقائها فى مواطنها ؛ وعليها بالأخص أن تحرم المباحث الأثرية على البعثات الأجنبية بعد أن أثبتت الحوادث منذ نصف قرن أن هذه البعثات هى أساس الشر ، وأنها لم ترع حقوق الأمانة التى ألقيت إليها ؛ ولتكن المباحث الأثرية فى المستقبل مهمة حكومية أو مهمة جامعية تتولاها الحكومة أو الجامعة المصرية بمعاونة بعض الخبراء الأجانب الذين يعملون بإشراف الحكومة مدى حين ، حتى يجئ الوقت الذى يستطيع الإخصائيون المصريون فيه أن يستأثروا بالبحث عن كنوز بلادهم ، وهو فيما نعتقد غير بعيد .

وليترك ولاة الأمر تلك النظرية العتيقة التى ترى فى الأجانب وحدهم الأهلية لإجراء المباحث الأثرية ، فقد دلت الاكتشافات الأثرية الباهرة التى وفق إليها الأساتذة المصريون فى منطقة الأهرام وفى بعض مناطق الوجه القبلى بإشراف الجامعة المصرية على خطأ هذه النظرية المجحفة ، وعلى أن الشباب المصرى إذا مهدت له سبيل الدرس والتخصص استطاع أن يضطلع بجلائل البحوث والمهام .

وليعمل ولاة الأمر أخيراً على انتزاع مصلحة الآثار والمتاحف المصرية من تلك الأيدى الأجنبية التى ما زال تراثنا يبدد فى ظلها ، ولتسلمها إلى الأيدى المصرية ، فهى أبر بتراثها القومى وأكفل بصونه وحمايته من عدوان الطامحين والمتربصين . « ع »

٦ - الانتحار

تتمة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال المسيّب بنُ رافع: وانفض مجلسُ الشيخ، ودرجتْ بعده أعوامٌ في عدة الشهور من حمل المرأة، بلغت فيها أمورُ الناس مبلغَها من خير الدنيا وشرّها، مما أعرفُ ومالا أعرف؛ ودخلْتُ البصرة أنا ومجاهدٌ الأزديّ، نسمع الحسنَ[1] ونأخذ عنه؛ فانّا لسائران يوماً في سكّة بني سَمُرَة، إذ وافقنا الفتى صاحبَ النصرانية مُقبلاً علينا، وكنا فقدناه تلك المدة، فأسرعَ اليه مجاهد فالتزمه وقال: مرحباً مرحباً بذي نَسبٍ الى القلب؛ وسلّمتُ بعده وعانقته؛ ثم أقبلنا نسأله، فقلت له: ما كان آخرُ أوّلِك؟ قال مجاهد: بل ما كان آخرُ أولها هي؟

فضحك الرجل وقال: آلنصرانيةَ تعني؟ قال: نعم. قال: آخرُها من أولها كهذا مني؛ وأومأ الى ظله في الأرض ممدودا مشبوحاً مختلطاً غيرَ متميز؛ كأنه ثوبٌ منشورليس فيه لابسُه، وكنا في الساعة التي يصير فيها ظلُّ كلّ شيءٍ مثليه فهو مَزْجُ المسخ بالمسْخ . . .

قال مجاهد: ما أفظَّ جوابَك وأثقلَه يارجل؟ كأنك والله تاجر لا صلةَ له بالأشياء إلا من أثمانها؛ فنظرُه الى فراهةِ الدابة من الدّواب والى فراهة الجارية من الرقيق سواء:

قال الرجل: فأنا والله تاجر، وأنا الساعةَ على طريق الايوان[2] الذي يلتقي فيه تجارُ العراقِ والشام وخُراسان؛ وقد ضربتُ في هذه التجارات وحسُنتْ بها حالي وتأثّلتُ منها؛ غير أن قلبَ التاجر غيرُ التاجر، فليس يَزِنُ ولا يقبض، ولا يبيع ولايشترى. أما «تلك» فأصبحت نسياناً ذهب لسبيله في الزمن!

قال مجاهد: فكيف كنتَ تَراها وكيف عدتَ تنظر اليها؟

قال: كنت أنظر اليها بعينيّ وأفكاري وشهواتي؛ فكانت بذلك أكثرَ من نفسها ومن النساء، وكانت ألواناً ألواناً ما تنقضي؛ فلما دخل بيني وبينها الزمنُ والعقل، أبعدَها هذا عن قلبي وأبعدها ذاك عن خيالي؛ فنظرتُ اليها بعينيّ وحدهما، فرجعتْ امرأة ككل امرأة؛ وبنزولها من نفسي هذه المنزلة، رجعتْ أقلّ من نفسها ومن النساء، وهذه القلّةُ فيما عرفتُ لا تُصيب امرأةَ عند محبّها إلا فعلتْ بجمالها مثلَ ما تفعله الشيخوخةُ بجسمها، فأدبَرَتْ به ثم أدبرتْ واستمرتْ تُدْبِر!

وأنتَ فاذا أبصرتَ امرأةً شيخةً قد ذهبَت التي كانت فيها . . . وأخطرْتَ في ذهنك نِيةً مما بين الرجال والنساء، فهل تُراك واجداً الشهوةَ والميلَ، إلا النّفْرةَ والمعصية؟ إن هذا الذي كان الحبّ والهوى والعشق، هو بعينه الذي صار الاثمَ والذنب والضلالة!

قال مجاهد: كأنك لما ذهبتَ تقتلُ نفسَك من حبها قتلتَها هي في نفسك؟

قال: يارحمةً قد رحِمْتُ بها نفسي يومئذ! أمَا والله إن الذي يقتل نفسه من حب امرأةٍ لَغبيّ. ويحَهُ! فليتخلّص من هذا الجزء من الحياة لا من الحياة نفسِها. وقد جعل الله للحب طرَفين: أحدهما في اللذّة، والآخرُ في الحماقة؛ مامنهما بدّ. فهذا الحبّ يُلقِي صاحبَه في الأحلام ويُغَشّي بها على بصره، ثم إن هو اتجه بطرَفه السعيد الى حظّه القبيل واتفقت اللذّةُ للمحب -- أيقظته اللذةُ من أحلامه؛ وإن اتجه الحبُّ بطارفه الشقيّ الى حظّه المُدْبِروقعت الحماقاتُ فنوناًشتّى بين الحبيبين، وفعلتْ آخراً فِعلَ اللذة فأيقظَت العاشقَ من أحلامه أيضاً. وهذا تدبيرٌ من الرحمة، في تلك القوّة المدبِّرة المسماة الحبّ. أفلا يدلّ ذلك على أن اللذةَ وهمٌ من الأوهام مادام تحقّقُها هو فناءَها؟

خذْ عني يا مجاهد هذه الكلمة: «ليس الكمالُ من الدنيا ولا في طبيعتها، ولا هو شيءٌ يُدْرك، ولكنَّ من عظمة الكمال أن استمرارَ العمل له هو إدراكُه»

قال مجاهد: لقد علمتَ بعدَنا علماً، فمن أين لك هذا، وعمّن أخذت؟

قال: عن السماء!

قال: ويلك! أين عقلُك، فهل نزل عليك الوحى؟

(١) الحسن البصرى الامام العظيم (٢) هذه الكلمة خير ما يعبر بها عن (البورصه)

قال الرجل : لا ، ولكن تعاليا معى الى الدار فأحدِّثكما

***

قال المسيّب : وذهبنا معه ؛ فأُتينا بطعام نظيف فأكلنا ، وأشعرتْنا الدارُ أن ربَّها قد وقع فيما شاء من دنياه وتواصلتْ عليه النعمة ؛ فلما غسلنا أيدينا قال مجاهد : هيهِ يا أبا . . . يا أبا مَن ؟ قال : أبو عُبَيد . قال : هيهِ يا أبا عبيد . . .

فأفكرَ الرجلُ ساعةً ثم قال : عهدُكما بى منذ تِسْعٍ فى مجلس الامام الشعبيِّ بالكوفة ؛ وقد كنتُ فى بقيةٍ من النعمة أتجمَّلُ بها ، وكانت تُمسكُني على موضعى فى أعين الناس ؛ فما زالت تلك البقيـة تَدِقُّ وتنفضُّ حتى نكِد عيشى ووقعْتُ فى الأيام القعَدَة التى لا تمشى بصاحبها ، وانقلب الزمنُ كالعدوِّ المُغيرِ جاء ليصطلِمَ ويُخرِبَ ويُفسِد ، فأثَّر فىّ أقبحَ آثاره ، فبعتُ ما بقى لى وتحملتُ عن الكوفة الى البصرة ، وقلت : إن لم تتغيّر حالى تغيّرت نفسى ، ولا أكون فى البصرة قد انتهيتُ الى الفقر ، بل أكون قد بدأتُ من الفقر كما يبدأ غيرى ، وأدعُ الماضىَ فى مكانه وأمضى الى ما يستقبلُنى

فالتمستُ رُفْقَةً فالتأمْنا عشرين رجلاً ، فلما كنا فى الطريق ، سلبَنا اللصوصُ وحازوا القافلةَ وما تحويه ، ونجوتُ أنا راكباً فرسى وعُمْرى ، وأدركتُ حينئذ أن الحياة وحدها مُلْكٌ عظيم ، وأنها هى الأداةُ الإلـهيّة ، والباقى كلُّـه هو من أنفسنا لأنفسنا والأمر فيه هيّنٌ والخَطْبُ يسير

وقلت : لو أن اللصوصَ قد مرُّوا بنا كما يمرّ الناسُ بالناس لما نكبونا ، ولكنهم عرضوا لنا عُروضَ اللصِّ للمال والمتاع لا للناس فوضعوا فينا الأيدى الناهبة ، ومن هـذا أدركت أن ليس الشر إلا حالة يتلبس بها من يستطيع أن يتخلص منها . فاذا كان ذلك فأصل السعادة فى الانسان ألا يعبأ بهذه الحالات متى عرضت له ؛ وهو لا يستطيع ذلك إلا إذا تمثل الشر كما يراه واقعاً فى غيره ؛ فالمرأة العفيفة إذا عرضت لها حالة من الفجور ونظرت إلى نفسها وحظِّ نفسها فقد تعمى وتَزِلّ ، ولكنها إذا نظرت إلى ذلك فى غيرها وإلى أثره على الفاجرة كانت كأنما زادت على نفسها نفساً أخرى تريها الأشياء مجردة كما هى فى حقائقها

قال : ومضيت على وجهى تتقاذفني البقاع والأمكنة ، وأنا أُعانى الأرض والسماء ، وأخشى الليـل والنهار ، وأكابد الألم والجوع ، حتى دخلتُ البصرةَ دخولَ البعير الرازح قطَع الصحراءَ تأكلُ منه ولا يأكل منها ، فأنضاه السفر وحَسَره الـكلال ونحتَه الثِّقل الذى يحمله ، فجاء بِبِنْيةٍ غير التى كان قد خرج بها . وكانت أيامى هذه عمراً كاملاً من الشقاء جعلتنى أوقن أن هؤلاء الناس فى الحياة إن هم إلا كالدَّواب تحت أحمالها ، لا تختار الدابةُ ما تحمل ولا من تحمل ، ولا يُترَكُ لها مع هـذا أن تختار الطريق ولا مدة السير وليس للدابة إلا شيئان : صبرها وقوتها ؛ إن فقدتهما هلـكت ، وإن وهنا فيهما كان ضعفها بحسب ذلك

إن هناك أوقاتاً من الشـقاء والبؤس تقذف بالانسان وراء انسانيته وإنسانية البشر جميعاً لا تبالى كيف وقع وفى أىِّ وادٍ هلك ، فلا ينفع الانسان حينئذ إلا أن يعتصم بأخلاق الحيوان ، فى مثل رضاه الذى هو أحكمُ الحكمة فى تلك الحال ، وصبرِه الذى هو أقوى القوّة ، وقناعتِه التى هى أغنى الغنى ، وجهلِه الذى هو أعلمُ العلم ، وتوكله الذى هو إيمانُ فطرته بفطرته . لا يبالى الحيوان مالاً ولا نعماً ولا متاعاً ولا منزلةً ولا حظاً ولا جاهاً ، ولن تجدَ حمارَ الملكِ يعرفُ من الملكِ أكثرَ مما يعرف حمارُ السَّقّاءِ من السقّاء ؛ ولعلك لو سألتهما وأطاقا الجوابَ لقال لك الأوّل : إن الذى فوق ظهرى ثقيلٌ مقِيتٌ بغيض ؛ ولقال لك الثانى : إن الذى يركبه خفيفٌ سهلٌ سمح !

ولـكن بلاء الانسان أنه حين يطوحه البؤس والشـقاءُ وراء الانسانية ، لا ينظر لغير الناس ؛ فيزيده ذلك بؤساً وحسرة ، ويمحقُ فى نفسه ما بقى من الصبر ، ويقلبُ رضاه غيظاً ، وقناعته سخطاً ، ويبتليه كلُّ ذلك بالفكرة المهلـكة أعجزها أن تهلك أحداً فلا تجد من تُدمِّرُه غيرَ صاحبها ؛ فاذا هى وجدت مساغاً إلى الناس فأهلـكت وعاثت وأفسـدت جعلت صاحبها إما لصاً أو قاتلاً أو مجرماً أىَّ ذلك تيسر !

***

قال : وكنتُ أعرف فى البصرة فلاناً التاجر من سَراتِها ووجوهِ أهلها ، فاسـتطرقته فاذا هو قد تحول إلى خراسان ، وليس يعرفني أحدٌ فى البصرة ولا أعرف أحداً غيره ؛ فكأنما

نكبت مرة ثانية بغارة شر من تلك ، غير أنها قطعت على في هذه المرة طريق أيامى ، وسلبتني آخر ما بقى لنفسى وهو الأمل !

ورأيت أنه ما من نزولى إلى الأرض بد ، فأكون فيها انساناً كالدابة أو الحشرة ، حيا تها ما اتفق لا ما تريد أن يتفق ؛ وأنه لا رأى إلا أن أسخر من الشهوات فأزهد فيها وأنا القوى الكريم ، قبل أن تسخر هى منى إذا جئتها ، وأنا الطامع العاجز !

وفى الأرض كفاية كل ما عليها ومن عليها ولكن بطريقتها هى لا بطريقة الناس ؛ وما دامت هذه الدنيا قائمة على التغيير والتبديل وتحول شىء إلى شىء ، فهذا الظبى الذى يأكله الأسد لا تعرف الأرض أنه قد أكل ولا أنه افترس ومزق ، بل هو عندها قد تحول قوة فى شىء آخر ومضى ؛ أما عند الناس فذلك خطب طويل فى حكاية أوهام من الخوف والوجل ؛ كما لو اخترعت قصة خرافية تحكيها عن أسد قد زرع لحماً . . . فتمهده فأنبته فحصده فأكله ، فذهب الزرع يحتج على آكله ، وجعل يشكو ويقول : ليس لهذا زرعتني أنت ، وليس لهذا خرجت أنا تحت الشمس ، وليس من أجل هذا طلعت الشمس على وعليك !

والانسان يرى بعينيه هذا التغيير واقعاً فى الانسانية عامتها وفى الأشياء جميعها ؛ فاذا وقع فيه هو ضج وسخط ، كأن له حقاً ليس لأحد غيره ؛ وهذا هو العجيب فى قصة بنى آدم ، فلا يزال فيها على الأرض كلمات من الجنة لا تقال هنا ولا تفهم هنا ؛ بل تحل الاعتراض بها حين يكون الانسان خالداً لا يقع فيه التغيير والتبديل . ومن هذا كان خيال اللذة فى الأرض هو دائماً باعث الحماقة الانسانية

قال أبو عبيد : وذهبت أعتمل بيدى وجسمى على آلام من الفاقة والضر ، ومن الخيبة والاخفاق ، ومن إلجاء السكنة وإحواج الخصاصة ؛ فلقد رأيتني وإن يدى كيد العبد ، وظهرى كظهر الدابة ، ورجلى كرجل الأسير ، وعنقى كعنق المغلول ، ويطلع قرص الشمس على الدنيا ويغيب عنها وما أعتمل إلا بقرص من الخبز ، ولقد رأيتني أبذل فى صيانة كل قطرة من ماء وجهى سحابة من العرق حتى لا أسأل الناس ، ويا بؤساً لى إن سألت وإن لم أسأل !

وما كان يمسكنى على هذه الحياة المرمقة ، تأتى رمقاً بعد رمق فى يوم يوم — إلا كلام الشعبى الذى سمعته فى مسجد الكوفة ، وقوله فيمن قتل نفسه ، فكان كلامه نوراً فى صدرى يشرق منه كل يوم مع الصبح صبح لأيمانى . ولكن بقيت أيام نعمتى الأولى ولها فى نفسى ضربان من الوجع كالذى يجده المجروح فى جرحه إذا ضرب عليه ، فكان الشيطان لا يجد منفذاً إلى إلا منها . وفقدت الصديق وعونه ، فما كان يقبل على صديق إلا فى أحلامى من وراء الزمن الأول !

قال مجاهد : والحبيب ؟

فتبسم الرجل وقال : إذا فرغت الحياة من الذى هو أقل من الممكن ، فكيف يكون فيها الذى هو أكثر من الممكن ؟ إن جوع يوم واحد يجعل هذه الحياة حقيقة جافية لا شعر فيها ، ويترك الزمن وما فيه ساعة واحدة معطرة . . والبؤس يقظة مؤلمة فى القلب الانسانى تحرم عليه الأحلام ؛ وما الحب من أوله إلى آخره إلا أحلام القلوب بعضها ببعض !

***

قال أبو عبيد : وتضعضعت لهذه الحياة المخزية وأبرمتني أيامها ، وحملت فى الميت والحى ، ورأيت الشيطان لعنه الله كأنما اتخذنى وعاء مطرحاً على طريقه يلقى فيه القمامة . . ؛ وظهر لى قلبى فى وساوسه كالمدينة الخربة ضربها الوباء فأعمر ما فيها مقبرتها ؛ وعاد البؤس وقاح الوجه لا يستحى ، فلا أراه إلا فى أرذل أشكاله وأبردها ؛ ولقد يكون البؤس لبعض الناس على شىء من الحياء فيأتى فى أسلوب معتذر كالمرأة الدميمة فى نقابها .

وقلت لنفسى : ما هو والله إلا القتل ، فهذا عمر أراه كالأسير أقيم على النطع وسل عليه السيف ، فما ينتقم منه المنتقم بأفظع من تأخير الضربة ، وما يرحمه الراحم بأحسن من تعجيلها !

وبت أؤامر هذه النفس فى قتلها وأحدثها حديث الموت فسددت رأيى فيه ، وقالت : ما تصنع بجسم كالمتعفن أصبح كالقبور لا أيام له إلا أيام انقراضه وتفتيته ؟ بيد أنى ذكرت كلام (الشعبى) فى ذلك المجلس وأنا أحفظه كله ، فجملت أهذه[1] ما أترك منه حرفاً ، واتخذته متكلماً مع نفسى لا كلاماً ، وكنت كلما غلبنى الضعف رفعت به صوتى وأصغيت كما أصغى

(١) الهذ الاسراع فى القراءة

إلى إنسان يكلّمني ؛ فرأيت الشيطانَ بعد ذلك كاللصّ إذا طمع في رجل ضعيف منفرد ، ثم لما جاءه وجد معه رجلاً ثانياً قوياً فهرب !

قال أبو عُبيد : ونالني رَوْحٌ من الاطمئنان وجدت له السكينةَ في قلبي فنمت ، فاذا الفزعُ الأكبر الذي لا ينساه من سمع به فكيف الذي رآه بعينيه ؟

رأيتُني ميتاً في يد غاسله يُقلّبه ويغسله كأنه خِرْقة ؛ ثم حُمِلت على النعش ، كأن الحاملين قد دفعوني يقولون : انظروا أيها الناس كيف يصير الناس ؛ ثم صلى عليّ الامام الشعبي في مسجد الكوفة ؛ ثم دُلِّيتُ في قَعْر مُظْلِمَةٍ وهِيلَ التراب عليّ ، وتركتُ وحيداً وانصرفوا !

وما أدرى كم بقيتُ على ذلك ؛ ثم رأيتُ كأنما نُفخ في الصُّور وبُعثِرت الأموات جميعاً ، فطرنا في الفضاء ، وكانت النجوم غباراً حولنا كتراب العاصفة في العاصفة ؛ وإذا نحن في عرَصات القيامة وفي هول الموقف !

وتوجّهتُ بكلّ شعرةٍ في جسمي إلى الرجاء في رحمة الله ؛ ورأيت أعمالي رؤيةً أحزنَتْني ، فهي كمدينةٍ عظيمةٍ كلُّ أهلها صعاليكُ إلا قليلا من المستورين ، أرى منهم الواحدَ بعد الواحد في الساعة بعد الساعة ، ندَروا وتَبَعْثروا وضاعوا كأعمالي الصالحة !

وذكرتُ أني كدتُ أقتل نفسي فراراً بها من العمر المؤلم ، فنظرت ، فاذا الزمن قد ظهر في أبديّتهِ ، ورجع الماضي حاضراً بكل ما حَوَى كأنه لم يمض ، وإذا عمري كله لا يكاد يبلغ طرفةَ عين من دهر طويل ، فحمدتُ الله أني لم أفتَدِ ألم اللحظة القصيرةِ القصيرة ، بعذاب الأبد الخالدِ الخالدِ الخالد .

وجيءَ على أعين الخَلْق بأنعَم أهل الدنيا وأكثرهم لذّاتٍ في تاريخ الدنيا كلّه ، فصاح صائحٌ : هذا أنعمُ مَن كانَ على الأرض منذ خَلَقَها الله إلى أن طواها . ثم غُمِس هذا المنعَّم في النار غَمْسةً خفيفةً كنَبْضةِ البرْق ، وأُخْرِجَ إلى المحشر ، وقيل له والناسُ جميعاً يسمعون : هل ذُقتَ نعيماً قطّ ؟ قال : لا والله

ثم جِيءَ بأتعس أهل الأرض وأشدهم بؤساً منذُ خُلقت الأرض ، فغُمِسَ في الجنة غَمْسةً أسرعَ من النسيم تحرّكَ وس ، ثم أُخْرِجَ إلى المحشر وقيل له : هل ذُقتَ بؤساً قطّ ؟ قال : لا والله .

وسمعنا شهيقَ جهنمَ وهي تفور ، تكاد تَميَّزُ من الغيظ ؛ فأيقنتُ أن لها نفساً خُلقتْ من غضبِ الله . وخرج منها عنُق عظيم هائل ، لو تضرمت السماء كلها ناراً لأشبهته ، فجعل يلتقطُ صِنفاً صِنفاً من الخلق ؛ وبدأ بالملوك الجبابرة فالتقطهم مرّةً واحدة كالمغناطيس لتراب الحديد ؛ وقَذفَ بهم إلى النار ؛ ثم انبعثَ فالتقط الأغنياءَ المفسدين فأطارَهم إليها ؛ ثم جعل يأخذ قوماً قوماً وقد ألجمَ العرَقُ من الفزع ؛ ثم طِرتُ أنا فيه ونظرتُ فاذا أنا محتبس في مُظلمةٍ ناريّة كالهاوية ، ليس حولي فيها إلا قاتلو أنفسِهم . ولو أن بحار الأرض جُمعَ فيها البحر فوق البحر فوق البحر ، إلى أن تجتمع كلُّها فيكون العمق كبُعْدِ ما بين الأرض والسماء ، ثم تُسجرُ ناراً تَلظّى لكانت هي الهاوية التي نحن في أعماقها ، وكنتُ سمعتُ من إمامنا الشعبي أن عُصاةَ المؤمنين الموحدِّين إذا ماتوا على إيمانهم كانوا في النار أحياءً وجوارحهم مَوْتى ؛ لأن هذه الجوارحَ قد أطاعت الله وسبَّحته فكرُمَتْ بذلك حتى على جهنم ، ثم يعذَّبون عذاباً فيه الرحمة ، ثم يخرَجون وينتظرهم إيمانهم على باب النار ، فكان إلى جانبي رجلٌ قتلَ نفسه ، فسمع قائلا من بعيد يقول لمؤمن : أخرج فان إيمانك ينتظرك . فصاح الذي إلى جانبي : وأنا ، أفلا ينتظرني إيماني ؟ فقيل له : وهل جئت به ؟

ورأيت رجلا ذبحَ نفسه يريد أن يصرخ يسأل اللهَ الرحمة ، فلا يخرج الصوتُ من حَلقه ، إذ كان قد فَرَاه وبقى مَفريا ! وأبصرتُ آخرَ قد طعن في قلبه بمدية ، فهو هناك تسلخُ الزبانية قلبه تبحث هل فيـه نية صالحة ، فلا تَزال تسلخ ولا تَزال تبحث !

ورأيت آخر كان تحسَّى من السم فمات ظمآن يتلظَّى جوفه ، فلا تَزال تَنْشأ له في النار سحابةٌ رويةٌ تبرق بالماء ، فاذا دَنتْ منه ورَجاها انفجرتْ عليـه بالصواعق ثم عادت تنشأ وتنفجر !

وقال رجل إنما كنت مجنوناً ضعيفاً عاجزاً فأزهقتُ نفسي فنودِيَ : أو ما علمتَ أن اللهَ يحاسبك على أنك عاقل لا مجنون

٢ – لوكريسيا بورجيا

صور من عصر الإحياء

للأستاذ محمد عبد الله عنان

أقامت لوكريسيا فى رومة مدى حين ، أداة لمشاريع أبيها البابا وأخيها شيزارى ، ومستودعاً لدسائس البلاط الرومانى ؛ وكانت تشعر أنها فى هذا المعترك تعيش فى نوع من الأسر ؛ وقد قالت فيما بعد : « إن رومة كانت سجنى » . وكان زواجها من چان سفورزا كما رأينا ، لبواعث سياسية ترجع الى رغبة اسكندر السادس فى تقوية التحالف بينه وبين لودفيكو سفورزا طاغية ميلانو وعم چان . ولكن لودفيكو لم يلبث أن ارتد عن هذا التحالف الى محالفة شارل الثامن ملك فرنسا وتحريضه على غزو ايطاليا ، والاستيلاء على مملكة نابل اعتماداً على زعم قديم بوراثة عرشها . عندئذ رأى البابا أنه لم تبق حكمة لبقاء هذا الزواج ، فاعتزم الغاءه حتى يستطيع بعد أن تسترد لوكريسيا حريتها أن يتخذها أداة لعقد صفقة أخرى

ولكن چان سفورزا لم يقبل الانفصال عن زوجته الحسناء طوعاً ، فهدده شيزارى بالقتل وفر الى بيزارو ؛ ولجأت لوكريسيا حزينة باكية الى دير القديس سكستوس لأنها كانت تحب زوجها ؛ وعمد البابا لابطال الزواج الى اجراء مدهش ، فانتدب لجنة مؤلفة من كردينالين لتهيئة أسبابه ؛ ورأى الحبران أن يسندا الفسخ الى أن لوكريسيا ما تزال بكراً عذراء ، وأن زوجها چان سفورزا كان عنيناً ولم يكن رجلاً كاملاً ؛ وأرغم البابا ابنته على أن توقع إقراراً بأنها ما تزال بكراً عذراء كيوم مولدها . وعلى ذلك أعلن فسخ الزواج ؛ ودهشت رومة ، ودهشت ايطاليا كلها لهذا الزعم ، لأن چان سفورزا كان فتى متين البنية ، وكان أرمل توفيت عنه زوجته الأولى بعد أن رزق منها طفلة . وحاول چان أن يثور على هذا القرار وأن يقاوم ، ولكنه أذعن لنصح عمه لودفيكو وعمه الآخر الكردينال اسكاينو وكيل الكرسى الرسولى ، وارتضى مضيره صاغراً ؛ وكان ذلك فى ديسمبر سنة ١٤٩٧ ؛ وكانت لوكريسيا عندئذ فى عامها السابع عشر . وهنا يصيح مؤرخ معاصر هو « جيشا ردينو » : « لم يحتمل البابا أن ينافسه فى ابنته أحد حتى زوجها ! » . وثار حول لوكريسيا سيل من أروع الاشاعات والأقاويل

وحدث فى ذلك الحين أيضاً حادث اهتزت له رومة ، هو مقتل چان دوق جانديا ابن البابا ؛ وكان الى جانب الطلاق مستقى خصباً لهذه الاشاعات الغريبة التى تصور الأسرة البابوية عريناً من الضوارى التى جردت من كل عاطفة بشرية . وكان دوق جانديا أكبر أبناء اسكندر السادس ، فى الرابعة والعشرين من عمره ، وأخاه شيزارى فى الحادية والعشرين ؛ وكان البابا يعتبر ابنه البكر عميد أسرته من بعده ، ويرشحه دون شيزارى لكل مشاريعه السياسية العظيمة . أما شيزارى فقد زجه أبوه الى الحياة الكنسية ، ورقاه بسرعة كردينالاً لبلنسية ؛ ولكن شيزارى كان بطبيعته الوثابة المغامرة ، وأطماعه الدنيوية البعيدة يزهد فى الحياة الكنسية ويتلمس الفرار منها ؛ وكان يرى فى أخيه

وقوىٌّ لا ضعيف ، وقادرٌ لا عاجز ؟ كنتَ تعقل بالأقلّ أنك ستموت ، وكنت تَقوَى على أن تصبر ، وكنت تقدر أن تترك الشرّ .

وقال رجل عالم قد حز فى يده بسكين فمات : « لم يكن الكمال من الدنيا ولا فى طبيعتها ولا هو شيء يدرك . » فصرخ فيه صوتٌ رهيب : « ولكنّ من عَظمة الكمال أن استمرار العمل له هو إدراكه ! »

* * *

قال أبو عبيد : ثم انتصب بازائى شيطان مارد أحمر ، يلتمع التماع الزجاج فيه الخمر ، فقام فى وجهى وقال : بماذا جئتَ إلى هنا ياعدو الخمر ؟ فما كان إلا أن سمعت النداء : شفعت فيك الخمر التى لم تشربها ، أخرج إن إيمانك ينتظرك !

فصحت الحمد لله ! وتحرك بها لسانى فانتبهت . لقد علمت أن الصبر على المصائب نعمة كبرى لا ينعم الله بها إلا فى المصائب

(طنطا)

الأكبر دوق جانديا حائلاً دون أطماعه . فني ربيع سنة ١٤٩٧ ، كان البابا قد عاد الى التفاهم مع مملكة نابل (نابولى) واتفق مع ملكها الجديد فردريك الأرجونى على أن يتلقى التاج من قبل الكرسى الرسولى ، وأن يقطع بعض ولاياتها الجنوبية لدوق جانديا ولد البابا ؛ وانتدب البابا ولديه چان وشيزارى للسفر الى نابل ، الأول ليتسلم إقطاعه الجديد ، والثانى ليمثله فى تتويج ملك نابل . وفى مساء ١٤ يونيه ، قبيل رحيلهما ، أقامت لهما والدتهما ڤانوزا مأدبة عشاء حافلة فى قصرها المتواضع ؛ وبعد العشاء انصرف دوق جانديا مع أخيه شيزارى ، ثم افترق الاثنان فى منتصف الطريق ، وسار الدوق مع تابع له واختفى فى جوف الظلام ؛ ولم يعرف قط ما حدث له بعد ذلك ؛ ولكن تابعه وجد ملقى فى صباح اليوم التالى على شاطىء التفيرى (التيبر) جثة هامدة ، وانتشلت جثة الدوق بعد ذلك من النهر ، وقد أثخنت طعناً ، ولم يكشف سر الجريمة قط

وطار الخبر فى رومه بأن دوق جانديا قد قتل ، وحزن البابا لمصرع ولده الأكبر أيما حزن ، ولبث يذرف الدمع الثخين مدى يومين وهو معتكف فى غرفته لا يتذوق طعاماً ولا يرى أحداً . من اجترأ على ارتكاب هذه الجريمة الشنعاء ؟ ولأى الأسباب ؟ كثرت فى ذلك الظنون والريب ، وتنوعت التهم والبواعث ؛ فقيل إن الجريمة من تدبير چان سفورزا انتقاماً للتفريق بينه وبين زوجه ، وقيل إنها من تدبير عمه الكردينال اسكانيو انتقاماً لشرف الأسرة ، وقيل إنها من تدبير آل أورسينى ألد خصوم البابا ؛ ولكن هذه التهم لم تلق كبير سند ؛ أما أولئك الذين يعرفون آل بورجيا فقد ألقوا تبعة الجريمة على شيزارى بورجيا نفسه

أجل ، قتل شيزارى أخاه چان دوق جانديا لأنه يفوز دونه بعطف أبيه ، ويخصه أبوه دونه بمشاريعه السياسية ، ويعتبره لسنه زعيم الأسرة . وشيزارى لا يطيق أن يرى دون أطماعه عقبة إلا ويسحقها . ولذلك التعليل ظاهر من الوجاهة . ولكن الرواية تذهب إلى أبعد من ذلك ، فتقول إن شيزارى قتل أخاه لأنه ينافسه فى غرام أختهما لوكريسيا !

أرأيت كيف تميل الرواية دائماً إلى تصوير هذه الغادة الفاتنة إلهة للحب الأثيم والفجور فى أروع مظاهره ؟ كانت لوكريسيا خليلة أبيها ، خليلة أخويها ! وكانت ثمة معارك خفية تضطرم فى ذلك العرين بين عباد الجمال والهوى المحرم ؛ وكان چان سفورزا زوج لوكريسيا أشد الناس تأييداً لهذه التهم ، يؤكد لزملائه الأمراء ولصحبه وللناس جميعاً أنه إذا كان البابا قد عمل على تمزيق العلائق التى تربطه بزوجته لوكريسيا ، فذلك بسبب الهوى الأثيم الذى تبثه إلى أبيها ، وإنه إذا كان شيزارى قد دبر مقتل أخيه وألقاه فى التفيرى ، فذلك بسبب المنافسة بينهما على حب لوكريسيا . وكانت الفضيحة رائعة ، والتهم أروع ، تجوب إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها ، وتجوب قصور أوربا كلها ! ويتناولها الرواة والسفراء والشعراء بالتدوين نثراً ونظماً باعتبارها من أهم حوادث العصر وأعجب السير

وهنا يرى بعض النقدة المحدثين الذين يميلون إلى تبرئة لوكريسيا من هذه التهم الشنيعة ، أن هذه الخصومة الزوجية هى أصل هذه التهم وهى روحها ، وأن هذه التهم قد تلقاها المعاصرون من الأفواه الخصيمة ، ثم زادوا عليها وبالغوا فى تصويرها ، ثم تناقلتها أجيال الخلف ، واستمرت على كر العصور مستقى خصباً للشعراء وكتاب القصص [1]

* * *

لم تمض أشهر قلائل حتى وضع مشروع جديد لزواج لوكريسيا ، وكان اسكندر السادس يتجه يومئذ نحو مملكة نابل ، ويلتمس وسيلة لبسط نفوذه عليها ؛ وكان يرى هذه الوسيلة فى تزويج ابنه شيزارى من ابنة فردريك ملك نابل ؛ ولكن ملك نابل أبى أن يزوج ابنته « لقس ابن قس » بيد أنه ارتضى أن يتخذ ابنة البابا زوجة لألفونسو ولد أخيه غير الشرعى ، وعقد الزواج الجديد فى قصر الڤاتيكان فى يولية سنة ١٤٩٨ ؛ وكان الزوج الجديد فتى حدثاً لا يجاوز السابعة عشرة ؛ وكان جميلاً ، حلو الشمائل ، تصفه الرواية المعاصرة بأنه أجمل فتى فى رومة ؛

---

(١) هذا ما يقوله العلامة فونك برنتانو فى كتابه عن لوكريسيا وعصرها Lucrèce Borgia (p. 60) وسنعود الى هذا الكتاب بعد

وكانت لوكريسيا عندئذ فى الثامنة عشرة ؛ ومنح الفونسو دوقية بيزيليا ، وغدت لوكريسيا دوقة بيزيليا ؛ واشترط أن يقيم الفونسو مدى عام فى رومة ، وألا تغادر لوكريسيا رومة إلا بعد وفاة أبيها ؛ وشغفت لوكريسيا بزوجها الفتى النضر ، وعاشت مدى حين فى نوع من السعادة والسلام

ولكن هذه السكينة لم يطل أمدها . ذلك أن اسكندر السادس ألفى فرصة جديدة للعمل السياسى ؛ وكان ملك فرنسا الجديد لويس الثانى عشر يتوق إلى التخلص من زوجته چان دوقة برى ، والتزوج من الدوقة حنه أرملة سلفه شارل الثامن لكى يستطيع أن يضم إمارتها بريتانيا إلى مملكته ؛ وكان لا بد له لاجراء الطلاق من مرسوم بابوى ؛ فرأى اسكندر السادس أن يجيز هذه الرغبة ، وبعث ولده شيزارى إلى فرنسا ، ليلقى صيغة الطلاق ، فاستقبله ملك فرنسا أعظم استقبال ، وأنعم عليه بلقب دوق ڤالنتنوا ؛ وعندئذ خلع شيزارى ثوبه الدينى ، وزوجه لويس الثانى عشر من أميرة فرنسية هى شارلوت دالبير أخت ملك نافار ؛ وبذلك وثقت أواصر التحالف بين فرنسا والفاتيكان ، وكلاهما خصم لمملكة نابل وكلاهما يدعى فيها حقوقاً

وهنا فكر شيزارى فى التخلص من زوج أخته الجديد إذ غدا يراه عقبة فى سبيل مشاريعه ؛ وشعر الفونسو دوق بيزيليا بحرج مركزه فى الفاتيكان إزاء تطورات الحوادث على هذا النحو ، وخشى بالأخص غدر شيزارى وعدوانه ، ففر من رومة والتجأ إلى آل كولونا فى جينازارو ، تاركا زوجه الفتية حاملاً تبكى فراقه ؛ واستمر يكاتب لوكريسيا ويتوسل اليها أن تلحق به ، ولوكريسيا مستسلمة إلى حزنها لا تجرؤ على تلبية دعوته . فلما رأى البابا يأس ابنته ، فكر فى وسيلة للجمع بينها وبين زوجها ، لا تؤذى كرامته فى نفس الوقت ، فعين ابنته حاكمة لسبوليتو ؛ وسافرت لوكريسيا إلى سبوليتو مع أخيها الأصغر چوفروا ؛ وهنالك لحق بها زوجها ؛ وأقاما هنالك مدى حين حتى هدأت العاصفة ؛ ثم عادا معاً إلى رومة ؛ ولم تمض على عودتهما أيام قلائل حتى وضعت لوكريسيا غلاماً سمى رودريجو باسم جده البابا رودريجو بورجيا (٣١ أكتوبر سنة ١٤٩٩)

واحتفل البابا بمولد حفيده فى حفلات شائقة ، وغدت لوكريسيا كأنها ملكة رومة يحف بها الحب والعطف والاجلال أينما حلت ؛ وأقطعها والدها حكم عدة مدن وجهات من أملاك الكرسى الرسولى

ولكن القدر المروع كان جاثماً يتربص . ففى مساء ١٥ يوليه سنة ١٥٠٠ ، بينما كان الفونسو دى بيزيليا زوج لوكريسيا يصعد درج الفاتيكان المفضى إلى الجناح البابوى ، إذ فاجأه عدة رجال مقنعين وأثخنوه طعناً بالخناجر حتى خر صريعاً يتخبط فى دمه ؛ ثم فر الجناة دون أن يراهم أو يظفر بأثرهم أحد

ولكن الفونسو لم يمت على الأثر ؛ بل استطاع أن يجرجر نفسه حتى الجناح البابوى ؛ وهنالك تلقاه البابا ولوكريسيا فى دهشة وانزعاج ؛ وأغمى على لوكريسيا وأصابتها الحمى ؛ وحمل الجريح إلى إحدى القاعات ، ولزمته زوجه تعنى به ؛ وأقام البابا حرساً خاصاً على غرفته ؛ وأخذ يتماثل إلى الشفاء سريعاً

ولم يك ثمة ريب فى مدبر هذه الجريمة الشنعاء ؛ فقد كان شيزارى ؛ وكان يرى بعد أن رزقت أخته بهذا الغلام ، أنه لا سبيل إلى فسخ زواجها ، وأنه لا سبيل إلى التخلص من الفونسو غير الجريمة ، ولما لم تحقق هذه الجريمة الأولى غرضها ، قرر شيزارى أن يعيد الكرة ، فدخل ذات يوم إلى حيث يرقد الجريح ومعه ميشليتو وصيفه وساعده الأيمن فى مشاريعه السوداء ؛ وأبعد أخته عن غرفة زوجها ، وأمر ميشليتو فأجهز على الفتى الجريح خنقاً

هكذا يقول لنا بوركارت مدير التشريفات البابوية فى مذكراته . بيد أن شيزارى لم ينكر الجريمة بعد أن حققت غايتها ؛ وكان يقول إن الفونسو كان يزمع قتله فسبقه هو إلى القصاص . ولم يفه البابا بكلمة احتجاج أو تذمر خشية بطش ولده الأثيم

أما لوكريسيا الزوجة الثاكل ، والأم الأرمل ، فلم تستطع البقاء فى رومة ، وذهبت باذن أبيها تجرجر أذيال الحزن والعزلة فى قصر نبى على مقربة من سبوليتو ، وهنالك فعل النسيان فعله سريعاً ، فلم يمض عام حتى استعادت الأرمل الفتية كل بهجتها ،

وعادت مسرعة إلى رومة تخوض غمار هذه الحياة المنيفة الباهرة التي كأنما خلقت لها .

***

وفي يوليه سنة ١٥٠١ ، غادر اسكندر السادس رومة على رأس حملة عسكرية ليتم الاستيلاء على بعض المناطق والحصون المجاورة للولايات البابوية والتي يزعم للكنيسة حقاً في انتزاعها ، وهنا وقع حادث فريد في نوعه ومغزاه . ذلك أن اسكندر السادس انتدب ابنته لوكريسيا للقيام بالشؤون البابوية أثناء غيابه ، ويقول لنا بوركارت إن قداسته « عهد بالقصر كله ، وتصريف الأمور الجارية إلى ابنته السيدة لوكريسيا ، وفوض اليها أن تفتح كل الرسائل التي ترد لقداسته ، وأن تستعين في المسائل الصعبة برأي كردينال لشبونه » وفي ذلك ما يدل على تقدير خاص من البابا لمواهب ابنته ومقدرتها على الاضطلاع بمهام الأمور . والواقع أن لوكريسيا بورجيا كانت فتاة وافرة العقل وافرة الذكاء ، تتبع سير الشؤون العامة بدقة ، وتفهم بالأخص آراء والدها واتجاهاته المختلفة ؛ وكانت عند ثقة أبيها حيث قامت بمهمتها زهاء شهرين بفطنة وذكاء

ثم عاد البابا إلى رومة ، واستأنف بلاط الفاتيكان حياة البذخ والحفلات الشائقة ، وكانت لوكريسيا يومئذ قد ناهزت عامها الحادي والعشرين ، واكتملت زهرة شبابها وجمالها

وهنا ، وفي تلك الفترة ، تقدم لنا الروايات المعاصرة ، أغرب الصور وأروعها عن تلك الحياة الأثيمة الفاجرة التي كانت تنتظم وراء جدران الفاتيكان ، وتخوض لوكريسيا بورجيا غمارها إلى جانب أبيها الحبر المتهتك وأخيها الطاغية الفاجر

ومن ذلك تلك الحفلة الراقصة الشهيرة التي تفيض في تفاصيلها روايات العصر وتسميها « مرقص الكستنة » والتي كانت مسرحاً لأسفل ما يتصور الذهن الخليع من مناظر التهتك والفحش

ويقول لنا بوركارت في مذكراته إن تلك الحفلة الشهيرة كانت في مساء ٣١ أكتوبر سنة ١٥٠١ ؛ وفيه استقدم البابا خمسين غانية من أجمل نساء رومة ؛ ومثلن جميعاً عاريات أمام البابا وابنه شيزاري وابنته لوكريسيا ، وقمن بأخش المناظر الراقصة والجنسية التي يمكن تصورها ؛ ومن ذلك أنهن كن يركضن عاريات على أربع وراء حبات الكستنة التي كان يلقيها البابا وابنه وابنته تحت الأضواء الساطعة ، وتعطى الجوائز للسابقات ، كما تعطى لأبرعهن في عرض أخش المناظر والأوضاع

هذا ما يرويه بوركارت مدير التشريفات البابوية في مذكراته الشهيرة بإفاضة مثيرة تحمر لها الوجوه وتندى الجباه حياء وخجلاً ، وهذا ما ترويه معظم الروايات والتواريخ المعاصرة مع فرق في بعض الوقائع والتفاصيل

كانت هذه الحفلات والمناظر الشائنة تتكرر وراء جدران الجناح البابوي في الفاتيكان ؛ في تلك الأبهاء الشهيرة التي أنشأها اسكندر السادس ، وأفاض عليها أقطاب الفنانين والمصورين أروع بدائعهم ، والتي مازالت تعرف حتى اليوم « بجناح آل بورجيا » وتعرض لأنظار السائح المتجول ، فيحمله التأمل والخيال إلى تلك الأيام والذكريات المرحة البعيدة ؟

(للبحث بقية) **محمد عبد الله عنان**

(النقل ممنوع) المحامي

الخـــــرافة

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

الخرافة حليفة الجهل ، وأليفة الأوهام ، عنوان ناقصى الثقافة ، ورمز ذوى العقول الضعيفة ؛ كالحشرات الدنيئة ، لايحلو لها العيش إلا فى الأماكن المظلمة ، أو كالحشائش الضارة ، لايعظم نموها إلا فى التربة الفاسدة ؛ تقف فى طريق الحق ، وتقاوم كل تفكير . وكأنها ذات قوة سحرية تغشى الأبصار ، وتصم الآذان ، وتقضى على كل مافى المرء من عقل وروية ؛ أو كأنها مظهر لوحى خفى يستولى على النفوس والأفئدة . وكيف لا والسحر خرافة لبست ثوب الفن ؟ والخرافات فى أغلبها اكتست بكساء الدين ، لذلك لبى نداءها معتنقوها ، ونزل عند ارادتها من آمن بها ، ولو أدى ذلك إلى ارتكاب جرائم شنيعة ، وازهاق أرواح بريئة ، وتبديد ثروات طائلة . وكم باعدت الخرافة بين الصديق وصديقه ، والمرء وزوجه ، والأخ وأخيه ، والابن وأبيه . وقد لايقف عدوانها عند الأحياء ، بل يتعداهم إلى الأموات ، فخربت من جرائها قبور ، وانتهكت حرمات . وبذا كانت من أشد أخطار الانسانية وأكبر أعداء الحضارة والمدنية . وما أصدق مونتيسكيه (Montesquieu) حين يقول : « أعد نفسى أسعد الأحياء إذا استطعت أن أبرىء الناس من خرافاتهم [1] »

بيد أن الخرافة ليست شراً كلها ؛ فنى حجرها درج العلم ، وتحت كنفها نما كثير من النظم الاجتماعية . فالعلوم فى نشأتها كانت سلسلة خرافات متصلة ، وطائفة غير ملتئمة من الظنون والأوهام ؛ وما الكيمياء الحقيقية إلاوليدة الكيمياء الصناعية [2] وما الفلك فى قواعده وأصوله إلا ربيب العرافة والتنجيم ، وما الطب إلا نتيجة وصفات بلدية هُذّبت ، وتجارب عادية سلك بها سبيل البحث والتمحيص [3] ؛ وما طبيعة اليوم المملوءة بالأصول والقوانين إلا الثمرة الناضجة للآراء الخاطئة المشحونة بالأوهام والخزعبلات ، والتى أدلى بها فلاسفة الأغريق الأول أمثال طاليس وأنكسمندر [1] . والحكومة فى سلطانها ، والأسرة فى نظامها ، والملكية فى احترامها مدينة للخرافة إلى حد كبير : فالملك مسموع الكلمة مطاع الأمر ، لأن الخرافة شاءت قديماً أن تضمه فى صف الآلهة والأرباب ؛ والزواج محترم لأن الزنا والفسوق ما كانت لتغضب الله والناس فقط ، بل ربما استتبعت هلاك الحرث والنسل وخراب القرى والأمصار ؛ والملكية مقدسة لأن الاعتداء عليها كان يثير غضب المردة والشياطين والقوى الخفية المتصرفة فى هذا العالم [2] ؛ وإذا بحثنا عن منشأ كثير من عاداتنا الاجتماعية وجدناها ترجع إلى أصل خرافى : فتفضيل اليد اليمنى على اليد اليسرى يفسر فى غالب الظن مبدأ من مبادىء السحر والشعوذة ؛ والعطلة الأسبوعية التى ننعم بها الآن لم تكن إلا لأن الانسان اعتقد أن هناك أوقات نحس وأوقات سعادة [3]

وفوق هذا وذاك فالخرافة تغذى ناحية نفسية لايصح تجاهلها ، ذلك لأن الانسان لايلبى داعية العقل والمنطق فقط ، بل هو خاضع لخياله وعواطفه . وللخيالة ميادين تسبح فيها ، وعالم يتفق مع ميولها وأهوائها ؛ وما الخرافة إلا مظهر من مظاهر هذا العالم وأثر من آثار هذا الصنع ، وحياة لاتعتمد إلاعلى الأسس الطبيعية والبراهين العقلية — كما ينادى بها أصحاب الرواق — جافة قطعا ولا وجود لها إلا فى أدمغة زينون وكريزيب

ليس هناك شك فى أن الانسان مستعد بطبعه لقبول الخرافة ؛ فهو ميال دائماً لأن يعرف أكثر مما يرشده اليه بصره وعقله ، ولأن يخلق بجانب الحقائق الحسية والفكرية صوراً أخرى تحقق رغبة من رغباته ، أوتسد ناحية من نواحى نقصه [4] . هذا إلى أنه فى ضعفه يحاول أن يعتز بقوى خفية — وإن تكن خيالية — فى التغلب على مشاق الحياة . ومن هنا كان التعلق بالخرافات عالمياً ، وكان قدر منها مشتركا لدى عامة الشعوب . فالسحر والتنجيم والشعوذة من خرافات الانسانية بأسرها ، قام عليها معظم تقاليد الأمم المتوحشة ، وتشبث بها الناس بعد أن خطوا خطوات

(1) cité par S. Relnach dans la Tâche de psyché, XI.

(2) Pattison, The Story of Alchemy and the Beginings of Chemistry, London, 1902.

(3) Hesse et Gleyze, Notions de Sociologie, 252 et suiv.

(1) Rey, La jeunesse de la sciensa grecque, 19 et suiv.

(2) Frazer, La Tache de psyché, Paris, 1914.

(3) Encyc. Britannica, XIVe ed., T. 21, p. 578.

(4) Encyc. of religion and ethics, vol. 12, p. 122.

فسيحة فى سبيل العلم والمدنية ، ولايزالون خاضعين لشىء من سلطانهـا إلى اليوم . وحديث القصور الزبرجدية والآرائك المسجدية التى بناها المردة والشياطين فى أرض نائية وجزر منقطعة ، بهر الانسان الهمجى وشغل عقول بعض أبناء القرن العشرين [1] . والتفاؤل والتشاؤم والطيرة كانت من خرافات الأغريق والرومان والعرب ، وحتى الساعة يقول عامتنا : «خذوا فالكم من قبالكم » ، وإذا سمعوا نعيق غراب رددوا الجملة المشهورة : « اللهم اجعله خيراً » . وبديهى أن انتشار الخرافة يختلف من بلد لآخر تبعاً لدرجة الثقافة ، ونحو التربية الدينية ، وطرق الحكم السياسية من ديمقراطية واستبدادية ، ولظروف اجتماعية أخرى متعددة . ويحاول بعض الباحثين أن يعقد موازنات بين الأمم فى هذا المضمار ، فيزعم مثلاً أن المشاهد السينمائيـة فى انجلترا وفرنسا تؤذن بأن الشعب الانجليزى إلى الغريب أميل ، وفى الخرافة أرغب . وهذه الموازنات وإن تكن مثار شك كبير ، ربما وصلت إلى نتائج شـيقة إن عنى بضبطها وصحتها . وإذا كنا نتحدث عن الأفراد والشعوب واستعدادهم لقبول الخرافة ، فيجدر بنا أن نشير إلى ملاحظة هامة ، وهى أنه لايوجد شخص يسلم بالخرافة التى يعتنقها فى حين أنه متيقظ دائماً إلى خرافات الآخرين . وقد يصل بنا الأمر إلى أن نقيس الشىء الواحد بمقياسين مختلفين ، وننظر اليه بمنظارين متباينين ، فان كان مما عرفناه وألفناه أضحى دينا وعقيدة ؛ وإن اتصل بتقاليد غريبة عنا استنكرناه وتبينا ما فيه من تضليل وتخريف : وكأن ما هو دين فى رأيك خرافة فى رأى غيرك وبالعكس [2] ؛ وعلى ذلك راجع إلى أن الخرافة تسلب معتنقها قوة النقد والحكم الصحيح ؛ هـذا إلى أنها نسبية وصعبة التحديد : فما كان عقيدة بالأمس أصبح خرافة اليوم ؛ وما هو صواب شرق جبال البرانس يعد خطأ غربها ؛ ومقياس الخرافة — كمقياس الحق والباطل — يتغير بتغير الظروف والأزمنة

يعز علينا حقيقة أن نعرّف الخرافة تعريفاً شاملاً ، وأن نضع لها حداً ثابتاً . فلا يمكننا أن نقول إنها كل ما خالف العلم الصحيح ، فان هذا العلم نفسه لما يحدد تماماً ؛ على أنه قد يقصد

(1) Larousse, voir superstition.

(2) Encyc. of religion, vol. 12, p. 120.

أموراً يصعب علينا أن نخرج بها عن دائرة الخرافة . فكثير من المثقفين يؤمن اليوم بتحضير الأرواح ، ويجتهد فى أن يفسره تفسيراً علمياً . ولا نستطيع أن نقول إن الخرافة كل ما ناقض الدين ، فان هناك أشياء اكتست بكساء دينى كامل فى حين أنها خرافة صريحة . وفى شىء من التقريب يمكن القول بأن الخرافة كل فكرة أو عقيدة فردية أو جمعية تفسر ظواهر العالم على نحو لا يلتئم مع العقل ولا مع درجتنا العلمية الحاضرة . وعل فى سرد بعض الأمثلة ما يعيننا على تفهم الخرافة فى حقيقتها ومدلولها . من ذلك أن بعض الأوربيين يرى أن كب الملح نذير سوء . وأن اجتماع ثلاثة عشر شخصاً على مائدة واحدة مؤذن بأن واحداً منهم سيموت فى العام نفسه ، وأن تقديم السكين يقطع المودّة ، وأن وضع المكنسة فى الماء مجلبة للمطر . وخرافاتنا المصرية التى هى ميدان فسيح للدراسة غير متناهية العدد ؛ ومن أشهرها حديث « الشامة » وعراع أيوب وأكل البصل أيام شم النسيم ، وصناعة التبخير أو « الزار » والرقى والتعاويذ . وعبثاً نحاول إن شئنا أن نأتى هنا على مختلف الخرافات العالميـة أو المصرية . وفى مقدورنا أن نلاحظ بوجه عام أن الخرافات تكاد تتمركز حول نقطتين هامتين : المعتقدات والعبادات الدينية ؛ وهذا ما سماه الألمان Aberglanbe

لقد شغل الباحثون بالخرافة منذ زمن بعيد ؛ فبينوا مضارها السياسية والدينية والاجتماعية ، وعملوا على إحصاء الخرافات المتعددة وإثباتها فى قواميس خاصة (نذكر من بينها : le Dictionnaire infernal) ، وتقسيمها إلى فصول وأنواع مختلفة [1] . ومن أقدم من كتب فى هذا الباب ؛ لكريس Lucrèce + 51 ov-j-c. وفلوطرخس Plutarque + 125 والأخير بوجه خاص هو أول باحث درس الخرافة فى شىء من التوسـعة ونقدها نقداً مراً ؛ وربما كان متأثراً فى ذلك بما ساد عصره من خرافات لا حصر لها [2]

إلا أن الفضل فى دراسـة الخرافة دراسة علمية منظمة يرجع إلى علماء الاجتماع المحدثين الذين تولوها بالشرح والتحليل . فبحثوا عن أصلها ، وسبيل انتشارها ، وأثرها فى المجتمع ، وطرق علاجها . وكان لهم فى ذلك مؤلفات قيمة جذابة نخص بالذكر

(1) La grande Encyc., T. 30, p. 717.

(2) Masson, Lucretius, Epicurian and Poetics, London, 1907. — Plutarque, de Supertitione, bonne tr. ang. par P. Holland, 1603.

منها كتاب فريزر الذى سنعرض له بالتفصيل فى فرصة مقبلة إن شاء الله [(١)]

إذا تصفحنا التاريخ وجدنا الانسانيـة نشأت حاملة معها خرافاتها . فالأمم المتوحشة الأولى خضعت للخرافة خضوعها لدين ثابت وأصل مقرر ؛ ولا زلنا نرى أثر هـذا الخضوع لدى القبائل الهمجية المعاصرة . وإذا جاوزنا هذه الأمم الى الشعوب التى أخذت من الحضارة بنصيب ، لاحظنا أنها تعلقت بقسط وافر من الأوهام والخزعبلات . وخرافات قدماء المصريين أعرف من أن ينوه عنها . والأغريق الذين بهروا العالم بعلمهم وثقافتهم لم يكونوا أقل اعتناقاً للخرافة من غيرهم ، وتاريخهم الديني مجموعة خرافات سخر منها فلاسفتهم غير مرة . وربما كان اللاأدريون les Scepttques من أول من رفع الصوت جهرة فى وجه الخرافة والانقياد الأعمى ، ودعا الى تحرير الفكر الانسانى[(٢)] . كذلك حاربت الديانات السماوية بعض الخرافات وقضت عليها . غير أن رجال القرون الوسطى عادوا — تحت تأثير الجهل وعاطفة دينية عمياء — فارتطموا فى بؤرة الخرافة ، وتفننوا فيها أيما تفنن . ثم جاء عصر النهضة والاصلاح الدينى فسلـكا بالعقـل الانسانى مسلـكا جديداً وأثارا على الخرافة حرباً شعواء . ولا تزال العلوم الحديثة تنكل بها يوماً بعد يوم ، وتطاردها فى كل مكان

والآن يحق لنا أن نتساءل هل الخرافة فى سبيل الانقراض ؟ وهل تأمل الانسانية أن تتخلص منها بتاتاً ؟ ليس بيسير أن نجيب إجابة شافية على السؤال الأول ، فان الاحصاءات فى هذا الميدان ناقصة وغير دقيقة ؛ والخرافة ، وقد تمكنت من نفوسنا وأضحت جزءاً من عاداتنا وتقاليدنا ، صعبة التمييز وكثيراً ما بدت بمظهر الشيء المعقول والمسلم به . ولـكن مما لاشك فيه أن الفكر الانسانى تبرأ من خرافات كثيرة كان يرزح تحت نيرها آباؤنا الأقدمون . وكلما بسط العلم نفوذه بدد غياهب هـذه الترهات والأباطيل ، فهو من الخرافة كالنور من الظلمة بكشف دخيلها ويبين ما اشتملت عليه من خطر وأضرار . ومع هذا يخيل الينا أنه لن يتمكن من انتزاع جرثومتها والقضاء عليها تماماً ، وستبقى الخرافة مابقى الانسان لتسد حاجة من حاجاته النفسية والاجتماعية .

وها هى ذى خرافة تفنى لتحل محلها خرافة أخرى ، فلئن بادت الخرافات الوحشية لقد أعقبتها خرافات حضرية . على أنه ليس ثمت ضير — على مايظهر — فى أن تتعلق أمة من الأمم بقدر محدود من الخرافات ، فان فشت الخرافة وسدت طريق التفكير والحـكم الصحيح فهنا الداء القاتل والخطر المحدق

وكأنى بهـذه الحال تنطبق تماماً على ما يعانيه بلدنا اليوم . فنحن فريسة للخرافة فى طعامنا وشرابنا ، فى ملبسنا ومسكننا ، فى حركاتنا وسكناتنا ، فى مختلف عاداتنا وتقاليـدنا ، بل وفى آرائنا ومعتقداتنا ، وكثيراً ما وقفت الخرافة عقبة كأداء فى طريق تقدمنا العقلى والجسمى ، والخلقى والاجتماعى . وفى رأينا أن خرافاتنا المتفشية ترجع الى أسباب كثيرة أهمها :

(١) طريقـة الوعظ والارشاد والتربية الدينية الفاسدة ، (٢) حياة القهر والاستبداد ، (٣) الفقر (٤) والجهل . لقد سلـكت طائفة من وعاظنا مسلـكاً خاطئاً للغاية ، وأرسلت لنفسها العنان — طمعاً فى الترغيب أو الترهيب — فى سرد خرافات يأباها العقل والدين ، وخاصة ما اتصل منها بالحشر والنشر واليوم الآخر وعمدتها فى ذلك مجموعة ضارة من كتب القصص والتفسير الملوءة بالاسرائيليات والآثار الضعيفة أو المـكذوبة . وكأن علم هؤلاء الوعاظ خرافة كله ، أو كأنهم يحيون على حساب الخرافة فهم يثبتون دعائمها ويبالغون فى نشرها . وليست حياة القهر والاستبداد بأقل أثراً فى نشر الخرافة من هذا الوعظ الفاسـد ، فالمغلوب على أمره يبحث عن قوى خفية يزعم أنها تعينه على التخلص مما هو فيه . كذلك تمنى الخرافة الفقراء بأحلام ذهبية وآمال خلابة ، وتسبغ عليهم من الخيال ما عجزت الحقيقة عن الوفاء به . ويحرم الجهل أخيراً عامة الناس من أن يفتحوا أعينهم للضياء ، وقلوبهم للرجاء ، لذلك كانت الخرافة والجهل نوعين متلازمين ، وأخوين لاينفصلان ، وقديماً قالوا : الخرافة عمياء تخشى ما تحب ، وتحب ما تخشى . وإذا كنا قد شخصنا الداء فلنعالج أسبابه الدفينة وعوامله الخفية وحذار أن نحارب الخرافة وجهاً لوجه ونقتصر على تسفيه أحلام معتنقيها ، فانه قد يكون أيسر أن نصرف الملحد عن إلحاده من أن نحول المخرف عن خرافته .

ابراهيم بيومى مدكور
دكتور فى الآداب والفلسفة

(1) Frazer, L'avocat du diable ou la Tache de psyché, tr. fr., Paris, 1914

(2) Bevan, Stoics and Sceptics, London, 1913.

حول الأوزاعى «ثانياً»

للأستاذ أمين الخولى

المدرس بكلية الآداب

كنت كتبت فى العدد ٩١ من الرسالة ، كلمة عن الأوزاعى، قصدت فيها أول ما قصدت إلى ملاحظات فى أسلوب تفكير الكاتب ، وعرضت فى ذلك لأنكاره تأثر الأوزاعى بالفقه الرومانى فى الشام . ودار حول ذلك كلام ، آخره ما كتبه الأديب الفاضل صالح بن على الحامد العلوى فى العدد ٩٧ من الرسالة ، تحت عنوان : « هل تأثر الفقه الاسلامى بالفقه الرومانى أو الحقيقة هى العكس » ؛ وإنى أشكر لحضرته غيرته الدينية ، وجميل أدبه فى نقاشه ، ثم أعود إلى الموضوع من الناحية التى عرضت له منها أول ما عرضت : ناحية أسلوب التفكير ، وصحة الانتقال والاستنتاج .

ويبدو لقارئ مقال الأديب السنغافورى أنه متأثر بمقال نشر فى مجلة النهضة الحضرمية بعنوان : « من أين أخذ الافرنج قوانينهم » وقد نقل منه قدراً كبيراً . ولعله يسر حضرته أن أبلغه أن هذا الموضوع نفسه نشر فى مصر — وربما بنصه — منذ ربع قرن مضى، ملحقاً بكتاب مقدمة القوانين للأستاذ عبد الجليل سعد ، وقد طبع سنة ١٩١٠ م . وقرأت هذا الموضوع منذ بضعة عشر عاما ، ولا أزال أذكره جيداً ، ومع ذلك كله قلت فيما قلت عن تأثر الأوزاعى بالفقه الرومانى تلك الكلمة المتواضعة العلميـة وهى : مع عدم تعصبى للقول بهذا التأثر ، ومع القصد فى بيانه فانى أرى هذا الاستدلال على عدم تأثر الأوزاعى غير مقبول من الوجهة الاجتماعية والنفسية . . الخ » ولا أزال أقول للكاتب إن ما نقله عن مجلة النهضة الحضرميـة لا يؤثر فى هذا الرأى كما لم تؤثر فيه قراءتى لهذا الموضوع فى مصر منذ عهـــد بعيد ؛ ولا أجمل موضوع الأخذ أو التأثر هنا محل بحث جديد ومناقشة على صفحات مجلة سيارة ، لأنه أوسع من ذلك وأعمق ، ولأن ملاحظاتى لا تتوقف عليه ، كما لن أعمد فى تعليق على ذلك المقال إلى الاطالة والاسهاب نزولا على حكم الوقت الضيق الآن ، ثم نزولا على حكم البيئة ، إذ لا أرى قراء الصحف الأسبوعية ينشطون لتلك المناقشة الفنية الطويلة . وسأكتفى بأن أضع بين يدى السيد العلوى والقراء ما أراه موضع ملاحظة فى إجمال تام .

١ — قال السيد : ومهما قلنا بالفرق بين الأخذ والتأثر ، فكلا المعنيين يجريان إلى مدى واحد ، وهو أن يكون فى أصل الفقه الاسلامى ومزاجه شىء من الفقه الرومانى » ، ومع صرف النظر عن مسألة الفقهين لا نرى محلا للتسوية بين التأثر والأخذ هذه التسوية ، لأن التأثر قد يكون سلبياً صرفاً ، فنقول إن الوثنية العربية قد أثرت فى تحريم الاسـلام للتصوير والنحت ، ولن ينتهى هذا إلى أن فى مزاج الاسلام وأصله شيئاً من الوثنية الجاهلية . والنظر يقضى بأن التأثر السلبى قد يكون أقوى أنواع التأثر وأشدها ، فلا محل للتسوية بين التأثر والأخذ .

٢ — وقال : إن الاسـلام فى ذاته جاء خارقاً لقاعدة البيئة والثقافة ، إذ قام النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو النبى الأمى الذى نشأ أبعـد الناس عن أن يطلع على قانون رومانى أو حكمة منقولة ، وأتى بهذا الدين الأقدس مناقضاً كل التناقض لما عليه قومه ، . . . الخ . وغريب هذا القول من السيد ، لأنه لا يصح إلا على تقـدير أن هذا الدين من صنيع الرسول نفسه ، وهو أمى . . الخ فعمله ناقض لقاعدة البيئة والثقافة ، أما على أن الاسلام — كما هو فى حقيقته — وحى إلـهى فلا يستقيم هذا التمثيل مطلقاً فى نقض قاعدة البيئة والثقافة ، لأنا لم نقل إن الله خاضع للبيئة والثقافة ، بل نقول إن الله أجرى الحياة على نواميس منها تأثير البيئة والثقافة . . الخ . وعلى وفق هذه النواميس جاء الاسلام العرب موافقاً لحالهم معالجاً لأمراضهم ، جاريا على أسلوب تعبيرهم محكما له فى فهم القرآن الكريم دستور العربية ، ولو لم يجىء الاسلام بحيث تتقبله النفوس العربية ، وتفهمه العقول العربية لكان عبثاً — تعالى الله عنه — ولم يعش ولم ينجح .

٣ — وقال : « إن الشريعة الاسلامية وجدت كاملة دفعة ، أو بعبارة أصح جاءت فى زمن واحد ، . . الخ » وهذه العبارة أوضح من أن نحتاج مخالفتها إلى دليل ، ويتجلى ذلك فى قوله بعد ، « وهيأ لنا شريعة كاملة وقانونا ربانياً منظماً يصلح لأن يطبق على أى جيل وعلى أية أمة ، ولم يزد فيه الفقهاء بعـده شيئاً قط

إلا تصنيفه ونقله . . . » فهذا الكلام ليس أحسن حالا من سابقه ، فالفقهاء قد فهموا وطبقوا ، واستنتجوا واستنبطوا ، وخلفوا كل هذا المجهود الفقهي الكبير الهائل مبنياً بيدهم على الأصول العامة التي جاء بها الوحي ، ولم يكونوا مصنفين وناقلين فقط ، على أن حضرته يقول « . . . والنصوص الفقهية كلها صريحة بينة الأغراض واضحة المرامي » وهذه العبارة بنفسها ينقضها هو في الصفحة ذاتها حين يقول عن القرآن : « على أن الاختلاف في تفسيره . . . ليس إلا لايجازه المعجز مع بعد مراميه الغيبية » فان هذا الايجاز المعجز لم يفت آيات الأحكام كذلك ، وبعد المرامي يشملها أيضاً ؛ وإذا كانت النصوص صريحة بينة الأغراض واضحة المرامي ففيم اختلف فقهاء المذاهب الكثيرة المتعددة ، وفيم اختلف فقهاء المذهب الواحد في الزمنين المختلفين، وفيم تفاوتت الأحكام في المسألة الواحدة هذا التفاوت البين ؟ والطريف في ذلك أن السيد يمثل لهذه الصراحة والوضوح بقولك مثلا لا تكذب ، وأنه ليس معناه إلا لاتخبر بغير الواقع في كل زمن ومكان ، وفات السيد أن هذه المسألة الخلقية نفسها على وضوحها الشديد عنده محل خلاف طويل تعدى حتى إلى كتب البلاغة ، فقيل الصدق مطابقة الخبر للواقع ، وقيل مطابقته للاعتقاد ، وقيل مطابقته للواقع مع الاعتقاد ؛ وعلى هذا يختلف كذلك تفسير الكذب ، فحبذا لو كان الأمر من السهولة والصراحة والوضوح على مثل مايراه السيد .

٤ — ويقول حضرته في النصوص الفقهية « . . . أما الأغلب منها فمن الحديث والسنة ، وبعضها عن الكتاب مفسراً بالسنة » ولا نعرف وجهاً للحكم بأن أغلب النصوص من السنة لا من الكتاب ، ولا يفهم أن الأغلب ما هو من السنة والكتاب معاً إذ ليس هناك مصدر للنصوص سواهما .

٥ — ويقول « ولا يجوز أن يقاس الفقه بالتفسير » ولا أدري كيف لايقاس الفقه بالتفسير في الاختلاف والفقه ليس إلا تفسير آيات الأحكام ! !

وعندي أن الكاتب الفاضل يحسن أن يعدل رأيه في هذه الأشياء قبل أن يهتم بمسألة الفقه الروماني وأخذه أصوله عن الفقه الاسلامي ، أو تأثر الفقه الاسلامي به ، فتلك مسائل متأخرة

* * *

ويلي ذلك في مقال السيد ما نقله عن مجلة النهضة الحضرمية وأشرت إلى أنه منشور في مصر منذ زمن طويل ؛ وقد وعدت ألا أحمله ولا أحمل القراء مؤونة مناقشته — على كثرة مواضع ذلك فيه — وإنما أقول للسيد إن كلمتي في التأثير والتأثر لا تتوقف على البت في تاريخ أصول القانون الروماني الحديث ، وإنما ترجع إلى مسلمات لا محل لاختلافنا فيها : تلك هي أن الرومانية حكمت الشام قطعاً ، وكان ذلك الحكم لقرون كثيرة قطعا ، وكانت الدولة الرومانية وحكمها للشام قبل الاسلام قطعا ، وكانت للدولة الرومانية التي ورثت حضارة اليونان نظم للحكم قطعا ، وكانت لها شرائع مدنية وعسكرية ومالية قطعا ، وكان الاسلام هو الذي خلف على ذلك كله بلا شك ، — وكان لهذا على طول الزمن أثره الذي تختلف به الشام عن الحجاز مثلا ولا بد ، والأوزاعي ابن هذه البيئة الحديثة العهد بهذه الحال الرومانية ، فلتلك البيئة وهاتيك الثقافة أثرها المحتوم في تكوين الأوزاعي ، ولهذا التكوين أثره في فهم الكتاب والسنة والاستنباط منهما — ولا يتوقف شيء مما قلنا على درجة رقي الفقه والنظام الروماني ، ولا على أن الحديث منه مسروق من الاسلام أو مقتبس منه أولا .

لكني حينما أترك هذا المقال في الفقه الروماني الحديث دون مناقشة لا أدع منه عبارة ختامية للسيد في مقاله ، تلك هي قوله « .. إن الفقه الروماني جديد لفقه جماعة من العلماء وتحقق أنهم أخذوه من الفقه الاسلامي ، وهذا ما يجب ألا يعتقد خلافه كل مسلم » . بل أقول للسيد لسنا في شيء من الطالبة بهذه العقيدة في الفقه الروماني ، فليست أصول الاسلام ستا ، تلك الخمسة المعروفة ثم سرقة الفقه الروماني من الفقه الاسلامي . وحرام علينا في الدين والعقل أن نعتقد ما نشاء ونلزم بما نشاء ، فدع ياسيدي هذا لمثله من الرأي والبحث . ولا تتوجس خيفة من كل شبح ، ولا تعدّن كل رأي دسيسة ، ولا تتهمن كل مسلم بالضعف والانخداع ، فالأمر أخطر من ذلك كله ، وأهون من ذلك كله أيضاً .

أمين الخولي

التربية الخلقية والاجتماعية
فى المدرسة
للأستاذ فخرى أبو السعود

أدخلت الاصلاحات والتغييرات العديدة على أنظمة مدارسنا ، ولكنها كانت دائماً تدور حول طرق تدريس العلوم ومناهجها ، ولم تتجه إلى الناحية الخلقية -- كما أشار اليه صاحب المعالى وزير المعارف فى تقريره عن التعليم الثانوى — والحقيقة التى لا شبهة فيها أن مدارسنا لا تهتم بغير المواد الدراسية ولا تعمل شيئاً فى سبيل تربية أخلاق الطلاب

بل الحقيقة التى يعترف بها الخبير المنصف أن مدارسنا كانت بنظمها سبباً فى نشر الفوضى الخلقية بين الشبان : لقبولها الطلاب من جميع الطبقات ، ووضعها أبناء الطبقات المحترمة بجانب أبناء الطبقة الوضيعة فى المدرسة الواحدة بلا تمييز ؛ وقد دلّت الشاهدات على أن الطالب المهذب يكتسب أخلاق زميله الوضيع التربية ولا يحدث العكس ؛ وقد زاد هذا البلاء استفحالاً فى السنين الأخيرة باقبال الطبقة السفلى على تعليم أبنائها لتأهيلهم للوظائف واكتظاظ المدارس بطلابها

مع أن بانجلترا — على عراقتها فى الحرية والديمقراطية — مدارس لاتقبل إلا أبناء الطبقات المحترمة التى تستطيع دفع المصروفات العالية ، فيظل أبناؤها بمنجى من مخالطة أبناء السوقة ، ذلك بأن الحرية والديمقراطية يجب ألا تتعارضا مع الأمر الواقع ، أو تتجاهلا وجود الطبقات المتفاوتة

* * *

لا تعمل مدارسنا شيئاً لتهذيب أخلاق أبنائها مع أننا أحوج من غيرنا إلى التربية الخلقية فى مدارسنا : إذ لا يجد ناشئتنا هذه التربية غالباً فى بيئة غير بيئة المدرسة : فلا فى البيت ولا فى الشارع ولا فى المجتمع : فالتربية المنزلية عندنا ناقصة ، ومعظم الآباء لا يوجهون إلى تربية أبنائهم من وقتهم وعنايتهم ما يجب ، وهم ينقادون لحنانهم الأبوى فيسمحون لأبنائهم بكل ما يريدون وإن عارض مصلحتهم وجنى على تنشئتهم ؛ وطبقة العامة التى يصادفها الناشئ فى غدواته وروحاته فاسدة تعم فيها رذائل الكذب والغش والقحة وجرأة اللسان مما لامثيل له فى بلد راق ؛ والحجاب الذى فرضته التقاليد على المرأة يحرم المجتمع من اختلاط الجنسين وهو عامل كبير فى تهذيب الخلق وترقيق الطبع وتنمية الذوق وتربية الرجولة الصحيحة

ومصر التى جربت فى مراكز الحكم زُمراً من أبنائها لا يشك أحد فى عظيم ذكائهم وكبير مواهبهم وواسع تعليمهم وثقافتهم ، ومع ذلك كانوا عليها سوط عذاب وبثوا فيها فساد الأخلاق ، مصر هذه يجب أن تتنبه إلى النقص الجسيم فى نظم تربيتها ، وأن تعرف جيداً قلة جدوى التعليم بدون التربية الخلقية الصحيحة التى تقوّم الطباع وتبعث الاستقامة وتشعر الفرد بمسؤوليته أمام ضميره وواجبه نحو مجتمعه ووطنه

* * *

فمدارسنا اليوم تجعل واجبها الأول التربية العقلية ، على حين يجب أن تكون التربية الخلقية أول مراميها ، وأن يأتى تزويد الناشئ بالعلوم بعد ذلك فى المحل الثانى : فتختلف برامج التعليم زيادة ونقصاً وتعديلاً كما تدعو الحاجة أو تشير التجارب . ووظيفة المدرسة الخلقية هى هى فى مكانها الأول ، وهى هى الغرض الأسمى من كل تربية وفى كل معهد ، وهى عدة الناشئ وكفيله بالنجاح فى حياته مهما زادت معلوماته أو نقصت أو تنوعت

ومن المسائل المفروغ منها بين المشتغلين بالتربية والتعليم أن التربية الخلقية لا تأتى بالتلقين ولا تكون باستظهار فوائد الفضائل ومضار الرذائل ، وإنما العامل الأكبر فى تشكيل أخلاق الناشئ وتوجيهها إما إلى الحسنى وإما الى الخسران ، هو الوسط الذى يعيش فيه ، والناس الذين يخالطهم فى ذلك الوسط ، والأعمال التى يزاولها فيه كل يوم ؛ فأخلاقنا تنمو نمواً غير مقصود ولا متعمد ولا سيما فى عهد نشأتنا ، وتتشكل بالمحاكاة والاقتداء ومسايرة الغير ، فالطفل الناشئ فى وسط راق ينشأ فاضلاً دون أن تُلق اليه كلمة واحدة فى مزايا الفضيلة ، والناشئ فى بيئة مسمومة يشب دنيئاً مهما أسمع من عظات الحكماء ، ووُضع بين يديه من كتب الفضلاء

فاذا هيأنا فى المدرسة للناشئ جواً نقياً صالحاً نمت أخلاقه نقية صالحة دون بذل جهد ما من جانبه أو من جانب المدرس أو

إدارة المدرسة ؛ ولكن جو مدارسنا ليس من النقاء والصلاح بحيث يُنشئ الطلاب تلك النشأة ، ومهما فرَضَ المدرس وإدارة المدرسة بعد ذلك من أنظمة وقواعد وعقوبات فعبثٌ ليس وراءه طائل

فقد تقدّم كيف يختلط في المدرسة ابن الأسرة الطيبة بابن الأسرة الوضيعة فتَسُود الفوضى الخلقية الجو المدرسي ، ثم إن ازدحام ساعات المدرسة بالمواد الدراسية يحول دون توثق الحياة الاجتماعية المدرسية ، ويجعل الطلاب في حالة من الارهاق والملال تحفزهم إلى التمرد والاخلال بالنظام وإساءة المسلك كلما لاحت لهم فرصة لذلك ، وكل المواد الدراسية تتطلب منهم إجهاد عقولهم وتقييد أبدانهم ، فتنوء عقولهم بالمجهود المتواصل المقيم ، وتضيق أبدانهم بالتقييد ، ويتجمع نشاطهم الجثماني المكبوح الذي لا يجد منصرَفاً في وجهة الخير فينصرف إلى ضروب الفساد والعبث بالنظام ومشاكسة الغير والتفكير في أنواع الاثم أو اللهو الفارغ

* * *

ومن هذا تتضح الوسائل التي يجب أن تتذرع بها مدارسنا لتربي أخلاق أبنائها ؛ وهي : تنقية الجو المدرسي ، ووضع التربية البدنية في مكانها الذي هي جديرة به بجانب التربية العقلية ، وتوثيق عرى الحياة الاجتماعية في المدرسة :

(١) فيجب أن تُراعى طبقة الطالب الاجتماعية قبل أن يُقبل بالمدرسة ، وأن يكون لهذا شأن في توزيع الطلاب على المدارس بل على الفصول ، وتخصيص مدارس في البلدان المختلفة لأبناء الطبقات الممتازة والأسر الطيبة . وليس هذا بدعاً : ففضلاً عن وجود هذا التفريق في انجلترا كما سبق قد كان بمصر ذاتها شيء منه فيما مضى : إذ كانت بعض المدارس كالخديوية والسعيدية تكاد تختص بأبناء الأسر الراقية ، ولكن المدارس التي كانت لها هذه المزية قد فقدتها أخيراً ، وصار بعض المصريين يحجم عن إلحاق الأبناء بالمدارس المصرية مخافة أن يختلطوا عن لا تحسُن مخالطتهم ويفقدُوا ما شبوا عليه في بيوتهم من طيب العادات والأخلاق

(٢) وأن تختصر برامج التعليم اختصاراً كبيراً وتقلّل ساعاتها في اليوم المدرسيّ ، ويخصص جانب كبير من الوقت للألعاب الرياضية التي يجب أن يمارسها جميع الطلاب في كل يوم ، فان هذه الألعاب هي أساس كل تربية صحيحة شاملة ترمي إلى تكوين الفرد والمجتمع ، ولا نعلم أمة بلغت شأواً كبيراً من العظمة والرقي في ماض ولا حاضر إلا كان للتربية البدنية المكان الأول في تنشئة أبنائها

فرياضة البدن ضرورية لنموه وصحتـه ، وصاحب الجسم الصحيح أقدر على تلقي العلوم وأداء الأعمال ، ونظرته إلى الحياة نظرة تفاؤل وإقدام ورغبـة في العمل وعزيمة واعتداد بالنفس ، والناشئ الذي ينمو سليم البدن ينمو كذلك سليم النفس مستقيم الطبع متجهاً إلى الخير يُؤثر من أنواع الترويح والاستجمام والسرور ضروب الألعاب الرياضية وصنوف اللهو البريء ، ولا تنحصر معظم أفكاره في مسائل الجنس ومرذول العبث كما يرجح أن تنحصر أفكار صاحب الجسم البليد الخامل

من ذلك ترى أن الألعاب الرياضية هي قوام التربية البدنية والعقلية والخلقية ، ويكفي دليلاً على فشل طرق التعليم عندنا أن الزمن المخصص في المناهج لهذا العامل الحيوي في التربية هو دون الساعة في الأسبوع ، وأن تعليم الرياضة البدنية في مدارسنا منوط بالجنود القـدماء ، وأنها لا تحسب من المواد الأساسية ، وكل أولئك يزيد الطلاب استخفافاً بها

(٣) كذلك يجب أن يُصرف جانب كبير من أوقات المدرسة في الألعاب والأعمال الجمعية والحفلات لشتى المناسبات : من ابتداء العام المدرسي أو انتصافه أو انتهائه أو توزيع الجوائز أو تكريم أبناء المدرسة أو خريجيها أو زوّارها أو المحاضرات المشوقة الممتعة : ففي قيام الطلاب بتنظيم هذه الجماعات واشتراكهم فيها واهتمامهم بنجاحها خير تربية لأخلاقهم الاجتماعية ، وأحسن تدريب لهم على حسن المسلك بين الجماعة ، وأفضل تهذيب لذوقهم العام ، وهم بأشد حاجة إلى ذلك : فما يقول مطلعٌ منصف إن مسلك شباننا المتعلمين في أغلب مجتمعاتهم مما يشرّف . فأغلبهم يعوزهم التعقل ، وحسن الذوق ، والتمييز بين مُقام ومَقام ، ومايقال هنا ويفعل ، وما لا يقال أو يفعل هناك ؛ وكثير منهم يعجزون عن استشعار الجد ومواصلة الرزانة في أمر من الأمور ، وبهم نزعة إلى الهزل لا تقاوَم ولا يكاد يطيب لهم مجتمع حتى يهبطوا به إلى قرار بعيد من التبذل والاسفاف

نعم إن بالمدارس المصرية أنواعاً من الجمعيات العلمية والعملية ،

ولكنها مقصورة على عدد محدود من الطلاب بينما يجب أن تكون شاملة للجميع ، ويُعَدُّ الالتحاق بها أمراً إضافياً على حين يجب أن يكون أساسياً ، وما دامت لا تدخل فى المنهاج ولا يمتحن فى أعمالها الطلاب المرهقون خارجها ببرنامج حافل فانها لا تجتذب إلا القليلين ، وأغلبهم ممن لا يحفلون بالمواد الدراسية وكان بمجدر الجمع بين الأمرين

***

فبتطهير الوسط المدرسىّ من أوشاب السوقة ، وإعطاء الرياضة البدنية مقامها اللائق ، وخلق الحياة الاجتماعية الجذابة بالدرسة مكان الحياة المقفرة المنفرة ، تهئ المدرسة الجو النقى الصالح الذى يبعث الطالب على مكارم الأخلاق ، ويهديه إلى القدوة الحسنة ، ويسمو به إلى احترام النفس والمجتمع ، وبذلك تؤدى المدرسة واجبها الأول ، وتحقق التربية غرضها الأسمى

وهذه بعينها هى السُّنة التى درجت عليها المدارس الانجليزية من قديم ، ولا شك أن المدرسة الانجليزية تفوق غيرها من المدارس ، ولم يبلغ الانجليز ما بلغوا من العظمة بتزويد أبنائهم بمقدار من المعارف أكبر مما يناله غيرهم ، بل بالرياضة البدنية والحياة الاجتماعية المدرسية ، وهذه هى وسيلة التربية الخلقية وهى أداة الكفاح والنجاح فى الحياة للأفراد والأمم . ومن المأثور المشهور قول ولنجتون إن معركة وترلو كُسبت فى ملعب كلية إيتون ، فهو لم يقل إنها كسبت فى حجرات الدراسة أومعاملها ، بل فى الملعب حيث تخرج الرياضة البدنية جسماً سليماً وعقلاً سليماً وخلقاً قويماً وفرداً ينفع نفسه ومجتمعه

الاسكندرية فخرى أبو السعود

المدرس بالعباسية الثانوية

هرافليوس فى المعبد

البطـــل*

للأستاذ معروف الأرناءوط

« أى صديق معروف ! إنك لتغمر أشخاص عالمك الذى صغت فى هـذه الرواية البارعة ، بشعاع رقيق ، يحفل بالطيوب واللحون والألوان والصور

إنك لتفيض على كل ما تكتب بركة الحيـاة والنور ، فالأشكال تتكلم ، والصور تغنى ، والأخيلة تتفتح عن ألوان لماحة كالطيف ، مفترة كالصباح

فهنا حياة كاملة لجيل من الناس تنبسط وتأتلق حتى تملأ الأكوان بسعتها وإشراقها

وهنا الحدائق تتدفق بأنهار كأنهار الجنة تتنهد وتغرد ، وتتلفت وتزهى ، وتعبق حافاتها بخمائل الخلد وأزاهير النعيم ، ثم تذوب فى الجو الساهم الهائم أنفاساً مشبوبة بالعطر ، لاهبة بالغناء طافحة بالشوق

فن أحب أن يشعر بهناءة الفن ، ورغادة الأدب فليقرأ « عمر بن الخطاب »

ومن فاته أن يرى إلى جنائن عبقر ، وحدائق الشرق المسحورة ، ويتسمع الى حكايات الحب وأقاصيص الحرب ، وينظر الى مواكب المجد وكتائب النصر فليلتمسها فى هذه اللحمة الكبرى ! » أنور العطار

سَرَب « هراقليوس (١) » فى أنحاء الكنيسة بين العمد

* الفصل السادس عشر من اللحمة الدينية الكبرى : « عمر بن الخطاب » التى تطبع الآن فى دمشق ، لكبير أدباء الشام الأستاذ معروف بك الأرناءوط عضو المجمع العلمى العربى ومؤلف « سيد قريش » وصاحب « فتى العرب »

(١) « فى هـذه القطعة الشاعرة وصف دقيق أخاذ « لهراقليوس العظيم » يزور منفرداً فى الليل كنيسة السيد المسيح فى بيت المقدس ، وأحراسه وجنوده ومواكبه على أبواب المعبد ينتظرون معاده ، وهو غارق يستجدى هـذا المطاف المقدس العزاء لنفسه الضارعة المهدودة ، فتلتمع فى عينيه صور ماضيه الآثمة ، فتثب الأشباح وتهمس الصور وتتنفس التماثيل ، ثم يبين له موكب من ضحاياه يضم اليه أرمة أشباح أضناها العذاب وأذابها الهم ، أحـدها رجل مشوه اسمه « نقتالى » وإلى جانبه ثلاث نساء هن « بليترا » وابنتها الصغيرة مارية ، وبنيامينا ابنة نقتالى » وقد كن إلى جانب « نقتالى » مخبئات فى حنايا المعبد يترقبن دخول « هراقليوس »

وهنا يعرض الأستاذ الأرناءوط لهذا المشهد الرهيب فيمزج الأحياء بالأموات ، والحقيقة بالخيال ، والنقمة بالعفو

يخيل إلى «هراقليوس» أن الصور المنقوشة فى الحوائط والجدر والتماثيل المنصوبة فى الزوايا والحنى ، تتحسس وتتنفس وتتكلم ثم تمشى اليه صفوفاً متراصة تأخذ عليه السبل وتثير فيه الخوف والرعب والألم والندم ، فيغيب عنه فى عالم يسوده البكاء والهول ، ثم يغمره العفو والرحمة ! »

والأقواس والحنايا والقناطر والتصاوير والشموع ، فكأنه في سربه طائف ألقت به دنيا الأموات إلى دنيا الناس ، وما كان قاهر الفرس وسيد الكتائب الظافرة في أفريقية وأوربة ليستطيع أن يكافح شجوناً عاقت بنفسه وملكت عليه إحساسه وشعوره ، وتلك هي شجون لم يحسر عنها أمام خلصائه وأصفيائه استبقاء لزهوه وكِبْره ، وحرصاً على ذلك المجد الذي بلغ نواحيه في عمره الطويل ، ولكنه أحب أن يأتي بحزنه وشجوه إلى هذا الليل الفاسق الذي بسط جناحيه على غابة تمور بالصور والدُّمى والمرمر والبرفير واللآلىء واليواقيت ، وقد يكون من الخير لنفسه أن تطفو روحه على هذه المشاهد والأشياء ، فكان كلما مر برواق من هذه الأروقة المعتمة هتف الجرح بقلبه وحسه ، فترسَّل في مشيته ، وأقبل إلى العمد المرمرية المائلة فترفق على جذوعها وجعل ينظر إلى أضواء الشموع ، ثم إلى هذه الصور التي قبست شحوبها من نفوس عمرت بالألم والتقى والورع ، فاذا صدف عن العمد المرمرية ونازعته نفسه إلى الطواف بالأماكن المقدسة ، انبسط أمامه فضاءُ الكنيسةِ واتسع ، وخيل إليه أن الحوائط والجدر تفرُّ منه وتنأى عنه ، فما يستطيع لحاقاً بها ، ولا تستطيع أن تسايره في منازعه فتسكن وتستريح ؛ وكان في بعض الأحايين لا يجد معدى عن الوقوف أمام هذه الصور الملونة رجاة أن يتعرف إلى أصحابها ، فيفتح عينيه ويمد يده إلى مذبح صغير ازّينت أطرافه وجنباته بالذهب ، فيقبض على شمعة من هذه الشموع التي تضيء المذبح ، ويأتي إلى الصور ويقرأ أسماء الرسل على الضوء ، ثم لا تحجبه هذه الأسماء فيرتد عنها في مثل خفة الوميض ، ويطرح الشمعة إلى حضيض البيعة ، فيخبو نورُها ، ثم لا يغمه ويحزنه أن يستأنف طوافه في ليلين راعبين : ليل نفسه ، وهذا الليل الذي يغشى المعبد !

وربما كان من أحبّ أمانيِّه ألا يقولَ شيئاً لأصحابِ التصاوير ، وقد يكون من أرضى هذه الأمانيّ أن يأتي بدخيلة نفسه الى المسيح وحده ، وذريعته في الحرص على صمته حتى يخلو الى صورة السيد المسيح أنه ناضل ونافح في سبيله ، فأولى للنبي الذي نصره على الوثنية وبارك سلاحه في سوح الوغى أن يفزع الى الرسول العبقريّ ، وإنما يَضيرُه أن يقص حياته على صورِ ما كان أصحابها من طرازه وعنصره !

ولقد وقف « هراقليوس » بعد إفلاته من القبر المقدس بجوارِ صخرةٍ قيل إن ملكا من السماء وقف عليها ليتحدث الى العذراء مريم ، فتهافت عليها وتمسح بها ، ثم دخل الى بيعةٍ صغيرة أسماها نصارى القرون العافية « معبد الملائكة » ، ثم لم يلبث أن ازوَرّ عنها وجاء الى بيعةٍ محاذية في رحبتها قطعة كبيرة من المرمر الرّمادي قيل إن السيد المسيح صعد عليها وتراءى لمريم المجدلية ، وعليه لباسُ جنّانٍ يحملُ الورد ، وكانت البيعة الصغيرة تسبح في ظلام شديد ، فثنته الجهمة الراعبة عن شعور الرجل التقي ، فجثم مصلياً على المرمر وحدّقَ الى سماء المحراب كأنه يريد أن يتعرف المكان الذي خرج المسيح منه بعد دفنه ، ولم يطل مكثه في المحراب ، فعافه وغشي المعبدَ الذي ظهر فيه السيد للعذراء بعد بعثه ، فطاف بودائعه طوفة الحاجّ المنيب ، وكانت المصابيح الذهبية الملونة تضيء جوانب المعبد ، فرأى هراقليوس على وميضها صورة تمثل المسيح ووالدته ، فرَقّ للصورة وابتسم ، ولكن ذلك العزاء الذي تمناه لم يخالطْ نفسه ، فجمع ذيول ردائه وخرج من المعبد ليدأب في طوافه ، فاستقبلته العُمُدُ المرمرية الرفيعة ، كأنها خيالات الموتى ، فأخافه ماعليها من سعف النخيل وورق الغار ، وأنمى مخاوفه احتراق البخور في كل ناحية من نواحي البيعة الكبرى ، وإطلال الصور على الحوائط والجُدُر ، وكان يخيل اليه أن حجَّه قد انتهى ، فينبغي له وقد بلغ غايته من زيارة الأماكن الطاهرة أن ينقلب الى أحراسه الذين أبوْا مفارقة أبواب الكنيسة قبل فراغه من حجه ، فلما همَّ أن يخرج لم يستطع أن يتعرف الأبواب ، فقد امتد صحن الكنيسة وفاح حتى ماثل الحرجة الغبياء ، فألقى بنفسه الى تيهٍ راعب ، وبلغ به المطاف محراب القدّيسة « هيلانة » المائل الى يساره ، فشخصَ اليه وقرأ اسم هيلانة منقوشاً على المرمر بحروف أغريقية ، وهو لا يجهل أمر هذه المرأة التي لبست التاج في كنيسة الرسل ، وابتعثها شغفها المنيف بقصة حياة المسيح على فراق القصر ، فجاءت الى بيت المقدس لتبحث عن خشبة الصليب ، فلما عثرت عليها بالغت في تكريمها ، ثم رفعت هذه الكنيسة تخليداً لذكريات تلك الحياة الماجدة !

لألأ الفرح على جبين هراقليوس فتشاجى ورق، وجعل يستعرض تاريخ تلك المرأة التقية التى أزجاها الورع الشديد العنيف الى الايغال فى منافحة الوثنية، فأكبر حياتها. ثم فاضل بين هذه الحياة وحياته، فراقه تساوق عجيب فى الحياتين، ولذه أن تبدأ المرأة العاقلة أمرها فى البحث عن الصليب حتى حصلت عليه، وأن يبدأ هراقليوس أمره فى إرجاع الصليب الى مكانه الأصيل بعد انتصاره على جيوش ملك الملوك كسرى!

وكانت هذه المفاضلة التى ذهب اليها ساعة وقف الى جانب المحراب مثاراً لذكريات نبيلة فى نفسه، فاطمأن البطل القارع الى خاتمة حياته، ووثق بقدرته على اجتناء النصر حتى يغيب فى رمسه! وماعاد يخيفه هذا البغض الذى يشعر به الناس فى الشام وفلسطين ومصر، بل عاد هراقليوس يخاف أمر هذه الصحراء التى أخرجت الأبطال والمساعير الى مشارف الشام للثأر بدم الرسول الذى قتله أمير من غسان! ومن أين لهذه الصحراء الغارقة فى الرمال، والتى لايسمع لها نشيد فى البلاد الوارفة الظل، حظ هراقليوس اللامع وجده الساطع؟ وهذا الملك الطويل العريض الذى استعبد الشعوب وأذل الملوك؟ بل من أين لهذه الصحراء الغطشاء السادرة فى حر الهاجرة، هذه الأنهار الجارية، وهذه البحار الطاغية، وهذه الشطآن التى لاحد لها ولا انتهاء!

قد تغرى الحماسة فرسان الصحراء بالوثوب على القرى والمسالح، ولكن دون وصول هؤلاء الفرسان الى المدن الضاحكة على ضفاف الأنهر وشواطئ البحار، حمية هؤلاء الملوك الذين مشوا فى ركاب قيصر لقتال كسرى فى مدائنه، وبسالة الجيش الذى ظفر بأسلاب العدو فى جبال الألب وفى سهول مقدونية، وعلى شواطئ البحر اليونانى!

وماذا يستطيع « فروة بن عمرو » الذى ثار على سيده ومولاه أن يفعل، وفى جيش هراقليوس قواد ما تزال صدورهم تخفق بتلك الأناشيد التى سمعها العراق وسمعتها فارس، ولا يزال صليلها الراعب يرعد فى سمع هذه الدنيا التى لا يرتفع لها علم بجوار علم قيصر!...

لقد همس هراقليوس باسم فروة، وهو منحدر الى الهاوية العميقة التى نقرت على جلامدها كنيسة القديسة هيلانة، همس الساخر العابث، ولما جاز السلاليم إلى ذلك المنحدر الأوهد رفع يده إلى الفضاء كأنه يتوعد الفيلارك فروة بن عمرو الجذامى، ثم تضاحك، حتى لقد رن ضحكه فى جوف الهاوية وأردف صائحاً: « ما أنا بحاجة الى قتالك أيها الفتى الذى ابتعثته أمانى الشباب على الزراية بسيد الجيوش وأمير الجحافل! فمثلك لايقاتله رجل إلا من طرازه ونوعه، وقد وقفت فى العثور على الرجل فاليكه، فانه الحارث الغسانى أمير دمشق وسيأتيك من حيث لم تحذر، ويقاتلك من مأمنك »

جاز قيصر السلاليم فى رفق وهوادة، فاستقبلته الظلمة الفاحمة، وارتمت على جبينه الرطوبة، وسرت إلى نفسه عفونة ماكان يستطيع عليها صبراً، ومع هذا كله مضى هراقليوس لما شاء، ودأب فى انحداره حتى انتهى إلى الهاوية، فاذا عليها سحب من ليل صارد، وإذا الرطوبة التى استقبلته على وصيد الباب تستقبله عند كل خطوة، وإذا هو لايبصر غير بريق الفسيفساء على الحياط والجدر والحنايا، فانكمش وتقاصر وردت اليه هواجسه، وثابت الى قلبه وساوسه، وامتلأ رأسه بالتهاويل والتصاوير، فاطرح عبقرية الرجل الأريب، وأخذته جنة الرجل السروب، وفكر فى الرجوع على عقبيه فما جرؤ على رجعة وشيكة، فقد سالت نفسه على الحياط والجدر، وأعى مخاوفه بصيص من ضياء يتسرب الى حضيض البيمة من ثقوب فى قبتها السامقة، وقد تسايل على الجدر والحياط فضوأها، فنظر هراقليوس إليها فاذا عليها تصاوير غائمة شاحبة تمثل أشخاصاً ذوى وجوه كامدة، وقد قعد هؤلاء القرفصاء، وحسروا عن صدورهم فاذا هى قد أكلتها القروح وأثخنتها الجروح، فسال صديدها على أطمار بالية عافية، وبين هؤلاء المناكيد المشائيم فقراء متسولون يغشى وجوههم الناصلة أثر غير يسير من بؤس ويأس، ومن حولهم فتى رائع الجمال، ضاحك الأسارير قد سدر شعوره الشقر على منكبيه حتى ماثل المسيح فى ملامحه البارعة؛ ولكنه ضرير لايبصر ما حوله!

خيل الى هراقليوس وهو ينظر الى هذه التهاويل أنه فى

مكان يسوده العذاب ، فتلطفت نفسه ورجفت أسنانه ووضع يده على عينيه كأنما هو يحاول ألا يرى إلى هذه الأشياء الجاهمة ، ثم فكر في الرجوع إلى المعبد ، ليلحق برجاله الذين ينتظرون معاده على الأبواب فما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فلقد أمالته مخاوفه إلى الايغال في الطواف فمشى بين صفين متقابلين من أشباح وصور ثم لم يعد في ميسوره أن يدأب في طوافه ، فوقف تحت قنطرة المعبد وجعل يستمع لفحام مؤلم ينبعث من صدره

ليس بين هذه المحاريب التي غصت بها أنحاء كنيسة القبر المقدس ما يماثل محراب القديسة هيلانة في ظلمته وروعته ، وفي ذكرياته الحافزة المثيرة ، فلقد يستطيع الانسان أن يمر بالمعابد جميعاً وينسل إلى الأروقة جميعاً ، ويتجسس العمد والتصاوير جميعاً فلا يحس خوفاً ، فاذا ألقت به حظوظه العاثرة الى معبد القديسة هيلانه بدت له نواحيه وأطرافه صامتة ذاهلة ، فاذا تدفق في سيره ألفاه خالياً عاطلاً إلا من هذه الأشباح والأطياف الجاثمة على سلالمه ودرجاته وعند مداخله ، وإلا من هذه التصاوير التي لاتفارق جدره وحياطه ، فاذا طاف بهياكله ومناره لم تتبدل في عينيه هذه الصور التي أبصرها على عمده وحناياه وأقواسه ، ثم لا يلبث أن يفر من هذا المكان الراعب الذي يماثل في تهاويله وتصاويره معابد الوثنية

لم يجد هراقليوس معدى عن الصلاة فخافت بصوته لعل صلاته تنسيه هذا الضجر الأحمق الذي علق بنفسه ، أو لعل هذه الصلاة التي همس بها في الراموس الراعب ترجع به إلى حزمه ومضائه فينقلب على أحلامه وهواجسه ، ويجفو هـذه العزلة الجاهدة ، ويئوب إلى سربه صحيح العقل موفور الذكاء ، ولكن الرجل الذي أوفى لنصرانيته وبر بمسيحه ما كان يجد في هذه الصلاة التي رددها أمام التصاوير ، ذلك الصفاء الذي كان يشتاقه ، وذلك لأن ماضيه مَثَلَ له في الراموس النابي ، فزحمته طيوفه وأشباحه ، وخرجت على فمه أسماء معاركه وملاحمه ، وانفلتت من صدره ذكريات مخازيه ومساويه ، فوازن بين انتصاره على الوثنية وبين ايغاله في تنكيد أبناء الشيع النصرانية ، فرجحت كفّة رذائله على كفة فضائله ، فتشاجى ورق وهام على وجهه في فضاء المعبد حتى بلغ هيكله المرمري ، فوقف حياله كأنما هو يريد أن يعترف بذنبه ، أو كأنما هو ينزع الى إلقاء جرائمه في هذا المكان المخوف ، فذكر أمام الهيكل اسم : « مارتينا » زوجه ، وقد نهاه البطريرك « سرجيوس » عن مخالطتها ، فأبى ذلك مسايرةً لميول قلبه ، ثم تزوجها وألبسها لباس القياصرة ومشى بها الى كنيسة أياصوفيا من غير أن يفطن الى عظيم ذنبه عند ربه

وكان كلما طافت به هـذه الذِّكَرُ الشجية لا يمنع عينيه البكاء حتى لقـد استفاض أنينه في أنحاء المعبد ، فاستمعت لها التصاوير ووعتها السدفة ، ثم غشيته ذهـلة قاتلة ، فجعل يهذي هذياناً بليغاً ، وانكفأ يخلط ماضيه بحاضره ، وقذف فمه أسماء ضحاياه ، وبين هـذه الأسماء التي لا تحصي اسم فتاة وطيءَ قيصر عفافها في ليلة عاصفة بالبروق والرعود ، وأرادها على فراق وطنها فخرجت منـه الى ربوع الشام وفي نفسها المحطمةِ من الذكر الراعبةِ ما ليس في كتاب

وكان هذا الخوف الذي تولاه ساعة نظر الى صورة الأعمى مبعث حيرته ومصدر وساوسه ، فسأل نفسه عن هـذا الجزع الذي غشيها وهو الزعيم الكميّ الذي جاز بفرسانه شواهق أنطاكية وسهولها ليلحق بجيوش « كسرى » عند « تَدْمُر » فتنة الصحارى ، فلما فرت جيوش كسرى أمام كتائبه ثارت حميته واستأنف زحفه في أرضٍ مخصبةٍ واعرةٍ ، حتى لقي كسرى عند دجلة فنهد الى مقارعته وحمله عار الانكسار ، ولحق به الى المدائن وأقسره على إرجاع الصليب الذي حمـله ملك الملوك من بيت القدس

وليس هذا كل ما فكر فيه ، بل لقد ذهب في تفكيره الى أبعد مدى ، فتمثل دخوله الى هياكل الوثنية في موكب ضاحك عليه الشيء الكثير من بهاء النصرانية ورواء القيصرية ، ولم ينس تلك الحماسة البالغة التي لقيها في معابد « جوبيتير » و « منرفا » فوازن بينها وبين هذا الفتور الذي استقبلته به معابد النصرانية ! وعيناه لا تزالان تنظران الى صورة الفتى الأشقر الذي لا يبصر !

(البقية في العدد القادم)

معروف الأرناءوط

٤ـ شاعرنا العالمى
أبو العتاهية
للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

— ٤ —

ويجب أن نضيف إلى تلك الأدلة على أن حب أبى العتاهية لعتبة جارية المهدى لم يكن حباً صادقاً ، دليلاً آخر هو ذلك الشكل الذى ابتدأ به حبه لها ، وحب صاحبه لخالصة صاحبتها ، فان وقوف كل واحد منهما فى الطريق لتمر عليه أى امرأة كانت ، فيتفق أن تمر عليهما هاتان الجاريتان ، فيقول أحدهما قد عشقت عتبة ، ويقول الآخر قد عشقت خالصة ، لايدل إلا على أنهما كانا يريدان حباً كيفما اتفق ، حباً يتخذانه وسيلة للظهور والمران على الشعر ، لاحباً صادقاً يملك عليهما حياتهما وشعرهما ، كما ملك ذلك على الشعراء العشاق قبلهما

ولم يكتف أبو العتاهية باتخاذ عتبة وسيلة له إلى الاتصال بالمهدى ، بل اتصل أيضاً بيزيد بن منصور خال المهدى ، وكان من أكرم الناس ، وأحفظهم لحرمة ، وأرعاهم لعهد ، وكان باراً بأبى العتاهية ، كثيراً فضله عليه ، وكان أبو العتاهية منه فى منعة وحصن حصين ، مع كثرة ما يدفعه اليه ، ويمنعه منه من المكاره ، ومن أجله كان أبو العتاهية يتعصب لليمانية أخوال المهدى ، ويمدحهم فيما يمدحه به من شعره ، ومن ذلك قوله :

سُقيت الغيثَ يا قصر السلام ... فنعم محلَّةُ الملك الهمام
لقد نشر الاله عليك نوراً ... وحفَّك بالملائكة الكرام
سأشكر نعمة المهدىّ حتى ... تدور علىَّ دائرة الحِمَام
له بيتان ، بيتٌ تُبَّعِىٌّ ... وبيت حلَّ بالبلد الحرام

وقد اتصلت مدائحه بالمهدى فقربه منه ، وعظم مقامه فى دولته ، ونال من جوائزه مالم ينله غيره ، وكان الأمر يصل بينهما أحياناً إلى التبسط فى أوقات اللهو إلى حد تسقط فيه الكلفة ، وينسى الفارق الكبير بين المهدى وبينه ، ومن ذلك أنه خرج معه يوماً إلى الصيد فى بعض من حاشيته ، فوقعوا منه على شىء كثير ، وتفرقوا فى طلبه ، وأخذ المهدى فى طريق غير طريقهم وكان معه أبو العتاهية ، فعرض لهم واد فسيح ، وتغيمت السماء وبدأت تمطر ، فتحيرا فى أمرهما ، وأشرفا على الوادى ، فإذا فيه ملاح يعبر الناس ، فلجآ اليه وسألاه عن الطريق ، فجعل يضعف رأيهما ، ويعجزهما فى بذلهما أنفسهما فى ذلك الغيم للصيد ؛ ثم أدخلهما كوخاً له ، وكاد المهدى يموت برداً ، فقال له الملاح : أغطيك بجبتى هذه الصوف ؟ قال : نعم ، فغطاه بها فتماسك قليلاً ونام ، فافتقده غلمانه ، وتبعوا أثره حتى أتوا اليه ، فلما رأى الملاح كثرتهم علم أنه الخليفة فهرب ، وتبادر الغلمان فنحوا الجبة عنه ، وألقوا عليه الخز والوشى ، فلما انتبه قال لأبى العتاهية : ويحك ما فعل الملاح فقد والله وجب حقه علينا ، فقال : هرب والله خوفاً من قبح ما خاطبنا به ، فقال إنا لله ، والله لقد أردت أن أغنيه ، وبأى شىء خاطبنا ؟ نحن والله مستحقون لأقبح مما خاطبنا به ، بحياتى عليك إلا ما هجوتنى ، فقال : يا أمير المؤمنين كيف تطيب نفسى بأن أهجوك ، فقال : والله لتفعلن فانى ضعيف الرأى مغرم بالصيد . فقال :

يالابس الوشى على ثوبه ... ما أقبح الأشيب فى الراح

فقال له زدنى بحياتى فقال :

لو شئت أيضاً جُلت فى خامة ... وفى وشاحين وأوضاح

فقال له : ويلك هذا معنى سوء يرويه عنك الناس وأنا أستأهل ، زدنى شيئاً آخر . فقال : أخاف أن تغضب ، فقال لا والله ، فقال :

كم من عظيم القدر فى نفسه ... قد نام فى جُبةِ ملاَّح

وهذه حادثة أخرى له مع المهدى تدلنا على أن اتصاله به لم يكن اتصال الشاعر المستجدى الخانع ، بل اتصال الشاعر الذى يعرف لنفسه قدرها ، فاذا رأى شيئاً أمامه من ممدوحه لا يرضى عنه ، نسى فيه ماله وجوائزه ، ولم يذهب فيه معه على ما يرضى هواه ، بل يذهب فيه على ما يرضى نفسه هو ، وإن كان يتلطف فى ذلك بقدر ما تسمح به ظروف عصره فى مخاطبة الملوك ، وتهدئة ثائرتهم عند غضبهم

دخل على المهدى وزيره أبو عبيد الله ، وكان قد وجد عليه فى أمر بلغه عنه ، وأبو العتاهية حاضر مجلسه ، فجعل المهدى يشتم أبا عبيد الله ويتغيظ عليه ، ثم أمر به فجر برجله وحبس ، ثم أطرق المهدى طويلا فلما سكن أنشده أبو العتاهية :

أرى الدنيا لمن هى فى يديه عذاباً كلما كثرت عليه
تهين المكرمين لها بصُغر وتكرم كل من هانت عليه
إذا استغنيت عن شئ فدعه وخذ ما أنت محتاج إليه

فتبسم المهدى وقال لأبى العتاهية : أحسنت ، فقام أبو العتاهية ثم قال : والله يا أمير المؤمنين ما رأيت أحداً أشد إكراماً للدنيا ، ولا أصون لها ، ولا أشح عليها ، من هذا الذى جر برجله الساعة ؛ ولقد دخلت إلى أمير المؤمنين ، ودخل هو ، وهو أعز الناس ، فما برحت حتى رأيته أذل الناس ، ولو رضى من الدنيا بما يكفيه لاستوت أحواله ولم تتفاوت . فتبسم المهدى ودعا بأبى عبيد الله فرضى عنه ، فكان أبو عبيد الله يشكر ذلك لأبى العتاهية

فاذا قيل لنا كيف صار الفتى بائع الجرار إلى هذه المنزلة من علو النفس ، بحيث يسمو ذلك السمو على وزير المهدى ، وإذا بدا للناظر غريباً أن ينقلب هذا الشاعر الماجن ذلك الانقلاب الذى يتنافى مع ماضيه كل المنافاة ، فان هـذا لا يجعلنا نتعجل درس هذا الشاعر العظيم ، ولا بد أن ننتظر ذلك الارهاص إلى غايته ، ونمضى فى درسه مرحلة مرحلة

ومن مدائحه فى المهدى تلك القصيدة التى مدحه بها أمام بشار وأشجع السُّلَمىّ وغيرهما من الشعراء ، وقد أذن لهم المهدى فجلسوا وسكت أهل المجلس ، فسمع بشار حساً ، فقال لأشجع : من هذا ؟ فقال أبو العتاهية ، فقال : لاجزى الله خيراً من جمعنا معه ، ثم أمره المهدى فأنشد :

ألا ما لسـيدتى مالها أدَلاًّ فأحمـل إدلالها
وإلا ففيمَ تجنَّتْ وما جنيْتُ سـقى الله أطلالها
ألا إن جارية للإما م قد أسكن الحبُّ سربالها
مشت بين حور قصار الخطى تُجاذب فى المشى أكفالها
وقد أتعب الله نفسى بها وأتعب باللوم عـذّالها

فقال بشار لأشجع : ويحك يا أخا سليم ! رأيت أحرّ من هذا ؟ ينشد مثل هذا الشعر فى هذا الموضع ! حتى بلغ قوله :

أتته الخـلافة منقادة إليـه تجرِّر أذيالها
ولم تك تصـلح الا له ولم يك يصـلح إلا لها
ولو رامها أحـد غيره لزلزلت الأرض زلزالها
ولو لم تطعه بناتُ القلو ب لما قبل الله أعمالها

فقال بشار : أنظر ويحك يا أشجع ، هل طار الخليفة عن فراشه طرباً لما يأتى به هذا الكوفى ؟

والناظر فى هذه القصيدة يرى أبا العتاهية إلى هذا العهد يبتدىء مدائحه بالنسيب على عادتهم فى ذلك ، ولكنه لا ينسب بليلى ولا هند كما كان ينسب الشعراء قبله ، وإنما ينسب بالجوارى البغداديات الحسان ، ليجارى فى ذلك عصره الذى يعيش فيه ، ولا يجمد على ما كان يجمد عليه غيره ، ولم يكن مع هـذا يعنى بتطويل النسيب أمام المدح حتى يستفرغ فيه وسعه ، بل يلم به إلماماً ، ثم يدخل فى مقصده . قال صاحب الأغانى حدثنا الصولى ، قال حدثنا الغلابى ، قال حدثنا عبد الله بن الضحاك أن عمرو بن العلاء مولى عمرو بن حريث صاحب المهدى كان ممدحاً ، فمدحه أبو العتاهية ، فأمر له بسبعين ألف درهم ، فأنكر ذلك بعض الشعراء وقال : كيف فعل هذا بهذا الكوفى ! وأى شيء مقدار شعره ؟ فبلغه ذلك ، فأحضر الرجل وقال له : والله إن الواحد منكم ليدور على المعنى فلا يصيبه ، ويتعاطاه فلا يحسنه ، حتى يشبب بخمسين بيتاً ، ثم يمدحنا ببعضها ، وهذا كأن المعانى تجمع له ، مدحنى فقصر التشبيب وقال :

إنى أمنت من الزمان وريبه لما علقت من الأمير حبالاً
لو يستطيع الناس من إجلاله لحذوا له حرّ الوجوه نعالاً

عبد المتعال الصعيدى

٢٤ - محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون او خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

فلو لاحظ شخص أن (ا) أطول من (ب) بمقدار رأس، وأن ب أصغر من ا بمقدار رأس، فسترفض أن تسلم له بهذا، وستزعم بقوة أنك لا تعني إلا أن الأكبر أكبر بالكبر، وبسببه، وأن الأصغر ليس أصغر إلا بالصغر، وبسببه، وهكذا تجنب نفسك خطر القول بأن الأكبر أكبر، وأن الأصغر أصغر، بمقياس الرأس، الذي هو هو في كلتا الحالين، وستجنب نفسك كذلك ما في افتراض أن الرجل الأكبر أكبر بسبب الرأس الذي هو صغير، من سخف فظيع. ألم تكن لتخشى ذلك؟

فقال سيبيس ضاحكا: كنت لأخشاه حقاً

وكنت تخشى، بنفس الطريقة، أن تقول إن عشرة تزيد على ثمانية باثنين، وبسببها، ولكنك كنت تقول إنها تزيد عليها بالعدد، وبسببه، أو أن ذراعين يزيدان على ذراع واحد بنصف بل هما يزيدان عليه بالكبر - ذلك ما كنت تقوله لأن الخطر بذاته موجود في كلتا الحالين

قال: جد صحيح

- ثم ألم تكن لتحذر من التأكيد بأن إضافة واحد إلى واحد، أو قسمة واحد، هي سبب اثنين، وكنت لتقسم أمام الملأ بأنك لا تدري طريقة يجيء بها أي شيء إلى الوجود، إلا مشاطرته لجوهره الأصلي، فينتج أن سبب الاثنين الأوحد هو - في حدود ما تعلمه أنت - مشاطرة الاثنينية، فهذه المشاطرة هي طريقة عمل اثنين كما أن مشاطرة الواحد هي طريقة عمل الواحد، وكنت ستقول إني مُطَّرح ألغاز القسمة والاضافة جانباً - فقد تجيب عنها رؤوس أبلغ من رأسي حكمة، ومادمتُ كما أنا عديم الخبرة، أفزع من ظلي كما يذهب المثل، فلستُ أقوى على أن أتناول بالهدم مبدأ ذا أساس مكين. فان هاجمك في ذلك مهاجم، لم تحفل به، أو أجبته حتى ترى إن كانت النتائج الناجمة متفقاً بعضها مع بعض أوّلا، فإن طلب اليك بعد ذلك أن تتناول هذا المبدأ بالشرح، مضيت تزعم مبدأ أسمى، فأسمى من المبادىء السامية، حتى تجد لنفسك مكمناً، ولكنك لم تكن لتخلط في تدليلك بين المبدأ والنتائج، كما فعل الأرستيون The Eristics على الأقل إذا أردت أن تستكشف الوجود الحقيقي. لا لأن هذا الخلط كان سيتبين لهؤلاء الذين لا يعنيهم الأمر اطلاقاً ولا يفكرون فيه، فلديهم من الذكاء ما يكفي أن يجعلهم يغتبطون بأنفسهم غبطة عظيمة، مهما يكن ما تحويه أفكارهم من عناء كبير، ولكني أعتقد أنك فاعل كما أقول إن كنت فيلسوفاً

فقال سمياس وسيبيس في صوت واحد: إن ما تقوله لحق بالغ

اشكراتس - نعم يافيدون، وليس يدهشني منهما هذا التسليم، فكل انسان له من الفكر أدنى حدوده ليقر بما في تدليل سقراط من وضوح عجيب

فيدون - يقيناً يا اشكراتس، وقد كان ذلك عندئذ إحساس الرفاق جميعاً

اشكراتس - بلى، وهو إحساسنا أيضاً، نحن الذين نصغي الآن لروايتك ولم نكن من الرفاق، ولكن ما الذي أعقب هذا؟

فيدون - بعد أن سلموا بهذا كله، ووافقوا على وجود المثل، وعلى مساهمة سائر الأشياء فيها، تلك الأشياء التي اشتقت أسماؤها من تلك المثل، قال سقراط ما يأتي، إن كنت مصيباً فيما أتذكر:

تلك هي طريقتك في الحديث، ومع ذلك فحين تقول إن سمياس أكبر من سقراط وأصغر من فيدون، ألست بذلك تضيف إلى سمياس الكبر والصِّغر معاً؟

- نعم إني أفعل ذلك

- ولكنك على رغم هذا تسلم بأن سمياس لا يزيد في الحقيقة عن سقراط بسبب أنه سمياس، كما قد يدل عليه ظاهر العبارة، ولكنه يزيد عليه بسبب ماله من حجم. فليس يزيد سمياس على سقراط لأنه سمياس أكثر مما يزيد عليه لأن سقراط هو سقراط، إنما سبب الزيادة أن فيه صغراً حينما يقرن إلى كبر سمياس؟

- حقاً

- وإذا كان فيدون يربى عليه حجما، فليس ذلك لأن فيدون هو فيدون، بل سببه أن في فيدون كبراً بالنسبة إلى سمياس الذي هو أصغر بالمقارنة؟

ـ هذا حق

ـ وإن فسمياس يقال عنه إنه كبير كما يقال عنه إنه صغير لأنه فى موقف وسط بينهما ، فهو يزيد بكبره على صغر أحدهما ، وهو يسمح لـكبر الآخر أن يزيد على صغره . ثم أضاف ضاحكاً : ما أشبهنى فيما أقول بكتاب ، ولـكنى أعتقد أن ما أقوله حق

فوافق سمياس على هذا

ـ والسبب فى هـذا القول منى هو رغبتى فى أن تروا معى أنه ليس الـكبر المطلق وحده هو الذى يستحيل عليه أن يكون كبيراً وصغيراً فى آن معاً ، بل إن ما فينا من كبر ، وكذلك ما فى المحَسات ، لن يقبل كذلك الصغير بتاتاً ، ولن يرضى أن يربى عليه ، وسيحدث بدلا من هذا أحد شيئين — إما أن الأكبر سيزول أو يتراجع أمام ضـده ، وهو الأصغر ، أو أنه سيتلاشى بازدياد الأصغر ، ولـكنه لو قبل أو سلم بالصغر فان يغير ذلك منه ، كما أنى لا أزال كما كنت تماماً الشخص الصغير بذاته مع كونى قد تلقيت الصغير وقبلته حينما قرنت إلى سمياس . فكما أنه يستحيل قطعاً على مثال الـكبير أن يتنازل ليكون أو ليصير صغيراً ، كما يستحيل على أى ضـد آخر ظل كما هو ، أن يكون أو يصير ضد نفسه أبداً ، فهو إما أن يزول أو يمحى أثناء التغير

أجاب سيبيس : هذا عين ما ارتأيه

فلما أن سمع ذلك أحد الرفاق ، ولست أذكر على التحقيق من هو ، قال : بحق السماء ، أليس هذا هو النقيض تماماً لما سبق التسليم به ـ ذلك أن من الأكبر جاء الأصغر ، ومن الأصغر جاء الأكبر ، وإن الأضداد إنما تولدت من أضداد ، فأحسبكم الآن منكرين هذا إنكاراً قاطعاً

فمال سقراط نحو المتكلم برأسه منصتاً ، ثم قال : تعجبنى جرأتك فى تذكيرنا بهذا ، ولـكنك لم تلاحظ أن هنالك اختلافاً بين الحالتين ، فقد كنا نتحدث فيما سلف عن الأضداد فى المحسوسات ، أما الآن فحديثنا عن الضد فى الجوهر الذى يستحيل عليه ـ كما هو مقطوع به ـ أن يكون على خلاف مع نفسه سواء أكان هذا الضـد فينا أو فى الطبيعة . إذن فقـد كنا ياصديقى نتحدث عن الأشياء التى تكون الأضداد فطرية فيها ، والتى سميت تبعاً لها ، أما الآن فنحن إنما نتكلم عن الأضداد التى تكون فطرية فيها (فى الأشياء) والتى تخلع اسمها عليها ، فلن تقبل قط هذه الأضداد الجوهرية ، فيما نعتقد ، التوليد أو الخروج بعضها من بعض . وهنا التفت إلى سيبيس وقال : هل أدخل اعتراض صاحبنا شيئاً من الحيرة فى نفسك ياسيبيس ؟

فأجاب سيبيس : لم أشعر بذلك ، ولـكنى لا أنكر أنى أوشك أن أحس الارتباك

فقال سقراط : إذن فنحن بعـد هذا كله متفقون على أن الضد لن يكون مضاداً لنفسه بأية حال ؟

فأجاب : إننا فى هذا على اتفاق تام

ـ ولـكن اسمح لى أن أطلب إليك مرة ثانية أن تنظر إلى المسألة من وجهة أخرى ، لترى إن كنت متفقاً معى : أهنالك شىء تسميه بالحرارة وشىء آخر تطلق عليه اسم البرودة ؟

ـ يقيناً

ـ ولـكن أهما النار والثلج ذاتهما ؟

ـ كلا ، بغير شك

ـ ليست الحرارة هى النار ، ولا البرودة هى الثلج ؟

ـ لا

ـ ولـكنك لن تتردد فى التسليم بأنه إذ يكون الثلج تحت تأثير الحرارة ، كما سبق القول ، فلن يلبثا ثلجاً وحرارة ، بل كلما ازدادت الحرارة ، تراجع الثلج أو أدركه الفناء ؟

أجاب : جـد صحيح

(يتبع) زكى نجيب محمود

أرض النبوة

مهداة الى الصديق النابغة على الطنطاوى
بمناسبة عودته من الديار المقدسة ؟

للسيد أمجد الطرابلسى

حدّثْ رباعكَ عن أفياء عدنان   ياشِبْلَ غسّانَ هِجْ أشبالَ غسانِ
هاتِ الأحاديث عنها فهْى شيقةٌ   تشفى بها النفسُ من سُقْمٍ وأحزانِ
أرضُ النبوةِ ماذا فى أباطحِها   ماذا أجدَّ بأهلِها الجديدان
ومبعثُ النورِ هل تدوى كأمْسٍ بهِ
آياتُ (أحمدَ) أو أشعارُ (حسّان)
ومَهبطُ الوحىِ ، والذكرى مُواسيةٌ
ماذا تُحدّثُ عن وَحىٍ وفرْقانِ !

* * *

حدّثْ عنِ المُلكِ فى أرضِ النبىِّ وعنْ
عَرْشٍ هناكَ وريفِ الظلِّ فَيْنانِ
تهفو الملائكُ فَرْحى حول سُدّتِهِ   مثلَ الحمائمِ تهفو فوق أفنان
حفّتْ به مُهجُ الإسلام تكلؤهُ   ورفرفَتْ فوقَهُ آمالُ عدنان

* * *

حدث عن القبْرِ ! هل أشجتهُ مابجِّةٌ
أنباء (جِلّقَ) أو أرزاء (تطْوان)
لهفى عليـهِ يُقِضُّ اليومَ مضْجَعَهُ
ما يُرهقُ العُرْبَ من بَغْىٍ وعدوان

* * *

مَهْدَ النبى ! يكادُ الشوقُ يحمِلُنى   إليك مستيقِظاً أو غير يَقظان
ماذا أردِّدُ عن وجدٍ يساوِرُنى   قلبى لهيفٌ وطَرفى جِدُّ هتّان
أرضٌ عليها جرى الإسـلامُ مندفِقاً
ليغسـل الأرضَ من رِجْسٍ وأدران
أهفو اليهـا لعلَّ العيشَ يَهْنأُ لى   ما بين أهلى وأرحامى و إخوانى
مُلَّ المُقامُ بأرضِ الشام فى زمَنٍ   طغى به الجَوْرُ فيها شرَّ طُغْيان
عفا بها كلُّ مَجْـدٍ بعد عزّتِها   واندكَّ للعُرْبِ فيها كلُّ سلطان
لا الزهرُ فى (نَيْرَبَيْهَا) باسِمٌ أرِجٌ
ولا البَلابِلُ تَشْدو فوقَ (كيوان)[1]
يامن رأى (بَرَدَى) والحزنُ يثْقِله   يجرى مع الدهرِ شأنَ المُتعَبِ الوانى
أشوانُ تغشاهُ سُحْبُ الهمِّ داجيةً   فيقطعُ الليل فى بَثٍّ وأشجان
تمشى المُسوحُ على جنبيهِ معجبَةً !   يا لَلبَهاليلِ من فِهْرٍ وعدنانِ
يا شامُ لولا ضحـايا جِدُّ غاليـةٍ   زانتْ بطاحكِ من شِيبٍ وشُبّان
لولا ثرًى طَيِّبٌ كالمِسكِ تُرْبتُهُ   جرتْ عليهِ دماهُمْ مثلَ غُدْران
لَسِرتُ عنكِ الى أرضِ النبى هوًى   أليس كلُّ بلادِ العُرْبِ أوطانى ؟
لـكن أأنسى بلادى وَهْىَ داميةٌ   تئِنُّ من عَسْفِ أعلاجٍ وَذُؤْبان
حسبى فَخاراً وحسبى عِزّةً وَطَنٌ   فى كلِّ شِبْرٍ بهِ أشلاءُ قُربان

* * *

يا فتيةَ العُرْبِ والإسلامِ قاطِبَةً   كونوا على النصرِ طُرًّا خيرَ أعوان
دعوا التخاذُلَ إنّا كلُّنا عربٌ   هل نابنا منه إلا كلُّ خذلان ؟
ماذا تُرجّونَ من دُنياكُمُ فِرَقاً   مصفَّدينَ بها أشْـباهَ عبدان
تِلْـكُمْ جزيرتُـكُم ياعُرْبُ باسِمةٌ   ترنو اليكمْ وتحنو أى تحنان
سيروا اليهـا نُعيدُ البعثَ ثانيةً   ونملأ الأرضَ من عدلٍ وعُمْران
أليس مِنّا الأولى قادوا جَحافِلَهُمْ
وأخضعوا الأرضَ من فُرْسٍ ورومان
مشَوْا لنصرِهمُ والأرضُ تحتهمُ   فرحَى تمـايَلُ تيهاً مثل نشوان
ساسوا الأنامَ بعدلٍ غير ذى وهَنٍ   وأنطقوا الدهرَ من برٍّ و إحسان
شادوا على جبهةِ الدنيا عروشهمُ   ولو أرادوا بنَوْها فوقَ كيوان
تباركَ المُلْكُ فى (الفَيْحاء) منبسطاً   لا المُلك دامَ ولا آسادُ مروانِ
تباركَ العرشُ فى (بغْدان) مزدَهِراً   ياأرضُ أين تولّى عرشُ (بغدان)
ياليت شعرى أطَيْفٌ ذاكَ مرَّ على   وجهِ البسيطةِ أم أحلامُ وَسْنَان ؟!

* * *

أرضَ النُبُوّةِ ، والأيامُ جاهِمةٌ ،   ماذا أردِّدُ من بثّى وأشجانى
دارَ الزمانُ ، وللازمانِ دورتُها ،
والدهرُ - مُذْ كان هذا الدهر - يومان
فلا (الوليدُ) وعرشُ الشام مبتسم   يشيدُ للمجْدِ فيهـا خيرَ بُنيان

(١) النيربان ، وكيوان : هى بعض متنزهات دمشق الشهيرة

الحيــاة

للأستاذ محمود غنيم

حرةٌ لا تزور إلا لِماما　　تيَّمَ الشيخَ حبُّها والغلاما
تيم النمـــلَ حبُّها فتولّى　　يطلب المـاء مثلنَا والحطاما
كشرت عن أنيابهـا لِلبرايا　　فرأَوْا ذلك القطوبَ ابتساما
كم سقتهم من الجفاء زعافاً　　وسقَوْها من الوفاء مداما
قد يراها السـعيد حلماً لذيذاً　　ويراها الشقىّ موتاً زؤاما

* * *

أنا لولا الحياة ما بتّ أخشى　　شبح الموت أو أهاب السقاما
قال بالجنّ معشرٌ وأراها　　وحدها جنّاً يلبس الأجساما
أوليست تحزُّ لحم البرايا　　مثلَ حزِّ المُدى وتبرى العظاما
قسما لو أنَّ الأجنــة تدرى　　كنهها لم تفارق الأرحاما
أيهذا الجادُ حسـبُك ألا　　تصحبَ الشيبَ أوتذوقَ الِحماما

* * *

صاح أن الحياة لغز اذا ما　　زدتُه بحثاً زادنى إبهاما
ليت شعرى ماذا تكون، أحساً　　أم خيالاً ويقظة أم مناما ؟
أم طريقاً الى الفناء قصيرا　　قد ركبنا لطيّـــه الأياما ؟
كل حى له كتابٌ ، ولكن　　أعجم اللهُ خطَّه إعجاما
لو عرفنا متى تـكون المنايا　　لانتظرناها مذ بلغنا الفطاما

* * *

أيها العلم كم هتكت حجابا　　فأمط عن سر الحيــاة اللثاما
تلك آثارها إذا عرضت لى　　ألهمتنى وجودها إلهاما
فاذا رمتُ وصـفها بلسانى　　ألجمتنى فلا أحير كلاما
هى كالـكهرباء لستُ أراها　　وأرى ضوءها يشق الظلاما
هى من روح الله وهو خفىٌّ　　ذو صفاتٍ دلت عليه الأناما

* * *

يا ابنة الشمس وجهُ أمك بادٍ　　فعلام احتجبتِ أنت علاما ؟
عرف الناس فضل أمك قِدْما　　فتلقَّوْها سجَّداً وقياما
حدثينا كيف ابتدأتِ على الأر　　ض وحرّكتِ هذه الأجراما ؟
وأرينا متى ظهرت عليها　　وإلام البقاء فيهـا إلاما ؟
أخذ الناس فى التكاثف حتى　　باتت الأرض وهى تشكو الزحاما

* * *

ليت شـعرى أضل « دَرْون » بحثاً
حين آخى[1] الوحوش والأنعاما
قال قوم هلا شهدنا ذبابا　　فى الحياة ارتقى فصار حَمـاما
وغلا آخرون فيــه فقالوا　　كان فى مذهب النشوء إماما
قد[2] عرفنا أبا الأنام جميعا　　فهل الطير والوحوش يتامَى ؟
وهل الجن تنتمى كالبرايا　　لأبٍ يُدعى يافثاً أو حاما

* * *

سائل البحر كيف أنبت لحما　　من أواذيِّه وسوّى عظاما
وتأملْ بين الحقول نباتا　　سوت الأرض سوقه فاستقاما
علَّ من بارد النمير شرابا　　وتغذى من الهواء طعاما
ولقد يولد النباتُ ويفنى　　ويعانى مثل الأنام سـقاما
حكمة تملأ النفوس يقينا　　بإله يدير هـذا النظاما

* * *

سائل الشمس عن بنيها لماذا　　كانت الأرض وحدها مِتآما[3]
ليت شعرى أللكواكب نسل　　يشـبه الناس أم تُراها عِقاما
ليتنى أركب الرياح الى الأف　　لاك أو أمتطى اليها الغماما
أيُّهذا الأثيرُ إن كان فى المرّ (م) يخ حىٌّ فاحمل اليه السلاما
حىٍّ أهليه إن مررت عليهم　　إن للجار حرمة وذماما

محمود غنيم

(١) هو يقول : إنهما وإياه من أصل واحد ، فكأنه آخاها
(٢) هذا البيت وما بعده ليسا من مذهب الشاعر ، وانما هما من مقول القول فى البيت السابق
(٣) المتآم : المرأة التى تلد أزواجاً

ولا (الرشيدُ) على بغدانَ فى يدهِ　　دهرٌ يُصرِّفهُ كالموثَقِ العانى
يادهرُ ويحكَ ! رُدَّ العرشَ ثانيةً　　فكم عروشٍ مَلَكناها وتيجان
لنا نفوسٌ أبيّاتٌ تُهيِّجُها　　ذكرى جدودٍ كنُورِ الشمس غُران
يشُوقُها المجدُ وضّاءٌ بقُرطُبــةٍ　　والعزّ منبسطاً فى ظِلّ (بغْدان)
أراجعٌ أنت ذَيّاكَ الزمانِ لنا　　أم لا رُجوعَ لأيام وأزمان
. . . .
سنرجع المجدَ أو نقضى بساحتهِ　　ذُلّ الحياةِ وطعمُ الموتِ سِيّان

دمشق　　المجد الطرابلسى

القصص

من أساطير الإغريق

ڤينـــوس (١)
ربة الجمال والحب

مولدها . نشأتها . إحدى مغامراتها الغرامية

للأستاذ دريني خشبة

تعالوا يا أعزائى المحبين نسمعْ أُغنيةَ الجمال والحب ، من ربة الجمال والحب ، بارزةً من الثَّبج ، فوق اللوجة الكبيرة وسط اليم

لقد كانت السماء زرقاء صافية ، ولكنها لطفت ورقّت ، وتضاعف صفاؤها ، عندما ذاع فى ملكوتها النبأ العظيم ، وبشرت بمولد ڤينوس !

ابتسمى أيتها الشفاه الحزينة ، وانبسطى أيتها الأسارير المقطبة ، وانثلجى يا صدور المكلومين !

وأنت أيها القلب الملتاع قِفْ خفقانك ، وأنت أيها الطرف الساهم كفكف عبرتك ، ويا نفوس العاشقين اطربى ، فقد ولدت ڤينوس !

برزت عرائس البحار يُصلين فى بُكرة الصباح لأبوللو ، فما راعهن إلا الطفلة المعبودة تخرج من الزبد الأبيض كما تخرج من الصدفة لؤلؤة غالية ؛ وتتهادى على رؤوس الموج كطيف نورانى فيسجد الماء تحت قدميها الصغيرتين ، متمتماً بصلاة الحب لربة الحب ، مرتلاً أنشودة الجمال لربة الجمال !

وافترَّ فم الدنيا عن ابتسامة سعيدة حلوة ، يُحيى الفم السعيد الحلو ، الذى سيملأ قلوب العالمين رضى وسعادة !

(١) اسمها اليونانى أفروديت ، وسميت فى أساطير كثيرة ديون ، سيثريا . وهى إلهة الجمال والحب ، ربة الضحك والزواج

وأشرقت ذكاء تحمل أبوللو فلمح السَّوْسَنَةَ الوردية (١) تخطر على لازورد الماء ، فترك عربته المطهمة بالذهب تعرج وحدها فى القبة الزرقاء ، وانثنى هو يزف البشرى إلى آلهة الأولمب !

وهرعت عرائس الماء إلى ڤينوس الطفلة فرقصن وزغردن وتغنين وحملنها إلى قصورهن المرجانية فى الأعماق ، حيث أرضعنها لبان الهوى ، ولقَّنَّها كلمات المحبة ، ونَشَّأنها على أساليب الصبابة والغرام ، حتى أينعت وترعرت ، فأزمعن المسير بها إلى الأولمب حيث يتلقاها الآلهة ، فتأخذ مكانها بينهم . . .



مولد ڤينوس (احدى روائع بوتشللى من نوابغ عصر الاحياء)
إلهة الحب واقفة على صدفة بحرية يزجيها فى الماء زفيروس
حتى وقف بها على شواطىء قبرس

وكم كان جميلاً رائعاً أن يصطف التريتون والأوسيانيد والنيريد (٢) من حولها ؛ وكم كان جميلاً رائعاً رقص التريتون على صفحة الماء الجياش بالزبد ، وتغريد الأوسيانيد كأنهن بلابل الروض الأخضر ترسل فى هدير المحيط شدوها فيحور غناء كله !

(١) الاستعارة من هسيود الشاعر اليونانى وقد اقتبسها شلى وكيتس وتنيسون وسپنسر ودروين وكولردج حتى لكأنها أصبحت رمزاً لڤينوس

(٢) التريتون هم أبناء نپتيون إله البحار ونصفهم الأعلى نصف رجل والأسفل نصف سمكة ــ والأوسيانيد هم عرائس المحيطات وأجل عرائس الماء وهن بنات أوسيانوس رب المحيطات ومنه اشتقت الكلمة Oceans — والنيريد طائفة أخرى من عرائس البحار وهن بنات الاله نيروس

وكم كان جميلاً رائعاً من النيريد أن يتضاحكن مترنمات فى الحلقة الأولى حول ڤينوس فتستجيب السماء لهن ، ويميد البحر من طرب بهن !

كم كان جميلاً رائعاً أن يخب موكب الحب فوق الماء حتى يكون على فراسخ من قبرص [1] معدودات ، فينثني الجميع إلا ڤينوس التي يهدهدها زفيروس الطيب ، رب النسيم الجنوبي ، حتى يصل بها إلى الشاطئ ، حيث يكون فى انتظارها بنات ثيميز [2] ربة العدالة ، وبنات يورينوم ربات الفضيلة والخلق الحسن ، فيتقدمن إلى ربة الحب ، فيصلين لها ، ويجففن شعرها الذهبي المتهدل فوق كتفيها العاجيتين ؛ ثم تدلف بينهن ، لفاء هيفاء غراء غيداء مهتزة الجيد وضاحة الجبين ، كلما خطت خطوة قبلت الأرض قدميها المعروقتين ، وكلما مرت ببلقع اهتز وربا ، واعشوشب وأزهر ، حتى يلقاها آلهة الحب الأربعة ، رب الشهوة هيميروس ، ورب الغزل سواديلا ، ورب الألفة بونوس ، وهيلين رب الزواج ؛ فينخرطون فى الجماعة ، ويهطعون إلى الأولمب !

وتكون الأنباء قد تواترت عن قدوم الربة الجديدة ، فيصنع لها عرش عتيد ما تكاد آخر ياقوتة تركب فيه حتى تصل ڤينوس فجأة فتستوى عليه ، وتتصارع أبصار الآلهة العطشى حول جسمها الخصب ، المترع بالمفاتن ، وتتلمظ الشفاه الجائعة تود لو تفترس هذا الفم الأحوى الجميل ، وتسرى كهرباء الاشتهاء فى الأذرع القوية ، والصدور الهرقلية ، تحلم بضم الجيد الناهد ، ومخاصرة الوسط المياس ،و . . . تثور الرغائب ، وتفور الشهوات . . . وڤينوس ممتلئة كبرياء . . . كأنها العنقاء . . . ترسل اللمحة من طرفها الساجى فتصرع هؤلاء وهؤلاء ! !

وتقدم الآلهة كل بدوره يطلب يد ڤينوس ، وكان كل إله يفاخر أخاه بما لديه من نعم وآلاء . وكان مضحكاً أن يسفه الآلهة بعضهم بعضاً بين يدى ربة الجمال والحب حتى ازدرتهم جميعاً ، وخبرت من حماقاتهم مالا يتفق وهذا الورد المتفتح فى خديها ، والسحر النائم فى مقلتيها ، والفتنة الثاوية فى كل جارحة من جارحاتها ؛ فرفضتهم أجمعين ، وإن تكن برفضها قد أغضبت أباها كبير الآلهة وسيد أرباب الأولمب

ولم يغض الآلهة عن تحقير ڤينوس لهم ، بل انقلب إعجابهم ثورة ، وارتد افتتانهم نقمة ، وود كل منهم لو خلى بينه وبينها فيبطش بها بطشاً شديداً

وأجمعوا أمرهم ضحى ، وذهبوا إلى زيوس يطالبونه بالانتصار لكرامتهم كأرباب مرهوبى الجانب مخوفى السلطان ، من ابنته ربة الحب الطائشة ! !

وخاف زيوس ثورة الآلهة ، وأفزعه تجمهرهم فى ردهة الأولمب يتصايحون ويصخبون ، فخرج اليهم هاشاً باشاً ، ودق بصولجانه على الأرض المرمرية وقال : إخوانى . . أبنائى :

« لستم أنتم وحدكم تنقمون على ڤينوس الجميلة ما بدر منها فى حضرتكم من زهو وخيلاء ، بل أنا معكم ناقم على هذه الابنة العاقة التى صعرت فى حضرتى خدها ، وشمخت بأنفها ، وحسبت أنها خير من الآلهة درجة وأعلى مقاماً . . .

لتطب نفوسكم يا إخوانى ويا أبنائى : لقد أصدرت الساعة إرادة أولمبية تقضى بأن تتزوج ڤينوس المتكبرة المتغرطسة المختالة ، من ڤلكان الحداد صانع دروعكم ولجم خيولكم ! »

وما سمعها الآلهة حتى صاحوا لساناً واحداً : « ليحى زيوس العادل ! تقدست يا زيوس ! طوبى لك يا أولمب ! »



آلهة الاغريق على جبل الأولمب
(تصوير روبنس)

وكان ڤلكان بين الجماعة وهى تهتف ، ولكنه كان مشغولاً عنهم بتلك السعادة التى هبطت عليه من السماء ، وكان يحمل إرزبتيه الهائلة ، فلما سمع النطق الأولمبى ، ضرب بها الأرض ضربة راجفة ، أحس بها بلوتو فى أعماق الجحيم . .

* * *

---

(١) هى قبرص وللاستاذ أسامة شكرنا

(٢) بنات ثيميز هن ربات الفصول الأربعة — وبنات يورنيوم هن تاليا وأجاليا ويوفروسين

— « يحسب الآلهة أننا معشر الربّات ملك أيمانهم دائماً ، يتصرفون بنا كما يحلو لهم ! ! ما عليهم إلا أن يأمروا ، وما علينا إلا أن نطيع ! لقد كنت أوثر أن ألبث في القصور المرجانية في أعماق الأعماق ، على أن تشرق عليّ شماعة من الشمس الدافئة التي يرتع فيها أولئك الآلهة العُتاة الظالمون ! »

ـ « هوّني عليك يا مولاتي فقد يصفح غداً سيد الأولمپ !

ـ « يصفح أولاً يصفح . . .

ـ « يا للهول ! . . .

ـ « أي هول يافتاة . . .

ـ « ينبغي ألا تعرضي نفسك لغضب رب الأرباب . . .

ـ « رب الأرباب ! أنت تضحكينني يا أجمل العرائس الأوسيانيد !

ـ « مولاتي . . . !

ـ « إن رب الأرباب يحكم دنيا من الخزعبلات . . . أما القلوب . . . أما قلوب العذارى . . . فالحب وحده يتولاّهن ، ويهيمن عليهن . . .

ـ « إلهتي ڤينوس . . .

ـ « لا تنزعجي هكذا ياعروس الماء . . . لقد ولدت لأكون ربة الجمال والحب . . . فأولى لي ثم أولى ، أن أسعد بالحب ، وأن أختار من ذوى الحسْن متْمَنّى الغالية ونعيمي الأوفى . . . فلكان ! ! أنا أقسم أن هذا الحدّاد لا يفرق بين القبلة والجذوة ، ولا بين نشوة الحب وزفير الكير ! ! وأخشى أن يغازلني يوماً فيحذفني بارزبته ، يحسبها ريحانة أو زنبقة ! ! يا للحداد القذر ! ! »

ـ « ولكن زواجكما تسجَّل في السماء يا ربتي !

ـ « إن كان سجل السماء مدنَّساً بكل هذه الفظائع الاستبدادية ، فأنا . . ڤينوس ربة الجمال والحب والزواج . . . آنف أن يُدرجَ في صفحاته اسمي !

والآن اسمعي يا أوسيانة [1] ، اذهبي إلى حبيبي مارس [2] فبلغيه أنني منتظرته الليلة ، بعد مغيب الشفق ، تحت السنديانة الكبرى في أول منعرجات الغابة . . . »

***

وهكذا أقبلت ربة الحب على كؤوس الحب تنهل منها ما تشاء ، وتستعرض الآلهة وأنصاف الآلهة [3] تُقبل منهم على من تشاء وتعرض عمن تشاء . . .وما أكثر القطيع وما أنهم الذئب !

لقد علقت مارس القويّ ، إله الحرب ، ورب الدمار ، ولم تبال بزوجها الفظ القذر المنتن ، الذي لا يميز جرس الموسيقى من طَرْق الحديد ، ولا نسيم الجنة من زفرات الجحيم !

وعلقها مارس وافتتن بها ، حتى لكان يعد دقّات قلبه دقةً فدقةً ، حتى يلقاها ، فتهدأ أعصابه ، ويطمئن قلبه ، ويثوب إليه رشده



ڤينوس تتخذ زينتها
(تصوير بوشيه)

ولقد كان اللامين إذا خلا إلى ڤينوس ، يذهب في الاستمتاع



ڤينوس عند ڤولكان
(تصوير بوشيه)

---

(١) واحدة الأوسيانيد

(٢) اسمه اليوناني ايرس

(٣) في الميثولوجيه اليونانية الآلهة هم أبناء الآلهة الخلص وأنصاف الآلهة هم من كان أبوهم أو أمهم من البشر في حين تكون الأم الأخرى أو الأب الآخر من الآلهة . .

بها إلى أقصى حدود الطاقة ؛ وكان يبهره منها ألا يلقاها إلا متجردة ، فيجس هذه الذراع ، ويتحسس ذلك الثدي ، ويرشف ذياك الفم ، ويرتع في هذه الجنة ذات الثمر التي نسميها الجيد ، ويخضع لرقى السحر النافذة من جفنيها المدججين بالسهام ؛ ثم يضل في تلك الظلال الشفقية التي يعكسها عليه شعرها . فإذا أفيق زودته بابتسامة تظل ترقص على الخدين والشفتين ، وشكّت فؤاده بغمزة من طرفها تتركه بين الحياة والموت . . . . وهكذا حتى يرضى ! !

وكان لايخشى من أعين الرقباء مثل مايخشى من عين أبوللو ، ولذا كان إذا وافى ڤينوس في هذا المنعزل الغرابي السحيق ، في أعمق أحشاء الغابة ، ترك خادمه أليكتريون عند أول الشعب المؤدي إلى الطريق العام ، يلحظ المارين وينبه إلى خطر الأعداء والناقمين ، حتى يكون الأليفان بنجوة من الفضيحة ، وفي حرز من ألسن الكاشحين . فإذا تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ذهب أليكتريون فأيقظ العاشقين الآثمين ، فينهضان من غفوة الهوى إلى يقين الفراق ، قبل أن تشرق الشمس

ولكن ! وما أقسى ولكن هذه إذا لم تكن سعوداً على المحبين ! ! لقد ذهب العاشقان يتراشفان كؤوس الهوى دهاقاً ، ويلتذان بكل مأثم ومحرم ، حتى إذا نال منهما الجهد ، وترنحت أعينهما تحت عبء السهاد الطويل ، انبطحا على الحشيش الأخضر ، هو إلى جانبها ، وهي إلى جانبه ، غرقين في سبات هنيء ! ولمح أليكتريون ظبياً نافراً ، يتفزع في ظلام الغابة ؛ فتبعه ، وطفق يعدو وراءه حتى لحق به بعد عناء شديد ، فاحتمله وعاد به إلى مركزه من مكان الحراسة . . . ولكنه ما كاد يصل ثمة ، حتى تساقط متهدماً من التعب ، وغلبه نعاس عميق . . .

وأشرقت الشمس ! ! وبرزت المركبة الذهبية حاملة أبوللو ، رب هذا الكوكب المشرق المتأجج ، وبدأت رحلتها السماوية ، وأخذت ترتفع في العلاء رويداً ، حتى إذا كانت بمنزلة الضحى ، أطل أبوللو فرأى مارس الأثيم ، وڤينوس الغاوية ، متعانقين على الحشيش الأخضر ، وكانت بين أمه لاتونا ، وأمها ديون ما يكون عادة بين (الضرائر) من بغضاء ومشاحنات ؛ وكانت ديون تفخر على زوجات زيوس جميعاً بأنها أم ڤينوس وحسب !

وكانت لاتعدل بابنتها واحدة من جميلات الأولمب ، بما فيهن ديانا أخت أبوللو ، وابنة لاتونا

انطلق أبوللو والشماتة تضطرب في قلبه الناقم على ڤينوس ، يحمل الخبر الفاجع إلى ڤلكان ، فألفاه مستغرقاً في صنع شبكة حديدية هائلة ، والنار تتلظى في أتونها الكبير ، والدخان ينعقد في جو المصنع كأنه ينقذف من بركان ، والملاقط والمبارد والمخارط متناثرة على الأديم المعفر القذر كأنها أعجاز نخل . . .

ـ « ڤلكان ! . . . »

ـ « هلا . . أبوللو . . ماذا جاء بك في هذه الضحوة ... وأنّى غادرت عربتك ؟ »

ـ « آثرت أن أطأ ثرى هذه الأرض بقدميّ على أن تحملني يوح[1] ، وقد تدنس شرف الأولمب بالفضيحة المزرية ! ... »

ـ « الفضيحة المزرية ؟ ماذا وراءك يا أبوللو ؟ . . . »

ـ « ڤلكان ! أين زوجك ؟ . . . هل أويت إليها الليلة ؟ »

ـ « زوجي ؟ فضيحة مزرية ؟ . . . ماذا تعني أيها الأخ ؟ »

ـ « أولم تفقه بعد ؟ . . . ولكن قل لي : ماذا تصنع بكل هذه الأسلاك الغليظة ؟ »

ـ « أصنع شبكة كبيرة . . . »

ـ « ولِمَهْ ؟ »

ـ « لقد لاحظت النجس مارس يحوم حول حماي . . . . وأنا لابد صائده »

ـ « هلم ، هلم . . . »

ـ « وإلى أين ؟ . . . »

ـ « تصيده . . . ألم تنته من صنعها بعد ؟ »

بل انتهيت . . . وأين مارس ؟ . . . »

ـ « على الحشيش الأخضر ، في أول شعاب الغابة ، مما يلي الطريق العام »

ـ « ومع من ؟ . . . »

ـ « مع . . . . . . إنه قطعة واحدة مع . . . ڤينو »

ـ « معها ؟... ياللهول ؟ ... هلم ... يا للمرض الأحمر؟...»

واحتمل شبكته العظيمة ، وانطلق الاثنان إلى حيث . . . الناعمان الحالمان الآثمان !

(1) الشمس

لقد كانا ملتصقين التصاقاً تاماً ... حتى مايكاد ينفذ الماء بينهما

ونسى كل إلف شفتيه فى شفتى إلفه ، فهما جلّنارتان تبثان نجوى الهوى إلى جلنارتين !

يا لله !

ليس هذا فسقاً أيها الآلهة ، بل هو التمازج الذى سميتموه الزواج (١) !

وانقض فلكان كالمُذَنّب المدمّر ، فألقى شبكته على الخائنين !

وانتفض مارس وهو يكاد يصعق من الذعر ، وانتفضت فينوس وهى تكاد تذوب من الخجل ! ولكن ! أى ذعر وأى خجل وهذه الشبكة قد أمسكت بهما كسمكتين ! !

لقد مضى فلكان ، بعد إذ ربط الشبكة بما كسبت فى أصل دوحة كبيرة ، وعاد بكل الأسرة الأولمبية (لضبط الحادثة !)

وكانت ساعة رهيبة ، انصبّت فيها لمزاتُ الآلهة الناقمين على رأس فينوس ، وراح كل منهم ينتقم لكرامته المهدورة من كبريائها وصلفها ، وهى ما تكاد تبين ! !

وأطلق فلكان سراحهما ؛ أما فينوس فذهبت تنشد عشاقاً آخرين !

وأما مارس ، فمضى إلى حيث خادمه الأحمق إليكتريون ، فألفاه ما يزال يغط فى نومه غطيطاً مزعجاً ، فركله ركلة أطارت صوابه ، وأخذ بتلابيبه يخضخضه تخضيضاً !

ثم إنه أقسم لينتقمن منه انتقاماً يكون أحدوثة الآباد وضحكة العباد ، فنفث فى أذنيه نفثتين ، ارتد بهما الخادم المسكين ديكاً عجيب الصورة ، أرجوانىّ التاج ، طويل الجناحين ، عظيم الذيل !

وركله مارس ركلة ثانية ، وقال له : «اذهب إذن فلن تذوق عيناك غفوة الفجر أبد الآبدين ، ودهر الداهرين ، وستصحو قبل كل الخليقة لتصيح فى النائمين :

ويحكم أيها الغفاة ، هُبّوا فقد كاد أبوللو يقطر مركبة الشمس ! . . .

***

وما يزال إليكتريون ، ديكنا المحبوب ، يوقظنا قبل الشروق إلى اليوم ! . . .

دريني خشبة

(١) هذه السطور من كيتس وهى من أبرع شعره فى فينوس

من الأدب الايطالي

الليالي العشر

IL DECAMERON

ترجمة اليوزباشي الأديب احمد الطاهر

يعد جيوفاني بوكاشيو GIOVANNI BOCCACCIO زعيم النثر الايطالي غير منازع في زعامته ، وكانت رسائله نبراساً يستضيء به الكتاب من بعده ، ونذكر منهم بترارك ، شوسر ، دريدن ، كيتس ، تنيسون . أولئك وغيرهم كانوا فيما يخرجون للناس من كتب يغترفون من بحر بوكاشيو ويستلهمون وحيه ويتقفون أثره

ولد في قرية سرتالدو التي تبعد عشرين ميلا عن فلورنسا ونشأ بها . ولما جاوز الحول السادس والعشرين رحل إلى نابولى وكانت مهد غرامه ومهبط وحي الحب على قلبه ، فشغف بحب « ماريا دا كوينو » فبدأت من حياته صفحة جديدة فياضة بالخير سيالة بالنفع . فلقد كان حبها حباً كريما : بسط على نفس الفتى فضله فلقى فيه ما يلقى المحبون من سعادة ونعيم ، وفاض على نفوس الناس أجمعين بما أوحى إلى الفتى ، فتلقوا منه نثراً هو أبدع ما أخرج للناس من أقلام الكاتبين ، فيه دقة ، وفيه روعة ، وفيه جمال ، على نحو ما خلقت الفتاة من دقة وروعة وجمال . حتى لقد زعم الناس أن هذا البيان إن هو إلا وحي يوحى من الفتاة إلى هذا المحب المختار ، ثم أصبح زعمهم يقيناً فأغمضوا الدين على تلك الصلة الوشيجة بين المحبين ، وانصرفوا إلى فضل الفتاة على رسائله ، فما يذكرونها إلا برسائله وما يذكرون رسائله إلا بها ، وغالوا فيما انصرفوا إليه فسموا الفتاة « صاحبة رسائل بوكاشيو » . ! !

وعاد الفتى إلى فلورنسا عام ١٣٥٠ م وكان قد انتهى من كتابة الليالي العشر أو كاد ، وأخرجها إلى الناس عام ١٣٥٣ م . ولقد دفعه إلى كتابتها عاملان ألحا عليه : رغبته في إخراج شيء بديع قيم يزجيه إلى محبوبته ، ولا أبدع لدى الكاتب من ثمرات قلمه ، والزلفى إلى ملكة نابولى ، وكانت تشتهي أن تقرأ للفتى خير ما ينتجه يراعه

وكانت عودته إلى فلورنسا في الوقت الذي أفلتت فيه المدينة من براثن الطاعون ، ونضت عنها قميص قيصر بعد أن لم يترك فيها موضعاً بغير قرح ، ولا عضواً بغير جرح . وكان هذا الوباء على ما روى لنا الكتاب حديث الناس في تلك السنين العجاف ، فما كان عجباً أن يصدر بوكاشيو كتابه بوصف هذه المحنة التي نزلت بالبلاد . ولقد وصفها في بيان فصيح ، وأسلوب صريح ، ثم تخلص من وصف الوباء إلى سرد قصصه المائة في الليالي العشر التي قدر لها أن تكون من أكبر كتب العالم مدى الدهر

الفتيات السبع

هذه إحدى قصص الليالي العشر ، أو هي مقدمة قصص الليالي نوردها في اختصار وتلخيص ، لا نحاول أن نتسامى إلى منزلة الكاتب في براعة الأسلوب ، ولا ندعي القدرة على مجاراته في ميدان البلاغة ، ولكن حسبنا الأمانة في النقل والدقة في التعبير عما أراده الكاتب مما كتب ، أمانة ودقة لا ينقص منهما ما يقتضيه الأسلوب العربي من أحكام وأوضاع :

فلورنسا أجمل مدائن إيطاليا ، وأبهاها ، وأغناها ، تصبح ما بين عشية وضحاها أفقر البلاد وأشدها بؤساً وفاقة بما أصابها من كارثة الوباء التي نزلت بها عام ١٣٤٨ م . لقد كان هذا الوباء مرضاً ملحاً جباراً لم تفلح فيه عقاقير الأطباء ولا اعتصام الناس بالعزلة والفرار . وماذا تغني العزلة وماذا يفيد الفرار ؟ والوباء ينساب بين الناس انسياباً تحمله أنفاسهم حين يتحدث بعضهم إلى بعض ، ويسري بينهم إذا لمس السليم ثياب الموبوء . حتى إذا بدت على الجسم علامات حمر كانت نذيراً بالموت لا مفر منه ، ودليلا على انقضاء الأجل ، وتصرم أسباب الأمل ، إن هي إلا أيام ثلاثة ثم ينتهي كل شيء إلى ما تنتهي إليه كل الأشياء . وغشى الناس من هول الكارثة فزع وجزع . وإذا فزع الناس فما أيسر خروجهم على القوانين الوضعية ، وإذا خلت قلوبهم من طمأنينة الثقة فما أيسر خروجهم على الشرائع السماوية ، فإن تحرروا من هذه وتلك فليفعل كل امرىء ما شاء . وإنهم لواجدون في هذه الفوضى متسعاً لاشباع الشهوات ، وإرضاء

النزوات ، ومتى لم يكن من الموت بد ففى رأيهم أن من الخرق أن تموت عابساً كئيباً ، وهذه قصور الأغنياء وخدور الغانيات فلنقتحمها ورداً ، ولننعم فيها قبل الموت بما حرمنا منه فى الحياة ، ولنمت وعلى وجوهنا ابتسامة اللذة ومخايل السرور ! ! كذلك كانوا يقولون . على أن بعض الناس أقام بينه وبين الناس سداً وحسب أن الحمية تعصمه من فتك المرض وظن بعضهم أن فى الاعتصام بالجبال والتأبد فى الخلاء ، منجاة من الوباء ، ففروا تاركين وراءهم حطام الدنيا ومتاع الحياة ، وما يغنى متاع الحياة وحطام الدنيا إذا فر الأخ من أخيه ، وفصلت الزوجة عن زوجها ، وأفزع الآباء والأمهات عن فلذات الأكباد ؟ هذه جثث الموتى متناثرة فى الطرق رأيتها بعينى ورأيت الكلاب تدس أنوفها فى الأجساد فيسرى إليها الداء ، فتخر صريعة على الأرض وتقتعد مكانها بين ضحايا الوباء .

فى خمسة أشهر من العام بين مارس ويوليو فتك الطاعون بمائة ألف من الأنفس ، وما كنا نحسب أن فى فلورنسا هذا العدد من الناس

ولكن ! مالى أردد ذكرى هذه الفاجعة ، ولقد برمت بها وبذكراها ! أليس الخير كل الخير فى أن يجتنب المرء ذكر ما تسوءه ذكراه ، وينسى ما يجد السبيل إلى أن ينساه ؟

فلأذكر إذاً أنه عندما أصبحت فلورنسا قفراً من الأهل والسكان جمعت البأساء بين فتيات سبع لهن من الجمال حظ وافر ، وعليهن من الثياب سواد ، واجتمعن يوم الثلاثاء فى كنيسة سنت مارى ، ولم تحو الكنيسة غيرهن من شهود الصلاة . وكانت تربطهن فوق رابطة البأساء صلة القرابة الوشيجة ، وصلة أوثق من هذه وتلك هى صلة الصداقة والوفاء . شهدن الصلاة ثم انتبذن ناحية من الكنيسة خلصن فيها نجياً يتدبرن فيما يجمل بهن أن يتخذن من سبيل فى الحياة وقد تخلين عن متاع الدنيا وتخلى عنهن الأهل والخلان . قالت كبراهن – بامبينيا : « الرأى عندى أن نرحل عن فلورنسا فننجو بأنفسنا من خطرها المحدق وشرها المحيق ، وأى خطر أشد من الطاعون ، وأى شر أسوأ من أولئك المارقين يجوسون الطرق ويقتحمون الدور ؟ هيا إلى الريف نجد فيه مراغماً ، وهواء طلقاً ، وحياة وادعة ، فى كنف التلال الخضراء ، والمزارع تموج فيها الحنطة كموج البحر ، ولا يرى البصر إلا نعيما ، مالنا ولهذه المدينة الخاوية على عروشها تبعث فى النفس أمض الذكريات وأقساها ؟ »

— قالت فيلومينا « وكيف السبيل إلى هذه الرحلة وليس لنا ساعد من الرجال ؟ »

— قالت أليزا « وأين الرجال يا أختاه ، وكل أترابنا منهم قد تبدد شملهم ، وانصدع جمعهم ، فمنهم من فتك به الطاعون ، ومنهم من ضرب فى الأرض لا يعرف له مستقر فهم لا يرجعون »

وفيما هن يقلبن الرأى على وجوهه إذ وفد عليهن ثلاثة فرسان : فتيان فى ميعة الصبى وروعة الجمال ، خرجوا يلتمسون بين الناس فتيات لهم بهن صـلة ، وما كانوا يبحثون إلا عن « نيفيل » و « بامبينيا » و « فيلومينا » من فتياتنا السبع

صاحت بامبينيا « لقد ابتسمت لنا الأقدار فساقت إلينا ثلاثة رجال أكفاء أشداء وأنا زعيمة لكن بأنهم سيلبون دعوتنا إذا دعوناهم » ثم أقبلت على الفرسان تقص عليهم ما كن فيه يتحدثن ، وطلبت إليهم فى توسل ورجاء أن يكونوا عوناً لهن ونصراء ، وأن يصحبوهن إلى حيث أردن

ضحك الفرسان منهن وتندروا على هذا الرأى ما شاء لهم الشباب أن يتندروا ، ثم أنسوا من الفتيات جداً فى الرأى وصلابة فى العزم ، فأذعنوا راضين ، وتقدموا غير هازلين ، وافترق الجمع على أن يكون الرحيل عن فلورنسا فى صبيحة اليوم التالى

وذر من الشمس شعاع ، فهب الفتيات والفرسان ومعهم الوصفاء وساروا على هدى العزيمة فرسخاً ألقوا بعده عصا الترحال ، وكان ذلك عند شرف من الأرض يشبه التل ، تجلل هامته غابة باسقة الرماح ، ممتدة الصفاح ، يقوم فى جوفها صرح شاهق يعجبك رواؤه ، ويبهرك بناؤه ، قد انبسط تلقاءه مسرح فسيح ، وتشعبت فى أنحائه أبهاء واسعة ، وفى مقاصيره من دلائل العز والميسرة ، تحف منثورة ، وصور منشورة ، وحاطت بالقصر حدائق ذات أشجار وأثمار تقوم على ربها نافورات تقذف بسهام الماء ، فكأنما يصب على الأرض من السماء . وكان كل ما فى القصر متسقاً منضوداً ، كأنما أعد لاستقبال الوافدين ، واسترواح المتعبين ؛ وظل الفتيات والفتيان يمشون فى مروحه وأرجائه ،

وأفنيته وأبهائه ، ويقطفون من زهوره وأثماره ، ويتغنون فى هذه الجنان ، بأعذب الألحان ، حتى حان موعد الغداء فمد سماطه فى بهو الولائم . وما انتهوا منه حتى تناول « ديونيو » أحد الفرسان آلة من آلات الموسيقى ، وأمسكت « فيامتا » إحدى الفتيات بآلة أخرى ، وواءمتا بين نغمتين طرب من مزاجهما الجمع حتى غنى ورقص ما وسعه الجهد

وظلوا كذلك حتى أدركهم الليل وهم فى طربهم ماضون ، وأسلمهم التعب إلى نوم عميق ، وكانوا قد اتفقوا فيما بينهم على أن ينصبوا « بامبينيا » أميرة عليهم فى الغداة ، ولها عليهم حق الأمر ، وعليهم لها واجب الطاعة ، على أن تدبر لهم شأن المحافل والجلسات وما يتخللها من الملاهى والمسرات

وفى ضحوة اليوم التالى لبوا دعوة الأميرة وانتظموا حولها فحيتهم تحية جميلة ، وأخذت عليهم فى رفق ولين تكاسلهم عن النهوض مبكرين ، وفى نوم الضحى مضرة للأبدان تشفق منها عليهم وتعيذهم من أذاها . ثم سارت أمامهم إلى واد ذى زرع أخضر تقوم على عطفيه أشجار باسقة ، وقالت : « هنا الشمس مشرقة مشرفة ، ترسل علينا أشعة حامية محرقة ، فليس من الرأى أن نواصل المسير ضناً براحتنا وحرصاً على هنائنا ، فلنجلس إلى ظل هذا الوادى الوادع تحت أغصان الزيتون ، ولتكن جلستنا على نحو دائرة لا يلتقى طرفاها ، وليقصص كل واحد وكل واحدة منا قصة شيقة ، فإن هدأت الشمس وانكسرت حدتها اتخذنا فى اللهو سبيلا آخر ؛ ولتكن أنت يا « بامفيلو » أول من يقص علينا قصته :

واستوى الفتى فى جلسته وقص القصة الآتية :—

(يتبع) البوزباشى أحمد الطاهر

جبران خليل جبران

كان المرحوم جبران خليل جبران أديباً كاملاً ومصوراً ماهراً وكاتباً خيالياً لا يجارى . وقد أراد بعض الأدباء فى هذا العصر أن يجاريه ويماشيه فى خياله ولكن على غير جدوى دون أن يلحق له غبار ، وقد طبعت مكتبة العرب بشارع الفجالة رقم ٤٧ بمصر جميع مؤلفاته وهى تطلب منها :

ص	
١٥	البدائع والطرائف مزين بالصور الخيالية
٨	كتاب النبى « « «
٥	رمل وزبد « « «
٥	المواكب (قصيدة) « « «
١٠	كلمات جبران الخالدة
١٥	دمعة وابتسامة طبع أميركا

البريد الأدبي

ذكرى العلامة روبرت كوخ

احتفل أخيراً فى ألمانيا بذكرى روبرت كوخ أحد أقطاب العلم الألمانى ، وذلك بمناسبة مرور خمسة وعشرين عاماً على وفاته ؛ وقد خلد كوخ اسمه فى عالم الطب بما وفق اليه من الاكتشافات الطبية والبكترلوجية الباهرة ؛ ولاسيما فى شأن السل والكوليرا ؛ وكان مولد هذا العلامة فى سنة ١٨٤٣ . وفى سنة ١٨٧٦ بدأ اكتشافاته البكترلوجية باكتشاف « البشيل » وطريقة الحقن باللقاح ، وفى سنة ١٨٨٢ كان اكتشافه الباهر «لبشيل» السل الذى يفتك بعشرات الملايين ، فكان ذلك بدء تلك الجهود الطبية الجاهدة التى تبذل منذ كوخ إلى عصرنا لمكافحة هذا الداء الوبيل ؛ وفى العام التالى زار كوخ مصر والهند على رأس بعثة لبحث أسباب الكوليرا ، ثم عين أستاذاً فى جامعة برلين ، ومديراً لمعهد الأمراض المعدية . وكان من رأيه أن هنالك فارقاً بين السل الذى يصيب الانسان ، والسل الذى يصيب الماشية ، وأن المرض لاينتقل من هذا الجنس إلى ذاك ، ولكن الجمعية الملكية البريطانية عارضت هذه النظرية بمباحثها وتقاريرها . وفى سنة ١٨٩٦ زار كوخ أفريقية الجنوبية ليدرس طاعون الماشية ، وفى العام التالى زار أفريقية الشرقية الألمانية ليدرس خواص الملاريا ومرض النوم . وله عدة مؤلفات عن السل والملاريا والتيفوس تعتبر حجة فى موضوعها ، وكانت وفاة كوخ فى سنة ١٩١٠

وقد احتفل العلم الألمانى بتكريم ذكرى هذا العلامة فى احتفال رسمى أشيد فيه بعبقرية كوخ وفضله على الانسانية كلها بما وفق اليه من الاكتشافات العظيمة التى مازالت أساساً لبحوث الطب فى عصرنا ؛ وأعلن بهذه المناسبة أن الحكومة الألمانية قررت انشاء « معهد كوخ » الذى تقرر انشاؤه قبل الحرب لتخليد ذكرى كوخ ثم حالت الحرب دون انشائه ؛ ثم رأى العلم الألمانى أن ينتهز فرصة هذه الذكرى ليعمل بمعونة الحكومة الألمانية على تحقيق هذا المشروع الانسانى الجليل

موسم الكتب فى فرنسا

يعانى الأدب وتعانى الكتب فى مختلف الفنون أزمة ظهرت آثارها واضحة فى كثير من الأمم الأوربية ؛ ولهذه الازمة أسباب كثيرة أهمها الاذاعة اللاسلكية والسينما وطغيان الترجمة الرخيصة على الأدب المحلى ، ومنافسة الصحافة للكتب بما تخرجه من الصحف العلمية والأدبية والفنية وغيرها وتعرضه بأبخس الأثمان ؛ وقد نشطت السلطات والهيئات المختصة فى فرنسا لمحاربة هذا الركود الفكرى ، وبث الدعاية لنشر الكتب بمختلف الوسائل المرغبة ؛ فأقامت نقابة الناشرين وغرفة المكاتب معرضاً كبيراً فى حى سان جرمان أطلق عليه « عشرة أعوام من الطباعة الفرنسية » ، وعرضت فيه الكتب فى سائر العلوم والفنون من أرخص الطبعات إلى أغلاها وأثمنها ، بطريقة تبين تطور الطباعة وأساليب النشر فى عشرة الأعوام الأخيرة ؛ وصفت كتب الفلسفة والدين والعلوم والآداب والمباحث الروحية والقصص كلها جنباً إلى جنب . وأقيم فى بهو خاص منصة فخمة خصصت للجوائز الأدبية التى منحت منذ سنة ١٩٢٥ ، وأسماء الفائزين وأنواع الجوائز ؛ وقد أم هذا المعرض الحافل جماهير غفيرة من الزوار ، وأحدثت اقامته حركة كبيرة فى اقتناء الكتب

وفى الوقت نفسه أقامت نقابة الناشرين مظاهرتها السنوية التى تعرف «بيوم الكتاب» وهى مناسبة تتخذها المكاتب كل عام لتعرض فى واجهاتها أكداساً من الكتب الجديدة الخلابة بأثمان معتدلة ، وقد أصبح يوم الكتاب « أسبوعاً » كاملاً يجرى فيه هذا العرض فى جميع مكاتب باريس الشهيرة ومكاتب المدن الكبيرة ، وتقدم فيه بهذه المناسبة فرص حسنة للشراء ، وفى كل عام تصدر نقابة الناشرين مؤلفاً نفيساً يهدى الى من يشترى كتباً قيمتها عشرون فرنكا . وأسبوع الكتب يعتبر من المواسم الأدبية الحافلة ، التى تدر الخير على الناشرين والمؤلفين فمتى نفكر فى مصر فى تنظيم مثل هذه الحركات والمعارض



ضحى الاســلام

الجزء الثانى

تأليف الأستاذ أحمد أمين

للأستاذ عبد الوهاب حمودة

لقد أخرج للناس الأستاذ الجليل (أحمد أمين) كتابه ضحى الاسلام ، الجزء الثانى منه ، فقرأته قراءة ناقد متفحص ؛ فألفيته قد حوى جهداً محموداً ، ونهج منهجاً جديداً . استقصى الأستاذ فأحسن الاستقصاء ، وقرأ فأجاد القراءة ، وفهم فأتقن الفهم ، واستنبط فوفق إلى الصواب ، فى حسن ترتيب ، وجمال تصوير ، وقدرة على الاحاطة ، وصبر على التفصيل

وصف الأستاذ فى الفصل الأول من « الضحى » قوانين الرقى العقلى ، ثم طبقها على الفكر العربى ، وتدرج من ذلك إلى انقسام العلوم عند العرب فى العصر العباسى ، ثم ختم هذا الفصل بالكلام على حرية الرأى فى ذلك العصر ، فكان الأستاذ فى هذا الفصل نسيج وحده ، مبتكراً لمهج جديد فى البحث ، وأسلوب طريف فى التعليل

وفى الفصل الثانى والثالث تكلم الأستاذ على معاهد التعليم المفيدة ، ومتى نفكر فى محاربة ذلك الركود الأدبى الذى يكاد يشل عندنا كل تقدم فكرى وأدبى ؟

بلسودسكى الشاعر والكاتب

لم يكن المارشال بلسودسكى بطل بولونيا القومى الذى توفى منذ أسابيع قلائل جندياً وسياسياً عظيماً فقط ، ولكنه كان كذلك شاعراً وكاتباً له آثار فى الشعر والنثر ، والمعروف عن المارشال أنه تربى وتكون فى معترك الصحافة ، وكان فى شبابه يحرر جريدة ثورية سرية ، كان ضبطها سبباً فى الحكم عليه بالنفى إلى سيبيريا ؛ ولما قبضت القيادة الألمانية على بلسودسكى أثناء الحرب الكبرى حينما ارتابت فى حركاته وخشيت من نفوذه على الجيش البولونى ، وزجته فى قلعة مجدبرج لم يجد الماريشال وسيلة لتخفيف آلام الأسر سوى الكتابة ، فوضع كتاباً سماه « معاركى الأولى » ، وصف فيه ما خاضه من المعارك الثورية ضد جنود القيصر ، ثم المعارك الأولى التى خاضها عند نشوب الحرب الكبرى بأسلوب بليغ ينم عن مقدرته الكتابية ، وأصدر بعد الأفراج عنه كتاباً آخر عنوانه « ســنة ١٩٢٠ » وصف فيه الحرب الروسية البولونية ، وكان الماريشال ينظم الشعر ، ويشغف بقراءة دواوين أكابر الشعراء الفرنسيين ، مثل لامرتين وهوجو وبودلير ، وفيرلين ومالارميه . ومما يؤثر عنه قوله : « إن الشعراء هم أقرب الناس إلى رجال العمل ! »

مركز هوجو فى النثر

ما زالت الصحف الأدبية الفرنسية تفيض بالحديث عن فيكتور هوجو ، وعن نظمه ونثره ورفيع منزلته فى الأدب الفرنسى ، وذلك لمناسبة الاحتفال بالذكرى الخمسينية لوفاته حسبما أشرنا فى العدد الماضى ، وليس بين النقدة خلاف فى المنزلة الرفيعة التى تبوأها فى الشعر ؛ بيد أن هنالك من يقول بأن هوجو يتبوأ فى النثر أرفع من هذه المنزلة . وقد شهد لهوجو بالعظمة فى النثر كتاب عظام مثل بلزاك صديقه ومعاصره ، ثم جاء موريس باريس بعد ذلك فقال : « إن هوجو أعظم ناثر فى القرن التاسع عشر » . وقد وصفه أخيراً كاتب كبير فى إحدى المجلات الأدبية ، فقال : إن هوجو الناثر يتفوق فى تحليل أشد عواطف الروح وأحوالها تعقيداً ، وأعمق أزمات الضمير ، ومعارك الانسان والقدر . ولمناسبة الاحتفال بذكرى الشاعر الكبير أصدرت إحدى دور النشر الباريسية الكبرى طبعة كاملة من جميع مؤلفاته تقع فى ٨٢ مجلداً

ودرجات التدريس ، وعلى المكتبات والمناهج ، ثم انتقل بعد إلى الحديث عن مراكز الحياة العقلية ، فأبدى في مطاوى هذا البحث عن شخصية قوية ، ورأى مستقل . وقد وفق الأستاذ التوفيق كله في المقابلة بين الروايات المختلفة عن (بيت الحكمة) وفي الاطمئنان الى نتيجة معقولة حسنة ، ولاسيما عند استخدام الأستاذ في تحقيقه « فقه اللغة » وتاريخ الألفاظ . فهو طرافة في التفكير ، وجدة في الأساليب . وما أجمل الأستاذ وهو يعلل ضعف الفن في الحجاز في عصر الدولة العباسية تعليلاً متواضعاً مقنعاً . أما كلامه عن (المربد) في هذا الفصل ، فكلام المستقصى الدارس . ولست مغالياً إذا قلت إن باحثاً لم يسبق الأستاذ في إلقاء نور وضاء قوى على هذا (المربد) وبيان أثره في الحياة العقلية عامة ، واللغوية خاصة ، بل كان المؤلفون يمسونه مساً رقيقاً ، ويمرون به في أبحاثهم مراً رفيقاً

وجاء الأستاذ أيضاً في هذا الصدد بنظرية العصبية للقطر ، ثم للبلد ، ثم تدرج بذلك الى نشوء مدارس النحو المختلفة حتى وقف بمصر فاذا بالشعور القومي الخالص يملك على الأستاذ عواطفه ، وإذا بالوطنية الصادقة تأسر عليه مشاعره ، فيأبى إلا أن يجلى مصر في مضمار النهضة العلمية تجلية مشرقة ، فينصفها في البحث وإن لم ينصفها الدهر في الحظ ، في غير محاباة ولا تحيز ، شأن العالم الورع ، والمحقق العادل

أما في الفصل الرابع والخامس فقد تكلم الأستاذ عن الحديث والتفسير والتشريع . ومن أجدر من الأستاذ (أحمد أمين) بتوفية هذه البحوث والقيام بواجب تحقيق هذه المسائل ، فهو ابن بجدتها ، وأبو عذرتها . ولا يرضيني في الكشف عن محاسن هذين الفصلين إلا أن أشير على القارىء الكريم بقراءتهما ، وأرغب اليه في دراستهما حتى يتذوق جمال حقائقهما بنفسه ؛ ويقف على بديع تنسيقهما بدرسه . إذ هما يقعان فيما يقرب من مائة وخمسين صفحة من الكتاب . والكتاب كله في خمسين وثلثمائة صفحة . فجزى الله الأستاذ عن الحديث والقرآن خير الجزاء

أما في الفصل السادس من الكتاب ، وهو الفصل الذى يمت الى الأدب في صميمه ، ويرتبط باللغة في أصولها . فقد بحث فيه الأستاذ اللغة والنحو والأدب ، فتراه في هذا الفصل أميناً محافظاً على طبيعة هذه العلوم من الوقوف عند النقل والاقتصاد في الرأى والنقد في غير ما سرف ولا افراط

أما الفصل السابع وهو الأخير في الكتاب فكان الكلام فيه عن التاريخ والمؤرخين . أتى فيه الأستاذ بتقسيم جميل لأنواع التاريخ ، من تاريخ في السيرة ، وتاريخ للحوادث ، وتاريخ للأنساب ، وتاريخ للرجال ، وأخبار وقصص . فكان موفقاً جد التوفيق في تحليله لمغازى ابن اسحق تحليل المنصف الدارس في بصيرة نافذة ورأى حر طليق . ثم ختم الأستاذ هذا الفصل بالكلام على عيوب المؤرخين الاسلاميين ومزاياهم فأنصفهم ووفاهم حقهم

وبعد ، فسأذكر ما أخالف الأستاذ فيه من الرأى ، وهى مخالفة يسيرة واختلاف هين . وقد عوّدنا الأستاذ تقبل ذلك بما عهدناه فيه من سمو في الخلق ونبل في القصد

أولا : أحصى الأستاذ في ص (١٧٣) المذاهب الفقهية التي ظهرت في العصر العباسي سوى المذاهب الأربعة ، ولكنه أغفل مذاهب الشيعة . مع أنها مذاهب لها قوتها ولا يزال بعضها منتشراً كمذهب الزيدية في اليمن والامامية في العراق وايران . فلهذا المذهب أئمة ومؤلفون وكتب فقهية تطبع وتدرس

إلا إذا كان الأستاذ قد رأى تأخير ذلك إلى الكلام على عقائد الشيعة في الجزء الآتى بعدُ من الضحى

ثانياً : ذكر الأستاذ في ص (٢٤٥) أن من نتائج الاختلاف بين القبائل كثرة المترادفات في اللغة العربية ثم ساق مثلاً لذلك فقال (إن السُّكّر اسمه المِبرَت بلغة اليمن)

ولى على هذا اعتراضان : الاعتراض الأول أن لفظ السكر ليس بعربى بل هو تعريب للفظ شكَر الفارسية وهى قريبة جداً في نطقها من لفظها في اللغة الانجليزية (Sugar) (راجع ص ٩٢ من كتاب الألفاظ الفارسية المعربة للسيد أدّى شير . وص ٨ و ١٠٥ من شفاء الغليل للخفاجى . والقاموس للفيروزابادى وص ٣٢٦ من مجلة مجمع اللغة العربية الملكى . وج٦ من اللسان وص ١٦٦ ج ١ من المزهر للسيوطى)

والاعتراض الثانى هو أننى كنت أود أن يذكر الأستاذ من آثار ذلك الاختلاف بين القبائل ، المشترك من الألفاظ بقسميه لأن هذا النوع له أثر واضح في اختلاف المذاهب في التشريع كلفظ القروء في قوله تعالى (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء)

ثالثاً : ذكر الأستاذ فى ص (٢٤٨) أن استعمال الكلمات المعربة كثر بعد الاسلام والفتح ، ثم أخذ يسرد أمثلة للألفاظ التى تغلغلت فى اللغة إثر الفتح

واعتراضى أن بعض تلك الألفاظ التى ساقها الأستاذ كان قد دخل اللغة العربية وعُرِّب منذ عصر الجاهلية فلم يكن دخوله إذن نتيجة للفتح الاسلامى . مثال ذلك لفظة (الفلفل) قال امرؤ القيس فى معلقته :

ترى بعر الآرام فى عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفـــل

وقال أيضاً :

كأن مكاكِيَّ الجواء غُديّةً صبحن سلافاً من رحيق مفلفل

وجاء فى اللسان خمر مفلفل ألقى فيه الفلفل

مثل آخر لفظة (الورد)

فقد جاء فى اللسان ص (٤٧٠) من الجزء الرابع . « الورد ببلاد العرب كثير ريفيـة وبرية وجبلية . قال الزجاج فى قوله تعالى : فكانت وردة كالدهان : أى صارت كلون الورد » . وقد جاء فى القاموس أن أم طرفة سميت بوردة

ومثل ثالث وهو لفظة (مسك) ويكفى فى اثبات جاهليتها فى التعريب ورودها فى القرآن الكريم قال تعالى (ختامه مسك)

رابعاً : لقد استقصى الأستاذ الكبير الفروق فى اللغة والنحو بين مدرسة البصرة والكوفة

وودِدْتُ لو أنه أعقب ذلك بذكر خصائص المدرسـة البغدادية فى النحو أيضاً . وهو قد ألم إلى هذه المدرسة فى ص (٨٣) حيث قال : ثم تظهر فى النحو مدرسة بغدادية لها طابعها الخاص ولها لونها ولها متعصبوها

ومهما يكن من شىء فهذه هنات يسيرة لا خطر لها ولا أثر فى حسن الكتاب وقيمته . وإنى أشهد مع الدكتور طه بحق أن الأستاذ (أحمد أمين) قد وفق فى هذا الكتاب إلى الاجادة العلمية والفنية ، وكشف عن الحياة العقلية الاسلامية كشفاً ، ثم عرضه عرضاً هو أبعد شىء عن جفاء العلم وجفوته ، وأدنى شىء إلى جمال الفن وعذوبته . فلينعم القراء بفصول هذا الكتاب ولينعم المؤلف بما ينعم به الظافر الموفق

عبد الوهاب حموده

الدسائس والدماء

أو على بك الكبير

كتاب للأستاذ خيرى سعيد

للأستاذ محمود تيمور

إنها لصفحة مروعة تلك التى قرأناها فى هـذا الكتاب . صفحة الدسائس والدماء حقاً . صفحة تصور لك فى أسلوب روائى أخاذ ذلك العصر الدامى الفاجع الذى عاشت فيه مصر حقبة من الزمن ، وهى ترى بعيون ذاهلة وقلب ينبض حسرة وألماً ، ونفس صابرة هـذه المشاهد الجهنمية التى تمثل على مسرحها . ذلك هو عصر المماليك الذى أحياه أمامنا فى لباقة صديقنا القصصى الأستاذ خيرى سعيد ، فاستطعنا ونحن نقرأ كتابه أن نحيا فى ذلك العصر نعاشر أهله ونصاحب حكامه ونشهد مواقعه المتلاحقة ، ونحضر حفلاته الرائعة — حفلات الانتصار والاندحار — استطعنا أن نعيش فى ذلك الجو الغريب نشم فيه رائحة البخور ممزوجة بالدم ، ونصغى فيـه الى صوت المؤذن يطغى على أنات المحتضرين وصليل السيوف ، وهى تهوى على الرقاب . أجل لقد استطاع الأستاذ خيرى بأوصافه الدقيقة وخياله الواسع أن ينقلنا الى ذلك العصر ويتركنا فيه برهة من الزمن ، شعرنا أثناءها أننا رجعنا القهقرى الى القرون الوسطى ، وأن الدنيا غيرها بالأمس ، فلا كهرباء ولا قهوات ولا ولا . . فاذا أردنا أن ننتقل فعلى الدواب ذات السرج المفضضة والبراذع المنقوشة تخترق بنا الحارات الضيقة . نذهب بها فى نزهة الى الخليج . أو فى مهمة الى بركة الفيل حيث قصور الأمراء . أو فى أمر بيع وشراء الى ساحل بولاق ، ذلك المرفأ النيلى العظيم المزدحم بخيرات البـلد . . وإذا أردنا أن نعلم شيئاً مما هو جار من الحوادث تسقطناه لِماماً من أفواه الناس . فهناك فتنة تختمر ، أو مجزرة تستعر ، أو حرب على الحدود تدور رحاها . وإذا أردنا أن نريح أعصابنا ورغبنا فى الترويح عن أنفسنا قصدنا الى دور أصدقائنا العلماء فنحظى بجلسة هادئة نشرب فيها القهوة الفاخرة ، ونتناول العشاء السخى ، ونستمع الى مسامراتهم الجميلة أو الى أناشيد المنشدين . . أجل لقد عشـنا حقاً فى مصر فى ذلك العهد القاسى المضطرب . رأينا الأمة منقسمة الى طبقات لا يتعدى أهل الواحدة على الأخرى . فهناك طائفة الفلاحين تعمل طيلة العام لتمون الكُشّاف والسَّناجِق (الأمراء المماليك)

إذ أن الحكم حكم اقطاع . الفلاح آلة نشطة طيعة ليس لها إلا أن تُعطى . ولكنها كانت فى الوقت نفسه آلة ماكرة تعلمت الخبث من هؤلاء السادة الطغاة فاستطاعت أن تراوغهم هازئة بهم . ترشو هذا لتبعد ذاك ، وتعطى جزءاً لتحتفظ لنفسها بأجزاء . ثم هناك الطبقة الحاكمة وهى المماليك ، تلك الطائفة الغريبة التى امتهنت الحكم ورضيت بما يحفه من خطر دائم . طائفة كانوا يشترونها فى الأسواق أطفالاً أرقاء يأتون بهم من مواطنهم فى بلاد الشركس وأواسط آسيا ، وينشئونهم نشأة حربية ، فاذا ما نما المملوك واكتمل أصبح فارساً يجيد الحرب كما يجيد الحكم . وهو فى الحالتين غدار خبيث يعمل بقول القائل : الغاية تبرر الواسطة . يعيشون طول حياتهم والسيف لا يهمد لحظة فى يدهم . وانك لترى على ملابسهم المزركشة المقصبة المحملة بالخناجر والسيوف بقعاً من الدم كأنها أوسمة فخار . . وإذا ما دخلتَ دورَهم عثُرتْ قدمك برأس أو بضمة رؤوس بشرية تعترض طريقك . فاذا ما أغضيت النظر وتابعت سيرك دوى فى أذنك صراخ مستغيث ، فاذا بهارب يهوى أمامك متخبطاً فى دمه . . هؤلاء المماليك وعلى رأسهم شيخ البلد كانوا حكام مصر الحقيقيين فى تلك الحقبة الرهيبة التى زعم العثمانيون أن البلد فيها إيالة تركية لا أكثر ولا أقل . ولكن أين مظهر تلك التبعية ؟ أفى الباشا الوالى ذلك الحاكم المسكين الذى كان يوليه السلطان حكم مصر فلا يتعدى حكمه دائرة القلعة المسجون فيها ؟ وليته كان يُترك سعيداً بحكم هـذه المنطقة الصغيرة . انه كان فيها أشبه بالطرطور يلبسه شيخ البلد . ليس عليـه إلا أن يصدر الفرامانات التى يطلبها منه هـذا الشيخ ، فاذا عصى فالى العزل أو الحبس أو القتل ! ! أم فى تلك الحامية التركية الضعيفة التى نقص أفرادها على توالى الزمن فاستعيض عنهم بنفر من أهل البلد ؟ . وهناك غير هاتين الطائفتين طائفة قوية تحتكم فى ثروة البلد هى طائفة التجار ، تلك التى كانت كلها من أبناء البلد والتى عاشت بالرغم مما انتابها من عسف كان يهد فى ثروتها ، عاشت فى شىء من الرخاء والهدوء ؛ وبجانب هـذه الطائفة كانت طبقة العلماء ـ شيوخ الأزهر ـ تلك التى كانت تسيطر على البلاد بقوتها الروحية . وكانت الأمة كلها وحكامها على رأسها تضمر لها الاحترام وتعمل بنصائحها . ولكن هذا لم يكن يمنع عنها بعض الأحيان بطش هؤلاء الحكام وغدرهم

. . . أجل لقـد استطاع الأستاذ خيرى سعيد أن ينقلنا إلى ذلك الجو وكأنه أركبنا طيارة وطار بنا على صعيد مصر كلها فاذا بنا نرى النار تشتعل فى كل مكان : حكام القاهرة يريدون أن يسيطروا على الأرياف ، وحكام الأرياف يريدون أن يحتفظوا باستقلالهم الادارى يستمتعون بما جنوه من أموال وخيرات ، وبين هؤلاء الحكام وبعضهم حروب لا يخمد لها لهيب ، والناس لا تعرف من الأمن إلا اسمه . فاذا ما سار التاجر بأسطوله النيلى المحمل بخيرات البلد من منطقة الى أخرى وجب عليه دفع الاتاوة إلى شيوخ قطاع الطرق ـ طائفة أخرى مستقلة عن كل الطوائف امتهنت السلب وتفننت فيه وأثرت منه ـ وإلا أصاب أسطوله النهب والتحطيم

فى ذلك الجو الخانق ظهر على بك الكبير . وكان كبقيـة المماليك . عاش منـذ نعومة أظفاره بين مؤامرات الخيانة تطيح رؤوس الأمراء . عاش مملوكاً طيـلة حياته تتمثل فى سياسته أساليب القسوة والغدر . ولكنه كان مملوكاً أكثر ذكاء وأشد صلابة وأكبر أطماعاً من غيره . تمثلت فيه صفات المُلك فاستطاع أن يستخلص لنفسه حكم مصر فاستغنى عن الباشا الوالى وأخضع سائر المماليك لحكمه وضرب على أيدى قطاع الطرق . فاستمتعت البلاد فى عهـده بالأمن وبشىء من الطمأنينة لم تستمتع بهما فى عهد غيره . وأحست بنوع من الكرامة الوطنيـة تذكو فى فؤادها . فقـد رأت حاكمها العظيم يقطع صلته بالدولة العثمانية ويجعل لمصر مركزاً ممتازاً بين الدول . . . ولكن هذا العهد لم يدم طويلاً ، فقد تألب المماليك المدحورون برياسة محمد بك أبى الذهب مملوك على بك وساعده الأيمن فيما مضى — وشقت عليه عصا الطاعة ، وقاتلته حتى دحرته ، ومن ثم أرجعت الباشا الوالى الى عرشه الواهى المتأكل . . . وعادت الحياة كما كانت قبل أن يحكمها ذلك العاهل الكبير

صور عنيفة جبارة ، يعرضها أمامك المؤلف فى دقة غريبة وتنسيق جميل فى كتابه الدسائس والدماء ، وإنك لتعجب وأنت تقرأ هذه الصحائف الممتعة كيف استطاع الكاتب أن يجمع لك فى كتاب لا يتعدى المائة والخمسين صفحة ، هذه الحوادث الجسيمة والشخصيات المعقدة فى شبه ملحمة لم تدع كبيرة ولا صغيرة عن هذا العهـد الا سجلته . ولعلك تعجب أيضاً إذا علمت أن كل فصل من فصول هذا الكتاب يصح أن يكون قصة مسـتقلة يستطيع مؤلفها أن يملأ بها عشرات الصفحات . . .

فالى صديقى خيرى تهنئتى الخالصة وتقديرى الكبير ؟

محمود تيمور

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٠١ — ١٠ يونيو سنة ١٩٣٥ — السنة الثالثة

3me Année, No. 101. — Lundi-10-6-1935

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٠١ « القاهرة فى يوم الاثنين ٩ ربيع الأول سنة ١٣٥٤ — ١٠ يونيو سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

ذكرى المـــولد

ذكرى مولد الرسول هى ذكرى قيامة الروح وولادة الحرية ونشور الخُلق؛ فكأن مولده كان البعث الأول الذى طهر النفس وعمّر الدنيا وقرر الحق للانسان، كما أن البعث الأخير سيخلص الروح ويبتدئ الآخرة ويعلن الملك لله

كان العالم يومئذ يضطرب فى رق المادة، وعبودية الشهوة، وسلطان القوة، فلم يكن للمثل الأعلى وجود فى ذهنه، ولا للغرض النبيل أثر فى سعيه، ولا للشعور الانسانى مجرى فى حسه، ولا للسمو الالهى معنى فى نفسه؛ إنما كان حيوانياً شهوته الغلَب، مادياً غايته اللذة، أنانياً شريعته الهوى؛ ثم أسرف فى البهيمية حتى جعل كل أنثى مباحة لكل ذكر، وفى المادية حتى اتخذ إلٰهه من خشب أو حجر، وفى الأنانية حتى قتل أولاده خشية الإملاق والضرر. فلما أتى النبى العربى فتح فى غارحراء، باباً إلى السماء، تنزّلت منه الملائكة والروح على هـذا الهيكل المنحل والجسد المعتل، فنفخت فيه سر الحياة ومعنى الخلود وحقيقة الله. وحينئذ شعر سليل الأرض أن له أسباباً إلى السموات رتّت على

طول غفلته ، وأن له حياة خيراً من هذه الحياة استسرّ علمها فى جهالته ؛ فتشوف إلى الأفق البعيـد ، واستشرف إلى السمت العالى ، وأرسل نظره وراء النظر النبوىّ من فوق الجبل ، فى صمت حِراء المفكر ، وفى سكون الوادى الملهـم ، وفى غيابة الفضاء الرهيب ، يفكر فى الملـكوت الدائم ، ويسبح للجلال القائم ، ويفنى فى الوجود المطلق

كانت العقيدة قبل محمد أن تموت الروح أو يموت الجسم ، وأن يحكم الله أو يحكم الانسان ، وأن يظهر الدِّين أو تظهر الدنيا ، أما تقرير الصلة بين المعنى والذات ، و بين المصباح والمشكاة ، و بين الحياة الأولى والحيـاة الأخرى ، و بين الإرادة السفلى والإرادة العليا ، فذلك هو القصد الإلٰهى من رسالة محمد ، والتنفيذ المحمدى لإرادة الله

* * *

وكان العالم قبل يوم محمد يرسف فى عبودية عقليـة تقتل التفكير ، وعبودية جسمية تعقل التصرف ؛ فلم يكن للأسرة نظام ، ولا للقبيلة قانون ، ولا للأمة دستور ، ولا للعقيدة شريعة ؛ إنمـا هو طغيان عاسف يتحكم فى الفرد ويسـيطر على الجماعة : فالأب يملك على بنيه الموت والحياة بحكم الطبيعة ، والشيخ يفرض على عشيرته الأمر والنهى بمقتضى العرف ، والملك يخضع نفوس الشعب باسم الدِّين ، والكاهن ينسخ عقول الناس بقوة الجهل ، والناس أجمعون عدا هؤلاء الأربعة أتباعٌ وأوزاعٌ وهَمَل

فلما بُعث الرسول الـكريم رحمة للعالمين بعث الحرية من قبرها ، وأطلق العقول من أسرها ، وجعل التنافس فى الخير ، والتعاون على البر ، والتفاضل بالتقوى ، ثم وصل بين القلوب بالمؤاخاة ، وعدل بين الحقوق بالمساواة ، ودخل بين النفوس بالمحبة ، حتى شعر الضعيف أن جند الله قوته ، والفقيرُ أن بيت المـال ثروته ، والوحيدُ أن المؤمنين جميعاً إخوته ؛ ثم محا الفروق بين أجناس الإنسان ، وأزال الحدود بين مختلف الأوطان ، فأصبحت الأرض كلها وطناً مشاعاً ، والعالم كله أسرة متحدة ، لا يهيمن على علائقها إلا الحب ، ولا يقوم على مرافقها إلا الانصاف ، وليس فيها بين المرء وخليفته حجاب ، ولا بين العبد وربه واسطة

يا رعى الله ذكراك المقدسة يا غار (ثور) ! لقد كنت مبعث الحرية ، كما كان غار (حراء) مبعث الروح ! فأنت فى جبل الخلاص وهو فى جبل التجلى ! !

* * *

وكان العالم قبـل مولد محمد يعانى تفكك الخلق وتحلل الرجولة وتقلب الأثرة وتحكم السفاهة ؛ فسطوة اليد تسرف على العدل ، وعصبية الدم تبغى على الحق ، وسلطان المـال يجنى على الانسانية ، وسَورة الترف تعتدى على المروءة ؛ فالتجارة بخس وتطفيف ، والعهود نقض وتسويف ، والناس يعيشون عيش الوحش ، تنافر وتدابر واحتيال واغتيال وشهوة !! فلما ظهر البطل العظيم والإنسان الـكامل كانت شمائله وأفعاله رسالة أخرى فى الخلق : كان تطبيقاً لقوانين الدين بالمثل ، وتعليما لآداب النفس بالعمل ، وتنظيما لغرائز الحياة بالقدوة ؛ ثم فعلت شخصيته ودعوته فى نفوس رويت بالدماء ، ونغلت بالعداء ، وعاشت على الفرقة ، فألّفهم على المودة ، وجمعهم على الوحدة ، ثم جعل لهم من كتاب الله نوراً ، ومن سنته دستوراً ، ورمى بهم فساد الدنيا فأصلحوا الأرض ، ومدنوا العالم ، وهذبوا الناس

* * *

ذلك ما تلقيه ذكرى مولد الرسول فى رَوْع المؤمن العَقُول الذاكر ! فليت شعرى ماذا يجد فى نفسه وفى قومه من روح محمد وحرية محمد وخلق محمد ! ألسنا نعيش اليوم صوراً كقطع الشطرنج ، وأتباعاً كعبيد الأرض ، وهمجاً كهمج الجاهليـة ؟ وهل كان ذلك يكون لو أننا اتخذنا من أحكام الله منهاجاً ، ومن كلام رسوله علاجاً ، ومن حياة السابقين الأولين قدوة ؟

إن ذكرى مولد الرسول ذكرى انطلاق الإنسانية من أسر الأوهام ، وطغيان الحكام ، وسلطان الجهالة ؛ فما أجدرَ القلوب الواعية الحرة على اختـلاف منازعها ومشارعها أن تخشع اجلالا لذكرى رسول التوحيد والوحدة ، ونبى الحرية والديمقراطية ، وداعية السلام والوئام والمحبة !

احمد حسن الزيات

ورقة ورد

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

« وضعنا كتابنا (أوراق الورد) فى نوع من الترسل لم يكن منه شىء فى الأدب العربى على الطريقة التى كتبناه بها فى المعانى التى أفردناه لها ، وهو رسائل غرامية تطارحها شاعر فيلسوف وشاعرة فيلسوفة على ما بيناه فى مقدمة الكتاب . وكانت قد ضاعت (ورقة ورد) ، وهى رسالة كتبها ذلك العاشق إلى صديق له ، يصف من أمره وأمر صاحبته ، ويصور له فيها سحر الحب كما لمسه وكما تركه . وقد عثرنا عليها بعد طبع الكتاب فرأينا ألا تنفرد بها ، وهى هذه : »

. . . كانت لها نفس شاعرة ، من هذه النفوس العجيبة التى تأخذ الضدين بمعنى واحد أحياناً ؛ فيسرها مرة أن تحزنها وتستدعى غضبها ، ويحزنها مرة أن تسرها وتبلغ رضاها ، كأن ليس فى السرور ولا فى الحزن معانٍ من الأشياء ولكن من نفسها ومشيئتها

وكان خيالها مشبوباً ، يدق فى كل شىء لمعان النور وانطفاءه ؛ فالدنيا فى خيالها كالسماء التى ألبسها الليل ، ملئت بأشيائها مبعثرة مضيئة خافتة كالنجوم

ولها شعور دقيق ، يجعلها أحياناً من بلاغة حسها وإرهافه كأن فيها أكثر من عقلها ؛ ويجعلها فى بعض الأحيان من دقة هذا الحس واهتياجه كأنها بغير عقل

وهى ترى أسمى الفكر فى بعض أحوالها ألا يكون لها فكر ألبتة ؛ فتترك من أمورها أشياء للمصادفة ، كأنها واثقة أن الحظ بعض عشاقها . على أن لها ثلاثة أنواع من الذكاء ، فى عقلها وروحها وجسمها : فالذكاء فى عقلها فهم ، وفى روحها فتنة ، وفى جسمها . . . خلاعة

وكنت أراها مرحة مستطارة مما تطرب وتتفاءل ، حتى لأحسبها تود أن يخرج الكون من قوانينه ويطيش . . . ؛ ثم أراها بعد متضورة مهمومة تحزن وتتشاءم ، حتى لأظنها ستزيد الكون هماً ليس فيه !

وكانت على كل أحوالها المتنافرة — جميلة ظريفة ، قد تمت لها الصورة التى تخلق الحب ، والأسرار التى تبعث الفتنة ، والسحر الذى يمتز روحها بشخصيتها الفاتنة كما تتميز هى بوجهها الفاتن

* * *

وكان حبى إياها حريقاً من الحب . فمثل لعينيك جسما تناول جلده مس من لهب ، فتسلع هذا الجلد هنا وهناك من سلخ النار ، وظهر فيه من آثار الحروق لهب يابس أحمر كأنه عروق من الجمر انتشرت فى هذا الجسم . إنك إن تمثلت هذا الوصف ثم نقلته من الجلد إلى الدم — كان هو حريق ذلك الحب فى دمى !

والحب — إن كان حباً — لم يكن إلا عذاباً ؛ فما هو إلا تقديم البرهان من العاشق على قوة فعل الحقيقة التى فى المعشوق ، ليس حال منه فى عذابه ، إلا وهى دليل على شىء منها فى جبروتها

ولقد أيقنت أن الغرام إنما هو جنون شخصية المحب بشخصية محبوبه ، فيسقط العالم وأحكامه ومذاهبه مما بين الشخصيتين ، وينتفى الواقع الذى يجرى الناس عليه ، وتعود الحقائق لاتأتى من شىء فى هذه الدنيا إلابعد أن تمر على المحبوب لتجىء منه ، ويصبح هذا الكون المعظم كأنه إطار فى عين مجنون لا يحمل شيئاً إلا الصورة التى جن بها !

وتالله لكأن قانون الطبيعة يقضى ألا تحب المرأة رجلاً يسمى رجلاً ، وألا تكون جديرة بحبها ، إلا إذا جرت بينهما أهوال من الغرام تتركها معه كأنها مأخوذة فى الحرب . . . تلك الأهوال يمثلها الحيوان المتوحش عملاً جسمياً بالقتال على الأنثى ، ثم ترق فى الانسان المتحضر فيمثلها عملاً قلبياً بالحب

* * *

أحببتها جهد الهوى حتى لا مزيد فيه ولا مطمع فى مزيد ، ولكن أسرار فتنتها استمرت تتمدد فتدفعنى أن يكون حبى أشد من هذا ؛ ولا أعرف كيف يمكن فى الحب أشد من هذا ؟

ولقد كنت فى استغاثتى بها من الحب كالذى رأى نفسه فى طريق السيل ففر إلى ربوة عالية فى رأسها عقل لهذا السيل الأحمق ، أو كالذى فاجأه البركان بجنونه وغلظته فهرب فى رقة الماء وحلمه ؛ ولا سيل ولا بركان إلا حرقتى بالهوى وارتماضى من الحب

أما والله إنه ليس العاشقُ هو العاشق ، ولكن هى الطبيعة ، هى الطبيعةُ فى العاشق

هى الطبيعةُ ، بجبروتها ، وعسفها ، وتعنتها . إذا استراح الناسُ جميعاً قالت للعاشق : إلا أنت . . . !

إذا عقلَ الناسُ جميعاً قالت فى العاشق : إلا هذا . . . !

إذا رأتْ جراحُ الحياةِ كلُّها قالت: إلا جرحَ الحبّ . . . !

إذا تشابهتِ الهمومُ كالدَّمعةِ والدمعة ، قالت : إلاَّ همَّ العشق . . . . !

إذا تغيّر الناسُ فى الحالة بعد الحالة ، قالت فى الحبيب : إلاَّ هو . . . . !

إذا انكشف سرُّ كلّ شىء ، قالت : إلا المعشوق ؛ إلا هذا المحجّب بأسرار القلب . . . . !

* * *

ولما رأيتها أوّل مرةٍ ولَمسنى الحبُّ لمسةَ ساحر ، جلستُ إليها أتأمّلها وأحتسى من جمالها ذلك الضياءَ المُسْكِرَ الذى تُعَربدُ له الروحُ عربدةً كلها وقارٌ ظاهر ... فرأيتنى يومئذ فى حالة كغَشْية الوحى ، فوقها الآدميّةُ ساكنة ، وتحتها تيّارُ الملائكة يَعُبّ ويجرى

وكنتُ أُلقَّى خواطرَ كثيرة ، جعلَتْ كلّ شىء منها ومما حولها يتكلم فى نفسى ، كأن الحياة قد فاضتْ وازدحمت فى ذلك الموضع الذى تجلس فيه ، فما شىءٌ يمرّ به إلاَّ مسّته فجعلته حيّاً يرتعش ، حتى الكلمات

وشعرتُ أوّلَ ماشعرْتُ أن الهواء الذى تتنفّسُ فيه يرقّ رقّةَ نسيمِ السَّحَر ، كأنما انخدع بها فحَسِبَ وجهَها نورَ الفجر !

وأحسستُ فى المكان قوّةً عجيبةً فى قدرتها على الجذب ، جعلتنى مُبعْثَراً حولَ هذه الفتّانة . كأنها محدودةٌ بى من كلّ جهة

وخُيّل إلىّ أن النواميس الطبيعية قد اختلّت فى جسمى إما بزيادةٍ وإما بنقص ؛ فأنا لذلك أعْظُمُ أمامَها مرةً ، وأصغُر مرة

وظننتُ أن هذه الجميلة إنْ هى إلا صورةٌ من الوجود النسائىّ الشاذّ ، وقع فيها تنقيحٌ إلهى لتُظهِر للدنيا كيف كان جمالُ حوّاء فى الجنة

ورأيتُ هذا الحُسْنَ الفاتنَ يُشعرُنى بأنه فوق الحسن ، لأنه فيها هى ، وأنه فوق الجمالِ والنَّضرةِ والمَرَح ، لأن الله وَضَعه فى هذا السرورِ الحىّ المخلوقِ امرأة

والتمست فى محاسنها عيباً ، فبعد الجهد قلتُ مع الشاعر :

« إذا عِبْتُها شبهتها البدرَ طالعاً . . . ! »

* * *

ورأيتها تضحكُ الضَّحِكَ المُسْتَحى ؛ فيخرج من فمها الجميل كأنما هو شاعرٌ أنه تجرأ على قانون . . . .

وتَبْسم ابتساماتٍ تقول كلٌّ منها للجالسين : انظروها ! انظروها . . . !

ويَغْمُرُها ضَحِكُ العين والوجهِ والفمِ ، وضحكُ الجسمِ أيضاً باهتزازهِ وتَرَجْرُجِه فى حركاتٍ كأنما يَبسم بعضها ويُقَهْقِه بعضها . . .

وتُلقى نظراتٍ جَعل الله معها ذلك الاغضاءَ وذلك الحياء ، ليضعَ شيئاً من الوقاية فى هذه القوّةِ النسويّة ، قوّةِ تدمير القلب

وهى على ذلك متساميةٌ فى جمالها حتى لايتكلمَ جسمُها فى وساوس النفس كلامَ اللحم والدم ؛ وكأنه جسمٌ ملائكىّ ليس له إلا الجلالُ طوعاً أو كرهاً

جسم كالمعبد ، لا يَعرف مَن جاءه أنه جاءه إلا ليبتهلَ ويخشع

وتُطالِعُك من حيث تأملتَ فكرةُ الحياةِ المنسجمةِ على هذا الجسم ، تطلبُ منك الفهمَ وهى لا تُفهَم أبداً ؛ أىْ تريد الفهمَ الذى لاينتهى ؛ أىْ تطلب الحبّ الذى لاينقطع

وهى أبداً فى زينة حسنها كأنها عروسٌ فى معرِض جَلْوتها ؛ غير أن للعروس ساعةً ، ولها هى كلَّ ساعة

* * *

أما طَرفها فيكاد يصيح تحت النظرات : أنا خائف ، أنا خائف !

ووجهها تتغالبُ عليه الرزانة والخِفّة ، لتقرأ فيه العينُ عقلَها وقلبَها

وهى مِثلُ الشعر ، تُطرِبُ القلبَ بالألم الذى يوجَدُ فى بعض السرور ، وبالسرور الذى يُحَسُّ فى بعض الألم

وهى مِثلُ الخمر ، تحسبُ الشيطانَ مُتَرَقرِقاً فيها بكل إغرائه !

فى الجبـــانة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

قالت لى أمى — رحمها الله — مرة :

« ألا تنوى أن تزور أباك فى هذا الموسم ؟ »

وكنا قد أوشكنا أن ندخل فى رجب ، وكانت حريصة على زيارة موتاها فى كل موسم ، بل فى كل خميس وجمعة ، لا تهمل منهم أحـداً ، فتطوف بهم جميعاً وتقرأ لهم الفواتح ، ولا تأكل فاكهة جديدة حتى « تفرّق » منها على قبورهم ، وكان ذلك يثقل علىّ ، ولـكني كنت أكِلها إلى رأيها فيه ، إيثاراً لمرضاتها

فقلت — بلهجة من ضاق صدره — : « كيف أزوره وهو ميت وأنا حىٌّ ، وهو تحت الأرض وأنا فوقها ، فلا يسمع منى ولا يرانى ولا يحسني ؟ »

فقالت : « إنى أراك مغتراً بالحياة ومعتزاً بها ، ولا أستحسن لك هذا » ولم تزد ، فأقصرتُ أنا أيضاً وقد شعرت أنى آلمتها بسخافتي وحماقتى ، وكرت الأيام ، فما يقف الدهر ، وماتت — كما يموت كل حى — فـكان أوجع لى من موتها أنها ذهبت وهى موقنة أنى لن أزور قبرها ، وكأنما أردت أن أغالط نفسى فيما تحسه من الوخز والندم ، فجعلت أزورها من حين إلى حين ، ولـكنى كنت أتسلل كاللص ، وأتخير أوقاتاً غير أوقات الزيارة المألوفة ، فلا يعلم بذلك أحد ، ولا يرانى مخلوق ، ثم كففت لأنى أنكرت هذا كله من نفسى ، وكبر علىّ أن أذهب إلى المقابر على رجلىّ ، وقلت لنفسى : « إذا كان المراد بالزيارة الذكر ، فانها به أبداً بين العين والقلب ، وإذا كان صحيحاً ما يقال من أن الميت يموت مرة أخرى كلما نسيه واحد من الأحياء ، فانى لن أجني ميتة جديدة على أمى ما دمت حيا »

ولم يفتر ندمى مع ذلك ، فظل دائراً فى نفسى ، فتشددت ، وحملت نفسى على مكروهها ، ومضيت إلى قبرها فى ليلة سوداء — أعنى مظلمة — وفتحت الباب ودخلت المقبرة وقلت « السلام عليكم » كأنما أردت أن أونس نفسى بصوتى فى هذه الوحشة ، فما راعنى إلا صوت يقول : « وعليكم السلام ! من تراك تـكون ؟ »

فذعرت ، وهممت بالجرى ، ولـكني استحييت ، فما يمكن أن يرد السلامَ غيرُ حىّ ، ولعله مسكين أوى إلى هـذا المـكان الموحش من الفاقة ، وما أكثر من رأيتهم يفعلون ذلك ! فما خوفى من رجل يقول : « وعليكم السلام » ؟؟ ولو كان امرأ سوء لاستخفى ، فتشجعت وأدرت عينى فى المـكان فلم تأخـذ شيئاً فى هذا السواد ، فقلت :

« من عساك تـكون أنت يا صاحبي ؟ »

فقال الصوت : « وما سؤالك هـذا ؟ لن تعرفني على كل حال . فانى قديم — قديم ، ولـكن تعال ساعدنى واحتقب شكرى »

فدنوت منه — أعني من مصـدر الصوت — وسألت : « على أى شىء تريد أن أساعدك ؟ »

قال : « على حمل هذا الحجر — فقد وهن عظمى جداً »

قلت : « ولماذا تريد أن تحمله ؟ دعه حيث هو ، فانه من حجارة المقبرة وليس لأحد أن يزحزحها عن مكانها أو ينقلها »

قال : « انك معذور »

قلت : « كيف ؟ ماذا تعنى ؟ »

وكلما تناولت أمامى شيئاً أو صنعت شيئاً خلقت معه شيئاً ؛ أشياؤها لا تزيد بها الطبيعة ، ولـكن تزيد بها النفس

فيا كَبِداً طارت صُدُوعاً من الأسى . . . !

***

وأريتُنى يومئذ فى حالة كَفَشْيَةِ الوحى ، فوقها الآدميّةُ ساكنة ، وتحتها تيارُ الملائكةِ يَعُبُّ ويجرى

***

يا سِحْرَ الحب ! تركتني أرى وجهها من بَعدُ هو الوجهَ الذى تضحكُ به الدنيا وتعبسُ وتَتَغيظ وتَتَحامق أيضاً . . .

وجعلْتَنى أرى تلك الابتسامةَ الجميلة هى أقوى حكومةٍ فى الأرض . . . . !

وجعلتني يا سحر الحب ؛ وجعلتني يا سحر الحب مجنوناً . . . !

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

(طبق الأصل)

قال : « هذا قبرى . وهـــذا من صُوَاه – عليه اسمى مكتوباً . . . تستطيع أن تقرأه إذا شئت »

فكان من دواعى عجبى بعد ذلك انى لم أذعر ولم أولّ هارباً ، بل أقبلت عليه أسأله وأستخبره فقال :

« لقد هجرنا جميعاً هذه المقبرة المهملة – لم يبق لنا فيها مقام . وكيف المقام فى قبور متهدمة ؟ ؟ لقد كانت جديدة حسنة البناء يوم جئنا ، وكان أهلنا – الباقون منا على قيد الحياة – يعنون بها ويرشون أرضها بالماء ويحملون إليها الزهر والرياحين ، فكان نشرها يفوح ويتضوع ، فاذا جن الليل خرجنا من القبور مسرورين وأقبلنا عليها نشمها وننعم بشذاها ، وكان القراء يتلون على أجداثنا القرآن فيندى على قلوبنا وترف له نفوسنا ونحس أن عظامنا قد طربت . أما الآن . . . ! ؟ لا ياصاحبى ، لم تعد هذه المقبرة صالحة للاقامة ! وقد هجرناها ، وجمع كل منا كفنه وحمل من له حجر حجره ، ورحلنا ، وكيف كان يسعنا غير ذلك ؟ انها لم تعد جبانة . . . . هـذه هى مساكن الأحياء أراها من مكانى هنا . . . فهل هذه مقبرة ؟ لقد زحف الناس بينائهم وغزوا أرضنا وجاروا علينا ، وجاورونا ، فبالله كيف نطيق جوارهم ؟ كيف نحتمل لغطهم وضجاتهم التى لا تنتهى ؟ ماعسى صبرنا على حركاتهم التى لا يعقبها سكون ؟ ؟ لـكأنا مامتنا ولا استرحنا إذن ! ؟ وأقول لك الحق لقد بدأنا نأسف على أنَّا متنا . . . لا ياصاحبى ، لم تبق هذه الأرض للموتى ، ولم يعد ثم مفر من الرحيل عنها . . . لقد تعبنا جداً هنا واضطررنا إلى مالم يكن لنا فى حساب . ومن لطف الله بنا أن هـذه البلاد قليلة المطر ، ومع ذلك كنا إذا أمطرت ينفذ إلينا الماء من سوء حال القبور ، وتبتل أكفاننا فنضطر إلى الخروج وننشرها بين أيدينا أو على هـذا السور حتى تجف وتعود صالحة للبس . وعلى ذكر ذلك أقول إنى لا أدرى ماذا جرى للدنيا ؟ لقد كانت حفيدة لى مدفونة هنا ، وكان عليها كفن من الحرير الغالى ، فسرقه لص ! تصور هـذا ؟ ولا أعلم هل سرقه واحـد من الأحياء ، أو نفقلتها ميتة أخرى وسرقته ؟ فان كان السارق من الموتى فلابد أن يكون من جيراننا فما فى أسرتنا هذا السوء . وقد شـكت إلى ماصارت إليه من العرى ، فلم أدر أول الأمر ماذا أصنع ؟ وكيف أكسوها ؟ وخطر لى أن أنتظر حتى يجيئنا ميت جديد ، أو يموت ابنها فآخذ من كفنه لها ، فان الميت الجديد يلف فى أكثر مما يحتاج إليه ، ولـكنه لم يمت مع الأسف ، فلم أجد حيلة إلا أن أجملها دقة بدقة ، والبادى أظلم ، فذهبت أرتاد هـذه الجبانة حتى رأيت كفناً من الحرير لا أشك فى أنه الـكفن المسروق ، فجئتها بشق منه وتركت شقاً »

وضحك – أعنى أنه أخرج صوتاً سألته عنه لأنى حسبته كلاماً فقال إنه كان يضحك ، فسرت فى بدنى رعدة ، واستأذنته فى الانصراف

فقال : « ألا تعيننى ؟ إن الحجر ثقيل ، وأنا هرم ، وقد فتر نشاطى من طول الرقاد »

فتناولت الحجر من ناحيـة ، وتناوله من طرفه الآخر ، ووضعناه معاً على ظهره ، وذهب يخطو ، وكانت عظامه تقرقع وهو يمشى ، فلما بلغ الباب سألته :

« ألم يبق هنا أحد منكم ؟ »

قال : « لا . . ماذا نصنع هنا ؟ كلا . ليبن فوقها الأحياء إذا شاءوا »

قلت : « وأين ذهبتم ، فقد نحب أن نزوركم »

قال : « أين ذهبنا ؟ وأين تنتظر أن نذهب ؟ انتشرنا فى فضاء الله ، فان أرضه مازالت واسعة ، ولن نعدم فيها منأى عن مساكن الأحياء . . . وعلى ذكر ذلك أسألك : ألستم تموتون فى هذه الأيام ؟ »

قلت : « ياله من سؤال ؟ كيف لا نموت ؟ »

قال : لماذا إذن هذا الزحف علينا كأن الدنيا تضيق بكم وكأنكم تزيدون ولا تنقصون ؟ لماذا لا يكفيكم ماكان يكفينا ؟ كل الجبانات المشهورة صارت أحياء عامرة بالسكان فكيف هذا ؟ »

فسألته : « وجلا عنها الموتى ؟ »

قال : « بالطبع ! وهل يمكن أن يحتملوا الناس ؟ إذن لماذا ماتوا ؟ »

قلت : « هل تفزعكم الحياة الى هذا الحد ؟ »

قال : « كما يفزعكم الموت – كلا . لا يطيق الحياة من نجا منها . . . والآن عم مساء يا صاحبى ! هل لك فى مرافقتى ؟ لا ؟ لا بأس ! لا بأس ! كل شىء مرهون بوقته . . . »

فلم أطق أكثر من ذلك ، وخرجت من الجبانة أعدو . . .

ابراهيم عبد القادر المازنى

٣ ـ لوكريسيا بورجيا

صور من عصر الأحياء

للأستاذ محمد عبد الله عنان

وينكر بعض الباحثين المحدثين هـذه الروايات المثيرة ، ولا يرون فيها سوى حديث خرافة أو على الأقل أحاديث مغرقة لا تؤيدها أدلة مقنعة ؛ ويستبعدون بالأخص أن تمثل لوكريسيا بورجيا فى مثل هذه الحفلات العاصفة الشائنة الى جانب أبيها وأخيها

ولـكن الرأى الغالب يميل إلى الاتهام ؛ ويرى فى أقوال بوركارت ما يؤيد تهمة مخزية أخرى تنسب الى لوكريسيا هى عشرة المحرم التى أشرنا اليها ؛ والتى تزعم أنها كانت خليلة أبيها ، خليلة إخوتها

وإليك واقعة خطيرة يستشهد بها الاتهام . فى أول سبتمبر سـنة ١٥٠١ ، أصدر البابا اسكندر السادس مرسومين ما زالا يحفظان حتى اليوم فى محفوظات مودينا ؛ فى أولهما يعلن البابا بأن ابنه شيزارى قد رزق غلاماً غير شرعى يدعى چوڤانى فى نحو الثالثة من عمره ، وأنه يبرئه من عيب هذا المولد غير الشرعى ، ويباركه ويعتبره ابناً شرعياً لولده شيزارى ، يتمتع بكل حقوق الوراثة الشرعية ، وينعم عليه بلقب دوق نيبى ؛ وفى المرسوم الثانى يقرر البابا ، أنه وإن كان يبرئ هـذا الغلام ويرفعه الى مرتبة الولد الشرعى ، فانه يقرر بأن عيب هـذا المولد لا يرجع الى ولده شيزارى بل يرجع إليه هو (أى البابا) وسـيدة حرة (من قيود الزواج) ، وإن كل ما يؤول اليه من الحقوق والمزايا طبقاً للمرسوم السابق يؤول اليه أيضاً بصـفته ولد البابا وليس ولد ولده شيزارى ؛ أو بعبارة أخرى يعترف البابا فى هذا المرسوم بأن هذا الطفل هو ولده وثمرة غرامه

فمن هى أم هذا الطفل « الرومانى » ؟ ومن هى هذه السيدة الحرة ، حظية البابا أو حظية ولده شيزارى أو حظيتهما معاً ؟

يقول المؤرخ الـكبير اميل جبهارت فى الرد على ذلك : إن مولد هذا الغلام الرومانى « چوڤانى » الذى تولت لوكريـسيا فيما بعد ، حين غدت دوقة فيرارا تربيته ، باعتباره أخيها ، هو أشد ما فى حياة اسكندر السادس وحياة شيزارى غموضاً وإبلاما . والواقع أن لوكريسيا قد وضعت فى سنة ١٤٩٨ ولداً يتفق مولده بالضبط مع تفاصيل المرسومين البابويين ، وتوجد مراسيم أخرى فى محفوظات الڤاتيكان تنسب هـذا الولد الى شيزارى . يقول جبهارت ، فهذا الاعتراف المزدوج بالابوة ، وهذا التناقض ، مما يسمح لنا بالاشارة الى عناصر هذه المسألة المحزنة دون أن نحاول بسطها

وبعبارة أخرى يرى جبهارت أن هذا الغلام هو ولد اسكندر السادس من ابنته لوكريسيا ، أو ولد شيزارى من أخته ؛ وأن ما كان ينسـبه چان سفورزا الى زوجته عنـدئذ من أنها كانت خليلة أبيها ، خليلة أخيها ، إنما هو حق صراح

بيد أن العلامة فونك برنتانو يعترض على هـذا الايضاح بشدة ، ويقول إن بوركارت الذى يعنى فى مذكراته بكل ما يتصل بالفضائح البابوية وبالأخص بفضائح لوكريسيا لا يشير الى مولد هذا الغلام بشىء ؛ وليس معقولا أن تعنى لوكريسيا بتربية غلام غير شرعى ينسب إليها فى بلاط زوجها دوق فيرارا ، وهو أمير رفيع الخلال والـكرامة ؛ وكيف تفعل ذلك ، وقد تركت ولدها الشرعى رودريجو لعناية جده ؟ ويرى هذا العلامة أن مصدر الشنائع كلها هم سفراء البندقية لدى الڤاتيكان ، وقد كانت مهمتهم الحقيقية أن يشهروا باسكندر السادس وأسرته وكل ما يتصل بها(١)

ويرى بعض الرواة المعاصرين أن هذا الغلام إنما هو ولد البابا من خليلته چوليا فارنيسى ؛ ويرى آخرون أنه ولد لوكريسيا من وصيف البابا المدعو بيروتو ، وقد عاقبه البابا بأن زجه الى ظلام السجن

وعلى أى حال ، فان فى هذه الروايات والشواهد كلها ، ما يسبغ أشد الريب على خلال لوكريسيا بورجيا ؛ تلك الفتاة الطروب الفاتنة ، التى كانت تخوض بلا انقطاع حياة فياضة بالفتنة والغواية ، والتى كان جمالها الساحر يثير حولها ضراماً من الشهوات الخطرة ؛ وما يسبغ أشد الريب على علائقها بأبيها الحبر الفاسق الذى يسحق تحت قدميـه كل مبادئ الأخلاق والحشمة ،

(١) برنتانو فى كتابه السالف الذكر ص ٩٢ وما بعدها

وأخيها الطاغية الذى كانت الجريمة وسيلته الوحيدة الى كل غاية

***

ننتقل الآن الى صفحة جديدة فى حياة لوكريسيا بورجيا

لم يكد يزهق زوجها الثانى الفونسو دى بيزيليا ، حتى وضع مشروع جديد بزواجها . وكان المرشح هذه المرة الفونسو ديستى ولد دوق فيرارا وولى عهده ؛ وكان الترشيح لنفس البواعث السياسية التى ما زالت تملى على اسكندر السادس وشيزارى تلك المشاريع الزوجية المتعاقبة . وقد تردد الدوق وولده فى قبول هذه المصاهرة بادئ بدء لما يعلمانه من غدر البابا وولده ، وما توصم به لوكريسيا من شنيع التهم ؛ ولكن سفراء فيرارا قدموا عن لوكريسيا تقارير حسنة وصفت فيها بالحشمة والتواضع والتحفظ وبأنها ضحوك يغلب عليها المرح . وتمت الصفقة على أن يدفع البابا لابنته مهراً قدره أربعون ألف دوقة ، وأن يتنازل لدوق فيرارا عن بعض الحصون والجهات ، وأن يخفض إتاوته للكنيسة الى أدنى حد . وتم العقد فى فيرارا فى أول سبتمبر سنة ١٥٠١ ؛ وفى اليوم الخامس احتفل البابا باشهار زواج ابنته فى كنيسة القديس بطرس احتفالاً شائقاً

وفى أواخر ديسمبر قدم وفد حافل من أمراء فيرارا وأعيانها وعلى رأسه فرديناند ديستى أخو الزوج لينوب عنه فى استقدام زوجه ، وشهدت رومة مدى أيام سلسلة من الحفلات والمآدب الباذخة والليالى الساطعة المرحة ؛ وفى السادس من يناير (سنة ١٥٠٢) أجريت مراسيم الوداع ؛ وغادرت لوكريسيا رومة فى ركب فخم من الأمراء والفرسان إلى وطنها الجديد فيرارا فوصلت اليها فى الثانى من فبراير بعد رحلة باهرة ، واستقبلت بأعظم مظاهر الفخامة والتكريم

وكان مقامها الجديد فى قصر قاتم موحش لا يتناسب مع مقامها الفخم فى رومة ، ولكنها اعتادت حياتها الجديدة بسرعة ، وعاشت فى هدوء وبساطة ، ولم تفقد شيئاً من مرحها وبهجتها ؛ وكان هذا المرح الفياض يسحر أهل فيرارا ويجذبهم اليها ، وكان زوجها الفونسو ديستى فتى متين الخلق والخلال ، كثير الخطورة والجد ، يؤثر الاهتمام بالشئون الحربية ، ولكن رقيق الشمائل وافر الثقافة ، يعشق الفن ويحميه ؛ وكانت لوكريسيا تعيش معه فى وفاق ، يحيط بها حب الأسرة الجديدة واحترامها

بيد أن هذه الحياة الهادئة كانت تكدرها عن بعد مشاريع شيزارى وأعماله ؛ وكان شيزارى يومئذ يخترق أواسط إيطاليا بجيشه ، ويمزق العدو والصديق معاً ، ويحاول بتلك الوسائل الدموية الغادرة ، التى أثارت إعجاب مكيافيللى وجعلته يعتبر شيزارى مثله الأعلى للأمير البارع — أن ينشئ مملكة رومانية كبرى ؛ وكانت لوكريسيا تقاسى فى عزلتها من التبعة المعنوية التى تلحقها من جراء هذه المشاريع والأعمال المثيرة

ثم نزل بها مصاب فادح ، ذلك أن ولدها رودريجو الذى كان يربى فى نابل فى أسرة أبيه ، توفى فى الثالثة من عمره (أغسطس سنة ١٥٠٢) فحزنت عليه أيما حزن ، وأثر الحزن فى هيكلها الدقيق ، فلزمت فراشها مدى حين وجداً وأسى ؛ ولكنها لقيت من عطف زوجها ووفائه فى محنتها ماخفف لوعة وجدها وعاونها على استكمال صحتها

وهنا يحمل بعض المؤرخين على لوكريسيا ، ويتهمونها بالقسوة والنذالة لأنها لم تعن بتربية ولدها بنفسها فى حين أنها عنيت بتربية « الطفل الرومانى » الذى أشرنا إلى قصته

وكانت لوكريسيا فى تلك الفترة تعنى بالقراءة ؛ ولم تلق فى فيرارا شيئاً من تلك الحفلات المرحة التى كانت كل حياتها فى الفاتيكان ، بيد أنها كانت قد عافت هذه الحياة الصاخبة ، وارتاحت إلى حياة العزلة والسكينة

ولم يمض عام آخر حتى فقدت لوكريسيا أباها اسكندر السادس ؛ وكانت وفاته فى ١٨ أغسطس سنة ١٥٠٣ فى سن الثالثة والسبعين

ويصف لنا المؤرخ جيشاردينو وقع وفاته فى رومة فيما يأتى : « هرعت رومة بأسرها ، وقد غمرها فرح لا يوصف ، إلى كنيسة القديس بطرس ، تتأمل ذلك الميت ؛ ذلك الشيطان الذى يضطرم طمعاً ويفيض غدراً ؛ ذلك الذى سممت قسوته الوحشية ، وفجوره المروع ، وجشعه ، وجرأته المثيرة فى ادارة الشؤون المدنية والدينية ، جو العالم كله »

ووقع النبأ كالصاعقة على لوكريسيا . ذلك أنها كانت تحب

أباها رغم كل رذائله وآثامه ، حباً جماً ؛ وكانت تشعر بأن هـذا الحنان الفياض الذى كان يغدقه عليها دائماً ، هو ملاذ حياتها وعزها ، فنمرها الحزن مدى حين . ولـكن زوجها وأسرته استقبلا النبأ بارتياح ؛ ولم تر لوكريسيا أباها مذ غادرت رومة عقب زواجها ، لأن زوجها كان يأبى دائماً أن تزور رومة أو يزورها أبوها فى فيرارا

وقد كانت وفاة اسكندر السادس خاتمة ذلك السلطان الذى تبوأه آل بورجيا فى إيطاليا مدى ثلاثة عشر عاماً ، وكان نـكبة حقة لولده شيزارى . ذلك أن مشاريعه انهارت فى الغداة كانهيار قصر أسس على الرمال بعد أن فقد ذلك العضد القوى الذى كان مصدر كل قوته وبطشه ؛ فالتجأ إلى جونزالڤو دى كردوڤا قائد الجيوش الاسبانية فى نابل ، ولـكنه اعتقله وسلمه إلى ملك اسبانيا فرديناند الـكاثوليكى ؛ فزجه إلى السجن معتزماً أن يحاكمه على جرائمه التى أصابت كثيراً من أفراد أسرته ؛ ولـكن شيزارى استطاع أن يفر من سجنه بعـد خطوب جمة ، وأن يلتجئ إلى حميه ملك ناڤار ؛ وهنالك جرح فى إحدى المعارك ، وتوفى فى سـنة ١٥٠٧ ؛ واختتمت بذلك حياته المدهشة التى اتخذها الفيلسوف ماكياڤيللى مادة لشرح كثير من آرائه فى خلال « الأمير » الأمثل

***

فى يناير سنة ١٥٠٥ توفى هرقل ديستى دوق فيرارا ، فخلفه ابنه الفونسو فى الحـكم ، وغدت لوكريسيا بورجيا دوقة فيرارا

وكانت فيرارا تجمع فى ذلك العهد طائفة من أكابر الـكتاب والشعراء والفنانين يظلهم الدوق برعايته ، أسوة بباقى القصور والعواصم الايطالية الزاهرة ؛ وكان ذلك السحر الذى تنفثه لوكريسيا أينما حلت يجذب إليها هـذه الصفوة ، فتجتمع حولها فى ذلك البلاط الزاهر ؛ وتشملهم الدوقة المستنيرة النابهة بعطفها وحمايتها

وكان من هؤلاء الشاعر الشيخ شتروتسى وولده هرقل شتروتسى وهو شاعر أيضاً ، وانتونيو تبالديو ، وكالـكانينى ؛ ونيكوليو كوريجيو وهو من أعظم شعراء العصر ؛ وجاكوبو كافيشيو أسقف فيرارا ، وهو كاتب قاص ؛ ثم الشاعرين الفتيين لاريوستى وبيترو بمبو

وكانت هـذه الصفوة المفكرة تتغنى بسحر الدوقة الحسناء وتشيد بخلالها ومواهبها فى نثرها وشعرها ؛ وتهدى إليها كتبها وقصائدها . ومما يذكر أن شتروتسى الشيخ وصفها فى بعض قصائده بأنها « مجمع عجائب الأرض والسماء كلها ، وليس يوجد لها نظير فى العالم كله »

وكانت لوكريسيا تبادلهم القريض أحياناً ، وتنظم باللاتينية قصائد ساحرة ، فتذكى بذلك إعجابهم وهممهم

بيد أن هذا الجو الأدبى الزاهر كانت تكدره سحب الريب والظنون ، وكان أشـد أولئك الشعراء تأثراً بسحر لوكريسيا بيترو بمبو ؛ وكان بمبو من سادة البندقيـة ، فتى جميلا ، بديع الخـلال والمواهب ، بارعاً فى التاريخ والشعر ، وكان من شعراء بلاط فيرارا ، ومن أخصاء الدوق ، يضطرم نحو الدوقة الحسناء إعجاباً وحباً ؛ وكان يوجه اليها كثيراً من الرسـائل والقصائد فى مختلف المناسبات ؛ ومن ذلك تلك القصيدة التى نظمها باللاتينية للاشادة بمعبودته

إلى لوكريسيا بورجيا

« أيتها الحسناء ، أنت أجمل من أوربا ، أنت ابنة ملك آجنور ، ولست مثل هيلانة الاسـبارطية التى اختطفها باريس التروادى ، تسمحين لجمالك أن يطغى على عبقريتك . وإذا فاتت الشعر بالايطالية فأنت ابنة الأرض الايطالية ، وإذا تناولت القلم لتكتبى القريض بنفسك ، فانه لقريض يجدر بوحى الشاعر ؛ وإذا راق لك أن تهزى أوتار القيثارة ، فان أمواج نهر پو ترتجف فى مجراها سحراً من غنائك ، وإذا راق لك أن تستسلمى الى الرقص بقدمك الطائر ، فآه ! إنى لأخشى أن تلفتى نظر إلـه ما ، فيأتى لاختطافك من قصرك ، ويحملك الى السماء ، ويجعل منك أيتها الحسناء الرائعة ، إلـهة كوكب جديد »

كان بمبو يشعر نحو لوكريسيا بأكثر من الاعجاب والحب ، كان يشعر نحوها بهيام مبرح ؛ وكان هذا الهيام يبدو فى قصائده ورسائله مع شىء من التحفظ تمليه عليه الظروف واتقاء الريب . ذلك أن الفونـسو ديستى كان أميراً صارماً عنيف الأهواء ، وكان يحب زوجه ، وإن لم تكن كل شىء فى حياته الغرامية ؛ وكان

يحيط الدوقة بسياج منيع من غيرته وصرامته ، ويرد المواطف المتوثبة الى سحرها وجمالها فى مهادها

بيد أن الروايات المعاصرة تقول إن لوكريسيا كانت تقابل حب بمبو بمثله ، وأن علائقهما الغرامية اتصلت مدى حين أثناء اقامة الشاعر فى فيرارا حتى سـنة ١٥٠٦ ؛ وقد كان طبيعياً أن يتفتح قلب لوكريسيا فى مثل هذه الظروف ؛ فقد كان الفونسو ديستى مشغولاً عن حب زوجه بمشاريعه السياسية والعسكرية ، وكانت لوكريسيا تتأثر بجمال الشاعر ورقة شمائله وفيض هيامه ؛ وكانت تبادله الرسـائل ؛ ومازالت رسالة منها تحفظ فى مكتبة امبرواز بميلان ومعها خصلة من شعرها ، ذلك الشعر الذهبى الأشقر الذى كان يبث من حولها النور والسحر . وقد كانت نفحة الوداع . ذلك أن بمبو رأى أن يغادر فيرارا فجأة (سنة ١٥٠٦) بعد أن أقام بها ثلاثة أعوام ؛ وقد كن ذهابه نوعاً من الفرار ، ولعله كان اتقاء لريب الدوق وبطشه ، وربما رأى المحبان أن الفراق خير وسيلة للسلامة من عواقب غرام خطر

وقد لبث بمبو يكاتب معبودة قلبه من أوربينو مقامه الجديد حتى وفاتها فى سنة ١٥١٩ . وهناك من يرى أن علائق لوكريسيا بالشاعر لم تتعد الصداقة الحميمة ، وأن هيامه بها لم يكن سوى نوع من عبادة الجمال والحب الفلسفى

ولاريب أن بمبو كان فتى حريصاً فطناً حين خشى نقمة الدوق . ذلك أن زميله الشاعر الفتى شتروتسى وجد ذات يوم قتيلاً مخضباً بدمائه (يونيه سنة ١٥٠٨) . وطارت الاشاعة فى الحال بأنه ذهب ضحية لغيرة الدوق وبطشه ، ذلك أنه كان يهيم بالدوقة ، ويشيد بجمالها فى شعره دون تحفظ . ولـكن رواية أخرى تقول إن لوكريسيا لم يكن لها فى تلك المأساة شأن ، وأن الدوق كان يهوى فتاة حسناء هى بربارة توريللى ، وقد تزوجت من شتروتسى ، فقرر الدوق موته لـكى يزيله من طريق هواه

وعلى أى حال فان الرواية تقرن اسم لوكريسيا بكثير من مآسى الحب الخفية التى وقعت يومئذ ببلاط فيرارا ؟

للبحث بقية

محمد عبد الله عنان
المحامى

استدراك وتصويب

قرأت فى العـدد ٩٩ من « الرسالة الغراء » مقال الأستاذ المغربى (بين الفقه الاسـلامى والرومانى) فرأيته تلطف فى الرد على الخواجه ميشيل عند قوله :

« إن أبا حنيفة لم يعترف إلا بسبعة عشر حديثاً » وهى غلطة ظاهرة لا يسوغ لأحد أن يغتر بها ، لأن روايات أبى حنيفة على تشدده فى شروط الصحة لم تـكن سبعة عشر حديثاً فحسب ، بل أحاديثه فى سبعة عشر جزءاً يسمى كل منها بمسند أبى حنيفة ، وقد خرجها جماعة من الحفاظ بأسانيدهم إلى الامام ما بين مقل منهم ومكثر حسبما بلغ إليهم من الأحاديث التى يرويها ، وليس بين تلك الأجزاء جزء أصغر من سنن الامام الشافعى رواية الطحاوى ولا من مسند الشافعى رواية أبى العباس الأصم اللذين عليهما مدار أحاديث الامام الشافعى . وقد عنى أهل العلم بتلك المسانيد جمعاً وتلخيصاً وتخريجاً وقراءة وسماعاً ورواية ؛ فهذا الشيخ محدث الديار المصرية الحافظ محمـد بن يوسف الصالحى صاحب الـكتب الجليلة فى السير وغيرها يروى تلك المسانيد السبعة عشر عن مشايخه ما بين قراءة وسماع ومشافهة وكتابة بأسانيدهم إلى مخرجيها ، وذلك فى كتابه (عقد الجمان) . وكذا يرويها بطرق كثيرة محدث الديار الشامية الحافظ شمس الدين بن طولون فى (الفهرست الأوسط) عن شيوخه سماعاً وقراءة ومشافهة وكتابة بأسانيدهم كذلك إلى مخرجيها ، وذانك الحافظان هما زينا القطرين فى القرن العاشر الهجرى ، وكذلك حملة الرواية إلى قرننا هذا ممن لهم عناية بالسنة . وما تلك المسانيد والـكتب ببعيدة عن متناول أهل العلم ، بل بعضها مطبوع فى الهند . . . إلى غير ذلك مما تراه مفصـلا فى (شروط الأئمة الخمسة للحازمى المطبوع سنة ١٣٤٦)

أبو أسامة

هرافليوس فى المعبد

البطـــل

للأستاذ معروف الارناءوط

كاتب « سيد قريش » وصاحب « فتى العرب »

تتمة المنشور فى العدد الماضى

كان معبـد القديسة هيلانة غارقاً فى الصمت ، فليس فى نواحيه أثر من صلاة ، ولا تنير محارمه ومناسكه هـذه الشموع الكثيرة التى تنير أروقة كنيسة القبر المقدس ؛ وقد جفاه المرتلون والعازفون ، فما يسمع هراقليوس فى عزلته صوتاً يحرك فى نفسه شعور التقى والورع ، بل ليس فى هذا الرمس الذى انحدر اليه ، قسيسٌ يطمئن الى لباسه أو يستريح الى إرشاده ونصحه ، ولو كان هنالك تقىٌّ لخف اليـه وسأله أن يترع نفسه بالعزاء الذى يحبه ويشتاقه

ثم عاف هراقليوس الهيكل وأقبـل على الجُدُر يتجسسها ويتفحصها ويستند اليها ، وهو يحاول الخروج من المعبد ؛ وإنه ليمشى فى لين ورفق حذر السقوط إذ صافحت عيناه نُزْلةً أخرى صورة ذلك الأعمى ، فوقف ينظر اليها على ذلك النور الضعيف الذى يرسله القمر من صدوع فى القبة الفيحاء ، فلما حدّق اليه ارتد به الخاطر فى خفة الوميض الى حياة « موريس » التعس الذى سوّغ الظالم « فوكاس » قتـله مع بنيه فى ليلة من ليالى الخريف الحافزة . وقد كان « موريس » قيصر الرومان وسـيد هذه الدنيا طولا وعرضاً ، فألّب « فوكاس » عليـه الغوغاء وهاجمه وهو نائم فى قصره ، ففر الى جزيرة « انتيغون » على الساحل الهادئ فى بحر « مرمرا » ولحق به بنوه وصحبه ، فما تربّث الطاغية « فوكاس » فى اللحاق به حتى أدركه وقتله شر قتلة بعـد أن غمس يده فى دماء بنيه الخمسة ، ولم يفلت من هذا الموت الكريه غير فتى صغير اسمه : « كريستيا » ، وغير فتاة صغـيرة اسمها : « سافو » ومعهما تلك الأمبراطورة التعسة « تيوفانو » ، ثم ثار الشعب على « فوكاس » الذى لبس التاج ، وكان « هرقليوس » زعيم هـذه الثورة وبطلها ، وكان شعاره وشعار الثائرين الذين صحبوه الى قصر الطاغية اسم الصغير : « كريستيا » ، وكان ينبغى لهراقليوس بعد ظفره بالقاتل السفّاح أن يضع على رأس الفتى تاج أبيه . فما فعل إرضاءً لمطامعه ونزواته ، ثم كان من أمر « كريستيا » أن توارى عن الناس خشـية أن يفتك به أنصار هرقليوس ، وطويت الأحاديث عنه وما عاد رفاق أبيه يذكرون من أمره وأمر أخته وأمه شيئاً !

لقد كانت خيالةُ الفتى الأعمى فى الصورة الماثلة تشبه خيالة كريستيا ، فهتف هرقليوس وهو ينظر اليها : « كريستيا ! كريستيا ! » ثم وضع يده على عينيـه كأنما هو يحاذر ألا ينظر الى الصورة نزلةً أخرى ، ولـكن الذكريات المؤلمة التى تعاورت نفسه فى المعبد المقدس ، ظلت على عُنفوانِها وعنفِها ، فما كان يستطيع أن يُفلت منها ، ثم زحمته هذه الذكرُ الطاغية وانقلبت به الى تلك الليلة الصاردة التى ابتعث فيها بعض رجاله على الذهاب الى « نيكوميديا » تحت الودْقِ المنهمر ، فذهبوا وبعـد قليلٍ عادوا ومعهم فتاة حسناء أحبها قيصر حتى شغفه حبها ، ثم جاءوا بضحيتهم الى القصر وألقوْا بهـا الى سرير فى غرفة ينام فيها هراقليوس وعلى حوائطها صور الصالحين والرسل !

لقـد ناشدته تلك الفتاةُ انتصاراتِه لعله يستبقى عفافها فلا يدنّسه ، فلما لم تنجح فى استمالته أو مضت بيـدها الى صور الصالحين والرسل ، وسألته بحقٍّ هؤلاء ألا يعبث بطهارة فتاة يتيمة كان أبوها من أحسن النافخين الذائدين عن حياض النصرانية ، فما أمالته ذكريات انتصاراته عن أهوائه ، ولا ثنته صور الصالحين والرسل عن منازعه ، فراح يحتبس الفتاة العانية بين ذراعيه المشبوبتين غير ذاكر فضل أبيها النبيغ البطل فى تأثيل انتصاراته وتوثيق غاراته !

اسم هذه الفتاة « بليتزا » واسم أبيها الغطريف « تيوفان » ، ذكر هراقليوس هذا كله فيئس وابتأس وترجف ورعد ، ورأى إلى كوارث حياته كأنها تجتمع فى حضيض البيعة الصغيرة ، فأدرك وهو الذكى الألمى لماذا لم تستقبله الأماكن الطاهرة بمثل تلك الحماسة البالغة التى لقيها فى معابد الوثنية ، فصاح صيحة أليمة وخرج على شفتيه اسم « بليتزا » ، فردد هذا الاسم فضاء المعبد الساكن ! وراح الرجل الذى دخل بيت المقـدس فى حاشية من بطاريق

الجيش وبطاريق الكنيسة يغمس يده فى صدره ، فيمزق ثوبه القيصرى ويرمى بدرره وذهبه الى حضيض المعبد ، وشفتاه تتحركان بذلك الاسم الذى ما كان يفكر فيه قبل هذه الليلة :

بليتزا ، بليتزا !

كان هذا الاسم أول ألحان هراقليوس فى الأماكن الطاهرة ، ولكن هذا اللحن الشجىّ لم يلبث أن استحال إلى نواح مذيب ، فجعل الرجل المنتصر على الوثنية ينشج ويده تتجسس العمدَ الرخامية ، ثم جلس على الأرض ووارى عينيه حتى لا يرى الى هذه الصور !

ولما فتح عينيه وردد نظراته فى الجدار القائم إلى يساره أخذته صورة جديدة لم ينظر اليها من قبل تَحدّق فيها على زهده فى الصور وابتعثته هواجسه الثائرة على الوقوف حيالها وفمه لا يزال نَدياً بذلك الاسم الذى ألقى به إلى جوف الكنيسة الكبرى ثم ترعد وترجف وانفلت من صدره صياح أليم وارتد القهقرى مسفوعاً عانياً ، وأخذت الصورة التى أبصرها قائمة إلى يساره تتحرك وتهتز . ثم جفت الجدار ومشى نامها فى صف واحد إلى ناحية هراقليوس ، فكان كلما تراجع أمام أشباحها أخذته هذه الأشباح أخذ عزيز مقتدر ومنعته أن يشق طريقه !

فأى صورة هذه ؟ وكيف قدر لأشباحها أن تترك مكانها على الحائط لتمشى فى حضيض المعبد كما يمشى الناس ، وتنظر بعيون فيها من وميض الحياة وإشراقها ما فى عيون الأحياء من وميض وإشراق !

ولما أوشكت هذه الطيوف الخرساء أن تزحمه حدق فيها عن كثب فاذا هى أربعة أشباح أحدها مشوه الخلقة ، محمرّ الصدر ، تضطرب فى وجهه عينان غائرتان وإلى جانب هذا الشبح ثلاث نساء ، فيهن امرأة عمياء على وجهها الصبيح شىء كثير من النعماء ، وكانت العمياء تلبس السواد ، وقد سدرت شعرها الأشقر على كتفيها وراحت تستند إلى ذراعى فتاة ما تزال حديثة عهد بالحياة ، فما قدر هراقليوس أن يتعرف إلى خيال المرأة الثالثة ، فصدف عنه وتهافت على العمياء ينظر اليها فى خوف وإشفاق ، وأخذ فمه يردد اسم « بليتزا » بينما ضياء القمر لا يزال يتسرب من صدوع فى القبة إلى الحوائط والجدر ، وبينما ملابس الأشباح قد حاكت فى حمرتها وصفرتها وزرقتها ألوان الفسيفساء التى أخذت تخطف على العمد والأقواس والقناطر ، ولقد خيل إلى هراقليوس أن الصورة التى خرجت من الحائط الشمالى ما عادت تمعن فى اللحاق به فسخر من هذا الجنون الذى تولاه ، وتضاحك حتى لقد سرى ضحكه إلى أنحاء المعبد وأدرك أن قيصر الرومان قد أفرط فى مخاوفه ، وما ينبغى له أن يفرق من صورة تراءت له على الرخام ، ولما اطمأنت نفسه جعل ينظر إلى يده فاذا عليها ذلك الدم الذى تسايل من جبينه ، وللمرة الأولى أخذته عزة الزعيم الغطريف ، فأزرى بالشعور الذى رافقه فى مطافه ، وهو شعور يشعر به الدهماء ، ولا يشعر به الزعيم تحت اللواء

وفيم هذا الخوف ؟ ولماذا تميد نفسه لذكريات الماضى ، وليس فى هذه الذكريات ما تنكره السلائق والشيم ؟ نعم ، لقد أَحبّ فى مواضى أيامه امرأة اسمها « بليتزا » ، وأحب القياصرة من قبل نساءً من الشعب ، ثم ماتوا ، ولم تقرضْ نفوسهم المخاوف ، وحيث قد أحبّ هراقليوس فتاة من بنات الشعب فأولى له أن يطمئن إلى هذا الحب ثم أولى له أن يطمئن إلى غده ، لأن « بليتزا » التى أحبّ صارت فى الغابرين .

ولما رَفعَ رأسهُ شامخاً مستكبراً ، وأنحى ناحية الباب يريد الافلات من هذه الهوّة الراعبة ، لحق به الأشباح فى صف واحد ، فما حفل بهذا المشهد ، وخُيل إليه أن اهتزاز الصورة ما كان غير وليد تصوراته وسبحه ، ولكن المرأة العمياء أدركته عند الباب وهتفت باسمه « هراقليوس ! »

وفى هذه الفينة لم تفته الحقيقة الراعبة فعضض يده من جزع وإشفاق وسرى جَرْسُ العمياء إلى نفسه كالصليل ، فتلفت فاذا التى تصورها خيالا تقبض على يده فتناديه : هراقليوس ! هراقليوس ! انظر إلى وجهى ملياً وقل لى ماذا رأيت عليه ؟

وأخذت « بليتزا » تجذبه إلى ناحيتها فشعر بحرارة أنفاسها ووقف ينظر إليها مبهوتاً حائراً ثم أطبق عينيه كأنما هو يريد ألا يرى إلى صورتها الشجية ، وظلت « بليتزا » تستجيشه وتحركه وتذكره الماضى حتى أفاق وفتح عينيه على الصورة الجاهمة صائحاً :

— بليتزا ! بليتزا ! قالت :

— نعم بليتزا ، تلك الفتاة التى جئت بها من حجرتها فى

« نيكومديا » إلى حجرتك فى القصر ورحت بها إلى سريرك ، فتوسلت إليك ألا تعبث بعفافها عن كثب من صور الصالحين والقديسين والرسل ! نعم أنا بليتزا ، ولست خيالا كما توهمت ، فاذا كنت لا تزال فى ريب من أمرى ، فهاك يدى فجسها ، ودونك صدرى فاستمع إلى وجيبه ، وقل بعد ذلك إذا كنت لا تزال تحلم أم أنك تؤمن بهذا الذى ترى !

لقد كان البرد الشديد ، وهذا الخوف الذى تولاه ، وذكريات الماضى التى تجددت فى نفسه ، وانبعاث بليتزا فى المكان النابى الملىء بأوجاع النصرانية وآلامها ، وهذه الأشباح التى رافقته فى مطافه ، كان هذا كله مثار أحزان جديدة فى نفسه ، فما عاد يستطيع أن يجنب عينيه النظر إلى رفاق بليتزا ، فرأى إلى « نفتالى » ثم إلى « بنيامينا » ثم إلى « مارية » ! وفتح فمه ليتكلم فما خرج لسانه على شفتيه ، فأومض بيديه كأنه يريد أن يسأل المرأة العامدة عن رفاقها ففطنت الى أمره وقالت له :

ـ هذه الصغيرة التى ترى هى ابنتى وقد أسميتها « مارية » تحبباً الى مريم والدة السيد المسيح ، ولقد تسألنى عن أبيها ، ألا فاعلم يا مولاى أن أباها هو هذا الرجل الذى سالت نفسه على حوائط الكنيسة فى هذه الليلة القمراء ! واسمه هراقليوس ومكانه فى قصر «الشالسيه» عند شاطئ البحر الأزرق فى القسطنطينية !

فانطلق لسانه ساعة رنّ فى سمعه اسم مارية وانثنى صائحاً :

ـ ابنتى ! ابنتى ! فقالت العمياء :

ـ ابنتك وابنتى معاً ! . . . فقال :

ـ وهذا ؟ فصاحت العمياء :

تقدّم أيها السيد نفتالى وقل له أىّ رجل أنت ، واحسر له عن أمر هذه الفتاة التى هى ابنتك ، فتقدم ذو القروح من قيصر وكشف عن صدره صائحاً :

امثلك أيها المولى الذى تفيّأ أعلام الحرب . واستمع لأناشيد النصر من شواطئ أفريقية الى شواطئ البحر الزاخر فى بيزنطية ، لم تنس ذلك الرجل السرى الذى كان يجوب شطآن البحر الأحمر باسمك ، ثم يفىء الى دار ملكك وقد ملأ سفنه بطيوب الهند ونفائس عدن

كان الناس يعيدون ذكرى ليلة الميلاد ، وكنت فى جملة الذين أمالهم التُّقى والورع الى الصلاة ، وكان الناس يرون فى « نفتالى » وذلكم هو اسمى البغيض الكريه ، سيّد بلاد الجليل فى ثرائه وترفه ، فحسدنى الجميع ، وأخذتهم الغيرة من ذيوع أمرى ، فلما صليت مع المصلين راحت عيناى تنظران الى صورة للسيد الناصرى ، فألقيت إليها بنجوى القلب ، وسألت الرجل الذى طربت جبال الجليل لصوته أن يباركنى ، ثم رجعت الى منزلى لأمضى ليلة العيد حيال طفلتى وامرأتى ، وفى الصباح أحاط الجند بمنزلى وتبارى الناس فى سبى ولعنى ، ثم خرج بى الجند الى الميادين ، وقرئ على أمر قيصر باحراق ، لأننى نظرت فى صلاتى الى صورة السيد ، ولأن هذه الصورة وجدت مطروحة على أديم المعبد ، ثم استبدل قيصر التحريق بالتغريب ، وألقى بى رجاله فى القفرة النائية بجوار البحر الميت ، وماتت امرأتى من الألم والغمّ ، وعاشت ابنتى عيشة لا تشرّف حياتها ! . . . هذا هو كل أمرى فما أظنك نسيت نفتالى ، ولا أراك نسيت « بنيامينا » ابنته التعسة

لقد جئت هذا المكان الطاهر من مكانى السحيق البعيد ، لأرى اليك وأسمعك دعاء وعيته وحفظته ، ثم علمته ابنتى لتجهر به أمام السيد الذى رد الى المحزونين والماحلين ما هم فى حاجة اليه من شباب وعافية ، وطلاقة وبشر . انظر يا مولاى الى ابنتى ! لقد كانت فى عفافها ونقائها كهذه الصورة التى تمثل السيّد فى طفولته ، فعبث بها رجالك ، هؤلاء الذين جابوا العالم كله باسم النصرانية ، فلما رجعوا الى مهدها رجعت اليهم سلائق الوثنية فقتلوا البرىء واضطهدوا البريئات !

ولما سكتَ « نفتالى » ، قالت « بليتزا » : « لقد حرمنى الألم والنفى والسهد ضياء عينىّ فما نعمت بالنظر إلى محيّا الطفلة التى انبثقت من دمى ، وعشت فى « عين كارم » عيشة راعبة لا تليق بمن كانت ابنةً لتيوفان البطل ! وكانت آلامى تنمو بجانب نموّ ابنتى حتى كرهت الحياة ومللت مقامى بين الأحياء . ولكن صوت الطفلة التى أحببت جنبنى موتاً ما كنت أجد فى غيره راحةً لنفسى ، ثم نذرت لأمضين إلى المسيح فى مهده فأسمعه بثى ، فاذا لم يسمع انطلقت إلى لحده وأيقظت رفاته

وكنت عالمةً بوصولك الوشيك إلى الشام فرجعت أسأل عنك فاذا قيل لى إنك بلغت فى زحفك شواطئ الفرات ، حلّق وهمى فى فضاء النهر الزّاخر ، وطفت هواجسى ، فلمنتك وأسرفت

فى اللمن ، وإذا قيل لى إن قيصر وطىء البوادى سرب خيالى على الرمال وقذف فمى البغض والحقد وانى لأقسم لك أن بغضى فى احتدامه ونورته مقتبسٌ من سموم الرياح الهوج ساعة ترتمى على الرمل فتذروه فى كلّ فضاء ! فاذا قيل لى إنك نزلت فى منازل عدوك عنـد المدن الوارفة الظلّ نزل بى شعورى حيث أنت ورفعت صوتى لأمنعك من غناء جندك الظافر ، وهكذا كنت أتبع ظلك وأترسم خطوك وأنا فى القرية المتواضعة فألحق بك إلى الأنهار والرمال وإلى المدن حتى أطلّ شبحك على المدينة المقدّسة وسمعت عزيف أبواقك ولم يفتنى صليل سلاحك لخفوت مكانى فى « عين كارم » وجئت « بيت لحم » فدعوت عليك ورافقت موكبك إلى كنيسة « القبر المقدّس » ، ومازلت أرقب خطوك حتى خلت الـكنيسة من المصلّين والزائرين ، وحتى رأيتك تنحدر إلى محراب القديسة هيلانة فسبقتك إليـه ووقفت مع رفقى فى الألم والعذاب أنظر بعينىْ قلبى إلى نفسك السائلة على الحوائط والجدر ! هراقليوس ! هراقليوس ! كيف أنت ؟ كأننا لم نفترق وكأن الأيام لم تفصل بينى وبينك وكأن تلك الحجرة التى ازدانت بتصاوير الصالحين والرُسُل ، مازالت تحتوينا معاً ! ولـكن مصاير الناس تماورها الحذف والتبديل فقد كنت لسنين خَلَتْ ذلك الرجل المزهوّ بانتصاراته ، وكانت « بليتزا » التى فزعت إلى الناصرىّ فى الليلة الليلاء تنظر فى كثير من الزهو إلى مصرع ذكائك ! . . هراقليوس ! ناشدتك الله أن تقول لى كيف أنت ؟

***

لم يكن فى ميسور هراقليوس أن يرفع عينيه الى هذه الأطياف فلقد برّح الرعب به تبريحاً أليماً ، وأنمى يأسه وشجونه خيال بليتزا ، وخيال ابنتها واستجاش جواه ذلك الصدر القريح الذى حسر نفتالى عنه ، فتقاصر وتصاغر وراح جاثياً على قدمىْ العمياء مستغفراً تائباً ، فسمعت مارية ابنته صلاته الهامسة ، فدنت اليه وقالت : أبى ! أبى ! فما سمع نداءها الرقيق الشجى ، بل ظل يتخافت بصوته ، بينما كان نفتالى وبنيامينا يصلّيان فى زاوية المعبد صلاةً لم يخالطها كثير أو يسير من البغض ، وبينما مارية الصغيرة تنظر الى أبيها الدميع بعينين رحيمتين ربيئتين

وكان ضياء القمر لا يزال يتسرب من صدوع فى القبة الى أرض المحراب ، فينير الصور التى على الحوائط والجدر . ثم ينثر أشعته الخفيفـة على وجوه الأربعة الذين أعوا نذورهم فى الليـلة الرهيبة التى أرادها هراقليوس خاتمة صومه وحجِّه !

رَزَحَ قيصر تحت وقر هـــذه الصور القاتمة ، فأغمى على الحجارة ، وسبحت نفسه فى عالمٍ قصىٍّ بعيـدٍ ، فلما استوثق نفتالى من إغمائه تلفت الى بليتزا وقال لها : « لنذهب ياسيدتى قبل أن يستفيق ، فلقد قضينا نذورنا ولم يبق لنا ما نعمله فى الأماكن الطاهرة ! فقالت بليتزا : « أنرجع الى البحر الميت أيها السيد نفتالى ، قال : نعم سأرجع الى منفاى مع ابنتى ، قالت : فاذا أبصرك الحرس فماذا تقول ؟ فقال : لن يبصرنا الحرس ياسيدتى ، لأننا سنخرج من بابٍ خفىّ ، وما أكثر الأبواب الخفية فى هذه المحاريب ! فقالت : افعل ما تريد فعـله حماك الله ورعاك ! ثم نظرت الى هراقليوس النائم نظرةً راثية وألقت بنفسها بين ذراعىْ ابنتها هامسة : لقد عفوت ! . . . » فبرقت أسارير الصغيرة من الفرح وقالت :

ـ إن الله قد عفا يا أماه !

ولم يشأ نفتالى أن يكون فى معزلٍ عن هذه الرحمة التى خالجت قلبى الأمّ والبنت ، فأخذ بذراع ابنته وقال لبليتزا :

ـ لقد عفوتُ ياسيدتى وعفت ابنتى !

وفى خفة البرق صعد الأربعة سُلّم المحراب فاستقبلتهم جميعاً سُدْفَةٌ فاحمة تغشى الـكنيسة الـكبرى !

دمشق — معروف الارناءوط

تطور الحبشـــة

لكاتب مطلع

الحبشة بلد المتناقضات إلى أقصى حد ، فهى تجمع بين مناخ المنطقة الاستوائية ومناخ جبال الألب ، وبين الخشونة والرقة ؛ وهى أفريقية الموقع ، ولكنها وليدة التقاليد العريقة التى تعاونت على إيجاد أوربا . والامبراطور يحمل فوق رأسه تاج سليمان ويحكم أقواماً حربيين يعيدون ذكرى رجال الأقطاع فى العصور الوسطى ، وفوق ذلك كانت الحبشة موطن قبائل الجالا أثناء حكم الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية ، كما أنها غزت مصر قبل المسيح بثمانية قرون

ولقد ساعد اختلاف الجو وتراوح ارتفاع الأرض عن سطح البحر بين ٩٠٠ و ٤٠٠٠ متر على اختلاف الأجناس . ولعل هذا الاختلاف فى الأجناس كان السبب فى اطلاق العرب على هذه البلاد لفظ الحبشة ، ويعنون به (تعدد الأقوام) ، فإن الواقع أنك تجد كل أنواع الأجناس البشرية فوق هذه الهضبة العالية المنفصلة عن العالم بأسوار شامخة وصحار سحيقة . والأحباش يتكونون فى الأصل من قبائل الجالا والصومال ، ثم كان نتيجة اكتظاظ القصور بالجوارى السود أن نشأ جنس ضارب إلى السواد . أما قبائل الوالوس فهم يهود يدعون أنهم من نسل أصحاب ملكة سبأ ومن التجار الذين كانوا يتاجرون أيام سليمان . وكل هؤلاء الأقوام يتكلمون لغات مختلفة تقرب من ستين لغة فصيحة ومائتى لغة دارجة . على أن أكثر اللغات تداولاً هى اللغة الأمهاريكية وهى لغة اليهود الأولى بعد اللغة العربية ، واللغة التيجرية [1] المسماة (لغة المسيحيين) ، أما اللغة الجيزية فهى اللغة الأدبية التى ترجمت إليها التوراة . على أن من يحسنها من أبناء الشعب لا يتعدى عدداً يسيراً . ويجب أن نفهم من هذا الاختلاف الظاهر تاريخ هذه الأمة التى استطاعت حتى الآن أن تحافظ على استقلالها بفضل استعدادها الحربى والمنافسات القائمة بين أعدائها

إن الأحباش على رغم اختلافهم يشتركون جميعاً فى الاستعداد الحربى الذى هم مدينون به لطبيعة بلادهم . فالجبل يخلق أجناساً أقوياء البنية ، ولقد روى مسيو مونفريد أنه كثيراً ما أرسل سعاة يحملون رسائل الى دير داؤوا حيث كان يسكن تفرشر ، وكانت المسافة ثمانين كيلو متراً خلال الجبل والوديان المحرقة (فكان الرجل يرحل عند الصباح حاملاً خطابه فى عصا مشقوقة ، ويعود بالجواب فى مساء اليوم التالى ، فكأنه قطع مسافة ١٦٠ كيلو متراً فى ست وثلاثين ساعة . وفى المرة الأولى كنت عظيم الدهشة والحيرة ، إذ بينما كنت أنتظر من الرجل أن يلهث أمامى من الأعياء إذا بى أراه بعد ساعة يشترك فى الرقص دون أن تظهر عليه دلائل التعب . ومما يبعث على العجب أن أولئك الرجال يقومون بهذه الرحلات الشاقة وطعامهم حفنة من القمح وسيقان من الذرة يقتلونها أثناء الطريق ويأكلونها أثناء جريهم ، أما نساء بعض الأقاليم فهن يقطعن كل يومين مسافة ٣٥ أو ٤٠ كيلو متراً تقريباً حاملات على ظهورهن حملا يبلغ خمسين كيلو ، وذلك لقاء ثمانية أو عشرة قروش ، أو ما يعادل فرنكين وخمسين سنتيما تقريباً ، وعندما يعرض عليهن فى منتصف الطريق شراء ما يحملن بالثمن الذى سيبعن به فى دير الداؤوا يرفضن خشية أن يفقدن بذلك نصف قرش . وأولئك التاجرات اللواتى لا يتعبن هن اللواتى يصحبن الجنود فى غزواتهم ، فالجيش تمده ذخيرة من النساء فيسهلن له أكلاف الحياة الضرورية ، ويحملن أدوات المنازل المتنقلة . وحالة الجيش المعنوية تكون دائماً على جانب عظيم من القوة ، والجندى لا يعرف نظام المعسكرات ، وهو يحيا حياة كاملة الحرية ، فينزل فى أى مكان كأنه فى داره الخاصة ؛ والانجليز والطليان يعرفون بالتجربة القيمة الحربية للشعب الحبشى : يعرفها الانجليز منذ الاستيلاء على مجدلة واخلائها عام ١٨٦٨ ، ويعرفها الطليان منذ هزيمتهم فى دوجالى عام ١٨٨٧ ، وفى عدوه عام ١٨٩٦)

وعواطف هذا الشعب من نوع شجاعته أثناء العمل وأثناء القتال ، وهى ترجع الى تمسكه الشديد بالعوائد والمعتقدات ، وقد دخلت البلادَ مع الديانة المسيحية منذ القرن الرابع . ويُروى أن القس فيليب الذى كان من أوائل المبشرين المسيحيين هو الذى نصَّر رئيس خدم أميرة حبشية (ففتح بذلك فى الحبشة السبيل للديانة المسيحية) . ومن المعلوم أن القرن الخامس كان شديد الاضطراب بسبب المسائل الدينية ، إذ قامت المناقشات حول

(١) نسبة الى ولاية تيجرى

مريم إن كانت أمّ الله أو أمّ المسيح فقط . كما أن مجلس إفيز الدينى طرد نسطورياس الذى دامت هرطقته وانتشرت حتى يومنا هذا . وفى نفس ذلك الوقت أعلنت عدة مجالس دينية على التوالى إيمانها أو إنكارها لطبيعة السيد المسيح الواحدة أو المزدوجة . وقد أعلن مجلس الـ ٤٥١ عداوته لفكرة طبيعة السيد المسيح الواحدة ، واستند المعلنون فى قرارهم إلى الكنيسة المسيحية فى مصر التى استطاعت خلال القرون أن تحافظ على استقلالها تحت اسم الكنيسة القبطية . والعلاقات بين مصر والحبشة ترجع إلى زمن بعيد مما كان سبباً فى أن تصبح الكنيسة الحبشية فرعاً من الكنيسة القبطية فى مصر ، فرئيس الكنيسة المسيحية فى الحبشة الملقب بالأب (أب السلام) إنما يعينه بطريق الاسكندرية الذى يقيم فى القاهرة ؛ ولقد فشلت محاولة البابوية ضم كنيسة الحبشة إليها . وقد تمكن البرتغاليون فى أوائل القرن السادس عشر أثناء كفاحهم مع المسلمين فى سبيل السيادة على طريق الهند من ارسال بعثة كاثوليكية ، ولكن سيطرة الجزويت لم تدم ، واستمادت الكنيسة القبطية فى الحبشة علاقاتها مع بطريق الاسكندرية عام ١٦٣٣ . على أن حوادث جديدة قامت فدلت على أن السياسة لا تترك مطلقاً الفرصة لاستغلال العواطف الدينية مما أحدث تغييراً فى أفكار البلاد الحبشية . إذ فى ٢ يونيو من عام ١٩٢٩ استطاع أخيراً بطريق الاسكندرية بعد أجازة دامت ثلاثين شهراً أن يرسم الأب كيرول سيداروس ، وكان عليه فى الوقت نفسه بالرغم منه أن يرسم خمسة أساقفة حبشيين ، فكان فى هذا الحادث الذى لم يسبق له مثيل تحديد لتقدم الاتجاه القومى فى الحبشة ، فتوترت العلاقات بين النجاشى والبطريق ، وكان الدليل على ذلك تلك الرحلة التى قام بها الأب الى الاسكندرية فى مصر من عام ١٩٣١ . وقيل يومئذ إنها لتمضية مدة النقاهة بعد الابلال من مرضه . وهناك حادث آخر عظيم الخطر هو زيادة نفوذ الفاتيكان ، فقد قامت محاولات منذ سنين طويلة لفصل أرتريا عن الكنيسة القبطية الحبشية . وبطريق الاسكندرية يواصل رسم القسس فى هذه البلاد ، على الرغم من أن قسس أرتريا يستمدون الأوامر الدينية من رومة لا من أديس أبابا . ولا شك أن الدعاية الدينية تصحب التقدم الاقتصادى وتقويه

وللقسس حق التزوج مرة واحدة . وهم على العموم على جانب عظيم من الجهل . ومعلوماتهم لا تكاد تتعدى أمور العبادة ، وللقسيسين والرهبان سلطان عظيم على الجماهير الجاهلة التى كان يحتم عليها سلطانها المدنى الذى نالته منذ القرن الثالث عشر الدفاعَ عن حقوقها ومصالحها . واقد أصبح رئيس الأديرة الأكبر — وكانت مهمته فى البداية التفتيش على الأديرة — الرئيس الحكومى للأب والكنيسة . والأب يكون دائماً أجنبياً يعينه بطريق الاسكندرية ، ورئيس الأديرة الأكبر يكون دائماً حبشياً تعينه السلطة المدنية . وسلطان رجال الدين شديد النفوذ عظيم القوة ، حتى أنهم يمتلكون جزءاً كبيراً من الأرض المزروعة وقرى بأكملها ، وعلى حسب العرف الجارى فى البلاد ينال المالك خمس محصول الأرض ، ومن ذلك يستطيع المرء أن يتصور المعارضة التى يصادفها مشروع يرمى إلى تغيير نظام مضت عليه أجيال طويلة . وكل حياة الأحباش تقوم على الايمان بالمعجزات وتقديس القديسين والملائكة وعلى الفرائض الدينية : كالاعتراف بالخطايا والصيام القاسى والغفران ، والحج الى بيت المقدس واجب يُكفِّر عن الذنوب . وقد أخذت الديانتان المسيحية والوثنية يؤثر تدريجياً بعضهما فى بعض ، فديانة قبائل الجالا الأفريقية الأصل قد تأثرت بالمسيحية . ومع ذلك فقد تأثرت أيضاً الديانة المسيحية القبطية بالخرافات والسحر ، وقد امتزج الايمان بآله ابراهيم والمسيح بضروب الايمان التى كانت شائعة قبل التاريخ ، كتعظيم الماء والأمواج والغابات والأشجار المقدسة والشمس ، وفى الوقت الحاضر يتقدم الدين الاسلامى فى الحبشة كما يتقدم فى كثير من البلاد الأفريقية

وهكذا نرى الحبشة تبدو حكومة من حكومات القرون الوسطى التى كان يحكمها الكهنة نيابة عن الله . فهنالك لا يمكن أن يحدث شىء لا يريده رجال الدين ، والحاكم الذى يأمل فى السلطة العليا يجب أن يتأكد قبلا من تأييدهم ومعونتهم . على أن الدهماء ورجال الدين الجهلاء يستفيدون من تلك المدنية القديمة التى يمكن أن يقال إنها بدائية وفى نفس الوقت مهذبة . فمبدأ الصدقة المسيحية قد تغلغل فى أعماق الغشاء الكثيف الذى يغشى القلوب . حتى أن فضيلة إعطاء الصدقات التى كانت واجباً

أضحت غريزة . وهذه المدنية الدينية القديمة تنتج رجالاً أكفاء . ولقد روى مسيو دو مونفريد فقال : (عندما بلغنا قمة الهضبة قدم إلينا رجل حبشي تغطى رأسه عمامة بيضاء كالتي يلبسها الرهبان . كان وجهه دقيق التقاطيع عليه مخايل المهابة والهدوء . وكان هذا الوجه طويلاً مسنوناً تطفر منه نظرة تائهة شاردة . وقد تناول يدى بحركة لا شعورية كأنه أحد أصدقائي . لقد كان ذلك الرجل هو الراهب حنا ممثل الكنيسة والحارس للأمير المخلوع . وكانت عباءته من الكتان الغليظ ، وكان عارى القدمين ، لكن يده كانت ناعمة رقيقة . وكان يتكلم بصوت منخفض لكنه مؤثر . ونظراً لأنى أعرف الى أى حد يتمتع رجال الدين الأحباش بقوة تختفى وراء ما للأباطرة من مظهر السلطان ، فقد دهشت دهشة عظيمة لذلك المظهر المتواضع الذى يبدو به ذلك الرجل الضئيل ذو العمامة البيضاء المصنوعة من القطن . ولم يكن يتبعه حاشية ولا حرس خاص ، إذ لم يكن فى حاجة لذلك ، لأنه أينما ذهب انحنى أمامه كل من صادفه مظهرا الاجلال والاحترام . وجاء فى ذلك الوقت دِدْجاز جوبّانا يرى الأعمال الجارية . وكان راكباً بغلته السوداء الموشاة بالفضة ، وكان يحف من حوله خمسون جندياً ، وهو رافع بندقيته على كتفه . حقاً لقد كان منظره رهيباً وهو ينظر نظرة النسر ملتحفاً بردائه الرمادى . ها قد اجتمع الراهب وقائد الحرب . وقد يقول قائل : قد اجتمع عدوان فى مكان واحد . على أن رجل الكنيسة هو أعظم الأثنين رهبة وأشدهما خطراً . وهو نفسه يشعر بذلك ، فكان يبتسم ابتسامة هادئة . ومستقبل الحبشة يقف على هذين الرجلين ، وشقاؤها يرجع الى أن كلاً منهما يستخدم الآخر ويستعين به . فرجل الحرب يستعين برجل الدين على الاستيلاء على عرش ملك الملوك ، ورجل الدين يستعين برجل الحرب على الاحتفاظ بسيطرته على النفوس وبثروته العقارية . على أن وحدة البلاد المعنوية أثناء ذلك تتفكك . والأجنبى رابض أمام جميع أبواب البلاد

وتاريخ الحبشة السياسى يكاد ينحصر فى حروب دائمة بين كبار رجال الأقطاع فى سبيل الفوز بتاج سليمان . وفى اللحظة التى تقاسمت فيها أوربا القارة الأفريقية ، وجدت الحبشة فى مينليك الرجل الذى استطاع صد أول هجمة على البلاد . ولقد عرف ذلك الأمبراطور العظيم كيف يفرض سلطته على الجميع بفضل نشاطه الحربى وحنكته السياسية . وكان أول همه تأييد سلطته فى الداخل وإغلاق أبواب البلاد فى وجه الغزاة . على أنه وقف عند ذلك الأمر ولم يتعده . إذ كان من الواجب الاستفادة من الانتصار المزدوج لينظم البلاد على الطرق الحديثة فى الانتاج والتبادل . ولكن الأمبراطور العظيم لم يستطع أو لم يرد ذلك . وقد يكون الموت عاجله قبل أن يتم ما أراد . ولقد حدثت قريباً حوادث عدة تبين أن النجاشى ليست له على بعض الأقاليم البعيدة إلا سلطة اسمية ، وأن هناك كثيراً ممن يدعون الحق فى عرش ملك الملوك . ويقال إن النجاشى يفهم تماماً حقيقة الموقف ويعرف ما يجب أن يفعله . على أن هناك عقبات تقف فى طريقه ، ذلك أن من الواجب اليوم أن يبذل جزءاً من قواه فى سبيل المحافظة على سلطته ، وأن يطلب مساعدة كل أولئك الذين يشلون حركته فى كل مشروع اصلاحى ، وذلك فى الساعة التى تُهَدَّد فيها مملكته بغزوة استعمارية جديدة . ومنذ عصر مينليك ، أى منذ خمسين عاماً ، تغيرت فى العالم وفى الحبشة نفسها أمور كثيرة . فدخلت افريقيا كلها فى تيارات التجارة العالمية الكبرى ، وصحب ذلك كل ما يلزم من الضرورات والآراء الجديدة . فالسيارات والطيارات زادت فى طرق المواصلات ، ولم تعد هناك قوة إنسانية تستطيع أن تطيل تلك العزلة التى ملكت الحبشة عدة قرون ، إذ كان لزاماً عليها أن تستعد لتأخذ مكانها بين سائر الشعوب . وكل ما فى المسألة هو معرفة ما إذا كانت تستطيع ذلك بمفردها مستعينة بوسائلها الخاصة ، أم هى — نظراً لشدة شبهها بمراكش — فى حاجة إلى دولة تحميها

إن استقلال كل دولة من الدول يقف من جهة على الدولة نفسها ، ومن جهة أخرى على الدول المجاورة . ولقد كان لمينليك الحظ فى استطاعته الاستفادة من المنافسات الاستعمارية فى الوقت الذى كان يوجد فيه كثير من الأراضى الافريقية القابلة للاستعمار . والآن انتهى التقسيم . وبدلا من البحث فى هذه لم يبق إلا الابتداء فى استقلال الحبشة . ويضاف إلى ما سبق أن المنافسات على هذه البلاد يلوح عليها الهدوء ، وأن الاتفاق بين الدول

المتنافسة محتمل الوقوع . ومن هنا يعظم الخطر على الحبشة

وهذا الخطر الأجنبى يجعل المهمة الواجب القيام بها فيما يتعلق بالسياسة الداخلية تفوق قدرة رجل فرد مهما كان نابغاً . إن من الواجب إزالة الفوارق القائمة بين المدنية البدائية الدينية الساذجة والمدنية الغربية المادية . والواقع أن الحياة فى الحبشة قد تطورت ، إذ من العسير أن يعيش شعب بأكمله عيشة الزهد والتقشف . ومن المحال إقامة روابط طبيعية دائمة بين الأفراد والجماعات من غير وجود مبادئ مشتركة بين الجميع . من الحق أن المدنية الغربية تتضمن كثيراً من الرياء ، فالرق على شكله الذى نراه فى الحبشة ليس أفظع من العمل الذليل فى الصناعة الكبرى ، إلا أن فى الحبشة نظماً معينة هى تراث الماضى العتيق يجب أن تختفى من الوجود . وسواء دخلت الحبشة عصبة الأمم أم لا فهى لا تستطيع فى العالم الحديث الابقاء على قانون التعذيب وعلى السطو والنهب والرق . على أن المرء يتساءل : على أية قوة منظمة يستطيع أن يستند ملك عظيم للقيام على خير ما يرام بالاصلاحات الضرورية إذا كان السكان لا يشعرون بالحاجة إليها قبله ؟ إن رجال الطبقات العليا الذين يملكون الأرض والسلطة لا يرغبون فى تغيير يظنون أنه سيفقدهم كل شىء ولا يربحهم شيئاً . ذلك أنهم لا يطلبون إلا أن تزيد ثروتهم يوماً بعد يوم . وليس عند الطبقات العاملة فى مختلف الأقاليم فكرة ما عن إمكان تحسين حالهم . واستغلال القوى للضعيف كأنه قانون طبيعى لا يجب أمامه إلا الاستسلام والخضوع . أما رجال الدين والرهبان وهم أصحاب السلطة العليا فأية مصلحة سيجنونها من نظام جديد ؟ بقيت الشبيبة المتعلمة القليلة العدد التى تطلب العلم فى جامعات أوروبا وأمريكا ، إنها تعود إلى بلادها خشنة الطباع كارهة للأجانب . على أن الفكرة القومية وحدها لا تكفى ، إذ يجب أن تستخدم هذه الفكرة فى تحقيق أمر من الأمور أو مبدأ من المبادئ . على أن المظنون أن استخدام هذه الفكرة فى سبيل خدمة الحبشة سيكون أقل من استخدامها فى سبيل الاحتفاظ بالحالة الراهنة من اقتصادية واجتماعية ودينية . وأمام هذه الحالة ، فان حدوث حرب ولو انتصرت فيها الحبشة ، سوف لا ينتج إلا نصراً مؤقتاً . ليس فى الحبشة فلاح واحد يقارن بين ما يحدث فى أسواق بلاده وطرقاتها وبين الحالة التى يستطيع أن يراها وراء الحدود . أما حال العقيدة الدينية فمن المحقق أن الكنيسة القبطية فى مصر تسودها الآراء الحديثة ، وأن المعتقدات القديمة تفنى شيئاً فشيئاً تحت تيارات العقل المستنير . ومن المحتمل أن هذه التيارات والاتجاهات ستظهر أخيراً عند مسيحيى الحبشة نظراً لموقع البلاد الجغرافى

(لموا) ترجمة ع . ك

الأدب العربي في المغرب

أبو العباس أحمد المقرى

١٠٤١ هـ — ١٦٣١ م

بقلم عبد الهادى الشرايبى

— ١ —

إننا نشاهد ، بملء الأسف ، كثرة مفكرة من شباب المغرب ورجاله ، يساور نفوسهم ضعف الثقة وارتياب مؤلم في ماضيهم القوى وتراثهم الجليل . فنجدهم لذلك يتأففون ويضجرون كلما عرضت عليهم صورة من ذلك الماضى الزاهر ، ويكيلون للمغرب والمغاربة عواصف من النقد اللاذع والسخط الشديد.

ولعل منشأ ذلك ، فيما نرى ، هو الجهل بما للمغرب في عصوره الغابرة من روعة وسمو يفوقان كثيراً ما يتخيله أولئك في تاريخ المغرب .

ولو أنهم عمدوا إلى الوقوف على بعض من تلك الآثار الجليلة ، واستعراض النماذج المتناثرة في ثنايا الكتب ، لوجدوا في سجل المغرب من الصور الطريفة الرائعة ما يكون غذاء لروحهم المجدبة ، ورياً لنفوسهم الظمأى !

ولعلهم إن فعلوا فتذوقوا من ذلك الجمال الحى الخالد ، ونهلوا من تلك المتع اللذيذة ، فسوف يجدون فيه المرهم الشافى لنفوسهم المريضة بداء اليأس ، ويستبدلون بتشاؤمهم القاتل تفاؤلاً

— ٢ —

وها نحن أولاء نجلى لهم اليوم صورة حية من ذلك التراث المجيد ، وننتزع لهم من بين الصور الكثيرة مثلاً سامياً لنهضة الأدب العربي في المغرب في القرن الحادى عشر :

شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد المقَّرى [١] التلمسانى المالكى الأديب الكبير ، الشاعر المؤرخ ، ولد في تلمسان ، ونشأ بها في بيت علم وأدب ، وثقف كثيراً من الفنون على عمه أبى عثمان [٢] سعيد المقرى الأديب العالم الشهير ، وأتقن اللغة العربية وآدابها ، وبرع في معرفة أخبار العرب وأنسابها .

(١) نسبة إلى مقر بفتح الميم والقاف المشددة : قرية من قرى تلمسان
(٢) اليواقيت الثمينة

وكان له ميل شديد واطلاع واسع على الآداب العربية وتاريخها في مختلف العصور ، وأولع من لدن نشأته بالمطالعة والتنقيب عن أحوال الدول الاسلامية ، واستظهار آثارها ، وبصفة خاصة ما كان متعلقاً منها بدولة العرب في الأندلس ، والوقوف على سر عظمتها ، وتطورها بين صعود ونزول ، وكيف عبثت يد الزمان بتلكم الآثار الحافلة التى خلدها العرب في أروبا

شب الفتى ، خصب الفكر ، متقد الذهن ، واسع الذاكرة . يتقلب في فنون من الحديث ، ويحلق في جو رائع من الخيال . يتنقل بين قصور قرطبة ومغانيها ، ويقلب نظره الحائر في بدائع الحمراء ومجاليها ، ثم يعود فيسترحم القدر إشفاقاً على مجالس أدبها الممتعة ونواديها

وقد حدثته نفسه الطموح إلى مشاهدة آثار الفن الأندلسى الجميل بالذهاب إلى « فاس » وريثة الحضارة الأندلسية ، ورؤية هذه الآثار عن كثب ، إذ هى صورة مصغرة من الحياة الأندلسية ، بما فيها من مبان وآثار ، ومجالس علمية وأدبية تضم أئمة الأدب وفطاحل العلم . فقصد فاس سنة ١٠٠٩ وملأ بها وطابه ، وأخذ عن جلة العلماء كالشيخ القطار ، وابن أبى النعيم ، وأحمد بابا السودانى التمبكتى وغيرهم ؛ وأقام بفاس ميمون الحظ بين مظاهر الاجلال والاحترام إلى أن صار مفتى فاس وخطيب « جامعة القرويين » ؛ ثم رحل إلى مصر والشام ، وتردد على الحجاز كثيراً ، وألف بالقاهرة كتابه « نفح الطيب » . وله مطارحات ومساجلات مع أدباء مصر والشام

— ٣ —

آثاره الأدبية : أبو العباس المقرى متشعب النواحى كثير المباحث لمن شاء دراسته . له آثار قيمة في الفقه والكلام والأدب والتاريخ ، وشعر متناثر في ثنايا كتابيه الجليلين : « نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب [١] » و « أزهار الرياض ، في أخبار القاضى عياض »

وقد قصرنا هذا البحث على الناحية الأدبية ، إذ كانت هى البارزة في حياته ، فهو « حافظ المغرب وجاحظ البيان [٢] » شاعر

(١) في أربعة مجلدات ضخام طبع مرتين وفيه نقص كثير عن النسخ المخطوطة نرجو تداركه عند إعادة طبعه . وأزهار الرياض في أربعة مجلدات أيضاً ، طبع الجزء الأول منه (٢) خلاصة الأثر ج ١ ص ٣٠٣

رقيق العاطفة ، يصطبغ شعره بلون الأدب الأندلسى فى الرقة والجزالة ، والسهولة والامتناع

ولابدع ، إذا وجدنا ذلك الطابع بارزاً فى آثاره الأدبية ، فقد رأيناه كلفاً بالفن الأندلسى وآثار العرب فى الأندلس منذ النشأة إلى حد التوهم أنه كان يعيش فى ذلك الوسط الخصب المشبوب العاطفة

وقد قال فى أكثر أغراض الشعر : فى الغزل ، والشوق ، والمدح ، والوصف ، والحكم ، والعتاب ، والذكرى المؤلمة ، والقصص الشعرى

وإذ كان الشطر المهم من حياته قد أمضاه فى الشرق بعيداً عن الأهل والوطن ، نائياً عن معاهد الصبى ومسارح الطفولة الأولى التى لم يبق فى ذهنه منها إلا الذكريات المرة الممضة ، فنستطيع أن نكشف كيف كان الشوق والحنين أبرز صفة فى شعره ؛ ولنسق لك مثلاً من ذلك . فمن قوله وهو فى الشام يتشوق إلى بلاد المغرب :

كساها الحيا بُرد الشباب فانها   بلاد بها عق الشباب تمائمى
ذكرت بها عهد الصبى فكأنما   قدحت بنار الشوق بين الحيازم
ليالى لا ألوى على رشد ناصح   عنانى ، ولا أثنيه عن غى لائم
أنال سهادى من عيون نواعس   وأجنى مرادى من غصون نواعم
وليل لنا بالسد بين معاطف   من النهر ينساب انسياب الأراقم
تمر البنا ، ثم عنا ، كأنها   حواسد تمشى بيننا بالنمائم
وبتنا ، ولا واش نخاف كأنما   حللنا مكان السر من صدر كاتم

واسمعه يقول :

شربت حميا البين صرفا وطالما   جلوت محيا الوصل وهو وسيم
فميعاد دمعى أن تنوح حمامة   وميقات شوقى أن يهب نسيم

ويثور كامن عواطفه كلما سمع ترجيع حمامة بصوتها الشجى ، فيصف لك حاله عند سماعها بهذه القطعة الرقيقة :

رُب ورقاء فى الدياجى تنادى   إلفها فى غصونها المياده
فتثير الهوى بلمس عجيب   يشهد السمع أنها عواده (١)
كلما رجَّعت توجعت حزناً   فكأنا فى وجدنا نتباده (٢)

ثم يحاول أن يطفىء غلة ذلك الشوق المضنى بالصبر ، ويتخذه شعاراً وسلوة ، فيسير على سنن غيره من الشعراء ، ولكنه يخفق إذ يجد أن الصبر معناه إلهاب نار الشوق :

وانى لأدرى أن فى الصبر راحة   ولكن انفاقى على الصبر من عمرى
فلا تُطفِ نار الشوق بالشوق طالباً   سلواً ، فان الجمر يسعر بالجمر

ويعاوده الأمل فى أن يلمس غرة من الدهر ، فيلتقى بعد طول البين ، ويجتمع بعد أليم الفراق

فنلتقى ، وعوادى الدهر غافلة   عما نروم ، وعقد البين محلول
والدار آنسة والشمل مجتمع   والطير صادحة والروض مطلول

ولو أنا ذهبنا فى هذا الباب نقتطف قطعاً من زهراته المتناثرة ، لاقتضى ذلك منا وقتاً أوسع مما افترضناه لهذا البحث من الايجاز

وفى الوصف يجترىء بهذه القطعة :

ورياض تختال منها غصون   فى برود من زهرها وعقود
فكأن الأدواح فيها غوان   تتبارى زهوا بحسن القدود
وكأن الأطيار فيها قيانٌ   تتغنى فى كل عود بعود !
وكأن الأزهار فى حومة الرو   ض سيوف تُسَلُّ تحت بنود

ويبهره مايرى فى جنة الدنيا « دمشق » ضريبة الأندلس والمغرب فى بساتينها ، وأنهارها ، وجداولها ، فتعاوده الذكرى ويقول :

ذكرتنى الورقاء أيام أنس   سالفات فبت أذرى الدموعا
ووصلت السهاد شوقا للحبى   وغراما ، وقد هجرت الهجوعا
كيف يخلو قلبى من الذكر يوما   وعلى حبهم حنيت الضلوعا ؟
كلما أولع العذول بعتبى   فى هواهم ، يزداد قلبى ولوعا !

ثم يقول فى وصفها :

محاسن الشام أجلى   من أن تحاط بحد
لولا حمى الشرع قلنا   ولم نقف عند حد :
كأنها معجزات   مقرونة بالتحدى

ويقول :

قال لى ما تقول فى الشام حبر   كلما لاح بارق الحسن شامه ؟ (١)
قلت ماذا أقول فى وصف قطر   هو فى وجنة المحاسن شامه ! (٢)

(البقية فى العدد القادم)

عبد الهادى الشرايبى

(١) عواده : توقع على العود ، ملحنة أغرودتها
(٢) بادهه : فاجأه يريد أن نتبارى فى إظهار الوجد

(١) شامه : نظره (٢) الشامة : الخال ، نقطة سوداء تكون فى الوجنة أو فى الجبين ، تزيد جماله سحراً

النهضة التركية الأخيرة

للدكتور عبد الوهاب عزام

وجهت احدى المجلات الكبيرة فى مصر إلى بعض الكتاب هذا السؤال : « إلى أى حدّ يجب الاقتداء بتركيا فى نواحى نهضتها الأخيرة » ، فحفزنى هذا إلى الكتابة فى موضوع تجنبته زمناً طويلاً ، لا استهانة به فهو جد خطير ، ولكن اشفاقاً مما يثور بالنفس حين تعالجه

— ١ —

الترك العثمانيون اخوان لنا ، نشأنا على حبهم ، ومنحناهم قلوبنا فتمكن بها ولاؤهم ، وشببنا نعدّهم علَم المسلمين الخفّاق فى زمن تنكست فيه أعلامهم ، وجيشَهم المجاهد على حين تفرقت الأجناد ، وتخاذلت الأعضاد . كنا نعد مفاخرهم مفاخرنا ، ومثالبهم مثالبنا ، ونرى صلاحهم صلاحنا ، وفسادهم فسادنا ، ونفرح كلما فرحوا ، ونبتئس كلما ابتأسوا . وكلما نزلت بهم نازلة نصرناهم جهد العاجز بألسنتنا وأموالنا وبأيدينا ُوسعَ الأيدى المغلولة ، والأعضاد المغلوبة . ولايزال التاريخ الحديث يدوّى بحادثات المدرعة (حميدية) ، وحروب طرابلس والبلقان ، وقدوم الطيارين العثمانيين إلى مصر ، وغير هذا مما يشهد بالحب الصادق ، والمودة المخلصة

ولقد نشأت على هذا الحب ، لايطربنى إلا ما أطرب الترك ، ولا يسوؤنى إلا ماساءهم ؛ وفيهم تعلمت الشعر فشدوت به فى حروب طرابلس والبلقان ، وكتبت فى الحرب الأخيرة أعطف عليهم القلوب ، وأستحث الهمم على الامداد بالمال . ولست أمنّ عليهم بذلك فقد كان فرضاً علىّ وعلى غيرى

ولما قذف جنود الترك الأمجاد بجيش اليونان فى البحر كاد الناس فى مصر وغير مصر يجن جنونهم فرحاً وزهواً

— ٢ —

ثم وقعت هـذه الواقعات التى تسمى « النهضة التركية الأخيرة » ، فخابت من الناس الظنون ، وتحطمت الآمال ، وتصدعت القلوب ، ووقفوا وقفة من أصيبت آماله فى أخ صميم أو صديق حميم ، يراه قد ركب رأسه ، واشتط فى هواه ، يقطع أواصر الأخوة ، ويصرم حبال المودة ، لايستطيع أن يغضى عن سيئاته وهى وخيمة العواقب ، ولا تطيب نفسه أن يسمَّع به ويذيع عيوبه على مسمع من الأعداء

قومى همُ قتلوا أميم أخى   فاذا رميت يصيبنى سهمى

فوقف يلومه حيناً ، ويجادل عنه حيناً ، ويردّ مقالة الخصماء ، ويحذر شماتة الأعداء ، ويلتمس له المعاذير ، ويتربص به الافاقة من غيّه ، والاياب الى رشده ، ويدعو الله أن يلهمه السداد ، ويهديه سبيل الرشاد . وها نحن أولاء ندعو ونرجو وننتظر

— ٣ —

وبعد فما هـذه الأحداث التى تسمى « النهضة التركية الأخيرة » ؟ نستعرض الحادثات لنرى ماهى :

فأما ذود الترك عن حياضهم ، ودفعهم عن استقلالهم ، وإيثارهم الموت الحرّ على العيش الذليل فشنشنة أعرفها من أخزم ، عرف الترك بها فى كل زمان ، وامتازوا بها فى كل ميدان ، وكان لسلفهم فيها غرر مشهورة ، وأعمال مأثورة ، يدوّى بها التاريخ ويشهد بها العدوّ والصديق . فلا ينبغى أن يعد هذا من « النهضة الأخيرة » . فقد كان السلف فيه خيراً من الخلف . كان ميدانهم أوسع ، وعدوّهم أكثر ، وخطبهم أفدح ، وعبئهم أثقل . وتلك ، على كل حال ، محامد ينبغى أن تتقيلها الأمم ، ويتنافس فيها أولو الهمم

وأما عكوف الحكومة التركية الحديثة على إصلاح البقعة التى أبقتها الأحداث فى أيديها ، وتركتها النوائب من الميراث العظيم — عكوفهم على الاصلاح والتعمير والتنظيم فأمر محمود ، وسعى مشكور ، وفرض تأخر عن وقته ، إذ حالت دونه الخطوب الكارثة ، والمصائب المتوالية ؛ وهم فى هـذا الاصلاح ليسوا مبتدعين ولا سابقين ، فهم يحتذون على مثال الأمم التى سبقتهم فى الغرب والشرق . هم فى ذلك مأمومون لا أئمة ، ومقتدون لاقدوة . والأئمة فى ذلك أمم أوربا ، عنها أخذوا وبها اقتدوا . وعملهم فى هذا التقليد ، عمل حميد . والله يهيئ لهم فى ذلك رشدا ، ويهديهم الى الخير أبدا

— ٤ —

وبعد ذلك أمور نجمل الكلام فيها واحدة واحدة ، ثم نلقى عليها نظرة جامعة لنتبين أين مبدؤها ومنتهاها ، ومصدرها وموردها ، ونرى مكانها من الاختراع أو المحاكاة ، وسنعترف لهم فى هذا بحسناتهم ، ونأخذ عليهم سيئاتهم ، أخذ الصديق الناصح لا العدوّ الشامت ، آملين أن يزدادوا من الاحسان ، وينزعوا عن الاساءة

ونحن إذا خاصمنا القوم فى هذه الأمور فليس خصمنا الأمة التركية جميعها بل الحكومة التركية ، يشاركنا فى رأينا كثير من رجالات الترك الذين حملت كواهلهم أعباء الحرب الأخيرة ، ومهدت أعضادهم لهذا النصر المجيد ، ويشاركنا كثير من العلماء وأولى الرأى ، وكثير من المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا

ونبدأ بمسألة الخلافة ، إذ جعلوها فاتحة هذه الأمور ، ومفتاح هذه النهضة ، قانعين بالقول الموجز واللمحة الدالة فى هذا الموضوع الواسع :

مهما يقل القائلون فى صحة الخلافة العثمانية وفسادها ، وجدواها وضررها ، ومهما يفتن المجادلون فى تبيان ماجلبت على الدولة من مصائب ، ورمتها به من عداوة أوربا ، فلا ريب عندى أن الخلافة ما أضرت بالدولة العثمانية قط بل نفعتها أحياناً . ما حاربت أوربا العثمانيين بما كانوا دولة الخلافة ، بل بأنهم دولة مسلمة شرقية . وقد ثارت الحروب منذ نشأت الدولة قبل أن يلقب الخليفة العباسى فى مصر بايزيد الأول بلقب « سلطان الروم » ، وقبل أن يفتح السلطان سليم مصر ويحمل إلى استانبول الخليفة المتوكل على الله . ولم يكن مكان الترك فى الخلافة الاسلامية واضحاً فى معظم أطوار حروبهم ، بل استقرت لهم الخلافة عند المسلمين ودول أوربا أثناء هذا الجلاد المديد ، والحروب المتوالية ، إذ اعترف المسلمون أن رأسهم هو هذه الدولة القوية المجاهدة ، واعترف الأوربيون فى العصور الأخيرة أن للترك أن يتكلموا عن المسلمين كما يتكلم الروس عن المسيحيين . فلم تكن الحروب نتيجة الخلافة ، بل كانت الخلافة نتيجة الحروب ، وهى على هذا لم تكن واضحة ولا ادعاها العثمانيون صراحة إلا فى العصور الأخيرة . . . لو أن أوربا شنت على الدولة العثمانية غاراتها من أجل الخلافة فلماذا قضت على الدولة التيمورية فى الهند ، ودولة الأشراف السعديين فى المغرب وغيرها ؟ ووالت غاراتها على المسلمين فى الشرق والغرب

والحق أن انتحال الخلافة نفع الدولة العثمانية حين ضعفها ، وكساها هيبة وجلالاً فى الشرق والغرب ؛ وقد أدرك ذلك السلطان عبد الحميد فاجتهد أن يمكن هذه الخلافة فى نفوس المسلمين كافة ليرهب بهم أوربا

وإن يكن المسلمون قصروا فى الدفع عن الدولة ، وامدادها بالمال والجند ، فماذا عسى أن تستطيع الأمم المغلوبة على أمرها ، الذليلة فى أسر أعدائها . وقد خاف الأوربيون أثناء الحرب الكبرى أن يلقوا الدولة برعاياهم المسلمين فاحتالوا لذلك حيلاً شتى : كان الفرنسيون يأخذون جنود أفريقية يوهمونهم أنهم سيدافعون عن الخلافة والاسلام ، ولم يستطع الانكليز ، بعد تمرد الرديف المصرى وإبائه أن يحارب الترك ، أن يرسلوا إلى القتال جندياً من المصريين ، فاحتالوا عليهم وأخذوهم عمالاً وراء الجيش . وقد تطوع كثير من المسلمين لنصرة الدولة فى الحرب والسياسة ، ولو كان أمر المسلمين بأيديهم لكان لهم موقف آخر . وقد سمعنا من كبار الساسة الترك وغيرهم أن انكلترا أشفقت من أن تقف بجانب اليونان جهرة ، وتنصرهم بكل قواها فى الحرب الأخيرة ، حين ثار مسلمو الهند وطلبوا منها الابقاء على دولة الخلافة ، وأن هؤلاء المسلمين على ضعفهم عاونوا على انقاذ البقية الباقية من الدولة العثمانية . ولا ننس معاونة أمثال السيد السنوسى وطوافه فى الأناضول وكردستان لتأليب الناس وإثارتهم للجهاد . وقد رأيت بعينى صورة الغازى مصطفى كمال باشا فى قلنسوة سنوسية أهداها إليه السيد أحمد فلبسها تبركاً

ثم هذه الخلافة العثمانية على وهنها وغموضها كانت فى هذا الزمن العصيب علماً ينظر إليه المسلمون ان لم ينحازوا إليه ، وتنضوى إليه آمالهم ان لم تنله أيديهم ، وتهتز به نفوسهم وترى فى خفقانه ذكرى الماضى العظيم ، وتباشير المستقبل العزيز

ولقد كان إلغاء الخلافة فى هذه الخطوب المكفهرة كحل رباط حزمة من القصب فى ريح عاصف بلغت من المسلمين أسوأ مبلغ ، وبلّغت أعداءهم أبعد غاية . لا ينكر هذا إلا جاهل بطبائع الأمم أو غبى عن تاريخ المسلمين . وأحسب أن الانكليز - مثلاً - كان يهون عليهم أن يبذلوا ملايين الجنيهات ليبلغوا الغاية التى بلغهم إياها الكماليون بغير بذل ولا كد

ولا ريب أن الترك حين دفعتهم نشوة الظفر على اليونان إلى إلغاء خلافة الاسلام قد أخروا دولتهم من صف الدول العظيمة إلى صف الدول الصغيرة ، فهم اليوم فى صف دول البلقان . وإن دول العالم العظيمة كانت تتمنى أن تشترى مكانة الترك بين المسلمين بالجهد الطويل ، والمال الوفير ، طيبة نفوسهم بما بذلوا ومانالوا

يقال إن للثورة آثارها ، وللمحنة أعذارها ، وما كان إلغاء الخلافة ضرورة اقتضاها الاصلاح ، ولكن إفراطاً أدت اليه الثورة . ونحن نقول مهما يكن السبب فذلك شر أصاب المسلمين لا محالة ، وإن عجز عن إدراكه الثائرون فى غبار الثورة ، فقد أدركه

١٥ ـ قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

بستور Pasteur

صلة حديثه

وصل الفائت : ذهب بستور إلى شرق فرنسا يبحث فساد الخمور فأصلحها ، ثم ذهب إلى أواسط فرنسا على نداء الخلالين واستغاثتهم فأصلح ما فسد من صناعة الخل . وما كاد يستقر فى معمله بباريس حتى جاء القدر يدق بابه ، جاءه أستاذه القديم « دوماس » يتطبب لدود القز المريض فى جنوب فرنسا

— ٦ —

فأجابه دوماس : « إن أقليم الحرير فى الجنوب هو مسقط رأسى ، وقد حضرت تواً من هناك . وقد رأيت ، ويا هول ما رأيت ! رأيت بلدى المسكين ، قريتى « ألياس » المنكودة ، تلك البلاد التى كانت ثرية بالأمس ، زاهية بشجر التوت حتى أسموه الشجر الذهبى ، تلك البلاد أصبحت عراء بلقعا ، وتلك العِراص الخضر أصبحت غبراء ذابلة ، وأهلها وهم أهلى أصبحوا لا يجدون القوت » . وكان صوت الشيخ فيه حزن وضيق حتى كاد يتندّى بالدمع وكان بستور يقدّر نفسه ويضعها فوق الرجال ، وكان قليل التقدير للغير ، إلا أنه حفظ فى قلبه إجلالاً خاصاً لدوماس . واعتزم أن يبذل المعونة لهذا الأستاذ الشيخ الحزين . ولكن كيف ؟ فبستور فى هذا الوقت لم يكن يستطيع على الأرجح أن يميز دود القز من دود الأرض . بل لقد حدث بعد ذلك الوقت أنهم أعطوه شرنقة حرير فرفعها إلى أذنه وهزها وصاح : « ما هذا ! كأن داخلها شىء ! » . جهلٌ مُطبق بالشرانق والدود

وكَرِه بستور السفر إلى جنوب فرنسا ليفحص مرض هذا الدود ، لأنه كَرِه أن يَخيب ، والخيبة كانت أبغض الأشياء إلى نفسه . ولكن الجميل فيه أنه برغم كبريائه ، وبرغم اعتداده المرذول بنفسه ، استبقى من صباه حبَّ الطفل واحترامَه لمعلمه القديم . فقال لدوماس : « أنا ذا طوع يديك ، فمرنى بالذى تريد ، وارمْ بى حيث شئت من الأرض »

وحزم أدواته ومكرسكوباته ، وحزم ثلاثة أعوان نشيطين من خلصائه ومريديه ، وحزم كذلك أولاده ، ومدام بستور — تلك المرأة الصبور التى لم تكن تشكو أبداً — وسافر بهذه الحمولة كلها إلى حيث الوباء يفتك بالملايين من دود القز ، ويفقر الألوف من الخلق فى جنوب فرنسا . وبلغ « أليسَ » فأخذ يتعلم هناك أن دودة الحرير إن هى إلا دودة كالديدان تغزل حول نفسها ثوباً من الحرير يُعرف بالشرنقة ، وأنها تتحول إلى يرقة داخل الشرنقة ، ثم إلى فراشة ترفض ثوبها الحريرى فتخرج عنه فتتسلق الشجر وتبيض البيض ، وهذا يتفقس فى الربيع التالى عن جيل جديد من دود جديد . واستاء رعاة الدود من جهله الفاضح . وذكروا له أن المرض الذى يصيب دودهم يُعرف بالندوة ، وأنه يتراءى على الدود فى صورة بقع صغيرة سوداء كالفلفل . ووجد بستور هناك مئات من النظريات تدّعى كلها تفسير هذا المرض ، ولم يجد من الحقائق الثابتة غير اثنتين ، أولاهما تلك البقع السوداء التى تظهر بظهور المرض ، وثانيتهما كُريّات صغيرة تتكوّن داخل الدودة ، صَغُرت حتى لا تُرى إلا بالمجهر

وقبل أن يستقر فى مهبطه الجديد ، وقبل أن تستقر أسرته فى بيتها الجديد ، كشف عن مجهره وأخذ يحدق فى باطن هذا الدود المريض ، ولاسيما فى تلك الكُريّات ، وخرج سريعاً على أن هذه الكريات عرض ثابت من أعراض الداء . وبعد خمسة عشر يوما من حلوله بـ « ألياس » دعا اليه أعضاء اللجنة الزراعية وقال لهم : « عندما يحين أوان اللقاح ، ضموا كل انثى وذكر وحدهما ، ثم اتركوهما لينسِلا وتبيض الأنثى ، فاذا خرج البيض فافتحوا

البعيدون يقيناً ، وبكوا من أجله طويلاً . على أن عمل الكماليين من بعد دل على أن إلغاء الخلافة لم يكن نزوة ثورة ، بل كان الحلقة الأولى فى سلسلة مصنوعة ، والخطوة الأولى فى خطة موضوعة .

ويعتذر بعض المعتذرين بأنه كان لابد للنهضة الأخيرة من جمهورية ، وكان لابد للجمهورية من إلغاء الخلافة ، وهذا عذر أشبه بالذنب . ويعتذر آخرون بأن الصلة بين الروس والترك وحاجة هؤلاء الى معونة أولئك اضطرتهم الى إلغاء الخلافة ، فهل يرضى الكماليون أن يعدّ عملهم فى الخلافة وما بعدها خطة أملاها الروس عليهم ؟ ما أحسبهم يرضون من أصدقائهم أن يقفوهم هذا الموقف ليدافعوا عنهم : وهذا بعدُ لا يخفف المصيبة التى أصابت المسلمين بالغاء الخلافة

— له بقية — **عبد الوهاب عزام**

بطنيهما وأخرجوا من تحت الجلد شيئاً من شحمه ، وانظروا اليه بالمجهر ، فاذا هو خلا من تلك الكريات فاعلموا أن هذا الزوج من الدود سليم ، وأن بيضه سيُفرخ فى الربيع المقبل دوداً سليماً

ونظر الريفيون الى المكرسكوب وهو يلمع وقالوا : « نحن الزراع لانعرف كيف نعالج مكَنة كهذه » . وكان فى قلوبهم ارتياب وكان فيها قلة إيمان بهذه البدعة الجديدة ، فعندئذ تراجع عنهم بستور العالم ، وتقدم اليهم بستور الداهية الخبير بأهواء الرجال ، فقال لهم : « حسبكم ! حسبكم ! واخفتوا أصواتكم حتى لا يتناقل الناس هذه الفضيحة عنكم ! كيف تعجزون يا رجالاً ضخاماً عن استخدام المكرسكوب وعندى فى معملى بنت لا يتجاوز عمرها ثمانى سنوات تعالجه فى لباقة ، وتكشف هذه الكُريات فى سهولة ؟! » . وقرّرت اللجنة شراء مكرسكوبات وانصرفوا يعملون بنصائحه

وذهب بستور يبذل من نفسه لحركة لا تعرف السكون ، فطاف بالمناطق المصابة بالداء يلقى المحاضرات ، ويسأل الأسئلة ، ويعلّم الفلاحين استخدام المجاهر . ثم يعود فى رَجعة الطرف إلى معمله يوجه مساعديه ويزوّدهم بالنصائح فى تجارب لم يستطع هو اجراءها حتى ولا ملاحظتها . ثم يملى فى المساء على مدام بستور أجوبة كتابات وخطباً ومقالات ، ولا يَطلع الصباح حتى تراه عاد إلى مناطق الوباء يروّح عن الزراع البائسين ، ويخطبهم ويبشر فيهم بالفرج القريب

ولكن عاد الربيع بغير الفرج والبشرى . وجاء الوقت الذى يبدأ الدود يصعد فيه إلى أفرع التوت لينسج عليها الشرانق فعجز عن الصعود . وقعت الواقعة وخابت الآمال وأنفقت الجهود فى غير طائل ! أنفق هؤلاء القوم الطيبون أيامهم على المكرسكوب حتى نال الكلال من عيونهم وأوجع ظهورهم ، يطلبون الفَراش السالم الصحيح ليُخرج لهم البيضَ الخالى من تلك الكُريّات اللعينة ، فلما حصلوا على هذا البيض السليم ، أو الذى حسبوه سليماً ، فرّخ فخرج منه دود سقيم ، قلّ نماؤه ، وضعفت شهيّته فقل طعامه ، وذهب نشاطه ، فأخذ يدور حول عيدان التوت عاجزاً عن تسلق أطرافها ، زاهداً فى الحياة وفى أطوارها ، غير آبهٍ لهوى الغوانى الحسان فى مفوّفات الخزّ وجوارب الحرير

وارحمتاه لبستور فى تلك الخيبة : جمع المسكين كل همه لتخليص صناعة الخزّ مما دهاها ، فسار ودار وخطب ، ولم يُبق لنفسه وقتاً يَقْبَع فيه فى معمله هادئاً ساكناً يتعرف كنه الداء الذى أصاب الدود . أغراه المجد تخدعه عن العلم ، وأغواه الصيت فصرفه عن الحقيقة ، والحقيقة لا يفوز بها إلا ساخر بالمجد ، عازف عن الصيت ، صبور على العمل ، جلْدٌ على التجربة المسئمة الطويلة

ودفع اليأس بعض أصحاب الدود إلى السخرية به والضحك منه ، ودفع بعضهم إلى السخط عليه والنيل منه . واسود بياض أيامه ، وطلب الخلاص فى العمل فزاد انهماكا فيه ، ولكنه كان الغريقَ ينهمك فى العوم يرجو النجاة ويبغى الساحل ، ثم يقف هنيهة بعد إجهاد ليحسّ الأرض علّه يجد قراراً فلا يجد قراراً : واختلط عليه أمر هذا الدود ، فقد كان يقع أحياناً على نسائل تسرع فى تسلقها عيدان التوت وتأخذ فى نسج شرانق جميلة فيأخذ منها أفراداً للتشريح وينظرها تحت المجهر فيجدها مليئة بتلك الكريات التى كان يحسبها دليل الداء . وأحياناً أخرى كان يقع على نسائل أخرى من الدود سقيمة لا تكاد تهم بالصعود إلى أفرع التوت ، حتى يعتريها إسهال غازىّ ثم تنضمر فتموت ، فهذه أخذ منها أفراداً للتشريح ونظرها تحت المجهر فلم يجد فيها من تلك الكُريّات شيئاً . فأخذ بستور يتشكك فى اعتبار هذه الكُريّات عرضاً من أعراض الوباء . وزاد الطين بلة والحالة سوءً أن دخات الفئران إلى دوده الذى كان يُجرى عليه تجاربه فاستطعمته فالتهمته ، وأخذ أعوانه الثلاثة المساكين « ديكو » و « مايُّو » و « جرنيه » يسهرون الليل بالتناوب على حراسة الدود واصطياد الفئران . وقد يطلع الصباح فلا يكاد ينصرف كلٌّ إلى عمله ، حتى تظهر السحب فى الغرب قاتمة ، فيترك كلٌّ عمله ويهرول إلى شجر التوت يغطيه من المطر . وكنت ترى مدام بستور فى أعقابهم والأطفالَ فى أعقابها . وبستور المتعب المجهود كان لا يستقر فى الامساء فى كرسيه الكبير المريح حتى يأخذ فى إجابة رعاة الدود المناكيد الذين خسروا كل شىء باتباعهم طريقته فى تصنيف البيض

ومضت أشهر طويلة ثقيلة على هذه الحال . جاءته بعدها غريزته تحضه على التجريب ، والقَدَرُ يمهد له سبيل الخلاص ، قال لنفسه : « أنا على الأقل بحثت فى الحصول على بعض نسائل من الدود صحيحة سليمة ، فاذا أنا غذيتها على ورق التوت بعد تلويثه بافرازات الدود المريض ، فهل ياترى تموت هذه النسائل السليمة أم تمرض وتذهب ؟ ! » . وفعل هذا فماتت النسائل يقينا . ولكن غاظه أن التجربة لم تأت بكل الذى حسبه ، فبدل

مراجعات

١

السكر والمِبْرَت

كتب الأستاذ عبد الوهاب حمودة فى العدد (١٠٠) من (الرسالة) كلمة طيبة حقاً عن الجزء الثانى من « ضحى الاسلام » للأستاذ أحمد أمين. ثم أعترض على عبارة وردت فى الكتاب. وقد استغلق على فهم الاعتراض فأحببت أن أناقش فيه الأستاذ عبد الوهاب، علّه يجلو لنا وجه الصواب

قال: « ذكر الأستاذ - أحمد أمين - فى ص ٢٤٥ أن من نتائج الاختلاف بين القبائل كثرة المترادفات فى اللغة العربية، ثم ساق مثلاً لذلك فقال إن السكر اسمه المِـبْرَتْ بلغة اليمن؛ ولى على هذا اعتراضان: الاعتراض الأول أن لفظ السكر ليس بعربى، بل هو تعريب للفظ شكر الفارسية، وهى قريبة جداً من لفظها فى اللغة الانجليزية Sugar. راجع .... والاعتراض الثانى هو أننى .... الخ » وهذا الثانى ليس فى موضوع المناقشة

ولقد رأيت أن الأستاذ أحمد أمين لم يقل أن كلمة سكر عربية، ولا يمكن أن يفوته أنها معربة، ولاسيما وقد سردها فى الكلمات التى أخذها العرب الفاتحون من الفرس فى ص ٢٤٨ من الجزء الثانى من « ضحى الاسلام »

لهذا لم أخرج اعتراض الأستاذ عبد الوهاب إلا على وجه أنه ينكر الترادف فى اللغة العربيـة بين لفظين احدهما معرب والآخر عربى

وقبل الافاضة فى هذا البحث أرى أن أضع أمام القارئ نص العبارة التى وردت فى « ضحى الاسلام »، والتى وجه اليها الاعتراض لنكون على بينة فى فهمها وفهم الاعتراض. وهاهى ذى: « وكان هذا الاختلاف أيضاً أهم الأسباب فى كثرة المترادفات فى اللغة العربية، فاحدى القبائل تضع اسما لشىء، وتضع قبيلة أخرى اسما آخر، وقد وردت أدلة على ذلك فقالوا: - مثلا - إن السكر اسمه المِـبْرَتْ بلغة اليمن ...... ولهذا كثرت المترادفات كثرة غريبة، فقالوا إن للعسل ثمانين اسما و ... الخ ». وعبارة الأستاذ أحمد أمين على هذا الوضع لا تفيد أن السكر لفظ من وضع إحدى القبائل، إنما هى تفيد أن المِبرَت من وضع أهل اليمن، وأن المبرت والسكر قد أصبحا مترادفين.

والترادف على ما عرفه الامام فخر الدين هو الألفاظ المفردة الدالة على شىء واحد باعتبار واحد، كذا فى الجزء الأول من المزهر للسيوطى ص ٢٣٨. وهذا ينطبق على سكر ومبرت، فلا خلاف فى أن كلمة سكر وإن كانت معربة قد اندمجت فى العربية واستقرت بين ألفاظها وجرت فى كلام فصحاء العرب «وأصبحت ذات حق بمضى مدة طويلة عليها تجرى على أسلات الأقلام، وتجىء فى أفصح الكلام، وقد عربها العرب فجرت مع الألفاظ العربية فى عنان »

هكذا يقول الأستاذ الجارم فى ص ٣٢٦ من مجلة المجمع اللغوى الملكى. وقد ذكر عدة ألفاظ من هذا القبيل من بينها سكر ومبرت. وإن كان الأستاذ الجارم قد عبر عن هذا بأنه ترادف متوهم فقال: « وهناك أسباب دعت الى توهم الترادف: منها دخول كلمات فى العربية من لغات أخرى ..... الخ » إلا أنه عد هذا التوهم من مذهب المتشددين ثم استدرك بما يفيد جواز الترادف فقال: « نعم إن المتشدد لا يعد هذه الكلمات من المترادفات لاختلاف اللغة، ولكن ما الحيلة وقد شاع استعمالها وأصبحت ذات حق بمضى المدة الطويلة ... الخ » العبارة التى اقتبسناها. وهناك دليل آخر على صحة اطلاق الترادف بين لفظين احدهما عربى والآخر معرب نجده فى كلام الأستاذ الجارم الذى استند اليه الأستاذ عبد الوهاب فى اعتراضه. بل هو دليل على صحة اطلاق الترادف بين لفظين احدهما عربى والآخر أعجمى خالص. ذلك قوله فى ص ٣١٤ من مجلة المجمع: « والمثل الذى نختاره لذلك هو ما أورده السيوطى فى المزهر للعسل من الأسماء؛

أن يتغطى الدود بنقط كالفلفل سوداء ويموت بطيئا فى خمسة وعشرين يوما كما يفعل الدود المريض بهذا الوباء، إذا به يتقوس وينضمر ويقضى فى اثنتين وسبعين ساعة. واغتم بستور وناله اليأس فأوقف التجربة، وخاف عليه إخوانه الخلصاء مما هو فيه، وودوا لو أنه يعيد هذه التجربة مرة أخرى

(يتبع) أحمد زكى

وقد وردت على أنها من باب الترادف . . . فمن مرادف العسل الدَّسْتِيفْشارُ ـ والمستفشار . وهو العسل الذى لم تمسه النار ؛ وليست واحدة منهما عربية . . . . الى أن قال ... ونستطيع مما سقناه من مرادفات العسل أن نقيس عليه غيره » . فلعل الأستاذ عبد الوهاب يرى بعد هذا جواز إطلاق الترادف بين لفظين فى لغة أحدهما عربى والآخر أعجمى أو على الأقل معرب وللفظ السكر بين المعربات مكان وطيد فى العربية

اليوزباشى أحمد الطاهر

٢

التربية الخلقية والاجتماعية

فى المدرسة

الى الاستاذ فخرى ابو السعود

قرأت ياسيدى مقالك الذى دبجه يراعك تحت هذا العنوان فى عدد « الرسالة » السابق ، فخطر لى أن أعلق عليه هذا التعليق

كلنا متفق على أن الأخلاق فى مدارسنا ليست مما يشرف ولا ينبئ بخير . ولكن الشيء الذى يلبل بالى ويشرد خيالى هو طبكم لهذا الداء : هو نصحكم بفصل طبقات الناس فى المدرسة ، حتى تستقيم أخلاق الطلبة فيها ، إذ تقولون فى وصف الداء « قبولها — أى المدرسة — الطلاب من جميع الطبقات ووضعها أبناء الطبقة المحترمة بجانب أبناء الطبقة الوضيعة فى المدرسة الواحدة بلا تمييز » ثم قولكم فى مكان آخر تصفون الدواء (فيجب أن تراعى طبقة الطالب الاجتماعية قبل أن يقبل فى المدرسة ، وأن يكون لهذا شأن فى توزيع الطلاب على المدرسة بل الفصول وتخصيص مدارس فى البلدان المختلفة لأبناء الطبقات الممتازة والأسر الطيبة)

أين ياسيدى هذه الطبقات الاجتماعية التى تعنيها ؟ وعلى أى قاعدة نقسمها ؟ أفنتراجع إلى القرون الوسطى نستلهمها هذا التقسيم فنضع فواصل ومتاريس بين الأشراف والعامة ؟ وإن كان ذلك ياسيدى ، فأين طبقة الأشراف هذه أو الطبقة المحترمة كما تسميها ؟ وأين طبقة العامة أو الطبقة الوضيعة فى رأيك ؟ كيف نعرفها ؟ وبم نميز إحداها من الأخرى ؟

أجل أجبتم ياسيدى عن هذا السؤال فقلتم : « الطبقات المحترمة التى تستطيع دفع المصروفات المالية »

إذن ياسيدى كل غنى فى هذا البلد شريف عالى المكانة سامى الأخلاق ، لا يجوز أن يجلس فى معهد علمى إلى جانب الفقير الذى يجب أن يكون من (طبقة وضيعة فاسدة تعم فيها رذائل الكذب والغش والقحة وجرأة اللسان)

إذن كل من يستطيع أن يدفع مصروفات عالية يعد من طبقة الأشراف ، وكل من يقصر عن ذلك يعد من الطبقة الوضيعة

فأين شرف أكثر الأغنياء فى مصر يا أستاذ ، ومن الذى يعترف بذلك الشرف ؟ أمن الشرف هذه الفضائح الخلقية التى تنشر عن بعضهم كل يوم ؟ أمن الشرف هذه الفضائح المستورة بين جدران « الفيلات » التى لا يسكنها إلا الأغنياء ، وفى قيعان « الصالات » التى لا يؤمها إلا الأغنياء ؟

ما رأيك يا سيدى فى أننى ما رأيت أفسد أخلاقا ممن (يستطيع دفع المصروفات المالية) ، وممن يستطيع أن يخرج لك من بطانة ثوبه من المال ما يسيل اللعاب ويغرى الأفئدة ، ومن يعلن فى صوت كالرعد أنه اغتنى غناء لا يجاريه فى غناه أحد . . ثم ما رأيك فى أن أغلب من (لا يستطيع أن يدفع مصروفات عالية) ومن يطرد من المدرسة كل يوم لعجزه عنها هو المثل الكامل للخلق الكامل . . . ؟

ثم أراك ياسيدى تشبهنا فى ذلك بالانجليز . . . ولست بالطبع فى درايتكم حتى أتحدث عن انجلترا حديث عارف ، ولكن ترامى إلى علمى أن الانجليزى كلما زاد غناه عظم خلقه ، والأمر هنا على النقيض ، فالارتفاع هناك بالخلق ، والارتفاع هنا بالمال ، حقيقة مرة ولكن لا شك فيها

ولكم أود مع ذلك ياسيدى لو تفصل طبقات الطلاب فى المدرسة على هذه القاعدة قاعدة الجاه والغنى حتى يتسنى لكل فقير مؤدب أن يحتفظ بأدبه ويستقيم على خلقه

زكى شنوده جندى

ذكرى سيد الوجود

محمّـــد

للأديب محمد البزم

نبيٌّ حبا عدنان فضلاً وسُؤدداً فعمّتْ جميع العالمينَ مواهبُهْ
أخو هممٍ لا يُدركُ الدهرُ شأوَها ويجهلُها أعداؤهُ وأقاربُهْ
رأى الكوْنَ فى تيهٍ من الجهلِ أسفعٍ تشقُّ عُبابَ الداجياتِ مراكبُهْ
فأطلعَ فى آفاقهِ فرْقدَ الهدى إلى أن أصاب الحقَّ فى الليلِ حاطبُهْ
وقيدت له الدنيا مقادةَ طائعٍ ذلولٍ فكانت فى سواها مآربُهْ

***

محمّدُ إنى عن مديحكَ عاجزٌ وشأوُ بيانى دونَ ما أنا طالبُهْ
أتيتَ وقد شاخَ الزمانُ فردّهُ نداكَ فتيًّا بعد ما ازبدّ حالبُهْ
سطعتَ وليلُ الغيّ مُلقٍ جِرانَهُ على الكونِ تهمى بالرزايا سحائبُهْ
يواتيكَ وحىٌ لا يُرام ومنطقٌ بوادرُهُ محمودةٌ وعواقبُهْ
فجئتَ بقرآنٍ حوى كلَّ حِكمةٍ أنارتْ دياجى الكائناتِ كواكبُهْ
يُنصُّ فتَصْمى الظالمينَ حُدودُهُ ويُتلى فتردى المارقينَ ثواقبُهْ
وقوّمْتَ من زيغِ الأعاريبِ فاستووْا على منهجٍ للعدلِ يأمنُ راكبُهْ
ورُضتَ جِماحَ المتبدّينَ راكباً من الحقِّ متناً يوضحُ السمتَ لاحبُهْ
تلطفتَ بالغاوى فطوْراً تلينُهُ وحيناً تُصاديهِ وآناً تغالبُهْ
جلوْتَ عماياتِ القلوبِ فأبصرتْ وزيحتْ عنِ اللبِّ السليمِ غياهبُهْ
ودافعتَ عن ذاتِ الإلهِ بعزمةٍ متى رامتِ الجبّارَ صاحتْ نوادبُهْ

وأوصيتَ خيراً بالكنائسِ مانعاً ذويها، وجيشُ الحقِّ تمضى قواضبُهْ
صقلْتَ حواشى الدهرِ فانصاعَ طيّعاً وأذعنَ لا تسْرى بشرٍّ عقاربُهْ
وقلّمتَ أظفارَ الزمانِ فأعرضتْ عن الضارعِ المسكينِ تنأى مصائبُهْ

***

وذى أشَرٍ أنعمْتَ بالخيرِ قلبَهُ وقد أُنعمتْ بالشرِّ قبلاً ترائبُهْ
وذى دُرْبةٍ رازَ الزمانَ تركْتَهُ كذى الجهل ما أجدتْ عليه تجاربُهْ
وغضبةِ حقٍّ فى عُلى العُرْبِ غادرتْ عدوَّ بنى عدنانَ سُفْلاً مراتبُهْ
وفيلقِ ظُلمٍ سارَ كالبحرِ زاخراً يجرُّ بهِ ذيلَ الغوايةِ ساحبُهْ
بعثتَ به جيشاً من الرُّعبِ فارعوى تضيقُ بهِ أجواؤهُ وسباسبُهْ
يخفُّ إليكَ الدارعونَ مخافةً وقد أمنتْ أطفالُهُ وكواعبُهْ
تحوطُكَ من عليا قُريشٍ عصابةٌ لها الفلكُ الدوّارُ تعنو ذوائبُهْ
جرّرتَ بهم ما بين شرقٍ ومغربٍ كتائبَ عزمٍ نائياتٍ رغائبُهْ
إذا مرَّ منهمْ موكبٌ لاحَ موكبٌ تمجُّ زُعافَ الموتِ صِرفاً مقانبُهْ
بكلِّ فتى ماضى العزائمِ لهذمٍ إذا اعتزّ شأنُ العُرْبِ يعتزُّ جانبُهْ
يرومونَ مجداً لا تنى عزماتُهمْ عن المجدِ حتى يدركَ المجدَ خاطبُهْ
دفعتَ بهم فى وجهِ كلِّ عظيمةٍ فخاضوا إليها الموتَ دُهْماً مساربُهْ
فأسأرْتَ للأقوامِ فى كلِّ وجهةٍ جداً لم تشبْهُ بالأذاةِ شوائبُهْ
وغادرتَ للإسلامِ صرحاً ممرّداً تناطحُ أعنانَ السماءِ مناكبُهْ
فلا زالَ من فرْقانكَ البرِّ للورى مناهلُ هُدى صافياتٍ مشاربُهْ

دمشق — محمد البزم

تأبين الكاظمى

للشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى

صدق النعيُّ ومات عبد المحسن ... يا شعر أبّنه ويا نفس احزنى
يا شعر أنت ومحسنٌ قد كنتما ... عمراً رفيقَىْ غربةٍ وتوطّن
قد عشتما فى كل منـزلة معا ... كالفرقدين اللامعين وأحسن
أو زهرتين ولا أرانى داريا ... أشغفتُ بالنسرين أم بالسوسن
حتى احتوته يدُ المنايا بغتة ... بمخالبٍ معقوفةٍ كالمحجن
لمن الزعامة فى القريض ومن لها ... بعد الخفىّ الشاعر المتفنّن
ملأت قصائدُه القلوبَ حماسةً ... من بعد ما شغلت جميع الألسن
شعرٌ يكاد يسيل منـه لفظُه ... مثل الندى من رقةٍ فيهزّنى
شعـرٌ إليـه بفعل مغناطيسه ... فى السمع تنجذب القلوب وتنحنى
العبقريةُ فيه مُعتَرَفٌ بها ... من ذا يسيء ظنونه فى المحسن ؟
شيخ القريض قضى فكان عليه لى ... حزنٌ بعيـدٌ غورُه قد مضّنى
فى كل قطر أبّنته عصبةٌ ... ما كلُ من لاقى الردى بمؤبّن
بكت العروبة فى الجزيرة محسنا ... ماموتُ شاعرها الكبير بهيّن
فقـدت فأوجع قلبَها فقدانُها ... منه فتًى شهماً كريم المعدن
مات الذى كانت به معتزّةً ... يا رب إن الخطب جلّ فهوّن
قد كان فى كل المواقف واثقاً ... بالنفس شأن الشاعر المتمكن
دفنوه فى ملحودة وخيالُه ... فى أعينى فكأنه لم يُدفن
ما كان للآداب إلا روضةً ... ما شئتَ من زهرٍ حوته تجتنى

* * *

مَن للغريب قضى وكان مولّيا ... للطرف عند الموت شطرَ الموطن
قد ودّ لو أن المنيّــة أمهلت ... وإليه عيدَ به قريرَ الأعين
لـكنها قد أعجلتـه بضربةٍ ... من كفّها فى وثبةٍ من مكمن
الشـعرُ أسمع شاجياً خفقانَه ... فـكأنه أنّات قلبٍ مُثخَن
ياشعر أنت من الفجيعة مؤلَمٌ ... وأرى الأسى بجبينك المتغضّن
بينى وبينك فى الحياة وشيجةٌ ... وجميعُ ما هو محزنٌ لك محزنى
يا شعر بعد الناثرين دموعَهم ... إن كان عندك ما تبثّ فبيّن
ما أكبر الأخلاقَ فى نفس امرئ ... إن خاشنته النـاسُ لم يخشوشن

* * *

قد عاش عيشاً والحياةُ مُلحّةٌ ... ما كان بالمغْنى ولا بالمسمن
من ديدن الشرق احتقار ذوى النهى ... والشرق ليس مُغيّراً للديدن
الكاظمىّ قد اعتنى ببلاده ... وبلاده بحياته لم تعتن
لو كان يحظى فى العراق ببلغةٍ ... ماسار يقصد مصرَ عبد المحسن
بلدٌ به بخلاف ما فى غيره ... شبع الدخيلُ وأسغب ابن الموطن

* * *

للمرء فى الأرض الفضاء مساكنٌ ... أنّى مضى والقبرُ آخر مسكن
والموت فوق جنادل وصفائح ... كالموت حُمّ على فراشٍ ليّن
لا تسألونى عن مصير مَن انطووا ... أنا بالعواقب لستُ بالمتكهّن
قالوا وراء الموت أهوالٌ ولم ... أحفل بما قالوا ولم أتيقّن
ولعل هذا الموت مبدأ رحلةٍ ... للروح خالدةً وراء الأزمن
تبنى الحياة لها الصروحَ من المنى ... والموت يهدم كلّ ماهى تبتنى
فى الكون هذا كلُ شىء ممكنٌ ... إلا البقاء فذاكِ ليس بممكن
وكأننا صور الخيال لبرهـةٍ ... نبدو ونخفى عن شعاع الأعين
الكون عن ماضيه لم أك راضيا ... والكون عن آتيه لستُ بمأمن
فرحٌ بجانبه همومٌ جمـةٌ ... هـذا منيحةُ دهرك المتلوّن
لابد من موتٍ لمن هو عائشٌ ... فاشجُع إذا قابلتَه أو فاجبن
إن المنون لرابضٌ مُتحيّنٌ ... ماذا مرادُ الرابض المتحيّن

* * *

أرَبابُ إن الحزن يقتل أهلَه ... أرَبابُ يا ابنة محسنٍ لا تحزنى
أرباب صبراً فالحياة فريسة ... والموت ذئبٌ إن سطا لا ينثنى
يا بلبل الشعراء مالك صامتاً ... من بعد تغريد بشعرك مُشجن
قد سرتَ قبلى للردى متعجّلا ... ولعلّنى بك لاحق ولعلّنى

(بغداد) **جميل صدقى الزهاوى**

أبو الطيب المتنبي

للأستاذ معروف الرصافي

كان أبو الطيب امرأ قُوَلَهْ   يبتكر الشعر مذكياً شُعَله
صاحب نفس كبيرة شرفت   فشرَّفت حله ومرتحله
كان هو الشاعر الذى انتشرت   أشعاره فى البلاد منتقله
أوجد للشعر دولة عظمت   به فعزت من غيره دُوَله
من كل معنى أغر مؤتلق   فى لفظه كالعروس فى الحجَله
وربما رق لفظه فبدت   فى شعره كل كِلْمةٍ ثمله
وربما لم تَبِن مقاصده   لأنها فيه غير مبتذله

فسائلن عن قريضه حلبا   كم قطفت منه زهرة خَضِله
خلد ذكرا لسيف دولتها   أيام وشَّى بمدحه خلله
فاعجب لسيف لم تَبْلَ جدته   وشاعر بالمديح قد صقله

لو حاز موسى مضاء عزمته   ما تاه فى التيه عندما دخله
وهو الذى اجتازه بيَعْمُلَةٍ   تحمل منه الهمام لا التُكَلَه
قد بات كافور من جراءتها   على الوامى بمهجة وجله
إذ أعجزته بالسير عن طلب   لا خيله تختشى ولا إبله
فسل به النيل يوم ناقتُه   تغمرت منه وانتحت جبله
كيف أتى مصر كالعقاب لكى   يبلغ فيها بشعره أمله
وكيف أحيا بالمدح أسودها   ثم وشيكا بهجوه قتله

فى شعره حكمة مهذبة   وروعة بالذكاء مشتعله
ونغمة بالشعور صادحة   وصنعة بالفنون متصله
قدرته فى البيان واسعة   يتيه فيها السؤال والسَّأله
إذا المعانى بذهنه ازدحمت   ما ربكت فى انتقائها حيله
كم شاعر قد قفا له أثرا   وناقد راح يبتغى زلله
فأخفقوا عاجزين عن درَك   لبعض ما كُلُّهُ تيسر له

قل لابن عباد أى منقصة   من أجلها كنت مكثراً عذَله
أطبعُه بالذكاء متقداً   أم نفسه بالاباء مشتمله
أم شعره والعصور ما برحت   تسعى بكل استجادة قِبَله

لكنما رمت من مدائحه   مالم تكن سالكا له سبله
طَمَاعة منك غير واعية   وهى لعمرى حماقة وبَلَهْ

أكبر من أكبر القريض به   وأكبر القاتلين من قتله
يا قاتليه لو تعلمون به   إذن قتلتم نفوسكم بدله
لكنكم تجهلون رتبته   ماذا فعلتم يا أجهل الجهله
قتلتم الشعر والاجادة والأ (م) بداع فيه يا ألأم القتله
لستم بذا القتل من بنى أسد   بل انتموَ فيه من بنى ورَله

لم يزل الدهر بعد مقتله   يضرب فى الشعر للورى مثله
كان له عند كل بادهة   بدائع فى القريض مرتجله
يصطاد فى الشعر كل شاردة   من القوافى بفطنة عَجِله
فلا تقسه بغيره أدبا   وهل تقاس المعطار بالتفله

كم شاعر يدعى وليس له   من شعره غير منطق الحجله
إن أنت أنشدت شعره هزؤا   رجعت منه كآكل البصله
ورب شعر إذا لفظت به   من هجنة فيه تأنف السبله
الشعر معنى ألفاظه حسنت   فنسقت فى بلاغة جمله
وكلما قصرت قوالبه   عن حسن معناه أوسعت خلله
حسن المعانى بلفظها شوه   لحسن حسناء ثوبها سمله

من ذاق فى الشعر طعم معجزه   فاحمد الشاعر الذى أكله
أى مقام هيجاؤه اختدمت   بالشعر يوماً ولم يكن بطله
كان عزيزاً يأبى الهوان فما   قر عليه يوماً ولا قبله

معروف الرصافى

مكتبة العرب



من أساطير الاغريق

هِيرو ولِياندَرْ

المأساة الغرامية المؤلمة

للأستاذ دريني خشبة

أرسلوها الى الدير ، طفلةً بريئةَ النفس ، طاهرةَ القلب ، بَسَّامةَ الثغر ، وضَّاحةَ الجبين ؛ كلما وضعت إبهاماً فى فمها تمصه ، تمثلت فيها سذاجة الطفولة وجمالها ودَعَتُها

ونَذَروها لڤينوس ، فكانت ربة الحب تتسرق فى القمراء الصافية لترعى طفلتها ، ولتنفُثَ فيها من رُقى السحر ما تُمِدُّها به لمستقبل غرامى مليء . وكان الكهنة يتفرسون فى شفتىْ هذه الوديعة الصغيرة ألغازاً لا يدركون لها كنها ، وأسراراً لا يفقهون لها معنى ، إلا كُنْه الصبابة الحمراء تنثال فوق الثنايا الأربع البراقة ، وإلا معنى القُبَل الناضجة يختلسونها كلما افترَّتا عن ابتسامة ، أو انفرجتا لِدَغدغةٍ أو تخميش

وشبت هيرو

وتفتح الورد فى خديها الناعمين ، واستيقظ النرجس فى عينيها الناعستين ، وضحكت ڤينوس فى شفتيها الحراوين ، ونبت الخَمَلُ الحريرى يُطَرِّىْ صباها الغض ، وشبابها الفينان !

وعُيِّنتْ راهبةً لڤينوس فى سِيستوس ، المدينة الخالدة ، التى تربض على شاطىْ الهلسبنت (١) الأوربى ، قبالة أبيدوس ، مدينة الأحلام ، على الشاطىْ الأسيوى

ولبثت الراهبة الرائعة تؤدى الطقوس والشعائر الدينية لربة الجمال والحب ، فى برج مشيدٍ مشرف على البحر فى قصر أبيها ،

(١) الهلسبنت هو بوغاز الدردنيل المعروف

ولبثت الشهرة تذيع محاسنها فى المدينة الكبيرة ، والصيت الرنان يتحدث عن جمالها بين الأهلين كما يتحدث الشذى عن ورده ، والأرَج عن رنده ، حتى أصبح اسمها أغنية كل فم ، وهُتافَ كل لسان

وسمع لِيانْدَرْ ، فتى أبيدوس وأشجع شبابها ، والذائد عنها فى كل حومة ، بهيرو الراهبة ، فعجب أن تكون حقيقةً كما يصفها الناس ، وحسب أن المبالغة هى التى نفخت فى شهرة هيرو ، فلم يهتم لما سمع عن مفاتنها ، وصرف ذهنه الشاب الفتىّ عن هذه الطوبى التى سلبت ألباب الفتيان ، وغدت حلماً ذهبياً لكل مدله ولهان

ولكنه كان يزداد تذكراً للفتاة كلما بالغ فى نسيانها أو تناسيها ، وإذا صح أن الأذن تعشق قبل العين أحياناً ، فلقد كانت أذن لياندر عاشقةً وامقة ، وما برحت تلح على قلب صاحبها بالعشق والمقة ، وما برح يعرض عنها ولا يصغى لها ، حتى أُعلن فى سيستوس عن حفل ضخم يقام فى هيكلها تكريماً لڤينوس وتقديساً ، وأن الشباب من الجنسين مدعوون للمشاركة فى الاحتفال بربة الجمال والحب ، وليس أولى من الشباب بتكريم الجمال والحب !

وترامى خبر الاحتفال حتى بلغ الشاطىْ الأسيوى فى أبيدوس وحتى سمع به لياندر ، فابتسم ، وشعر فى سويدائه بأول قبس من نار الحب ، فألهب إحساسه وأشعل قلبه ، وملأ أضالعه شوقاً الى هيرو وتحناناً

واعتزم المشاركة فى الاحتفال ، لا تقديساً لڤينوس ، ولكن لينظر الى الراهبة الحبيبة التى ملأت خياله ، وأصبحت مثله الأعلى الذى ينجذب دائماً إليه ، مدفوعاً بالقوة الخفية الخارقة ، خاضعاً للسحر المطوى العميق

وإذْ كان اليوم المنشود ، ارتدى الفتى أبهى ملابسه ، وانطلق يحدث نفسه أمانى الحب ، ويتغنى أغرودة الجمال ، وظل يحلم فى طريقه الى سيستوس بهذا الأمل اللمّاح ، الذى يشبه

فى تحجبه فى ثنايا المستقبل ، قمر ليـلةٍ مكفهرة قمطرير ، ما يفتأ يتخايل فى تضاعيف السحب !

وعبر الهلسبنت فى زورق أبيض جميل ، يَمْخر مابين العـدوتين فى ساعةٍ كانت فى فؤاد العاشق المشتاق أطول من أحقابٍ وأحقاب !

وقصد الى الهيكل ، وطفق يدافع الجماعات ، ويزاحم الجماهير ، حتى كان بين يدى هيرو

وكانت باقات الورد تتناثر من هنا وهناك تحت قدمىْ الراهبة الصغيرة التى استوت على منصة ترتفع قليلاً عن مقاعد المدعوين ، مشرقة مُونقة ، كأنها زنبقة ، ملتفعة بُردها الحريرى الأبيض ، متكئةً بذراعها اللدنة الجميلة على سـنادة المنصة ، مقابةً عينيها الدعجاوين فى الجماهير المتكبكبة حولها تلتمس البركات . . .

وكانت ڤينوس قد أقبلت من مملكة الأولمب تشهد المهرجان الحاشد ، وتُشبع خُيلاءها باستملاء الشباب الهاتف باسمها ، المترنم بعبادتها ؛ وكان معها أبناؤها الغُر الميامين ، وفيهم كيوبيد وهرمونيا ، فاختبأوا فى أبراج الهيكل ، ولبثوا ينظرون إلى الملأ ويعجبون

وأرسلت ڤينوس عينها الفاحصة فى الملأ ، فرأت لياندر العاشق يرنو الى هيرو الراهبة ، وتكاد عيناه تلتهمانها التهاماً ؛ ولاحظت أن هيرو منصرفة عن الفتى المسكين لا تـكاد تعيره نظرة ، ولا تمنحه التفاتة ، وهو مع ذلك مشرئب اليها ، ينظر نظراتٍ كلها عبادة ، وعيناه مغرورقتان بدموع تـكاد تنهمر

وتحرك حنان الحب فى فؤاد ربة الحب ، وأقسمت لتعاونن فى هذا المشروع الغرامى العظيم ! !

وذلك أن ڤينوس لم تـكن تمجيد الحب لنفسها فقط ، بل كان يثلجها ويملؤها غبطةً أن ترى إلى عبرات المحبين ، وتسمع إلى رنين القُبل فى شِفاه العاشقين ؛ فأشارت إلى ولدها كيوبيد — رب الحب ، وصاحب السهام الذهبية والقوس ذات الوتر المُرِد — فأقبل عندها ، وألقت إليه أوامرها . . .

فوتر كيوبيد قوسـه ، وتخيّر واحداً من سهامه ، وانتهز فرصةً من هيرو كان نظرها متجهاً فيها إلى لياندر ، وأرسل إلى قلبها السهم الذى يحمل رسالة الحب ، فدخله غير مستأذن ، وملأه لوعةً وصبابة . . . وجُنّت للحظتها بالفتى . . .

وتخير كيوبيد سهماً آخر ، وأرسله هدية حارةً ، داميـة ، إلى فؤاد لياندر . وما كاد يستقر فيه ، حتى أحس الفتى أنه لم يعُد واحداً من هذه الأجسام الفانية الهالكة بعد ، بل هو قد صار طيفاً نورانياً ؛ وأحس مع ذلك بحب غامرٍ لم يكن له به عهد من قبل ، جعله يفنى فناءً تاماً فى هيرو الراهبة ، التى نظر فألفاها تلتهمه هى الأخرى بعينيها وقلبها التهاماً ! ! . . .

لله يا حب ما أجملك ، وما أبر ڤينوس بعبادك ! . . .

ودلف لياندر نحو المنصة ، وتمتم بكلماتٍ خافتةٍ ، (كأنما هى بَثُّ الورد للمطر !) يفهمها المحبون وحدهم ، حين يتـكلمون بأطراف الشفاه والعيون ؛ فعلمت هيرو أن حبيبها يُقرئها حبه ، ويسِرُّها هيامه ، ويرجومنها أن تمنحه ميعاداً يلقاها فيه على حدَة ، ويعبدها خلاله على انفراد

وارتبكت هيرو ، وتصارع فى نفسها الخوف والحب ؛ الخوف من أن يلحظ أحد أن راهبـة ڤينوس تصبو ، وبذلك يهوى احترامها إلى حضيض السخرية ، والحب الذى تكتمه فى صميمها للياندر ، والذى أثاره فيها سهم كيوبيد ، ولم تر إلا أن



ڤينوس وكيوبيد وعطارد

تهر العاشق الملح لينصرف ، ولـكنه ما يزداد إلا تعلقاً بها ، وتشبثاً بما طلب اليها ، ورجاها فيه ، وتـكون هيرو قد بلغت حالةً بين الهيام والاشفاق لا تحتمل ، فتهمس اليه أن ينتظر حتى ينصرف الناس ؛ فاذا انصرفوا ، خلت إليه ، وحدثته حديثاً موشى بالورد ، مبللاً بدموع الحب ، يختلط فيه أنين الآهات برنين الموسيقى . وتذكر له أن اتصالها سيظل حباً فى حب ، وبكاءً فى بكاء ، ولوعةً فى إثر لوعة ، وزورة مختلسة تعقبها زورة مختلسة : « لأنى راهبة كما تعلم ، وأنا خادمة هذا الهيكل الڤينوسى المقدس ، وسأظل عذراء أبد الدهر ، فلن ينتهى حبنا إلى هذا الزواج الذى أوثره وأشتهاه . فاذا كان الغسق يا حبيبى ، وتألق النجم فى كبد السماء يردد أنّاتنا ، فاقصد إلى شاطىء البحر عند أبيدوس ، واخلع ملابسك ، ثم خض عباب الهلسپنت حين أعطيك إشارةً من مصباحى ، حيث أكون فى برج قصرنا المشرف على البحر عند أقصى حدود سيستوس . فاذا وصلت ، وستصل سالماً فى رعاية ڤينوس ، فهلم إلىّ فى البرج نلتذ آلام الحب ، ونتغنّ أشجان الهوى ، واضعة رأسى على صدرك أو واضعاً رأسك على صدرى ، شاكين إلى الآلهة ما بنا من برح حتى يطلع الفجر فنفترق ، وتعود أدراجك إلى الشاطىء الأسيوى سابحاً ، فاذا كان غد ، عدتَ إلىّ لأفنى فيك وأغمرك بالقبل ، ولأقرأ فى نفسك ، وتقرأ فى نفسى ، كتاب الحب وآى الطهر ... وبوركت ڤينوس ! »

ولقد آثرت هيرو خطة الحذر فى صلتها الغرامية بلياندر ، لأن شطئان الهلسپنت كانت حرماً على السفائن والزوارق وسائر الجوارى بعد ساعة من غروب الشمس ، فلو قد ركب زورقاً وعبر به البوغاز ، لعرّض نفسه لأخطار جسام من بينها عقوبة الاعدام دون محاكمة ! لذلك لم يكن بد من أن يقطع البحر سابحاً كما رسمت له هيرو

« معبودتى : سأخوض العبـاب فى سـبيلك »
« وأطوى بحار الجحيم لو أنها تحجزنى عنــك »
« فلا الموج جياشاً باللهب ، ولا الأعماق تقذف بالحمم »
« ولا الفزع الأكبر فى الأرض أو فى السماء ؛ لاهذا ولا »
« ذاك يحول دون لقائنا يا معبودتى ! [1] »

***

فلما كان غد ، وتوارت الشمس بالحجاب ، وأقبل ليل العاشقين بشكواه ونجواه ، يمم لياندر شطر البحر ، ووقف فوق رمال الشاطىء كأنه يعدُّها ، ولبث يرقب البرج على العُدْوة الأخرى ، وفى قلبه أمل مضطرب ، وفى نفسه قلق مستمر ، وملء يديه مُنى تملأ العالم بأسره !

وظل يذرع الشاطىء جيئة وذهوباً ، وهو حين يروح أو حين ينثنى ، يحملق فى البرج المشيد لا تريم عيناه عنه . وكانت الرياح تدمدم فى جنبات الآكام الممتدة على الساحلين ، والموج يزخر فى غيران طوروس الشامخة ، والبحر يقذف سراطينه على الكثبان البعيدة النائية ، والسحب تتجمع وتتفرق كأنها موج الظلماء فى خِضم السماء . . .

وفجأة لمح لياندر بصيص النور فى كُوَى البرج الشاهق ، فانفلت من ثيابه كأن الشماعة تجذبه ، ولم يمْنِه أن يُمزّق هذا الكم ويشق ذاك الجيب ، ولم يبال أن يقذف بالقميص هنا وبالبرد هناك ؛ ثم ينقذف فى الماء ويأخذ فى سباحته ، ترفعه موجة حتى ليحسب أنه يمسك النجم ويلمس السماء ، وتخفضه موجة حتى ليخال البحر ينشطر بحرين ، وهو فى أعماق القرار يؤانس التريتون ، ويجالس الأوسيانيد [1] ! !

وكانت ڤينوس تنظر من علياء الأولمب وتلهو . . . .

وما برح يصارع البحر والبحر يصرعه ، وما برح يتقدم الى أمام ويسحبه التيار الى وراء ، وكلما خانته قواه نظر الى البرج يتزود من بدره قوة ، ومن القبل الحارة التى تنتظره ثمة دفئاً ونشاطاً مجدداً !

وبلغ الشاطىء . . .

ووجد هيرو تنتظره كأنه الأمل المرتقب ، والمُنْية المرتجاة ، فهرعت اليه واستقرت فى حضنه ، ولبثت تتسمّع الى دقات قلبه الواجف الذى يخفق لأول مرة بموسيقى الحب ! . . . . .

« وامتد فم الفراشة المرتجف ، يرشف رحيق القبلة الأولى من الثغر الحبيب الذى تفتحت عنه جلنارة الحب [2] »

وتمزقت السحب وتكشفت السماء ، وأطلت النجوم ترنو إلى العاشقين المدلهين يتباثان ويتشاكيان ، ويأخذان فى لذة الهوى الطاهر ، ونعيم الحب البرىء . . . . .

وكانت ڤينوس تنظر من علياء الأولمب وتلهو . . .

ونَسَمت فى الأفق الشرقى أنفاس الفجر ، فنهض الحبيبان

(١) من أدوين أرنولد

(١) التريتون فتيان البحر ، والأوسيانيد عرائس المحيطات (العدد السابق) (٢) من لورد بيرون

يودع أحدهما الآخر ، ويتزودان للنهار الطويل من زاد الهوى نظرات وقبلات ! !

وفصل لياندر ، وأطلت هيرو من الكوة الصغيرة تنظر إليه وهو يداعب الموج والموج يداعبه ، والزبد يلبسه ويخلعه . .

وفينوس تنظر وتلهو . . .

***

وأشرقت الشمس وتوارت ، وأقبل الليل وتنفس الفجر ؛ وعصفت الريح أو هبت رُخاءً ، والتمعت الشعلة تضيء للعاشق ظلمات العباب . . . واطمأن البحر إلى صاحبه حتى خاله أيسر عليه من ظهر الأرض ، فكان يطويه إلى مُنية نفسه وهُوِيَّة قلبه في كل موعد منتظر ، ثم يؤوب على متنه حين ينصدع عمود الظلماء ، وكأنه يمتطى من ظهور الموج الصافنات الجياد . . .

وكان فجراً شاتياً يكاد سنا برقه يخطف الأبصار ، وزمزمة رعوده تهد جوانب الأفق ، وكان البحر يتقلب ويرتعد كأنه زلزلة تأخذه من أعماقه ، فأوجست هيرو خيفة على حبيبها ، وتعلقت به ، وراحت تغمره بالقبل متوسلة ضارعة ، ترجو منه أن يبقى بجانبها ولا يجازف بحياته في هذا اليم المصطخب ، وهي تدبر له مخبأ يأويه ذلك اليوم ، حتى تسكن العاصفة ، وينام الماء . . .

وثارت النخوة في نفس لياندر ، وشاعت الكبرياء في جسمه القوى المفتول ، وأنف أن يجبن أمام الطبيعة الساخطة الغضبى ، فطمأن هيرو واحتملها كالحمامة في يديه الجبارتين ، وطبع على شفتيها المرتعشتين قبلة تجمعت فيها روحه كلها ؛ ثم انفتل من بين ذراعيها الضعيفتين ، وهرع إلى البحر يخوض فيه ، ملتفتاً بين برهة وأخرى محيياً البدر الصغير المشرف عليه من الشاطئ . .

وفينوس البارة تنظر من الأولمب وتلهو . . . .

وأحس في منتصف الطريق رعشة وإعياء ، ولكنه كان يهتف باسم هيرو مرة ، وباسم فينوس أخرى ، فتنشط الثمالات القليلة الباقية من قوته الفانية . . . . ورثت لحاله ربة الحب ، فنفخت في ذراعيه المجهودتين حتى وصل إلى شاطئ ابيدوس مهدوداً محطماً . . . وتهالك على نفسه ، فوصل الى منزله ، وأوى إلى فراشه ليحلم بالموت المحقق الذى نجا منه منذ ساعة . . .

***

وغابت الشمس ؛ ولكن العاصفة ما برحت تزداد شدة وعنفواناً ، والبرق ما فتئ يطوى السماء ، وكان كل شيء ينذر لياندر بسوء المنقلب ؛ ومع ذلك فقد نهض غير مستيئس ، وقصد إلى الهاسبنت فوقف بشاطئه يبتسم للأهوال التي يضطرب بها بطنه ، ثم لمح الضوء ينبعث من كُوَى الكوخ . . . فخلع ملابسه ، وبدأ رحلته . . . .

وكانت فينوس لا تنظر ولا تلهو . . .

لأنها كانت عند حبيبها أدونيس [1] الراعى الجميل تستمتع به ، بعد إذ فضحها أبوللو في حبيبها مارس [2]

ولم يَبْلُ لياندر من البحر مابلا هذه الليلة . . . فلقد كان الموج كأنه ألواح من الثلج تتكسر على ظهر الفتى المسكين ، وتصدع ذراعيه ، وترتطم برأسه . . .

ولقد كان الماء هذه الليلة كأن شيئاً من الصَّبر قد ذاب فيه ؛ بعد إذ كانت ملوحته تستحيل شهداً في فمه ، وعسلاً مصفى !

ولقد كان البَرَد يَنهَلُّ من السحب القاتمة ، والصقيع يَسَّاقط كنَدَف القطن الأبيض ، فيعلق بشعر لياندر ، وينسج فوقه قلنسوة ـ ولا نقول تاجاً ؟ . . ـ من برودة الموت . . .

وجاهد العاشق . . .

وسبَّح باسم هيرو بين موج كالجبال ، وليل كله ظلمات ... وا أسفاه ! !

لقد نظر المسكين إلى البرج يتزود من نوره ، ولكنه لم يَرَ الشماعة تتألق كما عَوَّدَته . . .

لقد أطفأتها الرياح الهوج فأطفأت في قلبه بصيص الأمل . . واستولى عليه خور الفجر السابق ، ودهاه القنوط في عضلاته ، فيئس منها جميعاً . . . وضاعف النكبة شرقه بالماء حين أراد أن يهتف باسم هيرو . . .

فغاص ! . . .

ولفظه اليم جثةً هامدة . . . ثم ابتلعه ثم لفظه . . .

ثم انتصف الليل ، وهيرو المشوقة حاملةٌ مصباحَها الخافتَ ، بعد إذْ أشعلته ثانية ، ولكن الساعات تمضى . . . ولا يصل لياندر . . .

وتنفس الصبح ، فسارعت الراهبة الهيمانة إلى البحر ، وحملقت في الماء . . . . فأبصرت الجثة الحبيبة ترتطم بأصل البرج ، كأنه حنين الجسم إلى أحلام الروح . . .

وصعقت هيرو . . .

(البقية في أسفل الصفحة التالية)

(١) سننشر أسطورته قريباً . (٢) العدد السابق

من الأدب الايطالى

الليالى العشر

IL DECAMERON

ترجمة اليوزباشى الاديب احمد الطاهر

٢

قصة حب

سيمون وأيفيجينا

قال : سمعت من القصص شيئاً كثيراً وكان أحبها إلى نفسى قصة الحب التى ستسمعون . هى قصة تريكم ما للحب من قوة وبأس بالغين الغاية فى العجب ، موفيين على النهاية فى الغرابة

كان يسكن جزيرة قبرس فى الزمن الخالى رجل عظيم القدر بين الرجال ، واسع الثراء بين أصحاب المال ، وكان اسمه « استيبوس » ؛ غير أن الرجل لم يكن مكتمل الحظ من السعادة ، فقد كان له ابن طويل القامة وسيم الطلعة ، ولكنه ضعيف الادراك سقيم الفهم مطبق الغباء . ولم يكن فى وسع أبرع الأساتذة والمهذبين أن يوقظوا غفلته ، أو يصقلوا طبيعته ، أو يهذبوا غلاظته ، فلم يجد الوالد بداً من أن يقصى هـذا الفتى المنكود عن مرآه ، ويبعده عن موطنه . فأرسله إلى منزل له فى الريف يعيش فيه بين الاتباع والعبيد . ولقد كان الفتى أميل إلى طباع أولئك وأقرب : ففيه خشونتهم وجفاؤهم وغلظة طباعهم

— كان الفتى يوماً يمشى فى المزرعة وقد أسند عصاه إلى كتفيه ، واعتمد على طرفيها بذراعيـه ، فالفى فتاة بارعة الجمال مستغرقة فى نوم عميق ، قد اطمأنت إلى الحشائش الخضراء فراشاً وثيراً ، ونام عند قدميها امرأتان وخادم . لم يكن لسيمون — وهذا اسم الفتى — عهد بوجوه النساء فاتـكأ على عصاه ، وحـدق ببصره فى وجه الفتاة ، أن كانت بارعة الجمال فى نومها ، ساحرة الحسن فى غمضها ، هاج مرآها من نفسه شعوراً وإحساساً لا عهد له بهما ولا بأقل منهما ، وكلما أمعن فى النظر ازداد هذا الشعور وأسرف عليه هذا الاحساس ، وإنهما ليغريانه باطالة الوقوف وانعام النظر فهو لا يريم ، وينفرج جفنا الفتاة عن عينين يقرأ فيهما هـذا الغبى فى طلاقة وسهولة معانى الجمال ، ومن معانيه الحلاوة والرفق والبشر . ثم هذا فمها الصـغير ينفرج عن كلمات يدرك الفتى الأبله ما صيغت فيه من جمال فى اللفظ وعذوبة فى الجرس :

— « لم ترمقنى هكذا ؟ أرجو أن تنصرف عنى . يفزعنى مرآك »

— قال الفتى : « لا أتنحى ، بل لا أستطيع »

ودار بينهما حوار انتهى عند الفتى فلم يغادرها حتى أبلغها دارها

ثم ارتد إلى أبيه وقد فهم اليوم معنى من أدق معانى الحياة ، ولم يكن قبل اليوم يفهم أن للحياة معنى . قال : « يا أبت إنى أود أن أحيا حياة الرجل المهذب ، ولقد برمت بحياة المتأبدين »

كان عجباً للوالد أن رأى ابنه يفكر ويصيب فى التفكير ، ويريد ويحسن الارادة ، ويتكلم ويجيد التعبير ، فى صوت رقيق ، ولفظ رفيق

وألبسه ثياباً تليق بقدر أسرته ومكانتها وبعث به إلى المعلمين والمهذبين فقضى بينهم أربعة أعوام كان الحب فيها قوام تهذيبه وعنصره المستساغ ، فما أوفى الفتى على نهاية الأعوام الأربعة حتى كان أكمل فتيان الجزيرة أدباً وأحسنهم خلقاً

وخطب الفتاة إلى أبيها وكانت تدعى « ايفيجينا » ولـكن أباها اعتذر أن كانت الفتاة مخطوبة إلى الفتى « باسيمونداس » من أشرف أسر رودس وأعرقها مجداً وانهما على نجز الزفاف

وجم الفتى وضاق الـكون فى عينيه . وأصرها فى نفسه ليحرزن الفتاة بحبه ، وليشهدنها على هذا الحب وفعله فى نفسه ، وليطلعنها على ما خلق الحب منه من خلق جديد ، وما يستشرف اليه من سعادة ترفعه إلى مقام الآلهة وعظمتهم إذا نعم منها بالزواج ؟ . .

« إما أن تـكون الفتاة لى أو أكون من الهالـكين »

وسار إلى أترابه من الفتيان الأشراف الأوفياء ، وائتمر معهم على أن يصنعوا سـفينة قد استكملت عدتها من آلات الحرب

ودارت بها الأرض ، وانطفأت فى عينها مباهج الحياة بانطفاء أملها المشرق وبدرها البسام ! فألقت بنفسها فى الأعماق وما هى إلا لحظة ، حتى كان الحبيبان مُسَجَّيَيْن على سرير الماء مُلَفَّفين فى حرير الزبد ! ! (١)

دريني خشبة

---

(١) شغف لورد بيرون بهذه الأسطورة فنظمها ، وذهب بنفسه إلى الدردنيل فتمثل لياندر وعبر البوغاز ، وتمنى لو غرق مثله هناك . . . ولا يفوت القارىء الاطلاع على تحفة بيرون فى ديوانه

والقتال ، وتربص بها للسفينة التى تقل الفتاة إلى رودس مع زوجها باسيمونداس . فما أشرفت هذه عليها حتى رمى عليها مجذافاً ضمها إلى سفينته ، وكان أول من ألقى بنفسه بين أعدائه وساقهم إلى الحرب ورداً حتى ألقوا سلاحهم واستسلموا خاضعين . قال لهم الفتى : « .. قصدت اليكم أبغى سلابكم ولكن لأنال هذه الفتاة النبيلة التى أحبها حباً لا يعدله حب ولا يتطاول اليه محب . فان أسلمتموها إلىّ ألقيت اليكم السلم ، ومالى عليكم سبيل ، وإلا فلن تجدوا عن الهلاك محيصاً »

فتقدمت إليه الفتاة وفى مآقيها دموع . قال : « لا تبكى يا فتاتى ، فلقد ساقنى اليك حبى ومناكِ . ولن يعدل هذا الحب ما يسوقه اليك باسيمونداس من أعز ما يساق إلى الأزواج » .

وفصلت عن وجه الفتاة ابتسامة شقت طريقها إلى قلب الفتى من بين الدموع . وأخذ بيدها إلى سفينته واتخذ سبيله فى البحر سَرَباً ، حتى أشرف على جزيرة كريت أن كان له فيها إخوان وخلان ، ولكن تنكرت له الأقدار ولم ينعم بهذا النصر طويلاً . فما أقبل الليل حتى أقبلت معه عاصفة نكباء ، ترسل حسباناً من السماء ، وطوحت بالسفينة بين شطى اليأس والرجاء ، حتى ألقت بها فى أحضان خليج صغير ينفرج عنه جزء من ساحل رودس على مرمى قوس من مستقر السفينة الرودسية ، وما كادوا يستقرون حتى قدم باسيمونداس فى فئة من أصحابه وفى أيديهم السلاح وهاجموا الفتى سيمون ومن معه وساقوهم أسرى إلى قاضى القضاة فى رودس

وحوكم الفتى على ما اقترف فحكم عليه قاضى القضاة بالسجن خالداً فيه أبداً وقيد إلى السجن ذليلاً حسيراً

هنا فتانا تبرح به الآلام ، وتمزق جلده الأغلال ، وهناك باسيمونداس غارق فى بحار الآمال ينعم بتحقيق المنى ، ويعد العدة لزفافه إلى ايفيجينا . ولنترك الخصمين الآن ، أحدهما يشقى بآلامه ، والآخر ينعم بآماله

وكان لباسيمونداس أخ أصغر منه اسمه « هرمسداس » وكان يعلل النفس بالزواج من فتاة موفورة الحظ من الجمال اسمها « كاسندار » أغرم بحبها وأخذت بشغاف قلبه . وكان ينازعه فى الحب قاضى القضاة الذى قضى على فتى هذه القصة أن يسجن أبداً . ولقد حسب الاخوان أن سينعمان بزفافهما إلى عروسيهما فى ليلة واحدة ، وأعدا العدة فى ثقة واطمئنان لهذا الغرض . ولكن قاضى القضاة لايهدأ له بال ، ولايزال يحتال للأمر من كل وجوهه وقد عقد العزم صادقاً على أن يحظى بالفتاة دون هذا الفتى « هرمسداس » . ولكن كيف السبيل ؟ أيختطفها ؟ وهو قاضى القضاة ؟ هذه عزة منصبه ، وهذا شرف مكانته ، يأبيان عليه هذه الفعلة النكراء ، أم يقهر فى نفسه سلطان الحب ويكظم الغيظ ويصبر على الكمد ؟ إن سلطان الحب لقوى ، وإن بأسه لشديد ، وإنه لغالب ، وانتهى به التفكير إلى حيث لم يعصمه الشرف المغلوب من سرف الهوى الغالب ، ومضى ينفذ عزمه باختطاف الفتاة

ولم يعوزه النصراء فى هذه الفعلة الهوجاء ، إذ ظهر سيمون مرة أخرى على مسرح القصة . وليس أيسر على القاضى من أن يصطنعه باخلاء سبيله وفك إساره لينال غرضه على ساعديه القويين فيختطف الفتاة ، وليس أحب من ذلك إلى نفس سيمون فهو سينال حريته المسلوبة — لاشك فى ذلك ولا مراء — وهو سينتقم لنفسه بنفسه من قرنه العنيد وخصمه المناجز بفجيعة أخيه فى محبوبته واختطافها من بين أحضانه

وجىء إلى قاضى القضاة بسيمون وأصدقائه فوضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، وزودهم بالسلاح وآلات الكفاح وأخفاهم فى مسكنه حتى يحين ساعة العمل

وأقبل يوم الزفاف : زفاف باسيمونداس إلى ايفيجينا وزفاف هرمسداس إلى كاسندرا وأقبلت معه ساعة الانتقام وإشباع الشهوة : انتقام سيمون من باسيمونداس خصمه ومزاحمه ، وإشباع شهوة قاضى القضاة من الفتك بهرمسداس مناوئه ومناجزه

وأحكم قاضى القضاة التدبير : فقسم أعوانه إلى فئات ثلاث : فئة اتخذت سبيلها إلى الشاطىء واجتسرت البحر بسفينة ، وثانية كمنت عند مسكن باسيمونداس ، وثالثة كانت تحت إمرة سيمون وقاضى القضاة اندفعت إلى مقصورتى العريسين الأخوين فقتلتهما واختطفت الفتاتين وولت بهما الفرار

وكانت الفتاتان تبكيان ، ولكنه كان بكاءً لايدل على الأسى ولا على الحسرة فعيونهما كانت تنم عن رغبة ورضى

وسار الجماعة منتصرين مهللين إلى كريت وتزوج قاضى القضاة بفتاته كاسندرا ، وتزوج سيمون بمحبوبته ايفيجينا ، وأقبل عليهم أصحابهم وأوفياؤهم يهنئون

وعاد سيمون بفتاته المحبوبة إلى قبرس ، وحمل قاضى القضاة فتاته إلى رودس ، وعاشوا فى نعيم ورخاء ، حتى أدركهم الفناء .

« عن الانجليزية » **اليوزباشى أحمد الطاهر**

البريد الأدبي

نابغة عربي

المرحوم حسن كامل الصباح



فى أول يوم من هذا الشهر احتفل فى بيروت باستقبال جثمان الشاب العالم العربى النابغ حسن كامل الصباح ، وقد علقته المنون بمدينة مالون بالولايات المتحدة يوم ٣١ مارس سنة ١٩٣٥ فى حادث طيارة كان قد اشتراها ليرحل بها إلى البلاد العربية فكان فقده خسارة للعلم والاختراع وفجيعة للعرب الذين يرجون بمثل هذا النبوغ البارع أن يثبتوا للناس أن حيويتهم لا تزال فاعلة ، وأن خصائصهم لا تزال كاملة ، وأن مكانهم من المدنية الحديثة لا بد أن يشغلوه :

ولد الفقيد بالنبطية من جبل عامل فى ١٦ أغسطس سنة ١٨٩٤ من أسرة تمت بنسبها لابن الصباح أمير الكويت ، وشب مولعاً بالحساب والشعر والفلك ، فدرس الجبر والهندسة بنفسه وهو فى اليفاعة من سنه . ثم دخل المدرسة السلطانية ببيروت ثم الجامعة الأمريكية بها ولم يتم دراسته فيها لأنه دخل الجندية ونقل إلى الآستانة فعمل فى قسم اللاسلكى تحت قيادة ضابط ألمانى درس عليه الألمانية ، وكان قد درس من قبل الفرنسية والانكليزية ، وظل يتابع دروس الرياضة فى تلك اللغات حتى انتهت الحرب فعاد إلى دمشق وعين معلماً للرياضيات فى المدرسة السلطانية ، وفى عام ١٩٢١ تولى تدريس الحساب فى الجامعة الأمريكية ببيروت ، ثم بدا له أن يهاجر إلى الولايات المتحدة فالتحق بمؤسسة (ماساتشوستس) الفنية وهى من أرقى مدارس الهندسة فى العالم ، ثم انتقل إلى جامعة (النيويس) ، ثم خرج إلى الحياة العاملة فعين فى شركة الكهرباء العامة فى (سكسنكندى) نيويورك ، وهنالك أثمر نبوغه وأنتجت عبقريته ، فأخذ يدهش الفنيين بابتكاره وإبداعه ، فخصصت له الشركة مختبراً ومكتباً وجعلت تحت يده مهندسين يعملون بارادته وإرشاده ، وتوالت عليه — حين دوى ذكر اختراعاته فى المقامات العلمية والشركات الكهربائية — شهادات العلماء وتهانى العظماء كرئيس المؤسسة الكهربائية فى بوسطون ، والأستاذ كاستلوفرانش أستاذ الكهرباء فى جامعة ميلان ، والأستاذ موريس لبلان العالم الفرنسى الكبير ، والمستر هوفر رئيس الولايات المتحدة السابق ؛ وسجلت شركة الكهرباء العامة جدول اختراعاته فى دائرة السجلات فى وشنطون ، وقد بلغ ما سجل منها ثلاثة وأربعون اختراعاً انفقت الشركة فى تسجيلها مائة ألف ريال ، وأنفقت على اختراع واحد من تلك الاختراعات ربع مليون ريال ، وهو اختراع فى التلفزة يحول أشعة الشمس إلى نار وقوة كهربائية ، وكان يطمع بهذا الاختراع أن يسخر أشعة الشمس المحرقة فى الصحراء العربية لانارة المدن والقرى ، وفى سبيل ذلك اشترى الطيارة التى كانت من أسباب وفاته

ومن اختراعاته المسجلة :

١ — طريقة لضبط القوة الصادرة من المقوم الكهربائى رقم الباتنت ١٦٦٩٥٠٢

٢ — حوافظ وضوابط لحماية المقومات الكهربائية من الخط رقم الباتنت ١٧٧٦١٨٩

٣ — طريقة لمنع حدوث هزات عالية فى القوة الكهربائية فى المقومات الزئبقية ١٨١٧٣١٢

٤ — ملتقط حديث لمنع حدوث انفجار كهربائى منعكس

محول للعزائم الكهربائية العظيمة رقم الباتنت ١٨٥٢٢٠٥

٥ — جهاز للتلفزة يحول أشعة الشمس لنار وقوة كهربائية هائلة ١٧٤٩٦٢

٦ — جهاز للتلفزة يستخدم الكهارب المنعكسة بفعل النور رقم الباتنت ١٦٩٤٦٦

٧ — جهاز للتلفزة يستخدم النور كضابط للتيار الكهربائي رقم الباتنت ١٧٠٦١٦٥ الخ . .

ومما ذكره مدير شركة جنرال الكتريك فى رسالته الى والد الفقيد الجملة الآتية :

« لقد برهن الأستاذ كامل الصباح اثناء خدمته لشركتنا على أنه من أعظم المفكرين الرياضيين فى البلاد الأمريكية ، وأن وفاته خسارة كبيرة لعالم الاختراع »

وقد صرح جهابذة الفن الكهربائى الذين كانوا يلقبونه باديسون الصغير أنه لو نسأ الله فى أجله لعد من أعظم المخترعين

كتاب عن ستالين

ستالين طاغية روسيا السوفيتية من أعظم وأغمض الشخصيات المعاصرة ، إن لم يكن أعظمها وأغمضها جميعاً ؛ فهو يمثل فى شخصه أمة عظيمة وجيلا بأسره ، ورسالة اجتماعية جديدة . وقد صدر أخيراً كتاب عن ستالين بقلم الكاتب الفرنسى هنرى باربيس ، وهنرى باربيس كاتب ثورى ، بل من زعماء كتاب الثورة الاشتراكية ، ومن أعرف الناس بشؤون روسيا السوفيتية وزعيمها ستالين ؛ وقد خلف ستالين منذ أكثر من عشرة أعوام لينين منشىء روسيا السوفيتية ، واستمر يقودها حتى ذلك الوقت ، ولكن شتان بين القائدين ، فان لينين ذهن غربى درس المركسية (الاشتراكية) كمبدأ وعقيدة ، وتلقاها فى أجواء غربية ؛ ولكن ستالين أسيوى محض ، فهو من بلاد الكرج ، ولم يعرف الثورة ولا الاشتراكية قبل الحرب ، ثم ان لينين ذهن المبادىء والمنطق ؛ ولكن ستالين ذهن عملى خشن فقد تلقى تراث لينين وعمل على حمايته واستمراره بحماسة ؛ ولكنه لم ير بدا من مسايرة الظروف ؛ فارتد الى النظم « البورجوازية » (غير الاشتراكية) يأخذ منها ما يروق له وما يعتقد أنه معين له على توطيد النظم القائمة . وقد كان ستالين فى حياة لينين يمثل الجانب العملى للتجربة الجديدة ، وكان لينين يعجب بآرائه العملية على رغم معارضتها للمبادئه ؛ ولما توفى لينين واستأثر ستالين بالأمر ثارت بينه وبين أقران لينين وحملة تراثه أمثال تروتسكى وزينوفييف وغيرهما معركة شديدة ؛ ولم يستطع ستالين أن يبطش بهؤلاء الخصوم الذين ينمون عليه سياسته العملية بادىء بدء ، ولكنه استطاع بعد عامين أو ثلاثة أن يضع يده عليهم ، وأن يشتتهم ، وأن يباعد بينهم وبين الثورة

ويصف لنا مسيو باربيس هذه المراحل فى كتابه ، ويدرس خلال شخصية ستالين تاريخ روسيا السوفيتية ، وأطوار الثورة الاشتراكية ؛ وهو يرى أن ستالين بعد لينين هو الشخصية التى تتمثل فيها روسيا السوفيتية ؛ ويذيل عنوان كتابه بهذه العبارة : « عالم جديد يدرس فى شخص رجل »

جائزة الرينصانص

اختتم موسم الجوائز الأدبية الكبرى فى فرنسا بتخصيص جائزة « الرينصانص » لمسيو فرنان فابريه الكاتب الشاعر النورماندى ؛ وفليريه من طبقة الكتاب والشعراء الكهول ، وأصله من نورماندى ، من ذلك الجيل الأدبى الخشن الذى يمتاز بقوة فى أدبه ؛ وقد ظهر قبل الحرب بكتاب اشترك فى وضعه مع الشاعر « الكولس » ولوى برسو ، عنوانه « جحيم المكتبة الوطنية » وفيه يدلل على اطلاع شاسع . بيد أنه مال إلى القريض بعد ذلك ، وأخرج عدة قصائد ومنظومات قوية ساذجة تدل على تأثره بروح وطنه . ثم عالج القصة بعد ذلك فكتب منها : « ثلاث أقاصيص تاريخية » ، « فى عصر الحبيب » ، « الملاذ الأخير » ، « جيم كليك » . بيد أن أعظم قصصه هى « قصة السعيدة راتون ، الفتاة الطروب » ، وهى قصة فتاة زلت ، صورت بقوة ومهارة . وعنى فرنان فابريه أيضاً بالمسرح ، وكتب له ؛ فاشترك مع (روجيه ألار) فى وضع «سلستين» و«مدرسة الأساتذة» ومع أمادو ليجا فى إخراج « كارافا كا ، فنان ومصور » ، وغيرها من القطع المسرحية ؛ واشترك أيضاً مع لوى برسو فى كتابة عدة قصص أخرى ؛ ونشر فى مجلة « مركير ده فرانس » عدة فصول وصور نقدية قوية ؛ وقد روعى فى منحه جائزة « الرينصانص » عمله الأدبى كله ، ولم يمنحوه إياها من أجل كتاب معين

الكتب

أبو بكر الصديق
تاليف الأستاذ على الطنطاوى

نشرته المكتبة العربية بدمشق فى ٣٦٠ صفحة من القطع المتوسط

الأستاذ على الطنطاوى، أو الشيخ على الطنطاوى كما يحب أن يُدعى، ثمرة ناضجة من ثمار الثقافة العربية الحديثة: ثقف علوم الدين وعلوم اللسان ثقافة محيطة، ثم درس القانون دراسة فقهية عميقة، وشارك فى إيقاظ النهضة الفكرية والدينية والاجتماعية فى سورية مشاركة منتجة؛ فله فى قيادة الشباب محل، وفى توجيه الآداب طريقة، وفى سياسة الأصلاح مذهب؛ وهو ونفر من صحابته يمثلون فى سورية الناهضة الحلقة الواصلة بين عقلية تنكر القديم، وعقلية تنكر التجدد. وليس الأستاذ الطنطاوى مجهولاً لدى قراء الرسالة، فهو يطالعهم الحين بعد الحين بالفصول الممتعة فى الأدب والتاريخ والقصص، ينقلها عن فكر خصب، واطلاع واسع، ومنطق سليم، وإيمان صادق، وعاطفة نبيلة

رغب اليه أصحاب المكتبة العربية بدمشق أن يكتب تاريخ الخليفة الأول أبى بكر الصديق رضى الله عنه، فتوفر على قراءة مائة كتاب فى موضوعه بين مطبوع ومخطوط أثبت أسماءها فى ثَبَت المصادر، ثم جمع منها أخبار هذا البطل العربى، وعارض بعض هذه الأخبار ببعض، ثم جمع ما صح عنده من الروايات الكثيرة وجعلها كالحديث الواحد منبهاً إلى مصدر كل رواية ودرجة كل حديث. وتلك هى الطريقة السلفية التى تعتمد على الحشد والرواية، أكثر مما تعتمد على التحليل والرأى، فهى تعطيك أسباباً من غير حكم، ومادة من غير صورة، وقد ركب الأستاذ هذه الطريقة الوعرة على قصد وعلم، فهو يقول: «وكان علىّ أن أسلك فى هذا الكتاب سبيل الدراسة التحليلية فأصف الحياة العقلية والاجتماعية والسياسية للعصر الذى عاش فيه أبو بكر رضى الله عنه والبيئة التى نشأ فيها، وما كان لذلك من الأثر فيه، وأدرس أخلاقه وسجاياه، وأبحث العوامل التى عملت فى تكوينها، وأبين أثر الاسلام فيها، وأثرها فى التاريخ الاسلامى، وما إلى ذلك من عناصر الدراسة التحليلية. ولكن «المكتبة العربية» ترى أن هذا الأسلوب لا يمثل إلا رأى صاحبه، وأن الرأى قد يخطئ الحقيقة وقد يصيبها، وهى لا تحب أن تخرج للناس (درساً) فيه الخطأ وفيه الصواب، بل تاريخاً صحيح السند مضبوط الرواية . . . . . .

«وقد كرهت بادى الرأى هذا الأسلوب . . . فكيف أجوز أصعب الشقتين، فأجمع المواد وأفحصها وأنقحها وأسبكها وأؤلف بينها، ثم أثبتها فى الكتاب كما هى فيأتى «آخر . . .» فيأخذها هينة لينة، فينشئ منها كتاباً تحليلياً تكون فاتحته انتقاصى وذمى بأنى لم أنشئ منها كتاباً تحليلياً . . .

«ثم بدا لى فقلت لا بأس، فانه مهما يكن للأسلوب التحليلى من المزايا، ومهما يكن للأسلوب العربى من العيوب (عند بعضهم) فان الصحة ليست فى غير الأسلوب العربى، وليس لأمة من الأمم ما للأمة العربية من الضبط فى الرواية والتحقيق فيها والتثبت منها؛ ولا يدرى أكثر من نعرف من الشبان من أمر هذه الرواية شيئا، بل انهم ليجهلونها مرة واحدة، وينبزونها حماقة وجهلاً (بالكتب الصفراء) لما وضعوا فى نفوسهم من أن الخير لا يكون خيراً لذاته، ولكن للطابع الغربى الذى يشترط أن يكون عليه . . . وأن الشر لا يكون شراً لذاته، ولكن للسمة الشرقية التى يتسم بها . . . وذكرت أن اتباع الأسلوب العربى — على ما سينالنا من لوم على اتباعه — خير لشبابنا (وهم جمهرة القراء) وأجدى عليهم، وانه فى طوق كثير من الشبان أن يكتبوا التاريخ التحليلى لأبى بكر إذا وجدوا الصحيح من أخباره مجموعاً فى كتاب

واحد ، ولكنه يعجز الكثير منهم أن يجمعوا هذه الروايات ويفحصوها ويرتبوها . . . »[١]

ولا ريب أن الأستاذ قد بلغ أقصى ما أراد فى الجهة التى اختارها أو اختارها له الناشر ، فقد استوعب كتابه كل ما اتصل بحياة الخليفة العظيم من الآيات والأحاديث والأخبار فى سياق مطرد وترتيب محكم وأسلوب جذاب . ولكن من يقرأ تصدير الكتاب[٢] ويقف على أسلوب الكاتب فى حسن التعليل ، وصدق الوصف ، وبراعة العرض ، يتمنى لو أن الأستاذ كان قد وفق بين الطريقتين ، فيجمع بين المزيتين ، ويسلم من نقد القارئ المتعقب ، واستغلال الكاتب الجحود

الشاطئ المجهول

نظم الشاعر سيد قطب

للأستاذ محمود الخفيف

فى ذهنى ، عن شعراء الشباب عندنا فكرة عامة ، تزداد وضوحاً ، وأزداد بها تعلقاً كلما نشر أحدهم مجموعة شعره ، ولقد أتيح لى أن أقرأ عدداً من تلك المجموعات فى الأيام الأخيرة ، فزادتنى يقيناً بأن الشعر فى مصر يسير الآن لى غير قصد ، أو بعبارة أخرى لم تنشأ بعد عندنا فى الشعر « مدرسة » لها لونها ، ولها غايتها ، ولها سبلها المختلفة التى تنتهى بها الى تلك الغاية . وعلة ذلك أن شعراءنا إلا أقلهم مقلدون ، وقل أن تلمح لأحدهم أصالة أو تتبين له وجهة ، وكأنى بالشاب منهم يتناول القلم والورق ، ويجلس لينظم ، لا لأن قلبه يخفق بمعنى يريد أن يفصح عنه ، بل لأن شهوة النشر تملك زمامه ، والرغبة فى المحاكاة تصرفه فى ذلك عن الصواب . فنى نفسه بقية مما قرأ ولم يحسن فهمه من المسائل ، فهو يتطلع الى التجديد والغموض والرمز والبحث عن المجهول والتشاؤم ، وماسوى ذلك من معان يرددها دون أن يدرى كنهها أو المقصود منها . وليت شعرى ، كيف نسمى انتاجا كهذا شعراً ؟ وهل كان الشعر إلا الاحساس القوى ثم الافصاح عنه فى صورة تلائم الفن وترضى الذوق ؟

وانك لتلتمس الدليل على ما أقول فى هذا الديوان المسمى بالشاطئ المجهول ، فانى على الرغم من عثورى فيه على بعض قطع أبهجتنى قراءتها ، قد عجزت تماماً عن استجلاء مايريد الشاعر بما جاء فى قسمه الأول الذى من أجله سماه بهذا الاسم

بيد أنى أحب أن أبدأ الكلام عن هذا الديوان من الناحية الشكلية ، فقد استوقفتنى فيه ظاهرة أمضتنى بقدر ما تولانى منها الدهش ، ذلك أن الشاعر « سيد قطب » قد مهد لديوانه بمقدمة نقدية بقلم الناقد « سيد قطب » ، وراح فى هذه المقدمة يمتدح نفسه ، ويطنب فى هذا المدح فى صورة يعرونى لمجرد الاشارة اليها كثير من الخجل والحياء ! فنى الدوان نظريات علمية وفلسفية ، والشاعر ملم بها ، والشاعر متصل بالعوالم المجهولة ، تربط قواه الروحية بالوحدة الكونية الكبرى ، وللشاعر احساس متيقظ بالزمن ومروره ، ويملأ الشغف بكشف المجهول والحديث عن السر حيزاً كبيراً من ديوانه ، والشاعر فى هذا الديوان يقف موقف المصور فى كثير من القصائد ، وفى الديوان ظاهرة تستحق التسجيل ، ذلك أن لوناً من ألوان الموسيقى يتفشى فيه كله ، كذلك تبدو فى هذا الديوان صورة واضحة للتعبير الدقيق المصور للأفكار الى ماسوى ذلك مما أستحى لذكره من عبارات المدح والاطراء : وتالله لقد ترددت كثيراً أن أصدق أن الشاعر والناقد شخص واحد ، وأكتفى أن أقول له فى احترام : إن مثل هذا إنجاز فى شىء فهو لايجوز فى الأدب وعلى الأخص فى الشعر

وبعد فهل رأيت فى الديوان ما يتفق مع هذه المقدمة ؟ الحق أنى إذا أردت الانصاف مضطر إلى أن أخالفه فى كثير مما قال بل فى معظمه ! فالجزء الأول من ديوانه المسمى « ظلال ورموز » عبارة عن سلسلة من الأفكار الغامضة يشملها جميعاً ذلك التعبير الذى شغف بتكراره الشاعر وهو « الوجوم الكئيب » فتلك الكآبة تخيم على معظم قصائده وعلى الأخص « الشعاع الخابى » و « خراب » و « فى الصحراء » حيث « يطل الليل كالشبح الكئيب » و « فى خريف الحياة » ، و « غريب » . وليتنا نخرج بشىء من هذه الكآبة أو نتبين فيها شيئاً من فلسفة الحياة جديراً حقاً بهذا الاسم ، ولست أدرى لم اضطلع الشاعر هنا ببعض الموضوعات « كالانسان الأخير » و « الشاعر فى وادى الموت » ،

---

(١) مقدمة الكتاب (٢) نشرناه (بالرسالة) فى عدد سابق

وهو لم يخرج منها بطائل ، بله العجز عن التصور والتعبير فى مثل هذه المواقف الغريبة !

أما بقية ديوانه فيشتمل على بعض قصائد ريفية ، وقصائد غزلية ، وقصائد وطنية ، هى فى الجملة جيدة ، تحس أنها صادرة حقاً عن القلب ، فليس فيها من التكلف والتعمل والتقليد مثل ما فى سابقتها ؛ ولقد أعجبتنى بنوع خاص قصائده « توارد خواطر » و « سر انتصار الحياة » و « المعجزة » و « الليلات المبعوثة » وطربت لها كثيراً . ولو نظر الشاعر أو الناقد سيد قطب مني نظرة حق لفهم السر فى نجاحه فى تلك القصائد التى يستحق من أجلها أطيب الثناء ، ولولا هنات فى بعض تعبيراته لعدت هذه من عيون الشعر

والشاعر فى قصائده الحديثة أقوى على التعبير وأسلس عبارة منه فى قصائده القديمة ، ولقد لاحظت عليه أنه كجمهرة شعراء الشباب مغرم ببعض الصور الغريبة ، لا يتحرج فى كثير من تعبيراته ، ولا يتوخى فيها البلاغة والسير على مألوف التشبيه والاستعارة ، وإلا فكيف يتفق مع الذوق مثل قوله « يدوى حوله صمت الفناء » والكون « مفقود القطين » و « الهول الواجم » و « الرعب الحائم » و « الفناء الجاثم » و « ركام الفناء » و « شخوص الوهم » و « الحياء الوديع » و « الخشوع الوقور » و « العيلم المسجور » و « الصرخة المتلوية » و « الصمت فى ظل الوجوم » و « وقف الكون شاخصاً فى سكون » و « الذهول الشريد » و « القنوط المقيم » و « الدلال الشرود » و « الرشاد الرزين » و « الفتور الشغوف » وغير ذلك من الصور الذهنية الغريبة وهى مع الأسف كثيرة فى الديوان

هذا إلى أنه قليل العناية بانتقاء اللفظ وتجويد القوافى ، وأنا على يقين بأنى حين أصارحه بهذا أحسن اليه ؛ فواجبنا جميعاً أن نتضافر على رفع مستوى الشعر بعد أن نحدده ونتبين وجهته ، ولا سبيل لنا إلى ذلك إلا إذا توخينا الصراحة والصدق والاخلاص فى كل ما نقول

الخفيف

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٠٢ — ١٧ يونيو سنة ١٩٣٥ — السنة الثالثة

3 me Année, No. 102.

Lundi-17-6-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ١٠٢ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٦ ربيع الأول سنة ١٣٥٤ — ١٧ يونيو سنة ١٩٣٥ » السـنة الثالثة

فهرس العـــدد

صـــيف الأديب

زفرت جهنم زفرتها السنوية كما تزعم الأساطير ، فعقدت على وجهى (الوادى) غشاء من سَموم ودَخَن ؛ فالطبيعة فى غلافها النارى مكبوتة ، والأرض من حُمَّاها الصالب مسبوتة ، والناس من إلحاح القيظ متبلِّدون هامدون يقابلون لفحه بجَلَد المضطر ، ويعالجون بَرْحه بصبر الشهيد ! ولكن الجَلَد نُماع فهو عَرَق يتقطر ، والصبر يرفَضُّ فهو بخار يتصعد ، وبين هذا التقطير وذلك التصعيد نفس تذوب ، وجسم يذبل ، وعزم ينسرق ، وفكر يضمحل : فليت شعرى ماذا عسى أن يعمل من اضطر إلى أن يعمل ؟ هذا مكتب الأديب الصحفى يشع الوهج كأتون الفرن ، وينفث الضيق كحجرة السجن ، ويبعث القلق كغرفة الانتظار : وهو مع ذلك مقضىٌّ عليه أن يفكّر ويعبّر ، ويرتب ويهذب ، ويقابل ويجادل ، حتى يهن عصبه ، وينقطع سببه . فيعود إلى منزله المعلق فى الجو الأغبر على زحمة الشارع وضوضاء العامة ، يطلب الهدوء فلا يجده ، ويلتمس النوم فلا يناله !

ليس له وا أسفاه قصر يبسم بالنعيم ، ويغنم بالعطر ، ويشرق

بالجمال ، ويموج بالزهر ، ويتطارَّى بالماء ، ويتمطى فى الظل ، ويتبسط فى السعة ، ويسجو فى الخفض ، ويَغرق فى السكون ، ويضرب حواليه نطاقاً سحرياً من الأحلام واللذة ، فيعوذ به من وقدة الجو ، ويلوذ به من مشقة العمل

وليس له وا أسفاه مال يعبر عليه ثبج البحر ، ويَرِد به مدن الماء ، ويبلغ فوقه قرى الجبل ، فيسرّى عن نفسه بعض عناء العام و بلاء الأيام بما يرى من مفاتن الطبيعة على الربى ، ومجالى الفردوس فوق السهول ، ومباهج المدنية على الشواطئ

وليس له وا أسفاه ما للأديب الموظف من المؤتمرات العلمية ، والسياحات التعليمية ، يغشاها فى منازه أوربا ، أو خمائل لبنان ، فينال من زهرة الدنيا ومُتعة العيش على حساب الدولة وعلى حب العلم

***

الطالب يعود فى العطلة الى الريف ، والموظف الصغير يذهب فى الأجازة الى المصيف ، والموظف الكبير يجد من مرتبه فضلا يشترى به السياحة والراحة والبهجة ، والموظف الأكبر يُجشم نفسه الكبرى (خدمة) للحكومة فى (الخارج) ، فيؤديها على أتمها نائماً فوق صدور الأمانى ، حالماً على هدهدة الأغانى ، هائماً وراء الخدمة المنشودة فى أودية الشعر والسحر ، ثم لا يكلف الخزينة العامرة إلا بضع مئات لمكافأته ، و بضع كلمات لشكره ؛ والكبراء الذين يعيشون علينا ، ولا ينتسبون إلينا ، يجمعون دم الفلاح الغالى فى حقاق من ذهب ، و يلفون لحمه اللذيذ فى حقائب من حرير ، ثم يرحلون بهما إلى أسواق ابليس ، فى (مونت كارلو) و (نيس) ، فيشترون بهما أبهة أشهر ، وعربدة أسابيع ، ومخازى عُمْر !

إذن لا يبقى لسعير الصيف إلا الطبقة التى تنسج لهؤلاء جميعاً بُرْد السعادة : طبقة العمل الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يجدى على أهله إلا قوت يوم بيوم : طبقة الموظف الأصغر ، والصانع المستَذَل ، والعامل المستغَلّ ، والفلاح المهمَل ، والتاجر المدين ، والأديب المسكين ، فهم يعملون فى عطلة الناس — وأجرهم على الله — حتى لا تسكن الدنيا ، وحتى لا يقف الفلك !

***

أنشأت الأمة مصايف لأطفال الفقراء ، وأعدت الدولة قطار (البحر) وقطار (النزهة) لانصاف الأغنياء ، فماذا أنشأت الأمة أو أعدت الدولة لمساكين الأدباء ؟ أليسوا رسل الحق والخير والجمال والمعرفة إلى من زهتهم السطوة فلجوا فى الباطل ، وأعمتهم الشهوة فتدفقوا فى الشر ، ولوثهم الطمع فاطمأنوا إلى القبح ، وركبهم الغرور فجنحوا للجهالة ؟ أليسوا أحرياء بأن تقيم لهم الحكومة (جبل البَرْناس) على بقعة من ضفاف النيل ، أو على رقعة من شواطئ البحر ، يستجمون عليه من الاعياء ، ويتصلون فيه بالسماء ، وينشدون الأمة من روائع الوحى أجمل مما أنشدته (الموز) التسع آلهات الآداب والفنون ، على قيثارة إله الشعر والبلاغة أبولون . . .

ولكن وَيدك يا أشعب ! ! إن الحكومة التى لا تشترك فى مجلة الضحى إلا بعد طلب ورجاء ، ولا تشترى نسخاً من كتاب الأديب إلا بعد أخذ وعطاء ، يشق عليها أن تقيم (جبل البرناس) ، على مثل هذا الأساس !

***

على أن الخيال عالم والحقيقة عالم آخر ، والأديب حريص على ألا يسبح فى عالمه غيره ، فلماذا يمد عينيه الرغيبتين الى عالم الناس ؟

إن فى ليالى القاهرة الساحرة الرخية لرضى للنفس الشاعرة : سماء كصفحة الأمل المشرق تتألق بالأنوار ، وفضاء كغيب الله يموج بالأفكار والأسرار ، ونسيم كأجنحة الأملاك يذهب عن الأجسام رهق النهار ، وجنات الجزيرة ، وخلوات الجيزة ، ومسرات الجسر ، ومسارح النيل ، تخلق فى الذهن الخصيب والشعور الفنان ، ما لا تخلقه جنات سويسرا ولا رياض لبنان !

احمد حسن الزيات

الطائشة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال صاحبها وهو يحدثني من حديثها :

كانت فتاة متعلمة حلوة المنظر ، حلوة الكلام ، رقيقة العاطفة ، مرهفة الحس ، في لسانها بيان ، ولوجهها بيان غير الذي في لسانها تعرف فيه الكلام الذي لا تتكلم به . . .

ولها طبع شديد الطرب للحياة ، مسترسل في مرحه خفيف طياش ، لو أثقلته بجبل لخف بالجبل ؛ تحسبها دائماً سكرى تمايل من طربها ، كأن أفكارها المرحة هي في رأسها أفكار وفي دمها خمر . . . .

وكان هذا الطبع السكران شباباً وجمالاً وطرباً — يعمل عملين متناقضين ، فهو دلال متراجع منهزم ، وهو أيضاً جرأة مندفعة متهجمة . وهزيمة الدلال في المرأة إن هي إلا عمل حربي مضمرة فيه الكرة والهجوم ؛ وكثيراً ما ترى فيها النظرة ذات المعنيين : نظرة واحدة تؤنبك بها المرأة على جراءتك معها ، وتعذلك بها أيضاً على أنك لست معها أجرأ مما أنت . . . !

* * *

قلت : ويحك يا هذا ! أتعرف ما تقول ؟

قال : فمن يعرف ما يقول إذا أنا لم أعرف ؟ لقد أحببت خمس عشرة فتاة ، بل هن أحببنني وفرغن قلوبهن لي ، ما اعترت على منهن واحدة ، وقد ذهبن بي مذهباً ولكني ذهبت بهن خمسة عشر !

قلت : فلا ريب أنك تحمل الوسام الابليسي الأول من رتبة الجرة . . . . . فكيف استهام بك خمس عشرة فتاة ، أجاهلات هن ، أعمياوات هن . . . ؟

قال : بل متعلمات مبصرات يرين ويدركن ، ولا تخطئ واحدة منهن في فهم أن رجلاً وامرأة قصة حب . . . .

وما خمس عشرة فتاة ؟ وما عشرون وثلاثون من فتيات هذا الزمن البائر ، الذي كسد فيه الزواج ، ورق فيه الدين ، والتهبت العاطفة ، وكثرت فنون الاغراء ، واصطلح فيه إبليس والعلم يعملان معاً . . ؛ وأطلقت الحرية للمرأة ، وتوسعت المدارس فيما تقدم للفتيات ، وأظهرت من الحفاوة بهن أمراً مفرطاً حتى أخذن ربع العلم . . . ؟

قلت : وثلاثة أرباع العلم الباقية ؟

قال : يأخذنها من الروايات والسيما . علم المدارس ، ما علم المدارس ؟ إنهن لا يصنعن به شيئاً إلا شهادات هي مكافأة الحفظ وإجازة النسيان من بعد ؛ أما علم السيما والروايات فيصنعن به تاريخهن .. ورب منظر يشهده في السيما ألف فتاة بمرة واحدة ، فإذا استقر في وعيهن وطافت به الخواطر والأحلام ــ سلبهن القرار والوقار فمثلنه ألف مرة بألف طريقة في ألف حادثة !

يظنون أننا في زمن إزاحة العقبات النسائية واحدة بعد واحدة ، من حرية المرأة وعلمها ؛ أما أنا فأرى حرية المرأة وعلمها لا يوجدان إلا العقبات النسائية عقبة بعد عقبة . وقد كان عيب الجاهلة المقصورة في دارها أن الرجل يحتال عليها ، فصار عيب المتعلمة المفتوح لها الباب أنها هي تحتال على الرجل ؛ فمرة بإبداع الحيلة عليه ، ومرة بتلقينه الحيلة عليها . والغريب في أمر هذا العلم أنه هو الذي جعل الفتاة تبدأ الطريق المجهول بجهل . . . !

قلت : وما الطريق المجهول ؟

قال : الطريق المجهول هو الرجل ، وإطلاق الحرية للفتاة أطلق ثلاث حريات : حرية الفتاة ، وحرية الحب ؛ والأخرى حرية الزواج . ولما انطلق ثلاثتهن معاً تغير ثلاثتهن جميعاً إلى فساد واختلال . أما الفتاة فكانت في الأكثر للزواج فعادت للزواج في الأقل ، وفي الأكثر للهو والغزل ؛ وكان لها في النفوس وقار الأم وحرمة الزوجة ، فاجترأ عليها الشبان اجتراءهم على الخليعة والساقطة ؛ وكانت مقصورة لا تنال بعيب ولا يتوجه عليها ذم ، فمشت إلى عيوبها بقدميها ، ومشت إليها العيوب بأقدام كثيرة . . . وكانت تحملها امرأة واحدة ، فعادت مما ترى وتعرف وتكابد كأن جسمها امرأة ، وقلبها امرأة أخرى وأعصابها امرأة ثالثة . . .

وأما الحب ، فكان حباً تتعزف به الرجولة إلى الأنوثة في

قيود وشروط ، فلما صار حرًّا بين الرجولة والأنوثة ، انقلب حيلة تغترُّ بها إحداها الأخرى ؛ ومتى صار الأمر إلى قانون الحيلة فقد خرج من قانون الشرف وعاد هذا الشرف نفسه وليس إلا كلمة يُحتال بها

وأما الزواج ، فلما صار حرًّا جاء الفتاة بشبه الزوج لا بالزوج ، وضعفت منزلته وقلّ اتفاقه وطال ارتقاب الفتيات له ، فضعف أثره فى النفس المؤنثة ؛ وكانت لفظتا الشابّ والزوج شيئاً واحداً عند الفتاة وبمعنى واحد ، فأصبحتا كلمتين متميزتين ، فى إحداهما القوةُ والكثرةُ والسهولة ، وفى الأخرى الضّعف والقِلّة والتعذُّر ؛ فالكلُّ شبّان وقليلٌ منهم الأزواج . وبهذا أصبح تأثير الشاب على الفتاة أقوى من تأثير الشرف ، وعاد يُقنعها منه أخسُّ براهينه ، لا بأنه هو مقنع ، ولكنْ بأنها هى مهيّأةٌ للاقتناع . . .

وفى تلك الأحوال لا يكون الرجلُ إلا مغفّلا فى رأى المرأة إذا هو أحبّها ولم يكن محتالا حيلة مثله على مثلها ، ويظلّ فى رأيها مغفّلا حتى يخدعها ويستزلّها ، فاذا فعل كان عندها نذلاً لأنه فعل ، وهذه حريةٌ رابعة فى لغة المرأةِ الحُرةِ والزواج الحُر والحب الحُر !

وانظر — بعيشك — ما فعلت الحريةُ بكلمة (التقاليد) ، وكيف أصبحتْ هذه الكلمةُ السامية من مبذوء الكلام ومكروهه حتى صارت غيرَ طبيعية فى هذه الحضارة ، ثم كيف أحالها لجملتها فى هذا العصر أشهرَ كلة فى الألسنة يُتهكَّم بها على الدين والشرف وقانون العُرف الاجتماعىّ فى خوف المعرّة والدنيئة والتصاون من الرذائل والمبالاة بالفضائل ؛ فكل ذلك (تقاليد) ..وقد أخذت الفتَيات المتعلِّمات هذه الكلمةَ بمعانيها تلك ، وأجرَيْنها فى اعتبارهن مكروهةً وحشيةً ، وأضفن إليها من المعانى حواشىَ أخرى ، حتى ليكاد الأب والأمّ يكونان عند أكثر المتعلمات من « التقاليد » . . أهى كلمةٌ أبدعتْها الحرية ، أم أبدعَها جهلُ العصر وحماقتُه وفجُورُه والحادُه ؛ أهى كلمةٌ تعلَّمتها الفتَيات المتعلمات لأنها لغةٌ من اللاغة ، أم لأنها من لغة ما يحبّبن .. ؟

« تقاليد » ... ؟ فما هى المرأة بدون التقاليد ؟.. إنها البلادُ الجميلةُ بغير جيش، إنها الكنزُ المخبوء معرَّضاً لأعين اللصوص تحوطه الغفلةُ لا الرقابة . هبِ الناسَ جميعاً شرفاءَ متعفّفين ، فان معنى كلمةِ « كنزٍ » متى تُرِكت له الحرية وأُغفل من تقاليد الحراسة ، أوجدت حريتُه هذه بنفسِها معنى كلمة « لصّ » . .

* * *

قال صاحبُنا : أما الفتاة المحرَّرة من (التقاليد) . . كما عرفتُها فهى هذه التى أقصّ عليك قصتَها ، وهى التى جعلتنى أعتقد أن لكل فتاةٍ رُشدَين يثبتُ أحدهما بالسِّن ويثبت الآخرُ بالزواج . ولو أن عانساً ماتت فى سن الخمسين أو الستين لوَجبَ أن يقال : إنها ماتت نصفَ قاصر ! ولعل هذا من حكمة الشريعة فى اعتبار المرأةِ نصفَ الرجل ، إذ تمامُ شرفها الاجتماعى أن يكون الرجلُ مضموماً إليها فى نظام الاجتماع وقوانينه ؛ فالزوجُ على هذا هو تمامُ رشدِ الفتاة بالغةً ما بلغت

وأساسُ المرأةِ فى الطبيعة أساسٌ بدنىٌّ لا عقلىّ ، ومن هذا كانت هى المصنع الذى تُصنَع فيه الحياة ، وكانت دائماً ناقصة لا تتمّ إلا بالآخر الذى أساسُه فى الطبيعة شأنُ عقلِه وشأنُ قوّته . .

واعتبرْ ذلك بالمرأة تَدْرُسُ وتتعلَّم وتنبغ ، فلو أنك ذهبتَ تمدحُها بوفور عقلها وذكائها ، وتقرِّظها بنبوغها وعبقريتها ، ثم رأتك لم تُلق كلمة ولا إشارة ولا نظرة على جسمِها ومحاسنها لتحوّل عندها كلُّ مدحك ذماً وكلُّ ثنائك سخريةً ، فإن النبوغ هاهنا فى أعصاب امرأةٍ تريد أن تعرفَ مع أسرار الكون أسرارَ كونها هى ، هـذا الكون البدنىُّ الفاتن ، أو الذى تزعمُه هى فاتنا ، أو الذى لا ترضاه ولا ترضى أن تكون صاحبتَه ، إلا إذا وجدت من يزعم لها أنه كونٌ فاتنٌ بديعٌ مزينٌ بشمسه وقمره وطبيعتِه المتنضِّرة التى تجعل مَسه مَسّ ورق الزهر

مِثل هذه إنما يكون الثناء عليها ثناءً عندها حينما يكونُ أقله باللسان العلمىّ ولغتِه ، وأكثرُه بالنظر الفنىّ ولغتِه . وهذا على أنها عالةُ الجنسِ ونابغتُه ، ودليلُ شذوذِه العقلىّ ، والواحدة التى تجىء كالفلتةِ المفردة بين الملايين من النساء ؛ فكيف بمن دونَها ، وكيف بالنساء فيما هُنّ نساءٌ به ؟

دع جماعةً من العلماء يمتحنون هذا الذى بينتُ لك ، فيأتون

بامرأةٍ جميلةٍ نابغةٍ ، فيضعونها بين رجال لا تسمعُ من جميعهم إلا : ما أعقلَها ، ما أعقلها ، ما أعقلها ! ولا ترى فى عينيْ كلٍ منهم من أنواع النظر وفنونه إلا نظرَ التلميذ لمعلّمةٍ فى سنّ جدّته .. فهذه لن تكون بعد قريب إلا فى حالة من اثنتين : إما أن يخرج عقلها من رأسها ، أو . . . أو تخرج فى وجهها لحية ... !

(ما أعقلها !) كلمةٌ حسنةٌ عند النساء لا يأبينها ولا يذممنها ، غير أن الكلمة البليغةَ العبقريةَ الساحرةَ هى عندهن كلمةٌ أخرى هى : (ما أجملها !) ، إن تلك تُشبه الخبزَ القَفارَ لا شىء معه على الخوان ، أما هذه فهى المائدة مُزينة كاملة بطعامها وشرابها وأزهارها وفكاهتها وضحكها أيضاً

وكأن العقلَ الانسانىّ قد غضب لمهانة كلمته وما عرّها به النساء ، فأراد أن يثبت أنه عقلٌ فاستطاع بحيلته العجيبة أن يجعل لكلمة (ما أعقلها) كلّ الشأن والخطر ، وكلّ البلاغة والسحر عند ... عند الطفلة ... تفرح الطفلة أشدّ الفرح ، إذا قيل : ما أعقلها ..!

* * *

فقلت لمحدّثى : كأنك صادقٌ يا فتى ! لقد جلست أنا ذات يوم إلى امرأة أديبة لها ظَرفٌ وجمال ، وجاءت كبريائى فجلست معنا ... وكانت (التقاليد) كالحاشية لى ، فعلمت بعد أنها قالت لصاحبة لها : « لا أدرى كيف استطاع أن ينسى جسمى وأنا إلى جانبه أذكرُه أنى إلى جانبه ! لكأنما كانت لقلبه أبوابٌ يفتح ما شاء منها ويُغلق »

قال محدّثى : فهذا هذا ؛ إن إحساسَ المرأة بالعالم وما فيه من حقائق الجمال والسرور ، إنما هو فى إحساسها بالرجل الذى اختارته لقلبها ، أو تهمّ أن تختاره ، أو تودّ أن تختاره ؛ ثم إحساسها بعد ذلك بالصُّوَر الأخرى من رجُلها فى أولادها . وحياةُ المرأة لا أسرار فيها ألبتة ، حتى إذا دخلها الرجل عرفت بذلك أن فيها أسراراً ، وتبيّنت أن هذا الجسم الآخر هو فلسفةٌ عميقةٌ لجسمها وعقلها

قال : وقد جلستُ مرةً مع صاحبة القصة ، وأنا مغضبٌ أو كالمغضَب . . ثم تلاحينا وطال بيننا التلاحى ؛ فقالت لى : أنت بجانبى وأنا أسألُ : أين أنت ؟ فإنك لست كأنك الذى بجانبى !

قال : ومذهبى فى الحب ، الكبرياءُ ، كما قالت أنت ، غير أنها الكبرياءُ التى تدرك المرأةُ منها أنى قوىّ لا أنى مُتكبّر ؛ كبرياء الرجل إمّا مَهيبٌ مَرِحٌ يملك أفراحَ قلبها ، وإما حزينٌ مَهيبٌ يملك أحزانَ هذا القلب .

إن المرأة لا تحبّ إلا رجلا يكون أوّلُ الحسن فيه حُسْنَ فهمِها له ، وأوّلُ القوّةِ فيه قوّة إعجابها به ، وأوّلُ الكبرياء فيه كبرياءَها هى بحبّه وكبرياءَها بأنه رجل . هذا هو الذى يجتمع فيه للمرأة اثنان : إنسانها الظريف ، ووَحْشها الظريف !

* * *

قلت : لقد بعُدْنا عن القصة ، فما كان خبرُ صاحبتك تلك ؟

قال : كانت صاحبتى تلك تعلم أنى متزوّج ، ولكن إحدى صديقاتها أنبأتها بكبريائى فى الحب ، ووصفتْنى لها صفة الاحساس لا وصفَ الكلام ؛ فكأنما تنبّهتْ فيها طبيعةُ زَهْوِ الفتاة بأنها فتاة ، وغريزة افتتان الأنثى بأن تكون فاتنة ؛ فرأتْ فى إخضاعى لجمالها عملاً تعمله بجمالها .

ومتى كانت الفتاةُ مستخِفّةً « بالتقاليد » كهذه الأديبةِ المتعلّمة ـ رأت كلمةَ (الزوج) لفظاً على رجل كلفظ الحب عليه ، فهما سواءٌ عندها فى المعنى ، ولا يختلفان إلا فى (التقاليد)..

وعَرَضَتْ لى كما يعرضُ المصارعُ المصارع ؛ إذ كانت من الفتيات المغرورات اللواتى يحسبْن أن فى قوّتهن العلميّة تياراً زاخراً لنهرنا الاجتماعىّ الراكد ، فتاة تخرّجتْ فى مدرسة أو كلّية ، أو جاءت من أوربا بالعالميّة . . . أفتدرى أيةَ معجزةٍ مصريةٍ فى هذا تُباهى بها مصر ؟

إن المعجزة أن هذه الفتاة صارت مدرّسة ، أو مفتّشة ، أو ناظرة فى وزارة المعارف ؛ أو مؤلّفة كتبٍ وروايات ، أو محرّرة فى صحيفة من الصحف . ولا يَصْغُرَنّ عندك شأنُ هذه المعجزة فهى والله معجزةٌ ما دام يتحقّق بها خروجُ الفتاة من حكم الطبيعة عليها وبقاؤها فى الاجتماع المصرىّ امرأةً بلا تأنيث ، أو انقلابُها فيه رجلا بلا تذكير ! وكيف لا يكون من المعجزات أنّ تأليفَ رواية قد أغنى عن تأليف أُسرة ؛ وأن فتاةً تعيش

وتموت وما ولدت للأمّة إلا مقالات . . . ؟

فقلت : ياصاحبى ، دعْ هؤلاء وخذِ الآنَ فى حديث الطائشة الخارجة على التقاليد ، وقد قلتَ إنها عرَضَتْ لك كما يعرض المصارعُ للمصارع

قال : عرَضَتْ لى تريد أن تصرّفنى كيف شاءت ، فنبوْتُ فى يدها ؛ فزادت إلى رغبتها إصرارَها على هذه الرغبة ، فالتويتُ عليها ؛ فزادت إليهما خشيةَ اليأس والخيبة ، فتعسّرْتُ معها ؛ فزادت إلى هذه كلّها ثورة كبريائها ، فلم أتسهّل ؛ فانتهت من كل ذلك بعد الرغبة الخيالية التى هى أول العبث والدلال ، إلى الرغبة الحقيقية التى هى أولُ الحب والهوى : رغبةِ تعذيبى بها لأنها متعدِّيةٌ بى .

ثم ردّتها الطبيعةُ صاغرةً إلى حقائقها السلبيّة ، فاذا الكبرياءُ فيها إنما كانت خضوعاً يتراءى بالعصيان ، وإذا الرغبةُ فى تعذيب الرجل إنما كانت التماساً لأن تَنعمَ به ، وإذا الاصرار على إخضاع الرجل وإذلالِه إنما كان إصراراً على تجربته ودفعِه أن يستبدَّ وعلك . وردّتها الطبيعة إلى هذه الحقيقة النِّسوية الصريحة التى بُنيتِ المرأة عليها شاءتْ أم أبتْ، وهى أن تعانى وتصبرَ على ما تعانى !

أما أنا فأحببتها حباً عقلياً ، وكان هذا يشتدُّ عليها ، لأنه إشفاقٌ لا حُبّ ؛ وكانت إذا سألتْنى عن أمرٍ تَرتاب فيه قالت : أجِبْنى بلسان الصدق لا بلسان الشفقة . وكانت تقول : إن فى عينيها بكاءً لا تستطيع أن تذيلهُ مع الدمع ، وسيقتلها هذا البكاءُ الذى لا يُبكَى ، وقد اتخذت لها فى دارها خلوةً سمّتها : محرابَ الدمع ! قالت : لأنها تبكى فيها بكاءَ صلاةٍ وحبٍّ ، لا بكاءَ حبٍ فقط !

ثم طاشتِ الطيْشةَ الكبرى . . . !

* * *

قلت : وما الطيشةُ الكبرى ؟

قال : إنها كتبتْ إلىّ هذه الرسالة :

« عزيزى رَغمَ أنفى » . . .

« لقد أذللتنى بشيئين : أحدهما أنك لم تَذِلّ لى ، وجعلتنى على تعليمى أشدَّ جهلاً من الجاهلة . وقد نسيتَ أن المرأة المتعلِّمة تعرفُ ثم تعرف مرتين ــ : تعرفُ كيف تَخطىء إذا وجب أن تَخطىء ، أما المعرفة الثانية فتوهمها أنتَ فكأنى قلتها لك . .

اعلمْ « ياعزيزى رغمَ أنفى » ، أنى إذا لم أكن عزيزتك رغم أنفك ، فسآتى ما يجعلك سلفاً ومَثَلا ، وستكتب الصحف عنك أوّلَ حادث يقع فى مصر عن أوّل رجل اختطفته فتاة !.

وبعد ، فقد أرسلتُ روحى تعانق روحك ، فهل تشعر بها ؟»

قال : فوَجمتُ ساعة وتَبينتْ لى خفتها ، وظهر لى سَفاهها وطيشها ، فأسرعتُ إليها فجئتها فأجدُها كالقاضى فى محكمته ، لا عقل له إلا عقلُ الحكم القانونىّ الذى لا يتغير ، ولا إنسانَ فيه إلا الانسانُ المقيد بمادة كذا إذا حدث كذا ، والمادة كذا حين يكون وصفُ المجرم كذا . . . !

فقلت لها : أهذا هو العلمُ الذى تعلّمتِيه ؟ ألا يكون علمُ المرأة خليقاً أن يجعل صاحبتَه ذاتَ عقلين إذا كانت الجاهلةُ بعقل واحد ؟

قالت : العلم ؟

قلت : نَعم ، العلم

قالت : ياحبيبى ، إن هـذا العلم هو الذى وَضعَ المسدَّس فى يد المرأةِ الأوربيّة لعاشقها ، أو معشوقها ! ثم أطرقت قليلاً وتنهدت وقالت : والعلم هو الذى جعل الفتاة هناك تتزوج بارشاد الرواية التى تقرؤها ، ولو انقلب الزواجُ رواية . . . والعلم هو الذى كشف حجابَ الفتاة عن وجهها ، ثم عاد فكشف حياء وجهها ، وأوجب عليها أن تُواجهَ حقائق الجنسِ الآخر وتعرفها معرفةً علميّة . . . . والعلم هو الذى جعل خطأ المرأة الجنسىّ مَعْفُواً عنه ما دام فى سبيل مواجهة الحقائق لا فى سبيل الهَرَب منها . . . والعلم هو الذى جعل المرأةَ مساويةً للرجل ، وأكّد لها أن واحداً وواحداً هُما واحدٌ وكلاهما أوّل . . . . والعلم هو الذى عرّى أجسامَ الرجال والنساء ببرهان أشعةِ الشمس . . . والعلم ياعزيزى هو العلم الذى محا من العالم لفظةَ أمس ، لا يعرفها وإن كانت فيها الأديانُ والتقاليد . . .

* * *

قال صاحبها : فقلتُ لها : كأن العلم إفسادٌ للمرأة ! وكأنه تعليمُ مَضَرَّاتها ونقائصها ، لاتعليمُ فضائلها ومحاسنها

قالت : لا ، ولكنّ عقلَ المرأة هو عقلٌ أنثى دائماً ؛ ودائماً عقلٌ أنثى ؛ وفى رأسها دائماً جوُّ قلبها ، وجوُّ قلبها دائماً فى رأسها . فاذا لم تكن مدرستُها مُتَمِّمةً لدارها وما فى دارها ، تمَّمتْ فيها الشارعَ ومافى الشارع

العلم للمرأة ، ولكن بشرط أن يكون الأبُ وهيبةُ الأب أمراً مقرَّراً فى العلم ، والأخُ وطاعةُ الأخ حقيقةً من حقائق العلم ، والزوجُ وسيادةُ الزوج شيئاً ثابتاً فى العلم ، والاجتماع وزواجرُه الدينيةُ والاجتماعية قضايا لا يَنْسَخُها العلم . بهذا وحده يكون النساء فى كل أمة مصانعَ علميّةً للفضيلة والكمال والانسانية ، ويبدأ تاريخُ الطفل بأسباب الرجولة التامّة ، لأنه يبدأ من المرأة التامّة

أما بغير هذا الشرط فالمرأةُ الفلاّحةُ فى حجرها طفلٌ قذر ، هى خير للأمة من أكبر أديبةٍ تخرج ذُرّيّةً من الكتب . . .

انظر — « يا عزيزى رغم أنفى » — هذه رسالة جاءتنى اليوم من صديقتى فلانة الأديبة الـ . . . فاسمع قولها :

« وأنا أعيشُ اليوم فى الجمال ، لأنى أعيش ُفى بعض خفايا الحبيب . . . »

« وفى الحياة موتٌ حلوٌ لذيذ ؛ عرفتُ ذلك حينما نسيتُ نفسى على صدره القويّ ، وحينما نسيتُ على صدره القويّ صدرى . . . . »

أسمعتَ يا عزيزى ؟ إن كنت لمَّا تعلَمْ أن هذا هو علم أكثر الفتيات المتعلمات حين يكسدُ الزواج ـ فاعلَمْهُ . ومتى عَمِيَ الشعبُ والحكومةُ هذا العمى ، فان حريةَ المرأة لاتكون أبدا إلا حريةَ الفكرةِ المحرَّمة !

***

قلت لصاحبنا : ثم ماذا ؟

قال : ثم هذا . . . . ودسَّ يده فى جيبه فأخرج أوراقاً كتب فيها رواية صغيرة أسماها : (الطائشة) ؟

(للرواية فى العدد الآتى) (طنطا) مصطفى صادق الرافعى

٤ ـ لوكريسيا بورجيا

صور من عصر الإحياء

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت لوكريسيا إلى جانب هذه الرعاية الأدبية التى تبذلها لأقطاب الشعر والأدب ، تعاون زوجها فى حكم ولايته معاونة قيمة ؛ وكانت تتولى ادارة الشئون العامة أثناء غيابه ، وتبدى فى تصريفها حزماً وبراعة

وكان زواجاً موفقاً فى البنين ، فقد رزقت لوكريسيا بغلامين احدهما فى سنة ١٥٠٨ ويدعى هرقل ، والثانى فى العام التالى ويدعى ابيوليت ، ورزقت بعد ذلك بعدة أعوام بابنة دعيت ألينور ، فغلام ثالث يدعى فرنشيسكو

وخاضت أيطاليا مدى حين حروباً أهلية طاحنة ؛ وحملت فيرارا قسطها من هذه المعارك ، وتقلبت فى صعاب وأزمات شديدة ، ولكن لوكريسيا كانت فى هذه الأعوام العصيبة مثال الثبات والجلد ، وكانت تعمل على تخفيف آلام الشعب ما استطاعت ، وكان الشعب يحبها ويعتبرها كالأم الرؤوم

وكانت لوكريسيا عندئذ فى عقدها الرابع ، أمّاً دمجة ، وكأنما طوت كل مراحل هذه الحياة فتية ؛ وكانت قد اختتمت منذ بعيد هذا العهد الضاحك الذى كان قلبها يشع فيه مرحاً وغبطة ، واستقبلت عهداً جديداً تسوده الرزانة والخطورة ، ويسوده الزهد والترفع عن متاع هذه الحياة ، فكانت فى أعوامها الأخيرة فى فيرارا تذهب كل صباح الى « المعترف »

أجل ، كانت لوكريسيا تقترب بسرعة من الخاتمة المحتومة ، ففى ١٤ يونيه سنة ١٥١٩ وضعت لوكريسيا طفلة ميتة ، وكانت فى أشهر حملها الأخيرة تشكو آلاماً مبرحة ؛ وكان الوضع هو الضربة القاضية ، إذ اشتدت عليها الآلام والمرض ، وشعرت بقضائها يدنو ؛ فأملت فى يوم ٢٢ يونيه خطاباً وجهته الى البابا ليون العاشر ، وفيه تلتمس من البابا أن يباركها فى عبارات بليغة مؤثرة ؛ وبعد ذلك بيومين فقط ، كان القضاء المحتوم ،

وصعدت الى بارئها تلك الروح الوثابة الساطعة ، وأغلقت لوكريسيا بورجيا عينيها الساحرتين الى الأبد ، وقد أشرفت فقط على الأربعين من عمرها

***

هكذا كانت حياة تلك التى أثارت فى عصرها بشخصيتها الساحرة وحياتها الساطعة كثيراً من الحب والعطف ، والنقمة والروع ؛ ثم غدت سيرتها بعد ذلك على كر العصور مستقى لكثير من القصص الشائق المثير معاً

والآن ، وقد فرغنا من تتبع هذه الحياة فى أدوارها المختلفة ، نعود فنحاول أن نتلمس فيها مواطن الحقيقة والخيال

هل كانت لوكريسيا بورجيا تلك التى تصفها الرواية المعاصرة شيطاناً للرذيلة والاثم ؟ وهل كانت تلك البغى السافلة التى تتقلب بين أذرع أبيها وأخويها ؟ أم هل كانت ضحية اتهام شائن تمليه الخصومة والحقد ؟

إن هذه التهم الشائنة التى تنسبها الرواية والقصة الى لوكريسيا بورجيا ، والتى أشرنا إليها فيما تقدم ترجع الى الروايات المعاصرة ذاتها ، وهذا ما يسبغ عليها مسحة من القوة ؛ وقد رأينا كيف أن بوركارت مدير التشريفات البابوية يثبتها فى مذكراته كوقائع حقيقية ، وقد كان بوركارت بمركزه واتصاله المستمر باسكندر السادس وأفراد أسرته ، ممن يستطيعون الوقوف على الحقائق من مصادرها

وقد حذا حذو بوركارت عدة من المؤرخين والرواة المعاصرين مثل جوتشاردينى المؤرخ والسياسى البارع ، وقد كان من أعلام العصر ؛ فهو يردد فى كتابه « تاريخ إيطاليا » معظم التهم والآثام التى نسبت إلى لوكريسيا وإلى آلها

ومن أدلة الاتهام المعاصر أيضاً وثيقة خطيرة ، هى خطاب كتب فى سنة ١٥٠١ ، ووجهه كاتبه إلى سيلفيو سافيللى ، وهو أحد النبلاء الاقطاعيين الذين نزع اسكندر السادس أملاكهم ؛ وكان ذلك الحين يقيم فى بلاط أمبراطور ألمانيا مستجيراً به ؛ ولم يعرف كاتب الخطاب ، ولكن ذكر فى ختامه أنه حرر فى تارانتو فى المعسكر الملكى (الاسبانى)

وفى هذا الخطاب يعدد الكاتب آثام اسكندر السادس وآل بورجيا ، ويتحدث عن أطماعهم وجرائمهم السياسية والاجتماعية ، وعما يرتكبونه من صنوف العيث والفجور والتهتك ، وعن انتهاكهم لكل الحرمات الدينية والاجتماعية وسحقهم لكل مبادىء الحياء والحشمة ؛ ويتحدث بنوع خاص عن شيزارى بورجيا وجرائمه الدموية ، وعن لوكريسيا وعلائقها الأثيمة مع أبيها وأخويها ؛ وعن الحفلات الخليعة الشائنة التى يقيمها البابا وأبناؤه ، ويخص بالذكر حادثة الليلة العارية التى اجتمع فيها خمسون من غانيات رومة عراة أمام البابا وأولاده وارتكب فيها من صنوف الفحش المثير ما ارتكب وما أشرنا اليه فيما تقدم ؛ ويتحدث بوجه عام عن حالة المجتمع الرومانى فى ذلك الحين وما بثه اليه آل بورجيا من صنوف الفساد والاثم والروع ؛ كل ذلك فى إفاضة ومنطق قوى يدل على تمكن الكاتب من الشؤون التى يتناولها

وقد ترجم هذا الخطاب الذى يعرف بخطاب « سافيللى » إلى معظم اللغات الأوربية ونشر فى سنة ١٥٠٢ فى جميع العواصم ، وكان له وقع هائل فى إيطاليا ، وفى أوربا كلها ؛ وسجلته أيضاً جميع التواريخ والروايات المعاصرة

ويرى المؤرخ الألمانى جريجوروفيوس فى كتابه « تاريخ رومة فى العصور الوسطى (١) » فى هذا الخطاب وثيقة حقيقية تمثل صورة رومة فى عصر آل بورجيا ، وأنه لا تفضلها وثيقة أخرى فى تصوير سياستهم الفاجرة ، وما بثوه من الروع فى المدينة على يد أعوانهم وجواسيسهم

وترى هذه التهم ماثلة لا فى الروايات المعاصرة فقط ، ولكن فى كثير من الكتب والرسائل السياسية المعاصرة ، وفى شعر بعض أكابر الشعراء المعاصرين

ومازالت سيرة آل بورجيا ، وسيرة لوكريسيا ، بما يتخللها من تلك الصور المروعة المثيرة ، حتى العصر الحديث مستقى القصص والشعر ؛ وقلما يخترع القصص أو الشعر فيها شيئاً لم تدونه الروايات المعاصرة ؛ ومع ذلك فان هذه القطع القصصية أو الشعرية تقوم على كثير من الوقائع المغرقة أو الخيالية المحضة ، التى لا يستطيع المؤرخ أن يقف بها

(1) Geschichte der Sratt Rome im Mittelalter

مثال ذلك ما كتبه اسكندر دياس عن « آل بورجيا » فى كتابه « الجرائم الشهيرة »[1] ، فقد تناول سيرة آل بورجيا ولوكريسيا فى فصل طويل فياض بالوقائع والصور المدهشة ، وقدم لنا اسكندر السادس ، وابنه شيزارى ، وابنته لوكريسيا فى أروع الصور وأسفلها : طغمة من الأبالسة ، تسحق الحياة البشرية تحت أقدامها ، وتبث الدمار والموت فى أرجاء المدينة الخالدة ، بالسم والخنجر وكل وسيلة آثمة ؛ وقدم إلينا لوكريسيا فى صورة بغى سافلة ، تعاشر أباها وتعاشر أخويها ، وجمعاً كبيراً من الصحب والخلان

ووضع فكتور هوجو قطعته المسرحية الخالدة « لوكريسيا بورجيا »[2] فجاءت خلاصة من تلك الروايات المغرقة المعاصرة ، ولا بأس من أن نقدم خلاصتها ليرى القارئ كيف أن الشاعر لم يلحظ فى مادته إلا أن تكون مثار السحر والروع :

هى قطعة نثرية فى ثلاثة فصول ، خلاصتها أن عدة سفراء فتيان من فلورنس شهدوا فى مدينة البندقية (فينزيا) مرقصاً محجباً ، كانت تمثل فيه لوكريسيا بورجيا محجبة ؛ وكان معهم فتى يدعى جنارو ، وهو فتى مجهول النشأة لا يعرف له أماً ولا أباً . وجلس الفتية الفلرنسيون يتحدثون عن آل بورجيا ويرددون مايذاع عنهم من قصص القتل والآثام الشنيعة ؛ وجلس جنارو إلى جانبهم وقد أخذته سنة من النوم ؛ وبعد هنيهة قدمت امرأة محجبة ، وهوت على جنارو تقبله فاستيقظ من نومه . من هى ؟ هى لوكريسيا ، وهى أمه ، وهو ولدها الطبيعى ؛ ولم تستطع حين رؤيته أن تقاوم هـذه اللذة . ورفعت لوكريسيا قناعها لجنارو خاصة ؛ ولكن الفتية الفلرنسيين رأوها وعرفوها ، وظنوها خليلته ، واعتزموا زيارتها معه فى فيرارا مقامها . وظن زوجها (دوق فيرارا) ان جنارو صاحبها ، فأمر بالقبض عليه ، وأراد أن يرغم لوكريسيا على اعدامه بيديها بحجة أنه أهان اسم آل بورجيا وذلك بازالة بعض حروفه المنقوشة على شرفة القصر ؛ ونفذ الدوق مشروعه فعلاً ، فأرغم لوكريسيا على أن تضع السم فى كأس جنارو ، وأن تقدمه إليه . ولما شرب الفتى الكأس المسمومة ، تركهما الدوق ؛ فبادرت لوكريسيا إلى انقاذ جنارو ، وقدمت له الترياق ؛ فتردد الفتى لأنه كان يعتبرها أشد اجراماً من الدوق ، ولكنه شرب الترياق أخيراً ونجا من الموت

وأرادت لوكريسيا أن تنتقم من الفتيان الفلرنسيين الذين عرفوها وأذاعوا اسمها ، فاحتالت لدعوتهم إلى العشاء عند إحدى صاحباتها ، وبينما هم فى أرق لحظات المرح ، إذا بهم يسمعون أناشيد الحزن ، ومن ورائهم صف من الرهبان والنعوش ، فاعتقد الفتيان أنها مزحة مدبرة ، ولكنها كانت الحقيقة الرائعة ؛ ذلك أنهم تناولوا السم فى الطعام والشراب ، ولم يبق بينهم وبين الموت سوى لحظات ، ولكن شاء نكد الطالع أن يكون بينهم جنارو ! فتقدم إلى لوكريسيا يطلب نعشه ؛ فدهشت لوكريسيا ، وحاولت أن تبادر إلى إنقاذه ، ولكنه لم يقبل ، ولم يمهلها حتى أخرج خنجره ، وما كاد يطعنها حتى صاحت : « إنى أمك ! »

هذه هى خلاصة قطعة هوجو المسرحية الخالدة التى مازالت منذ نحو قرن تسحر ملايين النظارة ، وهى كما ترى قطعة من الخيال المغرق لم يراع الشاعر فيها شيئاً من التاريخ الحق

ومع ذلك فان ما كتبه اسكندر دياس وهوجو إنما هو انموذج فقط لمئات السير والقصص التى كتبت عن لوكريسيا بمختلف اللغات ، وكلها نماذج للخيال المغرق والقصص المثير

* * *

بيد أننا نرى فى عصرنا مؤرخاً بارعاً هو العلامة الفرنسى فرانز فونك برنتانو ، يحاول فى كتابه الذى أشرنا إليه من قبل أكثر من مرة[1] أن ينتزع شخصية لوكريسيا بورجيا من تلك الغمر المروعة التى أحاطت بسيرتها ، وأن يمحص تلك الروايات المغرقة التى امتزجت بحياتها ، وأن يرد كثيراً من التهم التى نسبت إليها

وفى رأى هذا المؤرخ البارع ، الذى يدعم عرضه فى معظم الأحيان بمنطق خلاب ، أن التاريخ قد ظلم لوكريسيا أشنع ظلم ، وأن هذه الفتاة التى صورتها الروايات المعاصرة بغياً فاجرة ، لم تكن سوى ضحية وأداة ذلول فى يد أبيها وأخيها ، وأنها كانت تدفع دفعاً إلى مشاطرة هذه الحياة المثيرة التى كانت تنتظم فى قصر الفاتيكان ، ولكنه يرد عنها تهم الفجور الشنيعة التى نسبت

(1) Les crimes célèbres
(2) Lucrèce Borgia

(1) Lucrèce Borgia

إليها ؛ ولا سيما تهمة عشرة أبيهاوأخيها ، ويرتاب فى أقوال بوركارت وغيره من الرواة المعاصرين ، ويرى أن هـذه التهم ترجع فى الأصل إلى الحملة القاذفة التى شهرها چان سفورزا زوج لوكريسيا الأول عليها انتقاماً لفصله منها ، وإلى الحملات القاذفة التى دبرت أيضاً ضدها وضـد آلها فى بلاط نابل على أثر مقتل زوجها الثانى الفونسو الأرجونى ، وهى حملات ظهر أثرها فى نظم الشعراء المعاصرين الذين يغذيهم بلاط نابل

ويصور لنا برنتانو لوكريسيا فتاة ناعمة وافرة السحر والرقة ، وافرة الذكاء والحزم ، ويصورها لنا فى فيرارا أميرة رفيعة الخلال تحمى الآداب والفنون ، ويكاد يصورها لنـا فى أعوامها الأخيرة قديسة فياضة الورع والتقوى

وكتاب برنتانو قطعـة بديعة من التدليل التاريخى ، وقد يدفع بدقة منطقه كثيراً من التهم التى نسبت إلى ابنـة اسكندر السادس ؛ ولـكنه مع ذلك لم يستطع أن يهدم كثيراً من العناصر الأساسية التى تمثل فى هذا الاتهام

ومع أننا بالرغم من محاولة برنتانو البديعة ، ما زلنا نؤثر ناحية الاتهام فى سيرة لوكريسيا بورجيا ، فانا نميل مع برنتانو الى الاعتقاد بأن كثيراً من الاغراق والمبالغة يشوب تلك الصور المروعة الآثمة التى تركتها لنا تاسير العصر ، عن تلك الشخصية الباهرة المظلمة معاً ؟

(تم البحث)

(النقل ممنوع)

محمد عبد الله عنان

المحامى

التربية الخلقية والاجتماعية في المدرسة

للأستاذ فخرى أبو السعود

فى كلمة سابقة بهذا العنوان ذكرت أن الوسيلة الوحيدة لتحقيق مدارسنا الغرض الأسمى من التربية — وهو التربية الخلقية الاجتماعية — هى خلق مجتمع راق فى المدرسـة يساهم فيه الطالب ويكتسب فيه من محمود الصفات الخلقية ومقتضيات الحياة الاجتماعيـة مايخرجه إلى المجتمع عارفاً بمطالبه ، مزوداً بالمؤهلات التى تساعده على الاندماج فيه والنجاح فى معتركه

وأعود الآن إلى بيان مزايا هذا المجتمع الواجب خلقه فى المدرسة ، فمزاياه لاتقتصر على اختلاط الطلاب بعضهم ببعض لحميد الأغراض ، بل تشمل أيضاً اختلاطهم بالمعلمين ، وهو أمر لازم للتربية الصحيحة ؛ إذ من طبيعة الناشئين الاقتداء بمن هم أكبر منهم وأخبر ، ومن طبيعة المواهب الانسانية العقلية والخلقية ألا تنمو وتسمو إلا بتقليد أولئك الذين ينظر إليهم الناشىء نظرة إكبار ، ويُحسن فيهم الاعتقاد ، وتنزع نفسه إلى التشبه بهم

وهذا الاختلاط الجم المزايا بين الطلاب ومعلميهم سائد فى معاهد انجلترا من المدارس الصغيرة إلى الجامعات الـكبيرة ، وأثره فى تربية الناشئة الانجليزية أعظم من أثر كل ما يلقى فى حجرات الدراسة من معلومات ؛ فالمعلمون يعاملون طلابهم معاملة الزملاء الصغار أو الأقرباء الناشئين ، وبهذه الروح يناقشونهم فى أوقات الدراسة ، ويشاركونهم ألعابهم وحفلاتهم ، ويُكِنُّ المعلمون لطلابهم العطف ، ويكن الطلاب لمعلميهم الاحترام ، وتسود معاملة الفريقين البساطة التامة ، وأعْظِمْ بما لذلك من أثر فى تربية الرجولة والصراحة والاعتداد بالنفس بين الناشئين !

أما فى مدارسنا فالهوة بين المعلمين والطلاب سحيقة ، والنفرة شديدة : لايفهم المعلم من نفسية كل طالب شيئاً كثيراً ، ولا يعطف إلا على النادر منهم ، ولا يعلم الطلاب عن معلميهم غير ما يثرثره عليهم من معلومات لاتنتهى إلا بانتهاء السنة المدرسية ، ولا يضمرون له حباً ولا ميلاً ، بل يستحكم العداء بين الفريقين

أحياناً إذا كان الطلاب ضعفاء فى مواد الدراسة ، أو كان المدرس شديداً ملتزماً للجد ، وقد استحال أن يسود بينهما الود الذى هو أجدر أن يسود بين المربى والمتربى ، فمن معلمينا من يأبى أن يهبط إلى التبسط مع طلابه ، ومنهم من يود لو فعل فيردُّه عِلمُه بما يجر إليه ذلك من فساد درسه ؛ إذ يندفع الطلاب وراء الهزل ويسيئون المسلك وينسون الدرس ، لأن ناشئتنا من الجهل بآداب الاجتماع بحيث لا يعلمون معنى القصد فى الأمور ، ولا يقنعون إذا تركوا وشأنهم بما دون الامعان فى العبث

ونتيجة هذه الحال السائدة فى مدارسنا أن معظم الطلاب — سواء متقدموهم فى العلوم ومتخلفوهم — يغادرون المدارس وهم مزيج من الخجل والتبجح والغرور والنفاق ، إذا انفرد أحدهم رأيته على جانب كبير من الخجل والعجز والحصَر ، وإذا اجتمعت فئة منهم ارتد خجلهم تبجحاً وحصرهم صخباً وعجزهم جرأة على الفساد ؛ وبينما تؤدى العلاقة بين المعلم والمتعلم فى انجلترا إلى صداقة مثمرة فى مستقبل الحياة تَنبَتُّ الصلة بين المعلم والطالب عندنا بانتهاء العام الدراسى ، حتى لقد يتقابل الاثنان فيتغاضى الطالب عن معلمه ، أو يخاطبه فى لهجة جريئة متطاولة ، وفى كلتا الحالين لا يأسى المرء إلا على ما بهذا المسلك من دلالة على فشل التربية وعبث المجهود المنفق فيها

والعلة فى هذا ترجع إلى نظام مدارسنا التى تجعل مَلْء الرؤوس بالمعلومات الغاية الكبرى بل الوحيدة من التعليم ، فتشغل كل أوقات المدرسة بها ، فيرى المدرس — المرهق ببرنامج حافل — وقته أضيق من أن يصرف جانباً منه فى مباسطة طلابه ومناقشتهم فى شتى الشؤون العامة التى تمتُّ إلى الحياة وتشغل بال كل ذى حظ من الانسانية ونصيب من الثقافة ، فتنقطع الصلة الانسانية بين المعلم والطالب ، ويترك الطلبة وأنفسهم يشبعون تلك الرغبة الفطرية فى التناقش وتبادل الأفكار بثرثرتهم فى أوقات الفراغ — وأوقات الدروس إن استطاعوا — ولما كانوا قد عدموا إرشاد المدرس بفكره الذى هو أرقى وشخصيته التى هى أقوى من شخصياتهم وأفكارهم فانهم يتجهون عادة إلى السفساف من الأمور ، وبالفنون الثرثرة الفارغة التى لا نهاية لها ولا غاية ، ويختارون قدواتهم فى الحياة من خارج المدرسة آخذيها عن شخصيات قد لا تكون جديرة بالاعجاب أو محمودة التقليد

أما مخالطة الطلاب لمعلميهم فانها — فضلا عن صقلها لآداب المعاملة وحسن الذوق بينهم وعما تنميه فيهم من صفات الرجولة — تفتق أذهانهم وتسمو بهم إلى درجات من التفكير عالية ، وتلقى ضوءاً على مواهب كل منهم وميوله ، وتفسح أمامهم المطامع ، وتبعث فيهم شتى الغايات يجعلونها نصب أعينهم فى الحياة ، على حين لا تتجاوز مطامع الأكثرين منهم اليوم اجتياز الامتحان ونيل الشهادة

ولقد عُهد فى السنوات الأخيرة إلى المعلمين بمدارسنا بمراقبة الجميات المدرسية ، ولكن هذه الجميات أنشئت دون أن يفسح لها موضع من أوقات الطلاب والمدرسين المغلولى الأيدى فى المناهج الطويلة ، فلم تجتذب من الطلاب إلا القليلين ، وزهد فى رقابتها المدرسون لأنها جاءت زيادة على أعمالهم المتراكمة ، فلم تؤد تلك الجميات الأغراض المنشودة ، ولم تكن غير إرهاق على إرهاق ، وستظل كذلك ما لم تزحزح المواد الدراسية عن مكانها القدسى الذى تتبوأه فى مدارسنا

هذا ، وليس يطلب من المدرس أن يكون مثلاً أعلى فى الانسانية ، أو بحراً فى العلم ، أو نصف إله ، لكى يؤدى مهمته فى تربية الطلاب الخلقية والاجتماعية ، بل يكفى لينهج بهم النهج القويم أن يكون مستقيم السيرة متنور الذهن مخلصاً فى عمله ، وهذا هو الغالب بين مدرسينا ، وما يحتاج الأمر إلا إلى رفع عبء المواد الدراسية التى تثقل كواهل المعلمين والمتعلمين وتشغل كل أوقاتهم ، وإفساح المكان لمجتمع فى المدرسة يكون صورة صغيرة للمجتمع العام خارجها

إن إيجاد هذا المجتمع الحى الراقى بين جدران المدرسة هو الوسيلة الوحيدة لنجاح مهمتها ، وإعداد الناشئين فيها للمجتمع الأكبر خارجها ، وترقية ذلك المجتمع الخارجى جيلاً بعد جيل ، ولن تؤدى مدرسة مهمة التربية حتى يحيا الطلاب فيها حياة اجتماعية ، ولن يؤدى المعلم واجبه حتى يمنح الفرصة لمخالطة طلابه مخالطة الانسان المستنير للانسان المستنير ، ويحل هذا محل العلاقة الآلية الجافة القائمة بينهما اليوم ، وبهذه الحياة الاجتماعية المدرسية يؤدى المدرس وظيفته « الروحية » التى أشار إليها تقرير معالى وزير المعارف ؟

فخرى أبو السعود
المدرس بالعباسية الثانوية

المنسوجات الاسلامية المصرية

ومعرض جوبلان بباريس

للدكتور زكى محمد حسن

الأمين العلمى لدار الآثار العربية

افتتح صاحب الفخامة رئيس الجمهورية الفرنسية فى ١٧ من مايو معرضاً للمنسوجات الاسلامية المصرية أقامته متاحف جوبلان للقطع الأثرية التى بعثت بها إلى باريس دار الآثار العربية من مجموعتها النفيسة ؛ وزاد المعرض نجاحاً أن صاحب الجلالة مولانا الملك كان قد تفضل فأذن لجناب المسيو (ڤييت) أن يأخذ لهذا المعرض سبع عشرة قطعة من المجموعة الملكية الفاخرة ، فأتيح للجمهور الباريسى أن يعجب ببدائع منتجات الفن الاسلامى ، وأن يرى من آيات صناعة النسج الاسلامية قطعاً منقطعة النظير

ويعرف القراء أن صناعة النسج كانت زاهرة على ضفاف النيل منذ العصور الأولى ، وأنها سارت فى سبيل التقدم بخطى واسعة ، حتى جاء العصر القبطى فتأثرت بتيارين من المؤثرات البيزنطية والساسانية

ثم فتح العرب مصر ، واعتمدوا فى أول الأمر على الصنّاع والفنانين الوطنيين ، وأدى ذلك إلى خلق فن إسلامى جميل كان له ازدهار ، وكانت له حياة طويلة على عكس التعاون بين الرومان ورعاياهم ، ذلك التعاون الذى سار بالفن الهللنستى فى طريق السقوط والاضمحلال

وظهر فى صناعة النسج الاسلامية فى مصر تطور منتظم بدأ بالاستغناء شيئاً فشيئاً عن الرسوم الحيوانية والآدمية التى كان الكلف بها عظيماً فى العصر القبطى ، وأخذت الكتابة والزخرفة النباتية والهندسية تلعبان دوراً هاماً فى تزيين الأقمشة الاسلامية

على أن فن النسج لم يطبع فى مصر بطابع إسلامى ظاهر إلا ابتداء من العصر الفاطمى ، وفى المتاحف الكبيرة والمجموعات الأثرية كثير من القطع التى ترجع زخرفتها إلى عصر الانتقال من الطراز القبطى إلى الطراز الفاطمى ، والتى قد يصعب فى بعض الأحيان تمييزها من القطع القبطية . أما القطع التى عليها زخارف طولونية بحتة فان وجودها نادر ، وعلى عكس ذلك القطع التى ترجع إلى عصور الفاطميين والأيوبيين والمماليك

وصناعة النسج فى مصر الاسلامية كانت نوعين : صناعة ملكية فى مصانع حكومية تسمى طرازاً ، وصناعة أهلية عليها رقابة حكومية شديدة

أما المصانع الحكومية أو الطراز فان وجودها منذ العصر العباسى يثبته ماوصل إلينا من مصنوعاتها . والمعروف أنه كان هناك نوعان من هذه المصانع الحكومية : الأول طراز الخاصة ، وكان لا يُنتج إلا للخليفة ورجال بلاطه وخاصته ؛ والثانى طراز العامة ، وكان بالرغم من تبعيته لبيت مال الدولة يُنتج للتجارة العامة ، فضلاً عن انتاجه لبلاط الخليفة أو الأمير ان دعت الحال

ولفظ طراز مشتق من الفارسية « ترازيدن » بمعنى التطريز وعمل المدبّج ؛ وأصبح بعد ذلك يدل على الملابس الملكية وما يشبه « ملابس التشريفة » ، ولا سيما إذا كان يحليها شىء من التطريز أو أشرطة من الكتابة . وما لبث مدلول هذا اللفظ أن اتسع حتى انتهى فى العربية والفارسية إلى الدلالة على المصنع والمكان الذى تنسج فيه مثل هذه الأقمشة

واحتكار الحكومات لصناعة النسج قديم لسنا نعرف أوّليته ، ولسنا نستطيع أن نحدّد تماماً أين بدأ نظام الطراز على النحو الذى نعرفه فى الفنون الاسلامية . فالعلماء مختلفون فى أصله ، فريق يذهب إلى أنه نشأ فى بيزنطة ، وفريق يظنه إيرانى الأصل ، كما يحسبه آخرون بابلياً أشورياً

على أن مصر عرفت فى عهد الفراعنة شيئاً من احتكار صناعة النسج ، فقد كانت المصانع ملحقة بالمعابد ، وكانت منتجاتها مشهورة فى الشرق الأدنى كله ، وكانت تدر على المعابد أرباحاً وافرة كان الفراعنة يستولون على جزء منها ويحتفظ كهنة المعابد بما يبقى

على أن نظام الطراز ما لبث أن انتشر فى كافة الأقطار الاسلامية ، كسورية والعراق وإيران وآسيا الصغرى ، وأسبانيا وجزيرة صقلية

وكان طراز الخاصة يعمل فى نسج الأقمشة اللازمة للخليفة

ولكبار رجال الدولة ؛ وحاجةُ الخلفاء والأمراء إلى الكثير من تلك الأقمشة ناشئة من العادة القديمة التي اتخذوها في الخلع على رجال حاشيتهم وعلى غيرهم من أفراد الرعية مكافأة لهم وإظهاراً لرضاهم عنهم

وفضلا عن ذلك كان الخلفاء والأمراء يتبارون في إرسال الكسوة السنوية إلى الكعبة الشريفة من المنسوجات النفيسة التي كانت تصنع عادة في طراز الخاصة بمصر

لذلك لم يكن غريباً أن يُعنى الخلفاء والأمراء بكتابة أسمائهم على هذه الأقمشة الثمينة بلحمة من الذهب أو الفضة أو الخطوط المتعددة الألوان تخليداً لذكراهم ووثيقة لمن خلعت عليه إظهاراً لرضاء الأمير ، أو علامة على تولى إحدى الوظائف الكبرى في الدولة

وكانت الكتابة على الأقمشة تشمل اسم الخليفة وألقابه وبعض عبارات الأدعية ؛ وكثيراً ما كان يذكر فيها اسم المدينة التي فيها الطراز ، واسم الوزير ، وصاحب الخراج ، وناظر الطراز ؛ ومثلُ ذلك ما كُتب على قطعة نُسجت للخليفة الأمين محفوظة الآن بدار الآثار العربية ونصه : « باسم الله بركة من الله لعبد الله الأمين محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، مما أمر بصنعته في طراز العامة بمصر على يدى الفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين »

أما الصناعة الأهلية فكانت تُحَمل ضرائب فادحة وتُعانى رقابة الحكومة في مراحلها المختلفة ، فكان لزاماً أن تختم الأقمشة بالخاتم الرسمى ، ولم يكن يتولى البيع أو التجارة إلا تجار تعينهم الحكومة ، وعليهم تقييد ما يبيعونه في سجلات رسمية ، كما كان لف الأقمشة وحزمها وربطها وشحنها يقوم به عمال حكوميون يتناول كل منهم ضريبة معينة

وقد لوحظ أن المراكز الرئيسية لصناعة النسج في مصر كانت في أكثر الأحيان الجهات التي يكثر فيها الأقباط ؛ وكان القطن والكتان ينسجان في البلاد المصرية المختلفة ولاسيما في الدلتا بتنيس والاسكندرية وشطا ودمياط ودابيق والفرما ، كما اشتهرت أيضاً بنسجها مدينة البهنسا

أما الأقمشة الحريرية فكانت تنسج في الاسكندرية وفي دابيق ؛ وكانت هناك أيضاً مصانع للنسج في مدينتى أخميم وأسيوط اللتين كانتا مركزين هامين لصناعة النسج في العصر القبطى ، وكانتا تصدران الى بيزنطة والى بابوات روما كثيرا من الأقمشة النفيسة التي كان يوهب جزء كبير منها الى الكنائس والأديرة

وأما الحرير الصافى فالظاهر أن المصانع المصرية لم تشتغل بنسجه قبل عصر المماليك

وقد كان متحف ڤكتوريا وألبرت بلندن ، والقسم الإسلامى من متاحف برلين ، يفتخران بامتلاكهما أكبر مجموعتين من الأقمشة الاسلامية النفيسة ، حتى كشفت دار الآثار العربية في السنين الأخيرة عدداً كبيراً جداً من القطع في المقبرة القديمة بين عين الصيرة والبساتين ، إذ كانت الجثث في المقبرة المذكورة ملفوفة في أقمشة على بعضها أسماء خلفاء عباسيين أو فاطميين ، وأصبحت دار الآثار العربية بعد هذه الاكتشافات أغنى متاحف العالم في الأقمشة الاسلامية ، كما كانت أغناها في الخشب وفي مشكاوات المساجد المموهة بالمينا

وأكبر الظن أن أكثر ما وجد في الحفريات المصرية من منسوجات قد صنع في مصر نفسها ؛ ولسنا نجهل أن الاتصال كان كبيراً بين سورية ومصر في العصور القديمة ، وأن هذا الاتصال لم يضعف في العصر الاسلامى إلا في فترات قصيرة ، وأن مقادير كبيرة من الزجاج المموه بالمينا ومن الأوانى النحاسية المكفتة بالفضة نقلت إلى مصر ، وأنه من المحتمل أن يكون ذلك قد قدّر لبعض المنسوجات ؛ ولكن هذا الاستيراد لم يكن ليبلغ درجة تستحق الذكر ، لأن مصر نفسها كانت من أكبر المراكز لصناعة المنسوجات في الشرق الأدنى

وكذلك كانت صقلية خاضعة للخلفاء الفاطميين في شمال إفريقية ، ثم ضم الفاطميون إلى ملكهم مصر وسورية . وكانت صناعة النسج زاهرة في جزيرة صقلية حين حكمها العرب ، حتى لقد يصعب كثيراً التمييز بين الأقمشة المنسوجة في مصانعها والأقمشة المنسوجة في مصر وسورية . وإن صح ما ذكره المقريزى من أن ابنة المعز لدين الله تركت ثلاثين ألف قطعة من نسج صقلية فإن ذلك يدل على كثرة ما كانت تنتجه المصانع الصقلية ، ويثبت أن مصر كانت تستورد منها بعض الأقمشة النفيسة ، ولكنا نستبعد أن تكون الواردات من الأقمشة الأجنبية إلى مصر قد بلغت شيئاً كثيراً

ومهما يكن من شيء فان تطور صناعة النسج المصرية كان بطيئاً في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة ، وظلت الزخارف والتقاليد الفنية القبطية غالبة في العصر الاسلامي ، فترى قطعاً كثيرة من الصوف أو الكتان ذات زخارف متعددة الألوان أكثرها طيور أو حيوانات أو أشكال آدمية صغيرة في جامات بيضية الشكل أو متعددة الأضلاع وفيها أشكال هندسية أولية وخطوط متقاطعة ودوائر متماسة ، وقد يكون على بعضها صور طيور متقابلة ، أو يولي كل منها الآخر ظهره ؛ وكل هذه القطع عليها مسحة قبطية ظاهرة ، وأكثرها منسوج بطريق « التابستري » Tapestry-weaving process التي لا مجال هنا لشرح تفاصيلها الفنية

وتظهر الكتابة على المنسوجات في القرن التاسع ، بل هي تظهر في القرن الثامن ، وإن لم يكن لدينا من دليل يؤيد ذلك إلا القطعة المحفوظة بمتحف فكتوريا وألبرت والتي عليها اسم « مروان أمير المو . . . » وفي اعتقادنا أن المقصود هنا مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية

وقد أحصى الأستاذ ڤييت ما نعرفه في المتاحف والمجموعات الأثرية من قطع المنسوجات التي عليها أسماء الخلفاء العباسيين ، فوجد أن هناك واحدة باسم مروان ، وواحدة باسم هارون الرشيد ، وواحدة باسم الأمين ، واثنتين باسم المأمون ، وواحدة باسم الواثق ، واثنتين باسم المتوكل ، واثنتين باسم المستعين ، وواحدة باسم المعتز ، وواحدة باسم المهتدي ، وتسع عشرة قطعة باسم المعتمد ، وإحدى وعشرين للمعتضد ، وخمس عشرة للمكتفي ، وتسعاً وثمانين ومائة للمقتدر ، وإحدى عشرة للقاهر ، وأربعاً وخمسين للراضي ، وسبعاً وعشرين للمتقي ، وأربع قطع للمستكفي ، وخمساً وأربعين ومائة للمطيع

وفي العصر الطولوني كانت التقاليد الزخرفية القديمة والقبطية لا تزال تسود صناعة النسج . على أن هناك بعض أقمشة عليها زخارف طولونية ظاهرة على النحو الذي نعرفه في زخارف الجامع الطولوني ، والأخشاب التي ترجع الى هذا العهد ؛ وأوضح ما تكون هذه الزخارف على المنسوجات في قطعة بمتحف برلين نشرها الدكتور كونل Dr. Kühnel وتذكر رسومها بما يسمونه الطراز الأول من زخارف سامرا ، وبالزخارف الجصية في المنزل الذي كشف في حفريات دار الآثار العربية منذ ثلاث سنين . وليست هذه القطعة في حالة جيدة من الحفظ ، فان زخرفها قد سقطت في بعض أجزائها ، ولكن من حسن الحظ أن متحف ليبزج يمتلك قطعة أخرى من القماش نفسه ، زخرفها أحسن حفظاً ، وأكثر ظهوراً

وفي دار الآثار العربية قطع عليها رسوم شديدة الشبه بالزخارف الطولونية مما يحملنا نرجح أنها ترجع إلى هذا العهد . وأجمل هذه القطع معروض الآن في متحف جوبلان

وتشمل مجموعة دار الآثار العربية عدداً من قطع النسج بأسماء الأمراء الطولونيين . والمعروف أن الجزية التي كانت ترسلها مصر إلى الخليفة العباسي ، ثم الهدايا التي أرسلها ابن طولون إلى الخليفة المعتمد ، والتي أرسلها خمارويه من بعده إلى المعتضد ، كان فيها شيء كثير من المنسوجات النفيسة ؛ ومن هذه القطع واحدة باسم الخليفة المعتمد تاريخها سنة ٢٧٨ هـ (٨٩١ م) وتشبه قطعة أخرى باسم المعتمد أيضاً وجدتها البعثة الألمانية في سامرا وهي محفوظة الآن بالقسم الاسلامي من متاحف برلين . وهناك قطعة أخرى باسم الخليفة المكتفي بالله ، والأمير الطولوني هارون بن خمارويه تاريخها سنة ٢٩١ هـ (٩٠٤ م) وهي السنة السابقة لسقوط الدولة الطولونية

وظل الخلفاء العباسيون في عهد الأخشيديين يستمدون من مصر أكثر ما يلزمهم من المنسوجات النفيسة المحلاة بكتابات كوفية فيها العبارات والأدعية المعروفة ، بيد أن أسماء الوزراء لم تعد تظهر في تلك الكتابات

أما في عصر الدولة الفاطمية فقد عظم اهتمام الخلفاء بصناعة النسج ؛ ويروي المقريزي أن دار يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز بالله نزار حولت بعده إلى مصنع للنسج ، وصارت تعرف باسم دار الديباج ، وأن وظيفة صاحب الطراز كان لا يتولاها إلا أعيان المستخدمين من أرباب العمائم والسيوف ، وكان تحت إمرته معاونون كثيرون ودار للضيافة تسمى « منظرة الغزالة » لا ينزل إلا فيها إذا ترك مقامه بدمياط أو بتنيس وقدم إلى القاهرة ، « فتجرى عليه الضيافة كالغرباء الواردين على الدولة فيتمثل بين يدي الخليفة بعد حمل الاسفاط المشدودة على تلك الكساوى العظيمة ويعرض جميع ما معه وهو ينبه على شيء فشيء . . . وله

فى بعض الأوقات التى لا يتسع له الانفصال نائب يصل عنه بذلك غير غريب منه ، ولا يمكن أن يكون إلا ولداً أو أخا فان الرتبة عظيمة . . » (خطط المقريزى جزء أول ص ٤٦٩ — ٧٠)

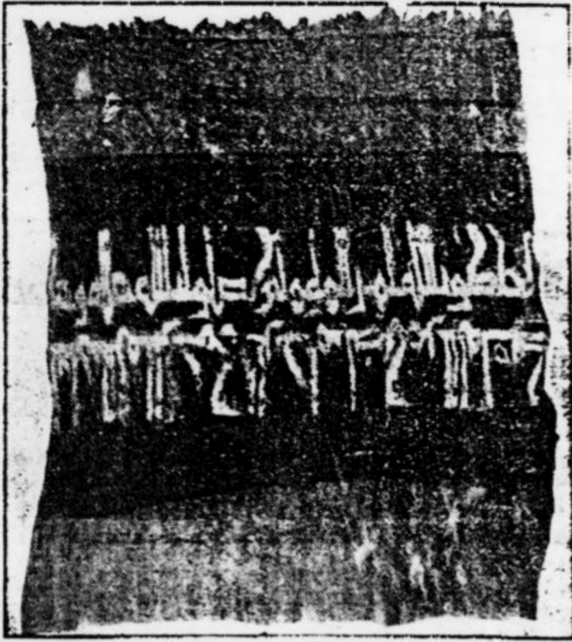
وقصارى القول أن نظام الطراز بلغ من الجودة والدقة فى العصر الفاطمى مبلغاً زاد كثيراً فى كمية منتجاته وفى نفاسة نوعها . وقد كانت هناك أصناف من الأقمشة الغالية المشغولة بالحرير لا تنسج إلا للخليفة نفسه ، ولكن أفراد الرعية كانوا يحصلون على قطع أخرى نفيسة جداً ، فكانت الجلابيب والأقمصة والعمائم والأحزمة تصنع من أقمشة غالية تزينها أشرطة مشغولة بالحرير ، أخذ حجمها فى الزيادة حتى صارت فى القرن الثانى عشر تغطى أكثر الأرضية الكتانية فى الأقمشة

وكثيراً ما أمر الخلفاء بصناعة منسوجات فاخرة لاهدائها إلى الأمراء والملوك الذين كانوا يخطبون ودهم أو تربطهم بهم علاقات الصداقة وحسن الجوار

وقد بدأت بشائر العصر الفاطمى تظهر فى صناعة المنسوجات الاسلامية فى القرن العاشر ، فأخذ الميل يزداد إلى الرقة فى الزخارف والابداع فى تنسيقها ، وسارت الألوان تزداد تدريجياً فى الهدوء والتناسق ، وأصبح فى الكتابة كثير من الرشاقة كما كبر حجم الحروف وصارت سيقانها تتصل ببعضها وينتهى كثير منها فى أعلاه بزخارف صغيرة على شكل وريقات شجر تقليدية

وقد زار ناصرى خسرو الرحالة الفارسى مصر حوالى سنة ١٠٤٠ ميلادية وأعجب بما ينسج فى تنيس من قصب ملون تصنع منه ثياب النساء ، وكذلك العمائم والقلنسوات وقال : إن مثل هذا القصب الجميل لا يصنع فى أى مكان آخر ، وإنه سمع أن أمير إقليم فارس من بلاد إيران أرسل عشرين ألف دينار إلى تنيس ليشترى بها ثوباً من النسج الملكى ، ولكن وكلاءه أقاموا فى مصر سنين عديدة دون أن يحصلوا على بغيتهم — وروى ناصرى خسرو أن مصانع تنيس كانت تنتج نوعاً من القماش يسمى البوقلمون يتغير لونه باختلاف ساعات النهار ويصدره المصريون إلى بلاد الشرق والمغرب

وفى المتاحف والمجموعات الأثرية كثير من الأقمشة بأسماء الخلفاء الفاطميين وخاصة العزيز والحاكم والظاهر والمستنصر . ولعل أبدعها قطعتان من مجموعة صاحب الجلالة مولانا الملك باسم الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله : الأولى من شاش أسود وعليها كتابة كوفية بحروف كبيرة فى سطرين متوازيين مقلوب أحدهما . ونص العلوى منهما : « بسم الله الرحمن الرحيم نصر من الله لعبد . . » والسفلى : « الحاكم بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعا . . . » وتحت الكتابة شريط من حرير أصفر فيه رسم أزرق مكرر لطائرين متقابلين (شكل ١)



شكل (١) [من مجموعة حضرة صاحب الجلالة الملك]
قطعة من الشاش الأسود باسم الحاكم بأمر الله

والثانية من شاش أسود أيضاً وعليها كتابة نصها فى كل من السطرين : « الله الرحمن الرحيم نصر من الله لعبد الله ووليه المنصور أبى على الامام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين » وفوق



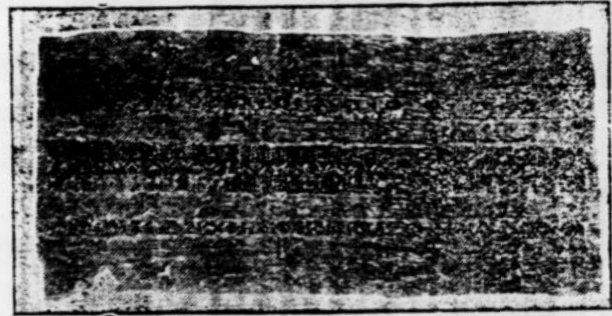
شكل (٢) [من مجموعة حضرة صاحب الجلالة الملك]
قطعة من الشاش الأسود باسم الحاكم بأمر الله

الكتابة شريط من حرير أصفر فيه أيضاً رسم أزرق مكرر لطائرين ، انظر (شكل ٢)

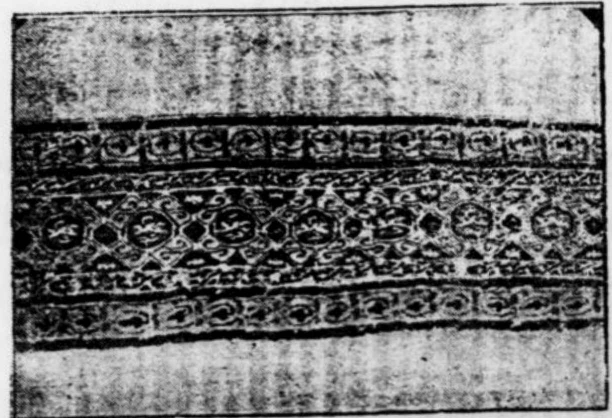
ومما يلفت النظر فى هاتين الطرفتين الملكيتين ما فى كتابتهما من الأخطاء بالرغم من إبداع صناعتهما

ومن أكثر المنسوجات الفاطمية ذيوعاً ثلاثة أنواع أقدمها قوامه أشرطة من الطيور أو الحيوانات وسط جامات بيضية الشكل قد يتداخل بعضها فى بعض

والنوع الثانى عظُم الشغف به فى القرن الحادى عشر ، وألوانه باهتة ، ويسود أرضيته لون ذهبى ، وتزينه أشرطة وجامات متداخلة قد يكثر عددها ، وفيها أيضاً رسوم حيوانات أو طيور تقليدية أو أشكال آدمية ، انظر (شكلى ٣و٤)

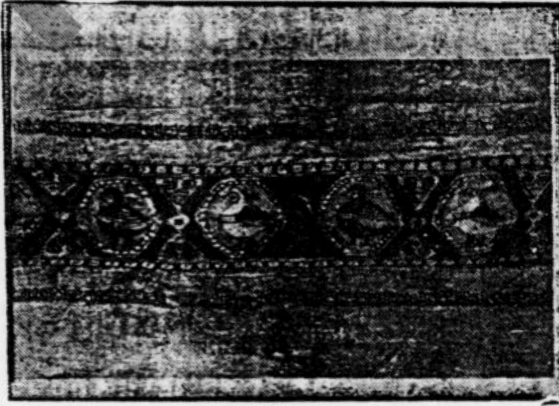


شكل (٣) [من مجموعة حضرة صاحب الجلالة الملك]
قطعة نسيج من العصر الفاطمى



شكل (٤) قطعة نسيج فاطمية من القرن الحادى عشر الميلادى
(مجموعة دار الآثار العربية)

والنوع الثالث يمثل القرن الثانى عشر ، ويسوده اللون الأزرق الغامق ، وتبدأ فيه الحروف الكوفية فى الاستدارة لتصبح حروفاً نسخية ، كما تظهر فى الزخارف الفروعُ النباتية والأرابسك والحروف النسخية التى لا تكوّن كمات ذات معنى ومن العبارات التى يكثر ورودها على الأقمشة الفاطمية : « الملك لله » ، و « بسم الله الرحمن الرحيم » ، لا إله إلا الله محمد رسول الله ، على ولى الله » ، و « نصر من الله » ، و « العز من الله »



شكل (٥) قطعة نسيج فاطمية من الكتان ترجع إلى القرن الثانى عشر
(مجموعة دار الآثار العربية)

وأما فى العصر الأيوبى فان الزخارف الحيوانية يقل استعمالها وتكثر الكتابة النسخية المشغولة بالابرة ، وكذلك الأشكال الهندسية من مثلثات ومعينات ودوائر . وفى المنسوجات المعروضة بمتحف جوبلان من مجموعة جلالة الملك ومجموعة دار الآثار العربية قطع قد ترجع إلى العصر الأيوبى ، وإن كان الجزم بصحة ذلك ليس من الحكمة ، لأن بين المنسوجات الأيوبية والمنسوجات التى صنعت فى آخر العصر الفاطمى شبهاً كبيراً يجعل من الصعب التمييز بينها

وفى عصر المماليك فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر قضى على نظام الطراز وضعفت بالقضاء عليه صناعة نسج الكتان ، وأصبح الأمر يدور حول نسج الحرير وتطريزه ؛ وتأثرت الصناعة بمنتجات الشرق الأقصى التى أدخلها عصر المغول فى العالم الاسلامى . ولسنا نجهل شهرة الديباج الصينى الذى أشاد ماركوبولو بوصفه فى رحلته المعروفة ، ووجد بعضه فى مصر ، كما وجدت أنواع أخرى من الديباج فيها تأثير الصناعة الصينية لدرجة يستحيل معها الجزم بأنها من نسج عمال مصريين ، ولاسيما إن تذكرنا ما نعرفه من المصادر التاريخية عن البعثات التى تبودلت بين الصين ومصر لتحمل ما خف حمله وغلا

ثمنه من المنسوجات الحريرية النفيسة

ونلاحظ أن الرسوم فى النسج المطرز المملوكى تميل الى الاستدارة نظراً لأسباب فنيـة يطول شرحها ، وأهمها نوع الغرزة التى يسمونها Holbein stitch والتى أخذها الغرب بعد ذلك عن البلاد الاسلامية

وكثير من الأقمشـة المملوكية المعروفة عليها أسماء بعض السلاطين المماليك وبعض عبارات الأدعيـة نحو : « عز لمولانا السلطان الناصر » ، أو « السلطان الملك المظفر العـالم العامل العادل » ، أو « عز لمولانا السلطان الملك الناصر ، ناصر الدنيا والدين محمد بن قلاوون » أو « الشرف للأشرف »

وهناك شبه جلى بين زخارف هذه الأقمشة المملوكية وبين كثير من الزخارف التى نراها على قطع الخزف والنحاس التى ترجع إلى العهد نفسه ؛ كما أننا نرى فى بعض الأقمشة المملوكية رسوماً تتكون من أشرطة قد تتعرج فتضم بينها جامات بيضية الشكل فيها صور طيور فى مواقف مختلفة (شكلى ٦ ، ٧



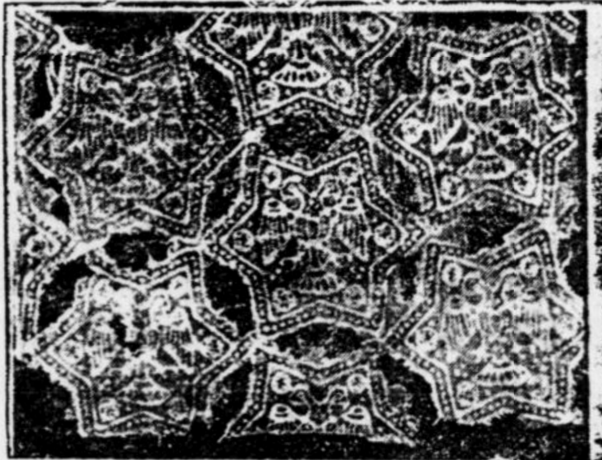
شكل (٦) قطعة نسيج من حرير ترجع إلى القرن الثالث عشر الميلادى
(مجموعة دار الآثار العربية)

بقى أن نشير الى نوع من الأقمشة رسومه « مطبوعة » وليست منسوجة أو مشغولة فى القماش نفسه ، وترجع تقاليد هذه الصناعة الى العصر القبطى ، ولـكن الظاهر أنها أهملت فى العصر الاسلامى حتى أواخر حكم الفاطميين حين عاد القوم الى استعمالها فى الأقمشة الـكتانية ، وكانت الزخارف المطبوعة ذات لون واحد حتى جاء العهد العثمانى فظهرت زخارف مطبوعة ذات لونين . ومهما يكن من شىء فان صناعة هذه الأقمشة تشهد بدقة



شكل (٧) قطعة نسيج من حرير أخضر باسم السلطان الملك الناصر
القرن الرابع عشر
(مجموعة دار الآثار العربية)

فائقة ، وقد نقلها الغرب عن الشرق وانتشرت فى أوربا ولاسيما فى ألمانيا بحوض نهر الرين حيث يظهر تأثير الزخارف الشرقية فى المنسوجات « المطبوعة » . وفى دار الآثار العربية بعض أقمشة اسلامية مطبوعة ، وفى اعتقادنا أنها من أحسن الأمثلة المعروفة (شكل ٨)



شكل (٨) قطعة من نسيج «مطبوع» ترجع إلى أواخر القرن الثالث عشر
(مجموعة دار الآثار العربية)

وهكذا يرى القارئ أن ما تفضل جلالة الملك باعارته وما بعثت به دار الآثار العربيـة الى جوبلان لتمثيل تطور صناعة النسج فى مصر الاسلامية وسيلة جليلة لنشر الدعوة لمصر ، وتعريف الأجانب بفنونها الجميلة

زكى محمد حسن

فريزر ودراسة الخرافة

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

خطت الدراسات الاجتماعية فى الخمسين سنة الأخيرة خطوات فسيحة : فانقسمت سبلها ، وتعددت فروعها ، وتشعبت مناحيها ، واستطاعت أن تثبت أن لها — كسائر العلوم — موضوعاً محدوداً ، وطرقاً معينة ، ومبادئ ثابتة ، ولا تكاد توجد مادة برهنت على خصبها برهان هذه المادة ؛ كما لا يكاد يوجد علماء خلقوا فناً بأسره فى مدى قصير مثل علماء الاجتماع المحدثين . فان جملة ما كتبه أفلاطون وأرسطو فى العصور القديمة ، وما دونه المؤرخون وعلماء الجغرافيا فى القرون الوسطى لا يصح أن يسمى اجتماعاً بالمعنى الصحيح ، ولا يحوى آراء علميـة ناضجة [١] . ولا ننكر أن عصر النهضة ألقى شعاعاً من الضوء على العلوم الاجتماعية ولفت الباحثين إلى فلسفة التاريخ ومقارنة الشعوب بعضها ببعض ، وقد بدأ أثره الواضح فى القرن الثامن عشر إذ ظهرت مؤلفات مونتيسكييه وڤولتير وروسو [٢] . ثم جاءت الثورة الفرنسية التى قلبت النظم المألوفة رأساً على عقب واستبدلت بأساليب الحكم والسياسة العتيقة طرقاً مستحدثة ، فأنتجت بهذا ثورة أخرى فى الأفـكار والآراء الاجتماعية كان من أبطالها سان سيمون وأوجست كونت [٣] . بيـد أن تـكوين علم الاجتماع فى شكله الحاضر يرجع إلى أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . فمدرسة ميل وسبنسر فى انجلترة ، وڤونت وڤجنر فى ألمانيا ، ودركيم وليڤى بريل فى فرنسا ، وأعمال السائحين والرحالة من انجليز وأمريكان وألمان أضافت إلى هذا العلم ثروة طائلة ، بل خلقته من عدم [٤]

لم تقنع هذه المدارس بطريقة واحدة ، ولم تقف فى بحثها عند حد . فلجأ بعضها إلى التاريخ يشرح به ما غمض من أعمال الجمعية وأقوالها ، وإحساساتها ، وعقائدها . واتخذ بعضها من الأحصاء

(1) Hubert, Les sciences sociales.

(2) Id. Sociologie, p. 6,

(3) Maunier (R.), Introd. à la Sociologie, pp. 91 — 99.

(4) Külpe, Einleitung in die philosophie, 136 — 39.

والتعداد وسـيلة لتوضيح الظواهر الاجتماعية واستنتاج القوانين المسيطرة عليها . وأبت طائفة أخرى إلا أن تصعد بالاجتماع إلى مستوى العـلوم الواقعية sciences positives فبنته على المشاهدة والملاحظات الدقيقة . لذلك عمدت إلى دراسة الشعوب الهمجية المعاصرة وتتبع عوائدها وتقاليدها ، وتوصلت من ذلك الى نتائج سارة وشيقة للغاية [١] . ومن أهم من عنوا بهذه الطريقة اجتماعيان انجليزيان معاصران ، وهما فريزر وتيلور اللذان كتبا فى خصائص الشعوب مجموعة أبحاث قيمة

يضيق بنا المقام عن أن نترجم ترجمة كاملة لفريزر (Frazer) تلميذ جامعـة جاسجو ، وأستاذ الاجتماع فى ليڤربول وكمبردج ، وأحد رجال القانون والمحاماة فى لندن [٢] . نشأ هذا العالم متشبعاً — ككل أتباع ميل وسبنسر — بفكرة أن الظواهر الاجتماعية خاضعة لقوانين ثابتة ؛ وزاد على أساتذته أن هذه القوانين ممكنة الصوغ والتحديد إذا درست خصائص الشعوب المختلفة ، ولاسيما الهمجى منها . فعلى ضوء هذه الدراسـة الموازنة يمكننا أن نبين الأدوار المتتالية التى مرت بها فـكرة من أفكار الجمعية ، وأن نقف على منشأ هذه الفـكرة وكيفية تطورها . وقد تخصص فريزر فى هذا النوع من البحث ، وتناوله من نواحٍ شتى فى أسلوب جذاب ، وعبارة عذبة ، وخيال رائع ، ومادة غزيرة تشهد باطلاع واسع وعمق كبير ؛ لهذا يعـد اليوم — فى حق — من أكبر العلماء البرزين فى خصائص الشعوب elhnographes [٣] ويدور بحثه بوجه خاص حول الديانات فى رسومها وطقوسها لدى الشعوب القـديمة والحديثة ؛ وله فى ذلك مؤلفات عديدة أهمها : التوتيميسم Totemism ، والغصن الذهبى The golden Bough ذلك الـكتاب العظيم الذى ترجم كله أو أجزاء منه إلى الألمانية والفرنسية والايطالية [٤] . وغنى عن البيان أن أبحاثاً كهذه تتصل اتصالا وثيقاً بالخرافة التى لبست ثوب الدين فى كثير من الجمعيات الانسانية

نستطيع أن نقول — دون أن نخشى أية معارضـة — إن

(1) Hubert, Sociologie, 130 — 35.

(2) Ensy. Brit., t. IX. — Larousse, XXes., t. 3.

(3) Ensy. Italiana, t. XVI. pp. 44 — 45.

(4) Der grosse Brockhaus, VI, 554.

فريزر أضحى أستاذاً غير منازع فى موضوع الخرافة ؛ درسه فى رغبة أكيدة فأجاد درسه ، وقلبه على وجوهه العديدة فلم يدع فيه مجالاً لمن جاء بعده . لم يعن بالخرافات المشهورة فحسب ، بل تعداها إلى خرافات ثانوية مقصورة على بعض الشعوب ؛ فهو إلى جانب دراسته للسحر والشعوذة وصكوك الغفران وما أشبهها ، يعرض لبعض الأعمال الخرافية المتصلة بالطعام والشراب [(١)] . وبالجملة ليس ثمت كتاب من كتبه إلا وفيه تحليل لخرافة من الخرافات وشرح لسلطانها على المجتمع . ولئن كان قد أعلن إعلاناً كافياً عن مضار الخرافة وسيئاتها ، فهو لم ينس نفعها وحسناتها ؛ ولا ريب فى أنه أول اجتماعى أبان فى وضوح أثر الخرافة الصالح فى الجمعيات الانسانية . وقد وضع فى هذا — فضلا عن أبحاث جزئية مختلفة — كتاباً مستقلاً سماه : محامى الشيطان . L'avocat du diable [(٢)] . ولهذا الكتاب من اسمه نصيب كبير ؛ فان مؤلفه يبدو فيه المحامى المدره الذى يدافع عن الخرافة دفاع الأبطال ، ويبين مالها من يد فى تكوين بعض الأسس الاجتماعية . فرجل الدفاع فى محاكم لندن يزج بنفسه فى محكمة الآراء والنظريات لينصر فكرة أجمع الناس على شرها وذاقوا منها الأمرين ، مهمة شاقة ، وموقف دقيق للغاية ، وكيف لا وفريزر يشذ عن الرأى السائد ، ويخرج على المألوف المسلم به . غير أنه قد وفق الى حد كبير فيما حاوله ، ونهض بالخرافة من كبوتها ، وأثبت ما فيها من نواحى الخير . وما أبلغه حين يقول : « نحن مدفوعون الى اعتبار الخرافة خطأ فى ذاتها ، وشراً لا خير فيه ، وضرراً محقق النتائج . وفى الحق أنها أصل كثير من آلام هذا العالم ، فقد بددت ذخائر هائلة ، وضحت بأرواح لاحصر لها ، وأثارت حروباً شعواء ، وأوقعت الشحناء بين الأصدقاء ، وفرقت بين المرء وزوجه ، والأب وابنه ، مقطعة علاقاتهم بحراب حادة ، أو بما هو أضر منها ، وملأت السجون بالأبرياء ، والمستوصفات والملاجىء بالعجزة والمتوهين ، وسحقت قلوباً عديدة ، وبلبلت نفوساً مطمئنة . ولما لم تقنع بايذاء الأحياء جاوزتهم إلى الأموات ، فهتكت سترهم ، ونبشت قبورهم ، وأوقعت بهم من العذاب والنكال ما أدمى قلوب الأبناء والأعقاب ؛ صنعت الخرافة كل ذلك وأكثر منه ، بيد أن فى مقدورنا أن نقدمها اليكم فى صورة أليق ، وتحت ضوء أنسب . لا ندعى أنا أهل للدفاع عن هذا « الشيطان » ، والظهور أمام هذا الصيب الأزرق والغاز الخانق ، وإنما نحاول فقط أن نكون ما يصح أن يسميه الرجال السمحاء دفاعاً مقبولاً عن أكبر الخصوم شبهة ، سنعمل مستضيئين بأمثلة مختارة على البرهنة ، أو على الأقل ، على ترجيح هذه القضية . قامت طائفة من الأنظمة الاجتماعية الصالحة باعتراف الجميع أو أغلب الناس على أساس من الخرافة لدى بعض الشعوب وفى بعض مراحل التاريخ [(١)] »

تخير فريزر بين هذه الأنظمة أربعة من أهمها ، وهى الحكومة ، والملكية الشخصية ، والزواج ، واحترام الحياة الانسانية ؛ وبذل غاية الجهد فى إثبات أن الخرافة ساعدت على تكوينها ودعمها مستعيناً فى كل ذلك بالواقع والتاريخ . فلاحظ فى دقة أن مهمة الحكومة ذللت لدى كثير من القبائل الهمجية المعاصرة بسبب الرأى القائل إن الحكام ينتسبون إلى طبقات سامية ، وينعمون بسلطان سحرى خارق للعادة ؛ وإذ كانوا كذلك وجب على المحكومين أن يخضعوا لهم دون إبداء أية ملاحظة . فلدى سكان جزائر السود Mélanésie فى أفريقية يزعم الناس أن للرؤساء قوى غير طبيعية استمدوها من الملائكة والجن المتصلة بهم اتصالا وثيقاً . وفى هذا سر نفوذهم ؛ فمتى ضعفت هذه العقيدة فقد الرئيس كثيراً من سلطانه [(٢)] . ويعتقدون كذلك أن الحاكم أو الوالى يستمر بعد موته فى سهره على رعاياه ، ويعاقبهم بالجدب والغرق والصواعق إن أخطأوا ولم يقدموا القرابين لجدثه [(٣)] . ويعتبر الرؤساء السياسيون فى زيلندة الجديدة كآلهة أحياء مقدسة فى مختلف أجزائها بحيث لا يستطيع أحد الاعتداء عليها ، وإذا قدر لمحارب أن يقتل أحد هؤلاء الرؤساء ، سارع إلى عينيه فاقتلعهما وابتلعهما ليأمن شر ما يحيط به من أرواح وقوى خفية ؛ ذلك لأنه يظن أن هذه القوى تسكن هذين

(1) Voir, The magic art and the enolution of kings, 1911.

(٢) نأسف لأنا لم نجد بين أيدينا أثناء كتابة هذه الكلمة النسخة الأصلية الانجليزية لهذا الكتاب لنحيل عليها ؛ ولا يفوتنا أن نلاحظ أن ترجمته الفرنسية فى منتهى الجودة

(1) Frazer, L' avocat du diable, 1 — 2.

(2) *Codrington, The Melanesians, 46.*

(3) Frazer, op. cit., 9.

المضون [١] ويقول بعض الأمراء الزيلنديين : « لا تظن أنى رجل وأنى من هذا العالم الأرضى ، كلا فانى نزلت من السماء حيث يسكن آبائى الآلهة ، وسأعود اليهم يوماً [٢] » . ويروون أنه بينما زيلندية تتذوق خوخة جبلة انتزعتها من سلة تحملها ، علمت أنها نبتت فى مكان مقدس ، فأسقط فى يديها وصاحت بالويل والثبور وأنها لابد هالكة لغضب الآلهة عليها وحكام ذلك المكان المقدس ؛ وما أصبح الصباح إلا وقبضت روحها [٣] . ويعتقد سكان أفريقية الغربية أن حياتهم وأموالهم ملك لأمرائهم يتصرفون فيها كما يشاءون . وفى مقدور هؤلاء الأمراء أن يكسفوا الشمس ويخسفوا القمر وينزلوا المطر من السماء ؛ لذلك يلجأ الأهلون اليهم إن ضاقت بهم الحال أو أقفرت عليهم الأرض [٤]

لم يقف أمر هـذه العقائد الخرافية عند القبائل البدوية الموجودة فى أفريقية واستراليا وأمريكا ، فقد اعتنقها من قبل الشعوب المتحضرة القديمة . فقدماء المصريين كانوا يقدسون ملوكهم ويصعدون بهم إلى أصل سماوى ؛ وإذا نقصت حاصلاتهم أرجعوا ذلك إلى غضب المليك عليهم [٥] . وفى قوانين مانو الهندية كتبت العبارة الآتية : « إن الملك بفضل سره الخارق للعادة ، نار وهواء ، وشمس وقمر [٦] » . وكان اليونان فى عهد هومير يعدون ملوكهم ورؤساءهم آلهة أو كالآلهة [٧] . ومالنا نذهب بعيداً وفى التاريخ الحديث ما يؤيد بعض هذه الخرافات ؟ فقد كان عامة الانجليز يستشفون بملوكهم إلى عهد قريب ، فاذا لمس الملك مريضهم برىء لساعته ، واستمرت هـذه الخرافة إلى أخريات القرن الثامن عشر إذ كان يعالج روبير الصـالح ، وأدوارد المعترف ، بعض المرضى بهذه الطريقة [٨] . ونرى فى فرنسا شيئاً من ذلك فى فجر الثورة وبعدها بعشرات السنين ؛ فان لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر وشارل العاشر لمسوا آلاف

(1) Taylor, New-Zealand and its inhabitants, 134,352.
(2) Thomson, The Story of New - Zealand, I, 95.
(3) Brown, New-Zealand, 76.
(4) Frazer, The magic art, I, 342.
(5) Ibid, I, 418-- Tiele, History of the Egyptian religion 103.
(6) The Laws of Manu, VIII, 5 -- 8.
(7) Homère, Odysseé, II, 235.
(8) Crawfurd, The King's Evil, 11.

المرضى لشفائهم [١]

هـذه الأمثلة القليلة تكفى للبرهنة على أن عدداً من القبائل والشعوب نظروا إلى قادتهم ورؤسائهم وملوكهم نظرهم إلى موجودات ممتازة مزودة بقوى عظيمة ترغم الرعية على اتباعهم والتعلق بأهدابهم ، وإذاً فقد ساعدت الخرافة ، فى بعض الشعوب وفى بعض الأزمنة ، على احترام الحكومة وخاصة الاستبدادية ؛ وفى هذا ما أعان على تثبيت دعائم النظام الجمعى بوجه عام

يتبع

ابراهيم بيومى مدكور
دكتور فى الآداب والفلسفة

(1) Ibid, 144.

أثر خطير

كنيس الصـــالحية

للأستاذ عز الدين التنوخي

كاتب سر المجمع العلمي العربي

دويّ في دمشق تلهج به الألسنة ويردّده الهواء بين الأحياء، وصدى الدهر يثير من النفوس روائع الدهشة، ويبعث فيها نوازع الاستطلاع، ويعين على تمكين ذلك من النفس التاريخ بابتعاده، والتخيل بامتداده، مئات من السنين، ومئات من الشعوب والقبائل والأجيال تمرّ وتنطوي على كنيس الصـالحية ما بين دير الزور وأبي كمال، وهو (منذ أسس بنيانه سنة ٢٤٤ ب. م) لايزال قائماً بفارع جدرانه، وماثلاً برائع ألوانه، يعرب بلسان الزمن عما مرّ بالبشر من أيام هناء وبلاء، مخبراً عن أمم زالت، ودول دالت، وأحوال حالت، مما يمحص به أبناء العصر الحاضر حقائق الدهر الغابر، فينقلب به ما كان حقيقة وهماً، وما كان وهماً حقيقة

كنيس الصالحية، وما أدراك ما كنيس الصالحية، رأيت ألواحه الجبسية المقطوعة بالمنشار متفرقة، وهي أوصاله بل أشلاؤه الممزقة، فراعني — لعمر الحق — منظرها، وأكبرت بعد التأمل الطويل مخبرها، ثم تصورت هذا الكنيس الأثري النفيس، وقد التأمت بجوار السليمانية غداً أجزاؤه، والتحمت بعد طول الشتات والبلى أشلاؤه، فملك بتصوره القلب قبل الطرف، وألهج اللسان باستحسان ما لا يحيط به الوصف البارع واللسان المبين: ذلك أن صور تلك الألواح لاينقصها لأتقانها إلا الأرواح المثيرة، والقوى المجيرة، فتغمزك بعيونها، وترمز اليك بشفاهها، وتحدثك بأفواهها عن جلية أحوالها، وأخبار رجالها ونسائها وأطفالها، ولو أنها استطاعت ذلك لأغنت المنقبين والمؤرخين عن كثير من التنقيب والاستقراء والانفاق المستمر الفادح، والعناء المتواصل المنهك

أجل، هذه الألواح لاينقصها إلا الأرواح، فان لكل منها جهارة رائعة، وشارة جميلة، الى وجه سامٍ مسنون، وأنف أقنى، وعينين ناطقتين في صورة انسان سبط القوام، متناسب الأعضاء، تلمح عليه دلائل القوة والفتوة، وتلمح في عينيه شواهد النبل والفضل

ففي لوح مستطيل منها ترى صورة موسى النبيّ بيده الألواح وهو بوجهه المخروط الصبيح، يشبه السيد المسيح، تحيط به هالة قاتمة اللون من شعر رأسه الفاحم ولحيته السوداء، وكان لآلهة الاغريق لِحىً تزيد في هيبة الوجوه ووقارها

وفي لوحٍ آخر تشاهد صورة السموءل وهو النبيّ (صموئيل) يمسح بالزيت رأس النبي داود الواقف بين إخوته الستة قابضاً بيمناه يُسراه كما يقبض المصلّي إذا صلى

وفي لوح ثالث آخر صورة أحشويروش (الملك الأسد) ملك فارس وبابل وزوج إستير وقد استوى على عرشه المخمّس الدرجات، وعلى يساره الملكة إستير مُنقِذة إسرائيل، وهي على عرشها؛ وعلى جانب كل عرش صورة أسد أو نسر من ذهب، وعلى واجهة إحدى الدرجات قد نقش اسم الملك (أحشويروش) فاذا أراد الملك الصعود نحو عرشه وقف على الدرجة السفلى فترتفع به حتى تساوي الثانيـة التي فوقها، فينتقل إليها فترتفعُ به إلى الثالثة، والثالثة ترفعه إلى الرابعة، وهذه إلى الخامسة، فيستوي هنالك على عرشـه العظيم، وبذلك يشبه هذا الدرج العجيب مصعدة (أسانسور) هذا العصر؛ ويقال إن هذا العرش هو عرش سليمان مسلوباً من بيت المقدس، إذ وجد فوقه لوح آخر يمثل سليمان الحكيم على عرش لا يختلف بشيء عن العرش البابلي مما يرجح القول بنقله إلى بابل، وعلى يسار هذا اللوح لوح آخر يمثّل ابن عم الملكة إستير وهو مردخاي ممتطياً صهوة جواد أشهب مطهم يقوده هامان الوزير قصاصاً له وانتقاماً

وهنالك لوحٌ آخر مؤلف من سبع قطع، تمثل إلياس النبي مع أسباط إسرائيل، وهو يدعو الله أن يحيي له ثلاثة من الموتى فيبعث الله لاناماتهم أرواحاً ثلاثاً، والروح منها ممثلة بشكل امرأة تطير بجناحيها، وتهبط هذه الأرواح على أجسادها فتهبّ من رقادها، وعلى رأس أحدهم يد بمصمها ترفع الميت المنتشر من وفرة رأسه

ومن تلك الألواح ما يمثل موسى عليه السلام طفلاً تخرجه من اليم ابنة فرعون وقد ذهبتْ مع جواريها تغتسل في النيل فوجدته عائماً في سفط يتغلغل بين أوراق البرديّ ، وإلى جانبها جاريتان تحمل إحداهما صندوقة صغيرة تشتمل من أدوات الطيب على مالا غنى لمغتسل عنها ، وهي عادة مصرية قديمة

كانت كنائس اليهود قبل عهد هذا الكنيس لا تستوعب أكثر من ٤٥ مصلياً ، ولكن قاعة هذا الكنيس المستطيلة تستوعب ضعف هذا العدد ، أي نحو مائة من المصلين ، فقد كانت أبعادها (١٣,٥ متراً طولاً في ٧,٥ عرضاً في ٧,٥ ارتفاعا)

ومما يدل على أبهة هذا الكنيس النفيس أن محرابه القائم في صدره قد كان يزهو بطنافس فارس الجميلة ، وتبصر على جانبه صورة شمعدان من الذهب ذي سبع شعب ، في كل شعبة منها شمعة تبدّد بعض ظلام الكنيس ؟ وكانت مقاعد المصلين مُغَشَّاةً أيضاً بالطنافس كما استدل علماء الآثار على أن سماءه (سقفه) كانت مشيدة بالقرمد المزين المنقوش ، وكانت أرضه مفروشة أيضاً بنفائس الطنافس

هذا ولئن كانت الأمم تقاس برجالها ، والرجال توزن بأعمالها ، فقد حقّ علينا أن نختم هذه الكلمة بكلمة أخرى عادلة في شكر من كان سبباً لحفظ هذا الكنيس في بلادنا ولاعادة بنائه في دمشق غداً ، وهو صاحب المعالي وزير معارفنا الهمام السيد حسني البرازي ، فقد حاولت بعثة الحفر والتنقيب الأمريكية أن تستأثر به وتحرم من الانتفاع به تلك الأمة التي نُنبِش من ترابها ، ليُنبئ عن عمرانها وأحوال أديانها وآدابها ، وكادت تفلح لولا جهاده الميمون وحسن مساعيه لدى المفوضية التي حققت بأخرةٍ أمنيتَه ، فخدم بذلك أجلّ خدمة بلاده وأمته : ذلك لأن هذا الكنيس المنقطع القرين لم تفتح العين على مثله بعد ، ولهذا يقدر بعض علماء الآثار ثمنه بأكثر من مليون جنيه ، ويعدونه استثناءً أثرياً لقواعد الكنائس اليهودية التي تحرم التصوير ، وما كانت صوره هذه المحرمة بعظيمة الخطورة لدارسي تاريخ الشريعة فحسب ، إذ هي لدارسي تاريخ الفن أعظم خطراً ، وأبلغ لعمري أثراً

دمشق

عز الدين التنوخي
كاتب سر المجمع العلمي العربي

١٦ ــ قصــــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكي

وكيل كلية العلوم

بستور Pasteur

صــلة حديثه

وذهب « جرنيه » إلى الشمال يدرس دود القز في مدينة ڤالنسين Valenciennes ، فكتب اليه بستور أن يعيد إجراء التجربة الفائتة . سأله هذا ولمْ يدرِ لمَ سأله ، وكان جرنيه قد حصل على مجموعة طيبة من الدود السليم ، وكان يعتقد على الرغم من تشكك أستاذه أن تلك الكريات التي في باطن الدود ليست سوى أحياء تتطفل عليه فتقتله . فأخذ أربعين دودة سليمة وغذّاها بأوراق من التوت لم يمسها أبداً دود مريض ، فخرج من هذه الأربعين سبع وعشرون دودة نسجت سبعاً وعشرين شرنقة . وخرج الفراش من الشرانق خِلْواً من الكريات ، فعندئذ عمد إلى فراشات مريضة فسحقها ولوّث بسحيقها أوراقاً من التوت ، وغذّى بهذه الأوراق دُويدات سليمة صغيرة ، عمرها يوم واحد ، فلم تلبث هذه الدُويدات أن مرضت وهزلت وماتت موتة بطيئة . وتغطّى جلدها بالبقع السوداء ، وامتلأ جسمها بكريات الداء . وبعد هذا لوّث أوراقاً أخرى بسحيق الفَراش الريض وغذّى بها دوداً سليماً نامياً بالغاً كان على وشك أن ينسج الشرانق . فهذا الدود عاش حتى أتم نسج ثوبه الحريري ، ولكنه لما استحال إلى فراش خرج هذا الفراش وبجسمه الكُريات اللعينة ، وباض فكان البيض فاسداً . فسرّ « جرنيه » وثار ، وزاد سروره وزادت ثورته في الليالي التي أكب فيها على مكرسكوبه كلما رأى هذه الكريات تزيد في الدود كلما زاد انضماراً وقارب الفناء

وأسرع « جرنيه » الى بستور يصرخ له : « حُلّت المسألة ! فهذه الكُريّات حيّة ! إنها طفيليّات ، وهي التي تُمرِض الدود ! »

واستغرق بستور ستة أشهر ليقتنع بمقالة «جرنيه» . ولكنه

لما اقتنع وقع على العمل وقوعاً . وجمع أعضاء اللجنة مرة أخرى وخطب فيهم : « إن الـكُرَيّات التى بالدود ليست عرضاً من أعراض الداء فحسب ، بل هى سببه ، وهذه الـكُريات حيّة ، وهى تتزايد ، وهى تسير فى جسم الفراش المريض اغتصاباً حتى تعمّ نواحيه . وإنما كان خطأنا الأول لأننا طلبنا هذه الـكريات فى جزء صغير من جسم الفراش فنظرنا تحت جلد البطن وحده ، أما الآن فلا بد من سحق الفراش كله وفحصه من بعد ذلك ، فاذا نظرنا بالمجهر إلى سحيقه فلم نجد به تلك الـكُريات المجهريّة حكمنا بسلامته واتخذنا بيضه للتفريخ فى الربيع المقبل »

وتفرق رجال اللجنة واتبعوا تعاليم بستور فنجحت التجربة ، ودار العام فأفرخ البيض دودا صحيحا قويا نامياً أعطاهم غلّة من الحرير وافرة

استيقن بستور الآن أن هذه الـكريات الطفيلية سبب الداء وأنها لا تنشأ داخل الدود ، وإنما تأتيه من الخارج . فطاف فى الريف يعلم الناس كيف يمنعون نسل الدود السليم من أن يمس أوراقاً مسها دود سقيم ، وبينا هو فى هذا أصابه نزيف فى المخ فكاد يموت . ولـكنه سمع أنهم أوقفوا بناء معمله الجديد اقتصادا وفى انتظار موته ، فأغضبه ذلك وأصر على أن يعيش . وشُلّ أحد نصفيه شللا لم يشف منه تماما فى مستقبل أيامه ، ولـكنه قرأ كتاب الدكتور « سمايلز » فى الاعتداد بالنفس ، فاعتزم اعتزاماً قوياً أن يعمل على الرغم من عجزه ؛ فبدل أن يرقد فى فراشه ، أو يستشفى على البحر ، نهض فى عسر على قدميه ، وحَجَل إلى القطار ، وسافر إلى جنوب فرنسا وهو يصيح غاضباً : « إن من الاجرام القعود عن تخليص الدود من الوباء ، بينا الـكثير من أربابه يطلبون القوت فلا يجدونه » فأُعجب به الفرنسيون وأكبروه إلا نفراً قليلاً يحبون الأذى ؛ فهؤلاء قالوا : إنما هى صيحة قصد بها الدعاية لنفسه لا خير الناس

وقضى بستور ست سنوات يجاهد أدواء هذا الدود المسكين ، فانه لم ينته من علاج ندوته حتى ظهر به مرض جديد ، ولـكن بستور كان قد دَرِب على هذا النوع من البحث فـكشف عن مكروب الداء سريعاً ، وجاءه دوماس الشيخ يشكره وقد امتلأت عيناه بالدموع . وتحدث عمدة « ألياس » عن اقامة تمثال من الذهب لبستور العظيم

— ٧ —

وبلغت سنّه الخامسة والأربعين ، فأخذ يَنْعم حيناً بالمجد الذى كسبه من تخليص صناعة الحرير مما حاق بها ، وذلك بعون الله وعون «جرنيه» . ثم رفع عينيه الى مجد أسمى ، وأمل أسنى ، وحُلُم مستحيل برّاق ، حُلم من تلك الأحلام التى ارتأتها نفسه الشاعرة ، حلم من تلك الأحلام المستحيلة التى قد لا تضن الأقدار بمض تحقيقها أحياناً ؛ ثم رفع عينه الفنّانة من أمراض الديدان إلى أحزان الانسان ، ونفخ فى البوق نفخة داوية يبشر المرضى البائسين بقرب بلوغ دار الأمان ، قال : «إن فى مقدور الانسان أن يمسح عن وجه الأرض كل الأدواء التى يسببها تطفل الأحياء عليه ، هذا على فرض أن نظرية النشوء التلقائى نظرية باطلة ، وأنا واثق من بطلانها »

وجاء عام ١٨٧٠ بحصار باريس فى ذلك الشتاء القارس ، فخرج عنها تاركا أعماله ، تاركا معامله ، وذهب الى قريته القديمة فى جبال « الجورا » . ثم ذهب الى ميدان القتال يبحث بين الأشلاء عن جثة ابنه الصريع ، وقد كان جاويشا فى الجيش الفرنسى . وعلى هذه الأرض ، وبين هذه الدماء ، نشأ فيه كره للألمان ولـكل شىء ألمانى أخذ ينمو فيه ثم ينمو ويفيض حتى تشرب به كل عصب من أعصابه ، وبقى معه بقية حياته . واتخذ من أجل ذلك الوطنية صناعة . وأخذ يصرخ فى الناس : « إن كل مؤلف من مؤلفاتى سيطالعكم عنوانه بكراهة بروسيا ، وبناشدكم الثأر والانتقام . » وبسخافة فاخرة بدأ بحثه الأول فجعله للثأر والانتقام . واعترف أن بيرة فرنسا دون بيرة الألمان ، فنهض يبحث ليجعل بيرة فرنسا فوق بيرة الألمان ، بل فوق بيرات الأمم جمعاء

وقام برحلات كثيرة واسعة المدى الى مخامر فرنسا الشهيرة ، وأخذ يُلقِى الأسئلة الى كل من يَلْـقَى فيها ، من رئيس الخمارين فى معمله ، الى غسّال الأوانى البسيط فى مَغْسله . وذهب الى انجلترا فأسدى النصائح الى الرجال الفنّانين ذوى الوجوه الحمر الذين يَحذِقون صنع النبيذ الانجليزى ، والى الخمارين الذين يخرجون تلك الجمات القدسية بمدينة بِرْتُن Burton . وحرّر مجهرَه الى الألوف من البيرات ، ورقب الخمائر وهى تنقسم وتصنع الـكحول . وكان يقع أحياناً فيها على هذا الحُسَيّ اللعين الذى وجده فيها أعواماً مضى وأثبت أنه سبب فسادها ، وكان ينصح

لأصحابها بتسخين البيرة لقتل هذه الحييَّات ، ويؤكد لهم أنهم لو فعلوا إذن لزادت بيرتهم جودة وطابت مذاقا ، وإذن لاستطاعوا تسفيرها مسافات بعيدة وهي صالحة . وكان يسأل أصحاب المخامر مالاً لمعمله ، ويذكر لهم أن ما يجودون به اليوم يعود عليهم بالنفع في الغد أضعافاً مضاعفة . وبهذا المال قلب معمله بمدرسة النرمال إلى مصنع علميّ صغير للبيرة ، لمعت فيه البراميل النحاسية الجميلة ، ووهجت الغلايات الصقيلة

وبدأ عملاً مجهداً متواصلاً ، ولكنه لم يلبث أن سئمه ، لأنه كان يكره طعم البيرة كما يكره رائحة الطُبّاق . وزاده منه سأماً أنه وجد أن الباحث العالم في البيرة لابد له من أن يكون ذوّاقاً حكيما لها . ووجد كذلك أن البيرة الجيدة تحتاج في صناعتها إلى أمور أخرى غير منع المكروب من دخولها . وكان لعلم الفيزياء أستاذ يدعى برتان Bertin ، كاد يضحك من بستور لكراهته إياها . كان بستور كلما أراد مذاقها جعّد من أنفه الأفطس ، وغاص بشاربه في كوزها الراغي ، وبلع في عسر وكآبة ما تحتم بلعه من جرعاتها . كره البيرةَ ما فسد منها وما طاب . أما صديقه الفيزيائي فكان يلعق شفتيه بعد شربها ويصفقهما ، ويتهلل وجهه بشرا وتمتلئ أساريره خبثاً وهو يضاحك بستور فيها ، لأنها بيرة ذاقها بستور فحكم عليها بالفساد . حتى لضحك منه مساعده الشاب ، ولكنه لم يجرؤ بالطبع أن يضحك في وجهه . مسكين بستور ! كان بحاثاً قديراً ، ولم يكن فيه جمود ، ولم يكن فيه ركود ، وكان سريع التحوّل ، سريع التشكل للظروف ، سريع الألفة لكل جديد -- إلا البيرة . فحب البيرة كأنه يخلق ولا يكتسب . واللسان الذوّاق للبيرة تجود به الطبيعة على قليل من الناس ، كالأذن الموسيقية ليست متاعاً لكل أحد

ومع هذا فلست أنكر أن بستور أعان صناعة البيرة الفرنسية إعانة كبيرة ، وقد شهد بهذا الخمارون أنفسهم ، أما الذي أتشكك فيه فهو الذي يقول به أحبابه ومريدوه وعُبّاده من أنه رفع البيرة الفرنسية فجعلها نِدّ الألمانية . على أني لا أنكر ذلك عليه ، ولكني أود لو عُرضت هذه الدعوى على لجنة تحكيم من تلك اللجان العادلة الدولية الوقورة ، من تلك اللجان الذى كان بستور نفسه يقترح على الدنيا أن تلجأ اليها كلما أزمته خصومة لتقضى له أو لخصمائه اللامينين . . .

(يتبع) أحمد زكي

٢٥ـ محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون او خلود الروح

ترجمة الاستاذ زكي نجيب محمود

ـ كذلك كلما ازدادت البرودة على النار فإما أن تتراجع أو تفنى وإذ تكون النار تحت تأثير البرودة ، فلن يلبثا ناراً وبرودة ، كما كانت الحال من قبل

قال : هذا حق

ـ وفي بعض الحالات لا يكون اسم المثال (Idea) مقصوراً على المثال ، بل إن لكل شيء آخر حق المشاركة في الاسم ، ما دام موجوداً في صورة المثال ، من غير أن يكون هو المثال ، وسأسوق إليك مثلا لعلي أوضح هذا القول : أليس يطلق دائماً اسم الفردى على العدد الفردى ؟

ـ جد صحيح

ـ ولكن هل هذا وحده هو الشيء الذى يسمى بالفردى ؟ أليس ثمت أشياء أخرى لها أسماؤها الخاصة بها ، ويطلق عليها رغم ذلك اسم الضرورى ، لأنها وإن كانت ليست هي الفرديّة ذاتها ، غير أنها لا تخلو من الفردية قطعاً ؟ ـ هذا ما أريد أن أستجيب عنه ـ أليست الأعداد ، كرقم ثلاثة مثلاً ، من نوع الفردى : وهناك غير هذا كثير من الأمثلة : ألست تقول مثلاً إنه يجوز أن يدعى رقم الثلاثة باسمه الأصلى ، ثم يطلق عليه كذلك اسم الفردى ، وليس الفردى هو الثلاثة ذاتها ؟ وليس يقال هذا عن العدد ثلاثة فقط ، بل إنه جائز أيضاً على خمسة ، وعلى كل الأعداد المتعاقبة ـ كل منها فردى دون أن يكون هو الفرديّة ؛ وهكذا قل في اثنين وأربعة وسائر سلسلة الأعداد المتعاقبة ، كل عدد زوجيٌّ دون أن يكون هو الزوجية . هل تسلم بهذا ؟

قال : نعم ، وهل إلى انكاره من سبيل ؟

ـ ألق بالك إذن إلى الغاية التى أنشدها ؛ ليست الأضداد المعنوية وحدها هي التى يطرد بعضها بعضاً ، بل كذلك الأشياء المجسدة التى وإن لم تكن متضادة في ذاتها إلا أنها تحتوى أضداداً ؛

وأنا أزعم أن هذه الأشياء أيضاً ترفض المثال (idea) الذى يكون مضاداً لما تحتويه فى داخلها ، وهى إذا ما تقدم ذلك فاما أن تنسحب أو تفنى . خذ عدد ثلاثة مثلاً ، أليس يصبر على التلاشى أو أى شىء آخر ، أهون عليه من أن يتحول الى عدد زوجى مع بقائه ثلاثة ؟

فقال سيبيس : جد صحيح

قال : ومع ذلك فلا ريب فى أن العدد اثنين ليس مضاداً للعدد ثلاثة ؟

ـ انه لا يضاده

ـ إذن فليست المُثُل المتضادة وحدها هى التى يقاوم بعضها تَقدمَ بعض ، ولكن ثمت أشياء أخرى تقاوم كذلك اقتراب الأضداد ؟

ـ فقال : هذا جد صحيح

قال : هبنا نحاول تحديد ماهية هذه (الأشياء) إن أمكن ذلك

ـ لا ريب فى هذا

ـ أليست هذه ياسيبيس تُرغم الأشياء التى فى حوزتها على أن تتخذ شكل بعض الأضداد فضلا عن شكلها هى ؟

ـ ماذا تعنى ؟

ـ أعنى ، كما كنت أقول الآن تواً ، وما ليس بى حاجة لاعادته اليك ، إن الأشياء التى يملكها العدد ثلاثة ، لا يلزم فقط أن تكون ثلاثة فى عددها ، بل ينبغى كذلك أن تكون فردية

ـ جد صحيح

ـ ويستحيل على المثال المضاد أن يعتدى على هذه الفردية التى انطبع العددُ ثلاثة بطابعها ؟

ـ كلا

ـ وهو إنما استمد هذا الطابع من عنصر الفردى ؟

ـ نعم

ـ والزوجى والفردى ضدان ؟

ـ حقاً

ـ إذن فمثال العدد الزوجى لن يلحق بثلاثة أبداً ؟

ـ كلا

ـ وإذن فليس لثلاثة فى الزوجى من نصيب ؟

ـ كلا

ـ إذن فالثلاثى أو العدد ثلاثة غير زوجى

ـ جد صحيح

لأعُدْ إذن إلى ما زعمتُه من تمييز بين الطبائع التى ليست أضدادا وهى مع ذلك لا تقبل أضداداً : فكما فى هذا المثال : على الرغم من أن ثلاثة ليست مضادة للزوجى إلا أنها لا تقبل شيئاً من الزوجى أبداً ، ولكنها دائماً تعرض الضد فى الجانب الآخر أو كما أن اثنين لا تتقبل الفردى ، أو النارُ البرودة . ومن هذه الأمثلة (ومنها كثير غير هذا) ربما استطعت أن تصل إلى نتيجة عامة أنه ليست فقط الأضداد هى التى لا تتقبل أضداداً ، بل كذلك لاشىء مما يسوق الضد يقبل ضد مايسوقه فيما سيق اليه . واسمح لى هنا أن ألخص ماسبق من قول ـ فليس فى التكرار من ضرر ، لن يقبل العدد خمسة طبيعة الزوجى ، أكثر مما تقبل عشرة ، وهى ضعف الخمسة ، طبيعةَ الفردى ـ ولو أن الضعف ليس مضاداً للفردى تضاداً دقيقاً ، غير أنه يرفض الفردى إجمالاً . ولن تقبل كذلك أجزاءُ النسبة ٣ : ٢ فكرةَ الكل ، وكذلك أى كسر يكون فيه نصف ، لا بل والذى يكون فيه ثلث ، ولو أنها ليستْ مضادة الكل ، هل تسلم بذلك ؟

فقال : نعم انى متفق تماماً ، وذاهب معك الى ذلك

قال : أظنني الآن أستطيع أن أبدأ ثانياً ، وانى لأرجوكم أن تُدلوا إلىّ عن هذا السؤال الذى أوشك أن ألقيه ، بجواب غير الجواب القديم المأمون ، وسأقدم لكم لما أريد مثالاً ، وعسى أن تجدوا أساساً آخر فيما قيل الساعة تواً يكون مأموناً كذلك ، أعنى أنه لو سألكم أحد : « ماهو الشىء الذى يجعل الجسم حاراً بحلوله فيه ؟ » فستجيبون أنه ليس الحرارة (وهذا ما أدعوه بالجواب المأمون)

ولكنه النار ، وهو جواب يفضل ذلك كثيراً ، ونحن الآن مهيأون للأدلاء به . أو لو سألكم أحد : « لماذا يعتل الجسد ؟ » فلن تقولوا من المرض بل من الحمى ، وفى مكان القول بأن الفردية هى سبب الأعداد الفردية ستقولون إن الجوهر الفرد هو سببها . وهكذا فى الأشياء بصفة عامة . أحسب أنك ستفهم ذلك فهماً جيداً بغير أن أسوق اليك أمثلة أخرى ؟

ـ فقال : نعم إنى أفهم ما تقول فهماً جيداً

(يتبع) زكى نجيب محمود

٥ - شاعرنا العالمي

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

وكان أبو العتاهية فى عهد المهدى يلازم ابنه هارون ، وكان ابنه وولى عهده موسى الهادى يجد على أبى العتاهية لملازمته أخاه ، فلما ولى الهادى بعد المهدى أراد أن يقصيه عن أخيه هارون فلم يطعه ، ثم أمره أن يخرج معه إلى الرى فأبى ذلك ، ولكنه لم يلبث أن خافه وتهيب بطشه به ، وكانت الملوك فى عهده لا تحتمل مثل هذا النوع من المخالفة ، والاعتداد بالكرامة النفسية ، والمحافظة على العهد فى حالتى الأمن والخوف ، فقال يستعطفه :

ألا شافع عند الخليفة يشفع ... فيدفع عنا شر ما يتوقَّعُ
وإنى على عظم الرجاء لخائف ... كأنى على رأسى الأسنة تشرع
يروِّعنى موسى على غير عثرة ... ومالى أرى موسى من العفو أوسع
وما آمنٌ يمسى ويصبح عائذاً ... بعفو أمير المؤمنين يروَّع

وإنك لترى أبا العتاهية لا ينزل فى هذا الاستعطاف إلى الاستخذاء والخنوع ، ونسيان الكرامة وعزة النفس ، فلا يقول فى ذلك ما قال النابغة الذبيانى قبله للنعمان بن المنذر :

فان أك مظلوماً فعبد ظلمتَه ... وإن تك ذا عتبى فمثلك يُعتِب

بل يقول له هذا القول : (يروعنى موسى على غير عثرة) ، فينصف نفسه فى هذا الموقف الذى يجحد فيه النفوس ، ولا يرى حقا للهادى فى ترويعه على غير ذنب جناه ، كما يرى النابغة للنعمان أن يظلمه لأنه عبده

وقد روى صاحب الأغانى بعد ذلك أنه ولد للهادى ولد فى أول يوم ولى الخلافة ، فدخل أبو العتاهية فأنشده :

أكثرموسى غيظَ حساده ... وزين الأرض بأولاده
وجاءنا من صلبه سيد ... أصيدُ فى تقطيع أجداده
فاكتست الأرض به بهجة ... واستبشر المُلْكُ بميلاده
وابتسم المنبر عن فرحة ... علت بها ذروة أعواده
كأننى بعد قليل به ... بين مواليه وقواده
فى محفِلٍ تخفق راياته ... قد طبَّق الأرض بأجناده

فأمر له الهادى بألف دينار ، وطيب كثير ، وكان ساخطاً عليه فرضى عنه

فاذا صحت هذه الرواية فلا بد أنه عاد فسخط عليه حين رآه لم ينقطع عن أخيه هارون ، وحين أمر أن يخرج معه الى الرى فأبى ذلك ، وبهذا تتفق هذه الرواية مع ماقبلها ، ولا تكون متنافية معها ، وإن كنا نستبعد أن يعنى مثل أبى العتاهية بتهنئة الهادى بذلك المولود فى ذلك اليوم ، ولا يعنى بتهنئته بهذا الملك الذى صار اليه فيه ، فلعل حادثة ذلك المولود كانت بعد يوم ولاية الهادى الملك ، وبعد رضاه عن أبى العتاهية

وقد عاد مع الهادى بعد رضاه عنه إلى مثل ما كان عليه فى عهد المهدى ، واتصلت فيه مدائحه ، واتصلت من الهادى له صلاته وجوائزه . ومما مدحه به على مذهب أبى نواس فى بدء المديح بذكر الخمر ووصف محاسنها :

لهفى على الزمن القصير ... بين الخوَرْنق والسَّدير
إذ نحن فى غُرفِ الجنا ... ن نعوم فى بحر السرور
فى فتية ملكوا عِنا ... ن الدهر أمثال الصُّقُور
ما منهم إلا الجسو ... ر على الهوى غير الحَصور
يتعاورون مُدامَةً ... صهباءَ من حلب العصير
عذراءَ رباها شما ... ع الشمس فى حرّ الهجير
لم تَدْنُ من نار ولم ... يعلق بها وَضرُ القُدور
ومُقَرْطَقٍ يمشى أما ... م القوم كالرشأ الغرير
بزجاجة تستخرج السـ ... ـر الدفين من الضمير
زهراء مثل الكوكب الدُّ ... رّىّ فى كف المدير
تدع الكريم وليس يد ... رى ما قَبيلٌ من دَبير
ومخصَّراتٍ زرننا ... بعد الهدو من الخدور
رياً روادفهن يلـ ... ـبسن الخواتم فى الخصور
غُرُّ الوجوه محجبا ... ت قاصرات الطرف حور
متنعمات فى النعيـ ... ـم مضمخات بالْعَبير
يرفلن فى حلل المحا ... سن والمجاسد والحرير
ما إن يرين الشمس إلا ... القرط من خَلَل الستور

وإلى أمين الله مهـ ـربنا من الدهر العثور
وإليـه أتعبنا المطا يا بالرّواح وبالبكور
صُعر الخدود كأنما جُنِّحن أجنحة النسور
متسربلات بالظـلا م على السهولة والوعور
حتى وصـلن بنا إلى ربّ المدائن والقصـور
مازال قبـل فطامه فى سن مكتهل كبير

ثم انتهى عهد الهادى وحال أبى العتاهية معه مستقيمة كحاله مع المهدى ؛ فلما جاء عهد هارون الرشيد كان المظنون أن يكون حاله معه أكثر استقامة من حاله مع أبيه وأخيه ، لما سبق من ملازمته له ، وانقطاعه إليـه انقطاعاً كان يحسده الهادى عليه ، ولكن حاله فى هذا العهد جاءت على خلاف ما كان يقدر لها . وهنا تضطرب الروايات عن أبى العتاهية بقدر اضطراب أمره ، وتغير حاله

روى صاحب الأغانى أنه لما مات الهادى قال الرشيد لأبى العتاهية : قل شعراً فى الغزل ، فقال : لا أقول شعراً بعد موسى أبداً ، فحبسه وأمر إبرهيم الموصلى أن يغني ، فقال : لا أغنى بعد موسى أبداً — وكان محسناً إليهما — فحبسه . فلما شخص إلى الرقة حفر لهما حفيرة واسعة وقطع بينهما بحائط ، وقال : كونا بهذا المكان لا تخرجا منه ، حتى تشعر أنت ، ويغنى هذا ، فصبرا على ذلك مدة حتى قال أبو العتاهية لابراهيم : إلى كم يا هذا نُلاَجُّ الخلفاء ؟ هلم أقل شعراً وتغنى فيه ، فقال أبو العتاهية :

بأبى من كان فى قلبى له مرة حبٌّ قليل فَسُرِق
يا بنى العباس فيكم ملك شُعَبُ الاحسان منه تفترق
إنما هارون خيرٌ كله مات كل الشر مذ يوم خلق

وغنى فيـه إبراهيم ، فدعا بهما الرشيد فأنشده أبو العتاهية وغناه إبراهيم ، فأعطى كل واحد منهما مائة ألف درهم ومائة ثوب

وروى مرة ثانية عن محمد بن أبى العتاهية قال : كان أبى لا يفارق الرشيد فى سفر ولا حضر إلا فى طريق الحج ، وكان يجرى عليه فى كل سنة خمسين ألف درهم ، فلما قدم الرشيد الرقة لبس أبى الصوف وتزهد ، وترك حضور المنادمة ، والقول فى الغزل وأمر الرشيد بحبسه ، فلم يزل يكتب إليه الشعر يستعطفه حتى كتب إليه :

وكلفتَنى ما حال بينى وبينه وقلت سأبغى ما تريد وما تهْوى
فلو كان لى قلبان كلفت واحدا هواكَ وكلفت الخلىَّ لما يهوى

وروى مرة ثالثة عن محمد بن أبى العتاهية قال : لبس أبو العتاهية كساء صوف ودُرّاعة ، وآلى على نفسه ألا يقول شعراً فى الغزل ، وأمر الرشيد بحبسه والتضييق عليه فقال :

يا ابن عم النبى سمعاً وطاعه قد خلعنا الـكساء والدُّرّاعه
ورجعنا إلى الصناعة لما كان سخط الامام ترك الصناعه

فلم يزل الرشيد متوانياً فى إخراجه إلى أن قال :

أما والله إن الظلم لومُ وما زال المسىء هو الظلّوم
إلى ديان يوم الدين نمضى وعند الله تجتمع الخصوم
لأمر ما تصرفت الليالى وأمر ما توليت النجوم
تموت غداً وأنت قريرُ عين من الغفلات فى لجج تعوم
تنام ولم تنم عنك المنايا تنبـه للمنيـة يا نؤوم
سل الأيام عن أمم تقضت ستخبرك المعالم والرسوم
تروم الخلد فى دار المنايا وكم قد رام غيرك ما تروم
ألا يا أيها الملك المرجّى ليه نواهض الدنيا تحوم
أقلنى زلةً لم أجر منها إلى لوم وما مثلى مَلوم
وخلِّصنى تُخلَّص يوم بعث إذا للناس بُرِّزَت الجحيم

وسنستوفى فيما يأتى ما بقى من هذه الروايات فى هذا الشأن الجديد الذى صار إليـه مع الرشيد ، ونعمل على التوفيق بينها ، ونرد هذه الحال الجديدة فى أبى العتاهية إلى أسبابها الحقيقية ؟

عبد المتعال الصعيدى

قبر الغريبة

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

قالها على لسان أحدهم يخاطب
قبر حبيبته التي ماتت غريبة

قبرَ الغريبــة لا باكٍ ولا ناع   سوى محبٍّ له من حزنه داع
قبر الغريبة لا ماءٌ ولا زَهَرٌ   إلاّ دموعى وأشعارى وأسجاعى
والشعر من عنصر الديوم جوهرُه
فليس ينفكّ ذا ومضٍ وإشــعاع
ماتت وصورتها فى العين ماثلة   أخلَتى لم تمت أم لست بالواعى
كأنها من شقوق القبر ناظرة   إلىّ نظرةَ مُلتاعٍ لملتاع
نزيلةَ القبر قولى : لستُ ميّتةً   وقد تنبهت أرنو بعـد تهجاع
أم ليس ما أنا راء فى حقيقته   سوى خيالٍ لمن أهواه خدّاع
فأنت ميّتة أودعتُها بيدى   قبراً وبالرغم عنى كان إيداعى
حزنى شديد وأوجاعى مبرّحة   ماذا يخفف أحزانى وأوجاعى؟

* * *

دع الدفينة تحت القاع راقدة   فالقاع ليس لما فيه بمضياع
تحفّ بالميت أشــياعٌ لتدفنه   أمّا الغريب فلا يحظى بأشياع
ما كان حادث هـذا الموت فى بلدى
لغير قلبىَ فى صــــدرى بصدّاع
فى كل عمرىَ قد أحببتُ واحدة   وهذه ارتحلت فى آخر الساع
ألمعت للركب أستبقيه ملتمساً   فلم يردّ إلىّ الركبَ إلماعى
ما الأرض وهى لنا أمٌّ بمشفقة   فطالما أوقعت بى شرّ إيقاع
ولم أكن هابطاً منها لأودية   ولم أكن لثناياها بطلّاع
ما كنت أحسب أن الدهر يفجعنى
بمن أحبَّ فؤادى شر افجاع
والدهر ما زال منّاعاً لنائله   عن بعضهم ولبعضٍ غير منّاع
كانت محاسنها اللائى فُتِنتُ بها   يملأن قلبى وأبصارى وأسماعى
كنت السعيد بماضٍ كان يجمعنا   معاً لو أن إليـه جاز إرجاعى
فى الحب تُسطاع أشياء وإن عسرت
إلاّ السلوّ فهــــذا غير مسطاع

ما إن ذكرتكِ فى سرى وفى علنى
الاّ توثّبَ قلبى تحت أضلاعى
أحِسّ فى حين طرفى لا يراكِ إلى   جنبى بوخزٍ كحرّ النار لذّاع
لهفى على أعين وقّادة طفِئت   بعاصفٍ هبّ يسفى الموتَ زعزاع
قد كنتِ يوم اجتماع الغيد مفردةً   ككوكبٍ فى سماء الحسن لمّاع
سمراء فاتنة العينين خالقُها   قد أبدع الحسنَ فيها أىّ إبداع

* * *

ماقيمة العيش فى معزولة شطنت   ما إن بها لنفوسٍ أوذيت راع
أتأذنين بدفنى إن هلكتُ إلى   جوار قبركِ فى جوفٍ من القاع
فنلتقى فى الثرى منا الجسومُ وإن   كنا ولا أحدٌ منا به واع
إن انتظارك فيه لا يطول فبى   تدنو إلى القبر أدوائى وأوجاعى
أما دنوّىَ من حتفى فيُفرحنى   كأنما أنا من نفسى له ساع
موتُ الحبيبة فى دنياى زهّدنى   فلستُ إلاّ إلى حَينى بنزّاع
بكِ التحاقى أكيدٌ لا ارتياب به   فلا يضيركِ إبطائى وإسراعى
وسوف نسبح فى هذا الفضاء معاً   وقد نطوف بشمس ذات أتباع
لا يُفزعنّكِ بحرٌ للأثير طمى   وما هنالك من موجٍ ودفّاع

(بغداد)   جميل صدقى الزهاوى

نشيد المجد

بقلم إلياس قنصل

— من ديوان « السهام » الذى يصدر قريباً —

إلى المجد سرْ ، واغنم أكاليل غاره   بهمّةِ جبارٍ له الخلد مأربُ
وكن قوةً يعنو الجلالُ لبأسها   ويسبقها من سؤدد الفضل موكب
وإن ناصبتْك الحربَ دنياكَ كلها   وحنَّكَ من ليل الحوادث غيهب
فلا تشـكُ فالشكوى احتضارُ مخيّبٍ
ولن يســتحقّ النور شاكٍ مخيّبُ
بل استلّ من عالى إبائك مهنّدا   تغلغل فيه من مضائك كهرب
وكافحْ به صرف الزمان وقل له
سأبعث فيك الرعب من حيث تهرب

ذكرى محمد

في عيد ميلاده

للأستاذ محمود غنيم

هو عيدُ ميلادِ ابنِ عبدِ منافِ ... لا عيــدُ مخترعٍ ولا كشافِ
أكبرتُ قدرَكَ يا ابنَ عبدِ اللهِ عن ... تأليف أوزانٍ ونحتِ قواف
ما أنت إلا عيلمٌ لم يُكتشف ... يَطغَى بلجَّتــه على الوصَّاف
بحرٌ خضمٌ غير أن جُمانَه ... ما زال سرًّا داخل الأصداف
لولاكَ لانقطعَ الزمانُ فلم تكن ... حلقاتُه موصولةَ الأطراف
دجت القرونُ فقام دينُك حارساً ... يحمى ذمار حضارةِ الأسلاف

* * *

هزَّ الوجودَ بكفِّه فى مهده ... طفلٌ يتيمٌ من كنانةَ عاف
جادت به الفلواتُ أصفى طينةً ... وطويةً من جوِّهنَّ الصَّافى
وأشدَّ من هَضَبَاتِهِنَّ صلابةً ... وأهبَّ من إعصارهن السَّافى
فإذا الأكاسرُ خاضعون لحكمه ... وإذا القياصرُ مرغمو الآناف
فتحت مبادئُه الحصونَ أمامَه ... قبـل الصوارم والقَنَا الرعَّاف
غزت القلوب بسحرها فكأنها ... قد لامست منهنَّ كل شِغاف
أين الذى يغزو القلوبَ من الذى ... يغزو الرقاب بحدَّة الأسياف ؟
تلك المبادئُ - وهى شتى - جمعت ... فى مبدأين : الحقِّ والإنصاف

* * *

آخَى ابنُ عبدِ اللهِ بين معاشرٍ ... يتناحرون تناحرَ الأخْيَاف
لانت قناتُهمو لدعوته وما ... لانت قناتُهمو لغمزِ ثِقاف
ولقد يروض الأُسدَ رائضُها ولا ... يتغيَّر الطبعُ الغليظُ الجافى
هذا هو الإعجازُ لا بحرٌ ولا ... بدرٌ قد انشقَّا إلى أنصاف
آيٌ من الذكر الحكيم أتى بها ... فإذا القلوب تلين بعد جَفاف
ولو انَّ ألفَىْ دوحةٍ سجدا له ... ما كان ذلك بالدليل الكافى
عجباً ! أجاء محمد بالسحر فى ... آياته أم شابها بسلاف ؟
أم كان تنويماً خضوعهمو له ... ما ذلك السر العويصُ الخافى ؟
أسرت قريشٌ مسلماً فى غزوة ... فمضى بلا وجل إلى السياف
سألوه هل يرضيك أنك سالم ... ولك النبى فدًى من الإتلاف
فأجاب كلا لا سلمت من الردى ... ويُصابَ أنفُ محمدٍ برعاف
أقسمتُ ما كان النبى محمدٌ ... بمشَعْوِذٍ كلا ولا عرَّاف
ليس النبى بساحرٍ يتلو الرُّقى ... ويُخيف بالأشباح والأطياف
لـكنه الإيمـان من يظفرْ به ... يَلْقَ المفاوزَ سهلةَ الأكْناف
لو آمن الجبلُ ارتقى فوق السُّهى ... بقوادمٍ من ريشه وخواف
هذا الذى جعـل النبيَّ ورهطَه
إن حاربوا انتصروا على الأضْعَاف
يزداد فى ساح الوغى إيمانُهم ... فيقابلون الموت باستخفاف
يُسْتَضْعَفُون لقلَّةٍ لـكنهم ... بوثوقهم فى الله غيرُ ضعاف
فإذا دُعُوا للحرب هبُّوا أو دُعُوا ... للمـال عفُّوا عنـه أيَّ عفاف
قم سائل الأعرابَ أيةَ دولة ... نهضوا بها حملاً على الأكتاف
بزَّت أثينا فى الحضارة أمةٌ ... لم تأوِ غيرَ مضاربٍ وفياف
شُغلوا بفلســفةٍ وعلم بعدما ... شُغلوا بوصف منازلٍ وأثاف
تخذوا القصور مساكناً وتسربلوا ... بالخز لا الأوبار والأصواف
فإذا الجزيرة بعد جَدْب جنةٌ ... ميَّاســةٌ مهتزَّةُ الأعطاف
يا رُبَّ أسطولٍ بنَوْهَ كأنه ... بحرٌ خضمٌ فوق آخرَ طاف
السُّوقةُ الأجلافُ قد حكموا الورى ... أنْعم بحكمِ السوقة الأجلاف
ما شئت من عدل وتسويةٍ ومن ... شورى فيا لثلاثة الأحْلاف
يا شرق يا مهدَ الشرائع رحمةً ... لك ، ما لأهلك فيك كالأضياف؟
يا شرق أنت لكل شمس مطلعٌ ... ما بال أفقك حالك الأسْداف
أعْزِزْ علينا أن نراكَ تئنُّ من ... تقييــد أقدام وشدِّ كِتَاف
بدأت من الشرق الحضارةُ سيرها ... أفما لرحلتها من استئناف ؟

محمود غنيم

وأورِ زناد الكدِّ واخلقْ أشعةً ... من الحزم لا ينتابُها الدهرَ مغرب
وشقَّ بها درباً إلى كل غايةٍ ... سناها على عطر الثنا يتغلَّب
وإن بتَّ مهضومَ الحقوق ولم تثُرْ ... فلستَ بذى نفسٍ الى الله تُنسب
براها ، ورقَّاها لتغدو على الثرى ... خليفتَه - وهْو العزيز المغلَّب -
وما الموت إلا الضعف والجبن والونى ... وما العيش إلا نيل ما أنت ترغب
وما النفس إلاَّ عزة وكرامة ... يظلِّهما من طارف النبل مذهبُ

عاصمة الارجنتين ... الياس قنصل

القصص

من أساطير الاغريق

هرقـــل (١)

مولده . نشأته . قوته الخرافية . مجازفاته

للأستاذ دريني خشبة

كان قلب الألـه الأكبر شيوعية فى دولة الحب . . .

ولم يكن يقصر هواه على ربات الأولمب فحسب ، بل كان يفتتن بكل حسناء من بنات حواء ، وطالما وصل أسبابه بأسباب الغيد الأماليد من ظباء دار الفناء . . . هذه الحياة الدنيا . . .



تمثال هرقل فى متحف نابلى

ولقد كانت زوجه حيرا تقعد له بالمرصاد ، لما تعرف من تصابيه ، ولقلة ثقتها فيه ، فلما علق الفتاة الفتانة ، ألكمين ، إحدى أميرات هيلاس ، كان يبالغ فى الحذر حتى لا تفجأه زوجه معها كما فجأته مع الحسناء يو من قبل (٢)

ونعم الحبيبان بحياة راضية ، ووضعت ألكمين طفلها العاتية الجبار هرقل ، وماكاد النبأ يذيع فى دولة الأولمب حتى ثارت ثائرة حيرا وأسقط فى يدها . . . لأنها لم تعد تستطيع أن تنتقم لكبريائها من منافستها فى قلب زوجها (زيوس) تلك المنافسة التى ارتفعت إلى مرتبة الآلهة بعد إذ وضعت غلامها ابناً لسيد أرباب الأولمب

ولكنها ، وهى هى المجبولة على الشر دائماً ، آلت إلا أن ترتد نور الحياة المتلألىء ظلاماً فى عينى الأم ، وذلك بالفتك بوليدها المحبوب ، فأمرت حيتين رقطاوين من أبالستها أن تسعيا إلى مهد الطفل ، وأن تندسا فيه ، حتى إذا سنحت لهما فرصة أودتا بحياته ، وعادتا بأمارة منه تشهد على إنفاذ ما أمرتا به

وسعت الحيتان حتى استقرتا فى المهاد الوثير ؛ وانتهزتا غفلة من الخدم فانقضتا على الفريسة الصغيرة ، وأوشكتا أن تظفرا بها . . .

ولكن هرقل الصغير الهادىء ، افتر عن ثغرشتيت مشرق ، وقبض بأصابعه الصغيرة الدودية على رأس كل من الحيتين ، وبضغطتين هائلتين حطم عظامهما جميعاً . وكان الخدم قد أقبلوا ، فلما شهدوا الأفعوانين صرخوا وأعولوا ، بيد أنهم بهتوا وطار الصواب من أدمغتهم حينما رأوا أن الوليد الصغير ، المنبطح على ظهره يضرب برجليه هاهنا وهاهنا ، قدقضى على الحيتين العظيمتين وألقاها ضحيتين غير مباركتين على مذبح قوته الخرافية ! !

وقدمت ألكمين فضمت إلى صدرها الحنون طفلها الهائل ! فرحةً مستبشرة ، وطبعت على جبينه الضاحك قبلة حملت أسمى معانى الأمومة

وذهلت حيرا عندما سمعت بما صنع الغلام بشيطانتيها ، وأيقنت ألا سبيل إلى القضاء عليه ، ولكنها لم تيأس ، وأقسمت أن تنثر الشوك فى مستقبله القريب ، وتبث العراقيل فى حياته الجائيـة

---

(١) Hercules أو Heracles ويسميه بعضهم Alcides وعربه العرب هرقل

(٢) العدد ٩٥ من الرسالة

وشب هرقل ...

ونشّأه مؤدبه ، شيرون ، زعيم السنتور[1] ، تنشئة حربية حافلة ، ولقّنه كل ما تحتاج إليه حياة الفرسان من تقشف واخشيشان ؛ فمهر هرقل فى زمن قصير فى استعمال الأسلحة بأنواعها ، ونبغ فى جميع صنوف الرياضة وألعاب الفروسية والقوى

وكان شيرون نفسه يعجب بهذا الجسم الحديدى ، يمسكه العضل البارز ، ويزينه السكيان المفتول ... وكان إذا أراد تدريبه على المصارعة وألعاب القوة ، آثر أن يشركه فى نزال مع الثيران والعجول ، والضخم ذى الأيد من بهيمة الأرض . وكان هرقل لا يخشى شيئاً من خصومه المجاوات ، بل كان يقبل على مصارعتها بثغر بسام وقلب طروب ، فلا يدعها حتى يلقيها على الأرض معفرة بالتراب ! وخشيته الحيوانات جميعاً ، فكانت تجفل من طريقه كلما رأته مقبلاً نحوها ، لطول ما جربت من بطشه وشديد بلائه !

وكان الفتى كلما ازداد قوة ، وذاب الحديد فى عضلاته ، ازدادت حيرا تغيظاً ، وهاجت فى فؤادها الأحقاد !

ولم تعد تطيق صبراً على هذا الخصم العنيد ، ومادت بها الأرض ، وأصبحت كأن يعاسيب العداوة تطن فى رأسها تغريها بهرقل ، ومن يلوذ بهرقل ؛ فانطلقت إلى زوجها ولم تزل به حتى أصدر إرادة أولبية تقضى أن يصبح هرقل خادماً لابن عمه ، النذل الخسيس : يوريذوس أمير أرجوس ، وأن يظل فى خدمته بضع سنين ...

وانتهى هرقل من تلمذته على شيرون ...

وانطلق يكابد الحياة كفنّ قاس ملىء بالرغائب ، مفعم بالمجازفات . فبينما كان يعبر طريقاً معروشاً بفروع السنديان ، بين غابتين عظيمتين ، إذا غانيتان جميلتان تعترضانه وتأخذان عليه سبيله ... فأشاح عنهما ، يحسبهما من المسكينات ملفوظات البغاء ، أو من أولئك اللائى يتخذن الفسوق حرفة قذرة إلى عيش وضيع . ولكن الفتاتين تشبثتا به ، وأبتا إلا أن يقف معهما هنيهة ، يتخير منهما واحدة تكون رائدته فى هذه الحياة ، تهديه وترشده

(١) السنتور جيل خرافى نصفه نصف رجل والنصف الأسفل نصف حصان

وتأخذ بيده فى سبلها المتشعبة

وكانت إحدى الفتاتين ، (كاكيا) ، شيطان الإثم ، وإبليس الفجور فى هذه الأرض . فتقدمت اليه متبرجة متهتكة ، تغمز بهذا الطرف ، وتبسم بذاك الثغر ، وتهز ما سكن من الجيد ، وتمط ما اشرأب من العنق ، وتحسر عن الساقين ، وتكشف عن الذراعين ، ثم هى تقرقع بضحكات مخنثة تثير الأشهاء فى نفس الشاب ، وتستولى بها على مشاعره : « أنا ، حبيبتك كاكيا ، أجمل غادات هيلاس ومفتحة الورود فى خدود العذارى ، أضع قلبى وجسمى بين قدميك يا هرقلى العزيز ، مطيةً إلى الفردوس التى تجد فيها ما شئت من نعيم وما تمنيت من لذة . . . فاتبعنى أجعل الدنيا كلها من حولك سعادة ، وأصيّر طريقك أنى ذهبت فى الحياة منضورة بالورد ، زاهرةً بالرياحين . . . هلم إلىّ نحى حياة كالحلم ، بعيدين من عناء العالم ، ناءين عن شقاء الدنيا ، لا نفتح عينينا إلا على متعة ، ولا نرهف سمعينا إلا لموسيقى ، ولا نغلق قلبينا إلا على نعيم . . .

مالك ولشد اربداد وجه الحياة ياحبيبى هرقل ؟ إن الدنيا فرصة سانحة فانتهزها ، وإن العمر قصير فلا تلق به بخوراً فى نار البأساء ، وإن الأيام لتخب بنا دون أن نشعر بها ، فلم نحاول أن نلبسها بالجد فيها هذا اللبوس الأسود الحزين القاتم ؟ ولِمَ لا نرسلها فى وشى وأفواف ؟ لِمَ لا نستمع دائماً لما توحيه إلينا قلوبنا ونفوسنا مادامت الدنيا مخلوقةً لها ؟

لِمَ تطرق هكذا ياحبيبى ؟ أمتعبٌ أنت ؟ هاتِ رأسك إذن ، ودعه ملقى على صدرى الجميل الخصب . . . »

ولكن الفتى نفر نفرةً بادية ، وأرسل نظرةً فاحصةً إلى (أريتيه) ، الفتاة الأخرى ، التى كانت تقف عن كثب ، مصغية إلى حديث كاكيا ، مشفقة على الشاب المسكين

أما أريتيه هذه فربة الفضيلة ، ونفحة السماء ، وهادية البشر ومنقذتهم من شرور كاكيا . . .

وسألها هرقل : « وأنت أيتها الفتاة ، بِمَ تشيرين ؟ »

وقالت أريتيه ، وهى تكفكف عبرة غالية : « أنا ؟ لا أشير عليك بشىء أيها الصديق إلا بالحذر من هذه الغادة ! إنها توشك أن تضلك وترديك ! »

فغيظت كاكيا وأخذها الحنق ، وأجابت في غلظة وفخاشنة : « أضله وأرديه ؟ ها ها . . . وأنتِ أتسلكين به سبيل الفضيلة الذى زُرعت أرضـه قتاداً ، وبرزت فيها أنياب الذئاب ؟ اسمع ياهرقل ، اصغ إلى يا حبيبى ، دعك من هذه الفتاة المحتشمة . . إليك عنها . . . إنها تغطش حياتك لو تبعتها . . . »

وتبتسم أريتيه ابتسامة هادئة وتقول : « إن الآلهة ياهرقل قد زودتك بهذه القوة الكامنة فى بنيانك لغرض أسمى من جميع الأغراض الحيوانية ؛ وقد كان أجدى للخير العام أن تخلق ثوراً ذا خوار من أن تودع كل هذا الحديد فى عضلاتك ، لو لم تكن قد أعدتك لفعال جسام لن يؤديها غيرك . أجل ! إن طريق لا ينمو بها إلا الشوك ، وإنها تدمى الأقدام وتجهد السائرين ، ولن ترى فيها زهرة ولا ريحانة ، بل لن تسمع فيها عصفوراً يغنى ولا بلبلا يغرد ، وبالعكس ، قد تقتتل فيها مع السباع والضوارى والثعابين ، ولكنك فى آخر كل نصر ، وعقبى كل ظفر ، ترى جنة من الرضى تحفك بالزهر ، وترقص بين يديك بالغوانى والقيان . أما هذه . . . أما ما تغريك به هذه الأنثى الهلوك ، ففيه حتفك ، فحذار . وليس أحب إليك ، كرجل ، كان له الشرف أن يكون ابن إلـه ، من أن تثبت للآلهة أنك جدير بما انتدبتك له »

وسكتت أريتيه ، ولكن كاكيا لبثت تدل وتتيه وتتبرج ، تحاول الفوز بهذا القنص العزيز . . . غير أن نخوة الرجولة ثارت فى قلب هرقل ، فانتهر الغانية الغاوية وأغلظ لها ، ثم تقدم إلى أريتيه فتناول يدها الصغيرة الحلوة ، وطبع عليها قبلة تفيض وقاراً واحتراماً ، ثم قال لها بصوت متهدج خافت : « هلمى بنا يافتاة فلن أخشى فى سبيلك بأساً ولا رهقا »

وانطلقا . . . وغابا فى ظلام الغابة . . .

ولم يبرح هرقل مُعيناً للضعفاء ، مغيثاً للملهوفين ؛ إذا رأى مظلوماً انتصف له من ظالمه ، وإذا لقى جائعاً نزل له عن زاده ؛ ولم يبرح ينصر الفضيلة أنى سار ، ولم تبرح الفضيلة تمشى فى أثره أيان ولى ، حتى ضاقت الدنيا بخيرا ، ولم تعد تحتمل هذا الغار من المجد يكلل هامة خصمها العظيم ، ولا سيما بعـد أن اتصل بالملك كريون ، ملك طيبة ، وزواجه من ابنته الجميلة ميجارا

لقـد أحب هرقل زوجته حباً جماً . وأحبته هى كذلك وأخلصت له ، وكانا يذهبان إلى الغابة القريبة يتناجيان بنجوى الحب ، ويرشفان كؤوس الهوى ، ويعودان مع الأصيل فيسامران الملك الشيخ ، ويدبران معه أمور المملكة

ثم مكرت حيرا مكرها ! . . .

لقد صممت على أن تسلب هرقل رشـده ، وتتركه يهيم فى الأرض ينطح برأسه الصخر كما يفعل الضلال المجانين . فبينما كان غارقاً فى أحلام السعادة إلى جانب زوجته ، آمنين مطمئنين ، إذا حيرا الآثمة تندس فى ظلام المخدع ، وتنفث سحرها الفظيع فى أذنى هرقل ، وتمضى لشأنها ، فتختبىء فى الحديقة خلف دوحة كبيرة من دوح الشاهبلوط . . . وتنتظر ثمة ريثما يصحو الزوج المسكين ، فتشهد المأساة التى تتفزَّع من هولها الأرض وتميد الجبال ! . . .

وأشرقت الشمس !

واستيقظ هرقل ؛ ونهضت ميجارا ، ولكن ناراً كانت تقـدح الشرر فى عينى البطل ! وزبداً حاراً كان ينقذف من فمه المخوف ! وأصواتاً كأصوات الشياطين كانت تدوى فى رأسـه الضخم . . .

والدم ! . . .

لقـد كان ينبثق من كل جارحة فى جسمه الأرجوانى ، فيصبغ اللحف والأرائك ، ويسيل على أديم الغرفة المغطى بالدمقس !

وذُعرت ميجارا ، وصرخت صرخات راجفة تدعو أباها . .

ولكن هرقل المسحور ينتفض انتفاضة تزلزل أركان القصر ، وينقض على زوجته التعسة كأنه ضبع : « تعالى يا خائنة ! أين كنت طيلة الليلة الفائتة ؟ آه ! أجل ! كنت تتمرغين بين ذراعى عشيقك الجبان ! الويل لكما ! شرف هرقل تلغ فيه الكلاب ! »

وبضغطة قوية من يديه الصارمتين ، على عنق الفتاة المنكودة يتركها جثـة هامدة ، قرباناً للموت فى عنفوان الصبى ، وضحية للردى فى ريعان الشباب . . .

وانطلق يصرخ فى ردهات القصر ، وهرول يزمجر فى حنيات الحديقة ، ثم أطلق ساقيه للريح . . .

وفى قنة جبـل تزمزم الأعاصير فى جنباته ، جلس هرقل المسكين ليثوب إليه رشده ، وليذكر أنه قتل زوجته المحبوبة فى

نوبة جنونية ، فينشج ويبكي ! . .

وتكون غمامة فوق رأسه تظله من وهج الشمس ، فتنشق عن إلـه كريم ، هو هِرمز رسول السماء ، حمل إلى هرقل تلك الارادة الأولمبية القاسية ، التي أصـدرها زيوس ، متأثراً بالحاح زوجته الآثمة حيرا ، والتي تقضي أن يظل هرقل في خدمة ابن عمه يوريذوس اثني عشر شهراً يصدع خلالها بما يؤمر !

— « لقد كان عليك أن تظل في خدمته بضع سنين . . . ولـكننا ألحفنا على رب الأرباب فقصر المـدة ، واختزلها إلى ما ترى ! »

— « يختزلها أولا يختزلها ، لقـد أصبحت الحياة سجناً بدون ميجارا ! »

— « عليك بالصبر ياصديق ، فقد تفيدك طاعة الآلهة ... »

— « الآلهة التي لا تحسن عملاً غير هذا العبث ! . . . »

— « صهٍ صه . . . هلم إلى يوريذوس ، وستكون حراً بعد سنة واحدة . . . »

***

وجن جنون هرقل لهـذا القضاء الأولمبي الأعمى ، وفر من هرمز في مسارب المياه ، ولجأ إلى الوحوش يلتمس لديها الصبر الجميل والقلب الرحيم ؛ ولـكنه عبثاً حاول الفرار مما كتبته السماء عليه ، وهنا ، بدت له صديقته ربة الفضيلة أريتيه ، فنصحته ، ولم تزل به حتى أقنعته بخدمة يوريذوس ، فذهب إليـه كسير القلب مهيض الجناح ، كأن جبلاً من الهم والسخط مستقر على رأسه

وقال له يوريذوس : « وأخيراً وصلت إلى آخر الدرب يا هرقل ! . . . إن أمامك أموراً فأعد لها عدتك ، فما أحسب دموعك على ميجارا بمجدية عليك شيئاً ... ... »

وحدجه هرقل بنظرة يشتعل فيها الغضب وقال له : « أجل ؛ لقد وصلت آخر الدرب ... ولـكن ليس لك شأن بدموع أذرفها من أجل ميجارا ... ألا فاذكر حاجتك التي أرسلتني الآلهة لأقضيها لك ، وأقصر ! »

وضحك يوريذوس حتى كاد الرعد يخرج من بين شدقيه ، وقال : « حاجتي ! إن لي لحاجاتٍ ما أحسبك تستطيع قضاء واحدة منها . وكيف تصبر مثلاً على سَبُعِ نيميا الذي يقطع الطريق إلى غاباتها ذات الـكنوز والأذخار ؟ »

وقال هرقل : « سبُع نيميا أو ألف سبعٍ كسبع نيميا ، عليك أن تكلفني ولو بهدم السماء أفعلُ ماتكلفني به ... والآن ، أإذا جئتك برأس هذا السبع أكون طليقاً ؟ »

— « تـكون طليقاً ؟ إن أمامك اثنتيْ عشرة مسألة ، رأس سبع نيميا أولها وأيسرها ياهرقل ، فهلم إذن ، وسنرى ... »

(لها بقية) دريني خشبة

من الأدب الايطالى

الليالى العشر

IL DECAMERON

ترجمة الأديب احمد الطاهر

٣

قصة صداقة

جيزيبوس و تيتوس

قالت فيلو مينا : « لقد سمعتم من بامفيلو قصة رائعة تظهركم على قوة الحب وأثره فى النفوس ؛ وأنا ذاكرة لكم قصة أخرى تكشف عن قوة الصداقة وفعلها فى الناس : وقعت حوادثها فى عهد اوكتافيوس قيصر إذ كان حاكما لروما

فصل من روما إلى اثينا شاب يدعى تيتوس ليدرس الفلسفة ، وهناك عرف شاباً اثينياً شريفاً اسمه جيزيبوس ، واتصلت بين الفتيين أسباب الصداقة والمحبة . ومضت سنون ثلاث تعمل على توثيق هذه الأسباب ، والفتيان لا يفترقان فى مسكن أو مأكل أو درس

وقدر لجيزيبوس الاثينى أن أغرم بفتاة جميلة من بنات جنسه تدعى « سوفرونيا » ، وحببت اليه الفتاة ، وحبب الفتى اليها ، واتفق المحبان على الزواج

ورأى جيزيبوس قبل الزواج ببضعة أيام أن يصحب صديقه الرومانى تيتوس الى بيت الفتاة لزيارتها ، وهو يعهد فيه نبلاً فى الطبع ، وشرفاً فى النفس لا سبيل إلى الشك فيهما ؛ وما إن رأى تيتوس الفتاة حتى أقصده حبها بسهم مصيب ، واشتدت به تباريح الهوى ، فما يغمض له جفن ، ولا يهنأ له طعام . وما زال الحب يلح عليه حتى أضناه ، ويسرف فى النيل منه حتى أضواه ، وأصبح الفتى سقيما عليلاً لا يرجى شفاؤه ، ولا يرحم داؤه ، وساءت به الحال ، حتى أشفى على الزوال

وعز على صاحبه ما أصابه ، وذهبت به الظنون كل مذهب فى سبب علته ، وأخذ يسائله عن مصدر أحزانه ، ومبعث أشجانه ، والفتى لا يستطيع جواباً بغير الدمع يهمر من مآقيه ، والصمت لا يبرح على فيه ؛ ولما أسرف عليه صاحبه فى السؤال وألح ، قال : «يا صديق ، لقد أحسست بخستى ودناءتى ؛ فما أحسبنى بعد اليوم خليقاً بصداقتك ، وما أطمع منك إلا فى عفوك وصفحك ، أما عند الله فسيصيبنى بما أجرمت صغار وعذاب شديد ، وما يوم القصاص ببعيد . ولا أكتمك أن مبعث علتى ، ومصدر شقائى هو حبى لفتاتك سوفرونيا . أعترف لك بهذا الاثم الشنيع الذى قارفت رحضاً لسبة الخيانة ، ومعرة الانكار ، واستعدادا لقضاء العادل الجبار »

وجم صاحبه لحظة ، واستولت عليه حيرة ، وتزاحمت عليه خواطر شتى : هذا وفاؤه لتيتوس يكبره ويقدسه ، ويذود عنه بعقله وحكمته ، وهذا حبه لسفرونيا يملك عواطفه ويتحكم فى شعوره ويملأ قلبه . فماذا يصنع ؟ وإلى أى العاملين يخضع ؟ ثم ليست هى الصداقة وحدها تتراءى له فيقع فى حيرة وتردد ، بل هو الصديق نفسه قد أشفى على الهلاك والتلف ، وتصرمت بينه وبين الحياة أسبابها . أطال جيزيبوس الصمت ، وأغرق فى التفكير ، ثم استقر ، ورضى ، وطابت نفسه أن ينزل عن سعادته فى الحب لينجو صديقه من الموت ، وتنجو صداقتهما من أن يعتورها كلل أو فتور

ومضت بضعة أيام ، وأقبلت سوفرونيا إلى منزل العريس ، وقد أعد العدة لليلة الزفاف . وما وافت ساعته حتى انسل إلى مقصورتها ، وأطفأ شموعها وقفل راجعاً إلى صديقه تيتوس فى حيرة لا قبل له بها ، وتزاحم عليه الخجل ، والحب ، والرغبة ، والأباء ، والوفاء : تتنازع هذه النفس المعذبة المحطمة وتتركها شعثاً لا يرجى له اجتماع ، وتضطرب فى هذا القلب التداعى حتى ليكاد ينفجر الصدر ، وتنقض الأضلاع . ولم يسعه إلا أن يرفض ما عرض عليه جيزيبوس ، وألح هذا الصديق الوفى فى قبول ما عرض ، حتى نزل تيتوس على ارادة صديقه وقبل رجاءه ، واسترق الخطى إلى مقصورة العروس ، فلما دنا منها تحت غلس الليل قال لها : « أتطيبين نفساً بزواجى ؟ » فحسبته الفتاة زوجها الموعود جيزيبوس ، وأجابت « بنعم » . فتناول خاتماً ثميناً

ووضعه فى أصبعها وقال لها شاكراً : « وسأكون زوجك »

ولما تنفس الصبح وافتضح التدبير أدركت سوفرونيا أن فى الأمر خدعة ودلساً . فتسللت من بيت عرسها وانصرفت إلى أمها وأبيها ، تشكو اليهما خدعة وقعت فيها ، وذاع الخبر فى أثينا ، وكان حديثاً تلوكه ألسنة الناس ساخطة على فعلة جيزيبوس وخديعته لفتاة انحدرت من أطهر الأصلاب وأعرق الأنساب ، ولكن لا مفر مما وقع ، ولا تبديل لحكم القضاء . ولم يجد والدا الفتاة حيلة فى هذه الكارثة المخزية إلا أن يسترا الفضيحة ويكتما العار . فطلبا إلى تيتوس أن يرحل بالفتاة إلى روما حيث لا يعلم الناس من أمرها شيئاً

وما كاد الفتى يفصل عن اثينا بزوجته حتى تحركت فى نفوس الملأ سورة الغضب والانتقام من جيزيبوس جزاءً بما فعل بهذه الأسرة الكريمة ، واشتدوا على الرجل ونكلوا به تنكيلاً ، وجردوه من كل ما يملك ، وشردوه من اثينا تشريداً أبدياً ، فخرج منها مذموماً مدحوراً

وركب نعليه إلى روما ، ومشى إليها مكباً على وجهه ، كاسف البال ، عليه من الثياب أسمال ، لا رفيق له إلا أحزانه وأشجانه ، تبطئ خطاه حيناً ، وتسرع أحياناً . ولقى فى سفره هذا عناءً ونصباً . وأشرف على المدينة فتلمس دار صديقه الذى لقى ما لقى فى سبيل الوفاء له والابقاء على صداقته فهداه السابلة إلى طريق اتخذ سمته فيه إلى قصر شامخ عليه مظاهر النعيم واليسار ، تجرى عليه من السعادة أنهار ، وإذا هو قصر صاحبه تيتوس . وتنسم أخباره فاذا هو فى نعمة سابغة ، وسطوة بالغة ، وإذا هو فى المدينة من ذوى السلطان والحول ، والقوة والطول ، لا يدفع له أمر ، ولا يرد له قول أن كان فى المقربين من أمير البلاد اكتافيوس قيصر من الخاصة الخلصاء . واختلس الفتى من أعين الحراس موقفاً إلى جوار الباب خفياً ، وأسند ظهره إلى الحائط وأطرق يفكر ملياً

وارحمتاه لهذا البائس المنكود ! يسبح فى بحار من الأحزان والآلام لو سلطت على هذا القصر لدكته على من فيه دكاً . ترى ما الذى يختلج فى هذا الصدر من لواعج الأسى؟ وما الذى يضطرب فى هذه النفس من شتى المشاعر ؟ . هـذا صديقه الذى نزل عن سعادته فى الدنيا لينعم بها دونه واتى فى سبيل الوفاء له شر ما يلقى الناس من عنت الدهر ، وتجرد له من حطام الدنيا وما ملكت يداه ، وأفزع من وطنه شريداً طريداً لينعم بخفض العيش ويستقر فى مهاد النعمة . . أإذا خرج ورآه ، يعطف عليه ويرق لمرآه ؟ أيذكر له سابق فضله ويسبغ عليه من فيئه ؟ وكيف السبيل إليه ، ودونه من الحراس والحجاب والأبواب ما يصد الناس عن الوصول إليه ولو كانوا من ذوى المكانة . فكيف به وهو على ما نعلم من الذلة والمهانة ؟

وبدت فى القصر حركة تدل على أن صاحب القصر قد آذن بالخروج ، فتحرك الفتى من موضعه ، واحتبست أنفاسه ، وخرجت من صدره نفثات ، ومن عينه عبرات ، ومر صاحب القصر به ولم يعن بشأنه ولم يلتفت إليه كأن لم يكن شيئاً موجوداً

وانصرف الفتى يتعثر فى أذيال الخيبة ويهيم فى الطرقات ، لا يقصد غاية ، ولا ينتهى إلى نهاية . كأنما وُكل بسبل المدينة يذرعها ذرعاً . وأدركه الليل . وبسط عليه جناحين من سواد ، فأوى إلى كهف يتخذه اللصوص مثابة فألقى عنده عصا الترحال وأسند رأسه إلى الأرض يلتمس فيها راحة البدن ؛ وقد أيأسته راحة النفس ، وحاول أن يغمض عينيه ، ولم يجد النوم سبيلاً إليهما بين هذه العبرات الحارة المنهمرة انهماراً . ودخل إلى الكهف لصان يحملان أسلاباً ، ونزغ الشيطان بينهما فاختلفا فى قسمة الغنيمة فهمّ أحدهما وضرب الآخر فأرداه قتيلاً

تنفس الصبح وطاف بالكهف بعض العسس فألفوا القتيل مضرجاً بدمائه وفتى القصة راقداً إلى جواره . فاقتادوه إلى دار الشرطة والقضاء ليتبينوا منه الأمر

وهنا دفع اليأس فتانا لأن يلتمس مخرجاً من هذه الكوارث فألقى بنفسه إلى التهلكة وترامى فى أحضان الموت وقال : « أنا القاتل ! » وفى نفسه بارقة من الأمل ، ولكنه أمل فى الموت وفى أن يخرج من عناء الدنيا إلى راحة الأخرى

قال القاضى « ولقد حكمنا عليك بالاعدام صلباً » وكذلك كان يجزى القاتلون

وساقت الأقدار تيتوس ذا الحول والطول إلى ساحة القضاء ليزجى دفاعاً عن أحد الأبرياء ، فحانت منه نظرة إلى فتانا جيزيبوس

فأنكره ، ثم تأمله فتبينه وعرفه ، فساءته حاله وأشفق عليه وعقد العزم على أن يخرجه من بأسائه إلى نعيم ، وأن يبعث فى حواشى هذه النفس الحالكة شعاعاً من الأمل لا يخبو . ولم يكن من سبيل إلى هذه الغاية إلا أن يدحض اعتراف جيزيبوس باعتراف آخر ، فمثل أمام القاضى وقال : « مهلا أيها القاضى ! أنا القاتل ! وهذا الرجل برىء مما يدين به نفسه ! »

وقع القاضى فى حيرة يصعب الخلاص منها ، وأدرك تيتوس أن صديقه يسعى لاخراجه من فم الأسد الذى أقحم نفسه بين فكيه . وهو لا يريد الفرار من بؤس الحياة إلى الحياة ، وإنما وجد فى الموت منجاة من عذاب الحياة . وفصل جيزيبوس من مجلسه إلى القاضى ودفع صاحبه وقال : « لا ! بل أنا القاتل يا سيدى ولا توقع قصاصك إلا علىّ ! »

قال القاضى فى نفسه : « أكان الصلب شرفاً يتزاحم عليه هذان المأفونان ؟ » وفيما هما يتدافعان إلى الردى برز من بين النظارة لص هصور وقال : « لقد رأيت هذين الرجلين يدفع أحدهما الآخر عما وسعه من الجهد عن حياض الردى ، فما وجدت خيراً من أن أعترف لك يا سيدى القاضى بكل شىء فأريحك وأنقذ الرجلين وأريح نفسى . ما شأن تيتوس — وهو على ما علمتم من الشرف — وما سدة اللصوص يأوى اليها أو يتخذ اليها السبيل ؟ وهذا الرجل ذو الثوب الخلق كان حقاً فى احدى زوايا الكهف نائماً ، ودخلنا الكهف أنا وزميل لى ونزغ الشيطان بيننا فاختلفنا فى قسمة الأسلاب — واللصوص كما تعلمون تدب بينهم الشحناء لخير العدالة والقضاء ، ففضت النزاع بأن سللت مديتى وأزهقت روح زميلى كما أسل اليوم لسانى لأنقذ روحى هذين السيدين »

هذا خصم ثالث يطالب بنصيبه فى الموت كاملا ، فما أشد حيرة القاضى ووجوم النظارة !

ورجع القاضى الى ملاذ القضاة ، وهو اوكتافيوس قيصر ، أمير البلاد ، ودفع اليه بثلاثة الرجال ، فألقى السمع الى حديثهم وعرف ما كان من أمر تيتوس وجيزيبوس منذ جمعت بينهما الصداقة ، وفرق بينهما الحب ، وجمعتهما الأقدار ، إلى أن مثلا فى مجلسه فقضى بحكمه العادل ببراءة الصديقين ، والعفو عن اللص المعترف اكراماً لهذه الصداقة وإكباراً لنفسه الأبية

وخلا الصديقان أحدهما إلى الآخر فى قصر تيتوس ، ولما اطمأن بهما المجلس نزل تيتوس عن نصف ثروته إلى صديقه وزوجه من أخته وكانت فتاة بارعة الحسن نبيلة

وأقاموا جميعاً فى القصر ، وزادهم الله بسطة فى الرزق ، وسعة فى العيش ...

« عن الانجليزية » يوزباشى أحمد الطاهر

البريد الأدبي

مكتبة لوى بارتو

منذ أيام قلائل بيعت فى باريس مكتبة لوى بارتو المؤرخ والسياسى الفرنسى الكبير الذى قتل فى أكتوبر الماضى إلى جانب الملك اسكندر الصربى؛ وكان بارتو من أعظم هواة الكتب والتحف الأدبية ، وقد قضى حياته وأنفق ثروته كلها فى اقتناء نفائس التحف والكتب الأدبية ، وجمع منها مكتبة عظيمة كانت من أشهر مكاتب فرنسا الخاصة . وقد أوصى بارتو بمكتبته النفيسة قبل وفاته إلى الأكاديمية الفرنسية التى كان عضواً فيها؛ وقررت الأكاديمية أن تعرضها للبيع بالمزاد؛ ووقع هذا البيع أخيراً؛ وكانت أيام البيع من أيام باريس المشهودة لما لهذه المكتبة العظيمة من شهرة ذائعة . وكتبت جميع الصحف الفرنسية عن مكتبة بارتو وعن تبدد هذا التراث البديع الذى أنفق فيه المفكر الكبير حياة بأسرها . ومما احتوته هذه المكتبة الفريدة مجموعات نفيسة من الطبعات الأولى لأشهر الكتب الفرنسية منذ القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر ، ومنها مؤلفات لمونتانى ورونسار وبوالو وبوسويه وفنيلون وموليير وغيرهم؛ ثم مجموعات نفيسة لبلزاك وبودلير ، وجوتييه وموسيه وسانت بيف وهوجو وغيرهم . ومن التحف رسائل بخط نابليون بونابارت وتوقيعه ، وكتب عديدة عليها شعار الامبراطور ، ونسخة خطية من معاهدة الصلح (فرساى) موقعاً عليها من لويد جورج وفوش وكليمنصو . وقد حققت مكتبة بارتو من البيع مئات الألوف من الفرنكات؛ ومما يذكر أن نسخة من ديوان بودلير المشهور « فلير دى مال » بيعت بمبلغ سبعة وخمسين ألف فرنك ، بينما بيعت مخطوطات معاهدة فرساى بواحد وأربعين ألف فرنك ، وهكذا بددت مكتبة لوى بارتو بين أيدى الهواة؛ وهذا مصير معظم المجموعات والذخائر الخاصة

السياحة على طريقة العصور الوسطى

تطورت وسائل الدرس والسياحة فى عصرنا ، واستطاع العلم أن يسخر البحر والهواء ، وغدا الطواف حول العالم أيسر الأمور . ولكن مازال يوجد من الرحل والباحثين فى عصرنا من يفضل الطواف على طريقة السائح الهروى وابن بطوطة وماركوبولو وغيرهم من أكابر الرحلة فى العصور الوسطى . فمنذ عامين فكر ضابطان بحريان فرنسيان هما الكبتن بيشوف وجوزيف ثاثبويه فى جوب بحار العالم فى قارب شراعى؛ ونفذا مشروعهما الجرىء ، وقطعا إلى اليوم زهاء ستة آلاف ميل ، وغرقا أكثر من مرة ، وسلبهما اللصوص أكثر من مرة ، واعتقلا كجاسوسين وعاشا شهوراً طويلة على الحشائش والأسماك ، مما يذكرنا برحلات السندباد العجيبة

خرج هذان السائحان من ثغر تونجهاى فى الهند الصينية فى مركب شراعى ، وسارا شرقاً فى عرض المحيط الهادئ إلى جزائر كارولين ، وهناك كسر قاربهما ، فعادا إلى الصين ، وجهزا سفينة شراعية أخرى؛ وسارا فيها إلى جزيرة فرموزا اليابانية ، وهنالك سطا عليهما اللصوص فجرداهما من كل شىء حتى أوراقهما الشخصية ، ثم قبضت عليهما سلطات الجزيرة بتهمة التجسس ، وأبعدا من فورموزا . ولكنهما لم يعدلا عن مشروعهما؛ فجهزا مركباً ثالثاً ، وخرجا من ثغر أموى ، واخترقا بحر تيمور قاصدين إلى جنوب استراليا؛ وفى أثناء الطريق هاجمتهما كلاب البحر ، ومزقت العواصف شراع المركب ، فلبثا عشرة أيام تحت رحمة الموج لا يعرفان لهما مستقراً ، حتى لمحا فى عرض البحر سفينة نرويجية ، فأغاثتهما ، وأمدتهما بالمؤن ، وأصلحا الشراع؛ واستمرا فى رحلتهما حتى وصلا إلى ثغر بروم فى استراليا الغربية ، ثم عبرا بوغاز توريس حتى بور مورسبى ، ووصلا إلى شواطئ جزائر بابوازى بعد رحلة مروعة ، وهنالك انكسر قاربهما مرة أخرى؛ فعاشا فى تلك الأرض زهاء سبعة أشهر يأكلان قواقع البحر ويشربان ألبان جوز الهند ، ويدرسان أحوال هذه الجزر وأحوال أهلها المتوحشين ، ولما استطاعا أخيراً أن يصلحا قاربهما ، ارتدا إلى البحر كرة أخرى؛ وجاسا خلال جزائر « أوشنيا » القاصية

التي اكتشفها الكبتن كوك ثم لقى حتفه فيها ، وفى عزمهما بعد طواف المحيط الهادى أن يرتدا إلى الجنوب ، ثم يعبرا المحيط غرباً إلى الاطلانطيق ، حيث يزمعان اختراقه إلى فرنسا . ولكن هل يستطيعان تنفيذ هذا المشروع الجرىء ؟

ذكرى الشاعر تاسونى

احتفل أخيراً فى مودينا بايطاليا بذكرى الشاعر الايطالى الكبير الساندرو تاسونى ، لمناسبة مرور ثلثمائة عام على وفاته ؛ وكان تاسونى من أكابر شعراء القرن السادس عشر ، ومن ذلك الجيل الذى تأثرت عبقريته بتراث عصر الأحياء ؛ وكان مولده بمدينة مودينا سنة ١٥٦٥ ، يوم ان كانت ماتزال امارة زاهرة ؛ وتلقى تاسونى تربية حسنة ، وظهر فى الشعر والحياة العامة شاباً ؛ واشتغل منذ سنة ١٥٩٩ سكرتيراً للكردينال اسكانيو كولونا من أقطاب الفاتيكان ، وقام وهو فى هذا المنصب ، بعدة مهام سياسية خطيرة ؛ واستمر فى منصبه حتى سنة ١٦٠٨ . ثم غادر رومة والتحق بخدمة دوق سافوا ، واشتغل هنالك أيضاً بالمهام السياسية ؛ ولكنه مع ذلك كان يطلق العنان لميوله الأدبية والشعرية ؛ ولم ينفك أثناء ذلك عن الكتابة والنظم ؛ ومن أشهر آثاره La Secchia Rapito أو « اغتصاب الدلو » وهى قصة شعرية من نوع الخيال المعروف ؛ ومجموعة مختلفة بعنوان Psnsieri Diversi « أفكار منوعة » وكتاب عن بترارك وشعره عنوانه « تأملات عن بترارك » Considerationi sopra it Petrarcha وله قطع ومجموعات أخرى شعرية ونثرية

تكريم مستشرق روسى

احتفل المستشرقون الروسيون فى ١٤ يونيو بتكريم المستشرق الروسى الأستاذ أغناطيوس كرنشكوفسكى لمرور ثلاثين عاماً قضاها فى خدمة اللغة العربية ، ألف فى أثنائها ما ينيف على ثلثمائة رسالة فى تاريخها وآدابها القديمة والحديثة ، وهو يشتغل الآن بنشر كتاب ابن المعتز مع شرحه والتعليق عليه باللغة الانكليزية ، وقد اشترك فى هذا التكريم المجمع العلمى العربى بدمشق بخطاب أرسله رئيسه ليتلى فيه

عيد ألفى لابن سينا

فى بريد سورية أن الجامعة السورية تفكر فى إقامة عيد ألفى لذكرى الطبيب العربى الكبير الرئيس ابن سينا

وقد فوضت إلى لجنة من أساتذة المعهد دراسة هذه الفكرة واعداد الوسائل اللازمة لجعل هذه الذكرى متناسبة مع جلال الخدمة العظيمة التى أداها الرئيس للطب

اللغة العربية فى جامعة لندن

روت جريدة البالستين بوست بالقدس أنه لمناسبة اليوبيل الفضى لجلالة ملك الانكليز فكر السر دنسن روس أن يؤسس لهذه الذكرى مقعداً جديداً مجانياً لتعليم اللغة العربية فى جامعة لندن

وقد اختار السر دنسن روس اللغة العربية لهذه الذكرى لأن الامبراطورية البريطانية تضم تحت « جناحيها » أكبر عدد من الشعوب العربية ، والمتكلمين باللغة العربية ولا تفوقها فى ذلك دولة أوربية أخرى

الكتب

أنظار فى كتاب «حياة محمد»

بقلم الأستاذ محمد على النجار

قرأت هذا الكتاب الجليل الغنى عن التقريظ ، فعن لى حين قراءته أنظار راجعة إلى ألفاظه وأخرى إلى معانيه ، فأحببت أن أدونها بادئاً بالأولى فى هذه العجالة ، وإنى أعلم أن معظمها آت من القائمين بالطبع ؛ غير أن حرصى على سلامة ما فى الكتاب مع ما قدر له من هذه السيرورة والانتشار فى الأقطار بعثنى على ما فعلت ، وسأنبه بالرقم الأول على الصفحة وبالثانى على السطر منها ، والله الموفق للصواب

٣٣ : ٢١ كان الذين يعبرونها . . . قليلون . صوابه : قليلين

٣٥ : ١٣ صمدت لقسوة الزمان . يريد ثبتت ولم تنل منها عوادى الدهر وصروف الحدثان ، وقد تكرر استعمال الصَّمْد فى الكتاب بهذا المعنى وأرى أن هذا لا يكون إلا على ضرب من المجاز ، فان الصمد القصد ، ولم تذكر المعاجم من معانيه ما أراد المؤلف ، والتجوز فيه أن يعتبر الثابت على حوادث الدهر متعرضاً لها ، قاصداً مغالبتها ، استهانة وعدم مبالاة بها ، وأقرب نص لهذا المعنى قول مُعاذ بن عمرو بن الجموح فى قتل أبى جهل : فصمدت له حتى أمكنتنى منه غِرَّة ، فقد قال ابن الأثير فى النهاية : أى ثبت له (وفى التاج واللسان : وثبت له) وقصدته وانتظرت غفلته

٣٥ : ٣ فحوّروا اتجاهها الطبيعى . استعمل التحوير فى التغيير ، وهو استعمال شائع ولكن لا يوجد هذا المعنى فيما وقفت عليه من المعاجم ، فالتحوير فيها الترجيع والتبييض وتحوير الخبزة تهيئتها لوضعها فى الجمر وكأن الأصل فى ذلك التبييض ففيه تحويل وتبديل فتوسع فيه وأطلق على مطلق التغيير

٥٦ : ١٧ قصى بن كلاب هو الجد الخامس للنبى (صلى الله عليه وسلم) : معروف أن قصياً هو الجد الرابع

٥٦ : ٢٠ دراجا . صوابه رِزاحا : تراجع سيرة ابن هشام والقاموس — ٧٦ : ١١ بحيرا (الراهب) ضبط بلفظ المصغر ، والصواب : فتح بائه وكسر حائه كما نص عليه فى المواهب

٩٣ : ١٤ فما هذه الكواكب إلا أفلاكا : تكرر مثل هذا وهو إعمال ما مع انتقاض النفى بالا ، والواجب فى هذه الحالة رفع الجزأين — ١٠٣ : ٧ عبيدة بن الجراح . ظاهر أن هذا خطأ مطبعى صوابه : أبو عبيدة ، وقد ورد على الصحة فيما بعد

١٠٤ : ٥ إسافٌ منعه من الصرف ، ولا وجه فيما أعلم لذلك ، فالواجب كتابته إسافاً — ١٠٩ : ٦ فوقف باهتاً . يقول صاحب القاموس : هو مبهوت ، لا باهت ولا بهيت

١٠٩ : ١ ، ٢ لخير له أن يموت مؤمناً . . . على أن يخذله ؛ الصواب : من أن يخذله ، فان خيرا هنا أفعل تفضيل وهو إنما يقرن بمن ، وقد يكون وجه ما هنا أن يضمن خير معنى مفضَّل وهو بعيد — ١١٤ : ١٥ بنو عبدالمطلب . صوابه : بنو المطلب

١١٥ : ١٥ وإن كان هذا الذى يأتيك رأياً تراه . صوابه : رَئِيّاً كما فى السير ، وقد قال السهيلى الرئى فعيل بمعنى مفعول ، ولا يكون إلا من الجن — ١٢١ : ٢٠ نعيم بن عبدالله ؛ ضبط بفتح النون وصوابه ضم النون ، فانه نعيم النحام وقد ضبطه النووى فى التهذيب كما ذكرت — ١٣٦ : ٤ مبيمة . الظاهر ضبطها بفتح الياء على مَفْعَلة وقد ضبطها السهيلى بزنة معيشة

١٤٦ : شعاب الجبل . الذى فى السير أن الاحتماء كان فى شعب بنى هاشم ، والذى يظهر أنه كان محلة فى مكة وفى الزرقانى على المواهب أن الشعب كان لهاشم فقسمه عبد المطلب بين بنيه حين ضعف بصره — ١٤٧ : ١٢ أبى النجترى . صوابه : أبو البخترى ، وفى السطر ١٨ أبى البخترى

١٤٨ : ٣ يتصالح وقريشاً ، نصب قريشاً على أنه مفعول معه ومثل هذا لا يجيزه النحاة ، فالواجب يتصالح هو وقريش

١٥١ : ٢٠ تحديق ابنا ربيمة . صوابه : ابنى ربيمة

١٦٦ : ٨ عبد الله بن محمد . كأن هذا سبق قلم ، والأصل عبدالله بن أبى وهو ابن سلول — ١٦٦ : ١٢ إن نبياً مبعوثاً الأظهر

مبعوث بالرفع كما فى السير ، فان الاخبار ببعثته مقصود

١٦٧ : ٣ وإن غشى . ضبط بفتح الغين والشين المثقلة ، والصواب كسر الشين ليكون على زنة ترضى

١٦٩ : ٨ مسلموه وخاذلوه . صوابه مسلميه وخاذليه

« : ٢٢ إنا بيننا . صوابه : إن بنينا — ١٧٠ : ٩ نهكة الأموال . ضبط بالتحريك والذى فى القاموس بسكون الهاء وإن كان يجوز فتحها بوجه عام — ١٧٦ : ١ رده . صوابه بيرده

١٧٨ : ٧ فاذا عبد الله بن أبى بكر من عنـدهما إلى مكة . سقط هنا لفظ والأصل : فاذا عبد الله بن أبى بكر غدا من عندهما كما فى سيرة ابن هشام — ١٧٩ : ١٧ فقـد أقبل على قريش رجل . قضية هذا أن الاخبار كان لقريش وأن سراقة كان حاضراً بينهم والذى فى السير أن ذلك كان فى نادى بنى مدلج قوم سراقة

١٨٠ : ٢٠ فيه أن بريدة جاء يحييهما ، والذى فى الزرقانى نقلا عن البيهقى أن بريدة جاء طامعاً فيما طمع فيه سراقة فانتهى الأمر باسلامه — ١٨١ : ٨ فبلغ نبأهما سعد . الصواب : فى الرسم نبؤهما إذ هو فاعل بلغ فهو مرفوع — ١٩٦ : ١٩ نخباً . الذى فى المعاجم نخماً — ١٩٧ : ٢٢ وهذا هو أقوى من هؤلاء . قد يكون الصواب فى هذا الأسلوب : وهاهو ذا أقوى من هؤلاء

٢٠٤ : ٧ مكان حجيجهم . الحجيج جمع الحاج ولا معنى له هنا فالأولى مكان حجهم — ٢١٤ : ٤ عمر بن الحضرمى . صوابه عمرو — ٢١٥ : ٤ الحكم بن كيثان . صوابه كيسان

٢١٨ : ٤ تهرق الدماء . صوابه تهريق الدماء

٢٢١ : ٣ كشد الجهنى : الذى فى الاصابة كسد

٢٢٢ : ١٦ أبا لهب : صوابه أبو لهب — ٢٢٣ : ٥ مرثد ابن مرثد . صوابه مرثد بن أبى مرثد — ٢٢٣ : ١٠ عرق الظبية . ضبط بفتح الظاء وفى القاموس : عرق الظبية بالضم

٢٢٤ : ٢ المقداد بن عمر . صوابه عمرو

٢٢٨ : ١٣ عُمَراه . الصواب عَمْراه

٢٤١ : ٧ العاص . صوابه أبو العاص

٢٥٢ : ١٣ على . صوابه عليًّا — ٢٥٥ : ٩ أبو كعب . صوابه أبى بن كعب وقد كان من كتاب الرسول عليه الصلاة والسلام

٢٦٠ : ١٩ يخمش الناس . الرواية يحمس أو يحمش بالحاء المهملة فيهما وإن تبع المؤلف فى ذلك طبعة وستنفلد

٢٧٨ : ٨ أبا دجانة . صوابه أبو دجانة — ٢٨٣ : ٩ يسار قد يكون صوابه ميسرة وهو غلام خديجة عليها الرضوان

٢٨٨ : ١ ابنتا وزيريه . صوابه ابنتى وزيريه

٣٠٦ : ١٢ النضرى . ضبط بسكون الضاد والصواب فتحها إذ هو نسبة إلى النضير — ٣٣٥ : ١ أذن محمد فى الناس بالحج . الأولى التعبير فى هذا المقام بالعمرة فان الذى وقع الأحرام بالعمرة والعمرة قد تسمى الحج الأصغر ولكن الحج إذا أطلق انصرف إلى مايقابلها — ٣٧٥ : ٢ هرقلا . صوابه هرقل لمنعه من الصرف

٣٧٧ : ٩ ثابت بن أرقم . صوابه أقرم وقد تبع المؤلف نسخة وستنفلد — ٣٨٦ : ١٢ إذْ . صوابه إذا

٣٨٦ : ٢٢ حكيم بن حكيم . صوابه حكيم بن حزام

٣٦٠ : ٢٠ سلام بنى مشكم . صوابه سلام بن مشكم

٣٦٣ : ١١ بازان . يكتب فى الكتب العربية باذام

٣٨٧ : ١ عسكر . صوابه عسكرا — ٣٩٥ : ١٣ قبيساً . صوابه أبا قبيس — ٣٩٥ : ٢٢ جذيمة . ضبط بصيغة المصغر والصواب فتح الجيم وكسر الذال كما فى الزرقانى على المواهب

٤٠١ : ٣ بدأت محمد . صوابه بدأ محمد

٤٠٨ : ٢٢ فى العلالة . الرواية اللماعة . وهى فى الأصل نبات ناعم فى أول ما ينبت — ٤١٠ : أسيد والد عتاب ضبط مصغراً والصواب ضبطه كأمير — ٤١٤ : ١٥ أأتمره . كذا رسم وقد يكون الصواب آتمره على قاعدة الابدال

٤٢٤ . ٥ فيه أن زكاة العشر تدفع من الابل والأموال وإنما يدفع العشر عن بعض الزروع فأما الابل فلها مقادير محدودة فى الفقـه غير العشر — ٤٢٦ : ٢٣ ضبط فيها سلمة بفتح اللام والصواب كسرها وهم بطن من الأنصار

٤٣٦ : ٢٠ عمان . ضبط بتشديد الميم والذى فى الجنوب عمان على زنة غراب ، فأما عمَّان بتشديد الميم فهى بالبلقاء بأطراف الشام — ٤٦٧ : ٢١ زيد . صوابه أسامة بن زيد كما فى السطر قبله

وإنى أختم كتابتى باعجابى بالكتاب وتحيتى لمؤلفه العظيم ؟

محمد على النجار

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٠٣ — ٢٤ يونيو سنة ١٩٣٥ — السنة الثالثة

3 me Année, No. 103.

Lundi-24-6-1935

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
م
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ١٠٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٣ ربيع الأول سنة ١٣٥٤ — ٢٤ يونيو سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

بين والد وولده

مثل من الشباب الصالح

عرفت منذ أيام فتى غَريض الشباب رقيق الإهاب وضىء الطلعة ؛ يتكلم فيشع عقله فى معانيه ، ويشيع ذكاؤه فى مراميه ، ويسيل شعوره على ألفاظه ؛ وهو لا يتكلم إلا عن العمل ، ولا يناقش إلا فى الواقع ، ولا يرمى إلا إلى غرض ؛ طموح النفس فلا يحصر أفقَه يأس ، ولا يحد غايته مطلب ؛ بعيد الهمة فلا يُضله شارد الخيال ، ولا يغره خادع الأمل ؛ رفيع الهوى فلا يشوب غرضه سوء ، ولا يفسد طموحه أثرة . نبت فى أكرم المنابت من إقليم الغربية ، فأبوه عميد أسرته ، وزعيم بلدته ، وسَرِىّ نابهٌ من سَراة إقليمه ؛ رباه فى مهد النعيم ، ونشّأه فى ظلال الغنى ، وقلّبه فى أحضان الترف ، فكان خليقاً أن يمسه الغباء وهو داء الغنى ، وأن يصيبه الخمول وهو بلية الترف ، ولكنه لقوة الطبع واستعداد الفطرة شب ذكى الفؤاد إلى درجة الحكمة ، مشبوب العزم إلى حد المغامرة ؛ يذهب بنفسه غالباً إلى الاعتداد الواثق ، ويميل بحيائه أحياناً إلى الجرأة المؤدبة ، وينظر إلى غاية الحياة

— وهو لا يزال فى بدايتها — نظر الكيّس اللبيب المجرب ، فيهاجم السياسيين من ناحيَة استخفافهم بالخلق ، والموظفين من جهة استهانتهم بالواجب ، والفلاحين من حيث اعتمادهم فى الإنتاج على القديم الرث ، وفى العلاج على القدَر والمصادفة . على أنه أمام أبيه — وهو قرة عينه — مثال البر ورمز الطاعة ، فلا يفند له رأياً ، ولا يعصى له أمراً ، ولا يخالف له نصيحة

تخرج منذ أسبوع فى إحدى المدارس العالية ، وكان الثانى فى ترتيب الناجحين ، وإن شئت فقل الأول ، لأن الفرق بينه وبين سابقه لايقدم لضآلته ولا يؤخر . فالوظيفة بحكم أوليته فى النجاح ومعونة أسرته بالنفوذ ، تنتظره فى كل مكان وتطلبه فى كل وزارة ، ولكنه زارنى منذ يومين فوجدته على غير عادته مشغول القلب منقبض الصدر مشترك الخاطر ، لا أثر عليه لنشوة الفوز ، ولا للذة الراحة ، ولا لفرحة المنصب ، كأنما هو آخر الدبلوم أو فقير متقدم من غير وسيلة ! !

— مالك ساهمَ الوجه ، مكروب النفس يا فهمى ؟ هنيئاً لك الدبلوم والأولية ! فقال والأسى يبين فى صوته ولهجته : ليتنى لم أنل هذه الدبلوم ، ولم أحز خطر هذا السبق ؛ فلقد كان فى لذة المدارسة ، وشهوة المنافسة ، وترقب النجاح ، وانتظار الحرية ، رضًى لنفسى الطامحة ، وكفاية لقلبى الرغيب . أما الآن فالفراغ يثقل حتى يقتل نفسى ، والوقت يطول حتى يمك روحى ، والأمل يضيق حتى يُظلم حياتى ! أريد أن أعمل فيمنعنى أبى ، لأنه يضن بصحتى على مخاطر الفلاحة ، وبراحتى على متاعب الفلاحين ، وبسعادتى على هموم المسئولية

— إذن ماذا يريد لك أبوك ؟

— يريد لى الوظيفة ! والوظيفة سجن لنفسى الطليقة ، وتعطيل لملكاتى الموهوبة ، ومحو لمعارفى المكسوبة ، وقتل لآمالى الناشئة ، وتوجيه لميولى الطبيعية إلى الغرض الذى لا أحب والقصد الذى لا أريد

إن فى مزارعنا الواسعة مجالاً فسيحاً لنشاطى ، ومَرَاداً بعيداً لعلمى ، ومختبراً صالحاً لتجاربى ، ومغرساً كريماً لآمالى ، فأنا أوثر أن أحمل عبء العمل عن والدى ، وأستغل علمى وعملى فى تحقيق مقاصدى ، فأحافظ بالاستقلال الذاتى على خلقى وحريتى ، وأساهم بالعمل المنتج فى نفع أمتى وإسعاد أسرتى

ماذا تجدى علىَّ الوظيفة ؟ عشرة جنيهات فى الشهر ؟ لقد كان أبى ينفق علىَّ خمسة وعشرين وأنا طالب ، فكم جنيهاً ينفقها علىَّ وأنا موظف ؟ إذن سينفق علىَّ أضعاف مرتبى لأخدم غيره ، وأفارق بيته ، وأظل السنين الطوال موظفاً وضيع المكانة ، مسلوب الإرادة ، محدود الرزق ، خامل الحياة !

إن شهادتى فى فن الزراعة ؛ والوظيفة الفنية كالوظيفة العلمية لا تصلح طريقاً إلى السلطان ، ولا وسيلة للجاه ، ولا أداة للثروة ؛ إنما الفن مجده فى استقلاله ، وخيره فى حريته . على أن وظائف الحكومة — بعد أن خفضوا أجرها ، وأخَسُّوا قدرها ، وحفوا طريقها بالمكاره ، وهددوا معاشها بالنقص ، وزعزعوا ضمانها بالكيد ، وروعوا أمنها بالسياسة — أصبحت مطلباً لقصار الآمال ، ومذهباً لصغار النفوس ، وملجأ لضعاف الحيلة . فأما الذى يجد فى نفسه شعور القدرة ، وفى بيته رأس المال ، وفى أرضه مكان العمل ، ثم يتشوف إلى قيد الوظيفة وذل التبعية ، فلا أدرى بم أعتذر له أمام النُّبل والرجولة ؟

فقلت له وأنا موزع النفس بين الاعجاب به والرثاء له والحدَبِ عليه : كلامك هذا يا بنى عنوان عقلك وبرهان فضلك ودليل دعواك . وليت شعرى ما حجة أبيك الكريم أمام هذا الخلق العظيم والمنطق الواضح ! لعله من أولئك الذين يعتقدون أن الولد إذا دخل المدرسة ، ثم خرج بالشهادة ، ثم لم يوظف ، كان ما أنفقه خسارة لا تعوض ، وما تعلَّمه عبثاً لا يفيد !

فقال : كلا ! إن أبى من أرجح الناس عقلاً ، وأسدهم رأياً ، وأعلمهم بمزايا العمل الحر ، ولكنها التقاليد الموروثة ، والعواطف الغالبة ، وسأنتهى آخر الأمر على رغم هوايَ ومنايَ إلى رأيه . فقلت له إذن دعنى على الأقل أنقل عنك هذا الحديث ليكون خطاباً إلى أبيك ، ودرساً لإخوانك ، وموضوعاً للرسالة !

احمد حسن الزيات

الطائشة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

تتمة

وهذا مُحَصَّلُ رواية « الطائشة » نقلناه من خطّ الكاتب على مَساقِ مادوَّنه في أوراقه ، وعلى سَرْدِهِ الذى قصَّ به الخبَر . وقد أعطانا من البرهان ما نطمئنُّ اليه أن هذه « الطائشةَ » هى من تأليف الحياة لا من تأليفه ، وأنه لم يخترع منها حادثةً ، ولم يأتفكْ حديثاً ، ولم يَزِدْها بفضيلة ، ولم يَنقُصْها بمَعَرَّة ؛ وأشهَدَ على قوله كُتُبَ صاحبته الأديبة المُستهترة التى لا تبالى ما قالت ولا ما قيل فيها . وهذه الكتبُ رسائلُ منها المُوجَزُ ومنها المستفيضُ ، وهى بجملتها تنزلُ من الرواية منزلةَ الشروح المُفَنَّنة ، وتنزلُ الروايةُ منها منزلةَ اللُّمع المقتضبة ؛ وكل ذلك يُشبه بعضُه بعضاً ، فكلٌّ ذلك بعضُه شاهدٌ على بعض

قال كاتب (الطائشة) :

كنتُ رجلاً غَزِلاً ولم أكن فاسقاً ، ولستُ كهؤلاء الشبَّان الذين أُصيبوا فى إيمانهم بالله فأصيبوا فى إيمانهم بكل فضيلة ، وذهبوا يُحقِّقون المدنيَّةَ فحقَّقوا كلَّ شىء إلا المدنية

ترى أحدَهم شريفاً يأنَفُ أن يكون لصًّا وأن يسمى لصًّا ، ثم لا يعملُ إلا عملَ اللص فى استلاب العفاف وسرقةِ الفَتيات من تاريخهنّ . وتراه نَجْداً يستنكِفُ أن يكون فى أوصاف قاطع الطريق ، ثم لا يأبى إلا أن يقطعَ الطريق فى حياة العَذارى وشرف النساء

أكثرُ أولئك الشبان المتعلمين يَعرضون للفتَيات المتعلمات بوجوه مصقولةٍ تحتملُ شيئين : الحب والصَّفع . . . ولكن أكثر هؤلاء المتعلمات يضعْنَ القُبلةَ فى مكان الصفعة ، إذ كان العلمُ قد حلَّلَ الغريزةَ التى فيهن فعادت بقايا لا تستَمسِك ، وبصَّرهنَّ بأشياءَ تزيد قوةَ الحياة فيهن خطَرا وتُوحِى اليهنّ وحيها من حيث يشعُرْنَ ولا يشعرن ، وصوَّر فى أوهامهنّ صُوَراً محتْ الصُّوَر التى كانت فى عقائدهن ، وأخرجهنّ من السَّلْب الطبيعى الذى حماهنّ الله به ؛ فلهنّ العفةُ والحياءُ ولكن ليس لهن ذلك العقلُ الغَريزىُّ الذى يجىء من الحياء والعفة ؛ وكثيراتٌ منهن يخشَيْن العارَ ومحمَتَهُ الاجتماعيَّة ولكن خَشيةَ فُقهاءِ الحِيَل الشرعية قد أرْصَدوا لكل وجهٍ من التحريم وجهاً من التحليل ، فأصبح امتناعُ الإثمِ هو ألا تكونَ اليه حاجة . . . .

والعقلُ الذى به التفكيرُ يكون أحياناً غيرَ العقل الذى به العمل ؛ فى بعض الجاهلات يكونُ عقلُ الحياء والعفة والشرف والدين – غريزةً كغرائز الوحْش ، هى الفكرة وهى العملُ جميعاً ، وهى أبداً الفكرةُ والعملُ جميعاً لا تتغير ولا تتبدَّل ولا يقع فيها التنقيحُ الشعرىُّ ولا الفلسفى . . . . وماغريزةُ الوحش إلا إيمانُه بمن خلقه وحْشاً ؛ وكذلك غريزة الشرف فى الأنثى هى عندى حقيقةُ إيمانها بمن خلقها أنثى

وشرفُ المرأة رأسُ مالٍ للمرأة ، ومن ذلك كان له فى أوهام العلم اشتراكيةٌ بحَسَبِه تنظر فيه نظرَها وتَزيغُ زَيغَها وتقضى حكمها ، وأكثر من عرفتُ من المتعلمين والمتعلمات قد انتهوْا بطبيعتهم العلمية الى الرضى بهذه الاشتراكية ، والى التسامح فى كثير ، والى وضع الاعتذار فيما لا يقبلُ عُذراً ، ومن ها هنا كان بعضُ الجاهلات كالحِصْن المُغلَق فى قمَّة الجبل الوَعْر ، وكان بعض المتعلمات دون الحِصن ، ودون القمَّة ، ودون الجبل ، ؛ حتى تنزلَ الى السهْل فتراهنَّ ثمَّه

لقد غفلَت الحكوماتُ عن معنى الدين وحقيقته ، فلو عرفت لعرفتْ أن الانسانيةَ لا تقوم إلا بالدين والعلم كليهما ؛ فان فى الرجل إنساناً عاماً ونوعاً خاصًّا مذكراً ، وفى المرأة إنسانٌ عامّ كذلك ونوع خاصّ مؤنث . والدين وحده هو الذى يُصلح النوع بتحقيق الفضيلة وتقرير الغاية الأخلاقية ، وهو الذى يُحاجزُ بين الغريزتين ، وهو الذى يضع القوة الروحية فى طبيعة المتعلم ؛ فان كانت طبيعةُ التعليم قويةً كانت الروحية زيادة فى القوة ، وإن كانت ضعيفةً كما هى الحالُ فى هذه المدنيَّة لم تجمع على التعلم ضعفين يَبتَلى كلاهما الآخر ويزيده

* * *

فلانٌ وفلانٌ تعلَّقا فتاتين جاهلةً ومتعلمة ؛ وكلتاهما قد صدَّت صاحبَها وامتنعت منه ؛ فأما الجاهلةُ فيقول (فلانُها) إنها كالوحْش وإن صُدودَها ليس صدوداً حَسْبُ ، بل هو

ثورةٌ من فضيلتها وإيمانها ، فيها المعنى الحربيُّ مجاهداً مُتحَفِّزاً للقتل . . . .

وأما المتعلمةُ فيقول (فلانُها) إنها ككل امرأة وإن صدودها ثورةٌ ولكن من دلالها تُرضى بها أولَ ما تُرضى وآخرَ ما تُرضى كبرياءَ الجمال فيها لا الايمانَ ولا الفضيلة . فكأنها إيحاءٌ للطامع أن يزيدَ طمعاً أو يزيد احتيالاً

وفلانٌ هذا يقول لى : إن ضُعَفاءَ الايمان من الشبان المتعلمين — وأكثرهم ضعفاءُ الايمان — لو حقَّقتَ أمرهم وَبَلَوْتَ سرائرَهم ، لتبيَّنتَ أنهم جميعاً لا يرون قلبَ الفتاة المتعلمة إلا كالدار الخالية كُتب عليها : (للايجار) . .

***

يقول كاتب « الطائشة » :

أما أنا فقد صحّ عندى أن سياسة أكثر المتعلمات هى سياسةُ فتح العين حَذَراً من الشبان جميعاً ؛ وإغماضِ العين لواحد فقط . . . .

وهذا الواحدُ هو البلاءُ كلُّه على الفتاة فانها بطبيعتها تتقيَّد ولا تنفصل إلا مُكْرَهَة ، وهو بطبيعته قيدُه لذته فيتصل وينفصل . غير أنها لابد لها من هذا الواحد ، ففكرها المتعلم يُوحى إليها بالحياة لا يجملُ فى ذلك موضعاً للتَّنكير عندها ، والحياةُ نصفُ معانيها النفسية فى الصديق ؛ فالأنوثةُ بغيره مظلمةٌ فى حياتها راكدةٌ فى طباعها ثقيلةٌ على نفسها ما دام « الشعاعُ » لا يلمسها . .

والدينُ يأبى أن يكون ذلك الصديقُ إلا الزوجَ فى شروطه وعهوده كيلا تتقيدَ المرأةُ إلا عن يتقيدُ بها ، والعلم لا يأبى أن يكون الصديقُ هو الحب ؛ والفنُّ يوجب أن يكون هو الحب ، وليس فى الحب شروطٌ ولا عهود إلا وسائلَ تُخْتَلَقُ لوقتها وأكثرها من الكذبِ والنفاقِ والخديعة . ولفظُ الحب نفسُه لصٌ لُغَوىٌّ خبيثٌ يَسرقُ المعانى التى ليست له ويُنفِقُ مما يسرق . وليس من امرأةٍ يختدعُها عاشقٌ إلا انكشف لها حبه كما ينكشف اللص

***

يقول كاتب « الطائشة » :

تلك فلسفةٌ لا بد منها فى التوطئةِ للكتابة عن (عزيزتى رغم أنفى) . ومَن كانت مثلها فى أفكارها واستدلالها وحُججِها وطريقتها — كان خليقاً عن يكتب قصتها أن يجمل القصة من أولها مُسلَّحة . .

لقد تَكارَهْتُ على بعض ما أرادت منى ما دام الحبُّ (رغم أنفى) ، وما دامت السياسةُ أن أُدارِيَها وأتَّبعَ محبتها ؛ غير أنى صارحتُها بكلمةٍ شمسيةٍ تلمع تحت الشمس ؛ أنها الصداقةُ لا الحبُّ ، وأنما هو اللهوُ البرىء لا غيرُه ، وأن ذلك جُهدُ ما أنا قوىٌّ عليه وَفىٌّ به . قالت : فليكن ، ولكن صداقةٌ أعلى قليلاً من الصداقة . . . ولو من هذا الحب التكبر الذى لا يَصدُق كيلا يكذب . . . إن هذا النوعَ من الحب يطيش بعقل المرأة ولكنه هو أول ما يَستهيمُها ويُعجبُها ويورثها التياعَ الحنين

***

كتبت لى : أنا لا أتألم فى هواك بالألم ، ولكن بأشياءَ منك أقلها الألم ، ولا أحزنُ بالحزن ، ولكن بهموم بعضها الحزن إنك صنعتَ لى بكاءً ودموعاً وتنهدات ، وجعلت لى ظلاماً منك ونوراً منك ، يانهارى وليلى . تُرىَ ما اسمُ هذا النوع من الصداقة ؟

اسمه الحب ؟ لا

اسمه الكبرياء ؟ لا

اسمه الحنان ؟ لا

اسمه حُبك أنت ، أنت أيها الغامضُ المتقلب . ألا ترى ألفاظى تبكى ، ألا تسمعُ قلبى يصرخ ، بأىِّ عدْلِك أو بأىِّ عدلِ الناسِ تُريد أن أحيا فى عالم شمسُه باردة . . . . هذا قتل ، هذا قتل

فكتبتُ اليها : إن لم يكن هذا جنوناً إنه لقريبٌ منه

فردتْ على هذه الرسالة :

أتكاتبنى بأسلوب التلغراف . . . . لو أهديتَ الى عِقداً من الزمرد حبَّاته بعدد هذه الكلمات لكنت بخيلاً ، فكيف وهى ألفاظ ؟ إنى لأبكى فى غَمْضَةٍ واحدة بدموعٍ أكثر عددا من كلماتك ، وهى دموعٌ من آلامى وأحزانى ؛ وتلك ألفاظٌ من لهوك وعَبثك

ما كان ضرَّك لو كتبتَ لى ببضعة أسطر من تلغرافات

روتر ... مادمت تسخر مني ؟ أأنت الشباب وأنا الكهولة ، فليس لك بالطبيعة إلا الانصراف عني ، وليس لي بالطبيعة إلا الحنين إليك ؟

* * *

لا أدرى كيف أحببتها ولا كيف دعتني إليها نفسي ، ولكن الذي أعلمه أني تخادعت لها وقلت إن المستحيل هو منع هذا الشر ، والممكن هو تخفيفه ؛ ثم أقبلت أرنى لها ، وأخفف عنها ، وأقبلت هي تضاعف لي مكرها وخديعتها ، وكان الأمر بيننا كما قالت : في الحب والحرب لا يكون الهجوم هجوماً وفيه رفق أو تراجع

إن المرأة وحدها هي التي تعرف كيف تقاتل بالصبر والأناة ؛ ولا يشبهها في ذلك إلا دهاة المستبدين

* * *

سألتني أن أهدى إليها رسمي ؛ فاعتللت عليها بأن قلت لها : إن هذا الرسم سيكون تحت عينيك أنت رسم حبيب ، ولكنه تحت الأعين الأخرى سيكون رسم متهم

وظننتني أبلغت في الحجة وقطعتها عني ؛ فجاءتني من الغد بالرد المفحم ، جاءتني بإحدى صديقاتها لتظهر في الرسم الى جانبي كأنني من ذوى قرابتها . . . . فيكون الرسم رسم صديقتها ، ويكون مهدى منها لا مني ، وكأنني فيه حاشية جاءت من عمة أو خالة . . . .

وأصررت على الاباء ، ونافرتني القول في ذلك ، تردّ عليّ وأرد عليها ، وتغاضبنا وانكسرت حزناً وذهبت باكية ؛ ثم تسببت الى رضاى فرضيت

* * *

حدثتني أن صديقتها فلانة استطاعت أن تستزير صاحبها فلاناً في مخدعها في دارها بين أهلها منتصف الليل . قلت وكيف كان ذلك ؟

قالت إنها تحمل شهادة . . . . وهي تلتمس عملاً وقد طال عليها ؛ فزعمت لذويها أنها عثرت في كتاب كذا على رقية من رقى السحر ، فتريد أن تتعاطى تجربتها بعد نصف الليل إذا محق القمر ؛ وأنها ستطلق البخور وتبقى تحت ضبابته إلى الفجر تهمهم بالأسماء والكلمات

ثم إنها اتعدت وصاحبها ليوم وأجافت باب دارها ولم تغلقه ، وأطلقت البخور في مجمر كبير أثار عاصفة من الدخان المعطر وجعل مخدعها كمخدع عروس من ملكات التاريخ القديم . وبقي صاحبها تحت الضبابة يهمهم وتهمهم . . ثم خرج في أغباش السحر

هكذا قالت ؛ وما أدرى أهو خبر عن تلك الصديقة وفلانها أم هو اقتراح عليّ أنا من « فلانة » لأكون لها عفريت الضبابة . . . ؟

* * *

لم يخف عليها أن لذعة حبها وقعت في قلبي ، وأن صبرها قد غلب كبريائي ، وأن كثرة التلاقي بين رجل وامرأة يطمع أحدهما في الآخر ـ لابد أن ينقل روايتهما إلى فصلها الثاني ، ويجعل في التأليف شيئاً منتظراً بطبيعة السياق . . . . وإلحاح امرأة على رجل قد خلبها وجفا عن صلتها ، إنما هو تعرضها للتعقيد الذي في طبيعته الانسانية . فان هي صابرته وأمعنت فقلما يدعها هذا التعقيد من حل لمعضلتها . ويمثل هذه العجيبة كان تعقيداً وكان غير مفهوم ولا واضح ؛ وقد ينقلب فيه أشد البغض إلى أشد الحب وقد تعمل فيه حالة من حالات النفس مالا يعمل السحر . وكذلك يقع للرجل إذا أحب المرأة فنبت عن مودته فعرض للتعقيد الذي في طبيعتها وأمعن وثبت

رأت الجمرة الأولى في قلبي فاضرمت فيه الثانية حين جاءتني اليوم بكتاب زعمت أن فلاناً أرسله إليها يطارحها الهوى ويبثها وله الحنين والتياع الحب

ويقول لها في هذا الكتاب : أنا لم أشرب خمراً قط ولكني لا أراني أنظر إلى مفاتنك ومحاسنك إلا وفي عيني الخمر ، وفي عقلي السكر ، وفي قلبي العربدة . جعلت لي نظرة سكير فيها نسيان الدنيا وما في الدنيا ما عدا الزجاجة . . .

ويختمه بهذه العبارة :

آه لو استطعت أن أجعل كلامي في نفسك ناعماً ، ساحراً ، مسكراً ، مثل كلام الشفة للشفة حين تقبلها . . .

عند هذا وقع الشىء المنتظَر فى الفصل الثانى من الرواية ، وختم هذا الفصلُ بأول قُبلة على شفتى (الممثلة)

* * *

قالت : هذه القبلة كانت (غَلطة مطبعية) ومضت تسميها كذلك واستمرت الطبعة تغلط .... وما علمتُ إلا من بَعْدُ أن ذلك الكتابَ الذى استَوقدَتْ به غيرتى ، إنما كان من عملها ومكرها

* * *

وجاءتنى اليوم بآبدَةٍ من أوابدها ، قالت :

أنت رَجعىٌّ محافظ على التقاليد . قلتُ لأنى أرى هـــذه التقاليد كالصباح الذى يتكرر فى كل يوم وهو فى كل يوم ضياء ونور

قالت : أو كالمساء الذى يتكرر وهو فى كل يوم ظلامٌ وسواد

قلت : ليس هـذا إلىَّ ولا إليك ، بل الحكم فيه للنفع أو الضرر

قالت : بل هو إلى الحياة ، والحياة اليوم علمية أوربيـة ، والزمنُ حثيثٌ فى تقدمه ، وأصحابُ « التقاليد » جامدون فى موضعهم قد فاتهم الزمن ، ولذلك يسمونهم (متأخرين) . أما علمت أن الفضيلة قد أصبحت فى أوربا زياً قديماً فأخذ المِقَصُّ يعملُ فى تهذيبها ، يقطعُ من هنا ويَشُقُّ من هنا ...

اسمع أيها « المتأخر » وتأمل هذا الرهان الأوربى العصرى

أخبرتنى صديقتى فلانة حاملة شهادة .... أنها كانت فى القطار بين الاسكندرية والقاهرة وكانت معها فتاة من جيرتها تحملُ الشهادة الابتدائية ؛ فجمعهما السفَر بشاب وَسيم ظريف يُشاركُ فى الأدب ، غير أنه رَجْعىٌّ (متأخر) . وصديقتى تعرفُ من كل شىء شيئاً ، وتأخذُ من كل فن بطَرَف ؛ فجرى الحديثُ بينهما مجراه ، وتركت الصديقةُ نفسها لدواعيها وانطلقت على سَجيَّتها الظريفة ، ووضعتْ فنَّ لسانها فى الكلام فجاءت فيه روحَ التقبيل

ولم تبلغ إلى القاهرة حتى كانت قد سحرت ذلك (المتأخر) ووقعت من نفسه ودفعته إلى الزمن الذى هو فيه . فلما همَّت بوداعه سألها : أين تذهبان ؟

فأغضت صاحبة الشهادة الابتدائية ، وأطرقت حياء ورأت فى السؤال تهمة وريبة ، فأنبتها الصديقةُ وأيقظتها من حيائها ، وقالت لها : ألا تزالين شرقية متأخرة . إن لم يسعدنا الحظ أن تكون لنا حريةُ المرأة الأوربية فى المجتمع وفى أنفسنا ؛ أفلا يسعنا أن تكون لنا هذه الحرية ولو فى أنفسنا ؟

ثم ردَّت على الشاب فأنبأته بمكانها وعنوانها ، فأطمعه ردُّها فسألها أن تتنزه معه فى بعض الحدائق ، فأبت صاحبته الابتدائية ولجت عمايَتها الشرقيةُ المتأخرة ، ورأت فى ذلك مَسقطةً لها ، فلوَتْ إلى دارها وتركتهما إنساناً وإنساناً لا فتىً وفتاة ، وتنزَّها معاً ، وعرف الشابُ الرجعىُّ الحبَّ والخمرَ التى هى تحيةُ الحب

ولم تستطع الفتاةُ الماكرة أن ترجعَ الى دارها وهى سكرى فأوتْ الى فندق ، وختمت روايتهما باعراضٍ من الشاب أجابت هى عليه بقولها : ألا زلت (متأخراً) .... ؟

قالت « الطائشة » :

نعم يا عزيزى (للمتأخر) إن مذهب المرأة الحرة .... فى الفرق بين الزوج وغير الزوج ، أن الأول رجلٌ ثابتٌ ، والآخر رجل طارىء . والثابتُ ثابتٌ معها بحقه هو ؛ والطارىء طارىء عليها بحقها هى .... فان كانت حرة فلها حقها ...

قال كاتب الطائشة : وهنا كاد الشيطان يرفع الستار عن فصل ثالث فى هذه الرواية ، رواية (الطائشة) ...

* * *

نقول نحن : وإلى هنا ينتهى نصف الرواية ؛ أما النصف الآخر فيكاد يكون قصة أخرى اسمها : (الطائش والطائشة) ؟!

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

كيمياء الأفكار والعواطف

للأستاذ أحمد أمين

كان القدماء يفهمون من « الكيمياء » الأكسير المنشود ، الذى إذا عُثر عليه وأضيف الى الزئبق أو الفضة بكمية محدودة ، تحت حرارة معينة ، انقلب الزئبق أو الفضة ذهباً إبريزاً

وليس يعنينا هنا أن نبين ما أنفق الناس من جهد فى الوصول إليه ، ولا ما أنفقوا من مال وزمان فى سبيل العثور عليه ، ولا ما ملئت به كتب الفلسفة الاسلامية من جدل فى امكان ذلك أو استحالته

إنما يعنينا هنا أن نقول إن العلماء والأدباء نقلوا استعمال هذه الكلمة إلى المعانى بعد أن كانت قاصرة على المادة ، فسمى « الغزالى » كتاباً من كتبه « كيمياء السعادة » يعنى بذلك الأكسير الروحى الذى إذا عثر عليه الانسان حظى بالسعادة

وقد استعملها ابن الرومى استعمالاً ظريفاً فى معنى قريب من هذا ، فقال يهجو أبا الصَّقْر

عَجِبَ الناسُ من أبى الصَّقْرِ إذ ولّى ـ بعد الاجارة ـ الديوانا
إنّ للجَدّ كيمياءَ إذا ما مَسّ كلباً أحاله انسانا
يفعل الله ما يشاءُ كما شاء متى شاء كائنا ما كانا

* * *

ثم سار الزمن الذى يغير كل شىء ، فغير ـ فيما غيره ـ مدلول كلمة « الكيمياء » وجعله قسيما للطبيعة ، فكما أن الطبيعة اختصت بدراسة الظواهر التى تغير صفات الأشياء ولا تغير جوهرها ، اختصت الكيمياء بدراسة الظواهر التى تغير جوهر الأشياء ، فاتسع مدلولها ، وصار آخر ما تفكر فيه تحويل المعادن إلى ذهب إن كانت تفكر فيه

والذى أريد أن ألفت اليه النظر فى مقالى أن هناك كيمياء فى الأفكار والعواطف تشبه تلك التى فى المادة ، إلا أنها أعقد منها ، وأصعب حلاً ، وأغمض اكتشافاً ـ وإلى الآن لم توضع كتب ـ على ما أعلم ـ فى كيمياء المعانى على كثرة ما وضع فى كيمياء المادة ـ وإن كانت كتب علم النفس أحياناً تمس هذا الموضوع مساً رفيقاً

* * *

فلكيمياء الأفكار والعواطف فصول وأبواب لا عداد لها ، قد ينطبق عليها فى كثير من الأحيان فصول الكيمياء المادية وأبوابها ، ففى كيمياء المعانى ترشيح وتبخير وذوبان كالتى فى كيمياء المادة ، وفيها تبلور وتقطير ، وفيها عناصر ومركبات ومخاليط ، وفيها أحماض وأملاح وقواعد ، وفيها جزيئات وذرات لها أوزان وكثافات ـ ولها رموز وقوانين أدق من رموز الكيمياء المادية وقوانينها ، ولها معادلات أصعب حلاً وأبعد منالاً

هل علمت ـ مثلا ـ أن الماء يتكون من غازى الأوكسيجين والأيدروجين بنسبة واحد من الأول واثنين من الثانى باعتبار الحجم ـ فكذلك الشأن فى الأفكار والعواطف ، فقد يكون لديك فكرة من نوع ما ، أو عاطفة من نوع ما ، ثم تسمع فكرة من محدث ، أو تقرأ فكرة فى كتاب ، وتكون فكرتك من وزن خاص ، والفكرة التى سمعتها أو قرأتها من وزن آخر ، فتتحد هاتان الفكرتان ، وتتولد منهما فكرة جديدة لا هى من النوع الأول وحده ، ولا من النوع الثانى وحده ، بل هى نوع خاص ، علاقته بالفكرتين كعلاقة الماء بالأوكسيجين والأيدروجين

وهل علمت أنك إذا ملأت قارورة ثلثها بالأوكسيجين وثلثيها بالايدروجين ثم قربت فوهتها من لهب تسمع لذلك دوياً هائلا ؟ كذلك الشأن فى العواطف ، فقد يكون لديك عاطفة من نوع خاص ، ثم تسمع خطبة من نوع يناسبها فتنفجر نفسك لهذا الاتحاد انفجاراً هائلا ، وتحس ناراً تملأ نفسك . وتذكى حسك ؛ ـ أوليس الغضب يحمر وجه صاحبه وتنقدح عيناه ، ويحمله يقذف بالكلمات الحادة العنيفة ، ولا تهدأ ثائرته حتى ينتقم ـ ضرباً من ضروب هذا التفاعل الذى يشبه تفاعل الغازين ؟ أو ليست الحماسة تدفع الجندى ليرمى بنفسه فى خط النار ، ولا يقيم للحياة وزناً ، أثراً من آثار ما يسمع من كلمات القائد وما يشعر من جو وبيئة ؟ أوليس الحب يذيب النفس ، ويرهف الحس ، ويملأ القلب أسى حيناً ، وفرحاً وغبطة حيناً إلا نوعاً من هذا التفاعل دونه التفاعل المادى ، والاتحاد الكيمياوى ؟

وكل ما ندرك من فرق بين التفاعل المادى والتفاعل الروحى أنا استطعنا أن نخضع المادة لبساطتها فنحلل أجزاءها بالكهرباء أو ما أشبهها ونقيس مقدار العنصرين أو العناصر المتحدة ، ونعرف مقدار كل منها ، ونرصد أثر التفاعل . أما فى الأفكار والعواطف فليس الأمر بهذه السهولة ، فلكل انسان آراؤه وعواطفه وهى تختلف فيما بينها كل الاختلاف ، فى جوهرها ، وفى قابليتها لأفكار الآخرين وعواطفهم ، فقد نالقى الكلمة على عدد محدود من الناس فنشعر بأن أثرها عند كل انسان يخالف أثرها عند الباقين ، كضوء النهار يفتح أعيننا ويغمض عين الخفاش ، وقد يقرأ أحد كتاباً فيزعم أنه غيّر مجرى حياته ، وقلب تفكيره رأساً على عقب ، وألهمه من المعانى ما استحال بها انساناً آخر ، وأحدث فى نفسه ثورة فكرية لم يحدثها أى كتاب غيره ، ويقرؤه انسان آخر فلا يشعر هذا الشعور ولا قريباً منه ولا يحس له ميزة ولا يجد له طعماً . وهذا بعينه ما يحدث فى الأجسام ، تقرب عود ثقاب مشتعل من ورق فيشتعل ، وتقربه من ثلج فيذوب ، وتقربه من رخام فلا يشتعل ولا يذوب . وأؤكد لك أن الرواية تعرض فى السينما أو تمثل فى المسرح على عدد كبير من الناس تؤثر فى كل راء بمقدار لا يتفق تماماً وأثر الباقين ، وأن تأثر الشاهدين متعدد بتعدد رؤوسهم . ذلك بأن الرواية وإن كانت واحدة وممثلوها متحدين فان هناك عاملا آخر من عوامل الوزن مختلفاً كل الاختلاف ، وهو عواطف الرائى وآراؤه ، وأن نتيجة التفاعل تختلف دائماً باختلاف أحد الممزوجين المتفاعلين

إن أردت التوسع فى تطبيق هذه النظرية وجدت القول ذا سعة ، فالبائع الناجح فى المتجر ليس هو الذى يكثر الكلام أو يقل الكلام ، وليس هو الخفيف الحركة ، ولا هو المهندم الثياب ، وإنما هو الذى يعرف شيئاً واحداً ويتقنه وهو « قانون التفاعل » ينظر إلى المشترى نظرة نافذة فيعلم نفسه ، ويعلم نواحيها ، ويعرف المواضع الحساسة منه ، ويعرف فى مهارة نقط التأثر عنده ، ومقدار الأثر ، ثم يستعمل فى العرض وفى الكلام ما يتفق وما درسه من نفس المشترى ، وإذا بما يصدر من البائع مناسب لنفس المشترى ومنفعل معها على نحو خاص ، وإذا الصفقة قد تمت فى سهولة ويسر ، على حين أن زميله ومن بجواره لا يبيع مثل بيعه لأنه يخطىء فى فهم نفسية المشترى فيتفاعل تصرفه تفاعلا عكسياً مع نفسية المشترى ، فينتج من ذلك نوع من الغضب أو نوع من الكراهية أو نوع من المغاضبة ينتهى عادة بالاعراض عن الشراء ، فان سألت كيف جهل هذا وعلم ذاك ، وأين درس أحدهما ولم يدرس الآخر فنجح الدارس وفشل الجاهل ؟ قلت إن هذا الدرس لا يتعلم فى المدرسة وإنما يتعلم فى السوق ، ويتعلمه من حسن استعداده الفطرى وغريزته الطبيعية ، بل إن شئت طبقت هذه النظرية على كل ناجح وفاشل فى الحياة ، فالمدرس الناجح من استطاع أن يتعرف نواحى تلاميذه ويعرف ما يُلقى وما لا يلقى ، وما يقال وما لا يقال ، ويصدر منه ما يتفاعل وهذه النفوس ، فيصدر من ذلك التفاعل عطف وحنان وحب ، ورغبة فى المعلم ، ورغبة فى علمه ، ورغبة فيما يقول ، وتأثر بما يشير اليه

وما الأسرة السعيدة ؟ وما الأسرة الشقية ؟ أليست السعيدة من عرفت فيها الزوجة نفسية زوجها والزوج نفسية زوجته وعمل كل منهما على أن يصدر منه ما يتفاعل ونفس الآخر حتى ينتج هذا التفاعل تآلفاً ، فاذا انحرف أحدهما عن هذا الوجه عن جهل أو عن علم ساء البيت. ونشأ تفاعل من جنس آخر نتج عنه البغض والكراهية والشقاق

الحق أن هذه كلها معادلات فى الكيمياء النفسية تشبه تمام الشبه المعادلات الكيمياوية التى تجرب فى المعمل ، ومع الأسف لم يصل الناس إلى حد بعيد فى دراسة هذه الكيمياء النفسية ولم ينشئوا لها المعامل الناجحة نجاح المعامل للكيمياء المادية ، والخطأ فى النفس كثير الوقوع لصعوبة تعرف الذرات النفسية وتكوين المعادلات الدقيقة

وإذا أدرك الانسان هذا التفاعل واختلافه ودقته أدرك خطورته ، وخاصة فيمن يتصل مركزه بنفوس كثيرين كالصحفى والأديب ، والمعلم والخطيب ، والزعيم ، فقد يصدر عنه ما ينفعل ونفوس الناس فيكون سما ناقعاً ، وقد ينتج عنه ما يكون دواء ناجعاً ؟

أحمد أمين

٢ - النهضة التركية الأخيرة

للدكتور عبد الوهاب عزام

ويقول آخرون ان الترك احتفظوا بالخلافة ما استطاعت قوتهم ، ووسعت ثروتهم . فلما نكبتهم الأحداث بما نكبتهم ، وضاقت رقعة دولتهم ، عجزوا عن الاضطلاع بهذا العبء الثقيل ، والتمسك بهذه الأمانة العظيمة فتركوها كارهين

وجوابنا أن بعض زعماء الترك أشاروا بأن يدعى المسلمون الى مؤتمر عام ويقال لهم ها كم خلافتكم قد عجزنا عن حملها ، فتشاوروا بينكم ، وتبينوا أمركم ، وسنّوا للخلافة سنة تلائم زمانكم ، وتواتى أحوالكم . واتفق رجال الحكومة التركية على هذا وأعلموا به عصمت باشا وهو فى لوزان . فلماذا نقض أولو الحول منهم ما أبرموه ، وسارعوا فنفضوا أيديهم من المسلمين وخلافتهم وآذنوهم أن لا أخوّة بيننا وبينكم ؟

المسلمون والتقليد

اذا نقدت أمة أمورها ، ونظرت فى أحوالها ، فنفذت الى بواطنها جهد النظر الثاقب ، والروية والفكر ، ثم هداها نظرها الى أن تستبدل سنة بسنة ، وحالاً بحال ، فتلك أمة رشيدة حميدة وان أخطأها الصواب — وقل أن يخطئها — لأنها بذلت جهد الانسان فى تبيّن الحق ، واجتهدت وسعها فى إيثار الرشد ، ولم تأل فى التريث والتمحيص والنقد المتثبت والنظر الصحيح

واذا أخذت أمة بأسباب التقليد ، وأغرمت بالمحاكاة ، كلما لاح لها لألاء من أمة عشت اليه ، وكلما سمعت نغمة قوم هامت بها ، فتلك أمة ضالة وان نقلت عن غيرها هدى ، مخطئة وان أخذت عن غيرها صواباً . ذلكم بأنها حقرت عقولها ، وأغمضت عيونها ، وأسلمت الى يد غيرها أزمّتها ؛ لم تنظر لنفسها فتأخذ وتدع ، ولم تختر بعقلها فتستحسن وتستقبح ، بل خبطت خبط عشواء ، وانطلقت كالحاطب فى الظلماء . هى فى ذلك قد أهدرت انسانيتها عما ألفت ارادتها واختيارها . وان استمسكت فى ظاهرها بما أخذت من نظام ، واعتصمت فى رأى العين بما نسخت عن غيرها من سنن ، فذلكم ظاهر ليس وراءه باطن ، ورُواء ليس وراءه حقيقة . تلكم أمة ممسوخة . وقد سمعنا أن أمماً مسخت فأنكرنا ، وقيل إنها مسخت قروداً فعجبنا ، ثم رأينا عمل بعض الناس فى هذا العصر فصدّقنا

قد ابتلى كثير من المسلمين فى هذا العصر بداء التقليد ، وفشا فيهم خلق العبيد ، وحرموا النظرة النقّادة ، والعزمة النفّاذة ، والهمة الخلاّقة . رأوا سلاحهم أضعف من سلاح أوربا ، وعلمهم أقل ، ونظامهم أوهن ، فجعلوا ذلك تعلّة الى نبذ ما عندهم من خلق ودين وحضارة لتتحلل النفس من تكاليف الانسانية ، وتنطلق فى بحبوحة هذه المدنية . وزيّن لهم الهوى أن يقيسوا الدين والأخلاق على العلوم والصناعات ، فمضوا يرون كل شىء عندهم باطلا ، وكل شىء فى أوربا حقا ، فاستحسنوا أن ينبذوا كل ما عندهم ويأخذوا كل ما عند الأوربيين ، وخافوا أن يؤخذ عليهم الاستمساك بدينهم وأخلاقهم ، فتنافسوا فى هجرها وتحقيرها ، فما يحافظون على رأى أو خلق إلا أن تأتيهم شهادة عليه من عالم أو كاتب أوربى ، بل هم مدينون لأهل أوربا بما عندهم من ظن حسن فى حضارة الاسلام وتاريخه ، ومن زين منهم داره بفُرش عربية فانما يسميها (أربسكا) ويحاكى فيها أهل أوربا وهلم جرا ، حتى الأزهريون وهم أبعد الناس عن أوربا آثروا أن يسموا الجامع الأزهر جامعة ليترجموا كلمة Université ، وسموا كل قسم من أقسامه كلية ليوافقوا كلمة College

وكم قلت وقال غيرى إن المدنية الخلقية والدينية ليست كالمدنية الصناعية ، فالصناعات قائمة على علوم طبيعية لا تختلف فيها الأمم ، ولا يمتاز فيها الشرق من الغرب ؛ ليست مشتقة من نفس الانسان ، ولا صلة لها بقلبه ، فتستطيع أمة أن تأخذ عن غيرها علوم الطبيعة والكيمياء والحساب والفلك ونتائج هذه العلوم فى الصناعات دون أن تغير دينها أو تبدل أخلاقها ؛ ويستطيع زنجى من السنغال أن يذهب إلى فرنسا فيتعلم الطيران أو يدخل فى زمرة الجند فيصير عما قليل فى البصر بآلات الطائرات ، والدربة على نظام الجيش كالفرنسى ، ولكنه

وقع تحريف فى المقال السابق فى كلمة « خلعة سنوسية » فكتبت قلعة سنوسية

لا يستطيع أن يغير أخلاقه وعاداته ويكون فرنسيا فى خمسين سنة ؛ والحضارة النفسية هى الانسانية حقاً ، والمدنية فى صميمها وهى مشتقة من نفوس الأمة تفسد بفسادها وتصلح بصلاحها

ذلكم ما ينبغى أن نفكر فيه ، ونتوفر على درسه ، فان الأمم لا تصلح على الفوضى ، ولا تسيّر بالأهواء والشهوات ؛ ذلكم ما يجب أن يعنى به أولو الرأى من المسلمين ليأخذوا بِحُجَز أممهم أن تتهافت فى هذا التقليد ، وتتردى فى هذه المهالك ؛ ذلكم ما يجب أن ينهض به الشعراء والكتاب ، ليضرموا فى النفوس الذليلة عزة تمنعها المحاكاة العمياء ، وكرامة تعصمها أن تسير كالعجماء . من لى فى المسلمين بعشرين رجلا من كبار النفوس عظماء الهمم ، البصيرين بالمدنية الحاضرة ، ظاهرها وباطنها ، العالمين بحضارة الاسلام جليّها وخفيها ، العارفين بأدواء الأمم وأدويتها ، لينيروا الطريق فى هذه الضلالات المظلمة ، والفتن المدلهمة ؟ من لى فيهم بعشرين رجلا كهذا العالم الكبير والشاعر المبدع الذى تنفخ أنفاسه الروح فى الأجسام الهامدة ، والأمل فى القلوب اليائسة ، الرجل المبارك محمد اقبال الذى انبعث صوته فى الشرق بالحياة والهدى والعزة والكرامة ، والطموح إلى العلياء ، والسمو بالنفس إلى أعلى درجاتها ، تلك النفس الكريمة التى تسيل فى شعرها حسرات ، وتتطاير فى كلماتها زفرات ، فما تزال تقدح قلبها لتبعث شرارة بعد أخرى تنير الطريق الحالكة ، وتشعل النفوس الخامدة ، ذلك الرجل الحر الذى وقف من حضارة أوربا وفلسفتها موقف الناقد البصير ، يكشف عن زيوفها ويبين عن بهرجها

كم رأينا فينا علماء وأدباء وشعراء ومتفلسفين ، ولكن أكثرهم لا يفكرون ولا ينطقون إلا بما سمعوا وما قرأوا ، وهم لا يسمعون ولا يقرأون الا عن أوربا . ليس فيهم رجل حرّ يفجر فى قلبه من الحياة ينبوعاً ، أو يضرم فيه من الغيرة ناراً ، ليلقى على كل قلب نضحة من هذا الماء ، وفى كل نفس جذوة من هذه النار .

ايه يا ضُلال التقليد ! وعبّاد الأصنام فى القرن العشرين !

إن عند المسلمين كنوزاً سفت عليها أعاصير الزمان وقد فترت هممهم ، وانطفأت نار الغيرة فى نفوسهم ، فآثروا الدعة حتى يأتى أهل أوربا يدلونهم عليها ويستخرجونها لهم ! وإن عندهم لنفائس تنادى هممهم وعزائمهم ، ولكنهم يؤثرون أن يتلقوا عن أوربا أشياءها مهيَّأة فى عُلب مذهّبة ! ومن ركن إلى الدعة ذلّ ، ومن آثر اليسير من الأمور وأشفق من لقاء المصاعب فهو حىّ أشبه بميت ؛ وإليكم مثلاً من مئات :

لنا شريعة جاء بها القرآن والسنة وعملت فيها قرائح المسلمين بحثاً واستنباطاً ثلاثة عشر قرناً . فما بقيت واقعة إنسانية إلا اشتق لها حكم يلائم الزمان والمكان ، فصارت هذه الشريعة جماع تجارب الأمم فى عصور مختلفة وبلاد كثيرة . فلما أراد المصريون أن ينظموا القضاء عجزوا عن النظر فى هذه الكنوز المدخرة ، وأشفقوا من الاضطلاع بهذا العبء الثقيل ، فأجلسوا نفراً يترجمون لهم قانون نابليون ، فتهيأ لنا قانون مختصر مرتب مفصل ، وأصبحنا نجارى فرنسا فى نظامها ، فقد طوينا مسافة القرون فى أشهر قليلة . وماذا علينا بعد ذلك أن يكون هذا القانون فى دين الأمة نكراً ، وفى أخلاقها شذوذاً ، وفى أفكارها أعجوبة ، وفى جسمها شللاً ، وفى نفسها موتاً ؟ لا ضير فقد أخذنا قانون نابليون وناهيك بذلك فخراً وتمدناً . . .

لو أن فى المسلمين أناسىّ يستوحون عقولهم ويستفتون قلوبهم لخلقوا لأنفسهم نظاماً ، وشرعوا لأنفسهم من دينهم قانوناً ، لو أنهم أصحاب همم لسلطوا هممهم على الزمان فأسرته ، ثم صرّفته طوع المشيئة ، ورهن الارادة ، ولما لبثوا يتملقون العصر ومقتضياته والزمان وفرائضه ، فان الرجل الحر سيد الزمان والمكان يسخرهما ولا يذل لهما . أين العزائم التى تلقى الزمان بملء خطوبه هيبة ، وتردّ أحداثه بأشد منها صولة ؟ آمين ثم آمين . . .

* * *

ومما أخذ فيه المسلمون بتقليد أوربا غلوهم فى النعرات القومية ، والتكاثر بالمفاخر التاريخية ، واعتزاز كل فريق بمآثره الجاهلية ، كأنهم لم يكونوا على الأحداث أعواناً ، ولم يلبثوا أربعة عشر قرناً إخواناً ! ! قيل للمصريين : أنتم أبناء الفراعين فارجعوا الى حضارة المصريين القدماء ، واعبدوا العجل لتقوموا بذلك شهداء . وقيل لأهل الشام : وأنتم يابنى الفينيقيين تمسكوا بتاريخ الأقدمين ، وائتوا بآبائكم إن كنتم صادقين ! وقيل للفرس : يابنى الأكاسرة لقد فتح العرب بلادكم ، وأزالوا مُلككم ، وفرضوا دينهم عليكم

فانفضوا أيديكم من أخوتهم ، وردّوا اليهم دينهم ، وارجعوا الى زردشت وإن لم تعرفوه ، واقرأوا كتابه وإن لم تفهموه ، فالباطل الايرانى خير من الحق العربى ! وقيل للترك ! وأنتم يا سلالة جنكيز المقدس ، وعبدة الذئب الأطلس ، قد كانت لكم فى سيبريا حضارة ، ثم كانت لكم فى قره قروم دولة ، فارتدوا الى حضارتكم الأولى ، وانزعوا الى وثنياتكم القدامى ، ودعوا مجدكم فى الاسلام ، واكفروا بمآثره عليكم ، وبمآثر آبائكم فى تاريخه

دعيت كل أمة الى جاهليتها ، فذهب المسلمون ينبشون القبور ليعتزوا بحجر قديم وعظم رميم ، ويفخروا بعلامة من حضارة ، أو أثارة من مدنيـة ، وغفلوا عن مجدهم فى الاسلام يرجف به المشرق والمغرب ، وتضيء به الشمس والقمر . وليس أمة اسلامية ذات مجد فى الجاهلية إلا مجدها فى الاسلام أبهى وأبهر ، وأعلى وأعظم ، ولكنها عصبيات الجاهلية ، والفتن الأوربية ، تركس الانسان فى بهيميّته ، وتردّه إلى وحشيته

* * *

بينما يجهد عقلاء المسلمين لايقاظهم من رقدتهم ، ويحرقون أنفسهم لاشعال الحياة فيهم ، إذا « النهضة التركية الأخيرة » فقلنا حياة فى المسلمين جديدة ، ويقظة لا تلبث أن تصير شاملة . قلنا أولئك إخواننا زعماء المسلمين ينفخون فى الصور ، ليبعثوهم من القبور ؛ لعل هذه النفوس الكبيرة تخلق أمة جديدة ، أو تخترع لنا سنّة رشيدة ، تصل عزة الماضى بمجد المستقبل وتذهب بذل الحاضر ؛ إن يخلُقوا فالرجل الحر خلاق ، وإن يسبقوا فالكريم الى المعالى سباق — لا ريب أننا سنرى فيهم عمر بن الخطاب ، وهارون الرشيد ، وعبد الرحمن الناصر ، وصلاح الدين الأيوبى ، وسليمان القانونى ، ولكن فى القرن العشرين يفتحون صدورهم لعلومه ، ويتوسلون بوسائله الى الغايات الشريفة والمثل العليا التى سعى إليها المسلمون من قبل . ثم نظرنا فاذا نفخة الصور ، لا تدعو إلى النشور ، وإذا الهمم العالية تسف ، والعزائم الماضية تهن ، وإذا حياة تجفل من نفسها وتعتز بغيرها ، وإذا نهضة من المحاكاة عليلة ، وخطة من التقليد ذليلة ، قصاراها : « اقطع كل ما يربطك بالاسلام وأممه ، وأحكم كل ما يصلك بأوربا وسننها »

فانظر ماذا صنعوا انفاذا لهذه الخطة :

(له بقية) **عبد الوهاب عزام**

١ ـ شمس الدين السخاوى

حياته وتراثه

للأستاذ محمد عبد الله عنان

أتيحت لى فى الأعوام الأخيرة فرصة لدراسة شخصية بارزة تتبوأ مكانة رفيعة فى آداب مصر الاسلامية ، وفى الآداب العربية بوجه عام ، وتمثل وحدها مدرسة فكرية زاهرة ، وتمتد عبقريتها الشاملة الى عدة نواح وفنون مختلفة ، وما زال تراثها الى اليوم يكون مجموعة قوية حافلة فى تراث الأدب العربى والتفكير الاسلامى

أريد بتلك الشخصية ، شمس الدين السخاوى الذى تملأ شخصيته الحركة الأدبية المصرية زهاء نصف قرن

كان السخاوى إحدى هذه العبقريات الأدبية التى تفتحت بمصر فى القرن التاسع الهجرى (القرن الخامس عشر الميلادى) واختتمت بها مصر الاسلامية حياة أدبية باهرة سطعت مدى قرنين ؛ وكان ظهوره فى النصف الأخير من هذا القرن ، حينما أخذت عوامل الانحلال تفت فى هذا الصرح الباذخ الذى شادته دول السلاطين بمصر ، وأخذت الحركة الأدبيـة التى كانت فى النصف الأول من القرن التاسع فى أوج عنفها وازدهارها ، تميل الى الضعف والسقم ، وتستبدل ألوانها القوية الساطعة بألوان سطحية باهتة ؛ فكان ظهور السخاوى وتلميذه ومنافسه السيوطى فى أواخر هذا القرن نفثة أخيرة من نفثات هذه الحركة القوية التى لم تلبث أن خبت بعد ذلك وانهارت أمام الفتح العثمانى

— ١ —

ومن حسن الطالع اننا نستطيع أن ندرس شخصية السخاوى على ضوء حسن ؛ فلدينا أولاً معظم آثاره نقرأ فيها خواص تفكيره وأدبه ؛ ولدينا ترجمته لنفسه وعدة أخرى من التراجم المعاصرة ، نتتبع فيها حوادث حياته وظروف تكوينه

ولد السخاوى ، كما يحدثنا فى ترجمته لنفسه ، بمدينة القاهرة ، بحارة بهاء الدين[1] ، فى ربيع الأول سنة ٨٣١ هـ (١٤٢٨ م)

(١) كان موقع هذه الحارة على مقربة من باب الفتوح ، وكانت من الأخطاط الجليلة فى ذلك العصر (المقريزى ج ٣ ص ١)

فى أسرة أصلها من بلدة سخا من أعمال الغربية ، واستقرت فى القاهرة قبل ذلك بجيلين . وهو محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبى بكر بن عثمان ، شمس الدين أبو الخير السخاوى ؛ ولما بلغ الرابعة من عمره تحولت أسرته الى منزل جديد فى نفس الحى اشتراه أبوه ؛ وكان موقعه بجوار دار علامة العصر الحافظ ابن حجر العسقلانى[١] ؛ وكان لهذا الجوار أكبر أثر فى حياة السخاوى ، كما سنرى . وأنفق السخاوى بضعة أعوام فى المكتب وحفظ القرآن ؛ ثم أخذ يطوف بأشياخ العصر يتلقى عنهم مختلف العلوم والفنون ؛ ودرس النحو والعروض واللغة والفقه والحساب والميقات والأصول والبيان والتفسير والمنطق ؛ وهنا يعدد لنا السخاوى ثبت أساتذته وما أخذه عن كل منهم ، وما درسه من مختلف الكتب[٢] ؛ وتجلت مواهبه ومقدرته بسرعة مدهشة ؛ وأجاز له الكثيرون من شيوخه ، بل أجازوا له الافتاء ولما يبلغ العشرين بعد

وقد كان ابن حجر فى مقدمة أساتذته ؛ وكان ذلك الجوار الذى رتبته ظروف الحياة مبعث هذه الصلة الوثيقة التى استمرت مدى الحياة بين الأستاذ وتلميذه ، والتى بثت غير بعيد الى نفس الفتى نوعاً من العبادة الروحية لهذا الذى كان يعتبر يومئذ إمام الأئمة وقطب العلماء والباحثين . والواقع أن ابن حجر كان يتبوأ يومئذ مركز الزعامة العلمية فى مصر الاسلامية ، وكان فى ذروة نضجه ومجده ، وقد انتهت اليه الرياسة فى معظم علوم العصر ، ولا سيما الحديث والشريعة . وكان بدء اتصال السخاوى بأستاذه فى سنة ٨٣٨ هـ ، أعنى وهو طفل لم يجاوز الثامنة ؛ وكان يذهب مع أبيه ليلاً إلى مجالس الشيخ فيستمع الى دروسه فى الحديث . ويصف لنا السخاوى علاقته بأستاذه فى عبارات مؤثرة ثم عما كان لهذه العلاقة من عظيم الأثر فى تكوينه فيقول متحدثاً عن نفسه : « وقبل ذلك كله سمع مع والده ليلاً الكثير من الحديث على شيخه إمام الأئمة الشهاب ابن حجر ، فكان أول ما وقف عليه من ذلك فى سنة ثمان وثلاثين ، وأوقع الله فى قلبه محبته ، فلازم مجلسه ، وعادت عليه بركته فى هذا الشأن . وأقبل عليه بكليته اقبالاً يزيد على الوصف بحيث تقلل ما عداه . . . وداوم الملازمة لشيخه حتى حمل عنه علماً جماً ، واختص به كثيراً بحيث كان من أكثر الآخذين عنه ؛ وأعانه على ذلك قرب منزله منه ، فكان لا يفوته مما يقرأ عليه إلا النادر . . . وينفرد عن سائر الجماعة بأشياء . وعلم شدة حرصه على ذلك فكان يرسل خلفه أحياناً بعض خدمه لمنزله ؛ يأمره بالمجىء للقراءة »[١]

وهنا يفيض السخاوى فى ذكر الكتب والمتون التى قرأها ودرسها على شيخه ابن حجر ، سواء من تصنيفه أو تصنيف غيره ، ومعظمها فى الحديث ؛ ودرس عليه أيضاً التاريخ والتراجم ؛ ودرس فى الوقت نفسه على كثير من شيوخ العصر ؛ ويعدد لنا السخاوى كثيراً من شيوخه ويقول لنا انهم بلغوا أكثر من أربعمائة ؛ بيد أن ابن حجر كان دائماً إمامه وشيخه المفضل ، وقد أذن له غير بعيد فى الاقراء والافادة والتصنيف ؛ ويقول لنا السخاوى إنه لم ينفك عن ملازمة استاذه ، ولا عدل عنه بملازمة غيره من علماء الفنون خوفاً على نقده ، ولا ارتحل الى الأماكن النائية بل ولا حج إلا بعد وفاته ؛ لكنه حمل عن شيوخ مصر الواردين اليها كثيراً ، وفى الأوقات التى لا تعارض وأوقاته سيما حين اشتغاله بالقضاء وتوابعه » . وقد لبثت هذه العلاقة الوثيقة بين التلميذ وشيخه حتى توفى ابن حجر فى أواخر سنة ٨٥٢ هـ[٢]

وهنا تبدأ المرحلة الثانية فى حياة السخاوى ؛ وهى مرحلة درس وتحصيل أيضاً ولكن خارج مصر . وكان السخاوى يومئذ فى الثانية والعشرين من عمره ؛ ولكنه كان رغم حداثته قد برز فى كثير من العلوم التى تلقاها ؛ وكان قد استأثر فى هذه الأعوام الطويلة التى قضاها إلى جانب ابن حجر بكثير من علمه ومعارفه ، وتأثر أعظم تأثير بأساليبه ومناهجه ؛ بل نستطيع أن نقول إن السخاوى كان بعد ابن حجر ، مستودع علمه وتراثه ؛ وكان أشد تلاميذه تمثيلاً لمدرسته ؛ بل كان بعد شيخه زعيم هذه المدرسة وأستاذها القوى يرفع لواءها ويحمل مناهجها حتى خاتمة القرن التاسع ؛ وقد أشار ابن حجر نفسه فى أواخر أيامه إلى

---

(١) كانت دار ابن حجر تقع بالقرب من المدرسة المنكوتمرية داخل باب القنطرة بحارة بهاء الدين أيضاً (خطط المقريزى ج ٣ ص ٨٤ والتبر المسبوك للسخاوى ص ٢٣٣)

(٢) راجع ترجمة السخاوى لنفسه فى كتابه الضوء اللامع — نسخة دار الكتب الفتوغرافيــة (رقم ٦٧٥ تاريخ) المجلد الرابع القسم الأول ص ٦٧ — وهى المشار اليها فيما يلى

(١) الضوء اللامع — المجلد السابق ذكره ص ٦٨ — وكذلك التبر المسبوك ص ٢٣٢

(٢) الضوء اللامع . ترجمة السخاوى لنفسه فى المجلد المشار اليه — (ص ٦٩) — والتبر المسبوك (ص ٢٣٢ و ٢٣٣)

تلك الحقيقة ، وكثيراً ما وصف السخاوى بأنه « أمثل جماعته » أو « ممثل جماعته » [١]

وسافر السخاوى عقب وفاة استاذه إلى دمياط ودرس على شيوخها حيناً ؛ ثم سافر مع والدته بحرا إلى مكة ليؤدى فريضة الحج ؛ وانتهز هذه الفرصة فدرس على شيوخ مكة والمدينة ، وطاف بالبقاع والمشاهد المقدسة كلها ؛ ثم عاد إلى مصر ، وسافر إلى الاسكندرية وقرأ بها مدى حين ؛ وزار معظم عواصم الوجه البحرى وقرأ على شيوخها الأعلام جميعاً ، وحصل كثيراً من الفوائد والمعارف . ثم رأى أن يقوم برحلة إلى الشام ليزور معاهدها، ويتعرف بشيوخها ؛ فسافر إلى فلسطين وطاف ببيت المقدس والخليل ونابلس ؛ ثم قصد إلى الشام ، وزار دمشق وحمص وحماه ، ثم استقر حيناً فى حلب ؛ كل ذلك وهو يدرس ويقرأ على أعلام هذه العواصم ؛ ويقول لنا إنه « اجتمع له فى هذه الرحلة من الروايات بالسماع والقراءة ما يفوق الوصف » ؛ ويبدو من تعداده للكتب التى درسها وقرأها فى هذا الطواف ، أنه كان يعنى بدراسة الحديث والقراءة والنحو والفقه وعلوم البلاغة والتصوف . ولم يعين السخاوى لنا تواريخ تنقلاته فى هذه الرحلة ، ولكن الظاهر أنها استغرقت بضعة أعوام

ولما عاد السخاوى إلى مصر ، عكف على التدريس ، ولا سيما تدريس الحديث ، أحياناً بمنزله ، وأحياناً بخانقاه (معهد) الصوفية المعروف بسعيد السعداء ؛ وكذا انتدب فى أوقات مختلفة للتدريس فى أعظم مدارس القاهرة كدار الحديث الكاملية والصرغتمشية ، والظاهرية ، والبرقوقية ، والفاضلية وغيرها ؛ وذاع صيته واقبل عليه الطلاب من كل صوب . وفى سنة ٨٧٠ هـ سافر مع أسرته ـ وكان قد تزوج يومئذ ورزق بعض الأولاد كما يفهم ذلك من إشارته إلى مولد ولده أحمد [٢] ـ ومع والده وأكبر أخويه إلى الحج للمرة الثانية ؛ وصحبه أيضاً فى تلك الرحلة صديقه وأستاذه النجم بن فهد الهاشمى ـ وكان من أعلام العصر . ودرس بمكة مدى حين ، وقرأ بالمسجد الحرام بعض تصانيفه وتصانيف غيره . ولما عاد إلى القاهرة استأنف دروسه واملاءاته ؛ وتبوأ مركز الزعامة يومئذ فى علم الحديث ، وشغل فيه نفس المركز الذى كان يشغله فيه استاذه ابن حجر قبل ذلك بثلاثين عاماً

(١) راجع « الكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة » (مخطوط دار الكتب) فى ترجمة السخاوى — وراجع شذرات الذهب (ج ٨ ص ١٥) (٢) الضوء اللامع — المجلد المشار اليه ص ٧٣

ثم حج السخاوى للمرة الثالثة فى سنة ٨٨٥ هـ ، وقضى بمكة عاماً فى التدريس والدرس ؛ ثم حج سنة ٨٧ وقضى ثمة حيناً فى الدرس والاقراء ؛ وحج للمرة الخامسة فى سنة ٩٢ هـ وقضى ثمة عاماً آخر فى الدرس والاقراء ؛ ثم حج فى سنة ٩٤ ، وقرأ الكثير من دروسه وتصانيفه ، وغدت مكة وطناً ثانياً له ؛ وكتب بها كثيراً من مؤلفاته كما سنرى

ولما عاد إلى القاهرة فى سنة ثمان وتسعين (٨٩٨ هـ) استقر بمنزله ، وأبى الدرس والأقراء فى المعاهد والحلقات العامة « ترفعاً عن مزاحمة الأدعياء » حسب قوله ، وترك الافتاء أيضاً واكتفى بالاقراء فى منزله لخاصة تلاميذه ؛ وكان السخاوى قد أشرف يومئذ على السبعين من عمره ، ولكنه استمر منكباً على الدرس والتأليف ؛ وكانت قد انتهت إليه الرياسة يومئذ فى معظم علوم عصره ، ولا سيما الحديث ، حتى قيل إنه فاق شيخه ابن حجر فى ميدانه ، وانتهى اليه فن الجرح والتعديل ، حتى قيل لم يبلغ أحد مكانته فيه منذ الحافظ الذهبى [١] ؛ وكانت شهرته قد تعدت حدود مصر منذ بعيد وذاعت فى أنحاء العالم الاسلامى ، ولاسيما فى الشام والحجاز حيث تلقى عليه مئات العلماء والطلاب ؛ ولبث السخاوى رغم مكانته العلمية الرفيعة ونفوذه القوى بعيداً عن ميدان السياسة ودسائس البلاط والمناصب الرسمية ؛ واقترح عليه صديقه الأمير يشبك الداوادار أن يقرأ التاريخ بمجلس السلطان الظاهر خشقدم [٢] فأبى ؛ ثم عرض عليه أن يتولى القضاء بعد ذلك ، فاعتذر وأشار بتعيين خصمه ومنافسه السيوطى رغم ما كان بينهما من الخصومات الأدبية الشهيرة [٣]

وأقام السخاوى حيناً فى القاهرة ؛ ثم سافر إلى مكة ليحج للمرة السابعة ؛ وعكف بعد أداء الفريضة على الاقراء والدرس ، وتردد حيناً بين مكة والمدينة ؛ ثم استقر أخيراً بالمدينة ؛ واستمر فى الاقراء بها حتى توفى فى ١٣ ذى القعدة سنة ٩٠٢ هـ (١٤٩٧ م) [٤] فى الحادية والسبعين من عمره

(للبحث بقية)

محمد عبد الله عنان
المحامى

(النقل ممنوع)

(١) شذرات الذهب ج ٨ ص ١٧

(٢) حكم من سنة ٨٦٥ — ٨٧٢ هـ

(٣) الضوء اللامع — المجلد المشار اليه — ص ٨٦ و٨٧

(٤) هذه هى رواية صاحب الكواكب السائرة ؛ ولكن صاحب شذرات الذهب يضع وفاته بمكة فى ٢٨ شعبان سنة ٩٠٢ هـ (ج ٨ ص ١٧)

مكتبتى

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

مكتبتى شىء عظيم جداً ـ ولست أعنى أنها كبيرة ضخمة ، وأن فى خزاناتى آلافاً مؤلفة من المطبوع والمخطوط . فما عندى مخطوط واحد ، ولا ولوع لى بجمع هذا الضرب من الكتب ، وما يمكن أن تبلغ كتبي الآلاف بعد أن احتجت أن أبيع منها مرات ، وإنى لمجنون بالكتب ، ولكن جنونى بما فيها لا بأشكالها وألوانها على رفوفها . وقد اعتدت الا أبالى أن يبقى الكتاب عندى بعد أن أقرأه أو أن يذهب ، ولم أكن كذلك ، ولكن المرء مما تعود . وعلى أنه سيان أن أحتفظ بالكتاب وأن أبيعه كما اشتريته ، أو أهبه ، فما الى الوصول اليه سبيل فى هذه الخزانات ، ولأهون علىَّ أن أشترى منه نسخة أخرى من أن أهتدى الى موضعه وأعرف أين اختبأ . ومتى كان هذا هكذا ، فما حرصى على كتاب يجاورنى ويهرب منى وأنا أدور بعينى على الرفوف ؟؟

وليس أثقل على ، ولا أشق على نفسى من الاقامة فى بيت واحد زمناً طويلاً ، ولو وكل الأمر لاختيارى لاتخذت كل يوم بيتاً ، ولكن الكتب راضتني على السكون وردتني على مكروهي ، فأنا الآن كالمقعد لا أكاد أتحول ، إلا أن أحمل على الانتقال حملاً ؛ ذلك أنى كلما سكنت بيتاً ، أروح أتخير للكتب أوسع الحجرات وأكثرها شمساً وهواء ، ثم أقول دعوا الصناديق والغرارات حتى أفتحها وأخرج ما فيها وأرتبه بنفسى ، فتترك شهوراً ، تنقلب الحجرة فى خلالها مزبلة ، فيتبرم أهلى ويلحون علىَّ أن أفرغ الصناديق

فأقول : « لا بأس . موافق »

فتسألنى زوجتى : « ومتى تفعل ؟ »

فأعدها خيراً ، فتلح علىَّ ، فأؤكد لها أنى فاعل ذلك غداً إن شاء الله

فتقول : « إن شاء الله معناها عندك أنك لن تفعل أبداً »

فأقول : « استغفرى الله يا امرأة ! إن شاء الله يعنى إن شاء الله ، أليس كذلك ؟ »

فتقول : « ولكني أريد تنظيف الغرفة ! ألا ترى هذا التراب ؟ »

فأقول : « صحيح ! كثير »

لأنى أحب أن أقر بالحق وأكره المكابرة ، فتهمل الثناء على ذلك وتقول :

« وهذه الصراصير ؟ والفيران ؟ لا . لم يعد هذا بيتاً يُسكن »

فأقول : « ألا أقول لك وأريحك ؟ »

فتقبل علىَّ مسرورة وتسألنى : « ماذا ؟ »

فأقول : « أفرغى أنت الصناديق ، ورصى الكتب على الرفوف ـ على أى ترتيب ـ وارفعى التراب ، واقتلى الصراصير ، وطاردى الفيران ـ وعلى الجملة ، نظفى الغرفة ـ هيه ؟ ما قولك ؟ »

فتوافق ، وأعود من عملى فألفى المكان نظيفاً ، فلا فيران ولا صراصير ولا تراب . ولا صناديق ، ولكنى أحتاج أن أرجع الى كتاب ، فأفتح خزانة بعد أخرى وأنظر الى ما تكدس على رفوفها فأرتد يائساً وأصيح بزوجتى :

« يا امرأة ! أين وضعت ابن الرومى ؟ » مثلاً !

فتقول : « عندك بالطبع »

فأسألها : « أواثقة أنت أنك لم تضعيه فى المطبخ ؟ »

فتقول محتجة : « المطبخ ؟ كيف تقول هذا ؟ أهذا جزائى على تعبى ؟ »

فأقول : « معذرة ، ولكنى لا أراه هنا »

فتقول : « ابحث عنه »

فأبحث ـ أعني أنى أروح أخرج من الخزانة صفاً بعد صف ، وأضع ما أخرج على الأرض هنا وههنا ، حتى تخور قواى ، وينفد صبرى ، ويهى جلدى ، وأنظر الى ما فرشت به الأرض فأجزع ، وأغافلها ـ أعني زوجتى ـ وأتسلل خارجاً ، وأرد الباب ورائى حتى لا ترى شيئاً

وأعود فى الليل ، وفى ظنى أنها نائمة ، وفى عزمى أن أعيد الكتب الى الرفوف ، فأفتح الباب برفق ، فاذا الكتب قد وثبت بقدرة ربك ، وصفت نفسها على الرفوف ، وتزاحمت ، ودخل بعضها فى بعض ـ خوفاً من الفيران وَلا شك ! فأتنفس الصعداء وأفرك كفىّ ، وأقول : « الحمد لله ! يا ما أكرمك يارب ! » وإذا بزوجتى تقول : « وآخرتها معك ! ألا يمكن أن تعيد كتاباً إلى موضعه بعد إخراجه ؟ ألا بد أن ينشف ريق

كل يوم بسبب هذه الكتب ؟ شيء غريب والله ! كيف ومتى يمكن أن أفرغ للبيت إذا كانت هذه الغرفة هماً لا ينقضي ؟ »

وأحب مرة أخرى أن أقرأ في كتاب ، فأدخل الغرفة ، فتدخل ورائي بجرى ، وتتناول ذراعي وتشدني فأستغرب وأسألها « ماذا ؟ »

فتقول بحدة « ماذا أنت ؟ »

فيزيد عجبي وأقول : « ماذا أنا ؟ ألا تعرفين ماذا أنا ؟ سيدك ياستى ! »

فتقول وهي تجاهد أن تعبس ، والضحك يغالبها : « دع المزاح الآن ! ماذا تريد أن تصنع ؟ »

فأقول « شيء جميل ! وكيف يعنيك هذا يا امرأة ؟ »

فتقول : « يعنيني مصير الغرفة — هذا ما يعنيني ياسيدى — ولست أنوى أن أدعك تقلبها مزبلة فقد ورمت كفاى من العمل فيها »

فأقول : « وماذا تصنع هـذه العجوز ؟ تأكل وتشرب فقط وتقبض أجرها آخر الشهر ؟ وهذه الفتاة الخفيفة لماذا لا أراها تعمل شيئاً غير اللعب مع الأولاد ؟ وتلك الثالثة . . . أهو بيت أم دكان مخدم ؟ أريد أن أعرف هذا أولاً »

فتقول : « لا تحاور . إن الكتب لا يمسها غيرى ، فانى أخاف عليها التمزيق . . »

فأشكرها ، فتقول : « العفو ! ولكني أخاف منك على الغرفة ، فاصنع معروفاً وارجع عنها »

فأسألها : ولكن كيف أرجع وأنا أريد كتاباً ؟ »

فتقول : « لا تتعبنى . . . من فضلك . . . أرجوك »

فأشعر لها برقة وأقول : « يا امرأة ! هل استطعت قط أن أرفض لك رجاء ! ؟ »

وأتبعها ، وأنصرف عن الكتب والقراءة ، وأعزى نفسى بأنى كنت سأنصرف لا محالة عن ذلك مرغماً ، فما أطمع أن أجد كتاباً أطلبه

من هنا صار المعقول أنى إذا اشتهيت أن أقرأ كتاباً أو أردت أن أراجعه ، أن أشتريه ، وقد أشتريه ، وأضعه على المكتب إلى المساء ، فتراه زوجتى فتفتح خزانة وتدسه فى صف ، وأعرف ماصنعت به ، فأشترى نسخة أخرى ، ومن أجل هذا أيضاً صار عندى من بعض الكتب ثلاث نسخ أو أكثر

وقال لى أخى مرة : « يحسن أن ترتب هذه الكتب »

قلت : « يا أخى ، كيف أصنع ؟ »

قال : « أجيئك ببطاقات ، تكتب فيها أسماء الكتب مرتبة على حروف المعجم ، فاذا طلبت كتاباً ، راجعت البطاقات ، فسهل عليك إخراجه »

قلت : « رأى سديد ـ هات البطاقات »

فجاءنى ببضع مئات منها ، ودفع بها إلىّ ، فنظرت اليها وشكرته ثم قلت له :

« أما البطاقات فجاءت ، وأما الكتابة فيها فأحسبها تقتضى أن أخرج الكتب واحداً واحداً ، وأقيد أسماءها ، ثم . . . »

فصاحت زوجتى : « لا لا لا لا ! أرجو . . . أرجو ألا تفعل . . . »

فالتفت اليها وقلت : « يا امرأة ! كيف ترضين عن هـذه الفوضى ؟ بل لا بد من الترتيب »

فقالت : « أنا واثقة أن الكتب لن ترتب . وكل مايحصل هو أن تخرجها وتكومها على الأرض وتتركها ، فيغطيها التراب ، وتجتمع عليها الصراصـــير ، فأعود إلى نفض التراب وطرد الصراصير . . . لا ياسيدى ! لن أسمح بهذا أبداً ! »

فنظرت إلى أخى وقلت : « أتسمع ؟ إنها لا تسمح ! فما رأيك ؟ »

قال : « الحق معها . ولو كنت أنا مكانها . . . »

فلم أدعه يتم الجملة وصحت به : « أعوذ بالله ! »

فشكرنى ، وقال « إنما أعنى . . . »

فعدت إلى مقاطعته وقلت : « دع ما تعنيه ، من فضلك ، وحسبك أنك نغصت علىّ حياتى ! »

فدهش وقال : « كيف ؟ »

قلت : « سأرى وجهك بعد الآن كلما نظرت إلى امرأتى . . . أعوذ بالله . . . ياساتر يارب . لطفك اللهم ! »

وقد حرصت على البطاقات ، لأقيد فيها أسماء الكتب مرتبة على حروف المعجم ، فما من هذا مفر ، ولكن العقدة أن زوجتى تؤثر الترتيب الحالى ، وقد بلغ من رضاها عنه وخوفها عليه أن يضطرب أو يفسد ، أنها أخفت مفاتيح الخزانات لا أدرى أين ؟ بارك الله فيها ـ أعنى زوجتى لا الخزانات

ابراهيم عبد القادر المازنى

ساعة فى البقيع *

للأستاذ على الطنطاوى

خرجنا اليه فى صُفرة الطَّفل، وقد سكرت الريح، وسجا المساء. وكان اليوم رَوْحاً، فما تجاوزنا أزقة المدينة الضيقة الملتوية وبدا لنا سور البقيع الهائل الذى أقاموه فى وجه مدينة الموت كيلا تبتلع مدينة الحياة ... حتى هبّت الرياح لواقح، فأنشأت سحاباً ما لبث أن اكفهر وتطخطخ وعمّ السماء، فأظلمت الأرض واسودّت، وعادت كئيبة تملأ النفس غماً. وكنا قد بلغنا البقيع، فرأيته موحشاً مظلماً رهيباً:

« قاتم الأعماقِ خاوى المخترق »

وشممت منه رائحة الموت، فهيبت دخوله فى هذه الأمسية، وأزمعت العودة، ولكن صاحبى أصرّ علىّ وشجعنى، ثم أخذ بيدى فاذا أنا وراء السور، وإذا ساحة فسيحة، ممتدة الجوانب، مظلمة الأرجاء، ساكنة سكون الموت، ليس فيها بناء ولا قبة ولا تابوت، كأنما لم يسمح لبشر أن ينصب فى حرم الموت معالم الحياة، أويدنس دار البقاء بشارات الفناء ... فأغمضت عينى، وشددت على ذراع صاحبى، وجعلت أدنو منه لما أجد من الوحشة وأحس من الجزع، وما عهدتنى من قبل أعرف الخوف أو أدرى ما الجزع، فسار بى يقودنى حتى هبط بى غوراً عميقاً، حال بينى وبين الفضاء، وحجب عنى السور الذى كنت أراه فآنس برؤيته، وأذكر أنها لاتزال وراءه دنيا حافلة بالنور والجمال والحياة ... فلم أعد أرى شيئاً، وامحت من خيالى كل صورة، وطارت من راسى كل فكرة، إلا فكرة الفناء، وصورة الموت، وأحسست وأنا أهبطه أنى هابط إلى القبر! وخيل إلىّ أن أشباح الموتى ترقص من حولى، وتدنو منى وتمسنى وتهمّ بعناق، فتقف كل شعرة فى جسمى، ويزداد قلبى خفقاناً، وتتخاذل ركبتاى حتى أهم بالسقوط، ويطنّ فى أذنى صوت رهيب مستطيل يلقى فى روعى أنه نشيد الفناء.... وكان كل مايحف بى مخيفاً رائعاً، فالقبور، والظلام الشامل، والسكون العميق، والسماء التى لا تطرف فيها من النجم عين، والمكان الذى لا تبلغه نسمة من نسمات الحياة، وجلال الموت، كل أولئك كان يخيفنى، ويصب فى قلبى الوحشة والفزع... ثم صاحت بومة على سور المقبرة... فاستمسكت بصاحبى وقلت: عد ويحك!

قال: كيف أعود وقد بدأت الزيارة... هذا قبر عثمان!

وكأن ذكر عثمان قد رجع إلىّ نفسى، فنظرت فلم أجد قبراً ولا شيئاً يشبه القبر، وإنما وجدت حجارة صغيرة قد صففت على وجه الأرض، وفرشت من حولها رمال حمراء ناعمة، كحوض أعدّ لتزرع فيه الورود، فقلت:

— أتهزأ بى يا ...

قال: لا والله. ولكنى أقول الحق. هذا قبر عثمان

قلت: يا لسخرية القدر! أتحرثون موضع قبر عثمان أمير المؤمنين لتزرعوا فيه الورود؟

قال: أى ورود؟ كل القبور هكذا...

قلت: لعلك أخطأت القبر. اذهب فاقرأ اسمه

قال: قد طمست الأسماء، فما عليه من اسم. ولكن ثق أنه هو. أعرفه من هذه الغضاة!

وأشار إلى غضاة قريبة منه لا أدرى كيف دخلت حرم الموت فأنست بها. وذكرنى الغضى دنيا مليئة بالصور، مترعة بالحياة نفت عنى بعض ما أنافيه من الغربة والجزع، فقلت:

— وكيف تعرف غيره من القبور؟

قال: ما أعرف إلا قبور آل البيت، وقد كنت أعرف قبر مالك فاختلط علىّ ونسيته، ولكن يعرفه إذا شئت (العم حَمَدْ) خادم المقبرة، وبعض الشيوخ من أهل المدينة...

* * *

وانقطع الحديث فقد استشرى البرق وائتلق، ورعدت السماء، ثم هطلت بمطر بُعاق قشر وجه الأرض. وجعل فيها بُرَكاً وأنهاراً، فلم نجد شيئاً يعصمنا من الماء نأوى إليه، إلا هذه الغضاة وما تكاد تعصمنا... والمطر فى الحجاز أعجب شىء رأيته: فبينا الشمس طالعة، والأرض مُتَسمِّرَة، واليوم خَدِر عصب، إذا السماء قد تلبدت بالغيوم، ودوّت بالرعد، والأمطار

* البقيع مقبرة أهل المدينة، وقد كتب هذا الفصل فى المدينة المنورة، وهو من فصول كتاب « الصحراء » الذى سيصدر قريباً فى وصف رحلة الوفد السورى إلى الحجاز

قد نزلت كأفواه القرب ، واليوم قد عاد قراً بارداً ، ثم لا تلبث حتى تنجلى السحب ، وتصحو السماء ، فتنظر فإذا الأرض قد بدلت غير الأرض ، وإذا السيول قد جرفت البيوت ، وخرّبت الطرق ، وطمست المعالم ، كما يطمس سطر سال عليه الماء ...

ولقـد ظنناها سحابة صيف ولـكنها لم تنقشع ، ولم تزدد الأمطار إلا شدّة وتهطالاً ، ولم يزدد الرعد إلا قعقعةً وقصيفاً ، حتى كأن الدنيا مجنونة ، عاودتها نوبتها ، فهى تصرخ وتقفز وتمزق ثوبها بيدها ، وتشق حَنجرتها بصُراخها ... بَيْدَ أنى لم أكن أحفل بالبرد ولا بالمطر ، ولم أكن أذكر الخوف ولا الجزع ، ولم أكن أفكر إلا فى هؤلاء الأبطال الذين فتحوا الدنيا ، وملـكوا العالم ، ثم ضنوا عليهم بقبر يعرف ، أو اسم يقرأ ، أفكر فى هؤلاء العظماء ...

... كم انحنت تحت أقدامهم هام الجلاميد الصُّم حتى وطئوها ، كم استكانت لهم هذه الرمال الهائلة حتى قطعوها ، كم دانت لهم البادية المهلـكة حتى جابوها ، ليخرجوا منها فاتحين إلى أرض الرياض والعيون ، فيبلغوها رسالة الصحراء ، وينشروا فيها دين الصحراء !

لقد انتصروا على البادية المهلكة ، والشمس المحرقة ، والجوع القاتل ، والعطش المميت ، والعدو الجبار ، والجيش الجرّار ، ثم انتصر عليهم البقيع ، فإذا هم مستقرون فى أحشائه ، وإذا هم قد ناموا فيها إلى الأبد ، فلن يذهبوا إلى الحرم ليقيموا الصلاة ، ولن يمتطوا ظهور جيادهم ليمشوا الى الجهاد ، ولن يحملوا الراية الاسـلامية لينصبوها على أقصى العالم ، ولن تستقبلهم زوجاتهم وأولادهم إذا عادوا ظافرين ، بل هم لا يرون طلعة الشمس ولا يبصرون صفحة القمر ، ولا يسيرون على وجه الأرض ...

انتصرت أيها البقيع ؛ فما وفيت ولا أنصفت ... جاءك الأبطال الذين فتحوا الدنيا ، ونشروا راية العدل على الأرض ، وأضاءوا طريق الهدى للناس ، ليستريحوا فى أرجائك ، ويناموا فى حماك ، فحرمتهم قبراً يعرف لهم ، وحجراً تكتب عليه أسماؤهم

ما نريد منك أن تنقش على قبورهم آيات التبجيل والثناء . فإن لهم من أسمائهم الـكبيرة ، غنية عن كل تبجيل وثناء (١) ، لـكنا نريد ألاّ تنسى هذه الأسماء .

سيموت الشيوخ الذين يعرفون هـذه القبور ، أفيرضيك أيها البقيع أن يأتى الجيل الجديد ، فيفتش عن هذه القبور فلا يجدها ، فيقول : هاتوا المعول ، هاتوا الأحجار ... ابنوا هنا ملعباً ! لا نجد فى المدينة خيراً من هـذه الساحة ، إنها لا تترك أرض سـدى ! ثم بينماهم يتقاذفون الـكرة ، إذا بهم يخطئون فيتقاذفون واحدة من هذه الجماجم ...

أنسيت أيها البقيع أن كل مسلم يحسّ أنه يملك فى هؤلاء الأبطال ملـكاً ، وأن هـذا الرفات ليس من حقك وحدك ، ولـكنه حق لـكل مسلم ولد أو يولد إلى يوم القيامة ... وأنك إن طمست هذه الأسماء ، حتى يجهلها المسلمون ، أسأت إلى كل المسلمين ؟

أنسيت أن أضيافك عظماء البشر ، أفتستحق العظمة هذا الاهمال الشائن ، وهذا النسيان المخزى ، أم ذنبهم أنهم لم يكونوا فرنجة ولا انكليز ؟ ! أفيكون البانتيون لأبنائه أوفى منك لأبنائك أيها البقيع ؟

إنه لم ينقص من مجدهم أنها لم تشيد لهم القبور ، ولم تنقش أسماؤهم على صفائح الحجر ، وحسبهم أنهم شيدوا مجداً وبنوا أمة وكتبوا تاريخاً ، فإذا نسى التاريخ أبطاله ومنشئيه ، فقِـدْماً نسى التاريخ الأبطال ! وهل ذكر التاريخ أولئك الجنود الذين سقوا الأرض بدمائهم حتى أنبتت مجـد نابليون فاقتطفه ؟.. هل ذكر أولئك القصاص الذين أهدوا إلى شكسبير قصصهم الرائعة فرواها ؟ هل ذكر أولئك الملاحين الذين غامروا بأرواحهم حتى أوصلوا كولومب إلى الساحل الجديد وأمسكوا بيده حتى نزل إليه ؟ .. ماذا كان نابليون وشكسبير وكولومب لولا أولئك الأبطال المجهولون الذين نسيهم التاريخ ؟

لا بأس أيها البقيع فإن البطل الحق هو الذى لا يعرفه أحد !

***

وازداد الرعد قَرْقَرَةً وهَزِيماً ، وعقّ البرق وتكلّح ، وأغدَقت السماء وجادت ، وعصفت الريح وأعجّت (١) وجنت الدنيا جنونها ، فنظرت فإذا السيل قد جرف قبر عثمان فلم يبق له من أثر ..! فقلت : اطبقى يا سماء ، وتشققى يا أرض ، وتصدعى يا جبال ... إن من ملـكوا العالم لا يجدون القبور ....

علي الطنطاوي

(١) ولا نريد أن تقام لهم هذه المقامات التى ترتكب عندها أنواع المعاصى ويؤتى فيها المنكر ، فنحن من أشد الناس إنكاراً لهذا

(١) تعمدنا اختيار هذه الألفاظ ليطابق الوصف الموصوف

القاضي النسوى

للأستاذ قدرى حافظ طوقان

ما أكثر الذين لم يوفهم التاريخ حقهم من البحث والتنقيب وقد أحاط بهم الغموض والابهام وراحوا ضحية الاهمال فلا ترى لهم اسماً فى الكتب التاريخية ولا ذكراً فى معاجم الأعلام والعلماء! من هؤلاء الذين كاد يطغى عليهم النسيان أبو الحسن على أحمد النسوى ، فهو من رياضيى القرن الخامس للهجرة من بلدة نسا بخراسان ، لم يكتب عنه إلا ما لا يشفى غلة المنقب ، وقد أهملته المصادر إهمالاً معيباً ، وإذا اطلعت على تاريخ الرياضيات (لسمث) وجدت عنه نبذة لا تتجاوز عشر كلمات : وهى أن النسوى ألف فى الحساب الهندى وشرح بعض المؤلفات لأرشميدس ؛ وتجد أيضاً فى كتاب آخر يبحث فى الأرقام الهندية العربيـة تأليف سمث وكاربنسكى : أن النسوى من الذين استعملوا كلمة الهندى لتدل على الحساب فى القرن الحادى عشر للميلاد . وأما كتاب الآثار الباقية فيقول عن النسوي إنه لم يتمكن من العثور على شيء عن حياته ، ومع ذلك فقد استطاع أن يكتب عنه بصورة أوسع من غيره من المؤلفين معتمداً فى ذلك على مقدمة كتاب المقنع لصاحب الترجمة . ومن هـذه الترجمة يفهم أن النسوى ينتسب لمجد الدولة بن فخر الدولة حاكم العراق الفارسى . ويقال إن مجد الدولة هذا طلب من النسوى أن يؤلف له كتاباً فى اللغة الفارسية يبحث فى الحساب الهندى على أن يكون موافقاً لديوان محاسبته يمكن الانتفاع منه ، وقد كان ما أراد الحاكم وخرج الكتاب إلى الناس فانتفعوا منه وعنه أخذوا الشيء الكثير لمعاملاتهم ؛ وقد اطلع شرف الدولة أمير بغـــداد على هذا الكتاب ، ويظهر أنه رأى فيه فائدة وانتفاعاً فأمر النسوى بأن يؤلف له كتاباً باللغة العربيـة يكون على نمط الكتاب المذكور ، وقد كان لشرف الدولة ما أراد ، فأخرج النسوى كتاباً سماه (المقنع) وقد وُفق فيه كثيراً ، فيقول عنه صالح ذكى : « إن المقنع هو نموذج حقيقى يدلنا على المرتبة التى بلغها الحساب الهندى فى العراقين العربى والفارسى فى أوائل القرن الحادى عشر للميلاد . . . » ولهذا الكتاب مقدمة ينتقد فيها الذين تقدموه من المؤلفين الرياضيين وينتقد فيها أيضاً معاصريه من واضعى كتب الحساب ، وينحى باللائمة على كل هؤلاء ويقول إنه وجد تشويشاً وتطويلاً فى الكتب الحسابية التى وضعها الكندى والانطاكى ، كما أنه وجد فى مؤلفات على بن أبى نصر فى الحساب تفصيلاً لا لزوم له ، وأن هناك كتباً أخرى (فى الحساب) للكلوازى فيها صعوبة وفيها التواء وفيها تعقيـد لا تعود على القارئين بالفائدة المتوخاة . ويقول أيضاً إنه لا يريد أن يجعل بحوثه فى كتابه تدور على موضوع واحد ، وأنه لا يريد أيضاً أن يحذو حذو الدينورى الذى ألف كتاباً عنوانه يدل على أنه كتاب يتناول موضوعات الحساب المختلفة بينما هو فى الحقيقة يتناول حساب النجوم فقط وليس فيه تعرض لأى فرع من فروع علم الحساب ، وهذا (على رأيه) مالا يجب أن يكون ؛ والنسوى لا يريد أيضاً أن يكون فى كتابه هذا مثل كوشيار الجيلى الذى وضع كتاباً فى الحساب تعب منه الايجاز وعنوانه لا يدل بحال من الأحوال على ما تضمنه من بحوث حسابية وأعمال رياضية

ولهذا كله (يقول النسوى) : فقد رأى الضرورة تدعوه الى أن يخرج إلى الناس كتاباً يتجنب فيه الأغلاط التى وقع فيها غيره من ايجاز يجعل المادة صعبة غير واضحة ، ومن اطناب يدخل إلى نفوس القارئين السأم والملل . وبالفعل أخرج للناس كتاباً كان فريداً فى بابه جمع فيه أحسن ما فى كتب المتقدمين والمعاصرين ، وقد أضاف اليه كثيراً من نظرياته ومبتكراته ، ووضع كل ذلك فى قالب سهل المأخذ لا صعوبة فيه ولا تطويل ، يمكن للطالب والتاجر والراصد ولكل من يريد الوقوف على أصول المعاملات المتنوعة فى الأمور الحسابية أن يستفيد منه ؛ ولقد جعل النسوى هذا الكتاب فى أربع مقالات ، تبحث الأولى فى الأعمال الصحيحة ، والثانية فى الكسور ، والثالثة فى الأعمال الصحيحة مع الكسرية ، والرابعة فى حساب الدرج والدقائق . فالمقالة الأولى تتناول الموضوعات التالية : أشكال الأرقام وترقيم الأعداد ، جمع الأعداد الصحيحة ، ميزان جمع الأعداد الصحيحة ، تضعيف الأعداد ، طرح الأعداد الصحيحة ، ميزان طرح الأعداد

الصحيحة ، تنصيف الأعداد الصحيحة وميزانها ، ضرب الأعداد الصحيحة وأنواعه ، ميزان ضرب الأعداد الصحيحة ، تقسيم الأعداد الصحيحة وأنواعه ، ميزان تقسيم الأعداد الصحيحة ، استخراج الجذر التربيعي للأعداد الصحيحة ، ميزان استخراج الجذر التربيعي للأعداد الصحيحة ، استخراج الجذر التكعيبي للأعداد الصحيحة وميزان استخراج الجذر التكعيبي للأعداد الصحيحة . وأما المقالة الثانية فتبحث فى الأبواب الآتية : ترقيم الكسور ، جمع الكسور ، طرح الكسور ، ضرب الكسور ، تقسيم الكسور ، استخراج الجذر التربيعي للكسور واستخراج الجذر التكعيبي للكسور . وتتناول المقالة الثالثة البحوث الآتية : الكسور المركبة وترقيمها ، جمع الكسور المركبة وطرحها وضربها وتقسيمها وكيفية استخراج الجذرين التربيعي والتكعيبي لها . وأما الرابعة فتتضمن ما يلى : أصول ترقيم الكسور الستينية وكيفية جمعها وطرحها وضربها وتقسيمها ، واستخراج الجذرين التربيعي والتكعيبي لها . ومن الاطلاع على محتويات هذا الكتاب يتبين للقارىء أن الكتاب قيم وفيه بحوث تفيد الناس على مختلف طبقاتهم فى متنوع معاملاتهم . ومما يدل على طول باع النسوى فى الرياضيات وعلو كعبه فيها اعتراف الطوسى بفضله وعلمه ، فقد كان يلقب النسوى بالأستاذ ، ولهذا اللقب أهميته عند الطوسى ، ولاسيما أنه من الذين يعرفون قيمة العلماء ومن الذين لا يخلعون الألقاب على الناس بدون استحقاق ؛ ولا عجب فى أن يكون هو من المعجبين بالنسوى المقدرين لنبوغه وعبقريته ، فلقد استفاد كثيراً من كتاب (تفسير كتاب المأخوذات لأرشميدس) فى مؤلفه (المتوسطات) وهذا الكتاب أى (كتاب التفسير) من الكتب التى كان لها أهميتها الكبيرة فى تاريخ الرياضيات ، وقد ترجمها إلى العربية ثابت بن قرة . قال صاحب كشف الظنون فى أسامى الكتب والفنون : « مأخوذات أرشميدس مقالة ترجم منها ثابت بن قرة خمسة عشر شكلاً وقد أضافها المحدثون إلى جملة المتوسطات التى يلزم قراءتها فيما بين أقليدس والمجسطى . . . » وكان للنسوى فخر تفسيرها وشرحها شرحاً دل على مقدرته وقوة عقله . . .

نابلس — قدرى حافظ طوقان

عرائس المولد النبوى

فى الأدب الفرنسى

للأستاذ م . هداية

أليس غريباً هذا العنوان ؟ أو ليس فيه إشارة لطيفة إلى تقصير أدبائنا ؟

هنرى تويل أديب فرنسى أقام فى مصر ردحاً من الزمن حتى جعلها فى أشعاره وطنه الثانى . وقد هام بجمال مصر وتقاليدها ، وسجل كثيراً من أعيادها القومية والدينية ، ووصف كثيراً من شوارعها وجوامعها الأثرية أبرع وصف . وله ديوان مطبوع باسم «شرق وأدب» حوى الكثير من الأسرار الساحرة فى مصر ، أحس بها هو ولم نحس بها نحن !

ولست هنا فى صدد تعريف هذا الشاعر الناثر أو تحليله ، وإنما قصدت أن أنقل إلى قراء (الرسالة) جزءاً من قطعة له كتبها سنة ١٩٢٣ على إثر جولة جالها ليلاً بشارع الموسكى فى مولد سيدنا الحسين — قال:

« . . . وعلى جانبى الجامع كانت الأنوار المنبعثة من دكاكين الحلوى تشع فى الليل المتأخر فتجعل منه ظهراً . وكانت هذه الحوانيت متقاربة متلاصـــقة : اتصل بعضها ببعض اتصالاً لا تقطعه ثغرة ، حتى لا ترى من مجموعها سوى نضد واحد ممتد . وقد غُطيت كلها بأنواع شتى من الحلوى : فمنها « الحمصية » وهى حلاوة رُصعت بالحمص ، و «السمسمية» وهى مثلها إلا أنها بالسمسم — وهذه كثيراً ما يتهافت عليها صغار التلاميذ فى الأيام العادية ، فيقبلون على شرائها من الباعة المتجولين كل يوم منجذبين اليها بلذاذة طعمها وبجمال النداءات ذات النغمة الساحرة التى يغنيها الباعة ، مع اللبن الملفوف حول خيوط رفيعة . . . ثم « الجوزية » وهى نوع تتلاشى أمامه « النوجا » الفرنسية وتحسدها عليه مدينة مونتلمار . . . يلى ذلك صفوف طويلة من « العرائس » تكاد تتشابك أذرعتها فتخالها فى مجموعها كأنها فى موكب !

عرائس جذابة ، عذارى من الحلوى ! أبكار توشك أن

تزف إلى عرسها قد صبوها صباً من السكر المذاب ! وقد صبغوا لهن ... خدودهن الصغيرة بشيء من « الأحمر . . . » ، وكحلوا عيونهن بالكحل الشرقي الساحر ، ثم ألبسوهن فساتين ساذجة لونت بألوان زاهية من أصباغ اليمن . وأما الشعر فقد رصع بأنواع براقة من الخرز الفضي الملون ، وحجاب رقيق من الشاش المهلهل النسج زين أيضاً بفتائل من القصب الوهاج ، وأشرطة من الورق المذهب ، قد أسدل بلباقة وكياسة على رأسها ، ثم تدلى بعضه إلى الأمام ليحجب عنك أيها المحب الشغوف وجهها الحلو الباسم ، فلن ترى جمال تقاطيعه إلا حين تكشف عنه بيدك - يوم الزفاف !

« كم حدثتني نفسي في هذه الساعة أن أحمل واحدة من هذه العرائس المصرية الصغيرة فأضمها إلى قلبي ، ثم أذهب بها هنالك ، في ركن منعزل ، نائياً عن أعين الناس ، بعيداً عن كل ضوضاء ، وفي هدوء وراحة نفس ، أسبل عيني ثم أضع شفتي على شفتيها الحراوين فأتذوق منهما شيئاً . . ! »

***

هكذا الشاعر يخلق من كل شيء جمالا

وبينما أنا أمر ليلة المولد بهذه « العرائس » تذكرت خيال هذا الشاعر فوقفت سابحاً في أحلامي . . .

ولكن جدة تقتاد حفيدين لها قد دفعتني على غير قصد واقتحمت الزحام . وبعد مساومة ليست بالطويلة خرجت تحمل « سريراً » صغيراً زين بأستار هفهافة من القماش الملون بالأحمر والمذهب والمفضض ، وأبت الطفلة إلا أن تحمل « عروستها » بنفسها ، وأما الطفل فقد حمل حصاناً أحمر عليه فارس . . .

هذا الثالوث المزاحم قد أخرجني من حلم ليدخلني في حلم آخر : الجدة فخور لأنها أنجزت تقليداً تعتبره مقدساً ، وهي مسرورة لأنها عاشت واشتركت في ذكرى الرسول للمرة السبعين

أما الطفلة فأي سرور يملأ قلبها ! انظر إليها وهي تجذب جدتها من ملاءتها لتسرع الخطى . . . فهي تريد أن تصل إلى البيت أسرع ما يمكن لترى أمها عروستها الجميلة وسريرها البديع ، وهي تريد أن تقابل صويحباتها زكية وتفيدة وإحسان لتقنعهن بأن عروستها أكبر .. وأنها تملك سريراً ..

وقد بلغ الثلاثة البيت ؛ فالجدة متذمرة لأنها لم تجد الدكاكين مزدانة بالثريات والبيارق الحمر والخضر والصفر مثل « زمان » .. ومحمود الصغير اقتنع مسافة الطريق بأن حصانه لا يستحق الاحتفاظ به طويلاً . . وأنه لا يحقق له أملاً واحداً من آماله : هل أستطيع أن أركبه وأضربه بالسوط ؟ .. إذن ... وبقضمة واحدة طير رأس الفارس بأسنانه ! ثم ابتدأ في رأس الجواد . . .

أما فاطمة فعروستها ستحيا عندها طول حياتها ، لأنها صورة منها ، ولأنها تمثل أحلامها الحلوة ، فهي قطعة من نفسها !

انظر إليها الآن وقد عادت فرحة بعد أن قابلت صويحباتها ، انظر إليها وقد جلست في انهماك ترتب السرير « لعروستها »

استمع إليها الآن وهي تغني لها بصوتها العذب الحلو غير الفصيح أنشودة من أناشيد الزفاف !

انهض ياشاعري العزيز وتعال مسرعاً ، ثم انصت في جلال . تعال يا شاعري « فهنا سحر وجمال ! »

م . هداية



١٧ ـ قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

بستور Pasteur

صـــلة حديثه

وأخذت حياة بستور تصير إلى غير ما عَـهِد العلماء من حياةٍ قابعة قاسية . وأصبح يجرى تجاريبه ليجيب بها على ما قام حول نظريته الجرثوميّة من اعتراضات كثيرة ، فكانت إجابات قوية مفحمة رنّانة دوت أصداؤها فى الجماهير ، لأنها أجريت لتنقع غُـلّة الجماهير أكثر مما تنقع غـلّة العلم الهادئ والبحث الرزين . ولـكن على الرغم من استدراجه العلمَ إلى الأسواق وسحبه إلى غُمار العامة ، كانت تجاريبه رائعة الصنع محذوقة الاجراء ، وكانت كأقباس من نار مست خيالات الناس فألهبتها ، وآمالهم فأحيتها

وجلب على نفسه خصومة صخابة أقامها بينه وبين رجلين فرنسيين طبيعيين Naturalists يدعى أحدهما إفريمى Fremy والآخر إتريكل Trecul ، دارت حول الخمائر والطريقة التى بها تحيل عصير العنب خمرا . فأقرّ «إفريمى» بأن الخمائر لابد منها لهذه الاحالة ، ولـكنه ادّعى أن هذه الخمائر تنشأ من ذات نفسها فى باطن العنب ، وقام فى الأكادمية يناقش هذه الدعوى فى جهالة فسخر أعضاؤها منه وضحكوا جميعاً ، إلا بستور فكان من المحنقين

« إفريمى يقول إن هذه الخمائر تنشأ داخل العنب من ذات نفسها ! إذن فلأصنع له تجربة تقطع لسانه » . وأخذ بستور عدة قوارير مستديرة ، ووضع فيها شيئاً من عصير العنب ، ثم مط رقابها ولواها كأعناق الأوز ، ثم أغلاها دقائق وتركها أياماً ثم أسابيع ، فلم تظهر فى العصير فقاقيع ، ولم يعله رغاء ، ولم يختمر أصلا ؛ ثم ذهب إلى كرمة فقطف منها بضع عنبات بلغت النضج ولم تَعدُه ، وغسل ظاهرها بماء نقىّ بقلم من الشَّعر عقمه بالتسخين قبلا ، وأخذ قطرات من ماء الغسول ونظرها تحت المجهر فوجد بها قليلا من كرّيّات الخمائر المعهودة . وعندئذ أخذ عشراً من تلك القبابات الملتوية الأعناق ، وبمهارة فائقة لحم فى جانبها أنبوبة مستقيمة طويلة ، ومن هذه الأنبوبة أسقط قطرات من ماء الغسول ذى الخمائر . ولما جاء القبابات بعد أيام وجدها جميعاً مرغية إلى عنقها رغوةً تضرب إلى الحمرة دليل اختمار طيب مرضى . وتبقى من ماء الغسول بقيـة ، فأغلاها وأسقط قطرات منها فى عشر قبابات أخرى فلم يحدث فيها اختمار لأن الاغلاء قتل الخمائر

قال بستور : « الآن وقد أثبتُّ أن الخمائر توجد على ظاهر العنب ، سأثبت لهذا الجاهل إفريمى بتجربة رائعة أن هذه الخمائر لا توجد فى باطن العنب » ، وأخذ أنبوبة جوفاء رفيعة كان قد أسخنها فى النار ليقتل ماقد يكون علق بها من أحياء ، ثم سدّ طرفها ، وكان رفيعاً حاداً ، فرفعـه برفق إلى داخل عنبة خارقاً جلدها ، ثم كسر هذا الطرف داخلَ العنبة فاندفع بعض عصيرها فى الأنبوبة ، وبمهارة ولباقة لا تبارى نقل هذا العصير إلى قبابة بها عصير عنب كان قد عُقم بالتسخين . ورجع اليها بعد أيام فما وقع بصره عليها حتى صاح : « لاحياة لأفريمى بعد اليوم ، فعصير العنب بالقبابة لم يختمر ، وبطن العنب خلو من الخمائر » . ثم استطرد فنطق بقضـية جامعة شاملة ؛ قال : « إن المكروبات لا تنشأ من ذات نفسها فى بطون الأعناب وديدان الخز وأجسام الحيوانات الصحيحة ، وهى لا توجد فى دم الحيوان ولا فى بوله . فان هى وجدت فى شىء من ذلك فانما دخلت اليه من الخارج » ولـكأنى بك تسمعه يتحدث إلى نفسه : « وستعلم الدنيا قريباً ماتؤدى اليه هذه التجربة البسيطة من إحداث معجزات بليغة »

— ٨ —

ولم يمض وقت طويل على هذا حتى ظهر أن أحلام بستور لم تـكن أضغاثاً ، وأن ماخاله من امّحاء الأمراض على ظهر الأرض لم يكن أملاً جامحاً . فجاءه كتاب من الجرّاح الاسكتلندى « لستر » Lister يذكر فيه إعجابه الشـديد به وسروره الـكثير بأعماله ، ويصف له فيه طريقة جديدة لفتح أجسام المرضى وإجراء العمليات الجراحية فى نجوة من ذلك الوباء الخفى الذى اعتاد أن يذهب فى المستشفيات بحياة ثمانية من كل عشرة من الرجال والنساء . كتب له لستر يقول : « فأنا أستميحك فى أن أشكرك

شكراً خالصاً إذ هديتني بأبحاثك المجيدة إلى الحق فى أمر هذه الجراثيم التى تسبب التعفن والفساد ، وأرت لى السبيل إلى النظرية الوحيدة التى لا ينجح تعقيم إلا بها . وإذا أنت تحملت المشقة فزرتنا فى أدنبره فسوف لا تأسف على هذه الزيارة إن شاء الله ، لأنك سترى بعينك فى مستشفياتنا كثيراً من الخلق المساكين قد استفادوا استفادة كبرى من أعمالك »

ففرح بستور بهذا الخطاب فرح الطفل أنجز تركيبَ قاطرة فدار بها على إخوانه يريهم ما صنعت يداه . ولم يكتف بهذا بل نشر الكتاب بكل مديحه فى المجلات العلمية ، وزاد فنشره فى كتاب له عن البيرة ! ! ولم يشأ أن ينقضى هذا الحادث دون أن يَلكُم إفريمى المسكين لكمة أخيرة ، وقد يحسب حاسبٌ أن تجارب بستور كان فيها لأفريمى لكمات مشبعات كافيات . ولم ينل من إفريمى نيلته الأخيرة بذمه ، وإنما نالها بمدح نفسه وتمجيد تجاربه والثناء على نظرياته . قال : « إن محك النظريات مقدار إثمارها وكمية نفعها » . وصمت إفريمى فلم يحر جواباً

وشغل حديث المكروب أوروبا كلها ، وعلم بستور أنه هو الذى وجه أنظار الناس إلى المكروب وإلى خطورته فلم يعودوا ينظرون اليه نظرتهم إلى اللُّعبة الغريبة المسلية ، بل عرفوا مقدار نفعه لبنى الانسان واستيقنوا من ذلك ، وكانوا على وشك أن يعرفوا مقدار ضرره لبنى الانسان كذلك ، وكيف أنه على صغره يعيث فيهم تلصصاً واغتيالاً . وأولت فرنسا بستور شرفاً كبيراً إذ نصّبته أولَ رعاياها . وشرفته الأمم -- حتى بلاد الدنارك أقام خمّاروها له التماثيل فى معاملهم وأثنوا عليه خيراً

ومات فجأة « كلود برنار » Claud Bernard ، فقام أصدقاء هذا الرجل الكبير بنشر مؤلف له لم يبلغ تمامه ، وكان مؤلفاً فى تخمر عصير العنب ، ختمه برنار بدحض نظرية بستور كلها وعزز دعواه بأسباب عدة ، وبلغ بستور الخبر فلم يصدق أذنيه . برنار يفعل هذه الفعلة ! برنار العظيم ، جليسه فى الأكاديميه ومطريه ومطرى أعماله دائماً ! برنار الذى سارقه الضحكات وبادله الغمزات وناقله الفكاهات فى أكاديمية الطب عن أولئك الأطباء ذوى الثياب الزرقاء ، والأزرار النحاسية الصفراء ، والأنوف الوارمة والرؤوس الجوفاء ، أولئك الأطباء الذين قاموا حجر عثرة فى سبيل دخول التجربة الصحيحة إلى الطب والتطبيب ! وأخذ بستور يتمتم لنفسه : « ناقضنى هؤلاء الأطباء الأغبياء ، وناهضنى أولئك الطبيعيون الحمقى ، وكان فى هذا من السوء ما فيه . ووازرنى العلماء ، ومجّد أعمالى الكبراء ، فما بال برنار يأتى اليوم بالذى أتاه . . ؟ »

ذُهل بستور ، ولكن لم يطل به الذهول . وقام يطلب أصولَ المؤلَّف والأوراق ذاتها التى خطها برنار بيده ، فأعطوه إياها . فقعد يجمع أشتات فكره لدراستها ، فوجد أن ما صنعه برنار لم يكن إلا مبادئ تجريبية ومحاولات تقريبية . وسرّه وأبهجه أن كشف أن أصدقاء برنار لم ينشروا ما كتبه بنصه كاملاً ، بل زادوا وحذفوا ، فأحكموا الحذف وحذقوا الزيادة ، كىّ يستقيم الكتاب ويصحّ لدى القارئين . وذات يوم قام فى الأكاديمية ففرّ أعضاءها ، وأساء الى رجالات فرنسا إذ أنحى باللوم اللاذع القبيح على أصدقاء برنار لتهجّمهم بنشر كتاب يجرؤ على التشكك فى نظرياته ، وإذ صرخ صرخات عنيفة مرذولة إلى برنار ، وبرنار فى قبره لا يستطيع دفعاً عن نفسه ، وعقّب على هذا بنشر رسالة فى نقد أبحاث صديقه القديم ، رسالة أعوزها الذوق السليم ، رسالة تتهم برنار — وهو رجل عالم من قمة رأسه إلى أخمصه — باقتباسه الخرافة من كثرة صحبته للأدباء النابهين من أعضاء الأكاديمية ، رسالة تحاول أن تثبت أن برنار فى آخر أبحاثه كَلّ بصره فلم يعد يرى الأشياء ، وتهزأ به فتقول احتمالاً إن بصره طال طولاً لم يَمُدّ معه يرى الخمائر القريبة . وألحّ بستور فى هذا النقد حتى ترك العامة تحسب أن برنار أصابه خرف الشيخوخة فى آخر أيامه عندما كتب كتابه هذا . وفقد بستور الحسّ بالحسن والقبيح ، وفقد مقاييس اللياقات ، فأخذ فى ثورته يدق بقدميه على قبر برنار دقات ثقيلة كادت تُقلق جثته تحت التراب

وأخيراً ثاب إلى رشده ، وسلك فى رده على برنار السبيل التى يؤثرها كل عاقل على مقالة السوء ولغو الكلام . تلك سبيل التجربة . فأجرى تجارب غاية فى الإبداع . وجرى على طريقة الأمريكيين إذا هم أرادوا بناء ناطحة من ناطحات سحابهم فى ستة أيام . فهرع إلى مخازن البيع فاشترى قطعاً من الزجاج

عظيمة ، وهرع إلى النجارين ، وطلب اليهم أن يصنعوا من هذا الزجاج بيوتاً كمرابى النبات يَسهُل حملها ويُستطاع نقلها وتركيبها . وقام على أعوانه يستحثهم فى انجاز قبابات وتجهيز مكرسكوبات وتعقيم لفافات من القطن ، فنسوا الطعام وعَزَّهم النوم . وفى وقت بالغ القصر جمع كل هذه الأشياء وسافر بها الى بيته العتيق فى جبال الجورا . ونفض يده فى أثناء ذلك من كل عمل ، وأشاح بوجهه عن كل اعتبار ، واتجه بكل نفسه قُدُماً الى اثبات أن نظريته فى التخمّر نظرية صحيحة

وما بلغ بلدته أربوا حتى ذهب إلى كَرْمته ، ولم يُضع وقتاً سُدى ، فقام على بيوت الزجاج التى جاء بها فنصبها على بعض أعنابه فحجبتها عن الهواء الخارج حجباً محكما . وأخذ يفكّر : « هذا الصيف قد تنصّف ، والعنب لايزال فجاً ، وأنا أعرف أن العنب فى هذا الوقت لايحمل على جلده خمائر أصلاً » . وأراد أن يزيد وثوقاً من ذلك ، فلفّ بعض العناقيد فى بيوت الزجاج بلفافات القطن التى كان سخنها مساعدوه ليقتلوا ما عاق بها من الأحياء . وأسرع فى العودة إلى باريس واصطبر بها على أحر من الجمر حتى ينضج العنب ، ونفد صبره يوماً فجاء أربوا وكله أمل أن يثبت أن برنار كان خاطئاً ، ولكنه وجد العنب لايزال فجاً فعاد خائباً . ونضج العنب أخيراً ، فأخذ يمتحن جلود العنب ببيوت الزجاج تحت المجهر ، فلم يجد عليها خميرة واحدة . وقام من على المجهر ثائراً ، فأخذ شيئاً من هذا العنب فعصره فى قبابات أجاد تسخينها لتعقيمها ، وتركها فلم تظهر فى عصيرها فقاعة للتخمّر واحدة . وعصر عنباً من كرمة خارج بيت الزجاج ، فهذا استحال عصيره الى خمر سريعاً . وما انتهى من هـذا حتى جمع بعض تلك العناقيد الطهور الخالصة من الخمائر ، واعتزم ليحملنها الى الأكاديمية ويهدى كل عضو أحب عنقوداً ، ثم يتحداهم أجمعين أن يخرجوا من هذه العناقيد المصونة خمراً . . . وقد أيقن أن هذا محال إلا إذا هم أدخلوا الخمائر اليها . . . وأمّل من وراء كل هذا أن يثبت لهم أن برنار خانه الحظ فى الذى قال ، وركبوا القطار الى باريس ، وظلت مدام بستور المسكينة فى جلستها الطويلة مستقيمة الظهر تحمل أمامها عناقيد العنب حذر أن تسقط لفائف القطن عنها

وجاء موعد انعقاد الأكاديمية ، فقام بستور يصف لرجالها كيف صان عنبه من الخمائر فلم تنلها . وصاح فيهم : « أليس عجيباً أن أرض كرمتى يوم بدأتُ تجاربى لم تكن بها حصوة إلا استطاعت أن تخمّر عصير العنب ! وما يصدق على كرمتى يصدق على كروم الدنيا الواسعة . ثم أليس عجيباً بعد هذا أن بيوت الزجاج التى نصبتها خلت أرضها من الخمائر فلم تستطع لعصير العنب تخميرا ! ثم أتدرون لماذا ؟ لأنى فى الوقت المناسب حجبت هذه الأرض عن الهواء بتلك البيوت من الزجاج ! . . . »

وخرج من هذا إلى نبوءات عجيبة ، إلا أنها على غرابتها قد تحققت اليوم . نبوءات كالوحى ، وخيالات كالشعر ، تجعلك تنسى خصومته القبيحة المرذولة التى أثارها على برنار . قال : « أفلا يجوز لنا بعد هذا أن نؤمن بيوم هو لا بد آتٍ يستطيع فيه الانسان أن يحمى نفسه من الوباء حماية أرض هذه الكرمة من خمائر الهواء » . وكانت الحمى الصفراء أصابت أُرْليانز الجديدة New Orleans فتركت عامرها خراباً ، فقام يصوّر لهم تلك النازلة الفادحة تصوير فنان ماهر ، وصور لهم كذلك فعل الطاعون الأسود على شواطئ القلجا ، فلما روعهم وقشعر أجسامهم ، ضرب نغمة جديدة سرت فيهم بالرجاء

وفى هذه الأثناء ، فى قرية صغيرة فى شرق ألمانيا كان طبيب بروسى صغير السن ، مدوّر الرأس ، حرونٌ ، آخذ فى ترسم الطريق الذى يؤدى به إلى نفس تلك النبوءات التى تنبأ بها بستور هذا الدكتور الشاب كان يسارق مرضاه الوقت ليفرغ لتجارب يجريها على الفئران ، وليستخرج طرائق فى معالجة المكروب يتعرف بها شخصية كل نوع فلا تختلط عليه أجناسها ، وليأتى بأمر لم يستطع بستور اتيانه على رغم حذقه وعلوّ كعبه

والآن ، فلندع بستور الى حين ، ولنقف عند هذه المرحلة من حياته ، ولو أنها مرحلة ستأتى من بعدها تجارب قام بها بستور كانت من أروع ما قام به فى حياته ، ومناقشات أثارها كانت من أفكه المناقشات ؛ لندع ذلك لنعرج إلى روبرت كوخ Robert Koch لنرى كيف غزا دولة المكروب وقد كانت وقفاً على بستور سنين طوالا

(يتبع)

أحمد زكى

٢٦ـ محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون او خلود الروح

ترجمة الاستاذ زكى نجيب محمود

ـ حدثنى إذن ماهو الشىء الذى يجعل الجسم حياً بحلوله فيه ؟

فأجاب : هو الروح

ـ أهذه هى الحال دائماً ؟

فقال : نعم ، بالطبع

ـ إذن فمهما يكن ما تملكه الروح ، فانها إذ تأتيه تحمل إليه الحيـاة ؟

ـ نعم ، يقيناً

ـ وهل ثمت ضد للحياة ؟

فقال : نعم هناك

ـ وما هو ذاك ؟

ـ الموت

ـ إذن فلن تقبل الروح أبداً ، كما اعترفنا ، ضد ذلك الذى تسوقه . ثم قال : والآن ، بماذا سمينا ذلك العنصر الذى يقاوم الزوجى ؟

ـ الفردى

ـ والعنصر الذى يقاوم الموسيقىّ أو العادل ؟

فقال : غير الموسيقىّ وغير العادل

ـ وبماذا نسمى ذلك العنصر الذى لا يقبل الموت

فقال : الخالد

ـ وهل تقبل الروح الموت ؟

ـ كلا

ـ إذن فالروح خالدة ؟

فقال : نعم

ـ أيحق لنا القول بأن ذلك قد ثبت بالدليل ؟

فأجاب : نعم يا سقراط ، لقد ثبت بأدلة كثيرة

ـ وإذا فرضنا أن الفردىّ لا يخضع للفناء ، أليس يلزم أن ثلاثة غير قابلة للفناء ؟

ـ طبعاً

ـ وإذا كان الشىء البارد غير قابل للفناء ، ثم جاء العنصر الدافىء يهاجم الثلج ، أفلا ينبغى للثلج أن يتراجع متماسكا متجمداً لأنه عندئذ يستحيل عليه أن يفنى كما كان يستحيل عليه أن يبق مع قبوله للحرارة ؟

فقال : حقاً

ـ وكذلك لو كان العنصر الذى لا يبعث البرودة ، أى الدافىء ، مستعصياً على الفناء ، لما فنيت النار وما انطفأت حين تغير عليها البرودة ، ولـكنها تنأى بغير أن تتأثر ؟

فقال : يقيناً

ـ ويمكن أن يقال هذا القول نفسه عن الخالد : لو كان الخالد مستعصياً كذلك على الفناء ، لاستحال فناء الروح حين يهاجمها الموت ، إذ يدل البرهان السابق على أن الروح لن تـكون قط ميتة ، فلن تقبل الموت أكثر مما تقبل ثلاثةٌ أو العددُ الفردىُّ الزوجىَّ ، أو النار ، أو الحرارة التى فى النار ، البرودة ، ومع ذلك فرب أحد يقول : « ولـكن على الرغم من أن الفردى لن يصير زوجياً حين يقترب الزوجىُّ منه ، فلماذا لا يجوز أن يفنى الفردى وأن يحل مكانه الزوجى ؟ » ونحن لا نستطيع أن نجيب من يتقدم بهذا الاعتراض بأن العنصر الفردى مستعص على الفناء لأن ذلك لم يعترف به بعد ، فلو قد اعترف بهذا لما أشكل علينا الزعم بأن العنصر الفردى والعدد ثلاثة يهمان بالرحيل حين يقترب الزوجى ، وهـذا البرهان بعينه كان يصح عن النار وعن الحرارة وعن أى شىء آخر

ـ جد صحيح

ـ ويجوز هذا القول نفسه عن الخالد : لوكان الخالد مستعصياً كذلك على الفناء ، إذن لـكانت الروح مستعصية على الفناء كالخالد سواء بسواء ، فان لم يكن ، وجب أن يقام برهان آخر على استحالة فنائها

فقال : ليس بنا من حاجة إلى برهان آخر ، إذ لو كان الخالد ـ وهو سرمدى ـ عرضة للفناء ، للزم ألاّ يستحيل الفناء على شىء

فأجاب سقراط : نعم ، فكل الناس مسلّمون بأن الفناء مستحيل على الله وعلى صورة الحياة الروحية وعلى الخالد بصفة عامة

قال : نعم ، كل الناس بذلك مسلمون ـ هذا صحيح ، وأكثر من هذا ، فهم مجمعون ـ إن لم أكن مخطئاً ـ على أن الآلهة كالناس فى ذلك

ـ وإذن فما دمنا قد رأينا أن الخالد لا يناله التخريب ، أفلا يلزم أن تكون الروح مستعصية على الفناء كذلك ـ ما دامت خالدة ؟

ـ بكل تأكيد

ـ إذن فحين يهاجم الموت انساناً ، فقد يتعرض الجزء الفانى منه للموت ، أما الخالد فينأى عن طريق الموت حيث يُحفظ مصوناً سليما ؟

ـ حقاً

إذن يا سيبيس فالروح خالدة بغير شك ، وهى مستعصية على الفناء ، وستحيا أرواحنا حقاً فى عالم آخر !

فقال سيبيس : إنى مقتنع يا سقراط ، وليس لدىّ بعد ذلك ما أعترض عليه . فان كان عند صديقى سمياس ، أو عند أحد سواه اعتراض آخر ، فيجمل به ألاّ يلتزم الصمت وأن يعلنه . اللهم إن كان لديه شىء يريد أن يدلى به ، أو كان يود لو أدلى به ، فلست أرى أن سيجود عليه الدهر بأنسب من هذه اللحظة ، حتى يجوز له أن يرجئ اليه الحديث

فأجاب سمياس : ولكن ليس عندى ما أقوله بعد ذلك ، بل لست أرى مجالاً للشك ، إلا ما ينشأ حتما عن ضخامة الموضوع وضعف الانسان ، فذلك مالم يسعنى إلا أن أشعر به

فأجاب سقراط : نعم ياسمياس فقد أحسنت قولاً : أضف إلى ذلك أن المبادئ الأولى يجب أن تبسط للبحث الدقيق حتى وإن كانت تبدو يقيناً ، فاذا ما استوثقنا منها وثوقاً مرضياً ، استطعنا بعدئذ ، فيما أظن ، فى شىء من الايمان المزعزع بالعقل البشرى ، أن نتتبع مجرى البرهان ، فان ألفيناه واضحاً لم يكن بنا بعد ذلك حاجة لسؤال

فقال : ذلك صحيح

(يتبع) زكى نجيب محمود

أبو العباس أحمد المقَّرى

١٠٤١ هـ – ١٦٣١ م

بقلم عبد الهادى الشرابى

تتمـــة

هـذا ولا نثني عنان القلم دون أن نشير إلى تلك القصة الشعرية الاستعراضية لحوادث الدهر وأيام الأول ، وهى طويلة نجتزىء منها ببعض فقرات يقول فى فاتحتها :

سبحان من قسم الحظو ظ فلا عتاب ولا ملامه
أعمى وأعشى ثم ذو بصر ، وزرقاء اليمامه
ومسدد ، أو جائر أو حائر يشكو ظُلامه
لولا استقامة من هدا ه لما تبينت العلامه

***

... فالعيش فى الدنيا الدنيـــة غير مرجو الادامه
من أرضعته ثديها فى مرعة تبـدى فطامه
من عز جانبه بهـا تنوى على الفور اهتضامه
وإذا نظرت فأين من منعتْه أو منحتْ مرامه
... أين الذين قلوبهم كانت بها ذات استهامه
أين الذين تفيئوا ظل السيادة والزعامه
أين الملوك ذوو الريا سة والسياسة والصرامه
... أم أين عنترة الشجـــاع وذو الجدا كعب بن مامه
والزاعمون بجهلهم أن القبور صدى وهامه[1]
والمكثرون من المجو ن إذا شكا الفكر اغتمامه
أين الغريض ومعبد أو أشعب وأبو دلامه
أين الألى هاموا بسعـــدى أو بُثينة أو أمامه
وبكوا لفرط جواهمُ والليل قد أرخى ظلامه
وتتبعوا آثار من عشقوا بنجد أو تهامه
وتعللوا ، والشوق يغـــلب ، بالأراكة والبشامه

(١) يقول ذو الاصبع العدوانى :
ياعمرو إلا تدع شتمى ومنقصتى أضربك حتى تقول الهامة اسقونى

... وسقاتها المتلاعبـــون بلب من أعطوه جامه
من كل أهيف يزدرى بالغصن إن يهزز قوامه
ذى غرة لألاؤها يمحو عن النادى ظلامه
فالشمس فى أزراره والبدر فى يده قلامه
يصمى القلوب إذا رمى عن قوس حاجبه سهامه
ويروق حسنا ان رنا ويفوق[1] آراما برامه[2]

ثم يشكو صروف الدهر وفجائعه بفخر الأدب « ذى الوزارتين لسان الدين بن الخطيب » :

راعت صروف الدهر دو لته ، وما راعت ذمامه
حتى ثوى إثر التوى فى حفرة نثرت عظامه[3]
من زارها فى أرض « فا س » أذهبت شجوا منامه
إذ نبهته لكل شمـــل شتت الموت التئامه
هذا لسان الدين أســكته وأسكنه رجامه
ومحا عبـارته فمن حياه لم يردد سلامه
فكأنه ما أمسك الا قلم المطاع ولا حسامه
وكأنه لم يعلُ متـ ن مطهم بارى النعامه
وكأنه لم يرق غا رب الاعتزاز ولا سنامه

***

. . . مذ فارق الدنيا وقو ض عن منازلها خيامه
أمسى بقـــبر مفرداً والترب قد جمت عظامه
من بعـــد تثنية الوزا رة ، جاده صوب الغمامه
لم يبق إلا ذكره كالزهر مفـــتر الكمامه

— ٤ —

وله فى الشعر المنثور رسائل بليغـــة ، ومساجلات أدبية رائقة ؛ ويكفى أن نلقى نظرة على كتابه الحافل « نفح الطيب » الذى هو سجل لألوان الأدب الأندلسى ، وديوان لأخبارهم وطرائفهم ، والذى تدين له العروبة والتاريخ والأدب والفن بأكبر الفضـل فى جمع أشتاتها ، ونظم متناثرها ، نخلد بعمله ذاك

(١) آرام : جمع ريم وهو الظبى
(٢) رامه : موضع بالبادية تـكثر فيه الظباء
(٣) إذ بلغ من كيد أعدائه أن اقتحموا عليه السجن فخنقوه ثم وضعوه فى قبر وحرقوا جثته فصار طعاما للنار كما يقول عن هـذا متنبئا :
وكنا عظاما فصرنا عظاما وكنا نقوت فها نحن قوت

صوراً حية من الحضارة الأندلسية ، ومدنية العرب فى أوربا « من مطالع فجرها حتى مغرب شمسها » ! . . .

وإليك ما يقول فى وصف البحر حين نزوحه عن مسقط رأسه الى ديار الشرق والحجاز :

« . . . ثم جد بنا السير فى البر أياماً ، ونأينا عن الأوطان التى أطنبنا فى الحديث حبالها وهياما ، وكنا عن تفاعيل فضلها نياما ، الى أن ركبنا البحر ، وحللنا منه بين السحر والنحر ، وشاهدنا من أهواله ، وتنافى أحواله ، مالا يعبر عنه ، ولا يبلغ له كنه . فكم استقبلتنا أمواجه بوجوه بواسر ، وطارت الينا من شراعه عقبان كواسر ، قد أزعجتها أكف الرياح من وكرها ، كما نبهت اللجج من سكرها ، فلم تبق شيئاً من قوتها ومكرها ، فسمعنا للجبال صفيرا ، وللرياح دوياً عظيما وزفيرا ، وتيقنا أنا لا نجد من ذلك إلا فضل الله مجيرا ، وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ، وأيسنا من الحياة لصوت تلك العواصف والمياه ، فلا حيا الله ذلك الهول المزعج ولا بياه ، والموج يصفق لسماع أصوات الرياح فيطرب بل ويضطرب ، فكأنه من كأس الجنون يشرب أو شرب ، فيبتعد أو يقترب ، وفرقه تلتطم وتصطفق ، وتختلف ولاتكاد تتفق ، فتخال الجو يأخذ بنواصيها ، وتجذبها أيديه من قواصيها ، حتى كاد سطح الأرض يكشف من خلالها ، وعنان السحب يخطف فى استقلالها ، وقد أشرفت النفوس على التلف من خوفها واعتلالها ، وأذنت الأحوال بعد انتظامها باختلالها ، وساءت الظنون ، وتراءت فى صورها المنون ، . . . ونحن قعود ، كدود على عود ، ما بين فرادى وأزواج ، وقد نبت بنا من القلق أمكنتنا ، وخرست من الفرق ألسنتنا ، وتوهمنا أنه ليس فى الوجود ، أغوار ولا نجود ، إلا السماء والماء ، وذلك السفين ، ومن فى قبر جوفه دفين ، مع ترقب هجوم العدو ، فى الرواح والغدو ، لاجتيازه على عدة من بلاد العدو . . لا سيما مالطة الملعونة ، التى يتحقق من خلص من معرتها أنه أمد بتأييد إلـهى ومعونة . فقد اعترضت فى لهوات البحر الشامى شجا ، وقل من ركبه فأفلت من كيدها ونجا ، ... وتشتت أفكارنا فرقا ، وذبنا أسى وندما وفرقا ، إذ البحر وحده لا كمِىٌّ يقارعه ، ولا قوى يصارعه ، ولا شكل يضارعه ؛ لا يؤمن على كل حال ، ولا يفرق بين عاطل وحال ، ولا بين أعزل وشاكى ، ومتباك وباكى ، فكيف وقد انضم اليه خوف العدو الغادر الخائن ، الى أن قضى الله بالنجاة وكل ما أراد فهو الكائن . » الى أن يقول :

« فترى الأنفاس تعثر فى زفرة الأشواق ، والأجسام قد زُرت عليها من التعب الأطواق ، وتساوى فى السير نهار مشرق ، وليل مقمر أوداج . . ثم وصلنا بعد خوض بحار ، يدهش فيها الفكر ويحار ، وجَوب فياف مجاهل ، يضل فيها القطا عن المناهل ، الى « مصر » المحروسة فشفينا برؤيتها من الأوجاع ، وشاهدنا كثيراً من محاسنها التى تعجز عن وصفها القوافى والأسجاع ، وتمثلنا فى بدائعها التى لا تستوفيها ، بقول ابن ناهض فيها :

شاطئُ مصر جنة ... ما مثلها فى بلد
لا سيما مذ زخرفت ... بنيلها المطرد
وللرياح فوقه ... سوابغ من زرد
مسرودة ما مسها ... داودها بمبرد
سائلة ، وهو بها ... يرعد عارى الجسد
والفلك كالأفلاك بيـ ... ـن حادر ومصعد

— ٥ —

وبعد فلعل هذه الكلمة تكون حافزاً لأدباء العرب إلى دراسة هذا الأديب الكبير والاهتمام بآثاره القيمة ، وتوفيتها حقها من البحث والاستنتاج ، ومن هاتيك الخدمة إعادة طبع كتابيه الكبيرين « نفح الطيب » و « أزهار الرياض » فى شكل يلائم قيمتهما الأدبية والتاريخية مع مراجعتهما على الأصول وتتميم النقص الذى بهما

(فاس) عبد الهادى الشرايبى

أجِـــدُّ وأمزَح

انفعالات

للشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى

أنا ما برحت ولا أرانى أبرح ... بين الضلالة والهدى أترجّح
طوراً بإبليس الموسوس أقتدى ... طَرِباً وطوراً للإله أُسبِّح
إنى أرى أن السلامة فى التُّقى ... لو كان شيطانى بذلك يسمح
ابليسُ يُغوينى فإن لم يهدنى ... ربى فإن به مصابى يفدح
وإذا استقرت فى الحياة عقيدة ... يوماً فبالبرهان لا تتزحزح
فى الشكّ وخزٌ واليقين قناعةٌ ... فانظر لأىّ المسلكين تُرجِّح
لم أطمئن إلى الحياة فإنها ... عبءٌ وتحت العبء ناسٌ ترزح
تبكى اليتامى ثم إنى لا أرى ... لدموعهم مذروفةً مَن يمسح
سأل القطيع المالكيه راعياً ... فأجيب هاك الذئب فهو الأصلح
إن كان فى ذكر الحقيقة جهرةً ... قبحٌ فكتمان الحقيقة أقبح
مَن لى بصبح أهتدى فى ضوئه ... فالليل داج والكواكب جُنَّح

* * *

ما كل أقوالى بناتُ عقيدتى ... إنى لفى شعرى أجد وأمزح
وإذا ذممتُ فلا أذمّ سوى الذى ... يأتى من الأفعال ما أستقبح
إنا بعهـــدٍ للعروبة حاجةٌ ... فيه لإصلاح وأين المُصلِح
لم يكتب الله البقاء بأرضه ... إلا لمن هو للوغى يتسلّح
أما الطبيعة فهى خرساء إذا ... ساءلتها عن أمرها لا تفصح

* * *

مازال هذا الكون سراً غامضاً ... ولعلّ ماهو غامضٌ يتوضّح
إن الحياة روايةٌ قد أحسنوا ... تمثيلها والأرضُ نعم المسرح
دهرى تربّانى ودهرى هدّنى ... أأذمّ دهرى أم لدهرى أمدح
ذهب الشبابُ مخلّفاً اغلاطه ... ووددت لو أن المشيب يُصحّح
عمرٌ بمختلف الحوادث حافلٌ ... وَلّى فما للنفس فيه مَطمح
قد ذقتُ حلوَ العيش فيه ومرّه ... وخلت يدى حيناً وكانت تطفح
كم بائس يطوى سجلّ حياته ... يأساً كما يتطوّح المتطوّح
وأرى الكآبة للسرور ذريعةً ... من لا يلاقى غمّةً لا يفرح
قد كنتُ فى عهدٍ مضت أيّامه ... أمسى على ضوء كأنى أُصبح
لم أمتدح عهد الشباب وطيبه ... حتى علتنى كبرةٌ لا تُمدَح
بقيت بنفسى فى الحياة لبانةٌ ... أدنو إليها وهى عنى تنزح

* * *

فى الصبح غرّدْ يا هزار فإنما ... قبل الصباح الوردُ لا يتفتّح
واشممه والثم ثغره قبل الضحى ... فالورد إن جاء الضحى يتصوّح
صاح الغراب على كراهة صوته ... فى الروض واختار الصُّموتَ الصيدح
ودّوا لو أنى قد جنحتُ عن الهوى ... فى كبرتى لكننى لا أجنح
إن كنتُ شيخاً قد كبرتُ عن الصبى ... فالقلب لم يكبر وروحى تمرح
شُقّوا فؤادى وانزعوا منه الهوى ... ولعلّها عمليـــة لا تنجح
إنى بأوطانى التى أحببتُها ... بالشعر للآتى البعيد أُلوّح
يا حبذا لو أن روحى بعدما ... تلقى المنيّةَ فى المجرّة تسبح

(بغداد) جميل صدقى الزهاوى

فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

١١ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

فردبريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوى

— ٢ —

وهنالك علاقته مع المرأة تبدى ناحية من نواحى نفسه ، فقد زعم أناس أن نيتشه كان يذهب مع المرأة مذهب معلمه « شوبنهاور » كاره المرأة ، ويستشهدون على ذلك بقوله : « أيها الذاهب إلى المرأة ! لا تنس عصاك وسوطك » ولكن هذا الحكم يسهل نقضه على المدقق فى تعاليم نيتشه ، فالمرأة التى طعنها نيتشه فى الصميم هى المرأة المترجلة التى تريد أن تزاحم الرجل فى علمه وجهاده واقتصاده ، أما غير هذه المرأة فهو مقدر لها محترم لفضلها ، مقدس لمعنى المرأة فيها ؛ ولقد كان له منهن صديقات وصاحبات فضليات ، وهو — وإن لم يتذوق من امرأة ذلك الهوى العاصف والحب اللاعج فقد تذوق عطفها الرقيق وعاطفتها الخالصة . وقد ذكرت شقيقته فى مذكراتها « ان أخاها كان يجهل الحب العادى . . . وإنما كان همه الشاغل له التفتيش عن الحقيقة » . على أن هذا الفيلسوف السئم « المنطوى على نفسه » الذى لم يستسلم للأهواء المصطخبة والميول الملتهبة ، قد تذوق فى أيام نكبته من عطف المرأة ما لم ينعم بمثله إلا قليل . . . فهو صاحب مثل أعلى فى الحب كما كان فى الصداقة

وهنالك نشأته المدرسية فقد دلت على طبعه « الارستقراطى » الذى ينفر من كل شىء مبتذل شائع ، ولا يميل إلا إلى كل جميل لامع ، وطبعه هذا هو الذى حمله على اعتزال رفاقه الذين يدرسون معه ، وذوقه هذا الجانح إلى محبة الأشكال الجميلة هفا به إلى عشق الجمال القديم وحب العبقرية الفرنسية الغابرة والحاضرة . ونفوره هذا من السوقة والعامة جعله ينفر من المسيحية ، ويصفها ويصف أصحابها ورسلها وصفاً قاسياً ، ويكره كل المبادىء التى تبشر بها الديموقراطية والانسانية الاشتراكية . وكل تعاليمه الأخلاقية إنما تؤول إلى هذه الغاية : « هل هذه العاطفة شريفة أو غير شريفة ؟ » ولعل نيتشه كان يمثل نفسه الجبارة فى هذه الكلمة التى رددها « زرادشت » حين يقول : (تسألوننى لماذا ؟ أنا لست ممن يُسألون حين يعملون لماذا ؟) وهذه صفة نفس لا تعتمد إلا على إرادتها ، تحتمل الألم وتصدمه ثم تهزمه ، وتقابل القدر وتعلن سيادتها عليه

أطوار حياته

كان هوى نيتشه الراسخ فى صدره هو المثور على الحقيقة ، فلننظر أية طريق ركب اليها ، وما هى الدوافع التى هيمنت عليه ؟

كان نيتشه يمت بنسب قوى الى أسرة مغرقة فى دينها ، متشددة متعصبة ، مع ميل الى الدراسة العلمية ، قرن والده العلم الى الدين ؛ وما كان لنيتشه أن يبدل هذا السبيل الذى اختاره له والده واختارته طبيعته ، وقد عرفه أصدقاء حداثته مغالياً فى دينه وفى تقواه ، ولاعجب إذا أطلقوا عليه — وهو فى السادسة من عمره — اسم العابد الصغير ؛ حتى إذا ما أتم دراسته الأولى خرج الى الحياة وهو لا يزال يفكر فى ربه ، ولا يكفر بنعمته ، ولا يجحد وجوده . وما هى إلا أعوام كرت حتى أخذ يرتاب فى الدين الملاصق للعلم ، لأن ما فى الدين من إيمان لا يلائم فى رأيه ما فى العلم من حرية وانطلاق ! وهو عندما يعمل على درس الطبيعة والتاريخ متوخياً الحقيقة من وراء دراساته يجد فى عمله هذا ما يسمح له بأن يكون طليقاً حراً لا يسترقه شىء . ومنذ ذلك الحين بدأ يطمع فى الحقيقة العلمية التى يقتفى أثرها فكره الضائع دون أن يفقد الله الساكن فى أحناء صدره . ولكن ناشد الحقيقة العلمية لا يتسنى له أن يوفق زمناً طويلاً بين حقيقته المنشودة وبين إيمانه الموروث . فهما حقيقتان متضادتان ، إذا تلاءمتا فى أول الطريق فنزاعهما حقيق فى وسطه ، وإذا توافقتا فى وسطه فالخلاف ناشب فى منتهاه . وها هو ذا نيتشه يفصل الآن بين هاتين الحقيقتين ، ويكتب عام ١٨٦٢ تجربة فلسفية على القدر والتاريخ ، يحدثنا أنه قاس بعقله « أوقيانوس الأفكار الواسع ، وهم بأن يجازف بنفسه فى بحر الشك ، ولكنه وجد أن مجازفة مثل روحه الضعيفة تجاربها ضرب من الجنون ، وهى لا تملك عدة ، ولا تحمل سلاحاً » ومنذ تلك اللحظة ألفى أن الديانة المسيحية مبنية على افتراضات وهمية . أما وجود الله والخلود والوحى فستبقى جميعها مسائل لا حل لها . (إننى جربت أن أكفر بكل هذا ، وما أيسر الهدم ! ولكن الهدم يستلزم البناء ... على أن الهدم والتخريب هما أصعب مما تتمثله عقولنا ، فنحن فى الحقيقة لا نعيش لأنفسنا ولا نملك أنفسنا وقفاً علينا . فهناك أوهام الطفولة وأساطيرها تحتل مكاناً منا ، وهناك تعاليم الآباء والمعلمين تؤثر فينا ، وكلها

عوامل مترابطة متلاحمة لايسهل على العقل أن يخترق سياجها ، ولا يمكن للمنطق أن يقوم اعوجاجها

إن قوة المادة المتوارثة ، وتسامينا الى الكمال ، وانفصالنا عن العالم الحالى ، وحل كل عقد المجتمع ، والشك فى حقائق الوجود ، كلها نوازع تتنازعنا وتملك علينا إرادتنا ، والنكبات المفجعة ، والتجارب المؤلمة ، هى التى تسوق قلوبنا الى الايمان الذى ولد مع طفولتنا ، وصاحب حداثتنا)

وبعد ثلاثة أعوام ألفينا « نيتشه » يخطو خطوته الأخيرة ، ويعلن أن الانسان بين حالين لا ثالث لهما : فهو إما أن ينتخب الايمان وما فى الايمان من هدوء ووقار واستقرار ، وإما أن يمشى على طريق محفوفة بالأخطار : هى طريق الباحثين عن الحقيقة ، الذين لايتخذون الهدوء والسكينة مأرباً لهم ، وإنما يجدون مأربهم فى نشدان الحقيقة . يمشى الباحث منهم وحده مضطرب النفس قلق الضمير ، ممزق القلب ، نحو ضالته المقصودة ، نحو ما يتجلى له من حق وجمال وخير ، وهو إذا غادر طريق الباحثين ورضى لنفسه ذلك الهدوء فقد قتل البطولة فى نفسه ، وحكم على رجولته بالموت

انفصل « نيتشه » عن المسيحية التى كان يؤمن بها قبل عهد الانفصال إيمانه بشىء رمزى قائم على قواعد رمزية ، شأن الحقائق السامية تكون رموزاً لحقائق أسمى منها وأعلى . وظل يدرك خطر العمل الذى أقدم عليه ، ويتكلم فى كل فصوله « عن موت الالـه » كأن موته — عنده — حادث عظيم فى تاريخ البشرية أو عمل نفذ اليوم أوله والأجيال الآتيـة ستتممه . ولـكن « نيتشه » أعدم هذا الالـه ليبعث إلـه الحقيقة . « هذا الالـه (الأدبى) ، قد مات ليعيش الالـه العلمى » وهكذا حمله حنينه الهاجع فى أحناء نفسه للدين إلى الايمان بالـه الحقيقة . وعندما وجد نفسه يتنازعها إلـهان سلطانهما نافذ : الالـه الذى ورثه ، والالـه الذى لقيه ، رأى أن يضحى بالأول ويبقى على الثانى . وهذا الالـه هو الذى يسيطر وحده على كل تعاليم نيتشه ومبادئه ، ولم يعش مع إلـهه هـذا كما يعيش أولئك مع آلهتهم مستسلمين قانعين بما نزل على قلوبهم من برد اليقين ، فهو يهب عاملاً على تحطيم كل عمارة مشيدة على الايمان بذلك الالـه الأول ، وهو — الآن — لم يعد يؤمن بنظام الطبيعة ولا بجمالها ولا يميل إلى محاسنها ، ولم يعد يرى فى صفحات التاريخ ذلك القضاء الالـهى والنظام السماوى اللذين يقودان الانسانية إلى مرابعها التى خلقت لها ، ولم يعد يستسلم لذلك القدر الذى يذهب بحياتنا مايشاء ، ولا لتلك الارادة الالـهية التى تود أن تهدينا إلى سبيل النجاة والسلام

بحث « نيتشه » جميع الأديان والشرائع منذ العصور الأولى والمذاهب التى نزلت لتخرج النـاس من الظلمات إلى النور . وبعـد أن شكك فى هـذه المذاهب وارتاب فى حقائقها وأغرق فى الانكار عاد إلى هذه الفكرة التى قالها جازماً ، وزعم أنه بهذه الفكرة حلّ مسألة الوجود : « ألا ان الآلهة جميعهم قد ماتوا ! والآن نريد أن يحيا الانسان الـكامل : السوبرمان » ، وهكذا أضاع نيتشه إلـهه ووجد نفسه

بحث الناقدون كثيراً فى فـكرة نيتشه التى كانت تتطور وتتبدل تبعاً لما يحيط بحياته . وهو قبل بلوغه هذا المرفأ خاض بحاراً كثيرة وجاز شواطئ كثيرة . وقد أدرك بذاته تطور ذاته فشبه نفسه بالأفعى التى تنسلخ من جلدها أو النسر الذى ينسل ريشه . والحياة ـ عنده ـ ليست بواجب يُلقى ولا بعمل يُفرض ولا بوهم يُحسب ، وإنما هى مادة شأنها شأن المواد التى تقع بين يدى الباحث . وكان ينظر نفسه كالمتنقل بدون انتهاء . همه النضال تهذبه انكساراته كما تهذبه انتصاراته ، أو كالقافز بين الصخور يكاد يذهب بنفسه ضحية على رؤوس الصخور الشاهقة . وهو ـ بلا كلل ولا فتور ـ يصعد من عالٍ إلى أعلى ، ومن قمة إلى قمة ، مبدلاً كل لحظة أفقه ، عازماً على ألا يقف أبداً ولا ينثنى أبداً . رداؤه الشجاعة والصرامة ، لا يروعه البرد ولا تخيفه الهاوية . ولا يجزع من العزلة التى يتنفس فيها ريح الثلج المنهمر . . . هو دائماً فى صعود وارتقاء . وهكذا يعتقد نيتشه الذى فهم الحياة أنها تفوق بعضها على بعض ؛ يعتقد أن التطور لا غنى عنه ، ولا بد منه لأنه مادة ضرورية فى تحول الحياة . يعتقد نيتشه ذلك ويدأب على أن يوفق بين حياته وإرادته مع هذا المثل الذى اعتقد به ، وقد كان توفيقاً كاملاً وكان تلاؤماً كاملاً ، وصارت مسألته فى الحياة هـذه المسألة : « ما عسى يكون عندى معنى الحياة إذا لم يكن إلـه ؟ » ويجيب على هذه المسألة بهذه الـكلمة : « إن اللاشخصية ليس لها قيمة على الأرض ولا فى السماء . إن الحب الأكبر هو جوهر ضرورى وجوده فى كل مسائل الوجود الـكبرى . وهـذا الحب وحده جدير بالأرواح القوية النشيطة ذات اليقين الراسخ . هنالك فرق كبير بين المفكر الذى يقابل مسائل الوجود بشخصيته ، يرى فيها قدره وفاقته كما يرى فيها سعادته ، وبين المفـكر الذى يتوجه إليها مجرداً عن شخصيته ،



من أساطير الاغريق

مجازفات هرقـــــل

للأستاذ دريني خشبة

١ — الى غابة نيميا

كانت الغابة تثير الرعب فى قلوب الجن ، وكانت الظلمات تضرب فى أنحائها فتجعلها تيهاً يعج بالأفاعى ، ويضج بالتنانين وكان ملكها الضرغامة يربض فى المغارة المفزعة ، المنشقة كالقبر فى أول الطريق المؤدى اليها ؛ وكان يخرج فى أول الليل فيصول فى القرى المجاورة ويجول ؛ وكان الأهلون التعساء يلقون من بطشه وشدة أذاه الشىء الكثير ؛ فلم يكن يبقى على دابة فى الأرض ، ولا إنسان فى الطريق . ينقض كالقضاء على فريسته فيجندلها ، ثم يحتملها إلى كهفه فيلتهم منها ، وينبذ الباقى لخدمه وعبيده الكثيرين من سائر السباع

ولم يكن كهذه الأسود الضئيلة التى يتحدث عنها السودان هذه الأيام ، بل كان أسداً فى جرم الفيل وقوته ، ورشاقة النمر وخفته ، وخبائة الثعلب وحيلته . . . يثور فينقدح الشرر من مقلتيه ، وتمور الأرض وتسجد الجبال بين يديه . وكانت له لبدة نسجتها له الآلهة من أشواك الجحيم ، وبطنتها بحمَّى المنية !

وكان زئيره يقصف كالرعد فيزلزل شماف الجبل ؛ ويهز جوانب السماء ، ويهيج الجنون والفزع فى رؤوس الوحوش ، فترى إلى الغابة كأنها ترقص على فوهة بركان ! !

ولقى هرقل أصدقاءه فنصحوا له ألا يلقى هذا الأسد ، وأن يضنَّ بشبابه . . . على أنيابه ؛ وبماء الحياة المتدفق فى بردتيه ، على جمر الغضى المتأجج فى حدقتيه . . .

ولكنه أبى !! وانطلق كالعاصفة إلى حيث يربض أبو أسامة ... وإنه لعلى خطوات من الكهف ، وإنه لينظر إلى السيف الذى كان إلى هذه اللحظة فى يمينه فلا يجده ! !

« أين ؟ أين سيفى ؟ . . . آه ! هاها . . . لقد سرقته حيرا !! أرادت الخبيثة أن تجردنى من السلاح الذى أنازل به خصمى ! خاب فألك ياحيرا ! ! سأنازله بغير ما سلاح . . . سأحطمه . . . سأشد لسانه حتى أنتزعه من غلاصمه ... إلىّ ياسبع نيميا ... إلى يا ملك الغابة وسيد وحوشها ... الساعة ساعتك ... لا مفر لك يا أبا لبدة ! ... ... »

وطفق هرقل يرعد كالمجنون ؛ وكان سبع نيميا نائماً فاستيقظ على هذه الصيحات الداويات ، ووثب وثبة هائلة كان بها أمام هرقل ، وجهاً لوجه ...

وبدأت الزوبعة ...

والتقى الجبل بالجبل ، وتصارع الجباران ساعة ، لا هذا ينال من ذاك ، ولا ذاك يصل إلى وطر من هذا ... وأقبلت وحوش الغابة تشهد المعركة وتتعجب ... وغضب أبو أسامة ، وهاله ألا يقوى على رجل بمفرده يكاد يصرعه ...

وتعب هرقل ... ونال منه الجهد ، ورأى أنْ لا بد من آلةٍ ،

لا يعرف أن يلمسها إلا بفكره البارد الغريب . إن هذا المفكر لا يستطيع أن يلمس شيئاً . وهب أن مسائل الوجود قد أمكن لمسها فلن يُقدر للضفادع أن تلمسها ولا للدجاج المسترخية أن تحسها . .

ونيتشه وجد فى المسألة الكبرى شقاءه وسعادته . وقد ناضلها بدون ضعف ولا هوادة ، ونازلها جسداً لجسد دون أن ينفذ إلى قلبه الوهن . حتى إذا أصابه الجنون وقضى على شعوره أعلن نشيد الانتصار . أوَ ليس هذا بعد ذلك كله قدراً جميلاً بين الأقدار ؟

(يتبع) خليل هنداوى

فدار دورةً اقترب بها من شجرة باسقة ، فانتزعها ، وألقى بجذعها في شدق الأسد ، ثم أسرع فقبض على لسانه العظيم فانتزعه ، وانقذف الدم يتدفق من هنا وهناك ... وتسيل به أودية الأرض ! !

وكأن نشوة الظفر قد ضاعفت قوة هرقل ، فقبض على فكي الأسد ، وشد على الرأس الكبير فتحطمت عظام المخ ، وخر ملك الغابة يتقلب في لجة من دمه الغزير ! .

وهمهمت الوحوش مشدوهة !

لقد قتل ملكها ... فلا خوف عليها بعد اليوم ! ستكون حرةً طليقة ، تجيء وتروح ، وتقتات لنفسها غير منتظرة ما كان ينبذه لها أبو أسامة ! !

ونظر هرقل ، فرأى سيفه وراء ظهره ! !

لقد جاءت به حيرا بعد إذ شهدت من جبروت البطل ما بهرها وتناول السيف باسماً ، ثم تقدم إلى الأسد فسلخ جلده الكبير ، وأبقى على اللبدة الهائلة ، وعاد أدراجه إلى يوريذوس ، ملتفعاً دثاره الغريب الذي كان إلى لحظة قريبة يضم جثمان ملك الغابة وسيد وحوشها

٢ — مع الأفعوانه الرائل « هيدرا »

ولقي صديقه يولوس ، وتحدث عما كان من أمره مع سبع نيميا ، فأخذه العجب ، ونذر ليصحبن هرقل في جميع مجازفاته .

ثم فصلا ، وما كادا يفعلان حتى قبلهما رسول الملك برسالة تأمر هرقل بالتوجه إلى مستنقعات ليرنا حيث الأفعوان الأرقم هيدرا : « ... فإذا لقيته ثمة فعليك به ، ولا تعودن إلا برأسه . فقد حدثنا من عرفه أنه لا يبقي على دابة ولا بهيمة ، ولا يعفي من القتل أحداً ... ونحن أرفق برعايانا من أن ندعهم فرائس لهذا الأفعوان ... »

وانطلقا ، حتى إذا كانا عند المستنقعات المترامية ، شهد هرقل حيواناً ضخم الجثة فظيع المنظر ، يتقلب فوق صفحة الماء المغطاة بزهرات اللوتس وأوراقه العريضة النامية . وأيقن أنه هيدرا ، فتناول قوسه الكبيرة ، وأرسل إلى الوحش سهماً يهيجه به ، ليخرج من الماء ، وليأخذ معه في نزال وقتال ...

وتم له ما أراد . وخرج هيدرا الفظيع يقلب رؤوسه السبعة . ويقلب في كل فم لساناً طوله ذراعان ، وبرزت أنيابه تنفث سمها الزعاف ، وأرسلت العيون الصغيرة البراقة شررها ، وشرع الفحيح المرعب يصم أذني هرقل وأذني صاحبه

وبدأت المعركة ...

وامتشق هرقل سيفه الكبير المرهف ، وبضربةٍ قاضيةٍ أطاح رأساً من الرؤوس السبعة ...

ولكن ... يا للعجب ! ! لقد نبتت في لحظات قليلة ، في مكان الرأس المقطوع ، رؤوسٌ سبعةٌ أخرى ، أخذت تنمو بسرعة فائقة ، حتى أوشكت أن تساوي الرؤوس الكبيرة في حجمها ...

وريع هرقل ، وهتف بصاحبه يولوس قائلاً : « أوقد النار يا صاح ، وأجج هذا الجذع فاكو به كل رأس بطيح ... إنني أخشى أن ينبت لهيدرا ألف رأس ! »



[هرقل يقتل هيدرا (تصوير جيد)

ونفخ في النار وأجج الجذع ؛ وأخذ كلما طاح رأس كوى مكانه بالنار وحدث ما لم يكن في الحسبان ... لقد أرسلت حيرا سرطاناً بحرياً يعض قدمي هرقل وهو يحارب هيدرا ، تود بذلك لو تشغله فيستطيع الأفعوان الظفر بخصمها العنيد ... ولكن هرقل تنبه للسرطان فوطئه ، وسحق عظامه سحقاً

وانتصر هرقل ...

وطفق يغمس سهامه في دم الأفعوان ليسممها ، حتى إذا أصابت رَمِيَّةً لم تُفلتها من الموت . وعاد إلى يوريذوس ثملاً بخمرة النصر

٣ — ظبي سيرينيا

وأسقط في يد يوريذوس حين رأى هرقل يختال في بردة السبع وبتيه ، وفي قبضته القوية رؤوس هيدرا هامدة خامدة

وكان في مقاطعة سيرينيا ظبي له قرنان من ذهب ، وأيطلان

من نحاس ، وساقان من معدن ليس له فيما نعرف من المعادن من ضريب . وكان الملوك إذا أرادوا إعجاز أحد من الناس ليقتلوه ، كلفوه باقتفاء ظبي سيرينيا وامساكه ؛ فان لم يفعل ، ولن يستطيع أحد أن يفعل ، لشدة عَدْو هذا الظبي ، كان جزاءه القتل . وقد أراد ملك أرجوس أن يُعجز هرقل هـذه المرة ، فأمره باقتفاء ظبي سيرينيا : « ... فان لم تعد الينا به ، فأنت أعلم بما ينتظرك من الموت الزؤام . . . . »

ولم يستطع هرقل أن يمسك الظبي ، لأنه كان يعدو كزوبعة ، فما تكاد حوافره تلمس الأرض إلا كما تلمس السماء كف سكران ، فلجأ إلى الحيلة ؛ واحتفر في طريق الحيوان حفرة عميقة غطاها بوشائج رقيقة من الثلج ، وطارد الظبي حتى ألجأه إلى الحفرة ، ووقع فيها ، فنزل اليه واحتمله ، ومضى به إلى الملك الغاشم

٤ — خنزير أرمنثيا

ثم أمره بقتل خنزير برى مخرِّب ، كان يأوى إلى غابات أرمنثيا ، ويقطع الطريق على القبائل الرُّحَّل ، ويقتل كل من تحدثه نفسه بمحاربته أو الوقوف معه في ميـدان . وكان ذلك الخنزير لا يبالى شيئاً في الأرض أو في السماء ، وكانت بينه وبين قبائل السنتور مودة في الشر ، وتحالف على إيذاء الناس . فلما اشتبك هرقل وإياه في نزال تشيب من هوله الولدان ، وشعر الخنزير أنه مقضيٌّ عليه لامحالة ، خار خواراً عالياً يستنجد حلفاءه السنتور ، ولـكنهم لم يصلوا إلى مكان المعركة إلا بعد أن أجهز هرقل على خنزيرهم العزيز ، فنشب قتال مروع بينهما ، وأخذ هرقل البطل يسـدد سهامه التي كان قد غمسها في دم هيدرا ، إلى صدور أعدائه حتى كادوا يبيدون جميعاً . وأقبل شيرون ـ وهو كما علمنا مؤدب هرقل وأستاذه ـ ليحسم النزاع بين قبيله وبين تلميذه ، ولـكن وا أسفاه ! لقد أصابه هرقل بسهم مسموم فأرداه وهو لا يعرفه ! فلما أدرك أنه أسـتاذه ، أقبل عليه ، وعنى به ، وجمع من الأعشاب الطبية ما حسب أنه ينقذ أسـتاذه من براثن الموت ، ولـكن بلا جدوى ! ومات شـيرون ، وأهوى عليه هرقل يقبله ، وفي عينيه دموع المحبة والاعزاز

وتعاون هرقل ومن بقى من السنتور فدفنوا القتلى ، ثم أقاموا قبراً مشيداً دفنوا فيه ثراه شيرون ، ومضى كلٌّ لطِيَّته . .

٥ — زرائب أوجياس ملك إليس

كان الملك أوجياس ، ملك إليس ، يقتنى عدداً عظيماً من الماشية والخيل والغنم ، تزدحم في زرائب متجاورة مع آلاف من الخنازير مؤلفة . وكانت النظافة في هذه الزرائب مهملة اهمالاً تاماً ، حتى لـكانت الروائح الخبيثة تنتشر منها فتصدم أنف عابر السبيل على فرسخ أو فرسخين ، وأنتن الروث فأحدث طاعوناً مروعاً أوشك أن يأتى على جميع الأهلين ، وقرر الأطباء أن لاسبيل إلى مقاومته إلا إذا عنى بتنظيف زرائب الملك . . .

وعلم يوريذوس بما شـغل بال صديقه ملك إليس ، فابتسم ابتسامة صفراء ، وقال لهرقل وهو يحدثه حديث السنتور : « إذن فعليك أن تتوجه إلى صـديقى أوجياس ، ملك إليس ، فتنظف زرائبه مما بها من خبث ، وتكون بذلك قد أديت خمساً من المسائل الاثنتى عشرة ، التي كتبتها عليك الآلهة »

وامتعض هرقل في أعماقه ، وعبس عبوسـة كادت تنفجر بالسخط على هذا الملك الغبي ؛ ولـكنه ذكر نصيحة اربتيه ، فصدع بالأمر ، وذهب من فوره إلى إليس ، ليرى كيف ينظف زرائب الملك . . .

وثمة ، رأى مجرى عظيماً من الماء ، يتدفق من الجبل الشاهق إلى يمين الزرائب ، وينحدر انحداراً شديداً حتى ينتهى إلى البحر ؛ فبدا له أن يغير مجرى الماء ؛ بحيث ينصب في الزرائب نفسها ، فيكتسح الروث ، وينجو الناس من هذا الرهق الشديد

وأنقذ هرقل مدينة الملك وثروته وحياة الأهلين !

وحاول ملك إليس أن يستبقيه ليجزيه ، ولـكن هرقل أبى شاكراً ، وقصد إلى يوريذوس يتلقى أوامره

٦ — عجل مينوس

وكان نبتيون إلـه البحار قد أهدى عجلا جـداً لصديقه مينوس ملك كريد ، كي يقدمه قرباناً للآلهة في العيد الأكبر الذى يحتفل فيه بميلاد نبتيون ؛ ولـكن العجل راق مينوس الملك فانتقى من عجوله أحسنها ، وضحّى به مكان هذا العجل الآلـهى السّمين ، واستبقى لنفسه هدية الآلـه

وغضب نبتيون ، وأقسم ليكوننَّ هـذا العجل نقمةً على

من الأدب الايطالى

الليالى العشر

IL DECAMERON

ترجمة الأديب احمد الطاهر

٤

قصة زوجة صبور
جريزلدا

« النساء لا يقمن على العهد ، ولا يثبتن على الولاء » ذلك ما يقوله الرجال وما يعتقدون . ولكن هذه القصة التى سأذكر تنقض هذا الرأى وتدل على ولاء المرأة مع غلظة الرجل ، وثباتها مع جفوته ، وما أحسبكم إلا تشتهون سماع هذه القصة :

جالتيرى كان أميراً على دوقية سالوزو ، وكان من زعماء الرأى الظالم للمرأة ، لا يؤمن بوفائها ولا يثق باخلاصها . وحال هذا الرأى بينه وبين الزواج ، فصد عنه ، وانصرف إلى صيد الوحش واقتناص الطير ، يجد فى ذلك ملهاة ولذة وسلوة . ولكن رعية هذا الأمير كانت مشفقة على البلاد أن يموت أميرها وليس وراءه من يجلس على العرش ، وذهب مسعاهم فى حمله على الزواج أدراج الرياح ، واتخذوا له كل وسيلة فلم يزد إلا صداً ونفوراً

قال الملأ من قومه : « انا لنراك فى وحدة وسأم شديد ، وهذه أجمل فتياتنا نقدمها اليك راضين ، وانا لأمرك لمنتظرون »

قال : « لو كانت بى إلى الزواج رغبة لاخترت شريكتى فى الحياة بنفسى ، لا أكلفكم فى ذلك عناء ولا نصبا ، وهذه الفتاة التى تقدمون إلى مهما يكن من شأنها فى اصالة الحسب ، وعزة النسب — أرفضها مع احترامى لقدرها ، واجلالى لشرفها ؛ وانى لأحذركم عاقبة ما يقع بى من حسرة ، وما أجد من غضاضة إذا حملتمونى كرهاً على أن أتخذ زوجة لى لا أرضاها ولا أبغى السبيل إليها » . وانصرف القوم خائبين نادمين

خرج هذا الأمير يوماً يدور حول قصره ، فأبصر احدى راعيات الغنم : فتاة بهية الطلعة ، ساحرة الجمال ، وكانت تحمل فى جرتها ماء إلى منزل أبيها ، فسألها : « ما اسمك أيتها الفتاة ؟ » قالت : « جريزلدا » ، قال : « إننى يافتاتى أبحث عن زوجة تشاطرنى النعيم ، فهل إذا اتخذتك زوجة لى تعملين على هناءتى ولا تعصين لى أمراً بالغاً ما يبلغ من الشدة دون أن يكون فى صدرك حرج مما تؤمرين ؟ » . قالت الفتاة : « نعم يامولاى » وأرسل الأمير إلى المدينة رسولاً فأحضر للفتاة من الثياب أغلاها ومن الحلل أبهاها ؛ وعقد على ناصيتها تاجاً من الزهر ، وأركبها جواداً وسار بها إلى قصره ، وأقام للزفاف ليلة كانت غرة فى جبين الدهر ، ودرة فى تاج الليالى

وسكن الأمير إلى زوجه الصالحة فوجد فى طبعها الهدوء والسكينة ، وفى شمائلها العذوبة والطمأنينة ، وألفاها رفيعة الحاشية كريمة الأخلاق حتى لقد رأى نفسه فى الدنيا أكمل الناس سعادة وأعمهم توفيقاً . ولم يكن الشعب أقل سروراً بهذا الزواج . فقد تجلى حبهم وولاؤهم للأميرة واكبارهم لأخلاقها وصفاتها ودانوا لها بالمحبة وعقدوا لها القلوب على الولاء

ومضت الأشهر ثم وضعت الأميرة . ولكن وضعتها أنثى !

وعادت إلى الأمير عقيدته العتيقة ، ولعبت برأسه الهواجس وركبه الشيطان فصد عن سواء السبيل وقال فى نفسه : « ما كان لهذه الفتاة أن تبغى عن سواء السبيل حولاً وهى فى نعمة سابغة

مينوس وقومه ، فسخّر عليه طائفاً من الجنون ، فطفق العجل يخرّب ويدمّر ، ويقتّل الناس تقتيلا . . .

وعلم يوريذوس بما كان من مصيبة صديقه ملك كريد فى عجله ، فلما قدم هرقل أرسله ليقتل العجل ، أو على الأقل ليقيده فيرتفع عن الناس أذاه . . .

وأبحر هرقل ، ولقيه مينوس فرحاً متهللاً ، وذهب من فوره لينازل العجل ، فكانت معممة وكانت حرب عوان !

لقد كان هرقل يحمل العجل فيرفعه ، فيخبط به الأرض فتندك ، ومع ذلك ما استطاع أن يقتله ! وأخيراً اكتفى بأن صفّده بسلاسل وأغلال ، وعاد أدراجه إلى أرجوس ، وودعته كريد كلها

دريني خشبة

(لها بقيـة)

وهناء مقيم . فلو أننى أسأت إليها وبلوتها بشىء من الشدة والبأساء لبرزت طبيعتها الخبيثة وصدق رأيى فى النساء »

واستدعاها إلى مجلسه . فلما مثلت بين يديه قال لها : « إن وضاعة أصلك وخسة منبتك كانتا سبباً لسخط الشعب واستيائه ، وزاد هذا السخط أنك وضعت أنثى لا تصلح لأن أستخلفها على العرش »

قالت الأميرة : « مولاى ! إنى أعلم خسة منبتى وإننى أقل من أحط أوزاع الناس شأناً . وما هذه المنزلة التى رفعتنى إليها إلا فضلٌ لا أستحقه ونعمة لم أكن أتسامى إلى التطلع إليها . فاتخذ معى فيما بينى وبينك من شأن ما يزكو بشرفك ويرضى نفسك غير آبه لاحساسى وشعورى ، فما أنا من المنزلة بحيث أشغل بال مولاى أو أستحق رعايته » وانصرفت الأميرة المبتئسة

وفيما هى مطرقة كاسفة البال إذ دخل عليها أحد وصفاء الأمير قال : « مولاتى : إننى بين أمرين أحلاهما مر : إما الموت ينزل بى لا راد له ولا دافع ، وإما أن آخذ منك ابنتك » وما كاد يتم رسالته حتى أدركت الأميرة أن الملك قد ساقه البغى إلى الأمر بقتل ابنتها . فنهضت إلى مهد الطفلة البريئة وقبلتها قبلة الوداع ، وأسلمتها إلى الرسول فى رفق وأسى والتياع ، وفى العينين عبرات ، وفى النفس حسرات ، ولكن الأمير بعث بالطفلة إلى بولونيا أن كان له فيها أقرباء يقومون على تربيتها وتنشئتها

ومضت سنون والأميرة تحمل بين جنبيها فؤاداً كليماً ونفساً تنزى ألماً ، ولكنها لا تظهر الأمير على ما تحمل ، ثم أدركت أنها أصبحت جفن سلاح [1] فتعزت بعض العزاء ، ثم وضعت غلاماً وحسبت أن الأمير ستهدأ ثورته ، وتذهب عنه حدته ، وقد وضعت له ذكراً يرث العرش من بعده

ولكنه استدعاها مرة أخرى ، وقال لها فى غلاظة وجفاء : « لقد أصبحت لا أطيق الصبر على ما ألقى بسببك من مذلة ومهانة يصبهما علىَّ الشعب صباً . فلقد أثار سخطهم وألَّبهم على أن رأوا هذا العرش الذى أجلس عليه وأحكم بسلطانه سيؤول بعدى إلى غلام ينتسب إلى رعاة الأغنام أهون الناس شأناً وأقلِّهم مكاناً . ولقد تدبرت الأمر فلم أجد خيراً من أن أريح نفسى من هذا الغلام

(١) حاملا

كما أرحتها من أخته » واقتطع الغلام من قلب أمه كما اقتطعت أخته من قبله

قالت الأميرة : « مولاى ! لك الأمر وعلى الطاعة . ولا أحَبُّ إلىَّ من أن تعمل مايشفى صدرك ، ويضع الهم عن نفسك ، ويحمل إليك السعادة بأوفى كيل ، فما أجد سعادتى إلا حيث تجدها ولا تطمئن نفسى إلا حيث ترضى ، وانكفأت إلى مقصورتها وقد بضع الهم من فؤادها بَضعة

وبعث الأمير بالغلام إلى حيث كانت أخته

وشاع فى الملأ أن الطفلين قد قتلا ، واضطربت النفوس بالحقد على هذا الأمير الطاغى الذى غالى فى الضلالة ، وتبسط فى الاثم ، والعدوان ، وأفعمت القلوب حباً وعطفاً على هذه الأميرة المنكودة التى صبرت حتى ملها الصبر ، وبالغت فى الرضا بالمذلة والهوان ، ووصل صدى النفوس والقلوب إلى سمع الأميرة فأنكرت على الشعب أن يثور على مولاه ، ودافعت عن مسلكه ما وسعها الجهد ، على أن هذا كله لم يكن ليحمل الأمير على الثقة بولائها ووفائها

وأربت سنو العِشرة بين الأمير وزوجه على الستة عشر عاماً وهى تصابر القضاء ، وتعانى البلاء . وبقدر ما أقامت على الصبر ، كان الأمير يمعن فى الغدر

ثم أراد أن يبلوها مرة أخرى :

قال لها : « أيتها المرأة : لقد عزمت على أن أتخذ لى زوجة غيرك ، وسأردك إلى أهلك الذين نشأت بينهم ، وإلى كوخك الذى درجت فيه ، لتعودى إلى ما كنت فيه من بؤس وفاقة . فما يزكو بمن كان فى مكانى من الشرف والعظمة أن تتسامى إلى الاقتران به فتاة وضيعة مثلك ، وإنى لواجد بين بنات الأشراف والنبلاء من تصلح لهذه المكانة العليا . »

قالت الأميرة وهى تكظم الغيظ وتحبس الدمع : « سمعاً وطاعة يامولاى طبت نفساً ورضيت الطلاق مخرجاً »

ثم جاء الوصفاء وجردوها من فاخر الثياب وسنى الحلل وألبسوها من الثياب رديماً [1] قديماً وبعثوا بها إلى كوخ أبيها

وأعلن الأمير أنه سيبنى بابنة أحد النبلاء

ثم بعث إلى جريزلدا زوجه المشردة مَن قال لها : « إن الأمير

(١) مرقعاً

على نجز الزفاف إلى عروسه النبيلة الجديدة ، وهو فى حاجة إلى فتاة تعد له مقاصير الزفاف والاستقبال ، وتقوم على شؤون الوليمة والاحتفال . ولم يجد من هو أبصر منك بهذه الغاية وأقدر على هذا الشأن لسابق خبرتك بالقصر وما فيه ، وهو يأمرك أن تعودى إلى القصر كخادم تعمل بضعة أيام تقوم فيها بما يحتاج اليه الزفاف من دعوة المدعوات ، فاذا انتهيت من هذا الأمر تعودين إلى كوخ أبيك كما كنتِ فيه . »

هذه نصال تحز فى قلب الفتاة حزاً ، وتمزقه تمزيقاً ، وهى لا تستطيع للبلاء رداً ، ولا للأمر رفضاً . فسمعت وأطاعت وهى تكاد تنشق غيظاً وكمداً . ولم يكن هيناً عليها أن تنزل عن حب زوجها والوفاء له ، وقد هان عليها أن تنزل عن النعيم الذى كانت فيه ، والترف الذى تقلبت بين أعطافه وحواشيه

مضت إلى القصر فى خفة ونشاط وعليها ثيابها البالية ، وعملت مع الخدم فى تنظيف المقاصير وإعدادها ، ثم خلت إلى نفسها وأعدت الدعوات لسيدات البلاد ليشهدن العرس المظيم

وأقبل يوم الزفاف فاستقبلت المدعوات فى ثيابها الخشنة ، وابتسامتها الناعمة !

ثم مد سماط العشاء وأقبل الأمير وزوجه الجديدة وكانت بارعة الحسن رائعة الجمال . وأقبل عليها الناس رجالاً ونساءً يقدمون اليه وإلى الزوجة ولاءهم وطاعتهم وإعجابهم ، وطوعت لهم الزلفى أن يهنئوه على ما وفق اليه من استبدال زوجه الجديدة بزوجه القديمة

ثم نادى الأمير زوجه القديمة جريزلدا وقال لها فى غير خجل ولا رعاية لا حساسها : « ماذا تقولين فى زوجى الجديدة ؟ »

قالت : « مولاى ! إنى لأشعر لها بالحب من أعماق قلبى . وأرجو أن يكون نصيبها من رجحان العقل وسعة الادراك بقدر نصيبها من الجمال . إذاً تتم السعادة لمولاى الذى أتوسل اليه بكل عزيز لديه ألا يكسر قلبها ، وألا يثلم فؤادها ، ولا يقرح كبدها ، ولا يجرح عزتها ، كما كان يفعل بزوجه القديمة . فهذه يامولاى فتاة صغيرة نبتت فى أعطاف النعمة ، ودرجت فى حواشى العز والترف ، وأما أنا فقد تعودت منذ نشأتى شظف العيش وقسوة الدهر ونكد الحياة . »

قال الأمير وقد خلق الليلة خلقاً جديداً : « عفواً أيتها الفتاة وصفحاً جميلاً ، لقد بلوتك فى البأساء والضراء فما زادك بلائى إلا صبراً على البلاء ، واعتصاماً بالولاء ؛ ولقد كنت أحسب النساء لا يقمن على العهد ولا يدن بالصبر . وما صدفت عن هذا الرأى إلا بعد أن خبرتك فسلبتك سعادتك وهناءك : دعينى الليلة أرد اليك فى لحظة واحدة هذه السعادة التى حرمتك إياها مدى ستة عشر عاماً : هذه الفتاة التى أحببتها الليلة والتى يحسبها الناس جميعاً زوجى الجديدة هى ابنتك وابنتى التى انتزعتها منك منذ كانت فى المهد ، وهذا الواقف إلى جوارها هو ابننا الذى حرمتك اياه رضيعاً . أقبلى يازوجتى على ولديك وقبليهما ما وسعك الحب لهما . »

واستوت على الوجوه دهشة شادهة ، ووجوم يشبه البله ! ثم تقدم النساء إلى جريزلدا وقدنها إلى مقصورة فاخرة وألبسنها ثياباً لم يطل بينها وبينها العهد ، وجلسن يحدثنها فى إكبار لقدرها وإجلال لنفسها

وأقيمت فى القصر ليال غر ، وشمل الفرح والسرور كافة الشعب ، وطابت نفوس وقرت عيون

وبعث الأمير إلى والد جريزلدا وأتم نعمته عليه ، فاقطعه من القصر جناحاً يقيم فيه ، وعاش الأمير وزوجه الصبور ، ووالدها الطيب ، وولداه الطاهران فى سعادة ونعيم ، حتى فرق بينهم الدهر كما يفرق بين كل الأحياء ؟!

« عن الانجليزية » يوزباشى أحمد الطاهر

استدراك خطأ وقع فى القصة السابقة

فى السطر ٢٣ من النهر الأيسر من صفحة ٩٩٤ من « الرسالة » بعد قوله « وقفل راجعاً إلى صديقه تيتوس » سقطت عبارة وهى : « وهمس فى أذنه : قم وابن بالفتاة فهى زوجك . وقع تيتوس فى حيرة . . . الخ » ثم يستقيم الكلام

البريد الأدبي

كتاب فى تاريخ الاسلام : « فرسان الله »

أصدر الكاتبان الفرنسيان الأخوان جيروم وجان تارو كتاباً بعنوان « فرسان الله » Les Cavaliers d' Allah هو الجزء الأول من كتب ثلاثة يزمعان إصدارها تحت عنوان « ألف يوم ويوم فى تاريخ الاسلام » ؛ وسيكون عنوان الجزء الثانى « حبوب الرمانة » ، والثالث « الشعاع الأخضر » . وسيعنى الكاتبان فى هذه السلسلة بوصف أولئك الذين يسميانهم « فرسان الله » وهم المسلمون « أتباع محمد » ، أولئك الذين حملوا راية الاسلام « إلى بلاد الكفر النائية » ، وإلى « بحر الظلمات » (المحيط الأطلانطيق)

ويحتوى الجزء الأول « فرسان الله » على تاريخ موجز لمكة وقت أن ولد بها « محمد بن عبد الله » (صلعم) ، وموجز لتاريخ الدعوة الاسلامية والاسلام حتى قيام ملك الأدارسة بالمغرب الأقصى ؛ وقد أظهر الكاتبان على رغم هذا الايجاز ، قوة فى الوصف ، ولا سيما حين استعرضا الدولة الأموية ، ويتخذ هذا العرض صورة القصة . ولم يبرأ الكاتبان من ذلك التحامل الذى نراه ماثلاً فى كل تاريخ غربى يكتب عن نبى الاسلام

وللمؤلفين عناية خاصة بوصف نفسية الشعوب المغلوبة ولاسيما البربر ، وكيف غلب عليهم « ذوق الوثنية » أحقاباً

الأستاذ محمد عبد الله عنان

قرر مجلس الوزراء تعيين صديقنا الكاتب المؤرخ والصحفى البارع الأستاذ محمد عبد الله عنان للعمل فى قلم المطبوعات بعد اقراره على النظام الجديد . واختيار الأستاذ لهذا المنصب توفيق من الله يضمن اطراد الاصلاح والنجاح فى هذا القلم بعد أن أصبح اختصاصه يتناول الادارة والسياسة والصحافة والتاريخ . ويكاد الأستاذ عنان يكون بلغاته العربية والانجليزية والألمانية والفرنسية حركة متصلة للاطلاع والبحث والتأليف والتحرير ؛ فقد تخرج فى مدرسة الحقوق الملكية سنة ١٩١٨ ، واشتغل بالمحاماة حيناً من الدهر ، ثم عالج منذ سنة ١٩٢٤ التحرير فى الصحافة السياسية والأدبية ، وتوفر على دراسة التاريخ السياسى والمسائل الدولية ، وعكف فى أثناء ذلك على فقه التاريخ الاسلامى فى مصر واسبانيا ، فألف : ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى ؛ ومواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام ، ومصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، وابن خلدون : حياته وتراثه الفكرى ، وتاريخ العرب فى اسبانيا ، وتاريخ الجمعيات السرية ، وتاريخ المؤامرات السياسية ؛ ذلك عدا المقالات القيمة والدراسات الممتعة فى التاريخ والسياسة والأدب التى نشرها فى (الرسالة) وفى غيرها من المجلات ؛ وكلها تنم عن صبر شديد ، وعقل سديد ، وفهم ذكى ، وثقافة شاملة . وانا لنرجو أن يجد الأستاذ فى عمله الجديد ما يساعده على المضى فى خطته ، ومواصلة هذا الجهاد الخالص فى نفع أمته

عيد الأكاديمية الفرنسية

فى يوم الاثنين ١٧ يونيه بدأ الاحتفال الرسمى الكبير بعيد الأكاديمية الفرنسية الثلثمائة ، وهو العيد الذى تقرر احياؤه منذ شهر يناير الماضى ، واستمدت الحكومة الفرنسية ، والأكاديمية وجميع الهيئات العلمية والأدبية لاحيائه بما يليق به من العظمة والفخامة . وقد افتتح هذا الاحتفال باقامة قداس رسمى فى كنيسة نوتردام عن روح الكردينال ريشليو وزير لويس الثالث عشر ومؤسس هذه الهيئة الأدبية الخالدة ؛ ثم اقيمت فى عصر ذلك اليوم حفلة رسمية شائقة حضرها رئيس الجمهورية ورجال الحكومة ، وأعضاء الأكاديمية ، ومائتا مندوب يمثلون مختلف الهيئات والمجامع العلمية فى أنحاء العالم ، (ومنهم رئيس مجمع اللغة العربية الملكى ممثلا له) ؛ وألقيت الخطب الرسمية المعتادة ؛ وأقيمت فى الأيام التالية حفلات رسمية أخرى

وقد سبق أن أتينا على تاريخ تلك الهيئة الأدبية الشهيرة التي تضم دائماً أربعين من « الخالدين » صفوة ما تخرجه عبقرية فرنسا الأدبية ؛ وبينا كيف نشأت متواضعة جداً منذ ثلثمائة عام في منزل سيد يدعى فالنتان كونراد كان من أمناء لويس الثالث عشر ، وكان أديباً يجمع حوله عدة من الأصدقاء الأدباء والشعراء ، وكان ذلك في سنة ١٦٢٩ ؛ ولبث أولئك السادة يجتمعون من آن لآخر مدى خمسة أعوام ، ويتجاذبون في اجتماعهم شتى المحادثات الأدبية ، حتى علم الكردينال ريشيلو بخبرهم ؛ ففكر في اخضاع هذه الجماعة الأدبية لنفوذه ، وفي أن ينظمها ويجعل منها «أكاديمية » ؛ وانتهى الأمر بأن صدرت الأوامر الملكية بانشائها في يناير سنة ١٦٣٥ ، وصودق عليها من البرلمان في يوليو سنة ١٦٣٥

واستمرت « الأكاديمية » تنمو وتترعرع ، وتجمع في سلكها أكابر النثر والشعر حتى كانت الثورة الفرنسية ، فألغيت مع باقي الهيئات العلمية الأخرى في سنة ١٧٩٣ ؛ وانشئ مكانها « المجمع العلمي الوطني » ؛ وفي سنة ١٨٠٣ قسم هذا المجمع إلى أربعة أقسام منها « الأكاديمية الفرنسية » التي استردت اسمها الأصلي بعد ذلك في عهد لويس الثامن عشر (سنة ١٨١٦) ، وقامت الى جانبها « أكاديمية النقوش والآداب » و « أكاديمية العلوم» و « أكاديمية الفنون الجميلة » . وفي سنة ١٨٣٢ انشئت أكاديمية خامسة هي أكاديمية العلوم الأخلاقية

وهذه هي الفترة الوحيدة التي اعترضت حياة الأكاديمية الفرنسية ؛ وما زالت الأكاديمية تقوم خلال هذه القرون الثلاثة بدورها التاريخي في الاشراف على الآداب الفرنسية ، وإن كانت مهمتها الأصلية التي حددت في الأوامر الملكية أن تشرف على « تحسين اللغة وتوسيعها » ؛ وما زال الظفر بالانخراط في سلكها أسمى ما يطمح اليه كاتب أو شاعر ، وما زال الانتماء اليها عنوان « الخلود »

ذكرى شومان أستاذ النقد الموسيقي

احتفلت الدوائر الفنية الألمانية في الثامن من يونيه الجاري بالذكرى الخامسة والعشرين بعد المائة لمولد الموسيقي الألماني الأشهر روبرت شومان ؛ ونظمت لهذه المناسبة حفلات موسيقية عظيمة في أنحاء ألمانيا عزفت فيها قطع شومان ؛ وأذاعت المحطات اللاسلكية مختارات موسيقية من آثاره في برلين وفينا . ويعرف شومان في عالم الموسيقى بأنه « روح الابتداع الموسيقي » . وكان مولد شومان في زفيكاو من أعمال سكسونيه . ودرس الحقوق أولا ، ولكنه رغب عنها إلى دراسة الموسيقى . ودرس العزف (على البيانو) في ليبزج على يد فيكس وهو من أبرع أساتذة العصر ؛ ولكنه أصيب باصابة في يده اضطرته إلى ترك العزف والاشتغال بالتأليف الموسيقي ؛ ودرس هذا الفن على دورن أولاً . وفي سنة ١٨٤٣ عين أستاذاً في معهد ليبزج ، ثم عين بعد ذلك قائداً موسيقياً في دوسلدورف سنة ١٨٥٠ ، واستمر في هذا المنصب نحو أربعة أعوام ؛ وأنفق شومان معظم حياته يطوف المدن الألمانية مع زوجه كلارا

وبدأ شومان حياته كمؤلف موسيقي في سنة ١٨٣٤ إذ بدأ تحرير (المجلة الموسيقية الجديدة) وكان ينشر فيها فصولا نقدية قوية تلفت الأنظار بحسن أسلوبها وقوة منطقها ؛ وقد وصل شومان في هذه الناحية النقدية إلى ذروة البراعة حتى اعتبر أستاذ النقد الموسيقي . وكان شوبين وبراهمس وهما يومئذ من أعلام الموسيقى ينوهان بنبوغه وتفوقه في هذا المضمار ؛ وأعظم آثاره في التأليف الموسيقي قطعه الخاصة بالمعزف (البيانو) ومنها رباعيات ومقطوعات بديعة للقيثارة . وألف أيضاً قطعة أوبرا عنوانها (جينوفيزا) ، وعدة أوبرات موسيقية

وكان لجهود شومان وطرائقه أثر كبير في تطور الموسيقى الألمانية المعاصرة . وقد كتب ترجمة حياته عدة من الكتاب والفنانين الأكابر ، ومنهم باترسون ورزمان . وخصص له فاسليفسكي ترجمة كبيرة وكذلك فولر ميتلاند وغيرهما

تخليد ذكرى شاعرة فرنسية

وضعت بلدية مدينة نانت لوحة تذكارية باسم الشاعرة اليزا مركير التي توفيت منذ مائة عام في الخامسة والعشرين من عمرها ، على المنزل الذي كانت تسكنه هذه الشاعرة الفنية التي بلغت رغم حداثتها في الشعر مرتبة كبيرة حتى كان لامرتين يقول عنها « إني أتوقع أن تمحونا هذه الصغيرة جميعاً »

وفاة فكتور هوجو — صورة خبرية واقعية

ما زالت فرنسا تحتفل بالذكرى الخمسينية لوفاة شاعرها الأكبر فكتور هوجو حسبما ذكرنا فى فرصة سابقة ، وقد قرأنا أخيراً فى إحدى المجلات الفرنسية الكبرى بقلم مسيو «ارمان براقيل» وصفاً بديعاً للظروف التى أحاطت بوفاة الشاعر الكبير صيغت فى قالب رواية خبرية ، ونحن ننقله لقراء (الرسالة) فيما يلى :

باريس فى ٢٢ مايو سنة ١٨٨٥

اليوم فى الساعة الأولى والدقيقة السابعة والعشرين بعد الظهر توفى السيو فكتور هوجو عضو الأكاديمية الفرنسية ، متأثراً بالالتهاب الرئوى الذى اشتد عليه منذ أيام وكان يثير فى نفس أسرته والمحيطين به انزعاجاً وقلقاً . وقد أشار الدكتور زى وزميله الدكتور ڤولبيان فى تقريرهما هذا الصباح إلى أن «الحالة فى منتهى الخطورة» . وكان الشاعر الكبير فى الثالثة والثمانين من عمره

وقد أسلم الشاعر الروح يحيط به حفيداه جان وچورچ ، ومسيو لوكروى ، ومسيو فكتوريان ساردو ، ومسيو اسكندر دماس ، وبعض شخصيات أخرى . ويروى بعضهم أنه قال حين فاضت روحه : «وداعاً يا جان» ، وبعضهم يروى أنه قال : «ها هنا معركة النهار والليل» أو أنه قال : «ليس هذا هو النور ، ولكن ليس هو الظل أيضاً»

وعرض المونسنيور جيبر أسقف باريس أن يقوم بالرسوم القدسية الأخيرة للشاعر الأكبر ، ولكن أسرته اضطرت إلى الرفض عملاً بوصية فكتور هوجو نفسه ؛ إذ قال : «إننى أرفض رثاء كل الكنائس ، وأطلب صلاة لكل الأرواح»

ومنذ ١٩ مايو كان قد فقد كل أمل فى إعادة الصحة والحياة اليه ؛ وقد أصابه بالليل إغماء طويل ، وبالأمس بدأ النزع الأخير

وما ذاع النبأ المحزن حتى هرع الجمهور إلى منزل شارع إيلاو وما زال فى ازدياد مستمر ، وبدأت الزيارات الرسمية ، وكان أول القادمين مسيو بريسون رئيس الوزراء ، ولحق به مسيو فلوكيه رئيس مجلس النواب

وبعد بضع دقائق ألقى مسيو لى روايبه رئيس مجلس الشيوخ فى المجلس كلمة مؤثرة حين أعلن وفاة «شيخ» اليسرة المتطرفة وشاعر الجمهورية والديموقراطية الأكبر ؛ ولا ريب أن جميع السلطات الكبرى ستشترك فى تكريمه ؛ وقد طلب مجلس باريس البلدى أن ننقل رفات الشاعر إلى «البانتيون» ؛ ومن المحقق أن الجناز سيكون قومياً تحفه أعظم مظاهر الجلال ، وسوف يكون مناقضاً لرغبة الميت الذى أوصى بأن ينقل إلى مقره الأخير فى نعش الفقراء ؛ وهى الرغبة الوحيدة التى ستحترم

السبت ٢٣ مايو

حفلت كل الصحف بفصول مؤثرة تذيلها أعظم الأسماء ؛ وقد نشرت «الفيجارو» قصيدة لمسيو الكونت دى ليل عنوانها «التحية الأخيرة» ، وقد دهش لقراءتها الذين يعرفون خصومة الشاعرين ، وما تبادلاه قبل من قارس اللفظ ؛ بل يرى أن دى ليل قال حينما وقف على مرض هوجو : «لقد شرب المجد وأكله ، فعليه الآن أن يهضمه» ، فرثاؤه اليوم لا يمكن أن يعتبر بعد هذه الشماتة إلا بطاقة زيارة تودع عند باب الأكاديمية

وقد هرع عدد من الكتاب الشبان إلى سرير الميت ليسهروا إلى جانبه ، وبين هؤلاء حفيد الشاعر ، وليون دوديه ، وكاتيل مانديس ، وبول آرين ، وچان إيكار ، وأميل بليمون . وقدم مسيو ليوبولد هوجو فى منتصف الليل ليصور عمه فى فراش موته

٢٦ مايو

نشرت الجريدة الرسمية ما يأتى : «سيدفن جثمان فكتور هوجو فى البانتيون ، والبانتيون ليس بناء كنسياً ولا يتبع أية دائرة كنسية ، وإنما هو من أملاك الدولة ؛ وقد رأت الوزارة أن تحقق رغبة البرلمان فى هذا الشأن»

وسوف يحدث هذا المرسوم استياء فى الدوائر الكنسية التى مازالت تعتبر البانتيون من توابعها وأنه فى حرم كنيسة سانت جنڤياف . وسيكون جناز شاعر البؤساء بلونه المدنى مقوياً لصفة البانتيون المدنية ؛ وسوف يثور هذا الجدل حول تابوت الشاعر

وما زالت صفوة فرنسا تنحنى أمام الميت العظيم ؛ وقد حنطت جثته بمنتهى العناية ؛ وما زال كل يعجب برأسه الشاحب الجميل الذى يكاد يضارع بياضه بياض لحيته

الجمعة ٣٠ مايو

وضع السيو فكتور هوجو فى ناووسه ووضعت إلى جانبه باقة من الورد قدمها فلكييه وبعض تذكارات شخصية ، وقد قرر برنامج الجناز وخلاصته أن ينقل الجثمان فى نعش يوضع تحت قوس النصر ، ويترك هناك يوماً وليلة فى حراسة الشعراء ، والسلطات

الدينية والجيش وشعب باريس ، ثم يحمل فى حفل ظافر الى البانتيون ، وستلقى بعض الخطب عند مبدأ سير الجناز وعند مقدمه

الأحد أول يونيه

منذ صبيحة الأمس بدأ حفل الشاعر النبيل مؤلف « سير الدهور » و « التأملات » ، وسار وراء تابوته إلى « الانوال » عمد باريس العشرون ، والصحفيون ، والكتاب ، وكلهم بالثوب الرسمى والربطة البيضاء ، وحولهم من الجانبين جموع حاشدة لبثت تحيط طول الليل بمنزل الميت ؛ وكان قوس النصر قد جلل بغطاء أسود رهيب ، وحول الى محراب يحرسه حرس شرف من الجند والفرسان وطلبة المدارس ، والشعراء الشبان ، ولم ينقطع سيل الناس طوال اليوم ، يحملون الباقات والأزهار ؛ وهكذا ظهر أن ڤكتور هوجو مازال يغزو جميع الأرواح والقلوب

الاثنين ٢ يونيه

خصص يوم الأمس كله لظفر ڤكتور هوجو ؛ ولم يحتفل قبل قط بجناز شاعر بمثل هذا الجلال . ولعل كاتباً لم يمثل من قبل قط تطور عصره كما مثل ؛ فقد مثلت فى شخصه الديموقراطية التى استطاعت أن تصل إلى الحكم بعد طول النضال ؛ وهو شاعرها ولسان حماستها الغنائية ، وهو يتنفس آمالها ومخاوفها فى كتابه « البؤساء » ، ويتنفس غضبها وأحقادها فى كتابه « العقوبات »

وكان الجو بديعاً فاتراً ؛ وفى نحو الساعة التاسعة أتى الموظفون وممثلو مسيو جراڤى رئيس الجمهورية ، ومجلس الوزراء بكامل هيئته ، وأعضاء الأكاديمية الفرنسية ، والجنرال سوسييه حاكم باريس وأركان حربه ، واجتمعت الوفود فى شارع « الجيش الأكبر » وقد احتلوا شارع نيبى بأكمله

وألقيت طائفة من الخطب منذ الساعة العاشرة ؛ منها خطاب لمسيو لى روييه باسم مجلس الشيوخ ، وفلوكيه باسم مجلس النواب ، وجوبليه وزير الداخلية باسم الحكومة ، وأميل أوجييه باسم الأكاديمية ؛ وكان أروعَ الخطباء جميعا ولاسيما حينما صاح بصوت قوى : « ليس هذا دفناً ، وإنما هو تقديس »

ثم تحرك الموكب بعد نشيد المارسليز ، وعزفت موسيقى الجيش لحنا محزنا لشوبان

واليك ترتيب الموكب : سارت فى الطليعة فرقة من الحرس الجمهورى ، ثم سرية من الفرسان ، ثم حاكم باريس وحاشيته ، ثم الموسيقى العسكرية ، فطلبة المدارس ، فاحدى عشرة عربة تحمل أكاليل الزهر ، ثم أربعة من عمال الكوميدى فرانسيز ، يحملون وسادة عليها أوسمة المتوفى ، ثم نعش المتوفى ، وهو نعش الفقراء ، وإلى جانبه أفراد أسرته وخاصة أصدقائه ، مثل جورج هوجو ، وأوجست ڤاكيرى ، وليوبولد هوجو ، وپول فوريه ، وكاميل بيلاتان ، والفونس دوديه ، واميل زولا وغيرهم ، ثم أعضاء المجمع العلمى فى أثوابهم الخضر ، ثم أعضاء مجلسى الشيوخ والنواب بشاراتهم المثلثة اللون ، ثم أساتذة الجامعة بأثوابهم الرسمية المختلفة ، وأعضاء جمعية الكتاب ، وسيل لا نهاية له من الوفود المختلفة

وكانت جوانب الطرق تغص بالجماهير الحاشدة ، وكانت النوافذ والأشجار والأسطحة حافلة بالنظارة

وبلغ الموكب البانتيون من شارع سوفلو فى منتصف الساعة الثالثة ، وقد جلله السواد والأعلام القومية ، وهنالك ابتدأت الخطب الختامية ، فألقى منها إحدى عشرة ؛ وكان بين الخطباء مسيو أوديه باسم مدينة بيزانصون مسقط رأس الشاعر ، ومسيو ماديه باسم المنفيين فى يوم ٢ ديسمبر ، ومسيو جورد باسم نقابة الصحافة الباريسية ، وهنرى دى بورنييه باسم كتاب المسرح وبعض الأجانب باسم بعض المعاهد العلمية الأجنبية

ثم عزفت الموسيقى لحن ڤكتور هوجو الذى وضعه مسيو سان سابنس ، وعلى أنغامه أودع التابوت فى مثواه الأخير إلى جانب توابيت ڤولتير وروسو وغيرهم من العظماء الخالدين

واستمر تعاقب الوفود حتى مغيب الشمس ، وانتهى ڤكتور هوجو إلى أن يرقد هادئاً فى عالم الخلود